تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاتحة الكتاب

فاتحة الشيء : أوله وابتداؤه . ولمّا افتُتِح التنزيل الكريم بها ، إمّا بتوقيفٍ من النبيّ ﷺ ، أو باجتهادٍ من الصحابة ـ كما حكى القولين القاضي الباقلانيُّ في ترتيب التنزيل ـ . سُمِّيت بذلك .

قال السيد الجرجانيّ : فاتحة الكتاب صارت علماً بالغلبة لسورة الحمد ، وقد يطلق عليها « الفاتحة » وحدها ، فإما أن يكون علماً آخر بالغلبة أيضاً ، لكون اللام لازمة ، وإما أن يكون اختصاراً ، واللام كالعوض عن الإضافة إلى الكتاب ، مع لمح الوصفية الأصلية .

وقال ابن جرير : سميت « فاتحة الكتاب » : لأنها يُفتتح بكتابتها المصاحف ، ويقرأ بها في الصلوات . فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة . وتسمّى « أم القرآن » : لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخُّر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة تقدُّمَ الأمّ والأصل؛ أو لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبّد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده ؛ أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ، ومنازل الأشقياء . والعرب تسمى كلّ أمرٍ جامعٍ أموراً ، وكلّ مقدمٍ له توابع تتبعه « أمّاً » ـ فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ « أمّ الرأس » وتسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها « أمّا »

وتسمى « السبع المثاني » ـ جمع مثنى كمَفْعَل اسم مكان ، أو مثنّى بالتشديد من التثنية

على غير قياس ـ لأنها سبع آيات تثنى فى الصلاة أى تكرر فيها .

والأكثرون على أن الفاتحة مكية ، وأنها سبع آيات .

وأصل معنى « السورة » لغةً : المنزلة من منازل الارتفاع . ومن ذلك سور المدينة للحائط الذى يحويها ، وذلك لارتفاعه على ما يحويه . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أعطاكَ سُورةً ... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ(١)

أى منزلةً من منازل الشرف التى قصرت عنها منازل الملوك .

وأما « الآية » فإمَّا بمعنى : العلامة ـ لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها ، كالآية التى تكون دلالة على الشىء يستدلّ به عليه ـ وإمَّا بمعنى : القصَّة ـ كما قال كعب ابن زهير :

ألا أَبْلِغا هـذا المعرِّضَ آيةً : ... أَيقظانَ قال القول ، إذ قال ، أم حَلَمْ

أى رسالة منى ، وخبراً عنى ـ فيكون معنى الآيات « القصص » قصة تتلو قصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام ابن جرير : إن الله ، تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيه محمداً ﷺ : بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدم إليه فى وصفه بها قبـل جميع مهماته ، وجعل ـ ما أدَّبه به من ذلك ، وعلَّمه إياه ـ منه لجميع خلقه : سنّةً يستنّون بها ، وسبيلًا يتبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ، حتى أغنت دلالة ماظهر، من قول القائل : بسم الله، على مابطن من مراده الذى هو محذوف.

---

(١) قال السيد محمود محمد شاكر فى التعليق على تفسير ابن جرير ما يأتى :

يتذبذب : يضطرب ويحار . والذبذبة: ترددالشىء المعلق فى الهواء يمنة ويسرة . يقول : أعطاك الله من المنزلة الرفيعة ، ما لو رامه ملك وتسامى إليه ، بقى معلقا دونها حائرا يضطرب ويتردد ، لا يطيق أن يبلغها .

وذلك أن الباء مقتضية فعلاً يكون لها جالباً ؛ فإذا كان محذوفاً يقدّر بما جُملت التسمية مبدأً له . والاسم هنا بمعنى التسمية ـ كالكلام بمعنى التكليم ، والعطاء بمعنى الإعطاء ـ والمعنى : أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى. و « الله » علم على ذاته ، تعالى وتقدس . قال ابن عباس : هو الذى يألهه كلّ شيء ويعبده وأصله « إلاه » بمعنى مألوه أى معبود ؛ فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته فى الكلام ؛ وبعد الإدغام فخّمت تعظيماً ـ هذا تحقيق اللغويين .

و « الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » قال الجوهرىّ : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما فى اللغة « نديم وندمان » وهما بمعنى . ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال : جادّ مجدّ إلاّ أن « الرحمن » اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ »(١) فعادل به الاسم الذى لايشركه فيه غيره . اهـ .

وقد ناقش فى كون « الرحمن الرحيم » بمعنى واحد ، العلّامةُ الشيخ محمد عبده المصرىّ فى بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها ـ ثم قال : ـ وأنا لا أجيز لمسلمٍ أن يقول ، فى نفسه أو بلسانه : إن فى القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها ولا معنى لها فى نفسها ، بل ليس فى القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ؛ ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها . وبعضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم باللغة مبنىّ على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على الوصف مطلقاً ؛ فصيغة « الرحمن » تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه ، سواء كان جليلاً

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] ونصها : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً ، فهو غير معنيّ ولا مراد ، وقد قارب من قال : إن معنى «الرحمن» المحسن بالإحسان العام . ولكنه أخطأ فى تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ؛ ولعل الذى حمل من قال : إن الثانى مؤكد للأول ـ على قوله هذا ـ هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة ، مع عدم التفطّن لما هو أحسن منه . ثم قال : والذى أقول : إن لفظ « رحمن » وصفٌ فعليٌّ فيه معنى المبالغة ـ كفعّال ـ ويدل فى استعمال اللغة على الصفات العارضة ـ كعطشان وغرثان وغضبان ـ وأما لفظ « رحيم » فإنه يدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجايا فى الناس ـ كعليم وحكيم وحليم وجميل ـ والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربيّ البليغ فى الحكاية عن صفات الله عز وجل التى تعلو عن مماثله صفات المخلوقين ؛ فلفظ « الرحمن » يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والإحسان ؛ ولفظ « الرحيم » يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لايستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثانى مؤكّداً للأول . فإذا سمع العربيّ وصف الله جلّ ثناؤه بـ « الرحمن » ، وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا، لايعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ـ لأن الفعل قد ينقطع إذا كان عارضاً لم ينشأ عن صفة لازمة ثابتة ـ فعندما يسمع لفظ « الرحيم » يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

« اَلْحَمْدُ لِلَّهِ » أى الثناء بالجميل، والمدح بالكمال ثابت لله دون سائر مايعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه . واللام فى « الحمد » للاستغراق أى استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتُها لله تعالى تعظيماً وتمجيداً ـ كما فى الحديث: « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله »[1] .

---

(١) لم أعثر على هذا الحديث فى شىء من أصول السُّنة .

قال الإمام ابن القيّم فى « طريق الهجرتين » : الملك والحمد فى حقه تعالى متلازمان . فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود فى ملكه ، وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته . ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمرِه لينبّه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده . فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ، ويجمعهما التبارك ، « فتبارك الله » يشمل ذلك كله . ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) . فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح . والطرق إلى العلم به فى غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره فى ذرات العالم وجزئياته، وتفاصيل الأمر والنهى واسعة جدا ، لأن جميع أسمائه ، تبارك وتعالى ، حمدٌ ، وصفاته حمدٌ ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله فى إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده ، وكان الغاية هى حمده ، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله . فحمده روح كل شيء ، وقيام كل شيء بحمده ، وسريان حمده فى الموجودات ، وظهورُ آثاره فيه أمرٌ مشهود بالأبصار والبصائر .

ـ ثم قال ـ : وبالجملة فكل صفة علياء ، واسم حسن ، وثناء جميل ، وكل حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وجلالٍ وإكرامٍ فهو لله عزّ وجلّ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها ؛ وجميع ما يوصف به ، ويذكر به ، ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس ، فسبحانه وبحمده لا يُحصِى أحدٌ من خلقه ثناءً عليه اهـ .

« رَبِّ الْعَالَمِينَ » الرب يطلق على السيد المطاع وعلى المصلح وعلى المالك . ـ تقول : رَبَّه يرُبُّه فهو ربّ كما تقول : نمّ عليه ينمّ فهو نمّ ـ فهو صفة مشبهة، ويجوز أن يكون

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

مصدراً بمعنى التربيــة وهى : تبليغ الشىء إلى كماله شيئاً فشيئاً . وصف به الفاعل مبالغة كما وصف بالعدل . والرب ـ باللام ـ لايقال إلا لله عزّ وجلّ . وهو فى غيره على التقييد بالإضافة ـ كربّ الدار ـ ومنه قوله تعالى: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ»(١) «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ»(٢).

و « الْعَالَمِينَ » جمع عالم وهو : الخلق كلّه وكل صنف منه . وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس . والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

إيرادها عقد وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذى هو أسلوب التنزيل الحكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

قرأ عاصم والكسائىّ بإثبات ألف « مالك » والباقون بحذفها . قال الزمخشرىّ : ورجحت قراءة « ملك » لأنه قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غضاً طرياً كما أنزل ، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »(٣)

---

(١) [١٢ / يوسف / ٥٠] ونصها : وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] ونصها : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

فقد وصف ذاته بأنه الملك يوم القيامة . والقرآن يتعاضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه في المواد . وثمة مرجحات أخرى .

وقال بعضهم : إن قراءة « مالك » أبلغ ، لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ، ولا تصرّف له بشيء من شؤونهم الخاصة . وتظهر التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ، فلا ريب أن مالكه هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . ومن وجوه تفضيلها : إنها تزيد بحرف ، ولقارئ القرآن بكل(١) حرف عشر حسنات ـ كما رواه الترمذيّ عن ابن مسعود بإسناد صحيح ـ وكلاهما صحيح متواتر في السبع .

و « الدِّينِ » الحساب والمجازاة بالأعمال . ومنه : « كما تدين تدان » أي : مالك أمور العالمين كلها في يوم الدين . وتخصيصه بالإضافة إمّا لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر وفصل القضاء فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال الطبريّ : أي لك ، اللهم ، نخشع ونذلّ ونستكين . إقراراً لك بالربوبية لا لغيرك ـ قال ـ والعبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمّي الطريقَ المذلل الذي قد وطئته الأقدام، وذلّلته السابلة « معبّدًا » ومنه قيل للبعير المذلل بالركوب في الحوائج « معبّد » ومنه سمي العبد « عبدا » لذلّته لمولاه انتهى .

وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده . أعني : أن لا يشرك شيئاً ما معه ، لا في محبته كمحبته ، ولا في خوفه ، ولا في رجائه ، ولا

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٦ ـ باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول: الم حرف ، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

فى التوكل عليه ، ولا فى العمل له ، ولا فى النذر له ، ولا فى الخضوع له ، ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب ، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده . وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب . فلا بد أن يكون العابد محبًّا للإله المعبود كمال الحب ؛ ولا بد أن يكون ذليلاً له كمالَ الذل ، وهما لا يصلحان إلا لله وحده . فهو الإله المستحق للعبادة ، الذى لا يستحقها إلاَّ هو ، وهى كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلاَّ هو ، تعالى . وقد أشار لذلك تقديم المفعول ، فإن فيه تنبيهاً على ما يجب للعبد من تخصيصه ربَّه بالعبادة ، وإسلامه وجهه لله وحده ، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبىّ ﷺ عليهم ، فقد كانوا متفرقين فى عبادتهم ، متشاكسين فى وجهتهم : منهم من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ... إلى غير ذلك ، كما بينه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ »(١) الآية . وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ »(٢) . وفى قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ »(٣) الآية . وقوله تعالى : « وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ

---

(١) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٤٠و٤١] ونصها : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ =

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا »(١) الآية . وفى قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ »(٢) . وحديث(٣) أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول ﷺ : « الله أكبر . إنها السنن ، قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ـ إلى قوله ـ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »(٤) رواه الترمذى وصححه.

= لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٠] ونصها : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) [٥٣ / النجم / ١٩و٢٠] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ❊ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ باب ماجاء لتركبن سنن من كان قبلكم . وهذا نصه :

عن أبى واقد الليثى أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم . فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال النبى ﷺ « سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . والذى نفسى بيده لتركبن سنة من كان قبلكم » .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣٨ ـ ١٤٠] ونصها : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ =

وأما عبادتهم للأحبار والرهبان ففي قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »(١) فروى الإمام أحمد والترمذي(٢) عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » الآية فقلت له : إنا لسنا نعبدهم ، قال : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟ » فقلت : بلى قال : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » .

فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الإيمان إلا بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة. أي ركنها المهم الأعظم. وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي »(٣) فسماه عبادة .

= ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب . فقال: «ياعدي، اطرح عنك هـذا الوثن » . وسمعته يقرأ في سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

وفى الخبر(١) : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » .

قال شمس الدين بن القيم : ولهذا كان العبد مأموراً فى كل صلاة أن يقول : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » والشيطان يأمر بالشرك ، والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفا منه ، أو رجاء له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك ؛ ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره فى ثلاث مواضع من كتابه ؛ وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ، يذل ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ، والمؤثر لا يرضى بإيثاره انتهى .

(فائدة) قال بعض السلف : الفاتحة سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » : فالأول تبرّؤ من الشرك ، والثانى تبرّؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عزّ وجلّ . وهذا المعنى فى غير آية من القرآن كما قال تعالى : « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (٢) ، قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا(٣) ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا »(٤) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ج ٤ ص ٤٠٣ (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن أبى موسى الأشعرىّ قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « أيها الناس . اتقوا هـذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل » فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم » .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٦٧ / الملك / ٢٩] ونصها : قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٤) [٧٣ / المزمل / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

أى ألهمنا الطريق الهادى ، وأرشدنا إليه ، ووفقنا له .

قال الإمام الراغب فى تفسيره : « الهداية دلالة بلطف . ومنه الهدية ، وهوادى الوحش وهى متقدّماتها لكونها هادية لسائرها . وخص ما كان دلالة بفعلت نحو : هديته الطريق ، وماكان من الإعطاء بأفعلت نحو أهديت الهدية ، ولما يصور العروس على وجهين: قيل فيه : هديت وأهديت . فإن قيل : كيف جعلت الهدى دلالة بلطف وقد قال تعالى : «فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[1] وقال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ»[2] قيل : إن ذلك حسب استعمالهم اللفظ على التهكم كما قال:

وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بِخَيْلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ ا[3]

والهداية هى الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً ، وهى من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، لا يصح حصول الثانى إلاّ بعد الأول ، ولا الثالث إلاّ بعد الثانى . فأول المنازل إعطاؤه العبد القوى التى بها يهتدى إلى مصالحه إما تسخيراً وإما طوعاً ـ كالمشاعر الخمسة والقوة الفكرية ، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات ، وبعض خصّ به الإنسان ، وعلى ذلك دلّ قوله تعالى : «أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ»[4] وقوله تعالى : «الَّذِي قَدَّرَ

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٣] ونصها: مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤] .

(٣) استشهد به الزمخشرىّ فى الكشاف. وقال شارح الشواهد :

أصل التحية أن يدعى للرجل بالحياة . وضرب وجيع أى موجع . أى رب جيش قد مشيت إليه بجيش . وتحية بينهم الضرب بالسيف لا القول باللسان . والعرب تقول : تحيتك الضرب وعقابك السيف . أى بدلا لك من التحية .

(٤) [٢٠ / طه / ٥٠] ونصها : قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .

فَهَدَىٰ »(١) وهذه الهداية إما تسخير وإما تعليم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »(٢) وقوله تعالى « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »(٣) وقال فى الإنسان، بما أعطاه من العقل ، وعرفه من الرشد : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ »(٤) وقال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »(٥) وقال فى ثمود: « فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »(٦) وثانيهما الهداية بالدعاء وبعثة الأنبياء عليهم السلام . وإياها عنى بقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »(٧) . وبقوله : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »(٨) وهذه الهداية تنسب تارة إلى الله تعالى عز وجل ، وتارة إلى النبيّ عليه السلام ، وتارة إلى القرآن . قال الله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »(٩)

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٨] ونصها : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ .

(٣) [٩٩ / الزلزلة / ٥] .

(٤) [٧٦ / الإنسان / ٣] ونصها : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا.

(٥) [٩٠ / البلد / ١٠] .

(٦) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

(٧) [٣٢/ السجدة/ ٢٤] ونصها : وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

(٨) [١٣ / الرعد / ٧] ونصها: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

(٩) [١٧/ الإسراء/ ٩] ونصها : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

وثالثها هداية يوليها صالحى عباده بما اكتسبوه من الخيرات ، وهى الهداية المذكورة فى قوله عز وجل : « وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ »[١] . وقوله : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[٢] وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »[٣] . وهذه الهداية هى المعنيّة بقوله : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ »[٤] . ويصح أن ننسب هذه الهداية إلى الله عز وجل فيقال : هو آثرهم بها من حيث أنه هو السبب فى وصولهم إليها . ويصح أن يقال : اكتسبوها من حيث أنهم توصلوا إليها باجتهادهم . فمن قصد سلطاناً مسترفدا فأعطاه ، يصح أن يقال : إن السلطان خوّله . ويصح أن يقال : فلان اكتسب بسعيه ، ولانطواء ذلك على الأمرين ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »[٥] وقال: « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »[٦] . فنبه أن ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً .

وهذه الهداية يصح أن يقال : هى مباحة للعقلاء كلهم ، ويصح أن يقال : هى محظورة

(١) [٢٢ / الحج / ٢٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] ونصها : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٥٧/ الحديد/ ٢٨] ونصها: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٤٧ / محمد / ١٧] .

(٦) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

إلّا على أوليائه ، لما كان في إمكان جميع العقلاء أن يترشحوا لتناولها . ومن ذلك قيل : إنها لا يسهل تناولها قبل أن يتشكل الإنسان بشكل مخصوص ، بتقديم عبادات . وقد قال بعض المحققين : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلّا البصير ، ولا يعمل به إلّا اليسير . ألا ترى إلى نجوم السماء ما أكثرها ولا يهتدي بها إلا العلماء . وقال بعض الأولياء : إن مثل هداية الله مع الناس كمثل سيل مرّ على قِلَات[١] وغدران[٢] ، فيتناول كلٌّ قَلْتٍ منها بقدر سعته ـ ثم تلا قوله ـ « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا »[٣] وقال بعضهم : هي كمطرٍ أتى على أرضين فينتفع كل أرض بقدر ترشيحها للانتفاع به .

(والمنزلة الرابعة) من الهداية التمكين من مجاورته في دار الخلد ، وإياها عنى الله بقوله « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا »[٤] . فإذا ثبت ذلك فمن الهداية مالا ينفى عن أحد بوجه . ومنها ما ينفى

(١) في المصباح : القَلْت نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . والجمع قِلات ، مثل سهم وسهام .

(٢) الغدران جمع غدير ، وهو النهر .

(٣) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

عن بعض ويثبت لبعض ، ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيّه ﷺ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »[١] . وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »[٢] . وقال: « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ »[٣]. فإنّه عنى الهداية ـ التي هي التوفيق وإدخال الجنة ـ دون التي هي الدعاء لقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[٤] . وقال في الأنبياء : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »[٥] . فقوله : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فسّر على وجوه بحسب أنظار مختلفة إلى الوجوه المذكورة : (الأول) أنه عنى الهداية العامة ، وأمر أن ندعو بذلك ـ وإن كان هو قد فعله لا محالة ـ ليزيدنا ثواباً بالدعاء ، كما أمرنا أن نقول : اللهم صلِّ على محمد . (الثاني) قيل : وفقنا لطريقة الشرع . (الثالث) احرسنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات ، واعصمنا من الشبهات .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٥٦] ونصها: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٣) [٣٠/ الروم/ ٥٣] ونصها : وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٥٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٧٣] ونصها : وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

(الرابع) زدنا هدى استنجاحاً لما وعدت بقولك : « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(١) . وقولك : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زِدْنَاهُمْ هُدًى »(٢) . (الخامس) قيل : علمنا العلم الحقيق فذلك سبب الخلاص، وهو المعبّر عنه بالنور في قوله : « يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ »(٣) (السادس) قيل : هو سؤال الجنة ، لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ »(٤) . وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ »(٥) الآية . فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارهم إلى أبعاض الهداية وجزئياتها ، والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية ـ إذ لا تنافي بينها ـ

(١) [٦٤ / التغابن / ١١] ونصها : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٧ / محمد / ١٧] ونصها : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٥] ونصها : اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٧ / محمد / ٤ و ٥] ونصهما : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

(٥) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وبالله التوفيق » اهـ كلام الراغب . وبه يعلم تحقيق معنى الهداية فى سائر مواقعها فى التنزيل الكريم ، وأن الوجوه المأثورة فى آيةٍ ما ـ إذا لم تتناف ـ صح إرادتها كلها ؛ ومثل هذا يسمى : اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ .

كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى فى مبحث له مهم ، نأثره عنه هنا ، لما فيه من الفوائد الجليلة . قال رحمه الله :

ينبغى أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين : أحدهما ليس فيه تضادّ وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقا ، وإنما هو اختلاف تنوّع أو اختلاف فى الصفات أو العبارات . وعامة الاختلاف الثابت عن مفسرى السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب . فإن الله سبحانه إذا ذكر فى القرآن اسماً مثل قوله « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فكل من المفسرين يعبّر عن الصراط المستقيم بعبارة تدلّ بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حق بمنزلة ما يُسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء ، كل اسم منها يدل على صفة من صفاته . فيقول بعضهم : الصراط المستقيم كتاب الله أو اتباع كتاب الله . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنّة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرضا والحب ، وامتثال المأمور ، واجتناب المحظور ؛ أو متابعة الكتاب والسنّة ؛ أو العمل بطاعة الله ، أو نحو هذه الأسماء والعبارات . ومعلوم أن المسمى هو واحد ، وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته ؛ وكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه . ومنه قسم آخر وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التمثيل لا على سبيل الحدّ والحصر ـ مثل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز ؟ فيشار له إلى رغيف ـ وليس المقصود مجرد عينه ، وإنما الإشارة إلى تعيين هذا الشخص تمثيلاً . وهذا كما إذا سئلوا عن قوله « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ »[١] . أو عن قوله « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »[٢] . أو عن الصالحين أو الظالمين ، ونحو ذلك من الأسماء العامة الجامعة التي قد يتعسّر أو يتعذّر على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه ، إذ لا يكون محتاجاً إلى ذلك فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل به غرضه ، وقد يستدلّ به على نظائره : فإن الظالم لنفسه هو تارك المأمور فاعل المحظور . والمقتصد هو فاعل الواجب وتارك المحرّم . والسابق هو فاعل الواجب والمستحب وتارك المحرم والمكروه . فيقول المجيب بحسب حاجة السائل : الظالم الذي يفوّت الصلاة ، أو الذي لا يسبغ الوضوء ، أو الذي لا يتمّ الأركان ونحو ذلك . والمقتصد الذي يصلي في الوقت ـ كما أُمر ـ والسابق بالخيرات الذي يصلي الصلاة بواجباتها ومستحباتها ويأتي بالنوافل المستحبة معها . وكذلك يقول مثل هذا في الزكاة والصوم والحج وسائر الواجبات . وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، فمن ادعى علمه فهو كاذب . والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه كما أخذوا عنه السنة . وإن كان من الناس من غيّر السنة ، فمن الناس من غير بعض معاني القرآن ـ إذ لم يتمكن من تغيير لفظه . وأيضاً فقد يخفى على بعض العلماء بعض معاني القرآن ، كما خفي عليه بعض السنة ، فيقع خطأ المجتهدين من هذا الباب والله أعلم .

وتقدم في مقدمة الكتاب بسط لهذا البحث فارجع إليه . (انظر : ج ١ ص ١٧)

(١) [٣٥ / فاطر / ٣٢] ونصها : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً فى تحقيق هذه الآية :

« كل عبدٍ مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم . فإنه لا نجاة من العذاب إلّا بهذه الهداية ، ولا وصول إلى السعادة إلّا به ، فمن فاته هذا الهدى فهو : إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين ؛ وهذا الاهتداء لا يحصل إلّا بهدى الله « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »(١) . فإن الصراط المستقيم : أن تفعل فى كل وقت ما أمرت به فى ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا تفعل ما نهيت عنه . وهذا يحتاج فى كل وقت إلى أن تعلم : ما أمر به فى ذلك الوقت ، وما نهى عنه ؛ وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور ؛ وكراهة لترك المحظور . والصراط المستقيم قد فسّر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية فى سعادته ونجاته ؛ بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإن انقطع رزقه مات ـ والموت لا بدّ منه ـ فإن كان من أهل الهداية ، كان سعيداً بعد الموت ، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمة فى حقه . وكذلك النصر ـ إذا قدّر أنه قُهر وغُلب حتى قتل ـ فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه . فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر ، بل لا نسبة بينهما ، فلهذا كان هذا الدعاء مفروضاً عليهم فى الصلوات ـ فرضها ونفلها ـ وأيضاً فإن هذا الدعاء يتضمن الرزق والنصر : لأنه إذا هدى الصراط المستقيم كان من المتقين « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »(٢) وكان من المتوكلين «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) [١٨ / الكهف / ١٧] ونصها: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللهِ ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٢، ٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ =

اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ » (١) ، وكان ممن ينصره الله ورسوله ومن ينصر الله ينصره (٢) وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون (٣) . فالهدى التام يتضمن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر . فتبين أن هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب يحصل به كل منفعة ، وتندفع به كل مضرة .

(فائدة) الصراط المستقيم أصله الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ويستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة . فالطريق الواضح للحس ، كالحق للعقل ، فى أنه : إذا سير بهما أبلغا السالك النهاية الحسنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

أى : بطاعتك وعبادتك، وهم المذكورون فى قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » (٤) .

= أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...

(١) [٦٥/ الطلاق/ ٣] ونصها : وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٢) يشير إلى قوله تعالى [٤٧ / محمد / ٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

(٣) يشير إلى قوله تعالى [٣٧ / الصافات / ١٧٣] وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

(٤) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .

« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال الأصفهانى: وإنما ذكر تعالى هذه الجملة لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين فى إنعام كثير عليهم ، فبين بالوصف أن المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة ، بل ذلك نعمة خاصة . ثم إن المراد بالمغضوب عليهم والضالين : كلّ من حاد عن جادة الإسلام من أىّ فرقة ونحلة . وتعيين بعض المفسرين فرقة منهم من باب تمثيل العام بأوضح أفراده وأشهرها ، وهذا هو المراد بقول ابن أبى حاتم : لا أعلم بين المفسرين اختلافاً فى أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى .

(فوائد) الأولى : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: « آمين » ومعناه : اللهم استجب ، أو كذلك فليكن ، أو كذلك فافعل . وليس من القرآن . بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف . والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذىّ (١) عن وائل بن حُجر قال : سمعت النبىّ ﷺ قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال: «آمين» مدّ بها صوته » . ولأبى داود : رفع بها صوته . قال الترمذىّ : هذا حديث حسن ، وفى الباب عن علىّ وأبى هريرة ، وروى عن علىّ وابن مسعود وغيرهم .

وعن أبى هريرة قال(٢) : كان رسول الله ﷺ إذا تلا « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول » . رواه أبو داود .

وفى الصحيحين(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمّن

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٧٠ ـ باب ما جاء فى التأمين .
وأبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٨ ـ باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٢.
والإمام أحمد فى مسنده فى : ج ٤ ص ٣١٦ (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٨ ـ باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٤ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١١١ ـ باب جهر الإمام بالتأمين.
ومسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٧٢ .

الإمام فأمّنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وفى صحيح مسلم(١) عن أبى موسى مرفوعا : « إذا قال ـ يعنى الإمام ـ ولا الضالين فقولوا : آمين ، يجبكم الله » .

الثانية : فى ذكر ما اشتملت عليه هذه السورة من العلوم :

اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت ـ وهى سبع آيات ـ على حمد الله تعالى ، وتمجيده ، والثناء عليه : بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرُّع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية ، تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم ـ وهو الدين القويم ـ وتثبيتهم عليه حتى يُفْضِىَ بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين .

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون .

قال العلامة الشيخ محمد عبده فى تفسيره :

الفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . ولست أعنى بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف كقولهم : إن أسرار

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٦٢ ونصه :

عن أبى موسى الأشعرىّ قال : إن رسول الله ﷺ خطبنا فبيّن لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا، فقال « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم . ثم ليؤمكم أحدكم . فإذا كبر فكبروا . وإذا قال : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقولوا : آمين . يجبكم الله . فإذا كبر وركع فكبروا واركعوا فإن الإمام يركع قبلكم ويرفع قبلكم » .

القرآن فى الفاتحة ، وأسرار الفاتحة فى البسملة ، وأسرار البسملة فى الباء ، وأسرار الباء فى نقطتها ! فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ، ولا هو معقول فى نفسه . وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلوّ إلى إعدام القرآن خاصته ، وهى البيان . ـ قال ـ : وبيان ماأريد : أن مانزل القرآن لأجله أمور :

أحدها التوحيد : لأن الناس كانوا كلهم وثنيين ـ وإن كان بعضهم يدّعى التوحيد ـ

ثانيها وعد من أخذ به ، وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به ، وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد ، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما . والوعيد ـ كذلك ـ يشمل نقمهما وشقاءها . فقد وعد الله المؤمنين : بالاستخلاف فى الأرض ، والعزّة ، والسلطان ، والسيادة . وأوعد المخالفين : بالخزى والشقاء فى الدنيا . كما وعد فى الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم .

ثالثها العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس .

رابعها بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة .

خامسها قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه ، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار ، واختيار طريق المحسنين .

هـذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن ، وفيهـا حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية ، والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب .

فأما التوحيد ففى قوله « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لأنه ناطق بأن كل حمدٍ وثناء يصدر عن نعمةٍ ما فهو له تعـالى ، ولا يصح ذلك إلّا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الـكون تستوجب الحمد ، ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية . ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرّح به بقوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . ولفظ « رب » ليس معناه المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية والإنماء . وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان فى

نفسه وفى الآفاق منه عزّ وجلّ . فليس فى الكون متصرف بالإيجاد ، والإشقاء ، والإسعاد سواه . ثم إن التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين . ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الإشارة إليه ، بل استكمله بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم ، وهى اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ، يُدعَون لذلك من دون الله ، ويستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا ، ويتقرب بهم إلى الله زلفى . وجميع ما فى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال .

« وأما الوعد والوعيد: فالأول منهما مطوىّ فى « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ »فذكرُ الرحمة فى أول الكتاب ، وهى التى وسعت كل شىء . وعدٌ بالإحسان ـ لا سيما وقد كررها مرة ثانية ـ تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا ، لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » يتضمن الوعد والوعيد معاً ، لأن معنى الدين الخضوع ، أى : إن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لا نزاع فيها ، لا حقيقة ولا ادعاء ؛ وإن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ـ ظاهراً وباطناً ـ يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ؛ وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو : إما ثواب للمحسن ، وإما عقاب للمسىء ، وذلك وعدٌ ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » وهو الذى من سلكه فاز ، ومن تنكبه هلك . وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة ، فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أى : إنه قد وضع لنا صراطاً سيبيّنه ويحدده . ويكون مناطُ السعادة فى الاستقامة عليه ، والشقاء فى الانحراف عنه . وهذه الاستقامة عليه هى روح العبادة . ويشبه هذا قوله تعالى:

«وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »(١) . فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لهـا . وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله ، وهيبته ، والرجاء لفضله ، لا الأعمال المعروفة من فعلٍ وكفٍّ وحركات اللسان والأعضاء . فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها ، والصيام وأيامه ؛ وكانت هـذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية ، وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلاً ما ؛ وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة . ومخ العبادة الفكر والعبرة ؛ وأما الأخبار والقصص ففى قوله تعالى : «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» تصريح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم ، وصائح يصيح : ألا فانظروا فى الشؤون العامة التى كانوا عليها واعتبروا بها ، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(٢) حيث بيّن أن القصص إنما هو للعظة والاعتبار . وفى قوله تعالى :« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » تصريح بأن مَن دون المنعم عليهم فريقان : فريق ضل عن صراط الله ؛ وفريق جاحده ، وعاند من يدعو إليه ، فكان محفوفاً بالغضب الإلٓهىّ ، والخزى فى هذه الحياة الدنيا . وباقى القرآن يفصل لنا فى أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذى يفيد العبرة ، فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم فى سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم : أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التى يفصلها

---

(١) [١٠٣ / العصر / ١ـ٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ .

القرآن تفصيلاً . فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى فى الإبداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى « أم الكتاب » .

الثالثة : مما صح فى فضلها من الأخبار : ما رواه البخارىّ فى صحيحه عن أبى سعيد ابن المُعَلَّى رضى الله عنه قال[1] :

كنت أصلى فى المسجد فدعانى النبىّ ﷺ فلم أجبه . فقلت: يارسول الله إنى كنت أصلى. فقال : ألم يقل الله « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » ؟ ـ ثم قال لى : « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ » ثم أخذ بيدى ، فلما أراد أن نخرج ، قلت : يا رسول الله ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن . قال :

« الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

وروى[2] الامام أحمد والترمذىّ بإسناد حسن صحيح عن أبى هريرة، نحوه، غير أن القصة مع أبىّ بن كعب ، وفى آخره :

« والذى نفسى بيده ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، إنها السبع المثانى » .

واستدل بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض ، كما هو المحكىّ عن كثير من العلماء منهم: إسحق بن راهويه ، وأبوبكر بن العربىّ وابن الحصار من المالكية، وذلك بيّن واضح .

وروى البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال[3] :

كنا فى مسيرٍ لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحىّ سليم، وإن نفرنا غيبٌ ،

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١ ـ باب ماجاء فى فاتحة الكتاب .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده فى : ج ٥ ص ١١٤ (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١ ـ باب ماجاء فى فضل فاتحة الكتاب.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٩ ـ باب فاتحة الكتاب .

فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبِنه برُقية . فرقاه ، فَبَرَأ ، فأمر له بثلاثين شاةً ، وسقانا لَبَناً ؛ فلما رجع قلنا له : أكنتَ تُحسن رقيةً ، أو كنت تَرقِي ؟ قال : لا ، مارقيت إلّا بأم الكتاب . قلنا : لا تُحدِثوا شيئاً حتى نأتى ، أو نسأل ، النبيّ ﷺ . فلما قدمنا المدينة ، ذكرناه للنبيّ ﷺ فقال «وما كان يُدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لى بسهم ».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود . وفى بعض روايات مسلم : أن أبا سعيد الخدرىّ هو الذى رقى ذلك السليم ـ يعنى اللديغ ، يسمونه بذلك تفاؤلا ـ .

وروى مسلم والنسائىّ عن ابن عباس قال(١) :

بينما جبريل قاعد عند النبيّ ﷺ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك . فقال : هـذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم . فسلّم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، لم يؤتَهُمَا نبيّ قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ قال(٢) « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج (ثلاثاً) غيرُ تمام » فقيل لأبى هريرة : إنا نـكون وراء الإمام. فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علىّ عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى ـ وقال مرّة فوّض إلىّ عبدى ـ فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هـذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل .

ويكفى من شرح الفاتحة هذا المقدار الجليل ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٣٨ .

(سورة البقرة)

جميعها مدنىّ بلاخلاف. وآيها مائتان وست وثمانون. وقد صح فى فضلها عدة أخبار:

منها ما فى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذىّ والنسائىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال(١):

«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان». وقال الترمذىّ: حسن صحيح.

وروى ابن حبان فى صحيحه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ. «إن لكل شىء سِناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها فى بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام».

وروى مسلم عن أبى أُمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول(٢): «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ تحاجّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة».

(وقوله الزهراوين: أى المنيرتين ـ فى الإعجاز أو فى وفرة الأحكام ـ والغياية: ما أظلك من فوقك. والفِرْق: القطعة من الشىء. والصواف: المصطفة. والبطلة: السحرة. ومعنى لا تستطيعها: لا تستطيع النفوذ فى قارئها، أو لا يمكنهم حفظها. والله أعلم).

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن، ٢ ـ باب ماجاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسىّ.

(٢) أخرجه مسلم فى: ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٢٥٢.

القول فى تأويل قوله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ [١] (الٓمٓ)

اعلم أن للناس فى هذا وما يجرى مجراه من الفواتح مذهبان :

الأول أن هذا علم مستور ، وسرّ محجوب ، استأثر الله تبارك وتعالى به فهو من المتشابه . ولم يرتض هذا كثير من المحققين وقالوا : لا يجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق . واحتجوا بأدلة عقلية ونقلية ، بسطها العلامة الفخر .

(المذهب الثانى) مذهب من فسرها ، وتكلم فيما يصح أن يكون مراداً منها ، وهو ما للجمهور . وفيه وجهان : (الأول) وعليه الأكثر : أنها أسماء للسور .

(الثانى) أن يكون ورود الأسماء هكذا مسرودةً على نمط التعديد : كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحُدِّىَ بالقرآن وبغرابة نظمه ؛ وكالتحريك للنظر فى أن هذا المتلوّ عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم تظهر مَعْجزتهم عن أن يأتوا بمثله ـ بعد المراجعات المتطاولة ـ وهم أمراء الكلام ، وزعماء الحوار ، وهم الحراص على التساجل فى اقتضاب الخطب ، والمتهالكون على الافتنان فى القصيد والرجز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التى بزت بلاغة كلّ ناطق ، وشقت غبار كلّ سابق ، ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء إلّا لأنه ليس بكلام البشر ، وإنه كلام خالق القوى والقُدَر . قاله الزمخشرىّ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

أى : هذا القرآن لا شك أنه من عند الله تعالى كما قال تعالى فى السجدة « الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) . قال بعض المحققين : اختصاص ذلك

(١) [٣٢ / السجدة / ١ و٢] .

بالإشارة للبعيد حكم عرفيّ لا وضعيّ ؛ فإن العرب تعارض بين اسمى الإشارة . فيستعملون كلاً منهما مكان الآخر ، وهذا معروف فى كلامهم . وفى التنزيل من ذلك آيات كثيرة . ومن جرى على أن ذلك إشارة للبعيد يقول : إنما صحت الإشارة بذلك ، هنا إلى ماليس ببعيد، لتعظيم المشار إليه ، ذهاباً إلى بُعد درجته وعلوّ مرتبته ومنزلته فى الهداية والشرف .

والريب فى الأصل : مصدر رابنى إذا حصل فيك الريبة . وحقيقتها : قلق النفس واضطرابها . ثم استعمل فى معنى الشك مطلقاً ، أو مع تهمة . لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة .

وفى الحديث[1] : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبُك » .

ومعنى نفيه عن الكتاب : أنه فى علوّ الشأن، وسطوع البرهان ، بحيث ليس فيه مظنة أن يُرتاب فى حقيقته ، وكونه وحياً منزلًا من عند الله تعالى. والأمر كذلك ، لأن العرب، مع بلوغهم فى الفصاحة إلى النهاية ، عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن . وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة فى الظهور إلى حيث لايجوز للعاقل أن يرتاب فيه ، لا أنه لايرتاب فيه أحد أصلا .

« هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » أى : هادٍ لهم ودالّ على الدين القويم المفضى إلى سعادتى الدارين .

قال الناصر فى الانتصاف : الهدى يطلق فى القرآن على معنيين (أحدهما) الإرشاد وإيضاح سبيل الحق . ومنه قوله تعالى « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »[2] . وعلى هذا يكون الهدى للضالّ باعتبار أنه رشد إلى الحق ، سواء حصل له الاهتداء أوْ لا . و (الآخر) خلق الله تعالى الاهتداء فى قلب العبد ، ومنه « أُولَٰئِكَ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك ج ٣ ص ١٥٣ (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[١] . فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو فى هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً . وعلى الأول ، فتخصيص الهدى بالمتقين للتنويه بمدحهم حتى يتبيّن أنهم هم الذين اهتدَوْا وانتفعوا به ، كما قال تعالى « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا »[٢] . وقال « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ »[٣]. وقد كان، صلى الله عليه وآله وسلم، منذراً لكل الناس ، فذكر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتفعوا بإنذاره . وهذه الآية نظير آية « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ »[٤]، « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »[٥] . وكقوله تعالى « يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »[٦] . إلى غير ذلك ، مما دلّ على أن النفع به لاينالُه إلا الأبرار . والمراد بالمتقين ـ هنا ـ من نعتهم الله تعالى بقوله

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ .

(٢) [٧٩ / النازعات / ٤٥] .

(٣) [٣٦ / يس / ١١] ونصها : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .

(٤) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

(٦) [١٠ / يونس / ٥٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون « بِالْغَيْبِ » الغيب فى الأصل مصدر غاب . بمعنى استتر واحتجب وخفى . وهو بمعنى الفاعل ـ كالزور للزائر ـ أطلق عليه مبالغة ، والمراد به ما لا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداية العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام . والمعنى يؤمنون بما لا يتناوله حسّهم . كذاته تعالى ، وملائكته ، والجنة ، والنار ، والعرش والكرسىّ ، واللوح ونحوها .

« وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى يؤدّونها بحدودها وفروضها الظاهرة والباطنة . كالخشوع والمراقبة وتدبر المتلوّ والمقروء .

قال الراغب : إقامة الصلاة توفية حدودها ، وإدامتها . وتخصيص الإقامة تنبيه على أنه لم يُرِد إيقاعها فقط . ولهذا ، لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة نحو « أَقِمِ الصَّلَاةَ »(١) ، وقوله « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ »(٢) ، و « الَّذِينَ

---

(١) [١١ / هود / ١١٤] ونصها : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .

و [١٧ / الإسراء / ٧٨] ونصها : أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا .

و [٢٠ / طه / ١٤] ونصها : إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى .

و [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] ونصها : اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

(٢) [٤/ النساء/ ١٦٢] ونصها : لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ =

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ »[١] . ولم يقل : المصلى ، إلا فى المنافقين « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ »[٢] ، وذلك تنبيه على أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل ـ كما قال عمر رضى الله عنه : الحاجّ قليل والركب كثير ـ ولهذا قال عليه السلام[٣] « من صلى ركعتين مقبلًا بقلبه على ربه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه » . فذكر مع قوله « صلّى » الإقبال بقلبه على الله تنبيهاً على معنى الإقامة، وبذلك عظم ثوابه . وكثير من الأفعال التى حث تعالى على توفية حقه ، ذكره بلفظ الإقامة ، نحو « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ »[٤] ونحو « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ »[٥] تنبيهاً على المحافظة على تعديله . انتهى .

فالإقامة من أقام العود إذا قوّمه . و «الصلوة» فعلة من صلّى إذا دعا ، كـ«الزكوة» من زكى ـ وإنما كتبتا بالواو مراعاة للفظ المفخّم ـ وإنما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء .

« وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى يؤتون مما رزقناهم من الأموال مَن شرع لهم إيتاؤه والإنفاق عليه من الفقراء والمساكين وذوى القربى واليتامى وأمثالهم، على مابيّن فى آيات كثيرة.

= يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .

(١) [٥ / المائدة/ ٥٥] ونصها : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .

(٢) [١٠٧ / الماعون / ٤و٥] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

(٤) [٥ / المائدة/ ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

(٥) [٥٥/ الرحمن/ ٩] ونصها : وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » والمراد « بما أنزل إليك » الكتاب المنزل كله ، وإنما عبر عنه بلفظ المضى ـ وإن كان بعضه مترقباً ـ تغليباً للموجود على مالم يوجد . كما أن المراد من قوله « وما أنزل من قبلك » الكتب الإلهية السالفة كلها. وهذا كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ »(١) الآية . والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل . فنزول الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام بأن يتلقاها جبريل من جنابه عزّ وجلّ فينزل بها إلى الرسل عليهم السلام . ولهذا يقال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، منه بدأ .

قال الإمام أحمد وغيره : وإليه يعود أى هو المتكلم به . قال تعالى « وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ »(٢) . وقال تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ »[1] . وقال تعالى : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »[2] .

« وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » الآخرة فى الأصل : تأنيث الآخِر الذى هو نقيض الأول وهى صفة الدار ، بدليل قوله تعالى « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ »[3] . سميت بذلك لأنها متأخرة عن الدنيا . وقيل للدنيا : دنيا ، لأنها أدنى من الآخرة . وهما من الصفات الغالبة . ومع ذلك فقد جريا مجرى الأسماء ، إذ قد غلب ترك ذكر اسم موصوفهما معهما ، كأنهما ليسا من الصفات .

والإيقان إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه . وفى تقديم «الآخرة» وبناء «يوقنون» على « هم » تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته . كزعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى[4] ؛ وأن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة[5] ؛ واختلافهم فى أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أوْ لا ؟ وهل هو دائم أوْ لا ؟ فاعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل عن الصحة ، فضلاً عن الوصول إلى مرتبة اليقين!

---

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ١] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٣] ونصها : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى [٢ / البقرة / ١١١] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى فى [٢/البقرة/٨٠] وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« أُولَٰئِكَ » أى : المتصفون بما تقدّم . « عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ » أى على نورٍ من ربّهم ، وبرهانٍ ، واستقامةٍ ، وسدادٍ ـ بتسديده إياهم وتوفيقه لهم ـ . « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون ، المدركون ماطلبوا عند الله ـ بإيمانهم ـ من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنات ، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لمّا بيّن تعالى نعوت المؤمنين قبلُ ، شرَحَ أحوال مقابليهم وهم الكفرة المردة بأنهم : تناهَوْا فى الغواية والضلال إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتذكير ، كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ »(١) . وكقوله سبحانه فى المعاندين الكتابيين « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ »(٢) الآية .

و « سواء » اسم بمعنى : الاستواء ، وصف به ، كما يوصف بالمصادر ، مبالغةً ؛ ومنه

= وقوله تعالى فى [٣ / آل عمران / ٢٤] ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(١) [١٠ / يونس / ٩٦،٩٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٥] ونصها : وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

قوله تعالى « تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » بمعنى : مستوية .

و (الإنذار) الإعلام مع تخويف . والمراد هنا : التخويف من عذابه تعالى، وانتقامه ، والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا أهلاً للبشارة ، ولأن الإنذار أوقع في القلوب ؛ ومن لم يتأثر به فَلَأَنْ لايرفع للبشارة رأساً ـ أوْلَى .

وقوله « لايؤمنون » جملة مستقلة ، مؤكّدة لما قبلها ، مبيّنة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

استئناف معلّل لِمَا سبق من الحكم ، أو بيانٌ وتأكيدٌ له . والختم على الشيء : الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه . والمراد : إحداث حالة تجعلها ـ بسبب تماديهم فى الغيّ ، وانهماكهم فى التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح ـ بحيث لايؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلاً .

قال أبو السعود : وإسناد إحداث تلك الحالة فى قلوبهم إلى الله تعالى ، لاستناد جميع الحوادث عندنا ـ من حيث الخلق ـ إليه سبحانه . وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ، ووخامة عاقبتهم ، لكون أفعالهم ـ من حيث الكسب ـ مستندةً إليهم . فإنّ خَلْقَها منه سبحانه ليس بطريق الجبر ، بل بطريق الترتيب ـ على ما اقترفوه من القبائح ـ كما يعرب عنه قوله تعالى « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ »(١) ونحو ذلك ،

---

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

يعنى كقوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » وقوله : « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[١] .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا فى ذلك عدةً من الأقاويل .

منها : أنّ القوم لما أعرضوا عن الحق ، وتمكّن ذلك فى قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم ، شبه بالوصف الخلقىّ المجبول عليه .

ومنها : أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خاليةً عن الفطن ، أو بقلوب قدّر ختم الله تعالى عليها . كما فى : سال به الوادى ـ إذا هلك ـ وطارت به العنقاء ـ إذا طالت غيبته ـ .

ومنها : أن أعراقهم لما رسخت فى الكفر ، واستحكمت ، بحيث لم يبق إلى تحصيل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ؛ ثم لم يفعل ذلك محافظةً على حكمة التكليف ، عبّر عن ذلك بالختم ، لأنه سدٌّ لطريق إيمانهم بالكلية. وفيه إشعار بترامى أمرهم فى الغىّ والعناد .

ومنها : أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه . مثل قولهم : قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه ، وفى ءاذاننا وَقْرٌ ، ومن بيننا وبينك حجاب[٢] . تهكّماً بهم .

ومنها : أن ذلك فى الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لِتَحقُّق وقوعه . ويعضده قوله تعالى « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً »[٣]. انتهى ملخصاً .

(فائدة) قال الراغب : المراد بالقلب فى كثيرٍ من الآيات : العقل والمعرفة اهـ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] ونصها : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٩٧] ونصها : وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)

أصل ناس أناس ، حذفت همزته تخفيفاً ، وحذفها مع لام التعريف كاللازم . ويشهد لأصله إنسان ، وأُناس ، وأناسيّ ، وإنس . وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أى يبصرون ـ كما سمى الجن لاجتنانهم ـ ولذلك سموا بشراً . وقيل : اشتقاقه من الأُنس ـ ضدّ الوحشة ـ لأن الإنسان مدنىّ بالطبع . والأوّل أظهر .

واعلم أن صفات المنافقين إنما نزلت فى السور المدنية . لأن مكّة لم يكن فيها نفاق ؛ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب. وبها اليهود ـ من أهل الكتاب ـ وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع ـ حلفاء الخزرج ـ وبنو النّضير وبنو قُرَيْظة ـ حلفاء الأوس ـ فلما قدم رسول الله ﷺ المدنية ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج ، وقلّ مَنْ أسلم من اليهود ـ إلاّ عبد الله بن سلام رضى الله عنه ـ ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين ، بعدُ ، شوكة تُخاف ؛ بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادعَ اليهودَ وقبائلَ كثيرةً ـ من أحياء العرب حوالى المدينة ـ . فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته ، وأعزّ الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبىٍّ ابنُ سلول ـ وكان رأساً فى المدينة ، وهو من الخزرج ، وكان ابنُ سيد الطائفتين فى الجاهلية ؛ وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم ، فجاءهم الخبر ، وأسلموا ، واشتغلوا عنه . فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله . فلما كانت وقعة بدر ، قال : هذا أمر قد توجّه . فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ـ ممن هو على طريقته ونِحْلَتِهِ ـ وآخرون من أهل الكتاب ؛ فمن ثَمَّ وُجد النفاق فى أهل المدينة ، ومَنْ حولها من الأعراب .

= فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا ، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

قال القاشانىّ : المخادعة استعمال الخدع من الجانبين ، وهو إظهار الخير ، واستبطان الشر . ومخادعة الله مخادعة رسوله ، لقوله « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ »(١) . فخداعهم لله وللمؤمنين إظهار الإيمان والمحبة ، واستبطان الكفر والعداوة . وخداع الله والمؤمنين إياهم مسالمتهم ، وإجراء أحكام الإسلام عليهم . بحقن الدماء وحصن الأموال وغير ذلك. وادّخار العذاب الأليم ، والمآل الوخيم ، وسوء المغبّة لهم ، وخزيهم فى الدنيا لافتضاحهم بإخباره تعالى وبالوحى عن حالهم . لكن الفرق بين الخداعين : أن خداعهم لا ينجح إلّا فى أنفسهم . بإهلاكها ، وتحسيرها ، وإيراثها الوبال والنكال ـ بازدياد الظلمة ، والكفر ، والنفاق ، واجتماع أسباب الهلكة ، والبعد والشقاء ، عليها ـ وخداع الله يؤثر فيهم أبلغ تأثير ، ويوبقهم أشدّ إيباق ، كقوله تعالى « وَمَكَرُوا ، وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »(٢) وهم ـ من غاية تعمّقهم فى جهلهم ـ لا يحسون بذلك الأمر الظاهر .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « وَمَا يُخَادِعُونَ » بالألف .

قال ابن كثير : نبه الله سبحانه على صفات المنافقين ، لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع بذلك فساد عريض ـ من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم ، وهم كفّار فى نفس الأمر ـ وهذا من المحذورات : أن يُظَنَّ بأهل الفجور خيرٌ . ثم إن قول من قال : كان عليه

(١) [٤ / النساء / ٨٠] ونصها : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً .

(٢) [٣ / آل عمران / ٥٤] .

الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين ـ إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان[١] في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً ـ في غزوة تبوك ـ الذين همّوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك، عزموا على أن ينفّروا به الناقة، ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم، فأطلع على ذلك حذيفة.

فأما غير هؤلاء، فقد قال الله تعالى « وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ »[٢] الآية. وقال تعالى « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » ففيها دليل على أنه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم، وإنما كان تُذْكَرُ له صفاتهم، فيتوسمها في بعضهم، كما قال تعالى « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ »[٣]. وقد كان من أشهرهم بالنفاق، عبد الله بن أبيٍّ ابنُ سلول.

واستند ـ غير واحد من الأئمة ـ في الحكمة عن كفّه ﷺ عن قتل المنافقين، بما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه[٤] « أكره أن يتحدَّث العرب أنَّ محمداً

---

(١) يشير إلى حديث حذيفة الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٩ و ١٠ و ١١.

(٢) [٩ / التوبة / ١٠١] ونصها : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ.

(٣) [٤٧ / محمد / ٣٠].

(٤) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه في : ١٢ ـ كتاب الزكاة، حديث ١٤٢ ونصه : =

يقتل أصحابه » . ومعناه خشية أن يقع بسبب ذلك تنفيرٌ لكثيرٍ من الأعراب عن الدخول في الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتلهم ـ بأنّه لأجل كفرهم ـ فإنهم إنما يأخذونه بمجرد مايظهر لهم ، فيقولون : إن محمداً يقتل أصحابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

المرض : السقم ، وهو نقيض الصحة ، بسبب ما يعرض للبدن ؛ فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل فى أفاعيله . استعير ههنا لعدم صحة يقينهم، وضعف دينهم ـ وكذا توصف قلوب المؤمنين بالسلامة التى هى صحة اليقين ، وعدم ضعفه ، كما قال تعالى « إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[(١)] أى : غير مريض بما ذكرنا ـ أو استعير لشكّهم ، لأن الشك تردُّد بين الأمرين ، والمنافق متردّدٌ ، كما فى الحديث[(٢)] « مثل المنافق كمثل الشاة

= عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة ، منصرفه من حنين ، وفى ثوب بلال فضة . ورسول الله ﷺ يقبض منها . يعطى الناس . فقال : يا محمد ، اعدل . قال « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبتَ وخسرتَ ، إن لم أكن أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى ، يا رسول الله ، فأقتل ، هـذا المنافق . فقال « معاذ الله ، أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى . إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن ، لايجاوز حناجرهم . يمرقون منه كما يمرق السهم من الرميّة » .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٩] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث١٧ ونصه : عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين . تعير إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة » .

العائرة(١) بين الغنمين » والمريض متردّد بين الحياة والموت .

« فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً » بأن طبع على قلوبهم ، لعلمه تعالى بأنّه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار .

وقال القاشانىّ : أى مرضاً آخر ـ حقداً وحسداً وغلًّا ـ بإعلاء كلمة الدين ، ونصرة الرسول والمؤمنين ـ ثم قال : والرذائل كلها أمراض القلوب ، لأنها أسباب ضعفها وآفتها فى أفعالها الخاصة ، وهلاكها فى العاقبة .

« وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : مُؤْلِمٌ ـ بكسر اللام ـ فعيل بمعنى فاعل ـ كسميع وبصير ـ

قال فى المحكم : الأليم من العذاب الذى يبلغ إيجاعه غاية البلوغ . ومنه . يُعلم وجه إيثاره فى عذاب المنافقين ـ على « العظم » المتقدم فى وصف عذاب الكافرين ـ ويؤيده : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »(٢) .

« بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » الباء للسببيّة أو للمقابلة ـ أى بسبب كذبهم أو بمقابلته ـ وهو قولهم : ءامنا بالله وباليوم الآخر ، وهم غير مؤمنين . وفيه رمز إلى قبح الكذب ، وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحقٌ بهم من أجل كذبهم ـ مع إحاطة علم السامع بأنّ لحوق العذاب بهم من جهات شتى ـ ونحوه قوله تعالى « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا »(٣) ـ والقوم كفرة ـ وإنما خصّت الخطيئات استعظاماً لها ، وتنفيراً عن ارتكابها .

---

(١) العائرة : المترددة والحائرة لا تدرى أيهما تتبع . تَعِير أى تتردد وتذهب .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٥] .

(٣) [٧١ / نوح / ٢٥] ونصها: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

[١٢] (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)

شروع فى تعديد بعض من مَساوئهم المتفرّعة ـ على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق ـ و « الفساد » خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به . ونقيضه « الصلاح » وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة . والفساد فى الأرض : تهييج الحروب والفتن ، لأن فى ذلك فسادَ مافى الأرض ، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس ، والزروع ، والمنافع الدينية والدنيوية . قال الله تعالى « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ »(١) . «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ »(٢) ـ ومنه قيل لحربٍ كانت بين طيء : حرب الفساد ـ .

وكان إفساد المنافقين فى الأرض أنهم كانوا يُمالِئُون الكفار على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم ، وإغرائهم عليهم ، واتخاذِهم أولياء ، مع ما يدّعون فى السرّ إلى : تكذيب النبيّ ﷺ ، وجحد الإسلام ، وإلقاء الشبه ، وذلك مما يجرئ الكفرة على إظهار عداوة النبيّ ﷺ ، ونصب الحرب له ، وطمعهم فى الغلبة . فلما كان ذلك من صنيعهم مُؤَدِّياً إلى الفساد ـ بتهييج الفتن بينهم ـ قيل لهم : لا تفسدوا ـ كما تقول للرجل : لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك فى النار ؛ إذا أقدم على ما هذه عاقبته ـ وقد قال تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ »(٣)

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧٣] .

فأخبر أن موالاة الكافرين تؤدّى إلى الفتنة والفساد ، لما تقدّم .

وقولهم « إنّما نحن مصلحون » أى : بين المؤمنين وأهل الكتاب . نُدارى الفريقين ونريد الإصلاح بينهما كما حكى الله عنهم أنهم قالوا « إنْ أَرَدْنَا إِلّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا »(١).
أو معناه : إنما نحن مصلحون فى الأرض بالطاعة والانقياد .

قال الراغب : تصوّروا إفسادهم بصورة الإصلاح ـ لما فى قلوبهم من المرض ـ كما قال « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا »(٢) وقوله « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٣) وقوله « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا »(٤) .

وقال القاشانىّ : كانوا يرَوْنَ الصلاح فى تحصيل المعاش ، وتيسير أسبابه ، وتنظيم أمور الدنيا ـ لأنفسهم خاصة ـ لتوغلهم فى محبّة الدنيا ، وانهماكهم فى اللذات البدنية ، واحتجابهم ـ بالمنافع الجزئية ، واللاذّ الحسية ـ عن المصالح العامّة الكلّيّة ، واللذات العقلية ؛ وبذلك يتيسر مرادهم ، ويتسهل مطلوبهم ، وهم لا يحسون بإفسادهم المدرَك بالحسّ .

---

(١) [٤ / النساء / ٦٢] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٨] ونصها : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٤٣] ونصها : فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٤) [١٨ / الكهف / ١٠٤] ونصها : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » بطريق الأمر بالمعروف ، إثر نهيهم عن المنكر ـ إتماماً للنُّصح ، وإكمالاً للإرشاد ـ « ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ » أى : الكاملون فى الإنسانية ، فإنّ المؤمنين هم الناس فى الحقيقة لجمعهم ما يُعدّ من خواصّ الإنسان وفضائله ـ « قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ » استفهام فى معنى الإنكار . و(السفه) خفّةٌ وسخافةُ رأى يورثهما : قصور العقل ، وقلّة المعرفة بمواضع المصالح والمضار ـ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً »(١) . ـ

وإنما سفّهوهم ـ مع أنهم العقلاء المراجيح ـ لأنهم : لجهلهم ، وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم ، اعتقدوا أنّ ماهم فيه هو الحقّ ، وأنّ ما عداه باطل ـ ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً ـ ولأنهم كانوا فى رياسةٍ فى قومهم ، ويسار ؛ وكان أكثر المؤمنين فقراء ، ومنهم موالٍ ـ كصُهَيْب ، وبلال ، وخبّاب ـ فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم ! « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٤] ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا » أى : أظهروا لهم الإيمان ، والموالاة ، والمصافاة ـ نفاقاً ، ومصانعةً ، وتقيّةً وليشركوهم فيما أصابوا من خيرٍ ومغنم ـ .

(١) [٤ / النساء / ٥] .

واعلم أنّ مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أوّل قصة المنافقين ، فليس بتكرير . لأنّ تلك فى بيان مذهبهم ، والترجمةِ عن نفاقهم ؛ وهذه لبيان تباينُ أحوالهم ، وتناقض أقوالهم ـ فى أثناء المعاملة والمخاطبة ـ حسب تباين المخاطبين !

« وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » يقال : خلوت بفلان وإليه أى : انفردت معه ؛ ويجوز أن يكون من خلا بمعنى : مضى ، ومنه : القرون الخالية . والمراد بـ « شَيَاطِينِهِمْ » : أصحابهم أولو التمرّد والعناد ؛ والشيطان يكون من الأنس والجنّ ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »(١) . وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر . واشتقاق شيطان مِن شطن ، إذا بعد ، لبعده من الصلاح والخير .

ومعنى « إِنَّا مَعَكُمْ » أى فى الاعتقاد على مثل ما أنتم عليه ، إنّما نحن فى إظهار الإيمان عند المؤمنين مستهزئون ساخرون بهم . والاستهزاء بالشىء السخرية منه . يقال : هزأت واستهزأت بمعنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » يسخر بهم للنقمة منهم ـ هكذا فسّره ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه الضحّاك ـ « وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » يزيدهم على وجه الإملاء ، والترك لهم فى عتوّهم وتمرّدهم ، كما قال تعالى « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »(٢) .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٠] .

و (الطغيان) المراد به هُنا : الغلو فى الكفر ومجاوزة الحد فى العتوّ . وأصل المادة هو المجاوزة فى الشيء ، كما قال تعالى « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ »[1] .

و (العمه) مثل العمى ـ إلّا أنّ العمى عامّ فى البصر والرأى ، والعمه فى الرأى خاصة ـ وهو التحيّر والتردّد ، لا يدرى أين يتوجه .

أى فى ضلالهم وكفرهم ـ الذى غَمَرَهُم دَنَسُهُ ، وعلاهم رِجْسُهُ ـ يترددون حيارى ، ضُلّالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً .

والمشهور فتح الياء من « يمدّهم » ، وقرئ ـ شاذاً ـ بضمها ، وهما بمعنى واحد . يقال : مدّ الجيش وأمده ـ إذا زاده ، وألحق به ما يقوّيه ويكثره ـ وكذلك مدّ الدواة وأمدها زادها ما يصلحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ » إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميِّزة لهم عمّن عداهم أكمل تمييز ، بحيث صاروا كأنّهم حضّار مشاهدون على ماهم عليه . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشّرّ وسوء الحال ، ومحلّه الرفع على الابتداء ، خبره قوله تعالى « الَّذِينَ اشْتَرَوُا » الخ . والجملة مَسُوقَةٌ لتقرير ماقبلَها ، وبيانٌ لكمال جهالتهم ـ فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال ـ بإظهار غاية سماجتها ، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز ـ فضلًا عن العقلاء ـ . و« الضلالة » الجور عن القصد ؛ و « الهُدَى » التوجّه إليه . وقد استعير الأول : للعدول عن الصواب فى الدين ، والثانى : للاستقامة عليه . و« الاشتراء » استبدال السلعة بالثمن ـ أى أخذها به ـ

---

(١) [٦٩ / الحاقة / ١١] .

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلًا منه أخذا منوطاً بالرغبة فيها والإعراض عنه.

فإن قيل : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وما كانوا على هدى ؟

قلت : جعلوا لتمكُّنهم منه ـ بتيسير أسبابه ـ كأنه فى أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطّلوه ، واستبدلوها به ؛ فاستعير ثبوته لتمكُّنهم بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ، ولا مِرْيَةَ فى أنّ هذه المرتبة ـ من التمكُّن ـ كانت حاصلة لهم بما شاهدوه ـ من الآيات الباهرة ، والمعجزات القاهرة ـ من جهة النبىّ ﷺ .

« فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » عطف على الصلة داخل فى حيزها . والفاء للدلالة على ترتُّب مضمونه عليها . والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدِّى للبيع والشراء ، لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال ، وإسناد عدمه ـ الذى هو عبارة عن الخسران ـ إليها ؛ وهو لأصحابها ، من الإسناد المجازىّ وهو : أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ـ كما تلبست التجارة بالمشترين ـ وفائدته : المبالغة فى تخسيرهم ، لِما فيه من الإشعار بكثرة الخسار ، وعمومه المستتبع ، لسرايته إلى ما يلابسهم .

فإن قلتَ : هب أنّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح ، والتجارة كأنّ ثَمّ مبايعة على الحقيقة ؟

قلتُ : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تُساق كلمةٌ مساقَ المجاز ، ثم تقفَّى بأشكال لها ، وأخَواتٍ ـ إذا تلاحقن ـ لم ترَ كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر ماءً ورونقاً ، وهو المجاز المرشَّح ؛ فإيرادها ـ إثْرَ الاشتراء ـ تصويرٌ لِمَا فاتَهُم من فوائد الهدى بصورة خسار التجارة ـ الذى يتحاشى عنه كل أحدٍ ـ للإشباع فى التخسير والتحسير . وهذا النوع قريب من التتميم الذى يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء :

وإنّ صخراً لتَأْتَمُّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ . . !

لَمَّا شبّهتْه ـ فى الاهتداء به ـ بالعَلَم المرتفع ، أتبعتْ ذلك ما يناسبه ويحقِّقه ، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر ، باشتعال النار فى رأسه .

وقوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : لزوال استعدادهم ، وتكدير قلوبهم بالرَّيْن الموجب للحجاب والحرمان الأبديّ .

قال الزمخشريّ : فإن قيل : لِمَ عطف بالواو عدم اهتدائهم على انتفاء ربح تجارتهم ، ورتِّبا معاً بالفاء على اشتراء الضلالة بالهدى ؟ وما وَجْه الجمع بينهما ـ مع ذلك الترتيب ـ على أن عدم الاهتداء قد فُهِم من استبدال الضلالة بالهدى ، فيكون تكراراً لِما مضى ؟

فالجواب : أن رأس مالهم هو الهدى ، فلمَّا استبدلوا به مايضادُّه ـ ولا يجامعه أصلاً ـ انتفى رأس المال بالكلية ، وحين لم يبق فى أيديهم إلا ذلك الضد ـ أعنى الضلالة ـ وصفوا بانتفاء الربح والخسارة . لأنَّ الضالّ فى دينه خاسرٌ هالكٌ ـ وإن أصاب فوائد دنيوية ـ ولأنَّ مَنْ لم يسلم له رأس ماله لم يوصف بالربح ، بل بانتفائه ؛ فقد أضاعوا سلامة رأس المال بالاستبدال ، وترتَّب على ذلك إضاعة الربح .

وأما قوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » فليس معناه عدم اهتدائهم فى الدين ـ فيكون تكراراً لما سبق ـ بل لَما وُصِفوا بالخسارة فى هذه التجارة أشير إلى عدم اهتدائهم لطرق التجارة ـ كما يهتدى إليه التجار البصراء بالأمور التى يربح فيها ويخسر ـ فهذا راجع إلى الترشيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)

ولما جاء بحقيقة صفتهم ، عقَّبها بضرب المثل ـ زيادة فى الكشف ، وتتميماً للبيان ـ فقال تعالى : « مَثَلُهُمْ » أى : مثالهم فى نِفاقهم ، وحالهم فيه « كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ » أى أوقد « نَارًا » فى ظلمة ـ والتنكير للتعظيم ـ « فَلَمَّا أَضَاءَتْ » أى : أنارت النار

« مَا حَوْلَهُ » فأبصر ، واستدفأ ، وأمن مما يخافه « ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ » أى : أطفأ الله نَارَهُم ـ التى هى مدار نورهم ـ فبقوا فى ظُلْمَةٍ وخوف ـ وجمع الضمير مراعاة لمعنى الذى كقوله « وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا »(١) . « وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » ما حولهم ـ متحيّرين عن الطريق ، خائفين ـ فكذلك هؤلاء استضاؤوا قليلًا بالانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم ، حيث أَمِنوا على أنفسهم وما يتبعها . ثم وراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ـ ظلمة النفاق ـ التى ترمى بهم إلى ظلمة سخط الله ، وظلمة العقاب السرمد ؟ ومحصوله : أنهم انتفعوا بهذه الكلمة مدّة حياتهم القليلة ، ثم قطعه الله تعالى بالموت .

ونُقِلَ ـ عن كثيرٍ من السلف ـ تفسير آخر ، وهو : تمثيل لإيمانهم أوّلًا ، ثم كفرهم ثانياً . فيكون إذهاب النور فى الدنيا ، كما قال تعالى « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا »(٢) الآية ، فلمَّا آمنوا أضاء الإيمان فى قلوبهم ـ كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ناراً ـ ثمّ لمّا كفروا ، ذهب الله بنورهم : انتزعه ـ كما ذهب بضوء هذه النار ـ وعلى هذا فالتمثيل مرتبط بما قبله . فإنهم ـ لمَّا وُصِفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ـ مثّل هداهم ـ الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ـ والضلالةَ ـ التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم ـ بذهاب الله بنورهم ، وتركه إيّاهم فى الظلمات .

قال الزمخشرىّ فى الكشاف : واضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المُثُل

---

(١) [٩ / التوبة / ٦٩] ونصها : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ٣] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

والنظائر شأنٌ ليس بالخفىّ فى إبراز خبيّات المعانى ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيَّل فى صورة المحقَّق ، والمتوهَّم فى معرض المتيقَّن ، والغائب كأنَّه مشاهَد ـ وفيه تبكيتٌ للخصم الألدّ ، وقمعٌ لسورة الجامح الأبىّ .

ولأمرٍ ما ، أكثر الله ـ فى كتابه المبين ، وفى سائر كتبه ـ أمثالَه ، وفشت فى كلام رسول الله ﷺ ، وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »[١] .

و (المَثَل) فى أصل كلامهم بمعنى : المِثْل وهو النظير . يقال : مِثْل ، ومَثَل ، ومثيل ـ كشِبه وشَبَه وشبيه ـ ثم قيل للقول السائر الممثّل مضربه بمورده : مَثَل . ولم يضربوا مثلًا ، ولا رأوْه أهلًا للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول ، إلّا قولًا فيه غرابة من بعض الوجوه . ومن ثَمَّ حوفظ عليه ، وحُمِىَ من التغيير .

فإنه[٢] ـ لو غُيِّرَ ـ لربّما انتفى الدلالة على تلك الغرابة . وقيل: إنّ المحافظة على المثل إنّما هى بسبب كونه استعارة . فوجب لذلك أن يكون هو بعينه لفظ المشبه به . فإن وقع تغيير ، لم يكن مَثَلًا ، بل مأخوذاً منه ، وإشارة إليه ـ كما فى قولك : بالصيف ضيعتَ اللبن[٣] . بالتذكير .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٣] .

(٢) فى حاشية الجرجانىّ على الكشاف .

(٣) قال فى اللسان : ومن أمثالهم : الصيفَ ضيّعتِ اللبنَ . إذا فرّط فى أمره فى وقته . معناه طلبتِ الشىء فى غير وقته . وذلك أن الألبان تكثر فى الصيف . فيضرب مثلا لترك الشىء وهو ممكن ، وطلبه وهو متعذر . قال ذلك ابن الأنبارىّ .

وأول من قاله عمرو بن عمرو بن عُدَس لدَخْتَنُوسَ بنت لقيط : وكانت تحته ففركته . وكان موسرا . فتزوجها عمرو بن معبد ، وهو ابن عمها ، وكان شابا مقترا . فمرت به إبل عمرو فسألته اللبن فقال لها ذلك .

وقال بعضهم : قد استعير المثل للحال ، أو القصَّة ، أو الصِّفة ـ إذا كان لها شأن ، وفيها غرابة ـ كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد ناراً . وكذلك قوله « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »(١) أى ـ فيما قصصنا عليك من العجائب ـ قصة الجنة العجيبة الشأن ، ثمّ أخذ فى بيان عجائبها « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ »(٢) أى : الوصف الذى له شأنٌ من العظمة والجلالة . « مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ »(٣) أى : صفتهم وشأنهم المتعجّب منه .

ولِما فى المثل من معنى الغرابة قالوا : فلان مثلة فى الخير والشر ، فاشتقّوا منه صفةً للعجيب الشأن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ » الصمم : آفة مانعة من السماع ، سمّى به فقدان حاسّة السمع ، لما أنَّ سببه اكتناز باطن الصِّماخ ، وانسداد منافذه ، بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموّجه . والبكم : الخرس . والعمى : عدم البصر عمّا من شأنه أن يُبصر .

(١) [١٣ / الرعد / ٣٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٠] ونصها : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

وُصِفوا بذلك ـ مع سلامة حواسّهم المذكورة ـ لما أنّهم سدّوا عن الإصاخة إلى الحقّ مسامعَهم ، وأبَوْا أن يُنْطِقوا به أَلْسِنَتَهم ، وأن ينظروا ويتبصّروا بعيونهم ، فجعلوا كأنما أصيب بآفةٍ مشاعرُهم ـ كقوله ـ :

صُمٌّ إذا سمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ بِهِ وإن ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

وكقوله :

أصمُّ عن الشيءِ الذى لا أُرِيدُهُ وأَسْمَعُ خلقِ اللهِ حينَ أُرِيدُ

« فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى ـ بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة ـ لا يعودون إلى الهدى ـ بعد أن باعوه . أو عن الضلالة ـ بعد أن اشتروها . فالآية الكريمة تتمّةٌ للتمثيل بأنّ ما أصابهم ، ليس مجرّدَ انطفاء نارهم ، وبقائهم فى ظلمات كثيفةٍ هائلة ـ مع بقاء حاسة البصر بحالها ـ بل اختلّت مشاعرهم جميعاً ، واتصفوا بتلك الصفات فبقُوا جامدين فى مكانهم لا يرجعون ، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخّرون ؟ وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » تمثيل لحالهم إثْرَ تمثيلٍ ، ليعمّ البيانُ منها كلّ دقيق وجليل ، ويوفى حقّها من التفظيع والتهويل . فإنّ تفننهم فى فنون الكفر والضلال حقيقٌ بأن يضرب فى شأنه الأمثال . وكما يجب على البليغ ـ فى مظانّ الإجمال والإيجاز ـ أن يجمل ويوجز ، فكذلك الواجب عليه ـ فى موارد التفصيل والإشباع ـ أن يفصّل ويشبع .

و« الصيّب » السحاب ذو الصوْب. والصوْب المطر. والمراد بالسماء : السحاب، كما قال تعالى « ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ »(١) . وهى فى الأصل : كل ما علاك من سقف ونحوه :

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٩] .

« فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » التنوين فى الكل للتفخيم والتهويل ـ كأنه قيل : فيه ظلمات داجية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف ـ « يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ » الصاعقة : الصوت الشديد من الرعدة يسقط معها قطعة نارٍ تنقدح من السحاب ـ إذا اصطكت أجرامه ـ لاتأتى على شىء إلا أحرقته « حَذَرَ » ـ أى خوف ـ « الْمَوْتِ » ـ من سماعها ـ « وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » علماً وقدرةً فلا يفوتونه . والجملة اعتراضية منبهة على أنَّ ما صنعوا ـ من سد الآذان بالأصابع ـ لا يغنى عنهم شيئاً ، فإنَّ القدَر لا يدافعه الحذَر ، والحِيَل لا ترد بأس الله عزّ وجلّ . وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير ـ الراجع إلى أصحاب الصيّب ـ الإيذان بأنَّ ما دهمهم ـ من الأمور الهائلة المحكية ـ بسبب كفرهم ، فيُظهر استحقاقهم شدّة الأمر عليهم ، على طريقة قوله تعالى : « أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا »[1] فإن الإهلاك الناشىء عن السخط أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » استئناف آخر وقع جواباً عن سؤال مقدّر ـ كأنه قيل : فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل : يكاد يخطف أبصارهم ، أى : يأخذها بسرعة « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » أى : فى ضوئه « وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا » أى : وقفوا ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٧] ونصها : مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

وثبتوا فى مكانهم ـ ومنه : قامت السوق ، إذا ركدت وكسدت . وقام الماء ، جمد ـ وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين : بشدّته على أصحاب الصيّب ، وما هم فيه من غاية التحيّر والجهل ـ بما يأتون وما يذرون ـ إذا صادفوا من البرق خفقةً ـ مع خوف أن يخطف أبصارهم ـ انتهزوا تلك الخفقة فرصةً ، فخطَوْا خطواتٍ يسيرةً ، فإذا خفى ، وفتر لمعانه ، بقوا واقفين متقيدين عن الحركة « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » أى : لزاد فى قصيف الرعد فأصمّهم ، أو فى ضوء البرق فأعماهم . ومفعول « شاء » محذوف ، لأنّ الجواب يدلّ عليه . والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها . ولقد تكاثر هذا الحذف فى « شاء » و « أراد » . لا يكادون يبرزون المفعول إلا فى الشيء المستغرب ـ كنحو قوله : فلو شئت أن أبكى دماً لبكيته[1] ؛ وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا »[2] . « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليلٌ للشرطيّة ، وتقريرٌ لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهانىّ .

تنبيهات :

الأول : محصول التمثيلين ـ غِبَّ وصف أربابهما بوقوعهم فى ضلالتهم التى استبدلوها بالهدى ـ هو أنه شبّه ، فى الأول ، حيرتَهم وشدّةَ الأمرعليهم بما يكابد مَن طَفِئَت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل . وفى الثانى : شبّه حالهم بحال مَنْ أخذتهم السماء فى ليلة تكاثف ظلماتها ـ بتراكم السحب ، وانتساج قطراتها ، وتواتر فيها الرعود الهائلة ، والبروق المخيفة ، والصواعق المختلفة المهلكة ، وهم فى أثناء ذلك يزاولون غمرات الموت . وبذلك يعلم أنّ التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة ، وهو الذى تقتضيه جزالة المعانى ـ لأنه يحصل فى النفس من تشبيه الهيئات المركبة مالا يحصل من تشبيه مفرداتها . فإنك إذا تصورت حال مَنْ طفِئت ناره بعد إيقادها ... الخ ، وحالَ من أخذتهم السماء .. الخ حصل فى نفسك

(١) استشهد به فى الكشاف . وعجزه : عليه ولكن ساحة الصبر أوسع .
(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

هيئة عجيبة توصلك إلى معرفة حال المنافقين ، على وجهٍ يتقاصر عنه تشبيه المنافق ـ فى التمثيل الأول ـ بالمستوقد ناراً ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانتفاء النار ؛ وتشبيه دين الإسلام ـ فى الثانى ـ بالصيّب ، وما يتعلق به ـ من شُبَهِ الكفار ـ بالظلمات، وما فيه ـ من الوعد والوعيد ـ بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة ـ من الإفزاع والبلايا والفتن ـ من جهه أهل الإسلام بالصواعق . وأيضاً فى تشبيه المفردات ، وطىّ ذكر المشبهات تكلّف ظاهر . وأيضاً فى لفظ (المثل) نوع إنباء عن التركيب ، إذ المتبادر منه القصة التى هى فى غرابتها كالمثل السائر ، وهى فى الهيئة المركبة دون كل واحد من مفرداتها . وأيضاً فى التمثيل المركب اشتمال على التشبيه فى المفردات إجمالاً ، مع أمر زائد : هو تشبيه الهيئة بالهيئة ، وإيذانه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئةٍ عجيبةٍ حقيقة بأن تكون مثلاً فى الغرابة .

التنبيه الثانى :

قال الإمام العلامة « ابن القيّم » فى كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)

« فى هذه الآية ، شَبَّه ، سبحانه ، أعداءه المنافقين : بقومٍ أوقدوا ناراً لتضىء لهم ، وينتفعوا بها ، فلمّا أضاءت لهم النار ، فأبصروا فى ضوئها ما ينفعهم ويضرهم ، وأبصروا الطريق ـ بعد أن كانوا حيارى تائهين ـ فهم كقوم سَفْرٍ ضلّوا عن الطريق ، فأوقدوا النار لتضىء لهم الطريق ، فلما أضاءت لهم ـ فأبصروا وعرفوا ـ طَفِئت تلك الأنوار ، وبقوا فى الظلمات لا يبصرون ، قد سُدت عليهم أبواب الهدى الثلاث ـ فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : مما يسمعه بإذنه ، ويراه بعينه ، ويعقل بقلبه ـ وهؤلاء قد سُدَّت عليهم أبواب الهدى : فلا تسمع قلوبهم شيئاً ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها . وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة مَن لا سمع له ، ولا بصر ، ولا عقل . والقولان متلازمان .

وقال في صفتهم «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» لأنهم قد رأوْا في ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلمّا طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوْا وأبصروا . وقال سبحانه وتعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ولم يقل : ذهب نورهم ؛ وفيه سرّ بديع : وهو انقطاع سر تلك المعيّة الخاصة ـ التي هي للمؤمنين ـ من الله تعالى ، فإن الله تعالى مع المؤمنين[(١)] ، وإن الله مع الصابرين[(٢)] ، وَ« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »[(٣)] . فذهاب الله بذلك النور : انقطاع المعيّة ـ التي خصّ بها أولياءه ـ فقطعها بينه وبين المنافقين ، فلم يَبْقَ عندهم ـ بعد ذهاب نورهم ـ ولا معهم ، فليس لهم نصيب من قوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »[(٤)]

(١) [٨ / الأنفال / ١٩] ونصها : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٢/ البقرة/ ١٥٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٨ الأنفال / ٤٦] ونصها: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ =

ولا مِن « كَلا ، إنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »[١] .

وتأمّل قوله تعالى « أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » كيف جعل ضوءها خارجاً عنه ، منفصلاً ، ولو اتصل ضَوْؤُها به ، ولا بَسَه ، لم يذهب ، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية ، فرجع الضوء إلى معدنه ، وبقيت الظلمة فى معدنها ، فرجع كلٌّ منهما إلى أصله اللائق به : حجة من الله قائمة ، وحكمة بالغة ، تعرَّفَ بها إلى أولى الألباب من عباده .

وتأمّل قوله تعالى « ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ » ولم يقل بنارهم ، ليطابق أول الآية ، فإن النار فيها إشراق وإحراق : فذهب بما فيها من الإشراق ـ وهو النور ـ وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق ـ وهو النارية ـ وتأمّل كيف قال « بِنُورِهِمْ » ولم يقل : بضوئهم ـ مع قوله « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » ـ لأن الضوء هى زيادة فى النور ؛ فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأَوْهَمَ الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ؛ فلما كان النور أصلَ الضوء ، كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته ؛ وأيضاً فإنه أبلغ فى النفى عنهم ، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم ؛ وأيضاً فإن الله تعالى سمّى كتابَه (نوراً) ، ورسوله ﷺ (نوراً) ، ودينه (نوراً) ، وهُداه (نوراً) ، ومن أسمائه (النور) ، والصلاة (نور) ؛ فذهابه سبحانه بهم : ذهابٌ بهذا كله . وتأمل مطابقة هذا المثل ـ لِمَا تقدمه من قوله « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »[٢] كيف

= الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٦٢] ونصها : قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

طابق هذه التجارة الخاسرة التى تضمّنت هول الضلالة والرضاء بها ، وبدّل الهدى فى مقابلتها ، وهول الظلمات ـ التى هى الضلالة والرضاء بها ـ بدلاً عن النور ـ الذى هو الهدى والنور ـ فبدّلوا الهدى والنور ، وتموّضوا عنه بالظلمة والضلالة . فيالها مِن تجارةٍ ما أخسرَها ، وصفقةٍ ما أشدّ غبْنها . وتأمّل كيف قال تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » فوحّده ثم قال « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ » فجمعها . فإن الحقّ واحد : هو صراط الله المستقيم ـ الذى لا صراط يوصل إليه سواه ـ وهو عبادته وحده لا شريك له ، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، لا بالأهواء ، والبدع ، وطرق الخارجين عن مّا بعث الله به رسوله ﷺ ـ من الهدى ودين الحق ـ بخلاف طرق الباطل فإنها متعدّدة متشعّبة . ولهذا ، يُفرِدُ ، سبحانه ، الحق ، ويجمع الباطل ، كقوله تعالى « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ »(١) وقال تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »(٢) فجمع سُبُل الباطل ، ووحدّ سبيل الحق . ولا يناقض هذا قوله « يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ »(٣) فإنّ تلك هى طُرُق مرضاته التى يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم ، فإنّ طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحدٍ ، وسبيلٍ واحدٍ ، وهى سبيله التى لا سبيل إليه إلا منها . وقد صحّ عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه خط خطًّا مستقيماً ، وقال(٤) « هذا سبيل الله »

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٦] .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى السنن فى المقدمة ، ١ ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، حديث ١١ : عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبىّ ﷺ . فخطّ خطًّا . وخطّ خطين =

ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، وقال « هذه سُبُل ، على كلّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه » ثم قرأ قوله تعالى « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وقد قيل : إنّ هذا مَثَلٌ للمنافقين ، وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام ، ويكون بمنزلة قول الله تعالى « كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ »(١). ويكون قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » مطابقا لقوله تعالى « أَطْفَأَهَا اللَّهُ » ويكون تخييبهم ، وإبطال ما راموه ، هو : تركهم في ظلمات الحيرة ، لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه ، ولا يُبصرون سبيلاً ؛ بل هم « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » . وهذا التقدير ـ وإن كان حقاً ـ ففي كونه مراداً بالآية نظر ، فإنّ السياق إنما قصد لغيره ، ويأباه قوله تعالى« فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » وموقدُ نارِ الحرب لا يضيء ما حوله أبداً . ويأباه قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » وموقد نار الحرب لا نور له . ويأباه قوله تعالى « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة ، إلى ظلمة الشك والكفر .

= عن يمينه . وخط خطين عن يساره. ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال «هذا سبيل الله» ثم تلا هذه الآية « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [٦ / الأنعام / ١٥٣]

(١) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

قال الحسن رحمه الله : هو المنافق أبصر ثم عمى ، وعرف ثم أنكر . ولهذا قال «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» أى لا يرجعون إلى النور الذى فارقوه . وقال تعالى فى حق الكفار «صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون» فسلب العقل عن الكفار ـ إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان ـ وسلب الرجوع عن المنافقين ـ لأنهم آمنوا ثم كفروا ـ فلم يرجعوا إلى الإيمان.

فصل

ثم ضرب الله ، سبحانه ، لهم مثلاً آخرَ مائياً ، فقال تعالى «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» . فشبّه نصيبهم ـ مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ ـ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التى طَفِئت عنه أحوجَ ما كان إليها ، وذهب نوره ، وبقى فى الظلمات حائراً ، تائهاً ، لا يهتدى سبيلاً ، ولا يعرف طريقاً ؛ وبنصيب أصحاب الصيّب ـ وهو المطر الذى يصوّب (أى ينزل) من علوّ إلى أسفل ـ فشبّه الهدى ـ الذى هدى به عباده ـ بالصيّب ، لأن القلوب تحيي به حياة الأرض بالمطر . ونصيب المنافقين من هذا الهدى ، بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيّب إلاّ ظلمات ورعد وبرق . ولا نصيب له ـ فيما وراء ذلك ـ مما هو المقصود بالصيّب ـ من حياة البلاد ، والعباد ، والشجر ، والدوابّ ؛ وأن تلك الظلمات التى فيه ، وذلك الرعد ، والبرق ، مقصود لغيره ، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيّب . فالجاهل ـ لفرط جهله ـ يقتصر على الإحساس بما فى الصيّب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من بردٍ شديد ، وتعطيل المسافر عن سفره ، وصانعٍ عن صنعته ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيّب من الحياة والنفع العام. وهكذا شأن كلّ قاصر النظَر ، ضعيف العقل ، لا يجاوز نظره الأمرَ المكروه الظاهر إلى ما وراءَه من كلّ محبوب . وهذه حال أكثر الخلق ـ إلّا مَن صحت بصيرته ـ

فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب ، والمشاقّ ، والتعرّض لإتلاف المهجة ، والجراحات الشديدة ، وملامة اللوّام ، ومعاداة من يخاف معاداته ـ لم يقدم عليه . لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من المواقب الحميدة ، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون . وكذلك مَن عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام ، فلم يعلم ـ من سفره ذلك ـ إلّا مشقّة السفر ، ومفارقة الأهل والوطن ، ومقاساة الشدائد ، وفراق المألوفات ؛ ولا يجاوز نظره وبصيرته آخرَ هذا السفر ، ومآله ، وعاقبته ـ فإنه لا يخرج إليه ، ولا يعزم عليه . وحال هؤلاء ، حال الضعيفِ البصيرةِ والإيمان ، الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد ، والزواجر والنواهي ، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات ـ والفطام على الصبيّ أصعب شيء ، وأشقّه ـ والناس كلهم صبيان العقول ، إلّا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء ، وأدرك الحقّ علماً ، وعملًا ، ومعرفةً ؛ فهو الذي ينظر إلى ماوراء الصيّب ، وما فيه ـ من الرعد والبرق والصواعق ـ ويعلم أنّه حياة الوجود.

التنبيه الثالث :

قال القاشانيّ : « إنّما بولغ في ذكرِ فريقِ المنافقين ، وذمّهم ، وتعييرهم ، وتقبيح صورة حالهم ، وتهديدِهم ، وإيعادهم ، وتهجين سيرهم وعاداتهم : لإمكان قبولهم للهداية ، وزوال مَرَضِهم العارض . عسى التقريع يكسر أعواد شكائمهم ، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم ، فتتزكّى بواطنُهم ، وتتنوّر قلوبهم ، فيسلكوا طريق الحقّ . ولعلّ موادعة المؤمنين ، وملاطفتهم إيّاهم ، ومجالستهم معهم ـ تستميل طباعهم ، فتهيج فيهم محبّةً ما ، وشوقاً تلين به قلوبهم إلى ذكر الله ، وتنقاد به نفوسهم لأمر الله ، فيتوبوا ويصلحوا ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا »(١) .

---

(١) [٤ / النساء / ١٤٥و١٤٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ » لمَّا ذَكَرَ الله علوَّ طبقة كتابه الكريم ، وتحزّب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرقٍ : مؤمنة به محافظة على مافيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ؛ وما اختصت به كلّ فرقة مما يسعدها ويشقيها ، ويحظيها عند الله ويرديها ؛ أقبل عليهم بالخطاب ـ وهو من الالتفات المذكور عند قوله جلّ ذكره « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ـ وهو فنّ مِن الكلام جَزْلٌ ، فيه هزٌّ وتحريك من السامع ـ كما أنك إذا قلتَ لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما : إنَّ فلاناً من قصته كيت وكيت ، فقصصتَ عليه ما فرط منه ، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث ، فقلت : يا فلان! مِن حقّك أن تلزم الطريقة الحميدة فى مجارى أمورك ، وتستوى على جادّة السّداد فى مصادرك ومواردك ـ نبهته بالتفاتك نحوه فضلَ تنبه ، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء ؛ وأوجدته ، بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازًّا من طبعه ، ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة . وهكذا الافتنان فى الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف ، يستفتح الآذان للاستماع ، ويستهش الأنفس للقبول . وإنما كثر النداء فى كتابه تعالى على طريقة (يا أيها الناس) لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد ، وأسبابٍ من المبالغة . كالإيضاح بعد الإبهام ، واختيار لفظ البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه . ومعلوم أنَّ كل ما نادى الله له عباده : من أوامره ، ونواهيه ، وعظاته ، وزواجره ، ووعده ، ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك . . . مما أنطق به كتابه ـ أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعانٍ علَّمهم أن يتيقَّظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن يُنادوا بالآكد الأبلغ ـ أفاده الزمخشرىّ ـ.

والمراد بالناس : كافة المكلفين ـ مؤمنهم وكافرهم ـ فطلبُ العبادة من المؤمنين طلبُ الزيادة فيها ، والثبات عليها ؛ ومن الكافرين ، ابتداؤها . « الَّذِى خَلَقَكُمْ » أنعم عليكم بإخراجكم من العدم إلى الوجود « وَ » ـ خلق ـ « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى كى تتقون ، كقوله تعالى « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) ، وقوله سبحانه « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »(٢) . وفى إيراد « لعلّ » تشبيه طلبه تعالى برجاء الراجى من المرجوّ منه أمراً هيّن الحصول . فإنّه تعالى لما وضع فى أيدى المكلفين زمام الاختيار ، وطلب منهم الطاعة ، ونصب لهم أدلّةً عقليّةً ونقليّةً داعية إليها ؛ ووعد ، وأوعد ، وألطف بما لا يحصى كثرة ـ لم يبق للمكلف عذر ، وصار حاله فى رجحان اختياره للطاعة مع تمكنه من المعصية كحال المترجى منه فى رجحان اختياره لما يرتجى منه ـ مع تمكُّنه من خلافه ـ وصار طلب الله تعالى لعبادته واتّقائه بمنزلة الترجّى ـ فيما ذكرناه ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« الَّذِى جَعَلَ » ـ خلق ـ « لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا » بساطاً ومهاداً غير حزنة ، « وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » البناء ، فى الأصل ، مصدر سمى به المبنيّ ـ بيتاً كان ، أو قبّةً ، أو خباءً . قال بعض علماء الفلك فى معنى الآية : أى كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً . و « السماء » يُراد بها الجنس كالسموات ، والمعنيّ بها الكواكب السيارات ـ قال ـ : فجميع السموات

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [٦٧ / الملك / ٢] .

أو الكواكب كالبناء المرتبط بعضه ببعض من كلّ جهة ، المتماسك كأجزاء الجسم الواحد بالجاذبية التى تحفظ نظامها فى مداراتها ، وهو جذب الشمس لها .

« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى : السحاب « مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » النهى متفرع على مضمون ذلك الأمر، كأنّه قيل: إذا أُمِرْتم بعبادة مَنْ هذا شأنُه ـ من التفرّد بهذه الأفعال الجليلة ـ فلا تجعلوا له أنداداً شركاء فى العبادة، أى أمثالًا تعبدونهم كعبادته ـ جمع ندّ . وهو المثل ، ولا يقال إلّا للمثل المخالف المناوئْ ـ فإن قيل : كيف صلح تسميتها أنداداً وهم ما كانوا يزعمون أنها تخالفه وتناوئه ، بل كانوا يجعلونها شفعاء عنده ؟ . أجيب : بأنّهم لما تقرّبوا إليها ، وعظموها ، وسمّوْها آلهة ـ أشبهت حالهم حالَ من يعتقد أنّها آلهة مثله قادرة على مخالفته ، ومضادّته ، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكّم . وكما تهكّم بهم بلفظ الندّ شنّع عليهم، واستفظع شأنهم ، بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصحُّ أن يكون له ندّ قط .

« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ما بينه وبينها من التفاوت ، وأنها لا تفعل مثل أفعاله ، كقوله «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ»(١)؛ أو وأنتم من أهل العلم والمعرفة ـ والتوبيخ فيه آكد ـ أى أنتم العرافون المميزون ، ثمّ ما أنتم عليه فى أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً ـ هو غاية الجهل ، ونهاية سخافة العقل .

ومما ينبغى التفطّن له ـ فى الاعتبار بهذه الآية ـ ما قاله الزمخشرىّ : من أنّه سبحانه وتعالى قدّم من موجبات عبادته ، وملزمات حقّ الشكر له : خَلْقَهُمْ أحياء قادرين أوّلا ـ لأنه سابقة أصول النعم ، ومقدّمتها ، والسبب فى التمكّن من العبادة والشكر وغيرهما ـ ؛ ثمّ خلق الأرض ـ التى هى مكانهم ، ومستقرُّهم الذى لابدّ لهم منه ـ وهى بمنزلة عرصة المسكن ، ومتقلَّبه ، ومفترشه ؛ ثمّ خلق السماء ـ التى هى كالقبّة المضروبة ، والخيمة المطنّبة ـ على هذا القرار ؛ ثمّ ما سوّاه عزّ وجلّ من شبه عقد النكاح بين المُقِلَّة والمُظِلَّة .

(١) [٣٠ / الروم/ ٤٠]

بإنزال الماء منها عليها ، والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان ـ من ألوان الثمار ـ رزقاً لبنى آدم ، ليكون لهم ذلك معتبراً ، ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف . ونعمةً يتعرّفونها فيقابلونها بلازم الشكر ، ويتفكّرون فى خلق أنفسهم ؛ وخلق ما فوقهم وتحتهم ، وأنَّ شيئاً من هذه المخلوقات كُلِّها لا يقدر على إيجاد شىء منها ، فيتيقّنوا ـ عند ذلك ـ أن لا بُدَّ لها من خالق ـ ليس كمثلها ـ حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً ، وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر .

ونظير هذه الآية قوله تعالى « اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) . فمضمونه أنَّه الخالق ، الرازق ، مالك الدار وساكنيها، ورازقهم . فبهذا يستحقّ أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره .

ولمّا احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ، ويحققها . ويبطل الإشراك ، ويهدمه . وعلم الطريق إلى إثبات ذلك ، وتصحيحه . وعرّفهم أن مَن أشرك فقد كابر عقلَه ، وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه ـ عطف على ذلك ماهو الحجّة على إثبات نبوّة محمد ﷺ ، وما يدحض الشبهة فى كون القرآن معجزة ، وأراهم كيف يتعرّفون : أهو من عند الله ـ كما يدّعى ـ أم هو من عند نفسه ـ كما يدّعون ـ ؟ بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ، ويذوقوا طباعهم ، وهم أبناء جنسه ، وأهل جلدته . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا » ـ أى من القرآن الذى نزّلناه ـ « عَلَى

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٤] .

عَبْدِنَا » محمّد ﷺ أنه من عند الله تعالى ، والتعبير عن اعتقادهم في حقّه بالريب ـ مع أنّهم جازمون بكونه من كلام البشر ـ كما يعرب عنه قوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » إمّا للإيذان بأنّ أقصى ما يمكن صدوره عنهم ـ وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد ـ هو الارتياب في شأنه (وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال ، كما أنّ تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقّه أن يكون ضعيفاً مشكوكَ الوقوع) وإمّا للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ، ونهاية قوّتها . وإنّما لم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا ... الخ ، لِمَا أشير إليه ـ فيما سلف ـ من المبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبه وقوع الريب فيه ـ حسبما نطق به قوله تعالى « لَا رَيْبَ فِيهِ » ـ والإشعار بأن ذلك ـ إنْ وقع ـ فمن جهتهم لا مِنْ جهته العالية . واعتبار استقرارهم فيه ، وإحاطته بهم ، لا ينافي اعتبار ضعفه وقلّته : لِمَا أنّ ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به ، لا قلّته ولا كثرته . وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية ، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ـ من التشريف ، والتنويه ، والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ ، وانقياده لأوامره تعالى ـ ما لا يخفى . والأمر في قوله تعالى : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ » من باب التعجيز وإلقام الحجر، كما في قوله تعالى « فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ »(١)، أو مِن باب المجاراة معهم ـ بحسب حسبانهم ـ حيث كانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا . و « السورة » الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلّها ثلاث آيات ، وواوها أصلية . منقولة من سور البلد ـ لأنها محيطةٌ بطائفةٍ من القرآن مفرزةٍ ، مُحوزَةٍ . أو محتويةٌ على فنونٍ رائقة من

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

العلوم ، احتواءَ سور المدينة على ما فيها . أو من السورة التى هى الرتبة . فإن سُوَرَ القرآن مع كونها فى أنفسها رتباً ـ من حيث الفضل والشرف ، أو من حيث الطول والقصر ـ فهى من حيث انتظامها مع أخواتها فى المصحف : مراتب يرتقى إليها القارىء شيئاً فشيئاً . و « من » فى قوله تعالى « مِنْ مِثْلِهِ » بيانيّة متعلقة بمحذوف صفة لسورة ، والضمير « لما نزلنا » أى بسورةٍ كائنةٍ من مثله فى علو الرتبة ، وسموّ الطبقة ، والنظم الرائق ، والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز . وقيل « من » زائدة ـ على ما هو رأى الأخفش ـ بدليل قوله تعالى « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ »(١) « بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ »(٢) .

وقوله تعالى « وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ » إرشادٌ لهم إلى إنهاض أمّةٍ جمّةٍ ، ليحتشدوا فى حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم ، ويتعاونوا على الإتيان بقدرٍ يسير مماثل فى صفات الكمال لما أتى بجملته واحدٌ من أبناء جنسهم . وهذا كقوله تعالى فى سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٢) و « الشهداء » جمع شهيد ، بمعنى : الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر . و « من » لا بتداء الغاية متعلّقة بـ « ادعوا » والظرف مستقرّ . والمعنى : ادعوا، متجاوزين الله تعالى للاستظهار ، مَنْ حَضَرَكم ـ كائناً من كان ـ أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم ـ الذين تفزعون إليهم فى الملمات ، وتعوّلون عليهم فى المهمّات ـ أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم ـ من

(١) [١٠ / يونس / ٣٨] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [١١ / هود / ١٣] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أمنائكم المتولّين لاستخلاص الحقوق ، بتنفيذ القول عند الولاة ـ أو القائمين بنُصْرتكم ـ حقيقةً أو زعماً ـ من الإنس والجنّ ليعينوكم . وإخراجه ، سبحانه وتعالى ، من حكم الدعاء فى الأوّل ـ مع اندراجه فى الحضور ـ لتأكيد تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ؛ فإنّ ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه . وأمّا فى سائر الوجوه : فللتصريح من أوّل الأمر ببراءتهم منه تعالى ، وكونهم فى عدوة المحادّة والمشاقة له ، قاصرين استظهارهم على ما سواه ؛ والالتفات لإدخال الروعة ، وتربية المهابة « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى زعمكم أنه من كلامه ﷺ ، واستلزام المقدّم للتالى من حيث أنّ صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله ، بقضية مشاركتهم له ﷺ فى البشرية والعربية ، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار ، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون ـ ولا ريب فى أن القدرة على الشىء من موجبات الإتيان به ، ودواعى الأمر به ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا » أى : ما أمرتم به من الإتيان بالمثل ، بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود « وَلَنْ تَفْعَلُوا » اعتراض بين جزأى الشرطية ، مقررٌ لمضمون مقدمها ، ومؤكدٌ لإيجاب العمل بتاليها ، وهى معجزة باهرة : حيث أخبر بالغيب الخاص ـ علمه به عز وجل ـ وقد وقع الأمر كذلك « فَاتَّقُوا النَّارَ » جواب للشرط ، على أن اتقاء النار كنايةٌ عن الاحترازِ من العناد ، إذ ـ بذلك ـ يتحقّق تسبُّبه عنه ، وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله ـ كما هو المقرر ـ فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه ، فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنيّة على

تصوير العناد بصورة النار ، وجَعْلِ الاتصاف به عين الملابسة بها ، للمبالغة فى تهويل شأنه ، وتفظيع أمره ، وإظهار كمال العناية ـ بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه ، وحثهم على الجدّ فى تحقيق المكنىّ به ـ وفيه من الإيجاز البديع مالا يخفى . حيث كان الأصل : فإن لم تفعلوا فقد صحّ صدقه عندكم ، وإذا صحّ ذلك كان لزومكم العناد ، وتركُكُم الإيمان به ، سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحترزوا منه واتقوا النار «الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» صفة للنار مورثةٌ لها زيادةَ هولٍ وفظاعة ـ أعاذنا الله منها برحمته الواسعة ـ و « الوقود » ماتوقد به النار ، وترفع من الحطب . وقُرِئَ بضمّ الواو ، وهو مصدرٌ سمّى به المفعول مبالغة ـ كما يقال : فلانٌ فَخْرُ قومه ، وزين بلده ـ فإن قيل: صلة الذى والتى يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب ، فكيف علم أولئك أنّ نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟

قلت : لا يمتنع أن يتقدّم لهم بذلك سماع من آيات التنزيل المتقدّمة عليها ، أو من رسول الله ﷺ ، أو من أهل الكتاب . والمراد بالحجارة الأصنام ، وبالناس أنفسهم ـ حسبما ورد فى قوله تعالى « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(١) فإنها مفسّرةٌ لما نحن فيه ـ وحكمة اقترانهم مع الحجارة فى الوقود : أنهم لمّا اعتقدوا فى حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستنفعون بهم ، ويستدفعون المضارّ عن أنفسهم بمكانهم ، جعلها الله عذابهم ، فقرنهم بها مُحماةً فى نار جهنم ـ إبلاغاً فى إيلامهم ، وإغراقاً فى تحسيرهم . ونحوه ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضّتهم عدةً وذخيرة ، فشحّوا بها ، ومنعوها من الحقوق ، حيث يحمى عليها فى نار جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى جباههم وجنوبهم « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » هُيِّئَت لهم ، وجعلت عدةً لعذابهم . والمراد : إما جنس الكفّار ـ والمخاطَبُون داخلون فيهم دخولًا أوّليًّا ـ وإمّا هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم ـ لذمّهم ، وتعليل الحكم بكفرهم ـ والجملة مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، ومبيّنة لمن أريد بالناس ، دافعة لاحتمال العموم .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

(تنبيه) هـذه الآية الجليلة من جملة الآيات التى صدعت بتحدِّى الـكافرين بالتنزيل الـكريم . وقد تحدَّاهم الله تعالى فى غير موضع منه ، فقال فى سورة القصص « قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١) . وقال فى سورة سبحان « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(٢) . وقال فى سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٣) . وقال فى سورة يونس « وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٤) . وكل هذه الآيات مكيّة . ثمّ تحدَّاهم أيضاً فى المدينة بقوله « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ ... إلى آخر هذه الآية »(٥) فعجزوا عن آخرهم : ـ وهم فرسان الـكلام ، وأرباب النظام ، وقد خُصوا من البلاغة والحِـكم ، ما لم يخص به غيرهم من الأمم . وأوتوا من ذرابة اللسان ، ما لم يؤت إنسان . ومن فصل الخطاب ، ما يقيّد الألباب . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقةً ، وفيهم غريزةً وقوّةً . يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويُدلون به إلى كل سبب . فيخطبون بديهاً فى المقامات وشديد الخَطْب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب . ويمدحون ، ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصّلون ، ويرفعون ، ويضعون ، فيأتون بالسحر

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٨] .
(٣) [١١ / هود / ١٣] .
(٤) [١٠ / يونس / ٣٧و٣٨] .
(٥) [٢ / البقرة / ٢٣] .

الحلال ، ويطوّقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب . ويذهبون الإحَن ، ويهيجون الدِّمَن . ويُجَرِّئون الجبان ، ويبسطون يدَ الجمد البَنَان . ويصيّرون الناقصَ كاملا ، ويتركون النبيه خاملًا . منهم البدويّ : ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوهريّ ، والمنزع القويّ . ومنهم الحضريّ : ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرُّف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية . وكلا البابين فلَهُما ـ فى البلاغة ـ الحجّة البالغة ، والقوّة الدامغة ، والقِدْح الفالج ، والمهيع الناهج . لا يشكّون أنّ الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قدَحُوا فنونها ، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كلِّ بابٍ من أبوابها، وعَلَوْا صرحاً لبُلوغ أسبابها ، فقالوا فى الخطير والمهين، وتفنّنوا فى الغثّ والسمين ، وتقاولوا فى القلّ والكثر ، وتساجلوا فى النظم والنثر ـ ومع هذا ـ فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض ـ لمقدار أقصر سورة منه ـ ناهضٌ من بلغائهم، على أنَّهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، وأوفر عددًا من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبيّة مع اشتهارهم بالإفراط فى المضادّة والمضارّة ، وإلقائهم الشراشر على المُعَازَّة والمُمَارَّة ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخُطط، وركوبهم فى كل مايرومونه الشطَط : إن أتاهم أحدٌ بمفخرةٍ أتوْه بمفاخر ، وإنْ رماهم بمأثرةٍ رمَوْه بمآثر . وقد جرَّدَ لهم الحجّة أولًا ، والسيف آخراً ، فلم يعارضوا إلا السيف وحده . فما أعرضوا عن معارضة الحجّة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب ؛ وبذلك يظهر أنَّ فى قوله تعالى « وَلَنْ تَفْعَلُوا » معجزةً أخرى ، فإنهم ما فعلوا ، وما قدروا ، ومَن تعاطى ذلك من سخفائهم ـ كمسيلمة ـ كشف عواره لجميعهم.

قال الحافظ ابن كثير : ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أُنزل على صاحبكم فى هذه المدة ؟ فقال له عمرو : لقد

أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال: وماهى؟ فقال «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أُنزل علىَّ مثلها . قال : وما هو ؟ فقال : يا وَبْرُ يا وَبْرُ[1] ! إنما أنت أُذُنان وصدر . وسائرك حَفْر نَقْر ـ ثم قال ـ : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم إنى أعلم أنك تـكذب ! . .

وحيث عجز عرب ذلك العصر ، فما سواهم أعجز فى هذا الأمر . . ! وقد مضى ـ إلى الآن ـ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، ولم يوجد أحدٌ من معاديه البلغاء إلا وهو مسلم ، أو ذو استسلام ؛ فدلَّ على أنَّه ليس من كلام البشر ، بل كلام خالق القُوَى والقُدَر ، أنزله تصديقاً لرسوله ، وتحقيقاً لمقوله . وهذا الوجه ـ أعنى بلوغه فى الفصاحة والبلاغة إلى حدٍّ خرج عن طوق البشر ـ كافٍ وحده فى الإعجاز ، وقد انضمَّ إليه أوجه :

(منها) : إخباره عن أمور مغيبة ظهرت كما أخبر . و (منها) كونه لا يملّه السمع مهما تكرر. و (منها) جمعه لعلوم لم تكن معهودة ، عند العرب والعجم. و (منها) إنباؤه عن الوقائع الخالية ، وأحوال الأمم . والحال أنَّ مَن أُنزِل عليه ، ﷺ ، كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ ، لاستغنائه بالوحى ، وليكون وجه الإعجاز بالقبول أحرى . وبذلك يُعلم أنَّ القرآن أعظم المعجزات ، فإنَّه آية باقية مدى الدهر ، يشاهدها ـ كلَّ حين بعين الفكر ـ كلُّ ذى حِجْر . وسواه ـ من المعجزات ـ انقضت بانقضاء وقتها ، فلم يبق منها إلا الخبر.

وقد ذهب بعض علماء الشيعة ـ فى وجه إعجازه ـ إلى : كونه قاهراً لمن يقاومه ،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (ج ٤ ص ٥٤٧) بعد أن ساق هذا ، مانصه : الوَبْر دويبة تشبه الهرّ ، أعظم شىء فيه أذناه وصدره ، وباقيه دميم . فأراد مسيلمة أن يركّب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يَرُجْ ذلك على عابد الأوثان ، فى ذلك الزمان.

وغالباً على من يغالبه ، ونافذاً فى إزهاق ما يخالفه . وكونه مؤثراً فى إيجاد الأمة ، وبقاء الشريعة ، ونفوذ الحكم ، وثبوت الكلمة ، لما جعل الله فيه من النور ، والهداية ، والرحمة . وعبارته : إنّ كلام الله تعالى يمتاز عن غيره بالنفوذ ، والغلبة فى هداية الخلق ، وإنشاء أمة مستقلّة ، وإبقاء شريعةٍ جديدة . وهى علامة كافية فى معرفة الكلمات الالآهية، والآيات السماوية . ثم قال : وخلاصة تقرير الدليل أن الكلام ـ الذى يتحدّى الداعى به ، وينسبه إلى الله ـ إذا ظهر منه التأثير التام فى هداية النفوس المستعدة الطالبة ، وقهر الأمم المنكرة المانعة ، فأوجد أمةً مستقلةً نامية ، وشريعةً جديدة باقية ، فلا يبقى ثمّتَ شك أنه هو كلام الله النازل من السماء ، والقدرة الظاهرة منه هى القدرة التى منذ القديم ظهرت من المرسلين والأنبياء . وإلى هذه النكتة أشير فى قوله تعالى « يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ »[1] وقال تعالى « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ »[2] وهذه العلامة لاتوجد إلّا فى كتب الله تعالى. ويتمكن كل إنسان أن يدركها ويفهمها منها. سواء كان عالماً ، أو أمياً. عربياً ، أو عجمياً . شرقياً، أو غربياً ..! فمن الذى يشك أن بنى إسرائيل ما خرجوا عن ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، وعن ذلّة العبودية إلى عزّ الاستقلال إلا بسبب التوراة ..؟! ومن الذى يجهل أن الأمم الأوروبية ما وصلوا إلى عبادة الله تعالى ـ بعد عبادة الأوثان ـ إلّا بواسطة الإنجيل ..؟! ومن الذى لا يعرف أن الأمم الكبرى ـ من حدود الشرق الأقصى إلى أقاصى إفريقيّة ـ ما خرجوا عن ربقة الوثنيّة ،

---

(١) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها : وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى/ ١٦] .

وعبادة النار إلى التوحيد وعبادة الله إلّا بهداية القرآن العظيم ؟ وما تحرروا عن أغلال العقائد الفاسدة ، والأعمال القبيحة ، وما وصلوا إلى الأخلاق الفاضلة ، والعقائد الصحيحة إلّا بنور هذا السِّفْرِ الكريم ..؟! ثم قال : والخلاصة إن هذه العلامة وهى هداية النفوس، وإيجاد الديانة الجديدة ـ بقهر الأديان القديمة ، وتبديل العوائد العتيقة ـ هى العلامة الظاهرة المميِّزة بين الكلمات الالهية ! والمصنّفات البشرية . حتى أن أوّل نفس أذعنت بحقيقة رسالة رسول ، وصدق شريعته ، لو لم تعرف فى نفسها هذه الهداية ، ولم تشعر فى ذاتها بهذه المغلوبية لما كانت أوّل مَن صدّقه ولبّاه ، واتبعه وآساه ؛ فإن محبّة الدين القديم الموروث راسخةٌ فى جميع النفوس . والخوف من تبديل أركانه وآدابه متمكّنٌ فى أعماق القلوب . فالهِدَايَةُ أظهر علامة فى صدق النبوة والرسالة ، إذ هى صفة الفعل ، ومرتبطة بالدعوة ـ كالإبراء للطب ، ومعرفة السطوح للهندسة ، والبيع والشراء للتجارة ، وصنع الأسرّة والأبواب وغيرها للنجارة ـ ثم قال : وإذا تصفّحت القرآن المجيد ، تجد أن الله تعالى استدلّ بها فى مواضع متعدّدة ، ووصف القرآن بأنه حجّة ـ بما أودع فيه من الهداية والرحمة ـ ولا ترى موضعاً واحداً وصفه بأنه أفصح الكتب وأبلغ الصحف ، فانظر فى قوله تعالى « فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١) . أترى أن الله تعالى ألخمهم بقوله : فأتوا بكتاب من عند الله هو أفصح منهما أو أبلغ منهما ؟ وكذلك لما انتقدوا على النبيّ ﷺ بعدم صدور معجزة منه كالمعجزات السالفة ، فقال تعالى « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨و٤٩] .

فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »(١) فبين الله تعالى مزية القرآن على سائر المعجزات ، وكفايته عن غيره بأن فيه الذكرى والرحمة . وقال تعالى فى أول هذه السورة « الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » وماقال فيه فصاحة وبلاغة يعجز عن مثلها جميع العالمين . وذلك لأن الفصاحة والبلاغة من الأوصاف الخفية الغامضة الدقيقة ـ التى تختلف فيها الأذواق ، وتتشعّب فيها الآراء والأنظار ـ ولكن ما ظهر من الرسول عليه السلام ـ بسبب نزول القرآن عليه ـ من العلم والقدرة على هداية الأمم ، وإزالة أسقام أهل العالم ، وتأسيس الشريعة الإلهامية ، وإيجاد الأمة الإسلامية رغماً للأمم الكبرى ، ومبايناً للديانات العظمى : أمر ظاهر محسوس ، تصعب فيه المناقشة ، ولا تفيد معه المغالطة . فمن الذى يمكنه أن ينكر أن الأمم العظيمة ـ كالعرب ، والفرس ، والخزر ، والترك ، والهنود ، والصينيين ، وأهالى إفريقيّة ـ خرجوا من ظلمات الشرك ، وعبادة النار والأوثان ، وإنكار الأنبياء ؛ ودخلوا فى نور التوحيد ، وعبادة الله وحده ، والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه ، بنور الكتاب المبين ..!!

ـ كذا فى كتاب (الدرر البهية) لأبى الفضائل الإيرانىّ ـ ولا يخفى أن ما ذكره هو وجه متين ، ولكن لا يسوغ نفى ما عداه لأجله ، بل يجدر أن يضم إليها ، ويكون فى مقدمتها والله أعلم .

ثم إن من عادته تعالى ، فى كتابه ، أن يذكر الترغيب مع الترهيب ، ويشفع البشارة بالإنذار . وهذا معنى تسمية القرآن مثانى ـ على الأصح ـ وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر ـ أو عكسه ـ أو حال السعداء ثم الأشقياء ـ أو عكسه ـ وحاصله ذكر الشيء ومقابله . والحكمة فى ذلك : هى إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف ، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف . فلما ذكر الكفار وأعمالهم ، وأوعدهم بالعقاب ، قفّاه ببشارة عبادهِ الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة مِن فعل الطاعات وترك المعاصى ـ فقال عز وجلّ :

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » (البشارة) : الإخبار بما يظهر سرور المخبر به . ومنه البَشَرَة : لظاهر الجلد . وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه . وأمّا « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » فمن العكس فى الكلام الذى يقصد به الاستهزاء ـ الزائد فى غيظ المستهزَأ به ، وتألّمه ، واغتمامه ـ ففيه استعارة أحد الضدّين للآخر تهكّماً وسخرية . و « الصالحات » ما استقام من الأعمال أى صلح لترتب الثواب عليه . وقد أجمع السلف على أنّ الإيمان : قولٌ وعملٌ ، يزيد وينقص . ثم إنه إذا أطلق دخلت فيه الأعمال ، لقول النبيّ ﷺ(١) :

« الإيمان بضع وستون شعبة ـ أو بضع وسبعون شعبة ـ أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبةٌ من الإيمان » .

وإذا عطف عليه ـ كما فى هذه الآية ـ فهنا ، قد يقال : الأعمال دخلت فيه ، وعطفت عطف الخاص على العام . وقد يقال : لم تدخل فيه ، ولكن مع العطف ـ كما فى اسم الفقير

(١) أخرجه ابن ماجه فى: المقدمة ، ٩ ـ باب فى الإيمان ، حديث ٥٧ (طبعتنا) ونصه: عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الإيمان بضع وستون أو سبعون بابا . أدناها إماطة الأذى عن الطريق . وأرفعها قول : لا إله إلا الله . والحياء شعبة من الإيمان » .

والمسكين. إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان ـ وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البرّ ، والتقوى ، والمعروف . وفي الإثم ، والعدوان ، والمنكر . تختلف دلالتها في الإفراد والاقتران لمن تدبّر القرآن .

وقد بيّن حديث جبريل أنّ الإيمان أصله في القلب ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ـ كما في المسند عن النبيّ ﷺ ـ أنّه قال[1] :

« الإسلام علانية والإيمان في القلب » .

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح[2] :

« ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » .

فإذا كان الإيمان في القلب ، فقد صلح القلب . فيجب أن يصلح سائر الجسد ، فلذلك هو ثمرة ما في القلب . فلهذا قال بعضهم : الأعمال ثمرة الإيمان. وصحته، لما كانت لازمةً لصلاح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد : ج ٣ ص ١٣٥ (طبعة الحلبيّ) ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يقول « الإسـلام علانية والإيمان في القلب » قال ، ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات . قال ، ثم يقول « التقوى ههنا . التقوى ههنا » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٩ ـ باب فضل من استبرأ لدينه . ونصه :

عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بيّن والحرام بيّن . وبينهما مُشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لـكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد القلب كله . ألا وهي القلب » .

القلب، دخلت فى الاسم . كما نطق بذلك الكتاب والسنة فى غير موضع ، هذا ما أفاده الإمام ابن تيميّة رحمه الله .

وقوله تعالى « أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ » جمع (جَنَّة) : وهى البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلّل بالتفاف أغصانه . وإنما سميت « دار الثواب » بها مع أنّ فيها مالا يوصف من الغرفات والقصور، لِما أنّها مناط نعيمها ، ومعظم ملاذّها . وجمعها مع التنكير : لاشتمالها على جِنانٍ كثيرةٍ فى كلٍّ منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها . وقوله « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » صفة جنّات ، ثم إن أريد بها الأشجار، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ؛ وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها ، فلابدّ من تقدير مضاف ـ أى من تحت أشجارها ـ وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار ، فاعتبار التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحّح لإطلاق اسم الجنّة على الكل ، وإنما جيء ذكر الجنات ـ مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية ـ لِما أنّ أنزهَ البساتين ، وأكرمَها منظراً ، ما كانت أشجاره مظلّلة ، والأنهار فى خلالها مطّردة ، وفى ذلك النعمة العظمى واللذة الكبرى . واللام فى الأنهار : للجنس ـ كما فى قولك : لفلان بستان فيه الماء الجارى ـ أو للعهد . والإشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى « فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ... »(1) الآية .

« كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا » ـ أى : أطعموا من تلك الجنات ـ « مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ » ـ أى: مثل الذى رزقناه من قبل هذا الذى أحضر إلينا ـ فالإشارة إلى المرزوق فى الجنّة لتشابه ثمارها. بقرينة قوله « وَأُتُوا بِهِ » ـ أى : أتتهم الملائكة والولدان

(١) [٤٧ / محمد / ١٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

برزق الجنّة ـ « مُتَشَابِهاً » يشبه بعضه بعضاً لوناً ، ويختلف طعماً ، وذلك أجْلَبُ للسرور ، وأزْيَدُ في التعجُّب ، وأظْهَرُ للمزِيّة ، وأبْيَنُ للفضل . وترديدهم هذا القول ، ونطقهم به ـ عند كلّ ثمرةٍ يُرزَقونها ـ دليل على تناهي الأمر في استحكام الشّبَه ، وأنّه الذي يستملي تعجُّبهم ، ويستدعي استغرابهم ، ويفرط ابتهاجهم . فإن قيل: كيف موقع قوله « وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً » من نظم الكلام ؟ قلت : هو كقولك : فلان أحسن بفلان ، ونعم ما فعل . ورأي من الرأى كذا ، وكان صواباً . ومنه قوله تعالى « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ »(١) . وما أشبه ذلك من الجمل التى تساق في الكلام معترضة للتقرير .

« وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » من الحيض والاستحاضة وما لا يختصّ بهنّ من الأقذار والأدناس ـ ويجوز ، لمجيئه مطلقاً ، أن يدخل تحته الطهر من دَنَس الطباع، وسوء الأخلاق وسائر مثالبهنّ وكيدهنّ .

وقوله تعالى « وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » هذا هو تمام السعادة ؛ فإنّهم ـ مع هذا النعيم ـ في مقامٍ أمينٍ من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل في نعيمٍ سرمديٍّ أبديٍّ على الدوام . والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم. إنّه البرّ الرحيم .

ولمّا ضرب تعالى ـ فيما تقدم ـ للمنافقين مَثَلَيْن : في قوله « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ... الخ » وقوله « أَوْ كَصَيِّبٍ ... الخ » إلى أمثالٍ أخرى تقدّمت على نزول هذه السورة ، من السُّوَر المكية ، ضربت للمشركين ـ نبّه تعالى إلى موضع العبرة بها ، والحكمة منها ، وتضليل مَن لا يقدّرها قدرها ـ ممّن يتجاهل عن سرِّها ، ويتعامى عن نورها ، ويحول دون الاهتداء بها ، والأخذ بسببها ـ فقال سبحانه :

---

(١) [٢٧ / النمل / ٣٤] ونصها : قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » أى : يذكر مثلًا ما . يقال : ضرب مثلًا ، ذكره ، فيتعدّى لمفعولٍ واحد . أو صيّر ، فلمفعولَيْن .

قال أبو إسحاق فى قوله تعالى « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا »(١) أى : اذكر لهم . وعبارة الجوهرىّ : ضرب الله مثلًا أى وَصَفَ وبَيَّن . وفى شرح نظم الفصيح : ضرب المثل: إيراده ليمتثل به ، ويتصوّر ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشيء مثلاً ، وضرب به ؛ وتمثَّله ، وتمثّل به . ثم قال : وهذا معنى قول بعضهم : ضرب المثل اعتبار الشيء بغيره ، وتمثيله به . و « ما » هذه اسميّة إبهاميّة ، وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً ، وزادته شياعاً وعموماً ــ كقولك : أعطنى كتاباً مّا ، تريد أىّ كتاب كان ــ كأنه قيل : مثلاً مّا من الأمثال أىّ مثل كان . فهى صفة لما قبلها . أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها ــ كما فى قوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) ــ كأنه قيل: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقًّا ، أو البتّة .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٣٢] ونصها : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا .

و [٣٦/ يس/ ١٣] ونصها: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ =

و « بعوضة » بدل من « مثلاً » . أو هما مفعولا « يضرب » لتضمّنه معنى الجعل والتصيير . ومعنى الآية : إنه تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ، تَرْكَ من يستحيي أن يتمثّل بها لحقارتها . أي لا يستصغرُ شيئاً يضرب به مثلاً ـ ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة ـ كما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها . كما ضرب المثل بالذباب والمنكبوت فى قوله « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »(١) وقال « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(٢) وغيرذلك من أمثال الكتاب العزيز . فما استنكره السُّفهاء وأهلُ العناد والمِراء ، واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء ومضروباً بهاالمثل ـ ليس بموضعٍ للاستنكار والاستغراب . مِنْ قِبَلِ أن التمثيل إنما يصارإليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهَّم من المشاهَد . فإن كان المتمثّل له عظيماً ، كان المتمثّل به مثله . وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك . فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إذاً ، إلّا أمراً تستدعيه حال المتمثَّل له وتستجِرّه إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضيّة . الا ترى إلى الحقّ لما كان واضحاً ، جلياً أبلج ، كيف تمثّل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضدّ صفته ، كيف تمثل له بالظلمة ؟ أفاده الزمخشرىّ .

« فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » شروع فى تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم إثر

= وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] .

تحقيق حقية صدوره عنه تعالى ـ أى : فأمّا المؤمنون « فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » ـ كسائر ما وَرَد منه تعالى ـ والحقّ هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره. وذلك لأن التمثل به مسوق على قضيّة مضربه ، ومحتذى على مثالِ ما يستدعيه ـ كما جعل بيت العنكبوت مثل الآلهة التى جعلها الكفّار أنداداً لله تعالى ـ وجعلت أقلّ من الذباب ، وأخسّ قدراً . وضربت لها البعوضة فما دونها مثلاً ، لأنه لا حال أحقر من تلك الأنداد وأقلّ ..! فالمؤمنون ـ الذين عادتهم الإنصافُ ، والعملُ على العدل والتسوية ، والنظرُ فى الأمور بناظر العقل ـ إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنّه الحقُّ الذى لا تمرّ الشبهة بساحته ، والصوابُ الذى لا يرتع الخطأ حوله « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » مِمَّن غلبهم الجهل على عقولهم ، وغشيهم على بصائرهم ـ فلا يتفطَّنون ، ولا يلقون أذهانهم . أو عرفوا أنّه الحق ، إلّا أنّ حب الرياسة ، وهوى الإلف والعادة ، لا يخليهم أن يُنْصِفُوا « فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا » أى : فإذا سمعوه عاندوا ، وكابروا ، وقضَوْا عليه بالبطلان ، وقابلوه بالإنكار . وَلاَ خفاء فى أنّ التمثيل بالبعوضة وبأحقر منها ـ مما لا تغبى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة . ولكنّ ديدن المحجوج المبهوت الذى لا يبقى له متمسك بدليل ، ولا متشبّث بأمارة ولا إقناع ، أن يرمى لفرط الحيرة ، والعجز عن إعمالِ الحيلَةِ ، بدفع الواضح ، وإنكار المستقيم ، والتعويل على المكابرة والمغالطة ـ إذا لم يجد سوى ذلك معوّلاً . « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » جوابٌ عن تلك المقالة الباطلة ، وردّ لها ببيان أنه مشتملٌ على حكمةٍ جليلة ، وغاية جميلة ، هى كونه ذريعة إلى هدايةِ المستعدّين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغواية . وقدّم الإضلال على الهداية ـ مع تقدّم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله، ليكون أول مايقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوؤهم ، ويفت فى أعضادهم، وهو السرّ فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر « وَمَا يُضِلُّ بِهِ » أى بالمثل أو بضربه « إِلَّا الْفَاسِقِينَ » تكملة للجواب والردّ ، وزيادة تعيين لمن أريد إضلالهم ، ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ » صفة للفاسقين، للذم . و « العهد » الذى وصفوا بنقضه : هو وصيّة الله إلى خلقه ، وأمره إيّاهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إيّاهم عمّا نهاهم عنه من معصيته ـ فى كتبه ، وعلى لسان رسله ـ ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » عامٌّ فى كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى : كقطع الرحم ، والإعراض عن موالاة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق ، وسائر مافيه رفض خيرٍ أو تعاطى شرٍّ ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كلّ وصل وفصل « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » بالمنع عن الإيمان ، والاستهزاء بالحقّ ، وقطع الوُصَل التى بها نظام العالم وصلاحه « أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » لأنّهم استبدلوا النقضَ بالوفاء ، والقطْعَ بالوصل ، والفساد بالصلاح ، وعقابها بثوابها . وهذه الصفات المسوقة فى الآية صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين ، كما قال تعالى فى سورة الرعد : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ »[١] الآيات ـ إلى أن قال ـ : « وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »[٢] .

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٩و٢٠و٢١] .

(٢) [١٣ / الرعد / ٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ » التفات إلى خطاب المذكورين، مبنىّ على إيراث ما عدّد من قبائحهم السابقة ، لتزايد السخط الموجب المشافهة بالتوبيخ والتقريع . والاستفهام إنكارىّ بمعنى إنكار الواقع ، واستبعاده ، والتعجيب منه ، لأن معهم مايصرف عن الكفر ، ويدعو إلى الإيمان « وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا » أجساماً لا حياةَ لها ـ عناصر ، وأغذية ، ونطفاً ، ومضغاً مخلّقةً وغير مخلّقة ـ وإطلاق الأموات على تلك الأجسام الجمادية ، إمّا حقيقة ـ بناء على أنّ الميت عادم الحياة مطلقاً ، كما فى قوله تعالى « بَلْدَةً مَيْتاً »(١) و « وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ »(٢) . أو استعارة ، جرياً على أنّ إطلاق الميت فيما تصح فيه الحياة ، لاجتماعهما فى أن لا روح ولا إحساس . « فَأَحْيَاكُمْ » بخلق الأرواح ، ونفخها فيكم . وإنما عطفه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه ، غير متراخٍ عنه، بخلاف البواقى « ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » عند تقضى آجالكم « ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » بالنشور ، والبعث ، للحساب والجزاء « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ـ بعد الحشر ـ فيجازيكم بأعمالكم : إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ . فما أعجب كفركم مع علمكم بحالتكم هذه ..!

فإن قيل : إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم ، لم يعلموا أنّه يُحْيِيهم ثم إليه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤٩] ونصها : لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا .

و [٥٠ /ق / ١١] ونصها: رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا، كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ .

(٢) [٢٦ / يس / ٣٣] ونصها : وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ .

يرجعون ، فكيف نظم ما ينكرونه ، من الإحياء الأخير والرجع ، فى سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة ..؟

قلتُ : تمكّنهم من العلم بهما ـ لما نصب لهم من الدلائل ـ منزل منزلة علمهم فى إزاحة العذر . سيّما وفى الآية تنبيه على مايدلّ على صحتهما . وهو أنّه تعالى لما قدر على إحيائهم أولاً ، قدر على أن يحيِيَهم ثانياً . فإنّ بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته ..! أو الخطاب ، مع أهلِ الكِتابَيْن . وإنكار اجتماع الكفر ـ مع القصة التى ذكرها الله تعالى ـ إمّا لأنها مشتملة على آيات بيّنات تصرفهم عن الكفر ، أو على نعمٍ جسامٍ حقّها أن تُشكر ولاتكفر . أو لإرادة الأمرين جميعاً . فإنّ ما عدّده آيات ، وهى ـ مع كونها آيات ـ من أعظم النعم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً » بيان نعمةٍ أخرى مرتبةٍ على الأولى ، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرّة بعد أخرى . وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ، ويتمّ به معاشهم . ومعنى « لكم » لأجلكم ، ولانتفاعكم . وفيه دليل على أنّ الأصل فى الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل . ولا فرق بين الحيوانات وغيرها ، مما ينتفع به من غير ضرر . وفى التأكيد بقوله « جميعاً » أقوى دلالة على هذا . « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » قال أبو العالية الرياحى : استوى إلى السماء أى : ارتفع . نقله عنه البخارىّ فى صحيحه[١] ، ورواه محمد بن جرير الطبرىّ[٢] فى تفسيره عن الربيع بن أنس.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم .

(٢) جزء أول ص ٤٢٩ (طبعة المعارف) .

وقال البغوىّ : قال ابن عباس وأكثر المفسّرين : ارتفع إلى السماء . وقال الخليل بن أحمد فى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » : ارتفع . رواه أبو عمرو ابن عبد البر فى شرح الموطّأ ، نقله الذهبىّ فى كتاب العلوّ ـ . وقد استدل بقوله « ثُمَّ اسْتَوَىٰ » على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وكذلك الآية التى فى (حم السجدة). وقوله تعالى فى سورة (والنازعات) « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »(١) إنما يفيد تأخّر دحوّها ، لا خلْق جرمها ؛ فإنّ خلق الأرض وتَهْيِئَتَها ـ لما يراد منها ـ قبل خلق السماء . ودحوّها بعد خلق السماء . والدحوّ هو البسط ، وإنبات العشب منها ، وغير ذلك . مما فسّره قوله تعالى « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا »(٢) الآية ـ وكانت قبل ذلك خربة وخالية . على أنّ « بعد » تأتى بمعنى « مع » كقوله « عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ »(٣) أى : مع ذلك، فلا إشكال . وتقديم الأرض ـ هنا ـ لأنها أدل لشدّة الملابسة والمباشرة . « فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ » أى : صيّرهن ، كما فى آية أخرى « فَقَضَاهُنَّ »(٤) .

(تنبيه) قال بعض علماء الفلك : السمٰوات السبع ـ المذكورة كثيراً فى القرآن ـ هى هذه السيارات السبع . وإنما خصّت بالذكر ـ مع أن السيارات أكثر من ذلك ـ لأنها أكبر السيارات وأعظمها ؛ على أنّ القرآن الكريم لم يذكرها فى موضع واحد ـ على سبيل الحصر ـ فلا ينافى ذلك أنها أكثر من سبع .

وقال بعض علماء اللغة : إن العرب تستعمل لفظ سبع ، وسبعين ، وسبعمائة للمبالغة

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٠] .

(٢) [٧٩ / النازعات / ٣١] .

(٣) [٦٨ / القلم / ١٣] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

فى الكثرة . فالعدد إذن غير مراد . ومنه آية « سَبْعَ سَنَابِلَ »(١) وآية « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ »(٢) وآية « سَبْعِينَ مَرَّةً »(٣) والله أعلم .

وذهب بعض علماء الفلك إلى أن الحصر فى السبع حقيقىّ ، وأن المرادَ بِهِ العالم الشمسىّ وحده دون غيره . وعبارته : إن قيل : إن كلّ ما يعلو الأرض ـ من الشمس والقمر والكواكب ـ هو سماء ، فلماذا خصّص تعالى عدداً هو سبع ؟ فالجواب : لا شكّ أنّه يشير إلى العالم الشمسىّ ـ الذى أحطنا الآن به علماً ـ وأنّ حصْر العدد لا يدل على احتمال وجود زيادة عن سبع ، لأن القول بذلك ، يخرج تطبيق القرآن على الفلك ، لأنّ العلم أثبتها سبعاً كالقرآن الذى لم يوجد فيه احتمال الزيادة ـ لأن الجمع يدخل فيه جميع العوالم التى لا نهاية لها ـ حتى يمكن أن يقال : إنّ سبعاً للمبالغة ـ كسبعين وسبعمائة ـ ولا يصحّ أن يكون العدد سبعة للمبالغة لأنه قليل جداً بالنسبة إلى العوالم التى تعد بالملايين ـ مثل العالم الشمسىّ ـ ويؤيد الحصرَ فى هذا العدد آيةُ « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً »(٤) فأخرج الشمس لأنها مركز ،

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٧] ونصها : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ٨٠] ونصها : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٥و١٦] .

وأخرج القمر لأنه تابع للأرض ، ولم يبق بعد ذلك إلا سبع ..!

قال : وبذلك تتجلّى الآن معجزة واضحة جليّة . لأنه فى عصر التقدّم والمدنية العربية ، حينما كان العلم ساطعاً على الأرض بعلماء الإسـلام ، كان علماء الفلك لا يعرفون من السيارات إلّا خمساً ـ بأسمائها العربية إلى اليوم ـ وهى : عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشترى ، زحل . وكانوا يفسّرونها بأنها هى السموات المذكورة فى القرآن . ولمّا لم يمكنهم التوفيق بين السبع والخمس ، أضافوا الشمس والقمر لتمام العدد . مع أنّ القرآن يصرّح بأنّ السموات السبع غير الشمس والقمر . وذلك فى قوله تعالى « اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى »(١) فلفظ « وسخّر » دليل يفصل تعداد الشمس والقمر عن السبع السموات . ولذلك كان المفسّرون ـ الذين لا يعرفون الهيئة ـ لا يرون أن تعدّ الشمس سماء ، ولا القمر ، لعلمهم أن السموات السبع مسكونة . وأمّا الشمس فنارٌ محرقة . فذهبوا ـ فى تفسير السمٰوات ـ على تلك الظنون . ولمّا اكتشف بعد (بالتلسكوب) سيّارٌ لم يكُن معلوماً ، دعوه « أورانوس » ثم سيّار آخر سمّوه «نبتون» ـ صارت مجاميع السيارات سبعاً . فهذا الاكتشاف ـ الذى ظهر بعد النبيّ ﷺ بألف ومائتى سنة ـ دلّ على معجزة القرآن ، ونبوّة المنزّل عليه ﷺ .

ثم قال : وأمّا كون السموات هى السيارات السبع بدون توابعها ، فلا يفهم من الآية ، لأن الأقمار التى نثبتها ، والنجوم الصغيرة التى مع المريخ ، يلزم أن تكون تابعة للسموات السبع ـ لأنها تعلونا ـ وهى فى العالم الشمسىّ . وحينئذٍ ، فالسموات السبع هى مجاميع السيارات السبع . بمعنى : أن مجموعة زحل ـ بما فيها هو نفسه أى مع أقماره الثمانية ـ تعد سماء ، لأن فلكها طبقة فوق طبقةِ فلكِ مجموعة المشترى . ويدل على هذا

(١) [١٣ / الرعد / ٢] .

التطبيق قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ »(١) يشير إلى أن السماء الدنيا ـ أى السماء التى تلى الأرض ـ فلك المرّيخ . فهو وما حوله من النجوم العديدة التى تسمى مصابيح ، وتعتبر كلها سماء ، وليس السيّار نفسه ..! انتهى .

وقوله تعالى « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » اعتراض تذييلىّ مقرر لما قبله ـ من خلق السموات والأرض وما فيها ـ على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة ، والمصالح اللائقة . فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق .

ولما ذكر تعالى الحياة والموت ـ المشاهدَيْن ـ تنبيهاً على القدرة على ما اتبعهما به من البعث ، ثم دل على ذلك أيضاً بخلق هذا الكون كلّه على هذا النظام البديع ، وخَتَم ذلك بصفة العلم ـ ذكرَ ابتداء خلق هذا النوع البشرىّ ـ المودع من صفة العلم ـ ماظهر به فضله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، قرناً بعد قرنٍ . كما قال تعالى « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ »(٢) وقال

---

(١) [٦٧ / الملك / ٥] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٥] ونصها : وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ »[(١)] وقال « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ »[(٢)] وقال « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ »[(٣)] . ويجوز أن يراد : خليفة منكم ، لأنهم كانوا سكان الأرض ، فخلفهم فيها آدم وذريّته ؛ وأن يراد : خليفة منى ، لأن آدم كان خليفة الله فى أرضه . وكذلك كل نبىّ « إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »[(٤)] والغرض من إخبار الملائكة بذلك ، هو أن يسألوا ذلك السؤال ، ويُجابوا بما أجيبوا به ، فيعرفوا حكمته فى استخلافهم قبل كونهم ، صيانةً لهم عن اعتراض الشبهة فى وقت استخلافهم ؛ أو الحكمة : تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم ـ وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة ـ أو تعظيم شأن المجعول ، وإظهار فضله ، بأن بشّر بوجود سُكّان ملكوته ، ونوّه بذكره فى الملأ الأعلى قبل إيجاده ، ولقَّبه بالخليفة .

« قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » هذا تعجب من أن يستخلف ـ لعمارة الأرض وإصلاحها ـ من يفسد فيها ، واستعلامٌ عن الحكمة فى ذلك . أى : كيف تستخلف هؤلاء ، مع أنّ

(١) [٢٧ / النمل / ٦٢] ونصها : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٠] .

(٣) [١٩/ مريم/ ٥٩] ونصها : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا .

(٤) [٣٨ /ص / ٢٦] ونصها : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ـ أي ولا يصدر عنا شيء من ذلك ـ وهلّا وقع الاقتصار علينا ..؟ فقال تعالى مجيباً لهم « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : إنّ لى حكمة ـ فى خلق الخليقة ـ لا تعلمونها .

فإن قلتَ : من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجّبوا منه ، وإنما هو غيب ؟ أجيب : بأنهم عرفوه : إمّا بعلمٍ خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية . فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف « مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ »(١) أو فهموا من « الخليفة » أنه الذى يفصل بين الناس ، ما يقع بينهم من المظالم ، ويردَعُهم عن المحارم والمآثم .

قال العلّامة برهان الدين البقاعىّ فى تفسيره : وما يقال من أنه كان قبل آدم ، عليه السلام ، فى الأرض خلقٌ يعصون ، قاس عليهم الملائكةُ حال آدم عليه السلام ـ كلامٌ لا أصل له . بل آدم أوّل ساكنيها بنفسه . انتهى .

وقوله تعالى « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » أى : ننزّهك عن كل ما لا يليق بشأنك ، ملتبسين بحمدك ـ على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة .

وقوله « نقدّس لك » أى : نصفك بما يليق بك ـ من العلوّ والعزّة ـ وننزّهك عمّا لايليق بك . وقيل : المعنى نُطَهِّرُ نفوسنا عن الذنوب لأجلك . كأنهم قابلوا الفساد ، الذى أعظمه الإشراك ، بالتسبيح . وسفك الدماء ، الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم ، بتطهير النفس عن الآثام . لا تمدّحاً بذلك ، ولا إظهاراً للمنّة ، بل بياناً للواقع .

---

(١) [١٥/الحجر/٢٦] ونصها : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .
و [١٥/الحجر/٢٨] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .
و [١٥/الحجر/٣٣] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

تنبيهات

فى وجوه فوائد من الآية

الأول : دلت الآية على أن الله تعالى ـ فى عظمته وجلاله ـ يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته فى صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره فى خلقه ، لاسيما عند الحيرة . والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال ، والتوجّه إلى الله تعالى فى إفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التى جرت سنته تعالى بأن يفيض منها ـ كالبحث العلمىّ ، والاستدلال العقلىّ ، والإلهام الإلٰهىّ ـ .

الثانى : إذا كان من أسرار الله تعالى ، وحكمه ، ما يخفى على الملائكة ، فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للإنسان فى معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها ، لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلًا ..!

الثالث : إنّ الله تعالى هدى الملائكة فى حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم بإقامة الدليل ـ بعد الإرشاد ـ إلى الخضوع والتسليم . وذلك أنه ـ بعد أن أخبرهم بأنه يعلم مالا يعلمون ـ علّم آدم الأسماء ، ثم عرضهم على الملائكة ، كما سيأتى بيانه .

الرابع : تسلية النبيّ ﷺ ، عن تكذيب الناس ، ومحاجتهم فى النبوة بغير برهان ، على إنكار ما أنكروا ، وبطلان ما جحدوا . فإذا كان الملأ الأعلى قد مُثّلوا على أنهم يختصمون ، ويطلبون البيان والبرهان ، فيما لايعلمون ، فأجدرْ بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين . أى فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين . وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها . وكون الكلام لايزال فى موضوع الكتاب ، وكونه لا ريب فيه ؛ والرسولِ ، وكونه يبلغ وحى الله تعالى ، ويهدى به عباده ، واختلاف الناس فيها .

ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها . مع كون الجميع فى سياق موضوع واحد ، ـ كذا فى تفسير مفتى مصر ـ .

ولما بين سبحانه وتعالى لهم أولّا على وجه الإجمال والإبهام ، أن فى الخليفة فضائل غائبة عنهم ، ليستشرفوا إليها ، أبرز لهم طرَفاً منها ، ليعاينوه جهرة ، ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته ، وتنزاح شبهتهم بالكلية ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

« وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » إما بخلق علم ضرورىّ بها فيه ، أو إلقاء فى رُوعه . وآدم اسم عبرانىّ مشتق من أُدَمَه ، وهى لفظة عبرانية معناها التراب ، لأنه جُبل من تراب الأرض . كما أن حوّاء كلمة عبرانية معناها « حىّ » ، وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء . والمراد بالأسماء ، أسماء كل شىء . قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وفى التوراة مصداق الآية : وهو أنه تعالى صوّر من الأرض كل حيوانات البر ، وكل طيور السماء ، وأحضرها إلى آدم ، لينظر ما يسميها ، وكل ما سماه آدم من نفس حية ، فهو اسمه . وسمى آدم جميع الحيوانات بأساميها وجميع طيور السماء ، وجميع وحوش الأرض .

قال ابن جرير: وفى هذه الآيات العبرة لمن اعتبر ، والذكرى لمن ادّكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله عز وجل فى هذا القرآن، من لطائف الحكم التى تعجز عن أوصافها الألسن . وذلك أن الله جل ثناؤه ، احتج فيها لنبيّه ﷺ ، على من كان بين ظهرانيّه ، من يهود بني إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب ، التى لم يكن تعالى

أطلع عليها من خلقه إلا خاصًّا ، ولم يكن مدركاً علمه إلا بالأنباء والأخبار ، لتتقرر عندهم صحة نبوته ، ويعلموا أن ما آتاهم به فمن عنده .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنمـا قدم هذا الفصل على ذاك ، لمناسبة ما بين هذا المقام ، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك . فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام ، عقيب هذا ، ليبين لهم شرف آدم بما فضل عليهم فى العلم « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ » أى عرض أهل الأسماء ، فالضمير للمسميات المدلول عليها ضمناً « فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ » أى التى علمتها آدم . وإنما استنبأهم ، وقد علم عجزهم عن الإنباء ، تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة . فإن التصرف والتدبير ، وإقامة المعدلة ، بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ، ومقادير الحقوق ، مما لايكاد يمكن « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته ، كما ينبىء عنه مقالكم . والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه ، قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الأخبار . فإن أدنى مراتب الاستحقاق ، هو الوقوف على أسماء ما فى الأرض . ولما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم ، وبدت لهم هفوة زلتهم ، أنابوا إلى الله تعالى بالتوبة ، وذلك ما أفاده قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشىء من علمه ، إلا بما شاء . وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى . واعتراف منهم بالعجز والقصور عما كلفوه . وأنه العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم عليه السلام ، لما نحن بمعزل من الاستعداد له ، من العلوم الخفية المتعلقة بما فى الأرض من أنواع المخلوقات التى عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذى لا يفعل

إلا ما تقتضيه الحكمة . ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية ، والمعارف الجزئية ، المتعلقة بالأحكام الواردة على ما فى الأرض ، وبناء أمر الخلافة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)

« قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُمْ » أى أعلمهم « بِأَسْمَائِهِمْ » التى عجزوا عن علمها « فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ » عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالىّ واستحضاراً له « أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إيراد ما لا تعلمون بعنوان الغيب مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط ، وغاية سعته . مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم ، وعلم آدم عليه السلام، من الأمور المتعلقة بأهل السموات والأرض . وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون ، فيما سبق ، ما أشير إليه هناك ، كأنه قيل : ألم أقل لكم إنى أعلم فيه من دواعى الخلافة ما لا تعلمونه فيه ، هو هذا الذى عاينتموه . وفى الآية تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى ، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يبين لهم « وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ » عطف على جملة « ألم أقل لكم » لا على « أعلم » ، إذ هو غير داخل تحت القول . أى ما تظهرونه بألسنتكم ، وما كنتم تخفون فى أنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » لما أنبأهم بأسماء ، وعلمهم ما لم يعلموا ، أمرهم بالسجود له ، على وجه التحية والتكرمة تعظيماً له ، واعترافاً بفضله ، واعتذاراً عما قالوا فيه . وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ» أى امتنع عن السجود « وَاسْتَكْبَرَ » أى تكبر وقال : أنا خير منه ، فالسين للمبالغة « وَكَانَ » فى سابق علم الله أو صار « مِنَ الْكَافِرِينَ » .

« تنبيهات »

الأول : للناس فى هذا السجود أقوال : أحدها أنه تكريم لآدم ، وطاعة لله ، ولم يكن عبادةً لآدم . وقيل : السجود لله ، وآدم قِبْلة ، أو السجود لآدم تحية ، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله ، وفرضِهِ عليهم . ذكر ابن الأنبارىّ عن الفرّاء وجماعة من الأئمة ؛ أن سجود الملائكة لآدم ، كان تحية ، ولم يكن عبادة . وكان سجود تعظيم وتسليم وتحية ، لاسجود صلاة وعبادة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال أهل العلم : السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه . وعلى هذا إجماع كل من يسمع قوله . فإن الله تعالى قال «اسْجُدُوا لِآدَمَ» ولم يقل: إلى آدم . وكل حرف له معنى . وفرق بين « سجدت له » وبين « سجدت إليه » قال تعالى «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ»(١) «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

---

(١) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »[١] أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرّم . وأما الكعبة ، فيقال : كان النبيّ ﷺ يصلى إلى بيت المقدس ، ثم صلى إلى الكعبة ، ولا يقال صلى لبيت المقدس ، ولا للكعبة . والصواب أن الخضوع بالقلوب ، والاعتراف بالعبودية ، لا يصلى على الإطلاق إلا لله سبحانه . وأما السجود فشريعة من الشرائع يتبع الأمر . فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه ، لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره . فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه . وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم . وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام . ولم يأت أن آدم سجد للملائكة . بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين . وبالجملة ، أهل السنة قالوا: إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له . وقالت المعتزلة : كان آدم كالقبلة يسجد إليه ، ولم يسجدوا له . قالوا ذلك هرباً من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم . فإن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة ، وصالح البشر أفضل من الملائكة ، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم . وخالفت المعتزلة فى ذلك وقالت : الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة ، ويبطله ما حكى الله سبحانه عن إبليس « قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »[٢] .

الثانى : اختلفوا فى الملائكة الذين أمروا بالسجود ، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس فى الأرض . قال تقى الدين بن تيمية : هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى . وقيل : هم جميع الملائكة ، حتى جبريل وميكائيل . وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة . قال ابن تيمية : ومن قال خلافه فقد ردّ القرآن بالكذب والبهتان ،

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٦٢] .

لأنه سبحانه قال « فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ »(١) وهذا تأكيد للعموم .

الثالث : للعلماء فى إبليس ، هل كان من الملائكة أم لا ؟ قولان : أحدهما أنه كان من الملائكة . قاله ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن المسيّب ، واختاره الشيخ موفق الدين والشيخ أبو الحسن الأشعرىّ وأئمة المالكية وابن جرير الطبرىّ . قال البغوىّ : هذا قول أكثر المفسرين ، لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم . قال تعالى « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ » فلولا أنه من الملائكة ، لما توجه الأمر إليه بالسجود ، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً ، ولما استحق الخزى والنكال . والقول الثانى أنه كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة . قاله ابن عباس ، فى رواية ، والحسن وقتادة ، واختاره الزمخشرىّ وأبو البقاء العكبرىّ والكواشىّ فى تفسيره . لقوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ »(٢) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ، ولا ذرية للملائكة .

قال فى الكشاف : إنما تناوله الأمر ، وهو للملائكة خاصة ، لأن إبليس كان فى صحبتهم ، وكان يعبد الله عبادتهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له ، كان الجنىّ الذى معهم أجدر بأن يتواضع . والقول الأول هو الصحيح الذى عليه جمهور العلماء . وصححه البغوىّ . وأجابوا عن قوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ » أى من الملائكة الذين هم خزنة الجنة .

---

(١) [١٥ / الحجر / ٣٠] و [٣٨ / ص / ٧٣] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

قال ابن القيم : الصواب التفصيل فى هذه المسألة ، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله . كان أصله من نار ، وأصل الملائكة من نور . فالنافى كونه من الملائكة، والمثبت، لم يتواردا على محل واحد . وكذلك قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية فى الفتاوى المصرية : وقيل إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار . سموا « جنًّا » ، لاستتارهم عن الأعين ، فإبليس كان منهم . الدليل على ذلك قوله تعالى « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »[1] وهو قولهم: الملائكة بنات الله. ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية .

سئل الشعبى : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرس لم أشهده ! قال : ثم قرأت هذه الآية ، فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة . فقلت : نعم . وقال قوم : ليس له ذرية ولا أولاد ، وذريته أعوانه من الشياطين .

الرابع : فى قوله تعالى « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » قولان : أحدهما أنه وقت العبادة كان منافقاً ، والثانى أنه كان مؤمنا ثم كفر ، وهذا قول الأكثرين . فقيل فى معنى الآية « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » فى علم الله ، أى كان عالماً فى الأزل أنه سيكفر . والذى عليه الأكثرون أن إبليس أول كافر بالله . أو يقال: معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه فى الكفر بعد ذلك . واختلف الناس بأى سبب كفر إبليس، لعنه الله . فقالت الخوارج : إنما كفر بمعصية الله ، وكل معصية كفر ، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة . وقال آخرون : كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله . وقال آخرون : كفر لأنه خالف الأمر الشفاهى من الله ، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود . ومخالفةُ الأمر الشفاهى أشد قبحاً . وقال جمهور الناس : كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] ونصها : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

واعتقد أنه محق فى تمرده ، واستدل بـ « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »[١] كما يأتى . فكأنه ترك السجود لآدم ، تسفيهاً لأمر الله وحكمته . وهذا الكبر عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله[٢] « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » كذا فى كتاب الاستعاذة للإمام مفلح الحنبلىّ رحمه الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وخلق له زوجه وأقرهما فى الجنة ، أباحهما الأكل منها بقوله « وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا » أى أكلاً واسعاً. و « حيث » للمكان المبهم ، أىْ أىّ مكان من الجنة شئتما . أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة. حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة . حتى لا يبقى لهما عذر فى التناول مما منعا منه بقوله تعالى « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » أى هذه الحاضرة من الشجر ، أى لا تأكلا منها ، وإنما علق النهى بالقربان منها ، مبالغة فى تحريم الأكل ، ووجوب الاجتناب عنه . لأن القرب من الشىء مقتضى الألفة . والألفة داعية للمحبة . ومحبة الشىء تعمى وتصمّ . فلا يرى قبيحاً ، ولا

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٧ عن عبد الله بن مسعود (طبعتنا) .

يسمع نهياً ، فيقع . والسبب الداعي إلى الشرّ منهيّ عنه . كما أن السبب الموصل إلى الخير مأمور به . وعلى ذلك قوله ﷺ[١] « العينان تزنيان » لما كان النظر داعياً إلى الألفة ، والألفة إلى المحبة ، وذلك مفضٍ لارتكابه ، فصار النظر مبدأ الزنا . وعلى هذا قوله تعالى « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى »[٢] ، « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[٣] .

قال ابن العربيّ: سمعت الشاشي في مجلس النظر يقول : إذا قيل : لا تقرَب ، بفتح الراء ، كان معناه لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء ، معناه لا تدْنُ ، نقله ابن مفلح في كتاب الاستعاذة . ونقل الفرق المذكور بينهما أيضاً السيد مرتضى في شرح القاموس عن شيخه العلامة الفاسي . قال : إن أرباب الأفعال نصّوا عليه ، وظاهر القاموس أنهما مترادفان ، فإنه قال: قرب منه ، ككرم ، وقرِبه كسمع قرباً وقرباناً وقِرباناً دنا ، فهو قريب . للواحد والجمع . انتهى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . جزء ثان ص ٣٤٣ (طبعة الحلبيّ) . ونصه :
عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لكل بني آدم حظ من الزنى . فالعينان تزنيان وزناهما النظر . واليدان تزنيان وزناهما البطش . والرِّجلان تزنيان وزناهما المشي . والفم يزني وزناه القبل . والقلب يهوى ويتمنى . والفرْج يصدّق ذلك أو يكذبه » .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

و [١٧ / الإسراء / ٣٤] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا .

لطيفة :

جاء فى آية الأعراف « فَكُلَا »(١) وهنا بالواو ، لأن كل فعل عطف عليه شيء ، وكان ذلك الفعل كالشرط ، وذكر الشيء كالجزاء ، عطف بالفاء دون الواو ، كقوله تعالى « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا »(٢) لما كان وجود الأكل منها متعلقًا بدخولها ذكر بالفاء ، كأنه قال : إن دخلتموها أكلتم منها ، فالأكل يتعلق وجوده بوجود الدخول . وقوله فى الأعراف « وَاسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا »(٣) بالواو دون الفاء ، لأنه من السكنى ، وهو فى المقام مع اللبث الطويل ، والأكل لا يختص وجوده بوجوده ، لأن من دخل بستانًا قد يأكل منه ، وإن كان مجتازاً . فلما لم يتعلق الثانى بالأول تعلق الجزاء بالشرط ، عطف بالواو . وإذا ثبت هذا فنقول : قد يراد بـ « اسكن » الزم مكاناً دخلته ، ولا تنتقل عنه ، وقد يراد ادخله واسكن فيه . ففى البقرة ، ورد الأمر ، بعد أن كان آدم فى الجنة ، فكان المراد المكث . والأكل لا يتعلق به ، فجيء بالواو . وفى الأعراف ورد قبل أن دخل الجنة . والمراد الدخول والأكل متعلق به ، فورد بالفاء .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٩] ونصها : وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٥٨] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٦١] ونصها : وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

تنبيه :

لم يرد فى القرآن المجيد ، ولا فى السنة الصحيحة تعيين هذه الشجرة ، إذ لا حاجة إليه ، لأنه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة . ومالا يكون مقصودا ، لا يجب بيانه . وقوله « مِنَ الظَّالِمِينَ » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله تعالى .

قال ابن مفلح الحنبلىّ فى كتاب الاستعاذة : قال ابن حزم : حملُ الأمرِ على الندب ، والنّهْىِ على الكراهة ، يقع فيه الفقهاء والأفاضل كثيرا ، وهو الذى يقع من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يؤاخذون به ، وعلى السبيل أكل آدم من الشجرة . ومعنى قوله « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى ظالمين لأنفسكما ، والظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه ، فمن وضع الأمر والنهى فى موضع الندب والكراهة ، فقد وضع الشىء فى غير موضعه . انتهى .

ثم قال : وقال أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل : لا براءة من المعصية أعظم من حال من ظن أن أحدا لا يحلف حانثا . وهكذا فعل آدم عليه السلام ، فإنه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ناسياً لنص القرآن ، ومتأولاً وقاصدا إلى الخير ، لأنه قدّر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملَكاً مقرباً أو خالدا فيما هو فيه أبدا . فأداه ذلك إلى خلاف ماأمره الله به ، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره ، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه . ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان مأجورا ، ولكن آدم لما فعل وأخرج عن الجنة إلى الدنيا ، كان بذلك ظالمًا لنفسه . وقد سمى الله تعالى قاتل الخطأ قاتلاً ، كما سمى العامد . والمخطىء لم يعمد معصية . وجعل فى مثل الخطأ عتق رقبة ، وهو لم يعمد ذنباً . انتهى .

وقال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية وجماعة من المتأخرين : الصواب أن آدم عليه السلام ، لما قاسمه عدوّ الله أنه ناصح، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات : أحدها القسم. والثانى الإتيان بجملة اسمية لا فعلية . والثالث تصديرها بأداة التأكيد . الرابع الإتيان بلام التأكيد فى الخبر . الخامس الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالّا على الحدث . السادس

تقديم المعمول على القليل فيه . ولم يظن آدم أن أحدا يحلف بالله كاذباً يمين غموس ، فظن صدقه ، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل ، وإن كان فيه مفسدة، فمصلحة الخلود أرجح ، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة اليمين فى أثناء ذلك باعتذار أو توبة ، كما تجد هذا التأويل فى نفس كل مؤمن أقدم على معصية . اهـ

قال ابن مفلح : فآدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل ، فالتأويل لنص الله أخرجه ، وإلا فهو لم يقصد المعصية ، والمخالفة ، وأن يكون ظالما مستحقا للشقاء . انتهى

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

« فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا » أى أذهبهما عن الجنة ، وأبعدهما . يقال : زلّ عن مرتبته ، وزل عنى ذاك ، إذا ذهب عنك ؛ وزلّ من الشهر كذا . وقال ابن جرير : فأزلهما ، بتشديد اللام ، بمعنى استزلهما ، من قولك زل الرجل فى دينه ، إذا هفا فيه وأخطأ ، فأتى ما ليس له إتيان فيه ، وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله فى دينه أو دنياه . وقرئ « فأزالهما » بالألف ، من التنحية « فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » من الرغد والنعيم والكرامة « وَقُلْنَا اهْبِطُوا » أى انزلوا إلى الأرض، خطاب لآدم وحواء والشيطان . أو خطاب لآدم وحواء خاصة ، لقوله فى الآية الأخرى « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً » وجمع الضمير لأنهما أصلا الإنس ، فكأنهما الإنس كلهم «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » متعادين يبغى بعضكم على بعض «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » منزل وموضع استقرار « وَمَتَاعٌ » تمتع بالعيش « إِلَى حِينٍ » أى إلى الموت .

---

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » استقبلها بالأخذ والقبول ، والعمل بها حين علمها . قال ابن جرير : وهى الكلمات التى أخبر عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه ، معترفاً بذنبه ، وهو قوله « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا »(١) الآية ، فدعا بها لكى تكون عنواناً له ولأولاده على التوبة « فَتَابَ عَلَيْهِ » فرجع عليه بالرحمة والقبول ، وتجاوز عنه ، وقوله تعالى « إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » فى الجمع بين الاسمين وعد للتائب بالإحسان مع العفو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« قُلْنَا » لآدم وحواء «اهْبِطُوا مِنْهَا» من الجنة « جَمِيعاً » ثم ذكر ذرية آدم فقال « فَإِمَّا » بإدغام نون « إن » الشرطية فى « ما » الزائدة « يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى » كتاب أنزله عليكم ، ورسول أبعثه إليكم « فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ » أقبل على الهدى وقبل « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » فى الآخرة بأن يدخلوا الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بالكتاب والرسول « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » لا يموتون ولا يخرجون .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٢٣] ونصها : قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

تنبيه :

إنما كرر الأمر بالهبوط للتأكيد والإيذان بتحتم مقتضاه . وتحققه لا محالة . أو لاختلاف المقصود . فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتمادون فيها ولا يخلدون . والثانى أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف . فمن اتبع الهدى نجا ، ومن ضله هلك .

« فوائد »

الأولى :

ذهب كثيرون إلى أن الجنة التى أهبط منها آدم عليه السلام ، كانت فى الأرض . قال بعضهم : هى على رأس جبل بالمشرق تحت خط الاستواء . وحملوا الهبوط على الانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما فى قوله تعالى : « اهْبِطُوا مِصْرًا »(١) ، واحتجوا عليه بوجوه :

أحدها : أن هذه الجنة ، لو كانت هى دار الثواب ، لكانت جنة الخلد ، ولو كان آدم فى جنة الخلد ، لما لحقه الغرور من الشيطان بقوله « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ »(٢) ولما صح قوله « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »(٣) .

وثانيها : أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى «وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ»(٤).

(١) [٢ / البقرة / ٦١] ونصها : . . . اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ . . .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٤٨] ونصها : لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

وثالثها : لا نزاع فى أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام فى الأرض ، ولم يذكر فى هذه القصة أنه نقله إلى السماء ، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء ، لكان ذلك أولى بالذكر ، لأن نقله من الأرض إلى السماء ، من أعظم النعم . فدل ذلك على أنه لم يحصل . وذلك يوجب أن المراد من الجنة غير جنة الخلد .

ورابعها : روى مسلم(١) فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال « سيحان وجيحان والفرات والنيل ، كل من أنهار الجنة » .

قال ابن مفلح: أكثر الناس على أن المراد بالجنة التى أسكنها آدم جنة الخلد، دار الثواب. ثم قال : قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية : وهـذا قول أهل السنة والجماعة ، ومن قال إنها جنة فى الأرض بالهند أو جدّة ، أو غير ذلك ، فهو من الملحدة المبتدعين . والكتاب والسنة يرد هـذا القول . وقد استوفى الكلام فيها فى « مفتاح دار السعادة » وكتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » .

الفائدة الثانية :

اتفق الناس أن الشيطان كان متولياً إغواء آدم . واختلف فى الكيفية . فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ، ودليل ذلك قوله « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ »(٢) ، وقوله « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »(٣) ومقاسمته لهما

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٢٦ (طبعتنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ .

(٣) [٧/الأعراف/٢٠] ونصها: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ =

« إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ »[١] . والمقاسمة ظاهرها المشافهة ، ومنهم من قال : كان ذلك بالوسوسة ، كما قال « فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ »[٢] فإغواؤه إغراؤه بوسواسه وسلطانه الذى جعل له ، كما قال ﷺ[٣] « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وزعموا أن الشيطان لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها . والوسوسة ، لغةً ، حديث النفس والأفكار . وحديث الشيطان بما لا نفع فيه ولا خير ، والكلام الخفىّ . وظاهر الآيات يؤيد القول الأول .

الفائدة الثالثة :

لم يسمّ الشيطان فى الآية ، إذ لا حاجة ماسة إلى اسمه ، كما تقدم فى الشجرة .

ولما قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً ، وذكر مبدأهم ـ دعا بنى إسرائيل خصوصاً ، وهم اليهود ، لأنهم كانوا أولى الناس بالإيمان بالنبىّ ﷺ ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة ، وقد جرى الكلام معهم (من هنا إلى الآية رقم ١٤٢) فتارة دعاهم بالملاطفة ، وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم . وتارة بالتخويف ، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم ، وذكر عقوباتهم التى عاقبهم بها ، كما سيأتى تفصيله ، فقال تعالى :

= عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(١) [٧ / الأعراف / ٢١] ونصها : وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ ص ١١٢ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم . ونصه : عن علىّ بن الحسين أن النبىّ ﷺ أتته صفية بنت حيىّ . فلما رجعت انطلق معها . فمر به رجلان من الأنصار فدعاهما فقال « إنما هى صفية » قالا : سبحان الله . قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » أي أولاد يعقوب . وقد هيجهم تعالى بذكر أبيهم إسرائيل ، كأنه قيل : يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم ، كما تقول : يا ابن الكريم ، افعل كذا، ويا ابن العالم، اطلب العلم «اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» قال ابن جرير: نعمه التي أنعم بها على بني إسرائيل : اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المنّ والسلوى . فأمر ، جل ثناؤه ، أعقابهم أن يكون ماسلف منه إلى آبائهم على ذُكْرٍ ، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحل بهم من النقم ، ما أحل بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها ، وجحد صنائعه عنده. « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » العهد هو الميثاق ، وقد أشير إليه في قوله تعالى « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »[١] الآية . فعهد الله هو وصيته لهم ، بما ذكر في الآية . ومنها : الإيمان برسله المتناول لخاتمهم

(١) [٥ / المائدة/ ١٢] ونصها : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

عليه السلام ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة . وعهده تعالى إياهم ، هو أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة . وقوله تعالى « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » قال ابن جرير: أى اخشونى واتقوا، أيها المضيعون عهدى من بنى إسرائيل، والمكذبون رسولى الذى أخذت ميثاقكم فيما أنزلت على أنبيائى أن تؤمنوا به وتتبعوه، أن أحل بكم من عقوبتى إن لم تتوبوا إلىّ باتباعه والإقرار بما أنزلت إليه ، ما أحللت بمن خالف أمرى ، وكذب رسلى من أسلافكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

« وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ » أى من القرآن « مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ » أى موافقاً بالتوحيد ، وصفة محمد ﷺ ونعته، وبعض الشرائع، لما معكم من الكتاب ـ كما فى التنوير ـ قال ابن جرير: أمرهم بالتصديق بالقرآن ، وأخبرهم أن فى تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة ، لأن الذى فى القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه ، نظير الذى من ذلك فى الإنجيل والتوراة . ففى تصديقهم بما أنزل على محمد ، تصديق منهم لما معهم من التوراة . وفى تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة . انتهى .

وتقييد المنزل بكونه مصدقاً لما معهم، لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعاً .

تنبيه :

كثيراً ما يستدل مجادلة أهل الكتاب على عدم تحريف كتبهم بهذه الآية وأمثالها ، كآية « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ »(١) ، وآية « وَلَكِنْ

(١) [٢ / البقرة / ٨٩] ونصها : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا =

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ »[1] وغيرها . مع أنه ثبت بالبراهين القاطعة ذهاب قدر كبير من كتبهم ، واختلاط حقها بباطلها فيما بقى ، كما صنفت فى ذلك مصنفات عدة . وقد رُدَّ استدلالهم بهذه الآية وأمثالها على ما ادعوه، بأن معنى كون القرآن مصدقاً لما معهم ، ما ذكرناه قبل فى تأويلها . وحاصله أن ما أنزل عليه ﷺ هو طبق ما عندهم من حقية نبوته ، وصحة البشائر عنه ، كما قال تعالى « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ » أى أنه عليه السلام جاء طبق ما عندهم عنه فى التوراة والإنجيل، بمعنى أن أحواله جميعاً توافق البشائر « وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ » يعنى من جنسكم أهل الكتاب ، بعد سماعكم بمبعثه . فالأولية نسبية ، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، أو هو تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته ، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه ، والمستفتحين على الذين كفروا به ، وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم، فلما بعث كان أمرهم على العكس ، لقوله « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » .

« وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا » أى لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى، بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، فالاشتراء استعارة للاستبدال . « وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ » بالإيمان واتباع الحق ، والإعراض عن حطام الدنيا .

مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] ونصها : وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و [١٢ / يوسف / ١١١] ونصها : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٤٣] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

اللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين . والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى يخترعونه أو يذكرونه فى تأويله حتى يشتبه أحدهما بالآخر ، وقوله « وَتَكْتُمُوا » مجزوم داخل تحت حكم النهى . وتكرير الحق ، لزيادة تقبيح المنهىّ عنه ، إذ فى التصريح باسم الحق ، ما ليس فى ضميره ، والتقييد بقوله « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » لزيادة تقبيح حالهم ، إذ الجاهل عسى يعذر . وقوله « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » الآية ، أمر بلزوم الشرائع عليهم بعد الإيمان . وذلك إقامة الصلاة بأدائها بفروضها ، والمحافظة عليها . وإعطاء الصدقة المفروضة ، والركوع لله ، أى الخضوع لأوامره بإطاعتها .

قال ابن جرير : هذا أمر من الله، جل ثناؤه، لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه ، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين فى الإسلام والخضوع له بالطاعة . ونهىٌ منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد ﷺ ، بعد تظاهر حججه عليهم، وبعد الإعذار لهم والإنذار . وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفاً منه بذلك عليهم ، وإبلاغاً إليهم فى القدرة اهـ .

وقد قيل فى قوله « وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » حث على إقامة الصلاة فى الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » أى بما فيه لله رضا من القول أو الفعل . وجماع البر كل مافيه طاعة لله تعالى . والهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم « وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ » أى تتركونها من البر كالمنسيات . والمعنى تخالفون ما تأمرون به من ذلك إلى غيره . وقوله « وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ » تبكيت مثل قوله « وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » يعنى تتلون التوراة وفيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العملَ . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم فى ذلك مسلوبوا العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه .

روى الحافظ ابن كثير الدمشقىّ فى تفسيره عن إبراهيم النخعىّ قال : إنى لأكره القصص لثلاث آيات : قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ »(١) وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ »(٢) وقوله إخباراً عن شعيب « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »(٣) .

---

(٣) [٢ / البقرة / ٤٤] ونصها : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(٤) [٦١ / الصف / ٢و٣] .

(٥) [١١ / هود / ٨٨] ونصها : قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ » أى على الوفاء بالعهد « وَالصَّلَاةِ » أى التى سرها خشوع القلب للرب . فإنها من أكبر العون على الثبات فى الأمر . قال ابن جرير : أى استعينوا على الوفاء بعهدى الذى عاهدتمونى فى كتابكم من طاعتى واتباع أمرى وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى واتباع رسولى محمد ﷺ بالصبر عليه والصلاة . فالآية متصلة بما قبلها . كأنهم لما أمروا بما شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك . « وَإِنَّهَا » الضمير للصلاة. وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر ؛ وجوّز عود الضمير على الاستعانة بهما « لَكَبِيرَةٌ » لشاقة ثقيلة، كقوله تعالى « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ »(١) « إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

« الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى محشورون إليه يوم القيامة للجزاء. والظن

= مِنْ رَبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] ونصها : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

هنا بمعنى اليقين ومثله « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[(١)] .

قال ابن جرير : العرب قد تسمى اليقين ظنا نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشىء وضده . والشواهد على ذلك من أشعار العرب أكثر من أن تحصر « وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » أى بعد الموت فيجازيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به « وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ » عطف على نعمتى ، عطف الخاص على العام لكماله . أى فضلت آباءكم « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى عالمى زمانهم بإنزال الكتاب عليهم وإرسال الرسل فيهم وجعلهم ملوكا، وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا . وتفضيل الآباء شرف الأبناء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« وَاتَّقُوا يَوْمًا » يريد يوم القيامة أى حسابه أو عذابه « لَا تَجْزِي » فيه « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » أى لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق. فانتصاب «شيئاً» على المفعولية. أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية. وإيراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢٠] .

« وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ » لا يقبل « مِنْهَا عَدْلٌ » أى فدية « وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » يمنعون من عذاب الله . وجُمِع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة . وذكر لمعنى العباد أو الأناسيّ .

(تنبيه) تمسكت المعتزلة بهذه الآية على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقا أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع . فعلم أنها لا تقبل للعصاة . والجواب : أنها خاصة بالكفار . ويؤيده أن الخطاب معهم كما قال « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »(١) ، وكما قال عن أهل النار « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »(٢) فمعنى الآية أنه تعالى لايقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذٌ ولا يخلص منه أحد .

وفى الانتصاف : من جحد الشفاعة فهو جدير أن لاينالها . وأما من آمن بها وصدقها، وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم . وليس فى الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله « يوما » أخرجه منكرا . ولاشك أن فى القيامة مواطن . ويومها ممدود بخمسين ألف سنة. فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة. وبعضهاهوالوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقدوردت آى كثيرة ترشدإلى تعددأيامها واختلاف أوقاتها. منهاقوله تعالى « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »(٣) مع قوله « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »(٤)

(١) [٧٤ / المدثر / ٤٨] .
(٢) [٢٦ / الشعراء / ١٠٠و١٠١] .
(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] ونصها : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ .
(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٧] . و [٥٢ / الطور / ٢٥] .

فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين : أحدهما محل للتناول والآخر ليس محلاله ، وكذلك الشفاعة . وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة . رزقنا الله الشفاعة . وحشرنا فى زمرة أهل السنة والجماعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ » تذكير لتفاصيل ماأجمل فى قوله تعالى « نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » من فنون النعماء. أى واذكروا وقت تنجيتنا إياكم ، أى آباءكم . فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم . والمراد بالآل، فرعون وأتباعه ، فإن الآل يطلق على الشخص نفسه وعلى أهله وأتباعه وأوليائه (قاله فى القاموس) .

ثم بين ما أجمله منه بقوله « يَسُومُونَكُمْ » أى يبغونكم « سُوءَ الْعَذَابِ » أى أفظعه وأشده « يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ » أى يتركونهم أحياء « وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » البلاء إما المحنة ، إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون ؛ أو النعمة ، إن أشير به إلى الإنجاء . قال ابن جرير : العرب تسمى الخير بلاء والشر بلاء .

فائدة : فرعون لقب لمن ملك مصر كافراً . ككسرى لملك الفرس . وقيصر لملك الروم. وتبّع لمن ملك اليمن كافرا . والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وخاقان لملك الترك . ولعتوّه اشتق منه : تفرعن الرجل ، إذا عتا وتمرد .

وسبب سَوْمِهِ بنى إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم (على ما روى فى التوراة) خوفُه من نموّهم وكثرة توالدهم . وكانت أرض مصر امتلأت منهم . فإن يوسف ، عليه

السلام، لما استقدم أباه وإخوته وأهلهم من أرض كنعان إلى مصر ، أعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض كما أمره ملك مصر . وكان لهم فى مصر مقام عظيم بسبب يوسف عليه السلام . فتكاثروا وتناسلوا . ولما توفى يوسف عليه السلام والملك الذى اتخذه وزيرا عنده ، انقطع ذلك الاحترام عن بنى إسرائيل . إلى أن قام على مصر أحد ملوكها الفراعنة . فرأى غوّ الإسرائيليين . فقال لقومه : أضحى بنو إسرائيل شعباً أكثر منا وأعظم . فهلمّ نحتال لهم لئلا ينموا . فيكون ، إذا حدثت حرب ، أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا . ويخرجون من أرضنا . فسلط عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم . وكانوا كلما اشتد تعبدهم إزدادوا كثرة وشدة . فشق على المصريين كثرتهم واختشوا منهم . فجعل أهل مصر يستعبدونهم جورا ويمرّرون عليهم حياتهم بالعمل الشديد بالطين واللّبن ، وكل فلاحة الأرض، وكل الأعمال التى استعبدوهم بها بالمشقة .

وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قصه الله تعالى . ولم يزل الأمر فى هذه الشدة عليهم حتى نجاهم سبحانه بإرسال موسى عليه السلام. وقوله جل ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » بيان لسبب التنجية ، وتصوير لكيفيتها ، إثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها . وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الإنجاء من الغرق . أى واذكروا إذ فلقناه بسلوككم أو ملتبساً بكم أو بسبب إنجائكم . وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك . فالباء على الأول استعانة . مثلها فى : كتبت بالقلم . وعلى الثانى للمصاحبة . مثلها فى : أسندت ظهرى بالحائط . وعلى الثالث للسببية . والوجه الأول

ضعيف من حيث إن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببنى إسرائيل والمنصوص عليه فى التنزيل أن البحر إنما انفرق بعصا موسى . قال تعالى « أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ »(١) فآلة التفريق العصا لا بنو إسرائيل « فَأَنْجَيْنَاكُمْ » أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل « وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ » أريد فرعون وقومه . وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » أى إلى ذلك وتشاهدونه لاتشكون فيه. ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ فى إهانة عدوكم .

وكانت قصة إغراق آل فرعون المشار لها فى هـذه الآية ، على ما روى ، أن الحق تعالى لما شاء إخراج بنى إسرائيل من مصر من بيت العبودية ، أوقع فى نفس فرعون أن يطلقهم من مصر. بعد إباء شديد منه ورؤية آيات إلٰهية كادت تحل به وبقومه البوارَ . فدعاموسى وهارون وقال : اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعا . و اذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم . فلما ارتحلوا وأخبر فرعون أن الشعب قد هرب ، تغير قلبه عليهم وقال : ماذا فعلنا حتى أطلقناهم من خدمتنا ؟ فشد مركبته وأخذ قومه معه وسعى وراءهم وأدركهم وهم نازلون عند بحر القلزم . وهو المشهور ببحر السويس . فلما رأت بنو إسرائيل عسكر فرعون وراءهم قالوا : يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر ؟ فلو بقينا على خدمة المصريين لكان خيراً لنا من أن نهلك فى هذه البرية « قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »(٢) وقال « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »(٣) . وأوحى

(٢) [٢٦/ الشعراء / ٦٣] ونصها : فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٢٩] ونصها : قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ =

الله إلى موسى عليـه السلام أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق وأيبس قعره . فدخل بنو إسرائيل فيه . فتبعهم فرعون وجنوده . فخرج موسى وقومه من الجهة الثانية . وانطبق البحر على فرعون ومن معه فغرقوا كلهم . وسيأتى الإشارة إلى هذه القصة فى مواضع من التنزيل . ومن أبسطها فيه سورة الشعراء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ » أى بعد فراغه من مقاومة آل فرعون وإهلاكهم « أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » أى لنعطيه عنـد انقضائها التوراة لتعملوا بها . وقد روى فى ترجمة التوراة أنه تعالى قال لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك ألواحا من حجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعلمهم . فصعد موسى إلى الجبل وبقى هناك أربعين يوماً وأربعين ليلة . وموسى كلمة عبرانية معناها منشول من المـاء « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » أى إلهاً ومعبوداً « مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد مضيّه للميقات « وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » أى بوضع العبادة فى غير موضعها . وهو حال من ضمير اتخذتم . أو اعتراض تذييلىّ . أى وأنتم قوم عادتـكم الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْـكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّـكُمْ تَشْـكُرُونَ)

« ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْـكُمْ » أى محونا ذنوبكم « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى الاتخاذ والظلم القبيح « لَعَلَّـكُمْ تَشْـكُرُونَ » لـكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة .

= بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّـكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَـكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَإِذْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ » يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل . يعنى التوراة . كقولك : رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة. ونحوه قوله تعالى « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »[1] يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياء وذكراً . أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات . أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام . وقيل : الفرقان انفراق البحر . وقيل : النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »[2] يريد به يوم بدر « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى لكى تهتدوا بالعمل فيه من الضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٨] .

(٢) [٨ / الأنفال / ٤١] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذه الآية بيان لـكيفية وقوع العفو المذكور فى الآية قبـلُ . روى أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات ورأى ماصنع قومه بعده من عبادة العجل، غضب ورمى باللوحين من يده . فـكسرها فى أسفل الجبل . ثم أحرق العجل الذى صنعوه . ثم قال: من كان من حزب الرب فليُقْبِل إلىّ . فاجتمع إليه جميع بنى لاوى . وقال لهم : هذا مايقول الرب إله إسرائيل : ليتقلد كل رجل منكم سيفه . فجوزوا فى وسط المحلة من باب إلى باب. وارجعوا . وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه وقريبه . فصنع بنو لاوى كما أمرهم موسى فقتلوا فى ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل (وفى رواية نحو ثلاثة آلاف رجل) وفى غد ذلك اليوم كلم موسى الشعب وقال لهم : أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة . وإنى الآن أصعد إلى الرب فأتضرع إليه من أجل خطيئتكم . فصعد موسى وتضرع للرب وسأل المغفرة لقومه اهـ .

ولاوى ، ثالث مولود ليعقوب عليه السلام من أولاده الاثنى عشر ، معناه فى العربيـة ملتصق أو متصل .

والأحبار اللاويّون ينسبون إليه . وقد اختارهم تعالى من بنى إسرائيل على لسان موسى عليه السلام للخدمة المقدسة . وجعلهم من المقربين لديه . وبمـا سقناه يعلم أن قوله تعالى «فَاقْتُلُوا أَنفُسَـكُمْ» أمرٌ لمن لم يعبد العجل ، أعنى اللاويين ، أن يقتلوا العَبَدَة. لا كما فهمه بعضهم من قتل بعضهم بعضاً مطلقاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْـكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ)

[٥٦] (ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّـكُمْ تَشْـكُرُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْـكُمُ

الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى وأذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق . إذ سألتم رؤيتى عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم فى دار الدنيا . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن القائلين لموسى ذلك هم السبعون المختارون . ويؤيده آية الأعراف . « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ ـ الآية .

وقد غلط أهل الكتاب فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك . فمنع منه . فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟ أفاده ابن كثير . وقد رأيت دعواهم المذكورة فى الفصل الرابع والعشرين فى سفر الخروج . وهذا من المواضع المحقق تحريفها . ويدل عليه ما فى الفصل الثالث والثلاثين من السفر المذكور أنه تعالى قال لموسى : لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش اه .

وجهرة ، فى الأصل ، مصدر قولك جهرت بالقراءة . استعيرت للمعاينة ، لما بينهما من الاتحاد . فى الوضوح والانكشاف . إلا أن الأول فى المسموعات ، والثانى فى المبصرات . ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية ، فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس . أو على الحال من الفاعل أو المفعول .

قال ابن جرير : وأصل الصاعقة كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وإلى ذهاب عقل وغمور فهم ، أو فقد بعض آلات الجسم . صوتا كان ذلك أو نارا . أو زلزلة أو رجفا (قال) ومما يدل على أنه قد يكون مصعوقا وهو

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] ونصها : وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

حيّ غير ميت قول الله عز وجل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ يعني مغشيا عليه. ومنه قول جرير:

وَهَلْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ غَيْرَ قِرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فَاسْتَدَارَا[1]

فقد علم أن موسى لم يكن ، حين غشي عليه وصعق ، ميتا . لأن الله، جل وعز، أخبر عنه أنه لما أفاق قال : تبت إليك . ولا شبَّه جريرٌ الفرزدقَ، وهو حيّ ، بالقرد ميتا ، ولكن معنى ذلك ما وصفناه .

وقوله تعالى «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » أي إلى تلك الصاعقة . وقوله تعالى « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » قال الراغب الأصبهانيّ في تفسيره : البعث إرسال المبعوث من المكان الذي فيه . لكن فرق بين تفاسيره بحسب اختلاف المعلق به ، فقيل : بعثت البعير من مبركه أي أثرته . وبعثته في السير أي هيجته ، وبعث الله الميت أحياه . وضرب البعث على الجند إذا أمروا بالارتحال . وكل ذلك واحد في الحقيقة ، وإنما اختلف لاختلاف صور المبعوثات (ثم قال) والموت حُمِل على المعروف، وحُمِل أيضا على الأحوال الشاقة الجارية مجرى

---

(١) قال السيد محمود محمد شاكر، في تعليقه على هذا البيت، في تفسير ابن جرير ، مانصه : ديوانه : ٢٨١ ، والنقائض : ٢٥١ وبعده في هجاء الفرزدق ، وهو من أشده :

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا

وما أشد ما قال ! وقال في النقائض في شرح البيت: « ولفته ـ يعني جريرا ـ الصواقع . فاستدار : أي استدار إنسانا بعد أن كان قرداً .

وكأنه أخطأ المعنى ، فإنه أراد أنه مسخ قرداً على هيئته التي كان عليها قبل أن يكون إنسانا . فقوله « استدار » عاد إلى الموضع الذي ابتدأ منه . ومن ذلك قوله ﷺ في حجة الوداع « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أي عاد كما بدأ . فهو يقول : كان الفرزدق في أصل نشأته قرداً . ثم تحول إنساناً . فلما أصابته صواعق شعري عاد كما كان في أصل نشأته قردا صريحا اه . وهو كما قال .

الموت ، وليس يقتضي قوله « فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ » أنهم ماتوا . الا ترى إلى قوله : « فَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا » لكن الآية تحتمل الأمرين ، وحقيقة ما كان إنما يعتمد فيها على السمع المتعدى عن الاحتمالات. انتهى. وقد يؤيد الثانى آية الأعراف المذكورة وهى « وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ »(١) فالرجفة هى المسماة بالصاعقة هنا ، والتنزيل يفسر بعضه بعضا، والأصل توافق الآى . وقد ذكر ابن إسحق والسدّىّ أن الذين أخذتهم الرجفة هم الذين سألوا موسى رؤية الله جهرة ، وسيأتى فى الأعراف بسط ذلك إن شاء الله .

دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى فى الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر، سبحانه وتعالى، سؤال الرؤية إلا استعظمه. وذلك فى آيات. منها هذه . ومنها قوله تعالى « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ »(٢) ومنها قوله تعالى « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا »(٣) فدلت هذه التهويلات الفظيعة الواردة لطالبها فى الدنيا على امتناعها فيها . وكما أخبر تعالى بأنه لايرى فى الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته فى الدار الآخرة فى آيات عديدة ، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وهى قطعية الدلالة . لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها .

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٢٨ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٣] وباقى الآية : ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

لما ذكر تعالى مادفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم ، فمنها تظليل الغمام عليهم. وذلك أنهم كانت تظلهم سحابة إذا ارتحلوا . لئلا تؤذيهم حرارة الشمس. وقد ذكر تفصيل شأنها فى توراتهم فى الفصل التاسع من سفر العدد . ومنها إنزال المنّ. وقد روى فى التوراة أنهم لما ارتحلوا من إيليم وأتوا إلى برّية سين، التى بين إيليم وسيناء ، فى منتصف الشهر الثانى بعد خروجهم من مصر ، تذمروا على موسى وهرون فى البرية ، وقالوا لهما: ليتنا متنا فى أرض مصر إذ كنا نأكل خبزا ولحما . فأخرجتمانا إلى هذه البرية لتُهلكا هذا الجمع بالجوع. فأوحى تعالى لموسى عليه السلام إنى أمطر عليكم خبزاً من السماء . فليخرج الشعب، ويلتقطون حاجة اليوم بيومها طعامهم من أجل أنى أمتحنهم ، هل يمشون فى شريعتى أم لا ، وليكونوا فى اليوم السادس أنهم يهيئون ضعف مايلتقطونه يوماً فيوماً. لأن اليوم السابع يوم عيد لايُشخص فيه لأمر المعيشة ولا لطلبة شىء . فقال لهم موسى : إن الرب تعالى يعطيكم عند المساء لحما تأكلون . وبالغداة تشبعون خبزاً . فكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وبالغداة أيضاً وقع الندى حول المحلة . ولما غطى وجه الأرض تباين فى البرية شىء رقيق كأنه مدقوق بالمدقة . يشبه الجليد على الأرض . فلما نظر إليه بنو إسرائيل قالوا : ما هذا ؟ لأنهم لم يعرفوه . فقال لهم موسى : هذا هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا. وقد أمركم أن يلقط كل واحد على قدر ما فى بيته ، وقدر مأكله . ففعل بنو إسرائيل كذلك ولقطوا ما بين مكثر ومقلّل ، وقال لهم موسى : لا تُبقُوا منه شيئاً إلى الغد . فلم يطيعوا

موسى . واستفضل منه رجال إلى الغد ؛ فضرب فيه الدود ونتن . فغضب عليهم موسى . وكانوا يلقطون غدوة. كل إنسان يلقط على قدر ما يأكل . فإذا أصابه حر الشمس ذاب . وقد أعطوا فى اليوم السادس خبز يومين ليجلس كل رجل منهم فى مكانه فى اليوم السابع . راحةً وتقديسا له . وكان إذا خرج بعض الشعب ليلتقط ، يوم السابع ، لا يجد فى الأرض منه شيئاً . ودعا آل إسرائيل اسمه المنّ . وكان مثل حب الكُزْبُرَة أبيض ، وطعمه كرقاق بعسل ، وأكل بنو إسرائيل المنّ أربعين سنة حتى أتوا إلى الأرض العامرة ودنوا من تخوم أرض كنعان . وروى فى ترجمة التوراة أيضاً أن المنّ كان يشبه لون اللؤلؤ . وكان يطوف الشعب ويلتقطونه ويطحنونه بالرحى . ويدقونه فى الهاون ويطبخونه فى القدور . ويعملون منه رغفاً طعمها كالخبز المعجون بالدهن. ومتى نزل الندى على المحلّة ليلاً كان ينزل المن معه اه .

هذا ما كان من أمر المن . وأما السلوى فروى أيضا : أن جماعة ممن صعد مع بنى إسرائيل من مصر تاقت أنفسهم للحم وجلسوا يبكون ، ووافقهم بنو إسرائيل على اشتهائه أيضا . وقالوا : من يطعمنا لحما لنأكل؟ قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله بمصر من غير ثمن . والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم . والآن قد يبست نفوسنا ولا تنظر عيوننا إلا المنّ . فلما سمع موسى الشعب يبكون بمشائرهم، وعلم غضب الرب عليهم ؛ لذلك ، ابتهل إلى ربه وقال : من أين لى لحم أطعم منه هذا الجمع وهم يبكون علىّ ويقولون أعطنا لحما لنأكل ؟ فأوحى إليه ربه أن يجمع سبعين رجلا من شيوخ شعبه وعرفائه . ويقبل بهم إلى خيمة الاجتماع فيكونوا معه . ثم كلمه ربه ووعده أن يعطيه لحما يأكلون منه شهراً حتى يأنفوا منه. فأخبر موسى الشعب بذلك . ثم انحاز إلى المحلة هو وشيوخ قومه . فخرجت ريح وحملت السلوى من البحر وألقتها على المحلة مسيرة يوم حول المحلة من كل جانب ، وكانت تطير بالجوّ ذراعين على الأرض وقام الشعب يومهم ذلك كله ، والليل . وفى غد اليوم الثانى . فجمعوا السلوى أقل من جمع عشرة أكرار . سطحوه سطيحاً ويبسوه حول المحلة .

وقبل أن ينقطع اللحم من عندهم غضب الرب تعالى على الشعب . فضربه ضربة عظيمة جدا . ودعى اسم ذلك الوضع قبور الشهوة . لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا . ثم خرجوا من قبور الشهوة وارتحلوا لغيره . انتهى .

وقوله تعالى « كلوا » على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا . وقوله « وما ظلمونا » كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة . معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز ، والإشعار بأنه أمر محقق غنيّ عن التصريح به . أى فظلموا بأن أكثروا من التضجر والتذمر على ربهم وشكوى سكناهم فى البرية وفراقهم مصر . وما ظلمونا بذلك ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، بالعصيان . إذ لا يتخطاهم ضرره وبذلك حق عليهم العذاب الذى ضربوا به كما ذكرناه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذْ قلنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَـكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغفِرْ لَـكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

[٥٩] (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَإِذْ قُلْنَا ادخلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَـكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَـكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » .

هذا إشارة إلى ما حلّ ببنى إسرائيل ـ لما نكلوا عن الجهاد ـ ودخولهم الأرض

المقدسة ـ أرض كنعان ـ لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام . وإنما أطلق على الأرض المذكورة قرية ، لأنّ القرية : كل مكان اتصلت به الأبنية واتُّخِذَ قراراً . وتقع على المدن وغيرها ـ كذا فى كفاية المتحفّظ ـ ثمّ إنّ ما قصّ ـ هنا ـ ذكر فى سورة المائدة فى قوله تعالى « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۞ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ »(١) الآيات .

وقوله تعالى « ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا » فى التأويلات : يحتمل المراد من الباب حقيقة الباب ، وهو باب القرية التى أمروا بالدخول فيها . ويحتمل من الباب القرية نفسها ، لا حقيقة الباب ـ كقوله « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ » ذكر القرية ولم يذكر الباب ـ وذلك فى اللغة جائز . (ويقال : فلان دخل فى باب كذا ـ لا يعنون حقيقة الباب ، ولكن كونه فى أمر هو فيه) .

وقوله « سُجَّدًا » يحتمل المراد من السجود : حقيقة السجود . فيخرّج على وجوه : على التحية لذلك المكان ؛ ويحتمل على الشكر له لما أهلك أعداءهم الجبارين ؛ ويحتمل الكناية عن الصلاة ـ إذ العرب قد تسمّى السجود (صلاةً) ـ كأنّهم أُمِروا بالصلاة فيها ؛ ويحتمل أن الأمر بالسجود ـ لا على حقيقة السجود والصلاة ـ ولكن أمر بالخضوع له والطاعة والشكر على أياديه . والله أعلم .

وقوله تعالى « وَقُولُوا حِطَّةٌ » خبر محذوف ، أى مسألتنا حطة ـ والأصل النصب ـ بمعنى : حطَّ عنّا ذنوبنا حِطّةً ، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات .

---

(١) [٥ / المائدة / ٢٠] .

وقوله سبحانه « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ » أى : بدّلوا أمره تعالى لهم ـ بدخول الأرض مجاهدين ـ بالإحجام عنه ، وتثبيط الناس . ولذا قال أبو مسلم «قوله تعالى « فَبَدَّلَ » يدلّ على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به ، لا على أنهم أتوا له ببدل . والدليل عليه : أن تبديل القول قد يستعمل فى المخالفة . قال تعالى « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ ـ إلى قوله ـ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ »(١) ولم يكن تبديلهم إلّا الخلاف فى الفعل لا فى القول . فكذا هنا ، فيكون المعنى : إنهم لما أمروا بدخول الأرض ـ وما ذكر معه ـ لم يمتثلوا أمر الله ، ولم يلتفتوا إليه » .

وفى تكرير « الَّذِينَ ظَلَمُوا » زيادةٌ فى تقبيح أمرهم ، وإيذانٌ بأنَّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم . و (الرجز) : هو الموت بغتة ، كما تقدّم .

قال الراغب : وتخصيص قوله « رجزاً من السماء » هو أنّ العذاب ضربان : ضربٌ قد يمكن ـ على بعض الوجوه ـ دفاعه ، أو يظنّ أنه يمكن فيه ذلك ، وهو كلّ عذاب على يد آدمىّ ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق . وضربٌ لا يمكن ـ ولا يظنّ ـ دفاعه بقوّة آدمىّ ـ كالطاعون ، والصاعقة ، والموت ـ وهو المعنىّ بقوله « رجزاً من السماء » اه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

هذا تذكير لنعمة أخرى كفروها . روى فى توراتهم أنه ارتحلت كل جماعة بنى إسرائيل

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٥] ونصها : سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ ، قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

من برية سينا بأمره تعالى ، وحلوا فى رقادين، ولم يكن هناك ماء ليشربوا ، فخاصموا موسى، وقالوا له أعطنا ماء لنشرب ، أخرجتنا من مصر لتقتلنا نحن وأولادنا ودوابنا بالعطش ؟ فابتهل موسى إلى ربه فى السقيا ، فأوحى إليه أن امض أمام الشعب ، وخذ معك من شيوخ إسرائيل. والعصا التى ضربت بها النهر خذها بيدك . واذهب إلى صخرة حوريب ، فاضربها فيخرج منها ماء ليشرب الشعب . ففعل موسى كذلك أمام شيوخ إسرائيل . انتهى .

وقوله تعالى « اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً » أى عدد أسباط يعقوب الاثنى عشر ، لكل سبط منهم عين قد عرفوها . قال الراغب : وأنكر ذلك بعض الطبيعيين واستبعده، وهذا المنكر، مع أنه لم يتصور قدرة الله تعالى فى تغيير الطبائع والاستحالات الخارجة عن العادات ، فقد ترك النظر على طريقته . إذ قد تقرر عندهم أن حجر المغناطيس يجر الحديد ، وأن الحجر المنفر للنحل ينفره ، والحجر الحلاق يحلق الشعر ، وذلك كله عندهم من أسرار الطبيعة . وإذا لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم ، فغير ممتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض . اه .

وقوله « وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تمشوا فى الأرض بالفساد ، وخلاف أمر موسى . قال الراغب : فإن قيل : فما فائدة قوله «مُفْسِدِينَ» والعثو ضرب من الإفساد؟ قيل : قد قال بعض النحويين : إن ذلك حال مؤكدة ، وذكر ألفاظاً مما يشبه . وقال بعض المحققين : إن العثو ، وإن اقتضى الفساد ، فليس بموضوع له ، بل هو كالاعتداء ، وقد يوجد فى الاعتداء ما ليس بفساد ، وهو مقابلة المعتدى بفعله نحو « فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ »(١) وهذا الاعتداء ليس بإفساد ، بل هو ، بالإضافة إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٩٤] ونصها : الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ما قوبل به ، عدل . ولولا كونه جزاء لـكان إفسادًا . فبين تعالى أن العثو المنهى عنه ، هو المقصود به الإفساد . فالإفساد مكروه على الإطلاق، ولهذا قال « لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا »(١) وقد يكون فى صورة العثو والتعدى ماهو صلاح وعدل ، كما تقدم. وهذا ظاهر اه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » قال قتادة : لما ملّوا طعامهم وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه قبل ذلك ، قالوا ذلك . قال الراغب : إن قيل : كيف قال « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » وكان لهم المن والسلوى ، قيل : إن ذلك إشارة إلى مساواته فى الأزمنة المختلفة ، كقولك : فلان يفعل فعلاً واحداً فى كل يوم ، وإن كثرت أفعاله ، إذا تحرى طريقة واحدة وداوم عليها اه . وهذا المعنى فى إنكار الطعام أبلغ. لأنهم لم يكتفوا فى إنكاره بقولهم « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ » ، حتى أكدوا بقولهم « واحد » أو

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٦] ونصها : وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

أرادوا بالواحد مالا يختلف ولا يتبدل « فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا » هو الثوم لقراءة ابن مسعود « وثومها » وللتصريح به فى التوراة فى هذه القصة . وقد ذكر ابن جرير شواهد لإبدال الثاء فاء لتقارب مخرجيهما كقولهم للأثا فى «أثافى» ، وقولهم وقعوا فى عاثور شر وعافور شر ، وللمغافير « مغاثير » « وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ » أى أدون قدراً ، وأصل الدنوّ القرب فى المكان ، فاستعير للخسة ، كما استعير البعد للشرف والرفعة ، فقيل : بعيد الهمة. « بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » أى بمقابلة ما هو خير ، أى أرفع وأجل ، وهو المنّ الذى فيه الحلاوة التى تألفها أغلب الطباع البشرية ، والسلوى من أطيب لحوم الطير ، وفى مجموعهما غذاء تقوم به البنية. وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة ولا تغذية «اهْبِطُوا مِصْرًا» هكذاهو منوّن مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور ، بالصرف .

قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك ، لإجماع المصاحف على ذلك ؛ أى من الأمصار ، أى انحدروا إليه « فَإِنَّ لَكُمْ » فيها « مَا سَأَلْتُمْ » أى فإن الذى سألتم يكون فى الأمصار لا فى القفار ، والمعنى أن هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير، فى أى بلد دخلتموها وجدتموه. فليس يساوى مع دناءته ، وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه . ولما حكى الله تعالى إنكار موسى عليه السلام على اليهود استبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير، بعد تعداد النعم ، جاء بحكاية سوء صنيعهم بالأنبياء ، وكفرهم ، واعتدائهم ، وضرب الذلة عليهم لذلك، استطراداً فقال « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ » فمن هنا إلى قوله « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » معترض فى خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بنى إسرائيل الذين كانوا فى عهد موسى ، يدل على هذا قوله «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ » فإن قتل الأنبياء إنما كان من فروعهم وذريتهم . والذلة بالكسر الصغار والهوان والحقارة ، والذل بالضم ضد العز . والمسكنة مَفعلة من السكون ، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض، لما به من الفقر . والمسكين مفعيل منه ـ كذا فى السمين ـ

وفى الذلة استعارة بالكناية حيث شبهت بالقبة فى الشمول والإحاطة ، أو شبهت الذلة بهم بلصوق الطين بالحائط فى عدم الانفكاك . وهذا الخبر الذى أخبر الله تعالى به هو معلوم فى جميع الأزمنة، فإن اليهود أذلّ الفرق ، وأشدهم مسكنة ، وأكثرهم تصاغراً ، لم ينتظم لهم جمع ، ولا خفقت على رؤوسهم راية ، ولا ثبتت لهم ولاية ، بل ما زالوا عبيد العصى فى كل زمن ، وطروقة كل فحل فى كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال ، وإن بلغ فى الكثرة أى مبلغ ، فهو مرتدٍ بأثواب المسكنة. « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » أى رجعوا به ، أى صار عليهم ، أو صاروا أحقاء به . من قولهم : باء فلان بفلان ، أى صار حقيقاً أن يقتل بمقابلته . فالباء على التقديرين صلة باؤوا ، لا للملابسة . وإلا لاحتيج اعتبار المرجوع إليه ، ولا دلالة فى الكلام عليه « ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم « بِأَنَّهُمْ » بسبب أنهم « كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » الباهرة التى ظهرت على يدى عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » كزكريا ويحيى عليهما السلام . وقتل الأنبياء فى بنى إسرائيل كان ظاهراً ، ولم يذكر قتل رسول من الرسل . وذلك ـ والله أعلم ـ لقوله « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا »(١) وقوله « إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ »(٢) وقال قوم : لم يقتل أحد من الرسل ، وإنما قتل الأنبياء ، أو رسل الرسل ، والله أعلم . كذا فى التأويلات .

وقوله « بغير الحق » لم يخرج مخرج التقييد ، حتى يقال إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق فى حال من الأحوال ، لمكان العصمة . بل المراد نعى هذا الأمر عليهم ، وتعظيمه ، وأنه ظلم بحت فى نفس الأمر ، حملهم عليه اتباع الهوى ، وحب الدنيا ، والغلوّ فى العصيان ،

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] ونصها: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧٢] .

والاعتداء ، كما يفصح عنه قوله تعالى « ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى جرّهم العصيان والتمادى فى العدوان إلى ما ذكر من الكفر ، وقتل الأنبياء عليهم السلام . وقيل : كررت الإشارة للدلالة على أن مالحقهم، كما أنه بسبب الكفر والقتل ، فهو بسبب ارتكابهم المعاصى ، واعتدائهم حدود الله تعالى . وعليه فيكون ذكر علل إنزال العقوبة بهم فى نهاية حسن الترتيب . إذ بدئ أولًا بما فعلوه فى حق الله تعالى وهو كفرهم بآياته . ثم ثُنِّى بما يتلوه فى العظم ، وهو قتل الأنبياء . ثم بما يكون منهم من المعاصى التى تخصهم . ثم بما يكون منهم من المعاصى المتعدية إلى الغير ، مثل الاعتداء . وهذا من لطائف أسلوب التنزيل .

ثم أعلم تعالى بأن باب التوبة مفتوح على الوجه العامّ لليهود وغيرهم . وأن من ارتكب كبائر الذنوب التى تستوجب الغضب الإلٰهىّ ، وضربَ الذلة والمسكنة ، كما حل باليهود ، إذا آمن وتاب فله فى الدنيا والآخرة ما للمؤمنين . وعادة التنزيل جارية بأنه متى ذكر وعد أو وعيد ، عقب بضده ليكون الكلام تاماً فقيل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أى إن الذين آمنوا بما دعا إليه محمد ﷺ ، وصاروا من جملة أتباعه . قال فى فتح البيان: كأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية ، وحال من قبلها من سائر الملل ، يرجع إلى شىء واحد ، وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحق ماذكره الله من الأجر . ومن فاته ذلك فاته الخير كله ، والأجر دقه وجله . والمراد بالإيمان ههنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان

فقال[1] « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » .

ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل فى الملة الإسلامية . فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن ، فليس بمؤمن . ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً، ولم يبق يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا مجوسيًّا . انتهى .

قال الراغب فى تفسيره : تقدم أن الإيمان يستعمل على وجهين : أحدهما الإقرار بالشهادتين، الذى يؤمن نفسَ الإنسان ، وماله عن الإباحة إلا بحق ، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالإسلام . والثانى تحرى اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه. فقوله

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ٩ ـ باب فى الإيمان ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا)، ونصه : عن عمر قال : كنا جلوساً عند النبىّ ﷺ . فجاء رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد شعر الرأس ، لا يُرَى عليه أثر سفر ، ولا يعرفه منا أحد .

قال : فجلس إلى النبىّ ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ووضع يده على فخذيه ، ثم قال: يامحمد! ماالإسلام ؟ قال « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » قال : صدقتَ . فعجبنا منه . يسأله ويصدقه . ثم قال : يا محمد ! ما الإيمان ؟ قال « أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدَر ، خيره وشره » قال : صدقت . فعجبنا منه . يسأله ويصدقه . ثم قال : يا محمد ! ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإنك إن لاتراه فإنه يراك » قال : فمتى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال : فما أمارتها ؟ قال « أن تلد الأَمَةُ ربَّتَهَا (قال وكيع : يعنى تلد العجمُ العربَ) وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون فى البناء » .

قال ثم قال : فلقينى النبىّ بعد ثلاث فقال « أتدرى من الرجل » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال « ذاك جبريل ، أتاكم يعلمكم معالم دينكم » .

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » عنى به المتدين بدين محمد ﷺ ، وقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ » عنى به المتحرى للاعتقاد اليقينىّ ، فهو غير الأول . ولما كانت مشاهير الأديان هذه الأربع ، بيّن تعالى أن كل من تعاطى ديناً من هذه الأديان فى وقت شرعه ، وقبل أن ينسخ ، فتحرى فى ذلك الاعتقاد اليقينىّ ، وأتبع اعتقاده بالأعمال الصالحة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم قال : وقول ابن عباس : إن هذا منسوخ بقوله « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »(١) يعنون أن هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام ، وأن الله عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبيّ عليه السلام. فأما فى وقته ، فالأديان كلها منسوخة بدينه. اهـ. أى فليس مراد ابن عباس ، ومن وافقه ، أنه تعالى كان وعد من عمل صالحاً من اليهود ، ومن ذكر معهم ، على عمله ، فى الآخرة، الجنة ، ثم نسخه بآية « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » بل مراده ما ذكر الراغب . وهذا ما لا شبهة فيه . ولذا قال ابن جرير : ظاهر التنزيل يدل على أنه تعالى لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان ، بعض خلقه دون بعض منهم ، والخبر بقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » عن جميع ما ذكر فى أول الآية .

تنبيه :

ظاهر هذه الآية ، مع تفسير الراغب « مَنْ ءَامَنَ » بالمتحرى للاعتقاد اليقينىّ ، مما قد يستدل به العنبرىّ لمذهبه . فقد نقل الأصوليون فى باب الاجتهاد والتقليد أن العنبرىّ ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب ، حتى فى الأصول ، ووافقه الجاحظ . قال الغزالىّ فى المستصفى : ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية ، إن كان معانداً على خلاف اعتقاده ، فهو آثم . وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور

(١) [٣/ آل عمران/ ٨٥] ونصها : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

غير آثم . وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر ، فهو أيضاً معذور . وإنما الآثم المعذب ، المعاندُ فقط . لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها . وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى ، إذ استد عليهم طريق المعرفة . ثم ردّه الغزالىّ بأدلة سمعية ضرورية ، وذلك مثل معرفتنا ضرورة أمره عليه السلام اليهودَ والنصارى بالإيمان به ، وذمهم على إصرارهم على عقائدهم ، وذلك لا ينحصر فى الكتاب والسنة .

ثم قال الغزالىّ : وأما قوله ـ أى الجاحظ ـ : كيف يكلفهم ما لا يطيقون ؟ قلنا : نعلم ضرورة أنه كلفهم ، أما أنهم يطيقون أو لا يطيقون ، فلننظر فيه ، بل نبه الله تعالى على أنه أقدرهم عليه بما رزقهم من العقل ، ونصب من الأدلة ، وبعث من الرسل المؤيدين بالمعجزات ، الذين نبهوا العقول ، وحركوا دواعى النظر ، حتى لم يبق على الله لأحد حجة بعد الرسل اه.

وقوله « وَالَّذِينَ هَادُوا » أى تهودوا . يقال : هاد يهود ، وتهوّد ، إذا دخل فى اليهودية . وهو هائد ، والجمع هود . وهم أمة موسى عليه السلام ، وإنما لزمهم هذا الاسم ، لأن الإسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة ، ومن سبْى بابل إلى وطنهم القديم ، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب (بالذال المعجمة ـ فقلبتها العرب دالاً مهملة) .

وقوله تعالى : « وَالنَّصَارَى » جمع نصران ، كندامى جمع ندمان ، يقال : رجل نصران ، وامرأة نصرانة ، والياء فى نصرانىّ للمبالغة ، كما فى أحمرىّ ، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ـ كذا فى الكشاف ـ أو هو جمع نصرانىّ ، مغيّر عن ناصرىّ ، نسبة إلى ناصرة ـ القرية المعروفة ـ وقد نسب إليها المسيح عليه السلام ، لأنه رُبِّى بها . وجاء فى الإنجيل « يسوع الناصرىّ » . وقوله تعالى « والصَّابِئِين » جمع صابىء ، ويقال لهم الصابئة . قال ابن جرير : الصابىء هو المستحدث ، سوى دينه ، ديناً ، كالمرتدّ من أهل الإسلام عن دينه . وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب « صابئاً » يقال منه : صبا فلان يصبو صباء ، ويقال : صبأت النجوم إذا طلعت . وقد اختلف أهل

التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم ، من أهـل الملل . فقال بعضهم : يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين . وقالوا : الذى عنى الله بهذا الاسم قوماً لا دين لهم . فمن مجاهد : الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ، ولا دين لهم . وعن ابن زيد : الصابئون دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل ، يقولون لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبىّ . وعن قتادة : أنهم قوم يعبدون الملائـكة . اهـ .

وقال الإمام الشهرستانىّ ، فى الـكلام عن الصابئة ما مثاله : والصبوة فى مقابلة الحنيفية . وفى اللغة : صبا الرجل إذا مال وزاغ . فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة . وهم يقولون : الصبوة هو الانحلال عن قيد الرجال . وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين ، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين . والصابئة تدعى أن مذهبها هو الاكتساب ، والحنفاء تدعى أن مذهبها هو الفطرة . فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة . فالصائبة قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية ، ولا يقولون بالشريعة والإسلام . فيقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد . والصابئة الأولى الذين قالوا بعاذيمون وهرمس ، وهما شيث وإدريس ، ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء . وهم أصحاب الروحانيات . فيعتقدون أن للعالم صانعاً حكيماً مقدّساً عن سمات الحدثان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يُتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلاً وحالة . أما الجوهر فهم المقدسون عن المواد الجسمانية ، الذين جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . قالوا فنحن نتقرب إليهم ونتوكلّ عليهم ، منهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند الله ، وهو رب الأرباب . وأما الفعل ، فقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع وتصريف الأمور من حال إلى حال ، يستمدون القوة من الحضرة الإلهية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية ،

فمنها مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها وهي هياكلها . ولكل روحانيٍّ هيكلٌ ، ولكل هيكلٍ فلكٌ ، ونسبة الروحانيّ إلى ذلك الهيكل الذي اختصّ به نسبة الروح إلى الجسد ؛ فهو ربه ومدبره . وكانوا يسمون الهياكل أربابا ، وربما يسمونها آباء ، والعناصر أمهات . ففعل الروحانيات : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ويركب عليها نفوس روحانية : مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كليّةً صادرة عن روحانيٍّ كليٍّ ، وقد تكون جزئيةً صادرة عن روحانيٍّ جزئيٍّ . فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك . ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل ، مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، وما ينزل من السماء : مثل الصواعق والشهب ؛ وما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة ؛ وما يحدث في الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة ، إلى غير ذلك . قالوا: وأما الحالة ، فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والسرور في جوار رب الأرباب كيف يخفى؟ هذا ملخص ما أفاده العلامة الشهرستانيّ في كتاب ـ الملل والنحل ـ ثم ساق مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء جرت في المفاضلة بين الروحانيّ المحض والبشرية النبوية ، وأوردها على شكل سؤال وجواب ، فلتنظر ثمّ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه ـ في الرد على المنطقيين ـ إن حرّان كانت دار هؤلاء الصابئة ، وفيها ولد إبراهيم عليه السلام (أو انتقل إليها من العراق. على اختلاف القولين) وكان بها هيكل العلّة الأولى . هيكل العقل الأول ، هيكل النفس الكلية ، هيكل زحل . هيكل المشتري . هيكل المريخ ، هيكل الشمس . وكذلك الزهرة وعطارد والقمر . وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم . ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة

المشركين ، حتى جاء الإسلام . ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة فى دولة الإسلام إلى آخر وقت . ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها ، أطباء وكتاباً ، وبعضهم لم يُسلم . وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور النصرانية . وكانوا يصلّون إلى القطب الشمالىّ . وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة إلى القطب الشمالىّ كان لهؤلاء . فإن الصابئة نوعان : صابئة حنفاء موحّدون ، وصابئة مشركون . فالأول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية . فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . من هذه الملل الأربع : المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين . فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل . والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين ملة إبراهيم إمام الحنفاء قبل نزول التوراة والإنجيل . وهذا بخلاف المجوس والمشركين ، فإنه ليس فيهم مؤمن . فلهذا قال تعالى « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِئِينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ »(١) فذكر الملل الست هؤلاء ، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة . لم يذكر فى الست من كان مؤمنا ، وإنما ذكر ذلك فى الأربعة فقط . ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين . والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين . وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لايشركون به شيئا ، ويؤمنون بأن الله محدِثٌ لهذا العالَم ، ويقرون بمعاد الأبدان ، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم . ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرّون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه . وكذلك المشركون من الهند. وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين ، هو أرسطو . انتهى .

وما قرره الإمام ابن تيمية ، يؤيد ماذهب إليه كثير من المفسرين ، من أن معنى

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .

قوله تعالى « مَنْ ءَامَنَ » من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ ، مصدقاً بقلبه بالمبدإ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه ، وذلك كأهل الكتابين أو كان من الصابئة الموحدين . وذهب آخرون إلى أن معنى قوله « مَنْ ءَامَنَ » من أحدث من هذه الطوائف ، إيمانا خالصا بما ذكر . قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام . وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه ، فلا ملابسة له بالمقام ، والصابئون ليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الأوقات . فليتأمل .

وقوله تعالى « فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ » أى : الذى وعدوه على تلك الأعمال المشروطة بالإيمان، وهو فى الأصل جُعل العامل على عمله . وفى قوله « عِندَ رَبِّهِمْ » مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت ، مأمون من الفوات . وقوله تعالى « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى حين يخاف الكفار العقابَ ويحزنون على تفويت الثواب .

(تنبيه) قال العلامة البقاعىّ فى تفسيره : وحسَّنَ وضعَ هذه الآية، فى أثناء قصصهم، أنهم كانوا مأمورين بقتل كل ذكر ممن عداهم . وربما أمروا بقتل النساء أيضاً . فربما ظن من ذلك أن من آمن من غيرهم لايقبل . وقد ذكر منه فى سورة المائدة ، وفى وضعها أيضاً فى أثناء قصصهم ، إشارة إلى تكذيبهم فى قولهم « لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ »(١) وأن المدار فى عصمة الدم والمال إنما هو الإيمان والاستقامة . وذلك موجود فى نص التوراة فى غير موضع . وفيها تهديدهم على المخالفة فى ذلك بالذل والمسكنة . وسيأتى بعض ذلك عند قوله « لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ »(٢) الآية . بل وفيها مايقتضى المنع من مال المخالف

(١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٣] ونصها: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ =

فى الدين ، فإنه قال فى وسط السفر الثانى : وإذا لقيت ثور عدوّك أو حماره وعليه حمولة فارددها إليه. وإذا رأيت حمار عدوك جاثماً تحت حمله فهممت أن لاتوازره فوازرْهُ وساعِدْهُ. ثم رجع إلى قصصهم على أحسن وجه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » تذكيراً لجناية أخرى لأسلافهم ، أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على مافى التوراة ، « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » ترهيباً لكم لتقبلوا الميثاق . وذلك أن الطور اقتلع من أصله ، ورفع وظلّل فوقهم . والطور هو الجبل . وقيل لهم وهو مطلٌّ فوقهم « خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ » من الكتاب « بِقُوَّةٍ » أى بجد واجتهاد ، « وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ » واحفظوا ما فى الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » لكى تتقوا المعاصى ، أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين ، أو طلباً لذلك . وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الأعراف « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١) .

قال الراغب : إن قيل إن هذا يكون إلجاء ولا يستحق به الثواب ، قيل : لم يستحقوا الثواب بالالتزام وإنما استحقوه بالعمل بها من بعد . فأما فى التزامها فمضطرون ، وقال بعض

= إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ .

(١) [٧ / الأعراف / ١٧١] .

الناس: عنى بالطور تشديد الأمر عليهم، وجعل ذلك مثلًا . وذلك بعيد . ومثله قول القاشانىّ: طور الدماغ للتمكن من فهم المعانى وقبولها . فإنه بعيد يأباه ظاهر الآية الأخرى . وإن كان الإطلاق فى اللغة لا ينحصر فى الحقيقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

« ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد « فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ » أى لكم بتوفيقكم للتوبة، أو تأخير العذاب ، « لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الهالكين بالعقوبة .

قال الراغب : الخاسر المطلق ، فى القرآن ، هو الذى خسر أعظم ما يقتنى ، وذلك نعيم الأبد ، وهو المذكور فى قوله « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] .

وقال القفال : قد يعلم فى الجملة أنهم بعد قبول التوراة ورفع الطور ، تولوا عن التوراة بأمور كثيرة . فحرفوا كلها عن مواضعه ، وتركوا العمل بها ، وقتلوا الأنبياء ، وكفروا بهم ، وعصوا أمرهم . ومنها ما عمله أوائلهم ، ومنها ما فعله متأخروهم ، ولم يزالوا فى التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلًا ونهاراً يخالفون موسى ويعترضون عليه ، ويلقونه بكل أذى ويجاهرون بالمعاصى فى معسكرهم ذلك . حتى لقد خسف ببعضهم ، وأحرقت النار بعضهم ، وعوقبوا بالطاعون . وكل هذا مذكور فى تراجم التوراة التى يقرون بها ، ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به ، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس ، وكفروا بالمسيح ، وهموا بقتله .

والقرآن ، وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة ، فالجملة معروفة ، وذلك إخبار من الله تعالى عن عناد أسلافهم . فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

(١) [٣٩ / الزمر / ١٥] .

من الكتاب ، وجحودهم لحقه . وحالهم فى كتابهم ونبيهم ما ذكر . والله أعلم .

ثم ذكّرهم تعالى بالإيقاع بمن نقض ميثاقه وفيما أخذه عليهم من تعظيم السبت بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا » أى تعمدوا العدوان « مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ » بأن استحلوه وتحيّلوا على اصطياد الحيتان فيه . وذلك أن الله ابتلاهم ، فما كان يبقى حوت فى البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت ، فإذا مضى تفرقت كما قال « تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ »[1] فحفروا حياضا عند البحر ، وشرعوا إليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد . فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم . فتسبب عن اعتدائهم المذكور ما ذكره تعالى بقوله « فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » أى صاغرين مطرودين مبعدين من الخير ، أذلاء . وقد روى عن الضحاك وقتادة : أنهم مسخوا قردة ، لها أذناب تعاوى ، بعد ما كانوا رجالا ونساء . وأما مجاهد فقال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا . رواه ابن جرير . وهكذا قال القاشانىّ « كُونُوا قِرَدَةً » أى مشابهين الناس فى الصورة وليسوا بهم . ثم قال : والمسخ بالحقيقة حق غير منكر فى الدنيا والآخرة . وردت به الآيات والأحاديث . وفى أثر : عدّ الممسوخ ثلاثة عشر ، وبيان أعمالهم ومعاصيهم وموجبات

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] ونصها : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

مسخهم . والحاصل أن من غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات، ورسخ فيه بحيث زال استمداده ، وتمكن فى طبعه ، وصار صورة ذاتية له ، صار طبعه طبع ذلك الحيوان ، ونفسه نفسه ، فصارت صفته صورته .

وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف حيث يقول تعالى « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

« فَجَعَلْنَاهَا » أى المسخة والعقوبة « نَكَالاً » عبرة تنكل المعتبر بها ، أى تمنعه وتردعه . ومنه النكل للقيد « لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا » من المعاصى من أهل عالمها الشاهدين لها « وَمَا خَلْفَهَا » ممن جاء بعدهم، أو لأهل تلك القرية وما حواليها، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها « وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » من قومهم ، أو لكل متق سمعها . وأشعر هذا أن التقوى عصمة من كل محذور ، وأن النقم تقع فى غيرهم ، وعظاً لهم .

(تنبيه) : أفادت هذه الآية التنويه بشأن يوم السبت عند الإسرائيليين ، إذ مستحلوه منهم مسخوا قردة. وفى ترجمة التوراة ما نصه : وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل ، تحفظون السبت لأنه مقدس لكم ، من دنّسه يقتل ، ومن صنع فيه عملا يقطع من بين شعبه . فى ستة أيام تصنع الأعمال ، وأما اليوم السابع ففيه سبت راحة ، وليحفظ بنو إسرائيل السبت ، وليتخذوه عيداً بأجيالهم . لأن الرب خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وفرغ يوم السابع . وفيها أيضاً ما نصه : فى ستة أيام تعمل عملك ، وأما اليوم السابع ففيه تستريح ، لكى يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب . انتهى

وقد حرم على اليهود فيه أن يُعدّوا طعامهم . بل حرم عليهم أن يوقدوا نارا . وفى

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] .

سفر نحميا ـ فى الفصل الثالث عشر ـ ما نصه : وفى تلك الأيام رأيت فى يهوذا قوماً يدوسون فى المعاصر فى السبت ويأتون بأكداسها يحملونها على الحمير ، وبخمر أيضا ، وعنب وتين ، وكل حمل مما كانوا يأتون به إلى أورشليم فى يوم السبت . فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام . وكان الصوريون المقيمون بها يأتون بالسمك . وكل نوع من المبيعات ، ويبيعون فى يوم السبت لبنى يهوذا وفى أورشليم . فخاصمتُ عظماء يهوذا ، وقلت لهم : ما هذا الشرّ الذى تفعلونه وتدنّسون يوم السبت ؟ ألم تفعل آباؤكم هكذا ؟ فجلب إلٰهنا كل هذا الشر علينا وعلى هذه المدينة ، وأنتم تزيدون الغضب على بنى إسرائيل بتدنيسكم السبت ، إلى آخره .

ولما بيّن تعالى قساوتهم فى حقوقه العلية ، أتبعه ببيان قساوتهم فى مصالح أنفسهم توبيخاً لأخلافهم . مع الإشارة إلى نعمته عليهم فى خرق العادة فى شأن البقرة ، وبيان من هو القاتل بسببها ، وإحياء الله تعالى المقتول ، ونصه على من قتله منهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ » بنى إسرائيل « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنه وجد قتيل فيهم، وكانوا يطالبون بدمه ، فأمرهم الله بذبح بقرة وأن يضربوه ببعضها ليحيي ويخبر بقاتله « قَالُوا » استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فماذا صنعوا ؟ هل سارعوا إلى الامتثال أوْ لا . فقيل « قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا » بضم الزاى وقلب الهمزة واوا ، وقرئ بالهمزة مع الضم والسكون . أى أتجعلنا مكان هُزُوٍ ، أو أهل هُزُوٍ ، أو مهزوًّا بنا ، أو نفس الهزو ، للمبالغة . وأشعر جوابهم ما ثبت من فظاظتهم ، إذ فيه سوء الأدب على من ثبتت رسالته وقدعلموها. «قَالَ» استئناف كما سبق « أَعُوذُ بِاللَّهِ

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله، سبحانه، جهل وسفه. نفى عنه، عليه السلام ، ما توهموه من قِبَلِهِ على أبلغ وجه ، وآكده ، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه ، استفظاعاً له ، واستعظاماً لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه، عليه السلام، بها . والعَوْذ : اللَّجأ من متخوَّف لكاف يكفيه . والجهل : التقدم فى الأمور بغير علم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ)

« قَالُوا » تمادياً فى الغلظة « ادْعُ لَنَا » أى لأجلنا « رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » ماحالها، وصفتها . وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيى . فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن ، الخارجة عما عليه البقر ، و « ما » وإن شاعت فى طلب مفهوم الحقيقة ، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال . تقول : ما زيد ؟ فيقال : طبيب أو عالم . « قَالَ » أى موسى عليه السلام ، بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان ، وأتاه الوحى . « إِنَّهُ » تعالى « يَقُولُ إِنَّهَا » أى البقرة المأمور بذبحها « بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ » أى لا مسنّة . وقد فرضت فروضا ، فهى فارض ، أى أسنّت . من الفرض بمعنى القطع . كأنها قطعت سنّها وبلغت آخرها . « وَلَا بِكْرٌ » أى لا فتيّة صغيرة لم يُلَقِّحْها الفحل . « عَوَانٌ » أى نصف « بَيْنَ ذَلِكَ » أى سِنَّى الفارض والبكر « فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ » هذا أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به . وفيه حثّ على الامتثال ، وزجر عن المراجعة . ومع ذلك لم يفعلوا ، بل سألوا بيان اللون بعد بيان السنّ بأن :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا » شديد الصفرة ، يقال فى التوكيد : أصفر فاقع ووارس ، كما يقال : أسود حالك ، وأبيض يقق ، وأحمر قانئ ، وأخضر ناضر ومدهامّ . وفى إسناد الفقوع إلى اللون ـ مع كونه من أحوال الملوّن لملابسته به ـ مالا يخفى من فضل تأكيد . كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى : جدّ جدّه . « تَسُرُّ النَّاظِرِينَ » أى تبهج نفوسهم .

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشُدد عليهم . وقد رواه غير واحد عن ابن عباس ، ورفعه ابن جريج والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » زيادة استكشاف عن حالها لتمتاز عما يشاركها فى التعوين والصفرة . ولذلك عللوا تكرير سؤالهم بقولهم « إِنَّ الْبَقَرَ » الموصوف بما تقدم « تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لكثرته ، أى اشتبه علينا أيّها نذبح . قال البقاعىّ : وذكّر الفعل ، لأن كل جمع حروفه أقل من حروف واحده ، فإن العرب تذكره . نقل عن سيبويه . « وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ » إلى البقرة المراد ذبحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)

« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ » . أى لم تذلل لإثارة الأرض وسقى الحرث. و«لا ذلول» صفة لبقرة . بمعنى غير ذلول. و «لا» الأولى للنفى ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى . لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقى ، على أن الفعلين صفتان لذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية ، والمقصود : إنهـا مكرمة ليست مذللة بالحراثة ، ولا مُعَدة للسقى فى السانية . « مُسَلَّمَةٌ » ، سلمها الله من العيوب ، أو معفاة من العمل ، سلمها أهلها منه ، أو مخلصة اللون لم يشب صفرتها شىء من الألوان . من : سلم له كذا، إذا خلص له « لَا شِيَةَ فِيهَا » ، أى لا لون فيها يخالف لون جلدها من بياض وسواد وحمرة ، فهى صفراء كلها ، وهى فى الأصل مصدر : وشاه وشيا وشية ، إذا خلط بلونه لوناً آخر . فى الصحاح : الشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره . والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله . والجمع : شيات . يقال : ثور أَشْيَه ، كما يقال : فرس أبلق . « قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ، ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا . بخلاف المرتين الأوليين ، فإن ما جئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة « فَذَبَحُوهَا » ، الفاء فصيحة ، كما فى « فانفجرت » ، أى فحصلوا البقرة فذبحوها «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» كاد من أفعال المقاربة، وضع لدنوّ الخبر من الحصول، والجملة حال من ضمير ذبحوا ، أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه . اعتراض تذييلىّ . ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم، وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط إسهابهم فيها .

(تنبيه) قال الراغب : قال بعض الناس : فى هذه الآية دلالة على نسخ الشىء قبل

فعله . فإن فى الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة ، وكان لهم أن يذبحوا أى بقرة شاؤا . وفى الثانى والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة . فكأنهم نهوا عما كانو أمروا به من قبل . وليس كذلك ، فإن الأول أمر مطلق ، والثانى والثالث كالبيان له ، لمّا راجعوا . ولم يسقط عنهم ذبح البقرة . بل زيد فى أوصافها وكشف عن المراد بالأمر الأول . وفى الآية دلالة على جوازتأخير البيان إلى وقت الحاجة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا » أى اختلفتم واختصمتم فى شأنها ، إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» مُظهر ، لا محالة ، ما كتمتم من أمر القتيل ، لا يتركه مكتوما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ » أى المقتول « بِبَعْضِهَا » أى البقرة . يعنى فضربوه فحيي وأخبر بقاتله . كما دل عليه قوله « كَذَٰلِكَ » أى مثل هذا الإحياء العظيم على هذه الهيئة الغريبة « يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ » يوم القيامة « وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ » أى دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير . ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء . والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت ، وإخباره بقاتله ، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لتكونوا برؤية تلك الآيات على رجاء من أن يحصل لكم عقل ، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره ، مما تخبر به الرسل عن الله تعالى .

قال الراغب: وقوله « كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ » قيل هو حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه ، وقيل بل هو خطاب من الله تعالى لهذه الأمة ، تنبيهاً على الاعتبار بإحيائه الموتى .

تنبيهات :

(الأول) قال الزمخشري : (فإن قلت) فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ؟ فيقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ؟

(أجيب) بأن كل ما قص من قصص بنى إسرائيل ، إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعاً لهم عليها ، ولما جدد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين . فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء ، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض فى تثنية التقريع . ولقد روعيت نكتة، بعد ما استؤنفت الثانية، استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله : اضربوه ببعضها ، حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ، وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها . وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة . اهـ

وقال الحرالىّ : قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر نداثهم فى القتيل ، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذى هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة. والله أعلم .

(التنبيه الثانى) قال الراغب : قد استبعد بعض الناس ذلك وما حكاه الله منه ، وأنكر

حصول ذلك الفعل على الحقيقة وقال : ذلك ممتنع من حيث الطبيعة ، وأيضاً فإن ذلك لا يعرف فيه حكمة إلهية . فأما استبعاده ذلك من حيث الطبيعة فإنما هو استبعاد للإحياء والنشور ، ولذلك موضع لا يختص بالتفسير . ومن كان ذلك طريقته فلا خوض معه فى تفسير القرآن . وأما الحكمة فيه فظاهرة إذ هو من المعجزات المحسوسة الباهرة للعقول . وأما تخصيص البقرة ، فإن كثيراً من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه . ولو لم يكن فى تخصيص بقرة على وصف مخصوص إلا توافر المأمورين بذلك على طلبها ، واستيجاب الثواب فى بذل ثمنها، وجاب نفع توفر إلى صاحبها ـ لكان فى ذلك حكمة عظيمة . وفى الآية تنبيه على أن الجماعة التى حكمهم واحد يجوز أن ينسب الفعل إليهم وإن كان واقعاً من بعضهم ، ولا يكون ذلك كذبا . كأن الجملة المركبة من شخص واحد يصح أن ينسب إليها ما وقع من عضو منها .

وقد ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئاً منها لأنه لم يرو بسند صحيح إلى النبى ﷺ ، ولا يتعلق به كبير فائدة . كما أن البعض من البقرة لم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانُه . فنحن نبهمه كما أبهمه الله تعالى ، إذ ليس فى تعيينه لنا فائدة دينية ولا دنيوية . وإن كان معيّنا فى نفس الأمر ، وأيًّا كان فالمعجزة حاصلة به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » المخاطبون إما أهل الكتاب الذين كانوا فى زمنه ﷺ ، أى اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التى جاءت أوائلكم ، والأمور التى جرت عليهم ، والعقاب الذى نزل بمن أصرّ على المعصية منهم ، والآيات التى

جاءهم بها أنبياؤهم ، والمواثيق التى أخذوها على أنفسهم ، وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم . فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التى تلين عندها القلوب . وهذا أولى . لأن قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ » ، خطاب مشافهة . فحمله على الحاضرين أولى . وإما أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام خصوصًا ، أو من قبل المخاطبين من سلفهم. والله أعلم . « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » فى القساوة « أَوْ أَشَدُّ » منها « قَسْوَةً » أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها . و «أو» للتخيير أو للترديد . بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد . أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هى أقسى من الحجارة ، وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ » أى يتفتح بالسعة والكثرة « مِنْهُ الْأَنْهَارُ » بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة فى القساوة وعدم التأثر بالعظات والقوارع التى تميع منها الجبال وتلين بها الصخور ، يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه العظيمة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ » أى يتشقق « فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ » أى العيون التى هى دون الأنهار « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى يتردى من رأس الجبل من خشية الله، انقياداً لما سخره له من الميل إلى المركز بالسلاسة ، قاله القاشانىّ .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى الاستدلال بظاهر الآية على خلق التميز فى الجماد حتى يخشى ويسبح . والمحققون على أن هذه الآية وأمثالها من المجاز البليغ . وأن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . لا سيما وأن المجاز أكثر فى اللسان منها ، كما بسط فى مطولات البيان .

وقد رد الإمام ابن حزم، فى أول كتابه «الفصل» على من زعم أن للحيوان والجماد تميزاً، رداً مسهباً . وقال : من ادعى ذلك أكذبه العيان . ثم استثنى ما كان معجزة للأنبياء عليهم السلام .

(قال) ولعل معترضاً يعترض بقوله تعالى يصف الحجارة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

خَشْيَةِ اللهِ » ، فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمن بشريعة ولا بعقل ولا بعث إليها نبيّ . فإذْ لا شك فى هذا ، فإن القول منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون الضمير فى قوله تعالى « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ » راجع إلى القلوب المذكورة فى أول الآية فى قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » فذكر تعالى أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوماً ما ، فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشية الله تعالى ، وهذا أمر يشاهد بالعيان ، فقد تلين القلوب القاسية بلطف الله تعالى ، ويخشى العاصى . وقد أخبر عز وجلّ : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ »[١] ، وكما أخبر تعالى أن من الأعراب من يؤمن بالله[٢] من بعد أن أخبر أن « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا »[٣] . (قال) فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة . والوجه الثانى أن الخشية المذكورة فى الآية إنما هى التصرف بحكم الله تعالى وجرى أقداره ، كما قلنا فى قوله تعالى حاكياً عن السماء والأرض « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »[٤] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) [٩ / التوبة / ٩٩] ونصها : وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ٩٧] ونصها : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٤) [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

والوجه الثالث أن يكون الله تعالى عنى بقوله « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » الجبلَ الذى صار دكًّا، إذ تجلى الله تعالى له يوم سأله كليمه عليه السلام الرؤية ، فذلك الجبل بلاشك من جملة الحجارة ، وقد هبط عن مكانه من خشية الله تعالى ، وهذه معجزة وآية وإحالة طبيعةٍ فى ذلك الجبل خاصة . ويكون « يهبط » بمعنى « هبط » كقوله تعالى « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا »(١) معناه : وإذ مكر ، وبين قوله تعالى، مصدقاً إبراهيم خليله ﷺ فى إنكاره على أبيه عبادة الحجارة « لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ »(٢) وقوله تعالى « أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ »(٣) فصح بهذا، صحةً لا مجال للشك فيها ، أن الحجارة لا تعقل . وإذ تيقن ذلك بالنص وبالضرورة والمشاهدة فقد انتفى عنها النطق والتمييز والخشية ، المعهود كل ذلك عندنا . وأما الأحاديث المأثورة فى أن الحجر له لسان وشفتان، والكعبة كذلك ، وأن الجبال تطاولت ، وخشع جبل كذا، فخرافات موضوعة نقلها كل كذاب وضعيف ، لا يصح منها شىء من طريق الإسناد أصلا . ويكفى من التطويل فى ذلك أنه لم يُدْخِل شيئاً منها من انتدب من الأئمة لتصنيف الصحيح من الحديث ، أو ما يستجاز روايته ، مما يقارب الصحة (انتهى كلام ابن حزم) .

وقال ابن جرير : اختلف أهل النحو فى معنى الهبوط ـ ما هبط من الأحجار من خشية الله ـ فقال بعضهم : إن هبوط ماهبط منها من خشية الله تفيّؤ ظلاله . وقال آخرون: ذلك الجبـل الذى صار دكا إذ تجلى له ربه . وقال آخرون : قوله « يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠] ونصها : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٣] .

كقوله « جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ »[1] ولا إرادة له . قالوا : وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله يُرَى كأنه هابط خاشع من ذلّ خشية الله . قال زيد الخيل :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَرَاتِهِ   تَرَى الأُكْمَ منه سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ[2]

وكما قال سويد بن أبى كاهل، يصف عدوًّا له :

سَاجِدَ المَنْخِرِ لَا يَرْفَعُهُ   خَاشِعَ الطَّرْفِ أَصَمَّ المُسْتَمَعْ[3]

يريد أنه ذليل .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٧٧] ونصها : فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

(٢) قال السيد محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت فى تفسير ابن جرير (٢/١٠٤) ما يأتى :

البلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين . والحجرات جمع حَجْرة : الناحية . والأُكْم (وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهى تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة .

قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير « يقول إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر . والباء فى (بجمع) متعلقة ببيت سالف هو :

بنى عامر ، هل تعرفون إذا غدا   أبو مِكْنَفٍ قد شدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ

(٣) وقال أيضاً (٢/٢٤٢) ما يأتى :

يقول : أذلّه فطأطأ رأسه خزيا ، وألزم الأرض بصره ، وصار كأنه أصمّ لا يسمع مايقال له ، فهو لا حراك به ، مات وهو حىّ قائم ، لا يحير جوابا . ولذلك قال بعده :

فَرَّ منى هاربا شيطانُهُ   حيث لا يُعْطِى، ولا شيئًا مَنَعْ

وكما قال جرير بن عطية :

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ المَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّعُ(١)

وقال آخرون : معنى قوله « يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » أى يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه . كما قيل: ناقة تاجرة إذا كانت، من نجابتها وفراهتها، تدعو الناس إلى الرغبة فيها ، كما قال جرير بن عطية :

وَأَعْوَرُ مِنْ نَبْهَانَ ، أَمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَى ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ(٢)

فجعل الصفة لليل والنهار ، وهو يريد بذلك صاحبه النبهانىّ الذى يهجوه . من أجل أنه فيهما كان ما وصفه به . ثم اختار ابن جرير ما يقتضيه ظاهر الآية . وتقدم رد ابن حزم له مبرهنا عليه .

---

(١) وقال أيضاً (٢/١٧) ما يأتى :

استشهد به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل لما أضاف (سور) إلى مؤنث وهو (المدينة) وهو بعض منها .

قال سيبويه : وربما قالوا فى بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه . لأنه لو قال « ذهبت عبد أمك » لم يحسن .

وهذا البيت يعيّر به الفرزدقَ بالغدر ويهجوه . فإن الزبير بن العوام رضى الله عنه ، حين انصرف يوم الجمل ، عرض له رجل من بنى مجاشع (رهط الفرزدق) فرماه فقتله غيلة .

ووصف الجبال بأنها « خشع » يريد : عند موته خشعت وطأطأت من هول المصيبة فى حوارىّ رسول الله ﷺ ، ومن قبح مالقى من غدر بنى مجاشع .

(٢) وقال أيضاً (١/٣١٧) ما يأتى :

كان الأعور النبهانىّ هجا جريرا . فأكله جرير . قال أبو عبيدة « أى هو أعور النهار عن الخيرات ، بصير الليل بالسوءات ، يسرق ويزنى » .

ثم رأيت الإمام الراغب حاول هنا تقريب ما نقل من الوقوف على ظاهرها بتأويله . وعبارته : قال مجاهد وابن جريج : كل حجر تردى من رأس جبل فخشية الله نزلت به ، وقال الزجاج : الهابط منها قد جعل له معرفة ، قال ويدل على ذلك قوله « لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »[(١)] وقال « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »[(٢)] إلى قوله « وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ »[(٢)] وقد روى مثل هذا عن السلف ، ولا بد فى معرفة ذلك من مقدمة تكشف عن وجه هذا القول ، وحقيقته . فإن قوماً استسلموا لما حكى لهم من هذا النحو ، فانطووا على شبهة . وقوما استبعدوا ذلك واستخفوا عقل رواته وقائليه ، فيقال وبالله التوفيق : إن قوما من المتقدمين ذكروا أن جميع المعارف على أضرب : الأول المعرفة التامة التى هى العلم التام . وذلك لعلاّم الغيوب الذى أحاط بكل شيء علما . والثانى معرفة متزايدة ، وهى للإنسان . وذلك أن الله تعالى جعل له معرفة غريزية . وجعل له بذلك سبيلا إلى تعرف كثير مما لم يعرفه . وليس ذلك إلا للإنسان . والثالث معرفة دون ذلك ، وهى معرفة الحيوانات التى سخرها لإيثار أشياء نافعة لها والسعى إليها . واسترذال أشياء هى ضارة لها وتجنبها ، ودفع مضار عن أنفسها . والرابع : معرفة الناميات من الأشجار والنبات ، وهى دون ما للحيوانات ، وليس ذلك إلا فى استجلاب المنافع وما ينميها . والخامس: معرفة العناصر. فإن كل واحد منها مسخر لأن يشغل المكان المختص به كالحجر فى طلب السفل ، والنار فى

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢١] .

(٢) [٢٢ / الحج / ١٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

طلب العلو ، وذلك بتسخيرالله تعالى، بلا اختيار منه . قالوا: والدلالة على ذلك أن كل واحد من هذه العناصر إذا نقل من مركزه قهراً ، أبى إلا العود إليه طوعا . قالوا ويوضح ذلك أن السراج يجتذب الأدهان التي تبقيه . ويأبى المـاءالذى يطفيه . وأن المغناطيس يجرالحديد ولا يجر غيره . هذا ما حكوه .

فعلى هذا إذا قيل : لهذه الأشياء معرفة ، فليس ببعيد ، متى سلم لهم أن هذه القوى تسمى معرفة . فأما إذا قيل إن للجمادات معارف الإنسان فى أنها تميز وتختار وتريد ، فهذا مما تعافه العقول . (انتهى قول الراغب) .

وهو تأويل حسن ، ومبناه على أن اصطلاح السلف فى كثير من الإطلاقات غير اصطلاحات الخلف . وهو مسلم فى كثير من الإطلاقات .

وقوله تعالى « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى . فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد . ولما بيّن سبحانهوتعالى قساوة قلوبهم، تسبب عن ذلك بعدهم عن الإيمان ، فالتفت إلى المؤمنين يؤيسهم من فلاحهم تسلية للنبيّ ﷺ عما كان يشتد حرصه عليه من طلب إيمانهم فى معرض التنكيت عليهم ، والتبكيت لهم ، منكراً للطمع فى إيمانهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« أَفَتَطْمَعُونَ » أيها المؤمنون بعد أن علمتم تفاصيل شؤون أسلافهم المؤيسة عنهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أى هؤلاء اليهود الذين بين أظهركم وهم متماثلون فى الأخلاق الذميمة ، لا يأتى من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم ، (واللام فى قوله) « لَكُمْ » لتضمين

معنى الاستجابة . كما فى قوله عز وجل « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »[١] أى فى إيمانهم مستجيبين لكم . أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم « وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ » أى طائفة فيمن سلف منهم « يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ » وهو ما يتلونه من التوراة « ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ » قال ابن كثير : أى يتأولونه على غير تأويله . وقال ابن جرير : يعنى بقوله « يُحَرِّفُونَهُ » يبدلون معناه وتأويله ويغيّرونه ، وأصله من انحراف الشىء عن جهته وهو ميله عنها إلى غيرها . فكذلك قوله « يُحَرِّفُونَهُ » أى يميلونه عن وجهه ، ومعناه الذى هو معناه، إلى غيره . « مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ » أى فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله .

قال ابن جرير : هذا إخبار عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى عليه السلام . وأن بقاياهم فى العصر المحمدىّ على مثل ما كان عليه أوائلهم فى العصر الموسوىّ بغياً وحسداً . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ »[٢] والظاهر أن المراد، بالفريق منهم، أحبارهم ، وإنما فعلوا ذلك لضرب من الأغراض على ما بينه الله تعالى ، من بعدُ ، فى قوله تعالى « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا »[٣] وقال « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »[٤] .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٦] ونصها : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٣/ آل عمران/١٨٧] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة/ ١٤٦] ونصها : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ =

ولقائل أن يقول ، كيف يلزم من إقدام البعض على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقين ، فإن عناد البعض لا ينافى إقرار الباقين . وأجاب القفال عنه فقال : يحتمل أن يكون المعنى : كيف يؤمن هؤلاء ، وهم إنما يأخذون دينهم ، ويتعلمونه من قوم هم يتعمدون التحريف عناداً ، فأُولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيّروه عن وجهه ، والمقلدة لا يقبلون إلا ذلك ، ولا يلتفتون إلى أقوال أهل الحق ، وهو قولك للرجل كيف تفلح ، وأستاذك فلان ؟ أى وأنت عنه تأخذ ، ولا تأخذ عن غيره .

ونحوه قول الراغب : لما كان الإيمان هو العلم الحقيقىّ مع العمل بمقتضاه ، فمتى لم يتحر ذلك من حصل له بعض العلوم ، فحقيق أن لا يحصل لمن غَبِىَ عن كل العلوم . فذكر ذلك تبعيدا لإيمانهم لا يأساً للحكم بذلك ، إذ ليس كل ما لا يطمع فيه كان مأيوسا (ثم قال الراغب) وفى الآية تنبيه أنْ ليس المانع للإنسان من تحرى الإيمان الجهل به فقط ، بل يكون عناداً وَغلبة شهوة .

(تنبيه) ما نقلناه عن ابن جرير وابن كثير فى تفسير « ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ » هو الأنسب باعتبار سوق الآية الكريمة ، ولا يتوهم من ذلك دفع تحريفهم اللفظىّ عن التوارة ، فإنه واقع بلا ريب ، فقد بدلوا بعضاً منها وحرفوا لفظه ، وأوّلوا بعضا منها بغير المراد منه ، وكذا يقال فى الإنجيل . ويشهد لذلك كلام أحبارهم ، فقد نقل العلامة الجليل الشيخ رحمة الله الهندىّ فى كتابه (إظهار الحق) : أن أهل الكتاب سلفا وخلفا ، عادتهم جارية بأنهم يترجون غالبا الأسماء فى تراجمهم ، ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد ، وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير فى الكلام ، الذى هو كلام الله فى زعمهم،

=أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم . ومن تأمل فى تراجمهم المتداولة بألسنةٍ مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة . ثم ساق بعضاً منها فانظره .

وفى ذخيرة الألباب ، لأحد علماء النصارى ، ما مثاله : إن بعضهم ذهب إلى أن الروح القدس لم يق الـكتبة عثرة الخطإ الطفيف، ولا كفاهم زلة القَدَم حتى لم يَسْتَحِلْ أنهم خلطوا البشريات بالإلٰهيات . وفيه أيضاً : إن بين النسخة العبرانية والسامرية واليونانية من الأسفار الخمسة خلافاً عظيما فى أمر التاريخ . فإذًا تحريف الأسفار الخمسة أمر بيّن . وفيه أيضاً فى الفصل (٣١) : أن بعض علمائهم زعم أنه وجد فى الترجمة اللاتينية العامية للعهدين العتيق والجديد نيفاً وأربعة آلاف غلطة ، ورأى آخر فيها ما يزيد على الثمانية آلاف خطأ . انتهى. فثبت من شهادتهم وقوع التحريف اللفظىّ فيها. وهو المقصود .

وأما القول بتحريف الأسفار كلها أو جلها ، فهو إفراط . قال الحافظ ابن حجر فى أواخر شرح الصحيح فى باب قول الله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ »[(١)] : إن القول بأنها بدلت كلها مكابرة . والآيات والأخبار كثيرة فى أنه بقى منها أشياء كثيرة لم تبدل . من ذلك قوله تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ »[(٢)] الآية . ومن ذلك

(١) [٨٥ / البروج / ٢١] .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

قصة رجم اليهوديين[١] وفيه وجود آية الرجم ويؤيده قوله تعالى « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[٢]. وقد أسلفنا تتمة هذا البحث فى مقدمة التفسير فى الكلام على الإسرائيليات . فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى، عن تخلق أولئك المأيوس من إيمانهم من اليهود بأخلاق المنافقين وسلوكهم منهاجهم، بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٢٦ ـ باب قول الله تعالى: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا . فقال لهم رسول الله ﷺ « ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدون . فقال عبد الله بن سَلَام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأَتَوْا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آية الرجم . فقرأ ما قبلها وما بعدها .

فقال له عبد الله بن سلَام : ارفع يدك .

فرفع يده فإذا فيها آية الرجم .

فقالوا : صَدَقَ ، يا محمد ، فيها آية الرجم .

فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما .

قال عبد الله : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] ونصها : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله من أصحاب النبىّ ﷺ « قَالُوا ءَامَنَّا » أى بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به ، وكأنهم يقولون ذلك إرضاء لحلفائهم من الأوس والخزرج ، أو جهراً بحقيقةٍ لا يسعهم ، أمام حلفائهم ، السكوت عنها . « وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ » يعنى الذين لم ينافقوا « إِلَىٰ بَعْضٍ » أى الذين نافقوا « قَالُوا » أى عاتبين عليهم « أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » أى بما بيّن لكم فى التوراة من البشارة بالنبىّ ﷺ ، والإيمان بالنبىّ الذى يجيئكم مصدقاً لما معكم، ونصره.

قال ابن إسحق : أى أتقرّون بأنه نبىّ ، وقد علمتم أنه أُخِذَ له الميثاق عليكم باتّباعه ، وهو يخبرهم أنه النبىّ الذى نجده فى كتابنا ، اجحدوه ولا تقرّوا به .

قال ابن جرير : أصل الفتح فى كلام العرب القضاء والحكم . والمعنى : أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ؟ ومن حكمه تعالى وقضائه فيهم ، ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به فى التوراة . اه .

« لِيُحَاجُّوكُمْ » متعلقة بالتحديث ، دون الفتح ، أى ليقيم المؤمنون به عليكم الحجة « بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى لتكون الحجة للمؤمنين عليكم فى الآخرة ، فيقولون : ألم تحدثونا بما فى كتابكم ، فى الدنيا، من حقيّة ديننا ، وصدق نبينا ؟ فيكون ذلك زائداً فى ظهور فضيحتكم ، وتوبيخكم على رؤوس الخلائق ، فى الموقف . لأنه ليس من اعترف بالحق ، ثم كتم ، كمن ثبت على الإنكار .

وتأول الراغب الأصفهانىّ قوله تعالى « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى فى حكمه وكتابه ، كما هو وجهٌ فى آية « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ، فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ »[1] أى فى

(١) [٢٤ / النور / ١٣] وأولها : لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ،

حكم الله وقضائه ، وهو وجه جيد . وقوله « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » من تمام التوبيخ والعتاب ، فهو من جملة الحكاية عنهم على سبيل إنكار بعضهم على بعض . قال الراغب : ويصح أن تكون استئناف إنكار من الله عز وجل ، على سبيل ما يسمى فى البلاغة « الالتفات » . ويصح أن يكون ذلك خطاباً للمؤمنين ، تنبيهاً على ما يفعله الكفار والمنافقون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

« أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى يخفون من قولهم لأصحابهم ، ومن غيره « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يظهرون من ذلك ، فيخبر به أولياءه . قال الراغب : هذا تبكيت لهم ، وإنكار لما يتعاطونه ، مع علمهم بأن الله لا يخفى عليه خافية .

ولما ذكر العلماء من اليهود الذين عاندوا بالتحريف ، مع العلم والاستيقان ، ذكر العوامّ الذين قلدوهم ، ونبَّه على أنهم فى الضلال سواء . لأن العالِمَ عليه أن يعمل بعلمه ، وعلى العامّيّ أن لا يرضى بالتقليد والظن ، وهو متمكن من العلم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ » أى لا يحسنون الكَتْبَ فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها من دلائل النبوة ، فيؤمنوا . « لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ » أى التوارة ، أى لا يدرون ما فيها من حدودٍ وأحكامٍ ومواثيق «إِلَّا أَمَانِيَّ» بالتشديد جمع أمنية ، أصلها أُمْنُويَة « أُفْعُولَة » فأُعِلَّتْ إعلالَ سيّد ، وميّت . مأخوذة من تمنى الشيءَ : قدَّره وأحب أن يصير إليه . أو من تمنَّى : كذب . أو من تمنَّى الكتابَ : قرأه . وعلى كلٍّ فالاستثناء منقطع ، إذ ليس ما يُتمنى ، وما يُختلق وما يُتلى ، من جنس علم الكتاب . أى لا يعلمون الكتاب . لكن يتمنون

أمانيّ حسبما منّتهم أحبارُهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم . وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم . وغير ذلك من أمانيّهم الفارغة . المستندة إلى الكتاب ، على زعم رؤسائهم . أو لا يعلمون الكتاب ، لكن أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم . فتقبلوها على التقليد . أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم . فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر والتأمل فيه .

قال ابن جرير : وأوْلى ما روينا فى تأويل قوله « إلا أمانيّ » أن هؤلاء الأميين لا يفقهون ، من الكتاب الذى أنزله الله ، شيئا . ولكنهم يتخرصون الكذب ويتقوّلون الأباطيل كذبا وزورا . والتمنى فى هذا الموضع هو تخلّق الكذب وتخرّصه وافتعاله . بدليل قوله تعالى بعدُ «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنا منهم ، لا يقينا .

وقال أبو مسلم الأصفهانيّ : حَمْلُهُ على تمنى القلب أولى . بدليل قوله تعالى «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ »(١) أى تمنيهم. وقال الله تعالى « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »(٢) وقال « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ »(١)، « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »(٣) بمعنى يقدّرون ويخرصون . ورجح كثيرون حمله على القراءة ، كقوله تعالى

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٣] ونصها : لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .

« إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ »(١) إذ فى الاستثناء ، حينئذ، نوع تعلق بما قبله . فيكون أليقَ فى طريقة الاستثناء . و« إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » ما هم إلاّ قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم . فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ؟

(تنبيه) قال الراغب : قد أنبأ الله عن جهل الأميين وذمهم والمبالغة فى ذم علمائهم وأحبارهم . فإن الأميين لم يعرفوا إلا مجرد التلاوة . واعتمدوا على زعمائهم وأحبارهم . وهم قد ضلوا وأضلوا . ونبهنا الله تعالى بذم الأميين ، على اكتساب المعارف لئلا يحتاج إلى التقليد والاعتماد على من لايؤمن كذبه . وبذم زعمائهم ، على تحرّى الصدق وتجنب الإضلال . إذ هو أعظم من الضلال اهـ

ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانىّ واتباع الظن ، عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . فقيل على وجه الدعاء عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

« فَوَيْلٌ » فإن أضيف ، نُصبَ . نحو : ويلكَ وويحَك ـ وإذا فُصل عن الإضافة ،

---

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

رفع . نحو : ويلٌ له . الويل : الهلاك وشدة العذاب « لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ » أى المحرّف . أو ما كتبوه من التأويلات الزائفة « بِأَيْدِيهِمْ » تأكيد لدفع توهم المجاز . كقولك: كتبته بيميني. وقد يقال فى مثل هذا : إن فائدته تصوير الحالة فى النفس كما وقعت حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة « ثُمَّ يَقُولُونَ » لما كتبوه ، كذباً وبهتاناً « هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ » أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته «ثَمَنًا قَلِيلًا» أى عَرَضاً يسيرا. ويجوز فى الآية معنى آخر . أى : فويلٌ للذين يكتبون كتاب التوراة بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، فيشهدون بذلك . وكان من مقتضى كتابتهم بأيديهم التى تقفهم من الكتاب على مالا يقفون عليه ، لو كان كتابةَ غيرهم ، ومقتضى قولهم وإقرارهم بأنه من عندالله ـ الوقوفُ مع عهوده ومواثيقه ، إجلالا لمُنْزِلِهِ ومُوحيه ، ودعوى الناس إلى ظواهره وخوافيه . ولكن لم يكن ذلك منهم . بل كان أن حرّفوا كلمه عن مواضعه ليشتروا به ثمناً قليلا . وحاصل هذا الوجه إبقاء الكتاب المكتوب على أصله ، وصدقهم فى قولهم: هذا من عند الله . ثم مخالفتهم لذلك . فيكون قوله تعالى « لِيَشْتَرُوا بِهِ » تعليلا لمحذوف دل عليه السياق . أى ثم بعد ذلك يحرفونه ليشتروا به . وهو وجه جيد يوافق آية « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » وربما يشير إلى هذا الوجه قول مجاهد فيما رواه ابن جرير : هؤلاء الذين عرفوا أنه من عند الله يحرفونه « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » أى : فشدة العذاب لهم مما غيرت أيديهم « وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » يصيبون من الحرام والسحت.

قال الراغب : إن قيل : لم ذكر « يَكْسِبُونَ » بلفظ المستقبل و « كَتَبَتْ » بلفظ الماضى ؟ قيل : تنبيهاً على ما قال النبيّ ﷺ[1] « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها

(١) أخرجه مسلم عن جرير فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٥ ونصه : « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة ، فعُمِل بها بعده ، كُتِب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقُصُ من أجورهم شىء . ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة ، فعُمِل بها بعده ، كُتِب عليه وزر من عمل بها ، ولا ينقُصُ من أوزارهم شىء » .

ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فنبه بالآية أن ما أصّلوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة ، التى يعتمدها الجهلة ، هو اكتساب وزر يكتسبونه حالًا فحالًا (إن قيل) لم ذكر الكتابة دون القول (قيل) لمّا كانت الكتابة متضمنة للقول وزائدة عليه ، إذهو كذب باللسان واليد ، صار أبلغ . لأن كلام اليد يبقى رسمه والقول يضمحل أثره . (إن قيل) : ما الذى كانوا يكتبونه ؟ (قيل) : روى عن بعض السلف أن رؤساء اليهود كانوا يغيرون من التوراة نعت النبىّ ﷺ . ثم يقولون هذا من عند الله . وهذا فصلٌ يحتاج إلى فضل شرح . وهو أنه يجب أن يتصور أن كل نبىٍّ أتى بوصفٍ لنبىٍّ بعده ، فإنه أتى بلفظة معرّضة وإشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون فى العلم . وقد قال العلماء : ماانفك كتابٌ منزَّل من السماء مِنْ تضمن ذكر النبىّ ﷺ . لكن بإشارات . ولو كان ذلك متجلياً للعوامّ لما عوتب علماؤهم فى كتمانه . ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان : من العبرانىّ إلى السريانىّ إلى العربىّ . وقدذكر المحصلةُ ألفاظًا من التوراة والإنجيل، إذا اعتُبِرت وجدت دالة على صحة نبوة محمد ﷺ بتعريضٍ . هو عند الراسخين فى العلم جلىّ وعند العامة خفىّ . فبان بهذه الجملة أن ما كَتَبَتْ أيديهم كانت تأويلات محرّفة . وقد نبه الله تعالى بالآية على التحذير من تغيير أحكامه ، وتبديل آياته ، وكتمان الحق عن أهله ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، طمعا فى عَرَضِ الدنيا . وقد تقدم أنه عنى بالثمن القليل ، أعراضَ الدنيا وإن كثرت . لقوله تعالى « قُلْ مَتَاعُ الدُّنيَا قَلِيلٌ »(١) اهـ كلام الراغب رحمه الله .

---

(١) [٤ / النساء / ٧٧] ونصها : . . . . قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً » بيان لبعض آخر من جناياتهم فيما ادّعوا لأنفسهم من أنهم لا تمسهم النار فى الآخرة إلّا مدة يسيرة . ومرادهم بذلك أنهم لايخلدون فيها . لأن كل معدود منقض . قال مجاهد : كانت اليهود تقول : إنما الدنيا سبعة آلاف سنة . فإنما نعذّب ، مكان كل ألف سنة ، يوماً . ثم ينقطع العذاب . وروى ذلك عن ابن‌عباس . وعنه أن اليهود قالوا : لن ندخل النار إلا الأيام التى عبدنا فيهاالعجل ، أربعين ، فإذا انقضت انقطع عنا العذاب . ثم بين تعالى إفكهم . لأن العقل لا طريق له إلى معرفة ذلك ، وإنما سبيل معرفته الإخبار منه تعالى ، وهو منتف . فقال سبحانه « قُلْ » منكراً لقولهم وموبِّخاً لهم « أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا » أى عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار « فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ » أى فتقولوا لن يخلف الله عهده . وجعل بعضهم الفاء فصيحة مُعرِبة عن شرط مقدر . أى : إن كان الأمر كذلك فلن يخلفه « أَمْ تَقُولُونَ » أى : أم لم يكن ذلك فأنتم تقولون مفترين « عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى وقوعه جهلا وجراءة . وقولهم المحكىّ ، وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه ، لكنه مستلزم له . لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« بَلَىٰ » إثبات لما بعد حرف النفى وهو قوله « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ » أى بلى تمسكم أبدا . بدليل قوله « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ، « مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » أى عملها وهى والسيّ

عملان قبيحان. أصلها سيوءة. من : ساءه يسوءه. فأعلّت إعلال سيد . ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود فى النار ، بل لا بد أن يكون سببه محيطا به فقال « وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ » أى غمرته من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة . وسدت عليه مسالك النجاة . بأن عمل مثل عملكم أيها اليهود . وكفر بما كفرتم به حتى يحيط كفره بماله من حسنة « فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(تنبيه) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الخلود فى النار إنما هو للكفار والمشركين . لما ثبت فى السنة ، تواترا ، من خروج عصاة الموحدين من النار . فيتعين تفسير السيئة والخطيئة ، فى هذه الآية ، بالكفر والشرك . ويؤيد ذلك كونها نازلة فى اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » من عادة التنزيل العزيز أنه لا يذكر فيه آية فى الوعيد إلا ويتلوها آية فى الوعد . وذلك لفوائد : منها ، ليظهر بذلك عدله سبحانه . لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرّين على الكفر ، وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرّين على الإيمان . ومنها ، أن المؤمن لابد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه . وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق . ومنها ، أنه يظهر بوعده كمال رحمته ، وبوعيده كمال حكمته ، فيصير ذلك سببا للعرفان .

وقد قدمنا عند قوله تعالى « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »(١) أن السلف أجمعوا على أن الإيمان قول وعمل . فإذا عطف عليه العمل ، فإما أن يكون من عطف الخاص على العام . أو يقال : لم يدخل فيه ولكن مع العطف . كما فى اسم الفقير والمسكين . فقد كر.

(١) [٢ / البقرة / ٢٥] .

قال الراغب : فى هذه الآية دليل على أن قوله تعالى من قبلُ « بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » هو الكفر . وإحاطةُ الخطيئة به ، الأعمالُ السيئةُ ، وذلك لما قابله به من الإيمان والأعمال الصالحة .

ثم شرع ، سبحانه ، يقيم الدليل على أنهم ممن أحاطت به خطيئته فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» ثم بيّن الميثاق بقوله تعالى «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» وهو إخبار فى معنى النهى ، كقوله تعالى « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ »[١] وكما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كذا ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى . وقد بدئ بأعلى الحقوق وأعظمها . وهو حق الله تبارك وتعالى ، أن يُعْبَدَ وحده ولا يشرك بها شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه . ولذلك خلقهم . كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »[٢] . وقال تعالى « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ »[٣] . « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » والإحسان نهاية البر ،

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : ... وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) [١٦/ النحل / ٣٦] ونصها : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين . حتى قرن تعالى الأمرَ بالإحسان إليهما، بعبادته التى هى توحيده ، والبراءة عن الشرك ، اهتماماً به وتعظيماً له .

قال حكيم مصر فى تفسيره : العلة الصحيحة فى وجوب هـذا الإحسان على الولد ، هى العناية الصادقة التى بذلاها فى تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلًا . لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنهـا ضرراً . وكانا يحوطانه بالعناية والرعاية . ويكفلانه ، حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه . فهذا هو الإحسان الذى يكون منهما، عن علمٍ واختيارٍ ، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان . وإذا وجب على الإنسان أن يشكر ، لكل من يساعده على أمر عسير ، فضلَه ، ويكافئه بمـا يليق به على حسب الحال فى المساعد ؛ وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى، وهما اللذان كانا يسعدانه على كل شىء ، أيام كان يتعذر عليه كل شىء اهـ.

« وَذِي الْقُرْبَىٰ » أى القرابة .

قال الأستاذ الحكيم « الإحسان هو الذى يقوى غرائز الفطرة ، ويوثق الروابط الطبيعية، حتى تبلغ البيوت ، فى وحدة المصلحة ، درجةَ الكمال . والأمة تتألف من البيوت ، أى العائلات . فصلاحها صلاحها . ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة . وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدّها وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد . ثم بين سائر الأقربين . فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيـه لأهله ، فأى خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لا خير فيـه للناس لا يصلح أن يكون جزءًا من بنية أمته . لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التى هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين النـاس . فأى لحمة بعدها تصله بغـير الأهل فتجعله جزءًا منهم ، يسره ما يسرهم ويؤلمه ما يؤلمهم ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرتهم عين مضرته ؟ قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة ، وصلتها أمتن من كل صلة . فجاء الدين يقدّم حقوق الأقربين على سائر الحقوق .

وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . ثم ذكر تعالى حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال سبحانه « وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ » . اليتامى جمع يتيم . وهو من مات أبوه وهو صغير . قدم تعالى الوصية به على الوصية بالمسكين ، ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة . فعُلِمَ أنها مقصودة لذاتها . وقد أكد تعالى فى الوحى الوصية باليتيم . وفى القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا . وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على أكل ماله تشديداً خاصاً . والسرّ فى ذلك هو كون اليتيم لا يجد ، فى الغالب ، من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه والعناية بأموره الدينية والدنيوية . فإن الأم ، إن وجدت ، تكون فى الأغلب عاجزة . لا سيما إذا تزوجت بعد أبيه . فأراد الله تعالى ، وهو أرحم الراحمين ، بما أكد من الوصية بالأيتام ، أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم . يربونهم تربية دينية دنيوية ، لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم ؛ فينتشر الفساد فى الأمة فتنحل انحلالاً . فالعناية بتربية اليتامى هى الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد. والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة . فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة . وأما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون المُلْحِفون الذين يقدرون على كسب ما يفى بحاجاتهم ، أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا . إلا أنهم قد اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروه من حيث لا يعملون عملاً ينفع الناس . ولكن المسكين من يعجز عن كسب ما يكفيه اه .

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » أى قولاً حسناً . أى : كلموهم طيبا ولينوا لهم جانباً . وفيه من التأكيد والتحضيض على إحسان مقاولة الناس ، أنه وضع المصدر فيه موضع الاسم ، وهذا إنما يستعمل للمبالغة فى تأكيد الوصف ، كرجل عدل وصوم وفطر . « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ » خطاب لبنى إسرائيل . فالمراد الصلاة التى كانوا يصلونها والزكاة التى كانوا يخرجونها . « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن المضىّ على مقتضى الميثاق الذى فيه سعادتكم ورفضتموه . وقوله « إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ » استثناء لبعض من كانوا فى زمن سيدنا موسى عليه السلام ، أو فى كل زمن . فإنه لا تخلو أمة من الأمم ، من المخلصين الذين

يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة فى ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم ، وبيان أن وجود قليل من الصالحين فى الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلٰهى إذا فشا فيها المنكر ، وقلّ المعروف . « وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ » عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق . ثم نعى عليهم أيضاً إخلالهم بواجب الميثاق المأخوذ عليهم فى حقوق العباد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ » إخبار فى معنى النهى . والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء . أى لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منزله « ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ » أى أظهرتم الالتزام بموجب المحافظة على الميثاق المذكور « وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ » بلزومه . فهو توكيد للإقرار ، كقولك : أقر فلان ، شاهداً على نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ » خطاب خاص للحاضرين ، فيه توبيخ شديد « تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ » من غير التفات إلى هذا العهد الوثيق « تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ » أى تتعاونون عليهم « بِالْإِثْمِ » وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم « وَالْعُدْوَانِ » وهو التجاوز فى الظلم « وَإِنْ يَأْتُوكُمْ » أى هؤلاء الذين تعاونتم أو عاونتم عليهم « أُسَارَىٰ » بضم الهمزة ، وفتح السين، والألف بعدها . وقرأ حمزة « أَسْرَىٰ » بفتح الهمزة ، وسكون السين كقتلى ، جمع أسير ، وأصله المشدود بالأسْر ، وهو القِدّ ، وهو ما يُقَدّ أى يقطع من السير « تُفَادُوهُمْ » بضم التاء وفتح الفاء . وقرئ تَفْدوهم بفتح التاء وسكون الفاء ، أى تخلصوهم بالمال من الفداء . وهو الفكاك بعِوَضٍ « وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ » الجملة حال من الضمير فى « تخرجون » أو من « فريقاً » أو منهما . وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج ، مع كونه قريناً للقتل عند أخذ الميثاق ، لكونه مظنة للمساهلة فى أمره ، بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل . ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معاً . وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشىء من دية أو قصاص . وهو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق . ثم أنكر عليهم التفرقة بين الأحكام فقال « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » أى : التوراة وهو الموجب للمفاداة « وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » وهو المحرّم للقتل والإخراج . ثم اعلم أن ماذكرناه فى قوله تعالى « تُفَادُوهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين . من أن ذلك وصف لهم بما هو طاعة ، وهو التخليص من الأسر ببذل مال أو غيره ، والإيمان بذلك. وذكر أبومسلم أنه ضد ذلك . والمراد أنكم، مع القتل والإخراج، إذا وقع أسير فى أيديكم لم ترضوا منه إلا بأخذ مال وإن كان ذلك محرماً عليكم ؛ ثم عنده تخرجونه من الأسر .

قال أبو مسلم: والمفسرون، إنما أُتوا من جهة قوله تعالى « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » وهذا ضعيف لأن هذا القول راجع إلى ما تقدم من ذكر النبىّ ﷺ وما أنزل عليهم . والمراد أنه إذا كان فى الكتاب الذى معكم نبأ محمد فجحدتموه فقد آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض .

وكلا القولين يحتمله لفظ المفاداة ، لأن الباذل عن الأسير يوصف بأنه فاداه . والآخذ منه للتخليص يوصف أيضاً بذلك. إلا أن الذى أجمع المفسرون عليه أقرب. لأن عود قوله « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » إلى ما تقدم ذكره فى هذه الآية ، أَوْلَى من عوده إلى أمورٍ تقدم ذكرها بعد آياتٍ . أفاده الرازىّ . « فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ » إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعضٍ . أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداة الأسارى « إِلَّا خِزْيٌ » ذلّ وهوان مع الفضيحة . والتنكير للتفخيم . « فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقد فعل سبحانه ذلك، فقُتِلَتْ بنوقريظة وأُجْلِيَتْ بنوالنضير إلى أَذْرِعَاتٍ[1] وأَرِيحَا[1] من الشام . « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ » يعنى النار « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا » أى آثروا « الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » على خساستها . واستبدلوها « بِالْآخِرَةِ » مع نفاستها . « فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ » فى واحدة من الدارين . « وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : أنكر تعالى على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ ، فى المدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عبّاد أصنام ، وكانت

(١) قال ياقوت :

أذرِعات : كأنه جمع أذرعة ، جمع ذراع جمع قلة . وهو بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وغسّان .

أريحا : هى مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأُردنّ بالشام .

بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع، حُلفاءالخزرج. وبنو نضير وبنو قُرَيْظة حلفاءالأوس. فكانوا ، إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب ، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه . فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، ويسفكون دماءهم ، وبأيديهم التوراة . يعرفون فيها ما عليهم وما لهم . والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولا حلالا ولا حراماً ؛ فإذا وضعت الحرب أوزارها وأسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه ، فتفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس ، وتفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم . فإذا عيرتهم العرب بذلك وقالوا : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا . إنا أمرنا أن نفديهم وحُرِّم علينا قتالهم . فيقال : لم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحيي أن تُسْتَذَلَّ حلفاؤنا . فلذلك حين عيرهم عز وجل فقال « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » أى تفادوهم بحكم التوراة وتقتلونهم . وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ؛ ابتغاء عرض الدنيا . هذا ملخص ما ساقه ابن كثير عن محمد بن إسحاق بسنده إلى ابن عباس. ورواه أيضاً عن السدّى. فليحقق تصحيح هذه القصة .

وفى الآية تفسير آخر . أى لا تقتلوا أنفسكم لشدة تصيبكم بسكّين أو خنق أو بارتكاب ما يوجب ذلك . كالارتداد والزنى بعد الإحْصان . وقتل النفس بغير الحق ونحو ذلك . ولا تسيئوا جوار من جاوركم فيضطرون إلى الخروج من دياركم . أوْ : لا تفسدوا فتكونوا سبباً لإخراجكم أنفسكم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » شروع فى بيان بعضٍ آخر من جناياتهم . وتصديرُه بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به . والمراد بالكتاب التوراة . « وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ » يقال : قفّاه به أتبعه إياه ، من التقفية وهى متابعة شيء شيئاً . كأنه يتلو قفاه ، وقفا الصورة منها ، خلفها المقابل للوجه . والمعنى لم نقتصر على الضبط بالكتاب الذى تركه فيكم موسى ، بل أرسلنا من بعده الرسل تترى ، ليجددوا لكم أمر الدين ويؤكدوا عليكم العهود . «وَءَاتَيْنَا عِيسَى» اسم معرّب أصله يسوع. لفظة يونانية بمعنى مخلص. ومثله يشوع، بالمعجمة، فى اللغة العبرانية « ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » المعجزات الواضحات التى لا مرية فيها لذى عقل . كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص « وَأَيَّدْنَاهُ » أى قويناه على ذلك كله « بِرُوحِ الْقُدُسِ » بالروح المقدسة كما تقول : حاتم الجودِ ورجلُ صدقٍ . وهى الروح الطاهرة التى نفخها الله فيه وميزه بها عن غيره ممن خلق . قال تعالى « وَرُوحٌ مِنْهُ »(١) . ولذا كان له ، عليه الصلاة والسلام ، بالروح مزيد اختصاص لكثرة ما أحيي من الموتى . وعن الحسن البصريّ : القدس هو الله . وروحه جبريل . والإضافة للتشريف . والمعنى :

(١) [٤ / النساء/ ١٧١] ونصها : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ . . .

أعنّاه بجبريل . قال الرازىّ : والذى يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ »(١) والله أعلم .

وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ، ببيان حقيته وإظهار نهاية قبح ما فعلوا به عليه السلام « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ » من الحق، أى لا تحبه . من هوِى كفرح ، إذا أحب « اسْتَكْبَرْتُمْ » عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عندالله تعالى « فَفَرِيقًا » منهم « كَذَّبْتُمْ » إذ لم تنل أيديكم مضرّته « وَفَرِيقًا » آخر منهم « تَقْتُلُونَ » غير مكتفين بتكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ)

«وَقَالُوا» بيان لنوع آخر من مخازيهم. والقائلون المعاصرون للنبيّ عليه الصلاةوالسلام « قُلُوبُنَا غُلْفٌ » هذا كقوله تعالى «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ»(٢) أى هى مغشاة بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها . فلا تفقهه . مستعار من الأغلف الذى لم يختن « بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » رد الله أن تكون قلوبهم كذلك لأنها متمكنة من قبول الحق. وإنما طردهم عن رحمته بسبب كفرهم وزيغهم. وهذا كما قال فى سورة النساء « وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »(٣). وقوله « فَقَلِيلًا

---

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ =

مَا يُؤْمِنُونَ » « ما » مزيدة للمبالغة أى فإيماناً قليلاً يؤمنون . وهو إيمانهم ببعض الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ » هو القرآن الكريم الذى مقصود هذه السورة . وصفه بالهدى . وتنكيره للتفخيم . ونعته بقوله « مِنْ عِنْدِ اللهِ » للتشريف « مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ » من التوراة . وجواب « لما » محذوف دل عليه جواب « لما » الثانية . وعليه ، فقوله تعالى : وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية ، عطف القصة على القصة . وقيل : جوابها كفروا . ولمّا الثانية تكرار للأولى ، فلا تحتاج إلى جواب . وقيل : كفروا جواب للأولى والثانية لأن مقتضاهما واحد . وعلى الوجهين فجملة قوله « وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئه « يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا » جملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم . والاستفتاح : الاستنصار أى طلب النصر ، أى يطلبون من الله النصر على المشركين لما أنهم كانوا مستذلين فى جزيرة العرب ، ولذا كانوا يحالفون بعض القبائل تعززاً بهم على ما تقدم « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا » صحته وصدقه . كان من حقهم أن يسارعوا إلى الإيمان به لظفرهم بأمنيتهم حينئذ ، وهو انتصارهم على المشركين وحصول العزة لهم مع المؤمنين . ولكن « كَفَرُوا بِهِ » أى امتنعوا من الإيمان به خوفاً من زوال رياستهم وأموالهم . وأصرّوا على الإنكار مع علمهم بحقيقة نبوته . ولذا قال عبد الله بن سلاَم فى

= وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

قصة إسلامه : يا معشر اليهود[١] اتقوا الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق . رواه البخارىّ فى الهجرة . وروى أيضاً أن عبد الله بن سلام لما بلغه مقدم[١] النبىّ صلى الله عليه وسلم أتاه فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ . فلما أجابه عنها قال : أشهد أنك رسول الله . وسنذكر الحديث بتمامه عند قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ »[٢] الآية إن شاء الله تعالى . وقوله « فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » اللام فيه للعهد أى عليهم ، ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم ؛ كما أن الفاء للإيذان بترتبها عليه . أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولاً أولياً . إذ الكلام فيهم . وأيًّا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى « بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » «ما» نكرة موصوفة بما بعدها ، منصوبة على التميز ، مفسرة لفاعل بئس . أى بئس شيئا باعوا به أنفسهم واعتاضوا لها ، فرضوا به وعدلوا إليه . والمخصوص بالذم قوله تعالى « أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى كفرهم بالكتاب المصدق

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٢ ـ سورة البقرة ، ٦ ـ باب قوله: من كان عدوًّا لجبريل .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

لما معهم بعد الوقوف على حقيقته « بَغْياً » حسداً « أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ » لِأَنْ ينزل ، أو على أن ينزل . أى حسدوه على أن ينزل الله « مِنْ فَضْلِهِ » الذى هو الوحى « عَلَى مَنْ يشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى يشاؤه ويصطفيه للرسالة « فَبَاءُوا بِغَضَبٍ » أى رجعوا لأجل ذلك بغضب ، فى حسدهم لهذا النبىّ ﷺ حتى كفروا به « عَلَىٰ غَضَبٍ » كانوا استحقوه قبل بعثته ﷺ من أجل تحريفهم الكلم ، وتضييعهم بعض أحكام التوراة ، وكفرهم بعيسى عليه السلام .

قال الرازىّ : إن غضبه تعالى يتزايد ويكثر ويصح فيه ذلك كصحته فى العذاب ، فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة ، كغضبه على من كفر بخصال كثيرة .

قلت : وفى الصحيحين عن أبى هريرة[1] : اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك لا ملك إلا الله . والروايات فى توصيف غضبه تعالى بالشدة على بعض المنكرات متوافرة . انظر الجامع الصغير .

ويحتمل المعنى . فصاروا أحقاء بغضب مترادف ، فلا يكون القصد إثبات غضبين

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ــ كتاب الأدب ، ١٨ ــ باب أبغض الأسماء إلى الله ، ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخنى (أخنع) الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى ملك الأملاك » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ ــ كتاب الأدب ، حديث ٢٠ ونصه :

عن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ قال «إن أخنع اسم عندالله رجل تسمى ملك الأملاك».

زاد ابن أبى شيبة فى رواية « لا مالك إلا الله عز وجل » .

وحديث ٢١ ونصه : عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأخبثه وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » .

لأمرين متنوعين أو أمور ، بل المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر ، وإن كان واحدا ، إلا أنه عظيم . والله أعلم .

وقد قدمنا فى تفسير قوله تعالى « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » أن الغضب صفة وصف الله تعالى نفسه بها . وليس غضبه كغضبنا . كما أن ذاته ليست مثل ذواتنا ، فليس هو مماثلا لأبداننا ولا لأرواحنا ، وصفاته كذاته . وما قيل : إن الغضب من الانفعالات النفسانية فيقال نحن وذواتنا منفعلة ، فكونها انفعالات فينا لا يجب أن يكون الله منفعلاً بها . كما أن نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين . فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين ، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه . وليس المنسوب كالمنسوب والمنسوب إليه كالمنسوب إليه . كما قال صلى الله عليه وسلم : « ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر »(١) فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئىّ بالمرئىّ . وهذا يتبيّن بقاعدة : وهى أن كثيراً من الناس يتوهم ، فى بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها ، أنها تماثل صفات المخلوقين . ثم يريد نفى ذلك الذى فهمه فيقع فى أربعة أنواع من المحاذير : أحدها كونه مثّل مافهمه من النصوص لصفات المخلوقين . وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل . الثانى أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله فبقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله فيبقى مع جنايةٍ على النصوص ، وظنه السّيء الذى ظنه بالله ورسوله ، حيث خلاف الذى يفهم من كلامهما ، من إثبات صفات الله والمعانى الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى . الثالث : أنه ينفى تلك الصفات عن الله بغير دليل . فيكون معطِّلاً عما يستحقه الرب تبارك وتعالى . الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الموات والجمادات وصفات المعدومات. فيكون قد عطل صفات الكمال التى يستحقها الرب . ومثّله بالمنقوصات والمعدومات . وعطّل النصوص عما دلت عليه من الصفات . وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات. فيجمع فى الله وفى كلام الله بين التعطيل والتمثيل. سبحانه وتعالى عما يقول الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . أفاده الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى القاعدة التدمرية .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر.

« وَلِلْكَافِرِينَ » أى لهم . والإظهار فى موضع الإضمار للإشعار بعلّية كفرهم لما حاق بهم « عَذَابٌ مُهِينٌ » يراد به إهانتهم . أى إذلالهم . فإن كفرهم ، لما كان سببه البغى والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار فى الآخرة كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »(١) أى صاغرين حقيرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » أى لليهود « ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه « قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » من التوراة ، ولا نقرّ إلا بها « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » حال من ضمير « قالوا » بتقدير مبتدأ . أى قالوا ماقالوا وهم يكفرون بما بعده « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ » منها غير مخالف له . وفيه ردّ لمقالتهم . لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها « قُلْ » تبكيتاً لهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم وأنتم تعلمون صدقهم . قتلتموهم بغياً وعنادا ، واستكبارا على رسل الله . فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ »(٢) والخطاب للحاضرين من اليهود والماضين ، على

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .
(٢) [٢ / البقرة / ٨٧] .

طريق التغليب ، وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل ، كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضاً على أخلافهم . ودلت الآية على أن المجادلة فى الدين من عرف الأنبياء عليهم السلام، وإن إيراد المناقضة على الخصم جائز

ولما دل على كذبهم فى دعوى الإيمان بما فعلوا بعد موسى ، أقام دليلا آخر أقوى مما تقدمه . فإنه لم يعهد إليهم فى التوراة ماعهد إليهم فى التوحيد والبعدعن الإشراك . وهو فى النُّسَخ الموجودة بين أظهرهم الآن . وقد نقضوا جميع ذلك باتخاذ العجل فى أيام موسى ، وبحضرة هارون عليهما السلام . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ » من الآيات كفلق البحر وإنزال المَنّ والسلوى وغير ذلك من الدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » معبوداً من دون الله « مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد ماذهب موسى عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل . كما قال تعالى « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ »(١) وقوله تعالى « وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » أى بعبادته . واضعين لها فى غير موضعها. أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى . أو هو اعتراض . أى وأنتم قوم عادتكم الظلم .

ثم ذكر أمراً آخر هو أبين فى عنادهم وأنهم مع الهوى فقال :

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٨] ونصها : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » على الإيمان والطاعة . « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » قائلين « خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ » أي ما أمرتم به في التوراة « بِقُوَّةٍ » بجد « وَاسْمَعُوا » أطيعوا « قَالُوا سَمِعْنَا » قولك « وَعَصَيْنَا » أمرك . وظاهر السوق يقتضي أنهم قالوا ذلك حقيقة .

قال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى: سمعوه فتلقوه بالعصيان . فعبّر عن ذلك بالقول وإن لم يقولوه . كقوله تعالى « أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١) . « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ » أي حبّه على حذف المضاف . وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة . أو العجل مجاز عن صورته . فلا يحتاج إلى حذف المضاف . وعلى كلٍّ ، فأشربوا استعارة تبعية . إما من إشراب الثوب الصبغَ ـ أي تداخله فيه ـ أو من إشراب الماء ـ أي تداخله أعماق البدن ـ والجامع السراية في كل جزء . وإسناد الفعل إليهم إيهام لمكان الإشراب . ثم بيّن بقوله « فِي قُلُوبِهِمُ » للمبالغة ، فظهر وجه العدول عن مقتضى الظاهر وهو : وأشرب قلوبهم العجل. « بِكُفْرِهِمْ » بسبب كفرهم « قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أي كما زعمتم، بالتوراة. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما في قصة شعيب «أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ»(٢)

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

(٢) [١١ / هود / ٨٧] ونصها : قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ .

وكذا إضافة الإيمان إليهم. وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » قدح فى صحة دعواهم. فإن الإيمان إنما يأمر بعبادة الله وحده لا بشركة العباد لما هو فى غاية البلادة . فهو غاية الاستهزاء . وحاصل الكلام : إن كنتم مؤمنين بها عاملين ، فيما ذكر من القول والعمل ، بما فيها ، فبئسما يأمركم به إيمانكم بها . وإذ لا يسوّغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعاً . فجواب الشرط محذوف ، كما ترى ، لدلالة ما سبق عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ » كرر الأمر بتبكيتهم لإظهار نوع آخر من أباطيلهم . وهو ادعاؤهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس . لكنه لم يُحْكَ عنهم قبل الأمر بإبطاله ، بل اكتفى بالإشارة إليه فى تضاعيف الكلام بقوله « إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً » نصب على الحال من الدار الآخرة . والمراد الجنة . أى سالمة لكم ، خاصة بكم ، ليس لأحد سواكم فيها حق كما تقولون « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا »[(١)] . « مِنْ دُونِ النَّاسِ » اللام للجنس أو للعهد وهم المسلمون «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ» فسلوا الموت « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الأكدار ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالموت . والذى يتوقف عليه المطلوب لابد وأن يكون مطلوبا ، نظراً إلى كونه وسيلة إلى ذلك المطلوب . والمراد بالتمنى هنا هو التلفظ بما يدل عليه كما أشرنا إليه ، لا بمجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه ، فإن ذلك لا يراد فى مقام المحاجّة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى لأنه من ضمائر القلوب . وثَمّ تفسير آخر للتمنى

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] ونصها : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

بأن يُدْعَوْا إلى المباهلة والدعاء بالموت . وإليه ذهب ابن جرير . والأول أقرب إلى موافقة اللفظ . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

« وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » من المعجزات لأنه إخبارٌ بالغيب . وكان كما أخبر به . كقوله « وَلَنْ تَفْعَلُوا »[١] . « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » بما أسلفوا من أنواع العصيان . واليد مجاز عن النفس . عبّر بها عنها ، لأنها من بين جوارح الإنسان ، مناط عامة صنائعه . ولذا كانت الجنايات بها أكثر من غيرها . ولم يجعل المجاز فى الإسناد، فيكون المعنى بما قدموا بأيديهم، ليشمل ما قدموا بسائر الأعضاء « وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » أى بهم . تذييل للتهديد . والتنبيه على أنهم ظالمون فى دعوى ما ليس لهم ، ونفيه عمن سواهم . ونظير هذه الآية فى سورة الجمعة قوله تعالى « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »[٢] .

وقد تلطف الغزالىّ فى توجيه الإتيان بـ «لن» هنا و «لا» فى سورة الجمعة بأن الدعوى هنا أعظم من الثانية ، إذ السعادة القصوى هى الحصول فى دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهى ، وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة . فلما كانت الدعوى الأولى أعظم ، لاجَرَمَ بيّن تعالى فساد قولهم بلفظ «لن» لأنها أقوى الألفاظ النافية. ولما كانت

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٤] ونصها : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

(٢) [٦٢ / الجمعة / ٦و٧] .

الدعوى الثانية ليست فى غاية العظمة اكتفى فى إبطالها بلفظ «لا» لأنه ليس فى نهاية القوة، فى إفادة معنى النفى . والله أعلم .

ولما أخبر تعالى عنهم أنهم لايتمنون الموت، أتبعه بأنهم فىغاية الحرص علىالحياة بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

«وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ » التنكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة ، ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبىّ : على الحياة. «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » عطف على ماقبله بحسب المعنى ؛ كأنه قيل : أحرص من الناس ومن الذين أشركوا . وإفرادهم بالذكر ، مع دخولهم فى الناس ، للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص . للمبالغة فى توبيخ اليهود . فإن حرصهم ، وهم معترفون بالجزاء ، لمّا كان أشد من حرص المشركين المنكرين له ، دلّ ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار . ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقةً بإنباء المعطوف عليه ، عنه ؛ أى وأحرص من الذين أشركوا .

وأما تجويز كون الواو للاستئناف وقد تم الكلام عند قوله : « عَلَىٰ حَيَاةٍ » تقديره « وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » ناسٌ يود أحدهم ، على حذف الموصوف ، وقولُ أبو مسلم : إن فى الكلام تقديماً وتأخيرا ، وتقديره : ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة ، ثم فسر هذه المحبة بقوله : يود أحدكم لو يعمر ألف سنة ـ فلا يخفى بُعده . لأنه إذا كانت القصة فى شأن اليهود خاصة فالأليق بالظاهر ، أن يكون المراد :

ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس ومن الذين أشركوا ، ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم : إن الدار الآخرة لنا ، لا لغيرنا والله أعلم .

« يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » بيان لزيادة حرصهم ، على طريق الاستئناف . و« لَوْ » مصدرية ، بمعنى «أنْ» مؤوّل مابعدها بمصدر ، مفعول يود . أي يود أحدهم تعمير ألف سنة « وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » «ما» حجازية ، والضمير العائد على أحدهم اسمها ، وبمزحزحه خبرها ، والباء زائدة ، وأن يعمر فاعل مزحزحه ، أي وما أحدهم المتمني بمن يزحزحه ، أي يبعده وينجيه ، من العذاب ، تعميره . قال القاضي : والمراد أنه لا يؤثر في إزالة العذاب أقل تأثير ، ولو قال تعالى : وما هو بمبعده وبمنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول « وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » فسوف يجازيهم عليه .

وما ذكره بعض المفسرين من أن البصير في اللغة بمعنى العليم لايخفى فساده ، فإن العليم والبصير اسمان متباينا المعنى لغة . نعم ! لو حمل أحدهما على الآخر مجازا لم يبعد ، ولا ضرورة إليه هنا . ودعوى أن بعض الأعمال مما لايصح أن يرى ، فلذا حمل هذا البصر على العلم ـ هو من باب قياس الغائب على الشاهد ، وهو بديهيّ البطلان . قال شمس الدين ابن القيم الدمشقيّ في كتاب الكافية الشافية :

وهو البصير يرى دبيب النملة السّـــــوْداء تحت الصخر والصوّان
ويرى مجاري القُوتِ في أعضائها   ويرى عُروق بياضها بعِيَان
ويرى خِيانات العيونِ بلحظها   ويرى ، كذاك ، تقلُّبَ الأجفان

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٩٨] (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » .

روى البخارىّ فى صحيحه فى كتاب التفسير عن أنس قال[١] : سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ . وهو فى أرض يخترف ، فأتى النبىّ ﷺ فقال : إنى سائلك عن ثلاث ، لايعلمهن إلا نبىّ . فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أخبرنى بهن جبريل آنفا » ، قال : جبريل ؟ قال « نعم » قال : ذاك عدوّ اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ » . « أما أول أشراط الساعة ، فنار تَحْشُر الناسَ من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام أهل الجنة ، فزيادة كبد حوت . وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة ، نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت » قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . يارسول الله ! إن اليهود قوم بُهُتٌ وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يَبْهَتُونى . فجاءت اليهودُ ، فقال النبىُّ ﷺ « أىُّ رجل عبد الله فيكم » ؟ قالوا :

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٦ ـ باب قوله من كان عدوا لجبريل .

خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام »؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك ! فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فقالوا : شرُّنا وابن شرنا . وانتقصوه .

قال : فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية قال[1] : حضرت عصابة من اليهود رسولَ الله ﷺ فقالوا: ياأبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايعلمهن إلا نبيّ . وساق نحواً مما تقدم . وتتمته قالوا : أنت الآن ، فحدثنا من وليّك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيًّا قط ، إلا وهو وليه. قالوا : فعندها نفارقك . ولو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : فما منعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدوّنا ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ » إلى قوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » فعندها باؤوا بغضب على غضب . وفى رواية للإمام أحمد والترمذىّ والنسائىّ فى القصة : فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا : جبريل ! ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب ، عدونا . لو قلت « ميكائيل » الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان! فأنزل الله تعالى «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» إلى آخر الآية . ويؤخذ من روايات أخر أن سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب فى أمر النبىّ ﷺ . فقد روى ابن جرير عن الشعبىّ قال : نزل عمرُ الرَّوْحاءَ ، فرأى رجالًا يبتدرون أحجاراً يصلّون إليها . فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا . قال فكره ذلك ، وقال : أيما ؟ رسولُ الله ﷺ أدركته الصلاة بوادٍ فصلى ، ثم ارتحل فتركه . ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهدُ اليهود يوم مِدْرَاسِهم ، فأعجبُ من التوراة كيف تصدّق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدّق

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند جزء أول صفحة ٢٧٨ (طبعة الحلبىّ) ، وحديث رقم ٢٥١٤ (طبعة المعارف) .

التوراة ! فبينما أنا عندهم ذات يوم ، قالوا : يا ابن الخطاب ! ما من أصحابك أحد أحبّ إلينا منك . قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تغشانا وتأتينا . قال قلت : إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال ، ومرّ رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطاب ! ذاك صاحبكم فالحق به . قال : فقلت لهم عند ذلك : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . قال : فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد عَظَّم عليكم فأجيبوه . قالوا : أنت عالمنا وسيدنا ، فأجبه أنت . قال : أمّا إذْ نشدتنا به . فإنا نعلم أنه رسول الله . قال : قلت ويحكم ، إذًا هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قال : قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدوًّا من الملائكة ، وسِلْمًا من الملائكة . وإنه قُرِنَ به عدونا من الملائكة . قال : قلت : ومن عدوكم ، ومن سلمكم . قالوا : عدونا جبريل ، وسِلمنا ميكائيل . قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟ قالوا : إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار ، والتشديد والعذاب ، ونحو هذا . وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ، ونحو هذا . قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال : قلت : فوالله الذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدوّ لمن عاداهما وسِلم لمن سالمهما ، ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائيل ، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل . قال : ثم قمت فاتبعت النبيّ ﷺ فلحقته وهو خارج من مخرفة لبنى فلان . فقال لى : يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن ؟ فقرأ علىّ « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ» حتى قرأ الآيات . قال : قلت : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد جئتُ وأنا أريد أن أخبرك الخبر ، فأسمعُ اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر .

ورواه مختصراً ابن أبى حاتم أيضاً ، وفيه انقطاع ، فإن الشعبيّ لم يدرك زمان عمر رضى

الله عنه . كذا قاله الحافظ ابن كثير . وساقه أيضاً الواحدىّ ، وزاد فى آخره : قال عمر : فلقد رأيتنى فى دين الله أشد من حجر .

قال العلامة البقاعىّ : وقد روى هذا الحديث أيضاً إسحق بن راهويه فى مسنده عن الشعبىّ ، عن عمررضى الله عنه . قال شيخنا البوصيرىّ : وهو مرسل صحيح الإسناد ، انتهى . وثمّ روايات متنوعات ساقها ابن كثير فى تفسيره ، لا نطوّل كتابنا بسردها ، ومرجعها واحد . فإن قيل : بين رواية البخارىّ الأولى وما بعدها تنافٍ . فالجواب : لا منافاة ، لأن قراءته ﷺ لها فى محاورة عبد الله بن سلاَم ، ردًّا لقول اليهود ، لا يستلزم نزولها حينئذ . فإن المعتمد فى سبب نزولها غير قصة عبدالله بن سلام مما سلف من الروايات. فإن طرقها يقوى بعضها بعضاً ، وكأن النبىّ ﷺ لما قال له عبد الله بن سلام : إن جبريل عدو لليهود ، تلا عليه الآية ، مذكّراً له سبب نزولها ـ كذا قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح .

وقد أشار إلى ذلك السيوطىّ فى « الإتقان » حيث قال (تنبيه) قد يكون فى إحدى القصتين ، (فتلا) فَيَهِمُ الراوى ، فيقول (فينزل) . وقال العلامة ولى الله الدهلوىّ قدس سره فى كتابه « أصول التفسير » وقد تحقق عند الفقير أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون : نزلت الآية فى كذا وكذا ، وكأن غرضهم تصوير ماصدقت عليه الآية وذكرُ بعض الحوادث التى تشملها الآية بعمومها . سواء تقدمت القصة أو تأخرت . إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً أو إسلامياً . استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها ، والله أعلم .

فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد فى هـذا القسم مدخلا . وللقصص المتعددة هنالك سعة . فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية . انتهى .

وقوله تعالى « لجبريل » قرىء فى السبع بكسر الجيم والراء بلا همز ، وبفتح الجيم بدونها أيضاً ، وبفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة ثم ياء وبدونها . قال ابن جنىّ : العرب إذا نطقت بالأعجمىّ خلطت فيه .

وقوله «فإنه نزله» تعليل لجواب الشرط قائم مقامه ، والبارز الأول لجبريل عليه السلام ، والثانى للقرآن ، أضمر من غير سبق ذكر ، إيذاناً بفخامة شأنه ، واستغنائه عن الذكر ، لكمال شهرته ونباهته ، لاسيما عند ذكر شئ من صفاته . وقوله « على قلبك » زيادة تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحى ، فإنه القابل الأول له ، إن أريد به الروح . ومدار الفهم والحفظ إن أريد به المضو ، وهذا كقوله « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ »[(١)] وكان حق الكلام أن يقال « على قلبي » لأنه المطابق لقُلْ ، ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به تحقيقاً لكونه كلام الله . وأنه أمر بإبلاغه . وقوله « بِإِذْنِ اللهِ » أى بأمره . وقوله « مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من التوراة وبقية الصحف المنزلة . وقوله « وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يهدى للرشد وبشرى لهم بالجنة ، كما قال تعالى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ »[(٢)] الآية . وقال تعالى « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »[(٣)] وفيه رد على اليهود ، حيث قالوا : إن جبريل ينزل بالحرب والشدة كما تقدم ، فقيل : فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضاً . فإن قيل : من شأن الشرط والجزاء الاتصال بالسببية والترتب ، فكيف استقام قوله «فإنه نزله» جزاء للشرط ؟ أجيب بأن قوله « فإنه نزله » تعليل لجواب الشرط ، كما أسلفنا . والمعنى : مَنْ عادى جبريل من أهل الكتاب ، فلا وجه لمعاداته ، بل يجب عليه محبته ، فإنه نزل عليك كتاباً

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣و١٩٤] ونصها: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً أَعْجَمِياً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٢] ونصها : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً .

مصدقاً لكتبهم . فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه ، فى إنزاله ما ينفعهم ، ويصحح المنزل عليهم . وقيل : الجواب محذوف تقديره « فليمت غيظاً » . وعليه فلا يكون « فإنه نزله » نائباً عنه . ووجهه أن يقدر الجواب مؤخراً عن قوله « فإنه نزله » ويكون هو تعليلاً وبياناً لسبب العداوة ، كأنه قيل : من عاداه، لأنه نزل على قلبك فليمت غيظاً .

قال الرضى : كثيراً ما يدخل الفاء على السبب ويكون بمعنى اللام ، قال الله تعالى «فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ »[1]، وقيل تقديره: فهو عدو لى وأنا عدوه، بقرينة الجملة المعترضة المذكورة بعده فى وعيدهم ، وهى قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » أى من كان عدواً لله لإنزاله فضله على من يشاء أو لأمر آخر . وأفادت الآية غضبَ الله تعالى لجبريل على من عاداه . وقد[2] روى البخاريّ فى صحيحه ، عن أبى هريرة حديثاً قدسياً « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » .

وصدّر الكلام بذكره الجليل تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأن عداوتهم عداوته عز وعلا .

وقدم الملائكة على الرسل ، كما قدم الله على الجميع ؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحى ، ونزوله بتنزيل الملائكة ، وتنزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب ،

(١) [١٥ / الحجر / ٣٤] ونصها : قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .
و [٣٨ / صٓ / ٧٧] .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ونصه :
عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قال : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىّ مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطينه . ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .

وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما ، والدلالة على فضلهما ، وإنهما ، وإن كانا من الملائكة ، فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة ، تنزيلاً للتغاير الوصفيّ ، منزلة التغاير الذاتيّ ، وللتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر ، واستجلاب المداوة من الله تعالى ، وإن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع ، إذ الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد ، ولأن المحاجة كانت فيهما . ووضع « الكافرين » موضع « لهم » ، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وان عداوة الملائكة كفر . وقد قرىء فى السبع «ميكال» كميزان، و«ميكائل» بهمزة مكسورة بعد الألف بدون ياء و«ميكائيل» بالهمزة والياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أى أنزلنا إليك علامات واضحات دالات على نبوتك . وتلك الآيات هى ما حواه القرآن من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم ، وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة ، فأطلعها اللهُ فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يَدْعه إلى إهلاكها الحسدُ والبغىُ . إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة، تصديقُ من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وصفتُ ، من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شىء منه عن آدميّ . وحمل الآيات على ما ذكرناه من آيات القرآن المجيد أولى من حملها على سائر المعجزات المأثورة . لأن الآيات إذا قرنت إلى التنزيل ، كانت أخص بالقرآن . وقوله « وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أى المتمردون من الكفرة ، واللام للعهد ، أى الفاسقون المعهودون ، وهم اليهود . أو للجنس ، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف يقتضيه المقام ، أى كفروا بالآيات البينات ، « وَكُلَّمَا عَاهَدُوا » الخ. أو أينكرون فسقهم وكلما الخ ، وقيل : الواو زائدة ، وقيل هى « أو » التى لأحد الشيئين . حركت بالفتح . وقد قرىء شاذاً بسكونها . فتكون بمعنى بل . دلت عليه القرينة . أعنى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » ترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ . قال ابن جنىّ : «أو» هذه هى التى بمعنى «أم» المنقطعة ، وكلتاهما بمعنى « بل » ـ موجود فى الكلام كثيراً . أنشد الفراء لذى الرمة :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِى رَوْنَقِ الضُّحَى ... وَصُورَتِهَا . أَوْ أَنْتِ فِى العَيْنِ أَمْلَحُ

وكذا قال فى قوله تعالى « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » وعلى الوجه الأول ، فالمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه ، لأن مثل ذلك ، إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التنكير والتبكيت . ودل بقوله « أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا » على عهد بعد عهد نقضوه ونبذوه . بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم . فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات ، بأن ذلك ليس ببدع منهم بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم. على ما بينه فى الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالاً بعد حال . لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته ، كصعوبة من لم تجر عادته بذلك .

قال العلامة : واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ، ومن آبائهم ، فنقضوا ، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا « الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ »(١) . والنبذ الرمى بالذمام، ورفضه. وإسناده إلى فريق منهم، لأن منهم من لم ينبذه . وفى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون . قوله تعالى :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٥٦] وتمام الآية : وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » تصريح بما طوى قبلُ . فإن نبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها ، أعقبهم التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذى فى كتبهم نعته ، كما قال تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »(١) الآية ، فتنكير « رسول » للتفخيم . والجار بعده متعلق بجاء ، أو بمحذوف وقع صفة لرسول ، لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ماأفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية . وقوله « كِتَابَ اللهِ » يعنى التوراة ، لأنهم بكفرهم برسول الله ، المصدق لما معهم ، كافرون بها ، نابذون لها . وقيل « كِتَابَ اللهِ » القرآن نبذوه بعد مالزمهم تلقيه بالقبول . وقوله « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » مثل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثّل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه ، وقلة التفات إليه . وقوله « كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » جملة حالية ، أى نبذوه وراء ظهورهم ، مشبّهين بمن لايعلمه . فإن أريد بهم أحبارهم ، فالمعنى كأنهم لايعلمونه على وجه الإيقان ، ولا يعرفون مافيه من دلائل نبوته ﷺ . ففيه إيذان بأن علمهم به رصين ، لكنهم يتجاهلون . أو كأنهم

(١) [٧/ الأعراف/ ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

لا يعلمون أنه كتاب الله ، أو لا يعلمونه أصلاً ، كما إذا أريد بهم الكل. وفى هذين الوجهين، زيادة مبالغة فى إعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة . وهـذا ، وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن ، فالمراد بالعلم المنفىّ فى « كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » هو العلم بأنه كتاب الله ، ففيه ما فى الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون فى ذلك، وإنما يكفرون به مكابرة وعناداً، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » هو حكاية لفن آخر من زيغهم وضلالهم ، إثْرَ نبذهم كتاب الله والعمل بما بين أيديهم . وهو اتباعهم لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والكفر ، وانه إنما نال ذلك الملكَ بسبب معرفته السحر . وزادوا على ذلك فنسبوه إلى الردة والكفر لأسباب افتروها عليه ، فبرأه الله تعالى من هذا الافتراء والاختلاق ، وألصق الكفر بأولئك الشياطين الذين يضللون العقول والأفهام بتعليم السحر والشعبذة ، وإسناد التأثير إلى غير الخالق ، سبحانه ، والصد عن سبيل الحق ، وابتغائهم إياها عوجا

و « تَتْلُو » بمعنى تقص وتحدث. من التلاوة ، وهى القراءة . أو بمعنى تكذب وتختلق ، وهو قول أبى مسلم ، قال : يقال تلا عليه ، إذا كذب ، وتلا عنه إذا صدق . وهكذا قال الراغب فى تفسيره : تلا عليه كذب ، نحو روى عليه ، وقال عليه « وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ »(١). وقال : الآية معطوفة على ماتقدم من ذكر اليهود ، وهى منطوية على أمرين: ذم اليهود فى تحرى السحر وإيثاره ، وتبرئة لسليمان عليه السلام مما نسبوه إليه ، وتخرصوه عليه اه . وذلك أنهم زعموا أن سليمان عليه السلام ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام ، وبنى لها المعابد ، كما تراه فى الفصل الحادى عشر من سفر الملوك الثالث . فانظر إلى هذه الجرأة العظيمة والقحة الكبيرة . ولما تنبه عقلاء أهل الكتاب المتأخرون لمثل هذه الفرى ، اعترفوا بأنه ليس كل قول من الأقوال المندرجة فى كتبهم المقدسة إلهاميا ، بل بعضها كتب على طريقة المؤرخين ، يعنى بلا إلهام ، كما فى « إظهار الحق » . والمراد بالشياطين شياطين الإنس ، وهم المتمردة العصاة الأشرار الأفوياء ، الدعاة إلى الباطل . وقوله « عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ » أى على عهد ملكه من تلك الأقاصيص المختلقة عليه . وقوله تعالى « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » تنزيه لساحته عليه السلام من الردة والشرك وعبادة الأوثان التى نسبوها إليه ، وتكذيب لمن تقولها . وقال كثيرون : هذا تبرئه من السحر ، وأنه تعالى كنى عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبيا كان معصوماً عنه . وإنما كان كفراً لكونه يكون بالتوجه إلى الأفلاك والشياطين وعبادتها ، وزعم أنها مؤثرة دونه تعالى .

(١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.
و [٣ / آل عمران / ٧٨] ونصها : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

والمعنى الأول أصرح وأوضح . وقوله تعالى « وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » عني بالشياطين من ذكرناهم قبلُ وهم خبثاء الإنس وأشرارهم . كما في قوله تعالى « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ »(١) وقولِهِ « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ »(٢) والذي يعيّن هذا المعنى قولُهُ « تَتْلُو » لأن تلاوة شياطين الجن ، لايسمعها أحد . ومعنى « تتلو » تقص كما تقدم. وقوله : « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يعيّن هذا المعنى أيضاً ، إذ لايتعلم أحد السحر إلا من شياطين الإنس . والمراد بقوله « كَفَرُوا » كفرهم بآيات الله المنزلة ، أو عبادتهم غيره تعالى ، أو كفرهم باستعمال السحر والشعوذة ، تعمية على الحق ، وتغشيةً للبصائر . وجملة قوله « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » حالية من ضمير « كَفَرُوا » ، أو خبر ثان لِـ« لَـٰكِنَّ » ، أو مستأنفة . هذا على تقدير كون الضمير للشياطين . وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل « اتَّبَعُوا » فهي إما حال منه أو استئنافية . وقوله تعالى « وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَـكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » . اعلم أن للعلماء في هذه الآية وجوها كثيرة ، وأقوالا عديدة ، فمنهم من ذهب فيها مذهب الأخباريين نقلة الغث والسمين ، ومنهم من وقف مع

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

ظاهرها البحث وتمحّل لما اعترضه ، بما المعنى الصحيح فى غنى عنه . ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير وردّ آخرها على أولها ، بما جعلها أشبه بالألغاز والمعميات، التى يتنزه عنها بيان أبلغ كلام. إلى غير ذلك مما يراه المتتبع لما كتب فيها .

والذى ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرَيْن بالصلاح والتقوى فى بابل ـ وَهى مدينة بالعراق على نهر الفرات ـ وَكانا يعلمان الناس السحر . وَبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء ، وَما يعلمانه للناس هو بوحى من الله . وبلغ مكر هذين الرجلين ، ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » ، أى إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك ، أتشكر أم تكفر ، وننصح لك أن لاتكفر . يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلٰهية ، وصناعتهما روحانية ، وأنهما لايقصدان إلا الخير . كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان ، قائلين لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم : نوصيك بأن لا تكتب لجلب امرأة متزوجة إلى رجل غير زوجها ، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء . ولليهود فى ذلك خرافات كثيرة . حتى إنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله . وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس. فجاء القرآن مكذباً لهم فى دعواهم نزوله من السماء، وفى ذم السحر، ومن يتعلمه أو يعلمه ، فقال « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ » الآية ، فـ « ما » هنا نافية ، على أصح الأقوال ، ولفظ « الملكين » هنا وارد حسب العرف الجارى بين الناس فى ذلك الوقت ، كما يرد ذكرُ آلهةِ الخير والشر فى كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم ، وكما يرد فى كلام المسلم، فى الرد على المسيحيين، ذكرُ تجسد الإلٰه وصلبه ، وإن كان لايعتقد ذلك . وقوله تعالى « فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ » من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر فى أقبح صورة ، أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل ، وطرق الإفساد ، أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع : كالمرء وزوجه . والخلاصة : أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا : أن اليهود كذبوا القرآن

ونبذوه وراء ظهورهم ، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه . وزعموا أنه كفَرَ ، وهو لم يكفر . ولكن شياطينهم هم الذين كفروا ، وصاروا يعلمون الناس السحر ، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت ، اللذين سمَّوْهما ملَكين ، ولم ينزل عليهما شيء ، وإنما كانا رجلين يدَّعيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لايقصدان إلا الخير ، ويحذرانهم من الكفر . وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقونَ به بين المجتمعين ، ويحلون به عقد المتحدين . فأنت ترى من هذا أن المقام كله للذم ، فلا يصح أن يرد فيه مدح هاروت وماروت . والذي يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن أنكر نزول أي ملَك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عندالله، غير الوحي إلىالأنبياء ، ونص نصًّا صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بني نوعهم فقال « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[1] ، وقال منكراً على من طلب إنزال الملك « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ »[2] ، وقال في سورة الفرقان « وَقَالُوا مَالِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ـ إلى قوله ـ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا »[3] .

وللقصاص فيهاروت وماروت أحاديث عجيبة . فزعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة ، وأنهما لما نظرا إلى مايصنع أهل الأرض من المعاصي، أنكرا ذلك وأكبراه ودعوا على أهل الأرض . فأوحى الله تعالى إليهما : إني لو ابتليتكما بماابتليت به بني آدم من الشهوات لعصيتماني، فقالا : يا رب ، لو ابتليتنا لم نفعل ، فجرِّبْنا . فأهبطهما إلى الأرض ، وابتلاهما الله بشهوات

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧ـ٩] .

بنى آدم، فمكثا فى بلدة كانت فيها فاجرة تسمى « الزهرة » فدعواها إلى الفاحشة وواقعاها بعد أن شربا الخمر، وقتلا النفس وسجدا للصنم. وعلماها الاسم الأعظم، الذى كانا به يعرجان إلى السماء ، فتكلمت المرأة بذلك الاسم ، وعرجت إلى السماء ، فسخها الله تعالى ، وصيّرها هذا الكوكب المسمى بالزهرة . ثم إن الله تعالى عرّف هاروت وماروت قبيح ما فيه وقعا ، ثم خيّرهما بين عذاب الآخرة آجلًا ، وبين عذاب الدنيا عاجلًا ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلهما ببابل منكوسيْن فى بئر إلى يوم القيامة ، وهما يعلّمان الناس السحر، ويدعوان إليه ، ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلم السحر خاصة . وهذه القصة من اختلاق اليهود وتقولاتهم . ولم يقل بها القرآن قط ، وإنما ذكرها التلمود ، كما يعلم من مراجعة « مدراس يدكوت » فى الإصحاح الثالث والثلاثين ، وجاراه جهلة القصاص من المسلمين ، فأخذوها منه .

قال الرازىّ فى تفسيره : إن القصة التى ذكروها باطلة من وجوه :

أحدها : أنهم ذكروا فى القصة أن الله تعالى قال لهما (أى لهاروت وماروت) : لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم لعصيتمانى ، فقالا : لو فعلت ذلك بنا يا رب لما عصيناك ، وهذا منهم تكذيب لله تعالى ، وتجهيل له ، وذلك من صريح الكفر .

وثانيها : أنهما خيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة وبين العذاب ، والله تعالى خيّر بينهما مَنْ أشرك به طول عمره ، وبالغ فى إيذاء أنبيائه .

وثالثها : أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يعلمان السحر ، فى حال كونهما معذبين ويدعوان إليه ، وهما يُعَاقَبَان .

وهكذا ، الإمام أبو مسلم احتج على بطلان نزول السحر عليهما أيضاً بوجوه :

الأول : أن السحر لو كان نازلًا عليهما لكان منزّله هو الله ، وذلك غير جائز ، لأن السحر كفر وعبث لايليق بالله تعالى إنزال ذلك .

الثانى : ان قوله « وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يدل على أن تعليم السحر كفر . فلو ثبت فى الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر. وذلك باطل.

الثالث : كما لا يجوز فى الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر ، فكذلك فى الملائكة بطريق الأولى .

الرابع : إن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموه ؟ وقد جرت عادة الله بإبطاله ، كما قال فى قصة موسى عليه السلام « مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ »(١) انتهى .

وقد ساق الرازىّ ما ارتآره أبو مسلم فى تفسير هذه الآية . ولم نشأ نقله لبعده عن الصواب . وهكذا ما ذكره الإمام ابن حزم فى كتابه « الفصل » فى بحث « عصمة الملائكة » ففيه تكلف وتمحل غريب ، كما يعلم بمراجعتهما .

وللراغب الأصفهانىّ احتمالات فى تصحيح القصة ، وتجويزات عجيبة تنبو عن الحق الصراح الذى آثرنا نقله أولاً عن بعض المحققين . والله أعلم .

واعلم أن لفظ السحر ، فى عرف الشرع ، مختص بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد ، أفاد ذم فاعله ، قال تعالى « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ »(٢) يعنى موّهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيّهم تسعى . وقد

---

(١) [١٠ / يونس / ٨١] ونصها : فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١١٦] ونصها : قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

يستعمل مقيداً : فيما يمدح ويحمد ، كما قال رسول الله ﷺ لعمرو بن أهتم : « إن من البيان لسحرا »[1] ، لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ، وبليغ عبارته . وبالجملة، فالسحر المطلق إنما هو تخييل بشعوذة صارفة للأبصار ، أو تمتمة مزخرفة عائقة للأسماع ، فلا يغير حقائق الأشياء ، ولا ينقل الصور . وقوله تعالى « وَمَاهُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » قال الراغب : الإذن قد يقال فى الإعلام بالرخصة ، ويقال للعلم ، ومنه آذنته بكذا ، ويقال للأمر الحتم . وينبغى أن يعلم أن الإذن فى الشيء من الله تعالى ضربان :

أحدهما : الإذن لقاصد الفعل فى مباشرته . نحو قولك : أذن الله لك أن تصل الرحم .

والثانى : الإذن فى تسخير الشيء على وجه تسخير السم فى قتله من يتناوله، والترياق فى تخليصه من أذيته . فإذن الله تعالى فى وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثانى ، وذلك هو المشار إليه بالقضاء، وعلى هذا يقال: «الأشياء كلها بإذن الله وقضائه» ولا يقال : الأشياء كلها بأمره ورضاه وقوله تعالى «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ» إرشاد إلى أن ليس فى تعلم السحر إلا المضرة ، لما فيه من التلبيس والتمويه ، وإيهام الباطل حقاً ، والتوصل به إلى المفاسد والشرور . وقوله سبحانه «وَلَا يَنفَعُهُمْ» صرح به إيذاناً بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر، بل هو شر بحت ، وضرر محض . وقوله تعالى « وَلَقَدْ عَلِمُوا » أى اليهود الذى حكيت ضلالاتهم . وقوله «لَمَنِ اشْتَرَاهُ » أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ، والحق الذى أنزله . وقوله « مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ » أى نصيب ، لإقباله على التمويه والكذب ، واستمال

(١) فى سنن أبى داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٨٦ ـ باب ما جاء فى المتشدق فى الكلام ، حديث ٥٠٠٧ .

عن عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان من المشرق . فخطبا . فعجب الناس ـ يعنى لبيانهما ـ فقال رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحرا » .

ذلك فى اكتساب حطام الدنيا وتمتعاتها . وفيه إشارة إلى أن اختيارهم للسحر ، ليس من جهلهم بضرره ، بل أتوا ما أتوا عن علم بعاقبته السوأى . وقوله تعالى « وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » أى ما باعوا به حظهم الأخروىّ ، حتى كأنهم أتلفوا أنفسهم ، وإنما نفى عنهم العلم بقوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » مع إثباته لهم على سبيل التوكيد القسمىّ بقوله «وَلَقَدْ عَلِمُوا» ـ لأن معناه لو كانوا يعملون بعلمهم . فجعلهم غير عالمين ، لعدم عملهم بموجب علمهم . ولما بين سبحانه ما عليهم فيما ارتكبوا من المضار أتبعه ما فى الإعراض عنه من المنافع فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا » أى بما دعوا إليه من القرآن الحكيم « وَاتَّقَوْا » أى ما يؤثمهم، ومنه السحر والتمويه وقوله « لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ » جواب « لو » وأصله : لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم . فحذف الفعل وغيّر السبك إلى ما عليه النظم الكريم ، دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها ، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه ، وقوله تعالى « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى أن ثواب الله خير . وإنما نسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجب العلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا » للنبىّ ﷺ « رَاعِنَا » التى تقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وحفظ الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون

بها ألسنتهم ، ويقصدون بها الرعونة ، وهى إفراط الجهالة ، فنهاهم عن موافقتهم فى القول ، منعاً للصحيح الموافق فى الصورة لشبهه من القبيح ، وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد فقال « وَقُولُوا انظُرْنَا » فأبقى المعنى وصرف اللفظ . أى انظر إلينا . بالحذف والإيصال . أو انتظرنا . على أنه من نظره إذا انتظره ، وقرئ أنظرنا من النظرة أى أمهلنا حتى نحفظ. وقرئ راعونا على صيغة الجمع للتوقير . وراعناً على صيغة الفاعل أى قولا ذا رعنٍ ، كدارعٍ ولابنٍ ، لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سبباً للسب بالرعن اتصف به «وَاسْمَعُوا» أى قولوا ما أمرتكم به ، وامتثلوا جميع أوامرى ، ولا تكونوا كاليهود ، حيث قالوا سمعنا وعصينا «وَلِلْكَافِرِينَ» أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى التهاون بمقام رسول الله ﷺ « عَذَابٌ أَلِيمٌ » لما اجترؤوا عليه من العظيمة ، وهو تذييل لما سبق ، فيه وعيد شديد لهم ، ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه . وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة النساء « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »(١) ومن ليهم ما جاء فى الحديث أنهم كانوا إذا سلموا يقولون « السام عليكم »(٢) والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ « وعليكم » ، وإنما يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا .

---

(١) [٤ / النساء / ٤٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٥ ـ باب الرفق فى الأمر كله .

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها، زوج النبى ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة : ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة.

قالت فقال رسول الله ﷺ « مهلا يا عائشة . إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » .

فقلت : يا رسول الله ! ولم تسمع ماقالوا ؟ قال رسول الله ﷺ « قد قلتِ : وعليكم ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » بيـان لشدةعداوة الـكافرين من القبيلين للمؤمنين، حسداً وبغياً. ليقطع التشبه بهم . فإن مخالفة الأعـداء من الأغراض العظيمة للمتمكنين فى الأخلاق الفاضلة . ثم بين أن الحسد لايؤثر فى زوال ذلك بقوله « وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » و (الاختصاص) عناية تميّز المختص لمرتبة ينفرد بها دون غيره ، وفيـه تنبيه على ما أنعم به على المؤمنين ، من الشرع التام الـكامل الذى شرعه لهم .

ولمّا أنـكرت اليهود أن يقع شىء من النسخ لآيات الله ، توصلًا بذلك إلى إنـكار آيات القرآن ، وتأبيدِ تأبيد التوراة ، ردّ عليهم سبحانه ـ بعد تحقيق حقية الوحى ـ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » أى : ما نبدّل من آية بغيرها ـ كنَسْخنا آيات التوراة بآيات القرآن ـ « أَوْ نُنْسِهَا » أى : نذهبها من القلوب ـ كما أخبر بقوله « وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ »(١) ـ وقرئ « أو ننسأها » أى نؤخرها ونتركها بلا نسخ ، كما أبقى كثيراً

---

(١) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

من أحكام التوراة فى القرآن . وعلى هذه القراءة ، فقد نشر على ترتيب هذا اللف قوله « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » أى : من المنسوخة المبدلة ـ كما فعل فى الآيات التى شرعت فى الملة الحنيفية ما فيه اليسر ، ورفع الحرج ، والعنت ـ فكانت خيراً من تلك الآصار والأغلال . وقوله « أَوْ مِثْلِهَا » أى : مثل تلك الآيات الموحاة قبل ، كما يُرى فى كثيرٍ من الآيات فى القرآن الموافقة لِمَا بين يديها مما اقتضت الحكمة بقاءه واستمراره .

قال الراغب : فإن قيل : إن الذى تُرِكَ ولم يُنْسَخ ليس هو مثله بل هو هو ، فكيف قال « بمثلها » ؟ قيل : الحكم الذى أنزل فى القرآن ـ وكان ثابتاً فى الشرع الذى قبلنا ـ يصحّ أن يقال هو هو ، إذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته ـ التى هى اللفظ . ويصح أن يقال هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه فقط بل اعتبر باللفظ . ونحو ذلك أن يقال : ماء البئر هو ماء النهر ـ إذا اعتبر جنس الماء ، وتارة يقال : مثل ماء النهر ـ إذا اعتبر قرار الماء . اهـ .

على أنّ إرادة العين بالمثل شائعة ـ كما فى قولهم : مثلك لا يبخل ـ « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منه ، وعلى مثله فى الخير .

قال الراغب : أى لاتحسبنّ أنّ تغييرى لحكمٍ ، حالًا فحالًا ، وأنى لم آت بالثانى فى الابتداء ـ هو العجز ؛ فإنّ من علم قدرته على كل شىء لايظنّ ذلك . وإنما تغيُّر ذلك يرجع إلى مصلحة العباد ، وأنّ الأليق بهم ، فى الوقت المتقدّم ، الحكم المتقدّم . وفى الوقت المتأخّر ، الحكم المتأخّر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » فهو يملك أموركم ويدبّرها ، وهو أعلم بما يتعبّدكم به من ناسخٍ أو منسوخ . « وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ » يلى أموركم

« وَلَا نَصِيرٍ » ناصر يمنعكم من العذاب .

وقضيّة العلم بمـا ذكر من الأمور الثلاثة ، هو الجزم والإيقان بأنّه تعالى لا يفعل بهم ـ فى أمرٍ من أمور دينهم أو دنياهم ـ إلّا ماهو خيرٌ لهم، والعمل بِمُوجبه ـ من الثقة به ، والتوكّل عليه ، وتفويض الأمر إليه . من غير إصغاء إلى أقاويل اليهود ، وتشكيكاتها التى من جملتها ماقالوا فى أمر النسخ ، حيث أنـكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوّة عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أن له مُلك السمٰوات والأرض وسلطانهما ، وأنّ الخلق أهل مملـكته وطاعته . عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأنّ له أمرهم بما يشاء ، ونهيهم عمّا يشاء ، ونسخ مايشاء ، وإقرار مايشاء . والذى حمل اليهود على منع النسخ إنما هو الـكفر والعناد ؛ وإلا فقد وُجد فى شريعتهم النسخ بكثرة .

وقد ذكر العلامة الشيخ رحمة الله الهندىّ فى (إظهار الحقّ) أمثلةً وافرةً مما وقع من ذلك فى التوراة والإنجيل . فارجع إليها فى الباب الثالث منه .

تنبيهان

الأول : قال بعض الفضلاء : نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون أو اليهود : إنّ محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه . وفى الآية ردّ عليهم بأنّ المقصود من نسخ الحـكم السابق : تهيُّؤ النفوس لأرقى منه . وهو معنى قوله تعـالى « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » لأنّ الخالق تعالى ربّى الأمّة العربية فى ثلاث وعشرين سنة تربيةً تدريجية لا تتم لغيرها ـ بواسطه الفواعل الاجتماعية ـ إلّا فى قرونٍ عديدة . لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليّتها ، ومتى ارتقت قابليّتها بدّل الله لهاذلك الحـكم بغيره . وهذه سنّة الخالق فى الأفراد والأمم على حدٍّ سواء . فإنّك لو نظرت فى الـكائنات الحية ـ من أوّل الخلية النباتية إلى أرقى شكلٍ من أشكال الأشجار ، ومِن أوّلِ رتبةٍ من رتب الحيوانات إلى الإنسان ـ لرأيت

أن النسخ ناموس طبيعىّ محسوس فى الأمور المادّية والأدبية معاً .. ! فإنّ انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين ، ثم إلى طفل ، فيافعٍ ، فشابّ ، فكهلٍ فشيخٍ ، وما يتبع كل دورٍ من هذه الأدوار ـ من الأحوال الناسخة للأحوال التى قبلها ـ يريك بأجلى دليل : أنّ التبدّل فى الكائنات ناموس طبيعىّ محقق . وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكرٍ فى الكائنات ، فكيف يستنكر نسخ حكمٍ وإبداله بحكم آخر فى الأمة ، وهى فى حالة نموٍّ وتدرج من أدنى إلى أرقى ؟ هل يرى إنسانٌ له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب ـ وهم فى مبدإ أمرهم ـ بما يلزم أن يتصفوا به وهم فى نهاية الرقّ الإنسانىّ ، وغاية الكمال البشرىّ .. ؟! وإذا كان هذا يصح ، وجب أن الشرائع تكلف الأطفال بما تكلف به الرجال ، وهذا لم يقل به عاقل فى الوجود ..! وإذا كان هذا لا يقول به عاقل فى الوجود ، فكيف يجوز على الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ بأن يكلف الأمة ـ وهى فى دور طفوليتها ـ بما لاتتحمله إلّا فى دور شبوبيتها وكهولتها ..؟ وأى الأمرين أفضل : أَشَرْعُنا الذى سَنّ الله لنا حدوده بنفسه ، ونسخ منه ما أراد بعلمه ، وأتمه ـ بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقضوا حرفاً منه ـ لانطباقه على كل زمان ومكان ، وعدم مجافاته لأى حالةٍ من حالات الإنسان ..؟! أم شرائع دينية أخرى ، حرّفها كهانها ، ونسخ الوجودُ أحكامها ـ بحيث يستحيل العمل بها ـ لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه ..؟!

الثانى : أسلفنا ـ فى مقدمة التفسير ـ إلى أن النسخ باصطلاح السلف أعم منه فى اصطلاح الخلف ، بما ينبغى مراجعته ..

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ » (أم) هنا ، إما

متصلة معادلة للهمزة فى (ألم تعلم) أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور ، قادرٌ على الأشياء كلها، يأمر وينهى كما أراد ... أم تعلموا وتقترحون بالسؤال ـ كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام ؟ وإما منقطعة ـ بمعنى بل ـ للإضراب والانتقال عن حملهم على العمل بموجب عِلْمِهِم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك ، وأمارات التأثّر من أقاويل الكفرة ، إلى التحذير من ذلك . ومعنى (الهمزة) إنكار وقوع الإرادة منهم ، واستبعاده . لما أن قضيّة الإيمان وازعة عنها . وتوجيه الإنكار إلى الإرادة ـ دون متعلّقها ـ للمبالغة فى إنكاره واستبعاده ، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته . فضلا عن صدور نفسه . وقوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ » أى : يختره ، ويأخذه لنفسه « بِالْإِيمَانِ » . بمقابلته بَدَلًا منه « فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى عدل عن الصراط المستقيم . جملةٌ مستقلة مشتملة على حكم كليّ أخرجت مخرج المثل جيء بها لتأكيد النهى عن الاقتراح المفهوم من قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ ، معطوفة عليه . ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل ويؤدى بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان . فظهر وجه ذكر قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ بعد قوله تعالى « مَا نَنْسَخْ » . فإن المقصود من كل منهما تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها .

قال الراغب : فإن قيل ما فائدة قوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ » الخ ومعلوم أنه بدون الكفر يضل الإنسان سواء السبيل فكيف بالكفر؟ قيل معنى ذلك من يتبدل الكفر بالإيمان يعلم أنه قد ضل، قبلُ، سواء السبيل ؛ وفى ذلك تنبيه أن ضلاله سواء السبيل قاده إلى الكفر بعد الإيمان. ومعناه لا تسألوا رسولكم كما سئل موسى فتضلوا سواء السبيل فيؤدى بكم إلى تبديل الكفر بالإيمان. فمبدأ ذلك، الضلالُ عن سواء السبيل. ووجه آخر وهو أنه سمى معاندة الأنبياء عليهم السلام ، بعد حصول ما تسكن النفس إليه ، كفراً . إذ هى مؤدية إليه . كتسمية العصير خمراً. فقال «وَمَنْ يَتَبَدَّلِ» أى يطلب تبديل الكفر، أى المعاندة التى هى مبدأ الكفر، بالإيمان أى بما حصل له من الدلالة المقتضية لسكون النفس، فقد ضل سواء السبيل.

ووجه ثالث وهو أن ذلك نهاية التبكيت لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل . وأنه كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه . ووجه رابع وهو أن « سَوَاءَ السَّبِيلِ » إشارة إلى الفطرة التى فطر الناس عليها . والإيمان إشارة إلى المكتسب من جهة الشرائع فقال « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » أى بالإيمان المكتسب فقد أبطله ، وضيّع الفطرة التى فطر الناس عليها فلا يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك .

هذا. وما قررناه فى الآية من أن الخطاب للمسلمين هو ما يترجح ويكون كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ »(١) . ويرشحه قوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » فإن موقع خطابه إنما يتضح مع المؤمنين . ورجّح الرازىّ كون الخطاب مع اليهود قال : لأن هذه السورة من أول قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأنه لم يجر ذكر غيرهم فى السياق، وقد قص تعالى عنهم سؤال النبىّ ﷺ بقوله « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا » الآية ، وحينئذ فمعنى تبدل الكفر بالإيمان ، وهم بمعزل من الإيمان ، إعراضهم عنه ، مع تمكنهم منه ، وإيثارهم للكفر عليه . كما أن إضافة الرسول إليهم باعتبار أنهم من أمة الدعوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا »

---

(١) [٥ / المائدة / ١٠١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

علة ودّ « مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » من صحة رسالة محمد ﷺ بشهادة ما طابقه من التوراة « فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا » أى أعرضوا عما يكون منهم من الجهل والعداوة فلاتجازوهم « حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » وهو الإذن فى قتالهم وإجلائهم « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فينتقم منهم إذا آن أوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ» أى ثوابه « عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » فلا يضيع عنده عمل عامل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَقَالُوا » أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ » نشرٌ لما لفّته الواو فى « وَقَالُوا » ، واليهود جمع هائد ، كعوذ جمع عائذ . وقرىء «إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » . « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ » جملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا. والأمانىّ جمع أمنية وهى مايتمنى. كالأعجوبة والأضحوكة . فإن قيل : قولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » أمنية واحدة ، فلِمَ قال : أمانيهم ؟ أجيب : بأن الجمع باعتبار صدوره عن الجميع . وأجاب صاحب الانتصاف بأنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها فى نفوسهم، جمعت . ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحدا . ونظيره قولهم: مِعًى جياعٌ. فجمعوا الصفة.ومؤداها

واحد ، لأن موصوفها واحد ، تأكيدا لثبوتها وتمكنها . وهذا المعنى أحد ماروى فى قوله تعالى « إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ »[1] فإنه جمع (قليلا) وقد كان الأصل إفراده فيقال « لشرذمة قليلة » كقوله تعالى « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ »[2] لولا ماقصد إليه من تأكيدمعنى القلة بجمعها . ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا للتأكيد ، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبانة زيادته على نظرائه ، نقلاً مجازياً بديعاً . فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان . والله الموفق « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى دعواكم . قال الرازىّ : دلت الآية على أن المدعى سواء ادعى نفياً أو إثباتاً ، فلا بد له من الدليل والبرهان ، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد ، قال الشاعر :

من ادّعى شيئاً بلاشاهدٍ لابد أن تبطُلَ دعواهُ

انتهى كلام الرازىّ . وسبقه إلى ذلك الزمخشرىّ حيث قال : وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين ، وإن كل قول لا دليل عليه ، فهو باطل غير ثابت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« بَلَىٰ » إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة « مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره . وإنما عبر عن النفس بالوجه ، لأنه أشرف الأعضاء ، ومجمع المشاعر، وموضع السجود ، ومظهر آثار الخضوع. أو المعنى: من أخلص توجهه وقصده، بحيث لايلوى

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها : . . . قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

عزيمته إلى شيء غيره «وَهُوَ مُحْسِنٌ» في عمله ، موافق لهديه ﷺ ، وإلا لم يقبل ، ولذا قال ﷺ[1] «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ» رواه مسلم «فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» وهو عبارة عن دخول الجنة . وتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل. «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» من لحوق مكروه «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» من فوات مطلوب . والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى «مَنْ» كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ» بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه ، إثر بيان تضليله كلّ من عداه على وجه العموم . ومعنى «عَلَىٰ شَيْءٍ» أيّ أمر يعتد به من الدين «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ» الواو للحال . والكتاب للجنس . أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب . وحق من حمل التوراة أو الإنجيل ، أو غيرهما من كتب الله ، وآمن به، أن لا يكفر بالباقي . لأن كل واحد من الكتابين مصدقٌ للثاني ، شاهدٌ بصحته . وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً «كَذَٰلِكَ» أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج «قَالَ» الجهلة «الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» لا علم عندهم ولا كتاب . كعبدة الأصنام. قالوا لأهل كل دين «مِثْلَ قَوْلِهِمْ» ليسوا على شيء . وهذا توبيخ عظيم ، حيث نظموا أنفسهم ، مع علمهم ،

(١) أخرجه مسلم في : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، ح ١٨ عن عائشة قالت : إن رسول الله ﷺ قال . . . (طبعتنا).

فى سلك من لا يعلم « فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى يفصل بينهم بقضائه العدل ، فيحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ »(١) وكما قال تعالى « قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ »(٢) .

قال الرازىّ : واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت فى أمة محمد ﷺ ، فإن كل طائفة تكفّر الأخرى . مع اتفاقهم على تلاوة القرآن . انتهى .

فهاهنا تسكب العبرات بما جناه التعصب فى الدين على غالب المسلمين من الترامى بالكفر، لا بسنّةٍ ولا قرآنٍ، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لمّا غلت مراجل العصبية فى الدين ، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين ،

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضحُ

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف . ونهى عن الفرقة والاختلاف . فقال تعالى « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا »(٣) . وقال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ »(٤) . وقال تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

(٣) [٣/ آل عمران/١٠٣] ونصها: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ »(١). وقال تعالى « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »(٢). وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة، بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا » إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك . ولما وجّه تعالى الذم فيما سبق فى حق اليهود والنصارى ، ذيّله بذم المشركين فى قوله « كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » . ثم وجهه بهذه الآية أيضاً المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام ، وصدوهم أيضا عنه ، حين(٣) ذهب إليه النبيّ ﷺ

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٥] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٣) هذا حديث جم الفائدة عظيم القدر يعتبر من أهم الوثائق التاريخية فى سيرة الرسول الأعظم ﷺ . وقد عنى الإمام البخاريّ به عنايته بكل عظيم . فأخرجه

فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٠٦ ـ باب من أشعر وقلّد بذى الحُلَيْفة ثم أحرم . =

وأصحابه من المدينة عام الحديبية. وكل هذا تخريب للمسجد الحرام ، لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه ، سعيٌ في تخريبه . وأيّ خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنه رسول الله ﷺ وأصحابه . واستحوذوا عليه بأصنامهم وأندادهم وشركهم ، كما قال تعالى « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(١) وقال تعالى « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »(٢) وقال تعالى « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ »(٣) فإذا كان من آمن بالله واليوم الآخر الخ مصدوداً عنه ، مطرودا منه ،

= وفى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١ ـ باب ما يجوز من الشروط فى الإسلام .

١٥ـ باب ما يجوز من الشروط فى الجهاد .

وفى : ٦٤ ـ كتاب المغازى فى ثلاثة مواضع : عن عليّ بن عبد الله .

وعن عبد الله بن محمد .

وعن إسحاق .

وإن أطول طريق له هو الذى أخرجه فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب مايجوز من الشروط فى الجهاد ، وقد استغرق سرده ست صفحات من الصحيح .

فلا يفوتنك أيها القارئ البصير مطالعته والتفقه فيه فإن فيه علماً .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٤]

(٢) [٩ / التوبة / ١٧و١٨] .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ =

فأىّ خراب له أعظم من ذلك . والعمارة إحياء المكان وشغله بما وضع له . وليس المراد بعمارته ، زخرفته وإقامة صورته فقط ، إنما عمارته بذكر الله فيه وإقامة شرعه فيه ورفعه عن الدنس والشرك . وإنما أوقع المنع على المساجد ، وإن كان الممنوع هو الناس لما أن المآل عائد لها . ولا يقال : كيف قيل مساجد والمراد المسجد الحرام فقط ؟ لأنه لا بأس أن يجىء الحكم عاما وإن كان السبب خاصًا ، كما تقول ، لمن آذى صالحا واحدا : ومن أظلم ممن آذى الصالحين ؟ وكما قال تعالى « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ »(١) والنزول فيه واحد. وقوله « أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ » هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام ، ويذلّ لهم المشركين ، حتى لايدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفا . يخاف أن يؤخذ فيعاقب . أو يقتل إن لم يُسلم . وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فمنعهم من دخول المسجد الحرام . ونادى فيهم عامَ حجّ أبو بكر رضى الله عنه « ألا لايحجن بعد العام مشرك » . فحج النبىّ ﷺ من العام الثانى ظاهرا على المسجد الحرام ، لايجترئ أحد من المشركين أن يحج ويدخل المسجد الحرام . وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا، المشار إليه بقوله تعالى « لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » لأن الجزاء من جنس العمل . فكما صدوا المؤمنين صُدُّوا عنه « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو عذاب النار لما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله ، والطواف به عريا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله . وفى الآية وجه آخر وهو أن الآية فى ذم اليهود ، تبعا للسابق واللاحق ، وما جنوه بكفرهم على بيت المقدس من خرابه وتسليط عدوّهم عليهم حتى خربه ودمر مدينتهم ، وقتل وسبى منهم وأسرهم

= لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(١) [١٠٤ / الهمزة / ١] .

وبقوا فى الأسر البابلىّ سبعين سنة ؛ كل ذلك كان برفضهم كتاب الله والعمل بشريعته .
وفى قوله تعالى «أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ » إشارة إلى رجوعهم إليه بعدالأسر على تخوف من العدوّ ومذلة لصقت بهم. وهو وجه وجيه. لأن لفظ«سعى» يرشد إلى ذلك . كما أن مفهومها يشعر بذم القائمين على الخراب بالأوْلى وهم النصارى ، حينما تمكنت سلطتهم انتقاما من أعدائهم اليهود .

روى ابن جرير عن مجاهد، قال فى الآية : هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى . ويمنعون الناس أن يصلوا فيه . وقال قتادة : حَمَلَهم بغضُ اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلىّ المجوسىّ على تخريب بيت المقدس . وتدل على أن أماكن العبادة تصان وتحترم ، لأنها المدرسة العامة التى تتلى فيها الحكم والأحكام والإرشاد إلى سبل السلام .

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، فيما رواه الإمام أحمد عن بُسْر بن أرطاة قال كان رسول الله ﷺ يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وَأجِرْنا من خزى الدنيا وَعذاب الآخرة .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث حسن وليس فى شىء من الكتب الستة ، وليس لصحابيّه ، وهو بُسْر بن أرطاة (ويقال ابن أبى أرطاة) حديث سواه ، وسوى حديث : لا تقطع الأيدى فى الغزو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » بيان لشمول ملكوته لجميع الآفاق ، المتسبب عنه سعة علمه . وفى ذلك تحذير من المعاصى وزجر

عن ارتكابها . وقوله تعالى « إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » نظير قوله « إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »(١) وكقوله تعالى «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »(٢) وقوله «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ»(٣) وقوله « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً »(٤) أى عمَّ كل شيء بعلمه وتدبيره وإحاطته به وعلوّه عليه .

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] ونصها : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ، لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ .

(٢) [٥٧/ الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » يريد الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وعزيرٌ ابن الله ، والملائكة بنات الله . فأكذب الله تعالى جميعهم فى دعواهم وقولهم: إن لله ولداً . فقال « سُبْحَانَهُ » أى تقدس وتنزه عما زعموا تنزها بليغا. وكلمة « بَلْ » للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشىء من المخلوقات . أى ليس الأمر كما زعموا ، بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة ، والتنوين فى « كُلٌّ » عوضٌ عن المضاف إليه . أى كل ما فيهما ، كائناً ما كان من أولى العلم وغيرهم « لَهُ قَانِتُونَ » منقادون ، لا يستعصى شىء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ، ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشىء . ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد .

قال الراغب فى تفسيره : نبه على أقوى حجة على نفى ذلك . وبيانها : هو أن لكل موجود فى العالم ، مخلوقاً طبيعياً ، أو معمولاً صناعياً ، غرضاً وكمالا أوجد لأجله . وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض، كاليد للبطش، والرجل للمشى ، والسكين لقطع مخصوص، والمنشار للنشر ، وإن كانت اليد قد تصلح للمشى فى حالٍ ، والرِّجل للتناول ، لكن ليس على التمام . والغرض فى الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه ، وجزء منه، لمَّا لم يجعل الله له سبيلا إلى بقائه بشخصه ، فجعل له بذراً لحفظ نوعه . ويقوى ذلك ، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلافاً ، لمّا لم يجعل لها فناء النبات والحيوان . ولما كان الله تعالى هو الباقى الدائم، بلا ابتداء ولا انتهاء ، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى. ولهذا قال « سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ » أى هو منزه عن السبب المقتضى للولد .

ثم لما كان اقتناء الولد لفقرٍ ما ، وذلك لما تقدم ، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه ـ بيّن تعالى بقوله « لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ » أنه لا يتوهم له فقر، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سدٌّ لفقره ، فصار في قوله « لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ » دلالة ثانية . ثم زاد حجة بقوله « قَانِتُونَ » وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً »[1] بيّن أن كل ما فى السموات والأرض ، مع كونه ملكاً له ، قانت أيضاً ، إما طائعاً ، وإما كارهاً ، وإما مسخراً . كقوله « يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً »[2] وقوله « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة .

ثم قال الراغب : إن قيل من أين وقع لهم الشبهة فى نسبة الولد إلى الله تعالى ؟ قيل قد ذكر فى الشرائع المتقدمة: كانوا يطلقون على البارىء تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله ، حتى إنهم قالوا : إن الأب هو الرب الأصغر وإن الله هو الأب الأكبر ، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول فى وجود الإنسان ، وإن الأب هو السبب الأخير فى وجوده وإن الأب هو معبود الابن من وجهٍ أى مخدومه . وكانوا يقولون للملائكة: آلهة.

---

(١) [١٦ / النحل / ٧٢] ونصها : وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

كما قالت العرب للشمس: إلاهة. وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علماؤنا بقولهم : الله محب ومحبوب ، ومريد ومراد ونحو ذلك من الألفاظ . كما يقال للسلطان : الملك. وقولُ الناس: رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف . ويقوى ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله ، وأن عيسى كان يقول : أنا ذاهب إلى أبى. ونحو ذلك من الألفاظ . ثم تصور الجهلة منهم، بأخرة ، معنى الولادة الطبيعية . فصار ذلك منهيا عن التفوه به فى شرعنا ، تنزهاً عن هذا الاعتقاد ، حتى صار إطلاقه ، وإن قصد به ما قصده هؤلاء ، قرين الكفر ، اهـ كلام الراغب رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

« بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما وخالقهما على غير مثال سبق . وكل من فعل مالم يسبق إليه يقال له : أبدعت . ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة : مبتدع ، لأنه يأتى فى دين الإسلام ، مالم يسبقه إليه الصحابة والتابعون رضى الله عنهم. وهذه الجملة حجة أخرى لدفع تشبثهم فى ولادة عيسى بلا أب . وعلم عزيْر بالتوراة بلا تعلم . وتقرير الحجة : إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها . فلا يبعد أن يوجد أحداً بلا أب، أو يعلم بلا واسطة بشر . وقال الراغب : ذكر تعالى فى هذه الآية حجة رابعة. شرحها : إن الأب هو عنصر للابن . منه تكوّن . والله مبدع الأشياء كلها ، فلا يكون عنصراً للولد ، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلاً . وقوله تعالى : « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » أى إذا أراد أمراً . والقضاء إنفاذ المقدّر . والمقدر ما حدّ من مطلق المعلوم . قال الراغب : القضاء إتمام الشيء قولًا أوفعلاً ، فمن القول آية « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »(١)

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ =

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ »(١) ومن الفعل قوله « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »(٢) وقضى فلان دينه، وقضى نحبه، وانقضى الأمر . (ثم قال) ونبه بقوله « وَإِذَا « قَضَىٰ أَمْرًا » على حجة خامسة وهو أن الولد يكون بنشوء وتركيب . حالًا بعد حال . وهو إذا أراد شيئاً ، فقد فعل بلا مهلة . ولم يرد بـ« إذا » حقيقة الزمان ، إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزمان . ولم يرد أيضا بـ« كن » حقيقة اللفظ ، ولا بالفاء التعقيب الزمانيّ . بل استعير كل ذلك لأنه أقرب ما يتراءى لنا به سرعة الفعل وتمامه . وذكر لفظ القضاء إذ هو لإتمام الفعل ، والأمر لكونه منطوياً على اللفظ والفعل ، والقول إذ هو أخف موجد منا وأسرعه إيجاداً، ولفظ « كُنْ » لعموم معناه واختصار لفظه ، ثم قال« فَيَكُونُ » تنبيهاً لأنه لا يمتنع عليه شيء يريد إيجاده ، و « كُنْ فَيَكُونُ » وإن كان مخرجها مخرج شيئين ، أحدهما مبني على الآخر، فهو في الحقيقة شيء واحد . انتهى .

والذين ذهبوا إلى أن المراد بـ « كُنْ » حقيقة اللفظ ، ورد عليهم سؤال مشهور . وهو : إن « كُنْ» لفظ أمر ، والأمر لا يكون إلا لموجود . فبعضٌ أجاب بأنه أمر للشيء في حال تكونه لا قبله ولا بعده . وبعضٌ قال : هو أمر لمعلوم له ، وذلك في حكم الموجود وإن كان معدوم الذات . وبعضٌ قال : هو أمر للمعدوم . قال ويصح أمر المعدوم كما يصح أمر الموجود . ولهم أجوبة أخرى أكثر تكلفاً وتمحلا .

= وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(١) [١٧/ الإسراء/ ٤] ونصها : وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

وقد سئل شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا بأنه إن كان المخاطب بـ « كُنْ » موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . وإن كان معدوماً ، فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ فأجاب بقوله : هذه المسأله مبنية على أصلين : أحدهما الفرق بين خطاب التكوين الذى لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطب ، بل هو الذى يكوّن المخاطب به ، ويخلقه بدون فعل من المخاطب ، أو قدرة أو إرادة أو وجود له . وبين خطاب التكليف الذى يطلب به من المأمور فعلاً أو تركاً يفعله بقدرة وإرادة . وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته . إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس . هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشرط وجوده أم لا يصح أن يخاطب به إلا بعد وجوده ؟ لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد وجوده . وكذلك تنازعوا فى الأول هل هو خطاب حقيقىّ ؟ أم هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة ؟ . والأول هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة . والأصل الثانى أن المعدوم فى حال عدمه ، هل هو شىء أم لا ؟ فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة إلى أنه شىء فى الخارج وذات وعيْن ، وزعموا أن الماهيات غير مجعولة ولا مخلوقة ، وأن وجودها زائد على حقيقتها . وكذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة . والذى عليه جماهير الناس ، وهو قول متكلمة أهل الإثبات والمنتسبين إلى السنة والجماعة ؛ إنه فى الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشىء أصلاً ولا ذات ولا عين . وإنه ليس فى الخارج شيئان أحدهما حقيقة، والآخر وجوده الزائد على حقيقته . فإن الله أبدع الذوات التى هى الماهيات . فكل ما سواه سبحانه مخلوق ومجعول ومبدَع ومبدوء له سبحانه وتعالى . لكن فى هؤلاء من يقول : المعدوم ليس بشىء أصلاً ، وإن سمى شيئاً باعتبار ثبوته فى العلم ، كان مجازاً . ومنهم من يقول: لا ريب أن له ثبوتا فى العلم ووجودا فيه ، فهو باعتبار هذا الثبوت والوجود هو شىء وذات . وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت . كما فرق من قال : المعدوم شىء. ولا يفرقون فى كون المعدوم ليس بشىء بين الممكن والممتنع ، كما فرق أولئك . إذ قد

اتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء وإنما النزاع فى الممكن . وعمدة مَنْ جعله شيئاً ، إنما هو لأنه ثابت فى العلم، وباعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهى عنه ، وغير ذلك . قالوا : وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض. فإن خُصَّ الفرق بين الوجود الذى هو الثبوت العينىّ ، وبين الوجود الذى هو الثبوت العلمىّ ، زالت الشبهة فى هذا الباب .

وقوله تعالى « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[1] ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقبل توجيه هذا الخطاب إليه . وبذلك كان مقدرا مقضيا . فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب مما يعلمه ماشاء . كما قال النبىّ ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه[2] عن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء . وفى صحيح البخارىّ[3] عن عمران

(١) [١٦ / النحل / ٤٠] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ماجاء فى قول الله تعالى: وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده. ونصه : عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : دخلت على النبىّ ﷺ . وعقلت ناقتى بالباب . فأتاه ناس من بنى تميم . فقال « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . مرتين . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن . فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » فقالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر ؟ قال « كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء . وكتب فى الذكر كل شيء . وخلق السموات والأرض » .

فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقتُ فإذا هى يقطع دونها السراب . فوالله ! لوددت أنى كنت تركتها .

ابن حصين عن النبيّ ﷺ أنه قال : كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض. وفى سنن أبى داود[1] وغيره عن النبيّ ﷺ أنه قال : إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب قال : ربّ ، وما ذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. إلى أمثال ذلك من النصوص التى تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوماً مخبرًا عنه ، مكتوبا. فهو شيء باعتبار وجوده العلمىّ الكلامىّ الكتابىّ ، وإن كانت حقيقته التى هى وجوده العينىّ ليس ثابتاً فى الخارج. بل هو عدم محض ونفىٌ صرف . وهذه المراتب الأربعة المشهورة موجودات . وقد ذكرها الله سبحانه فى أول سورة أنزلها على نبيّه فى قوله « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ »[2] وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى غير هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان الخطاب موجهاً إلى من توجهت إليه الإرادة ، وتعلقت به القدرة ، وخلق وكوّن كما قال « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[3] فالذى يقال له « كُنْ » هو الذى يراد ، وهو ، حين يراد قبل أن يخلق، له ثبوت وتميز فى العلم والتقدير . ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره ، وبهذا يحصل الجواب عن التقسيم . فإن قول السائل: إن كان المخاطب موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . يقال له هذا إذا كان موجودا فى الخارج وجودَه الذى هو وجوده . ولا ريب أن المعدوم ليس موجوداً ، ولا هو فى نفسه ثابت . وأما ماعلم وأريد وكان شيئاً فى العلم والإرادة والتقدير فليس وجوده فى الخارج محالاً ، بل

(١) أخرجه أبو داود فى سننه فى : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٦ ـ باب فى القدر ، حديث ٤٧٠٠

(٢) [٩٦ / العلق / ١ـ٤] .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٠] .

جميع المخلوقات لاتوجد إلا بعد وجودها فى العلم والإرادة . وقول السائل: إن كان معدوماً فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ يقال له : أما إذا قصد أن يخاطب المعدوم بخطاب يفهمه ويمتثله فهذا محال ، إذ من شرط المخاطَب أن يتمكن من الفهم والفعل . والمعدوم لايتصور أن يفهم ويفعل . فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه مطلوب منه حين عدمه أن يفهم ويفعل ، ولذلك أيضا يمتنع أن يخاطب المعدوم فى الخارج خطاب تكوين. بمعنى أن يعتقد أنه شىء ثابت فى الخارج وأنه يخاطب بأن يكون . وأما الشىء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه ، فليس ذلك محالا. بل هو أمر ممكن. بل مثل ذلك يجده الإنسان فى نفسه ؛ فيقدر أمراً فى نفسه يريد أن يفعله ويوجه إرادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب ، الذى قدره فى نفسه ، ويكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته . فإن كان قادراً على حصوله حصل مع الإرادة والطلب الجازم . وإن كان عاجزاً ، لم يحصل . وقد يقول الإنسان : ليكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب . فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه . والله سبحانه على كل شىء قدير . وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ » من المشركين أو من أهل الكتاب وهو الأظهر. لأن ما تقدم ، كلّه فى حوارهم وردّ أضاليلهم . ونفَى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به « لَوْلَا

يُكَلِّمُنَا اللهُ » هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى ؟ استكباراً منهم وعتوا « أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ » جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله ، آيات ، واستهانة بها « كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ » أى هذا الباطل الشنيع فقالوا : أرنا الله جهرة . وفى ذلك تسلية للنبيّ ﷺ بأنه كما تعنّت عليه تعنّت على من قبله « تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ » أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى العمى والعناد والتحكم على الأنبياء « قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى بالحق. لاتعتريهم شبهة ولا ريبة. وهذا رد لطلبهم الآية. وفى تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح ، مكان الإتيان الذى طلبوه ، ما لا يخفى من الجزالة. والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ، ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين . وإنما لم يتعرض لرد قولهم « لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ » إيذانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً » بالثواب للمؤمنين « وَنَذِيراً » بالعقاب للكافرين « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » ولا نسألك عنهم : ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك فى دعوتهم؟ كقوله « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »(١) وفى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم ، دون الكفر والتكذيب ونحوها ، وعيد شديد لهم ، وإيذان بأنهم مطبوع على قلوبهم ، لا يرجى منهم الإيمان . والجحيم ، من أسماء النار وتطلق على النار الشديدة التأجج ، وعلى كل نار بعضها فوق بعض، وعلى كل نار عظيمة فى مهواة ، وعلى المكان الشديد الحر .

---

(١) [١٣/ الرعد/ ٤٠] ونصها: وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

« وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ » أى لأنهم يريدون أن يكونوا متبوعين على الإطلاق . وفيه مبالغة فى الإقناط من إسلامهم ، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه، عليه السلام «قُلْ» لا يتبع رسولٌ إلا الهدى و« إِنَّ هُدَى اللهِ » أى الذى هو الإسلام « هُوَ الْهُدَىٰ » أى فليس وراءه هدى . وما تدعون إليه ليس بهدى ، بل هو هوى . كما يعرب عنه قوله « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم « بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بأن دين الله هو الإسلام ، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة « مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ » يلى أمرك « وَلَا نَصِيرٍ » يدفع عنك عقابه . وإنما أوثر خطابه ﷺ ليدخل دخولا أوليًا مَن اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكا بولايتهم، طمعا فى نصرتهم.

قال الإمام الرازىّ : فى الآية دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلا . فمن هذا الوجه تدل على بطلان التقليد. انتهى .

وفى فتح البيان ما نصه : وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتنصدع منه الأفئدة ، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه ، والقائمين ببيان شرائعه ـ ترك الدهان لتاركى العمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأى عليهما. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » لما ذكر تعالى ، فيما تقدم ، عدم رضاء اليهود والنصارى إلّا باتباع ملتهم ، لدعواهم أنهم على حق وأنهم مؤمنون بما لديهم ـ فنّد تعالى دعواهم الإيمانَ به بأن من أوتى الكتاب فتلاه حق تلاوته فذاك المؤمن به . والمذكورون ممن لم يتله حق تلاوته ، لِمَا عدّد من مساوئ اليهود أولًا ، وشفعَهُ بدعوى النصارى اتّخاذ الولد . ومن كان يعتقد ذلك فأنّى له الإيمان ؟ وهل هو ممن يتلو الكتاب حق تلاوته ؟ وكتابه يأمر بتوحيد ربه والمشى مع شريعته وتصديق كل نبيّ يصدق ما معهم ، وقد كفروا بكل ذلك . فجملة « يتلونه » حال مقدرة من « هم » أو من « الكتاب » . وجوِّز أن تكون الآية سيقت مدحاً لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن . فالضمير فى « يتلونه » للقرآن . فتكون كآية « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »(١) وكآية « قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا »(٢) .

ومن تلاوته حق تلاوته الإيمانُ بأنه حق من ربهم ، وصبرُهم ودرؤهم بالحسنة السيئة ، وإنفاقهم وسجودُهم له تعالى : فالآيتان مفسرتان لتلاوتهم حق تلاوته .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٥٢ـ٥٤] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٧] .

وعن ابن مسعود : والذى نفسى بيده ! إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرّف الـكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله . ومثله عن ابن عباس .

وقوله تعالى « أُولَئِكَ » إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الـكتاب وتلاوته كما هو حقه « يُؤْمِنُونَ بِهِ » محط الفائدة مايلزم الإيمان به من الربح. بقرينة قوله « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » حيث اشتروا الضلالة بالهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[١٢٣] (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا » أى خافوا « يَوْمًا لَا تَجْزِي » أى لا تغنى « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ » فيه « شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ » أى فداء « وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » أى يمنعون من عذاب الله . وقد مر نظير الآيتين فى صدر السورة .

قال القاضى : ولما صدّر قصتهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها، والحذر عن إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها ـ كرر ذلك وختم به الـكلام معهم ، مبالغةً فى النصح وإيذانا بأنه فذلـكة القضية والمقصود من القصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

« وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » لما عاب سبحانه أهل الضلال، وكان جلهم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وجميع طوائف الملل تعظمه ومنهم العرب ، وبيته الذى بناه أكبر مفاخرهم وأعظم مآثرهم ـ ذكّر الجميع ما أنعم به عليه تذكيرا يؤدى إلى ثبوت هذا الدين باطلاع هذا النبيّ الأميّ، الذى لم يخالط عالماً قط، على مالا يعلمه إلّا خواص العلماء . وذكر البيت الذى بناه فجعله عماد صلاحهم، وأمر بأن يتخذ بعض ماهنالك مصلّى، تعظيما لأمره وتفخيما لعليّ قدره . وفى التذكير بوفائه بعد ذكر الذين وفوا بحق التلاوة ، وبعد دعوة بنى إسرائيل عامة إلى الوفاء بالشكر ـ حثّ على الاقتداء به . وكذا فى ذكر الإسلام والتوحيد، هزّ لجميع من يعظمه إلى اتباعه فى ذلك . ذكره البقاعىّ .

و« إذ » منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبيّ ﷺ بطريق التلوين. أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ، ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد ، الوازعة عن الشرك ، فيقبلوا الحق ويتركوا ماهم فيه من الباطل . ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على «اذكروا» خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى، عمن ينتمون إلى ملته من إبراهيم وبنيه عليهم السلام ، من الأفعال والأقوال ، فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم . أى واذكروا إذ ابتلى أباكم إبراهيم، فأتم ما ابتلاه به. فمالكم أنتم لاتقتدون به فتفعلوا عند الابتلاء فعله، فى إيفاء العهد والثبات على الوعد ، لأجازيكم على ذلك جزاء المحسنين ؟ والابتلاء ، فى الأصل ، الاختبار . أى تطلّب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه، غالبا، فعله أو تركه . والاختبار منّا لظهور مالم نعلم. ومن الله لإظهار ماقد علم . وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفيّ فى الشاهد والغائب جميعا ، فلذا تجوز إضافته إلى الله تعالى. وقوله تعالى « بِكَلِمَاتٍ » أى بشرائع : أوامر ونواه . وللمفسرين أقاويل فيها وفى

تعدادها . قال ابن جرير : ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين ، إلا بحديث أو إجماع . قال : ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له . انتهى .

وعندى أن الأقرب فى معنى الكلمات هو ابتلاؤه بالإسلام ، فأسلم لرب العالمين . وابتلاؤه بالهجرة ، فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرا إلى الله . وابتلاؤه بالنار فصبر عليها . ثم ابتلاؤه بالختان فصبر عليه . ثم ابتلاؤه بذبح ابنه فسلم واحتسب . كما يؤخذ ذلك من تتبع سيرته فى التنزيل العزيز وسفر التكوين من التوراة . ففيهما بيان ماذكرنا فى شأنه عليه الصلاة والسلام. من قيامه بتلك الكلمات حق القيام، وتوفيتهن أحسن الوفاء . وهذا معنى قوله تعالى « فَأَتَمَّهُنَّ » كقوله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ »[1] والإتمام التوفية .

« قَالَ » جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الكلام . فكأنه قيل : فما جوزى على شكره ؟ قيل : قال له ربه « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً » أى قدوة لمن بعدك. والإمام اسم لمن يؤتم به . ولم يبعث بعده نبيّ إلا كان مأمورا باتباع ملته ، وكان من ذريته. كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »[2] « قَالَ » أى إبراهيم « وَمِنْ ذُرِّيَّتِى » أى واجعل من ذريتى أئمة « قَالَ لَا يَنَالُ » أى قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك . لكن لا ينال « عَهْدِى » أى الذى عهدته إليك بالإمامة «الظَّالِمِينَ» أى منهم . لأنهم نفوا أنفسهم عنك فى أبوة الدين . ففى قوله « لَا يَنَالُ...الخ » إجابة خفية لدعوته عليه السلام. وَعِدَةٌ إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنيل عهد الإمامة . كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »[2] وفى ذلك أتم ترغيب فى التخلق بوفائه ،

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

لاسيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد . وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته ، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته ، فضربت عليهم الذلة وما معها ، ولا يجزى أحد عنهم شيئاً ولا هم ينصرون . وقرئ «الظالمون» على أن «عهدى» مفعول مقدم اهتماما ورعاية للفواصل.

وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الظالم ليس بأهل للإمامة . والكشاف أوسع المقال ، فى ذلك ، هنا ، وأبدع فى إيراد الشواهد . كما أن الشيعة استدلت بها على صحة قولهم فى وجوب العصمة فى الأئمة ، ظاهراً وباطناً . على ما نقله الرازىّ عنهم وحاورهم .

أقول : إن استدلال الفرقتين على مدعاهما وقوف مع عموم اللفظ . إلا أن الآية الكريمة بمعزل عن إرادة خلافة السلطنة والملك .

المراد بالعهد ، تلك الإمامة المسؤول عنها . وهل كانت إلا الإمامة فى الدين وهى النبوّة التى حرمها الظالمون من ذريته ؟ كما قال تعالى « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ » ولو دلت الآية على ما ادّعوا لخالفه الواقع . . . فقد نال الإمامة الدنيوية كثير من الظالمين . فظهر أن المراد من العهد إنما هو الإمامة فى الدين خاصّة. والاحتجاج بها على عدم صلاحية الظالم للولاية تمحل . لأنه اعتبار لعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق ؛ أو ذهابٌ إلى أن الخبر فى معنى الأمر بعدم تولية الظالم . كما قاله بعضهم. وهو أشد تمحلا . ومعلوم أن الإمام لابد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع ، كما ورد . ومتى زاغ عن ذلك كان ظالمآ ، والبحث فى ذلك له غير هذا المقام. وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ » أى الذى بناه إبراهيم بأم القرى. وهو اسم غالب للكعبة . كالنجم

للثريا « مَثَابَةً لِلنَّاسِ » مباءة ومرجعًا للحجاج والعمّار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه . ومثابة مفعلة. من «الثوب» وهو الرجوع ترامياً إليه بالكلية . وسر هذا التفضيل ظاهر فى انجذاب الأفئدة وهوَى القلوب وانعطافها ومحبتها له . فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد. فهو الأولى بقول القائل :

محاسنه هيولى كل حسن   ومغناطيس أفئدة الرجال

فهم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار . ولا يقضون منه وطرا . بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقًا .

لايرجع الطرف عنها حين يبصرها   حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ! وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ! ورضى المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه !

ذكر هذه الشذرة (الإمام ابن القيم فى أوائل زاد المعاد) .

« وَأَمْنًا » موضع أمن . كقوله « حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »(١) وكقوله « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا »(٢) وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَوْن . وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له . وفى هذا بيان شرف البيت من كونه محلا تشتاق إليه الأرواح ولا تقضى منه وطرا ، ولو ترددت إليه كل

(١) [٢٩/ العنكبوت/ ٦٧] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله في قوله « فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ »(١) إلى أن قال « رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ »(٢) ومن كونه مأمناً لمن دخله . كما بيّنّا .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال(٣) يوم فتح مكة : «إن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض. وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي . ولم يحل لي إلا ساعةً من نهار » الحديث . وقوله تعالى « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » قرئ بكسر الخاء ، أمراً معترضاً بين الجملتين الخبريتين . أو بتقدير : وقلنا اتخذوا . وقرئ بفتح الخاء ماضياً معطوفاً على جملنا . أي واتخذوه مصلى ، ومقام إبراهيم هو الحرم كله . عن مجاهد . وعنه : هو جمع ومزدلفة ومنى ومكة . ويقال : هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام . فقد قال قتادة : إنما أمروا أن يصلّوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . ولقد تكلفت الأمم شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٠]

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٠ ـ باب لا يحل القتال بمكة ونصه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبيّ ﷺ ، يوم افتتح مكة « لا هجرة . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا . فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي. ولم يحل لي إلا ساعة من نهار . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . لا يُعضد شوكُه، ولا ينفّر صيده ، ولا يَلتقط لُقَطَتَهُ إلا من عرّفها . ولا يختلى خلاها » .

قال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقَيْنهم ولبيوتهم . قال « إلا الإذخر » .

قال الراغب الأصفهانىّ : والأولى أنه الحرم كله . فما من موضع ذكروه إلا وهو مصلى أو مدّعى أو موضع صلاة .

أقول : كأنّ الأصل فى الآية : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ومصلى . إلا أنه عدل إلى هذا الأسلوب الحكيم دون ذاك ، ودون أن يقال مثلا : واتخذوا منه مصلى ـ لوجوه :
(أحدها) التنويه بأمر الصلاة فيه والتعظيم لشأنها حيث أفرد، للعناية بها، جملة على حدة .
(وثانيها) التذكير بأنه مقام الأب الأكبر للأنبياء كافة. وما كان مقامه لجدير أن يحترم ويعظم.
(وثالثها) التنصيص على أن هذا الاتخاذ بأمر ربانىّ لا بتشريع بشر ، تمهيداً للأمر باستقباله، وإلزاماً لمن جادل فيه، وهم اليهود . وقد روى الشيخان وغيرهما أن عمر رضى الله عنه قال[1] : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»
قال ابن كثير: ومقام إبراهيم هو الحجر الذى يصلى عنده الأئمة . وذلك الحجر هو الذى قام إبراهيم عليه عند بناء البيت ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار . وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها . وهكذا حتى تم جدران الكعبة. كما جاء بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارىّ[2] .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٢ ـ باب ماجاء فى القبلة . ونصه :
عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى . فنزلت : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وآية الحجاب ، قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر . فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبىّ ﷺ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت هذه الآية .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٩ ـ باب يزفون .
وهو حديث طويل عن ابن عباس يبتدئ فيه بذكر أن أول ما اتخذ النساء المنطق =

قال ابن كثير : وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديما . ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك ، وكأن الخليل عليه السلام ، لما فرغ من بناء البيت ، وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء ، فتركه هناك . ولهذا ، والله أعلم ، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف . وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه. كما فعل رسول الله ﷺ . فإنه لما قدم مكة طاف بالبيت سبعاً ، وجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين .

قال ابن كثير : وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر رضى الله عنه . ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة . وقد روى البيهقىّ بسنده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : إن المقام كان فى زمان رسول الله ﷺ وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقاً بالبيت. ثم أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقال سفيان بن عيينة ، وهو إمام المكيين فى زمانه : كان المقام من سُقع[١] البيت على عهد رسول الله ﷺ ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبىّ ﷺ . قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فردّه عمر إليه . وقال سفيان : لاأدرى كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. وقال أيضا : لا أدرى أكان لاصقاً بها أم لا . وأثر عائشة المتقدم يدل على أنه كان لاصقاً بها . والله أعلم . وقال الحافظ الشيخ عمر بن الحافظ التقىّ محمد بن فهد المكىّ الهاشمىّ ، فى كتاب « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » فى حوادث سنة سبع عشرة : فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل أم نهشل من أعلى مكة من طريق الردم . فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام

= من قِبَل أم إسماعيل. ثم مجىء إبراهيم بها وبابنها إسماعيل وهى ترضعه إلى مكة ، وبحث الملك بعقبه عند موضع زمزم حتى ظهر الماء . ومرت بهم رفقة من جرهم فنزلوا فى أسفل مكة. ثم شبّ الغلام وتعلّم العربية ، ثم تزوج منهم . ثم مطالعة إبراهيم تركته ، فى غيبة إسماعيل ، مرتين . ثم رفعهما القواعد من البيت . الخ . وهو حديث جليل جدا .

(١) السقْع ، بالضم : ناحية من الأرض والبيت .

إبراهيم من موضعه ، وذهب به حتى وجد بأسفل مكة . وعيّن مكانه الذى كان فيه لما عفاه السيل . فأتى به وربط بلصق الكعبة فى وجهها. وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة بن سعد ابن العاص بن أمية. فماتت فيه واستخرجت بأسفل مكة ، وكان سيلا هائلاً . فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو بالمدينة الشريفة . فهاله ذلك . وركب فزعا إلى مكة . فدخلها بعمرة فى شهر رمضان . فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف . ثم قال : أنشد الله عبدا عنده علم فى هذا المقام . فقال المطلب ابن أبى وداعة السهمىّ رضى الله عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندى علم ذلك . فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر . ومن موضعه إلى زمزم بمقاط[1]. وهى عندى فى البيت . فقال له عمر : اجلس عندى وأرسلْ إليها من يأتى بها. فجلس عنده وأرسل إليها فأتى بها . فقيس ، ووضع حجر المقام فى هذا المحل الذى هو فيه الآن . وأحكم ذلك واستمر إلى الآن . انتهى « وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ » أى أمرناهما . وتعديته بـ « إلى » لأنه فى معنى: تقدمنا وأوحينا « أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ » أى عن كل رجس حسىّ ومعنوىّ : فلا يفعل بحضرته شىء لا يليق فى الشرع . أو ابنياه على طهر من الشرك بى . كما قال تعالى « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »[2] أو أخلصاه للطائفين وما بعده، لئلا يغشاه غيرهم . فاللام صلة « طهرا » على هذا . وعلى ما قبله ، لام العلة . أى طهراه لأجلهم . وقوله تعالى « لِلطَّائِفِينَ » أى حوله . وعن سعيد بن جبير : يعنى من أتاه من غربة « وَالْعَاكِفِينَ » يعنى أهله المقيمين فيه أو المعتكفين . كما روى ابن أبى حاتم بسنده إلى ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أُرانى إلا مكلِّم الأمير: أنِ امْنَع الذين ينامون فى المسجد الحرام . فإنهم يُجنبون ويُحدثون . قال : لا تفعل فإن ابن عمر سئل

(١) المِقَاط : الحَبْل الصغير الشديد الفتل ، يكاد يقوم من شدة فتله . وجمعه مُقُط .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٦] .

عنهم فقال : هم العاكفون . ورواه عبد بن حُمَيْد فى مسنده . وقد ثبت فى الصحيح[١] أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول ﷺ وهو عزب .

وفى الكشاف : يجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين . يعنى القائمين فى الصلاة . كما قال للطائفين والقائمين « والرُّكَّعِ السُّجُودِ » جمع راكع وساجد والمعنى للطائفين والمصلين . لأن القيام والركوع والسجود هيآت المصلى . ولتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما . وجمع صفتين جمع سلامة ، وأخريين جمع تكسير لأجل المقابلة . وهو نوع من الفصاحة . وأخر صيغة «فُعُول» على « فُعَّل » لأنها فاصلة. والمراد من الآية الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له . ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » فى ذلك تبكيت لهم وتنبيه على توبيخهم بترك دينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا » أى الموضع الذى جعلت فيه بيتك وأمرتنى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٣٥ ـ باب الأمن وذهاب الروع فى المنام .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

بأن أسكنته من ذريتى « بَلَداً » أى يأنس من يحل به « ءَامِناً » أى من الخوف . أى لا يُرْعَبُ أهله . وقد أجاب الله دعاءه. كقوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً »[١] وقوله « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ »[٢] إلى غير ذلك من الآيات . وصحت أحاديث متعددة بتحريم القتال فيه . وفى صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول[٣] : « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » فهو آمن من الآفات ، لم يصل إليه جبار إلا قصمه الله . كما فعل بأصحاب الفيل . وقوله تعالى فى سورة إبراهيم « هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً »[٤] بتعريف البلد مع جعله صفة لهذا ، خلاف ماهنا ، إمّا أن يحمل على تعدد السؤال بأن تكون الدعوة الأولى المذكورة هنا ، وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا . كأنه قال : اجعل هذا الوادى بلداً آمنا . لأنه تعالى حكى عنه أنه قال « رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ »[٥] فقال ، ههنا ، اجعل هذا الوادى بلدا آمنا . والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدا . فكأنه قال : اجعل هذا

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧]

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٩ (طبعتنا) .

(٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

المكان الذى صيرته بلدا ذا أمن وسلامة. وإمّا أن يحمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر . فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين . وقد حكى ذلك هنا . واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن، اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال اجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، هذا خلاصة ما حققوه .

وعندى أن السؤال والمسؤول واحد . إلا أنه تفنن فى الموضعين. فحذف من كلٍّ ما أثبته فى الآخر احتباكا . والأصل: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا . وبه تتطابق الدعوتان على أبدع وجه وأخلصه من التكلف . على ما فيه من إفادة المبالغة . أى بلدًا كاملًا فى الأمن : كأنه قيل: اجعله بلدًا معلوم الاتصاف بالأمن مشهورا به كقولك : كان هذا اليوم يوما حارًا . وفى القاموس وشرحه التاج : البلد والبلدة علم على مكة، شرفها الله تعالى، تفخيماً لها . كالنجم للثريا . وكل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة خالية أو مسكونة . وفى النهاية : البلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ» إنما سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك، لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر ، فاستجاب الله تعالى له ، فصارت يجبى إليها ثمرات كل شيء « مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » بدل « من أهله » ، بدل البعض ، يعنى : ارزق المؤمنين من أهله خاصة . وإنما خصّهم بالدعاء إظهارًا لشرف الإيمان ، واهتمامًا بشأن أهله ، ومراعاة لحسن الأدب فى المسألة . حيث ميّز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين ، فى باب الإمامة ، فى قوله « لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » بعد أن سأل، عليه السلام، جَعْلَهَا فى ذريته ، فلا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء، وفيه ترغيب لقومه فى الإيمان ، وزجر عن الكفر « قَالَ » الله تعالى مُعْلما أن شمول الرحمانية بأمن الدنيا ورزقها لجميع عمرة الأرض « وَمَنْ كَفَرَ » أى أنيله أيضاً ما ألهمتك من الدعاء بالأمن والرزق ، فهو عطف على مفعول فعل محذوف ، دلّ الكلام عليه . ويجوز أن تكون « مَنْ » مبتدأ موصولة أو شرطية . وقوله « فَأُمَتِّعُهُ » خبره أو جوابه . وعبر عن رزقه

بالمتعة التى هى الزاد القليل والبلغة، تخسيساً له ، وأكد ذلك بقوله « قَلِيلًا » تمتيعًا قليلًا ، أو زمانًا قليلًا « ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ » أى ألجئه إليه كما قال تعالى « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا »(١) و « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ »(٢) وقرئ فأمتعه قليلًا ثم اضطره ، بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام ، وفى « قال » ضميره « وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » النار أو عذابها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ » أى اذكر بناءهما البيت ورفعهما القواعدمنه . وصيغةالاستقبال لحكاية الحال الماضية ، لاستحضار صورتها العجيبة. والقواعد : جمع قاعدة ، وهى الأساس والأصل لما فوقه ، وقال الزجاج : القواعد : أساطين البناء التى تعمده « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا » على إرادة القول أى يقولان ، وترك مفعول « تقبل » ليعم الدعاء وغيره من القُرَب والطاعات ، التى من جملتها ما هما بصدده من البناء . كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية « إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ » لدعائنا « الْعَلِيمُ » بضمائرنا ونياتنا . وفى صحيح البخارى(٣) عن ابن عباس فى حديث مجىء إبراهيم لتفقد إسماعيل عليهما السلام، ثم قال : يا إسماعيل ! إن الله قد أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟

---

(١) [٥٢ / الطور / ١٣] .

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٨] ونصها : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٤٩ .

قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ » مخلصين لك أوجهنا . من قوله : أسلم وجهه لله . أو مستسلمين ، يقال: أسلم له وسلم ، واستسلم ، إذا خضع وأذعن. والمعنى : زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك « وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا » واجعل من ذريتنا « أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » و « من » للتبعيض ، أو للتبيين ، كقوله « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ »(١) وإنما خصّا الذرية بالدعاء ، لأنهم أحق بالشفقة ، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» أى عرفنا متعبداتنا ، جمع منسك بفتح السين وكسرها ، وهو المتعبد ، وشرعة العبادة . يقع على المصدر والزمان والمكان ، من النسك مثلثة وبضمتين وهو العبادة والطاعة ، وكل ما تُقُرِّب به إلى الله تعالى. ومن المفسرين من حمل المناسك على مناسك الحج لشيوعها فى أعماله ومواضعه . فالإراءة حينئذ لتعريف تلك الأعمال والبقاع . وقد رويت آثار عن بعض الصحابة والتابعين تتضمن أن

(١) [٢٤/ النور/ ٥٥] ونصها: وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

جبريل أرَى إبراهيمَ المناسك وأن الشيطان تعرض له ، فرماه عليه السلام . قالوا : وفى ذلك ظهور لشرف عمل الحج ، حيث كان متلقًّى عن الله بلا واسطة ، لكونه علماً على آتى يوم الدين ، حيث لا واسطة هناك بين الرب والعباد . والذى عول عليه أئمة اللغة ماذكرناه أولًا من حمل المناسك على ما يرجع إليه أصل هذه اللفظة من العبادة والتقرب إلى الله تعالى ، واللزوم لما يرضيه ، وجعل ذلك عامًّا لكل ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام. أى علمنا كيف نعبدك وأين نعبدك ، وبماذا نتقرب إليك ، حتى نخدمك كما يخدم العبد مولاه ؟ « وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا الدعاء استتابة لما فرط من التقصير . فإن العبد، وإن اجتهد فى طاعة ربه ، فإنه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه ، إما على سبيل السهو والنسيان ، أو على سبيل ترك الأولى . فالدعاء منهما ، عليهما السلام، لأجل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » هذا إخبار عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم ، أى من ذرية إبراهيم ، وهم العرب من ولد إسماعيل . وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث فى ذريته رسولًا منهم ، وهو محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، إلى الناس كافة . وقد أخبر ﷺ عن نفسه أنه دعوة إبراهيم. ومراده هذه الدعوة . وذلك فيما خرجه الإمام أحمد(١) عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : إنى ، عند الله ، لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده . بالجزء الرابع بالصفحة رقم ١٢٧ (طبعة الحلبى) .

وسأنبئكم بأول ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين. وأخرج أيضاً نحوه عن أبى أمامة[1] ، قال: قلت: يانبىّ الله ! ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام .

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره فى الناس مشهوراً حتى أفصح باسمه عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ، حيث قال « إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ »[2] وهذا معنى قوله فى الحديث : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم . وقوله فيه : ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منها قصور الشام . قيل : كان منها ما رأته حين حملت به ، وقصته على قومها ، فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وإرهاصاً . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا يكون الشام فى آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ـ إذا نزل بدمشق ـ بالمنارة الشرقية البيضاء منها . ولهذا جاء فى الصحيحين[3] « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك » وفى صحيح البخارىّ « وهم بالشام »[3] وقوله تعالى « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ » هى إما الفرقان الذى أنزل على

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده . بالجزء الخامس بالصفحة رقم ٢٦٢ (طبعة الحلبىّ).

(٢) [٦١ / الصف / ٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٣) يشير إلى حديث المغيرة بن شعبة . وهذه طرقه :

أخرج البخارىّ فى: ٦١ ـ كتاب المناقب، ٣ ـ باب حدثنى محمد بن المثنى عن المغيرة =

النبيّ ﷺ ، المتلوّ عليهم ، وإما الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته تعالى . ومعنى تلاوته إياها عليهم أنه كان يذكرهم بها ، ويدعوهم إليها ، ويحملهم على الإيمان بها . وقوله تعالى « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أي الكامل الشامل لكل كتاب وهو القرآن و« الْحِكْمَةَ » هي السنة ، فسرها بها كثيرون . وعن مالك : هي معرفة الدين ، والفقه فيه ، والاتباع له. وقوله تعالى « وَيُزَكِّيهِمْ » أي يطهرهم من الشرك ، وسائر الأرجاس ، كقوله « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ »(١) .

= ابن شعبة عن النبيّ ﷺ قال « لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٠ ـ باب قول النبيّ ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ... الخ ونصه : عن المغيرة بن شعبة عن النبيّ ﷺ قال « لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٩ ـ باب قول الله تعالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ .

ونصه : عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول « لا يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله » .

ورواه مسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧١. (طبعتنا)

ونصه : عن المغيرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله ، وهم ظاهرون » .

أما نص المؤلف فهو مطابق لنص حديث ثوبان الذى انفرد به مسلم وأخرجه في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة، حديث ١٧٠ . (طبعتنا)

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ =

ولما ذكر عليه السلام هذه الدعوات، ختمها بالثناء على الله تعالى فقال « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، والعزيز ذو العزة وهى القوة ، والشدة ، والغلبة ، والرفعة . و « الحكيم » بمعنى الحاكم ، أو بمعنى الذى يحكم الأشياء ويتقنها ، وكلاهما من أوصافه تعالى .

قال الراغب : إن قيل ما وجه الترتيب فى الآية ؟ قيل : أما الآيات فهى الآيات الدالة على معجز النبيّ ﷺ . وذكر التلاوة لما كان أعظم دلالة نبوته متعلقاً بالقرآن. وأما الترتيب، فلأن أول منزلة النبيّ ﷺ بعد ادعاء النبوة، الإتيان بالآيات الدالة على نبوته ، ثم بعده تعليمهم الكتاب ، أى تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط ، ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم إلى إفادة الحكمة ، وهى أشرف منزلة العلم ، ولهذا قال « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا »(١) ثم بالتدرج فى الحكمة يصير الإنسان مزكى أى مطهّرًا مستصلحاً لمجاورة الله عز وجل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » هذا إنكار واستبعاد لأن يكون فى العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذى هو ملة إبراهيم ، وهو ما جاء به محمد

= الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] ونصها : يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى ذلك تعريض بمعاندى أهل الكتاب والمشركين ، أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغرّاء إلا من سفه نفسه ، أى حملها على السفه وهو الجهل .

قال الراغب : وسفه نفسه أبلغ من جهلها ، وذاك أن الجهل ضربان : جهل بسيط ، وهو أن لا يكون للإنسان اعتقاد فى الشىء . وجهل مركب وهو أن يعتقد فى الحق أنه باطل ، وفى الباطل أنه حق . والسفه أن يعتقد ذلك ويتحرى بالفعل مقتضى ما اعتقده . فبيّن تعالى أن من رغب عن ملة إبراهيم ، فإن ذلك لِسَفَهِ نفسه ، وذلك أعظم مذمة ، فهو مبدأ كل نقيصة . وذاك أن من جهل نفسه ، جهل أنه مصنوع ، وإذا جهل كونه مصنوعاً جهل صانعه ، وإذا لم يعلم أن له صانعاً ، فكيف يعرف أمره ونهيه ، وما حسّنه وقبّحه ؟ ولكون معرفتها ذريعة إلى معرفة الخالق جل ثناؤه ، قال « وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[1] وقال « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ »[2] .

وقوله تعالى « وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا » أى اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ، وتكثير الأنبياء من نسله ، وإعطاء الخلة ، وإظهار المناسك عليه ، وجعل بيته آمنا ، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة . « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » الذين لهم الدرجات العلى ، وفى هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح ، حيث جعله من المتصفين بها ، فهو حقيق بالإمامة ، لعلو رتبته عند الله تعالى فى الدارين ، ففى ذلك أعظم ترغيب فى اتباع دينه ، والاهتداء بهديه . وأشدّ ذم لمن خالفه .

قال الراغب : إن قيل كيف وصفه بالاصطفاء فى الدنيا ، وبالصلاح فى الآخرة ، والنظر يقتضى عكس ذلك . فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل ، وذلك يكون فى الدنيا . والاصطفاء

(١) [٥١ / الذاريات / ٢١] .

(٢) [٥٩ / الحشر / ١٩] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

حال يستحقه العبد بكونه صالحا ، فحقه أن يكون فى الآخرة ؟ قيل : الاصطفاء ضربان ، أحدهما كما قلت ، والآخر فى الدنيا ، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه ، وهو المعنىّ بقوله « شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ »(١) ، والصلاح ، وإن اعتبر بأحوال الدنيا ، فمجازًى به فى الآخرة ، فبيّن تعالى أنه مجتبى فى الدنيا لما علم الله من حكمته فيه ، ومحكوم له فى الآخرة ، بصلاحه فى الدنيا ، تنبيهاً أن الثواب فى الآخرة لم يستحقه باصطفائه فى الدنيا ، وإنما استحقه بصلاحه فيها . ويجوز أن يكون قوله « فى الآخرة » أى فى أعمال الآخرة لمن الصالحين . ويجوز أنه عنى بقوله «فى الدنيا» حال بقائه، و «فى الآخرة» أى حال وفاته ، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه ، الذى رغب إلى الله تعالى فيه بقوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »(٢) ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب : ظالم ، ومقتصد ، وسابق ، عبر عن السابق بالصالح ، فكل سابق إلى طاعة الله ورحمته صالح . انتهى .

وكل ذلك تذكير لأهل الكتاب بما عندهم من العلم بأمر هذا النبىّ الكريم ، وإقامة للحجة عليهم ، لأن أكثر ذلك معطوف على « اذكروا » فى قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ »(٣) .

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢١] ونصها : شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٠] ونصها : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ .

و [٢ / البقرة / ٤٧] و [٢ / البقرة / ١٢٢] ونصهما : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

ولما ذكر إمامته عليه السلام ، ذكر ما يؤتم به فيه ، وهو سبب اصطفائه وصلاحه ، وذلك دينه ، وما أوصى به بنيه ، وما أوصى به بنوه بنيهم سلفاً عن خلف ، ولاسيما يعقوب عليه السلام المنوه بنسبة أهل الكتاب إليه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِذْ » أى اصطفيناه لأنه « قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ » أى لربك ، أى انقدْ له ، وأخلص نفسك له . أواستقم على الإسلام ، واثبت على التوحيد « قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وظاهر النظم الكريم أن القول حقيقىّ ، وليس فى ذلك مانع ، ولا ما جاء ما يوجب تأويله. وقول بعضهم : هو تمثيل ، والمعنى : أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام ـ ليس بشىء . ولا معنى لحمل شىء من الكلام على المجاز ، إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ » شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره ، إثْرَ بيان كماله فى نفسه . والتوصية التقدم إلى الغير فى الشىء النافع المحمود عاقبته . والضمير فى « بها » إما عائد لقوله « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » على تأويل الكلمة والجملة . ونحوه رجوع الضمير فى قوله « وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً »[1] إلى قوله « إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ »

(١) [٤٣/ الزخرف / ٢٨] ونصها : وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

إِلا الَّذِى فَطَرَنِى »[1] وقوله « كلمة » دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة . وإما عائد إلى الملة فى قوله « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ » ، وأيد الأول بكون الموصى به مطابقاً فى اللفظ لأسلمت ، وقرب المعطوف عليه . ورجح القاضى الثانى لكون المرجع مذكوراً صريحاً . وردّ الإضمار إلى المصرح بذكره ، إذا أمكن ، أولى من رده إلى المدلول والمفهوم . ولكون الملة أجمع من تلك الكلمة . والكل حسن . وقوله تعالى « بَنِيهِ » تفيد صيغة الجمع أن لإبراهيم عليه السلام من الولد غير إسماعيل وإسحق . وقرأت فى سفر التكوين من التوراة[2] أن إبراهيم عليه السلام تزوج ، بعد وفاة سارة أم إسحق ، امرأة أخرى اسمها قَطُورَةُ ، فولدت له : زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا ، فعلى هذا تكون بنوه عليه السلام ثمانية « وَيَعْقُوبُ » معطوف على إبراهيم ، ومفعوله محذوف تقديره : ووصى يعقوب بنيه . لأن يعقوب أوصى بنيه أيضا كما أوصى إبراهيم بنيه . ودليل ذلك قوله تعالى « إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى »[3] كما سيأتى. وقرىء « ويعقوب » بالنصب عطفاً على بنيه ، ومعناه : ووصى بها إبراهيم بنيه ، ونافلته يعقوب . وقد ولد يعقوب فى حياة جده إبراهيم ، وأدرك من حياته خمس عشرة سنة ، كما يستفاد من سفر التكوين من التوراة ، فإن فيها أن إبراهيم عليه السلام ، ولد له اسحق ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٦و٢٧] ونصهما : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، ١و٢ ونصهما : وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قَطُورَةُ . فولدت له زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا .

(٣) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وهو ابن مائة سنة[١] ، ومات وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، وكان لإسحق، حين ولدله يعقوب وعيسو ، ستون سنة ، فاستفيد من ذلك ما ذكرناه . ولوجود يعقوب فى حياة جده يفهم سر ذكره فى قوله تعالى «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ»[٢] وفى آية أخرى « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً »[٣]. « يَا بَنِيَّ » أى قال كل من إبراهيم ويعقوب ، على القراءة الأولى . وعلى الثانية: قال إبراهيم: يا بَنِيَّ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ» أعطاكم الدين الذى هو صفوة الأديان ، وهودين الإسلام ، الذى لادين غيره عند الله تعالى « فَلَا » أى فتسبب عن ذلك أنى أقول لكم: لا « تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » وفى هذه الجملة إيجاز بليغ. والمراد : الزموا الإسلام ، ولاتفارقوه حتى تموتوا . وهذا الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال، أى لا تموتوا على حالة إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام . فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، لأنه هو المقدور . فلا يقال : صيغة النهى موضوعة لطلب الكف عما هو مدلولها ، فيكون المفهوم منه النهى عن الموت على خلاف حال الإسلام ، وذا ليس بمقصود ، لأنه غير مقدور . وإنما المقدور فيه هو الكون على خلاف حال الإسلام ، فيعود النهى إليه ، ويكون المقصود النهى عن الاتصاف بخلاف

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الحادى والعشرون ، ٥

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٤] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

و [٢٩ / العنكبوت/ ٢٧] ونصها: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٧٢] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ .

حال الإسلام وقت الموت ، لما أن الامتناع عن الاتصاف بتلك الحال يتبع الامتناع عن الموت فى تلك الحال. فإما أن يقال : استعمل اللفظ الموضوع للأول فى الثانى ، فيكون مجازاً . أو يقال : استعمل اللفظ فى معناه لينتقل منه إلى ملزومه ، فيكون كناية .

قال الزمخشرىّ : ونظير ذلك قولك : لا تصلّ إلا وأنت خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ، ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته . والنكتة فى إدخال حرف النهى عما ليس بمنهىّ عنه ، هو إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام ، موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم . كما تقول فى الأمر : مت وأنت شهيد . فليس مرادك الأمر بالموت ، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات . وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته ، وإظهاراً لفضلها على غيرها ، وإنها حقيقة بأن يُحَثّ عليها . هذا . وقد قرر سبحانه بهذه الآيات بطلان ما عليه المتعنتون من اليهودية والنصرانية ، وبرأ خليله والأنبياء من ذلك . ولما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه بالغ فى وصية بنيه بالدين والإسلام، ذكر عقبيه أن يعقوب وصى بنيه بمثل ذلك تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة فى البيان بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

«أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ» أى ما كنتم حاضرين حينئذ ، فـ « أم » منقطعة مقدّرة بـ « بل » والهمزة ، وفى الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ . والشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر ، وحضور الموت حضور مقدماته « إِذْ قَالَ » أى يعقوب

« لِبَنِيهِ » وهم[1] : رَأُوبَيْن ، وشِمْعُون ، ولَاوِى ، ويَهُوذَا ، ويَسَّاكَر ، وزَبُولُون ، ويُوسُف ، وبَنْيَامِينُ ، ودَانُ ، ونَفْتَالِى ، وجَادُ ، وأَشِيرُ ، وهم الأسباط الآتى ذكرهم « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى » أى أىّ شىء تعبدونه بعد موتى ، وأراد بسؤاله تقريرهم على التوحيد والإسلام ، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ » عطف بيان لآبائك . وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه. لأن العم أب والخالة أم ، لانخراطهما فى سلك واحد ، وهو الأخوّة ، لا تفاوت بينهما . ومنه حديث الترمذىّ عن علىّ كرم الله وجهه ، رفعه[2] « عم الرجل صنو أبيه » أى لا تفاوت بينهما ، كما لا تفاوت بين صنوى النخلة . وفى الصحيحين عن البراء ، رفعه[3] « الخالة بمنزلة الأم » ؛ وروى ابن سعد عن محمد بن علىّ مرسلًا « الخالة والدة » .

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والثلاثون ، ٢٣ـ٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ٢٨ ـ باب مناقب العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . ونصه : عن علىّ : أن النبىّ ﷺ قال لعمر ، فى العباس « إن عم الرجل صنو أبيه » وكان عمر تكلم فى صدقته .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ٦ ـ باب كيف يكتب : هذا ماصالح فلان بن فلان وفلان بن فلان .

ونصه : . . . . فخرج النبىّ ﷺ (من مكة) فتبعتهم ابنة حمزة : يا عم ! يا عم ! فتناولها علىّ فأخذ بيدها . وقال لفاطمة عليها السلام : دونك ابنة عمك ، احمليها . فاختصم فيها علىّ وزيد وجعفر . فقال علىّ : أنا أحق بها وهى ابنة عمى . وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى . وقال زيد : ابنة أخى . فقضى بها النبىّ ﷺ لخالتها ، وقال « الخالة بمنزلة الأم » . . . .

ولم أجده فى صحيح مسلم .

« إِلَٰهًا وَاحِدًا » بدل من إله آبائك ، كقوله تعالى « بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »(١) أو على الاختصاص ، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ، وفى ذلك تحقيق للبراءة من الشرك، للتصريح بالتوحيد . ثم أخبروا بعد توحيدهم بإخلاصهم فى عبادتهم ، بقولهم « وَنَحْنُ لَهُ » أى وحده لا لأب ولا غيره « مُسْلِمُونَ » أى مطيعون خاضعون ، كما قال تعالى « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا »(٢) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »(٣) والآيات فى هذا كثيرة، والأحاديث . ومنها قوله ﷺ(٤) « نحن معاشر الأنبياء أولاد علاتٍ ، ديننا واحد » وقد اشتمل نبأ وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لبنيهما على دقائق مرغبة فى الدين . منها أنه تعالى لم يقل « وأمر إبراهيم بنيه » بل قال « ووصاهم » ، ولفظ الوصية أوكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفى ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم ، فدل على الاهتمام بالوصى به ، والتمسك به . ومنها تخصيص بنيهما بذلك ، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم ، فلما خصّاهم بذلك فى آخر عمرهما علمنا أن اهتمامهما

(١) [٩٦ / العلق / ١٥و١٦] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٣] ونصها : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب واذكر فى الكتاب مريم ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لِعَلّات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٤٣و١٤٤و١٤٥ (طبعتنا)

بذلك كان أشد من اهتمامهما بغيره . ومنها أنهما ، عليهما السلام ، مامزجا بهذه الوصية وصية أخرى . وهذا يدل على شدة الاهتمام أيضاً . إلى دقائق أخرى أشار إليها الفخر ، عليه الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين « أُمَّةٌ » أى جيل وجماعة « قَدْ خَلَتْ » أى سلفت ومضت « لَهَا مَا كَسَبَتْ » فى إسلامها من الاعتقادات والأعمال والأخلاق « وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » أى مما أنتم عليه من الهوى خاص بكم ، لا يسألون هم عن أعمالكم « وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » والمعنى أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً . فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم . فما اقتص عليكم أخبارهم ، وما كانوا عليه من الإسلام والدعوة إليه ، إلا لتفعلوا ما فعلوه ، فتنتفعوا . وإن أبيتم ، لم تنتفعوا بأعمالهم .

قال الرازىّ : الآية دالة على بطلان التقليد ، لأن قوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ » يدل على أن كسب كل أحد يختص به ، ولا ينتفع به غيره ، ولو كان التقليد جائزاً ، لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع ، فكأنه قال : إنى ماذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم، ولكن لِتتنبّهُوا على مايلزمكم، فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق. انتهى.

ومعلوم أن اتباع الأنبياء عليهم السلام ، والإيمان بهم ، لا يسمى تقليداً ، لخروجه عن حده المقرر فى كتب الأصول .

ثم أخبر تعالى أنهم اعتاضوا عن الاهتداء بالأصفياء من أسلافهم ، بأن صاروا دعاة إلى الكفر ، مع بيان بطلان ماهم عليه من كل وجه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَقَالُوا » أى الفريقان من أهل الكتاب « كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ » نتبع « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » ونستن بسنته لا نحول عنها كما تحولتم « حَنِيفًا » أى مستقيماً أو مائلاً عن الباطل إلى الحق ، لأن الحنف ، محركة ، يطلق على الاستقامة ، ومنه قيل للمائل الرِّجل : أحنف . تفاؤلًا بالاستقامة كما قالوا للديغ : سليم . وللمهلكة : مفازة . ويطلق على ميل فى صدر القدم ، واعوجاج فى الرجل ، فالحنيف المستقيم على إسلامه لله تعالى ، المائل عن الشرك إلى دين الله سبحانه .

ولما أثبت إسلامه بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وفيه تعريض بأهل الكتاب ، وإيذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام ، مع إشراكهم بقولهم: عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله . وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان ، وأن الدين المرضىّ عندالله الإسلام ، وهو دعوةالخلق إلى توحيده تعالى ، وعبادته وحده ، لاشريك له .

ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم بعث الله نبيه محمدا خاتم النبيين لدعوة الناس جميعاً إلى هذا الأصل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

« قُولُوا » أى يا أيها الذين آمنوا . وفيه إظهار لمزية فضل الله عليهم حيث يلقنهم ولا يستنطقهم فيقصروا فى مقالهم « ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » أى من الكتاب الذى تقدم إنه الهدى « وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » من الأحكام التى كانوا متعبدين بها، مما اشتملت عليه صحف أبيهم إبراهيم عليه السلام ومن الوحى إليهم خاصة. والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر المتقدم ذكرهم. جمع سِبط وهو الحافد. سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق . « وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ » من التوراة والإنجيل « وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ » مما ذكر ، وغيرُهُم . « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » فى الإيمان فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » منقادون .

وقد روى البخارىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال[١] : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا » .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١١ ـ باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَإِنْ ءَامَنُوا » أى أهل الكتاب الذين أرادوا أن يستتبعوكم « بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ » أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصّل . على أن المثل مقحم . وقد قرأ ابن عباس وابن مسعود بما آمنتم به . وقرأ أُبَىّ : بالذى آمنتم به « فَقَدِ اهْتَدَوْا » إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم. عكس ما قالوا : كونوا مثلنا تهتدوا « وَإِن تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان بما آمنتم به . « فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ » أى فما هم إلا فى خلاف وعداوة وليسوا من طلب الحق فى شىء .

قال القاضى : ولا يكاد يقال فى المعاداة على وجه الحق أو المخالفة التى لا تكون معصية إنه شقاق . وإنما يقال ذلك فى مخالفة عظيمة توقع صاحبها فى عداوة الله وغضبه ولعنه ، وفى استحقاق النار. فصار هذا القول وعيداً منه تعالى لهم ، وصار وصفهم بذلك دليلًا على أن القوم معادون للرسول ، مضمرون له السوء ، مترصدون لإيقاعه فى المحن ، فمند هذا أمنه الله تعالى من كيدهم وأمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » تقوية لقلبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية فى أمر حصلت الثقة به . وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم (١)

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومقاتلته إياهم .

عن أبى أمامة قال : سمعت أبا سعيد الخدرىّ رضى الله عنه يقول : نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ . فأرسل النبىّ ﷺ إلى سعد . فأتى على حمار . فلما دنا من المسجد قال للأنصار « قوموا إلى سيدكم » أو « خيركم » فقال « هؤلاء نزلوا على حكمك » فقال : تَقْتُلُ مقاتلتهم وتَسْبِى ذراريّهم . قال « قضيتَ بحكم الله » وربما قال « بحكم الملك » .

وإجلاء بنى النضير[1] « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أتبع وعده بالنصر والكفاية ، بما يدل على أن ما يسرون وما يعلنون من أمرهم لا يخفى عليه تعالى . فهو يسبب لكل قول وضمير منهم ما يردّ ضرره عليهم . فهو وعيد لهم، أو وعدٌ لرسول الله ﷺ . أى يسمع ما تدعو به ، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق . وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (صِبْغَةَ اللهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

« صِبْغَةَ اللهِ » مصدر مؤكد منتصب عن قوله « آمنا بالله » كذا قاله سيبويه . فهو بمثابة فعله . كأنه قيل صبغنا الله صبغة . أى صبغ قلوبنا بالهداية والبيان صبغة كاملة لا ترتفع بماء الشبه ، ولا تغلب صبغتهُ غيره عليها . والصبغة كالصبغ (بالكسر فيهما لغة) مايصبَغ به وتلون به الثياب . ووصف الإيمان بذلك لكونه تطهيرًا للمؤمنين من أوضار الكفر ، وحلية تزينهم بآثاره الجميلة، ومتداخلًا فى قلوبهم. كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك. ويقال : صبغ يده بالماء غمسها فيه. وأنشد ثعلب :

دع الشر وانزل بالنجاة تحرزا ... إذا أنت لم يصبغك فى الشر صابغ

وقال الراغب : الصبغة إشارة من الله عز وجل إلى ما أوجده فى الناس من بداية العقول

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٤ ـ حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: حاربت النضير وقريظة . فأجلى بنى النضير وأقرّ قريظة ومنّ عليهم. حتى حاربت قريظة . فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين. إلا بعضهم لحقوا بالنبىّ ﷺ فآمنهم وأسلموا . وأجلى يهود المدينة كلهم : بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكلّ يهود المدينة .

التى ميزنا بها من البهائم، ووشحنا بها لمعرفته ومعرفة حسن العدالة وطلب الحق ، وهو المشار إليه بالفطرة فى قوله « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ »[١] الآية والمعنى بقوله عليه السلام : كل مولود يولد على الفطرة[٢] ... الخبر . وتسمية ذلك بالصبغة من حيث إن قوى الإنسان التى ركب عليها، إذا اعتبرت بذاته ، تجرى مجرى الصبغة التى هى زينة المصبوغ . ولما كانت اليهود والنصارى، إذا لقنوا أولادهم اليهودية والنصرانية، يقولون: قد صبغناه ـ بيّن تعالى أن الإيمان بمثل ما آمنتم به هو صبغة الله وفطرته التى ركزها فى الخلق. ولا أحد أحسن صبغة منه .

(ثم قال) وقول الحسن وقتادة ومجاهد : إن الصبغة هى الدين ، وقول غيرهم : إنها الشريعة ، وقول من قال : هو الختان ـ إشارة إلى مغزى واحد . « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً » الاستفهام للإنكار والنفى . أى لا صبغة أحسن من صبغته تعالى. لأنها صبغة قلب لا تزول . لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم ، فلا يرتد أحد عن دينه سخطة له بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه . والجملة اعتراضية مقررة لما فى « صبغة الله » من معنى الابتهاج « وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » شكرًا لتلك النعمة ولسائر نعمه . فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نوكدها بالعبادة ، وهى تزيل رَيْن القلب فينطبع فيه صورة الهداية . وهو عطف على آمنا ، داخل معه تحت الأمر .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى:٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٩٣ ـ باب ماقيل فى أولاد المشركين. ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه . كمثل البهيمة تنتج البهيمة . هل ترى فيها جدعاء؟ »

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)

« قُلْ » منكرا لمحاجتهم وموبِّخًا لهم عليها « أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ » أى أتناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له واتباع الهدى وترك الهوى « وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » المستحق لإخلاص العبودية له وحده لا شريك له ، ونحن وأنتم فى العبودية له سواء « وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » أى نحن برءاء منكم ومما تعبدون ، وأنتم برءاء منا . كما قال فى الآية الأخرى« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »(١) . وقال تعالى « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ »(٢) الآية . « وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » فى العبادة والتوجه ، لا نشرك به شيئاً وأنتم تشركون به عُزَيْرًا والمسيح والأحبارَ والرهبانَ. ولَمَّا بقى من مباهتاتهم ادعاؤهم أن أسلافهم كانوا على دينهم ، أبطلها سبحانه بقوله :

---

(١) [١٠ / يونس / ٤١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ، قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ » خليل الله « وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » ابنيه « وَيَعْقُوبَ » ابن إسحق « وَالْأَسْبَاطَ » أولاد يعقوب « كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى » أى على ملتهم . إما اليهودية وإما النصرانية « قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ » أى الذى له الإحاطة كلها أعلم . فلا يمكنهم أن يقولوا : نحن . وإن قالوا : الله ، فقد برأ الله إبراهيم ومن معه من ذلك . فبطل ما ادعوا . وثبت أنهم ، عليهم السلام ، كانوا على الحنيفية مسلمين مبرّئين عن اليهودية والنصرانية . هذا مع أن ردّ قولهم هذا أظهرُ ظاهرٍ من حيث إنه لايعقل أن يكون السابقُ على نسبةٍ للاحق ، ما حدثت إلا بعده بمدد متطاولة . وسيأتى النص الصريح بإبطال ذلك فى آل عمران . ولما كان العلم عندهم عن الله بأن الخليل ومن ذكر معه ، عليهم السلام ، على دين الإسلام وكانوا يكتمون ماعندهم من ذلك . مع تقرير الله لهم به واستخبارهم عنه ونهيه لهم عن كتمانه وما يقاربه بقوله « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ »(1) الآية ـ أشار إلى أشد الوعيد فى كتمان ذلك بقوله « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً » موجودة ومودعة « عِندَهُ مِنَ اللَّهِ » وهو كتمان العلم الذى هو الإخبار بما أنزل الله . والاستفهام إنكار لأن يكون أحدٌ أظلَمَ من أهل الكتاب حيث كتموا شهادته تعالى لهم ، عليهم السلام ، بالحنيفية والبراءة من الفريقين .

(١) [٢ / البقرة / ٤٢] ونصها : وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

قال التقيّ ابن تيمية : سمى تعالى ماعندهم من العلم شهادة كما قال « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ »(١) الآية كأنه قال : خبرًا عنده ، ديناً عنده من الله ، وبياناً عنده من الله ، وعلماً عنده من الله ، فإن كان قوله «من الله» متعلقاً بـ« كتم » فإنه يعم كل الشهادات . وإن كان متعلقاً بـ « عنده » ، وهو الأوجه ، أو بشهادة ، أو بهما ، فإن الأمر فى ذلك واحد. أى شهادة استقرت عنده من جهة الله . فهو كتمان شهادات العلم الموروث عن الأنبياء . فسمى الإخبار به شهادة .

ثم قال : وكذلك الأخبار النبوية إنما يراد بالشهادة فيها الإخبار. « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد شديد. أى أن علمه محيط بكم وسيجزيكم عليه .

قال الرازىّ : هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد . ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه ، ولا يخفى عليه خافية ، وأنه من وراء مجازاته ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ـ لا يمضى عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف . ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعدّ عليه الأنفاس ، لكان دائم الحذر والوجل ، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر ، فكيف بالرب الرقيب الذى يعلم السر وأخفى ، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » فلا يسألون عن أعمالكم

(١) [٢ / البقرة / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .

«وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» لما ذكر تعالى حسن طريقة الأنبياء المتقدمين، ولم يدع لهم متمسكاً من جهتهم ، أتبع ذلك الإشارة إلى أن الدين دائر مع أمره فى كل زمان . وأنه لاينفعهم إلا ما يستجدّونه بحكم ما تجدد من المُنْزَل المعجز لكافة أهل الأرض ، أحمرهم وأسودهم .. أى فعليكم بترك الكلام فى تلك الأمة . فلها ما كسبت . وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد ﷺ فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم. ولا تُسألون إلا عن عملكم.

قال الراغب : إعادة هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمة فى الناس ، صالحهم وطالحهم أن يفتخروا بآبائهم ويقتدوا بهم فى متحرياتهم . سيما فى أمور دينهم. ولهذا حكى عن الكفار قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ »(١) . فأكد الله تعالى القول فى إنزالهم عن هذه الطريقة . وذكر فى أثر ما حكى من وصية إبراهيم ويعقوب بنيه بذلك ، تنبيهاً أن الأمر سواء على ماقلت أو لم يكن. فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه. وفى الثانى لما ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد أيضاً تأكيداً عليهم تنبيها على نحو ما قال « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ »(٢) ، وقوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »(٣) ، وقوله « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ »(٤) ولما جرت به عادتهم وتفردت به معرفتهم : كل شاة تناط برجليها .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٢] ونصها : بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ .

(٢) [١٧/الإسراء/ ١٣] ونصها: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا » روى البخارىّ فى صحيحه[1] عن البَرَاءِ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا . وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها ، صلاة العصر وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبىّ ﷺ قِبَلَ مكة . فداروا ، كما هم ، قِبَلَ البيت .

وروى مسلم[2] عن البراء رضى الله عنه نحو ما تقدم ولفظه : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، ثم صرفنا نحو الكعبة .

وروى الشيخان[3] عن ابن عمر قال : بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن. وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . (اللفظ لمسلم)

والأحاديث فى تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة متوافرة . وفيما ذكرنا كفاية .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٢ ـ باب سيقول السفهاء من الناس. . .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٢ . (طبعتنا)

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٢ ـ باب ما جاء فى القبلة .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٣ . (طبعتنا)

وقد أعلم الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن فريقاً من النـاس سينكرون تغيير القبلة وسماهم سفهاء ، جمع سفيه. وهو الخفيف الحلم والأحمق والجاهل . قال أبوالسعود : أى الذين خفّت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر. انتهى . ومعنى قوله «ماولاهم» أى أىّ شيء صرفهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، أى ثابتين على التوجه إليها، وهى بيت المقدس. ومدار الإنكار ، إن كان القائلون هم اليهود ، كراهتهم للتحويل عنها لأنها قبلتهم . وإن كان غيرهم ، فمجرد القصد إلى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه . وقد روى عن ابن عبـاس : أن القائلين هم اليهود ، وعن الحسن أنهم مشركو العرب . وعن السدّىّ أنهم المنافقون .

قال الراغب : ولا تنافى بين أقوالهم فـكلٌّ قد عابوا ، وكلٌّ سفهاء .

(تنبيه) ظاهر قوله تعالى « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ » الخ أنه إخبار بقولهم المذكور . ثم إن الإخبار قبل وقوعه . وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم ، فإن مفاجأة المـكروه على النفس أشق وأشد . والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أردّ ، مع مافيه من دلائل النبوة حيث يكون إخباراً عن غيب ، فيـكون معجزا « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » جواب عن شبهتهم . وتقريره أن الجهات كلها لله ملـكاً. فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة . بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة . فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى . وما أَمَرَ به فهو الحق . « يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فيه تعظيم أهل الإسلام وإظهار عنايته تعالى بهم وتفخيم شأن الـكعبة . كما فخمه بإضافته إليه فى قوله تعالى « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ »[1] .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٦] ونصها : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَـكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَكَذَٰلِكَ » أى كما هديناكم إلى قبلة هى أوسط القبل وأفضلها « جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدولا ، خياراً. وقوله تعالى « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » تعليل للجعْل المنوه به الذى تمّتْ المنة به عليهم . واعلم أن أصل الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة . إما بالبصر أو بالبصيرة . قال الرازىّ : الشهادة والمشاهدة والشهود هو الرؤية ، يقال شاهدت كذا إذا رأيته وأبصرته ، ولما كان بين الإبصار بالعين وبين المعرفة بالقلب مناسبة شديدة ، لاجرم قد تسمى المعرفة التى فى القلب مشاهدة وشهوداً، والعارف بالشىء شاهدا ومشاهداً . ثم سميت الدلالة على الشىء شاهداً على الشىء لأنها هى التى بها صار الشاهد شاهدا . ولما كان المخبر عن الشىء والمبيّن لحاله جارياً مجرى الدليل على ذلك ، سمى ذلك المخبر أيضاً شاهداً . وبالجملة ، فكل من عرف حال شىء وكشف عنه كان شاهدا عليه . انتهى .

والشهيد أصله الشاهد والمشاهد للشىء والمخبر عن علم حصل بمشاهدة بصرٍ أو بصيرة . وهو ، بالمعنى الثالث ، من النعوت الجليلة . ولذلك وصف به النبيون والسادة والأئمة. كما ترى فى هذه الآية وفى آية « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »[١] وآية « وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ »[٢] « وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »[٣] ثم إن فى اللام فى قوله تعالى « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وجهين (الأول) إنها لام الصيرورة والعاقبة . أى فمآل الأمر بهدايتكم وجعلكم وسطا أن كنتم شهداء على الناس. وهم أهل الأديان الأخر . أى بصراء على كفرهم بآيات الله وما غيروا وبدلوا وأشركوا وألحدوا. مما قص عليكم فى الآيات قبل ، حتى أحطتم به خبرا . فعرفتم حق دينهم من باطله، ووحيه من مخترعه . يعنى : وإذا شهدتم ذلك منهم وأبصرتم فاشكروا مولاكم على ما أولاكم ، وعافاكم مما ابتلى به سواكم، حيث وفقكم للمنهج السوىّ وهداكم للمهيع الرضىّ . وكذلك صار الرسول عليكم شهيدا بأنكم عرفتم الحق من الباطل والهدى من الضلال والنور من الظلمات ، بما بلغكم من وحيه وأراكم من آياته . فعظمت المنة لله عليكم إذ أصبحتم مهتدين بعد الضلالة ، علماء بعد الجهالة . ففيه إشارة إلى تحذير المؤمنين من أن يزيغوا بعد الهدى ، كما زاغ أولئك الذين نعى عليهم ضلالتهم ، فتقوم عليهم الحجة كما قامت على أولئك. (الوجه الثانى) أن تكون اللام للتعليل ، على أصلها . والمعنى: جعلناكم أمة خيارا لتكونوا شهداء على الناس، أى رقباء قوّاما عليهم بدعائهم إلى الحق وإرشادهم إلى الهدى وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضلال . كما كان الرسول شهيدا عليكم بقيامه عليكم بما بلغكم وأمركم ونهاكم وحذركم وأنذركم . فتكون الآية نظير آية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

---

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا .

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(١) وربما آثر هذا المعنى من قال: خير مافسّر القرآن بالقرآن. لتماثل الآيتين بادىء بدء . فإن الوسط بمعنى الخيار. وقد صرح به فى قوله « خَيْرَ أُمَّةٍ » وإلى هذا المعنى يشير قول مجاهد فى الآية : لتكونوا شهداء لمحمد عليه السلام على الأمم اليهود والنصارى والمجوس : أى شهداء على حقية رسالته . وذلك بالدعوة إليها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو قطب الدعوة وروحها .

وبعد كتابة هذا رأيت السمرقندىّ فى تفسيره نقل خلاصة ما قلناه . وعبارته : وللآية تأويل آخر « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدولا « لتكونوا شهداء على الناس» الخ يقول : إنكم حجة على جميع من خالفكم . ورسول الله عليه السلام حجة عليكم . والشهادة فى اللغة هو البيان . ولهذا سمى الشاهد بينة لأنه يبيّن حق المدعى . يعنى إنكم تبينون لمن بعدكم ، والنبىّ ، عليه السلام ، يبين لكم . انتهى .

وأوضح ذلك الراغب الأصفهانىّ بأسلوب آخر فقال : إن قيل : على أى وجه شهادة النبىّ ﷺ على الأمة وشهادة الأمة على الناس ؟ قيل: الشاهد هو العالم بالشىء المخبر عنه مثبتا حكمه . وأعظم شاهد من ثبت شهادته بحجة . ولما خص الله تعالى الإنسان بالعقل والتمييز بين الخير والشر ، وكمله ببعثة الأنبياء ، وخصّ هذه الأمة بأتم كتاب ، كما وصفه بقوله «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»(٢) وقوله «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ»(٣)

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٦/الأنعام/٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ =

فأفادناه عليه السلام وبينه لنا ـ صار حجة وشاهدا أن يقولوا «مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ»(١).
وجعل أمته ، المتخصصة بمعرفته ، شهودا على سائر النـاس . (إن قيل) هل أمته شهود كلهم أم بعضهم ؟ (قيل) كلهم ممكن من أن يكونوا شهداء . وذلك بشريطة أن يزكوا أنفسهم بالعلم والعمل الصالح ، فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهدا ومقبولا . ولذلك قال تعـالى « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا »(٢) وعلى هذا قال « يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ »(٣) فالقيام بالقسط مراعاة العدالة . وهى ، بالقول المجمل ، ثلاث : عدالة بين الإنسان ونفسه ـ وعدالة بينه وبين الناس ـ وعدالة بينه وبين الله عز وجل . فمن رعى ذلك فقد صار عدلًا شاهدا لله عز وجل. (إن قيل) فهل هم شهود على بعض الأمة أم على الناس كافة؟ (قيل) بل كلٌّ شاهد على نفسه وعلى أمته وعلى الناس كافة. فإن من عرف حكمة الله تعالى وجوده وعدله ورأفته ، علم أنه لم يغفل تعالى عنه ولا عن أحد من الناس ، ولا بخل عليهم ولا ظلمهم ، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على مَن فى زمانه وعلى

= مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(١) [٥ / المائدة / ١٩] ونصها : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٩١ / الشمس / ٩] .

(٣) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

مَن قبله ومَن بعده . وعلى هذا الوجه ماروى فى الخبر أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم. انتهى كلام الراغب . والخبر الذى أشار إليه رواه البخارى[1] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب . فيقول : هل بلغتَ ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا. فذلك قوله جل ذكره « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » وقد روى مرفوعا عن جابر . أخرجه الطبرى[2] . وعن ثلة من التابعين من قولهم .

وأقول: قد بينا مرارا ، أن مثل هذا الخبر وكل مايروى مرفوعا أو غير مرفوع فى تأويل هذه الآية ، فكله يفيد أن للآية عموماً يشمل ماذكر . لا أنها خاصة به لايستفاد منها غيره . كما أوضحناه فى المقدمة فى قولهم : نزلت الآية فى كذا . وعليه ، فلا تنافى بين ما يفهم من سياق الآية أو ما يتقاضاه معناها لغة ، من حيث عمومها ، أو ما يحمل عليها من نظائرها فى التنزيل الكريم ، وبين ما يروى فى تفسيرها . فمآل ما يتمدد من سبب النزول فى آية ما ، أو ما يكثر من الآثار فى وجوهها ، كله من باب تفسير العامّ ببعض ما يتناوله لفظه . ولذلك يكثر فى بعض طرق الروايات : ثم تلا النبى ﷺ قوله تعالى . أو ثم قرأ . أو اقرؤا إن شئتم . مما يدل على أنه ذكرت الآية حجة لما أخبر به ، لأنه مما يندرج فيها . فاحرص على ذلك .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٣ ـ باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا .

(٢) تفسير الطبرى ، حديث رقم (٢١٨٢) طبعة المعارف .

(تنبيهات)

(الأول) . استدل بالآية على أن الإجماع حجة . لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة . والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها . فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله ، فإجماع الأمة حق . لا تجتمع الأمة ، والحمد لله، على ضلالة . كما وصفها الله بذلك فى الكتاب فقال تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »[١] وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . كما وصف نبيهم صلى الله عليه وسلم بذلك فى قوله « الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ »[٢] وبذلك وصف المؤمنين فى قوله « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »[٣] فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال ، لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه . وقد جعلهم الله شهداء على الناس . وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت فى الصحيح[٤] عن عبد العزيز بن صهيب قال . سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه فيقول : مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال « وجبت » .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٣ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٩ .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] ونصها : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٦ ـ باب ثناء الناس على الميت .

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما وجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار . أنتم شهداء الله فى الأرض .

وعند الحاكم أنه قرأ هذه الآية : وكذلك جعلناكم ... إلى آخرها .

فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء، لم يشهدوا بباطل . فإذا شهدوا أن الله أمر بشىء ، فقد أمر به . وإذا شهدوا أن الله نهى عن شىء فقد نهى عنه . ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطإ لم يكونوا شهداء الله فى الأرض . بل زكاهم الله فى شهادتهم ، كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق ، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا الحق . هذه نبذة من كلام الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى الإجماع ، من بعض رسائله .

(الثانى) مما يتعلق أيضاً بهذا المقام ، ما قاله أيضا هذا الإمام فى رسالته إلى جماعة عدىّ ابن مسافر . ونصه : فعصم الله هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة . ولهذا كان إجماعهم حجة ، كما كان الكتاب والسنة حجة . ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ، ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين ؛ وقد روى عن النبىّ ﷺ من وجوه متعددة ، رواها عنه أهل السنن والمسانيد ، كالإمام أحمد[1] ،

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده . الجزء الثانى ص ٣٣٢ (طبعة الحلبىّ) .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة . وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

وفى الجزء الثالث ص ١٢٠ : (طبعة الحلبىّ) .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن بنى إسرائيل قد افترقت على ثنتين وسبعين فرقة . وأنتم تفترقون على مثلها . كلها فى النار إلا فرقة » .

وأبي داود[1] ، والترمذيّ[2] وغيرهم ، أنه قال : ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار ، إلا واحدة ، وهى الجماعة . وفى رواية : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم ، وأصحابى . وهذه الفرقة الناجية أهل السنة . وهم وسط فى النِّحل ، كما أن ملة الإسلام وسط فى الملل . فالمسلمون وسط فى أنبياء الله ، ورسله ، وعباده الصالحين ، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى فـ« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ،

(١) سنن أبى داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١ ـ باب شرح السنة ، حديث ٤٥٩٦.

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة . وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

وحديث ٤٥٩٧ :

عن معاوية بن أبى سفيان أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون فى النار . وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة » .

(٢) جامع الترمذيّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٨ ـ باب ماجاء فى افتراق هذه الأمة

عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو ثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى على مثل ذلك . وتفرق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل ، حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية ، لكان فى أمتى من يصنع ذلك . وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة » قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابى » .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »(١) ولا جفَوْا عنهم ، كما جفت اليهود ، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس(٢) ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً ، وقتلوا فريقاً(٣) . بل المؤمنون آمنوا برسل الله ، وعزروهم ، ونصروهم ، ووقّروهم ، وأحبوهم ، وأطاعوهم ، ولم يعبدوهم ، ولم يتخذوهم أرباباً . كما قال تعالى « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »(٤) .

ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح ، فلم يقولوا : هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة . كما تقوله النصارى . ولا كفروا به ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً ، حتى جعلوه ، ولدَ غيّة ، كما زعمت اليهود . بل قالوا : هذا عبدالله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، وروح منه . وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله ، فلم يحرّموا على الله أن ينسخ ما شاء ، ويمحو ما شاء ويثبت . كما قالته اليهود . كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا »(٥) وبقوله

(١) [٩ / التوبة / ٣١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

(٣) [٥ / المائدة / ٧٠] ونصها : لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ .

(٤) [٣ / آل عمران / ٧٩ و ٨٠] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٤٢] ونصها : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ =

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ»(١) ولا جوّزوا لأكابر علمائهم وعبّادهم أن يغيروا دين الله، فيأمروا بما شاؤوا وينهوا عما شاؤوا . كما يفعله النصارى . كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »(٢) .

قال عدىّ بن حاتم رضي الله عنه(٣) : قلت : يارسول الله ماعبدوهم ؟ قال : ما عبدوهم ، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم . والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر(٤) ، فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره . وقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأطاعوا

= قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(١) [٢ / البقرة / ٩١] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٩ .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبيّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال « ياعدىّ ، اطرح عنك هذا الوثن » وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم. ولكنهم كانوا إذا أحلوا شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه » .

(٤) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

كل ما أمر الله به . وقالوا : إن الله يحكم ما يريد[١] . وأما المخلوق ، فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ، ولو كان عظيماً . وكذلك فى صفات الله تعالى ، فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة ، فقالوا : هو فقير ونحن أغنياء[٢] . وقالوا يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ[٣] . وقالوا : إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت[٤] . إلى غير ذلك . والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به . فقالوا : إنه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ، ويثيب ويعاقب . والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى . ليس له سمىٌّ ولا ندٌّ . «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[٥]» و«وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»[٦] فإنه رب العالمين ، وخالق كل شيء . وكل ما سواه عباد له ، فقراء إليه .

---

(١) [٥ / المائدة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . . .

(٤) سفر التكوين ، الأصحاح الثانى ، ٢و٣

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٤] .

(٦) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

« إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا »(١) ومن ذلك : أمر الحلال والحرام . فإن اليهود كما قال الله تعالى « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »(٢) فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط . ولا شحم الثرب (الثَّرْب : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء . وجمعه ثروب) والكليتين . ولا الجدى فى لبن أمه . إلى غيرذلك، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرها . حتى قيل : إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا. والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمراً. وكذلك شدد عليهم فى النجاسات حتى لايوا كلوا الحائض ، ولا يجامعوها فى البيوت . وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات ، وباشروا جميع النجاسات ، وإنما قال لهم المسيح «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »(٣). ولهذا قال تعالى «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »(٤). وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به فى قوله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

---

(١) [١٩ / مريم / ٩٣ـ٩٥] .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٠] ونصها : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٠] ونصها : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

(٤) [٩ / التوبة / ٢٩] .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١).

وهذا باب يطول وصفه . وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق . فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته، وسط بين أهل التعطيل ، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ، ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات . وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات . فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم . من غير تحريف ولا تعطيل . ومن غير تكييف وتمثيل . وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله ، الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء . وبين المفسدين لدين الله . الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولاقدرة ولاعمل فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب . فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ »(٢) فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير . فيقدر أن يهدى العباد ويقلب قلوبهم . وإنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فلا يكون في ملكه مالا يريد . ولا يعجز عن إنفاذ مراده . وإنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات . ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل . وأنه مختار . ولا يسمونه مجبورا . إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره . والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله . فهو مختار مريد . والله خالقه وخالق اختياره . وهذا ليس له نظير .

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦و١٥٧] وأول الآية الأولى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ . . .

(٢) [٦ / الأنعام/ ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية . ويكذبون بشفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وبين المرجئة الذين يقولون : إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء . والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان . ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية . فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فسّاق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله . وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة . وأنهم لا يخلدون في النار بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، أو مثقال خردلة من إيمان . وأن النبيّ ﷺ ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته . وهم أيضا في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم ، وسط بين الغالية الذين يغالون في عليّ رضي الله عنه فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما ، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا ، وكفروا الأمة بعدهم كذلك ، وربما جعلوه نبياً أو إلهاً . وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضي الله عنهما ، ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما . ويستحبون سب عليّ وعثمان ونحوهما . ويقدحون في خلافة عليّ رضي الله عنه وإمامته . وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط . لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . انتهى .

« وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا » أي ما شرعنا القبلة ، كقوله تعالى « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »[1] أي ما شرعها . و« الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا » ليس بصفة للقبلة إنما هو ثاني مفعوليْ « جعل » أي وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها أي في مكة تستقبلها قبل

(١) [٥ / المائدة / ١٠٣] ونصها : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

الهجرة وهى الكعبة . يعنى : وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء . أو « كُنْتَ عَلَيْهَا » بمعنى صرت عليها الآن . كقوله تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ »[(١)] . أو بمعنى كنت على تطلبها ، أى حريصا عليه . وراغبا فيه . كما يفصح عنه قوله تعالى بعدُ « قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ »[(٢)] الآية .

وعلى هذه الأوجه، فتكون الآية بيانا للحكمة فى جعل الكعبة قبلة . أو معنى التى « كنت عليها» : قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس . أى إنما شرعنا لك التوجه أولا إليه ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ، حيثما توجهت ، من غيره . فتكون الآية بيانا للحكمة فى جعل بيت المقدس قبلة أوّلا .

ثم اعلم أن الحكمة هو التمييز بين الناس بقوله « إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ » فى كل ما يؤمر به، فيثبت عند تقلب الأحكام بما فى قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيَّانَ مَا وجهه « مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ » أى يرتد عن دينه فينافق أو يكفر ممن كان يظهر الاتباع . وأصل المنقلب على عقبيه : الراجع مستدبرا فى الطريق الذى قد كان قطعه منصرفاً عنه . استعير لكل راجع عن أمر كان فيه من دين أو خير . قال ابن جرير : قد ارتد ، فى محنة الله أصحابَ رسوله فى القبلة ، رجالٌ ممن كان قد أسلم . وأظهر كثير من المنافقين من

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أجل ذلك نفاقهم . وقالوا : ما بال محمد يحوّلنا مرة إلى ههنا ومرة إلى ههنا ؟ وقال المسلمون فيمن مضى من إخوانهم المسلمين وهم يصلون نحو بيت المقدس: بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت. وقال المشركون : تحيّر محمد فى دينه . فـكان ذلك فتنة للمؤمنين وتمحيصاً للمؤمنين. انتهى .

(لطيفة) العقبين تثنية عقب وهو مؤخر القدم . والانقلاب عليهما استعارة تمثيلية . وهذه الاستعارة نظير قوله تعالى «ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ»(١) وكقوله « كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ »(٢).

(تنبيه) قال الراغب رحمه الله : ما وجه قوله « إلا لنعلم » وذلك يقتضى استفادة علم . ولم يزل ، تعالى ، عالمًا بما كان وبما يكون ؟ (قيل) : إن ذلك من الألفاظ التى لولا السمع لما تجاسرنا على إطلاقها عليه تعالى . ومجاز ذلك على أوجه : (الأول) أن اللام فى مثل ذلك تقتضى شيئين: حدوث الفعل فى نفسه وحدوث العلم به . ولما كان علم الله لم يزل ولا يزال ، صار اللام فيه مقتضياً حدوث الفعل لا حدوث العلم . (والثانى) أن العلم يتعلق بالشيء على ما هو به . والله تعالى عَلِمَهُمْ ، قبل أن يتبعوه ، غير تابعين . وبعد أن تبعوه عَلِمَهُمْ تابعين. وهذا الجواب هو فى الحقيقة الأول . لأن التغيير داخل فى المعلوم لا فى العلم. (والثالث) معناه ليعلم غيرنا بنا . فنسب ذلك إلى نفسه . كقوله تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»(٣)

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٢٣] .

(٢) [٢٠/طه/٤٨] ونصها: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ.
و [٧٥ / القيامة / ٣٢] ونصها : وَلَـٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .
و [٩٢ / الليل / ١٦] ونصها : الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .
و [٩٦ / العلق / ١٣] ونصها : أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وفى موضع آخر « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ »(١) وقال تعالى « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ »(٢) وإنما علمه بملائكته . (والرابع) معناه لنجازى . وذلك متعارف . نحو قولك : سأعلم حسن بلائك . أى سأجزيك على حسب مقتضى علمى قبل . فعبّر عن الجزاء بالعلم لما كان هو سببه . (والخامس) أن عادة الحليم إذا أفاد غيره علما أن يقول : تعالَ حتى نعلم كذا . وإنما يريد إعلام المخاطب . لكن يُحلّ نفسه محل المشارك للمتعلم على سبيل اللطف . انتهى .

والوجه الثالث هو الذى اختاره الإمام ابن جرير قال : أما معناه عندنا : وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا ليعلم رسولى وحزبى وأوليائى : من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه (قال) وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس، إلى الرئيس . وما فعل بهم، إليه . نحو قولهم : فتح عمر بن الخطاب سواد العراق وجبى خراجها ، وإنما فعل ذلك أصحابه ، عن سببٍ كان منه فى ذلك . وكالذى رُوِىَ فى نظيره عن النبىّ ﷺ أنه قال(٣) « يقول الله

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] ونصها : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١١٣] ونصها : وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَىْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يقول ، يوم القيامة: يا ابن آدم ! مرضتُ فلم تعدنى . قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمنى . قال: يارب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ =

جل ثناؤه : مرضت فلم يعدنى عبدى . واستقرضته فلم يقرضنى » فأضاف ، تعالى ذكره ، الاستقراض والعيادة إلى نفسه ، وقد كان ذلك بغيره ، إذ كان ذلك عن سببه .

قد حكى عن العرب سماعا : أجوع فى غير بطنى ، وأعرى فى غير ظهرى . بمعنى جوع أهله وعيـاله وعُرْى ظهورهم . فـكذلك قوله « إلا لنعلم » بمعنى : يعلم أوليائى وحزبى اه . « وَإِنْ كَانَتْ » أى التولية إليهـا أو الجملة أو التحويلة « لَكَبِيرَةً » أى ثقيلة شاقة ، لأن مفارقة الإلف، بعد طمأنينة النفس إليه ، أمر شاق جدا. «إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ» قلوبهم . فأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيـه . وأن الله يفعل مايشاء ويحكم مايريد . فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ مايشاء . وله الحـكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر، أحدث لهم شكا. كما يحصل، للذين آمنوا، إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال تعالى « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ »(١) وقال تعالى « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »(٢) . وقوله تعالى « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » هذا تطمين لمن صلى إلى بيت المقدس من المسلمين ومن أهل الـكتاب قبل النسخ .

= قال : أما علمتَ أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عنـدى ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقنى . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدتَ ذلك عندى » .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٤و١٢٥] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وبيان أنهم يثابون على ذلك. وقد روى البخاري[(١)] من حديث أبي إسحق المتقدم عن البراء : وكان الذى مات على القبلة ، قبل أن تحوّل قِبَل البيت ، رجال قتلوا . لم ندر ما نقول فيهم . فأنزل الله «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ»[(٢)] أى صلاتكم . وإنما عدل إلى لفظ الإيمان، الذى هو عام فى الصلاة وغيرها ، ليفيدهم أنه لم يضع شىء مما عملوه ، ثم يصح عنهم ، فيندرج المسئول عنه اندراجا أوليا، ويكون الحكم كليا . وذكر بلفظ الخطاب دون الغائب ، ليتناول الماضين والباقين ، تغليباً لحكم المخاطب على الغائب فى اللفظ ، وفى تتمة الآية إشارة إلى تعليل عدم الإضاعة ، بما اتصف به من الرأفة المنافية لما هجس فى نفوسهم من الإضاعة .

ولما انطوى ضمير النبىّ ﷺ على إرادة التوجه إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ومفخرة العرب ومزارهم ومطافهم ، ولمخالفة اليهود ـ أجابه الحق إلى ذلك بقوله :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٢ ـ سيقول السفهاء من الناس . . . ونصه :

عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا . وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر . وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون . قال : أشهد بالله لقد صليت مع النبىّ ﷺ قِبَل مكة . فداروا كما هم قبل البيت .

وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قِبَل البيت رجال قُتلوا ، لم ندر ما نقول فيهم. فأنزل الله : وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » أى تردد وجهك وتصرّف نظرك فى جهة السماء تشوفا لنزول الوحى بالتحويل .

قالوا : وفى ذلك تنبيه على حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل . وهذا ألطف مما قيل : إن تقلب وجهه كناية عن دعائه ، ولامانع أن يراد بتقلب وجهه صلى الله عليه وسلم بالتحويل ، ففيه إعلام بما جمله تعالى من اختصاص السماء بوجه الداعى . وهذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة ، فهى متقدمة فى المعنى . فإنها رأس القصة . « فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » أى لنمطينك أو لنوجهنك إلى قبلة تحبها وتميل إليها . ودل على أن مرضيه الكعبة ، بفاء السبب فى قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى نحوه وجهته . والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » أى حيثما كنتم فى بر أو بحر فولوا وجوهكم فى الصلاة تلقاء المسجد . وأما سرّ الأمر بالتولية خاصا وعاما ، فقال الراغب : أما خطابه الخاص فتشريفاً له وإيجاباً لرغبته . وأما خطابه العام بعده ، فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خص ، عليه السلام ، به . كما خص فى قوله « قُمِ اللَّيْلَ »(١) ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطر ، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أبلغ وليكون لهم فى ذلك تشريف . ولأن فى الخطاب العام

(١) [٧٣ / المزمل / ٢] ونصها : قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .

تعليق حكم آخر به . وهو أنه لا فرق بين القرب والبعد فى وجوب التوجه إلى الكعبة .
« وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الفخر : الضمير فى قوله « أنه الحق » راجع إلى مذكور سابق. وقد تقدم ذكر الرسول، كما تقدم ذكر القبلة . فجاز أن يكون المراد أن القوم يعلمون أن الرسول مع شرعه ونبوته حق . فيشتمل ذلك على أمر القبلة وغيرها . ويحتمل أن يرجع إلى هذا التكليف الخاص بالقبلة ، وأنهم يعلمون أنه الحق . وهذا الاحتمال الأخير أقرب ، لأنه أليق بالمساق . ثم ذكر من وجوه علمهم لذلك: أنهم كانوا يعلمون أن الكعبة هى البيت العتيق الذى جعله الله تعالى قبلةً لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وأنهم كانوا يعلمون نبوة محمد ﷺ لما ظهر عليه من المعجزات . ومتى علموا نبوته فقد علموا لا محالة أن كل ما أتى به فهو حق . فكان هذا التحويل حقا .

قلت : وثم وجه آخر أدق مما ذكره الفخر فى علمهم حقّيّة ذلك التحويل وأنه من أعلام نبوته ﷺ . وبيانه أن أمره تعالى للنبىّ ﷺ ، ولكافة من اتبعه ، باستقبال الكعبة، من جملة الاستهلال فى فاران المذكور فى التوراة إشارةً لخاتم النبيين وبشارة به . فقد جاء فى الأصحاح الثالث والثلاثين[1] من سفر التثنية (ويقال الاستثناء) هكذا: وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجلُ الله بنى إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناءَ وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألأ من جبل فارانَ .

وهذه البشارة تنبه على موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . لأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى فى طور سيناء والإنجيل على عيسى فى جبل سعير . لأنه عليه السلام كان يسكن أرض الخليل من سعير بقرية تدعى الناصرة . وتلألؤه من جبل فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى جبل فاران . وفاران هى مكة . لا يخالفنا فى ذلك أهل الكتاب . ففى الأصحاح[2] الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال إسماعيل

(١) سفر التثنية ، الأصحاح الثالث والثلاثون ، ١ و٢ .
(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الحادى والعشرون ، ٢٠ و٢١ .

عليه السلام هكذا : وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرّية وكان ينمو رامىَ قوس. وسكن فى برّية فارانَ .

ولا شك أن إسماعيل، عليه السلام، كان سكناه فى مكة وفيها مات وبها دفن .

وقال ابن الأثير : وفى الحديث ذكر جبل فاران اسم لجبال مكة بالعبرانىّ . له ذكر فى أعلام النبوة . وألفه الأولى ليست بهمزة. « وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » قرىء بالياء والتاء . فيه إنباء بتماديهم على سوء أحوالهم . ولما بين تعالى أنهم يعلمون أن هذه القبلة حق، أعلم أن صفتهم لا تتغير فى الاستمرار على المعاندة بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى من اليهود والنصارى « بِكُلِّ ءَايَةٍ » أى برهان قاطع أنّ التوجه إلى الكعبة هو الحق « مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ » أى هذه التى حوّلت إليها . لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة . إنما هو عن مكابرة وعناد . مع علمهم بما فى كتبهم من نعتك أنك على الحق. وقوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » هذا حسم لأطماعهم فى العود إليها . أو للمقابلة . يعنى ماهم بتاركى باطلهم وما أنت بتارك حقك. « وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ » فلا اتفاق بين فريقيهم، مع كون الكل من بنى إسرائيل. قال الزمخشرىّ : أخبر تعالى عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه . فالمحق منهم لا يزلّ عن مذهبه لتمسكه بالبرهان . والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته فى عناده . وفيه إراحة للنبىّ ﷺ من التطلع إلى هدى بعضهم .

(فوائد)

الأولى : قال الراغب : إن قيل كيف أعلم بأنهم لا يتبعون قبلته وقد آمن منهم فريق ؟ قيل : قال بعضهم : إن هذا حكم على الكل دون الأبعاض . وهذا صحيح . بدلالة أنك لو قلت : ما آمنوا ولكن آمن بعضهم ، لم يكن منافياً . وقيل : عنى به أقوام مخصوصون .

الثانية : قال الراغب : في قوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » إشارة إلى أن من عرف الله حق معرفته ، فمن المحال أن يرتد . ولذا قيل : ما رجع من رجع إلا من الطريق : أي ما أخل بالإيمان إلا من لم يصل إليه حق الوصول .

إن قيل : فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتدّ (قيل) إن الذي يقدرّ أنه معرفة، هو ظن متصور بصورة العلم . فأما أن يحصل له العلم الحقيقيّ ثم يعقبه الارتداد ـ فبعيد . ولم يعن بهذه المعرفة ما جعله الله تعالى للإنسان بالفطنة . فإن تلك كشررة تخمد إذا لم تتوقد .

الثالثة : قال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى ، في بدائع الفوائد : قبلة أهل الكتاب ليست بوحي وتوقيف من الله . بل بمشورة واجتهاد منهم . أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق . وهم يقرّون بأن قبلة المسيح قبلة بني إسرائيل . وهي الصخرة . وإنما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة . فهم مع اليهود ، متفقون على أن الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبدا . والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الأمر . وأما اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة ، البتة . وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلّون إليه من حيث خرجوا . فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلّوا إليه . فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة . وقوله « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله «وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير . بمعنى : ولئن اتبعتهم، مثلا، بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر « إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أي المرتكبين الظلم الفاحش .

وفى ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ، ويتبع الهوى . وتهييجٌ وإلهاب للثبات على الحق . أفاده الزمخشريّ .

(تنبيهات)

الأول : قال الراغب : حذر تعالى نبيه عن اتباع أهوائهم . ونبه أن اتباع الهوى بعد التحقق بالعلم يدخل متحريه فى جملة الظلمة . وقد أكثر الله تحذيره من الجنوح إلى الهوى حتى كرر ذلك فى عدة مواضع. وقول من قال : الخطاب للنبيّ ﷺ ، والمعنيّ به الأمة ، فلا معنى لتخصصه . فإن الله تعالى يحذر نبيـه من اتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره . فذو المنزلة الرفيعة إلى تحذير الإنذار عليه أحوج ، حفظاً لمنزلته وصيانة لمكانته اهـ. وهو كلام نفيس جدا .

(الثانى) فى الآية تنويه بشأن العلم . حيث سمى أمر النبوات والدلائل والمعجزات باسم العلمْ. فذلك ينبّه على أن العلم أعظم المخلوقات شرفا ومرتبة .

(الثالث) دلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم . لأن قوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » يدل على ذلك . ذكره الرازيّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » أى يعرفون رسول الله ﷺ معرفة لا امتراء فيهـا ، كما لا يمترون فى معرفة أولادهم من بين أولاد الناس . وهذه المعرفة مستفادة من الكتاب . كما أخبر تعالى عن نعته فيـه بقوله « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[1] يعني يعرفونه بالأوصاف المذكورة فى التوراة والإنجيل بأنه هو النبيّ الموعود بحيث لا يلتبس عليهم . كما يعرفون أبناءهم ، ولا تلتبس أشخاصهم بغيرهم . فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية ، بالمعرفة الحسيّة فى أن كلا منهما يقينيّ ، لا اشتباه فيه.

وقد روى عن عمر[2] أنه قال لعبد الله بن سلَام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته . وإنى لا أدرى ما كان من أمه . فقبّل عمر رأسه . « وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ » أى أهل الكتاب ، مع ذلك التحقق والإيقان العلميّ « لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أى يخفونه ولا يعلنونه « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى الحق ، أو عقاب الكتمان ، أو أنهم يكتمون . قال الراغب : لم يقل يكتمونه. لأن فى كتمان أمره كتمان الحق جملة . وزاد فى ذمهم بقوله « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهل ، كمن يرتكبه عن علم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » أى الحق من الله ، لا من غيره . يعنى أن الحق ماثبت أنه من الله ، كالذى أنت عليه . وما لم يثبت أنه من الله ، كالذى عليه أهل الكتاب ، فهو الباطل . أى

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) هذا النص نقله ابن كثير فى تفسيره عن القرطبيّ . ج أول ص ١٩٤ .

هذا الذى يكتمونه هو الحق من ربك . وقرأ علىّ رضى الله عنه «الحقّ» بالنصب على الإبدال من الأول ، كما فى الكشاف . أو المفعولية لـ « يعلمون » ، كما قاله أبو البقاء . « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » الشاكّين فى كتمانهم الحق مع علمهم . أو فى الحق الذى جاءك من ربك ، وهو ما أنت عليه . ومعلوم أن الشك غير متوقع منه . ففيه تعريض للأمة . وقال الراغب : ليس هذا بنهى عن الشك لأنه لايكون بقصد من الشاكّ ، بل هو حث على اكتساب المعارف المزيلة للشك واستعمالها . وعلى ذلك قوله « إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ » أى لكل أمة أو لكل نبىّ قبلة أو شرعة ومنهاج «هُوَ مُوَلِّيهَا» وجهَه . أى مائل إليها بوجهه ، تابع لها . لأنها حُبِّبت إليه وزُيِّنت له . وقال أبو معاذ : موليها بمعنى متوليها . أى تولاها ورضيها واتبعها « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » أى ابتدروها بالمسابقة إليها . وهذا أبلغ من الأمر بالمسارعة ، لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق . والمراد بالخيرات جميع أنواعها ممـا ينال به سعادة الدارين « أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً » قال الراغب : أى أىّ شغل تحريتم ، وحيثما تصرفتم ، وأى معبود اتخذتم ، فإنكم مجموعون ومحاسبون عليها « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليل لما قبله. أى هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(تنبيه) تشير الآية إلى أن الناس على مذاهب عديدة وأديان متنوعة . وأن على العاقل أن يستبق إلى ما كان خيرها وأرقاها . وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة أن دين الإسلام أرقى الأديان كلها لما حوَى من حاجيات الكمال البشرىّ ، ووفى بشؤون الاجتماع، وأسباب

(١) [١١ / هود/٤٦] ونصها : قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ...

العمران وذرائع الرقيّ وطرق السعادتين . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ »(١) وقوله « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٢) .

ثم إنه تعالى أكد حكم التحويل وبيّن عدم تفاوت أمر الاستقبال في حالتي السفر والحضر بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ » أي ومن أيّ بلد خرجت للسفر « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » إذا صليت «وَإِنَّهُ» أي هذا الأمر « لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » قرئ بالياء فهو وعيد للكافرين، وبالتاء فهو وعد للمؤمنين. ولما عظم في شأن القبلة انتشارُ أقوال السفهاء وتنوع شغبهم وجدالهم، كان الحال مقتضياً لمزيد تأكيدٍ لأمرها، تعظيما لشأنها وتوهية لشبههم ، فقال تعالى :

(١) [٢٢ / الحج / ٦٧] ونصها : لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٨] ونصها : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » وقوله تعالى « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ » أى لئلا يحتج عليكم أحد فى التولى إلى غيره . ولتنتفى مجادلتهم لكم . كقول اليهود مثلا : يجحد ديننا ويتبع قبلتنا ! وقول غيرهم : يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته ! فإذا صليتم إليه لا تكون لهم عليكم حجة .

قال الراغب : وأشار بقوله « وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » إلى تحقيق ما قدمه . فبيّن أنه إذا كانت الحكمة تقتضى أن يكون لكل صاحب شرع قبلة يختص بها ، وأنت صاحب شرع ، فتغيير القبلة لك حق من ربك . (ثم قال) إن قيل : لِمَ كرّر قوله « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » ؟ قيل : حثّ بإحداهما على التوجه نحو القبلة بالقلب والبدن فى أى مكان حصل للإنسان ، نائياً كان عنها أو دانياً منها . وذلك مآل الاختيار والتمكن . وحثّ بالآخر على التمكن بالقلب وحده عند اشتباه القبلة . وفى النافلة فى حال اليسر على الراحلة والسفر . « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » فإنهم يظهرون فجورًا ولددًا فى ذلك ، بالعناد . وهم : إما اليهود المعبرعنهم بأهل الكتاب قبلُ ، أو المنافقون أو المشركون ، كما حكى قبل فى « السفهاء » . وكان من قول اليهود ، فيما حكاه قتادة : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . ومن قول المشركين ، فيما حكاه مجاهد : قد رجع إلى قبلتكم فيوشك

أن يرجع إلى دينكم. وتقدم قول المنافقين . وبالجملة فالكل عابوا وخاضوا « فَلَا تَخْشَوْهُمْ » تخافوا جدالهم « وَاخْشَوْنِي » فلا تخالفوا أمرى « وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ » بالتوجه إلى أكمل الجهات المتضمنة للآيات البينات والأمن « وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » للصراط المستقيم بالتوجه إليها، فتهتدون بهذه القبلة هداية كاملة.

قال الحرالىّ : وفى طيه بشرى بفتح مكة ، واستيلائه على جزيرة العرب كلها ، وتمكينه بذلك من سائر أهل الأرض ، لاستغراق الإسلام لكافة العرب الذين فتح الله بهم له مشارق الأرض ومغاربها، التى انتهى إليها ملك أمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ » وقوله تعالى « فِيكُمْ » المراد به العرب . وكذلك قوله « مِنْكُمْ » .

وفى إرساله فيهم ومنهم نعم عظيمة عليهم لما لهم فيه من الشرف . ولأن المشهور من حال العرب الأَنَفَة الشديدة من الانقياد للغير . فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب « يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا » يقرأ عليكم القرآن الذى هو من أعظم النعم . لأنه معجزة باقية . ولأنه يتلى فتتأدى به العبادات ويستفاد منه جميع العلوم ، ومجامع الأخلاق الحميدة ، فتحصل من تلاوته كل خيرات الدنيا والآخرة « وَيُزَكِّيكُمْ » أى يطهركم من الشرك وأفعال الجاهلية وسفاسف الأخلاق « وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ » وهو القرآن . وهذا ليس بتكرار . لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم « وَالْحِكْمَةَ » وهى العلم بسائر الشريعة التى يشتمل القرآن على تفصيلها . ولذلك قال الشافعىّ رضى الله عنه : الحكمة هى

سنة الرسول . وقوله « وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل ، وجهالةٍ من الأمم ، فالخلق كانوا متحيرين ضالين فى أمر أديانهم . فبعث الله تعالى النبيّ بالحق . حتى علمهم ما احتاجوا إليه فى دينهم . فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً وأصدقهم لهجة . وذلك من أعظم أنواع النعم . قال تعالى «لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ »(١) الآية . وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ »(٢) قال ابن عباس يعنى ، بنعمة الله ، محمدا ﷺ . ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره . وقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

« فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » قال ابن جرير : أى اذكرونى أيها المؤمنون بطاعتكم إياى فيما آمركم به وفيما أنهاكم عنه ، أذكركم برحمتى إياكم ومغفرتى لكم . وقد كان بعضهم يتأول ذلك أنه من الذكر بالثناء والمدح . وقال القاشانيّ : اذكرونى بالإجابة والطاعة ، أذكركم بالمزيد والتوالى . وهى بمعنى ما قبله . وقوله « واشكروا لى » قال ابن جرير : أى اشكروا لى فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذى شرعته . وقوله « وَلَا تَكْفُرُونِ » أى لا تجحدوا إحسانى إليكم فأسلبكم نعمتى التى أنعمت عليكم .

قال السمرقنديّ : أى اشكروا نعمتى: أن أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة . ولا تجحدوا هذه النعمة ، ويقال : النعمة، فى الحقيقة . هى العلم . وماسواه فهو تحول من راحة إلى راحة . وليس بنعمة . والعلم

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

لا يملّ منه صاحبه . بل يطلب منه الزيادة . فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة ، وهى نعمة بعثه رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة . كما قصه الحرالىّ . ولما كان للعرب ولع بالذكر لآبائهم ولوقائعهم ، جعل ، تعالى ذكره ، لهم عوض ما كانوا يذكرون . كما جعل كتابه عوضا من أشعارهم . وهزّ عزائمهم لذلك بما يسرهم به من ذكره لهم .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ[1] « يقول الله عز وجل : أنا مع عبدى حين يذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ هم خير منهم . وإن اقترب إلىّ شبراء اقتربت إليه ذراعا . وإن اقترب إلىّ ذراعا اقتربت إليه باعا . فإن أتانى يمشى أتيته هرولة . صحيح الإسناد أخرجه[2] البخارىّ أيضا .

وروى[3] مسلم عن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة : أنهما شهدا على النبىّ ﷺ أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

والآثار فى فضل الذكر متوافرة ، ويكفى فيه هذه الآية الكريمة .

(تنبيه) قال النووىّ رحمه الله تعالى : اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها . بل كل عامل لله تعالى بطاعة ، فهو ذاكر لله تعالى .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جزء ثان ص ٢٥١ (طبعة الحلبىّ) ورقم ٧٤١٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه ، حديث رقم ٢٥٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٣٩ (طبعتنا) .

كذا قاله سعيد بن جبير رضى الله عنه ، وغيره من العلماء . وقال عطاء رحمه الله : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام . كيف تشترى وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق . وأشباه هذا . وقال النووىّ أيضاً : إن الأذكار المشروعة فى الصلاة وغيرها ، واجبةً كانت أومستحبة ، لايحسب شىء منها ولا يعتد به حتى يتلفظ به بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ، لا عارض . وقد صنف ، فى عمل اليوم والليلة ، جماعة من الأئمة كتباً نفيسة . ومن أجمعها للمتأخرين (كتاب الأذكار للنووىّ) وممن جمع زبدة ما روى فيها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى (زاد المعاد) . وقال فى طليعة ذلك : كان النبىّ ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل . بل كان كلامه كله فى ذكر الله وما والاه . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله . وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له . وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتسبيحه ذكرا منه له . وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له . وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه . فكان ذكر الله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائماً وقاعدا ، وعلى جنبه ، وفى مشيه وركوبه ومسيره ، ونزوله وظعنه وإقامته . انتهى .

وأما الأذكار المحدثة والسماعات المبتدعة ، سماع الكف والدف ، فلم يكن الصحابة ، والتابعون لهم بإحسان ، وسائر الأكابر من أئمة الدين ، يجعلون هذا طريقا إلى الله تبارك وتعالى . ولايعدّونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة . حتى قال الشافعىّ : خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) يصدّون به الناس عن القرآن . وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك . ويعلمون أن للشيطان فيه نصيبا وافراً . ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم . ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله ، كان نصيب الشيطان فيه أكثر . فسماع الغناء والملاهى من أعظم ما يقوى الأحوال الشيطانية . وهو

سماع المشركين . قال الله تعالى « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً »[١] قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ، وغيرهما من السلف : التصدية ، التصفيق باليد . والمكاء مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عبادة . وأما النبيّ ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية . ولم يجتمع النبيّ ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط . لا بكف ولا بدف ولا تواجد . وكان أصحاب النبيّ ﷺ ، إذا اجتمعوا ، أمروا واحداً منهم أن يقرأ . والباقون يستمعون . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى الأشعرىّ : ذكرنا ربنا . فيقرأ وهم يستمعون . ومر النبيّ ﷺ بأبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال له[٢] : مررت بك البارحة

(١) [٨ / الأنفال / ٣٥] ونصها : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٣٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ لأبى موسى « لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » .

وقال الحافظ فى الفتح عند الكلام على الحديث ٢٠٩٧ ما نصه :

كذا وقع عنده مختصرا من طريق بريد . وأخرجه مسلم من طريق طلحة بن يحيى عن أبى بردة بلفظ (وساق نصه ، كما مر) ثم قال :

وأخرجه أبو يعلى من طريق سعيد بن أبى بردة عن أبيه ، بزيادة فيه : أن النبيّ ﷺ وعائشة مرّا بأبى موسى وهو يقرأ فى بيته . فقاما يستمعان لقراءته . ثم إنهما مضيا . فلما أصبح لقى أبو موسى رسولَ الله ﷺ فقال : يا أبا موسى ! مررت بك ، فذكر الحديث . فقال : أما أنى لو علمت بمكانك لحبّرته لك تحبيرا .

وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك. فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا. أى لحسنته لك تحسينا . كما قال النبيّ ﷺ[١] : زينوا القرآن بأصواتكم . وقال ﷺ[٢] : لله أشد أذنا (أى استماعا) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به، من صاحب القينة إلى قينته. وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لى النبيّ ﷺ[٣] « أقرأ علىّ » قلت : يا رسول الله : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال « نعم » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا»[٤] قال: حسبك الآن . فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه فقال « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا »[٥] وقال تعالى فى أهل المرفة « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ « الماهر بالقرآن مع البررة الكرام وزينوا القرآن بأصواتكم » .

وقال الحافظ فى الفتح : هذا الحديث من الأحاديث التى علقها البخاريّ ولم يصلها فى موضع آخر من كتابه . وقد أخرجه فى كتاب (خلق أفعال العباد) من رواية عبد الرحمن ابن عوسجة عن البراء بهذا . وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائىّ وابن ماجه والدارمىّ ، وابن خزيمة وابن حبان ، فى صحيحيهما من هذا الوجه .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ١٧٦ ـ باب فى حسن الصوت بالقرآن ، حديث ١٣٤٠ (طبعتنا) ، عن فضالة بن عُبَيْد .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٣٣ ـ باب قول المقرئ للقارئ : حسبك . حديث رقم ١٩٩٠

(٤) [٤ / النساء / ٤١] .

(٥) [١٩ / مريم / ٥٨] .

تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ »[١] ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ »[٢] وقال تعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا »[٣] بخلاف هذا السماع، من الباطل الذى نهى عنه . ولذلك لم يفعله القرون الثلاثة التى أثنى عليها النبيّ ﷺ ، ولا فعله أكابر المشايخ. فليُفِقْ من كان من الفريق الأدنى فى سلوك فقره . وليصحب من هو من الرفيق الأعلى إلى حلول قبره ، وليُدَاوِ جراحات اجتراح بدعته ، باتباع هدى النبيّ ﷺ ولزوم سنته . واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته ، فيتولد منه الهيبة والإجلال . وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن . وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل : ذكر النعمة شكرها . وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العِبَر . فحق المؤمن أن لا ينفك أبدا عن ذكره تعالى على أحد هذه الأوجه . وقوله تعالى «وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» فيه أمر بشكره على نعمه وعدم جحدها (فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب) . وقد وعد تعالى على شكره بمزيد الخير فقال « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »[٤] قال ابن عطية : اشكروا لى واشكرونى بمعنى واحد . و« لى » أفصح وأشهر مع الشكر .

---

(١) [٥ / المائدة / ٨٣] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٢] .

(٤) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر فى الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة . لأن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها . أو فى نقمة فيصبر عليها . كما جاء فى الحديث[١] : عجبا للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له . وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له . وبيّن تعالى أنّ أجود ما يستعان به على تحمل المصائب فى سبيل الله ، الصبر والصلاة . كما تقدم فى قوله « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »[٢] وفى الحديث[٣] : أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمر صلّى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثانى أكثر ثوابا . لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضا واجب . كالاستغفار من المعائب .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا) ما نصه : عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له » .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده جزء خامس ص ٢٤ (طبعة الحلبىّ) ما نصه : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيرا له » .

(٢) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بالجزء الخامس بالصفحة ٣٨٨ (طبعة الحلبى) عن حذيفة .

وقال الإمام ابن تيمية فى كتابه (السياسة الشرعية) وأعظم عون لولىّ الأمر خاصةً ، ولغيره عامةً ثلاثة أمور : أحدها الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن . والثانى الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة . والثالث الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب . ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ »(١) وكقوله تعالى «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »(٢) وقوله « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا »(٣) وأما قرانُهُ بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جدا . فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية . إذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة ، يدخل فى الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع: من نصر المظلوم وإعانة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر . انتهى .

« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » قال الإمام ابن تيمية (فى شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى كتاب الله جاء عامًّا كما فى قوله تعالى « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »(٤) وفى قوله

---

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٢) [١١ / هود / ١١٤و١١٥] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] ونصها : فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .

(٤) [٥٧/الحديد/٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ =

« مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »(١) إلى قوله « وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا » وجاء خاصا كما فى قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »(٢) وقوله « إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ »(٣) وقوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »(٤) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء لكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد علم أن قوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوّهم من الكفار ، وكذلك قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية ليست فى لغة العرب ولا فى شىء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى

= ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الذاتين بالأخرى . كما فى قوله « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ »(١) وقوله « فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ »(٢) وقوله « اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »(٣) وقوله « وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ »(٤) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله «وَهُوَ مَعَكُمْ» يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق . وقد بسط الكلام عليه فى موضع آخر وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو ، إذا كان مع العباد، لم ينافِ ذلك علوّه على عرشه . ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان . ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد . انتهى مختصرا .

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٦] ونصها : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً .

(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .

(٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » ينهى تعالى عباده المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتا . بمعنى الذين تلفت نفوسهم وعدموا الحياة . وتصرمت عنهم اللذات . وأضحوا كالجمادات . كما يتبادر من معنى الميت . ويأمرهم سبحانه بأن يقولوا لهم: الأحياء . لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. كما قال تعالى فى آل عمران « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ »(١) فقوله فى هذه الآية « عِنْدَ رَبِّهِمْ » يفسر المراد من حياتهم . أى إنها لأرواحهم عنده تعالى. وقوله « وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » أى بحياتهم الروحية بعد موتهم . إذ لم يظهر منها شىء فى أبدانهم، وإن حفظ بعضها عن التلف . كما ترون النيام همودا لا يتحركون . فلا فخر أعظم من ذلك فى الدنيا، ولا عيش أرغد منه فى الآخرة .

قال الحرالىّ: فكأنه تعالى ينفى عن المجاهد منال المكروه من كل وجه . حتى فى أن يقال عنه: ميت. فحماه من القول الذى هو عندهم من أشد غرض أنفسهم، لاعتلاق أنفسهم بجميل الذكر. انتهى. ولذا قال الأصم: يعنى لا تسموهم بالموتى، وقولوا لهم الشهداء الأحياء. وقال الراغب الأصفهانىّ: الحياة على أوجه . وكل واحد منها يقابله موت (الأولى) هى القوة النامية التى

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩ـ١٧١] .

بها الغذاء ، والشهوة إليه . وذلك موجود فى النبات والحيوان والإنسان . ولذلك يقال : نبات حىّ . (والثانية) فى القوة الحاسة التى بها الحركة المكانية . وهى فى الحيوان دون النبات (والثالثة) القوة العاملة العاقلة . وهى فى الإنسان دون الحيوان والنبات . وبها يتعلق التكليف . وقد يقال للعلم المستفاد والعمل الصالح : حياة . وعلى ذلك قوله تعالى « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »[1] وقيل: المحسن حىّ وإن كان فى دار الأموات . والمسىء ميت وإن كان فى دار الأحياء (قال) ونعود إلى معنى الآية فنقول : قد أجمعوا على أنه لا يثبت لهم الحياة التى بها النموّ والغذاء ، ولا الحياة التى بها الحس. فإن فقدانهما عن الميت محسوس ومعقول . فبعض المفسرين اعتبر الحياة المختصة بالإنسان . وقال : إن هذه الحياة مخصصة بالقوة المسماة تارة الروح وتارة النفس . قال : والموت المشاهد هو مفارقة هذه القوة ، التى هى الروح ، البدنَ . فمتى كان الإنسان محسنا كان منعّما بروحه مسروراً لمكانه إلى يوم القيامة . وإن كان مسيئاً كان به معذبا . وإلى هذا ذهب الحكماء ودلوا عليه بالبراهين والأدلة . وهو مذهب أصحاب الحديث . ويدل على صحته الأخبار والآيات المروية عن النبىّ ﷺ . بل إليه ذهب أصحاب الملل كلها . ومما دل على صحته خبرَا[2] « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وما روى عن أمير المؤمنين رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال[3] « إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبىّ ﷺ يقول . . .حديث ١٥٧٦

(٣) لم أهتد إلى هذا الحديث .

بألفى عام » وروى[1] أنه لماقتل من قتل من صناديد قريش ـ يوم بدر ـ وجمعوا فى قَلِيبٍ ، أقبل النبىّ ﷺ فخاطبهم بقوله : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » قيل : يا رسول الله ! أتخاطب جيفاً ؟ فقال « ما أنتم بأسمع منهم ، ولو قدروا لأجابوا » إلى غير ذلك من الأخبار . وقال تعالى فى آل فرعون « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » وهذا يعنى به قبل يوم القيامة ، لأنه قال فى آخر الآية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[2] انتهى .

وفى البيضاوىّ وحواشيه : « إن إثبات الحياة للشهداء فى زمان بطلان الجسد ، وفساد البنية ؛ ونَفْيَ الشعور بها ـ دليل علىأنّ حياتهم ليست الجسد ، ولامن جنس حياة الحيوان، لأنها بصحة البنية ، واعتدال المزاج . وإنما هى أمر يُدرك بالوحى لا بالعقل » انتهى .

وقد جاء الوحى ببيان حيـاتهم ـ كما أسلفنا ـ قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعـالى فى كتاب (الروح) : وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ، ورزقها دارٌّ ، وإلّا فالأبدان قد تمزّقت . وقد فسّر رسول الله ﷺ هذه

---

(١) أخرجه مسلم فىصحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٧٧ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا . ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال « يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبة بن ربيعة ! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا » .

فسمع عمر قول النبىّ ﷺ فقال: يارسول الله ! كيف يسمعوا وأنّى يجيبوا وقد جيّفوا؟ قال « والذى نفسى بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولـكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » .

ثم أمر بهم فسحبوا . فألقوا فى قليب بدر .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] .

الحياة : بأنّ أرواحهم[1] فى جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربّهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أىّ شىء نشتهى ؟ ونحن نسرح من الجنـة حيث شئنا ..! ففعـل بهم ذلك ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يُتركوا مِن أنْ يُسألوا ـ قالوا: يارب! نريد أن تردّ أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرةً أخرى ..! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا. وصحّ عنه ﷺ[2] « إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلُق من ثمر الجنـة » (وتعلق بضم اللام ـ أى : تأكل العلقة) وهذا صريح فى أكلها ، وشربها ، وحركتها ، وانتقالها ، وكلامها ..! انتهى.

قال الطيبىّ : قوله ﷺ «أرواحهم فى جوف طير خضر » أى : يخلق لأرواحهم، بعد مافارقت أبدانهم، هيا كل على تلك الهيئة ، تتعلق بها وتكون خلفاً عن أبدانهم ، فيتوسلون بها إلى نيل مايشتهون من اللذات الحسـية . وقال ابن القيم فى كتاب (الروح) : « إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وجعل لـكل دار أحكاماً تختص بها. وركب هذا الإنسان من بدن ونفس. وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبـة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدانُ

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .
عن مسروق قال : سألنا عبد الله (هو ابن مسعود) عن هـذه الآية : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . قال : أما إنّا قد سألنا عن ذلك . فقال . . . الخ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى جامعه فى : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ١٣ ـ باب ماجاء فى ثواب الشهداء . عن ابن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال . . . الخ

تبع لها . فكما تبعتِ الأرواح الأبدانَ فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذّت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب ـ تبعت الأبدانُ الأرواح فى نعيمها وعذابها. والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة ، والأرواح خفية . والأبدان كالقبور لها . والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها . فتجرى أحكام البرزخ على الأرواح . فترى إلى أبدانها نعيمًا وعذاباً . كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان فترى إلى أرواحها نعيمًا وعذاباً . فَأَحِطْ بهذا الموضع علماً واعرفه كما ينبغى ، يَزُلْ عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج. وقد أرانا الله سبحانه، بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك. أنموذجاً فى الدنيا من حال النائم . فإن ماينعم به ، أو يعذب فى نومه ، يجرى على روحه أصلًا، والبدن تبع له . وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيرًا مشاهدًا ، فيرى النائم أنه فى نومه ضُرِبَ ، فيصبح وآثار الضرب فى جسمه . ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه . ويذهب عنه الجوع والظمأ . وأعجب من ذلك أنك ترى النائم، ثم يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع ، كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك . لأن الحكم ، لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه . ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحسّ . فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا فى البرزخ ، بل أعظم . فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهى متعلقة ببدنها ، لم تنقطع عنه كل الانقطاع . فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً . ومتى أعطيتَ هذا الموضع حقه تبيّن لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته ، وضمه ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة ـ مطابق للعقل . وأنه حق لا مرية فيه . وأن من أشكل عليه ذلك ، فمن سوء فهمه ، وقلة علمه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[١٥٦] (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

وقوله تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ » خطاب لمن آمن مع النبيّ ﷺ ، خصّوا به ، وإن شمل من ماثلهم ، لأنهم المباشرون للدعوة والجهاد ، ومكافحة الفجّار . وكل قائم بحق ، وداع إليه ، معرّض للابتلاء بما ذكر ، كله أو بعضه . والتنوين للتقليل . أى : بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطَرَف منه . وإنما قلّل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان ، وإن جل ، ففوقه ما يقل إليه . وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال لا تزايلهم . وإنما أخبر به قبل الوقوع ، ليوطّنوا عليه نفوسهم ، ويزداد يقينهم ، عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به . وليعلموا أنه شيء يسير ، له عاقبة حميدة « مِنَ الْخَوْفِ » أى خوف العدو والإرجاف به « وَالْجُوعِ » أى الفقر ، للشغل بالجهاد ، أو فقد الزاد ، إذا كنتم فى سرية تجاهدون فى سبيل الله . وقد كان يتفق لهم ذلك أياماً يتبلغون فيها بتمرة « وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ » أى لانقطاعهم بالجهاد عن عمارة بساتينهم ، أو لافتقاد بعضها بسبب الهجرة ، وترك شيء منه فى البلدة المهاجَر منها « وَالْأَنْفُسِ » بقتلها شهيدة فى سبيل الله ، أو ذهاب أطرافها فيه «وَالثَّمَرَاتِ» أى بأن لا تغلّ الحدائق كعادتها، للغيبة عنها فى سبيل الله ، وفقد من يتعاهدها، وخصت بالذكر لأنها أعظم أموال الأنصار الذين هم أخص الناس بهذا الذكر، لاسيما فى وقت نزول هذه الآيات. وهو أول زمان الهجرة . فكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده كما قال

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ»(١) . قال الراغب : هذه الآية مشتملة على محن الدنيا كلها : أى إذا نظر إلى عموم كل فرد مما ذكر فيها ، وقطع النظر عن خصوص حال المخاطبين فيها ، بما يدل عليه سابقه .

ثم بيّن تعالى ما للصابرين عنده بقوله « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ » مكروه ، اسم فاعل من أصابته شدة : لحقته . أى كهذه البلايا « قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ » أى ملكا وخلقا ، فلا ينبغى أن نخاف غيره ، لأنه غالب على الكل . أو نبالى بالجوع ، لأن رزق العبد على سيده ، فإن مُنِع وقتاً ، فلابد أن يعود إليه . وأموالنا وأنفسنا وثمراتنا ملك له ، فله أن يتصرف فيها بما يشاء « وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » فى الدار الآخرة . فيحصل لنا عنده ما فوّته علينا . لأنه لا يضيع أجر المحسنين . فالمصاب يهون عليه خطبه ، إذا تسلّى بقوله هذا ، وتصور ما خلق له ، وأنه راجع إلى ربه ، وتذكر نعم الله عليه ، ورأى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه . قال الراغب : وليس يريد بالقول اللفظ فقط ، فإن التلفظ بذلك مع الجزع القبيح وتسخط القضاء ، ليس يغنى شيا . وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله والقصد له ، والاستهانة بما يعرض فى طريق الوصول إليه . فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها وقصد هذا المقصد ووطن نفسه عليه .

(ثم قال) إن قيل : ولِمَ قلتَ : إن الأمر بالصبر يقتضى العلم ؟ قيل : الصبر فى الحقيقة إنما يكون لمن عرف فضيلة مطلوبه .

---

(١) [٤٧ / محمد / ٣١] ونصها : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت « عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الراغب : الصلاة ، وإن كانت فى الأصل الدعاء ، فهى من الله البركة على وجه ، والمغفرة على وجه . وقال الرازىّ : الصلاة من الله هى الثناء والمدح والتعظيم . قال الراغب : وإنما قال « صلوات » على الجمع ، تنبيها على كثرتها منه وأنها حاصلة فى الدنيا توفيقا وإرشاداً ، وفى الآخرة ثوابا ومغفرة « وَرَحْمَةٌ » عظيمة فى الدنيا عوض مصيبتهم « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » أى إلى الوفاء بحق الربوبية والعبودية ، فلابد أن يوفى الله عليهم صلواته ورحمته .

(تنبيه) ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عند المصائب ، وفى أجر الصابرين ، أحاديث كثيرة . منها ما فى صحيح مسلم(١) عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أْجُرْنى فى مصيبتى وأَخْلِف لى خيرا منها ، إلا أَجَرَهُ الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها .

قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خيرٌ من أبى سلمة : صاحب رسول الله ؟ ثم عزم الله لى فقلتها . قالت : فتزوجت رسول الله ﷺ .

وروى الإمام أحمد(٢) عن الحسين بن علىّ عليهما السلام عن النبىّ ﷺ قال : ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها ، وإن طال عهدها ، فيحدث لذلك استرجاعا ، إلا جدد الله له عند ذلك ، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٤و٥ (طبعتنا) .

(٢) مسند الإمام أحمد جزء أول صفحة ٢٠١ (طبعة الحلبىّ) حديث رقم ١٧٣٤ (طبعة المعارف) .

وروى الإمام أحمد[١] بسنده عن أبى سنان قال : دفنت ابناً لى . وإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة (يعنى الخولانىّ) فأخرجنى وقال : ألا أبشرك ؟ قال قلت : بلى . قال : حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول ﷺ : قال الله تعالى: يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدى ، قبضتَ قرة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع . قال ابنوا له بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد .

ورواه الترمذىّ وقال : حسن غريب .

وروى البخـارىّ[٢] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيرا يصب منه .

وروى الشيخان[٣] عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفرالله بها من خطاياه .

ورويا أيضا[٤] عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : مامن مسلم يصيبه أذى من مرض

(١) المسند جزء رابع صفحة ٤١٥ والترمذىّ فى : ٨ ـ كتاب الجنائز ، ٣٦ ـ باب حدثنا سويد بن مضر .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١ ـ باب ماجاء فى كفارة المرض.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١ ـ باب ماجاء فى كفارة المرض .

ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٣ ـ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول (ثم الأمثل فالأمثل) ونصه : حديث ٢٢٤١

عن عبـد الله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك . فقلت : يا رسول الله ! إنك توعك وعكا شديدا . قال « أجل . إنى أوعك كما يوعك رجلان =

فما سواه إلا حطّ الله به عنه من سيئاته . كما تحط الشجرة ورقها .

والأحاديث فى ذلك متوافرة معروفة فى كتب السنة .

وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام، رحمه الله تعالى، كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا. قال عليه الرحمة: للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس.

أحدها : معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثانى : معرفة ذلة العبودية وكسرها . وإليه الإشارة بقوله تعالى : « الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[1] اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه .

والثالثة : الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع فى رفع الشدائد إلا إليه . ولا معتمد فى كشفها إلا عليه « « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ »[2] « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »[3] .

= منكم » قلت : ذلك أن لك أجرين . قال « أجل . ذلك كذلك . ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٤٥ (طبعتنا) .

(١) [٢ / البقرة / ١٥٦] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٠ / يونس / ١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] ونصها : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ .

الرابعة : الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ »(١) .

الخامسة: التضرع والدعاء «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا»(٢). «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ»(٣). « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ »(٤). «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٥) » .

السادسة : الحلم ممن صدرت عنه المصيبة « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »(٦) « إِنَّا

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٨] ونصها : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٦٧] ونصها: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا .

(٤) [٦ / الأنعام / ٤١] .

(٥) [٦ / الأنعام / ٦٣] .

(٦) [٩ / التوبة / ١١٤] ونصها : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ .

نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ »[١] . إن فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة[٢] . وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب فى صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

السابعة : العفو عن جانيها «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ»[٣]. «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ »[٤] والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو .

الثامنة: الصبر عليها. وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه « وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»[٥] «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٦]» وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر[٧] .

---

(١) [١٥ / الحجر / ٥٣] ونصها : قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٥و٢٦ (طبعتنا) من حديث طويل لما قدم أناس من عبد القيس على رسول الله ﷺ ، قاله للأشج ، أشج عبد القيس .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٣٤] ونصها : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

(٦) [٣٩ / الزمر / ١٠] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٧) أخرجه البخارىّ فى: ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٥٠ ـ باب الاستعفاف عن المسئلة =

التاسعة : الفرح بها لأجل فوائدها . قال عليه الصلاة السلام(١) : والذى نفسى بيده ! إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : حبذا المكروهان الموت والفقر . وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها ، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها ، مع تجرعه لمرارتها .

العاشرة : الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها . كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه، المانع من شهواته ، لما يتوقع فى ذلك من البرء والشفاء .

الحادية عشرة : تمحيصها للذنوب والخطايا « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »(٢) ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمه

= ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفِد ما عنده . فقال : ما يكون عندى من خير فلن أدّخره عنكم . ومن يستعفف يُعفه الله . ومن يستغن يغنه الله . ومن يتصبر يصبره الله . وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر . حديث رقم ٧٨١

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢٣ ـ باب الصبر على البلاء ، حديث ٤٠٢٤ (طبعتنا) ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ قال : دخلت على النبىّ ﷺ وهو يوعك . فوضعت يدى عليه . فوجدت حرّه بين يدىّ ، فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ! ما أشدها عليك ! قال : إنا كذلك . يضعّف لنا البلاء ويضعّف لنا الأجر . قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء . قلت : يا رسول الله ! ثم من ؟ قال : ثم الصالحون . إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر ، حتى مايجد أحدهم إلا العباءة يحوّيها . وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء .

فى الزوائد إسناده صحيح . رجاله ثقات .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

والشوكة يشاكها إلّا كفر به من سيئاته(١) .

الثانية عشرة : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم . فالناس معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله تعالى على العافية(٢) . وإنما يرحم المشاق من عشق .

الثالثة عشرة : معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها . فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

الرابعة عشرة : ما أعده الله تعالى على هـذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

الخامسة عشرة : ما فى طيّها من الفوائد الخفية « فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »(٣) . «وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»(٤) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ ـ كتاب الكلام، حديث رقم ٨ (طبعتنا).
إنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقول: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوَ قلوبكم. فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب . وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد . فإنما الناس مبتلًى ومعافًى . فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

(٣) [٤ / النساء / ١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

(٤) [٢ / البقرة / ٢١٦] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »(١) .

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم(٢) كان فى طىّ تلك البلية أن أخدمها هاجر ، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فكان من ذرية إسماعيل خاتمُ النبيين . فأعْظِمْ بذلك من خير كان فى طىّ تلك البلية ، وقد قيل :

كم نعمة مطوية لك بين أثناء المصائب

(١) [٢٤ / النور / ١١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا . حديث ١١١٣

ونصه : عن أبى هريرة قال : لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كَذَبات . ثنتين منهن فى ذات الله عز وجل . قوله : إنى سقيم . وقوله : بل فعله كبيرهم هذا .

وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة . فقيل له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها فقال : مَن هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة قال: ياسارة ! ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك . وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذّبينى .

فأرسل إليها. فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأُخذ. فقال: ادعى الله ولا أضرك. فدعت الله فأُطلق . ثم تناولها الثانية . فأُخذ مثلها أو أشدّ . فقال: ادعى الله لى ولا أضرك. فدعت فأُطلق .

فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتونى بإنسان، إنما أتيتمونى بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلى. فأومأ بيده: مهيا. قالت: رد الله كيد الكافر (أوالفاجر) وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة : تلك أمكم يابنى ماء السماء !

وقال آخر :

رب مبغوض كريه فيه لله لطائف

السادسة عشرة : إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر ، فإن نمرود ، لو كان فقيرا سقيماً ، فاقد السمع والبصر ، لما حاجّ إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطرُ الملك على ذلك . وقدعلل الله سبحانه وتعالى محاجته بإتيانه الملك ، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ»(1) . «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ»(2) «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ»(3) . «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ»(4) «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ»(5) . «لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»(6) . «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ

(1) [٧٩ / النازعات / ٢٤] .

(2) [٩ / التوبة / ٧٤] ونصها : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

(3) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

(4) [٤٢/ الشورى/ ٢٧] ونصها: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

(5) [١١ / هود / ١١٦] ونصها : فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ .

(6) [٧٢/الجن/١٦] ونصها : وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا.

مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ»[١].

والفقراء والضعفاء هم الأوليا وأتباع الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء[٢] الأنبياء. ثم الأمثل فالأمثل. نسبوا إلى الجنون[٣] والسحر[٤] والكهانة[٥] واستهزىء بهم[٦] وسخر منهم[٧] «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا»[٨]. وقيل لنا «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ»[٩].

---

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٤] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٣ ـ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

(٣) [١٥ / الحجر / ٦] ونصها : وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

(٤) [٥١ / الذاريات / ٥٢] ونصها : كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .

(٥) [٥٢ / الطور / ٢٩] ونصها : فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ .

(٦) [١٥ / الحجر / ١١] ونصها: وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

(٧) [٦ / الأنعام / ١٠] ونصها : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

(٨) [٦ / الانعام / ٣٤] ونصها : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ .

(٩) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[1] « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا »[2]. كالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وتغربوا عن أوطانهم وكثر عناهم . واشتدّ بلاهم وتكاثر أعدامم . فغلبوا فى بعض المواطن ، وقتل منهم بأُحُد[3] و بئر مَعُونَةَ[4] من قتل . وشُجّ[3] وجه رسول الله ﷺ . وكسرت[3] رباعيته . وهشمت[3] البيضة على رأسه . وقُتِل أعزاؤه ومُثِّل بهم . فشمتت أعداؤه واغتم أولياؤه . وابتلوا يوم الخندق[5] . وزلزلوا زلزالا شديدا. وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . وكانوا فى خوف دائم وعرى لازم . وفقر مدقع . حتى شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع . ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز برّ فى يوم مرتين . وأوذى بأنواع الأذية حتى قذفوا أحب[6] أهله إليه . ثم ابتلى فى آخر الأمر

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

(٣) اقرأ عن غزوة أُحُد وما تم فيها، فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٧ ـ باب غزوة أحد ، إلى ٢٦ ـ باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٤) اقرأ عن بئر معونة فى صحيح البخارىّ فى: ٦٤ ـ كتاب المغازى، ٢٨ ـ باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة ... الخ

(٥) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق، وهى الأحزاب .

(٦) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ باب حديث الإفك .

بمسيلمة[١] وطُلَيحه[٢] والعَنسى[٣] . ولقى هو وأصحابه فى جيش العسرة[٤] ما لقوه . ومات ودرعه[٥] عند يهودىّ على آصع من شعير . ولم تزل الأنبياء والصالحون يتمهدون بالبلاء الوقت بالوقت (يبتلى الرجل[٦] على قدر دينه فإن كان صلبا فى دينه شدد فى بلائه . ولقد كان أحدهم يوضع[٧] المنشار على مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه) . وقال عليه الصلاة والسلام:

(١) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧٠ ـ باب وفد بنى حنيفة وحديث ثمامة بن أثال ، وفيه قدوم مسيلمة الكذاب و ٧١ ـ باب قصة الأسود العنسىّ .

(٢) انظر : الإصابة رقم ٤٢٨٣

(٣) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧١ ـ باب قصة الأسود العنسىّ .

(٤) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٨ ـ باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة .

(٥) صحيح البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٨٩ ـ باب ما قيل فى درع النبىّ ﷺ :
عن عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودىّ بثلاثين صاعا من شعير .

(٦) الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٧ ـ باب ما جاء فى الصبر على البلاء .
عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه . وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض، ما عليه من خطيئه .

(٧) اقرأ فى صحيح مسلم قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام .
فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .

(مثل المؤمن[١] مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء) . وقال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمن[٢] كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرعها مرة وتعدلها مرة حتى تهيج) فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل . وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ »[٣] فلأجل ذلك تقللوا فى المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك . ليكونوا على حالةٍ توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى عز وجل والإقبال عليه .

السابعة عشرة : الرضا الموجب لرضوان الله تعالى . فإن المصائب تنزل بالبرِّ والفاجر . فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا . والرضا أفضل من الجنة وما فيها . لقوله تعالى « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ »[٤] أى من جنات عدن ومساكنها الطيبة .

---

(١) جامع الترمذىّ فى: ٤١ ـ كتاب الأدب ، ٧٩ ـ باب ماجاء فى مثل المؤمن القارئ للقرآن، وغير القارئ :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرياح تفيئه ، ولايزال المؤمن يصيبه بلاء . ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لاتهتز حتى تستحصد .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣١ ـ باب فى المشيئة والإرادة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : مثل المؤمن كمثل خامة الزرع ، يفيء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها . فإذا سكنت اعتدلت . وكذلك المؤمن يُكفَّأُ بالبلاء . ومثل الكافر كمثل الأرزة . صمَّاءُ معتدلةٌ ، حتى يقصمها الله، إذا شاء .

(٣) [١٠ / يونس / ١٢] .

(٤) [٩/ التوبة/ ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى =

فهذه نبذة مما حضرنا من فوائد البلوى ، ونحن نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فلسنا من رجال البلوى .

وفقنا الله تعالى لما يحب ويرضى وعافانا من المحن والرزايا بمنّه وكرمه . آمين .

تمّ الجزء الثاني من محاسن التأويل . ويليه المجلّد الثالث وأوّله في الكلام على آية « إن الصفا والمروة » .

وافق الفراغ من تحريره في العشر الأول من شوال سنة ١٣١٧ في دارنا ، على يد جامعه جمال الدين القاسميّ غفر الله له .

* * *

بحمده تعالى أعدت النظر على هذا الجزء . وضممت إليه ماجدّ العثور عليه من الفوائد ، في أوقات متفرّقة ، كان آخرها في ٣ ربيع الأول سنة (١٣٢٩) وكتبه جامعه الفقير جمال الدين القاسميّ عفي عنه .

= مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علّامة الشام

محمّد جمال الدّين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الثالث

ويبتدئ بتفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة
وينتهي بتفسير آخر آية منها

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمّد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » (الصفا والمروة) : علمان لجبلين بمكة . ومعنى كونهما من شعائر الله : من أعلام مناسكه ومتعبّداته .

قال الرازىّ : كل شىء جعل علماً من أعلام طاعة الله ، فهو من شعائر الله . قال الله تعالى « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ »(١) أى : علامة للقربة .. وقال « ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ »(٢) ، وشعائر الحج معالم نسكه . ومنه المشعر الحرام . ومنه إشعار السنام ـ وهو أن يعلم بالمدية ـ فيكون ذلك علماً على إحرام صاحبها ، وعلى أنه قد جعله هدياً لبيت الله. و (الشعائر) جمع شعيرة وهى العلامة ، مأخوذ من الإشعار الذى هو الإعلام ، ومنه قولك : شعرت بكذا أى علمت انتهى .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٣٦] ونصها : وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٣٢] ونصها : ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

و (الحجّ) فى اللغة : القصد . و (الاعتمار) : الزيارة . غُلِباَ فى الشريعة على قصد البيت وزيارته ، على الوجهين المعروفين فى النسك . و (الجُناح) بالضم : الإثم والتضييق والمؤاخذة. وأصل (الطواف) : المشى حول الشيء . والمراد : السعى بينهما .

وقد روى فى سبب نزول الآية عدّة روايات :

ولفظ البخارىّ عن عروة قال(١) : سألت عائشة رضى الله عنها فقلت لها: أرأيتِ قول الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » فوالله ! ما على أحدٍ جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة ! قالت : بئسما قلت يا ابن أختى ! إنّ هذه لو كانت كما أوّلتَها عليه ، كانت : لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ، ولكنها أنزلت فى الأنصار . كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية ، التى كانوا يعبدونها عند المشلَّل . فكان مَن أهلّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة . فلمّا أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ قالوا : يا رسول الله ! إنّا كنّا نتحرّج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ . . . » الآية .

قالت عائشة رضى الله عنها : وقد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما . فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما .

ثم أخبرتُ أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : إنّ هذا لَعِلْمٌ ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالًا من أهل العلم يذكرون أنّ الناس ـ إلّا من ذكرتْ عائشة ممن كان يهلّ بمناة ـ كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة ، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن، قالوا : يا رسول الله ! كنا نطوف بالصفا والمروة . وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا . فهل علينا من حرج أن نطوّف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ . . . » الآية .

---

(١) أخرجه البخارىّ بنصه فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٧٩ ـ باب حدثنا أبو اليمان .

قال أبو بكر : فأسمعُ هذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما : فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثمّ تحرّجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام . من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا ، حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت .

وفى رواية معمر عن الزهرىّ : إنا كنا لانطوف بين الصفا والمروة تعظيما لمناة ، أخرجه البخارىّ تعليقاً ، ووصله أحمد وغيره .

وأخرج مسلم[1] فى رواية يونس عن الزهرىّ عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا ، هم وغَسَّانُ ، يهلّون لمناة . فتحرّجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، وكان ذلك سنّةً فى آبائهم : من أحرم لمناةَ لم يطف بين الصفا والمروة . وإنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حين أسلموا . فأنزل الله عز وجل فى ذلك : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

وروى الفاكهىّ عن الزهرىّ : أن عمرو بن لحىّ نصب مناة على ساحل البحر مما يلى قُدَيْد . فكانت الأزد وغسان يحجونها ويعظمونها ، إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى أتوا مناة فأهلّوا لها . فمن أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة . قال : وكانت مناة للأوس والخزرج والأزد من غسان ومن دان دينهم من أهل يثرب .

وروى النسائىّ بإسناد قوىّ عن زيد بن حارثة[2] قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما « إساف ونائلة » كان المشركون إذا طافوا تمسّحوا بهما . . . الحديث .

وروى الطبرانىّ وابن أبى حاتم فى التفسير بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال :

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٦٣ (طبعتنا) .

(٢) زيد بن حارثة ، قال عنه فى ذخائر المواريث : ليس له إلا حديث واحد . أخرجه ابن ماجة فى الطهارة .

قالت الأنصار : إن السعى بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية. فأنزل الله عزّ وجلّ « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ . . . » الآية .

وروى الفاكهىّ وإسماعيل القاضى فى « الأحكام » بإسناد صحيح عن الشعبىّ قال : كان صنم بالصفا يدعى « إساف » ، ووثن بالمروة يدعى « نائلة » ، فكان أهل الجاهلية يسعون بينهما . فلما جاء الإسلام رمى بهما ؛ وقالوا : إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم ، فأمسكوا عن السعى بينهما ، قال: فأنزل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ... » الآية.

وقد استفيد من مجموع هذه الروايات أنه تحرّجَ طوائف من السعى بين الصفا والمروة لأسباب متعددة فنزلت فى الكلّ . والله أعلم .

وجواب عائشة، رضى الله عنها، لعروة هو من دقيق علمها وفهمها الثاقب وكبير معرفتها بدقائق الألفاظ . لأنّ الآية الكريمة إنما دلّ لفظها على رفع الجناح عمّن يطوف بهما ، وليس فيه دلالة على عدم وجوب السعى ولا على وجوبه . « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » أى : من فعل خيراً فإنّ الله يشكره عليه ويثيبه به . ومعنى (تطوّع) أتى بما فى طوعه أو بالطاعة ، وإطلاقه على ما لا يجب عرفىٌ فقهىّ لا لغوىّ . و (الشكر) من الله تعالى المجازاة والثناء الجميل .

قال الراغب : الشكر ، كما يكون بالقول ، يكون بالفعل ، وعلى ذلك قوله تعالى « اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا »[1] ؛ قال : وليس شكر الرفيع للوضيع إلّا الإفضال عليه وقبول حمدٍ منه .

---

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] ونصها : يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ .

تنبيهات :

الأول : تمسّك بعضهم بقوله تعالى « ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ » على أنّ السعى سنّة ، وأن من تركه لا شىء عليه . فإن كان مأخذه منها : إنّ التطوع التبرّع بما لا يلزم فقَدْ قدّمنا أنه عرفٌ فقهيّ لا لغوىّ ، فلا حجّة فيه . وإن كان نفى الجناح ، فقد علمت المراد منه .

وممن ذهب إلى أنه سنّة، لا يجبر بتركه شىء، أَنَسٌ فيما نقله ابن المنذر وعطاء. نقله ابن حجر فى (الفتح) .

وقال الرازىّ : روى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء ، أنّ من تركه فلا شىء عليه . وأما حديث[١] : اسعوا فإنّ الله كتب عليكم السعى رواه أحمد وغيره ، فى إسناده عبدالله بن المؤمل ، وفيه ضعف .

ومِنْ ثَمّ قال ابن المنذر : إنْ ثبت فهو حجّة فى الوجوب . ذكره الحافظ ابن حجر فى (الفتح) .

الثانى : صحّ أنه[٢] صلى الله عليه وسلم طاف بين الصفا والمروة سبعاً ، رواه الشيخان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، جزء سادس صفحة ٤٢١ (طبعة الحلبىّ) ونصه:
عن حبيبة بنت أبى تجزئة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه . وهو وراءهم وهو يسعى. حتى أرى ركبتيه من شدة السعى ، يدور به إزاره ، وهو يقول « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٠ ـ باب قول الله : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . ونصه :

عن عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرةَ، ولم يطف بين الصفا والمروة ، أيأتى امرأته ؟ فقال : قدم النبىّ صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة . وقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .
وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٨٩ (طبعتنا) .

وغيرهما عن ابن عمر . وأخرج مسلم وغيره[١] من حديث أبي هريرة : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا فرغ من طوافه أتى الصفا فعَلَا عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه ، فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو . وأخرج أيضاً[٢] من حديث جابر : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا دنا من الصفا قرأ : إنّ الصفا والمروة من شعائر الله . أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحّد الله وكبّره قال : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلاّ الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثمّ دعا بين ذلك ، فقال مثلَ هذا ثلاث مرات ، ثمّ نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي ، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا اهـ. وظاهر هذا أنه كان ماشياً .

وقد روى مسلم[٣] في صحيحه عن أبي الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : طاف النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ليراه الناس ، وليشرف وليسألوه ، فإن الناس غشُوه .

ولم يطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلاّ طوافاً واحداً . قال ابن حزم : لا تعارض بينهما ، لأن الراكب إذا انصبّ به بعيره فقد انصبّ كله وانصبّت قدماه أيضاً مع سائر جسده .

---

(١) أخرجه مسلم في : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٨٤ (طبعتنا) .
وهذه الجملة آخر حديث طويل ، وفيه ذكر فتح مكة ، يجب الاطلاع عليه والتفقه فيه .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .
هو قطعة من أصح وأطول حديثٍ ، وأتم وصف لحجة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٥٥ (طبعتنا) .

وعندى ـ فى الجمع بينهما ـ وجه آخر أحسن من هذا وهو : أنه سعى ماشياً أوّلاً ، ثمّ أتمّ سعيه راكباً ، وقد جاء ذلك مصرّحاً به .

ففى صحيح مسلم[1] عن أبى الطفيل قال : قلت لابن عباس : أخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً ، أسنّة هو ؟ فإن قومك يزعمون أنه سنّة ! قال : صدقوا وكذبوا ..! ـ قال ـ قلت : ما قولك صدقوا وكذبوا ..؟ قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كثر عليه الناس. يقولون : هذا محمد ..! حتى خرج عليه العواتق من البيوت ـ قال ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُضْرَبُ الناس بين يديه ـ فلمّا كثر عليه ركب. والمشى والسعى أفضل .

وفى الصحيحين[2] عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت وبين الصفا والمروة ليُرِىَ المشركين قوّته ...!

وعن كريب مولى ابن عباس: أنّ ابن عباس قال[3]: ليس السعى ببطن الوادى بين الصفا والمروة بسنّة ، إنما كان أهل الجاهلية يسعونها ويقولون : لا نُجِيزُ البطحاء إلّا شَدًّا ..! رواه البخارىّ تعليقاً ، ووصله أبو نعيم فى مستخرجه . قال شرّاح الصحيح : المراد بالسعى المنفىّ هو شدّة المشى والعَدْو . فهو ، رضى الله عنه ، لم ينف سنية السعى المجرد ، بل مجاوزة الوادى بقوّةٍ وعَدْوٍ شديد ، إذ أصل السعى هديه صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٣٧ (طبعتنا) وهو الشطر الثانى من الحديث .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٤٣ ـ باب عمرة القضاء ، حديث ٨٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٢٧ ـ باب القسامة فى الجاهلية ، حديث ١٨٠٤ .

الثالث : فى البخارىّ[1] عن ابن عباس فى قصّة هاجر أم إسمعيل : إنّ الطواف بينهما مأخوذ من طوافها وترددها فى طلب الماء . ولفظه : وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى (أو قال ، يتلبط) فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً . ففعلت ذلك سبع مرّات .

قال ابن عباس : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : فذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً . . . الحديث .

قال ابن كثير : لما ترددت هاجر فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة ، تطلب الغوث من الله تعالى متذللةً ، خائفةً ، مضطرةً ، فقيرة إلى الله عزّ وجلّ ، كشف تعالى كربتها ، وآنس غربتها ، وفرج شدّتها ، وأنبع لها زمزم التى طعامها طعام طعم ، وشفاء سقم . فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر فقره وذلّه وحاجته إلى الله فى هداية قلبه ، وصلاح حاله ، وغفران ذنبه ، وأنّه يلتجئ إلى الله عزّ وجلّ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأنْ يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه ـ من الذنوب والمعاصى ـ إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٩ ـ باب يزفون . النسلان فى المشى . حديث ١١٨٣ . وهو حديث طويل جدا فيه فوائد تاريخية وفقهية يجدر بالمسلم حق المسلم أن لا يفوته ما فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » .

لما تقدم أنّ بعض أهل الكتاب يكتمون ما يعلمون من هذا الحقّ ، وختم ما أتبعه له بصفتى الشكر والعلم ـ ترغيباً وترهيباً ـ بأنه يشكر من فعل ما شرعه له ، ويعلم من أخفاه وإنْ دقّ فعله وبالَغ فى كتمانه ، انعطف الكلام إلى تبكيت المنافقين منهم . ولعنهم على كتمانهم ما يعلمون من الحق . إذ كانت هذه كلّها فى الحقيقة قِصَصهم . والخروجُ إلى غيرها إنّما هو استطراد على الأسلوب الحكيم المبين ، لأنّ هذا الكتاب هدى ؛ وكان السياق مرشداً إلى أنّ التقدير بعد « شاكر عليم » : ومن أحدث شراً فإنّ الله عليم قدير ، فوصل به استئنافاً قوله ـ على وجه يعمهم وغيرهم ـ « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا ... » الآية ، بياناً لجزائهم . فانتظمت هذه الآية فى ختمها لهذا الخطاب بما مضى فى أوّله من قوله « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(١) فكانت البداية خاصة ، وكان الختم عاماً ، ليكون ما فى كتاب الله أمراً منطبقاً ـ على نحوِ ما كان أمر محمد صلّى الله عليه وسلم وَمَنْ تقدّمه من الرسل خلقاً ـ لينطبق الأمر على الخلق بدءًا وختماً انطباقاً واحداً ، فعمّ كلّ كاتم من الأولين والآخرين . نقله البقاعىّ .

و (اللعن) الطرد والإبعاد عن الخير ، هذا من الله تعالى ؛ ومن الخلق : السبّ ، والشتم ، والدعاء على الملعون ، ومشاقّته ، ومخالفته ، مع السخط عليه ، والبراءة منه . والمراد بقوله « اللَّاعِنُونَ » كلّ من يصح منه لعن ، وقد بيّنه بَعْدُ قوله تعالى « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِم

(١) [٢ / البقرة / ٤٢] .

لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » [١] وقد دلّت الآية على أنّ هذا الكتمان من الكبائر ، لأنه تعالى أوجب فيه اللعن ، لأنّ ما يتصل بالدين ويحتاج إليه المكلّف لا يجوز أن يُكتَمَ ، ومن كَتَمَه فقد عظمت خطيئته ، وبلغ لِلَعْنِهِ من الشقاوة والخسران الغايةَ التي لا يدرك كنهها .. ! وقد وردت أحاديث كثيرة في النهى عن كتمان العلم . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال[٢] : لولا آيتان أنزلها الله في كتابه ما حدّثت شيئاً أبداً « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ... »[٣] الآية، وقوله « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ... »[٤] الآية .

ثم استثنى تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال :

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٢] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث ١٠٢ ونصه :

عن أبي هريرة قال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة . ولولا آيتان في كتاب الله ماحدثت حديثا . ثم يتلو : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ، إلى قوله : الرَّحِيمُ .

إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق . وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم . وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون .

(٣) [٢ / البقرة / ١٥٩] .

(٤) [٣ / آل عمران / ١٨٧] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » ـ أى عن الكتمان ـ « وَأَصْلَحُوا » ـ أى عملوا صالحاً ـ « وَبَيَّنُوا » ـ ما كانوا كتموه فظهرت توبتهم بالإقلاع ـ « فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ » ـ أى أقبل توبتهم بإفاضة المغفرة والرحمة عليهم ـ « وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عمن كَفَرَ به واستمرّ به الحال إلى كفره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

[١٦٢] ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا » ـ أى فى اللعنة ، أو فى النار ، على أنها أضمرت من غير ذكرٍ تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها ـ « لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » ـ إما من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال . أى : لا يمهلون عن العذاب ولا يؤخر عنهم ساعة بل هو متواصل دائم ؛ أو من النظر بمعنى الرؤية أى : لا ينظر إليهم نظر رحمة كقوله « وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(١) ـ .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)

« وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ » يخبر تعالى بخطابه كافة الناس عن تفرّده بالإلٰهية . وأنه لا شريك له ولا عديل .

قال الراغب : يجوز أن يكون قوله « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » خطابا عاماً ، أى المستحق منكم العبادة هو إله واحد لا أكثر ؛ ويجوز أن يكون خطاباً للمؤمنين . والمعنى . الذى تعبدونه إله واحد ، تنبيها أنكم لستم كالكفار الذين يعبدون أصناماً آلهة والشيطان والهوى وغير ذلك . إن قيل : مافائدة الجمع بين « إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » وبين « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » وأحدهما يبنى على الآخر ؟ قيل : لما بين بقوله « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أنه المقصود بالعبادة أو المستحق لها ـ وكان يجوز أن يتوهم أن يوجد إله غيره ولكن لايعبد ولا يستحق العبادة ـ أكده بقوله « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » وحقّ لهذا المعنى أن يكون مؤكداً وتكرر عليه الألفاظ، إذْ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه . انتهى .

وقال الرازىّ : إنما خص سبحانه وتعالى هـذا الموضع بذكر هاتين الصفتين لأن ذكر الإلٰهية والفردانية يفيد القهر والعلو ، فعقبهما بذكر هذه المبالغة فى الرحمة ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلٰهية وعزة الفردانية ، وإشعاراً بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ماخلق الخلق إلّا للرحمة والإحسان . انتهى .

ولما كان مقام الوحدانية لا يصحّ إلّا بتمام العلم وكمال القدرة ، نصب تعالى الأدلة ، من العلويات والسفليات وعوارضهما والمتوسطات ، على ذلك تبصيراً للجهّال وتذكيراً للعلماء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ـ فى ارتفاع الأولى ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وفى انخفاض الثانية وكثافتها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ـ « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى : اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للآخر ، فيجئ أحدهما ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كقوله تعالى « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً »[١] أو اختلاف كلٍّ منهما فى أنفسهما ازدياداً وانتقاصاً كما قال « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ »[٢] أى : يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى ذاك . « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » أى : فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى آخر لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل إقليمٍ لغيره .

قال الراغب : ولما لم يكن فرق بين أن يقال « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ » وبين أن يقال : والبحر الذى يجرى فيه الفلك ، فى أن القصد الأول بالآية أن يعرف منفعة البحر

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٢] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

وإنْ أخر في اللفظ، قدم ذكر الفلك الذى هو من صنعتنا . ولما كان سبيلنا إلى معرفتها أقرب منه إلى معرفة صنعه ـ قدم ذكر الفلك لينظر منها إلى آثار خلق الله تعالى . اه .

« وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ » بأنواع النبات والأزهار وما عليها من الأشجار « بَعْدَ مَوْتِهَا » باستيلاء اليبوسة عليها « وَبَثَّ فِيهَا » أى نشر وفرق « مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ » من العقلاء وغيرهم « وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ » أى : تقليبها فى مهابها : قبولًا ودبوراً وجنوباً وشمالًا ، وفى أحوالها: حارةً وباردةً وعاصفةً ولينة ، فتارة مبشرة بين يدى السحاب ، وطوراً تسوقه ، وآونةً تجمعه ، ووقتاً تفرقه ، وحيناً تصرفه .

قال الثعالبيّ : إذا جاءت الريح بنَفَس ضعيف ورَوْح فهى النسيم ، فإذا كانت شديدة فهى العاصف، فإذا حركت الأغصان تحريكاً شديداً وقلعت الأشجار فهى الزعزَعان والزعزع. فإذا جاءت بالحصباء فهى الحاصبة ، فإذا هبت من الأرض نحو السماء كالعمود فهى الإعصار ويقال لها زوبعة أيضاً ، فإذا هبت بالغبرة فهى الهَبْوَة ، فإذا كانت باردة فهى الصرصر ، فإذا كان مع بردها ندى فهى البليل ، فإذا كانت حارة فهى الحَرُور والسّموم ، فإذا لم تُلقح شجراً ولم تحمل مطراً فهى العقيم . ومما يذكر منها بلفظ الجمع : الأعاصير وهى التى تهيج بالغبار ، واللواقح التى تلقح الأشجار ، والمعصرات التى تأتى بالأمطار ، والمبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

« وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى : فلا يهوى إلى جهة السفل مع ثقله بحمله بخار الماء ـ كما تهوى بقية الأجرام العالية ـ حيث لم يكن لها ممسك محسوس ، ولا يعلو ، ولا ينقشع ؛ مع أن الطبع يقتضى أحد الثلاثة : فالكثيف يقتضى النزول ، واللطيف يقتضى العلو ، والمتوسط يقتضى الانقشاع . ذكره البقاعيّ .

لطيفتان :

الأولى : قال الثعالبيّ : أول ما ينشأ السحاب فهو النَّشْءُ ، فإذا انسحب فى الهواء

فهو السحاب ، فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام ، فإذا أظلّ فهو العارض ، فإذا ارتفع وحمل الماء وكثُف وأطبق فهو العماء ، فإذا عنّ فهو العَنان ، فإذا كان أبيض فهو المزن .

الثانية : قال الراغب : التسخير القهر على الفعل. وهو أبلغ من الإكراه. فإنه حمل الغير على الفعل بلا إرادة منه على وجهٍ، كحمل الرحى على الطحن اهـ . وقوله تعالى « لَآيَاتٍ » : أى عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كمًّا وكيفاً «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى يتفكرون فيها وينظرون إليها بعين العقول ، فيستدلون على قدرته ، سبحانه ، القاهرة ، وحكمته الباهرة ، ورحمته الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به جلّ شأنه .

قال البقاعىّ : وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة . فجعل سبحانه العالَم ـ وهو الممكنات الموجودة ، وهى جملة ما سواه ، الدالّة على وجوده وفعله بالاختيار ـ على قسمين : قسم من شأنه أن يدرك بالحواس الظاهرة ، ويسمى فى عرف أهل الشرع : الشهادة والخلق والملك . وقسم لا يدرك بالحواس الظاهرة ويسمى : الغيب والأمر والملكوت . والأول يدركه عامة الناس ، والثانى يدركه أولو الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس . فالله تعالى ـ بكمال عنايته ورأفته ورحمته ـ جعل العالم بقسميه محتوياً على جمل وتفاصيل من وجوهٍ متعدّدة ، وطرقٍ متكثرة ، تعجز القوى البشرية عن ضبطها ، يستدلّ بها على وحدانيته ، بعضها أوضح من بعض ، ليشترك الكل فى المعرفة ، فيحصل لكلٍّ بقدر ما هُيِّئَ له ، اللهم إلا أن يكون ممن طُبع على قلبه ، فذلك ـ والعياذ بالله ـ هو الشقىّ انتهى .

قال المهايمىّ : وكيف ينكرون وجود الله ، وتوحيده ، ورحمانيته ، ورحيميته ، وقد دلّ عليها دلائل العلويات والسفليات وعوارضهما والمتوسطات ؟ ثم قال : أما دلالة السماء والأرض على وجود الإله فلأنهما حادثان. لأن لهما أجزاء يفتقران إليها، فلابدّ لهما من محدِث ليس بعضَ أجزائهما، لأنه دخله التركيب الحادث، والقديم لا يكون محلاً للحوادث، والمحدِث لابدّ أن يكون

قديماً قطعاً للتسلسل . وعلى التوحيد ، فلأن إله السموات لو كان غير إله الأرض لم يرتبط منافع أحدهما بالآخر . وعلى الرحمتين لأنه عزّ وجل جعل فى الأرض موادّ قابلة للصور المختلفة وأفاضها واحدة بعد أخرى بتحريك السموات . وأما دلالة اختلاف الليل والنهار على وجود الإله فلحدوثهما من حركات السموات ولا بدّ لها من محرك ، فإن كان حادثاً فلا بدّ له من محدث. وعلى التوحيد ، فلأن إله الليل لو كان غير إله النهار لأمكن كل واحد أن يأتى بما هو له فى وقت إتيان الآخر بما هو له ، فيلزم اجتماعهما وهو محال . فإن امتنع لزم عجز أحدهما أو كليهما. وعلى الرحمتين ، فلأنّ الاعتدال الذى به انتظام أمر الحيوانات إنما يكون من تعاقبهما ، إذْ دوام الليل مبرِّد للعالم فى الغاية ، ودوام النهار مسخِّن له فى الغاية . وأما دلالة الفُلْك على وجود الإله ، فلأنها أثقل من الماء فحقها الرسوب فيها ، فإمساكها فوق الماء من الله. ودخول الهواء فيها ـ وإنْ كان من الأسباب ـ فلا يتم عند امتلاء الفلك بالأمتعة الكثيرة ، إذ يقلّ الهواء جداً فيضعف أثره فى إمساك هذا الثقيل جداً ، فلا ينبغى أن ينسب إلّا إلى الله تعالى من أوّلِ الأمر ؛ وعلى التوحيد ، فلأن إله الفُلْك لو كان غير إله البحر لربما منع أحدهما الآخر من التصرف فى ملكه ، وهو يفضى إلى اختلال نظام العالم لاختلاف المنافع المنوطة بالفلك ؛ وعلى الرحمتين فلأنه رحم المسافرين بالتجارات ، والمسافَر إليهم بالأمتعة التى يحتاجون إليها . وأما دلالة إنزال الماء على وجود الإله ، فلأنه أثقل من الهواء ، فوجوده فى مركزه لا يكون إلّا من الله . وعلى التوحيد ، فلأنّ إله الماء لو كان غير إله الهواء ، لمنع من التصرف فى ملكه . وعلى الرحمتين ، فلأنّه أَحْيَى به الأرض معاشاً للحيوانات ، وبثّ به الدواب تكميلًا لمنافع الإنسان . وأما دلالة تصريف الرياح على وجود الإله ، فلأنها حادثة تحدث هذه مرّةً وهذه أخرى ، وقد يعدم الكلّ ، فلا بدّ من محدث ، فإنْ كان حادثاً افتقر إلى قديم . وعلى التوحيد ، فلأنّه لو كان لكلّ ريح إله لأمكن للكلّ أن يأتى بما له ، فيلزم اجتماع الرياح المختلفة وهو مخلّ بالنظام . وعلى الرحمتين ، فلأنها تحرك الفلك والسحب وتنمى

الأشجار والثمار . وأما دلالة السحاب على وجود الإله ، فلأنه لو كان ثقيلًا لنزل ، أو كان خفيفاً لصعد ، لـكنه يصعد تارةً وينزل أخرى فهو من الله تعالى ؛ وأما على التوحيد فلأن إله السحاب لو كان غير إله السحاب الآخر ، لأمكن لـكلّ واحدٍ أن يجعل سحابه فى مكان سحاب الآخر ، فيلزم تداخل الأجسام أو العجز . وعلى الرحمتين فلأنّ منها الأمطار . وله وجوه أخر من الدلالات وفوائد غير محصورة ، قنعنا بما ذكرنا .

قال القاضي عبد الجبار : الآية تدلّ على أمورٍ : (أحدها) لو كان الحقّ يدرك بالتقليد ، واتباع الآباء ، والجرى على الإلف والعادة ، لـما صحّ ذلك . و (ثانيها) لو كانت المعارف ضرورية وحاصلة بالإلهام لما صحّ وصف هذه الأمور بأنها آيات، لأن المعلوم بالضرورة لايحتاج فى معرفته إلى الآيات . و (ثالثها) أنّ سائر الأجسام والأعراض ، وإن كانت تدلّ على الصانع ، فهو تعالى خصّ هذه الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعماً على المـكلفين على أوفر حظّ ونصيبٍ ، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع فى القلوب وأشدّ تأثيراً فى الخواطر . نقله الرازىّ .

ثم إنّ الله تعالى إنما أظهر هذه الآيات الدالة على وجوده ، وتوحيده ، ورحمته ، ليخصّه الخلق بالمحبة والعبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

« وَ » لـكن « مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا » أى : أمثالًا . مع أنّ الآيات منعت من أن يكون له ندّ واحد فضـلًا عن جماعتها يسوّون بينهم وبين الله إذْ

« يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ » أى : يعظمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله والخضوع له . و (الأنداد) هى : إمّا الأوثان التى اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى ، ورجوا منها النفع والضرّ ، وقصدوها بالمسائل ، ونذروا لها النذور وقرّبوا لها القرابين . وإمّا الرؤساء الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون ، لاسيما فى الأوامر والنواهى . ورجح هذا ، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا »(١) وذلك لايليق إلّا بمن اتخذ الرجال أنداداً وأمثالًا لله تعالى يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » من المشركين لأندادهم ، لأنّ أولئك أشركوا فى المحبة ، والمؤمنون أخلصوها كلّها لله ، ولأنهم يعلمون أن جميع الكمالات له ومنه، ولأنهم لايعدلون عنه إلى غيره ، بخلاف المشركين فكانوا يعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره أو يأكلونه ، كما أكلت باهلة إلٰهها من حيس ، عامَ المجاعة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى (شرح المنازل) فى باب التوبة :

أما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر . فالأكبر لا يغفره الله إلّا بالتوبة ، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله تعالى ، وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين ، ولذا قالوا لآلهتهم فى النار « تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) مع إقرارهم بأن الله تعالى وحده خالق كلّ شىء ، وربّه ، ومليكه ، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيي ، وإنما كانت هذه التسوية فى المحبة ، والتعظيم ، والعبادة ، كما هو حال أكثر مشركى العالم . . ! بل كلّهم يحبون معبوديهم ، ويعظمونها ، ويوادّونها من دون الله تعالى . . ! وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٦] ونصها : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨] .

أعظم من محبة الله تعالى ..! ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله تعالى ..! ويغضبون بتنقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مايغضبون إذا انتقص أحدٌ ربّ العالمين..! وإذا انتقصت حرمات آلهتهم ومعبوديهم غضبوا غضب الليث أو الكلب . . ! وإذا انتهكت حرمات الله تعالى لم يغضبوا لها . بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه ولم تنكر له قلوبهم ..! قد شاهدنا نحن وغيرنا هذا منهم ... انتهى .

وقال الإمام تقي الدين أحمد بن عليّ المقريزيّ رحمه الله :

ومن أجلّ الشرك، وأصله الشرك في محبة الله ، قال تعالى « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ . . . »(١) الآية ، فأخبر سبحانه أنّ من أحبّ مع الله شيئاً غيره ، كما يحبه ، فقد اتخذ نداً من دونه ! وهذا على أصح القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله ، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ »(٢) والمعنى على أصحّ القولين : أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسوون بينه وبين غيره في الحب والعبادة . وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم « تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٣) ؛ ومعلوم قطعاً أنّ هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونهم خالقيهم ، فإنهم كانوا ـ كما أخبر الله عنهم ـ مقرّين بأنّ الله تعالى وحده هو ربّهم وخالقهم ، وأنّ الأرض ومن فيها لله وحده ، وأنه ربّ السموات وربّ

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١] ونصها : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨] .

العرش العظيم ، وأنّه هو الذى بيده ملكوت كلّ شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ... وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى فى المحبّة والعبادة ؛ فمن أحبّ غير الله تعالى، وخافه ، ورجاه ، وذلّ له ـ كما يحبّ الله ويخافه ويرجوه ـ فهذا هو الشرك الذى لايغفره الله تعالى..! فعياذاً بالله ! مِنْ أنْ ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام ، كانسلاخ الحيّة من قِشرها ، وهو يظنّ أنّه مسلم موحّد ..!

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة فى بعض فتاويه :

والمتّخذ إلٰهه هواه، لهمحبّة كمحبّة المشركين لآلهتهم، ومحبّةِ عبّاد العجل له ، وهذهمحبّة معالله لامحبّة لله ! وهذه محبّة أهلالشرك ..! والنفوس قد تدّعى محبّة الله ، وتكون فىنفس الأمر محبة شرك تحبّ ماتهواه وقد أشركته فى الحب مع الله ! وقد يخفى الهوى على النفس ، فإنّ حبّك الشىء يعمى ويصمّ ..! وهكذا الأعمال التى يظنّ الإنسان أنه يعملها لله وفى نفسه شرك قد خفى عليه وهو يعلمه : إمّا لحبّ رياسة ، وإمّا لحبّ مال، وإمّا لحبّ صورة ..! ولهذا قالوا(١): يارسول الله ! الرجل يقاتلشجاعةً وحميّةً ورياءً ، فأىٌّ ذلك فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . . ! فلمّا صار كثير من الصوفية النسّاك المتأخّرين يدّعون المحبّة ـ ولم يزنوها بميزانالعلم والكتاب والسُّنّة ـ دخلفيها نوعٌ منالشرك واتّباعالأهواء . والله تعالى قد جعلمحبّته موجبة لاتباعرسوله فقال« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٥ ـ باب من سأل ، وهو قائم ، عالما جالسا . حديث ١٠٥ . ونصه :

عن أبى موسى قال: جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله! ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية . فرفع إليه رأسه (قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً) فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله عز وجل .

اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهَ »[1] وهذا ، لأن الرسول هو الذى يدعو إلى ما يحبه الله ، وليس شىء يحبه الله إلّا والرسول يدعو إليه . . ! وليس شىء يدعو إليه الرسول إلّا والله يحبّه . . ! فصار محبوب الربّ ومدعوّ الرسول متلازمَيْن ، بل هذا هو هذا فى ذاته ، وإنْ تنوّعت الصفات ..! انتهى .

« وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى : باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود « إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ » المعدّ لهم يوم القيامة « أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً » أى : القدرة كلّها لله، على كل شىء، من العقاب والثواب ، دون أندادهم « وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » أى : العقاب للظالمين . وفائدة عطفها على ما قبلها : المبالغة فى تهويل الخطب ، وتفظيع الأمر . فإنّ اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدّة العذاب ، لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه . وجواب (لو) محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان : إمّا لعدم الإحاطة بكنهه ، وإمّا لضيق العبارة عنه ، وإمّا لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبّر أو المستمع من الضجر والتفجّع عليه . أى : لكان منهم مالا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم . ونظيره ـ فى حذف الجواب ـ قوله تعالى « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا »[2] وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه . وقرىء « وَلَوْ تَرَى » بالتاء ـ على خطاب الرسول أو كلّ مخاطَب ـ أى : ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً فى الفظاعة والهول .

---

(١) [٣/ آل عمران/ ٣١] ونصها: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها: وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و [٦ / الأنعام / ٣٠] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)

« إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا » بدل من « إِذْ يَرَوْنَ » أى : تبرّأ المتبوعون وهم الرؤساء الآمرون باتخاذ الأنداد وكلّ ما عبد من دونه تعالى « مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » من الأتباع، بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا لهم ـ أو يدعونهم إليه ـ من فنون الكفر والضلال، واعتزلوا عن مخالطتهم، وقابلوهم باللعن. وقرىء الأول على البناء للفاعل، والثانى على البناء للمفعول، أى تبرّأ الأتباع من الرؤساء « وَرَأَوُا الْعَذَابَ » الواو للحال، أى : تبرّأوا فى حال رؤيتهم العذاب « وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » أى : الوُصَل التى كانت بينهم : من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحابّ، والاتباع، والاستتباع.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

« وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » حين عاينوا تبرّؤ الرؤساء منهم، وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا « لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى : ليت لنا رجعة إلى الدنيا « فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ » هناك، ومن عبادتهم، ونعبده تعالى وحده « كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا » اليوم. وهم كاذبون فى هذا، بل لو رُدّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، كما أخبر تعالى عنهم بذلك « كَذَٰلِكَ » أى : مثل تلك الإراءة الفظيعة « يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ » ندمات شديدة « عَلَيْهِمْ » أى : تذهب وتضمحلّ، كما قال تعالى « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ

فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا »(١) وقال تعالى « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ... »(٢) الآية ، وقال تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ... »(٣) الآية « وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » ونظير هذه الآية قوله تعالى « ...وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٤) . . ؟ وقال تعالى « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »(٥) .

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ١٨] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٩] ونصها : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٤) [٣٤ / سبأ / ٣١ـ٣٣] وأول الآية الأولى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ،

(٥) [١٩ / مريم / ٨١و٨٢] .

وقال الخليل لقومه « إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ »(١) . وقالت الملائكة « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »(٢) ويقولون « سُبْحَانَكَ ! أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ »(٣) . وقال تعالى « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »(٤) . وقال تعالى « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٥) .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٦٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٥، ٦] .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا » ـ حال أو مفعول ، وهو ما انتفى عنه حكم التحريم « طَيِّبًا » أى : مستطاباً فى نفسه ، غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول .

وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبىّ صلى الله عليه وسلم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ! ادعُ اللهَ أن يجعلنى مستجاب الدعوة ! فقال : يا سعد ! أَطِبْ مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذى نفس محمد بيده ! إنّ الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيّما عبد نبت لحمه من السحت والرِّبا فالنار أولى به .. ! « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » وهى طرائقه ومسالكه فيما أضلّ أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ... مما زينه لهم فى جاهليتهم ، كما فى حديث عياض بن حمار الذى فى صحيح مسلم[١] عن رسول الله صلى الله وسلم أنه قال : يقول الله تعالى : إنّ كلّ مالٍ منحته عبادى فهو لهم حلال . وفيه : وإنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمتْ عليهم ما أحللت لهم .

(١) أخرجه مسلم فى: ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٦٣ (طبعتنا).

وها كهوه بنصه الكامل :

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ، ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ « أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي ، يَوْمِي هَذَا . كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا ، حَلَالٌ . وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ . وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ . وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ . وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ =

ومما يدخل فى خطوات الشيطان : كلّ معصيةٍ لله ، ومنها : النذور فى المعاصى ، كما قاله بعض السلف فى الآية .

قال الشعبىّ : نذر رجل أن ينحر ابنه ، فأفتاه مسروق بذبح كبش ، وقال : هذا من خطوات الشيطان !

وقال أبو الضحى عن مسروق : أتى عبد الله بن مسعود بضرعٍ وملحٍ ، فجعل يأكل، فاعتزل رجلٌ من القوم، فقال ابن مسعود : ناولوا صاحبكم ؛ فقال : لا أريده ؛ فقال: أصائم أنت ؟ قال : لا ..! قال : فما شأنك ؟ قال : حرّمت أن آكل ضرعاً أبداً ..! فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان ، فاطْعَمْ وكفِّرْ عن يمينك .. ! رواه ابن أبى حاتم .

وروى أيضا عن أبى رافع قال : غضبت يوماً على امرأتى ، فقالت : هى يوماً يهودية

= يُشْرِكُوا بِى مَا لَمْ أُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا . وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » .

وَقَالَ « إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِىَ بِكَ . وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ . تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ . وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِى أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا . فَقُلْتُ : رَبِّ ! إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِى فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً . قَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ . وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ . وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقُ عَلَيْكَ . وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ . وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ .

قَالَ : وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ . وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُرْبَى ، وَمُسْلِمٍ . وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ .

قَالَ : وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِى لَا زَبْرَ لَهُ ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتْبَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا . وَالْخَائِنُ الَّذِى لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ . وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِى إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » .

ويوماً نصرانية ، وكلّ مملوك لها حرٌّ إن لم تطلق امرأتك ..! فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من خطوات الشيطان .. ! وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ـ وهى يومئذٍ أفقه امرأة فى المدينة ـ وأتيت عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك .

وروى عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ما كان من يمينٍ أو نذرٍ فى غضب ، فهو من خطوات الشيطان ، وكفّارته كفارة يمين ! نقله الإمام ابن كثير الدمشقى .

« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » تعليل للنهى ، للتنفير عنه والتحذير منه كما قال « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »(١) وقال تعالى « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا »(٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ » استئنافٌ لبيان كيفية عداوته ، وتفصيلٌ لفنون شرّه وإفساده . و (السوء) يشمل جميع المعاصى ، سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب . و (الفحشاء) ما تجاوز الحدّ فى القبح من العظائم . « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : بأن تفتروا عليه تعالى بأنّه حرّم هذا وذاك بغير علمٍ . فمعنى « ما لا تعلمون » ما لا تعلمون أن الله تعالى أمَرَ به .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٦] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

قال البقاعىّ : ولقد أبلغ سبحانه فى هذه الآية فى حسن الدعاء لعباده إليه ، لطفاً بهم ورحمة لهم ، بتذكيرهم فى سياق الاستدلال على وحدانيته ، بما أنعم عليهم : بخلقه لهم أولا، وبجعله ملائما لهم ثانيا ، وإباحته لهم ثالثا ، وتحذيره لهم من العدوّ رابعا ... إلى غير ذلك من دقائق الألطاف وجلائل المنن ..! اهـ .

قال الرازىّ : قوله تعالى « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » يتناول جميع المذاهب الفاسدة ، بل يتناول مقلد الحق ..! لأنه ـ وإن كان مقلدا للحق ـ لكنه قال ما لا يعلمه ، فصار مستحقا للذمّ لاندراجه تحت الذم فى هذه الآية .! انتهى .

وقال الإمام ابن القيم فى (أعلام الموقعين) : القول على الله بلا علم يعمّ القول عليه سبحانه فى أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وفى دينه وشرعه . وقد جعله الله تعالى من أعظم المحرمات ، بل جعله فى المرتبة العليا منها ، فقال تعالى « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(١) . وقال تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) ! فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه . وقولهم لما لم يحرّمه : هذا حرام. ولما لم يحلّه : هذا حلال . وهذا بيانٌ منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هذا حلالٌ وهذا حرام ، إلا بما علم أن الله سبحانه أحلّه وحرّمه .

وقال بعض السلف : ليتّقِ أحدُكم أن يقول لما لا يعلم ولا ورد الوحى المبين بتحليله وتحريمه : أحله الله وحرّمه ، لمجرد التقليد أو بالتأويل .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٦و١١٧] .

وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح، أميره بريدة(١) أن ينزل عدوّه، إذا حاصرهم، على حكم الله ، وقال : فإنك لا تدرى أتصيب حُكْمَ اللهِ فيهم أم لا .. ؟ ولكن

(١) هذا حديث جليل يتضمن سياسة رشيدة أوحت بها أنوار النبوة التى لاتنطق عن الهوى . فهو جدير بأن يدرسه كبار الساسة وأن يسترشدوا به فى أمورهم كلها . ولنفاسته رأيت من الواجب نشره حرفيًّا منقولا عن صحيح مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، ح ٣ (طبعتنا) وقد أخرجه كذلك أصحاب السنن الأربعة والإمام أحمد فى مسنده . وها كموه كما أخرجه الإمام مسلم رضى الله عنه :

عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه فى خاصته ، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . ثم قال « اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثُلُوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم ، إن فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين . يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء . إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فإنكم ، أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم ، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله . ولكن أنزلهم على حكمك . فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » .

أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك... فتأمّل، كيف فرّق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد ، ونهى أن يسمى حكم المجتهدين حكم الله . ومن هذا ، لما كتب الكاتب ـ بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ حكماً حكم به فقال : هذا ما أرى اللهُ أميرَ المؤمنين عمر ، فقال : لا تقل هكذا . ولكن قل : هذا ما رأى أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب . وقال مالك : لم يكن مِنْ أمرِ الناس ، ولا مَنْ مضى مِن سلفنا ، ولا أدركتُ أحداً أقتدى به، يقول فى شىء : هذا حلال وهذا حرام . وما كانوا يجترئون على ذلك . وإنّما كانوا يقولون : نكره كذا ونرى هذا حسناً .

ولمّا نهاهم سبحانه عن متابعة العدوّ ، ذمّهم بمتابعته ، مع أنه عدوٌّ ، من غير حجة ، بل بمجرد التقليد للجهلة ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ » على رسوله واجتهدوا فى تكليف أنفسكم الردّ عن الهوى الذى نفخه فيها الشيطان « قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا » أى : وجدنا « عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا » أى : مِنْ عبادة الأصنام والأنداد .

فقال مبكّتاً لهم « أَوَلَوْ » أى : أيتبّعون آباءهم وَلَوْ « كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا » أى : من الدين « وَلَا يَهْتَدُونَ » للصواب إذ جهلوه ؟

قال الحرالىّ : فيه إشعار بأنّ عوائد الآباء منهيّة حتى يشهد لها شاهد أبوّة الدين . ففيه التحذير فى رتب ما بين حال الكفر إلى أدنى الفتنة التى شأن الناس أن يتبعوا فيها عوائد آبائهم .

قال الرازيّ : معنى الآية : إن الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ماأنزل الله من الدلائل الباهرة. فهم قالوا : لا نتبع ذلك وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا . فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد . وأجاب الله تعالى عنهم بقوله « أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ ... إلى آخره » .

ثم قال : تقرير هذا الجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال للمقلّد : هل تعترف بأنّ شرط جواز تقليد الإنسان أنْ يعلم كونه محقًّا أم لا ؟ فإن اعترفتَ بذلك ، لم تعلم جواز تقليده إلّا بعد أن تعرف كونه محقًّا ، فكيف عرفت أنه محقّ ؟ وإن عرفته بتقليد آخر ، لزم التسلسل ؛ وإن عرفته بالعقل ، فذاك كافٍ، فلا حاجة إلى التقليد . . ! وإن قلتَ : ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقًّا . . . فإذن قد جوّزت تقليده وإن كان مبطلًا . . ! فإذن أنت ـ على تقليدك ـ لا تعلم أنّك محقّ أو مبطل . . !

وثانيها : هَبْ أنّ ذلك المتقدم كان عالماً بهذا الشيء ؛ إلّا أنّا لو قدرنا أنّ ذلك المتقدم ما كان عالماً بذلك الشيء قط ، وما اختار فيه البتة مذهباً ؛ فأنت ماذا كنت تعمل ؟ فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه ، كان لابدّ من العدول إلى النظر ، فكذا هنا .

وثالثها : أنّك إذا قلّدت من قبلك ، فذلك المتقدم كيف عرفته ؟ أَعَرَفْته بتقليد أم لا بتقليد ؟ فإن عرفته بتقليد ، لزم إمّا الدور وإمّا التسلسل . وإن عرفته لا بتقليد ، بل بدليل ، فإذا أوجبت تقليد ذلك المتقدّم ، وجب أن تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد ، لأنّك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل ـ مع أنّ ذلك المتقدّم طلبه بالدليل لا بالتقليد ـ كنتَ مخالفاً له . فثبت أنّ القول بالتقليد يُفضي ثبوته إلى نفيه ، فيكون باطلًا .

ثم قال الرازيّ عليه الرحمة : إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان ، تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد ، وفيه

أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التعويل على مايقع فى الخاطر من غير دليل ، أو على ما يقوله الغير من غير دليل .

وقال الإمام الراغب : ذمّهم الله بأنهم أبطلوا ماخصّ الله به الإنسان من الفكر والرويّة ، وركّب فيه من المعارف . وذلك أنّ الله تعالى ميّز الإنسان بالفكر ليعرف به الحقّ من الباطل فى الاعتقاد . والصدق من الكذب فى الأقوال . والجميل من القبيح فى الفعل . ليتحرى الحقّ والصدق والجميل . ويتجنب أضدادها . وجعل له من نور العقل ما يستغنى به . فيدله على معرفة مطلوبه . فلما حثّ الناس على تناول الحلال الطيب ، ونهاهم عن متابعة الشيطان ، بيّن حال الكفّار ـ فى تركهم الرشاد ، واتباعهم الآباء والأجداد ـ ليحذّر الاقتداء بهم ، تاركين استعمال الفكر الذى هو صورة الإنسان وحقيقته . ثمّ قال « أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا » أى : أيتبعونهم وإن كانوا جهلة ؟ تنبيهاً على أنه محال اتباع من لا عقل له ولا اهتداء . إن قيل : ما فائدة الجمع بين قوله « يعقلون » و « يهتدون » وأحدهما يغنى عن الآخر ؟ قيل : قد تقدم أنّ (العاقل) يقال على ضربين : أحدهما لمن يحصل له القوة التى بها يصح التكليف ، والثانى لمن يحصل العلوم المكتسبة وهو المقصود ههنا . و (المهتدى) قد يقال لمن اقتدى فى أفعاله بالعالِم وإن لم يكن مثلَه فى العلم ؛ فبيّن أنهم لايعقلون ولايهتدون. ووجه آخر : وهو أن يعقل ويهتدى ، وإنْ كان كثيراً ما يتلازمان ، فإنّ العقل يقال بالإضافة إلى المعرفة ، والاهتداء بالإضافة إلى العمل ، فكأنّه قيل : لا علم لهم صحيح ولا مستقيم .

ثمّ ضرب تعالى للكافرين مثلًا فظيعاً ـ كما قال سبحانه « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ »(1) ـ فقال :

---

(١) [١٦ / النحل / ٦٠] ... وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

« وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ » أى : يصيح ، يقال : نعق الراعى بغنمه : صاح بها وزجرها . وقوله تعالى « بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً » أى : بالبهائم التى لاتسمع إلّا دعاء الناعق ونداءه ـ الذى هو تصويتٌ بها ، وزجرٌ لها ـ ولاتفقه شيئاً آخر ، ولا تعى كما يفهم العقلاء ويعون . وقد أفهم هذا الإيجاز البليغ تمثيلين فى مثلٍ واحد . فكأنّ وفاء اللفظ : مثل الذين كفروا ومثل داعيهم كَمَثَلِ الراعى ومثل ما يرعى من البهائم . وهو من أعلى خطاب فصحاء العرب . ومن لا يصل فهمه إلى جمع المثلين ، يقتصر على تأويله بمثل واحد ، فيقدر فى الكلام : ومثل داعى الذين كفروا . أشار لذلك الحرالىّ فيما نقله البقاعىّ عنه .

وقال الفراء(١) : أضاف تعالى المثل إلى الذين كفروا، ثمّ شبّههم بالراعى ولم يقل كالغنم. والمعنى ـ والله أعلم ـ مثل الذين كفروا كالبهائم التى لا تفقه ما يقول الراعى أكثر من الصوت ، فأضاف التشبيه إلى الراعى والمعنى فى المرعىّ . قال : ومثله فى الكلام (فلان يخافك كخوف الأسد) المعنى : كخوفه الأسد ، لأنّ الأسد معروف أنه المَخُوف .

وقيل : أريدَ تشبيه حال الكافر ـ فى دعائه الصنم ـ بحال من ينعق بما لا يسمعه . والمعنى : مثل هؤلاء فى دعائهم آلهتهم ـ التى لا تفقه دعاءهم ـ كمثل الناعق بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشىء ، غير أنّه هُوَ فى دعاء ونداء . وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلّا العناء .

---

(١) انظر كتاب معانى القرآن للإمام أبى زكرياء يحيى بن زياد الفرّاء . الجزء الأول صفحة ٩٩ .

وقال ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) : ولك أن تجعل هـذا من التشبيه المركّب ، وأنْ تجعله من التشبيه المفرّق . فإنْ جعلته من المركّب : كان تشبيهاً للكفّار ـ فى عدم فقههم وانتفاعهم ـ بالغنم التى ينعق بها الراعى فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرّد الذى هو الدعاء والنداء . وإن جعلته من التشبيه المفرّق : فالذين كفروا بمنزلة البهائم ، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذى ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرّد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرّد صوت الناعق. والله أعلم .

قال الرازىّ: اعلم أنّه تعالى ـ لمّا حكى عن الكفار أنهم عند الدعاء إلى اتّباع ما أنزل الله : تركوا النظر والتدبّر ، وأخلدوا إلى التقليد ، وقالوا : بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ـ ضَرَبَ لهم هذا المثل ـ تنبيهاً للسامعين لهم ـ إنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه : بسبب ترك الإصغاء ، وقلّة الاهتمام بالدين ، فصيّرهم ـ من هذا الوجه ـ بمنزلة الأنعام . . ! ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفةً بأحوال الكفّار، ويحقّر إلى الكافر نفسَه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره ـ حيث صيّره كالبهيمة ـ فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد . ثمّ زاد فى تبكيتهم فقال « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » فهم بمنزلة الصمّ : فى أنّ الذى سمعوه كأنهم لم يسمعوه ، وبمنزلة البُكْم : فى أنهم لم يستجيبوا لما دُعوا إليه ، وبمنزلة العُمْى : من حيث أنهم أعرضوا عن الدلائل فصاروا كأنهم لم يشاهدوها . ولمّا كان طريق اكتساب العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاثة ، فلمّا أعرضوا عنها، فقدوا العقل المكتسب. ولهذا قيل : مَنْ فقد حسًّا فقد علماً ..!

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى : ما أخلصناه لكم من الشُّبَه ، ولا تعرضوا لما فيه دنس ـ كما أحلّه المشركون من المحرّمات ـ ولا تحرّموا ما أحلّوا منها من السائبة وما معها « وَاشْكُرُوا لِلَّهِ » ـ الذى رزقكم هذه النعم ـ « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ » ـ أى : وحده ـ « تَعْبُدُونَ » أى : إن صَحَّ أنكم تخصّونه بالعبادة ، وتقرّون أنه سبحانه هو المنعم لا غير .

قال الإمام ابن تيمية فى (جواب أهل الإيمان) : الطيبات التى أباحها هى المطاعم النافعة للعقول والأخلاق . والخبائث هى الضارة فى العقول والأخلاق . كما أن الخمر أم الخبائث لأنها تفسد العقول والأخلاق . فأباح الله الطيبات للمتّقين التى يستعينون بها على عبادة ربهم التى خلقوا لها . وحرّم عليهم الخبائث التى تضرّهم فى المقصود الذى خلقوا له . وأمرهم ـ مع أكلها ـ بالشكر ، ونهاهم عن تحريمها . فمن أكلها ولم يشكر ترك ما أمر الله به واستحقّ العقوبة . ومن حرّمها ـ كالرهبان ـ فقد تعدّى حدود الله فاستحقّ العقوبة .

وفى الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنّه قال[١] :

إن الله ليرضى عن العبد أنْ يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها.

وفى حديث آخر[٢] : الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٨٩ (طبعتنا) عن أنس بن مالك .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة ، ٥٦ ـ باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر (ترجمة الباب) .

وقال تعالى « لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »(١) أى : عن شكره ، فإنّه لا يبيح شيئاً ويعاقب مَنْ فعله ، ولكن يسأله عن الواجب الذى أوجبه معه . وعمّا حرّمه عليه ، هل فرّط بترك مأمور أو فعل محظور ؟ كما قال تعالى « يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »(٢) .

ولمّا قيّد تعالى الإذن لهم بالطيّب من الرزق، افتقر الأمر إلى بيان الخبيث منه ليجتنب، فبيّن صريحاً ما حرّم عليهم ـ مما كان المشركون يستحلّونه ويحرّمون غيره ـ وأفهم حلّ ماعداه ، وأنّه كثيرٌ جداً ليزداد المخاطَب شكراً ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » وهى فى عرف الشرع : مامات حتف أنفه ، أو قتل على هيئة غير مشروعة ـ إمّا فى الفاعل أو فى المفعول ـ فدخل فيها : المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردّية ، والنطيحة ، وما عدا عليها السبُع .

قال ابن كثير : وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر ، لقوله تعالى « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ »(٣) على ما سيأتى إن شاء الله تعالى ، وحديث العنبر فى الصحيح . وفى المسند ، والموطّأ ، والسنن : قوله ﷺ فى البحر(٤) : هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته .

---

(١) [١٠٢ / التكاثر / ٨] .
(٢) [٥ / المائدة / ٨٧] .
(٣) [٥ / المائدة / ٩٦] .
(٤) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ .

وروى الشافعىّ وأحمد وابن ماجه والدارقطنىّ حديث ابن عمر(١) : أحلت لنا مَيتتان ودمان . فأما الميتتان فالحوت والجراد . وأما الدمان فالـكبد والطحال . « وَالدَّمَ » وهو المسفوح أى : الجارى ، كما صرّح بذلك فى الآية الأخرى ـ والمفسّر قاضٍ على المبهَم ـ وكان بعض العرب يجعل الدم فى المصارين ثم يشويها ويأ كلها ويسمّونه الفصيد . وفى القاموس وشرحه : والفصيد دمٌ كان يوضع فى الجاهلية فى مِعًى مِنْ فَصْدِ عرق البعير ، ويشوى ، وكان أهل الجاهلية يأ كلونه ويطعمونه الضيف فى الأزمة . ويحكى : أنه بات رجلان عند أعرابىٍّ فالتقيا صباحاً ، فسأل أحدهما صاحبه عن القرى فقال : ما قريت وإنمـا فُصِدَ لى . فقال : لم يُحْرَمْ من فُصْد له ـ بسكون الصاد ـ فجرى ذلك مثلًا لمن نال بعض المقصد ، وسكّن الصاد تخفيفاً ، أى : لم يحرم القرى مَنْ فصدت له الراحلة فحظى بدمها . ويروى : من فزْد له ـ بالزاى بدل الصاد ـ وبعضهم يقول : من قصد له ـ بالقاف ـ أى : من أعطى قصداً أى قليلًا . وكلام العرب بالفاء . وقال يعقوب : تأويل هذا أنّ الرجل كان يضيف الرجل فى شدّة الزمان ، فلا يكون عنده ما يقريه ، ويشحّ أنْ ينحر راحلته ، فيفصدها ، فإذا خرج الدم سخّنه للضيف إلى أنْ يجمد ويقوى فيطعمه إيّاه . « وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ » ويدخل شحمه وبقية أجزائه فى حكم لحمه : إمّا تغليباً ؛ أو لأنّ اللحم يشمل ذلك لغةً ، لأنه ما لَحم بين أخفى ما فى الحيـوان من وسط عظمه ، وما انتهى إليه ظاهره من سطح جلده . وعرف غلبة استعماله على رطبه الأحمر . وهو هنا على أصله فى اللغة . وإمّا بطريق القياس على رأىٍ ، لأنّه إذا حرّم لحمه الذى هو المقصود بالأ كل ـ وهو أطيب ما فيه ـ كان غيره من أجزائه أولى بالتحريم . ولمّا حرّم ما يضرّ الجسم ويؤذى النفس ، حرّم ما يرين على القلب ، فقال «وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ» أى : ذُبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد ونحو ذلك

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٢٩ ـ كتاب الأطعمة ، ٣١ ـ باب الـكبد والطحال ، حديث ٣٣١٤ (طبعتنا) .

مما كانت الجاهلية ينحرون له . وأصل (الإهلال) رفع الصوت أى: رفع به الصوت للصنم ونحوه ، وذلك كقول أهل الجاهلية : باسم اللات والعزّى .

وذكر القرطبيّ عن ابن عطيّة أنه نقل عن الحسن البصريّ أنّه سئل عن امرأة عملت عرساً لِلعَبِها ، فنحرتْ فيه جزوراً ، فقال : لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم . وذكَر أيضاً عن عائشة رضى الله عنها: أنها سئلت عمّا يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه ، وكلوا من أشجارهم . والقَصْدُ سَدُّ ما كان مظنّةً للشرك .

قال النوويّ فى (شرح مسلم) : فإنْ قصد الذابح ـ مع ذلك ـ تعظيمَ المذبوح له ، وكان غير الله تعالى ـ والعبادةَ له ، كان ذلك كفراً . فإن كان الذابح مسلماً ، قبل ذلك ، صار بالذبح مرتدًّا. ذكره فى الكلام على حديث[1] علىٍّ رضى الله عنه : لعن الله من ذبح لغير الله.

قال الحرالىّ : وَذِكْرُ الإهلال إعلامٌ بأنّ ما أعلن عليه بغير اسم الله هو أشدّ المحرم ، ففى إفهامه تخفيف الخطاب عما لا يُعلم من خفىّ الذكر . وقد روى البخارىّ[2] عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن قوما قالوا للنبىّ ﷺ : إن قوما يأتوننا باللحم ، لا ندرى أذكر

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث ٤٣ (طبعتنا) ونصه : عن أبى الطفيل ، عامر بن واثلة قال : كنت عند علىّ بن أبى طالب ، فأتاه رجل فقال : ما كان النبىّ ﷺ يُسرّ إليك ؟ قال فغضب وقال : ما كان النبىّ ﷺ يسرّ إلىّ شيئاً يكتمه الناس . غير أنه قد حدثنى بكلمات أربع . قال فقال : ماهن ، يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال « لعن الله من لعن والده . ولعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا . ولعن الله من غيّر منار الأرض » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ ـ باب ذبيحة الأعراب ونحوهم .

اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثى عهد بكفر . فكأنّ المحرّم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه ؛ بل الذى علم أنّ غير اسم الله قد أعلن به عليه .

وروى عن علىٍّ رضى الله عنه قال : إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلّون لغير الله فلا تأكلوا ، وإذا لم تسمعوهم فكلوا ، فإن الله قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون .

فصل

« فيما لتحريم هذه المذكورات من الحكم والأسرار الباهرات »

فأما الميتة : فقال الحرالىّ : هى ما أدركه الموت من الحيوان ـ عن ذبول القوّة وفناء الحياة ـ وهى أشدّ مفسد للجسم ، لفساد تركيبها بالموت ، وذهاب تلزز أجزائها ، وعفنها ، وذهاب روح الحياة والطهارة منها .

وقال المهايمىّ فى تفسيره : ثم أشار تعالى إلى أنه إنما يقطع محبته أكل ما حرّم وهو الميتة وما ذكر معها . فأمّا الميتة فلأنها خبثت بنزع الروح منها بلا مطهّر من الذبح باسم الله ـ تحقيقاً أو تقديراً ـ فتتعلّق أرواحكم بالخبيث فتخبث ، فينقطع عنها محبة الله . وإنما أبيح ميتة السمك لأنّ أصله الماء المطهر ، فكما لا يؤثر فيه النجاسة، لا يؤثر نزع الروح فيما حصل منه ؛ والجراد لأنّه حصل من غير تولد ولا خبث فى ذاته كسائر الحشرات .

وأمّا خبث الدّم : فلأنّه جوهر مرتكس عن حال الطعام ، ولم يبلغ بعد إلى حال الأعضاء ، فهو ميتة .

وقال الإمام ابن تيمية : حرّم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية ،

وزيادته توجب طغيان هذه القوى ، وهو مجرى الشيطان من البدن ، كما قال النبيّ ﷺ[(١)] : إنّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .

وأمّا خبث لحم الخنزير : فلأذاه للنفس ـ كما حرّم ما قبله لمضرّتها فى الجسم ـ لأنّ من حكمة الله فى خلقه : أنّ من اغتذى جسمه بجسمانية شىء اغتذت نفسانيته بنفسانية ذلك الشىء : [(٢)] الكبر والخيلاء فى الفدّادين أهل الوبر ، والسكينة فى أهل الغنم . فلما جعل فى الخنزير من الأوصاف الذميمة ، حرّم على من حوفظ على نفسه من ذميم الأخلاق . نقله البقاعىّ .

وقد كُشِف لِأطباء هذا العصر من مضار لحم الخنزير ـ المبنية على التجارب الحسّية ـ غير ماقالوه القدماء . فمن مضارّه : أنه يورث الدودة الوحيدة المتسبب من وجودها فى الأمعاء أعراض كثيرة : كالمغص ، والإسهال ، والقىء ، وفقد شهوة الطعام أو النهم الشديد ، وآلام الرأس ، والإغماء ، والدوار ، واضطراب الفكر ، وعروض نوبات صرعية ، وتشنّجات عصبية ، وإصابة مرض دودة الشعر الحلزونية الذى يفوق الحمّى ، ويودى بحياة المصاب ... إلى غير ذلك من التعب ، وعسر الهضم ، ومضار سواها .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم ، حديث ١٠٦٣ ونصه : عن علىّ بن حسين أن النبىّ ﷺ أتته صفية بنت حيىّ . فلما رجعت انطلق معها . فمرّ به رجلان من الأنصار فدعاهما فقال « إنما هى صفية » قالا : سبحان الله ! قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١٥ ـ باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « رأس الكفر نحو المشرق . والفخر والخيلاء فى أهل الخيل والإبل والفدّادين أهل الوبر . والسكينة فى أهل الغنم » .

قال حكيم : فالإسلام لم يأت لإصلاح الروح فقط ، بل لإصلاح الروح والجسم معاً ..! فلم يترك ضارًّا لأحدهما إلّا ونبّه عليه تصريحاً أو تلويحا ... وقد بسط الحكماء المتأخرون الكلام على مضرات لحم الخنزير فى مقالات عديدة .

وأما خبث المهلّ به لغير الله : فلأنه يرين على القلب ، لأنه تقرّب به لغير موجده وخالقه تقرُّبَ عبادة ، وذلك من صريح الإشراك والاعتماد على غيره تعالى ؛ فكان خبثه معنويا لتأثيره على النفوس والأخلاق كتأثير المضر بالجسم والبدن ؛ والشرع جاء للحفظ عما يضرّ مطلقا ، ولصيانة مقام التوحيد .

ولما كان هذا الدين يُسْرًا لا عُسْرَ فيه ولا حَرَج ، رفع حكم هذا التحريم عن المضطر . فقال «فَمَنِ اضْطُرَّ» أى ألجاه ملجئ بأى ضرورة كانت إلى أكل شيء مما حرم بأنْ أشرف على التلف ، فأكل من شيء منه حال كونه « غَيْرَ بَاغٍ » أى غير طالبٍ له راغب فيه لذاته. من (بغى الشيء وابتغاه : طلبه وحرص عليه) « وَلَا عَادٍ » أى : مجاوزٍ لسدّ الرمق وإزالة الضرورة « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » وإن بقيت حرمته ، لأنّه إذا تناوله حال الاضطرار لا يؤثّر فيه الخبث لأنّه كارهٌ بالطبع .

وقال الراغب : واختلف إذا اضطر إلى ذلك فى دواءٍ لا يسدّ غيره مسدّه . والصحيح أنه يجوز له تناوله للعلّة المذكورة ، يعنى : إبقاء روحه بجهة مارآه أقرب إلى إبقائه ، وهى التى أجيز تناول ماذكر له للجوع .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لما أكله حال الضرورة « رَحِيمٌ » حيث رخّص لعباده فى ذلك إبقاءً عليهم .

ثمّ أعاد تعالى وعيد كاتمى أحكامه ـ إثْر ما ذكره من الأحكام ـ تحذيراً لهذه الأمة أن يسلكوا سبيل من عنوا به ، وهم أهل الكتاب، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قول تعالى :

[١٧٤] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ » أى : من حدوده وأحكامه وغير ذلك مما أشارت إليه الآية الأولى بالبيّنات والهدى « وَيَشْتَرُونَ بِهِ » أى : يأخذون بدله « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى : مما يتمتعون به من لذات العاجلة . وقَلَّلَهَ لحقارته فى نفسه . ففيه إشعار بدناءة نفوسهم حيث رضيت بالقليل ، أو بالنسبة لما فوّتوه على أنفسهم من نعيم الآخرة الذى لا يُحاط بوصفه « أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ » أى مايَسْتَتْبِعُ النارَ ويستلزمها ، فكأنه عينُ النار ، وأكلُهُ أَكْلُهَا ، و « فى بطونهم » متعلّق بـ« يأكلون » وفائدته : تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقرّ المأكول .

قال الراغب : أكل النار : تناول ما يؤدى إليها . وذكر الأكل لكونه المقصود الأول بتحصيل المال . وذكر « فى بطونهم » تنبيهاً على شرههم وتقبيحاً لتضييع أعظم النعم لأجل الطعم الذى هو أخسّ متناولٍ من الدنيا ..!

« وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قال الراغب : لم يعن نفى الكلام رأساً ، فقد قال : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ »[1] ، وقال : « وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ »[2] . وإنما أراد كلاماً يقتضى جدوى ؛ ولهذا قال الحسن : معناه يغضب عليهم تنبيهاً

---

(١) [٧ / الأعراف / ٦] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٢] ونصها : وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا .

أنهم بخلاف من قال فيهم « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ». وقيل : حقيقة (كَلَّمْتُهُ) حملته على الكلام ، نحو حركته ، لأنّ مَنْ كلّمتَه فقد استدعيت كلامه ؛ فكأنه قيل: لايستدعى كلامهم نحو قوله(١) « لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ».

« وَلَا يُزَكِّيهِمْ » أى: يطهّرهم من دنس الذنوب لغضبه عليهم لأنهم كتموا، وقد علموا، فاستحقّوا الغضب « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : مؤلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ » أى : استبدلوا إضلال أنفسهم وغيرهم ـ من الكتمان والتحريف ـ بالاهتداء « وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ » أى : أسبابه بأسبابها . ولما جعل سبحانه أول مأكلهم ناراً ، وآخر أمرهم عذاباً ، وترجمة حالهم عدم المغفرة ، فكان بذلك أيضاً أوسط حالهم ناراً ـ سبب عنه التعجيب من أمرهم : بحبسهم أنفسهم فى ذلك الذى هو معنى الصبر، لالتباسهم بالنار حقيقةً أو بموجباتها من غير مبالاة ، فقال « فَمَا أَصْبَرَهُمْ » ـ أى : ما أشدّ حبسهم أنفسهم ، أو ما أجرأهم ـ « عَلَى النَّارِ » التى أكلوها فى الدنيا فأحسوا بها فى الأخرى ـ نقله البقاعىّ ـ .

ثم قال : وإذا جعلته مجازاً ، كان مثل قولك لمن عاند السلطان : ما أصبرك على السجن الطويل والقيد الثقيل ؟ تهديداً له . تريد أنّه لا يتعرض لذلك إلّا من هو شديد الصبر على العذاب .

وقد روى عن الكسائىّ أنه قال : قال لى قاضى اليمن بمكة : اختصم إلىّ رجلان من العرب ، فحلف أحدها على حقّ صاحبه فقال له : ما أصبرك على الله ! أى : ما أصبرك على عذاب الله . نقله الزمخشرىّ .

(١) [٧٧ / المرسلات / ٣٦] .

قال الراغب : وقد يوصف بالصبر من لاصَبْرَ له اعتباراً بالناظر إليه ، وتَصَوُّرَ أنّه صابر، واستعمال لفظ التعجّب فى ذلك اعتباراً بالخلق لا بالخالق .

ثم ذكر تعالى السبب الموجب لهذا الإبعاد العظيم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْـكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْـكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْـكِتَابَ بِالْحَقِّ » إنما استحقوا هذا العذاب الشديد ، لأنّ الله تعالى أنزل الـكتاب الجامع لأنواع الهدى . وهو صالح لإرادة القرآن والتوراة . بالحقّ ، أى : متلبّساً به . فلا جرم يكون ـ مَنْ يختلف فيه ويرفضه بالتحريف والـكتمان ـ مبتلًى بمثل هذا من أفانين العذاب ، لأنّه حاول نفى ما أثبت الله ، فقد ضادَّ الله فى شرعه ، عياذاً به سبحانه . « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْـكِتَابِ » أى : فى جنس الـكتاب الإلٰهىّ . بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها ؛ أو فى التوراة . بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض . أو الاختلاف فى تأويلها . فاجترأوا لأجله على تحريفها . أو فى القرآن . بأن قال بعضهم : إنّه سحرٌ ، وبعضهم : إنّه شعر ، وبعضهم : أساطير الأولين .

قال الراغب : وأصل الاختلاف : التخلف عن المنهج . وقيل : اختلفوا : أتوا بخلاف ما أنزل الله . وقيل : اختلفوا : بمعنى خلفوا ـ نحو اكتسبوا وكسبوا ، وعملوا واعتملوا ـ أى : صاروا خلفاء فيه ، نحو « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ »(١) اهـ .

« لَفِي شِقَاقٍ » أى : خلافٍ ومنازعة « بَعِيدٍ » عن الحقّ والصواب ، مستوجب لأشدّ العذاب . وقوله تعالى :

(١) [٧ / الأعراف / ٦٩] و [١٩ / مريم / ٦٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » (البرّ) : اسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقرّبة إلى الله تعالى، ومن هذا : برّ الوالدين ، قال تعالى « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ »[1] فجعل البرّ ضدّ الفجور. وقال « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »[2] فجعل البرّ ضدّ الإثم، فدلّ على أنه اسم عام لجميع ما يؤجر عليه الإنسان . أى : ليس الصلاح والطاعة والفعل المرضىّ فى تزكية النفس ـ الذى يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ ـ هو أمر القبلة ، ولكن البرّ ـ الذى يجب الاهتمام به ـ هو هذه الخصال التى عدّها جلّ شأنه .

ولا يبعد أن يكون بعض المؤمنين ـ عند نسخ القبلة وتحويلها ـ حصل منهم الاغتباط بهذه القبلة ، وحصل منهم التشدّد فى شأنها ، حتى ظنوا أنّه الغرض الأكبر فى الدين . فبعثهم تعالى بهذا الخطاب على استيفاء جميع العبادات والطاعات . أشار لهذا الرازىّ .

وقال الراغب : الخطاب فى هذه الآية للكفّار والمنافقين الذين أنكروا تغيير القبلة . وقيل : بل لهم وللمؤمنين حيث قد يرون أنهم نالوا البرّ كلّه بالتوجّه إليها .

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ » أى : إيمان من آمن بالله ـ الذى دعت إليه آية

(١) [٨٢ / الانفطار / ١٣و١٤] . (٢) [٥ / المائدة / ٢] .

الوحدانية ـ فأثبت له صفات الكمال ، ونزهه عن سمات النقصان . « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذى كذب به المشركون ، فاختلّ نظامهم ببغى بعضهم على بعض « وَالْمَلَائِكَةِ » أى : وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين رسله بإلقاء الوحى وإنزال الكتب « وَالْكِتَابِ »أى : بجنس الكتاب . فيشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، التى من أفرادها : أشرفها وهو القرآن ـ المهيمن على ما قبله من الكتب ـ الذى انتهى إليه كلّ خيرٍ واشتمل على كلّ سعادةٍ فى الدنيا والآخرة . « وَالنَّبِيِّينَ » جميعاً من غير تفرقةٍ بين أحدٍ منهم ، كما فعل أهل الكتابين .

قال الحرالىّ : ففيه ـ أى الإيمان بهم وبما قبلهم ـ قهرُ النفس للإذعان لمن هو من جنسها ، والإيمانُ بغيبِ من ليس من جنسها ، ليكون فى ذلك ما يزع النفس عن هواها .

« وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ » أى : أخرجه وهو محبٌّ له راغبٌ فيه ، نصّ على ذلك : ابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما من السلف والخلف ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة[1] مرفوعا: أفضل الصدقة أنْ تصدّق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر . وقوله « ذَوِى الْقُرْبَى » هم : قرابات الرجل ، وهم أوْلى من أعطى من الصدقة . وقد روى الإمام أحمد ، والترمذىّ ، والنسائىّ وغيرهم عن سليمان بن عامر قال: قال[2] رسول الله ﷺ : إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذى الرحم اثنتان : صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ . وفى

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٢٤ ـ كتاب الزكاة، ١١ ـ باب أى الصدقة أفضل؟ ونصه: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال « أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهلُ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا، وقد كان لفلان » .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٨٢ ـ باب الصدقة على الأقارب .

الصحيحين من حديث زينب ، امرأة عبد الله بن مسعود[١] ، أنها وامرأة أخرى سألتا رسول الله ﷺ : أيجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما..؟ فقال رسول الله ﷺ : لهما أجران : أجْرُ القرابة وأجر الصدقة . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى القرابة

(١) أخرجه البخاريّ في: ٢٤ ـ كتاب الزكاة، ٤٤ ـ باب الزكاة على الأقارب . ونصه:

عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى . ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة . فقال « أيها الناس ! تصدقوا » فمرّ على النساء فقال « يامعشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقلن: وبِمَ ذلك يارسول الله ؟ قال « تكثرن اللعن وتكفرن العشير . ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكن ، يا معشر النساء » .

ثم انصرف . فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه . فقيل : يا رسول الله ! هذه زينب . فقال « أيّ الزيانب ؟ » فقيل : امرأة ابن مسعود . قال « نعم . ائذنوا لها » فأُذن لها . قالت: يانبيّ الله ! إنك أمرت اليوم بالصدقة . وكان عندي حليّ لي . فأردت أن أتصدق به . فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم . فقال النبيّ ﷺ « صدق ابن مسعود . زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم » .

أما حديثها والمرأة الأخرى فقد أخرجه البخاريّ في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤٨ ـ باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر . حديث ٧٧٨ .

عن زينب امرأة عبد الله رضي الله عنهما قالت : كنت في المسجد فرأيت النبيّ ﷺ فقال « تصدقن ولو من حليّكن » .

وكانت زينب تنفق على عبدالله وأيتام في حَجْرها . قال: فقالت لعبد الله : سل رسول الله ﷺ : أيجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حجري من الصدقة ؟ فقال : سلي أنتِ رسول الله ﷺ .

فى غير موضع من كتابه العزيز . « وَالْيَتَامَىٰ » وهم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ. «وَالْمَسَاكِينَ» وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيُعْطَوْنَ ما يسدّ به حاجتهم وخلتهم . وفى الصحيحين عن أبى هريرة[١] أن رسول الله ﷺ قال: ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان. ولكنّ المسكين الذى لا يجد غنًى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه . « وَابْنَ السَّبِيلِ » وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته . فيُعْطَى ما يوصله إلى بلده لعجزه بالغربة . وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة . فيُعطَى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه . ويدخل فى ذلك الضيف ، كما قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين .

= فانطلقتُ إلى النبىّ ﷺ ، فوجدت امرأة من الأنصار على الباب ، حاجتها مثل حاجتى . فمرّ علينا بلال . فقلنا : سل النبىّ ﷺ : أيجزى عنى أن أنفق على زوجى وأيتام لى فى حجرى ؟ وقلنا : لا تُخبر بنا .

فدخل فسأله . فقال « من هما » قال : زينب . قال « أىّ الزيانب؟ » قال: امرأة عبدالله. قال « نعم . لها أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٥٣ ـ باب قول الله تعالى : لا يسألون الناس إلحافا .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠١ (طبعتنا) .

وها كمو سياق نص مسلم :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان » .

قالوا : فما المسكين ، يا رسول الله ؟

قال « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » .

وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو جعفر الباقر ، والحسن وقتادة ، والضحّاك ، والزهرىّ ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيّان . و (السبيل) اسم للطريق ، وجعل المسافر ابناً لها لملازمته إياها ـ كما يقال لطير الماء : ابن الماء ، ويقال للرجل الذى أتت عليه السنون : ابن الأيام ، وللشجعان : بنو الحرب ، وللناس : بنو الزمان.

« وَالسَّآئِلِينَ » وهم الذين يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات . كما روى الإمام أحمد عن حسين بن علىّ عليهما السلام قال : قال رسول الله ﷺ(١) : للسائل حقٌّ وإنْ جاء على فرس . ورواه أبو داود . « وَفِى الرِّقَابِ » معطوف على المفعول الأول ـ وهو ذوى ـ أى : وآتى المال فى الرقاب ، أى : دفعه فى فكّها ، أى : لأجله وبسببه .

قال الراغب : الرقاب جمع رقبة . وأصل الرقبة : العنق . ويعبّر بها عن الجملة ، كما يعبّر عنها بالرأس .

وقال الحرالىّ : الرقاب جمع رقبة وهو ما ناله الرقّ من بنى آدم . فالمراد : الرقاب المسترقّة التى يرام فكّها بالكتابة ـ وفكّ الأسرى منه ـ وقدّم عليهم أولئك لأنّ حاجتهم لإقامة البنية .

قيل : نكتة إيراد (فى) هو أنَّ ما يعطى لهم : مصروف فى تخليص رقابهم ، فلا يملكونه كالمصارف الأخر . والله أعلم .

لطيفة :

قال الراغب : إن قيل : كيف اعتبر الترتيب المذكور فى قوله تعالى « وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ... » الآية ؟ قيل : لما كان أولى من يتفقدّه الإنسان بمعروفه أقاربه ، كان تقديمها أولى. ثمّ عقبه باليتامى لأن مواساتهم بعد الأقارب أولى . ثمّ ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً . ثمّ ذكر ابن السبيل الذى قد يكون له مال غائب . ثم ذكر السائلين

(١) أخرجه أبو داود فى: ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٣ ـ باب حق السائل ، حديث ١٦٦٥.

الذين منهم صادق وكاذب . ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم . فكلّ واحد ممن أخّر ذكره أقل فقراً ممن قدّم ذكره ..!

«وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» أي: أتمّ أفعالها في أوقاتها ـ بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها ـ على الوجه الشرعيّ المرضيّ. « وَءَاتَى الزَّكَاةَ » أي: زكاة المال المفروضة ؛ على أن المراد بما مرّ من إيتاء المال ، التنفّل بالصدقات والبرّ والصلة . قدّم على الفريضة مبالغةً في الحث عليه ، أو المراد بهما المفروضة ، والأول لبيان المصارف ، والثاني لبيان وجوب الأداء . وقد أبعد من حمل الزكاة ـ هنا ـ على زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة ، كقوله « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » وقوله « هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ » ، ووجه البعد : أن الزكاة المقرونة بالصلاة في التنزيل لا يُراد بها إلا زكاة المال ، وأما مع الانفراد فعلى حسب المقام « وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » عطف على من آمن ، فإنه في قوة أن يقال : ومن أوفوا بعهدهم . وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء .

قال الرازيّ : اعلم أن هذا العهد إمّا أن يكون بين العبد وبين الله ، أو بينه وبين رسول الله أو بينه وبين سائر الناس . فالأول : ما يلزمه بالنذور والأيمان . والثاني : فهو ما عاهد الرسول عليه عند البيعة : من القيام بالنصرة ، والمظاهرة ، والمجاهدة ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه . والثالث : قد يكون من الواجبات : مثل ما يلزمه في عقود المعاوضات من التسليم والتسلم . وكذا الشرائط التي يلتزمها في السلم والرهن . وقد يكون من المندوبات: مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال والإخلاص في المناصرة . فالآية تتناول كلّ هذه الأقسام .

قال ابن كثير: وعكس هذه الصفة النفاق . كما صحّ في الحديث(١) : آية المنافق ثلاث :

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ونصه :

عن أبي هريرة : عن النبيّ ﷺ قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » . =

إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان . وفى رواية : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر . « وَالصَّابِرِينَ » نصب على الاختصاص . غيّر سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيّته . وهو فى الحقيقة معطوف على ما قبله . قال أبو علىّ : إذا ذكرت صفات للمدح أو للذم فخولف فى بعضها الإعراب ، فقد خولف للافْتِنَانِ . ويسمى ذلك قطعاً . لأن تغيير المألوف يدلّ على زيادة ترغيبٍ فى استماع المذكور ، ومزيدِ اهتمامٍ بشأنه ! وقد قرئ « والصابرون » كما قرئ «والموفين» .

قال الراغب : لما كان الصبر : من وجهٍ مبدأً للفضائل ، ومن وجهٍ جامعاً للفضائل ، إذ لا فضيلة إلّا وللصبر فيها أثر بليغ ، غيّر إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد ..!

« فِى الْبَأْسَاءِ » أى : الشدّة ، أى عند حلولها بهم « وَالضَّرَّاءِ » بمعنى البأساء وهى الشدة أيضاً ، كما فسرهما بها فى القاموس . وقال ابن الأثير : الضرّاء : الحالة التى تضرّ وهى نقيض السرّاء ، وهما بناءان للمؤنث ولا مذكّر لهما « وَحِينَ الْبَأْسِ » أى : وقت مجاهدة العدوّ فى مواطن الحرب ، وزيادة (الحين) للإشمار بوقوعه أحياناً ، وسرعة انقضائه . ومعنى (البأس) فى اللغة : الشدّة ، يقال : لا بأس عليك فى هذا ، أى : لا شدّة . وعذاب بئيس : شديد . وسميت الحرب بأساً لما فيها من الشدّة . والعذابُ يسمى بأساً لشدته . قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[1] . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا[2] . فَمَنْ يَنْصُرُنَا

= وعن عبد الله بن عمرو أن النبىّ ﷺ قال « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

(١) [٤٠ / غافر / ٨٤] ونصها : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ .

مِنْ بَأْسِ اللهِ[١] . وقال ابن سيده : البأس الحرب ، ثمّ كثر حتى قيل : لا بأس عليك ، أى : لا خوف .

وقال الراغب : استوعبت هذه الجملة أنواع الضرّ . لإنّه إمّا أن يحتاج إلى الصبر فى شئ يعوز الإنسان ، أو يريده فلا يناله، وهو البأساء . أو فيما نال جسمه من ألم، وهو الضرّاء . أو فى مدافعة مؤذيه، وهو البأس .

« أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا » فى إيمانهم ، لأنهم حققوا الإيمان القلبىّ بالأقوال والأفعال ، فلم تغيرهم الأحوال ، ولم تزلزلهم الأهوال . وفيه إشعار بأنّ من لم يفعل أفعالهم لم يصدق فى دعواه الإيمان ..! « وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » عن الكفر وسائر الرذائل . وتكرير الإشارة لزيادة تنويهٍ بشأنهم . وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم .

قال الواحدىّ : هذه الواوات فى الأوصاف فى هذه الآية للجمع . فمنْ شرائط البرّ ، وتمام شرط البارّ ، أن تجتمع فيه هذه الأوصاف . ومن قام به واحدٌ منها لم يستحق الوصف بالبر .

---

(١) [٤٠ / غافر / ٢٩] ونصها : يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَىٰ ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ، فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى » هذا شروع فى بيان الحدود والحقوق التى لآدمىّ معيّن، وهى النفوس . و « كتب » بمعنى فرض وأوجب .

قال الراغب : الكتابة يعبر بها عن الإيجاب . وأصل ذلك أنّ الشىء يراد ثم يقال ثم يكتب . فيعبر عن المراد الذى هو المبدأ ، بالكتابة التى هى المنتهى .

« الْحُرُّ » يقتل « بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ » من القاتلين « مِنْ أَخِيهِ » أى دم أخيه المقتول « شَىْءٌ » بأن ترك وليّه القوَد منه ، ونزل عن طلب الدم إلى الديَة . وفى ذكر الأخوة : تعطّف داعٍ إلى العفو ، وإيذانٌ بأنّ القتل لا يقطع أخوة الإيمان « فَاتِّبَاعٌ » أى : فعلى العافى اتباع للقاتل « بِالْمَعْرُوفِ » بأن يطالبه بالديَة بلا عنف « وَ » على القاتل « أَدَاءٌ » للدّية « إِلَيْهِ » أى : العافى وهو الوارث « بِإِحْسَانٍ » بلا مطل ولا بخس « ذَٰلِكَ » أى : ما ذكر من الحكم وهو جواز القصاص والعفو عنه على الدية « تَخْفِيفٌ » تسهيل « مِنْ رَبِّكُمْ » عليكم « وَرَحْمَةٌ » بكم حيث وسّع فى ذلك ولم يحتّم واحداً منهما « فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ » بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية « فَلَهُ » باعتدائه « عَذَابٌ أَلِيمٌ » أمّا فى الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حقّ ، وأمّا فى الآخرة فبالنار .

تنبيهات

الأول : قال الراغب : إن قيل : على من يتوجه هذا الوجوب فى قوله تعالى: كتب عليكم ؟ أجيب : على الناس كافة . فمنهم من يلزمه استقادته ـ وهو الإمام ـ إذا طلبه الولىّ . ومنهم من يلزمه تسليم النفس وهو القاتل . ومنهم من يلزمه المعاونة والرضا به . ومنهم من يلزمه أن لا يتعدى بل يقتص أو يأخذ الدية . والقصد بالآية : منع التعدّى الجاهلىّ .

الثانى : القصاص مصدر قاصّه، المزيد . وأصل القصّ : قطع الشىء على سبيل الاجتذاذ ، ومنه : قصّ شعره ؛ وقصّ الحديث : اقتطع كلاماً حادثاً جدًّا وغيره ، والقصة اسم منه . وحقيقة القصاص : أن يفعل بالقاتل والجارح مثل ما فعلا . أفاده الراغب .

الثالث : ذكر تقىّ الدين ابن تيمية فى (السياسة الشرعية) جملة من أحكام القتل نأثرها عنه هنا . قال رحمه الله :

« القتل ثلاثة أنواع :

أحدها العمد المحض : وهو أن يقصد من يعلمه معصوماً بما يقتل غالباً . سواء كان يقتل بحدّه ، كالسيف ونحوه . أو بثقله ، كالسندان وكودس القصار . أو بغير ذلك : كالتحريق ، والتغريق ، وإلقاء من مكان شاهق ، والخنق ، وإمساك الخصيتين حتى يخرج الروح ، وغم الوجه حتى يموت ، وسقى السموم ... ونحو ذلك من الأفعال . فهذا إذا فعله وجب فيه القوَد . وهو أن يمكن أولياء المقتول من القاتل . فإن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا عَفَوْا ، وإن أحبوا أخذوا الدية ؛ وليس لهم أن يقتلوا غير قاتله . قال الله تعالى : . . . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا[1] . وقيل فى التفسير: لا يقتل

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٣] وأول الآية : وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .

غير قاتله . وعن أبى شريح الخزاعىّ قال : قال رسول الله ﷺ(١) : من أصيب بدم أو خَبْل ـ والخبل الجرح ـ فهو بالخيار بين إحدى ثلاث . فإنْ أراد الرابعة ، فخذوا على يديه : أن يقتل ، أو يعفو ، أو يأخذ الدية . فمن فعل شيئاً من ذلك فعاد، فإنله نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً . فمن قتل بعد العفو وأخذ الدية فهو أعظم جرماً ممّن قتل ابتداءً . حتى قال بعض العلماء : إنه يجب قتله حدًّا ولا يكون أمره إلى أولياء المقتول . فإنّ الله تعالى كتب عليكم القصاص فى القتلىٰ : الحرّ بالحرّ ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء : فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم . ولكم فى القصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتّقون . قال العلماء : إن أولياء المقتول تغلى قلوبهم بالغيظ ، حتى يؤثروا أن يقتلوا القاتل وأولياءه . وربما لم يرضوا بقتل القاتل ، بل يقتلون كثيراً من أصحاب القاتل . ـ كسيِّد القبيلة ومقدّم الطائفة ـ . فيكون القاتل قد اعتدى فى الابتداء ، ويعتدى هؤلاء فى الاستيفاء . كما كان يفعله أهل الجاهلية ، وكما يفعله أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة فى هذه الأوقات من الأعراب والحاضرة وغيرهم. وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيماً ، أشرف من المقتول . فيفضى ذلك إلى أنّ أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل . وربما حالف هؤلاء قوماً واستعانوا بهم . وهؤلاء ، قوماً . فيفضى إلى الفتن والعدواة العظيمة . وسبب ذلك : خروجهم عن سنن العدل الذى هو القصاص فى القتلى . فكتب الله علينا (القصاص) وهو المساواة والمعادلة فى القتل . وأخبر أنّ فيه (حياة) فإنه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين . وأيضاً إذا علم من يريد القتل : أنه يقتل ، كفّ عن القتل ..!

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ٣ ـ باب من قتل له قتيل فهو بالخيار بين إحدى ثلاث ، حديث ٢٦٢٣ (طبعتنا) .

وقد روى عن علىّ بن أبى طالب[١] وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله ﷺ أنه قال : المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويسعى بذمّتهم أدناهم . ألا لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهدٍ فى عهده ..! رواه أحمد وأبوداود وغيرهما من أهل السنن. فقضى رسول الله ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ـ أى تتساوى أو تتعادل ـ فلا يفضل عربىّ على عجمىّ ولا قرشىّ أو هاشمىّ على غيره من المسلمين . ولا حرّ أصلىّ على مولى عتيق. ولا عالم أو أمير على أمىّ أو مأمور . وهذا متفق عليه بين المسلمين . بخلاف ما عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود . فإنه كان يقرب مدينة النبىّ ﷺ صنفان من اليهود : قريظة والنضير. وكانت النضير تفضل على قريظة فى الدماء . فتحاكموا إلى النبىّ ﷺ فى ذلك وفى حدّ الزانى. فإنهم كانوا قد غيّروه من الرجْمِ إلى التحميم[٢] ، وقالوا : إنْ حكم بينكم بذلك كان لكم

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ١١ ـ باب أيقاد المسلم بالكافر ؟ ، حديث ٤٥٣٠ ونصه :

عن قيس بن عباد قال : انطلقت أنا والأشتر إلى علىّ عليه السلام . فقلنا : هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا . إلا ما فى كتابى هذا . قال فأخرج كتاباً من جراب سيفه ، فإذا فيه « المؤمنون تَكَافَؤُ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . ألا ، لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده . من أحدث حدثاً فعلى نفسه . ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢٨ (طبعتنا) ونصه :

عن البراء بن عازب قال: مُرَّ على النبىّ ﷺ بيهودىّ محمَّما مجلودًا. فدعاهم فقال « هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » قالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال « أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ! أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » قال : لا . ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك . نجده الرجم . ولكنه كثر فى أشرافنا . قلنا: إذا أخذنا =

حجّة ، وإلّا فأنتم قد تركتم حكم التوراة . فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ . . . ـ إلى قوله ـ . . . . وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . . .(١) ـ إلى قوله ـ . . . . فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ(٢) ...

فبيّن سبحانه أنّه سوى بين نفوسهم ، ولم يفضل منهم نفساً على أخرى ، كما كانوا يَفعلونه إلى قوله : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ

= الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . قلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع . فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم .

فقال رسول الله ﷺ « اللهم ! إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » فأمر به فرجم . فأنزل الله عز وجل : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ . إلى قوله : إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ [٥ / المائدة / ٤١] .

يقول : ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا.

فأنزل الله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [٥/ المائدة / ٤٤] وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٥ / المائدة / ٤٥] وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٥/ المائدة/ ٤٧] في الكفار كلها.

(١) [٥ / المائدة / ٤١و٤٢] .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٤و٤٥] .

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . . . ـ إلى قوله ـ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[(١)] .

فحكم الله سبحانه وتعالى فى دماء المسلمين أنها كلها سواء. خلاف ما عليه أهل الجاهلية . وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس ـ فى البوادى والحواضر ـ إنما هى البغىُ وتركُ العدل . فإن إحدى الطائفتين قد يصيب بعضها دماً من الأخرى . أو مالاً . أو يعلو عليها بالباطل ، فلا ينصفها . ولا تقتصر الأخرى على استيفاء الحق ! فالواجب فى كتاب الله الحكم بين الناس فى الدماء ، والأموال ، وغيرها ... بالقسط الذى أمر الله به ، ومحو ما كان عليه كثير من الناس من حكم الجاهلية ..! وإذا أصلح مصلح بينهم فليصلح بالعدل ، كما قال تعالى : وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ ، فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[(٢)] . وينبغى أن يطلب العفو من أولياء المقتول ، فإنه أفضل لهم كما قال تعالى : وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ[(٣)] .

قال أنس[(٤)] : ما رأيت نبىّ الله ﷺ رفع إليه شىء فيه قصاص إلّا أمر فيه بالعفو ..! رواه أبو داود وغيره . وروى مسلم فى صحيحه[(٥)] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٨ ـ ٥٠] .

(٢) [٤٩ / الحجرات / ٩و١٠] .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٥] .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ٣ ـ باب الإمام يأمر بالعفو فى الدم ، حديث ٤٤٩٧ .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٩ (طبعتنا) .

مانقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلّا رفعه الله . وهـذا الذى ذكرناه من التكافؤ ، هو فى المسلم الحرّ مع المسلم الحرّ ، فأما الذّمىّ ، فجمهور العلماء على أنه ليس بكُفْءٍ للمسلم . كما أنّ المستأمن الذى يقدم من بلاد الكفار ـ رسولًا أوتاجراً أو نحو ذلك ـ ليس بكُفْءٍ له، وفاقاً . ومنهم من يقول : بل هو كفء له . وكذلك النزاع فى قتل الحرّ بالعبد .

النوع الثانى : الخطأ الذى يشبه العمد : قال النبىّ ﷺ(1) : ألا إنّ قتيل العمد الخطأ بالسوط والعصا شبه العمد فيه مائة من الإبل مغلّظة منها أربعون خَلِفَةً فى بطونها أولادُها. سمّاه شبه العمد لأنه قصد العدوان عليه بالجناية ، لكنّه بفعلٍ لا يقتل غالباً ، فقد تعمّد العدوان ولم يتعمد ما يقتل .

الثالث : الخطأ المحض وما يجرى مجراه : مثل أن يكون يرمى صيداً أو هدفاً فيصيب إنساناً بغير علمه ولا قصده ، فهذا ليس فيه قود ، وإنما فيه الدية والكفارة . وهنا مسائل كثيرة معروفة فى كتب أهل العلم وبينهم .

التنبيه الرابع : قال الراغب : إن قيل : لم قال فمن عفى له من أخيه شىء ولم يقل : فمن عفا له أخوه شيئاً ..؟ قيل : العدول إلى ذلك للطيفةٍ . وهى أنه لافرق بين أن يكون صاحب الدم قد عفا أو جماعة، فعفا أحدهم . إذ القصاص يبطل ويعدل حينئذٍ إلى الدية ، فقال : فمن عفى له من أخيه شىء ليدل على هذا المعنى ، و(الهاء) فى قوله:أخيه يجوزأن تكون للمقتول ولوليّه . وجعله أخاً لولىّ الدم لا للنسب ولا لموالاة دينية ، ولكنْ للإحسان الذى أسداه فى الرضا منه بالدية اه .

(1) أخرجه النسائىّ فى : ٤٥ ـ كتاب القسامة ، حديث ٣٣ و ٣٤ ـ باب كم دية شبه العمْد .

الخامس :هذه الآية مفسرة لما أبهم فى آية المائدة وهى قوله تعالى : النفس بالنفس (١) . كما أنها مقيدة وتلك مطلقة ، والمطلق يحمل على المقيّد ، وكذا ما ورد فى السنة وصحّ عن النبىّ ﷺ فى هذا الباب فإنه يبيّن ما يراد فى هذه الآية وآية المائدة . وقد رويت أحاديث من طُرُقٍ متعددة بأنه : لايقتل حرٌّ بعبد . كالأحاديث والآثار القاضية بأنه يقتل الذكر بالأُنثى . فالتعويل على ذلك . وبالجملة : فقوله تعالى : الْحُرُّ بِالْحُرِّ ... الخ . لا يفيد الحصر البتة ، بل يفيد شرع القصاص بين المذكورين من غير أن يكون فيه دلالة على سائر الأقسام . هذا ما اعتمدوه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقوله تعالى :

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » كلام فى غاية الفصاحة والبلاغة لما فيه من الغرابة ، حيث جعل الشيء محل ضدّه ، فإن القصاص قتل وتفويت للحياة . وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة ، وعرّف القصاص ونكر الحياة ، ليدل على أن فى هذا الجنس من الحكم ـ الذى هو القصاص ـ حياة عظيمة . وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة . وكم قتل مهلهل (٢) بأخيه حتى كاد يفنى بكر بن وائل ! وكان يقتل بالمقتول غير قاتله ، فتثور الفتنة ، ويقع بينهم التناحر ..! فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة ..! أو نوع من الحياة ، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا همّ بالقتل ، فعَلِم أنه يقتص منه فارتدع ، سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود . فكان

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٥] .

(٢) انظر تاريخ ابن الأثير . الجزء الأول صفحة ٢١٤ (طبعة بولاق) ذكر مقتل كليب ، والأيام بين بكر وتغلب .

القصاص سبب حياة نفسين ..! هذا ما يستفاد من (الكشاف) .

لطيفة :

اتفق علماء البيان على أنّ هذه الآية ـ فى الإيجاز مع جمع المعانى ـ بالغة إلى أعلى الدرجات..! وذلك لأنّ العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة ، كقولهم : قَتْل البعض إحياء للجميع ، وقول آخرين : أكثروا القتل ليقلّ القتل . وأجود الألفاظ المنقولة عنهم فى هذا الباب قولهم(١) القتل أنفى للقتل ؛ وقد كانوا مطبقين على استجادة معنى كلمتهم واسترشاق لفظها..! ومن المعلوم لكلّ ذى لبٍّ أنّ بينها وبين ما فى القرآن كما بين الله وخلقه ! وأنّى لها الوصول إلى رشاقة القرآن وعذوبته ..!

قال فى (الإتقان) وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب فى هذا المعنى وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) بعشرين وجهاً أو أكثر . وقد أشار ابن الأثير إلى إنكار هذا التفضيل وقال : لاتشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق ..! وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك ..!

الأول : أنّ ما يناظره من كلامهم وهو «القصاص حياة» أقلّ حروفاً ، فإنّ حروفه عشرة وحروف (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر ..!

الثانى : أنّ نفى القتل لايستلزم الحياة ، والحياة ناصّة على ثبوتها التى هى الغرض المطلوب منه !

الثالث : أنّ تنكير «حياة» يفيد تعظيما ، فيدلّ على أن فى القصاص حياة متطاولة ، كقوله تعالى : وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ(٢) . ولا كذلك المثل ، فإنّ اللام فيه للجنس ، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء !

---

(١) انظر (وحى القلم) للأستاذ مصطفى صادق الرافعىّ . الجزء الثالث صفحة ٤٦٣ ففيه شفاء الغليل، وتحقيق عدم جاهلية هذه الكلمة .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٦] .

الرابع : أنّ الآية فيه مطّردة ، بخلاف المثل ، فإنه ليس كلّ قتلٍ أنفى للقتل ، بل قد يكون أدعى له، وهو القتل ظلماً .! وإنما ينفيه قتل خاصّ، وهو القصاص، ففيه حياة أبداً..!

الخامس : أنّ الآية خالية من تكرار لفظ القتل الواقع فى المثل . والخالى من التكرار أفضل من المشتمل عليه وإن لم يكن مخلاً بالفصاحة ..!

السادس : أنّ الآية مستغنية عن تقدير محذوف. بخلاف قولهم . فإنّ فيه حذف(من) التى بعد أفْعَل التفضيل وما بعدها ، وحذف (قصاصاً) مع القتل الأول ، (وظلماً)مع القتل الثانى ، والتقدير : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه .

السابع : أنّ فى الآية طباقاً ، لأنّ القصاص يشعر بضدّ الحياة بخلاف المثل ..!

الثامن : أن الآية اشتملت على فنٍّ بديع ، وهو جعل أحد الضدّين ـ الذى هو الفناء والموت ـ محلًّا ومكاناً لضدّه ـ الذى هو الحياة . واستقرار الحياة فى الموت مبالغة عظيمة ..! ذكره فى (الكشاف) ، وعبّر عنه صاحب (الإيضاح) بأنه جعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال « فى » عليه .

التاسع : أنّ فى المثل توالىَ أسباب كثيرة خفيفة ـ وهو السكون بعد الحركة ـ وذلك مستكره . فإن اللفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تمكّن اللسان من النطق به وظهرت بذلك فصاحته ! بخلاف ما إذا تعقَّبَ كلَّ حركة سكونٌ ، فالحركات تنقطع بالسكنات . نظيره : إذا تحركت الدابة أدنى حركة ، فحبست، ثمّ تحرّكت فحبست ، لاتطيق إطلاقها، ولا تتمكّن من حركتها على ما تختاره ، فهى كالمقيدة !

العاشر : أنّ المثل كالتناقض من حيث الظاهر . لأن الشىء لاينفى نفسه !

الحادى عشر : سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدّة ، وبُعدها عن غنة النون .

الثاني عشر : اشتمالها على حروف متلائمة ، لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد . ـ إذ القاف من حروف الاستعلاء ، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق . بخلاف الخروج من القاف إلى التاء ـ التي هي حرف منخفض ـ فهو غير ملائم للقاف . وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة ، لبُعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق .

الثالث عشر : في النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت ، ولا كذلك تكرير القاف والتاء .

الرابع عشر : سلامتها من لفظ (القتل) المشعر بالوحشة ، بخلاف لفظ (الحياة) فإنّ الطباع أقبل له من لفظ (القتل) .

الخامس عشر : أنّ لفظ القصاص مشعر بالمساواة ، فهو منبئ عن العدل ، بخلاف مطلق القتل .

السادس عشر : الآية مبنية على الإثبات ، والمثل على النفي ، والإثبات أشرف لأنه أول ، والنفي ثانٍ عنه .

السابع عشر : أنّ المثل لا يكاد يفهم إلّا بعد فهم أنّ القصاص هو الحياة . وقوله « فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » مفهوم من أول وهلة ..!

الثامن عشر : أنّ في المثل بناء (أفعل التفضيل) من فعل متعدٍّ ، والآية سالمة منه ..!

التاسع عشر : أنّ (أفعل) في الغالب يقتضي الاشتراك ، فيكون ترك القصاص نافياً للقتل ، ولكنّ القصاص أكثر نفياً ..! وليس الأمر كذلك ، والآية سالمة من ذلك .

العشرون : أنّ الآية رادعة عن القتل والجرح معاً ، لشمول القصاص لهما . والحياةُ أيضاً في قصاص الأعضاء . لأنّ قطع العضو ينقص أو ينغّص مصلحة الحياة ، وقد يسرى إلى النفس فيزيلها ، ولا كذلك المثل ..!

فى أول الآية « ولـكم » وفيها لطيفة : وهى بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص ، وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم ، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم ..![1] انتهى .

وقوله تعـالى « يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » المراد به : العقلاء الذين يعرفون العواقب ويعلمون جهات الخوف . فإذا أرادوا الإقدام على قتل أعدائهم ، وعلموا أنهم يطالبون بالقود ، صار ذلك رادعاً لهم . لأنّ العاقل لا يريد إتلاف غيره بإتلاف نفسه . فإذا خاف ذلك كان خوفه سبباً للـكفّ والامتناع ..! إلّا أنّ هذا الخوف إنما يتولّد من الفكر الذى ذكرناه ، ممّن له عقل يهديه إلى هذا الفكر. فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر ، لايحصل له هذا الخوف..! فلهذا السبب خصّ الله سبحانه بهذا الخطاب أولى الألباب ، ثمّ علّل ذلك بقوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى : اللهَ تعالى بالانقياد لما شرع ، فتتحامون القتل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ » أى: فرض، كما استفاض فى الشرع «إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» أى أمارته وهو المرض المخوف «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» أى مالًا ينبغى أن يوصى فيه ، وقد أُطلق فى القرآن «الخير» وأُريد به المال فى آيات كثيرة: منها هذه، ومنها قوله: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ[2] ،

---

(١) الإتقان ، الجزء الثانى صفحة ٥٥ (المطبعة الأزهرية عام ١٣١٨ هـ) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . =

ومنها : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(١) ، ومنها: رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(٢) إلى غيرها . وإنما سمّى المال خيراً تنبيهاً على معنى لطيف : وهو أنّ المال الذى يحسن الوصية به ما كان مجموعاً من وجهٍ محمودٍ ..! كما أنّ فى التسمية إشارة إلى كثرته ، كما قال بعضهم : لايقال للمال خيرٌ حتى يكون كثيراً ومن مكانٍ طيّب ..! وقد روى ابن أبى حاتم عن هشام ابن عروة عن أبيه : أنّ عليّاً رضى الله عنه دخل على رجل من قومه يعوده ، فقال له : أُوصى؟ فقال له علىّ : إنما قال الله : إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ . إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك .! وروى الحاكم عن ابن عباس : من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً ! وقال طاوس : لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً . وقال قتادة : كان يقال : ألفاً فما فوقها .

ومنه يعلم أن لا تحديد للكثرة المفهومة ، وأنّ مردّها للعرف لاختلاف أحوال الزمان والمكان .

ثم ذكر نائب فاعل(كُتب) بعد أن اشتدّ التشوّف إليه ، فقال « الْوَصِيَّةُ » وتذكير الفعل الرافع لها : إمّا لأنه أريد بالوصية الإيصاء ، ولذلك ذكّر الضمير فى قوله « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » وإمّا للفصل بين الفعل ونائبه ، لأنّ الكلام لماطال ، كان الفاصل بين المؤنث والفعل كالعوض من تاء التأنيث . وقوله « لِلْوَالِدَيْنِ » بدأ بهما لشرفهما وعظم حقّهما « وَالْأَقْرَبِينَ » مَن عداهما من جميع القرابات« بِالْمَعْرُوفِ » وهو ما تتقبله الأنفس ولاتجد منه تكرّهاً .

= و [٢ / البقرة / ٢٧٣] ونصها: لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ .

(١) [١٠٠ / العاديات / ٨] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٢٤] ونصها : فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

وفى الصحيحين[١] : أنّ سعداً قال : يا رسول الله ، إنّ لى مالًا ولا يرثنى إلّا ابنة لى. أفأوصى بثلثى مالى ؟ قال : لا ..! قال : فبالشطر ؟ قال : لا ..! قال : فالثلث ؟ قال الثلث ، والثلث كثيرٌ ، إنّك أنْ تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس !

وفى صحيح البخارىّ[٢] أنّ ابن عباس قال : لوأنّ الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإنّ رسول الله ﷺ قال : الثلث والثلث كثير ..!

وروى الإمام أحمد[٣] عن أبى سعيد مولى بنىهاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة : سمعت

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٦ ـ باب رثى النبىّ ﷺ سعد بن خولة . ونصه :

عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه رضىالله عنه قال: كان رسولالله ﷺ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى . فقلت : إنى قد بلغ بى منالوجع وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة . أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال « لا » فقلت : بالشطر ؟ فقال « لا » ثم قال « الثلث ، والثلث كبير (أو كثير) إنك أن تذرَ ورثتك أغنياء خير من أن تدعهمعالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بهـا وجه الله إلا أُجرتَ بها ، حتى ما تجعل فى فى امرأتك » فقلت : يا رسولالله ! أُخلَّف بعد أصحابى؟ قال « إنك لن تخلف فتعمل عملا صالحا إلاازددت به درجة ورفعة . ثم لعلك أن تخلَّف حتى ينتفع بك أقوام ويُضرَّ بك آخرون . اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم » .

لـكن البائس سعد بن خولة يرثى له رسول الله ﷺ ، أن مات بمكة .

وأخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٣ ـ باب الوصية بالثلث .

ومسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمدبنحنبل فىمسنده بالجزء الخامس صفحة ٦٧ (طبعة الحلبىّ)=

حنظلة بن جذيم بن حنيفة أنّ جدّه حنيفة أوصى ليتيمٍ فى حجره بمائة من الإبل ، فشقّ ذلك على بنيه ، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ ، فقال حنيفة : إنّى أوصيت ليتيم لى بمائة من

= وها كم الحديث بطوله، بنصه:

عن ذيال بن عتبة بن حنظلة قال : سمعت حنظلة بن جذيم ، جدى ، أن جده حنيفة قال لجذيم : اجمع لى بَنِىّ فإنى أريد أن أوصى . فجمعهم فقال : إن أول ما أُوصى أن ليتيمى هذا الذى فى حجرى مائة من الإبل ، التى كنا نسميها فى الجاهلية المطيبة . فقال جذيم : ياأبت! إنى سمعت بنيك يقولون : إنما نقرّ بهذا عند أبينا . فإذا مات رجعنا فيه . قال : فبينى وبينكم رسول الله ﷺ . فقال جذيم : رضينا . فارتفع جذيم وحنيفة ، وحنظلة معهم غلام وهو رديف لجذيم. فلما أتوا النبىّ ﷺ سلموا عليه . فقال النبىّ ﷺ « وما رفعك؟ ياأبا جذيم! » قال : هذا . وضرب بيده على فخذ جذيم . فقال : إنى خشيت أن يفجأنى الكبر أو الموت ، فأردت أن أوصى . وإنى قلت : إن أول ما أوصى أن ليتيمى هذا ، الذى فى حجرى ، مائة من الإبل ، كنا نسميها فى الجاهلية المطيبة . فغضب رسول الله ﷺ حتى رأينا الغضب فى وجهه . وكان قاعداً فجثا على ركبتيه . وقال « لا . لا . لا . الصدقة خمس ، وإلا فعشر ، وإلا فخمس عشرة ، وإلا فعشرون ، وإلا فخمس وعشرون ، وإلا فثلاثون ، وإلا فخمس وثلاثون . فإن كثرت فأربعون » .

قال فودعوه ، ومع اليتيم عصا وهو يضرب جملا . فقال النبىّ ﷺ « عظمت هـذه هراوة يتيم » .

قال حنظلة : فدنا بى إلى النبىّ ﷺ فقال : إن لى بنين ذوى لحى ودون ذلك ، وإن ذا أصغرهم فادع الله له . فمسح رأسه وقال « بارك الله فيك ، أو بورك فيه » .

قال ذيال : فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم وجهه ، أو البهيمة الوارمة الضرع فيتفل على يديه ويقول : بسم الله . ويضع يده على رأسه ويقول : على موضع كف رسول الله ﷺ ، فيمسحه عليه . وقال ذيال : فيذهب الورم .

الإبل كنا نسميها المطبية ، فقال النبيّ ﷺ : لا لا لا ..! الصدقة خمس ، وإلّا فعشر ، وإلّا فخمس عشرة ، وإلّا فعشرون ، وإلّا فخمس وعشرون ، وإلّا فثلاثون ، وإلّا فخمس وثلاثون ، فإن كثرتْ فأربعون ! وذكر الحديث بطوله .

ثمّ أكد تعالى الوجوب بقوله « حَقًّا » ـ وكذا قوله ـ « عَلَى الْمُتَّقِينَ » فهو إلهابٌ وتهييجٌ وتذكير بما أمامه من القدوم على من يسأله عن النقير والقطمير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

« فَمَنْ بَدَّلَهُ » أى : فمن غيّر الإيصاء عن وجهه ، إن كان موافقاً للشرع ، من الأوصياء والشهود « بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » أى : بعد ما وصل إليه وتحقّق لديه « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ » ـ أى التبديل ـ « عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ » لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ، فلا يلحق الموصى منه شىء وقد وقع أجره على الله « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وعيد شديد للمبدّلين .

هذا ، وما ذكرناه من أنّ المنهىّ عن التبديل إمّا الأوصياء أو الشهود هو المشهور . وهناك وجه آخر ـ أراه أقرب ـ وهو أن يكون المنهىّ عن التغيير هو الموصى . نُهى عن تغيير الوصية عن المواضع التى بيّن تعالى الوصية إليها . وذلك لأنهم كانوا فى الجاهلية يوصون للأبعدين الأجانب ، طلباً للفخر والشرف . ويتركون الأقارب فى الفقر والمسكنة والضرّ ، فأوجب الله تعالى الوصية لهؤلاء منعاً للقوم عمّا اعتادوه ـ كذا قاله الأصم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« فَمَنْ خَافَ » أى توقّع وعلم ، وهذا فى كلامهم شائع ، يقولون : أخاف أن ترسل السماء ، يريدون التوقّع والظنّ الغالب، الجارى مجرى العلم « مِنْ مُوصٍ جَنَفاً » ميلاً عن الحقّ ، بالخطأ فى الوصية ، والتصرّف فيما ليس له « أَوْ إِثْماً » أى : ميلا فيها عمداً « فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ » أى : بينه وبين الموصَى لهم ـ وهم الوالدان والأقربون ـ بإجرائهم على طريق الشرع.

قال ابن جرير : بأن يأمره بالعدل فى وصيته ، وأن ينهاهم عن منعه فيما أذن له فيه وأبيح له . « فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ » أى : بهذا التبديل ، لأن تبديله تبديلُ باطل إلى حقّ ! ـ « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » قال ابن جرير : أى غفورٌ للموصِى ـ فيما كان حدّث به نفسه من الجنف والإثم إذا ترك أن يأثم ويجنف فى وصيته ـ فتجاوز له عما كان حدّث به نفسه من الجور إذْ لم يمض ذلك ، «رحيمٌ» بالمصلح بين الوصىّ وبين من أراد أن يحيف عليه لغيره أو يأثم فيه له..!

تنبيـــــه

(ما أفادته الآية من فرضية الوصية للوالدين والأقربين)

ذكر بعضهم : أنه كان واجباً قبل نزول آية المواريث . فلمّا نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدّرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمّل منّة الموصِى. ولهذا جاء فى الحديث [١] ـ الذى فى السنن وغيرها ـ عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : إنّ الله قد أعطى كلّ ذى حقٍّ حقّه ، فلا وصيّة لوارث ..!

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٨ ـ كتاب الوصايا ، ٥ ـ باب ما جاء لا وصية لوارث .

ونصّ الإمام الشافعىّ[١] على أنّ هذا المتن متواتر، فقال: وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنهم من أهل العلم بالمغازى من قريش وغيرهم لا يختلفون فى أنّ النبىّ ﷺ قال عام الفتح : لا وصيّةَ لوارث . ويأثرونه عمّن حفظوه عنه ممّن لقوه من أهل العلم ، فكانَ نقلَ كافة عن كافة . فهو أقوى من نقل واحد .

قال الإمام مالك فى «الموطأ»[٢] : السنّة الثابتة عندنا التى لا اختلاف فيها أنّه : لا تجوز وصيّة لوارث إلّا أن يجيز له ذلك ورثة الميّت .

وذهبت طائفة إلى أنّ الآية محكمة لا تخالف آية المواريث . والمعنى : كتب عليكم ما أوصاكم به من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » أو كتب على المحتضر : أن يوصِي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم، وأن لا ينقص من أنصبائهم ! فلا منافاة بين ثبوت الميراث للأقرباء ، مع ثبوت الوصية بالميراث عطيّة من الله تعالى ، والوصية عطيّة ممن حضره الموت . فالوارث جُمِع له بين الوصيّة والميراث بحكم الآيتين . ولو فرض المنافاة ، لأمكن جعل آية الميراث مخصّصة لهذه الآية. بإبقاء القريب الذى لا يكون وارثاً لأجل صلة الرحم . فقد أكد تعالى الإحسان إلى الأرحام وذوى القربى فى غير ما آيةٍ ، فتكون الوصية للأقارب الذين لا يرثون عَصَبة ، أو ذوى رحم مفروضة ..! قالوا : ونسخ وجوبها للوالدين والأقربين الوارثين لا يستلزم نسخ وجوبها فى غيرهم ..!

ومما استدلّ به على وجوب الوصيّة، من السنّة : خبر الصحيحين[٣] عن ابن عمر قال :

---

(١) الرسالة ـ بتحقيق أحمد محمد شاكر ، الفقرة رقم ٣٩٨و٣٩٩ .

(٢) الموطأ فى : ٣٧ ـ كتاب الوصية ، ٥ ـ باب الوصية للوارث والحيازة (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ١ ـ باب الوصايا وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « وصية الرجل مكتوبة عنده » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

قال رسول الله ﷺ (١) : ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلّا ووصيّته مكتوبة عنده . قال ابن عمر : ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلّا وعندى وصيّتى . . ! والآيات والأحاديث ـ بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم ـ كثيرة جدًّا ..!

ظهر لى(*) فى آية « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . . . الخ » ـ وكان درسنا صباحاً من البخارىّ فى (كتاب الوصايا) ـ أنّ هذه الآية ليست منسوخة ـ كما قيل ـ بل هى محكمة بطريقةٍ لا أدرى هل أحد سبقنى بها أم لا ؟ فإنى ـ فى تفسيرى المسمّى بمحاسن التأويل ـ نقلت هناك مذاهب العلماء ، ولا يحضرنى الآن أن ما سأذكره مأثور أم لا ؟ وهو أنّ هذه الآية مع آية : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، متلاقيتان فى المعنى ، من حيث أن المراد بالوصيّة : وصية الله فى إيتاء ذوى الحقوق حقوقهم ، وعدم الغض منها ، والحذر من تبديلها ، لما يلحق المبدّل من الوعيد الشديد ..! وخلاصة المعنى على ما ظهر :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ » أى : فرض عليكم فرضاً مؤكّداً بمثابة المكتوب الذى لا يُمحى ولا يعتوره تغيير « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى: قرب نزوله به بأن قرب مفارقته الحياة « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » أى : مالًا يورث « الْوَصِيَّةُ » أى : المعهودة ، وهى وصيّة الله سبحانه وتعالى فى إيتاء كلّ ذى حقٍّ حقّه ، على ما بينته تلك الآية « لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » أى : فى إبلاغهم فرضهم المبين فى آية « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » فإنه أجمع آية « حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » تأكيد للكتابة بأنها أمر ثابت لايسوغ التسامح فيه بوجهٍ ما « فَمَنْ بَدَّلَهُ »

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ٤ (طبعتنا) .

(*) نُقِلَتْ هذه العبارة من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله وقد كتبها الجمعة ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٢٤ .

أي : هذا المكتوب الحقّ « بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » أي : فعلم الحقّ المفروض فيه « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أي: فلا يخفى عليه شيء من حال الممتثل والمبدّل، وقوله تعالى « فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا » أي : ميلًا عمّا فرضه تعالى « أَوْ إِثْمًا » أي: بقطع من يستحقّ عن حقّه، لما لا تخلو عنه كثير من الأنفس التي لم يدركها نور التهذيب « فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ » أي : بأمرٍ رضي به الكلّ « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أي : لأنّ الصلح جائز إلّا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالًا ، والله أعلم . اهـ المنقول من الدفتر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ » ـ أي : فرض ـ « عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

واعلم أنّ مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمةً لهم، وإحساناً إليهم، وحميّةً، وجُنّةً ..! فإنّ المقصود من الصيام : حبس النفس عن الشهوات، وفطمها عن المألوفات، وتعديل قوّتها الشهوانية، لتسعد بطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به ممّا فيه حياتها الأبدية ..! ويكسر الجوعُ والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ..! وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كلّ عضو منها وكلّ قوّة عن جماحها، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنّة المجاهدين، ورياضة الأبرار والمقرّبين ..! وهو لربّ العالمين من بين سائر الأعمال، فإنّ الصائم لا يفعل شيئا، إنما ترك شهوته وطعامه

وشرابه مِنْ أجل معبوده . فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته . وهو سرٌّ بين العبد وربّه ، ولا يطلع عليه سواه ..!

والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة . وأمّا كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده ، فهو أمرٌ لا يطلع عليه بشر . وذلك حقيقة الصوم ..! وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة . وحميتها عن التخليط الجالب لها الموادّ الفاسدة ، التي إذا استولت عليها أفسدتها . واستفراغ الموادّ الردية المانعة له من صحتها . فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها . ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات . فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى فى تتمة الآية : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ، وقال النبيّ ﷺ (١) : الصوم جُنة . وَأَمَرَ (٢) من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه ، بالصيام . وجعله وجاء هذه الشهوة . وكان هدى رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدى ، وأعظم

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم، ٢ ـ باب فضل الصوم ، حديث٩٦١ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصيام جُنة . فلا يرفث ولا يجهل . وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم (مرتين) والذى نفسى بيده ! لخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك . يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى . الصيام لى وأنا أجزى به . والحسنة بعشر أمثالها ».

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب من لم يستطع الباءة فليصم، حديث ٩٦٧ ونصه :

قال عبد الله (بن مسعود) كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم شباباً لا نجد شيئاً . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب ! من استطاع الباءة فليتزوج . فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

تحصيلاً للمقصود ، وأسهله على النفوس ..! ولما كان فطم النفس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها ، تأخّر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة . لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة . وألفت أوامر القرآن . فنقلت إليه بالتدريج . وكان فرضه السنة الثانية من الهجرة . فتوفى رسول الله ﷺ وقد صام تسعة رمضانات . وفرض أوّلاً على وجه التخيير بينه وبين أن يطعم عن كلّ يوم مسكيناً . ثمّ نقل من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة ـ إذا لم يطيقا الصيام ـ فإنهما يفطران ويطعمان عن كلّ يوم مسكيناً ـ كما سيأتى بيانه ـ وكان للصوم رتب ثلاث : أحدها : إيجابه بوصف التخيير . والثانية : تحتمه ، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة ، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة : وهى التى استقرّ عليها الشرع إلى يوم القيامة..! كذا أفاده ابن القيم فى زاد المعاد .

وقوله تعالى : « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » تأكيد للحكم ، وترغيب فيه ، وتطييب لأنفس المخاطبين به ؛ فإنّ الشاقّ إذا عمّ سهل عمله ! والمماثلة إنّما هى فى أصل الوجوب لا فى الوقت والمقدار ، وفيه دليل على أنّ الصوم عبادة قديمة .

وفى التوراة ، سفر عَزْرا ، الأصحاح الثانى ، ص٧٥٠ :

(٢١) « ونادَيتُ هناك بصومٍ على نهر أَهْوَا لكى نتذلل أمام إلهنا لنطلب منه طريقا مستقيمة لنا ولأطفالنا ولكل مالِنا » .

وفى سفر إِشَعْيَاء ، الأصحاح الثامن والخمسون ص ١٠٦٢ :

(٣) « يقولون لماذا صمنا ولم تنظر . ذلّلنا أنفسنا ولم تلاحظ . ها إنكم فى يوم صومكم توجدون مسرّةً وبكل أشغالكم تُسَخِّرُون . (٤) ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون ولِتَضربوا بِلَكْمَةِ الشرّ . لستم تصومون كما اليومَ لتسميع صوتكم فى العلاء . (٥) أمثل هذا يكون صومٌ أختارُهُ . يوما يذلّل الإنسان فيه نفسه يُحنى كالأَسَلَةِ رأسه ويفرُش تحته مِسْحاً ورمادا . هل تسمى هذا صوما ويوما مقبولا للرب ؟ ... الخ .

وفى سفر يوئيل ، الأصحاح الأول ، ص ١٢٩٩ :

(١٤) قدّسوا صوما .

وفى الأصحاح الثانى ، ص ١٣٠٠ :

(١٢) ولكن الآن يقول الرب: ارجعوا إلىّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح (١٣) ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطىء الغضب وكثير الرأفة .. (١٥) ... قدّسوا صوما نادوا باعتكاف (١٦) اجمعوا الشعب قدسوا الجماعة .

وفى سفر زكريا ، الأصحاح الثامن ، ص ١٣٤٧ :

(١٩) هكذا قال رب الجنود . إن صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبيت يهوذا ابتهاجا وفرحا وأعيادا طيبة . فأحبوا الحق والسلام .

وفى إنجيل متّى ، الأصحاح السادس ص ١١ :

(١٧) وأما أنت فمتى صمت فادهُنْ رأسك واغسل وجهك (١٨) لكى لا تَظهر للناس صائما بل لأبيك الذى فى الخفاء . فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية .

الأصحاح السابع عشر ص ٣٢ :

لما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام فتى وأخرج منه الشيطان قال لأصحابه (٢١) وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم .

وفى الأصحاح الرابع ص ٦ :

(٢) فبعد ما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيراً (أى المسيح عليه السلام) .

وفى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثُوسَ ، الأصحاح السادس ص ٢٩٥ :

(٤) بل فى كل شىء نُظهر أنفسنا كخُدَّام الله فى صبر كثير فى شدائد فى ضرورات فى ضِيقات (٥) فى ضَرَبات فى سجون فى اضطرابات فى أتعاب فى أسهار فى أصوام .

وفى الأصحاح الحادى عشر ص ٣٠١ :

(٢٧) فى تعب وكدّ . فى أسهار مرارا كثيرة . فى جوع وعطش . فى أصوام مرارا كثيرة . فى برد وعُرْى .

هذا ، ومتى أطلق الصوم فى كل شريعة ، فلا يُقصد به إلّا الامتناع عن الأكل كلّ النهارِ إلى المساء ، لا مجرّد إبدال طعامٍ بطعام .

وقوله تعالى : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى : تجعلون بينكم وبين سخطه تعالى وقاية بالمسارعة إليه ، والمواظبة عليه ، رجاءً لرضاهِ تعالى ؛ فإنّ الصوم يكسر الشهوة ، فيقمع الهوى ، فيردع عن مواقعة السوء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ » نصب على الظرف ، أى : كتب عليكم الصيام فى أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان ، كما بينها تعالى فيما بعد بقوله « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ » . « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً » أى : مرضاً يضرّه الصوم ، أو يعسر معه .

و (المرض) : السقم وهو نقيض الصحة واضطراب الطبيعة بعد صفائها واعتدالها « أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ » أى : فأفطر « فَعِدَّةٌ » أى : فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر « مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » غير المعدودات المذكورة ، وإنما رخّص الفطر فى حال المرض والسفر لما فى ذلك من المشقة . وقد سافر رسول الله ﷺ فى رمضان فى أعظم الغزوات وأجلها: فى غزوة بدر

وغزوة الفتح . قال عمر بن الخطاب[١] : غزونا مع رسـول الله ﷺ فى رمضان غزوتين : يوم بدر والفتح ، فأفطرنا فيهما .

تنبيهات

الأول : ثبت أنه ﷺ صام فى السفر وأفطر ، كما خيّر بعض الصحابة بين الصوم والفطر. ففى الصحيحين[٢] : عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: خرجنا مع النبىّ ﷺ فى بعض أسفاره فى يوم ٍ حارٍّ ، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرّ ، وما فينا صائم إلّا ما كان من النبى ﷺ وابن رواحة . وقوله (فى بعض أسفاره) وقع فى إحدى روايتى مسلم ، بدله (فى شهر رمضان) . وعن عبـد الله بن أبى أوفى رضى الله قال[٣] : سرنا مع رسول الله ﷺ وهو صائم . وفى رواية : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فلما غابت الشمس قال لرجل : انزل فاجدح لنا ..! فقال : يا رسول الله ! لو أمسيت . قال : انزل فاجدح لنا قال : إن عليك نهاراً . فنزل ، فجدح له ، فشرب ، ثمّ قال : إذا رأيتم الليل قد أقبل من ههنا ـ وأشار بيده نحو المشرق ـ فقد أفطر الصائم. رواه الشيخان. واللفظ لمسلم .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٦ ـ كتاب الصوم ، ٢٠ ـ باب ماجاء فى الرخصة للمحارب فى الإفطار .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٥ ـ باب حدثنا عبدالله بن يوسف، حديث ٩٨٩ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٠٨و١٠٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم، ٣٣ ـ باب الصوم فى السفر والإفطار، حديث ٩٨٦ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٥٢و٥٣ (طبعتنا)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال[١] : خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عُسْفان ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليُرِيَه الناسَ. فأفطر حتى قدم مكة ، وذلك فى رمضان .

فكان ابن عباس يقول : قد صام رسول صلى الله عليه وسلم وأفطر ، فمن شاء صام ، ومن شاء أفطر . رواه الشيخان. واللفظ للبخارىّ .

وعن قزعة قال[٢] : أتيت أبا سعيد الخدرىّ فسألته عن الصوم فى السفر فقال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكّة ونحن صيام ، قال : فنزلنا منزلًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم قد دنوتم من عدوّكم ، والفطر أقوى لكم ! فكانت رخصةً ، فمنا من صام ومنا من أفطر ...

ثمّ نزلنا منزلًا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوّكم والفطر أقوى لكم فأفطروا. وكانت عزمةً فأفطرنا. ثم قال: لقد رأيتنا نصوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فى السفر، رواه مسلم . وعن عائشة[٣] : أن حمزة بن عمرو الأسلمىّ قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أأَصوم فى السفر ؟ ـ وكان كثير الصيام ـ فقال : إنْ شئت فصم وإن شئت فأفطر . رواه البخارىّ .

ورواه مسلم من طريق آخر، أنه قال : يا رسول الله ! أَجِدُ بى قوّةً على الصيام فى السفر

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٨ ـ باب من أفطر فى السفر ليراه الناس ، حديث ٩٨٨ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٨٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٠٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصيام، ٣٣ ـ باب الصوم فى السفر والإفطار، حديث ٩٨٧ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٠٣و١٠٤و١٠٧ (طبعتنا) .

فهل عليّ جناح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي رخصة من الله . فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه .

وعن أنس بن مالك قال[1] : كنا نسافر مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلم يَعِب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم . رواه الشيخان .

الثاني : لا يخفى أنّ جواز الصوم للمسافر ، إذا أطاقه بلا ضرر . وأمّا إذا شقّ عليه الصوم ، فلا ريب في كراهته ، لما في الصحيحين[2] : عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه في سفر ، فرأى زحاماً ، ورجل قد ظلل عليه ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : صائم ، فقال : ليس من البرِّ الصومُ في السفر . فلا ينافي هذا ما تقدم ، كما لا يرد أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لأن السياق والقرائن تدل على تخصيصه بمن شقّ عليه الصوم . وما تقدم ، في غيره .

قال ابن دقيق العيد : وينبغي أن يتنبه للفرق بين دلالة السبب والسياق والقرائن على تخصيص العام ، وعلى مراد المتكلم ؛ وبين مجرد العام على سبب . فإن بين المقامين فرقاً واضحاً . ومن أجراهما مجرى واحداً لم يصب . فإنّ مجرد ورود العام على سبب لا يقتضي التخصيص به . كنزول آية السرقة في قصة رداء صفوان[3] . وأمّا السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلم فهي المرشدة إلى بيان المجملات كما في هذا الحديث . انتهى . وهو استنباط جيد . وبالجملة : فالمريض والمسافر يباح لهما الفطر . فإن صاما ، صحّ . فإن تضرّرا ، كره ..!

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٧ ـ باب لم يعب أصحاب النبيّ ﷺ بعضهم بعضاً في الصوم والإفطار ، حديث ٩٩١ .

ومسلم في : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٩٨ و ٩٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٦ ـ باب قول النبيّ ﷺ لمن ظُلِّل عليه واشتد الحر « ليس من البر الصوم في السفر » ، حديث ٩٩٠ .

ومسلم في : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٩٢ (طبعتنا) .

(٣) انظر : المنتقى لابن تيمية ، حديث رقم (٤٠٨١) .

الثالث : لم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم تقدير المسافة التي يفطر فيها الصائم بحد ، ولا صح عنه في ذلك شيء . وقد أفطر دحية بن خليفة الكلبي في سفر ثلاثة أميال ، وقال لمن صام : قد رغبوا عن هدى محمد صلى الله عليه وسلم ..! وكان الصحابة حين ينشئون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت ، ويخبرون أن ذلك سنته وهديه صلى الله عليه وسلم. كما قال عبيد بن جبر[١] : ركبت مع أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفينة من الفسطاط في رمضان. فلم نجاوز البيوت حتى دعا بالسفرة . قال : اقترب. قلت : ألست ترى البيوت ؟ قال أبو بصرة : أترغب عن سنة رسول الله ﷺ ؟ رواه أبو داود وأحمد . ولفظ أحمد : ركبت مع أبي بصرة من الفسطاط إلى الاسكندرية في سفينة ، فلما دفعنا من مرسانا أمر بسفرته فقربت ، ثم دعاني إلى الغداء . وذلك في رمضان ، فقلت يا أبا بصرة ! والله ماتغيبت عنا منازلنا بعدُ. فقال : أترغب عن سنّة رسول الله ﷺ ؟ فقلت : لا! قال : فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحُوزَنا (قيل : أي موضعهم الذي أرادوه) وقال[٢] محمد بن كعب : أتيت أنس بن مالك في رمضان ـ وهو يريد السفر ـ وقد رُحِلت راحلته ، وقد لبس ثياب السفر ، فدعا بطعام فأكل ، فقلت له : سنة ؟ قال : سنّة . ثم ركب . قال الترمذي : حديث حسن . وقال الدارقطني فيه : فأكل وقد تقارب غروب الشمس ..! وهذه الآثار صريحة أنّ من أنشأ السفر في أثناء يوم من رمضان فله الفطر فيه . قاله في (زاد المعاد) .

« وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ » أي الصوم ، إن أفطروا « فِدْيَةٌ » أي إعطاء فدية وهي « طَعَامُ مِسْكِينٍ » و (الفدية) ما يقي الإنسانُ به نفسَه من مالٍ يبذله في عبادةٍ يقصّر فيها ، و (الطعام) ما يؤكل وما به قوام البدن « فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا » بأن أطعم أكثر

(١) رواه أبو داود في : ١٤ ـ كتاب الصوم ، ٤٦ ـ باب متى يفطر المسافر إذا خرج ، حديث ٢٤١٢ . وأحمد في ص ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٦ ـ كتاب الصوم ، ٧٦ ـ باب من أكل ثم خرج سفرا.

من مسكين « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ » لأنه فعل ما يدل على مزيد حبّه لربه « وَأَنْ تَصُومُوا » أيها المطيقون « خَيْرٌ لَكُمْ » من الفدية وإن زادت « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى فضيلة الصوم وفوائده ، أو إن كنتم من أهل العلم .

وقد ذهب الأكثرون إلى أن هذه الآية منسوخة بما بعدها . فإنه كان فى بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه ، فاشتد عليهم ، فرخّص لهم فى الإفطار والفدية . كما روى مسلم(١) عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » كان من أراد أن يفطر ويفتدى ، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها . وأسند من طريق آخر عن سلمة أيضا قال : كنا فى رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء صام،ومن شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين ، حتى أنزلت هذه الآية « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » . وفى البخارىّ(٢) : قال ابن عمر وسلمة بن الأكوع : نسختها « شَهْرُ رَمَضَانَ . . . » الآية . ثم روى عن ابن أبى ليلى : حدثنا أصحاب محمد ﷺ : نزل رمضان فشقّ عليهم ، فكان من أطعم كلّ يومٍ مسكيناً ترك الصوم ممن يطيقه ، ورخص لهم فى ذلك ، فنسخت وأمروا بالصوم . ثم أسند أيضا عن ابن عمر أنه قال : هى منسوخة .

هذا وقد روى البخارىّ(٣) فى (التفسير) : عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول فى هذه الآية : ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لايستطيعان أن يصوما فليطعمان مكان كلّ يومٍ مسكيناً .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٦ ـ باب فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، حديث ١٩٧١ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٤٩و١٥٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٩ ـ باب وعلى الذين يطيقونه .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٥ ـ باب قوله أياماً معدودات ، حديث ١٩٧٠ .

هذا ، وقد ذكر البخاري[١] في «التفسير» : أنّ أنس بن مالك أطعم ـ بعدما كبر ـ عاماً أو عامين ، كلّ يوم مسكيناً، خبزاً ولحماً، وأفطر ، رواه تعليقاً . ووصله أبو يعلى الموصليّ في « مسنده » . ورواه عَبْدُ بن حُمَيْد في « مسنده » من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه . وروى محمد بن هشام في « فوائده » عن حميد قال : ضعف أنس عن الصوم عام توفي فسألت ابنه عمر بن أنس : أطاق الصوم ؟ قال : لا . . ! فلما عرف أنه لايطيق القضاء أمر بجفانٍ من خبز ولحم فأطعم العدة أو أكثر ..!

ولما أبهم الأمر في الأيام عُيِّنت هنا بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« شَهْرُ رَمَضَانَ » لأنّ ذلك أفخم وآكد من تعيينه من أوّل الأمر .

وقال الراغب : جعل معالم فرضه على الأهلة ليبادر الإنسان به في كلّ وقتٍ من أوقات السنة ، كما يدور الشهر فيه من الصيف والشتاء والربيعين .

وفي رفع « شهرُ » وجهان : (أحدهما) أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي شهر ، يعني الأيام المعدودات . فعلى هذا يكون قوله « الَّذِى أُنْزِلَ » نعتاً للشهر أو لرمضان . و (الثاني)

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٥ ـ باب قوله أياماً معدودات .

هو مبتدأ . ثم فى الخبر وجهان : (أحدهما) « الذى أنزل » ؛ و (الثانى) إنّ « الذىأنزل » صفة، والخبر هو الجملة التى هى قوله « فَمَنْ شَهِدَ » .

فإن قيل : لو كان خبراً لم يكن فيه الفاء لأنّ شهر رمضان لايشبه الشرط !

قيل : الفاء ـ على قول الأخفش ـ زائدة . وعلى قول غيره ليست زائدة ، وإنما دخلت لأنك وصفت الشهر بـ (الذى) ، فدخلت الفاء كما تدخل فى خبر نفس (الذى) . ومثله « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ »(١) . فإن قيل : فأين الضمير العائد على المبتدأ من الجملة ؟ قيل : وضع الظاهر موضعه تفخيماً أى : فمن شهده منكم . كذا فى العكبرىّ .

« الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ » أى : ابتدأ فيه إنزاله ، وكان ذلك فى ليلة القدر .

قال الرازىّ : لأن مبادى الملل والدول هى التى يؤرخ بها ، لكونها أشرف الأوقات ، ولأنها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة .

وقال سفيان بن عيينة : معناه : أنزل فى فضله القرآن. وهذا اختيار الحسين بن الفضل ، قال : ومثله أن يقال : أنزل الله فى الصديق كذا آية ، يريدون فى فضله .

وقال ابن الأنبارىّ : أنزل ـ فى إيجاب صومه على الخلق ـ القرآنُ ، كما يقال : أنزل الله فى الزكاة كذا وكذا ، يريد فى إيجابها ، وأنزل فى الخمر كذا يريد فى تحريمها ، والله أعلم .

قال الحرالىّ : أَشْعرت الآيةُ أنّ فى الصوم حسنَ تلقٍّ لمعناه ، ويسرًا لتلاوته ، ولذلك جمع فيه بين صوم النهار وتهجّد الليل ، وهو صيغة مبالغة من (القرء) وهو ما جمع الكتب والصحف والألواح . انتهى .

---

(١) [٦٢ / الجمعة / ٨] . . . ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وفى مدحه ـ بإنزاله فيه ـ مدح للقرآن به ، من حيث أشعر أنّ من أعظم المقاصد بمشروعيته تصفية الفكر لأجل فهم القرآن ، ليوقف على حقيقة ما اتبع هذا به من أوصافه التى قررت ماافتتحت به السورة ، من أنّه لا ريب فيه ، وأنه هدًى، على وجهٍ أعمّ من ذلك الأول . فقال تعالى « هُدًى لِلنَّاسِ » نصب على الحال . « وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ » عطف على الحال قبله . فهى حال أيضاً . والظرف صفة . أى : أنزل حال كونه هداية للناس ، وآيات واضحة مرشدة إلى الحقّ ، فارقة بينه وبين الباطل . ولدفع سؤال التكرار فى قوله « وَبَيِّنَاتٍ . . . الخ » بعد قوله « هُدًى لِلنَّاسِ » حمل بعض المفسرين « الهدى » الأول بواسطة النكرة على الهدى الذى لايقدر قدره المختص بالقرآن أعنى هدايته بإعجازه . والثانى على الهدى الحاصل باشتماله على الواضحات من أمر الدين، والفرقان بين الحلال والحرام والأحكام والحدود والخروج من الشبهات .

وثمّتَ وجه آخر نقله الرازىّ : وهو أن (الهدى) الثانى المراد به التوراة والإنجيل . قال تعالى: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ* مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ (١) . فبين تعالى أن القرآن ـ مع كونه هدى فى نفسه ـ ففيه أيضاً هدى من الكتب المتقدمة التى هى هدى وفرقان ، والله أعلم .

« فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » هذا إيجاب حتمٌ على من شهد استهلال الشهر ـ أى : حضر فيه بأن كان مقيماً فى البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح فى بدنه ـ أن يصوم لا محالة . ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان . ثم أعيد ذكر الرخصة بقوله تعالى « وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » لئلاّ يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه وأنّه خير ، أن الصوم حتم لا تتناوله الرخصة بوجهٍ ، أو

---

(١) [٣ / آل عمران / ٣و٤] ... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

تناوله ، ولكنها مفضولة . وفيه عناية بأمر الرخصة ، وأنها محبوبة له تعالى كما ورد . وفى إطلاقه ، إشعار بصحة وقوع القضاء متتابعاً وغير متتابع « يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ » أى تشريع السهولة بالترخيص للمريض والمسافر، وبقصر الصوم على شهر « وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » فى جعله عزيمة على الكلّ ، وزيادته على شهر .

قال الحرالىّ : اليُسْر عَمَلٌ لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم . والعسر ما يجهد النفس ويضرّ الجسم .

قال الشعبىّ : إذا اختلف عليك أمران ، فإنّ أيسرهما أقربهما إلى الحقّ ، لهذه الآية .

وروى الإمام أحمد مرفوعاً(١) : إنّ خيردينكم أيسره ، إن خيردينكم أيسره. وروى أيضاً(٢) : إنّ دين الله فى يسرٍ (ثلاثاً) .

وفى الصحيحين(٣) : أنّ رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما إلى اليمن : يسِّرا ولا تعسِّرا ، وبَشِّرا ولا تنفرّا ، وتطاوعا ولا تختلفا .

وفى السنن والمسانيد(٤) : أنّ رسول الله ﷺ قال : بعثت بالحنيفيّة السمحة . أى التى

---

(١) مسند الإمام أحمد ، الجزء الثالث صفحة ٤٧٩ (طبعة الحلبىّ) عن أعرابىّ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، الجزء الخامس صفحة ٦٩ (طبعة الحلبىّ) عن عروة الفقيمىّ ونصه : كنا ننتظر النبىّ ﷺ ، فخرج رجلًا يقطر رأسه من وضوء أو غسل ، فصلى . فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه : يا رسول الله ! أعلينا حرج فى كذا؟ فقال رسول الله ﷺ « لا . أيها الناس ! إن دين الله عز وجل فى يسر » (ثلاثا يقولها) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٦٤ ـ باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب ، حديث ١١٢٩ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٤) مسند الإمام أحمد ، الجزء الخامس ، صفحة ٢٦٦ (طبعة الحلبىّ) ونصه : =

لا إصْرَ فيها ولا حرج . كما قال تعالى : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (١) .

« وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . علل لفعلٍ محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره . ولهذه الأمور شرع ذلك . يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر ، وأمر المرخّص له بمراعاة عدّة ما أفطر فيه ، ومن الترخيص في إباحة الفطر . فقوله «لِتُكْمِلُوا» علّة الأمر بمراعاة العدّة. «ولِتُكَبِّرُوا». علّة ما علّم من كيفية القضاء ، والخروج عن عهدة الفطر «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» علّة الترخيص والتيسير . وهذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبيّنه إلّا النقّاب المحدث من علماء البيان! وإنما عدّى (فعل التكبير) بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد . كأنه قيل :

= عن أبي أمامة قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه . قال فمرّ رجل بغار فيه شيء من ماء . قال فحدّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء . ويصيب ما حوله من بقل ويتخلى من الدنيا . ثم قال : لو أني أتيت نبيّ الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فإن أذن لي فعلت . وإلا ، لم أفعل . فأتاه فقال : يا نبيّ الله ! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل . فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية . لكن بعثت بالحنيفية السمحة . والذي نفس محمد بيده ! لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها . ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة » .

(١) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

ولتكبّروا الله حامدين على ماهداكم . ومعنى «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» وإرادة أن تشكروا. ويجوز عطفها على اليسر أى : يريد بكم لتكملوا ... الخ ، كقوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا...الخ[١] . والمراد بالتكبير تعظيمه تعالى والثناء عليه ـ كذا أفاده الزمخشرىّ .

قال الحرالىّ : وفى لفظ : وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ، إشعار لما أظهرته السنّة من صلاة العيد ، وأعلن فيها بالتكبير . وكرر مع الجهر فيها لمقصد موافقة معنى التكبير الذى إنّما يكون علناً . وجعلت فى براحٍ من متسع الأرض لمقصد التكبير . لأنّ تكبير الله إنما هو بما جلّ من مخلوقاته . انتهى ملخصاً .

وقال ابن كثير: وقوله تعالى «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ» . أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال « فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا »[٢] وقال « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[٣] وقال « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ »[٤] ولهذا جاءت السنّة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات .

---

(١) [٦١ / الصف / ٨] ونصها : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٢/ البقرة/ ٢٠٠] ونصها: فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ .

(٣) [٦٢/ الجمعة/ ١٠] ونصها : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٤) [٥٠ / ق / ٣٩و٤٠] وأول الآيتين : فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ . . .

وقال ابن عباس(١) : ما كنّا نعرف انقضاء صلاة رسول ﷺ إلّا بالتكبير .

ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعيّة التكبير فى عيد الفطر من هذه الآية . حتى ذهب داود بن علىّ الأصبهانىّ الظاهرىّ إلى وجوبه فى عيد الفطر ، لظاهر الأمر فى قوله «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ » وفى مقابلته مذهب أبى حنيفة رحمه الله : أنه لا يشرع التكبير فى عيد الفطر . والباقون على استحبابه. انتهى .

وفى (زوائد المشكاة) عن عبد الله بن عمر أنّه كان إذا غدا يوم الأضحى ويوم الفطر يجهر بالتكبير حتى يأتى المصلّى . ثم يكبّر حتى يأتى الإمام . وفى روايةٍ : رفعه إلى النبىّ ﷺ ؛ رواه الدارقطنىّ . وعن نافع أنّ ابن عمر كان يغدو إلى المصلّى يوم الفطر إذا طلعت الشمس فيكبّر حتى يأتى المصلّى، ثم يكبّر بالمصلّى حتى إذا جلس الإمام ترك التكبير. رواه الشافعىّ .

قال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعىّ : حديث أنه ﷺ كان يخرج يوم الفطر والأضحى رافعاً صوته بالتهليل والتكبير حتى يأتى المصلى ، رواه الحاكم والبيهقىّ من حديث ابن عمر من طرقٍ مرفوعاً وموقوفاً ، وصَحَّح وقفه . ورواه الشافعىّ موقوفاً أيضاً .

وفى الأوسط عن أبى هريرة مرفوعاً : زينوا أعيادكم بالتكبير . إسناده غريب . انتهى .

وفائدة طلب الشكر فى هذا الموضع ، هو أنّه تعالى ، لما أمر بالتكبير ، وهو لا يتم إلّا بأن يعلم العبد جلال الله وكبرياءه وعزّته وعظمته ، وكونه أكبر من أن تصل إليه عقول العقلاء ، وأوصاف الواصفين ، وذكر الذاكرين . ثمّ يعلم أنه سبحانه ـ مع جلاله وعزّته واستغنائه عن جميع المخلوقات، فضلاً عن هذا المسكين ـ خصه الله بهذه الهداية العظيمة ـ لا بدّ وأن يصير ذلك داعياً للعبد إلى الاشتغال بشكره ، والمواظبة على الثناء عليه بمقدار قدرته وطاقته ، فلهذا قال « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أفاده الرازىّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٥ ـ باب الذكر بعد الصلاة . حديث ٤٩٨ ونصه : قال ابن عباس : كنت أعرف انقضاء صلاة النبىّ ﷺ بالتكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ » قال الراغب : هـذه الآية من تمام الآية الأولى . لأنّه لما حثّ على تـكبيره وشكره على ما قيّضه لهم من تمام الصوم ، بيّن أنّ الذى يذكرونه ويشكرونه قريب منهم ، ومجيب لهم إذا دعوه ، ثم تمم ما بقى من أحكام الصوم .

قال الرازىّ : إنّ السؤال متى كان مبهماً ، والجواب مفصّلا ، دلّ الجواب على أنّ المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعيّن . فلما قال فى الجواب « فَإِنِّى قَرِيبٌ » علمنا أنّ السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات ، أى كما صرّحت به الرواية السابقة . و (القريب) من أسمائه تعالى الحسنى . ومعناه القريب من عبده بسماعه دعاءه ، ورؤيته تضرّعه ، وعلمه به ، كما قال «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»[١] وقال « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »[٢] وقال « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »[٣] .

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٦] ونصها: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

قال الإمام تقيّ الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، فى عقيدته الواسطية :

ودخل ـ فيما ذكرناه من الإيمان بالله ـ الإيمان بما أخبر الله به فى كتابه ، وتواتر عن رسوله ﷺ ، وأجمع عليه سلف الأمة . من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه ، عليّ على خلقه . وهو معهم سبحانه أينما كانوا . يعلم ما هم عاملون . كما جمع بين ذلك فى قوله « هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[1] . وليس معنى قوله « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » أنّه مختلط بالخلق ، فإنّ هذا لاتوجبه اللغة . وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة . وخلاف ما فطر الله عليه الخلق . بل القمر ـ آية من آيات الله ـ من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع فى السماء ، وهو مع المسافر أينما كان . وهو سبحانه فوق العرش رقيبٌ على خلقه . مهيمنٌ عليهم . مطلعٌ إليهم . إلى غير ذلك من معانى ربوبيته . وكلّ هذا الكلام الذى ذكره الله من أنّه فوق العرش ، وأنه معنا ـ حقٌّ على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة . ودخل فى ذلك : الإيمانُ بأنه قريب من خلقه ، كما قال تعالى « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ... الآية » . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم[2] : إنّ الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . وما ذكر فى الكتاب والسنة ـ من قربه ومعيته ـ لا ينافى ما ذكر من علوّه وفوقيته . . ! فإنه سبحانه ليس كمثله شيء[3]

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٤٣١ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٦ (طبعتنا) عن أبى موسى الأشعريّ .

(٣) [٤٢/الشورى/١١] ونصها: فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

فى جميع نعوته . وهو علىٌّ فى دنوّه ، قريبٌ فى علوّه . . ! انتهى كلامه ، رحمه الله تعالى .

وقوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » تقريرٌ للقرب وتحقيق له . ووعد للداعى بالإجابة . وقد قرئ فى السبع بإثبات الياء فى (الداع) و (دعان) فى الوصل دون الوقف ، وبالحذف مطلقاً .

تنبيهات

الأول : فى معنى الدعاء :

قال فى القاموس وشرحه : الدعاء : الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير ، والابتهال إليه بالسؤال . ويطلق على العبادة والاستغاثة .

الثانى : فيما فسرّ به قوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ » :

قال ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى هديه ﷺ فى سجوده ما نصه : وأمر ـ يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ بالدعاء فى السجود ، وقال(١) : إنه قمن أن يستجاب لكم . وهل هذا أمر بأن يكثر الدعاء فى السجود ؟ أو أمر بأنّ الداعى إذا دعا فى محلّ فليكن فى السجود ؟ وفرق بين الأمرين ..! وأحسن ما يحمل عليه الحديث ، أنّ الدعاء نوعان : دعاء ثناء ، ودعاء مسألة . والنبىّ ﷺ كان يكثر فى سجوده من النوعين . والدعاء الذى أمر به فى السجود يتناول النوعين . والاستجابة ـ أيضاً ـ نوعان : استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤاله ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) ونصه :

عن ابن عباس قال : كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة ، والناس صفوف خلف أبى بكر . فقال « أيها الناس ! إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له . ألا وإنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل . وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء . فقمن أن يستجاب لكم » .

واستجابة دعاء المثنى بالثواب . وبكلّ واحدٍ من النوعين فسّر قوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » . والصحيح أنّه يعمّ النوعين . انتهى .

الثالث : فيمن هو الداعى المجاب :

قال الراغب : بيّن تعالى ـ فى هذه الآية ـ إفضاله على عباده ، وضمن أنهم إذا دعوه أجابهم ، وعليه نبّه بقوله تعالى « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ »(١) . إن قيل : قد ضمن فى الآيتين أنّ من دعاه أجابه ، وكم رأينا من داعٍ له لم يجبه ! قيل : إنّه ضمن الإجابة لعباده ، ولم يرد بالعباد مَنْ ذكرهم بقوله « إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِى الرَّحْمَنِ عَبْدًا »(٢) ؛ وإنّما عنى به الموصوفين بقوله « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »(٣) وقوله « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ »(٤) الآيات ؛ وللدعاء المجاب شرائط وهى : أن يدْعو بأحسن الأسماء ، كما قال تعالى « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا »(٥) ، ويخلص النيّة ، ويظهر الافتقار ، ولا يدعو بإثم ، ولا بما يستعين به على معاداته . وأن يعلم أنّ نعمته فيما يمنعه من دنياه كنعمته فيما خوّله وأعطاه . ومعلوم أنّ من هذا حاله فمجاب الدعوة ..! اهـ.

وقال ابن القيّم ، عليه الرحمة ، أيضاً فى أول كتابه (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٩٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٤٢] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] ونصها : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

الشافى) ما نصّه ، بعد جمل : وكذلك الدعاء . فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب . ولكن قد يتخلف عنه أثره . إمّا لضعفه فى نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان . وإمّا لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء . فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً . فإنّ السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً . وإمّا لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورَيْن الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها . كما فى صحيح الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ ! . فهذا دواء نافع مزيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته . وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها . كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : أيها الناس ! إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيباً . وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال « يَٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » [٢٣/ المؤمنون / ٥١] وقال ، « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ » [٢ / البقرة / ١٧٢] ثم ذكر : الرجلُ يطيل السفر أشعثَ أغبر يمدّ يده إلى السماء : ياربّ ياربّ ! ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام . فأنَّى يستجاب لذلك ..؟ . وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب (الزهد) لأبيه : أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلىّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام . الآن حين اشتد غضبى عليكم ولن تزدادوا منى إلّا بعداً ..!

ثم قال ابن القيم رحمه الله : والدعاء من أنفع الأدوية . وهو عدوّ البلاء ، يدافعه ، ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه أو يخففه إذا نزل . وهو سلاح المؤمن . كما روى الحاكم فى

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

(صحيحه) من حديث عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ! وله مع البلاء ثلاث مقامات : أحدها ، أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه . الثانى ، أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ، ولـكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً . الثالث ، أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه ..!

وقد روى الحاكم فى (صحيحه) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغنى حذر من قدر . والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . وإنّ البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة ! . وفيه أيضاً ، من حديث ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . فعليكم ، عباد الله ، بالدعاء ! . وفيه أيضاً : من حديث ثوبان عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم : لا يردّ القدرَ إلّا الدعاء . ولا يزيد فى العمر إلّا البرُّ . وإنّ الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ..!

ثم قال ابن القيم رضى الله عنه : ومن أنفع الأدوية الإلحاح فى الدعاء . وقد روى ابن ماجة فى (سننه)[1] من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لم يسأل الله يغضب عليه ! وفى (صحيح الحاكم) من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : لا تعجزوا فى الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحـد . وذكر الأوزاعىّ عن الزهرىّ عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : إنّ الله يحبّ الملحّين فى الدعاء ! وفى كتاب (الزهد) للإمام أحمـد عن قتادة قال : قال مورّق : ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل فى البحر على خشبة . فهو يدعو : يا ربّ يا ربّ ! لعلّ الله عزّ وجلّ أن ينجيه ..!

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى: ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١ ـ باب فضل الدعاء ، حديث ٣٨٢٧ (طبعتنا) ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يدع الله ، سبحانه ، غضب عليه » .

ثم قال ابن القيّم، نوّر الله ضريحه : ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه ، أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده ويسقيه . فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله ..! وفي البخاريّ[(١)] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يستجاب لأحدكم مالم يعجل . يقول: دعوت فلم يستجب لي ! . وفي صحيح مسلم[(٢)] عنه : لا يزال يستجاب للعبد مالم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل ! قيل : يا رسول الله ! ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أرَ يستجيب لي . فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء . وفي (مسند أحمد)[(٣)] من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . قالوا : يا رسول الله ! كيف يستعجل ؟ قال : يقول : قد دعوت لربي فلم يستجب لي .

ثم قال :

فصل

وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة ، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم ، وصادف خشوعا في القلب ، وانكسارا بين يدي

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٢٢ ـ باب يستجاب للعبد مالم يعجل ، حديث ٢٣٩٩ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه أحمد في الجزء الثالث صفحة ١٩٣ (طبعة الحلبيّ) .

الرب ، وذلًّا له وتضرّعا ورقّة ، واستقبل الداعى القِبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده صلى الله عليه وسلم ، ثم قدّم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دخل على الله وألحّ عليه فى المسألة وتملّقه ودعاه رغبةً ورهبة ، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وقدّم بين يدى دعائه صدقة ـ فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبدا . ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . فمنها ما فى السنن وفى (صحيح ابن حبان)[١] من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ..! فقال : لقد سألت الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دُعى به أجاب ! وفى لفظ : لقد سألت الله باسمه الأعظم .! وفى السنن[٢] و(صحيح ابن حبان) أيضا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ثم دعا : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنّان بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حى ياقيوم ! فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعىَ به أجاب وإذا سئل به أعطى ! وأخرج الحديثين أحمد فى (مسنده) . وفى (جامع الترمذىّ)[٣] من حديث أسماء بنت يزيد : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اسم

---

(١) أخرجه أبو داود بهذا النص فى: ٨ـ كتاب الوتر، ٢٣ـ باب الدعاء، حديث ١٤٩٣. وأخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٦٣ـ باب جامع الدعوات عن النبىّ ﷺ. وفيه : فقال « والذى نفسى بيده ! لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث ١٤٩٥ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٦٤ ـ باب حدثنا قتيبة .

الله الأعظم فى هاتين الآيتين « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ » [٢ / البقرة / ١٦٣] وفاتحة آل عمران « الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » ، قال الترمذىّ : هذا حديث حسن صحيح. وفى (مسند أحمد)[1] و (صحيح الحاكم) من حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام . يعنى : تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها . وفى (جامع الترمذىّ)[2] من حديث أبى هريرة أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الله العظيم . وإذا اجتهد فى الدعاء قال : يا حى ياقيوم . . ! وفيه أيضا من حديث أنس بن مالك قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال : ياحى ياقيوم ! برحمتك أستغيث .

وفى (صحيح الحاكم)[3] من حديث أبى أُمامة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن : البقرة وآل عمران وطه .

قال القاسم : فالتمستها فإذا هى آية الحىّ القيوم . وفى (جامع الترمذىّ)[4] و (صحيح الحاكم) من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فإنه لم يدع بها رجل مسلم، فى شىء قط، إلا استجاب الله له قال الترمذىّ: حديث صحيح. وفى (صحيح الحاكم) أيضا من حديث سعد عن النبىّ ﷺ : ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمر مهمّ فدعا به يفرج الله عنه : دعاء ذى النون . وفى (صحيحه) أيضا عنه أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه فى المسند فى الجزء الرابع، صفحة ١٧٧ (طبعة الحلبىّ) عن ربيعة بن عامر.
(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٣٩ ـ باب ماجاء مايقول عند الكرب.
(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٩١ ـ باب حدثنا محمد بن حاتم المكتب.
(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨١ ـ باب حدثنا محمد بن يحيى .

وهو يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دعاء يونس . فقال رجل : يارسول الله ! هل كان ليونس خاصة ؟ فقال : ألا تسمع قوله « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ »(١) فأيّما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك، أُعطى أجر شهيد. وإن برأ، برأ مغفوراً له ! وفى (الصحيحين)(٢) من حديث ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات وربّ الأرض رب العرش الكريم . ! وفى (مسند الإمام أحمد)(٣) من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بى كرب أن أقول : لا إله إلّا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله ربّ العرش العظيم، والحمد لله ربّ العالمين . وفى (مسنده) أيضاً(٤)، من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصاب أحداً قطّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهمّ! إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتى بيدك . ماضٍ فىّ حكمك. عدْلٌ فىّ قضاؤك . أسألك اللهمّ بكلّ اسمٍ هوَ لك سمّيت به نفسك ، أو علّمته أحداً من خلقك . أو أنزلته فى كتابك . أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . أن تجعل القرآنَ العظيم

(١) [٢١ / الأنبياء / ٨٨] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٢٧ ـ باب الدعاء عند الكرب ، حديث ٢٤٠٠ .

وأخرجه مسلم فى: ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث٨٣(طبعتنا).

(٣) أخرجه فى المسند فى الجزء الأول، صفحة ٩١ (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم٧٠١ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه فى المسند فى الجزء الأول ، صفحة ٣٩١ (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

ربيع قلبي ، ونورَ بصري، وجلاء حزني ، وذهاب همّي .! إلّا أذهب الله همّه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً . فقيل : يا رسول الله ! ألا نتعلّمها ؟ قال : بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها .

وقال ابن مسعود : ما كرب نبيّ من الأنبياء إلّا استغاث بالتسبيح .

ثم قال ابن القيّم : وكثيراً ما نجد أدعيةً دعا بها قوم فاستجيب لهم ، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورةُ صاحبه وإقبالُه على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجيبت دعوته . فيظنّ الظانّ أنّ السرّ في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجرّداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي فانتفع به. فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرّده كافٍ في حصول المطلوب كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس. ومن هذا، قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبرٍ فيجاب. فيظنّ الجاهل أنّ السرّ للقبر . ولم يعلم أنّ السرّ للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك في بيتٍ من بيوت الله كان أفضل وأحبّ إلى الله ..!

ثمّ قال ابن القيّم : والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه لا بحدّه فقط ! فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به ، والساعد ساعدٌ قويّ ، والمانع مفقود ، حصلت به النكاية في العدوّ ..! ومتى تخلّف واحد من هذه الثلاثة ، تخلّف التأثيرُ ..! فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، أو كان ثمّ مانع من الإجابة ـ لم يحصل التأثير ..!

ثم قال ابن القيّم : وهنا سؤال مشهور وهو : أنّ المدْعو بهِ إنْ كان قد قدّر لم يكن بدّ من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدعُ . وإن لم يكن قد قدر لم يقع ، سواء سأله العبد أو لم يسأله . فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء وقالت : لا فائدة فيه ! وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ يتناقضون . فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب .

فيقال لأحدهم إن كان الشبع والريّ قد قدر لك فلابد من وقوعهما. أكلتَ أو لم تأكل . وإن لم يقدرا لم يقعا. أكلتَ أولم تأكل . وإنْ كان الولد قدّر لك، فلا بدّ منه ، وطأتَ الزوجة والأَمَة أو لم تطأها . وإن لم يقدّر لم يكن. فلا حاجة إلى التزويج والتسرّى. وهلمّ جرّا ... فهل يقال : هذا عاقل أو آدمىّ ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بهـا قوامه وحياته . فالحيوانات أَعقل وأَفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلًا ..!

وتـكايس بعضهم . وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبّد المحض . يثيب الله عليه الداعى من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجهٍ ما ..! ولا فرق ـ عند هذا الـكيّس ـ بين الدعاء والإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق ..! وقالت طائفة أخرى أَكْيَسُ من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجرّدة نصبها الله سبحانه أمارةً على قضاء الحاجة . فمتى وفّق العبد للدعاء كان ذلك علامة له ، وأمارة على أنّ حاجته قد قضيت ..! وهذا كمَا إذا رأيت غيماً أسودبارداً فى زمن الشتاء . فإنّ ذلك دليـل وعلامة على أنه يمطر ..! قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والـكفر والمعاصى مع العقاب ، هى أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لأنها أسباب له ..! وهكذا ـ عندهم ـ الـكسر مع الانـكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل ، ليس شىء من ذلك سبباً البتة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلّا بمجرّد الاقتران العادىّ لاالتأثير السببىّ . وخالفوا ، بذلك ، الحسّ والعقلَ والشرعَ وسائرَ طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء ..! والصواب أنَّ هٰهُنا قسماً ثالثاً غير ماذكره السائل ، وهو : إنّ هذا المقدور قدّر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء ، فلم يقدر مجرّداً عن سببه ولـكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور . وهذا كمَا قدر الشبع والرىّ بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ،

وقدر خروج نفَس الحيوان بذبحه . وكذلك قدّر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال. وهذا القسم هو الحقّ ، وهذا الذى حُرِمَهُ السائل ولم يوفق له . وحينئذٍ ، فالدعاء ، من أقوى الأسباب . فإذا قدّر وقوع المدعوّ به بالدعاء ، لم يصح أن يقال : لا فائدة فى الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال ؛ وليس شىء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ فى حصول المطلوب ! ولمّا كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الأمّة بالله ورسوله وأفقههم فى دينه ، كانوا أقومَ بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر رضى الله عنه يستنصر به على عدوّه . وكان أعظمَ جنده ، وكان يقول للصحابة : لستم تُنصرون بكثرةٍ وإنما تُنصرون من السماء ! وكان يقول : إنى لا أحمل همّ الإجابة ولكن همّ الدعاء ، فإذا أُلهمت الدعاء فإنّ الإجابة معه ..!

فمن أُلهم الدعاء فقد أريد به الإجابة، فإنّ الله سبحانه يقول «ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ»(١)، «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ »(٢) . وفى (سُنن ابن ماجة)(٣) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يسأل الله يغضب عليه. وهذا يدلّ على أن رضاه فى سؤاله وطاعتِهِ ، وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكلّ خيرٍ فى رضاه ، كما أنّ كلّ بلاء ومصيبةٍ فى غضبه..! وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب (الزهد) أثراً : أنا الله لا إله إلّا أنا ، إذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهى . وإذا غضبت لعنت ولعنتى تبلغ السابع من الولد ! وقد دلّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونِحَلِها ـ على أنّ التقرّب إلى ربّ العالمين ، وطلب مرضاته ، والبرّ والإحسان إلى خلقه ، من أعظم الأسباب الجالبة لكلّ خير ؛ وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ٤٣٦ .

لكل شرّ . . ! فما استجلبت نِعَمُ الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرّب إليه والإحسان إلى خلقه ! وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة ، وحصول السرور فى الدنيا والآخرة ـ فى كتابه ـ على الأعمال ، ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلّة ، والمسبب على السبب . وهـذا فى القرآن يزيد على ألف موضع : فتارةً يرتب الحكم الخبرىّ الكونىّ والأمر الشرعىّ على الوصف المناسب له ، كقوله تعالى « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ »(١) ، وقوله « فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »(٢) ، وقوله « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا »(٣) وقوله « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ـ إلى قوله ـ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا »(٤) . وهذا كثير جداً ..!

وتارة ترتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء : كقوله تعالى « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ »(٥) وقوله « وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٣) [٥ / المائدة / ٣٨] ونصها : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٥] ونصها : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(٥) [٨ / الأنفال / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا »(١) وقوله « فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ »(٢) ونظائره ...

وتارة يأتي بـ(لام التعليل) : كقوله « لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ »(٣) وقوله « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »(٤) .

وتارة يأتي بأداة (كي) التي للتعليل ، كقوله « كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ »(٥) ...

وتارة يأتي بـ(باء السببية) كقوله تعالى « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ »(٦) وقوله « بِمَا

---

(١) [٧٢ / الجن / ١٦] .

(٢) [٩ / التوبة / ١١] .

(٣) [٣٨ / ص / ٢٩] ونصها : كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

(٥) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٦) [٣ / آل عمران / ١٨٢] ونصها : ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ .

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(١) و « بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ »(٢) وقوله « ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا »(٣) ...

وتارة يأتي بـ (المفعول لأجله) ظاهراً أو محذوفا ، كقوله « فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ »(٤) وكقوله تعالى « أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ »(٥) وقوله « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا »(٦) أي كراهة أن تقولوا ...

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٩] ونصها : وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٩٨] ونصها : ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٧٢] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ .

(٦) [٦ / الأنعام / ١٥٦] ونصها : أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

وتارة بـ (فاء السببية) ، كقوله « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ »(١) وقوله « فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً »(٢) ، وقوله « فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ »(٣) ونظائره ...

وتارة يأتى بأداة (لمّا) الدالة على الجزاء ، كقوله « فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »(٤) ونظائره ...

وتارة يأتى بـ (إنّ) وماعملت فيه ، كقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ »(٥) وقوله فى ضدّ هؤلاء « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »(٦) ...

وتارة يأتى بأداة (لولا) الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها ، كقوله « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »(٧) ...

وتارة يأتى بـ (لو) الدالة على الشرط ، كقوله « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ »(٨) ...

---

(١) [٩١/الشمس/١٤] ونصها : فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ١٠] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٤٨] .

(٤) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

(٦) [٢١ / الأنبياء / ٧٧] ونصها : وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

(٧) [٣٧ / الصافات / ١١٣و١١٤] .

(٨) [٤ / النساء / ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ =

وبالجملة : فالقرآن ـ من أوله إلى آخره ـ صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب ، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال . ومن تفقّه فى هذه المسألة ، وتأملها حقّ التأمل ، انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة ؛ فيكون توكّله عجزاً ، وعجزه توكّلاً ..! بل الفقيه ـ كلّ الفقيه ـ الذى يردّ القدرَ بالقدرِ ، ويدفع القدَر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر . لا يمكن للإنسان أن يعيش إلّا بذلك ..! فإنّ الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هى من القدر . والخلق كلهم ساعون فى دفع هذا القدر ..! وهكذا من وفّقه الله وألهمه رشده يدفع قدَرَ العقوبة الأخروية بقدَرِ التوبة والإيمان والأعمال الصالحة..! فهذا وزن القدر المخوف فى الدنيا ومايضادّه ، فربّ الدارين واحدٌ ، وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضاً . ولا يبطل بعضها بعضاً ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حقّ رعايتها ..! والله المستعان .

ولكن يبقى عليه أمران بهما تتمّ سعادته وفلاحه :

أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشرّ والخير ويكون له بصيرة فى ذلك بما يشاهده فى العالم ، وما جرّبه فى نفسه وغيره ، وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً .

ومن أنفع مافى ذلك : تدبّر القرآن ، فإنّه كفيل بذلك على أكمل الوجوه ، وفيه أسباب الخير والشرّ جميعاً مفصّلة مبينة ؛ ثمّ السنة فإنها شقيقة القرآن وهى الوحى الثانى . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما من غيرها ، وهما يريانك الخير والشرّ وأسبابهما ، حتى كأنك تعاين ذلك عياناً ..! وبعد ذلك ، فإذا تأملت أخبار الأمم ، وأيام الله فى أهل طاعته وأهل

= أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً .

معصيته ، طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنّة ، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به . وعلمت من آياته فى الآفاق ما يدلك على أنّ القرآن حقٌّ ، وأنّ الرسول حقٌّ ، وأنّ الله ينجز وعده لامحالة ..! فالتاريخ تفصيلٌ لجزئيات ماعرّفنا الله ورسوله من الأسباب الكليّة للخير والشرّ ..! انتهى .

وقوله تعالى « فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي » أى: إذادعوتهم للإيمان والطاعة. كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم « وَلْيُؤْمِنُوا بِى » أمر بالثبات على ماهم عليه « لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » أى : راجين إصابة الرشد وهو الحقّ .

تنبيهان

الأول : قال الراغب : أوثر (فليستجيبوا) على (فليجيبوا) لِلَطيفةٍ وهى : أن حقيقة الاستجابة طلب الإجابة وإن كان قد يستعمل فى معنى الإجابة . فبين أن العباد متى تحروا إجابته بقدر وسعهم فإنه يرضى عنهم . إن قيل : كيف جمع بين الاستجابة والإيمان ، وأحدهما يغنى عن الآخر ، فإنه لا يكون مستجيباً لله من لا يكون مؤمناً ؟ قُلْنا : استجابته ارتسام أوامره ونواهيه التى تتولاه الجوارح ، والإيمان هو الذى تقتضيه القلوب . وأيضاً فإنّ الإيمان المعنىّ ههنا هو الإيمان المذكور فى قوله « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ... »(1) الآية ! » .

الثانى : قدمنا عن الراغب سرّ وصل هذه الآية بما قبلها ووجه التناسب ؛ وثَمَّتَ سرّ آخر قاله الحافظ ابن كثير . وعبارته :

وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللةً بين أحكام الصيام، إرشادٌ إلى الاجتهاد

---

(1) [٨/ الأنفال / ٢] ونصها : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

فى الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر . كما روى أبو داود الطيالسىّ فى «مسنده»(١) عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة ! . فكان عبد الله ابن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وروى ابن ماجة(٢) عن عبد الله ابن عمرو قال : قال النبىّ ﷺ : إنّ للصائم عند فطره دعوة ما تردّ . . ! وكان عبد الله يقول إذا أفطر : اللهمّ إنّى أسألك برحمتك التى وسعت كلّ شىء أن تغفر لى ..! وروى الإمام أحمد ، والترمذىّ ، والنسائىّ ، وابن ماجة(٣) : عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ : ثلاثة لا تردّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزّتى لأنصرنّك ولو بعد حين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

---

(١) حديث رقم ٢٢٦٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٧ ـ كتاب الصيام ، ٤٨ ـ باب الصائم لا ترد دعوته ، حديث ١٧٥٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٧ ـ كتاب الصيام ، ٤٨ ـ باب فى الصائم لا ترد دعوته ، حديث ١٧٥٢ (طبعتنا) .

وقوله تعالى :

« أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » إرشاد إلى ما شرعه فى الصوم ـ بعد بيان إيجابه على من وجب عليه ، وحاله معه حضراً أو سفراً ، وعدّته ـ من إحلال غشيان الزوج ليلا . وكأنّ الصحابة تحرّجوا عن ذلك ظنًّا أنّه من تتمّة الصوم ، ورأوا أن لا صَبْرَ لأنفسهم عنه ، فبيّن لهم أن ذلك حلال لا حرج فيه .

وقد روى البخاريّ[1] عن البراء رضى الله عنه قال : لمّا نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضانَ كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله : عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ .

إيذاناً بأنه أحلّه ولم يحرّمه ، إذْ لم يشرع من فضله ما فيه إعنات وحرج .

و (الرفث) أصله قول الفحش . وكُنى به هنا عن الجماع وما يتبعه . كما كُنى عنه فى قوله « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا »[2] وقوله « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ »[3] . فالله تعالى كريم يكنى ، وإيثار الكناية عنه ـ هنا ـ بلفظ الرفث الدال على معنى القبح ـ عدا بقية الآيات ـ استهجاناً لما

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٧ ـ باب أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٩] ونصها: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ؛ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٣] ونصها : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم . والكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه من سنن العرب . وللثعالبىّ فى آخر كتابه (فقه اللغة) فصل فى ذلك بديع .

ثم إنّ المستعمل الشائع : رفث بالمرأة ـ بالباء ـ وإنما عدى هنا بـ (إلى) لتضمنه معنى الإفضاء ، كما فى قوله « وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ »(١).

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه ستراً لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء ، كما أن اللباس ستر يمنع أن يبدو منه السَّوْأَة . وعلى ذلك كنى عن المرأة بالإزار ، وسمّى النكاح حصناً لكونه حصناً لذويه عن تعاطى القبيح .

وهذا ألطف من قول بعضهم : شبّه كل واحد من الزوجين ـ لاشتماله على صاحبه فى العناق والضمّ ـ باللباس المشتمل على لابسه ، وفيه قال الجعدىّ(٢):

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنّت فكانت عليه لباساً

وقال الزمخشرىّ : فإن قلتَ : ما موقع قوله « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » ؟ قلتُ : هو استئناف كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة ، قلّ صبركم عنهن ، وصعب عليكم اجتنابهنّ ؛ فلذلك رخّص لكم فى مباشرتهنّ .

« عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ » استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب وهو (اختيان النفس) ، أى : قلة تصبيرها من نزوعها إلى رغبتها . ومنه : خانَتْهُ رِجلاه إذا لم يقدر على المشى . أى : علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم لو لم يحلّ لكم ذلك

---

(١) [٤ / النساء / ٢١] ونصها : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً .

(٢) قائله النابغة الجعدىّ . قال فى اللسان : يقال : لبستُ امرأة أى تمتعت بها زمنا . ولبستُ قوماً أى تمليت بهم دهرا . والعرب تسمى المرأة لباسا وإزارا .

فأحلّه رحمةً بكم ولطفاً . وفي (الاختيان) وجه آخر وهو : أنّه عني به مخالفة الحقّ بنقض العهد ، أي : كنتم تظلمونها بذلك ـ بتعريضها للعقاب ـ لو لم يحلّ ذلك لكم . قالوا : والاختيان أبلغ من الخيانه ـ كالاكتساب من الكسب ـ ففيه زيادةٌ وشدّة .

ثمّ أشار تعالى إلى لطفه بالمؤمنين بتخفيفه ما كان يغلّهم ويثقلهم ويخونهم لولا رحمته، بقوله: « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أي : عاد بفضله وتيسيره عليكم برفع الحرج في الرفث ليلا « وَعَفَا عَنْكُمْ » أي : جاوز عنكم تحريمه ، و (العفو) بمعنى التوسعة والتخفيف . « فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » قال أبو البقاء : حقيقة (الآن) الوقت الذي أنت فيه ؛ وقد يقع على الماضي القريب منك ، وعلى المستقبل القريب وقوعه . تنزيلًا للقريب منزلة الحاضر وهو المراد ـ هنا ـ لأنّ قوله « فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » أي : فالوقت الذي كان يحرم عليكم الجماع فيه من الليل قد أبحناه لكم فيه ؛ فعلى هذا (الآن) ظرف ا (باشروهنّ) . وقيل : الكلام محمول على المعنى ، والتقدير : فالآن قد أبحنا لكم أن تباشروهنّ . ودلّ على المحذوف لفظ الأمر الذي يراد به الإباحة . فعلى هذا، (الآن) على حقيقته .

وأصل (المباشرة) إلصاق البشرة بالبشرة . كني بها عن الجماع الذي يستلزمها « وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » تأكيد لما قبله ، أي : ابتغوا هذه الرخصة التي أحلّها لكم . و (كتب) هنا ، إمّا بمعنى جعل كقوله « كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »(١)

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى : جعل ، وقوله « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »[١] « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »[٢] أى : أجعلها . أو بمعنى قضى ، كقوله « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا »[٣] أى : قضاه ، وقوله « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ »[٤] وقوله « لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ »[٥] أى : قضى .

قال الراغب : فى الآية إشارة فى تحرّى النكاح إلى لطيفة . وهى : أن الله تعالى جعل لنا شهوة النكاح لبقاء نوع الإنسان إلى غاية ! كما جعل لنا شهوة الطعام لبقاء أشخاصنا إلى غاية! فحقّ الإنسان أن يتحرّى بالنكاح ما جعل الله له على حسب ما يقتضيه العقل والديانة . فمتى تحرّى به حفظ النفس وحصن النفس على الوجه المشروع ، فقد ابتغى ما كتب الله له . وإلى هذا أشار من قال : عنى الولد .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٣] ونصها : رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٩ / التوبة / ٥١] ونصها : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(٤) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٥) [٣ / آل عمران / ١٥٤] ونصها : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » أباح تعالى الأكل والشرب ـ مع ماتقدّم من إباحة الجماع ـ فى أىّ الليل شاء الصائم إلى أنْ يتبيّن ضياء الصباح من سواد الليل . وشُبِّهَا بخيطين : أبيض وأسود ، لأنّ أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتدّ معه من غبش الليل ، كالخيط الممدود . قال أبو دُؤاد الإيادىّ[١] :

فلما أضاءت لنا سدفةٌ ولاح من الصبح خيطٌ أنارا ..!

وقوله « مِنَ الْفَجْرِ » بيان للخيط الأبيض . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ، لأن بيان أحدهما بيان للثانى . وقد رفع بهذا البيان الالتباسَ الذى وقع أول أمر الصيام . كما روى الشيخان[٢] وغيرهما عن سهل بن سعد قال : أنزلت « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ » ولم ينزل « مِنَ الْفَجْرِ »

---

(١) قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت فى تفسير الطبرىّ ، بالصفحة رقم ٥٢٩ من الجزء الثالث ، ما نصه :

يصف فرساً . والسدفة ظلمة الليل فى لغة نجد ، والضوء فى لغة قيس . وهى أيضاً اختلاط الضوء والظلمة جميعاً ، كوقت ما بين صلاة الفجر إلى أول الإسفار .

وأراد أبو دؤاد اختلاط الظلمة والضوء . ولاح : بدا وظهر من بعيد . والخيط : اللون هنا يكون ممتداً كالخيط .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٨ـ باب قوله : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ـ إلى قوله ـ : تَتَّقُونَ ، حديث ٩٧٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٣٥ (طبعتنا) .

وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يزال يأكل حتى يتبيّن له رؤيتهما ، فأنزل الله بعده « مِنَ الْفَجْرِ » فعلموا إنما يعنى الليل والنهار.

ورويا أيضاً[١] ـ واللفظ لمسلم ـ عن عدىّ بن حاتم قال : لما نزلت « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » قال له عدىّ : يا رسول الله ! إنّى أجعل تحت وسادتى عقالين : عقالًا أبيض وعقالًا أسود، أعرف الليل من النهار . فقال رسول الله ﷺ : إن وسادك لعريض. إنما هو سواد الليل وبياض النهار ..!

قال ابن كثير : ومعنى قوله : إن وسادك لعريض أى : إن كان يسع تحته الخيطين المرادين من هذه الآية ؛ فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب ..! وجاء فى بعض هذه الألفاظ : إنك لعريض القفا . ففسرّه بعضهم بالبلادة ـ وهو ضعيف ـ بل يرجع إلى هذا ؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض ، والله أعلم . انتهى .

وفى الإتيان بلفظ التفعّل فى قوله تعالى « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ... » إشعار بأنه لا يكفى إلّا التبيّن الواضح لا تباشير الضوء . وقد روى مسلم[٢] عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرّنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا . وحكاه حماد بيديه ، قال: يعنى معترضاً . وفى لفظ آخر عنه : لايغرنكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر ـ أو قال : ـ حتى ينفجر الفجر . وروى الإمام أحمد[٣] عن قيس بن طلق عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال ليس الفجر المستطيل

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٨ ـ باب قوله: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ... الخ ، حديث ٩٧٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٣٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٤١ـ٤٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالجزء الرابع ، صفحة ٢٣ (طبعة الحلبىّ) .

فى الأفق. ولـكنه المعترض الأحمر . ورواه الترمذىّ[١] بلفظ : كلوا واشربوا ولا يهيدنـكم الساطع المصعد ، وكلوا واشربوا حتى يعترض لـكم الأحمر . قال : وفى الباب عن عدىّ بن حاتم وأبى ذرّ وسمرة . ثم قال : حديث طلق بن علىّ حديثٌ حسن غريبٌ من هذا الوجه ، والعمل على هذا ـ عند أهل العلم ـ أنه لا يحرم على الصائم الأكل والشرب حتى يكون الفجر الأحمر المعترض ، وبه يقول أهل العلم . انتهى .

قال بعضهم: المراد بالأحمر الأبيض ، كما فسّر به حديث[٢] «بعثت إلى الأحمر والأسود». وقال شمر : سموا الأبيض أَحْمَرَ تطيّرًا بالأبرص ، حكاه عن أبى عمرو بن العلاء . ويظهر أنّه لا حاجة إلى هذا ، فإنّ طلوع الفجر يصحبه حمرة . وفى (القاموس) الفجر ضوء الصباح ، وهو حمرة الشمس فى سواد الليل . فافهم .

وقال الحافظ عبد الرزاق فى (مصنّفه) : أخبرنا ابن جريج عن عطاء : سمعت ابن عباس يقول : هما فجران ، فأمّا الذى يسطع فى السماء فليس يحلّ ولا يحرّم شيئاً ، ولـكن الفجر الذى يستنير على رؤوس الجبال هو الذى يحرم الشراب!. وقال عطاء : فأمّا إذا سطع سطوعاً فى السماء ـ وسطوعه أن يذهب فى السماء طولًا ـ فإنه لا يحرم به شرابٌ للصائم ، ولا صلاةٌ ، ولا يفوت به الحجّ. ولـكن إذا انتشر على رؤوس الجبال حرم الشراب للصيام ، وفات الحجّ .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء . وهكذا روى عن غير واحدٍ من السلف. رحمهم الله ..! انتهى .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٦ ـ كتاب الصوم ، ١٥ ـ باب ما جاء فى بيان الفجر .

(٢) أخرجه الدارمىّ فى : ١٧ ـ كتاب السير ، ٢٨ ـ باب الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا .
ونصه : عن أبى ذرّ أن النبىّ ﷺ قال : أعطيت خمساً لم يعطهن نبىّ قبلى : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلّت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، ونصرت بالرعب شهراً ، يرعب منى العدوّ مسيرة شهر ، وقيـل لى : سل تُعْطَهْ ، فاختبأت دعوتى شفاعة لأمتى ، وهى نائلة منكم ، إن شاء الله تعالى ، من لا يشرك بالله شيئاً .

« ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ » أى : صوم كلّ يوم « إِلَى اللَّيْلِ » أى : إلى ظهور الظلمة من قبل المشرق وذلك بغروب الشمس . وكلمة (إلى) تفيد أنّ الإفطار عند غروب الشمس . كما جاء فى (الصحيحين)[١] عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم .

قال ابن القيّم : أى أفطر حكماً وإن لم ينوه . أو دخل فى وقت فطره ، كما فى : أصبح وأمسى .

وقد كان ﷺ يعجل الفطر ويحضّ عليه ، كمافى (الصحيحين)[٢] : لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر . وروى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ : يقول الله عزّ وجلّ : إنّ أحبّ عبادى إلىّ أعجلهم فطرا . ورواه الترمذىّ وقال : حديث حسن غريب . وعن أنس بن مالك[٤] قال : كان رسول الله ﷺ يفطر ، قبل أن يصلّى ، على رطبات ، فإن لم تكن رطبات فتميرات ، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء . رواه الترمذىّ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٣ ـ باب متى يحلّ فطر الصائم .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٥١ (طبعتنا) ونصه : إذا أقبل الليل ، وأدبر النهار ، وغابت الشمس ، فقد أفطر الصائم .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٥ ـ باب تعجيل الإفطار ، عن سهل بن سعد .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٤٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، بالصفحة ٢٣٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

والترمذىّ فى : ٦ ـ كتاب الصيام ، ١٣ ـ باب ماجاء فى تعجيل الإفطار .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٦ ـ كتاب الصيام ، ١٠ ـ باب ما جاء فىما يستحب عليه الإفطار .

وقال : حسن غريب . وروى الإمام أحمد[١] عن ليلى ، امرأة بشير بن الخصاصية ، قالت : أردت أن أصوم يومين مواصلةً فمنعني بشير وقال : إنّ رسول الله ﷺ نهى عنه وقال : يفعل ذلك النصارى ، ولـكن صوموا كما أمركم الله ثمّ أتمّوا الصيام إلى الليل ، فإذا كان الليل فأفطروا .

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة ، النهي عن الوصال . وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئاً . ففي (الصحيحين)[٢] عن أنس رضى الله عنه ، عن النبيّ ﷺ قال: لا تواصلوا ..! قالوا : إنك تواصل ، قال : لستُ كأحدٍ منكم ، إنّي أطعم وأسقى ـ أو ـ إنّي أبيت أطعم وأسقى . قال الترمذيّ : وفي الباب عن عليّ ، وأبي هريرة ، وعائشة ، وابن عمر ، وجابر ، وأبي سعيد ، وبشير بن الخصاصية . أي: فالنهي عنه قد ثبت من غير وجهٍ. نَعَمْ! من أحبّ أنْ يواصل إلى السحر فله ذلك ، كما في حديث[٣] أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تواصلوا . فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده صفحة ٢٢٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٨ ـ باب الوصال .

ومسلم في : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٦٠ (طبعتنا) ونصه : عن أنس قال : واصل رسـول الله ﷺ في أول شهر رمضان . فواصل ناس من المسلمين . فبلغه ذلك . فقال « لو مُدّ الشهر لواصلنا وصالا . يدع المتعمقون تعمقهم . إنـكم لستم مثلي . (أو قال : إني لست مثلـكم) إني أظل يطعمني ربي ويسقيني .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٨ ـ باب الوصال ونصه : إنه سمع النبيّ ﷺ يقول « لا تواصلوا . فأيكم إذا أراد أن يواصل ، فليواصل حتى السحر » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال « إني لست كهيئتكم . إني أبيت لي مُطعِم يطعمني وساقٍ يسقين » .

قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله . قال: لست كهيئتكم . إني أبيت لى مُطعم يطعمنى وساقٍ يسقينى . أخرجاه فى (الصحيحين) . والمراد بهذا الطعام والشراب ، ما يغذّيه الله به من المعارف ، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته ، وقرة عينه بقربه ، وتنعّمه بحبّه ، والشوق إليه ؛ وتوابع ذلك من الأحوال التى هى غذاء القلب ، ونعيم الأرواح ، وقرّة العين ، وبهجة النفوس والروح والقلب . بما هو أعظم غذاء ، وأجوده ، وأنفعه . وقد يقوى هـذا الغذاء حتى يغنى عن غذاء الأجسام مدّة من الزمان .

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثيرٍ من الغذاء الحيوانىّ. ولاسيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذى قد قرّت عينه بمحبوبه . وتنعّم بقربه والرضاء عنه . وألطافُ محبوبه وهداياه وتحفه تصل إليـه كلّ وقت . ومحبوبه حفىّ به ، معتزّ بأمره ، مكرمله غاية الإكرام مع المحبة التامة له . أفَليسَ فى هذا أعظم غذاء لهذا المحبّ؟ فكيف بالحبيب الذى لا شىء أجلّ منه ، ولا أعظم ، ولا أجمل ، ولا أكمل ، ولا أعظم إحساناً ، إذا امتلأ قلب المحبّ بحبّه ، وملك حبّه جميع أجزاء قلبه وجوارحه ، وتمكّن حبّه منه أعظم تمكّن ؟ وهذا حاله مع حبيبه . أفليس هـذا المحبّ عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً ؟ ولهذا قال: إنّى أظلّ عند ربى يطعمنى ويسقينى . ولو كان ذلك طعاماً وشراباً للفم ـ كما قيل ـ لما كان صائماً . فضلاً عن كونه مواصلاً . كذا فى (زاد المعاد) .

وقد روى ابن جرير عن عبدالله بن الزبير وغيره من السلف ، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة . وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضةً لأنفسهم . لا أنهم كانوا يفعلونه عبادةً . والله أعلم .

قال ابن كثير : ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرشادىّ مِنْ باب الشفقة . كما جاء فى حديث عائشة[1] : رحمةً لهم . فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشّمون ذلك ويفعلونه . لأنهم كانوا يجدون قوةً عليه .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٨ ـ باب الوصال ، عن عائشة =

« وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ » قال عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : هذا فى الرجل يعتكف فى المسجد فى رمضان أو فى غيره . فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلًا أو نهاراً حتى يقضى اعتكافه . وقال الضحاك : كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحدٍ : أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية . قال ابن أبى حاتم : روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدّىّ ، والربيع بن أنس ، ومقاتل قالوا : لا يقربها وهو معتكف .

قال ابن كثير : وهـذا الذى حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء : أنّ المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفاً فى مسجده . ولو ذهب إلى منزله لحاجةٍ لابدّ له منها، فلا يحلّ له أن يثبت فيه إلّا بمقدار مايفرغ من حاجته تلك ـ من قضاء الغائط أو الأكل ـ وليس له أن يقبّل امرأته ، ولا أن يضمّها إليه ، ولا أن يشتغل بشىء سوى اعتكافه .

ثم قال ابن كثير : المراد بالمباشرة ، الجماع ودواعيه من تقبيلٍ ومعانقةٍ ونحو ذلك . فأمّا معاطاة الشىء ونحوه فلا بأس به . فقد ثبت فى (الصحيحين)[١] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يدنى إلىّ رأسه فأرجله وأنا حائض . وكان لايدخل البيت إلّا لحاجة الإنسان . وفى (الصحيحين)[٢] أيضاً : أنّ صفية أم المؤمنين كانت تزور

= قالت : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال ، رحمة لهم . فقالوا : إنك تواصل ؟ قال « إنى لست كهيئتكم . إنى يطعمنى ربى ويسقين » .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٣ـ كتاب الاعتكاف،٣ـ باب لايدخل البيت إلا لحاجة.
ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٦و٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٨ـ باب هل يخرج المعتكف =

النبيّ ﷺ وهو معتكف في المسجد . فتتحدّث عنده ساعةً ثمّ ترجع إلى منزلها . فيقوم النبيّ ﷺ ليمشي معها حتى يبلغها دارها ، وذلك في الليل .

تنبيهان

الأول : قال الراغب : ظاهر ذكر المساجد يقتضي جواز الاعتكاف في كلّ مسجدٍ .

الثاني : في ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشادٌ وتنبيهٌ على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام . كما ثبت في السنّة عن رسول الله ﷺ (١) أنّه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ ، ثم اعتكف أزواجه من بعده . ثم إنّ حقيقة الاعتكاف هو المكث في بيت الله تقرباً إليه . وهو من الشرائع القديمة .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في هديه ﷺ في الاعتكاف : لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً وعلى جمعيته على الله . ولمُّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى . فإنّ شعث القلب لا يلمّه إلّا الإقبال على الله تعالى . وكان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالطة الأنام ، وفضول الكلام ، وفضول المنام ، مما يزيده شعثاً ، ويشتّته في كلّ وادٍ . ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أويضعفه ، أويعوقه ويوقفه ـ اقتضت رحمة العزيز الرحيم لعباده أنْ شرع لهم من الصوم مايذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوّقة له عن سيره إلى الله تعالى . وشرعه بقدر

= لحوائجه إلى باب المسجد .

ومسلم في : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ٢٤و٢٥ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ١ ـ باب الاعتكاف في العشر الأواخر ، عن عائشة .

ومسلم في : ١٤ ـ كتاب الاعتكاف ، حديث ٣و٤و٥ (طبعتنا) .

المصلحة بحيث ينتفع به العبد فى دنياه وأخراه . ولا يضرّه ولا يقطعه من مصالحه العاجلة والآجلة . وشرع لهم الاعتكاف الذى مقصوده وروحه ، عكوف القلب على الله تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلوة به ، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق ، والاشتغال به وحده سبحانه . بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه فى محلّ هموم القلب وخطراته . فيستولى عليه بدلها ، ويصير الهمّ به كلّه ، والخطرات كلّها بذكره . والفكرة فى تحصيل مراضيه ومايقرب منه. فيكون أنسه بالله بدلًا عن أنسه بالخلق . فيعدّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة فى القبور حين لا أنيس له ولامايفرح به سواه . فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم . ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم شرع الاعتكاف فى أفضل أيام الصوم وهو العشر الأخير من رمضان . ولم ينقل عن النبىّ ﷺ أنه اعتكف مفطراً فقط . بل قد قالت عائشة : لا اعتكاف إلّا بصوم . ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلّا مع الصوم . ولا فعله رسول الله ﷺ إلّا مع الصوم . فالقول الراجح فى الدليل الذى عليه جمهور السلف ، أنّ الصوم شرطٌ فى الاعتكاف. وهو الذى كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيميّة . وأمّا الكلام ، فإنّه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لاينفع فى الآخرة . وأمّا فضول المنام ، فإنّه شرع لهم من قيام الليل ما هو أفضل من السهر وأحمد عاقبة . وهو السهر المتوسط الذى ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد . ومدارُ أرباب الرياضات والسلوك على هذه الأركان الأربعة . وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج النبوىّ المحمدىّ . ولم ينحرف انحراف الغالين ولا قصر تقصير المفرطين . ثم قال:

كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ . وتركه مرةً فقضاه فى شوال . واعتكف مرةً ـ فى العشر الأول ، ثمّ الأوسط ، ثمّ العشر الأخير ـ يلتمس ليلة القدر ، ثمّ تبيّن له أنها فى العشر الأخير ، فداوم على اعتكافه حتى

لحق بربه عزّ وجلّ . وكان يأمر بخباء[1] فيضرب له فى المسجد يخلو فيه بربّه عزوجلّ . وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله . فأمر به مرّةً فضرب . فأمر أزواجُه بأخبيتهنّ فضربت . فلمّا صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية . فأمر بخبائه فقوّض . وترك الاعتكاف فى شهر رمضان حتى اعتكف فى العشر الأول من شوال . وكان يعتكف كلّ سنة عشرة أيام . فلمّا كان فى العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً . وكان يعارضه جبريل[2] بالقرآن كلّ سنة مرةً . فلمّا كان ذلك العام عارضه به مرّتين . ولم يباشر امرأةً من نسائه ـ وهو معتكف ـ لا بقبلةٍ ولا بغيرها . وكان ـ إذا اعتكف ـ طرح له فراشه ، ووضع له سريره فى معتكفه . وكان إذا خرج لحاجته مرّ بالمريض ، وهو على طريقه ، فلا يعرج له إلّا سأل عنه . واعتكف مرّةً فى قبة تركية ، وجعل على سدّتها حصيراً . كلّ هذا تحصيلًا لمقصود الاعتكاف وروحه.

« تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا » يعنى : تلك الأحكام التى ذكرت فى الصيام والاعتكاف من تحريم الأكل والشرب والجماع . وشبّه تلك الأحكام بالحدود الحاجزة بين الأشياء لكونها حاجزةً بين الحق والباطل . فإن من عمل بها كان فى حيز الحق ، ومن خالفها وقع فى الباطل . ونهى عن قربها كيلا يدانى الباطل فضلاً أن يتخطى إليه . فالنهى عن مكان القرب من الحدود التى هى الأحكام ، كناية عن النهى عن قرب الباطل . لكون الأول لازماً للثانى . وبذلك يحصل الجمع بين هذه الآية وآية « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٧ ـ باب الأخبية فى المسجد .
ومسلم فى : ١٤ ـ كتاب الاعتكاف ، حديث ٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٧ ـ باب كان جبريل يعرض القرآن على النبىّ ﷺ ، عن أبى هريرة .

فَلَا تَعْتَدُوهَا »[١] ويندفع التنافى . وقوله « فَلَا تَقْرَبُوهَا » أبلغ من « لَا تَعْتَدُوهَا » لأنه نهىٌ عن قرب الباطل بطريق الكناية التى هى أبلغ من التصريح . وذلك نهىٌ عن الوقوع فى الباطل بطريق التصريح « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ » أى : كما بيّن ما أمركم به ونهاكم عنه ـ فى هذا الموضع ـ يبين للناس ماشرعه لهم على لسان نبيه ﷺ « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » المحارم فيعرفون كيف يطيعون ويهتدون . كما قال تعالى « هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »[٢] .

قال الرازىّ : والغرض من قوله تعالى « كَذَٰلِكَ ... الخ » تعظيم حال البيان ، وتعظيم رحمته على الخلق فى ذكره مثل هذا البيان .

وفيه أيضاً تقريرٌ للأحكام السابقة ، والترغيب إلى امتثالها بأنها شرعت لأجل التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَأْكُلُو أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » قال ابن جرير : يعنى تعالى ذكره بذلك : ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل . فجعل بذلك آكل مال أخيه بالباطل

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٩] .

كالآ كل مال نفسه بالباطل، ونظير ذلك قوله تعالى: « وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ »(١). وقوله « وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ »(٢) بمعنى : لايلمز بعضكم بعضاً ولا يقتل بعضكم بعضاً . لأنه تعالى جعل المؤمنين إخوة . وكذلك تفعل العرب . تكنى عن أنفسها بأخواتها ، وعن أخواتها بأنفسها لأن أخا الرجل عندها كنفسه ؛ فتأويل الكلام : ولا يأكل بعضكم أموال بعض فيما بينكم بالباطل ، وأكله بالباطل أكله من غير الوجه الذى أباحه الله لآكليه . اه .

و (بينكم) : إما ظرف لـ(تأكلوا) بمعنى : لاتتناولوها فيما بينكم بالأكل، أو حال من (الأموال) أى : لا تأكلوها كائنة بينكم ودائرة بينكم . و (بالباطل) فى موضع نصب بـ(تأكلوا) أى : لاتأخذوها بالسبب الباطل ـ أى الوجه الذى لم يبحه الله تعالى ـ ويجوز أن يكون حالاً من (الأموال) أى : لاتأكلوها متلبسة بالباطل . أو من الفاعل فى (تأكلوا) أى : لا تأكلوها مبطلين أى متلبسين بالباطل « وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ » أى : تخاصموا بها ـ أى : بأموالهم ـ إلى الحكام ؛ مجزوم عطفاً على النهى ، ويؤيده قراءة أُبىّ « وَلَا تُدْلُوا » بإعادة (لا الناهية) والإدلاء : مأخوذ من إدلاء الدلو وهو إرسالها فى البئر للاستقاء ثم استعير لكلّ إلقاء قول أو فعل توصّلاً إلى شىء ؛ ومنه يقال للمحتجّ:

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١١] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

أدلى بحجّته . كأنه يرسلها ليصير إلى مراده ، كإدلاء المستقى الدلو ليصل إلى مطلوبه من الماء. وفلان يدلى إلى الميت بقرابة أو رحم ، إذا كان منتسباً إليه . فيطلب الميراث بتلك النسبة . ﻓ(الباء) صلة الإدلاء تجوزاً به عن الإلقاء كما ذكرنا . والمعنى: لاتلقوا أمرها ـ والحكومة فيها ـ إلى الحكام . أولا تلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة ليعينوكم على اقتطاع أموال الناس . وقد لعن رسول الله ﷺ(١) الراشي والمرتشي والرائش ـ وهو الواسطة الذى يمشى بينهما ـ رواه أهل السنن . وذلك لأن ولىّ الأمر إذا أكل هذا السحت ـ أعنى الرشوة المسماة بالبرطيل ، وتسمى أحياناً بالهدية وغيرها ـ احتاج أن يسمع الكذب من الشهادة الزور وغيرها مما فيه إعانة على الإثم والعدوان ؛ وولىّ الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، هذا مقصود الولاية . وإذا كان الوالى يمكّن من المنكر بمال يأخذه كان قد أتى بضدّ المقصود، مثل من نصبته ليعينك على عدوّك فأعان عدوّك عليك . وبمنزلة من أخذ مالاً ليجاهد به فى سبيل الله فقاتل المسلمين. و (الحكّام) : جمع حاكم وهو منفذ الحكم بين الناس كالحَكَم ، محرّكة. « لِتَأْكُلُوا » ـ أى : بواسطة حكمهم الفاسد، وبالتحاكم إليهم ـ « فَرِيقًا» ـ أى : طائفة وقطعة ـ « مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ » بما يوجب إثماً ـ كشهادة الزور واليمين الفاجرة وحكمهم الفاسد ـ فإنه لايفيد الحلّ والظلم . ﻓ(الباء) للسببية. متعلّقها (لتأكلوا) . وجوز كونها للمصاحبة . فالمجرور حال من فاعل (لتأكلوا) أى : متلبسين بالإثم « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى : أنكم على الباطل. وارتكابُ المعصية ـ مع العلم بقبحها ـ أقبح ، وصاحبه أحقّ بالتوبيخ ، فالتقييد لكمال تقبيح حالهم .

قال الراغب : أى : إن خفى ظلمكم على الناس فإنه لا يخفى عليكم، تنبيهاً على أنّ الاعتبار بما عليه الأمر فى نفسه ، وما علمتم منه لا بما يظهر .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام، ٩ ـ باب ماجاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم ، عن أبى هريرة . وقال الترمذىّ : حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح .

وقال ابن كثير فى (تفسيره) : قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : هذه الآية فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بيّنة ، فيجحد المال ، ويخاصم إلى الحكام . وهو يعرف أنّ الحقّ عليه . وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام . وكذا روى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدّىّ ، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن ابن زيد أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وقد ورد فى (الصحيحين)[1] عن أم سلمة : أنّ رسول الله ﷺ قال : ألا إنما أنا بشر . وإنما يأتينى الخصم . فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضى له . فمن قضيت له بحقّ مسلم فإنما هى قطعة من نار . فليحملها أو ليذرها . فدلّت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أنّ حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر . فلا يُحل فى نفس الأمر حراماً هو حلال ، ولا يحرم باطلًا هو حلال . وإنما هو ملزم فى الظاهر . فإن طابق فى نفس الأمر فذاك . وإلّا فللحاكم أجره . وعلى المحتال وزره . ولهذا قال تعالى فى آخر الآية « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى : تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه فى كلامكم . قال قتادة: اعلم يا بُنىّ آدم ..! أنّ قضاء القاضى لا يحل لك حراماً ، ولا يحقّ لك باطلًا . وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى وتشهد به الشهود ، والقاضى بشرٌ يخطئُ ويصيب . واعلموا أنّ من قضى له بباطلٍ أنّ خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة . فيقضى على المبطل للمحقّ بأجود مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ١٦ ـ باب إثم من خاصم فى باطل وهو يعلمه . ونصه : عن أم سلمة رضى الله عنها ، زوج النبىّ ﷺ ، عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال « إنما أنا بشر . وإنه يأتينى الخصم . فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدَق ، فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها ».

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ٥ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية : بلغنا أنهم قالوا : يا رسول الله ! لِمَ خلقت الأهلّة ؟ فنزلت . وروى أبونعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال: نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غَنْم. قالا : يارسول الله ! ما بال الهلال يبدو ـ أو يطلع ـ دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستدير ، ثم لايزال ينقص ويدقّ حتى يعود كما كان ، لا يكون على حالٍ واحد ؟ فنزلت .

ومعنى كونها « مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ » معالم لهم فى حَلِّ دَيْنِهِم ، ولصومهم ، ولفطرهم ، وأوقات حجهم ، وأجائرهم ، وأوقات الحيض وعِدَدِ نسائهم ، والشروط التى إلى أجل . فكلّ هذا مما لايسهل ضبط أوقاتها إلّا عند وقوع الاختلاف فى شكل القمر زيادةً ونقصاً. ولهذا خالف بينه وبين الشمس التى هى دائمة على حالةٍ واحدة .

قال بعض المفسّرين : ثمرة الآية أنّ الأحكام الشرعية ـ كالزكاة والعِدَد للنساء والحمل ـ تتعلق بشهور الأهلّة لا بشهور الفرس . أمّا ما تعلّق بالعقود والأفعال المتعلقة بفعل بنى آدم فيتبع فيه العرف من حسابهم . بالأهلة أو بشهور الفرس. فهذا حكم ، وذاك حكم آخر .

وقد ذكر تعالى هـذا المعنى فى آيات . كقوله سبحانه : وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ(١) . وقوله : فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا

(١) [١٠/ يونس/ ٥] ونصها : هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَاخَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ[(١)] . أى : من غير افتقارٍ إلى مراجعة المنجِّم وحساب الحاسب، رحمةً منه تعالى وفضلًا . وإفراد «الحجّ» بالذكر هنا تنويهاً بشأنه .

وقال القفال : نكتة إفراده بيان أنّ الحج مقصور على الأشهر التى عينها الله تعالى لفرضه ، وأنَّه لا يجوز نقل الحجّ من تلك الأشهر إلى أشهر ، كما كانت العرب تفعل ذلك فى النسىء . والله أعلم .

والجمهور على فتح حاء (الحَجّ) ؛ والحسن على كسرها فى جميع القرآن . قال سيبويه: هما مصدران كالردّ والذكر ؛ وقيل : بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . و (الأهلّة) جمع هلال . وجمعه باختلاف زمانه . وهو : غرّة القمر إلى ثلاث ليال أوسبع ، ثمّ يسمّى قمراً ، وليلة البدر لأربع عشرة .

قال أبو العباس : سمى الهلال هلالًا لأنّ الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه ، وسمى بدراً لمبادرته الشمس بالطلوع كأنّه يعجلها المغيب . ويقال : سمى بدراً لتمامه وامتلائه . وكلّ شىء تمّ فهو بدر .

تنبيه :

الجواب على الرواية الثانية فى سبب نزول الآية من الأسلوب الحكيم . وهو تلقّى السائل بغير ما يتطلب ـ بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً للسائل على أن ذلك الغير هو الأوْلى بحاله أو المهم له . فلمّا سألوا عن السبب الفاعلىّ للتشكلات النورية فى الهلال ، أجيبوا بما ترى من السبب الغائىّ. تنبيهاً على أنّ السؤال عن الغاية والفائدة هو أليق بحالهم . لأنّ درك الأسباب الفاعلية لتلك التشكلات مبنىّ على أمور من علم الهيئة لا عناية للشرع بها . فلو

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] ونصها : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا .

أجيبوا : بأنّ اختلاف تشكلات الهلال . بقدر محاذاته للشمس ، فإذا حاذاها طرف منه استنار ذلك الطرف . ثم تزداد المحاذاة والاستنارة حتى إذا تمت بالمقابلة امتلأ . ثمّ تنقص المحاذاة والاستنارة حتى إذا حصل الاجتماع أظلم بالكلية ـ لكان هذا الجواب اشتغالًا بعلم الهيئة الذى لا ينتفع به فى الدين ، ولا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم . والنبىّ ﷺ إنما بعث لبيان ذلك . وقد روى أنّ النبىّ ﷺ قال : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس باباً من السحر. زادمازاد . أخرجه الإمام أحمد[1] وأبوداود[2] وابن ماجة[3] عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال علىّ رضى الله عنه : من طلب علم النجوم تكهّن. وهو من العلم الذى قال فيه رسول الله ﷺ : علم لا ينفع ، وجهل لايضرّ ! والمقصود أنّ الجواب، على الرواية الثانية، من الأسلوب الحكيم. إشعارا بأنّ الأَوْلى السؤال عن الحكمة فيه .

قال السكاكىّ فى (المفتاح) : ولهذا النوع ـ أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر ـ أساليب متفنّنة ، إذ مامن مقتضى كلام ظاهرىّ إلّا ولهذا النوع مدخل فيه بجهةٍ من جهات البلاغة . ترشدإليه تارةً بالتصريح ، وتارةًبالفحوى . ولكلٍّ من تلك الأساليب عرق فى البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ، ولا كأسلوب الحكيم فيها . وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب كما قال :

(١) أخرجة الإمام أحمد فى : صفحة ٢٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ٢٠٠٠ (طبعة المعارف) . ونصه : ما اقتبس رجل علماً من النجوم إلا اقتبس بها شعبة من السحر . ما زاد زاد .

(٢) أخرجه أبوداود فى: ٢٧ـ كتاب الطب ، ٢٢ ـ باب فى النجوم ونصه : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب ، ٢٨ ـ باب تعلّم النجوم ، حديث ٣٧٢٦ (طبعتنا) .

أتت تشتكى عندى مزاولة القرى ، وقد رأت الضيفان ينحون منزلى
فقلت ، كأنى ما سمعت كلامها : هُمُ الضيف . جِدِّى فى قراهم وعجِّلى..!

أو السائل بغير ما يتطلب كما قال تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ..الآية قالوا فى السؤال : ما بال الهلال يبدو دقيقاً ..! الخ ؟ فأجيبوا بما ترى . وكما قال : يسألونك ماذا ينفقون؟[1] قل : ما انفقتم من خيرٍ فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكينِ وابن السبيل. سألوا عن بيان ماينفقون ، فأجيبوا ببيان المصرف . ينزل سؤال السائل منزلة سؤالٍ غير سؤاله ، لتوخّى التنبيه له بِألْطَفِ وجهٍ على تعديه عن موضع سؤالٍ هو أَليقُ بحاله أن يسأل عنه ، أو أَهمّ له إذا تأمل . وأنّ هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه فى معرض المسحور ؛ وهل أَلانَ شكيمة الحجاج لذلك الخارجىّ ، وسلّ سخيمته ، حتى آثر أن يحسن ، على أن يسىء ؛ غير أنْ سَحَرَهُ بهذا الأسلوب ؟ إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله « لأحملنك على الأدهم ! » فقال متغابياً : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ! مبرزاً وعيده فى معرض الوعد ، متوصلاً أن يريه بألطف وجه : أنّ امرأً مثله ـ فى مسند الإمرة المطاعة ـ خليقٌ بأن يُصْفِد لا أن يَصْفِد ، وأنْ يعد لا أن يُوعِد .

« وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

قال الراغب فى (تفسيره) : الباب معروف . وعنه استعير لمدخل الأمور المتوصل به إليها . وقيل فى العلم باب كذا . وقد كان سئل عليه السلام عن زيادة القمر ونقصانه . فأنزل الله هذه الآية تنبيهاً على أظهر فائدته للحسّ ، وأبينها له . ثمّ قال : وليس البّر بأن تأتوا

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٥] ونصها : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ، قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ .

البيوت من ظهورها أى : بأن تطلبوا الأمر من غير وجهه . وذلك أنّه يقال : أتى فلان البيت من بابه ـ إذا طلب الشيء من وجهه . وقال الشاعر * أتيت المروءةَ من بابها * وأتى البيت من ظهره : إذا طلب الأمر من غير وجهه . وجعل ذلك مثلًا لسؤالهم النبيّ ﷺ عمّا هو ليس من العلم المختصّ بالنبوّة . وإنّ ذلك عدولٌ عن النهج . وذلك أنّ العلوم ضربان :

دنيوىّ ، يتعلق بأمر المعاش ـ كمعرفة الصنائع ، ومعرفة حركات النجوم ، ومعرفة المعادن ، والنبات ، وطبائع الحيوانات . وقد جعل لنا سبيلًا إلى معرفته على غير لسان نبيّه عليه السلام .

وشريعة : وهو البرّ . ولا سبيل إلى أخذه إلّا من جهته . وهو أحكام التقوى ..!

فلمّا جاؤا يسألون النبىّ ﷺ ، عمّا أمكنهم معرفته من غير جهته ، أجابهم . ثمّ بيّن لهم أنّه ليس البرّ تركَ النهج فى السؤال من النبىّ ماليس مختصاً بعلم نبوّته . ولكنّ البرّ هو مجرّد التقوى : وذلك يكون بالعلم والعمل المختصّ بالدين .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : المراد من هذه الآية ، ما كانوا يعملونه من النسىء . فإنهم كانوا يخرجون الحجّ عن وقته الذى عينه الله له . فيحرمون الحلال ويحللون الحرام . فذِكْرُ إتيان البيوت من ظهورها مَثَلٌ لمخالفة الواجب فى الحجّ وشهوره .

وأمّا مارواه البخارىّ(١) وغيره عن أبى إسحق قال: سمعت البراء رضى الله عنه يقول: نزلت هذه الآية فينا . كانت الأنصار إذا حجّوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها . فجاء رجلٌ من الأنصار فدخل من قبل بابه . فكأنه عُيّر بذلك ، فنزلت « وليس البرّ ... » الآية . فالمراد ، من نزولها فى ذلك ، صدقها عليه حسبما رآه . لا أنّ ذلك كان سبب نزولها . كما بينّا مراراً معنى قولهم : نزلت الآية فى كذا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٦ ـ كتاب العمرة ، ١٨ ـ باب قول الله تعالى : وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .

وقد أشار، لهذا، الراغبُ ـ بعد حكايته هذه الرواية وما قاله أبومسلم ـ بقوله: وكلّ ذلك لا يُدفع أن تتناوله الآية . لـكنّ الأليق أن تؤول الآية بما تقدم ذكره من أنّ معنى « وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا » أي : تحروا فى كلّ عملٍ إتيان الشىء من وجهه ، تنبيهاً على أن مايطلب من غير وجهه صعب تناوله . ثمّ قال « وَاتَّقُوا اللَّهَ » حثًّا لنا أنْ نجعل تقوى الله شعارَنا فى كلّ ما نتحراه . وبيّن أنّ ذلك ذريعة إلى تحصيل الفلاح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » المقاتلة فى سبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين . وفى قوله « الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » تهييجٌ وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله . أى : كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم . كما قال : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً[1] « وَلَا تَعْتَدُوا » أى : بابتداء القتال . أو بقتال من نُهيتم عن قتاله ، من النساء ، والشيوخ ، والصبيان ، وأصحاب الصوامع ، والذين بينكم وبينهم عهدٌ . أو بالمثلة ، أو بالمفاجأة من غير دعوة . « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » أى : المتجاوزين حكمه فى هذا وغيره .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« وَاقْتُلُوهُمْ » أى : الذين يقاتلونكم « حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » أى : وجدتموهم . « وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ » أى : من مكة . فإنّ قريشاً أخرجوا المسلمين منها . والمسلمون أخرجوا المشركين يوم الفتح . « وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » أى : المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان ، يتعذب به ، أشدّ عليه من القتل . أى : إنّ فتنتهم إيّاكم فى الحرم عن دينكم ــ بالتعذيب ، والإخراج من الوطن ، والمصادرة فى المال ــ أشدُّ قبحاً من القتل فيه . إذْ لابلاءَ على الإنسان أشدّ من إيذائه على اعتقاده الذى تمكّن من عقله ونفسه . ورآه سعادة له فى عاقبة أمره . فالجملة دفع لما قد يقع من استعظام قتلهم فى مثل الحرم ، وإعلامٌ بأنّ القصاص منهم بالقتل دون جرمهم بفتنة المؤمنين . لأن الفتنة أشدّ من القتل . « وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ » لأنَّ حرمته لذاته . وحرمة سائر الحرم من أجله . وهذا بمثابة الاستثناء من قوله تعالى«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ» « فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ» أى : فيه فلا تفتقرون إلى الفرار عن الحرم «فَاقْتُلُوهُمْ» فيه إذْ لا حرمة لهم لهتكهم حرمة المسجد الحرام « كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » لا يترك لهم حرمة كما لم يتركوا حرمة الله فى آياته .

تنبيــه :

دلّت الآية على الأمر بقتال المشركين فى الحرم ، إذا بدأوا بالقتال فيه ، دفعاً لصولتهم.

كما بايع النبيّ ﷺ أصحابه يوم الحديبية[1] تحت الشجرة على القتال . لمّا تألب عليه بطون قريش ومَنْ والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذٍ . ثم كفّ الله القتال بينهم فقال : « وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ »[2] . وقال ﷺ لخالد ومن معه يوم الفتح[3] : إن عرض لكم أحدٌ من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافونى على الصفا ... فما عرض لهم أحدٌ إلّا أناموه ، وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلًا . كما فى السيرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَإِنِ انْتَهَوْا » أى : عن القتال « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : فكفّوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم تخلقاً بصفتى الحقّ تعالى المذكورتين وهما : المغفرة والرحمة ، هذا ظاهر المساق . وقال بعضهم : « فَإِنِ انْتَهَوْا » أى : عن الشرك والقتال « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لما سلف من طغيانهم « رَحِيمٌ » بقبول توبتهم وإيمانهم .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ .

(٢) [٤٨ / الفتح / ٢٤] ونصها : وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٨٥و٨٦ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

« وَقَاتِلُوهُمْ » أى : هؤلاء الذين نسبناهم إلى قتالكم وإخراجكم وفتنكم «حَتَّىٰ لَا تَكُونَ » ـ أى : لا توجد فى الحرم ـ « فِتْنَةٌ » أى تقوٍّ بسببه يفتنون الناس عن دينهم ، ويمنعونهم من إظهاره والدعوة إليه « وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » خالصاً أى : لا يُعبد دونه شىء فى الحرم . ولا يُخشى فيه غيره ، فلا يفتن أحد فى دينه . ولا يؤذى لأجله .

وفى (الصحيحين)(١) عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قال : أمرت أنْ أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . فإذا فعلوا ذلك عصموا منىّ دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام ، وحسابهم على الله .

« فَإِنِ انْتَهَوْا » عن قتالكم فى الحرم « فَلَا عُدْوَانَ » فلا سبيل لكم بالقتل «إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » المبتدئين بالقتل .

وروى البخارىّ فى (صحيحه)(٢) عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا : إنّ الناس قد ضُيِّعوا ، وأنتَ ابن عمر وصاحب النبىّ ﷺ ، فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعنى أن الله حرم دم أخى ..! قالا : ألم يقل الله « وَقَاتِلُوهُمْ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ـ كتاب الإيمان، ١٧ ـ باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث ٢٤ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٠ ـ باب وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ .

حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ » ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

ثمّ ساق البخاريّ رواية أخرى وفيها : قال ابن عمر : فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الرجل يفتن فى دينه إمّا قتلوه وإمّا يعذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

وقوله تعالى :

« الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ » إيذان بأنّ مراعاة حرمة الشهر واجبةٌ لمن راعى حرمته ، وإنّ مَن هتكها اقتصّ منه ؛ فهتك حرمته بهتكهم حرمته . فكما يقاتلون عند المسجد الحرام ـ إذا قاتلوا فيه ـ يقاتلون فى الشهر الحرام إذا قاتلوا فيه .

وقد روى الإمام أحمد[1] بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلّا أن يُغزَى ـ أو يُغزَوا ـ فإذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ .ولهذا ، لمّا سار ﷺ فى ذى القعدة، سنة ست معتمرا، وخيّم بالحديبية، وبلغه أنّ عثمان قُتل ـ وكان بعثه فى رسالة إلى المشركين ـ بايع أصحابه ـ وكانوا ألفاً وأربعمائة ـ تحت الشجرة على قتال المشركين . فلما بلغه أنّ عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك ، وجنح إلى المسالمة والمصالحة ، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصّن فَلّهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصرٌ لها بالمنجنيق . واستمرّ عليها إلى كمال أربعين يوماً . كما ثبت فى (الصحيحين) عن أنس . فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٣٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

ولم تفتح . ثم كرّ راجعاً إلى مكة . واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضاً عام ثمان .

« وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ » أى : متساوية ، فلا يفضل شهر حرام على آخر . بحيث يمتنع هتك حرمته لهتكهم حرمة مادونه ، على أنا لانهتك حرمة الشهر والمسجد الحرام والحرم ، بل نهتك حرمة من هتك حرمة أحدها ـ قاله المهايمى .

و (الحرمات) جمع حرمة . وهى ما يحفظ ويرعى ولا ينتهك . و (القصاص) : المساواة . والكلام على حذف المضاف . أى : ذوات قصاص . أو المصدر بمعنى المفعول أى : مقاصة ، أو الحمل بطريق المبالغة . « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » أمر بالعدل حتى فى المشركين ، كما قال : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ[(١)] وقال : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا[(٢)] . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فى هتك حرمة الشهر والمسجد والحرم بدون هتكهم ، وفى زيادة الاعتداء « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى : بالمعونة والنصر والحفظ والتأييد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أمرٌ بالإنفاق فى سائر وجوه القربات والطاعات . ومن أهمها : صرف الأموال فى قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوّهم .

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] ونصها : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .

(٢) [٤٢/ الشورى/ ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

وقوله تعالى « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » أى : ما يؤدى إلى الهلاك أى : لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك ، وذلك بالتعرض لما تستوخم عاقبته ، جهلاً به .

قال الراغب : وللآية تأويلان بنظرين أحدهما : إنه نهى عن الإسراف فى الإنفاق ، وعن التهوّر فى الإقدام ، والثانى : إنه نهى عن البخل بالمال ، وعن القعود عن الجهاد . وكلا المعنيين يراد بها . فالإنسان ، كمأنه منهىٌّ عن الإسراف فى الإنفاق ، والتهور فى الإقدام ، فهو منهى عن البخل والإحجام عن الجهاد ، ولهذا قال تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا »(١) الآية ، وقال : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ »(٢) الآية .

ولمّا كان أمر الإنفاق أخصّ بالأنصار الذين كانوا أهل الأموال ، لتجرد المهاجرين عنها ، وقد اشتهر فى هذه الآية حديث أبى أيوب الأنصارىّ ، رواه أبو داود ، والترمذىّ ، والنسائىّ وابن حبان فى (صحيحه) ، والحاكم فى (مستدركه) وغيرهم . . . ولفظ الترمذىّ(٣) : عن أسلم أبى عمران قال : كنا بمدينة الروم . فأخرجوا إلينا صفاً عظيما من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر . وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة ابن عبيد . فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل عليهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يلقى بيديه إلى التهلكة . . ! فقام أبو أيوب الأنصارىّ فقال : يا أيها الناس ! إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . لما أعزّ الله

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٧] ونصها : وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٢٩] ونصها : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٩ ـ حدثنا عبد بن حُمَيْد .

الإسلام ، وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرًّا ـ دون رسول الله ﷺ ـ إنّ أموالنا قدْ ضاعت ، وإنّ الله قد أعزّ الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ماضاع منها ! فأنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ يردّ علينا ماقلنا « وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » فكانت التهلكة الإقامةَ على الأموال ، وإصلاحها ، وتركنا الغزو . فما زال أبو أيوب شاخصاً فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم . هذا حديث حسن غريب صحيح .

أقول : إنكار أبى أيوب رضى الله عنه إمّا لكونه لايقول بعموم اللفظ بل بخصوص السبب ، وإمّا لردّ زعم أنها نزلت فى القتال . أى : فى حمل الواحد على جماعة العدوّ كما تأولوها . وهذا هو الظاهر . وإلّا فاللفظ يقتضى العموم ، ووروده على السبب لايصلح قرينة لقصره على ذلك . ولا شبهة أنّ التعبد إنما هو باللفظ الوارد وهو عام .

وقد استشهد بعموم الآية عمرو بن العاص فيما رواه ابن أبى حاتم بسنده : أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث أخبر أنهم حاصروا دمشق . فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع إلى العدوّ وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص ، فأرسل إليه عمرو فردّه . وقال عمرو : قال الله « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » !

وقد روى فى سبب نزولها آثار ضعيفة ساقها ابن كثير وهى ـ والله أعلم ـ من باب صدق عمومها على ماروِوه .

تنبيه :

قال الحاكم : تدلّ الآية على جواز الهزيمة فى الجهاد إذا خاف على النفس . وتدلّ على جواز ترك الأمر بالمعروف إذا خاف ، لأنّ كل ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة . وتدلّ على جواز مصالحة الكفار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه أو على المسلمين . كما فعله رسول الله ﷺ عام الحديبية . وكما فعله أمير المؤمنين علىّ عليه السلام بصفين . وكما فعله الحسن عليه السلام من مصالحة معاوية . وتدل أيضاً على جواز مصالحة الإمام بشىء من أموال الناس إذا

خشى التهلكة. ويؤيده أنه ﷺ أراد أن يصالح يوم الأحزاب بثلث ثمار المدينة حتى شاور سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأشارا بترك ذلك[١] . وهو لايعزم إلا على مايجوز .

لطيفة : (الإلقاء) لغةً ، طرح الشيء ، عُدّى بإلى لتضمن معنى الانتهاء ، والباء مزيدة فى المفعول لتأكيد معنى النهى . والمراد بالأيدى : الأنفس ، فذِكْرُ الجزْءِ وإرادةُ الكلّ لمزيد اختصاص لها باليد . بناءً على أنّ أكثر ظهور أفعال النفس بها . والتهلكة والهلاك والهلك واحد . فهى مصدر . أى : لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك .

والتهلكة بضمّ اللام . قال الخارزنجى : لا أعلم فى كلام العرب مصدراً على تفعلة ـ بضمّ العين ـ إلّا هذا .

وقال اليزيدىّ هو من نوادر المصادر . ولا يجرى على القياس !

قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يقال : أصلها التهلِكة كالتجربة والتبصرة ونحوها . على أنها مصدر من هلك . فأبدلت من الكسرة ضمّة . كما جاء الجُوار فى الجِوار. هذا ماذكروه.

قال الفخر الرازىّ ـ ولله دره ـ بعد نقله نحو ما سبق : وإنى لأتعجب كثيرا من تكلفات هؤلاء النحويين فى أمثال هذه المواضع ، وذلك أنهم لو وجدوا شعراً مجهولاً يشهد لما أرادوه فرحوا به واتخذوه حجّة قوية . فورود هذا اللفظ فى كلام الله تعالى . المشهود له من الموافق والمخالف بالفصاحة ـ أولى بأن يدلّ على صحّة هذه اللفظة واستقامتها .

« وَأَحسِنُوا » أى : تحرّوا فعل الإحسان ، أى : الإتيان بكلّ ما هو حسن ، ومن أجلّه الإنفاق ، وقوله « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . قال الراغب : نبه بإظهار المحبة للمحسنين على شرف منزلتهم وفضيلة أفعالهم .

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٦٧٦ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

« وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » أى : أدّوها تامّين بمناسكهما المشروعة لوجه الله تعالى .

قال الراغب : قيل : « أتمّوا » خطاب لمن خرج حاجاً أو معتمراً ، فأمر أن لا يصرف وجهه حتى يتمهما . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله . واحتجّ به فى وجوب إتمام كلّ عبادة دخل فيها الإنسان متنفلاً . وأنه متى أفسدها وجب قضاؤها . وقيل : إنه خطاب لهم ولمن لم يتلبس بالعبادة . وذكر لفظ الإتمام تنبيه على توفية حقها وإكمال شرائطها . وعلى هذا قوله تعالى « ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ »(١) وإلى هذا ذهب الشافعىّ رحمه الله واحتجّ به فى وجوب العمرة . وإنما قال فى الحجّ والعمرة « لله » ولم يقل ذلك فى الصلاة والزكاة ، من أجل أنهم كانوا يتقربون ببعض أفعال الحجّ والعمرة إلى أصنامهم : فخصهما بالذكر لله تعالى حثاً على الإخلاص فيهما ، ومجانبة ذلك الاعتقاد المحظور .

« فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ » أى : حبسكم عدوّ عن تمام الحج أو العمرة وأردتم التحلل « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » أى فعليكم ، أو فالواجب ، أو فأهدوا ما استيسر ؛ يقال : يسُر الأمر

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

واستيسر كما يقال : صَعُب واستصعب ؛ و (الهدى) بتخفيف الياء وتشديدها جمع هَدْية وهَدِيّة. وهوماأهدى إلىمكة منالنعم لينحر تقرباً به إلى الله . قال ثعلب: الهدى، بالتخفيف، لغة أهل الحجاز . وبالتثقيل ، على فعيل ، لغة بنى تميم وسفلى قيس. وقد قرئ بالوجهين جميعاً فى الآية . وشاهد الهدىّ مثقلا من كلامهم قول الفرزدق :

حَلَفْتُ بربّ مكة والمصلّى ... وأعناقِ الهـدىّ مقلّدَاتِ

وشاهد الهدية كذلك قول ساعدة بن جُؤَيَّة :

إنى وأيديهم وكل هدية ... ممـا تثج له ترائب تثعب

وأعلى الهدى بدنة . وأدناه شاة . والمعنى : أن المحرم إذا أُحْصر وأراد أن يتحلل، تحلل بذبح هدى تيسر عليه : من بدنة أو بقرة أو شاة .

تنبيـه :

قال الراغب : ظاهر قوله تعـالى « أُحْصِرْتُمْ » أنه لا فرق فيه بين أن يحصر بمكة أو بغيرها . وبعد عرفة أو قبلها. و كذلك لافرق فى الظاهر بين أن يحصره عدوّ مسلم أوغيره. وظاهره يقتضى أنه لافصل بين إحصار العدوّ وإحصار المرض . لولا أن الآية نزلت فىسبب العدوّ فلا يجوز أنتتعدى إلّا بدلالة . ولأنّ قوله « فَإِذَا أَمِنْتُمْ» يدلّ على أنالمراد بالإحصار هو بالعدوّ .

وقد يقال: العبرة فى أمثاله بعمومه كما ذهب إليه ثلّة منالسلف . فقد روى ابن أبىحاتم عن ابن مسعود ، وابن الزبير ، وعلقمة ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، ومجاهد ، والنخعى، وعطاء ، ومقاتل أنهمقالوا : الإحصار من عدوّ أو مرض أو كسر . وقالالثورىّ: الإحصار من كل شيء آذاه .

وثبت فى (الصحيحين)[1] عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٥ ـ باب الأكفاء فى الدين . ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٠٤و١٠٥ (طبعتنا) .

ابن عبد المطلب فقالت : يا رسول الله ! إني أريد الحجّ وأنا شاكية . فقال : حجّي واشترطي أن محلي حيث حبستني . ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله .

ومن دلالة الآية ما قاله الراغب : إن ظاهرها يقتضي أن لا قضاء على المحصَر لأنه قال « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » واقتصر عليه .

« وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ » أي : الموضع الذي يحلّ فيه نحره ، وهو مكانه الذي يستقرّ فيه . يعني موضع الإحصار . وبلوغه إياه كناية عن ذبحه فيه . واستعمال بلوغ الشيء محله في وصوله إلى مايقصد منه ـ شائع . ولمّا اعتمر النبيّ ﷺ وأصحابه عام الحديبية ، وحصرهم كفّار قريش عن الدخول إلى الحرم ، حلقوا وذبحوا هديهم بها ولم يبعثوا به إلى الحرم .

وقد ساق الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) بعض مافي قصة الحديبية من القواعد الفقهية في فصلٍ قال فيه : ومنها أنّ المحصَر ينحر هديه حيث أُحصر من الحل أو الحرم ، وأنّه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره في الحرم إذا لم يصل إليه ، وأنّه لا يتحلل حتى يصل إلى محله. بدليل قوله تعالى « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ »(١) . ومنها أنّ الموضع الذي نحر فيه الهدي كان من الحلّ لا من الحرم ، لأنّ الحرم كله محل الهدي .

وقال الإمام مالك في « الموطأ »(٢) : من حُبس بعدوٍّ فحال بينه وبين البيت ، فإنه يحل

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

(٢) أخرجه في الموطأ في : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٩٨ (طبعتنا) .

من كل شيء ، وينحر هديه ، ويحلق رأسه حيث حبس ، وليس عليه قضاء .

قال[١] : فهذا الأمر عندنا فيمن أحصر بعدوٍّ كما أحصر النبيّ ﷺ وأصحابه .

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » أى: فمن كان منكم ـ معشرَ المحرمين ـ مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشَّعْر ويحوجه إلى الحلق ، أو كان به أذًى من رأسه ـ كجراحةٍ وقملٍ ـ فعليه ، إنْ حلق ، فدية من صيام أو صدقة أو نسك . وقد نزلت هذه الآية فى كعب بن عُجْرة الأنصاريّ رضىالله عنه قال[٢] : حُملت إلى النبيّ ﷺ والقمل يتناثر على وجهى ، فقال : ما كنت أُرى أنّ الجهد قد بلغ بك هذا ..! أما تجد شاةً؟ قلت : لا ! قال: صم ثلاثة أيامٍ أو أطعم ستة مساكين لكلّ مسكين نصف صاع من طعامٍ واحلق رأسك . فنزلت فىّ خاصةً وهى لكم عامّة ، رواه الشيخان وغيرهما . واللفظ للبخاريّ . وروى الإمام أحمد[٣] عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن كعب ابن عجرة قال : كنّا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون ، وقد حصرنا المشركون ، وكانت لى وفرة ، فجعلت الهوامّ تساقط على وجهى ، فمرّ علىّ النبيّ ﷺ فقال : أيؤذيك هوامّ رأسك ؟ قلت : نعم . فأمره أنْ يحلق . قال : ونزلت هذه الآية . قال ابن عباس : إذا كان (أَوْ أَوْ) فأيّةً أخذت أجزأ عنك ! وعامة العلماء : إنه يخيّر فى هذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدّق بفرق ـ وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدّان ـ وإن شاء ذبح شاة وتصدّق بها على الفقراء ، أىّ ذلك فعل أجزأه . ولمّا كان لفظ القرآن فى بيان

---

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٩٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٢ ـ باب فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، حديث ٩٢١ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٨٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٤١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

الرخصة ، جاء بالأسهل فالأسهل . ولمّا أمر النبيّ ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده أولًا إلى الأفضل فقال : أما تجد شاة ؟ فكلٌّ حسن في مقامه ، ولله الحمد والمنّة ـ أفاده ابن كثير .

تنبيـه :

استفيد من الآية أحكام :

الأول : جواز الحلق من المحرم ، واللبس للمخيط للضرورة، ووجوب الفدية عليه ، وذلك لبيان سبب النزول .

الثـاني : تحريم الحلق ولبس المخيط لغير عُذر ، وهذا مأخوذ من المفهوم لأنه مصرّح به، وذلك إجماع .

الثالث : أنّ الفدية الواجبة تكون من أجناس الثلاثة وهى : الصيـام ، أو الصدقة ، أو النسك ، وقد ورد بيانها فى حديث كعب .

الرابع : أنّ الفدية واجبة على التخيير كما بينّا .

قال الراغب : وظاهر الآية يقتضى أنه لا فرق بين قليل الشعر وكثيره ، بخلاف ما قال أبو حنيفة رحمه الله، حيث لم يلزم إلّا بحلق الثلث . وغيره لم يلزم إلّا بحلق الربع .

لطيفـة :

أصل النسك العبادة ، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التى يتقرب بها إلى الله تعالى .

قال أبو البقاء : والنسك ـ فى الأصل ـ مصدر بمعنى المفعول لأنه من : نَسَك ينسك ، والمراد به ههنا المنسوك ، ويجوز أن يكون اسماً لا مصدراً ، ويجوز تسكين السين . انتهى .

« فَإِذَا أَمِنْتُمْ » أى : كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعـد الإحصار آمنين « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ » أى : بإحرامه بها فى أشهر الحجّ . ليستفيد الحلّ حين وصوله إلى البيت ، ويستمرّ حلالًا فى سفره ذلك « إِلَى الْحَجِّ » أى: إلى وقت الإحرام بالحجّ « فَمَا »

أي: فعليه ما « اسْتَيْسَرَ » أي: تيسّر « مِنَ الْهَدْيِ » من النعم ، يكون هذا الهدى لأجل ما تمتع به بين النسكين من الحلّ .

وفى (النهاية) : صورة التمتـع أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحجّ ، فإذا أحرم بالعمرة بعد إهلاله شوالًا فقد صار متمتعاً بالعمرة إلى الحجّ ، وسمّى به . لأنه : إذا قدم مكة ، وطاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، حلّ من عمرته ، وحلق رأسه ، وذبح نسكه الواجب عليه لتمتعه ، وحلّ له كلّ شيء كان حرم عليه فى إحرامه من النساء والطيب، ثمّ ينشىء بعد ذلك إحراماً جديداً للحجّ وقت نهوضه إلى منى ، أو قبـل ذلك ، من غير أن يجب عليه الرجوع إلى الميقات الذى أنشأ منه عمرته ، فذلك تمتعه بالعمرة إلى الحجّ ، أى انتفاعه وتبلغه بما انتفع به من حلق وطيب وتنظف وقضاء تفث وإلمام بأهله ، إن كانت معه .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وكان من هديه ﷺ ذبح هدى العمرة عند المروة، وهدى القِران بمنى . وكذلك كان ابن عمر يفعل . ولم ينحر ﷺ قط إلّا بعد أن حلّ ، ولم ينحره قبل يوم النحر ولا أحد من الصحابة، البتة .

« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ » الهدى « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ » أي : بعد الإحرام وقبل الفراغ من أعماله ، والأوْلى سادس ذى الحجّة وسابعه وثامنه .

قال الراغب : إن قيل : كيف قال « فِي الْحَجِّ » ؟ ومتى أحرم يوم عرفة لا يمكنه صيام ثلاثة أيام فى الحج لأنه منهيّ عنه فى يوم النحر وأيام التشريق؟ قيل : الواجب على المتمتع أن يحرم بالحجّ على وجه يمكنه الإتيان بالصيام لثلاثة أيام ، وذلك بتقديم الإحرام قبل يوم عرفة . وقد قال ابن عمر وعائشة : يصوم أيام التشريق . ويحملان النهى على صوم أيام منى على غير المتمتع.

« وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ » أى : إلى أهليكم ، أو إذا أخذتم فى الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحجّ .

قال الراغب : وإطلاق اللفظ يحتمل الأمرين جميعاً ، فيصحّ حمله عليهما .

إلّا أنّ الذى يرجح الوجه الأول ماروى فى (الصحيحين)[١] من حديث ابن عمر الطويل وفيه : فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيامٍ فى الحجّ وسبعة إذا رجع إلى أهله .

« تِلْكَ عَشَرَةٌ » فذلكة حساب ، أى : إجمال بعد تفصيل ، وفائدتها : أن لا يتوهم أنّ الواو بمعنى (أو) وأنّ الكلام على التخيير ، بل المجموع بدل الهدى ..! وأن يعلم العدد جملةً كما علم تفصيلًا ، فيحاط به من وجهين فيتأكد العلم . وفى المثل : علمان خير من علم، فإنّ أكثر العرب لا يعرف الحساب . فاللائق الخطاب الذى يفهمه الخاص والعامّ . وهو ما يكون بتكرار الكلام وزيادة الإفهام ..!

وفائدة ثالثة : وهو أنّ المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لها ..!

وفائدة رابعة : أشار لها الراغب وهو :

إنّ قوله « تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ » استطراد فى الكلام ، وتنبيه على فضيلة علم العدد ، ولذا قيل : العدد أول العلوم وأشرفها . أما أنه أولُ، فلأن ما عداه معدول منه ، وبه يفصل ويميز . وأمَّا كونه أشرف ، فلأنه لا اختلافَ فيه ولا تغيّر ، بل هو لازم طريقة واحدة . فذكر العشرة ووصفها بالكاملة . إذ هى عدد كمل فيه خواص الأعداد ، فإنّ الواحد مبدأ العدد ، والاثنين أول العدد ، والثلاثة أول عدد فرد ، والأربعة أول عدد زوج محدود ـ أى مجتمع من ضرب عدد فى نفسه ـ والخمسة أول عدد دائر ، والستة أول عدد تام ـ أى إذا أخذ جميع أجزائه لم يزد عليه ولم ينقص منه ـ والسبعة أول عدد أوّل ـ أى لا يتقدمه عدد بعده ـ والثمانية أول عدد زوج الزوج ، والتسعة أول عدد مثاث ، والعشرة أول عدد ينتهى إليه العدد . لأن ما بعده يكون مكرراً مما قبله ، فإذن العشرة هى العدد الكامل ..!

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحجّ ، ١٠٤ ـ باب من ساق البدن معه ، حديث ٨٧٩ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٧٤ (طبعتنا) .

« كَامِلَةٌ » صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة فى المحافظة على العدد ، ففيه زيادة توصية لصيامها ، وأن لا يتهاون بها ، ولا ينقص من عددها ، كأنه قيل : تلك عشرة كاملة، فراعوا كمالها ولا تنقصوها . « ذَٰلِكَ » أى : وجوب دم التمتع أو بدله لمن لم يجد « لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى : بل كان أهله على مسافة الغيبة منه، وأمّا من كان أهله حاضريه ـ بأن يكون ساكناً فى مكة ـ فهو فى حكم القرب من الله، فالله تعالى يجيره بفضله.

هذا ، وقال بعض المجتهدين : إنّ ذلك إشارة إلى التمتع المفهوم من قوله « فَمَنْ تَمَتَّعَ » وليست للهدى والصوم ، فلا متعة ولا قِران لحاضرى المسجد الحرام، عنده .

وروى ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا إنّ ابن عباس كان يقول : يا أهل مكة ! لا متعة لكم . أحلّت لأهل الآفاق وحرّمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم وادياً ـ أو قال : يجعل بينه وبين الحرم وادياً ـ ثمّ يهلّ بعمرة ..!

وروى عبد الرزاق عن طاووس قال : المتعة للناس لا لأهل مكّة . ثمّ قال : وبلغنى عن ابن عباس مثل قول طاووس ، والله أعلم .

و (الأهل) : سكن المرء من زوجٍ ومستوطن . و (الحضور) : ملازمة الوطن .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » ـ فى الجناية على إحرامه ـ « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » لمن جنى على إحرامه أكثر من شدّة الملوك على من أساء الأدب بحضرته . وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

تنبيهات

الأول : فى قوله تعالى « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ..الآية» دليل على مشروعية التمتع . كما جاء فى (الصحيحين)[1] عن عمران بن حصين قال : أُنزلت آية المتعة فى كتاب الله ففعلناها مع

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٣ ـ باب فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ، حديث ٨٣٢ . =

رسول الله ﷺ ، ولم يُنْزَلْ قرآن يحرّمه، ولم يَنْه عنها حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء .

وروى مالك فى « الموطأ »(١) عن عبد الله بن عمر أنه قال : والله ! لأنْ أعتمر قبل الحجّ وأُهدى أحبّ إلىّ من أن أعتمر بعد الحجّ فى ذى الحجّة ..!

وفى (الصحيحين)(٢) : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى ولجعلتها عمرة . يعنى كما فعل أصحابه ﷺ عن أمره .

الثانى : قال ابن القيّم فى (زاد المعاد) : قد ثبت أنّ التمتع أفضل من الإفراد لوجوه كثيرة : منها : أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بفسخ الحجّ إليه ، ومحالٌ أن ينقلهم من الفاضل إلى المفضول الذى هو دونه . ومنها : أنه تأسف على كونه لم يفعله بقوله : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها متعة . ومنها : أنه أمر به كلّ من لم يسق الهدى . ومنها : أنّ الحجّ ، الذى استقرّ عليه فعله وفعل أصحابه ، القِرَانُ ممن ساق الهدى ، والتمتع لمن لم يسق الهدى ، ولوجوهٍ كثيرة غير هذه ..!

الثالث : قال الراغب : لا يجب الدم أو بدله فى التمتع إلّا بأربع شرائط : إيقاع العمرة فى أشهر الحجّ والتحلّل منها فيه ، والثانى : أن يثنى الحجّ من سنته ، والثالث : أن لا يرجع إلى الميقات لإنشاء الحجّ ، الرابع : أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام .

= ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٧٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٨١ ـ باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

« الْحَجُّ » أى : أوقات أعماله . « أَشْهُرٌ » وهى : شوال وذو القعدة وذو الحجّة . أى عشره الأول . نزل منزلة الكلّ لغاية فضله .

قال الثعلبيّ : وقد جاء فى تفسير أشهر الحجّ وعشر ذى الحجّة ـ وفى بعضها تسع ـ فمن عبر بالتسع أراد الأيام ، ومن عبر بالعشر أراد الليالى ؛ ولقوله ﷺ : الحجّ عرفة . وقد تبينت أنه يفوت الوقوف بطلوع الفجر .

وقوله « مَعْلُومَاتٌ » أى : قبل نزول الشرع عندالناس ، لا يشكان عليهم . وآذن هذا أنّ الأمر بعد الشرع على ما كان عليه «فَمَنْ فَرَضَ» أى : أوجب على نفسه « فِيهِنَّ الْحَجَّ» بإحرامه « فَلَا رَفَثَ » أى : فمقتضى إحرامه أنْ لا يوجد جماع ولا مقدماته ولا فحش من القول « وَلَا فُسُوقَ » أى: خروج عن حدود الشريعة بارتكاب محظورات الإحرام وغيرها كالسباب والتنابز بالألقاب ، « وَلَا جِدَالَ » أى: مماراة أحد من الرفقة والخدم والمكارين « فِي الْحَجِّ » أى: فى أيامه ، بل ينبغى أن يوجد فيها كلّ خيرٍ من خيرات الحجّ . والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه ، والإشعار بعلة الحكم ؛ فإنّ زيارة البيت المعظم ، والتقرب بها إلى الله عزّ وجلّ ، من موجبات ترك الأمور المذكورة ، وإيثار النفى للمبالغة فى النهى ؛ والدلالة على أنّ ذلك حقيق بأن لا يكون، فإنّ ما كان منكراً مستقبحاً فى نفسه، ففى تضاعيف الحجّ أقبح ، كلبس الحرير فى الصلاة .

لطيفة :

قال بعضهم : النكتة فى منع هذه الأشياء على أنها آداب لسانية : تعظيم شأن الحرم ،

وتغليظ أمر الإثم فيه ، إذ الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فللملأ آداب غير آداب الخلوة مع الأهل . ويقال فى مجلس الإخوان مالا يقال فى مجلس السلطان . ويجب أن يكون المرء فى أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكمل الآداب ، وأفضل الأحوال . وناهيك بالحضور فى البيت الذى نسبه الله سبحانه إليه ..! وأما السرّ فيها على أنها محرمات الإحرام، فهو أن يتمثل الحاج أنّه بزيارته لبيت الله تعالى مقبلٌ على الله تعالى ، قاصدٌ له . فيتجرّد عن عاداته ونعيمه ، وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره ، بحيث يساوى الغنىّ الفقير ، ويماثل الصعلوك الأمير ، فيكون الناس من جميع الطبقات فى زىٍّ كزىّ الأموات ، وفى ذلك ـ من تصفية النفس ، وتهذيبها ، وإشعارها بحقيقة العبودية لله ، والأخوّة للناس ـ ما لا يقدر قدره ، وإن كان لا يخفى أمره ..!

« وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ » حثّ على الخير عقيب النهى عن الشرّ ، وأنْ يستعملوا مكان القبيحِ من الكلامِ الحسنَ ، ومكانَ الفسوقِ البرَّ والتقوى ، ومكانَ الجدالِ الوفاقَ والأخلاقَ الجميلة ..! وقد رُوى(١) فيمن حجّ ولم يرفث ولم يفسق أنّه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه ! وذلك ، لأنّ الإقبال على الله تعالى بتلك الهيئة ، والتقلب فى تلك المناسك على الوجه المشروع ، يمحو من النفوس آثارَ الذنوب وظلمتها ، ويدخلها فى حياةٍ جديدةٍ : لها فيها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت . . ! « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ »

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٧ ـ كتاب المحصر ، ٩ ـ باب قول الله تعالى: **فَلَا رَفَثَ** حديث ٨١٠

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٣٨ (طبعتنا) .

ولفظ البخارىّ : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » .

روى البخاريّ[١] عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان أهل اليمن يحُجون ولا يتزوّدون ويقولون : نحن المتوكلون ! فإذا قدموا مكّة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ .

أى : وتزوّدوا ما تتبلغون به وتكفّون به وجوهكم عن الناس ، واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم . فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، أى : الاتقاء عن الإبرام والتثقيل عليهم ..!

وقال ابن عمر : إنّ من كرم الرجل طيب زاده فى السفر . وكان يشترط على من صحبه الجودة .. نقله ابن كثير .

ويقال فى معنى الآية : وتزودوا من التقوى للمعاد ، فإنّ الإنسان لابدّ له من سفرٍ فى الدنيا ، ولابدّ فيه من زادٍ ، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب ؛ وسفر من الدنيا إلى الآخرة ، ولابدّ فيه من زادٍ أيضاً وهو تقوى الله ، والعمل بطاعته ، واتقاء المحظورات ..! وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول ، فإنّ زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة ..! وفى هذا المعنى قال الأعشى[٢] :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ... ولاقيت بعد الموت مَنْ قد تزوّدا
ندمتَ على أنْ لا تكون كمثله ... وأنك لم تُرْصِدْ لِمَا كان أَرصدا ..!

وثَمَّتْ وجه آخر : وهو أنّ قوله تعالى « وَتَزَوَّدُوا » أمر باتخاذ الزاد هو طعام السفر ، وقوله « فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ » إرشاد إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها بعد

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٦ ـ باب قول الله تعالى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، حديث ٨١١ .

(٢) من قصيدة قالها الأعشى يمدح النبىّ ﷺ . ومطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عيناكَ ليلةَ أَرْمَدَا ... وعَادَكَ ما عاد السليمَ المُسَهَّدَا

الأمر بالزاد للسفر فى الدنيا ، كما قال تعالى « وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ »[١] لما ذكر اللباس الحسىّ نبّه مرشداً إلى اللباس المعنوىّ وهو الخشوع والطاعة ، وذكر أنه خيرٌ من هذا وأنفع .

« وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » أى : اتقوا عقابى وعذابى فى مخالفتى وعصيانى يا ذوى العقول والأفهام ! فإنّ قضية اللبّ تقوى الله ، ومَنْ لم يتقه من الألباء فكأنه لا لبّ له ..! كما قال تعالى « أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »[٢] !

وقد قرىء بإثبات الياء فى « اتقون » على الأصل ، وبحذفها للتخفيف ودلالة الكسرة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ)

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » قال الراغب : كانت العرب تتحاشى من التجارة فى الحجّ ، حتى إنّهم كانوا يتجنبون المبايعة إذا دخل العشر ، وحتى سمّوا مَن تولّى متجراً فى الحجّ : الداج دون الحاج ؛ فأباح الله ذلك ؛ وعلى إباحة ذلك ، دلّ

---

(١) [٧ / الأعراف / ٢٦] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] ونصها : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

قوله «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ... ـإلى قوله ـ ليشهدوا منافع لهم»(١) وقوله : « وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ »(٢) .

وقد روى البخاريّ(٣) عن ابن عباس قال: كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » فى مواسم الحجّ .

ففى الآية الترخيص لمن حجّ فى التجارة ونحوها من الأعمال التى يحصل بها شىء من الرزق ـ وهو المراد بالفضل هنا ـ ومنه قوله تعالى : فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ(٤) . أى : لا إثم عليكم فى أن تبتغوا فى مواسم الحجّ رزقاً ونفعاً وهو الربح فى التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحجّ ..! « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » ـ أى : دفعتم منها ـ « فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » أى : بالتلبية ، والتهليل ، والتكبير ، والثناء ، والدعوات . و (المشعر الحرام) : موضع بالمزدلفة ، ميمه مفتوحة وقد تكسر ، وقد وَهِمَ من ظنه جبيلًا بها . سمّى به لأنه معلم للعبادة وموضع لها ـ كذا فى « القاموس وشرحه » .

ونقل الفخر عن الواحدىّ فى (البسيط) : إنّ (المشعر الحرام) هو المزدلفة . سمّاها الله تعالى بذلك ، لأنّ الصلاة والمقام والمبيت به ، والدعاء عنده . واستقربه الفخر قال : لأن الفاء فى قوله « فَاذْكُرُوا اللهَ ... الخ » تدلّ على أنّ الذكر عند المشعر الحرام يحصل عقيب الإفاضة من عرفات ، وما ذاك إلّا بالبيتوتة بالمزدلفة . انتهى .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٧] . (٢) [٧٣ / المزمل / ٢٠] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٥٠ ـ باب التجارة أيام الموسم والبيع فى أسواق الجاهلية ، حديث ٩٠٤ .

(٤) [٦٢ / الجمعة / ١٠] ونصها : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

قال البيضاوىّ : ويؤيد الأول ما روى جابر[١] : أنه صلى الله عليه وسلم لما صلّى الفجر ـ يعنى بالمزدلفة بغلس ـ ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام. أى : فإنه يدلّ على تغاير المزدلفة والمشعر الحرام لمكان مسيره صلى الله عليه وسلم منها إلى المشعر الحرام . ! وإنما قال (يؤيد) لأنه يجوز أنْ يؤول المشعر الحرام فى الحديث بالجبل ، إمّا بحذف المضاف ، أو بتسمية الجزء باسم الكلّ ـ أفاده السيلكوتى .

قال ابن القيمّ فى (زاد المعاد) فى سياق حجته صلى الله عليه وسلم : فلمّا غربت الشمس واستحكم غروبها أفاض من عرفة بالسكينة من طريق المأزمين ، ثمّ جعل يسير العنق ـ وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطىء ـ فإذا وجد فجوةً ـ وهو المتسع ـ نصّ سيره ـ أى : رفعه فوق ذلك ـ وكان يلبى فى مسيره ذلك لا يقطع التلبية ، حتى أتى المزدلفة فتوضأ ، ثم أمر المؤذن بالأذان فأذّن ، ثمّ أقام فصلّى المغرب قبل حطّ الرحال وتبريك الجمال؛ فلمّا حطّوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان ، ولم يصلّ بينهما شيئاً ؛ فلمّا طلع الفجر صلاها فى أول الوقت ، ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة وأخذ فى الدعاء والتضرّع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جدا ، وذلك قبل طلوع الشمس . انتهى المقصود منه .

قال بعض الأئمة : ما أحقّ الذكر عند المشعر الحرام بأن يكون واجباً أو نسكاً ، لأنّه مع كونه مفعولًا له ﷺ ، ومندرجاً تحت قوله : خذوا عنى مناسككم ، فيه أيضاً النصّ القرآنىّ بصيغة الأمر : فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ .

« وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ » بدلائل الكتاب ، أى: اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هدايةً حسنة ! فمفاد التشبيه التسوية فى الحسن والكمال ، كما تقول : اخدمْه كما أكرمك ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .
وهذا الحديث ، ينبغى لمن ينوى الحج ، أن يجعل دراسته هِجِّيرَاهُ .

يعنى : لا تتقاصر خدمتك عن إكرامه . وفيه تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحجّ ! « وَإِنْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ » أى : من قبل الهدى « لَمِنَ الضَّالِّينَ » الجاهلين بالإيمان والطاعة . و (إن) هى المخففة ، و(اللام) هى الفارقة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » أى : من عرفة لا مِن المزدلفة . وفى الخطاب وجهان :

أحدهما : أنّه لقريش . وذلك لما كانوا عليه من الترفّع على الناس والتعالى عليهم ، وتعظّمهم عن أن يساووهم فى الموقف ، وقولهم: نحن أهل الله ، وقطّان حرمه ، فلا نخرج منه فيقفون بجمع ، وسائر الناس بعرفات .

وقد روى البخارىّ[١] عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ؛ فلمّا جاء الإسلام أمر اللهُ نبيّه ﷺ أن يأتى عرفات ، ثمّ يقف بها ، ثمّ يُفيض منها ، فذلك قوله تعالى « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » .

وثانيهما : أنّه أمرٌ لجميع الناس أن يفيضوا من حيث أفاض الناس يعنى : إبراهيم عليه السلام .

قال الراغب : وسمّاه الناس لأنّ (الناس) يستعمل على ضربين : أحدهما للنوع من غير

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٥ ـ باب ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، حديث ٨٦٧

اعتبار مدحٍ وذم ، والثانى المدح اعتباراً بوجود تمام الصورة المختصة بالإنسانية ، وليس ذلك فى هذه اللفظة ، بل فى اسم كلّ جنس ونوع ـ نحو : هذه فرس وفلان رجل ، وليس هذا بفرس ولا فلان برجل ـ أى : ليس فيه معناه المختصّ بنوعه . وبهذا النظر نفى السمع والبصر عن الكفار ؛ فعلى هذا سُمّى إبراهيم (الناس) على سبيل المدح ـ وهو أن الواحد يسمّى باسم الجماعة تنبيهاً على أنه يقوم مقامهم فى الحكم ـ وعلى هذا قول الشاعر :

وليس على الله بمستنكرٍ ... أن يجمع العالم فى واحد ..!

وعلى هذا قال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً »[1] اهـ .

فإن قيل : ما معنى كلمة « ثمّ » فإنّها تستلزم تراخى الشيء عن نفسه ، سواء عطف على مجموع الشرط والجزاء ، أو الجزاء فقط ..؟

فالجواب : إن كلمة « ثمّ » ليست للتراخى ، بل مستعارة للتفاوت بين الإفاضتين ـ أى : الإفاضة من عرفات والإفاضة من مزدلفة ـ والبعد بينهما بأنّ أحدهما صواب والآخر خطأ .

قال التفتازانى : لما كان المقصود من قوله تعالى « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » المعنى التعريضىّ ، كان معناه : ثمّ لا تفيضوا من مزدلفة . والمقصود من إيراد كلمة « ثمّ » التفاوت بين الإفاضتين فى الرتبة بأنّ إحداهما صواب والأخرى خطأ .

وأجاب بعضهم بأنّ « ثمّ » بمعنى الواو .

« وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ » عما سلف من المعاصى « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال ابن كثير عليه الرحمة : كثيراً مايأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات . ولهذا ثبت فى (صحيح مسلم)[2] : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠] ونصها : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث ١٣٥ (طبعتنا) =

وثلاثين . وفى (الصحيحين)[١] : أنه ندب إلى التسبيح والتحميدوالتكبير ثلاثاً وثلاثين.
وقد روى ابن جرير ههنا حديث[٢] عباس بن مرداس السلمى فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته عشية عرفة .

= ونصه : عن ثوبان قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا انصرف من صلاته ، استغفر الله ثلاثاً وقال « اللهم ! أنت السلام ومنك السلام . تباركت ياذا الجلال والإكرام » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٥ ـ باب الذكر بعد الصلاة ، حديث ٤٩٩ . ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبىّ ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم . يصلون كما نصلى . ويصومون كما نصوم . ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون .

قال « ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ، ولم يدرككم أحد بعدكم . وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه ، إلا من عمل مثله : تسبّحون وتحمدون وتكبّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » .

فاختلفنا بيننا . فقال بعضنا : نسبّح ثلاثاً وثلاثين ونحمد ثلاثاً وثلاثين ونكبّر أربعاً وثلاثين .

فرجعت إليه فقال « تقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر . حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٤٢ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة ١٩٢ من الجزء الرابع من تفسير ابن جرير ، حديث رقم ٣٨٤٣ (طبعة المعارف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

« فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ » أى : فرغتم من أعمال الحجّ ونفرتم « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا » أى : فأكثروا ذكر الله ، وابذلوا جهدكم فى الثناء عليه وشرح آلائه ونعمائه ، كما تفعلون فى ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم بعد قضاء مناسككم . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبى يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات .. ! ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله هذه الآية . وفيها إشعارٌ بتحويل القوم عما اعتادوه ، وحثٌ على إفراد ذكره جلّ شأنه .

ثمّ أرشد تعالى إلى دعائه ـ بعد كثرة ذكره ـ فإنه مظنة الإجابة . وذمَّ مَن لا يسأله إلّا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه ، فقال « فَمِنَ النَّاسِ » أى : الذين نسوا قدر الآخرة وكانت الدنيا أكبر همّهم « مَن يَقُولُ » أى : فى ذكره « رَبَّنَا آتِنَا » أى : مرغوباتنا « فِي الدُّنْيَا » لا نطلب غيرها « وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ » أى : نصيب وحظ لأنه استوفى نصيبه فى الدنيا بتخصيص دعائه به . فالجملة إخبار منه تعالى ببيان حاله فى الآخرة ؛ أو المعنى : ماله فى الآخرة من طلب خلاق . فهو بيان لحاله فى الدنيا وتصريح بما علم ضمناً من قوله « آتِنَا فِي الدُّنْيَا » ؛ أو تأكيد لكون همه مقصوراً على الدنيا . وقوله « فِي الْآخِرَةِ » حينئذٍ متعلّق « بخلاق » حال منه ؛ وتضمن هذا الذمَّ والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهمّ ! اجعله عامَ غيثٍ وعامَ خِصب وعام ولاد حسن .! لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً . فنزل فيهم ذلك .

وهؤلاء الذين حكى الله عنهم ـ أنهم يقتصرون فى الدعاء على طلب الدنيا ـ قال قوم : هومشركو العرب . وكونهم لا خلاق لهم فى الآخرة ظاهر. إذْ لا نصيب لهم فيها من كرامةٍ ونعيم وثواب . وقال قوم: هؤلاء قد يكونون مؤمنين ولـكنهم يسألون الله لدنياهم لا لأخراهم، ويكون سؤالهم هـذا من جملة الذنوب ، حيث سألوا الله تعالى ـ فى أعظم المواقف وأشرف المشاهد ـ حطامَ الدنيـا وعرضَها الفانى ، معرضين عن سؤال النعيم الدائم فى الآخرة . . ! ومعنى كونهم لا خلاق لهم فى الآخرة ، أى : إلّا أن يتوبوا ، أوْ إلّا أن يعفو الله عنـه ، أو لا خلاق له فى الآخرة كخلاق من سأل المولى لآخرته ، والله أعلم . كذا يستفاد من الرازىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] (وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

«وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» جمعت هـذه الدعوة كلّ خيرٍ فى الدنيا والآخرة ، وصرفت كلّ شرّ ، فإن الحسنة فى الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيوىّ ـ من عافيةٍ ، ودارٍ رحبةٍ ، وزوجةٍ حسنة ، ورزقٍ واسع ، وعلمٍ نافع ، وعملٍ صالح ، ومركبٍ هيّن ، وثناءٍ جميل ... إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ـ ولا منافاة بينها ـ فإنها كلّها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا . وأمّا الحسنة فى الآخرة: فأعلى ذلك رضوان الله تعالى ودخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرصات ، وتيسير الحساب ... وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة . وأمّا النجاة من النار: فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام .

وقد ورد فى السنة الترغيب فى هـذا الدعاء ، فقد كان يقول صلى الله عليه وسلم كما رواه البخارىّ(١) عن أنس .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٥٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، حديث ١٩٧٤ .
=

وروى الإمام أحمد(١) : سأل قتادة أنساً : أىّ دعوة كان يدعو بها النبىّ صلى الله عليه وسلم أكثر ؟ قال : كان أكثر دعوةٍ يدعو بها يقول « اللهمّ ربّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وكان أَنَس إذا أراد أن يدعو بدعوةٍ دعا بها ، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ! ورواه مسلم(٢) . وهذا لفظه .

وروى الإمام الشافعى عن عبد الله بن السائب : أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فيما بين ركن بنى جمح والركن الأسود : « ربّنا آتنا فى الدنيا حسنة ... الآية» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] (أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة ، وما فيه من معنى البعد لما مرّ مراراً من الإشارة إلى علو درجتهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل « لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا » أى : من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذى هو المنافع الحسنة . أو من أجل ما كسبوا ، كقوله : مما خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا(٣) . أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم منه فى الدنيا والآخرة . وسمّى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال وهى موصوفة بالكسب « وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » إمّا بمعنى سريع فى الحساب كسريع فى السير ، فالجملة تذييل لقوله « أُولَٰئِكَ ...» الخ يعنى : أنه يجازيهم على قدر أعمالهم وكسبهم ولا يشغله شأن عن شأن لأنه سريع فى المحاسبة ؛ أو بمعنى : سريع حسابه كحسن الوجه . فالجملة

= ونصه : عن أنس قال : كان أكثر دعاء النبىّ ﷺ : اللهم ! ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٦ (طبعتنا) .

(٣) [٧١ / نوح / ٢٥] .

تذييل لقوله « فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ...» الخ يعنى : يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد . فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة باكتساب الطاعات والحسنات .

وقال الراغب : لما كان الحساب يكشف عن جمل الشىء وتفصيله ، نبّه بذلك على إحاطته بأفعال عباده ووقوفه على حقائقها . وذكر السريع تنبيهاً أن ذلك منه لا فى زمان ولا بفكرة ، وذلك أبلغ ما يمكن أن يتصور به الكافةُ سرعةَ فعل الله .

تنبيـه :

قال الرازىّ : اعلم أنّ الله تعالى بيّن أوّلًا تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر فقال « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ . . . الخ » ، ثمّ بيّن أنّ الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره فقال « فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ...الخ »، ثمّ بيّن بعد ذلك الذكر كيفيّة الدعاء فقال « فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ...الخ» وما أحسن هذا الترتيب ! فإنه لابدّ من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ، ثم بعد العبادة لابدّ من الاشتغال بذكر الله تعالى لتنوير القلب وتجلى نور جلاله ، ثم بعد ذلك الذكر، يشتغل الرجل بالدعاء ، فإنّ الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقاً بالذكر ..!

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، لِمَنِ اتَّقَىٰ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ » هى أيام التشريق، قاله ابن عباس رضى الله عنه. وروى الإمام مسلم(١) عن نبيشة الهذلىّ قال : قال رسول الله ﷺ : أيام التشريق أيام

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٤٤ (طبعتنا) .

أكل وشرب وذكر الله . وقال عكرمة : معنى هـذه الآية : التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر ! الله أكبر ! .

وروى البخارىّ[١] عن ابن عمر : أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام ، وخلف الصلوات ، وعلى فراشه ، وفى فسطاطه ، وفى مجلسه ، وفى ممشاه فى تلك الأيام جميعاً . وفى رواية : أنه كان يكبر فى قبته فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى ـ أخرجه البخارىّ تعليقاً .

ومن الذكر فى هـذه الأيام التكبير مع كلّ حصاة من حصى الجمار كلّ يومٍ من أيام التشريق . فقد ورد فى (الصحيح)[٢] : أنّ النبى ﷺ كبّر مع كلّ حصاة .

وقد جاء فى الحديث[٣] الذى رواه أبو داود وغيره : إنما جعل الطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار لإقامة ذكر الله عزّ وجلّ .

وروى مالك[٤] فى (موطأه) عن يحيى بن سعيد أنّه بلغـه أنّ عمر بن الخطاب خرج الغدَ من يوم النحر حين ارتفاع النهار شيئاً . فكبّر ، فكبّر الناس بتكبيره . ثم خرج الثانية من يومه ذلك بعد ارتفاع النهار فكبّر ، فكبّر الناس بتكبيره . ثم خرج الثالثة حين زاغت الشمس فكبّر، فكبّر النـاس بتكبيره حتى يتصل التكبير ويبلغ البيت فيُعلَم أنّ عمر قد خرج يرمى .

ثم قال مالك: والتكبير فى أيام التشريق على الرجال والنساء ـ من كان فى جماعة أو وحده ـ بمنى أو بالآفاق كلّها واجب .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٣ ـ كتاب العيدين ، ١٢ ـ باب التكبير أيام منى .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٣٨ ـ باب يكبر مع كل حصاة ، حديث ٨٩٦ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٦٤ ـ باب ماجاء كيف ترمى الجمار .

(٤) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

ثمّ قال : الأيام المعدودات أيام التشريق .

وفى (القاموس وشرحه) : (التشريق) تقديد اللحم ، ومنه سميت أيام التشريق وهى ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأنّ لحوم الأضاحى تشرق فيها أى : تشرّر فى الشمس ـ حكاه يعقوب . وقيل : سميت بذلك لقولهم : أشرق ثبير كيما نغير ؛ أو لأن الهدى لاينحر حتى تشرق الشمس ـ قاله ابن الأعرابىّ . قال أبو عبيد : وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير، ولم يذهب إليه غيره .

« فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى : فمن تعجل النفر الأول من هذه الأيام الثلاثة، فلم يمكث حتى يرمى فى اليوم الثالث، واكتفى برمى الجمار فى يومين من هذه الأيام الثلاثة، فلا يأثم بهذا التعجيل . وإيضاحه : أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق. ليرمى كلّ يومٍ بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة. يرمى عند كلّ جمرة سبع حصيات . ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن ينفر ويدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها ، فذلك واسع له « وَمَنْ تَأَخَّرَ » أى : حتى رمى فى اليوم الثالث وهو النفر الثانى « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » فى تأخّره ، واعلم: السنة هو التأخر . فإنه ﷺ لم يتعجل فى يومين بل تأخر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة . ولا يقال هذا اللفظ ـ أعنى « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » ـ إنما يقال فى حقّ المقصّر لا فى حقّ من أتى بتمام العمل ، لأنّا نقول : أتى به لمشاكلة اللفظ الأول كقوله : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا[(١)] ، وقوله : فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [(٢)] ، ونحن نعلم أنّ جزاء السيئة والعدوان ليس بسيئة

(١) [٤٢/ الشورى/ ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] ونصها : الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ولا عدوان . فإذا حمل على موافقة اللفظ مالا يصح فى المعنى ـ فَلأنْ يحمل على موافقة اللفظ مايصح فى المعنى أولى . لأنّ المبرور المأجور يصح فى المعنى نفى الإثم عنه ـ قاله الواحدىّ .

وقال الراغب : رفع الإثم عن المتعجل والمتأخر على وجه الإباحة ـ أى كناية عنها ـ وقيل : رفع الإثم أنه حط ذنوبهما بإقامتهما الحجّ ـ تعجّل أو تأخّر ـ بشرط أن يكون مقياسهما الاعتبار بالتقوى ، وعلى ذلك دلّ حديث[١] : مَنْ حَجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمّه !

وقوله تعالى : « لِمَنِ اتَّقَى » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الذى ذكر ـ من التخيير ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر ، أو من الأحكام ـ لمن اتقى ، لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به. على حد : ذلك خير للذين يريدون وجه الله[٢] وقوله : هُدًى لِلْمُتَّقِينَ[٣] . « وَاتَّقُوا اللهَ » ـ فى مجامع أموركم ـ « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء على أعمالكم، وهو تأكيدٌ للأمر بالتقوى وبعثٌ على التشدد فيه ، لأنّ من تصور أنه لابدّ من حشرٍ ومحاسبةٍ ومساءلةٍ ، وأنّ بعد الموت لادارَ إلّا الجنة أو النار ـ صار ذلك من أقوى الدواعى له إلى التقوى . و (الحشر) اسم يقع على ابتداء خروجهم من الأجداث إلى انتهاء الموقف .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٢٧ ـ كتاب المحصَر ، ٩ ـ باب قول الله تعالى : فَلَا رَفَثَ حديث ٨١٥ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٣٨ (طبعتنا) .

(٢) [٣٠/ الروم/ ٣٨] ونصها : فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢] ونصها : ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى : يعظُم فى نفسك حلاوة حديثه وفصاحته فى أمر الحياة الدنيا التى هى مبلغ علمه « وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ » أى : يحلف بالله على الإيمان بك والمحبة لك وأنّ الذى فى قلبه موافق للسانه لئلا يتفرس فيه الكفر والعداوة ؛ أو معناه : يظهر لك الإسلامويبارز الله بما فىقلبه من الكفروالنفاق ـ على نحوما وصف به أهل النفاق حيث قالوا : نشهد إنّك لرسول الله [١] . ـ كقوله تعالى: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ... [٢] الآية « وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ » شديد الخصومة، جدل بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٥] ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾

« وَإِذَا تَوَلَّىٰ » ـ انصرف عمّن خدعه بكلامه ـ « سَعَىٰ » ـ مشى ـ « فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا » بإدخال الشبه فى قلوب المسلمين ، وباستخراج الحيل فى تقوية الكفر ، وهذا

---

(١) [٦٣/ المنافقون/١] ونصها: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٠٨] ونصها : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا .

المعنى يسمّى فساداً، كقوله تعالى ـ حكايةً عن قوم فرعون : أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (١). أى: يردّوا قومك عن دينهم ويفسدوا عليهم شرعتهم ؛ وسمّى هذا المعنى فساداً لأنه يوقع الاختلاف بين الناس ، ويفرق كلمتهم ، ويؤدى إلى أن يتبرأ بعضهم من بعض ، فتنقطع الأرحام ، وتنسفك الدماء . وهـذا كثير فى القرآن المجيد . « وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ » أى : الزرع . « وَالنَّسْلَ » أى : المواشى الناتجة .

قال بعض المحققين: إنّ إهلاك الحرث والنسل كناية عن الإيذاء الشديد ، وأن التعبير به عن ذلك صار من قبيل المثـل ؛ فالمعنى : يؤذى مسترسلاً فى إفساده ولو أدّى إلى إهلاك الحرث والنسل .

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ » أى : لا يرضى فعله .

قال الراغب : إن قيـل : كيف حكم تعالى بأنه لا يحب الفساد وهو مفسد للأشياء ؟ قيل : الإفساد فى الحقيقة : إخراج الشىء عن حالةٍ محمودة لا لغرضٍ صحيح، وذلك غير موجود فى فعل الله تعالى ، ولا هو آمرٌ به ، ولا محبٌّ له ، وما يُرَى من فعله ويظهر بظاهره فساداً فهو بالإضافة إلينا واعتبارنا له كذلك . فأمّا بالنظر الإلهىّ فـكله صلاح ، ولهذا قال بعض الحـكماء : يا من إفساده إصلاح ! أى : ما نظنه إفساداً ـ لقصور نظرنا ومعرفتنا ـ فهو فى الحقيقة إصلاح ؛ وجملة الأمر : إنّ الإنسان هو زبدة هذا العالم وما سواه مخلوق لأجله ، ولهذا قال تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ (٢). والمقصـد من الإنسان سوقه إلى كماله

(١) [٧ / الأعراف / ١٢٧] ونصها : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الذى رسخ له ، فإذن : إهلاك ما أمر بإهلاكه ، لإصلاح الإنسان وما منه أسباب حياته الأبدية . ولشرح هذه الجملة موضع آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ، وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

« وَإِذَا قِيلَ لَهُ » على نهج العظة « اتَّقِ اللَّهَ » فى النفاق ، واحذر سوء عاقبته . أو فى الإفساد والإهلاك وفى اللجاج بالباطل « أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » أى : حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم وهو التكبر ؛ أو المعنى : أخذته الحمية للإثم الذى فى قلبه فمنعته عن قبول قول الناصح « فَحَسْبُهُ » أى : كافيه « جَهَنَّمُ » إذا صار إليها واستقر فيها جزاء وعذاباً « وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى : الفراش الذى يستقر عليه بدل فرش عزته .

قال الراغب : المهد معروف ، وتصور منه التوطئة ، فقيل لكل وطىء مهد . والمهاد يجعل تارة جمعاً للمهد ، وتارة للآلة نحو فراش . وجعل جهنم مهاداً لهم كما جعل العذاب مبشراً به فى قوله : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [1] .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ ـ ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

وقال الحاكم : هذه الآية تدلّ على أنّ من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد : اتّق الله ! فيقول : عليك نفسك . .

قال الزمخشريّ : ومنه ردّ قول الواعظ .

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ، قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ، النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١) .

ولما أتمّ تعالى الإخبار عن هذا الفريق من الناس الضالّ ، أتبعه بقسيمه المهتدى. ليبعث العباد على تجنّب صفات الفريق الأول ، والتخلق بنعوت الثانى فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٧] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ » أى : يبيعها ببذلها فى طاعة الله « ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ » أى : طلب رضاه « وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » حيث أرشدهم لما فيه رضاه ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، مع كفرهم به ، وتقصيرهم فى أمره .

لطيفة :

قال بعضهم : كان مقتضى المقابلة للفريق الأول أن يوصف هذا الفريق بالعمل الصالح مع عدم الدعوى والتبجّح بالقول ، أو مع مطابقة قوله لعمله ، وموافقة لسانه لما فى جنانه ! والآية تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به. فإنّ من يبيع نفسه لله ، لايبغى ثمناً لها غيرَ مرضاته ، لايتحرّى إلّا العملَ الصالح وقولَ الحقّ والإخلاصَ فى القلب فلا يتكلم بلسانين ،

---

(١) [٢٢ / الحج / ٧٢] .

ولا يقابل الناس بوجهين ، ولا يؤثر على ماعند الله عرض الحياة الدنيا ... وهذا هو المؤمن الذى يعتد القرآن بإيمانه ...

وقد أخرج الحارث بن أبى أسامة فى (مسنده) ، وابن أبى حاتم ورزين عن سعيد ابن المسيّب قال : أقبل صهيب مهاجراً إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته ، وانتثل مافى كنانته ثم قال : يامعشر قريش ! لقد علمتم أنى من أرماكم رجلاً ، وايم الله ! لاتصلون إلىّ حتى أرمى كلّ سهم معى فى كنانتى ثمّ أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شىء ، ثم افعلوا ماشئتم. وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى؟ قالوا : نعم! فلما قدم على النبىّ ﷺ المدينة قال : ربحَ البيع، أبايحيى! ربح، أبايحيى..! ونزلت « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ... الآية » .

وأخرج الحاكم فى (المستدرك) نحوه من طريق ابن المسيب عن صهيب موصولاً . وأخرجه أيضاً من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت عن أنس. وفيه التصريح بنزول الآية ، وقال : صحيح على شرط مسلم؛ وروى أنها نزلت فى صهيب وغيره. كما روى فى نزول الأولى روايات ساقها بعض المفسّرين .

ولا تنافى فى ذلك . لأنّ قولهم نزلت فى كذا ، تارةً يراد به أنّ حالاً مّا كان سبباً لنزولها ، بمعنى أنها مانزلت إلّا لأجله ! وهذا يعلم إمّا من إشعار الآية بذلك ، أو من رواية صحّ سندها صحّةً لامطعن فيه . وتارةً يراد به أنها نزلت بعد وقوع شأن ماتشمله بعمومها . فيقول الراوى عقيب حدوث ذلك الشأن : نزلت فى كذا ، والمراد أنها تصدق عليه لا أنّ ذلك الشأن كان سبباً للنزول ... وما روى فى هذه الآية من هذا القبيل .

وإلى هذا النوع أشار الزركشىّ فى (البرهان) بقوله : قد[1] عرف من عادة الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية فى كذا ، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم. لاأن هذا كان السبب فى نزولها. فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع ...

(١) بالصفحة رقم ٣١ من الجزء الأول (طبعتنا) .

وقد قدّمنا أنّ سبب النزول مما يدخله الاجتهاد . وأنّه لايعول منه إلّا على ماصحّ سنده . وما نزل عنه وارتقى عن درجة الضعف يتفقّه فيه .. فاحرص على هذا التحقيق ، وقد أسلفنا فى (المقدّمة) البحث فيه مستوفى . وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ » ـ بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام فيهما. قراءتان سبعيتان ـ أى : فى الإسلام . قال امرؤ القيس بن عابس :

فلستُ مبدّلًا بالله ربًّا ولا مستبدلًا بالسِّلْم دينا .. !

ومثله قول أخى كَنْدَةَ :

دعوت عشيرتى للسِّلم لمّا رأيتهمُ تولّوا مدبرينا .. !

قال الرازىّ : أصل هذه الكلمة من الانقياد . قال الله تعالى : إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١) . والإسلام إنما سمّى إسلاماً لهذا المعنى . وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب . وهذا أيضاً راجع إلى هذا المعنى . لأن عند الصلح ينقاد كل واحدٍ لصاحبه ولا ينازعه فيه .

ومعنى الآية : ادخلوا فى الاستسلام والطاعة . أى : استسلموا لله وأطيعوه ولا تخرجوا عن شىءٍ من شرائعه « كَافَّةً » حال من الضمير فى (ادخلوا) « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى : طرقه التى يأمركم بها . فَإِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣١] .

عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) وَإِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٢)
وضمّ الطاء من (خطوات) واسكانها لغتان : حجازية وتميمية . وقدقرىء بهما فى السبع.
« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » . ظاهر العداوة أو مُظهِر لها . أى : بما أخبرنا كم به فى أمر أبيكم آدم عليه السلام وغيره ، مما شواهده ظاهرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٩] (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« فَإِنْ زَلَلْتُمْ » أى : عن الدخول فى السلم « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ » أى : الآيات الظاهرة على أنّ ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحقّ « فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ » غالبٌ لا يعجزه الانتقام ممّن زلّ ولا يفوته من ضل « حَكِيمٌ » لا ينتقم إلّا بحقّ . وقوله « فَاعْلَمُوا ... »الخ نهاية فى الوعيد . لأنه يجمع من ضروب الخوف مالا يجمعه الوعيد بذكر العقاب . وربّما قال الوالد لولده : إن عصيتنى فأنت عارف بى وأنت تعلم قدرتى عليك وشدة سطوتى . فيكون هذا الكلام ـ فى الزجر ـ أبلغ من ذكر الضرب وغيره . فظهر تسبب الجزاء فى الآية بما أشعر به من الزجر والتهديد على الشرط المشير إلى ذنبهم وجرمهم .

هذا ، ومن الوجوه المحتملة فى الآية ، أن يكون (السلم) المذكور فيها معناه الصلح والمسالمة وترك المنازعة والاختلاف . فمعنى « ادخلوا فى السلم » : كونوا متوافقين ومجتمعين فى نصرة الدين ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بأن يحملكم على طلب الدنيا والمنازعة مع الناس . فتكون الآية حينئذٍ كقوله تعالى : وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٣) .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٩] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٦] وأول الآية : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ،

(٣) [٨ / الأنفال / ٤٦] ونصها : وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وقوله : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا (١) وقوله : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (٢) . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

«هَلْ يَنظُرُونَ» أى ينتظرون ، فـ(نظر) كـ(انتظر) ، يقال : نظرته وانتظرته إذا ارتقبت حضوره . وهذا الاستفهام إنكارىٌّ فى معنى النفى ؛ أى : ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة ـ فى الامتثال بما أمروا به ، والانتهاء عما نهوا عنه ـ بعد طول الحلم عنهم « إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » جمع ظلّة ـ كقلل فى جمع قلّة ـ أى : فى ظلّةٍ داخل ظلّة ـ ، وهى ما يستر من الشمس ، فهى فى غاية الإظلام والهول والمهابة لما لها من الكثافة التى تغمّ على الرائى ما فيها « وَالْمَلَائِكَةُ » ـ عطف على الاسم الجليل ـ أى : ويأتى جنده الذين لا يعلم كثرتهم إلّا هو . هذا ، على قراءة الجماعة . وعلى قراءة أبى جعفر،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٣] ونصها : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ١٣] ونصها : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

بالخفض . فهو عطف على ظلل أو الغمام « وَقُضِيَ الْأَمْرُ » أى : أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه . قال الراغب : نبّه به على أنّه لا يمكن تلافى الفارط ..! وهو عطف على « يأتيهم » داخل فى حيّز الانتظار . وإنما عدل إلى صيغة الماضى دلالة على تحقّقه ، فكأنّه قد كان . أو جملة مستأنفة جىء بها إنباءً عن وقوع مضمونها . « وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » . أى : فمن كانوا نافذى الملك والتصرف فى الدنيا ، فإنّ ملكهم وتصرّفهم مستردّ منهم يوم القيامة وراجع إليه تعالى . يقال : رجع الأمر إلى الأمير ، أى استردّ ما كان فوضه إليهم . أوعنى بـ « الأمور » الأرواح والأنفس دون الأجسام ، وسمّاها أموراً من حيث إنها إبداعات مشار إليها بقوله : أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ(١) . فهى من الإبداع الذى لا يمكن من البشر تصوره ؛ فنبّه أن الأرواح كلها مرجوعة إليه وراجعة ؛ وعلى نحو ذلك قال : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢) . ويكون رجوعها إمّا بربح وغبطة ، وإمّا بندامة وحسرة . قاله الإمام الراغب .

قال أبو مسلم : إنه تعالى قد ملّك كلّ أحد فى دار الاختبار والبلوى أموراً ، امتحاناً . فإذا انقضى أمر هذه الدار ووصلنا إلى دار الثواب والعقاب كان الأمر كلّه لله وحده . وإذا كان كذلك فهو أهل أن يُتقى ويطاع ويدخل فى السلم ـ كما أمر ـ ويحترز عن خطوات الشيطان كما نهى .

وقد قرئ فى السبع (تُرجع) بضمّ التاء بمعنى تُردّ ، وبفتحها بمعنى تصير ، كقوله تعالى

---

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٢٩] ونصها : قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(١) .

قال القفال : والمعنى فى القراءتين متقارب . لأنها ترجع إليه تعالى ، وهو سبحانه يرجعها إلى نفسه بإفناء الدنيا وإقامة القيامة .

تنبيهان

الأول :

لهذه الآية أشباه ونظائر تدلّ على أنّ هذا الوعيد أخرويّ .

ولذا قال ابن كثير فى معنى الآية : يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ » يعنى : يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كلّ عامل بعمله : إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرٌّ . . ! ولهذا قال تعالى « وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » كما قال الله تعالى: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(٢) . وقال : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ ...(٣) الآية.

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٣] ونصها : صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٢١ـ٢٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٨] وباقى الآية : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

الثانى :

وصفُه تعالى نفسَه بالإتيان فى ظلل من الغمام كوصفه بالمجىء فى آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه فى كتابه أو صحّ عن رسوله ﷺ . والقول فى جميع ذلك من جنس واحد. وهو مذهب سلف الأمّة وأئمتها: إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. والقول فى صفاته كالقول فى ذاته . والله تعالى ليس كمثله شىء لا فى ذاته ، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله . فلو سأل سائل: كيف يجىء سبحانه أو كيف يأتى ..؟ فليقل له : كيف هو فى نفسه ؟ فإذا قال : لا أعلم كيفية ذاته ! فليقل له : وكذلك لاتعلم كيفية صفاته ..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف.

وقد أطلق غير واحد، ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابىّ: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجرى على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها . وبعض الناس يقول: مذهب السلف إن الظاهر غير مراد . ويقول أجمعنا على أن الظاهر غير مراد . وهذه العبارة خطأ إمّا لفظاً ومعنىً ، أو لفظاً لا معنى . لأن لفظ (الظاهر) فيه إجمال واشتراك . فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ماهو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد ؛ ولكنّ السلف والأئمة لم يكونوا يسمّون هذا ظاهرها ؛ فهذا القائل أخطأ حيث ظنّ أن هذا المعنى الفاسد ظاهر اللفظ حتى جعله محتاجاً إلى تأويل ، وحيث حكى عن السلف مالم يريدوه . وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع فى معناها من جنس ظاهر النصوص المتّفق على معناها ، والظاهر هو المراد فى الجميع ، فإنّ الله لما أخبر أنّه بكلّ شىء عليم ، وأنّه على كل شىء قدير ، واتفق أهل السنّة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره، أن ظاهر ذلك مراد ـ كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وقدرته كقدرتنا. وكذلك لما اتفقوا على أنه حىّ عالم حقيقةً ،قادر حقيقة، لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذى هو حىّ عليم قدير. فإن كان المستمع يظنّ أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين لزمه أن لا يكون

شيء من ظاهر ذلك مراداً . وإن كان يعتقد أن ظاهرها ما يليق بالخالق ويختص به لم يكن له نفي هذا الظاهر، ونفي أن يكون مراداً إلّا بدليل يدل على النفي . وليس في العقل ولا السمع ما ينفي هذا إلّا من جنس ما ينفي به سائر الصفات ، فيكون الكلام في الجميع واحداً . وحينئذٍ فلا يجوز أن يقال : إنّ الظاهر غير مراد بهذا التفسير . وبالجملة ، فمن قال : إن الظاهر غير مراد ـ بمعنى أن صفات المخلوقين غير مرادة ـ قلنا له : أصبت في المعنى ولكنْ أخطأت في اللفظ ، وأوهمت البدعة ، وجعلت للجهميّة طريقاً إلى غرضهم ، وكان يمكنك أن تقول : تُمَرّ كما جاءت على ظاهرها مع العلم بأنّ صفات الله ليست كصفات المخلوقين ، وأنّه منزّه مقدّس عن كلّ مايلزم منه حدوثه أو نقصه . ومن قال : الظاهر غير مراد بالتفسير الثاني ـ وهو مراد الجهمية ومن تبعهم ـ فقد أخطأ . وإنما أُتِيَ من أخطأ من قِبَلِ أنه يتوهم ـ في بعض الصفات أو في كثيرٍ منها أو أكثرها أو كلّها ـ أنها تماثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير :

أحدها : كونه مثّل مافهمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظنّ أنّ مدلول النصوص هو التمثيل .

الثاني : أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله ، بقيت النصوص معطلة عما دلّت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله . فيبقى مع جنايته على النصوص وظنّه السيء الذي ظنه بالله ورسوله ـ حيث ظنّ أنّ الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل ـ قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله والمعاني الإلٰهية اللائقة بجلال الله تعالى .

الثالث : أنّه ينفي تلك الصفات عن الله عزّ وجلّ بغير علمٍ ، فيكون معطّلاً لما يستحقه الرب .

الرابع : أنّه يصف الرب بنقيض تلك الصفات ـ من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات ـ فيكون قد عطّل به صفات الكمال التي يستحقّها الرب ، ومثّله

بالمنقوصات والمعدومات ، وعطّل النصوص عما دلّت عليه من الصفات وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات ، فيجمع فى كلام الله وفى الله بين التعطيل والتمثيل فيكون ملحداً فى أسماء الله وآياته .

وحاصل الكلام : أنّ هذه الصفات إنما هى صفات الله سبحانه على ما يليق بجلاله . نِسْبَتُهَا إلى ذاته المقدسة كنسبة صفات كلّ شئ إلى ذاته .

هذا ملخّص ما قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه فى رسالتيه (التدمرية) و (المدنية) .

قال الحافظ ابن عبدالبرّ : أهل السنّة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلّها فى القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ؛ إلّا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة . وأمّا أهل البدع الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلّهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعم أنّ من أقرّ بها شَبَّه . وهم ، عند من أقرّ بها ، نافون للمعبود . والحقّ فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنّة رسوله، وهم أئمة الجماعة .

وقال القاضى أبو يعلى فى كتاب (إبطال التأويل) : لا يجوز ردّ هذه الأخبار ، ولا التشاغل بتأويلها ؛ والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله لاتشبه بسائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتقد التشبيه فيها .

وقال عبد الله بن المبارك : إذا نطق الكتاب بشئ قلنا بِه ، وإذا جاءت الآثار بشئ جسرنا عليه . واعلم أنه ليس فى العقل الصحيح ولا فى النقل الصريح مايوجب مخالفة الطريقة السلفية. والمخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة ، من المتأولين لهذا الباب ، فى أمرٍ مريج . وسبحان الله ! بأىّ عقلٍ يوزن الكتاب والسنّة ..؟

ورضى الله عن الإمام مالك حيث قال : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ماجاء به جبريل إلى محمدٍ ﷺ ، لجدل هذا ؟ وكلٌّ من هؤلاء مخصوم بمثل ما خصم به الآخر . وهو من وجوه :

أحدها : بيان أنّ العقل لا يحيل ذلك .

والثانى : أنّ النصوص الواردة لا تحتمل التأويل .

الثالث : أنّ عامة هذه الأمور قدعلم أنّالرسول جاء بها بالاضطرار. كما أنه جاءبالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان . فالتأويل الذى يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية فى الحجّ والصوم والصلاة وسائر ماجاءت به النبوات ؛ على أنّ الأساطين من هؤلاءالفحول معترفون بأنّ العقل لاسبيل له إلى اليقين فى عامة المطالب الإلٰهية . فإذا كان هكذا ، فالواجب تلقّى علم ذلك من النبوات على ماهو عليه ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

قال البقاعىّ : وتجلى الملائكة فى ظلل من الغمام أمر مألوف. منه مافى الصحيح عن البراء رضى الله عنه قال[1] : كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين ، فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينفِر ، فلما أصبح أتى النبىّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال : تلك السكينة تنزلت بالقرآن !

وعن أسَيد بن حُضَير قال[2]: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس . فسكت فسكتت . فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكتت الفرس. ثم قرأ فجالت الفرس . فانصرف . وكان ابنه يحيي قريبا منها . فأشفق أن تصيبه . فلما اجترّه رفع رأسه إلى السماء حتى مايراها . فلما أصبح حدّث النبىّ ﷺ . فقال : اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير . قال : فأشفقت يارسول الله أن تطأ يحي وكان منها قريبا . فرفعت رأسى فانصرفت إليه . فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح . فخرجت حتى لا أراها .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٦ـ كتاب فضائل القرآن، ١١ ـ باب فضل سورة الكهف.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١٥ ـ باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن .

قال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك . ولو قرأت لأصبحتْ ينظر الناس إليها ، لاتتوارى منهم .

وقال البقاعىّ أيضاً : لمّا كان بنو إسرائيل أعلم الناس بظهور مجد الله فى الغمام لما رأى أسلافهم منه عند خروجهم من مصر وفى جبل الطور وقبة الزمان ومافى ذلك ـ على مانقل إليهم ـ من وفور الهيئة وتعاظم الجلال . قال تعالى ـ جوابا لمن كان قال : كيف يكون هذا ؟ ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١١] (سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ، وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ » المراد بهذا السؤال : تقريع بنى إسرائيل وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم الحقّ بعد وضوح الآيات ، لا أنْ يجيبوا فيعلم من جوابهم أمر. كما إذا أراد واحدنا توبيخ أحد، يقول لمن حضره : سلْهُ كم أنعمت عليه ؟ ـ أى : كم شاهدوا المعجزات الظاهرة على أيدى أنبيائهم ، القاطعة بصدقهم عليهم السلام فيما جاءوهم به : كعصا موسى ، وفلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحرّ ، ومن إنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وصدق من جرت على يديه هذه الخوارق . ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله عليهم بها كفراً كما أشعر بذلك قوله تعالى : « وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » فالمراد بنعمة الله آياته ، فهو من وضع الظاهر موضع المضمر بغير اللفظ السابق ، لتعظيم الآيات ؛ ولا يخفى أنها من أجلّ أقسام نعم الله تعالى لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة . وتبديلهم إياها : استبدالهم

بالإيمان بها، الكفرَ بها والإعراض عنها . كما قال تعالى ـ إخباراً عن كفار قريش ـ : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (١) وقوله « مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُ » أى : وصلت إليه وتمكن من معرفتها أو عرفها ، والتصريح بذلك ـ مع أن التبديل لايتصور قبل المجيء ـ للإشعار بأنهم قد بدلوها بعد ماوقفوا على تفاصيلها ، وفيه تقبيح عظيم بهم ، ونعى على شناعة حالهم ، واستدلالٌ على استحقاقهم العذاب الشديد حيث بدّلوا ، بعد المعرفة .. !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٢] (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا . وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » حتى بدّلوا النعمة « الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا » لحضورها ، فألهتهم عن غائب الآخرة .

قال الحرالىّ : فى ضمنه إشعار بأنّ استحسان بهجة الدنيا كفرٌ مّا ، من حيث أن نظر العقل والإيمان يُبصِّرُ طيّتها ، ويشهد جيفتها ، فلا يغترّ بزينتها ، وهى آفة الخلق فى انقطاعهم عن الحقّ ؛ فأبهم تعالى المزيَّن فى هذه الآية ليشمل أدنى التزيين الواقع على لسان الشيطان ، وأخفى التزيين الذى يكون من استدراج الله كما فى قوله تعالى : كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ (٢) .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨و٢٩] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وفى كلامه إشعار بما يجاب عن ورود التزيين ، مسنداً إلى الله تعالى تارةً وإلى غيره أخرى، فى عدّة آيات من التنزيل الكريم .

وللراغب كلام بديع ينحلّ به مثل هذا الإشكال وهو قوله :

إنّ الفعل كما ينسب إلى المباشر له ، ينسب إلى ماهو سببه ومسهّله ، وعلى هذا يصحّ أن ينسب فعلٌ واحدٌ تارةً إلى الله تعالى وتارةً إلى غيره ، نحو قوله : قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ[1] ، وفى موضع آخر: اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ[2] . فأسند الفعل فى الأول إلى المباشر له ، وفى الثانى إلى الآمر به ؛ وهكذا ، بتصوّرِ ما ذكر ، تزول الشبهة فيما يرى من الأفعال منسوباً إلى الله تعالى، منفياً عن الله تعالى. نحو قوله : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ[3] . وقوله : وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ[3]، وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ[4] .

« وَيَسْخَرُونَ » ـ أى : يهزأون ـ « مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » وهذا كما قال تعالى:

---

(١) [٣٢ / السجدة/ ١١] ونصها : قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٣) [٨ / الأنفال / ١٧] ونصها : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٤) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ...[١] الآيات « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا » وهم المؤمنون ، وإنما ذكروا بعنوان التقوى لحضهم عليها وإيذاناً بترتب الحكم عليها « فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لأنهم فى عليين وهم فى أسفل سافلين ، أو لأنهم يتطاولون عليهم فى الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا ، كما قال تعالى : فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ [١] .

ولذا قال الراغب : يحتمل قوله تعالى « فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وجهين :

أحدهما : أنّ حال المؤمنين فى الآخرة أعلى من حال الكفار فى الدنيا .

والثانى : أنّ المؤمنين فى الآخرة هم فى الغرفات ، والكفار فى الدرك الأسفل من النار . انتهى .

لطائف : قال السيلكوتى : اعلم أن قوله تعالى « زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ... » الخ جملة معللة لما سبق من أحوال الكفار من المنافقين وأهل الكتاب ؛ يعنى أنّ جميع ما ذكر من صفاتهم الذميمة، لأجل تهالكهم فى محبة الحياة الدنيا وإعراضهم عن غيرها ؛ وأورد التزيين بصيغة الماضى لكونه مفروغاً منه ، مركوزاً فى طبيعتهم . وعطف عليه بالفعل المضارع ـ أعنى « يَسْخَرُونَ » ـ لإفادة الاستمرار . وعطف قوله « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا » لتسلية المؤمنين .

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » يعنى : ما يعطى الله هؤلاء

---

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٩ ـ ٣٦] وباقى الآيات : وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

المتقين من الثواب بغير حساب ، أي: رزقا واسعاً رغداً لا فناء له ولا انقطاع ، كقوله سبحانه: فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ[١] ؛ فإنّ كلّ ما دخل تحت الحساب والحصر والتقدير فهو متناهٍ ، فما لا يكون متناهياً كان لا محالة خارجاً عن الحساب .

وقد استقصى الراغب ما تحتمله الآية من وجوهها ـ وتلك سعة ـ وعبارته : أعطاه بغير حساب : إذا أعطاه أكثر مما يستحق ، أو أقلّ مما يستحق ؛ والأول هو المقصود وهو المشار إليه بالإحسان ؛ وقد فسّر ذلك على أوجهٍ لإجمال اللفظ وإبهامه :

الأول : يعطيه عطاءً لا يحويه حصر العباد . كقول الشاعر :

* عطاياه، يُحصَى قبل إحصائها القطرُ *

الثاني : يعطيه أكثر مما يستحقه .

الثالث : يعطيه ولا منّة .

الرابع : يعطيه بلا مضايقة. من قولهم: حاسبه .

الخامس : يعطيه أكثر مما يحسبه أن يكفيه ـ وكلّ هذه الوجوه يحتمل أن يكون في الدنيا ، ويحتمل أن يكون في الآخرة .

السادس : أنّ ذلك إشارة إلى توسيعه على الكفّار والفسّاق الذين قال فيهم : وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... الآية[٢] ، تنبيهاً أن لا فضيلة في المال لمن يوسع عليه ،

---

(١) [٤٠ / غافر / ٤٠] ونصها : مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] ونصها : وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ .

مالم يستعن عليه فى الوصول إلى المطلوب منه؛ ولهذا قال تعالى: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ ...الآية[١] .

السابع : يعطى أولياءه بلا تبعة ولا حساب عليهم فيما يعطون ، وذلك لأنّ المؤمن لا يأخذ من عرض الدنيا إلّا ما يجب من حيث يجب على الوجه الذى يجب ولا ينفقه إلّا على ذلك ، فهو يحاسب نفسه فلا يحاسب ، ولهذا روى : من حاسب نفسه فى الدنيا أمن الحساب فى الآخرة ! وعلى هذا قال تعالى لسليمان : هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٢] .

الثامن : أنّ الله عزّ وجلّ يعامل فى القيامة المؤمنين لا بقدر استحقاقهم بل بأكثر منه ، كما قال : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...[٣] الآية .

التاسع : وهو يقارب ذلك : أنّ ذلك إشارة إلى ماروى أن أهل الجنة لا حظر عليهم ، وعلى ذلك قوله تعالى: فِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ...[٤] الآية وقوله : يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ...الآية .

وأما تعلقه بما تقدم ، فعلى بعض هذه التفاسير ، يتعلق بالذين كفروا ، وعلى بعضه يتعلق بالذين آمنوا .

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥ و ٥٦] ونصهما : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٣٩] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

(٤) [٤٣ /الزخرف/ ٧١] ونصها : يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٣] (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى : وجدوا أمة واحدة تتحد مقاصدها ومطالبها ووجهتها لتصلح ولا تفسد ، وتحسن ولا تسيء ، وتعدل ولا تظلم ؛ أى : ما وجدوا إلّا ليكونوا كذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (١) أى : انحرفوا عن الاتحاد والاتفاق ، الذى يثمر كلّ خير لهم وسعادة ، إلى الاختلاف والشقاق المستتبع الفساد وهلاك الحرث والنسل . ولما كانوا لم يخلقوا سدًى منّ الله عليهم بما يبصّرهم سبيل الرشاد فى الاتحاد على الحق من بعثة الأنبياء ، وما نزل معهم من الكتاب الفصل ، كما أشارت تتمة الآية « فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ » الذين رفعهم على بقية خلقه فأنبأهم بما يريد من أمره ، وأرسلهم إلى خلقه « مُبَشِّرِينَ » لمن آمن وأطاع « وَمُنْذِرِينَ » لمن كفر وعصى « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ » أى : كلامه الجامع لما يحتاجون إليه فى باب الدين على الاستقامة والهداية التامة لكونه متلبساً « بِالْحَقِّ » من جميع الوجوه « لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » من الاعتقادات والأعمال التى كانوا عليها قبل ذلك أمة واحدة ، فسلكوا بهم ، بعد جهدٍ ، السبيلَ الأقومَ ، ثم ضلوا على علمٍ بعد موت الرسل ، فاختلفوا فى الدين لاختلافهم فى الكتاب « وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ » أى : الكتاب الهادى الذى

(١) [١٠ / يونس / ١٩] ونصها : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

لا لبس فيه، المنزل لإزالة الاختلاف « إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ » أى : علموه ، فبدّلوا نعمة الله بأن أوقعوا الخلاف فيما أنزل لرفع الخلاف . ولم يكن اختلافهم لالتباسٍ عليهم من جهته بل « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ » ـ أى : الدلائل الواضحة ـ « بَغْياً بَيْنَهُمْ » أى : حسداً وقع بينهم « فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالكتاب « لِمَا اخْتَلَفُوا » أى : أهل الضلالة « فِيهِ مِنَ الْحَقِّ » أى : للحق الذى اختلفوا فيه . وفى إبهامه أولا ، وتفسيره ثانيا ، ما لا يخفى من التفخيم ، « بِإِذْنِهِ » أى : بتيسيره ولطفه ، « وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . تقرير لما سبق . وفى (صحيح مسلم)[1] عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ـ إذا قام من الليل يصلّى ـ يقول : اللهمّ ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ! فاطرَ السموات والأرض ! عالمَ الغيب والشهادة ! أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنّك تهدى من تشاء إلى صراطٍ مستقيم ..! .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ » أى : من الأنبياء ومَن معهم مِن المؤمنين ، أى : والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ، ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدة ، سنة الله التى لا تتبدّل « مَسَّتْهُمُ » استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : كيف كان مثلهم ؟

---

(١) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

فقيل : مستهم « الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ » أي : الشدائد والآلام « وَزُلْزِلُوا » أي : أزعجوا، مما دهمهم من الأهوال والإفزاع، إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة التي تكاد تهد الأرض وتدك الجبال « حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ » أي : انتهى أمرهم من الشدة إلى حيث اضطرهم الضجر إلى أن يقول الرسول ـ وهو أعلم الناس بشئون الله تعالى ، وأوثقهم بنصره ، وداعيهم إلى الصبر ـ « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ » ـ وهم الأثبت بعده ، العازمون على الصبر ، الموقنون بوعد النصر ـ « مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ »ـ استبطاء له ، واستطالة لمدة الشدة والعناء ـ فيقال لهم : «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . كما قال تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [1] أي: فاصبروا كما صبروا تظفروا ..! وقد حصل من هذا الابتلاء جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم يوم الأحزاب ، كما قال الله تعالى : إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ... الآيات [2] .

وروى البخاري [3] عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه . والله! ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون ..!

(١) [٩٤ / الشرح / ٥و٦] .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ١٠ـ١٢] .

(٣) أخرجه البخاري في: ٨٩ ـ كتاب الإكراه ، ١ ـ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ، حديث ١٦٩٦ .

وفى رواية : . . . وهو متوسد بُردةً ، وقد لقينا من المشركين شدة . . .
ولما سأل هرقل أبا سفيان : هل قاتلتموه ؟ قال: نعم! قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال : سِجالًا ، يدال علينا ونُدال عليه . قال : كذلك الرسل تبتلى ثمّ تكون لها العاقبة !
وهذه الآية كآية : الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا ، وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٥] ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » أى : أىّ شيء ينفقونه من أصناف الأموال ؟ « قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ » قبل غيرهما ليكون أداءً لحقّ تربيتهما مع كونه صلة وصدقة « وَالْأَقْرَبِينَ » بعدهما ليكون صلة وصدقة « وَالْيَتَامَىٰ » بعدهم لأنّ فيهم الفقر مع العجز « وَالْمَسَاكِينِ » بعدهم لاحتياجهم « وَابْنِ السَّبِيلِ » بعدهم لأنه كالفقير لغيبة ماله .
فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال ، فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون ، وأُجيبوا ببيان المصرف ؟ فالجواب : أنّ قوله « مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ » قد تضمّن بيان ما ينفقونه ـ وهو كلّ مالٍ عدّوه خيراً ـ وبنى الكلام على ما هو أهمّ وهو بيان المصرف ، لأن النفقة لا يعتد بها إلّا أن تقع موقعها . قال الشاعر :

إن الصنيعة لا تكون صنيعةً ... حتى يصاب بها طريق المصنع !
فإذا صنعت صنيعةً فاعمد بها ... لله أو لذوى القرابة أو دَعِ . . !

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ـ٣] .

فيكون الكلام من الأسلوب الحكيم كقوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ (١) . فيما تقدم هذا .

وقال القفال : إنّه وإن كان السؤال وارداً بلفظ (ما) ، إلّا أنّ المقصود السؤال عن الكيفية ، لأنهم كانوا عالمين أنّ الذى أمروا به إنفاق مال يخرج قربة إلى الله تعالى ؛ وإذا كان هذا معلوماً لم ينصرف الوهم إلى أنّ ذلك المال أى شيْء هو ؟ وإذا خرج هذا عن أن يكون مراداً تعين أنّ المطلوب بالسؤال : أنّ مصرفه أىّ شيء هو ؟ وحينئذٍ يكون الجواب مطابقاً للسؤال . ونظيره قوله تعالى: قالوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ... (٢) وإنما كان هذا الجواب موافقاً لذلك السؤال ، لأنه كان من المعلوم أنّ البقرة هى البهيمة التى شأنها وصفتها كذا ؛ فقوله (ماهى ؟) لا يمكن حمله على طلب الماهية ، فتعين أن يكون المراد منه طلب الصفة التى بها تتميز تلك البقرة عن غيرها . فبهذا الطريق قلنا : إنّ ذلك الجواب مطابق لذلك السؤال . فكذا ههنا ، لما علمنا أنهم كانوا عالمين بأن الذى أمروا بإنفاقه ما هو ـ وجب أن يقطع بأنّ مرادهم من قولهم « مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ » ليس هو طلب الماهية ، بل طلب المصرف ، فلهذا حسن هذا الجواب ..! .

وأجاب الراغب بجوابين :

أحدهما : أنهم سألوا عنهما وقالوا : ما ننفق ؟ وعلى من ننفق ؟ ولكن حذف

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٧٠ و ٧١] وباقيهما : . . . تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَاشِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

فى حكاية السؤال أحدهما إيجازاً ، ودلّ عليه بالجواب بقوله « مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ » كأنه قيل : المنفَق الخيرُ ، والمنفق عليهم هؤلاء ؛ فلفف أحد الجوابين فى الآخر ، وهذا طريق معروف فى البلاغة .

الجواب الثانى : إنّ السؤال ضربان : سؤال جدل ، وحقه أن يطابقه جوابه . لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه . وسؤال تعلّم وحق المعلّم أن يكون كالطبيب يتحرى شفاء سقيم فيطلب ما يشفيه ـ طلبه المريض أو لم يطلب . فلمّا كان حاجتهم إلى من ينفق المال عليهم كحاجتهم إلى ما يُنْفَق من المال ، بيّن لهم الأمرين جميعاً . إن قِيل : كيف خصّ هؤلاء النفر دون غيرهم ..؟ قيل : إنما ذكر من ذكر على سبيل المثال لمن ينفق عليهم ، لا على سبيل الحصر والاستيعاب ، إذ أصناف المنفق عليهم على ما قد ذكر فى غير هذا الموضع .

ولما بيّن تعالى وجه المصرف وفصّله هذا التفصيل الحسن الكامل ، أردفه بالإجمال فقال « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى : وكلّ ما فعلتموه من خيرٍ ـ إمّا مع هؤلاء المذكورين وإمّا مع غيرهم ـ حسبةً لله ، وطلباً لجزيل ثوابه ، وهرباً من أليم عقابه ، فإن الله به عليم . والعليم مبالغة فى كونه عالماً ، يعنى : لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فيجازيكم أحسن الجزاء عليه ، كما قال : إِنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى (١) وقال : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٢) .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٥] ونصها : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

(٢) [٩٩ / الزلزلة / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٦] (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« كُتِبَ » أى : فرض « عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ » أى : قتال المتعرّضين لقتالكم ، كما قال : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا[١] ، المراد بقتالهم الجهاد فيهم بما يبيدهم أو يقهرهم ويخذلهم ويضعف قوّتهم .

قال بعض الحكماء : سيف الجهاد والقتال هو آية العزّ ، وبه مصّرت الأمصار ، ومدّنت المدن ، وانتشرت المبادئ والمذاهب ، وأيّدت الشرائع والقوانين ؛ وبه حُمِى الإسلام من أن تعبث به أيدى العابثين فى الغابر ، وهو الذى يحميه من طمع الطامعين فى الحاضر ؛ وبه امتدت سيطرة الإسلام إلى ما وراء جبال الأورال شمالًا ، وخط الاستواء جنوبًا ، وجدران الصين شرقًا ، وجبال البيرنه غربًا ..!

قال : فيجب على المسلمين أن لا يتملّصوا من قول بعض الأوروبيين : إنّ الدين الإسلاميّ قد انتشر بالسيف ! فإن هذا القول لا يضرّ جوهر الدين شيئًا ؛ فإن المنصفين من الأوروبيين يعلمون أنه قام بالدعوة والإقناع ، وأن السيف لم يجرد إلّا لحماية الدعوة ، وإنما التملص منه يضر المسلمين لأنه يقعدهم عن نصرة الدين بالسيف ، ويقودهم إلى التخاذل والتواكل ، ويحملهم على الاعتقاد بترك الوسائل فيستخذون إلى الضعف كما هى حالتهم اليوم ، وتبتلعهم الأمم القوية التى جعلت شعار تمدّنها السيف أو القوة ..!

قال: يجب على المسلمين أن يدرسوا آيات الجهاد صباحَ مساءَ ، ويطيلوا النظر فى قوله تعالى :

(١) [٢ / البقرة / ١٩٠] . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ[(١)] ، لعلهم يتحفزون إلى مجاراة الأمم القوية المجاهدة فى الأمم الضعيفة ..!

وقوله تعالى « وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » من الكراهة ، فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة. كقول الخنساء[(٢)] : * فإنما هى إقبالٌ وإدبار * كأنه فى نفسه كراهة لفرط كراهتهم له ، أو هو فُعل بمعنى مفعول ـ كالخبز بمعنى المخبوز ـ أى: وهو مكروه لكم، وهذا الكره إنما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال ـ لما فيه من مؤنة المال ، ومشقة النفس ، وخطر الروح ، والخوف ـ فلا ينافى الإيمان. لأنّ كراهة الطبع جبلية لا تنافى الرضاء بما كلف به. كالمريض الشارب للدواء البشع.

وفى القاموس وشرحه : (الكره) بالفتح ويضمّ : لغتان جيدتان بمعنى الإباء والمشقة.

---

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٢) البيت بتمامه :

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتى إذا ادَّكرتْ ... فإنما هى إقبال وإدبار

أخبرت أنها قلقة تقبل وتدبر من شدة ما بها من العَلَزِ (والعلز الرعدة والاضطراب والقلق الشديد) على ولدها .

تقول : كأننى وحشية إذا غفلتْ رعت ، وإذا ذكرت فَقْدَ ولدِها لم يُقرّها قرار . والبيت للخنساء من قصيدة فى صخر . مطلعها :

ماهاج حزنُكِ ؟ أم بالعين عُوّارُ ... أم ذرَّفَتْ أم خلَتْ من أهلها الدارُ

العوّار : وجع فى العين كالقذى . ذرفت : قطرت قطراً متتابعاً لايبلغ أن يكون سيلا .

والمعنى : أى شيء هاج حزنك ؟ عُوّارٌ بعينيك ؟ أم سالت الدموع لخلاء هذه الدار ؟

قال ثعلب : قرأ نافع وأهل المدينة فى سورة البقرة « وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » بالضم فى هذا الحرف خاصة ، وسائر القرآن بالفتح . وكان عاصم يضم هذا الحرف والذى فى الأحقاف : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً(١) ، ويقرأ سائرهن بالفتح . وكان الأعمش وحمزة والكسائىّ يضمون هذه الحروف الثلاثة والذى فى النساء : لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كُرْهاً(٢) ، ثم قرأوا كل شىء سواها بالفتح . قال الأزهرىّ : ونختار ماعليه أهل الحجاز : أنّ جميع ما فى القرآن بالفتح إلا الذى فى البقرة خاصة ، فإنّ القراء أجمعوا عليه ! . قال ثعلب : ولا أعلم بين الأحرف التى ضمها هؤلاء وبين التى فتحوها فرقاً فى العربية ، ولا فى سنة تتبع ، ولا أرى الناس اتفقوا على الحرف الذى فى سورة البقرة خاصة ، إلا أنه اسم وبقية القرآن مصادر . قال الأزهرىّ : وقد أجمع كثير من أهل اللغة : أنّ (الكَرْه والكُرْه) لغتان ، فبأىِّ لغةٍ وقع فجائز . إلا الفراء فإنه فرق بينهما بأنّ (الكُره) بالضمّ ما أكرهت نفسك عليه ، وبالفتح : ما أكرهك غيرك عليه . تقول : جئتك كُرها ، وأدخلتنى كَرها . وقال ابن سيده : الكره : الإباء والمشقة تتكلفها فتحتملها ، وبالضمّ : المشقة تحتملها من غير أن تكلفها . يقال : فعل ذلك كرها وعلى كره . قال ابن برّى :

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

ويدل لصحة قول الفراء قول الله عزّ وجلّ : وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا(١) ، ولم يقرأ أحد بضم الكاف . وقال سبحانه : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ(٢) ، ولم يقرأ أحد بفتح الكاف . فيصير (الكَرْه) بالفتح . فعل المضطر ، و(الكُرْه) بالضمّ : فعل المختار.

« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا » ـ كالجهاد فى سبيل الله تعالى ـ « وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » إذ فيه إحدى الحسنيين : إمّا الظفر والغنيمة ، وإمّا الشهادة والجنة « وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا » ـ كالقعود عن الغزو ـ « وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ » لما فيه من الذل والفقر وحرمان الغنيمة والأجر « وَاللهُ يَعْلَمُ » ـ ماهو خير لكم « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ذلك . فبادروا إلى مايأمركم به وإن شقّ عليكم فهو رؤوف بالعباد لا يأمرهم إلا بخير .

قال الحرالىّ : فنفى العلم عنهم بكلمة (لا) أى : التى هى للاستقبال حتى تفيد دوام الاستصحاب. وماأوتيتم من العلم إلّا قليلًا . قال : من حيث رتبة هذا الصنف من الناس من الأعراب وغيرهم ، وأما المؤمنون ـ أى : الراسخون ـ فقد علّمهم الله من علمه ما علموا أنّ القتال خيرٌ لهم وأنّ التخلف شرٌّ لهم .

حتى إنّ علمهم ذلك أفاض على ألسنتهم مايفيض الدموع وينير القلوب ، حتى شاورهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فى التوجه إلى غزوة بدر(٣) ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال وأحسن

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] ونصها : أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٦] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٤٣٤ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

ثم قام عمر رضى اللهعنه فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو رضى الله عنه فقال: يارسولالله امض لماأمرك الله ، فنحن معك، والله! لانقول لك كما قالت بنو إسرائيللموسى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ[(١)] ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! فوالذى بعثك بالحقّ لو سرت إلى بَرْكِ الغِماد[(٢)] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . .! فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىّ أيها الناس ! فقال له سعد بن معاذ الأنصارىّ رضى الله عنه : والله ! لكأنّك تريدنا يارسولالله ! قال : أجل . قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ماجئتبه هوالحقّ، وأعطيناك علىذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحقّ! لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . ماتخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنّا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، لعلّ الله يريك منا ماتقرّ به عينك ، فسرْ بنا على بركة الله .

القول فى تأويل قول تعالى :

[٢١٧] (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

---

(١) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ .

(٢) هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر . وقيل : بلد باليمن .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ » قال الراغب : السائل عن ذلك ، قيل: أهل الشرك قصداً إلى تعيير المسلمين لما تجاوزوه من القتل فى الشهر الحرام ، وقيل : هم أهل الإسلام .

وقد أخرج الطبرانىّ فى (الكبير) ، والبيهقىّ فى (سننه) ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم عن جندب بن عبد الله : أنّ رسول الله ﷺ بعث رهطاً ، وبعث عليهم عبد الله بن جحش، فلقوا ابن الحضرمىّ فقتلوه ولم يدروا أنّ ذلك اليوم من رجب أو من جمادى . فقال المشركون للمسلمين : قتلتم فى الشهر الحرام . فأنزل الله هذه الآية . فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر ، فأنزل الله : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ... الآية »[1] .

وأخرجه ابن منده فى الصحابة عن ابن عباس .

وملخّص ما ذكره الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) وابن هشام فى (السيرة) فى الكلام على هذه السرية ونزول هذه الآية : أنّ النبىّ ﷺ[2] بعث عبد الله بن جحش الأسدىّ إلى نخلة فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة فى اثنى عشر رجلًا من المهاجرين ، كلّ اثنين يعتقبان على بعير ، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش ، وفى هذه السرية سُمّى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين . وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثمّ ينظر فيه . فلما سار يومين فتح الكتاب فوجد فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة ـ بين مكة والطائف ـ فترصد بها عيراً لقريش، وتعلم لنا من أخبارهم ، فقال : سمعاً وطاعةً ! وأخبر أصحابه بذلك وبأنّه لا يستكرههم ، فمن

(١) [٢ / البقرة / ٢١٨] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٤٢٣ و٤٢٤ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

أحبّ الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، فأمّا أنا فناهض ! فنهضوا كلّهم . فلما كان فى أثناء الطريق أضلّ سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه. فتخلفا فى طلبه . فبَعُد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة . فيها عمرو بن الحضرمىّ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة . فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب. لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلُنّ الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام ! فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على مقاتلتهم ، فرمى أحدهم عمرو ابن الحضرمىّ فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل فأعجزهم ، ثم أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ وقد عزلوا من ذلك الخمس ـ وهو أول خُمسٍ كان فى الإسلام ، وأول قتيل فى الإسلام ، وأول أسيرين فى الإسلام ـ فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه واشتد تعييب قريش وإنكارهم ذلك . وزعموا أنهم قد وجدوا مقالًا فقالوا : قد أحلّ محمد الشهر الحرام ! ، واشتد ذلك على المسلمين حتى أنزل الله تعالى « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ... الآية » .

وقوله تعالى « قِتَالٍ فِيهِ » بدل من الشهر ، بدل الاشتمال ، لأنّ القتال يقع فى الشهر . وقال الكسائىّ : هو مخفوض على التكرير . يريد أن التقدير : عن قتالٍ فيه . وهو معنى قول الفراء : مخفوض بـ (عن) مضمرة . وهذا ضعيف جداً لأن حرف الجرّ لا يبقى عمله بعد حذفه فى الاختيار ..! وقال أبو عبيدة : هو مجرور على الجوار . وهو أبعد من قولهما ، لأنّ الجوار من مواضع الضرورة والشذوذ ولا يحمل عليه ما وجدت عنه مندوحة . وفيه يجوز أن يكون نعتاً لـ (قتال) ، ويجوز أن يكون متعلقاً به كما يتعلق بـ (قاتل) .

وقد قرئ بالرفع فى الشاذ ، ووجهه على أن يكون خبر مبتدأ محذوف معه همزة الاستفهام تقديره : أجائزٌ قتالٌ فيه ؟

« قُلْ » فى جوابهم « قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ » أى : أمر كبير مستنكر ؛ وقد كانت العرب لاتسفك دماً ولا تغير على عدوّ فى الأشهر الحرم وهى : ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ورجب. وسنذكر ، فى تنبيه يأتى ، التحقيقَ فى كون تحريم القتال فيها محكماً أو منسوخاً .

قال الراغب : إن قيل : لِمَ لَمْ يقل : القتال فيه كبير ، وشرط النكرة المذكورة إذا أعيد ذكرها أن يعاد معرّفاً نحو : سألتنى عن رجلٍ والرجل كذا وكذا ؟ قيل : فى ذكره منكراً تنبيهٌ على أن ليس كل القتال فى الشهر الحرام هذا حكمه ، فإنّ قتال النبىّ ﷺ لأهل مكة لم يكن هذا حكمه ، فقد قال: أحلّت لى ساعة من نهارٍ ولم تكن تحلّ لأحدٍ قبلى (١).

« وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أى : عن دينه الموصل إلى رضوانه ، أو عن البيت الحرام ، فإنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم : سمّى الحجّ (سبيل الله) .

قال الحرالىّ : و (الصدّ) : صرفٌ إلى ناحية بإعراض وتكرّه ، و (السبيل) : طريق الجادة السابلة عليه الظاهر لكلّ سالك منهجه . وصدٌّ مبتدأ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم . ونصه :

عن أبى هريرة أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة ، بقتيل منهم قتلوه . فأُخبِر بذلك النبىّ ﷺ. فركب راحلته فخطب فقال « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين . أَلَا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى . ألا وإنها حلّت لى ساعة من نهار . ألا وإنها ساعتى هذه ، حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد . فمن قُتِل فهو بخير النظرين . إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل » .

فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى يا رسول الله . فقال « اكتبوا لأبى فلان » فقال رجل من قريش : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنا نجعله فى بيوتنا وقبورنا . فقال النبىّ ﷺ « إلا الإذخر ، إلا الإذخر » .

« وَكُفْرٌ بِهِ » أى : بالسبيل ـ أعنى الدين ـ أو بالله ، عطف عليه . « وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » عطف على « سبيل الله » أى : وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام . وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى « به » أى : كفرٌ بهوبالمسجد الحرام . « وَإِخْرَجُ أَهْلِهِ » أى : أهـل المسجد الحرام ـ وهم : رسول الله صلى الله عليـه وسلم والمؤمنون الذين هم أولياؤه ـ وهو عطف على « صدّ » أيضاً « مِنْهُ » من المسجدالحرام ؛ وخبر الأسماءالثلاثة « أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ » جرماً مما فعلته السرية من قتلهم إياهم فى الشهر الحرام . لأنّ الإخراج فتنة « وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » فى الشهر الحرام ، أى : فقـد فعلوا بكم فى المسجد الحرام ما هو أكبر من القتل فيه ، وحرمة المسجد لحرمة الشهر ..! هذا ، وقيل : خبر « صدٌّ » و « كفر » محذوف لدلالة ما تقدم عليه .

وأشار الرازىّ إلى إعراب آخر وهو : إنّ « صدٌّ » و « وكفرٌ » معطوفان على « كبيرٌ » أى : قتال فيه ، موصوف بهذه الصفات . وعليه ، فـ(أكبر) خبر (إخراج) فقط .

وقد جنح لهذا المهايمىّ حيث قال فى(تفسيره) :

(قل قتال فيه كبير) من المعاصى الـكبائر كيف (و) هو (صدٌّ عن سبيل الله) أى عن التجارة التى جعلها الله سبيل الرزق لعباده (و) لو استبيح هذا القتل فهو (كفرٌ بهو) صدٌّ عن (المسجد الحرام) إذا قتل الحجاج الخارجون فى الشهر الحرام ، فهذا وجه تحريم القتال فى هذا الشهر (و) لـكن (إخراجُ أهله) أى إخراجهم أهلَ المسجد الحرام وهم النبىّ والمؤمنون (منه أكبر عند الله) ... إلى آخره . وهذا الوجه من الإعراب بديع ، والأكثرون على الأول .

قال ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى تأويل هذه الآية : يقول سبحانه: هذا الذى أنـكرتموه عليهم ـ وإن كان كبيراً ـ فـا ارتـكبتموه أنتم من الـكفر بالله ، والصدّ عن سبيله وعن بيته ، وإخراج المسلمين ـ الذين همأهله ـ منه ، والشرك الذى أنتم عليه ، والفتنة التى حصلت

منكم به ـ أكبر عند الله من قتالهم فى الشهر الحرام . ومما نسب لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى هذا المعنى هذه الأبيات ، ويقال هى لعبد الله بن جحش :

تعدّون قتلًا فى الحرام عظيمةً ! وأعظمُ منه لو يرى الرشدَ راشدُ
صدودُكم عما يقول محمّدٌ وكفرٌ به ، والله راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجد الله أهلَه لئلا يُرَى لله فى البيت ساجدُ
فإنا ـ وإنْ عيّرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنَا من ابن الحضرمىّ رماحنا بنخلَةَ لمّا أوقد الحربَ واقدُ
دماً ، وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غُلٌّ من القِدِّ عانِدُ

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وأكثر السلف فسروا «الفتنة» هنا بالشرك ، كقوله تعالى : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ[1] ويدلّ عليه قوله : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[2] أى لم يكن مآل شركهم وعاقبته وآخر أمرهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه . وحقيقتها أنها الشرك الذى يدعو صاحبه إليه ، ويقاتل عليه ، ويعاقب من لم يفتتن به . ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها : ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ . قال ابن عباس : تكذيبكم . وحقيقته : ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها ومصير أمرها ، كقوله : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ[3] . وكما فتنوا عباده على الشرك ، فتنوا على النار وقيل لهم :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٩] ونصها : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٢٤] ونصها : أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ[١] . ومنه قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ...[٢] فسّرت الفتنة ـ هنا ـ بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار ، واللفظ أعمّ من ذلك . وحقيقته : عذّبوا المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم . فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين. وأمّا الفتنة التى يضيفها الله سبحانه إلى نفسه ويضيفها رسوله إليه كقوله : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ[٣] وقول موسى : إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ[٤] فتلك بمعنى آخر ، وهى بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله لعباده بالخير والشرّ ، بالنعم والمصائب . فهذه لون ، وفتنة المشركين لون . وفتنة المؤمن فى ماله وولده وجاره لون آخر . والفتنة التى يوقعها بين أهل الإسلام كالفتنة التى أوقعها بين أصحاب علىٍّ ومعاوية ، وبين أهل الجمل وصفّين ، وبين المسلمين حتى يتقاتلوا ويتهاجروا ـ لونٌ آخر . وهى الفتنة التى قال فيها محمد ﷺ[٥] : ستكون فتنة، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير

---

(١) [٥١ / الذاريات / ١٤] ونصها : ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

(٢) [٨٥ / البروج / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٥٥] ونصها : وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٩ ـ باب تكون فتنة القاعد فيها =

من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . . . وأحاديث الفتنة ـ التى أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين ـ هى هذه الفتنة(١) . وقد تأتى الفتنة مراداً بها المعصية ، كقوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي (٢) . يقوله الجدّ بن قيس لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك(٣) ، يقول : ائذن لى فى القعود ولا تفتنى بتعرضى لبنات الأصفر فإنى لا أصبر

= خير من القائم . ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . من تشرّف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به » .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ١١ ـ باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ونصه : عن حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ؟ وكنت أسأله عن الشر ؟ مخافة أن يدركنى . فقلت : يا رسول الله ! إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال « نعم » قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال « نعم . وفيه دَخَن » قلت : وما دَخَنه ؟ قال « قوم يهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال « نعم . دعاة على أبواب جهنم . من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يا رسول الله ! صفهم لنا . قال « هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » قلت: فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال « فاعتزل تلك الفرق كلها . ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

(٢) [٩ / التوبة / ٤٩] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الجزء الرابع صفحة ١٥٩ (طبعة الحلبىّ) وصفحة ٨٩٣ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

عنهنّ ..! قال تعالى : أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، أى : وقعوا فى فتنة النفاق وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر .

والمقصود : أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال فى الشهر الحرام ، بل أخبر الله أنه كبير وأنّ ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرّد القتال فى الشهر الحرام ، فهم أحقّ بالذم ، والعيب والعقوبة ، لاسيما أولياؤه . كانوا متأولين فى قتالهم ذلك ، أو مقصرين نوع تقصير يغفره الله لهم . فى جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات والهجرة مع رسوله وإيثار ماعند الله ، فهم كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنه بألف شفيع .. !

فكيف يقاس ببغيض عدوٍّ جاءَ بكلّ قبيحٍ ولم يأت بشفيع واحدٍ من المحاسن ؟..

تنبيه : اتفق الجمهور على أنّ حكم هذه الآية : حرمة القتال فى الشهر الحرام . ثم اختلفوا أنّ ذلك الحكم هل بقى أم نسخ ؟

قال ابن القيّم فى (زادالمعاد) فى الفصل الذى عقده لِمَا كان فى غزوة خيبر من الأحكام الفقهية . ما نصّه : منها محاربة الكفار ومقاتلتهم فى الأشهر الحرم ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية فى الحجة . فمكث بها ثم سار إلى خيبر فى المحرم كذلك . قال الزهرّى عن عروة عن مروان والمسوَر ، وكذلك قال الواقدىّ : خرج فى أوّل سنة سبع من الهجرة . ولكن فى الاستدلال بذلك نظر . فإنّ خروجه كان فى أواخر المحرم لا فى أوله ، وفتحها إنما كان فى صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبىّ صلى الله عليه وسلم أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان على القتال وأن لايفروا . وكانت فى ذى القعدة . ولكن لا دليل فى ذلك . لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قد قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله ، فحينئذٍ بايع الصحابة . ولا خلاف فى جواز القتال فى الشهر الحرام دفعاً ، وإنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداءً . فالجمهور جوّزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ ، وهو مذهب الأئمة

الأربعة رحمهم الله . وذهب عطاء وغيره إلى أنّه ثابت غير منسوخ ؛ وكان عطاء يحلف بالله ما يحل القتال فى الشهر الحرام ولا نسخ من تحريمه شىء ..! وأقوى من هذين الاستدلالين، الاستدلالُ بحصار النبىّ صلى الله عليه وسلم للطائف . فإنه خرج إليها فى أواخر شوال فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة . فبعضها كان فى ذى العقدة . فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان ، وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة . فخرج إلى هوازن وقد بقى من شوال عشرون يوماً ففتح الله عليه هوازن وقسم غنائمها . ثم ذهب منها إلى الطائف فحاصروه عشرين ليلة . وهذا يقتضى أن بعضها فى ذى القعدة بلاشك . وقد قيل إنما حاصرهم بضع عشرة ليلة . (قال ابن حزم : وهو الصحيح بلاشك) وهذا عجيب منه . فمن أين له هذا التصحيح والجزم به ..؟ وفى (الصحيحين)[1] عن أنس بن مالك فى قصة الطائف قال: فحاصرناهم أربعين يوماً فاستعصوا وتمنّعوا ، وذكر الحديث . فهذا الحصار وقع فى ذى القعدة بلا ريب . ومع هذا ، فلا دليل فى القصة لأنّ غزو الطائف كان من تمام غزوة هوازن . وهم بدأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال . ولما انهزموا دخل ملكهم ـ وهو مالك بن عوف النضرىّ ـ مع ثقيف فى حصن الطائف . فحاربت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان غزوهم من تمام الغزو التى شرع فيها ، والله أعلم .

وقال الله تعالى فى سورة المائدة وهى من آخر القرآن نزولًا وليس فيها منسوخ :

---

(١) ذكر المؤلف أن حديث أنس أخرجه صاحبا الصحيحين . وبحثت عنه فيهما فلم أهتد إليه . لكنى أرجح أنه فى صحيح مسلم فقط. بدليل أن الحافظ ابن حجر، عند قول البخارىّ (فى الحديث ١٩٢٨ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف) لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ، قال : وذكر أنس فى حديثه، عند مسلم، أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً . فقوله (عند مسلم) دليل على أن البخارىّ لم يخرجه . فمن وقف عليه عند مسلم فليذكره هنا . وأجره على الله .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ(١) وقال فى سورة البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ(٢) . فهاتان آيتان مدنيتان . بينهما فى النزول نحو ثمانية أعوام . وليس فى كتاب الله ولا سنّة رسوله ناسخٌ لحكمها . ولا اجتمعت الأمة على نسخه . ومن استدلّ على النسخ بقوله تعالى : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً(٣) ونحوها من العمومات ، فقد استدلّ على النسخ بما لا يدلّ . ومن استدل عليه بأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم بعث أباعامر فى سريةٍ إلى أوطاس فى ذى القعدة ، فقد استدلّ بغير دليل . لأنّ ذلك كان من تمام الغزوة التى بدأ فيها المشركون بالقتال ولم يكن ابتداءً منه لقتالهم فى الشهر الحرام .

« وَلَا يَزَالُونَ » ـ يعنى أهل مكة ـ « يُقَاتِلُونَكُمْ » ـ أيها المؤمنون ـ « حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ » أى : يرجعوكم عن دينكم الإسلام إلى الكفر « إِنِ اسْتَطَاعُوا » أى : قدروا على ردّتكم . وفيه استبعاد لاستطاعتهم . فهو كقول الرجل لعدوّه: إن ظفرت بى

(١) [٥ / المائدة / ٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

(٣) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

فلا تُبْقِ عليّ . وهو واثقٌ أنه لا يظفر به . وجملة « وَلَا يَزَالُونَ » إما معطوفة على « يَسْأَلُونَكَ » أو معترضة . والمقصود : تحذير المؤمنين منهم وعدم المبالاة بموافقتهم في بعض الأمور، لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة في الدين . وفي الآية إشعار بأنكم أحقّ بأن لا تزالوا تقاتلونهم . لأنهم قاطعون بأنكم على الحق وأنكم منصورون ، وأنهم على الباطل وهم مخذولون ، ولابدّ، وإن طال المدى . لاعتمادكم على الله واعتمادهم على قوتهم . ومن وُكِلَ إلى نفسه ضاع . فالأمر الذي بينكم وبينهم أشدّ من الكلام . فينبغي الاستعداد له بعدّته، والتأهّب له بأهبته ، فضلًا عن أن يلتفت إلى التأثر بكلامهم الذي توحيه إليهم الشياطين طعناً في الدين ، وصداً عن السبيل . أشار لذلك البقاعيّ . ثم حذّر تعالى عن الارتداد بقوله : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ » وهو الإسلام . وبناء صيغة الافتعال من الردّة المؤذنة بالتكلف ، إشارة إلى أنّ من باشر دين الحقّ يبعد أن يرجع عنه ، فهو متكلف في ذلك « فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » أي : بطلت جميع مساعيهم النافعة لهم، وردّت « فِي الدُّنْيَا » ـ إذ يرفع الأمان عن أموالهم وأهليهم ـ « وَالْآخِرَةِ » ـ إذْ يسقط ثوابهم فلا يجزون ثمّت بحسناتهم « وَ » لا يقتصر عليه بل « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ » أي: أهل النار « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » مقيمون لا يموتون ولا يخرجون كسائر الكفّار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٨] (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا » بحرمة الشهر في نفسه وجواز قتال المخرجين أهلَ المسجد الحرام منه « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا » تركوا مكة وعشائرهم إذ أُخرجوا من المسجد الحرام « وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ولو في الشهر الحرام للدفع عن أنفسهم « أُولَئِكَ » وإن باشروا القتال

فى الشهر الحرام « يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ » أى جنته على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم . وإنما ثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجوّ للإيذان بأنهم عالمون بأنّ العمل غير موجب للأجر، وإنما هو على طريق التفضّل منه سبحانه ، لا لِأَنّ فى فوزهم اشتباهاً « وَاللهُ غَفُورٌ » لهتكهم حرمة الشهر « رَحِيمٌ » بما تجاوز عن قتالهم، مع قيام دليل الحرمة فلم يعاقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٩] (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » هذه الآية أول آية نزلت فى الخمر ، على ما قاله ابن عمر والشعبيّ ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء ثم نزلت الآية التى فى المائدة .

وروى الإمام أحمد[١] وأبو داود[٢] والترمذيّ[٣] عن عمر أنّه قال ـ لمّا نزل تحريم الخمر ـ قال : اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافيا ! فنزلت هذه الآية التى فى البقرة : يسألونك عن الخمر والميسر . . . الآية. فدُعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافيا . فنزلت

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند . الصفحة ٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) حديث ٣٧٨ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

(٣) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٨ ـ باب حدثنا عبد بن حميد .

الآية التى فى النساء « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فكان منادى رسول الله ﷺ ـ إذا أقام الصلاة ـ نادى أن : لا يقربنّ الصلاة سكران . فدُعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافيا. فنزلت الآية التى فى المائدة ، فدُعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » قال عمر : انتهينا انتهينا.

وحقيقة الخمر ما أسكر من كلّ شىء روى (الشيخان) عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال(١) : كلّ مسكر خمر ، وكلّ مسكر حرام، ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات وهو يُدمنها لم يتب منها ، لم يشربها فى الآخرة .

وأما الميسر فهو القِمار ـ بكسر القاف ـ مصدر من يَسَرَ ـ كالموعد والمرجع من فعلهما ـ يقال : يَسَرْته إذا قمرته ، واشتقاقه من (اليُسْر) لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كدٍّ ولا تعب ، أو من (اليسار) لأنه سلب يساره .

وصفتُهُ: أنه كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام وهى:

(الفذّ، والتوأم ، والرقيب ، والحِلْس ـ بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وككَتِف ـ والنافس ، والمُسْبِل ـ كمُحْسِن ـ والمُعَلَّى ـ كمُعظّم ـ ، والمنيح ـ كأمير ، والسّفيح ـ بوزن ماقبله ـ ، والوغد) لكلّ واحدٍ منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزّئونها عشرة أجزاء (كما قاله أبو عمرو) أو ثمانية وعشرين جزءاً (كما قاله الأصمعىّ) وهو الأكثر ، إلا ثلاثة منها وهى (المنيح والسفيح والوغد) فلا أنصباء لها . وإنما يكثر بها القداح كراهة التهمة . ولبعضهم :

لِيَ فى الدنيا سهام ... ليس فيهن ربيح
وأساميهن : وغد ... وسفيح ومنيح

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٦ ـ كتاب الأشربة ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .
ولم يخرجه البخارىّ عن ابن عمر .

فللفذّ سهم ـ أي : فرض واحد ـ وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحِلْس أربعة وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلّى سبعة يجعلونها في الرِّبابة (وهي خريطة) ويضعونها على يدَيْ عدل ثم يجلجلها ويدخل يده فيُخرج، باسم رجلٍ رجلٍ، قدحاً منها . فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله . وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البَرَم (بفتحتين). كذا في (الكشاف) بزيادة .

وفي (القاموس وشرحه) : (الميسر) اللعب بالقداح، أو هو الجزور التي كانوا يتقامرون عليها . كانوا إذا أرادوا أن ييسروا اشتروا جزوراً نسيئة ونحروه وقسموه ثمانية وعشرين قسماً أو عشرة أقسام فإذا خرج واحدٌ واحدٌ باسم رجلٍ رجلٍ ظهر فوز من خرج لهم ذوات الأنصباء وغرم من خرج له الغفل . وإنما سمي الجزور ميسراً لأنه يجزّأ أجزاء . وكلّ شيء جزأته فقد يَسَرْته ؛ ويسرت الناقة جزأت لحمها ، ويسر القوم الجزور أي : اجتزروها واقتسموا أجزاءها . قال سُحَيْم بن وُثَيْلٍ اليَربوعيّ :

أقول لهم بالشِّعب إذ يَيْسِرُونني   ألم تعلموا أنّي ابنُ فارسِ زَهْدَمِ ؟

كان وقع عليه سباء فضرب عليه بالسهام . وقوله (ييسرونني) هو من الميسر ، أي : يجزونني ويقتسمونني . وقال لبيد :

واعفف عن الجارات وامْنَحْـــهُنّ مَيْسِرَك السمينا !

فجعل الجزور نفسه ميسراً . ونقل الصاغاني ، أن الميسر النرد . وقال مجاهد : كلّ شيء فيه قمار فهو من الميسر . حتى لعب الصبيان بالجوز .

« قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ » أي : عظيم ـ وقرئ بالمثلثة ـ وذلك لما فيهما من المساوي المنابذة لمحاسن الشرع . من الكذب والشتم وزوال العقل واستحلال مال الغير « وَمَنَافِعُ

لِلنَّاسِ » دنيوية من اللذة والطرب والتجارة فى الخمر ، وإصابة المال بلا كدّ فى الميسر . وفى تقديم بيان إثمه ، ووصفه بالكِبَر ، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس، من الدلالة على غلبة الأول ـ ما لا يخفى على ما نطق به قوله تعالى « وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » أى : المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه ، أى : لاتوازى مضرّته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين . وفى هذا من التنفير عنها مالا يخفى . ولهذا ، كانت هذه الآية ممهّدة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرحة بل معرّضة ؛ ولهذا ، قال عمر لمّا قرئت عليه : اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ! حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[1] .

تنبيه :

ألّف كثير من أعلام الأطباء والفلاسفة مؤلفاتٍ خاصةً فى مضرّات المسكرات . ولم تزل تعقد فى بعض ممالك النصارى مؤتمرات دولية ، تدعى إليه نواب من جميع دول العالم الكبيرة لمحاربة المسكرات ، وعِيافها ، وإعلان تأثيرها فى الأجساد والعقول والأرواح ، وما ينشأ عنها من الخسران المالىّ . ومما قرره خمسون طبيباً منهم هذه الجمل :

١ ـ إنّ المسكرات لا تروى الظمأ بل تزيده .

٢ ـ إنها لاتفيد شيئاً فى قضاء الأعمال .

٣ ـ إنها توقف النموّ العقلىّ والجسدىّ فى الأولاد .

٤ ـ إنها تضعف قوة الإرادة فتفضى إلى ارتكاب الموبقات ، وتجرّ إلى الفقر والشقاء .

٥ ـ هى من المسكنات كالبنج والإيثر .

---

(١) [٥ / المائدة / ٩٠و٩١] .

٦ ـ إنها تعدّ للأمراض المعدية .

٧ ـ إنها تعدّ بنوع خاص للتدرّن والسلّ .

٨ ـ إنها تضرّ فى ذات الرئة والحمّى التيفودية أكثر مما تنفع .

٩ ـ إنها تقرّب النهاية المحزنة فى الأمراض التى تنتهى بالموت . وتطيل مدّة الشفاء فى الأمراض التى تنتهى بالصحة .

١٠ ـ إنها تعدّ لضربة الشمس والرعْن فى أيام الحرّ .

١١ ـ إنها تسرع بإنفاق الحرارة فى أيام البرد . .

١٢ ـ إنها تغير مادة القلب والأوعية الدموية .

١٣ ـ إنها كثيراً ما تسبب التهاب الأعصاب ، والآلام المبرّحة .

١٤ ـ إنها تسرع بحويصلات الجسم إلى الهدم .

١٥ ـ إنّ المقدار العظيم الذى يتناوله أصحاب الأعمال الجسدية من أشربتها هو سبب شقائهم وفقرهم وذهاب صحّتهم .

١٦ ـ إنّ الامتناع عنها مما يفضى إلى صحة وسعادة الجنس البشرىّ .

« وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » أى : يتصدقون به من أموالهم « قُلِ الْعَفْوَ » وهو ما يفضل عن النفقة ، أى : الفاضل الذى يمكن التجاوز عنه لعدم الاحتياج إليه .

وفى (الصحيحين)[1] عن النبىّ ﷺ قال : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول .

وأخرج مسلم[2] عن جابر : أن النبىّ ﷺ قال : ابدأ بنفسك فتصدّق عليها ، فإن فضل

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٩ ـ كتاب النفقات ، ٢ ـ باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، حديث ٧٦٢ . ولم يخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤١ (طبعتنا) ونصه : =

شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا .

وروى أبو داود[1] والنسائىّ[2] عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : عندى دينار، قال : أنفقه على نفسك . قال عندى آخر ، قال : أنفقه على ولدك . قال : عندى آخر ، قال : أنفقه على أهلك . قال: عندى آخر ، قال : أنفقه على خادمك . قال : عندى آخر ، قال: أنت أعلم .

« كَذَٰلِكَ » ـ أى : كما بيّن لكم ما ذكر ـ « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ » أى : الأمر والنهى وهوانَ الدنيا « لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ، فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« فِي الدُّنْيَا » أنها فانية ـ والآخرة ـ أنها باقية ، وفى أمورهما لتصلحوها ولا تتحملوا مفسداتهما ، فلا تتركوا اللذائذ الباقية للذائذ الفانية .

= عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبداً له عن دُبُر . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « ألك مال غيره ؟ » فقال : لا . فقال « من يشتريه منى ؟ » فاشتراه نُعَيْم بن عبد الله العدوى بثمانمائة درهم . فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك ... » الخ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٤٥ ـ باب صلة الرحم ، حديث ١٦٩١

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٥٤ ـ باب تفسير ذلك (أى الصدقة عن ظهر غنى) وهو ترجمة الباب السابق .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ » أخرج أبو داود[١] والنسائى[٢] والحاكم وغيرهم ، عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[٣]. وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [٤ / النساء / ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه ، فيُحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتدّ ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول ﷺ ، فأنزل الله تعالى « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ...الآية» فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . وقوله تعالى «قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ» أى : مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خيرٌ من مجانبتهم . وإنما أقيم غاية المداخلة ـ أعنى الإصلاح ـ مقامها ، تنبيهاً على أنّ المأمور به مداخلة يكون ترتب الإصلاح عليها ظاهراً . كأنها عين الإصلاح «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ» تعاشروهم ولم تجانبوهم « فَإِخْوَانُكُمْ» فهم إخوانكم فى الدين ـ الذى هو أقوى من العلاقة النسبية . ومن حقوق الإخوة : المخالطة بالإصلاح والنفع.

قال الأصبهانىّ : وإذا كان هذا فى أموال اليتامى واسعاً ، كان فى غيرهم أوسع. وهو أصل شاهد لما يفعله الرفاق فى الأسفار . يخرجون النفقات بالسوية ، ويتباينون فى قلة المطعم وكثرته.

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٧ ـ باب مخالطة اليتيم فى طعامه ، حديث ٢٨٧١ .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الوصايا ، ١١ ـ باب ما للوصىّ من مال اليتيم إذا قام عليه .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ » لأموالهم « مِنَ الْمُصْلِحِ » لها، فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه ولا تتحرَّوْا غير الإصلاح « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ » لحمَلكم على العنت ـ وهو المشقة ـ وأحرجكم ، فلم يطلق لكم مداخلتهم ، ولا يمنعه من ذلك شيء . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » أى : غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » أى : فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على أساس الطاقة .

هذا، وقد حمل القاضى قوله تعالى « قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ » على جهات المصالح والخيرات العائدة إلى الولىّ واليتيم . قال رحمه الله : هذا الكلام يجمع النظر فى صلاح مصالح اليتيم بالتقويم والتأديب وغيرها لكى ينشأ على علمٍ وأدب وفضل ، لأنّ هذا الصنع أعظم تأثيراً فيه من إصلاح حاله بالتجارة . ويدخل فيه أيضاً إصلاح ماله كى لا تأكله النفقة من جهة التجارة . ويدخل فيه أيضاً معنى قوله تعالى: وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ[1] . ومعنى قوله « خَيْرٌ » يتناول حال المتكفّل . أى : هذا العمل خير له من أن يكون مقصراً فى حق اليتيم . ويتناول حال اليتيم أيضاً . أى : هذا العمل خير لليتيم من حيث أنّه يتضمّن صلاح نفسه وصلاح ماله . فهذه الكلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم والولىّ .

وقد روى البخارىّ[2] عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا وكافل اليتيم فى الجنّة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما . وروى نحوه مسلم أيضاً فى (صحيحه)[3] .

(١) [٤ / النساء / ٢].

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢٤ ـ باب فضل من يعود يتيما .

(٣) مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٢ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢١] (وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

«وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ» أى: لاتتزوجوا الوثنيات حتى يؤمنّ بالله تعالى.

قال ابن كثير: هذا تحريم من الله عزّ وجلّ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان. ثم إن كان عمومها مراداً ، وأنّه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية ، فقد خصّ من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (١).

وقد بسط العلّامة الرازىّ ههنا الكلام على أنّ لفظ (المشرك) هل يتناول الكفار من أهل الكتاب ؟ فانظره .

والتحقيق : أن المشرك لايتناول الكتابىّ ، لأن آيات القرآن صريحة فى التفرقة بينهما. وعطف أحدهما على الآخر فى مثل: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ(٢). وسرّ ذلك ، أن المشرك هو من يتدين بالشرك. أى : يكون أصل دينه الإشراك ؛ والكتابىّ ـ وإن طرأ فى دينه الشرك ـ فلم يكن من أصله وجوهره .

وقوله تعالى « وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ » تعليلٌ للنهى عن مواصلتهنّ ، وترغيبٌ فى مواصلة المؤمنات ؛ أى : ولأمَةٌ مؤمنةٌ مع مابها من خساسة الرقّ وقلة الخطر خيرٌ من مشركة مع مالها من شرف الحرية ورفعة الشأن . فإن نقصان الرِّقّيّة فيها مجبور بالإيمان الذى هو أجلّ كمالات الإنسان « وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ » أى : المشركة بحسنها ونسبها

(١) [٥ / المائدة / ٥] . (٢) [٩٨ / البينة / ٦] .

وغيرهما . فإن نقصان الكفر لا يجبر بها « وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ » ـ بضمّ التاء ـ من الإنكاح وهو التزويج أى : لاتزوّجوا الكفار ـ بأىّ كفر كان ـ من المسلمات «حَتَّى يُؤْمِنُوا » ويتركوا ماهم فيه من الكفر « وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ » مع مابه من ذلّ الرِّقِّيَّة « خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ » بداعى الرغبة فيه الدنيوية ، فإن ذهاب الكفاءة بالكفر غير مجبور بشىء منها . وأفهَمَ هذا خيريةَ الحرّة والحرّ المؤمنين من باب الأوْلى ، مع التشريف العظيم لهما بترك ذكرهما ، إعلاماً بأن خيريّتهما أمرٌ مقطوع به ، وأن المفاضلة إنما هى بين من كانوا يعدّونه دنيّا فشرّفه الإيمان ، ومَنْ يعدّونه شريفاً فحقّره الكفران. ولذلك ذكر الموصوف بالإيمان فى الموضعين ليدلّ على أنه ـ وإن كان دنيّا ـ موضع التفضيل لعلوّ وصفه . وأثبت الوصف بالشرك فى الموضعين مقتصراً عليه لأنه موضع التحقير وإن علا فى العرف موصوفه ـ أفاده البقاعىّ .

ثم أشار إلى وجه الحظر بقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى : المذكورون من المشركات والمشركين « يَدْعُونَ » من يقارنهم ويعاشرهم « إِلَى النَّارِ » أى : إلى مايؤدى إليها من الكفر والفسوق ؛ فإنّ الزوجية مظنة الألفة والمحبة والمودة ، وكلّ ذلك يوجب الموافقة فى المطالب والأغراض ، فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ..! « وَاللهُ يَدْعُو » أى : بما يأمر به على ألسنة رسله « إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ » أى : العمل المؤدّى إليهما . وتقديم الجنة هنا على المغفرة مع سبقها عليها ، لرعاية مقابلة النار ابتداءً « بِإِذْنِهِ » بأمره « وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ » أمره ونهيه فى التزويج « لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » لكى يتعظوا وينتهوا عن تزويج الحرام ، ويوالوا أولياء الله ـ وهم المؤمنون ـ بالمعاشرة والمصاهرة فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران .

هذا ، وقد قيل : معنى « وَاللهُ يَدْعُو » وأولياء الله يدعون ، وهم المؤمنون . على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . تشريفاً لهم ، وتفخيما لشأنهم ، حيث جعل فعلهم فعل نفسه صورة . وملحظه رعاية المقابلة ، كأنه قيل : أعداء الله يدعون إلى النار ، وأولياء الله

يدعون إلى الجنة والمغفرة. إلا أنّ فيه فوات رعاية تناسب الضمائر ، فإن الضمير فى المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى « وَيُبَيِّنُ » لله تعالى، فيلزم التفكيك .

تنبيه :

قال الراغب : حقيقة التذكّر ، الاستدراك عن نسيان أو غفلة لما اشتبه القلب . قال : إن قيل : إلى أىّ شىء أشار بهذا التذكر ؟ قيل: إن الله عزّ وجل ركّب فينا بالفطرة معرفته ومعرفة آلائه. والإنسان ـ باستفادة العلم ـ يتذكّر ماذُكر فيه ، فهذا معنى التذكر. ثم قال : وقد قيل : الرجاء من الله واجب . بمعنى أنه إذا رجانا حقّق رجانا. قال: وهذه مسألة لا يمكن تصوّرها إن لم نبلغها بتعاطى هذه الأفعال التى شرطها الله تعالى . فلذلك صعب إدراكها لنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٢] (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ » وهو الدم الخارج من الرحم على وجه مخصوص فى وقت مخصوص . ويسمّى الحيض أيضاً . أى : هل يسبب ويقتضى مجانبة مسّ من رأته ؟

« قُلْ هُوَ أَذًى » أى : الحيض شىء يستقذر ويؤذى من يقربه ، نفرةً منه وكراهةً له .

« فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ » أى : فاجتنبوا مجامعتهنّ فى زمنه .

قال الراغب : فى قوله تعالى « هُوَ أَذًى » تنبيه على أنّ العقل يقتضى تجنبه ، كأنّه قيل: الحيض أذى وكلّ أذى متحاشى منه . ولمّا كان الإنسان قد يتحمل الأذى ولا يراه محرّما ، صرّح بتحريمه بقوله « فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ » .

روى الإمام أحمد ومسلم[١] عن ثابت عن أنس رضى الله عنه : أن اليهود كانوا إذا حاضت

(١) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن فى البيوت . فسأل أصحابُ النبىّ ﷺ النبىَّ ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ... إلى آخر الآية» . فقال رسول الله ﷺ : اصنعوا كلَّ شىء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يارسول ! إن اليهود تقول كذا وكذا ، فلا نجامعهن؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أنْ قد وجد عليهما . فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبىّ ﷺ ، فأرسل فى آثارهما ، فسقاهما ، فعرفا أنْ لم يجد عليهما .

« وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ » تأكيدٌ لحكم الاعتزال ، وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهنّ، لا عدَم القرب منهنّ، وكنى بقربانهنّ، المنهىّ عنه، عن مباضعتهنّ . فدلّ على جواز التمتع بهنّ حينئذ فيما دون الفرج .

ففى (الصحيحين)[1] عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أرجّل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض .

وفيهما[2] عنها أيضا قالت : كان رسول الله ﷺ يتّكئ فى حجرى وأنا حائض ، ثم يقرأ القرآن .

وروى مسلم[3] عنها أيضا قالت : كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أناوله النبىّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦ ـ كتاب الحيض ، ٢ ـ باب غسل الحائض رأس زوجها وترجيله ، حديث ٢١٠ .

ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦ ـ كتاب الحيض، ٣ ـ باب قراءة الرجل فى حجر امرأته وهى حائض ، حديث ٢١١ .

ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض حديث ١٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٤ (طبعتنا) .

فيضع فاه على موضع فىّ فيشرب . وأتعرّق العَرْق وأنا حائض ، ثم أناوله النبىّ ﷺ فيضع فاه على موضع فىّ .

وفى (الصحيحين)(١) ـ واللفظ لمسلم ـ عن ميمونة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر نساءه فوق الإزار وهنّ حيّض .

وفى لفظ له : كان يضطجع معى وأنا حائض وبينى وبينه ثوب .

وقوله « حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ » بيان لغاية الاعتزال . وقد قرئ فى السبع : بفتح الطاء والهاء مع التشديد ، وبسكون الطاء وضمّ الهاء مخففة . والقراءة الأولى تدلّ صريحاً على أنّ غاية حرمة القربان هو الاغتسال ، كما ينبىء عنه قوله تعالى « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ . . . الخ » . والقراءة الثانية وإن دلّت على أنّ الغاية هو انقطاع الدم ـ بناء على ما قيل : إنّ الطهر انقطاع الدم ، والتطهر الاغتسال ـ إلّا أنه لما ضمّ إليها قوله تعالى « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ » صار المجموع هو الغاية؛ وذلك بمنزلة أنْ يقول الرجل : لا تكلم فلاناً حتى يدخل الدار، فإذا طابت نفسه بعد الدخول فكلّمْهُ ! فإنه يجب أن يتعلق إباحة كلامه بالأمرين جميعاً . وكذلك الآية ـ لمّا دلت على وجوب الأمرين ـ وجب أن لا تنتهى هذه الحرمة إلّا عند حصول الأمرين ، فرجع القراءتين واحدةً، كما بينّا .

وقد روى مسلم(٢) عن عائشة : أنّ أسماء سألت النبىّ ﷺ عن غسل المحيض ؟ فقال :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦ ـ كتاب الحيض، ٥ ـ باب مباشرة الحائض، حديث ٢١٤ ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

وتمام الحديث : فقالت أسماء : وكيف نطهّر بها ؟ فقال « سبحان الله ! تطهّرين بها » فقالت عائشة (كأنها تخفى ذلك) : تتبعين أثر الدم .

وسألته عن غسل الجنابة ؟ فقال « تأخذ ماء فتَطَّهّرُ ، فتحسن الطهور . أو تُبلغ =

تأخذ إحداكنّ ماءها وسدرتها فتطهر فتحسن الطهور ، ثم تصبّ على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتى تبلغ شؤون رأسها ، ثم تصبّ عليها الماء ، ثم تأخذ فِرصة ممسكة فتطهر بها ـ والفِرصة بالكسر : قطعة من صوف أو قطن أو غيره ـ تتبع بها أثر الدم .

ثم آذن تعالى أنّ التطهر شرط في إباحة قربانهنّ ، لا يصحّ بدونه ، بقوله سبحانه « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ » أى : فجامعوهنّ من المكان الذى أمركم الله بتجنبه فى الحيض وهو القُبُل ولا تتعدّوه إلى غيره . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » من الذنوب « وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » أى : المتنزّهين عن الفواحش والأقذار . كمجامعة الحائض والإتيان فى غير المأتى . وفى ذكر التوبة إشعارٌ بمساس الحاجة إليها ـ بارتكاب بعض الناس لما نُهوا عنه ـ وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهّر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » روى الشيخان[١] عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتيت المرأة من دبرها فى قبلها ثمّ حملت كان ولدها أحول . قال : فأنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » .

= الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه . حتى تبلغ شؤون رأسها . ثم تفيض عليها الماء » .

فقالت عائشة : نعم النساء نساء الأنصار ! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٩ ـ باب نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ...الآية، حديث ١٩٧٧ ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ١١٧ (طبعتنا) .

وعندمسلم عن الزهرىّ: إن شاء مجبِّية، وإن شاء غير مجبية، غير أنّ ذلك فى صمام واحد.

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : هذه الزيادة يشبه أن تكون من تفسير الزهرىّ ، لخلوّها من رواية غيره من أصحاب ابن المنكدر ، مع كثرتهم .

و (المجبِّية) كملبّية : المنكبّة على وجهها . و (الصمام الواحد) : الفرج . وقوله تعالى « حَرْثٌ لَكُمْ » الحرث : إلقاء البذر فى الأرض ، هذا أصله ؛ والكلام إما بحذف المضافِ ، أى مواضع حرث ، أو المصدر بمعنى المفعول أى : محروثات . وإنما شُبِّهْنَ بذلك لما بين ما يلقى فى أرحامهن وبين البذور من المشابهة . من حيث إنّ كلًّا منهما مادة لما يحصل منه . ولمّا عبّر تعالى عنهنّ بالحرثِ عبّر عن مجامعتهنّ بالإتيان كما تقدّم،فقال« فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » أى : فَأْتُوهُنّ كما تأتون أراضيكم التى تريدون أن تحرثوها من أىّ جهةٍ شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة . والمعنى : جامعوهن من أىّ جهةٍ شئتم ولا تبالوا بقول اليهود . وفى تخصيص (الحرث) بالذكر تعميم جميع الكيفيات الموصلة إليه .

قال الزمخشرىّ: وقوله تعالى: هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ـ من حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ـ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ . من الكنايات اللطيفة ، والتعريضات المستحسنة . وهذه وأشباهها فى كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ، ويتأدّبوا بها ، ويتكلّفوا مثلها فى محاورتهم ومكاتبتهم .

وقد ورد ـ فى سبب نزول هذه الآية ـ رواية أخرى أخرجها أبو داود[1] والحاكم عن ابن عباس قال : كان هذا الحىّ من الأنصار (وهم أهل وثن) مع هذا الحىّ من يهود (وهم أهل كتاب) كانوا يرون لهم فضلًا عليهم فى العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم . وكان من أمر أهل الكتاب أنهم لا يأتون النساء إلّا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة . فكان هذا الحىّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم . وكان هذا الحىّ من قريش

(١) أخرجه أبو داود فى: ١٢ـ كتاب النكاح، ٤٥ ـ باب فى جامع النكاح، حديث ٢١٦٤

يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون منهن مُقْبِلات ومُدْبِرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأةً من الأنصار . فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت : إنما كنا نُؤتَى على حرف . فاصنع ذلك ، وإلّا فاجتنبني . حتى سرى أمرهما . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فأنزل الله عزّ وجلّ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » أي : مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد .

تنبيـه :

ما ذكرناه من الروايات هو المعوّل عليه عند المحققين .

وثمت روايات أخَرُ تدلّ على أنّ هذه الآية إنّما أُنزلت رخصةً في إتيان النساء في أدبارهنّ .

قال الطحاويّ : روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال : ما أدركت أحداً أقتدى به في ديني يشك أنه حلال (يعني وطء المرأة في دبرها) ثم قرأ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » ثم قال : فأيّ شيء أبين من هذا ؟ هذه حكاية الطحاويّ نقلها ابن كثير .

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الرافعيّ : قال ابن القاسم : ولم أدرك أحداً أقتدى به في ديني يشك فيه . والمدنيوّن يروون فيه الرخصة عن النبيّ ﷺ . يشير بذلك إلى ماروى عن ابن عمر وأبي سعيد .

أما حديث ابن عمر فله طرق . رواه عنه نافع ، وعبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وزيد ابن أسلم . وسعيد بن يسار . وغيرهم .

أمّا نافع فاشتهر عنه من طرقٍ كثيرة جدّاً . منها رواية مالك ، وأيوب ، وعبيد الله بن عمر العمريّ ، وابن أبي ذئب ، وعبد الله بن عون ، وهشام بن سعد ، وعمر بن محمد بن زيد ، وعبد الله بن نافع ، وأبان بن صالح ، وإسحق بن عبد الله بن أبي فروة .

قال الدارقطنيّ ، في أحاديث مالك التي رواها خارج (المُوَطَّأ) : نا أبو جعفر الأسوانيّ المالكيّ بمصر . ثنا محمد بن أحمد بن حماد . نا أبو الحرث أحمد بن سعيد الفهريّ . نا أبو ثابت

محمد بن عبيد الله . حدّثنا الدراوردىّ عن عبيد الله بن عمر بن حفص عن نافع قال : قال لى ابن عمر : أمسك علىّ المصحف يانافع . فقرأ حتى أتى على هذه الآية « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ... » فقال : تدرى يانافع فيمن أنزلت هذه الآية ؟ قال قلت : لا ؟ قال ، فقال لى : فى رجلٍ من الأنصار أصاب امرأته فى دبرها ، فأعظم الناس ذلك ، فأنزل الله تعالى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ... » الآية قال نافع : فقلت لابن عمر : من دبرها فى قبلها ؟ قال : لا . إلّا فى دبرها .

قال أبو ثابت : وحدثنى به الدراوردىّ عن مالك وابن أبى ذئب . وفيهما عن نافع مثله.

وفى تفسير البقرة من صحيح البخارىّ : نا إسحق . أنا النضر . أنا ابن عون عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه . فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكانٍ . فقال : تدرى فيم أنزلت ؟ فقلت : لا ! قال : نزلت فى كذا وكذا . ثم مضى .

وعن عبد الصمد : حدثنى أبى ـ يعنى عبد الوارث ـ حدثنى أيوب عن نافع عن ابن عمر فى قوله تعالى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » قال : يأتيها فى ... قال : ورواه محمد بن يحيى بن سعيد ، عن أبيه ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر . هكذا وقع عنده .

والرواية الأولى ـ فى تفسير إسحق بن راهويه ـ مثل ما ساق ، لكن عيّن الآية وهى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » وعيّن قوله كذا وكذا . فقال : نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن . وكذا رواه الطبرىّ من طريق ابن علية عن ابن عون . وأما رواية عبد الصمد فهى فى تفسير إسحق أيضاً عنه ، وقال فيه : يأتيها فى الدبر .

وأمّا رواية محمد : فأخرجها الطبرانىّ فى (الأوسط) عن علىّ بن سعيد ، عن أبى بكر الأعين ، عن محمد بن يحيى بن سعيد بلفظ : إنما أنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » رخصة فى إتيان الدبر . وأخرجه الحاكم فى (تاريخه) من طريق عيسى بن مثرود عن

عبد الرحمن بن القاسم . ومن طريق سهل بن عمار عن عبد الله بن نافع . ورواه الدارقطنيّ فى (غرائب مالك) من طريق زكريا الساجى عن محمد بن الحرث المدنىّ عن أبى مصعب . ورواه الخطيب فى (الرواة) عن مالك من طريق أحمد بن الحكم العبدىّ . ورواه أبو إسحق الثعلبىّ فى (تفسيره) والدارقطنىّ ـ أيضاً ـ من طريق إسحق بن محمد الفروىّ . ورواه أبونعيم فى (تاريخ أصبهان) من طريق محمد بن صدقة الفدكىّ ، كلّهم عن مالك . قال الدارقطنىّ : هذا ثابت عن مالك .

وأمّا زيد بن أسلم : فروى النسائىّ والطبرىّ من طريق أبى بكر بن أبى أويس ، عن سليمان بن بلال ، عنه ، عن ابن عمر : أنّ رجلاً أتى امرأته فى دبرها على عهد رسول الله ﷺ ، فوجد من ذلك وجداً شديداً ، فأنزل الله عزّ وجلّ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ... » الآية .

وأمّا عبيد الله بن عبد الله بن عمر : فروى النسائىّ من طريق يزيد بن رومان عنه : أنّ ابن عمر كان لا يرى به بأساً . موقوف .

وأمّا سعيد بن يسار : فروى النسائىّ والطحاوىّ والطبرىّ من طريق عبد الرحمن بن القاسم قال : قلت لمالك : إنّ عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحرث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال : قلت لابن عمر : إنا نشترى الجوارى فنحمض لهن (والتحميض : الإتيان فى الدبر) فقال : أفٍّ ! أوَ يفعل هذا مسلم ؟ قال ابن القاسم : فقال لى مالك : أشهد على ربيعة لحدثنى عن سعيد بن يسار أنّه سأل ابن عمر عنه فقال : لا بأس به .

وأمّا حديث أبى سعيد : فروى أبويعلى وابن مردويه فى (تفسيره) والطبرىّ والطحاوىّ من طرق : عن عبدالله بن نافع ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرىّ : أنّ رجلاً أصاب امرأة فى دبرها فأنكر الناس ذلك عليه وقالوا : أثفرها ! فأنزل الله عزّ وجلّ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » . ورواه أسامة بن أحمد التجيبىّ من طريق يحي بن أيوب عن هشام بن سعد ، ولفظه : كنّا

نأتى النساء فى أدبارهن ويسمّى ذلك الإثفار، فأنزل الله الآية . ورواه من طريق معن بن عيسى عن هشام ـ ولم يسمّ أبا سعيد ـ قال : كان رجال من الأنصار ...

هـذا ، وقد روى فى تحريم ذلك آثار كثيرة نقلها الحافظ ابن كثير فى (تفسيره) ، وابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعىّ . وكلّها معلولة .

ولذا قال البزار : لا أعلم فى هـذا الباب حديثاً صحيحاً ، لا فى الحظر ولا فى الإطلاق . وكلّ ما روى فيه عن خزيمة بن ثابت من طريق فيه ، فغير صحيح .

وكذا روى الحاكم عن الحافظ أبى علىّ النيسابورىّ ، ومثله عن النسائىّ ، وقاله قبلهما البخارىّ .

وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعىّ أنّه قال : لم يصح عن رسول الله ﷺ فى تحريمه ولا فى تحليله شىء . والقياس أنّه حلال .

وروى أحمد بن أسامة التجيبىّ من طريق معن بن عيسى قال : سألت مالكاً عنه ، فقال : ما أعلم فيه تحريماً .

وقال ابن رشد فى كتاب (البيان والتحصيل فى شرح العتبية) روى العتبىّ عن ابن القاسم عن مالك أنّه قال له ـ وقد سأله عن ذلك مخلياً بِهِ ـ فقال : حلال ليس به بأس .

وأخرج الحاكم عن محمد بن عبد الحكم قال : قال الشافعىّ كلاماً كلّم به محمد بن الحسن فى مَسْأَلَة إتيان المرأة فى دبرها ، قال : سألنى محمد بن الحسن فقلت له : إنْ كنت تريد المكابرة وتصحيح الروايات ـ وإن لم تصح ـ فأنت أعلم ، وإن تكلمت بالمناصفة كلّمتك . قال : على المناصفة . قلت : فبأىّ شىء حرّمته ؟ قال : بقول الله عزّ وجلّ « فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ » وقال « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » ، والحرث لا يكون إلّا فى الفرج قلت : أفيكون ذلك محرّماً لما سواه ؟ قال : نعم . قلت : فما تقول لو وطئها بين ساقيها ، أو فى أعكانها ، أو تحت إبطها ، أو أخذت ذكره بيدها ، أَوَ فى ذلك حرث ..؟ قال : لا !

قلت : أفيحرم ذلك ؟ قال : لا ! قلت : فلِمَ تحتج بما لا حجّة فيه ؟ قال : فإن الله قال « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ...» الآية . قال : فقلت له : إنّ هذا مما يحتجّون به للجواز أن الله أثنى على من حفظ فرجه من غير زوجته وماملكت يمينه ، فقلت: أنت تتحفظ من زوجته وما ملكت يمينه . قال الحاكم : لعلّ الشافعيّ كان يقول بذلك فى القديم . فأمّا فى الجديد ، فالمشهور أنه حرّمه . فقد روى الأصمّ عن الربيع : أنّ الشافعيّ نصّ على تحريمه فى ستة كتبٍ من كتبه . . وأخرج الحاكم عن الأصم عن الربيع قال: قال الشافعيّ قال الله «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » احتملت الآية معنيين : أحدهما أن تُؤْتَى المرأة من حيث شاء زوجها . لأنّ « أَنَّى شِئْتُمْ » يأتى بمعنى أين شئتم . ثانيهما أنّ (الحرث) إنما يراد به النبات فى موضعه دون ما سواه . فاختلف أصحابنا فى ذلك . فأحسب كلًّا من الفريقين تأولوا ما وصفت من احتمال الآية . قال : فطلبنا الدلالة من السنة، فوجدنا حديثين مختلفين : أحدهما ثابت ؛ وهو حديث خزيمة فى التحريم . قال : فأخذنا به.

وعليه ، فيكون الشافعيّ رجع عن القديم . وحديث خزيمة رواه الشافعيّ وأحمد والنسائيّ وابن ماجه[1] وابن حبان وأبو نعيم بالسند إلى خزيمة بن ثابت : أنّ رجلًا سأل النبيّ ﷺ عن إتيان النساء فى أدبارهنّ فقال : حلال . فلمّا ولّى الرجل دعاه ـ أو أمر به فدُعى ـ فقال : كيف قلت ؟ فى أىّ الخرزتين ؟ أمن دبرها فى قبلها ؟ فنعم ! أَمْ من دبرها فى دبرها فلا ! إنّ الله لايستحيي من الحقّ. لا تأتوا النساء فى أدبارهنّ .

قال الحافظ ابن حجر فى (التلخيص الحبير) : وفى إسناده عمرو بن أحيحة . وهو مجهول الحال . واختلف فى إسناده اختلافاً كثيراً . ثم قال الحافظ : وقد قال الشافعيّ :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة ٢١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٩ ـ باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهن ، حديث ١٩٢٤ (طبعتنا) .

غلط ابن عيينة فى إسناد حديث خزيمة ـ يعنى حيث رواه . وتقدم قول البزار : وكل ماروى فيه عن خزيمة بن ثابت ، من طريق فيه ، فغير صحيح .

وقال الرازىّ فى (تفسيره) : ذهب أكثر العلماء إلى أنّ المراد من الآية : أنّ الرجل مخيَّرٌ بين أن يأتيها من قبلها فى قبلها ، وبين أن يأتيها من دبرها فى قبلها . فقوله « أَنَّىٰ شِئْتُم » محمول على ذلك . ونقل نافع عن ابن عمر أنّه كان يقول : المراد من الآية تجويز إتيان النساء فى أدبارهنّ . وهذا قول مالك . واختيار السيد المرتضى من الشيعة . والمرتضى رواه عن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه .

وبالجملة : فهذا المقام من معارك الرجال ، ومجاول الأبطال . وقد استُفيد ممـا أسلفناه : أنّ من جوّز ذلك وقف مع لفظ الآية . فإنه تعالى جعل الحرث اسماً للمرأة . قال بعض المفسرين : إنّ العرب تسمّى النساء حرثاً . قال الشاعر :

إذا أكل الجراد حروث قومٍ   فحرثى همّه أكل الجراد

يريد : امرأتى . وقال آخر :

إنما الأرحام أرضٌ   ولنـا محـترثات
فقلبنا الزرع فيها ،   وعلى الله النبات ..!

وحينئذٍ ، فى قوله « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » إطلاق فى إتيانهنّ على جميع الوجوه . فيدخل فيه محل النزاع . واعتمد أيضاً من سبب النزول ماروواه البخارىّ عن ابن عمر كما تقدّم . وقال فى رواية جابر المرويّة فى (الصحيح) المتقدّمة : إنّ ورود العام على سبب لايقصره عليه . وأجاب عن توهيم ابن عباس لابن عمر، رضى الله عنهم ، المروىّ فى (سنن أبى داود) بأنّ سنده ليس على شرط البخارىّ فلا يعارضه . فيقدّم الأصحّ سنداً . ونظر إلى أنه لم يصح عن النبىّ ﷺ فى هذا الباب حديث .

قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : ذهب جماعة من أئمة الحديث ـ كالبخارىّ والذهلىّ والبزّار والنسائىّ وأبى علىّ النيسابورىّ ـ إلى أنّه لايثبت فيه شىء .

وأمّا من منع ذلك : فتأوّل الآيات المتقدّمة على صمام واحـد . ونظر إلى أن الأحاديث المرويّة ـ من طرق متعدّدة ـ بالزجر عن تعاطيه ، وإنْ لم تكن على شرط الشيخين فى الصحة، إلّا أنّ مجموعها صالحٌ للاحتجاج به .

وقد استقصى الأحاديث الواردة فى ذلك ، الحافظ الذهبيّ فى جزء جمعه فى ذلك . وساق جملةً منها الحافظ ابن كثير فى (تفسيره) وكذا الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) وقد هوّل ـ عليه الرحمة ـ فى شأنه تهويلاً عظيماً . فقال فى كتابه المذكور ، فى الكلام على هديه ﷺ فى الجماع ، ما نصّه :

وأمّا الدبر ، فلم يبَح قط على لسان نبيٍّ من الأنبياء . ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة فى دبرها فقد غلط عليه . ثمّ ساق أخبار النهى عنه ـ وقال بعدُ : وقد دلّت الآية على تحريم الوطء فى دبرها من وجهين : أحدهما : أنه إنما أباح إتيانها فى الحرث وهو موضع الولد ، لا فى الحشّ الذى هو موضع الأذى . وموضع الحرث هو المراد من قوله « مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ... » الآية ـ « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » وإتيانها فى قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضاً لأنه قال « أَنَّىٰ شِئْتُمْ » أى : من أين شئتم : من أمام أو من خلف : قال ابن عباس : « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ » يعنى الفرج ؛ وإذا كان الله حرّم الوطء فى الفرج لأجل الأذى العارض ، فما الظن بالحشّ الذى هو محل الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل والذريعة القريبة جداً من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان . وأيضاً ، فللمرأة حقّ على الرجل فى الوطء ، ووطؤها فى دبرها يفوت حقها ، ولا يقضى وطرها ، ولا يحصل مقصودها . وأيضاً فإنّ الدبر لم يتهيأ لهذا العمل ولم يخلق له ، وإنما الذى هـيّئ له الفرج ؛ فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً . وأيضاً فإنّ ذلك مضرٌّ بالرجل ، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم ، لأن للفرج خاصية فى اجتذاب الماء المحتقن ، وراحة الرجل منه ، والوطء فى الدبر لايعين على اجتذاب

جميع الماء ولا يخرج كلّ المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعيّ . . . وأيضاً يضرّ من وجه آخر وهو إحواجه إلى حركات متعبة جداً لمخالفته للطبيعة . وأيضاً فإنه محلّ القذر والنَّجْو فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه . وأيضاً فإنه يضرّ بالمرأة جداً ، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع منافر لها غاية المنافرة . وأيضاً فإنه يحدث الهم والغم والنفرة عن الفاعل والمفعول . وأيضا فإنه يسوّد الوجه ، ويظلم الصدر ، ويطمس نور القلب ، ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسيماء ، يعرفها من له أدنى فراسة . وأيضاً ، فإنه يوجب النفرة والتباغض الشديد والتقاطع بين الفاعل والمفعول ، ولا بدّ . وأيضاً فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فساداً لا يكاد يرجى بعده صلاح . إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح . وأيضاً فإنه يذهب بالمحاسن منهما ويكسوهما ضدّها . كما يذهب بالمودة بينهما ويبدلهما بها تباغضاً وتلاعناً . وأيضاً فإنه من أكبر أسباب زوال النعم وحلول النقم ، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله ، وإعراضَه عن فاعله ، وعدَم نظره إليه فأىّ خير يرجوه بعد هذا ؟ وأىّ شرٍّ يأمنه ؟ وكيف حياة عبدٍ قد حلّت عليه لعنة الله ومقته ، وأعرض عنه بوجهه ولم ينظر إليه ؟

أقول : أخذ هذا ابن القيم من أحاديث وردت فى لعن فاعل ذلك ، وعدم نظر الحقّ إليه. بيد أنها ضعيفة[1] .

---

(١) أقول أنا : ليس الأمر كذلك .

فقد أخرج ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٩ ـ باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهنّ ، حديث ١٩٢٣ (طبعتنا) هذا الحديث ونصه :

عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال « لاينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها » .

فى الزوائد : إسناده صحيح . لأن الحارث بن مخلد (أحد رجال السند) ذكره ابن حبان فى الثقات . وباقى رجال الإسناد ثقات .

قال السندىّ : والحديث قد رواه أبو داود والترمذىّ بلفظ قريب من هذا .

ورواه أيضاً الدارمىّ فى سننه فى : ١ ـ كتاب الوضوء ، ١١٤ ـ باب من أتى امرأته فى دبرها =

ثم قال ابن القيّم : وأيضاً فإنه يذهب بالحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب ، فإذا فقدها القلب استحسن القبيح واستقبح الحسن ، وحينئذ فقد استحكم فساده . وأيضاً فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله،ويخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يركب الله عليه شيئاً من الحيوان بل هو طبع منكوس ، وإذا نُكِسَ الطبع انتكس القلب والعمل والهدى ، فيستطيب حينئذالخبيث من الأعمال والأفعال والهيئات ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره . وأيضاً فإنه يورث من الوقاحة والجراءة مالا يورثه سواه . وأيضاً فإنه يورث من المهانة والسّفال والحقارة مالا يورثه غيره . وأيضاً فإنه يكسو العبد من حلة المقت والبغضاء وازدراء الناس له ، واحتقارهم إياه ، واستصغارهم له ماهو مشاهد بالحسّ. فصلوات الله وسلامه على مَنْ سعادةُ الدنيا والآخرة فى هديه واتباع ماجاء به . وهلاكُ الدنيا والآخرة فى مخالفة هديه وما جاء به . اهـ .

ولما اشتملت هذه الآية على الإذن فى قضاء الشهوة ، نبّه على أن لا يكون المرءفى قيدها بل فى قيد الطاعة ، فقال تعالى « وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ » أى : مايجب تقديمه من الأعمال الصالحة لتنالوا به الجنة والكرامة ، كقوله « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وَاتَّقُوا اللهَ فلا تجترئوا على المعاصى « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ » صائرون إليه فاستعدّوا

= وأخرج الترمذىّ فى جامعه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٧ ـ باب حدثنا عبد بن حميد، هذا الحديث ونصه :

عن ابن عباس قال : جاء أعرابىّ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! هلكتُ . قال « وما أهلكك ؟ » قال : حولت رحلى الليلة . قال فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً . قال فأوحى إلى رسول الله ﷺ هذه الآية : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ . أقبلْ وأدبرْ . واتق الدبر والحيضة .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

للقائه « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » بالثواب. وإنما حذف لكونه كالمعلوم ، فصار كقوله : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٤] (وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (العُرضة) بضم العين فعلة بمعنى مفعول ـ كالقبضة والغرفة ـ وهى اسم ماتعرضه دون الشيء . من عرض العود على الإناء . فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول : فلان عرضة دون الخير . وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات ـ مِنْ صِلَةِ رحم ، أو إصلاح ذاتِ بينٍ ، أو إحسان إلى أحد ـ ثم يقول: أخاف الله أن أحنث فى يمينى . فيترك البرّ إرادةَ البرّ فى يمينه . فقيل لهم « وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » أى : حاجزاً لما حلفتم عليه . وسمّى المحلوف عليه يميناً لتلبّسه باليمين . كحديث : من حلف على يمين . الآتى ذكره . أى: على شيء مما يحلف عليه. وقوله «أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا» عطف بيان لـ«أَيْمَانِكُمْ» أى : للأمور المحلوف عليها التى هى البر والتقوى والإصلاح بين الناس ـ أفاده الزمخشرىّ .

وعلى هذا التأويل : الآية . كقوله تعالى : وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ(٢) . والمعنى المتقدم فى الآية اتفق عليه جمهور السلف . ورواه

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٧] .

(٢) [٢٤/ النور/ ٢٢] ونصها : وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لا تجعلن الله عرضة ليمينك أنْ لا تصنع الخير . ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير . وقد ثبت فى (الصحيحين)[١] عن أبى موسى الأشعريّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنى ، والله ! إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلّا أتيت الذى هو خير وتحلّلتها . وروى مسلم[٢] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفّر عن يمينه وليفعل الذى هو خير .

وفى الآية وجه آخر ذكره كثير من المفسرين . وهو النهى عن الجراءة على الله تعالى بكثرة الحلف به . وذلك لأنّ مَن أكثَرَ ذكر شيء فى معنى من المعانى فقد جعله عرضةً له. يقول الرجل : قد جعلتنى عرضةً لِلَوْمك . وقال الشاعر : * ولا تجعلينى عرضةً للوائم *

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ١٥ ـ باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين ، حديث ١٤٧١ ونصه :

عن زهدم قال : كنا عند أبى موسى . فأتى ذكرُ دجاجة . وعنده رجل من بنى تيم الله أحمر كأنه من الموالى . فدعاه للطعام . فقال : إنى رأيته يأكل شيئاً فقذرته فحلفت لا آكل . فقال : هلم فلأحدثكم عن ذاك : إنى أتيت النبيّ ﷺ فى نفر الأشعريين نستحمله . فقال « والله ! لا أحملكم. وما عندى ما أحملكم » وأتى رسول الله ﷺ بنهب إبل . فسأل عنا . فقال « أين النفر الأشعريون ؟ » فأمر لنا بخمس ذودٍ غرّ الذرى. فلما انطلقنا قلنا : ماصنعنا؟ لا يبارك لنا . فرجعنا إليه فقلنا : إنا سألناك أن تحملنا فحلفت أن لا تحملنا . أفنسيت ؟ قال « لست أنا حملتكم . ولكن الله حملكم . وإنى ، والله ! إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير ، وتحللتها » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ١٢و١٣و١٤ (طبعتنا) .

وقد ذم اللهُ تعالى مَن أكثر الحلف بقوله : وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ[(١)]. وقال تعالى : وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ[(٢)] . والعرب كانوا يمدحون المرء بالإقلال من الحلف كما قال كثيّر :

قليلُ الألايا[(٣)] حافظٌ ليمينه ... وإنْ سبقت منه الألية برَّتِ

والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان : أنّ من حلف فى كل قليل وكثير بالله ، انطلق لسانه بذلك . ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع . فلا يؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة . فيختل ماهو الغرض الأصلىّ فى اليمين . وأيضاً ، كلّما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله تعالى كان أكمل فى العبودية . ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجلّ وأعلى عنده من أن يستشهد به فى غرضٍ من الأغراض الدنيوية . وأمّا قوله تعالى بعد ذلك « أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا » فهو علّة للنهى . أى : إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا . لأن الحلّاف مجترئٌ على الله ، غيرُ معظم له ، فلا يكون براً متقياً ، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه فى وساطتهم وإصلاحِ ذات بينهم ، والله أعلم .

---

(١) [٦٨ / القلم / ١٠] .

(٢) [٥ / المائدة / ٨٩] ونصها : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٣) الألايا ، مفردها : أَلِيّة . والألية : اليمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٥] ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » أى : لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ـ إذْ لم تقصدوا هتك حرمته ـ وهى التى لا يقصدها الحالف ، بل تجرى على لسانه عادةً من غير تعقيدٍ ولا قصدٍ إليها . كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى : وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ(١) وهو المعنىّ بقوله عزّ وجلّ « وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ » أى : تعمدته قلوبكم فاجتمع فيه ، مع اللفظ ، النيّة . يعنى : ربط القلب به لفوات تعظيم أمره ، ولهتك حرمته بنقض اليمين المقصودة .

روى عن عائشة أنها قالت : أنزلت هـذه الآية فى قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ! أخرجه البخارىّ ومالك وأبو داود(٢) ، وهذا لفظ البخارىّ .

وقد نقل ابن المنذر نحو هذا عن ابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهما من الصحابة والتابعين. ولفظ روايه ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إنما اللغو فى المزاحة والهزل وهو قول الرجل: لا والله ! وبلى والله ! فذاك لا كفّارة فيه ، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٥٧٦

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٤ ـ باب لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، حديث ١٩٩٦ .

وأخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢٢ ـ كتاب النذور والأيمان ، حديث ٩ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٦ ـ باب لغو اليمين ، حديث ٣٢٥٤ .

وروى فى تفسير لغو اليمين: هو أن يحلف على الشيء يظنّه ، ثم يظهر خلافه . وروى: أن يحلف وهو غضبان : وروى غير ذلك ، كما ساقها ابن كثير ، مسندةً .

وقد ظهر ـ للفقير ـ أن لا تنافى بين هذه الروايات . لأنّ كل ما لا عقد للقلب معه من الأيمان فهو لغو بأى صورة كانت وحالة وقعت . فكل ما روى فى تفسير الآية فهو ممايشمله اللغو . والله أعلم .

والمراد من المؤاخذة : إيجاب الكفّارة . كما بيّن ذلك فى آية المائدة : وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ . « وَاللهُ غَفُورٌ » يعنى : لعباده فيما لغوا من أيمانهم فلم يؤاخذهم به « حَلِيمٌ » يعنى فى ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة تربّصا بالتوبة . والجملة تذييل للحكمين السابقين . فائدته الامتنان على المؤمنين ، وشمول مغفرته وإحسانه لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٦] (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ فَاءُو فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[٢٢٧] (وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » اشتملت هذه الآية على حكم الإيلاء ، وهو لغةً ، الامتناع باليمين . وخصّ فى عرف الشرع : بالامتناع باليمين من وطء الزوجة . ولهذا عدى فعله بأداة (من) تضميناً له معنى : يمتنعون من نسائهم . وهو أحسن من إقامة (من) مقام (على). وجعل سبحانه للأزواج مدّة أربعة أشهر يمتنعون فيها من نسائهم بالإيلاء ، فإذا مضت فإمّا أن يفيء وإما أن يطلق .

وقد اشتهر عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهم أنّ الإيلاء إنما يكون فى حال الغضب دون الرضا ، كما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1] مع نسائه . وظاهر القرآن مع الجمهور. وقد تناظر فى هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل آخر . فاحتجّ عَلَى محمدٍ بقول عليّ كرّم اللهوجهه ، فاحتجَّ عليه محمد بالآية فسكت . وقد اتفق الأئمة على أن المُولى إذا فاء إلى المواصلة لزمته كفارة يمين ، وإنما ترك ذكرها هنا لأنها معلومة من موضع آخر فى التنزيل العزيز . فعموم وجوب التفكير ثابت على حالف .

قال العلّامة صديق خان فى (تفسيره) : اعلم أن أهل كل مذهب قد فسّروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم ، وتكلفوا بما لا يدل عليه اللفظ ولا دليل آخر . ومعناها ظاهر واضح وهو أنّ الله جعل الأجل لمن يولى (أى : يحلف من امرأته) أربعةَ أشهر ؛ ثم قال مخبراً لعباده بحكم هذا المولى بعد هذه المدّة « فَإِنْ فَاءُوا » أى : رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : لا يؤاخذهم بتلك اليمين ، بل يغفر لهم ويرحمهم ؛ « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ » أى : وقع العزم منهم عليه والقصد له « فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ » لذلك منهم « عَلِيمٌ » به . فهذا معنى الآية الذى لاشكّ فيه ولا شبهة . فمن حلف أن لا يطأ امرأته ـ ولم يقيد بمدة ، أو قيّد بزيادة على أربعة أشهر ـ كان علينا إمهاله أربعة أشهر . فإذا مضت فهو بالخيار : إما رجع إلى نكاح امرأته ، وكانت زوجته بعد مضى المدة كما كانت زوجتَه قبلها . أو طلقها ، وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء . وأمّا إذا وقّت بدون أربعة أشهر : فإن أراد

(١) أخرج البخاريّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ١١ ـ باب قول النبيّ ﷺ « إذا رأيتم الهلال فصوموا » .

عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبيّ ﷺ آلى من نسائه شهراً . فلما مضى تسعة وعشرون يوماً غدا أو راح . فقيل له : إنك حلفت أن لا تدخل شهراً . فقال « إن الشهر يكون تسعة وعشرين يوما » .

أن يبر فى يمينه اعتزل امرأته التى حلف منها حتى تنقضى المدة . كما فعل رسول الله ﷺ حين آلى من نسائه شهراً . فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر . وإن أراد أن يطأ امرأته قبل مضىّ تلك المدة التى هى دون أربعة أشهر حنث فى يمينه ولزمته الكفارة . وكان ممتثلاً لما صح عنه ﷺ من قوله : من حلف على يمين فرأى غيره خيراً منه فليأت الذى هو خير وليكفّر عن يمينه .

قال الحرالىّ : وفى قوله تعالى « فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » تهديد بما يقع فى الأنفس والبواطن من المضارة والمضاجرة بين الأَزواج فى أمورٍ لا تأخذها الأحكام ، ولا يمكن أن يصل إلى علمها الحكام ، فجعلهم أمناء على أنفسهم فيما بطن وظهر . ولذلك رأى العلماء أنّ الطلاق أمانة فى أيدى الرجال ، كما أنّ العِدَد والاستبراء أمانة فى أيدى النساء . فلذلك انتظمت آية تربّص المرأة فى عدتها بآية تربّص الزوج فى إيلائه .

قال الإمام ابن كثير : وقد ذكر الفقهاء وغيرهم ـ فى مناسبة تأجيل المُولِى بأربعة أشهر ـ الأثر الذى رواه مالك عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هـذا الليل واسودّ جانبُـهْ وأرّقنى إلّا خليـلَ ألاعبُهْ

فوالله ! لولا الله ، أنى أراقبُـهْ لحُرِّكَ من هذا السرير جوانبُهْ ..!

فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنهما : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر . فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك . وقال محمد بن إسحق عن السائب بن جبير مولى ابن عباس ـ وكان قد أدرك أصحاب النبىّ ﷺ ـ قال: ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة ـ وكان يفعل ذلك كثيراً ـ إذْ مرّ بامرأة من نساء العرب مُغْلِقَةً بابها تقول :

تطاول هذا الليل وازورّ جانِبُهْ ... وأرّقني إلّا ضجيعَ ألاعبُهْ
ألاعبه طورًا وطورًا كأنما ... بدا قمرًا في ظلمة الليل حاجبُه
يُسَرُّ به من كان يلهو بقربه ... لطيف الحشا لا يحتويه أقاربُهُ
فوالله ! لولا الله ، لا شيء غيره ، ... لنُقِّض من هذا السرير جوانبه
ولكنني أخشى رقيباً موكّلًا ... بأنفاسنا ، لايفتر ، الدهرَ ، كاتبُهْ
مخافةَ ربي ، والحياء يصدّني ، ... وإكرامَ بعلي ، أن تنال مراكبه .!

ثم ذكر بقية ذلك ـ كما تقدم أو نحوه ـ وقد روى هذا من طرق ، وهو من المشهورات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٨] ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » هذا أمر للمطلقات بأن يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت . وأريد بالمطلقات : المدخول بهن من ذوات الأقراء ، لما دلت الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر . أما غير المدخولة فلا عدّة عليها لقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ(١) ؛ وأما التي لم تحض فعدتها ثلاثة أشهر لقوله تعالى:

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا . فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِى لَمْ يَحِضْنَ[(١)] ؛ وأما الحامل فعدتها وضع الحمل لقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ[(٢)] . فهذه الآية من العام المخصوص .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهن بالتربّص ؟ قلت : هو خبر فى معنى الأمر ، وأصل الكلام (وليتربص المطلقات) ، وإخراجُ الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلق بالمسارعة إلى امتثاله . فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص. فهو يخبر عنه موجوداً . ونحوه قولهم فى الدعاء : (رحمك الله) أُخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة . كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها . وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل توكيد . ولو قيل (ويتربص المطلقات) لم يكن بتلك الوكادة .. فإن قلت : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء كما قيل تربص أربعة أشهر ، وما معنى ذكر الأنفس ؟ قلت : فى ذكر الأنفس تهييج لهنّ على التربص وزيادة بعث . لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن . وذلك أنّ أنفُس النساء طوامح إلى الرجال . فأمرن إن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص .

و (القرء) : من الأضداد. يطلق على الحيض والطهر . نص عليه من أئمة اللغة:أبوعبيد والزجاج وعمرو بن العلاء وغيرهم . والبحث فى ترجيح أحدها طويل الذيل ، استوفاه الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فانظره . ولمن نظر إلى موضوعه اللغوىّ أن يقول : تنقضى العدة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض . فأيهما اعتبرتْهُ المعتدة خرجت عن عهدة التكليف به.والله أعلم . « وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ » ـ أى : المطلقات ـ « أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ »

---

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] . . . وباقى الآية : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٤] .

من الحيض أو الولد ، استعجالا فى العدة أو إبطالًا لحق الزوج فى الرجعة « إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ » أى : إن جرين على مقتضى الإيمان به، المخوف من ذاته « وَالْيَوْمِ الآخِرِ » المخوف من جزائه . ودلّ هذا على أن المرجع فى هذا إليهنّ . لأنه أمر لا يعلم إلّا من جهتهن. ويتعذر إقامة البينة على ذلك . فرد الأمر إليهن ، وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحقّ . وهذه الآية دالة على أنّ كل من جعل أمينًا فى شىء نخان فيه ، فأمره عند الله شديد «وَبُعُولَتُهُنَّ» ـ أى : أزواجهن ـ « أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ » أى : برجعتهنّ ، والكلام فى الرجعية بدليل الآية التى بعدها « فِى ذَٰلِكَ » أى : فى زمان التربص . وهى أيام الأقراء . أما إذا انقضت مدة التربص فهى أحقّ بنفسها ولا تحلّ له إلّا بنكاح مستأنف بولىّ وشهودٍ ومهرٍ جديد . ولا خلاف فى ذلك « إِنْ أَرَادُوا » أى : بالرجعة « إِصْلَاحًا » لما بينهم وبينهن ، وإحسانًا إليهن ، ولم يريدوا مضارتهن . وإلّا فالرجعة محرمة لقوله تعالى : وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا(1)، « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » أى: ولهن على الرجال مثل ما للرجال عليهن . فليؤدّ كلّ واحدٍ منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف . كما ثبت فى (صحيح مسلم)(2) : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته فى حجّة الوداع: فاتقوا الله فى النساء. فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح . ولهنّ رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٣١] ونصها : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللهِ هُزُوًا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ.

(2) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، ١٩ ـ باب حجة النبىّ ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

وعن معاوية بن حيدة قال : قلت : يا رسول الله ! ما حقّ زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طَعِمْتَ . وتكسوها إذا اكتسيتَ . ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلّا في البيت . رواه أبو داود[1] وقال : معنى (لا تقبح) : لا تقل قبحك الله .

وعن أبي هريرة[2] : أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لامرأةٍ أن تصوم وزوجها شاهد إلّا بإذنه . ولا تأذن في بيته إلّا بإذنه . متفق عليه .

وعن ابن عمر[3] : أن النبيّ ﷺ قال : كلّكم راعٍ وكلّكم مَسْؤُول عن رعيته . والأمير راع . والرجل راع على أهل بيته . والمرأة راعية على بيت زوجها وولده . فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . متفق عليه .

وعن طلق بن عليّ : أن رسول الله ﷺ قال : إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته ، وإن كانت على التنور . رواه الترمذيّ[4] والنسائيّ .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤١ ـ باب حق المرأة على زوجها ، حديث ٢١٤٢ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٨٦ ـ باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه ، حديث ١٠٤٣ .

ومسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٨٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ١١ ـ باب الجمعة في القرى والمدن ، حديث ٥٢٤ .

ومسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الترمذيّ في جامعه في : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١٠ ـ باب ماجاء في حق الزوج على المرأة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه(١) قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فلم تأته ، فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح . متفق عليه .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إني لأحبّ أن أتزيّن للمرأة كما أحب أن تتزيّن لي . لأنّ الله يقول : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .

تنبيه :

(المعروف) ماعرفته الطباع السليمة ولم تنكره ، مما قبله العقل ، ووافق كرم النفس ، وأقره الشرع . وقد قال بعض الفقهاء : لايجب عليها خدمة زوجها في عجن وخبز وطبخ ونحوه ، لأنّ المعقود عليه منفعة البُضْع ، فلا يملك غيرها من منافعها ..! ولكن مفاد الآية يردّ هذا ويدلّ على وجوب المعروف من مثلها لمثله؛ وبه أفتى الإمام ابن تيمية وفاقاً للمالكية. وإليه ذهب أبوبكر ابن شيبة وأبوإسحق الجوزجانيّ واحتجّا بما روى: أن النبيّ ﷺ قضى على ابنته فاطمة بخدمة البيت وعلى ما كان خارجاً من البيت من عمل. رواه الجوزجانيّ من طرق.

واستدلّ بالآية أيضاً على وجوب إخدامها، إذا كان مثلها لايخدم نفسها .

« وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » أي : زيادة في الحقّ وفضيلة . كما قال تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ(٢) .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٩ ــ كتاب بدء الخلق ، ٧ ــ باب إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء ، حديث ١٥٢٩ .

ومسلم في : ١٦ ــ كتاب النكاح ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٣٤] ونصها : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال : لو كنت آمرًا أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . رواه الترمذيّ(١) وقال : حديث حسن صحيح . « وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » أي : غالبٌ في انتقامه ممن عصاه ، حكيمٌ في أمره وشرعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٩] (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » الطلاق بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم ، وهو مبتدأ بتقدير مضاف، خبره مابعده . أي : عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الردّ والرجعة مرتان أي : اثنتان . وإيثار ماورد به النظم الكريم عليه للإيذان بأنّ حقهما أن يقعا مرّة بعد مرّة لادفعة واحدة ، وإن كان حكم الردّ ثابتاً حينئذ أيضاً .

قال ابن كثير : هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام : من أنّ الرجل كان أحقّ برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة مادامت في العدة ، فلما كان هـذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرهم الله تعالى على ثلاث طلقات : وأباح الرجعة في المرة وثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة ، فقال : الطلاق مرتان ... الآية .

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١٠ ـ باب ما جاء في حق الزوج على المرأة .

قال الإمام أبوداود فى (سننه)[(١)]: باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث . ثم أسند عن ابن عباس فى هذه الآية قال : إن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحقّ برجعتها وإن طلقها ثلاثاً. فنسخ ذلك ، فقال « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ..» الآية. ورراه النسائىّ وغيره . وروى الترمذىّ[(٢)] عن عائشة قالت: كان الناس والرجل يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها وهى امرأته إذا ارتجعها وهى فى العدّة وإن طلقها مائة مرة أو أكثر ؛ حتى قال رجل لامرأته : والله لاأطلقك تبينين منى ولاأوويك أبدا ..! قالت: وكيف ذاك؟ قال : أطلقك. فكلما همت عدتك أن تنقضى راجعتك . فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها ، فسكتت عائشة حتى جاء النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فسكت النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى نزل القرآن «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ.. » الآية. قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً . من كان طلق ومن لم يكن طلق. ثم أسنده عن عروة ولم يذكر عائشة ، وقال :هو أصح !

وقوله تعالى « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » أى فالحكم بعد تطليق الرجل امرأته تطليقتين : أنْ يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها ؛ أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً ، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ، ولا ينفر الناس عنها .

قال الرازىّ : الحكمة فى إثبات حق الرجعة : أن الإنسان مادام يكون مع صاحبه لا يدرى أنه هل تشقّ عليه مفارقته أَوْلا ؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر . فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعةً من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لايحصل بالمرة الواحدة ، فلا جرم أثبت تعالى حقّ المراجعة بعد المفارقة مرتين ، وعند ذلك قد جرب الإنسان نفسه فى تلك المفارقة وعرف حال قلبه فى ذلك

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، حديث ٢١٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١١ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب حدثنا قتيبة .

الباب . فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف . وإن كان الأصلح له تسريحها سرّحها على أحسن الوجوه . وهـذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده .

«وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ» ـ أى : أيها المطلّقون ـ «أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا» ـ من المهر وغـيره ـ «إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ» أى : فيما يلزمهما من حقوق الزوجيـة ـ «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ» أى: نفسها عن ضرره ؛ أى : لا إثم على الزوج فى أخذما افتدت به ، ولا عليها فى إعطائه. وهـذه الآية أصل فى الخلع .

وقد ذكر ابن جرير : أنّ هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس وكانت زوجته لا تطيقه بغضاً . ففى (صحيح البخارىّ)[1] عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! ما أعيب عليه فى خلق ولا دين . ولـكن أكره الـكفر فى الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبل الحديقة وطلّقها تطليقة . وقد بسط طرق هذا الحديث مع أحكام الخلع الإمام ابن كثير فى (تفسيره) ، وكذا شمس الدين ابن القيّم فى (زاد المعاد) فلتنظر ثَمَّة .

« تِلْكَ » ـ أى : الأحكام العظيمة المتقدمة للطلاق والرجعة والخلع وغيرها ... ـ « حُدُودُ اللهِ » ـ شرائعه ـ « فَلَا تَعْتَدُوهَا » ـ بالمخالفة والرفض ـ « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى : لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه . وتعقيبُ النهى بالوعيد للمبالغة فى التهديد .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٨ ـ كتاب الطلاق، ١٢ ـ باب الخلع وكيف الطلاق فيه، حديث ٢١٥٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٠] (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ طَلَّقَهَا » ـ أى : بعد التطليقتين ـ « فَلَا تَحِلُّ لَهُ » ـ برجعة ولا بنكاح جديد ـ « مِنْ بَعْدُ » ـ أى : من بعد هذا الطلاق ـ « حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ » أى : حتى تذوق وطء زوج آخر ، وهى العسيلة التى صرح بها النبىّ صلى الله عليه وسلم فى نكاحٍ صحيح . وفى جعل هذا غايةً للحلّ ، زجرٌ لمن لهغرض مّا فى امرأته عن طلاقها ثلاثاً ، لأنّ كلّ ذى مروءةٍ يكره أن يفترش امرأته آخر .

فروع مهمة تتعلق بهذه الآية

الأول :

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المطلقة ثلاثاً لاتحل للأول حتى يطأها الزوج الثانى . ثبت فى (الصحيحين)(١) عن عائشة رضى الله عنها : أن امرأة رفاعة القرظىّ جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! إنّ رفاعة طلقنى فبتّ طلاقى . وإنى نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظىّ وإن ما معه مثلُ الهدبة ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٤ ـ باب من أجاز طلاق الثلاث ، حديث ١٢٨١ .

ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

لا . حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك . وفى (سنن النسائىّ)[١] : عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العسيلة الجماع ولو لم ينزل . وفيها[٢] عن ابن عمر قال : سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يطلّق امرأته ثلاثاً فيتزوجها الرجل فيغلق الباب ويرخى الستر ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ؟ قال : لا تحلّ للأول حتى يجامعها الآخر . فتضمن هذا الحكم أموراً .

أحدها : أنه لايقبل قول المرأة على الرجل : أنه لايقدر على جماعها .

الثانى : أن إصابة الزوج الثانى شرط فى حلها للأول ، خلافاً لمن اكتفى بمجرد العقد ، فإنّ قوله مردود بالسنة التى لا مردّ لها .

الثالث : أنه لا يشترط الإنزال بل يكفى مجرد الجماع الذى هو ذوق العسيلة .

الرابع : أنه صلى الله عليه وسلم لم يجعل مجرد العقد المقصود ـ الذى هو نكاح رغبة ـ كافياً ، ولا اتصال الخلوة به وإغلاق الأبواب وإرخاء الستور حتى يتصل به الوطء ..! وهذا يدلّ على أنه لا يكفى مجرد عقد التحليل الذى لا غرض للزوج والزوجة فيه سوى صورة العقد وإحلالها للأول بطريق الأَوْلى . فإنه إذا كان عقد الرغبة المقصود للدوام

---

(١) لم أجد هذا النص فى السنن التى تحت يدى وإنما الذى وجدته وفيه ذكر العسيلة هو هذا الحديث :

عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته فتزوجت زوجاً غيره . فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها ، أتحلّ للأول ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا . حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته » .

وهو فى : ٢٧ ـ كتاب الطلاق ، ٩ ـ باب الطلاق للتى تنكح زوجاً ثم لايدخل بها .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٢٧ ـ كتاب الطلاق ، ١٢ ـ باب إحلال المطلقة ثلاثا ، والنكاح الذى يحلها به .

غير كافٍ حتى يوجد فيه الوطء ، فكيف يكفى عقد تيس مستعار ليحلها ، لا رغبة له فى إمساكها وإنما هو عارية كحمار الفرس المستعار للضراب ؟

وقال ـ عليه الرحمة ـ قبل ذلك : وأما نكاح المحلل ، ففى (الترمذىّ)[١] و(المسند)[٢] من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له ، قال الترمذىّ : هـذا حديث حسن صحيح . وفى (المسند)[٣] من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : لعن الله المحلل والمحلل له ، وإسناده حسن . وفيه عن علىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم مثله . وفى (سنن ابن ماجة)[٤] من حديث عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا: بلى يا رسول الله ! قال : هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له . فهؤلاء الأربعة من سادات الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شهدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلعنه أصحابَ التحليل ، وهم المحلل والمحلل له . وهذا : إمّا خبر عن الله فهو خبر صدق . وإمّا دعاء مستجاب قطعاً . وهذا يفيد أنه من الكبائر الملعون فاعلها . ولا فرق عند أهل المدينة وأهل الحديث وفقهائهم بين اشتراط ذلك بالقول أو بالتواطُؤ والقصد . فإنَّ القصود فى العقود عندهم معتبرة . والأعمال بالنيات . والشرط المتواطَأ عليه الذى دخل عليه المتعاقدان كالملفوظ عندهم . والألفاظ لاتراد لعينها بل للدلالة على المعانى ، فإذا ظهرت المعانى والمقاصد فلا عبرة بالألفاظ لأنها وسائل قد تحققت غاياتها فترتب عليها أحكامها .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٨ ـ باب ماجاء فى المحلل والمحلل له .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٤٨ بالجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٢٣ بالجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٣٣ ـ باب المحلل والمحلل له ، حديث ١٩٣٦ (طبعتنا) .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة فى ذلك : منها ما قدمناه ، ومنها ما رواه الحاكم فى (مستدركه) : عن نافع قال : جاء رجل إلى ابن عمر . فسأله عن رجل طلّق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له ، من غير مؤامرة منه ، ليحلّها لأخيه : هل تحل للأول ؟ فقال : لا . إلّا نكاح رغبة . كنا نعدّ هذا سفاحاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن عمر أنه قال : لا أُوتَى بمحلل ولا محلل له إلّا رجمتهما . وروى البيهقيّ : أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها . ففرق بينهما . وكذا روى عن عليّ وابن عباس وغير واحدٍ من الصحابة رضى الله عنهم .

وبالجملة : فالتحليل غير جائز فى الشرع . ولو كان جائزاً لم يلعن فاعله والراضى به . وإذا كان لعن الفاعل لا يدلّ على تحريم فعله لم تبق صيغة تدلّ على التحريم قط ؛ وإذا كان هذا الفعل حراماً غير جائزٍ فى الشريعة فليس هو النكاح الذى ذكره الله تعالى فى قوله : حتى تنكح زوجاً غيره . كما أنه لو قال : (لعن الله بائع الخمر) لم يلزم من لفظ بائع أنه قد جاز بيعه وصار من البيع الذى أذن فيه بقوله : وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ . والأمر ظاهر .

فصل

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) :

إلزام الحالف بالطلاق والعتاق ، إذا حنث ، بطلاق زوجته وعتق عبده ـ مما حدث الإفتاء به بعد انقراض عصر الصحابة ـ فلا يحفظ عن صحابىّ فى صيغة القسم إلزام الطلاق به أبداً . وإنما المحفوظ إلزام الطلاق بصيغة الشرط والجزاء ـ الذى قصد به الطلاق عند وجود الشرط ـ كما فى (صحيح البخارىّ)[1] عن نافع قال : طلق رجل امرأته البتة إن خرجتْ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١١ ـ باب الطلاق فى الإغلاق والكره .

فقال ابن عمر : إن خرجتْ فقد بانت منه ، وإن لم تخرج فليس بشيء . فهذا لا ينازِعُ فيه إلّا من يمنع وقوع الطلاق المعلق بالشرط مطلقاً . وأما من يفصل بين القسم المحض والتعليق الذى يقصد به الوقوع ، فإنه يقول بالآثار المروية عن الصحابة كلّها فى هذا الباب . فإنه صحّ عنهم الإفتاء بالوقوع فى صور . وصح عنهم عدم الوقوع فى صور . والصواب : ما أفتوا به فى النوعين . ولا يؤخذ ببعض فتاويهم ويترك بعضها . فأما الوقوع : فالمحفوظ عنهم ما ذكره البخارىّ عن ابن عمر ، وما رواه الثورىّ عن ابن مسعود فى رجل قال لامرأته : إن فعلت كذا وكذا فهى طالق، ففعلتْه . قال: هى واحدة وهو أحق بها . على أنه منقطع . وكذلك ماذكره البيهقىّ وغيره عن ابن عباس فى رجل قال لامرأته: هى طالق إلى سنة ، قال : يتمتع بها إلى سنة . ومن هـذا قول أبى ذَرّ لامرأته ـ وقد ألحت عليه فى سؤاله عن ليلة القدر ـ فقال : إن عدتِ سألتينى فأنت طالق . فهذه جميع الآثار المحفوظة عن الصحابة فى وقوع الطلاق المعلق . وأما الآثار عنهم فى خلافه : فصح عن عائشة وابن عباس وحفصة وأم سلمة ـ رضى الله عنهم ـ فيمن حلفت بأنّ كلّ مملوكٍ لها حرّ إن لم تفرّق بين عبدها وبين امرأته أنها تكفّر عن يمينها ولا تفرق بينهما . رواه الأثرم فى (سننه) والجوزجانىّ فى (المترجم) والدارقطنىّ والبيهقىّ .

وقاعدة الإمام أحمد : أن ما أفتى به الصحابة لا يخرج عنه ، إذا لم يكن فى الباب شيء يدفعه . فعلى أصله الذى بنى مذهبه عليـه ، يلزمه القول بهذا الأثر لصحته وانتفاء علته . قال أبو محمد بن حزم : وصحّ عن ابن عمر وعائشة وأمّ سلمة ـ أمَّىِ المؤمنين ـ أنهم جعلوا فى قول ليلى بنت العجماء (كل مملوكٍ لها حرّ وكل مال لهـا هَدْىٌ وهى يهودية ونصرانية إنْ لم تطلق امرأتك) كفارةَ يمين واحدةً . وإذا صحّ هذا عن الصحابة ولم يعلم لهم مخالف فى قول الحالف : عبده حرّ إنْ فعل، أنه يجزيه كفارة يمين ولم يلزموه بالعتق المحبوب إلى الله، فأنْ لا يلزموه بالطلاق البغيض إلى الله أولى وأحرى . كيف وقد أفتى علىّ بن أبى طالب

رضى الله عنه : الحالف بالطلاق ، أنه لا شيء عليه . ولم يعرف له فى الصحابة مخالف ؟ قال عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد بن علىّ التيمىّ المعروف بابن بريرة الأندلسىّ فى (شرحه لأحكام عبد الحقّ) الباب الثالث فى حكم اليمين بالطلاق أو الشك منه : وقد قدمنا فى (كتاب الأيمان) اختلاف العلماء فى اليمين بالطلاق والعتق والمشى وغير ذلك ، هل يلزم أم لا ؟ فقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وشريح وطاوس : لا يلزم من ذلك شيء ، ولا يقضى بالطلاق على من حلف به فحنث . ولا يعرف فى ذلك مخالف من الصحابة ـ هذا لفظه بعينه ـ فهذه فتوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحلف بالعتق والطلاق . وقد قدمنا فتاويهم فى وقوع الطلاق المعلق بالشرط ـ ولا تعارض بين ذلك ـ فإن الحالف لم يقصد وقوع الطلاق وإنما قصد منع نفسه بالحلف عما لا يريد وقوعه ... ـ إلى أن قال ـ وإذا دخلت اليمين بالطلاق فى قول الحالف : أيمان البيعة تلزمنى ـ وهى الأيمان التى رتّبها الحجاج ـ فلم لا تكون أولى بالدخول فى لفظ الأيمان فى كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فإن كانت يمينُ الطلاق يميناً شرعية ـ بمعنى أنّ الشرع اعتبرها ـ وجب أن تعطى حكم الأيمان . وإن لم تكن يميناً شرعية كانت باطلة فى الشرع فلا يلزم الحالف بها شيء. كما صح عن طاوس من رواية عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عنه : ليس الحلف بالطلاق شيئاً . وصح عن عكرمة من رواية سنيد بن داود فى (تفسيره) عنه : إنها من خطوات الشيطان لا يلزم بها شيء ؛ وصحّ عن شريح ـ قاضى علىّ ـ وابن مسعود : إنها لا يلزم بها الطلاق . وهو مذهب داود بن علىّ وجميع أصحابه . فهذه أقوال أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . اهـ .

فصل

وقال الإمام ابن القيّم ـ أيضاً ـ فى (أعلام الموقعين) :

إن المطلّق فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وزمن أبى بكر ، وصدراً من خلافة عمر ، كان إذا جمع الطلقات الثلاث بفمٍ واحد جعلت واحدة . كما ثبت ذلك فى (الصحيح)(١) عن ابن عباس . فروى مسلم فى (صحيحه) عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر : طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر بن الخطاب : إنّ الناس قد استعجلوا فى أمرٍ كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؛ فأمضاه عليهم . وروى الإمام(٢) أحمد عن ابن عباس قال : طلق ركانة ابن عبد يزيد أخو بنى مُطَّلب امرأتَه ثلاثاً فى مجلس واحد ، فحزن عليها حزناً شديداً ؛ قال : فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف طلقها ؟ قال : طلقها ثلاثاً ، قال : فقال فى مجلس واحد ؟ قال : نعم! قال : فإنما تلك واحدة فارجعها إن شئت ، قال : فرجعها . فكان ابن عباس يرى : إنما الطلاق عند كلّ طهر . وقد صحح الإمام أحمد هذا الإسناد وحسنه . ثم إن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لم يَخْفَ عليه أن هذا هو السنة ، وأنه توسعة من الله لعباده إذ جعل الطلاق مرة بعد مرة . وما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع كلّه جملة واحدة . كاللعان فإنه لو قال : أشهد بالله أربع شهادات إنى لمن الصادقين ، كان مرة واحدة . ولو حلف فى القسامة وقال : أقسم بالله خمسين يميناً إن هذا قاتله ، كان يميناً واحدة . ولو قال المقرّ بالزنا : أنا أُقرّ أربع مرات أنى زنيت ، كان مرة واحدة . فمن يعتبر الأربع لا يجعل ذلك

(١) أخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٦٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) حديث ٢٣٨٧ (طبعة المعارف) .

الإقرار إلّا واحدا . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم[1] : من قال في يوم (سبحان الله وبحمده) مائة مرة حطّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر . فلو قال : (سبحان الله وبحمده مائة مرة) لم يحصل له هذا الثواب حتى يقولها مرةً بعد مرة . وكذلك قوله[2] : من سبح الله دبر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمده ثلاثاً وثلاثين وكبّره ثلاثاً وثلاثين ... الحديث ، لا يكون عاملًا به حتى يقول ذلك مرة بعد مرة ، لا يجمع الكلّ بلفظ واحد . وكذلك قوله[3] : من قال في يوم : (لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير) مائة مرّة كانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . لا يحصل هذا إلّا بقولها مرة بعد مرة . وهذا كما أنه في الأقوال والألفاظ فكذلك هو في الأفعال سواء. كقوله تعالى : سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ[4] إنما هو مرة بعد مرة . وكذا قول ابن عباس[5] : رأى محمد ربّه بفؤاده مرتين إنما هو مرة بعد مرة . وكذا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم[6] :

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٦٥ ـ باب فضل التسبيح ، حديث ٢٤٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٤٦ (طبعتنا).

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١١ ـ باب صفة إبليس وجنوده ، حديث ١٥٥٥ .

ومسلم في : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٨ (طبعتنا) .

(٤) [٩ / التوبة / ١٠١] ونصها : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

(٥) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٥ (طبعتنا) .

(٦) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٨٣ ـ باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، حديث ٢٣٥١

وأخرجه مسلم في : ٥٣ ـ كتاب الزهد ، حديث ٦٣ (طبعتنا) .

لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين. فهذا هو المعقول من اللغة والعرف . فالأحاديث المذكورة ، وهذه النصوص المذكورة، وقوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ، كلها من باب واحد ومشكاةٍ واحدة. والأحاديث المذكورة تفسّر المراد من قوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ . فهذا كتاب الله ، وهذه سنة رسوله ، وهذه لغة العرب ، وهذا عرف التخاطب ، وهذا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة كلّهم معه فى عصره ، وثلاث سنين من عصر عمر رضى الله عنه، على هذا المذهب ، فلو عدهم العادّ لزادوا على الألف قطعاً . ولهذا ادّعى بعض أهل العلم أن هذا إجماع قديم ، ولم تجمع الأمة ـ ولله الحمد ـ على خلافه . بل لم يزل فيهم من يفتى به قرناً بعد قرن، وإلى يومنا هذا . فأفتى به من الصحابة ابن عباس والزبير وابن عوف . وعن علىّ وابن مسعود روايتان ، ومن التابعين عكرمة وطاوس . ومن تابعيهم محمد بن إسحق وغيره . وممن بعدهم داود إمام أهل الظاهر ، وبعض أصحاب مالك ، وبعض الحنفية ، وأفتى بعض أصحاب أحمد ـ حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عنه ـ قال : وكان الجدّ يفتى به أحياناً .

والمقصود أنّ هذا القول قد دلّ عليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع القديم . ولم يأت بعده إجماع يبطله . ولكنْ رَأَى أمير المؤمنين عمر، رضى الله عنه، أنّ الناس قد استهانوا بأمر الطلاق وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة ، فرأى من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم ، ليعلموا أنّ أحدهم، إذا أوقعه جملةً ، بانت منه المرأة وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، نكاحَ رغبةٍ يراد للدوام لا نكاحَ تحليلٍ ، فإنه كان من أشدّ الناس فيه . فإذا علموا ذلك كفّوا عن الطلاق. فرأى عمر هذا مصلحة لهم فى زمانه . ورأى أن ما كانوا عليه فى عهد النبىّ ﷺ وعهد الصدّيق وصدراً من خلافته ـ كان اللائق بهم. لأنهم لم يتتابعوا فيه . وكانوا يتقون الله فى الطلاق . وقد جعل الله لكلّ من اتقاه مخرجاً . فلما تركوا تقوى الله وتلاعبوا بكتاب الله وطلقوا على غير ما شرعه الله ألزمهم بما التزموه عقوبةً لهم . فإنّ الله سبحانه إنما شرع الطلاق مرة بعد مرة . ولم يشرعه كلّه مرة واحدة . فمن جمع الثلاث فى مرة واحدة فقد تعدى

حدود الله ، وظلم نفسه ، ولعب بكتاب الله . فهو حقيق أن يعاقب ويُلزم بما التزمه ، ولا يقر على رخصة الله وسعته ، وقد ضيعها على نفسه ، ولم يتق الله ويطلق كما أمره الله وشرعه له . بل استعجل فيما جعل الله له الأناة فيـه ، رحمة وإحساناً . واختار الأغلظ والأشدّ . فهذا ما تغيرت به الفتوى لتغير الزمان . وعَلِمَ الصحابةُ ـ رضى الله عنهم ـ حسنَ سياسة عمر وتأديبه لرعيته فى ذلك فوافقوه على ما أَلْزَمَ به . ثم قال : فلما تغير الزمان ، وبعد العهد بالسنة وآثارِ القوم ، وقامت سوق التحليل ونفقت فى الناس ، فالواجب أن يُرَدَّ الأمر إلى ما كان عليه فى زمن النبىّ ﷺ وخليفته من الإفتاء بما يعطل سوق التحليل ويقللها ويخفف شرها. وإذا عُرِضَ، على من وفقه الله وبصره بالهدى وفقهه فى دينه، مَسْأَلة كون الثلاث واحدة ومسألة التحليل، ووازن بينهما ـ تبين له التفاوت ، وعلم أىّ المسألتين أولى بالدين وأصلح للمسلمين.

ثم قال عليه الرحمة : ويمتنع فى هذه الأزمنة معاقبة الناس بما عاقبهم به عمر رضى الله عنه من وجهين :

أحدهما : أن أكثرهم لا يعلم أن جمع الثلاث حرام ، لاسيما وكثير من الفقهاء لا يرى تحريمه ، فكيف يعاقب من لم يرتكب محرماً عند نفسه ؟

الثانى : أنّ عقوبتهم بذلك تفتح عليهم باب التحليل الذى كان مسدوداً على عهد الصحابة رضى الله عنهم . والعقوبة ـ إذا تضمنت مفسدة أكثر من الفعل المعاقب عليه ـ كان تركها أحبّ إلى الله ورسوله . ولا يستريب أحد فى أنّ الرجوع إلى ما كان عليه الصحابة فى عهد النبىّ ﷺ وأبى بكر الصدِّيق وصدر من خلافة عمر أولى من الرجوع إلى التحليل ، والله الموفق .

فصل

وأما طلاق الغضبان ففى (أعلام الموقعين) ما نصه :

إنّ اللفظ إنما يوجب معناه لقصد المتكلم به . والله سبحانه رفع المؤاخذة عمن حدث نفسه بأمر بغير تلفظ أو عمل . كما رفعها عمن تلفظ من غير قصد لمعناه ولا إرادة . ولهذا لم يكفر من جرى على لسانه لفظ الكفر سبقاً من غير قصد ، لفرح أو دهش أو غير ذلك . كما فى حديث الفرح الإلهىّ بتوبة العبد(١) ، وَضَرَبَ مَثَلَ ذلك : من فقد راحلته عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة فأيس منها ثم وجدها فقال : اللهم ! أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح. ولم يؤاخذ بذلك. وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ . ومن هذا قوله تعالى: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ(٢) قال السلف : هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله فى حال الغضب، لو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه . ولكنه لا يستجيبه لعلمه أن الداعى لم يقصده . ومن هذا رَفْعُهُ ﷺ حكم الطلاق عمن طلق فى إغلاق . قال الإمام أحمد رضى الله عنه فى رواية حنبل : هو الغضب .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٧ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « لله أشد فرحًا بتوبة عبده ، حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها . قد أيس من راحلته . فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها . ثم قال من شدة الفرح : اللهم ! أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » .

(٢) [١٠/ يونس/ ١١] وباقى الآية : ... فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

وبذلك فسره أبو داود . وهو قول القاضى إسمعيل بن إسحق ـ أحد أئمة المالكية ومقدم فقهاء أهل العراق منهم ـ وهى عنده من لغو اليمين أيضاً . فأدخل يمين الغضبان فى لغو اليمين وفى يمين الإغلاق . وحكاه شارح أحكام عبد الحق عنه ـ وهو ابن بريزة الأندلسىّ ـ قال : وهذا قول علىّ وابن عباس رضى الله عنهم وغيرهما من الصحابة : أن الأيمان المنعقدة كلها فى حال الغضب لاتلزم . وفى « سنن الدارقطنىّ » بإسنادٍ فيه لِين من حديث ابن عباس يرفعه: لا يمين فى غضب، ولا عتاق فيما لا يملك. وهو، إن لم يثبت رفعه، فهو قول ابن عباس . وقد فسّر الشافعىّ (لا طلاق فى إغلاق) بالغضب . وفسره مسروق به . فهذا مسروق والشافعىّ وأحمد وأبو داود والقاضى إسمعيل كلهم فسروا الإغلاق بالغضب . وهو من أحسن التفسير . لأن الغضبان قد أُغلق عليه باب القصد لشدة غضبه . وهو كالمكره . بل الغضبان أولى بالإغلاق من المكره . لأن المكره قد قصد رفع الشر الكثير بالشر الذى هو دونه، فهو قاصد حقيقة . ومن ههنا أوقع عليه الطلاقَ من أوقعه . وأما الغضبان فإن انغلاق باب القصد والعلم عنه كانغلاقه عن السكران والمجنون . فإن غُولَ العقل يغتاله كما يغتاله الخمر بل أشدّ . وهو شعبة من الجنون ، ولا يشك فقيه النفس فى أن هذا لا يقع طلاقه . ولهذا قال حبر الأمة ـ الذى دعا له النبىّ ﷺ بالفقه فى الدين : إنما الطلاق من وطرٍ . ذكره البخارىّ فى (صحيحه)(١) أى: عن غرض من المطلِّق فى وقوعه . وهذا من كمال فقهه رضى الله عنه ، وإجابةِ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، إذ الألفاظ إنما تترتب عليها موجباتها لقصد اللافظ بها . والله لم يؤاخذنا باللغو فى أيماننا . ومن اللغو ماقالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها(٢) وجمهور السلف: إنه قول الحالف : (لا ، والله . وبلى ، والله .) فى عرض كلامه من غير عقد لليمين ، كذلك لا يؤاخذ الله باللغو فى أيمان الطلاق كقول الحالف فى عرض كلامه : (علىّ الطلاق لا أفعل)

(١) أخرجه فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١١ ـ باب الطلاق فى الإغلاق والكره والسكران .. الخ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٤ ـ باب لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ ، حديث ١٩٩٦ .

و(الطلاق يلزمنى لاأفعل) من غير قصدلعقداليمين . بل إذا كان اسم الرب جلّ جلالهلا ينعقد به يمين اللغو ، فيمين الطلاق أولى أن لا تنعقد ، ولا تكون أعظم حرمةً من الحلف بالله . وهذا أحد القولين فى مذهب أحمد وهو الصواب . فإيّاك أن تهمل قصد المتكلّم ونيته وعرفه فتجنى عليه وعلى الشريعة ، وتنسب إليها ماهى بريئة منه، وتلزم الحالف والمقرّ والناذر والعاقد ما لم يلزمه الله ورسوله به . فاللغو فى الأقوال نظير الخطأ والنسيان فى الأفعال . وقد رفع الله المؤاخذة بهذا . وهذا كما قال المؤمنون :﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ !(١) فقال ربهم تبارك وتعالى : قد فعلت .

وفى (زاد المعاد) قال شيخنا : حقيقة الإغلاق أن يغلق على الرجل قلبُهُ فلا يقصد الكلام أو لا يعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته.

قال أبو العباس المبرّد : الغلق ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لا يجد له مخلصاً .

قال شيخنا : ويدخل فى ذلك طلاق المكره والمجنون ومن زال عقله بسكر أو غضب وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال .

والغضب على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يزيل العقل فلا يشعر صاحبه بما قال . وهذا لا يقع طلاقه بلا نزاع .

الثانى : ما يكون فى مباديه بحيث لا يمنع صاحبه من تصوّر ما يقول وقصدِهِ ، فهذا يقع طلاقه .

الثالث : أن يستحكم ويشتد به فلا يزيل عقله بالكلية ، ولكن يحول بينه وبين نيّته بحيث يندم على مافرط منه إذا زال . فهذا محل نظر . وعدمُ الوقوع فى هذه الحالة قوىّ متجه .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] .

فصل

وأما طلاق الحائض والنفساء والموطوءة فى طهرها ، ففى (الصحيحين)[١] أن ابن عمر طلق امرأته وهى حائض ـ على عهد رسول الله ﷺ ـ فسأل عمرُ بن الخطاب ، عن ذلك ، رسولَ الله ﷺ ؟ فقال: مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر. ثم إن شاء أمسكها بعد ذلك وإن شاء طلقها قبل أن يمس، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلّق لها النساء.

ولمسلم[١] : مره فليراجعها ثم ليطلقها إذا طهرت أو وهى حامل . وفى لفظ : إن شاء طلقها طاهراً قبل أن يمس . فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله تعالى . وفى لفظ للبخارىّ : مره فليراجعها ثم ليطلقها فى قُبُل عدتها . وفى لفظ لأحمد[١] وأبى داود[١] والنسائىّ[١] ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : طلق عبد الله بن عمر امرأته وهى حائض فردها عليه

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١ـ باب قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، حديث ٢٠٦٠ ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمرُ بن الخطاب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعدُ وإن شاء طلق ، قبل أن يمس . فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء » .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١ وما بعده (طبعتنا) .

وأخرجه أحمد فى الصفحة ٨٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

وأبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٤ ـ باب فى طلاق السنّة ، حديث ٢١٧٩ .

والنسائىّ فى : ٢٧ ـ كتاب الطلاق، ١ ـ باب وقت الطلاق للعدة التى أمر الله عز وجل أن تطلق لها النساء .

رسول الله ﷺ ولم يرها شيئاً وقال : إذا طهرت فليطلق أو ليمسك . وقال ابن عمر رضى الله عنه: قرأ رسول الله ﷺ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، فى قُبُل عدتهن. فتضمن هذا الحكم أن الطلاق على أربعة أوجه : وجهان حلالان ووجهان حرامان . فالحلال: أن يطلق امرأته طاهراً من جماع . أو يطلقها حاملًا مستبيناً حملها . والحرام : أن يطلقها وهى حائض . أو يطلقها فى طهر جامعها فيه . هذا فى طلاق المدخول بها . وأما من لم يدخل بها فيجوز طلاقها حائضاً وطاهراً .

ثم إن الخلاف فى وقوع الطلاق المحرم لم يزل ثابتاً بين السلف والخلف . وقد وهم من ادعى الإجماع على وقوعه وقال بمبلغ عامه وخفى عليه من الخلاف ما اطلع عليه غيره . وقد قال الإمام أحمد : من ادعى الإجماع فهو كاذب . وما يدريه لعلّ الناس اختلفوا ؟ كيف والخلاف بين الناس فى هذه المسألة معلوم الثبوت عن المتقدمين والمتأخرين ..؟

قال محمد بن عبدالسلام الخشنىّ : ثنا محمد بن بشار . ثنا عبدالوهاب بن عبد الحميد الثقفىّ. ثنا عبيد الله بن عمر عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال، فى رجل يطلق امرأته وهى حائض ، قال ابن عمر : لايعتد بذلك . ذكره أبو محمد بن حزم فى (المحلّى) بإسناده إليه .

وقال عبد الرزاق فى (مصنفه) عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه : أنّه كان لا يرى طلاق ما خالف وجه الطلاق ووجه العدّة . وكان يقول : وجه الطلاق أن يطلقها طاهراً من غير جماع أو إذا استبان حملها .

قال أبو محمد بن حزم : العجب من جراءة من ادعى الإجماع على خلاف هذا وهو لا يجد فيما يوافق قوله ـ فى إمضاء الطلاق فى الحيض أو فى الطهر الذى جامعها فيه ـ كلمة عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، غير رواية عن ابن عمر . وقد عارضها ما هو أحسن منها عن ابن عمر .

وقال أبو محمد : بل نحن أسعد بدعوى الإجماع ههنا لو استجزنا مايستجيزون ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ وذلك أنه لا خلاف بين أحد من أهل العلم قاطبة ومن جملتهم جميع المخالفين لنا في ذلك ، أنّ الطلاق في الحيض أو في طهرٍ جامعها فيه ـ بدعة . فإذ لاشك في هذا عندهم ، فكيف يستجيزون الحكم بتجويز البدعة التي يقرّون أنها بدعة وضلالة ؟ أليس ، بحكم المشاهدة، مجيزُ البدعة مخالفاً لإجماع القائلين بأنها بدعة..؟

قال أبو محمد : وحتى لو لم يبلغنا الخلاف لكان القاطع على جميع أهل الإسلام بما لا يقين عنده ، ولا بلغه عن جميعهم ـ كاذباً على جميعهم .

هذا ما أفاده الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) . ثم ذكر حجج المانعين من وقوعه ، وحجج من أوقعه ، والمناقشة فيها ، فراجِعْه إنْ شئت .

وذكر في خلال البحث : أنه لا دليل في قوله : مره فليراجعها ، على وقوع الطلاق . لأن المراجعة قد وقعت في كلام الله ورسوله على ثلاث معان : منها ابتداء النكاح كقوله تعالى « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَاجُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ » ولا خلاف بين أحد من أهل العلم بالقرآن أنّ المطلق ـ ههنا ـ هو الزوج الثاني. وأن التراجع بينها وبين الزوج الأول. وذلك نكاح مبتدأ. ومنها الردّ الحسي إلى الحالة التي كان عليها أولاً كقوله[1] لأبي النعمان بن بشير لما نحل ابنه غلاماً خصه به دون ولده : رُدَّه . فهذا ردّ مالم تصح فيه الهبة الجائرة التي سماها رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاريّ في: ٥١ ـ كتاب الهبة، ١٢ ـ باب الهبة للولد ، حديث ١٢٦٣ ونصه : عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال : إني نحلت ابني هذا غلاماً . فقال « أكلَّ ولدك نحلتَ مثله ؟ » قال : لا . قال « فارجعه » .

وأخرجه مسلم في : ٢٤ ـ كتاب الهبات ، حديث ٩ (طبعتنا) .

جوراً . وأخبر أنها لا تصح ، وأنها خلاف العدل . ومن هـذا قوله(١) لمن فرق بين جارية وولدها فى البيع فنهاه عن ذلك وردّ البيع ؛ وليس هـذا الردّ مستلزماً لصحة البيع ، فإنه بيع باطل ، بل هو ردّ شيئين إلى حالة اجتماعهما كما كانا . وهكذا الأمر ، بمراجعة ابن عمر امرأته، ارتجاع وردّ إلى حالة الاجتماع كما كانا قبل الطلاق ، وليس فى ذلك ما يقتضى وقوع الطلاق فى الحيض البتة ، وثمت وجوه أخرى ، والله أعلم .

فصل

وأما الخلع : فالتحقيق أنه فسخ لا طلاق . وأن العدّة فيه حيضة . روى أبو داود(٢) فى (سننه) عن ابن عباس ؛ أنّ امرأة ثابت بن قيس بن شماس اختلعت من زوجها ، فأمرها النبيّ ﷺ أن تعتدّ حيضة . ففى ذلك دليل على حكمين : أحدهما أنه لا يجب عليها ثلاث حيض بل تكفيها حيضة . وهذا كما أنه صريح السنة فهو مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، والربيع بنت معوذ وعمها رضى الله عنهم ـ وهو من كبار الصحابة ـ فهؤلاء الأربعة من الصحابة لا يعرف لهم مخالف منهم . وذهب إلى هذا المذهب إسحق بن رهوايه والإمام أحمد ، فى رواية عنه اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية . قال : هذا القول هو مقتضى قواعد الشريعة . فإنّ العدّة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة فى مدة العدة . فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود مجرد براءة رحمها من الحمل . وذلك يكفى فيه حيضة كالاستبراء . ولا ينتقض هذا بالمطلقة ثلاثاً. فإنّ باب الطلاق جعل حكم العدة فيه واحداً بائنة ورجعية . قالوا : وهذا دليل على أن الخلع فسخٌ ، وليس بطلاق . وهو مذهب ابن عباس وعثمان وابن عمر والربيع وعمها . ولا يصح

(١) انظر الحديث رقم ٢٨٣٢ من المنتق .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ١٨ ـ باب فى الخلع ، حديث ٢٢٢٩ .

عن صحابىّ أنه طلاق البتة . فروى الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد عن سفيان عن عمرٍو ، عن طاوس عن ابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ أنه قال : الخلع تفريق وليس بطلاق . وذكر عبد الرزاق عن سفيان عن عمرٍو ، عن طاوس : أن إبراهيم بن سعد سأله عن رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أينكحها ؟ قال ابن عباس رضى الله عنه : نعم ! ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها ، والخلع بين ذلك . والذى يدل على أنه ليس بطلاق ، أن الله سبحانه وتعالى رتب على الطلاق بعد الدخول الذى لم يستوف عدده، ثلاثة أحكام كلها منتفية عن الخلع: أحدها : أن الزوج أحق بالرجعة فيه . الثانى : أنه محسوب من الثلاث فلا يحل بعد استيفاء العدد إلّا بعد زوج وإصابة . الثالث : أن العدة فيه ثلاث قروء . وقد ثبت بالنصّ والإجماع أنه لا رجعة فى الخلع . وثبت بالسنة وأقوال الصحابة أنّ العدّة فيه حيضة واحدة . وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين ووقوع ثالثة بعده . وهذا ظاهر جداً فى كونه ليس بطلاق ؛ فإنه سبحانه قال «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ»(١) وهذا ـ وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين ـ فإنه يتناولها وغيرها . ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر، ويخلى عنه المذكور . بل إما أن يختص بالسابق ، أو يتناوله وغيره . ثم قال : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ(٢) وهذا يتناول من طلقت بعد فدية تطلقتين قطعاً لأنها هى المذكورة . فلا بدّ من دخولها تحت اللفظ . فهذا فهم ترجمان القرآن الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الله تأويل القرآن، وهى دعوة مستجابة بلا شك . وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق، دلّ على أنها غير جنسه . فهذا مقتضى النصّ والقياس وأقوال الصحابة. انتهى .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٠] .

هذه خلاصة الحجج في هذه الفروع المهمة معرفتها . ولا يعرف قدرها إلّا من صفى فهمه عن التعصبات . ومن نظر إلى ما عمت به البلوى ـ من التفرقة بين المرء وزوجه بمجرّد الانتحال للقيل والقال ، وترك ما حققه بالدلائل الأئمة الأبطال ـ قضى العجب ، وبالله التوفيق.

« فَإِنْ طَلَّقَهَا » ـ أي : الزوج الثاني ـ « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » ـ أي : على المرأة ومطلّقها الأول ـ « أَنْ يَتَرَاجَعَا » أي : إلى ما كانا فيه من النكاح بعقد جديد بعد عدّة طلاق الثاني ـ المعلومة مما تقدم من قوله : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ... الآية ـ « إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ » أي : التي أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق « وَتِلْكَ » أي: الأحكام المذكورة « حُدُودُ اللهِ » أي : أحكامه المحميّة من التغيير والمخالفة « يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أي : يكشف اللبس عنها لقوم فيهم نهضة وجدّ في الاجتهاد فيجددون النظر والتأمل بغاية الاجتهاد في كل وقت ، فبذلك يعطيهم الله ملكة يميزون بها ما يلبس على غيرهم (إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)(١) ، (وَاتَّقُوا اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ)(٢) ـ أفاده البقاعيّ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣١] (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللهِ هُزُوًا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٢] وباقي الآية : . . . وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » أى : طلاقاً رجعياً « فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أى : قاربن انقضاء العدة « فَأَمْسِكُوهُنَّ » أى: بالمراجعة إن أردتم « بِمَعْرُوفٍ » من غير ضرار « أَوْسَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى : بأن تتركوهن حتى تنقضى العدة فيملكن أنفسهن « وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ » أى : بالرجعة « ضِرَارًا » أى : مضارة بإزالة الألفة وإيقاع الوحشة وموجبات النفرة « لِتَعْتَدُوا » اللام للعاقبة ، أى : لتكون عاقبة أمركم الاعتداء؛ أوللتعليل (متعلقةبالضرار) فيكون علة للعلّة ، أى : لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » أى : بتعريضها لسخط الله عليه ونفرة الناس منه « وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللهِ » أى : أوامره ونواهيه « هُزُوًا » أى : مهزوًّا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة عليها « وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أى : فى إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم « وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ » أى : السنة « يَعِظُكُمْ بِهِ » أى : بما أنزل . أى : يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على المخالفة « وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » تأكيد وتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٢] (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أى : انقضت عدتهن . وقد دلّ سياق الكلامين على اختلاف البلوغين ، إذ الأول دلّ على المشارفة للأمر بالإمساك ، وهذا على الحقيقة للنهى عن العضل « فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ » أى : لاتمنعوهن « أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ »

الذين طلّقوهن والآن يرغبن فيهم « إِذَا تَرَاضَوْا » أى : النساء والأزواج « بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ » أى : بما يحسن فى الدين من الشرائط « ذَٰلِكَ » أى : النهى عن العضل « يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكُمْ » أى : الاتعاظ بترك العضْل والضرار « أَزْكَىٰ لَكُمْ » أى أصلح لكم « وَأَطْهَرُ » لقلوبكم وقلوبهن من الريبة والعداوة « وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ » أى : يعلم مافيه صلاح أموركم فيما يأمر وينهى (ومنه مابينه هنا) وأنتم لاتعلمونه ، فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى ونهيه فى كلّ ماتأتون وما تذرون . وقد روى : أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار المزنىّ وأخته .

أخرج البخارىّ وأبو داود والترمذىّ(١) وغيرهم عن معقل بن يسار : أنه زوّج أخته رجلاً من المسلمين . فكانت عنده ثم طلّقها تطليقة ولم يراجعها . حتى انقضت العدّة فهويها وهويته . نخطبها مع الخطاب. فقال له : يالكع ! أ كرمتك بها وزوجتكها فطلّقتها ، والله لاترجع إليك أبداً . فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه ، فأنزل الله الآية . فلما سمعها معقل قال : سمعٌ لربى وطاعة ! ثم دعاه وقال : أزوّجك وأ كرمك . زاد ابن مردويه : وكفّرت عن يمينى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٣] (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ٤٤ ـ باب وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ، حديث ١٩٧٨ .

والترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٨ ـ حدثنا عبد بن حميد.

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَالْوَالِدَاتُ » أى : من المطلقات « يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » أى : سنتين كاملتين « لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » أى : هذا الحكم لمن أراد أن يتم رضاع الولد، فَأَفْهَمَ أنه يجوز الفطام للمصلحة قبل ذلك ، وأنه لارضاع بعد التمام .

قال الحَرّالىّ : وهو ـ أى الذى يكتفى به دون التمام ـ هو ماجمعه قوله تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (١) فإذا كان الحمل تسعاً كان الرضاع أحداً وعشرين شهراً . وإذا كان حولين كان المجموع ثلاثاً وثلاثين شهراً ، فيكون ثلاثة آحاد وثلاثة عقود ، فيكون ذلك تمام الحمل والرضاع .

« وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ » ـ أى : الأب ـ وعبّر عنه بهذه العبارة إشارة إلى جهة وجوب المؤن عليه ، لأن الوالدات إنما وَلَدْنَ للآباء ، ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم ؛ قال بعضهم :

وإنما أمهات الناس أوعيةٌ   مستودَعاتٌ وللآباء أبناء

« رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ » أى : على والد الطفل نفقة أمّه المطلقة مدّة الإرضاع ، أى طعامهنّ ولباسهنّ « بِالْمَعْرُوفِ » وهو قدر الميسرة كما فسّره قوله تعالى : « لَاتُكَلَّفُ

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا » يعنى طاقتها ؛ والمعنى : أنّ أبا الولد لايكلّف فى الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدرماتتسع به مقدرته، ولا يبلغ إسراف القدرة « لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا » أى : بأخذ ولدها منها بعد رضاها بإرضاعه ورغبتها فى إمساكه وشدة محبتها له « وَلا مَوْلُودٌ » يعنى الأب« بِوَلَدِهِ » بطرح الولد عليه ؛ يعنى : لاتلقى المرأة الولدإلى أبيه وقد ألفها ، تضاره بذلك . وهذا التأويل على تقدير كون (تضارّ) مبنياً للمفعول ، وأما على بنائه للفاعل ، فالمفعول محذوف والتقدير . لاتضارِر ـ بكسر الراء الأولى ـ والدةٌ زوجها بسبب ولدها ، وهو أن تعنف به وتطلب منه ماليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد ، وأن تقول (بعد أن ألفها الصبى) : اطلب له ظئراً ، وما أشبه ذلك ؛ ولا يضارِر مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها ، أو يأخذه منها وهى تريد إرضاعه . والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو أن يغيظ أحدهما صاحبه « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » أى : على وارث الأب أو وارث الصبىّ مثل ماعلى الأب من النفقة وترك الضرار إذا لم يكن الأب « فَإِنْ أَرَادَا » يعنى الزوج والمرأة « فِصَالًا » أى : فصال الصبىّ عن اللبن قبل الحولين ـ يعنى: فطاماً « عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا » بتراضى الأب والأم « وَتَشَاوُرٍ » بمشاورتهما « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » أى : على الأب والأم إن لم يرضعا ولدهما سنتين «وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ» يعنى غير الأم عند إبائها أو عجزها أو إرادتها أن تتزوج « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ » ـ يعنى إلى المراضع ـ « مَاءَاتَيْتُمْ » أى : ما أردتم إيتاءه إليهنّ من الأجرة « بِالْمَعْرُوفِ » متعلق بـ (سلمتم) أى : سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور . والمقصود ندبهم أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشرى الوجوه ، ناطقين بالقول الجميل ، مطيبين لأنفس المراضع حتى يُؤْمَنَ من تفريطهنّ بمصالح الرضيع « وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » فيه من الوعيد والتحذير عن مخالفة أحكامه ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٤] (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » أى : يموتون من رجالكم « وَيَذَرُونَ » أى : يتركون « أَزْوَاجاً » بعد الموت « يَتَرَبَّصْنَ » أى ينتظرن « بِأَنْفُسِهِنَّ » فى العدّة « أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » يعنى عشرة أيام « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أى : انقضت عدّتهنّ « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى : على الأولياء فى تركهنّ « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » من التعرّض للخطّاب والتزيّن « بِالْمَعْرُوفِ » أى : بوجه لاينكره الشرع . وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ماينكره الشرع ، فعليهم أن يكفوهنّ عن ذلك . وإلّا فعليهم الجناح « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

اعلم أنّ فى هذه الآية مسائل :

الأولى : خص ، من عموم الآية ، الحامل المتوفى عنها زوجها ، فإن عدتها بوضع الحمل لقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ[١] ؛ ولما فى (الصحيحين)[٢] عن سبيعة الأسلمية : أنها كانت تحت سعد بن خولة ـ وهو من بنى عامر بن لؤىّ وكان ممن

---

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] ونصها : وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ـ كتاب الطلاق، ٣٩ ـ باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٥٧ (طبعتنا) .

شهد بدراً ـ فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل . فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلماتعلّت من نفاسها تجمّلت للخطّاب. فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ـ رجل من بنى عبد الدار ـ فقال : مالى أراكِ تجمّلت للخطّاب، لعلك ترجين النكاح ؟ وإنّكِ واللهِ ما أنتِ بناكح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت علىّ ثيابى حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ؟ فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى . وأمرنى بالتزويج إن بدا لى . وفيه قال ابن شهاب : ولا أرى بأساً أن تتزوج حين وضعت ، وإن كانت فى دمها ، غير أنه لايقربها حتى تطهر .

الثانية : المراد من تربّصها بنفسها : الامتناع عن النكاح ، والامتناع عن التزيّن ، والامتناع عن الخروج من المنزل الذى توفى زوجها فيه . فالأول مجمع عليه . والثانى : روى فيه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش وعائشة ـ أمهات المؤمنين ـ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم[1] قال : لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميتٍ فوق ثلاث. إلّا على زوجٍ أربعة أشهر وعشرا . متفق عليه . وعن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله ! إنّ ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ قال : لا . كل ذلك يقول : لا . مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال: إنما هى أربعة أشهر وعشر. وقد كانت إحداكنّ فى الجاهلية تمكث سنة. متفق عليه .

وعن نافع : أن صفية بنت عبد الله اشتكت عينها ـ وهى حادّ على زوجها ابن عمر ـ فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمصان ، أخرجه مالك فى (الموطأ)[2] .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣١ ـ باب حد المرأة على غير زوجها ، حديث ٦٨٠ و٦٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٥٨ و٥٩ و٦٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢٩ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١٠٧ (طبعتنا) .

وعن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : لا تلبس المتوفى عنها زوجها، المعصفرةَ من الثياب ولا الممشقة ولا الحليّ ولا تختضب ولا تكتحل ولا تطيب أخرجه أبو داود[١] (والممشقة : المصبوغة بالمشق وهى المغرة) .

وقد استنبط بعضهم وجوب الإحداد من قوله تعالى « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » أى : من زينة وتطيب ـ كما قدمنا ـ فيفيد تحريم ذلك فى العدة وهو الإحداد .

وأما الامتناع عن الخروج من المنزل الذى توفّى فيه زوجها : فروى فيه أحمد وأهل السنن[٢] حديثَ فريعة بنت مالك قالت : خرج زوجى فى طلب أعلاج له فأدركهم فى طريق القدوم فقتلوه ، فأتى نعيه وأنا فى دار شاسعة عن دار أهلى ، فأتيت النبىّ ﷺ فذكرت ذلك له فقلت: إن نعى زوجى أتانى فى دار شاسعة عن أهلى ولم يدع نفقة ولا مالاً ورثته وليس المسكن له ، فلو تحولت إلى أهلى وإخوتى لكان أرفق بى فى بعض شأنى ؟ قال : تحولى. فلما خرجتُ إلى المسجد أو إلى الحجرة دعانى ـ أو أمر بى فدعيت ـ فقال : امكثى فى بيتك الذى أتاك فيه نعى زوجك حتى يبلغ الكتاب أجله . قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا . وفى بعض ألفاظه : أنه أرسل إليها عثمان بعد ذلك فأخبرته ، فأخذ به . وقد أُعِلّ هذا الحديث بما لا يقدح فى الاحتجاج به .

(١) أخرجه أبوداود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٤٦ ـ باب فيما تجتنبه المعتدة فى عدتها حديث ٢٣٠٤ .

(٢) أخرجه أحمد فى الصفحة ٣٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

والنسائىّ فى : ٢٧ ـ كتاب الطلاق ، ٦٢ ـ باب عدة المتوفى عنها زوجها من يوم يأتيها الخبر .

وابن ماجة فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ٨ ـ باب أين تعتد المتوفى عنها زوجها ، حديث ٢٠٣١ (طبعتنا) .

الثالثة : أكثر الفقهاء على أنّ هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وإن كانت متقدمة فى التلاوة ، فإن ترتيب المصحف ليس على ترتيب النزول بل هو توقيفىّ . وذهب مجاهد وغيره إلى أنهما محكمتان . كما سيأتى بيانه .

الرابعة : أبدى المهايمىّ الحكمة فى تحديد عدة المتوفى عنها بهذا القدر ، فقال : لئلا يتعارض فى قلبها حب المتوفَّى وحب الجديد ، فأخذت مدّة صبرها ـ وهو أربعة أشهر ـ وزيد عليه العشر ، إذ بذلك ينقطع صبرها فتميل إلى الجديد ميلًا كلياً ، فينقطع عن قلبها حب المتوفى . على أنه يظهر فى حق المدخول بها حركة الحمل إذ تكون بعد أربعة أشهر ، لكنها تبتدىء ضعيفة وتتقوى بمضىّ عشر آخر . ثم قال : ولم يكتف بالأقراء الدالة على عدمه ههنا ، بخلاف الفراق حال الحياة ، لأن الفراق الاختيارىّ شاهد عدمه مع شهادة الأقراء ، فثمتَ شاهدان وههنا واحد ، وعدم الحركة بعد هذه المدة يقوى شهادة الأول فيكون كالشاهد مع اليمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٥] ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِى أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ، وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

« وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ » أى : لا حرج عليكم أيها الخاطبون فى التعريض بخطبتكم النساء المتوفى عنهن أزواجهن قبل انقضاء العدة لتتزوجوهن بعد انقضائها . والتعريض : إفهام المقصود بما لم يوضع له ، حقيقةً ولا مجازاً . كأن يقال لها : إنك جميلة أو صالحة ، أو ربّ راغب فيك ، أومن يجد مثلك . والخطبة ـ بالكسر ـ طلب المرأة . « أَوْ » ـ فيما ـ « أَكْنَنْتُمْ » أى : أضمرتم من نكاحهن « فِى أَنْفُسِكُمْ » أى :

قلوبكم وإن كان حقه التحريم فضلاً عن التعريض باللسان ، لكن أباحه الله لكم إذْ « عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ » أي : لا تصبرون عن النطق برغبتكم فيهن فرخص لكم فى التعريض دون التصريح ، وفيه طرف من التوبيخ على قلة التثبت كقوله تعالى : عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ(١) . « وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا » هذا الاستدراك من قوله «فيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ». و « سِرًّا » مفعول به لأنه بمعنى النكاح . أى : لاتواعدوهن نكاحاً . أو هو بمعنى ضد الجهر والإعلان فيكون مصدراً فى موضع الحال تقديره (مستخفين بذلك) والمفعول محذوف تقديره (لاتواعدوهن النكاح سراً) ، أو صفة لمصدر محذوف أى: مواعدة سراً ، أو التقدير (فى سر) فيكون ظرفاً . وإنما نهى عن ذلك لأن المواعدة بذكر الجماع والرفث بين الأجنبىّ والأجنبية غير جائز إجماعاً . كالمواعدة بينهما على وجه السرّ . إذْ لا تنفك ظاهراً عن أن تكون مواعدة بشىء من المنكرات .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكرِ جماعٍ أو تحريض عليه لا يجوز . وقال أيضاً : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة فى العدة للمرأة فى نفسها ، وللأب فى ابنته البكر ، وللسيد فى أَمَتِهِ .

وقوله تعالى « إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً » أى : لايستحيي منه عند أحدٍ من الناس. فآل الأمر إلى أن المعنى : لا تواعدوهن إلا ما لا يستحيي من ذكره فيُسر وهو التعريض ؛ فَنَصَّتْ هذه الآية على تحريم التصريح. بعد إفهام الآية الأولى لذلك ، اهتماماً به لما للنفس من الداعية إليه ـ أفاده البقاعىّ .

وقال الرازىّ : لما أَذِنَ تعالى فى أول الآية بالتعريض ثم نهى عن المسارّة معها دفعاً للريبة والغيبة ، استثنى عنه أن يسارها بالقول المعروف . وذلك أن يعدها فى السرّ بالإحسان إليها، والاهتمام بشأنها ، والتكفّل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكداً لذلك التعريض ، والله أعلم .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

تنبيـه :

ما قدمناه من أنّ قوله تعالى « وَلَـكِنْ ... » الخ استدراك من قوله « فِيمَا عَرَّضْتُمْ » قاله أبو البقاء .

وجعل الزمخشريّ المستدرك محذوفاً دلّ عليـه « سَتَذْكُرُونَهُنَّ » أى : فاذكروهنّ ولـكن لا تواعدوهن سراً .

قال الناصر : وقويت دلالة هذا المذكور على ما حذف . لأن المعتاد فى مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقيبها . ونظير هـذا النظم قوله تعالى : عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ...[1] الآية . ولهذا الحذف سرّ ـ والله أعلم ـ وهو أنّه اجتنب لأن الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً . بل اختصت بوجهٍ واحدٍ من وجوهه . وذلك الوجه المباح عسر التميز عمّا لم يبح . فذكرت مستثناة بقوله « إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً » تنبيهاً على أن المحل ضيق والأمر فيه عسر ، والأصل فيـه الحظر . ولا كذلك الوطء فى زمن ليل الصوم . فإنه أبيح مطلقاً غير مقيد ؛ فلذلك صَدَرَ الـكلام بالإباحة والتوسعة . وجاء النهى عن مباشرة المعتكفة فى المسجد تِلْوًا للإباحة وتبعاً فى الذكر . لأنها حالة فاذّة . والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم ولـكن الأمر يتعلق به من حيث المصاحب ، وهو الاعتكاف . فتفطّن لهذا السرّ فإنه من غرائب النكت .

« وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ » (العُقدة) بالضم من النكاح وكل شيء من البيع ونحوه ، وجوبُه . قال الفارسيّ : هو من الشدّ والربط . وقال الرازيّ: أصل العقد الشدّ . وسميت العهود والأنـكحة عقوداً لأنها تعقد كما يعقد الحبل . وذكر العزم مبالغة فى النهى عن عقد النكاح . لأن العزم على الفعل يتقدمه . فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى . ومعناه : ولا تعزموا وجوب النكاح لأن القصد إليه حال العدة يفيد مزيد تحريك

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

من الجانبين بحيث لايطاق معه الصبر إلى انقضاء العدّة . وقوله «حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» أى : العدّة المكتوبة المفروضة آخرها . «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» من الميل إليهنّ قبل الأجل «فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» يغفر ذلك الميل إذ لم يتعدّ العزم عقدة النكاح «حَلِيمٌ» لا يعاجل بالعقوبة ، فلا تستدلّوا بتأخيرها على أن ما نهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخذة ..!

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٦] (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)

«لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً» (ما) شرطية ، أى : إن لم تمسوهن ولم تفرضوا لهنّ فريضة . يعنى : ولم تعينوا لهنّ صداقاً ـ ف (أو) بمعنى الواو ـ وحينئذٍ فلا مهر لهنّ ولكن المتعة بالمعروف كما قال تعالى «وَمَتِّعُوهُنَّ» أى : من مالكم جبراً لوحشة الفراق «عَلَى الْمُوسِعِ» أى : الغنىّ الذى يكون فى سعة من غناه «قَدَرُهُ» ـ بسكون الدال وبفتحها قراءتان سبعيتان ـ أى : يجب على الموسر قدر ما يليق بيساره «وَعَلَى الْمُقْتِرِ» أى : المعسر الذى فى ضيقٍ من فقره ، وهو المقلّ الفقير ، يقال : أقتر إذا افتقر «قَدَرُهُ» أى : قدر ما يليق بإعساره «مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ» تأكيد ل «مَتِّعُوهُنَّ» يعنى: متعوهنّ تمتيعاً بالمعروف ـ أى : بالوجه المستحسن فلا يزاد إلى نصف مهر المثل ولا ينقص إلى ما لا يعتد به ـ «حَقًّا» أى : ثبت ذلك ثبوتاً مستقراً «عَلَى الْمُحْسِنِينَ» أى : المؤمنين لأنه بدل المهر ؛ وذكرهم بهذا العنوان ترغيب وتحريض لهم على الإحسان إليهنّ بالمتعة . وإنما كانت إحساناً لأن ملاك القصد فيها ما تطيب به نفس المرأة

ويبقى باطنها وباطن أهلها سلماً ذا مودّة . لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ـ أفاده الحرالىّ .

وروى الثورىّ عن ابن عباس قال : متعة الطلاق أعلاها الخادم ، ودون ذلك الورِق ، ودون ذلك الكسوة . وعنه : إن كان موسراً متعها بخادمٍ ونحوه ، وإن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب .

وروى عبدالرزاق أن الحسن بن علىّ ـ عليهما السلام ـ متع بعشرة آلاف. فقالت المرأة: متاع قليل من حبيبٍ مفارق .

تنبيه :

أخذ بعض المفسرين يحاول البحث بأن عنوان نفى الجناح ـ عمّا ذكر هنا ـ يفيد ثبوته فيما عداه ، مع أنه لا جناح أيضاً فيه . وتكلف للجواب ـ سامحه الله ـ ولا يخفاك أنّ مثل هذا العنوان كثيراً ما يراد به فى التنزيل الترخيص والتسهيل . كما تكلف بعضٌ بجعل (أو) بمعنى (إلّا) أو (حتى) ؛ وجعل الحرج بمعنى المهر مع أنّ الآية بيّنة بنفسها لا حاجة إلى أن تتجاذ بها أطراف هذه الأبحاث . وعدولُهم عن أقرب مما سلكوه ـ أعنى كون (أو) بمعنى الواو ـ مع شيوعها فى آيات كثيرة ـ عجيبٌ . وأعجب منه تخطئة من جنح لهذا الأقرب ، مع أنّ مما يرشحه مساق الآية بعدها .

وما روى فى سبب نزول هذه الآية : قال الخازن : نزلت فى رجلٍ من الأنصار تزوج امرأة من بنى حنيفة ولم يسمّ لها صداقاً ثم طلقها قبل أن يمسها ، فنزلت « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ... » الآية فقال له رسول الله ﷺ : أمتعها ولو بقلنسوتك. وهذه الرواية ـ إن ثبتت ـ كانت شاهدة لما اعتمدناه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٧] (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ إِلَّاأَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » ـ أى: الزوجات ـ « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ » أى : تجامعوهنّ . قال أبو مسلم : وإنما كنى تعالى بقوله « تَمَسُّوهُنَّ » عن المجامعة ، تأديباً للعباد فى اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به . « وَقَدْ فَرَضْتُمْ » أى : سميتم « لَهُنَّ فَرِيضَةً » أى : مهراً مقدّراً « فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » أى : فلهنّ نصف ماسميتم لهنّ من المهر ، أو فالواجب عليكم ذلك « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ » أى : المطلقات عن أزواجهن فلايطالبنهم بنصف المهر . وتقول المرأة : مارآنى ولا خدمته ولا استمتع بى فكيف آخذ منه شيئاً ..؟ « أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ » وهو الزوج فيسوق إليها المهر كاملًا ، أو الولىّ ، يعنى : إذا كانت صغيرة ـ أو غير جائزة التصرف ـ فيترك نصيبها للزوج .

قال مالك فى (موطأه) فى هذه الآية : هو الأب فى ابنته البكر . والسيّد فى أمته . وكلا التأويلين مروىّ عن عدّة من الصحابة والتابعين .

قال الحرالىّ : إذا قرن هذا الإيراد بقوله « وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ » خطاباً للأزواج قوى فَسْرُ من جعل « الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » هو الزوج معادلة للزوجات ، ومن خصّ عفوهن بالمالكات ـ أى الرشيدات ـ خصّ هذا بالأولياء .

ونقل ابن جرير : أن الشعبىّ رجع إلى أنه الزوج ، وكان يباهل عليه .

وقال الزمخشرىّ : القول بأنه الولىّ ظاهر الصحة .

قال الناصر فى (حواشيه) : وصدق الزمخشرىّ أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحقّ وطلاوة الصواب لوجوهٍ ستة . ساقها بألطف بيان . فانظرها ، والله أعلم .

« وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » هذا خطاب للرجال والنساء جميعاً ، وغلب التذكير نظراً للأشرف . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : أقربهما للتقوى الذي يعفو ، وذلك لأنّ من سمح بترك حقه كان محسناً وذلك عنوان التقوى « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » أي : التفضل بالإحسان لما فيه من الألفة وطيب الخاطر . فهو حثّ على العفو ، فمن عفا منهما فله الفضل على الآخر . ومعلوم أن النسيان ليس في الوسع حتى ينهى عنه . فالمراد منه الترك . أي : لا تتركوه ترك المنسيّ . فالتعبير بالنسيان آكد في النهي . والخطاب هنا أيضاً للقبيلين بالتغليب ، كالذي قبله ، وخصّه الحراليّ بالرجال ، قال :

فمن حقّ الزوج ـ الذي له فضل الرجولة ـ أن يكون هو العافي . وأن لا يؤخذ النساء بالعفو ، ولذلك لم يأت في الخطاب أمرٌ لهن ولا تحريض. فمن أقبح ما يكون حمل الرجل على المرأة في استرجاع ما آتاها بما يصرح به قوله: وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا[1]. فينبغي أن لا تنسوا ذلك الفضل فتجرون عليه حيث لم تلزموا به .

وقد حكى الزمخشريّ عن جبير بن مطعم ، أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال : أنا أحق بالعفو ..! وعنه : أنه دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها . فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملًا ، فقيل له : لم تزوجتها ؟ فقال : عرضها عليّ فكرهت ردّه . قيل : فلم بعثت بالصداق ؟ قال : فأين الفضل ؟

وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي : فلا يضيع تفضّلكم وإحسانكم . ولما كانت الحقوق المشروعة قبل ، مما قد يشق القيام بها على بعض الناس ، أمروا بما يخفف عنهم عبئها ويحبب إليهم أداءها . وذلك بالمحافظة على الصلوات فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذا أمر بها تعالى ـ إثر ما تقدم ـ بقوله سبحانه :

---

(١) [٤ / النساء / ٢٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٨] ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ » أى : داوموا على أدائها لأوقاتها مع رعاية فرائضها وسننها من غير إخلالٍ بشىء منها « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » أى: الوسطى بين الصلوات بمعنى المتوسطة أو الفضلى منها ، من قولهم للأفضل : الأوسط . فعلى الأول : يكون الأمر لصلاة متوسطة بين صلاتين . وهل هى الصبح أو الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، أقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين . وعلى الثانى : فهى صلاة الفطر أو الأضحى أو الجماعة أو صلاة الخوف أو الجمعة أو المتوسطة بين الطول والقصر . أقوال أيضاً عن كثيرٍ من الأعلام . والقول الأخير جيد جدًّا كما لو قيل بأنها ذات الخشوع لآية : وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .

وأما علماء الأثر فقد ذهبوا إلى أن المعنىّ بالآية صلاة العصر لما فى (الصحيحين)[1] عن علىّ رضى الله عنه ؛ أن النبىّ ﷺ قال يوم الأحزاب (وفى روايةٍ يوم الخندق) : ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس . وفى رواية : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر . وذكر نحوه وزاد فى أخرى : ثم صلّاها بين المغرب والعشاء . أخرجاه فى (الصحيحين) ورواه أصحاب السنن والمسانيد والصحاح من طرق يطول ذكرها .

وأجاب عن هـذا الاستدلال من ذهب إلى غيره بأنه لم يرد الحديث مورد تفسير الآية حتى يعيّنها . وإنما فيـه الإخبار عن كونها وسطى ، وهو كذلك لأنها متوسطة وفضلى من الصلوات .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٩٨ ـ باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٢ (طبعتنا) .

وما رواه مسلم[1] عن أبي يونس ـ مولى عائشة ـ قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت : إذا بلغت هذه الآية فآذنّي « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ». قال : فلما بلغتها آذنتها ، فأملت عليّ : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين . قالت عائشة : سمعتها من رسول الله ﷺ . وروى ابن جرير عن حفصة نحو ذلك . قال نافع : فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو . وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير ، أنهما قرآ كذلك .

فهذا من عائشة رضى الله عنها إعلام بالمراد من (الوسطى) عندها . ضمّت التأويلَ إلى أصل التنزيل لِأَمْن اللبس فيه . لأن القرآن متواتر مأمون أن يزاد فيه أو ينقص . وكان فى أول العهد بنسخه ربما ضمّ بعض الصحابة تفسيراً إليه ، أو حرفاً يَقرؤه . ولذا لمّا خشى عثمان رضى الله عنه أن يرتاب فى كونه من التنزيل ـ مع أنه ليس منه ـ أمر بأن تجرد المصاحف فى عهده مما زيد فيها من التأويل وحروف القراءات التى انفرد بها بعض الصحب، وأن يقتصر على المتواتر تنزيله وتلقّيه من النبيّ ﷺ .

قال القاضى أبو بكر فى (الانتصار) : لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين . وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبيّ ﷺ ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لاتقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثْبِتَ مع تنزيل ، ولامنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشيةَ دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد ...

هذا وقد أيّد علماء الأثر ماذهبوا إليه من أنها صلاة العصر بأنها خصت بمزيد التأكيد والأمر بالمحافظة عليها ، والتغليظ لمن ضيّعها . فقد قال أبو المليح : كنا مع بريدة فى غزوة. فقال فى يومٍ ذى غيم : بكّروا بصلاة العصر فإنّ النبيّ ﷺ قال : من ترك صلاة العصر فقد

(١) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا).

حبط عمله . أخرجه البخاريّ[١] . وقوله : بكروا بصلاة العصر، أى قدّموها فى أوّل وقتها .

وروى الشيخان[٢] عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قال : الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله ..! أى : نقص وسلب أهله وماله فبقى فرداً ، فاقدهما . والمعنى : ليكن حذره من فوت صلاة العصر كحذره من ذهاب أهله وماله .

وقد ساق الحافظ عبد المؤمن الدمياطىّ فى كتابه (كشف المغطى فى تبيين الصلاة الوسطى) ما امتازت به صلاة العصر من الخصائص والفضائل ، قال عليه الرحمة :

فمنها ؛ أن رسول الله ﷺ غلّظ المصيبة فى فواتها بذهاب الأهل والمال فى الحديث المتقدم.

ومنها ؛ حبوط عمل تاركها المضيّع لها فى الحديث السالف أيضا .

ومنها ؛ أنها كانت أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وأهليهم وأموالهم !

ومنها ؛ قوله ﷺ : من حافظ عليها كان له أجرها مرتين . رواه مسلم .

ومنها ؛ أنّ انتظارها بعد الجمعة كعمرة ـ رواه أبو يعلى . وروى الحاكم : كمن أتى بحجّة وعمرة .

ومنها ؛ قوله ﷺ[٣] : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب المواقيت ، ١٥ ـ باب من ترك العصر ، حديث ٣٥٧ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٤ ـ باب إثم من فاتته العصر ، حديث ٣٥٦ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٠و٢٠١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٤٢ ـ كتاب الشرب والمساقاة ، ٥ ـ باب إثم من منع ابن السبيل من الماء ، حديث ١١٧٨ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧٣و١٧٤ (طبعتنا) .

ولهم عذاب أليم ... ـ إلى أن قال ـ ورجل أقام سلعة بعد العصر فحلف بالله أنه أخذها بكذا وكذا . فجاء رجل فصدقه فاشتراها . متفق عليه . ثم قال : قلت وقد عظم الله الأيمان التي يحلف بها العباد فيما شجر بينهم بعدها فقال : تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله(١) . قال عامة المفسرين : بعد صلاة العصر . ولذلك غلّظ العلماء اللعان وسائر الأيمان المغلظة بوقت صلاة العصر لشرفه ومزيته .

ومنها ؛ أن سليمان ـ عليه السلام ـ أتلف مالاً عظيما من الخيل لما شغله عرضها عن صلاة العصر إلى أن غابت الشمس . فمدحه الله تعالى بذلك وأثنى عليه بقوله تعالى : نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ...(٢) الآية .

ومنها ؛ أن(٣) الساعة التي في يوم الجمعة قد قيل : إنها بعد العصر .

ومنها ؛ أن وقتها وقت ارتفاع الأعمال .

---

(١) [٥ / المائدة / ١٠٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٣٠ ـ ٣٤] ونصها : وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ .

(٣) أخرجه البخاري في : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ٣٧ ـ باب الساعة التي في يوم الجمعة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه » وأشار بيده ، يقللها .

ومنهـا ؛ الحديث المرفوع : إنّ الله تعالى يوحى إلى الملَكين : لا تكتبا على عبدى الصائم بعد العصر سيئة .

ومنهـا ؛ ما جاء فى قوله تعـالى : وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ .[(١)] قال مقاتل : العصر هى الصلاة الوسطى أقسم بها ـ حكاه ابن عطية .

ومنهـا ؛ ما روى فى الحديث ، أن الملائكة تصفّ كل يوم بعد العصر بكتبها فى السماء الدنيا فينادى الملَك : ألق تلك الصحيفة . فيقول : وعزّتك ما كتبت إلّا ما عمل . فيقول الله عزّ وجل : لم يرد به وجهى. وينادى الملَك الآخر : اكتب لفلان كذا وكذا ، فيقول الملَك: وعزّتك إنه لم يعمل ذلك . فيقول الله عزّ وجل : إنه نواه .

ومنهـا ؛ أنّ وقتها وقت اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم فى الغالب .

وقد أُفرد الكلام على تفسير هـذه الآية بمؤلفات . وذكر العلّامة الفاسى ـ شارح (القاموس) ـ فيما نقله عنه الزبيدىّ ، أن الأقوال فيها أنافت على الأربعين . فرضى الله عن العلماء المجتهدين وأرضاهم .

سنح لى(*) وقوى بعد تمعّن ـ فى أواخر رمضان سنة ١٣٢٣ ـ احتمال قوله تعـالى « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » بعد قوله «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ» لأن يكون إرشاداً وأمراً بالمحافظة على أداء الصلاة أداءً متوسطاً . لا طويلًا مملًّا ولا قصيراً مخلًّا . أى : والصلاة المتوسطة بين الطول والقصر . ويؤيده الأحاديث المروية عنه ﷺ فى ذلك ، قولًا وفعلًا .

ثم مرّ بى فى القاموس ـ فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ ـ حكاية هذا قولًا . حيث ساق فى مادة (و س ط) الأقوال فى الآية ، ومنها قوله (أو المتوسطة بين الطول والقصر) ؛ قال شارحه الزبيدىّ : وهذا القول ردّه أبو حيّان فى (البحر) .

---

(١) [١٠٣ / العصر / ١] .

(*) نقلت هذه السانحة من دفترٍ للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله تعالى .

ثم سنح لى(*) احتمال وجه آخر : وهو أن يكون قوله « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » أريد به توصيف الصلاة المأمور بالمحافظة عليها بأنها فضلى ، أى: ذات فضل عظيم عند الله . فالوسطى بمعنى الفضلى من قولهم للأفضل : الأوسط . وتوسيط (الواو) بين الصفة والموصوف مما حققه الزمخشرىّ واستدلّ له بكثير من الآيات . وفى سوق الصفة بهذا الأسلوب، من الاعتناء بالموصوف ما لا يخفى . وأسلوب القرآن أسلوب خاص انفرد به فى باب البلاغة ، لم ينفتح من أبواب عجائبه إلَّا قطرة من بحر . ولعلّ هذا الوجه هو ملحظ من قال : هى الصلوات الخمس، وهومعاذ بن جبل رضى الله عنه ، فكأنه أشار إلى أنّ المعطوف عَيْنُ المعطوف عليه . إلا أنه أتى بجملةٍ تفيد التوصيف .

وقوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ » ـ فى الصلاة ـ « قَانِتِينَ » خاشعين ساكتين . روى الشيخان[1] عن زيد بن أرقم : إن كنا لنتكلم فى الصلاة على عهد النبىّ ﷺ. يكلم أحدنا صاحبه بحاجته. حتى نزلت « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فأمرنا بالسكوت . هذا لفظ البخارىّ . ولفظ مسلم : عن زيد بن أرقم قال[2] : كنا نتكلم فى الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام .

وروى أبو يعلى عن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة ، فمررت برسول الله ﷺ فسلّمت عليه ، فلم يرد علىّ ، فوقع فى نفسى إنه نزل فىّ شىء ، فلما قضى النبىّ ﷺ صلاته قال : وعليك السلام ـ أيها المسلّم ـ ورحمة الله ، إنّ الله يحدث فى أمره مايشاء، فإذا كنتم فى الصلاة فاقنتوا ولا تتكلّموا .

(*) نقلت هذه السانحة من دفترٍ للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢١ ـ كتاب العمل فى الصلاة ، ٢ ـ باب ما ينهى عنه من الكلام فى الصلاة ، حديث ٦٥١ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٥ (طبعتنا) .

وروى الطبرانّى فى (الأوسط) والإمام أحمد[١] وأبو يعلى الموصلى فى (مسنديهما) وابن حبان فى (صحيحه) عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل حرفٍ ذكر من (القنوت) فى القرآن فهو الطاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٩] (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ خِفْتُمْ » أى : فإن كان بكم خوف من عدوٍّ أوغيره « فَرِجَالًا » أى : فصلّوا راجلين ، أى : ماشين على الأقدام ـ يقال : رَجِلَ ـ كَفَرِحَ ـ فهوراجل ، ورَجُل ـ بضمّ الجيم ـ ورَجِل ـ بكسرها ـ ورَجَل ـ بفتحها ـ ورَجيل ورَجْلان إذا لم يكن له ظهر فى سفر يركبه فمشى على قدميه ، والجمع رجال ورَجّالة ورُجّال ـ كرمّان ـ « أَوْ رُكْبَانًا » أى : راكبين ، فيعفى عن كثرة الأفعال وإتمام الركوع والسجود واستقبال القبلة . وهذا من رخص الله تعالى التى رخّص لعباده ، وَوَضْعِهِ الآصار والأغلال عنهم . وقد رويت صلاة الخوف عن رسول الله ﷺ على صفات مختلفة مفصّلة فى كتب السنة ، وذلك لأنه ﷺ كان يتحرى فى كل موطن ماهو أحوط للصلاة وأبلغ فى الحراسة .

قال الرازىّ : صلاة الخوف قسمان : أحدهما أن تكون فى حال القتال ـ وهو المراد بهذه الآية ؛ والثانى : فى غيرحال القتال وهوالمذكور فى سورة النساء فى قوله تعالى : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ »[٢] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٧٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤/ النساء / ١٠٢] ونصها : وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ =

وقد روى مالك(١) عن نافع : أنّ ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف ، وصفها ثم قال : فإن كان خوف أشدّ من ذلك صلّوا رجالًا على أقدامهم أو ركبانا مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها .

قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلّا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ورواه الشيخان. ولمسلم(٢) أيضاً عن ابن عمر قال : فإن كان خوف أشدّ من ذلك فصلّ راكباً أو قائماً تومىء إيماء .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود(٣) ، بإسنادٍ جيد ، عن عبدالله بن أنيس الجهنيّ قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن سفيان الهذليّ ـ وكان نحو عُرَنَةَ وعرفات ـ فقال: اذهب فاقتله ، قال ، فرأيته ـ وحضرت صلاة العصر ـ فقلت : إني لأخاف أن يكون بيني وبينه ما إنْ أؤخر الصلاة ، فانطلقت أمشي وأنا أصلي أومىء إيماءً نحوه ، فلما دنوت منه قال لي: من أنت ؟ قلت : رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل فجئتك في ذلك ، قال :

= وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في: ١١ ـ كتاب صلاة الخوف ، حديث ٣ (طبعتنا).
وأخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٤ ـ باب قوله عز وجل : فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، حديث ٥٤٧ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣٠٦ (طبعتنا).

(٣) أخرجه أبوداود في: ٤ ـ كتاب الصلاة ، ٢٠ ـ باب صلاة الطالب، حديث١٢٤٩.
وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٤٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

إنى لفى ذلك . فمشيت معه ساعة. حتى إذا أمكننى علوته بسيفى حتى برد (وهذا نص أبى داود).

وأخرج الطيالسىّ وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائىّ[(١)] وأبو يعلى والبيهقىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال : كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فشغلنا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كفينا ذلك . وذلك قوله : وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ[(٢)] . فأمر رسول الله ﷺ بلالًا فأقام لكلّ صلاةٍ إقامة ، وذلك قبل أن ينزل عليه « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا »[(٣)] .

تنبيه :

هذه الآية قد أطلقت الخوف. فيدخل فيه أىّ مخافة من عدوّ أو سبع أو جمل صائل ، وهذا قول الأكثر . وشذّ قول الوافى وبعض الظاهرية : إنّ الخوف مختص بأن يكون من آدمىّ . وقد أفادت هذه الآية أن فعلها بالإيماء هو فرضهم، فلا قضاء عليهم بعد الأمن . قال فى (التهذيب) خلاف ما يقوله بعضهم . ولكن هذا إذا أتوا بما يسمى صلاة فإن لم يمكنهم شىء من الأفعال ، وإنما أتوا بالذكر فقط . فقال الناصر زيد وابن أبى الفوارس وأبو جعفر : هذا لا يسمى صلاةً فيجب القضاء . وقال الراضى بالله والأمير الحسين : هو بعض الصلاة ، فلا قضاء ، لقوله ﷺ[(٤)] : إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم . وإذا ثبت الترخيص

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٧ ـ كتاب الأذان، ٢١ ـ باب الأذان للفائت من الصلوات.

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢٥] ونصها : وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٩] ونصها : فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، حديث ٢٥٨٥ ونصه : عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال « دعونى ما تركتكم. =

فى هذه الصلاة ـ بترك كمال الفروض ـ رخص فيها بفعل ما تحتاج إليه ، وبلباس ما فيه نجس إذا احتيج إليه ـ كذا فى تفسير بعض علماء الزيدية .

« فَإِذَا أَمِنْتُمْ » أى : زال خوفكم « فَاذْكُرُوا اللَّهَ » أى : فصلّوا صلاة الأمن . عبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها . وقوله « كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » أى : مثل ما علمكم من صلاة الأمن ، أو لأجل إنعامه عليكم ، فالكاف للتعليل . وهذه الآية كقوله تعالى : فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(١) . والفائدة فى ذكر المفعول فيه ، وإن كان الإنسان لا يعلم إلّا ما لم يعلم ، التصريحُ بذكر حالة الجهل التى انتقلوا عنها ، فإنه أوضح فى الامتنان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٠] (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » أى : يُقبَضُون من رجالكم «وَيَذَرُونَ» أى: يتركون « أَزْوَاجاً » بعد الموت « وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ » خبر (الذين) أى : يوصون ، أو ليوصوا ،

= إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٣٨ (طبعتنا) .

(١) [٤ / النساء / ١٠٣] ونصها : فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا .

أو كتب الله عليهم وصيةً . وفى قراءةٍ ، بالرفع . أى : عليهم وصيّةٌ لأزواجهم فى أموالهم « مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ » بدل من وصية، على قراءة من نصبها . وعلى قراءة الرفع فمنصوب بوصية أو بفعله « غَيْرَ إِخْرَاجٍ » حال من أزواجهم ، أى : غير مخرجات . والمعنى : يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولًا بالنفقة والسكنى من غير أن يخرجن من مسكن زوجهنّ « فَإِنْ خَرَجْنَ » عن منزل الأزواج من قِبَل أنفسهن « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » على أولياء الميت « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ » لا ينكره الشرع ـ كالتزيّن والتطيّب وترك الحداد والتعرّض للخطّاب ـ وفيه دلالة على أنّ المحظور إخراجها عند إرادتها القرار، وملازمة مسكن الزوج ، والحداد من غير أن يجب عليها ذلك ، وأنها مخيّرة بين الملازمة مع أخذ النفقة ، وبين الخروج مع تركها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ».

ثم ليعلم أنّ اختيار جمهور المفسرين أنّ هذه الآية منسوخة بالتى قبلها وهى قوله تعالى : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا[1]. قالوا : كان الحكم فى ابتداء الإسلام أنه إذا مات الرجل اعتدّت زوجته حولًا، وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول، وكانت نفقتها وسكناها واجبتين فى مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شىء ، ولكنها تكون مخيرة . فإن شاءت اعتدّت فى بيت زوجها ولها النفقة والسكنى ، وإن شاءت خرجت قبل تمام الحول وليس لها نفقة ولا سكنى ؛ وكان يجب على الرجل أن يوصى بذلك . فدلّت هذه الآية على مجموع أمرين . أحدهما : أنّ لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة ، والثانى : أنّ عليها عدّة سنة ؛ ثم نسخ هذان الحكمان .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٤] ونصها : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخت بآيةالميراث. فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى . ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر .

وقد روى البخاريّ عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً » قد نسختها الآية الأخرى فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدَعُهَا ..؟ قال : ياابن أخى ! لا أغيّر شيئاً[1] منه من مكانه .

وأخرج أبوداود[2] والنسائىّ عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : نسخت بآية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن، ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشراً .

هـــذا ، وقد ذهب مجاهد إلى أنّ هذه الآية محكمة كالأولى . أخرجه عنه البخارىّ[3] قال مجاهد: دلت الآية الأولى وهى « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » على أنّ هذه عدتها المفروضة تعتدّها عند أهل زوجها . ودلت هذه الآية، بزيادة سبعة أشهرٍ وعشرين ليلة على العدّة السابقة تمام الحول ، أنّ ذلك من باب الوصية بالزوجات أنْ يُمَكَّنَّ من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا ، ولا يمنعن من ذلك ، لقوله « غَيْرَ إِخْرَاجٍ » فإذا انقضت عدتهنّ بالأربعـة أشهر والعشر ـ أو بوضع الحمل ـ واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فإنهنّ لا يمنعن من ذلك لقوله « فَإِنْ خَرَجْنَ ... » الخ . قال الإمام ابن كثير : وهــذا القول له اتجاه ، وفى اللفظ مساعدة له ؛ وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية .

ومنهم أبو مسلم الأصفهانىّ قال : معنى الآية : من يتوفى منـكم ويذرون أزواجاً ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤١ ـ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٤٢ ـ باب نسخ متاع المتوفّى عنها بما فرض لها من الميراث ، حديث ٢٢٩٨ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤١ ـ باب وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً .

وقد وصوا وصـية لأزواجهم بنفقة الحول وسكنى الحول ، فإن خرجن قبل ذلك وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التى ضربها الله تعالى لهنّ فلا حرج « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ » أى : نـكاح صحيح . لأن إقامتهنّ بهذه الوصية غير لازمة . قال : والسبب أنهم كانوا فى زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولًا كاملًا . وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول . فبيّن الله تعالى فى هذه الآية أنّ ذلك غير واجب . واحتجّ على قوله بوجوه ساقها الفخر الرازىّ عنه ـ إلى أن قال : فـكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل . ثم قال : وإذا عرفت هذا فنقول: هذه الآية من أوّلها إلى آخرها تـكون جملة واحدة شرطية ؛ فالشرط هو قوله «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » فهذا كلّه شرط ، والجزاء هو قوله . « فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـكُمْ ... » الخ فهذا تقرير قول أبى مسلم . قال الرازىّ : وهو فى غاية الصحة ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤١] (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

« وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » أى : للمطلقات متعة من جهة الزوج بقدر الإمكان ، جبراً لوحشة الفراق . وأما المهر فهو حقّ البضع .

قال ابن كثير : وقد استدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لـكلّ مطلقة . سواء كانت مفوضة ، أو مفروضاً لها ، أو مطلّقة قبل المسيس ، أو مدخولًا بها . وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف . واختاره ابن جرير .

وقد أخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : لـكلّ مؤمنةٍ طلقت ، حرة أو أمة ، متعة . وقرأ الآية .

وأخرج البيهقىّ عن جابر بن عبد الله قال : لمـا طلّق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة ، أتت

النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال لزوجها : متعها . قال : لا أجد ما أُمتعها قال : فإنه لابدّ من المتاع ، متّعها ولو نصف صاع من التمر .

وأخرج البيهقيّ عن قتادة قال : طلق رجل امرأته عند شريح ، فقال له شريح : متعها ! فقالت المرأة : إنه ليس لى عليه متعة . إنما قال الله تعالى: وَ لِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ : وَ لِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وليس من أولئك !!

وأخرج البيهقيّ عن شريح أنه قال لرجل فارق امرأته : لا تأبى أن تكون من المتقين . لا تأبى أن تكون من المحسنين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٢] (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« كَذَٰلِكَ » أى : مثل ذلك البيان الشافى « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ » فى جميع المواضع « ءَايَاتِهِ » الدالة على أحكامه « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لكى تفهموا مافيها وتعملوا بموجبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٣] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا » أى : ممن تقدمكم من الأمم « مِنْ دِيَارِهِمْ » أى : التى ألفوها لما وقع فيها مما لاطاقة لهم به من الموت . ولفظة « أَلَمْ تَرَ » قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجيب والتقرير والتذكير ـ كالأحبار وأهل التاريخ ـ وقد تذكر لمن لا يكون كذلك . فتكون لتعريفه وتعجيبه .

قال الراغب : (رأيت) يتعدى بنفسه دون الجار . لـكن لمـا استعير (ألم تر) لمعنى (ألم تنظر) عدى تعديته بـ(إلى) ، وفائدة استعارته : أن النظر قد يتعدى عن الرؤية، فإذا أريد الحث على نظر ناتج لامحالة للرؤية استعيرت له ، وقلما استعمل ذلك فى غير التقرير فلا يقال : رأيت إلى كذا .

« وَهُمْ أُلُوفٌ » أى : فى العدد جمع ألف ، أو وهم مؤتلفون ومجتمعون جمع آلف ، بالمدّ ـ كشاهد وشهود ـ أى : إن خروجهم لم يكن عن افتراق كان منهم ولا تباغض ولـكن « حَذَرَ الْمَوْتِ » مفعول له ـ أى : فرارا منه وقوله « فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا » معناه : فأماتهم ، وإنما جئ به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك مشيئة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشىء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولاتوقف. كقوله تعالى « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١) « ثُمَّ أَحْيَاهُمْ » عطف . إما على مقدر يستدعيه المقام أى : فماتوا ثم أحياهم ـ وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته . وإما على (قال) لما أنه عبارة عن الإماتة « إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » قاطبة. أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة ، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبـار والاستبصار ، فقد تفضّل على الجميع ليشكروه « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » أى : فضله كما ينبغى .

تنبيه :

روى عن ابن عباس : أنّ الآية عُنِىَ بها قوم كثيرو العدد خرجوا من ديارهم فرارا من الجهاد فى سبيل الله فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا عدوّهم . فـكأنها ذكرت ممهدة للأمر بالقتال بعدها فى قوله تعالى « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ».

---

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

ومعلوم أن سورة البقرة مما نزل فى المدينة إثر الهجرة قبل فتح مكة . وكان العدوّ فى مكة وماحولها فى كثرة وقوة ومنعة، فأمِر المسلمون المهاجرون ومن آواهم أن يقاتلوا فى سبيل الله. وقصّ لهم من الأنباء ما فيه بعث لهم على الجهاد وتبشير لهم بالفوز والعاقبة ، وإن يكونوا فى قلة وضعف، ماداموا مستمسكين بحبل الوفاق والصبر والمصابرة . وقد ذهب بعض الرواة إلى أن هذه الآية عنى بها ماقص فى التوراة عن (حزقيل) ـ أحد أنبياء بنى إسرائيل ـ أنه أوحى إليه أن يخرج إلى فلاة واسعة قد ملئت عظاماً يابسة من موتى بنى إسرائيل . وأن يناديها باسمه تعالى. فجعلت تتقارب ثم كسيت لحما. ثم نادى أرواحها فعادت إلى أجسامها واستووا أحياء على أقدامهم بأمره تعالى . وهم جيش كثير جداً. وأوحى إلى (حزقيل) أنهم سيعودون إلى وطنهم بعد أن أجلوا عنه ، وهذه القصة مبسوطة فى توراتهم فى الفصل السابع والثلاثين من نبوة (حزقيل) .

وممن روى عنه أنه عنى بهذه الآية نبأ (حزقيل) ، وهب بن منبه وأشعث بن أسلم البصرىّ والحجاج بن أرطاة والسدّىّ وهلال بن يساف وغيرهم . أخرجه عنهم ابن جرير . فإن صحت هذه الرواية يكون ذلك من معجزات (حزقيل) فى إحياء الموتى له كما أحيي لعيسى عليه السلام . فيرى قومه مالا ييأسون معه من جهاد عدوّهم ليسترجعوا وطنهم الذى أجلاهم عنه عدوهم . لأن (حزقيل) كان فيمن أُجْلِى إلى بابل . قالوا ونبوته تتضمن القضاء المنزل على بنى إسرائيل وبشرى السلام الذى يعقب ذلك القضاء . وقد نقل ابن كثير عن عطاء أنه قال فى هذه الآية : إنها مَثَلٌ . ولعل مراده أنها مثل فى تكوينه تعالى أمة قوية تقهر وتغلب وتسوس غيرها بعد بلوغها غاية الضعف والخمول . فكان حياتها وموتها تمثيلا لحالتها قبلُ وبعدُ . فيكون إشعاراً بما ستصير إليه العرب من القوة العظيمة والمدنية الفخيمة . وتنبيها على أن الوصول إلى ذلك إنما يكون بجهاد الظالمين واتفاق المتقين على دحر المتغلبين الباغين . والله أعلم .

ثم إنه لا خفاء فى أن ما قصّ من حوادث الإسرائيليين كان معروفاً فى الجملة لمخالطة اليهود للعرب فى قرون كثيرة .

قال ولىّ الله الدهلوىّ فى (الفوز الكبير) : واختار سبحانه فى تنزيله من أيام الله ، يعنى الوقائع التى أحدثها الله سبحانه وتعالى ، كإنعام المطيعين وتعذيب العصاة ، ما قرع سمعهم . وذكر لهم إجمالا مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود . وكانت العرب تتلقاها أباً عن جد ، ومثل قصص سيدنا إبراهيم وأنبياء بنى إسرائيل فإنها كانت مألوفة لأسماعهم لمخالطة اليهود العرب فى قرون كثيرة ، وانتزع من القصص المشهورة جُملا تنفع فى تذكيرهم. ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها . والحكمة فى ذلك أن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة ، أو استقصى بين أيديهم ذكر الخصوصيات ، يميلون إلى القصص نفسها ويفوتهم التذكر الذى هو الغرض الأصلىّ فيها . ونظير هذا الكلام ما قاله بعض العارفين : إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع فى التلاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٤] (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

قال المفسرون : فى إتباع القصة المتقدمة الأمرَ بالقتال ، دليل على أنها سيقت بعثاً على الجهاد. فحرض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يغنى ، كما قال تعالى : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١) . وأصل السبيل هو الطريق . وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله تعالى من حيث إن الإنسان يسلكها ويتوصل إلى الله بها ليتمكن من إظهار عبادته تعالى ، ونشر الدعوة إلى توحيده وحماية أهلها والمدافعة عن الحق وأهله . فالقتال دفاع فى سبيل الله لإزالة الضرر العام.

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] .

وهو منع الحق وتأييد الشرك . وذلك بتربية الذين يفتنون الناس عن دينهم وينكثون عهودهم، لا لحظوظ النفس وأهوائها ، والضراوة بحب التسافك وإزهاق الأرواح ، ولا لأجل الطمع فى الكسب . وفى قوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » بعث على صدق النية والإخلاص . كما فى الصحيحين[1] عن أبى موسى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أىّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٥] (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً » ـ هذا حث من الله تعالى لعباده على الصدقة ، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع .

قال القرطبىّ : طلب القرض فى هذه الآية لما هو تأنيب وتقريب للناس بما يفهمون . والله هو الغنى الحميد . لكنه تعالى شبه إعطاءه المؤمنين ، وإنفاقهم فى الدنيا الذى يرجون ثوابه فى الآخرة ، بالقرض . كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة، بالبيع والشراء . حسبما يأتى بيانه فى سورة براءة ، وكنى الله سبحانه وتعالى عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم، ٤٥ ـ باب من سأل وهو قائم عالما جالسا، حديث ١٠٥ ونصه : عن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية . فرفع إليه رأسه (وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما) فقال «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل».

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٥٠ (طبعتنا) .

الحاجات ترغيبا فى الصدقة . كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة . ففى[١] صحيح الحديث إخباراً عن الله تعالى : ياابن آدم ! مرضتُ فلم تعدنى. استطعمتك فلم تطعمنى، استسقيتك فلم تَسْقِنِى . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أمَا أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؛ وكذا فيما قبله . أخرجه الشيخان . وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كنى عنه ترغيباً لمن خوطب به . وقد أخرج سعيد بن منصور والبزار والطبرانىّ وغيرهم عن ابن مسعود قال[٢] : لما نزلت هذه الآية ، قال أبو الدحداح الأنصارىّ : يا رسول الله ! وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم. ياأبا الدحداح ! قال : أرنى يدك ، يارسول الله ! فناوله يده . قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى (وحائطه، فيه ستمائه نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها) فجاء أبو الدحداح فناداها: ياأم الدحداح! قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : قد

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يقول ، يوم القيامة: يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب ! كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلان مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ ياابن آدم! استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يا رب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقنى . قال : يا رب ! كيف أسقيك ؟ وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندى » .

ولم يخرجه البخارىّ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ، الصفحة ٢٩٩ من الجزء الأول .

قبلهمنك . فأعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم اليتامى الذين في حجره. فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : رب عِذْق لأبي الدحداح مدلّى في الجنة، وفي رواية كم من عذق الخ . وقوله تعالى « حَسَناً » أي طيبة به نفسه من دون مَنّ ولا أذى . وقوله سبحانه « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً » كما قال سبحانه : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١) . ولما رغب سبحانه في إقراضه أتبعه جمله مرهبة مرغبة فقال « وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ » أي يضيقّ على من يشاء من عباده في الرزق ويوسعه على آخرين . أي فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم ، لئلا يُبدِّل السعة الحاصلة لكم بالضيق .

« وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أي يوم القيامة فيجازيكم .

قال المهايميّ : وكيف ينكر بسط الله وقبضه وهو الذي يعطي الفقير الملك ويسلبه من أهله ، ويقوى الضعفاء من الجمع القليل ويضعف الأقوياء من الجمع الكثير ؟ يعني كما قصه تعالى في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٦] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ » وهم القوم ذو الشارة والتجمع « مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ » إنما نكر لعدم مقتض لتعريفه ، وزعم الكتابيون أنه صموئيل

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] .

« ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا » أى أقم لنا أميراً « نُقَاتِلْ » أى معه عن أمره « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وذلك حين ظهرت العمالقة، قوم جالوت على كثير من أرضهم « قَالَ » لهم نبيهم « هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا » .

قال الزمخشرىّ : خبر (عسيتم) ألا تقاتلوا . والشرط فاصل بينهما . والمعنى : هل قاربتم ألاتقاتلوا. يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون . أراد أن يقول عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال، فأدخل (هل) مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب فى توقعه كقوله تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ(١) معناه التقرير . وقرئ عسِيتم بكسر السين، وهى ضعيفة .

« قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ » أى وأىّ سبب لنا فى ترك قتال عدونا « فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا » أى والحال أنه قد عرض ما يوجب القتال إيجاباً قويًّا من أخذ بلادنا وسبى أولادنا « فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ » بعد إلحاحهم فى طلبه «تَوَلَّوْا» أى أعرضوا عن قتال عدوهم جبناً « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وَعِيدٌ لهم على ظلمهم بالتولّى عن القتال وترك الجهاد وعصياناً لأمره تعالى .

قال بعض مفسرى الزيدية: ثمرة هذه الآية الكريمة أنها دلت على أحكام: الأول وجوب الجهاد لأن الله تعالى إنما ذكر هذه القصة المشهورة فى بنى إسرائيل وما نالهم تحذيرا من سلوك طريقهم. وأيضاً : شرائع من قبلنا تلزمنا . الثانى أن الأمير يُحتاج إليه فى أمر الجهاد لتدبير أمورهم . وقد(٢) كان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية أمّر عليها أميراً . قال فى الكشاف :

---

(١) [٧٦ /الإنسان / ١] ونصها : هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨٢ ـ باب فى دعاء المشركين ، حديث ٢١٦٢ .

وفى هذا الحديث وصيته ﷺ القيّمة لأمير الجيش .

وروى[1] أنه أَمَرَ الناس إذا سافروا، أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم . الثالث : وجوب طاعة الأمير فى أمر السياسة وتدبير الحرب . لأن سياق الآية يقضى بذلك، وفى الحديث عنه ﷺ: أطيعوا الأمير ولو كان عبداً حبشياً[2] . وقد ذكر أهل علم المعاملة أنه ينبغى فى الأسفار أن يجعل أهلُ السفر لهم أميراً ودليلا وإماماً . وهذا محمود . إذ بذلك ينقطع الجدال وينتظم أمورهم . ويلزم مثل هذا فى كل أمر يحتاج فيه إلى ترداد فى الآراء. نحو أمور الأوقاف والمساجد والإمامة لكل مسجد ونحو هذا . قال الحاكم : وفيه دلالة على أن للأنبياء تشديد العهود والمواثيق فيما يلزمهم ، ووجه ذلك أنه قال (هل عسيتم) وهذا نوع من التأكيد عليهم. وكذا يأتى فى الإمام قياس ما ذكر الحاكم فى النبىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٧] (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨٠ ـ باب القوم يسافرون يؤمرون أحدهم ، حديث ٢٦٠٨و٢٦٠٩ .

الأول عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله ﷺ قال « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

والثانى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال« إذا كان ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم».

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ، حديث ٤٣٤ ونصه : عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشىّ كأن رأسه زبيبة » .

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » هذا شروع فى تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال ، إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم . أى قال لهم (بعد ما أوحى إليه ما أوحى) إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً أى ملّكه عليكم. فانتهوا فى تدبير الحرب إلى أمره . وكان طالوت من سبطٍ لم يكن الملك فيهم. وطالوت اسم أعجمى كجالوت وداود. ولذلك لم ينصرف . وزعم قوم أنه عربى (من الطول) لما وصف به من البسطة فى الجسم . ولكنه ليس من أبنية العرب فمنع صرفه للعلمية وشبه العجمة . وقد زعم الكتابيون أن طالوت هو المعروف عندهم بشاول . « قَالُوا » معترضين على نبيهم بل على الله تعالى « أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا » أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك « وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ » أى لأن فينا من هو سبط الملوك دونه .

قال الحرالى : فثنَّوا اعتراضهم بما هو أشد وهو الفخر بما ادعوه من استحقاق الملك على من ملّكه الله عليهم. فكان فيه حظ من نخر إبليس حيث قال حين أُمر بالسجود لآدم: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ(١) .

« وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ » أى فصار له مانعان : أحدهما أنه ليس من بيت الملك . والثانى أنه مملق . والملك لابد له من مال يعتضد به .

قال الحرالى : فكان فى هذه الثالثة فتنة استصنام المال وأنه مما يقام به ملك . وإنما الملك بإيتاء الله . فكان فى هذه الفتنة الثالثة جهل وشرك ، فتزايدت صنوف فتنتهم فيما انبعثوا إلى طلبه من أنفسهم .

« قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ » لما استبعدوا

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

تملكه بسقوط نسبه وبفقره ، رد عليهم ذلك أوّلا : بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى . وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم . وثانياً : بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة . وجسامة البدن ليعظم خطره فى القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب . وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر . قاله أبو السعود .

« وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ » فى الدنيا من غير إرث أو مال . إذ لايشترط فى حقه تعالى شىء، فهو الفعال لما يريد « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » يوسع على الفقير ويغنيه « عَلِيمٌ » بمن يليق بالملك ممن لايليق به. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة .

قال بعض مفسرى الزيدية: ثمرة الآية أن النبوة والإمامة لاتستحق بالإرث وأن الغنى، والصيانة من الحرف الدنيئة ، لاتشترط فى أمير ولا إمام ولا قاض. أى لما روى أن طالوت كان دباغاً أو سقاء مع فقره . قال الحاكم : فيبطل قول الإمامية أنها وراثة ، والمعروف من قولهم : أن الإمامة طريقها النص ، وتدل الآية أيضاً على أنه يشترط فى الأمير ونحوه القوة على ماتولاه. فيكون سليما من الآفات عالماً بما يحتاج إليه ، لأن الله تعالى ذكر البسطة فى العلم والجسم ردًّا على ما اعتبروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٨] (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

«وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ » أى علامة « مُلْكِهِ » أنه من الله تعالى «أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ» أى يرد الله إليكم التابوت الذى أخذ منكم وهو صندوق التوراة. على ما سنذكره « فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » أى وقار وجلال وهيبة . أو فيه سكون نفوس بنى إسرائيل يتقوون به على

الحرب « وَبَقِيَّةٌ » أى فضلة جملة، ذهب جلُّها « مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَٰرُونَ » أى من آثارهم الفاضلة « تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فى رد التابوت إليكم « لَآيَةً لَكُمْ » أن ملكه من الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » بآيات الله وأنبيائه .

قال العلامة البقاعىّ عليه الرحمة : التابوت، والله أعلم، الصندوق الذى وضع فيه اللوحان اللذان كتب فيهما العشر الآيات، ويسمى تابوت الشهادة، وكانوا إذا حاربوا حَمَلَهُ جماعة منهم، موظفون لحمله ، ويتقدمون به أمام الجيش فيكون ذلك سبب نصرهم . وكان العمالقة أصحاب جالوت لما ظهروا عليهم أخذوه فى جملة ما أخذوا من نفائسهم . وكان عهدهم به قد طال . فذكّرهم بمآثره ترغيباً فيه وحملاً على الانقياد لطالوت . فقال « فِيهِ سَكِينَةٌ ...» الآية .

وفى الأصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج مانصه :

(١) وكلّم الرب موسى قائلا . (٢) كلِّمْ بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة . من كل مَن يَحُثُّه قلبه تأخذون تقدمتى . (٣) وهذه هى التقدمة التى تأخذونها منهم . ذهب وفضة ونحاس . (٤) وأسما نُجُونِىٌّ وأُرجُوَانٌ وقِرْمِزٌ وبُوصٌ وشَعْرُ مِعْزَى . (٥) وجلودُ كباش محمرَّةٌ وجلودُ تُخَسٍ وخَشَبُ سَنْطٍ . (٦) وزيت للمنارة وأطيابٌ لدُهن المَسْحَةِ وللبخور العَطِر . (٧) وحجارةُ جَزْعٍ وحجارة ترصيع للرداء والصُّدْرة . (٨) فيصنعون لى مَقْدِساً لأسكن فى وسْطهم . (٩) بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون :

(١٠) فتصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف . وارتفاعه ذراع ونصف (١١) وتُغَشِّيه بذهب نقىٍّ من داخل ومن خارج تغشيه. وتصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه. (١٢) وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع. على جانبه الواحد حلقتان . وعلى جانبه الثانى حلقتان. (١٣) وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب . (١٤) وتدخل العصوين فى الحلقات على جانب التابوت ليُحمل التابوت

بهما . (١٥) تبقى العصوان فى حلقات التابوت . لاتنزعان منها . (١٦) وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك .

وفى الأصحاح الحادى والثلاثين من سفر الخروج :

(١٨) ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء لَوْحَى الشهادة لوحى حجر مكتوبين بأصبع الله .

وفى الأصحاح الرابع والثلاثين منه : أن موسى لما كسر اللوحين أمره الله أن ينحت لوحين مثل الأولين ، وأمره أن يكتب عليهما كلمات العهد الكلمات العشر . ونصه : (١) ثم قال الرب لموسى: انْحَتْ لك لوحين من حجر مثل الأولين . فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما .

وفى حواشى التوراة : أن تابوت الشهادة هو التابوت الذى كان فيه لوحا الشريعة الإلهية المسماة شهادة .

وزعموا أن السكينة معربة عن (شكينا) فى اللغة العبرانية . وفى سفر صموئيل من سفر الملوك الأول فى الأصحاح الرابع وما بعده نبأ انكسار الإسرائيليين أمام الفلسطينيين وأخذ التابوت من الإسرائيليين وأنه بقى التابوت فى بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر . فى قصص مسهبة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٩] (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

وقوله تعالى :

«فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ» أى خرج بالجيش، لمَّا رد إليهم التابوت وقبلوا ملكه ، وخرجوا معه . وكان طالوت أخذ بهم فى أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد « قَالَ » لهم طالوت « إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى » أى من أشياعى الذين يقاتلون معى عدوى ، ولا يجاوزه « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » أى لم يذقه . من (طَعِمَ كَعَلِمَ الشيء ، إذا ذاقه مأكولًا كان أو مشروبًا) وفى إيثاره على (لم يشربه) إشعار بأنه محظور تناوله ولو مع الطعام . ذكره الراغب . « إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ » الواحدة . فإنه لا يخرج بذلك عن كونه منى . لأنه فى معنى من لم يذقه .

قال الحرالىّ فى قراءة فتح الغين إعراب عن معنى إفرادها ، آخذة ما أخذت من قليل أو كثير . وفى الضم ، إعلام بملئها .

« فَشَرِبُوا مِنْهُ » أى إلى حد الارتواء « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » لم يشربوا إلا كما أذن الله تعالى « فَلَمَّا جَاوَزَهُ » أى النهر « هُوَ » أى طالوت « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا » أى المفرطون فى الشرب « لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » لأنه سلبت شجاعتهم (وجاء فى التوراة تسميته بجُليات. على ما سنذكره) « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ » أى يعلمون « أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ » يرجعون إليه بعد الموت « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٠] (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَلَمَّا بَرَزُوا » ظهروا « لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » إذ دنوا منه « قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أَفِضْهُ علينا وأكرمنا به لقتالهم فلا نجزع للجراحات ، وإنما طلبوه أولًا لأنه

ملاك الأمر «وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا» فى ميدان الحرب فلا نهرب منه «وَانصُرْنَا» لأنا مؤمنون بك « عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » بك . وهم جالوت وجنوده ، وهذه الآية تدل على أن من حزبه أمر فإنه ينبغى له سؤال المعونة من الله ، والتوفيق ، والانقطاع إليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥١] فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« فَهَزَمُوهُمْ » أى هؤلاء القليلون ، أولئك الكثيرين « بِإِذْنِ اللَّهِ » بنصره إذ شجع القليلين وجبّن الكثيرين « وَقَتَلَ دَاوُدُ » وكان فى جيش طالوت « جَالُوتَ » الذى هو رأس الأقوياء « وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » أى أعطى الله داود ملك بنى إسرائيل « وَالْحِكْمَةَ » أى الفهم والنبوة « وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ » من صنعة الدروع وغيرها « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ » من أهل الشر « بِبَعْضٍ » من أهل الخير « لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » أى بغلبة الكفار وظهور الشرك والمعاصى كما قال تعالى : وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا[1] الآية .

«وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى منّ عليهم بالدفع. ولذلك قوّى سبحانه هؤلاء الضعفاء وأعطى بعضهم الملك والحكمة ومن سائر العلوم ، ليدفع فساد الأقوياء بالسيف .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٤٠] ونصها : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٢] (تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« تِلْكَ » أى المذكورات من إماتة الألوف وإحيائهم وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام جالوت وقتل داود إياه وتملكه « آيَاتُ اللهِ » إذ هى أخبار غيوب تدل على كمال قدرته سبحانه وحكمته ولطفه « نَتْلُوهَا عَلَيْكَ » أى نُنزل عليك جبريل بها « بِالْحَقِّ » أى اليقين الذى لا يرتاب فيه « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » بما دلت عليه هذه الآيات من علمك بها من غير معلم من البشر ، ثم بإعجازها الباقى على مدى الدهر . وفى هذه القصص معتبر لهذه الأمة فى احتمال الشدائد فى الجهاد كما احتملها المؤمنون فى الأمم المتقدمة . كما أن فيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم من الكفار والمنافقين . فكأنه قيل : قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم السلام فى بنى إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم . فلا يعظمن عليك كُفر من كفر بك وخِلاف من خالف عليك لأنك مثلهم . وإنما بعث الكل لتأدية الرسالة ولامتثال الأمر على سبيل الاختيار والطوع ، لا على سبيل الإكراه . فلا عتب عليك فى خلافهم وكفرهم . والوبال فى ذلك يرجع عليهم ؛ وقوله « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » كالتنبيه على ذلك . أشار له الرازىّ .

قال البقاعىّ : ولعل ختام قصص بنى إسرائيل بهذه القصة ، لما فيها للنبىّ صلى الله عليه وسلم من واضح الدلالة على صحة رسالته . لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بنى إسرائيل .

قلت : يرحم الله البقاعىّ فإنه لم يطلع على هذه القصة من التوراة مع أنها مسوقة فى الأصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول ونصه :

(١) وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب فاجتمعوا فى سُوكُوهَ التى ليهوذا ونزلوا بين سُوكُوهَ وعزيقة فى أَفَس دَمِّيمَ . (٢) واجتمع شاوُلُ ورجال إسرائيل ونزلوا فى وادى

البُطْم واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين . (٣) وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا وإسرائيل وقوفاً على جبـل من هناك والوادى بينهم . (٤) فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جُلْيات من جَتّ طوله ست أذرع وشبر. (٥) وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابساً درعاً حَرْشفيًّا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس . (٦) وجُرْموقا نحـاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه . (٧) وقناة رمحه كنول النسّاجين وسنان رمحه ست مائة شاقل حديد وحامل الترس كان يمشي قدامه. (٨) فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم: لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب . أَمَاأنا الفلسطينيّ وأنتم عبيد لشاولَ . اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إليّ. (٩) فإن قدر أن يحاربنى ويقتلنى نصير لـكم عبيداً. وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا . (١٠) وقال الفلسطينيّ أنا عيّرت صفوف إسرائيل هذا اليوم . أعطونى رجلا فنتحارب معاً. (١١) ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينيّ هـذا ارتاعوا وخافوا جدا . (١٢) وداود هو ابن ذلك الرجل الأفراتيّ من بيت لحم يهوذا الذى اسمه يسّى وله ثمانية بنين . وكان الرجل فى أيام شاول قد شاخ وكبر بين الناس . (١٣) وذهب بنو يسّى الثلاثة الـكبار وتبعوا شاول إلى الحرب . وأسماء بنيـه الثلاثة الذين ذهبوا إلى الحرب أَلِيآبُ البكر وأبيناداب ثانيه وشَمَّةُ ثالثهما . (١٤) وداود هو الصغير والثلاثة الـكبار ذهبوا وراء شاوُلَ . (١٥) وأما داود فـكان يذهب ويرجع من عند شاول ليرعى غنم أبيه فى بيت لحم .

وكان الفلسطينيّ يتقدم ويقف صباحا ومساء أربعين يوماً . (١٧) فقال يَسّى لداود ابنه خذ لإخوتك إيفَةً من هذا الفريك وهذه العشر الخُبْزَات واركض إلى المحلة إلى إخوتك . (١٨) وهذه العشر القطعات من الجبن قدمها لرئيس الألف وافتقد سلامة إخوتك وخذ منهم عُربونا . (١٩) وكان شاوُلُ وهم وجميع رجال إسرائيل فى وادى البُطم يحاربون الفلسطينيين. (٢٠) فبكّر داود صباحا وترك الغنم مع حارس وحمّل وذهب كما أمره يسّى وأتى إلى المتراس

والجيش خارج إلى الاصطياف وهتفوا للحرب . (٢١) واصطف إسرائيل والفلسطينيون صفاً مقابل صف . (٢٢) فترك داود الأمتعة التى معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة إخوته . (٢٣) وفيما هو يكلمهم إذا برجل مبارز اسمه جليات الفلسطينى من جتّ صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود . (٢٤) وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا . (٢٥) فقال رجال إسرائيل أرأيتم هذا الرجل الصاعد . ليُعيِّرَ إسرائيل هو صاعد . فيكون أن الرجل الذى يقتله يغنيه الملك غنى جزيلا ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرًّا فى إسرائيل .

(٢٦) فكلم داود الرجال الواقفين معه قائلا ماذا يُفعل للرجل الذى يقتل ذلك الفلسطينى ويزيل العار عن إسرائيل . لأنه من هو هذا الفلسطينى الأغلف حتى يعيّر صفوف الله الحىّ . (٢٧) فكلمه الشعب بمثل هذا الكلام قائلين كذا يُفعل بالرجل الذى يقتله . (٢٨) وسمع أخوه الأكبر أَلِيآبُ كلامه مع الرجال فحمى غضب أَلِيآبُ على داود وقال لماذا نزلتَ وعلى من تركت تلك الغنيمات القليلة فى البرّية . أنا علمتُ كبرياءك وشر قلبك لأنك نزلت لكى ترى الحرب . (٢٩) فقال داود ماذا عملتُ الآن . أمَا هو كلام . (٣٠) وتحول من عنده نحو آخر وتكلم بمثل هذا الكلام فردّ له الشعب جوابا كالجواب الأول . (٣١) وسُمع الكلام الذى تكلم به داود وأخبروا به أمام شاول . فاستحضره . (٣٢) فقال داود لشاول: لا يسقط قلب أحد بسببه . عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطينىّ . (٣٣) فقال شاول لداود لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطينىّ لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه . (٣٤) فقال داود لشاول كان عبدك يرعى لأبيه غنما فجاء أسد مع دبّ وأخذ شاة من القطيع . (٣٥) فخرجت وراءه وقتلته وأنقذتها من فيه ولما قام علىّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته. (٣٦) قتل عبدك الأسد والدب جميعا . وهذا الفلسطينىّ الأغلف يكون كواحد منهما لأنه قد عيّر صفوف الله الحىّ . (٣٧) وقال داود الربّ الذى أنقذنى من يد الأسد ومن يد الدب

هو ينقذنى من يد هذا الفلسطينى . فقال شاول لداود : اذهب وليكن الرب معك . (٣٨) وألبس شاول داود ثيابه وجعل خوذة من نحاس على رأسه وألبسه درعا . (٣٩) فتقلد داود بسيفه فوق ثيابه وعزم أن يمشى لأنه لم يكن قد جرّب . فقال داود لشاول لا أقدر أن أمشى بهذه لأنى لم أجربها . ونزعها داود عنه . (٤٠) وأخذ عصاه بيده وانتخب له خمسة حجارة مُلْسٍ من الوادى وجعلها فى كِنْفِ الرعاة الذى له أى فى الجراب ومقلاعه بيده وتقدم نحو الفلسطينى . (٤١) وذهب الفلسطينى ذاهبا واقترب إلى داود والرجل حامل الترس أمامه . ولما نظر الفلسطينى ورأى داود استحقره لأنه كان غلاما وأشقر جميل المنظر . (٤٣) فقال الفلسطينى لداود ألعلّى أنا كلب حتى أنك تأتى إلىّ بعصِىٍّ . ولعن الفلسطينى داود بآلهته . (٤٤) وقال الفلسطينى لداود تعال إلىّ فأعطى لحمك لطيور السماء ووحوش البرية . (٤٥) فقال داود للفلسطينى أنت تأتى إلىّ بسيف وبرمح وبترس . وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيّرتهم . (٤٦) هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى فأقتلك وأقطع رأسك . وأعطى جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل. (٤٧) وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يُخَلِّصُ الرب لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا . (٤٨) وكان لما قام الفلسطينى وذهب وتقدم للقاء داود أن داود أسرع وركض نحو الصف للقاء الفلسطينى . (٤٩) ومدّ داود يده إلى الكِنْف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطينى فى جبهته فارتزّ الحجر فى جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض . (٥٠) فتمكن داود من الفلسطينى بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطينى وقتله. ولم يكن سيف بيد داود . (٥١) فركض داود ووقف على الفلسطينى وأخذ سيفه واخترطه من غمده وقتله وقطع به رأسه . فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا. (٥٢) فقام رجال إسرائيل ويهوذا وهتفوا ولحقوا الفلسطينيين حتى مجيئك إلى الوادى وحتى أبواب عَقْرُونَ . . . الخ .

وتتمة شأن داود بعد ذلك إلى أن آتاه الله الملك مذكور فى الفصول بعد هذا الفصل من التوراة . فانظره إن شئت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٣] (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ. مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

« تِلْكَ الرُّسُلُ » إشارة إلى من ذكر منهم فى هذه السورة أو المعلومة للنبىّ ﷺ « فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » بأن خص بمنقبة ليست لغيره « مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ » تفصيل التفضيل أى منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام « وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » كإبراهيم اتخذه الله خليلا . وداود آتاه الله النبوّة والخلافة والملك .

قال الزمخشرىّ : أى ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة .

والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ لأنه هو المفضل عليهم حيث أُوتى ما لم يؤتَه أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر . ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفاً على سائر ما أوتى الأنبياء . لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات . وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى . لما فيه من الشهادة على أنه العلَم الذى لا يشتبه والمتميز الذى لا يلتبس ؛ ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم. تريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال . فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه .

وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيراً والنابغة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث . أرادنفسه . ولو قال : ولو شئت لذكرت نفسي، لم يفخم أمره .

ثم قال: ويجوز أن يريد إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولى العزم .

« وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » سبق الكلام فيه .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت فلم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر ؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة . ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات . فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات ، خُصَّا بالذكر فى باب التفضيل . وهذا دليل بيّن أن من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره . ولما كان نبينا ﷺ هو الذى أوتى منها ما لم يؤت أحد فى كثرتها وعظمها ، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد الرسل لاختلافهم فى الدين وتشعب مذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » .

قال الزمخشرىّ : كرره للتأكيد . قال الناصر فى حواشيه : ووراء التأكيد سر أخص منه. وهو أن العرب متى ثبت أول كلامهم على مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع إلى الأول ، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها. وذلك عندهم مهيع من الفصاحه مسلوك . وفى كتاب الله تعالى مواضع فى هذا المعنى. منها قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَـٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا (١) ،

(١) [١٦ / النحل/ ١٠٦] ونصها : مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَـٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

ومنها قوله تعالى: ـ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ـ إلى قوله ـ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ (١). وهذه الآية من هذا النمط . لما صدر الكلام بأن اقتتالهم كان على وفق المشيئة، ثم طال الكلام وأريد بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت فى هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء ، فهى نافذة فى كل فعل واقع . وهو المعنى المعبر عنه فى قوله «وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» طرأ ذكر تعلق المشيئة بالاقتتال لتلوه عموم تعلق المشيئة. لتناسب الكلام ويعرف كل بشكله . فهذا سر ينشرح له الصدر، ويرتاح له السر. والله الموفق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ » هذا أمر بالإنفاق لبعض من المال .قيل هو أمر إيجاب وأنه أراد، بذلك، الإنفاقَ الواجب وهو الزكاة . لأنه تعالى عقبه بالوعيد بقوله « وَالْكَافِرُونَ » الخ، حيث عنى بهم مانعوها كما يأتى . وقال الأصمّ وأبو علىّ: أراد النفقة فى الجهاد . وقال أبو مسلم وابن جريج : أراد الفرض والنفل . وهو المتّجه . وقوله تعالى « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ » هو يوم القيامة « لَا بَيْعٌ فِيهِ » أى فتحصلون ماتنفقونه

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

أو تفتدون به من العذاب « وَلَا خُلَّةٌ » حتى يعينكم الأخلاء . الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ(١) «وَلَا شَفَاعَةٌ »حتى تتكلوا على شفعاء: إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (٢). « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد . كما فى قوله تعالى فى آخر آية الحج (وَمَنْ كَفَرَ)(٣) مكان(ومن لم يحج) وللإيذان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار. قال تعالى: وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ(٤) . ذكره الزمخشرى .

ويحتمل أن يكون المعنى: والكافرون هم الظالمون لأنفسهم بوضع الأموال فى غير مواضعها. فلا تكونوا أيها المؤمنون مثلهم فى أن لا تنفقوا فتضعوا أموالكم فى غير مواضعها . وفى هذه الآية دلالة على حسن المسارعة إلى الخيرات، قبل فواتها بهجوم ما يخشى معه الفوت، من موت أو غيره .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

(٢) [٢٠/ طه/ ١٠٩] ونصها : يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٤) [٤١ / فصلت / ٦و٧] ونصهما : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٥] (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

« اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ » أى الباقى الذى لاسبيل عليه للفناء « الْقَيُّومُ » الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، وقرئ القيام والقيم .

« لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » تأكيد للقيوم . أى لايغفل عن تدبير أمر الخلق تعالى وتقدس . والسنة (كعِدَة) والوسَن (محركةوبهاء) والوسْنة شدة النوم أوأوله، أوالنعاس. كذا فى القاموس .

قال المهايمى : السنة فتور يتقدم النوم. والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء دماغه من رطوبات أبخرة متصاعدة تمنع الحواس الظاهرة عن الإحساس . فهما منقصان للحياة منافيان للقيومية ، لأنهما من التغيرات المنافية لوجوب الوجود الذى للقيوم . ونفى النوم أوّلا التزاماً، ثم تصريحا، ليدل كمال نفيه على ثبوت كمال ماينافيه. ومن كمال قيوميته اختصاصه بملك العلويات والسفليات المشار إليه بقوله « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ » من الملائكة والشمس والقمر والكواكب « وَمَا فِي الْأَرْضِ » من العوالم المشاهدات . وهذا إخبار بأن الجميع فى ملكه وتحت قهره وسلطانه . كقوله : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا[1] . «مَنْ ذَا»من الأنبياء والملائكة ، فضلاً عمادعى الكفار شفاعته من الأصنام «الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ» فضلا عن أن يقاومه أو يناصبه

(١) [١٩ / مريم / ٩٣و٩٤] .

« إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بتمكينه تحقيقاً للعبودية، كما قال تعـالى : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لَاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى[١] . وكقوله : وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى[٢] .وهذامن عظمته وجلاله وكبريائه عزوجل، أنه لايتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له فى الشفاعة. كما فى حديث الشفاعة[٣]: آتى تحت العرش فأخر ساجداً فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى. ثم يقال: ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع . قال : فيحدّ لى حدًّا فأدخلهم الجنة .

قال أبو العباس بن تيمية: نفى الله عماسواه كل مايتعلق به المشركون. فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ولم يبق إلا الشفاعة. فبيّن أنها لاتنفع إلا لمن أذن له الرب. فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن. وأخبر النبىّ ﷺ أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده. لايبدأ بالشفاعة أولًا. ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع . وقال[٤] له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال :

(١) [٥٣ / النجم / ٢٦] .

(٢) [٢١/ الأنبياء/ ٢٨] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى:٩٧ـ كتاب التوحيد ، ١٩ـ باب قوله تعالى: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ. ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٢ ـ ٣٢٦ (طبعتنا) .

وهو حديث طويل وجليل وعظيم الشأن ، والسعيد من ظفر به وأحاط علماً بما فيه .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٣ ـ باب الحرص على الحديث ونصه :

عن أبى هريرة أنه قال : يا رسول الله ! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيـامة ؟ قال رسول الله ﷺ « لقد ظننتُ يا أبا هريرة ، أن لايسألنى عن هذا الحديث أحد أولُ منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله ، خالصاً من قلبه أو نفسه» .

لا إله إلا الله خالصاً من قلبه . فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله . ولا تكون لمن أشرك بالله . وحقيقته أن الله سبحانه هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك . ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع. وقد بين النبىّ صلىّ الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » أى ما أتاهم علمه من أمر أنفسهم وغيرهم . لأن ما بين يدى المرء يحيط به حسُّه . وما علمه أيضاً . فكأنه بين يدى قلبه يحيط به علمه « وَمَا خَلْفَهُمْ » وهو مالم ينله علمهم . لأن الخلف هو مالا يناله الحسّ . فأنبأ أن علمه من وراء علمهم محيط بعلمهم فيما علموا وما لم يعلموا . أفاده الحَرَّالىّ . فهذه الجملة كقوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[(1)] « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » أى لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أراد أن يعلمهم به منها على ألسنة الرسل . كما قال تعالى : فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ[(2)] . أى ليكون ما يطلعه عليه من علم غيبه دليلًا على نبوته . «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن المعنىّ بالكرسىّ العلم. وذلك لدلالة قوله تعالى« وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا» أى لا يؤوده حفظ ما علم وأحاط به مما فى السموات والأرض . وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا فى دعائهم: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً[(3)] فأخبر أن علمه وسع كل شىء، فكذلك

---

(1) [٦ / الأنعام / ٧٣] ونصها : وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

(2) [٧٢ / الجن / ٢٦و٢٧] ونصهما: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .

(3) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ =

قوله « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » قال ابن جرير : وقول ابن عباس هذا يدل على صحة ظاهر القرآن لما ذكر . ولأن أصل الكرسيّ العلم . ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب : كراسة . ومنه قول الراجز في صفة قانص *حتى إذا ما احْتازها تكرّسا* يعني علم ، ومنه يقال للعلماء: الكراسيّ . لأنهم المعتمد عليهم . كما يقال: أوتاد الأرض. يعني أنهم الذين تصلح بهم الأرض . ومنه قول الشاعر :

يحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسيّ بالأحداث حين تنوب

يعني بذلك علمه بحوادث الأمور ونوازلها . وروى ابن جرير أيضاً عن الحسن: أن الكرسيّ في الآية هو العرش . اهـ. وأيده بعضهم بأن لفظ عرش المملكة وكرسيّها مترادفان . ولذلك قال تعالى على لسان سليمان : أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[1] فالعرش والكرسيّ هما شيء واحد وإنما سماه هنا . كرسيًّا، إعلاماً باسمٍ له آخر[2] . « وَلَا

= بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

(١) [٢٧ / النمل / ٣٨] ونصها : قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .

(٢) كان المؤلف ، رضي الله عنه فسّر الكرسيّ بما يأتي :

الكرسيّ ، بالضم وبالكسر ، السرير والعِلْم ، كما في القاموس .

قال الأزهريّ : والصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الذهبيّ عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الكرسيّ، موضع القدمين . وأما العرش فإنه لا يقدر قدره . قال : وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها .

قال : ومن روى عنه في الكرسيّ أنه العلم فقد أبطل . انتهى . =

يَؤُودُهُ » أى لا يثقله ولا يشق عليه. يقال: آده الأمر أوداً وأُوُوداً (كقعود) بلغ منه المجهود والمشقة « حِفْظُهُمَا » أى السموات والأرض فلا يفتقر إلى شريك ولا ولد . وكيف يشق عليه « وَهُوَ الْعَلِىُّ » قال ابن جرير . قال بعضهم : يعنى بذلك عُلوّه عن النظير والأشباه . وقال آخرون : معناه العلىّ على خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه . لأنه تعالى ذكره فوق جميع خلقه . وخلقه دونه . كما وصف به نفسه أنه على العرش . فهو عالٍ بذلك عليهم . « الْعَظِيمُ » أى أعظم كل شىء بالجلال والكبرياء والقهر والقدرة والسلطان .

تنبيه :

آية الكرسىّ هذه لها شأن عظيم وفضل كبير. وقد صح الحديث[(١)] عن رسول الله ﷺ بأنها أعظم آية فى كتاب الله وأنها مشتملة على اسم الله الأعظم ، وقد ساق ما ورد فى فضلها الإمام ابن كثير فى (تفسيره) والجلال السيوطىّ فى (الدرالمنثور) فانظرهما .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم فضلت هذه الآية حتى ورد فى فضلها ماورد. قلت : لِما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى. ولا مذكور أعظم من رب العزة . فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار .

= وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الكرسىّ الذى يوضع تحت العرش ، الذى تجعل الملوك عليه أقدامهم .

وفى الفتح : الكرسىّ هنا ، الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته .

ثم إن المؤلف عدل عن ذلك إلى ما تراه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٦١ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هذين الآيتين : اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ . والٓم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ، أن فيهما اسم الله الأعظم.

وقد حكى السيوطىّ فى (الإتقان) عن الأشعرىّ والباقلانىّ وابن حبان المنع من أن يقال فى القرآن فاضل وأفضل . قالوا: وما ورد ممـا يفيد ذلك محمول على الأعظمية فى الأجر. لا أن بعض القرآن أفضل من بعض . وقد ردّ ذلك غير واحد ، حتى قال ابن الحصار : العجب ممن يذكر الاختلاف فى ذلك مع النصوص الواردة فى التفضيل . وقال الغزالىّ فى(جواهر القرآن): لعلك أن تقول : قد أشرت إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض، والكلام كلام الله، فكيف يتفاوت بعضها بعضاً، وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟ فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسىّ وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت ، وترتاع على اعتقاد نفسك الخوارة المستغرقة بالتقليد، فقلد صاحب الرسالة ﷺ فهو الذى أنزل عليه القرآن وقال : يس قلب القرآن(١) . وفاتحة الكتاب أفضل سور القرآن(٢) .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٧ ـ باب ماجاء فى فضل يس . ونصه : عن أنس قال : قال النبىّ ﷺ « إن لكل شىء قلباً وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١ ـ سورة الفاتحة، ١ ـ باب ماجاء فى فاتحة الكتاب . ونصه : عن أبى سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلى فى المسجد . فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه . فقلت : يا رسول الله ! إنى كنت أصلى . فقال « ألم يقل الله : اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ؟ » ثم قال لى « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد » ثم أخذ بيدى. فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال « الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

وآية الكرسىّ سيدة آى القرآن(١) . وقلهو الله أحد تعدلثلث القرآن(٢) .والأخبار الواردة فى فضائل القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل وكثرة الثواب فى تلاوتها ـ لا تحصى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٦] ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » قال ابن كثير : أى لاتكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام فإنه بيّن واضح جلىّ دلائله وبراهينه . لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه . بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بيّنة . ومن عمى قلبه فإنه لايفيده الدخول فيه مكرهاً مقسوراً : فالنفى بمعنى النهى .

---

(١) قال الإمام ابن كثير فى تفسيره بالصفحة ٣٠٧ من الجزء الأول :

قال الحاكم أبو عبد الله فى مستدركه : حدثنا علىّ بن حشاد . حدثنا بشر بن موسى . حدثنا الحميدىّ . حدثنا سفيان. حدثنى حكيم بن جبير الأسدىّ عن أبى صالح عن أبىهريرة أن رسولالله ﷺ قال « سورة البقرة فيها آية سيد آى القرآن . لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه . آية الكرسىّ » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١٣ ـ باب فضل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ أن رجلا سمع رجلا يقرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، يرددها . فلما أصبح جاء إلى رسولالله ﷺ فذكر ذلك له . وكأنالرجل يتقالّها . فقال رسولالله ﷺ « والذى نفسى بيده ! إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وهو ما ذهب إليه فى تأويل الآية كثير . وذهب آخرون إلى أنه خبر محض . أى أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر وإنما بناه على التمكين والاختيار . قال القفال ـ موضحاً له ـ لما بيّن تعالى دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعذر ، أخبر بعد ذلك أنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر فى الإقامة على الكفر . إلا أن يُقسر على الإيمان ويجبر عليه . وذلك مما لا يجوز فى دار الدنيا التى هى دار الابتلاء . إذ فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان . ونظير هذه الآية قوله تعالى : فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ(١) . وقوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٢) . وقوله تعالى : لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٣) .

تنبيـه :

علم من هذه الآية أن سيف الجهاد المشروع فى الإسلام والذى لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر لم يستعمل للإكراه على الدخول فى الدين . ولكن لحماية الدعوة إلى الدين والإذعان لسلطانه وحكمه العدل .

« فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ » أى بالشيطان . أى بما يدعو إليه من عبادة الأوثان « وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا » أى فقد تمسك من الدين بأقوى سبب. وشبه ذلك بالعروه القوية التى لا تنفصم . هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية . وربطها قوىّ

(١) [١٨ / الكهف / ٢٩] ونصها : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٩] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٣و٤] .

شديد . وجملة (لا انفصام لها) إما استئناف مقرر لما قبلها، وإما حال من (العروة) والعامل (استمسك) أومن الضمير المستترفى (الوثقى) وإماصلة لموصول محذوف أى (التى). نقله الرازى.

وقد روى الشيخان عن عبد الله بن سلام قال : رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ . رأيت كأنى فى روضة خضراء وسطها عمود حديد أسفله فى الأرض وأعلاه فى السماء . فى أعلاه عروة. فقيل لى : اصعد عليه . فقلت: لا أستطيع . فجاءنى منصف (أى وصيف) فرفع ثيابى من خلفى ، فقال : اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة . فقال : استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفى يدى . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه . فقال : أما الروضة فروضة الإسلام . وأما العمود فعمود الإسلام . وأما العروة فهى العروة الوثقى . أنت على الإسلام حتى تموت « وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » اعتراض تذييلى حامل على الإيمان ، رادع عن الكفر والنفاق ، بما فيه من الوعد والوعيد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٧] (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى حافظهم وناصرهم « يُخْرِجُهُمْ » تفسير للولاية أوخبر ثان « مِنَ الظُّلُمَاتِ » أى ظلمات الكفر والمعاصى «إِلَى النُّورِ » أى نور الإيمان الحق الواضح. وإفراد النور لوحدة الحق . كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال . كما قال تعالى : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[١] « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ » أى

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق « يُخْرِجُونَهُمْ » بالوساوس وغيرها من طرق الإضلال والإغواء « مِنَ النُّورِ » أى الإيمان الفطرىّ الذى جبل عليه الناس كافة ، أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبىّ صلى الله عليه وسلم « إِلَى الظُّلُمَاتِ » أى ظلمات الكفر والغىّ « أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ».

ثم استشهد تعالى على ما ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ » أى جادل « إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ » أى كيف أخرجه الطاغوت من نور نسبة الإحياء والإماتة إلى ربه، إلى ظلمات نسبتهما إلى نفسه « أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » أى : لأن آتاه الله . يعنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر . فحاج لذلك. أوحاجه لأجله . وضعاً للمحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه الشكر . كما يقال: عادانى فلان لأنى أحسنت إليه . تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونحوه قوله تعالى : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(١) .

قال الحرالىّ : وفى إشعاره أن الملك بلاء وفتنة على من أوتيه .

« إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » حين سأله من ربك الذى تدعونا إليه « رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ » أى بنفخ الروح فى الجسم وإخراجها منه « قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ » أى بالقتل

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٢] .

والعفو عنه . ولما سلك الطاغية مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء والظهور بحيث لايخفى على أحد ، والتصدى لإبطاله من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل، انتقل إبراهيم عليه السلام ، إرسالًا لعنان المناظرة معه ، إلى حجة أخرى لاتجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمخرج مكابرة أو مشاغبة أو تلبيس على العوام . وهو ماقصه تعالى بقوله « قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ » أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيي وتميت فالذى يحيي ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود، فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته . فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلٰهاً كما ادعيت فأت بها من المغرب « فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ » تحيّر ودهش وغُلب بالحجة ، لما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى لا يلهمهم حجة ولا برهانا . بل حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٩] (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

---

(١) [٤٢/ الشورى/ ١٦] ونصها: وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

«أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ» استشهاد على ماذكر تعالى من ولايته للمؤمنين وتقرير له، معطوف على الموصول السابق . وإيثار (أو) الفارقة على (الواو) الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر . والكاف إما اسمية جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر ، وإما زائدة . والمعنى : أو لم تر إلى مثل الذى . أو إلى الذى مرّ على قرية . كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود «وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا» خالية ساقطة حيطانها على سقوفها «قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها. فكان منه كالوقوع فى الظلمات . فأراه الدليل على الإحياء الحقيقىّ فى نفسه مبالغة فى قلع الشبهة ، إخراجاً له منها إلى النور «فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ» ليندرس بالكلية «ثُمَّ بَعَثَهُ» أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه وبعض أجزائه إلى بعض بعد تفرقها «قَالَ» الله له «كَمْ لَبِثْتَ» أى مكثت ميتاً «قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» قاله بناء على التقريب والتخمين . أو استقصاراً لمدة لبثه «قَالَ» الله «بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ» وإنما سأله تعالى ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤونه . وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ، ربما يتوهم أنه هيّن فى الجملة ، بل بعد مدة طويلة . وينحسم به مادة استبعاده بالمرة . ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى. وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع، على ما كان عليه دهراً طويلاً، من غير تغيّر مّا . كما قال سبحانه «فَانْظُرْ» لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا «إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ» أى لم يتغيّر فى هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد . والهاء يجوز أن تكون هاء سكت زيدت فى الوقف . وأصل الفعل على هذا فيه وجهان : أحدهما يتسنن من قوله : حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فلما اجتمعت ثلاث نونات قلبت الأخيرة ياء كما قلبت فى تظنيت ثم أبدلت الياء ألفاً ثم حذفت للجزم . والثانى أن يكون أصل الألف واواً من قولهم : أسنى يسنى إذا مضت عليه السنون. وأصل سنة سنوة لقولهم: سنوات أى لم تمر عليه السنون . والمعنى على التشبيه . أى كأنه لم تمر

عليه المائة سنة لبقائه على حاله وعدم تغيره . ويجوز أن تكون الهاء أصلًا ويكون اشتقاقه من السنة بناء على أن لام السنة هاء وأصلها سنهة . لقولهم سنهاء وعاملته مسانهة . فعلى هذا تثبت الهاء وصلًا ووقفاً. إذ الفعل مجزوم بسكونها. وعلى الأول تثبت فى الوقف دون الوصل. ومن أثبتها فى الوصل أجراه مجرى الوقف . وقد قرأ حمزة والكسائىّ بحذف الهاء وصلًا وإثباتها وقفاً والباقون بإثباتها وصلًا ووقفاً . فإن قيل : ما فاعل يتسنى ؟ قيل : يحتمل أن يكون ضمير الطعام والشراب لاحتياج كل واحد منهما إلى الآخر، فكانا بمنزلة شيء واحد . فلذلك أفرد الضمير فى الفعل . ويحتمل أن يكون جعل الضمير لـ (ذلك). و (ذلك) يكنى به عن الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد . ويحتمل أن يكون الضمير للشراب فقط لأنه أقرب. وثمّ جملة أخرى حذفت لدلالة هذه عليها. والتقدير: وانظر إلى طعامك لم يتسنه ، وإلى شرابك لم يتسنه . ويجوز أن يكون أفرد فى موضع التثنية كما قال الشاعر :

فَكَأَنَّ فى العينين حبَّ قرَنْفُلٍ ... أو سنبلا كُحِلَتْ به فَانْهَلَّتِ

أشار لذلك أبو البقاء «وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ» كيف هو. فرآه صار عظاماً نخرة «وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ» عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق. أى فعلنا ما فعلنا ، من إحيائك بعد ما ذكر، لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل. ولنجعلك آية للناس على البعث. أو متعلق بفعل مقدر بعده . أى : ولنجعلك آية للناس فعلنا ما فعلنا « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ » أى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء « كَيْفَ نُنْشِزُهَا » قرئ بالزاى أى نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه. من (النشز) وهو المرتفع من الأرض. وفيها على هذا وجهان : ضم النون وكسر الشين من (أنشزته) وفتح النون وضم الشين من (نشزته) وهما لغتان . وقرئ بالراء وفيها وجهان : الأول فتح النون وضم الشين وماضيه (نشر) فيكون إما مطاوع أنشر الله الميت فنشر، وحينئذ نشر بمعنى أنشر . فاللازم والمتعدى بلفظ واحد . وإما من النشر الذى هو ضد الطىّ أى يبسطها بالإحياء . والثانى ضم النون

وكسر الشين أي نحييها كقوله: ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ[(١)]. قاله أبو البقاء . «ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً» أى نسترها به« فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ » أى اتضح له إعادته مع طعامه وشرابه وحماره ، بعد التلف الكلى ،وظهر له كيفية الإحياء« قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » نخرج من الظلمات إلى النور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٠] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » قال المهايمى : واذكر لتمثيل قصة المار على القرية، فى الإخراج من الظلمات إلى النور، بالإحياء ، قصة إبراهيم .

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ » إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً « قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » أى بلى آمنت ولكن سألت لأزداد بصيرة وسكون قلب برؤية الإحياء ، فوق سكونه بالوحى . فإنّ تظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين . وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن شاكًّا فى إحياء الموتى قط . وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أُخْبِرَتْ عَنْهُ . ولهذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم[(٢)] : ليس الخبر كالمعاينة . وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لأنه شك فى قدرة الله . واستدلوا بما صح عنه ﷺ

(١) [٨٠ / عبس / ٢٢] .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٢١٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

فى الصحيحين وغيرهما من قوله[(١)]: نحن أحق بالشك من إبراهيم. وبما روى عن ابن عباس أنه قال[(٢)]: ما فى القرآن عندى آية أرجى منها. إذ رضى الله من إبراهيم قوله « بَلَىٰ » . قال فهذا لما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان . أخرجه عنه الحاكم فى المستدرك وصححه . ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له .

قال ابن عطية : وهو عندى مردود . يعنى قول هذه الطائفة. ثم قال : وأما قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: نحن أحق بالشك من إبراهيم، فمعناه أنه لو كان شاكًّا لكنا نحن أحق به. ونحن لا نشك فإبراهيم أحرى أن لا يشك . فالحديث مبنىّ على نفى الشك عن إبراهيم . وأطال ابن عطية البحث فى هذا . وأطاب .

قال القرطبىّ : ولا يجوز على الأنبياء عليهم السلام مثل هذا الشك. وقد أخبر الله سبحانه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٦ ـ باب وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ . ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى» .

(٢) انظر الأثر ٥٩٧١ من تفسير الطبرىّ (طبعة المعارف) ونصه :

عن سعيد بن المسيّب قال : اتّعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو أن يجتمعا . قال : ونحن يومئذ شَبَبَة . فقال أحدهما لصاحبه : أى آية فى كتاب الله أرجى لهذه الأمة ؟ فقال عبد الله بن عمرو : قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ [٣٩ / الزمر / ٥٣] حتى ختم الآية . فقال ابن عباس : أَمَّا إن كنت تقول : إنها ، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم ﷺ : رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى .

أن أصفياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ(١) .وقال اللعين : إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٢) .وإذا لم تكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم! وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفرقها ، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزقها. فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : الأَوْلى فى هذه الآية أن يذكر فيها المختار فى تفسيرها من المباحث المتحنة بالفكر المحرر ، والنكت المفصحة بالرأى المخمّر . فنقول : أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له : كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ . فليس عن شك ، والعياذ بالله ، فى قدرة الله على الإحياء . ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء . ولا يشترط فى الإيمان الإحاطة بصورتها . فإنما هى طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه . ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال . ونظير هذا السؤال أن يقول القائل : كيف يحكم زيد فى الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه ، لا ثبوته . ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيُطَرِّق إلى إبراهيم شكا من هذه الآية . وقد قطع النبىّ عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله: نحن أحق بالشك من إبراهيم أى : ونحن لم نشك. فَلَأَنْ لا يشك إبراهيم أحرى وأولى . (فإن قلت) إذا كان السؤال مصروفاً إلى الكيفية التى لا يضرّ عدم تصورها ومشاهدتها بالإيمان ولا تخلّ به ، فما موقع قوله تعالى « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ » ؟ قلت: قد وَقَعْتُ لبعض الحذاق فيه على لطيفة، وهى أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً فى السؤال عن الكيفية كما مرّ . وقد تستعمل فى الاستعجاز . مثاله أن يدعى مدع أنه يحمل ثقلاً من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله فتقول له : أرنى كيف تحمل هذا ؟ فلما كانت هذه الصيغة

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٥] ونصها : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٨٣] .

قد يعرض لها هذا الاستعمال الذى أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم مبرأ منه ـ أراد بقوله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ أن ينطق إبراهيم بقوله : بَلَىٰ آمنت. ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظىّ فى العبارة الأولى. ليكون إيمانه مخلصاً ، نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك .

(فإن قلت) قد تبيّن لى وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين . فما موقع قول إبراهيم : وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ؟ وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة . قلت : معناه: ولكن ليزول عن قلبى الفكر فى كيفية الحياة. لأنى إذا شاهدتها سكن قلبى عن الجولان فى كيفياتها المتخيلة وتعينت عندى بالتصوير المشاهد . فهذا أحسن ما يجرى لى فى تفسير هذه الآية. وربك الفتاح العليم . انتهى .

« قَالَ » أى إذ أردت الطمأنينة « فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ » بضم الصاد وكسرها بمعنى فأَمِلْهنّ واضممهن إليك. يقال : صاره يصوره ويصيره إذا أماله لغتان .

قال الزمخشرىّ : وقرأ ابن عباس رضى الله عنه فِصُرّهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من: صره يصِرّه ويَصُرّه إذا جمعه ، وعنه: فصَرِّهن (من التصرية) وهى الجمع أيضاً: وقال اللحيانىّ قال بعضهم : معنى صُرهن وَجِّهْهُنّ . ومعنى صِرهن قطعهن وشققهن . والمعروف أنهما لغتان بمعنى واحد. وكلهم فسروا فصرهن أملهن، والكسر فُسِّر بمعنى قطعهن . وقال الفيروزابادى فى (البصائر) : قال بعضهم: صرهن بضم الصاد وتشديد الراء وفتحها من الصرّ أى الشد . قال وقرئ فصرهن بكسر الصاد وفتح الراء المشددة (من الصرير) أى الصوت أى صح بهن . وقال أبو البقاء : ويقرأ بضم الصاد وتشديد الراء ثم منهم من يضمها اتباعاً ومنهم من يفتحها تخفيفاً ومنهم من يكسرها على أصل التقاء الساكنين .

أقول: قد تقرر فى العربية أن المضاعف إذا لحقته هاء الضمير يلزم وجهٌ واحد فى المؤنث وهو فتح ماقبلها نحو ردّها مراعاة للألف اتفاقاً، وفى المذكر ثلاثة أوجه : أفصحها الضم ويليه الكسر وهو ضعيف ، ويليه الفتح وهو أضعفها . وممن ذكره ثعلب فى (الفصيح)

لكن غلطوه لكونه أوهم فصاحته ولم ينبه على ضعفه « ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا » أى ثم اذبحهن وجزئهن وضع على كل جبل منهن بعضاً « ثُمَّ ادْعُهُنَّ » أى بأسمائهن « يَأْتِينَكَ سَعْيًا » أى مسرعات « وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

قال الزمخشرى : فإن قلت : مامعنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها؟ قلت : ليتأملها ويعرف أشكالها وهيآتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك . ولذلك قال « يَأْتِينَكَ سَعْيًا » أى ولم يقل طيراناً لأنه إذا كانت ساعية كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦١] (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ » أى فى طاعته « كَمَثَلِ حَبَّةٍ » أى مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. فالحذف إما من جانب المشبه أو المشبه به لتحصيل المناسبة . أى وتلك الحبة ألقيت فى الأرض ثم « أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » أى : أنبتت ساقاً انشعب سبع شعب ، خرج من كل شعبة سنبلة فيها مائة حبة ، فصارت الحبة سبعمائة حبة بمضاعفة الله لها . قال ابن كثير : وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة. فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة. انتهى .

أقول : مصداق هذا مافى الصحيحين[1] عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : من

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٣ ـ باب قول الله تعالى : تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ .

ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٦٣ (طبعتنا) .

تصدق بعدل تمرة من كسب طيّب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيّب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل .

« وَاللَّهُ يُضَاعِفُ » أي هذا التضعيف أو أكثر منه « لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف. في الصحيحين[1] وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . وأخرج أحمد ومسلم[2] والنسائىّ والحاكم عن ابن مسعود قال : جاء رجل بناقة مخطومة فقال : هذه فى سبيل الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة . وأخرج أحمد[3] والطبرانىّ والبيهقىّ عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله . الدرهم بسبعمائة ضعف . وثمت آثار أخرى فى (ابن كثير) و(الدر المنثور). ثم مدح تعالى من حفظ نفسه من المنّ والأذى فيما أنفق بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٢] (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ » أى لا يعقبون « مَا أَنْفَقُوا مَنًّا » وهو ذكره لمن أنفق عليه ليريه أنه أوجب بذلك عليه حقا « وَلَا أَذًى » وهو

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٦٤ (طبعتنا) ونصه :

. . . . يدع شهوته وطعامه من أجلى . للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه . ولخُلُوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٣٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٥٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

ذكره لغيره فيؤذيه بذلك أو التطاول عليه بسببه « لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » الموعود به قبلُ « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» على فائتٍ من زهرة الدنيا ، لصيرورتهم إلى ما هو خير من ذلك .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشريّ معنى (ثم) إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى . وفي حواشيه للناصر مانصه : (ثم) في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبُعد ما بينهما ، والزمخشريّ يحملها على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما. حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياقٍ يأبى ذلك . كهذه الآية . وحاصله أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة. وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها. وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه . فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن. ولكن معناها الأصليّ تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه . ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه . وعليه حمل قوله تعالى : ثُمَّ اسْتَقَامُوا(١) أي داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد. وتلك الاستقامة هي المعتبرة ، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحَيْد إلى الهوى والشهوات ، وكذلك قوله « ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى » أي يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الأذية وتقليد المنن بسببه ، ثم يتوبون . والله أعلم . وقريب من هذا أو مثله ، أن السين يصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه . ثم ورد قوله تعالى حكاية

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

و [٤٦/ الأحقاف/ ١٣] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

عن الخليل عليه السلام: إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ (١) . وقد حكى الله تعالى فى مثل هذ الآية : الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٢) . فليس إلى حمل السين على تراخى زمان ووقوع الهداية له من سبيل . فيتعين المصير إلى حملها على الدلالة على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخى بقائها وتمادى أمدها . انتهى .

الثانية : قال الزمخشرىّ : (فإن قلت) أى فرق بين قوله : لَهُمْ أَجْرُهُمْ ، وقوله فيما بعد : فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ؟ (قلت) الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط ، وضمنه ثمَّة . والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر ، وطرحها عارٍ عن تلك الدلالة .

وقال أبو السعود : وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها ، للإيذان بأن ترتيب الأجر على ماذكر من الإنفاق وترك اتباع المنّ والأذى ـ أمرٌ بيّن لايحتاج إلى التصريح بالسببية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٣] (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، وَاللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ)

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ » أى من كلمة طيبة ودعاء لمسلم « وَمَغْفِرَةٌ » أى غفرٌ عن ظلم قولىّ أو فعلىّ « خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى » إذ لا يحصل للصدقة ثواب ويحصل إثم الأذى . وقد دخل فى قوله (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ) الرد الجميل للسائل و (مَغْفِرَةٌ) العفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول . « وَاللهُ غَنِىٌّ » عن طلب صدقة لعبيده مع الأذى لهم أو المنّ عليهم « حَلِيمٌ » عن معاجلة من يمنّ ويؤذى بالعقوبة .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٩] .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٤] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ » أي لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما . فإنهما إساءتان ينافيان الإحسان المعتبر في الصدقة . والمنافي مبطل كالرياء . فيصير المانّ والمؤذي « كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » في بطلان صدقته . و (رئاء) إما مفعول له أو حال . أي مرائياً . والهمزة الأولى في (رئاء) عين الكلمة لأنه من راءى . والأخيرة بدل من الياء لوقوعها طرفاً بعد ألف زائدة كالقضاء . ويجوز تخفيف الهمزة الأولى بأن تقلب ياء فراراً من ثقل الهمزة بعد الكسرة . وقد قرىء به . قاله أبو البقاء .

« فَمَثَلُهُ » أي هذا المنفق رياء ، في إنفاقه مقارناً لما يفسده . ومثل نفقته « كَمَثَلِ صَفْوَانٍ » وهو حجر أملس « عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ » أي مطر كثير « فَتَرَكَهُ صَلْدًا » أي أجرد لا شيء عليه « لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا » أي المرائي والمانّ والمؤذي، لا يقدرون على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا لبطلانه. كقوله: فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(١). فلا يجدون ثواب صدقاتهم كما لا يوجد على الصفا التراب بعد ما أصابه الوابل « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » إلى الخير والرشاد . وفيه تعريض بأن الرياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار . ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها . وقد ورد في وعيد المنّ بالصدقة أحاديث متوافرة . ففي صحيح مسلم(٢) عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة

(١) [٢٥/الفرقان/ ٢٣] ونصها : وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ...

(٢) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧١ (طبعتنا) ونصه : =

لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفّق سلعته بالحلف الكاذب . وفى سنن النسائىّ(١) عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال : لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاقّ لوالديه ولا منان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٥] (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ » مفعول له « وَتَثْبِيتاً » معطوف عليه. ويجوز أن يكونا حالين . أى مبتغين ومتثبتين « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » قال أبوالبقاء: يجوز أن يكون (من) بمعنى اللام أى تثبيتاً لأنفسهم. كما تقول : فعلت ذلك كسرا من شهوتى . ويجوز أن تكون على أصلها أى تثبيتاً صادراً من أنفسهم . والتثبيت مصدر فعل متعد . فعلى الوجه الأول يكون « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » مفعول المصدر . وعلى الثانى ، يكون المفعول محذوفا . تقديره:

= عن أبى ذر عن النبىّ ﷺ قال « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار .

قال أبو ذر : خابوا وخسروا . من هم يا رسول الله ؟ قال « المُسبل والمنّان والمنفّق سلعته بالحلف الكاذب » .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٩ ـ باب المنان بما أعطى: ونصه :

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاقّ لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديّوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن على الخمر ، والمنان بما أعطى » .

ويثبتون أعمالهم بإخلاص النية . ويجوز أن يكون تثبيتا بمعنى (تثبُّت) فيكون لازما . والمصادر قد تختلف ويقع بعضها موقع بعض . ومثله قوله تعالى : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا[1] . أي تبتلا. انتهى. وعن الشعبيّ : تثبيتا تصديقا ويقينا « كَمَثَلِ جَنَّةٍ » أي بستان « بِرَبْوَةٍ » أي موضع مرتفع « أَصَابَهَا وَابِلٌ » مطر كثير « فَآتَتْ أُكُلَهَا » أي أخرجت ثمرها « ضِعْفَيْنِ » أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان « فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ » وهو المطر الضعيف ، أو أخف المطر ، أو أضعفه أو الندى . ولابد من تقدير مضاف هنا كما تقدم : إما من جانب المشبه أو المشبه به . أي ومثل نفقة الذين الخ . أو كمثل غارس جنة الخ . رعاية للتناسب .

قال الشهاب : وفي التشبيه وجهان: أحدهما أنه مركب ، والتشبيه لحال النفقة بحال الجنة بالربوة في كونها زاكية متكثرة المنافع عند الله كيفما كانت الحال . والثاني أن تشبيه حالهم بحال الجنة على الربوة في أن نفقتهم ، كثرت أو قلت ، زاكية زائدة في حسن حالهم . كما أن الجنة يُضَعِّفُ أُكُلَها قويُّ المطر وضعيفُه. وهذا أيضا تشبيه مركب . إلا أنه لوحظ الشبه فيما بين المفردات. وحاصله : أن حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر . كحال الجنة في إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها . ويحتمل وجها ثالثا وهو أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد بأن تشبه حالهم بجنة مرتفعة في الحسن والبهجة . والنفقة الكثيرة والقليلة بالطل والوابل ، والأجر والثواب بالثمرات . والربوة مثلثة الراء . وأُكُل بضمتين ، وتسكن للتخفيف ، وبه قرىء « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » تحذير عن الرياء وترغيب في الإخلاص .

---

(١) [٧٣ / المزمل / ٨] ونصها : وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٦] (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ » أى كبر السن . فإن الفاقة والعالة فى الشيخوخة أصعب « وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ » صغار لا قدرة لهم على الكسب « فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ » أى ريح شديدة « فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ » تلك الجنة وبقى صاحبها بضيعة مع ضعفه وثقل ظهره بالعيال وقلة المال . والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ، ويضم إليها ما يحبطها ، كرياء وإيذاء ، فى الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة ، واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال مَنْ هذا شأنه « كَذَٰلِكَ » أى مثل هذا البيان « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » أى فيها . فتعتبرون بها . وروى البخارىّ[(١)] فى التفسير عن عُبَيْد ابن عمير قال : قال عمر رضى الله تعالى عنه يوماً لأصحاب النبىّ ﷺ : فيمَ ترون هذه الآية نزلت : أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ؟ قالوا : الله أعلم . فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . قال عمر : يا ابن أخى قل ولا تَحْقِر نفسك . قال ابن عباس ضربت مثلاً لعملٍ . قال عمر : أىّ عمل ؟ قال ابن عباس لعملٍ . قال عمر لرجل غنىّ يعمل بطاعة الله عزوجل . ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٧ ـ باب قوله أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ... إلى قوله: تَتَفَكَّرُونَ .

حتى أغرق أعماله . (قال ابن كثير وهو من أفراد البخاريّ .) ولابن جرير من طريق عطاء عن ابن عباس معناه : أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل الخير حتى إذا كان حين فنى عمره ختم ذلك بعمل أهل الشقاء فأفسد ذلك فأحرقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » هذا بيان لحال ما ينفق منه ، إثْرَ بيان أصل الإنفاق وكيفيته . أى أنفقوا من جياد ما كسبتم لقوله تعالى : لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ[1] . فمقتضى الإيمان الإنفاقُ من الجيد . سيما ما يطلب به رضا الله وتثبيت النفس . وفى الأمر إشعار بأنه إنما يمثل بالزرع المنبت سبع سنابل ، أو بالجنة بربوة ، ما أنفق من الجيد « وَمِمَّا » أى ومن طيبات ما « أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ » من الحبوب والثمار « وَلَا تَيَمَّمُوا » أى لا تقصدوا « الْخَبِيثَ » أى الردىء من أموالكم ، « مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ » أى بقابليه (يعنى الردىء) إذا أهدى إليكم « إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ » أى : إلا بأن تتسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه . من قولك : أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره . ويقال للبائع : أغمضْ . أى : لاتستقص كأنك لا تبصر . كذا فى الكشاف .

قال الرازىّ : الإغماض فى اللغة غض البصر وإطباق جفن على جفن . والمراد هنا المساهلة ، وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك . ثم

(١) [٣ / آل عمران / ٩٢] ونصها : لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة فى البيع وغيره إغماضا . فقوله: وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ. يعنى لو أهدى إليكم مثل هذه الأشياء ، لَمَا أخذتموها إلا على استحياء وإغماض . فكيف ترضون لى مالا ترضونه لأنفسكم ؟ « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ » عن إنفاقكم وإنما يأمركم به لمنفعتكم « حَمِيدٌ » يجازى المحسن أفضل الجزاء . وفى الأمر بأن يعلموا ذلك، مع ظهور علمهم به ، توبيخٌ على إعطاء الخبيث وإيذانٌ بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى . ولما رغّب تعالى فى إنفاق الجيد حذّر من وسوسة الشيطان فى ذلك فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٨] (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ » فى الإنفاق « وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » أى يغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور . والفاحش ، عند العرب ، البخيل . قال طَرَفَةُ :

أَرَى الموتَ يَعْتَامُ الكرامَ ويَصْطَفِى ... عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ المتشدِّدِ

قال الحرالىّ : الفحشاء كل ما اجتمعت عليه استقباحات الشرع . وأعظم مراد بها هنا البخل الذى هو أدوأ داء . لمناسبة ذكر الفقر . وعليه ينبنى شر الدنيا والآخرة . ويلازمه الحرص ويتابعه الحسد ويتلاحق به الشر كله .

« وَاللهُ يَعِدُكُمْ » بالإنفاق، سيما من الجيد « مَغْفِرَةً مِنْهُ » للذنوب « وَفَضْلًا » خَلَفًا وثوابًا فى الآخرة « وَاللهُ وَاسِعٌ » قدرة وفضلًا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقونه « عَلِيمٌ » بصدقاتكم . فلا يضيع أجركم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٩] (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)

« يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ » قال كثيرون: الحكمة إتقان العلم والعمل. وبعبارة أخرى معرفة الحق والعمل به . قال أبو مسلم : الحكمة فِعلة من الحكم وهى كالنحلة من النحل ، ورجل حكيم إذا كان ذا حجًا ولبٍّ وإصابة رأى . وهو فى هـذا الموضع فى معنى الفاعل . ويقال : أمر حكيم ، أى محكم ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، قال تعالى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (١) .

« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا » إذ بها انتظام أمر الدارين . والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار الاعتناء بشأنها . وفى إيلاء هذه الآية لما قبلها إشعار بأن الذى لا يغتر بوعد الشيطان ويوقن بوعد الله هو من آتاه الله الحكمة « وَمَا يَذَّكَّرُ » أى يتعظ بأمثال القرآن والحكمة « إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ » أى ذوو العقول من الناس ، الخالصة من شوائب الهوى . وهم الحكماء . والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآى فى معنى الإنفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٠] (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

« وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ » أى يؤول إلى الإنفاق « فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ » لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه « وَمَا لِلظَّالِمِينَ » أى الذين ينفقون رئاء الناس ، أو يضعون الإنفاق فى غير موضعه ، أو بضم المنّ والأذى إليـه ، أو بالإنفاق من الخبيث ،

---

(١) [٤٤ / الدخان / ٤] .

أو يمنعون الصدقات ، أو ينفقون أموالهم فى المعاصى ، أو لا يفون بالنـذور « مِنْ أَنْصَارٍ » أى من أعوان ينصرونهم من عقاب الله .

قال الحرالىّ : ففى إفهامه أن الله آخذ بيد السخىّ وبيد الـكريم كلما عثر فيجد له نصيراً ولا يجد الظالم ، بوضع القهر موضع البر ، ناصراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧١] (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَـكُمْ ، وَيُـكَفِّرُ عَنْـكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِـكُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » نوع تفصيل لبعض ماأجمل فى الشرطية . وبيان له. ولذلك ترك العطف بينهما. أى إن تظهروا الصدقات فنعم شيئاً إبداؤها.لأنه يرفع التهمة ويدعو له كل من يسمع من محتاج وغيره ويفيد اتباع الناس إياه « وَإِنْ تُخْفُوهَا » أى تسرّوها مخافة الرياء ، وستراً لعار الفقراء « وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَـكُمْ » أى من العلانية. لأنه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص الذى هو روح العبادات « وَيُـكَفِّرُ عَنْـكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِـكُمْ » ذنوبكم بقدر صدقاتـكم « وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » ترغيب فى الإسرار . وفى الصحيحين(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله: الإمام العادل. وشاب نشأ فى عبادة ربه. ورجل قلبه معلق فى المساجد. ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه. ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين. ورجل تصدق أخفى حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه. ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه . وروى الإمام أحمد(٢) وابن أبى حاتم عن أبى ذر قال: قلت يارسول الله

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٣٦ ـ باب من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ).

أىّ الصدقة أفضل؟ قال: سرٌّ إلى فقير، أو جهد من مقلّ .

لطائف : قال : أبوالبقاء فى قوله تعالى (فنعماهى) : نِعْمَ فعل جامد لا يكون فيه مستقبل. وأصله نَعِمَ كعلم. وقدجاء على ذلك فى الشعر. إلا أنهم سكّنوا العين ونقلوا حركتها إلى النون ليكون دليلاً على الأصل. ومنهم من يترك النون مفتوحة على الأصل. ومنهم من يكسر النون والعين اتّباعاً. وبكلٍّ قدقرئ. وفاعل (نعم) مضمر و (ما) بمعنى شيء. ثم قال: (ونكفر عنكم) يقرأ بالنون على إسناد الفعل إلى الله عز وجل ويقرأ بالياء على هذا التقدير أيضاً وعلى تقدير آخر وهو أن يكون الفاعل ضمير الإخفاء. ويقرأ (وتكفر) بالتاء على أن الفعل مسند إلى ضمير الصدقة. ويقرأ بجزم الراء عطفاً على موضع « فَهُوَ خَيْرٌ » وبالرفع على إضمار مبتدأ أى ونحن أو وهى. و (من) هنا زائدة عند الأخفش فيكون (سيئاتكم) المفعول. وعند سيبويه المفعول محذوف أى شيئاً من سيئاتكم. والسيئة فيْعِلة . وعينها واو لأنها من ساء يسوء فأصلها سيوئة فأبدلت الواو ياء وأدغمت الأولى فيها. انتهى .

وفى (غيث النفع): قرأ (فنعما) الشامى. والإخوان بفتح النون . والباقون بالكسر . وقرأ قالون والبصرىّ وشعبة بإسكان العين واختار كثير لهم إخفاء كسرة العين يريدون الاختلاس فراراً من الجمع بين الساكنين، والباقون بكسر العين ، واتفقوا على تشديد الميم. ثم ناقش الشاطبىّ فى كونه لم يذكر لقالون ومن عطف عليه إلا الإخفاء، مع أنه روى عنهم الإسكان المحض أيضاً . ثم قال : وقدصرح المحقق فى نشره أن الدانى روى الوجهين جميعاً . ثم قال : والإسكان آثر والإخفاء أقيس وهو قراءة أبى جعفر والحسن . وغاية مافيه الجمع بين الساكنين وليس أولهما حرف مد ولين وهو جائز قراءةً ولغةً. ولا عبرة بمن أنكره ولو كان إمام البصرة. والمنكر له هنا يقرأ به لحمزة فى قوله تعالى: فَمَا اسْتَطَاعُوا(1). بالكهف إذ فيه الجمع بين الساكنين وصلاً بلا شك إذ السين ساكن والطاء مشدد وهذا مثله .

(١) [١٨/الكهف/٩٧] ونصها: فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً.

والله أعلم . وبه يعلم ردّ ماقيل إن راوى التسكين لم يضبط القراءة لأن القارئ اختلس كسرة العين فظنه إسكاناً فإنه غفلة عن جوازه لغة . كما حكاه أبو عبيد. وعن القراءة بنظيره فى (استطاعوا) وبالله التوفيق .

---

[٢٧٢] (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الإتيان بما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من المساوئ المعدودة كالمن والأذى والإنفاق من الخبيث والبخل « وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » بخلق الهداية فى قلبه عقيب بيانك لجريان سنته بخلق الأشياء عقيب أسبابها ، لا على سبيل الوجوب . بل على سبيل الاختيار . أفاده المهايمىّ .

قال أبو السعود : والجملة معترضة جئ بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ ، مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين ، مبالغة فى حملهم على الامتثال . فإن الإخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبىّ ﷺ مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به مابعده من الشرطية « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ » أى بالحقيقة لأن المنفَق عليه إنما يقضى بها حاجته الفانية ويحصل لكم بها الثواب الأبدىّ ، فلم تمنون به على الناس وتؤذونهم ؟ ونظائر هذا فى القرآن كثيرة كقوله : من عمل صالحاً فلنفسه[1] . « وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ » نفى فى معنى النهى . أى فلا تستطيلوا به على الناس

---

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] ونصها : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

ولا تراؤا به . « وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ » ثوابه أضعافاً مضاعفة « وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » أى لا تنقصون من حسناتكم ، كما لا يزاد على سيئاتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٣] (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ)

« لِلْفُقَرَاءِ » متعلق بمحذوف ينساق إليه الكلام . أى اجعلوا ما تنفقونه للفقراء . أو صدقاتكم للفقراء . أى المحتاجين إلى النفقة « الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ » أى حبسوا أنفسهم فى طاعته تعالى من جهاد أو غيره « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا » أى ذهاباً « فِي الْأَرْضِ » لاكتساب أو تجارة « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ » بحالهم « أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ » أى من أجل تعففهم عن السؤال . والتلويح به قناعة بما أعطاهم مولاهم ، ورضا عنه ، وشرف نفس. « تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ » بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى : سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم[١] . وقال : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ[٢] . وفى الحديث الذى فى السنن[٣] :

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٠] ونصها : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ حدثنا محمد بن إسماعيل .

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنـور الله ، ثم قرأ : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ[(١)] .

قاله ابن كثير .

قال الغزالىّ : ينبغى أن يطلب بالفحص عن أهل الدين فى كل محلة ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل ، ممن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى. أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته . فهو يتعيش فى جلباب التجمل . فثوابُ صرفِ المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال . كما ينبغى أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة كأن يكون أهل علم. فإن ذلك إعانة له على العلم. والعلم أشرف العبادات مهما صحّت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم . فقيل له : لو عممت ! فقال : إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء . فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم. فتفريغهم للعلم أفضل .

لطيفة :

السيما مقصور، كالسيمة ، والسيماء والسيمياء (ممدودين بكسرهن) والسومة (بالضم): العلامة . قال أبو بكر بن دريد: قولهم: عليه سيما حسنة، معناه علامة . وهى مأخوذة من وسمت أَسِمُ . والأصل فى (سيما) وسمى . فحولت الواو من موضع الفاء فوضعت فى موضع العين، كما قالوا: ما أطيبه وأيطبه، فصار سومى. وجعلت الواو ياء لسكونها وانكسار ماقبلها ، قال السمين: فوزن سيما عفلا . وإذا مدت فالهمزة فيها منقلبة عن حرف زائد للإلحاق . إما واو أو ياء . فهى كعلباء ملحقة بسرداح . فالهمزة للإلحاق لا للتأنيث وهى منصرفة لذلك . انتهى .

« لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً » مصدر فى موضع الحال . أى ملحفين. يقال : ألحف عليه الخ قال الزمخشرىّ : الإلحاف الإلحاح . وهو اللزوم . وأن لا يفارق إلا بشىء يعطاه . من قولهم: لحفنى من فضل لحافه . أى أعطانى من فضل ما عنده . قيل معنى الآية : إن سألوا سألوا

(١) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

بتلطف ولم يلحوا. فيكون النفى متوجهاً إلى القيد وحده. والصحيح أنه نفى للسؤال والإلحاف جميعاً . فرجع النفى إلى القيد ومقيده كقوله : وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ[١] وفيه تنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً . واستيجاب المدح والتعظيم للمتعفف عن ذلك. وفى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف . اقرؤا إن شئتم : « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً »[٣] وأخرج ابن أبى شيبة والبخارىّ ومسلم[٤] والنسائىّ عن ابن عمر أن النبىّ ﷺ قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود[٥] والترمذىّ وصححه، والنسائىّ وابن حبان عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : إن المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه . فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك . إلا أن يسأل ذا سلطان، أو فى أمر لا يجد منه بداً . وأخرج أحمد[٦] عن ابن عمر :

---

(١) [٤٠ / غافر / ١٨] ونصها : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٨ ـ باب: لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً .

(٣) [٢/البقرة/٢٧٣] ونصها : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠٣ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٢٦ ـ باب كم يعطى الرجل الواحد من الزكاة ، حديث ١٦٣٩ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٩٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المسألة كدوح فى وجه صاحبها يوم القيامة . فمن شاء استبقى على وجهه . وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم[(١)] وابن ماجة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر . وأخرج أحمد وأبو داود[(٢)] وابن خزيمة عن سهل بن الحنظلية قال : قال رسول الله ﷺ: من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم . قالوا : يا رسول الله ومايغنيه؟ قال: ما يغديه أويعشيه. وأخرج مسلم[(٣)] والترمذىّ والنسائىّ عن عوف بن مالك الأشجعىّ قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟ فقلنا علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً . والصلوات الخمس . وتطيعوا ولا تسألوا الناس . فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه .

وأخرج مالك وابن أبى شيبة والبخارىّ[(٤)] ومسلم والترمذىّ والنسائىّ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه. وأخرج الطبرانىّ والبيهقىّ عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال : الله يحب المؤمن المحترف . وأخرج أحمد والطبرانىّ وأبو داود والنسائىّ[(٥)] عن أبى سعيد الخدرى أن النبىّ ﷺ قال: من استغنى

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٢٤ ـ باب من يعطى من الصدقة وحدّ الغنى ، حديث ١٦٢٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠٨ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٥٠ ـ باب الاستعفاف عن المسئلة ، حديث ٧٨٢ .

(٥) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٨٩ ـ باب فى الملحف .

أغناه الله . ومن استعف أعفه الله . ومن استكفى كفاه الله . ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف . وأخرج البخاري[(١)] ومسلم والنسائيّ عن ابن عمر أنّ عمر قال : كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول : أعطه من هو أفقر إليه مني . فقال : خذه . إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولاسائل فخذه فتموله . فإن شئت كله وإن شئت تصدق به . ومالا ، فلا تتبعه نفسك .

قال سالم بن عبد الله فلأجل ذلك كان عبد الله لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أُعْطِيَهُ.

« وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ » أي ولو على الملحين وعلى من لم يتحقق فقرهم أولم تشتد حاجتهم « فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أي بأن ذلك الإنفاق له أولغيره، فيجازي بحسبه. ثم أشار تعالى إلى أنه لا يختص الإنفاق بوقتٍ أو حالٍ بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٤] (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وفي تقديم الليل على النهار والسر على العلانية إيذان بمزية الإخفاء على الإظهار .

قال الحرالي : فأفضلهم المنفق ليلًا سرًّا . وأنزلهم المنفق نهاراً علانية . فهم بذلك أربعة أصناف .

لطائف : لا يخفى أن في حضه تعالى على الإنفاق في هذه الآية الوافرة ، وضربه الأمثال في الإحسان إلى خلقه ترغيباً وترهيباً ، ما يدعو كل مؤمن إلى أن يتزكى بفضل ماله .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٧ ـ باب رزق الحكام والعاملين عليها .

قال الإمام الغزالىّ عليه الرحمة فى (الإحياء) ما نصه : فى وجه الامتحان بالصدقات ثلاث معانى : الأول أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود . وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد . فإن المحبة لا تقبل الشركة . والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب . والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا . وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت . مع أن فيه لقاء المحبوب . فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب ، واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم . ولذلك قال الله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ[1] . وذلك بالجهاد . وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل . والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم . فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً . وقسم درجتهم دون من قبلهم ، وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات . فيكون قصدهم فى الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم . وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها . وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقاً سوى الزكاة . كالنخعىّ والشعبىّ وعطاء ومجاهد . قال الشعبىّ (بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟) قال : نعم . أما سمعت قوله عز وجل : وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ ... الآية[2] واستدلوا بقوله

---

(١) [٩/التوبة/ ١١١] ونصها : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) [٢/ البقرة/ ١٧٧] ونصها : لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ =

عز وجل : وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١) . وبقوله تعالى : وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ(٢) . وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم . ومعناه أنه يجب على الموسر ، مهما وجد محتاجاً ، أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة . وقسم يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه . وهى أقل الرتب . وقد اقتصر جميع العوام عليه . لبخلهم بالمال وميلهم إليه ، وضعف حبهم للآخرة . قال الله تعالى : إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ(٣) . يحفكم أى : يستقص عليكم . فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة ، وبين عبد لا يستقصى عليه لبخله . فهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال. المعنى الثانى التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات. قال ﷺ(٤): ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وقال تعالى : وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥) . وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود

= وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ؛ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٣] ونصها : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ١٠] ونصها : وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٧] .

(٤) ١٠٣٥ (كشف الخفاء) : البزار والطبرانىّ وأبو نعيم ، عن أنس بسند ضعيف .

(٥) [٥٩ / الحشر / ٩] ونصها : وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ =

بذل المال . لحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير اعتياداً . والزكاة ، بهذا المعنى ، طهرة . أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك . وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه لله تعالى. المعنى الثالث شكر النعمة. فإن الله عز وجل على عبده نعمة فى نفسه وفى ماله . فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن . والمالية شكر لنعمة المال . وما أخسّ من ينظر إلى الفقير ، وقد ضيِّق عليه الرزق ، وأحوج إليه ، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه .

فصل

وللغزالىّ رحمه الله أيضاً بحث فى المنّ والأذى المتقدم ذكرها . يجدر ذكره هنا ، لما فيه من الفوائد لطالب الآخرة .

قال رحمه الله : الوظيفة الخامسة (يعنى من وظائف مريد طريق الآخرة بصدقته) أن لا يفسد صدقته بالمنّ والأذى. قال الله تعالى : لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ[1] . واختلفوا فى حقيقة المنّ والأذى . فقيل : المنّ أن يذكرها . والأذى أن يُظهرها . وقال

= يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

و [٦٤ / التغابن / ١٦] ونصها : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

سفيان : من منّ فسدت صدقته . فقيل له : كيف المنّ ؟ فقال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المنّ أن يستخدمه بالعطاء . والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المنّ أن يتكبر عليه لأجل عطائه . والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة . وقد قال ﷺ(١) : لا يقبل الله صدقة منان . وعندى أن المنّ له أصل ومغرس . وهو من أحوال القلب وصفاته . ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح . فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه . وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عز وجل منه ، الذى هو طهرته ونجاته من النار . وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهناً به . فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائباً عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله ﷺ(٢) : إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل . فليتحقق أنه مسلِّم إلى الله عز وجل حقه . والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل. ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كونَ القابض تحت منته سفهاً وجهلا. فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه . أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ماأحبه. فهو ساع فى حق نفسه. فلِمَ يمن به على غيره؟ ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناهاقبل، أو أحدها لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه . إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل،أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد. وكيفما كان فلامعاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسناً إليه. ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسناً إليه تفرع منه على ظاهره ، ماذكر فى معنى المنّ . وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة

---

(١) قال الحافظ العراقىّ فى (تخريج أحاديث الإحياء) : لم أجده .

(٢) قال الحافظ العراقىّ فى (تخريج أحاديث الإحياء) : الدارقطنىّ فى (الإفراد) من حديث ابن عباس . وقال: غريب من حديث عكرمة عنه . ورواه البيهقىّ فى (شعب الإيمان) بسند ضعيف .

منه بالشكر والدعاء ، والخدمة والتوقير والتعظيم ، والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس ، والمتابعة فى الأمور . فهذه كلها ثمرات المنّة . ومعنى المنة فى الباطن ماذكرناه. وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار ، وفنون الاستخفاف وباطنه وهو منبعه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه، فإن ذلك يضيق الخلق لامحالة . والثانى رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخسّ منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهيته تسليم المال فهو حمق . لأن من كره بذل درهم فى مقابلة مايسوى ألفاً فهو شديد الحمق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل ، والثواب فى الدار الآخرة . وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل ، أو شكره لطلب المزيد . وكيفما فرض فالكراهة لاوجه لها . وأما الثانى فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام .

وقد أطال الغزالىّ رحمه الله من هذا النفس العالى. فليراجع .

فصل

فى هديه ﷺ فى الزكاة والصدقة

قال شمس الدين ابن القيّم الدمشقىّ فى (زاد المعاد) : هديه ﷺ فى الزكاة أكمل هدى فى وقتها ، وقدرها ونصابها ، ومن تجب عليه ، ومصرفها . وراعى فيها مصلحة أرباب الأموال ومصلحة المساكين وجعلها الله سبحانه وتعالى طهرة للمال ولصاحبه. وقيد النعمة به على الأغنياء . فما أزال النعمة بالمال على من أدى زكاته . بل يحفظه عليه وينميه له ويدفع عنه بها الآفات ، ويجعلها سوراً عليه وحصناً له وحارساً له .

ثم قال فى (هديه ﷺ فى صدقة التطوع) : كان ﷺ أعظم الناس صدقة مما ملكت يده. وكان لايستكثر شيئاً أعطاه الله تعالى ولا يستقله. ولا يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه قليلا أو كثيراً . وكان عطاؤه عطاء من لايخاف الفقر . وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه. وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه . وكان أجود الناس بالخير ، يمينه كالريح المرسلة . وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه تارة بطعامه وتارة بلباسه . وكان يتنوع فى أصناف عطائه وصدقته . فتارة بالهبة وتارة بالصدقة وتارة بالهدية وتارة بشراء شيء ثم يعطى البائع الثمن والسلعة جميعاً كما فعل بجابر[1]. وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه ، وأفضل وأكبر، ويشترى الشيء فيعطى أكثر من ثمنه . ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها تلطفاً وتنوعاً فى ضروب الصدقة والإحسان

(١) أخرج البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٣٤ ـ باب شراء الدواب والحمير ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنت مع النبىّ ﷺ فى غزاة فأبطأ بى جملى وأعيا . فأتى علىّ النبىّ ﷺ فقال « جابر ! » فقلت : نعم . قال : « ما شأنك ؟ » قلت : أبطأ علىّ جملى وأعيا فتخلفت . فنزل يحجُنُه بمحجنه . ثم قال « اركب » فركبت . فلقد رأيته أكفه عن رسول الله ﷺ . قال « تزوجت ؟ » قلت: نعم . قال « بكراً أم ثيباً ؟ » قلت: بل ثيباً. قال « أفلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك ؟ » قلت : إن لى أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن. قال « أمَا إنك قادم. فإذا قدمت فالكيسَ ! الكيس! » ثم قال « أتبيع جملك ؟ » قلت : نعم . فاشتراه بأوقية . ثم قدم رسول الله ﷺ قبلى وقدمتُ بالغداة . فجئنا إلى المسجد . فوجدته على باب المسجد . قال « الآن قدمت ؟ » قلت : نعم . قال « فدع جملك فادخل فصل ركعتين » فدخلت فصليت . فأمر بلالا أن يزن لى أوقيـة . فوزن لى بلال فأرجح فى الميزان . فانطلقت حتى وليت . فقال « ادع لى جابراً » قلت : الآن يردّ علىّ الجمل . ولم يكن شيء أبغض إلىّ منه . قال : « خذ جملك ولك ثمنه » .

بكل ممكن . وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبحاله وبقوله فيخرج ماعنده ويأمر بالصدقة ويحض عليها ويدعو إليها وبحاله وقوله . فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء. وكان من خلاطه وصحبه ورأى هديه لايملك نفسه من السماحة والندى . وكان هديه ﷺ يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً . فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً فى شرح الصدور وانضاف ذلك إلى ماخصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها. وشرح صدره حساً وإخراج حظ الشيطان منه .

ولما ذكر تعالى الأبرار المؤدّين النفقات من الزكوات والصدقات فى جميع الأحوال والأوقات ، شرع فى ذكر أَكَلَةِ الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات . فأخبر عن حالهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٥] (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« الذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا » وهو فضل مال خال عن العوض في معاوضة مال بمال . وكتب الربَوا بالواو على لغة من يفخم . كما كتبت الصلوة والزكوة. وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع « لَا يَقُومُونَ » أى يوم القيامة كما قاله بعض الصحابة والتابعين « إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » في القاموس خبطه ضربه شديداً ، كتخبطه واختبطه . وفى (العباب) كل من ضربه بيده فصرعه فقد خبطه وتخبطه . وأصل المسّ

باليد ، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه . والجار يتعلق إما بـ (لا يقومون) أى لا يقومون من المس الذى بهم إلا كما يقوم المصروع من جنونه أو بـ (يقوم) أى : كما يقوم المصروع من جنونه . أو بـ (يتخبطه) أى من جهة الجنون . والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين . تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة .

قال الحرالىّ : فى إطلاقه إشعار بحالهم فى الدنيا والبرزخ والآخرة . ففى إعلامه إيذان بأن آكله يسلب عقله ويكون بقاؤه فى الدنيا بخُرْقٍ لا بعقل . يقبل فى محل الإدبار ، ويدبر فى محل الإقبال .

قال البقاعىّ : وهو مؤيد بالمشاهدة . فإنا لم نر ولم نسمع قط بآكل ربا ينطق بالحكمة ولا يشهر بفضيلة بل هم أدنى الناس وأدنسهم .

تنبيه :

قال فى الكشاف : وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والمس الجنون . ورجل ممسوس . وهذا أيضا من زعماتهم . وأن الجنىّ يمسه فيختلط عقله . وكذلك : جُنَّ الرجل معناه ضربته الجن .

وتبعه البيضاوىّ فى قوله وهو : أى التخبط والمس ، وارد على ما يزعمون الخ .

قال الناصر فى (الانتصار) : معنى قول الكشاف من زعمات العرب أى كذباتهم وزخارفهم التى لا حقيقة لها . وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية من زعماتهم المردودة بقواطع الشرع . ثم ساق ما ورد فى ذلك من الأحاديث والآثار : وقال بعده: واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها . وإنما القدرية خصماء العلانية . فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم . من ذلك : السحر ، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن . وإن اعترفوا بشىء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع . فى خبط طويل لهم .

وقال الشيخ سعد الدين التفتازانيّ فى (شرح المقاصد) : وبالجملة فالقول بوجود الملائكة والجن والشياطين مما انعقد عليه إجماع الآراء . ونطق به كلام الله وكلام الأنبياء .

وقال : الجن أجسام لطيفة هوائية تتشكل بأشكال مختلفة ويظهر منها أحوال عجيبة . والشياطين أجسام نارية شأنها إلقاء الناس فى الفساد والغواية . ولكون الهواء والنار فى غاية اللطافة والتشفيف ، كانت الملائكة والجن والشياطين يدخلون المنافذ الضيقة حتى أجواف الإنسان ولا يُرَوْن بحسن البصر إلا إذا اكتسبوا من الممتزجات .

قال العلامة البقاعيّ ، بعد نقله ماذكرنا : وقد ورد فى كثير من الأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم(١) أن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم . وورد أنه ﷺ أخرج الصارع من الجن من جوف المصروع فى صورة كلب ، ونحو ذلك . وفى كتب الله سبحانه وتعالى المتقدمة مالا يحصى من مثل ذلك . وأما مشاهدة المصروع يخبر بالمغيبات وهو مصروع غائب الحس ، وربما كان ملقى فى النار وهو لا يحترق ، وربما ارتفع فى الهوء من غير رافع ـ فكثير جداً . لا يحصى مشاهدوه . إلى غير ذلك من الأمور الموجبه للقطع أن ذلك من الجن أو الشياطين . وها أنا أذكر لك فى ذلك من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مافيه مقنع لمن تدبره والله الموفق .

روى الدارميّ(٢) فى أوائل مسنده بسند حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولايته القضاء . ونصه : عن عليّ بن الحسن أن النبيّ ﷺ أتته صفية بنت حُيَيّ . فلما رجعت انطلق معها . فمرّ به رجلان من الأنصار . فدعاهما فقال « إنما هى صفية » قالا : سبحان الله . قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

(٢) أخرجه الدارميّ فى المقدمة ، ٤ ـ باب ما أكرم الله به نبيّه من إيمان الشجر به والبهائم والجن .

جاءت بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله : إن ابنى به جنون . وأنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا . فيُخَبِّث علينا . فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا . فَثَعَّ ثَعَّةً . وخرج من صدره مثل الجرو الأسود فسعى . (وقوله ثع بمثلثة ومهملة أى قاء) .

وللدارمىّ أيضاً وعبد بن حميد بسند حسن أيضا عن جابر رضى الله عنه قال: خرجت مع النبىّ ﷺ فى سفر . فركبنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ بيننا كأنما على رؤسنا الطير ، تظلنا . فعرضت له امرأة معها صبىّ لها . فقالت : يارسول الله ! إن ابنى هذا يأخذه الشيطان كل يوم ثلاث مرار . فتناول الصبىّ فجعله بينه وبين مقدم الرحل . ثم قال: اخسأ ، عدو الله ! أنا رسول الله (ثلاثاً) ثم دفعه إليها .

وأخرجه الطبرانىّ من وجه آخر . وبيّن أن السفر غزوة ذات الرقاع وأن ذلك كان فى حرّة واقم . قال جابر : فلما قضينا سفرنا مررنا بذلك المكان . فعرضت لنا المرأة ومعها صبيها ومعها كبشان تسوقهما . فقالت : يا رسول الله ! اقبل منى هديتى . فوالذى بعثك بالحق ! ما عاد إليه بعد . فقال : خذوا منها واحداً ، وردوا عليها الآخر .

ورواه البغوىّ فى (شرح السنة) عن يعلى بن مرة رضى الله عنه .

ثم ساق البقاعىّ ما جاء فى الإنجيل . قال : وذلك كثير جداً . يعنى ما وقع للمسيح عليه السلام من إخراج الشياطين والأرواح الخبيثة من المبتلين بذلك . وبعد أن ساق ذلك قال : وإنما كتبت هذا مع كون مانقل عن نبيّنا ﷺ كافياً ، لأنه لايُدفع أن يكون فيه إيناس له ومصادقة تزيد فى الإيمان .

وقد أجاد بيان تسلط الأرواح الخبيثة الإمام شمس الدين ابن القيّم فى (زاد المعاد) وذكر علاج دفعها فقال عليه الرحمة :

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج الصرع

أخرجا فى الصحيحين[(١)] من حديث عطاء بن أبى رباح قال: قال لى ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هـذه المرأة السوداء . أتت النبىّ ﷺ فقالت : إنى أصرع . وإنى أتـكشف . فادع الله لى . فقال : إن شئت صبرتِ ولك الجنة . وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك . فقالت : أصبر . قالت : إنى أتـكشف فادع الله أن لا أتـكشف. فدعا لها .

قلت : الصرع صرعان : صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية وصرع من الأخلاط الردية . والثانى هو الذى يتكلم فيه الأطباء فى سببه وعلاجه . وأما صرع الأرواح، فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولا يدفعونه . ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة . فتدافع آثارها وتعارض أفعالها وتبطلها . وقد نص على ذلك بقراط فى بعض كتبه . فذكر بعض علاج الصرع وقال : هذا إنما ينفع من الصرع الذى سببه الأخلاط والمـادة . أما الصرع الذى يكون من الأرواح فلا ينفع فيه هذا العلاج . وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ومن يعتقد بالزندقة فضيلة ، فأولئك ينـكرون صرع الأرواح ولا يقرون بأنها تؤثر فى بدن المصروع . وليس معهم إلا الجهل . وإلا فليس فى الصناعة الطبية ما يدفع ذلك . والحس والوجود شاهدٌ به . وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط هو صادق فى بعض أقسامه لا فى كلها . وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع المرض الإلٰهىّ . وقالوا : إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيره ، فتأولوا عليهم هذه التسمية وقالوا: إنمـا سموها بالمرض الإلٰهى لـكون هذه العلة تحدث فى الرأس فتضرّ بالجزء الإلٰهىّ الطاهر الذى مسكنه الدماغ . وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها وتأثيراتها .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى، ٦ ـ باب فضل من يصرع من الريح.

وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده . ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء الأطباء وضعف عقولهم . وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع وأمر من جهة المعالج . فالذى من جهة المصروع يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وباريها . والتعوذ الصحيح الذى قد تواطأ عليه القلب واللسان . فإن هذا نوع محاربة . والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً فى نفسه جيداً ، وأن يكون الساعد قوياً . فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل . فكيف إذا عدم الأمران جميعاً ، بكون القلب خراباً من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه، ولا سلاح له. والثانى من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً . حتى إن من المعالجين من يكتفى بقوله : اخرج منه . أو بقول : بسم الله . أو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله . والنبى ﷺ كان يقول: اخرج عدوّ الله ! أنا رسول الله . وشاهدت شيخنا (يعنى الإمام ابن تيمية رضى الله عنه) يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التى فيه ويقول : قال لك الشيخ اخرجى . فإن هذا لا يحل لك . فيفيق المصروع . وربما خاطبها بنفسه . وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب. فيفيق المصروع ولا يحس بألم . وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً . وكان كثيراً ما يقرأ فى أذن المصروع : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(١) . وحدثنى أنه قرأها مرة فى أذن المصروع فقالت الروح : نعم . ومدّ بها صوته . قال : فأخذت له عصا وضربته بها فى عروق عنقه حتى مجلت يداى من الضرب . ولم يشكّ الحاضرون بأنه يموت لذلك الضرب . فى أثناء الضرب قالت: أنا أحبّه . فقلت لها : هو لا يحبك . قالت : أنا أريد أن أحج به . فقلت لها: هو لا يريد أن يحج معك . فقالت : أنا أدعه كرامة لك . قال قلت : لا . ولكن طاعة لله ولرسوله . قالت : فأنا أخرج منه .

قال: فقعد المصروع يلتفت يميناً وشمالاً . وقال: ما جاء بى إلى حضرة الشيخ؟ قالوا له: وهذا الضرب كله؟ فقال: وعلى أى شىء يضربنى الشيخ ولم أذنب؟ ولم يشعر بأنه وقع ضربٌ البتة.

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٥٥] .

وكان يعالج بآية الكرسي. وكان يأمر بكثرة قراءة المصروع ومن يعالجه بها . وبقراءة المعوذتين . وبالجملة ، فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة . وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله يكون من جهة قلة دينهم وخراب قلوبهم وألسنتهم، من حقائق الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية والإيمانية . فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه ، وربما كان عرياناً فيؤثر فيه هذا . ولو كشف الغطاء لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى مع هذه الأرواح الخبيثة . وهى فى أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت . ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها . وبها الصرع الأعظم الذى لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة . فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة . وبالله المستعان .

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل . وأن تكون الجنة والنار نصب عينه وقبلة قلبه . ويستحضر أهل الدنيا وحلول المثلات والآفات بهم . ووقوعها خلال ديارهم . كمواقع القطر . وهم صرعى لا يفيقون . وما أشد أعداء هذا الصرع ! ولكن لما عمت البلية بحيث لا يرى إلا مصروعاً لم يصر مستغرباً ولا مستنكراً . بل صار، لكثرة المصروعين ، عين المستنكر المستغرب خلافه . فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أفاق من هذه الصرعة ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالاً على اختلاف طبقاتهم . فمنهم من أطبق به الجنون . ومنهم من يفيق أحياناً قليلة ويعود إلى جنونه . ومنهم من يفيق مرة ويجن أخرى . فإذا أفاق عَمِل عَمَل أهل الإفاقة والعقل . ثم يعاوده الصرع فيقع التخبط .

ثم قال: وأما صرع الأخلاط فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعاً غير تام : وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة . فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفى الأعضاء نفوذاً ما، من غير انقطاع بالكلية . وقد يكون لأسباب أخر. كريح غليظ يحتبس فى منافذ الروح . أو بخار ردىء يرتفع إليه من بعض الأعضاء . أو كيفية لاذعة فينقبض الدماغ لدفع المؤذى فيتبعه تشنج فى جميع الأعضاء . ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصباً بل يسقط ويظهر فى فيه الزبد غالباً . وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار

وقت وجود المؤلم خاصة . وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها وعسر برئها. لاسيما إن جاوز فى السن خمساً وعشرين سنة . وهذه العلة فى دماغه وخاصة فى جوهره . فإن صرع هؤلاء يكون لازماً . قال بقراط : إن الصرع يبقى فى هؤلاء حتى يموتوا .

إذا عرف هذا، فهذه المرأة التى جاء الحديث أنها كانت تصرع وتنكشف، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع . فوعدها النبى ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض . ودعا لها أن لا تنكشف . وخيّرها بين الصبر والجنـة، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان . فاختارت الصبر والجنة . وفى ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوى. وإن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل مالا يناله علاج الأطباء . وإن تأثيره وفعله وتأثير الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها . وقد جربنا هذا مراراً نحن وغيرنا . وعقلاء الأطباء معترفون بأن فى فعل القوى النفسية وانفعالاتها فى شفاء الأمراض عجائب . وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم وسفلتهم وجهالهم . والظاهر أن صرع هـذه المرأة كان من هـذا النوع . ويجوز أن يكون من جهة الأرواح . ويكون رسول الله ﷺ قد خيّرها بين الصبر على ذلك مع الجنة . وبين الدعاء لها بالشفاء . فاختارت الصبر والستر . والله أعلم .

« ذَٰلِكَ » أى القيام المخبط « بِأَنَّهُمْ قَالُوا » أى بسبب قولهم «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» أى نظيره فى أن كلًّا منهما معاوضة . فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع . وحل البيع متفق عليه . فيقاس عليـه الربا . وحق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق؟ أجيب بأنه جىء به على طريق المبالغة. وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً فى الحل . حتى شبهوا به البيع . كذا أجاب الزمخشرىّ.

قال الناصر فى (حواشيه) : وعندى وجه فى الجواب غير ما ذكر . وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين فى ثبوت الحـكم ، فللقائل أن يسوى بينهما طرداً . فيقول مثلاً : الربا مثل البيع . وغرضه من ذلك أن يقول والبيع حلال فالربا حلال . وله أن يسوى بينهما

فى العكس فيقول : البيع مثل الربا . فلو كان الربا حراماً كان البيع حراماً . ضرورة المماثلة . ونتيجته التى دلت قوة الكلام عليها أن يقول: ولما كان البيع حلالًا اتفاقاً غير حرام ، وجب أن يكون الربا مثله . والأول على طريقة قياس الطرد . والثانى على طريقة قياس العكس . ومآلهما إلى مقصد واحد . فلا حاجة ، على هذا التقرير ، إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره . وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذى تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح. وإن كان قياساً فاسد الوضع ، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً فى تحريم الربا وتحليل البيع وقطع القياس بينهما. ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالًا صحيحاً فقل فى الأولى : النبيذ مثل الخمر فى علة التحريم . وهو الإسكار. والخمر حرام . فالنبيذ حرام. وقل فى الثانية : إنما الخمر مثل النبيذ . فلو كان النبيذ حلالًا لكان الخمر حلالًا . وليست حلالًا اتفاقاً. فالنبيذ كذلك. ضرورة المماثلة المذكورة. فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه. والله أعلم . وقوله « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » إنكار لتسويتهم بينهما . إذ الحل مع الحرمة ضدان . فأنّى يتماثلان ؟ ودلالة على أن القياس يهدمه النص . لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه .

قال الرازىّ : إن نفاة القياس يتمسكون بهذا الحرف . قالوا: لو كان الدين بالقياس لكانت هذه الشبهة لازمة . فلما كانت مدفوعة علمنا أن الدين بالنص لا بالقياس . وذكر القفال رحمه الله الفرق بين البابين فقال: من باع ثوباً يساوى عشرة بعشرين ، فقد جعل ذات الثوب مقابلا بالعشرين . فلما حصل التراضى على هذا التقابل ، صار كل واحد منهما مقابلا للآخر فى المالية عندهما . فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض. أما إذا باع العشرة بالعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة من غير عوض، ولا يمكن أن يقال : إن عوضه هو الإمهال فى مدة الأجل. لأن الإمهال ليس مالًا أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً عن العشرة الزائدة . فظهر الفرق بين الصورتين . وقد أخرج أبو نعيم فى (الحلية) عن جعفر بن محمد أنه سئل : لم حرم الله

الربا ؟ قال لئلا يتمانع الناس المعروف . أى الإحسان الذى فى القرض إذ لَوْ حَلَّ درهم بدرهمين ماسمح أحد بإعطاء درهم بمثله .

« فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ » أى بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا « مِنْ رَبِّهِ » متعلق بـ(جاءه) أو بمحذوف وقع صفة لـ(موعظة). والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجيء الموعظة للتربية « فَانْتَهَىٰ » عطف على (جاءه) أى فاتعظ بلا تراخ، وتبع النهى « فَلَهُ مَا سَلَفَ » أى ما تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه « وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ » إن شاء أخذه لظهور الفرق وإن شاء عفا عنه. لأن الفرق ، وإن ظهر لأرباب النظر ، يجوز أن يخفى على العوام « وَمَنْ عَادَ » أى إلى تحليل الربا بعد النص « فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » لكفرهم بالنص، وردهم إياه بقياسهم الفاسد، بعد ظهور فساده. ومن أحل ماحرم الله عز وجل فهو كافر. فلذا استحق الخلود. وبهذا تبين أنه لاتعلق للمعتزلة بهذه الآية فى تخليد الفساق . حيث بنوا على أن المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة . ولا يخفى أنه لا يساعدهم على ذلك الظاهر الذى استدلوا به . فإن الذى وقع العود إليه محمول على ما تقدم . كأنه قال : ومن عاد إلى ما سلف ذكره ، وهو فعل الربا واعتقاد جوازه والاحتجاج عليه بقياسه على البيع . ولاشك أن من تعاطى معاملة الربا مستحلاً لها مكابراً فى تحريمها، مسنداً إحلالها إلى معارضة آيات الله البينات ، بما يتوهمه من الخيالات ـ فقد كفر ثم ازداد كفراً. وإذ ذاك يكون الموعود بالخلود فى الآية من يقال إنه كافر مكذب غير مؤمن. وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل إذاً للمعتزلة على اعتزالهم فى هذه الآية . والله الموفق . أشار لذلك فى الانتصاف.

قال فى فتح البيان : والمصير إلى هذا التأويل واجب ، للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٦] ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

« يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا » أى يذهب ريعه ويمحو خيره، وإن كان زيادة فى الظاهر فلا ينتفع به فى الآخرة كما قال تعالى : وَمَا ءَاتَيْتُم مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ(١) وقال تعالى : وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ(٢) .
« وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ » أى يكثرها وينميها وإن كانت نقصاناً فى الشاهد .

فوائد :

الأولى قال القاشانىّ: لأن الزيادة والنقصان إنما يكونان باعتبار العاقبة والنفع فى الدارين . والمال الحاصل من الربا لا بركة له لأنه حصل من مخالفة الحق. فتكون عاقبته وخيمة وصاحبه يرتكب سائر المعاصى . إذ كل طعام يولّد فى آكله دواعى وأفعالًا من جنسه . فإن كان حراماً يدعوه إلى أفعال محرمة، وإن كان مكروهاً فإلى أفعال مكروهة. وإن كان مباحاً فإلى مباحة. وإن كان من طعام فضل فإلى مندوبات ، وكان فى أفعاله متبرعاً متفضلًا . وإن كان بقدر الواجب من الحقوق فأفعاله تكون واجبة ضرورية . وإن كان من الفضول والحظوظ فأفعاله تكون كذلك. فعليه إثم الربا وآثار أفعاله المحرمة المتولدة من أكله. فتزداد عقوباته وآثامه أبداً. ويتلف الله ماله فى الدنيا فلا ينتفع به أعقابه وأولاده . فيكون ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو المحق الكلىّ . وأما المتصدق فلكون ماله مزكّى يبارك الله فى تثميره مع حفظ الأصل . وآكله لا يكون إلا مطيعاً فى أفعاله . ويبقى ماله فى أعقابه وأولاده منتفعاً به. وذلك

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] وباقى الآية : . . . وَمَا ءَاتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٣٧] ونصها : لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

هو الزيادة فى الحقيقة . ولو لم تكن زيادته إلا ما صرف فى طاعة الله لكفى به زيادة . وأى زيادة أفضل مما تبقى عند الله ؟ ولو لم يكن نقصان الربا إلا حصوله من مخالفة الله وارتكاب نهيه لكفى به نقصاناً. وأى نقصان أفحش مما يكون سبب حجاب صاحبه وعذابه ونقصان حظه عند الله ؟

الثانية : قال القاشانىّ : عليه الرحمة ، قبل ذلك : آكل الربا أسوأ حالًا من جميع مرتكبى الكبائر . فإن كل مكتسب له توكلٌ مّا فى كسبه، قليلًا كان أو كثيرًا . كالتاجر والزارع والمحترف . إذ لم يعينوا أرزاقهم بعقولهم ولم تتعين لهم قبل الاكتساب. فهم على غير معلوم فى الحقيقة . كما قال رسول الله ﷺ : أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يعلم(١). وأما آكل الربا فقد عين على آخذه مكسبه ورزقه . سواء ربح الآخذ أو خسر . فهو محجوب عن ربه بنفسه ، وعن رزقه بتعيينه . لا توكّل له أصلًا . فوكله الله تعالى إلى نفسه وعقله . وأخرجه من حفظه وكلاءته . فاختطفه الجن وخبلته . فيقوم يوم القيامة ولا رابطة بينه وبين الله ، كسائر الناس المرتبطين به بالتوكل . فيكون كالمصروع الذى مسه الشيطان فتخبطه ، لا يهتدى إلى مقصد .

الثالثة : قال بعض العلماء العمرانيين : يشترط لجواز التمول أن يكون من وجه مشروع. كما فى مقابلة عمل أو معاوضة . وأن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . ولذا حرمت الشرائع السماوية كلها ، وكذلك الحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية، أكلَ الربا ، قصداً لحفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية . لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادىّ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق. وبدون تعرض لخسائر طبيعية ، كالتجارة والزراعة والأملاك . ومن المشاهد أن بالربا تربو الثروات فيختل التساوى بين الناس .

ثم قال : وقد نظر الماليون والاقتصاديون فى أمر الربا فقالوا : إن المعتدل منه نافع

(١) كشف الخفاء رقم ٥٨ . قال فى التمييز تبعاً للأصل : أخرجه الديلمىّ من حديث أبى هريرة ، من رواية عمر بن راشد ، وهو ضعيف جدا .

بل لا بد منه . أولًا لأجل قيام المعاملات الكبيرة . وثانياً لأجل أن النقود الموجودة لا تفى للتداول، فكيف إذا أمسك المكتنزون قسماً منها أيضاً؟ وثالثاً لأجل أن الكثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرون عليها . كما أن كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤوس أموال ولا شركاء عنان .

فهذا النظر صحيح من وجه إنماء ثروات الأفراد والأمم . أما السياسيون والأخلاقيون فينظرون إلى أن ضرر ذلك فى جمهور الأمم أكبر من نفعها . لأن هذه الثروات الأفرادية تمكن الاستبداد الداخلىّ. فتجعل الناس صنفين عبيداً وأسياداً . وتقوى الاستبداد الخارجىّ فتسهل التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة مالًا وعُدّة . وهذه مقاصد فاسدة فى نظر الحكمة والعدالة . ولذلك حرمت الأديان الربا تحريماً مغلظاً. انتهى .

الرابعة : قال الرازىّ : لما بالغ تعالى فى الزجر عن الربا، وكان قد بالغ فى الآيات المتقدمة فى الأمر بالصدقات ، ذكر ههنا ما يجرى مجرى الداعى إلى ترك الصدقات وفعل الربا ، وكشف عن فساده . وذلك لأن الداعى إلى فعل الربا تحصيل المزيد فى الخيرات . والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان الخيرات . فبيّن تعالى أن الربا وإن كان زيادة فى المال إلا أنه نقصان فى الحقيقة . وإن الصدقة وإن كانت نقصاناً فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى . ولما كان الأمر كذلك كان اللائق بالعاقل أن لا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس من الدواعى والصوارف . بل يعول على ما ندبه الشرع إليه منهما .

وقال القفال : ونظير قوله : يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ، المثلُ الذى ضربه فيما تقدم بصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً . ونظير قوله : وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ، المثلُ الذى ضربه بحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة .

« وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ » صيغتا مبالغة من الكفر والإثم ، لاستمرار مستحلّ الربا وآكله عليهما وتماديه فى ذلك . وفى الآية تغليظ فى أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار ، لا من فعل المسلمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالله ورسوله وكتبه وبتحريم الربا ، ورجح إيمانهم أمر الله بالإنفاق ، على جمعهم للمال « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فيما بينهم وبين ربهم التى من جملتها الجود وترك الربا «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» التى تنهى عن الفحشاء والمنكر كالشح والربا «وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ» أعطوا زكاة أموالهم التى هى أجل أسباب فضيلة الجود « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » ثوابهم الكامل « عِنْدَ رَبِّهِمْ » فى الجنة « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » يوم الفزع الأكبر «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» لأنهم فرحون بما آتاهم ربهم ووقاهم عذاب الجحيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى اخشوا الله فى الربا لأن فيه إبطال حكمته تعالى فى خلق الأموال « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا » أى اتركوا مابقى لكم من الربا على الغرماء « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » على الحقيقة . فإن ذلك مستلزم لما أمرتم به البتة .

قال الحرالىّ : فبيّن أن الربا والإيمان لايجتمعان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٩] (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا » أى لم تتركوا مابقى « فَأْذَنُوا » أى اعلموا « بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ » قال المهايمىّ : أى إن لم تفعلوا ترك مابقى كنتم متهاونين بأمره. ومن تهاون بأمر ملك حاربه .

والحرب نقيض السلم . ومن حاربه الله ورسوله لايفلح أبداً . وفيه إيماء إلى سوء الخاتمة إن دام على أكله . « وَإِنْ تُبْتُمْ » من الربا « فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ » أى أصولها « لَاتَظْلِمُونَ » بطلب الزيادة « وَلَاتُظْلَمُونَ » بالنقص والمطل . بل لكم مابذلتم من غير زيادة عليه ولانقص فيه . ثم أمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لايجد وفاء، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٠] (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » أى بالكل أو البعض « فَنَظِرَةٌ » أى فالواجب إمهال بقدر ما أعسر « إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ » أى بذلك القدر . لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه، إذا حل عليه الدين : إما أن تقضى وإما أن تربى. ثم ندب تعالى إلى الوضع من المعسر ووعد عليه الخير والثواب الجزيل فقال « وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى وأن تتركوا للمعسر قدر ما أعسر بإبرائه منه، لأنه ربما لايحصل البدل فى الحال، فيأخذ مايساويه فى الآخرة. والصدقة تتضاعف الأضعاف المذكورة .

وقد أخرج البخارىّ[١] ومسلم والنسائىّ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه . وأخرج مسلم والترمذىّ نحوه عن أبى مسعود البدرىّ رضى الله عنه .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان .
ومسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

وعن أبي قتادة(١) الحارث بن ربعيّ الأنصاريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نفّس عن غريمه أو محا عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة . رواه الإمام أحمد ومسلم .

وعن بريدة(٢) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة. قال: ثم سمعته يقول : من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة . فسألته عن ذلك فقال ﷺ : له بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين . فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة . وعن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم(٣): من أنظر معسراً أو وضع عنه، وقاه الله من فيح جهنم. رواهما الإمام أحمد، ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨١] ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

« وَاتَّقُوا يَوْمًا » أي اخشوا عذاب يوم « تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » ما عملت من خير أو شر .

قال المهايميّ : فإن استوفى الدائن حقه بالتضييق على المديون استوفى الله منه حقوقه بالتضييق. وإن سامحه فالله أولى بالمسامحة . والمديون، إن لم يوف حق الدائن مع قدرته على

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٠٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٥ ـ كتاب الصدقات ، ١٤ ـ باب إنظار المعسر ، حديث ٢٤١٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، حديث رقم ٣٠١٧ (طبعة المعارف) .

الأداء استوفى الله منه حقه. وأما من لا يقدر، فيرجى أن يعفو الله عنه ، ويرضى خصمه بعوض من عنده « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم .

تنبيه :

من تأمل هذه الآيات وما اشتملت عليه من عقوبة أهل الربا ومستحليه، أكبر جرمه وإثمه. فقد ترتب عليه قيامهم فى المحشر مخبلين وتخليدهم فى النار ونبزهم بالكفر. والحرب من الله ورسوله واللعنة . وكذا الذم والبغض وسقوط العدالة وزوال الأمانة، وحصول اسم الفسق والقسوة والغلظة ودعاء من ظلم بأخذ ماله على ظالمه . وذلك سبب لزوال الخير والبركة . فما أقبح هذه المعصية وأزيد فحشها وأعظم ما يترتب من العقوبات عليها ! وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ما طوى التصريح به فى تلك الآيات من العقوبات والقبائح الحاصلة لأهل الربا فى أحاديث كثيرة . فنها : ما رواه الشيخان(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات (أى المهلكات) قالوا : يارسول الله ! وماهن ؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . وأخرج البخارىّ(٢)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٢٣ ـ باب قول الله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٩٣ ـ باب ماقيل فى أولاد المشركين.

سنسوق لك أيها القارئ هذا الحديث على طوله بنصه ، لما فيه من الغرائب .

عن سمرة بن جندب قال : كان النبىّ ﷺ ، إذا صلى صلاة ، أقبل علينا بوجهه فقال « من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ » قال فإن رأى أحد قصّها . فيقول ما شاء الله . فسألنا يوماً فقال « هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ » قلنا : لا . قال « لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى فأخرجانى إلى الأرض المقدسة . فإذا رجل جالس ورجل قائم ، بيده كلّوب =

عن سمرة بن جندب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة. فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم . فيه رجل قائم . وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة . فأقبـل الرجل الذى فى النهر . فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان . فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت : ماهذا الذى

= من حديد . إنه يدخل ذلك الـكلّوب فى شدقه حتى يبلغ قفاه . ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك . ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله . قلت : ما هـذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفِهْرٍ أو صخرة فيشدخ بها رأسه. فإذا ضربه تدهده الحجر . فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هنا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو . فعاد إليه فضربه . قلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا إلى ثَقْب مثل التنّور ، أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً . فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا . فإذا خمدت رجعوا فيها . وفيها رجال ونساء عراة . فقلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا . حتى أتينا على نهر من دم ، فيه رجل قائم على وسط النهر . رجل بين يديه حجارة . فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فردّه حيث كان . فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر ، فيرجع كما كان . فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا . حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة . وفى أصلها شيخ وصبيانٌ . وإذا رجـل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها . فصعدا بى فى الشجرة وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها . فيها رجال وشيوخ وشباب ، ونساء وصبيان . ثم أخرجانى منها . فصعدا بى الشجرة ، فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل . فيها شيوخ وشباب . قلت : طوّفتمانى الليلة، فأخبرانى عما رأيت .

قالا : نعم . أما الذى رأيته يشق شدقه ، فـكذاب . يحدّث بالـكَذبة . فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق . فيصنع به إلى يوم القيامه . =

رأيته فى النهر ؟ قال : آكل الربا . وأخرج مسلم(١) عن جابر بن عبدالله قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه. وقال : هم سواء . وأخرج البخارىّ(٢) وأبو داود عن أبى جحيفة قال : لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله . وثمت آثار وافرة، ساقها السيوطىّ فى الدر المنثور .

= والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علّمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار ، يُفعل به إلى يوم القيامة .

والذى رأيته فى الثقْب فهم الزناة .

والذى رأيته فى النهر آكلو الربا .

والشيخ فى أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام ، والصبيان حوله فأولاد الناس .

والذى يوقد النار مالك ، خازن النار .

والدار الأولى التى دخلتَ دار عامة المؤمنين .

وأما هذه الدار فدار الشهداء .

وأنا جبريل وهذا ميكائيل . فارفع رأسك .

فرفعت رأسى فإذا فوق مثل السحاب . قالا : ذاك منزلك .

قلت : دعانى أدخلْ منزلى . قالا : إنه بقى لك عمر لم تستكمله . فلو استكملت أتيت منزلك » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ١٠٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ١١٣ ـ باب ثمن الكلب، ونصه : عن عون بن أبى جُحَيْفة قال : رأيت أبى اشترى حجّاما . فسألته عن ذلك ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب و كسْب الأمَة . ولَعَنَ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله . ولَعَنَ المصوِّر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة، أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها . وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال « ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَنْ لَا تَرْتَابُوا » وفى قوله « تَدَايَنْتُمْ » دليل على جواز السلم . لأن المداينة فعل اثنين وهو السلم نفسه . لأنه دين من الجانبين جميعاً . وعلى ذلك

روى عن ابن عباس قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى، أن الله تعالى أحَلَّهُ وأذِن فيه ثم قرأ « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ » الآية. رواه البخاري"[١].

وقال آخرون : قوله « إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ » هو بيع كل دين إلى أجل مسمى . فهو يسمى التداين . كما يسمى البائع والمشترى المتبايعين . لأن كل واحد منهما بائع فى وجه . فعلى ذلك ، المداينة التداين . وإنما لم نؤمر بالكتابة فى بيع الأعيان لأنه فى المداينات وصل أحدهما إلى حاجته بقبض رأس المال ، والآخر لم يصل . فلعل ذلك يحمله على إنكار الحق والجحود . فإذا تذكر أنه كتب وأشهد عليه ارتدع عن الإنكار والجحود . لما يخاف ظهور كذبه وفضيحته على الناس . ولا كذلك مع العين بالعين . لأن كل واحد منهما لا يصل إلى حاجته إلا بما يصل به الآخر . فليس هنالك للإنكار معنى ، وثمت وجه آخر وهو أنه يجوز أن ينسى فينكر ذلك ، أو ينسى بعضه ويذكر بعضاً ، فأمر بالكتابه لئلا يبطل حق الآخر بترك الكتابة . ولا كذلك فى بيع العين بالعين . فافترقا . كذا فى التأويلات للماتريدى" « وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ » أى الدينَ المذكور « كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ » الجار متعلق إما بالفعل أى (وليكتب بالحق) . أو بمحذوف صفة لكاتب، أى: وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . لا يزيد ولا ينقص . وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه ديّن ، حتى يجيء كتابه موثوقاً به معدلًا بالشرع . « وَلَا يَأْبَ » أى ولا يمتنع « كَاتِبٌ » من « أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ » أى كما بيّنه بقوله تعالى « بالعدل ». أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته . كما نفعه الله بتعليم الكتاب. كقوله تعالى : وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ[٢] . وفى الحديث[٣] : إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق .

---

(١) لم أهتد إليه .

(٢) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

(٣) أخرجه البخاري" فى: ٤٩ـ كتاب العتق، ٢ ـ باب أى الرقاب أفضل. ونصه : =

وفى الحديث(١) الآخر: من كتم علماً يعلمه، ألجم بلجام من نار .

قال الرازى : ظاهر هذا الكلام نهى لكل كاتب عن الامتناع من الكتابة . وإيجابُهَا على كل من كان كاتباً « فَلْيَكْتُبْ » أى تلك الكتابة المعلمة . أمر بها بعد النهى عن إبائها تأكيداً لها « وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ » الإملال الإملاء . وهما لغتان نطق القرآن بهما. قال تعالى : فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ(٢) . أى وليكن الملى على الكاتب الدين وهو الذى عليه الحق، لأنه المقر المشهود عليه « وَلْيَتَّقِ » أى وليخش الملى « اللَّهَ رَبَّهُ » جمع مابين الاسم الجليل والنعت الجميل، للمبالغة فى التحذير « وَلَا يَبْخَسْ » أى لاينقص « مِنْهُ » أى مما عليه « شَيْئًا » مما عليه من الدين « فَإِنْ كَانَ » المدين وهو « الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا » أى خفيف الحلم أو جاهلاً بالإملاء لايحسنه « أَوْ ضَعِيفًا » صبياً أو شيخاً هرماً « أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ » أى أو غير مستطيع للإملاء بنفسه ـ لعى به أو خرس أو عجمة . ولفظ (هو) هنا توكيد للفاعل المضمر ـ والجمهور على ضم الهاء لأنها كلمة منفصلة عما قبلها فهى مبدوء بها . وقرئ بإسكانها على أن يكون أجرى المنفصل مجرى المتصل بالواو أو الفاء أو اللام . نحو : وهو، فهو، لهو . قاله أبو البقاء « فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ » يعنى الذى يلى أمره من قيم أو وكيل أو ترجمان « بِالْعَدْلِ » من غير نقص ولا زيادة « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ »

= عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أفضل؟ قال « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » قلت : فأى الرقاب أفضل ؟ قال « أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » قلت : فإن لم أفعل ؟ قال «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» . قال : فإن لم أفعل ؟ قال « تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تَصَدَّقُ بها على نفسك » .

(١) فى الجامع الصغير للسيوطى : ابن عدى فى (الكامل) عن ابن مسعود .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على المداينة « فَإِنْ لَمْ يَكُونَا » أى الشاهدان « رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ » أى فى العدالة « مِنَ الشُّهَدَاءِ » ولما شرط فى القيام مقام الواحد من الرجال ، العددَ من النساء، علله بما يشير إلى نقص الضبط فيهن فقال « أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا » أى تغيب عنها الشهادة « فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ » الضالة « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَادُعُوا » أى لأداء الشهادة التى تحملوها أو لتحملها . وتسميتهم (شهداء) قبل التحمل من تنزيل المشارف منزلة الواقع « وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ » أى الدين « صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ » أى المذكور من الكتابة « أَقْسَطُ » أى أعدل « عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ » أى أعون لإقامتها إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ « وَأَدْنَىٰ » أى أقرب «أَنْ لَا تَرْتَابُوا» أى لاتشكوا فى جنس الدين وقدره وأجله بتشكيك أحد المتداينين « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً » أى حالة « تُدِيرُونَهَا » أى تكثرون إدارتها « بَيْنَكُمْ » فتصعب عليكم كتابتها مع قلة الحاجة إليها « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا » لأنها مناجزة فيبعد فيها التنازع والنسيان . قال أبو البقاء (تجارة) يقرأ بالرفع على أن تكون التامة (وحاضرة) صفتها . ويجوز أن تكون الناقصة واسمها تجارة ، وحاضرة صفتها ، وتديرونها الخبر . وقرئ بالنصب على أن يكون اسم الفاعل مضمراً فيه ، تقديره : إلا أن تكون المبايعة تجارة « وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً أو كالئاً لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع . يعنى التجارة الحاضرة . على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة . وعن الضحاك : هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل . كذا فى الكشاف . وأخرج ابن المنذر عن جابر بن زيد أنه اشترى سوطاً فأشهد وقال : قال الله « وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » .

قال أبو القاسم بن سلامة فى كتابه (الناسخ والمنسوخ): قد كان جماعة من التابعين

يرون أنهم يشهدون فى كل بيع وابتياع . فمهم الشعبىّ وإبراهيم النخعىّ . كانوا يقولون إنا نرى أن نشهد ولو فى جزرة بقل .

« وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » يحتمل البناء للفاعل والمفعول . ويدل عليه أنه قرئ : ولا يضارِر (بالكسر والفتح) والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى مايطلب منهما ، وعن التحريف والزيادة والنقصان ، أو النهى عن الضرار بهما ، بأن يعجلا عن مهمّ .

قال الحرالىّ : فى الإحنة تعريض بالإحسان منه للشهيد والكاتب ليجيبه لمراده ، ويعينه على الائتمار لأمره بما يدفع من ضرر ، عطلته واستعماله فى أمر من أمور دنياه . فى تعريضه إجازة لما يأخذه الكاتب ومن يدعى لإقامة معونة فى نحوه ممن يعرض له فيما يضره التخلى عنه .

« وَإِنْ تَفْعَلُوا » أى ما نهيتم عنه من الضرار « فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ » أى خروج بكم عن الشرع الذى نهجه الله لكم . قال الحرالىّ : وفى صيغة (فعول) تأكيد فيه وتشديد فى النذارة .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أن يعذبكم بالخروج عن طاعته « وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » أحكامه المتضمنة لمصالحكم « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ولما كان التقدير : هذا إذا كنتم حضوراً يسهل عليكم إحضار الكاتب والشاهد ، عطف عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٣] (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

« وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ » أى مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى « وَلَمْ تَجِدُوا

كاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ » أى فالذى يستوثق به رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق ، وثيقة لدينه. هذا إذا لم يأمن البعضُ البعضَ بلا وثيقة « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان « فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ » وهو المدين . وإنما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقاً للإعلام ، ولحمله على الأداء « أَمَانَتَهُ » أى دينه . وإنما سمى أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به « وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ » فى رعاية حقوق الأمانة . وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير ما لا يخفى « وَلَا تَكْتُمُوا » أيها الشهود « الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ » .

قال الزمخشرى : فإن قلت هلا اقتصر على قوله فإنه آثم . وما فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده ؟ قلت : كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها . فلما كان إثما مقترفاً بالقلب أسند إليه . لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ . ألا تراك تقول ، إذا أردت التوكيد : هذا مما أبصرته عينى ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبى . ولأن القلب هو رئيس الأعضاء، والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله(١) . فكأنه قيل : فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه . ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط . وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه.

---

(١) يشير إلى الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه البخارى فى: ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٩ ـ باب فضل من استبرأ لدينه ، حديث ٤٧ ونصه :

عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بيّن والحرام بيّن . وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشُّبُهَاتِ كراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب »

واللسان ترجمان عنه . ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح . وهى لها كالأصول التى تتشعب منها . ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر . وهما من أفعال القلوب . فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معظم الذنوب. وقرئ (قلبه) بالنصب . كقوله : سفه نفسه . وقرأ ابن أبى عبلة : أثم قلبه . أى جعله آثما « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم « عَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٤] (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا » أى تظهروا « مَا فِي أَنْفُسِكُمْ » من الأفعال الاختيارية باللسان أو الجوارح « أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال أبو مسلم الأصفانىّ : إنه تعالى لما قال فى آخر الآية المتقدمة : والله بما تعملون عليم . ذكر عقيبه ما يجرى مجرى الدليل العقلىّ فقال « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ومعنى هذا الملك ، أن هذه الأشياء لما كانت محدثة فقد وجدت بتخليقه وتكوينه وإبداعه . ومن كان فاعلا لهذه الأفعال المحكمة المتقنة العجيبة الغريبة المشتملة على الحكم المتكاثرة والمنافع العظيمة لابد أن يكون عالما بها . إذ من المحال صدور الفعل المحكم المتقن عن الجاهل به . فكأن الله تعالى احتج بخلقه السماوات والأرض ، مع مافيها من وجوه الإحكام والإتقان ، على كونه تعالى عالما بها محيطا بأجزائها وجزئياتها .

قال الشعبىّ : إنه تعالى لما نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه ، بيّن أن له ملك السموات والأرض، فيجازى على الكتمان والإظهار . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر

وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى: وإن تبدوا..الخ. نزلت فى كتمان الشهادة وإقامتها .

وروى الإمام أحمد ومسلم[1] والنسائى وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ » قال دخل قلوبهم منها شىء لم يدخل قلوبهم من شىء. فقال النبى ﷺ : قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا . قال: فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله تعالى « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (قال : قد فعلت) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قال: قد فعلت) وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا (قال: قد فعلت) . وفى مسند عبد بن حميد والطبرانى : قال ابن عباس : فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها . وصار الأمر إلى أن قضى الله تعالى أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت من القول والعمل . أقول إن ماجاء من أن الآية هالت من هالت من الصحابة فإنما جاءه من عمومها ومن قوله « يُحَاسِبْكُمْ » إذ حمله على حساب المؤاخذه ، فأما عمومها فنظمها ظاهر فيه. إلا أنها تتناول الشهادة وكتمانها أولاً وبالذات. وغيرها ثانياً وبالعرض. وأما حمل الحساب على المؤاخذه والانتقام فإن كان عرفياً أو لغوياً فالإخفاء حينئذ مراد به إخفاء متفق على حظره . كنفاق وريب فى الدين . ولا إشكال فى الآية . وقد يؤيده ذكر الإيمان بعده . ويكون ختام السورة بالإبداء والإخفاء بمثابة رد العجز على الصدر . لافتتاح السورة بالمؤمنين والكافرين وما لكل منهما . وإن لم يكن الحساب حقيقة فيما ذكر بل كان معناه إيقافه تعالى العبد على عمله خيراً أو شراً وإراءته عاقبته الحسنى أو السوءى ، وهو الذى يظهر ، فلا إشكال أيضاً . فما روى عن بعض الصحب عليهم الرضوان منشؤه قوة اليقين وشدة الخوف من هول المطلع مع ورود الحساب فى كثير من الآيات فى معرض أخطار القيامة مما يحق أن

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

يخفق له فؤاد كل مؤمن . ولا تنس ما أسلفنا فى المقدمة وفى غير موضع ، أن قولهم : نزلت فى كذا قد يراد أن كذا مما يشمله لفظ الآية لعمومها له ولغيره . وهكذا هنا . فالآية وإن كان سياقها فى الشهادة وكتمانها ، إلا أنها تتناول غيرها بعمومها . ولذلك دخل فيها الوسوسة وتوهم ما توهم . وقوله فى الرواية : فأنزل الله تعالى « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » لا يتوهم التراخى بين ما دخل قلوبهم وبين نزولها . بل المراد ، كما أسلفنا فى سبب النزول، أن لفظ « لَا يُكَلِّفُ اللهُ ... » الخ الذى نزل معها مبين أن لا حرج فى مثل الوسوسة ونحوها . فافهم فإنه نفيس جداً . وبه يزاح عنك ما يبحث فيه الكثيرون فى هذه الآية ويرونه من المعضلات . وبالله التوفيق .

هذا وفى الصحيحين[(١)] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى تجاوز لى عن أمتى ماوسوست به صدورُها ، مالم تعمل أو تَكَلَّمْ . وفى الصحيحين[(٢)] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : إذا همّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه . فإن عملها فاكتبوها سيئة. وإذا همّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا. « فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » وقرئ برفع الفعلين على الاستئناف أى فهو يغفر الخ. وبجزمهما عطفاً على جواب الشرط . وفى تقديم المغفرة على التعذيب إشعار بسبق رحمته تعالى على غضبه « وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » . قال الرازىّ : قد بيّن بقوله « لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » أنه كامل الملك والملكوت. وبيّن بقوله «وَإِنْ تُبْدُوا..» الخ. أنه كامل العلم والإحاطة . ثم بيّن بقوله « وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » أنه كامل القدرة مستول على كل الممكنات بالقهر والقدرة والتكوين والإعدام . ولا كمال أعلى وأعظم من حصول الكمال فى هذه الصفات . والموصوف بهذه الكمالات يجب على كل عاقل أن يكون عبداً منقاداً له ، خاضعاً لأوامره ، ونواهيه ، محترزاً عن سخطه . وبالله التوفيق .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٤٩ـ كتاب العتق، ٦ـ باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق.

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ٢٠٣ (طبعتنا) ولم يخرجه البخارىّ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٥] (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ ءَامَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

« ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » أى صدقه بقبوله والتخلق به كما قالت عائشة[1] : كان خلقه القرآن والترقى بمعانيه والتحقق « وَالْمُؤْمِنُونَ » أى كذلك آمنوا .

قال الزجاج رحمه الله : لما ذكر الله عز وجل فى هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والربا والدّين ، ختمها بقوله « ءَامَنَ الرَّسُولُ » لتعظيمه وتصديق نبيه ﷺ والمؤمنين لجميع ذلك المذكور قبله ، وغيره ليكون تأكيداً له وفذلكة .

لطيفة :

قوله (والمؤمنون) إما مبتدأ والجملة بعده خبر . أعنى كُلٌّ آمَنَ . والعائد إلى المبتدإ التنوين القائم مقام الضمير فى (كل) ، لأن من جملة العائد إلى المبتدإ التنوين النائب مناب الضمير . وإما معطوف على الرسول فيكون التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين . وقد اختار كثيرون الأول. ومنهم العلامة أبو السعود . وأطال فى توجيهه . وعندى أن الوجه هو الثانى.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٣٩ (طبعتنا).
وهو حديث طويل . يرويه سعد بن هشام بن عامر وفيه يقول ، بعد أن استأذن على عائشة قال : فقلت: يا أم المؤمنين ! أنبئينى عن خلق رسول الله . قالت : ألست تقرأ القرآن؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبىّ الله كان القرآن . وفيه وصف جامع لقيامه ﷺ وعن وتره على لسان سيدتنا أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها .

لأن المقام لتعداد المؤمن به . وذلك يشترك فيه الرسول وأتباعه . وإن كان كنه إيمان الرسول لا يشاركه فيه غيره . فالمقام ليس مقام الخصوصية. والله أعلم .

« كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ » أي يقولون لا نفرق « بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » أي بردّ بعض وقبول بعض، ولا نشك في كونهم على الحق وبالحق « وَقَالُوا سَمِعْنَا » أي قولك وفهمناه « وَأَطَعْنَا » أي امتثلنا أمرك وقمنا به واستقمنا عليه . ولما علموا أنهم لا يخلون من تقصير ، وأن الرب يغفر لمن يشاء قالوا « غُفْرَانَكَ رَبَّنَا » أي اغفر لنا غفرانك . أو نسألك غفرانك ذنوبنا. وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول « وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » أي الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك ، وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة . لما أن الرجوع للحساب والجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨٦] (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » أي لا يحملها إلا ماتسعه وتطيقه ولا تعجز عنه .

قال الرازيّ : يحتمل أن يكون هذا ابتداء خبر من الله . ويحتمل أن يكون حكاية عن الرسول والمؤمنين بأنهم قالوا : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . على نسق الكلام في قوله: وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . وقالوا : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . ويؤيد ذلك ما أردفه من قوله : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا . فكأنه تعالى حكى عنهم طريقتهم في التمسك بالإيمان والعمل

الصالح . وحكى عنهم فى جملة ذلك أنهم وصفوا ربهم بأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

ثم قال الرازىّ ، فى كيفية النظم : إن قلنا: إن هذا من كلام المؤمنين ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا فكأنهم قالوا : كيف لا نسمع ولا نطيع وأنه تعالى لا يكلفنا إلا ما فى وسعنا وطاقتنا . فإذا كان هو تعالى ، بحكم الرحمة الإلهية ، لا يطالبنا إلا بالشىء السهل الهيّن ، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين . وإن قلنا : إن هذا من كلام الله تعالى ، فوجه النظم أنهم لما قالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، ثم قالوا بعده : غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ، دلّ ذلك على أن قولهم : غُفْرَانَكَ ، طلب للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد . فلما كان قولهم (غفرانك) طلباً للمغفرة فى ذلك التقصير ، لا جرم خفف الله تعالى ذلك عنهم . وقال : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . والمعنى: أنكم إذا سمعتم وأطعتم ، وماتعمدتم التقصير ، فعند ذلك لووقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه . فإن الله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . وبالجملة فهذا إجابة لهم فى دعائهم فى قولهم : غفرانك ربنا .

قال زين العابدين بير محمد دره فى (المدحة الكبرى) : وعلى احتمال أن يكون قوله لا يكلف الله..الخ. حكاية ، فهو من قبيل العطف بلا عاطف . أو الكلام على تقدير قالوا . قال بعضهم : ولك أن تجعل (لا يكلف الله...) الخ فى حيز القول . وأن يكون حكاية للأقوال المتفرقة غير المعطوفة بعضها على بعض للمؤمنين . ويكون مدحاً لهم بأنهم شاكرون لله تعالى فى تكليفه . حيث يرونه بأنه لم يخرج عن وسعهم . وبأنهم يرون أن الله تعالى لا ينتفع بعملهم الخير ، بل هو لهم . ولا يتضرر بعملهم الشرّ ، بل هو عليهم .

وقال البقاعىّ : وهذا الكلام من جملة دعائهم على وجه الثناء طلباً للوفاء بما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم عنه سبحانه من ذلك ، خوفاً من أن يكلفوا بما لله تعالى أن يكلف به من المؤاخذة بالوساوس . لأنه مما تخفيه النفوس ولا طاقة على دفعه .

ولعل العدول عن الخطاب إلى الغيبة بذكر الاسم الأعظم من باب التملق بأن له من صفات العظمة ما يقتضى العفو عن ضعفهم . ومن صفات الحلم والرحمة ما يرفّه عنهم . ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله تعالى جزاء لهم على قولهم : سمعنا وأطعنا ، الآية . فأفادهم بذلك أنه لا يحاسبهم بحديث النفس . فانتفى ما شق عليهم من قوله : وإنْ تبدوا مافى أنفسكم، الآية . بخلاف ما أفاد بنى إسرائيل قولهم : سمعنا وعصينا، من الآصار فى الدنيا والآخرة . فيكون حينئذ استئنافاً جواباً لمن كأنه قال : هل أجاب دعاءهم . ويؤيد هذا الاحتمال اتباعه لحكم مافى الوسع على طريق الاستئناف أو الاستنتاج بقوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى « لَهَا مَا كَسَبَتْ » الخ . للترغيب فى المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها . ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة . وأنها تعود إليها لا إلى غيرها . ويستتبع الإخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها . فإن اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعى إلى تحصيله . واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته . أى لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله، لالغيرها . وعليها لا على غيرها عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه . وإيراد الاكتساب فى جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشىء من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها فى طلبه .

قال الحرالىّ : وصيغة (فَعَلَ) مجردة ، تعرب عن أدنى الكسب . فلذلك من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة .

لطيفــة :

وقال الجاربردىّ فى (شرح الشافية): معنى الكسب تحصيل الشىء على أى وجه كان . والاكتساب المبالغة والاعتمال فيه . ومن ذلك قوله تعالى: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. وفيه تنبيه على لطف الله تعالى بخلقه ، إذ أثبت لهم ثواب الفعل على أى وجه كان . ولم يثبت عليهم عقاب الفعل إلا على وجه مبالغةٍ واعتمال فيه .

قال الزمخشريّ : لما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمّارة به ، كانت فى تحصيله أعمل وأجدّ . فجعلت لذلك مكتسبة فيه . ولما لم تكن فى باب الخير كذلك لفتورها فى تحصيله ، وصفت بما لا دلالة له على الاعتمال والتصرف . انتهى .

قال العلامة ابن جماعة فى (حواشيه) : تفرقته بين الكسب والاكتساب هو ما قاله الزمخشريّ وغيره ونص عليه سيبويه . قال الحلبيّ : وهو الأظهر . وقال قوم : لا فرق . قالوا : وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب فى مورد واحد . قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[1] . وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا[2] . بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً[3] . وقال تعالى : بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا[4] . فقد استعمل الكسب والاكتساب فى الشر . وقال الواحديّ : الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد . وفى القاموس : كسبه يكسبه كسباً ، وتكسب واكتسب : طلب الرزق . أو كسب أصاب ، واكتسب تصرف واجتهد . ثم قال ابن جماعة : ماذكره من تنبيه الآية على لطف الله بخلقه إلى آخره ، قاله ابن الحاجب فى شرح (المفصل) وبمعناه قول بعضهم : فى الآية إيذان أن أدنى فعل من أفعال الخير يكون للإنسان تكرماً من الله على عبده ، بخلاف العقوبة فإنه لا يؤاخذ بها إلا من جدّ فيها واجتهد . وقريب منه قول آخر : للنفس ماحصل من الثواب بأى وجه اتفق حصوله سواء كان بإصابة مجردة أو بتحصيل . وعليها ماحصلته وسعت فيه لا ماحصل من غير اختيار

(١) [٧٤ / المدثر / ٣٨] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٨١] ونصها : بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٥٨] ونصها : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

وسعى . نبه تعالى أن الثواب حاصل لها سواء كان بسعيها واختيارها أو لم يكن كذلك . وأما العقاب فلا يكون عليها إلا بقصدها وتحصيلها .

وما قالوه من الفرق يحتاج إلى ثبت . وقد قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[1] أي يرى جزاءه . وقال : وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[2] . على أن ترتب الثواب على ماحصل من غير سعي واختيار ، إن كان لمباشرة سببه مع الغفلة عنه، فالعقاب أيضاً كذلك . فمن عمل سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها، وإن صوّر بالإصابة عند أول الالتفات فلا مانع أن يكون العقاب مثله . ومدعي خلافه عليه البيان . نعم الإصرار شرط . لأن الرجوع يمحوه لكنه قدر زائد على الفعل . وبالجملة فما قاله جار الله حسن . وقد ذكره البيضاوىّ أيضاً . وفي إعراب الحلبيّ : الذي يظهر في هذا ، أن الحسنات مما تكسب دون تكلف . إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه ، والسيئات تكتسب بتكلف . إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ، ويتجاوز إليها . فحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهذه المعنى والله أعلم . ثم قال ابن جماعة : والمبالغة من بالغ مبالغة اجتهد ولم يقصر . والاعتمال من اعتمل أي عمل بنفسه وأعمل رأيه وآلته . انتهى .

قال البقاعيّ ولما بشرهم بذلك ، عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتّبه على الأخف فالأخف على سبيل التعلّي ، إعلاماً بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسياناً ، ولا بما قارفوه خطأً ، ولا حمل عليهم ثقلا . بل جعل شريعتهم حنيفية سمحاء . ولا حملهم فوق طاقتهم . مع أن له جميع ذلك . وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم . ثم رحمهم بأن أحلّهم محل القرب فجعلهم أهلًا للخلافة . فلاح بذلك أنه يعلي أمرهم على كل أمر . ويظهر دينهم على كل دين . إذ كان سبحانه هو الداعي عنهم . وليكون الدعاء كله محمولًا على الإصابة ومشمولًا بالإجابة فقال تعالى « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا » أي لا تعاقبنا « إِنْ نَسِينَا » أمرك ونهيك « أَوْ

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧و٨] .

(٢) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

أَخْطَأْنَا » أى ففعلنا خلاف الصواب ، تفريطاً ونحوه .

وقدوَلِع كثير من المفسرين ههنا بالبحث فى أن النسيان والخطأ معفوّ عنهما ، فما فائدة طلب العفو عنهما ؟ وأجابوا عن ذلك بوجوه . وأرق جواب رأيته قول العلامة بير محمد فى (المدحة الكبرى) : لما كان طالب العفو الرسول والأنصار والمهاجرون ومن كان على شاكلتهم ، فكأنهم يعدون النسيان من العصيان والخطأ من الخطيئة . كقوله تعالى « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ »(١) .

وقيل فى معنى الآية : لا تعاقبنا إن تركنا أمرك أو اكتسبنا خطيئة . على أن يكون النسيان بمعنى الترك . والخطأ من الخطيئة . وعليه فلا إيراد ، والله أعلم .

« رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا » أى عهداً يثقل علينا .

قال الحرالى : الإصر العهد الثقيل الذى فى تحمله أشد المشقة « كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » وهو ما كُلِّفَهُ بنو إسرائيل مما يهد الأركان . ولا بأس بالإشارة إلى جُمَلٍ مما حملوه من الآصار . ننقله عن أسفارهم تأكيدا لما يحمل على الشكر على تخفيف ذلك عنا ، وتعظيما لمنته تعالى ، فلله الحمد فنقول : فى سفر الخروج فى الأصحاح الثانى عشر :

(١٥) سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم . فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك النفس من إسرائيل .

وكل هذا الأصحاح آصار شاقة .

وفى السفر المذكور ـ فى الأصحاح الحادى والعشرين :

(١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا (١٦) ومن سرق إنسانا وباعه أو وُجد فى يده يقتل قتلا .

(١٧) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا . (٢٧) وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يُطلقه حُرّاً عوضا عن سنه (٢٨) وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا (٢٩) ولكن إن كان ثوراً نطّاحا من قبلُ وقد أُشهِد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٦٠] .... أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ

وفى السفر المذكور ، فى الأصحاح الثالث والعشرين .

(١٠) وست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها (١١) وأما فى السابعة فتريحها وتتركها ليأكل فقراء شعبك . وفضلتهم تأكلها وحوش البرية كذلك تفعل بكرمك وزيتونك . (١٢) ستة أيام تعمل عملك . وأما اليوم السابع ففيه تستريح لكى يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب .

(١٩) أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلٰهك .

وفى سفر العدد ، فى الأصحاح الخامس عشر :

(٣٧) وكلم الرب موسى قائلا (٣٨) كلِّمْ بنى إسرائيل وقل لهم : أن يصنعوا لهم أهدابا فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانْجُونىٍّ (٣٩) فتكون لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعملونها .

وفى السفر المذكور ، فى الأصحاح التاسع عشر :

(١١) من مس ميْتا مَيْتَةَ إنسانٍ ما يكون نجسا سبعة أيام . (١٢) يتطهر به فى اليوم الثالث، وفى السابع يكون طاهرا . وإن لم يتطهر فى اليوم الثالث ففى اليوم السابع لا يكون طاهرا. (١٣) كل من مس ميتا ميتة إنسان قدمات ولم يتطهر ينجّسُ مسكن الرب . فتقطع تلك النفس من إسرائيل . لأن ماء النجاسة لم يُرَش عليها تكون نجسةً . نجاستها لم تزل فيها . (١٤) هذه هى الشريعة . إذا مات إنسان فى خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان فى الخيمة يكون نجسا سبعة أيام (١٥) وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس. (١٦) وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام. وتمام الفصل المذكور كيفية الطهارة من هذه النجاسة الشاقة جدا .

وفى السفر المذكور فى الأصحاح الخامس والثلاثين :

(٣١) ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل .

وفى سفر التثنية ، فى الأصحاح الخامس عشر :

(١٩) كل بِكْرٍ ذكرٍ يولد من بقرك ومن غنمك تقدسه للرب إلٰهك . لا تشتغل على بكر بقرك ولا تَجُزَّ بكرَ غنمك .

وفى سفر الخروج ـ فى الأصحاح الرابع والثلاثين :

(٢٠) وأما بكر الحمار فتفديه بشاة . وإن لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه.

وفى سفر اللاويين ، فى الأصحاح الرابع :

(١) وكلم الرب موسى قائلا (٢) كلم بنى إسرائيل قائلا : إذا أخطأت نفس سهوا فى شىء من جميع مناهى الرب التى لا ينبغى عملها وعَملَتْ واحدة منها (٣) إن كان الكاهن الممسوح يخطئ لإثم الشعب يقرّب عن خطيئته التى أخطأ ثورا ابن بقرٍ صحيحا للرب ذبيحة خَطِيَّةٍ.

وكيفية ذلك حرجة جدا . انظرها .

وفيه ، فى الأصحاح الخامس:

(٢) أو إذا مسّ أحد شيئا نجسا جثة وحش نجس أو جثة بهيمة نجسة أو جثة دبيب نجس وأخفى عنه فهو نجس ومذنب .

(٥) فإن كان يذنب فى شىء من هذه يقرّ بما قد أخطأ به (٦) ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيئته التى أخطأ بها أنثى من الأغنام نعجة أو عنزا من المعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيته .

والأصحاح المذكور كله آصار .

وكذا الأصحاح السادس بعده كله آصار :

وفى الأصحاح الحادى عشر تحريم بعض الطيور وفيه آصار كثيرة . منها :

(٣٣) وكل متاع خزفٍ وقع فيه منها فكل مافيه يتنجس، وأما هو فتكسرونه.

وفى الأصحاح الثانى عشر أحكام النفساء عندهم والفرق بين ولادتها ذكرا وأنثى. وإنها فى الأول تكون نجسة أسبوعا ثم ثلاثا وثلاثين يوما . وفى الثانى أسبوعين ثم ستة وستين يوما .

وعن تمام أيام طهرها تأتى بكبيس كفارة عنها .

وفى الأصحاح الخامس عشر تشريعات لذوى الجراحات .

وفى ذلك آصار كبرى . انظرها .

وفيه أيضا أحكام الحائض والآصار فى شأنها . ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء (٢٠) وكل ما تضطجع عليه فى طمثها

يكون نجسا وكل ما تجلس عليه يكون نجسا (٢١) وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويكون نجسا إلى المساء

وفى الأصحاح السابع عشر :

(١٥) وكل إنسان يأكل ميتة أو فريسة وطنيا كان أو غريبا يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويبقى نجسا إلى المساء.

وفى الأصحاح التاسع عشر :

(٢٣) ومتى دخلتم الأرض وغرستم كل شجرة للطعام تحسبون ثمرها غُرْلتها . ثلاث سنين تكون لكم غَلْفَاءَ . لايؤكل منها . (٢٤) وفى السنة الرابعة يكون كل ثمرها قُدْسا لتمجيد الرب . (٢٥) وفى السنة الخامسة تأكلون ثمرها . لتزيد بكم غَلَّتَهَا . أنا الرب إلهكم. (٢٧) لا تقصروا رؤوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك .

وفى الأصحاح الخامس والعشرين :

(٣) ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتهما. (٤) وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة سبتاً للرب . لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك . (٥) زرِّيع حصيدك لا تحصد وعنب كرمك المُحْولِ لا تقطف . سنة عطلة تكون للأرض. (٦) ويكون سبت الأرض لكم طعاما . لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولمستوطنك النازلين عندك . (٧) ولبهائمك وللحيوان الذى فى أرضك تكون كل غلتها طعاما .

وفى سفر التثنية ، فى الأصحاح الحادى والعشرين .

(١٨) وإذا كان لرجل ابنٌ معاندٌ وماردٌ ولا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما . (١٩) يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه . (٢٠) ويقولون لشيوخ مدينته . ابننا هذا معاند ومارد لايسمع لقولنا وهو مسرف وسكّير . (٢١) فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت .

وفيه ، فى الأصحاح الثانى والعشرين :

(١٠) لا تحرث على ثور وحمار معا . (١١) لا تلبس ثوباً مختلطاً صوفاً وكتاناً معاً .

وفيه ، فى الأصحاح الرابع والعشرين :

(١) إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته . (٢) ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر . (٣) فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة . (٤) لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود بأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست . لأن ذلك رجس لدى الرب.

هذه نبذة يسيرة من الآصار التى كانت على الإسرائيليين ولم يشرعها لنا مولانا بفضله وكرمه فله الحمد ، إنه أرحم الراحمين .

« رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَالَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » أى من بليات الدنيا والآخرة . فالدعاء الأول فى رفع شدائد التكليف ، وهذا فى رفع شدائد البليات . ويقال : هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لا يستطاع مبالغة . « وَاعْفُ عَنَّا » أى : تجاوز عن ذنوبنا ولا تعاقبنا « وَاغْفِرْ لَنَا » أى غطِّ على ذنوبنا واعف عنها « وَارْحَمْنَا » أى : تفضّل علينا بالرحمة مع كوننا مقصّرين مذنبين « أَنْتَ مَوْلَانَا » أى : ولّينا وناصرنا « فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » فإنّ من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولّى أمره على الأعداء . وفيه إشارة إلى أنّ إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله تعالى ، حسبما أمر فى تضاعيف السورة الكريمة ، غاية مطلبهم .

قال البقاعىّ : فتضمّن ذلك وجوب قتال الكافرين . وأنهم أعدى الأعداء . وأنّ قوله « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » ليس ناهياً عن ذلك. وإنّما هو إشارة إلى أنّ الدين صار فى الوضوح إلى حدّ لا يتصور فيه إكراه . بل ينبغى لكلّ عاقل أن يدخل فيه بغاية الرغبة فضلًا عن الإحواج إلى إرهاب ، فمن نصح نفسه دخل فيه بما دلّ عليه عقله ، ومن أبى دخل فيه قهراً بنصيحة الله التى هى الضرب بالحسام ونافذ السهام .

وقد ورد فى (صحيح مسلم)[١] عن النبىّ ﷺ : أن الله تعالى قال عقب كلّ دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى: ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ٢٠٠(طبعتنا) ونصه: =

وقد روى البخارىّ(١) والجماعة عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ : من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ، فى ليلةٍ ، كفتاه .

وروى الإمام أحمد(٢) عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : أُعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز من تحت العرش ، لم يعطهنّ نبىٌّ قبلى .

وأخرج مسلم(٣) عن ابن مسعود قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة . إليها ينتهى مايُعرج به من الأرض، فيُقبض منها . وإليها ينتهى مايهبط من فوقها ، فيقبض منها . قال : إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى [٥٣/النجم/١٦] قال: فَراش من ذهب قال، فأُعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أُعطى الصلوات الخمس، وأُعطى خواتيم سورة البقرة ، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً ، المقحماتُ .

وعن ابن عباس(٤) قال: بينما جبريل قاعد عند النبىّ ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم . لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض . لم ينزل قط إلا اليوم . فسلّم وقال : أَبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما

= عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ [٢/البقرة / ٢٨٤] قال ، دخل قلوبهم منها شىء لم يدخل قلوبهم من شىء . فقال النبى ﷺ « قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا » قال فألقى الله الإيمان فى قلوبهم . فأنزل الله تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (قال : قد فعلت) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قال : قد فعلت) وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا (قال : قد فعلت) [٢ / البقرة ٢٨٦] .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ١٠ ـ باب فضل سورة البقرة.

(٢) أخرجه فى المسند فى الصفحة ١٥١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٧٩ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ (طبعتنا)

نبيٌّ قبلك . فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة . لن تقرأ حرْفاً منهما إلّا أُعْطِيتَهُ . رواه مسلم والنسائىّ . وهذا لفظ مسلم .

وأخرج الترمذىّ(١) والنسائىّ والدارمىّ والحاكم وصححه، عن النعمان بن بشير: أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام . أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة . ولا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان .

وأخرج عبد بن حميد فى (مسنده) عن الحسن : أنه كان إذا قرأ آخر البقرة قال : يالك نعمة ..! يالك نعمة ..!

هــذا ، وقد روى فى فَضْلِ سورة البقرة أحاديث كثيرة . . . منها ماأخرجه مسلم(٢) والترمذىّ من حديث النوّاس بن سمعان قال: سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول: يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُهُ سورة البقره وآل عمران . وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعدُ قال : كأنهما غمامتان أوظلتان سوداوان بينهما شَرْق . أو كأنهما حِزْقان من طير صوافّ تحاجان عن صاحبهما .

وأخرج أحمد(٣) والحاكم والدارمىّ عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا سورة البقرة . فإن أخذها بركة . وتركها حسرة . ولا تستطيعها البطلة . تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما هما الزهراوان يجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تجادلان عن صاحبهما .

وأخرج أحمد ومسلم(٤) والترمذىّ عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن، ٤ ـ باب ماجاء فى آخر سورة البقرة.
(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا)
(٣) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٣٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .
(٤) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢١٢ (طبعتنا) والترمذىّ فى: ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ٢ ـ باب ماجاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسىّ

بيوتكم مقابر . إن الشيطانَ ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة . ولفظ الترمذىّ : وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان .

وأخرج سعيد بن منصور والترمذىّ[1] والحاكم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : لكلّ شىءٍ سنامٌ . وإن سنام القرآن سورة البقرة . وفيها آية هى سيدة آى القرآن . آية الكرسىّ .

فائدة :

قال ابن القيم : تأمّل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كلّه ، وله الحمد كلّه ، أزمّة الأمور كلّها بيده ، ومصدرها منه ، ومورد‌ها إليه ، مستوياً على العرش ، لاتخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما فى نفوس عبيده ، مطّلعاً على أسرارهم وعلانيتهم ، منفرداً بتدبير المملكة . يسمع ويرى ويعطى ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويقدر ويقضى ويدبر ، الأمورُ نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه لاتتحركُ ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه ، ويمجّد نفسه ، ويحمد نفسه، وينصح عباده ويدلّهم على مافيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه ! يذكّرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها . ويحذّرهم من نقمه ، ويذكّرهم بما أعدّ لهم من الكرامة إنْ أطاعوه ، وما أعدّ لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذمّ أعداءه بسيّئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال ، وينوّع الأدلّة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة .

---

(١) أخرج الترمذى فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٢ ـ باب ماجاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسىّ .

ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل ، ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها . ويذكّر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه . وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكّرهم غناءه عنهم وعن جميع الموجودات . وأنه الغنيّ بنفسه عن كلّ ما سواه. وكل ما سواه فقير إليه . وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلّا بفضله ورحمته . ولا ذرة من الشر فما فوقها إلّا بِعَدْلِهِ وحكمته . وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب . وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلّاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم ، والحامي عنهم ، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم ، والمنجي لهم من كل كرب ، والموفي لهم بوعده . وأنه وليّهم الذى لا وليّ لهم سواه ، فهو مولاهم الحقّ ، وينصرهم على عدوّهم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً جواداً رحيماً جميلًا هذا شأنه ، فكيف لا تحبه ، وتنافس في القرب منه ، وتنفق أنفاسها في التودّد إليه ، ويكون أحبّ إليها من كل ماسواه ، ورضاه آثر عندها من رضى كلّ من سواه ؟ وكيف لا تلهج بذكره ، وتصيّر حبّه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها ؟

اللّهمّ! اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا . وأعِنّا على إكمال ماقصدناه بفضلك . يا أرحم الراحمين .

تمّ « الجـزء الثـالث » عشـيّة الثلاثاء
في ١٠ جمادي الأولى سنة ١٣١٨ في دارنا .

ويليـه « الجزء الرابع »
وأوله سـورة
« آل عمران »

استدراك

فاتنا أن نشير إلى أن الاستدراك الذى ألحقناه بالجزء الأول من قلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد ، الشيخ محمد بهجة البيطار .

وها هو ذا يرسل إلينا استدراكه عما زاغ عنه البصر وطغى فى الجزء الثانى . ننشره هنا شاكرين لفضيلته أجزل الشكر على هذه العناية الدقيقة التى لا يبتغى بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى . وسنختم كل جزء من التفسير باستدراكه على الجزء الذى سبقه . وهكذا .

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٥	ثلاث مواضع	ثلاثة مواضع
١٩	٢	زدناهم هدى	زادهم هدى
٣٢	٣	مذهبان	مذهبين
٣٧	١٢	منه بدا	(يضاف إليه) أى تكلم به حقيقة لا مجازا
	١٣	وإليه يعود	(يضاف إليه) أى لا يبقى له أثر فى الوجود
١٠٥	١٤	الشجرةِ	الشجرةَ
١٠٦	٥	لا تقرب	لاتقرب
١٠٧	٦	واسكنوا	« اسكنوا »
١٠٩	١٦	قال اهبطا	(١) قال اهبطا
١١١	٨	بعصهم	بعضهم
١٢٠	١٧	حسانه	حسابه
١٢٣	٥	غوّ	(لعله) غىّ
١٢٤	فى الذيل	(٢) (٣) (٤)	(١) (٢) (٣)

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٨	٤	« واختار	(١) « واختار
	٥	الرجعة	الرجفة
١٣٧	٢	لا تفسدوا	ولا تفسدوا
١٥٩	١٢	فيخرج منها	فيخرج منه
١٦٠	٣	يهبطَ	يهبطُ
١٦٧	٧	وتحوه	ونحوه
١٧٨	١٢	يشرك بها	يشرك به
١٨٨	٢٠	وبشرًى	وبشرَىٰ
١٩١	١٣	وفيه ردٌّ	وفيه ردٌّ
٢١٣	٩	ما ارتآره	ما ارتآه
٢٢٤	١٦	إثباب	إثبات
٢٣٢	٤	الأرض	والأرضِ
٢٤٧	١٨	اراهيم	إبراهيم
٢٥٠	١١	عينية	عُيَيْنَة
٢٦٨	١٦	يَرجعون	يُرجعون
٢٧٨	٧	سيما	لاسيما
٣١٧	٨و١٨	وسح	وسبح

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء الرابع

وفيه تفسير سورة آل عمران بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لـكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف. رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

«هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيى السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

وهى مدنية. مائتا آية، أو إلا آية . سميت بذلك لأن اصطفاء آل عمران ، وهم عيسى ويحيى ومريم وأمها ، نزل فيه منها ما لم ينزل فى غيره . إذ هو بضع وثمانون آية . وقد جعل هذا الاصطفاء دليلًا على اصطفاء نبينا محمد ﷺ وجعله متبوعاً لكل محب لله ومحبوب له .

وتسمى الزهراء ، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتابين من شأن عيسى عليه السلام. والأمان ، لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط فى شأنه . والكنز ، لتضمنها الأسرار العيسوية . والمجادلة ، لنزول نيّف وثمانين آية منها فى مجادلة رسول الله ﷺ نصارى نجران . وسورة الاستغفار ، لما فيها من قوله : وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[1] . وطيبة ، لجمعها من أصناف الطيبين فى قوله : الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ[1]. إلى آخره ، أفاده المهايمىّ .

والمراد بعمران هو والد مريم، أم عيسى عليهما السلام ، كما يأتى التنويه به فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ[2] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٧] ونصها : الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

(٢) [٣/ آل عمران / ٣٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

[٣] (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« الٓمٓ » سلف الكلام على ذلك أول البقرة . « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » سبق تأويله فى آية الكرسىّ . « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أى القرآن . عبر عنه باسم الجنس إيذاناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد فى حيازة كمالات الجنس، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه ، كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل « بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من الكتب المنزلة قبله .

قال المهايمىّ : أى معرّفاً صدق الكتب السالفة . وقال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيًّا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به ، وتنزيهه عما لا يليق به ، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان . فالقرآن مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك. « وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله . تأكيداً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده . إذ بذلك يترقى شأن مايصدقه رفعة ونباهة، ويزداد فى القلوب قبولاً ومهابة، ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة، واستتباع ماسيذكر من العذاب الشديد والانتقام . قاله أبو السعود .

والتوراة اسم عبرانىّ معناه (الشريعة) . والإنجيل لفظة يونانية معناها (البُشرى)

أى الخبر الحسن . هذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابيْن فى مصنفاتهم . وقد حاول بعض الأدباء تطبيقهما على أوزان لغة العرب واشتقاقهما منها . وهو خبط . بغير ضبط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

« مِنْ قَبْلُ » متعلق بـ«أنزل» ، أى أنزلهما من قبل تنزيل الكتاب . والتصريح به مع ظهور الأمر ، للمبالغة فى البيان « هُدًى لِلنَّاسِ » أى لقوم موسى وعيسى . أو ما هو أعم . لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع « وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ » وهو الكتب السماوية التى ذكرها . لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل . أو هو القرآن . وإنما كرر ذكره عما هو نعت له ، ومدح له ، من كونه فارقاً بين الحق والباطل ، بعد ما ذكره باسم الجنس ، تعظيماً لشأنه ، وإظهاراً لفضله . قال الرازىّ : أو يقال إنه تعالى أعاد ذكره ليبيّن أنه أنزله بعد التوراة والإنجيل ، ليجعله فرقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل . وعلى هذا التقدير فلا تكرار . ثم استظهر حمل الفرقان على المعجزات التى قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب الفارقة بين دعواهم ودعوى الكذابين . قال : فالفرقان هو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها ، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلقة . انتهى .

ويجوز أن يكون المراد بالفرقان (الميزان) المشار إليه فى قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »(١) . والميزان هو العدل فى الأمور كلها ؛ واللفظ مما يشمل ذلك كله لتلاقيها فى المعنى .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ =

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ » أي جحدوا بها « لَهُمْ » بسبب كفرهم بها « عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهذا الوعيد. جيء به إثر ماتقدم حملًا على الإذعان ، وزجراً عن العصيان « وَاللهُ عَزِيزٌ » لا يغالب يفعل ما يشاء « ذُو انْتِقَامٍ » أى معاقبة ، يقال : انتقم الله منه : عاقَبَهُ . والنقمة : المكافأة بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى هو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقيّ وسعيد « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » واضحات الدلالة « هُنَّ

= لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

أُمُّ الْكِتَابِ » أى أصله المعتمد عليه فى الأحكام « وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » وهى ما استأثر الله بعلمها لعدم اتضاح حقيقتها التى أخبر عنها، أو ما احتملت أوجهاً . وجعله كله محكماً فى قوله : (أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ)(١) بمعنى أنه ليس فيه عيب ، وأنه كلام حق فصيح الألفاظ ، صحيح المعانى . ومتشابهاً فى قوله (كِتَاباً مُتَشَابِهاً)(٢) بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الحسن، ويصدق بعضه بعضاً « فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » أى ميل عن استقامة إلى كفر وأهواء وابتداع « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ » أى طلب الإيقاع فى الشبهات واللبس « وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » وحده « وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ » أى الثابتون المتمكنون مبتدأ خبره « يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ » أى بالمتشابه على ما أراد الله تعالى « كُلٌّ » من المحكم والمتشابه « مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » أى العقول الخالصة من الركون إلى الأهواء الزائغة . وهو تذييل سيق منه تعالى مدحاً للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر.

تنبيه :

للعلماء فى المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة . وأبدعُ ما رأيته فى تحرير هذا المقام مقالة سابغة الذيل لشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان. يقول فى خلالها:

المحكم فى القرآن ، تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله ، وتارة يقابل بما نسخه الله ، مما ألقاه الشيطان . ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة، ويجعل المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أولاً اتباعاً للظاهر من قوله : فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءَايَاتِهِ . فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ، ينبغى التفطن لها. وجماع ذلك أن الإحكام تارة يكون فى التنزيل. فيكون فى مقابلته ما يلقيه الشيطان. فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما ليس منه ، فإن الإحكام هو الفصل والتميز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشىء ويحصل إتقانه ،

(١) [١١ / هود / ١] ونصها : الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

ولهذا دخل فيه معنى النع ، كما دخل فى الحد بالمنع جزء معناه ، لاجميع معناه . وتارة يكون فى إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحىّ . أو يقال (وهو أشبه) : السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة ، فكل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فهو منسوخ فى اصطلاح السلف . وإلقاء الشيطان فى أمنيته قد يكون فى نفس لفظ المبلِّغ ، وقد يكون فى مسمع المبلَّغ ، وقد يكون فى فهمه ، كما قال : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا[1] . ومعلوم أن من سمع ، سمعَ النص الذى قد رفع حُكْمُهُ ، أو دلالة له ، فإنه يلقى الشيطان فى تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ ، فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به رُفِعَ الحكم ، وَبَانَ المراد . وعلى هذا التقدير ، فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ . بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتارة يكون الإحكام فى التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها ، حتى لا تشتبه بغيرها . وفى مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين ، ولم يقل فى المتشابه (لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله) ، وإنما قال : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين فى هذا الموضع . فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو . والوقف هنا . على ما دل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمهور التابعين ، وجماهير الأمة . ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره ، بل قال : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ[2] . وهذا يعم الآيات

(١) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٢٩] ونصها : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

المحكمات والآيات المتشابهات . وما لايعقل له معنى لايتدبر، وقال: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ(١) . ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه ، فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه . يبيّن ذلك أن التأويل، قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم كحيّ بن أخطب وغيره مَن طلب من حروف الهجاء التى فى أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصابئة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً . لأن ذلك هو عدد ما للحروف فى حساب الجمل ، بعد إسقاط المكرر . وهذا من نوع تأويل الحوادث التى أخبر بها القرآن فى اليوم الآخر . وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى وفد نجران مَنْ تأوّل (إنّا ونحن) على أن الآلهة ثلاثة . لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل فى الإيمان بالله. فأولئك تأولوا فى اليوم الآخر. وهؤلاء تأولوا فى الله. ومعلوم أن (إنّا ونحن) من المتشابه. فإنه يراد بها الواحد الذى معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد الذى معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه ، ويراد الواحد المعظم نفسه ، الذى يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التى كل اسم منها يقوم مقام مسمى . فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد ، والمعنى متنوع ، والأسماء المشتركة فى اللفظ هى من المتشابه ، وبعض المتواطئ أيضاً من المتشابه. ويسميها أهل التفسير (الوجوه والنظائر) وصنفوا كتب الوجوه والنظائر . فالوجوه فى الأسماء المشتركة ، والنظائر فى الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين فى ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً فى الأسماء المشتركة، فهى نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ماقاله،

---

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا .

و [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا.

بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله . والذين فى قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذى لا اشتباه فيه مثل : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ (١) . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي (٢) . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ (٣) . وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (٤) . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٥) . ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وحرفوا الكلم عن مواضعه . وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التى أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان : إنشاء فيه الأمر ، وإخبار. فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف : إن السنة هى تأويل الأمر . قالت عائشة رضى الله عنها (٦) : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفرلى . يتأول القرآن ، تعنى قوله : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٧). وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع.

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٣] ونصها : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ .

(٢) [٢٠ / طه/ ١٤] ونصها: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

(٣) [٢٣ / المؤمنون/ ٩١] ونصها : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢] ونصها : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٣و٤] .

(٦) أخرجه البخارىّ فى: ١٠ـ كتاب الأذان، ١٣٩ـ باب التسبيح والدعاء فى السجود .

(٧) [١١٠ / النصر / ٣] .

ليس تأويله فهم معناه ، وقد جاء اسم التأويل فى القرآن فى غير موضع . وهذا معناه. قال الله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُـدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ(١) فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لايشتبه ، ثم قال : هَلْ يَنظُرُونَ ، أى ينتظرون ، إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله . إلى آخر الآية . وإنما ذلك مجىء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها . كالدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربهـا ومجىء ربك والملك صفا صفا ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك . فحينئذ يقولون : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ . وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لايعلم وقته وقدره وصفته إلا الله . فإن الله يقول: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ(٢) . ويقول(٣) : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء، فإن الله قد أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع

(١) [٧ / الأعراف / ٥٢و٥٣] ونصهما : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ. ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ، قال الله: أعددت..الخ.

التشابه . كما فى قوله : وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً(١) على أحد القولين أى يشبه مافى الدنيا ، وليس مثله . فأشبه اسمُ تلك الحقائق أسماءَ هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائقُ الحقائقَ من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لاندركها فى الدنيا ، ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه ، وتلك الحقائق على ماهى عليه هى تأويل ما أخبر الله به ، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم . فإنهم ينكرون أن يكون فى الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل فى الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحانىّ ، إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد . وإن كان من منافقة الملّتين المقرين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهيم النعيم الذى فى الجنة من الروحانىّ والسماع الطيب والروائح العطرة . كلّ ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته. وكان فى هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون فى الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذى يعلمونه فى الدنيا ، قال الله تعالى : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، فإن تلك الحقائق قال الله فيها : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ(٢) ، لا ملك مقرب ولا نبىّ مرسل . وقوله : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ . إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على المتشابه . فإن

(١) [٢ / البقرة / ٢٥] ونصها : وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

كان عائداً على الكتاب لقوله: منه. ومنه: فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، فهذا يصح . فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التى فيها إخبار عن الغيب الذى أمرنا أن نؤمن به ، لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله: وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ(١) . فجعل التأويل الجائى الكتاب المفصل ، وقد بينا أن ذلك التأويل لايعلمه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله . وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا . وكذلك قوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . وإذا كان التأويل الكتاب كله والمراد به ذلك، ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ـ إلى قوله ـ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ(٢). وكذلك قوله : يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً(٣) . فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله . وهذا واضح بيّن ، ولا ينافى كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها. فهذا هذا .

---

(١) انظر الهامش رقم ١ ص ٧٥٦ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٣] .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه كما يقوله كثير من الناس ، فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه، بخلاف الأمر والنهي . ولهذا في الآثار : العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه. لأن المقصود في الخبر الإيمان. وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه. بخلاف الأمر والنهي فإنه متميز غير مشتبه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع . وأمور نتركها لابد أن نتصورها .

ومما جاء من لفظ التأويل في القرآن قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ[(١)] والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه ، وهو يعود إلى القرآن . قال تعالى: وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ[(٢)] . فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله . وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفي كقوله: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ[(٣)] لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله. كما تحداهم وطالبهم لما قال: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[(٤)] ، فهذا تعجيز

---

(١) [١٠ / يونس/ ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣٧ـ٤٠] .

(٣) [١١ / هود / ١١٧] .

(٤) [١٠ / يونس / ٣٨] .

لجميع المخلوقين . قال تعالى : وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ[1] ، أى مصدق الذى بين يديه ، وتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ، أى مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذى بين يديه ومفصل الكتاب . والكتاب اسم جنس . ولما تحدى القائلين : افْتَرَاهُ ، ودل على أنهم هم المفترون، قال : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . ففرق بين الإحاطة بعلمه، وبين إتيان تأويله .

فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معانى الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به . وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به . فمعرفة الخبر هى معرفة تفسير القرآن . ومعرفة المخبر به هى معرفة تأويله . وهذا هو الذى بيناه فيما تقدم .

إن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر به محكمه ومتشابهه ، وإن لم يعلم تأويله . ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا[2] . فقد أخبر، ذماً للمشركين ، أنه إذ قرئ عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم فى ذلك . وقوله : أَنْ يَفْقَهُوهُ . يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه . ولهذا قال الحسن البصرى : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فى ماذا أنزلت وماذا عنى بها . وما استثنى من ذلك لامتشابهاً ولا غيره . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٥و٤٦] .

أقفه عند كل آية وأسأله عنها. فهذا ابن عباس حبر الأمة، وهو أحد من كان يقول: لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، يجيب مجاهداً عن كل آية فى القرآن . وهذا هو الذى جعل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل . لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه . فظن أن هذا هو التأويل المنفىّ عن غير الله. وأصل ذلك أن لفظ التأويل، وبه أشير إلى بين ماعناه الله فى القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف ، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين . فبسبب الاشتراك فى لفظ (التأويل) اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور فى القرآن .

ومجاهد إمام التفسير ، قال الثورىّ : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وأما التأويل فشأن آخر . ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحدمنهم عن تفسير آية من كتاب الله وقال : هذه من المتشابه الذى لا يعلم معناه ، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن فى القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والإيمان جميعهم . وإنما قد ينفون علم بعض ذلك على بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه ، وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام فى آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك. فلقبوها ، هل يجوز أن يشتمل القرآن على مالا يعلم معناه ، وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم ؟ فجوّز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية ، وبأن الله يمتحن عباده بماشاء . ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التى هى تحريف الكلم عن مواضعه . والغالب على كلتا الطائفتين الخطأ. أولئك يقصرون فى فهمهم القرآن بمنزلة من قيل فيه : وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[1]. وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . ومن المتأخرين من وضع المسألة

(١) [٢ / البقرة / ٧٨] .

بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئاً ، خلافاً للحشوية . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له ؛ وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه . وبين نفى المعنى عند المتكلم ، ونفى الفهم عند المخاطب ، بون عظيم . ثم احتج بما لا يجرى على أصله ، فقال: هذا عبث ، والعبث على الله محال ، وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً ، بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع فى الحروف ، وهى عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صريح ، ولا عقل صحيح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم أن مدعى التأويل أخطؤوا فى زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفى دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلم عن مواضعه . فإن الأولين ، لعلمهم بالقرآن والسنن ، وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف ، وكلام العرب ، علموا يقيناً أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن . فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون للأخبار والأوامر . وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء . وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء فى اليوم الآخر وفى آيات القدر ، ويتأولون آيات الصفات . وقد وافقهم بعض متأخرى الأشعرية على ما جاء فى بعض الصفات ، وبعضهم فى بعض ما جاء فى اليوم الآخر . وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان يغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه.

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة ، وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن . ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرؤونه ويتلونه وهم لا يفهمونه . وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطؤوا فى معنى التأويل الذى نفاه الله ، وفى التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك

مبتدعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ، ولكن بفرية على الله ، وقول عليه مالا يعلمونه ، وإلحاد فى أسمائه وآياته . فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك فى لفظ التأويل . فإن التأويل فى عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول على كذا ، قال الآخر: هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . والتأول عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات ، إذا صنف بعضهم فى إبطال التأويل ، أو ذم التأويل، أو قال بعضهم : آيات الصفات لا تؤول ، وقال الآخر : بل يجب تأويلها ، وقال الثالث : بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ، ويترك عند المصلحة ، أو يصح للعلماء دون غيرهم، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل فى لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما ـ تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذى عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله . ومحمد بن جرير الطبرى يقول فى تفسيره : القول فى تأويل قوله كذا وكذا. واختلف أهل التأويل فى هذه الآية . ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

والمعنى الثانى ـ فى لفظ السلف وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً هو نفس المراد بالكلام . فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب . وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشىء المخبر به . وبين هذا المعنى والذى قبله بون . فإن الذى قبله يكون التأويل

فيه من باب العلم ، والـكلام كالتفسير والشرح والإيضاح . ويكون وجود التأويل فى القلب واللسان، له الوجود الذهنىّ واللفظىّ والرسمىّ. وأماهذا، فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبلة . فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها . وهذا الوضع والعرف . الثالث هو لغـة القرآن التى نزل بها ، وقد قدمنا التبيين فى ذلك . ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف: وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ(1) . وقوله : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ*قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ(2). وقول الملأ: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ(3). وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(4). وقول يوسف لما دخلوا عليه مصر وآوى إليه أبويه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ(5) .

---

(1) [١٢/ يوسف / ٦] ونصها : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(2) [١٢ / يوسف / ٣٦و٣٧] . . . قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ، إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

(3) [١٢ / يوسف / ٤٤] .

(4) [١٢ / يوسف / ٤٥] .

(5) [١٢ / يوسف / ٩٩] ونصها : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا(١) .

فتأويل الأحاديث التى هى رؤيا المنام هى نفس مدلولها التى تؤول إليه، كما قال يوسف : هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ(١) . والعالم بتأويلها الذى يخبر به ، كما قال يوسف : لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ . أى فى المنام . إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . أى قبل أن يأتيكما التأويل . وقال الله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(٢) قالوا : أحسن عاقبة ومصيراً ، فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذى هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأويل فى سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا ، والتأويل فى الأعراف ويونس تأويل القرآن، وكذلك فى سورة آل عمران . وقال تعالى فى قصة موسى والعالم : قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٣) . إلى قوله : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٤). فالتأويل هنا تأويل الأفعال التى فعلها العالم

(١) [١٢ / يوسف ١٠٠] . . . وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . . .

(٣) [١٨ / الكهف / ٧٨] .

(٤) [١٨ / الكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...

من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار . فهو تأويل عمل، لا تأويل قولٍ ، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوّله يؤوله تأويلًا ، مثل حوّل تحويلًا ، وعول تعويعلًا . و (أوّل يؤوّل) تعدية (آل يؤول أوْلا)،مثل حال يحول حولًا، وقولهم (آل يؤول) أى عاد إلى كذا ورجع إليه ، ومنه المـآل ، وهو مايؤول إليه الشيء. ويشاركه فى الاشتقاق الموئل ، فإنه وَأَل ، وهذا من أَوَل ، والموئل المرجع ، قال تعالى : وَلَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا . ومما يوافقه فى اشتقاقه الأصغر الآل ، فإن آل الشخص من يؤول إليه ، ولهذا لايستعمل إلافى عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤول إليه الآل . كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون . بخلاف الأهل . والأول أفعل ، لأنهم قالوا فى تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى ، وفى القصص : وله الحمد فى الأولى والآخرة . ومن الناس من يقول فوعل ويقول (أوّلة) إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لافوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف . سمى المتقدم أول ـ والله أعلم ـ لأن ما بعده يؤول إليه ويبنى عليه ، فهو أس لمـا بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى لا من باب أحمر وحمراء، ولهذا يقولون: جئته أول من أمس وقال : مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ[1] . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[2] . وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ[3] .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٨] ونصها : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] ونصها : وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ .

ومثل هذا أول هؤلاء ، فهذا الذى فضل عليهم فى الأوّل ، لأن كل واحد يرجع إلى ماقبله ، فيعتمد عليه ، وهذا السابق ، كلهم يؤول إليه . فإن من تقدم فى فعل، فاستبق به من بعده ، كان السابق الذى يؤول الكل إليه . فالأول له وصف السؤدد والاتباع . ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود . والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدى خلاف العائد . لأنه إنما كان أولًا لما بعده ، فإنه يقال (أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) ، و (أَوَّلَ يَوْمٍ) ، فما فيه من معنى الرجوع والعود ، هو للمضاف إليه لا للمضاف . وإذا قلنا: آل فلان فالعود فى المضاف . لأن ذلك صيغة تفضيل فى كونه مآلًا ومرجعاً لغيره . لأن كونه مفضلًا دل على أنه مآل ومرجع ، لا آيل راجع . إذ لافضل فى كون الشيء راجعاً إلى غيره ، آيلًا إليه ، وإنما الفضل فى كونه هو الذى يُرجع إليه ويُؤال . فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل فى كونه مآلًا ومرجعاً، والتفضيل المطلقُ فى ذلك يقتضى أن يكون هو السابق المبتدئ . والله أعلم .

فتأويل الكلام ماأوّله إليه المتكلم أومايؤول إليه الكلام أو ماتأوله المتكلم. فإن التفعيل يجرى على غير فعّل كقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا[1] ، فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلًا ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل . كعدل وصوم وفطر، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله . فالتأويل هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه. والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول ويُؤَوَّل إلى حقيقته التى هى عين المقصود به ، كما قال بعض السلف فى قوله : لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[2] . قال: حقيقة . فإن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع ، بل كان كذباً . وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإلا لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلًا ، ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً

---

(١) [٧٣ / المزمل / ٨] ونصها : وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٧] .

فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول. كما روى عن النبيّ ﷺ أنه تلا هذه الآية: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا(١). قال: إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد.

فصل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كلٌّ واحد من القولين طوائفُ من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم ، وإن أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدعٍ وقع فيها غيرهم، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول ـ من قال إن هذا من المتشابه وأنه لايفهم معناه. ماالدليل على ذلك ؟ فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة، لا أحمد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل فى هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمىّ الذى لا يفهم . ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه . وإنما قالوا: كلمات لها معان صحيحة . قالوا فى أحاديث الصفات : تُمرّ كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية وردّوها وأبطلوها . التى مضمونها تعطيل النصوص على مادلت عليه . ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة فى أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على مادلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض مادلت عليه ، كما يفهمون ذلك فى سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال فى غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت فى

(١) [٦ / الأنعام / ٦٥] . . . وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْض ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ .

أحاديث الوعد . مثل : من غشنا فليس منا[١] . وأحاديث الفضائل . ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كله عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلا، بالعرف المتأخر.

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل . وكذلك نص أحمد فى كتاب الرد على الزنادقة الجهمية أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن . وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره . بل يبين ويفسر. فاتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو إلحاد فى أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب ، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين ، والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل: إن هذا هو التأويل المذكور فى الآية ، وأنه لا يعلمه إلا الله ، لكان فى هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلا يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله . وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها ، لا التوقف عنها . وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى . لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه ، أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه فى القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار والعليم والقدير والرؤوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل سورة الإخلاص وآية الكرسىّ وأول الحديد وآخر الحشر ، وقوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، و : عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، و : إِنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، و : الْمُقْسِطِينَ ، و : الْمُحْسِنِينَ ، وأنه : يَرْضَىٰ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٦٤ ونصه : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

و : لَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ(١) . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ(٢) . وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ(٣) . الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ(٤) . ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ(٥) . يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ(٦) . وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٧) . إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ(٨) . إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ(٩) .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٨] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

(٣) [٩ / التوبة / ٤٦] ونصها : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٦) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٧) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] .

(٨) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٩) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ(١) . مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ(٢) . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ(٣) . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٤) . يُرِيدُونَ وَجْهَهُ(٥) . وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي(٦) . إلى أمثال ذلك . فيقال لمن ادعى فى هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هـذا فى جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم فى البعض ؟ فإن قلت هذا فى الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ، وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، بل كفر صريح . فإنا نفهم من قوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، معنى . ونفهم من قوله :

(١) [٦ / الأنعام/٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .

(٥) [١٨ / الكهف / ٢٨] ونصها : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

(٦) [٢٠ طه / ٣٩] ونصها : أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي .

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ(١) . معنى . ونفهم من قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٢)، معنى. وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا .

وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث ، لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ، من يقول : إنا نسمى الله الرحمن الرحيم العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك فى قوله : وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ. يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم . وهذا الغلو فى الظاهر ، من جنس غلو القرامطة فى الباطن . لكن هذا أيبس وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود ، أو على حق موجود ، أم لا؟ فإن قال: لا ، كان معطلاً محضاً. وما أعلم مسلماً يقول هذا . وإن قال: نعم قيل له: فهل فهمت منها دلالتها على نفس الرب، ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعانى من الرحمة والعلم، وكلاهما فى الدلالة سواء؟ فلابد أن يقول: لأن ثبوت الصفات محال فى العقل، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث. بخلاف الذات. فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثانى كما سنذكره . وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض. فيقال له: ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته أو سكت عن إثباته ونفيه؟ فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع، لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة، بخلاف الآخر. أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر، وكلا الوجهين

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] ونصها : فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

باطل فى أكثر المواضع ، أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير عليّ عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص . وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته . وأما الثانى فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر : لم نفيت ، مثلاً ، حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة فى حقنا هى رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة فى حقنا هى ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه . قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه . وكذلك محبته . وإن قال (وهو حقيقة قوله) : لم أُثْبِت الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما أثبتُّ العلم والقدرة والإرادة بالعقل . وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين . لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على العلم . والتخصيص دل على الإرادة . قيل له : الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والإدناء . وأنواع التخصيص التى لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة . وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص ، والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص ، وما سلكه فى مسلك الإرادة يسلك فى مثل هذا .

الثانى ـ يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا ، فإنه لا ينفيه إلا بمثل ما ينفى به الإرادة ، والسمع دليل مستقل بنفسه ، بل الطمأنينة إليه فى هذه المضايق أعظم ، ودلالته أتم ، فلأى شىء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة ؟ مع أن النصوص تفرق . فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها فى إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث ـ يقال له : إذا قال لك الجهمىّ : الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه ، أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضى محذوراً إن قال بقدمها ، ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة . فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم . ولا يقولون بتجدد صفة له ، لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم . مع تناقضهم .

فصاروا حزبين :

البغداديون ـ وهم أشد غلوّاً فى البدعة فى الصفات وفى القدر ، نفوا حقيقة الإرادة . وقال الجاحظ : لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبىّ : لا معنى لها إلا نفس الفعل ، إذا تعلقت بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عباده .

والبصريون ـ كأبى علىّ وأبى هاشم . قالوا : تحدث إرادة لا فى محل ، فلا إرادة . فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل ، وكلاهما عند العقل معلوم الفساد بالبديهة . كان جوابه : أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها ، والفعل أيضاً . فإذا أخذ الخصم ينازع فى دلالة النص أو العقل ، جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود فى الرحمة والمحبة ، فإن خصومه ينازعونه فى دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعىّ .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله فى العليم والقدير ، وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعانى ، وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب ماقررناه فى غير هذا الموضع ، فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفى به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويُلْزَمُون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية، والضرورة العقلية، والقواطع العقلية، واتفاق الأمم، وغير ذلك من الدلائل . ثم يطالبون بوجودٍ من جنس مانعهده، أو بوجودٍ يعلمون كيفيته ، فلابد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق . فالقول فى سائر ما سمى ووصف به نفسه ، كالقول فى نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة ، لابد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى ، وانتفاء المانع . وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن عنده مقتض ولا مانع ، فيُبيَّن له أن المقتضى فيما نفاه قائم ، كما أنه فيما أثبته قائم . إما من كل وجه ، أو من وجه يجب به الإثبات . فإن كان المقتضى هناك حقًّا ، فكذلك هنا . وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا . وأما المانع فيبين أن المانع الذى تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذى تخيله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره بإثبات أحدهما ونفى الآخر ، فإنه إن كان حقًّا نفاهما ، وإن كان باطلًا لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوى بين الأمرين فى الإثبات والنفى ، ولا سبيل إلى النفى فتعين الإثبات . فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً . وما من أحد إلا ولابد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته ، فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التى يدعى أنها موجبة النفى خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غيره مرة .

فإن قال مَنْ أثبت هذه الصفات التى هى فينا أعراض كالحياة والعلم والقدرة ، ولم يثبت ما هو فيها أبعاض كاليد والقدم : هذه أجزاء وأبعاض تستلزم التركيب والتجسيم . قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلى ، كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسى . فإن أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها ، قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً أو تسميتها تركيباً وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فإن قال : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض .

فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية ، قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك فى حق الله محال . فمفارقة الصفات القديمة مستحيلة فى حق الله تعالى مطلقاً ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل : وهذا تجسيم والتجسيم منتف .

فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز ، وإن لم يكن له فى الشاهد نظير ، قيل له : فاعقل صفة هى لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له فى الشاهد نظير . فإن نفى عقل هذا نفى عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فرق ، لكنه فرق غير مؤثر فى موضع النزاع . ولهذا كانت المعطلة الجهمية تنفى الجميع لكن ذاك أيضاً مستلزم لنفى الذات، ومن أثبت هذه الصفات الخبرية من نظير هؤلاء ، صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس هو معقول النص ، ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

وأصل ذلك أنهم أتوا بألفاظ ليست فى الكتاب ولا فى السنة ، وهى ألفاظ مجملة . مثل متحيز ومحدد وجسم ومركب ، ونحو ذلك ، ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلّمة ، ومدلولاً عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه فى إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء ، فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعىّ لا يقبل الترك لمعارض راجح ، فرأوا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ومن جهة العقل من ناحية أخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلّبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة ، وتارة يغلبون القياس الثانى ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضىّ ، فإنه قد قيل : أول ما تُكُلِّم فى الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبى الهذيل العلاف ، فإن أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس وعارضهم هشام وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته ، واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيرَه ، ويوجب ما أحال نظيرَه ، إذ كلامهم من

عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(١) .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع فى ذلك سبل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان . والمعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا تردّ بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه . ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . ولا يترك تدبر القرآن ، فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ . فهذا أحد الوجهين . وهو منع أن تكون هذه من التشابه .

الوجه الثانى : أنه إذا قيل هذه من التشابه ، أو كان فيها ما هو من التشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال: الذى فى القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله ، إما المتشابه ، وإما الكتاب كله كما تقدم. ونفى علم تأويله ليس نفى علم معناه كما قدمناه فى القيامة وأمور القيامة . وهذا الوجه قوىّ إن ثبت حديث ابن إسحق فى وفد نجران ، أنهم احتجوا على النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله « إنّا ونحن » ونحو ذلك ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن فى القرآن متشابهاً ، وهو ما يحتمل معنيين ، وفى مسائل الصفات ما هو من هذا الباب ، كما أن ذلك فى مسائل المعاد وأولى ، فإن نفى التشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفى التشابه بين موعود الجنة وموجود الدنيا ، وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفى علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى ، ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ(٢) وقال

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٧و٢٨] .

تعـالى : الٓر ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْـكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [١] فأخـبر أنه أنزله ليعقلوه ، وأنه طلب تذكرهم . وقال أيضاً : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَـكَّرُونَ [٢] فحض على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفـكير فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه ، مثل قوله : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [٣] وقوله : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [٤] ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله ، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفى مخالفة ما لم يتدبر لمـا تدبر . وقال علىّ عليه السلام[٥] لمـا قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا ! والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة ، فأخبر أن الفهم فيه مختلف فى الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعـالى : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ،

---

(١) [١٢ / يوسف / ١و٢] .

(٢) [٥٩/ الحشر/ ٢١] وأولها : لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ،

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] .

(٤) [٤ / النساء / ٨٢] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٢٤ ـ باب العاقلة . ونصه :

عن أبى جُحَيفة قال : سألت عليًّا رضى الله عنه : هل عندكم شىء ما ليس فى القرآن ؟ (وقال مرة : ليس عند الناس) فقال : والذى فلق الحب وبرأ النسمة ! ما عنـدنا إلا ما فى القرآن ، إلا فهماً يُعْطَى رجل فى كتابه . وما فى الصحيفة . قلت : وما فى الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفـكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً[١] . وقال النبيّ ﷺ[٢] : رب مبلَّغ أوعى من سامع ، وقال[٣] : بلغوا عنى ولو آية . وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا فى جميع نصوص القرآن، آيات الصفات وغيرها. وفسروها بما يوافق دلالتها . ورووا عن النبيّ ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن . وأئمة الصحابة فى هذا أعظم من غيرهم. مثل عبدالله ابن مسعود الذى كان يقول : لو أعلمُ أعلمَ بكتاب الله منى تبلغه آباط الإبل لأتيته .

(١) [٢١ / الأنبياء/ ٧٩] ونصها : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج، ١٣٢ ـ باب الخطبة أيام منى . ونصه :

عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : خطبنا النبيّ ﷺ يوم النحر . قال « أتدرون أى يوم هـذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال « أى شهر هـذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال « أليس ذو الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليست بالبلدة الحرام ؟ » قلنا: بلى. قال « فإن دماءكم وأموالكم علىّ حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هـذا إلى يوم تلقون ربكم . ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال « اللهم ! اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلَّغ أوعى من سامع . فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل ونصه :

عن عبدالله بن عمرو أن النبيّ ﷺ قال « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وعبدالله بن عباس الذى دعا له النبىّ ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبىّ ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا ، وما فى التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما فى عِلْية التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلالةً ، أصحاب زيد بن ثابت ، لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر ، وابن عمر ، وابن عباس . ولو كان معانى هذه الآيات منفيًّا أو مسكوتاً عنه، لم يكن ربانيو الصحابة أهلُ العلم بالكتاب والسنة أكثرَ كلاماً فيه . ثم إن الصحابة نقلوا عن النبىّ ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمىّ : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبىّ ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل . وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية . كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى : الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك ربيعة قبله . وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول. فليس فى أهل السنة من ينكره . وقد بيّن أن الاستواء معلوم ، كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ، ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى ؟ ولم يقل مالك : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون: لا تخطر كيفيته ببال ، ولا تجرى ماهيته فى مقال . ومنهم من يقول : ليس له كيفية ولا ماهية . فإن قيل : معنى قوله (الاستواء معلوم) أن ورود هذا اللفظ فى القرآن معلوم كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذى استأثر الله بعلمه ، قيل : هذا ضعيف ، فإن هذا

من باب تحصيل الحاصل ، فإن السائل قد علم أن هـذا موجود فى القرآن ، وقد تلا الآية ، وأيضاً فلم يقل ذكر الاستواء فى القرآن ، ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال : الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، لم يخبر عن الجملة . وأيضاً فإنه قال : والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء ، لا العلم بنفس الاستواء ، وهـذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه . لو قال فى قوله : إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى[1] ، كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤية معلوم ، والكيف مجهول . ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ؟ لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم . وأيضاً فإن من قال هـذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأن ذاته فوق ذات العرش ، لاينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من المتشابه الذى لا يعلم معناه بالكلية . ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش : علا على العرش . وقال بعضهم عبارات أخرى . وهذه ثابتة عن السلف . وقد ذكر البخارىّ فى صحيحه بعضها فى آخره ، فى (كتاب الرد على الجهمية)[2] .

وأما التأويلات المحرفة مثل استولى وغير ذلك ، فهى من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية . وأيضاً قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس فى خصوص الصفات، بل فى صحيح البخارىّ[3]

(١) [٢٠ / طه / ٤٦] وأولها : قَالَ لَا تَخَافَا ،

(٢) كتاب الرد على الجهمية من صحيح البخارىّ هو : ٩٧ ـ كتاب التوحيد .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١ـ باب مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ =

أن النبيّ ﷺ قال لعائشة : يا عائشة ! إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله ، فاحذريهم، وهذا عامّ . وقصة صُبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا[١]، فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن ، حتى رآه عمر ، فسأل عمرَ عن : الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا[٢] فقال : ما اسمك ؟ قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبدالله عمر ، وضربه الضرب الشديد . وكان ابن عباس إذا ألحّ عليه رجل فى مسألة من هذا الجنس يقول: ما أحوجك أن يُصنع بك كما صنع عمر بصبيغ . وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبيّ عليه الصلاة والسلام[٣] : إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه . وكما قال تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذى يعارض بين آيات القرآن . وقد نهى النبيّ ﷺ عن ذلك وقال[٤] : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبهم

= زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ـ إلى قوله: أُولُوا الْأَلْبَابِ . قالت : قال رسول الله ﷺ « فإذا رأيتِ الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذى سمى الله فاحذروهم » .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٩٩ من الجزء الأول ، ففيها تفصيل ذلك .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١] .

(٣) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٧٨١ .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : المقدمة ، ١٠ ـ باب فى القدر ، حديث ٨٥ (طبعتنا) ونصه: عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون فى القدر ، فكأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان ، من الغضب . فقال « بهذا أُمرتم أو لهذا خُلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلكت الأمم قبلكم » .

قال فقال عبدالله بن عمرو: ما غبطت نفسى بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ =

ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذى لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ، ومطلوبهم متعذراً ، مثل أغلوطات المسائل التى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها(١) . ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات . وقد تكلم الصحابة فى تفسيرها مثل علىّ بن أبى طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها ، كره سؤاله ، لما رآه من قصده . لكن علىّ كان رعيته ملتوية عليه ، لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس فى اللفظ ذكر الموصوف . والتأويل الذى لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر . وكذلك فى الجاريات والمقسمات ، فهذا لا يعلمه إلا الله تعالى . وكذلك فى قوله « إنا ونحن » ونحوهما من أسماء الله التى فيها معنى الجمع كما اتبعته النصارى ، فإن معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعانى بمنزلة الأسماء المتعددة ، مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فإن المسمى واحد ، ومعانى الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذى لفظه الجمع . وأما التأويل الذى اختص الله به ، فحقيقة ذاته وصفاته ، كما قال مالك : والكيف مجهول فإذا قالوا : ماحقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره؟ قيل : هذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله . وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله .

= ما غبطت نفسى بذلك المجلس وتخلفى عنه .

قال فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن رجل من أصحاب النبىّ ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الغلوطات . قال الأوزاعىّ : الغلوطات شداد المسائل وصعابها .

فإن قيل : فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس[١] : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . قيل : أما تأويل الأمر والنهى فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفى هو تأويل الأخبار التى لا يعلم حقيقة مَخْبَرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذى يعلم العباد تأويله . وهذا كقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ [٢] وقوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ [٣] فإن المراد تأويل الخبر الذى فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذى ينتظر ويأتى ، ولما يأتهم . وأما تأويل الأمر والنهى فذاك فى الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل فى التأويل لا ينتظر ، والله سبحانه أعلم وبه التوفيق . انتهى كلام الشيخ تقى الدين.

وإنما سقته بطوله لماأن هذاالبحث من المعارك المهمة التى قل من حررها ونهج فيها منهج الحق كالشيخ قدس سره. مع مافى خلال البحث من القواعد الجليلة فى فن التفسير. فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : المقدمة ، ١١ـ باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ١٦٦ (طبعتنا) ونصه : عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ . وقال « اللهم ! علمه الحكمة وتأويل الكتاب » .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٣) [١٠ / يونس/ ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

وقال الإمام الجليل أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليمانىّ فى كتاب « إيثار الحق على الخلق » فى بحث سبب الاختلاف الشديد بين الفرق مانصه :

وأما الأصل الثانى وهو السمعىّ فهو اختلافهم فى أمرين :

أحدهما ـ فى معرفة المحكم والمتشابه أنفسهما والتميز بينهما حتى يردّ المتشابه إلى المحكم ،

وثانيهما ـ اختلافهم هل يعلمون تأويل المتشابه ، ثم اختلافهم فى تأويله على تسليم أنهم قد عرفوا المتشابه .

ولنذكر سبب وقوع المتشابه على العقول من حيث الحكمة والدقة فى كتب الله تعالى أولًا ، والمشهور أن سببه الابتلاء بالزيادة فى مشقة التكليف لتعظيم الثواب ، وهذا أنسب بالمتشابه من حيث اللفظ . وأما أنا فوقع لى أن سببه زيادة علم الله على علم الخلق ، فإن العوائد التجربية ، والأدلة السمعية ، دلت على امتناع الاتفاق فى تفاصيل الحكم ، وتفاصيل التحسين والتقبيح ، ولذلك وقع الاختلاف بين أهل العصمة من الملائكة والأنبياء ، كما قال تعالى حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ »[(١)] وحكى الله تعالى اختلاف سليمان وداود ، وموسى وهرون ، وموسى والخضر . وصح فى الحديث[(٢)] اختلاف موسى وآدم ، واختلاف الملائكة فى حكم قاتل

---

(١) [٣٨ / صٓ / ٦٩] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣١ ـ باب وفاة موسى وذكره بعد، حديث ١٦٠٤ ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى . فقال له موسى : أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومنى على أمر قدِّر علىّ قبل أن أخلق ؟ » فقال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى » مرتين .

المئة نفس[١] ، إلى أمثال لذلك قد أفردتها لبيان امتناع الاتفاق فى نحو ذلك ، وإن علة الاختلاف التفاصيل فى العلم ، فوجب من ذلك أن يكون فى أحكام الله تعالى وحكمه ما تستقبحه عقول البشر ، لأن الله تعالى لو ماثلنا فى جميع الأحكام والحكم دل على مماثلته لنا فى العلم المتعلق بذلك وفى مؤداه ولطائفه وأصوله وفروعه ، ولذلك تجد الأمثال والنظراء فى العلوم أقل اختلافاً ، خصوصاً من المقلدين . وإنما عظم الاختلاف بين الخضر وموسى لما خص به الخضر عليهما السلام. وهذه فائدة نفيسة جداً، وبها يكون ورود المتشابه أدل على الله تعالى وعلى صدق أنبيائه ، لأن الكذابين إنما يأتون بما يوافق الطباع، كما هو دين القرامطة والزنادقة . وقد أشار السمع إلى ذلك بقوله تعالى: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ[٢] . وقال فى رسول الله ﷺ : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[٣]. وكيف يستنكر اختلاف الإنسان الظلوم الجهول وعلام الغيوب الذى جمع معارف

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٦٢٩ ونصه :

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا . ثم خرج يسأل. فأتى راهباً فسأله . فقال له : هل من توبة ؟ قال: لا. فقتله . فجعل يسأل . فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدره نحوها . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه : أن تقرّبى. وأوحى الله إلى هذه : أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما . فوُجد إلى هذه أقرب بشبر . فغُفِرَ له » .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١] ونصها: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ .

(٣) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ =

العارفين في علمه مثل ما أخذه العصفور فى منقاره من البحر الأعظم؟ بل كيف لا يختص هذا الرب الأعظم بمعرفة ما لا نعرفه من الحكم اللطيفة التى يستلزم تفرده بمعرفتها أن يتفرد بمعرفة حسن ما تعلقت به وتأويله ، وبهذا ينشرح صدر العارف للإيمان بالمتشابه ، والإيمان بالغيب فى تأويله. ولنذكر بعد هذا كل واحد من الأمرين القدم ذكرهما على الإيجاز .

أما الأمر الأول ـ وهو اختلافهم فى ماهيتهما . فمنهم من قال : المحكم ما لا يحتمل إلا معنى واحداً ، والمتشابه ما احتمل أكثر من معنى . فهؤلاء رجعوا بالمحكم إلى النص الجلى ، وما عداه متشابه . وعزاه الإمام يحيى إلى أكثر المتكلمين وطوائف من الحشوية . ومنهم من قال : المحكم ما كان إلى معرفته سبيل ، والمتشابه ما لا سبيل إلى معرفته بحال ، نحو قيام الساعة والحكمة فى العدد المخصوص فى حملة العرش ، وخزنة النار . ومنهم من قصر المتشابه على آيات مخصوصة. ثم اختلفوا، فمنهم من قال : هى الحروف المقطعة فى أوائل السور، ومنهم من قال آيات الشقاوة والسعادة ، ومنهم من قال: المنسوخ ، ومنهم من قال : القصص والأمثال ، ومنهم عكس فقال: المحكم آيات مخصوصة، وهى آيات الحلال والحرام وما عداها متشابه ، إلى غير ذلك ـ حكى الجميع الإمام يحيى فى (الحاوى) ـ واختار أن المحكم ما علم المراد بظاهره بدليل عقلى أو نقلى ، والمتشابه به ما لم يعلم المراد منه لا على قرب ولا على بعد، مثل قيام الساعة والأعداد المبهمة . وقد ترك الإمام والشيخ ابن تيمية وجهاً آخر من المتشابه الذى يحتاج إلى التأويل مما لا يعلمه إلا الله على الصحيح ، وذلك وجه الحكم المعينة فيما لا تعرف العقول وجه حسنه ، مثل خلق أهل النار ، وترجيح عذابهم على العفو مع سبق العلم وسعة الرحمة وكمال القدرة على كل شيء ، والدليل على أن الحكمة الخفية فيه تسمى تأويلا له، ما ذكره الله تعالى فى قصة موسى والخضر ، فإن قوله : سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ

= يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (١) صريح فى ذلك ، وهـذا مراد فى الآية ، لأن الله وصف الذين فى قلوبهم زيغ بابتغائهم تأويله وذمهم بذلك ، وهم لا يبتغون علم العاقبة ، عاقبة الخبر عن الوعد والوعيد ، وما يؤول إليه ، على ما فسره الشيخ ، فهم لا يبتغون الجنة والنار والقيامة وذات الرب سبحانه كما يبغيها طالب العيان ، إنما يستقبحون شيئاً من الظواهر بعقولهم فيتكلفون لها معانى كثيرة يختلفون فيها ، وكل منهم يتفرد بمعنى من غير حجة صحيحة إلا مجرد الاحتمال ، وربما خالف ذلك التأويلُ المعلومَ من الشرع فتأولوه ، وربما استلزم الوقوع فى أعظم مما فروا منه ، والذى وضح لى فى هذا وضوحاً لا ريب فيه بحسن توفيق الله أمور :

أحدها ـ أن الكلام فى ذات الله تعالى على جهة التصور والتفصيل أو على جهة الإحاطة على حد علم الله ، كلاهما باطل ، بل من المتشابه الممنوع الذى لا يعلمه إلا الله تعالى لقوله تعـالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (٢) ولقوله تعـالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٣) وإنما تُتَصَوَّر المخلوقات وما هو نحوها . ولما روى من النهى عن التفكر فى ذات الله ، والأمر فى التفكر فى آلاء الله ، ولما اشتهر عن أمير المؤمنين عليه السلام أن ذلك مذهبه ، حتى رواه عنه الخصوم . ومن أشهر ما حفظ عنه عليه السلام فى ذلك قوله فى امتناع معرفة الله عز وجل على العقول : امتنع منها بهـا ، وإليها حاكمهـا . ومن التفكير فى الله والتحكم فيه والدعوى الباطلة على العقول والتكلف

(١) [١٨ / الكهف / ٧٦] وأولها : قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ،

(٢) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

لتعريفها مالا تعرفه ، حدثت هنا البدع المتعلقة بذات الله وصفاته وأسمائه . ومن البدع في هذا الموضع بدع المشبهة على اختلاف أنواعهم ، وبدع المعطلة على اختلافهم أيضاً ، فغلاتهم يعطلون الذات والصفات والأسماء . الجميع ، ومنهم الباطنية ، ودونهم الجهمية . ومن الناس من يوافقهم في بعض ذلك دون بعض . فالفريقان المشبهة والمعطلة إنما أتوا من تعاطى علم ما لا يعلمون . ولو أنهم سلكوا مسالك السلف في الإيمان بما ورد من غير تشبيه لسلموا . فقد أجمعوا على أن طريقة السلف أسلم ، ولكنهم ادعوا أن طريقة الخلف أعلم ، فطلبوا العلم من غير مظانه ، بل طلبوا علم مالا يعلم ، فتعارضت أنظارهم العقلية ، وعارض بعضهم بعضاً في الأدلة السمعية . فالمشبهة ينسبون خصومهم إلى رد آيات الصفات ويدعون فيها ماليس من التشبيه . والمعطلة ينسبون خصومهم وسائر أئمة الإسلام جميعاً إلى التشبيه ، ويدعون في تفسيره مالا تقوم عليه حجة . والكل حرموا طريق الجمع بين الآيات والآثار ، والاقتداء بالسلف الأخيار ، والاقتصار على جليات الأبصار ، وصحاح الآثار . وقد روى الإمام أبو طالب عليه السلام في أماليه باسناده من حديث زيد بن أسلم أن رجلا سأل أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة فقال : ياأمير المؤمنين! هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً ؟ فغضب عليه السلام ونادى (الصلاة جامعة) فحمد الله وأثنى عليه إلى قوله : فكيف يوصف الذى عجزت الملائكة مع قربهم من كرسيّ كرامته ، وطول ولههم إليه ، وتعظيم جلال عزته ، وقربهم من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم من ملكوت القدس كلهم ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١) . فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ، وتقدَّمكَ فيه الرسل بينك وبين معرفته فأْتم به واستضئ بنور هدايته ، فإنما هى نعمة وحكمة أوتيتها . فخذ ماأوتيت وكن من الشاكرين ، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ،

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] .

ولا فى سنة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولا عن أئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه ، فإنه منتهى حق الله عليك . وقد روى السيّد فى الأمالى أيضاً الحديث المشهور فى كتاب الترمذىّ عن على عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال(١) : ستكون فتنة ! قلت : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، فهو الفاصل بين الحق والباطل ، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله إلى قوله : من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدِى إلى صراط مستقيم . ورواه فى أماليه بسند آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٤ ـ باب ما جاء فى فضل القرآن ، ونصه : عن الحارث قال : مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث . فدخلت على علىّ فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا ترى أن الناس قد خاضوا فى الأحاديث ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أمَا إنى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا إنها تكون فتنة » قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال « كتاب الله ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبَّار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ . من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

خذها إليك يا أعور !

(قال أبو عيسى) هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفى الحارث مقال .

ورواه ابن الأثير فى (الجامع) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهو مع شهرته فى شرط أهل الحديث متلق بالقبول عند علماء الأصول ، ولكن المبتدعة يرون تصانيفهم أهدى منه، لبيانهم فيها، على زعمهم، المحكم من المتشابه . فمنهم من صرح بذلك وقال: إن كلامه أنفع من كلام الله تعالى ، وكتبه أهدى من كتب الله ، وهم الحسينية أصحاب الحسين بن القاسم العنانى. وقد حمله الإمام المطهر بن يحيى على الجنون، وقيل: لم يصح عنه . ومنهم من يلزمه ذلك وإن لم يصرح به . فهذا الأمر الأول من المتشابه وهو التحكم بالنظر فى ذات الله تعالى . وما يؤدى إليه .

الأمر الثانى ـ من المتشابه الواضح تشابهه والمنع منه ، هو النظر فى سر القدر السابق فى الشرور مع عظيم رحمة الله تعالى وقدرته على ما يشاء . وقد ثبت فى كتاب الله تعالى تحير الملائكة الكرام عليهم السلام فى ذلك وسؤالهم عنه بقولهم : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) ثم ساق خبر آدم وتعليمه الأسماء وتفضيله فى ذلك عليهم إلى قوله : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٢) وفى ذلك إشارة واضحة إلى ما سيأتى بيانه من أن مراد الله بالخلق هم أهل الخير ، فالخلق كلهم كالشجرة ، وأهل الخير ثمرة تلك الشجرة ، وإليه الإشارة بقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٣) وفى حديث الخليل عليه السلام حين دعا على العصاة ، قال

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] وأولها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، . . .

(٢) [٢ / البقرة / ٣٣] وأولها : قَالَ يَا ءَادَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ . . .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

الله: كفَّ عن عبادى. إن مصير عبدى منى إحدى ثلاث : إما أن يتوب فأتوب عليه ، أو يستغفرنى فأغفر له ، أوأخرج من صلبه من يعبدنى ـ رواه الطبرانىّ ـ .

وقال الإمام الغزالىّ فى كتاب العلم فى (الإحياء) فى أقسام العلوم الباطنة : ولا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرًّا ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس أبصار الخفافيش وكما يضر ريح الورد بالجعل . وكيف يبعد هذا ، وقولنا : إن كل شىء بقضاء من الله وقدر ـ حق فى نفسه ، وقد أضر سماعه بقوم حيث أوهم ذلك عندهم دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة، والرضا بالقبيح والظلم . وألحد ابن الراوندىّ وطائفة من المخذولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى أوهم عند أكثر الخلق عجزاً، إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل هذا الوهم عنهم.

وقال فى شرح (أسماء الله الحسنى) فى شرح الرحمن الرحيم : والآن إن خطر لك نوع من الشر لا ترى فيه خيراً ، أو إن تحصيل ذلك الخير من غير شر أولى ، فاتهم عقلك القاصر فى كلا الطرفين ، فإنك مثل أم الصبىّ التى ترى الحجامة شرًّا محضاً ، والغبىّ الذى يرى القصاص شرًّا محضاً ، لأنه ينظر إلى خصوص شخص المقتول ، وأنه فى حقه شر محض ، ويذهل عن الخير العام الحاصل للناس كافة ، ولا يدرى أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض ، لا ينبغى لحكيم أن يهمله . هذا أو قريب من هذا . وفى بعض كلامه نظر قد أوضحته فى (العواصم) والسر فى ذلك أن الله تعالى لا يريد الشر لكونه شرا قطعاً ، وإنما يريده وسيلة إلى الخير الراجح كما قال : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١) ، وكما صح فى الحدود والمصائب أنها كفارات ، فهذا هو سر القدر فى الجملة ، وإنما الذى خفى تفصيله ومعرفته فى عذاب الآخرة وشقاوة الأشقياء ، فمن الناس من كبر ذلك عليه وأداه إلى الحكم بنفى التحسين والتقبيح ، فصرحوا بنفى حكمة الله تعالى، وهم غلاة الأشعرية ، إلا بمعنى إحكام المصنوعات فى تصويرها لا سواه ، ومن الناس من أداه ذلك إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

القول بالجبر ، ونفى قدرة العباد واختيارهم ، ومنهم من جمع بينهما . ومن الناس من جعل الوجه فى تحسين ذلك من الله عدم قدرته سبحانه على هدايتهم ، وهم جمهور المعتزلة ، لكنهم يعتذرون عن تسميته عجزاً ، ويسمونه غير مقدور . ومنهم من جعل العذر فى ذلك أن الله لا يعلم الغيب ، وهم غلاة القدرية ، نفاة الأقدار . وقد تقصيتُ الردود الواضحة عليهم ، والبراهين الفاضحة لهم فى (العواصم) ، وجمعت فى ذلك ما لم أسبق إليه ولا إلى قريب منه، فى علمى . فتمت هذه المسألة فى مجلد ضخم ، وبلغت أحاديث وجوب الإيمان بالقدَر اثنين وسبعين، وأحاديث صحته مائة وخمسة وخمسين ، الجملة مائتان وسبعة وعشرون حديثاً، من غير الآيات القرآنية ، والأدلة البرهانية . وصنف ابن تيمية فى بيان الحكمة فى العذاب الأُخروىّ ، وتبعه تلميذه ابن قيّم الجوزية ، وبسط ذلك فى كتابه (حادى الأرواح إلى ديار الأفراح) ، فأفردت ذلك فى جزء لطيف ، وزدت عليه . ومضمون كلامهم أنه لايجوز اعتقاد أن الله لا يريد الشر لكونه شراً ، بل لابد من خير راجح يكون ذلك الشر وسيلة إليه ، وذلك الخير هو تأويل ذلك الشر السابق له على نحو تأويل الخضر لموسى . وطردوا ذلك فى شرور الدارين معاً . ونصر ذلك الغزالىّ فى شرح (الرحمن الرحيم) ، ولنورد فى ذلك حديثاً واحداً ، مما يدل على المنع من الخوض فى تعيين الحكمة فى ذلك فنقول : قال البيهقىّ فى كتابه (الأسماء والصفات) عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس : لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم! أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت أن لا تعصى لما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت فى ذلك تعصى ، فكيف هذا يا رب ؟ فأوحى الله إليه أنى لا أُسأل عما أفعل ، وهم يُسألون . فانتهى موسى .

ورواه الهيثمىّ فى مجمع الزوائد ، وعزاه إلى الطبرانىّ ، وزاد فيه : فلما بعث الله عزيراً سأل اللهَ مثل ماسأل موسى، ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أتستطيع أن تصرّ صرّة من الشمس ؟ قال : لا . قال: أفتستطيع أن تجىء بمكيال من الريح ؟ قال : لا . قال : أفتستطيع

أن تجيء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا . قال : فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . أما أنى لا أجعل عقوبتك إلا أنى أمحو اسمك من الأنبياء ، فلا تذكر فيهم . فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته سأل عن ذلك، كموسى . وأجيب عليه بمثل ذلك ، وقال الله تعالى : لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك ، فجمع عيسى من معه فقال : القدر سر الله تعالى فلا تكلفوه .

وروى الطبرانىّ عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر؟ فقال: وجدت أطول الناس فيه حديثاً أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثاً أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر فى شعاع الشمس ، كلما ازداد فيه نظراً ازداد تحيراً . قلت : ويشهد لهذه الآيات ما جاء فى كتاب الله من قول الملائكة : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا[1] . والجواب الجملىّ عليهم كما مر . وأما أحاديث النهى عن الخوض فى القدر فعشرة أحاديث ، رجال بعضها ثقات ، وبعضها شواهد لبعض ، كما أوضحته فى (العواصم) وأقلّ من هذا مع شهادة القرآن والبرهان لذلك ، يكفى المنصف . وما حدث بسبب الخوض من الضلالات زيادة عبرة وحيرة .

الأمر الثالث ـ من المتشابه : الحروف المقطعة أوائل السور ، فإن الجهل بالمراد بها معلوم، كالألم والصحة . والفرق بينها وبين أقيموا الصلاة ، ونحو ذلك ضرورىّ . ودعوى التمكن من معرفة معانيها تستلزم جواز أن ينزل الله سورة كلها كذلك أو كتاباً من كتبه الكريمة، ويستلزم جواز أن يتخاطب العقلاء بمثل ذلك ، ويلوموا من طلب منهم بيان مقاصدهم ، ونحو ذلك . وهذا هو اختيار زيد بن علىّ عليه السلام ، والقاسم والهادى عليهما السلام ، وهو نص فى تفسيرها المجموع . وكذلك الإمام يحيى عليه السلام ، ذكره فى (الحاوى) وقولهم :

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إنا مخاطبون بهـا فيجب أن نفهمها ـ مقلوب . وصوابه : أن لا نفهمها فيجب أن لا نـكون مخاطبـين بفهمها . وقد ذكرت فى الحجة على أنها غير معلومة أكثر من عشرين حجة فى تـكميلة ترجيح أساليب القرآن .

الأمر الرابـع ـ من التشابه : المجمل الذى لايظهر معناه بعلم ولا ظن ، سواء كان بسبب الاشتراك فى معناه ، أو لغرابته ، أو عدم صحة تفسيره فى اللغة والشرع ، أو غير ذلك . فقد وقع الوهم فى المجمل لنوح عليه السلام ، كيف لغيره ؟ وذلك قوله : إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ(١) .

وأما المحـكم فهو ما عدا التشابه ، وغالبه النص الجلىّ ، والظاهر الذى لم يعارض ، والمفهوم الصحيح الذى لم يعارض ، والخاص والمقيد وإن عارضهما العام والمطلق . ويلحق بهذا فوائد .

الأولى ـ الصحيح فىقوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » الوقف على الله ، بدليل ذم مبتغى تأويل المتشابه فى الآية . وهو اختيار الإمام يحيي فى (الحاوى) واحتج بأن «أمّا» للتفصيل على بابها ، والتقدير و « أما الراسخون » بدليل قوله تعـالى « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » كما تقول : أما زيد فعالم وعمرٌو جاهل ، أى وأما عمرو فجـاهل ، يوضحه أن المخالِف مسلِّم أن هذا هو الظاهر منهـا ، لـكنه يقول: إنه يجب تأويلها على أن المراد ذمهم بابتغاء تأويله الباطل ، فيقيد إطلاق الآية بغير حجة ، ويجعلها من التشابه ، مع أنها الفارقة بين المحـكم والمتشابه ، وهذا خلف .

(١) [١١ / هود / ٤٥ و ٤٦] ونصهما : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

وقد روى الحاكم عن ابن عباس أنه قرأ « ويقول الراسخون » وقال : صحيح . ورواه الزمخشرىّ فى كشافه قراءة عن أبىّ وغيره ، ورواه الإمام أبو طالب فى أماليه عن علىّ عليه السلام . ولم يتأوله ولم يطعن فيه ، وهو فى (النهج) أيضاً ، وهو نص لا يمكن تأويله ، فإن لفظه عليه السلام: اعلم أيها السائل أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق، فيما لم يكلفهم البحث عنه، رسوخاً . فاقتصر على ذلك . انتهى بحروفه .

وأيضاً فلا يجب علم جميع المكلفين بذلك عند الخصوم ، إذ فى المتكلفين الأمىّ والعجمىّ ونحوهم . وإذا كان علم البعض يكفى ويخرج الخطاب بذلك عن العبث ، جاز أن يكون ذلك البعض هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن شاء الله من ملائكته وخواص عباده . والله سبحانه أعلم .

الفائدة الثانية ـ إذا تعارض العام والخاص ، فالمحكم هو الخاص والبناء عليه واجب ، وفيه الجمع بينهما ، وفى العكس طرح الخاص مع رجحانه بالنصوصية . وهى قاعدة كبيرة فاحفظها. ولا خلاف فيها فى الاعتقاد ، لعدم القاعدة فى التاريخ فيه ، ولذلك أجمعوا على إثبات الخلة للمتقين ، وتأويل نفى الخلة المطلق ، فتأمل ذلك .

الفائدة الثالثة ـ إذا كان التحسين العقلىّ مع بعض السمع فهو المحكم ، والمتشابه مخالفه، لما وضح من تأويل الخضر بموافقة العقل ، وفى مخالفة هذه القاعدة عناد بيّن وضلال كبير ، فاعرفها واعتبر مواضعها ترشد. إن شاء الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » من مقال الراسخين ، أى لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلها كالذين فى قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم « وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » تثبت بها قلوبنا « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » كثير النعم والإفضال ، جزيل العطايا والنوال . وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قِبَلِهِ تعالى . وعن عائشة رضى الله عنها(١) قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قلت : يا رسول الله ! ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ! فقال : ليس من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ـ وهو فى الصحيح والسنن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » وهذا

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ـ كتاب الدعوات، ٨٩ ـ باب حدثنا أبو موسى الأنصارىّ ونصه : عن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة ، أم المؤمنين : ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت : قلت يا رسول الله ! ما أكثر دعاءك : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! قال « يا أم سلمة ! ليس آدمىّ إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » فتلا معاذ (أحد رجال السند) : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .

من تتمة كلام الراسخين فى العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصهم بالهداية والرحمة ، فكأنهم قالوا : ليس الغرض من هـذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا ، فإنها منقضية منقرضة . وإنما الغرض الأعظم منه ، ما يتعلق بالآخرة ، فإنها المقصد والمآل . فإنا نعلم أنك يا إلٰهنا جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة ، ونعلم أن وعدك لايكون خلفاً ، فمن زاغ قلبه بقى هناك فى العذاب أبداً، ومن منحته الرحمة والهداية بقى هناك فى السعادة والكرامة أبداً. فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ، مايتعلق بالآخرة ـ أفاده الرازىّ ـ ثم قال : احتج الجبائىّ بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، قال: وذلك لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد بدليل قوله تعالى : أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا[1] .والوعد والموعد والميعاد واحد. وقد أخبر فى هذه الآية أنه لا يخلف الميعاد. فكان هـذا دليلًا على أنه لا يخلف فى الوعيد . والجواب : لانسلّم أنه تعالى يوعد الفساق مطلقاً ، بل ذلك الوعيد عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة، فكما أنكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل، فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل، سلمنا أنه يوعدهم، ولكن لانسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد. أما قوله تعالى : فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا . قلنا : لم لايجوز أن يكون ذلك ، كما فى قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[2] .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] ونصها : وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ =

وقوله : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ[1] . وأيضاً لم لايجوز أن يكون المراد منه أنهم كانوا يتوقعون من أوثانهم أنها تشفع لهم عند الله، فكان المراد من الوعد تلك المنافع .

وذكر الواحدىّ فى (البسيط) طريقة أخرى فقال : لم لا يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الأولياء ، دون وعيد الأعداء ، لأن خلف الوعيد كرم عند العرب . قال : والدليل عليه أنهم يمدحون بذلك ، قال الشاعر :

إذا وعد السرّاءَ أنجز وعده وإن أوعد الضراءَ فالعفو مانعه

وروى المناظرة التى دارت بين أبى عمرو بن العلاء ، وبين عمرو بن عبيد . قال أبو عمرو ابن العلاء لعمرو بن عبيد : ماتقول فى أصحاب الكبائر ؟ قال : أقول إن الله وعد وعداً وأوعد إيعاداً ، فهو منجز إيعاده كما هو منجز وعده ، فقال أبو عمرو بن العلاء : إنك رجل أعجم ، لا أقول أعجم اللسان ، ولكن أعجم القلب . إن العرب تعدّ الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرماً ، وأنشد :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمكذب إيعادى ومنجز موعدى

واعلم أن المعتزلة حكوا أن أباعمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام ، قال له عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ؟ فهل يسمى الله مكذب نفسه ؟ فقال : لا ، فقال عمرو بن عبيد فقد سقطت حجتك ، قالوا : فانقطع عمرو بن العلاء .

وعندى أنه كان لأبى عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السؤال فيقول : إنك قست الوعيد على الوعد ، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البابين ، وذلك لأن الوعد حق عليه ، والوعيد حق له ، ومن أسقط حق نفسه فقد أتى بالجود والكرم ، ومن أسقط حق غيره

= الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٨٤ / الانشقاق / ٢٤] .

(١) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

فذلك هو اللؤم ، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد ، وبطل قياسك . وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق . فأما قولك : لو لم يفعل لصار كاذباً ومكذباً نفسه ، فجوابه أن هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتاً جزما من غير شرط ، وعندى جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب فى كلام الله تعالى. فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية. والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ » التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار « وَلَا أَوْلَادُهُمْ » الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة « مِنَ اللَّهِ » أى من عذابه تعالى « شَيْئًا » من الإغناء ، أى لن تدفع عنهم شيئاً من عذابه . يقال : ما أغنى فلان شيئاً ، أى لم ينفع فى مهم ، ولم يكف مؤنة . ورجل مغن أى مجزئ كاف ـ قاله الأزهرىّ . ونظير هذه الآية قوله تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (١) « وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ » بفتح الواو أى حطبها ، وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها ، وأكثر اللغويين على أن الضم للمصدر أى التوقد ، والفتح للحطب . وقال الزجّاج : المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح . وهذا كقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٢) » .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٨و٨٩] .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى دأب هؤلاء فى الكفر كدأب آل فرعون . والدأب (بالسكون ، ويحرّك) مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه ، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، مجازاً . يقال : هذا دأبك أى شأنك وعملك ، قال الأزهرىّ عن الزجّاج فى هذه الآية : أى كأمر آل فرعون ، كذا قال أهل اللغة . قال الأزهرىّ : والقول عندى فيه ـ والله أعلم ـ أن دأبهم هنا اجتهادهم فى كفرهم وتظاهرهم على النبىّ ﷺ ، كتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام ؛ يقال : دأبت أدأب دأباً ودؤوباً إذا اجتهدت فى الشىء ـ انتهى ـ قال أبو البقاء : وفى ذلك تخويف لهم لعلهم بما حل بآل فوعون « وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، فالموصول فى محل جر عطف على ما قبله « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبنىّ على السؤال المقدر « فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ » أى عاقبهم وأهلكهم بسببها. « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى الأخذ بالذنب . فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بهذا الدين وهم اليهود (للرواية الآتية) أو نصارى نجران ، لأن السورة نزلت لإحقاق الحق معهم ، أو أعمّ « سَتُغْلَبُونَ » أى فى الدنيا « وَتُحْشَرُونَ » أى يوم القيامة « إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » الفراش ، أى فكفركم ككفر آل فرعون بموسى، وقد فعل بقريش لكفرهم ما رأيتم ، فسيفعل بكم ما فعل بهم ،

وهو أنكم تُغلبون كما غُلبوا . وقد صدق الله وعده بقتل قريظة[١] ، وإجلاء بنى النضير[٢] ، وفتح خيبر[٣] ، وضرب الجزية على من عداهم ، وهو من أوضح شواهد النبوة . وقد روى أبو داود فى سننه والبيهقىّ فى الدلائل من طريق ابن إسحاق ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال : يامعشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً ، فقالوا : يامحمد ! لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله « قُلْ لِلَّذِينَ ... » إلى قوله « لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)

« قَدْ كَانَ لَكُمْ » أيها الكافرون المتقدم ذكرهم « ءَايَةٌ » عبرة ودلالة على أنكم ستغلبون ، وعلى أن الله معزّ دينه ، وناصر رسوله ، ومُعْلٍ أمره « فِي فِئَتَيْنِ » أى فرقتين « الْتَقَتَا » يوم بدر للقتال « فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ » أى طاعته ، وهم النبىّ وأصحابه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٤ ـ باب حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر .

وكانوا ثلاثمائه وثلاثة عشر رجلا . معهم فرسان وست أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة « وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ » وهم مشركو قريش وكانوا قريبا من ألف « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ » أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريباً من ألفين ، أراهم الله إياهم، مع قلتهم، أضعافهم ليهابوهم ، ويجبنوا عن قتالهم ، وكان ذلك مدداً لهم من الله تعالى ، كما أمدهم بالملائكة . فإن قلت : فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال : وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ[1] قلت : قللوا أولا فى أعينهم حتى اجترؤوا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين . ونظيره فى المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ[2] . وقوله تعالى: وَقِفُوهُمْ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ[3] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم ، أبلغ فى القدرة وإظهار الآية ـ كذا فى الكشاف ـ قلت : أو يجاب بأنهم كثروا أولا فى أعينهم ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ، ثم لما حصل التصافّ والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمراً كان مفعولا « رَأْيَ الْعَيْنِ » يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معاينة كسائر المعاينات ـ كذا فى الكشاف ـ « وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ » أى يقوّى « بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى التكثير والتقليل ، وغلبة القليل ، مع عدم العدة ، على الكثير الشاكى السلاح « لَعِبْرَةً » أى لاعتباراً وآية وموعظة « لِأُولِي الْأَبْصَارِ » لذوى العقول والبصائر .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤٤] ونصها : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٩] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها ، وتزهيد الناس فيها ، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى ، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها . والمراد بالناس الجنس ـ قاله أبو السعود ـ « حُبُّ الشَّهَوَاتِ » أى المشتهيات ، وعبر عنها بذلك مبالغة فى كونها مشتهاة مرغوباً فيها ، أوتخسيساً لها ، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتبعها ، شاهد على نفسه بالبهيمية ، « مِنَ النِّسَاءِ » فى تقديمهن إشعار بعراقتهن فى معنى الشهوة إذ يحصل منهن أتم اللذات « وَالْبَنِينَ » للتكثر بهم ، وأمل قيامهم مقامهم من بعدهم ، والتفاخر والزينة « وَالْقَنَاطِيرِ » أى الأموال الكثيرة وقوله « الْمُقَنْطَرَةِ » مأخوذ منها للتوكيد كقولهم ألف مؤلفة ، وبدرة مبدرة ، وإبل مؤبلة ، ودراهم مدرهمة « مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » قال الرازىّ : وإنما كانا محبوبين لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء ، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء ، وصفة المالكية هى القدرة ، والقدرة صفة كمال ، والكمال محبوب لذاته ،فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب ـ لا جرم كانا محبوبين « وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ » أى المرسلة إلى المرعى ترعى حيث شاءت ، أو التى عليها السيمياء ـ أى العلامة ـ قال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوضاح والغرر التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غراً محجلة « وَالْأَنْعَامِ » جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم لتحصيل الأموال النامية « وَالْحَرْثِ » أى الأرض المتخذة للغراس والزراعة « ذَٰلِكَ » أى المذكور « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يتمتع به فيها ثم يفنى « وَاللَّهُ

عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » أى المرجع وهو الجنة ، فينبغى الرغبة فيه دون غيره . وفى إشعاره ذم من يستعظم تلك الشهوات ويتهالك عليها ، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله ، وتزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة .

تنبيـه :

فى تزيين هذه الأمور المذكورات للناس إشارة لما تضمنته من الفتنة :

فأما النساء ، ففى الصحيح أنه ﷺ قال[(١)]: ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء.

وأما البنون ، ففى مسند أبى يعلى عن أبى سعيد مرفوعاً : الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة ، أى يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، ويمتنع أبوه من الإنفاق فى الطاعة خوف فقره ، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته ، وقد قال تعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ[(٢)] ، وقيـل لبعض النساك : ما بالك لا تبتغى ما كتب الله لك ؟ قال : سمعاً لأمر الله . ولا مرحباً بمن إن عاش فتننى ، وإن مات أحزننى . يريد قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[(٣)] .

وأما القناطير المقنطرة ففيها الآية قبل ، وقوله تعـالى : كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ[(٤)] ، وقال تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ[(٥)] ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٧ ـ باب ما يتقى من شؤم المرأة ، حديث ٢١٠٩ ، عن أسامة بن زيد .

(٢) [٦٤/التغابن/١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٦٤ / التغابن / ١٥] .

(٤) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٨٣] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً . =

فما يورث البطر مثل الغنى . وبه تستجمع أسباب السؤدد والرئاسة والمجد والتفاخر .

وأما الخيل فقد تكون على صاحبها وزراً : إذا ربطها فخراً ورياءً ونواء لأهل الإسلام ، كما فى الصحيح[1] وفى مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً : الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان . فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله وذكر ماشاء الله ؛ وأما فرس الشيطان فالذى يقامَر أو يراهَن عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنَها فهى تَسْتُرُ من فقرٍ .

وأما الفتنة بالأنعام والحرث ففى معنى ما تقدم . والله أعلم .

ولما ذكر تعالى ماعنده من حسن المآب إجمالا ، أشار إلى تفصيله مبالغة فى الترغيب فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ » أى الشهوات المزينة لكم « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » الله ولم ينهمكوا فى شهواتهم « عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، و « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » خبر المبتدأ الذى هو « جَنَّاتٌ » و « تَجْرِى » صفة لها ، و « عِنْدَ » إما متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار ، وإما صفة للجنات فى الأصل،

= و [٤١ / فصلت / ٥١] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ .

(١) فى المسند فقط رقم ٣٧٥٦ (طبعة المعارف) .

قدّم فانتصب على الحال . والعندية مفيدة لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها « خَالِدِينَ فِيهَا » أي ما كثين فيها أبد الآباد لايبغون عنها حولا « وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أي من الأرجاس والأدناس البدنية والطبيعية مما لايخلو عنه نساء الدنيا غالباً « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ » التنوين للتفخيم أي رضوان وأي رضوان لايقدر قدره . وهذه اللذة الروحانية تتمة ماحصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها. كما قال تعالى فى آية براءة: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ»(١) أي أعظم ما أعطاهم من النعيم المقيم. روى الشيخان(٢) عن أبي سعيد الخدريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك. فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : ياربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا. « وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » أي عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة ، وأن يزهدوا فيما زهدهم فيه من أمور الدنيا . ثم وصف سبحانه الذين اتقوا ففازوا بتلك الكرامات بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعي أن يذكر طاعاته وماتقرب به إلى الله ، ثم يدعو. ويؤيده

---

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار ، حديث ٢٤٥٨ .

مافى الصحيحين من حديث أصحاب الغار[١] ، وتوسل كل منهم بصالح عمله ، ثم تفريج البارى تعالى عنهم. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

« الصَّابِرِينَ » أى على البأساء والضراء وحين البأس « وَالصَّادِقِينَ » فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم « وَالْقَانِتِينَ » المطيعين لله الخاضعين له « وَالْمُنْفِقِينَ » أموالهم فى سبيل الله تعالى من الأرحام والقرابات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوى الحاجات « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » جمع سحر (بفتحتين وفتح وسكون) وهو الوقت الذى قبيل طلوع الفجر آخر الليل . وتسحّر إذا أكل فى ذلك الوقت . قال الحرالىّ : وفى إفهامه تهجدهم فى الليل كما قال تعالى : كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَايَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[٢] . وقال الرازىّ : واعلم أن المراد منه من يصلى بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء، لأن الإنسان لايشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك . فقوله : « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل ـ انتهى ـ وقد روى ابن أبى حاتم أن عبد الله بن عمر كان يصلى من الليل ، ثم يقول : يانافع ! هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة. وروى ابن جرير عن حاطب قال: سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول: يارب أمرتنى فأطعتك، وهذا السحر. فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود . وثبت فى الصحيحين[٣] وغيرهما من المسانيد والسنن

(١) انظر صحيح البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٨ ـ باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضى .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١٧و١٨] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١٤ ـ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل حديث ٦٢٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ ـ ١٧٢ .

من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا ، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ وفى رواية لمسلم : ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم؟ وفى رواية : حتى ينفجر الفجر .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطنىّ فى ذلك جزءا على حدة. فرواه من طرق متعددة . ويروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يابنىّ! لا يكن الديك أحسن منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة فى تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية ، والألطاف السبحانية ، وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة ، والرغبة وافرة ، معقربه ، تعالى وتقدس ، من عباده . قال السيوطىّ: فى الآية فضيلة الاستغفار فى السحر، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات . وقال الرازىّ : واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر فى قوة الإيمان ، وفى كمال العبودية .

الأول ـ أن وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل ، وبسبب طلوع نور الصبح كان الأموات يصيرون أحياء ، فهناك وقت الجود العام ، والفيض التام ، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير ، يطلع صبح العالم الصغير ، وهو ظهور نور جلال الله تعالى فى القلب .

والثانى ـ أن وقت السحر أطيب أوقات النوام ، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة ، وأقبل على العبودية ، كانت الطاعة أكمل .

والثالث ـ نقل عن ابن عباس «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» يريد المصلين صلاة الصبح، انتهى.

وهذا الثالث أخرجه ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم . وعليه، فإنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بفعلها المغفرة .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : الواو المتوسطة بين الصفات، للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » أى علم وأخبر أو قال أو بيّن أنه لا معبود حقيقىّ سوى ذاته العلية . وشهد بذلك « وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ » بالإقرار ، وهـذه مرتبة جليلة للعلماء ، لقرنهم فى التوحيد بالملائكة المشرفين ، بعطفهم على اسم الله عز وجل «قَائِمًا بِالْقِسْطِ» أى بالعدل فى أحكامه « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » كرره تأكيداً وليبنى عليـه قوله « الْعَزِيزُ » فلايُرام جنابه عظمة «الْحَكِيمُ» فلايصدر عنه شىء إلا على وفق الاستقامة ـ كذا فى جامع البيان ـ .

وقال فى الانتصاف : هذا التكرار لما قدمته فى نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده، وذلك أن الكلام مصدّر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به ، ثم قوله « قَائِمًا بِالْقِسْطِ » وهو التنزيه . فطال الكلام بذلك فجددالتوحيد تلو التنزيه، ليلى قوله : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ . ولولا هـذا التجديد لكان التوحيد المتقدم . كالمنقطع فى الفهم مما أريد إيصاله به . والله أعلم .

لطيفة :

قال الرازىّ :فإن قيل: المدعى للوحدانية هو الله ، فكيف يكون المدعى شاهداً ؟ الجواب : من وجوه : الأول : وهو أن الشاهد الحقيقىّ ليس إلا الله ، وذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده ، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة . ثم بعد نصب تلك الدلائل ، هو الذى وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ، ولولا تلك الدلائل التى نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة الوحدانية ، ثم بعد حصول العلم بالوحدانية ، فهو تعالى وفقهم حتى أرشدوا غيرهم إلى معرفة التوحيد . وإذا كان

الأمر كذلك ، كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده ، ولهذا قال : « قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ »[١] ـ ثم ساق بقية الوجوه فانظره .

وقال العارف الشعرانيّ ، قدس سره ، فى كتاب (الجواهر والدرر) : سألت أخى أفضل الدين : لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال رضى الله عنه : لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه . فقلت له : فلِمَ عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلاً من النظر فى الأدلة كالبشر ، وإنما كان علمهم بذلك حاصلاً من التجلى الإلٰهىّ ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا فى الذكر على أولى العلم . وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله ، فناسب ذكرهم فى الوسط ، فاعلم ذلك ، انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ » جملة مستأنفة مؤكدة للأولى ، أى لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة ـ قاله أبو السعود ـ وفى الآية الأخرى : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٢]. « وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » مطلقاً ، أو اليهود ، فى دين

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

الإسلام « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه . ولم يكن اختلافهم لشبهة عندهم بل « بَغْياً بَيْنَهُمْ » أى حسداً كائناً بينهم ، وطلباً للرئاسة . وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع « وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ » المنزلة « فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » قائم مقام جواب الشرط . علة له . أى : فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب . فإنه سريع الحساب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« فَإِنْ حَاجُّوكَ » فى الدين وجادلوك فيه بعد إقامة تلك الآيات « فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » أى انقدت لآياته المنزلة ، وأخلصت نفسى وعبادتى له ، لا أشرك فيها غيره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن النفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ، ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة ، وبه يحصل التوجه إلى كل شىء « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » عطف على الضمير المتصل .

لطيفة :

هل قوله تعالى : فقل أسلمت وجهى لله ، إعراض عن المحاجة ، أو هو محاجة وإظهار للدليل ؟ فمن قائل بالأول ، وذلك لأنه ﷺ كان قد أظهر لهم الحجة على صدقه قبل نزول هذه الآية مراراً وأطواراً ، فإن هذه السورة مدنية ، وكان قد أظهر لهم المعجزات الجمة بالقرآن وغيره ، فبعد هذا قال : فإن حاجوك فقل أسلمت الخ. يعنى إنّا بالغنا فى تقرير الدلائل وإيضاح البينات ، فإن تركتم الأنف والحسد وتمسكتم بها كنتم مهتدين . وإن أعرضتم ، فإن الله

تعالى من وراء مجازاتكم . وهذا التأويل طريق معتاد فى الكلام . فإن المحقّ إذا ابتلى بالمبطل اللجوج ، وأورد عليه الحجة حالًا بعد حال ، فقد يقول فى آخر الأمر : أما أنا ومن اتبعنى فمنقادون للحق مستسلمون له ، مقبلون على عبودية الله تعالى ، فإن وافقتم واتبعتم الحق الذى أنا عليه بعد هذه الدلائل التى ذكرتها فقد اهتديتم ، وإن أعرضتم فإن الله بالمرصاد . فهذا طريق قد يذكره المحتجّ المحقّ مع المبطل المصرّ فى آخر كلامه . ومن قائل بالثانى، أعنى أنه محاجة ، وفى كيفية الاستدلال منها ما ذكره أبو مسلم الأصفهانىّ ، وهو أن اليهود والنصارى وعبدة الأوثان كانوا مقرين بتعظيم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، والإقرار بأنه كان محقًّا فى قوله ، صادقًا فى دينه . فأمر الله تعالى محمداً ﷺ بأن يتبع ملته فقال : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١) ، ثم إنه تعالى أمر محمداً ﷺ فى هذا الموضع أن يقول كقول إبراهيم ﷺ حيث قال : إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٢) ، فقول محمد ﷺ : أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ . كقول إبراهيم عليه السلام: وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ، أى أعرضت عن كل معبود سوى الله تعالى ، وقصدته بالعبادة ، وأخلصت له . فتقدير الآية كأنه تعالى قال : فإن نازعوك يا محمد فى هذه التفاصيل فقل أنا مستمسك بطريقة إبراهيم وأنتم معترفون بأن طريقته حقة ، بعيدة عن كل شبهة وتهمة. فكان هذا من باب التمسك بالإلزامات ، وداخلًا تحت قوله : وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ(٣) ـ نقله الرازىّ ـ « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ » أى الذين

(١) [١٦ / النحل / ١٢٣] .
(٢) [٦ / الأنعام / ٧٩] .
(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

لا كتاب لهم كمشركي العرب «أَأَسْلَمْتُمْ» لهذه الآيات كما أسلمت ، أم أنتم بعدُ على الكفر. قال الزمخشريّ : يعني أنه قد أتاكم من البينات مايوجب الإسلام، ويقتضي حصوله لامحالة ، فهل أسلمتم ، أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها ؟ ومنه قوله عز وعلا : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(١). بعد ماذكر الصوارف عن الخمر والميسر . وفي هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانُه للحق ، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان . وكذلك في (هل فهمتها) توبيخٌ بالبلادة وكلّة القريحة ، وفي (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهيّ عنه . انتهى . « فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا » أي خرجوا من الضلال فنفعوا أنفسهم « وَإِنْ تَوَلَّوْا » عن هداك وهديك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أي تبليغ آيات الله ، لا الإكراه إذا عاندوك، إذ ليس عليك هداهم «وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» وعد ووعيد. قال ابن كثير : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . فمن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً(٢)، وقال تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(٣) . وفي

(١) [٥ / المائدة / ٩١] ونصها : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ.

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ونصها : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

الصحيحين[1] وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بنى آدم ، من عربهم وعجمهم ، كتابيّهم وأميّهم ، امتثالًا لأمر الله له بذلك.

---

(١) انظر ، فى ذلك ، ما يأتى :

البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٠١ ـ باب دعوة اليهودىّ والنصرانىّ ، وعلى ما يقاتلون عليه ، وما كتب النبىّ ﷺ إلى كسرى وقيصر ، والدعوة قبل القتال . وفيه كتابه إلى كسرى .

والبخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، وفيه كتابه إلى قيصر .

وأبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢١ ـ باب ماجاء فى سهم الصفىّ ، حديث ٢٩٩٩ . وفيه كتابه إلى بنى زهير .

وأبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢٧ ـ باب ماجاء فى حكم أرض اليمن ، حديث ٣٠٣٧ . وفيه كتابه إلى بعض رؤساء اليمن .

وفى طبقات ابن سعد ، الجزء الأول ، القسم الثانى ، بالصفحة ١٧و٢٠ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث وجبلة وأمراء غسّان .

وبالصفحة ١٩و٢٧ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل هَجَر .

وبالصفحة ٢١ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أساقفة نجران .

وبالجزء الأول ، بالقسم الأول بالصفحة ٣٥ كتابه إلى أهل نجران .

وبالجزء الأول ، القسم الثانى بالصفحة ٢١و٣٣ كتابه إلى أقيال حضرموت .

وبالصفحة ١٥ كتابه إلى النجاشى .

وبالصفحة ١٦ كتابه إلى المقوقس .

وبالصفحة ٢٥ كتابه إلى مسيلمة .

وبالصفحة ٢٨و٣٨ كتابه إلى يهود مَقْنا ... الخ الخ.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همّام عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ أنه قال[١] : والذى نفسى بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودىّ ولا نصرانىّ ، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أهل النار. رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم[٢]: بعثت إلى الأحمر والأسود . وقال[٣] : كان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن جابر بن عبدالله الأنصارىّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . كان كلّ نبىّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود . وأحلت لى الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلى . وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا . فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان . ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر . وأعطيت الشفاعة » .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٧ ـ كتاب التيمم، ١ ـ باب قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا. حديث ٣٣١ . ونصه :

عن جابر بن عبد الله أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبل . نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ. وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة . وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ » وهم اليهود. قتلوا زكريا وابنه يحي عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاضٍ يهوديّ لما نهاه عن منكر فعله ، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليهما السلام. ولما كان المخاطبون راضين بصنيع أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم. وقوله تعالى: بِغَيْرِ حَقٍّ ، إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق، فى اعتقادهم أيضاً ، فهو أبلغ فى التشنيع عليهم « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات فى الدارين ، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم ، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبي وأخذ الأموال منهم غنيمة ، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم . وأما حبوطها فى الآخرة ، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم . « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » ينصرونهم من عذاب الله . وقد دلت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى ، وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه . وأن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين. وفى الحديث[1] : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

(١) أخرجه أبوداود فى: ٣٦ ـ كتاب الملاحم، ١٧ـ باب الأمر والنهى، حديث ٤٣٤٤.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ » التوراة . والمراد بهم أحبار اليهود « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ » وهو القرآن « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ » استبعاد لتوليهم بعد علمهم أن الرجوع إلى كتاب الله واجب، إذ قامت عليهم الحجج الدالة على تنزيله « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » حال من فريق ، أى معرضون عن قبول حكمه . أو اعتراض، أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل . ومن المفسرين من حمل قوله « يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ » على التوراة ، وأن الآية إشارة إلى قصة(1) تحاكم اليهود إلى النبىّ ﷺ لما زنى منهم اثنان ، فحكم عليهما بالرجم ، فأبوا وقالوا: لا نجد فى كتابنا إلا التحميم، فجىء بالتوراة فوجد فيها الرجم، فرجما ، فغضبوا فشنع عليهم بهذه الآية . والله أعلم .

(1) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٦ ـ باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبىّ ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم « كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ » قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال « لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ » فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم . فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها . ولا يقرأ آية الرجم . فنزع يده عن آية الرجم . فقال : ماهذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هى آية الرجم . فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد .

فرأيت صاحبها يجنأ عليها، يقيها الحجارة .

قال بعض المفسرين : وللآية ثمرتان :

الأولى ـ أن من دعى إلى كتاب الله وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة . وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول سمعاً وطاعة ، لقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١) .

الثمرة الثانية ـ أن الإسلام ليس بشرط فى الإحصان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين ، ونزلت الآية مقررة له . انتهى ـ أى على القول بذلك ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى التولى والإعراض « بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم « وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » من قولهم ذلك . وفى التعبير بالغرور والافتراء إعلام بأن ماحدّثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمّع بما لا يكون . ثم رد قولهم المذكور ، وأبطل ما غرهم باستعظام ما أعدّلهم ، وتهويله ، وأنهم يقعون فيما لاحيلة لهم فى دفعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« فَكَيْفَ » يصنعون ، وكيف تكون حالتهم « إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ » أى فى يوم

(١) [٢٤ / النور / ٥١] .

« لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك ، وهو يوم القيامة « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » أى جزاء ماعملت من خير أو شر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الضمير لـكل نفس على المعنى. لأنه فى معنى كل إنسان. أى لايظلمون بزيادة عذاب ، أوبنقص ثواب . ثم علّم تعالى نبيه ﷺ كيف يدعوه ويمجده بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ » أى مالك جنس الملك على الإطلاق ملـكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء . إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة . وتعذيباً وإثابة . من غير مشارك ولا ممانع « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » بيـان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالـكية الملك، وتحقيقٌ لاختصاصها به تعالى حقيقة، وكون مالـكية غيره بطريق المجاز ، كما ينبىء عنه إيثار (الإيتاء) الذى هو مجرد الإعطاء على (التمليك) المؤذن بثبوت المـاليـكة حقيقة ـ أفاده أبوالسعود ـ وفى التعبير بـ (مَنْ) العامة للعقلاء إشعار بمنال الملك من لم يكن من أهله، وأخص الناس بالبعد منه العرب ، ففيه إشعار بأن الله ينوّل ملك فارس والروم العربَ ، كما وقع منه ماوقع ، وينتهى منه ما بقى ، إلى من نال الملك بسببها وعن الاستناد إليها ، من سائر الأمم الذين دخلوا فى هذه الأمة من قبائل الأعاجم ، وصنوف أهل الأقطار ، حتى ينتهى الأمر إلى أن يسلب الله الملك جميع أهل الأرض بظهور ملك يوم الدين ـ كذا فى البقاعىّ ـ « وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

«تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ» أى تدخل أحدهما فى الآخر، إما بالتعقيب أو بالزيادة والنقص «وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ» كالحيوان من النطف والنطف منه ، والبيض من الطير وعكسه . وقيل : إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس . قال القفال : والكلمة محتملة للكل ، أما الكفر والإيمان فقال تعالى : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ[١] . يريد كان كافراً فهديناه ، فجعل الموت كفراً والحياة إيماناً ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعلها قبل ذلك ميتة ، فقال : يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[٢] . وقال : فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[٣] . وقال : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٤] . «وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» أى رزقاً واسعاً غير محدود .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ونصها : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣٠/الروم/٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٩].

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ)

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » جمع ولىّ ، ومعانيه كثيرة. منها المحب والصديق والنصير . قال الزمخشرىّ : نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التى يتَصادق بها ويتَعاشر . وقد كرر ذلك فى القرآن : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ[١] . لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ[١] . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ . . . الآية[٢] ـ والمحبة فى الله ، والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان. وقوله تعالى «مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» حال. أى متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالًا أو اشتراكاً ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ » أى ومن يوال الكفرة فليس من

(١) [٥ /المائدة/ ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ولاية الله فى شىء يقع عليه اسم الولاية ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً . وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولىّ وموالاة عدوه متنافيان ، قال :

تود عدوّى ثم تزعم أننى صديقك . ليس النوك عنك بعازب

ـ أفاده الزمخشرىّ ـ « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » أى تخافوا منهم محذوراً ، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه ، كما قال البخارىّ عن أبى الدرداء أنه قال[1] : إنا لنكشر فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وأصل « تقاة » وُقَيَة ، ثم أبدلت الواو تاء ، كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفاً . وفى المحكم : تقاة يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون جمعاً ، والمصدر أجود ، لأن فى القراءة الأخرى : تقية .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الكريمة تحريم موالاة الكفار ، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ »[2] ثم استثنى تعالى (التقية) فرخص فى موالاتهم لأجلها . فتجوز معاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع . وقد قال الحاكم : فى الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة، اتقاء لشرهم . قال : وإنما يحسن بالمعاريض التى ليست بكذب . وقال الصادق : التقية واجبة ، وإنى لأسمع الرجل فى المسجد يشتمنى فأستتر عنه بالسارية لئلا يرانى . وعن الحسن : تقية باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٨٢ ـ باب المداراة مع الناس ونصه: ويذكر عن أبى الدرداء : إنا لنكشر فى وجوه قوم ، وإن قلوبنا لتلعنهم .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٨] ونصها : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ .

واعلم أن الموالاة ، التي هي المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار ، لا تجوز . فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف ، فجواب ذلك : أن المراد موالاتهم في أمر الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم . فإن قيل . في سبب نزول الآية أنه ﷺ منع عبادة بن الصامت عن الاستعانة باليهود على قريش ، وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش ، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم ، وقد ذكر الراضي بالله أنه يجوز الاستعانة بالفسّاق على حرب المبطلين ، قال : وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب . وحدّ ﷺ الحلف بينه وبين خزاعة . قال الراضي بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان عليّ عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب ـ والله أعلم ـ أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها . ويحمل على هذا استعانة الرسول ﷺ لليهود . وممنوعة مع عدم الحاجة ، أو خشية مضرة منهم . وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت . فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للمؤمنين والمودة للكفار على كفرهم ، ولا لبس في تحريم ذلك ، ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخالة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك ، فلا لبس في تحريم ذلك ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخالة والمشاورة فيما لا يضر المسلمين ، فظاهر كلام الزمخشريّ أنه لا يجوز إلا للتقية . فحصل من هذا أن الموالي للكافر والفاسق عاصٍ ، ولكن أين تبلغ معصيته ؟ يحتاج إلى تفصيل : إن كانت الموالاة بمعنى الموادة ، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية . وإن كانت الموالاة كفرا . كفر . وإن كانت فسقاً ، فسق . وإن كانت لا توجب كفراً ولا فسقاً ، لم يكفر ولم يفسق . وإن كانت الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة ، فإن كانت محالفة على أمر مباح أو واجب ، كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ، ويحالفونهم على ذلك ، فهذا لا حرج فيه بل هو واجب . وإن كانت على أمر محظور كأن يحالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكم عليهم ، فهذه معصية

بلا إشكال ، وكذلك إذا كانت بمعنى أنه يظهر سر المسلمين ويحبّ سلامة الكافرين لا لكفرهم بل ليدٍ لهم عليه أو لقرابةٍ أو نحو ذلك ، فهذا معصية بلا إشكال . لكن لا تبلغ حدها الكفر لأنه لم يُرْوَ أن رسول الله ﷺ حكم بكفر حاطب بن أبي بلتعة [1] .

---

(١) هذه هي حادثة حاطب بن أبي بلتعة يرويها الإمام البخاريّ في صحيحه في: ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ١٤١ ـ باب الجاسوس وقول الله تعالى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .

عن عبيد الله بن أبي رافع قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود ، قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها.

فانطلقنا تعَادَى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : مامعي من كتاب . فقلنا : لتُخْرِجنّ الكتاب ، أو لنُلْقِيَنّ الثياب . فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ « ياحاطب : ماهذا ؟ » .

قال : يارسول الله ! لاتعجل عليّ . إني كنت امرءا ملصقا في قريش ـ ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي . وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ « لقد صدقكم » .

قال عمر : يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

قال « إنه شهد بدراً . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » .

وقال الراضى بالله : إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر . لأنه ﷺ قال للعباس : ظاهرك علينا . وقد اعتذر بأنه خرج مكرهاً . وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا ليستعين به على المسلمين ، ولا لإيناسه . وكذلك أن يَضِيق لضيقه فى قضية معينة لأمر مباح فجائز ، كما كان من ضيق المسلمين من غَلَب فارس الرومَ . فصار تحقيق المذهب أن الذى يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من المُوالى الرضا بالكفر . والذى يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق . إن قيل : فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به على الجبايات وأنواع الظلم ؟ قلنا : عاص بلا إشكال ، وفاسق بلا إشكال لأنه صار من جملتهم. وفسقهم معلوم . فإن قيل : فإن تجند معهم لحرب إمام المسلمين ؟ قلنا : صار باغياً ، وحصل فسقه من جهة البغى والظلم . فإن قيل : حكى عن المهدىّ علىّ بن محمد عليه والسلام أنه كَفَّرَ من تجند مع سلطان اليمن وقضى بردته ، قلنا : هذا يحتاج إلى بيان وجه التفكير بدليل قطعىّ ، وإن ساغ أن نقول ذلك اصطلاحٌ لأمر الإمام كما رد الهادى عليه السلام شهادة من امتنع من بيعة الإمام كان ذلك محتملا ـ انتهى كلامه رحمه الله .

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف ، وقد نقل الإجماعَ على جوازها عند ذلك الإمامُ مرتضى اليمانىّ فى كتابه (إيثار الحق على الخلق) فقال ما نصه :

وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران :

أحدهما ـ خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، ولا برح المحق عدوًّا لأكثر الخلق . وقد صح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال فى ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1] وعاءين فأما أحدهما فبثثته فى الناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم . ومازال الأمر فى ذلك

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث ١٠٣ .

يتفاحش . وقد صرح الغزالىّ بذلك فى خطبة (المقصد الأسنى) ولوّح بمخالفته أصحابه فيها كما صرح بذلك فى شرح (الرحمن الرحيم) فأثبت حكمةالله ورحمته ، وجوّد الكلام فى ذلك ، وظن أنهم لا يفهمون المخالفة ، لأن شرح هذين الاسمين ليس هو موضع هذه المسألة ، ولذلك طوى ذلك ، وأضرب عنه فى موضعه ، وهو اسم الضار كما يعرف ذلك أذكياء النظار .

وأشار إلى التقية الجوينىّ فى مقدمات (البرهان) فى مسألة قدم القرآن . والرازىّ فى كتابه المسمى (بالأربعين فى أصول الدين) ـ إلى آخر ما ساقه المرتضى فانظره .

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » أى ذاته المقدسة ، فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه ، وموالاة أعدائه ، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهىّ فى القبح . وذكر النفس ، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى ، فلايؤبه دونه بما يحذر من الكفرة « وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » أى المنقلب والمرجع ليجازى كل عامل بعمله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » هذا توعد . وأراد إخفاء مودة الكفار وموالاتهم وإظهارها . أو تكذيب النبىّ صلى الله عليه وآله ، أو الكفر . وفى هذه الآية تنبيه منه تعالى لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا مانهى عنه ، فإنه عالم بجميع أمورهم وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

« يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » بصور تناسبه ، أو فى صحف الملائكة ، أو المعنى جزاء ماعملت « وَ » تجد « مَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ » أى عملها السوء « أَمَدًا بَعِيدًا » أى غاية بعيدة لايصل أحدهما إلى الآخر ، و (تود) فى موضع الحال. والتقدير : وتجد ما عملت من سوء محضراً ، وادّةً ذلك « وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » كرره ليكون على بالٍ منهم لا يغفلون عنه ـ كذا فى الكشاف ـ .

وقال أبوالسعود : تكرير لما سبق وإعادة له ، لكن لاللتأكيد فقط ، بل لإفادة مايفيده قوله عز وجل « وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ » من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ، ورحمته الواسعة ، أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه ، وأن تحذيره ليس مبنيًّا على تناسى صفة الرأفة ، بل هو متحقق مع تحققها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب فى دعواه تلك ، حتى يتبع الشرع المحمدىّ فى جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت فى الصحيح(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٠ ـ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، لقول النبىّ ﷺ . . .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا » أعرضوا عن الطاعة « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ » أى اختار بالنبوة « ءَادَمَ » نخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شىء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له فى ذلك من الحكمة « وَ » اصطفى « نُوحًا » فجعله أول رسول إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ونجى من اتبعه فى السفينة وأغرق من عصاه « وَ » اصطفى « ءَالَ إِبْرَاهِيمَ » أى عشيرته وذوى قرباه ، وهم إسمعيل وإسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى ﷺ ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الأولوية . وعدم التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلة ، وكونه إمام الأنبياء وقدوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكون اصطفاء آله بدعوته بقوله : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ[١] ـ الآية ـ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: أنا دعوة أبى إبراهيم «وَ» اصطفى «ءَالَ عِمْرَانَ» إذ جعل فيهم عيسى عليه الصلاة السلام الذى أوتى البينات وأيد بروح القدس ، والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى عليهما السلام « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى عالمى زمانهم . أى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] ونصها : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه . قال السيوطيّ في (الإكليل) : يستدل بهذه الآية على تفضيل الأنبياء على الملائكة لدخولهم في العالمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذُرِيَةً » أي نسلاً . نصب على البدلية من الآلين ، أو على الحالية منهما .

لطيفة :

الذرية مثلثة ، ولم تسمع إلا غير مهموزة . اسم لنسل الثقلين . وقد تطلق على الآباء والأصول أيضاً . قال الله تعالى : وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .[1] قال الصاغانيّ : وفي اشتقاقها وجهان : أحدها أنها من الذرء ووزنها فعولة أو فعيلة . والثاني : أنها من الذرّ بمعنى التفريق لأن الله ذرهم في الأرض ووزنها فعيلة أو فعولة أيضاً . وأصلها ذرورة فقلبت الراء الثالثة ياء كما في تقضت العقاب. كذا في القاموس وشرحه[2] .

---

(١) [٣٦ / يس / ٤١] .

(٢) جاء في اللسان . مادة ذرأ ما يأتي :

قال ابن برّي : جعل الجوهريّ الذرية أصلها ذُرِّيئة بالهمز . فخففت همزتها . وألزمت التخفيف .

قال : ووزن الذرية ، على ما ذكره ، فُعِّيلة ، من ذرأ الله الخلق . وتكون بمنزلة مُرِّيقةٍ وهي الواحدة من العصفر .

وغير الجوهريّ يجعل الذرية فُعْلِيَّة من الذَّرِّ . وفُعْلولة ، فيكون الأصل ذُرُّورَة . ثم قلبت الراء الأخيرة ياء لتقارب الأمثال . ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، وكسر ماقبل الياء ، فصارت ذُرِّيَّة .

« بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » فى محل النصب على أنه صفة لذرية . أى اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة البعض من البعض فى وراثة الاصطفاء « وَاللهُ سَمِيعٌ » لأقوال العباد « عَلِيمٌ » بضمائرهم وأفعالهم . وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولًا وفعلًا . ونظيره قوله تعالى : اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١) . وقوله : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ » فى حيز النصب على المفعولية ، بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران ، وبيان كيفيته . أى اذكر لهم وقت قولها الخ . وامرأة عمران هذه هى أم مريم عليها السلام .

فائدة :

قال العلامة النورىّ فى (غيث النفع) : (امرأت عمران) رسمت بالتاء ، وكل ما فى كتاب الله جل ذكره من لفظ (امرأة) فبالهاء . إلا سبع مواضع ، هذا الأول ، والثانى والثالث بيوسف (امرأت العزيز تراود) (امرأت العزيز الآن) والرابع بالقصص (امرأت

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ . اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ.

فرعون) ، الخامس والسادس والسابع بالتحريم (امرأت نوح وامرأت لوط وامرأت فرعون) فلو وقف عليها، فالمكىّ والنحويان يقفون بالهاء، والباقون بالتاء ـ انتهى[1].

« رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا » أى مخلصاً للعبادة (عن الشعبىّ) أو خادماً يخدم فى متعبداتك . حرره جعله نذيرًا فى خدمة المعبد ما عاش ، لا يسعه تركه فى دينه (عن الزجاج) . وفى الآية دلالة على صحة نذر الأم بولدها ، وأن للأم الانتفاع بالولد الصغير لمنافع نفسها ، لذلك جعلته للغير . والمعنى : نذرته وقفاً على طاعتك ، لا أشغله بشىء من أمورى . قال أبو منصور فى (التأويلات) : جعلت ما فى بطنها لله خالصاً لم تطلب منه

---

(١) هذا بيان المواضع الستة التى كتبت فيها (امرأت) بالتاء .

١ ـ [١٢ / يوسف / ٣٠] ونصها : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

٢ ـ [١٢ / يوسف / ٥١] ونصها : قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .

٣ ـ [٢٨ / القصص / ٩] ونصها : وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ ، لَاتَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ .

٤ ، ٥ ـ [٦٦ / التحريم / ١٠] ونصها : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ .

٦ ـ [٦٦ / التحريم / ١١] ونصها : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

الاستئناس به ولا مايطمع الناس من أولادهم ، وذلك من الصفوة التي ذكر عز وجل. وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذى طلبت امرأة عمران وزكريا حيث قال « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً »(١) وماسأل إبراهيم «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ »(٢) وكقوله : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »(٣) هكذا الواجب أن يطلب الولد ، لا مايطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم ـ انتهى ـ . « فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى تقبل منى قربانى وما جعلت لك خالصاً ، والتقبل أخذ الشى على وجه الرضا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا » الضمير لما فى بطنى ، وإنما أنث على المعنى ، لأن مافى بطنها كان أنثى فى علم الله ، أو على تأويل النفس أوالنسمة « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » أى وكنت رجوت أن يكون ذكراً ، وإنما تحسرت أو اعتذرت إذ جهلت قدرها « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ » قرئ فى السبع بسكون التاء وضمها ، فعلى القراءة الأولى تكون الجملة المعترضة من كلامه تعالى ، إما لدفع ما يتراءى من أن قولها « رَبِّ وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » قصدت بها إعلام

---

(١) [٣ / آل عمران / ٣٨] ونصها : هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٤] .

الله تعالى عن أن يحتاج إلى إعلامها ، فأزيلت الشبهة بقوله « وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ » هذا ما يتراءى لى . وإما لما ذكروه من أن الاعتراض تعظيم من جهته تعالى لموضوعها ، وتفخيم لشأنه ، وتجهيل لها بقدره ، أى والله أعلم بالنفس التى وضعتها ، وما علق بها من عظائم الأمور ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، وهى غافلة عن ذلك . وعلى القراءة الثانية أعنى ضم التاء، فالاعتراض من كلامها. إما للوجه الأول من الوجهين السابقين كما استظهرتُه ، أو لما ذكروه من قصد الاعتذار إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته ، أو تسلية نفسها على معنى : لعل لله تعالى فيه سرًّا وحكمة ، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر « وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ » جملة معترضة أيضاً ، إما من كلامه تعالى قصد به معذرتها فى التحسر والتحزن ببيان فضل الذكر على الأنثى ، ولذا جبلت النفوس على الرغبة فيه دونها ، سيما فى هذا المقام أعنى مقام قصد إخلاص النذر للعبادة . فإن الذكر يفضلها من وجوه منها : أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك فى الأنثى لمكان الحيض فيه وسائر عوارض النسوان . ومنها: أن الذكر يصلح لقوّته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة. ومنها: أن الذكر لا يلحقه عيب فى الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. ومنها : أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى . فهذه الوجوه تقتضى فضل الذكر على الأنثى فى هذا المقام . واللام فى (الذكر والأنثى) على هذا الملحظ، للجنس ـ كذا ظهر لى ـ وعلى قولهم اللام للعهد فيهما أى ليس الذكر الذى طلبته وتخيلت فيه كمالاً، قصاراه أن يكون كواحد من الأحبار ، كالأنثى التى وهبت لها . فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا ، وإما أن تكون هذه الجملة من كلامها ، والقصد حينئذ تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى فى الفضيلة والمزية ، وصلاحية خدمة المتعبدات ، فإنهن بمعزل عن ذلك ، فاللام للجنس .

لطيفة :

قيل : قياس كونه من قولها أن يكون « وليست الأنثى كالذكر » فإن مقصودها تنقيص

الأنثى بالنسبة إلى الذكر . والعادة فى مثله أن ينفى عن الناقص شبهه بالكامل ، لا العكس . قال الناصر فى (الانتصاف) وقد وجد الأمر فى ذلك مختلفاً فلم يثبت عين ما قيل . ألا ترى إلى قوله تعالى : لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ(١) ، فنفى عن الكامل شبه الناقص ، مع أن الكمال لأزواج النبىّ ﷺ ثابت بالنسبة إلى عموم النساء ، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم. ومنه أيضاً : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢). انتهى.

« وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ » قال المفسرون : هى فى لغتهم بمعنى العابدة ، سمتها بذلك رجاءً وتفاؤلًا أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها . لكن رأيت فى تأويل الأسماء الموجودة فى التوراة والإنجيل أن مريم معناه مرارة أو مر البحر. فلينظر. قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة وأنه لايتعين يوم السابع ، لأنها إنما قالت هذا بأثر الوضع ، كما فيها مشروعية التسمية للأم ، وأنها لاتختص بالأب . ثم طلبت عصمتها فقالت : « وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ » أى أجيرها بحفظك « وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى المطرود لمخالفتك ، فلا تجعل عليها وعلى ذريتها له سلطاناً يكون سبباً لطردها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ » أى قبلها أو تكفل بها ، ولم يقل (بِتَقَبُّلٍ) ،

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] ونصها : يَانِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

(٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هو الترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة. قال المهايمىّ : بقبول حسن يجعلها فوق كثير من الأولياء « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً » بجعل ذريتها من كبار الأنبياء ـ انتهى ـ وقال الزمخشرىّ : نباتها مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها ، أى كالصلاح والسداد والعفة والطاعة « وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » أى ضمها إليه ، وقرئ بالتشديد. ونصب زكريا ممدود أو مقصوراً والفاعل الله . أى جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها ، وقائماً بتدبير أمورها . وقد روى أن أمها أخذتها وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها إذ كانت بنت إمامهم ، وصاحب قربانهم ، وأحب كلٌّ أن يحظى بتربيتها، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها . عندى خالتها ، فأبوا إلا القرعة ، وانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم . على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها ، فطفا قلم زكريا ، ورسبت أقلامهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى فى آية أخرى : إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ(١) . فأخذها زكريا ورباها فى حجر خالتها، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء ، انزوت فى محرابها تتعبد فيه وصارت بحيث « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

فى الآية مسائل :

الأولى ـ فى معنى المحراب : فى القاموس وشرحه ما نصه : والمحراب : الغرفة والموضع العالى ، نقله الهروىّ فى غريبه عن الأصمعىّ ، قال وضاح اليمن :

ربة محراب إذا جئتها   لم ألقها أو أرتقى سلّماً

وقال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها . قال : وكذلك هو من المساجد .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ.

وعن الأصمعيّ : العرب تسمى القصر محراباً لشرفه . وقال الأزهريّ : المحراب عند العامة الذى يفهمه الناس مقام الإمام من المسجد . قال ابن الأنباريّ : سمى محراب المسجد لانفراد الإمام فيه ، وبعده من القوم . ومنه يقال : فلان حرب لفلان إذا كان بينهما بعد وتباغض. وفى المصباح : ويقال هومأخوذ من المحاربة لأن المصلى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه ، ثم قال : ومحاريب بنى إسرائيل هى مساجدهم التى كانوا يجلسون فيها . انتهى .

الثانية ـ فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد، عند خبيب[1] ابن عدىّ الأنصاريّ رضى الله عنه المستشهَد بمكة، قطفُ عنب. كما فى البخاريّ. وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة . ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانيّ فى (اليواقيت) عن العارف أبى الحسن الشاذليّ قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام كان يتعرف إليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلاً ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه ، فقيل لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، انتهى .

الثالثة ـ قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ » الخ تعليل لكونه من عند الله . إما من تمام كلامها فيكون فى محل نصب . وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف . ومعنى (بغير حساب) أى بغير تقدير لكثرته . وإما بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى .

الرابعة ـ زكريا المنوه به هنا هو والد يحيى عليهما السلام . ومعنى زكريا تذكار الرب. كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل .

---

(١) انظر فى صحيح البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٠ ـ باب هل يستأسر الرجل، ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل، تجد فيه قصة خبيب ومقتله مسرودة بتفصيل واف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » كلام مستأنف ، وقصة مستقلة ، سيقت فى تضاعيف حكاية مريم ، لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك ، مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران . فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين . و « هنا » ظرف مكان ، أى فى ذلك المكان ، حيث هو عند مريم فى المحراب ، أو ظرف زمان أى فى ذلك الوقت ، إذ يستعار (هنا وثمّ وحيث) للزمان ، دعا زكريا ربه لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من زوجته ولد مثل ولد أختها فى النجابة والكرامة على الله تعالى . وإن كانت عاقراً عجوزاً ـ كذا فى أبى السعود ـ والذرية هنا الولد ، قال الزمخشرىّ : تقع على الواحد والجمع ، وقد سبق الكلام عليها قريباً عند قوله تعالى « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وقوله « طَيِّبَةً » بمعنى مطيعة لك ، لأن ذلك طلبة أهل الخصوص كما سبق إيضاحه فى آية « رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ... » الخ. وقوله تعالى « إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » أى مجيبه ، وقد أجابه الحق تعالى ، فأرسل إليه الملائكة مبشرة كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

« فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ » أى على ألسنتنا « بِيَحْيَىٰ » وقد قرىء فى السبع بكسر « إِنَّ » وفتحها ، ولفظ (يحيى) معرّب عن (يوحنا)

اسمه فى العبرانية . ومعنى يوحنا نعمة الرب . كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل « مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ » أى بنبيّ خلق بكلمة (كن) من غير أب . يرسله الله إلى عباده فيصدقه هو . وذلك عيسى عليه السلام « وَسَيِّداً » أى يسود قومه ويفوقهم « وَحَصُوراً » أى لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعاً لها عن الشهوات عفة وزهداً واجتهاداً فى الطاعة « وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ناشئاً منهم لأنه من أصلابهم . أو كائناً من جملتهم . كقوله: وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١) . ولما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

« قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ » أى كيف أَوْ من أين « يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ » أى أدركنى الكبر الكامل المانع من الولادة فأضعفنى « وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ » أى ذات عقر ، فهو على النسب، وهو فى المعنى مفعول أى معقورة، ولذلك لم يلحق تاء التأنيث «قَالَ كَذَٰلِكَ» يكون لك الولد على الحال التى أنت وزوجتك عليها لأن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب بل « اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » لا يعجزه شىء ولا يتعاظمه أمر. وفى إعراب « كذلك » أوجه . منها : أنه خبر لمحذوف أى الأمر كذلك . وقوله تعالى « اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » بيان له . ومنها أن الكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف . أى الله يفعل مايشاء فعلاً من ذلك الصنع العجيب الذى هو خلق الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٠] ونصها : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً ، قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

« قَالَ » زكريا « رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً » أى علامة أعرف بها حصول الحمل. وإنما سألها لكون العلوق أمراً خفيًّا لا يوقف عليه . فأراد أن يعلمه الله به من أوله ليتلقى تلك النعمة بالشكر من أولها ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهوراً معتاداً « قَالَ » الله تعالى « ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » أى أن لا تقدر على تكليمهم « ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » أى إشارة بيد أو رأس . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكراً على ما أنعم به عليه . وقيل: كان ذلك عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ـ حكاه القرطبىّ عن أكثر المفسرين ـ « وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا » أى ذكراً كثيراً «وَسَبِّحْ» أى وسبحه « بِالْعَشِيِّ » وهو آخر النهار . ويقع العشى أيضاً على ما بين الزوال والغروب «وَالْأَبْكَارِ» وهو الغدوة أو من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية الحث على ذكر الله تعالى وهو من شعب الإيمان . قال محمد بن كعب : لو رخص الله لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا لأنه منعه من الكلام وأمره بالذكر ـ أخرجه ابن أبى حاتم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ » شروع فى تتمة فضائل آل عمران . قال المهايمىّ : فيه إشارة إلى جواز تكليم الملائكة الولىّ، ويفارق النبىّ فى دعوى النبوة «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ» بالتقريب والمحبة «وَطَهَّرَكِ» عن الرذائل ليدوم انجذابك إليه «وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»

بالتفضيل وبما أظهره من قدرته العظيمة حيث خلق منك ولداً من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء . وفى (الإكليل) : استدل بهذه الآية من قال بنبوة مريم . كما استدل بها من فضلها على بنات النبيّ ﷺ وأزواجه. وجوابه: أن المراد عالمى زمانها ـ قاله السدّىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ » أى اعبديه شكراً على اصطفائه « وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » أى لتزدادى بكثرة السجود والصلاة قرباً . قال البقاعىّ : الظاهر أن المراد بالسجود هنا ظاهره، وبالركوع الصلاة نفسها ، فكأنه قيل : واسجدى مصلية ، ولتكن صلاتك مع المصلين، أى فى جماعة ، فإنك فى عداد الرجال لما خصصت به من الكمال . ثم قال: وإنما قلت هذا لأنى تتبعت التوراة فلم أره ذكر فيها الركوع فى صلاة إبراهيم ولا من بعده من الأنبياء عليهم السلام، ولا أتباعهم إلا فى موضع واحد، لا يحسن جعله فيه على ظاهره . ورأيته ذكر الصلاة فيها على ثلاثة أنحاء : الأول ـ إطلاق لفظها من غير بيان كيفية ، والثانى ـ إطلاق لفظ السجود مجرداً ، والثالث ـ إطلاقه مقروناً بركوع أو جبو أو خرور على الوجه . ونحو ذلك . ثم ساق البقاعىّ ما وقع من النصوص فى ذلك . وقال بعد : فالذى فهمته من هذه الأماكن وغيرها أن الصلاة عندهم تطلق على الدعاء وعلى فعل هو مجرد السجود ، فإن ذكر معه ما يدل على وضع الوجه على الأرض فذاك ، وحينئذ يسمى صلاة . وإلا كان المراد به مطلق الانحناء للتعظيم . وذلك موافق للغة ، قال فى القاموس: سجد خضع ، والخضوع التطامن ، وأما المكان الذى ذكر فيه الركوع فالظاهر أن معناه فعل الشعب كله ساجداً لله ، لأن الركوع يطلق فى اللغة على معان ، منها الصلاة يقال: ركع أى صلى ، وركع إذا انحنى كثيراً ، ولا يصح حمل الركوع على ظاهره لأنه لا يمكن فى حال السجود ، وإن ارتكب فيه تأويل لم يكن تأويل مما ذكرته

فى الركوع ـ والله أعلم ـ واحتججت باللغة لأن مترجم نسخة التوراة ، التى وقعت لى ، فى عداد البلغاء ، يعرف ذلك من تأمل مواقع ترجمته لها . على أنى سألت عن صلاة اليهود الآن فأخبرت أنه ليس فيها ركوع ، ثم رأيت البغوىّ صرح فى قوله تعالى . وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(١) . بأن صلاتهم لا ركوع فيها، وكذا ابن عطية وغيرها . انتهى كلام البقاعىّ .

لطيفة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن الجماعة مطلوبة فى الصلاة ، وعلى أن المرأة تندب لها الجماعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ماسبق « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » أى من الأنباء المغيبة عنك « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » مطابقاً لما فى كتابهم . وتذكير الضمير فى « نُوحِيهِ » بجعل مرجعه ذلك « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » أى وما كنت معايناً لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أى سهامهم التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على جهة القرعة « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بسببها تنافساً فى كفالتها . وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردنّ واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم . فأيهم ثبت فى جرية الماء فهو كافلها . فألقوا أقلامهم ، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ، فإنه ثبت ، ويقال إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء ــ والله أعلم ـ قال أبو مسلم : معنى يلقون

(١) [٢ / البقرة / ٤٣] ونصها : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

أقلامهم ، مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعالى : فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(١) ، وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور . وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى ، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته ، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً . وقال السيوطيّ في (الإكليل) : هذه الآية أصل في استعمال القرعة عند التنازع . وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أنه يجوز التخاصم لطلب الفضل حتى يتميز واحد بمزية ، ودلت على أن التمييز يحصل بالقرعة في الأمر الملبس .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم نفيت المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها ، وهو موهوم ؟ قلت : كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة ، وكانوا منكرين للوحي ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة ، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي ، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ(٢) ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ(٣) ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ(٤) ـ انتهى ـ وبالجملة، فالنفي تقرير وتحقيق لكون تلك الأنباء وحياً على طريقة التهكم بمنكريه .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤١].

(٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

(٣) [٢٨ / القصص / ٤٦] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٤) [١٢ / يوسف / ١٠٢] ونصها : ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » شروع فى قصة عيسى عليه السلام « يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ » أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب « اسْمُهُ » ذكّر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر . أى اسمه الذى يميزه لقباً «الْمَسِيحُ» وعلماً «عِيسَى» معرب يسوع بالسين المهملة كلمة يونانية معناها (مخلّص) ويرادفها (يشوع) بالمعجمة ، إلا أنها عبرانية كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل. وفيها أن المسيح بمعنى الممسوح أو المدهون . قال البقاعىّ : وأصل هذا الوصف أنه كان فى شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس كان طاهراً متأهلًا للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركاً ، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسح . انتهى . وإنما قال « ابْنُ مَرْيَمَ » مع كون الخطاب لها ، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت على نساء العالمين « وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى سيداً ومعظماً فيهما « وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى من الله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ » فى محل النصب على الحال « وَكَهْلًا » عطف عليه بمعنى ويكلم الناس ، حال كونه طفلا وكهلا ، كلام الأنبياء من غير تفاوت بين الحالتين ، وذلك لا شك أنه غاية فى المعجز . وفى ذلك بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلا . والمهد الموضع الذى يهيأ للصبىّ ويوطأ لينام فيه . والكهل مَن وخطه الشيب ، أو من جاوز الثلاثين إلى

الأربعين أو الخمسين . قال ابن الأعرابى : يقال للغلام مراهق ، ثم محتلم ، ثم يقال: تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته ، ثم مجتمع ، ثم كهل ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. قال الأزهرى: وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته . وقوله تعالى « وَمِنَ الصَّالِحِينَ » قال ابن جرير: يعنى من عدادهم وأوليائهم . لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض فى الدين والفضل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« قَالَتْ » مخاطبة لله الذى بعث إليها الملائكة « رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » أى لست بذات زوج « قَالَ كَذَٰلِكِ » أى على الحالة التى أنت عليها من عدم مس البشر « اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولا يحتاج إلى سبب ، ولا يعجزه شيء . وصرح ههنا بقوله « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولم يقل (يَفْعَلُ) كما فى قصة زكريا ، لما أن الخلق المنبئ عن الإحداث للمكوَّن أنسب بهذا المقام لئلا يبقى لمبطلٍ شبهة ، وأكد ذلك بقوله : « إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا (١) . « فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب كقوله : وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٢) . أى إنما نأمر مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشيء سريعا كلمح البصر. وتقدم الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة .

---

(١) [٣٦/يس/٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.
(٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ » أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية « وَالْحِكْمَةَ » أى تهذيب الأخلاق « وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » إفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة، لزيادة فضلهما وإنافتهما على غيرهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ » منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على (يعلّمه) أى ويجعله رسولا إلى جميع الإسرائيليين . وقيل : معطوف على الأحوال السابقة « أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ » معمول لـ(رسولا) لما فيه من معنى النطق . أى رسولا ناطقا بأنى قد جئتكم « بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » التنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها ، والجار متعلق بمحذوف وقع حالًا أى متلبسا ومحتجاً بآية « أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ » الضمير للكاف أى فى ذلك الشىء المماثل لهيأة الطير « فَيَكُونُ طَيْرًا » حقيقياً ذا حياة « بِإِذْنِ اللَّهِ » أى أمره، لا باستقلال منى « وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ » الذى ولد أعمى « وَالْأَبْرَصَ » المبتلى بالبرص وهو بياض يظهر فى البشرة لفساد مزاج . وفى (الإكليل) : هذه الآية أصل لما يقوله الأطباء : إن الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص لا يمكن برؤهما كإحياء الموتى « وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ » لا باستقلال منى . نفياً لتوهم

الألوهية ، فهذه معجزات قاهرة فعلية « وَأُنَبِّئُكُمْ » أى أخبركم « بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَاتَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » ممالم أعاينه « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى دلالة « لَكُمْ » على صدق فى دعوى الرسالة « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » مصدقين بآيات الله . وقد ذكر فى الإنجيل أنه عليه السلام ردّ بصر أعميين فى كفرناحوم ، وأعمى فى بيت صيدا ، ورجل ولد أعمى فى أورشليم ، وشفى عشرة مصابين بالبرص فى السامرة ، وأبرأ أبرص فى كفرناحوم ، وأقام ابن الأرملة من الموت فى بلدة نايين ، وأحيا ابنة جيروس فى كفرناحوم ، والعازر فى بيت عينا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

« وَمُصَدِّقًا » حال معطوفة على قوله (بآية) أى جئتكم بآية ومصدقاً « لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ » أى مقراً لها ومثبتاً « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ » قال ابن كثير : فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين. ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وانكشف لهم عن الغطاء فى ذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ »[1]. والله أعلم ـ انتهى ـ أقول : من البعض الذى أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير فى السبوت ، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت ، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضاً فسألوه : هل يحل أن يشفى فى السبت ؟ فقال لهم عليه السلام : أى إنسان منكم يكون له خروف ، فيسقط فى حفرة يوم السبت

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

ولا يمسكه ويرفعه ؟ والإنسان كم يفضل الخروف ؟ فإذن يحل فعل الخير فى السبوت ، ثم أبرأ ذلك المريض ـ كذا فى الأصحاح الثانى عشر. من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى ـ وفيه فى الأصحاح الخامس الفقرة السابعة عشر قول المسيح عليه السلام: لا تطنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل ـ انتهى ـ وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها ، ثم جاء بولس ومَن بعده من الرهبان فادعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفعه عنهم ، إذ أكمله وأتمه بفعله إياه . وكفاهم مؤونة العمل بشيء منه ، وأغناهم بشريعته الروحانية ، فنقضوا الناموس الذى جاء لإكماله المسيح . فما نقضوه إباحة كثير من الحيوانات المحرمة فى الناموس الموسوى، فنسخت حرمتها فى الشريعة العيسوية ، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس، إذ قال لهم: لاشيء نجس العين. كما فى رسالته إلى أهل رومية . ومما نقضوه تعظيم السبت ، فقد كان حكماً أبدياً فى الشريعة الموسوية ، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل ، وكان من عمل فيه عملا واجب القتل . ومنه أحكام الأعياد المشروعة فى التوراة، ومنه حكم الختان الذى كان أبدياً فى شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى ، وقد ختن عيسى عليه السلام ، فنسخ حكمه الرهبان بعده ، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة ، إلا الزنى، كما بيّن فى (إظهار الحق) ، فى الباب الثالث فى إثبات النسخ . وقد أسلفنا جملة جليلة فى هذا الشأن فى سورة البقرة عند قوله تعالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا[1]. فانظرها . « وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » كرره تأكيداً وليبنى عليه قوله « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ » .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٥] ونصها : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

« إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا » أى ما آمركم به « صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ » أى من بنى إسرائيل « الْكُفْرَ » أى علمه ووجده منهم « قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ » جمع نصير. والجار متعلق بمحذوف وقع حالا. أى من أنصارى متوجهاً إلى الله ملتجئاً إليه « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ » وهم طائفة من بنى إسرائيل انتدبت للإيمان بالمسيح عليه السلام فوازروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ـ جمع حوارىّ ـ وهو الناصر أو المبالغ فى النصرة والوزير والخليل والخالص كما فى (التوشيح) « نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ » أى أنصار دينه ورسوله « ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى منقادون لرسالتك . ولما أشهدوه عليه السلام أشهدوا الله تعالى الآمر بما أنزل من الإيمان به وبأوامره فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

« رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ » فأشهدناك على ما نحن عليه من تصديقنا دعواه « فَاكْتُبْنَا » أى جزاءً على إشهادنا إياك « مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك . وهم المتقدمون فى آية (شَهِدَ اللَّهُ) أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم .

لطيفة :

جاء فى إنجيل متى فى الأصحاح العاشر مايأتى :

(١) ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضُعف .

(٢) وأما أسماء الاثنى عشر رسولا فهى هذه . الأول سِمْعَانُ الذى يقال له بُطْرُسُ وأندراوُسُ أخوه . يعقوب بن زَبْدِى ويُوحَنَّا أخوه.

(٣) فِيلُبُّسُ وبَرْثُو لَمَاوُسُ . تُومَا ومَتَّى العَشَّارُ . يعقوب بن حَلْفَى ولَبَّاوُسُ الملقب تَدَّاوُسَ .

(٤) سِمْعَانُ القانَوِىّ ويهوذا الإسْخَرْيُوطِىُّ الذى أسلمه .

وكانوا يسمون رسل عيسى عليه السلام. لأنه بعثهم إلى الإسرائيليين الضالين يدعونهم إلى الحق الذى جاء به ، فبذلوا الجهد فى بثه وانتشاره وإقامته ، إلى أن جاء بولس فسلبهم، بخداعه، دين المسيح الصحيح ، فلم يسمعوا له بعد من خبر ، ولا وقفوا له على أثر ، وطمس لهم رسوم التوراة ، وحلل لهم كل محرم ، كما بين ذلك فى غير هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَمَكَرُوا » أى الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر بأن هموا بالفتك به وإرادته بالسوء ، حيث تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملكهم « وَمَكَرَ اللهُ » أى بهم بعد ذلك فانتقم منهم وأورثهم ذلة مستمرة وأباد ملكهم « وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » أى أقواهم مكرا ، وأنفذهم كيداً ، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لايحتسب . وقال البقاعىّ كغيره فى قوله تعالى (وَمَكَرَ اللهُ) : أى بأن رفعه إليه. وشبه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صلبوه ، وإنما صلبوا أحدهم ، ويقال إنه الذى دلهم ، وأما هو عليه السلام ، فصانه عنده بعد رفعه

إلى محل أوليائه وموطن قدسه ، لينزله فى آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربت عليهم الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذى طلبوا به العز إلى آخر الدهر ، فكان تدميرهم فى تدبيرهم ، ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« إِذْقَالَ اللَّهُ يَاعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ » أى مستوفى مدة إقامتك بين قومك. والتوفى، كما يطلق على الإماتة، كذلك يطلق على استيفاء الشيء. كما فى كتب اللغة. ولو ادعى أن التوفى حقيقة فى الأول، والأصل فى الإطلاق الحقيقة فنقول: لامانع من تشبيه سلب تصرفه عليه السلام بأتباعه وانتهاء مدته المقدرة بينهم بسلب الحياة . وهذا الوجه ظاهر جدا ، وله نظائر فى الكتاب العزيز ، قال تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا[١]. قال الزمخشرىّ : يريد ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، أى يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى . ومنه قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ[٢] . حيث لا يميزون ولا

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٦/ الأنعام/ ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك ـ انتهى كلامه ـ ثم بين سبحانه فى بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس فقال : « وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مكرهم وخبث صحبتهم ؛ وقد دلت هذه الآية بظاهرها على أن الله تعالى فوق سمواته كقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً[١] . وقوله تعالى : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[٢] . وقوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ[٣] . وقوله تعالى: ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ[٤] . وهو مذهب السلف قاطبة كما نقله الإمام الذهبىّ فى كتاب (العلوّ) . قال أبو الوليد بن رشد فى (مناهج الأدلة) : لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله سبحانه وتعالى جهة (الفوق) حتى نفتها المعتزلة ، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشاعرة كأبى المعالى ومن اقتدى بقوله ـ إلى أن قال : والشرائع كلها مبنية على أن الله فى السماء ، وأن منه تتنزل الملائكة بالوحى إلى النبيين ، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبىّ ﷺ . وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة فى السماء ، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك بالمعقول . وبيّن بطلان الشبهة التى لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم ـ إلى أن قال : فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل . وأن إبطاله إبطال الشرائع. قال الدارمىّ: وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سمواته . وقد بسط نصوصَ السلف الحافظُ الذهبىّ فى كتاب (العلوّ) فانظره ،

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .

(٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٥] ونصها : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .

(٤) [٦٧ / الملك / ١٦] .

هذا ، ولما كان لذوى الهمم العوال ، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلفاؤهم من بعدهم من الأحوال، بشره تعالى فى ذلك بما بشره فقال « وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكذا كان لم يزل من انتحل النصرانية فوق اليهود ، ولا يزالون كذلك إلى أن يعدموا فلا يبقى منهم أحد « ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » ثم فسر الحكم الواقع بين الفريقين بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

«وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» أى يبغضهم ، فإن هذه الكناية فاشية فى جميع اللغات ، جارية مجرى الحقيقة .

القول فى تأول قوله تعالى :

[٥٨] (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وهو مبتدأ وخبره «نَتْلُوهُ عَلَيْكَ » أى من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه . وقوله تعالى « مِنَ الْآيَاتِ » حال

من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر « وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » أى المشتمل على الحكم، أو المحكم المعصوم من تطرق الخلل إليه، والمراد به القرآن .

تنبيه :

فى قوله : إِنِّى مُتَوَفِّيكَ . وجوه فى التأويل كثيرة ، إلا أن الذى فتح المولى به مما أسلفناه هو أرجح التأويلات والله أعلم ، وبه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية حجة علينا ، لإفادتها وفاته عليه السلام ، أى بالصلب ، ثم رفعه إلى السماء أعنى قيامه حياً بعدوفاته على زعمهم من أنه مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أنزل ودفن فى أول ساعة من ليلة السبت ، وأقام فى القبر إلى صبيحة الأحد ، ثم انبعث حياً وتراءى للنسوة اللائى جئن إلى قبره زائرات . وقد استندوا فى هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع ، وشهادة تلاميذه الشفاهية فى العالم ، ثم أتباعهم وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتياً . ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه فى معنى الآية مما لا يبقى معه أدنى ارتياب . وقد بين علماؤنا بطلان معتقدهم هذا فى تآليف وتحارير فانظره فى (حواشى تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب) تأليف الشيخ عبد الله بك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى » أى شأنه العجيب فى إنشائه بالقدرة من غير أب « عِندَ اللَّهِ »أى فى تقديره وحكمه « كَمَثَلِ ءَادَمَ » أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتاب « خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » جملةمفسرة للتمثيل ببيان وجهالشبه بينهما. وحسم لمادة شبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه السلام بغير أب وأم ، مما لا يكاد يصح ـ قاله أبو السعود ـ وقوله (خَلَقَهُ) أى صور

جسد آدم من تراب ثم قال له (كن) أى بشراً كاملًا روحاً وجسداً فإن أمره تعالى يفيد قوة التكون . قال البقاعىّ : وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء فى (فيكون) دون الماضى ، وإن كان المتبادر إلى الذهن أن المعنى عليه حكايةً للحال وتصويراً لها إشارةٌ إلى أنه كان الأمر من غير تخلف ، وتنبيهاً على أن هذا هو الشأن دائماً يتجدد مع كل مراد ، لا يتخلف عن مراد الآمر أصلًا كما تقدم التصريح به فى آية : إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا .

لطيفة :

قال الرازىّ : الحكماء قالوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه :

الأول ـ ليكون متواضعاً ، الثانى ـ ليكون ستاراً ، الثالث ـ ليكون أشد التصاقاً بالأرض. وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض . قال تعالى : إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً[1] . الرابع ـ أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التى هى أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة ، وخلق آدم من التراب الذى هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية ، الخامس ـ خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب ـ انتهى ملخصاً ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى الذى قصصنا عليك من نبأ عيسى الحق ، وقيل : الحق مبتدأ ، والظرف خبر ، أى الحق المذكور . وقيل : الحق فاعل لمضمر ، أى جاءك الحق. وفى (الحق) تأويلان : الأول ـ قال أبو مسلم : المراد أن هذا الذى أنزلتُ

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لا ما قالت النصارى واليهود . فالنصارى قالوا إن مريم ولدت إلهاً ، واليهود رموا مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار ، فالله تعالى بيّن أن هذا الذى أنزل فى القرآن هو الحق . ثم نهى عن الشك فيه .

والقول الثانى ـ أن المراد أن الحق فى بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل ، وهو قصة آدم عليه السلام ، فإنه لا بيان أقوى منها . والله أعلم .

« فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » خطاب إما للنبىّ صلى الله عليه وسلم على طريقة التهييج لزيادة الثبات ، أو لكل سامع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

« فَمَنْ حَاجَّكَ » أى جادلك من النصارى بإيراد حجة « فِيهِ » أى فى شأن عيسى زعماً منهم أنه ليس على الشأن المتلوّ « مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أى الذى أنزلناه إليك، وقصصناه عليك فى أمره . وللفاضل المهايمىّ فى هذه الآية أسلوب لطيف فى التأويل حيث قال (الْحَقُّ) أى الثابت الذى لا يقبل التأويل جاء (مِنْ رَبِّكَ) الذى رباك بالاطلاع على الحقائق (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) بما ورد فى الإنجيل من إطلاق لفظ الأب على الله فإنه إطلاق مجازىّ لأنه لما حدث منه كان كأبيه. وإذا ظهر لك الحق من ربك بالبيان التام (فَمَنْ حَاجَّكَ) أى جادلك (فِيهِ) لإثبات ابنيته بظواهر الإنجيل (مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) القطعىّ الموجب لتأويله . « فَقُلْ » لم يبق بيننا وبينكم مناظرة ، ولكن نرفع عنادكم بطريق المباهلة « تَعَالَوْا » أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يُعرف فيه علوّ الحق وسفول

الباطل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ » أى يدع كل منه ومنكم نفسه ، وأعزة أهله ، وألصقهم بقلبه ، ممن يخاطر الرجل بنفسه لهم ويحارب دونهم ، ويحملهم على المباهلة « ثُمَّ نَبْتَهِلْ » أى نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد فى دعاء اللعنة « فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ » أى إبعاده وطرده « عَلَى الْكَاذِبِينَ » منا ومنكم ليهلكهم الله وينجى الصادقين ، فلا يبقى العناد الباقى عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية .

تنبيهات :

الأول ـ قال القاشانىّ : إن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأييد الله إياهم به ، وهو المؤثر بإذن الله فى العالم العنصرىّ ، فيكون انفعال العالم العنصرىّ منه كانفعال بدننا من روحنا بالهيئات الواردة عليه ، كالغضب والحزن والفكر فى أحوال المعشوق ، وغير ذلك من تحرك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم . وانفعال النفوس البشرية منه كانفعال حواسنا وسائر قوانا من هيآت أرواحنا ، فإذا اتصل نفس قدسىّ به كان تأثيرها فى العالم عند التوجه الاتصالىّ تأثير ما يتصل به ، فتنفعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية منه بما أراد . ألم تر كيف انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام بالخوف ، وأحجمت عن المباهلة ، وطلبت الموادعة بقبول الجزية ؟

الثانى ـ قال ابن كثير : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نصارى نجران لما قدموا المدينة ، فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحق وغيره ، وكانوا ستين راكباً ، منهم ثلاثة نفر ، إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم واسمه عبد المسيح ، والسيد ثِمَالُهُمْ وصاحب رحلهم واسمه الأيهم : ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفى القصة أن النبىّ ﷺ لما أتاه الخبر من الله عز وجل ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى المباهلة فقالوا : ياأباالقاسم !

دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : ياعبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يامعشر النصارى ! لقد عرفتم إن محمداً لنبيٌّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيًّا قط ، فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه لَلاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفو إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ! قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، فلم يلاعنهم ﷺ ، وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن الشعبىّ عن جابر قال : قدم على النبىّ ﷺ العاقب والطيّب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة ، قال : فغدا رسول الله ﷺ ، فأخذ بيد علىّ وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج ، قال : فقال رسول الله ﷺ : والذى بعثنى بالحق ، لوقالا: لا، لأمطر عليهم الوادى ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ... الآية ـ قال جابر : أنفسنا وأنفسكم: رسول الله ﷺ وعلىّ بن أبى طالب ، وأبناؤنا : الحسن والحسين ، ونساؤنا : فاطمة ، وهكذا ـ رواه الحاكم فى مستدركه بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . هكذا قال.

وقد رواه أبوداود الطيالسىّ عن شعبة عن المغيرة عن الشعبىّ مرسلًا ، وهذا أصح .

وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك .

وروى البخارىّ[1] عن حذيفة رضى الله عنه قال : جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧٢ ـ باب قصة أهل نجران .

رجلًا أميناً، ولاتبعث معنا إلا أميناً. فقال : لأبعثن معكم رجلًا أميناً، حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح . فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة . ورواه مسلم والنسائىّ أيضاً وغيرهم .

وروى الإمام أحمد[1] عن ابن عباس قال : قال أبو جهل ـ قبحه الله ـ : إن رأيت محمداً يصلّى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ، قال : فقال : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا .

قال ابن كثير : وقد رواه البخارىّ والترمذىّ والنسائىّ . وقد ساق قصة وفد نجران الإمام ابن القيم عليه الرحمة فى (زاد المعاد) وأعقبها بفصل مهم فى فقهها . فليراجع .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك آكد فى الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك . ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثمت كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب. ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدّمهم فى الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مُفَدَّوْن بها . وفيه دليل ، لا شيء أقوى منه، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام . وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبىّ ﷺ . لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، حديث ٢٢٢٥ (طبعة المعارف) .

الرابع ـ استنبط من الآية جواز المحاجة فى أمر الدين ، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مباهلته اقتداء بما أمر به ﷺ. والمباهلة الملاعنة .

قال الكازرونىّ فى تفسيره : وقع البحث عند شيخنا العلامة الدوانىّ قدس الله سره فى جواز المباهلة بعد النبىّ ﷺ ، فكتب رسالة فى شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار ، وكلام الأئمة ، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا فى أمر مهم شرعاً ، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة ، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعى فى إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها .

قال الإمام صديق خان فى تفسيره : وقد دعا الحافظ ابن القيّم، رحمه الله، من خالفه فى مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، إلى المباهلة بين الركن والمقام فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة . وتمام هذه القصة مذكور فى أول كتابه المعروف بـ (النونية) ـ انتهى ـ وقد ذكر فى (زاد المعاد) فى فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه : ومنها أن السنّة فى مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة ، وقد أمر الله، سبحانه، بذلك رسوله ، ولم يقل إن ذلك ليس لأمتك من بعدك . ودعا إليه ابن عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعىّ سفيانَ الثورىّ فى مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجة ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« إِنَّ هَـٰذَا » أى المتقدم من شأن عيسى عليه السلام « لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ » الذى

لا معدل عنه ، دون أقاصيص النصارى . والقصص تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها . فى معنى قصّ الأثر، وهو اتباعه ، حتى ينتهى إلى محل ذى الأثر ـ أفاده الحرالىّ ـ .

قال البقاعىّ : ولما بدأ سبحانه القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته مستدلّا على ذلك بأنه الحىّ القيّوم صريحاً، ختم ذلك إشارة وتلويحاً فقال، عاطفاً على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى عبد الله ورسوله ، مُعمِّماً للحكم: « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ » فصرح فيه بـ (من) الاستغراقية ، تأكيداً للرد على النصارى فى تثليثهم « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فلا يشاركه أحد فى العزة والحكمة، ليشاركه فى الألوهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن قبول الحق الذى قص عليك بعدما عاينوا تلك الحجج النيّرة « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » أى بهم فيجازيهم على إفسادهم . والتعبير عنهم بذلك إشارة إلى أنهم، بتوليهم ، مفسدون اعتقادهم واعتقاد غيرهم فى الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى إلى قول معتدل لا يميل إلى التعطيل ولا إلى الشرك ، متفق عليها لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى « أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » أى لا نرى غيره مستحقّاً للعبادة فنشركه معه ، بل نفرد العبادة لله وحده ، لا شريك له . وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ[(١)] .
وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ[(٢)] .
« وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا » أي كعزير والمسيح والأحبار والرهبان الذين كانوا يحلّون لهم ويحرّمون ، كما روى الترمذيّ[(٣)] عن عديّ بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال: إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

قال الكيا الهراسيّ : فيه رد على من قال بالاستحسان المجرد الذى لا يستند إلى دليل شرعيّ ،وعلى من قال: يجب قبول قول الإمام في التحليل والتحريم ولو دون إبانة مستند شرعيّ .

قال البقاعيّ : ولما كان الرب قد يطلق على المعلم والمربّى بنوع تربيةٍ ، نبه على أن المحذور إنما هو اعتقاد الاستبداد والاجتراء على ما يختص به الله فقال : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » الذى اختص بالكمال « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أي عن هذه الكلمة السواء المتفق عليها « فَقُولُوا » أي تبعاً لأبيكم إبراهيم عليه السلام إذ قال : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وامتثالاً لوصيته إذ قال: وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أي لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو غيرها : اعترف بأنى أنا الغالب ، وسلم لى الغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره ـ كذا فى الكشاف ـ .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : . . . ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

(٣) أخرجه الترمذيّ فى: ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٩ـ سورة التوبة ، ١٠ـ حدثنا الحسن ابن مرثد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ » أى تجادلون فيه فيدعيه كل من فريقكم « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ » أى المقرِّر كل منهما لأصل دين منتحله منكم « إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدل المحال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ » أى الأشخاص الحمق « حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر محمد ﷺ إذ له ذكر فى كتابكم فأمكنكم تغييره لفظاً ومعنى ، أو من أمر موسى وعيسى عليهما السلام، أو مما نطق به التوراة والإنجيل « فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر إبراهيم لكونه لم يذكر فى كتابكم بما حاججتم ، فلا يمكنكم فيه التغيير « وَاللَّهُ يَعْلَمُ » فيبيّنه لنبيّه « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا » أى كما ادعى اليهود « وَلَا نَصْرَانِيًّا » كما ادعى النصارى « وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً» سبق معنى الحنيف عند قوله تعالى : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً. فى البقرة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بأنهم مشركون بقولهم : عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، وردٌّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ » أى أخصهم به وأقربهم منه . من (الْوَلْيِ) وهو القرب « لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ» أى فى دينه من أمته وغيرهم «وَهَـٰذَا النَّبِيُّ» يعنى خاتم الأنبياء محمداً ﷺ « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » به فعملوا بشريعته الموافقة لشريعة إبراهيم « وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » بالنصر والمعونة والمحبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

« وَدَّتْ » أى تمنت « طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ » بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » أى ومايتخطاهم الإضلال، ولا يعود وباله إلا عليهم، إذ يضاعف به عذابهم « وَمَا يَشْعُرُونَ» أى أن وزره خاص بهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ[١] . وقوله : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً[٢] .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٤ / النساء / ٨٩] ونصها: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » أى المنزلة على محمد ﷺ « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » أى تعلمون حقيتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » أى تسترون الحق المنزل بتمويهاتكم الباطلة « وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أى الذى لا يقبل تمويهاً ولا تحريفاً « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى عالمين بما تكتمونه من حقيته وقد كانوا يعلمون ما فى التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ﷺ ونبوته، ويلبسون على الناس فى ذاك ، كدأبهم فى غيره . وفى الآية دلالة على قبح كتمان الحق ، فيدخل فى ذلك أصول الدين وفروعه والفتيا والشهادة ؛ وعلى قبح التلبيس . فيجب حل الشبهة وإبطالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ » أى أوله « وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » هذه الآية حكاية لنوع آخر

= سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

من تلبيساتهم . وهى مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من المؤمنين أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم . فيظن الضعفاء أنه لاغرض لهم إلا الحق ، وأنه ما ردهم عن الدين بعد اتباعهم له وترك العناد ، وهم أولو علم وأهل كتاب، إلا ظهور بطلانه لهم ، ولهذا قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الإسلام كما رجعتم .

لطيفة :

قال الرازىّ : الفائدة فى إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول ـ أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزاً .

الثانى ـ أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض مَن فى إيمانه ضعف .

الثالث ـ أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » من تتمة كلامهم أى ولا تصدقوا إلا نبياً تابعاً لشريعتكم، لامن جاء بغيرها ، أو ولاتؤمنوا ذلك الإيمان المتقدم، وهو إيمانهم وجه النهار، إلا لأجل حفظ أتباعكم وأشياعكم وبقائهم على دينكم « قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ » أى الذى هو

الإسلام وقد جئتكم به ، وما عداه ضلال فلا ينفعكم فى دفعه هذا الكيد الضعيف ولا تقدرون على إضلال أحد منا بعد أن هدانا الله . ثم وصل به تقريعهم فقال « أَنْ » بمد الألف على الاستفهام، فى قراءة ابن كثير . وتقديرها فى قراءة غيره. أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلتم ماقلتم ودبرتموه ألأن « يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » من الشرائع والعلم والكتاب، « أَوْ » كراهة أن « يُحَاجُّوكُمْ » أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتم بعد البيان الواضح فيفضحكم « قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ » أى بإنزال الآيات وغيرها « بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» فلا يمكنكم منعه « وَاللهُ وَاسِعٌ » كثير العطاء « عَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ،وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » فيزيده فضلا عليكم « وَاللهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً » بالمطالبة والترافع وإقامة البينة ، فلا يبعد منه الخيانة مع الله بكتمان ما أمر بإظهاره طمعاً فى إبقاء الرئاسة والرشا عليه. ثم استأنف علة الخيانة بقوله « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » أى ذلك الاستحلال والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب عقاب ومؤاخذة

فهم يخونون الخلق « وَيَقُولُونَ » أى فى الاعتذار عنه « عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » بادعائهم ذلك وغيره فيخونونه أيضا « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنه كذب محض وافتراء لتحريم الغدر عليهم. كما هو فى التوراة . وقد مضى نقله فى البقرة فى آية :إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا[1]. فارجع إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » اعلم أن (بلى) إما لإثبات مانفوه من السبيل عليهم فى الأميين ، أى بلى عليهم سبيل، فالوقف حينئذ على (بلى) وقف التمام ، وقوله « مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ » جملة مقررة للجملة التى سدت (بلى) مسدّها ؛ وإما لابتداء جملة بلا ملاحظة كونها جواباً للنفى السابق ، فإن كلمة (بلى) قد تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعدها ـ كما نقله الرازىّ ـ وهذا هو الذى أرتضيه . وإن اقتصر الكشاف ومقلدوه على الأول . وقد ذكروا فى (نعم) أنها تأتى للتوكيد إذا وقعت صدرا. نحو : نعم هذه أطلالهم ، فلتكن (بلى) كذلك ، فإنهما أخوان ، وإن تخالفا فى صور ، وعلى هذا فلا يحسن الوقف على (بلى). والضمير فى « بِعَهْدِهِ » إما لاسم (الله) فى قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » على معنى إن كل من أوفى بعهد الله واتقاه فى ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه . وإما لِـ« مَنْ أَوْفَىٰ » على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقاه فإنه يحبه .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت فهذا عام. يخيل أنه ولو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا

---

(١) [٢ / البقرة / ٦٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت : أجل. لأنهم إذا وفوا بالعهود، وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسولٍ مصدق لما معهم ، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه ـ انتهى ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ » أي يستبدلون « بِعَهْدِ اللهِ » أي بما أخذه عليه في كتابه. أو بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم « وَأَيْمَانِهِمْ » أي التي عقدوها بالتزام متابعة الحق على ألسنة الرسل « ثَمَنًا قَلِيلًا » من الدنيا الزائلة الحقيرة التي لا نسبة لجميعها إلى أدنى ما فوتوه « أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ » أي لا نصيب ثواب « لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وذلك لحجبهم عن مقامات قربه كما قال تعالى : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . « وَلَا يُزَكِّيهِمْ » أي ولا يثني عليهم كما يثني على أوليائه ، أو لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي بالنار.

واعلم أن في هذه الآية مسائل :

الأولى ـ قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أن من نقض عهداً لله لغرض دنيوي ، أو حلف كاذباً ، فإنه قد ارتكب كبيرة .

الثانية ـ في الجمع بين قوله تعالى هنا : وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ . وقوله : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[1]. قال القفال: المقصود من هذه الآية بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره

(١) [١٥ / الحجر / ٩٢] .

كلامَه فإنما ذلك بسخطٍ عليه ، وإذا سخط إنسان على آخر قال له : لا أكلمك . وقد يأمر بحجبه عنه ، ويقول: لاأرى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل ، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب ، نعوذ بالله منه . ومنهم من قال : لايبعد أن يكون إسماع الله جل جلاله أولياءَه كلامَه بغير سفير تشريفاً عالياً يختص به أولياءه ، ولا يكلم هؤلاء الكفرةَ والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة . ومنهم من قال : معنى الآية لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم ، والكل حسن .

الثالثة ـ روى الشيخان[1] عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه غضبان. قال عبدالله : ثم قرأعلينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عزوجل: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا... إلى آخر الآية . وفى رواية قال : من حلف على يمين صبر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله تصديق ذلك : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا ... الآية . فدخل الأشعث بن قيس الكندىّ فقال : ما يحدثكم أبوعبد الرحمن؟ قلنا : كذا وكذا ، فقال : صدق ، فىّ نزلت ، كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : شاهداك أو يمينه ، قلت : إنه إذاً يحلف ولا يبالى ، فقال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان ، ونزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا... إلى آخر الآية .

وأخرجه الترمذىّ وأبوداود وقالا : إن الحكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودىّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٣ ـ باب إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَناً قَلِيلًا . . . الخ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٢٠و٢٢١ (طبعتنا) .

وروى البخاريّ[١] عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلًا أقام سلعة وهو في السوق. فحلف بالله لقد أَعْطَى بها مالم يُعْطَهُ، ليوقع فيها رجلًا من المسلمين ، فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... إلى آخر الآية . وقدمنا في مقدمة التفسير، في بحث سبب النزول ، وفي سورة البقرة أيضاً عند آية : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ[٢]، ما يعلم به الجمع بين مثل هذه الروايات، وأنه لا تنافي . فتذكَّرْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » قال الإمام ابن كثير : يخبر تعالى عن اليهود ، عليهم لعائن الله ، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم **أنهم** قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال تعالى : وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وقال مجاهد والشعبيّ والحسن وقتادة والربيع بن أنس : يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٣ ـ باب إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . . الخ

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ =

بِالْكِتَابِ. يحرفونه. وهكذا روى البخاريّ عن ابن عباس[١] أنهم يحرفون: ويزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله .

وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منها حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله. فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول. رواه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش. وهو من باب تفسير المعرّب المعبِّر ، وفهمُ كثير منهم فاسد ؛ وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء ـ انتهى ـ وقد قدمنا الكلام على ذلك في مقدمة التفسير عند الكلام على الإسرائيليات، وفي سورة البقرة أيضاً عند قوله تعالى[٢]: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللهِ .. الآية فليراجع .

ولما بين تعالى كذبهم عليه ـ جل ذكره ـ بين افتراءهم على رسله إذ زعموا أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يتخذوه رباً ، فردّ سبحانه عليهم بقوله :

= يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ

(٢) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ » أى ماصح ولا استقام . وفى التعبير بـ« بشر » إشعار بعلة الحكم ، فإن البشرية منافية لماافتروه عليهم « أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ » أى الفهم والعلم أو الحكمة « وَالنُّبُوَّةَ » وهى الخبر منه تعالى ليدعو الناس إلى الله بترك الأنداد « ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ » أى الذين بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى عبادته وحده « كُونُوا عِبَادًا لِى » أى اتخذونى ربًّا « مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ » يقول لهم « كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » أى منسوبين إلى الرب لاستيلاء الربوبية عليهم وطمس البشرية بسبب كونهم عالمين عاملين معلمين تالين لكتب الله . أى كونوا عابدين مرتاضين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات ، حتى تصيروا ربانيين بغلبة النور على الظلمة ـ أفاده القاشانىّ ـ « بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ » أى بسبب مثابرتكم على تعليم الناس الكتاب ودراسته، أى قراءته. فإن ذلك يجركم إلى الله تعالى بالإخلاص فى عبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

«وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ » أى بالعود إليه وقد بعث لمحو الشرك « بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى بعد استقراركم على الإسلام .

تنبيهات :

الأول ـ إذا كان ما ذكر فى الآية لا يصلح لنبىّ ولا لمرسل، فَلأَنْ لا يصلح لأحد من الناس غيرهم، بطريق الأولى والأحرى . ولهذا قال الحسن البصرىّ : لا ينبغى هذا لمؤمنٍ ، أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً ـ يعنى أهل الكتاب ـ كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال الله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ... الآية[1] ـ وفى جامع الترمذىّ[2] ـ كما سيأتى ـ أن عدىّ بن حاتم قال: يارسول الله ما عبدوهم . قال : بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم . فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ . بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه الرسل الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغته إياه رسله الكرام ـ قاله ابن كثير ـ

الثانى ـ فى هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وأن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه . والدراسة مذاكرة العلم والفقه. فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيًّا، فمن اشتغل بها، لا لهذا المقصود، فقد ضاع سعيه وخاب عمله ، وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها، ولا منفعة بثمرها ، ولهذا قال ﷺ[3] : نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ـ كذا فى فتح البيان والرازىّ .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

(٣) أخرجه مسلم فى: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث٧٣ =

الثالث ـ قرئ فى السبع « وَلَا يَأْمُرُكُمْ » بالرفع على الاستئناف أى ولا يأمركم الله أو النبيّ ، وبالنصب عطفاً على ثم يقول . و (لا) مزيدة لتأكيد معنى النفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ . قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم. ومن جملتها ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية. وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم ، وإن كان ناسخاً لبعض أحكامهم بما دلت

= (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول . كان يقول « اللهم ! إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم ! آت نفسى تقواها . وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم ! إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

الحكمة على اقتضاء الزمان ذلك ، آمنوا به ونصروه أيضاً ، مبالغة فى تشهير أمره . ولا يمنعهم ماهم فيه من العلم والنبوة من اتباع شرعه ونصره . وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . وقد قرئ فى السبع بفتح اللام من : لِمَا ءَاتَيْتُكُمْ . وكسرها ، فعلى الأول هى موطئة للقسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، و «مَا» حينئذ تحتمل الشرطية، و «لَتُؤْمِنُنَّ» سادّ مسد جواب القسم والشرط . وتحتمل الموصولة بمعنى « لَلَّذِى أَتَيْتُكُمُوهُ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» وعلى الثانى ، أعنى كسر اللام ف «مَا» إما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم الكتاب ثم لمجىء رسول مصدق لكم غير مخالف أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه . وإما موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه ، وجاءكم رسول مصدق له ، وقوله تعالى : فَاشْهَدُوا . أى يا أنبياء ، بعضكم على بعض ، بالإقرار . وفى قوله تعالى : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ : توكيد عليهم . ومن أمعن فى نهج الآية علم أن هذا الميثاق قد بولغ فى شأنه غاية المبالغة ، وإذا كان هذا الإيجاب مع الأنبياء ، فمع أممهم أولى . وقد روى عن علىّ بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً، وهو حىّ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . قال ابن كثير : وهذا لا يضادّ ماقاله طاوس والحسن وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، بل يستلزمه ويقتضيه ، ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول علىّ وابن عباس ـ انتهى ـ

ومن أثر علىّ عليه السلام هذا ، فهم بعض العلماء اختصاص هذا الميثاق بنبينا ﷺ كما نقل القاضى عياض فى (الشفاء) عن أبى الحسن القابسىّ قال : استخص الله تعالى محمداً بفضل لم يؤته غيره أبانه به . وهو ما ذكره فى هذه الآية ـ انتهى ـ وقد علمت المراد .

بقى أن الإمام أبامسلم الأصفهانىّ ذهب إلى أن فى قوله تعالى : مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . حذف مضاف ، أى أممهم ، وعبارته : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب

عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً ، فلما كان الذين أخذ عليهم الميثاق يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند مبعثه ، ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين ، بل هم أمم النبيين . قال : ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق ، أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين ، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما يليق بالأمم . أجاب القفال رحمه الله فقال : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا فى الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك(١) ، وقد علم الله تعالى أنه لايشرك قط ، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض، فكذا هنا. وقال: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٢) وقال فى صفة الملائكة : وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ(٣) مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم: لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٤) وبأنهم: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ(٥). فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير ، فكذا ههنا .

ونقول إنه سماهم فاسقين على تقدير التولى ، فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك،

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ـ٤٦] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

(٥) [١٦ / النحل / ٥٠] .

وقد ذكر تعالى على سبيل الفرض والتقدير فى قـوله : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ فـكذا ههنا ـ نقله الرازىّ ـ .

ولما بين تعالى أن الإيمان بالنبىّ صلى الله عليه وسلم شرعُ شرعه وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون طالباً ديناً غير دين الله . فلهذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » أى استسلم له من فيهما بالخضوع والانقياد لمراده والجرى تحت قضائه ، كما قال تعالى : وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١). وقال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٢) . وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٣).فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والـكافر مستسلم له كرها. فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لايخالف ولايمانع ـ أفاده ابن كثير « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » يوم القيامة فيجزى كلا بعمله ، والجملة سيقت للتهديد والوعيد .

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] .
(٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .
(٣) [١٦ / النحل / ٤٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٤] ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

« قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » أى أولاد يعقوب « وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ » بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ، كدأب اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » أى منقادون فلا نتخذ أربابا من دونه .

لطيفة :

نكتة الجمع فى قوله « ءَامَنَّا » بعد الإفراد فى « قُلْ » كون الأمر عامًّا ، والإفراد لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإيذان بأنه أصل فى ذلك . أو الأمر خاص بالإخبار عن نفسه الزكية خاصة. والجمع لإظهار جلالة قدره ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك .

ثانية :

عدى (أنزل) هنا بحرف الاستعلاء، وفى البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين. إذ الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسول ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر ، وقال صاحب (اللباب) : الخطاب فى البقرة للأمة لقوله : قُولُوا. فلم يصح إلا (إلى) لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً. وهنا قال (قل) ، وهو خطاب للنبىّ ﷺ دون أمته ، فكان اللائق به (على) لأن الكتب منزلة عليه لاشركة للأمة فيها .

وفيه نظر ، لقوله تعالى : ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا[1] ـ أفاده النسفىّ ـ.

(١) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها : وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَمَنْ يَبْتَغِ » أى يطلب « غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً » أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى . كدأب المشركين صريحاً. والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين. « فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » لأنه لم ينقد لأمر الله . وفى الحديث الصحيح[1] : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ « وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » لضلاله وجوه الهداية فى الدنيا .

قال العلامة أبو السعود : والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع ، واقع فى الخسران ، بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها . وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » استبعاد لأن يرشدهم الله للصواب ويوفقهم . فإن الحائد عن الحق، بعد ما وضح له، منهمك فى الضلال ، بعيد عن الرشاد. وقيل: نفى وإنكار له ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

= بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢٠ ـ باب إذا أخطأ العامل أو الحاكم.

طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ. والمعنيُّ بهذه الآية إما أهل الكتاب والمراد كفرهم بالرسول ﷺ حين جاءهم، بعد إيمانهم به قبل مجيئه، إذ رأوه فى كتبهم وكانوا يستفتحون به على المشركين. وبعد شهادتهم بحقية رسالته لكونهم عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، وجاءهم البينات على صدقه التى آمنوا لمثلها ولما دونها بموسى وعيسى عليهما السلام. فظلموا بحقه الثابت ببيناته وتصديقه الكتب السماوية . وإما المعنيُّ بالآية من ارتدّ بعد إيمانه. على ماروى فى ذلك كما سنذكره. ثم بين تعالى الوعيد على كلٍّ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

« أُولَـٰئِكَ » أى الموصوفون بما تقدم « جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ » أى طرده وغضبه « وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » المراد بالناس إما المؤمنين أو العموم ، فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ، فقد لعن نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« خَالِدِينَ فِيهَا » أى فى اللعنة أو العقوبة أو النار ، وإن لم يجر ذكرهما لدلالة الكلام عليهما . والتخليد فى اللعنة على الأول بمعنى أنهم يوم القيامة لا يزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم فى النار ، فلا يخلو شىء من أحوالهم من أن يلعنهم لاعنٌ من هؤلاء ، أو بمعنى الخلود فى أثر اللعن ، لأن اللعن يوجب العقاب ، فعبر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى : مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ[1] ، ـ أفاده الرازىّ ـ « لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » أى لا يمهلون ، أو لا ينتظرون ليعتذروا ، أو لا ينظر نظر رحمة إليهم .

(١) [٢٠ / طه / ١٠٠و١٠١] ... وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى الكفر بعدالإيمان « وَأَصْلَحُوا » أى وضمّوا إلى التوبة الأعمالَ الصالحة . وفيه أن التوبة وحدها لا تكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم . وهـذا من لطفه وبره ورأفته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه . وقد روى ابن جرير[١] عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجـل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هـل لى من توبة ؟ فنزلت : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فأرسل إليه قومه فأسلم . وهكذا رواه النسائىّ والحاكم وابن حبان . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال[٢] : جاء الحرث بن سُوَيد فأسلم مع النبىّ ﷺ ، ثم كفر الحرث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيـه : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله غَفُورٌ رَحِيمٌ . قال فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليه ، فقال الحرث : إنك والله، ما علمتُ ، لصَدُوقٌ ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة . قال : فرجع الحرث فأسلم فحسن إسلامه .

قال ابن سلامة : فصارت فيه توبة ، وفى كل نادم إلى يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية . ثمرة الآية جواز لعن الكفار ، وسواء كان الكافر معيّناً

(١) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٠

والنسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ١٥ ـ باب توبة المرتد .

(٢) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٣

أوغير معيّن ، على ظاهر الأدلة . وقد قال النووى : ظاهر الأحاديث أنه ليس بحرام . وأشار الغزالى إلى تحريمه إلا فى حق من أعلمنا الله أنه مات على الكفر . كأبى لهب وأبى جهل وفرعون وهامان وأشباههم . قال : لأنه لايدرى بما يختم له . وأما الذين لعنهم رسول الله ﷺ بأعيانهم يجوز أنه ﷺ علم موتهم على الكفر . وأما ما ورد فى الترمذى[1] عنه ﷺ : ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذىّ . فقيل : اللعان مثل الضرّاب للمبالغة، والمعنى لا يعتاد اللعن حتى يكثر منه . ومن ثمرات الآية صحة التوبة من الكافر والعاصى بالردة وغيرها ، وذلك إجماع. إلّا توبة المرتد ففيها خلاف شاذ . فعند أكثر العلماء أن توبته مقبولة لهذه الآية وغيرها . وعند ابن حنبل لا تقبل توبته ـ رواه عنه فى (شرح الإبانة) قيل وهو غلط. لهذه الآية ولقوله تعالى فى سورة النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا[2]. فأثبت إيماناً بعد كفر تقدمه إيمان . ولو تكررت منه الردة صحت توبته أيضاً عند جمهور العلماء، لقوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفَ[3]. وقال إسحق بن راهويه: إذا ارتد فى الدفعة الثالثة لم تقبل توبته بعد ذلك. أى لظاهر آية النساء ـ انتهى ـ قلت : وفى (زاد المستقنع) و (شرحه) : من فقه الحنابلة ما نصه : ولا تقبل توبة من تكررت ردته بل يقتل . لأن ذلك يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالإسلام ـ انتهى ـ وهو قريب من مذهب إسحق . وحكى فى (فتح البارى) مثله عن الليث وعن أبى إسحق المروزى من أئمة الشافعية .

---

(١) الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٤٨ ـ باب ما جاء فى اللعنة .

(٢) [٤ / النساء / ١٣٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا .

(٣) [٨ / الأنفال / ٣٨] . . . وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ » أى الذين ضلوا سبيل الحق وأخطأوا منهاجه . وقد أشكل على كثير قوله تعالى « لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » مع أن التوبة عند الجمهور مقبولة كما فى الآية قبلها ، وقوله سبحانه : وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ[1] . وغيرذلك . فأجابوا : بأن المراد عند حضور الموت. قال الواحدىّ فى(الوجيز) : لن تقبل توبتهم لأنهم لايتوبون إلا عند حضور الموت، وتلك التوبة لا تقبل ـ انتهى ـ ، أى كما قال تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ[2] الآية . وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لايتوبون. كقوله : أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[3] . وإنما كنى بذلك تغليظاً فى شأنهم وإبرازاً لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة ، وقيل : لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وازديادهم كفراً . وبقى للمفسرين وجوه أخرى ، هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

(١) [٤٢/الشورى/ ٢٥] . . . وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٨] . . . قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

و [٣٦ / يس / ١٠] ونصها : وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا[1] الخ. وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحق وأحمد كما قدمنا ، وذلك لرسوخه فى الكفر . وقد أشار القاشانىّ إلى أن هـذه الآية مع التى قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان فى باب العناد ، وعبارته عند قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا : أنكر تعالى هدايته لقوم قد هداهم أولًا بالنور الاستعدادىّ إلى الإيمان ثم بالنور الإيمانىّ إلى أن عاينوا حقية الرسول وأيقنوا بحيث لم يبق لهم (كذا) . وانضم إليه الاستدلال العقلىّ بالبينات ، ثم ظهرت نفوسهم بعد هـذه الشواهد كلها بالعناد واللجاج وحجبت أنوار قلوبهم وعقولهم وأرواحهم الشاهدة ثلاثتها بالحق للحق ، لشؤم ظلمهم وقوة استيلاء نفوسهم الأمارة عليهم الذى هو غاية الظلم فقال : وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، لغلظ حجابهم وتعمقهم فى البعد عن الحق وقبول النور . وهم قسمان : قسم رسخت هيأة استيلاء النفوس الأمارة على قلوبهم فيهم وتمكنت ، وتناهوا فى الغى والاستشراء ، وتمادوا فى البعد والعناد ، حتى صار ذلك ملكة لا تزول ؛ وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم رَيْنًا ، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا ويستحيوا بحكم غريز العقول. فأشار إلى القسم الأول بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى آخره ، وإلى الثانى بقوله : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ، بالمواظبة على الأعمال والرياضات ، ما أفسدوا ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٨٨٣ .

وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » هذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة المائدة : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) . وقد روى الإمام أحمد والشيخان(٢) عن أنس بن مالك أن النبىّ ﷺ قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أ كنت مفتدياً به ؟ قال: فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك ! وفى رواية للإمام أحمد(٣) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب! خير منزل ، فيقول: سل وتمنَّ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات ـ لما يرى من فضل الشهادة ـ ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب! شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى رب ! نعم . فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل. فيردّ إلى النار . ولهذا قال « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى من منقذ من عذاب الله ولا مجير من أليم عقابه .

لطيفة :

فى قوله تعالى «وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ» قال صاحب الانتصاف : إن هذه الواو المصاحبة للشرط

---

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

(٢) أخرجه، فى قريب من هذا اللفظ، البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار .

ومسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، بالجزء الثالث ، صفحة ٢٠٨ (طبعة الحلبىّ) .

تستدعى شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة. والعادة فى مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى . مثاله : قولك أكرم زيداً ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء ، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه وإن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى . ومنه : كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ (١) . معناه ـ والله أعلم ـ لو كان الحق على غيركم ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فإذا تبين مقتضى الواو فى مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً. لان قوله : وَلَوْ افْتَدَى بِهِ . يقتضى شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى . وهذه الحال المذكورة ، وهى حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً ، هى حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الزمخشرى الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها ، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفى فيما عدا هذه الحالة أولى ؛ فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور . وأما تنزيل الآية عليه فعسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله. فنقول : قبول الفدية التى هى ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال :

منها ـ أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول .

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] . . . أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

ومنها ـ أن يقول المفتدى فى التقدير : أفدى نفسى بكذا ـ وقد لا يفعل ـ

ومنها ـ أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً، وقد يسلمه مثلًا لمن يأمن منه قبول فديته .

وإذا تعددت الأحوال فالمراد فى الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً ، بأن يقدر على هـذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً ، ومع ذلك لايقبل منه . فمجرد قوله : أبذل المال وأقدر عليه ، أو ما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثَمَّ أحوالًا أُخَر لاينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً فىقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١) ـ والله أعلم ـ وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم . ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلىّ فى يدى هذه . فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع والله ولىّ التوفيق ـ انتهى ـ .

وثمت وجه ثان وهو أن المراد ولو افتدى بمثله معه كما صرح به فى تلك الآية ، فالمعنى لا يقبل ملء الأرض فدية ، ولو زيد عليه مثله ، والمثل يحذف كثيراً فى كلامهم ، كقولك : ضربته ضرب زيد ، تريد مثل ضربه . وأبو يوسف أبو حنيفة : تريد مثله . وقضية ولا أبا حسن لها ، أى ولا مثل أبى حسن . كما أنه يراد فى نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، تريد: أنت . وذلك أن المثلين يسد أحدهما مسدالآخر، فـكانا فى حكم شيء واحد ، وعلى هذا الوجه يجرى الـكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلى ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى .

---

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

ووجه ثالث : وهو أن لا يحمل (ملء الأرض) أولًا على الافتداء بل على التصدق ، ولا يكون الشرط المذكور من قبيل ما يقصد به تأكيد الحكم السابق ، بل يكون شرطاً محذوف الجواب ، ويكون المعنى: لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه . وضمير « به » للمال من غير اعتبار وصف التصدق .

ووجه رابع : وهو أن الواو زيدت لتأكيد النفي . فتبصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ماينفعهم ويقبل منهم، إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أي لن تبلغوا حقيقة البر، وتلحقوا بزمرة الأبرار . بناءً على أن تعريف البر للجنس . أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته، إذا كان للعهد ، حتى تنفقوا في سبيل الله تعالى مما تحبون، أي تهوونه ويعجبكم من كرائم أموالكم ، كما في قوله تعالى : أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ[1] ؛ وقد روى الشيخان[2] عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاءَ وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٧] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤٤ ـ باب الزكاة على الأقارب ، حديث ٧٧٦ .

ومسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب . قال أنس : فلما أُنزلت هـذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله . فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسـول الله ﷺ : بخٍ بخٍ . ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ماقلت. وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ، قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه ـ (وبيرحا روى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها والمد والقصر ، وهو اسم حديقة بالمدينة ـ وفى الفائق : إنها فَيْعَلَى من البراح ، وهو الأرض الظاهرة . وبخ بخ كلمة استحسان ومدح كررت للتأكيد ، ورابح بالموحدة أى ذو ربح ، وبالمثناة التحتية أى يروح عليك نفعه وثوابه) .

وفى الصحيحين[(١)] أن عمر قال : يا رسول الله ! لم أصب مالاً قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر ، فما تأمرنى به ؟ قال : حبس الأصل وسبل الثمرة .

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال : حضرتنى هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » فذكرت ماأعطانى الله ، فلم أجد شيئاً أحب إلىّ من جارية لى رومية ، فقلت: هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله ، لنكحتها. يعنى تزوجتها.

تنبيه :

قال القاشانىّ، فى هذه الآية : كل فعل يقرب صاحبه من الله فهو بر ، ولا يمكن التقرب إليه إلا بالتبرؤ عما سواه ، فمن أحب شيئاً فقد حجب عن الله تعالى به ، وأشرك شركاً خفيًّا، لتعلق محبته بغير الله ، كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ

(١) أخرجه فى المسند حديث ٥١٧٩ (طبعة المعارف) .

كَحُبِّ اللهِ[1] وآثر نفسه به على الله ، فقد بعد من الله بثلاثة أوجه. وهى محبة غير الحق ، والشرك ، وإيثار النفس على الحق ؛ فإن آثر الله به على نفسه وتصدق به وأخرجه من يده فقد زال البعد ، وحصل القرب ، وإلا بقى محجوباً ، وإن أنفق من غيره أضعافه ، فما نال براً لعلمه تعالى بما ينفق وباحتجابه بغيره .

« وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى فجازيكم عليه، قليلًا كان أو كثيرًا، جيدًا أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ » قال الزمخشرىّ : المعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالًا لبنى إسرائيل من قبل إنزال التوراة ، وتحريم ماحرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم ، لم يحرم منها شىء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذى حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه، فتبعوه على تحريمه .

تنبيهات :

الأول ـ روى ، فيما حرمه إسرائيل على نفسه، أنه لحوم الإبل وألبانها ، رواه الإمام أحمد فى قصة ، والترمذىّ وقال : حسن غريب . وروى عن ابن عباس والضحاك والسدّىّ وغيرهم موقوفاً عليهم أنه العروق . قالوا : كان يعتريه عرق النسا بالليل فيزعجه ، فنذر لئن عوفى لا يأكل عرقاً ، ولا يأكل ولد ماله عرق ، فاتبعه بنوه فى إخراج العروق من اللحم

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

استنانا به ، واقتداء بطريقه . قال الرازى : ونقل القفال رحمه الله عن ترجمة التوراة أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث بُرُدًا إلى أخيه عيسو إلى أرض ساعير ، فانصرف الرسول إليه وقال : إن عيسو هو ذا يتلقاك ومعه أربعمائة رجل ، فذعر يعقوب وحزن جداً ، فصلى ودعا ، وقدم هدايا لأخيه ، وذكر القصة ، إلى أن ذكر الملك الذى لقيه فى صورة رجل ، فدنا ذلك الرجل ، ووضع إصبعه على موضع عرق النسا ، فخدرت تلك العصبة وجفت ، فمن أجل هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق ـ انتهى ـ قلت : والقصة مسوقة فى سفر التكوين من التوراة فى الأصحاح الثانى والثلاثين .

الثانى : التحريم المذكور ، على الرواية الأولى، أعنى لحوم الإبل وألبانها ، فكان تبررًا وتعبدًا وتزهدًا وقهرًا للنفس، طلباً لمرضاة الحق تعالى. وعلى الثانية فإماوفاء بالنذر وإما تداوياً وإما لكونه يجد نفسه تعافه ـ والله أعلم ـ فالتحريم بمعنى الامتناع .

الثالث : قال الزمخشرى : الآية رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله تعالى : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . إلى قوله تعالى : عَذَاباً أَلِيماً[1] وفى قوله : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا، إلى قوله: ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ[2] . وجحودَ ما غاظهم واشمأزوا منه ، وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم . فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة

(١) [٤ / النساء / ١٦٠و١٦١] . . . وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . . . إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا. إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم ـ انتهى ـ .

« قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم أنه تحريم قديم . وفى أمره ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم حادث لا قديم ، كما يدعونه ـ أعظمُ برهان على صدقه وكذبهم إذلم يجسروا على إخراج التوراة . فبهتوا وانقلبوا صاغرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَمَنِ افْتَرَىٰ » أى تعمد « عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » أى فى أمر المطاعم وغيرها « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لتعرضهم إلى أن يهتكهم تعالى ويعذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ صَدَقَ اللهُ ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ صَدَقَ اللهُ » تعريض بكذبهم ، أى ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون « فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » أى ملة الإسلام التى عليها محمد ﷺ . ومن آمن معه والتى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام حتى تتخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه « حَنِيفاً » أى مائلا عن الأديان الزائغة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بما فى اليهودية والنصرانية من شرك إثبات الولد أو إلهية عيسى، فكيف يزعمون أنهم على ملته ، وما كان يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وهو الذى بُعِثَ به محمد ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » أى لنسكهم وعباداتهم « لَلَّذِي بِبَكَّةَ » أى للبيت الذى ببكة، أى فيها . وفى ترك الموصوف من التفخيم مالا يخفى . وبكة لغة فى مكة ، فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم (ضَرْبَة لازِب ولَازِم) و (النميط والنَّبيط) فى اسم موضع بالدهناء ، وقولهم (أمر رَاتِب ورَاتِم) و (أغبطت الحمى وأَغْمَطَت) . وقيل : مكة البلد ، وبكة موضع المسجد ، سميت بذلك لدقها أعناق الجبابرة ، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ، أو لازدحام الناس بها من « بَكَّهُ » إذا فرقه ووضعه وإذا زاحمه ، كأن مكة من « مَكَّهُ » أهلكه ونقصه. لأنها تهلك من ظلم فيها وألحد وتنقص الذنوب أو تنفيها ــ كما فى القاموس ــ وقد ذهب بعضهم إلى أن مكة هى (ميشا) أو (ماسا) المذكورة فى التوراة ، وآخر إلى أنه مأخوذ عن اسم واحد من أولاد إسماعيل وهو (مسّا) . « مُبَارَكاً » أى كثير الخير ، لما يحصل لمن حجه ، واعتمره واعتكف عنده وطاف حوله ، من الثواب وتكفير الذنوب « وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ » لأنه قبلتهم ومتعبدهم.

تنبيه :

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية كونه أولًا فى الوضع والبناء ، ورووا فى ذلك آثاراً. منها أنه تعالى خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، ومنها أنه تعالى بعث ملائكة لبناء بيت فى الأرض على مثال البيت المعمور ، وذلك قبل خلق آدم ، ومنها أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، وأنه خلق قبل الأرض بألفى عام. وليس فى هذه الآثار خبر صحيح يعول عليه . والمتعين أن المراد أول بيت وضع مسجداً . كما بيّنه رواية ابن أبى حاتم عن علىّ رضى الله عنه فى هذه الآيةقال : كانت البيوت قبله، ولكنه

أول بيت وضع لعبادة الله تعالى . وفى الصحيحين(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أىّ مسجد وضع فى الأرض أولُ ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم كان بينهما ؟ قال: أربعون سنة ، ثم أينماأدركتك الصلاة بعدُ فصلِّهْ . فإن الفضل فيه .

قال ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان بن داود الذى بنى المسجد الأقصى . وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام . وهـذا من جهل القائل ، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليهما وسلم ، بعد بناء إبراهيم عليه السلام بهذا المقدار ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

« فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ » وهو الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت. قال ابن كثير : وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق ، بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه ، ولا يشوشون على المصلين عنـده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصـلاة عنده ، حيث قال : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى(٢)، وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الترغيب

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٠ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حديث ١٥٨٩ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١ (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً =

فى زيارة البعض الحرم وفعل الطاعات فيه ، لأنه تعالى وصفه بالبركة والهدى وجعل فيه آيات بينات .

لطيفة :

مقام إبراهيم مبتدأ حذف خبره ، أى منها مقام إبراهيم ، أو بدل من آيات، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً . أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة . قالوا : فإن كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء ، وغوصه فيها إلى الكعبين وإلانة بعض الصخور دون بعض ، وإبقاءه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام ، وحفظه ، مع كثرة الأعداء ، ألوف سنة ، آية مستقلة . ويؤيده قراءة (آية بينة) على التوحيد ، وإما بما يفهم من قوله عز وجل :

« وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » فإنه وإن كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية ، لكنها فى قوة أن يقال « وأمن من دخله » فتكون، بحسب المعنى والمآل، معطوفة على مقام إبراهيم، ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك ، أو يحمل على أنه ذُكِرَ من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ـ أفاده أبو السعود ـ قال المهايمىّ: « فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ » رمى الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وتعجيل عقوبة من عتا فيه ، وإجابة دعاء من دعا تحت ميزابه ، وإذعان النفوس لتوقيره من غير زاجر ، ومن أعظمها . النازل منزلة الكل، مقام إبراهيم، الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت، كلما علا الجدار ارتفع الحجر فى الهواء ، ثم لين ، فغرقت فيه قدماه ، كأنهما فى طين ، فبقى أثره إلى يوم القيامة . ومن آياته أن من دخله كان آمناً من نهب العرب وقتالهم ، وقد أمن صيده وأشجاره اه .

= وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

قال أبو السعود : ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ[1] ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام : رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا[2] ، وكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُطلب . وعن عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج عنه اهـ .

تنبيه :

ما أفادته الآية من إثبات الأمان لداخله إنما هو بتحريمه الشرعىّ الذى وردت به الآيات ، وأوضحته الأحاديث والآثار . فى الصحيحين[3] ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : لا هجرة ، ولـكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال يوم فتح مكة[4] : إن هـذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقَطَتَهُ ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلالها . فقال العباس : يا رسول الله إلّا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقـال : إلّا الإذخر . ولهما عن أبى هريرة مثله أو نحوه ؛

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . . . أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٢٧ ـ باب وجوب النفير ، حديث ٧١٠ ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٠ ـ باب لا يحل القتال بمكة ، حديث ٧١٠ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعتنا) .

ولهما[١]، واللفظ لمسلم أيضاً، عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة ، ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولًا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناى ، ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى ، حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب . فقيل لأبى شريح : ماقال لك ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك ياأباشريح. إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، ولا فارًّا بدم ، ولا فارًّا بِخَرْبَةٍ[٢] .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد)[٣] : قوله فلا يحل لأحد أن يسفك بها دماً ،هذا التحريم لسفك الدم المختص بها ، وهو الذى يباح فى غيرها ، ويحرم فيها ، لكونها حرما ، كما أن تحريم عضد الشجرة بها واختلاء خلائها والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح فى غيرها ، إذ الجميع فى كلام واحد ، ونظام واحد ، وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا أنواع :

أحدها :

وهو الذى ساقه أبو شريح العدوى لأجله، أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتل لاسيما إن كان لها تأويل . كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد ، وبايعوا ابن الزبير. فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع ، وإنما خالف

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٧ ـ باب ليبلغ العلمَ الشاهدُ الغائبَ ، حديث ٨٩ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أى بسبب السرقة .

(٣) انظر الجزء الثانى ، صفحة ١٧٧ .

فى ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعته ، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه فقال : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، فيقال له : هو لا يعيذ عاصياً من عذاب الله ، ولو لم يُعِذْه من سفك دمه لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين ، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم ، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، وقام الإسلام على ذلك ، وإنما لم يعذ مِقْيَسَ بن صُبَابة وابن خطل ومن سمى معهما لأنه فى تلك الساعة لم يكن حرماً بل حلّا، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السموات والأرض . وكانت العرب فى جاهليتها، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم فلا يهيجه ، وكان ذلك بينهم خاصةَ الحرم التى صار بها حرماً . ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه ، وعلم النبىّ ﷺ أن من الأمة من يتأسى به فى إحلاله بالقتال والقتل ، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه : فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لك ، وعلى هذا فمن أتى حدًّا أو قصاصاً خارج الحرم يوجب القتل ، ثم لجأ إليه ، لم يجز إقامته عليه فيه . وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. وذكر عن عبد الله بن عمر أنه قال : لو وجدت فيه قاتل عمر ما بدهته . وعن ابن عباس أنه قال : لو لقيت قاتل أبى فى الحرم ماهجته حتى يخرج منه ، وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم ، بل لا يحفظ عن تابعىّ ولا صحابىّ خلافه . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله ومن وافقه من أهل العراق ، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث . وذهب مالك والشافعىّ إلى أنه يستوفى منه فى الحرم كما يستوفى منه فى الحل ، وهو اختيار ابن المنذر ، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص فى كل مكان وزمان، وبأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة[١] ، وبما روى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٨ـ باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام ، حديث ٩٣٣ ونصه : =

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[(١)] : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارًّا بدم ولا بخربة ، وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس لم يعذه الحرم ، ولم يمنعه من إقامته عليه ، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب حدًّا أو قصاصاً لم يعذه الحرم ولم يمنع من إقامته ، فكذلك إذا أتاه خارجه ثم لجأ إليه ، إذ كونه حرماً بالنسبة إلى عصمته لا يختلف بين الأمرين ، وبأنه حيوان أبيح قتله لفساده ، فلم يفترق الحال بين قتله لاجئاً إلى الحرم وبين كونه قد أوجب ما أبيح قتله فيه ، كالحية والحدأة والكلب العقور ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال[(٢)]: خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم. فنبه بقتلهن في الحل والحرم على العلة ـ وهي فسقهن ـ ولم يجعل التجاءهن إلى الحرم مانعاً من قتلهن ، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل . قال الأولون : ليس في هذا ما يعارض ما ذكرنا من الأدلة ، ولا سيما قوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى ، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه ، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمه في الجاهلية والإسلام كما قال تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ

= عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح وعلى رأسه المِغْفَر . فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال «اقتلوه».

(١) هذا القول ليس قوله صلى الله عليه وسلم وإنما هو قول عمرو بن سعيد . انظر الحاشية رقم ١ ص ٨٩٨ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ٧ ـ باب ما يقتل المحرم من الدواب ، ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خمس من الدواب كلهنّ فاسق يُقتلن في الحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

ومسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعتنا) .

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ[(١)] . وقوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ[(٢)] .

وما عدا هذا من الأقوال الباطلة فلا يلتفت إليه كقول بعضهم: من دخله كان آمناً من النار ، وقول بعضهم : كان آمناً من الموت على غير الإسلام ، ونحو ذلك ، فكم ممن دخله وهو فى قعر الجحيم . وأما العمومات الدالة على استيفاء الحدود والقصاص فى كل زمان ومكان فيقال أولا : لا تعرض فى تلك العمومات لزمان الاستيفاء ولا مكانه ، كما لا تعرض فيها لشروطه وعدم موانعه ، فإن اللفظ لايدل عليها بوضعه ، ولا بتضمنه فهو مطلق بالنسبة إليها ، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع لم يقل إن توقف الحكم عليه تخصيص لذلك العام ، فلا يقول مَحَصِّلٌ إن قوله تعالى : وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ[(٣)] . مخصوص بالمنكوحة فى عدتها أو بغير إذن وليّها ، أوبغير شهود ، فهكذا النصوص العامة فى استيفاء الحدود والقصاص لاتعرض فيها لزمنه ولامكانه ولاشرطه ولا مانعه ، ولو قدر تناول اللفظ لذلك لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع ، لئلا يبطل موجبها ، ووجب حمل اللفظ العام على ما عداها كسائر نظائره ، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل والمرضع والمريض الذى يرجى برؤه ، والحال المحرّمة للاستيفاء كشدة المرض أو البرد أو الحر ، فما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة ؟ وإن قلتم ليس ذلك تخصيصاً بل تقييداً لمطلقها كلنا لكم هذا الصاع

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . . . رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٢٤] ونصها : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً .

سواءبسواء . وأما قتل ابن خطل فقد تقدم أنه كان فى وقت الحل ، وإن النبىّ ﷺ قطع الإلحاق ، ونص على أن ذلك من خصائصه ، وقوله ﷺ : وإنما أحلت لى ساعة من نهار، صريح فى أنه إنما أحل له سفك دم حلال فى غير الحرم فى تلك الساعة خاصة ، إذ لو كان حلالاً فى كل وقت ، لم يختص بتلك الساعة ، وهـذا صريح فى أن الدم الحلال فى غيرها حرام فيها ، فيما عدا تلك الساعة . وأما قوله : الحرم لا يعيذ عاصياً ، فهو من كلام الفاسق عمرو بن سعيد الأشدق ، يردّ به حـديث رسول الله ﷺ حين روى له أبو شريح الـكعبىّ هذا الحديث ، كما جاء مبيناً فى الصحيح ، فـكيف يقدم على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأما قولـكم : لو كان الحد والقصاص فيما دون النفس لم يعـذه الحرم منه ، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد رحمه الله، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونهـا ، ومن فرق قال سفك الدم إما ينصرف إلى القتل ولا يلزم من تحريمه فى الحرم تحريم مادونه ، لأن حرمة النفس أعظم ، والانتهاك بالقتل أشد ، قالوا : ولأن الحد بالجلد أو القطع يجرى مجرى التأديب ، فلم يمنع منه كتأديب السيد عبده . وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دونها فى ذلك . قال أبو بكر : هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمه : أن الحدود كلها تقام فى الحرم إلا القتل ، قال : والعمل على أن كل جانٍ دخل الحرم لم يُقَم عليه الحد حتى يخرج منـه ، قالوا : وحينئذ فنجيبكم بالجواب المركب ، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها فى ذلك فرق مؤثر بطل الإلزام ، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر سوينا بينهما فى الحكم وبطل الاعتراض ، فتحقق بطلانه على التقديرين . قالوا : وأما قولـكم إن الحرم لا يعيذ من هتك فيه الحرمة إذ أتى بما يوجب الحد ، فـكذلك اللاجئ إليه ، فهو جمع بين ما فرق الله ورسوله والصحابة بينهما . فروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : من سرق أو قتل فى الحل ثم دخل الحرم فإنه لا يجالس ولا يكلم ولا يؤوى حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد . وإن سرق أو قتل فى الحرم أقيم عليه فى الحرم . وذكر الأثرم عن

ابن عباس أيضاً : من أحدث حدثاً فى الحرم أقيم عليه ما أحدث فيه من شىء ، وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل فى الحرم فقال « وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ » . والفرق بين اللاجئ والمتهتك فيه من وجوه:

أحدها :

أن الجانى فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجناية فيه، بخلاف من جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه معظّم لحرمته مستشعر بها بالتجائه إليه ، فقياس أحدهما على الآخر باطل .

الثانى :

أن الجانى فيه بمنزلة المفسد الجانى على بساط الملك فى داره وحرمه ، ومن جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه بمنزلة من جنى خارج بساط الملك وحرمه ثم دخل إلى حرمه مستجيراً .

الثالث :

أن الجانى فى الحرم قد هتك حرمة الله سبحانه وحرمة بيته وحرمه فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره .

الرابع :

أنه لو لم يقم الحد على الجناة فى الحرم لعم الفساد وعظم الشر فى حرم الله ، فإن أهل الحرم كغيرهم فى الحاجة إلى صيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولو لم يشرع الحد فى حق من ارتكب الجرائم فى الحرم لتعطلت حدود الله وعم الضرر للحرم وأهله .

والخامس :

أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة التائب المتنصل اللاجئ إلى بيت الرب تعالى المتعلق بأستاره، فلا يناسب حاله ولا حال بيته وحرمه أن يهاج ، بخلاف المقدم على انتهاك حرمته .

فظهر سر الفرق ، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه . وأما قولكم إنه حيوان مفسد فأبيح قتله فى الحل والحرم كالكلب العقور فلا يصح القياس ، فإن الكلب العقور طبعه الأذى ، فلم يحرمه الحرم ليدفع أذاه عن أهله . وأما الآدمى فالأصل فيه الحرمة وحرمته

عظيمة ، فإنما أبيح لعارض فأشبه الصائل من الحيوانات المباحة من المأكولات ، فإن الحرم يعصمها ، وأيضا فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب العقور والحية والحدأة كحاجة أهل الحل سواء ، فلو أعاذها الحرم لعظم عليهم الضرر بها ـ انتهى . (من الجزء الثانى من صفحة ١٧٧ إلى صفحة ١٨٠) .

ولما ذكر تعالى فضائل البيت ومناقبه أردفه بذكر إيجاب الحج فقال « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » اللام فى البيت للعهد. وحجه : قصده للزيارة بالنسك المعروف . وكسر الحاء وفتحها لغتان ، وهما قراءتان سبعيتان ، وفى الآية مباحث :

الأول :

فى إعرابها قال أبو السعود فى صدر الآية : جملة من مبتدأ هو « حِجُّ الْبَيْتِ » وخبر هو « لِلَّهِ » وقوله تعالى « عَلَى النَّاسِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار ، والعامل فيه ذلك الاستقرار ، ويجوز أن يكون « عَلَى النَّاسِ » هو الخبر ، و « لِلَّهِ » متعلق بما تعلق به الخبر . ثم قال فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فى محل الخبر على أنه بدل من « النَّاسِ » بدل البعض من الكل مخصص لعمومه، فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف ، أى « من استطاع منهم »، وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع ، فلا حاجة إلى الضمير ، وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر، أى هم من استطاع ، وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى.

الثانى :

هذه الآية هى آية وجوب الحج عند الجمهور ، وقيل بل هى قوله « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ »[1] ، والأول أظهر . وفى فتح البيان : اللام فى قوله « لِلَّهِ » هى التى يقال لها

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف « عَلَى » فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل : لفلان عليّ كذا . فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمته . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا .

الثالث :

يجب الحج على المكلف في العمر مرة واحدة. بالنص والإجماع ؛ روى الإمام أحمد ومسلم(١) وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس إنه فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت. حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . ثم قال: ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وروى الإمام أحمد وأبو داود(٢) والنسائيّ وغيرهم عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياأيها الناس ! إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : يارسول الله أفي كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها. الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع .

= مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ، حديث ٢٣٠٤ .

وأبو داود في : ١١ ـ كتاب المناسك ، ١ ـ باب فرض الحج ، حديث ١٧٢١ .

الرابع :

استطاعة السبيل عبارة عن إمكان الوصول إليه . قال ابن المنذر : اختلف العلماء فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالت طائفة : الآية على العموم ، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولا إجماعا لأهل العلم يوجب أن نستثنى من ظاهر الآية بعضاً، فعلى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل بأى وجه كانت الاستطاعة ، الحجُّ . على ظاهر الآية. قال : وروينا عن عكرمة أنه قال : الاستطاعة الصحة . وقال الضحاك : إذا كان شابا صحيحاً ليس له مال فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضى نسكه . فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا ، بل ينطلق إليه ولو حبوًا ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت . وقال مالك : الاستطاعة على إطاقة الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشى ، وآخر يقدر على المشى على رجليه . وقالت طائفة : الاستطاعة الزاد والراحلة ، كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل ، واحتجوا بحديث ابن عمر أن رجلًا قال : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة ـ رواه الترمذىّ ـ وفى إسناده الخوزى فيه مقال . قال ابن كثير : لكن قد تابعه غيره . وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث . ورواه الحاكم من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله عزوجل : مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . فقيل : ماالسبيل ؟ قال : الزاد والراحلة ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

الخامس :

قال الإمام ابن القيّم الدمشقىّ رضى الله عنه فى (زاد المعاد) فى سياق هديه صلى الله عليه وسلم فى حجته : لا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة ، وهى حجة الوداع ، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر ، واختلف هل حج قبل الهجرة ؟

وروى الترمذىّ(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : حج النبىّ ﷺ ثلاث حجج: حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر، معها عمرة . قال الترمذىّ : هذا حديث غريب من حديث سفيان . قال : وسألت محمداً ـ يعنى البخارىّ ـ عن هذا فلم يعرفه من حديث الثورىّ . وفى رواية : لايعد هذا الحديث محفوظاً . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير ، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر . وأما قوله تعالى : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فإنها، وإن نزلت سنة ست عام الحديبية ، فليس فيها فريضة الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء. فإن قيل : فمن أين لكم تأخر نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة ؟ قيل : لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود ، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ ، وصالحهم على أداء الجزية ، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع ، وفيها نزل صدر سورة آل عمران ، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة . ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا فى نفوسهم لما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية . ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان فى سنة تسع. وبعث الصدّيقَ يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج وأردفه بعلىّ رضى الله عنه، وهذا الذى ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى :

« وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » إما مستأنف لوعيد من كفر به تعالى، لا تعلق له بما قبله، وإما أنه متعلق به ومنتظم معه، وهو أظهر وأبلغ . والكفر، على هذا، إما بمعنى جحد فريضة الحج ، أو بمعنى ترك ما تقدم الأمر به . ونظيره فى السنة ما رواه

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٦ ـ باب ماجاء: كَمْ حجَّ النبىُّ ﷺ .

النسائىّ والترمذىّ[1] عن بريدة مرفوعاً : العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر . وعن عبد الله بن شقيق قال[2] : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة ـ أخرجه الترمذىّ ـ ولأبى داود[3] عن جابر مرفوعاً : بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . ولفظ مسلم[4] : بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة . وروى الترمذىّ[5] عن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قال الترمذىّ : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مقال . وقد روى الحافظ أبو بكر الإسماعيلىّ عن عمر بن الخطاب قال : من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً . قال ابن كثير : إسناده صحيح إلى عمر رضى الله عنه . وروى سعيد بن منصور فى سننه عن الحسن البصرىّ قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار ، فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية، ماهم بمسلمين، ماهم بمسلمين. قال السيوطىّ فى (الإكليل): وقد استدل بظاهر الآية ابن حبيب على أن من ترك الحج ، وإن لم ينكره ، كفر . ثم قال : وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر: من كان يجد وهو موسر صحيح ولم يحج، كان سيماه بين عينيه كافر، ثم تلا هذه الآية.

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٥ ـ كتاب الصلاة ، ٨ ـ باب الحكم فى تارك الصلاة .
والترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ٩ ـ باب ما جاء فى ترك الصلاة .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ٩ ـ باب ما جاء فى ترك الصلاة .

(٣) أخرجه أبو داود فى: ٣٩ ـ كتاب السنة، ١٥ ـ باب الدليل على الزيادة والنقصان، حديث ٤٦٧٨ .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٣٤ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٣ ـ باب ما جاء فى التغليظ فى ترك الحج.

تنبيه :

هـذه الآية الـكريمة حازت من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه ، فمنها الإتيان بـ(اللّام وعلى) فى قوله : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ . يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته ؛ ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل عنه (من استطاع إليه سبيلًا)، وفيه ضربان من التأكيد :

أحدهما ـ أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له.

والثانى ـ أن الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له فى صورتين مختلفتين .

ومنها قوله « وَمَنْ كَفَرَ » مكان « من لم يحج » تغليظاً على تارك الحج . ومنها ذكر الاستغناء عنه . وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان . ومنها قوله : عَنِ الْعَالَمِينَ ، ولم يقل: عنه . وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه ـ أشار لذلك الزمخشرىّ ـ ثم عنف تعالى كفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى الدالة على نبوة محمد ﷺ وقوله : « وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ » حال مفيدة لتشديد التوبيخ. وإظهارُ الجلالة فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب . وصيغةُ المبالغة فى (شَهِيدٌ) لتأكيد الوعيد ، وكل ذلك موجب لعدم الاجتراء على ما يأتونه . ثم عقب تعالى الإنكار عليهم فى ضلالهم توبيخهم فى إضلالهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أى عن دينه . وكانوا يحتالون لصدهم عن الإسلام « مَنْ ءَامَنَ » مفعول (تصدون) قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به « تَبْغُونَهَا » على الحذف والإيصال ، أى تبغون لها ، أى لسبيل الله التى هى أقوم السبل « عِوَجًا » أى اعوجاجاً وزيغاً وتحريفاً . قال ابن الأنبارىّ : البغى يقتصر له على مفعول واحدإذا لم يكن معه اللام ، كقولك : بغيت المال والأجر والثواب ، وأريد ههنا : تبغون لها عوجاً ثم أسقطت اللام . كما قالوا : وهبتك درهماً ، أى وهبت لك درهماً ، ومثله صدتك ظبياً ، أى صدت لك ظبياً ، وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليماً أصيدكم أم حمارا

أراد : أصيد لكم .

قال الرازىّ : وفى الآية وجه آخر ، وهوأن يكون (عوجاً) فى موضع الحال . والمعنى تبغونها ضالين ، وذلك أنهم كانوا يدّعون أنهم على دين الله وسبيله ، فقال تعالى: إنكم تبغون سبيل الله ضالين ، وعلى هذا القول لا يحتاج إلى الحذف والإيصال .

وذكر ناصر الدين فى (الانتصاف) وجهاً آخر قال : هو أتم معنى ، وهو أن تجعل الهاء هى المفعول به ، و(عوجاً) حال وقع فيها المصدر الذى هو(عوجاً) موقع الاسم ، وفى هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج. على طريقة المبالغة فى مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ فى ذمهم وتوبيخهم ـ والله أعلم ـ

« وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ » بأنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال « وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى بحسن اعتقادكم فيهم لكونهم أهل الكتاب « يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بالتوحيد والنبوة « كَافِرِينَ » لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ..(١) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ » معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب . والمعنى : من أين يتطرق لكم الكفر ؟ « وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ » وهى القرآن المعجز الذى هو أجلّ من الآيات المتلوّة عليهم « وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم ، وقد هداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الجهالة « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى من يتمسك بدينه الحق الذى بيّنه بآياته على لسان رسوله ، وهو الإسلام والتوحيد ، المعبر عنه بسبيل الله ، فهو على هدى لا يضل متبعه . قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يكون حثًّا لهم على الالتجاء إليه فى دفع شرور الكفار ومكايدهم ـ انتهى ـ فالجملة حينئذ

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : ... مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تذييل لقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا . . . الخ ، لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم لخوف شرورهم ومكايدهم ، فلا تخافوهم ، والتجئوا إلى الله فى دفع ذلك ، لأن من التجأ إليه كفاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » أى حق تقواه ، وذلك بدوام خشيته ظاهراً وباطناً والعمل بموجبها . وقد روى الحافظ ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله ابن مسعود أنه قال فى معنى الآية : هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . ورواه ابن مردويه والحاكم مرفوعاً ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

قال ابن كثير : والأظهر أنه موقوف ـ والله أعلم ـ .

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى العبدُ اللهَ حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقال علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية : أن يجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم. ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

أقول : كل ما روى ، مما تشمله الآية بعمومها، فلا تنافى .

تنبيه :

زعم بعضهم أن هذه الجملة من الآية منسوخة بآية : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .(١) متأولاً حق تقاته بأن يأتى العبد بكل ما يجب لله ويستحقه . قال : فهذا يعجز العبد عن الوفاء ، فتحصيله ممتنع . وهذا الزعم لم يصب المحزّ ، فإن كلًّا من الآيتين سيق فى معنى خاص به ،

---

(١) [٦٤/التغابن/١٦] ونصها : . . . وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فلا يتصور أن يكون فى هذه الجملة طلب مالا يستطاع من التقوى ، بل المراد منها دوام الإنابة له تعالى وخشيته وعرفان جلاله وعظمته قلباً وقالباً ، كما بينا . وهذا من المستطاع لكل منيب . وقوله تعالى : فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . أمر بعبادته قدر الاستطاعة بلا تكليف لما لا يطاق ، إذ : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا(١) . وظاهر أن من أتى بما يستطيعه من عبادته تعالى وأناب لجلاله ، وأخلص فى أعماله ، وكان مشفقاً فى طاعاته، فقد اتقى الله حق تقاته.

« وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مخلصون نفوسكم لله تعالى . لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلاً ، كما فى قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ(٢) . وهو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى لا تموتن على حال من الأحوال ، إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه ، كما ينبىء عنه الجملة الاسمية . ولو قيل (إلا مسلمين) لم يفد فائدتها. والعامل فى الحال ماقبل (إلا) بعد النقض . وظاهر النظم الكريم ، وإن كان نهياً عن الموت المقيد بقيد ، هو الكون على أى حال غير حال الإسلام ـ لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ . وحيث كان الخطاب للمؤمنين ، كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت . وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور . فإن النهى عن المقيد فى أمثاله ، نهىٌ عن القيد ورفع له من أصله بالكلية ، مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد . فإن قولك : لا تصلّ إلا وأنت

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : . . . لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : . . . وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

خاشع ، يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيده قولك : لا تترك الخشوع فى الصلاة . لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط ، وذاك نهى عنه وعما يقارنه ، ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة ، وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل . وفيه نوع تحذير عما وراء الموت ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقد مضى فى سورة البقرة الكلام على لون آخر من سر البلاغة فى هذه الجملة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا» الحبل إما بمعنى العهد، كما قال تعالى فى الآية بعدها : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ(١). أى بعهد وذمة، وإما بمعنى القرآن ، كما فى صحيح مسلم(٢) عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال :

(١) [٣ / آل عمران / ١١٢] ... وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٦ (طبعتنا) ونصه :

عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبْرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم. فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيتَ ، يا زيد ، خيراً كثيراً . رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه ، وغزوتَ معه ، وصليتَ خلفه . لقد لقيتَ ، يا زيد ، خيراً كثيراً . =

ألا وإنى تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة ... الحديث ، والوجهان متقاربان ، فإن عهده أى شرعه ودينه وكتابه حرز للمتمسك به من الضلالة ، كالحبل الذى يتمسك به خشية السقوط ، وقوله « وَلَا تَفَرَّقُوا » أى لاتتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم ، كما اختلف اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية ، متدابرين ، يعادى بعضكم بعضاً ، ويحاربه . أو ولا تحدثوا

= حدثنا ، يا زيد ، ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا ابن أخى ، والله ! لقد كبرت سنى ، وقدُم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ . فما حدثتكم فاقبلوا . وما لا ، فلا تكلفونيه .

ثم قال : قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً ، بماء يدعى خُمًّا ، بين مكة والمدينة . فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر . ثم قال « أما بعد . ألا أيها الناس . فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما ، كتاب الله فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغّب فيه . ثم قال « وأهلُ بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى » .

فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده . قال : ومَن هم ؟ قال : هم : آل علىّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم .

وفى الحديث رقم ٣٧ قال « ألا وإنى تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله ، هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة » .

وفيه : فقلنا له : من هم أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا . وايم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعَصَبَتُه الذين حرموا الصدقة بعده .

ما يكون عنه التفرق ، ويزول معه الاجتماع والألفة التى أنتم عليهـا مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام ـ أفاده الزمخشرىّ ـ « وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » قال الزمخشرىّ : كانوا فى الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام ، وقذف فيها المحبة ، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخوانا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد ، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة فى الله « وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا » أى طرف « حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » بما كنتم فيه من الجاهلية « فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » أى بالإسلام. قال ابن كثير : وهذا السياق فى شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين فى ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى. قال الله تعالى: هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ[(١)] ... الآية ـ وكانوا على شفا حفرة من النار ، بسبب كفرهم ، فأنقذهم الله منها ، إذ هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ ، يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم فى القسمة ، بما أراه الله ، فخطبهم فقال[(٢)] : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمنّ ـ انتهى ـ

---

(١) [٨ / الأنفال /٦٢و٦٣] ونصهما: وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف فى شوال سنة ثمان ، حديث ١٩٣١ ونصه :

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : الضمير فى : منها . للحفرة أو للنار أو للشَّفا ، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة ، وهو منها كما قال(١) :

كما شرقت صدر القناة من الدم ـ انتهى ـ

= عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ ، يوم حنين ، قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً . فكأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس . فخطبهم فقال « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنّ . قال « ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ » قال كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ.

قال « لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا . أترضون أن يذهب الناس بالشاةِ والبعير وتذهبون بالنبىّ ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار . ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها . الأنصار شعار والناس دثار . إنكم ستلقون بعدى أُثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٣٩ (طبعتنا) .

(١) قائله الأعشى . وصدره : وتَشرَق بالقول الذى قد أذعتَه

من قصيدة مطلعها :

ألا قل لِتيَّا قبل مِرَّتها اسلمى   تحيــة مشتاق إليها متيّم

يهجو عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان ، حين جمع بينه وبين جهَنَّام ليهاجيه :

يقول قبل البيت :

لئن كنتَ فى جب ثمانين قامة   ورُقِّيت أسباب السماء بسلَّم

ليستدرجنك القــولُ حتى تهرَّه   وتعــلمَ أنى عنك لستُ بمُلْجَم

وتشرق بالقول الذى قد أذعتَه   كما شرقت صدر القناة من الدم =

وقال أبو حيان : لا يحسن عوده إلا إلى الشفا ، لأنه المحدَّث عنه ـ انتهى ـ

وفى الانتصاف : يجوز عود الضمير إلى الحفرة ، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنت إليها ، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التى يمتنُّ بالإنقاذ منها حقيقة ، وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا ، فلمايستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهُوِىّ إلى الحفرة ، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التى يتوقع الهوىّ فيها . فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع . مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علىّ فى(التعاليق) من ضرورة الشعر ، خلاف رأيه فى (الإيضاح) ـ نقله ابن يسعون ـ

وماحمل الزمخشرىَّ على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذى كانوا عليه ، ولم يكونوا فى الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها . وقد بينا فى أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة ، لأنهم كانو صائرين إليها غالباً ، لولا الإنقاذ الربانىّ . ألا ترى إلى قوله ﷺ[1] : الراتع حول الحمى يوشك أن يواقعه ؟ وإلى قوله تعالى : أَمْ مَنْ أَسَّسَ

= يقول : لئن خرقت الأرض فكنت فى جب ثمانين قامة ، أو طرت فى الفضاء فرقيت أسباب السماء، ليبلغنك قولى وليتركنك تدرج على الأرض حتى تكره الكلام ، وتعلم أنى غير عاجز عن الانتقام وحتى تشرق بما أذعت من القول ، كما يشرق مقدم الرمح بالدم .

أسباب السماء : مراقيها ، وقيل طرقها ونواحيها . استدرجه : خدعه وأدناه ، أو أتلفه حتى تركه يدرج على الأرض . تهرّه : تكرهه . تشرق : تغصّ . صدر القناة : أعلاها .

من شرح الديوان للدكتور محمد حسين

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٢ ـ باب الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ « الحلال بيّن والحرام بيّن =

بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ (١) . وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره فى نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله «هار» . والله أعلم ـ انتهى ـ

ثم قال الزمخشرىّ : وشفا الحفرة وشفتها حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو إلا أنها فى المذكر مقلوبة ، وفى المؤنث محذوفة . ونحو الشفا والشفة ، الجانب والجانبة ـ انتهى.

وحكى الزجاج فى تثنية شفا « شفوان » . قال الأخفش لما لم تجز فيه الإمالة عرف أنه من الواو ، لأن الإمالة من الياء ـ كذا فى الصحاح .

ثم قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا فى النار ، فمثلت حياتهم التى يتوقع بعدها الوقوع فى النار ، بالقعود على حرفها مُشْفِين على الوقوع فيها .

قال الرازىّ : وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع فى الحفرة، إلا ما بين طرف الشىء وبين ذلك الشىء .

« كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك البيان « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ » فى كل مكان لإنقاذكم عن الضلال فيه « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » لرشدكم الدينىّ والدنيوىّ فيه . ثم أشار إلى أنه كما أنقذكم من النار والضلال بإرسال الرسل وإنزال الآيات ، فليكن فيكم من ينقذ إخوانه، فقال:

= وبينهما أمور مشتبهة . فمن ترك ماشبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك . ومن اجترأ على ما يشك فيـه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان . والمعاصى حمى الله . من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٩] ونصها : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ » أى جماعة ، سميت بذلك لأنها يؤمها فرق الناس ، أى يقصدونها ويقتدون بها « يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ » وهو ما فيه صلاح دينىّ ودنيوىّ « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ » أى بكل معروف ، من واجب ومندوب يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » أى عن كل منكر ، من حرام ومكروه يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة « وَأُولَئِكَ » الداعون الآمرون الناهون « هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم .

قال بعضهم : الفلاح هو الظفر وإدراك البغية . فالدنيوىّ هو إدراك السعادة التى تطيب بها الحياة ، والأخروىّ أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعز بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل .

لطيفة :

قيل: عطف: (وَيَأْمُرُونَ) على ماقبله ، من عطف الخاص على العام ـ كذا قاله الزمخشرىّ . وناقشه فى الانتصاف . وعبارته : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لامحالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ(١) . وكقوله : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٢) . وكقوله : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى(٣) . وشبه ذلك . لأن الاقتصار على تخصيص مايفرد بالذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] ... فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ... وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

يفيده تميزاً عن غيره من بقية المتناولات . وأما هذه الآية فقد ذكر، بعد العام فيها ، جميع ما يتناوله ، إذ الخير المدعوّ إليه إما فعل مأمور ، أو ترك منهيّ ، لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقيةِ المتناولات ، فالأولى فى ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عامًّا ثم مفصلًا . وفى تنبيه أن الذكر على وجهين مالا يخفى من العناية ـ والله أعلم ـ إلا أن يثبت عرف بخص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشرى ، وما أرى هذا العرف ثانياً ـ والله أعلم ـ انتهى .

تنبيه .

فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها ـ كذا فى فتح البيان ـ

قال الغزاليّ رضى الله عنه : فى هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله تعالى « وَلْتَكُنْ » أمر . وظاهر الأمرِ الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حصَرَ وقال: أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين. إذ لم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف . بل قال : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ . فإذا ، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون ، عمّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . انتهى .

فإن قلت : فمن يباشره؟ فالجواب: كل مسلم تمكن منه ولم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، أو إن نهيه لايؤثر ، لأنه عبث، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين . فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا همّ بضرر غيره منع، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لايتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها ـ ذكره الزمخشريّ ـ .

وتفصيل هذا البحث فى (الإحياء) للغزالى قدس سره، وقد قال ، قدس سره ، فى طليعة ذلك البحث ما نصه : إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا أن يكون، إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، واستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فمن سعى فى تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلا بعملها، أو متقلدًا لتنفيذها ، مجددًا لهذه السنة الداثرة ، ناهضاً بأعبائها، ومتشمرًا فى إحيائها ، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ينهى تعالى عباده أن يكونوا كاليهود والنصارى فى افتراقهم مذاهب ، واختلافهم عن الحق بسبب اتباع الهوى ، وطاعة النفس، والحسد ، حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض ، ويدعو إلى ما ابتدعه فى دينه ، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة ، المبينة للحق ، الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة ، وهى كلمة الحق . فالنهى متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالةً ، وإلى أعقابهم تبعاً . وفى قوله

تعالى « وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين ، والتشديد فى تهديد المشبهين بهم ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول :

ذكر الفخر الرازىّ من وجوه قوله تعالى : اخْتَلَفُوا . أى بأن صار كل واحد منهم يدّعى أنه على الحق ، وأن صاحبه على الباطل . ثم قال : وأقول إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة ، فنسأل الله العفو والرحمة ـ انتهى كلامه ـ وقوله (هذاالزمان) إشارة إلى أن هذا الحال لم يكن فى علماء السلف ، وما زالوا يختلفون فى الفروع وفى الفتاوى بحسب ما قام لديهم من الدليل ، وما أداه إليه اجتهادهم ، ولم يضلل بعضهم بعضاً ، ولم يدّع أحدهم أنه على الصواب الذى لا يحتمل الخطأ، وأن مخالفه على خطأ لا يحتمل الصواب ، وإنما نشأ هذا من جمود المقلدة المتأخرين وتعصبهم وظنهم عصمة مذهبهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ فى البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين ، وهم على وحدتهم وتناصرهم .

الثانى :

قال القاشانىّ : يعنى بـ « الآيات » الحجج العقلية والشرعية الموجبة لاتحاد الوجهة ، واتفاق الكلمة ، فإن للناس طبائع وغرائز مختلفة ، وأهواء متفرقة ، وعادات وسيرًا متفاوتة، مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم ، ويترتب على ذلك فهوم متباينة ، وأخلاق متعادية ، فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام، تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته ، وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهواؤهم بمحبته وطاعته ، كانوا مهملين متفرقين ، فرائس للشيطان ، كشريدة الغنم ، تكون للذئب . ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : لابد للناس من إمام ، بر أو فاجر. ولم يرسل نبىٌّ الله ﷺ رجلين فصاعداً لشأنٍ ، إلا وأمّر أحدهما على الآخر ، وأَمَرَ الآخر بطاعته

ومتابعتــه ، ليتحد الأمر ، وينتظم ، وإلا وقع الهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل نظام المعاش والمعاد . قال رسول الله ﷺ[١] : من فارق الجماعة قيـد شبر لم ير بحبوحة الجنة . وقال[٢] : الله مع الجماعة . ألا ترى أن الجمعية الإنسانية إذا لم تنضبط برئاسة القلب ، وطاعة العقل ، كيف اختل نظامها ، وآلت إلى الفساد والتفرق ، الموجب لخسار الدنيا والآخرة . ولما نزل قوله تعالى : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، خط رسول الله ﷺ خطًّا فقال[٣] : هـذا سبيل الرشد ، ثم خط عن يمينه وشماله خطوطاً فقال : هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ : سترون بعدى أموراً تنكرونها ، حديث ٢٥٤٦ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن، ٧ ـ باب ماجاء فى لزوم الجماعة، ونصه: عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يجمع أمتى ، (أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم) على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، ومن شذّ شذّ إلى النار » .

(٣) أخرجه الدارميّ فى : المقدمة ، ٢٣ ـ باب فى كراهية أخذ الرأى ونصه :

عن عبد الله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطًّا ثم قال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال « هذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » .

ثم تلا : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

الثالث :

قال شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية، قدس سره، فى أول كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) : وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ فى شىء من سنته ، دقيقٍ ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك ، إلا الرسول ﷺ . ولكن إذا وجد لواحدمنهم قول، قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلابد له من عذر فى تركه ، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها ـ عدم اعتقاده أن النبيّ ﷺ قاله ،

الثانى ـ عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ،

الثالث ـ اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة ـ ثم أوسع المقال فى ذلك ـ .

وذكر قدس سره، فى بعض فتاويه ، أن السلف والأئمة الأربعة والجمهور يقولون: الأدلة بعضها أقوى من بعض فى نفس الأمر . وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى . فإذا رأى دليلًا أقوى من غيره ، ولم ير ما يعارضه ، عمل به ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وإذا كان فى الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً ، وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه ، فإذا أريد بالخطأ الإثم ، فليس المجتهد بمخطىء ، بل كل مجتهد مصيب ، مطيع لله ، فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق فى نفس الأمر ، فالمصيب واحد ، وله أجران . كما فى المجتهدين فى جهة الكعبة ، إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذى أصاب الكعبة واحد ، وله أجران لاجتهاده وعمله ،

كان أكمل من غيره ، والمؤمن[١] القوىّ أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده الله أجرا بما زاده من العلم والعمل ، قال تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[٢]. قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم ، وكذلك قال فى قصة يوسف : مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ[٣] . وقد تبين بذلك أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجلّ العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا[٤] . وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال، فى الأصول والفروع.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوىّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كلٍّ خير . احرص على ماينفعك واستعن بالله . ولاتعجز. وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا . ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل. فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٣] .

(٣) [١٢/ يوسف /٧٦] ونصها: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٧٨و٧٩] ونصهما : . . . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

ثم قال : وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما فى مسائل الأحكام . ولم يستوعب الحقّ إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه ، وهؤلاء هم أهل المرحمة الذين لا يختلفون ـ انتهى .

فعلم أن اختلاف الصحابة والتابعين والمجتهدين فى الفروع ليس مما تشمله الآية ، فإن المراد منها الاختلاف عن الحق، بعد وضوحه، برفضه ، وشتان ما بين الاختلافين . ثم على طالب الحق أن يستعمل نظره فيما يؤثر من هذه الخلافيات ، فما وجده أقوى دليلا أخذ به ، وإلا تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ[1] . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه ، فليدعُ بما رواه مسلم[2] فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول ـ إذا قام يصلى من الليل ـ اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم. فإن الله تعالى قال فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] : ياعبادى كلكم ضال إلا من هديت ، فاستهدونى أهدكم ـ انتهى .

---

(١) [٣٩ / الزمر / ١٧و١٨] ونصهما : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ، فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٥ (طبعتنا) وها كموه بجملته :

عن أبى ذر ، عن النبىّ ﷺ ، فيما رَوَى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادى ! إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما . فلا تظالموا . يا عبادى ! كلكم ضال =

الرابع :

ذكر بعض المفسرين ، هنا ، ما روى من حديث (اختلاف أمتى رحمة) ، ولا يعرف له سند صحيح ، ورواه الطبرانىّ والبيهقىّ فى (المدخل) بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً . قال بعض المحققين : هو مخالف لنصوص الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ(١) . ونحوه قوله ﷺ : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم(٢) وغيره من الأحاديث الكثيرة . والذى يقطع به أن الاتفاق خير من الخلاف ـ انتهى ـ

= إلا من هديته . فاستهدونى أهدكم. ياعبادى ! كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ! كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم . يا عبادى! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً . فاستغفرونى أغفر لكم . ياعبادى ! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ! إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(١) [١١ / هود / ١١٨ و ١١٩] ونصهما : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٢٢ (طبعتنا) .

عن أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول =

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود[١] بسندهما عن أبى عامر عبدالله بن يحيى قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعنى الأهواء ـ كلها فى النار إلا واحدة ، وهى الجماعة . وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تجَارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصاحبه. لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ؛ والله ! يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء نبيكم ﷺ لَغيْرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به . قال ابن كثير : وقد روى هذا الحديث من طرق ـ انتهى ـ

نبذة فى مبدأ الاختلاف فى هذه الأمة من أهل الأهواء :

ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى كتاب (الفرقان بين الحق والباطل) أن المسلمين كانوا فى خلافة أبى بكر وعمر ، وصدراً من خلافة عثمان فى السنة الأولى من ولايته متفقين لاتنازع بينهم ، ثم حدث فى أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان. ولما اقتتل المسلمون بصِفِّين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين . وحَدَثَ فى أيامه الشيعة أيضاً ، لكن كانوا مختفين بقولهم لايظهرونه لعلىّ وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف :

= « استووا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم . ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، بالصفحة ١٠٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

وأبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١ ـ باب فى شرح السنة ، حديث ٤٥٩٧ .

ونصه هنا عن المسند .

طائفة : تقول إنه إله ، وهؤلاء ، لما ظهر عليهم ، أحرقهم بالنار ؛

والثانية : السابة وكان قد بلغه عن أبى السودا أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه . قيل إنه طلبه ليقتله فهرب منه ؛

والثالثة : المفضِّلة الذين يفضلونه على الشيخين ، وقدتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . وروى ذلك البخارىّ فى صحيحه .

ثم فى آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، ثم حدثت المرجئة . ثم قال : وإن الناس فى ترتيب أهل الأهواء على أقسام : منهم من رتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج . ومنهم من رتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضى الله عنه ، كعبد الله ابنه ، ونحوه ، وكالخلّال ، وأبى عبد الله بن بطة وأمثالهما ، وكأبى الفرج المقدسىّ . وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ، لأنهم أغلظوا البدع . وكالبخارىّ فى صحيحه ، فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة ، وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ثم قال قدس سره : إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان ، فلما حدث فى الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، وعمدتهم فى الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم ، عليها يعتمدون فى التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك. ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما فى القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم فى نفس الأمر إلى غير ذلك ؛ والآيات التى تخالفهم يشرعون فى تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه من الاحتجاج بها. ثم قال قدس سره : فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم فى شىء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل

ينظر ماقال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، كما كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين . فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يوسوس ديناً غير ما جاء به الرسول . وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه، نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وقال قدس سره فى رسالته إلى جماعة الشيخ عدىّ بن مسافر ما نصه : وهذا التفريق الذى حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذى أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١) فمتى ترك الناس بعض ماأمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، وجماع ذلك فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . إلى قوله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢) . فمن الأمر بالمعروف الأمرُ بالائتلاف والاجتماع والنهى عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهى عن المنكر إقامةُ الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى . ثم قال : ويجب على أولى الأمر ، وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوّموا عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ .

وقوله تعالى :

---

(١) [٥ / المائدة / ١٤] .
(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٢ـ١٠٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » أى تبيض وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين لاتباعها الدين الحق الذى هو النور الساطع . وتسودّ وجوه كثيرة ، وهى وجوه الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، لاتباعها الضلالات المظلمة ، وليستدل بذلك على إيمانهم وكفرهم ، فيجازى كل بمقتضى حاله . وهذه الآية لها نظائر ، منها قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ(١) . ومنها قوله تعالى : وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ (٢) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٣) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٤) . ومنها : تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ(٥) . إلى غير ذلك . وللمفسرين فى هذا البياض والنضرة والغبرة والقترة وجهان :

أحدها : أن البياض مجاز عن الفرح والسرور . والسوادعن الغم . وهذا مجاز مستعمل، قال تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٦) . ويقال : لفلان عندى يد بيضاء ، أى جلية سارة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٠] .

(٢) [١٠ / يونس / ٢٦] ونصها : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣٨ـ٤١] .

(٤) [٧٥ / القيامة / ٢٢ـ٢٥] .

(٥) [٨٣ / المطففين/ ٢٤] . (٦) [١٦ / النحل / ٥٨] .

وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ، ومعناه الاستبشار والتهلل . وعند التهنئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذى بيض وجهك . ويقال لمن وصل إليه مكروه : اربدّ وجهه واغبرّ لونه ، وتبدلت صورته . فعلى هذا معنى الآية : إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه ، فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك ، إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسودّ وجهه بمعنى شدة الحزن والغم ، وهذا قول أبى مسلم الأصفهانىّ .

والوجه الثانى : أن هذا البياض والسواد يحصلان فى وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب المصير إليه . ولأبى مسلم أن يقول الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (١) . فجعل الغبرة والقترة فى مقابلة الضحك والاستبشار ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ماذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلاً له ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ـ أفاده الرازىّ ـ

لطيفة :

(يوم) منصوب إما مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيراً لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات، وترغيباً فى الاتفاق على التمسك بالدين. أى اذكروا يوم...الخ أوظرف للاستقرار فى (لهم) أو لـ (عظيم) أو لـ(عذاب) .

« فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً ، وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع مافيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال، وقوله تعالى : أَكَفَرْتُمْ

(١) [٨٠ / عبس / ٣٨ـ٤١] .

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . على إرادة القول ، أى فيقال لهم ذلك ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم ـ أفاده أبو السعود ـ والمعنى : أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان ، وهو الدلائل التى نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة ، وما يناجيكم به وجدانكم من صدق هذه الدعوى وحقيتها وشهادته بصحتها ، كما قال تعالى فيما قبل هذه الآية : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ(١) : فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال للمؤمنين . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٢) . فقوله تعالى هنا : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، محمول على ما ذكر ، حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها ، وهى عامة فى حق كل الكفار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » المراد برحمة الله الجنة ، عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ)

« تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » الإشارة إلى ما تقدم من الوعد والوعيد « وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ » أى لا يشاء أن يظلم عباده ، فيأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد فى عقاب مجرم ، أو ينقص من ثواب محسن . قال الرازى : إنما حسن ذكر الظلم ههنا

(١) [٣ / آل عمران / ٧٠] .
(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٥] .

لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك ، وقال : إنهم ما وقعوا فيه إلا لسبب أفعالهم المنكرة ، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلّب . وقال أبو السعود : وفى سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ، كما فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » أى له تعالى وحده، من غير شركة، ما فيهما من المخلوقات ملكاً وخلقاً إحياءً وإماتةً وإثابةً وتعذيباً « وَإِلَى اللَّهِ » أى إلى حكمه وقضائه « تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى أمورهم فيجازى كلًّا منهم بما وعده وأوعده ، فلا داعى له إلى الظلم ؟ لأنه غنىّ عن كل شىء ، وقادر على كل شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

« كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق ، والدعوة إلى الخير ، و « كنتم » من (كان) التامة ، والمعنى وجدتم وخلقتم خير أمة ، أو (الناقصة) والمعنى كنتم فى علم الله خير أمة ، أو فى الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة و « أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » صفة لأمة ، واللام متعلقة بـ « أخرجت » ، أى أظهرت لهم حتى تميزت وعرفت ، وفصل بينها وبين غيرها .

(١) [١٠ / يونس / ٤٤] .

ثم بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعه لغيرهم بقوله « تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » فبهذه الصفات فضلوا على غيرهم ممن قال تعالى فيهم : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[١] . وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ[٢]. قال أبو السعود : وتؤمنون بالله أى إيماناً متعلقاً بكل مايجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء . وإنما لم يصرح به تفصيلاً لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون، وللإيذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة ، وأن ماخلا عن شيء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان به تعالى فى شيء . قال تعالى : وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا[٢] وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة ، لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به ما بعده ـ انتهى ـ روى ابن جرير[٣] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى من الناس رِعَةً[٤] ، فقرأ هذه الآية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد

---

(١) [٥ / المائدة/ ٧٩] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٠و١٥١] ونصهما: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(٣) الأثر ٧٦١٢ من تفسيره (طبعة المعارف) .

(٤) رِعَةً . أصلها من الوَرَع . مثل (العدة) من الوعد . والرعة : الهدى وسوء الهيئة أو حسن الهيئة . أو هى بمعنى الشأن والأمر والأدب . وفى حديث الحسن : ازدحموا عليه فرأى منهم رعة سيئة . فقال : اللهم إليك . يريد بالرعة ههنا الاحتشام والكف عن سوء الأدب ، أى لم يحسنوا ذلك .

شرط الله فيها . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، أي خياراً، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ[1] ، أي بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد روى فى معنى الآية عن النبيّ ﷺ أحاديث وافرة ، منها ما أخرجه الإمام أحمد والترمذيّ[2] والحاكم عن معاوية بن حيدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل . قال ابن كثير : وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذيّ . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد ونحوه . وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ ، فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يُعْطَهُ نبيّ قبله ، ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه . وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وساق طرقه ومخرجيه فأجاد رحمه الله تعالى . « وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أى بما أنزل على محمد ﷺ « لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى مما هم عليه ، إشارة إلى تسفيه أحلامهم فى وقوفهم مع ما منعهم عن الإيمان من العوض القليل الفانى والرياسة التافهة ، وتركهم الغنى الدائم ، والعز الباهر . ولما كان هذا ربما أوهم أنه لم يؤمن منهم أحد قال مستأنفاً « مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ » أى بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ولكنهم قليل « وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ » ولما كانت مخالفة الأكثر قاصمة ، خفف سبحانه عن أوليائه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى» أى بألسنتهم لايبالى به من طعن وتهديد «وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ»

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ حدثنا عبد بن حميد.

أى يوماً من الأيام « يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ » يعنى منهزمين مخذولين « ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » يعنى لا يكون لهم النصر عليكم ، بل تنصرون عليهم . وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً؟ لم يقاتلوا فى موطن إلا كانوا كذلك . قال ابن كثير : فإنهم يوم خيبر أذلهم الله ، وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة: بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، كلهم أذلهم الله . وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين. ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم، وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام ـ اه .

لطائف :

قال الزمخشرىّ :

فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله (ثم لا ينصرون) ؟

قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟

قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفى النصر وعداً مطلقاً كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر .

فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟

قلت: جملة الشرط والجزاء. كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا. ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فما معنى التراخى فى (ثم) ؟

قلت : التراخى فى المرتبة ، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار .

قال الناصر بن المنير : وهذا من الترقى فى الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم فى النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ، ويزيد هذا الترقى بدخول (ثم) دون (الواو) ، فإنها تستعار ههنا للتراخى فى الرتبة لا فى الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى فى الامتنان ، وأسمح فى رتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون ألبتة ـ والله أعلم ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ » أى أحيط بهم الهوان والصغار كما يحيط البيت المضروب بساكنه أينما وجدوا ، وقوله : إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ . فى محل النصب على الحال . بتقدير : إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله ، وهو استثناء من أعمّ عام الأحوال ، والمعنى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال ، إلا فى حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس ، يعنى ذمة الله وذمة المسلمين ، أى لا عزّ لهم قط إلا هذه الواحدة وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ـ كذا فى الكشاف ـ « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » أى استوجبوه « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ » أى الفقر ليكونوا بهذه الأوصاف أعرق شىء فى الذل « ذَٰلِكَ » أى ضربت المسكنة والذلة والغضب « بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » أى استكباراً وعتوّاً « وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ »

أى الآتين من عند الله حقاً. ولما كانوا معصومين ديناً ودنيا قال « بِغَيْرِ حَقٍّ » أى يبيح القتل « ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة ، كما هو معلل بكفرهم وقتلهم الأنبياء ، فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل : ذلك إشارة إلى علة العلة ، وهو الكفر والقتل ، أى حصلا منهم بسبب عصيانهم واعتدائهم ، فإن الإقدام على المعاصى ، والاستهانة بمجاوزة الحدود يهوّن الكفر . قال الأصفهانىّ : قال أرباب المعاملات : من ابتلى بترك الآداب ، وقع فى ترك السنن. ومن ابتلى بترك السنن ، وقع فى ترك الفرائض . ومن ابتلى بترك الفرائض ، وقع فى استحقار الشريعة . ومن ابتلى بذلك ، وقع فى الكفر .

قال برهان الدين البقاعىّ رحمه الله تعالى : والآية دليل على مؤاخذة الابن الراضى بذنب الأب وإن علا . وذلك طبق ما رأيته فى ترجمة التوراة التى بين أيديهم ، لأنه قال فى السفر الثانى : وقال الله جميع هذه الآيات كلها أنا الرب إلهك الذى أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكون لك آلهة لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التى مما فى السماء فوق وفى الأرض من تحت ومما فى الماء أسفل الأرض لا تسجدن لها ولا تعبدنها لأنى أنا الرب إلهك غيور آخذ الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة خلوف وأثبت النعمة إلى ألف حقب لأحبارى وحافظى وصاياى ـ انتهى ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

« لَيْسُوا سَوَاءً » جملة مستأنفة سيقت تمهيداً للثناء على من أقبل على الحق من أهل الكتاب وخلع الباطل ولم يراع سلفاً ولا خلفاً ، وتذكيراً لقوله تعالى : مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ . أى ليس أهل الكتاب متساوين ومتشاركين فى المساوىء . ثم استأنف قوله بياناً لعدم

استوائهم« مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ».

فى قوله تعالى « قَائِمَةٌ » وجوه :

الأول ـ أنها قائمة فى الصلاة ، وعبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن فى ساعات الليل كقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(١) . وقوله : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيْلِ (٢) . وقوله : قُمِ اللَّيْلَ (٣) . وقوله : وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ(٤) .

والثانى ـ أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له ، غير مضطربه فى التمسك به ، كقوله : إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا(٥) أى ملازماً للاقتضاء ، ثابتاً على المطالبة . ومنه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] .

(٢) [٧٣ / المزمل / ٢٠] ونصها : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَلَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٧٣ / المزمل / ٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ونصها : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى : قَائِماً بِالْقِسْطِ[١] .

الثالث ـ أنها مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام ، بمعنى استقام . والآناء الأوقات واحدها (إِنا) مثل (معى) و (أمعاء) و (إِنْى) مثل (نِحْى) و (أنحاء) وقوله تعالى « وَهُمْ يَسْجُدُونَ » جملة مستقلة مستأنفة ، وليست حالا من فاعل « يتلون » لما صح فى السنة من النهى عن التلاوة فى السجود ، وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أوساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم[٢]. فمعنى الآية أنهم يقومون تاره ويسجدون أخرى ، يبتغون الفضل والرحمة كقوله تعالى: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَاماً[٣]. وقوله : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ[٤]. ويحتمل أن يكون المعنى : وهم يصلون ، والصلاة تسمى سجودا وسجدة كما تسمى ركوعا وركعة وتسبيحاً وتسبيحة . وعليه فالجملة يجوز فيها الوجهان ، وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده . ثم وصفهم تعالى بصفات أخر ، مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » أى على الوجه الذى نطق به الشرع . وظاهر أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله . والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] . (٤) [٣٩ / الزمر / ٧] .

المعاصى ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ، ولا يحترزون عن معاصى الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » تعريض بمداهنة اليهود فى الاحتساب ، بل بتعكيسهم فى الأمر بإضلال الناس وصدّهم عن سبيل الله ، فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، وقوله تعالى « وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير . والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه . وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها ، بل بمبادرتهم إلى الشرور « وَأُولَٰئِكَ » أى المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة « مِنَ الصَّالِحِينَ » أى من عداد من صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه . والوصف بالصلاح دالّ على أكمل الدرجات . فهو غاية المدح ، ولذا وصفت به الأنبياء فى التنزيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

« وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ » أى لن يعدموا ثوابه . وإيثار صيغة المجهول للجرى على سنن الكبرياء . وقرئ الفعلان بالخطاب « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » فيوفيهم أجورهم . وهؤلاء الموصوفون هم المذكورون فى آخر السورة : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ... الآية[١].

تنبيه :

قال البقاعىّ : أرشد السياق إلى أن التقدير : وأكثرهم ليسوا بهذه الصفات . وقال الرازىّ : لما قال تعالى : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ . كان تمام الكلام أن يقال : وَمِنْهُمْ

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ . إلا أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يغنى عن ذكر الضد الآخر . وتحقيقه : أن الضدين يُعلمان معاً . فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما ، فلا جرم يحسن إهمال الضد الآخر ، قال أبو ذؤيب[1] :

دعانى إليها القلب . إنى لأمره   مطيع . فما أدرى أرشدٌ طِلَابُها

أراد أم غىٌّ ، فاكتفى بذكر الرشد عن الغىّ ، وهذا قول الفراء وابن الأنبارىّ . وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأن ذكرها قد جرى قبل ، ولأنا قد ذكرنا أن العلم بالضدين معاً ، فذكرُ أحدهما مغن عن ذكر الآخر . كما يقال زيد وعمرو لا يستويان، زيد عاقل ديّن ذكى ، فيغنى هذا عن أن يقال : وعمرو ليس كذلك . فكذا ههنا . لما تقدم قوله: ليسوا سواء. أغنى عن ذلك الإضمار ـ انتهى ملخصا ـ أقول : لا مانع من كون الآية الآتية هى الشق الثانى المقابل للأول . فإن عنوان الذين كفروا مقابل بمفهومه لما قبله كما لا يخفى ـ والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ » أى لن تدفع عنهم « أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ

---

(١) من قصيدته التى أولها :

أبا الصُّرم من أسماء حدثك الذى   جرى بيننا يوم استقلت ركابُها

فى الديوان (عصانى إليها) وفسرها بقوله : أى خطر إليها قلبى وذهب إليها ، فما أدرى أرشد الذى وقعتُ فيه أم غىّ .

وعبارة الأصمعىّ : جعل لا يقبل منى . أى ذهب إليها قلبى سفها . وهى أوضح فى معنى العصيان من عبارة الشارح هنا .

مِنَ اللهِ شَيْئاً » أى من عذاب الله ، وإن كان التصدق بالأموال يطفىء غضب الرب فى حق المؤمنين ، ويغفر لهم بموت أولادهم ، أو استغفارهم « وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ولما بين تعالى أن أموال الكفار لا تغنى عنهم شيئاً ، ثم إنهم ربما أنفقوها فى وجوه الخيرات ، فيخطر فى البال أنهم ينتفعون بها ، فأزال تلك الشبهة ، وضرب لها مثلا يذهابها هباءً منثوراً بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » من المكارم ويواسون فيه من المغارم « كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ » أى برد شديد كالصرصر «أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بالكفر والمعاصى فباؤوا بغضب من الله « فَأَهْلَكَتْهُ » فكذا ريح الكفر إذا أصابت حرث إنفاق قومه تهلكه . فصار الظلم ريحاً لحصوله من هوى النفس ذات برودة شديدة لكونه ظلم الكفر الذى هو الموت المعنوىّ فأهلكته ـ قاله المهايمىّ ـ « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ » بإهلاك حرثهم بإرسال ريح من عنده « وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » بإرسال ريح الظلم الكفرىّ على حرثهم الأخروىّ .

لطائف :

إن قيل : الغرض تشبيه (ما أنفقوا) فى ضياعه، بالحرث الذى ضربته الصر ، وقد جعل ما ينفقون ممثلا بالريح ، فما وجه المطابقة للغرض ؟ أجيب : بأن هذا من التشبيه المركب وهو ماحصلت فيه المشابهة بين ماهو المقصود من الجملتين ، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزائهما، والمقصود تشبيه الحال بالحال ؛ ويجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمثل مُهْلِكِ ريح فتحصل المشابهة .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : والأقرب أن يقال أصل الكلام ـ والله أعلم ـ مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة . وهو تقديم ما هو أهم . لأن الريح التى هى مثل العذاب ، ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث . فقدمت عناية بذكرها ، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه . ومثل هذا ، فى تحويل النظم لمثل هذه الفائدة ، قوله تعالى : فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا . . .(1) الآية . ومثله أيضاً : أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه ، والأصل : أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت . وأن أدعم بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة والله الموفق .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » أي أصحاباً يستبطنون أمركم من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون . قال الزمخشريّ : بطانة الرجل ووليجته خصيصه وصفيّه الذي يفضي إليه بشُقُوره ثقةً به. شبّه ببطانة الثوب . كما يقال : فلان شعاري ـ انتهى ـ ومن أمثال العرب في سرار الرجل إلى أخيه ما يستره عن غيره : أفضيت إليه بشقوري ـ بضم الشين وقد تفتح ـ أي أخبرته بأمري ، وأطلعته على ما أسره من غيره . وفي القاموس وشرحه : البطانة الصاحب للسر الذي يشاور في الأحوال ، والوليجة وهو الذي يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر . وقال الزجاج : البطانة الدخلاء الذين ينبسط إليهم ويستبطنون ، يقال : فلان بطانة لفلان أي مداخل له موانس . وهؤلاء المنهي عنهم ، إما أهل الكتاب ، كما رواه ابن جرير وابن إسحق عن ابن عباس : أنهم اليهود . وذلك لأن السياق في السورة، والسباق معهم . وقد كان بين الأنصار وبين مجاوريهم من اليهود ما هو معروف من سابق الرضاع والحلف. وإما المنافقون لقوله بعد : وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا[١] ...الخ. وهذه صفة المنافقين كقوله تعالى في سورة البقرة : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ[٢] ... الخ ـ وربما كان يغتر بعض المؤمنين بظاهر أقوال المنافقين

(١) [٣ / آل عمران / ١١٩] ونصها : هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

ويظنون أنهم صادقون فيفشون إليهم الأسرار . وإما جميع أصناف الكفار وقوفاً مع عموم قوله تعالى « مِنْ دُونِكُمْ » كما قال تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ(١) . ومما يؤكد ذلك ماورواه ابن أبي حاتم أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة نصرانياً ، حافظ كاتب . فلو اتخذته كاتباً ؟ فقال : قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين .

قال الرازيّ : فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي من اتخاذ النصرانيّ بطانة .

وقال الحافظ ابن كثير : في هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب .

وقال السيوطيّ في (الإكليل) : قال الكيا الهراسيّ : في الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في شيء من أمور المسلمين ـ انتهى ـ

ووجه ذلك ، كما قال القاشانيّ ، أن بطانة الرجل صفيه وخليصه الذي يبطنه ويطلع على أسراره ، ولا يمكن وجود مثل هذا الصديق إلا إذا اتحدا في المقصد واتفقا في الدين والصفة ، متحابين في الله لا لغرض . كما قيل في الأصدقاء : نفس واحدة في أبدان متفرقة . فإذا كان من غير أهل الإيمان ، فبأن يكون كاشحاً أحرى . ثم بيّن نفاقهم واستبطانهم العداوة

---

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

بقوله : « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا » أى لا يقصرون بكم فى الفساد . قال القاشانىّ : لأن المحبة الحقيقية الخالصة لا تكون إلا بين الموحدين لكونها ظل الوحدة . فلا تكون فى غيرهم لكونهم فى عالم التضادّ . بل ربما تتألفهم الجنسية العامة الإنسانية لاشتراكهم فى النوع والمنافع والملاذ واحتياجهم إلى التعاون فيها . والمنافعُ الدنيوية واللذات النفسانية سريعة الانقضاء فلا تدوم المحبة عليها . بخلاف المحبة الأولى فإنها مستندة إلى أمر لا تغير فيه أصلًا .

قال الزمخشرىّ : يقال : ألَا فى الأمر ، يألو : إذا قصر فيه . ثم استعمل معدّى إلى مفعولين . فى قولهم : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهدًا ، على التضمين . والمعنى : لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه . والخبال الفساد « وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ » أى عَنَتَكُمْ ، على أن (ما) مصدرية ، والعنت شدة الضرر والمشقة ، أى تمنَّوْا ما يهلككم « قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى ظهر البغض الباطن حتى خرج من أفواههم لأنهم لا يتمالكون ، مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها ، أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين . وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان « وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » مما ظهر . لأن ظهوره ليس عن روية واختيار بل فلتة . ومِثْلُهُ يكون قليلا « قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ » الدالة على سوء اتخاذكم إياهم بطانة لتمتنعوا منها فتخلصوا فى الدين وتوالوا المؤمنين وتعادوا الكافرين « إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » أى من أهل العقل . أو تعقلون ما بيّن لكم فعملتم به . قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف موقع هذه الجمل ؟ قلت : يجوز أن يكون (لا يألونكم) صفة للبطانة . وكذلك (قد بدت البغضاء) . كأنه قيل : بطانة غير آليكم خبالا ، بادية بغضاؤهم . وأما (قد بينا) فكلام مبتدأ . وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهى عن اتخاذهم بطانة . ثم بيّن تعالى خطأهم فى موالاتهم حيث يبذلونها لأهل البغضاء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ » أى تخالطونهم وتفشون إليهم أسراركم ولا يفعلون مثل ذلك بكم. وقوله « وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ » الواو للحال وهى منتصبة من ضمير المفعول فى (لا يحبونكم) والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فلا تنكرون منه شيئاً، فليس فيكم مايوجب بغضهم لكم. فما بالكم تحبونهم وهم يكفرون بكتابكم كله ؟

ولم تجعل الواو للعطف على (ولا يحبونكم) أو (تحبونهم) كما ارتضاه أبو حيان لأنه فى معرض التخطئة . ولا كذلك الإيمان بالكتاب فإنه محض الصواب . وإن اعتذر له بأن المعنى : يجمعون بين محبة الكفار والإيمان وهما لا يجتمعان ، لبعده . والحالية مقررة للخطأ فتأمل ، نقله الخفاجىّ .

قال الزمخشرىّ : فيه توبيخ شديد بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم . ونحوه : فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ[١] . « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا » نفاقاً وتغريراً « وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » أى من أجله ، تأسفاً وتحسراً . حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا . وعضُّ الأنامل عادةُ النادم العاجز والمغتاظ إذا عظم حزنه على فوات مطلوبه . ولما كثر هذا الفعل من الغضبان صار ذلك كناية عن

---

(١) [٤/ النساء/ ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالَا يَرْجُونَ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً.

الغضب . حتى يقال فى الغضبان : إنه يعض يده غيظاً ، وإن لم يكن هناك عض « قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ » دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به . والمراد بزيادة الغيظ زيادة مايغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله . وما لهم فى ذلك من الذل والخزى والتبار . كذا فى الكشاف « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » فيعلم ما فى صدورهم من البغضاء والحنق . وهو يحتمل أن يكون من (القول) أى وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً . وأن يكون خارجاً عنه بمعنى: قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطْلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم . وقيل : هو أمر لرسول الله ﷺ بطيب النفس ، وقوة الرجاء ، والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به من غير أن يكون ثمت قول . كأنه قيل : حدث نفسك بذلك ـ أفاده أبو السعود ـ ثم بين تعالى تناهى عداوتهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ » بظهوركم على العدوّ ، ونيلكم الغنيمة ، وخصب معاشكم ، وتتابع الناس فى دينكم « تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ » بإصابة العدوّ منكم ، أو اختلاف بينكم ، أو جدب أو بلية « يَفْرَحُوا بِهَا » ولا يعلمون ما لله تعالى فى ذلك من الحكمة .

لطيفة :

المس أصله باليد ، ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء مسًّا . والتعبير به فى جانب الحسنة ، وبالإصابة فى جانب السيئة للتفنن . وقد سوى بينهما فى غير هذا الموضع كقوله : إِنْ تُصِبْكَ

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ (١) . وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ (٢) . وقال : إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٣) .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : يمكن أن يقال : المس أقل تمكناً من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها ، فكأن الكلام ـ والله أعلم ـ إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها . وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذى يرثى الشامت عنده منها ، فهم لا يرثون لكم ولا ينفكّون عن حسدهم ، ولا فى هذه الحال . بل يفرحون ويسرون . والله أعلم ـ انتهى ـ

وهذا من أسرار بلاغة التنزيل . فدل التعبير على إفراطهم فى السرور والحزن . فإذا ساءهم أقل خيرنا ، فغيره أولى . وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثى له الشامت فهم لا يرجى موالاتهم أصلاً . فكيف تتخذونهم بطانة ؟ . قال البقاعىّ : ولما كان هذا الأمر منكياً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر بشرط التقوى والصبر فقال : « وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا » أى تصبروا على ما يبتليكم الله به من الشدائد والمحن والمصائب وتثبتوا على الطاعة وتنفوا الاستعانة بهم فى أموركم والالتجاء إلى ولايتهم « لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » لأن المتوكل على الله الصابر على بلائه ، المستعين به لا بغيره : ظافر فى طلبته ، غالب على خصمه ، محفوظ بحسن كلاءة ربه . والمستعين بغيره : مخذول موكول إلى نفسه ، محروم عن نصرة ربه . أفاده القاشانىّ .

---

(١) [٩ / التوبة / ٥٠] ونصها : إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا .

(٣) [٧٠ / المعارج / ٢٠و٢١] .

وقيل : المراد بنفى الضرر عـدم المبالاة به ، لأن المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال ، جريئاً على الخصم . و (الـكيد) الاحتيال على إيقاع الغير فى مكروه « إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » قرىء بياء الغيبة ، على معنى أنه عالم بمـا يعملون فى معاداتـكم من الـكيد فيعاقبهم عليه . وبتاء الخطاب ، أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

تنبيه مهم :

قال الرازىّ : إطلاق لفظ (المحيط) على الله مجـاز ، لأن المحيط بالشىء هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، وذلك من صفات الأجسام ، لـكنه تعالى لما كان عالمـاً بكل الأشياء ، قادراً على كل الممكنات ، جَازَ فى مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله : وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ(1) . ـ انتهى ـ

أقول : ما ذكره شبهة جهمية مبناها قياس صفة القـديم على الحوادث ، وأخذ خاصتها به ، وهو قياس مع الفارق . والسمعيات تتلقى من عرف المتـكلم بالخطاب ، لا من الوضع المحدث . فليس لأحد أن يجعل الألفاظ التى جاءت فى القرآن موضوعة لمعانى ، ثم يريد أن يفسر مراد الله تعالى بتلك المعانى . وتتمة هـذا البحث تقدمت فى تفسير (الرحمن الرحيم) من البسملة أول التنزيل الجليل . فارجع إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَإِذْ غَدَوْتَ » أى خرجت « مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ » أى تنزل « الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ » أى أماكن ومراكز يقفون فيها « لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ذهب الجمهور وعلماء المغازى إلى أن هذه الآيه نزلت فى وقعة أُحُد ، والسر فى سوق هذه الوقعة الأُحُدِيَّة وإيلائها البدرية ،

(١) [٨٥ / البروج / ٢٠] .

هو تقرير ما سبق . فإن المدعى فيما قبلها المساءة بالحسنة والمسرة بالمصيبة وسنة الله تعالى فيهم فى باب النصر والمعونة ودفع مضار العدوّ ، إذا هم صبروا واتقوا ، والتغيير إذا غيروا . أى اذكر لهم ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين لم يصبروا فى أُحُد ، فأصيبوا وسرّت الأعداء مصيبتكُم ، وحين صبروا واتبعوا فنُصِروا وساء العدوَّ نصرُهم . وفى توجيه الخطاب إليه ﷺ تهييج لغيره إلى تدقيق النظر واتباع الدليل ، من غير أدنى وقوف مع المألوف ـ كذا يستفاد من تفسير البقاعىّ ـ .

وهذه الآية هى افتتاح القصة ، وقد أنزل فيها ستون آية ، وأشير فى هذه السورة إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى هذه الوقعة ، كما سيذكر ، وكانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وكان سببها أن الله تعالى لما قتل أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، وجاءوا إلى أطراف المدينة فى غزوة السَّويق ، ولم ينل ما فى نفسه ، أخذ يؤلّب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ، ويجمع الجموع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش . وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ليحاموا عنهن . ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أُحُد ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه : أيخرج إليهم أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه أن لايخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت ، ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أُبىّ ، وكان هو الرأى . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، وأشاروا عليه بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، فنهض ودخل بيته ، ولبس لَأْمَتَهُ ، وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك الملحّين، وقالوا : أكْرَهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج . فقالوا : يارسول الله إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغى لنبىّ ، إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين فى المدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وهو بالمدينة : رأى أن فى سيفه ثلمة ، ورأى أن بقرا تذبح ، وأنه أدخل يده فى درع حصينة. فتأول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون . وتأول الدرع بالمدينة . فخرج يوم الجمعة ! فلما صار بالشَّوْط ، بين المدينة وأُحُد ، انخزل عنه عبد الله بن أُبىّ فى ثلث الناس ، مغاضباً لمخالفة رأيه فى المقام . فتبعهم عبد الله بن عمرو ، والد جابر ، يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله ، أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبّهم ، وسأل النبىَّ صلى الله علية وسلم قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى ، وسلك حَرَّة بنى حارثة ، ومر بين الحوائط ، وأبو خيثمة من بنى حارثة يدل به ، حتى نزل الشعب من أُحُد مستنداً إلى الجبل ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعبّى للقتال وهو فى سبعمائة. فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير . وأَمَرَه وأصحابه أن يلزموا مراكزهم ، وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تخطف العسكر. وكانوا خلف الجيش . وأمَرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم . وظاهَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يومئذ ، وأعطى اللواءَ مصعبَ بن عمير ، وجعل على إحدى المجنّبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ . فردّ من استصغره عن القتال . منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد ابن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وعمرو بن حزام . وأجاز من رآه مطيقاً . منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة . فقيل: أجاز من أجازه ، لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ، وردّ من رد لصغره عن سنّ البلوغ ، وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ وعدمه فى ذلك . قالوا : وفى بعض ألفاظ حديث ابن عمر : فلما رآنى مطيقاً أجازنى .

وتعبّت قريش للقتال ، وهم فى ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى أبى دجانة سماك بن خرشة ، وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب ، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد بن عمرو بن صيفىّ ، وكان يسمى (الراهب) لترهبه وتنسكه فى الجاهلية ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الفاسق). وكان رأس الأوس فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلّبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه . فكان أول من لقى من المسلمين. فنادى قومه وتعرف إليهم. قالوا : لاأنعم الله لك عيناً يا فاسق ! فقاتل المسلمين قتالا شديدا، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاءً شديدا ، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين ، واشتد القتال ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزمت أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم . فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ! الغنيمة ! فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا فى طلب الغنيمه ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرَهم منهم إلا نحوُ العشرة ، فكرّ المشركون وقتلوا من بقى من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم وهم ينتهبون ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدوّ إلى رسول الله ﷺ . وقاتل مصعب ابن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل ، وجرح رسول الله ﷺ فى وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة فى رأسه ، يقال: إن الذى تولى ذلك عتبة بن أبى وقاص وعمرو بن قميئة الليثىّ. وشد حنظلةُ الغسيلُ على أبى سفيان ليقتله ، فاعترضه شداد بن الأسود الليثىّ ، من شعوب ، فقتله . وكان جنباً . فأخبر رسول الله ﷺ أن الملائكة غسلته .

وأكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط من بعض حفر هناك ، فأخذ عليٌّ بيده ، واحتضنه طلحة حتى قام ، ومص الدمَ من جرحه مالكُ بن سنان الخدريّ ، والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح. فندرت ثنيتاه فصار أهتم . ولحق المشركون برسول الله ﷺ . وكرَّ دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم ، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون . وأبو دجانة يلي النبيّ ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان . فرجع وهي على وجنته . فردها عليه السلام بيده فصحّت . وكانت أحسن عينيه . وانتهى النضر ابن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا ، وقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : فما تصنعون في الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على مامات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل، ووجد به سبعون ضربة . وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله فعرج منها . وقتل حمزة عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل. لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم . ووهن المسلمون لصريخ الشيطان . ثم إن كعب بن مالك الشاعر، من بني سلمة ، عَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنادى بأعلى صوته يبشر الناس. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: أنصت . فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ، وأدركه أبيّ بن خلف في الشعب، فتناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث بن الصمة وطعنه بها في عنقه . فكرّ أُبيّ منهزماً . وقال له المشركون : ما بك من بأس . فقال : والله ! لو بصق عليّ لقتلني ، وكان ﷺ قد توعده بالقتل . فمات عدوّ الله بسَرِف ، مرجعهم إلى مكة . ثم جاء عليٌّ رسولَ الله ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض . فاستوى على صخرة من الجبل. وحانت الصلاة فصلى بهم قعودًا. وغفر الله للمنهزمين من المسلمين. ونزل: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ(١) ..الآية

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٥] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

واستشهد نحو من سبعين . معظمهم من الأنصار . وقتل من المشركين اثنان وعشرون . ورجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة . ويقال إنه قال لعليّ: لايصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا .

هذا ملخص هذه القصة . وقد ساقها بأطول من هذا أهل السير . وفيما ذكر كفاية . وأما ما اشتملت عليه من الأحكام والفقه والحكم والغايات المحمودة ، فقد تكفل بيانها الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فارجع إليه .

تنبيه :

فسر أكثر العلماء (غدوت) بأصلها ، وهو الخروج غدوة أى بكرة . ثم استشكلوا أنه ﷺ خرج إلى أحد بعد صلاة الجمعة كما اتفقت عليه كلمة أهل السير ، فكيف المطابقة ؟

فمنهم من أجاب بأن المراد غدوة السبت ، وأنه كان فى صباحه التبوؤ للمقاعد إلا أنه لا يساعده (من أهلك) لأنه لم يكن وقتئذ أهله معه .

ومنهم من قال : المراد غدوة الجمعة أى : اذكر إذ غدوت من أهلك صبيحة الجمعة إلى أصحابك فى مسجدك تستشيرهم فى أمر المشركين ، ثم قال : وبنى من (غدوت) حالًا إعلاماً بأن الشروع فى السبب شروع فى مسببه ، فقال (تبوئ المؤمنين) أى صبيحة يوم السبت .

وكان يخطر لى أن الأقرب جعل الغدوّ بمعنى الخروج غير مقيد بالبكرة ، وكثيراً مايستعمل كذلك .

ثم رأيت فى فتح البيان ما استظهرته فحمدت الله على الموافقة ونصه : وعبر عن الخروج بالغدوّ الذى هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة ، لأنه قد يعبر بالغدوة والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناها ، كما يقال (أضحى) وإن لم يكن فى وقت الضحى ـ انتهى ـ

قال البقاعيّ : ولما كان رجوع عبد الله بن أبيّ المنافق ، كما يأتى فى صريح الذكر آخر القصة ، من الأدلة على أن المنافقين ، فضلًا عن المصارحين بالمصارمة ، متصفون بإخبار الله تعالى عنهم من العداوة والبغضاء ، مع أنه كان سبباً فى هم الطائفتين من الأنصار بالفشل ـ كان إيلاء هذه القصة للنهى عن اتخاذ بطانة السوء الذين لا يقصرون عن فسادٍ ، فى غاية المناسبة . ولذلك افتتحها سبحانه بقوله مبدلًا من (إذ غدوت) دليلًا على ما قبله من أن بطانة السوء لا يألونهم خبالًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ » أى بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس « أَنْ تَفْشَلَا » أى تكسلا وتجبنا وتضعفا لرجوع المنافقين عن نصرهم وولايتهم فعصمهما الله ، فمضيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا » ناصرهما ، ومتولى أمرهما ، فأمدهما بالتوفيق والعصمة ، « وَعَلَى اللَّهِ » وحده دون ما عداه استقلالًا أو اشتراكاً « فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » فى جميع أمورهم ، فإنه حسبهم . و(التوكل : تفعل) من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد فى كفايته عليه ، ولم يتوله بنفسه . وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله ، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل . روى الشيخان[1] عن جابر رضى الله عنه قال : فينا نزلت . إذ همت

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٨ ـ باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا .

ومسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٧١ (طبعتنا) .

طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ـ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنوسلمة ، ومانحب أنهالم تنزل لقوله تعالى: والله وليهما . أى لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية . وإن تلك الهَمَّة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » لما ذكر تعالى قصة أُحُد أتبعها بذكر قصة بدر . وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا فى غاية الضعف عَدداً وعُدداً ، والكفار كانوا فى غاية الشدة والقوة . ثم إنه تعالى نصر المسلمين على الكافرين ، فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن ثمرة التوكل عليه تعالى والصبر والتقوى هو النصر والمعونة والتأييد . و (بدر) موضع بين الحرمين ، إلى المدينة أقرب ، يقال هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً . أو اسم بئر هناك حفرها رجل اسمه بدر ، وقوله « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى راجين أن تشكروا ما أنعم به عليكم بتقواكم من نصرته . وقد أشير فى مواضع من التنزيل إلى غزوة بدر ، وكانت فى شهر رمضان ، السنة الثانية من الهجرة ، وكان سببها أن النبىّ ﷺ بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة . معها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش ، عميدهم أبو سفيان ، ومعه عمرو بن العاصى ، ومخرمة بن نوفل . فندب ﷺ إلى هذه العير . وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج . ولم يحتفل فى الحشد . لأنه لم يظن قتالا . وخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، لم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسَانِ ، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها . واتصل خروجه بأبى سفيان ، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفارىّ ، وبعثه إلى أهل مكة يستنفرهم لعيرهم . فنفروا وأوعبوا ، وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان ، واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ، وردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، ودفع إلى

علىّ راية ، وإلى رجل من الأنصار راية أخرى، يقال كانتا سوداوين . وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة . وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ ، فسلكوا نقب المدينة إلى ذى الحليفة، ثم انتهوا إلى صخيرات يمام ، ثم إلى بئر الروحاء، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء، وبعث ﷺ قبلها بسبس بن عمرو وعدىّ بن أبى الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار أبى سفيان وعيره ، ثم تنكب عن الصفراء يميناً ، وخرج على وادى دقران ، فبلغه خروج قريش ونفيرهم ، فاستشار أصحابه فتكلم المهاجرون ، وأحسنوا ، وهو يريد ما يقوله الأنصار ، وفهموا ذلك ، فتكلم سعد بن معاذ ، وكان فيما قال : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، فسرْ بنا يا رسول الله على بركة الله . فسرّ بذلك وقال: سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر ، وبعث علياً والزبير وسعداً فى نفر يلتمسون الخبر . فأصابوا غلامين لقريش ، فأتوا بهما ، وهو ﷺ قائم يصلى ، وقالوا : نحن سقاة قريش ، فكذبوهما ، كراهية فى الخبر ، ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلة المؤنة ، فجعلوا يضربونهما فيقولان : نحن من العير . فسلّم رسول الله ﷺ وأنكر عليهم ، وقال للغلامين : أخبرانى أين قريش ؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب ، وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً ، فقال ﷺ : القوم ما بين التسعمئة والألف. وقد كان بَسْبَس وعدىّ مضيا يتجسسان ولا خبر ، حتى نزلا وأناخا قرب الماء ، واستقيا فى شن لهما ، ومجدى بن عمرو من جهينة بقربهما . فسمع عدىّ جارية من جوارى الحى تقول لصاحبتها : العير تأتى غداً أو بعد غد ، وأعمل لهم وأقضيك الذى لك ، وجاءت إلى مجدى بن عمرو ، فصدقها . فرجع بسبس وعدىّ بالخبر. وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر. فقال لمجدى: هل أحسست أحداً؟ فقال : راكبين أناخا يميلان لهذا التل، فاستقيا الماء ونهضا . فأتى أبو سفيان مناخهما، وفتت من أبعار رواحلهما . فقال : هذه ، والله ، علائف يثرب . فرجع سريعاً وقد حذر ، وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا . وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ، وتهابنا العرب أبداً ،

ورجع الأخنس بن شريق بجميع بنى زهرة ، وكان حليفهم ومطاعاً فيهم وقال : إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت ، فارجعوا . وكان بنو عدىّ لم ينفروا مع القوم ، فلم يشهد بدراً من قريش عدوىّ ولا زهرىّ . وسبق رسول الله ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وَبْلُهُ مما يليهم ، وأصاب مما يلى المسلمين دهس الوادى ، وأعانهم على السير . فنزل صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فقال له الحباب بن المنذر: آلله أنزلك بهذا المنزل فلا نتحول عنه ، أم قصدت الحرب والمكيدة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا بل هو الرأى والحرب . فقال : يا رسول الله ! ليس هذا بمنزل ، وإنما نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ونبنى عليه حوضاً ، ونملؤه ونُعَوِّر القُلُبَ كلها ، فنكون قد منعناهم الماء ، فاستحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بنوا عريشاً على تل مشرف على المعركة يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتيه النصر من ربه ، ومشى يريهم مصارع القوم واحداً واحداً . ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحىّ يحزر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحزرهم وانصرف وخبرهم الخبر . ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، ولا يكون الحرب ، فأبى أبوجهل ، وساعده المشركون ، وتواقفت الفئتان ، وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ، ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ويلح ، وأبوبكر يقاوله . ويقول فى دعائه : اللهم! إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ، اللهم ! أنجز لى ما وعدتنى . وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه ، وأخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انتبه ، فقال: أبشر يا أبا بكر! فقد أتى نصر الله . ثم خرج يحرض الناس . ورمى فى وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : شاهت الوجوه . ثم تزاحفوا . فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز ، فخرج إليهم عبيدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب ، فقتل حمزةُ وعلىٌّ شيبةَ والوليدَ، وضرب عتبةُ عبيدةَ ، فقطع رجله فمات ، وجاء حمزة وعلىّ إلى عتبة فقتلاه ،

وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم. وجال القوم جولة . فهزم المشركون . وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا . وأسر سبعون . واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا . ثم انجلت الحرب ، وانصرف إلى المدينة ، وقسم الغنائم فى الصفراء ، ودخل المدينة لثمان بقين من رمضان . وبسطُ القصة فى السير . ومن أبدعها سياقاً وفقهاً (زاد المعاد) فليرجع إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ » لتقويتكم ونصركم ودفع أعدائكم « بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » من سمائه لقتال أعدائه. وقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

« بَلَىٰ » إما من تتمة مقوله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أو ابتداء خطاب من الله تعالى تأييداً لقول نبيه وزيادة على ما وعدهم تكرماً وفضلًا . أى : نعم يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف ولكنه يزيدكم « إِنْ تَصْبِرُوا » على قتالهم « وَتَتَّقُوا » الفرار عنهم « وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا » أى ساعتهم هذه فلا تنزعجوا بمفاجأتهم « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » فى حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم « مُسَوِّمِينَ » بكسر الواو أى معلمين أنفسهم بأداة الحرب على عادة الفرسان يوم اللقاء ليعرفوا بها . وقرئ

بفتح الواو أى معلَّمين من قبله تعالى . روى البخارىّ(١) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

تنبيه :

فى وعده صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالإمداد بقوله « إِذْ تَقُولُ » وجهان :

الأول ـ أنه كان فى يوم بدر، فإن سياق ماقبله يدل عليه وهو قوله « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ » فـ (إذ) ظرف لـ (نصركم) ، أى نصركم وقت قولك للمؤمنين وقد أظهروا العجز واستغاثوا ربهم . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، على هذا الوجه ، وبين قوله فى سورة الأنفال فى قصة بدر : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٢) ؟

فالجواب: أن التنصيص على الألف ههنا لاينافى الثلاثة آلاف فما فوقها، لقوله(مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم، وذلك أنهم لما استغاثوا أمدهم بألف ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا ، وكان هذا التدريج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً وأقوى لتقويتهم، وأسرها من أن يأتى مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحى ، ونزوله مرة بعد مرة . قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، ومما يؤيد هـذا الوجه أن سياق بدر فى الأنفال من قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . . .(٣) الآيات شبيه بهذا السياق هنا . كما يذوقه من تدبره .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١١ ـ باب شهود الملائكة بدرًا ، حديث ١٨٥٥ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٩] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ =

الوجه الثانى :

أن هذا الوعد كان يوم أُحُد ، فإن القصة فى سياق أُحُد ، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً فى أثنائها ؛ ليذكرهم بنعمته عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، وإنه كذلك هو قادر على نصرهم فى سائر المواطن . ثم عاد إلى قصة أُحُد ، وأخبر عن قول رسوله لهم : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ... الآية . ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله ، والامداد الذى ببدر من قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف . وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذاك مطلق ، والقصة فى هذه السورة هى قصة أُحُد مستوفاة مطولة ، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً . والقصة فى الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة ، فالسياق هنا غير السياق فى الأنفال ـ أشار لذلك ابن القيّم فى (زاد المعاد) .

وقد انتصر للوجه الأول العلامة أبو السعود ، وبين ضعف الثانى بأوجه وجيهة. فليرجع إليه .

ونقل الخازن عن ابن جرير أنه قال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف ، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله .

ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يُمَدُّوا بهم . وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم . وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك . ولا خبر عندنا صحّ من الوجه الذى يثبت أنهم أُمِدُّوا بالثلاثة الآلاف . ولا بالخمسة الآلاف .

= وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .

وغير جائز ، أن يقال فى ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم به الحجة . ولا خبر به كذلك ، فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أن فى القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . [٨ / الأنفال / ٩].

فأما فى يوم أُحد فالدلالة على أنهم لم يُمَدُّوا أبيَنُ منها فى أنهم أمدوا . وذلك أنهم لو أمدوا ، لم يُهزموا ، وينالَ منهم ما نيل منهم .

فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره .

(هذا هو نص ابن جرير . صفحة ١٨٠ و ١٨١ من الجزء السابع (طبعة المعارف) .

فإن قلت: فما تصنع بحديث سعد بن أبى وقاص المروىّ فى الصحيحين أنه قال(١): رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل ؟ قلت : إنما كان ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه صبر ولم يهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد ـ انتهى .

فائدة :

الإمداد ، لغةً الإعانة . والمراد هنا إعانة الجيش . وهل إعانة الملائكة للجيش بالقتال معهم للحديث السابق . ولحديث عائشة فى الصحيحين(٢) قالت : لما رجع رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٨ ـ باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، حديث ١٨٧٣ .

ومسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ٤٦و٤٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم ، حديث ٣٠٨ .

ومسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل فقال : قد وضعتَ السلاح ؟ والله ما وضعناه ، اخرج إليهم ! قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا ـ وأشار إلى بني قريظة ، فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم ـ أو هي بتكثير سواد المسلمين وتثبيت قلوبهم ، كما قال تعالى في الأنفال[1] : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ. أوْ بهما معاً . وهو الظاهر . وقد سئل السبكيّ عن الحكمة في قتال الملائكة ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ، فأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبيّ وأصحابه ، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله تعالى في عباده. والله فاعل الجميع ـ انتهى ـ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ » أي ما جعل الإمداد بالملائكة إلا لتستبشروا به فتزداد قوة قلوبكم وشجاعتكم ونجدتكم ونشاطكم «وَلِتَطْمَئِنَّ» أي تسكن « قُلُوبُكُمْ بِهِ » أي فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ » وحده لا من الملائكة ولا من غيرهم ، فالأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير ، وفيه توثيق للمؤمنين، وعدم إقناط من النصر عند فقدان أسبابه وأماراته « الْعَزِيزِ » أي الذي لا يغالب في حكمه « الْحَكِيمِ » الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه حكمته الباهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

« لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي ليهلك وينقص طائفة منهم بالقتل والأسر ،

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ... فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

كما كان يوم بدر، مِنْ قتل سبعين وأسر سبعين منهم ، واللام متعلقة ، إما بقوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ . وما بينهما تحقيق لحقيقته ، وبيان لكيفية وقوعه ـ وإما بما تعلق به الخبر فى قوله تعالى : وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ . من الثبوت والاستقرار « أَوْ يَكْبِتَهُمْ » أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة تقوية للمؤمنين « فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ » أى فيرجعوا منقطعى الآمال . وإنما أوقع بين المعطوف والمعطوف عليه فى أثناء الكلام قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » اعتراضاً لئلا يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرى لنفسه تأثيراً فى بعض هذه الأمور فيحتجب عن التوحيد ، أى ليس لك من أمرهم شىء ، كيفما كان ، ما أنت إلا بشر مأمور بالإنذار . إن عليك إلا البلاغ ، إنما أمرهم إلى الله ـ أفاده القاشانىّ ـ وفى الاعتراض تخفيف من حزنه لكفرهم ، وحرصه على هداهم ، كما قال : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ . وقوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم للإسلام بعد الضلالة « أَوْ يُعَذِّبَهُمْ » أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم « فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » أى يستحقون ذلك لاستمرارهم على العناد .

روى البخارىّ[١] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد، قنت بعد الركوع ، فربما قال ، إذا قال سمع الله لمن حمده: اللهم ! ربنا ولك الحمد : اللهم ! أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ، اللهم ! اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسنى يوسف ، يجهر بذلك ،

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ باب لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ٤٨٣ .

وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر : اللهم العن فلاناً وفلاناً (لأحياء من العرب) حتى أنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ ... الآية .

وقد أسند ما علقه عن ابن عمر[1] أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الآخرة من الفجر،يقول : اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً . بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ربناولك الحمد . فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ ... الآية ـ ورواه الإمام أحمد عن ابن عمر أيضاً ولفظه : اللهم ! العن فلانا وفلانا . اللهم العن الحارث بن هشام . اللهم العن سهيل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت هذه الآية : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... الآية ، فيتب عليهم كلهم .

وقال الإمام أحمد[2] حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى جبهته حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل ، فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتَوبَ عَلَيْهِمْ . الآية ـ انفرد به مسلم . ورواه البخارىّ تعليقاً . وقد تقدم لنا فى مقدمة التفسير تحقيق معنى سبب النزول ، وأن الآية قد تذكر استشهادًا فى مقامٍ ، لكونها مما تشمله . فيطلق الراوى عليها النزول فيه ، ولا يكون قصده أن هذا كان سبباً لنزولها . والحكمة فى منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ظهرت من توبتهم أخيراً . والإلحاح فى الدعاء مظنة الإجابة ، لا سيما مِن أشرف خلقه . فاقتضت حكمته تعالى إمهالهم إلى أن يتوبوا لِسَابقِ علمه فيهم . وفيه طلب التفويض فى الأمور الملمة ، لما فى طيّها من الأسرار الإلهية .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ باب لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ ، حديث ١٨٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

لطيفة :

قوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . منصوب بإضمار (أن) فى حكم اسم معطوف بـ (أو) على (الأمر) أو على (شيء) ، أى ليس لك من أمرهم شيء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم ، أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم .

أقول: جَعْلُ « أَوْ يَتُوبَ » منصوباً بالعطف على (يكبتهم) ـ بعيدجداً . وإن قدمه بعض المفسرين على الوجه المتقدم . وذلك لأن قوله تعالى « لَيْسَ لَكَ » كلام مستأنف على ماصرحت به الروايات فى سبب النزول . وهى المرجع فى التأويل ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » تقرير لما قبله من قوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أى له مافيهما ملكاً وأمراً « يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » فيحكم فى خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تذييل مقرر لمضمون قوله : يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، مع زيادة . وفى تخصيص التذييل به دون قرينة ، من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » هذا نهى عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه فى الجاهلية من تضعيفه ، كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّيْنُ محله يقول : إما أن تقضى حقى أو تربى وأزيد فى الأجل . وفى ندائهم باسم (الإيمان) إشعار بأن من مقتضى الإيمان وتصديقه ترك الربا . وقد تقدم فى البقرة من المبالغة فى النهى عنه ما يروع من له أدنى تقوى. ويوجب، لمن لم يتركه ومايقاربه، الضمان بالخذلان فى كل زمان : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ[١]. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[٢] . وقوله « أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » أى زيادات متكررة ، وليس لتقييد النهى به ، لما هو معلوم من تحريمه على كل حال ، بل لمراعاة عادتهم كما بيّنا . ومحله النصب على الحالية من الربا . وقرئ (مضعفة) « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فيما تنهون عنه « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » بإيفاء حقوقكم وصونكم عن أعدائكم ، كما صنتم حقوق الأشياء . ومما يعلم به حكمة نظم هذه الآية فى سلك قصة أحد ، ما رواه أبو داود[٣] عن أبى هريرة أن عمرو بن أُقَيْشٍ رضى الله عنه كان له رباً فى الجاهلية ، فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أُحُد ، فقال : أين بنو عمى ؟ قالوا بأحد . قال : أين فلان ؟ قالوا : بأُحُد . قال : فأين فلان ؟ قالوا :

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٩] . . . وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٦] .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٣٧ ـ باب فيمن يسلم ويقتل مكانه فى سبيل الله عز وجل ، حديث ٢٥٣٧ .

بأُحُد . فلبس لَأْمَتَهُ ، وركب فرسه ، ثم توجه قِبَلَهُم ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ! قال : إني قد آمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحاً ، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فقال لأخته : سليه : حمية لقومك وغضباً لهم أم غضباً لله عز وجل ؟ فقال : بل غضباً لله عز وجل ورسوله ﷺ ، فمات ، فدخل الجنة ، وما صلى لله عز وجل صلاة .

قال الدينوريّ : وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط ! فيسكت الناس ، فيقول أبو هريرة : هو أخو بني عبد الأشهل .

وعند ابن إسحق : فذكر لرسول الله ﷺ فقال : إنه لمن أهل الجنة ـ هذا ملخص ما أورده البقاعيّ رحمه الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » بالتحرز عن متابعتهم في الربا ونحوه . روى عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » أي في ترك الربا ونحوه « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ » أي إلى ما يؤدي إليهما من الاستغفار

والتوبة والأعمال الصالحة . وقوله « عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » أى كعرضهما ، كما قال فى سورة الحديد : سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ [١] . وفى العرض وجهان :

الأول ـ أنه على حقيقته . وتخصيصه بالذكر تنبيهاً على اتساع طولها . فإن العرض فى العادة أدنى من الطول ، كما قال تعالى فى صفة فرش الجنة : بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ [١] . أى فما ظنك بظاهرها ؟ فكذا هنا .

والثانى ـ أنه مجاز عن السعة والبسطة . قال القفال : ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة ، كما تقول العرب : بلاد عريضة ، ويقال : هذه دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة . وقال الزمخشرى : المراد وصفها بالسعة والبسطة . فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه تعالى وأبسطه ـ والله أعلم ـ « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ » أى فى حال الرخاء واليسر « وَالضَّرَّاءِ » أى فى حال الضيقة والعسر . وإنما افتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس ، فمخالفتها فيه منقبة

(١) [٥٧ / الحديد / ٢١] . . . أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٥٤] ونصها : مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .

شامخة « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » أى الممسكين عليه فى نفوسهم ، الكافّين عن إمضائه مع القدرة عليه ، اتقاء التعدى فيه إلى ما وراء حقه .

روى الإمام أحمد[١] عن جارية بن قدامة السعدىّ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لى قولًا ينفعنى وأقلل علىّ لعلّى أعيه ، فقال رسول الله ﷺ : لا تغضب . فأعاد عليه . حتى أعاد عليه مرارا . كل ذلك يقول : لا تغضب ـ انفرد به أحمد ـ وَرَوَى من طريق آخر أن رجلًا قال : يارسول الله أوصنى ، قال : لاتغضب . قال الرجل : ففكرت حين قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » أى ظلمهم لهم ، ولو كانوا قد قتلوا منهم ، فلا يؤاخذون أحداً بما يجنى عليهم ، ولا يبقى فى أنفسهم موجدة ، كما قال تعالى : وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ[٢] . قال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ماذم من فعل المشركين فى أكل الربا، فنهى المؤمنون عن ذلك، وندبوا إلى العفو عن المعسرين . قال تعالى عقيب قصة الربا والتداين: وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ،وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ،إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[٣] .ويحتمل أن يكون كما قال تعالى فى الدية: فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ[٤] . إلى قوله : وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . ويحتمل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٨٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٧] ونصها : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٠] .

(٤) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ، فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثلوا بحمزة وقال : لأمثلن بهم . فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ماذكر أنه يفعله من المُثْلَة ، فكان تركه فعل ذلك عفواً. قال تعالى في هذه القصة : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ[1] ـ انتهى ـ وظاهر أن عموم الآية مما يشمل كل ما ذكر. إذ لا تعيين « وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » اللام إما للجنس ، وهم داخلون فيه دخولًا أولياً . وإما للعهد ، عبر عنهم بالمحسنين إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفيّ المستلزم لحسنها الذاتيّ . وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله[2] : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ـ أفاده أبو السعود ـ

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان . ونصه : عن أبي هريرة قال : كان النبيّ ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال « أن تعبد الله ولا تشرك به . وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان . في خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبيّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . . الآية .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

قال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً » من السيئات الكبار « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بأى نوع من الذنوب « ذَكَرُوا اللَّهَ » أى تذكروا حقه وعهده فاستحيوه وخافوه « فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ » أى لأجلها بالتوبة والإنابة إليه تعالى .

قال البقاعىّ : ولما كان هذا مفهماً أنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب ، أتبعه بتحقيق ذلك، ونفى القدرة عليه عن غيره ، مرغباً فى الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين بقوله « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ » أى يمحو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازى عليها « إِلَّا اللَّهُ » أى الملك الأعلى . وقال أبو السعود « مَنْ » استفهام إنكارىّ . أى لا يغفر الذنوب أحد إلا الله ، خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لإيذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء ، فيسارع إلى الجواب به . والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة ، والجملة معترضة بين المعطوفين ، أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه ، والإشعار بالوعد بالقبول .

وقال الزمخشرىّ : فى هذه الجملة وصف لذاته تعالى بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه ، وجب العفو والتجاوز . وفيه تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل ، وكرمه أعظم . والمعنى أنه وحده معه مصححات المغفرة ـ انتهى ـ .

وفى مسند الإمام أحمد[١] عن الأسود بن سريع رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال النبى ﷺ : عرف الحق لأهله .
وفيه أيضاً[٢] : عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم ! فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى .

وفيه أيضا[٣] : عن على رضى الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء منه ، وإذا حدثنى عنه غيرى استحلفته ، فإذا حلف لى صدقته ، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى ، وصدق أبو بكر ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له ، ورواه أهل السنن وابن حبان فى صحيحه وغيرهم ـ قال الترمذى : حديث حسن « وَلَمْ يُصِرُّوا » أى لم يقيموا « عَلَى مَا فَعَلُوا » أى ما فعلوه من الذنوب من غير استغفار «وَهُمْ يَعْلَمُونَ » حال من فاعل (يصروا) أى لم يصروا على مافعلوا وهم عالمون بقبحه ، والنهى عنه، والوعيد عليه . والتقييد بذلك ، لما أنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح . وقد روى أبو داود والترمذى[٤] والبزار وأبو يعلى عن مولى لأبى بكر الصديق رضى الله عنه عن أبى بكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند رقم ٢ (طبعة المعارف) .

ورواه الترمذى فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٨١ ـ باب ماجاء فى الصلاة عند التوبة .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٦ ـ باب فى الاستغفار ، حديث ١٥١٤ والترمذى فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ١٠٦ ـ باب حدثنا حسين بن يزيد الكوفى .

وإسناده لا بأس به . قال ابن كثير : وقول عليّ بن المدينيّ والترمذيّ : ليس إسناد هذا الحديث بذاك ـ فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر ، ولكن جهالة مثله لا تضرّ لأنه تابعيّ كبير ، ويكفيه نسبته إلى أبي بكر ، فهو حديث حسن ـ والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

«أُولَٰئِكَ» إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الحميدة «جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » أي ستر لذنوبهم « وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من أنواع المشروبات « خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » المخصوص بالمدح محذوف ، أي ذلك. يعني ما ذكر من المغفرة والجنات . ثم عاد التنزيل إلى تفصيل بقية قصة أُحُد ، بعد تمهيده مبادئ الرشد والصلاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« قَدْ خَلَتْ » أي مضت « مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » أي وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين « فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم « فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أي وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال . والأمر بالسير والنظر. لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

« هَٰذَا » أى القرآن أو ما تقـدم من مؤاخذة المذكورين « بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ » أى تخويف نافع « لِلْمُتَّقِينَ » ثم شجع قلوب المؤمنين وسلاهم عما أصابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالـكم من الجراح ، ولا تحزنوا على من قتل منـكم ، والحال أنـكم الأعْلَوْنَ الغالبون دون عدوكم ، فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من عاقبة أسلافهم ، فهو تصريح بالوعد بالنصر بعد الإشعار به فيما سبق ، وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » متعلق بالنهى أوبـ(الأعلون) . وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه . أى إن كنتم مؤمنين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، والثقة بصنع الله تعالى ، وعدم المبالاة بأعدائه . أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون ، فإن الإيمان يقتضى العلو لا محالة ـ أفاده أبو السعود ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ » بالفتح والضم قراءتان ، وهما لغتان، كالضَّعف والضُّعف ، أى

إن أصابكم يوم أُحُد جراح « فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ » أى يوم بدر ولم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى ، لأنكم موعودون بالنصر دونهم ، أى فقد استويتم فى الألم ، وتباينتم فى الرجاء والثواب ، كما قال : إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ[1] . فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم ، فقد أصابهم ذلك فى سبيل الشيطان ، وأنتم أُصبتم فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته . وقيل: كلا المسّين كان يوم أُحُد ، فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ » أى أيام هذه الحياة الدنيا « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » أى نصرفها بينهم ، نديل تارة لهؤلاء ، وتارة لهؤلاء . فهى عرض حاضر ، يقسمها بين أوليائه وأعدائه . بخلاف الآخرة ، فإن عرضها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا .

قال ابن القيم قدس الله سره (فى ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد) :

ومنها أن حكمة الله وسنته فى رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى ، لكن تكون لهم العاقبة . فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم ، ولم يميز الصادق من غيره . ولو انتُصِرَ عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة . فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة ـ انتهى ـ

وقوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » قال ابن القيم: حكمة أخرى وهى أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين فى غيبه ، وذلك العلم

(١) [٤ / النساء / ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الغيبىّ لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنمــا يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً فى الحس .

لطيفة :

فى الآ ية وجهان :

أحدهما : أن يكون المعلل محذوفاً معناه: وليعلم.. الخ فعلنا ذلك .

الثانى : أن تــكون العلة محذوفة وهــذا عطف عليه معناه : وفعلنا ذلك ليــكون كيت وكيت ، وليعلم الله . وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعــل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصِّرهم أن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه ـ أفاده الزمخشرىّ ـ

تنبيه :

فى هذه الآ ية بحث مشهور ، وذلك بأن ظاهرها مشعر بأنه تعالى إنما فعل ذلك ليــكتسب هذا العلم ، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى ، ونظيرها فى الإشكال قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ(١) ..الخ وقوله : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْـكَاذِبِينَ(٢) وقوله : لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى(٣) .. الخ وقوله: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(٤) .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٣] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٢] ونصها : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا .

(٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣١] .

وقوله : إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ(١) .

قال الرازىّ : وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لايعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها فقال : كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالماً بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها .

ولما كانت الدلائل القطعية دالة على أزلية علمه جل اسمه ، أجاب عن ذلك العلماء بأجوبة :

منها ـ أن هذا من باب التمثيل . فالتقدير فى هذه الآية : ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها ـ أن العلم فيها مجاز عن التميز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها ـ أن العلم على حقيقته . إلا أنه معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث إنه واقع موجود بالفعل ، أى ليعلم الثابت واقعاً منهم كما كان يعلم أنه سيقع لأن المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذى لم يوجد ، وهذا ما اعتمده ابن القيّم كما نقلناه أولا .

ومنها ـ أن الكلام على حذف مضاف . أى ليعلم أولياء الله ، فأضاف إلى نفسه تفخيما ـ والله أعلم .

ثم ذكر حكمة أخرى وهى اتخاذه سبحانه منهم شهداء بقوله « وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ » أى وليكرم ناساً منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى تضحية النفس شهادة للحق ، واستماتة دونه ، وإعلاء لكلمته ، وهو تعالى يحب الشهداء من عباده ، وقد أعدّ لهم أعلى

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

المنازل وأفضلها ، وقد اتخذهم لنفسه ، فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة . وفى لفظ (الاتخاذ) المنبئ عن الاصطفاء والتقريب ، من تشريفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى وقوله « وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » قال ابن القيّم : تنبيه لطيف الموقع جدا على أن كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخزلوا عن نبيه يوم أُحُد فلم يشهدوه ، ولم يتخذ منهم شهداء ، لأنه لم يحبهم، فأركسهم وردهم ليحرمهم ماخص به المؤمنون فى ذلك اليوم ، وما أعطاه من استشهد منهم ، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التى وفق لها أولياءه وحزبه ـ انتهى .

فالتعريض بالمنافقين . ويحتمل أن يكون بالكفرة الذين أديل لهم ، تنبيهاً على أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم ، بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين . ثم ذكر حكمةأخرى فيما أصابهم ذلك اليوم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

« وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لينقّيهم ويخلصهم من الذنوب ومن آفات النفوس . وأيضا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين ، فتميزوا منهم . فحصل لهم تمحيصان : تمحيص من نفوسهم ، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوّ . ثم ذكر حكمة أخرى وهى محق الكافرين بقوله « وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » أى يهلكهم ، فإنهم إذا ظفروا بَغَوْا وبطروا . فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ، إذ جرت سنة الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم ، قيّض لهم الأسباب التى يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم . ومن أعظمها ، بعد كفرهم، بغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسليط عليهم . والمحق ذهاب الشيء بالكلية حتى لا يرى منه شيء ، وقد محق الله الذى حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأصرّوا على الكفر جميعاً ، ثم أنكر تعالى عليهم حسبانهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد فى سبيله والصبر على أذى أعدائه ، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحَسِبَهُ فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » أى ولما يقع ذلك منكم فيعلمه ، فإنه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة ، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم ، لا على مجرد العلم ، فإن الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه ـ أفاده ابن القيم ـ

وفى الكشاف « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ » بمعنى ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه ، لأنه منتف بانتفائه ، يقول الرجل : ما علم الله فى فلان خيراً ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، و (لما) بمعنى (لم) ، إلا أن فيها ضرباً من التوقع ، فدل على نفى الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل ، وتقول : وعدنى أن يفعل كذا ولما . تريد . ولما يفعل ، وأنا أتوقع فعله .

لطيفة :

قال أبو مسلم فى (أَمْ حَسِبْتُمْ) : إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذى يأتى للتبكيت . وتلخيصه: لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد، وهو كقوله : الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(١) . وافتتح الكلام بذكر (أم) التى هى أكثر ما تأتى فى كلامهم واقعة بين ضربين، يشك فى أحدهما لا بعينه . يقولون : أزيداً ضربت أم عمراً ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما . قال : وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً ، فلما قال « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا » كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر . وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة ، وأوجب الصبر على تحمل متاعبها ، وبيّن وجوه المصالح فيها فى الدين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ و ٢] .

وفى الدنيا ، فلما كان كذلك ، فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنـة مع إهمال هذه الطاعة ـ انتهى ـ .

ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

« وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ » أى الحرب، فإنها من مبادئه ، أو الموت على الشهادة « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ » أى تشاهدوه وتعرفوا هوله « فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ » أى ما تتمنونه من أسباب الموت ، أو الموت بمشاهدة أسبابه العادية ، أو قتل إخوانكم بين أيديكم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » حال من ضمير المخاطبين . وفى إيثار الرؤية على الملاقاة ، وتقييدها بالنظر ، مبالغة فى مشاهدتهم له .

قال ابن عباس : لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا فى الشهادة ، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسببه لهم ، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم ، فأنزل الله تعالى « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ . . . » الآية ـ وقد ثبت فى الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ قال : لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١١٢ ـ باب كان النبيّ ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ، أخر القتال حتى تزول الشمس . ونصه :

عن سالم أبى النضر ، مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، قال : كتب إليه عبد الله ابن أبى أوفى رضى الله عنهما ، فقرأته أن رسول الله ﷺ ، فى بعض أيامه التى لقى فيها ، =

قال أهل المغازى: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، أقبل عبد الله بن قمِيئة يريد قتل رسول الله ﷺ . فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه ، وهو يومئذ صاحب رايته ، فقتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجع فقال : قد قتلت محمداً وصرخ الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل . فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال. ففى ذلك أنزل الله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » والرسل منهم من مات ، ومنهم من قتل ، فلا منافاة بين الرسالة والقتل والموت ، إذ « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » فسيخلو كما خلوا «أَفَإِنْ مَاتَ» أى أتؤمنون به فى حال حياته فإن مات « أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ » أى ارتددتم « عَلَى أَعْقَابِكُمْ » أى بعد علمكم بخلو الرسل قبله ، وبقاء دينهم ، متمسكاً به « وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً » وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» بالنصر والغلبة فى الدنيا ، والثواب والرضوان فى الآخرة ، وهم الذين لم ينقلبوا ، بل قاموا بطاعته ، وقاتلوا على دينه ، واتبعوا رسوله حيًّا وميتاً . وسمّاهم (شاكرين) لأنهم شكروا

= انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام فى الناس قال « أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال « اللهم ! منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

ومسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

نعمة الإسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف . والمعنى أن من كان على يقين من دينه ، وبصيرة من ربه ، لا يرتد بموت الرسول وقتله ، ولا يفتر عما كان عليه ، لأنه يجاهد لربه لا للرسول ، كأصحاب الأنبياء السالفين، وكما قال أنس[1] (عم أنس بن مالك، يوم أحد حين أُرْجف بقتل رسول الله عليه السلام وشاع الخبر ، وانهزم المسلمون، وبلغ إليه تقاول بعضهم: ليت فلاناً يأخذ لنا أماناً من أبى سفيان . وقول المنافقين : لو كان نبيًّا ما قتل) : يا قوم ! إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد حى لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال: اللهم! إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتل ـ أفاده القاشانىّ ـ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٢ ـ باب قول الله تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . ونصه :

عن أنس رضى الله عنه قال: غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر . فقال: يارسول الله! غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرينّ الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم ! إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) .

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ ! الجنة ، ورب النضر ! إنى أجد ريحها من دون أُحُدٍ .

قال سعد : فما استطعت ، يا رسول الله ! ، ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ، ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم. ووجدناه قد قُتِل وقد مَثَّلَ به المشركون . فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

قال أنس: كنا نُرَى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ... الخ .

روى ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلًا من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه ، فقال له : يا فلان ! أشعرت أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل ؟ فقال الأنصاريّ : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلّغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل « وَمَا مُحَمَّدٌ ... » الآية ـ رواه أبو بكر البيهقيّ فى (دلائل النبوة) .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : ومنها ـ أى من الغايات فى هذه الغزوة ـ أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدى موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل. بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ، ويموتوا عليه ويُقتلوا ، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حيّ لا يموت . فلو مات محمد أو قتل لاينبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكل نفس ذائقة الموت ، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ليخلد ، لا هو ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد ، فإن الموت لابد منه ، فسواء مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بقى. ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان بأن محمداً قد قتل ، فقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... الآية ـ والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة ، فثبتوا عليها حتى ماتوا وقتلوا ، فظهر أثر هذا العتاب ، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد على عقبيه ، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزهم ، وأظفرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم ـ انتهى ـ .

وثبت فى الصحيح[1] أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه تلا هذه الآية يوم موت النبيّ ﷺ ، وتلاها منه الناس كلهم ، والحديث مشهور . ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلًا ، لابد أن تستوفيه وتلحق به ، فيرد الناس كلهم حوض المنايا مورداً واحداً ، وإن تنوعت أسبابه ، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، بقوله :

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ٥ ـ باب قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » أى بأمره وإرادته « كِتَابًا مُؤَجَّلًا » مصدر مؤكد لمضمون ما قبله ، أى كتب لكل نفس عمرها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لايتقدم ولايتأخر . وفى الآية تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » أى مانشاء أن نؤتيه ، ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بمن حضر لطلب الغنائم « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ » ونظير هذه الآية قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [١] .وقوله سبحانه : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [٢] .

واعلم أن الآية ، وإن كان سياقها فى الجهاد ولكنها عامة فى جميع الأعمال . وذلك لأن المؤثر فى جلب الثواب أو العقاب هو النيات والدواعى ، لا ظواهر الأعمال . ثم نعى عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية ، عليهم السلام، بقوله:

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠].

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٨و١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ » أى كم من الأنبياء قاتل معهم ، لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، جماعتهم الأتقياء العباد «فَمَا وَهَنُوا» أى ضعفوا « لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ » من الجراح وشهادة بعضهم لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ، ونصرة رسوله « وَمَا ضَعُفُوا » أى عن الجهاد أو العدوّ أو الدين « وَمَا اسْتَكَانُوا » للأعداء بل صبروا على قتالهم « وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » على قتال أعدائه .

تنبيهات

الأول ـ (كأين) بمعنى (كم) الخبرية ، وفيها لغات ، قرئ منها فى السبع : كائن ممدوداً مهموزاً لابن كثير. والباقون بالتشديد . وفيها كلام كثير فى معناها ولغاتها وقراءاتها المتواترة والشاذة وصلًا ووقفاً ، وفى رسمها . فانظر موادّ ذلك .

الثانى ـ قرئ فى السبع « قُتِلَ » بالبناء للمجهول ونائب الفاعل « ربيون » قطعاً . وأما احتمال أن يكون ضميرا لنبيّ ومعه ربيون حال ، أو يكون على معنى التقديم والتأخير ، أى وكائن من نبيّ معه ربيون قتل ـ فتكلفٌ ينبو عن سليم الأفهام. وتعسف يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله . وإن نقله القفال ، ونصره السهيليّ وبالغ فيه . فما كل سوداء تمرة .

الثالث ـ (الربيون) بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرئ بضمها وفتحها ، فالفتح على القياس، والكسر والضم من تغييرات النسب، وهم الربانيون ، أى الذين يعبدون الرب تعالى.

ثم أخبر سبحانه، بعد بيان محاسنهم الفعلية، بمحاسنهم القولية، وهو ما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم ، وأن ينصرهم على عدوهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

« وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ » أى هؤلاء الربانيين، مثل قول المنافقين ولا المعجبين . و «قولهم» بالنصب خبر لـ (كان) ، واسمها (أن) وما بعدها فى قوله تعالى « إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

قال ابن القيّم : لما علم القوم أن العدوّ إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلّهم ويهزمهم بها. وأنها نوعان: تقصير فى حق ، أو تجاوز لحد . وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى ، إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يقدروا على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم ، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم ، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يثبتوا ولم ينتصروا . فوفّوا المقامين حقهما : مقام المقتضى ، وهو التوحيد ، والالتجاء إليه سبحانه . ومقام إزالة المانع من النصرة ، وهو الذنوب والإسراف ـ انتهى ـ

قال القاضى : وهذا تأديب من الله تعالى فى كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن ، سواء كان فى الجهاد أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

« فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » من النصر والغنيمة ، وقهر العدوّ ، والثناء الجميل ، وانشراح الصدر بنور الإيمان ، وكفارة السيئات « وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم . وتخصيص وصف الحسن بثواب الآخرة للإيذان بفضله ومزيته ، وأنه المعتدّ به عنده تعالى ، بخلاف الدنيا لقلّتها وامتزاجها بالمضار ، وكونها منقطعة زائلة

« وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » إشارة إلى أن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان .

قال الرازيّ : فيه دقيقة لطيفة ، وهى أن هؤلاء لما اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا: ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا... الآية ـ سماهم الله محسنين كأن الله تعالى يقول لهم : إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيباً لنفسى حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز اهـ .

ثم حذرهم سبحانه ، إثْرَ ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء المفضى لسعادة الدارين ، من طاعة عدوهم. وأخبر أنه إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة. وفى ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحُد، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » أى إلى الشرك . والارتداد على العقب عَلَمٌ فى انتكاس الأمر ، ومَثَلٌ فى الحَوْر بعد الكَوْر « فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » لدين الإسلام ولمحبة الله ورضوانه وثوابه الدنيوىّ والأخروىّ. فلا تعتقدوا أنهم يوالونكم كما توالونهم . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على أن على المؤمنين أن لاينزلوا على حكم الكفار ولا يطيعوهم ولا يقبلوا مشورتهم خشية أن يستنزلوهم عن دينهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

« بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ » فأطيعوه « وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ » ينصركم خيراً من نصرهم لو نصروكم ، وكيف لا يكون خير الناصرين وهو ينصركم بغير قتال، كما وعد بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

« سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » أى الذى يمنعهم من الهجوم عليكم والإقدام على حرمكم « بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ » أى بكونه إلهاً أو متصفاً بصفاته أو مستحقاً للعبادة « سُلْطَانًا » أى حجة قاطعة ينبنى عليها الاعتقادات « وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ » هى . والمثوى : المقر والمأوى والمقام . من (ثوى يثوى) .

لطائف

الأولى :

أفادت الآية أن ذلك الرعب بسبب ما فى قلوبهم من الشرك بالله ، وعلى قدر الشرك يكون الرعب . قال القاشانى : جعل إلقاء الرعب فى قلوب الكفار مسبباً عن شركهم لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات فى قوى النفس لتنورها بنور التوحيد ، فلا تكون تامة إلا للموحد الموقن فى توحيده . وأما المشرك فلأنه محجوب عن منيع القدرة بما أشرك بالله من الموجود المشوب بالعدم الذى لم يكن له بحسب نفسه قوة ، ولم ينزل الله بوجوده حجة ، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل .

وقال القفال رحمه الله : كأنه قيل : إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أُحُد

إلا أن الله تعالى سيلقى الرعب منكم بعد ذلك ، فى قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار . ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل ـ انتهى ـ

وقد ثبت فى الصحيحين(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحدمن الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرةشهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاةفليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة ، وأُعطيتُ الشفاعة .

الثانية :

فى ذكر عدم تنزيل الحجة مع استحالة تحققها فى نفسها ، إشعار بنفيها ونفى نزولها جميعاً. لأن مالم ينزل به سلطاناً، لا سلطان له .

الثالثة :

قال أبوالسعود : فى الآية إيذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوىّ ، دون الآراء والأهواء الباطلة .

وقد سبقه إلى ذلك الرازىّ حيث قال : هذه الآية دالة على فساد التقليد . وذلك لأن الآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه ، فوجب أن يكون القول به باطلًا ، وهذا إنما يصح إذا كان القول بإثبات مالا دليل على ثبوته ، يكون باطلًا ، فيلزم فساد القول بالتقليد ـ انتهى ـ ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده فى النصر على عدوه ، وهو الصادق الوعد ، وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزموا أمر الرسول لاستمرت نصرتهم ، ولكن انخلعوا عن الطاعة ، وفارقوا مركزهم ففارقهم النصر ، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء وتعريفاً لهم سوء عواقب المعصية وحسن عاقبة الطاعة بقوله :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٦ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ، مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ » فى قوله: وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ . « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ » أى تقتلونهم قتلاً كثيراً . من (حسه) إذا أبطل حسه « بِإِذْنِهِ » أى بتيسيره وتوفيقه « حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ » أى ضعفتم وتراخيتم بالميل إلى الغنيمة « وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ » أى فى الإقامة بالمركز ، فقال أصحاب عبد الله[١] : الغنيمة . أى قوم ! الغنيمة . ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين ـ رواه الإمام أحمد ـ

و (الأمر) إما بمعنى الشأن والقصة، وإما الذى يضادّه (النهى) أى فيهم أمرتم به من عدم البراح « وَعَصَيْتُمْ » أى أمر الرسول أن لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا ، فلا تعينونا ـ رواه البخاريّ ـ « مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ » أى من الظفر والغنيمة ، وانهزام العدوّ . روى البخاريّ[٢] عن البراء قال : لقينا المشركين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٧ ـ باب غزوة أُحُد وقول الله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . . الخ ، حديث ١٤٤٢ =
وهذا نصه :

يومئذ ، وأجلس النبيّ ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لاتبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ـ بلفظ ما تقدم ـ ثم قال البراء : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة .. الحديث « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا » أى الغنيمة فترك المركز « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » فثبت فيه وهم الذين نالوا شرف الشهادة ، ومنهم أنس بن النضر الأسد المقدام(١) ، القائل وقتئذ : اللهم ! إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به

= عن البراء رضى الله عنه قال : لقد لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمّر عليهم عبد الله وقال « لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا . وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .

فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل ، يرفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن . فأخذوا يقولون : الغنيمة ! الغنيمه ! فقال عبدالله : عهد إلىّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا . فأبوا . فلما أبوا صُرِفَ وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلا .

وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا . فلو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبتَ يا عدوّ الله ! أبقى الله عليك ما يخزيك .

قال أبو سفيان : أُعْلُ هُبَلْ . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «أجيبوا» قالوا : ما نقول؟ قال « قولوا : الله أعلى وأجلّ » .

قال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «أجيبوه» قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٩٨٧ .

المشركون ، فتقدم بسيفه ، فلقى سعد بن معاذ ، فقال أين ياسعد ؟ إنى أجد ريح الجنة دون أُحُد ! فمضى فقُتِل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ـ هذا لفظ البخارىّ ـ وأخرجه مسلم بنحوه ، فرضى الله عنه وأرضاه وقدس روحه الزكية « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ، ودالت الدولة . وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى « لِيَبْتَلِيَكُمْ » أى ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله ، وترجعوا إليه ، وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره ، وملتم إلى الغنيمة. ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم بقوله « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » أى تفضلًا عليكم لإيمانكم « وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى فى الأحوال كلها ، إما بالنصرة وإما بالابتلاء ، فإن الابتلاء فضل ولطف خفىّ ، ليتمرنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فى المواطن ، ويتمكنوا فى اليقين ، ويجعلوه ملكة لهم ، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها ، ولا يذهلوا عن الحق ، وليكون عقوبة عاجلة للبعض ، فيتمحصوا عن ذنوبهم ، وينالوا درجة الشهادة ، فيلقوا الله ظاهرين ـ أفاده القاشانىّ ـ .

لطائف

الأولى :

(إذا) فى قوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » إما شرط ، أوْ ، لا . وعلى الأول فجوابها إما محذوف أومذكور. فتقديره، على كونه محذوفاً، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منعكم الله نصره ـ لدلالة صدر الآية عليه ـ أو صرتم فريقين ، لأن قوله تعالى « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ . . . » الخ يفيد فائدته ، ويؤدى معناه . وعلى كونه مذكوراً فهو إما (وعصيتم) والواو صلة . وحكى هذا عن الكوفيين والفراء ، قالوا : ونظيره قوله تعالى : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ[1] . والمعنى ناديناه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣و١٠٤] .

وبعض من نصر هذا الوجـه زعم أن من مذهب العرب إدخال الواو فى جواب (حتى إذا) بدليل قوله تعـالى : حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا[1] . أى فتحت . وأجابوا عما أورد عليهم من لزوم تعليل الشيء بنفسه ـ إذ الفشل والتنازع معصية فـكيف يكونان علة لها ـ بأن المراد من العصيان خروجهم عن ذلك المـكان . ولا شك أن الفشل والتنازع هو الذى أوجب خروجهم عنه ، فلا لزوم . وإمّا قوله تعالى « صَرَفَـكُمْ عَنْهُمْ » وكلمة (ثم) صلة ـ قاله أبو مسلم ـ .

وعلى الثـانى أعنى كونها ليست شرطاً فهى اسم و (حتى) حرف جر بمعنى إلى متعلقة بقوله تعالى « صدقـكم » باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيـل : لقد نصركم الله (إلى) وقت فشلـكم وتنازعكم .

الثانية :

فائدة قوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَاتُحِبُّونَ » التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لمـا شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد ، كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام .

الثالثة :

ظاهر قوله تعالى : وَلَقَدْ عَفَا عَنْـكُمْ . أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة ، لأنها لم تذكر ، فدل على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الـكبائر .

الرابعة :

فى قوله تعالى : وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . دليل على أن صاحب الـكبيرة مؤمن ، فإن الذنب فى الآية كان كبيرة ـ والله أعلم ـ .

ثم ذكرهم تعالى بحالهم وقت الفرار بقوله :

(١) [٣٩/ الزمر / ٧٣] ونصها : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْـكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِذْ تُصْعِدُونَ » متعلق بـ(صرفكم) أو بقوله (ليبتليكم) ، أو بمقدر . والإصعاد الإبعاد فى الأرض . أى تبعدون فى الفرار ، وقرىء : تَصْعَدُونَ . من الثلاثىّ ، أى فى الجبل « وَلَا تَلْوُونَ » أى لا تعطفون بالوقوف « عَلَىٰ أَحَدٍ » أى من قريب ولا بعيد ، من الدهش والروعة « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ » أى ساقتكم وجماعتكم الأخرى ، إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى العود والكرة عليهم . وأنتم مدبرون وهو ثابت فى مكانه فى نحر العدو فى نفر يسير وثوقاً بوعد الله ومراقبة له .

قال السدىّ : لما اشتد المشركون على المسلمين بأحُد ، فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلىّ عباد الله ! إلىّ عباد الله ! فذكر الله صعودهم إلى الجبل ـ ثم ذكر دعاء النبىّ ﷺ إياهم فقال : إذ تصعدون ... الخ ـ قال ابن كثير : وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد .

وفى حديث البراء رضى الله عنه فى مسند الإمام أحمد[١] أنهم لما انهزموا لم يبق مع النبىّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا . وروى مسلم[٢] عن أنس أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ١٠٠ (طبعتنا) ونصه : =

الأنصار ورجلين من قريش : « فَأَثَابَكُمْ »أى جازاكم بهذا الهرب والفرار « غَمًّا بِغَمٍّ » أى غماً متصلاً بغم ، يعنى غم الهزيمة والكسرة ، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قتل . وقيل الباء بمعنى مع ، وقيل بمعنى على ، وهما قريبان من الأول . وقيل الباء للمقابلة والعوض ، أى أذاقكم غماً بمقابلة غم أذقتموه رسول الله ﷺ وهو عصيانكم أمره . قاله الزجاج . وقال الحسن : يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين ، وقيل : المعنى غماً بعد غم أى غماً مضاعفاً . ثم أشار إلى سر ذلك بقوله « لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ » أى لتتمرنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فيها ، وتتعودوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة ، وجميع الأشياء من الله لامن أنفسكم ، فلا تحزنوا على مافاتكم من الحظوظ والمنافع . وقوله : « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » من الغموم والمضار .

قال العلامة ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وقيل جازاكم غماً بما غممتم به رسوله بفراركم عنه ، وأسلمتموه إلى عدوه . فالغم الذى حصل لكم جزاءً على الغم الذى أوقعتموه بنبيه . والقول الأول أظهر لوجوه :

أحدها :

أن قوله لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » تنبيه على حكمة هذاالغم بعد الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر ، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح ، فنسوا بذلك السلب ، وهذا إنما يحصل بالغم الذى يعقبه غم آخر .

= عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهقوه قال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقى فى الجنة ؟ » .

فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . ثم رهقوه أيضاً . فقال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقى فى الجنة ؟ » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » .

الثانى :

أنه مطابق للواقع ، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة ، ثم أعقبه غم الهزيمة ، ثم غم الجراح الذى أصابهم ، ثم غم القتل ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قتل ، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم . وليس المراد غمين اثنين خاصة ، بل غماً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان .

الثالث :

أن قوله (بغم) من تمام الثواب ، لا أنه سبب جزاء الثواب . والمعنى أثابكم غماً متصلاً بغم ، جزاء على ما وقع منكم من الهرب ، وإسلامكم نبيه ﷺ وأصحابه ، وترك استجابتكم له وهو يدعوكم ، ومخالفتكم له فى لزوم مركزكم ، وتنازعكم فى الأمر وفشلكم . وكل واحد من هذه الأمور يوجب غمًّا يخصه ، فترادفت عليهم الغموم ، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها . ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمراً آخر . ومن لطفه بهم ، ورأفته ورحمته ، أن هذه الأمور التى صدرت منهم كانت من أمور الطباع ، وهى من بقايا النفوس التى تمنع من النصرة المستقرة ، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل ، فيترتب عليها آثارها المكروهة ، فعلموا حينئذ أن التوبة منها ، والاحتراز من أمثالها ، ودفعها بأضدادها ، أمرٌ متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به ، فكانوا أشد حذراً بعدها ، ومعرفة بالأبواب التى دخل عليهم منها . وربما صحت الأجسام بالعلل .

لطيفة :

لفظ الثواب لا يستعمل فى الأغلب إلا فى الخير ، ويجوز أيضاً استعماله فى الشر ، لأنه مأخوذ من قولهم : ثاب إليه عقله ، أى رجع إليه . قال تعالى : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ (1) . والمرأة تسمى (ثيباً) لأن الواطىء عائد إليها . وأصل الثواب كل ما يعود إلى

(1) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

الفاعل من جزاء فعله ، سواء كان خيراً أو شرًّا ، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير . فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام ، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم ، كما يقال : تحيته الضرب وعتابه السيف ، أى جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب على حد : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ[(١)] ـ قاله الرازىّ ـ .

تنبيه :

قال المفضل : (لا) زائدة ، والمعنى لتتأسفوا على مافاتكم وعلى ما أصابكم عقوبة لكم، كقوله : أَنْ لَا تَسْجُدَ[(٢)] ، و : لِئَلَّا يَعْلَمَ[(٣)] ، أى أن تسجد وليعلم .

وعندى أنه بعيد ، لاسيما مع تكرار (لا) فى المعطوف ، واستقامة المعنى الجيد على اعتبارها ، فالوجه ما سلف .

« وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » خيراً وشراً ، قادر على مجازاتكم ، وفيه أعظم زاجر عن

---

(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ ـ ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الإقدام على المعصية . ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته ، وخفف عنهم ذلك الغم ، وغيّبه عنهم بالنعاس الذى أنزله عليهم أمنا منه ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً » أى أمناً . والأَمَنة (بتحريك الميم) مصدر، يقال : أمن أمناً وأماناً وأمَناً وأمنة (محركتين) وفى حديث[1] نزول عيسى عليه السلام ، إ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٠٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال « الأنبياء إخوة لعلّات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم . لأنه لم يكن بينى وبينه نبىّ . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . رجلا مربوعا إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل. فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام . فيهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام. ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال . وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم . ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم . فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون .

وتقع الأمَنة فى الأرض ، أى الأمن . ومثله من المصادر العَظَمة والغَلَبة ، وهو منصوب على المفعولية . وقوله تعالى « نُعَاساً » بدل من « أمنة » وقيـل : هو المفعول ، و « أمنة » حال أو مفعول له «يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْـكُمْ» وهم المخلصون ، أهل اليقين والثبات والتوكل الصادق، الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله . والنعاس فى حال الحرب دليل على الأمان ، كما قال فى سورة الأنفال : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ . . .[١] الآية . وروى البخارىّ[٢] فى التفسير عن أنس عن أبى طلحة قال : غشينا النعـاس ونحن فى مصافّنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه . ورواه الترمذىّ والنسائىّ والحاكم . ولفظ الترمذىّ[٣] : قال أبو طلحة : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر ، ومامنهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس. فذلك قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْـكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً . وقد ساق الرازىّ لذلك النعاس فوائد : منها أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم فى النوم مع السلامة فى مثل تلك المعركة من أدلّ الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم. وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم، ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى ـ انتهى ـ ثم أخبر تعالى أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهمته نفسه، لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، بقوله « وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » أى ما بهم إلا هم أنفسهم

(١) [٨ / الأنفال / ١١] ونصها : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْـكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْـكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١١ ـ باب أَمَنَةً نُعَاساً .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٥ ـ حدثنا عبد بن حميد .

وقصد خلاصها ، فلم يَغْشَهُم النعاس ، من القلق والجزع والخوف « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ » أى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه « ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » كما قال تعالى فى الآية الأخرى : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا(١) ... الآية ـ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وقد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل . وفسر بأن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ، ولا حكمة له فيه . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى فى سورة الفتح ، حيث يقول : وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا(٢) . وإنما كان هذا ظن السوء ، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذاته المبرأة من كل سوء . بخلاف ما يليق بحكمته وحمده ، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه ، وكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيده ويؤيد جنده ، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ، ويظهرهم عليهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يديل

(١) [٤٨ / الفتح / ١٢] ونصها : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .

(٢) [٤٨ / الفتح / ٦] .

الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق ، إدالةً مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبداً ـ فقد ظن بالله السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته . فإن عزته وحكمة إلهيته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به ، العادلين به ـ فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكماله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ، ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فوتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ، ولا أنشأها عبثاً ، ولا خلقها باطلًا : ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(١). وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ، ظن السوء ، فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم . ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته . فمن قنط من رحمته ، وأيس من روحه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهى ، ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملًا كالأنعام ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه ، ولا اختيار له ، ولا قدرة ولا إرادة فى حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] .

أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التى يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شىء حتى تعذيب من أفنى عمره فى طاعته ، فيخلده فى الجحيم أسفل السافلين ، وينعم من استنفد عمره فى عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين فى الحسن سواء عنده ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقتضى بقبح أحدهما وحسن الآخر ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة ، لم يصرح به ، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم فى تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة ، والتأويلات التى هى بالألغاز والأحاجى ، أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم فى معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم ، لا على كتابه ، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته أن يصرح لهم بالحق الذى ينبغى التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل ، فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان ـ فقد ظن به ظن السوء . فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذى عبر به هو وسلفه ، فقد ظن بقدرته العجز . وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان ، وعن التصريح بالحق ، إلى ما يوهم ، بل يوقع فى الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد ـ فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء . وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وإن الهدى والحق فى كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره والتشبيه والتمثيل والضلال ، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى هو الهدى والحق ، وهذا من أسوأ الظن بالله . فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء . ومن الظانين به غير الحق ، ظن الجاهلية . ومن ظن به أن يكون فى

ملكه مايشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه ـ فقدظن بهظن السوء. ومن ظن به أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد ، عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه، بائناً من خلقه ، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين ، وإلى الأمكنة التى يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، ومن قال سبحان ربى الأسفل ، كمن قال سبحان ربى الأعلى ـ فقد ظن به أقبح الظن .

ثم قال: وبالجملة فمن ظن به خلاف ماوصف به نفسه ، ووصفه به رسله ، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوسلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ويخافونهم ، ويرجونهم ـ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ثم قال : ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة والرهبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه، أنه يخيبه ولا يعطيه ماسأله ـ فقد ظن بهظن السوء . وظن به خلاف ماهوأهله.

ثم قال : ومن ظن به أنه إن عصاه أو أسخطه وأوضع فى معاصيه ، ثم اتخذ من دونه وليًّا ، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً ، حيًّا أو ميتاً ، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه ـ فقد ظن به ظن السوء . وذلك زيادة فى بعده من الله ، وفى عذابه . ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد أعداءه تسليطاً مستقرًّا دائماً فى حياته وفى مماته ، وابتلاه بهم لايفارقونه ، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيته ، وظلموا أهل بيته ، وسلبوهم حقهم ، وأذلوهم ، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق ، وهو يرى قهرهم لهم ، وغصبهم إياهم حقهم ، وتبديلهم دين نبيهم ، وهو يقدر على نصر أوليائه ، وحزبه وجنده ، ولا ينصرهم ولا يديلهم ، بل يديل أعداءهم

عليهم أبداً ، أو أنه لايقدر على ذلك ، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته ، ثم جعل أعداءه الذين بدلوا دينه مضاجعيه فى حضرته، تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت (كما تظنه الرافضة)ـ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه ، سواء قالوا إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون فى قدرته أو فى حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به . ولا ريب أن الرب الذى فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك، غير محمود عندهم ، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك ، لكن رَفَوْا هـذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه ، واستجاروا من الرمضاء بالنار ، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله ، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه ، فإنه لا يقدر على أفعال عباده ، ولا يدخل تحت قدرته ، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنوية بربهم . وكل مبطل وكافر ومبتدع ومقهور مستذل ، فهو يظن بربه هـذا الظن ، وإنه أولى بالنصر والظفر والعلوّ من خصومه . فأكثر الخلق، بل كلهم ، إلا من شاء الله ، يظنون بالله غير الحق وظن السوء . فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ، ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ، ولسان حاله يقول : ظلمنى ربى ومنعنى ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ، ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه ، وتغلغل فى معرفة دفائنها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شرارُه عما فى زناده ، ولو فتشت من فتشته ، لرأيت عنده تعتباً على القدر ، وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ماجرى به ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح نفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت، من ظنه بربه ظن السوء . وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء ، ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين،

الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزّه عن كل سوء ، فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه . فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك . وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل. وأسماؤه كلها حسنى . والمقصود ماساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى: وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .

ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل بقوله : « يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَىْءٍ » أى هل لنا من أمر التدبير والرأى من شىء ، استفهام على سبيل الإنكار. أى مالنا أمر يطاع . ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا[1] . وذلك أن عبد الله بن أبىّ لما شاوره النبىّ ﷺ فى هذه الواقعة ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن الصحابة ألحوا على النبىّ ﷺ فى أن يخرج إليهم ، كما تقدم : ولمارجع عبد الله بن أبىّ بمن معه ، وأخبر بكثرة القتلى من بنى الخزرج ، قال : هل لنا من الأمر شىء ؟ يعنى أن محمداً ﷺ لم يقبل قولى حين أمرته بأن يبقى فى المدينة ولا يخرج منها « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ » أى التدبير كله لله ، فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مردّ له .

قال الإمام ابن القيّم قدس الله روحه: ليس مقصودهم بقولهم : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَىْءٍ . وقولهم : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا . إثباتَ القدر ، ورد الأمر كله إلى الله . ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لماذموا عليه ، ولما حسن الرد عليهم بقوله : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ . ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية . ولهذا قال غير واحد من المفسرين : إن ظنهم الباطل ههنا هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم ، ويسمعون منهم ، لما أصابهم القتل ، ويكون النصر والظفر

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] ونصها : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

لهم . فأكذبهم الله عز وجل فى هذا الظن الباطل ، الذى هو ظن الجاهلية ، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل ، الذين يزعمون ، بعد نفاذ القضاء والقدر الذى لم يكن بد من نفاذه ، أنهم كانوا قادرين على دفعه ، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء ، فأكذبهم الله بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره ، وجرى به علمه وكتابه السابق ، وما شاء الله كان ولابد ، شاء الناس أم أبوا . وما لم يشأ لم يكن ، شاء الناس أم لم يشاؤوه . وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل ، فبأمره الكونىّ الذى لاسبيل إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شىء أو لم يكن ، وأنكم لو كنتم فى بيوتكم ، وقد كتب القتل على بعضكم ، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولابد . سواء أن يكون لهم من الأمر شىء أو لم يكن . وهذا من أظهر الأشياء إبطالًا لقول القدرية النفاة ، الذين يجوّزون أن يقع ما لا يشاؤه الله ، وأن يشاء ما لا يقع ـ انتهى ـ « يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ » أى يضمرون فيها ، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية « مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ » لكونه لا يرضاه الله تعالى . ثم بين ذلك بعد إجماله فقال « يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ » أى المسموع « شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا » أى ما غلبنا ، أو ما قتل من قتل منا ، لأنا كنا نمكث فى المدينة ولا نخرج إلى العدوّ . ولما أخبر تعالى بما أخفوه جهلًا منهم ، ظنًّا أن الحذر يغنى من القدر ، أمره تعالى بالرد عليهم بقوله « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ » أى أجمع رأيكم على أن لا تبرحوا من منازلكم أنتم والمقتولون « لَبَرَزَ » أى خرج « الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » فى اللوح المحفوظ « إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ » أى التى قدر الله قتلهم فيها ، ولم يثبتوا فى ديارهم ، لأنه يوقع فى قلوبهم الخروج إمضاء لقدره وحكمه المحتوم الذى لا يقع خلافه ولا يردّ ، لقوله : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[(١)] . وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة ، حيث لم يقتصر على تحقيق

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

نفس القتل ، بل عين مكانه أيضا . وفى التعبير بـ (مضاجعهم) من إجلالهم وتكريمهم ما لا يخفى على صاحب الذوق السليم . « وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ » أى ليعاملكم معاملة الممتحن ، ليستخرج ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ، ليجعله حجة عليكم ، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً ، والمنافق ومن فى قلبه مرض لابد أن يظهر ما فى قلبه على جوارحه ولسانه ؛ وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية ، للإيذان بكثرتها . كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلى ... الخ ، أو لفعل مقدر بعدها ، أى : وللابتلاء المذكور فعل ما فعل ، لا لعدم العناية بأمر المؤمنين . وجَعْلُها عللاً لـ« برز » يأباه الذوق السليم . فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول ، لا بيان حكمة البروز المفروض ـ أفاده أبو السعود ـ ثم ذكر تعالى حكمة أخرى بقوله «وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى يخلصه وينقيه ويهذبه ، فإن القلوب يخالطها بغلبة الطبائع ، وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة ـ ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبرّ والتقوى . فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ، ولم تتمحص منه . فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن يقضى لها من المحن والبلاء ، ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء . إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده ، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك . فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم ، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم . فله عليهم النعمة التامة فى هذا وهذا ـ أفاده ابن القيّم .

وقال القاشانيّ : البلاء سوط من سياط الله ، يسوق به عباده إليهم بتصفيتهم عن صفات نفوسهم ، وإظهار ما فيهم من الكمالات ، وانقطاعهم من الخلق إلى الحق . ولهذا كان متوكّلًا بالأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . وقال رسول الله ﷺ بياناً لفضله : ما أوذى نبيّ مثل ما أوذيت . كأنه قال : ما صفى نبيّ مثل ما صفيت . ولقد أحسن من قال :

لله در النائبات فإنها صدأ اللئام وصيقل الأحرار

إذ لا يظهر على كل منهم إلا ما فى مكمن استعداده .

« وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى الضمائر الملازمة لها ، وعد ووعيد . ثم أخبر تعالى عن تولى من تولى من المؤمنين الصادقين فى ذلك اليوم ، وأنه بسبب كسبهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ » أى عن القتال ومقارعة الأبطال «يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » أى جمع المسلمين وجمع المشركين « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ » أى حملهم على الزلل بمكر منه . مع وعد الله بالنصر « بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » أى بشؤم بعض ما اكتسبوه بهم من الذنوب ، كترك المركز ، والميل إلى الغنيمة ، مع النهى عنه ، فمنعوا التأييد وقوة القلب . قال ابن القيّم: كانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جند للعبد ، وجند عليه. ولا بد للعبد فى كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتل بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه. فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر . والعبد لا يشعر، أو يشعر ويتعامى . ففرار الإنسان من عدوه ، وهو يطيقه ، إنما هو بجند من عمله ، بعثه له الشيطان واستزله به . ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ » أى بالاعتذار والندم لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ، ولا شك أنه كان عارضاً عفا الله عنه ، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها « إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » أى يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَامَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« يَاأَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المنافقون القائلون : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِشَيْءٌ مَاقُتِلْنَا هَٰهُنَا . « وَقَالُو لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ » أى سافروا فيهـا للتجارة فأصيبوا بغرق أو قتل « أَوْ كَانُوا » أى إخوانهم « غُزًّى » جمع غاز فأصيبوا باصطدام أو قتل « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا » أى مقيمين « مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » قال أبو السعود : ليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول ، بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه .

أقول: بل الآية تفيد الأمرين. أعنى حفظ الاعتقاد المقصود أولًا وبالذات، وحفظ المنطق مما يوقع فى إضلال الناس ، ويخل بالمقام الإلٰهى ، كما بينته السنة ، وسنذكره فى التنبيه الآتى .

وقوله « لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ » أى القول « حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ » متعلق بـ (قالوا) على أن اللام لام العاقبة ، مثلها فى(١) (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم . والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدةٍ ما ، على ذلك أصلًا « وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ » رد لقولهم الباطل، إثر بيان غائلته . أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل فى ذلك ، فإنه تعـالى قد يحيي المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف ، ويميت المقيم مع حيازته لأسباب السلامة . وعن خالد ابن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته : مافى موضع شبر إلا وفيه ضربة أوطعنة، وهاأناذا أموت كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء! « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » تهديد للمؤمنين فى مماثلة من ذكر .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٨] .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنه لا يجوز التشبه بالكفار . قال الحاكم : وقد يكون منه ما يكون كفراً . وفيها أيضاً دلالة على أنه لا يسقط وجوب الجهاد بخشية القتل .

تنبيه :

أشعرت الآية بوجوب حفظ المنطق مما يشاكل ألفاظ المشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية كما ذكرنا . وقد عقد الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فصلًا فى هديه ﷺ فى حفظ النطق واختيار الألفاظ قال :

كان ﷺ يتخير فى خطابه ، ويختار لأمته أحسن ألفاظ وأجملها وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش . إلى أن قال : ومن ذلك نهيه ﷺ [1] عن قول القائل بعد فوات الأمر : لو أنى فعلت كذا وكذا . وقال : إنها تفتح عمل الشيطان. وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ، وهو أن يقول : قدر الله ، وما شاء فعل . وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتنى ما فاتنى أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدى عليه فائدة البتة . فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ، وغير مستقيل عثرته بـ (لو). وفى ضمن (لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره فى نفسه ، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه ، فإنّ ماوقع ممايتمنى خلافه، إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته . فإذا قال: لو أنى فعلت كذا لكان خلاف ما وقع ، فهو محال ، إذ خلاف القدّر المقضىّ محال . فقد تضمن كلامه كذباً وجهلًا ومحالًا . وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أنى فعلت لدفعت

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوىّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كلّ خير. احرص على ماينفعك واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا . ولكن قل : قَدَرُ الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

ماقدر عليّ . فإن قيل : ليس فى هذا رد للقدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التى تمناها أيضاً من القدر ، فهو يقول : لو وفقت لهذا القدر لاندفع به عنى ذلك القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض، كما يدفع قدر المرض بالدواء ، وقدر الذنوب بالتوبة، وقدر العدو بالجهاد، فكلاهما من القدر. قيل: هذا حق، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه . وأما إذا وقع فلاسبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلته، بل وظيفته فى هذه الحالة أن يستقبل فعله الذى يدفع به أو يخفف، ولا يتمنى مالا مطمع فى وقوعه، فإنه عجز محض، والله يلوم على العجز، ويحب الكيس ويأمر به . والكيس هو مباشرة الأسباب التى ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد فى معاشه ومعاده ، فهذه تفتح عمل الخير والأمر ، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان . فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأمانىّ الباطلة بقوله : لو كان كذا وكذا ، ولو فعلت كذا ، يفتح عمل الشيطان ، فإن بابه العجز والكسل . ولهذا استعاذ النبىّ ﷺ منهما . وهو مفتاح كل شر ، ويصدر عنهما الهم والحزن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال . فمصدرها كلها عن العجز والكسل ، وعنوانها (لو) ، فلذلك قال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ، فالمتمنى من أعجز الناس وأفلسهم ، فإن المنى رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر ، وأصل المعاصى كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات ، وعن الأسباب التى تعرضه عن المعاصى، ويحول بينها وبينه ، فيقع فى المعاصى . فجمع فى هذا الحديث الشريف ، فى استعاذته ﷺ أصولَ الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره ، وهو مشتمل على ثمان خصال ، كل خصلتين منها قرينتان فقال : أعوذ بك من الهم والحزن ، وهما قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين : فإنه إما أن يكون سببه أمراً ماضياً ، فهو يحدث الحزن ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل ، فهو يحدث الهم ، وكلاهما من العجز . فإن مامضى لا يدفع بالحزن ، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر ، وقول العبد :

قدر الله وما شاء فعل . وما يستقبل لا يدفع أيضاً بالهم . بل إما أن يكون له حيلة فى دفعه فلا يعجز عنه ، وإما أن لا تكون له حيلة فى دفعه ، فلا يجزع منه ، ويلبس له لباسه ، ويأخذ له عدته ، ويتأهب له أهبته اللائقة ، ويستجن بجُنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدى الرب تعالى ، والاستسلام له ، والرضا به ربًّا فى كل شيء ، ولا يرضى به ربًّا فيما يحبّ دون ما يكره . فإذا كان هكذا لم يرض به ربًّا على الإطلاق ، فلا يرضاه الرب له عبداً على الإطلاق . فالهم والحزن لا ينفعان العبد ألبتة ، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما ، فإنهما يضعفان العزم ، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ، ويقطعان عليه طريق السير ، أو ينكسانه إلى وراء أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذى كلما رآه شمر إليه ، وجدّ فى سيره ، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر ، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته وإرادته التى تضره فى معاشه ومعاده ، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم ، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه ، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والأنس به ، والفرار إليه ، والانقطاع إليه ، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان ، والآلام القلبية ، عن كثير من معارصيها وشهواتها المردية . وهذه القلوب فى سجن من الجحيم فى هذه الدار . وإن أريد بها الخير ، كان حظها من سجن الجحيم فى معادها ، ولا تزال فى هذا السجن ، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله ، والأنس به ، وجعل محبته فى محل دبيب خواطر القلب ووساوسه ، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره ، هو المستولى على القلب الغالب عليه ، الذى متى فقده ، فقد قُوتَهُ ، الذى لا قوام له إلا به ، ولا بقاء له بدونه ، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التى هى أعظم أمراضه ، وأفسدها له ، إلا بذلك ، ولا بلاغ إلا بالله وحده ، فإنه لا يوصل إليه إلا هو ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو ، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له ،

فمنه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد . وإذا أقامه فى مقام ، أىّ مقام كان ، فبحمده أقامه فيه ، وحكمته أقامته فيه ، ولا يليق به غيره ، ولا يصلح له سواه ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا يمنع عبده حقًّا هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالمًا ، بل مَنَعَهُ ليتوسل إليه بمحابه ليعطيه ، وليتضرع إليه ويتذلل بين يديه ، ويتملقه ويعطى فقره إليه حقه . بحيث يشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه ، على تعاقب الأنفاس . وهذا هو الواقع فى نفس الأمر وإن لم يشهده . فلم يمنع عبده ما العبد محتاج إليه ، بخلًا منه ولا نقصان من خزائنه ولا استئثارًا عليه بما هو حق للعبد . بل مَنَعَهُ ليردّه إليه وليعزه بالتذلل له ، وليغنيه بالافتقار إليه ، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع ، حلاوةَ الخضوع ولذة الفقر . وليلبسه خلعة العبودية ، ويوليه بعزله أشرف الولايات ، وليشهده حكمته فى قدرته، ورحمته فى عزته، وبره ولطفه فى قهره . وأنّ منعه عطاء وعزله تولية وعقوبته تأديبٌ وامتحانه محبة وعطية وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه إليه . وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه . وحكمته وحمده أقاماه فى مقامه الذى لا يليق به سواه ولا يحسن أن يتخطاه ، انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن الموت فى سبيل الله ليس مما يوجب الحسرة حتى يحذر منه . بل هو مما يوجب الفرح والسرور، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ » أى فيه من غير قتال « لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ » أى لذنوبكم تنالكم « وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها الفانية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ)

« وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ » على أى وجه كان حسب القضاء السابق « لَإِلَى اللهِ » أى الذى هو متوفيكم لا غيره « تُحْشَرُونَ » فيجزيكم بأعمالكم .

لطائف :

الأولى : أطال نحاة المفسرين فى قوله تعالى « وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا » الخ . من الوجوه النحوية فى (إذا) هنا ، وإنه ربما يتبادر أن الموقع لـ (إذ) لا لها حيث إن متعلقها وهو (قالوا) ماض . و(إذا) ظرف لما يستقبل . فمن قائل بأن (إذا) لحكاية الحال الماضية، ومن قائل بأنها للاستمرار . وقيل : إن (كفروا) و (قالوا) مراد بهما المستقبل . وفى كلٍّ مناقشات وتعسفات. والحق أنها تكون للمضىّ أيضا . قال المجد الفيروزبادىّ : وتجىء (إذا) للماضى كقوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا . فلا إشكال.

ونقل الرازىّ عن قطرب : أن كلمة (إذ) و (إذا) يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى . قال الرازىّ : وهذا الذى قاله قطرب كلام حسن ، وذلك لأنا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول ، فَلَأَن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى . ثم قال: وكثيرا أرى النحويين يتحيرون فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريره ببيت مجهول فرحوا به . وأنا شديد التعجب منهم. فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلا على صحته كان أولى، انتهى.

الثانية : الجمهور على ضم الميم فى قوله تعالى : أَوْ مُتُّمْ . وهو الأصل لأن الفعل منه يموت. ويقرأ بالكسر وهو لغة طائية. يقال مات يمات مثل خاف يخاف فكما تقول خفت تقول مِت.

الثالثة : قدم القتل على الموت فى الأولى لأنه أكثر ثوابا وأعظم عند الله . فترتبُ المغفرة والرحمة عليه أقوى . وقدم الموت فى الثانية لأنه أكثر. وهما مستويان فى الحشر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ » أى للذين تولوا عنك حين عادوا إليك بعد الانهزام، وللمؤمنين عموماً كما قال تعالى : بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [١] . و (ما) مزيدة للتوكيد أو نكرة . و (رحمة) بدل منها مبيّن لإبهامها . والتنوين للتفخيم ، أى ما لنت هذا اللين الخارق للعادة ، مع ماسبّب فعلهم من الغضب الموجب للعنف والسطوة ، سيما مع اعتراض من اعترض على ما أشار به ، إلا بسبب رحمة عظيمة « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا » أى سيء الخلق خشن الكلام « غَلِيظَ الْقَلْبِ » أى قاسيه وشديده . تعاملهم بالعنف والجفا « لَا نْفَضُّوا » أى تفرقوا « مِنْ حَوْلِكَ » فلم يسكنوا إليك فلا تتم دعوتك. ولكن الله جعلك سهلا سمحا طلقاً ليناً لطيفاً بارًّا رءوفا رحيما . «فَاعْفُ عَنْهُمْ» أى فيما فرطوا فى حقك كما عفا الله عنهم «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ » إتماماً للشفقة عليهم « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » أى أمر الحرب وغيره توددًا إليهم وتطيباً لنفوسهم واستظهارا بآرائهم وتمهيدا لسنة المشاورة فى الأمة. وقد ساق العلامة الرازى وجوهاً أخرى فى فائدة أمره تعالى له عليه الصلاة والسلام بمشاورتهم . منها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان أكمل الناس عقلا، إلا أن علوم الخلق متناهية. فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله. لاسيما فيما يفعل من أمور الدنيا. فإنه ﷺ قال [٢]: أنتم أعرف

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] ونصها : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١٦ ـ كتاب الرهون ، ١٥ ـ باب تلقيح النخل ، حديث ٢٤٧٠ (طبعتنا) ونصه :

=

بأمور دنياكم. ومنها : أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل أنه ﷺ محتاج إليهم ، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم فى الأمر اجتهد كل واحد منهم فى استخراج الوجه الأصلح فى تلك الواقعة فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه فيها ، وتطابقُ الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله . وهذا هو السر عند الاجتماع فى الصلوات ، وهو السر فى أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد . انتهى .

وقد ثبت مشاورته ﷺ لأصحابه فى عدة أمور: منها أنه شاورهم فى يوم بدر[1] فى الذهاب

= عن طلحة بن عبيد الله قال : مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل . فرأى قوماً يلقحون النخل . فقال « ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى . قال « ما أظن ذلك يغنى شيئاً » فبلغهم فتركوه . فنزلوا عنها . فبلغ النبيّ ﷺ فقال « إنما هو الظن إن كان يغنى شيئاً فاصنعوه . فإنما أنا بشر. وإن الظن يخطىء ويصيب . ولكن ماقلت لكم : قال الله ـ فلن أكذب على الله » .

وحديث ٢٤٧١ (طبعتنا) ونصه :

عن عائشة أن النبيّ ﷺ سمع أصواتاً ، فقال « ما هذا الصوت ؟ » قالوا : النخل يؤبرونها . فقال « لو لم يفعلوا لصلح » فلم يؤبّروا عامئذ ، فصار شيصا. فذكروا للنبيّ ﷺ فقال « إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به . وإن كان من أمور دينكم ، فإلىّ » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبى سفيان . قال فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذى نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا . فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش ... الخ .

إلى العير . فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى [(١)] : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ . ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك ، وعن يمينك وشمالك مقاتلون . وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم فى أُحُد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو . فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ. فأبى ذلك عليه السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارىّ المشركين فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال .

وقال ﷺ فى قصة الإفك[(٢)] : أشيروا علىّ ، معشر المسلمين ، فى قوم أبنوا أهلى

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٤٣٤ (طبعة جوتنجن ، بألمانيا) وصفحة ٢٦٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

والبخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٤ ـ باب قول الله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ... الآية ونصه :

عن ابن مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً ، لأن أكون صاحبه أحبّ إلىّ مما عُدِل به . أتى النبىَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين. فقال: لا نقول كما قال قوم موسى. اذهب أنت وربك فقاتلا . ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك . فرأيت النبىّ ﷺ أشرق وجهه وسرّه . يعنى قوله .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ باب حديث الإفك .

وهو حديث جليل القدر . وفيه نزلت براءة سيدتنا أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها من السماء. وسنسرده بطوله فى تفسير سورة النور، إن شاء الله تعالى .

ورموهم . وايم الله ماعلمت على أهلي من سوء. وأبنوهم بمن ، والله ، ما علمت عليه إلا خيرا . واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها . فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها . أفاده الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .

قال الخفاجيّ : في الآية إرشاد إلى الاجتهاد وجوازه بحضرته ﷺ . وقال الرازيّ : دلت على أنه ﷺ كان مأمورا بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي. والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة ، فلهذا كان مأمورا بالمشاورة ، انتهى .

وقال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق وخصوصا لمن يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف . « فَإِذَا عَزَمْتَ » أي بعد المشاورة على أمر واطمأنت به نفسك « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » في الإعانة على إمضاء ماعزمت، لا على المشورة وأصحابها . قال الرازيّ: دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه، كما يقول بعض الجهال. وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ » كما نصركم يوم بدر « فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ » كما فعل يوم أُحُد « فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ » استفهام إنكاريّ مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة. وهذاتنبيه على أن الأمر كله لله، وترغيب في الطاعة ، وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد . وتحذير من المعصية، ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان . كذا في الكشاف . « وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أي وليخص

المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه ، لعلمهم أنه لا ناصر سواه ، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » قرئ بالبناء للمعلوم، أى ماصح وما تأتّى لنبىّ من الأنبياء أن يخون فى المغنم ، بعد مقام النبوة وعصمة الأنبياء عن جميع الرذائل ، وعن تأثير دواعى النفس والشيطان فيهم ؛ وبالبناء للمجهول ، أى ما صح أن ينسب إلى الغلول ويُخوَّن .

روى أبو داود والترمذىّ(١) عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ما كان لنبىّ أن يغل ، فى قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها ، فأنزل الله « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية . قال الترمذىّ : حسن غريب . ورواه ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً ، ولفظه : اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشىء فُقِدَ ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية ـ وهذا تنزيه لمقامه ﷺ الرفيع وتنبيه على عصمته . ثم أشار إلى وعيد الغلول بقوله « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى بعينه ، حاملاً له على ظهره، ليفتضح فى المحشر ، كما روى الشيخان(٢) عن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٧ ـ حدثنا قتيبة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .

لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ـ لفظ مسلم . وروى البخارىّ[(١)] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له (كركرة) فمات ، فقال رسول الله ﷺ : هو فى النار، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلّها ـ وعن زيد بن خالد الجهنىّ أن رجلًا من أصحاب النبىّ ﷺ توفى يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال : إن صاحبكم غلّ فى سبيل الله ، ففتشنا متاعه ، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوى درهمين ـ أخرجه أبو داود[(٢)] والنسائىّ ـ وروى عبد الله بن الإمام أحمد[(٣)] عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم فيقول : مالى فيه إلا مثل ما لأحدكم منه . إياكم والغلول، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك . وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد فى الحضر والسفر . فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. إنه لينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم. وأقيموا حدود الله فى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٩٠ ـ باب القليل من الغلول .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٣٣ ـ باب فى تعظيم الغلول ، حديث ٢٧١٠ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

القريب والبعيد ، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم . وروى ابن ماجة بعضه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من صحابة النبىّ ﷺ فقالوا : فلان شهيد . فلان شهيد . حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة . ثم قال رسول الله ﷺ : يا ابن الخطاب ! اذهب فناد فى الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون قال فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وكذا رواه مسلم(١) والترمذىّ . وروى أبو داود(٢) عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالاً فينادى فى النـاس فيجوزوا بغنائمهم فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة . فقال : أسمعت بلالاً ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم . قال : فما منعك أن تجىء ؟ فاعتذر . فقال : كن أنت تجىء به يوم القيامة . فلن أقبله منك .

تنبيه :

من المفسرين من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجازاً عن الإتيان بإثمه تعبيراً بما غلّ عما لزمه من الإثم مجازاً . قال أبو مسلم : المراد أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الغلول ويعزره عليه يوم القيامة ويجازيه لأنه لا يخفى عليه خافية . وقال أبو القاسم الكعبىّ : المراد أنه يشتهر بذلك، مثل اشتهار من يحمل ذلك الشىء . وناقشهما الرازىّ بأن هذا التأويل يحتمل، إلا أن الأصل المعتبر فى علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة ، إلا إذا قام دليل يمنعه منه ، وههنا لا مانع من الظاهر ، فوجب إثباته ـ انتهى . ومما يؤيده قوله ﷺ « له رغاء ، له حمحمة ... » الخ الظاهر فى الحقيقة زيادة فى النكال .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٨٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٣٤ ـ باب فى الغلول إذا كان يسيراً يتركه الإمام ولا يحرق رحله ، حديث ٢٧١٢ ، بهذا النص .

وأخرجه فى المسند أيضاً عن عبد الله بن عمرو ، حديث ٦٩٩٦ (طبعة المعارف) .

« ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » تعطى جزاء ما كسبت وافياً ، وإنما عمم الحكم ولم يقل: ثم يوفى ما كسب ، ليكون كالبرهان على المقصود، والمبالغة فيه ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله ، فالغالُّ ، مع عظم جرمه بذلك أولى « وَهُمْ » أى النـاس المدلول عليهم بكل نفس « لَا يُظْلَمُونَ » فلا ينقص ثواب مطيعهم ، ولا يزاد فى عقاب عاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ » بالطاعة « كَمَنْ بَاءَ » رجع « بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ » بسبب المعاصى كالغالّ ومن شاكله « وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ » أى طبقات متفاوتة ، تشبيه بليغ ، ووجهه ما بينهم من تباين الأحوال فى الثواب والعقاب ، كالدرجات فى تفاوتها علوًّا وسفلاً .

قال القاشانىّ : أى كل من أهل الرضا وأهل السخط ذوو درجات متفاوتات ، أو هم مختلفون اختلاف الدرجات .

« وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم ، فيجازيهم على حسبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« لَقَدْ مَنَّ اللهُ » أى أنعم « عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى من جنسهم ، عربيًّا مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته ، والانتفاع به . ولما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام خُصوا بالذكر ، وإلا فبعثته صلى الله عليه وسلم إحسان إلى العالمين ، كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(١) . « يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ » يعنى القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية ، لم يطرق أسماعهم شىء من الوحى « وَيُزَكِّيهِمْ » أى يطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أى القرآن « وَالْحِكْمَةَ » أى السنة « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وتزكيته « لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى ظاهر من عبادة الأوثان ، وأكل الخبائث ، وعدوان بعضهم على بعض ، وسواها ، فنقلوا ببعثته ﷺ من الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم فى العلم والزهد والعبادة ، فعظمت المنة لله تعالى عليهم بذلك . قال الرازىّ : وفى قوله تعالى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وجه آخر من المنة ، وذلك لأنه صار شرفاً للعرب ، وفخراً لهم ، كما قال سبحانه: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(٢) . وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه بين اليهود والنصارى والعرب ، ثم إن الأولين كانوا يفتخرون بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل. فما كان للعرب ما يقابل ذلك . فلما بعث الله محمداً ، وأنزل عليه القرآن ، صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف جميع الأمم اهـ .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٤٤] .

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذى أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم وبسبب أعمالهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا »الهمزة للتقريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أُحُد ، أو على محذوف مثل : أفعلتم كذا وقلتم . و« لما » ظرفه المضاف إلى أصابتكم ، أى حين أصابتكم مصيبة ، وهى قتل سبعين منكم يوم أُحُد ، والحال أنكم نلتم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين: من أين هذا أصابنا وقدوعدنا الله النصر « قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ » أى مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز ، فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة . قال ابن القيم : وذكر سبحانه هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك فى السورة المكية فقال : وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ(١) . وقال : وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ(٢) فالحسنة والسيئة ههنا النعمة والمصيبة ، فالنعمة من الله منَّ بها عليك ، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك ، فالأول فضله ، والثانى عدله ، والعبد يتقلب بين فضله وعدله ، جارٍ عليه فضله ، ماضٍ فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه . وختم الآية الأولى بقوله « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » بعد قوله : قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ . إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله ، وأنه عادل قادر ، وفى ذلك إثبات القدر والسبب. فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه ، فالأول

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] . . . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

ينفي الجبر ، والثاني ينفي القول بإبطال القدر ، فهو شاكل قوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [1] وفي ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة ، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته ، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم ، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ، ولا تتكلوا على سواه . وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أُحُد « فَبِإِذْنِ اللهِ » أي فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار ، فالإذن هنا هو الإذن الكونيّ القدريّ ، لا الشرعيّ الدينيّ ، كقوله في السحر : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ [2] . ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير بقوله : وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

---

(١) [٨١ / التكوير / ٢٨و٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٢] ونصها : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » أى ليعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحدالفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً « وَقِيلَ لَهُمْ » عطف على (نافقوا) داخل معه فى حيز الصلة. أو كلام مبتدأ « تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا » يعنى إن لم تقاتلوا لوجه الله تعالى فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأموالكم « قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ » أى لكنه ليس إلا إلقاء النفس فى التهلكة « هُمْ » أى بهذا القول « لِلْكُفْرِ » فى الظاهر « يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ » فى الظاهر مع أنه لا إيمان لهم فى الباطن أصلاً .

فائدتان :

الأولى ـ قال ابن كثير : استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون فى حال أقرب إلى الكفر ، وفى حال أقرب إلى الإيمان .

الثانية ـ قال الواحدىّ : هذه الآية دليل على أن من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر، ولم يطلق القول بتكفيره . لأنه تعالى لم يطلق القول بكفرهم ، مع أنهم كانوا كافرين ، لإظهارهم القول بلا إله إلا الله محمد رسول الله ـ انتهى .

« يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » أى يظهرون خلاف ما يضمرون ، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وقوله « بِأَفْوَاهِهِمْ » تأكيد على حدّ : وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ(٢) . « وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » .

---

(١) [٦/ الأنعام/٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ » أى من أجل أقاربهم من قتلى أحد « وَقَعَدُوا » أى والحال قد قعدوا عنهم خذلانا لهم « لَوْ أَطَاعُونَا » أى فى الرجوع « مَا قُتِلُوا » كما لم نقتل « قُلْ » كأنكم تزعمون ادعاء القدرة على دفع الموت « فَادْرَءُوا » أى ادفعوا « عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » أى فإنها أقرب إليكم من أنفسهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أن الموت يغنى منه حذر ، والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم، لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود ، مع كتابته عليكم ، فإن ذلك مما لا سبيل إليه .

قال ابن القيّم : وكان من الحكمة تقديره تعالى فى هذه الواقعة تكلم المنافقين بما فى نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد الله عليهم، وجوابه لهم ، وعرفوا موادّ النفاق ، وما يؤول إليه ، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة . فلله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة ، ونعمة على المؤمنين سابغة ، وكم فيها من تحذير وتخويف ، وإرشاد وتنبيه ، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا » كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذّرون الناس منه ، ليس مما يحذر ، بل هو من أجلّ المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون ، إثر بيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى ، أى لا تحسبنهم أمواتا تعطلت أرواحهم « بَلْ » هم « أَحْيَاءٌ » فوق أحياء الدنيا لأنهم مقربون « عِنْدَ رَبِّهِمْ »

إذ بذلوا له أرواحهم ، لا بمعنى بقاء أرواحهم ورجوعها إليه ، لمشاركة أرواح غيرهم فى ذلك، بل بمعنى أنهم « يُرْزَقُونَ » رزق الأحياء ، لا رزقاً معنويًّا ، بل حقيقيا . كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال[١] : لما أصيب إخوانكم بأُحُد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش . فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن منقلبهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب . فقال الله عزّ وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الخ. هكذا رواه الإمام أحمد ؛ ورواه أبو داود والحاكم فى مستدركه . وأخرج مسلم[٢] عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ... » الخ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب ! نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

وروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشهداء على بارق ـ نهر بباب الجنة ـ فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية ـ تفرد به أحمد ـ ورواه ابن جريج بإسناد جيد .

قال ابن كثير : وكأنّ الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم فى الجنة ، ومنهم

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

من يكون على هذا النهر بباب الجنة . وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هـذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح ـ والله أعلم ـ ثم قال : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد(١) حديثاً فيه البشارة لـكل مؤمن بأن روحه تـكون فى الجنة تسرح أيضاً فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعدّ الله لها من الـكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمـد بن إدريس الشافعىّ رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحىّ رحمه الله عن الزهرىّ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنمـا نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه . قوله : يعلق أى يأكل . وفى هذا الحديث أن روح المؤمن تـكون على شـكل طائر فى الجنة ، وأما أرواح الشهداء ، فـكما تقدم ، فى حواصل طير خضر ، فهى كالـكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الـكريم المنان ، أن يميتنا على الإيمان ـ انتهى ـ .

تنبيه :

قال الواحدىّ : الأصح فى حياة الشهداء ، ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، من أن أرواحهم فى أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون .

وقال البيضاوىّ : الآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس ، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه ، ويؤيد ذلك قوله سبحانه وتعـالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ . الآية(٢) ـ . وحديث : أرواح الشهداء فى أجواف طير .. الخ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

قال الشهاب : يعنى ليس الإنسان مجرد البدن بدون النفس المجردة ، بل هو فى الحقيقة النفس المجردة ، وإطلاقه على البدن لشدة التعلق بها ، وهى جوهر مدرك لذاته ، أى من غير احتياج إلى هذا البدن ، لوصفه بعد مفارقته بالتنعم ونحوه ـ انتهى .

وقال أبو السعود : فى الآية دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه . ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول: المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيورًا خضرا أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر ـ انتهى .

وقد أسلفنا فى سورة البقرة ، فى مثل هذه الآية، زيادة على ذلك. فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

«فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» يعنى بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان الذين لا يغتم فيه بسلبه « وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ » أى بإخوانهم المجاهدين الذين « لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ » لم يقتلوا فيلحقوا بهم « مِنْ خَلْفِهِمْ » متعلق بـ« يَلْحَقُوا » والمعنى : أنهم بقوا من بعدهم وهم قد تقدموهم . أو لم يلحقوا بهم : لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم « أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » بدل من (الذين) ، بدل اشتمال مبين أن استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم ، والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين. وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة ، بشّرهم الله بذلك ، فهم مستبشرون به. وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد فى الجهاد ، والرغبة فى نيل منازل الشهداء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » أى يسرون بما أنعم الله عليهم ، وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة ، وتوفير أجرهم عليهم .

قال أبو السعود : كرّر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن ، بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة ، لا يقادر قدرها ، وهى ثواب أعمالهم . ثم قال : والمراد بالمؤمنين : إما الشهداء ، والتعبير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان ، وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة . وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ، ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم ، وعدّت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين ـ انتهى ـ .

وقال ابن القيّم : إن الله تعالى عزّى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : وَلَا تَحْسَبَنَّ ... الآيات ـ فجمع لهم إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته ، وذكرهم سبحانه فى أثناء هذه المحنة بما هو أعظم مننه ، ونعمه عليهم ، التى قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية تلاشت فى جنب هذه المنة والنعمة ، ولم يبق لها أثر البتة ، وهى منّته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وينقذهم من الضلال ، الذى كانوا فيه قبل إرساله ، إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى الفلاح ، ومن الظلمة إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم . فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له ، أمر يسير جداً فى جنب الخير الكثير . كما ينال الناس بأذى المطر ، فى جنب ما يحصل لهم به من الخير . وأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ، ليحذروا ، وأنها بقضائه

وقدره ليوحدوه ويتوكلوا عليه ، ولا يخافوا غيره . وأخبرهم بماله فيها من الحكم ، لئلا يتهموا فى قضائه وقدره ، وليتعرف إليهم بأنواع صفاته وأسمائه . وسلّاهم بما أعطاهم مماهو أجل قدراً وأعظم خطراً ممـا فاتهم من النصر والغنيمة ، وعزّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته ، لينافسوا فيه ، ولا يحزنوا عليهم ، فله الحمد كما هو أهله ، وكما ينبغى لكرم وجهه ، وعز جلاله .

ثم قال ابن القيّم : ولـما انقضت الحرب ، انكفأ المشركون ، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذرارىّ والأموال ، فشق ذلك عليهم ، فقال النبىّ ﷺ لعلىّ بن أبى طالب : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن هم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده! لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزهم فيهـا . قال علىّ : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجهوا مكة . ولـما عزموا على الرجوع إلى مكة ، أشرف على المسلمين أبو سفيان ، ثم ناداهم : موعدكم الموسم ببدر . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : قولوا نعم قد فعلنا . قال أبو سفيان : فذلكم الموعد . ثم انصرف هو وأصحابه . فلما كان فى بعض الطريق ، تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً ! أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى فى الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم ، وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبىّ : أركب معك ، قال : لا . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف ، وقالوا : سمعاً وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله وقال : يا رسول الله ! إنى أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته فأْذن لى أسير معك ، فأذن له ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، وأقبل

معبد بن أبي معبد الخزاعيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم. فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله ، فلحقه بالروحاء ـ ولم يعلم بإسلامه ـ فقال : ما وراءك يامعبد ؟ فقال : محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا في جمع لم يخرجوا مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم . فقال : ما تقول ؟ فقال : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة ، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم ، قال : فلا تفعل ، فإني لك ناصح . فرجعوا على أعقابهم إلى مكة ـ انتهى ـ وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » أي دعوة الله ورسوله إلى الخروج في طلب أبي سفيان إرهاباً له « مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » بأُحُد « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ » بطاعته « وَاتَّقَوْا » مخالفته « أَجْرٌ عَظِيمٌ » روى البخاريّ[١] عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت لعروة : ياابن أختي ! كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما. لما أصاب نبيّ الله ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : من يذهب في أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلًا فيهم أبو بكر والزبير ، قال ابن هشام[٢] : ولما ثنى معبد أبا سفيان ومن معه، كما تقدم ، مرَّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٢٥ ـ باب الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ .

(٢) السيرة الصفحة ١٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) وصفحة ٥٩٠ (طبعة جوتنجن) .

قالوا : نريد المدينة ؛ قال : ولمَ ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمرّ الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله تعالى فى ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

«الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» أى الركب المستقبل لهم «إِنَّ النَّاسَ» أى أبا سفيان وأصحابه « قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » أى الجموع ليستأصلوكم « فَاخْشَوْهُمْ » ولا تأتوهم « فَزَادَهُمْ » أى ذلك القول « إِيمَانًا » أى تصديقاً بالله ويقيناً . والمعنى : أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا ، بل ثبت به عزمهم على طاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمر به وينهى عنه . وفى الآية دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصاناً ، فإن ازدياد اليقين بتناصر الحجج ، وكثرة التأمل، مما لا ريب فيه « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ » أى كافينا أمرهم من غير عدة لنا ولا عدد « وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » أى الموكول إليه والمفوض إليه الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

« فَانْقَلَبُوا » أى رجعوا من حمراء الأسد « بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » يعنى : العافية وكمال الشجاعة وزيادة الإيمان والتصلب فى الدين « لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أى لم يصبهم قتل

ولا جراح « وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ » أى فى طاعة رسوله بخروجهم وجراءتهم « وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » حيث تفضل عليهم بالعافية وما ذكر معها ، وبالحفظ عن كل ما يسوؤهم. وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به .

فائدة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » استحباب هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة .

تنبيه :

حمل الآية على غزوة حمراء الأسد ، هو ماقاله الحسن وقتادة وعكرمة وغير واحد . وروى أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى . قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : فى قوله تعالى « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ . . . » الآية ـ أن أباسفيان قال، لما انصرف من أُحُد : موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا ! فقال النبىّ ﷺ : عسى ! فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً ، فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ، فذلك قوله تعالى « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ . . . » الآية ـ قال : وهى غزوة بدر الصغرى ـ رواه ابن جرير ـ وأخرج أيضاً عن ابن جريج قال: لما عمد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان ، فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم (يكيدونهم بذلك، يريدون أن يرعبوهم) فيقول المؤمنون « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » حتى قدموا بدراً ، فوجدوا أسواقها عافية ، لم ينازعهم فيها أحد .

وروى البيهقىّ عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ » قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرًا مرت فى أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالًا ، فقسمه بين أصحابه .

قال ابن القيّم فى (الهدى) : إن أباسفيان قال عند انصرافه من أُحُد : موعدكم وإيانا العام القابل ببدر ، فلما كان شعبان ، وقيل ذو القعدة من العام القابل ، خرج رسول الله

صلى الله عليه وسلم لموعده فى ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه علىّ ابن أبى طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، فانتهى إلى بدر ، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين ، وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة ، وهم ألفان ، ومعهم خمسون فرساً ، فلما انتهوا إلى مَرّ الظهران ، مرحلة من مكة ، قال لهم أبو سفيان : إن العام عام جدب ، وقد رأيت أن أرجع بكم . فانصرفوا راجعين ، وأخلفوا الموعد ، فسميت هذه بدر الموعد ، وتسمى بدر الثانية ـ انتهى ـ .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية نزلت فى شأن غزوة حمراء الأسد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ » أى قول الشيطان « يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ » أى يخوفكم بقوله أولياءه الكفار ، وحينئذ فأولياءه ثانى مفعولى يخوف ، والأول محذوف ، أى يخوفكم أولياءه ، كما قرئ كذلك ، وقيل : لا حذف فيه ، والمعنى يخوف من يتبعه ، فأما من توكل على الله فلا يخافه « فَلَا تَخَافُوهُمْ » أى أولياءه «وَخَافُونِ» فى مخالفة أمرى ورسولى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » أى لا تهتم ولا تبال بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومضرة أهله . وقرئ فى السبع « يُحْزِنك » بضم الياء وكسر الزاى

« إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً » قال عطاء : يريد أولياء الله . نقله الرازيّ . قال أبو السعود: تعليل للنهى ، وتكميل للتسلية بتحقيق نفى ضررهم أبداً ، أى لن يضروا بذلك أولياء الله البتة . وتعليق نفى الضرر به تعالى لتشريفهم والإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه ، وفيه مزيد مبالغة فى التسلية .

وقال المهايميّ : أى لن يضروا أولياء الله ، لأنهم يحميهم الله ، فلو أضروهم لأضروا الله بتعجيزهم إياه عن حمايتهم ، ولا يمكنهم أن يعجزوه شيئاً بل « يُرِيدُ اللهُ » أن يضرهم الضرر الكليّ وهو « أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ » أى نصيباً من الثواب فى الآخرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » قال بعض المفسرين : ثمرة هذه الآية أنه لا يجب الاغتمام من معصية العاصين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا » أى استبدلوا « الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً » فيه تعريض ظاهر باقتصار الضرر عليهم ، كأنه قيل : وإنما يضرون أنفسهم . فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثاره عليه ، إما بأخذه بدلًا من الإيمان الحاصل بالفعل ، كما هو حال المرتدين ، أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله فى التوراة ، كما هو شأن اليهود ومنافقيهم . فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ، ببيان علته ، بتغيير عنوان الموضوع ، فإن ما ذكر فى حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح فى لحوق ضرره بأنفسهم ، وعدم تعديه إلى غيرهم أصلا ، كيف وهو علم فى الخسران الكليّ ، والحرمان الأبديّ ، دال على كمال سخافة عقولهم ، وركاكة آرائهم ، فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ، ورزانة الرأى ، ورصانة

التدبير ، من مضارة حزب الله تعالى ، وهى أعز من الأبلق الفرد ، وأمنع من عقاب الجو . وإن أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له ، الحاصل بمشاهدة الوحى الناطق ، وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس ، كما هو دأب جميع الكفرة ، فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقريرا للقواعد الكلية ، لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام ـ أفاده أبو السعود ـ ثم قال : وقوله تعالى « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم ، بذكر غاية إيلامه ، بعد ذكر نهاية عظمه ، قيل : لما جرت العادة باغتباط المشترى بما اشتراه ، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة ، وبتألمه عند كونها خاسرة ، وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك ـ انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » أى بتطويل أعمارهم وإمهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا « خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ » بل هو سبب مزيد عذابهم ، لأنه « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » بكثرة المعاصى فيزدادوا عذاباً « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ مُهِينٌ » ذو إهانة فى أسفل دركات النار .

لطائف

الأولى :

فى (ما) ـ من قوله تعالى « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » الأولى ـ وجهان : أن تكون مصدرية أوموصولة ، حذف عائدها . أى إملاؤنا لهم أو الذى نمليه لهم .

الثانية :

كان حق (ما) فى قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ، ولكنها وقعت فى الإمام متصلة ، فلا يخالف ، وتتبع سنة الإمام فى خط المصاحف .

الثالثة :

(ما) الثانية فى « إِنَّمَا نُمْلِى » الخ متصلة لأنها كافّة .

الرابعة :

فى قوله تعالى « مُهِينٌ » سر لطيف ، وهو أنه لما تضمن الإملاء التمتيع بطيبات الدنيا وزينتها ، وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر ، وصف عذابهم بالإهانة ، ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقاً .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد ، وهو أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب . فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت ، دخل معهم فى الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطناً ، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبّب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ، فأطلع المنافقون رؤوسهم فى هذه الغزوة ، وتكلموا بما كانوا يكتمونه ، وظهر مخبآتهم ، وعاد تلويحهم صريحاً ، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا ، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا فى نفس دورهم ، وهم معهم لا يفارقونهم ، فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ » أى يترك « الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » من الالتباس

بالمنافقين ، بل لا يزال يبتليكم «حَتَّىٰ يَمِيزَ »المنافق« الْخَبِيثَ مِنَ » المؤمن «الطَّيِّبِ وَ » لا يميز إلا بهذا الابتلاء لأنه « مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » أى الذى يميز به ما فى قلوب الخلق من الإيمان والكفر « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ » باطلاعه على الغيب ، كما أوحى إلى النبىّ ﷺ بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال ، حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، فيفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من سوء جوارهم .

قال ابن القيّم : هذا استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب ، كما قال[1] « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ » فحظكم أنتم وسعادتكم فى الإيمان بالغيب الذى يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة، كما قال تعالى « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » الذين اجتباهم للاقتداء بهم فى الاعتقادات والأعمال « وَإِنْ تُؤْمِنُوا » فتصححوا الاعتقادات « وَتَتَّقُوا » فتصلحوا الأعمال « فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ » وههنا :

لطائف

الأولى :

فى التعبير عن المؤمن والمنافق بالطيب والخبيث تسجيل على كل منهما ، بما يليق به ، وإشعار بعلة الحكم .

الثانية :

إفراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكثره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع ، للإيذان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادها ، كما فى مثل قوله تعالى « ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ

(١) [٧٢ / الجن / ٢٦و٢٧] . . . فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا.

أَلَّا تَعُولُوا »(١) ونظيره قوله تعالى « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »(٢) حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لـكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم .

الثالثة :

تعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق ، مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وإفرازهم عن المنافقين، لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف فى المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى ، مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان ، وإن ظهر مزيد إخلاصهم ، لا بالتصرف فيهم ، وتغييرهم من حال إلى حال أخرى ، مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ، ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه فى قوله تعالى « وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ »(٣) .

الرابعة :

إنما لم ينسب عدم الترك إليهم ، لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب إليه ، فإن المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة ، كما يشهد به الذوق السليم .

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢] ونصها : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الخامسة :

التعرض للاجتباء فى قوله « يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ ... » الخ للإيذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية ، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل ، تقاصرت عنه همم الأمم ، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم ، وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب أمر متين ، له أصل أصيل ، جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل عليهم السلام .

السادسة :

تعميم الأمر فى قوله تعالى « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، لإيجاب الإيمان به بالطريق البرهانىّ ، والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل ، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام ، فيدخل فيه تصديقه فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولًا أوليًّا .

هذا ما اقتبسناه من تفسير العلامة أبى السعود رحمه الله . وقد استقرب حمل هذه الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة فى إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريته لهم . فالمعنى : ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبداً كما تركهم كذلك إلى الآن ، لسر يقتضيه ، بل يفرز عنهم المنافقين ، ولذلك فعله يومئذ ، حيث خلى الكفرة وشأنهم ، فأبرز لهم صورة الغلبة ، فأظهر من فى قلوبهم مرض ، ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رؤوس الأشهاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ » اعلم أنه تعالى لما بالغ فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى الآيات المتقدمة ، شرع ههنا فى التحريض على بذل المال فى سبيل الله ، وبيّن الوعيد الشديد لمن يبخل ببذله فيه ، وإيراد ما بخلوا به بعنوان (إيتاء الله تعالى إياه من فضله) للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم ، فإن ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ[1] . « بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ » لاستجلاب العقاب عليهم ، والتنصيص على شريته لهم ، مع انفهامها من نفى خيريته ، للمبالغة فى ذلك . والتنوين للتفخيم « سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » بيان لكيفية شرية مآل ما بخلوا به . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوعيد على طريق التمثيل ، أى سيلزمون وبال ما بخلوا به لزوم الطوق . وذهب آخرون إلى أنه على ظاهره ، وأنه نوع من العذاب الأخروىّ المحسوس . وأيدوه بما روى البخارىّ[2] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ، مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى شدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا هذه الآية « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ... » إلى آخرها .

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] ونصها : ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٣ ـ باب إثم مانع الزكاة ، حديث ٧٤٦ .

وروى الإمام أحمد[١] والنسائيّ عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال : إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يمثّل الله عز وجل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، ثم يلزمه يطوّقه يقول : أنا كنزك، أنا كنزك .

وروى الإمام أحمد[٢] والترمذىّ والنسائىّ وابن ماجه عن عبدالله بن مسعود عن النبىّ ﷺ قال : لا يمنع عبد زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه ، يفرّ منه وهو يتبعه ، فيقول : أنا كنزك . ثم قرأ عبد الله مصداقه فى كتاب الله : سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قال الترمذىّ : حسن صحيح .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان عن النبىّ ﷺ قال: من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، يتبعه . فيقول: من أنت ويلك؟ فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ، ثم يتبع سائر جسده . قال الحافظ ابن كثير : إسناده جيد قوىّ ، ولم يخرجوه ، وقد رواه الطبرانىّ عن جرير بن عبدالله البجلىّ . ورواه ابن جرير[٣] والحافظ ابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : لا يأتى رجل مولاه فيسأله من فضل مال عنده ، فيمنعه إياه ، إلا دُعِىَ له يوم القيامة شجاعٌ يتلمظ فضله الذى منع .

وروى ابن جرير[٤] مرفوعاً : ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا أخرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه . ورواه أيضاً موقوفاً ومرسلًا .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٩٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٧٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .
(٣) تفسير الطبرىّ ، الأثر ٨٢٨٤ .
(٤) تفسير الطبرىّ ، الأثر ٨٢٨٢.

والشجاع (كغراب وكتاب): الحية مطلقاً ، أو الذكر منها ، أو ضرب منها دقيق، وهو أجرؤها ـ كذا فى القاموس وشرحه ـ .

ثم أشار تعالى إلى أنهم ، وإن لم ينفقوا أموالهم فى سبيله ، فهى راجعة إليه بقوله « وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره ، فما لهم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله . ونظيره قوله تعالى: وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ(١) فالميراث على هذا على حقيقته ، أو المعنى : أنه يفنى أهل السموات والأرض ويصير أملاك أهلهما بعد فنائهم إلى خالص ملكه ، كما يصير مال المورث ملك الوارث ، فجرى ما هنا مجرى الوراثة ، إذ كان الخلق يدعون الأملاك ظاهراً ، وإلّا فالكل له ، وعلى هذا فهو مجاز .

قال الزجاج رحمه الله : أى أن الله تعالى يفنى أهلهما ، فيفنيان بما فيهما ، فليس لأحد فيهما ملك ، فخوطبوا بما يعلمون ، لأنهم يجعلون، ما يرجع إلى الإنسان ميراثاً، ملكاً له « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فيجازيكم على المنع والبخل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨١] (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

« لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » روى الحافظان ابن مردويه وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً(٢) . قالت اليهود : يا محمد ! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

وروى محمد بن إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال[١] : دخل أبو بكر الصديق بيت المِدْراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص) وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له (أشيع) فقال له أبوبكر : ويحك يافنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر رضى الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ! لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ! أبصر ما صنع بى صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولًا عظيماً . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه . فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلتُ ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لَقَدْ سَمِعَ اللهُ . . . »[٢] الآية ـ ولما كان مثل هذا القول ، سواء كان عن اعتقاد ، أو استهزاء بالقرآن والرسول ـ وهو الظاهر ـ لا يصدر إلا عن تمرد

= و [٥٧ / الحديد / ١١] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٠٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

عظيم لكونه فى غاية العظم والهول ، أشار إلى وعيده الشديد بقوله « سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا » أى ما قالوه من هذه العظيمة الشنعاء فى صحائف الحفظة « وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ » إنما نظم مع ما قبله إيذاناً بسوابقهم القبيحة ، وأنه ليس أول جريمة ارتكبوها ، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه هذا الكلام « وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، بسبب هتكهم حرمة الله ، وحرمة كلامه وأنبيائه المبلغين له .

لطائف

الأولى :

إيراد صيغة الجمع فى الآية مع كون القائل واحداً ، كما روى ، لرضا الباقين بذلك ، ونظائره فى التنزيل كثيرة .

الثانية :

إضافة عذاب الحريق بيانية . أى العذاب الذى هو الحريق .

الثالثة :

الذوق إدراك الطعوم ، ثم اتسع فيه لإدراك سائر المحسوسات والحالات ، وذكره ههنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشىء عن البخل ، والتهالك على المال ، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال ـ أفاده البيضاوىّ ـ .

الرابعة :

تقديم الأيدى عملها ، لأن من يعمل شيئاً يقدمه ، والتعبير بالأيدى عن الأنفس من حيث

أن عامة أفاعيلها إنما تزاول بهن ، فهو من قبيل التعبير عن الكل بالجزء الذى مدار جل العمل عليه .

الخامسة :

إن قيل « ظلّام » صيغة مبالغة من الظلم، تفيد الكثير ، ولا يلزم من نفى الظلم الكثير نفى الظلم القليل ، فلو قيل : بظالم ، لكان أدل على نفى الظلم قليله وكثيره . فالجواب عنه من أوجه :

أحدها ـ أن الصيغة للنسب من قبيل (بزّاز) و (عطّار) لا للمبالغة ، والمعنى لاينسب إلى الظلم .

الثانى ـ أن (فعّالا) قد جاء . لا يراد به الكثرة ، كقول طَرَفَة(١) :

ولستُ بحلّال التِّلاعِ مخافةً ولكن متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ

لا يريد ههنا أنه قد يحلّ التلاع قليلًا ، لأن ذلك يدفعه قوله : متى يسترفد القوم أرفد . وهذا يدل على نفى البخل فى كل حال ، ولأن تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة .

والثالث ـ أن المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده ، وظلّام لعبيده ، فالصيغة للمبالغة كمًّا لا كيفاً .

---

(١) من معلقة طرفة بن العبد التى مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

قال التبريزىّ : التلاع مجارى الماء من رؤوس الجبال إلى الأودية . والمعنى : إنى لست ممن يستتر فى القلاع . أى لا أنزلها مخافة فتوارينى من الناس حتى لا يرانى ابن السبيل والضيف . ولكن أنزل الفضاء وأرفد من يسترفدنى وأعين من استعاننى . والرفد العطية . والرفد المعونة .

و (مخافة) ينتصب على أنه مفعول له ، أو على المصدر .

الرابع ـ أنه إذا نفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل ضرورة . لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم ، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر ، كان للظلم القليل المنفعة أترك .

الخامس :

إن المبالغة لتأكيد معنى بديع ، وذلك لأن جملة : وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ـ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها ، أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم . والتعبير عن ذلك بنفى الظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم ، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها . وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا » نصب بتقدير (أعنى) أو رفع على الذم بتقدير (هُمُ الذين قالوا) : « إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا » أى أمرنا « أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ » أى تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لكذبهم « قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ » أى المعجزات الواضحة « وَبِالَّذِي قُلْتُمْ » بعينه من تشريع القربان الذى تأكله النار « فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ » أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » أى بعد بطلان عذرهم المذكور « فَقَدْ كُذِّبَ » أى فلا تحزن وتسلَّ فقد كذب « رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ » جمع زبور أى الكتب الموحاة منه تعالى « وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » أى الواضح الجلىّ . والزبور والكتاب : واحد فى الأصل ، وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين . فالزبور فيه حكم زاجرة ، والكتاب المنير هو المشتمل على جميع الشريعة .

فائدة

فى قربان أهل الكتاب وتشريعه عندهم

اعلم أن القربان (بضم القاف) معناه ، لغةً ، ما يتقرب به إلى الله تعالى وسيلةً لمرضاته .
قال فى مرشد الطالبين : كانت ذبائح العبرانيين عديدة جداً ، وكان المستعمل لهذه الذبيحة، بتعيين الله ، الثيران والنعاج والمعز والحمام واليمام . وكانت الذبائح نوعين عامين : إحداهما كانت تقرب لتكفير الخطايا ، والأخرى شكراً لله على مراحمه وبركاته .

ثم قال : فالذبيحة اليومية كانت مشهورة جداً ، وهى خروف بلا عيب ، يقدم وقوداً لله كفارة للخطايا ، وذلك مرتان صباحاً ومساءً ، طول مدة السنة ، فالتى فى الصباح تقدم عن خطايا الشعب ليلًا ، والتى فى المساء عن خطاياهم نهاراً . وقبل فعل الذبيحة تعترف كل الشعوب بخطاياها فوق الحيوان المراد ذبحه على يد الكاهن الخادم ، وبهذا كان ينقل الإثم إليه بواسطة وضع وكلاء الشعب أيديهم على رأسه ، ثم يذبح ويقرب وقوداً . وفى غضون ذلك تسجد الجماعة فى الدار ، وتبخر الكهنة على المذابح الذهبية ، ويقدمون الطلبات لله عن الشعب . وأما فى يوم السبت ، فكانت تتضاعف الذبيحة ، ويقرب فى كل دفعه خروفان .

ثم قال : يوم الكفارة كان ممتازاً بالذبيحة السنوية ، وهى أنه بعد أن يقرب الكاهن ثوراً كفارة لخطايا عائلته يقرب ما عزان كفارة لخطايا الشعب ـ انتهى ـ .

وقد أشير لكيفية ذبح القربان وحرقه فى مواضع من التوراة. منها سفر الخروج فى الفصل التاسع والعشرين ، ومنها فى الفصل الأول من سفر الأحبار المسمين باللاويين ونصه : ودعا الرب موسى وخاطبه من خباء المحضر قائلًا : خاطب بنى إسرائيل وقل لهم : أى إنسان منكم قرب قرباناً للرب من البهائم فمن البقر والغنم يقربون قرابينهم إن كان قربانه محرقة من البقر ، فذكرا صحيحاً يقربه عند باب خباء المحضر يقربه للرضوان عنه ، ويضع يده على رأس المحرقة ، ويترضى به ليغفر له ، ثم يذبح الثور ويقرب الكهنة بنو هرون الدم وينضحون الدم على المذبح ، وما أحاط به فى باب قبة الشهادة ـ يعنى التابوت الذى كان فيه لوحا التوراة المسماة شهادة ـ ثم يسلخون المحرقة ، ويقطعونها قطعاً ، ثم يوقدون ناراً على المذبح ، وينضدون الحطب على النار ، ثم يجعلون الأعضاء المقطعة الرأس والشحم على الحطب الذى على النار على المذبح ، ويغسلون أكارعه وجوفه بالماء ، ثم يصعده الكاهن ويجعله على المذبح وقوداً وقرباناً لرضا الرب ...الخ .

وفى الفصل السادس من سفر الأحبار : وكلم الرب موسى قائلًا : مُرْ هرون وبنيه ، وقل لهم : هذه شريعة المحرقة ، تكون المحرقة على وقيدة المذبح طول الليل إلى الغداة ، ونار المذبح متقدة عليه ، ويلبس الكاهن قميصه من الكتان ، وسراويلات من الكتان على بدنه ، ويرفع الرماد الذى آلت إليه نار المحرقة على المذبح ، ويجعله إلى جانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثياباً أخر ، ويخرج الرماد إلى خارج المحلة إلى موضع طاهر ، وتبقى النار على المذبح متقدة لا تطفأ ، ويضع عليها الكاهن حطباً فى كل غداة ... الخ .

قال بعضهم : زعم الربانيون أن النار التى كانت فى هيكل سليمان ، والتى أمر اليهود بحفظها دون أن تطفأ البتة ، كان أصلها من النار التى نزلت من السماء بعد تقدمة هرون وأبنائه المحرقات ، وأنها بقيت إلى أيام خراب الهيكل على يد بختنصر ، إلا أنه ليس فى التوراة ما يصرح بذلك ـ انتهى ـ

وهذه النار التى نزلت من السماء جاء ذكرها فى الفصل التاسع من سفر الأحبار وملخصه: أن موسى أمر هرون عليهما السلام أن يذبح قربانا ، فذبح عجلا وأحرق لحمه وجلده خارج المحلة ، وأما شحمه وكليتاه وزيادة كبده فقترها على المذبح ، ثم قرب تيسا وثورا وكبشا بكيفية خاصة ، ثم دخل موسى وهرون خباء المحضر ، فخرجت نار من عند الرب ، فأكلت المحرقة والشحوم التى على المذبح ، فنظر جميع الشعب وهتفوا مسبحين وسجدوا ـ انتهى ـ

إذا علمت ذلك ، فقوله تعالى « تَأْكُلُهُ النَّارُ » بمعنى أنه يذبح على الكيفية المعروفة ، ثم تنزل نار من السماء فتأكله ، وتكون معجزة وآية كما حصل فى عهد موسى وهرون من نزول النار وأكلها المحرقة ، كما ذكرنا . وفى عهد سليمان أيضا . فقد جاء فى الفصل التاسع من سفر أخبار الأيام الثانى : أن سليمان لما أتم الدعاء هبطت النار من السماء وأكلت المحرقة والذبائح ، وكان جميع بنى إسرائيل يعاينون هبوط النار ـ انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » كقوله : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [١] . وفى هذه الآية تعزية لجميع الناس ، ووعد ووعيد للمصدق والمكذب « وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى تعطون جزاء أعمالكم وافيا يوم القيامة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . قال الزمخشرىّ : فإن قلت : فهذا يوهم نفى ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ![٢] قلت : كلمة التوفية تزيل هذا

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦و٢٧] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى ٣٥ـ كتاب القيامة، ٢٦ـ باب حدثنا محمد بن أحمد بن مدويه =

الوهم ، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور .

وقال الرازىّ : بيّن تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف فى الدنيا فهى مكدرة بالغموم والهموم ، وبخوف الانقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف ، واللذة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الانقطاع .

= ونصه : عن أبى سعيد قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً كأنهم يكشرون . قال « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى الموت . فأكثروا ذكر هادم اللذات ، الموت . فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه . فيقول : أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود .

فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا . أما إن كنتَ لَأَحَبَّ من يمشى على ظهرى إلىّ . فإذ وليتك اليومَ وصرتَ إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال: فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة .

وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر فقال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا . أما إن كنتَ لأبغض من يمشى على ظهرى إلىّ . فإذ وليتك اليوم وصرت إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال: فيلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف أضلاعه .

قال : قال رسول الله ﷺ بأصابعه . فأدخل بعضها فى جوف بعض .

قال : ويقيض الله له سبعين تنينا ، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا .

فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به إلى الحساب .

قال: قال رسول الله ﷺ « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

وكذا القول فى العقاب ، فإنه لا يحصل فى الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحات وتخفيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقى هو الذى يكون يوم القيامة ، نعوذ بالله منه. « فَمَنْ زُحْزِحَ » أى أبعد «عَنِ النَّارِ» التى هى مجمع الآفات والشرور «وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ» الجامعة للذات والسرور « فَقَدْ فَازَ » أى حصل الفوز العظيم ، وهو الظفر بالبغيـة ، أعنى النجاة من سخط الله والعذاب السرمد ، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال[1]: قال رسول الله ﷺ : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه . وأخرجه مسلم أيضا « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى لذاتها « إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » المتاع : ما يتمتع وينتفع به ، والغرور (بضم الغين) مصدر غره أى خدعه وأطمعه بالباطل،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٦١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) . ونصه : عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وهو جالس فى ظل الكعبة . فسمعته يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ فى سفر ، إذ نزل منزلا . فمنا من يضرب خباءه ومنا من هو فى جَشَرِهِ ومنا من ينتضل ، إذ نادى مناديه : الصلاة جامعة . قال فاجتمعنا . قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال « إنه لم يكن نبىّ قبلى إلا دل أمته على ما يعلمه خيرًا لهم ، ويحذرهم ما يعلمه شرًّا لهم . وإن أمتكم هـذه جعلت عافيتها فى أولها . وإن آخرها سيصيبهم بلاء شديد وأمور تنكرونها . تجىء فتن يرقق بعضها لبعض . تجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى . ثم تنكشف . ثم تجىء الفتنـة فيقول المؤمن : هذه، ثم تنكشف . فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه .

ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » .

وإنما وصف عيش الدنيا بذلك لما تمنّيه لذاتها من طول البقاء ، وأمل الدوام ، فتخدعه ثم تصرعه . قال بعض السلف : الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول. فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« لَتُبْلَوُنَّ » أى لتختبرن « فِي أَمْوَالِكُمْ » بما يصيبها من الآفات « وَأَنْفُسِكُمْ » بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد . وهذا كقوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ... إلى آخر الآيتين[١] ـ أى لا بد أن يبتلى المؤمن فى شيء من ماله أو نفسه أو ولده . أو أهله . وفى الحديث[٢] : يبتلى المرء على قدر دينه . فإن كان فى دينه صلابة، زيد فى البلاء . « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥و١٥٦] ... ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٧ ـ باب ما جاء فى الصبر على البلاء ونصه : عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاءً ؟ قال « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ، ما عليه خطيئة .

كَثِيرًا » بالقول والفعل « وَإِنْ تَصْبِرُوا » على ذلك « وَتَتَّقُوا » أى مخالفة أمره تعالى « فَإِنَّ ذَٰلِكَ » أى الصبر والتقوى « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى من معزومات الأمور التى يتنافس فيها المتنافسون . أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد ، لما فيه من كمال المزية والشرف . أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه . يعنى : أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى ، لابد أن تصبروا وتتقوا . وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية، من إظهار كمال اللطف بالعباد، ما لا يخفى ـ أفاده أبو السعود .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب الصبر. وأن الجهاد لا يسقط مع سماع ما يؤذى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » وهم علماء اليهود والنصارى « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ » أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها أمر نبوته ﷺ . وفى قوله تعالى « وَلَا تَكْتُمُونَهُ » من النهى عن الكتمان، بعد الأمر بالبيان، مبالغة فى إيجاب المأمور به « فَنَبَذُوهُ » أى الميثاق « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » أى طرحوه ولم يراعوه . ونبذُ الشىء وراء الظهر مثل فى الاستهانة به ، والإعراض عنه بالكلية . كما أن جعله نصب العين علم فى كمال العناية به « وَاشْتَرَوْا بِهِ » أى استبدلوا به « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى شيئاً حقيراً من حطام الدنيا « فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » بتغيير كلام الله ونبذ ميثاقه .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانه ، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره . وقد تقدم هذا ، وإن المراد بذلك إذا لم يؤد إلى مفسدة . ويدخل فى الكتم منع الكتب المنطوية على علم الدين حيث تعذر الأخذ إلا منها .

وقال العلامة الزمخشرىّ عليه الرحمة : كفى بهذه الآية دليلًا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام الدنيا ، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة ، أو لبخل بالعلم ، وغيرة أن ينسب إليه غيرهم ـ انتهى ـ .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ـ أخرجه الترمذىّ[١] ـ ولأبى داود[٢] : من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ماحدثتكم بشىء . ثم تلا : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ... الآية .

لطيفة :

قال العلامة أبو السعود : فى تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ، لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة فى المأخوذ ، والإعراض عن المعطى ، والتعبير عن المشترى الذى هو العمدة فى العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة إليه ، وجعل الكتاب الذى حقه أن يتنافس فيه المتنافسون ، مصحوباً بـ(الباء) الداخلة على الآلات والوسائل ـ من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنىء الحقير ، على الشريف الخطير ، وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلى وسيلة ، والوسيلة مقصداً ـ ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه ـ انتهى ـ

ثم أشار تعالى أنهم لا يرون قبح ذلك بل يفرحون به فقال :

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٩ ـ كتاب العلم ، ٣ ـ باب ما جاء فى كتمان العلم .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٤ ـ كتاب العلم ، ٩ ـ باب كراهية منع العلم ، حديث ٣٦٥٨ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا » أى بما فعلوا من اشتراء الثمن القليل بتغيير كلام الله تعالى « وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » من وفاء الميثاق من غير تغيير ولا كتمان « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ » أى بمنجاة « مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بكفرهم وتدليسهم.

روى الإمام أحمد(١) عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، أن مروان قال : اذهب يا رافع (لبوابه) إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل ، لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس مالكم وهذه، إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ـ إلى قوله : وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وقال ابن عباس : سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ماسألهم عنه . وهكذا رواه البخارىّ فى التفسير، ومسلم والترمذىّ والنسائىّ فى تفسيريهما ، وابن أبى حاتم وابن خزيمة والحاكم فى مستدركه ، وابن مردويه بنحوه . ورواه البخارىّ(٢) أيضاً عن علقمة بن وقاص ، أن مروان قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس ـ فذكره ـ وروى البخارىّ(٣) عن أبى سعيد الخدرىّ أن رجالًا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٩٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٨ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٧ .

إلى الغزو وتخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الآية ـ وكذا رواه مسلم بنحوه .

ولا منافاة بين الروايتين لأن الآية عامة فى جميع ما ذكر ، ومعنى نزول الآية فى ذلك وقوعها بعد ذلك ، لا أن أحد الأمرين كان سبباً لنزولها . كما حققناه غير مرة .

تنبيه :

هذه الآية ، وإن كانت محمولة على الكفار لما تقدم ، ففيها ترهيب للمؤمنين عما ذم عليه أهلها من الإصرار على القبائح والفرح بها ومحبة المدح بما عرا عنه من الفضائل . ويدخل فى ذلك المراؤون المتكثرون بما لم يعطوا ، كما جاء فى الصحيحين[١] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة . وفى الصحيحين[٢] أيضاً : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور . فليحذر من يأتى بما لا ينبغى ويفرح به ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على الله تعالى .

فائدة :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء فى الأول وضمها فى الثانى ، وفاعل الأول (الذين يفرحون) . وأما مفعولاه فمحذوفان اكتفاء بمفعولى « تَحْسَبَنَّهُمْ » لأن الفاعل

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧٦ (طبعتنا) ونصه :

عن ثابت بن الضحاك عن النبيّ ﷺ قال « ليس على رجل نذر فيما لا يملك . ولعن المؤمن كقتله . ومن قتل نفسه بشىء فى الدنيا عذب به يوم القيامة . ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة . ومن حلف على يمين صبر فاجرة » .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٦ ـ باب المتشبع بما لم ينل .

ومسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس ، حديث ١٢٦و١٢٧ (طبعتنا) .

فيهما واحد . فالفاعل الثانى تأكيد للأول، وحَسُنَ لما طال الكلام المتصل بالأول . والفاء زائدة ، إذ ليست للعطف ولا للجواب ، وثمت وجوه أخرى .

لطيفة :

تصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور، للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة ، وقطع أطماعهم الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة ، كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية ، وعليه كان مبنى فرحهم . وأما نهيه صلى الله عليه وسلم فللتعريض بحسبانهم المذكور ، لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه الصلاة والسلام ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو قادر على عقابهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إيجادهما على ما هما عليه من الأمور المدهشة ، تلك فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار وأشجار، ونبات وزروع ، وثمار وحيوان، ومعادن ومنافع ، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تعاقبهما ، وكون كل منهما خلفة للآخر ، بحسب طلوع الشمس وغروبها ، أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه

بازدياده « لَآيَاتٍ » أى : لأدلة واضحةعلى الصانع وعظيم قدرته ، وباهرحكمته . والتنكير للتفخيم كمًّا وكيفاً ، أى كثرةعظيمة « لِأُولِى الْأَلْبَابِ » أى لذوىالعقول المجلوّة بالتزكية والتصفية بملازمة الذكر دائماً كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » أى فلايخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر فى تصفية الباطن . فالمراد تعميم الذكر للأوقات ، وعدم الغفلة عنه تعالى . وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ، ليس لتخصيص الذكر بها ، بل لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالباً « وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إنشائهما بهذه الأجرام العظام ، وما فيهما من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليدلّهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ، فيعلموا أن لها خالقاً قادراً مدبراً حكيماً ، لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها تعالى . كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

روى ابن أبىالدنيا فى (كتاب التوكل والاعتبار) عن الصوفىّ الجليل الشيخ أبى سليمان الدارانىّ قدس الله سره أنه قال : إنى لأخرج من منزلى ، فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله علىّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة . وإنما خصص التفكر بالخلق ، للنهى عن التفكر فى الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته .

خرّج ابن أبى حاتم من حديث عبد الله بن سلام : لا تفكروا فى الله ، ولكن تفكروا فيما خلق ، وله شواهد كثيرة .

قال الرازيّ : دلائل التوحيد محصورة فى قسمين : دلائل الآفاق ، ودلائل الأنفس ، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم ، كما قال تعالى : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ(١) . ولما كان الأمر كذلك ، لا جرم أمر فى هذه الآية بالفكر فى خلق السموات والأرض ، لأن دلالتها أعجب ، وشواهدها أعظم ، وكيف لا نقول ذلك ، ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى فى تلك الورقة عرقاً واحداً ممتدًّا فى وسطها ، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين ، ثم يتشعب منها عروق دقيقة ، ولايزال يتشعب من كل عرق عروق أخر، حتى تصير فى الدقة بحيث لايراها البصر، وعند هذا يعلم أن للخالق فى تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة ، وأسراراً عجيبة ، وأن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذائها من قعر الأرض، ثم إن ذلك الغذاء يجرى فى تلك العروق ، حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة ، جزءٌ من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم. ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة ، وكيفية التدبير فى إيجادها، وإيداع القوى الغاذية والنامية فيها ، لعجز عنه . فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة ، فحينئذ يقيس تلك الورقة إلى السموات ، مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم . وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان . عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء ، كالعدم . فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير ، عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله فى خلق السموات والأرض ، وإذا عرف بهذا البرهان النيّر قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام، لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين . بل يسلم أن كل ما خلقه ففيه حكم بالغة ، وأسرار عظيمة ، وإن كان لا سبيل إلى معرفتها، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا » على إرادة

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] . . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

القول ، بمعنى يتفكرون قائلين ذلك . وكلمة «هذا» متضمنة لضرب من التعظيم ، أى ما خلقت هـذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً ، عارياً عن الحـكمة ، خالياً عن المصلحة ، بل منتظماً لحـكم جليلة ، ومصالح عظيمة . من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك ، ووجوب طاعتك ، واجتناب معصيتك ، وأن يكون مداراً لمعايش العباد ، ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد .

لطيفة :

قال أبو البقاء : (باطلًا) مفعول من أجله . والباطل ، هنا ، فاعل بمعنى المصدر ، مثل العاقبة والعافية . والمعنى : ما خلقتهما عبثاً . ويجوز أن يكون حالًا . تقديره : ما خلقت هذا خالياً عن حكمة . ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أى خلقاً باطلًا ـ انتهى ـ .

وقوله «سُبْحَانَكَ» أى تنزيهاً لك من العبث ، وأن تخلق شيئاً بغير حكمة « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال السيوطىّ : فيه استحباب هـذا الذكر عند النظر إلى السماء . ذكره النووىّ فى (الأذكار) اهـ . وفيه تعليم العباد كيفية الدعاء ، وهو تقديم الثناء على الله تعالى أولًا ، كما دل عليه قوله «سُبْحَانَكَ» ثم بعد الثناء يأتى الدعاء ، كما دل عليه « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجـلًا يدعو فى صلاته ، لم يمجد الله تعـالى ، ولم يصل على النبىّ ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : عجل هذا ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليـه ، ثم يصلى على النبىّ ﷺ ، ثم يدعو بعد بما شاء ـ رواه أبو داود[١] والترمذىّ وقال : حديث صحيح .

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أنَّ ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى ، وأبدانهم فى طاعة الله ، وقلوبهم فى التفكر فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار ، ثم أتبعوا ذلك بما يدل على عظم ذلك العقاب وشدته وهو الخزى ، بقولهم :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث ١٤٨١ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

«رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ» أى أهنته وأظهرت فضيحته لأهل الموقف. وسر هذا الإتباع عظم موقع السؤال ، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظمها وقوتها ، كانت داعيته فى ذلك الدعاء أكمل ، وإخلاصه فى طلبه أشد ، والدعاء لا يتصل بالإجابة ، إلا إذا كان مقروناً بالإخلاص ، وهـذا أيضاً تعليم من الله تعالى فنًّا آخر من آداب الدعاء «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم ، ببيان خلود عذابهم ، بفقدان من ينصرهم ، ويقوم بتخليصهم . وغرضهم تأكيد الاستدعاء . ووضع (الظالمين) موضع ضمير المدخلين ، لذمهم ، والإشعار بتعليل دخولهم النـار بظلمهم ، ووضعهم الأشياء فى غير مواضعها . وجمع (الأنصار) بالنظر إلى جمع الظالمين ، أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار . والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر . فليس فى الآية دلالة على نفى الشفاعة ، على أن المراد بالظالمين هم الـكفار ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

«رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا» حكاية لدعاء آخر لهم ، وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار كمال الضراعة ، والابتهال . والتأكيد للإيذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة ، وكمال النشاط . والمراد بالمنادى الرسول ﷺ ، والتنوين للتفخيم ، وهذا كقوله تعالى : وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ[١] . وفى وصفه ﷺ بـ (المنادى) دلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوى وتبليغها إلى

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٦] ونصها : وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .

الدانى والقاصى ، لما فيه من الإيذان برفع الصوت « يُنَادِى لِلْإِيمَانِ » أى لأجل الإيمان بالله . فإن قلت : فأى فائدة فى الجمع بين (المنادى) و (ينادى) ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ، ثم مقيداً بالإيمان ، تفخيماً لشأن المنادى ، لأنه لا منادى أعظم من منادٍ ينادى للإيمان . ونحوه قولك : مررت بهادٍ يهدى للإسلام ، وذلك أن المنادى إذا أطلق ، ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء النائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أولكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ، ويهدى لسداد الرأى ، وغير ذلك . فإذا قلت : ينادى للإيمان ، ويهدى للإسلام فقد رفعت من شأن المنادى والهادى، وفخمته . ويقال : دعاه لكذا وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه ، ونحوه : هداه للطريق وإليه . وذلك أن معنى انتهاء الغاية ، ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً ـ أفاده الزمخشرىّ ـ .

« أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » أى فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه ، و«أن» إما تفسيرية، أى آمنوا ، أو مصدرية ، أى : بأن آمنوا « رَبَّنَا » تكرير للتضرع ، وإظهارٌ لكمال الخضوع « فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا » أى استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ، وأذهب عنا سيئاتنا بتبديلها حسنات « وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ » أى معدودين فى جملتهم حتى نكون فى درجتهم يوم القيامة . والأبرار جمع بارّ أو برّ وهو كثير البِرّ (بالكسر) أى الطاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » أى على تصديق رسلك والإيمان بهم . أو على ألسنة رسلك . وهو الثواب . وهذا حكاية لدعاء آخر لهم ، معطوف على ما قبله . وتكرير

النداء لما مرّ « وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله : يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ(١) . بإظهار أنهم ممن آمن معه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى » أى بأنى « لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ » بيان لـ (عامل) وتأكيد لعمومه « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » أى الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، كلكم بنو آدم. وهذه جملة معترضة مبينة سبب شركة النساء مع الرجال، فيما وعد الله عباده العاملين . وروى الحافظ سعيد بن منصور فى سننه عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله تعالى « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ . . . » الآية ـ وقالت الأنصار : هى أول ظعينة قدمت علينا ـ ورواه الترمذىّ(٢) ،

(١) [٦٦ / التحريم / ٨] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٩ ـ حدثنا ابن أبى عمر . ونصه : عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ! لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة، فأنزل الله تعالى: أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ.

والحاكم فى (مستدركه) وقال : صحيح على شرط البخارىّ ، ولم يخرجاه . وروى ابن مردويه عن مجاهد عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... » إلى آخرها . وعن جعفر الصادق رضى الله عنه: من حَزَبَهُ أمر فقال : خمس مرات (رَبَّنَا) أنجاه الله مما يخاف ، وأعطاه ما أراد . وقرأ الآيات .

« فَالَّذِينَ هَاجَرُوا » مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية وهى المهاجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة « وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ » أى التى ولدوا فيها ونشأوا «وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي» أى من أجله وبسببه ، يريد سبيل الإيمان بالله وحده ، وهو متناول لكل أذى نالهم من المشركين « وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا » أى غزوا المشركين واستشهدوا « لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » جملة قسمية ، خبر المبتدأ الذى هو الموصول ، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه ، بعد ما وعد ذلك عموماً « وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت قصورها الأنهار، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر « ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » فى موضع المصدر المؤكد لماقبله ، فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة ، فى معنى الإثابة . وأضافه إليه تعالى ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيلا كثيراً . كما قيل[1] :

إن يعاقبْ يكن غراماً وإن يعـ ـطِ جزيلًا فإنه لا يبالى

«وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» أى حسن الجزاء لمن عمل صالحاً . ثم بين تعالى قبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا، وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها، إثْرَ بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب ، بقوله :

---

(١) قائله الأعشى ، من قصيدة مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى . فهل تردّ سؤالى

الغرام: الشر الدائم . ومنه قوله تعالى: إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . أى هلاكا ولزاما لهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلَادِ)

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلَادِ » أى تصرفهم فيها بالمتاجر والمكاسب، أى لا تنظر إلى ماهم عليه من سعة الرزق ودرك العاجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« مَتَاعٌ قَلِيلٌ » أى هو متاع قليل ، لقصر مدته ، وكونه بُلْغةً فانية ، ونعمة زائلة ، فلا قدر له فى جنب ما أعد الله للمؤمنين .

وفى صحيح مسلم[1] عن النبىّ ﷺ : والله! ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع ؟

« ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » أى مصيرهم الذى إليه يأوون « وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى الفراش هى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

« لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ » بيان لكمال حسن حال المؤمنين ، غِبّ بيان وتكرير له ، إثر تقرير ، مع زيادة خلودهم فى الجنات ليتم بذلك سرورهم ، ويزداد تبجحهم ، ويتكامل به سوء حال الكفرة . والنزل (بضمتين، وضم فسكون) المنزل ، وما هيئ للنزيل أن ينزل عليه « وَمَا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٥ (طبعتنا) عن المستورد ، أخى بنى فهر .

عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل . والتعبير عنهم بـ (الأبرار) للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البرّ ، كما أنها من قبيل التقوى .

روى الشيخان[1] ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن عمر بن الخطاب قال: جئت رسول الله ﷺ ، فإذا هو فى مشربة ، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شىء ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، وعند رجليه قرظ مصبور ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت أثر الحصير فى جنبه ،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٢ ـ باب: تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، حديث ٧٦ . وها كموه بنصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله ، هيبة له . حتى خرج حاجا فخرجت معه . فلما رجعت وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له . فوقفت له حتى فرغ . ثم سرت معه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! من اللتان تظاهرتا على النبيّ ﷺ من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة . قال فقلت : والله ! إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك . قال : فلا تفعل . ما ظننتَ أنّ عندى من علم فاسألنى . فإن كان لى علم خبرتك به .

قال ثم قال عمر : إن كنا فى الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . قال : فبينا أنا فى أمر أتأمّره إذ قالت امرأتى : لو صنعتَ كذا وكذا. قال فقلت لها: مالك ولما ههنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده؟ فقالت لى : عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجَع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها : يا بنية ! إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة : والله ! إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذركِ عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ . يا بنية ! لا تغرنك هذه التى أعجبها حسنُها حبُّ رسول الله ﷺ إياها (يريد عائشة) . =

فبكيت ! فقال : ما يبكيك ؟ قلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هم فيه ، وأنت رسول الله ! فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟

وروى ابن أبي حاتم وعبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من نفس برة ولا فاجرة ، إلا الموت خير لها . لئن كان برًّا ، لقد قال الله تعالى « وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ »

= قال : ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة ، لقرابتي منها . فكلمتها . فقالت أم سلمة : عجباً لك يا ابن الخطاب ! دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟

فأخذتني ، والله ! ، أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد . فخرجت من عندها .

وكان لي صاحب من الأنصار ، إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر . ونحن نتخوّف ملكاً من ملوك غسّان ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا . فقد امتلأت صدورنا منه . فإذا صاحبي الأنصاريّ يدق الباب . فقال : افتح ، افتح . فقلت : جاء الغسّانيّ ؟ فقال : بل أشد من ذلك . اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . فقلت : رَغَمَ أنف حفصة وعائشة . فأخذت ثوبي ، فأخرج حتى جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشرُبة له يرقى عليها بعجلة . وغلام لرسول الله ﷺ ، أسود ، على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لي .

قال عمر : فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث . فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لعلى حصير ، مابينه وبينه شيء . وتحت رأسه وسادة من أَدَمٍ حشوها ليف . وإن عند رجليه قَرَظًا مصبوباً . وعند رأسه أَهَبٌ معلقة . فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت . فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ؟ فقال « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ »

وأخرجه مسلم في : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٣٠ و ٣١ (طبعتنا) .

وقرأ : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١).

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » ويقول « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ... » الآية ـ وأخرج نحوه رزين عن ابن عباس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

جملة مسأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حُكِيَتْ هناتهم من نبذ الميثاق ، وتحريف الكتاب وغير ذلك . بل منهم طائفة يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على النبيّ ﷺ مع ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أي مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ . وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا هوداً أو نصارى ، وقد قال تعالى في سورة القصص : « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨] .

مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا[١] . الآية، وقال تعالى وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [٢] وقال تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ[٣] . وهذه الصفات توجد فى اليهود ، ولكن قليلا ، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ، ولم يبلغوا عشرة أنفس. وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[٤] .

وهكذا قال هنا « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » .

وقد ثبت فى الحديث[٥] أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لما قرأ سورة (كهيعص)

---

(١) [٢٨ / القصص/ ٥٢ـ٥٤] . . . وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٣] .

(٤) [٥ / المائدة / ٨٢ـ٨٥] .

(٥) هو جزء من حديث الهجرة إلى الحبشة أخرجه الإمام أحمد فى مسنده رقم ١٧٤٠ (طبعة المعارف) وصفحة ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) فلا يفتك نصه الطويل فإنه حديث جليل من الوجهة التاريخية .

بحضرة النجاشى ملك الحبشة ، وعنـده البطاركة والقساقسة، بكى وبكوا معه ، حتى أخضبوا لحاهم .

وثبت فى الصحيحين[١] أن النجاشى لما مات نعاه النبىّ ﷺ إلى أصحابه ، وقال: إن أخاً لـكم بالحبشة قدمات فصلوا عليه ، نخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه .

وروى ابن أبى حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك قال : لما توفى النجاشى ، قال رسول الله ﷺ : استغفروا لأخيكم . فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة ؟! فنزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ ... الآية ـ ورواه عبـد بن حميدأيضامرسلًا[٢] . ورواه ابن جرير عن جابر ، وفيه : فقال المنافقون : يصلى علىعلج مات بأرض الحبشة ؟! فنزلت .

وروى الحاكم فى(مستدركه) عن عبد الله بن الزبير قال : نزل بالنجاشى عدوّ من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لَدَاءٌ بنصر الله عز وجل ، خير من دواء بنصرة الناس . قال وفيـه نزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ ... الآية ـ ثم قال : هـذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

وقال ابن أبى نجيـح عن مجاهد : وإن من أهل الـكتاب ، يعنى مسلمة أهل الـكتاب .

وقال عبادبن منصور : سألت الحسن البصرىّ عن قول الله: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٤ ـ باب الرجل ينعَى إلى أهل الميت بنفسه ، حديث ٦٦٨ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٦٢و٦٣ عن أبى هريرة ، وحديث ٦٤و٦٥و٦٦ عن جابر ، وحديث ٦٧ عن عمران بن حصين (طبعتنا) .

(٢) الأثر ٨٣٧٦و٨٣٧٧ .

الآية ـ قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله أجر اثنين : للذى كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ ، واتباعهم محمداً ﷺ ـ رواه ابن أبى حاتم ـ .

وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين ، فذكر منهم رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ـ أفاده ابن كثير ـ .

ثم إن الإخبار ، فى آخر الآية ، بكونه تعالى : سَرِيعُ الْحِسَابِ . كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق ، وأنه يوفّيها كل عامل على ما ينبغى ، وقدر ما ينبغى. ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر لكونه من لوازمها . ولكونه من لوازمها أشبه التأكيد ، فلذا لم يعطف عليه ـ والله أعلم ـ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣١ ـ باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأهله ، حديث ٨٢ ونصه :

عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران » .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا » أى على مشاق الطاعات وما يمسكم من المكاره والشدائد «وَصَابِرُوا» أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد . لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً . والمصابرة باب من الصبر . ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه ، تخصيصاً ، لشدته وصعوبته ـ كذا فى الكشاف ـ « وَرَابِطُوا » أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدوّ بالترصد والاستعداد لحربهم ، وارتباط الخيل. قال الله تعالى: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ[١] ، والرباط فى الأصل أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغره ، وكل معدّ لصاحبه ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً ، وقد يتجوّز بالرباط عن الملازمة والمواظبة على الأمر ، فتسمى رباطاً ومرابطة .

قال الفارسىّ : هو ثان من لزوم الثغر ، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل . وقد وردت الأخبار بالترغيب فى الرباط ، وكثرة أجره . فمنها ما رواه البخارىّ[٢] فى صحيحه عن سهل

---

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٣ ـ باب فضل رباط يوم فى سبيل الله .

ابن سعد الساعديّ أن رسول الله ﷺ قال : رباط يوم في سبيل الله ، خير من الدنيا وما عليها .

وروى مسلم[١] عن سلمان الفارسيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأَمِنَ الفُتَّان .

وروى الإمام أحمد[٢] عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله ، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر . وهكذا رواه أبو داود والترمذيّ وقال : حسن صحيح . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه أيضاً . وبقيت أحاديث أخر ساقها الحافظ ابن كثير فى تفسيره .

هـذا ومن الوجوه فى قوله تعالى « رَابِطُوا » أن يكون معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة . فقد روى مسلم[٣] والنسائيّ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط . فشبه ﷺ ما ذكر من الأفعال الصالحة بالرباط .

وروى الحاكم فى (مستدركه) والحافظ ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٦٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة العشرين من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

ورواه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٥ ـ باب فى فضل الرباط ، حديث ٢٥٠٠ .

والترمذيّ فى: ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ٢ ـ باب ما جاء فى فضل من مات مرابطاً.

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال : أتدرى، يا ابن أخى! فيم نزلت هـذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ؟ » قلت : لا ! قال : أما إنه لم يكن فى زمان النبيّ ﷺ غزو يرابطون فيـه ، ولـكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة فى مواقيتها ، ثم يذكرون الله فيها . فعليهم أنزلت « اصْبِرُوا » أى على الصلوات الخمس ، «وَصَابِرُوا» أنفسكم وهواكم ورابطوا فى مساجدكم . «وَاتَّقُوا اللَّهَ» فيما عليـكم « لَعَلَّـكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تفوزون بما يغتبط به . و (لعل) لتغييب المآل . لئلا يتـكلوا على الآمال .

خاتمة

فيما ورد فى الآيات الأواخر من هذه السورة ، وفى فضل هذه السورة بتمامها

قال الحافظ ابن كثير : قد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده .

روى البخارى[1] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر ، قعد فنظر إلى السماء ، فقال « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » ثم قام فتوضأ ، واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح ـ وهكذا رواه مسلم ـ ورواه البخارى[2] من طريق أخرى بلفظ : حتى إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ... الحديث ـ وهكذا أخرجه الجماعة من طرق .

وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : أمرنى العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ . وأحفظ صلاته . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الأخيرة ، حتى إذا لم يبق فى المسجد أحد غيرى ، قام فمر بى فقال : من هذا ؟ عبدالله؟ قلت : نعم ! قال : فمه ؟ قلت : أمرنى العباس أن أبيت بكم الليلة ، قال : فالحق، الحق .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٧ ـ باب إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .

(٢) فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٢٠ ـ باب: رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ .

فلما دخل قال : افرش . عبد الله ! فأتى بوسادة من مسوح ، قال : فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيطه ، ثم استوى على فراشه قاعداً ، قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الملك القدوس (ثلاث مرات) ثم تلا هـذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها .

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائىّ من حديث علىّ بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثاً فى ذلك أيضاً .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة ، ثم قال : اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن شمـالى نوراً ، ومن بين يدىّ نوراً ، ومن خلفى نورًا ، ومن فوق نوراً ، ومن تحتى نوراً ، وأعظم لى نوراً يوم القيامة[1] . وهـذا الدعاء ثابت فى بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضى الله عنه .

وروى ابن مردويه وعبد بن حميد حديثاً عن عائشة ، وفيه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله علىّ فى هذه الليلة : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إلى قوله « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها .

ومما ورد فى فضل هذه السورة ما أخرجه مسلم[2] والترمذىّ من حديث النواس بن سمعان : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِهِ الذين كانوا يعملون به ، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان ، بينهما شَرْقٌ (أى ضياء ونور) ، أو كأنهما حِزْقان من طير صوافَّ تُحَاجَّان عن صاحبهما .

والله سبحانه الموفق .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١ و ١٨٧ و ١٨٩ و ١٩١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا).

تمّ تفسير هـذه السورة صباح الجمعة فى ١١ ذى القعدة الحرام

ســـنة (١٣١٨) وذلك فى حرم جامع السنانية

فى الشباك القبلىّ من السدة اليمنى العليـا

بيـد جامعه الفقير محمـــد

جمـال الدين القاسمىّ

الدمشقىّ غفر له

ولوالديـه

والمؤمنين

آمين

(ويليه الجزء الخامس وفيه تفسير سورة النساء)

ملاحظة : يتضح من الأصل أن المؤلف رحمه الله ، أعاد النظر على هـذا الجزء بعد عام ١٣٢٩ وإن لم يشر إلى ذلك ، لأن طريقة التصويب والتصحيح والشطب والتحشية، التى لوحظت فى الأصل، مطابقة لما ورد فى الجزء الثانى .

ظافر القاسمىّ

استدراك الجزء الثالث من « محاسن التأويل »

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد السيد محمد بهجة البيطار

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٥٣	١٩	فى الآخِرة	« فِى الآخِرَةِ »
٣٦٥	٣	بقيعةً	« بقيعَةٍ »
٣٨٧	٩	على البِرِّ	« البِرِّ »
٣٩٧	٩	لم يرصوا	لم يرضوا
٤١٦	١١	كما كُتِبّ	« كُتِبَ »
٤٢٣	١٥	فليطعمان	كذا فى اليونينيَّة (باللام) وسقطت من الفرع كغيره (شارح)
٤٢٨	١٩	ليكونّ	« لِيَكُونَ »
٤٣٠	٥	استحابه	استحبابه
٤٣٢	٢١	أزواجًا	« أزواجًا »
٤٤٢	١٤	لأنها	لا أنّها
٤٥٠	٣	عبد الله ابن عمرو	عبد الله بْن عمرو
٤٥١	١٧	من نفسٍ	« مِنْ نَفْسٍ »
٤٦٦	١١	الى الحكّامٍ	« إلى الحُكَّامِ »
٤٧٢	١٣	وأن بعد	وأن يَعِدَ
٤٧٨	١	حتى لا تكونُ	« حَتَّى لَا تَكُونَ »
٤٨٣	٧	والعمرةَ	« وَالعُمْرَةَ »
٤٩١	١١	لمن يسق	لمن لم يسق

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٨	١٥	لِيُفْسِدَ	« لِيُفْسِدَ »
٥٩٩	٦	إنَّ .... وأنّ	وإنَّ
٥١٣	١٨	فإنما	فـ : إنَّمَا
٥١٤	١	وإنما	و : إنَّمَا
٥١٧	١٦	وما فى والأرض	« وما فى الأرض »
٥١٧	١٩	فى ايمانُها	فى إيمَانِهَا
٥١٨	٢١	صفات الخلوقين	المخلوقين
٥٢٤	١٣	إلى بكم	« إِلىٰ رَبِّكُمْ »
٥٢٥	٢٠	من الـكفارُ	« مِنَ الـكُفَّارِ »
٥٢٧	١١	فيها ما تشتهى الأنفس	« وَفِيهَا ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ »
٥٢٨	٩	اتحرفوا	انحرفوا
٥٥٨	٩	والُمحصَناتِ	« والُمحْصَنَاتُ »
٥٦٩	١٣	والنسائى	والنسائىّ »
٥٨٣	١	إبطلالًا	إبطالًا
٥٨٥	١٠	أبو بكر أبن شيبة	بن أبى شيبة
٥٨٥	١٨	بما فضَّل الله به بعضهم	« بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ »
٦٠٤	١١	ثلاث معانٍ	ثلاثة
٦٠٦	٧	أحدهما	أحدها
٦٠٦	٨	ثلاث قُروء	ثلاثة قُروء
٦٠٦	١٦	تطلقتين	تطليقتين
٦١٠	٢٠	تَرْضَاهَ	تَرْضَاهُ
٦١١	٣	«وَلَا مَوْلُودٌ»	« وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ »

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٢٧	٩	قَانِتِيِنَ	« قَانِتِينَ »
٦٤١	٦	أتبعه جمله	جملةً
٦٤١	٧	أي يضيق ّ على	أي يضيّق على
٦٤٧	٢٠	كَثِرَةً	« كَثِيرَةً »
٦٧٨	١	هذ الآية	هذه الآية
٦٨٣	١٠	سيما	لاسيما
٦٨٤	١٦	سيما	لاسيما
٦٨٩	٤	فى الأَرْض	« فِي الأَرْضِ »
٦٨٩	١٩	لأرينا كهمُ	« لَأَرَيْنَاكَهُمْ »
٦٩١	٢	ولا شفيعٌ	ولا شفيعٍ
٦٩١	١٦	لا يَسئلونً	« لا يَسْئَلُونَ »
٦٩٤	٢	ثلاث معانى	ثلاثة
٧٠٠	٣	مَن خلاطه	مَن خالطه
٧٠٢	١١	فى الهوء	فى الهواء
٧٢٥	١٢	الأصفانى	الأصفهانىّ
٧٣٣	١٢	لهذه المعنى	لهذا

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الخامس

وفيه تفسير سورة النساء بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٧هـ — ١٩٥٧م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، أن لا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

روى العوفىّ عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت . وقد زعم النحاس أنها مكية . مستنداً إلى أن قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ الآية[١] نزلت بمكة اتفاقاً فى شأن مفتاح الكعبة . وذلك مستند واهٍ . لأنه لايلزم من نزول آيةٍ أو آيات من سور طويلة، نزل معظمها بالمدينة ، أن تكون مكية. خصوصاً أن الأرجح أن ما نزل بعد الهجرة مدنىّ . ومَن راجع أسباب نزول آياتها عرف الرد عليه . ومما يرد عليه أيضاً ما أخرجه البخارىّ عن عائشة قالت : مانزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . ودخولها عليه كان بعد الهجرة اتفاقاً . وقيل : نزلت عند الهجرة . وآياتها مائة وسبعون وخمس وقيل ست وقيل سبع. كذا فى الإتقان . وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: إن فى سورة النساء لخمس آيات مايسرنى أنَّ لى بها الدنيا وما فيها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. الآية[٢] ، و إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ. الآية[٣] ،

(١) [٤ / النساء / ٥٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا .

(٢) [٤ / النساء / ٤٠] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً .

(٣) [٤ / النساء / ٣١] ونصها : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً .

و إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(١) ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ(٢). الآية. وروى عبد الرزاق عنه أيضاً قال : خمسُ آياتٍ من النساء لهن أحبُّ إلىّ من الدنيا جميعاً : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . وقوله : وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا . وقوله : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(٢). وقوله : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيماً(٣) . وروى ابن جرير عن ابن عباسٍ قال : ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء، خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت . أوَّلهن : يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٤) ، والثانية : وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً(٥)، والثالثة: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً(٦) ثم ذكر قول ابن مسعود سواء. يعنى فى الخمسة الباقية .

لطيفة : إنما سميت سورةالنساء، لأن ما نزل منها فى أحكامهن أكثر مما نزل فى غيرها .

---

(١) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً .

(٢) [٤ / النساء / ٦٤] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً .

(٣) [٤ / النساء / ١١٠] .

(٤) [٤ / النساء / ٢٦] .

(٥) [٤ / النساء / ٢٧] .

(٦) [٤ / النساء / ٢٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ » أى اخشوه أن تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه . ثم نبههم على اتصافه بكمال القدرة الباهرة ، لتأييد الأمر بالتقوى وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريق الترغيب والترهيب، بقوله تعالى « الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » أى فرّعكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم. وخلقُه تعالى إياهم على هذا النمط البديع مما يدل على القدرة العظيمة . ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء. ومنه عقابهم على معاصيهم . فالنظر فيه يؤدى إلى الاتقاء من موجبات نقمته . وكذا جعلُه تعالى إياهم صنواناً مفرعة من أرومة واحدة من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة . كما ينبىء عنه ما يأتى من الإرشاد إلى صلة الأرحام ، ورعاية حال الأيتام، والعدل فى النكاح وغير ذلك . وقد ثبت فى صحيح مسلم(١) من حديث جرير بن عبد الله البجلىّ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٦٩ (طبعتنا) ونصه :

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار . قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتابى النمار أو العباء (أى لابسيها خارقين أوساطها مقوّرين . والنمار جمع نَمِرة وهى ثياب صوف فيها تنمير) متقلدى السيوف. عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر. فتمعّر (أى تغيّر) وجه رسول الله ﷺ ، لما رأى بهم من الفاقة . فدخل ثم خرج . =

أولئك النفر من مضر ، وهم مجتابو النمار (أى من عريهم وفقرهم) قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ حتى ختم الآية. ثم قال : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ(١) . ثم حضهم على الصدقة فقال : تصدق رجل من ديناره . من درهمه . من صاع بره . من صاع تمره . وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود فى خطبة الحاجة. وفيها : ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها : يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ. الآية.

«وَخَلَقَ مِنْهَازَوْجَهَا» أى من نفسها. يعنى من جنسها ليكون بينهما مايوجب التآلف والتضامّ. فإن الجنسية علة الضم . وقد أوضح هذا بقوله تعالى : وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢) « وَبَثَّ مِنْهُمَا » أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها، بطريق التوالد

= فأمر بلالا فأذّن وأقام . فصلى ثم خطب فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [٤ / النساء / ١] إلى آخر الآية : إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً . والآية التى فى الحشر : اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ [١٨/٥٩] تصدق رجل من ديناره . من درهمه . من ثوبه . من صاع بره . من صاع تمره . (حتى قال) ولو بشق تمرة » .

قال فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها . بل قد عجزت . قال ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب . حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ تهلل كأنه مُذْهَبَةٌ (أى فضة مذهبة ، فهو أبلغ فى حسن الوجه وإشراقه) .

فقال رسول الله ﷺ « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء . ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

(١) [٥٩ / الحشر / ١٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢١] .

والتناسل . « رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً » أى كثيرة . وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور « وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » تكرير للأمر وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به . فإن سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالى بأن يقولوا : أسألك بالله وأنشدك الله، على سبيل الاستعطاف ، يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه . وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وإدخال الروعة. ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته. و « تساءلون » أصله تتساءلون . فطرحت إحدى التاءين تخفيفاً . وقرىء بإدغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس . وقرىء تسألون (من الثلاثى) أى تسألون به غيركم . وقد فسر به القراءة الأولى والثانية. وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع . كما فى قولك رأيت الهلال وتراءيناه ـ أفاده أبو السعود ـ وقوله تعالى « وَالْأَرْحَامَ » قرأ حمزة بالجر عطفاً على الضمير المجرور . والباقون بالنصب عطفاً على الاسم الجليل . أى اتقوا الله والأرحام أن تقطعوها . فإن قطيعتها مما يجب أن يتقى . أو عطفاً على محل الجار والمجرور . كقولك مررت بزيد وعمراً . وينصره قراءة « تَسَاءَلُونَ بِهِ وَبِالْأَرْحَامِ » فإنهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عز وجل . ويقولون : أسألك بالله وبالرحم. ولقد نبه سبحانه وتعالى ، حيث قرنها باسمه الجليل، على أن صلتها بمكان منه . كما فى قوله تعالى: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا(١) . وقال تعالى:وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ(٢) .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها: وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ =

وقد روى الشيخان[١] عن عائشة رضى الله عنها عن النبىّ ﷺ قال : الرحم معلقة بالعرش . تقول: من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله . ورويا[٢] أيضاً عن جبير بن مطعم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يدخل الجنة قاطع. قال سفيان فى روايته : يعنى قاطع رحم. وروى البخارىّ[٣] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ : ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها. ورويا[٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه . والأحاديث فى الترغيب بصلة الرحم والترهيب من قطيعتها كثيرة .

تنبيه :

دلت الآية على جواز المسئلة بالله تعالى . كذا قاله الرازىّ. ووجهه أنه تعالى أقرهم على هذا التساؤل. لكونهم يعتقدون عظمته. ولم ينكره عليهم . نعم من أداه التساؤل باسمه تعالى إلى

= وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا .

(١) انفرد به مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب، ١١ ـ باب إثم القاطع، حديث ٢٣١١ ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٨ و١٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٥ ـ باب ليس الواصل بالمكافئ ، حديث ٢٣١٦ .

(٤) الحديث الذى انفرد به البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٢ ـ باب من بسط له فى الرزق بصلة الرحم ، حديث ٢٣١٢ ، هذا نصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه » .

التساهل فى شأنه وجعله عرضة لعدم إجلاله ووسيلة للأبواب الساسانية، فهذا محظور قطعاً . وعليه يحمل ما ورد من لعن من سأل بوجه الله. كما سنذكره . وقد ورد فى هذا الباب أحاديث وافرة. منها عن ابن عمر قال[1] قال رسول الله ﷺ : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه ومن أتى عليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم. وروى الإمام أحمد وأبو داود[2] عن ابن عباس مرفوعاً : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بوجه الله فأعطوه. وعن ابن عمر مرفوعاً: من سئل بالله فأعطى كتب له سبعون حسنة. رواه البيهقىّ بإسناد ضعيف . وفى البخارىّ[3] عن البراء بن عازب: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع. وذكر منها: وإبرار القَسَم. وروى أبو داود[4] والضياء فى (المختارة) بإسناد صحيح عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٦٨ من الجزء الثانى بهذا النص (طبعة الحلبىّ).
وأبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٠٨ ـ باب فى الرجل يستعيذ من الرجل ، حديث ٥١٠٩ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٠٨ ـ باب فى الرجل يستعيذ من الرجل ، حديث ٥١٠٨

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٢ ـ باب الأمر باتباع الجنائز ، حديث ٦٦٢ . وهذا نصه :

عن البراء رضى الله عنه قال : أمرنا النبىّ ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا باتباع الجنائز وعيادة المريض وإجابة الداعى ونصر المظلوم وإبرار القسم ورد السلام وتشميت العاطس. ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب والحرير والديباج والقسّىّ والإستبرق .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٧ ـ باب كراهية المسألة بوجه الله ، حديث ١٦٧١ .

جابر مرفوعاً : لا يسئل بوجه الله تعالى إلا الجنة. وروى الطبرانيّ عن أبي موسى الأشعريّ مرفوعاً : ملعون من سأل بوجه الله . وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله مالم يسأل هُجْرًا. قال السيوطيّ: إسناده حسن. وقال الحافظ المنذريّ: رجاله رجال الصحيح إلا شيخه (يعني الطبرانيّ) يحيى بن عثمان بن صالح. وهو ثقة وفيه كلام. وهُجْرًا (بضم الهاء وسكون الجيم) أي مالم يسأل أمرًا قبيحاً لا يليق. ويحتمل أنه أراد مالم يسأل سؤالاً قبيحاً بكلام قبيح. انتهى . وعن أبي عبيدة ، مولى رفاعة ، عن رافع أن رسول الله ﷺ قال : ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله. رواه الطبرانيّ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما[1] أن رسول الله ﷺ قال : إلا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يسئل بوجه الله ولا يعطي. رواه الترمذيّ. وقال: حسن غريب. والنسائيّ وابن حبان في صحيحه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إلا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: الذي يسأل بالله ولا يعطي « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » أي مراقباً لجميع أحوالكم وأعمالكم. يراها ويعلمها فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. كما قال: والله على كل شيء شهيد. وفي الحديث[2]: اعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وهذا إرشاد وأمر بمراقبته تعالى. فعلى المرء أن يراقب أحوال نفسه ويأخذ حذره من أن ينتهز الشيطان منه فرصة فيهلك على غفلة .

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ١٨ ـ باب ما جاء أي الناس خير ، ونصه :

عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال « ألا أخبركم بخير الناس ؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله . ألا أخبركم بالذي يتلوه ؟ رجل معتزل في غنيمة له يؤدي حق الله فيها . ألا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يسأل بالله بوجه الله ولا يعطي به » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، حديث ٤٦ ونصه : =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا)

« وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ » شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف مايقابلها أمراً ونهياً. وتقديمُ مايتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم ولملابستهم بالأرحام. إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب . واليتيم من مات أبوه . من اليتم ، وهو الانفراد . ومنه الدرة اليتيمة . والقياس الاشتقاقيّ يقتضى وقوعه على الصغار والكبار. وقد خصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم. كما روى أبو داود[1] بإسناد حسن عن عليّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ: لا يُتْمَ بعد احتلام . وفى الآية وجوه : الأول ـ أن يراد باليتامى الكبار الذين أونس منهم الرشد مجازاً . باعتبار ما كان ، أوثر لقرب العهد بالصغر . والإشارة إلى

= عن أبى هريرة قال : كان النبيّ ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان ، أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام؟ قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال: ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربّها . وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان . فى خمس لايعلمهن إلا الله ».

ثم تلا النبيّ ﷺ : إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية [٣١ / لقمان / ٣٤] .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٩ ـ باب متى ينقطع اليتيم ، حديث ٢٨٧٣ .

وجوب المسارعة إلى دفع أموالهم إليهم حينئذ . حتى كأنّ اسم اليتيم باق بعدُ ، غير زائل . الثانى ـ أن يراد بهم الكبار حقيقة ، واردةً على أصل اللغة . الثالث ـ أن يراد بهم الصغار. وبـ(الإيتاء) مايدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة والكسوة . لادفعها إليهم. وفيه بُعْدٌ . الرابع ـ أن يراد بهم ما ذكر . وبـ(إيتائهم) الأموال ، أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء ولاة السوء وقضاته ويكفّوا عنها أيديهم الخاطفة حتى تؤتى اليتامى إذا بلغوا سالمة غير محذوفة. فالتجوّز فى الإيتاء حينئذ باستعماله فى لازم معناه وهو تركها سالمة لأنها لا تؤتى إلا إذا كانت كذلك. قال الناصر فى (الانتصاف) : هذا الوجه قوىّ بقوله بعد آيات : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ(١) ، دل على أن الآية الأولى فى الحض على حفظها لهم ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم . والثانية فى الحض على الإيتاء الحقيقىّ عند حصول البلوغ والرشد . ويقويه أيضاً قوله عقيب الأولى : وَلَا تَتَبَدَّلُوا الخ فهذا كله تأديب للوصىّ ما دام المال بيده واليتيم فى حجره . وأما على الوجه الأول فيكون مؤدى الآيتين واحداً وهو الأمر بالإيتاء حقيقة . ويخلص عن التكرار بأن الأولى كالمجملة ، والثانية كالمبيّنة لشرط الإيتاء : من البلوغ وإيناس الرشد . والله أعلم .

« وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ » أى ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ، وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث فى الأرض فتأكلوه مكانه « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ » نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه . أى لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم مخلوطة بها للتوسعة « إِنَّهُ » أى الأكل « كَانَ حُوبًا » أى ذنباً

(١) [٤/ النساء/٦] ونصها : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا .

عظيماً . وقرىء بفتح الحاء. وقوله تعالى «كَبيراً » مبالغة في بيان عظم ذنب الأكل المذكور. كأنه قيل من كبار الذنوب .

تنبيه :

خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الوليّ فقيراً لقوله تعالى : وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . كذا قاله البيضاويّ وتابعه أبو السعود . وعندى أنه لا حاجة إلى تخصيص هذا النهى بالفقير في هذه الآية لأنها في الغنيّ ، لقوله : إِلَى أَمْوَالِكُمْ . فلا يشمل مساقها الفقير. وسنوضح ذلك .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : فإن قلت قدحرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم. فلم ورد النهى عن أكله معها ؟ قلت : لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم على ذلك يطمعون فيها ، كان القبح أبلغ والذم أحق . ولأنهم كانوا يفعلون كذلك . فنعى عليهم فعلهم وسمّع بهم ليكون أزجر لهم . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) أهل البيان يقولون : النهيّ متى كان درجات فطريق البلاغة النهى عن أدناها تنبيها على الأعلى. كقوله تعالى: فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ [1]. وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية وجدته ببادىء الرأى مخالفاً. لها إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم في النهى أن يأكله وهو غنيّ عنه . وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه . فكان مقتضى القانون المذكور أن ينهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه حتى يلزم نهى الغنيّ عنه من طريق الأولى . وحينئذ فلابد من تمهيد أمر يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهى في هذه الآية . فنقول: أبلغ الكلام

(١) [١٧/الإسراء/٢٣] ونصها: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

ما تعددت وجوه إفادته . ولا شك أن النهى عن الأدنى ، وإن أفاد النهى عن الأعلى ، إلا أن للنهى عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جليلة ، لا تؤخذ من النهى عن الأدنى . وذلك أن المنهىّ كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر والداعية إليه أبعد . ولا شك أن المستقر فى النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل . فخصص بالنهى تشنيعاً على من يقع فيه . حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء دعاه ذلك إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقاً . ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم . ولا تكاد هذه الفائدة تحصل لو خصص النهى بأكله مع الفقر ، إذ ليست الطباع فى هذه الصورة مُعينة على الاجتناب ، كإعانتها عليه فى الصورة الأولى . ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل. مع أن تناول مال اليتيم ، على أى وجه كان ، منهىّ عنه . كان ذلك بالادخار أو بالتباس أو ببذله فى لذة النكاح مثلاً ، أو غير ذلك . إلا أن حكمة تخصيص النهى بالأكل أن العرب كانت تتذمم بالإكثار من الأكل . وتعدّ البطنة من البهيمية . وتعيب على من اتخذها ديدنه. ولا كذلك سائر الملاذ. فإنهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدونه من زينة الدنيا . فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاذ خص النهى به. حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف جرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم فى سائر الملاذ أو غيرها ، أكلاً أو غيره . ومثل هذه الآية فى تخصيص النهى بما هو أعلى قوله تعالى : لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً(١) . فخص هذه الصورة لأن الطبع عن الانتهاء عنها أعون . ويقابل هذا النظر فى النهى نظر آخر فى الأمر . وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى. وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب . ألا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم(٢) الآية، كيف خص صورة حضورهم وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم . وذلك

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٠] . . . وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٨] . . . مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً .

أن الله تعالى علم شح الأنفس على الأموال . فلو أمر بإسعاف الأرقاب واليتامى من المال الموروث ولم يذكر حالة حضورهم القسمة، لم تكن الأنفس بالمنبعثة إلى هذا المعروف كانبعاثها مع حضورهم . بخلاف ما إذا حضروا . فإن النفس يرقّ طبعها وتنفر من أن تأخذ المال الجزل وذو الرحم حاضر محروم ، ولا يسعف ولا يساعد . فإذا أمرت فى هذه الحالة بالإسعاف هان عليها امتثال الأمر وائتلافها على امتثال الطبع . ثم تدربت بذلك على إسعاف ذى الرحم مطلقاً حضر أو غاب . فمراعاة هذا وأمثاله من الفوائد لا يكاد يُلْفَى إلا فى الكتاب العزيز . ولا يعثر عليه إلا الحاذق الفطن المؤيد بالتوفيق . نسأل الله أن يسلك بنا فى هذا النمط . فخذ هذا القانون عمدة . وهو : أن النهى ، إن خص الأدنى فلفائدة التنبيه على الأعلى . وإن خص الأعلى ، فلفائدة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقاً من الانكفاف عن الأقبح . ومثل هذا ، النظر فى جانب الأمر . والله الموفق. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا » أى أن لا تعدلوا « فِي الْيَتَامَىٰ » أى يتامى النساء. قال الزمخشرىّ : ويقال للإناث اليتامى كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة، على القلب . كما قيل أيامى والأصل أيائم ويتائم « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أى من طبن لنفوسكم من جهة الجمال والحسن أو العقل أو الصلاح منهن « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » ومعنى الآية: وإن خفتم ياأولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن ، بإساءة العشرة أو بنقص الصداق، فانكحوا غيرهن من الغريبات فإنهن كثير ولم يضيق الله عليكم . فالآية للتحذير من التورط

فى الجور عليهن والأمر بالاحتياط . وإن فى غيرهن متسعاً إلى الأربع . وروى البخارىّ[1] عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن رجلًا كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عَذْق (أى نخلة) وكان يمسكها عليه ولم يكن لها من نفسه شىء. فنزلت فيه : وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى . أحسبه قال : كانت شريكته فى ذلك العذق وفى ماله. ورواه مسلم وأبو داود والنسائىّ . وفى رواية لهم عن عائشة[2] هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها . فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره . فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سُنَّتِهِن فى الصداق. فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ [٤/١٢٧] . قالت عائشة : وقول الله تعالى فى آية أخرى: وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ [٤/١٢٧] ، رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال . قالت: فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن ، إذا كن قليلات المال والجمال .

وفى رواية[3] فى قوله تعالى : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ...إلى آخر الآية. قالت عائشة رضى الله عنها : هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل قد شركته فى ماله فيرغب عنها أن يتزوجها

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء، ١ ـ باب قوله : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَىٰ ، حديث ١٢٣٤ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء، ١ ـ باب قوله: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَىٰ ، حديث ١٢٣٤ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٣٧ ـ باب إذا كان الولىّ هو الخاطب ، حديث ١٢٣٤ .

ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها . فنهاهم الله عن ذلك . زاد أبو داود[(١)] رحمه الله تعالى : وقال ربيعة في قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ . قال يقول : اتركوهن إن خفتم فقد أحللت لكم أربعا .

لطائف :

الأول : (ما) في قوله تعالى : ما طاب لكم ، موصولة . وجاء بـ (ما) مكان (من) لأنهما قد يتعاقبان . فيقع كل واحد منهما مكان الآخر . كما في قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا[(٢)] وقوله : وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[(٣)] . وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ[(٤)] . قال بعضهم : وحسن وقوعها هنا أنها واقعة على النساء ، وهن ناقصات العقول .

الثانية ـ في إيثار الأمر بنكاحهن على النهي عن نكاح اليتامى ، مع أنه المقصود بالذات ، مزيد لطف في استنزالهم عن ذلك . فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه . كما أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذي أشير إليه ، فيه مبالغة في الاستمالة إليهن والترغيب فيهن . وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى ـ أفاده أبو السعود ـ .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ١٢ ـ باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء ، حديث ٢٠٦٥

(٢) [٩١ / الشمس / ٥] .

(٣) [١٠٩ / الكافرون / ٥] .

(٤) [٢٤ / النور / ٤٥] ونصها : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الثالثة :

اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور فى الآية لا مفهوم له . وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط فى اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة .

الرابعة :

مثنى وثلاث ورباع معدولة عن أعداد مكررة . ومحلهن النصب على أنها حال من فاعل (طاب) مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن ، والاستمالة إليهن ، بتوسيع دائرة الإذن . أى فانكحوا الطيبات لكم، معدودات هذا العدد . ثنتين ثنتين . وثلاثاً ثلاثاً . وأربعاً أربعاً . حسبما تريدون . فإن قلت : الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أوثلاث أوأربع ، فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع ؟ قلت : الخطاب للجميع. فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له . كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم ، درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة . ولو أفردت لم يكن له معنى . فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون (أو) . قلت : كما جاء بالواو فى المثال الذى حذوته لك. ولو ذهبت تقول: اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ، أعلمتَ أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة . وليس لهم أن يجمعوا بينها . فيجعلوا بعض القسم على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع . وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذى دلت عليه الواو . وتحريره أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شاءوا مختلفين فى تلك الأعداد ، وإن شاءوا متفقين فيها ، محظوراً عليهم ما وراء ذلك . أفاده الزمخشرىّ .

بحث جليل :

قال الرازىّ : ذهب قوم سَدَّى (كحتى . موضع قرب زبيد باليمن اه قاموس) إلى أنه يجوز التزوج بأى عدد أريد. واحتجوا بالقرآن والخبر. أماالقرآن فقد تمسكوا بهذه الآية من

ثلاثة أوجه : الأول ـ أن قوله تعالى : فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، إطلاق فى جميع الأعداد . بدليل أنه لا عدد إلا ويصح استثناؤه منه . وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لكان داخلًا . والثانى ـ أن قوله : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، لا يصلح تخصيصاً لذلك العموم ، لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينفى ثبوت الحكم فى الباقى . بل نقول : إن ذكر هذه الأعداد يدل على رفع الحرج والحجر مطلقاً . فإن الإنسان إذا قال لولده : افعل ما شئت . اذهب إلى السوق وإلى المدينة وإلى البستان، كان تنصيصاً فى تفويض زمام الخيرة إليه مطلقاً. ورفع الحجر والحرج عنه مطلقاً . ولا يكون ذلك تخصيصاً للإذن بتلك الأشياء المذكورة . بل كان ذلك إذناً فى المذكور وغيره . فكذاهنا . وأيضاً، فذكر جميع الأعداد متعذر . فإذا ذكر بعض الأعداد بعد قوله : فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، كان ذلك تنبيهاً على حصول الإذن فى جميع الأعداد . الثالث ـ أن الواو للجمع المطلق . فقوله : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يفيد حل هذا المجموع . وهو يفيد تسعة . بل الحق أنه يفيد ثمانية عشر. لأن قوله : مثنى ليس عبارة عن اثنين فقط ، بل عن اثنين اثنين . وكذا القول فى البقية .

وأما الخبر فمن وجهين : الأول ـ أنه ثبت بالتواتر أنه ﷺ مات عن تسع . ثم إن الله تعالى أمرنا باتباعه فقال : فَاتَّبِعُوهُ ، وأقل مراتب الأمر الإباحة . الثانى ـ أن سنة الرجل طريقته . وكان التزوج بالأكثر من الأربع طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام. فكان ذلك سنة له . ثم إنه عليه السلام قال[1] : فمن رغب عن سنتى فليس منى . فظاهر هذا الحديث

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث ٢٠٩٩ ونصه :

عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبىّ ﷺ يسألون عن عبادة النبىّ ﷺ . فلما أخبروا ، كأنهم تقالّوها . فقالوا : وأين نحن من النبىّ ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . =

يقتضى توجه اللوم على من ترك التزوج بأكثر من الأربعة. فلا أقل من أن يثبت أصل الجواز.

واعلم أن معتمد الفقهاء فى إثبات الحصر على أمرين : الأول ـ الخبر . وهو ما روى أن غيلان أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال الرسول ﷺ : أمسك أربعاً وفارق باقيهن . وروى أن نوفل بن معاوية أسلم وتحته خمس نسوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : أمسك أربعاً وفارق واحدة .

واعلم أن هذا الطريق ضعيف لوجهين : الأول ـ أن القرآن لما دل على عدم الحصر بهذا الخبر كان ذلك نسخاً للقرآن بخبر الواحد وأنه غير جائز . والثانى ـ وهو أن الخبر واقعة حال . فلعله عليه الصلاة والسلام إنما أمره بإمساك أربع ومفارقة البواقى لأن الجمع بين الأربعة وبين البواقى غير جائز، إما بسبب النسب أو بسبب الرضاع . وبالجملة فهذا الاحتمال قائم فى هذا الخبر فلا يمكن نسخ القرآن بمثله (الطريق الثانى) وهو إجماع فقهاء الأمصار على أنه لا يجوز الزيادة على الأربع. وهذا هو المعتمد، وفيه سؤالان: الأول ـ أن الإجماع لا يَنسَخ ولا يُنسَخ. فكيف يقال : الإجماع نسخ هذه الآية ؟ . الثانى ـ أن فى الأمة أقواماً شذاذاً لا يقولون بحرمة الزيادة على الأربع . والإجماع ، مع مخالفة الواحد والاثنين، لا ينعقد .

(والجواب عن الأول) أن الإجماع يكشف عن حصول الناسخ فى زمن الرسول ﷺ . (وعن الثانى) أن مخالف هذا الإجماع من أهل البدعة. فلا عبرة بمخالفته، انتهى كلام الرازىّ، وقوله (من أهل البدعة) لا يجوز أخذه على عمومه لما ستراه .

= قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وقال الإمام الشوكانى رحمه الله تعالى فى (وبل الغمام) : الذى نقله إلينا أئمة اللغة والإعراب وصار كالمجمع عليه عندهم، أن العدل فى الأعداد يفيد أن المعدود لما كان متكثراً يحتاج استيفاؤه إلى أعداد كثيرة كانت صيغة العدل المفردة فى قوة تلك الأعداد . فإن كان مجىء القوم مثلًا اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة ، وكانوا ألوفاً مؤلفة ، فقلت : جاءنى القوم مثنى ، أفادت هذه الصيغة أنهم جاءوا اثنين اثنين ، حتى تكاملوا . فإن قلت : مثنى وثلاث ورباع ، أفاد ذلك أن القوم جاءوك تارة اثنين اثنين ، وتارة ثلاثة ثلاثة ، وتارة أربعة أربعة . فهذه الصيغ بينت مقدار عدد دفعات المجىء لا مقدار عدد جميع القوم ، فإنه لايستفادمنها أصلًا. بل غاية مايستفاد منها أن عددهم متكثر تكثراً تشق الإحاطة به . ومثل هذا إذا قلت : نكحت النساء مثنى . فإن معناه نكحتهن اثنتين اثنتين . وليس فيه دليل على أن كل دفعة من هذه الدفعات لم يدخل فى نكاحه إلا بعد خروج الأولى . كما أنه لا دليل فى قولك : جاءنى القوم مثنى ، أنه لم يصل الاثنان الآخران إليك إلا وقد فارقك الاثنان الأولان . إذا تقرر هذا فقوله تعالى « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » يستفاد منه جواز نكاح النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . والمراد جواز تزوج كل دفعة من هذه الدفعات فى وقت من الأوقات . وليس فى هذا تعرض لمقدار عددهن . بل يستفاد من الصيغ الكثرة من غير تعيين . كما قدمنا فى مجىء القوم . وليس فيه أيضاً دليل على أن الدفعة الثانية كانت بعد مفارقة الدفعة الأولى . ومن زعم أنه نقل إلينا أئمة اللغة والإعراب ما يخالف هذا، فهذا مقام الاستفادة منه، فليتفضل بها علينا . وابن عباس ، إن صح عنه فى الآية أنه قصر الرجال على أربع فهو فرد من أفراد الأمة . وأما القعقعة بدعوى الإجماع فما أهونها وأيسر خطبها عند من لم تفزعه هذه الجلبة . وكيف يصح إجماع خالفته الظاهرية وابن الصباغ ، والعمرانى ، والقاسم بن إبراهيم، نجم آل الرسول ، وجماعة من الشيعة ، وثلة من محقق المتأخرين ، وخالفه أيضاً القرآن الكريم ، كما بيناه . وخالفه أيضاً فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما صح

ذلك تواتراً ، من جمعه بين تسع أو أكثر فى بعض الأوقات . « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ[١] . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[٢] . قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ[٣] ودعوى الخصوصية مفتقرة إلى دليل . والبراءة الأصلية مستصحبة لا ينقل عنها إلا ناقل صحيح تنقطع عنده المعاذير .

وأما حديث[٤] أمره صلى الله عليه وسلم لغيلان، لما أسلم وتحته عشر نسوة، بأن يختار منهن أربعاً ويفارق سائرهن ، كما أخرجه الترمذىّ وابن ماجه وابن حبان ، فهو وإن كان له طرق ، فقد قال ابن عبد البر : كلها معلولة . وأعله غيره من الحفاظ بعلل أخرى . ومثل هذا لاينتهض للنقل عن الدليل القرآنىّ والفعل المصطفوىّ الذى مات ﷺ عليه والبراءة الأصليه . ومن صحح لنا هذا الحديث على وجه تقوم به الحجة ، أو جاءنا بدليل فى معناه، فجزاه الله خيراً. فليس بين أحد وبين الحق عداوة. وعلى العالم أن يوفى الاجتهاد حقه لاسيما فى مقامات التحرير

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] . . . لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٣١] . . . وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح، ٣٣ ـ باب ماجاء فى الرجل يُسلم وعنده عشر نسوة .

وابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٠ ـ باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة ، حديث ١٩٥٣ (طبعتنا) .

والتقرير. كما نفعله فى كثير من الأبحاث . وإذا حاك فى صدره شىء فليكن تورعه فى العمل لا فى تقرير الصواب . فإياك أن تحامى التصريح بالحق الذى تبلغ إليه ملكتك ، لقيل وقال. ولاسيما فى مثل مواطن يجبن عنها كثير من الرجال . فإنك لاتسئل يوم القيامة عن الذى ترتضيه منك العباد بل عن الذى يرتضيه المعبود . وإذا جاء نهر الله بطل نهر[1] معقل . ومن ورد البحر استقل السواقيا. انتهى.

وقال الشوكانى قدس سره أيضا فى (نيل الأوطار) : حديث قيس بن الحرث (وفى رواية الحرث بن قيس) فى إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى. وقد ضعفه غير واحد من الأئمة . قال أبو القاسم البغوى : ولا أعلم للحرث بن قيس حديثاً غير هذا . وقال أبو عمرو النمرى : ليس له إلا حديث واحد ولم يأت به من وجه صحيح . وفى معنى هذا الحديث غيلان الثقفى وهو عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال : أسلم غيلان الثقفى وتحته عشر نسوة، فى الجاهلية. فأسلمن معه. فأمره النبى ﷺ أن يختار منهن أربعاً . رواه أحمد وابن ماجة والترمذى. وحكم أبو حاتم وأبو زرعة بأن المرسل أصح . وحكى الحاكم عن مسلم أن هذا الحديث مما وهم فيه معمر بالبصرة . قال : فإن رواه عنه ثقة خارج البصرة حكمنا له بالصحة . وقد أخذ ابن حبان والحاكم والبيهقى بظاهر الحكم، وأخرجوه من طرق عن معمر من حديث أهل الكوفة وأهل خرسان وأهل اليمامة عنه . قال الحافظ : ولا يفيد ذلك شيئاً . فإن هؤلاء كلهم ، إنما سمعوا منه بالبصرة . وعلى تقدير أنهم سمعوا منه بغيرها، فحديثه الذى حدث به فى غير بلده مضطرب . لأنه كان يحدث فى بلده من كتبه على الصحة . وأما إذا رحل فحدث من حفظه

(١) أما نهر معقل ، فقال فى (مراصد الاطلاع) : منسوب إلى معقل بن يسار المزنى الصحابى . فهو معروف بالبصرة فَمُهُ عند فم الإجّانة . ومعقل هو الذى تولى حفره فى ولاية أبى موسى الأشعرى بأمر عمر رضى الله عنه . وقيل : فى زمن زياد وبأمر معاوية .

أما المثل فلا أدرى متى قيل ولأية مناسبة قيل . وفوق كل ذى علم عليم .

بأشياءوهم فيها . اتفق على ذلك أهل العلم . كابن المديني والبخاري وابن أبي حاتم ويعقوب بن شيبة وغيرهم . وحكى الأثرم عن أحمد أن هذا الحديث ليس بصحيح . والعمل عليه . وأعله بتفرد معمر في وصله وتحديثه به في غير بلده . وقال ابن عبد البر: طرقه كلها معلولة . وقد أطال الدارقطني في (العلل) تخريج طرقه . ورواه ابن عيينة ومالك عن الزهري مرسلًا . ورواه عبد الرزاق عن معمر كذلك . وقد وافق معمراً على وصله بحر بن كنيز السقاء عن الزهري . ولكنه ضعيف . وكذا وصله يحي بن سلام عن مالك . ويحي ضعيف . وفي الباب عن نوفل بن معاوية ، عند الشافعي ، أنه أسلم وتحته خمس نسوة . فقال له النبي ﷺ : أمسك أربعاًوفارق الأخرى . وفيإسناده رجل مجهول . لأن الشافعي قال: حدثنابعض أصحابنا عن أبي الزناد عن عبد المجيد بن سهل عن عوف بن الحرث عن نوفل بن معاوية قال: أسلمت ، فذكره . وفي الباب أيضاً عن عروة بن مسعود وصفوان بن أمية عند البيهقي . وقوله: اختر منهن أربعاً، استدل به الجمهور على تحريم الزيادة على أربع . وذهبت الظاهرية إلى أنه يحل للرجل أن يتزوج تسعاً . ولعل وجههقوله تعالى : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . ومجموع ذلك لا باعتبار ما فيه من العدل ، تسع . وحكىذلك عن ابن الصباغ والعمراني وبعض الشيعة . وحكى أيضاً عن القاسم بن إبراهيم . وأنكر الإمام يحي الحكاية عنه . وحكاه صاحب البحر عن الظاهرية ، وقوم مجاهيل . وأجابوا عن حديث قيس بن الحرث المذكور بما فيه من المقال المتقدم . وأجابوا عن حديث غيلان الثقفي بما تقدم فيه من المقال . وكذلك أجابوا عن حديث نوفل بن معاوية بما قدمنا من كونه في إسناده مجهول . قالوا : ومثل هذا الأصل العظيم لا يكتفى فيه بمثل ذلك. ولاسيما وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قد جمع بين تسع أو إحدى عشرة، وقد قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (١) . وأما

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] . . . لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا .

دعوى اختصاصه بالزيادة على الأربع فهو محل النزاع . ولم يقم عليه دليل . وأما قوله تعالى : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فالواو فيه للجمع لا للتخيير . وأيضاً لفظ مثنى معدول به عن اثنين اثنين . وهو يدل على تناول ما كان متصفاً من الأعداد بصفته الاثنينية . وإن كان فى غاية الكثرة البالغة إلى ما فوق الألوف . فإنك تقول جاءنى القوم مثنى أى اثنين اثنين . وهكذا ثلاث ورباع . وهذا معلوم فى لغة العرب لا يشك فيه أحد . فالآية المذكورة تدل بأصل الوضع على أنه يجوز للإنسان أن يتزوج من النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . وليس من شرط ذلك أن لا تأتى الطائفة الأخرى فى العدد إلا بعد مفارقته للطائفة التى قبلها . فإنه لاشك أنه يصح، لغة وعرفاً، أن يقول الرجل ، لألف رجل عنده : جاءنى هؤلاء اثنين اثنين أوثلاثة ثلاثه أوأربعة أربعة. فحينئذ الآية تدل على إباحة الزواج بعدد من النساء كثير . سواء كانت الواو للجمع أو للتخيير . لأن خطاب الجماعة بحكم من الأحكام بمنزلة الخطاب به لكل واحد منهم . فكأن الله سبحانه وتعالى قال ، لكل فرد من الناس : انكح ماطاب لك من النساء مثنى وثلاث ورباع . ومع هذا فالبراءة الأصلية مستصحبة . وهى بمجردها كافية فى الحل حتى يوجد ناقل صحيح ينقل عنها . وقد يجاب بأن مجموع الأحاديث المذكورة فى الباب لا تقصر عن رتبة الحسن لغيره ، فتنتهض بمجموعها للاحتجاج . وإن كان كل واحد لا يخلو عن مقال . ويؤيد ذلك كون الأصل فى الفروج الحرمة . كما صرح به الخطابى . فلا يجوز الإقدام على شىء منها إلا بدليل . وأيضاً هـذا الخلاف مسبوق بالإجماع على عدم جواز الزيادة على الأربع . كما صرح بذلك فى (البحر) .

وقال فى (الفتح) اتفق العلماء على أن من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهن . وقد ذكر الحافظ فى (الفتح) و (التلخيص) الحكمة فى تكثير نسائه ﷺ فليراجع ذلك . انتهى .

وقال قدس سره فى تفسيره (فتح القدير) : وقد استدل بالآية على تحريم مازاد على الأربع .

ويبنوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة . وأن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هـذا العدد . كما يقال للجماعة : اقتسموا هذا المال . وهو ألف درهم (أو هذا المال الذى فى البدرة) درهمين درهمين . وثلاثة ثلاثة . وأربعة أربعة . وهـذا مسلم إذا كان المقسوم قد ذكرت جملته ، أو عيّن مكانه . أما لو كان مطلقاً ، كما يقال : اقتسموا الدراهم ، ويراد بها ما كسبوه ، فليس المعنى هكذا . والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول . على أن من قال لقوم يقتسمون مالاً معيناً كبيراً : اقتسموه مثنى وثلاث ورباع، فقسموا بعضه بينهم درهمين درهمين. وبعضه ثلاثة ثلاثة. وبعضه أربعة أربعة . كان هذا هو المعنى العربىّ. ومعلوم أنه إذا قال القائل: جاءنى القوم مثنى ، وهم مائة ألف ، كان المعنى أنهم جاءوه اثنين اثنين . وهكذا: جاءنى القوم ثلاث ورباع . والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لـكل فرد فرد . كما فى قوله تعالى: اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ، أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ، ونحوها . ومعنى قوله « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : لينكح كل فرد منكم ماطاب له من النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . هذا ما تقتضى لغة العرب . فالآية تدل على خلاف ما استدلوا به عليه . ويؤيد هذا قوله تعالى فى آخر الآية : فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً. فإنه وإن كان خطاباً للجميع فهو بمنزلة الخطاب لـكل فرد فرد . فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن . وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نـكاح التسع باعتبار الواو الجامعة وكأنه قال : انـكحوا مجموع هذا العدد المذكور، فهذا جهل بالمعنى العربىّ . ولو قال : انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً كان هذا القول له وجه . وأما مع المجىء بصيغة العدل فلا . وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون (أو) لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره . وذلك ليس بمراد من النظم القرآنىّ .

أخرج الشافعىّ وابن أبى شيبة وأحمد والترمذىّ وابن ماجة والدارقطنىّ والبيهقىّ ، عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفىّ أسلم وتحته عشر نسوة . فقال له النبىّ ﷺ : اختر منهن

(وفى لفظ أمسك منهن) أربعاً وفارق سائرهن . وروى هـذا الحديث بألفاظ من طرق . وعن نوفل بن معاوية الديلىّ قال : أسلمت وعندى خمس نسوة. فقال رسول الله ﷺ : أمسك أربعاً وفارق الأخرى . أخرجه الشافعىّ فى مسنده .

وأخرج ابن ماجة والنحاس فى (تاريخه) عن قيس بن الحرث الأسدىّ قال : أسلمت وكان تحتى ثمان نسوة . فأتيت النبىّ ﷺ فأخبرته . فقال : اختر منهن أربعاً وخل سائرهن. ففعلت. وهذه شواهد للحديث الأول كما قال البيهقىّ .

وقال قدس سره أيضاً فى كتابه (السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار) : أما الاستدلال على تحريم الخامسة وعدم جواز زيادة على الأربع بقوله عز وجل : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فغير صحيح . كما أوضحته فى (شرحى للمنتقى) وقد قدمناه . ولـكن الاستدلال على ذلك بحديث قيس بن الحرث وحديث غيلان الثقفىّ وحديث نوفل بن معاوية هو الذى ينبغى الاعتماد عليه . وإن كان فى كل واحد منها مقال . لـكن الإجماع على ما دلت عليه قد صارت به من المجمع على العمل عليه . وقد حكى الإجماع صاحب (فتح البارى) والمهدىّ فى (البحر) والنقل عن الظاهرية لم يصح . فإنه قد أنـكر ذلك منهم من هو أعرف بمذهبهم . انتهى .

تتمـة :

روى الدارقطنىّ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قال : ينكح العبد امرأتين ويطلق تطليقتين وتعتد الأمة حيضتين .

قال الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) قد تمسك بهذا من قال : إنه لا يجوز للعبد أن يتزوج فوق اثنتين . وهو مروىّ عن علىّ وزيد بن علىّ والناصر والحنفية والشافعية . ولا يخفى أن قول الصحابىّ لا يكون حجة على من لم يقل بحجيته . نعم ، لو صح إجماع الصحابة على ذلك لـكان دليلا عند القائلين بحجية الإجماع . ولـكنه قد روى عن أبى الدرداء ومجاهد وربيعة

وأبى ثور والقاسم بن محمد وسالم ؛ أنه يجوز له أن ينكح أربعاً كالحر . حكى ذلك عنهم صاحب (البحر) فالأوْلى الجزم بدخوله تحت قوله تعالى : فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ . والحكم له وعليه بما للأحرار وعليهم . إلا أن يقوم دليل يقتضى المخالفة . كما فى المواضع المعروفة بالتخالف بين حكميهما انتهى .

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا » أى بين هذه الأعداد « فَوَاحِدَةً » أى فاختاروها . وقرئ بالرفع أى فحسبكم واحدة « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من الإماء ، بالغةً ما بلغت من مراتب العدد . لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق مثل ما يلزم فى الحرائر . ولا قسم لهن . و (أو) للتسوية . أى التخيير . والعدد يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة . قال الزمخشرىّ : سوّى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ولا توقيت عدد . ولعمرى إنهن أقل تبعة وأقصر شغباً وأخف مؤنة من المهائر . لا عليك ، أكثرت منهن أم أقللت . عدلت بينهن فى القسم أم لم تعدل ، عزلت عنهن أم لم تعزل . انتهى .

« ذَٰلِكَ » أى الاقتصار على واحدة أو على التسرى «أَدْنَىٰ» أى أقرب «أَلَّا تَعُولُوا» أى من أن لا تميلوا ولا تجوروا . لانتفائه رأساً بانتفاء محله فى الأول . وانتفاء خطره فى الثانى. بخلاف اختيار العدد فى المهائر . فإن الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والخطر. هذا إن قدر (تعولوا) مضارع عال، بمعنى جار ومال عن الحق . وهو اختيار أكثر المفسرين . ومن الوجوه المحتملة فيه كونه مضارع عال بمعنى كثر عياله . قال فى القاموس : وعال فلان عولاً وعيالة: كثر عياله ، كأعول وأعيل . انتهى . وعلى هذا الوجه اقتصر الإمام المهايمىّ ، قدس سره ، فى تفسيره حيث قال : أى أقرب من أن لا تكثر عيالكم . فيمكن معه القناعة بحيث لا يضطر إلى الجور فى أموال اليتامى . انتهى . وروى هذا التأويل عن زيد بن أسلم وسفيان ابن عيينة والشافعىّ . وأما قول ابن كثير فى هذا التفسير : ههنا نظر ، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السرارى ـ فجوابه (كما قال الرازىّ) من

وجهين : الأول ـ ماذكره القفّال رضي الله عنه . وهو أن الجوارى إذا كثرن فله أن يكلفهن الكسب . وإذا اكتسبن أنفقن على أنفسهن وعلى مولاهن أيضاً . وحينئذ تقل العيال . أما إذا كانت المرأة حرة ، لم يكن الأمر كذلك . فظهر الفرق . الثانى ـ أن المرأة إذا كانت مملوكة، فإذا عجز المولى عن الإنفاق عليها باعها وتخلص منها . أما إذا كانت حرة فلا بدّ له من الإنفاق عليها . والعرف يدل على أن الزوج ما دام يمسك الزوجة فإنها لا تطالبه بالمهر . فإذا حاول طلاقها طالبته بالمهر فيقع الزوج فى المحنة . انتهى .

تنبيهات

الأول ـ قال بعض المفسرين : دلت الآية على أنه يجب بالنكاح حقوق . وتدل على أن من خشى الوقوع فيما لا يجوز ، قبح منه ما دعا إلى ذلك القبيح . فلا يجوز لمن عرف أنه يخون مال اليتيم إذا تزوج أكثر من واحدة ، أن يتزوج أكثر . وكذا إذا عرف أنه يخون الوديعة ولا يحفظها ، فإنه لا يجوز له قبول الوديعة . وتدل على أن العدل واجب بين الزوجات . وأن من عرف أنه لايعدل فإنه لا تحل له الزيادة على واحدة . وتدل على أن زواجه الصغيرة من غير أبيها وجدّها جائز . وللفقهاء مذاهب فى ذلك معروفة .

الثانى ـ فى سرّ ما تشير إليه الآية من إصلاح النسل . قال بعض علماء الاجتماع من فلاسفة المسلمين فى مقالة عنوانها (الإسلام وإصلاح النسل) ما مثاله : ما زال البشر يسعى منذ ألوف من السنين وراء إصلاح ما يقتنيه من خيل وبقر وغنم ليكثر انتفاعه به . فيختار لإناث هذه الحيوانات أفحلا كريمة ، هى على ما يرومه من الصفات ، ليحصل منها على نسل أنفع له من أمهاته . وقد زادت رغبة الناس بهذا العصر فى إصلاح النوع النافع من الحيوان. فضرّبوه ورقوه باختيار الأفحُل المناسبة ، حتى حصلوا على صنف من الخيل الجياد تسابق الرياح فتجرى (١٦) متراً فى الثانية من الزمن . وعلى صنف من البقر تحلب فى اليوم الواحد خمسين أقة . وعلى صنف من المعزى والغنم شعره أو صوفه مثل الحرير نعومةً . ولم يقصر

إصلاحهم على الحيوان ، بل تجاوز إلى النبات . فحصلوا بفضله على أشجار كثيرة الثمر لذيذته . وانتفعوا انتفاعاً كبيراً ، ما تيسر لأسلافهم . نعم إن البشر افتكروا فى إصلاح الحيوان الصامت والنبات ، وعلموا ما فيه من الفوائد ، فسعوا إليه السعى الذى يرضاه العلم ، وجنوا ثمار ذلك السعى . ولكنهم ما افتكروا فى إصلاح ما هو أهمّ من كل ذلك : فى إصلاح الحيوان الذكىّ ، والشرير أكثر من الصالح ، والجبان أكثر من الشجاع ، والكاذب أكثر من الصادق ، والكسلان أكثر من أخى الجد النشيط . ولو أنهم أصلحوا نسلهم لما وجد فى النـاس من يولد مريضاً ويعيش مريضاً . فلا ينتفع بوجوده المجتمع ، وهو كثير . قام من بين هـذا الجيل فيلسوفان : ألمانىّ وانكليزىّ . وأخذا يعلمان بكتاباتهما المبنيّة على البراهين وجوب إصلاح الإنسان لنسل الإنسان . ويعددان فوائد هـذا الإصلاح لنوعه . ويبيّنان للملإ أن الرقىّ المطلوب لايتم إلا به . وطفقا يلومان النـاس على اعتنائهم بإصلاح المواشى وإهمالهم إصلاح أنفسهم . الأمر الذى هو أهم من ذلك كثيراً . وذكرا لذلك طرقاً : (منها) منع أصحاب العاهات والأمراض المزمنة وأولى الجرائم الكبيرة من الزواج لينقطع نسلهم الذى يجىء غالباً على شاكلتهم . (ومنها) إباحة تعدد الزوجات للنابغين من الرجال ليكثر نسلهم . وقالا : إذا جرى المجتمع على هذا الانتخاب الصناعىّ قروناً عديدة كان نسل الإنسان الأخير ، بحكم ناموس الوراثة ، سالماً من الأمراض . حسن الطوية . ليس فيه ميل إلى الشر . قويًّا . ذكىّ الفؤاد . نابغاً فى العلوم التى يتعلمها . كأنه نوع أرقى من الإنسان الحاضر . وكانت أهم طريقة أبدياها للارتقاء المنتظر للبشر فى المستقبل ، هى طريقة تعدد الزوجات فى الحاضر للنابغين من الناس . فإن منع أصحاب الأمراض المزمنة والجناة من الزواج إنما يفيد فى تقوية النسل وجعله ميالاً بالفطرة إلى الخير ليس إلا . لا فى جعله أذكى من آبائه وأسمى مدارك . وتعدد الزوجات للنابغين من المسلمين ، قد جاء به الإسـلام قبل هذين الفيلسوفين بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة . فقد أباح لهم تعددهن إلى أربع . ليكثر نسلهم،

فيكثر عدد النابغين، الذين بهم وحدهم تتم الأعمال الكبيرة فى هذه الدنيا . فهو من مكتشفات هذا الدين الاجتماعية . وقد جعل رضاهن بذلك شرطاً له لئلا يكون فيه إجحاف بحقوقهن . والعاقلة من النساء تفضل أن تكون زوجة لنابغة من الرجال ـ وإن كان ذا زوجات أخر ـ على أن تكون زوجة لرجل أحمق ، وإن اقتصر عليها . لأنها تعلم أن أولادها من الأول ينجبون أكثر منهم من الثانى . وأما غير النابغين منهم فإن الدين يمنعهم من نكاح أكثر من واحدة ، لئلا يكثر نسلهم . قال الله تعالى فى كتابه المبين يخاطب المؤمنين « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » الخطاب فى هذه الآية لعموم الأمة . فهى تأذن لكل أحد من المسلمين أن يتزوج بأكثر من واحدة من النساء إلى أربع . إذا آنس من نفسه القدرة على العدل بينهن . وإلا وجب عليه الاقتصار على واحدة لئلا يجور عليهن . والقدرة على العدل بين أربع من النساء ، متوقفة على عقل كبير وسياسة فى الإدارة وحكمة بالغة فى المعاملة ، لا تتأتى إلا لمن كان نابغة بين الرجال ، ذا مكانة من العقل ترفعه على أقرانه . والرجل النابغة ، إذا تزوج بأكثر من واحدة، كثر نسله فكثر النوابغ . والشعب الذى يكثر نوابغه أقدر على الغلبة فى تنازع البقاء من سائر الشعوب . كما يدلنا عليه التاريخ . ثم خاطب الله ، فى مكان آخر ، الخائفين أن لا يعدلوا بين النساء ؛ وهم غير النوابغ من المسلمين، بقوله : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم. فأمرهم فى هذه الآية ، التى هى فى المعنى تتمة للأولى ، أن لا يقترنوا بأكثر من واحدة لأنهم فى درجة من العقل هى دون درجة النابغين ، لن يستطيعوا معها إتيان العدل بين النساء ، المتوقف على عقل كبير يسهل لصاحبه أن يرضيهن جمعاء . كما يأتيه النابغون والدهاة من الناس. وحرم على هؤلاء ، الذين لم يحوزوا القدرة على العدل ، التزوج بأكثر من واحدة . لئلا يقع الظلم من الرجال على النساء . وهو كثير الصدور من الأوساط ومن كان دونهم فى سلم الارتقاء . ولئلا يكثر نسل غير النابغين . وهو الأهم . فتبقى الأمة فى مكانها من الانحطاط .

وقد تقدم أن الخطاب في قوله تعالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » في الآية الأولى لعموم الأمة . غير أن الشرط بالعدل جعله خاصًّا بالعادلين منهم . وهم النابغون الذين يقتدرون على إتيان العدل بين النساء لوفور عقلهم. والغاية من أمر هذا الصنف من المسلمين أن يتزوجوا بأكثر من واحدة إلى أربع، هو تكثير نسلهم ليستفيد من كثرة أمثالهم المجتمع، كما أسلفنا. ولكن النابغة لا يأتى نسله في الغالب نوابغ ، بمجرد تعدد الزوجات . فإن الزوجة المتوسطة أو المنحطة يكون أولادها في الغالب أوساطاً أو منحطين . وإن كان أبوهم راقياً . فلا تحصل الفائدة المطلوبة من تعدد الزوجات وهي إصلاح النسل . بل يجب للحصول على هذا المطلب الأسنى أن يقترن النابغون بالنابغات . ليكون أولادهم مثلهم نبوغاً أو أنبغ منهم . بحكم سنة الوراثة . وذلك إنما يتم إذا أحسن النابغون اختيار الأزواج . فنكحوا ما طاب لهم . والنابغة لا يطيب له أن يقترن إلا بمن جمعت نبوغاً مثل نبوغه ، إلى حسن رائع . فإن معاشرة الحمقاء ليس مما يطيب للعاقل الراقي . وإن الخير يطلب عند حسان الوجوه . ولذلك قال تعالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » ولم يقل وانكحوا من النساء . وفي قوله تعالى «مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ» إشارة إلى مراتب نبوغ الرجل، الثلاث . فكأنه أراد أن لايتجاوز ، الذي قلّ نبوغه ، الاقترانَ باثنتين . وأن لايتجاوز ، الذي نبوغه متوسط ، الاقترانَ بثلاث. وأن يحل ، للذي نبوغه أعلى من الأولين ، الاقترانُ بأربع .

وأما الخائفون أن لا يعدلوا فيجب أن لا يتجاوزوا الاقتران بواحدة . لأنهم أناس لن يستطيعوا ، مع كل حرصهم ، أن يعدلوا بين النساء . لقصور عقلهم في سياسة المنزل وعدم نبوغهم. وهناك إنسان نبوغه أكبر من كل نبوغ . هو محمد ﷺ . الذي اختاره الله لوفور حكمته رسولًا منه إلى البشر . قد أحل له أن يقترن بأكثر من أربع لقدرته على العدل بينهن .

وأظنك ، بعد قراءة ما أوردت ، تعترف ، إن كنت من المنصفين ، أن الإسلام جاء ،

قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام، بسنّة للزواج ، عليها وحدها يتوقف إصلاح نسل البشر ، الذى أخذ فى هذا القرن أفراد من فلاسفة الغرب يحضّون عليه . تلك السنة هى تعدد الزوجات بعد أن كان الرأى العام فى الغرب يعيبه عليها . هذا هو الإسلام يقرر أكبر قاعدة للترقى . وهو إباحة تعدد الزوجات ، اللاتى يطبن لوفور جمالهن وعقلهن، لأفراد نابغين من المسلمين. لا يخافون لوفور عقلهم أن لا يعدلوا بينهن . ولكن المسلمين لم يأتمروا بأمر الله . فأباحوا هذا التعدد لكل أحد من المسلمين . للخائفين أن لا يعدلوا . ولغير الخائفين . ففسد النسل. والذى أعان على فساده هو كون القدرة عليه أصبحت ، بحكم الجهل ، منحصرة فى المال الذى يجمعه الغاصب والسارق والكاسب . فكثر نسل الظالمين وقلّ نسل العادلين من أهل العقل الراجح . انتهى كلامه . وهو استنباط بديع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

« وَءَاتُوا » أى أعطوا « النِّسَاءَ » أى اللاتى أمر بنكاحهن «صَدُقَاتِهِنَّ» أى مهورهن (جمع صدقة كَسَمُرَة) وهى المهر « نِحْلَةً » أى عطاءً غير مستردّ بحيلة تلجئهن إلى الرد . والنحلة (بكسر النون وضمها ، على ما رواه ابن دريد) اسم مصدر لـ (نحل) . والمصدر النحل (بالضم) وهو العطاء بلا عوض . والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة ، مع كونها واجبة على الأزواج ، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر .

فائدتان :

الأولى ـ هذا الخطاب إما للأزواج ، كما روى عن علقمة والنخعىّ وقتادة ، واختاره الزجاج . فإن ما قبله خطاب للناكحين وهم الأزواج . وإما لأولياء النساء . وذلك لأن العرب

كانت فى الجاهلية لا تعطى النساء من مهورهن شيئاً . ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت: هنيئاً لك النافجة . ومعناه إنك تأخذ مهرها إبلًا فتضمها إلى إبلك فتنفج مالك أى تعظمه . وقال ابن الأعرابى : النافجة ما يأخذه الرجل من الحلوان إذا زوج ابنته . فنهى الله تعالى عن ذلك وأمر بدفع الحق إلى أهله . وهذا قول الكلبى وأبى صالح. واختيار الفراء وابن قتيبة.

الثانية ـ قال القفال رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون المراد من الإتياء المناولة . ويحتمل أن يكون المراد الالتزام . قال تعالى : حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ[1] . والمعنى حتى يضمنوها ويلتزموها . فعلى هذا الوجه الأول ، كان المراد أنهم أمروا بدفع المهور التى قد سموها لهن . وعلى التقدير الثانى كان المراد أن الفروج لا تستباح إلا بعوض يلزم . سواء سمى ذلك أو لم يسم. إلا ما خص به الرسول صلى الله عليه وسلم فى الموهوبة . ثم قال رحمه الله : ويجوز أن يكون الكلام جامعاً للوجهين معاً . والله أعلم .

« فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً » الضمير للصدُقات . وتذكيره لإجرائه مجرى ذلك . أى فإن أحللن لكم من المهر شيئاً بطيبة النفس ، جلباً لمودتكم ، لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم. ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم.

« فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً » أى خذوه وتصرفوا فيه تملكا . وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية . وهنيئاً مريئاً : صفتان من (هنؤ الطعام ومرؤ) إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه . وقيل : الهنىء ما أتاك بلا مشقة ولا تبعة . والمرىء حميد المغبة . وهما عبارة عن التحليل والمبالغة فى الإباحة وإزالة التبعة . لأنهن كالرجال فى التصرفات والتبرعات .

---

(١) [٩/ التوبة/ ٢٩] ونصها : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : للآية ثمرات: منها أنه لابد فى النكاح من صداق . ومنها أنه حق واجب للمرأة كسائر الديون . ومنها أن لها أن تتصرف فيه بما شاءت . ولم تفصل الآية بين أن تقبضه أم لا . ولذا قال بعض الفقهاء : لها بيع مهرها قبل قبضه . ولبعضهم : لاتبيعه حتى تقبضه ، كالملك بالشراء . ومنها أنه يسقط عن الزوج بإسقاطها مع طيب نفسها . وقد رأى شريح إقالتها إذا رجعت، واحتج بالآية . روى الشعبيّ أن امرأة جاءت مع زوجها شريحاً فى عطية أعطتها إياه . وهى تطلب الرجوع . فقال شريح: رد عليها . فقال الرجل أليس قد قال الله تعالى : فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ ؟ فقال : لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه . وروى عنه أيضاً أقيلها فيما وهبت ولا أقيله . لأنهن يُخْدعن . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب إلى قضاته : أن النساء يعطين رغبة ورهبة . فأيما امرأة أعطته ثم أرادت أن ترجع فذلك لها . نقله الرازيّ .

أقول: ما رآه شريح وروى عن عمر ، هو الفقه الصحيح والاستنباط البديع . إذ الآية دلت على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط. حيث بنى الشرط على طيب النفس . ولم يقل : فإن وهبن لكم ، إعلاما بأن المراعَى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيّبة . وبرجوعها يظهر عدم طيب نفسها . وذلك بيّن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً)

«وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» اعلم أن فى الآية وجوهاً يحتملها النظم الكريم .

الأول : أن يراد بالسفهاء اليتامى . كما روى عن سعيد بن جبير . والخِطابُ حينئذ للأولياء . نُهوا أن يؤتوا اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها لقلة عقولهم . لأن السفيه هو الخفيف الحلم. وإنما أضيفت للأولياء ، وهى لليتامى ، تنزيلًا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء . فكأن أموالهم عين أموالهم . لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسيّ والنسبيّ . مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها . كما فى قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(١) . أى لا يقتل بعضكم بعضاً . حيث عبر عن بنى نوعهم بأنفسهم ،مبالغةً فى زجرهم عن قتلهم . فكأن قتلهم قتل أنفسهم . وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناطاً لمعاش أصحابها بجعلها مناطاً لمعاش الأولياء ، بقوله تعالى : الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً . أى جعلها الله شيئاً تقومون وتنتعشون . فلو ضيعتموها لضعتم . وقوله تعالى « وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ » أى اجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم . بأن تتجروا وتتربحوا . حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال . وقوله سبحانه « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً » أى كلاماً ليناً تطيب به نفوسهم. ومنه أن يعدهم عدة جميلة، بأن يقول وليهم: إذا صلحتم ورشدتم، سلمنا إليكم أموالكم. (الوجه الثانى) أن يراد بالسفهاء النساء والصبيان . روى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما . فالخِطاب عام والنهى لكل أحد أن يعمدَ إلى ما خوّله الله تعالى من المال فيعطيه امرأته وأولاده . ثم ينظر إلى أيديهم. وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقلهم واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم . قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول: لا تعمد إلى مالك وما خوّلك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى ما فى أيديهم . ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . (الوجه الثالث) أن

---

(١) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً .

يراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفى بحفظ المال . فيدخل فيـه النساء والصبيان والأيتام وكل من كان موصوفاً بهذه الصفة . قال الرازىّ : وهذا القول أولى . لأن التخصيص بغير دليل لا يجوز . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية الحجر على السفيه . وأنه لا يمكّن من ماله . وأنه ينفق عليـه منه ويكسى ، ولا ينفق فى التبرعات . وأنه يقال له معروف . كـ(إنْ رشدت دفعنا إليك مالك . وإنما يحتاط لنفعك) .

واستدل بعموم الآية من قال بالحجر على السفيه البالغ . سواء طرأ عليه أم كان من حين البلوغ . ومن قال بالحجر على من يُخدع فى البيوع . ومن قال بأن من يتصدق على محجور، وشرط أن يترك فى يده ، لا يسمع منه فى ذلك .

لطيفة :

فى قوله تعالى « الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً » حث على حفظ الأموال وعدم تضييعها .

قال الزمخشرىّ : كان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن . ولأَنْ أترك مالًا يحاسبنى الله عليه ، خير من أن أحتاج إلى الناس . وعن سفيان ، وكانت له بضاعة يقلبها : لولاها لتمندل بى بنو العباس . وعن غيره (وقيل له : إنها تدنيك من الدنيا) : لأن أدنتنى من الدنيا لقد صانتنى عنهـا . وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا . فإنـكم فى زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه . وربما رأوا رجلًا فى جنازة ، فقالوا له : اذهب إلى دكانك . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ، وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ، وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا)

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ » أى اختبروا عقولهم ومعرفتهم بالتصرف « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » أى بأن يحتلموا أو يبلغوا خمس عشرة سنة. لما فى الصحيحين[1] عن ابن عمر قال : إن رسول الله ﷺ عرضه يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازنى . قال نافع : فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا لَحَدٌّ بين الصغير والكبير . وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة . وكذا نبات الشعر الخشن حول العورة ، لما رواه الإمام أحمد[2] وأهل السنن عن عطية القرظىّ قال : عُرِضنا على النبىّ ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل . ومن لم ينبت خلّى سبيله . فكنت فيمن لم ينبت . فخلّى سبيلى . قال الترمذىّ : حسن صحيح . « فَإِنْ ءَانَسْتُم » أى شاهدتم وتبينتم «مِنْهُمْ رُشْدًا» أى صلاحاً فى دينهم وحفظاً لأموالهم . قاله سعيد بن جبير ، وروى عن ابن عباس والحسن وغير واحد من الأئمة « فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » أى من غير تأخير . وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد إما بالتبذير أو بالعجز أو بالفسق ، لا يسلم إليه ماله لأنها مفسدة للمال « وَلَا تَأْكُلُوهَا » أيها الأولياء « إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » أى مسرفين ومبادرين كبرهم . أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم . تفرّطون فى إنفاقها وتقولون : ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا « وَمَنْ كَانَ » من الأولياء « غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ » أى يتنزه عن أكل مال اليتيم . فإنه عليه كالميتة والدم . وليقنع بما آتاه الله تعالى من الرزق « وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا » يمنعه اشتغاله بمال اليتيم عن الكسب . وإهماله يفضى إلى تلفه عليه « فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته . كما رواه ابن أبى حاتم عن عائشة

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات، ١٨ ـ باب بلوغ الصبيان وشهادتهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣١٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

حيث قالت : فليأكل بالمعروف بقدر قيامه عليه . ورواه البخاري[١] أيضاً. قال ابن كثير : قال الفقهاء : له أن يأكل أقل الأمرين أجرة مثله . وقدر حاجته . وهل يرد إذا أيسر ؟ وجهان : أحدهما لا يرد لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً . وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي . لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . وروى الإمام أحمد[٢] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ليس لى مال ولى يتيم . فقال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالًا . ومن غير أن تقى مالك، (أو قال تفدى مالك بماله) ورواه ابن أبي حاتم ولفظه : كل بالمعروف غير مسرف . ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه . وروى ابن حبان في (صحيحه) وابن مردويه في (تفسيره) عن جابر : أن رجلًا قال : يارسول الله ! مما أضرب يتيمى ؟ قال : مما كنت ضاربا منه ولدك. غير وَاقٍ مالك بماله . ولا متأثل منه مالًا . وروى عبد الرزاق عن الثوري عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال : جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال : إن في حجرى أيتاما . وإن لهم إبلًا . ولى إبل وأنا أمنح من إبلى فقراء . فماذا يحل لى من ألبانها ؟ فقال : إن كنت تبغى ضالتها ، وتهنأ جرباها ، وتلوط حوضها ، وتسعى عليها ، فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك في الحلب . ورواه مالك في موطإه[٣] . وبهذا القول ، وهو عدم أداء البدل ،

---

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٢ ـ باب : وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، حديث ١١٠٩ . ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها ، في قوله تعالى : وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ؛ إنها نزلت في والى مال اليتيم إذا كان فقيراً أنه يأكل منه ، مكان قيامه عليه ، بمعروف .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٢١٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٤٩ ـ كتاب صفة النبي ﷺ ، حديث ٣٣ (طبعتنا) =

يقول عطاء بن أبى رباح وعكرمة وإبراهيم النخعىّ وعطية العوفىّ والحسن البصرىّ .

والوجـه الثانى ـ يردّ . لأن مال اليتيم على الحظر . وإنما أبيح للحاجة . فيردّ بدله . كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة . وقد روى ابن أبى الدنيا عن حارثة بن مضرب قال : قال عمر رضى الله عنه : إنى أنزلت نفسى من هذا المال منزلة والى اليتيم . إن استغنيت استعففت . وإن احتجت استقرضت . فإذا أيسرت قضيت. وروى سعيد بن منصور فى (سننه) : حدثنا أبو الأحوص عن أبى إسحاق عن البراء قال قال لى عمر رضى الله عنه: إنما أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم إن احتجت أخـذت منه . فإذا أيسرت رددته . وإن استغنيت استعففت . قال ابن كثير : إسناد صحيح .

وروى البيهقىّ عن ابن عباس نحو ذلك . وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى قوله « فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » يعنى القرض . قال وروى عن عبيدة وأبى العالية وأبى وائل ، وسعيد بن جبير (فى إحدى الروايات) ومجاهد والضحاك والشعبىّ والسدّىّ نحو ذلك . قال الفخر الرازىّ : وبعض أهل العلم خص هـذا الإقراض بأصول الأموال من الذهب والفضة وغيرها . وأما التناول من ألبان المواشى واستخدام العبيد وركوب الدواب فمباح له إذا كان غير مضر بالمال . وهذا قول أبى العالية وغيره . واحتجوا بأن الله تعالى قال : فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، فحـكم فى الأموال بدفعها إليهم . انتهى .

أقول : الـكل محتمل . إذ لا نص من الأصلين على واحد منها . ولا يخفى الورع . « فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » أى بعـد البلوغ والرشد « فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ » أى عند

= وهـذا نصه : عن القاسم بن محمد قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عباس فقال له : إن لى يتيما وله إبل ، أفأشرب من لبن إبله ؟ فقال ابن عباس : إن كنتَ تبغى ضالة إبله ، وتهنأ جَرْباها ، وتَلُطُّ حوضها ، وتسقيها يوم وِردها ، فاشرب غير مضرّ بنسل ، ولا ناهك فى الحلب .

الدفع بأنهم قبضوها. فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة . قال السيوطىّ : فيه الأمر بالإشهاد ندباً. وقيل: وجوباً . ويستفاد منه أن القول فى الدفع قول الصبىّ ، لا الولىّ . فلا يقبل قوله إلا ببينة . « وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً » أى كافياً فى الشهادة عليكم بالدفع والقبض . أو محاسباً. فلا تخالفوا ماأمركم به . ولا يخفى موقع هذا التذييل هنا. فإن الوصىّ يحاسب على مافى يده. وفيه وعيد لولىّ اليتيم وإعلام له أنه تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره . لئلا ينوى أو يعمل فى ماله ما لا يحل ، ويقوم بالأمانة التامة فى ذلك إلى أن يصل إليه ماله . وقد ثبت فى صحيح مسلم[1] أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا ذر إنى أراك ضعيفاً وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم .

ثم ذكر تعالى أحكام المواريث بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا)

« لِلرِّجَالِ » أى الأولاد والأقرباء « نَصِيبٌ » أى حظ « مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » أى المتوفون « وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ » أى المال « أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضًا » أى مقطوعاً واجباً لهم . وإيراد حكم النساء على الاستقلال دون الدرج فى تضاعيف أحكام الرجال ، بأن يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بأمرهن ، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبى الفريقين ، والمبالغة فى إبطال حكم الجاهلية . فإنهم كانوا لا يورّثون النساء والأطفال . ويقولون ، لا يرث إلا من طاعَنَ بالرماح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة . وقد استدل بالآية على توريث ذوى الأرحام لأنهم من الأقربين. وهو استدلال وجيه . ولا حجة لمن حاول دفعه .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)

« وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ » أى قسمة التركة « أُولُوا الْقُرْبَىٰ » ذوو القرابة ممن لا يرث . قدّمهم لأن إعطاءهم صدقة وصلة « وَالْيَتَامَىٰ » الضعفاء بفقد الآباء « وَالْمَسَاكِينُ » الضعفاء بفقد ما يكفيهم من المال « فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ » أى أعطوهم من الميراث شيئاً « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا » بتلطيف القول لهم والدعاء لهم بمثل : بارك الله عليكم .

قال ابن كثير فى هذه الآية: المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين ، قسمةَ مال جزيل ، فإن أنفسهم تتشوق إلى شيء منه ، إذا رأوا هـذا يأخذ ، وهذا يأخذ، وهم يائسون لا يُعْطَوْن شيئاً . فأمر الله تعالى ، وهو الرؤوف الرحيم أن يُرْضخ لهم شيء من الوسط ، يكون برًّا بهم وصدقة عليهم وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم كما قال الله تعالى : كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ(1) . وذم الذين ينقلون المال خفية، خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة ، كما أخبر به عن أصحاب الجنة : إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(2) . فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ

(١) [٦ / الأنعام / ١٤١] ونصها : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [٦٨ / القلم / ١٧] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ .

مِسْكِينٌ(١) . دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا(٢) . فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه . ولهذا جاء في الحديث: ما خالطت الصدقة مالًا إلا أفسدته . أي مَنْعُهَا يكون سبب محق ذلك المال بالكلية . انتهى . وقد روى البخاري(٣) عن ابن عباس ، في الآية قال : هي محكمة وليست بمنسوخة . وفي لفظ عنه : هي قائمة يعمل بها . وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين، في هذه الآية : أنها واجبة على أهل الميراث ماطابت به أنفسهم. وروى عبد الرزاق في (مصنفه) أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبدالرحمن ، وعائشة حية . فلم يدع في الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه . وتلا : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ الآية . وأخرج سعيد بن منصور عن يحيي بن يعمر قال : ثلاث آيات مدنيات محكمات ضيّعهن كثير من الناس : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ، وآية الاستئذان:وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ، وقوله: إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ،الآية. وقد ذكر ههنا كثير من المفسرين آثاراً عن بعض السلف بأن هذه الآية منسوخة بآية الميراث . وهي من الضعف بمكان. ولقد أبعد القائل بالنسخ عن فهم سر الآية فيما ندبت إليه من هذه المكرمة الجليلة . وهي إسعاف من ذكر من المال الموروث، والنفسُ الأبية تنفر من أن تأخذ المال الجزل ، وذو الرحم حاضر محروم، ولا يسعَف ولا يساعَد . فالآية بينة بنفسها، واضحة في معناها وضوح الشمس في الظهيرة ، لا تنسخ أو تقومَ الساعة .

---

(١) [٦٨ / القلم / ٢٣و٢٤] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ١٠] ونصها : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٣ ـ باب:وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ ـ الآية ، حديث ١٣٢٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » فى الآية وجوه : الأول ـ أنها أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم . الثانى : أنها أمر لمن حضر المريض من العوّاد عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم ، فلا يتركوه أن يضرّبهم بصرف المال عنهم : الثالث : أنها أمر للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين ، متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم . هل يجوّزون حرمانهم ؟ الرابع : أنها أمر للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا فى الوصية . كما ثبت فى الصحيحين[١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على سعد بن أبى وقاص يعوده قال : يا رسول الله ! إنى ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة . أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا . قال: فالشطر ؟

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٧ ـ باب رثى النبىّ ﷺ سعد ابن خولة ، حديث ٥٠ ونصه :

عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعودنى فى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى. فقلت: إنى قد بلغ بى من الوجع وأنا ذو مال. ولا يرثنى إلا ابنة . أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال « لا » فقلت : بالشطر ؟ فقال « لا » ثم قال « الثلث. والثلث كبير (أو كثير) إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس . وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها . حتى ما تجعل فى فى امرأتك » .

قال : لا . قال : فالثلث . قال : الثلث . والثلث كثير . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس .

وفى الصحيح[1] عن ابن عباس قال : لو غض الناس إلى الربع ؟ لأن رسول الله ﷺ قال الثلث : والثلث كثير (أو كبير) .

والوجه الأول حكاه ابن جرير من طريق العوفىّ عن ابن عباس . قال ابن كثير : وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل أموال اليتامى ظلما .

ونقل الرازىّ عن القاضى : إن هذا الوجه أليق بما تقدم وتأخر من الآيات الواردة فى باب الأيتام . فجعل تعالى آخر ما دعاهم إلى حفظ مال اليتيم أن ينبههم على حال أنفسهم وذريتهم إذا تصوروها . ولا شك أنه من أقوى الدواعى والبواعث فى هذا المقصود .

قال الزمخشرىّ : والقول السديد من الأوصياء أن لا يؤذوا اليتامى . ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب . ويدعوهم بـ (يابنىّ) ويا ولدى . ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له ، إذا أراد الوصية : لا تسرف فى وصيتك فتجحف بأولادك . مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : إنك أن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . ومن المتقاسمين ميراثهم أن يلطفوا القول ويجملوه للحاضرين .

لطيفة :

لابد من حمل قوله تعالى (تركوا) على المشارفة . ليصح وقوع (خافوا) خبراً له . ضرورة أنه لاخوف بعد حقيقة الموت وترك الورثة . ونظيره: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٣ ـ باب الوصية بالثلث ، حديث١٣١٨ .

بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ[1] . أى شارفن بلوغ الأجل . ولهذا المجاز ، فى التعبير عن المشارفة على الترك ، بالترك ، سِرٌّ بديع . وهو التخويف بالحالة التى لايبقى معها مطمع فى الحياة ، ولا فى الذبّ عن الذرية الضعاف . وهى الحالة التى ، وإن كانت من الدنيا ، إلا أنها لقربها من الآخرة ، ولصوقها بالمفارقة ، صارت من حيِّزها ، ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك . كذا فى الانتصاف .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : إنه يجب أن يحب الإنسان لأخيه مايحب لنفسه . ويحب لذرية غيره من المؤمنين مايحب لذريته . وأن على ولىّ اليتيم أن لايؤذى اليتيم . بل يكلمه كما يكلم أولاده بالأدب الحسن والترحيب . ويدعو اليتيم : يا بنىّ ، يا ولدى . وقد جاء فى الرقة على الأيتام آثار كثيرة . اهـ .

وفى الآية إشارة إلى إرشاد الآباء ، الذين يخشون ترك ذرية ضعاف ، بالتقوى فى سائر شؤونهم حتى تحفظ أبناؤهم وتغاث بالعناية منه تعالى . ويكون فى إشعارها تهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله تعالى . وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع . وأن الرجال الصالحين يحفظون فى ذريتهم الضعاف . كما فى آية : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا[2] ، إلى آخرها . فإن الغلامين حُفظا ، ببركة صلاح أبيهما ، فى أنفسهما ومالهما .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣١] ونصها : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللهِ هُزُوًا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [١٨ / الكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا » أى على وجه الظلم من الورثة ، أو أولياء السوء وقضاته ، بخلاف أكل الفقير الناظر فى أموالهم بقدر أجرته، كما تقدم « إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا » أى ما يجرّ إلى النار ويؤدّى إليها «وَسَيَصْلَوْنَ» أى فى القيامة «سَعِيرًا» أى ناراً مستعرة . روى ابن حبان فى (صحيحه) وابن مردويه وابن أبى حاتم عن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال: يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً. قيل: يا رسول الله! من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، الآية .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فى بطونهم، أى ملء بطونهم . يقال : أكل فلان فى بطنه وفى بعض بطنه . قال الشاعر[١] :

كلوا فى بعض بطنكمو تعفوا　　　فإن زمانكم زمن خميص

قال الناصر : ومثله : قد بدت البغضاء من أفواههم أى شرقوا بها وقالوها بملء أفواههم. ويكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير . ولأجل تأكيد التشنيع على الظالم لليتيم فى ماله، خص الأكل . لأنه أبشع الأحوال التى يتناول مال اليتيم فيها . والله أعلم .

= فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

(١) قال فى الأساس : ومن المجاز : زمن خميص ، أى ذو مجاعة .. وأنشد البيت .

تنبيه :

روى أبو داود[1] والنسائيّ والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد . فاشتد عليهم ذلك . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ[2] . الآية. فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . وقد مضى ذلك في سورة البقرة .

قال الرازيّ رحمه الله : ومن الجهال من قال : صارت هـذه الآية منسوخة بتلك . وهو بعيد . لأن هذه الآية في المنع من الظلم . وهـذا لا يصير منسوخاً . بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى ، إن كان على سبيل الظلم ، فهو من أعظم أبواب الإثم . كما في هذه الآية . وإن كان على سبيل التربية والإحسان ، فهو من أعظم أبواب البر ، كما في قوله : وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ .

وقال رحمه الله قبل ذلك : ما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته تعالى وكثرة عفوه وفضله . لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى ، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٧ ـ باب مخالطة اليتيم في الطعام ، حديث ٢٨٧١ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » شروع فى تفصيل أحكام المواريث المجملة فى قوله تعالى : لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ الخ . قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية الكريمة والتى بعدها والآية التى هى خاتمة هذه السورة ، هن آيات علم الفرائض . وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة فى ذلك مما هو كالتفسير لذلك . انتهى. والمعنى: يأمركم الله ويعهد إليكم فى شأن ميراث أولادكم بعد موتكم « لِلذَّكَرِ »أى منهم« مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ »أى نصيبهما اجتماعاًوانفراداً . أما الأول فانه يعدّ كل ذكر بأنثيين . فى مثل ابن مع بنتين . وابن ابنٍ مع بنتى ابن . وهكذا فى السافلين . فيضعف نصيبه ويأخذ سهمين . كما أن لهما سهمين . وأما الثانى فإن له الكل وهو ضعف نصيب البنت الواحدة . لأنه جعل لها فى حال انفرادها النصف. فاقتضى ذلك أن للذكَر ، عند انفراده ، مثلْى نصيبها عندانفرادها، وذلك الكامل . فالمذكور هنا ميراث الذكر مطلقاً. مجتمعاً مع الإناث ومنفرداً . كما حققه صاحب (الانتصاف) .

تنبيه :

قال السيوطىّ : استدل بالآية من قال بدخول أولاد الابن فى لفظ (الأولاد) للإجماع على إرثهم ، دون أولاد البنت .

لطائف :

الأولى :

وجه الحكمة فى تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق . فهو إلى المال أحوج . ولأنه لو كمل نصيبها، مع أنها قليلة العقل، كثيرة الشهوة لأتلفته فى الشهوات إسرافاً. ولأنها قد تنفق على نفسها فقط، وهو على نفسه وزوجته .

الثانية :

لم يقل : للذكر ضعف نصيب الأنثى ، لأن الضعف يصدق على المثلين فصاعداً . فلا يكون نصًّا . ولم يقل : للأنثيين مثل حظ الذكر ، ولا للأنثى نصف حظ الذكر ، تقديماً للذكر بإظهار مزيته على الأنثى ، ولم يقل : للذكر مِثْلَا نصيب الأنثى ، لأن المثل فى المقدار لا يتعدد إلا بتعدد الأشخاص . ولم يعتبر ههنا .

الثالثة :

إيثار اسمى (الذكر والأنثى) على ما ذكر أولًا من الرجال والنساء ، للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق ، من غير دخل للبلوغ والكبر فى ذلك أصلًا. كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورّثون الأطفال، كالنساء .

الرابعة :

استنبط بعضهم من هذه الآية أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها . حيث أوصى الوالدين بأولادهم . فعلم أنه أرحم بهم منهم . كما جاء فى الحديث الصحيح(١) وقد رأى امرأة

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه :

عن عمر بن الخطاب أنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبى . فإذا امرأة من السبى ، تبتغى ، إذا وجدت صبيا فى السبى ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال لنا =

من السبي، فرق بينها وبين ولدها فجعلت تدور على ولدها . فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟ قالوا : لا . يا رسول الله . قال: فوالله ! لله أرحم بعباده من هذه بولدها.

« فَإِنْ كُنَّ » أي الأولاد . والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى «نِسَاءً» يعني بنات خلصاً ليس معهن ذكر « فَوْقَ اثْنَتَيْنِ » خبر ثان أو صفة لنساء . أي نساء زائدات على اثنتين « فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ » أي المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام .

تنبيه :

ظاهر النظم القرآني أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعداً حيث لا ذكر معهن. ولم يسم للبنتين فريضة . وقد اختلف أهل العلم في فريضتهما . فذهب الجمهور إلى أن لهما ، إذا انفردتا عن البنين ، الثلثين . وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف . احتج الجمهور بالقياس على الأختين . فإن الله سبحانه قال في شأنهما : فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ . فألحقوا البنتين بالأختين في استحقاقهما الثلثين . كما ألحقوا الأخوات ، إذا زدن على اثنتين ، بالبنات، في الاشتراك في الثلثين . وقيل : في الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين . وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث ، كان للابنتين، إذا انفردتا، الثلثان . هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش والمبرد . قال النحاس : وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط . لأن الاختلاف في البنتين إذا انفردتا عن البنين . وأيضاً للمخالف أن يقول : إذا ترك بنتين وابناً فللبنتين النصف . فهذا دليل على أن هذا فرضهما . ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنت الواحدة النصف إذا انفردت ، بقوله : وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، كان فرض البنتين، إذا انفردتا ، فوق فرض الواحدة . وأوجب القياس على الأختين

= رسول الله ﷺ « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » قلنا : لا ، والله ! وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول الله ﷺ « لله أرحم بعبده من هذه بولدها » .

الاقتصار للبنتين على الثلثين . وقيل إن (فوق) زائدة . والمعنى : إن كن نساء اثنتين . كقوله تعالى : فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ[١] ، أى الأعناق . ورد هذا النحاس وابن عطية . فقالا : هو خطأ . لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز فى كلام العرب أن تزاد لغير معنى . قال ابن عطية : ولأن قوله (فوق الأعناق) هو الفصيح وليست (فوق) زائدة بل هى محكمة المعنى . لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام فى المفصل دون الدماغ . كما قال دريد بن الصمة : اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم . فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال . انتهى . وأيضاً لو كان لفظ (فوق) زائداً كما قالوا ، لقال : فلهما ثلثا ما ترك ، ولم يقل : فلهن ثلثا ما ترك . وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى[٢] وابن ماجه وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن حبان

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ونصها : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٢٧ ـ كتاب الفرائض ، ٣ ـ باب ماجاء فى ميراث البنات. وهذا نصه .

أما أبو داود فأخرجه فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ٤ ـ باب ما جاء فى الصلب ، حديث ٢٨٩١ وهاكم نصه :

عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى جئنا امرأة من الأنصار فى الأسواق . فجاءت المرأة بابنتين فقالت: يا رسول الله ! هاتان بنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم أحد . وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما كله . فلم يدع لهما مالا إلا أخذه . فما ترى يا رسول الله ! فوالله ! لا تنكحان أبدا إلا ولهما مال . فقال رسول الله ﷺ « يقضى الله فى ذلك » قال ونزلت سورة النساء : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ .. الآية . فقال رسول الله ﷺ «ادعوا لى المرأة وصاحبها» فقال لعمهما «أعطهما الثلثين. وأعط أمهما الثمن. وما بقى فلك». (قال أبو داود) : أخطأ فيه . هما ابنتا سعد بن الربيع . وثابت بن قيس قتل يوم اليمامة.

والحاكم والبيهقيّ فى (سننه) عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! هاتان ابنتا سعد بن الربيع . قتل أبوهما معك يوم (أُحُد) شهيداً . وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا . ولا تنكحان إلّا ولهما مال . فقال : يقضى الله فى ذلك . فنزلت آية الميراث . فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : أعط ابنتىْ سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك . أخرجوه من طرق ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر . قال الترمذيّ : هذا حديث صحيح لانعرفه إلا من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل . وقد رواه شريك أيضا عن عبد الله بن محمد بن عقيل من حديثه . كذا فى (فتح البيان) « وَإِنْ كَانَتْ » أى المولودة « وَاحِدَةً » أى امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت « فَلَهَا النِّصْفُ » أى نصف ماترك . ولم يكمل لها لأنها ناقصة . ولذلك لم يُجْعل لها الثلثان اللذان هما نصيب الابن معها . ثم ذكر ، بعد ميراث الأولاد ، ميراث الوالدين فقال « وَلِأَبَوَيْهِ » أى الميت . وهو كناية عن غير مذكور . وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه . والمراد بالأبوين الأب والأم . والتثنية على لفظ الأب للتغليب « لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ » من المال « إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ » ذكرٌ أو أنثى « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ » للميت « وَلَدٌ » ذكرٌ أو أنثى « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ » أى ثلث المال مما ترك . والباقى للأب . للذكر مثل حظ الأنثيين . لكن قرر لها الثلث تنزيلا لها منزلة البنت مع الابن ، لا منفردة ، حطّاً لها عن درجتها ، لقيام البنت مقام الميت فى الجملة . قاله المهايميّ « فَإِنْ كَانَ لَهُ » أى للميت « إِخْوَةٌ » من الأب والأم . أو من الأب أو من الأم ، ذكوراً أو إناثاً « فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ » يعنى لأم الميت سدس التركة « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ » خبر مبتدأ محذوف . أى هذه الفروض المذكورة إنما تقسم للورثة من بعد إنفاذ وصية يوصى بها الميت إلى الثلث . ومن بعد قضاء دين على الميت . وقرىء فى (السبع) : يوصَى مبنياً للمفعول وللفاعل .

قال الحافظ ابن كثير : أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدَّين مقدم على الوصية . وروى أحمد والترمذيّ[١] وابن ماجة وأصحاب التفاسير من حديث ابن إسحق عن الحرث ابن عبد الله الأعور عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنكم تقرءون هذه الآية : من بعد وصية يوصى بها أو دين . وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية . وإن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات . الرجل يرث أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه .

ثم قال الترمذيّ : لا نعرفه إلا من حديث الحرث . وقد تكلم فيه بعض أهل العلم . لكن كان حافظاً للفرائض ، معتنياً بها وبالحساب . فالله أعلم .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : في الآية أن الميراث إنما يقسم بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا . وفيها مشروعية الوصية . واستدل بتقديمها في الذِّكر من قال بتقديمها على الدين في التركة . وأجاب من أخرها بأنها قدمت لئلا يتهاون بها . واستدل بعمومها من أجاز الوصية بما قل أو كثر ، ولو استغرق المال . ومن أجازها للوارث والكافر ، حربيًّا أو ذميًّا . واستدل بها من قال . إن الدَّين يمنع انتقال التركة إلى ملك الوارث . ومن قال إن دَين الحج والزكاة مقدم على الميراث ، لعموم قوله : أَوْ دَيْنٍ . انتهى .

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجة[٢] بسند صحيح عن سعد بن الأطول إن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم . وترك عيالًا . فأردت أن أنفقها على عياله . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إن أخاك محتبس بدَينه فاقض عنه . فقال : يا رسول الله ! قد أديت عنه . إلّا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة . قال : فأعطها فإنها محقة .

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٢٧ ـ كتاب الفرائض ، ٥ ـ باب ما جاء في ميراث الإخوة من الأب والأم .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٥ ـ كتاب الصدقات ، ٢٠ ـ باب أداء الدين عن الميت ، حديث ٢٤٣٣ (طبعتنا) .

لطيفة :

(فائدة) وصف الوصية بقوله : يوصى بها ، هو الترغيب فى الوصية والندب إليها . وإيثار (أو) المفيدة للإباحة فى قوله : أو دين ، على (الواو) للدلالة على تساويهما فى الوجوب . وتقدمهما على القسمة مجموعين أو منفردين . وتقديم الوصية على الدَّين ، ذِكْراً مع تأخرها عنه حكماً ، ما قدمنا من إظهار كمال العناية بتنفيذها ، لكونها مظنة التفريط فى أدائها ، ولاطّرادها . بخلاف الدين ـ أفاده أبو السعود « ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً » أى لا تعلمون مَن أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم فى عاجلكم وآجلكم . والمعنى : فرض الله الفرائض، على ما هو، على حكمة . ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم . فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة . والتفاوت فى السهام بتفاوت المنافع . وأنتم لا تدرون تفاوتها . فتولى الله ذلك فضلًا منه . ولم يكلها إلى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير . وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة لأمر القسمة ، وردّ لما كان فى الجاهلية .

قال السمرقندىّ : ويقال: معنى الآية أن الله تعالى علمكم قسمة المواريث . وأنكم لا تدرون أيهم أقرب موتاً فيرث منه الآخر . انتهى. « فَرِيضَةً مِنَ اللهِ » نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل محذوف . أى فرض الله ذلك فرضا . أو لقوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللهُ . فإنه فى معنى : يأمركم ويفرض عليكم « إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً » أى بالمصالح والرتب « حَكِيماً » أى فى كل ماقضى وقدر . فيدخل فيه بيان أنصباء الذكر والأنثى، دخولًا أوليًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

« وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ » من المال « إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ » ذكر أو أنثى ، منكم أو من غيركم « فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ » على نحو ما فصّل « فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ » من المال . والباقى لباقى الورثة « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ » أى من بعد استخراج وصيتهن وقضاء دينهن « وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ » من المال « إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ » ذكر أو أنثى ، منهن أو من غيرهن « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ » على النحو الذى فصل « فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ » الكلام فيه كما تقدم . وفى تكرير ذكر الوصية والدين ، من الاعتناء بشأنهما ، ما لا يخفى .

لطيفة :

فى الآية ما يدل على فضل الرجال على النساء . لأنه تعالى حيث ذكر الرجال ، فى هذه الآية ، ذكرهم على سبيل المخاطبة . وحيث ذكر النساء ذكرهن على سبيل المغايبة . وأيضاً خاطب الله الرجال فى هذه الآية سبع مرات . وذكر النساء فيها على سبيل الغيبة أقل من ذلك . وهذا يدل على تفضيل الرجال على النساء ، كما فضلوا عليهن فى النصيب . كذا يستفاد من

الرازى". «وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ » أى تورث كذلك « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا »أى الإخوة والأخوات من الأم «أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ» أى من واحد «فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ » يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم . قال المجد فى (القاموس) : الكلالة: من لا ولد له ولا والد. أو ما لم يكن من النسب لحًّا. أو مَن تكلل نسبه بنسبك. كابن العم وشبهه. أو هى الإخوة للأم . أو بنو العم الأباعد . أو ما خلا الوالد والولد. أو هى، من العَصَبَة من ورث منه الإخوة للأم . فهذه سبعة أقوال محكية عن أئمة اللغة . وقال ابن برّى[1] : اعلم أن الكلالة فى الأصل هى مصدر (كلّ الميت يكلّ كلًّا ، وكلالة) فهو كلٌّ إذا لم يخلف ولداً ولا والداً يرثانه . هذا أصلها . قال : ثم قد تقع الكلالة على العين دون الحدث . فتكون اسماً للميت الموروث وإن كانت فى الأصل اسماً للحدث . على حد قولهم : هذا خلق الله . أى مخلوق الله . قال : وجاز أن تكون اسما للوارث على حد قولهم : رجل عدل أى عادل . وماء غور أى غائر . قال : والأول هو اختيار البصريين من أن الكلالة اسم للموروث . قال : وعليه جاء التفسير فى الآية ، أن الكلالة الذى لم يخلف ولداً ولا والداً . فإذا جعلتها للميت كان انتصابها فى الآية على وجهين: أحدهما ـ أن تكون خبر (كان) تقديره : وإن كان الموروث كلالة، أى كَلًّا ليس له ولد ولا والد . والوجه الثانى ـ أن يكون انتصابها على الحال من الضمير فى (يورث) أى يورث وهو كلالة . وتكون (كان) هى التامة التى ليست مفتقرة إلى خبر . قال : ولا يصح أن تكون الناقصة ، كما ذكره الحوفىّ ، لأن خبرها لا يكون إلا الكلالة . ولا فائدة فى قوله (يورث) . والتقدير : إن وقع أو حضر رجل يموت كلالة ، أى يورث وهو كلالة، أى كلّ . وإن جعلتها للحدث دون العين ، جاز انتصابها على ثلاثة أوجه : أحدها ـ أن يكون انتصابها على المصدر ، على تقدير حذف مضاف ، تقديره : يورث وراثة كلالة . كما قال الفرزدق[2] : ورثتم قناة الملك لا عن كلالة . أى ورثتموها

(١) اللسان ، الصفحة ٥٩٣ من المجلد الحادى عشر (طبع بيروت) .

(٢) البيت :

وَرِثْتُمْ قَنَاةَ الْمُلْك غَيْرَ كَلَالَةٍ ... عَنِ ابْنِ مَنَافٍ عَبْدِ شَمْسٍ وهَاشِمِ

وراثة قرب ، لا وراثة بعد . وقال عامر بن الطفيل:

وما سَوَّدَتْنى عامِرٌ عَنْ كَلَالَةٍ أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

ومنه قولهم: هو ابن عَمٍّ كلالة، أى بعيد النسب . فإذا أرادوا القرب قالوا هو ابن عم دِنْيَة.
والوجه الثانى ـ أن تكون الكلالة مصدراً واقعاً موقع الحال . على حد قولهم : جاء زيد ركضاً ، أى راكضاً . وهو ابن عمى دنية ، أى دانياً . وابن عمى كلالة أى بعيداً فى النسب .
والوجه الثالث ـ أن تكون خبر (كان) على تقدير حذف مضاف . تقديره : وإن كان الموروث ذا كلالة . قال : فهذه خمسة أوجه فى نصب الكلالة . أحدها ـ أن تكون خبر (كان) والثانى ـ إن تكون حالًا . الثالث ـ أن تكون مصدرًا ، على تقدير حذف مضاف . الرابع ـ أن تكون مصدراً فى موضع الحال . الخامس ـ أن تكون خبر (كان) على تقدير حذف مضاف . فهذا هو الوجه الذى عليه أهل البصرة والعلماء باللغة . أعنى أن الكلالة اسم للموروث دون الوارث . قال : وقد أجاز قوم من أهل اللغة، وهم أهل الكوفة ، أن تكون الكلالة اسماً للوارث . واحتجوا فى ذلك بأشياء : منها قراءة الحسن: وإن كان رجل يورِث كلالة. (بكسر الراء) . فالكلالة ، على ظاهر هذه القراءة ، هى ورثة الميت . وهم الإخوة للأم .
واحتجوا أيضا بقول جابر أنه قال: يارسول الله ! إنما يرثنى كلالة. فإذا ثبت حجة هذا الوجه، كان انتصاب كلالة أيضاً على مثل ما انتصبت فى الوجه الخامس من الوجه الأول . وهو أن تكون خبر (كان) ويقدر حذف مضاف ، ليكون الثانى هو الأول ، تقديره : وإن كان رجل يورِث ذا كلالة، كما تقول ذا قرابة ، ليس فيهم ولد ولا والد . قال : وكذلك إذا جعلته حالًا من الضمير فى (يورث) تقديره : ذا كلالة . قال : وذهب ابن جنىّ ، فى قراءة من قرأ

= قائله الفرزدق من قصيدة مطلعها :

تَحِنُّ بزوراء المدينة ناقتى حنين عَجُولٍ تبتغى البَوَّ رائِمِ

الديوان صفحة ٨٥٢

يورث كلالة ويورّث كلالة ، أن مفعولى (يورث ويورّث) محذوفان أى يورث وارثه ماله. قال : فعلى هذا يبقى (كلالة) على حاله الأولى التى ذكرتها . فيكون نصبه على خبر (كان) أو على المصدر . وتكون (الكلالة) للموروث لا للوارث. قال : والظاهر أن الكلالة مصدر يقع على الوارث وعلى الموروث . والمصدر قد يقع للفاعل تارة وللمفعول أخرى . والله أعلم .

وقال ابن الأثير: الأب والابن طرفان للرجل . فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه . فسمى ذهاب الطرفين كلالة .

وفى الأساس : ومن المجاز كلّ فلان كلالة، إذا لم يكن ولداً ولا والداً . أى كلّ عن بلوغ القرابة الماسة .

وقال الأزهرىّ : ذكر الله الكلالة فى سورة النساء فى موضعين: أحدهما ـ قوله : وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ . والموضع الثانى قوله تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، الآية[1] . فجعل الكلالة هنا الأخت للأب والأم ، والإخوة للأب والأم . فجعل للأخت الواحدة نصف ما ترك الميت وللأختين الثلثين . وللإخوة والأخوات جميع المال بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثيين . وجعل للأخ والأخت من الأم ، فى الآية الأولى ، الثلث . لكل واحد منهما السدس . فبين بسياق الآيتين أن الكلالة تشتمل على الإخوة للأم مرة، ومرة على الإخوة والأخوات للأم والأب. ودل قول الشاعر . أن الأب ليس بكلالة، وأن سائر الأولياء من العصبة بعد الولد كلالة، وهو قوله :

فإن أبا المرء أحمى له ومولى الكلالة لا يغضب

(١) [٤ / النساء / ١٧٦] ونصها : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أراد أن أباالمرء أغضب له إذا ظُلِمَ . وموالى الـكلالة، وهم الإخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غَضَبَ الأب . انتهى .

وروى ابن جرير(١) وغيره عن الشعبيّ قال : قال أبو بكر رحمة الله عليه : إنى قد رأيت فى الـكلالةرأيا. فإن كان صوابا فمن الله وحده لاشريك له . وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان. والله برىء منه . أن الـكلالة ما خلا الولد والوالد .

تنبيه .

اتفق العلماء على المراد من قوله تعالى : وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ـ الأخ والأخت من الأم . وقرأ سعد بن أبى وقاص وغـيره من السلف : وله أخ أو أخت من أم . وكذا فسرها أبو بكر الصديق رضى الله عنه فيما رواه قتادة عنه . قال الـكرخيّ : القراءة الشاذة كخبر الآحاد. لأنها ليست من قبل الرأى. وأطلق الشافعىّ الاحتجاج بها ، فيما حكاه البويطىّ عنه ، فى باب (الرضاع) وباب (تحريم الجمع) وعليه جمهور أصحابه. لأنها منقولة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ولا يلزم من انتفاء خصوص قرآنيتها ، انتفاء خصوص خبريتها. وقال القرطبيّ : أجمع العلماء على أن الإخوة ههنا هم الإخوة لأم. قال : ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب والأم ، أو للأب ، ليس ميراثهم هكذا . فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين فى قوله تعـالى : وَإِن كَانُوٓا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ـ هم الإخوة لأبوين ، أو لأب .

لطيفة :

إفراد الضمير فى قوله تعالى : وَلَهُۥٓ أَخٌ . إما لعوده على الميت المفهوم من المقام ، أو على واحد منهما ، والتذكير للتغليب . أو على الرجل ، واكتفى بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيـه « مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ » حال من

(١) الأثر رقم ٨٧٤٥

ضمير « يُوصِي » (على قراءته مبنيا للفاعل) أى غير مدخل الضرر على الورثة . كأن يوصى بأكثر من الثلث . ومن فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور (على قراءته مبنياً للمجهول) وتخصيص هذا القيد بهذا المقام، لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم. وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير[1] عن ابن عباس مرفوعاً: الضرار فى الوصية من الكبائر. ورواه النسائى فى (سننه) عن ابن عباس موقوفاً . وهو الصحيح كما قال ابن جرير « وَصِيَّةً مِنَ اللهِ » مصدر مؤكد لفعل محذوف . وتنوينه للتفخيم . كقوله : فَرِيضَةً مِنْ اللهِ . أو منصوب بـ(غير مضار) على أنه مفعول به . فإنه اسم فاعل معتمد على ذى الحال . أو منفى معنى . فيعمل فى المفعول الصريح . ويعضده القراءة بالإضافة . أى غير مضار لوصية الله وعهده فى شأن الورثة « وَاللهُ عَلِيمٌ » بالمضار وغيره « حَلِيمٌ » لا يعاجل بالعقوبة ، فلا يغتر بالإمهال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« تِلْكَ » الأحكام « حُدُودُ اللهِ » أحكامه وفرائضه المحدودة التى لا تجوز مجاوزتها . « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ » فى قسمة المواريث وغيرها « يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت شجرها ومساكنها « خَالِدِينَ فِيهَا » لا يموتون ولا يخرجون « وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » النجاة الوافرة بالجنة .

---

(١) الأثر رقم ٨٧٨٤

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

« وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » فى قسمة المواريث وغيرها « وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ » بتجاوز أحكامه وفرائضه بالميل والجور « يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » أى لكونه غيّرَ ماحكم الله به، وضادّ الله فى حكمه . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به . ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم . وقد روى أبو داود[١] فى باب (الإضرار فى الوصية) من (سننه) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الرجل ليعمل، أو المرأة، بطاعة الله ستين سنةً . ثم يحضرهما الموت فيضارّان فى الوصية . فتجب لهما النار . وقرأ أبو هريرة : من بعد وصية .. .. حتى بلغ ، ذلك الفوز العظيم . ورواه الترمذىّ وابن ماجه . ورواه الإمام أحمد[٢] بسياق أتم ولفظه : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة . فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله ، فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة . فيعدل فى وصيته ، فيختم له بخير عمله . فيدخل الجنة . قال ثم يقول أبو هريرة : واقرؤا إن شئتم : تِلْكَ حُدُودُ اللهِ . إلى قوله : عَذَابٌ مُهِينٌ .

ثم بين تعالى بعضاً من الأحكام المتعلقة بالنساء ، إثرَ بيان أحكام المواريث بقوله :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٣ ـ باب ماجاء فى كراهية الإضرار فى الوصية ، حديث ٢٨٦٧

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٧٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

« وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ » أي الخصلة البليغة في القبح ، وهي الزنى، حال كونهن « مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ » أي فاطلبوا من القاذفين لهن « أَرْبَعَةً مِنْكُمْ » أي من المسلمين « فَإِنْ شَهِدُوا » عليهن بها « فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ » أي احبسوهن فيها ولا تمكنوهن من الخروج، صوناً لهن عن التعرض بسببه للفاحشة « حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ » أي يستوفي أرواحهن . وفيه تهويل للموت وإبراز له في صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيها . أو يتوفاهن ملائكة الموت « أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » أي يشرع لهن حكماً خاصاً بهن . ولعل التعبير عنه بـ(السبيل) للإيذان بكونه طريقاً مسلوكاً . قاله أبو السعود .

وقد بينت السنة أن الله تعالى أنجز وعده ، وجعل لهن سبيلًا . وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أنزل الوحي كرب له وتربّد وجهه. وإذا سرّي عنه قال : خذوا عني خذوا عني (ثلاث مرار) قد جعل الله لهن سبيلًا . الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة والرجم . والبكر جلد مائة ونفي سنة . هذا لفظ الإمام أحمد(١) وكذا رواه أبو داود الطيالسيّ(٢) ولفظه عن عبادة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا نزل عليه الوحي ، عرف ذلك فيه . فلما نزلت « أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » وارتفع الوحي، قال رسول صلى الله عليه وسلم : خذوا حذركم. قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة. والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة.

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .
(٢) أخرجه في مسنده . الحديث رقم ٥٨٤

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا)

« وَاللَّذَانِ » : بتخفيف النون وتشديدها « يَأْتِيَانِهَا » أى الفاحشة « مِنْكُمْ » أى الرجال « فَآذُوهُمَا » بالسب والتعيير ، ليندما على ما فعلا « فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا » أى أعمالهما « فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا » بقطع الأذية والتوبيخ، وبالإغماض والستر . فإن التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب « إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا » أى على من تاب « رَحِيمًا » واسع الرحمة . وهو تعليل للأمر بالإعراض .

تنبيه :

هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ ، بعضه بالكتاب وبعضه بالسنة . قال الإمام الشافعىّ فى الرسالة فى (أبواب الناسخ والمنسوخ) بعد ذكره هاتين الآيتين [٣٧٦] : ثم نسخ الله الحبس والأذى فى كتابه فقال: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .

[٣٧٧] فدلت السنة على أن جلد المائة للزانيين البكرين (لحديث عبادة بن الصامت المتقدم) .

ثم قال : [٣٨٠] فدلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جلد المائة ثابت على البكرين الحرّين ، ومنسوخ عن الثيبين . وأن الرجم ثابت على الثيبين الحرين. ثم قال :

[٣٨١] لأن قول رسول الله ﷺ : خذوا عنى، قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام. والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ـ أوّلُ ما نزل. فنُسِخَ به الحبسُ والأذى عن الزانيين .

[٣٨٢] فلما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً ولم يجلده ، وأمر أُنيساً أن يغدو على امرأة الأسلمىّ ، فإن اعترفت رجمها ـ دل على نسخ الجلد عن الزانيين الحرين الثيبين . وثبت الرجم عليهما . لأن كل شىء [أبدًا] بعد أول فهو آخر. انتهى(١) .

(١) رسالة الشافعىّ بتحقيق أحمد محمد شاكر . وهذه أرقام فقرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ » استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على إطلاقه ، كما ينبىء عنه وصفه تعالى بكونه تواباً رحيماً . بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم . قوله تعالى « التَّوْبَةُ » مبتدأ وقوله تعالى « لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ » خبره . وقوله تعالى « عَلَى اللهِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار . ومعنى كون التوبة عليه سبحانه ، صدورُ القبول عنه تعالى . وكلمة (على) للدلالة على التحقق البتة بحكم سبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه . والمراد بالسوء المعصية ، صغيرة أو كبيرة ـ كذا فى أبى السعود. « بِجَهَالَةٍ » متعلق بمحذوف وقع حالًا من فاعل (يَعْمَلُونَ) أى متلبسين بها. أى جاهلين سفهاء . أو بـ(يَعْمَلُونَ) على أن الباء سببية . أى يعملونه بسبب الجهالة . والمراد بالجهل السفه بارتكاب ما لا يليق بالعاقل . لا عدم العلم . فإن من لا يعلم لا يحتاج إلى التوبة. والجهلُ بهذا المعنى حقيقة واردة فى كلام العرب. كقوله(١) : فنجهل فوق جهل الجاهلينا . « ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » أى من زمان قريب. وظاهر الآية اشتراط وقوع التوبة عقب المعصية بلا تراخ. وإنها بذلك تنال درجة قبولها المحتم تفضلًا . إذ بتأخيرها وتسويفها

---

(١) البيت : ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

قال التبريزىّ : معناه نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله . فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى . وهى تخالفها فى المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأحضر من اختلافهما .

وهذا البيت آخر معلقة عمرو بن كلثوم التى أولها :

ألا هبّى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

يدخل فى زمرة المصرّين . فيكون فى الآية إرشاد إلى المبادرة بالتوبة عقب الذنب . والإنابة إلى المولى بعده فوراً . ووجوب التوبة على الفور مما لا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان . وهو واجب على الفور . وتتمته فى (الإحياء) .

إذا عرفت هذا ، فما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد من قوله تعالى (من قريب) ما قبل حضور الموت ـ بعيد من لفظ الآية وسرها التى أرشدت إليه . أعنى البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان ، عياذاً بالله تعالى . (فإن قيل) : من أين يستفاد قبول التوبة قبل حضور الموت؟ (قلنا) يستفاد من الآية التى بعدها، ومن الأحاديث الوافرة فى ذلك. لا من قوله تعالى (مِنْ قَرِيبٍ) بما أولوه . وذلك لأن الآية الثانية وهى قوله تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ ـ صريحة فى أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة. فبقى ماوراءه فى حيز القبول. وقد روى الإمام أحمد[1] عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر. ورواه ابن ماجة والترمذىّ وقال : حسن غريب .

وروى أبوداود[2] الطيالسىّ عن عبدالله بن عمرو قال: من تاب قبل موته بعام تيب عليه . ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه . ومن تاب قبل موته بساعه تيب عليه . (قال أيوب) . فقلت له إنما قال الله عزوجل: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ . فقال : إنما أحدثك ما سمعت من رسول الله صلى عليه وسلم . وروى نحوه الإمام أحمد وسعيد بن منصور وابن مردويه . وروى مسلم[3] عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى

(١) المسند بالصفحة ١٢٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى مسنده ، الحديث ٢٢٨٤

(٣) أخرجه فى: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤٣ (طبعتنا).

الحاكم مرفوعا : من تاب إلى الله قبل أن يغرغر قبل الله منه . وروى ابن ماجة عن ابن مسعود بإسناد حسن(١) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقوله تعالى « فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى يقبل توبتهم « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ » عند النزاع « قَالَ » عند مشاهدة ما هو فيه « إِنِّي تُبْتُ الْآنَ » فلا ينفعه ذلك ولا يقبل منه « وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فلا ينفعهم ندمهم ولا توبتهم لأنهم بمجرد الموت يعاينون العذاب. روى الإمام أحمد(٢) عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال: إن الله يقبل توبة عبده ويغفر لعبده مالم يقع الحجاب . قيل: يا رسول الله ! وما الحجاب ؟ قال: أن تموت النفس وهى مشركة . ولهذا قال تعالى « أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا » أى أعددنا « لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)

(١) أخرجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٣٠ ـ باب ذكر التوبة ، حديث ٤٢٥٠ (طبعتنا).
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وقوله تعالى: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا» نهى عما كان يفعله أهل الجاهلية بالنساء من الإيذاء والظلم . روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما[١] قال : كانوا ، إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحق بامرأته . إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها . فنزلت هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ . الآية . ورواه أبو داود والنسائي وغيرهم ، ولفظ أبي داود عن ابن عباس : أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته . فيعضلها حتى تموت ، أو ترد إليه صداقها : فأحكم الله عن ذلك . أي نهى عنه .

قال السيوطي : ففيه أن الحر لا يتصور ملكه ولا دخوله تحت اليد . ولا يجري مجرى الأموال بوجه . وكرها (بفتح الكاف وضمها) قراءتان . أي حال كونهن كارهات لذلك ! أو مكرَهات عليه . والتقييد (بالكره) لا يدل على الجواز عند عدمه . لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ماعداه . كما في قوله : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ[٢] . «وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ » الخطاب للأزواج . كما عليه أكثر المفسرين . روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[٣] أن الآية في الرجل تكون له المرأة . وهو كاره لصحبتها . ولها عليه مهر . فيضرها لتفتدي به . والعضل الحبس والتضييق .

---

(١) أخرجه البخاري في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء ، ٦ ـ باب لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣١] ونصها : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا .

(٣) الأثر ٨٨٨٤ من تفسير ابن جرير . ونصه :

عن ابن عباس قوله « ولا تعضلوهن » يقول لا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن يعني : الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ، ولها عليه مهر ، فيُضِرُّ بها لتفتدي .

أى : ولا يحل لكم أن تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن . أى من الصداق . بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذوه منهن « إِلَّآ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ » أى زنى . كما قاله جماعة من الصحابة والتابعين . يعنى إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك ، وتخالعها . كما قال تعالى فى سورة البقرة : وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّآ أَنْ يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ(١) . الآية .

وروى عن ابن عباس أيضاً وغيره : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان . واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنى والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك . يعنى أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ، ويفارقها . قال ابن كثير : وهذا جيد، والله أعلم. قال أبو السعود : (مبينة) على صيغة الفاعل من (بيّن) بمعنى تبين وقرىء على صيغة المفعول. وعلى صيغة الفاعل من (أبان) بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة . ويعضده قراءة أبىّ: إلا أن يفحشن عليكم. انتهى. وفى (الإكليل) استدل قوم بقوله : بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ـ على منع الخلع بأكثر مما أعطاها انتهى .

ثم بين تعالى حق الصحبة مع الزوجات بقوله « وَعَاشِرُوهُنَّ » أى صاحبوهن « بِالْمَعْرُوفِ » أى بالإنصاف فى الفعل والإجمال فى القول حتى لا تكونوا سبب الزنى بتركهن . أو سبب النشوز أو سوء الخلق . فلا يحل لكم حينئذ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية وجوب المعروف من توفية المهر والنفقة والقَسْم

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّآ أَنْ يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

واللين فى القول وترك الضرب والإغلاظ بلا ذنب . واستدل بعمومها مَنْ أوجب لها الخدمة إذا كانت ممن لا تخدم نفسها « فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ » يعنى كرهتم الصحبة معهن « فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » أى ولعله يجعل فيهن ذلك بأن يرزقكم منهن ولداً صالحاً يكون فيه خير كثير . وبأن ينيلكم الثواب الجزيل فى العقبى بالإنفاق عليهن والإحسان إليهن، على خلاف الطبع . وفى (الإكليل) قال الكيا الهراسىّ: فى هذه الآية استحباب الإمساك بالمعروف وإن كان على خلاف هوى النفس . وفيها دليل على أن الطلاق مكروه .

وقد روى مسلم[1] فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يَفرَكْ مؤمن مؤمنة . إن كره منها خلقاً رضى منها آخر . و (يفرك) بفتح الياء والراء، معناه يبغض .

لطيفة :

قال أبو السعود: ذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه ، وانحصار العلّية فى الثانى، للتوسل إلى تعميم مفعوله ـ ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصاً بمكروه دون مكروه . بل هو سنة إلٰهية جارية على الإطلاق ، حسب اقتضاء الحكمة . وإن ما نحن فيه مادة من موادها . وفيه من المبالغة فى الحمل على ترك المفارقة وتعميم الإرشاد ، مالا يخفى .

تنبيه جليل فى الوصية بالنساء والإحسان إليهن:

كفى فى هذا الباب هذه الآية الجليلة الجامعة . وهى قوله تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . قال ابن كثير : أى طيبوا أقوالكم لهن . وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم . كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله . كما قال تعالى :

---

(١) أخرجه فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ(١). وقال رسول الله ﷺ : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى. رواه الترمذىّ عن عائشة ، وابن ماجة(٢) عن ابن عباس، والطبرانىّ عن معاوية . وقال ﷺ : خيركم خيركم للنساء . رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال ﷺ: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى . ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم. رواه ابن عساكر عن علىّ عليه السلام. وعن عمر بن الأحوص رضى الله عنه أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال : ألا واستوصوا بالنساء خيرا . فإنما هن عوانٍ عندكم. ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا . ألا إن لكم على نسائكم حقًّا . ولنسائكم عليكم حقا . فحقكم عليهن إن لا يوطئن فرشكم من تكرهون . ولا يأذنّ فى بيوتكم لمن تكرهون . ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن. رواه الترمذىّ(٣) وقال : حديث حسن صحيح .

وقوله (عوان) أى أسيرات . جمع عانية .

وعن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال: قلت: يارسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه ؟

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٨] ونصها : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٥٠ ـ باب حسن معاشرة النساء ، حديث ١٩٧٧ (طبعتنا) .

(٣) الترمذىّ فى : ١٠ ـ كتاب النكاح ، ١١ ـ باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها.

قال أن تطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تُقَبِّح ولا تهجر إلا فى البيت . رواه أبو داود(١) .

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : ليس(٢) من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه ، ورميه بقوسه ونبله ، ومداعبة أهله . رواه أبو داود . وفى رواية له : كل شيء يلهو به الرجل باطل ، إلا تأديبه فرسه ورميه عن قوسه ومداعبته أهله .

قال ابن كثير : وكان من أخلاق النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه . حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، يتودد إليها بذلك . قالت : سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته. وذلك قبل أن أحمل اللحم . ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقنى . فقال : هذه بتلك . وكان ﷺ يجمع نساءه كل ليلة فى بيت التى يبيت عندها فيأكل معهن العشاء فى بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نسائه فى شعار واحد . يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار . وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلًا قبل أن ينام. يؤانسهم بذلك ﷺ . وقد قال الله تعالى: لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة. انتهى.

(١) أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤١ ـ باب فى حق المرأة على زوجها ، حديث ٢١٤٢

(٢) الحديث رواه الترمذيّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ١١ ـ باب ما جاء فى فضل الرمى فى سبيل الله .

ونصه : عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسن أن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ، ثلاثةً ، الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به ، والممدّ به » وقال « ارموا واركبوا ، ولأن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا . كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل . إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهنّ من الحق » .

ثم قال: عن عقبة بن عامر الجهنىّ ، عن النبىّ ﷺ ، مثله .

وقال الغزالىّ فى (الإحياء) فى (آداب المعاشرة وما يجرى فى دوام النكاح) : الأدب الثانى ـ حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ، ترحماً عليهن ، لقصور عقلهن . قال الله تعالى: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ : وقال فى تعظيم حقهن : وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً[١] . وقال تعالى : وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ[٢] . قيل : هى المرأة .

ثم قال : واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله ﷺ . فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل . وراجعت امرأةُ عمرَ عُمَرَ رضى الله عنه فقال : أتراجعينى؟ فقالت: إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه، وهو خير منك[٣] . وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة[٤] : إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت علىّ غضبى. قالت : فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لا. ورب محمد ! وإذا كنت غضبى قلت : لا. ورب إبراهيم! قالت قلت: أجل. والله ! يا رسول الله ! ما أهجر إلا اسمك .

(١) [٤/ النساء / ٢١] ونصها : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً .

(٢) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها : وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً.

(٣) هذه القطعة جزء من حديث طويل رواه ابن عباس عن عمر بن الخطاب فى سؤاله له: مَن المرأتان من أزواج النبىّ ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما : إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ ؟

وقد أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٢٥ ـ باب الغرفة والعلّية المشرفة وغير المشرفة . فلا تفتك مطالعته بإمعان .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح، ١٠٨ ـ باب غيرة النساء ووجدهن.

ثم قال الغزالى : الثالث ـ أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة. فهى التى تطيب قلوب النساء . وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال . حتى روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة فى العدْو فسبقته يوماً وسبقها فى بعض الأيام. فقال ﷺ : هذه بتلك .

قال العراقى : رواه أبوداود[1] ، والنسائى فى (الكبرى) وابن ماجة من حديث عائشة بسند صحيح .

وقالت عائشة رضى الله عنها: سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عيد. فقال لى رسول الله ﷺ : أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قالت قلت : نعم . فأرسل إليهم فجاؤا . وقام رسول ﷺ بين البابين . فوضع كفه على الباب ووضعت رأسى على منكبه . وجعلوا يلعبون وأنظر . وجعل رسول الله ﷺ يقول : حسبك ! وأقول : لا تعجل . (مرتين أو ثلاثاً) ثم قال : يا عائشة ! حسبك . فقلت نعم . وفى رواية للبخارى[2] قالت : رأيت النبى ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد . حتى أكون أنا الذى أسأم . فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو .

وقال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى . فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلًا .

وقال لقمان رحمه الله تعالى : ينبغى للعاقل أن يكون فى أهله كالصبى . وإذا كان فى القوم وجد رجلًا .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٦١ ـ باب فى السبق على الرجل ، حديث ٢٥٧٨

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١١٤ ـ باب نظر المرأة إلى الحَبَش وغيرهم من غير ريبة .

وقال ﷺ[1] لجابر : هلّا بكراً تلاعبها وتلاعبك ؟ رواه الشيخان . ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله! لقد كان ضحوكا إذا ولج ، سكوتاً إذا خرج ، آكلًا ما وجد، غيرسائل عما فقد. انتهى بتصرف .

ثم نهى تعالى عن أخذ شيء من صداق النساء مَنْ أراد فراقهن ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

« وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ » أى تزوج امرأة ترغبون فيها « مَكَانَ زَوْجٍ » ترغبون عنها بأن تطلقوها «وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ» أى إحدى الزوجات. فإن المراد بالزوج الجنس. « قِنطَارًا » أى مالًا كثيراً مهراً « فَلَا تَأْخُذُوامِنْهُ شَيْئًا » أى يسيراً، فضلًا عن الكثير « أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا » أى باطلا « وَإِثْمًا مُبِينًا » بيناً . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى أتأخذونه باهتين وآثمين .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح، ١٢٢ ـ باب تستحد المغيبة وتمتشط. ونصه : عن جابر بن عبدالله قال: كنا مع النبيّ ﷺ فى غزوة فلما قفلنا كنا قريباً من المدينة تعجلت على بعير لى قطوف . فلحقنى راكب من خلفى فنخس بعيرى بعنزة كانت معه . فسار بعيرى كأحسن ما أنت راء من الإبل . فالتفتّ فإذا أنا برسول الله ﷺ . فقلت : يا رسول الله ! إنى حديث عهد بعرس. قال « أتزوجت؟ » قلت: نعم. قال « أبكراً أم ثيباً » قال قلت : بل ثيباً . قال « فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك ؟ » قال فلما قدمنا ذهبنا لندخل فقال « أمهلوا حتى تدخلوا ليلا (أى عشاء) كى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٢١] (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

«وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ» إنكار لأخذه إثر إنكار، وتنفير عنه غب تنفير، على سبيل التعجب. أى بأى وجه تستحلون المهر «وَقَدْ أَفْضَىٰ» أى وصل «بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ» فأخذ عوضه «وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» أى عهداً وثيقاً مؤكداً مزيد تأكيد، يعسر معه نقضه . كالثوب الغليظ يعسر شقه .

قال الزمخشرىّ : الميثاق الغليظ حق الصحبة والمضاجعة . ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه. فقد قالوا : صحبة عشرين يوماً قرابة . فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟ انتهى .

قال الشهاب الخفاجىّ: قلت بل قالوا :

صحبة يوم نسب قريب وذمة يعرفها اللبيب

أو الميثاق الغليظ ما أوثق الله تعالى عليهم فى شأنهم بقوله تعالى : فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ[(١)] . أو قول الولىّ عند العقد: أنكحتك على ما فى كتاب الله: من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

تنبيه فى فوائد :

الأولى ـ فى قوله تعالى «وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا» دليل على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى عن كثرته ثم رجع عن ذلك. كما روى الإمام أحمد[(٢)] عن أبى العجفاء السلمىّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تغلوا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص١١٥٨.

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

صدق النساء . ألا لا تغلوا صدق النساء. فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبىّ ﷺ . ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ، ولا أصدق امرأة من بناته ، أكثر من اثنتى عشرة أوقية . وإن الرجل ليبتلى بصدقة امرأته (وقال مرة : وإن الرجل ليغلى بصدقة امرأته) حتى تكون لها عداوة فى نفسه. وحتى يقول: كلفت إليك عَرَقَ القربة. ورواه أهل السنن . وقال الترمذىّ : هذا حديث صحيح .

وروى أبو يعلى عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ! ما إكثاركم فى صدق النساء ! وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك . ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها . فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم. قال ثم نزل . فاعترضته امرأة من قريش . فقالت : يا أمير المؤمنين ! نهيت الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم . قال : نعم . فقالت أما سمعت ما أنزل الله فى القرآن ؟ قال : وأىّ ذلك؟ قالت : أما سمعت الله يقول : وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا . الآية . قال فقال : اللهم! غفراً . كل الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس! إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم . فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب .

قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل . إسناده جيّد قوىّ. قاله ابن كثير.

وفى (الحجة البالغة) ما نصه : لم يضبط النبىّ ﷺ المهر بحدّ لا يزيد ولا ينقص . إذ العادات فى إظهار الاهتمام مختلفة . والرغبات لها مراتب شتى . ولهم فى المشاحّة طبقات . فلا يمكن تحديده عليهم . كما لا يمكن أن يضبط ثمن الأشياء المرغوبة بحد مخصوص . ولذلك قال: التمس ولو خاتماً من حديد[1] . غير أنه سن فى صداق أزواجه ثنتى عشرة أوقية ونشًّا. أى نصفاً ، انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٤٠ ـ باب السلطان ولىّ ، لقول النبىّ ﷺ « زوجنا كها بما معك من القرآن » . =

وقد ورد ما يفيد الندب إلى تخفيفه وكراهة المغالاة فيه . أخرج أبو داود والحاكم ، وصححه ، من حديث عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] خير الصداق أيسره .

وفى صحيح مسلم[٢] عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال له : إنى تزوجت امرأة من الأنصار. فقال له النبيّ ﷺ : هل نظرت إليها ؟ فإن فى عيون الأنصار شيئاً . قال: قد نظرت إليها . قال: على كم تزوجتها ؟ قال على أربع أواق . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: على أربع أواق ! كأنما تنحتون الفضة من عُرْض هذا الجبل . ما عندنا ما نعطيك . ولكن عسى أن نبعثك فى بعث تصيب منه . قال فبعث بعثاً إلى بنى عبس، بعث ذلك الرجل فيهم .

الثانية ـ خص تعالى ذكر من آتى القنطار من المال بالنهى، تنبيها بالأعلى على الأدنى . لأنه إذا كان هذا ، على كثرة ما بذل لامرأته من الأموال ، منهيًّا عن استعادة شيء يسير حقير

= ونصه : عن سهل بن سعد قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنى وهبت من نفسى . فقامت طويلا . فقال رجل : زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة . قال « هل عندك من شيء تُصْدِقها ؟ » قال : ما عندى إلا إزارى . فقال « إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك . فالتمس شيئاً » فقال: ما أجد شيئاً . قال « التمس ولو خاتماً من حديد » فلم يجد. فقال « أمعك من القرآن شيء ؟ » قال : نعم . سورة كذا وسورة كذا . لسورٍ سماها . فقال « زوجناكها بما معك من القرآن » .

(١) أخرجه أبو داود فى: ١٢ ـ كتاب النكاح، ٣١ ـ باب فيمن تزوج ولم يسمّ صداقا حتى مات ، حديث ٢١١٧ .

(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ١٢ ـ باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها ، حديث ٧٥ (طبعتنا) .

منها ، على هذا الوجه ، كان من لم يبذل إلا الحقير منهيًّا عن استعادته بطريق الأولى . ومعنى قوله « وَءَاتَيْتُمْ » والله أعلم : وكنتم آتيتم . إذ إرادة الاستبدال، فى ظاهر الأمر ، واقعة بعد إيتاء المال واستقرار الزوجية ــ كذا فى الانتصاف .

الثالثة .

اتفقوا على أن المهر يستقر بالوطء. واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة . ومنشأ ذلك: أن (أفضى) فى قوله تعالى : وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ . يجوز حملها على الجماع كناية ، جرياً على قانون التنزيل من استعمال الكناية فيما يستحيي من ذكره . والخلوة لا يستحيي من ذكرها فلا تحتاج إلى كناية : ويجوز إبقاؤها على ظاهرها .

قال ابن الأعرابىّ: الإفضاء فى الحقيقة الانتهاء. ومنه: وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ. أى انتهى وآوى . هذا، والكناية أبلغ وأقرب فى هذا المقام . ومما يرجحها أنه تعالى ذكر ذلك فى معرض التعجب فقال : وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض . والتعجب إنما يتم إذا كان هذا الإفضاء سبباً قوياً فى حصول الألفة والمحبة ، وهو الجماع، لا مجرد الخلوة . فوجب حمل الإفضاء إليه ــ ذكره الرازىّ من وجوه . ثم قال : وقوله تعالى « وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ » كلمة تعجب . أى لأىّ وجه ولأىّ معنى تفعلون هذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك وجعلت ذاتها لذّتك وتمتعك ، وحصلت الألفة التامة والمودة الكاملة بينكما ، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئاً بذله لها بطيبة نفسه ؟ إن هذا لا يليق بمن له طبع سليم وذوق مستقيم .

الرابعة : فى (الإكليل) استدل بهذه الآية من منع الخلع مطلقاً . وقال: إنها ناسخة لآية البقرة . وقال غيره : إن هذه الآية منسوخة بها. وقال آخرون: لا ناسخ ولا منسوخ بل هى فى الأخذ بغير طيب نفسها. انتهى .

أقول: إن القول الثالث متعين. لأن كلًّا من آيتى البقرة وهذه فى مورد خاص يعلم من مساق النظم الكريم . وذلك لأن قوله فى البقرة : فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ[1] ـ صريح فى أن الزوجة إذا كرهت خَلق زوجها أو خُلُقه أو نقص دينه أو خافت إثما بترك حقه، أبيح لها أن تفتدى منه وحلّ له أخذ الفداء مما آتاها، لقوله تعالى ثمّ : وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ الخ[1] . والحكمة فى حل الأخذ ظاهرة . وهى جبر الزوج مما لحقه من ضعة اختلاعها له وهيمنتها حينئذ عليه، واسترداد ماله أخذ منه، لكان فى صورة المظلوم. لأنه لم يجنح للفراق ولا رغب فيه . فكان من العدل الإلهىّ أن لا يجمع عليه بين خسارتى التمتع والمال . وأما هذه الآية فهى فى حكم آخر . وهو ما إذا أراد استبدال زوجته لطموح بصره إلى غيرها من غير أن تفتدى منه، أو ترغب فى خلع نفسها منه، فيضن بما آتاها ويأسف لأن تحوزه وهو لا يريدها وليس لها فى نفسه وقع، فعزم عليه أن لا يأخذ مما أصدقها شيئا قط بعد الإفضاء. لأنه لو أبيح له الأخذ حينئذ لكان ظلماً واضحاً . لأنه أخذ بلا جريرة منها . فكان فى إبقاء ما فى يدها مما آتاها جبر لما نابها من ألم الإعراض عنها واطراحها، رحمة منه تعالى، وعدلًا فى القضيتين . فالقائل بالنسخ فاته سر الحكمين . وليت شعرى ماذا يقول فى الحديث الصحيح المروىّ فى البخارىّ[2] وغيره، وهو قوله ﷺ لامرأة

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٨ ـ كتاب الطلاق، ١٢ ـ باب الخلع وكيف الطلاق منه، حديث ٢١٥٣ ونصه : =

ثابت : أتردّين عليه حديقته ! فقالت : نعم . فقال ﷺ لزوجها : اقبل الحديقة وطلقها . ولا يقال: لعل القائل بنسخ الخلع اعتمد فيه قوله تعالى : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ . الخ . وفيه ما فيه من تهويل الأخذ والتنفير عنه كما أسلفنا. لأنا نقول إن دلائل الأحكام الناسخة أو المنسوخة إنما تؤخذ من الجمل التامة فى الأصلين . فلا تؤخذ من شرط بلا جوابه مثلاً. وبالعكس. ولا من مبتدإ بدون خبره وبالعكس. ولا من مؤكد بدون مؤكده. وهكذا . وما نحن فيه لو أخذ عموم تحريم الأخذ من قوله : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ ـ لكان كالاستدلال من المؤكد بدون ملاحظة مؤكده. وهذا ساقط . لأن قوله : وَكَيْفَ ـ تنفير عما تقدم ، متعلق به . وما قبله خاص . ولو زعم القائل بالنسخ أن قوله : وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ، عام فى المخلوعة ومَنْ أريد طلاقها ـ نقول هذا باطل وفاسد . لأن مورد الآية فى إرادته ، هو فراقها مبتدئاً . فلا يصدق على المختلعة . لأنه لا يراد الاستبدال بغيرها ابتداءً من جانب الزوج . وبالجملة فكل من قرأ صدر الآيتين علم أن كلا فى حكم على حدة . لا تعلق فيها له بالآخر . والنسخ لا يصار إليه بالرأى . وقد كثر فى المتأخرين دعوى النسخ فى الآيات هكذا بلا استناد قوىّ. بل لما يتراءى ظاهراً بلا إمعان. فتثبت هذا .

وفى الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنَيْنِ ، بعد فراغهما من تلاعنهما : الله يعلم أن أحدكما كاذب . فهل منكما تائب؟ قالها ثلاثاً . فقال الرجل : يارسول الله : مالى ؟

= عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبىّ ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ! ثابت ابن قيس ، ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ: « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت: نعم.

قال رسول الله ﷺ: « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة ».

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣٢ ـ باب صداق الملاعنة ، حديث ٢١٦٤ ونصه : =

يعنى ما أصدقها . قال : لا مال لك . إن كنت صدقت فهو بما استحللت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها. وفى سنن أبى داود[1] وغيره ، عن بصرة بن أكثم أنه تزوج امرأة بكراً فى خدرها . فإذا هى حامل من الزنى . فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له . فقضى لها بالصداق وفرق بينهما . وأمر بجلدها . وقال : الولد عبد لك ، والصداق فى مقابلة البضع .

ثم بين تعالى من يحرم نكاحهن من النساء ، ومن لا يحرم . فقال سبحانه :

= عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عمر : رجل قذف امرأته ؟ فقال : فرّق النبىّ ﷺ بين إخوىْ بنى عجلان . وقال « الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا . وقال: « الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا . فقال « الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا ففرّق بينهما . . . . .

وفى : ٣٣ ـ باب قول الإمام للمتلاعنيْن : أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ زاد :

قال (الرجل) : مالى ؟ قال « لا مال لك . إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها ، فذاك أبعد ذلك .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٧ ـ باب فى الرجل يتزوج المرأة فيجدها حبلى ، حديث ٢١٣١ ونصه :

عن سعيد بن المسيّب عن رجل من الأنصار يقال له بصرة (بن أكثم) قال : تزوجت امرأة بكراً فى سترها . فدخلت عليها فإذا هى حبلى . فقال النبىّ ﷺ: « لها الصداق بما استحللتَ من فرجها . والولد عبد لك . فإذا ولدت فاجلدها » . وفى رواية : (فاجلدوها) وفى أخرى: (فحدّوها) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » بنكاح أو ملك يمين . وإن لم يكنّ أمهاتكم « إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أى سوى ما قد مضى فى الجاهلية فإنه معفوّ لكم ولا تؤاخذون به « إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً » أى خصلة قبيحة جدًّا ، لأنه يشبه نكاح الأمهات « وَمَقْتاً » أى بغضاً عند الله وعند ذوى المروآت . ولذا كانت العرب تسمى هذا النكاح: نكاح المقت . وتسمى ذلك المتزوج ، مقتيًّا . قاله ابن سيده . وقال الزجاج : المقت أشد البغض . ولما علموا أن ذلك فى الجاهلية كان يقال له المقت، أُعلموا أنه لم يزل منكراً ممقوتاً. « وَسَاءَ سَبِيلًا » أى بئس مسلكا . إذ فيه هتك حرمة الأب . وقد روى ابن أبى حاتم أنه لما توفى أبو قيس بن الأسلت ، وكان من صالحى الأنصار ، فخطب ابنه، قيس، امرأته ، فقالت : إنما أعدّك ولداً ، وأنت من صالحى قومك ، ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت: إن أبا قيس توفى . فقال: خيراً . ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبنى وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعدّه ولداً . فما ترى ؟ فقال لها: ارجعى إلى بيتك . فنزلت : وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ. الآية. وروى ابن جرير عن ابن عباس(١) قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما يَحْرُمُ إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين. فأنزل الله : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . (وأن تجمعوا بين الأختين) [٤/٢٣].

لطيفة :

قال الرازىّ: مراتب القبح ثلاثة: القبح فى العقول وفى الشرائع وفى العادات. فقوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ، إشارة إلى القبح العقلىّ . وقوله : وَمَقْتاً ، إشارة إلى القبح الشرعىّ.

(١) الأثر رقم ٨٩٣٨ (طبعة المعارف) .

وقوله . وَسَاءَ سَبِيلًا ، إشارة إلى القبح فى العرف والعادة . ومتى اجتمعت فيه هذه الوجوه، فقد بلغ الغاية فى القبح . والله أعلم .

قال ابن كثير : فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد[1] وأهل السنن، من طرق، عن البراء بن عازب. وفى رواية عن عمه أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده ، أن يقتله ويأخذ ماله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » من النسب أن تنكحوهن. وشملت الجدات من قِبَل

---

(١) هذا نص الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

عن البراء بن عازب قال : مرّ بنا ناس منطلقون . فقلنا : أين تذهبون ؟ فقالوا : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل فأتى امرأة أبيه ، أن نقتله .

وفى الرواية الأخرى، عن البراء بن عازب قال، مرّ بى عمّى الحارث بن عمرو ، ومعه لواء قد عقده له النبىّ صلى الله عليه وسلم. فقلت: أى عمِّ ! أين بعثك النبىّ صلى الله عليه وسلم؟ فقال : بعثنى إلى رجل تزوج امرأة أبيه ، فأمرنى أن أضرب عنقه .

الأب أو الأم « وَبَنَاتُكُمْ » من النسب. وشملت بنات الأولاد وإن سفلن « وَأَخَوَاتُكُمْ » من أم أو أب أو منهما « وَعَمَّاتُكُمْ » أي أخوات آبائكم وأجدادكم « وَخَالَاتُكُمْ » أي أخوات أمهاتكم وجداتكم « وَبَنَاتُ الْأَخِ » من النسب ، من أي وجه يكنّ « وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » من النسب من أي وجه يكنّ . ويدخل في البنات أولادهن « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » قال المهايميّ : لأن الرضاع جزء منها وقد صار جزءاً من الرضيع ، فصار كأنه جزؤها فأشبهت أصله . انتهى .

ويعتبر في الإرضاع أمران : أحدهما القدر الذي يتحقق به هذا المعنى . وقد ورد تقييد مطلقه وبيان مجمله في السنّة بخمس رضعات . لحديث عائشة[1] عند مسلم وغيره : كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحَرِّمن. ثم نسخن بخمسٍ معلومات. فتوفى رسول الله ﷺ وهنّ فيما يقرأ من القرآن . والثاني أن يكون الرضاع في أول قيام الهيكل وتشبح صورة الولد. وذلك قبل الفطام . وإلا فهو غذاء بمنزلة سائر الأغذية الكائنة بعد التشبح وقيام الهيكل. كالشاب يأكل الخبز .

عن أم سلمة[2] قالت : قال رسول الله ﷺ : لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام . رواه الترمذيّ وصححه . والحاكم أيضاً . وأخرج سعيد بن منصور والدارقطنيّ والبيهقيّ عن ابن عباس مرفوعاً : لا رضاع إلا ما كان في الحولين. وصحح البيهقيّ وقفه. قال السيوطيّ في (الإكليل): واستدل بعموم الآية من حرم برضاع الكبير. انتهى. وقد ورد الرخصة فيه

---

(١) أخرجه مسلم في : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، ٦ ـ باب التحريم بخمس رضعات ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ٥ ـ باب ما جاء ما ذكر أن الرضاعة لا تحرّم إلا في الصغر دون الحولين .

لحاجة تعرض . روى مسلم(١) وغيره عن زينب بنت أم سَلَمَة قالت: قالت أم سلمة لعائشة: إنه يدخل عليك الغلام الأيفع الذى ما أحب أن يدخل علىّ . فقالت عائشة : أما لك فى رسول الله ﷺ أسوة ؟ وقالت : إن امرأة أبى حذيفة قالت : يا رسول الله ! إن سالما يدخل علىّ وهو رجل . وفى نفس أبى حذيفة منه شىء . فقال رسول الله ﷺ : أرضعيه حتى يدخل عليك . وأخرج نحوه البخارىّ من حديث عائشة أيضا .

وقد روى هذا الحديث ، من الصحابة : أمهات المؤمنين وسهلة بنت سهيل وزينب بنت أم سلمة . ورواه من التابعين جماعة كثيرة. ثم رواه عنهم الجمع الجم . وقد ذهب إلى ذلك علىّ وعائشة وعروة بن الزبير وعطاء بن أبى رباح والليث بن سعد وابن علية وداود الظاهرىّ وابن حزم . وذهب الجمهور إلى خلاف ذلك .

قال ابن القيّم : أخذ طائفة من السلف بهذه الفتوى . منهم عائشة . ولم يأخذ به أكثر أهل العلم . وقدموا عليها أحاديث توقيت الرضاع المحرم، بماقبل الفطام ، وبالصغر ، وبالحولين . لوجوه : أحدها ـ كثرتها وانفراد حديث سالم . الثانى ـ أن جميع أزواج النبىّ ﷺ سوى عائشة فى شق المنع. الثالث ـ أنه أحوط . الرابع ـ أن رضاع الكبير لاينبت لحماً ولاينشر عظماً . فلايحصل به البعضية التى هى سبب التحريم. الخامس ـ أنه يحتمل أن هذا كان مختصًّا بسالم وحده . ولهذا لم يجئ ذلك إلا فى قصته . السادس ـ أن رسول الله ﷺ(٢) دخل على عائشة وعندها رجل قاعد. فاشتد ذلك عليه وغضب . فقالت : إنه أخى من الرضاعة . فقال : انظرن إخوتكن من الرضاعة . فإنما الرضاعة من المجاعة . متفق عليه. واللفظ لمسلم .

(١) أخرجه مسلم فى : ١٧ـ كتاب الرضاع، ٧ـ باب رضاعة الكبير، حديث ٢٩ (طبعتنا).

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، ٨ ـ باب إنما الرضاعة من المجاعة ، حديث ٣٢ (طبعتنا). وهذا نصه : عن مسروق قال : قالت عائشة : دخل علىّ رسول الله ﷺ وعندى رجل قاعد . فاشتد ذلك عليه ورأيت الغضب فى وجهه . قالت فقلت : يا رسول الله ! إنه أخى من الرضاعة. قالت فقال « انظرن إخوتكن من الرضاعة . فإنما الرضاعة من المجاعة ».

وفى قصة سالم مسلك . وهو أن هذا كان موضع حاجة . فإن سالمًا كان قدتبناه أبوحذيفة ورباه . ولم يكن له منه ومن الدخول على أهله بدّ . فإذا دعت الحاجة إلى مثل ذلك فالقول به مما يسوغ فيه الاجتهاد، ولعل هذا المسلك أقوى المسالك . وإليه كان شيخنا يجنح . انتهى . يعنى تقىّ الدين بن تيمية رضى الله عنهما .

«وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ» . قال الرازىّ : إنه تعالى نص فى هذه الآية على حرمة الأمهات والأخوات من جهة الرضاعة . إلا أن الحرمة غير مقصورة عليهن. لأنه ﷺ قال[1] : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب. وإنما عرفنا أن الأمر كذلك بدلالة هذه الآيات . وذلك لأنه تعالى لما سمى المرضعة أما ، والمرضعة أختاً، فقد نبه بذلك على أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب . وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعاً : اثنتان منهما المنتسبتان بطريق الولادة ، وهما الأمهات والبنات. وخمس منها بطريق الأخوة ، وهن الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . ثم إنه تعالى لما شرع بعد ذلك فى أحوال الرضاع ، ذكر من هذين القسمين صورة واحدة تنبيهاً بها على الباقى . فذكر من قسم قرابة الولادة، الأمهات . ومن قسم قرابة الأخوة، الأخوات. ونبه بذكر هذين المثالين ، من هذين القسمين ، على أن الحال فى باب الرضاع كالحال فى النسب. ثم إنه ﷺ أكد هذا البيان بصريح قوله : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب . فصار صريح الحديث مطابقاً لمفهوم الآية . وهذا بيان لطيف. انتهى .

لطيفة :

تعرض بعض المفسرين فى هذا المقام لفروع فقهية مسندها مجرد الأقيسة .

قال الرازىّ : من تكلم فى أحكام القرآن وجب أن لا يذكر إلا ما يستنبطه من الآية .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٧ ـ باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم ، حديث ١٢٨٤ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى بنت حمزة « لا تحلّ لى . يحرُمُ من الرضاع ما يحرم من النسب . هى بنت أخى من الرضاعة » .

فأما ما سوى ذلك فإنما يليق بكتب الفقه « وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ » أى أصول أزواجكم « وَرَبَائِبُكُمُ » جمع ربيبة، بمعنى مربوبة . قال الأزهرىّ : ربيبة الرجل بنت امرأته من غيره . انتهى . سميت بذلك لأنه يربّها غالباً ، كما يربّ ولده « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » جمع حجر (بفتح أوله وكسره) أى فى تربيتكم . يقال فلان فى حجر فلان ، إذا كان فى تربيته. والسبب فى هذه الاستعارة أن كل من ربى طفلًا أجلسه فى حجره ، فصار الحجر عبارة عن التربية . وسر تحريمهن كونهن حينئذ يشبهن البنات. إلا أنه إنما يتحقق الشبه إذا كن «مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » لأنهن حينئذ بنات موطوءاتكم، كبنات الصلب . والدخول بهن كناية عن الجماع . كقولهم : بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب . أى أدخلتموهن الستر . والباء للتعدية « فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى فلا حرج عليكم فى أن تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن أو متن .

تنبيهات :

(الأول) ذهب بعض السلف إلى أن قيد الدخول فى قوله تعالى : اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ـ راجع إلى الأمهات والربائب. فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها. لقوله : فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ . وروى ابن جرير[١] عن علىّ رضى الله عنه فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها : أيتزوج بأمها ؟ قال : هى بمنزلة الربيبة . وروى أيضاً عن زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وابن جبير وابن عباس. وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابونىّ، فيما نقله الرافعىّ عن العبادىّ . وقد روى عن ابن مسعود مثله، ثم رجع عنه . وتوقف فيه معاوية . وذلك فيما رواه ابن المنذر عن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف . قال: فلم أجامعها حتى توفى عمى عن أمها . وأمها ذات مال كثير . فقال أبى : هل لك فى أمها ؟

(١) الأثر رقم ٨٩٥١ (طبعة المعارف) .

قال فسألت ابن عباس وأخبرته . فقال: انكح أمها . قال وسألت ابن عمر فقال : لاتنكحها . فأخبرت أبي بما قالا، فكتب إلى معاوية . فأخبره بما قالا . فكتب معاوية : إني لا أحل ماحرم الله. ولاأحرم ماأحل الله. وأنت وذاك . والنساء سواها كثير . فلم ينه ولم يأذن لي . فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحنيها .

وذهب الجمهور إلى أن الأم تحرم بالعقد على البنت ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم . قالوا : الاشتراط إنما هو في أمهات الربائب . وروى في ذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها. وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها . وأيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح أمها . دخل بها أو لم يدخل. أخرجه الترمذي[(١)] .

قال الحافظ ابن كثير : هذا الخبر غريب ، وفي إسناده نظر . وقال الزجاج : قد جعل بعض العلماء (اللاتي دخلتم بهن) وصفاً للنساء المتقدمة والمتأخرة . وليس كذلك . لأن الوصف الواحد لايقع على موصوفين مختلفي العامل. وهذا، لأن النساء الأولى مجرورة بالإضافة . والثانية بـ (من) ولا يجوز أن تقول : مررت بنسائك وهربت من نساء زيد الظريفات ، على أن تكون الظريفات نعتاً لهؤلاء النساء ولهؤلاء النساء .

(١) أخرجه الترمذي في : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٦ ـ باب ما جاء فيمن يتزوج المرأة ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ، هل يتزوج ابنتها ، أم لا ؟

(قال أبو عيسى) : هذا حديث لا يصح من قبل إسناده .

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، قالوا : إذا تزوج الرجل امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، حل له أن ينكح ابنتها . وإذا تزوج الرجل الابنة فطلقها قبل أن يدخل بها ، لم يحل له نكاح أمها ، لقول الله تعالى : وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ .

وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والقول المشهور عن الجمهور ، إبهام تحريم أم المرأة ، وتقييد تحريم الربيبة بدخول الأم . كما هو ظاهر الآية . ولهذا الفرق سر وحكمة . وذلك لأن المتزوج بابنة المرأة لا يخلو بعد العقد وقبل الدخول من محاورة بينه وبين أمها ، ومخاطبات ومسارات . فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم ليقطع شوقه من الأم فيعاملها معاملة ذوات المحارم . ولا كذلك العاقد على الأم فإنه بعيد عن مخاطبة بنتها قبل الدخول بالأم . فلم تدعُ الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة . وأما إذا وقع الدخول بالأم فقد وجدت مظنة خلطة الربيبة . فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما . والله أعلم .

الثانى ـ استدل بقوله تعالى « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم » من لم يحرم نكاح الربيبة الكبيرة والتى لم يربّها . روى ابن أبى حاتم عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كانت عندى امرأة فتوفيت وقد ولدت لى . فوجدت عليها . فلقينى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال: مالك؟ فقلت : توفيت المرأة . فقال : لها ابنة ؟ قلت: نعم . وهى بالطائف . قال: كانت فى حجرك؟ قلت : لا . هى بالطائف . قال : فانكحها . قلت : فأين قول الله « وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » ؟ قال : إنها لم تكن فى حجرك . إنما ذلك إذا كانت فى حجرك .

قال الحافظ ابن كثير : إسناده قوىّ ثابت إلى علىّ بن أبى طالب ، على شرط مسلم . وإلى هذا ذهب الإمام داود بن علىّ الظاهرىّ وأصحابه . وحكاه أبو القاسم الرافعىّ عن مالك رحمه الله تعالى . واختاره ابن حزم . والجمهور على تحريم الربيبة مطلقاً . سواء كانت فى حجر الرجل أم لم تكن . قالوا : والخطاب فى قوله « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » خرج مخرج الغالب . فإن شأنهن الغالب المعتاد أن يكنّ فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن . ولم يرد كونهن كذلك بالفعل . وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها . كما أنها النكتة فى إيرادهن باسم الربائب دون بنات النساء . فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن ، وفى شرف التقلب فى حجورهم ، وتحت حمايتهم وتربيتهم ، مما يقوى الملابسة والشبه بينهن وبين أولادهم .

ويستدعى إجراءهن مجرى بناتهم . لا تقييد الحرمة بكونهن فى حجورهم بالفعل ـ كذا قرره أبو السعود ـ .

وفى (الانتصاف) : إن فائدة وصفهن بذلك ، هو تخصيص أعلى صور النهىّ عنه، بالنهى. فإن النهى عن نكاح الربيبة المدخول بأمها عام . فى جميع الصور . سواء كانت فى حجر الزوج أو بائنة عنه فى البلاد القاصية . ولكن نكاحه لهاوهى حجره أقبح الصور . والطبع عنها أنفر . فخصت بالنهى لتساعد الجبلة على الانقياد لأحكام الملة . ثم يكون ذلك تدريباً وتدريجاً إلى استقباح المحرم فى جميع صوره . والله أعلم .

وفى الصحيحين[1] أن أم حبيبة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ! انكِحْ أختى بنت أبى سفيان (وفى لفظ لمسلم : عزة بنت أبى سفيان) فقال : أوتحبين ذلك ؟ قالت : نعم . لست لك بمخلية . وَأَحَبُّ مَن شاركنى فى خيرٍ أختى . فقال النبىّ ﷺ : إن ذلك لا يحل لى . قلت : فإنا نحدَّث أنك تُريد أن تنكح بنت أبى سلمة . قال : بنت أم سلمة ؟ قلت : نعم . فقال : لو أنها لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ، ما حلت لى . إنها لابنة أخى من الرضاعة . أرضعتنى وأبا سلمة ثُويْبَةُ . فلا تعرضْنَ علىّ بناتكن ولا أخواتكن . (وفى رواية للبخارىّ : لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لى) .

قال ابن كثير : فجعل المناط فى التحريم مجردتزوجه أم سلمة. وحكم بالتحريم بذلك .

الثالث ـ اشتهر أن المراد من الدخول فى قوله تعالى « دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » معناه الكنائىّ . وهو الجماع . لأنه أسلوب الكتاب العزيز فى نظائره بلاغة وأدبا. ولذا فسره به ابن عباس وغير

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٢٠ ـ باب وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، حديث ٢١١٠ .

ومسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، ٤ ـ باب تحريم الربيبة وأخت المرأة ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

واحد . فمدلول الآية صريح حينئذ فى كون الحرمة مشروطة بالجماع . فلا تتناول غيره من اللمس والتقبيل والنظر لتباعها . ومن أثبت تحريم الربيبة بذلك لحظ أن معنى الدخول أوسع من الجماع . لأنه يقال : دخل بها ، إذا أمسكها وأدخلها البيت . وفى (فتح البيان) : الذى ينبغى التعويل عليه فى مثل هذا الخلاف ، هو النظر فى معنى الدخول شرعاً أو لغة . فإن كان خاصاً بالجماع فلا وجه لإلحاق غيره به ، من لمس أو نظر أو غيرهما . وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك . انتهى .

و (فى شرح القاموس للزبيدىّ) : ودخل بامرأته كناية عن الجماع . وغلب استعماله فى الوطء الحلال . والمرأة مدخول بها . قلت : ومنه الدخلة ، لليلة الزفاف . انتهى .

« وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ » أى موطوآت فروعكم بنكاح أو ملك يمين. جمع حليلة . سميت بذلك لحلها للزوج . وقوله تعالى « الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ » لإخراج الأدعياء الذى كانوا يتبنونهم فى الجاهلية . كما قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ (١) . وقال تعالى : وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ (٢) . فالسر فى التقييد هو إحلال حليلة المتبنَّى ، ردًّا لمزاعم الجاهلية ، لا إحلال حليلة الابن من الرضاع وأبناء الأبناء . كأنه قيل : بخلاف من تبنيتموهم ، فلكم نكاح حلائلهم .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] ونصها : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤] ونصها : مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ .

« وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » فى حيّز الرفع، عطفاً على ما قبله من المحرمات . أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين فى الوطء بنكاح أو ملك يمين من نسب أو رضاع، لما فيه من قطيعة الرحم « إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » فى الجاهلية فإنه معفوّ عنه « إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » تعليل لما أفاده الاستثناء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَالْمُحْصَنَاتُ » أى وحرمت عليكم المزوجات « مِنَ النِّسَاءِ » حرائر وإماء، مسلمات أوْ لَا . لئلا تختلط المياه فيضيع النسب « إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من اللائى سبين ولهن أزواج فى دار الكفر. فهن حلال لغزاة المسلمين، وإن كن محصنات. لأن السبى لهن يرفع نكاحهن ويفيد الحل بعد الاستبراء . روى الإمام أحمد ومسلم[١] وأبو داود والترمذىّ

---

(١) أخرجه مسلم فى: ١٧ـ كتاب الرضاع، ٩ ـ باب جواز وطء المسبيّة بعد الاستبراء، وإن كان لها زوج انفسخ نكاحها بالسبى ، حديث ٣٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم حنين ، بعث جيشاً إلى أوطاس . فلقوا عدوا . فقاتلوهم . فظهروا عليهم . وأصابوا لهم سبايا . فكأن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحرّجوا من غشيانهن، من أجل أزواجهن من المشركين. فأنزل الله عز وجل فى ذلك : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . أى فهنّ لكم حلال إذا انقضت عدتهن .

والنسائىّ وابن‌ماجة عن أبى سعيد الخدرىّ قال: أصبنا سبايا من سبى أوطاس. ولهن أزواج. فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج . فسألنا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فاستحللنا فروجهن .

تنبيه :

استدل بعموم الآية من قال : إن انتقال الملك ببيع أو إرث أو غير ذلك يقطع النكاح . عن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها . وعنه : بيع الأمة طلاقها. وروى ذلك أيضاً عن أُبىّ بن كعب وجابر وابن عباس رضى الله عنهم قالوا : بيعها طلاقها. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست : بيعها طلاقها، وعتقها طلاقها، وهبتها طلاقها ، وبراءتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها .

كذا قرأته فى تفسير ابن كثير. ولا يخفى أن المعدود خمسة. ولعل السادس بيع زوجها. حيث قال بعد ذلك : وروى عوف عن الحسن بيع الأمة طلاقها وبيعه طلاقها. فهذا قول هؤلاء من السلف. وحجتهم عموم الاستثناء فى قوله تعالى « إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » والجمهور على أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها . واحتجوا بحديث بريرة المخرّج فى الصحيحين[1] وغيرهما . فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث . بل خيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، وقصتها مشهورة. فلو كان

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٢٢ ـ باب إذا أسلم على يديه الرجل ، حديث ٣٠٢ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : اشتريت بريرة . فاشترط أهلها ولاءها . فذكرت ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم فقال « أعتقيها فإن الولاء لمن أعطى الوَرِق » .

قالت : فأعتقتها. قالت فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيّرها فى زوجها ، فقالت : لو أعطانى كذا وكذا ما بت عنده . فاختارت نفسها .

بيع الأمة طلاقها لما خيرت . وتخييرها دال على أن المراد من الآية المسبيات فقط . وبالجملة ، فالجمهور قصروا الآية على السبب الذى نزلت فيه .

قال الرازىّ : وهو يرجع إلى تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد . أى وهو مقبول ومعمول به فى غيرما موضع . كنصاب السرقة . وفى التنبيه الآتى زيادة لهذا فتأمّله .

فائدة :

اتفق القراء على فتح الصاد فى (المحصنات) هنا . ويقرأ بالفتح والكسر فى غير هذا الموضع. وكلاهما مشهور. فالفتح على أنهن أُحصنّ بالأزواج أو بالإسلام . والكسر على أنهن أَحصن فروجهن أو أزواجهن . واشتقاق الكلمة من الإحصان وهو المنع « كِتَابَ اللهِ » مصدر مؤكد. أى كتب الله « عَلَيْكُمْ » تحريم هؤلاء كتاباً وفرضه فرضاً، فالزموا كتابه ولا تخرجوا عن حدوده وشرعه « وَأُحِلَّ لَكُمْ » عطف على (حرمت عليكم) « مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة . أى أحل لكم نكاح ما سواهن « أَنْ تَبْتَغُوا » مفعول له . أى أحل لكم إرادة أن تبتغوا . أو بدل من (ما) أى ابتغاء النساء « بِأَمْوَالِكُمْ » أى يصرفها إلى مهورهن «مُحْصِنِينَ» حال من فاعل (تبتغوا) والإحصان: العفة، وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم « غَيْرَ مُسَافِحِينَ » غير زانين، والسفاح الزنى والفجور . من السفح وهو الصبّ . لأنه لا غرض للزانى إلّا سفح النطفة . وكان أهل الجاهلية ، إذا خطب الرجل المرأة ، قال : انكحينى . فإذا أراد الزنى قال : سافحينى . قال الزجاج : المسافحة أن تقيم امرأة مع رجل على الفجور من غير تزويج صحيح .

تنبيه :

قوله تعالى : وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ـ عام مخصوص بمحرمات أخر دلت عليها دلائل أخر . فمن ذلك ، ماصح عن النبىّ ﷺ من النهى عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها . وقد حكى الترمذىّ المنع من ذلك عن كافة أهل العلم . وقال : لانعلم بينهم اختلافاً

فى ذلك . ومن ذلك ، نكاح المعتدة . ومن ذلك ، أن من كان فى نكاحه حرة ، لا يجوز له نكاح الأمة . و من ذلك، القادر على الحرة لا يجوز له نكاح الأمة . ومن ذلك، من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة . ومن ذلك، الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن أبداً . فالآية مما نزل عامًّا ودلت السنة ومواضع من التنزيل على أنها مخصصة بغيرها .

قال الإمام الشافعىّ فى الرسالة :

[٢٤٤] فرض الله عز وجل على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم .

[٢٤٥] فقال فى كتابه: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

[٢٥٠] وقال: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً .

فى آيات نظائرها .

قال الشافعىّ :

[٢٥٢] فذكر الله عز وجل الكتاب وهو القرآن . وذكر الحكمة . فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٣] وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

[٢٥٤] لأن القرآن ذُكِرَ وأُتْبِعَتْهُ الحكمة، وذَكَرَ الله جل ثناؤه مَنَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة . فلم يجز ، والله أعلم ، أن يقال : الحكمة ههنا إلا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٥] وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، وحتَّم على الناس اتباع أمره ـ فلا يجوز أن يقال لقولٍ : فرضٌ ، إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٦] لما وصفنا من أن الله تعالى جل ثناؤه جعل الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم مقروناً بالإيمان به .

[٢٥٧] وسنةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينةً عن الله عز وجل معنى ما أراد ـ دليلًا على خاصه وعامه . ثم قرن الحكمة بها بكتابه ، فأتبعها إياه . ولم يجعل هذا لأحد من خلقه ، غير رسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وإنما أوردنا هذا تزييفاً لزعم الخوارج أن حديث (لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها)(١) المرويّ في الصحيحين وغيرهما ، خبر واحد . وتخصيص عموم القرآن بخبر الواحد لا يجوز . كما نقله عنهم الرازيّ . وأورد من حججهم أن عموم الكتاب مقطوع المتن ظاهر الدلالة . وخبر الواحد مظنون المتن ظاهر الدلالة . فكان خبر الواحد أضعف من عموم القرآن . فترجيحه عليه يقتضي تقديم الأضعف على الأقوى . وأنه لا يجوز . انتهى .

وقد توسع الرازيّ هنا في الجواب عن شبهتهم . ومما قيل فيه : إن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها مأخوذ من قوله تعالى « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » .

قال العلامة أبو السعود : ويشترك في هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرها . فإن مدار حرمة الجمع بين الأختين إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله بوصله . وذلك متحقق في الجمع بين هؤلاء . بل أولى . فإن العمة والخالة بمنزلة الأم . فقوله ﷺ : لا تنكح المرأة. الخ ، من قبيل بيان التفسير . لا بيان التغيير . وقيل : هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب .

وقال أيضاً : ولعل إيثار اسم الإشارة (يعني في قوله: مَاوَرَاءَ ذَٰلِكُمْ) التعرض لوصف المشار إليه وعنوانه ، على الضمير المتعرض للذات فقط ـ لتذكير ما في كل واحدة منهن من العنوان الذي عليه يدور حكم الحرمة . فيفهم مشاركة مَن في معناهن لهن فيها بطريق الدلالة . فإن حرمة الجمع بين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها، ليست بطريق العبارة، بل بطريق الدلالة ، كما سلف . انتهى .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٢٧ ـ باب لاتنكح المرأة على عمتها ، حديث ٢١١٢ ونصه : عن جابر رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها .

وفى (تنوير الاقتباس) : ويقال فى قوله تعالى « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ » أن تطلبوا بأموالكم تزوجهن وهى المتعة . وقد نسخت الآن . انتهى . وسيأتى الكلام على ذلك.
« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ » أى من تمتعتم به من المنكوحات بالجماع « فَآتُوهُنَّ » فأعطوهن « أُجُورَهُنَّ » مهورهن كاملة « فَرِيضَةً » أى من الله عليكم أن تعطوا المهر تامًّا . و (فَرِيضَةً) حال من الأجور . بمعنى مفروضة . أو نعت لمصدر محذوف . أى إيتاءً مفروضاً. أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » لا حرج عليكم « فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ» أنتم وهن «مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» أى من حطها أو بعضها أو زيادة عليها بالتراضى « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » فيما شرع من الأحكام .

تنبيه :

حمل قوم الآية على نكاح المتعة . قالوا : معنى قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ » أى فمن جامعتموهن ممن نكحتموهن نكاح المتعة ، فآتوهن أجورهن .

قال الحافظ ابن كثير : وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة . ولا شك أنه كان مشروعاً فى ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة . وهو رواية عن الإمام أحمد . وكان ابن عباس وأبىّ ابن كعب وسعيد بن جبير والسدّىّ يقرؤن : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، فآتوهن أجورهن فريضة . وقال مجاهد : نزلت فى نكاح المتعة . ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ما ثبت فى الصحيحين[1] عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . وفى صحيح مسلم[2]

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الإنسية، حديث ١٩٠٨ ونصه : عن علىّ رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة ، عام خيبر ، ولحوم حمر الأَنْسيّة .

(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ٢١ (طبعتنا) .

عن الربيع بن سبرة الجهنيّ عن أبيه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس! إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء . وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة . فمن كان عنده منهن شيء فليُخَلِّ سبيله . ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً . انتهى .

وفي (الكشاف) : قيل نزلت هذه الآية في المتعة . كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً. ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً. بثوب أو غير ذلك . ويقضي منها وطره ثم يسرحها . سميت متعة لاستمتاعه بها ، أو لتمتيعه لها بما يعطيها .

وقال الخفاجيّ : روى أن سعيد بن جبير قال لابن عباس رضي الله عنهما : أتدري ما صنعت بفتواك ؟ فقد سارت بها الركبان وقيل فيها الشعر . كقوله :

قد قلت للشيخ لما طال مجلسه ... يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس؟
هل لك في رخصة الأطراف آنسة ... تكون مثواك حتى مصدر الناس؟

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . والله ! مابهذا أفتيت ولا أحللت ، إلا مثل ما أحل الله الميتة والدم .

وقال الإمام شمس الدين بن القيّم رضوان الله عليه في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الفتح من الفقه ، ما نصه : ومما وقع في هذه الغزوة إباحة متعة النساء . ثم حرمها صلى الله عليه وسلم قبل خروجه من مكة . واختلف في الوقت الذي حرمت فيه المتعة على أربعة أقوال : أحدها ـ إنه يوم خيبر . وهذا قول طائفة من العلماء . منهم الشافعيّ وغيره . والثاني ـ إنه عام فتح مكة . وهذا قول ابن عيينة وطائفة . والثالث ـ إنه عام حنين. وهذا في الحقيقة هو القول الثاني ـ لاتصال غزاة حنين بالفتح. والرابع ـ إنه عام حجة الوداع. وهو وهم من بعض الرواة . سافر فيه وهمُه من فتح مكة إلى حجة الوداع . وسفرُ الوهم من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ومن واقعة إلى واقعة ، كثيرا ما يعرض للحفاظ فمن

دونهم . والصحيح أن المتعة إنما حرمت عام الفتح . لأنه قد ثبت في صحيح مسلم[١] أنهم استمتعوا عام الفتح مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بإذنه . ولو كان التحريم زمن خيبر لزم النسخ مرتين . وهذا لا عهدة بمثله فى الشريعة البتة . ولايقع مثله فيها . وأيضا، فإن خيبر لم يكن فيها مسلمات . وإنما كن يهوديات . وإباحة نساء أهل الكتاب لم تكن ثبتت بعد. إنما أبحن بعد ذلك فى سورة المائدة لقوله : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ،وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٢] . وهذا متصل بقوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٣] . وبقوله : ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ . وهذا كان فى آخر الأمر بعد حجة الوداع ، أو فيها . فلم تكن إباحة نساء أهل الكتاب ثابتة من خيبر . ولا كان للمسلمين رغبة فى الاستمتاع . ونساء عدوهم قبل الفتح وبعد الفتح ، استرق من استرق منهم

(١) أخرجه فى صحيحه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ١٣ (طبعتنا) ونصه : عن جابر وسلمة بن الأكوع قالا : خرج علينا منادى رسول الله ﷺ فقال : إن رسول الله ﷺ قد أذن لكم أن تستمتعوا . يعنى متعة النساء .

(٢) [٥ / المائدة / ٥] . . . إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

(٣) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وصرن إماء المسلمين . فإن قيل : فما تصنعون بما ثبت فى الصحيحين من حديث علىّ بن أبى طالب[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية ؟ وهذا صحيح صريح . قيل : هذا الحديث قد صحت روايته بلفظين : هذا أحدهما. والثانى الاقتصار على نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ، هذه رواية ابن عيينة عن الزهرىّ . قال : قال قاسم بن أصبغ : قال سفيان بن عيينة : يعنى أنه نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر لا عن نكاح المتعة. ذكره أبو عمر فى (التمهيد) ثم قال : على هذا أكثر الناس . انتهى ، فتوهم بعض الرواة أن (يوم خيبر) ظرف لتحريمهن فرواه : حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعة زمن خيبر والحمر الأهلية . واقتصر بعضهم على رواية بعض الحديث فقال : حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعة زمن خيبر . فجاء بالغلط البيّن. فإن قيل: فأى فائدة فى الجمع بين التحريمين إذا لم يكونا قد وقعا فى وقت واحد ؟ وأين المتعة من تحريم الحمر ؟ قيل : هذا الحديث رواه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه محتجاً به على ابن عمّه ، عبد الله بن عباس فى المسألتين . فإنه كان يبيح المتعة ولحوم الحمر . فناظره علىّ بن أبى طالب فى المسألتين وروى له التحريمين . وقيد تحريم الحمر بزمن خيبر . وأطلق تحريم المتعة وقال : إنك امرؤ تائه. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم المتعة وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . كما قاله سفيان بن عيينة . وعليه أكثر الناس . فروى الأمرين محتجاً عليه بهما ، لا مقيداً لهما بيوم خيبر. والله الموفق.

ولكن ههنا نظر آخر. وهو إنه هل حرمها تحريم الفواحش التى لا تباح بحال ، أو حرمها عند الاستغناء عنها وأباحها للمضطر ؟ هذا هو الذى نظر فيه ابن عباس وقال : أنا أبحتها للمضطر كالميتة والدم . فلما توسع فيها من توسع ولم يقف عند الضرورة ، أمسك ابن عباس عن الإفتاء بحلها ورجع عنه : وقد كان ابن مسعود يرى إباحتها ويقرأ : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٨٧ .

طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[١] . فى الصحيحين[٢] عنه : كنا نغزو مع النبىّ صلى الله عليه وسلم . وليس لنا نساء فقلنا : ألا نختصى ؟ فنهانا عن ذلك فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب ثم قرأ عبد الله : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[١]. وقراءة عبد الله الآية عقيب هذا الحديث تحتمل أمرين : أحدهما ـ الرد على من يحرمها وأنها لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى ـ أن يكون أراد آخر هذه الآية وهو الرد على من أباحها مطلقاً ، وأنه معتدٍ . فإن رسول الله ﷺ إنما رخص فيها للضرورة عند الحاجة فى الغزو ، وعند عدم النساء وشدة الحاجة إلى المرأة . فمن رخص فيها فى الحضر مع كثرة النساء وإمكان النكاح المعتاد فقد اعتدى والله لا يحب المعتدين . فإن قيل : فما تصنعون بما روى مسلم[٣] فى صحيحه من حديث جابر وسلمة بن الأكوع قالا : خرج علينا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لكم أن تستمتعوا (يعنى متعة النساء) قيل : هذا كان زمن الفتح قبل التحريم ثم حرمها بعد ذلك بدليل ما رواه مسلم[٤] فى صحيحه عن سلمة بن الأكوع قال: رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام أوطاس ، فى المتعة ثلاثاً . ثم نهى عنها . وعام أوطاس هو وعام الفتح واحد . لأن غزاة أوطاس متصلة بفتح مكة . فإن قيل : فما تصنعون بما رواه مسلم

(١) [٥ / المائدة / ٨٧] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٩ ـ باب قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ، حديث ١٩٩٨ .

ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ١١ (طبعتنا) .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٨٩.

(٤) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ١٨ (طبعتنا).

فى صحيحه[١] عن جابر بن عبد الله قال : كنا نستمتع بالقَبْضَة من التمر والدقيق ، الأيامَ ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر. حتى نهى عنه عمر فى شأن عمرو بن حريث. وفيما ثبت عن عمر أنه قال[٢] : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا أنهى عنهما : متعة النساء ومتعة الحج ؟ قيل : الناس فى هذا طائفتان : طائفة تقول : إن عمر هو الذى حرمها ونهى عنها . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع ما سنه الخلفاء الراشدون . ولم تر هذه الطائفة تصحيح حديث سبرة بن معبد فى تحريم المتعة عام الفتح . فإنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده . وقد تكلم فيه ابن معين . ولم ير البخارىّ إخراج حديثه فى صحيحه مع شدة الحاجة إليه ، وكونه أصلًا من أصول الإسلام . ولو صح عنده لم يصبر عن إخراجه أو الاحتجاج به . قالوا : ولو صح حديث سبرة لم يخف على ابن مسعود حتى يروى أنهم فعلوها ويحتج بالآية . قالوا أيضاً : ولو صح لم يقل عمر : إنها كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أنهى عنها وأعاقب عليها . بل كان يقول : إنه صلى الله عليه وسلم حرمها ونهى عنها . قالوا : ولو صح لم يُفعل على عهد الصديق ، وهو عهد خلافة النبوة حقًّا . والطائفة الثانية رأت صحة حديث سبرة . ولو لم يصح فقد صح حديث علىّ رضى الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم متعة

---

(١) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث١٦ (طبعتنا).

(٢) فى المسند ، حديث رقم ٣٦٩ (طبعة المعارف) ونصه :

عن أبى نضرة قال : قلت لجابر بن عبد الله : إن ابن الزبير ينهى عن المتعة ، وإن ابن عباس يأمر بها ؟ قال فقال لى : على يدى جرى الحديث : تمتعنا مع رسول الله ﷺ ، ومع أبى بكر ، فلما وَلِىَ عمر خطب الناس فقال: إن القرآن هو القرآن . وإن رسول الله ﷺ هو الرسول . وإنهما كانتا ، متعتان على عهد رسول الله ﷺ : إحداهما متعة الحج ، والأخرى متعة النساء .

النساء . فوجب حمل حديث جابر على أن الذى أخبر عنه بفعلها لم يبلغه التحريم ، ولم يكن قد اشتهر حتى كان زمن عمر رضى الله عنه . فلما وقع فيها ظهر واشتهر . وبهذا تأتلف الأحاديث الواردة فيها ، وبالله التوفيق . انتهى .

هذا ، والذين حملوا الآية على بيان حكم النكاح قالوا: المراد من قوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ » الخ أنه إذا كان المهر مقدراً بمقدار معين فلا حرج فى أن تحط عنه شيئاً من المهر ، أو تبرئه عنه بالكلية ، بالتراضى ، كما تقدم . وهو كقوله تعالى « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » وقوله « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » .

وقد روى ابن جرير[1] عن حضرمىّ أن رجالا كانوا يفرضون المهر. ثم عسى أن تدرك أحدهم العسرة . فقال الله « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ » الخ. يعنى إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ . وأما الذين حملوا الآية على بيان المتعة ، قالوا : المراد من نفى الجناح أنه إذا انقضى أجل المتعة لم يبق للرجل على المرأة سبيل البتة . فإن قال لها: زيدينى فى الأيام وأزيدك فى الأجرة ـ كانت المرأة بالخيار. إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل. فهذا هو المراد من قوله : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ. أى من بعد المقدار المذكور أولا من الأجر والأجل . أفاده الرازىّ .

قال السدّىّ : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى . يعنى الأجر الذى أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما . فقال : أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا . فإن شاء زاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضى المدة . وهو قوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ » قال السدّىّ : إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل. وهى منه بريئة . وعليها أن تستبرئ ما فى رحمها . وليس بينهما ميراث . فلا يرث واحد منهما صاحبه .

---

(١) الأثر رقم ٩٠٤٥ (طبعة المعارف) .

قال ابن جرير الطبرى : أولى التأويلين فى ذلك بالصواب ، التأويل الأول . لقيام الحجة بتحريم الله تعالى متعة النساء على لسان رسول الله ﷺ . انتهى .

قال المهايمى : ثم أشار تعالى إلى نكاح ما يستباح للضرورة كنكاح المتعة . لكنها ضرورة مستمرة لا تنقطع بكثرة الإسلام فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ » أى لم يقدر « مِنْكُمْ » أيها الأحرار، بخلاف العبيد، أن يحصل « طَوْلًا » أى غنى يمكنه به «أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ »أى الحرائر المتعففات، بخلاف الزوانى. إذ لا عبرة بهن « الْمُؤْمِنَاتِ » إذ لا عبرة بالكوافر « فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى فله أن ينكح بعض ما يملكه أيمانُ إخوانكم « مِنْ فَتَيَاتِكُمُ » أى إمائكم حال الرق « الْمُؤْمِنَاتِ » لا الكتابية . لأنه لا يحتمل مع عار الرق عار الكفر . وقد استفيد من سياق هذه الآية أن الله تعالى شرط فى نكاح الإماء شرائط ثلاثة : اثنان منها فى الناكح والثالث فى المنكوحة . أما اللذان فى الناكح فأحدهما أن يكون غير واجد لما يتزوج به الحرة المؤمنة من الصداق . وهو معنى قوله « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ

الْمُؤْمِنَاتَ » فعدم استطاعة الطول عبارة عن عدم ما ينكح به الحرة. فإن قيل : الرجل إذا كان يستطيع التزوج بالأمة ، يقدر على التزوج بالحرة الفقيرة ، فمن أين هذا التفاوت ؟ قلنا : كانت العادة فى الإماء تخفيف مهورهن ونفقتهن لاشتغالهن بخدمة السادات . وعلى هذا التقدير يظهر التفاوت . وأما الشرط الثانى فهو المذكور فى آخر الآية وهو قوله « ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ » أى الزنى بأن بلغ الشدة فى العزوبة. وأما الشرط الثالث المعتبر فى المنكوحة، فأن تكون الأمة مؤمنة لا كافرة . فإن الأمة إذا كانت كافرة كانت ناقصة من وجهين : الرق والكفر . ولا شك أن الولد تابع للأم فى الحرية والرق . وحينئذٍ يعلق الولد رقيقاً على ملك الكافر . فيحصل فيه نقصان الرق ونقصان كونه ملكاً للكافر . وما ذكرناه هو المطابق لمعنى الآية . ولا يخلو ما عداه عن تكلف لا يساعده نظم الآية .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ كان نكاح الأمة منحطاً عن نكاح الحرة ؟ قلت: لما فيه من اتباع الولد الأم فى الرق ، ولثبوت حق المولى فيها وفى استخدامها . ولأنها ممتهنة مبتذلة خرّاجة ولّاجة . وذلك كله نقصان راجع إلى الناكح ، ومهانة . والعزة من صفات المؤمنين . وسيأتى مزيد لهذا عند قوله تعالى « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ » وقوله تعالى « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ » إشارة إلى أنه لا يشترط الاطلاع على بواطنهن . بل يكتفى بظاهر إيمانهن . أى فاكتفوا بظاهر الإيمان . فإنه تعالى العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم فى الإيمان . فرب أمة تفضل الحرة فيه . وقوله تعالى « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » اعتراض آخر جيء به لتأنيسهم بنكاح الإماء حالتئذ . أى أنتم وأرقاؤكم متناسبون ، نسبكم من آدم ودينكم الإسلام « فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » أى مواليهن لا استقلالًا . وذلك لأن منافعهن لهم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشيء منها إلا بإذن من هى له « وَءَاتُوهُنَّ » أعطوهن « أُجُورَهُنَّ » أى مهورهن « بِالْمَعْرُوفِ » أى بلا مطل وضرار وإلجاء إلى الاقتضاء . واستدل الإمام مالك بهذا على أنهن أحق بمهورهن . وأنه لا حق فيه للسيد .

وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد . وإنما أضافها إليهن لأن التأدية إليهن ، تأدية إلى سيدهن لكونهن ماله « مُحْصَنَاتٍ » حال من مفعول (فَانْكِحُوهُنَّ) أى حال كونهن عفائف عن الزنى « غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ » حال مؤكدة . أى غير زانيات بكل من دعاهن « وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ » أى أخلة يتخصصن بهم فى الزنى . قال أبو زيد : الأخدان الأصدقاء على الفاحشة. والواحد خدن وخدين . وقال الراغب : أكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب بشهوة نفسانية. ومن لطائف وقوع قوله تعالى : مُحْصَنَاتٍ. الخ . إثر قوله : وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ـ الإشعار بأنهن لو كن إحدى هاتين ، فلكم المناقشة فى أداء مهورهن ليفتدين نفوسهن « فَإِذَا أُحْصِنَّ » أى بالتزويج. وقرىء على البناء للفاعل أى أحصن فروجهن أو أزواجهن « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ » أى فعلن فاحشة وهى الزنى « فَعَلَيْهِنَّ » أى فثابت عليهن شرعاً « نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ » أى الحرائر « مِنَ الْعَذَابِ » أى من الحد الذى هو جلد مائة. فنصفه خمسون جلدة . لا الرجم . قال المهايمىّ : لأنهن من أهل المهانة . فلا يفيد فيهن المبالغة فى الزجر .

تنبيه :

قال ابن كثير : مذهب الجمهور أن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة . سواء كانت مسلمة أو كافرة . مزوجة أو بكراً . مع أن مفهوم الآية يقتضى أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء. وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك . فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة فى إقامة الحد على الإماء . فقدمناها على مفهوم الآية . فمن ذلك ما رواه مسلم[1] فى صحيحه عن علىّ رضى الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحدّ مَنْ أحصن منهن ومن لم يُحْصن : فإن أَمَةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت . فأمرنى أن أجلدها . فإذا هى حديث عهد بنفاس . فخشيت ، إن أنا جلدتها ، أن أقتلها .

(١) أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣٤ (طبعتنا) .

فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فقال : أحسنت : اتركها حتى تماثَلَ . وعند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه (فإذا تعافت من نفاسها فاجلدها خمسين). وعن أبي هريرة[١] قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذازنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعَر . ولمسلم[٢] : إذا زنت ثلاثاً . ثم ليبعها في الرابعة . وروى مالك[٣] عن عبد الله بن عياش المخزوميّ قال: أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة خمسين خمسين، في الزنى .

الجواب الثاني ـ جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلاحد عليها . وإنما تضرب تأديباً . وهو المحكيّ عن ابن عباس رضي الله عنه . وإليه ذهب طاوس وسعيد ابن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن عليّ الظاهريّ (في رواية عنه) وعمدتهم مفهوم الآية . وهو من مفاهيم الشرط . وهو حجة عند أكثرهم . فقدم على العموم عندهم. وحديث[٤] أبي هريرة وزيد بن خالد : أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمةإذا زنت ولم تحصَن؟ قال: إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها .ثم إن زنت فاجلدوها. ثم بيعوها ولو بضفير .

قال ابن شهاب : لا أدرى بعد الثالثة أو الرابعة، أخرجاه في الصحيحين .

وعند مسلم ، قال ابن شهاب : الضفير الحبل . قالوا فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٤ ـ كتاب البيوع، ١١٠ ـ باب بيع المدبَّر، حديث ١٠٨٨
ومسلم في : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣٠ (طبعتنا) .

(٢) مسلم في : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في : ٤١ ـ كتاب الحدود ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٥ ـ باب إذا زنت الأمة ، حديث ١٠٨٨ و١٠٨٩

وكما وقت فى القرآن بنصف ما على المحصنات . فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك . والله أعلم .

وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس مرفوعاً : ليس على أمةٍ حدٌّ حتى تحصن . يعنى تزوج . فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات .

ورواه ابن خزيمة مرفوعاً أيضا . وقال: رفعه خطأ . إنما هو من قول ابن عباس .

وكذا رواه البيهقىّ ، وقال مثل قول ابن خزيمة .

قالوا : وحديث علىّ وعمر قضايا أعيان . وحديث أبى هريرة عنه أجوبة : أحدها ـ إن ذلك محمول على الأمة المزوّجة ، جمعاً بينه وبين هذا الحديث . الثانى ـ أن لفظة الحد فى قوله: فليقم عليها الحد ، مقحمة من بعض الرواة . بدليل . الجواب الثالث ـ وهو أن هـذا من حـديث صحابيين وذلك من رواية أبى هريرة فقط . وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد . وأيضا فقد رواه النسائىّ بإسناد على شرط مسلم من حديث عبـاد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بدراً : إن رسول الله ﷺ قال : إذا زنت الأمة فاجلدوها . ثم إذا زنت فاجلدوها ثم إذا زنت فاجـلدوها . ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضفير . الرابع ـ أنه لا يبعدأن بعض الرواة أطلق لفظ (الحد) فى الحديث على (الجلد) . لأنه لما كان الجـلد اعتقد أنه حد . أو أنه أطلق لفظ (الحد) على التأديب . كما أطلق (الحد) على ضرب من زنى من المرضى بعثـكال نخل فيه مائة شمراخ . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيهـا ، مائة . وإنما ذلك تعزير وتأديب عندمن يراه . كأحمد وغيره من السلف . وإنما الحد الحقيقىّ هو جلد البـكر مائة ورجم الثيّب ، انتهى . وله تتمة سابغة .

وقال الإمام ابن القـيم فى (زاد المعاد) : وحكم فى الأمة إذا زنت ولم تحصن بالحد . وأما قوله تعـالى فى الإماء : فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، فهو نص فى أن حدها بعد التزويج نصف حد الحرة من الجلد . وأما قبل التزويج فأمر بجلدها . وفى هذا الحد قولان :

أحدها ـ أنه الحد . ولـكن يختلف الحال قبل التزويج وبعده . فإن للسيد إقامته قبله. وأما بعده فلا يقيمه إلا الإمام .

والقول الثانى ـ إنَّ جلدها قبل الإحصان تعزيرٌ لا حدٌّ . ولا يبطل هذا مارواه مسلم[١] فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، يرفعه: إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يعيرها، ثلاث مرات. فإن عادت فى الرابعة فليجلدها وليبعها ولو بضفير (وفى لفظ فليضربها بكتاب الله) وفى صحيحه أيضا[٢] من حديث علىّ كرم الله وجهه إنه قال : أيها الناس! أقيموا على أرقائكم الحد . من أحصن منهن ومن لم يحصن . فإن أمة رسول الله ﷺ زنت فأمرنى أن أجلدها . الحديث .

فإن التعزير يدخـل فيه لفظ (الحد) فى لسان الشارع . كما فى قوله ﷺ : لا يضرب فوق عشرة أسواط إلا فى حدٍّ من حدود الله تعالى . وقد ثبت التعزير بالزيادة على العشرة جنسا وقدراً، فى مواضع عديدة لم يثبت نسخها ولم تجتمع الأمة على خلافها . وعلى كل حالٍ، فلابد أن يخالف حالها بعد الإحصان حالها قبله . وإلا لم يكن للتقييد فائدة . فإما أن يقال قبـل الإحصان : لا حد عليها ، والسنة الصحيحة تبطل ذلك . وإما أن يقال : حدها قبل الإحصان حد الحرة، وبعده نصفه ، وهذا باطل قطعاً ، مخالف لقواعد الشرع وأصوله . وإما أن يقال : حدها قبل الإحصان تعزير، وبعده حدٌّ ، وهذا أقوى . وإما أن يقال : الافتراق بين الحالين

---

(١) الذى فى صحيح مسلم هو مارويناه عنه بالحاشية رقم ١ و٢ ص١١٩٧ . وجاء فيه أيضاً ما يأتى :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟ قال « إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم بيعوها ولو بضفير » .

أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣٢ (طبعتنا) فمن أين هـذا النص الوارد فى الـكتاب ؟

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص١١٩٦.

فى إقامة الحد لا فى قدره وإنه فى إحدى الحالتين للسيّد وفى الأخرى للإمام . وهذا أقرب ما يقال .

وقد يقال: إن تنصيصه على التنصيف بعد الإحصان لئلا يتوهم متوهم أن بالإحصان يزول التنصيف ويصير حدها حد الحرة . كما أن الجلد عن البكر زال بالإحصان وانتقل إلى الرجم، فبقى على التنصيف فى أكمل حالتيها وهى الإحصان ، تنبيها على أنه إذا اكتفى به فيها ففى ما قبل الإحصان أولى وأحرى . والله أعلم « ذَٰلِكَ » أى إباحة نكاح الإماء « لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ » أى المشقة فى التحفظ من الزنى « مِنْكُمْ » أيها الأحرار « وَأَنْ تَصْبِرُوا » على تحمل تلك المشقة متعففين عن نكاحهن « خَيْرٌ لَكُمْ » من نكاحهن ، وإن سبقت كلمة الرخصة، لما فيه من تعريض الولد للرق . قال عمر رضى الله عنه : أيما حرّ تزوج بأمة فقد أرقّ نصفه . ولأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ، ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر ، وعلى بيعها للحاضر والبادى . وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده ما لا مزيد عليه . ولأنها ممتهنة مبتذلة خرّاجة ولّاجة . وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى الناكح . والعزة هى اللائقة بالمؤمنين . ولأن مهرها لمولاها . فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج . فلا ينتظم أمر المنزل. كذا حرره أبو السعود . وقد قيل :

إذا لم يكن فى منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

قال فى (الإكليل): فى الآية كراهة نكاح الأمة عند اجتماع الشروط . بقوله تعالى : وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ . وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يُرِيدُ اللَّهُ » أى فى تحريم ما حرم من النساء وتحليل ما أحل بالشرائط « لِيُبَيِّنَ

لَكُمْ » أى شرائعه « وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى يرشدكم إلى طرائق من تقدم من أهل الكتاب فى تحريم ما حرمه، لتتأسوا بهم فى اتباع شرائعه التى يحبها ويرضاها . وفى الآية دليل على أن كل ما بيَّن تحريمه لنا من النساء، فى الآيات المتقدمة ، فقد كان الحكم كذلك فى الملة السابقة .

وقد قرأت فى سفر الأحبار اللاويين، من التوراة ، فى (الفصل الثامن عشر) ما يؤيد ذلك. عدا ما رفعه تعالى عنا من ذلك مما فيه حرج « وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ » أى يتجاوز عنكم ما كان منكم فى الجاهلية، أو يرجع بكم عن معصيته التى كنتم عليها إلى طاعته « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى فيما شرع لكم من الأحكام « حَكِيمٌ » مراع فى جميع قضائه الحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

« وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ » أى من المآثم والمحارم. أى يخرجكم من كل ما يكره إلى ما يحب ويرضى . وفيه بيان كمال منفعة ما أراده الله تعالى، وكمال مضرة ما يريده الفجرة. كما قال سبحانه « وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ » أى ما حرمه الشرع ، وهم الزناة « أَنْ تَمِيلُوا » عن الحق بالمعصية « مَيْلًا عَظِيماً » يعنى بإتيانكم ما حرم الله عليكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

« يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ » أى فى شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم . ولهذا أباح نكاح الإماء بشروطه . ونظير هذا قوله تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ(١) . وقوله : مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ(٢) . « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً » أى عاجزاً عن دفع دواعى شهواته . فناسبه التخفيف لضعف عزمه وهمته وضعفه فى نفسه . فالجملة اعتراض تذييلىّ مسوق لتقرير ماقبله من التخفيف فى أحكام الشرع .

وفى (الإكليل) : قال طاووس : ضعيفاً أى فى أمر النساء لايصبر عنهن . وقال وكيع : يذهب عقله عندهن . أخرجهما ابن أبى حاتم . ففيه أصل لما يذكره الأطباء من منافع الجماع ومن مضارّ تركه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ » أى لايأكل بعضكم أموال بعض « بِالْبَاطِلِ » أى بما لم تبحه الشريعة كالربا والقمار والرشوة والغصب والسرقة والخيانة،

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] ونصها : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ،فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

وما جرى مجرى ذلك من صنوف الحيل « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً » أى معارضة محضة كالبيع « عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » فى المحاباة من جانب الآخذ والمأخوذ منه. وقرىء (تجارةٌ) بالرفع على أن (كان) تامة، وبالنصب على أنها الناقصة. والتقدير: إلا أن تكون المعاملة أو التجارة أو الأموال ، تجارة .

قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية تحريم أكل المال الباطل بغير وجه شرعىّ . وإباحة التجارة والربح فيها . وأن شرطها التراضى . ومن ههنا أخذ الشافعىّ رحمه الله اعتبار الإيجاب والقبول لفظاً. لأن التراضى أمر قلبىّ فلا بد من دليل عليه . وقد يستدل بها من لم يشترطهما إذا حصل الرضا . انتهى .

أى لأن الأقوال، كما تدل على التراضى، فكذلك الأفعال تدل فى بعض المحال قطعاً . فصح بيع المعاطاة مطلقاً .

وفى (الروضة الندية) : حقيقة التراضى لا يعلمها إلا الله تعالى . والمراد ههنا أمارته. كالإيجاب والقبول، وكالتعاطى عند القائل به ، وعلى هذا أهل العلم. لكونه لم يرد ما يدل على ما اعتبره بعضهم من ألفاظ مخصوصة ، وأنه لا يجوز البيع بغيرها . ولا يفيدهم ما ورد فى الروايات من نحو : (بعت منك وبعتك) فإنا لا ننكر أن البيع يصح بذلك . وإنما النزاع فى كونه لا يصح إلا بها . ولم يرد فى ذلك شيء . وقد قال الله تعالى : تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ . فدل ذلك على أن مجرد التراضى هو المناط . ولابد من الدلالة عليه بلفظ أو إشارة أو كتابة ، بأى لفظ وقع، وعلى أى صفة كان وبأى إشارة مفيدة ، حصل . انتهى . وقوله تعالى « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً » فيه وجهان : الأول ــ أن المعنى لا تقتلوا من كان من جنسكم من المؤمنين . فإن كلهم كنفس واحدة . والتعبير عنهم بالأنفس للمبالغة فى الزجر عن قتلهم، بتصويره بصورة ما لا يكاد يفعله عاقل . والثانى ــ النهى عن قتل الإنسان نفسه . وقد احتج بهذه الآية عمرو بن العاص على مسألة التيمم للبرد. وأقره النبىّ صلى الله عليه وسلم

على احتجاجه. كما رواه الإمام أحمد وأبو داود . ولفظ أحمد[١] عن عمرو بن العاص أنه قال : لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال: احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد . فأشفقت ، إن اغتسلت ، أن أهلك. فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح . قال فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له . فقال : يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ قال قلت: نعم يارسول الله! إنى احتلمت فى ليلة باردة ، شديدة البرد . فأشفقت، إن اغتسلت، أن أهلك. وذكرت قول الله عز وجل : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً . فتيممت ثم صليت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً .

وهكذا أورده أبو داود[٢] . قال ابن كثير وهذا، أى المعنى الثانى ، والله أعلم، أشبه بالصواب . وقد توافرت الأخبار فى النهى عن قتل الإنسان نفسه والوعيد عليه .

روى الشيخان[٣] وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن تحسّى سمًّا فقتل نفسه فسمّه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلداً فيها أبداً .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٤ ـ باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم ؟ حديث ٣٣٤ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٥٦ ـ باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه ، حديث ٧٢١ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧٥ (طبعتنا) .

ورد فى البخارىّ : يجأ ، وفى مسلم : يتوجأ (ومعناه يطعن) .

وأخرج الشيخان(١) عنه رضى الله عنه قال : شهدنا خيبر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لرجل ممن معه يدّعى الإسلام : هذا من أهل النار .

فلما حضر القتال قاتل الرجل أشدّ القتال حتى كثرت به الجراحة . فكاد بعض الناس يرتاب. فوجد الرجل ألم الجراحة. فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهما فنحر بها نفسه.

فاشتد رجال من المسلمين فقالوا : يا رسول الله ! صدّق الله حديثك . انتحر فلان فقتل نفسه . فقال : قم ، يا فلان ، فأذّن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن . إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر . وهذا لفظ البخارىّ .

وروى أبو داود(٢) عن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال : أُخبر النبىّ ﷺ برجل قتل نفسه فقال : لا أصلى عليه .

وفى الصحيحين(٣) من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح. فجزع فأخذ سكينا فحزّ بها يده . فما رقأ الدم حتى مات. قال الله عز وجل : بادرنى عبدى بنفسه ، حرمت عليه الجنة . ولهذا قال تعالى :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر ، حديث ١٤٥١ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ١٧٨ (طبعتنا) وفيه : شهدنا مع رسول الله ﷺ حنينا . وقال القاضى عياض : صوابه خيبر .

(٢) الحديث لم أجده فى سنن أبى داود . ووجدته فى صحيح مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز، حديث ١٠٧ (طبعتنا) ونصه : عن جابر بن سمرة قال : أُتى النبىّ ﷺ برجل قتل نفسه بمشاقص (والمشاقص سهام عراض ، واحدها مِشْقَص) فلم يصلّ عليه .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث ٧٢٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٨٠ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا)

« وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ » أى القتل « عُدْوَانًا وَظُلْمًا » أى متعدياً فيه ، ظالماً فى تعاطيه، أى عالما بتحريمه متجاسراً على انتهاكه « فَسَوْفَ نُصْلِيهِ » أى ندخله « نَارًا » أى هائلة شديدة العذاب « وَكَانَ ذَٰلِكَ » أى إصلاؤه النار « عَلَى اللهِ يَسِيرًا » هيناً عليه، لا عسر فيه ولا صارف عنه . لأنه تعالى لا يعجزه شىء .

قال النسفىّ : وهذا الوعيد فى حق المستحل للتخليد . وفى حق غيره، لبيان استحقاقه دخول النار مع وعد الله بمغفرته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)

« إِنْ تَجْتَنِبُوا » أى تتركوا « كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ » أى كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع عنها ، مما ذكر ههنا ومما لم يذكر « نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » أى صغائر ذنوبكم ، ونمحها عنكم ، وندخلكم الجنة . كما قال تعالى « وَنُدْخِلْكُمْ » فى الآخرة « مُدْخَلًا كَرِيمًا » أى حسناً وهى الجنة . و (مدخلًا) قرىء بضم الميم ، اسم مكان أومصدر ميمىّ . أى إدخالًا مع كرامة . وبفتح الميم، وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر . وفى الآية دليل على أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر. وردٌّ على من قال : إن المعاصى كلها كبائر ، وإنه لا صغيرة .

قال الإمام ابن القيّم فى (الجواب الكافى): قد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة ،

والتابعين بعدهم ، والأئمة ، على أن من الذنوب كبائر وصغائر . قال الله تعالى : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . وقال تعالى : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ(١) . وفى الصحيح(٢) عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر.

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات: إحداها أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها . بمنزلة الدواء الضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية . الثانية ـ أن تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شىء من الكبائر . الثالثة ـ أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر . فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة .

وفى الصحيح(٣) عنه ﷺ أنه قال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا: بلى يارسول الله! قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين. وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور (ثلاثا) .

وروى فى الصحيح(٤) عنه ﷺ : اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن؟ يارسول الله!

(١) [٥٣ / النجم / ٣٢] ونصها : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه ، فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١٠ ـ باب ما قيل فى شهادة الزور ، حديث ١٢٩١ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٢٣ ـ باب قول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ، حديث ١٣٢٥

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٥ (طبعتنا) .

قال : الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وفى الصحيح(١) عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الذنب عند الله أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك . قال: ونزلت هذه الآية تصديقا لقول رسول الله ﷺ : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ(٢) الآية .

ثم ساق الخلاف فى تعدادها .اه

وعندى أن الصواب هو الوقوف فى تعدادها على ما صحت به الأحاديث . فإن رسول الله ﷺ مبيّن لكتاب الله عز وجل ، أمين على تأويله . والمرجع فى بيان كتاب الله تعالى إلى السنة الصحيحة . كما أن المرجع فى تعريف الكبيرة إلى العدّ دون ضبطها بحد . كما تكلفه جماعة من الفقهاء ، وطالت المناقشة بينهم فى تلك الحدود . وإن منها ماليس جامعاً . ومنها ماليس مانعاً . فكله مما لا حاجة إليه بعد ورود صحاح الأخبار فى بيان ذلك .

وقد ساق الحافظ ابن كثير ههنا جملة وافرة منها وجوّد النقل عن الصحابة والسلف والتابعين . فانظره فإنه نفيس .

ثم نهى تعالى عن التحاسد وعن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من المال ونحوه، مما يجرى فيه التنافس بقوله :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٢ ـ باب وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، حديث ١٩٦٢

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤١و١٤٢ (طبعتنا) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] . . . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا» أى أصابوا وأحرزوا «وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ » أى أصبن وأحرزن. أى لكل فريق نصيب مما اكتسب فى نعيم الدنيا قبضاً أوبسطاً، فينبغى أن يرضى بما قسم الله له .

وقد روى الإمام أحمد عن مجاهد أن أم سلمة قالت: يارسول الله يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى: وَلَا تَتَمَنَّوْا الآية. ورواه الترمذىّ[١] وقال : غريب. ورواه الحاكم فى مستدركه وزاد : ثم أنزل الله[٢] : أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ. الآية فإن صح هذا فالمعنى: لكل أحد قدر من الثواب يستحقه بكرم الله ولطفه. فلا تتمنوا خلاف ذلك . ولا مانع من شمول الآية لما يتعلق بأحوال الدنيا والآخرة . فإن اللفظ محتمل. ولا منافاة. والله أعلم « وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » أى من خزائن نعمه التى لا نفاد لها . وقد روى الترمذىّ[٣] وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٨ ـ حدثنا ابن أبى عمر.

(٢) [٣ / آل عمران / ١٩٥] ونصها : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ـ كتاب الدعوات، ١١٥ـ باب فى انتظار الفرج وغير ذلك.

سلوا الله من فضله. فإن الله عز وجل يحب يُسأل . وأفضل العبادة انتظار الفرج. «إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » ولذلك جعل الناس على طبقات رفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية. قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

« وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » أى : ولكل شىء مما ترك الوالدان والأقربون من المال جعلنا ورثة وعَصَبة يلونه ويحرزونه . وهم يرثونه . دون سائر الناس. كما ثبت فى الصحيحين[1] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ألحقوا الفرائض بأهلها . فما بقى فهو لِأَوْلَى رجل ذكر . أى اقسموا الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله فى آيتى الفرائض . فما بقى بعد ذلك فأعطوه للعصبة . فـ (مما) تبيين لـ (كل) .

قال ابن جرير : والعرب تسمى ابن العم مولى . كما قال الفضل بن العباس[2] :

مهلًا بنى عمنا مهلًا موالينا ... لا يظهرن بيننا ما كان مدفونا

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨٥ ـ كتاب الفرائض، ٥ ـ باب ميراث الولد من أبيه وأمه.
وأخرجه مسلم فى : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث ٢ (طبعتنا) .

(٢) البيت مطلع حماسية أبى تمام الخامسة والخمسين ونصه :

مهلًا بنى عمنا مهلًا موالينا ... لا تنبشُوا بيننا ما كان مدفونا

قال المرزوقىّ : المَهْل والمَهَل والمُهْلة تتقارب فى أداء معنى الرفق والسكون . ويقال : لا مَهَل لك ، ومالك من مَهَل .

يقول : رفقاً يا بنى عمنا ، رفقاً موالينا . وهذا التكرار يريد به التأكيد . ويجوز =

وفى (القاموس) و (شرحه تاج العروس) : والمولى : القريب كابن العم ونحوه . قال ابن الأعرابى : ابن العم مولى . وابن الأخت مولى . وقول الشاعر[١] :

هم المولى وإن جنفوا علينا ... وإنا من لقائهم لزُورُ

قال أبو عبيدة : يعنى الموالى ، أى بنى العم . وقال اللّهْبِىّ يخاطب بنى أمية :

مهلًا بنى عمنا ، مهلًا موالينا ... امشوا رويداً كما كنتم تكونونا

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » مبتدأ ضمن معنى الشرط فوقع خبره مع الفاء وهو قوله « فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ » ويقرأ (عاقدت) بالألف . والمفعول محذوف أى عاقدتهم . ويقرأ بغير ألف والمفعول محذوف أيضاً هو والعائد . تقديره عقدت حلفهم أيمانكم . والعقد الشدّ والربط والتوكيد والتغليظ . ومنه : عقد العهد يعقده : شده . والأيمان جمع يمين إما بمعنى اليد اليمنى لوضعهم الأيدى فى العهود ، أو بمعنى القسم وهو الأظهر ، لأن العقد خلاف النقض . وقد جاء مقروناً بالحلف فى قوله تعالى : وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا[٢] .

= أن يكون هذا الكلام تهكماً . ويجوز أن يكون رآهم ابتدؤا فى أمر لم يأمن معه ، من تفاقم الشأن واستفحال الخطب ، ما لا يقدر معه على تلافيه ، فاسترفقهم لذلك .

وقوله « لا تنبشوا » أى لا تثيروا ما كان مستوراً من السرّ . وذكر الدفن والنبش استعارة فى الإظهار والكتمان .

(١) قال فى اللسان (١٥ / ٤٠٨ بيروت) قائله عامر الخصفىّ من بنى خَصفة . قال أبو عبيدة : يعنى الموالى أى بنى العم ، وهو كقوله تعالى : [٤٠/٦٧] ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا .

قال الطبرىّ (٣/٤٠٥) : جنف الرجل على صاحبه يجنف ، إذا مال عليه وجار ، جَنفا .

وقال محققه محمود محمد شاكر : وزور جمع أزور ، وهو المائل عن الشىء . يقول: هم أبناء عمنا ونحن نكره أن نلاقيهم فنقاتلهم ، لما لهم من حق الرحم .

(٢) [١٦ / النحل / ٩١] ونصها : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

وفى قوله : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ(١). وفى هذه الآية محامل كثيرة ووجوه للسلف والخلف . أظهرها لسلف المفسرين رضوان الله عليهم. وهو أن المعنىّ بالموصول، الحلفاء . وهو المروىّ عن ابن عباس فى البخارىّ كما سيأتى : قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والحسن وابن المسيب وأبى صالح وسليمان بن يسار والشعبىّ وعكرمة والسدّى والضحّاك وقتادة ومقاتل بن حيان ، أنهم قالوا : هم الحلفاء . انتهى .

ويزاد أيضا: علىّ ابن أبى طلحة .

وكان الحلفاء يرثون السدس من محالفيهم. وروى الطبرىّ(٢) من طريق قتادة : كان الرجل يعاقد الرجل فى الجاهلية فيقول: دمى دمك. وترثنى وأرثك. وتطلب بى وأطلب بك. فلما جاء الإسلام بقى منهم ناس. فأمروا بأن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس . ثم نسخ ذلك بالميراث ، فقال (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) .

ولذا قال سعيد بن جبير : فآتوهم نصيبهم من الميراث . قال : وعاقد أبو بكر مولى فورثه .

قال الزمخشرىّ : والمراد . بـ(الذين عاقدت أيمانكم) موالى الموالاة . كان الرجل يعاقد الرجل فيقول : دمى دمك . وهدمى هدمك . وثارى ثارك . وحربى حربك . وسلمى سلمك . وترثنى وأرثك . وتطلب بى وأطلب بك . وتعقل عنى وأعقل عنك . فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف . انتهى .

(١) [٥ / المائدة / ٨٩] . . . فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) الأثر رقم ٩٢٧٠

وعلى هذا ، فمعنى الآية : والذين عاقدتموهم على المؤاخاة والموالاة، وتحالفتم بالأيمان المؤكدة أنتم وهم على النصر والإرث، قبل نزول هذه الآية ، فآتوهم نصيبهم من الميراث وفاء بالعقود والعهود. إذ وعدتموهم ذلك فى الأيمان المغلظة .

وروى ابن أبي حاتم: كان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول . وترثنى وأرثك . وكان الأحياء يتحالفون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل حلف فى الجاهلية ، أوعقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده الإسلام إلا شدة . ولا عقد ولا حلف فى الإسلام .

وروى الإمام أحمد ومسلم[1] والنسائىّ عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاحلف فى الإسلام وأيّما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . وروى الإمام أحمد[2] عن قيس بن عاصم أنه سأل النبىّ ﷺ عن الحلف ؟ قال فقال: ماكان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به . ولا حلف فى الإسلام . ورواه أيضا[3] عن عمرو

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٩٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث ١٦٥٥ (طبعة المعارف) ونصه :

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبىّ ﷺ قال : شهدت حِلْف المطيَّبين مع عمومتى وأنا غلام . فما أحبّ أن لى حمر النعم وأنى أنكثه .

قال الزهرىّ : قال رسول الله ﷺ « لم يصب الإسلام حِلْفا إلا زاده شدة ، ولا حِلف فى الإسلام » وقد ألَّف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٢٠٦ (طبعتنا) ونصه :

عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف فى الإسلام ، وأيّما حلف كان فى الجاهلية ، لم يزده الإسلام إلا شدة » .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٦١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) حديث رقم ٦٩١٧ (طبعة المعارف) ونصه :

« كل حلف فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة ، ولا حلف فى الإسلام » .

ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح ، قام خطيباً فى الناس ، فقال : يا أيها الناس ! ما كان من حلف فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . ولا حلف فى الإسلام .

قال ابن الأثير : الحلف فى الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال والغارات فذلك الذى ورد النهى عنه فى الإسلام بقوله ﷺ : لا حلف فى الإسلام . وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيّبين وما جرى مجراه ، فذلك الذى قال فيه ﷺ : وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق . وبذلك يجتمع الحديثان . وهذا هو الحلف الذى يقتضيه الإسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام. انتهى .

قال الحافظ ابن كثير : كان هذا ، أى التوارث بالحلف ، فى ابتداء الإسلام . ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا ولا ينشئوا بعد هذه الآية معاقدة .

روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ » فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول : وترثنى وأرثك . كان الأحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ : كل حلف فى الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده إلا شدة . ولا عقد ولا حلف فى الإسلام . فنسختها هذه الآية : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ[(١)] .

وروى أبو داود[(٢)] عن ابن عباس فى هذه الآية : كان الرجل يحالف الرجل وليس بينهما

---

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ١٦ ـ باب نسخ ميراث العقد بميراث الرحم ، حديث ٢٩٢١ .

نسب . فيرث أحدهما الآخر . فنسخ ذلك فى الأنفال فقال : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ، الآية.

وروى ابن جرير(١) عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر . فأنزل الله تعالى : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً . يقول : إلا أن توصوا لأوليائهم الذين عاقدوا، وصية. فهو لهم جائز من ثلث مال الميت. وذلك هو المعروف .

وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ، الآية .

أقول : على ما ذكر، تكون الآية محكمة فى صدر الإسلام، منسوخة بعده : وثمت وجه آخر فيها . وهو أنها ناسخة لميراث الحليف بتأويل آخر. وهو مارواه البخارىّ(٢) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ) ورثة (وَالَّذِينْ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) . كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرىّ الأنصارىّ دون ذوى رحمه ، للأخوّة التى آخى النبىّ ﷺ بينهم . فلما نزلت « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ » نُسخت: ثم قال : وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . من النصر والرفادة والنصيحة . وقد ذهب الميراث ويُوصَى له .

وقد فهم بعضهم من هذا الأثر أن هذه الآية نسخت الحلف فى المستقبل ، وحكم الحلف الماضى أيضاً . وأنه لا توارث به . والصحيح ما أسلفناه من ثبوت التوارث بالحلف السابق على نزول الآية فى ابتداء الإسلام ، كما حكاه غير واحد من السلف. وكما قال ابن عباس : كان المهاجرىّ يرث الأنصارىّ دون ذوى رحمه حتى نسخ ذلك .

وقد حاول الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى)(٣) الجمع بين الروايات المتقدمة ورواية

---

(١) الأثر رقم ٩٢٦٨

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ٧ ـ باب وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ... الآية .

(٣) انظر الجزء الثامن ، ص ١٨٦ و١٨٧ (طبعة بولاق) .

البخاريّ باحتمال أن يكون النسخ وقع مرتين : الأولى ـ حيث كان المعاقد يرث وحده دون العصبة ، فنزلت : وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا . فصاروا جميعاً يرثون . ثم نسخ ذلك آية الأحزاب وخص الميراث بالعصبة وبقي للمعاقد النصر والإرفاد ونحوهما . والله أعلم .

هذا وثمة روايات أخر في سبب نزولها . منها ما روى أبو داود[1] وابن أبي حاتم عن داود ابن الحصين . قال: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع . وكانت يتيمة في حجر أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقرأت: وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . فقالت : لا تقرأ هكذا ولكن : وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . إنما أنزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن رضي الله عنهما حين أبى الإسلام . فحلف أبو بكر لا يورثه . فلما أسلم أمره الله تعالى أن يورثه نصيبه .

ومنها ما روى ابن جرير[2] عن الزهريّ عن ابن المسيب قال : نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالًا غير أبنائهم يورثونهم . فأنزل الله فيهم . فجعل لهم نصيباً في الوصية وردّ الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبة . وأبى الله أن يكون للمدَّعَيْن ميراثاً ممن ادعاهم وتبناهم . ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية .

واعلم أن هذه الوجوه السلفية المروية في نزول الآية ، كلها مما تصدق عليها الآية وتشملها وينطبق حكمها عليها : ولا تنافي بينها . لما أسلفناه في مقدمة التفسير . فراجعها ولا تغفل عنها .

هذا ولأبي عليّ الجبائيّ تأويل آخر في الآية . قال: تقدير الآية : ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون والذين عاقدت أيمانكم موالي ، ورثة ، فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ . أي فآتوا الموالي والورثة نصيبهم . فقوله : وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . معطوف على قوله : وَالْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ . والمعنى : إن ما ترك الذين عاقدت أيمانكم فله وارث هو أولى به . وسمى الله تعالى الوارث مولى . والمعنى : لا تدفعوا المال إلى الحليف بل إلى المولى والوارث .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ١٦ ـ باب نسخ ميراث العقد بميراث الرحم ، حديث ٢٩٢٣ .

(٢) الأثر رقم ٩٢٨٨ .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : المراد بـ(الَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) الزوج والزوجة. والنكاح يسمى عقدا . قال تعالى : وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ (١) . فذكر تعالى الوالدين والأقربين وذكر معهم الزوج والزوجة. ونظيره آية المواريث ، فى أنه لما بيّن ميراث الولد والوالدين، ذكر معهم ميراث الزوج والزوجة .

أقول : هذا التأويل المذكور وما قبله طريقة من لا يقف مع الآثار السلفية فى التفسير. ويرى مزاحمتهم فى الاجتهاد فى ذلك . ذهاباً إلى أن مالم يتواتر فى معنى الآية ، من خبر أوإجماع، فلاحجة فى المروىّ منه آحاداً ، مرفوعاً أوموقوفاً، وإن صح . وهذه الطريقة سبيل طائفة قصّرت فى علم السمع وأقلت البحث عنه . فنشأ من ذلك النقص من الدين والزيادة فيه بالرأى المحض .

ومذهبنا أن لا غنى عن الرجوع إلى تفسير الصحابة رضى الله عنهم . لما ثبت من الثناء عليهم فى الكتاب والسنة . ولأن القرآن أنزل على لغتهم . فالغلط أبعد عنهم من غيرهم . لاسيما تفسير حبر الأمة وبحرها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . فمتى صح الإسناد إليه كان تفسيره من أصح التفاسير ، مقدماً على كثير من الأئمة الجماهير . لوجوه متعددة : منها أنه رضى الله عنه ثبت عنه أنه كان لا يستحل التأويل بالرأى . روى عنه أنه قال : من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار وفى رواية (بغير علم) رواه أبوداود فى العلم، والنسائىّ والترمذىّ(٢) . فإذا جزم رضى الله عنه بأمر كان دليلًا على رفعه. كما أسلفنا فى المقدمة . « إنّ

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٥] ونصها : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً ، وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

(٢) رواه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ١ ـ باب ما جاء فى الذى يفسر القرآن برأيه. عنه عن النبىّ ﷺ

اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ » من الأشياء التى من جملتها الإيتاء والمنع « شَهِيدًا » أى عالماً. ففيه وعد ووعيد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا)

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » جمع قوام، وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب. أى مسلطون على أدب النساء يقومون عليهن، آمرين ناهين ، قيام الولاة على الرعية . وذلك لأمرين : وهبيّ وكسبيّ. أشار للأول بقوله تعالى « بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » والضمير للرجال والنساء جميعاً. يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم ، وهم الرجال ، على بعض، وهم النساء . وقد ذكروا، فى فضل الرجال، العقل والحزم والعزم والقوة والفروسية والرمى . وإن منهم الأنبياء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والشهادة فى مجامع القضايا والولاية فى النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج وزيادة السهم والتعصيب . وهم أصحاب اللحى والعمائم . والكامل بنفسه له حق الولاية على الناقص . وأشار للثانى بقوله سبحانه « وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » فى مهورهن ونفقاتهن فصرن كالأرقاء . ولكون القوامين فى معنى السادات وجبت عليهن طاعتهم . كما يجب على العبيد طاعة السادات ، وروى ابن مردويه عن علىّ رضى الله عنه قال . أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجل من الأنصار بامرأة . فقالت : يا رسول الله ! إن زوجها فلان بن فلان الأنصارىّ. وإنه ضربها فأثر فى وجهها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس له ذلك.

فأنزل الله تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ. فى الأدب . فقال رسول الله ﷺ أردت أمراً وأراد الله غيره . ورواه ابن جرير[1] وابن أبى حاتم مرسلًا من طرق .

قال السيوطىّ : وشواهده يقوى بعضها بعضاً . وقال علىّ بن أبى طلحة فى هـذه الآية عن ابن عباس : يعنى أمراء عليهن . أى تطيعه فيما أمرها الله به من طاعة . وطاعته أن تـكون محسنة لأهله حافظة لمـاله .

وروى الترمذىّ[2] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لو كنت آمراً أحـداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. « فَالصَّالِحَاتُ » أى من النساء « قَانِتَاتٌ » أى مطيعات لله فى أزواجهن « حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ » قال الزمخشرىّ : الغيب خلاف الشهادة. أى حافظات لمواجب الغيب. إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن ، حفظن مايجب عليهن حفظه فى حال الغيبة ، من الفروج والأموال والبيوت « بِمَا حَفِظَ اللهُ » أى بحفظ الله إياهن وعصمتهن بالتوفيق لحفظ الغيب . فالمحفوظ من حفظه الله . أى لا يتيسر لهن حفظ إلا بتوفيق الله . أو المعنى : بما حفظ الله لهن من إيجاب حقوقهن على الرجال . أى عليهن إن يحفظن حقوق الزوج فى مقابلة ما حفظ الله حقوقهن على أزواجهن . حيث أمرهم بالعـدل عليهن وإمساكهن بالمعروف وإعطائهن أجورهن . فقوله : بما حفظ الله ، يجرى مجرى ما يقال: هذا بذاك . أى فى مقابلته . وجعل المهايمىّ البـاء للاستعانة حيث قال : مستعينات بحفظه مخافة أن يغلب عليهن نفوسهن وإن بلغن من الصلاح ما بلغن . انتهى .

وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعا : خير النساء امرأة إذا نظرتَ إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت حفظتك فى نفسها ومالك . قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ، إلى آخرها .

---

(١) الأثر رقم ٩٣٠٤

(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ١٠ـ كتاب النكاح، ١٠ـ باب ماجاء فى حق الزوج على المرأة.

وروى الإمام أحمد[١] عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) فى قوله تعالى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ): إن الزوج يقوم بتربية زوجته وتأديبها ومنعها من الخروج وإن عليها طاعته إلا فى معصية . وإن ذلك لأجل ما يجب لها عليه من النفقة . ففهم العلماء من هذا أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قواماً عليها ، وسقط ما له من منعها من الخروج . واستدل بذلك من أجاز لها الفسخ حينئذ. ولأنه إذا خرج عن كونه قواماً عليها فقد خرج عن الغرض المقصود بالنكاح . واستدل بالآية من جعل للزوج الحجر على زوجته فى نفسها ومالها . فلا تتصرف فيه إلا بإذنه . لأنه جعله (قواماً) بصيغة المبالغة . وهو الناظر فى الشىء الحافظ له . واستدل بها على أن المرأة لا تجوز أن تلى القضاء كالإمامة العظمى . لأنه جعل الرجال قوامين عليهن ، فلم يجز أن يقمن على الرجال. انتهى. « وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ » أى عصيانهن وسوء عشرتهن وترفعهن عن مطاوعتكم ، من (النشز) وهو ما ارتفع من الأرض يقال : نشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها : استعصت عليه ، وارتفعت عليه وأبغضته ، وخرجت عن طاعته « فَعِظُوهُنَّ » أى خوفوهن بالقول . كاتقى الله، واعلمى أن طاعتك لى فرض عليك ، واحذرى عقاب الله فى عصيانى . وذلك لأن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته . وحرم عليها معصيته، لماله عليها من الفضل والإفضال . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. رواه الترمذى[٢] عن أبى هريرة والإمام أحمد

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) وحديث رقم ١٦٦١ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ١٠ ـ كتاب النكاح، ١٠ـ باب ماجاء فى حق الزوج على المرأة.

عن معاذ ، والحاكم عن بريدة . وروى البخاريّ[1] عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح. ورواه مسلم، ولفظه : إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح « وَاهْجُرُوهُنَّ » بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة « فِي الْمَضَاجِعِ » أى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف . ولا تباشروهن . فيكون كناية عن الجماع . قال حماد ابن سلمة البصريّ : يعنى النكاح . وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : الهجر هو أن لا يجامعها ، ويضاجعها على فراشها ، ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد . وزاد آخرون منهم السدّى والضحاك وعكرمة وابن عباس (فى رواية) : ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها . وقيل: المضاجع المبايت . أى لا تبايتوهن . وفى السنن والمسند[2] عن معاوية بن حيدة القشيريّ أنه قال : يارسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال . أن تطعمها إذا طعمتَ وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه . ولا تقبح . ولا تهجر إلا فى البيت « وَاضْرِبُوهُنَّ » إن لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران، ضرباً غير مبرح ، أى شديد ولا شاق . كما ثبت فى صحيح مسلم[3] عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حجة الوداع: واتقوا الله فى النساء .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، حديث ١٥٢٩

ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ١٢٠ ـ ١٢٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤١ ـ باب حق المرأة على زوجها ، حديث ٢١٤٢

والمسند فى الصفحة الخامسة من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج، ١٩ ـ باب حجة النبيّ ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

فإنهن عوانٍ عندكم . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرّح .

قال الفقهاء : هو أن لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ولا يؤثر شينا ويجتنب الوجه لأنه مجمع المحاسن . ويكون مفرّقاً على بدنها . ولا يوالى به فى موضع واحد لئلا يعظم ضرره . ومنهم من قال : ينبغى أن يكون الضرب بمنديل ملفوف . أو بيده ! لا بسوط ولاعصا . قال عطاء : ضرب بالسواك .

قال الرازىّ : وبالجملة ، فالتخفيف مراعى فى هذا الباب على أبلغ الوجوه . والذى يدل عليه أنه تعالى ابتدأ بالوعظ . ثم ترقى منه إلى الهجران فى المضاجع . ثم ترقى منه إلى الضرب. وذلك تنبيه يجرى مجرى التصريح فى أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف ، وجب الاكتفاء به ، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق. وهذه طريقة من قال : حكم هذه الآية مشروع على الترتيب . فإن ظاهر اللفظ ، وإن دل على الجمع ، إلا أن فحوى الآية يدل على الترتيب .

قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : يهجرها فى المضجع . فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضربا غير مبرح . ولا تكسر لها عظما . فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية. وقال آخرون: هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز . أما عند تحققه فلا بأس بالجمع بين الكل .

وعن النبىّ ﷺ : علقوا السوط حيث يراه أهل البيت ، فإنه آدب لهم. رواه عبد بن حميد والطبرانىّ عن ابن عباس، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر « فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا » أى إذا رجعن عن النشوز عند هذا التأديب إلى الطاعة فى جميع ما يراد منهن مما أباحه الله منهن، فلا سبيل للرجال عليهن بعد ذلك بالتوبيخ والأذية بالضرب والهجران « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا » فاحذروه . تهديد للأزواج على ظلم النسوان من غير سبب . فإنهن، وإن ضعفن عن دفع ظلمكم ، وعجزن عن الانتصاف منكم ، فالله سبحانه علىّ قاهر كبير قادر ، ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن . فلا تغتروا بكونكم أعلى يدا منهن وأكبر درجة

منهن. فإن الله أعلى منكم وأقدر منكم عليهن . فَخَتْمُ الآية بهذين الاسمين، فيه تمام المناسبة.
ولما ذكر تعالى حكم النفور والنشوز من الزوجة ، ذكر ما إذا كان النفور من الزوجين بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)

« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا » أصله شقاقا بينهما فأضيف الشقاق إلى الظرف . إما على إجرائه مجرى المفعول به اتساعاً . كقوله : بل مكر الليل والنهار[1] . أصله بل مكر فى الليل والنهار. أو مجرى الفاعل بجعل البين مشاقاً والليل والنهار ماكرين . كما فى قولك : نهارك صائم . والضمير للزوجين. ولم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما ، وهو الرجال والنساء . أى إن علمتم مخالفة مفرقة بينهما ، واشتبه عليكم أنه من جهته أو من جهتها، ولا يفعل الزوج الصلح ولا الصفح ولا الفرقة ، ولا تؤدى المرأة الحق ولا الفدية « فَابْعَثُوا » أى إلى الزوجين لإصلاح ذات البين وتبيّن الأمر « حَكَمًا » رجلًا صالحًا للحكومة والإصلاح ومنع الظالم من الظلم « مِنْ أَهْلِهِ » أى أقارب الزوج « وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » على صفة الأول . فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال . وأطلب للإصلاح . فيلزمهما أن يَخْلُوَا ويستكشفا حقيقة الحال فيعرفا أن رغبتهما فى الإقامة أو الفرقة « إِنْ يُرِيدَا » أى الحكمان « إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا » أى يوقع بينهما الموافقة فيتفقان على الكلمة الواحدة ويتساندان فى طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد . أو الضمير الأول للحكمين ، والثانى للزوجين . أى إن قصدا

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك فى وساطتهما ، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة ، وألقى فى نفوسهما المودة والرحمة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا » بظواهر الحكمين وبواطنهما . إن قصدا إفساداً يجازيهما عليه . وإلا يجازيهما على الإصلاح . روى ابن أبى حاتم وابن جرير[1] عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلا صالحاً من أهل الرجل ومثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسىء . فإن كان الرجل هوالمسىء حجبوا عنه امرأته وقصروه على النفقة . وإن كانت المرأة هى المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة . فإن اجتمع رأيهما على ان يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز . فإن رأيا أن يجمعا ، فرضى أحد الزوجين وكره الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذى رضى يرث الذى لم يرض . ولا يرث الكاره الراضىَ.

وروى عبد الرزاق فى مصنفه عن ابن عباس قال : بعثت أنا ومعاوية حكمين . قال : معمر بلغنى أن عثمان بعثهما وقال لهما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما . وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا. (وأسند) عن ابن أبى مليكة[2] أن عقيل بن أبى طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير إلىّ وأنفق عليك . فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ؟ فقال : على يسارك فى النار إذا دخلت . فشدت عليها ثيابها. فجاءت عثمان فذكرت له ذلك. فضحك. فأرسل ابن عباس ومعاوية . فقال ابن عباس : لأفرقنّ بينهما . فقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شخصين من بَنى عبدمناف . فأتياها فوجداها قد أغلقا عليهما أبوابهما. فرجعا .

(١) الأثر رقم ٩٤١٨ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ٩٤٢٧ من تفسير الطبرىّ ونصه : أن عقيل بن أبى طالب تزوج فاطمة ابنة عتبة . فكان بينهما كلام . فجاءت عثمان فذكرت ذلك له ، فأرسل ابن عباس ومعاوية. فقال ابن عباس: لأفرّقن بينهما. وقال معاوية: ما كنت لأفرّق بين شيخين من بنى عبدمناف. فأتياها وقد اصطلحا .

وأسند عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها . مع كل واحد منهما فئام من الناس. فأخرج هؤلاء حكماًوهؤلاء حكماً . فقال عليّ للحكمين : أتدريان ماعليكما؟ إنعليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما . فقالت المرأة . رضيت الله لى وعليّ . وقال الزوج : أما الفرقة فلا. فقال عليّ : كذبت . والله ! لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك . ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة . حتى قال إبراهيم النخعيّ : إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاثاً ، فعلا . وهو رواية عن مالك. وقال الحسن البصريّ : الحكمان يحكمان فى الجمع لا فى التفرقة. وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم . وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود . ومأخذهم قوله تعالى (إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) ولم يذكر التفريق . وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما فى الجمع والتفرقة بلاخلاف . انتهى . وفى (الإكليل) : أخرج ابن منصور أن المأمور بالبعث الحكام . وعن السديّ : إنه الزوجان . فعلى الأول استدل به من قال: إنهما موليان من الحاكم . فلا يشترط رضا الزوجين عما يفعلانه من طلاق وغيره . وعلى الثانى استدل من قال : إنهما وكيلان من الزوجين . فيشترط .

وقال ابن كثير : الجمهور على الأول. أعنى أنهما منصوبان من جهة الحاكم . لقوله تعالى. (فَابْعَثُوا حَكَماً) الخ، فسماهما حكمين : ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه . وهذا ظاهر الآية .

وذهب الشافعيّ وأبو حنيفة إلى الثانى . لقول عليّ رضى الله عنه للزوج ، (حين قال : أما الفرقة فلا) ـ فقال : كذبت . حتى تقر بما أقرّت به .

قالوا : فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج . والله أعلم .

وفى الآية تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه ، وفقه الله تعالى لمبتغاه .

تنبيه :

قال الحاكم: فى الآية دلالة على أن كل من خاف فرقة وفتنة جاز له بعث الحكمين . وقد استدل بها أمير المؤمنين على الخوارج فيما فعل من التحكيم . قال مشايخ المعتزلة : لأن المصاحف لما رفعت ، فظهرت الفرقة فى عسكره ، وخاف على نفسه ، جازت المحاكمة، بل وجبت . ولهذا صالح ﷺ يوم الحديبية . وعلى هذا يحمل صلح الحسن عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا)

« وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » يأمر تعالى بعبادته وحده وبالإخلاص فيها بقوله (وَلَا تُشْرِكُو بِهِ شَيْئًا) كما قال تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ(١) . لأنه تعالى هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الأوقات والحالات. فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من الشرك . الجلىّ والخفىّ . للنفس وشهواتها . وما يتوصل به إليها من المـــال والجاه . وهذه العبادة حق الله علينا . كما فى الصحيحين(٢) عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له : يامعاذ ! أتدرى ما حق الله على

---

(١) [٩٨ / البينة / ٥] ونصها : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٤٦ ـ باب اسم الفرس والحمار ، حديث ١٣٧١ ونصه :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: كنت ردف النبىّ ﷺ على حمار، يقال له عُفَيْر ، =

العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً .

ثم أوصى سبحانه بالإحسان إلى الوالدين ، إثر تصدير ما يتعلق بحقوق الله عز وجل التى هى آكد الحقوق وأعظمها ، تنبيهاً على جلالة شأن الوالدين بنظمها فى سلكها بقوله « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » وقد كثرت مواقع هذا النظم فى التنزيل العزيز كقوله : أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ[1] . وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا[2] . أى أحسنوا بهما إحساناً يفى بحق تربيتهما . فإن شكرهما يدعو إلى شكر الله المقرب إليه . مع مافيه من صلة أقرب الأقارب الموجب لوصلة الله ، وقطعها لقطعه . ثم عطف، على الإحسان إليهما ، الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، بقوله « وَبِذِي الْقُرْبَىٰ » أى الأقارب. وقد جاء فى الحديث الصحيح عن سلمان بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : الصدقة على المسكين صدقة . وهى على ذى الرحم اثنتان : صلة وصدقة . رواه الإمام أحمد[3] والترمذىّ

= فقال « يا معاذ ! هل تدرى حق الله على عباده وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » فقلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر به الناس ؟ قال « لا تبشرهم فيتكلوا » .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٤٨ ـ ٥١ (طبعتنا) .

(١) [٣١ / لقمان / ١٤] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢١٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

والنسائىّ والحاكم وابن ماجه . ثم قال تعـالى « وَالْيَتَامَىٰ » وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم. فأمر الله بالإحسان إليهم والحنوّ عليهم ، تنزلًا لرحمته عز وجل « وَالْمَسَاكِينِ » وهم المحاويج الذين لايجدون مايقوم بكفايتهم. فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم ، وتزول به ضرورتهم « وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ » أى الذى قرب جواره . أو الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين « وَالْجَارِ الْجُنُبِ » أى الذى جواره بعيد. أو الأجنبىّ . وقال نوف البكالىّ : الجار ذى القربى. يعنى الجار المسلم . والجار الجنب يعنى اليهودىّ والنصرانىّ .

وقد ورد فى الوصية بالجار أحاديث كثيرة . منها قوله ﷺ : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . أخرجاه فى الصحيحين(١) عن ابن عمر .

ومنها ما رواه الإمام أحمد(٢) والترمذىّ عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبىّ ﷺ قال : خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه. وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره .

وروى الإمام أحمد(٣) عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا يشبع الرجل دون جاره .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد .

وعن المقداد بن الأسود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ماتقولون فى الزنى ؟ قالوا : حرمه الله ورسوله . فهو حرام إلى يوم القيامة . قال فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : لأن يزنى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ـ كتاب الأدب، ٢٨ ـ باب الوصاة بالجار، حديث ٢٣٢٥ ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٤١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ٦٥٦٦ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٥٥ من الجزء الأول (طبعـة الحلبىّ) وحديث رقم ٣٩٠ (طبعة المعارف) .

الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره . قال فقال : ما تقولون فى السرقة ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله . فهى حرام . قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات ، أيسر عليه من أن يسرق من جاره .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد(١) . وله شاهد فى الصحيحين(٢) من حديث ابن مسعود . قال: سألت (أو سئل) رسول الله ﷺ : أى الذنب عند الله أكبر؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك. قلت : ثم أىّ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك .

وروى الإمام أحمد(٣) عن أبى العالية عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلى أريد النبىّ ﷺ . فإذا أنا به قائم ورجل معه مقبل عليه . فظننت أن لهما حاجة . قال فقال الأنصارىّ : والله ! لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثى لرسول الله ﷺ من طول القيام . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ! لقد قام بك الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام . قال : ولقد رأيته ؟ قلت : نعم . قال : أتدرى من هو ؟ قلت : لا . قال : ذاك جبريل . ما زال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . ثم قال : أما إنك لو سلمت عليه ردّ عليك السلام .

ورواه عبد بن حميد عن جابر عن عبد الله قال : جاء رجل من العوالى ورسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام يصليان حيث يصلى على الجنائز . فلما انصرف قال الرجل : يارسول الله! من هذا الرجل الذى رأيت يصلى معك ؟ قال : وقد رأيته ؟ قال : نعم . قال : لقد رأيت خيراً كثيراً . هذا جبريل ما زال يوصينى بالجار حتى رأيت إنه سيورثه .

قال ابن كثير : تفرد به من هذا الوجه . وهو شاهد للذى قبله .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٢ ـ باب وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ، حديث ١٩٦٢

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وروى البزار عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : الجيران ثلاثة : جار له حق واحـد وهو أدنى الجيران حقًّا . وجار له حقان . وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقًّا . فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك ، لا رحم له ، له حق . وأما الجار الذى له حقان ، فجـار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار . وأما الذى له ثلاثة حقوق . فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم .

وروى الإمام أحمد والبخارىّ(١) عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لى جارين . فإلى أيهما أهدى ؟ قال : إلى أقربهما منك باباً

وروى الإمام مسلم(٢) عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يا أبا ذر ! إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك .

وفى رواية قال : إذا طبخت مرقا فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهـل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف .

وروى الشيخان(٣) عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال : والله ! لا يؤمن . والله ! لا يؤمن . والله ! لا يؤمن . قيل : ومن ؟ يا رسول الله ! قال : الذى لا يأمن جاره بوائقة .

ولمسلم(٤) : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقة .

والبوائق : الغوائل والشرور .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٢ ـ باب حق الجوار فى قرب الأبواب ، حديث ١١٢٨

(٢) أخرجه مسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، حديث١٤٢و١٤٣(طبعتنا).

(٣) لم يرو هذا الحديث إلا البخارىّ ، ورواه عن أبى شريح ، لا عن أبى هريرة . أخرجه فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٢٩ـ باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه، حديث٢٣٢٦

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٣ (طبعتنا) عن أبى هريرة

ورويا عنه[١] قال : قال رسول الله ﷺ : يانساء المؤمنات ! لا تحقرن جارة لجارتها ، ولو فرسن شاة .

معناه : ولو أن تهدى لها فرسن شاة . وهو الظلف المحرق . وأراد به الشيء الحقير .

ورويا عنه[٢] أن رسول الله ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخرفلا يؤذ جاره. وقوله تعالى « وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ » قال سعيد بن جبير : هو الرفيق الصالح . وقال زيد بن أسلم : هو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السفر . أى فإنه كالجار . وأوضحه الزمخشرى بقوله : هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك . إمارفيقاً فى سفر . وإما جاراًملاصقاً . وإما شريكا فى تعلم علم أوحرفة . وإما قاعداً إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أوغير ذلك ، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه . فعليك أن تراعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان. وروى عن علىّ وابن مسعود قالا : هى المرأة . أى لأنها تكون معك وتضجع إلى جنبك « وَابْنِ السَّبِيلِ » أى ابن الطريق . أى المسافر الغريب الذى انقطع عن بلده وأهله ، وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به . نُسِبَ إلى السبيل الذى هو

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٠ ـ باب لا تحقرن جارة لجارتها، حديث ١٢٥٤ .

ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٩٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٣ ـ باب حفظ اللسان ، حديث ٢١٣٢ ونصه :

قال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٥ (طبعتنا) .

الطريق لمروره عليه وملابسته له. أو الذى يريد البلد غير بلده ، لأمر يلزمه . وقال ابن عرفة : هو الضيف المنقطع به، يعطى قدر ما يتبلغ به إلى وطنه . وقال ابن برّىّ : هو الذى أتى به الطريق. كذا فى (تاج العروس). ولم يذكر السلف من المفسرين وأهل اللغة (السائل) فى معنى ابن السبيل . لأنه جاء تابعاً لابن السبيل فى البقرة ، فى قوله تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ ـ إلى قوله ـ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ) .

قال بعضهم فى (ابن السبيل) :

ومنسوب إلى ما لم يلده كذاك الله نَزَّلَ فى الكتاب

« وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يعنى المماليك . فإنهم ضعفاء الحيلة . أسرى فى أيدى الناس كالمساكين . لا يملكون شيئاً . وقد ثبت عن علىّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ جعل يوصى أمته فى مرض الموت ، يقول : الصلاةَ . الصلاةَ . اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم . رواه أبو داود وابن ماجة[1] وهذا لفظ أبى داود .

وروى الإمام[2] أحمد عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة . وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة . وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة. وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة . ورواه النسائىّ .

قال الحافظ ابن كثير . وإسناده صحيح ولله الحمد .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا . قال: فانطلق فأعطهم. فإن رسول الله ﷺ قال: كفى بالمرء إثما أن يحبس، عمن يملك قوته. رواه مسلم[3].

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٢٤ ـ باب فى حق المملوك ، حديث ٥١٥٦ .

وابن ماجة فى: ٢٢ ـ كتاب الوصايا ، ١ ـ باب هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ حديث ٢٦٩٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤٠ (طبعتنا) .

وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : للمملوك طعامه وكسوته . ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق . رواه مسلم[١] أيضا .

وعنه أيضا عن النبيّ ﷺ قال : إذا أتى أحدكم خادمُه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناوله أكلة أو أكلتين أو لقمة أو لقمتين . فإنه وَلِيَ حرّه وعلاجه . أخرجاه[٢] . ولفظه للبخاريّ .

وعن أبي ذرّ رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : هم إخوانكم خولكم . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم . أخرجاه[٣] « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا » أي متكبرًا عن الإحسان إلى من أُمِرَ ببرّه « فَخُورًا » يعدّد مناقبه كبراً . وإنما خص تعالى هذين الوصفين بالذم ، في هذا الموضع ، لأن المختال هو المتكبر . وكل من كان متكبراً فإنه قلما يقوم برعاية الحقوق . ثم أضاف إليه ذم الفخور لئلا يقدم على رعاية هذه الحقوق لأجل الرياء والسمعة . بل لمحض أمر الله تعالى .

---

(١) أخرجه في : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة ، ٥٥ ـ باب الأكل مع الخادم ، حديث ١٢٥٢ .

ومسلم في : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٢ ـ باب المعاصي من أمر الجاهلية ، حديث ٢٨ ونصه :

عن المعرور قال : لقيت أبا ذر في الربذة ، وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألته عن ذلك؟ فقال : إني سابيت رجلا فعيرته بأمه . فقال لي النبيّ ﷺ « يا أبا ذر ! أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية . إخوانكم خولكم . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وأخرجه مسلم في : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٣٨ (طبعتنا) .

روى أبو داود[(١)] والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: الكبر من بطر الحق وغمط الناس .

وروى ابن جرير[(٢)] عن أبي رجاء الهروى قال . لا تجد سيء المَلَكة (المِلْكة) إلا وجدته مختالاً فخوراً . وتلا (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...) الآية ولا عاقاً إلا وجدته جبارًا شقيًّا. وتلا (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)[(٣)] وقد ورد في ذم الخيلاء والفخر ما هو معروف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

« الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » أي بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به فيما تقدم « وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » أي ولا يكونون سبب الإحسان . بل يبخلون بذات أيديهم وبما في أيدي غيرهم .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ ـ كتاب اللباس ، ٢٦ ـ باب ما جاء في الكبر ، حديث ٤٠٩٢ ونصه :

عن أبي هريرة أن رجلا أتى النبي ﷺ ، وكان رجلا جميلا ، فقال : يا رسول الله ! إني رجل حبب إليّ الجمال . أعطيت منه ما ترى . حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعلي (بشسع نعلي) أفمن الكبر ذلك ؟ قال « لا . ولكن الكبر من بطر الحق وغَمَطَ الناس » .

(٢) الأثر رقم ٩٤٩٢ من التفسير .

(٣) [١٩ / مريم / ٣٢] .

فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسخاء ممن وجد . وفى أمثال العرب : أبخـل من الضنين بنائل غيره . قال[(١)]:

وإن امرءًا ضنّت يداه ، على امرئٍ بنيـل يدٍ من غيره ، لبخيل

قال الزمخشرىّ بعد حكاية ما تقدم : ولقد رأينا ممن بلى بداء البخل ، مَن إذا طرق سمعه أن أحداً جاد على أحد ، شخص به ، وحـل حبوته واضطرب ، ودارت عيناه فى رأسه . كأنما نهب رحله ، وكسرت خزانته، ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده . انتهى «وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » أى من المـال والغنى . فيوهمون الفقر مع الغنى والإعسار مع اليسار والعجز مع الإمكان « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بأن مَن هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى . ومن كان كافراً بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه ، كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء .

فائدة :

قال أبو البقاء : فى قوله تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) وجهان: أحدهما ـ هو منصوب بدل من (مَنْ) فى قوله (مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) وجمع على معنى (مَنْ) ويجوز أن يكون محمولًا على قوله (مُخْتَالًا فَخُورًا) وهو خبر (كَانَ) وجمع على المعنى أيضاً ، أو على إضمار : أذم . والثانى ـ أن يكون مبتدأ والخبر محذوف تقديره : مبغضون . ودل عليه ما تقـدم من قوله (لَا يُحِبُّ) ويجوز أن يكون الخبر : معذبون . لقوله (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

---

(١) قائله أبو تمام من قصيدة يعاتب موسى بن إبراهيم الرافقىّ ، فى ضنه عليه بحاجة . (ديوانه صفحة ٤٠٨) ومطلعها :

وإنى لأستحيي يقينى أن يُرى لشكّى فى شىء عليـه دليلُ

واليد الثانية : النعمة .

ويجوز أن يكون التقدير : هم الذين . ويجوز أن يكون مبتدأ (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ) معطوف عليه ، والخبر (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ) أى يظلمهم .

ثم قال : والبُخْل والبَخَل لغتان . وقدقرىء بهما . وفيهلغتان أُخريان البُخُل بضم الخاء والباء ، والبَخْل بفتح الباء وسكون الخاء. انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)

« وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ » أى قصد رؤية الخلق إياه ، غفلة عن الخالق تقدس، وعماية عنه، ليقال : ماأسخاهم وماأجودهم « وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ » أى الذى يتقرب إليه وحده ويتحرى بالإنفاق رضاه « وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذى هو يوم الجزاء « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا » معيناً فى الدنيا « فَسَاءَ قَرِينًا » فبئس القرين والصاحب الشيطان . لأنه يضله عن الهدى ويحجبه عن الحق . وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان، تقريعاً لهم على طاعته . والمعنى : من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله . ويجوز أن يكون وعيدًا لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار .

لطيفة :

قوله تعالى (وَالَّذِينَ) عطف على (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) أو (عَلَى الْكَافِرِينَ) وإنما شاركوهم فى الذم والوعيد لأن البخل كالإنفاق رياءً ، سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم . ويجوز أن يكون العطف بناء على إجراء التغاير الوصفىّ مجرى التغاير الذاتىّ . كما فى قوله[1] :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

(١) قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت وبيت آخر معه وهو :

وذا الرأى حين تُغَمّ الأمو ر بذات الصليل وذات اللجم، =

أو مبتدأ خبره محذوف . يدل عليه قوله تعالى (وَمَنْ يَكُنِ) الخ أى : فقرينهم الشيطان . وإنما حذف للإيذان بظهوره واستغنائه عن التصريح به . أو التقدير: فلا يقبل إحسانهم لأن رياءهم يدل على تفضيلهم الخلق على الله ، ورؤيتهم على ثوابه .

وقد روى مسلم[١] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملًا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه .

وروى ابن أبى حاتم، فى سبب نزول الآية، عن سعيد بن جبير قال: كان علماء بنى إسرائيل يبخلون بما عندهم من العلم . فأنزل الله : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ. الآية .

وأخرج ابن جرير[٢] من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس ، أن رجالًا من اليهود

= قال حفظه الله :

معانى القرآن للفراء ١ : ١٠٥ ، والإنصاف : ١٩٥ ، وأمالى الشريف ١ : ٢٠٥ ، وخزانة الأدب ١ : ٢١٦ . والقرم : السيد المعظم المقدم فى المعرفة وتجارب الأمور . والمزدحم: حومة القتال حيث يزدحم الكماة ، يمدحه بالجرأة فى القتال . وغم الأمر يغم (بالبناء للمجهول): استعجم وأظلم ، وصار المرء منه فى لبس لا يهتدى لصوابه . والصليل صوت الحديد . يعنى بذات الصليل كتيبة من الرجالة يصلّ حديد بيضتها وشكتها وسلاحها . وذات اللجم : كتيبة من الفرسان . يذكر ثباته واجتماع نفسه ورأيه حين تطيش العقول فى صليل السيوف وكرّ الخيول فى معركة الموت . فقوله « بذات الصليل » متعلق بقوله « تغم الأمور » .

تفسير الطبرى طبعة المعارف ، (ج ٣ ص ٣٥٣)

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٢) الأثر ٩٥٠١ من التفسير وهذا نصه :

عن ابن عباس قال : كان كَرْدم بن زيد، حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، =

كانوا يأتون رجالًا من الأنصار ينتصحون لهم . فيقولون : لا تنفقوا أموالكم . فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها . ولا تسارعوا فى النفقة ، فإنكم لاتدرون مايكون . فأنزل الله فيهم: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ. الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ، وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا)

« وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ » أى فلم يرجحوا الخلق عليه « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » بالبعث والجزاء فلم يرجحوا تعظيمهم وحطامهم على ثوابه «وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ»أعطاهم الله من المال ، أى طلباً لرضاه وأجر آخرته .

قال العلامة أبو السعود : وإنما لم يصرح به تعويلًا على التفصيل السابق، واكتفاءً بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر. فإنه يقتضى أن يكون الإنفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتة. أى:وما الذى عليهم. أو : وأىّ تبعة ووبال عليهم فى الإيمان بالله والإنفاق فى سبيله؟ وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة ، والاعتقاد فى الشيء بخلاف ماهو عليه ، وتحريض على التفكر

= ونافع بن أبى نافع ، وبحْرىّ بن عمرو ، وحيىّ بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، يأتون رجالا من الأنصار ــ وكانوا يخالطونهم وينتصحون لهم ــ من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون لهم : لاتنفقوا أموالكم. فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها. ولا تسارعوا فى النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون . فأنزل الله فيهم « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » أى من النبوة (من التوراة ، كما فى ابن هشام) التى فيها تصديق ماجاء به محمد ﷺ « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » إلى قوله « وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً » .

لطلب الجواب . لعله يؤدى بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة . وتنبيه على أن المدعوّ إلى أمر لا ضرر فيه ، ينبغى أن يجيب إليه احتياطاً . فكيف إذا كان فيه منافع لا تحصى . وتقديم الإيمان بهما ، لأهميته فى نفسه ، ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه . وأما تقديم (إنفاقهم رئاء الناس) على عدم إيمانهم بهما ، مع كون المؤخر أقبح من المقدم ، فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به . انتهى « وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً » وعيد لهم بالعقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أى لا يبخس أحداً من ثواب عمله ولا يزيد فى عقابه شيئاً مقدار ذرة ، وهى النملة الصغيرة ، فى قول أهل اللغة . قال ثعلب : مائة من الذر زنة حبة شعير . وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء . والمعنى: إن الله تعالى لا يظلم أحداً شيئاً ، قليلاً ولا كثيراً . فخرج الكلام على أصغر شىء يعرفه الناس « وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا » أى وإن تك مثقال ذرة حسنة يضاعف ثوابها . وإنما أنث ضمير المثقال لتأنيث الخبر . أو لإضافته إلى الذرة « وَيُؤْتِ » أى زيادة على الأضعاف « مِنْ لَدُنْهُ » مما يناسب عظمته على نهج التفضل « أَجْرًا عَظِيماً » أى عطاء جزيلاً . وقد ورد فى معنى هذه الآية أحاديث كثيرة . منها ما فى الصحيحين[١] عن أبى سعيد الخدرىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث

---

(١) هذا حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٢١ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٠٢ (طبعتنا) .

الشفاعة الطويل : وفيه : فيقول الله عز وجل : ارجعوا . فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار . وفى لفظ : أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه من النار . فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقول أبو سعيد : اقرؤا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) .

وقد روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال : فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة . أى بحسنته . ولا يخرج من النار أبداً .

قال الحافظ ابن كثير : وقد يستدل له بالحديث الصحيح[١] إن العباس قال : يارسول الله! هل نفعت أبا طالب بشىء فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : نعم . هو فى ضحضاح من نار . ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار .

وقد يكون هذا خاصاً بأبى طالب من دون الكفار . بدليل مارواه أبو داود[٢] الطيالسى فى مسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة . يثاب عليها الرزق فى الدنيا . ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بها فى الدنيا . فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة . انتهى .

ورواه مسلم[٣] أيضا عن أنس أيضا مرفوعاً . ولفظه : إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم يكن له حسنة يجزى بها .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ـ كتاب الأدب، ١١٥ـ باب كنية المشرك، حديث ١٨١٤ ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٥٧ (طبعتنا) .

(٢) الحديث رقم ٢٠١١ .

(٣) أخرجه فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥٦ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا)

« فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »

قال الرازىّ : وجه النظم هو أنه تعالى بيّن أن فى الآخرة لا يجرى على أحد ظلم وأنه تعالى يجازى المحسن على إحسانه ويزيده على قدر حقه . فبيّن تعالى فى هذه الآية أن ذلك يجرى بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق لتكون الحجة على المسئ أبلغ . والتبكيت له أعظم . وحسرته أشد . ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول وأظهر الطاعة أعظم . ويكون هذا وعيداً للكفار الذين قال الله فيهم (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) ووعداً للمطيعين الذين قال الله فيهم (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) .

ثم قال : من عادة العرب أنهم يقولون فى الشيء الذى يتوقعونه : كيف بك إذا كان كذا وكذا ، وإذا فعل فلان كذا ، أو إذا جاء وقت كذا ؟ فمعنى هذا الكلام : كيف ترون يوم القيامة إذا استشهد الله على كل أمة برسولها . واستشهدك على هؤلاء . يعنى قومه المخاطبين بالقرآن الذين شاهدهم وعرف أحوالهم. ثم إن أهل كل عصر يشهدون على غيرهم ممن شاهدوا أحوالهم. وعلى هذا الوجه قال عيسى عليه السلام: وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ(١) . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ(٢) .الخ .

(١) [٥ / المائدة / ١١٧] ونصها : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

وروى الشيخان(١) وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسـول الله ﷺ : اقرأ علىّ . فقلت : يا رسول الله ؟ أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم . إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأت عليه سورة النساء . حتى أتيت إلى هـذه الآية : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا . فقال: حسبك الآن . فإذا عيناه تذرفان.

زاد مسلم : شهيداً ما دمت فيهم . أو قال ما كنت فيهم . شك أحد رواته .

وروى ابن جرير عن ابن مسعود فى هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : شهيد عليهم ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)

« يَوْمَئِذٍ » أى يوم القيـامة « يَوَدُّ » أى يتمنى « الَّذِينَ كَفَرُوا » بالله « وَعَصَوُا الرَّسُولَ » بالإجابة « لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ » أى يهلكون فيها . أى يدفنون . فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى . إذ هو أعزّ لهم من الهوان الذى يلحقهم من فضائحهم . كقوله: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ... الآية . فـ(تسوّى) بمعنى: تجعل مستوية . والباء للملابسة . أى تسوى الأرض متلبسة بهم . وقيل : الباء بمعنى (على) وفى (الدر المصون) : وتسوية الأرض بهم أوعليهم: دفنهم . أو أن تنشق وتبلعهم . أو أنهم يبقون تراباً على أصلهم من غير خلق . وقوله تعالى « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » عطف على (يود) أى ويعترفون

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٩ ـ باب فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، حديث ١٩٩٠ .

وأخرجه مسلم فى: ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٢٤٧ـ٢٤٩ (طبعتنا).

بجميع ما فعلوه . لا يقدرون على كتمانه . لأن جوارحهم تشهد عليهم . أو (الواو) للحال. أي يودون أن يدفنوا في الأرض وحالهم أنهم لا يكتمون من الله حديثاً. ولا يكذبونه بقولهم: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . كما روى ابن جرير[1] عن الضحاك أن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال : يا ابن عباس ! قول الله تعالى . وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً . وقوله : وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . فقال له ابن عباس : إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت : ألقى على ابن عباس متشابه القرآن. فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيع واحد . فيقول المشركون : إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده . فيقولون تعالوا نقل . فيسألهم فيقولون : وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . قال فيختم على أفواههم ويستنطق جوارحهم فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين . فعند ذلك تمنَّوْا لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتمون الله حديثاً .

وروى عبد الرزاق عن سعيد بن جبير نحو ما تقدم . واعتمده الإمام أحمد في كتاب (الرد على الجهمية) في باب (بيان ما ضلت فيه الزنادقة من متشابه القرآن) وساق مثل ما تقدم عن ابن عباس . ثم قال : فهذا تفسير ما شكّت فيه الزنادقة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُوراً)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »

---

(١) الأثر ٩٥٢٢ من التفسير .

نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر فى جماعة كانوا يشربونها ثم يصلّون. أى من مقتضى إيمانكم الحياء من الله . ومن الحياء منه أن لاتقوموا إلى الصلاة وأنتم سكارى لاتعلمون ما تخاطبونه . فالحياء من الله يوجب ذلك . وتصدير الكلام بحرفى النداء والتنبيه ، للمبالغة فى حملهم على العمل بموجب النهى . وتوجيه النهى إلى قربان الصلاة ، مع أن المراد هو النهى عن إقامتها ، للمبالغة فى ذلك .

قال الحافظ ابن كثير : كان هذا النهى قبل تحريم الخمر . كما دل عليه الحديث الذى ذكرناه فى سورة البقرة عند قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ [1] . الآية . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاها على عمر . فقال : اللهم ! بين لنا فى الخمر بياناً شافياً . فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه . فقال : اللهم ! بين لنا فى الخمر بياناً شافياً . فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلوات . حتى نزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [2] . إلى قوله تعالى : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . فقال عمر : انتهينا . انتهينا .

ولفظ أبى داود [3] عن عمر بن الخطاب فى قصة تحريم الخمر فذكر الحديث . وفيه : فنزلت الآية التى فى النساء : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٩٠و٩١] ونص الآية ٩١ : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .

(٣) أخرجه فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

مَا تَقُولُونَ . فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ، ينادى : لا يقربن الصلاة سكران .

وروى ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن سعد رضى الله عنه قال : نزلت فىّ أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار . فأكلنا وشربنا حتى سكرنا . ثم افتخرنا . فرفع رجل لحى بعير ففزر بها أنف سعد فكان سعد مفزور الأنف وذلك قبل تحريم الخمر. فنزلت : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . الآية . والحديث بطوله عند مسلم[1] ورواه أهل السنن إلا ابن ماجة .

وروى أبو داود[2] والنسائىّ عن علىّ رضى الله عنه ، أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر . فصلى بهم عبد الرحمن فقرأ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . فخلط فيها. فنزلت: لَا تَقْرَبُوا . الآية .

وروى ابن أبى حاتم عن علىّ رضى الله عنه : قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر . فأخذت الخمر منا. وحضرت الصلاة. فقدموا فلاناً. قال: فقرأ قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا . الآية . وكذا رواه الترمذىّ[3] وقال: حسن صحيح « وَلَا جُنُباً » عطف على قوله (وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ) إذ الجملة فى موضع النصب على الحال. والجنب الذى أصابته الجنابة . يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع . لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذى هو الإجناب « إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ » أى مارّين بلا لبث « حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا » من الجنابة : أى لا تقربوا موضع الصلاة ، وهو المسجد ، وأنتم جنب ، إلا مجتازين فيه . إما للخروج منه أو للدخول فيه.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧١ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ١٢ـ حدثنا سويد.

روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى معنى الآية قال : لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابرى سبيل . قال : تمر به مرًّا ، ولا تجلس ثم رواه عن كثير من الصحابة . منهم ابن مسعود وثلة من التابعين .

وروى ابن جرير[١] عن الليث قال حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن قول الله عز وجل : وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ . أن رجالًا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عنـدهم فيريدون الماء . ولا يجدون ممراً إلا فى المسجد . فأنزل الله تعالى : وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ .

قال الحافظ ابن كثير : ويشهد لصحة ماقاله يزيد بن أبى حبيب رحمه الله، ماثبت فى صحيح البخارى[٢] أن رسول الله ﷺ قال : سدوا كل خوخة فى المسجد إلا خوخة أبى بكر . وهذا قاله ﷺ فى آخر حياته . علما منه أن أبا بكر . رضى الله عنه سيلى الأمر بعده ويحتاج إلى الدخول فى المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين . فأمر بسد الأبواب الشارعة

---

(١) الأثر رقم ٩٥٦٧ من التفسير .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ « سدوا الأبواب إلا باب أبى بكر ، حديث ٣١١ ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ الناسَ ، وقال « إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ماعنده ، فاختار ذلك العبد ما عنـد الله » قال فبكى أبو بكر . فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر ، فـكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ «إنّ من أمنِّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر. ولو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر . ولـكن أخوّة الإسلام ومودته . لايبقين فى المسجد باب إلا سُدَّ . إلا بابُ أبى بكر » .

إلى المسجد إلا بابه رضى الله عنـه ومن روى: إلا باب علىّ، كما وقع فى بعض السنن، فهو خطأ والصواب ما ثبت فى الصحيح .

ومن هـذا التأويل احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد . ويجوز له المرور . وثمة تأويل آخر فى قوله تعالى (إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ) وهو أن المراد منه المسافرون . أى لا تقربوا الصلاة جنباً فى حال من الأحوال إلا حال كونكم مسافرين . فيكون هذا الاستثناء دليلًا على أنه يجوز للجنب الإقدام على الصلاة عند العجز عن الماء . وقد روى ابن أبى حاتم عن زر بن حبيش عن علىّ فى هذه الآية ، قال : لايقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة ، فلا يجد المـاء ، فيصلى حتى يجد المـاء . ثم رواه من وجه آخر عن علىّ : ورواه عن جماعة من السلف أيضاً : أنه فى السفر .

قال ابن كثير : ويستشهد لهذا القول بالحديث الذى رواه الإمام أحمد[1] وأهل السنن

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) وها كموه بنصه لنفاسته :

عن رجل من بنى عامر قال : كنت كافراً فهدانى الله للإسلام . وكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة . فوقع ذلك فى نفسى . وقد نعت لى أبو ذر . فحججت فدخلت مسجد منى ، فعرفته بالنعت . فإذا شيخ معروق آدم عليه حلة قطرى . فذهبت حتى قمت إلى جنبه وهو يصلى . فسلمت عليه فلم يردّ علىّ. ثم صلى صلاة أتمها وأحسنها وأطولها . فلما فرغ ردّ علىّ . قلت : أنت أبو ذر ؟ قال : إن أهلى ليزعمون ذلك . قال : كنت كافراً فهدانى الله للإسلام وأهمنى دينى، وكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة. فوقع ذلك فى نفسى. قال : أتعرف أبا ذر ؟ قلت : نعم . قال : فإنى اجتويت المدينة ، فأمر لى رسول الله ﷺ بذود من إبل وغنم . فكنت أكون فيها . فكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة . فوقع فى نفسى أنى قد هلكت . فقعدت على بعير منها . فانتهيت إلى رسول الله ﷺ نصف =

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : الصعيد الطيب طهور المسلم . وإن لم تجد المـاء عشر حجج ، فإذا وجدت الماء فَأَمِسّهُ بشرتك فإن ذلك خيرلك . وفى هذا التـأويل بقاء لفظ الصلاة على معناها الحقيقىّ فى الجملتين المتعاطفتين . وفى التأويل السابق تـكون الصلاة ، فى الجملة الثانية محمولة على مواضعها .

قال فى (فتح البيان): وبالجملة، فالحال الأولى أعنى قوله (وَأَنْتُمْ سُـكَارَىٰ) تقوّى بقاء الصلاة على معناها الحقيق ، من دون تقديره مضاف . وسبب نزول الآية السابق يقوّى ذلك. وقوله (إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ) يقوّى تقـدير المضاف . أى لا تقربوا مواضع الصلاة . ويمكن أن يقال : إن بعض قيود النهى (أعنى لا تقربوا وهو قوله : وَأَنْـتُمْ سُـكَارَىٰ) يدل على أن المرادبالصلاة معناها الحقيقىّ . وبعض قيود النهى (وهو قوله : إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ) يدل على أن المراد مواضع الصلاة . ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه . ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيد كل واحد منهما بقيد . وهما : لا تقربوا الصلاة التى هى ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى . ولاتقربوا مواضع الصلاةحال كونـكم جنباً إلاحال عبوركم المسجد من جانب إلى جانب . وغاية ما يقال فى هـــذا إنه من الجمع بين الحقيقة والمجاز . وهو جائز بتأويل مشهور .

وقال ابن جرير[1] (بعدحكايته للتأويلين) : وأولى القولين بالتأويل لذلك ، تأويل من تأوله

= النهار وهوجالس فى ظل المجلس فى نفر من أصحابه فنزلت عن البعير وقلت : يا رسول الله ! هلـكت . قال « وما أهلـكك » ؟ فحدثته فضحك . فدعا إنساناً من أهـله . فجاءت جارية سوداء بعسّ فيه ماء ، ماهو بملآن، إنه ليتخضخض. فاستترت بالبعير. فأمر رسول الله ﷺ رجلا من القوم فسترنى . فاغتسلت ثم أتيتـه . فقال « إن الصعيد الطيّب طهور ، ما لم تجد الماء ، ولو إلى عشر حجج . فإذا وجدت الماء فأمِسّ بشرتك » .

(١) تفسير ابن جرير ، جزء ثامن ، صفحة ٣٨٤ (طبعة المعارف) .

«وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ» ، إلامجتازى طريق فيه . وذلك أنه قد بيّن حكم المسافر إذا عدمَ الماء . وهو جنب ، فى قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ) إلى آخره . فكان معلوماً بذلك أن قوله (وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) لو كان معنيًّا به المسافر لم يكن لإعادة ذكره فى قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ) معنى مفهوم . وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك .

وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا المساجد للصلاة، مصلين فيها، وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولاتقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابرى سبيل .

قال : و (العابر السبيل) المجتازه مرًّا وقطعاً . يقال منه : عبرت هذا الطريق فأنا أعبُره عَبْراً وعبوراً . ومنه قيل : عبر فلان النهر إذا قطعه وجازه . ومنه قيل ، للناقة القوية على الأسفار : هى عُبْر أسفار . وعَبْر أسفار ، لقوتها على الأسفار . اهـ

قال ابن كثير : وهذا الذى نصره (يعنى ابن جرير) هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية . وكأنه تعالى نهى عن تعاطى الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها . وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة وهى الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضا . والله أعلم .

وقوله تعالى (حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) غاية للنهى عن قربان الصلاة ومواضعها ، حال الجنابة . والمعنى : لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا . إلا حال عبوركم السبيل .

تنبيهات

الأول ـ فى الآية تحريم الصلاة على السكران حال سكره حتى يصحو . وبطلانها وبطلان الاقتداء به . وعلى الجنب حتى يغتسل إلا أن يكون مسافراً . فيباح له التيمم .

الثانى ـ تمسك بالآية من قال : إن طلاق السكران لا يقع لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد . وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم وربيعة والليث بن سعد

وإسحق وأبو ثور والمزنىّ واختاره الطحاوىّ . والمسألة مبسوطة فى (زاد المعـاد) للإمام ابن القيّم .

الثالث ـ فى الآية دليل على أن ردة السكران ليست بردة : لأن قراءة سورة الـكافرين، بطرح اللاءات، كفر . ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الإيمان . وما أمر النبىّ ﷺ بالتفريق بينه وبين امرأته . ولا بتجديد الإيمان . ولأن الأمة اجتمعت على أن من أجرى كلمة الـكفر على لسانه مخطئاً ، لا يحكم بكفره . قاله النسفىّ .

الرابع ـ استدل بأحد التأويلين السابقين على تحريم دخول المسجد على السكران . لمـا يتوقع منه من التلويث وفحش القول. فيقاس به كل ذى نجاسة يخشى منها التلويث والسباب ونحوه . كذا فى (الإكليل) .

الخامس ـ استدل ابن الفرس بتوجيه الخطاب لهم فى الآية على تـكليف السكران ودخوله تحت الخطاب . وفيه نظر . لأن الخطاب عام لـكل مؤمن . وعلى تقدير أنه قصد به الذين صلوا فى حال السكر ، فإنما نزل بعد صحوهم . كذا فى (الإكليل) .

السادس ـ فى قوله تعالى (حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) رد على من أباح جلوس الجنب مطلقاً إذا توضأ . لأن الله تعالى جعل غاية التحريم الغسل . فلا يقوم مقامه الوضوء . كذا فى (الإكليل) .

أقول : إنما يكون هذا حجة لو كانت الآية نصًّا فى تأويل واحد . وحيث تطرق الاحتمال لها، على ما رأيت ، فلا .

وقد تمسك المبيح ، وهو الإمام أحمد ، بمـا روى هو وسعيد بن منصور فى (سننه) بسند صحيح ، أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك .

قال سعيد بن منصور فى (سننه) : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، هو الدراوردىّ ، عن هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون فى المسجد وهم مجنبون ، إذا توضؤوا وضوء الصلاة .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم .

السابع ـ قال العلامة أبو السعود : لعل تقديم الاستثناء على قوله (حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) للإيذان ، من أول الأمر ، بأن حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الإطلاق ، كما فى صورة السكر ، تشويقاً إلى البيان ، وروماً لزيادة تقرره فى الأذهان .

الثامن ـ قال أيضاً : فى الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه ، وأن يزكى نفسه عما يدنسها ، ولا يكتفى بأدنى مراتب التزكية ، عند إمكان أعاليها.

التاسع ـ أشعر قوله تعالى (حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) بالنهى عن الصلاة حال النعاس .

كما روى الإمام أحمد والبخارىّ[1] والنسائىّ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا نعس أحدكم وهو يصلى فلينصرف ولينم حتى يعلم ما يقول . وفى روايةٍ : فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه .

وقد روى ابن جرير[2] عن الضحاك فى الآية قال : لم يعن بها سكر الخمر . وإنما عنى بها سكر النوم .

قال ابن جرير[3] : والصواب أن المراد سكر الشراب .

---

(١) هذا نص حديث أنس الذى أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٥٣ ـ باب الوضوء من النوم ، حديث ١٦٤ ونصه: عن النبىّ ﷺ قال « إذا نعس أحدكم فى الصلاة فلينم حتى يعلم ما يقرأ» .

وهذا نص حديث عائشة الذى أخرجه البخارىّ فى الباب نفسه ، حديث ١٦١ .

«إذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه» .

وقريب منه فى المسند بالصفحة ٥٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) الأثر رقم ٩٥٣٤ .

(٣) التفسير ، الصفحة ٣٧٨ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

قال الرازىّ : ويدل عليه وجهان :

الأول ـ أن لفظ السكر حقيقة فى السكر من شرب الخمر . والأصل فى الكلام الحقيقة .

والثانى ـ أن جميع المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية إنما نزلت فى شرب الخمر. وقد ثبت فى أصول الفقه أن الآية إذا نزلت فى واقعة معينة ، ولأجل سبب معين ، امتنع أن لا يكون ذلك السبب مراداً بتلك الآية .

العاشر ـ قال الحافظ ابن كثير : قد يحتمل أن يكون المراد من الآية التعريض بالنهى عن السكر بالكلية . لكونهم مأمورين بالصلاة فى الخمسة الأوقات ، من الليل والنهار . فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة فى أوقاتها دائما . والله أعلم .

وعلى هذا فيكون كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١) . وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام ، والمداومة على الطاعة لأجل ذلك . انتهى .

الحادى عشر ـ قال الرازىّ : قال بعضهم : هذه الآية ، أى (لَا تَقْرَبُوا) الخ منسوخة بآية المائدة . وأقول: الذى يمكن ادعاء النسخ فيه أن يقال: نهى عن قربان الصلاة حال السكر ممدوداً إلى غاية أن يصير بحيث يعلم ما يقول . والحكم الممدود إلى غايةٍ ، يقتضى انتهاء ذلك الحكم عند تلك الغاية . فهذا يقتضى جواز قربان الصلاة مع السكر إذا صار بحيث يعلم ما يقول . ومعلوم أن الله تعالى لما حرم الخمر بآية المائدة ، فقد رفع هذا الجواز . فثبت أن آية المائدة ناسخة لبعض مدلولات هذه الآية . هذا ما حضر ببالى فى تقرير هذا النسخ .

والجواب عنه : أنا بيّنا أن حاصل هذا النهى راجع إلى النهى عن الشرب الموجب للسكر عند القرب من الصلاة. وتخصيصُ الشيء بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما عداه إلا على سبيل الظن الضعيف . ومثل هذا لا يكون نسخاً . انتهى . « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ » أى ولم تجدوا

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٢] .

بقربكم ماءً تستعملونه . ومنـه فَقْدُ من يناوله إياه ، أو خشيته الضرر به « أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ » لا تجدونه فيه « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْـكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » أى أو كنتم محـدثين . والغائط هو المـكان المنخفض . فالمجىء منه كناية عن الحدث . لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليوارى شخصه عن أعين الناس .

قال الخازن : كانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث . فـكنوا به عن الحدث . وذلك أن الرجل منهم ، كان إذا أراد قضاء الحاجة ، طلب غائطاً من الأرض ، يعنى مكاناً منخفضاً منها يحجبه عن أعين الناس . فسمى الحدَث بهذا الاسم . فهو من باب تسمية الشىء باسم مكانه . انتهى . وإسناد المجىء إلى واحد مبهم من المخاطبين دونهم ، للتفادى عن التصريح بنسبتهم إلى مايستحيا منه أو يستهجن التصريح به . كذا قاله أبوالسعود . ثم قال : وكذلك إيثار الـكناية فيما عطف عليه من قولهعز وجل « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ » على التصريح بالجماع. قال الشهاب : وفى ذكر (أحد) دون غيره إشارة إلى أن الإنسان ينفرد عنـد قضاء الحاجة كما هو دأبه وأدبه « فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً » قالالمهايمى : أى فلا تستحيوا من الله ، بلاعتذروا إليه « فَتَيَمَّمُوا » أى اقصدوا « صَعِيدًا » أى تراباً أو وجه الأرض « طَيِّبًا » أى طاهراً « فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا » تعليل للترخيص والتيسير ، وتقرير لهما . فإن مَن عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين ، لابد أن يكون ميسراً لا معسراً . وفى هذه الآية مسائل :

الأولى ـ الظاهر أن قوله تعالى (فَلَمْ تَجِدُوا) راجع إلى جميع ما قبلها وحينئذ لايجوز التيمم فىالـكل إلا عند عدم الماء . وأما ماقيل أنه راجع إلىقوله تعالى (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْـكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) لأنه قد وجد المانع ههنا من تقييد السفر والمرض ، بعدم الوجود للماء ، وهو أن كل واحد منهما عذر مستقل فى غير هذا الموضع كالصوم ـ فلا يفيد. لأنعدمالوجود معتبر فيهما لإباحة التيمم قطعاً. إذليسالسفر بمجرده مبيحاً. وكذلكالمرض.

وأما ما يقال من أنه قد يباح للمريض التيمم مع وجود المـاء إذا خشى الضرر به ، فعدم الوجود فى حقه إذن غير قيد . فالجواب : أن هذا داخل تحت عدم الماء لأن من تعـذر عليه استعماله هو، عادم له، إذ ليس المراد الوجود الذى لا ينفع . فمن كان يشاهد ماء فى قعر بئر ، يتعذر عليه الوصول إليه بوجه من الوجوه ، فهو عادم له . وهكذا خوف السبيل الذى يسلك إلى الماء . وهكذا من كان يحتاجه للشرب فهو عادم له . ولئن سلمنا ، تنزلًا ، أن المراد مطلق الوجود فنقول : المدعى أنه تعالى جوز التيمم للمريض إذا لم يجد الماء . وليس فيه دلالة على منعه من التيمم عند وجوده لعارض يمنعه من المـاء . فإن قيل : من أين تستدلون حينئذ على إباحة تيممه ؟ قلنا : من التحقيق الذى ذكرناه وهو أن المتعذر استعماله معدوم شرعاً وكذا من قوله تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)[1] وقوله (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)[2] وقوله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) ومما أخرجه أبو داود[3] وابن ماجة والدارقطنى من حديث جابر رضى الله عنه قال : خرجنا فى سفر . فأصاب رجلًا منا حجر فشجه فى رأسه . ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هـل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبى ﷺ أُخْبِرَ بذلك . فقال : قتلوه ، قتلهم الله ؛ ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العىّ السؤال . إنما كان يكفيه أن

(١) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٥] ونصها : وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٥ ـ باب فى المجروح يتيمم ، حديث ٣٣٦ .

يتيمم ، ويعصر (ويعصب) على جرحه ، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده . ومما رواه أحمد وأبو داود[١] وابن حبان والحاكم والدارقطني عن عمرو بن العاص قال : احتملت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت ، أن أهلك . فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح. فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: ياعمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً . فهذا وما قبله يدل على جواز العدول إلى التيمم لخشية الضرر .

قال مجد الدين ابن تيمية : في حديث عمرو ، من العلم، أن التمسك بالعمومات حجة صحيحة. انتهى .

وقد روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ) قال : نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ . ولم يكن له خادم فيناوله . فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فأنزل الله هذه الآية .

قال ابن كثير : هذا مرسل .

الثانية ـ ما يصدق عليه مفهوم عدم الوجود المقيد بالقيام إلى الصلاة ، هو المعتبر في تسويغ التيمم . كما هو الظاهر من الآية . لا عدم الوجود مع طلب مخصوص ، كما قيل : إنه يطلب في كل جهة من الجهات الأربع في ميل أو ينتظر إلى آخر الوقت حتى لا يبقى إلا مايسع الصلاة بعد التيمم . إذ لا دليل على ذلك . فإذا دخل الوقت المضروب للصلاة ، وأراد المصلي القيام إليها فلم يجد حينئذ ما يتوضأ به ، أو يغتسل في منزله أو مسجده ، أو ما يقرب منهما ، كان ذلك عذراً مسوّغاً للتيمم . فليس المراد بعدم الوجود في ذلك أن لا يجده بعد

(١) أخرجه أبوداود في: ١ ـ كتاب الطهارة، ٢٤ ـ باب إذا خاف الجنب البرد ، أيتيمم؟ حديث ٣٣٤ .

الكشف والبحث وإحفاء السؤال . بل المراد أن لا يكون معه علم أو ظن بوجود شيء منه هنالك ، ولم يتمكن فى تلك الحالة من تحصيله بشراء أو نحوه . فهذا يصدق عليه أنه لم يجد الماء عند أهل اللغة . والواجب حمل كلام الله تعالى على ذلك ، مع عدم وجود عرف شرعىّ . وقد وقع منه ﷺ ما يشعر بما ذكرناه . فإنه تيمم فى المدينة من جدار . كما ثبت ذلك فى الصحيحين[1] من دون أن يسأل ويطلب . ولم يصح عنه فى الطلب شيء تقوم به الحجة . فهذا ، كما يدل على وجوب الطلب ، يدل على عدم وجوب انتظار آخر الوقت ، ويدل على ذلك حديث الرجلين اللذين تيمما فى سفر ، ثم وجدا الماء . فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر : فقال ﷺ للذى لم يعد : أصبت السنة . أخرجه أبو داود[2] والحاكم وغيرهما من حديث أبى سعيد . فإنه يردّ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ٣ ـ باب التيمم فى الحضر إذا لم يجد الماء ، حديث ٣٣٢ ونصه :

عن حميد الأعرج ، قال: سمعت عميراً مولى ابن عباس، قال: أقبلت أنا وعبدالله بن يسار، مولى ميمونة ، زوج النبىّ ﷺ حتى دخلنا على أبى جهيم بن الحارث بن الصمة الأنصارىّ . فقال أبو الجهيم : أقبل النبىّ ﷺ من نحو بئر جمل . فلقيه رجل فسلّم عليه . فلم يردّ عليه النبىّ ﷺ . حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ، ثم رد عليه السلام .

وأخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١١٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٦ ـ باب المتيمم يجد الماء بعدما يصلى فى الوقت ، حديث ٣٣٨ ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ قال : خرج رجلان فى سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء . فتيمما صعيدا طيبا . فصليا . ثم وجدا الماء فى الوقت . فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء . ولم يعد الآخر . ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له . فقال للذى لم يعد « أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك » وقال للذى توضأ وأعاد « لك الأجر مرتين » .

قول من قال بوجوب الانتظار إلى آخر الوقت على المتيمم . سواء كان مسافراً أو مقيماً . كذا فى (الروضة الندية) .

الثالثة ـ دلت الآية على أن المسافر إذا لم يجد الماء تيمم . طال سفره أو قصر .

الرابعة ـ قرئ فى السبع (لامستم ولمستم) واللامسة واللمس يردان، لغةً ، بمعنى الجس باليد، وبمعنى الجماع . قال المجد فى (القاموس) لمسه يلمِسه ويلمُسه : مسّه بيده . والجارية جامعها . ثم قال : واللامسة المماسة والمجامعة . ومن ثمة اختلف المفسرون والأئمة فى المعنىّ بذلك هنا . فمن قائل بأن اللمس حقيقةٌ فى الجس باليد ، مجازٌ فى غيره . والأصل حمل الكلام على حقيقته لأنه الراجح، لاسيما على قراءة (لمستم) إذ لم يشتهر فى الوقاع كالملامسة. وروى عن ابن مسعود من طرق متعددة أنه قال[١] : الملامسة ما دون الجماع . وعنه[٢] : القبلة من المس وفيها الوضوء . رواهما ابن جرير .

وروى الطبرانىّ بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : يتوضأ الرجل من المباشرة ، ومن اللمس بيده ، ومن القبلة . وكان يقول فى هذه الآية (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) : هو الغمز .

وروى ابن جرير[٣] عن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة . ويرى فيها الوضوء . ويقول : هى من اللِّماس . وذكر ابن أبى حاتم أنه روى عن كثير من التابعين نحو ذلك . قالوا: ومما يؤيد بقاء اللمس على معناه الحقيقىّ قوله تعالى[٤](وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) أى جسّوه . وقال ﷺ[٥] لماعز ، حين أقر بالزنى ، يعرّض له بالرجوع

(١) الأثر رقم ٩٦٠٦ .

(٢) الأثر رقم ٩٦٠٧ .

(٣) الأثر رقم ٩٦١٧ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٧] . . . لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢٨ ـ باب قول الإمام للمقرّ : =

عن الإقرار : لعلك قبلت أو لمست ؟ وفى الحديث الصحيح[(١)] : واليد زناها اللمس . وقالت عائشة[(٢)] : قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا . فيقبل ويلمس . ومنه ما ثبت فى الصحيحين[(٣)] : أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة. وهو يرجع إلى الجس باليد. واستأنسوا أيضاً بالحديث الذى رواه أحمد[(٤)] عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال: يارسول الله ! ما تقول فى رجل لقى امرأة لا يعرفها ، فليس يأتى الرجل من امرأته شيئاً إلا أتاه منها غير أنه لم يجامعها . قال فأنزل الله عز وجل هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ

= لعلك لمست أو غمزت ؟ حديث ٢٥١٦ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أتى ماعز بن مالك النبىّ ﷺ ، قال له « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ؟ » قال : لا ، يا رسول الله ! قال « أَنِكْتَهَا » ؟ لا يكنى . قال فعند ذلك أمر برجمه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٤٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ)ونصه: عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «كل ابن آدم أصاب من الزنى لا محالة . فالعين زناها النظر . واليد زناها اللمس . والنفس تهوى وتحدث . ويصدق ذلك ويكذبه الفرج ».

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٠٨ من الجزء السادس(طبعة الحلبىّ)ونصه: عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ ، مامن يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً ، امرأةً امرأةً . فيدنو ويلمس من غير مسيس . حتى يفضى إلى التى هو يومها ، فيبيت عندها .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٦٢ ـ باب بيع الملامسة ، حديث ٢٤٣ ونصه : عن أبى سعيد رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ نهى عن المنابذة ، وهى طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقلّبه أو ينظر إليه . ونهى عن الملامسة . والملامسة لمس الثوب لا ينظر إليه .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) :

النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ)[١] الآية . قال فقال له النبيّ ﷺ : توضأ ثم صلّ . قال معاذ : فقلت: يارسول الله ! أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال: بل للمؤمنين عامة. ورواه الترمذيّ[٢] وقال : ليس بمتصل. والنسائيّ مرسلًا . قالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها .

فصل

ومن قائل : أن المعنيّ باللمس هنا الجماع. وذلك لوروده فى غير هذه الآية بمعناه . فدل على أنه من كنايات التنزيل . قال تعالى (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ)[٣] . وقال تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ)[٤] . وقال فى آية الظهار (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا)[٥] . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس

(١) [١١ / هود / ١١٤] . . . إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١١ ـ سورة هود ، ٥ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٧] ونصها : وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٤٩] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

(٥) [٥٨ / المجادلة / ٣] ونصها : وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فى هذه الآية (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ) قال : الجماع . وروى ابن جرير[١] عنه . قال : إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع . ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء . وقد صح من غير وجه عن ابن عباس أنه قال ذلك . وقد تقرر أن تفسيره أرجح من تفسير غيره ، لاستجابة دعوة الرسول ﷺ فيه بتعليمه تأويل الكتاب[٢] . كما أسلفنا بيان ذلك فى مقدمة التفسير . ويؤيد عدم النقض بالمس ما رواه مسلم[٣] والترمذىّ وصححه عن عائشة قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان . وهو يقول : اللهم ! إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وروى[٤] النسائىّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله ﷺ ليصلى وإنى لمعترضته بين يديه اعتراض الجنازة . حتى إذا أراد أن يوتر مسّنى برجله .

قال الحافظ ابن حجر فى (التلخيص) : إسناده صحيح . وقوله فى (الفتح) : يحتمل أنه كان بحائل أو أنه خاص به ﷺ ، تكلف ، ومخالفة للظاهر .

وعن إبراهيم التيمىّ عن عائشة رضى الله عنها . أن النبىّ ﷺ كان يقبل بعض أزواجه ثم يصلى ولا يتوضأ. رواه أبو داود[٥] والنسائىّ : قال أبو داود : هو مرسل . إبراهيم التيمىّ

---

(١) الأثر رقم ٩٥٨١ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ١٧ ـ باب قول النبىّ ﷺ « اللهم علمه الكتاب» . حديث ٦٥ ونصه: عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ وقال : «اللهم علمه الكتاب » .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه النسائىّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١١٩ ـ باب ترك الوضوء من مسّ الرجل امرأته من غير شهوة .

(٥) رواه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٨ ـ باب الوضوء من القبلة ، =

لم يسمع من عائشة : وقال النسائى : ليس فى هذا الباب أحسن من هذا الحديث ، وإن كان مرسلًا . وصححه ابن عبد البر وجماعة . وشهد له ماتقدم وما رواه الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث عمرة عن عائشة قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة . فقلت: إنه قام إلى جاريته مارية. فقمت ألتمس الجدار فوجدته قائمًا يصلى. فأدخلت يدى فى شعره لأنظر: أغتسل أم لا ؟ فلما انصرف قال: أخذك شيطانك ياعائشة. وفيه محمد بن إبراهيم عن عائشة . قال ابن أبى حاتم: ولم يسمع منها .

قال ابن جرير[1] : وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله بقوله (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) الجماع دون غيره من معانى اللمس . لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ . ثم أسنده من طرق . وبه يعلم أن حديث عائشة قرينة صرفت إرادة المعنى الحقيقى من اللمس ، وأوجبت المصير إلى معناه المجازى . وأما ما روى عن ابن عمر وابن مسعود ، فنحن لا ننكر صحة إطلاق اللمس على الجس باليد . بل هو المعنى الحقيقى . ولكنا ندعى أن المقام محفوف بقرائن توجب المصير إلى المجاز . وأما قولهم : بأن القبلة فيها الوضوء ، فلا حجة فى قول الصحابى . لاسيما إذا وقع معارضا لما ورد عن الشارع. ويؤيد ذلك قول اللغويين . أن المراد بقول بعض الأعراب للنبى ﷺ : إن امرأته لا ترد يد لامس ، الكناية عن كونها زانية . ولهذا قال له ﷺ : طلقها.

وأما حديث معاذ الذى استأنسوا به فلا دلالة فيه على النقض . لأنه لم يثبت أنه كان متوضئًا قبل أن يأمره النبى ﷺ بالوضوء . ولا ثبت أنه كان متوضئًا عند اللمس ، فأخبره النبى ﷺ أنه قد انتقض وضوؤه . كذا فى (نيل الأوطار) .

= حديث ١٧٨ ونصه : عن عائشة أن النبى ﷺ قبلها ولم يتوضأ .

والنسائى فى: ١ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ـ باب ترك الوضوء من القبلة. ونصه نص المتن.

(١) التفسير بالصفحة ٣٩٦ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

وقال ابن كثير : هو منقطع بين ابن أبي ليلى ومعاذ . فإنه لم يلقه . ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة ، كما تقدم في حديث الصديق[1] : مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له. وهو مذكور في سورة آل عمران عند قوله (ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)[2] الآية .

الخامسة ـ التيمم ، لغةً ، القصد. يقال: تيممته وتأممته ويممته وآممته أي قصدته . وأما الصعيد فهو فعيل بمعنى الصاعد . قال الزجاج : الصعيد وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . لا أعلم اختلافاً بين أهل اللغة في ذلك . وفي (المصباح) الصعيد في كلام العرب يطلق على وجوه: على التراب الذي على وجه الأرض. وعلى وجه الأرض. وعلى الطريق وفي (القاموس): الصعيد التراب أو وجه الأرض .

قال الأزهريّ : ومذهب أكثر العلماء أن الصعيد من قوله تعالى (صعيداً طيباً) هو التراب . انتهى .

واحتجوا بما في صحيح مسلم[3] عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً . وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء. وفي لفظ : وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد الماء . قالوا : فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان. فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٢٦ ـ باب في الاستغفار ، حديث ١٥٢١ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٣٥] ونصها: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٣) أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٤ (طبعتنا) .

معه . قالوا: وحديث جابر[١] المتفق عليه : جعلت لى الأرض مسجدا وطهوراً، خصصه ماقبله لأن الخاص يحمل عليه العام . واحتجوا أيضا بأن الطيّب لا يكون إلا ترابا . قال الواحدىّ: إنه تعالى أوجب فى هذه الآية كون الصعيد طيّباً . والأرض الطيبة هى التى تنبت بدليل قوله تعالى(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ)[٢] فوجب فى التى لاتنبت أن لاتكون طيبة. فكان قوله (فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً) أمراً بالتيمم بالتراب فقط. وظاهر الأمر للوجوب. واحتجوا أيضاً بآية المائدة. قالوا : الآية ههنا مطلقة ولكنها فى سورة المائدة مقيّدة وهى قوله سبحانه وتعالى (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)[٣] وكلمة (من) للتبعيض وهذا لايتأتى فى الصخر الذى لاتراب عليه .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ، ونصه :

عن جابر أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة. وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعتنا) .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٨] ونصها: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ =

قال الزمخشري : وقولهم إن (من) لابتداء الغاية ، قول متعسف . ولا يفهم أحد من العرب ، من قول القائل: (مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب) إلا معنى التبعيض. ثم قال : والإذعان للحق أحق من المراء . انتهى .

وأجاب القائلون، بجواز التيمم بالأرض وما عليها، عن هذه الحجج. بأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه الأرض لأنه ما صعد أي علا وارتفع على وجه الأرض . وهذه الصفة لاتختص بالتراب . ويؤيد ذلك حديث : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . وهو متفق عليه من من حديث جابر وغيره. وماثبت في رواية بلفظ (وتربتها طهوراً) كما أخرجه مسلم من حديث حذيفة. فهو غير مستلزم لاختصاص التراب بذلك عند عدم الماء. لأن غاية ذلك أن لفظ التراب دل بمفهومه على أن غيره من أجزاء الأرض لايشاركه في الطهورية. وهذا مفهوم لقب لا ينتهض لتخصيص عموم الكتاب والسنة . ولهذا لم يعمل به من يعتدبه من أئمة الأصول . فيكون ذكر التراب ، في تلك الرواية من باب التنصيص على بعض أفراد العام . وهكذا يكون الجواب عن ذكر التراب في غير هذا الحديث . ووجه ذكره أنه الذي يغلب استعماله في هذه الطهارة . ويؤيد هذا ماثبت من تيممه ﷺ من جدار . وأما الاستدلال بوصف الصعيد بالطيب ، ودعوى أن الطيب لا يكون إلا ترابا طاهراً منبتا لقوله تعالى[1] (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَايَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) ـ فغير مفيد للمطلوب إلا بعد بيان اختصاص الطيّب بما ذكر. والضرورة تدفعه . فإن التراب المختلط بالأزبال أجود إخراجا للنبات . كذا في (الروضة الندية) .

وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَايُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٨] ونصها : وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

وأما الاستدلال بآية المائدة وظهور التبعيض فى (من) فذاك إذا كان الضمير عائدا إلى الصعيد .

قال الناصر فى (الانتصاف): وثمة وجه آخر وهو عود الضمير على الحدث المدلول عليه بقوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ) إلى آخرها فإن المفهوم منه : وإن كنتم على حدث فى حال من هذه الأحوال : سفر أو مرض ، أو مجىء من الغائط ، أو ملامسة النساء فلم تجدوا ماء تتطهرون به من الحدث، فتيمموا منه . يقال : تيممت من الجنابة . قال : وموقع (من) على هذا مستعمل متداول . وهى على هذا الإعراب إما للتعليل أو لابتداء الغاية . وكلاهما فيها متمكن . والله أعلم .

السادسة ـ أفاد قوله تعالى (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ) أن الواجب فى التيمم عن وضوء أو غسل هو مسح الوجه واليدين فقط . وهذا إجماع . إلا أن فى اليدين مذاهب للأئمة. فمن قائل بأنهما يمسحان إلى المرفقين ، لأن لفظ اليدين يصدق فى إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين وعلى ما يبلغ المرفقين . كما فى آية الوضوء . وعلى ما يبلغ الكفين كما فى آية السرقة (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) . وقالوا : وحمل ما أطلق ههنا ، على ما قيد فى آية الوضوء ، أولى لجامع الطهورية .

وروى الشافعىّ عن إبراهيم بن محمد عن أبى الحويرث عن الأعرج عن ابن الصمة قال: مررت على النبىّ ﷺ وهو يبول . فسلمت عليه فلم يرد علىّ . حتى قام إلى الجدار فحته بعصا كانت معه . ثم وضع يده على الجدار فمسح وجهه وذراعيه . ثم رد علىّ .

وهذا الحديث منقطع . لأن الأعرج ، وهو عبد الرحمن بن هرمز ، لم يسمع هذا من ابن الصمة. وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة . وكذا هو مخرج فى الصحيحين عن عمير مولى ابن عباس قال : دخلنا على أبى جهيم بن الحرث . فقال أبو جهيم : أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل . فلقيه رجل فسلم عليه . فلم يردّ النبىّ ﷺ ، حتى أقبل على الجدار . فوضع يده على الحائط . فمسح بوجهه ويديه . ثم ردّ عليه السلام .

ولأبي داود[1] عن نافع قال: انطلقت مع ابن عمر فى حاجة إلى ابن عباس. فقضى ابن عمر حاجته. فكان من حديثه يومئذ أن قال : مر رجل على رسول الله ﷺ فى سكة من السكك. وقد خرج من غائط أو بول . فسلم عليه فلم يرد عليه. حتى إذا كاد الرجل أن يتوارى فى السكة ، ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه . ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه . ثم رد على الرجل السلام . وقال : إنه لم يمنعنى أن أرد عليك السلام ، إلا أنى لم أكن على طهر . وفى رواية : فمسح ذراعيه إلى المرفقين . فهذا أجود ما فى الباب . فإن البيهقىّ أشار إلى صحته. كذا فى (لباب التأويل) .

قال ابن كثير فى حديث أبى داود ما نصه : ولكن فى إسناده محمد بن ثابت العبدىّ . وقد ضعفه بعض الحفاظ . ورواه غيره من الثقات فوقفوه على فعل ابن عمر . قال البخارىّ ، وأبو زرعة وابن عدىّ : هو الصحيح .

وقال البيهقىّ : رَفْعُ هذا الحديث منكر .

قال ابن كثير : وذكر بعضهم ماروراه الدارقطنىّ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : التيمم ضربتان : ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين . ولكن لا يصح . لأن فى إسناده ضعفاً لا يثبت الحديث به . انتهى .

وذلك لأن فيه علىّ بن ظبيان . قال الحافظ ابن حجر : هو ضعيف ، ضعفه القطان وابن معين وغير واحد. وبه يعلم أن ما استدل به على إيجاب الضربتين ، مما ذكر، ففيه نظر. لأن طرقها جميعها لا تخلو من مقال . ولو صحت لكان الأخذ بها متعينا لما فيها من الزيادة .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٢ ـ باب التيمم فى الحضر ، حديث ٣٣٠ .

فصل

ذهب الزهرىّ إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين . ويدل على ذلك ماروى عن عمار بن ياسر قال: تمسّحوا وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصعيد لصلاة الفجر. فضربوا بأكفهم الصعيد ثم مسحوا وجوههم مسحة واحدة . ثم عادوا فضربوا بأكفهم الصعيد مرة أخرى. فمسحوا بأيديهم كلها إلى المناكب والآباط من بطون أيديهم . أخرجه أبو داود[1] .

قال الحافظ فى (الفتح): وأما رواية الآباط فقال الشافعىّ وغيره : إن كان ذلك وقع بأمر النبىّ ﷺ فكل تيمم صح للنبىّ صلى الله عليه وسلم بعده فهو ناسخ له. وإن كان وقع بغير أمره فالحجة فيما أمر به .

فصل

والحق الوقوف فى صفة التيمم على ماثبت فى الصحيحين[2] من حديث عمار، من الاقتصار على ضربة واحدة للوجه والكفين .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ ـ باب التيمم ، حديث ٣١٨ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ٤ ـ باب المتيمم هل ينفخ فيهما ؟ حديث ٢٣٣ ونصه :

عن عبد الرحمن بن أبزى قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إنى أجنبت فلم أُصب الماء . فقال عمّار بن ياسر لعمر بن الخطاب : أما تذكر أنا كنا فى سفر ، أنا وأنت . فأما أنت فلم تصلّ . وأما أنا فتمعكت فصليت . فذكرت للنبىّ ﷺ . فقال النبىّ ﷺ « إنما كان يكفيك هكذا » فضرب النبىّ ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ، ثم مسح بهما وجهه وكفيه .

وأخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١١٢ (طبعتنا) .

قال عمار : أجنبت فلم أصِب الماء. فتمعكت فى الصعيد وصليت. فذكرت ذلك للنبىّ ﷺ فقال : إنما كان يكفيك هكذا . وضرب النبىّ صلى الله عليه وسلم بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه . متفق عليه . وفى لفظ : إنما كان يكفيك أن تضرب بكفيك فى التراب ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك إلى الرسغين. رواه الدارقطنىّ .

وروى الإمام أحمد وأبو داود[1] عن عمار بن ياسر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى التيمم ضربة للوجه واليدين . وفى لفظ : إن النبىّ ﷺ أمره بالتيمم للوجه والكفين. رواه الترمذىّ[2] وصححه .

قال ابن عبد البر : أكثر الآثار المرفوعة عن عمار ضربة واحدة . وما روى عنه من ضربتين فكلها مضطربة . وأما الجواب عن المتفق عليه من حديث عمار بأن المراد منه بيان صورة الضرب ، وليس المراد منه جميع ما يحصل به التيمم ـ فتكلف واضح ، ومخالفة للظاهر .

وقد سرى هذا إلى العلامة السندىّ فى (حواشى البخارىّ) حيث كتب على حديث عمار مانصه : قد استدل المصنف (يعنى البخارىّ) بهذا الحديث على عدم لزوم الذراعين فى التيمم فى موضع . وعلى عدم وجوب الضربة الثانية فى موضع آخر ، وكذا سيجىء فى روايات هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قدم فى هذه الواقعة الكفين على الوجه . فاستدل به القائل لعدم لزوم الترتيب. فلعل القائل بخلاف ذلك يقول : إن هذا الحديث ليس مسوقاً لبيان عدد الضربات ولا لبيان تحديد اليد فى التيمم ولا لبيان عدم لزوم الترتيب. بل ذلك أمر مفوض إلى أدلة خارجة، وإنما هومسوق لرد مازعمه عمار من أن الجنب يستوعب البدن كله، والقصر فى قوله: (إنما كان يكفيك) معتبر بالنسبة إليه . كما هوالقاعدة أن القصر

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ ـ باب التيمم ، حديث ٣٢٧ .
(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١١٠ ـ باب ما جاء فى التيمم .

يعتبر بالنظر إلى زعم المخاطب . فالمعنى: إنما يكفيك استعمال الصعيد فى عضوين : وهما الوجه واليد . وأشار إلى اليد بـ(الكف) . ولا حاجة إلى استعماله فى تمام البدن . وعلى هذا يستدل على عدد الضربات وتحديد اليد ولزوم الترتيب أوعدمه بأدلة أخر. كحديث: التيمم ضربة للوجه وضربة للذراعين إلى المرفقين . وغيرذلك. فإنه صحيح كما نص عليه بعض الحفاظ . وهو مسوق لمعرفة عدد الضربات وتحديد اليد، فيقدم على غير المسوق لذلك. والله تعالى أعلم. انتهى كلامه .

وقوله : فإنه حديث صحيح ، فيه ماتقدم .

وقد قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) فى (فصل هديه ﷺ بالتيمم) مانصه : كان صلى الله عليه وسلم يتيمم بضربة واحدة للوجه والكفين . ولم يصح عنه أنه تيمم بضربتين ولا إلى المرفقين . قال الإمام أحمد : من قال : إن التيمم إلى المرفقين فإنما هو شيء زاده من عنده. وكذلك كان يتيمم بالأرض التي يصلى عليها. ترابا كانت أوسبخة أو رملا. وصح عنه أنه قال : حيثما أدركتْ رجلا من أمتي الصلاةُ فعنده مسجده وطهوره. وهذا نص صريح فى أن من أدركته الصلاة فى الرمل فالرمل له طهور. ولما سافر ﷺ هو وأصحابه فى غزوة تبوك ، قطعوا تلك الرمال فى طريقهم ، وماؤهم فى غاية القلة . ولم يُرْوَ عنه أنه حمل معه التراب ، ولا أمر به، ولا فعله أحد من أصحابه . مع القطع بأن فى المفاوز، الرمالُ أكثر من التراب . وكذلك أرض الحجاز وغيره . ومن تدبر هذا قطع بأنه كان يتيمم بالرمل . والله أعلم . وهذا قول الجمهور .

وأما ما ذكر فى صفة التيمم من وضع بطون أصابع يده اليسرى على ظهور اليمنى ، ثم إمرارها إلى المرفق ، ثم إدارة بطن كفه على بطن الذراع ، وإقامة إبهامه اليسرى كالمؤذن إلى أن يصل إلى إبهامه اليمنى ، فيطبقها عليها ـ فهذا مما يعلم قطعاً أن النبيّ ﷺ لم يفعله . ولا علّمه أحداً من أصحابه . ولا أمر به ولا استحسنه. وهذا هديه . إليه التحاكم . وكذلك لم يصح عنه التيمم لكل صلاة . ولا أمر به . بل أطلق وجعله قائما مقام الوضوء . وهذا يقتضى أن يكون حكْمُه حكْمَه ، إلا فيما اقتضى الدليل خلافه. انتهى.

السابعة ـ ذكر هنا الحافظ ابن كثير سبب مشروعية التيمم قال : وإنما ذكرنا ذلك ههنا ، لأن هذه الآية التى فى النساء متقدمة النزول على آية المائدة . وبيانه : أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر . والخمر إنما حرم بعد أُحُدٍ بيسير . فى محاصرة النبىّ ﷺ لبنى النضير . وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل . ولا سيما صدرها . فناسب أن يذكر السبب هنا . وبالله الثقة .

قال الإمام أحمد[١] حدثنا ابن نمير حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة . أنها استعارت من أسماء قلادة . فهلكت . فبعث رسول الله ﷺ رجالًا فى طلبها. فوجدوها . فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء . فصلوا بغير وضوء. فشكوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله عز وجل التيمم . فقال أسيد بن الحضير ، لعائشة : جزاكِ الله خيراً . فوالله ! ما نزل بك أمر تكرهينه، إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خيراً .

(طريق أخرى) قال البخارىّ[٢]: حدثنا عبدالله بن يوسف قال: أنبأنا مالك عن عبدالرحمن ابن القاسم عن أبيه ، عن عائشة زوج النبىّ ﷺ قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ ، فى بعض أسفاره : حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقد لى . فأقام رسول الله ﷺ على التماسه . وأقام الناس معه . وليسوا على ماء. وليس معهم ماء. فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى ، قد نام . فقال : حبستِ رسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ؟ قالت عائشة : فعاتبنى أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول . فجعل يطعننى بيده فى خاصرتى . فلا يمنعنى من التحرك إلا مكانُ رأس رسول الله ﷺ على فخذى . فقام رسول الله ﷺ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٥٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣٠ .

حتى أصبح على غير ماء . فأنزل الله آية التيمم . فتيمموا . فقال أسيد بن الحضير : ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر .

قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته .

وقد رواه البخارىّ[(١)] أيضا عن قتيبة بن سعيد عن مالك .

ورواه مسلم[(٢)] عن يحيى بن يحيى عن مالك. انتهى كلام ابن كثير .

وأورد الواحدىّ فى (أسباب النزول) هذا الحديث عند ذكر آيةالنساء أيضاً . وقال ابن العربىّ: لا نعلم أى الآيتين عنت عائشة. قال ابن بطال : هى آية النساء أوآية المائدة . وقال القرطبىّ : هى آية النساء . ووجهه بأن آية المائدة تسمى آية الوضوء، وآية النساء لا ذكر فيها للوضوء، فيتجه تخصيصها بآية التيمم .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وخفى على الجميع ما ظهر للبخارىّ[(٣)] من أن

---

(١) أخرجه فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلا » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٠٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتابالتفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٣ ـ باب قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، حديث ٢٣٠ ، حدثنا يحيى بن سليمان ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها : سقطت قلادة لى بالبيداء ونحن داخلون المدينة . فأناخ النبىّ ﷺ ونزل . فثنى رأسه فى حجرى راقدا . أقبل أبوبكر فلكزنى لكزة شديدة وقال: حبست الناس فى قلادة . فبى الموت لمكان رسول الله ﷺ وقد أوجعنى . ثم إن النبىّ ﷺ استيقظ وحضرت الصبح ، فالتمس الماء فلم يوجد . فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ... الآية .

فقال أسيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل بكر ، ما أنتم إلا بركة لهم .

المراد بها آية المائدة بغير تردد . لرواية عمرو بن الحرث . إذ صرح فيهـا بقوله : فنزلت (يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ) الآية .

وقال الحافظ قبلُ : استدل به (أى بحديث عائشة) على أن الوضوء كان واجباً عليهم قبل نزول آية الوضوء . ولهذا استعظموا نزولهم على غير ماء . ووقع من أبى بكر فى حق عائشة ماوقع. قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازى أنه ﷺ لم يصلّ منذ افترضت الصلاة عليه إلا بوضوء. ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند، قال: وفى قوله فى هذا الحديث (آية التيمم) إشارة إلى أن الذى طرأ عليهم من العلم حينئذ حكم التيمم لا حكم الوضوء ، قال : والحكمة فى نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ، ليكون فرضه متلوًّا بالتنزيل .

قال السيوطىّ فى (لباب النقول) بعد تصويب هذا الكلام : فإن فرض الوضوء كان مع فرض الصلاة بمكة . والآية مدنية . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر أيضا فى قول أسيد (ماهى بأول بركتكم) : يشعر بأن هذه القصة كانت بعد قصة الإفك. فيقوّى قول من ذهب إلى تعدد ضياع العقد. وممن جزم بذلك محمد بن حبيب الأخبارىّ فقال : سقط عقد عائشة فى غزوة ذات الرقاع وفى غزوة بنى المصطلق.

وقد روى ابن أبى شيبة من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع ...الحديث . فهذا يدل على تأخرها عن غزوة بنى المصطلق. لأن إسلام أبى هريرة كان فى السنة السابعة ، وهى بعدها بلا خلاف قال : وسيأتى فى المغازى أن البخارىّ يرى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد قدوم أبى موسى ، وقدومُه كان فى وقت إسلام أبى هريرة . ومما يدل على تأخر القصة أيضا عن قصة الإفك، ماروا ه الطبرانىّ من طريق عباد بن عبد الله ابن الزبير عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدى ما كان وقال أهل الإفك ماقالوا، خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة أخرى فسقط أيضا عقدى حتى حبس الناس على التماسه . فقال لى أبو بكر : يابنية! فى كل سفرة تكونين عناءً وبلاءً على الناس؟ فأنزل الله عز وجل الرخصة

فى التيمم . فقال أبو بكر : إنك لمباركة (ثلاثاً). وفى إسناده محمد بن حميد الرازى وفيه مقال. وفى سياقه من الفوائد بيان عتاب أبى بكر الذى أبهم فى حديث الباب، والتصريح بأن ضياع العقد كان مرتين فى غزوتين. والله أعلم. انتهى كلام الحافظ .

وقال الإمام شمس الدين ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى (غزوة المريسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق): إنها كانت فى شعبان سنة خمس. وبعد ذكرها قال : قال ابن سعد: وفى هذه الغزوة سقط عقد لعائشة فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آية التيمم. ثم ساق حديث الطبرانى المتقدم وقال: هذا يدل على أن قصة العقد التى نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة. وهو الظاهر. ولكن فيها كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد والتماسه . فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى. انتهى.

وقد روى سبب نزول الآية المذكورة أيضا عن عمار بن ياسر رضى الله عنه[١] قال : إن رسول الله ﷺ عرّس بأولات الجيش ومعه عائشة فانقطع عقد لها من جَزْع ظَفَارِ[٢] فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء. فتغيظ عليها أبو بكر. وقال: حبست الناس وليس معهم ماء! فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم رخصة التطهّر بالصعيد الطيب . فقام المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئاً . فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ومن بطون أيديهم إلى الآباط. ورواه أيضا ابن جرير عن أبى اليقظان رضى الله عنه[٣] قال :

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ ـ باب التيمم، حديث ٣٢٠ .

(٢) فى القاموس : الجزع : الخرز اليمانى الصّينى، فيه سواد وبياض . تشبَّه به الأعين. وقال فى اللسان : وظفارِ مثل قطامِ ، مبنية . موضع . وقيل: هى قرية من قرى حِمْيَر إليها ينسب الجَزْع الظفارى .

(٣) الأثر ٩٦٧٠ من التفسير .

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلك عقد لعائشة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضاء الصبح . فتغيظ أبو بكر على عائشة . فنزلت عليه الرخصة ، المسح بالصعيد . فدخل أبو بكر فقال لها: إنك لمباركة. نزل فيك رخصة . فضربنا بأيدينا : ضربة لوجوهنا وضربة لأيدينا إلى المناكب والآباط .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في سبب نزولها وجهاً آخر عن الأسلع بن شريك رضي الله عنه قال : كنت أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصابتني جنابة في ليلة باردة . وأراد رسول الله ﷺ الرحلة فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب. وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض. فأمرت رجلا من الأنصار فرحلها ثم رضفت أحجاراً فأسخنت بها ماءً واغتسلت . ثم لحقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال: يا أسلع! مالي أرى رحلتك قد تغيرت؟ قلت: يا رسول الله! لم أرحلها. رحلها رجل من الأنصار. قال: ولم؟ قلت: إني أصابتني جنابة فخشيت القرّ على نفسي، فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجارا فأسخنت بها ماءً فاغتسلت به . فأنزل الله عز وجل (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ) إلى قوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) .

قال ابن كثير : وقد روي من وجه آخر، عنه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

« أَلَمْ تَرَ » من رؤية القلب . وضمن معنى الانتهاء . أي: ألم ينته علمك إليهم . أو من رؤية البصر . أي: ألم تنظر « إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ » أي حظًّا من علم التوراة. وهم أحبار اليهود . قال العلامة أبو السعود : المراد بالذي أوتوه ، ما بيّن لهم فيها من الأحكام والعلوم التي من جملتها ما علموه من نعوت النبيّ ﷺ وحقية الإسلام . والتعبير عنه بالنصيب،

المنبيء عن كونه حقًّا من حقوقهم، التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها ، للإيذان بكمال ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعاً . وتنوينه تفخيمىّ مؤيد للتشنيع عليهم ، والتعجيب من حالهم. فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شناعتهم. والإشعار بمكان ماطوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو أحد العوضين « يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ » وهو البقاء على اليهودية ، بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوّة الرسول ﷺ ، وأنه هو النبىّ المبشَّر به فى التوراة والإنجيل. أى يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهدى ليشتروا ثمناً قليلًا من حطام الدنيا .

وإنما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور الأمر . لاسيما بعد الإشعار المذكور . والتعبير عن ذلك بالاشتراء ، الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن ، أى أخذها بدلًا منه ، أخذاً ناشئاً عن الرغبة فيها والإعراض عنه ـ للإيذان بكمال رغبتهم فى الضلالة ، التى حقها أن يعرض عنها كلّ الإعراض . وإعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون . وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم ، وغاية ركاكة آرائهم ـ ما لا يخفى . حيث صورت حالهم بصورة ما لا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز . قاله أبو السعود « وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ » أى لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا ، من كتمان نعوته صلى الله عليه وسلم ، أن تضلوا أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوا ، ويودون لو تكفرون بما أنزل عليكم من الهدى والعلم النافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيرًا﴾

« وَاللهُ أَعْلَمُ » أى منكم « بِأَعْدَائِكُمْ » أى وقد أخبركم بعداوتهم لكم ، وما يريدون بكم ، فاحذروهم . ولا تستنصحوهم فى أموركم ، ولا تستشيروهم « وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيًّا » يلى أموركم « وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيرًا » ينصركم . أى : فثقوا بولايته ونصرته دونهم.

ولاتتولوا غيره . أو: ولا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء . فإنه تعالى يكفيكم مكرهم وشرهم . ففيه وعد ووعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« مِنَ الَّذِينَ هَادُوا » بيان للموصول وهو (الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ) فإنه متناول لأهل الكتابين . وقد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة إلى تنفير المؤمنين منهم ، وتحذيرهم عن مخالطتهم ، والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل ، والاكتفاء بولايته ونصرته . وقوله تعالى « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » هو وما عطف عليه بيان لاشترائهم المذكور ، وتفصيل لفنون ضلالهم . فقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الإبهام ، والتفصيل إثر الإجمال . روماً لزيادة تقرير يقتضيه الحال . أفاده أبو السعود .

قال الإمام ابن كثير : قوله : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) أى يتناولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل ، قصداً منهم وافتراء .

وقال العلامة الرازى : فى كيفية التحريف وجوه : أحدها ـ إنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر . ثم قال : والثانى ـ أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف اللفظ من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية . كما يفعله أهل البدعة فى زماننا هذا ، بالآيات المخالفة لمذاهبهم ، وهذا هو الأصح . والثالث ـ أنهم كانوا يدخلون على النبى ﷺ ، ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به . فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه . انتهى .

وقال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى فى (إغاثة اللهفان) : قد اختلف فى التوراة التى بأيديهم . هل هى مبدلة أم التبديل وقع فى التأويل دون التنزيل ؟ على ثلاثة أقوال : قالت طائفة : كلها أو أكثرها مبدل . وغلا بعضهم حتى قال : يجوز الاستجمار بها . وقالت طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام : إنما وقع التبديل فى التأويل . قال البخارىّ[1] فى (صحيحه) : يحرفون يزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله . ولكنهم يتأولونه على غير تأويله . وهو اختيار الرازىّ أيضاً .

وسمعت شيخنا يقول : وقع النزاع بين الفضلاء . فأجاز هذا المذهب ووهّى غيره . فأنكر عليه . فأظهر خمسة عشر نقلاً به . ومن حجة هؤلاء ، أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها . وانتشرت جنوباً وشمالاً . ولا يعلم عدد نسخها إلا الله . فيمتنع التواطؤ على التبديل والتغيير فى جميع تلك النسخ ، حتى لا تبقى فى الأرض نسخة إلا مبدلة . وهذا مما يحيله العقل . قالوا : وقد قال الله لنبيه (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قالوا : وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم . ولم يمكنهم تغييرها من التوراة. ولذا لما قرؤوها على النبىّ ﷺ وضع القارئ يده على آية الرجم . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفعها فإذا هى تلوح تحتها . وتوسطت طائفة فقالوا : قد زيد فيها وغُيِّر أشياء يسيرة جداً . واختاره شيخنا فى (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) قال : وهذا كما فى التوراة عندهم : إن الله سبحانه قال لإبراهيم : اذبح إبنك بكرك أو وحيدك ، إسحق . ثم قال : قلت والزيادة باطلة من وجوه عشرة . ثم ساقها فارجع إليه . وقد نقلها عنه هنا الإمام صدّيق خان . فانظره فى تفسيره (فتح الرحمن) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف قيل ههنا (عَنْ مَوَاضِعِهِ) وفى المائدة (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)؟ قلت : أما (عَنْ مَوَاضِعِهِ) فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها ، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه . وأما (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) فالمعنى أنه كانت له مواضع ، هو قَمِنٌ بأن يكون فيها . فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه . والمعنيان متقاربان .

وقال الرازىّ : ذكر الله تعالى ههنا (عَنْ مَوَاضِعِهِ) وفى المائدة (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) والفرق : أنا إذا فسرنا التحريف بالتأويلات الباطلة ، فههنا قوله (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) معناه أنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص . وليس فيه بيان أنهم يخرجون تلك اللفظة من الكتاب . وأما الآية المذكورة فى سورة المائدة ، فهى دالة على أنهم جمعوا بين الأمرين. فكانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يخرجون اللفظ أيضاً من الكتاب. فقوله (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ) إشارة إلى التأويل الباطل. وقوله (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) إشارة إلى إخراجه عن الكتاب .

وقال الناصر فى (الانتصاف): الظاهر أن الكلم المحرف إنما أريد به ، فى هذه الصورة، مثل (غَيْرَ مُسْمَعٍ)و(رَاعِنَا) ولم يقصد ههنا تبديل الأحكام . وتوسطها بين الكلمتين ، بين قوله (يُحَرِّفُونَ) وبين قوله (لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ) والمراد أيضاً تحريف مشاهد بيّن على أن المحرف هما وأمثالها. وأما فى سورة المائدة فالظاهر ، والله أعلم ، أن المراد فيها بـ(الكلم) الأحكام. وتحريفها تبديلها . كتبديلهم الرجم بالجلد . ألا تراه عقبه بقوله (يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا) ؟ ولاختلاف المراد بالكلم فى السورتين . قيل فى سورة المائدة: يحرفون الكلم من بعد مواضعه. أى ينقلونه عن الموضع الذى وضعه الله فيه ، فصار وطنه ومستقره ، إلى غير الموضع . فبقى كالغريب المتأسف عليه الذى يقال فيه هذا غريب من بعد مواضعه ومقارّه . ولا يوجد هذا المعنى فى مثل (راعنا) و (غير مسمع) وإن وجد

على بعد فليس الوضع اللغوىّ مما يعبأ بانتقاله عن موضعه كالوضع الشرعىّ. ولولا اشتمال هذا النقل على الهزء والسخرية لما عظم أمره. فلذلك جاء هنا (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) غير مقرون بما قرن به الأول من صورة التأسف . والله أعلم. انتهى.

وقال العلامة أبو السعود : والمراد بالتحريف ههنا، إما ما فى التوراة خاصة وإما ما هو أعم منه، ومما سيحكى عنهم من الكلمات المعهودة الصادرة عنهم فى أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا مساغ لإرادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى « وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا » وما بعده، على ماقبله عطفاً تفسيرياً . لأنه يستدعى اختصاص حكم الشرطية الآتية وما بعدها بهنّ من غير تعرض لتحريفهم التوراة . مع أنه معظم جناياتهم المعدودة فقولهم (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) ينبغى أن يجرى على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة. بل وأن يحمل على ماهو أعم من القول الحقيقىّ ومما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم. أى يقولون فى كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بحضر النبىّ صلى الله عليه وسلم أوْ لا، بلسان المقال أو الحال: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) عناداً أو تحقيقا للمخالفة. انتهى.

قال ابن كثير : ويقولون سمعنا أى: سمعنا ماقلته يا محمد ولا نطيعك فيه. هكذا فسره مجاهد وابن زيد، وهو المراد. وهذا أبلغ فى كفرهم وعنادهم وأنهم يتولون عن كتاب الله بعد ماعقلوه وهم يعلمون ماعليهم فى ذلك من الإثم والعقوبة. « وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ » عطف على (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) داخل تحت القول أى: ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبته عليه الصلاة والسلام خاصة. وهو كلام ذو وجهين محتمل للشر. بأن يحمل على معنى (اسمع)، حال كونك غير مسمع كلاماً أصلا. بصمم أو موت. أى مدعوّاً عليك بلا سمعت . أو غير مسمع كلاماً ترضاه. وللخير بأن يحمل على: اسمع منا غير مسمع مكروهاً. كانوا يخاطبون به النبىّ صلى الله عليه وسلم استهزاءً به (عليهم اللعنة) مظهرين له إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون المعنى الأول مطمئنون به « وَرَاعِنَا » عطف على ماقبله. أى ويقولون فى أثناء خطابهم له ﷺ هذا أيضاً. وهى كلمة ذات وجهين أيضاً محتملة للخير

يحملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك. وللشر بحملها على شبه كلمة عبرانية كانوا يتسابّون بها. أوعلى السب بالرعونة أي الحمق. وبالجملة فكانوا، سخرية بالدين وهزؤاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام «لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ» أي فتلا بها وصرفاً للكلام من وجه إلى وجه وتحريفاً. أي يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون (رَاعِنَا) موضع (انْظُرْنَا) و(غَيْرَ مُسْمَعٍ) موضع (لا أسمعت مكروها) أو يفتلون بألسنتهم مايضمرونه من الشتم إلى مايظهرونه من التوقير نفاقاً. فإن قلت: كيف جاؤا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ماصرحوا وقالوا (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء. ويجوز أن يقولوه فيما بينهم ويجوز أن لاينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به. كذا في الكشاف.

وأصل (لَيًّا) لوياً لأنه من لويت أدغمت الواو في الياء لسبقها بالسكون. ومثله (الطيّ) «وَطَعْنًا فِي الدِّينِ» أي قدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على العلّية لـ(يَقُولُونَ) باعتبار تعلقه بالقولين الأخيرين. أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن في الدين. أوعلى الحالية. أي: لاوين وطاعنين في الدين. أفاده أبو السعود.

«وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا» أي عند ماسمعوا مايتلى عليهم من أوامره تعالى «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» أي بدل قولهم (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) والقول هنا كسابقه أعم من أن يكون بلسان المقال أو بلسان الحال «وَاسْمَعْ» أي لو قالوا عند مخاطبة النبيّ ﷺ بدل قولهم (اسمع) فقط بلا زيادة (غَيْرَ مُسْمَعٍ) المحتمل للشرّ «وَانْظُرْنَا» يعني بدل قولهم (راعنا) المحتمل للمعنى الفاسد كما سلف «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ» في الدنيا بحقن دمائهم وأموالهم وعلوّ رتبتهم بإحاطة الكتب السماوية. وفي الآخرة بضعف الثواب. أفاده المهايميّ.

قال أبو السعود: وصيغة التفضيل إما على بابها واعتبار أصل الفضل في المفضل عليه بناء على اعتقادهم. أو بطريق التهكم. وإما بمعنى اسم الفاعل «وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ»

أى: ولـكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فطردهم الله عن رحمته وأبعدهم عن الهدى ، بسبب كفرهم « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » منصوب على الاستثناء من (لعنهم) أى ولـكن لعنهم الله إلا فريقاً قليلا منهم . آمنوا فلم يلعنوا. أو على الوصفية لمصدر محذوف. أى: إلا إيماناً قليلا أى ضعيفاً ركيكا لا يعبأ به. فإنهم كانوا يؤمنون بالله والتوراة وموسى، ويكفرون ببقية المرسلين و كتبهم المنزلة. ورجّح أبو على الفارسيّ هذا . قال: لأن (قليلا) لفظ مفرد: ولو أريد به (ناس) لجُمِعَ نحو قوله : إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ [١] . ويمكن أن يجاب عنه بأنه قد جاء فعيل مفردا. والمراد به الجمع قال تعالى: وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً [٢] . وقال: وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً [٣] يبصرونهم. أفاده الرازيّ. وقد جوز على هذا أن يراد بالقلة العدم بالـكلية . كقوله [٤]:

قليل التشكى للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤] .

(٢) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقاً.

(٣) [٧٠ / المعارج / ١٠] .

(٤) قائله تأبط شرا ، حماسة أبى تمام رقم ١٣ . ومطلعها :

إنى لمهد من ثنـــائى فقاصد ... به لابن عم الصدق شمس بن مالك

قال المرزوقيّ فى شرح البيت :

المهم يجوز أن يكون من الهمّ الذى هو الحزن، ويجوز أن يكون من الهم الذى هو القصد. يقول : هو صبور على النوائب والعلّات ، لا يكاد يتألم مما يعروه من الملمات . واستعمل لفظ (القليل) والقصد إلى نفى الـكل . وهـذا كما يقال : فلان قليل الاكتراث بوعيد فلان ، والمعنى : لا يكترث . وعلى ذلك قولهم : قلَّ رجل يقول كذا ، وأقل رجل يقول كذا ، والمعنى معنى النفى .

أي هو كثير الهم مختلف الوجوه والطرق لا يقف أمله على فن واحد بل يتجاوزه إلى فنون مختلفة. صبور على النوائب لا يكاد يتشكى منها . فاستعمل لفظ (قَلِيل) وأراد به نفي الكل . أومنصوب على الاستثناء من فاعل (لَا يُؤْمِنُونَ) أي: فلا يؤمن منهم إلا نفر قليل. وأما قول الخفاجيّ : كان الوجه فيه الرفع على البدل لأنه من كلام غير موجب. وأبي السعود: بأن فيه نسبة القراء إلى الاتفاق على غير المختار ـ فمردود بأن النصب عربيّ جيد . وقد قرئ به في السبع في (قَلِيلٌ) من قوله تعالى : مَافَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ[(١)] وفي (امرأتك) من قوله تعالى : وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ[(٢)] كما قاله ابن هشام في التوضيح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا » يعني القرآن « مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ »

= وقوله (كثير الهوى) طابَق القليل بقوله (كثير) من حيث اللفظ ، لا أنه أثبت بالأول شيئاً نزرا فقابله بكثير .

(١) [٤ / النساء / ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا .

(٢) [١١ / هود / ٨١] ونصها : قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ .

أى موافقاً للتوراة « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً » أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم . وقال العوفىّ عن ابن عباس: طمسها أن تعمى « فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا » أى فنجعلها على هيئة أدبارها وهى الأقفاء مطموسة مثلها جزاءً على الكفر . فالفاء للتسبيب. أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الأقفاء والأقفاء إلى موضعها. وقد اكتفى بذكر أشدها . فالفاء للتعقيب.

قال الرازىّ: وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الخلقة والمثلة والفضيحة. لأن عند ذلك يعظم الغم والحسرة « أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ » أى: أو نفعل بهم أبلغ من ذلك. وهو أن نطردهم عن الإنسانية بالمسخ الكلىّ جزاءً على اعتدائهم بترك الإيمان. كما أخزينا به أوائلهم أصحاب السبت جزاء على اعتدائهم على السبت بالحيلة على الاصطياد. فمسخناهم قردة « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ » أى ما أمر به « مَفْعُولًا » أى نافذاً كائنا لا محالة . هذا وفى الآية تأويل آخر. وهو أن المراد من طمس الوجوه مجازه . وهو صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة. يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم.

قال ابن كثير : وهذا كما قال بعضهم فى قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(١) : أى هذا مثل سوء ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى . قال مجاهد : مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً ، يقول: عن صراط الحق . فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ، أى فى الضلال . قال ابن أبى حاتم : وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا . قال السدىّ : فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا : فنمنعها عن الحق، نرجعها كفاراً .

قال الرازىّ: والمقصود على هذا بيان إلقائها فى أنواع الخذلان وظلمات الضلالات . ونظيره قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ،

(١) [٣٦ / يس / ٨و٩] .

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[١] . تحقيق القول فيه أن الإنسان فى مبدأ خلقته ألف هذا العالم المحسوس . ثم إنه عند الفكر والعبودية كأنه يسافر من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات . فقدامه عالم المعقولات ، ووراءه عالم المحسوسات . فالمخذول هو الذى يرد عن قدامه إلى خلفه . كما قال تعالى فى صفتهم : نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ[٢] . ثم قال الرازىّ : قال عبد الرحمن بن زيد : هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى . وتأول ذلك فى إجلاء قريظة والنضير إلى الشام . فرد الله وجوههم على أدبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء ، من أرض الشام.كما جاءوا منها و(طمس الوجوه) على هذا التأويل يحتمل معنيين : أحدهما ـ تقبيح صورتهم . يقال : طمس الله صورته ، كقوله : قبح الله وجهه . والثانى ـ إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها . وثمة تأويل آخر . وهو : أن المراد بالوجوه الوجهاء . على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير . أى من قبل أن نغيّر أحوال وجهائهم ، فنسلب إقبالهم ووجاهتهم ، ونكسوهم صغاراً وإدباراً .

وقال بعضهم : الأظهر حمل قوله (أَوْ نَلْعَنَهُمْ) الخ على اللعن المتعارف . قال : ألا ترى إلى قوله تعالى : قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ[٣] . ففصل تعالى بين اللعن وبين مسخهم قردة وخنازير .

وأقول : لا يخفى أن جميع ما ذكر من التأويلات ، غير الأول ، لا يساعده مقام تشديد

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤].

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] ونصها : وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٠] ... ... وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .

الوعيـد ، وتعميم التهديد . فإن المتبادر من اللفظ الحقيقة . ولا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذر إرادتها . ولا تعذر هنا . كما أن المتبادر من اللعن ، المشبه بلعن أصحاب السبت ، هو المسخ . وهو الذى تقتضيه بلاغة التنزيل . إذ فيه الترقى إلى الوعيد الأفظع . ولا ننـكر أن تـكون هذه التأويلات مما يشمله لفظ الآية . وإنما البحث فى دعوى إرادتها دون سابقها . فالحق أن المتبادر من النظم الـكريم هو الأول . لأنه أدخـل فى الزجر . ويؤيده ما روى ، أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية . رواه ابن جرير(١) وابن أبى حاتم ولفظه بعد إسناده: عن أبى إدريس عائذ الله الخَوْلانىّ قال : كان أبو مسلم الجليلىّ معلم كعب . وكان يلومه فى إبطائه عن رسول الله ﷺ . قال فبعثه إليه ينظر أهو هو ؟ قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينة . فإذا تالٍ يقرأ القرآن ، يقول : يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْـكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَـكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا . فاغتسلت ، وإنى لأمسّ وجهى مخافة أن أطمس. ثم أسلمت .

وروى، من غير طريق ، نحوه أيضاً .

فإن قيل : قرينة المجاز عدم وقوع المتوعد به . فالجواب : أن عدم وقوعه لا يعين إرادة المجاز . إذ ليس فى الآية دلالة على تحتم وقوعه إن لم يؤمنوا . ولو فهم منها هذا فهما أوليًّا ، لـكان إيمانهم بعدها إيمان إلجاء واضطرار . وهو ينافى التـكليف الشرعىّ . إذ لم تجر سنته تعالى بهذا . بل النظم الـكريم فى هذا المقام محتمل ابتداء للقطع بوقوع المتوعدبه . ولوقوعه معلقاً بأمره تعالى ومشيئته بذلك ، وهو المراد . كما ينبئ عنـه قوله تعالى : وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا(٢): أى مايأمر به ، ويريد وقوعه . وإذا كان الوعيد منوطاً بأمره سبحانه ، فله أن

---

(١) الأثر رقم ٩٧٢٥ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] ونصها : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ =

يمضيه على حقيقته وله أن يصرفه لما هو أعلم به . إلا أن ورود نظم الآية بهذا الخطاب المتبادر في الوقوع غير المعلق ، ليكون أدخل في الترهيب ، ومزجرة عن مخالفة الأمر . هكذا ظهر لنا الآن . وهو أقرب مما نحاه المفسرون هنا من أن العقاب منتظر، أو ، أنه مشروط بعدم الإيمان . إلى غير ذلك . فقد زيفها جميعها العلامة أبوالسعود . ثم اختار أن المراد من الوعيد الأخروي . قال : لأنه لم يتضح وقوعه . وهذا فيه بُعْدٌ أيضاً ، لنبوّ مثل هذا الخطاب عن إرادة الوعيد الأخروي . لاسيما والجملة الثانية التي هددوا بها ، أعني لعنهم كأصحاب السبت ، كان عقابها دنيويًّا . فالوجه ما قررناه . وماأشبه هذه الآية ، في وعيديها ، بآية يس . أعني قوله تعالى : وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ(١) . بل هذه عندي تفسير لتلك . والقرآن يفسر بعضه بعضا . فبرح الخفاء والحمد لله .

لطيفة :

الضمير في (نلعنهم) لأصحاب الوجوه . أو (للذين) على طريقة الالتفات أو (للوجوه) إن أريد بها الوجهاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » قال أبو السعود : كلام مستأنف مسوق لتقرير

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

(١) [٣٦ / يس / ٦٦و٦٧] .

ما قبله من الوعيد ، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ، ببيان استحالة المغفرة بدونه. فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون في المغفرة . كما في قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ(١) . يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ (أى على التحريف) وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا . والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولياً . فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة . وقضى بخلود أصناف الكفرة في النار . ونزوله في حق اليهود ، كما قال مقاتل ، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم . وسياقه لا يقتضى اختصاصه بكفرهم ، بل يكفي اندراجه فيه قطعاً . بل لا وجه له أصلاً . لاقتضائه جواز مغفرة مادون كفرهم في الشدة من أنواع الكفر . أى لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة وإيمان . لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر . وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدى إلى فتحه . ولأن ظلمات الكفر والمعاصى إنما يسترها نور الإيمان . فمن لم يكن له إيمان لم يغفر له شيء من الكفر والمعاصى . انتهى .

قال الشهاب : الشرك يكون بمعنى اعتقاد أن لله شريكا ، وبمعنى الكفر مطلقاً ، وهو المراد هنا . وقد صرح به في قوله تعالى في سورة (لم يكن) بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا(٢) . فلا يبقى شبهة في عمومه . انتهى .

وقال الرازىّ : هذه الآية دالة على أن اليهودىّ يسمى مشركاً ، في عرف الشرع . ويدل عليه وجهان: الأول ـ أن الآية دالة على أن ماسوى الشرك مغفور . فلو كانت اليهودية مغايرة للشرك لوجب أن تكون مغفورة بحكم هذه الآية . وبالإجماع هى غير مغفورة . فدل على أنها داخلة

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٩] . . . وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(٢) [٩٨ / البينة / ٦] . . . أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .

تحت اسم الشرك . الثاني ـ إن اتصال هـــذه الآية بما قبلها ، إنما كان لأنها تتضمن تهديد اليهود . فلولا أن اليهودية داخلة تحت اسم الشرك ، وإلا لم يكن الأمر كذلك . فإن قيل: قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا...إلى قوله : وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا[١]. فعطف المشرك على اليهودىّ ، وذلك يقتضى المغـايرة ـ قلنا المغايرة حاصلة بسبب المفهوم اللغوىّ . والاتحاد حاصل بسبب المفهوم الشرعىّ . ولا بد من المصير إلا ما ذكرناه ، دفعاً للتناقض. انتهى .

لطيفة :

قال أبو البقاء : الشرك أنواع : شرك الاستقلال وهو إثبات إلٰهين مستقلين . كشرك المجوس . وشرك التبعيض ، وهو تركيب الإله من آلهة كشرك النصارى. وشرك التقريب، وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله زلفى ، كشرك متقدمى الجاهلية . وشرك التقليد ، وهو عبادة غير الله تبعاً للغير . كشرك متأخرى الجاهلية . وشرك الأسباب . وهو إسناد التأثير للأسباب العادية ، كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم على ذلك . وشرك الأغراض ، وهو العمل لغير الله. فحكم الأربعة الأولى الكفر بإجماع. وحكم السادس المعصية من غير كفر بإجماع. وحكم الخامس التفصيل. فمن قال فى الأسباب العادية إنها تؤثر بطبعها فقد حكى الإجماع على كفره. ومن قال إنها تؤثر بقوة أودعها الله فيها فهو فاسق. انتهى. «وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ» أى مادون الشرك من المعاصى، صغيرة كانت أو كبيرة « لِمَنْ يَشَاءُ » تفضلا منه وإحساناً. قال ابن جرير[٢] : وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله عز وجل. إن شاء

---

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] ونصها : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) الصفحة رقم ٤٥٠ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه. مالم تكن كبيرته شركا بالله عز وجل اه. وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلا منه ورحمة. وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة. وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة. وقد تقدم قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (١). وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر. فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته. ولذا قال الرازي: هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر. ثم جوّد وجوه الاستدلال . ومنها: أن ماسوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة . ومنها أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة مقطوع به وغير معلق على المشيئة. فوجب أن يكون الغفران المذكور، في هذه الآية، هو غفران الكبيرة قبل التوبة. وهو المطلوب .

وأول الزمخشري هذه الآية على مذهبه : بأن الفعل المنفيّ والمثبت جميعاً ، موجّهان إلى قوله تعالى (لِمَنْ يَشَاءُ) على قاعدة التنازع . كأنه قيل : إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء مادون الشرك. على أن المراد بالأول من لم يتب وبالثاني من تاب. قال: ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله. انتهى .

قال ناصر الدين في (الانتصاف) : عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور البتة . وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له. هذا مع عدم التوبة. وأما مع التوبة فكلاهما مغفور . والآية إنما وردت فيمن لم يتب ولم يذكر فيها توبة كما ترى. فلذلك أطلق الله تعالى نفي مغفرة الشرك وأثبت مغفرة مادونه مقرونة بالمشيئة، كما ترى. فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنة. وأما القدرية فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين مادونه من الكبائر. في أن كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يغفرها إلا للتائبين. فإذا

(١) [٤ / النساء / ٣١] . . . وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا .

عرض الزمخشرىّ هذا المعتقد على هذه الآية ردته ونبت عنه. إذ المغفرة منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه مقرونة بالمشيئة فأما أن يكون المراد فيهما من لم يتب، فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق المغفرة فى أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقاً . إذ هما سيّان فى استحالة المغفرة. وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال فى الشرك (إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ) والتائب من الشرك مغفور له . وعند ذلك أخذ الزمخشرىّ يقطع أحدهما عن الآخر . فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ومع الكبائر التوبة . حتى تنزل الآية على وفق معتقده فيحملها أمرين لا تحمل واحدا منهما : أحدهما ـ إضافة التوبة إلى المشيئة وهى غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر. وأيضا لو كانت مرادة لكانت هى السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلًا. ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم فى العقل . فكيف يليق السكوت عن ذكر ما هو العمدة والموجب ، وذكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الردىء ؟ الثانى ـ أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر. وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى. نعوذ بالله من ذلك .

وأما القدرية فهم بهذا المعتقد يقع عليه بهم المثل السائر (السيد يعطى والعبد يمنع) . لأن الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة للمصرّ على الكبائر ، إن شاء . وهم يدفعون فى وجه هذا التصريح ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح والصلاح، التى هى بالفساد أجدر وأحق. انتهى.

فائدة :

وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة :

الأول ـ عن عائشة(١) قالت : قال رسول الله ﷺ: الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئاً . وديوان لا يترك الله منه شيئاً . وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان

(١) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

الذى لا يغفره الله فالشرك بالله . قال الله عز وجل : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية. وقال: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ[1] . وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه ، أو صلاة تركها. فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز ، إن شاء . وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لا محالة . رواه الإمام أحمد . وقد تفرد به .

الثانى ـ عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله . وظلم يغفره الله . وظلم لا يترك الله منه شيئاً . فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك . وقال : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[2] . وأما الظلم الذى يغفره الله ، فظلم العباد لأنفسهم ، فيما بينهم وبين ربهم . وأما الظلم الذى لا يتركه ، فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض . رواه أبو بكر البزار فى مسنده .

الثالث ـ عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل ذنب عسى الله أن يغفره . إلا الرجل يموت كافرا . أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً . رواه الإمام أحمد[3] والنسائى .

الرابع ـ عن أبى ذر[4] : أن رسول الله ﷺ قال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله ،

(١) [٥ / المائدة / ٧٢] ونصها : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

(٤) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ١٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .
وأخرجه البخارى فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس، ٢٤ ـ باب الثياب البيض، حديث ٦٦٠
ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٥٤ (طبعتنا) .

ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً) ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر .

قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر .

وكان أبو ذر يحدث بهذا بعدُ ويقول : وإن رغم أنف أبى ذر . أخرجه الإمام أحمد والشيخان .

وفى رواية لهما عن أبى ذر : قال ﷺ : قال لى جبريل : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قلت : يا جبريل ! وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى؟ قال : نعم . وإن شرب الخمر .

الخامس ـ عن جابر قال : جاء أعرابىّ إلى النبىّ ﷺ فقال: يا رسول الله ! ماالموجبتان ؟ قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . ومن مات يشرك به دخل النار . أخرجه مسلم(١) وعبد بن حميد فى مسنده .

السادس ـ عن أبى سعيد الخدرىّ(٢) قال : قال رسول الله ﷺ : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . رواه الإمام أحمد .

السابع ـ عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال : قال الله عز وجل : من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى . رواه الطبرانىّ .

الثامن ـ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له. ومن توعده على عملٍ عقاباً ، فهو فيه بالخيار . رواه البزار وأبو يعلى .

التاسع ـ عن ابن عمر، قال: كنا ، معشر أصحاب النبىّ ﷺ ، لانشك فى قاتل النفس ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان حديث ١٥١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وآكل مال اليتيم ، وشاهد الزور ، وقاطع الرحم ، حتى نزلت هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فأمسكنا عن الشهادة . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[١] .

وفي رواية لابن أبي حاتم: فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله عز وجل.

العاشر ـ عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: ما في القرآن أحبّ إليّ من هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . رواه الترمذيّ[٢] وقال: حديث حسن غريب .

الحادي عشر ـ عن أنس[٣] رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم ! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي . يا ابن آدم ! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي . يا ابن آدم ! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة . رواه الترمذيّ وقال : حديث حسن غريب . لانعرفه إلا من هذا الوجه.

وروى نحوه الإمام أحمد عن أبي ذرّ[٤] ولفظه عن رسول الله ﷺ ، قال : إن الله عز وجل يقول : يا عبدي ! ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك . ويا عبدي ! إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة مالم تشرك بي ، لقيتك بقرابها مغفرة .

والأحاديث في ذلك متوافرة . ويكفي هذا المقدار .

---

(١) الأثر رقم ٩٧٣٢ .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢٣ ـ حدثنا خلاد بن أسلم .

(٣) أخرجه الترمذيّ في : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٩٨ ـ باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ١٥٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً » أي افترى واختلق، مرتكباً إثماً لا يقادر قدره . ويستحقر دونه جميع الآثام . فلا تتعلق به المغفرة قطعاً .

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى فى كتابه (الجواب الكافى) : الشرك بالرب تعالى نوعان: شرك به فى أسمائه وصفاته ، وجعل آلهة أخرى معه . وشرك به فى معاملته . وهذا الثانى قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره . وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم ، فى خلقه وأمره . فمن كان من أهل هذه الذنوب ، فقد نازع الله ، سبحانه وتعالى ، ربوبيته وملكه . وجعل له ندًّا . وهذا أعظم الذنوب عند الله . ولا ينفع معه عمل .

وقال بعد ذلك : وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال : إن الله عز وجل أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض ، ليُعرف ويُعبد ويُوحد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له ، والدعوة له . كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[(1)] . وقال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ[(2)] . وقال تعالى : اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً[(3)] . وقال تعالى : جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[(4)] . فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ، ويعبد وحده لا يشرك به ،

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٥ / الحجر ٨٥] . . . وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ .

(٣) [٦٥ / الطلاق / ١٢] .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٧] .

وأن يقوم الناس بالقسط . وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض . كما قال تعالى[١] : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل . ومن أعظم القسط التوحيد . بل هو رأس العدل وقوامه . وإن الشرك ظلم عظيم . كما قال تعالى[٢] . إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . فالشرك أظلم الظلم . والتوحيد أعدل العدل . فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر . وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له . وما كان أشد موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله ، تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين ، فيما فرض على عباده وحرمه عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى . فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود ، وكان أكبر الكبائر على الإطلاق ، وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله لأهل التوحيد ، وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا ، أو يقبل فيه شفاعة ، أو يستجيب له فى الآخرة دعوة ، أو يقيل له فيها عثرة ـ فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً ، وذلك غاية الجهل به . كما أنه غاية الظلم منه . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه . ووقعت مسألة : وهى أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى . وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء . كحال الملوك . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية . وإنما قصد تعظيمه . وقال : إنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى وتدخلنى عليه . فهو المقصود . وهذه وسائل وشفعاء.

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

فلم كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلداً فى النار وموجباً لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟ وترتب على هذا سؤال آخر: وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقريب إليه بالشفعاء والوسائط؟ فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول، يمتنع أن تأتى به شريعة، بل جاءت بتقرير مافى الفطر والعقول من قبحه الذى هو أقبح من كل قبيح ؟ وما السبب فى كونه لايغفره من دون سائر الذنوب؟ كما قال تعالى : إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . فتأمل هذا السؤال. واجمع قلبك وذهنك على جوابه . ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهل الجنة وأهل النار . فنقول (وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نستمد المعونة والتسديد . فإنه من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له . ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع) : الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله . وشرك فى عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله . والشرك الأول نوعان : أحدهما ـ شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك . كشرك فرعون إذ قال[1] وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ وقال تعالى مخبرا عنه أنه قال[2]: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً . فالشرك والتعطيل متلازمان . فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك . لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصلُ الشرك وقاعدته التى ترجع إليها هو التعطيل . وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه . وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله.

(١) [٢٦/ الشعراء / ٢٣] ونصها : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦و٣٧] ... وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد . ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود ، الذين يقولون : ماثمّ خالق ومخلوق، ولا ههنا شيئان . بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديّته وإنه لم يكن معدوماً أصلاً . بل لم يزل ولا يزال . والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها . يسمونها العقول والنفوس . ومن هذا أشرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهميّة والقرامطة . فلم يثبتوا له اسما ولا صفة . بل جعلوا المخلوق أكمل منه . إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثاني . شرك من جعل معه إلٰها آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته . كشرك النصارى الذي جعلوه ثالث ثلاثة . فجعلوا المسيح إلٰها وأمه إلٰها . ومن هـذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة . ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه ، وإنهـا تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته . ولهذا كانوا من أشباه المجوس . ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه : إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ[1] . فهذا جعل نفسه ندًّا لله ، يحيي ويميت بزعمه . كما يحيي الله ويميت . فألزمه إبراهيم ، عليه السلام ورحمة الله وبركاته ، أن طَرْد قولك، أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها. وليس هذا

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

انتقالاً كمازعم بعض أهل الجدل، بل إلزاما على طرد الدليل إن كان حقاً . ومن هـذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم . كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم . ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم . ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة . ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة . ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه، أقبل إليه واعتنى به. ومنهم من يزعم أنه معبودهم الأدنى يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه . والفوقانىّ يقربه إلى من هو فوقه . حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه . فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك فى العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرا . فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله . وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله . وأنه لا إله غيره ولا رب سواه . ولكن لا يخلص لله فى معاملته وعبوديته . بل يعمل لحظّ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة . ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة . فللّه من عمله وسعيه نصيب. ولنفسه وحظه وهواه نصيب. وللشيطان نصيب . وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس. وهو الشرك الذى قال فيه النبىّ ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه[1] : الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. قالوا: وكيف ننجو منه ؟ يارسول الله ! قال : قل: اللهم! إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم .

فالرياء كله شرك . قال تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا[2] .

(١) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٤٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

أى كما أنه إله واحد ، لا إله سواه ، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده . فكما تفرّد بالإلهية ، يجب أن يفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء ، المقيد بالسنة . وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اللهم ! اجعل عملى كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً. ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وهذا الشرك فى العبادة يبطل العمل . وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً. فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر . فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة . قال تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ[1] . فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به. بل الذى أتى به، شىء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه . ويقول الله تعالى[2] : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه . وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور . وأكبر وأصغر. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر . وليس شىء منه مغفورا . فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم بأن يحب المخلوق كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله . وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا[3] الآية .

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم : تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[4] . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة . وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل والظلم . فكيف يسوّى مَن خُلِقَ من التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى

---

(١) [٩٨ / البينة / ٥] . . . وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ.

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٣) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ.

(٤) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨]

العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ـ بالغنىّ بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته ، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟ فأىّ ظلم أقبح من هذا ؟ وأىّ حكم أشد جورًا منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[١] . فعدل المشرك مَن خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه !!

فصل

ويتبع هذا الشرك ، الشرك به سبحانه فى الأقوال والأفعال والإرادات والنيات . فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار ، غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبىّ ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها . فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدها من دون الله . وفى الصحيحين[٢] عنه أنه قال : لعنة الله على اليهود والنصارى. اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وفى الصحيح[٣] عنه :

(١) [٦ / الأنعام / ١] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٥ ـ حدثنا أبو اليمان ، حديث ٢٨٥و٢٨٦ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٩ (طبعتنا) .

(٣) رواه أحمد فى المسند بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) . =

إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء . ومن يتخذ القبور مساجد .
وفى الصحيح[١] أيضاً عنه : إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد . فإنى أنهاكم عن ذلك . وفى مسند الإمام أحمد[٢] رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج . وقال: اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وقال[٣]: إن من كان قبلكم ، إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور . أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر . فكيف حال من سجد للقبر بنفسه ؟ وقد قال النبىّ ﷺ[٤] : اللهم ! لا تجعل قبرى وثناً يعبد . وقد حمى النبىّ جانب التوحيد

= وهو فى البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٥ ـ باب ظهور الفتن ، حديث ٢٥٥٠ .
وفى مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ١٣١ (طبعتنا) .
وليس فيهما محل الشاهد وهو (والذين يتخذون القبور مساجد) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٢٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، حديث ٢٨١ ونصه :
عن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير . فذكرَتَا للنبىّ ﷺ فقال « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تيك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .
ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مالك فى : ٩ ـ كتاب قصر الصلاة فى السفر ، حديث ٨٥ (طبعتنا) .

أعظم حماية حتى نهى[١] عن صلاة التطوّع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها . لئلا يكون ذريعة إلى التشبيه بعبّاد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين. وسد الذريعة بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس . وأما السجود لغير الله فقال[٢] : لا ينبغى لأحـد أن يسجد لأحد إلا لله . و (لا ينبغى) فى كلام الله ورسوله ﷺ ـ للذى هو فى غاية الامتناع شرعاً . كقوله تعالى: وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا[٣] . وقوله : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ[٤] . وقوله: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ*وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ[٥] . وقوله عن الملائكة : مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ[٦] .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ٣١ ـ باب لايتحرى الصلاة قبل غروب الشمس، حديث٣٧٩ ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « لاصلاة بعد الصبح حتى ترتفع الشمس ، ولا صلاة بعد العصر حتى تغيب الشمس ».

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤ ـ باب حق الزوج على المرأة ، حديث ١٨٥٣ (طبعتنا) ونصه : عن عبد الله بن أبى أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبىّ ﷺ . قال « ما هـذا ؟ يا معاذ ! » قال : أتيت الشام فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم . فوددت فى نفسى أن نفعل ذلك بك . فقال رسول الله ﷺ « فلا تفعلوا . فإنى لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. والذى نفس محمد بيده ! لاتؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها . ولو سألها نفسها ، وهى على قتب ، لم تمنعه » .

(٣) [١٩ / مريم / ٩٢] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٩] ... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠و٢١١] . . . وَمَا يَسْتَطِيعُونَ .

(٦) [٢٥ / الفرقان / ١٨] ونصها: قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ =

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به فى اللفظ . كالحلف بغيره . كما رواه أحمد[١] وأبو داود عنه ﷺ ، أنه قال : من حلف بشيء دون الله فقد أشرك . وصححه الحاكم وابن حبان. ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت . كما ثبت عن النبيّ ﷺ[٢] أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت. قال : أجعلتنى لله ندًّا ؟ قل: ما شاء اللهوحده . وهذا ، مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة ، كقوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ[٣] ـ فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك ؟ وأنا فى حسب الله وحسبك ؟ ومالى إلا الله وأنت ؟ وهذا من الله ومنك ؟ وهذا من بركات الله وبركاتك ؟ والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض ؟ أويقول : والله ! وحياة فلان . أو يقول : نذرًا لله ولفلان . وأنا تائب لله ولفلان . وأرجو الله وفلانًا ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش؟ يتبين لك أن قائلها أولى لجواب النبيّ ﷺ لقائل تلك الكلمة. وأنه إذا كان قدجعله ندًّا لله بها، فهذا قدجعل من لا يدانى رسول الله ﷺ فى شيء من الأشياء ، بل لعله أن يكون من أعدائه ، ندًّا لرب العالمين . فالسجود والعبادة ، والتوكل والإنابة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير، والتهليل والتحميد ، والاستغفار

= مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا.

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢١٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن ابن عباس أن رجلا قال للنبىّ ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال له النبىّ ﷺ « أجعلتنى والله عدلا ؟ بل ما شاء الله وحده » .

(٣) [٨١ / التكوير / ٢٨] .

وحلق الرأس ، خضوعاً وتعبدًا ، والطواف بالبيت ، والدعاء ـ كل ذلك محض حق الله. لا يصلح ولا ينبغى لسواه، من ملك مقرب ولا نبىّ مرسل . وفى مسند الإمام أحمد(١) أن رجلًا أتى به إلى النبىّ ﷺ قد أذنب ذنباً . فلما وقف بين يديه قال : اللهم ! إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال : قد عرف الحق لأهله .

فصل

وأما الشرك فى الإرادات والنيات ، فذلك البحر الذى لاساحل له، وقلّ من ينجو منه. فمن أراد بعمله غير وجه الله ، ونوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك فى نيته وإرادته . والإخلاص : أن يخلص لله فى أقواله وأفعاله وإرادته ونيته . وهذه هى الحنيفية ، ملة إبراهيم ، التى أمر الله بها عباده كلهم . ولا يقبل من أحد غيرها . وهى حقيقة الإسلام. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢). وهى ملة إبراهيم عليه السلام، التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور. فنقول (ومن الله وحده نستمد الصواب) : حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به . وهذا هو التشبيه فى الحقيقة . لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصف بها رسول الله ﷺ. فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيما وطاعة . فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلهية .فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقدشبهه بالخالق. وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولاضرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا ، أفضل من غيره . تشبيها بمن له الأمر كله . فأزمّة الأمور كلها بيده ، ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع . بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد . وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغنىّ بالذات . ومن خصائص الالٰهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده . والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلًا وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده . ويمنع عقلًا وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له . وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لايغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة. ومن خصائص الإلٰهية العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب مع غاية الذل . هـذا تمام العبودية . وتفاوتُ منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه . وهـذا من المحال أن تأتى به شريعة من الشرائع . وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولـكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، واجتالتهم عنها . ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى . فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرتهم وعقولهم . فازدادوا بذلك نوراً على نور . يهدى الله لنوره من يشاء .

إذا عرف هذا ، فمن خصائص الإلٰهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل . فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها التوبة . فمن تاب لغيره فقد شبهه به. ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . وأما

فى جانب التشبه به، فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح والتعظيم، والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاءً ، والتجاء واستعانة ، فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلٰهيته . وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان . ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه . وفى الصحيح[١] عنه ﷺ قال: يقول الله عز وجل: العظمة إزارى والكبرياء ردائى. فمن نازعنى واحداً منهما عذبته. وإذا كان المصور، الذى يصنع الصورة بيده، من أشد الناس عذابا يوم القيامة، لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة ـ فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والإلٰهية، كما قال النبىّ ﷺ[٢]: أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون. يقال لهم : أحيوا ما خلقتم . وفى الصحيح[٣] عنه ﷺ أنه قال :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، ٣٨ ـ باب تحريم الكبر، حديث ١٣٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه . فمن ينازعنى عذبته » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٥ ـ باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله ، حديث ١٢٢٣ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علىّ النبىّ ﷺ وفى البيت قرام فيه صور . فتلوّن وجهه ، ثم تناول الستر فهتكه . وقالت: قال النبىّ ﷺ « من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، الذين يصورون هذه الصور » .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٩٠ ـ باب نقض الصور ، حديث ٢٣٠٨ ونصه :

عن أبى زُرعة قال : دخلت مع أبى هريرة داراً بالمدينة . فرأى أعلاها مصوِّرا يصور . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة » .

قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي؟ فليخلقوا ذرة . فليخلقوا شعيرة . فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما وأكبر . والمقصود أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة. فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلٰهيته؟ وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لاينبغي إلا لله وحده . كملك الأملاك وحاكم الحكام ونحوه. وقد ثبت في الصحيح[1] عنه ﷺ أنه قال : إن أخنع الأسماء عند الله رجل يتسمى بشاهان شاه ملك الملوك. ولا ملك إلا الله . وفي لفظ: أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك . فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لاينبغي إلا له . فهو سبحانه ملك الملوك وحده . وهو حاكم الحكام وحده . فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ، ويقضي عليهم كلهم، لا غيره.

تنبيه :

حيثما وقع في حديث : من فعل كذا فقد أشرك . أو فقد كفر ـ لايراد به الكفر المخرج عن الملة ، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذي تجري عليه أحكام الردة ، والعياذ بالله تعالى . وقد قال البخاري[2] : باب كفران العشير وكفر دون كفر .

قال القاضي أبو بكر ابن العربي في (شرحه) : مراده أن يبيّن أن الطاعات ، كما تسمى إيماناً، كذلك المعاصي تسمى كفراً . لكن حيث يطلق عليها الكفر لايراد عليه الكفر المخرج عن الملة . فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة ، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون

---

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١١٤ ـ باب أبغض الأسماء إلى الله ، حديث ٢٣٦٧ ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخنع الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى بملك الأملاك » .

قال سفيان (أحد رجال السند) : يقول غيره تفسيره : شاهانْ شاهْ .

(٢) صحيح البخاري : ٢ـ كتاب الإيمان، ٢١ ـ باب كفران العشير وكفر دون كفر.

صاحبه مشركا أوكافراً، فإنه يعذر بالجهل والخطأ ، حتى تتبين له الحجة ، الذى يكفر تاركها، بياناً واضحاً مايلتبس على مثله . وينكر ماهو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعاً جلياً قطعياً . يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل . كما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى. ولم يخالف فى ذلك إلا أهل البدع. قال الشيخ تقىّ الدين فى (كتاب الإيمان): لم يكفّر الإمام أحمد الخوارج ولا المرجئة ولا القدرية . وإنما المنقول عنه وعن أمثاله تكفير الجهمية . مع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية . ولا كل من قال : أنا جهمىّ ـ كفّره . بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم ، وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة . ولم يكفرهم أحمد وأمثاله بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم ويرى لهم الائتمام بالصلاة خلفهم، والحج والغزو معهم ، والمنع من الخروج عليهم بما يراه لأمثالهم من الأئمة. وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذى هو كفر عظيم. وإن لم يعلموا هم أنه كفر . كان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان . فيجمع بين طاعة الله ورسوله ﷺ فى إظهار السنة والدين وإنكار بدع الجهمية الملحدين ، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة، وإن كانوا جهالاً مبتدعين . وظلمة فاسقين . انتهى كلام الشيخ . فتأمله تأملا خالياً عن الميل والحيف .

وقال الشيخ تقىّ الدين أيضاً: من كان فى قلبه الإيمان بالرسول وبما جاء به، وقد غلط فى بعض ما تأوله من البدع ولو دعا إليها ، فهذا ليس بكافر أصلًا. والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالًا للأمة وتكفيرا لها . ولم يكن فى الصحابة من يكفرهم، لاعلىّ ولا غيره. بل حكموا فيهم بحكمهم فى المسلمين الظالمين المعتدين. كما ذكرت الآثار عنهم بذلك فى غير هذا الموضع. وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقة ، من كان منهم منافقاً فهو كافر فى الباطن . ومن كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافراً فى الباطن . وإن كان أخطأ فى التأويل كائناً ما كان خطؤه . وقد يكون فى بعضهم شعبة من النفاق . ولا يكون فيه

النفاق الذى يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار. ومن قال: إن الثنتين والسبعين فرقة، كل واحد منهم يكفر كفرا ينقل عن الملة ، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة . بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة . فليس فيهم من كفّر كل واحدمن الثنتين والسبعين فرقة . انتهى .

وقال ابن القيّم فى طرق أهل البدع : الموافقون على أصل الإسلام ولكنهم مختلفون فى بعض الأصول ، كالخوارج والمعتزلة والقدرية والرافضة والجهمية وغلاة المرجئة ـ فهؤلاء أقسام : أحدها ـ الجاهل المقلد الذى لا بصيرة له . فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى . وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان . القسم الثانى ـ متمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق . ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياه ورياسته ولذاته ومعاشه . فهذا مفرّط مستحق للوعيد ، آثم بترك ما أوجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته . فهذا ، إن غلب ما فيه من البدعة والهوى ، على مافيه من السنة والهدى ، ردّت شهادته . وإن غلب مافيه من السنة والهدى ، على ما فيه من البدعة والهوى، قبلت شهادته . الثالث ـ أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى ويترك ، تعصباً أو معاداة لأصحابه . فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقاً . وتكفيره محل اجتهاد . انتهى كلامه . فانظره وتأمله . فقد ذكر هذا التفصيل فى غالب كتبه . وذكر أن الأئمة وأهل السنة لا يكفرونهم . هذا مع ماوصفهم به من الشرك الأكبر ، والكفر الأكبر . وبين فى غالب كتبه مخازيهم . ولنذكر من كلامه طرفاً تصديقاً لما ذكرنا عنه . قال رحمه الله فى (المدارج): المثبتون للصانع نوعان : أحدهما ـ أهل الإشراك به فى ربوبيته وإلٰهيته. كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية . فإنهم يثبتون مع الله إلٰهاً آخر . والمجوسية القدرية تثبت مع الله خالقاً للأفعال . ليست أفعالهم مخلوقة لله ولا مقدورة له . وهى صادرة بغير مشيئته تعالى وقدرته . ولا قدرة له عليها. بل هم الذين جعلوا أنفسهم فاعلين مريدين شيّائين . وحقيقة قول هؤلاء : إن الله ليس ربًّا خالقاً لأفعال الحيوان . انتهى كلامه . وقد ذكرهم بهذا الشرك فى سائر كتبه . وشبههم

بالمجوس الذين يقولون : إن للعالم خالقين . وانظر لما تكلم على التكفير هو وشيخه ، كيف حكيا عدم تكفيرهم عن جميع أهل السنة . حتى مع معرفة الحق والمعاندة . قال : كفره محل اجتهاد . كما تقدم كلامه قريباً .

وقال ابن تيمية ، وقد سئل عن رجلين تكلما فى مسألة التكفير. فأجاب وأطال . وقال فى آخر الجواب : لو فرض أن رجلًا دفع التكفير عمن يعتقد أنه ليس بكافر، حماية له ونصراً لأخيه المسلم، لكان هذا غرضاً شرعيًّا حسناً . وهو إذا اجتهد فى ذلك فأصاب فله أجران . وإن اجتهد فيه فأخطأ فله أجر . وقال رحمه الله : التكفير إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة . أو بإنكار الأحكام المتواترة المجمع عليها . وسئل أيضا ، قدس الله روحه ، عن التكفير الواقع فى هذه الأمة ، مَنْ أَوَّل مَنْ أحدثه وابتدعه ؟ فأجاب : أول من أحدثه فى الإسلام المعتزلة . وعنهم تلقاه من تلقاه. وكذلك الخوارج هم أول من أظهره . واضطرب الناس فى ذلك . فمن الناس من يحكى عن مالك فيه قولين . وعن الشافعىّ كذلك . وعن أحمد روايتان . وأبو الحسن الأشعرىّ وأصحابه لهم قولان . وحقيقة الأمر فى ذلك أن القول قد يكون كفراً. فيطلق القول بتكفير قائله . ويقال: من قال كذا فهو كافر . لكن الشخص المعين الذى قاله لا يكفر حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها ، من تعريف الحكم الشرعىّ ، من سلطان ، أو أمير مطاع . كما هو المنصوص عليه فى كتب الأحكام . فإذا عرفه الحكم وزالت عنه الجهالة قامت عليه الحجة . وهذا كما هو فى نصوص الوعيد من الكتاب والسنة. وهى كثيرة جداً . والقول بموجبها واجب على وجه العموم . والإطلاق ، من غير أن يعين شخص من الأشخاص ، فيقال : هذا كافر أو فاسق أو ملعون أو مغضوب عليه أومستحق للنار ، لاسيما إن كان للشخص فضائل وحسنات ـ فإن ماسوى الأنبياء يجوز عليهم الصغائر والكبائر . مع إمكان أن يكون ذلك الشخص صديقاً أو شهيدا أو صالحاً . كما قد بسط فى غير هذا الموضع . من أن موجب الذنوب تتخلف عنه بتوبة أو باستغفار أو حسنات ماحية

أومصائب مكفرة أوشفاعة مقبولة أو لمحض مشيئة الله ورحمته . فإذا قلنا بموجب قوله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا[1] الآية ، وقوله : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[2] .وقوله : وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ[3] الآية . وقوله : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ـ إلى قوله ـ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْماً[4] الآية . إلى غير ذلك من آيات الوعيد ، وقلنا بموجب قوله ﷺ : لعن الله من شرب الخمر[5] أو من عقّ والديه[6] أو من غير منار الأرض[7] أو من ذبح لغير الله أو لعن الله السارق أو لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه

(١) [٤ / النساء / ٩٣] ونصها : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً .

(٢) [٤ / النساء / ١٠] .

(٣) [٤ / النساء / ١٤] . . . يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(٤) [٤ / النساء / ٣٠] . . . فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ٢ ـ باب العنب يعصر للخمر ، حديث ٣٦٧٤ .

(٦) أخرجه البخاريّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ١٠ ـ باب ماقيل فى شهادة الزور، حديث ١٢٩١ ونصه: عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » (ثلاثا) قالوا : بلى ، يا رسول الله ! قال « الإشراك بالله وعقوق الوالدين » وجلس وكان متكئا فقال « ألا، وقول الزور » قال فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٣ (طبعتنا) .

ولم أعثر على حديث فيه لعن عاق والديه. وإذا كان العقوق من أكبر الكبائر فأقل مايستحقه العاقّ هو اللعن .

(٧) أخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث ٤٣ (طبعتنا) وهذا نصه :=

أو لعن الله لاوى الصدقة والمتعدى فيها أو من أحدث[1] فى المدينـة حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائـكة والناس أجمعين ، إلى غير ذلك من أحاديث الوعيد ـ لم يجز أن تعين شخصاً، ممن فعل بعض هذه الأفعال، وتقول: هذا المعين قد أصابه هذا الوعيد. لإمكان التوبة وغيرها من مسقطات العقوبة . إلى أن قال : ففعل هذه الأمور ممن يحسب أنها مباحة باجتهاد أو تقليد ونحو ذلك ، وغايته أنه معذور من لحوق الوعيد به لمانع ، كما امتنع لحوق الوعيد بهم لتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو غير ذلك. وهذه السبيل هى التى يجب اتباعها. فإن ماسواها طريقان خبيثان : أحدها ـ القول بلحوق الوعيد بكل فرد من الأفراد بعينه . ودعوى أنها عمل بموجب النصوص . وهـذا أقبح من قول الخوارج المـكفرين بالذنوب ،

= عن أبى الطفيل عامر بن واثلة قال : كنت عند علىّ بن أبى طالب ، فأتاه رجل فقال : ما كان النبىّ ﷺ يسرّ إليك ؟ قال فغضب وقال : ما كان النبىّ ﷺ يسرّ إلىّ شيئا يكتمه الناس . غير أنه قد حدثنى بكلمات أربع . قال فقال : ما هنّ ؟ ياأمير المؤمنـين ! قال : قال « لعن الله من لعن والده . ولعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا. ولعن الله من غيّر منار الأرض».

وحديث ٤٤ رواية أخرى ونصها :

سمعته يقول « لعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا . ولعن الله من لعن والديه . ولعن الله من غيّر منار الأرض »

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة ، ١ ـ باب حرم المدينة ، حديث ١٧٤ عن أنس رضى الله عنـه عن النبىّ ﷺ قال « المدينة حرم من كذا إلى كذا (انظر تحقيق معنى : من كـذا إلى كذا ، فى تعليقنا على صحيح مسلم بالصفحة ٩٩٥ ، طبعتنا) لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث . من أحدث حدثا فعليه لعنة الله والملائـكة والناس أجمعين » .

والمعتزلة وغيرهم . وفساده معلوم بالاضطرار . وأدلته معلومة فى غير هذا الموضع . فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق . لكن الشخص المعين الذى فعله لا يشهد عليه بالوعيد . فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار ، لفوات شرط أو لحصول مانع . وهكذا الأقوال الذى يكفر قائلها. قد يكون القائل لها لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق . وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده . أو لم يتمكن من معرفتها وفهمها . أو قد عرضت له شبهات يعذره الله بها . فمن كان مؤمناً بالله وبرسوله ، مظهراً للإسلام، محبًّا لله ورسوله، فإن الله يغفر له لو قارف بعض الذنوب القولية أو العملية . سواء أطلق عليه لفظ الشرك أو لفظ المعاصى . هـذا الذى عليه أصحاب رسول الله ﷺ وجماهير أئمة الإسلام . لكن المقصود أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل ، بالفرق بين النوع والعين . بل لا يختلف القول عن الإمام أحمد وسائر أئمة الإسلام كمالك وأبى حنيفة والشافعىّ ، أنهم لا يكفرون المرجئة الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل. ونصوصهم صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم . وإنما كان الإمام أحمد يطلق القول بتكفير الجهمية لأنه ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم ، وأنه يدور على التعطيل. وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة . لكن ما كانوا يكفرون أعيانهم . فإن الذى يدعو إلى القول أعظم من الذى يقوله ولا يدعو إليه . والذى يعاقب مخالفه أعظم من الذى يدعو فقط . والذى يكفّر مخالفه أعظم من الذى يعاقب . ومع هـذا فالذين من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق . وإن الله لا يرى فى الآخرة . وإن ظاهر القرآن لا يحتج به فى معرفة الله ، ولا الأحاديث الصحيحة . وإن الدين لا يتم إلا بما زخرفوه من الآراء والخيالات الباطلة والعقول الفاسدة . وأن خيالاتهم وجهالاتهم أحكم فى دين الله من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وأن أقوال الجهمية والمعطلة من النفى والإثبات أحكم فى دين الله . بسبب ذلك امتحنوا المسلمين وسجنوا الإمام أحمد وجلدوه وقتلوا جماعة وصلبوا آخرين . ومع ذلك لا يطلقون أسيراً ولا يعطون من بيت

المال إلا من وافقهم ويُقِرّ بقولهم. وجرى على الإسلام منهم أمور مبسوطة فى غير هذا الموضع. ومع هذا التعطيل الذى هو شر من الشرك ، فالإمام أحمد ترحّم عليهم واستغفر لهم ، وقال : ما علمت أنهم مكذبون للرسول ﷺ ، ولا جاحدون لما جاء به . لكنهم تأوّلوا فأخطأوا . وقلدوا من قال ذلك . والإمام الشافعىّ لما ناظر حفص الفرد ، من أئمة المعطلة ، فى مسألة (القرآن مخلوق) قال له الإمام الشافعىّ : كفرت بالله العظيم . فكفّره ولم يحكم بردته بمجرد ذلك . ولو اعتقد ردته وكفره لسعى فى قتله . وأفتى العلماء بقتل دعاتهم مثل غيلان القدرىّ والجعد بن درهم وجهم بن صفوان إمام الجهمية وغيرهم . وصلى الناس عليهم ودفنوهم مع المسلمين . وصار قتلهم من باب قتل الصائل . لكفّ ضررهم ، لا لردتهم . ولو كانوا كفاراً لرآهم المسلمون كغيرهم . وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع . وقال ابن القيّم فى (شرح المنازل) : أهل السنة متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة، من وجهين مختلفين . ويكون محبوباً لله ومبغوضاً من وجهين . بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب من الآخر . فيكون إلى أهله كما قال تعالى : هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ(١) . وقال : وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . فأثبت لهم، تبارك وتعالى، الإيمان مع مقارنة الشرك . فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان. وإن كان تصديق برسله وهم يرتكبون لأنواعٍ من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل واليوم الآخر ـ فهم مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر. وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] ونصها : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

ودخولهم الجنة ، لِمَا قام بهم من السببين . قال : وقال ابن عباس ، فى قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)(١) قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس بكفر ينقل عن الملة . إذا فعله فهو به كفر. وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر. وكذلك قال طاوس وعطاء . انتهى كلامه .

وقال الشيخ تقىّ الدين: كان الصحابة والسلف يقولون: إنه يكون فى العبد إيمان ونفاق. وهذا يدل عليه قوله عز وجل : هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ(٢) . وهذا كثير فى كلام السلف . يبيّنون أن القلب يكون فيه إيمان ونفاق . والكتاب والسنة يدل على ذلك. ولهذا قال النبىّ ﷺ(٣) : يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل قليل لم يخلد فى النار . وإن كان معه كثير من النفاق ، فهذا يعذب فى النار على قدر ما معه ثم يخرج . إلى أن قال : وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] ونصها: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٦٧] ونصها : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٢١ .

وهو حديث طويل جدا ، عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه ، فلا يفتك الاطلاع عليه فإنه قَمِنٌ بذلك.

شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر وشعبة من شعب النفاق . وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الإسلام بالكلية . كما قال الصحابة ، ابن عباس وغيره: كفر دون كفر . وهذا عامة قول السلف. انتهى .

فتأمل هذا الفصل وانظر حكايتهم الإجماع من السلف . ولا تظن أن هذا فى المخطىء . فإن ذلك مرفوع عنه إثم خطئه كما تقدم مراراً عديدة .

وقال الشيخ تقىّ الدين فى كتاب (الإيمان) : الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لايستلزم الإيمان فى الباطن . وإن المنافقين الذين قالوا : ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(١) ، هم فى الظاهر مؤمنون يصلون مع المسلمين ويناكحونهم ويوارثونهم . كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ . ولم يحكم النبىّ ﷺ فيهم بحكم الكفار المظهرين الكفر لا فى مناكحتهم ولا فى موارثتهم ولا نحو ذلك . بل لما مات عبدالله بن أُبَىّ ، وهو من أشهر الناس فى النفاق ، وَرِثَهُ عبد الله ابنه ، وهو من خيار المؤمنين . وكذلك سائر من يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون . وإذا مات لهم وارث ورثوه مع المسلمين وإن علم أنه منافق فى الباطن . وكذلك كانوا فى الحدود والحقوق كسائر المسلمين . وكانوا يغزون مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ومنهم مَنْ هَمّ بقتل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك . ومع هذا ، ففى الظاهر ، تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان . إلى أن قال : ودماؤهم وأموالهم معصومة ولا يستحل منهم ما يستحل من الكفار . والذين يظهرون أنهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الإيمان ، فإنه ﷺ قال(٢) : أمرت أن أقاتل الناس

---

(١) [٢ / البقرة / ٨] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٥ ـ باب على ما يقاتل المشركون ، حديث ٢٦٤١ وهذا نصه :

حتى يشهدواأن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها . وحسابهم على الله . وكما قال لأسامة[(١)] : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال : فقلت : إنما قالها تعوذاً . قال : هل شققت عن قلبه ؟ وقال[(٢)] : إنى لم أؤمر أن أنقب عن

= عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن يستقبلوا قبلتنا ، وأن يأكلوا ذبيحتنا ، وأن يصلوا صلاتنا . فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها : لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين » .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٥٨ (طبعتنا) ونصه :

عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية . فصبّحنا الحُرُقات من جهينة . فأدركت رجلا فقال : لاإله إلاالله . فطعنته، فوقع فى نفسى من ذلك . فذكرته للنبىّ ﷺ . فقال رسول الله ﷺ « أقال : لا إله إلا الله وقتلته ؟ » قال قلت : يا رسول الله ! إنما قالها خوفاً من السلاح قال: « أشققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ » فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٦١ ـ باب بعث علىّ بن أبى طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضى الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث ١٤٨١ ونصه:

عن أبى سعيد الخدرىّ قال : بعث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهَيْبة فى أديم مقروظ ، لم تحصَّل من ترابها . قال فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل . والرابع ، إما علقمة ، وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء . قال فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء ، يأتينى خبر السماء صباحاً ومساءً ؟ » قال فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، =

قلوب النــاس ولا أشق بطونهم . وكان إذا استؤذن فى قتل رجــل يقول : أليس يصلى ؟ أليس يشهد ؟ فإذا قيل له : إنه منافق ، قال ذلك . فـكان حكمه فى دمائهم وأموالهم كحـكمه فى دماء غيرهم ولا يستحل منها شيئاً مع أنه يعلم نفاق كثير منهم . انتهى كلام الشيخ .

وقد أوضح حجة الإسلام الغزالىّ رضى الله عنه فى (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) الـكفر المخرج عن الملة، والعياذ بالله تعالى ، بعد مقدمته المدهشة بقوله : لعلك تشتهى أن تعرف حد الـكفر بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين . فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض . ولـكنى أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعـكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تـكفير الفرق وتطويل اللسان فى أهـل الإسلام . وإن اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) صادقين بها غير مناقضين لها . فأقول : الـكفر هو تـكذيب الرسول عليه السلام فى شىء مما جاء به . والإيمان تصديقه فى جميع ما جاء به . فاليهودىّ والنصرانىّ كافران لتـكذيبهما للرسول عليه السلام. والبرهمىّ كافر بالطريق الأوْلى. لأنه أنـكر ، مع رسولنا، سائر المرسلين . والدهرىّ كافر بالطريق الأولى ، لأنه أنـكر ، مع رسولنا المرسل ، سائر الرسل . وهـذا لأن الـكفر حكم شرعىّ كالرق والحرية مثلًا .

= مشمّر الإزار، فقال : يا رسول الله ! اتق الله . قال « ويلك! أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ » قال ثم ولى الرجل .

قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ! ألا أضرب عنقه ؟ قال « لا. لعله أن يكون يصلى » فقال خالد : وكم من مصلّ يقول بلسانه ماليس فى قلبه ! قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « إنى لم أومر أن أنْقُب قلوب الناس ولا أشق بطونهم » .

قال ثم نظر إليه وهو مقفٍ فقال: « إنه يخرج من ضئضئ هـذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم . يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (وأظنه قال) لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود » .

إذ معناه . إباحة الدم والحكم بالخلود فى النار. ومدركه شرعىّ فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص. وقد وردت النصوص فى اليهود والنصارى . والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية . وكلهم مشركون . فإنهم مكذبون للرسول . فكل كافرمكذب للرسول، وكل مكذب فهو كافر . فهذه هى العلامة المطردة المنعكسة .

وتتمة هذا البحث فى هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه فاضل. فارجع إليه . وعض بنواجذك عليه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ » تعجيب من تمادحهم بالتزكية التى هى التطهير والتبرئة من القبيح فعلاً وقولاً ، المنافية لما هم عليه من الطغيان والشرك الذى قصه تعالى عنهم قبل . فالمراد بهم اليهود . وقد حكى تعالى عنهم أنهم يقولون : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ[1] . وحكى عنهم أيضاً أنهم قالوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً[2] . وأنهم قالوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى[3] . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس

---

(١) [٥ / المائدة / ١٨] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ١١١] ونصها : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

قال: كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال الله: إني لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له. وأنزل الله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ. أي انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ما هم فيه من الكفر والإثم العظيم. أو من ادعائهم تكفير ذنوبهم مع استحالة أن يُغْفَرَ للكافر شيء من كفره أو معاصيه. وقوله تعالى « بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » تنبيه على أن تزكيته هي المعتد بها دون تزكية غيره. فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حَسَن وقبيح. وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين.

تنبيه :

قال الزمخشري : يدخل في الآية كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله. فإن قلت: أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]: والله! إني لأمين في السماء، أمين في الأرض ؟ قلت : إنما قال ذلك حين قال له المنافقون: اعدل في القسمة ، إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه . وشتان من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم اهـ .

وقد ورد في ذم التمادح والتزكية أحاديث كثيرة . منها عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال[2] : سمع النبي ﷺ رجلًا يثني على رجل ويطريه في المدح فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل . متفق عليه .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه[3] أن رجلًا ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيراً

(١) انظر تفصيل ذلك بالحاشية رقم ٢ ص١٣١٧.

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٤ ـ باب ما يكره من التمادح ، حديث ١٢٩٣ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٤ ـ باب ما يكره من التمادح ، حديث ١٢٩٤ .

فقال النبي ﷺ : ويحك! قطعت عنق صاحبك (يقوله مراراً) إن كان أحدكم مادحاً، لامحالة ، فليقل : أحسب كذا و كذا إن كان يرى أنه كذلك . وحسيبه الله . ولا يزكى على الله أحداً . متفق عليه . وعن همّام بن الحرث عن المقداد رضى الله عنه[١] أن رجلًا جعل يمدح عثمان رضى الله عنه . فعمد المقداد فجثا على ركبتيه . فجعل يحثو فى وجهه الحصباء . فقال له عثمان : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا فى وجوههم التراب . رواه مسلم .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدثنا معتمر عن أبيه عن نعيم بن أبى هند قال: قال عمر بن الخطاب : من قال : أنا مؤمن فهو كافر . ومن قال : هو عالم ، فهو جاهل . ومن قال : هو فى الجنة فهو فى النار . ورواه ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز عن عمر أنه قال: إن أخوف ماأخاف عليكم إعجاب المرء برأيه . فمن قال إنه مؤمن فهو كافر. ومن قال هو عالم فهو جاهل . ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار .

وروى الإمام أحمد عن معبد الجهنىّ قال: كان معاوية قلّما كان يحدث عن النبىّ ﷺ . قال : وكان قلّما يدع، يوم الجمعة، هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبىّ ﷺ ، يقول : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين . وإن هذا المال حلو خضر فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه. وإياكم والتمادح فإنه الذبح .

وروى ابن ماجة عنه[٣] : إياكم والتمادح فإنه الذبح .

وروى ابن جرير بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال[٤] : إن الرجل ليغدو بدينه ثم

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٩ (طبعتنا) .

(٢) لم أعثر عليه فى المسند . فمن ظفر به فليثبته ههنا .

(٣) أخرجه فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب ، ٣٦ ـ باب المدح ، حديث ٣٧٤٣ (طبعتنا) .

(٤) الأثر رقم ٩٤٧٧ .

يرجع ومامعه منه شيء. يلقى الرجل ليس يملك له نفعا ولا ضرًّا فيقول له: والله ! إنك لذيت وذيت فلعله أن يرجع ولم يَحْلَ من حاجته بشيء، وقد أسخط الله عليه ، ثم قرأ : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ...الآية « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » عطف على جملة قد حذفت، تعويلا على دلالة الحال عليها وإيذاناً بأنها غنية عن الذكر. أى يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون فى ذلك العقاب فتيلًا ،أى أدنى ظلم وأصغره . والفتيل الخيط الذى فى شق النواة أومايفتل بين الأصابع من الوسخ . يضرب به المثل فى القلة والحقارة . وقيل : التقدير ، يُثَابُ المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلًا . ولا يساعده مقام الوعيد . قاله أبو السعود.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا)

« انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » أى فى تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى[١] وقولهم : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً [٢] واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة . وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزى عن الأبناء شيئاً ، فى قوله : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ[٣] ...الآية .

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢/البقرة/١٣٤] ونصها: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

قال العلامة أبو السعود : (كيف) نصب إما على التشبيه بالظرف أو بالحال. والعامل (يفترون) وبه تتعلق (على) أى: فى أى حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب. والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها . والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض و(النظر) متعلق بهما. وهو تعجيب إثر تعجيب. وتنبيه على أن ما ارتكبوه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجيب : ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه . وافتراؤهم على الله سبحانه . فإن ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه إياهم. تعالى عن ذلك علواً كبيراً . ولكون هذا أشنع من الأول جرماً، وأعظم قبحاً لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ، ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه ـ وَجَّه النظر إلى كيفيته تشديداً للتشنيع وتأكيداً للتعجيب . والتصريحُ بالكذب ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً ، للمبالغة فى تقبيح حالهم « وَكَفَىٰ بِهِ » أى بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام « إِثْماً مُبِيناً » ظاهراً بيناً كونه إثماً. والمعنى: كفى ذلك وحده فى كونهم أشد إثماً من كل كَفَّار أثيم. أو فى استحقاقهم لأشد العقوبات . ثم حكى تعالى عن اليهود نوعاً آخر من المكر . وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على المؤمنين ، تعصباً وعناداً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ » أى علماً بالتوراة الداعية إلى التوحيد وترجيح أهله. والكفر بالجبت والطاغوت. ووصفهم بما ذكر، من إيتاء النصيب، لما مر من منافاته

لما صدر عنهم من القبائح « يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ » الجبت يطلق ، لغة، على الصنم والكاهن والساحر والسحر والذى لا خير فيه وكل ما عبد من دون الله تعالى . وكذا الطاغوت.فيطلق على الكاهن والشيطان وكل رأس ضلال والأصنام وكل ماعبد من دون الله ومَرَدَة أهل الكتاب . كما فى القاموس. « وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى أشركوا بالله ، وهم كفار مكة ، أى لأجلهم وفى حقهم « هَٰؤُلَاءِ » يعنونهم « أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالله وحده « سَبِيلًا » أى أرشد طريقة . وإيرادهم بعنوان الإيمان ليس من قِبَل القائلين ، بل من جهة الله تعالى ، تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئة لمن رَجَّحَ عليهم المتصفين بأقبح القبائح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » أى أبعدهم عن رحمته وطَرَدهم « وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ » أى يبعده عن رحمته « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » يدفع عنه العذاب دنيويًّا كان أو أخرويًّا . لا بشفاعة ولا بغيرها .

قال الرازىّ: إنما استحقوا هذا اللعن الشديد لأن الذى ذكروه من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجرى مجرى المكابرة. فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالًا ممن لا يرضى بمعبود غير الله ؟ ومن كان دينه الإقبال بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، كيف يكون أقل حالًا ممن كان بالضد فى كل هذه الأحوال ؟

وقد روى الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ، قال: أنتم خير . قال فنزلت فيهم: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ[1] .

---

(١) [١٠٨ / الكوثر / ٣] .

ونزل : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ـ إلى ـ نَصِيرًا .

وقال الإمام ابن إسحق رضى الله عنه : حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حُيَيّ بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبى الحقيق وأبو عامر ووحوح ابن عامر وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بنى وائل وكان سائرهم من بنى النضير . فلماقدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول . فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله عز وجل : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ... إلى قوله عز وجل وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً. وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة. لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين. وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاؤا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبيّ ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فَكَفَى اللهُ شَرَّهُمْ . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا[1] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا)

« أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » . لما ذم سبحانه اليهود بتزكيتهم أنفسهم وتفضيلهم المشركين على الموحدين، شرع فى تفصيل بعض آخر من مثالبهم. وهو وصفهم بالبخل والحسد اللذين هما شر خصلتين . و (أم) منقطعة . والهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك، والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف. أى لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحدًا مقدار نقير لفرط بخلهم . و (النقير) النقرة فى ظهر النواة

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٥] .

وهو مثل فى القلة والحقارة . كالفتيل والقطمير . والمراد بالملك إما ملك أهل الدنيا وإما ملك الله . كقوله تعالى : قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ(١) .

وقال أبو السعود : وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم . وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ؟ ويجوز أن لاتكون الهمزة لإنكار الوقوع بل لإنكار الواقع والتوبيخ عليه . أى لعده منكرا غير لائق بالوقوع . على أن الفاء للعطف والإنكار متوجه إلى مجموع المعطوفين على معنى : أَلَهُمْ نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك نقيرًا؟ كما تقول لغنىّ لا يراعى أباه : أَ لَكَ هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئًا ؟ وفائدة (إذن) تأكيد الإنكار والتوبيخ . حيث يجعلون ثبوت النصيب سبباً للمنع مع كونه سبباً للإعطاء. وهى ملغاة عن العمل . كأنه قيل : فلايؤتون الناس إذن : وقرىء : (فإذن لا يؤتوا) بالنصب على إعمالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيماً)

« أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ » منقطعة أيضاً مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق، أعنى البخل ، إلى توبيخهم بالحسد . وهما شر الرذائل كما قدمنا . وكأن بينهما تلازماً وتجاذباً .

واللام فى (الناس) للعهد والإشارة إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين .

وروى الطبرانىّ بسنده عن ابن عباس فى هذه الآية قال : نحن الناس دون الناس . والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٠] ... وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا .

قال الرازىّ : وإنما حسن ذكر الناس لإرادة طائفة معينة من الناس. لأن المقصود من الخلق إنما هو القيام بالعبودية كما قال تعالى(١) : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. فلما كان القائمون بهذا المقصود ليس إلا محمداً ﷺ ومن كان على دينه ـ كان هو وأصحابه كأنهم كل الناس . فلهذا حسن إطلاق لفظ (الناس) وإرادتهم على التعيين « عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » وهو النبوة والكتاب والرشد وازدياد العز والنصر يوماً فيوماً. وقوله تعالى « فَقَدْ ءَاتَيْنَا » تعليل للإنكار والاستقباح وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم . وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم، المبنيَّيْن على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابراً عن كابر . وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر . والمعنى : أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان . فإنا قد آتينا من قبل هذا « ءَالَ إِبْرَاهِيمَ » الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء أعمامه « الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » النبوة « وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً » لا يقادَر قدره . فكيف يستبعدون نبوته ويحسدونه على إيتائها ؟ أفاده أبو السعود .

قال الرازىّ : إن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة . فكلما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم . ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب فى الدين . ثم إنه تعالى أعطاها لمحمد صلى الله عليه وسلم وضم إليها أنه جعله كل يوم أقوى دولةً وأعظم شوكةً وأكثر أنصاراً وأعواناً . فلما كانت هذه النعم سبباً لحسد هؤلاء ، بَيَّنَ تعالى ما يدفع ذلك فقال : فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً . والمعنى : أنه حصل فى أولاد إبراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك وأنتم لا تتعجبون من ذلك ولا تحسدونهم . فلم تتعجبون من حال محمد صلى الله عليه وسلم ولِمَ تحسدونه ؟

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا)

« فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ » حكاية لما صدر عن أسلافهم . أى : فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم . ومنهم من كفر به وأعرض عنه وسعى فى صد الناس عنه . وهو منهم ومن جنسهم . أى من بنى إسرائيل . وقد اختلفوا عليهم . فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل ؟ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك وأبعد عما جئتهم به من الهدى والحق المبين . وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك ديدنهم المستمر « وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا » أى ناراً مسعّرة يعذبون بها على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله . ثم أخبر تعالى عما يُعَاقِبُ به فى نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيماً)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا » أى عظيمة هائلة « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ » أى احترقت احتراقاً تامًّا « بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » أى ليدوم لهم . وذلك أبلغ فى العذاب للشخص . لأن إحساسه لعمل النـار فى الجلد الذى لم يحترق ، أبلغ من إحساسه لعملها فى المحترق .

تنبيه :

لهم فى التبديل وجهان : الأول ـ أنه تبديل حقيقىّ مادىّ . فيُخْلَق مكانها جلودٌ أُخَر جديدة مغايرة للمحترقة. الثانى ـ أنه تبديل وصفىّ : أى أعدنا الجلود جديدة مغايرة للمحترقة

صورة . وإن كانت عينها مادةً . بأن يزال عنها الاحتراق ليعود إحساسها للعذاب . فلم تبدل إلا صفتها، لا مادتها الأصلية . وفيه بُعْدٌ . إذ يأباه معنى التبديل .

وقال الرازيّ : يمكن أن يقال: هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع. كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام : كلما انتهى فقد ابتدأ . وكلما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوله . فكذا قوله (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ) الآية. يعني: كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك، أعطيناهم قوة جديدة من الحياة . بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا . فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه . انتهى .

وهذا أبعد مما قبله . إذ ليس لنا أن نعدل في كلام الله تعالى عن الحقيقة إلى المجاز ، إلا عند الضرورة . لاسيما وقد روى عن السلف، صحابةً وتابعين ، أنهم يبدلون في اليوم أو الساعة مرات عديدة . كما رواه ابن جرير[1] وغيره مفصَّلًا . « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً » لا يمتنع عليه ما يريد « حَكِيماً » فيما يقضيه . ومنه هذا التبديل . إذ لايتم تخليد العذاب الموعود ، على الكفر الذى لاينزجرون عنه ، بالعذاب المنقطع. وعداً لابد من إيفائه . ثم بيّن مآل أهل السعادة فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بمحمد ﷺ والقرآن وجملة الكتب والرسل « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم بالإخلاص « سَنُدْخِلُهُمْ » أى فى الآخرة « جَنَّاتٍ » أى بساتين « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » أى من تحت شجرها وقصورها « الْأَنْهَارُ »

---

(١) انظر الصفحة ٤٨٥ وما بعدها من الجزء الثانى من التفسير (طبعة المعارف) .

أى أنهار الخمر واللبن والعسل والماء « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » أى مقيمين فى الجنـة لا يموتون ولا يخرجون منها « لَهُمْ فِيهَا » أى الجنـة « أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أى من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة « وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلًّا ظَلِيلًا » أى كِنًّا كنينا لاتنسخه الشمس ، ولاحرّ فيه ولا برد. و (ظليل) صفة مشتقة من لفظ (الظل) لتأكيد معناه ، كما يقال : ليل أليل ، ويوم أيوم . وفى الصحيحين(١) عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : إن فى الجنـة لشجرة يسير، الراكب الجوادَ المضمّرَ السريعَ، مائة عام ما يقطعها . وفيهما(٢) أيضاً من رواية أبى هريرة رضى الله عنه قال : يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ما يقطعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » هـذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنـار ، حديث ٢٤٦١ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٨ ـ باب ما جاء فى صفة الجنـة وأنها مخلوقة ، ١٥٣٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة » . واقرؤا إن شئتم : وَظِلٍّ مَمْدُودٍ [٥٦ / الواقعة / ٣٠] .

قال أبو السعود : فى تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار ، من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه . وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة . كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم : من حقوق الله تعالى وحقوق العباد . سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية. وإن ورد فى شأن عثمان بن طلحة . انتهى .

أى لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . كما تقرر فى الأصول . وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها . الأبرار منهم والفجار ، كما قال ابن المنذر . وفى حديث سمرة[1] : إن رسول الله ﷺ قال : أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك . رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

قال الحافظ ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة . واسم أبى طلحة عبدالله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبدالدار بن قصىّ بن كلاب القرشىّ العبدرىّ حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم . أسلم عثمان هذا فى الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبى طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أُحد وقتل يومئذ كافراً . وإنما نبهنا على هذا النسب لأن كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا . وسبب نزولها فيه : لما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم

---

(١) قال الأخ الأستاذ أحمد محمد شاكر فى حاشية عمدة التفسير ، بالصفحة ٢٠٢ من الجزء الثالث ما نصه :

هكذا قال الحافظ ابن كثير. وأرى أنه وهم رحمه الله . فإنى لم أجده من حديث سمرة قط. لا فى المسند ولا فى غيره . ولكن رواه أبو داود : ٣٥٣٥ . والترمذىّ ٢ : ٢٥١ ـ ٢٥٢ (أعنى فى: ١٢ ـ كتاب البيوع، ٣٨ ـ باب حدثنا أبو كريب) من حديث أبى هريرة...الخ.

الفتح ثم رده عليه. قال محمد[١] بن إسحق (فى غزوة الفتح) : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له. فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفّ له الناس فى المسجد .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له. صدق وعده. ونصر عبده. وهزم الأحزاب وحده. ألَا كلُّ مأثُرة أو دم أو مال يُدّعى ، فهو تحت قدمىّ هاتين: إلّا سِدَانَةَ البيت وسِقاية الحاج . وذكر بقية الحديث فى خطبة النبىّ ﷺ يومئذ . إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد. فقام إليه علىّ بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده . فقال: يارسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية. صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له . فقال: هاك مفتاحك، ياعثمان ! اليوم يومُ برٍّ ووفاء .

وروى ابن جرير[٢] عن ابن جريج، فى الآية قال : نزلت فى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة. قبض منه النبىّ ﷺ مفتاح الكعبة . ودخل به البيت يوم الفتح . فخرج وهو يتلو هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . فدعا عثمان إليه . فدفع إليه المفتاح . قال : وقال عمر بن الخطاب (لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكعبة وهو يتلو هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا): فداه أبى وأمى. ماسمعته يتلوها قبل ذلك .

قال السيوطىّ: ظاهر هذا أنها نزلت فى جوف الكعبة . انتهى.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام الصفحة ٥٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) وصفحة ٨٢٠ و٨٢١ (طبعة جوتنجن) .

(٢) الأثر رقم ٩٨٤٦

وعن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أن هذه الآية نزلت فى الأمراء . يعنى الحكام بين الناس .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب ردّ كل أمانة من وديعة وقراض وقرض وغير ذلك . واستدل المالكية، بعموم الآية، على أن الحربىّ إذا دخل دارنا بأمان فأودع وديعة ثم مات أو قتل ، إنه يجب رد وديعته إلى أهله. وأن المسلم إذا استدان من الحربىّ بدارالحرب ثم خرج، يجب وفاؤه . وأن الأسير إذا ائتمنه الحربىّ على شيء لايجوز له أن يخونه . وعلى أن من أودع مالاً وكان المودع خانه قبل ذلك ، فليس له أن يجحده كما جحده . ويوافق هذه المسألة حديث : أدّ الأمانة إلى من ائتمنك . ولا تخن من خانك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، فى هذه الآية قال : مبهمة للبر والفاجر . يعنى عامة .

وقد أخرج ابن جرير[١] وغيره أنها نزلت فى شأن مفتاح الكعبة. لما أخذه النبىّ صلى الله عليه وسلم من عثمان بن طلحة . واختار مارواه علىّ وغيره أنها خطاب لولاة المسلمين . أمروا بأداء الأمانة لمن ولوا عليه. فيستدل بالآية على أن على الحكام والأئمة ونظار الأوقاف أداء الحقوق المتعلقة بذممهم من تولية المناصب وغيرها إلى من يستحقها. كما أن قوله تعالى : وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . أمرٌ لهم بإيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها . وحيث كان المأمور به ههنا مختصاً بوقت المرافعة، قيد به . بخلاف المأمور به أولاً . فإنه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق إطلاقاً . وأصل العدل هو المساواة فى الأشياء. فكل ماخرج عن الظلم والاعتداء سمى عدلاً .

روى الإمام مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص[٢] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا .

(١) انظر الصفحة ٤٩٢ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

وروى الترمذيّ عن أبي سعيد الخدريّ[1] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الناس إلى الله يوم القيامه وأدناهم عنده مجلساً : إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً : إمام جائر. وروى الحاكم والبيهقيّ بسند صحيح عن ابن أبى أوفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى مع القاضى مالم يجر . فإذا جار تبرأ الله منه وألزمه الشيطان .

قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه فى رسالته (السياسة الشرعية) بعد الخطبة : هذه الرسالة مبنية على آية الأمراء فى كتاب الله تعالى.وهى قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...الآية. قال العلماء: نزلت فى ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل . ثم قال : وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها : والحكم بالعدل ، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة . ثم قال : أما أداء الأمانات ففيه نوعان : أحدهما ـ الولايات وهو كان سبب نزول الآية . فإن النبيّ ﷺ لما فتح مكة وتسلم مفاتيح الكعبة من بنى شيبة وطلبها العباس ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت فأنزل الله هذه الآية . فرد مفاتيح الكعبة إلى بنى شيبة . فيجب على وليّ الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل . قال النبيّ ﷺ : من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً ، فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين . رواه الحاكم فى صحيحه . وفى رواية : من قلد رجلا عملا على عصابة، وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه ، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين . فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار ، من الأمراء الذين هم نواب ذى السلطان والقضاة . ومن أمراء الأجناد ومقدمى

(١) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام. ٤ ـ باب ما جاء فى الإمام العادل .

العساكر الكبار والصغار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين . وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده ، وينتهى ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمراء الحاج والبُرُد وخزان الأموال ونقباء العساكر الكبار والصغار وعرفاء القبائل والأسواق .

على كل من ولى شيئاً من أمور المسلمين من الأمراء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده ، فى كل موضع ، أصلح من يقدر عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طَلَبَ أو سَبَقَ فى الطلب . بل ذلك سبب المنع . فإن فى الصحيح(١) عن النبىّ ﷺ : أن قوماً دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال : إنا لا نولى أمرنا هذا مَنْ طلبه .

وقال(٢) لعبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن ! لاتسأل الإمارة . فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها . أخرجاه فى الصحيحين .

---

(١) جاء فى معناه حديث رواه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام، ٧ ـ باب ما يكره من الحرص على الإمارة ، حديث ١١٢٩ ونصه :

عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : دخلت على النبىّ ﷺ ، أنا ورجلان من قومى . فقال أحد الرجلين : أمِّرْنا يا رسول الله ! وقال الآخر مثله . فقال « إنا لا نولى هذا من سأله ولا من حرص عليه » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٥ ـ باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها . و ٦ ـ باب من سأل الإمارة وكل إليها ، حديث ٢٤٨٨ ونصه :

عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبىّ ﷺ « يا عبد الرحمن ! لا تسأل الإمارة . فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فكفّر عن يمينك وأْت الذى هو خير » .

وقال[1] : من طلب القضاء واستعان عليه وُكِل إليه . ومن لم يطلبه ولم يستعن عليه أنزل الله إليه ملكاً يسدده . رواه أهل السنن . فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ، لأجل قرابة بينهما ، أو ولاء عتاقة أو صداقة أو موافقة فى مذهب أو بلد أو طريقة أو جنس ، كالعربية والفارسية والتركية والرومية . أو لرشوة يأخذها منه من ماله أو منفعة . أو غير ذلك من الأسباب . أو لضغن فى قلبه على الأحق . أو عداوة بينهما ـ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه فى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[2] .

ثم قال الله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[3] . فإن الرجل لحبه لولده أو عتيقه قد يؤثره فى بعض الولايات أو يعطيه مالا يستحقه فيكون قد خان أمانته . وكذلك قد يؤثر زيادة حفظه أو ماله بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة مَنْ يُداهنه فى بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته . ثم إن المؤدى الأمانة ، مع مخالفة هواه ، يثبته الله فيحفظه فى أهله وماله بعده . والمطيع لهواه يعاقبه بنقيض قصده . فيذل أهله ويذهب ماله . وفى ذلك الحكاية المشهورة : إن بعض خلفاء بنى العباس سأل بعض العلماء أن يحدث بما أدرك . فقال : أدركت عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ! أفقرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شىء لهم . وكان فى مرض موته ، فقال: أدخلوهم علىّ. فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً . ليس فيهم بالغ. فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : والله ! يا بنىّ ! ما منعتكم حقاً هو لكم . ولم أكن بالذى

(١) أخرجه أبو داود فى: ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ٣ ـ باب فى طلب القضاء والتسرع إليه ، حديث ٣٥٧٨ . عن أنس بن مالك .

(٢) [٨/ الأنفال/ ٢٧] .

(٣) [٨/ الأنفال/ ٢٨] .

آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم . وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين . وإما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله . قوموا عنى .

قال : ولقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فى سبيل الله . يعنى أعطاها لمن يغزو عليها .

قلت : هـذا وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق ببلاد الترك إلى أقصى المغرب بالأندلس وغيرها من جزيرة قبرص وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها ، إلى أقصى اليمن . وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئاً يسيراً، يقال أقل من عشرين درهماً .

قال : وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركتَه بنوه . فأخذ كل واحـد ستمائة ألف دينار . ولقد رأيت بعضهم يتكفّف الناس، أى يسألهم بكفه . وفى هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة فى الزمان، والمسموعة عما قبله، عبرة لكل ذى لب . وقد دلت سنة رسول الله ﷺ على أن الولاية أمانة يجب أداؤها، فى موضع مثل ما تقدم . ومثل قوله لأبى ذر رضى الله عنه فى الإمارة : إنها أمانة وإنها يوم القيامة حسرة وندامة. إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه . فيما رواه مسلم(١) .

وروى البخارى(٢) فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ قال : إذا

---

(١) أخرجه فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ! ألا تستعملنى ؟ قال فضرب بيده على منكبى ثم قال « يا أبا ذر ! إنك ضعيف . وإنها أمانة . وإنها يوم القيـامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيها » .

(٢) أخرجه فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢ ـ باب من سئل علما وهو مشتغل فى حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل ، حديث ٥٢ ونصه :

عن أبى هريرة قال : بينما النبىّ ﷺ فى مجلس يحدّث القوم جاءه أعرابىّ فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صلى الله عليـه وسلم يحدّث . فقال بعض القوم : سمع ما قال =

ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قيل : يا رسول الله ! وما إضاعتها ؟ قال : إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة .

وقد أجمع المسلمون على هذا .

ثم قال ابن تيمية رحمه الله : القسم الثانى ـ أمانات الأموال كما قال الله تعالى فى الديون : فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ(١) . ويدخل فى هذا القسم الأعيان والديون الخاصة والعامة . مثل رد الودائع ومال الشريك والموكل والمضارب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف ونحو ذلك . وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبدل القرض وصدُقات النساء وأجور المنافع ونحو ذلك . وقد قال الله تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * ـ إلى قوله ـ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٢) . وقال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً(٣) . أى لا تخاصم عنهم .

= فكره ماقال . وقال بعضهم : بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال « أين أراه السائل عن الساعة ؟ » قال : هأنا يا رسول الله ! قال « فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : كيف إضاعتها ؟ قال « إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة » .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

(٢) [٧٠ / المعارج / ١٩ ـ ٣٢] .

(٣) [٤ / النساء / ١٠٥] .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم[١] : المؤمن من أمِنه الناس على دمائهم وأموالهم . والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. والمهاجر من هاجر مانهى الله عنه. والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله . وهو حديث صحيح، بعضه فى الصحيحين وبعضه فى سنن الترمذىّ . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم[٢] : من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله . رواه البخارىّ .

---

(١) جاء فى الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٢ ـ باب ما جاء فى أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ».

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وجاء فى النسائىّ فى : ٤٧ ـ كتاب الإيمان ٨ ـ باب صفة المؤمن ، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

وجاء فى ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب حرمة دم المؤمن وماله ، حديث ٣٩٣٣ (طبعتنا) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « كل المسلم على المسلم حرام . دمه وماله وعرضه . وحديث ٣٩٣٤ عن فضالة بن عُبيد أن النبىّ ﷺ قال « المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم . والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ».

وجاء فى البخارىّ : فى ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٤ ـ باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، حديث ١٠ ، عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما ، عن النبىّ ﷺ قال « المسلم من سلم المسلمون من يده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »

وجاء فى الترمذىّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ٢ ـ باب ما جاء فى فضل من مات مرابطا ، عن فضالة بن عُبَيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « المجاهد من جاهد نفسه ».

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٤٣ ـ كتاب الاستقراض وأداء الديون، ٢ ـ باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها ، حديث ١١٨٨ ، عن أبى هريرة .

وإذا كان الله تعالى قد أوجب أداء الأمانات التي قبضت بحق ، ففيه تنبيه على وجوب أداء الغصب والسرقة والخيانة ونحو ذلك من المظالم. وكذلك أداء العارية . ولينظر تتمة هذا البحث في الرسالة المذكورة . فإن الوقوف عليها من المهمات. «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ» أي نعم ما يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة . و(ما) إما منصوبة موصوفة بـ (يعظكم) أو مرفوعة موصولة . كأنه قيل نعم شيئا يعظكم به. أو نعم الشيء الذي يعظكم به . والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعائهم إلى الامتثال بالأمر « إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً» لأقوالكم في الأمانات والأحكام «بَصِيرًا» بأفعالكم فيهما . فإن سمع ورأى خيراً جازاكم عليه خير الجزاء. وإن سمع ورأى شرًّا جازاكم عليه. فهو وعد ووعيد. وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي يونس قال : سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ـ إلى قوله ـ سَمِيعاً بَصِيرًا. ويضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه ويقول : هكذا سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقرؤها ويضع إصبعه .

وقال أبو زكريا : وصفه لنا المقرى ووضع أبو زكريا إبهامه الأيمن على عينه اليمنى . والتي تليها على الأذن اليمنى. وأرانا، فقال : هكذا . وهكذا رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وابن مردويه في تفسيره .

وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة. واسمه سليم بن جبير. أفاده ابن كثير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ »

اعلم أنه تعالى ، لما أمر الرعاة والولاة بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل ، أمر الرعية من الجيوش وغيرهم بطاعة أولى الأمر الفاعلين لذلك فى قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك . إلا أن يأمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

قال الرازىّ : قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة . فإذا فعل ذلك فحق على الرعيـة أن يسمعوا ويطيعوا . وقد روى الطبرىّ[(١)] بسند صحيح عن أبى هريرة : إن أولى الأمر هم الأمراء . واحتج له الشافعىّ بأن قريشاً ومن يليها من العرب كانوا لايعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير . فأمروا بالطاعة لمن ولى الأمر ، والانقياد له إذا بعثهم فى السرايا ، وإذا ولاهم البلاد . فلا يخرجوا عليهم ولا يمتنعوا عليهم، لئلا تفترق الكلمة . ولذلك قال[(٢)] صلى الله عليه وسلم : من أطاع أميرى فقد أطاعنى. متفق عليه . وفى البخارىّ[(٣)] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدىّ إذ بعثه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سرية .

قال ابن كثير : وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة وقال الترمذىّ : حديث حسن غريب . ولا نعرفه إلا من حديث ابن جريج .

---

(١) الأثر رقم ٩٨٥٦.

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٩٣ـ كتاب الأحكام، ١ـ باب قول الله تعالى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، حديث ١٤٠٩ ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله . ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى ».

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١١ ـ باب قوله : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، حديث ١٩٩١ .

وروى الطبري[(١)] عن السدّي أنها نزلت في قصة جرت لعمار بن ياسر مع خالد بن الوليد. وكان خالد أميراً . فأجار عمار رجلاً بغير أمره . فتخاصما وارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فأجاز أمَانَ عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير .

قال ابن كثير : وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق عن السدّي مرسلاً . ورواه ابن مردويه عن السدّي عن أبي صالح عن ابن عباس. فذكره بنحوه . اهـ .

ولا تنافي بين الروايتين لما أسلفناه في مقدمة التفسير في بحث سبب النزول. فتذكر .

---

(١) الأثر ٩٨٦١ ونصه :

حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن مفضل قال : حدثنا أسباط ، عن السدّي : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » قال : بعث رسول الله ﷺ سريّة عليها خالد بن الوليد ، وفيها عمار بن ياسر . فساروا قِبَلَ القوم الذين يريدون . فلما بلغوا قريبا منهم عرّسوا . وأتاهم ذو العُيَيْنَتَيْنِ (الجاسوس) فأخبرهم فأصبحوا قد هربوا . غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد . فسأل عن عمار ابن ياسر فأتاه فقال: ياأبا اليقظان ! إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلاالله وأن محمدا عبده ورسوله . وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا ، وإني بقيت . فهل إسلامي نافعي غدا ، وإلاهربت؟ قال عمار : بل هو ينفعك فأقم . فأقام . فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحدا غير الرجل . فأخذه وأخذ ماله . فبلغ عمارا الخبر . فأتى خالدا فقال : خلّ عن الرجل فإنه قد أسلم ، وهو في أمان مني . فقال خالد : وفيم أنت تجير ؟ فاستبّا وارتفعا إلى النبيّ ﷺ . فأجاز أمان عمار ، ونهاه أن يجير الثانية على أمير . فاستبا عند رسول الله ﷺ فقال خالد : يا رسول الله ! أتترك هذا العبد الأجدع يسبني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا خالد ! لا تسب عمارا فإنه من سب عمارا سبه الله . ومن أبغض عمارا أبغضه الله . ومن لعن عمارا لعنه الله ».

فغضب عمار فقام . فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضي عنه .

فأنزل الله تعالى قوله : أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ .

وقال الزمخشري : المراد بأولى الأمرمنكم ، أمراء الحق . لأن أمراء الجور ، الله ورسوله بريئان منهم . فلا يعطفون على الله ورسوله فى وجوب الطاعة لهم . وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثارالعدل واختيار الحق والأمر بهما والنهى عن أضدادهما. كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان . وكان الخلفاء يقولون : أطيعونى ما عدلت فيكم . فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم. وفى الصحيحين[1] عن على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما الطاعة فى المعروف . وروى الإمام أحمد[2] عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لاطاعة فى معصية الله .

لطيفة :

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : النكتة فى إعادة العامل فى الرسول دون أولى الأمر ، مع أن المطاع فى الحقيقة هو الله تعالى ـ كون الذى يعرف به مايقع به التكليف هما القرآن والسنة . فكان التقدير: وأطيعوا الله فيما قضى عليكم فى القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن وما ينصه عليكم من السنة . والمعنى : أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحى المتعبد بتلاوته . وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحى الذى ليس بقرآن .

---

(١) أخرجه فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، حديث ١٩٣٣ ونصه .عن على رضى الله عنه قال : بعث النبى ﷺ سرية وأمّر عليهم رجلا من الأنصار . وأمرهم أن يطيعوه . فغضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبى ﷺ أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى . قال : قد عزمت عليكم لما جمعتم حطبا وأوقدتم نارا ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطبا فأوقدوا (نارا) فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض. قال بعضهم: إنما تبعنا النبى ﷺ فرارا من النار، أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه. فذكر للنبى ﷺ فقال « لو دخلوها ماخرجوا منها أبدا . إنما الطاعة فى المعروف ».

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٢٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى).

ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بنى أمية . لما قال له : أليس الله أمركم أن تطيعونا فى قوله : (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)؟ فقال له : أليس قد نزعت عنكم، يعنى الطاعة ، إذا خالفتم الحق بقوله : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ؟

قال الطيبىّ : أعاد الفعل فى قوله (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة. ولم يعده فى أولى الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته . ثم بين ذلك بقوله : فإن تنازعتم فى شىء . كأنه قيل فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم وردُّوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله . انتهى .(ج ١٣ ص ٩٩)

تنبيه :

يشمل عموم قوله (وَأُولِي الْأَمْرِ) العلماء . كما روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه يعنى أهل الفقه والدين . وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصرىّ وأبو العالية . وهذا ليس قولاً ثانياً فى الآية بل هو مما يشمله لفظها . فهى عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء وإن نزلت على سبب خاص . وقد كثرت الأوامر بطاعة العلماء كالأمراء . قال تعالى : لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ(١). وقال تعالى : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢). وقال تعالى : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ(٣) . وفى الحديث

---

(١) [٥ / المائدة / ٦٣] ونصها : لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

(٢) [١٦ / النحل ٤٣] ونصها: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٨٣] .

الصحيح المتفق على صحته عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال(١) : من أطاعني فقد أطاع الله. ومن عصاني فقد عصى الله. ومن أطاع أميري فقد أطاعني . ومن عصى أميري فقد عصاني . وروى أبو داود(٢) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، مالم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وروى البخاريّ(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشيّ كأن رأسه زبيبة . والأحاديث في هذا كثيرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (الحسبة في الإسلام) : وقد أمر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من المؤمنين. وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه وهم الذين يأمرون الناس ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام . فلهذا كان أولو الأمر صنفين : العلماء والأمراء . فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه(٤) (للأحمسية لما سألته مابقاؤنا

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ١٠٩ ـ باب يقاتل من وراء الإمام ويُتَّقَى به ، حديث ١٤٠٩ ونصه : عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني . وإنما الإمام جُنَّة يقاتَل من ورائه ويُتقى به . فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا . وإن قال بغيره فإن عليه منه .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨٧ ـ باب في الطاعة ، حديث ٢٦٢٦

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، حديث ٤٣٤

(٤) أخرج الدارميّ في مسنده : المقدمة، ٢٣ ـ باب في كراهية أخذ الرأي . ونصه: =

على هذا الأمر ؟) قال : مااستقامت لكم أئمتكم. ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان وكل من كان متبوعاً فإنه من أولى الأمر . وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى عنه . وعلى كل واحد ممن له عليه طاعة أن يطيعه فى طاعة الله ولا يطيعه فى معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حين تولى أمر المسلمين وخطبهم ، فقال فى خطبته : أيها الناس ! القوىّ فيكم الضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم القوىّ عندى حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما أطعت الله . فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ » أى اختلفتم أنتم وأولو الأمر « فِى شَىْءٍ » من الأحكام « فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ » أى فارجعوا فيه إلى كتابه «وَالرَّسُولِ» بالسؤال منه فى زمانه صلى الله عليه وسلم والرجوع إلى سننه بعده لا إلى ما تهوون ولا إلى ما يهواه الحكام « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ » الواضع لشرائع العدل « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذى يجازى فيه الموافق والمخالف لتلك الشرائع « ذَٰلِكَ » أى الرد إلى كتاب الله وسنة الرسول، والرجوع إليهما فى فصل النزاع

= عن أبى زرعة بن عمرو عن حية بنت أبى حية قالت : دخل علينا رجل بالظهيرة . فقلت : يا عبد الله : من أين أقبلت ؟ قال : أقبلت أنا وصاحب لى فى بغاء لنا . فانطلق صاحبى يبغى ودخلت أنا أستظل بالظل وأشرب من الشراب .

فقمت إلى لُبَيْنة حامضة فسقيته منها فشرب وشربت .

قالت وتوسمته فقلت : ياعبد الله ! من أنت ؟ فقال : أناأبو بكر . فقلت : أنت أبو بكر، صاحب رسول الله ﷺ الذى سمعتُ به ؟ قال : نعم .

قالت فذكرت غزونا خثعما وغزوة بعضنا بعضا فى الجاهلية وماجاء الله به من الألفة وأطناب الفساطيط . فقلت : يا عبد الله ! حتى متى ترى أمر الناس هذا ؟ قال : ما استقامت الأئمة . قلت : ما الأئمة ؟ قال : أما رأيت السيّد يكون فى الحِواء (بيوت مجتمعة على الماء) فيتبعونه ويطيعونه ؟ فما استقام أولئك .

« خَيْرٌ » أى لكم ولحكامكم وأصلح « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلا ، كما قاله السدّى وغير واحد . وقال مجاهد : وأحسن جزاء . وهو قريب .

قال الحافظ ابن كثير : هذا أمر من الله عز وجل بأن كل شىء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه، أن يردّ التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة. كما قال تعالى : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ(١) . فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق . وماذا بعد الحق إلا الضلال . ولهذا قال تعالى : إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أى ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله . فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . فدل على أن من لم يتحاكم، فى محل النزاع، إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما فى ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر. انتهى.

تنبيهات

الأول ـ قال البيضاوىّ : إن قوله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ ، يؤيد أن المراد بأولى الأمر الأمراء لا العلماء . قال : إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد فى حكمه بخلاف المرؤوس . ثم قال: إلا أن يقال : الخطاب لأولى الأمر، على طريقة الالتفات . وتابعه أبو السعود .

قال الخفاجىّ : وجه التأييد أن للناس والعامة منازعة الأمراء فى بعض الأمور وليس لهم منازعة العلماء . إذ المراد بهم المجتهدون . والناس ممن سواهم لا ينازعونهم فى أحكامهم . والمراد بالمرؤوس (على وزن المفعول) العامة التابعة للرائس والرئيس . فإذا كان الخطاب فى (تَنَازَعْتُمْ) لأولى الأمر على الالتفات صح إرادة العلماء . لأن للمجتهدين أن ينازع بعضهم بعضاً مجادلة ومحاجة . فيكون المراد أمرهم بالتمسك بما يقتضيه الدليل . انتهى . وفى قوله : (إذ ليس للمقلد الخ) ما ستراه .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ١٠] . . . ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

الثـانى ـ فهم كثير من الناس والمفسرين أيضاً أن طاعة أولى الأمر العلماء ، تقليدهم فيما يفتون به . وهو غلط . قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) فى :

فصل

فى عقد مجلس مناظرة بين مقلد وبين صاحب حجة منقاد للحق حيث كان .

قال المقلد : وقد أمر الله تعـالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر ـ وهم العلماء . أو العلماء والأمراء ـ وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به ، فإنه لولا التقليـد لم يكن هناك طاعة تختص بهم . قال : وجوابه أن أولى الأمر، قيـل : هم الأمراء . وقيل : هم العلماء . وهما روايتان عن الإمام أحمـد . والتحقيق أن الآية تتناول الطائفتين . وطاعتهم من طاعة الرسول صلى الله عليـه وسلم . لـكن خفى على المقلدين أنهم يطاعون فى طاعة الله إذا أمروا بأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليـه وسلم . فأين فى الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثار التقليد عليها ؟ ثم قال ابن القيّم : إن هـذه الآية من أكبر الحجج عليهم وأعظمها إبطالاً للتقليد . وذلك من وجوه : أحدها ـ الأمر بطاعة الله التى هى امتثال أمره واجتناب نهيه . الثانى ـ طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يكون العبد مطيعاً لله ولرسوله حتى يكون عالماً بأمر الله تعالى ورسوله . وأما من هو مقلد فيهـا لأهل العلم لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم البتة . الثالث ـ أن أولى الأمر قد نهوا عن تقليدهم ، كما صح ذلك عن معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وغيرهم من الصحابة . وذكرناه عن الأئمة الأربعـة وغيرهم . وحينئذ فطاعتهم فى ذلك إن كانت واجبـة بطل التقليد . وإن لم تـكن واجبة بطل الاستدلال . الرابع ـ أنه سبحانه وتعـالى، قال فى الآية نفسها : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وهذا صريح فى إبطال التقليد والمنع من رد المتنازع فيه إلى رأى أو مذهب أو تقليد . فإن قيل : فما هى طاعتهم المختصة بهم ؟

فإن كانت الطاعة فيما يخبرون به عن الله تعالى ورسوله ﷺ ، كانت الطاعة لله ورسوله ﷺ لا لهم. قيل: هذا هو الحق . وطاعتهم إنما هى تبع لااستقلال . ولهذا قرنها بطاعةالرسول. وأعاد العامل لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعاً كما يطاع أولو الأمر تبعاً. وليس كذلك. بل طاعته واجبة استقلالًا . كان ، ما أمر به أو نهى عنه فى القرآن، أو لم يكن . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى قبل ذلك : إن فرقة التقليد قد ارتكبت مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺوهدى أصحابه وأحوال أئمتهم . وسلكوا ضد طريق أهل العلم . أما أمرالله تعالى، فإنه أمر أن يرد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى رسوله . والمقلدون قالوا : إنما نردُّه إلى من قلدناه . وأما أمر رسوله فإنه ﷺ أمر عند الاختلاف بالأخذ بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين ، وأمر أن يتمسك بها ويعض عليها بالنواجذ . وقال المقلدون : بل عند الاختلاف نتمسك بقول من قلدناه ونقدمه على كل ما عداه . وأما هدى الصحابة رضى الله عنهم فمن المعلوم بالضرورة أنه لم يكن شخص واحد يقلد رجلًا فى جميع أقواله ويخالف من عداه من الصحابة بحيث لا يرد من أقواله شيئاً ولا يقبل من أقوالهم شيئاً . وهذا من أعظم البدع وأقبح الحوادث . وأما مخالفتهم لأئمتهم فإن الأئمة نهوا عن تقليدهم وحذروا منه . كما تقدم ذكر بعض ذلك عنهم وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال خلفائه الراشدين . فما وافق ذلك منها قبلوه ودانوا الله تعالى به . وقضوا به وأفتوا به . وما خالف ذلك منها لم يلتفتوا إليه وردوه . وما لم يتبين لهم كان عندهم من مسائل الاجتهاد التى غايتها أن تكون سائغة الاتّباع لا واجبة الاتّباع . من غير أن يلزموا بها أحداً ولا يقولوا إنها الحق دون ما خالفها . هذه طريقة أهل العلم سلفاً وخلفاً. وأما هؤلاء الخلف فعكسوا الطريق وقلبوا أوضاع الدين. فزيفوا كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ وأقوال خلفائه وجميع أصحابه ، وعرضوها على أقوال من قلدوه ، فما وافقها منها قالوا : لنا ؛ وانقادوا له مذعنين . وما خالف أقوال متبوعهم منها قالوا : احتج الخصم

بكذا وكذا . ولم يقبلوه ولم يدينوا به . واحتال فضلاؤهم فى ردها بكل ممكن . وتطلبوا لها وجوه الحيل التى يرونها . حتى إذا كانت موافقة لمذهبهم ، وكانت تلك الوجوه بعينها قائمة فيها ، شنعوا على منازعهم وأنكروا عليهم ردها بمثل تلك الوجوه بعينها . وقالوا : لا تُرَدُّ النصوص بهذا . ومن له همة تسمو إلى الله ومرضاته ، ونصر الحق الذى بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أين كان ومع من كان ، لا يرضى لنفسه بمثل هذا المسلك الوخيم والخلق الذميم . انتهى .

الثالث ـ إن قيل : لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بقوله (فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) أى فوّضوا علمه إلى الله واسكتوا عنه ولا تتعرضوا له ؟ وأيضاً ، لِمَ لا يجوز أن يكون المراد : فردوا هذه الأحكام إلى البراءة الأصلية ؟ قلنا : أما الأول فمدفوع . وذلك لأن هذه الآية دلت على أنه تعالى جعل الوقائع قسمين : منها ما يكون حكمها منصوصاً عليه . ومنها مالا يكون كذلك . ثم أمر فى القسم الأول بالطاعة والانقياد . وأمر فى القسم الثانى بالاجتهاد فيه ، وهو الرد إلى الله وإلى الرسول . ولا يجوز أن يكون المراد بهذا الردّ السكوت . لأن الواقعة ربما كانت لا تحتمل ذلك . بل لا بد من قطع الشغَب والخصومة فيها ، بنفىٍ أو إثبات . وإذا كان كذلك امتنع حمل الرد إلى الله ، على السكوت عن تلك الواقعة . وأما السؤال الثانى ـ فجوابه أن البراءة الأصلية معلومة بحكم العقل . فلا يكون رد الواقعة إليها رداً إلى الله بوجه من الوجوه . أما إذا رددنا حكم الواقعة إلى الأحكام المنصوص عليها ، كان هذا رداً للواقعة على أحكام الله تعالى . فكان حمل اللفظ على هذا الوجه أولى : أفاده الرازىّ .

الرابع ـ استدل مثبتو القياس بقوله تعالى (فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ) الخ قالوا : معنى الآية : فإن تنازعتم فى شىء حكمه غير مذكور فى الكتاب والسنة ، فردوا حكمه إلى الأحكام المنصوصة فى الوقائع المشابهة له . وذلك هو القياس . قالوا : ولو كان المراد من قوله تعالى (فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) طلبَ حكمه من نصوص الكتاب والسنة ـ لكان داخلًا تحت

قوله(أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) وهو إعادة لعين ماضى (كذا) وهو غير جائز . وقد توسع الرازىّ فى تقرير ذلك ههنا ، كما توسع فى أن قوله تعالى (وَأُولِي الأَمْرِ) إشارة إلى الإجماع . فتكون الآية ، بزعمه ، دلت على الأصول الأربع . ولا يخفى ما فى هذا التعمق من دقيق الاستنباط .

الخامس ـ قدمنا رواية البخارىّ فى سبب نزول هذه الآية . وأن ابن عباس قال : نزلت فى عبد الله بن حذافة .

قال الداودىّ (شارح الصحيح) : هذا وهم على ابن عباس . فإن عبد الله بن حذافة خرج على جيش فغضب عليهم . فأمرهم أن يوقدوا ناراً ويقتحموها . فامتنع بعض وهمّ بعض أن يفعل .

قال : فإن كانت الآية نزلت قبلُ ، فكيف يخص عبد الله بن حذافة بالطاعة دون غيره ؟ وإن كانت نزلت بعدُ فإنما قيل لهم : إنما الطاعة فى المعروف ، وما قيل لهم : لِمَ لم تطيعوه ؟ انتهى .

وأجاب الحافظ ابن حجر : أى المقصود فى قصته قوله (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ) لأنهم تنازعوا فى امتثال ما أمرهم به . وسببه أن الذين هموا أن يعطوه وقفوا عند امتثال الأمر بالطاعة . والذين امتنعوا عَارَضَهُ عندهم الفرار من النار . فناسب أن ينزل فى ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع . وهو الرد إلى الله وإلى رسوله . أى : إن تنازعتم فى جواز الشىء وعدم جوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة . والله أعلم .

ولما أوجب تعالى على جميع المكلفين أن يطيعوا الله ورسوله ، آثرها بأن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه ، وإنما يريدون حكم غيره ، فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » يعنى القرآن « وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » يعنى التوراة . ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله ، لتأكيد العجيب من حالهم وتشديد التوبيخ والاستقباح ، ببيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتما للتحاكم إلى الرسول ، وبين ما صدر عنهم من مخالفة الأمر المحتوم « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ » الداعى إلى الطغيان بالحكم على خلاف المنزل إليك والمنزل على من قبلك . وتقدم قريباً معانى الطاغوت . والمراد به ههنا ما سوى كتاب الله وسنة رسوله ، من الباطل « وَقَدْ أُمِرُوا » فى جميع تلك الكتب « أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » أى يتبرؤوا منه . لأنه تحاكم على خلاف ما أنزل الله فى كتبه فيعصونه ويطيعون الشيطان « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ » أى من الجن والإنس « أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » عن الحق والهدى . وقوله (ويريد الخ) عطف على (يريدون) داخل فى حكم التعجيب . فإن اتباعهم لمن يريد إضلالهم وإعراضهم عمن يريد هدايتهم ، أعجب من كل عجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى : إلى حكم ما أنزل الله فى القرآن الذى تدعون الإيمان به « وَإِلَى الرَّسُولِ » أى : حكمه « رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ » أى يمنعون

خصومهم فيبعدونهم « عَنْكَ صُدُودًا » بليغاً ليتمكنوا مما يريدونه بالرشوة . وقوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ الخ) تكملة لمادة التعجيب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله ، إثْرَ بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت . وإظهار (المنافقين) في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق . وذمهم به . والإشعار بعلة الحكم .

تنبيه ـ في سبب نزولها.

أخرج ابن أبي حاتم والطبرانيّ بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان أبو برزة الأسلميّ كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه . فتنافر إليه ناس من المسلمين . فأنزل الله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ـ إلى قوله ـ إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) .

أقول : ثم أسلم أبو برزة وصحب النبيّ صلى الله عليه وسلم . واسمه نضلة بن عبيد .

قال الحافظ ابن حجر في (التقريب) : صحابيّ مشهور بكنيته . أسلم قبل الفتح . وغزا سبع غزوات . ثم نزل البصرة . وغزا خراسان ومات بها سنة خمس وستين على الصحيح . انتهى .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة ، أو سعيد ، عن ابن عباس قال : كان الجلاس ابن الصامت ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد ، وبَشَرٌ يدّعون الإسلام . فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين ، في خصومة كانت بينهم ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . فدعوهم إلى الكهان ، حكام الجاهلية . فأنزل الله فيهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ...)الآية .

وأخرج ابن جرير(١) عن الشعبيّ قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة . فقال اليهوديّ : أحاكمك إلى أهل دينك، أوقال : إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم. لأنه قد علم أنه لايأخذ الرشوة في الحكم . فاختلفا . واتفقا على أن يأتيا كاهنا في جهينة . فنزلت . وَلَا تعارُضَ . لما أسلفناه في المقدمة في بحث سبب النزول . فتذكر .

(١) الأثر رقم ٩٨٩١ .

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقاً من أهل الكتاب . مثل : إنه كان يهوديًّا فأظهر الإسلام على سبيل النفاق . لأن قوله تعالى (يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) إنما يليق بمثل هذا المنافق . انتهى .

أقول : مااستظهره مناف لما أسلفناه مما روى فى نزولها . على أن توصيفهم بالإيمان بـ (ما أنزل من قبل) لا يؤيد ماذكره . لأن هذا كثيراً مايذكر تنويها به وتثبيتاً لركنيته فى الإيمان. وتذكيراً له . كما لا يخفى على من سبر قاعدة التنزيل فى أمثاله . فاعرفه .

مباحث

الأول ـ قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية إنكار من الله عز وجل على من يدّعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين . وهو مع ذلك ، يريد أن يتحاكم ، فى فصل الخصومات ، إلى غير كتاب الله وسنة رسوله. كما ذُكِر فى سبب نزول هذه الآية. ثم ساق ما قدمناه وقال : الآية أعم من ذلك كله . فإنها ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكموا إلى ماسواهما من الباطل . وهو المراد بـ(الطاغوت) ههنا ، وأعرضوا كالمستكبرين كما قال تعالى عن المشركين (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا)(1) وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...)(2) الآية

الثانى ـ قال القاضى : يجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر . وعدمُ الرضا بحكم محمد صلى الله عليه وسلم كفرٌ . ويدل عليه وجوه : الأول ـ أنه تعالى قال (يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ) فجعل التحاكم

---

(1) [٢ / البقرة / ١٧٠] . . . أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ.

(2) [٢٤ / النور/ ٥١] . . . وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

إلى الطاغوت يكون إيماناً به . ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله . كما أن الكفر بالطاغوت إيمان بالله . الثانى ـ قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . . إلى قوله: وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(١) وهذا نص فى تكفير من لم يرض بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثالث ـ قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٢) وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة . وفى هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خارج عن الإسلام . سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد . وذلك يوجب صحة ماذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعى الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم . نقله الرازى .

الثالث ـ قال بعض المفسرين : فى هذه الآية وجوب الرضا بقضاء الله سبحانه . والرضا بما شرعه . وتدل على أنه لايجوز التحاكم إلى غير شريعة الإسلام .

قال الحاكم : وتدل على أن من لم يرض بحكمه كفر . وما ورد من فعل عمر وقتله المنافق يدل على أن دمه هدر . لا قصاص فيه ولا دية .

وههنا فرع . وهو أن يقال : إذا تحاكم رجلان فى أمر فرضى أحدهما بحكم المسلمين وأبى الثانى . وطلب المحاكمة إلى حاكم الملاحدة . فإنه يكفر . لأن فى ذلك رضا بشعار الكفرة. انتهى .

الرابع ـ فى قوله تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا) دقيقة بديعة . قال أبو السعود :

---

(١) [٤ / النساء / ٦٥] ونصها : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

(٢) [٢٤ / النور / ٦٣] ونصها : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ...

الاقتصار فى معرض التعجب والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم ، دون نفسه ، مع وقوعه أيضاً ـ للتنبيه على أن إرادته مما يقضى منـه العجب ولا ينبغى أن يدخل تحت الوقوع ، فما ظنك بنفسه ؟

الخامس ـ قال المفسرون : إنما صد المنافقون عن حكم الرسول ﷺ لأنهم كانوا ظالمين. وعلموا أنه لا يأخذ الرشا . وأنه لا يحكم إلا بمرّ الحـكم . وقيل : كان ذلك الصدّ لعداوتهم فى الدين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا)

« فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » متصل بمـا قبله ، مبين غائلة جناياتهم المحـكية ووخامة عاقبتها . أى كيف يكون حالهم إذا ساقتهم التقادير إليك ، فى مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، التى منها المحاكمة إلى الطاغوت والـكراهة لحـكمك ، واحتاجوا إليك فى ذلك « ثُمَّ جَاءُوكَ » للاعتذار عما صنعوا من القبائح « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ » كذباً « إِنْ أَرَدْنَا » أى ما أردنا بذلك التحاكم « إِلَّا إِحْسَانًا » أى فصلًا بالوجه الحسن « وَتَوْفِيقًا » بالصلح بين الخصمين . ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحـكمك . فلا تؤاخذنا بما فعلنا . وهذا وعيد لهم على مافعلوا . وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم . ولا يغنى عنهم الاعتذار .

قال الرازىّ : ذكروا فى تفسير قوله تعـالى (أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ) وجوها : الأول ـ إن المراد منه قتل عمر صاحبهم الذى أقرّ أنه لا يرضى بحكم الرسول عليه السلام . فهم جاؤا إلى النبىّ ﷺ ، فطالبوا عمر بدمه . وحلفوا أنهم ماأرادوا بالذهاب إلى غير الرسول إلا المصلحة. وهذا اختيار الزجاج .

قلت : واختياره غير مختار . لأن قصة قتل عمر لم ترو من طريق صحيح ولا حسن . فهى ساقطة عند المحققين . واستدلال الحاكم ، الذى قدمناه ، مسلم . لو صحّت . الثانى ـ قال أبو علىّ الجبائىّ : المراد من هذه المصيبة ماأمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه لا يستصحبهم فى الغزوات . وأنه يخصهم بمزيد الإذلال والطرد عن حضرته . وهو قوله تعالى (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا)(١) وقوله (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا)(٢) وبالجملة، فأمثال هذه الآيات توجب لهم الذل العظيم . فكانت معدودة فى مصائبهم . وإنما يصيبهم ذلك لأجل نفاقهم .

الثالث ـ قال أبو مسلم الأصفهانىّ : إنه تعالى لمّا أخبر عن المنافقين أنهم رغبوا فى حكم الطاغوت وكرهوا حكم الرسول ، بشّر الرسول ﷺ أنه ستصيبهم مصائب تلجئهم إليه وإلى أن يظهروا له الإيمان به ، وإلى أن يحلفوا بأن مرادهم الإحسان والتوفيق . قال: ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا: كيف أنت إذا كان كذا وكذا؟ ومثاله. قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)(٣) وقوله (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)(٤) . ثم أمره تعالى، إذا كان منهم ذلك، أن يُعرض عنهم ويعظهم . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٠و٦١] .

(٢) [٩ / التوبة / ٨٣] ونصها : فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ٤١] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا .

(٤) [٣ / آل عمران / ٢٥] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المنافقين « الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » من النفاق والميل إلى الباطل وإن أظهروا إسلامهم وعذرهم بحلفهم « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى لا تعاقبهم لمصلحةٍ فى استبقائهم ولا تزد على كفهم ، بالموعظة والنصيحة عماهم عليه « وَعِظْهُمْ » أى ازجرهم عما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر « وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا » أى مؤثراً واصلاً إلى كنه المراد . فإن قيل : بم تعلق قوله تعالى (فِي أَنْفُسِهِمْ) ؟ فالجواب : بقوله (بَلِيغًا) على رأى من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف . أى قل لهم قولاً بليغاً فى أنفسهم مؤثراً فى قلوبهم يغتمون به اغتماماً . ويستشعرون منه الخوف استشعاراً . وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلع قرنه. وأخبرهم أن ما فى نفوسهم من الدغل والنفاق، معلوم عند الله . وإنه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المكافّة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره . فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف . أو يتعلق بقوله (قُلْ لَهُمْ) أى : قل لهم فى معنى أنفسهم الخبيثه وقلوبهم المطوية على النّفاق ، قولاً بليغاً . وإن الله يعلم ما فى قلوبكم . لا يخفى عليه . فلا يغنى عنكم إبطانه. فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق . وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك ، من انتقامه ، وشراً من ذلك وأغلظ . أو قل لهم فى أنفسهم خالياً بهم ، ليس معهم غيرهم، مساراً لهم بالنصيحة ، لأنها فى السر أنجع وفى الإمحاض أدخل (قَوْلًا بَلِيغًا) يبلغ منهم ويؤثر فيهم. كذا يستفاد من الكشاف .

قال الناصر فى (الانتصاف) ولكل من هذه التأويلات شاهد على الصحة. أما الأول فلأن حاصله أمره بتهديدهم على وجه مبلغ صميم قلوبهم . وسياق التهديد فى قوله (فَكَيْفَ

إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ) يشهد له . فإنه أخبر بما سيقع لهم على سبيل التهديد . وأما الثانى ـ فيلائمه من السياق قوله (أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) يعنى ما انطوت عليه من الخبث والمكر والحيل . ثم أمره بوعظهم والإعراض عن جرائمهم حتى لا تكون مؤاخذتهم بها مانعة من نصحهم ووعظهم . ثم جاء قوله (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) كالشرح للوعظ ولذكر أهم ما يعظهم فيه . وتلك نفوسهم التى علم الله ما انطوت عليه من المذامّ . وعلى هذا يكون المراد الوعظ وما يتعلق به . وأما الثالث ـ فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام فى كتم عناد المنافقين، والتجافى عن إفصاحهم والستر عليهم ، حتى عُدَّ حذيفةُ رضى الله عنه ، صاحبَ سره عليه الصلاة والسلام . لتخصيصه إياه بالاطلاع على أعيانهم وتسميتهم له بأسمائهم . وأخباره فى هذا المعنى كثيرة .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : وثمرة الآية قبح الرياء والنفاق واليمين الكاذبة والعذر الكاذب . لأنهم اعتذروا بإرادتهم الإحسان. وذلك كذب . ثم قال: ودلت الآية على لزوم الوعظ والمبالغة فيه . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ » كلام مبتدأ . جيء به تمهيداً لبيان خطئهم فى ترك طاعة الرسول ، والاشتغال بستر جنايتهم بالاعتذار بالأباطيل وعدم تلافيها بالتوبة . أى : وما أرسلنا رسولًا إلا ليطاع فيما حكم ، لا ليطلب الحكم من غيره . فطاعته فرض على من أُرسل إليهم . وإنكارُ فرضيتها كفر.

وقوله (بإذن الله) أى: بسبب إذنه فى طاعته ، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه ، لأنه مؤدٍّ عن الله. فطاعته طاعة الله. ومعصيته معصية الله (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ويجوز أن يراد : بتيسير الله وتوفيقه فى طاعته « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » هذا الظلم العظيم غاية العظم ، إذ عرضوها لعذابٍ ، على عذاب النفاق ، بترك طاعتك والتحاكم إلى الطاغوت « جَاءُوكَ » تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا « فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ » من ذلك وتابوا إليه تعالى من صنيعهم « وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ » أى دعا لهم بالمغفرة ، فكان استغفاره شفاعةً لقبول استغفارهم «لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا » أى قابلاً لتوبتهم «رَحِيماً» أى متفضلاً عليهم بالرحمة وراء قبول التوبة .

لطيفة .

قال الزمخشريّ : ولم يقل : واستغفرت لهم ، وَعَدَلَ عنه إلى طريقة الالتفات ، تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعةَ مَنِ اسْمُهُ الرسول ، من الله بمكان . قال فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع من الالتفات خصوصية. وهى اشتماله على ذكر صفة مناسبة لما أضيف إليه. وذلك زائد على الالتفات بذكر الأعلام الجامدة.

تنبيهات

الأول ـ دلت الآية على أن توبة المنافق مقبولة عند الله وفاقاً . وأما فى الظاهر فظاهر الآية قبولها . لأنه جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم مستغفراً لهم وشافعاً . وعن الراضى بالله فى (الباطنية) : إن أظهروا شبههم وما يعتادون كتمه ، دل ذلك على صدق توبتهم . فيقبل وإلا فلا . ودلت الآية على أن من تكررت منه المعصية والتوبة صحت توبته لقوله تعالى : (توّاباً) وذلك ينبئ عن التكرار . كذا فى بعض التفاسير .

الثانى ـ قال الرازيّ : لقائل أن يقول : أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، لكانت توبتهم مقبولة ؟ فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم : قلنا : الجواب

عنه من وجوه : الأول ـ أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله . وكان أيضاً إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره . فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم . الثاني ـ إن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ، ظهر منهم ذلك التمرد . فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد . وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلبوا منه الاستغفار .

الثالث ـ لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتَوْا بها على وجه الخلل،فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول . انتهى .

أقول : وثمة وجه رابع ـ وهو التنويه بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن طاعته طاعته تعالى ، فرضاه رضاه وسخطه سخطه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ » في السر ولا يستحقون اسم الإيمان في السر « حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ » يجعلوك حاكماً ويترافعوا إليك « فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ » أي فيما اختلف بينهم من الأمور والتبس «ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ» في قلوبهم «حَرَجًا» أي ضيقاً «مِّمَّا قَضَيْتَ» بينهم « وَيُسَلِّمُوا » أي: ينقادوا لأمرك ويذعنوا لحكمك « تَسْلِيماً » تأكيد للفعل. بمنزلة تكريره . أي تسليماً تاماً بظاهرهم وباطنهم من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . كما ورد في الحديث[٢] : والذى نفسي بيده ! لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

(١) قال السيّد أحمد محمد شاكر في تعليقه على هـذا الحديث بالصفحة رقم ٢١١ =

تنبيهات

الأول ـ روى البخاريّ[1] عن الزهريّ عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً فى شراج الحرة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك . فقال الأنصاريّ: يارسول الله! أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق يازبير . ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر . ثم أرسل الماء إلى جارك . واستوعى النبيّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصاريّ . وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة .

قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت فى ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) .

قال ابن كثير : هكذا رواه البخاريّ فى (كتاب التفسير) فى (صحيحه) من حديث

= بالجزء الثالث من (عمدة التفسير) ما نصه :

هو الحديث الحادى والأربعون من الأربعين النووية . ولكن ليس فى أوله « والذى نفسى بيده ! » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . قال النوويّ : حديث حسن صحيح . رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح . يريد (كتاب الحجة) لأبى الفتح المقدسيّ .

وذكر ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم ، شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم) أنه رواه أيضاً الحافظ أبو نعيم فى (كتاب الأربعين) التى شرط فيها الصحة . وأنه رواه أيضاً الطبرانيّ . ثم أطال القول فى تعليله . وعندى أن تعليله غير جيد . وأن الحديث صحيح . اهـ .

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٥ـ كتاب التفسير، ٤ـ سورة النساء، ١٢ـ باب فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، حديث ١١٨٠ .

معمر. وفى كتاب (المساقاة) من حديث ابن جريج[١] ومعمر[٢] أيضاً. وفى كتاب (الصلح) من حديث شعيب بن أبى حمزة[٣]. ثلاثتهم عن الزهرىّ عن عروة فذكره. وصورته صورة الإرسال وهو متصل فى المعنى . وقد رواه الإمام أحمد[٤] من هذا الوجه فصرّح بالإرسال فقال : حدثنا أبو اليمان . أخبرنا شعيب عن الزهرىّ أخبرنى عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه كان يخاصم رجلًا من الأنصار قد شهد بدراً ، إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى شراج الحرّة . كان يستقيان بها كلاهما . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم للزبير : اسق : ثم أرسل الماء إلى جارك . فغضب الأنصارىّ وقال يارسول الله ! أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال للزبير : أسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر . فاستوعى النبىّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قبل ذلك، أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارىّ . فلما أحفظ الأنصارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استوعى النبىّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم .

قال عروة : فقال الزبير : والله! ما أحسب هذه الآية أنزلت إلا فى ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٢ ـ كتاب المساقاة ، ٨ ـ باب شِرْب الأعلى إلى الكعبين .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤٢ ـ كتاب المساقاة ، ٧ ـ باب شرب الأعلى قبل الأسفل.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ١٢ ـ باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم البيّن .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) الحديث ١٤١٩ (طبعة المعارف) .

(هكذا رواه الإمام أحمد وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير فإنه لم يسمع منه . والذى يقطع به أنه سمعه من أخيه عبدالله. فإن أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم رواه كذلك فى (تفسيره). فقال : حدثنا يونس بن عبد الأعلى . حدثنا ابن وهب . أخبرنى الليث ويونس عن ابن شهاب ؛ أن عروة بن الزبير حدثه ؛ أن عبدالله بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام؛ أنه خاصم رجلا . . . الحديث) . قال ابن كثير : وهكذا رواه النسائىّ(١) من حديث ابن وهب به . ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث به . وجعله أصحاب الأطراف فى مسند عبد الله بن الزبير . وهكذا ساقه الإمام أحمد فى مسند عبدالله بن الزبير . والله أعلم(٢) .

وروى ابن أبى حاتم عن الزهرىّ عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية قال : نزلت فى الزبير ابن العوام وحاطب بن أبى بلتعة . اختصما فى ماء. فقضى النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يسقى الأعلى ثم الأسفل .

قال ابن كثير : هذا مرسل . ولكن فيه فائدة تسمية الأنصارىّ . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : وحكى الواحدىّ وشيخه الثعلبىّ والمهدوىّ أنه حاطب بن أبى بلتعة . وتعقب بأن حاطباً، وإن كان بدريًّا ، لكنه من المهاجرين . لكن مستند ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن عبد العزيز عن الزهرىّ عن سعيد ابن المسيّب فى قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ... الآية) قال : نزلت فى الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة . اختصما فى ماء . . . الحديث. وإسناده قوىّ مع إرساله . فإن كان سعيد بن المسيب سمعه من الزبير ، فيكون موصولا . وعلى هذا فيؤوّل قوله (من الأنصار) على إرادة المعنى الأعم. كما وقع ذلك فى حق غير واحد كعبد الله بن حذافة . وأما قول الكرمانىّ بأن حاطباً كان حليفاً للأنصار ـ ففيه نظر .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٤٩ ـ كتاب آداب القضاة ، ١٩ ـ باب الرخصة للحاكم الأمين أن يحكم وهو غضبان ، و٢٧ ـ باب إشارة الحاكم بالرفق .

(٢) انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر بالصفحة ٢١٣ من الجزء الثالث من (عمدة التفسير) فاقرأه واقرأه ، ثم اقرأه فلن تملّه أبدا . ففيه مالا ينبغى لمؤمنٍ أن يجهله . بل ما ينبغى أن يعلمه علم اليقين .

وأما قوله (من بنى أميـة بن زيد) فلعله كان مسكنه هناك ، كعمر . ثم قال : ويترشح بأن حاطباً كان حليفاً لآل الزبير بن العوام من بنى أسد وكأنه كان مجاوراً للزبير . والله أعلم . (ج ٥ ص ٢٦و٢٧) .

أقول : وقع فى التفسير المنسوب لابن عباس ، ههنا، ذكر حاطب بن أبى بلتعة وتلقيبه بالمنافق وإدراجه تحت قوله تعـالى (رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ). وفى صحة هذا عن ابن عباس نظر . وكيف؟ وقد كان رضى الله عنه من البدريين . وقد انتفى النفاق عمن شهدها .

قال التوربشتىّ : يحتمل أنه أصدر ذلك منه بادرةُ النفس. كما وقع لغيره ممن صحت توبته. إذ لم تجر عادة السلف بوصف المنافقين بصفة النصرة التى هى المدح ولو شاركهم فى النسب . قال : بل هى زلة من الشيطان تمـكن به منها عنـد الغضب ، وليس ذلك بمستنكر من غير المعصوم فى تلك الحالة . انتهى .

ولما همّ عمر رضى الله عنه بضرب عنقه فى قصة الظعينة(١) ، قال حاطب : لا تعجل علىّ

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٤١ ـ باب الجاسوس وقول الله تعالى: لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، حديث ١٩٢٤ ، ونصه :

عن عبيد الله بن أبى رافع قال : سمعت علياً رضى الله عنه يقول : بعثنى رسول الله ﷺ ، أنا والزبير والمقداد بن الأسود . قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا تعَادى بنا خيلُنا . حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة. فقلنا : أخرجى الـكتاب . فقالت : ما معى من كتاب . فقلنا : لتُخْرِجنَّ الـكتاب أو لنُلقِيَنَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول الله ﷺ . فإذا فيـه : من حاطب ابن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ « يا حاطب ! ما هذا ؟ » قال: يا رسول الله ! لا تعجل علىّ. إنى كنت امرءًا ملصقاً فى قريش . ولم أكن من أنفسِها . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات =

يا رسول الله ! والله ! إنى لمؤمن بالله ورسوله . وما ارتددت ولا بدلت . فأقرّه صلى الله عليه وسلم ، وكفّ عمر عنه . وقال صلى الله عليه وسلم لعمر : إنه قد شهد بدراً . وما يدريك ، يا عمر؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . فذرفت عينا عمر ... الحديث .

ولله در أصحاب الصحاح حيث أبهموا فى قصة الزبير اسم خصمه ستراً عليه كيلا يغض من مقامه . وهكذا ليكن الأدب . وكفانا أصلا عظيما فى هذا الباب إبهام التنزيل الجليل فى كثير من قصصه الكريمة . فهو ينبوع المعارف والآداب على مرور السنين والأحقاب . هذا كله على الجزم بأنها نزلت فى قصة الزبير وخصمه . وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والراجح رواية الأكثر . وأن الزبير كان لايجزم بذلك . ثم قال الحافظ ابن حجر : وجزم مجاهد والشعبىّ بأن الآية إنما نزلت فيمن نزلت فيه الآية التى قبلها وهى قوله تعالى (ألم تر الخ) فروى إسحق بن راهويه فى (تفسيره) بإسناد صحيح عن الشعبىّ . قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة . فدعا اليهودىّ المنافق إلى النبىّ ﷺ . لأنه علم أنه لايقبل الرشوة . ودعا المنافق اليهودىّ إلى حكامهم . لأنه علم أنهم يأخذونها . فأنزل الله هذه الآيات ، إلى ... ويسلموا تسليما .

وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد ، نحوه .

= بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى . وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد صدقكم » قال عمر : يا رسول الله ! دعنى أضربْ عنق هـذا المنافق . فقال « إنه قد شهد بدرا . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

وروى الطبرى[١] بإسناد صحيح عن ابن عباس أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمى قبل أن يسلم ويصحب .

وروى[٢] بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد؛ أنه كعب بن الأشرف. انتهى .

وقال ابن كثير: ذكر سبب آخر غريب جداً. قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبدالأعلى قراءة . أخبرنا ابن وهب . أخبرنى عبد الله بن لهيعة عن أبى الأسود قال : اختصم رجلان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى بينهما. فقال المقضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم. انطلقا إليه. فلما أتيا إليه، فقال الرجل: ياابن الخطاب! قضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا ، فقال : ردنا إلى عمر بن الخطاب فردنا إليك . فقال : أكذاك ؟ قال : نعم . فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضى بينكما. فخرج إليهما مشتملا على سيفه فضرب الذى قال : ردنا إلى عمر . فقتله . وأدبر الآخر . فأتى إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ! قتل عمر ، والله ! صاحبى. ولولا أنى أعجزته لقتلنى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن . فأنزل الله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... الآية) فهدر دم ذلك الرجل وبرىء عمر من قتله. فكره الله أن يسن ذلك بعد . فأنزل : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)الآية وكذا رواه ابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبى الأسود به ، وهو أثر غريب مرسل . وابن لهيعة ضعيف . والله أعلم .

طريق أخرى : قال الحافظ أبو إسحق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم فى (تفسيره) : حدثنا شعيب بن شعيب . حدثنا أبو المغيرة . حدثنا عتبة بن حمزة . حدثنى أبى . أن رجلين اختصما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى للمحق على المبطل . فقال المقضى

(١) لم أعثر على هذا الأثر فى نسخة التفسير التى بين يدى .

(٢) الأثر رقم ١٩١٥ .

عليه: لاأرضى. فقال صاحبه : فما تريد؟ قال : أن نذهب إلى أبى بكر الصديق . فذهبا إليه . فقال الذى قضى له : قد اختصمنا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقضى لى . فقال أبو بكر : أنتما على ماقضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأبى صاحبه أن يرضى . فقال : نأتى عمر ابن الخطاب . فقال المقضىّ له : قد اختصمنا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقضى لى عليه . فأبى أن يرضى . فسأله عمر بن الخطاب ، فقال كذلك . فدخل عمر منزله وخرج والسيف فى يده قد سله . فضرب به رأس الذى أبى أن يرضى . فقتله . فأنزل الله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... الآية) انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): روى الـكلبىّ فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودىّ خصومة . فقال اليهودىّ : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف . فذكر القصة . وفيه أن عمر قتل المنافق وأن ذلك سبب نزول هذه الآيات وتسمية عمر الفاروق . وهذا الإسناد، وإن كان ضعيفاً، لـكن تقوى بطريق مجاهد. ولا يضره الاختلاف . لإمكان التعدد. وأفاد الواحدىّ بإسناد صحيح عن سعيد عن قتادة أن اسم الأنصارىّ المذكور قيس . ورجح الطبرىّ فى (تفسيره)(1) وعزاه إلى أهل التأويل فى (تهذيبه) أن سبب نزولها هذه القصة. ليتسق نظام الآيات كلها فى سبب واحد . قال : ولم يعرض بينها ما يقتضى خلاف ذلك . ثم قال : ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت فى أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية. والله أعلم . انتهى .

قال الرازىّ : اعلم أن قوله تعالى (فَلَاوَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) قَسَمٌ من الله تعالى على أنهم لايصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط : أولها ـ قوله تعالى (حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لايكون مؤمنا . الشرط الثانى ـ

---

(1) انظر الصفحة رقم ٥٢٤ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

قوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) . واعلم أن الراضي بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضياً به في الظاهر دون القلب . فبيّن ، في هذه الآية ، أنه لابد من حصول الرضا به في القلب . واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر . فليس المراد من الآية ذلك . بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول هو الحق والصدق . الشرط الثالث ـ قوله (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) . واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقاً وصدقاً ، قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول . فبيّن تعالى أنه ، كما لابد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب ، فلا بد أيضا من التسليم معه في الظاهر . فقوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) المراد به الانقياد في الباطن . وقوله (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) المراد منه الانقياد في الظاهر . والله أعلم .

الثالث ـ قال الرازيّ : ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس . لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق . وأنه لا يجوز العدول منه إلى غيره . ومثل هذه المبالغة المذكورة في هذه الآية قلما يوجد في شيء من التكاليف . وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس . وقوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) مشعر بذلك . لأنه متى خطر بباله قياس يفضي إلى نقيض مدلول النص ، فهناك يحصل الحرج في النفس . فبيّن تعالى أنه لا يكمل إيمانه ، إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ، ويسلم النص تسليماً كلياً . وهذا الكلام قويّ حسن لمن أنصف .

الرابع ـ (لا) في قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ) قيل إنها ردٌّ لمقدّر . أي : تفيد نفي أمر سبق . والتقدير : ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك . ثم استأنف القسم بقوله (وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ) وقيل : مزيدة لتأكيد النفي الذي جاء فيما بعد . أعني الجواب . لأنه إذا ذكر في أول الكلام وفي آخره كان أوكد وأحسن . وقيل : إنها مزيدة لتأكيد معنى القسم . وارتضاه الزمخشريّ . قال : كما زيدت

فى (لئلايعلم)(١) لتأكيد وجوب العلم . قال فى (الانتصاف) يشير إلى أن (لا) لما زيدت مع القسم ، وإن لم يكن المقسم به ، دَلَّ ذلك على أنها إنما تدخل فيه لتأكيد القسم . فإذادخلت حيث يكون المقسم عليه نفياً ، تعين جعلها لتأكيد القسم ، طردًا للباب . أو الظاهر عنده، والله أعلم ، أنها هنا لتوطئة النفى المقسم عليه . والزمخشرىّ لم يذكر مانعاً من ذلك.وحاصل ما ذكره مجيئها لغير هـذا المعنى فى الإثبات . وذلك لا يأبى مجيئها فى النفى على الوجـه الآخر من التوطئة . على أن فى دخولها على القسم المثبت نظرا . وذلك أنها لم ترد فى الكتاب العزيز إلا مع القسم حيث يكون بالفعل . مثل (لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ)(٢)(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)(٣) (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)(٤)(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)(٥) (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)(٦) ولم تدخل أيضاً إلا على القسم بغير الله تعـالى . ولذلك سرٌّ يأبى كونها فى هذه الآية لتأكيد القسم . ويعين كونها للتوطئة : وذلك أن المراد بها فى جميع الآيات التى عددناها تأكيد تعظيم المقسم به . إذ لا يقسم بالشىء إلا إعظاماً له . فكأنه بدخولها يقول : إن إعظامى لهذه الأشياء بالقسم بها ، كلا إعظام. يعنى أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك . وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعاً لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم ، وللإقسام بها . فيزاح هذا الوهم بالتأكيد ، فى إبراز فعـل القسم مؤكدا بالنفى

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٩٠ / البلد / ١] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ١] .

(٤) [٨١ / التكوير / ١٥] .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ٧٥] .

(٦) [٦٩ / الحاقة / ٣٨و٣٩] .

المذكور . وقد قرر الزمخشرىّ هــذا المعنى فى دخول (لا) عند قوله (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) على وجه مجمل ، هــذا بسطه وإيضاحه . فإذا بين ذلك ، فهذا الوهم الذى يراد إزاحته فى القسم بغير الله ، مندفع فى الإقسام بالله. فلا يحتاج إلى دخول (لا) مؤكدة للقسم. فيتعين حملها على الموطئة . ولا تـكاد تجدها ، فى غير الـكتاب العزيز ، داخلة على قسم مثبت. وأما دخولها فى القسم ، وجوابه نفى ، فـكثير مثل :

فَلَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِىّ لَا يَدَّعِى الْقَوْمُ أَنِّى أَفِرّ (١)

---

(١) استشهد به فى (مغنى اللبيب) بالصفحة ٢٠١ من الجزء الأول . وقال الأمير فى (حاشيته) : هو من قصيدة لامرئ القيس بن حجر ، على ما قال أبو عمرو وغيره . وزعم أبو حاتم أنها لرجل من اليمن ، يقال له ربيعة بن جشم . ومطلعها :

أَحَارَ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى المرءِ مَا يَأْتَمِـرْ

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب (شارح الديوان) :

قوله : أحار ، ترخيم حارث . ويجوز ضم الراء على من جعله اسماً على حاله . وفتحها على الإتباع . وهذا الحرف من النداء لا ينادى به إلا من قرب . ولا يستعمل فيما بَعُـد . وهذه نـكتة من العربية ذكرها المبرّد . أعنى الإتباع فى الاسم المرخّم .

والخمر الذى قد خامره داء أو وجع ، أى خالطه . ويقال : أراد كأنه فى عقب خمار .

و (كأن) ههنا واجبة . أى هو خمر . كما قال :

فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

قال المبرد : هو وإن كان مات فهو مدفون فى الأرض ، فقد كان يجب من أجله أن لا ينالها جدب .

ويعدو على المرء ، أى يصيبه وينزل به . وشرح يأتمر: يهم به ويعْزم عليه . قال الله عز وجل: وَائْتَمِـرُوا بَيْنَـكُمْ بِمَعْرُوفٍ . أى هموا به واعتزموا عليه ، وليأمر بعضكم بعضاً به . =

وكقوله(١) :

أَلَا نَادَتْ أُمَامَةُ باحتمالٍ لِتَحْزُنَنِى ، فَلَا بِكِ مَا أُبَالِى

وقوله :

رَأَى بَرْقاً فَأَوْضع فوق بَكْرٍ فَلَا بِكِ مَا أَسَال وَلا أغاما

= وقال فى شرح البيت المستشهد به :

(لا) ردّ لشيء سمعه . لأن البيت أول القصيدة . كأنه قيل له : فررت . فقال ، مجيباً : لا . ثم ابتدأ فأقسم بقوله : وأبيك . ثم بيّن ذلك بقوله : لا يدعى القوم أنى أفر .

والقوم ههنا بنو تميم .

(١) استشهد بهما ابن يعيش فى شرحه على المفصل بالصفحة ١٢٩٨ (طبعة ليبزج) .

والبيت الأول استشهد به الزمخشرىّ فى (الكشاف) عند قوله تعالى : لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قال شارح الشواهد ، محب الدين أفندى : هو لغويّة بن سلمى . وأمامة اسم امرأة . والاحتمال : الارتحال . وما أبالى ، معناه ما أكترث وأحتفل . والتقدير : فبكِ ما أبالى . و (لا) زائدة . يعنى أظهرت هذه المرأة نفسها ارتحالا عنى لتجلب علىّ حزنا . قيل: يخاطبها ويقول : لا وأبيك ما أبالى .

وهذه اليمين فيها تهكم . وقوله (لا بك) كقولك: لا بالله . و (ما أبالى) جواب القسم.

والبيت الثانى استشهد به الجاحظ فى كتاب الحيوان (١/١٨٦) .

وقائله : عمرو بن يربوع بن حنظلة ، كما فى نوادر أبى زيد ص ١٤٦ .

إن سعلاة أقامت فى بنى تميم حتى ولدت فيهم. فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى، حنّت وطارت إليهم . فقال شاعرهم :

رأى برقاً فأوضع فوق بَكر فلا بِكِ ما أسال ولا أغاما

الإيضاع: الإسراع فى السير . والبكر: الفتىّ من الإبل . وأغامت السماء : كانت ذات غيم.

وقوله[١] :

فَحَالِفْ . فَلَا واللهِ تَهْبِطُ تَلْعَةً   من الأرض إِلّا أنت للذلّ عَارِفُ

وهوأ كثر من أن يحصى. فتأمل هذا الفصل فإنه حقيق بالتأمل . انتهى .

الخامس ـ اعلم أن كل حديث صح عن رسول الله ﷺ ، بأن رواه جامعو الصحاح ، أو صححه من يرجع إليه فى التصحيح من أئمة الحديث ، فهو مما تشمله هـذه الآية . أعنى قوله تعالى (مِمَّا قَضَيْتَ) فحينئذ يتعين على كل مؤمن بالله ورسوله الأخـذ به وقبوله ظاهراً وباطناً . وإلا بأن التمس مخارج لرده أو تأويله ، بخلاف ظاهره ، لتمذهبٍ تقلَّده وعصبية رُبِىَ عليها ، كما هو شأن المقلدة أعداء الحديث وأهله ـ فيدخل فى هذا الوعيد الشديد المذكور فى هذه الآية . الذى تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة .

قال الإمام الشافعىّ[٢] فى الرسالة التى أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدىّ : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد عن أبيه قال : أرسله عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا . فذهبت معـه إلى عمر . فسأل عن وليدة من ولائد الجاهلية . فقال : أما الفراش فلفلان . وأما النطفة فلفلان . فقال : صدقت . ولـكن رسول الله ﷺ قضى بالفراش .

قال الشافعىّ: وأخبرنى من لا أتهم عن ابن أبى ذئب قال: أخبرنى مخلد بن خفاف قال :

---

(١) استشهد به سيبويه فى (الـكتاب) بالصفحة ٤٥٤ من الجزء الأول .
قال الشنتمرىّ :

الشاهد فيه حذف (لا) وجاز ذلك لأن الموجب تلزمه اللام والنون ، فلم يشكل حذفها. ويقوّى الحذف ، هنا ، ذكر (لا) فى صدر البيت .

والتلعة ما انحدر من الأرض ، وهى أيضاً ما ارتفع . يقول : حالف من تعتزّ بحلفه ، وإلا عرفت الذل حيث توجهت من الأرض .

(٢) إيقاظ همم أولى الأبصار للفُـلّانىّ (ص ٦ وما بعدها).

ابتعت غلاماً فاستغللته . ثم ظهرتُ منه على عيب فخاصمت فيه إلى عمر بن عبدالعزيز . فقضى لى برده . وقضى علىّ برد غلته . فأتيت عروة فأخبرته فقال: أروح إليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتنى أن رسول الله ﷺ قضى فى مثل هذا ، أن الخراج بالضمان. فعجلت إلى عمر فأخبرته بما أخبرنى به عروة عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر بن عبد العزيز : فَمَا أَيْسَرَ عَلَيَّ من قضاء قضيتُه، واللهُ يعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق ـ فبلغتنى فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرد قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فراح إليه عروة فقضى لى أن آخذ الخراج الذى قضى به علىّ له .

قال الشافعىّ: وأخبرنى من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبى ذئب قال: قضى سعيد بن إبراهيم على رجل . بقضيةٍ ، برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن . فأخبرته عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بخلاف ماقضى به . فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب ، وهو عندى ثقة ، يخبرنى عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف ما قضيت به . فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ومضى حكمك . فقال سعد : وا عجباً . أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأردّ قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ! بل أرد قضاء سعد بن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله صلى عليه وسلم . فدعى سعد بكتاب القضية فشقه، فقضى للمقضىّ عليه .

قال الشافعىّ : أخبرنا أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابىّ . قال . حدثنى ابن أبى ذئب عن المقبرىّ عن أبى شريح الكعبىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم(١) قال عام الفتح :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٨ ـ باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، حديث ٩٦ ونصه :

عن أبى هريرة أنه، عام فتح مكة، قتلت خزاعة رجلا من بنى ليث بقتيل لهم فى الجاهلية. فقام رسول الله ﷺ فقال « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين . ألا وإنها لم تحلّ لأحد قبلى . ولا تحل لأحد بعدى . ألا وإنها أحلت لى ساعة من نهار =

من قتل له قتيل فهو بخير النظرين . إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود. قال أبو حنيفة: فقلت لابن أبي ذئب : أتأخذ بهذا ، ياأبا الحرث ؟ فضرب صدرى وصاح علىّ صياحاً كثيراً، ونال منّى وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به ؟ نعم . آخذ به . وذلك الفرض علىّ وعلى من سمعه . إن الله تبارك وتعالى اختار محمداً صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه . واختارلهم مااختار له وعلى لسانه . فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين داخرين . لامخرج لمسلم من ذلك .

وما سكت حتى تمنيت أن يسكت . إنتهى .

قال الإمام الفُلّانى فى (إيقاظ الهمم) بعد نقل مامرّ : تأمل فعل عمر بن الخطاب وفعل عمر بن عبد العزيز وفعل سعد بن إبراهيم، يظهر لك أن المعروف عند الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعند سائر العلماء المسلمين ، أن حكم الحاكم المجتهد ، إذا خالف نص كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله علته وسلم ، وجب نقضه ومنع نفوذه. ولا يعارَض نص الكتاب والسنة بالاحتمالات العقلية والخيالات النفسانية والعصبية الشيطانية ، بأن يقال : لعلّ هذا المجتهد قد اطلع على هذا النص وتركه لعلةٍ ظهرت له . أوأنه اطلع على دليل آخر . ونحو هذا ، مما لهج به فرق الفقهاء المتعصبين ، وأطبق عليه جهلة المقلدين فافهم. انتهى .

= ألا وإنها ساعتى هـذه حرام . لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا يَلتقط ساقطتها إلا منشد . ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما يُودَى ، وإما يقاد » .

فقام رجل من أهل اليمن ، يقال له : أبو شاهٍ . فقال : اكتب لى يا رسول الله ! فقال له رسول الله ﷺ « اكتبوا لأبى شاهٍ » .

ثم قام رجل فقال : يا رسول الله ! إلا الإذخر ، فإنـا نجعله فى بيوتنا وقبورنا . فقال رسول الله ﷺ « إلا الإذخر » .

وقال ولىّ الدين التبريزىّ فى (مشكاة المصابيح) فى (الفصل الثالث عشر) من (باب الجماعة وفضلها) : وعن بلال بن عبدالله بن عمر عن أبيه[١] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنّكم . فقال بلال : والله ! لنمنعهن. فقال عبد الله : أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقول أنت : لنمنعهن؟ (وفى رواية سالم عن أبيه) قال : فأقبل عليه عبد الله فسبه سبًّا ماسمعت سبه مثله قط . وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول: والله ! لنمنعهن . رواه مسلم . وعن مجاهد عن عبد الله بن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم[٢] قال : لا يمنعن رجل أهله أن يأتوا المساجد. فقال ابنٌ لعبد الله بن عمر : فإنّا نمنعهن . فقال عبد الله : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول هذا؟ قال فما كلمه عبد الله حتى مات . رواه الإمام أحمد .

وقال الطيبىّ شارح (المشكاة): عجبت ممن سمّى بالسنىّ ، إذا سمع من سنة رسول الله وله رأى ، رجح رأيه عليها. وأىّ فرق بينه وبين المبتدع ؟ أما سمع (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)؟ وها هو ابن عمر ، وهو من أكابر الصحابة وفقهائها ، كيف غضب لله ورسوله وهجر فلذة كبده لتلك الهنة، عبرة لأولى الألباب.

وروى الإمام مسلم فى[٣] (صحيحه) فى (كراهة الحذف)قبيل (كتاب الأضاحى) ، عن

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
وحديث رقم ٥٦٤٠ (طبعة المعارف) .
ومسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
وحديث رقم ٤٩٣٣ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٤ (طبعتنا) ونصه : عن أبى بريدة قال : رأى عبد الله بن المغفَّل رجلا من أصحابه يخذف . فقال له : =

سعيد بن جبير أن قريباً لعبد الله بن مغفل خذف . قال فنهاه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف ، وقال : إنها لاتصيد صيداً ولا تنكأ عدوًّا ، ولكنها تكسر السن وتفقأ العين . فقال فعاد . فقال : أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ثم تخذف . لا أكلمك أبداً .

قال النووي : فيه جواز هجران أهل البدع والفسوق . وأنه يجوز هجرانهم دائماً . فالنهي عنه فوق ثلاثة أيام إنما هو في هجرٍ لحظ نفسه ومعايش الدنيا . وأما هجر أهل البدع ، فيجوز على الدوام. كما يدل عليه هذا مع نظائر له، لحديث كعب بن مالك .

قال السيوطي : وقد ألفت مؤلفاً سميته (الزجر بالهجر) لأني كثير الملازمة لهذه السنة .اهـ.

أقول: حديث الخذف ساقه الحافظ الدارمي [1] في (سننه) تحت باب (تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه ولم يوقره) ورواه من طرق متنوعة . وفي بعضها: أحدثك أني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الخذف ثم تخذف ؟ والله ! لا أشهد لك جنازة ولا أعودك في مرض ولا أكلمك أبدًا . وأسند الدارمي في هذا الباب عن قتادة عن ابن سيرين؛ أنه حدث رجلًا بحديث عن النبي ﷺ . فقال رجل : قال فلان وفلان : كذا وكذا ! فقال ابن سيرين : أحدثك عن النبي ﷺ وتقول : قال فلان وفلان ؟ لا أكلمك أبدًا . وأسند أيضاً فيه عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء رجل إلى سعيد بن المسيّب يودعه

= لا تخذف . فإن رسول الله ﷺ كان يكره ـ أو قال ينهى عن الخذف ـ فإنه لايصطاد به الصيد ، ولا ينكأ به العدوّ . ولكنه يكسر السنّ ويفقأ العين .

ثم رآه بعد ذلك يخذف . فقال له : أخبرك أن رسول الله ﷺ كان يكره ـ أو ينهى عن الخذف ـ ثم أراك تخذف ! لا أكلمك كلمة كذا وكذا .

(١) أخرجه في مسنده في المقدمة ، ٤٠ ـ باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث ، فلم يعظمه ولم يوقره .

بحج أو عمرة . فقال له : لا تبرح حتى تصلّي ، فإن رسول الله ﷺ قال لا يخرج بعد النداء من المسجد إلا منافق . إلا رجل أخرجته حاجة وهو يريد الرجعة إلى المسجد . فقال : إن أصحابي بالحرة . قال فخرج . قال فلم يزل سعيد يولَع بذكره حتى أُخبر أنه وقع من راحلته فانكسرت فخذه.

وذكر الدارميّ رضي الله عنه قبل هذا الباب (باب مايتّقى من تفسير حديث النبيّ ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ) وأسند(1) عن معتمر عن أبيه عن ابن عباس أنه قال : أما تخافون أن تعذبوا أو يخسف بكم أن تقولوا : قال رسول الله ، وقال فلان .

قال الإمام شمس الدين بن القيّم في (أعلام الموقعين): ترى كثيراً من الناس إذا جاء الحديث يوافق قول من قلده، وقد خالفه راويه يقول: الحجة فيما روى لا في قوله. فإذا جاء قول الراوى موافقاً لقول من قلده ، والحديث يخالفه قال : لم يكن الراوى يخالف مارواه إلا وقد صح عنده نسخه . وإلا كان قدحاً في عدالته. فيجمعون في كلامهم بين هذا وهذا . بل قد رأينا ذلك في الباب الواحد . وهذا من أقبح التناقض ، والذى ندين الله به ، ولا يسعنا غيره ، أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ ، ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه، أن الفرض علينا وعلى الأمة الأخذ بحديثه وترك كل ما خالفه . ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائناً من كان . لا راويه ولا غيره : إذ من الممكن أن ينسى الراوى الحديث ولا يحضره وقت الفتيا. أو لا يتفطن لدلالته على تلك المسئلة . أو يتأول فيه تأويلًا مرجوحاً . أو يقوم في ظنه مايعارضه ولا يكون معارضاً في نفس الأمر . أو يقلد غيره في فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه ، وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه . ولو قدّر انتفاء ذلك كله ، ولا سبيل إلى العلم بانتفائه ولا ظنه، لم يكن الراوى معصوماً . ولم توجب مخالفته، لما رواه، سقوطَ عدالته . حتى تغلب سيئاته حسناته . وبخلاف هذا الحديث الواحد لا يحصل له ذلك اهـ .

---

(1) أخرجه في مسنده في المقدمة ، ٣٩ ـ باب ما يتقى من تفسير حديث النبيّ ﷺ ، وقول غيره عند قوله ﷺ .

وقال الفُلّانيّ رحمه الله تعالى فى (الإيقاظ) قال عثمان بن عمر : جاء رجل إلى مالك بن أنس فسأله عن مسألة فقال له : قال رسول الله ﷺ كذا وكذا . فقال الرجل : أرأيتَ؟ فقال مالك : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قال مالك : لم تكن من فتيا الناس أن يقال لهم : لِمَ قلت هذا ؟ كانوا يكتفون بالرواية ويرضون بها .

قال الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم اهـ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى (فتوى له) قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله . ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه، فى كل ما أمر به ونهى عنه ، إلا رسوله ﷺ . حتى كان صدّيق الأمة وأفضلها بعد نبيّها ﷺ ورضى عنه يقول: أطيعونى ما أطعت الله . فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم. واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً فى كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله ﷺ . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ . وهؤلاء الأئمة الأربعة قد نهوا الناس عن تقليدهم فى كل ما يقولونه . وذلك هو الواجب . وقال أبو حنيفة : هذا رأيى . وهذا أحسن ما رأيت . فمن جاء برأى خير منه قبلناه . ولهذا ، لما اجتمع أفضل أصحابه ، أبو يوسف بإمام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، وسأله عن مسئلة الصاع ، وصدقة الخضراوات ، ومسئلة الأحباس ، فأخبره مالك رضى الله عنه بما دلت عليه السنة فى ذلك ـ فقال : رجعت لقولك يا أبا عبد الله . ولو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت .

ومالك رحمه الله كان يقول : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة . أو كلام هذا معناه .

والشافعىّ رحمه الله كان يقول: إذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى الحائط . وإذا رأيت الحجة موضوعة على طريق فهى قولى .

ثم قال ابن تيمية : وإذا قيل لهذا المستفتى المسترشد : أنت أعلم أم الإمام الفلانىّ ؟ كانت هذه معارضة فاسدة . لأن الإمام الفلانىّ قد خالفه فى هذه المسألة من هو نظيره من الأئمة . ولست من هذا ولا من هذا . ولكن نسبة هؤلاء الأئمة إلىّ نسبة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وأبىّ ومعاذ ونحوهم إلى الأئمة وغيرهم . فكما أن هؤلاء الصحابة بعضهم لبعض أكفاء فى موارد النزاع ، فإذا تنازعوا فى شىء ردوه إلى الله وإلى رسوله ، وإن كان بعضهم قد يكون أعلم فى مواضع أخر . وكذلك موارد النزاع بين الأئمة . وقد ترك الناس قول عمر وابن مسعود رضى الله عنهما فى مسألة تيمم الجنب . وأخذوا بقول أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه وغيره ، لما احتج بالكتاب والسنة . وتركوا قول عمر رضى اللهعنه فى دية الأصابع ، وأخذوا بقول معاوية بن أبى سفيان ، لما كان من السنة أن النبىّ صلى اللهعليه وسلم قال : هذهوهذهسواء. وقد كان بعضالناس يناظر ابن عباس رضىالله عنهما فى المتعة . فقال له : قال أبو بكر وعمر . فقال ابن عباس : يوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء. أقول : قال رسول الله صلى اللهعليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر. وكذلك ابن عمر رضى الله عنهما ، لما سألوه عنها ، فأمر بها فعارضوه بقول عمر . فبين لهمأن عمر لم يرد مايقولونه . فألحوا عليه فقال لهم . أرسول الله أحق أن يتبع أم عمر ؟ مع علم الناس بأن أبا بكر وعمر أعلم من ابنعمر وابنعباس رضى الله عنهم . ولو فتح هذا الباب لأوجبأن يعرضعنأمراللهورسوله، وبقى كل إمامفىأتباعه بمنزلة النبىّ فىأمته. وهذا تبديللدين وشبيه بما عاب اللهبه النصارى فى قوله(١) : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. والله سبحانه أعلم . انتهى .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣١] .

وقال الإمام ابن القيّم فى خطبة (زادالمعاد): فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته صلى الله عليه وسلم ، وجعل شقاوة الدارين فى مخالفته . فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش فى الدنيا والآخرة . ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء فى الدنيا والآخرة . وقد أقسم صلى الله عليه وسلم(١) بأن لا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين . وأقسم سبحانه بأنه لا يؤمن من لم يحكّمه فى كل ما تنازع فيه هو وغيره ، ثم يرضى بحكمه ، ولا يجد فى نفسه حرجاً مما حكم به ، ثم يسلم له تسليما ، وينقاد له انقيادا . وقال تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ(٢) . فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله . فليس لمؤمن أن يختار شيئاً

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٢ ـ كتاب الإيمان، ٨ ـ باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث ١٤ ونصه :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « والذى نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » .

وفى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٣ ـ باب كيف كانت يمين النبىّ ﷺ ، حديث ١٧٣٦ ونصه :

عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبىّ ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب . فقال له عمر : يا رسول الله ! لأنت أحبّ إلىّ من كل شىء إلا من نفسى .

فقال النبىّ ﷺ « لا . والذى نفسى بيده ! حتى أكون أحب إليك من نفسك » .

فقال له عمر : فإنه الآن ، والله ! لأنت أحب إلىّ من نفسى .

فقال النبىّ ﷺ « الآن ، يا عمر ! » .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . . . وَمَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا.

بعد أمره ﷺ . بل إذا أمر فأمره حتم . وإنما الخيرة في قول غيره ، إذا خفي أمره ، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته . فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتّباع، لا واجب الاتباع . فلا يجب على أحدٍ اتباع قول أحدٍ سواه . بل غايته أنه يسوغ له اتباعه. ولو ترك الأخذ بقول غيره، لم يكن عاصياً لله ورسوله . فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله . فلا حكم لأحد معه . ولا قول لأحد معه . كما لا تشريع لأحد معه . وكل حيّ سواه، فإنما يجب اتباعه على قوله ، إذا أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه . فكان مبلغاً محضاً ومُخبرا، لا منشئاً ومؤسساً . فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد ، بحسب فهمه وتأويله ، لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها ، حتى تعرض على ما جاء به . فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة ، قبلت حينئذ . وإن خالفته وجب ردها واطراحها . وإن لم يتبين فيها أحد الأمرين ، جعلت موقوفة . وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها . وأمّا أنه يجب ويتعين ، فكلّا . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

« وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » . قال الرازيّ : اعلم أن هذه الآية متصلة بما تقدم من أمر المنافقين وترغيبهم في الإخلاص وترك النفاق . والمعنى : إنا لو شدّدنا التكليف على الناس ، نحو أن نأمرهم بالقتل والخروج عن الأوطان، لصعب ذلك عليهم، ولما فعله إلا الأقلون. وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم.

فلما لم نفعل ذلك ، رحمة منا على عبادنا ، بل اكتفينا بتكليفهم فى الأمور السهلة ، فليقبلوها بالإخلاص ، وليتركوا التمرد والعناد ، حتى ينالوا خير الدارين . انتهى .

ونقله فيما بعدُ عن ابن عباس . وعليه فمرجع الضمير فى (عَلَيْهِمْ) إلى المنافقين . وثمة وجه آخر . وهو عوده إلى الناس كافة . ويكون المراد بـ (القليل) المؤمنين . وأما الضمير فى قوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا) فهو مختص بالمنافقين . ولا يبعد أن يكون أول الآية عامًّا وآخرها خاصًّا . قرره الرازىّ . روى ابن جريج بسنده إلى أبى إسحق السبيعىّ قال : لما نزلت : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ . . . الآية . قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا . فبلغ ذلك النبىّ ﷺ فقال : إن من أمتى لرجالًا ، الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى . ورواه ابن أبى حاتم نحوه . وأسند عن السدّىّ قال : افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود . فقال اليهودىّ : والله ! لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا . فقال ثابت : والله ! لو كتب علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا . فنزلت الآية . وأسند أيضاً عن عامر بن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو نزلت لكان ابن أم عبدٍ منهم . وأسند أيضاً عن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال : لو أن الله كتب ذلك ، لكان هذا من أولئك القليل .

تنبيهات

الأول ـ قال بعض المفسرين : أراد حقيقة القتل والخروج من الديار . وقيل : أراد التعرض للقتل بالجهاد . وأراد الهجرة بالخروج من الديار . والمعنى : لو أمر المنافقون ، كما أمر المؤمنون ، مافعلوه . انتهى . والقول الثانى بعيد . لأنه لا يعدل عن الحقيقة إلا لضرورة . ولمنافاته للآثار المذكورة الصريحة فى الأول .

الثانى ـ الضمير فى (فعلوه) للمكتوب الشامل للقتل والخروج . لدلالة (كتبنا) عليه . أو هو عائد على أحد مصدرى الفعلين . قال الخفاجىّ : وللعطف بـ(أو) لزم توحيد الضمير . انتهى .

أقول : ذكر الشيخ خالد فى (التصريح) أن إفراد الضمير فى العطف بـ (أو) رأىُ البصريين. والتثنيةُ رأىُ الكوفيين . فأفاد جواز الوجهين. قال محشيه العلامة يس: الذى نص عليه ابن مالك أن (أو) التى للشك والإبهام يفرد بعدها الضمير . والتى للتنويع يطابق . نحو قوله تعالى: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا[1]. ونص على ذلك ابن هشام فى (المغنى) فى (بحث الجملة المعترضة) فقال (فى قوله تعالى : إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا) : الظاهر أن الجواب : فالله أولى بهما . ولا يرد ذلك تثنية الضمير كما قد توهموا . لأن (أو) هنا للتنويع . وحكمها حكم (الواو) فى وجوب المطابقة. نصّ عليه الأبدى . وهو الحق . انتهى . وبه يعلم أن ما اشتهر من أنه إذا ذكر متعاطفان بـ(أو) فإنه يعاد الضمير إلى أحدهما ـ ليس على عمومه .

الثالث ـ قرأ ابن عامر (قليلا) بالنصب على الاستثناء . والباقون بالرفع بدلًا من الضمير المرفوع « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ » أى : من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته والانقياد لما يحكم به ظاهرًا وباطنًا . وسميت أوامر الله ونواهيه مواعظ، لاقترانها بالوعد والوعيد « لَكَانَ » أى: فعلهم ذلك « خَيْرًا لَهُمْ » فى عاجلهم وآجلهم « وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا » أى لإيمانهم ، وأبعد من الاضطراب .

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

« وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا » أى : من عندنا « أَجْرًا » أى ثوابا « عَظِيمًا » يعنى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى لثبتناهم فى الدنيا على دين قويم نرتضيه، وهو الإسلام. ثم بين تعالى فضل الطاعة وأن ثمرتها مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده. فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾

« وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » ولم يذكر المنعَم به إشعاراً بقصور العبارة عن تفصيلة وبيانه « مِنَ النَّبِيِّينَ » الذين أنبأهم الله أكمل الاعتقادات والأحكام . وأمرهم بإنبائها الخلق ، كلًّا بمقدار استعداده « وَالصِّدِّيقِينَ » (جمع صديق) وهو المبالغ فى صدق ظاهره بالمعاملة ، وباطنه بالمراقبة. أو الذى يصدق قوله بفعله . كذا فى (المدارك) .

قال الرازىّ : للمفسرين (فى الصدّيق) وجوه : الأول ـ أن كل من صدق بكل الدين لايتخالجه فيه شك فهو صديق . والدليل عليه قوله تعالى « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ »(١) . الثانى ـ قال قوم : الصديقون أفاضل أصحاب النبىّ عليه الصلاة

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] ونصها : وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ =

والسلام . الثالث ـ أن الصديق اسم لمن سبق إلى تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام . فصار فى ذلك قدوة لسائر الناس . وإذا كان الأمر كذلك ، كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أولى الخلق بهذا الوصف . ثم جوّد الرازىّ الكلام فى سبقه رضى الله عنه إلى التصديق، وفى كونه صار قدوة للناس فى ذلك. فانظره. «وَالشُّهَدَاءِ» الذين استشهدوا فى سبيل الله تعالى «وَالصَّالِحِينَ» الذين صلحت أحوالهم وحسنت أعمالهم «وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ» إشارة إلى النبيين والصديقين وما بعدهما « رَفِيقاً » يعنى فى الجنة . والرفيق الصاحب . سمى رفيقاً لارتفاقك به وبصحبته . وإنما وحّد (الرفيق) وهو صفة الجمع ، لأن العرب تعبّر به عن الواحد والجمع . كالصديق والخليط . والجملة تذييل مقرر لما قبله ، مؤكد للترغيب والتشويق .

قال الزمخشرىّ : فيه معنى التعجب . كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقاً ! ولاستقلاله بمعنى التعجب قرئ (وحسْن) بسكون السين .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازىّ : ليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين ... الخ ـ كون الكل فى درجة واحدة . لأن هـذا يقتضى التسوية فى الدرجة بين الفاضل والمفضول . وأنه لايجوز . بل المراد كونهم فى الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان . لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً . وإذا أرادوا الزيارة والتلاقى قدروا عليه . فهذا هو المراد من هذه المعية .

الثانى ـ دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة فى الفضل والعلم إلا هذا الوصف . وهو كون الإنسان صدّيقاً . ولذا أينما ذكر فى القرآن الصديق والنبىّ لم يجعل بينهما واسطة .

= الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

كما قال تعالى فى وصف إسماعيل: إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ[١] . وفى صفة إدريس: إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[٢] . وقال (فى هذه الآية) : مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ . يعنى إنك إن ترقيت من الصديقية وصلت إلى النبوة . وإن نزلت من النبوة وصلت إلى الصديقية . ولا متوسط بينهما. وقال فى آية أخرى: وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ[٣]. فلم يجعل بينهما واسطة . وكما دلت هذه الدلائل على نفى الواسطة ، فقد وفق الله هذه الأمة الموصوفة بأنها خير أمة ، حتى جعلوا الإمام بعد الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر، على سبيل الإجماع . ولما توفى رضوان الله عليـه دفنوه إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسـلم . وما ذاك إلا أن الله تعالى رفع الواسطة بين النبيين والصديقين فى هذه الآية . فلا جرم ارتفعت الواسطة بينهما فى الوجوه التى عددناها. أفاده الرازىّ .

الثالث ـ روى الطبرىّ فى سبب نزولها عن سعيد بن جبير قال: جاء[٤] رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون. فقال له النبىّ صلى الله عليـه وسلم : يافلان ! مالى أراك محزوناً ! فقال: يانبىّ الله ! شىء فكرت فيه . فقال : ماهو ! قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك . غداً ترفع مع النبيين فـلا نصل إليك . فلم يردّ النبىّ صلى الله عليه وسلم شيئاً. فأتاه جبريل بهذه الآية : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ الخ . فبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم فبشره . وقد روى هذا الأثر مرسلاً عن مسروق وعن عكرمة

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٤] ونصها : وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا .

(٢) [١٩/ مريم/ ٥٦] ونصها: وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.

(٣) [٣٩ / الزمر / ٣٣] ونصها : وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

(٤) الأثر رقم ٩٩٢٤ .

وعامر الشعبيّ وقتادة وعن الربيع بن أنس. وهو من أحسنها سنداً : قال الطبريّ[١] : حدثني المثنى قال : حدثنا إسحق قال: حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قال (في هذه الآية) : إن أصحاب النبيّ ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبيّ ﷺ له فضله على من آمن به في درجات الجنة . ممن اتبعه وصدقه . فكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضا ؟ فأنزل الله في ذلك هذه الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأعلَين ينحدرون إلى من هو أسفل . منهم فيجتمعون في رياضها فيذكرون ماأنعم الله عليهم ويثنون عليه . وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به . فهم في روضة يحبرون ، ويتنعمون فيه. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً عن عائشة . قالت: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! إنك لأحب إليّ من نفسي وأحب إليّ من أهلي وأحب إليّ من ولدي . واني لأكون في البيت فأذكرك . فما أصبر حتى آتيك ، فأنظر إليك . وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك ، إذا دخلتَ الجنة ، رفعت مع النبيين . وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لاأراك . فلم يردّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه : وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ... الآية . وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه في (صفة الجنة) بإسناد قال فيه: لاأرى به بأساً .

الرابع ـ روى في السنة في معنى هذه الآية أخبار وافرة. منها : في صحيح مسلم[٢] عن ربيعة بن كعب الأسلميّ أنه قال : كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتيته بوضوء وحاجته فقال لي : سل : فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة . فقال : أو غير ذلك؟ قلت : هو ذاك . قال : فأعنّي على نفسك بكثرة السجود . ومنها في مسند الإمام أحمد[٣]

---

(١) الأثر رقم ٩٩٢٨

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٦ (طبعتنا) .

(٣) جاء في (عمدة التفسير) بالصفحة ٢١٧ من الجزء الثالث . قال الأستاذ أحمد محمد شاكر معلقاً على هذا الحديث ما يأتي : خفي عليّ مكانه من المسند. وبقوله أقول .

عن عمرو بن مرة الجهنيّ : قال . جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله! شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وصليت الخمس وأديت زكاة مالى ، وصمت شهر رمضـان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : من مات على ذلك كان مع النبيين والشهداء يوم القيامة هكذا (ونصب أصبعيه) مالم يعقّ والديه .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد . ومنها ما رواه الإمام أحمد[(١)] أيضاً عن سهل بن معاذ ابن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ألف آية فى سبيل الله تبارك وتعالى كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. إن شاء الله تعالى . ومنها مارواه الترمذيّ[(٢)] عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء .

قال ابن كثير : وأعظم من هذا كله بشارةً ، ما ثبت فى الصحيح والمسانيد وغيرها من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)] سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال : المرء مع من أحب.

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٣٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٤ ـ باب ما جاء فى التجار وتسمية النبيّ ﷺ إياهم .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٩٦ ـ باب علامة حب الله عز وجل لقوله : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ، حديث ٢٣٥٧ ونصه :

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم . فقال رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب».

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٦٣ (طبعتنا) ونصه:

عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! متى الساعة؟=

قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث .

وفى رواية عن أنس أنه قال : إنى لأحب رسـول الله ﷺ . وأحب أبا بكر وعمر . وأرجو أن يبعثنى معهم ، وإن لم أعمل كعملهم .

وعن أبى سعيد الخدرىّ[1] قال : قال رسول الله ﷺ : إن أهل الجنـة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الـكوكب الدرىّ الغابر من الأفق ، من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ! تلك منـازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : بلى . والذى نفسى بيده ! رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين . أخرجاه فى الصحيحين من حديث الإمام مالك . واللفظ لمسلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً)

« ذَٰلِكَ » مبتدأ. إشارة إلى ماللمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم . أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم . فالمشار إليه إما جميع ما قبله أو ما يليـه . « الْفَضْلُ » صفة « مِنَ اللَّهِ » خبره. أى : ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره .

= قال « وما أعددت للساعة ؟ » قال : حب الله ورسوله . قال « فإنك مع من أحببت » .

قال أنس : فما فرحنا ، بعد الإسلام ، فرحاً أشدّ من قول النبىّ ﷺ « فإنك مع من أحببت » .

قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله ، وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث١١ (طبعتنا). وأخرجه البخارىّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٨ ـ باب ماجاء فى الجنة وأنها مخلوقة، حديث ١٥٤٠ .

أو (الْفَضْلُ) خبر ، و (مِنَ اللهِ) حال . والعامل فيه معنى الإشارة . أى : ذلك الثواب، لكمال درجته، كأنه هو الفضل . وإن ماسواه ليس بشيء موجوداً وكائناً من الله تعالى . لأن أعمال المكلفين توجبه .

قال الناصر فى (الانتصاف): معتقدنا ، معاشر أهل السنة ، أن الطاعات والأعمال التى يتميز بها هؤلاء الخواص ، خلقُ الله تعالى وفعله . وإن قُدَرَهم لا تأثير لها فى أعمالهم . بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات ويثيبهم عليها . فالطاعة إذاً من فضله . فله الفضل على كل حال . والمنة فى الفاتحة والمآل . وكفى بقول سيد البشر فى ذلك حجة وقدوة . فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام[1]: لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قيل: ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا . إلا أن يتعمدنى الله بفضل منه ورحمة . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا . اللهم! اختم لنا باقتفاء السنة . وأدخلنا بفضلك المحض الجنة. انتهى كلام الناصر . والحديث المذكور أخرجه الشيخان عن أبى هريرة. « وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً » بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله .

قال الرازىّ : وله موقع عظيم فى توكيد ما تقدم من الترغيب فى طاعة الله . لأنه تعالى نبه بذلك على أنه يعلم كيفية الطاعة وكيفية الجزاء والتفضل . وذلك مما يرغب المكلف فى كمال الطاعة ، والاحتراز عن التقصير فيه . ثم أعاد تعالى ، بعد الترغيب فى طاعته وطاعة رسوله ، الأمر بالجهاد الذى تقدم ، لأنه أشق الطاعات وأعظم الأمور التى يحصل بها تقوية الدين ، فقال سبحانه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل، حديث ٣٥ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لن ينجّى أحداً منكم عمله » قالوا : ولا أَنت ، يا رسول الله ؟ قال « ولا أَنا . إلا أَن يتغمدنى الله برحمة . سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا ، وشىء من الدُّلْجة . والقصدَ القصدَ تبلغوا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » أى تيقظوا واحترزوا من العدوّ ولا تمكنوه من أنفسكم . يقال : أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف . كأنه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه . ويطلق الحذر على ما يحذر به ويصون . كالسلاح والحزم . أى : استعدوا للعدوّ . والحذر على هذا حقيقة . وعلى الأول من الكناية والتخييل . بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية . قال فى (الإكليل) : فيه الأمر باتخاذ السلاح . وأنه لا ينافى التوكل . قال بعض المفسرين : دلت الآية على وجوب الجهاد وعلى استعمال الحذر ، وهو الحزم ، من العدوّ ، وترك التفريط . وكذلك ما يحذرونه وهو استعمال السلاح على أحد التفسيرين . فتكون الرياضة بالمسابقة والرهان فى الخيل ، من أعمال الجهاد « فَانْفِرُوا » أى اخرجوا إلى الجهاد « ثُبَاتٍ » جمع (ثبة) بمعنى الجماعة . كما فى القاموس . أى جماعات متفرقين ، سرية بعد سرية ، وفرقة بعد فرقة إظهاراً للجراءة « أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً » أى مجتمعين كلكم كوكبة واحدة . إيقاعاً للمهابة بتكثير السواد ، ومبالغة فى التحرز عن الخطر . قال الحاكم : اتفق العلماء على أن ذلك موكول إلى اجتهاد الإمام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا)

« وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أى: ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد والخروج مع الجماعة لنفاق . أو معناه: ليثبطن غيره . كما كان المنافقون يثبطون غيرهم . وكان هذا ديدن المنافق عبد الله بن أبىّ . وهو الذى ثبط الناس يوم أُحُد . وقد روى عن كثير من التابعين أن الآية

نزلت فى المنافقين . فإن ما حكى عنهم هو دأبهم . وقيل : الخطاب للمؤمنين وقوفاً مع صدر الآية . فإنه قال : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا .ثم قال : وَإِنَّ مِنْكُمْ . وقد قال تعالى فى المنافقين: مَا هُمْ مِنْكُمْ .

قال الحاكم : والتقدير على القول الأول :وَإِنَّ مِنْكُمْ ، على زعمه ، فى الظاهر أو فى حكم الشرع « فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ » كهزيمة ، وشهادة ، وغلب العدوّ لكم ، لما لله فى ذلك من الحكمة « قَالَ » أى: المبطئ فرحاً بصنعه ، ومعجباً برأيه « قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ » بالقعود « إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا » أى حاضرًا فى المعركة . فيصيبنى ماأصابهم . يعدّ ذلك من نعم الله عليه . ولم يدر ما فاته من الأجر فى الصبر ، أو الشهادة إن قتل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً)

« وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ » كفتحٍ ، وغنيمةٍ ، ونصرٍ ، وظفرٍ . ونسبة إصابة الفضل إلى جنابه تعالى ، دون إصابة المصيبة ، من العادات الشريفة التنزيلية . كما فى قوله تعالى : وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(١) . « لَيَقُولَنَّ » ندامةً على تثبطه وقعوده ، وتهالكاً على حطام الدنيا ، وتحسُّرًا على فواته « كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ » أى: صلة فى الدين ، ومعرفة بالصحبة « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً » فأصيب غنائم كثيرة ، وحظًّا وافرًا . وقوله تعالى : كَأَنْ لَمْ. الخ، اعتراض بين الفعل وهو (لَيَقُولَنَّ) ومفعوله وهو (يَا لَيْتَنِي الخ) للتنبيه على ضعف عقيدتهم ، وأن قولهم هذا قول من لم تتقدم له معكم موادّة . لأن المنافقين كانوا يوادّون المؤمنين ويصادقونهم فى الظاهر . وإن كانوا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٠] .

يبغون لهم الغوائل فى الباطن . وفيه تعجيب أيضاً من قولهم المذكور . قال بعض المفسرين : ثمرة ذلك تأكيد وجوب الجهاد وتحريم التثبيط عنه . انتهى .

ولما ذم تعالى المبطئين عن الجهاد ، رغّب المؤمنين فيه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً)

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ » أى: يبيعونها بها. وهم المؤمنون الذين يستحبون الآجلة على العاجلة ويستبدلونها بهـا . والمعنى : إن صَدَّ الذين فى قلوبهم مرض ، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة . ويقال : عنى بالموصول المنافقين المبطئين . أى الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة . فيكون وعظاً لهم بأن يبدلوا التثبيط بالجهاد « وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ » أى يستشهد « أَوْ يَغْلِبْ » أى: يظفر على العـدوّ « فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ » نعطيه « أَجْرًا عَظِيماً » ثواباً وافراً . روى الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج فى سبيله . لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى . وإيماناً بى . وتصديقاً برسلى . فهو علىّ ضامن أن أدخله الجنـة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه . نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة (لفظ مسلم)[1] .

---

(١) أخرجه فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٠٣ (طبعتنا) ونصه :

... «والذى نفس محمد بيده ! مامن كَلْم يُكْلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم، لونه لون دم وريحه مسك . والذى نفس محمد بيده! لولا أن يشق على المسلمين ، ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا . ولـكن لا أجد سعة فأحملهم . ولا يجدون سعة . ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى. والذى نفس محمد بيده ! لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل . ثم أغزو فأقتل . ثم أغزو فأقتل » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » خطاب للمأمورين بالقتال ، على طريقة الالتفات، مبالغةً فى التحريض عليه ، وتأكيداً لوجوبه . وقوله تعالى (وَالْمُسْتَضْعَفِينَ) مجرور، عطفاً على اسم الله . أى: فى سبيل المستضعفين الذين هم كأنفسكم . وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدوّ . أو على السبيل، بحذف المضاف . أى فى خلاص المستضعفين . أو منصوب على الاختصاص . يعنى : وأختص من سبيل الله خلاص المستضعفين . لأن سبيل الله عام فى كل خير . وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدى الكفار من أعظم الخير وأخصّه .

قال فى (الانتصاف) : وفى النصب مبالغة فى الحث على خلاصهم من جهتين : إحداها ـ التخصيص بعد التعميم. فإنه يقتضى إضمار الناصب الذى هو أختص . ولولا النصب لكان التخصيص معلوماً من إفراده بالذكر . ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم ، بأن أخرجه إلىالنطق. « مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » بيان للمستضعفين . أوحال منهم . وهم المسلمون الذين صدّهم المشركون عن الهجرة . فبقوا بمكة مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد . وكان النبىّ ﷺ يدعو لهم فيقول(١) : اللهم ! أنج الوليد بن الوليد وسلمة ابن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين . كما فى الصحيح .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٢٨ ـ باب يُهوِى بالتكبير حين يسجد ، حديث ٢٥٢ ونصه : =

وإنما ذكر (الولدان) معهم، تكميلًا للاستعطاف واستجلاب الرحمة، وتنبيهاً على تناهى ظلم المشركين . بحيث بلغ أذاهم الصبيان . وإيذاناً بإجابة الدعاء الآتى بسبب مشاركتهم فى الدعاء « الَّذِينَ يَقُولُونَ » من إيذاء أهل مكة وإذلالهم إياهم ، متبرئين من المقام بها « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا » أى: بالشرك الذى هو ظلم عظيم . وبأذية المسلمين . وهى مكة . و (الظالم) صفتها . وتذكيره لتذكير ما أسند إليه . فإن اسم الفاعل والمفعول إذا أجرى على غير من هو له، كان كالفعل فى التذكير والتأنيث ، بحسب ماعمل فيه . قاله أبوالسعود . « وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » أى:سخر لنا من عندك حافظاً يحفظ علينا ديننا « وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » ناصراً يدفع عنا أذيّاتِ أعدائنا . أو المعنى : واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة . أى: لتكن أنت ولينا وناصرنا . وقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة . وجعل لمن بقى منهم خير ولىّ وأعزّ ناصر . ففتح مكة على نبيه ﷺ . فتولّاهم أىَّ تولٍّ ، ونصرهم أية نصرة ، حتى صاروا أعزّ أهلها.

وروى البخارىّ[1] بالسند إلى ابن عباس قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين . وبه إليه قال[2] : كانت أمى ممن عذر الله .

= عن أبى هريرة قال : وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول « سمع الله لمن حمده . ربنا ولك الحمد » يدعو لرجال يسميهم بأسمائهم فيقول « اللهم! أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة ابن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين . اللهم ! اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء ، ١٤ ـ باب قوله: وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، حديث ٧١٥ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٨ ـ باب إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ، حديث ٧١٥ .

قال الرازىّ : معنى الآية : لا عذر لكم فى ترك المقاتلة . وقد بلغ حال المستضعفين من المسلمين إلى مابلغ فى الضعف . فهذا حث شديد على القتال ، وبيان العلة التى صار لها القتال واجباً . وهو ما فى القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدى الكفرة . لأن هذا الجمع إلى الجهاد يجرى مجرى فكاك الأسير اه . انتهى

تنبيه :

قال بعض المفسرين : ثمرة هذه الآية تأكيد لزوم الجهاد . لأنه تعالى وبخ على تركه . وتدل الآية على لزوم استنقاذ المسلم من أيدى الكفار. ويأتى مثل هذا استنقاذه من كل مضرة، من ظالم أو لص وغير ذلك . ووجه مأخذ ذلك ، أنه تعالى جعل ذلك كالعلم للانقطاع إليه . وتدل على أن حكم الولدان حكم الآباء ، لأن الظاهر أنه أراد الصغار .

قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يراد بالرجال والنساء، الأحرارَ والحرائر . وبالولدان، العبيدَ والإماء . لأن العبد والأَمَة يقال لهما: الوليد والوليدة . وقيل (للولدان والولائد) : الولدان. لتغليب الذكور على الإناث . كما يقال : الآباء والإخوة . وتدل الآية على أن للداعى حقاً عند الله . لأنه جعل ذلك اختصاصاً لنصرته . وتدل على لزوم الهجرة من ديار الكفر . وأن المؤمن لا يذل نفسه بجعله مستضعفاً . لأنه تعالى أوجب المقاتلة لزوال الغلبة عليهم . وفى الآيات هذه تأكيدات متتابعة على لزوم الجهاد .

لطيفة :

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : وقفت على نكتة فى هذه الآية حسنة . وهى أن كل قرية ذكرت فى الكتاب العزيز ، فالظلم ينسب إليها بطريق المجاز. كقوله : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ـ إلى قوله ـ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ[1] . وقوله : وَكَمْ

(١) [١٦ / النحل/ ١١٢] ونصها: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا[1] . وأما هذه القرية (فى سورة النساء) فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة . لأن المراد بها مكة . فوقرت عن نسبة الظلم إليها ، تشريفاً لها ، شرّفها الله تعالى . ثم شجع تعالى المؤمنين ورغّبهم فى الجهاد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ » يعنى فى طاعته لإعلاء كلمته . فهو وليّهم وناصرهم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ » فى طاعة الشيطان الآمر بغاية الطغيان . كإيذاء المستضعفين من المؤمنين وقتال أقويائهم « فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ » أى: جنده . قال أبو السعود : وذكرهم بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان ، والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم فى سبيله . وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال وتقوية عزائمهم عليه . فإن ولاية الله تعالى علم فى العزة والقوة . كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة والضعف . كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك ، فقاتلوا، ياأولياء الله ! أولياءَ الشيطان . ثم صرح فى التعليل فقيل « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » أى: فى حد ذاته . فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى . ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى ، إيذانا بظهورها. قالوا : فائدة إدخال (كان) فى أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان ، كان كذلك . فالمعنى : إن كيد الشيطان منذ كان ، كان موصوفاً بالضعف. انتهى. (والكيد): السعى فى فساد الحال على جهة الاحتيال عليه. يقال : كاده يكيده، إذا سعى فى إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه . أفاده الرازىّ .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٨] . . . فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْأَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ » وهم المؤمنون عند استئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، قبل أن يؤمروا به « كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ » أى : عن القتال . فإنكم لم تؤمروا به « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ » أى : أتموا الصلوات الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها ، ومايجب فيها من مواقيتها. وأعطوا زكاة أموالكم « فَلَمَّا كُتِبَ »أى فرض«عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ » أى الجهاد فى سبيل الله حين قوى حالهم « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ » أى طائفة منهم وهم المنافقون . وإدخالهم مع المؤمنين لما كانوا يظهرونه من أنفسهم أنهم منهم « يَخْشَوْنَ النَّاسَ » أى : يخافون أهل مكة الكفار أن يقتلوهم « كَخَشْيَةِ اللَّهِ » أى كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه « أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » أى: أكثر خوفاً منه .

فإن قيل: ظاهرقوله (أَوْأَشَدَّ خَشْيَةً) يوهم الشك. وذلك على علام الغيوب محال. (أجيب) بأن (أو) إما بمعنى (بل) أو هى للتنويع . على أن معنى : أن خشية بعضهم كخشية الله ، وخشية بعضهم أشد منها . أوللإبهام على السامع . بمعنى أنهم على إحدى الصفتين من المساواة والشدة . وهو قريب مما فى قوله تعالى : « أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ »(١) يعنى أن من يبصرهم يقول: إنهم مائة ألف أو يزيدون .

تنبيه :

حكى المفسرون هنا رواية عن ابن عباس ، أن هذه الآية نزلت فى جماعة من الصحابة

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] .

المهاجرين وأنهم كانوا يلقون من مشركى مكة ، قبل الهجرة ، أذى شديداً . فيشكون ذلك إلى النبيّ ﷺ ، ويقولون: ائذن لنا فى قتالهم . فيقول لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: كفوا أيديكم . فإنى لم أومر بقتالهم . واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة . ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، لما أمروا بقتالهم فى وقعة بدر ، كرهه بعضهم ، فنزلت الآية .

وعندى أن هذه الآية كسوابقها نزلت فى المنافقين ، تقريعاً لهم وتحذيراً للمخلصين من شاكلتهم . والقول بنزولها فى بعض المؤمنين لا يصح لوجوه : منها ـ أن فى إسنادها عن ابن عباس من ليس على شرط الصحيح . ومنها ـ أن طلبهم للجهاد وهم فى مكة ، مع قلة العدَد والعُدَد ، وممالأة العدوّ عليهم من كل جانب ـ فى غاية البعد . ومنها ـ أن السياق فى المنافقين . وقد ابتدئ الكلام فى شأنهم من قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ـ إلى قوله تعالى الآتى ـ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ...الآية . كما يظهر من التدبر الصادق . ومنها ـ أن هذا السياق اشتمل على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين . لأنه تعالى قال فى وصفهم : يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . ولا يكون هذا الوصف إلا لكافر أو منافق . وحكى تعالى عنهم أنهم قالوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ . ولم يعهد هذا عن المؤمنين، بل المحفوظ مبادرتهم للجهاد. كما روى ابن إسحق فى (السيرة)(١) أن النبيّ ﷺ استشار الناس فى غزوة بدر . فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله ﷺ ! امض لما أراك الله . فنحن معك . والله ! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ(٢) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق! لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة ٢٦٦ و ٢٦٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) و ص ٤٣٤ و ٤٣٥ (طبعة جوتنجن) .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٤] .

ثم قال سعد بن معاذ : امض ، يارسول الله ! لما أردت، فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق ! لو استعرضت بنا هـذا البحر لخضته لخضناه معك . ماتخلف منا رجل واحد . وما نـكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء . ومنها ـ أنه تعالى ذكر بعد ذلك قوله : إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ(١) . ولا شك أن هذا من كلام المنافقين . ثم صرح تعالى فى آخر الـكلام عليهم بقوله : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ . فزال اللبس وبرح الخلفاء .

وما أشبه هذه الآيات بقوله تعالى فى (سورة محمد)(٢): وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ . أى: تأمرنا بالجهاد ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ... إلى قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ « وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ » أى الجهاد فى سبيلك « لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى: هلا عافيتنا وتركتنا حتى نموت بآجالنا « قُلْ » أى: تزهيداً لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفانى ، وترغيباً فيما ينالونه بالجهاد من النعيم الباقى « مَتَاعُ الدُّنْيَا » أى مايتمتع وينتفع به فى الدنيا « قَلِيلٌ » سريع التقضى ، وشيك الانصرام . وإن أخرتم إلى ذلك الأجل « وَالْآخِرَةُ » أى: ثوابها الذى من جملته الثواب المنوط بالجهاد « خَيْرٌ » أى: لـكم من ذلك المتاع الفانى ، لـكثرته وعدم انقطاعه ، وصفائه عن الـكدورات . وإنما قيـل « لِمَنِ اتَّقَىٰ » حثًّا لهم على اتقاء العصيان والإخلال بموجب التكليف . « وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا» عطف على مقدر . ينسحب عليـه الـكلام . أى :

(١) [٤ / النساء / ٧٨] ونصها : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا .

(٢) [٤٧ / محمد / ٢٠ـ٢٩]

تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شيء من أجور أعمالكم ، التى من جملتها مسعاكم فى شأن القتال . فلا ترغبوا عنه . (والفتيل) ما فى شق النواة من الخيط . يضرب به المثل فى القلة والحقارة . وقرئ (يظلمون) باليـاء ، إعادةً للضمير إلى ظاهر (مَن). أفاده أبو السعود .

روى ابن أبى حاتم قال: قرأ الحسن : قل متاع الدنيا قليل . قال : رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك . وما الدنيا كلها ، أولها وآخرها ، إلا كرجل نام نومة فرأى فى منامه بعض ما يحب ثم انتبه . وقال ابن معين : كان أبو مصهر ينشد :

ولا خير فى الدنيا لمن لم يكن له ... من الله فى دار المقام نصيب
فإن تُعجب الدنيا رجالًا فإنها ... متـاع قليـل والزوال قريب

ثم بين تعالى أنه لا ينفعهم الفرار من الموت . لأنه لا خلاص لهم منه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)

« أَيْنَمَا تَكُونُوا » أى: فى أى مكان تكونوا عند الأجل « يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ » أى: الذى لأجله تكرهون القتال ، زعما منكم أنه من مظانه . وتحبون القعود عنه ، على زعم أنه منجاة منـه . أى : وإذا كان لابد من الموت ، فبأن يقع على وجهٍ يكون مستعقباً للسعادة الأبدية ، كان أولى من أن لا يكون كذلك . ونظير هذه الآية قوله تعالى : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا[١] . « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٦] .

بُرُوجٍ » أىحصون « مُشَيَّدَةٍ » أى: مرفوعة مستحكمة . لا يصل إليها القاتل الإنسانىّ . لـكنها لا تمنع القاتل الإلهىّ . كما قال زهير بن أبى سلمى[(١)]:

ومن هاب أسباب المنـــايا ينَلْنَهُ ولو رام أسباب السماء بســلَّم

وقد ذكر ابن جرير[(٢)] وابن أبى حاتم ههنا حكاية مطولة عن مجاهد . والشاهد منهـا هنا؛ أنها كانت أُخبرت بأنها تموت بالعنـكبوت . فاتخذ لهازوجها قصراً منيعاً شاهقاًليحرزها من ذلك . فبينما هم يوماً فإذا العنـكبوت فى السقف . فأراها إياها فقالت : أهذه التى تحذرها علىّ ؟ والله ! لا يقتلها إلاأنا . فأنزلوها من السقف.فعمدت إليها فوطئتها بإبهام رجلهافقتلتها. فطار من سمّها شىء فوقع بين ظفرها ولحمها . واسودت رجلها . فـكان فى ذلك أجلها . فـاتت .

ولما حكى تعالى عن المنافقين كونهم متثاقلين عن الجهاد . خائفينمن الموت ، غير راغبين فى سعادة الآخرة ، أتبع ذلك بخلّة لهم أشنع ، بقوله سبحانه « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ » كخصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحوها « يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى من قِبَلِه،

(١) هو البيت التاسع والأربعون من معلقته التى أولها :

أمِن أمّ أوفى دِمنـــة لم تَـكَلَّمِ بحَوْمانة الدَّرّاج فالمتثلَّمِ

قال التبريزىّ : ويروى :

ومن يبغ أطراف الرماح ينلنه ولو رام أن يرقى السماء بسـلم

يقول : من تعرض للرماح نالته . ورام معناه حاول . والأسباب النواحى . وإنما عنى بها من يهاب كراهة أن تناله . لأن المنايا تنال من يهابها ومن لا يهابها . ونظير هـذا قوله عز وجـل : قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ . والموت يلاقى من فرّ ومن لا يفر .

(٢) الأثر رقم ٩٩٥٨

لما علم فينا الخير « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ » كقحط وجدب ، وغلاء السعر ، ونقص في الزروع والثمار ، وموت أولاد ونتاج ، ونحو ذلك « يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ » يعنون: من شؤمك. كما قال تعالى عن قوم فرعون : فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ(١) . وعن قوم صالح : قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ(٢) .

قال أبو السعود : فأمَرَ النبيّ ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم الحجر ، ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال . إذ لا يجترؤن على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى ، خلقاً وإيجاداً ، من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شيء منها بوجه من الوجوه كما تزعمون . بل وقوع الاولى منه تعالى بالذات تفضلا . ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة . كما سيأتى بيانه . فهذا الجواب المجمل فى معنى ما قيل، ردًّا على أسلافهم من قوله تعالى: أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، أى إنما سبب خيرهم وشرهم ، أو سبب إصابة السيئة التى هى ذنوبهم ، عند الله تعالى لا عند غيره . حتى يسندوها إليه ويطيّروا به « فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ » يعنى المنافقين « لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » أى قولا . والجملة اعتراضية مسوقة لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجب من كمال غباوتهم . إذ لو فقهوا شيئاً لعلموا مما يوعظون به ، أن الله هو القابض الباسط . وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان . والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] .... أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٢٧ / النمل/ ٤٧] ... قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا)

« مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ » أى: نعمة « فَمِنَ اللهِ » أى: فمن نعمته وتفضله ابتداءً « وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ » أى : بلية « فَمِنْ نَفْسِكَ » أى من شؤمها بسبب اقترافها المعاصى الموجبة لها . وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالى ، نازلة من عنده عقوبة ، كقوله تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (١) .

روى ابن عساكر عن البراء رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : مامن عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم . وما يغفر الله أكثر .

وروى الترمذىّ (٢) عن أبى موسى الأشعرىّ عن النبىّ ﷺ قال: لايصيب عبداً نكتة فما فوقها أو دونها ، إلا بذنب . وما يعفو الله عنه أكثر . قال وقرأ : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤٢ ـ سورة الشورى ، ٢ ـ حدثنا عبد بن حميد . ونصه : عن عبيد الله بن الوازع : حدثنى شيخ من بنى مرة قال : قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبى بردة . فقلت : إن فيه لمعتبرا . فأتيته وهو محبوس فى داره التى كان قد بنى . قال وإذا كل شىء منه قد تغير ، من العذاب والضرب . وإذا هو فى قشاش (لُقَاطة) فقلت : الحمد لله ، يا بلال ! لقد رأيتك وأنت تمرّ بنا ، تمسك بأنفك من غير غيار . وأنت فى حالك هذا اليوم !

فقال : ممن أنت ؟ فقلت : من بنى مرة بن عباد . فقال : ألاأحدثك حديثا عسى الله أن ينفعك به ؟ قلت : هات . قال : حدثنى أبى ، أبو بردة عن أبيه ، أبى موسى ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . . .

لطيفة :

الخطاب فى (أَصَابَكَ) عام لكل من يقف عليه . لا للنبىّ ﷺ . كقوله[1] :

* إذا أنت أكرمت الكريم ملكته *

ويدخل فيه المذكورون دخولًا أوليًّا . وجوِّز أن يكون الخطاب له ﷺ ، كما قبله وما بعده ، لكن لا لبيان حاله ﷺ ، بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير. ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم ، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب . لاسيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة . قرره أبو السعود .

قال بعض المفسرين : وثمرة الآية ردّ التطيّر والتشاؤم .

« وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً » بيان لجلالة منصبه ﷺ ومكانته عند الله عز وجل . بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه عليه الصلاة والسلام . بناءً على جهلهم بشأنه الجليل. وتعريف (الناس) للاستغراق . أفادة أبو السعود . أى : فمن أين يتصور لك الشؤم وقد أرسلت داعياً العمومَ إلى الخيرات ؟ فأنت منشأ كل خير ورحمة « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً » أى: على رسالتك وصدقك ، بإظهار المعجزات على يديك . أى : وإذا ثبتت رسالتك ، فاليُمن فى طاعتك ، والشؤم فى مخالفتك .

---

(١) قائله المتنبى . من قصيدة له مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعوّدا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

ومعنى البيت ما قاله شارحه عبد الرحمن البرقوقىّ :

يقول : إن الكريم يقدر الإكرام حق قدره . فإذا أنت أكرمت الكريم صار كأنه مملوك لك . أما اللئيم ، فإنك إذا أكرمته ، زاد عتوًّا وجرأة عليك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)

« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » لأنه عليه الصلاة والسلام مبلغ لأمره ونهيه . فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه وتعالى « وَمَنْ تَوَلَّى » عن طاعته « فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى كفيلا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها . إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (١) .

ولما بين تعالى وجوب طاعة الرسول ، تأثره بذكر معاملتهم معه .فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى

[٨١] (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ، وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا)

« وَيَقُولُونَ » أى:المنافقون ، إذا أمرتهم بشىء ، وهم عندك «طَاعَةٌ »بالرفع. أى:أمرنا وشأننا طاعة . ويجوز النصب بمعنى : أطعناك طاعة . كما يقول المنقاد : سمعاً وطاعة ، وسمعٌ وطاعة. قال سيبويه : سمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمدُ الله وثناءٌ عليه . كأنه قال: أمرى وشأنى حمدُ الله وثناءٌ عليـه . ولو نصب (حمد الله) كان على الفعل . والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها.« فَإِذَا بَرَزُوا» أى خرجوا «مِنْ عِنْدِكَ» أى: من مجلسك « بَيَّتَ » أى: دبّر ليلا « طَائِفَةٌ مِنْهُمْ » أى من القائلين المذكورين وهم رؤساؤهم « غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ » أى: خلاف ماقالت لك، من القبول وضمان الطاعة . لأنهم مصرون على الرد والعصيان. وإنما يظهرون ما يظهرون على وجه النفاق .

---

(١) [١٣ الرعد / ٤٠] ونص الآية : وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

تنبيهان :

الأول ـ فى (القاموس وشرحه) وبيّت الأمر : عمله أودبره ليـلًا . وقال الزجاج : كل ما فـكر فيه ، أو خِيض بليل ، فقد بيّت . ويقال : بيّت بليل ودبّر بليل بمعنى واحـد . وفى الحديث : أنه كان ﷺ لا يبيّت مالًا ولا يقيله . أى : إذا جاءه مال لا يمسكه إلى الليل ولا إلى القائلة . بل يعجل قسمته[1] . انتهى .

ونقل الرازىّ عن الزجاج أيضاً : أن كل أمر تفكر فيه وتأمل فى مصالحه ومفاسده كثيراً ، يقال فيه مبيّت . وفى اشتقاقه وجهان : الأول ـ من البيتوتة لأن أصلح الأوقات للفكر أن يجلس الإنسان فى بيته بالليل . فهناك تكون الخواطر أخلى ، والشواغل أقل . فلما كان الغالب أن الإنسان وقت الليل يكون فى البيت ، والغالب أنه يستقصى الأفـكار فى الليل ، لا جرم سمى الفكر المستقصى مبيَّتاً . الثانى ـ اشتقاقه من أبيات الشعر . لأن الشاعر يدبرها ويسويها . قال الأخفش : العرب إذا أرادوا قرض الشعر بالغوا فى التفكر فيه . فسمَّوُا المتفكَّر فيـه ، المستقصى ، مبيَّتاً . تشبيهاً له ببيت الشعر . من حيث إنه يسوى ويدبر .

الثانى ـ تذكير الفعل . لأن تأنيث (طائفة) غير حقيقىّ . ولأنها فى معنى الفوج والفريق . وإسناده إلى طائفة منهم ، لبيان أنهم المتصدون له بالذات . والباقون أتبـاع لهم فى ذلك . لا لأن الباقين ثابتون على الطاعة . « وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ » أى : يثبته فى صحائف أعمالهم بما يأمر به حفظته الـكاتبين الموكلين بالعباد فيجازيهم عليه .

قال ابن كثير : والمعنى فى هذا التهديد ، أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرُّونه فيما بينهم . وما يتفقون عليه ليلًا من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه . وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة . وسيجزيهم على ذلك . انتهى .

وجوّز أن يكون المعنى : والله يكتبه فى جملة ما يوحى إليك فى كتابه ، فيطلعك على أسرارهم . فلا يحسبوا أن إبطانهم يغنى عنهم . فالقصد لتهديدهم على الأول . وتحذيرهم من

(١) لم أقف على هذا الحديث .

النفاق لأن الله يظهره ، على الثاني . « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى تجاف عنهم ولا تعاقبهم « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » أى ثق بالله فى شأنهم . فإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم « وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا » كفيلًا بالنصرة والدولة لك عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ» إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان ، ليعلموا كونه من عنده تعالى، بمشاهدة ما فيه من الشواهد التى من جملتها هذا الوحى الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكىّ على ما هو عليه . وأصل التدبّر التأمل والنظر فى أدبار الأمر وعواقبه خاصة . ثم استعمل فى كل تأمل ، سواء كان نظراً فى حقيقة الشىء وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعقابه « وَلَوْ كَانَ » أى القرآن « مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ » تعالى كما يزعمون « لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع . إذ لا علم بالأمور الغيبية ، ماضية كانت أو مستقبلة ، لغيره سبحانه . وحيث كانت كلها مطابقة للواقع ، تعيّن كونه من عنده تعالى . قال الزجاج : ولولا أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الإخبار بالغيب ، مما يُسره المنافقون وما يبيّتونه ، مختلفاً : بعضُه حق وبعضُه باطل. لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقال أبو بكر الأصم : إن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون فى السر على أنواع كثيرة من الكيد والمكر . وكان الله تعالى يُطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك . ويخبره بها مفصلة . فقيل لهم إن ذلك ، لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما اطرد الصدق فيه ، ولوقع فيه الاختلاف. فلما لم يقع ذلك قط، علم أنه بإعلامه تعالى. وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم فى البلاغة، فما لا يساعده السباق ولا السياق . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلت الآية على وجوب النظر والاستدلال . وعلى القول بفساد التقليد . لأنه تعالى أمر المنافقين بالاستدلال بهذا الدليل على صحة نبوته . أفاده الرازيّ .

وفي الآية، أيضاً، الحث على تدبر القرآن ليعرف إعجازه من موافقته للعلوم واشتماله على فوائد منها . وكمال حججه وبلاغته العليا . وموافقة أحكامه للحكمة. وأخباره الماضية لكتب الأولين، والمستقبلة للواقع .

قال الحافظ ابن حجر : من أمعن في البحث عن معاني كتاب الله ، محافظاً على ماجاء في تفسيره عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، الذين شاهدوا التنزيل ، وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك ، مقتصراً على ما يصلح للحجة منها ، فإنه الذي يحمد وينتفع به . وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم . انتهى .

وقد روى البخاريّ[1] في صحيحه تعليقاً عن ابن عون (وهو عبد الله البصريّ، من صغار التابعين) ، أنه قال : ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها. والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه . ويَدَعُوا الناس إلّا من خير . وفي رواية (فيتدبروه) بدل (يتفهموه) .

قال الكرمانيّ : قال في القرآن : يتفهموه ، وفي السنة : يتعلموها . لأن الغالب أن المسلم يتعلم القرآن في أول أمره فلا يحتاج إلى الوصية بتعلمه . فلهذا أوصى بتفهم معناه وإدراك منطوقه . انتهى. وفي بقية الآية العذر للمصنفين فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض. لأن السلامة عن ذلك من خصائص القرآن . ثم ذكر تعالى عن المنافقين نوعاً آخر من مفاسدهم. وهو إظهارهم أسرار رسول الله ﷺ ، ومبادرتهم بأخبار السرايا وإذاعتها ، بقوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ» أى: مما يوجب أحدها «أَذَاعُوا بِهِ»أى: أفشوه . فتعودُ إذاعتهم مفسدة من وجوه : الأول ـ أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير . والثانى ـ أنه إن كان ذلك الخبر فى جانب الأمن ، زادوا فيه زيادات كثيرة . فإذا لم توجد تلك الزيادات ، أورث ذلك شبهة للضعفاء فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم . لأن المنافقين كانوا يروون تلك الإرجافات عن الرسول . وإن كان ذلك فى جانب الخوف ، تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين ، ووقعوا عنده فى الحيرة والاضطراب ، فكانت تلك الإرجافات سبباً للفتنة من هذا الوجه . والثالث ـ أن الإرجاف سبب لتوفير الدواعى على البحث الشديد والاستقصاء التام . وذلك سبب لظهور الأسرار . وذلك مما لا يوافق مصلحة المدينة. والرابع ـ أن العدواة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين والكفار. فكل ما كان أمنا لأحد الفريقين كان خوفاً للفريق الثانى . فإن وقع خبر الأمن للمسلمين وحصول العسكر وآلات الحرب لهم، أرجف المنافقون بذلك . فوصل الخبر فى أسرع مدة إلى الكفار . فأخذوا فى التحصن من المسلمين ، وفى الاحتراز عن استيلائهم عليهم . وإن وقع خبر الخوف للمسلمين بالغوا فى ذلك وزادوا فيه ، وألقوا الرعب فى قلوب الضعفة والمساكين . فظهر من هذا أن ذلك الإرجاف كان منشئاً للفتن والآفات من كل الوجوه . ولما كان الأمر كذلك ذم الله تعالى تلك الإذاعة وذلك التشهير ، ومنعهم منه . أفاده الرازى. «وَلَوْ رَدُّوهُ» أى ذلك الأمر الذى جاءهم «إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ» وهم كبراء الصحابة البصراء فى الأمور رضى الله عنهم ، أو الذين يؤمّرون منهم وكانوا كأن لم يسمعوا «لَعَلِمَهُ» أى : الأمر

« الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ » أي يستعلمونه ويتطلبونه وهم المنافقون المذيعون « مِنْهُمْ » أي من الرسول وأولى الأمر . يعنى لو أنهم قالوا : نسكت حتى نسمعه من جهة الرسول ومن ذكر معه ، ونعرف الحال فيه من جهتهم ، لعلموا صحته وأنه هل هو مما يذاع أوْ لا ؟ وإنما وضع الموصول موضع الضمير ، يعنى لم يقل (لعلموه) لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام. أو لذمهم أو للتنبيه على خطأهم فى الفحص عن استخراج وإظهار خفىّ ذلك الأمر .

قال الناصر فى (الانتصاف): فى هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل مايسمع . وكفى به كذباً . وخصوصاً عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين فى نحر العدوّ . وما أعظم المفسدة فى لهج العامة بكل مايسمعون من أخبارهم، خيرا أو غيره . انتهى.

وقد روى مسلم[1] عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل مايسمع . وعندأبىداود[2] والحاكم عنه : كفى بالمرء إثما . ورواه الحاكم أيضاً عن أبى أمامة .

هذا ، ونقل الرازىّ وجهاً آخر فى الموصول . وهو أن المعنىّ به طائفة من أولى الأمر . قال : والتقدير: ولو أن المنافقين ردوه إلىالرسول وإلى أولى الأمر لكان علمه حاصلًا عند من يستنبط هذه الوقائع من أولى الأمر . وذلك لأن أولى الأمر فريقان : بعضهم من يكون مستنبطاً وبعضهم من لا يكون كذلك . فقوله (منهم) يعنى لعلمه الذين يستنبطون المخفيات من طوائف أولى الأمر . فإن قيل : إذا كان الذين أمرهم الله برد هذه الأخبار إلى الرسول وإلى أولى الأمر هم المنافقون ، فكيف جعل أولى الأمر منهم فى قوله (وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ) ؟ قلنا : إنما جعل أولى الأمر منهم على حسب الظاهر . لأن المنافقين

(١) فى المقدمة ، حديث رقم ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٨٠ ـ باب فى التشديد فىالكذب، حديث ٤٩٩٢ .

يظهرون من أنفسهم أنهم يؤمنون . ونظيره قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ[١] . وقوله : (مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) . انتهى .

وعلى هـذا الوجه يحمل قول السيوطيّ في (الإكليل): قوله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ) ... الآية ، هذا أصل عظيم في الاستنباط والاجتهاد . وقول المهايميّ : فلو وجدوا في القرآن مايوهم الاختلاف ، لوجب عليهم استفسار الرسول والعلماء الذين هم أولو الأمر ، ليعلمهم منهم المجتهدون في استنباط وجوه التوفيق . وقال بعض الإمامية : ثمرة الآية أنه يجب كتم مايضر إظهارُه المسلمين . وأن إذاعته قبيحة . وأنه لا يُخْبَرُ بما لم يعرف صحته . وتدل على تحريم الإرجاف على المسلمين . وعلى أنه يلزم الرجوع إلى العلماء في الفتيا . وتدل على صحة القياس والاجتهاد . لأنه استنباط. انتهى .

تنبيه :

مانقله الزمخشريّ وتبعه البيضاويّ وأبو السعود وغيرهم ، من أن قوله تعالى (وَإِذَا جَاءَهُمْ) عنى به طائفة من ضعفة المسلمين ـ فإن أرادوا بالضعفة المنافقين ، فصحيح . وإلا فبعيد غاية البعد كما يعلم من سباق الآية وسياقها . وكذا مانوعوه من الأقوال في معناها . فكله لم يصب المرمى . والذي يعطيه الذوق السليم في الآية هو الوجه الأول . ولهـا إشعار بالوجه الثاني لا تأباه . فتبصر ولا تكن أسير التقليد . « وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ » بإرسال الرسول وإنزال الكتاب « لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ » بالكفر والضلال « إِلَّا قَلِيلًا » أي: إلا قليلًا منكم ممن تفضل الله عليه بعقل صائب فاهتدى به إلى الحق والصواب ، وعصمه عن متابعة الشيطان . كمن اهتدى إلى الحق في زمن الفترة . كقس بن ساعدة وأضرابه . وهم عشرة . وقد أوضحت شأنهم في كتابي (إيضاح الفطرة في أهل الفترة) في (الفصل

(١) [٤ / النساء / ٧٢] ونصها : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا .

الرابع عشر) فانظره . ونقل الرازيّ عن أبي مسلم الأصفهانيّ ، أن المراد بفضل الله ورحمته، هنــا، هو نصرته تعالى ومعونته اللذان عناهما المنافقون بقولهم: فأفوز فوزاً عظيما . أى : لولا تتابع النصرة والظفر لاتبعتم الشيطان وتوليتم إلا القليل منكم من المؤمنين من أهل البصيرة الذين يعلمون أنه ليس مدار الحقية على النصر فى كل حين . واستحسن هذا الوجه الرازيّ وقال : هو الأقرب إلى التحقيق . قال الخفاجيّ : لارتباطه بما بعده . هذا ، وزعم بعضهم أن قوله تعالى : (إِلَّا قَلِيلًا) مستثنى من قوله (أذاعوه) أو (لعلمه) واستدل به على أن الاستثناء لا يتعين صرفه لما قبله . قال : لأنه لو كان مستثنى من جملة (اتبعتم) فسد المعنى لأنه يصير عدم اتباع القليل للشيطان ليس بفضل الله . وهو لا يستقيم . وبيان لزومه أن (لولا) حرف امتناع لوجود . وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان. فإذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة فقــد سلبت تأثير فضــل الله فى امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ، ضرورة . وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان وعصيان الشيطان بأنفسهم . ألا تراك إذا قلت (لمن تذكره بحقك عليــه): لولا مساعدتى لك لسُلِبَتْ أموالك إلا قليــلًا ، كيف لم تجعل لمساعدتك أثراً فى بقاء القليل للمخاطب . وإنما منت عليه بتأثير مساعدتك فى بقاء أكثر ماله ، لا فى كله . ومن المحال أن يعتقد مسلم أنه عصم فى شيء من اتباع الشيطان ، إلا بفضله تعالى عليه . هذا ملخص ما قرره صاحب الانتصاف ، وهوّل فيــه . ولا يخفى أن صرف الاستثناء إلى ما يليه ويتصل به لتبادره فيه ، أولى من صرفه إلى الشيء البعيد عنه . واللازم ممنوع . لأن المراد بالفضل والرحمة معنى مخصوص . وهو ما بيناه . فإن عدم الاتباع، إذا لم يكن بهذا الفضل المخصوص ، لا ينافى أن يكون بفضل آخر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا)

« فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » تلوين للخطاب ، وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ بطريق الالتفات . وهو جواب شرط محذوف ينساق إليه النظم الكريم . أى : إذا كان الأمر ، كما حكى من عدم طاعة المنافقين وكيدهم ، فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا . قاله أبو السعود.
« لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ » أى : إلا فعل نفسك . بالتقدم إلى الجهاد . فإن الله هو ناصرك ، لا الجنود. فإن شاء نصرك وحدك ، كما ينصرك وحولك الألوف . أى : ومن نكل ، فلا عليك منه ولا تؤاخذ به .

قال الرازىّ : دلت الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال. لأنه تعالى ما كان يأمره بذلك إلا وهو صلى الله عليه وسلم موصوف بهذه الصفات . ولقد اقتدى به أبو بكر[1] رضى الله عنه حيث حاول الخروج وحده إلى قتال

(١) جاء فى صحيح البخارىّ فى ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١ ـ باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٣ و٧٤٤ ما نصه : عن أبى هريرة قال : لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضى الله عنه. وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر رضى الله عنه : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قالها ، فقد عصم ماله ونفسه ، إلا بحقه . وحسابه على الله » ؟

فقال : والله ! لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال : والله ! لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعها . قال عمر رضى الله عنه : فوالله ! ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه ، فعرفت أنه الحق .

مانعى الزكاة . ومن علم أن الأمر كله بيد الله ، وأنه لا يحصل أمر من الأمور لا بقضاء الله، سهل ذلك عليه . وروى ابن أبى حاتم عن أبى إسحق قال : سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدوّ فيقاتل ، فيكون ممن قال الله فيه : ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة؟ قال : قد قال الله تعالى لنبيه : (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) .

ورواه الإمام أحمد[1] أيضاً عنه قال : قلت للبراء : الرجل يحمل على المشركين ، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال : لا. إن الله بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك . إنما ذلك فى النفقة . « وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ » أى على الخروج معك وعلى القتال . ورغبهم فيه وشجعهم عليه . كما قال لهم[2] صلى الله عليه ، يوم بدر ، وهو يسوى الصفوف : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . وقد وردت

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٨١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ)

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٤٥ (طبعتنا) ما نصه :

عن أنس بن مالك قال : بعث رسول صلى الله عليه وسلم بُسَيْسَةَ عينا ينظر ماصنعت عير أبى سفيان . فجاء ومافى البيت أحد غيرى وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فحدثه الحديث. قال فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال : إن لنا طلبةً . فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا : فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى عُلوِ المدينة . فقال « لا . إلا من كان ظهره حاضرا »

فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر . وجاء المشركون . فقال رسول الله ﷺ « لا يُقدِّمَنَّ أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا دونه » فدنا المشركون . فقال رسول الله ﷺ « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » قال يقول عُمَيْر بن الحُمَام الأنصارىّ : يا رسول الله ! جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال « نعم » قال : بَخْ بَخٍ . فقال رسول الله ﷺ « مايحملك على قولك بَخْ بَخٍ » ؟ قال : لا . والله! يا رسول الله ! إلا رجاءَةَ أن أكون من أهلها . قال « فإنك من أهلها » =

أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك . منها : مارواه البخاري[1] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله . بين كل درجتين كما بين السماء والأرض « عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ » أي: يمنع « بَأْسَ » أي : قتال « الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم كفار مكة . أي: بتحريضك إياهم على القتال ، تبعث هممهم على مناجزة الأعداء ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم .

قال أبو السعود : وقوله تعالى (عسى .. الخ) عِدَةٌ منه سبحانه وتعالى محققة الإنجاز بكف شدة الكفرة ومكروههم . فإن ماصدر بـ (لعل وعسى) مقرر الوقوع من جهته عز وجل. وقد كان كذلك . حيث روى في السيرة[2] أن رسول الله ﷺ واعد أبا سفيان ،

= فأخرج تمرات من قَرَنِهِ (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن . ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة .

قال فرمى بما كان معه من التمر . ثم قاتلهم حتى قُتِل .

(١) أخرجه البخاري في: ٥٦ـ كتاب الجهاد، ٤ ـ باب درجات المجاهدين في سبيل الله حديث ١٣٣٥ ونصه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله وبرسوله ، وأقام الصلاة وصام رمضان ، كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها » .

فقالوا : يا رسول الله ! أفلا نبشر الناس ؟

قال: إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله . مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض . فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة . أُراه فوقه عرش الرحمن . ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة » .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) وبالصفحة ٦٦٦ (طبعة جوتنجن) .

بعد حرب أُحُد ، موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة . فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج. وخرج فى شعبان سنة أربع فى سبعين راكباً . ووافوا الموعد وألقى الله تعالى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فرجعوا من مرّ الظهران . انتهى ، بزيادة .

وقال فى ذلك عبد الله بن رواحة (وقيل كعب بن مالك) :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد ... لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأُقسمُ لو وافيتنا فلقيتنا ... لأُبْت ذميما ، وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عُتبة وابنه ... وعمراً ، أبا جهل ، تركناه ثاويا
عَصيتم رسول الله ، أفٍّ لدينكم ... وأمركم السَّيْئ ، الذى كان غاويا
فإنى ، وإن عنفتمونى ، لَقَائلٌ ... فِدًى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه ، لم نَعدِلْهُ فينا بغيره . ... شهاباً لنا فى ظلمة الليل هاديا

« وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا » أى: شدة وقوة من قريش « وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا » أى تعذيبا وعقوبة .

قال ابن كثير : أى : هو قادر عليهم فى الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ (١) . انتهى .

قال الخفاجىّ : والقصد التهديد أو التشجيع . ثم أشار تعالى إلى أن التحريض على القتال شفاعة فى تكفير الكبائر ورفع الدرجات فقال :

---

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٤] ونصها : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً)

« مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً » أى يتوسط فى أمر فيترتب عليه خير من دفع ضر ، أوجلب نفع ، ابتغاءً لوجه الله تعالى . ومنه حمل المؤمنين على قتال الكفار « يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا » وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها « وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً » وهى ما كانت بخلاف الحسنة ، بأن كانت فى أمر غير مشروع « يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا » أى : نصيب من وزرها الذى ترتب على سعيه ، مساوٍ لها فى المقدار من غير أن ينقص منه شيء .

فوائد

الأولى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية مدح الشفاعة وذم السعاية . وهى الشفاعة السيئة ، وذكر الناس عند السلطان بالسوء . وهى معدودة من الكبائر .

الثانية ـ روى فى فضل الشفاعة أحاديث كثيرة . منها ما أخرجه الشيخان[١] عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : كان النبىّ ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب. وعن ابن عباس[٢] رضى الله عنهما فى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٢١ ـ باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، حديث ٧٦٥. ونصه : عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ، إذا جاءه سائل ، أو طُلِبت إليه حاجة قال « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب شفاعة النبىّ ﷺ فى زوج بريرة ، حديث ٢١٥٤ . ونصه : عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبداً يقال له =

قصة بَرِيرة وزوجها قال : قال لها النبيّ ﷺ : لو راجعتِهِ ! قالت : يا رسول الله ! تأمرنى؟ قال : إنما أنا أشفع . قالت : لا حاجة لى فيه . رواه البخاريّ .

الثالثة ـ قال مجاهد والحسن والكلبيّ وابن زيد : نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض . فما يجوز فى الدين أن يشفع فيه ، فهو شفاعة حسنة . وما لا يجوز أن يشفع فيه، فهو شفاعة سيئة . ثم قال الحسن : من يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر ، وإن لم يشفَّع . لأن الله تعالى يقول : من يشفَع . ولم يقل : من يشفّع . ويتأيد هذا بقوله عليه الصلاة والسلام[(١)] : اشفعوا تؤجروا . نقله الرازيّ .

الرابعة ـ قال الزمخشريّ : الشفاعة الحسنة هى التى روعى بها حق مسلم ، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير ، وابتغى بها وجهُ الله، ولم تؤخذ عليها رشوة ، وكانت فى أمر جائز ، لا فى حد من حدود الله، ولا فى حق من الحقوق . يعنى الواجبة عليه . والسيئة ما كان بخلاف ذلك . وعن مسروق : أنه شفع شفاعة . فأهدى إليه المشفوع جاريةً . فغضب وردها . وقال : لو علمتُ ما فى قلبك لما تكلمت فى حاجتك . ولا أتكلم فيما بقى منها . انتهى .

= مغيث . كأنى أنظر إليه يطوف خلفها يبكى ، ودموعه تسيل على لحيته . فقال النبيّ ﷺ لعباس « يا عباس ! ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثاً ؟ »

فقال النبيّ ﷺ « لو راجعتِهِ ! » قالت : يا رسول الله ! تأمرنى؟ قال « إنما أنا أشفع ».

قالت : لا حاجة لى فيه .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٢١ ـ باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ، حديث ٧٦٥ ونصه :

عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا جاءه السائل ، أو طُلبت إليه حاجة ، قال « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء » .

وروى أبو داود[١] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من شفع لأخيه بشفاعة، فأهدى له هدية عليها ، فقبلها ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر . وهذا الحديث أورده أيضاً المنذرىّ فى (كتاب الترغيب والترهيب) فى ترجمة (الترغيب فى قضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم ، وما جاء فيمن شفع فأهدى إليه) ثم ساق حديث الشيخين[٢] وغيرهما عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم . لا يظلمه ولا يسلمه . ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كرب الدنيا يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة . وروى الطبرانىّ بإسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ، ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرّم ، فقد عرّض تلك النعمة للزوال . وروى نحوه عن عائشة وابن عُمر وابن عَمرو . وروى الطبرانىّ وابن حبان فى (صحيحه) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذى سلطان فى مبلغ برٍّ أو تيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام . وفى رواية للطبرانىّ عن أبى الدرداء : رفعه الله فى الدرجات العلا من الجنة . وروى الطبرانىّ عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ : إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم . ورواه عن عمر مرفوعاً بلفظ : أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن . ورواه بنحو ذلك أيضاً عن ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم . انظر الترغيب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٨٢ ـ باب الهدية لقضاء الحاجة ، حديث ٣٥٤١ ، عن أبى أمامة .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٣ ـ باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسْلمه ، حديث ١٢٠٢ .

الخامسة ـ نكتة اختيار النصيب فى (الحسنة) والكفل فى (السيئة) ما أشرنا إليه . وذلك أن النصيب يشمل الزيادة. لأن جزاء الحسنات يضاعف . وأما الكفل فأصله المركب الصعب . ثم استعير للمثل المساوى . فلذا اختير ، أشارةً إلى لطفه بعباده . إذ لم يضاعف السيئات كالحسنات . ويقال : إنه وإن كان معناه المثل لكنه غلب فى الشر وندر فى غيره . كقوله تعالى : يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ[1] فلذا خص به السيئة تطريةوهرباًمن التكرار. و(مِنْ) بيانيـة أو ابتدائية . أفاده الخفاجىّ « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً » أى: مقتدراً. من (أقات على الشيء) إذا اقتدر عليه كما قال[2] :

وذى ضِغْنٍ كففتُ النفس عنه　　وكنتُ على مساءته مُقيتاً

أى رب ذى حقد علىّ كففت السوء عنه مع القدرة عليه . أو شهيداً حافظاً . واشتقاقه من (القوت) فإنه يقوىّ البدن ويحفظه. وقوله تعالى :

---

(١) [٥٧ / الحديد/ ٢٨] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) البيت استشهد به الطبرىّ فى (ج ٨ ص٥٨٤) ، والطبرسىّ فى (ج٣ ص٨٤)، ومقاييس اللغة وفيه : على إساءته ، والزمخشرىّ (ج ١ ص ٣٧٨) ونصه فيه :

وذى ضغن نَفَيْتُ السوء عنه　　وكنت على إساءته مقيتا

وجاء فى اللسان حسب رواية الكتاب . ولكن قال فى الحاشية ما يأتى :

قوله (على مساءته مقيتا) تبع الجوهرىّ . وقال فى التكملة : الرواية (أُقيتُ) قال : والقافية مضمومة وبعده :

يبيت الليـل مرتفقا ثقيلا　　على فرش القناة وما أبيتُ
تَعِنّ إلىّ منـه مؤذياتٌ　　كما تبرى الجذاميرَ البروتُ

=

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ » أى إذا سلم عليكم فدعى لسلامة حياتكم وصفاتكم التى بها كمال الحياة بتحية ، فقيل : السلام عليكم « فَحَيُّوا » أى: أداءً لحق المسلِّم عليكم « بِأَحْسَنَ مِنْهَا » أى: بتحية أحسن منها . بأن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله . ولو قالها المسلم ، زيد : وبركاته . قال الراغب : أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها . ثم استعملت فى كل دعاء . وكانت العرب ، إذا لقى بعضهم بعضا ، يقول : حيّاك الله . ثم استعملها الشرع فى السلام . وهى تحية الإسلام . قال الله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ(1) . وقال: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ(2) . وقال : فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ(3)

= والبروت جمع بَرْت ، فاعل تبرى كترمى . والجذامير مفعوله على حسب ضبطه . اهـ .

والبرت : الفأس (يمانية) والجذمور : بقية كل شيء مقطوع ، عن ابن الأعرابى .

وجاء فى حماسة ابن الشجرى ص ٢٥: وقائله هو أبو قيس ابن رفاعة ونصه فيها:

وذى ضغن كففت النفس عنه ... وإنى فى مساءته مقيتُ

وكذا فى طبقات الشعراء للجمحى ص ٢٤٣ وفيها : وكنت ، على مساءته مقيتُ .

وانظر تعليق السيد محمود محمد شاكر على هذا البيت .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٣] ونصها: وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] ونصها : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا .

(٣) [٢٤/النور / ٦١]ونصها : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ =

قالوا : فى السلام مزية على (حياك) لما أنه دعاء بالسلامة عن الآفات الدينيه والدنيوية ، وهى مستلزمة لطول الحياة ، وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك. ولأن السلام من أسمائه تعالى. فالبداءة بذكره مما لا ريب فى فضله ومزيته « أَوْ رُدُّوهَا » أى: أجيبوها بمثلها . ورد السلام ورجعه : جوابه بمثله. لأن المجيب يرد قول المسلّم ويكرره « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً » أى: فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية. فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به . وفى الآية فوائد شتى :

الأولى ـ نكتة نظمها مع آيات الجهاد هو التمهيد لمنع المؤمنين من قتل من ألقى إليهم السلام فى الحرب الآتى قريبا، ببيان أن لكل مسلّم حقا يؤدى إليه. وذلك لأن السلام نوع من الإكرام . والمكرِم يقابل بمثل إكرامه أو أزيد . قال الرازىّ : إن الرجل فى الجهاد كان يلقاه الرجل فى دار الحرب أو مايقاربها فيسلم عليه . فقد لا يلتفت إلى سلامه عليه ويقتله. وربما ظهر أنه كان مُسْلِماً . فمنع الله المؤمنين عنه . وأمرهم أن كل من يسلّم عليهم ويكرمهم بنوع من الإكرام يقابلونه بمثل ذلك الإكرام أو أزيد . فإنه إن كان كافرًا لا يضر المسلم ، إن قابل إكرام ذلك الكافر بنوع من الإكرام ، أما إن كان مسلماً، وقتله، ففيه أعظم المضار والمفاسد . ولذا قال: إن الله كان على كل شيء حسيباً . أى هو محاسبكم على كل أعمالكم. وكافٍ فى إيصال جزاء أعمالكم إليكم . فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف . فهذا يدل على شدة العناية بحفظ الدماء . والمنع من إهدارها . وقد روى ابن أبى حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال:

= وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ، فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه ، وإن كان مجوسيًّا . ذلك بأن الله يقول : فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . وقال قتادة : فحيوا بأحسن منها ، يعني للمسلمين . أو ردوها ، يعني لأهل الذمة . ومن هنا حكى الماوردي وجها : إنه يقول في الرد على أهل الذمة ، إذا ابتدؤا: وعليكم السلام . ولا يقول: ورحمة الله . نقله عنه النووي . وروى الزمخشري عن الحسن أنه يجوز أن يقال للكافر : وعليك السلام . ولا تقل : ورحمة الله . فإنها استغفار. وعن الشعبي أنه قال لنصراني سلم عليه : وعليك السلام ورحمة الله . فقيل له في ذلك . فقال : أليس في رحمة الله يعيش ؟ انتهى . والظاهر أنه لحظ الأخبار بذلك ولم يرد مضمون التحية . ومع هذا فالثابت في الصحيحين[1] عن أنس مرفوعا : إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم. كما يأتي . قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية مشروعية السلام ووجوب رده . واستدل بها الجمهور على رد السلام على كل مسلِّم، مسلماً كان أو كافراً. لكن مختلفان في صيغة الرد .

الثانية ـ ورد في إفشاء السلام أحاديث كثيرة . منها قول البراء بن عازب رضي الله عنهما: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ، منها : وإفشاء السلام . رواه الشيخان[2] . وعن أبي هريرة

---

(١) أخرجه البخاري في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٢ ـ باب كيف يرد على أهل الذمة السلامُ ، حديث ٢٣٧٥ .

(٢) أخرجه البخاري في: ٦٧ـ كتاب النكاح، ٧١ ـ باب حق إجابة الوليمة والدعوة، حديث ٦٦٢ ونصه :

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما : أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع . أمرنا بعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس وإبرار المقسم ونصر المظلوم وإفشاء السلام وإجابة الداعي . ونهانا عن خواتيم الذهب وعن آنية الفضة وعن المياثر والقَسِّيَّة والإستبرق والديباج .

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألاأدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. رواه مسلم[١]. وعن عبدالله ابن سلام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام ، وصلّوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قال الترمذيّ[٢] : حديث صحيح .

الثالثة ـ في كيفية السلام . قال الرازيّ : إن شاء قال: سلام عليكم . وإن شاء قال: السلام عليكم . قال تعالى في حق نوح : يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا[٣] . وقال عن الخليل : قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي[٤]. وقال في قصة لوط : قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٤٢ ـ باب حدثنا محمد بن بشار ، ونصه :

عن عبدالله بن سلام قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه. وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجئت في الناس لأنظر إليه . فلما استثبتّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . وكان أول شيء تكلم به أن قال . . .

(٣) [١١ / هود / ٤٨] ونصها : قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٤) [١٩ / مريم / ٤٧] ونصها : قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا .

(٥) [١١ / هود / ٦٩] ونصها : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

وقال عن يحيى : وَسَلَامٌ عَلَيْهِ[١] . وقال عن محمد ﷺ : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ[٢] . وقال عن الملائكة : وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم[٣] . وقال عن نفسه المقدسة : سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ[٤] . وقال: فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ[٥] . وأما بالألف واللام فقوله عن موسى عليه السلام : فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ[٦] . وقال عن عيسى عليه السلام : وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا[٧] فثبت أن الكل جائز . انتهى .

(١) [١٩ / مريم / ١٥] ونصها : وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا .

(٢) [٢٧ / النمل / ٥٩] ونصها: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٣) [١٣ / الرعد / ٢٣و٢٤] ونصهما : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

(٤) [٣٦ / يس / ٥٨] .

(٥) [٦ / الأنعام / ٥٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

(٦) [٢٠ / طه / ٤٧] ونصها : فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ .

(٧) [١٩ / مريم / ٣٣] .

قال الإمام أبو الحسن الواحدىّ : أنت فى تعريف السلام وتنكيره بالخيار . انتهى .

ولكثرة ورود التنكير فى القرآن ، على ما بيناه ، فضله بعضهم على التعريف .

الرابعة ـ فى فضله . روى الإمام أحمد(١) وأبو داود والترمذىّ والدارمىّ عن عمران بن الحصين رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : السلام عليكم. فرد عليه ثم جلس. فقال النبىّ ﷺ : عشر . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه فجلس فقال : عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد عليه فجلس فقال : ثلاثون . قال الترمذىّ حديث حسن . وفى الباب عن أبى سعيد وعلى وسهل بن حنيف . وقال البزار : قد روى هذا عن النبىّ ﷺ من وجوه ، هذا أحسنها إسنادًا . وفى رواية لأبى داود(٢) ، من رواية معاذ بن أنس رضى الله عنه زيادة على هذا . قال: ثم أتى آخر . فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته. فقال: أربعون. وقال: هكذا تكون الفضائل. وفيه رد على من زعم أنه لا يزاد على (وبركاته) . لا يقال رواية (ومغفرته) عند أبى داود ، هى من طريق أبى مرحوم واسمه عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ عن أبيه . وأبو مرحوم ضعفه يحيى . وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ـ لأنا نقول : قد حسّن الترمذىّ روايته عن سهل بن معاذ. وصححها أيضاً هو وابن خزيمة والحاكم وغيرهم . قال النسائىّ لا يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على تركه .

عود

وروى الطبرانىّ عن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال : السلام عليكم كتب له عشر حسنات ، ومن قال : السلام عليكم ورحمة الله .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .
وأبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٢ ـ باب كيف السلام ، حديث ٥١٩٥ .
والترمذىّ فى : ٤٠ ـ كتاب الاستئذان والآداب ، ٢ ـ باب ماذكر فى فضل السلام.

(٢) أخرجه أبو داود فى: ٤٠ـ كتاب الأدب، ١٣٢ـ باب كيف السلام، حديث ٥١٩٦.

كتبت عشرون حسنة ، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتبت له ثلاثون حسنة. وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلًا مرّ على رسول الله ﷺ وهو فى مجلس فقال: سلام عليكم. فقال: عشر حسنات. ثم مرّ آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله فقال: عشرون حسنة. ثم مرّ آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال: ثلاثون حسنة. فقام رجل من المجلس ولم يسلّم. فقال النبيّ ﷺ: ماأوشك مانسى صاحبكم. إذا جاء أحدكم إلى المجلس فليسلم. فإن بدا له أن يجلس فليجلس. وإن قام فليسلم. فليست الأولى بأحق من الآخرة. وروى الطبرانىّ بإسناد جيد عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: أبخل الناس من بخل بالسلام. ورواه أيضاً عن أبى هريرة. ولأحمد(١) والبزار نحوه عن جابر. وروى الطبرانىّ عن حديفة بن اليمان عن النبىّ ﷺ قال: إن المؤمن إذا لقى المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده تناثرت خطاياهما كما تتناثر ورق الشجر. قال المنذرىّ: ورواته لا أعلم فيهم مجروحاً. وروى البزار عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: إذا التقى الرجلان المسلمان فسلم أحدهما على صاحبه، فإنّ أحبهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه. فإذا تصافحا نزلت عليهما مائة رحمة: للبادئ منهما تسعون، وللمصافح عشرة. وروى أبو داود(٢) عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن جابر أن رجلًا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن لفلان فى حائطى عذقاً، وأنه قد آذانى وشقّ علىّ مكان عذقه. فأرسل إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال « بعنى عذقك الذى فى حائط فلان » قال: لا. قال « فهبه لى » قال: لا. قال « فبعنيه بعذق فى الجنة » قال: لا. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « ما رأيت الذى هو أبخل منك إلا الذى يبخل بالسلام ».

(٢) أخرجه أبو داود فى: ٤٠ ـ كتاب الأدب، ١٣٣ ـ باب فى فضل من بدأ بالسلام، حديث ٥١٩٧.

الخامسة ـ في بعض أحكامه المأثورة. روى أبو داود[(١)] عن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم . ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم . وفى الموطأ[(٢)] عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: إذا سلم واحد من القوم أجزأ عنهم . قال النووى: هـذا مرسل صحيح الإسناد . وفى الصحيحين[(٣)] عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ: ياعائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام . قالت قلت : وعليه السلام ورحمة الله . ترى مالا نرى (تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) قال النووى : ووقع فى بعض روايات الصحيحين (وبركاته) ، ولم يقع فى بعضها . وزيادة الثقه مقبولة . وفى سنن أبى داود[(٤)] عن غالب القطان عن رجل قال : حدثنى أبى عن جدى قال : بعثنى أبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ائته فأقرئه السلام . فأتيته فقلت :إن أبى يقرئك السلام. فقال: عليك وعلى أبيك السلام . قال النووى : هذا وإن كان رواية عن مجهول، فأحاديث الفضائل يتسامح فيها عند أهل العلم . فيستفاد منه الرد على المبلّغ كالمسلّم . وروى أبو داود[(٥)] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٤١ ـ باب ما جاء فى رد الواحد عن الجماعة ، حديث ٥٢١٠ .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٣ ـ كتاب السلام، حديث١ (طبعتنا)ونصه: عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يسلم الراكب على الماشى . وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم » .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٦ ـ باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال ، حديث ١٥١٩ .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٤ ـ باب فى الرجل يقول : فلان يقرئك السلام ، حديث ٥٢٣١ .

(٥) أخرجه أبو داود فى: ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٥ ـ باب فى الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ حديث ٥٢٠٠ .

فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه . ففيه أن من سلم عليه إنسان، ثم لقيه على قرب، ندب التسليم عليه ثانياً وثالثاً. وروى الشيخان[١] عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير .

وروى الشيخان[٢] عن أنس : أنه مر على صبيان فسلم عليهم . وقال : كان رسول الله ﷺ يفعله . ولفظ أبي داود[٣] أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلم عليهم . وعند ابن السنيّ فيه ، فقال : السلام عليكم ياصبيان . وروى أبو داود[٤] عن أسماء بنت يزيد قالت: مرّ علينا النبيّ ﷺ في نسوة فسلم علينا. وروى الترمذيّ نحوه. وروى الشيخان[٥] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : إذا سلم عليكم أهل الكتاب ، فقولوا : وعليكم . ورويا[٦] عن أسامة أن النبيّ ﷺ مرّ على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٥ ـ باب تسليم الراكب على الماشي ، و ٦ ـ باب تسليم الماشي على القاعد ، حديث ٢٣٧٠ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٥ ـ باب التسليم على الصبيان.

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٦ ـ باب في السلام على الصبيان، حديث ٥٢٠٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٧ ـ باب في السلام على النساء ، حديث ٥٢٠٤ .

(٥) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٢ ـ باب كيف يرد على أهل الذمة السلام ، حديث ٢٣٧٥ .

(٦) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٠ ـ باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين ، حديث ١٤٢١ ونصه :

عن أسامة بن زيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة =

الأوثان واليهودفسلم عليهم النبيّ ﷺ . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال[1] رسول الله ﷺ :لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه . قال النووىّ: روينا فى موطأ مالك أنه سئل عمن سلم على اليهودىّ أو النصرانىّ هل يستقيله ذلك؟ فقال : لا. قال أبو سعد المتولى الشافعىّ : لو أراد تحية ذمىّ، فعلها بغير السلام . بأن يقول : هداك الله أوأنعم الله صباحك. قال النووىّ : هذا الذى قاله أبو سعد لا بأس به. إذا

= فدَكية. وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج. وذلك قبل وقعة بدر . حتى مرّ فى مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين ، عَبَدة الأوثان واليهود . وفيهم عبد الله بن أبىّ، ابن سلول . وفى المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمّر عبد الله بن أبىّ أنفه بردائه . ثم قال: لا تغبّروا علينا . فسلّم عليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله ابن أبىّ ، ابن سلول : أيها المرء ! لا أحسن من هذا . إن كان ما تقول حقًّا . فلا تؤذنا فى مجالسنا وارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه .

قال ابن رواحة : اغشَنا فى مجالسنا ، فإنا نحب ذلك .

فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا .

فلم يزل النبىّ صلى الله عليه وسلم يخفّضهم حتى ركب دابته . حتى دخل على سعد بن عبادة فقال « أى سعد ! ألم تسمع ماقال أبو حباب؟ » يريد عبدالله بن أبىّ « قال: كذا وكذا ».

قال : اعف عنه ، يا رسول الله ! واصفح . فوالله ! لقد أعطاك الله الذى أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحرة على أن يتوجوه ، فيعصبونه بالعصابة .

فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك ، شَرِق بذلك . فذلك فعل به ما رأيت .

فعفا عنه النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ١٣ (طبعتنا) .

احتاج إليه فيقول : صبحت بالخير أو بالسعادة أوبالعافية . أو صبحك الله بالسرور أو بالسعادة والنعمة أو بالمسرة أو ما أشبه ذلك .

السادسة ـ قال الحسن البصرىّ : السلام تطوع والرد فريضة . قال ابن كثير : وهذا الذى قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلّم عليه. فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله تعالى فى قوله : فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . انتهى . وفى ترك الرد إهانة وازدراء وهو حرام . ولذا ندب للجمع المسلم عليهم أن يجيبوا كلهم إظهاراً للإكرام ومبالغة فيه. وإن كان الفرض يسقط ببعضهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)

« اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى: ليبعثنكم من قبوركم ويحشرنكم إلى حساب يوم القيامة فى صعيد واحد ، فيجازى كل عامل بعمله . قال الزمخشرىّ : القيامة والقيام كالطلابة والطلاب . وهى قيامهم من القبورأو قيامهم للحساب. قال الله تعالى : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١). « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لاشك فى يوم القيامة أو فى الجمع « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » إنكار لأن يكون أحد أصدق منه تعالى فى حديثه وخبره ووعده ووعيده ، وبيان لاستحالته . لأنه نقص وقبيح . إذْ مَنْ كذب، لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يجر منفعة بكذبه أويدفع مضرة ، أوهوجاهل بقبحه ، أو هو سفيه لايفرق بين الصدق والكذب فى أخباره ، ولايبالى بأيهما نطق . فظهر استحالة الكذب عليه جل شأنه . والغير ، وإن دلت الدلائل على صدقه ، فكذبه ممكن إذا لم ينظر إليها .

(١) [٨٣ / المطففين / ٦] .

فوائد .

الأولى ــ قال الرازىّ : فى كيفية النظم وجهان : أحدهما إنا بينا أن المقصود من قوله : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها ، أن لا يصير الرجل المسلِّم مقتولاً . ثم إنه تعالى أكد ذلك بالوعيد فى قوله : إن الله كان على كل شىء حسيبا . ثم بالغ فى تأكيد ذلك الوعيد بهذه الآية . فبين فى هذه الآية أن التوحيد والعدل متلازمان . فقوله : لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . إشارة إلى التوحيد . وقوله: لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . إشارة إلى العدل. وهو كقوله : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ[1] ، وكقوله ، فى طه : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي[2] . وهو إشارة إلى التوحيد . ثم قال : إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ[3] . وهو إشارة إلى العدل . فكذا فى هذه الآية، بين أنه يجب فى حكمه وحكمته أن يجمع الأولين والآخرين فى عرصة القيامة . فينتصف للمظلومين من الظالمين . ولاشك أنه تهديد شديد . الوجه الثانى ــ كأنه تعالى يقول: من سلم عليكم وحياكم فاقبلوا سلامه وأكرموه وعاملوه بناءً على الظاهر . فإن البواطن إنما يعرفها الله الذى لا إله إلا هو. إنما تنكشف بواطن الخلق للخلق فى يوم القيامة .

الثانية ــ قوله (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) إما خبر للمبتدأ و (ليجمعنكم الخ) . جواب قسم محذوف، والجملة القسمية مستأنفة لا محل لها . أو خبر ثان . وإما اعتراض ، والجملة القسمية خبر .

الثالثة ــ تعدية (لَيَجمعنكم) بـ(إلى) لكونه بمعنى الحشر كما بينا . أو لكون (إلى) بمعنى (فى) كما أثبته أهل العربية. وقوله تعالى:

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] . . . لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
(٢) [٢٠ / طه / ١٤] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ » أى: فما لكم تفرقتم فى أمر المنافقين « فِئَتَيْنِ » أى: فرقتين ولم تتفقوا على التبرؤ منهم . والاستفهام للإنكار . والنفى والخطاب لجميع المؤمنين . لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم . وذلك أن فرقة من المؤمنين كانت تميل إليهم وتذب عنهم وتواليهم. وفرقة منهم تباينهم وتعاديهم . فنهوا عن ذلك وأمروا بأن يكونوا على نهج واحد فى التباين والتبرؤ منهم . لأن دلائل نفاقهم وكفرهم ظاهرة جلية . فليس لكم أن تختلفوا فى شأنهم . وقد قيل : إن المراد بهم هنا عبد الله بن أبيّ وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، ورجعوا بعسكرهم ، بعد أن خرجوا . كما تقدم فى آل عمران. كما أوضحه مارواه الشيخان(1) والإمام أحمد والترمذىّ عن زيد بن ثابت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد . فرجع ناس خرجوا معه . فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم . وفرقة تقول : لا . هم

(1) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٥ ـ باب فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ، حديث ٩٥٦ ونصه :

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ) رجع ناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من أُحد . وكان الناس فيهم فرقتين : فريق يقول : اقتلهم . وفريق يقول : لا . فنزلت : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ . وقال « إنها طَيْبَة تنفى الخَبَث كما تنفى النار خَبَث الفضة » .

والإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٨٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

المؤمنون . فأنزل الله : فما لكم فى المنافقون فئتين . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد. هذا لفظ أحمد .

وقد ذكر الإمام محمد بن إسحاق(١) فى وقعة أحد : أن عبد الله بن أبىّ، بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش : رجع بثلاثمائة وبقى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة .

وثمة فى نزول الآية رواية أخرى أخرجها الإمام أحمد(٢) فى مسنده عن عبد الرحمن بن عوف: أن قوماً من العرب أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأسلموا وأصابهم وباء المدينة وحمّاها . فأركسوا . فخرجوا من المدينة. فاستقبلهم نفر من أصحابه. يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم. فقالوا لهم : ما لكم رجعتم ؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة . فقالوا : أما لكم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟ فقال بعضهم : نافقوا . وقال بعضهم : لم ينافقوا . فأنزل الله: فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ... الآية . وهذه الرواية هى الأقرب لنظم الآية كما سنبينه فى التنبيه الثانى « وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ » أى نكّسهم وردهم إلى الكفر « بِمَا كَسَبُوا» أى: بسبب ما كسبوه من لحوقهم بالكفار « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ » أى : تعدّوهم من جملة المهتدين. قال أبو السعود : تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين ،

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٥٥٩ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٦٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ). ونصه : عن عبد الرحمن بن عوف أن قوماً من العرب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلموا . وأصابهم وباء المدينة : حمّاها . فأركسوا فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحابه (يعنى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم) فقالوا لهم : مالكم رجعتم ؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة فاجتوينا المدينة . فقالوا: أما لكم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة؟ فقال بعضهم : نافقوا . وقال بعضهم: لم ينافقوا هم مسلمون . فأنزل الله عز وجل: فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا .. الآية .

وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك ، وإشعار بأنه يؤدى إلى محاولة المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى . وذلك لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم ، وهم بمعزل عن ذلك ، سعى فى هدايتهم وإرادة لها . ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر فى حيّز الصلة، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها. بأن يقال: أتهدون الخ للمبالغة فى إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته ، فضلاً عن إمكان نفسه « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ » عن دينه « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » أى : طريقاً إلى الهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا » كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم فى الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم ، إثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم . أى: تمنوا أن تكفروا ككفرهم بعد الإيمان «فَتَكُونُونَ سَوَاءً» أى: فى الكفر والضلال « فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ » فى العون والنصرة لئلا يفضى إلى كفركم ، وإن أظهروا لكم الإيمان طلباً لموالاتكم « حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا » من دار الكفر « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » فتتحققوا إيمانهم « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن الهجرة . فهم، وإن أظهروا لكم الإسلام مع قدرتهم على الهجرة ، فافعلوا بهم ما تفعلون بالكفار. لأنه زال عنهم حكم النفاق بلحوق دار الكفر « فَخُذُوهُمْ » أى: اتسروهم[1] « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » فى الحل والحرم « وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك .

(١) افتعل من (يسر) والمراد ائسروهم . كذا قاله الأستاذ الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.

تنبيهان

الأول ـ قال الرازيّ : دلت الآية على أنه لايجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة والإلحاد . وهــذا متأكد بعموم قوله تعالى(١) : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين. لأن ذلك هو الأمر الذى يتقرب به إلى الله تعالى ويتوسل به إلى طلب السعادة فى الآخرة . وإذا كان كذلك،كانت المداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع العــداوة . وإذا كان كذلك،امتنع طلب المحبة والولاية فى الموضع الذى يكون أعظم موجبات العداوة حاصلًا فيه . والله أعلم .

الثانى ـ يظهر لى أن الأقرب فى سبب نزول هذه الآيات أعنى قوله تعالى: فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ . الخ ، رواية عبد الرحمن بن عوف . كما يدل عليه سبر هذه الآيات وتدبرها بصادق النظر والإمعان . وقد اهتدى إلى ذلك الفاضل المهايميّ فى تفسيره . فاقتصر على هــذا الوجه فقال : وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى البــدو لاجتواء المدينة . فلم يزالوا يرتحلون مرحلة بعد أخرى حتى لحقوا المشركين. انتهى . وقول السيوطىّ: فى إسناد رواية عبد الرحمن بن عوف عند أحمد تدليس وانقطاع ـ لايقدح فى إصابتها كبد الحقيقة . لأنها وجدت فيها قرينة تلحقها بالمقبول وهو موافقتها لألفاظ الآية بلا تــكلف . وحينئذٍ فقول زيد بن ثابت : فنزلت فيماتقدم بمعنى أنها تشمل ماوقع من المنخزلين عن أُحُد وماجرى من اختلاف المؤمنين فى شأنهم . لا أنّ ما وقع كان سبباً لنزولها . واستعمال النزول بذلك معروف كما بيناه فى المقدمة . وإلا لأشكل قوله تعالى : إِلَّا أَنْ يُهَاجِرُوا. إذ لم تطلب المهاجرة إلا من النائين عن المدينة . وأولئك، أعنى الذين انخزلوا عن المسلمين فى أحد ،كانوا بها . فيحتاج إلى جعل المهاجرة بمعنى خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، صابرين محتسبين مخلصين . كما قاله بعض المفسرين . وهذا المعنى لم يشع فى المهاجرة. ولأشكل أيضاً قوله تعالى : فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ . فإنه يفيد بأنهم ليسوا من منافقى

(١) [٦٠ / المتحنة / ١] .

أهـل المدينة . وإنه يتوقع الظفر بهم . وإلا فنافقوها بين ظهرانيهم ليلاً ونهاراً . فالظاهر في هـذا المقام رواية ابن عوف . وفي آخر رواية زيد ما يشعر بها حيث قال : إنها طيبة وإنها تنفي الخبث. إشارة إلى أن المدينة نفت هؤلاء الذين نزحوا عنها بعد إسلامهم. والله أعلم. ثم استثنى عن أسر المرتدين وقتلهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) .

« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ » يلجئون « إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » أي: عهد بهدنة أو أمان. فاجعلوا حكمهم كحكمهم لئلا يفضي إلى قتال من وصلوا إليهم فيفضي إلى نقض الميثـاق « أَوْ جَاءُوكُمْ » عطف على الصلة أي : والذين جاؤكم « حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ » حال بإضمار (قد) أي: ضاقت وانقبضت نفوسهم «أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ» لإرادتهم المسالمة «أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ » أي: معكم من أجلكم لمكان القرابة منهم . فهم لا لكم ولا عليكم . قال أبو السعود: استُثْنِي من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان :أحدهما- من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين. والآخر: من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين . وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن . أن سراقة بن مالك المدلجيّ حدثهم قال : لما ظهر النبيّ صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأُحُد ، وأسلم من حولهم ، قال : بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج . فأتيته فقلت : أنشدك النعمة . بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي . وأنا أريد أن توادعهم. فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام . وإن لم يسلموا لم يحسن تغليب قومك عليهم . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد فقال : اذهب معه فافعل ما يريد .

فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.وإن أسلمت قريش أسلموا معهم. وأنزل الله : إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ . فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم.وفى قوله تعالى« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ »إشعار بقوتهم فى أنفسهم ، وأن فى التعرض لقتلهم إظهارًا لقوتهم الخفية. فهذه الجملة جارية مجرى التعليل لاستثنائهم من الأخذ والقتل « فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ » أى تركوكم « فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ » مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل « وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ » أى: الانقياد والاستسلام « فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » أى طريقاً بالأسر أو القتل . إذ لا ضرر منهم فى الإسلام . وقتالهم يظهر كمال قوتهم .

لطيفة :

قال الخفاجى: (السلم) بفتحتين: الانقياد . وقرئ بسكون اللام مع فتح السين وكسرها . وكأن إلقاء السلم استعارة. لأن من سلم شيئاً ألقاه وطرحه عند المسلم له. وعدم جعل السبيل مبالغة فى عدم التعرض لهم ، لأن من لا يمر بشىء كيف يتعرض له؟

تنبيه :

ظاهر النظم الكريم أن الفريقين المستثنين من الكفار . وحاول أبو مسلم الأصفهانى كونهما من المسلمين حيث قال : إنه تعالى لما أوجب الهجرة على كل من أسلم ، استثنى من له عذر . فقال : إلا الذين يصلون ، وهم قوم من المؤمنين قصدوا الرسول للهجرة والنصرة . إلا أنهم كان فى طريقهم من الكفار مالم يجدوا طريقاً إليه خوفاً من أولئك الكفار . فصاروا إلى قوم بين المسلمين وبينهم عهد . وأقاموا عندهم إلى أن يمكنهم الخلاص . واستثنى بعد ذلك من صار إلى الرسول ، ولا يقاتل الرسول ولا أصحابه . لأنه يخاف الله تعالى فيه . ولا يقاتل الكفار أيضا ، لأنهم أقاربه . أو لأنه أبقى أولاده وأزواجه بينهم . فيخاف ، لو قاتلهم ، أن يقتلوا أولادهم وأصحابه . فهذان الفريقان من المسلمين لا يحل قتالهم . وإن كان لم يوجد منهم الهجرة ولا مقاتلة الكفار . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩١] (سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

« سَتَجِدُونَ » أقواماً « ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ » بإظهار الإسلام لكم « أَنْ يَأْمَنُوكُمْ » أى: على أنفسهم « وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ » بإظهار الكفر « كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ » أى: دعوا إلى الارتدا والشرك « أُرْكِسُوا فِيهَا » أى: رجعوا إليها منكوسين على رؤوسهم « فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ » أى يتنحوا عنكم جانباً ، بأن لم يكونوا معكم ولا عليكم . « وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ » أى: ولم يلقوا الانقياد «وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ» أى: عن قتالكم «فَخُذُوهُمْ» أى: اتسروهم «وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ» أى: وجدتموهم فى داركم أو دارهم « وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا » أى: حجة واضحة فى الإيقاع بهم قتلًا وسبياً . لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام . أو تسلطاً ظاهراً، حيث أذنا لكم فى أخذهم وقتلهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن كثير : هؤلاء الآخرون، فى الصورة الظاهرة ، كمن تقدمهم . ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك . فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبى ﷺ ولأصحابه الإسلام ، ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم. ويصانعون الكفار فى الباطن . فيعبدون معهم ما يعبدون ، ليأمنوا بذلك عندهم . وهم فى الباطن مع أولئك . كما قال تعالى: وَإِذَا خَلَوْا

إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ[1] الآية. وحكى ابن جرير[2] عن مجاهد ؛ أنها نزلت فى قوم من أهل مكة. كانوا يأتون النبى ﷺ فيُسلمون رياء . ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان. يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا . فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

الثانى ـ قال الرازىّ : قال الأكثرون : فى الآية دلالة على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن إيذائنا، لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم. ونظيره قوله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ[3] . وقوله تعالى : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ[4] . فخص الأمر بالقتال لمن يقاتلنا دون من لم يقاتلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً » أى ما جاز ولا صح ولا لاق لمؤمن

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

(٢) الأثر رقم ١٠٠٧٨ .

(٣) [٦٠ / الممتحنة / ٨] . . . وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٩٠] . . . وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

قتل أخيه المؤمن. فإن الإيمان زاجر عن ذلك . إلا على وجه الخطأ . فإنه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية . قال الزمخشري : فإن قلت : بِمَ انتصب خطأ ؟ قلت : بأنه مفعول له . أى:ما ينبغى له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده . ويجوز أن يكون حالًا . بمعنى لايقتله فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطأ . وأن يكون صفة للمصدر: إلا قتلًا خطأً . والمعنى : إن من شأن المؤمن أن ينتفى عنه وجود قتل المؤمن ابتداء، البتة . إلا إذا وجد منه خطأٌ من غير قصد. بأن يرمى كافراً فيصيب مسلماً. أو يرمى شخصاً على أنه كافر فإذا هو مسلم. انتهى. « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً » أى:بما ذكرنا. فهو، وإن عفى عنه ، لكنه لايخلو عن تقصير فى حق الله ، ولا يهدر دم المؤمن بالكلية «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» أى:فالواجب عليه ، لحق الله ، إعتاق نفس محكوم عليها بالإيمان ، ولو صغيرة . ليعتق الله عنه بكل جزء منها جزءًا منه من النار . وقد روى الإمام أحمد(١) عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار ؛ أنه جاء بأمة سوداء . فقال : يا رسول الله ! إن علىّ عتق رقبة مؤمنة . فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها . فقال لها رسول الله ﷺ : أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ قالت : نعم . قال: أتشهدين أنى رسول الله ؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟ قالت : نعم . قال : أعتقها . وهذا إسناد صحيح ، وجهالة الصحابى لاتضره .

وفى موطأ مالك(٢) ومسند الشافعى وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٥١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) . وأخرجه فى الموطأ فى : ٣٨ ـ كتاب العتق والولاء ، حديث ٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى الموطأ فى : ٣٨ ـ كتاب العتق والولاء ، حديث ٨ عن عمر بن الحكم أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله : إن جارية كانت ترعى غنما لى . فجئتها وقد فقدت شاة من الغنم . فسألتها عنها فقالت : أكلها الذئب فأسفت عليها ، =

معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت: في السماء. قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ﷺ. قال : أعتقها فإنها مؤمنة. أفاده ابن كثير.

لطيفتان :

الأولى ـ قال الزمخشري : التحرير الإعتاق . والحر والعتيق : الكريم . لأن الكرم في الأحرار ، كما أن اللؤم في العبيد . ومنه عتاق الخيل وعتاق الطير لكرامها . وحُرّ الوجه أكرم موضع منه . وقولهم للئيم: عبد ، وفلان عبد الفعل ، أي: لئيم الفعل . والرقبة عبارة عن النسمة ، كما عبر عنها بالرأس في قولهم : فلان يملك كذا رأساً من الرقيق .

= وكنت من بني آدم فلطمت وجهها . وعليّ رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « أين الله ؟ » فقالت: في السماء . فقال « من أنا ؟ » فقالت : أنت رسول الله . فقال رسول الله ﷺ: «أعتقها»

وأخرجه أحمد في المسند (ضمن حديث طويل) بالصفحة ٤٤٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ).

وفيه قال « أعتقها فإنها مؤمنة » وقال مرة « هي مؤمنة فأعتقها ».

وأخرجه مسلم كذلك في: ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا).

وكذلك في أبي داود في : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٧ ـ باب تشميت العاطس في الصلاة، حديث ٩٣٠.

وكذلك في النسائيّ ، ١٣ ـ كتاب السهو ، ٢٠ ـ باب الكلام في الصلاة .

كل هؤلاء عن معاوية بن الحكم ما عدا الموطأ. ففيه عن عمر بن الحكم .

ولقد قال الإمام الزرقانيّ هنا معقبا :

قال ابن عبد البرّ : كذا قال مالك ، وهو وهم عند جميع علماء الحديث. وليس في الصحابة عمر بن الحكم، وإنما هو معاوية بن الحكم. كما قال كل من روى هذا الحديث عن هلال أو غيره. ومعاوية بن الحكم معروف في الصحابة . وحديثه هذا معروف . وأما عمر بن الحكم فتابعيّ أنصاريّ مدنيّ معروف . يعني فلا يصح .

الثانية ـ قيل فى حكمة الإعتاق : إنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء ، لزمه أن يدخل نفساً مثلها فى جملة الأحرار. لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها . من قِبَل أن الرقيق ملحق بالأموات . إذ الرق أثر من آثار الكفر . والكفر موت حكماً : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ[1] . ولهذا منع من تصرف الأحرار . وهـذا مشكل . إذ لو كان كذلك لوجب فى العمد أيضاً . لكن يحتمل أن يقال : إنما وجب عليه ذلك ، لأن الله تعالى أبقى للقاتل نفساً مؤمنة حيث لم يوجب القصاص . فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة . أفاده النسفىّ .

« وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ » أى:والواجب عليه أيضاً، لحق ورثة المقتول، عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم ، دية مؤداة إلى ورثته . يقتسمونها اقتسام الميراث . وقد بيّنت السنة مقدارها . وذلك فيما رواه النسائىّ[2] وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم ، عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً . وفيه : إن فى النفس الديةَ ، مائةً من الإبل. وفيه : وعلى أهل الذهب ألف دينار . وروى أبو داود[3] عن جابر عن النبىّ ﷺ ؛ أنه فرض فى الدية على أهل الإبل مائة من الإبل . وعلى أهل البقر مائتى بقرة . وعلى أهل الشاء ألفى شاة . وعلى أهل الحلل مائتى حلة .

وفى الموطأ[4] أن عمر بن الخطاب قوّم الدية على أهل القرى فجعلها على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورِق اثنى عشر ألف درهم . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل ، لا فى ماله .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ... وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٤٥ ـ كتاب القسامة ، ٤٧ ـ باب ذكر حديث عمرو بن حزم فى العقول واختلاف الناقلين له .

(٣) أخرجه أبوداود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات، ١٦ ـ باب الدية كم هى ؟ حديث ٤٥٤٣

(٤) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٤٣ ـ كتاب العقول ، حديث ٢ (طبعتنا) .

قال الشافعيّ رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة . وفي الصحيحين(١) عن أبي هريرة قال: اقتتلت امرأتان من هذيل. فرمت إحداهما الأخرى بحجر. فقتلتها ، وما في بطنها . فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقضى أن دية جنينها غرةٌ : عبدٌ أو أمةٌ . وقضى بدية المرأة على عاقلتها . ورواه أبو داود(٢) عن جابر بلفظ : أن امرأتين من هذيل قتلت إحداهما الأخرى. ولكل واحدة منهما زوج وولد. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم دية المقتولة على عاقلة القاتلة . وبرأ زوجها وولدها ، قال فقال عاقلة القاتلة : ميراثها لنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا . ميراثها لزوجها وولدها . و(العاقلة) القرابات من قبل الأب وهم عَصَبَتُه . وهم الذين كانوا يعقلون الإبل على باب وليّ المقتول. وسميت الدية عقلاً تسمية بالمصدر. لأن الإبل كانت تعقل بفناء وليّ المقتول . ثم كثر الاستعمال حتى أطلق العقل على الدية ، ولو لم تكن إبلاً . وتضمين العاقلة مخالف لظاهر قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ(٣) . فتكون الأحاديث القاضية بتضمين العاقلة مخصصة لعموم الآية . لما في ذلك من المصلحة . لأن القاتل لو أخذ بالدية لأوشك أن تأتي على جميع ماله . لأن تتابع الخطأ لا يؤمن . ولو ترك بغير تغريم لأهدر دم المقتول . كذا في (نيل الأوطار) .

قال المهايميّ : تجب الدية على كل عاقلة القاتل . وهم عَصَبته غير الأصول والفروع . لأنه لما عفي عن القاتل فلا وجه للأخذ منه . وأصوله وفروعه أجزاؤه . فالأخذ منهم أخذ منه .

---

(١) أخرجه البخاريّ في: ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٢٥ ـ باب جنين المرأة، حديث ٢٢٦٩.

(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ١٩ ـ باب دية الجنين، حديث ٤٥٧٥.

(٣) [٣٥ / فاطر / ١٨] . . . وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

ولا وجه لإهدار دم المؤمن . فيؤخذ من عاقلته الذين يرثونه بأقوى الجهات وهي العصبية . لأن الغُرْم بالغنم . فإن لم يكن له عاقلة ، أو كانوا فقراء ، فعلى بيت المال . انتهى .

وقد خالف أبو بكر الأصم وجمهور الخوارج . فأوجبوا الدية على القاتل لا على عاقلته . واحتجوا بوجوه خمسة عقلية . ساقها الفخر الرازيّ . هنا . وكلها مما لا يساوي فلساً . إذ هي من معارضة النص النبويّ بالرأي المحض .

اللهم : إنا نبرأ إليك من ذلك . وقد غفلوا عن حكمة المشروعية على العاقلة التي بيّناها

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ في دينه كمخاطر

تنبيه :

يشمل قوله تعالى (فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ) تسليمها حالّة ومؤجلة . إلا أن الإجماع قد وقع على أن دية الخطأ مؤجلة على العاقلة . ولكن اختلفوا في مقدار الأجل . فذهب الأكثر إلى أن الأجل ثلاث سنين . وقال ربيعة : إلى خمس . وحكى في (البحر) عن بعض الناس بعد حكايته للإجماع السابق : أنها تكون حالّة . إذ لم يرو عنه ﷺ تأجيلها . قال في (البحر) قلنا : روى عن عليّ رضي الله عنه أنه قضى بالدية على العاقلة في ثلاث سنين . وقاله عُمَر وابن عباس. ولم ينكر . انتهى .

قال الشافعيّ في (المختصر) : لا أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة في ثلاث سنين .

قال الرافعيّ : تكلم أصحابنا في ورود الخبر بذلك . فمنهم من قال: ورد . ونسبه إلى رواية عليّ عليه السلام . ومنهم من قال : ورد أنه صلى الله عليه وسلم قضى بالدية على العاقلة . وأما التأجيل فلم يرد به الخبر . وأخذ ذلك من إجماع الصحابة .

وقال ابن المنذر : ما ذكره الشافعيّ لا نعرفه أصلاً من كتاب ولا سنة . وقد سئل عن ذلك أحمد بن حنبل فقال : لانعرف فيه شيئاً . فقيل : إن أباعبد الله ، يعني الشافعيّ ، رواه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال : لعله سمعه من ذلك المدنيّ . فإنه كان حسن الظن به .

يعني إبراهيم بن أبي يحيى . وتعقبه ابن الرفعة : بأن من عرف حجة على من لم يعرف . وروى البيهقيّ من طريق ابن لهيعة عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب، قال: من السنة أن تنجّم الدية في ثلاث سنين . وقد وافق الشافعيَّ ، على نقل الإجماع، الترمذيُّ في (جامعه) وابن المنذر . فحكى كل واحد منهما الإجماع . كذا في (نيل الأوطار) . وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا » أي : إلا أن يتصدق أولياء المقتول بالدية على القاتل فلا تجب عليه . وسمى العفو عنها صدقة حثًّا عليه وتنبيهاً على فضله . قال السيوطيّ في (الإكليل) : فيها (أي: هذه الآية) تعظيم قتل المؤمن والإثم فيه ، ونفيه عن الخطأ ، وأن في قتل الخطأ كفارة ودية. لا قصاص . وأن الدية مسلمة إلى أهل المقتول . إلا أن يصدقوا بها ، أي: يبرؤا منها . ففيه جواز الإبراء من أهل الدية . مع أنها مجهولة . وفي قوله (مسلمة) دون (يسلمها) إشارة إلى أنها على عاقلة القاتل . ذكره سعيد بن جبير . أخرجه ابن أبي حاتم واستدل بقوله: إلى أهله ، على أن الزوجة ترث منها . لأنها من جملة الأهل خلافاً للظاهرية . واحتج بها من أجاز إرث القاتل منها . لأنه من أهله . واحتج الظاهرية بقوله : إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا . على أن المقتول ليس له العفو عن الدية . لأن الله جعل ذلك لأهله خاصة . وعموم الآية شامل للإمام إذا قتل خطأ . خلافاً لمن قال: لا شيء عليه ولا على عاقلته . واستدل بعمومها أيضاً من قال : إن في قتل العبد الدية والكفارة . وإن على الصبيّ والمجنون ، إذا قتلا ، الكفارة. وإن المشارك في القتل عليه كفارة كاملة . انتهى . « فَإِنْ كَانَ » أي: المقتول خطأً « مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ » أي: محاربين « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » فلم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه، بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم ، أو بأن أتاهم بعد ما فارقهم لمهمٍّ من المهمات « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » أي : فعلى قاتله الكفارة ، لحق الله دون الدية . فإنها ساقطة . إذ لا إرث بينه وبين أهله . لأنهم محاربون . وقال الإمام زيد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام : لا تؤدى الدية إليهم لأنهم يتقوّون بها . ومعلوم أن سقوط الدية لمن هذه حاله أخذاً من إيجاب الله تعالى على قاتله الكفارة ، ولم يذكر الدية كما ذكرها في أول الآية

وآخرها ، وقدروى الحاكم وغيره عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان الرجل يأتي النبيّ ﷺ ثم يرجع إلى قومه وهم مشركون. فيصيبه المسلمون في سرية أو غزاة . فيعتق الذي يصيبه رقبة (وَإِنْ كَانَ) أي: المقتول خطأ (مِنْ قَوْمٍ) أي: كفرة (بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ) أي: عهد من هدنة أو أمان . أي : كان على دينهم ومذهبهم (فَدِيَةٌ) أي: فعلى قاتله دية (مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ) إذ هم كالمسلمين في الحقوق «وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » لحق الله تعالى . وتقديم الدية ههنا مع تأخيرها فيما سلف ، للإشعار بالمسارعة إلى تسليم الدية تحاشياً عن توهم نقض الميثاق .

قال السيوطيّ : روى الحاكم وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى : وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ الخ. قال: هو الرجل يكون معاهَداً . ويكون قومه أهل عهد . فتسلم إليهم الدية ويعتق الذي أصابه رقبة .

قال السيوطيّ . ففيه أن المقتول إذا كان من أهل الذمة والعهد ففيه دية مسلمة إلى أهله مع الكفارة . وفيه رد على من قال : لا كفارة في قتل الذميّ . والذين قالوا ذلك قالوا: إن الآية في المؤمن الذي أهله أهل عهد . وقالوا : إنهم أحق بديته لأجل عهدهم . ويرده تفسير ابن عباس المذكور، وأنه تعالى لم يقل فيه : وهو مؤمن ، كما قال في الذي قبله . انتهى .

تنبيه :

استدل بالآية من قال: إن دية المعاهد حربياً أو كتابياً ، كالمسلم. لأنه تعالى ذكر في كل منهما الكفارة والدية . فوجب أن تكون ديتهما سواء كما أن الكفارة عنهما سواء . إذ إطلاق الدية يفيد أنها الدية المعهودة. وهي دية المسلم. وقد أخرج الترمذيّ[1] عن ابن عباس وقال: غريب ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وَدَى العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية

(١) أخرجه الترمذيّ في : ١٤ ـ كتاب الديات ، ١٢ ـ باب حدثنا أبو كريب .

الضمرىّ ، وكان لهما عهد من النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشعر به عمرو ، بدية المسلمين . وأخرج البيهقىّ عن الزهرىّ أنها كانت دية اليهودىّ والنصرانىّ فى زمن النبىّ ﷺ مثل دية المسلم . وفى زمن أبى بكر وعمر وعثمان . فلما كان معاوية، أعطى أهـل المقتول النصف وألقى النصف فى بيت المال . قال : ثم قضى عمر بن عبد العزيز بالنصف وألقى ما كان جعل معاوية . وأخرج أيضاً عن ابن عمر أن النـبىّ صلى الله عليه وسلم وَدَى ذمياً دية مسلم . وفى أثرَى البيهقىّ المذكورين مقال . إذ علل الأول بالإرسال . والثانى بأن فى إسناده أبا كرز. وهو متروك. وروى أحمد[1] والنسائىّ والترمذىّ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال: عقل الـكافر نصف دية المسلم . وأخرج أبو داود[2] عنه بلفظ: دية المعاهد نصف دية الحر . وفى لفظ : قضى أن عقل أهل الـكتابيْن نصف عقل المسلمين . وهم اليهود والنصارى . رواه أحمد والنسائىّ وابن ماجه.

وعندى : لا تنافىَ بين هذه الروايات المذكورة . لأن الظاهر أن الفرض فى دية الـكافر إنما هو النصف . ولا حرج فى الزيادة عليـه ، إلى أن يبلغ دية المسلم تبرعاً وتفضلاً . وبه يحصل الجمع بين الروايات. والاستدلال بالآية على تماثل ديتى المسلم والـكافر المتقدم ـ غير ظاهر . لما فى الدية من الإجمال المرجوع فى بيانه إلى السنة ، وقد بينتهْ وصح فيها أنه النصف فرضا.والله أعلم «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ » أى:رقبة ليحررها. بمعنى لم يملـكها ولا ما يتوصل به إليها « فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » أى: فعليه صيام شهرين متواصلين لا إفطار بينهما. بحيث لو صام تسعة وخمسين ، وتعمد بإفطار يوم ، استأنف الجميع . لأن الخطأ إنما نشأ من كدورة النفس. وهذا القدر يزيلها ويفيد التزكية. قاله المهايمىّ. «تَوْبَةً مِنَ اللهِ» أى: قبولاً من الله ورحمة منه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٨٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث ٦٦٩٢ (طبعة المعارف) ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات، ٢١ ـ باب دية الذمىّ، حديث ٤٥٨٣.

من (تاب عليه) : إذا قبل توبته . (فتوبة) منصوب على أنه مفعول له . أى : شرع لكم ذلك توبة منه . أو مصدر مؤكد لمحذوف . أى: تاب عليكم توبة منه « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً » بجميع الأشياء التى منها مقدار كدورة هذا الخطأ العظيم « حَكِيماً » فى دواء إزالتها . قال المهايمىّ : وإذا كان للخطأ هذه الكدورة مع العفو عنه ، فأين كدورة العمد ؟ أى: وهى التى ذكرت فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا » لقتله « فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ » إذ قتل وليّه عمداً « وَلَعَنَهُ » أى أبعده عن الرحمة « وَأَعَدَّ لَهُ » وراء ذلك « عَذَاباً عَظِيماً » أى: فوق عذاب سائر الكبائر ، سوى الشرك .

قال الإمام ابن كثير : هذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم . الذى هو مقرون بالشرك بالله ، فى غير ما آية فى كتاب الله . حيث يقول سبحانه فى سورة (الفرقان) : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... الآية[١] . وقال تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً . . . الآية[٢] . والآيات والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جداً . فمن ذلك ما ثبت

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] . . . وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥١] . . . وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

فى الصحيحين[(١)] عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : أول ما يقضى بين النــاس يوم القيامة فى الدماء . وفى الحديث الآخر الذى رواه أبوداود[(٢)] عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال المؤمن مُعْنِقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً . فإذا أصاب دماً حراماً بلّح . وفى حديث[(٣)] آخر: لَزَوَالُ الدنيا أهون عندالله من قتل رجل مسلم. قلت : رواه الترمذىّ والنسائىّ عن ابن عمرو. وفى الحديث الآخر : لو اجتمع أهل السموات وأهل الأرض على قتل رجل مسلم لـكبهم الله فى النار . قلت : رواه الترمذىّ[(٤)] عن أبى سعيد وأبى هريرة بلفظ : لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله عز وجل فى النار . وفى الحديث الآخر[(٥)] : من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله . قلت : رواه ابن ماجة عن أبى هريرة .

وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٤٥٥ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب الفتن والملاحم ، ٦ ـ باب فى تعظيم قتل المؤمن، حديث ٢٤٧٠ .

(معنقا : أى: خفيف الظهر ، سريع السير . بَلَّح : أى أعيا وانقطع) .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٧ ـ باب ماجاء فى تشديد قتل المؤمن.

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٨ ـ باب الحكم فى الدماء .

(قلت : المعروف فى اللغة : كبهم . يقال: كبّه فأكبّ هو . المجرد متعدٍّ ، والمزيد لازم. هكذا نصوا عليه . وقال فى اللسان : هذا من النوادر أن يقال : أفعلتُ أنا وفعلتُ غيرى) .

(٥) أخرجه ابن ماجة فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب التغليظ فى قتل مسلم ظلما، حديث ٢٦٢٠ (طبعتنا) .

وقال البخارىّ[(١)] : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا المغيرة بن النعمان قال : سمعت ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة . فرحلت فيهـا إلى ابن عباس فسألته عنها . فقال : نزلت هـذه الآية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . هى آخر ما نزل وما نسخها شىء . وكذا رواه هو أيضاً ومسلم والنسائىّ من طرقٍ عن شعبة، به . ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن ابن مهدىّ عن سفيان الثورىّ عن مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . فقال : ما نسخها شىء . وقال ابن جرير[(٢)] : حدثنا ابن بشار ، قال حدثنا ابن أبى عدى ، عن سعيد عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قال : قال لى عبد الرحمن بن أبزى : سئل ابن عباس عن قوله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا ... الآية . فقال: لم ينسخها شىء . وقال فى هذه الآية : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ) إلى آخرها قال : نزلت فى أهل الشرك . وروى ابن جرير[(٣)] أيضا عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . قال : إن الرجل إذا عرف الإسلام ، وشرائع الإسلام ، ثم قتـل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ، ولا توبة له . فذكرت ذلك لمجاهد فقال : إلا من ندم . وروى الإمام أحمد[(٤)] عن سالم بن أبى الجعد عن ابن عباس ؛ أن رجلًا أتى إليـه فقال : أرأيت رجلًا قتل رجلًا عمداً ؟ فقال: جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...الآية. قال: لقد نزلت من آخر ما نزل . ما نسخها

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٦ ـ باب وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ .

(٢) الأثر رقم ١٠١٩٢ .

(٣) الأثر رقم ١٠١٨٧ .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) حديث ٢١٤٢ (طبعة المعارف) .

شيء حتى قبض رسول الله صلى الله عليه سلم . وما نزل وحى بعد رسول الله ﷺ . قال : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ؟ قال : وأنَّى له بالتوبة ؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ثكلته أمه. رجل قتل رجلا متعمداً يجئ يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو بيساره ، أو آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله ، تشخب أوداجه دمًا قِبَلَ العرش يقول : يارب ! سل عبدك فيم قتلنى ! ورواه النسائىّ وابن ماجة . وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة . وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف، زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم . نقله ابن أبي حاتم . وفى الباب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ قال : يجئ المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة ، آخذا رأسه بيده الأخرى ، فيقول : يارب ! سل هذا فيم قتلنى ؟ قال فيقول: قتلته لتكون العزة لك . قال : فإنها لى . قال ويجئ آخر متعلقاً بقاتله فيقول : رب ! سل هذا فيم قتلنى ؟ قال فيقول : قتلته لتكون العزة لفلان . قال: فإنها ليست له. بوء بإثمه. قال، فيهوى به فى النار سبعين خريفاً. ورواه النسائىّ[1] . وأخرج الإمام أحمد والنسائىّ[2] عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً. وقال الإمام أحمد[3]: حدثنا النضر . حدثنا سليمان بن المغيرة. حدثنا حميد قال : أتانى أبو العالية أنا وصاحب لى : فقال لنا : هلما فأنتما أشب سناً منى ، وأوعى للحديث منى . فانطلق بنا إلى بشر بن عاصم . فقال له أبو العالية : حدث هؤلاء حديثك . فقال : حدثنا عقبة بن مالك الليثىّ ، قال : بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم سرية فأغارت على قوم . فشد مع القوم رجل

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ١ ـ باب تحريم الدم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٨٩ بالجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

فاتّبعه رجـل من السرية شاهراً سيفه . فقال الشادّ من القوم : إنى مسلم . فلم ينظر فيما قال . فضربه فقتله. فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ . فقال فيه قولا شديداً . فبلغ القاتل. فبينا رسول الله ﷺ يخطب إذ قال القاتل : والله ! ما قال الذى قال إلا تعـوذاً من القتل . قال فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وعمن قِبَلَه من الناس . وأخـذ فى خطبته . ثم قال أيضاً : يارسول الله ! ما قال الذى قال إلا تعوذاً من القتل . فأعرض عنه وعمن قبله من الناس وأخذ فى خطبته . ثم لم يصبر حتى قال الثالثة : والله ! يارسول الله ماقال الذى قال إلاتعوذا من القتل . فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعرف المساءة فى وجهه فقال : إن الله أبى على من قتل مؤمنا . (ثلاث مرات) ورواه النسائىّ. ثم قال ابن كثير : والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها . أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل . فإن تاب وأناب وخشع وخضع ، وعمـل عملًا صالحًا ، بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته. قال الله تعالى : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ ـ إلى قوله ـ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا[(١)] الآية. وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين ، وحمل هذه الآية على المؤمنين ـ خلاف الظاهر . ويحتاج حمله إلى دليل. والله أعلم.

وقال تعالى : قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ[(٢)]. الآية . وهذا عام فى جميع الذنوب : من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغيرذلك. كل من تاب من أىّ ذلك تاب الله عليه . قال الله تعالى : إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[(٣)] . فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب ما عدا الشرك . وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها ، لتقوية الرجاء . والله أعلم .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨ـ٧٠] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ... إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٣) [٤ / النساء / ٤٨و١١٦] .

وثبت فى الصحيحين[(١)] خبر الإسرائيلىّ الذى قتل مائة نفس ، ثم سأل عالمًا هل لى من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه . فهاجر إليه فمات فى الطريق . فقبضته ملائكة الرحمة . وإذا كان هذا فى بنى إسرائيل فَلَأَنْ يكون فى هذه الأمة، التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى . لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التى كانت عليهم . وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة وهى قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا .. الآية ، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه . وقد رواه ابن مردويه بإسناده مرفوعاً . ولكن لا يصح . ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه . وكذا كل وعيد على ذنب . لكن قد يكون لذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه ، على قولىْ أصحاب الموازنة والإحباط . وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد . والله أعلم بالصواب . وبتقدير دخول القاتل فى النار ، إما على قول ابن عباس ومن وافقه ، أنه لا توبه له . أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به ـ فليس بمخلد فيها أبداً . بل الخلود هو المكث الطويل . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)] أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٦٢٩ .

ومسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٢) انظر حديث الشفاعة الذى أخرجه البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٢١ .

والحديث الذى أخرجه أيضاً عن أنس بن مالك فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٦ ـ باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، حديث ٤٠ .

احرص عليهما كل الحرص ، ولا يفوتنك قراءتهما ودراستهما والتمتع بما فيهما .

وأخرج الحديث الأول مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٠٢ (طبعتنا) .

ثم قال ابن كثير : وأما مطالبة المقتول القاتلَ يوم القيامة فإنه من حقوق الآدميين . وهي لاتسقط بالتوبة . ولكن لابد من ردها إليهم . ولافرق بين المقتول والمسروق منه والمغصوب منه والمغبون والمقذوف وسائر حقوق الآدميين . فإن الإجماع منعقد على أنها لاتسقط بالتوبة . ولكن لابد من ردها إليهم في صحة التوبة . فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة . لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة . إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول ، أو بعضها . ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة . أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ورفع درجته فيها ونحو ذلك. والله أعلم . انتهى. وقال النوويّ في (شرح مسلم) في شرح حديث الإسرائيليّ الذي قتل مائة نفس : استدل به على قبول توبة القاتل عمداً . وهو مذهب أهل العلم وإجماعهم . ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس . وأما ما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا، فمراد قائله الزجر والتوبة . لا أنه يعتقد بطلان توبته . وهذا الحديث وإن كان شرع من قبلنا ، وفي الاحتجاج به خلاف ، فليس هذا موضع الخلاف . وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره . فإن ورد كان شرعاً لنا بلاشك. وهذا قد ورد شرعنا به . وذلك قوله تعالى : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ـ إلى قوله ـ إِلَّا مَنْ تَابَ... الآية(١) . وأما قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً...الآية . فالصواب في معناها : أن جزاءه جهنم. فقد يجازى بذلك وقد يجازى بغيره . وقد لا يجازى بل يعفى عنه . فإن قتل عمداً مستحلًّا بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتدّ . يخلد في جهنم بالإجماع . وإن كان غير مستحل بل معتقداً تحريمه فهو فاسق عاص . مرتكب كبيرة، جزاؤها جهنم خالداً فيها . لكن تفضل الله تعالى وأخبر أنه لا يخلد من مات موحداً فيها . فلا يخلد هذا . ولكن قد يعفى عنه ولا يدخل النار أصلًا . وقد لا يعفى عنه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] ونصها : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً .

بل يعذب كسائر عصاة الموحدين . ثم يخرج معهم إلى الجنة ولا يخلد فى النار . قال : فهذا هو الصواب فى معنى الآية. ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة مخصوصة ، أن يتحتم ذلك الجزاء . وليس فى الآية إخبار بأنه يخلد فى جهنم. وإنما فيها أنها جزاؤه . أى : يستحق أن يجازى بذلك . وقيل : وردت الآية فى رجل بعينه . وقيل : المراد بالخلود طول المدة ، لا الدوام . وقيل : معناها : هذا جزاؤه ، إن جازاه . وهذه الأقوال كلها ضعيفة أو فاسدة لمخالفتها حقيقة لفظ الآية . فالصواب ما قدمناه . انتهى .

وقال علاء الدين الخازن : اختلف العلماء فى حكم هذه الآية . هل هى منسوخة أم لا ؟ وهل لمن قتل متعمداً توبة أم لا ؟ فروى[1] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ قال : لا . فتلوت عليه الآية التى فى الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ[2] . إلى آخر الآية . قال : هذه آية مكية . نسختها آية مدنية : وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . وفى رواية[3] ، قال : اختلف أهل الكوفة فى قتل المؤمن . فرحلت إلى ابن عباس .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٢ ـ باب قوله : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، حديث ١٨٠٩ ونصه : عن القاسم بن أبى بزة أنه سأل سعيد بن جبير : هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ، فقرأت عليه : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . فقال سعيد : قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علىّ فقال: هذه مكية . نسختها آية مدنية . التى فى سورة النساء .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

(٣) أخرجها البخارىّ فى الباب السابق أيضا .

فقال : نزلت فى آخر ما نزل . ولم ينسخها شىء . وفى رواية أخرى[1] ، قال ابن عباس : نزلت هـذه الآية بالمدينة : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ . . . إلى قوله مُهَاناً . فقال المشركون : وما يُغنى عنا الإسلام ، وقد عدلنا بالله ، وقد قتلنا النفس التى حرم الله ، وأتينا الفواحش ؟ فأنزل الله تعالى : إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ... إلى آخر الآية[2] . زاد فى رواية : فأما من دخل فى الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له . أخرجاه فى الصحيحين. وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه ناظر ابن عباس فى هـذه الآية فقال : مِن أين لك أنها محكمة ؟ فقال ابن عباس : تكاثُفُ الوعيد فيها .

وقال ابن مسعود : إنها محكمة ، وما تزداد إلا شدة . وعن خارجة بن زيد قال: سمعت زيد ابن ثابت يقول : أنزلت هذه الآية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، بعد التى فى الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، بستة أشهر . أخرجه أبو داود والنسائىّ . وزاد النسائىّ فى رواية : بثمانية أشهر .

وقال زيد بن ثابت : لما نزلت هذه الآية فى الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً

(١) أخرجها البخارىّ أيضاً فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٣ ـ باب قوله : يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهَا مُهَاناً . ونصها : عن سعيد ابن جبير قال : قال ابن أبزى : سئل ابن عباس فى قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، وقوله : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . . حتى بلغ إِلَّا مَنْ تَابَ . فسألته فقال : لما نزلت قال أهل مكة : فقد عدلنا بالله وقتلنا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأتينا الفواحش. فأنزل الله: إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ـ إلى قوله ـ غَفُورًا رَحِيماً .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] .

ءَاخَرَ ، عجبنا من لينها . فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد الليّنة . فنسخت اللينة . وأراد بالغليظة هذه الآية التى فى سورة النساء . وباللينة آية الفرقان . وذهب الأكثرون من علماء السلف والخلف إلى أن هـذه الآية منسوخة . واختلفوا فى ناسخها . فقال بعضهم : نسختها التى فى الفرقان . وليس هـذا بالقوىّ . لأن آية الفرقان نزلت قبل آية النساء . والمتقدم لا ينسخ المتأخر . وذهب جمهور مَن قال بالنسخ إلى أن ناسخها الآية التى فى النساء أيضاً . وهى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(١) وأجاب، من ذهب إلى أنها منسوخة، عن حديث ابن عباس المتقدم المخرّج فى الصحيحين : بأن هذه الآية خبر عن وقوع العذاب بمن فعل ذلك الأمر المذكور فى الآية . والنسخ لا يدخل الأخبار. ولئن سلمنا أنه يدخلها النسخ، لـكن الجمع بين الآيتين ممكن بحيث لا يكون بينهما تعارض . وذلك بأن يحمل مطلق آية النساء على تقييد آية الفرقان . فيكون المعنى : فجزاؤه جهنم إلا من تاب . وقال بعضهم : ما ورد عن ابن عباس إنما هو على سبيل التشديد والمبالغة فى الزجر عن القتل . فهو كما روى عن سفيان بن عيينة أنه قال : إن لم يقتل يقال له: لا توبة لك . وإن قتل ثم ندم وجاء تائباً يقال له : لك توبة .

وقيل : إنه قد روى عن ابن عباس مثله . وروى عنه أيضاً أن توبته تُقبل . وهو قول أهل السنة . ويدل عليه الـكتاب والسنة . أما الـكتاب فقوله تعالى : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ(٢) . وقوله : إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً(٣) . وأما السنة فما روى عن جابر بن عبد الله قال : جاء أعرابىّ إلى النبىّ ﷺ . فقال : يا رســول الله !

(١) [٤ / النساء / ٤٨] .

(٢) [٢٠ / طه / ٨٢] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

ما الموجبتان ؟ قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . ومن مات يشرك به شيئاً دخل النار . أخرجه مسلم[١] . وروى الشيخان عن عبادة بن الصامت قال[٢] : كنا مع رسول الله ﷺ فى مجلس فقال : تبايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . وفى رواية : ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونى فى معروف . فمن وفى منكم فأَجْره على الله . ومن أصاب من ذلك فسَتَرَهُ الله عليه فأمره إلى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه . فبايعناه على ذلك . انتهى .

وقال العلامة أبو السعود : تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود مَنْ قتل المؤمن عمداً فى النار . ولا متمسَّك لهم فيها. لا لما قيل من أنها فى حق المستحل، كما هو رأى عكرمة وأضرابه. بدليل أنها نزلت فى مَقِيس بن صُبَابَة الكنانىّ المرتد . فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . بل لأن المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام . لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم . وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً. وكذا ماروى عن سفيان : أن أهل العلم كانوا إذا سئلوا قالوا : لاتوبة له ـ محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى فى التشديد والتغليظ . وعليه يحمل ماروى عن أنس رضى الله تعالى عنه : أن النبىّ عليه الصلاة والسلام قال : أَبَى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة . وقال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله وأبو صالح : المعنى هو جزاؤه إن جازاه . قالوا : قد يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر : إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب . ثم إن لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذباً .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٥١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٢ـ كتاب الإيمان، ١١ ـ باب حدثنا أبو اليمان، حديث ١٨. ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

قال الواحدىّ : والأصل فى ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد ، وأن امتنع أن يخلف الوعد . والتحقيق أنه لاضرورة إلى تفريع مانحن فيـه على الأصل المذكور . لأنه إخبار منه تعالى أن جزاءه ذلك . لا بأنه يجزيه بذلك . كيف لا ؟ وقـد قال الله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)[١] . ولو كان هذا إخباراً بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها، لعارضه قوله تعالى (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)[٢] . انتهى .

وقال العلامة الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) : وأما بيان الجمع بين هذه الآية وما خالفها فنقول : لانزاع أن قوله تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً) من صيغ العموم الشاملة للتائب وغير التائب. بل للمسلم والـكافر . والاستثناء المذكور فى آية الفرقان .أعنى قوله تعالى : إِلَّا مَنْ تَابَ[٣] .بعدقوله تعالى : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ[٤] ـ مختص بالتائبين. فيكون مخصصاً لعموم قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً . أما على ماهو المذهب الحق من أنه ينبنى العامّ على الخاص مطلقاً ، تقدم أو تأخر أو قارن ـ فظاهر ، وأما على مذهب من قال : إن العامّ المتأخر ينسخ الخاص المتقدم ، فإذا سلمنا تأخر قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً ، على آية الفرقان، فلا نسلم تأخرها من العمومات القاضية بأن القتل مع التوبة من جملة مايغفره الله . كقوله تعالى :قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً[٥] . وقوله تعالى : إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

---

(١) [٤٢ / الشورى/ ٤٠] ونصها: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٠] ونصها: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

(٥) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[١] . ومن ذلك ما أخرجه مسلم[٢] عن أبى هريرة . أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وما أخرجه الترمذىّ[٣] وصححه من حديث صفوان بن عسّال. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : باباً

(١) [٤ / النساء / ١١٦] .

(٢) أخرجه مسلم فى: ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤٣ (طبعتنا).

(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٩٨ ـ باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده . ونصه :

عن زرّ بن حبيش قال : « أتيت صفوان بن عسّال المرادىّ أسأله المسح على الخفين؟ فقال: ما جاء بك يا زرّ ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ، رضاً بما يطلب . فقلت : إنه حكّ فى صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنتَ امرءًا من أصحاب النبىّ ﷺ . فجئت أسألك : هل سمعتَه يذكر فى ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا كنا سفراً أو مسافرين، أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر فى الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا مع النبىّ ﷺ فى سفر . فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابىّ بصوت له جهورىّ : يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » وقلنا له : ويحك . اغضض من صوتك ، فإنك عند النبىّ ﷺ ، وقد نهيتَ عن هذا . فقال : والله ! لا أغضض . قال الأعرابىّ : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم . قال النبىّ ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » .

فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة سبعين عاما . عرضه ، أو يسير الراكب فى عرضه ، أربعين أو سبعين عاما » .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام « خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً (يعنى للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » .

(قال أبو عيسى) : هذا حديث حسن صحيح .

من قِبَلِ المغرب يسير الراكب فى عرضه أربعين أو سبعين سنة . خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض . مفتوح للتوبة لايغلق حتى تطلع الشمس من مغربها . وأخرج الترمذى[1] أيضاً عن ابن عُمر . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر . وأخرج مسلم[2] من حديث أبى موسى؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار . ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . ونحو هذه الأحاديث مما يطول تعداده ـ لا يقال: إن هـذه العمومات مخصصة بقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا..الآية . لأنا نقول : الآية أعم من وجه ، وهو شمولها للتائب وغيره . وأخص من وجه ، وهو كونها فى القاتل . وهذه العمومات أعم من وجه ، وهو شمولها لمن كان ذنبه القتل ولمن كان ذنبه غير القتل . وأخص من وجه ، وهو كونها فى التائب . وإذا تعارض عمومان لم يبق إلا الرجوع إلى الترجيح . ولا شك أن الأدلة القاضية بقبول التوبة مطلقاً أرجح لـكثرتها . وهكذاأيضاً يقال : إن الأحاديث بخروج الموحدين من النار وهى متواترة المعنى ، كما يعرف ذلك من له إلمام بكتب الحديث ، تدل على خروج كل موحد . سواء كان ذنبه القتل أو غيره . والآية القاضية بخروج من قتل نفساً هى أعم من أن يكون القاتل موحداً أو غير موحد . فيتعارض عمومان . وكلاهما ظنىّ الدلالة . ولـكن عموم آية القتل قـد عورض بما سمعته . بخلاف أحاديث خروج الموحدين ، فإنها إنما عورضت بما هو أعم منها مطلقاً . كآيات الوعيـد للعصاة الدالة على الخلود الشاملة للـكافر والمسلم . ولا حكم لهذه المعارضة ، أو بما هو أخص منها مطلقاً . كالأحاديث القاضية بتخليد بعض أهل المعاصى . نحو : من قتل نفسه . وهو يبنى العام على الخاص . وبمـا قررناه يلوح لك انتهاض القول بقبول توبة القاتل إذا تاب ،

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى الباب السابق .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

وعدم خلوده فى النار إذا لم يتب . ويتبيّن لك أيضاً أنه لا حجة فيما احتج به ابن عباس من أن آية الفرقان مكية منسوخة بقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا . . . الآية. كما أخرج ذلك عنه البخارىّ ومسلم وغيرهما . وكذلك لا حجة له فيما أخرجه النسائى(١) والترمذىّ(٢) عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يجىء المقتول متعلقاً بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دماً . يقول: يارب ! قتلنى هذا . حتى يدنيه من العرش . وفى رواية للنسائىّ(١) فيقول: أى رب! سل هذا فيم قتلنى ؟ لأن غاية ذلك وقوع المنازعة بين يدى الله عز وجل . وذلك لا يستلزم أخذ التائب بذلك الذنب . ولا تخليده فى النار ، على فرض عدم التوبة . والتوبةُ النافعة ، ههنا ، هى الاعتراف بالقتل عند الوارث ، إن كان له وارثٌ . أو السلطان ، إن لم يكن له وارث . والندم على ذلك الفعل ، والعزم على ترك العود إلى مثله . لا مجرد الندم والعزم ، بدون اعتراف . وتسليم للنفس أو الدية إن اختارها مستحقها . لأن حق الآدمىّ لا بُدَّ فيه من أمر زائد على حقوق الله . وهو تسليمه أو تسليم عوضه بعد الاعتراف به . فإن قلت : فعلى مَ تحمل حديث أبى هريرة وحديث معاوية المذكورين فى أول الباب ؟ فإن الأول يقضى بأن القاتل أو المُعين على القتل يلقى الله مكتوباً بين عينيه : الإياس من الرحمة . والثانى يقضى بأن ذنب القتل لا يغفره الله ـ قلت هما محمولان على عدم صدور التوبة من القاتل . والدليل على هذا التأويل ، ما فى الباب من الأدلة القاضية بالقبول عموماً وخصوصاً . ولو لم يكن من ذلك إلا حديث الرجل القاتل للمائة ، الذى تنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . وحديث عبادة بن الصامت المذكور قبله . فإنهما يلجئان إلى المصير إلى ذلك التأويل . ولا سيما مع ما قدمنا من تأخر تاريخ حديث عبادة .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٥ ـ حدثنا الحسن بن محمد الزعفرانىّ .

ومع كون الحديثين فى الصحيحين . بخلاف حديث أبى هريرة ومعاوية . وأيضاً فى حديث معاوية نفسه ما يرشد إلى هذا التأويل. فإنه جعل الرجل القاتل عمداً مقترناً بالرجل الذى يموت كافراً . ولا شك أن الذى يموت كافراً مصرًّا على ذنبه غير تائب منه ، من المخلدين فى النار . فيستفاد من هذا التقييد أن التوبة تمحو ذنب الكفر . فيكون ذلك القرين الذى هو القتل أولى بقبولها .

وقد قال العلامة الزمخشرىّ فى (الكشاف): إن هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ . قال : ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى ، من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة . وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا : لا توبة له . وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد : وإلّا فكل ذنب ممحوٌّ بالتوبة . وناهيك بمحو الشرك دليلًا .

ثم ذكر حديث : لَزَوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ، وهو عند النسائىّ[(١)] من حديث بريدة، وعند ابن ماجة[(٢)] من حديث البراء . و عند النسائىّ[(١)] أيضاً من حديث ابن عمرو . وأخرجه أيضاً الترمذىّ[(٣)] انتهى . كلام الشوكانىّ .

وقال الإمام ابن القيّم فى (الجواب الكافى) : لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى قامت به السموات والأرض ، وأرسل الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ـ كان (أى الظلم) من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه: وكان قتل الإنسان المؤمن من أقبح الظلم وأشده . ثم قال: ولما

(١) أخرجه النسائى فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب التغليظ فى قتل المسلم ، حديث ٢٦١٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ١٤ ـ كتاب الديات ، ٧ ـ باب ماجاء فى تشديد قتل المؤمن .

كانت مفسدة القتل هذه المفسدة ـ قال الله تعالى : مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً[1] .

ثم قال : وفى صحيح البخارى[2] عن سمرة بن جندب قال : أول ما ينتن من الإنسان بطنه . فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل . ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل . وفى جامع الترمذى[3] عن نافع قال: نظر عبدالله

---

(١) [٥ / المائدة / ٣٢] . . . وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٩ ـ باب من شاق شق الله عليه ، حديث ٢٤٣٩ ونصه :

عن طريف أبى تميمة قال : شهدت صفوان وجندبا وأصحابه وهو يوصيهم . فقالوا : هل سمعت من رسول الله شيئاً ؟ قال : سمعته يقول « من سمّع سمّع الله به يوم القيامة » قال « ومن يشاقق يشقق الله عليه يوم القيامة » فقالوا : أوصنا . قال : إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه. فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل، ومن استطاع أن لايحال بينه وبين الجنة بملء كفه من دم أهراقه فليفعل .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٨٥ ـ باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ، ونصه :

عن نافع عن ابن عمر قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع ، فقال : « يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه ! لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم ولا تتبعوا عوراتهم : فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته . ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله .

=

ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك . والمؤمن أعظم حرمةً منك . قال الترمذيّ هـذا حديث حسن . وفى صحيح البخارىّ[1] أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً . وذكر البخارىّ[2] أيضاً عن ابن عمر قال : من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها ، سفك الدم الحرام بغير حله : وفى الصحيحين[3] عن أبى هريرة يرفعه : سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر . وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم[4] : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . وفى صحيح البخارىّ[5] عنه صلى الله عليه وسلم : من قتل معاهَداً لم يرح رائحة الجنة . وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً .

هذه عقوبة قاتل عدوّ الله ، إذا كان معاهداً فى عهده وأمانه . فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن ؟

= قال : ونظر ابن عمر يوماً إلى البيت ، أو إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك . والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب قول الله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢١ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب قول الله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢١ .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٦ ـ باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، حديث ٤٤ .

(٤) أخرجه البخاريّ فى: ٣ ـ كتاب العلم، ٤٣ ـ باب الإنصات للعلماء، حديث ١٠٤.

(٥) أخرجه البخاريّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية ، ٥ ـ باب إثم من قتل معاهَدا بغير جرم ، حديث ١٤٩٦ .

وإذا كانت امرأة قددخلت النار ، فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا ، فرآها النبى صلى الله عليه وسلم فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم ؟ وفى بعض السنن عنه ﷺ (١) : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق .

وقال ابن القيّم أيضاً قبل ذلك : وقد جعل الله سبحانه وتعالى جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً، الخلود فى النار وغضب الجبار ولعنته وإعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمداً مالم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل ، طوعاً واختياراً ، مانع من نفوذ ذلك الجزاء . وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف. وهما روايتان عن أحمد. والذين قالوا : لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمى لم يستوفه فى دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد أن يستوفى له فى دار العدل . قالوا : فما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذى خيره الله، من استيفائه والعفو عنه . وماينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟ وهذا أصح القولين فى المسألة . إن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث. وهى وجهان لأصحاب الشافعى وأحمد وغيرهما . ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث . فإن التوبة تهدم ما قبلها . والذنب الذى قد جناه قد أقيم عليه حده . قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم، وجعلهم من خيار عباده . ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة .

---

(١) أخرجه النسائى فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .

وابن ماجة فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب التغليظ فى قتل المسلم، حديث ٢٦١٩ (طبعتنا) .

والترمذى فى : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٧ ـ باب ما جاء فى تشديد قتل المؤمن .

وقال تعالى: يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً . وهذا فى حق القاتل . وهى تتناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه . قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه . ولا يمكن تسليمها إلى المقتول. فأقام الشارع وليَّه مقامه. وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه . فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث . والتحقيق فى المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق لله، وحق للمظلوم المقتول ، وحق للولىّ . فإذا سلّم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولىّ ، ندما على ما فعل ، وخوفا من الله ، وتوبة نصوحاً ـ فقطع حق الله بالتوبة ، وحق الولىّ بالاستيفاء أو الصلح أو العفو ، وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا.

فصل

ومن العلماء من اختار التوقف فى هـذا المقام . منهم الإمام أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليمانىّ . فإنه قال فى كتابه (إيثار الحق) فى (بحث الوعد والوعيد) . ما نصه : لا شك أن الاستثناء من الوعد والوعيد ، وتخصيص العمومات بالأدلة المتصلة والمنفصلة مقبول . إما على جهه الجمع ، ولا شك فى جوازه وصحته وحسنه ، والإجماع على ذلك وكثرة وقوعه من سلف الأمة وخلفها . بل لا شك فى تقديمه فى الرتبة والبداية بذلك قبل الترجيح . فإن تعذر الجمع فالترجيح . فإن وضح عمل به . فإن لم يتضح وجب الوقف لقوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ(٢) . ولذلك اخترت الوقف فى حكم قاتل المؤمن . بعد الانتصاف منه للمظلوم

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣]

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] . . . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا .

والقطع على أنه فاسق ملعون ، واجب قتله والبراءة منه . والقطع أن جزاءه جهنم خالداً فيها، كما قال تعالى على ما أراد . وإنما وقفت في محل التعارض الذى أوضحته فى (العواصم) . لا على حسب ماقيل فى أن الله تعالى فى هذه الآية، هل بيّن جزاءه الذى له أن يفعله إن شاء ؟ أو بيّن جزاءه الذى تخيّر له فى تنجيزه حين لم يبق إلا حقه بعد استيفاء حق المظلوم المقتـول ؟ والله سبحانه أعلم .

فمن رجح الجمع بيْن وعيد القاتل وبيْن قوله تعالى : وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[1]، وسائر آيات الرجاء وأحاديثه ـ قال بالأول . ومن رجح وعيد القاتل فى هذه الآية ، وفى الأحاديث المخصصة لقتل المؤمن ، بقطع الرجاء ، كما أوضحته فى (العواصم) ـ رجح وعيد القاتل. ومن تعارضت عليه ولم ير فى تنجيز الاعتقاد مصلحة ولا له موجباً ولا إليه ضرورة ـ رجح الوقف. والله عند لسان كل قائل ونيته . ولاشك فى ترجيح النص الخاص على العموم وتقديمه. وعليه عمل علماء الإسلام فى أدلة الشريعة. ومن لم يقدمه فى بعض المواضع لم يمكنه الوفاء بذلك فى كل موضع . واضطر إلى التحكم والتلوّن من غير حجة بيّنة . وقد أجمع من يعتدّ به من المسلمين على تخصيص الصغائر من آيات الوعيد العامة على جميع المعاصى، متى كان أهل الصغائر من المسلمين . ولم يلزم من ذلك خلف فى آيات الوعيد ولا كذب ولا تـكذيب لشىء منها. فـكذلك سائر ماصح من أحاديث الرجاء ليس فيه مناقضة لعمومات آيات الوعيد، ولايستلزم تجويز الخلف على الله تعـالى . وذلك باب واحد . ولذلك اشتهرت أحاديث الرجاء فى عصر الصحابة والتابعين . ولم ينكرها أحد . بل رواتها أكابرهم وأئمتهم . وفى (العواصم) من ذلك عن علىّ عليه السلام بضعة عشر أثراً . بل المخصصات للعمومات فى ذلك قرآنية . وعمومات الوعد مانعة قبل تخصيص الوعيد من الجزم على وقوع عمومه دون عموم الوعد . على أن الخلف

(١) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

عند جماعات كثيرة لا يكون إلا فى عدم الوفاء بالوعد بالخير . وأما الوعيد بالشر فقد اختلف فى تركه . وأجمعوا على أنه يسمى عفواً . كما قال كعب بن زهير[1] :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

وإنما اختلفوا ، مع تسميته عفواً ، هل يسمى خلفاً أم لا ؟ ومن منع من ذلك ، منع صحة النقل له لغة . واحتج على امتناعه بأنه لا يصح اجتماع اسم مدح واسم ذم على مسمى واحد . انتهى .

فصل

تشرع الكفارة فى قتل العمد . لما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبى ﷺ نفر من بنى سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: فليعتق رقبة. يفدى الله بكل عضو منها

---

(١) مطلع القصيدة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

قال ابن هشام عند هذا البيت : جميع ماتقدم توطئة لهذا البيت. فإن غرضه من القصيدة التنصل والاستعطاف . ومعنى (أنبئت) أخبرت خبراً صادقاً. وترك ذكر الفاعل هنا لأمرين: أحدهما أنه لايتعلق بتعيينه غرض . ومثله : إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا . وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا . وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ . والثانى أن مقام الاستعطاف يناسبه تمريض الخبر بالوعيد. كأن تقول: رُوِى كذا ، لا تحقيقه . والوعد فى الخير والإيعاد فى الشر . ولهذا قال بعض فصحاء العرب فى دعائه : يا من إذا وعد وَفَى . وإذا أوعد عفا

وفى البيت إعادة ذكر الرسول ﷺ لإظهار التفخيم والتعظيم .

ويذكر أنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما سمع هذا البيت قال « العفو عند الله » .

عضواً منه فى النار . ورواه أيضاً بسند آخر عنه . قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صاحب لنا قد أوجب، قال : أعتقوا عنه ، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار . وهذا رواه أبو داود(١) والنسائىّ . ولفظ أبى داود : قد أوجب (يعنى النار) بالقتل .

قال الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) : فى حديث واثلة دليل على ثبوت الكفارة فى قتل العمد . وهذا إذا عفى عن القاتل أو رضى الوارث بالدية . وأما إذا اقتصّ منه فلا كفارة عليه بل القتل كفارته . لحديث عبادة المذكور فى الباب . ولما أخرجه أبو نعيم فى (المعرفة): أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : القتل كفارة . وهو من حديث خزيمة بن ثابت . وفى إسناده ابن لهيعة . قال الحافظ : لكنه من حديث ابن وهب عنه فيكون حسناً. ورواه الطبرانىّ فى الكبير عن الحسن بن علىّ موقوفاً عليه .

ثم حذر تعالى عما يؤدى إلى القتل العمد من قلة المبالاة فى الأمور بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٨ ـ كتاب العتق ، ١٣ ـ باب ثواب العتق ، حديث ٢٩٦٤ ونصه : عن الغريف بن الديلمىّ قال : أتينا واثلة بن الأسقع . قلنا له : حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق فى بيته فيزيد وينقص. قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعته من النبىّ ﷺ . قال: أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا أَوْجَبَ ـ يعنى النار ـ بالقتل . فقال « أعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار » .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا ضَرَبْتُمْ » أى: ذهبتم « فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » إلى أرض العدوّ للغزو « فَتَبَيَّنُوا » أى : اطلبوا بيان كل ماتأتون وما تذرون . ولا تعجلوا فيـه بغير تدبر وروية « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا » نهى عما هو نتيجة لترك المأموربه ، وتعيين لمادة مهمة من المواد التى يجب فيهـا التبيين . أى : لا تقولوا (لمن أظهر الانقياد لدعوتـكم فقال : لا إله إلا الله ، أو سلّم عليكم فحياكم بتحية الإسلام) : لست مؤمناً فى الباطن. وإنما قلته باللسان لطلب الأمان . بل اقبلوا منـه ما أظهره وعاملوه بموجبه « تَبْتَغُونَ » أى:تطلبون بقتله « عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى: ماله الذى هو سريع النفاد . والجملة حال من فاعل (لَا تَقُولُوا) منبئة عما يحملهم على العجلة وترك التأنّى . وقوله تعالى « فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ » تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنىّ. كأنه قيل : لا تبتغوا ماله، فعندالله مغانم كثيرة يغنمكموها ، فيغنيكم عن ارتـكاب ماارتـكبتموه. أفاده أبو السعود . ثم قال : وقوله تعالى « كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ». تعليل للنهى عن القول المذكور. أى : مثل ذلك الذى ألقى إليكم السلام ، كنتم أنتم أيضاً . فى مبادىء إسلامكم . لا يظهر منكم للناس غير ماظهر منه لـكم ، من تحية الإسلام ونحوها . فمنّ الله عليكم ،بأن قبل منكم تلك المرتبة، وعصم بها دماءكم وأموالـكم، ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم . والفاء فى قوله تعالى « فَتَبَيَّنُوا » فصيحة . أى : إذا كان الأمر كذلك ، فاطلبوا بيان هذا الأمر البيّن وقيسوا حاله بحالـكم . وافعلوا به مافعل بكم . فى أوائل أموركم . من قبول ظاهر الحال ، من غـير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » فـلا تتهافتوا فى القتل وكونوا محترزين محتاطين فى ذلك .

قال ابن كثير (فى سبب نزولها) : أخرج الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: مرّ رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم يرعى غنماً له . فسلم عليهم . فقالوا: مايسلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليهفقتلوه. وأتوا بغنمه النبىّ صلى الله عليه وسلم.

فنزلت هذه الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إلى آخرها. ورواه الترمذىّ[١] ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفى الباب عن أسامة بن زيد.

ورواه الحاكم وصححه. وروى البخارىّ[٢] عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان رجل فى غنيمة له. فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم. فقتلوه، وأخذوا غنيمته. فأنزل الله فى ذلك ... إلى قوله: عرض الحياة الدنيا : (تلك الغنيمة).

وقال البخارىّ[٣] : قال حبيب بن أبى عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد: إذا كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفى إيمانك بمكة من قبل. هكذا رواه البخارىّ معلقاً مختصراً.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار مطولًا موصولًا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود. فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا. وبقى رجل له مال كثير لم يبرح. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله. وأهوى إليه

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ــ كتاب التفسير ، ٤ ــ سورة النساء ، ١٦ ــ حدثنا عبد بن حميد ، ونصه : عن ابن عباس قال : مرّ رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ. ومعه غنم له. فسلم عليهم. قالوا: ما سلّم عليكم إلا ليتعوّذ منكم. فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه. فأتوا بها رسول الله ﷺ. فأنزل الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ــ كتاب التفسير ، ٤ ــ سورة النساء ، ١٧ ــ باب وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ــ كتاب الديات، ١ ــ باب قول الله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢٢.

المقداد فقتله. فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلًا شهد أن لا إله إلا الله؟ والله! لأذكرنّ ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ! إن رجلًا شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد . فقال: ادعوا لى المقداد . يا مقداد! أقتلت رجلًا يقول: لا إله إلا الله ! فكيف لك بـ (لا إله إلا الله) غداً ؟ قال : فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ـ إلى قوله ـ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ... الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد : كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار . فأظهر إيمانه فقتلته . وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل .

قال ابن كثير : فقوله تعالى : كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ ، أى: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذى يُسِرّ إيمانه ويخفيه من قومه . كما تقدم فى الحديث المرفوع، وكما قال تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ ... الآية[1] . وهذا وجه آخر فى مرجع الإشارة ، غير ما سلف ، وهو الأدق . وبالقبول أحق .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : يُستفاد من هذه الرواية (أى:رواية البزار) تسمية القاتل . وأما المقتول ، فروى الثعلبىّ من طريق الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس ، وأخرجه عبد بن حميد من طريق قتادة نحوه . واللفظ للكلبىّ : أن اسم المقتول مرداس بن نهيك . من أهل فدك . وأن اسم القاتل أسامة بن زيد . وأن اسم أمير السرية غالب بن فضالة الليثىّ . وأن قوم مرداس لما انهزموا بقى هو وحده . وكان ألجأ غنمه بجبل . فلما لحقوه قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم . فقتله أسامة بن زيد . فلما رجعوا نزلت الآية. وكذا أخرج الطبرىّ[2] من طريق السّدىّ نحوه . وفى آخر رواية قتادة : لأنّ تحية

---

(١) [٨/ الأنفال/ ٢٦] ونصها : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) الأثر رقم ١٠٢٢١ .

المسلمين السلام ، بها يتعارفون . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر قال : أُنزلت هذه الآية في مرداس . وهذا شاهد حسن . وأسند ابن أبي حاتم أن أسامة حلف لا يقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، بعد ذلك الرجل ، وما لقي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه .

قال بعض المفسرين من أئمة الزيدية : وبهذا اعتذر إلى عليّ عليه السلام حتى تخلف عنه ، وإن كان عذراً غير مقبول . لأن القتال مع الإمام واجب عند خروج البغاة ويكفر يمينه .

قال الحاكم : إلا أن أمير المؤمنين أذن له . انتهى .

وروى الإمام أحمد[1] عن عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم . فخرجت في نفرمن المسلمين فيهم أبوقتادة الحارث بن ربعيّ، ومحلِّم بن جثَّامة بن قيس . فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعيّ على قعود له . معه مُتَيِّع له (تصغير متاع . وهوالسلعة)ووطب من لبن. فلما مر بنا سلم علينا. فأمسكنا عنه . وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه وبينه . وأخذ بعيره ومُتيِّعه . فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر ، نزل فيناالقرآن : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ إلى قوله تعالى ـ خَبِيرًا . ورواه ابن جرير[2] عن ابن عمر وزاد : فجاء محلم في بردين. فجلس بين يدي النبيّ صلى الله عليه وسلم ليستغفر له فقال رسول الله ﷺ : لاغفرالله لك . فقام وهويتلقى دموعه ببرديه. فما مضت لهسابعة حتى مات.ودفنوه في الأرض . فلفظته الأرض، فجاؤا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له . فقال إن

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١١ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) وابن جرير : الأثر رقم ١٠٢١٢ .

(٢) الأثر رقم ١٠٢١١ .

الأرض تقبل من هو شرٌّ من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم. ثم طرحوه بين صَدَفَيْ جبل، وألقوا عليه الحجارة، ونزلت .

وروى أئمة السير؛ أنه لما كان عام خيبر، جاء عيينة بن بدر يطلب بدم عامر وهو سيد قيس. وكان الأقرع بن حابس يردّ عن محلِّم وهو سيد خندف ، فقال رسول الله ﷺ لقوم عامر : هل لكم أن تأخذوا منا الآن خمسين بعيراً، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟ فقال عيينة بن بدر: والله ! لا أَدَعُهُ حتى أذيق نساءه من الحرّ مثل ما أذاق نسائي . فلم يزل به حتى رضي بالدية.

قال ابن إسحق : وحدثني سالم بن النضر قال : لم يقبلوا الدية حتى قام الأقرع بن حابس فخلا بهم . فقال : يا معشر قيس ! سألكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتيلاً تتركونه ليصلح به بين الناس فمنعتموه إياه . أفأمنتم أن يغضب عليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيغضب عليكم الله لغضبه ؟ أو يلعنكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيلعنكم الله بلعنته ؟ والله ! لتسلمنّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآتين بخمسين من بني تميم كلهم يشهدون أن القتيل ما صلى قط. فلأبطلن دمه . فلما قال ذلك أخذوا الدية .

وأخرج ابن منده عن جزء بن الحدرجان قال : وَفَدَ أخي، قدادٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليمن . فلقيته سرية النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال لهم : أنا مؤمن . فلم يقبلوا منه وقتلوه . فبلغني ذلك . فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ ... الآية . فأعطاني النبيّ صلى الله عليه وسلم دية أخي .

قال القفال : ولا منافاة بين هذه الروايات. فلعلها نزلت عند وقوعها بأسرها. فكان كل فريق يظن أنها نزلت في واقعته . انتهى .

وتقدم لنا في مقدمة التفسير في سبب النزول ما يدفع التنافي في نحو هذا. فارجع إليه .

تنبيه :

قال الرازيّ: اعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة في تحريم قتل المؤمنين، وأمر المجاهدين بالتثبت فيه، لئلا يسفكوا دماً حراماً بتأويل ضعيف . وفي (الإكليل) : استدل بظاهرها

على قبول توبة الزنديق إذا أظهر الاستسلام. وعلى أن الكافر يحكم له بالإسلام إذا أظهر ما ينافي اعتقاده، على قراءة (السلام) وفى الآية وجوب التثبت فى الأمور، خصوصاً القتل ووجوب الدعوة قبل القتال. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): فى الآية دليل على أن من أظهر شيئاً من علامات الإسلام لم يحلّ دمه حتى يختبر أمره. لأن الإسلام تحية المسلمين. وكان تحيتهم فى الجاهلية بخلاف ذلك. فكانت هذه علامة. وأما على قراءة (السلم) بفتحتين، أو بكسر فسكون، فالمراد به الانقياد. وهو علامة الإسلام. انتهى.

وقال بعض مفسرى الزيدية: ثمرة الآية الكريمة وجوب التثبت والتأنى فيما يحتمل الحظر والإباحة. لقوله: فَتَبَيَّنُوا (بالنون) وهذا قراءة الأكثر. وحمزةُ والكسائىّ قراءتهما: (فتثبتوا) من (الثبات). ويدخل فى هذا أحكام كثيرة من الاعتقادات والأخبار والأفعال من الأحكام وسائر الأعمال، فهذا حكم. والحكم الثانى أنه يجب الأخذ بالظاهر. فمن أظهر الإسلام أو شيئاً من شعائر الإسلام، لا يكذّب بل يقبل منه. ويدخل، فى هذا، الملحدُ والمنافقُ. وهذا هو مذهبنا والأكثر. ويدخل فى هذا قبول توبة المرتدّ، خلافاً لأحمد. وقبول توبة الزنديق. وهذا قول عامة الأئمة.

وقال مالك: لا تقبل، لأن هذا عين مذهبهم أنهم يظهرون خلاف ما يبطنون.

قال الراضى بالله والإمام يحيى: إن أظهروا ما يعتادون إخفاءه قبلت توبتهم. وإلا فلا.

قال على خليل: تقبل توبتهم، ولو عرفنا من باطنهم خلاف ما أظهروا. كما قبل النبىّ صلى الله عليه وسلم من المنافقين، وقد أخبر الله تعالى بكفرهم.

وقال أبو مضر: تقبل مالم يعرف كذبهم. وهذا الخلاف فى الظاهر. وأما عند الله، إذا صدق، فهى مقبولة وفاقا. قال الحاكم: وتدل على أن التوصل بالسبب المحرم إلى المال لا يجوز. وقد ذكر العلماء صوراً فى التوصل إلى المباح بالمحظور، مختلفة. ذكرت فى غير هذا

الموضع . والحجة هنا من قوله تعالى (تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . لأن الذى قصد هنا أخذه، محظور . لأن إظهار الإسلام يحقن النفس والمال . فذلك توصل بمحظور إلى محظور .

وقوله تعالى : لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً . قرئ (السلم) وهذه قراءة نافع وحمزة وابن عامر بغير ألف وهو الاستسلام. وقيل : إظهار الإسلام . وقرأ الباقون: (السلام) بألف وهو التحية . انتهى .

وقال أبو منصور فى (التأويلات) : فيه الأمر بالتثبت عند الشبهة، والنهى عن الإقدام عندها . وهكذا الواجب على المؤمن الوقف عند اعتراض الشبهة فى كل فعل وكل خبر . لأن الله تعالى أمر بالتثبت فى الأعمال بقوله : فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً . وقال فى الخبر : إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا[1] . أمر بالتثبت فى الأخبار عند الشبهة، كما أمر فى الأفعال لنبيه صلى الله عليه وسلم: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ[2] . وفى الآية دليل فساد قول المعتزلة . لأنه نهاهم أن يقولوا (لمن قال : إنى مسلم) لست مؤمناً. وهم يقولون : صاحب الكبيرة ليس بمؤمن . وهو يقول ألف مرة (على المثل) أنى مسلم . فإذا نهى أن يقولوا: ليس بمؤمن. أمرهم أن يقولوا: هو مؤمن. فيقال لهم : أنتم أعلم أم الله ؟ على ما قيل لأولئك. انتهى .

وقال الرازى : قال أكثر الفقهاء: لو قال اليهودى والنصرانى : أنا مؤمن، أو قال : أنا مسلم، لا يحكم بهذا القدر بإسلامه . لأن مذهبه أن الذى هو عليه هو الإسلام . وهو الإيمان . ولو قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعند قوم لا يحكم بإسلامه ، لأن فيهم من يقول : إنه رسولُ الله إلى العرب، لا إلى الكل . ومنهم من يقول : إن محمداً الذى هو الرسول الحق،

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] .

بعدُ ماجاء ، وسيجيء بعد ذلك . بل لابد وأن يعترف بأن الدين الذى كان عليه باطل،وأن الدين الموجود فيما بين المسلمين هو الحق والله أعلم . انتهى .

أقول: كل من قال: أنا مؤمن أو أنا مسلم ، من المحاربين ، مظهراً الانقياد لنا، وأنه من ملتنا ، فإنه يحكم بإسلامه ، ويكف عن قتله وأخذ ماله . كتابيًّا كان أو مشركا . وهذا هو المقصود من الآية . وأما مسألة من أراد الدخول فى الإسلام وهو على عقيدةفاسدة، وأنه لابد فى صحة إسلامه من تبرئه عنها ، ونبذها ظهرياً ، وأنه لايكتفى بقوله : أنا مسلم ـ فذاك بحث آخر مسلَّم . لكن ليس مما تشمله الآية . كما أن من أظهر الإسلام وأتى بالشهادتين ولم يَدِنْ بشرائع الإسلام وإقامة شعائره ، كبعض القبائل البادية الجافية ، فإنه يجب على الإمام قتالهم. ولا يقال: إن الآية تشملهم لما ذكرنا . وظاهر أن مدار النهى فى الآية إنما هو على سفك الدماء ابتغاء عرض الدنيا. لقوله (تبتغون). وهو حال كما أسلفنا . والحال قيد لعاملها. فما ذكره الرازى عن الفقهاء ليس مما تشمله الآية . لأن البحث ليس فى القدر الذى يصير به الكافر مسلماً ، بل فى الكف عن قتل المنقاد لنا . فافهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

«لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ» بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم فى الجهاد ، بعد ما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ، ليأنف القاعد عنه ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته ، فيهتز له رغبة فى ارتفاع طبقته. قاله أبو السعود .

وأصله للزمخشري حيث قال : فإن قلت : معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان. فما فائدة نفي الاستواء ؟ قلت : معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد . ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته ، فيهتز للجهاد ويرغب فيه ، وفي ارتفاع طبقته . ونحوه : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[1] . أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليُهَابَ به إلى التعلّم ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم . انتهى .

والمراد بهم، وقت النزول، القاعدون عن غزوة بدر والخارجون إليها . كما رواه البخاري[2] والترمذي عن ابن عباس . وقوله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ، مخرج لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد: من العمى والعرج والمرض، عن مساواتهم للقاعدين. فإنهم مساوون المجاهدين بالنية . ولا يعتد بزيادة أجر العمل لهم لعظم أمر النية . كما روى الإمام أحمد والبخاري[3] وأبو داود عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه . قالوا : وهم بالمدينة ؟ يارسول الله ! قال : نعم . حبسهم العذر . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً، وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر كمن راحا

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] ونصها : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٨ ـ باب لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث ١٨٤١

(٣) أخرجه البخاري في: ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ٣٥ ـ باب من حبسه العذر عن الغزو، حديث ١٣٦٠ .

وروى البخاريّ[١] عن البراء قال : لما نزلت: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها . فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته . فأنزل الله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ . وفي رواية للبخاريّ[٢] عن زيد : فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ . قال: يارسول الله! والله ! لوأستطيع الجهاد لجاهدت. وكان أعمى . فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وكان فخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضّ فخذي . ثم سرّي عنه فأنزل الله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ .

وقوله تعالى « بِأَمْوَالِهِمْ » أي: التي ينفقونها على أنفسهم في الجهاد أو على مجاهد آخر « وَأَنْفُسِهِمْ » أي: التي هي أعز عليهم من كل شيء . وإن أنفق عليهم غيرهم إذا لم يكن عندهم مال .

قال أبو السعود : وإيرادهم ، يعني الغزاة ، بعنوان المجاهدين ، دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه ، كما وقع في عبارة ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذا تقييد المجاهدة بكونها في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ـ لمدحهم بذلك والإشعار بعلة استحقاقهم لعلوّ المرتبة ، مع ما فيه من حسن موقع السبيل في مقابلة القعود . انتهى .

وظاهر أن نفي المساواة يستلزم التفضيل . إلا أنه للاعتناء به ، وليتمكن أشد تمكن، لم يكتف بما فهم ضمناً ، بل صرح به فقال «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ» . لأنهم رجحوا جانبه « بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ » أي: غير أولي الضرر « دَرَجَةً » في القرب ممن رجحوا جانبه « وَكُلًّا » أي: كل واحد من القاعدين والمجاهدين « وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ » أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة، لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم . والجملة اعتراض جيء به تداركاً

(١) أخرجه البخاريّ في: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٨ ـ باب لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ١٣٥٦ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٨ ـ باب لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ١٣٥٧ .

لما عسى يوهمه تفضيل أحـد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول « وَفَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ » بالجهاد « عَلَى الْقَاعِدِينَ » أى بغير عذر « أَجْراً عَظِيماً » . أى: ثواباً وافراً فى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« دَرَجَاتٍ مِنْهُ » بدل من (أَجْرًا) بدل الكل . مبيّن لكمية التفضيل و (مِنْهُ) متعلق بمحذوف وقع صفة لـ (دَرَجَاتٍ) دالة على فخامتها وجلالة قدرها . قاله أبو السعود .

وقد ثبت فى الصحيحين[١] عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله ﷺ قال: إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله . ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال[٢] رسول الله ﷺ : من رمى بسهم فله أجره درجة . فقال رجل : يارسول الله ! وما الدرجة ؟ فقال: أما إنها ليست بعتبة أمك : ما بين الدرجتين مائه عام « وَمَغْفِرَةً » أى : لذنوبهم « وَرَحْمَةً »

(١) الحديث ليس لأبى سعيد وإنما هو لأبى هريرة. وهو من ضمن حديث طويل أخرجه البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٤ ـ باب درجات المجاهدين فى سبيل الله، حديث ١٣٣٥ وهذا نصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها ». فقالوا : يا رسول الله ! أفلا نبشر الناس ؟ قال « إن فى الجنـة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، مابين الدرجتين كما بين السماء والأض . فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، أُراه فوقه عرش الرحمن . ومنه تتفجر أنهار الجنة » .

(٢) الحديث فى سنن النسائىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢٦ ـ باب ثواب من رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل . ولـكن عن كعب بن مرّة .

فوق الأجر ودرجاته « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً » تذييل مقرر لما وعد من المغفرةوالرحمة .

وههنا فوائد :

الأولى ـ دلت الآية على أن الجهاد ليس بفرض عين . إذلو كان فرضاً من فروض الأعيان لم يكن للقاعد فضل ، ولكن تفاوت الفضل بينه وبين المجاهد ، وقال : وكلا وعد الله الحسنى .

الثانية ـ دلت أيضا على أن الجهاد أفضل من القرب التي يفعلها القاعد . لأنه فضّله على القاعد مطلقاً . ويؤيد هذا قوله ﷺ : الجهاد سنام الدين . وقد فرّع العلماء على هذا أن رجلًا لو وقف ماله على أحسن وجوه البر ، أو أوصى أن يصرف فى أحسن وجوه البرّ ، فإنه يصرف فى الجهاد . خلاف ما ذكره أبو علىّ أنه يصرف فى طلب العلم . كذا فى بعض التفاسير .

الثالثة ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية تفضيل المجاهدين على غيرهم . وأن المعذورين فى درجة المجاهدين، واستدل بقوله (بِأَمْوالِهِمْ) على تفضيل المجاهد بمال نفسه على المجاهد بمال يعطاه من الديون أو نحوه .

الرابعة ـ قال الرازىّ : لقائل أن يقول : إنه تعالى قال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ . فقدم ذكر النفس على المال . وفى الآية التى نحن فيها وهى قوله : وَالْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . قدم ذكر المال على النفس ، فما السبب ؟ وجوابه : أن النفس أشرف من المال . فالمشترى قدم ذكر النفس تنبيها على أن الرغبة فيها أشد . والبائع أخر ذكرها تنبيها على أن المضايقة فيها أشد . فلا يرضى ببذلها إلا فى آخر المراتب .

الخامسة ـ قال أبو السعود : لعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبىء عن المغايرة ، وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات، مع اتحاد المفضل والمفضل عليه ، حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام ـ إمالتنزيل الاختلاف العنوانىّ بين التفضيلين وبين الدرجةوالدرجات

منزلة الاختلاف الذاتى تمهيداً لسلوك طريق الإبهام، ثم التفسير رَوْمًا لمزيد التحقيق والتقرير. كما فى قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(١) . كأنه قيل : فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادَر قدرها ، ولا يبلغ كنهها . وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين ، قيل : وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام ، بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة، فقيل ما قيل . ولله در شأن التنزيل . وإما للاختلاف بالذات بين التفضيليين وبين الدرجة والدرجات ، على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلًا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة ، وبالتفضيل الثانى ما أنعم به فى الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر ، كما ينبىء عنه تقديم الأول وتأخير الثانى ، وتوسيط الوعد بالجنة بينهما ، كأنه قيل : وفضلهم عليهم . فى الدنيا درجة واحدة وفى الآخرة درجات لا تحصى . وقد وسط بينهما فى الذكر ما هو متوسط بينهما فى الوجود ، أعنى الوعد بالجنة ، توضيحاً لحالها ومسارعة إلى تسلية المفضول . والله سبحانه أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » روى البخارى(١) عن ابن عباس

---

(١) [١١ / هود / ٥٨] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٩ ـ باب إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ... الآية ، حديث ١٩٩٣

أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ. يأتى السهم فيُرْمَى به فيصيب أحدهم فيقتله. أو يُضرب فيُقتل. فأنزل الله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ...الآية. وأخرجه ابن مردويه، وسمى منهم (فى روايته) قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة، وعمرو بن أمية بن سفيان ، وعلىّ بن أمية بن خلف . وذكر فى شأنهم أنهم خرجوا إلى بدر . فلما رأوا قلة المسلمين دخلهم شك وقالوا : غرّ هؤلاء دينهم . فقتلوا ببدر . وأخرجه ابن أبى حاتم، وزاد: منهم الحرث بن زمعة بن الأسود، والعاص بن منبه بن الحجاج. وأخرج الطبرانىّ عن ابن عباس قال : كان قوم بمكة قد أسلموا . فلما هاجر رسول الله ﷺ كرهوا أن يهاجروا ، وخافوا . فأنزل الله : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، إلى قوله : إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ . وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة قد أسلموا . وكانوا يخفون الإسلام. فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر . فأصيب بعضهم . فقال المسلمون : هؤلاء كانوا مسلمين ، فأكرهوا فاستغفروا لهم . فنزلت: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ... الآية . فكتبوا بها إلى من بقى منهم ، وإنه لا عذر لهم ، فخرجوا . فلحق بهم المشركون ففتنوهم فرجعوا . فنزلت : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ[1]. فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزنوا. فنزلت: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَافُتِنُوا .. الآية[2]. فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا . فلحقوهم . فنجا من نجا وقتل من قتل .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١٠] . . . وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٠] . . . ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

وأخرج ابن جرير[1] من طرق كثيرة نحوه. كذا في (لباب النقول). قال المهايمي : ولما أوهم ما فهم مما تقدم ، من تساوى القاعدين أولى الضرر والمجاهدين ، أن من قعد عن الجهاد لكونه في دار الكفر محسوب منهم ، وإن عجز عن إظهار دينه ، فإن لم يحسب فلا أقل من أن يحسب من القاعدين غير أولى الضرر ، الموعود لهم الحسنى ـ أزيل ذلك الوهم بأنهم بترك الهجرة من مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم ، مع إمكان الخروج عنه ، صاروا ظالمين مستحقين لتوبيخ الملائكة ، بل لعذاب جهنم ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ أي: في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة عن مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم مع القدرة عليها وبموافقة الكفار . و (توفاهم) يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ: (توفتهم) ومضارعاً بمعنى تتوفاهم. بمعنى أن الله يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها. أى: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. كذا في (الكشاف) . و(الظلم) قد يراد به الكفر كقوله تعالى : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[2]. وقد يراد به المعصية كقوله: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ[3]. ويصح إرادة المعنيين هنا كما أشرنا . روى أبو داود[4] عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ : من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله. « قالوا » أى : الملائكة للمتوفين ، تقريراً لهم بتقصيرهم وتوبيخاً لهم « فِيمَ كُنْتُمْ » أى: في أى شيء كنتم من أمور دينكم « قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ » أى : أرض الأعداء . قال الزمخشري : كيف صح وقوع قوله (كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) جواباً عن قولهم (فِيمَ كُنْتُمْ) وكان حق الجواب : كنا في كذا

(١) الأثر رقم ١٠٢٦١ـ١٠٢٦٩ .

(٢) [٣١/ لقمان/ ١٣] ونصها: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٣٢]

(٤) أخرجه أبو داود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٠ ـ باب في الإقامة بأرض الشرك ، حديث ٢٧٨٧ .

أو لم نكن فى شىء ؟ قلت معنى (فيم كنتم) التوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا . فقالوا : كنا مستضعفين اعتذاراً مما وبخوا به ، واعتلالًا بالاستضعاف ، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا فى شىء. فبكتتهم الملائكة بقولهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » أرادوا : إنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التى لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة . وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب ، والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ـ حقت عليه المهاجرة. انتهى.

« فَأُولَـٰئِكَ » أى: النفر المذكور « مَأْوَاهُمْ » أى: مصيرهم « جَهَنَّمُ » لأنهم الذين ضعّفوا أنفسهم إذ لم يلجئهم الأعداء إلى مساكنة ديارهم «وَسَاءَتْ مَصِيرًا» أى: جهنم . بدل المصير إلى دار الهجرة . ثم استثنى سبحانه من أهل الوعيد ما بينه بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا)

« إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ » لعمى أو عرج أو مرض أو هرم أو فقر « وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » أى: الصبيان فإنهم معذورون فى ترك الهجرة لأنهم « لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً » فى الخروج، إذ لا قوة لهم على الخروج ولا نفقة « وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا » أى: لا يعرفون طريقاً إلى دار الهجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا)

« فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ » أن يتجاوز عنهم بترك الهجرة . قال الرازىّ :

ههنا سؤال . وهو أن القوم لما كانوا عاجزين عن الهجرة ، والعاجز عن الشيء غير مكلف به، وإذا لم يكن مكلفاً به لم يكن عليه فى تركه عقوبة ـ فلِمَ قال : عسى الله أن يعفو عنهم ؟ والعفو لا يتصور إلا مع الذنب . وأيضاً (عسى) كلمة الإطماع. وهذا يقتضى عدم القطع بحصول العفو فى حقهم . والجواب عن الأول : أن المستضعف قد يكون قادراً على ذلك الشيء مع ضرب من المشقة . وتمييز الضعف الذى يحصل عنده الرخصة، عن الحد الذى لا يحصل عنده الرخصة، شاق ومشتبه . فربما ظن الإنسان بنفسه أنه عاجز عن المهاجرة ، ولا يكون كذلك، ولا سيما فى الهجرة عن الوطن . فإنها شاقة على النفس . وبسبب شدة النفرة قد يظن الإنسان كونه عاجزًا . مع أنه لا يكون كذلك . فلهذا المعنى كانت الحاجة إلى العفو شديدة فى هذا المقام . والجواب عن الثانى ـ بأن الفائدة فى (عسى) الدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه . حتى إن المضطر البيّن الاضطرار من حقه أن يقول : عسى الله أن يعفو عنى . فكيف الحال فى غيره ؟ هذا ما ذكره صاحب (الكشاف) .

والأولى فى الجواب ما قدمناه . وهو أن الإنسان لشدة نفرته عن مفارقة الوطن، ربما ظن نفسه عاجزاً عنها . مع أنه لا يكون كذلك فى الحقيقة . فلهذا المعنى ذكر العفو بكلمة (عسى) لا بالكلمة الدالة على القطع . انتهى. وقال أبو السعود : جيء بكلمة (الإطماع) ولفظ (العفو) إيذانا بأن الهجرة من تأكيد الوجوب بحيث ينبغى أن يعد تركها ، ممن تحقق عدم وجوبها عليه ، ذنباً يجب طلب العفو عنه ، رجاءً وطمعاً . لا جزماً وقطعاً . وقال المهايمى: فيه إشعار بأن ترك الهجرة أمر خطير . حتى إن المضطر حقه أن يترصد الفرصة ويعلق قلبه بها . وإن الصبىّ إذا قدر فلا محيص له عنه . وإن قوّامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم . ثم أكد الإطماع لئلا ييأسوا فقال « وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا » وفى إقحام (كان) إشارة إلى اتصافه تعالى بهذه الصفة قبل خلق الخلق. أو أن هذه عادته تعالى، أجراها فى حق خلقه . ووعده بالعفو والمغفرة مطلقاً مما يدل على أنه تعالى قد يعفو عن الذنب قبل التوبة .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بالآية على وجوب الهجرة من دار الكفر ، إلّا على من لم يطقها . وعن مالك : الآية تقتضى أن كل من كان فى بلد تُغَيَّرَ فيه السنن، فينبغى أن يخرج منه . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية وجوب الهجرة من دار الكفر . ولا خلاف أنها كانت واجبة قبل الفتح . ولذلك قال الله تعالى فى سورة الأنفال : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَىْءٍ(١) . قيل : ونسخت بعد الفتح . والصحيح عدم النسخ . وقوله صلى الله عليه وسلم(٢) : لا هجرة بعد الفتح ، معناه من مكة .

قال جار الله : وهذا يدل على أن الرجل إذا كان فى بلد لايتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب ، وعلم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله ، حقت عليه الهجرة . ثم قال رحمه الله : قال فى التهذيب : وعن القاسم بن إبراهيم : إذا ظهر الفسق فى دار ، ولا يمكنه الأمر بالمعروف ، فالهجرة واجبة . وهذا بناء على أن الدور ثلاث : دار إسلام ، ودار فسق ، ودار حرب . وهذا التقسيم هو مذهب الهادى والقاسم ، وابن أبى النجم فى كتاب

(١) [٨ / الأنفال/ ٧٢] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١ ـ باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا هجرة بعد الفتح . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا » .

(الهجرة والدور) عن الراضى بالله وجعفر بن مبشر وأبى علىّ. وذهب الإخوان وعامة الفقهاء وأكثر المعتزلة إلى النفى لدار الفسق . واعلم أن من حُمِل على معصيةٍ أو تركِ واجبٍ أو طالبه الإمام بذلك ، فالمذهب وجوب الهجرة مع حصول الشروط المعتبرة . وقد قال الراضى بالله : إن من سكن دار الحرب مستحلًّا ، كَفَرَ . لأن ذلك رد لصريح القرآن . واحتج بهذه. وقد حكى الفقيه حسام الدين حميد بن أحمد عن القاسم والهادى والراضى بالله : التكفير لمن ساكن الكفار فى ديارهم . وفى (مهذب الراضى بالله) : يكفر إذا جاورهم سنة . قال الفقيه شرف الدين محمد بن يحيى ، حاكياً عن الراضى بالله: إنه يكفر بسكنى دار الحرب وإن لم يستحل؛ لأن ذلك منه إظهار الكفر على نفسه . والحكم بالتكفير محتمل هنا . ثم قال : وإنما استثنى تعالى الولدان ، وإن كانوا غير داخلين فى التكليف ، بياناً لعدم حيلتهم . والهجرة إنما تجب على من له حيلة. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : الهجرة الترك . والهجرة إلى الشىء الانتقال إليه عن غيره . وفى الشرع : ترك مانهى الله عنه . وقد وقعت فى الإسلام على وجهين : الأول ـ الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن . كما فى هجرتى الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة . الثانى ـ الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان . وذلك بعد أن استقرّ النبىّ ﷺ بالمدينة ، وهاجر إليه مَنْ أمكنه ذلك من المسلمين . وكانت الهجرة ، إذ ذاك ، تختص بالانتقال إلى المدينة . إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص . وبقى عموم الانتقال من دار الكفر، لمن قدر عليه، باقياً . انتهى. وقد أفصح ابن عمر بالمراد. فيما أخرجه الإسماعيلىّ بلفظ : انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار . أى: ما دام فى الدنيا دار كفر ، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشى أن يفتن على دينه . وقد روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة . أخرجها مجد الدين بن تيمية فى (منتقى الأخبار) فى ترجمة (باب بقاء الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وأن لا هجرة من دار

أسلم أهلها) ثم قال : عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] : من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله. رواه أبو داود . وعن جرير بن عبد الله أن رسول الله[٢] صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود . فأسرع فيهم القتل . فبلغ النبيّ ﷺ . فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا : يارسول الله ! لم ؟ قال : لا تراءى ناراهما . رواه أبوداود والترمذيّ . وعن معاوية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لاتنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها. رواه أحمد[٣] وأبو داود[٤]. وعن عبدالله بن السعديّ أن رسول الله ﷺ قال[٥] : لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدوّ . رواه أحمد والنسائيّ .

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٠ ـ باب فى الإقامة بأرض الشرك ، حديث ٢٧٨٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٥ ـ باب النهى عن قتل من اعتصم بالسجود ، حديث ٢٦٤٥ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) ونصه :
عن أبى هند البجليّ قال: كنا عند معاوية ، وهو على سريره وقد غمض عينيه . فتذاكرنا الهجرة . والقائل منا يقول : قد انقطعت . والقائل منا يقول : لم تنقطع . فاستنبه معاوية . فقال : ما كنتم فيه ؟ فأخبرناه . وكان قليل السرد على النبيّ ﷺ . فقال : تذاكرنا عند رسول الله ﷺ فقال « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » .

(٤) وأخرجه أبوداود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢ ـ باب فى الهجرة هل انقطعت ؟ ، حديث ٢٤٧٩ .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٧٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال[١] : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة . رواه الجماعة إلا ابن ماجة . وعن عائشة ، وسئلت عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم . كان المؤمن يفر بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن . فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام . والمؤمن يعبد ربه حيث شاء . رواه[٢] البخاريّ . وعن مجاشع بن مسعود أنه جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبيّ ﷺ فقال : هذا مجالد . جاء يبايعك على الهجرة. فقال : لاهجرة بعد فتح مكة. ولكن أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد. متفق عليه[٣] . ولما تضمنت ترجمة المجد، رحمه الله ، شقين،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١ ـ باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ .

ومسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٨٥ (طبعتنا) .

وأبو داود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢ ـ باب في الهجرة، هل انقطعت؟ حديث ٢٤٨٠.

والترمذيّ في : ١٩ ـ كتاب السِّيَر ، ٣٢ ـ باب ما جاء في الهجرة .

والنسائي في : ٣٩ ـ كتاب البيعة ، ١٥ ـ باب ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٥٣ ـ باب وقال الليث ، حديث ١٤٥٧ .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٥٣ ـ باب وقال الليث ، حديث ١٤١٣و١٤١٤ .

ومسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٨٣و٨٤ (طبعتنا) .

وهذا نص البخاريّ :

عن أبي عثمان قال : حدثني مجاشع قال : أتيت النبيّ ﷺ ، بأخي ، بعد الفتح . قلت : يا رسول الله ! جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة . قال « ذهب أهل الهجرة بما فيها » فقلت : على أي شيء تبايعه ؟ قال « أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد » .

فلقيت أبا معبد بعدُ ، وكان أكبرهما . فسألته فقال : صدق مجاشع .

أورد لكلٍّ أحاديث ، فمن قوله : لاهجرة بعد الفتح. الخ ، جميعه للشق الثانى . وهو قوله : وأن لا هجرة من دار أسلم أهلها ، إشارة للجمع بين هذه الأحاديث . وهو ظاهر . ثم رغب تعالى فى المهاجرة بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ » فى طاعته « يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً » أى: طريقاً يراغم فيه أنوف أعدائه القاصدين إدراكه « كَثِيرًا وَسَعَةً » أى: فى الرزق ، أو فى إظهار الدين ، أو فى الصدر ، لتبدل الخوف بالأمن « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ » بمكة « مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ » إلى طاعته ، أوالى مكان أمرالله «وَ» إلى«رَسُولِهِ » بالمدينة «ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ » أى: فى الطريق قبل أن يصل إلى المقصد «فَقَدْ وَقَعَ » أى: ثبت «أَجْرُهُ عَلَى اللهِ »أى: فلايخاف فوات أجره الكامل، لأنه نوى مع الشروع فى العمل . ولاتقصير منه فى عدم إتمامه «وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً » فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التى جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج . ويرحمه بإكمال ثواب هجرته .

تنبيهات

الأول ـ فيما روى فى نزول الآية . أخرج ابن أبى حاتم وأبو يعلى بسند جيد عن ابن عباس قال : خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً . فقال لأهله : احملونى فأخرجونى من أرض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . فنزل الوحى : ومن يخرج من بيته...الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد

ابن جبير عن أبي ضمرة الزرقيّ ، الذى كان مصاب البصر ، وكان بمكة . فلما نزلت : إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ، فقال: إنى لغنىّ وإنى لذوحيلة . فتجهز يريد النبىّ صلى الله عليه وسلم . فأدركه الموت بالتنعيم. فنزلت هذه الآية: وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ... إلى آخرها. وأخرج ابن جرير[1] نحو ذلك من طرقٍ ، عن سعيد ابن جرير وعكرمة وقتادة والسدّىّ والضحاك وغيرهم . وسمى فى بعضها ضمرة بن العيص، أو العيص بن ضمرة . وفى بعضها جندب بن ضمرة الجندعىّ . وفى بعضها الضمرىّ . وفى بعضها رجل من بنى ضمرة . وفى بعضها رجل من خزاعة . وفى بعضها رجل من بنى ليث . وفى بعضها من بنى كنانة . وفى بعضها من بنى بكر .

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ؛ أن جندع بن ضمرة الضمرىّ كان بمكة . فمرض. فقال لبنيه : أخرجونى من مكة فقدقتلنى غمها . فقالوا : إلى اين؟ فأومأ بيده نحو المدينة . يريد الهجرة . فخرجوا به . فلما بلغوا أَضاة بنى غفار ، مات . فأنزل الله فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ ... الآية .

وأخرج الأموىّ فى (مغازيه) عن عبد الملك بن عمير قال : لما بلغ أكثم بن صيفىّ مخرج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يأتيه . فأبى قومه أن يدعوه . قال : فليأت من يبلغه عنى ويبلغنى عنه . فانتدب له رجلان . فأتيا النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفىّ وهو يسألك : مَنْ أنت؟ وما أنت؟ وبم جئت؟ قال أنا محمد بن عبد الله . وأنا عبد الله

---

(١) عن سعيد بن جبير الأثر رقم ١٠٢٨٢ ورقم ١٠٢٨٣ .

وعن عكرمة الأثر رقم ١٠٢٨٧و١٠٢٩١و١٠٢٩٢ .

وعن قتادة الأثر رقم ١٠٢٨٥و١٠٢٨٦ .

وعن السدّىّ الأثر رقم ١٠٢٩٠ .

وعن الضحاك الأثر رقم ١٠٢٨٩ .

ورسوله . ثم تلا عليهم : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ . . . الآية[١] . فأتيا أكثم فقالا له ذلك . قال : أى قوم ! إنه يأمر بمكارم الأخلاق . وينهى عن ملائمها . فكونوا فى هذا الأمر رؤساً ولا تكونوا فيه أذناباً . فركب بعيره متوجهاً إلى المدينة ، فمات فى الطريق . فنزلت فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ... الآية . قال السيوطىّ : مرسل . إسناده ضعيف .

وأخرج أبو حاتم فى كتاب (المعمرين) من طريقين عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن هذه الآية ؟ فقال : نزلت فى أكثم بن صيفىّ . قيل : فأين الليثىّ ؟ قال : هذا قبل الليثىّ بزمان. وهى خاصة عامة .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن منده والباوردىّ فى (الصحابة) عن هشام بن عروة ، عن أبيه ؛ أن الزبير بن العوام قال : هاجر خالد بن حرام إلى أرض الحبشة . فنهشته حية فى الطريق فمات . فنزلت فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ ... الآية .

قال الزبير : فكنت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة . فما أحزننى شىء حزن وفاته حين بلغتنى . لأنه قلَّ أحدٌ هاجر من قريش إلا ومعه بعض أهله ، أو ذوى رحمه . ولم يكن معى أحد من بنى أسد بن عبد العزى ولا أرجو غيره .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا الأثر غريب جداً . فإن هذه القصة مكية . ونزول الآية مدنىّ . فلعله أراد أنها تعم حكمه مع غيره ، وإن لم يكن ذلك سبب النزول . والله أعلم .

الثانى ـ ثمرة الآية ، أن من خرج للهجرة ، ومات فى الطريق فقد وجب أجره على الله. قال الحاكم : لكن اختلف العلماء . فقيل : أجر قصده . وقيل : أجر عمله دون أجر الهجرة. وقيل: بل له أجر المهاجرة ، وهو ظاهر فى سبب نزول الآية .

---

(١) [١٦ / النحل / ٩٠] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

قال الحاكم : وقد استدل بعض العلماء أن الغازى يستحق السهم وإن مات فى الطريق .

قال : وهو بعيد . لأن المراد بالآية أجرالثواب .

قال الزمخشرىّ ، حكاية عن المفسرين : إن كل هجرة لغرض دينىّ من طلب علم أو حج أو جهاد ، أو فراراً إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة ، أو زهداً فى الدنيا ، وابتغاء رزق طيب ، فهى هجرة إلى الله ورسوله . وإن أدركه الموت فى طريقه فأجره واقع على الله .

ووقع فى كلام الزمخشرىّ على الآية السابقة هذا الدعاء . وهو : اللهم ! إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى ، فاجعلها سبباً فى خاتمة الخير ، ودرك المرجوّ من فضلك ، والمبتغى من رحمتك ، وصِلْ جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك فى دار كرامتك ، ياواسع المغفرة .

وكلامه ، رحمه الله ، بناه على أنه يستحب للإنسان أن يدعو الله بصالح عمله .

وقد ذكر البخارىّ(١) ومسلم حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وانسد عليهم بصخرة . وصوبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دعا كل واحد منهم بصالح عمله . وانفرجت عنهم الصخرة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٨ ـ باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضى ، حديث ١١١١ .

وأخرجه مسلم فى: ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار،حديث١٠٠(طبعتنا).

وهذا نصه من البخارىّ :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبىّ ﷺ قال : خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر . فدخلوا فى غار فى جبل . فانحطت عليهم صخرة . قال فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه . فقال أحدهم: اللهم! إنى كان لى أبوان شيخان كبيران. فكنت أخرج فأرعى -

وقد اقتضت الآية لزوم الهجرة ولو ببذل مال كالحج . وفيما سبق من حديث الذى حمل من مكة وقـد قال : احملونى فإنى لست من المستضعفين ـ إشارة إلى أنها تجب الهجرة إذا تمـكن من الركوب ولو مضطجعاً فى المحمل . لأنه حمل على سرير . وقد ذكر المتأخرون (فى الحج) أن الصحيح الذى يلزمه أن يمـكنه الثبات على المحمل ، قاعداً لا مضطجعاً ، لأن أحداً لا يعجز عن ذلك . فيحتمل أن يسوى بين المسألتين . وأنه يجب الحج ولو مضطجعاً .

= ثم أجىء فأحلُب . فأجىء بالحِلاب فآتى به أبوىّ فيشربان . ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى. فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان. قال فـكرهت أن أوقظهما. والصبية يتضاغَوْن عند رجلى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر . اللهم ! إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء . قال ففرج عنهم .

وقال الآخر : اللهم ! إن كنت تعلم أنى كنت أحب امرأة من بنات عمى . كأشد مايحب الرجل النساء . فقالت : لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار . فسعيت فيها حتى جمعتها. فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تَفُضَّ الخاتَم إلا بحقه . فقمت وتركتها .

فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة .

قال ففَرَجَ عنهم الثلثين .

وقال الآخر : اللهم ! إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيراً بفَرَقٍ من ذُرَةٍ . فأعطيته . فأبى ذاك أن يأخذ . فعمدتُ إلى ذلك الفرَق فزرعته حتى اشتريت منه بقراً وراعيها . ثم جاء فقال : يا عبد الله ! أعطنى حقى . فقلت : انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك .

فقال : أتستهزئ بى ؟

قال فقلت : ما أستهزئ بك . ولـكنها لك .

اللهم ! إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا .

فـكُشِف عنهم .

وأنهما لايجبان مع الاضطجاع . وفعل ضميرة على سبيل الشذوذ . ويحتمل أن يفرق بينهما ويجعل الهجرة أغلظ . لأن فعل المحظور ، وهو الإقامة ، أغلظ من ترك الواجب . وهذا يحتاج إلى تحقيق . كذا فى تفسير بعض الزيدية .

الثالث ـ روى فى معنى هذه الآية أحاديث وافرة . منها ما فى الصحيحين[١] والسنن والمسانيد : عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه .

قال ابن كثير : وهذا عام فى الهجرة وفى جميع الأعمال .

ومنه الحديث الثابت فى الصحيحين[٢] فى الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكمل، بذلك العابد، المائةَ . ثم سأل عالما : هل له من توبة ؟ فقال له : ومن يحول بينك

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب الوحى ، ١ـباب حدثنا الحميدى ، حديث ١ .
ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٥٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٦٢٩ .

ومسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

ونصه عن البخارىّ :

عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا . ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال: لا. فقتله. فجعل يسأل . فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدره نحوها. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه أن : تقرّبى . وأوحى الله إلى هذه أن : تباعدى وقال : قيسوا ما بينهما . فوجد إلى هذه أقربَ بشبر . فغُفِر له .

وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت فى أثناء الطريق . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقال هؤلاء : إنه جاء تائباً. وقال هؤلاء : إنه لم يَصِلْ بعد . فأمروا إن يقيسوا مابين الأرضين . فإلى أيهما كان أقرب فهو منها . فأمر الله هذه أن تقترب من هذه وهذه أن تبعد . فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر . فقبضته ملائكة الرحمة . وفى رواية : أنه لما جاءه الموت نأى بصدره إلى الأرض التى هاجر إليها .

وروى الإمام أحمد(١) عن عبد الله بن عتيك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من خرج من بيته مهاجراً فى سبيل الله ، فخرّ عن دابته فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أومات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : سافرتم « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى : إثم

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من خرج من بيته مجاهداً فى سبيل الله عز وجل (ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث الوسطى والسبابة والإبهام فجمعهن وقال : وأين المجاهدون) فخر عن دابته ومات فقد وقع أجره على الله تعالى . أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله . أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله عز وجل » (والله ! إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ) فمات فقد وقع أجره على الله تعالى . ومن مات قعصاً فقد استوجب المآب .

« أَنْ تَقْصُرُوا » أى : تنقصوا شيئاً «مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ » أى : يقاتلكم الَّذِينَ كَفَرُوا »فى الصلاة « إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً » ظاهر العداوة. فلا يراعون حرمة الصلاة لعداوتهم .

تنبيه : فى مسائل تتعلق بالآية :

الأولى ـ ذهب الجمهور إلى أن الآية عنى بها تشريع صلاة السفر . وإن معنى قوله تعالى: « أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » هو قصر الكمية، وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية . قالوا : وحكمها للمسافر فى حال الأمن كحكمها فى حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقاً. روى الترمذىّ[١] والنسائى وابن أبى شيبة عن ابن عباس . أن النبىّ صلى الله عليه وسلم: خرج من المدينة لايخاف إلا الله رب العالمين . فصلى ركعتين . وروى البخارىّ[٢] وبقية الجماعة عن حارثة بن وهب قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن ما كان ، بمنى ، ركعتين . وروى البخارىّ[٣] والبقية عن أنس قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة . فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . قلت : أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال : أقمنا بها عشراً .

وحينئذ فقوله تعالى : (إِنْ خِفْتُمْ) خرج مخرج الغالب ، حال نزول الآية . إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة فى مبدئها مخوفة . بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عامّ ، أو سرية خاصة ، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله . والمنطوق ، إذا خرج مخرج الغالب

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٣٩ ـ باب ماجاء فى التقصير فى الصلاة.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ٢ ـ باب الصلاة بمنى ، حديث ٥٩٧ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١ ـ باب ما جاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر ؟ حديث ٥٩٥ .

فلا مفهوم له . كقوله : وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً[١] . وكقوله تعالى : وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُم ... الآية[٢] .

قالوا : ويدل على أن المراد بالآية صلاة السفر مارواه الإمام أحمد[٣] ومسلم وأهل السنن عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب . قلت له : قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... وقد أمن الناس ؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه . فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم . فاقبلوا صدقته .

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي حنظلة الحذاء قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر؟

---

(١) [٢٤ / النور / ٣٣] ونصها : وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٤/ النساء/ ٢٣] ونصها: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ١٧٤ (طبعة المعارف) وأخرجه مسلم في: ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٤ (طبعتنا).

فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا. ـ ونحن آمنون؟ فقال : سنة رسول الله ﷺ .

وروى ابن مردويه عن أبي الوداك قال : سألت ابن عمر عن ركعتين في السفر ؟ فقال : هي رخصه نزلت من السماء . فإن شئتم فردوها .

قالوا : فهذا يدل على أن القصر المذكور في الآية هو القصر في عدد الركعات . وإن ذلك كان مفهوماً عندهم من معنى الآية . قالوا : ومما يدل على أن لفظ (القصر) كان مخصوصاً في عرفهم بنقص عدد الركعات . ولهذا المعنى ، لما صلى النبيّ ﷺ الظهر ركعتين ، قال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟[1]

هذا، وذهب كثير من السلف، منهم مجاهد والضحاك والسدّيّ ، إلى أن هذه الآية نزلت في صلاة الخوف. وأن المعنيّ بالقصر هو قصر الكيفية لا الكمية . لأن عندهم كمية صلاة المسافر ركعتان . فهي تمام غير قصر . كما قاله عمر وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم . قالوا : ولهذا قال تعالى : (إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) وقال تعالى بعدها (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ...) الآية . فبين المقصود من القصر ههنا . وذكر صفته وكيفيته. ولهذا لما عقد البخاريّ (كتاب صلاة الخوف) صدّره بقوله تعالى: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ... إلى قوله : إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وهكذا قال جويبر عن الضحاك في قوله: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ، قال : ذاك عند القتال. يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه . وقال

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢٢ ـ كتاب السهو، ٤ ـ باب من لم يتشهد في سجدتي السهو، حديث ٣٢٠ ونصه . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ انصرف من اثنتين . فقال له ذوا اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ يارسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : أصدق ذو اليدين ؟ فقال الناس: نعم . فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم . ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول . ثم رفع .

أسباط عن السدى ، فى هذه الآية : إن الصلاة إذا صليت ركعتين فى السفر فهى تمام التقصير. لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة ، فالتقصير ركعة . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ، يوم كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان . والمشركون بضجنان فتوافقوا . فصلى النبى ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات . بركوعهم وسجودهم وقيامهم معاً جميعاً . فهم بهم المشركون أن يُغيروا على أمتعتهم وأثقالهم . روى ذلك ابن أبى حاتم . ورواه ابن جرير(١) عن مجاهد والسدى ، وعن جابر وابن عمر . واختار ذلك أيضاً . فإنه قال ، بعد ما حكاه من الأقوال فى ذلك : وهو الصواب . ثم روى عن أمية أنه قال لعبد الله بن عمر : إنا نجد فى كتاب الله قصر صلاة الخوف ولا نجد قصر صلاة المسافر . فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به . فقد سمى صلاة الخوف مقصورة . وحمل الآية عليها ، لا على قصر صلاة المسافر . وأقره ابن عمر على ذلك . واحتج على قصر الصلاة فى السفر بفعل الشارع . لا بنص القرآن . وأصرح من هذا ما رواه أيضاً عن سماك الحنفى قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر ؟ فقال: ركعتان تمام غير قصر. إنما القصر فى صلاة المخافة . فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال . يصلى الإمام بطائفة ركعة . ثم يجىء هؤلاء إلى مكان هؤلاء . ويجىء هؤلاء إلى مكان هؤلاء . فيصلى بهم ركعة. فيكون للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .

هذا ما نقله ابن كثير. وهو موافق لما نقله بعض مفسرى الزيدية عن الهادوية والقاسمية؛ أن الآية واردة فى صلاة الخوف ، وأن المراد بالقصر فى الآية قصر الصفة . بمعنى أن المأموم يقصر ائتمامه فيأتم بركعة . ويصلى منفرداً فى ركعة . انتهى .

(١) عن مجاهد ، الأثر رقم ١٠٣٢١ و١٠٣٢٢ و١٠٣٢٣ .
وعن السدى ، الأثر رقم ١٠٣٢٦ .
وعن جابر ، الأثر رقم ١٠٣٢٥ .
وعن ابن عمر ، الأثر رقم ١٠٣٢٧ .

قال العلامة أبو السعود : إن هذه الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفيته . وفي حق ما يتعلق به من الصلوات . وفي مقدار مدة الضرب الذى نيط به القصر . فكل ماورد عنه ﷺ من القصر فى حال الأمن، وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف ، وبالضرب فى المدة المعينة ـ بيان لإجمال الكتاب .

المسألة الثانية ـ إذا حمل القصر على قصر العدد، وأن الرباعية تكون ركعتين، فما حكم هذا القصر؟ قلنا : فى هذا مذاهب أربعة : الأول ـ أن القصر رخصة والإتمام أفضل . الثانى ـ أنه حتمٌ، الثالث ـ أنه سنة غير حتم . الرابع ـ أنه مخير كما يخير فى الكفارات . وأنهما ، أعنى القصر والإتمام، واجبان . وهاك بيان متعلق هذه المذاهب . تعلق أهل القول الأول بقوله تعالى : فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ . وهذه الكلمة تستعمل فيما هو مباح جائز، لا فيما هو فرض . نحو : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا[1] . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ[2] . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ[3] . إن قيل : قد يستعمل ذلك فى الواجب

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٠] ونصها : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٦] ونصها : لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٢ / البقرة/ ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

مثل: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا[1]. أجابوا بأن ذلك على سبيل المجاز . ومن جهة السنة، ماروى عن عائشة قالت: اعتمرت مع النبيّ ﷺ من المدينة إلى مكة. حتى إذا قدمت مكة قلت : يا رسول الله ! بأبى وأمى أنت ! قصرت وأتممت . وصمت وأفطرت . فقال : أحسنت ، يا عائشة ! وما عاب علىّ . وكان عثمان يقصر ويتم .

ومن جهة المعنى، أن المعقول والمفهوم من لفظ (القصر) إنما هو الرخصة لأجل مشقة المسافر. كما رخص له فى الإفطار . وفى الحديث: تلك صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته . تعلق أهل المذهب الثانى بأن قالوا : حملنا لفظ الجناح على الفرض ، وإن كان مجازاً ، لما روى عن ابن عباس[2] قال : فرضت الصلاة فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين . وعن عمر[3] : صلاة الجمعة ركعتان وصلاة السفر ركعتان . تمام غير قصر . على لسان نبيكم . وكانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره ركعتين . وأقام بمكة ثمانية عشر يوماً يقصر ويقول : أتموا، ياأهل مكة! فإنا قوم سفر. وعن الشعبىّ : من أتم فى السفر فقد رغب عن ملة إبراهيم . وروى أن عثمان أتم الصلاة بمنى . فأنكر عليه عبد الله بن مسعود . وقال : صليتُ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين . وخلف أبى بكر ركعتين . منفصلتين . فاعتذر عثمان بضروب من الأعذار . منها أنه قد تأهل . وقيل : أتم لأن مذهبه أن القصر لمن لم يكن له زاد ولا راحلة. وهو مذهب سعد بن أبى وقاص . فيكون قولنا : قصرت

(١) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ.

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٧٣ ـ باب تقصير الصلاة فى السفر ، حديث ١٠٦٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٧٣ ـ باب تقصير الصلاة فى السفر ، حديث ١٠٦٤ (طبعتنا) .

الصلاة، مجازا ، لأنها تامة إذا نقص من الأربع. ويقولون: هذه الأخبار تعارض مايفهم من معقولية التسهيل . ومتعلق أهل القول الثالث والرابع بالجمع بين الروايات ، وسائر الوجوه التى تعلق بها أهل القولين الأولين . فكان واجباً مخيّراً . ومن قال : إنه سنة ، فلأن المشهورعنه ﷺ القصر فى الأسفار، كذا فى تفسير بعض الزيدية .

أقول : حديث عائشة المذكور . رواه النسائىّ والدارقطنىّ والبيهقىّ . واختلف قول الدارقطنىّ فيه، فقال فى (السنن) : إسناده حسن . وقالفى (العلل) : المرسل أشبه . وقال ابن حزم : هذا حديث لا خير فيه . وطعن فيه . وقال ابن النحوىّ (فىالبدر المنير): فى متن هذا الحديث نكارة . وهو كون عائشة خرجت مع النبىّ ﷺ فى عمرة رمضان . والمشهور أن عمره كلهن فى ذى القعدة. وأطال فىذلك .

وقال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : وكا ﷺ يقصر الرباعية . فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافراً إلى أن يرجع إلى المدينة . ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية فى سفره البتة . وأما حديث عائشة أن النبىّ ﷺ كان يقصر فى السفر ويتم ، ويفطر ويصوم ، فلا يصح . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هو كذب على رسول الله ﷺ . انتهى .

وقد روى (كان يقصر وتتم) الأول بالياء آخر الحروف . والثانى بالتاء المثناة من فوق. وكذلك (يفطر وتصوم) أى تأخذ هى بالعزيمة فى الموضعين .

قال شيخنا ابن تيمية : وهذا باطل . ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله ﷺ وجميع أصحابه . فتصلى خلاف صلاتهم . كيف ؟ والصحيح عنها[1] ؛ أن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيدت فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فكيف يظن بها ، مع ذلك ، أن تصلى بخلاف صلاة النبىّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه؟.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ١ ـ كيف فرضت الصلوات فى الإسراء ، حديث ٢٣٦ .

ثم قال ابن القيم : قلت : وقد أتمت عائشة بعد موت النبي ﷺ . قال ابن عباس وغيره : إنها تأولت كما تأول عثمان . وإن النبي ﷺ كان يقصر دائماً . فركب بعض الرواة من الحديثين حديثاً وقال : فكان رسول الله ﷺ يقصر وتتم هي . فغلط بعض الرواة فقال : كان يقصر ويتم . أي : هو . والتأويل الذي تأولته قد اختلف فيه . فقيل : ظنت أن القصر مشروط بالخوف والسفر . فإذا زال سبب الخوف زال سبب القصر . وهذا التأويل غير صحيح . فإن النبي ﷺ سافر آمناً . وكان يقصر الصلاة . والآية قد أشكلت على عمر رضي الله عنه وغيره . فسأل عنها رسول الله ﷺ فأجابه بالشفاء . وأن هذا صدقة من الله وشرع شرعه للأمة . وكان هذا بيان أن حكم المفهوم غير مراد . وأن الجناح مرتفع في قصر الصلاة عن الآمن والخائف . وغايته أنه نوع تخصيص للمفهوم ، أو رفع له . وقد يقال : إن الآية اقتضت قصراً يتناول الأركان بالتخفيف . وقصر العدد بنقصان ركعتين . وقيد ذلك بأمرين : الضرب في الأرض والخوف . فإذا وجد الأمران ، أبيح القصر . فيصلون صلاة تامة كاملة . وإن وجد أحد السببين ترتب عليه قصره وحده . فإذا وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفى العدد . وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق في الآية . فإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفى الأركان ، وسميت صلاة أمن . وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق . وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة ، باعتبار نقصان العدد . وقد تسمى تامة ، باعتبار إتمام أركانها ، وأنها لم تدخل في قصر الآية . والأول اصطلاح كثير من الفقهاء المتأخرين . والثاني يدل عليه كلام الصحابة . كعائشة وابن عباس وغيرهما . قالت عائشة : فرضت الصلاة ركعتين . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فهذا يدل على أن صلاة السفر عندها غير مقصورة من أربع . وإنما هي مفروضة كذلك . وأن فرض المسافر ركعتان . وقال ابن عباس : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً . وفي السفر ركعتين . وفي الخوف ركعة . متفق على

حديث عائشة . وانفرد مسلم[١] بحديث ابن عباس .

وقال عمر بن الخطاب[٢] : صلاة السفر ركعتان . والجمعة ركعتان . والعيد ركعتان . تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وقد خاب من افترى. وهذا ثابت عن عمر رضى الله عنه . وهو الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم : ما بالنا نقصر وقد أمنّا ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقة تصدق الله بها عليكم . فاقبلوا صدقته . ولا تناقضَ بين حديثيه . فإن النبىّ صلى الله عليه سلم لما أجابه بأن هذه صدقة الله عليكم ، ودينه اليسر السمح ، علم عمر أنه ليس المراد من الآية قصر العدد ، كما فهمه كثير من الناس ، فقال: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر . وعلى هذا فلا دلالة فى الآية على أن قصر العدد مباح، منفىّ عنه الجناح . فإن شاء المصلى فعله وإن شاء أتم . وكان رسول الله ﷺ يواظب فى سفره على ركعتين ركعتين ولم يربع قط إلا شيئاً فعله فى بعض صلاة الخوف . كما سنذكره هناك، ونبيّن ما فيه إن شاء الله تعالى . وقال أنس[٣] : خرجت معرسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلىمكة. وكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . متفق عليه .

ولما بلغ[٤] عبد الله بن مسعود أن عثمان بن عفان صلى بمنى أربع ركعات ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين . وصليت مع أبى بكر بمنى

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنه فيها ، ٧٣ ـ باب تقصير الصلاة فى السفر ، حديث ١٠٦٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١ ـ باب ما جاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر ، حديث ٥٩٥ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ٢ ـ باب الصلاة بمنى ، حديث ٥٩٨ .

ركعتين وصليت مع عمر ركعتين . فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان. متفق عليه. ولم يكن ابن مسعود ليسترجع من فعل عثمان أحد الجائزيْن المخير بينهما . بل الأولى على قول . وإنما استرجع لما شاهده من مداومة النبيّ ﷺ وخلفائه على ركعتين . وفى صحيح البخارىّ[١] عن ابن عمر رضى الله عنه قال: صحبت رسول الله ﷺ . فكان فى السفر لا يزيد على ركعتين . وأبا بكر وعمر وعثمان (يعنى فى صدر خلافة عثمان). وإلا فعثمان قد أتمّ فى آخر خلافته . وكان ذلك أحد الأسباب التى نكرت عليه . وقد خرج لفعله تأويلات : أحدها ـ أن الأعراب كانوا قد حجوا تلك السنة . فأراد أن يعلمهم أن فرض الصلاة أربع، لئلا يتوهموا أنها ركعتان فى الحضر والسفر . ورد هذا التأويل بأنهم كانوا أحرى بذلك فى حج النبيّ ﷺ . فكانوا حديثى عهد بالإسلام ، والعهد بالصلاة قريب . ومع هذا فلم يربع بهم النبيّ ﷺ . الثانى ـ أنه كان إماماً للناس . والإمام حيث نزل فهو عمله ومحل ولايته . فكأنه وطنه . وردّ هذا التأويل بأن إمام الخلائق على الإطلاق رسول الله ﷺ ، كان هو أولى بذلك . وكان هو الإمام المطلق ولم يربّع ، التأويل الثالث ـ أن منى كانت قد بنيت وصارت قرية كثر فيها المساكن فى عهده . ولم يكن ذلك فى عهد رسول الله ﷺ . بل كانت فضاء . ولهذا قيل له: يارسول الله! ألا تبنى لك بمنى بيتا يظلك من الحر ؟ فقال: لا. منى مناخ من سبق . فتأول عثمان أن القصر إنما يكون فى حال السفر . ورد هذا التأويل بأن النبيّ ﷺ أقام بمكة عشراً يقصر الصلاة . التأويل الرابع ـ أنه أقام بها ثلاثا . وقد قال[٢] النبيّ صلى الله عليه وسلم: يقيم المهاجر بعد نسكه ثلاثاً . فسماه مقيماً . والمقيم غير مسافر . ورد هذا التأويل بأن هذه إقامة مقيّدة فى أثناء السفر ، ليست بالإقامة التى هى قسيم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١١ ـ باب من لم يتطوع فى السفر دبر الصلاة وقبلها ، حديث ٦٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٢ (طبعتنا) ونصه : عن العلاء بن الحضرمىّ قال : قال رسول الله ﷺ « يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ، ثلاثا » .

السفر . وقد أقام صلى الله عليه وسلم بمكة عشرا يقصر الصلاة . وأقام بمنى بعد نسكه ، أيام الجمار الثلاث ، يقصر الصلاة . التأويل الخامس ـ أنه كان قد عزم على الإقامة والاستيطان بمنى ، واتخاذها دار الخلافة. فلهذا أتم . ثم بدا له أن يرجع إلى المدينة . وهذا التأويل أيضاً مما لا يقوى . فإن عثمان رضى الله عنه من المهاجرين الأولين. وقد منع صلى الله عليه وسلم المهاجر من الإقامة بمكة بعد نسكه . ورخص له ثلاثة أيام فقط . فلم يكن عثمان ليقيم بها وقد منع النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك . وإنما رخص فيها ثلاثاً . وذلك لأنهم تركوها لله . وما ترك لله فإنه لا يعاد فيه ولا يسترجع . ولهذا منع النبيّ ﷺ من شراء المتصدق لصدقته . وقال لعمر[1] : لا تشترها ولا تعد فى صدقتك . فجعله عائداً فى صدقته مع أخذها بالثمن . التأويل السادس ـ أنه كان قد تأهل بمنى . والمسافر إذا أقام فى موضع وتزوج فيه أو كان له به زوجة ، أتم . ويروى فى ذلك حديث مرفوع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. فروى عكرمة عن إبراهيم الأزدىّ عن أبى ذياب عن أبيه قال: صلى عثمان بأهل منى أربعاً وقال : يا أيها الناس ! لما قدمت تأهلت بها وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا تأهل الرجل ببلدة فإنه يصلى بها صلاة مقيم رواه الإمام احمد[2] فى (مسنده) وعبد الله ابن الزبير الحميدىّ فى (مسنده) أيضاً . وقد أعله البيهقىّ بانقطاعه وتضعيف عكرمة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٣٧ ـ باب إذا حمل رجل على فرس فهو كالعمرى والصدقة ، حديث ٧٩٧ ونصه :

عن زيد بن أسلم قال : سمعتُ أبى يقول : قال عمر رضى الله عنه : حملت على فرس فى سبيل الله . فرأيته يباع . فسألت رسول الله ﷺ فقال : « لا تشتر . ولا تَعُدْ فى صدقتك »

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٦٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) حديث ٤٤٣ (طبعة المعارف) ونصه : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن أبيه : أن عثمان ابن عفان صلى بمنى أربع ركعات . فأنكره الناس عليه . فقال : يا أيها الناس ! إنى تأهلت بمكة منذ قدمت . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من تأهل فى بلد . فليصلّ صلاة المقيم ».

قال أبو البركات ابن تيمية : ويمكن المطالبة بسبب الضعف . فإن البخاري ذكره في تاريخه ولم يطعن فيه . وعادته ذكر الجرح والمجروحين . وقد نص أحمد ، وابن عباس قبله ، أن المسافر إذا تزوج لزمه الإتمام . وهذا قول أبي حنيفة ومالك وأصحابهما . وهذا أحسن ما اعتذر به عن عثمان . وقد اعتذر عن عائشة أنها كانت أم المؤمنين . فحيث نزلت فكان وطنها. وهو أيضاً اعتذار ضعيف . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أبو المؤمنين . وأمومة أزواجه فرع على أبوته . ولم يكن يتم لهذا السبب . وقد روى هشام بن عروة عن أبيه أنها كانت تصلي في السفر أربعاً . فقلت لها : لو صليت ركعتين ؟ فقالت : يا ابن أختي ! لا يشق علي .

قال الشافعي رحمه الله : لو كان فرض المسافر ركعتين ، لما أتمها عثمان ولا عائشة ولا ابن مسعود . ولم يجز أن يتمها مسافر مع مقيم . وقد قالت عائشة : كل ذلك قد فعله رسول الله ﷺ . أتم وقصر . ثم روى عن إبراهيم عن محمد عن طلحة بن عمر عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة قالت: كل ذلك فعل النبي ﷺ . قصر الصلاة في السفر ، وأتم .

قال البيهقي : وكذلك رواه المغيرة بن زياد عن عطاء . وأصح إسناد فيه ما أخبرنا أبو بكر الحازمي عن الدارقطني عن المحاملي : حدثنا سعيد بن محمد بن أيوب . حدثنا أبو عاصم . حدثنا عمر بن سعيد عن عطاء ، عن عائشة ، أن النبي ﷺ كان يقصر الصلاة في السفر ويتم . ويفطر ويصوم . قال الدارقطني : وهذا إسناد صحيح. ثم ساق من طريق أبي بكر النيسابوري عن عباس الدوري : أنا أبو نعيم . حدثنا العلاء بن زهير . حدثني عبد الرحمن ابن الأسود عن عائشة ، أنها اعتمرت مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة. حتى إذا قدمت مكة قالت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي ! قصرتَ وأتممتُ وصمتُ وأفطرتَ . قال : أحسنت ، يا عائشة !

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا الحديث كذب على عائشة. ولم تكن عائشة لتصلي بخلاف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الصحابة . وهي تشاهدهم يقصرون

ثم تتم وحدها بلا موجب . كيف وهى القـائلة : فرضت الصلاة ركعتين . فزيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فكيف يظن أنها تزيد على ما فرض الله ؟ وتخالف رسول الله ﷺ وأصحابه ؟

قال الزهرىّ لعروة ، (لما حدثه عن أبيه عنها بذلك) : فماشأنها ؟ كانت تتم الصلاة. فقال : تأولت كما تأول عثمان . فإذا كان النبىّ ﷺ قد حسن فعلها وأقرها ، فما للتأويل حينئذ وجه . ولا يصح أن يضاف إتمامها إلى التأويل على هذا التقدير . وقد أخبر ابن عمر أن رسول الله ﷺ لم يكن يزيد فى السفر على ركعتين ولا أبو بكر ولا عمر . أفيظن بعائشة أم المؤمنين مخالفتهم وهى تراهم يقصرون ؟ وأما بعد موته ﷺ فإنها أتمت . كما أتم عثمان . وكلاهما تأول تأويلًا . والحجة فى روايتهم لا فى تأويل الواحد منهم . مع مخالفة غيره له . والله أعلم .

وقد قال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن. ولا نجد صلاة السفر فى القرآن . فقال له ابن عمر : يا أخى ! إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً . فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل . وقد قال أنس[1] : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة . فكان يصلى ركعتين ركعتين . حتى رجعنا إلى المدينة . وقال ابن عمر : صحبت رسول الله ﷺ . فكان لا يزيد فى السفر على ركعتين. وأبا بكر وعمر وعثمان رضى عنهم . وهذه كلها أحاديث صحيحة . انتهى كلام ابن القيّم .

قال الإمام الشوكانىّ فى (نيل الأوطار): وقد استدل، بحديثى عائشة، القائلون بأن القصر رخصة . ويجاب عنهم بأن الحديث الثانى لا حجة لهم فيه . لما تقدم من أن لفظ (تتم وتصوم) بالفوقانية . لأن فعلها ، على فرض عدم معارضته لقوله وفعله صلى الله عليه وسلم، لا حجة فيه. فكيف إذا كان معارضاً للثابت عنه من طريقها وطريق غيرها من الصحابة ؟ وأما الحديث الأول،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١ ـ باب ماجاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر ، حديث ٥٩٥ .

فلو كان صحيحاً ، لكان حجة. لقوله صلى الله عليه وسلم فى الجواب عنها : أحسنت. ولكنه لا ينتهض لمعارضة ما فى الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة . وهذا بعد تسليم أنه حسن ، كما قال الدارقطنى . فكيف ؟ وقد طعن فيه بتلك المطاعن المتقدمة . فإنها بمجردها توجب سقوط الاستدلال به عند عدم المعارض . انتهى .

المسألة الثالثة ـ استدل بعموم الآية من جوّز القصر فى كل سفر طويلًا أو قصيراً. ووجهه أن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ يصدق على كل ضرب . ولكنه خرج الضرب أى: المشى لغير السفر ، لما كان يقع منه ﷺ من الخروج إلى بقيع الغرقد ونحوه ، ولا يقصر. ولم يأت فى تعيين قدر السفر الذى يقصر فيه المسافر شىء . فوجب الرجوع إلى مايسمى سفراً لغة وشرعاً . ومن خرج من بلده قاصداً إلى محل ، يعد فى مسيره إليه مسافراً، قصر الصلاة . وإن كان ذلك المحل دون البريد . ولم يأت من اعتبر البريد واليوم واليومين والثلاث وما زاد على ذلك ، بحجة نيرة . وغاية ما جاءوا به حديث(١): لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر ثلاثة أيام بغير ذى محرم. وفى رواية : يوماً وليلة. وفى رواية : بريداً . وليس فى هذا الحديث ذكر القصر ولا هو فى سياقه . والاحتجاج به مجرد تخمين . وأحسن ما ورد فى التقدير ما رواه شعبة عن يحيى بن زيد الهنائىّ قال : سألت أنساً عن قصر الصلاة ؟ فقال : كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ ، صلى ركعتين . والشك من شعبة . أخرجه مسلم وغيره . فإن قلت : محل الدليل فى نهى المرأة عن السفر تلك المسافة بدون محرم، هو كونه صلى الله عليه وسلم سمى ذلك سفرا . قلت : تسميته سفرا لا تنافى

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٢٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعدا ، إلا ومعها أبوها أو ابنها أو زوجها أو أخوها أو ذو محرم منها » .

تسمية ما دونه سفراً . فقد سمى النبيّ صلى الله عليه وسلم مسافةالثلاث سفرا . كما سمى مسافة البريد سفرا ، فى ذلك الحديث باعتبار اختلاف الرواية . وتسمية البريد سفرا لا ينافى تسمية مادونه سفراً . فإن‌قلت: أخرج الدارقطنىّ والبيهقىّ والطبرانىّ من حديث ابن‌عباس أنه‌صلى الله عليه وسلم قال : يا أهل مكة ! لا تقصروا فى أقل من أربعة برد . من مكة إلى عسفان ـ قلت: هو ضعيف لاتقوم‌به الحجة. فإن فى‌إسناده عبد الوهاب بن‌مجاهد بن‌جبر . وهومتروك. وفى المسألة مذاهب هذا أرجحها . والحاصل أن الواجب هو الرجوع إلى ما يصدق عليه اسم السفر شرعاً أو لغة . كذا فى (الروضة الندية). (وفى المصباح) : سفر الرجـل سفرا مثل طلب ، خرج للارتحال . وفى (القاموس) : قوم سفر وسافرة وأسفار وسفار : ذوو سفَر ، لضدّ الحضر .

هذا وللقصر مباحث مقررة فى شروح السنة .

ولما كان النص السابق الوارد فى‌مشروعية القصر مجملًا بَيّن كيفيته بصورةفى‌مزيدالحاجة إليها ، ويكتفى فيما عداها ببيان السنة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

« وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ » أى: مع أصحابك شهيداً وأنتم تخافون العدوّ « فَأَقَمْتَ لَهُمُ

الصَّلَاةَ » أى: أردت أن تقيم بهم الصلاة بالجماعة التى ، لوفور أجرها، بتحمل مشاقها « فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ » فى الصلاة . أى بعد أن جعلتهم طائفتين . ولتقف الطائفه الأخرى بإزاءالعدوّ ليحرسوكم منهم. وإنما لم يصرح به لظهوره « وَلْيَأْخُذُوا » أى الطائفة التى قامت معك « أَسْلِحَتَهُمْ » معهم لأنه أقرب للاحتياط « فَإِذَا سَجَدُوا » أى : القائمون معك ، سجدتى الركعة الأولى وأتموا الركعة ، فارقوك وأتموا صلاتهم . وتقوم إلى الثانية منتظراً . فإذافرغوا « فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ » أى: فلينصرفوا إلى مقابلة العدوّ للحراسة « وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا » وهى الطائفة الواقفة تجاه العدوّ « فَلْيُصَلُّوا » ركعتهم الأولى « مَعَكَ » وأنت فى الثانية . فإذا جلست منتظراً ، قاموا إلى ثانيتهم وأتموها ثم جلسوا ليسلموا معك . ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الرابعة الباقية لكل من الطائفتين اكتفاء ببيانه صلى الله عليه وسلم لهم . كما يأتى « وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ » أى: تيقظهم . لأن العدوّ يتوهمون فى الأولى كون المسلمين قائمين فى الحرب. فإذا قاموا إلى الثانية ظهر لهم أنهم فى الصلاة. فههنا ينتهزون الفرصة فى الهجوم عليهم . فلذا خص هذا الموضع بزيادة تحذير فقال: وليأخذوا حذرهم وجعله كالآلة ، فأمر بأخذه وعطف عليه « وَأَسْلِحَتَهُمْ » قال الواحدىّ : فيه رخصة للخائف فى الصلاة بأن يجعل بعض فكره فى غير الصلاة . قال أبو السعود : وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر ، لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض عن غيرها، ومئنّة لهجوم العدوّ . كما ينطق به قوله تعالى « وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى تمنوا « لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ » فتضعونها « وَأَمْتِعَتِكُمْ » أى: حوائجكم التى بها بلاغكم « فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً » أى يحملون حملة واحدة فيقتلونكم . فهذا علة الأمر بأخذ السلاح . والأمر بذلك للوجوب . لقوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى لا حرج ولا إثم عليكم « إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ » يثقل معه حمل السلاح « أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ » يثقل

عليكم حمله « أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ » أخرج البخاريّ[1] عن ابن عباس قال : نزلت : إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ ، فى عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً . ثم أمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط . فقيل « وَخُذُوا حِذْرَكُمْ » لئلا يهجم عليكم العدوّ غيلة « إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » أى : يهانون به . ويقال : شديداً . قال أبو السعود : هذا تعليل للأمر بأخذ الحذر . أى : أعدّ لهم عذاباً مهيناً . بأن يخذلهم وينصركم عليهم. فاهتموا بأموركم ولا تهملوا فى مباشرة الأسباب. كى يحل بهم عذابه بأيديكم. وقيل : لما كان الأمر بالحذر من العدوّ موهماً لتوقع غلبته واعتزازه ، نفى ذلك الإيهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوّهم لتقوى قلوبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٣] (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)

« فَإِذَا قَضَيْتُمُ » أى: أتممتم « الصَّلَاةَ » أى: صلاة الخوف ، على ما فصّل « فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ » أى : فداوموا على ذكره تعالى فى جميع الأحوال . فإن ما أنتم عليه من الخوف والحذر مع العدوّ جدير بالمواظبة على ذكر الله والتضرع إليه . قاله الرازيّ . وقال ابن كثير: أمر تعالى بكثرة الذكرعقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعاً مرغباًفيه أيضا بعد غيرها. ولكن هنا آكد لما وقع فيها من التخفيف فى أركانها، ومن الرخصة فى الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما ليس يوجد فى غيرها كما قال تعالى (فى الأشهر

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ٢٢ ـ باب قوله: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، حديث ١٩٩٤ .

الحرم) : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾[١] . وإن كان هـذا منهيًّا عنه فى غيرها ، ولكن فيها آكد لشدة حرمتها وعظمها . « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ » أى : سكنت قلوبكم بالأمن « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى: على الحالة التى كنتم تعرفونها . فلا تغيروا شيئاً من هيآتها « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » أى: فرضاً موقتاً ، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها وإن لزمها نقائص فى رعايتها .

فصل

فى أحكام تتعلق بهذه الآية . الأول ـ فى هذه الآية مشروعية صلاة الخوف وصفتها . وأنه لا يجب قضاؤها . وأنه يطلب فيها حمل السلاح إلا لعذر . الثانى ـ تعلّق بظاهر قوله تعالى (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ) مَنْ لم ير صلاة الخوف بعده صلى الله عليه وسلم . زاعماً أنها خاصة بعهده صلى الله عليه وسلم . لاشتراطه كونه فيهم . ولا يخفى أن الأئمة بعده نوّابه قوّام بما كان يقوم به . فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له صلى الله عليه وسلم . كما فى قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً[٢] . وقد قال صلى الله عليه وسلم[٣] : صلوا كما رأيتمونى أصلى .

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

(٢) [٩/ التوبة/ ١٠٣] ونصها : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان، ١٨ ـ باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة ، حديث ٤٠٢ ونصه: عن مالك بن الحويرث: أتينا النبىّ صلى الله عليه وسلم =

وعموم منطوق هذا الحديث مقدم على ذلك المفهوم . وقد روى أبو داود[1] والنسائىّ والحاكم وابن أبى شيبة وغيرهم ، عن سعيد بن العاص أنه قال (فى غزوة ومعه حذيفة) : أيكم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ؟ فقال حذيفة : أنا . فأمرهم حذيفة فلبسوا السلاح ثم قال : إن هاجكم هيج فقد حل لكم القتال . فصلى بإحدى الطائفين ركعة . والأخرى مواجهة العدو ثم انصرف هؤلاء . فقاموا مقام أولئك . وجاء أولئك فصلى بهم ركعة أخرى . ثم سلم عليهم . وكانت الغزوة بطبرستان . قال بعضهم : وكان ذلك بحضرة الصحابة رضى الله عنهم . فلم ينكره أحد . فحل محلّ الإجماع . وروى أبو داود[2] أن عبد الرحمن بن سمرة صلى، بكابل، صلاة الخوف . الثالث ـ روى الإمام احمد[3] وابن أبى شيبة وسعيد بن منصور وأبو داود والنسائىّ وغيرهم (فى نزول الآية عن أبى عياش رضى الله عنه)

= ونحن شَبَبَة متقاربون. فأقمنا عنده عشرين يوما وليلة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيما رفيقا . فلما ظن أنّا قد اشتهينا أهلنا، أو قد اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا. فأخبرناه . قال «ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم» وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها « وصلوا كما رأيتمونى أصلى . فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكبركم » .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، ١٨ ـ باب من قال يصلى بكل طائفة ركعة ولا يقضون ، حديث ١٢٤٦ .

والنسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ١ ـ أخبرنا إسحق بن إبراهيم .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، ١٧ ـ باب من قال يصلى بكل طائفة ركعة ، ثم يسلم ... الخ . حديث ١٢٤٥ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وأبو داود فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، ١٢ ـ باب صلاة الخوف ، حديث ١٢٣٦ .

والنسائىّ فى: ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف، ٢١ ـ باب أخبرنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار.

قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان . فاستقبلَنا المشركون ، عليهم خالد ابن الوليد . وهم بيننا وبين القبلة. فصلى بنا النبيّ صلى الله عليه وسلم الظهر . فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا : تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ... فحضرت الصلاة. فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا السلاح . فصففنا خلفه صفين. ثم ركع فركعنا جميعاً . ثم رفع فرفعنا جميعاً . ثم سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم . فلما سجدوا وقاموا ، جلس الآخرون . فسجدوا في مكانهم. ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء. ثم ركع فركعوا جميعاً . ثم رفع فرفعوا جميعاً. ثم سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم . فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا . ثم سلم عليهم . وروى عبد الرزاق عن الثوريّ عن هشام ، مثل هذا ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. إلا أنه قال : نكص الصف المقدم القهقرى حين يرفعون رؤسهم من السجود . ويتقدم الصف المؤخر فيسجدون في مصاف الأولين. وروى عبد الرازق وابن المنذر وابن جرير[1] عن ابن أبي نجيح قال : قال مجاهد (في قوله تعالى : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : نزلت يوم كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بعسفان والمشركون بضجنان فتواقفوا. فصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الظهر أربعاً. ركوعهم وسجودهم وقيامهم معاً جميعهم ، فهمّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم ويقاتلوهم، فأنزل الله عليهم: فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ. فصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم العصر وصف أصحابه صفين وكبر بهم جميعاً . فسجد الأولون بسجوده والآخرون قيام لم يسجدوا. حتى قام النبيّ صلى الله عليه وسلم والصف الأول. ثم كبر بهم وركعوا جميعاً. فقدموا الصف الآخر واستأخروا. فتعاقبوا السجود كما فعلوه أول مرة. وقصر النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) الأثر رقم ١٠٣٢١ .

صلاةالعصر ركعتين . وفى هذه الأحاديث أن صلاة الطائفتين مع الإمام جميعاً. واشترا كهم فى الحراسة. ومتابعته فى جميع أركان الصلاة إلا السجود. فتسجد معه طائفة وتنتظر الأخرى حتى تفرغ الطائفة الأولى. ثم تسجد. وإذا فرغوا من الركعة الأولى تقدمت الطائفة المتأخرة مكان الطائفة المتقدمة. وتأخرت المتقدمة. (فإن قلت): لا ينطبق ما فى الآية على هذه الروايات التى حكت سبب نزولها . وذلك لأنه قيـل فى الآية : فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا ... الآية . وفى هذه الروايات أنهم قاموا جميعاً معه ﷺ فى الصلاة. وإنما ينطبق ما فيها على ما رواه[1] الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بإحدى الطائفين ركعة، والطائفة الأخرى مواجهة للعدوّ. ثم انصرفوا وقاموا فى مقام أصحابهم مقبلين على العدوّ. وجاء أولئك. ثم صلى بهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ركعة ثم سـلم. ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . وما روياه عن صالح بن خوّات عمن صلى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع؛ أن الطائفة صفت معه وطائفة وجاه العدوّ. فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً. فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدوّ . وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته. فأتموا لأنفسهم فسلم بهم ـ (قلت): بمراجعة ما أسلفناه فى المقدمة من قاعدة سبب النزول يندفع الإشكال . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسـلم بين ضجنان وعسفان. فقال المشركون : لِهَؤُلَاء صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم . وهى العصر . فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميـلة واحدة . وأن جبريل عليه السلام أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فأمره أن يقسم أصحابه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣١ ـ باب غزوة ذات الرقاع ، حديث ١٨٨٩ .

ومسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣٠٥و٣٠٦ (طبعتنا) .

شطرين . فيصلى بهم وتقوم طائفة أخرى وراءهم . وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . فتكون لهم ركعة وللنبيّ صلى الله عليه وسلم ركعتان. أخرجه أصحاب السنن(١) .

ثم رأيت القرطبيّ بحث فى (تفسيره) نحوماسبق لى حيث قال : وما ذكرناه من سبب النزول فى قصة خالد بن الوليد . لايلائم تفريق القوم إلى طائفتين . ثم قال (بعد رواية حديث أبىهريرة المذكور) قلت: ولاتعارض بين هذه الروايات . فلعله صلى الله عليه وسلم صلى بهم صلاة أخرى مفترقين. انتهى . الرابع ـ ظاهر الآية الكريمة الترخيص لكل طائفة بركعة واحدة. لأنه لم يبين فيها حال الركعة الباقية. وقد روى النسائىّ(٢) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بذى قَرَد فصف الناس خلفه صفين : صفا خلفه وصفاً موازى العدوّ. فصلى بالذين خلفه ركعة. ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء . وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ولم يقضوا ركعة. وكذا روى أبوداود والنسائىّ(٣) أيضاً عن حذيفة أنه صلى بطبرستان بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا. وروى أحمد ومسلم(٤) وأبوداود والنسائىّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فرض الله الصلاة على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فى الحضر ، أربعاً . وفى السفر ركعتين . وفى الخوف ركعة. فهذه الأحاديث تدل على أن من صفة صلاة الخوف، الاقتصار على ركعة لكل طائفة .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): وبالاقتصار على ركعة واحدة فى الخوف ، يقول الثورىّ وإسحق ومن تبعهما . وقال به أبو هريرة وأبو موسى الأشعرىّ وغير واحد من التابعين .

---

(١) أخرجه النسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ١٦ ـ باب أخبرنا العباس بن عبد العظيم .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ٥ ـ باب أخبرنا محمد بن بشار.

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ٢ ـ باب أخبرنا عمرو بن علىّ.

(٤) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٥ (طبعتنا) .

ومنهم من قيّد بشدة الخوف . وقال الجمهور : قصر الخوف قصر هيئة لا قصر عدد . وتأولوا هـذه الأحاديث بأن المراد بها ركعة مع الإمام وليس فيها نفي الثانية . ويرد ذلك قوله في حديث ابن عباس وحذيفة: (ولم يقضوا ركعة) وكذا قوله في حديث ابن عباس الثاني: (وفي الخوف ركعة) وأما تأويلهم قوله (لم يقضوا) بأن المراد منه لم يعيدوا الصلاة بعد الأمن ـ فبعيد جداً . كذا في (نيل الأوطار) نعم. وقع في حديث ابن عمر المتفق عليه وقد قدمناه: ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . وعند أبي داود من حديث ابن مسعود : ثم سلم ، وقام هؤلاء فصلوا لأنفسهم ركعة . ثم سلموا ثم ذهبوا . ورجع أولئك إلى مقامهم فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا . وبالتحقيق، كل ماروي هو من صورها الجائزة. ولما ذكر الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) هديه صلى الله عليه وسلم في أدائها، قال في آخر صورة : وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعة فتذهب ولا تقضي شيئاً . وتجيء الأخرى فيصلي بهم ركعة ولا تقضي شيئاً. فيكون له صلى الله عليه وسلم ركعتان . ولهم ركعة ركعة . وهـذه الأوجه كلها يجوز الصلاة بها .

قال الإمام أحمد : كل حديث يروى في باب صلاة الخوف فالعمل به جائز . انتهى .

وقال ابن كثير : صلاة الخوف أنواع كثيرة. فإن العدوّ تارة يكون تجاه القبلة . وتارة يكون في غير صوبها . ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة . بل يصلون فرادى مستقبلي القبلي وغير مستقبليها . ورجالاً وركباناً. ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هـذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل .

قال المنذريّ : وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحماد . وإليه ذهب طاوس والضحاك. وقد حكى أبو عاصم العباديّ عن محمد بن نصر المروزيّ أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف . وإليه ذهب ابن حزم أيضا . وقال إسحق بن راهويه: أما عند المسايفة

فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء . فإن لم تقدر فسجدة واحدة . لأنها ذكر الله . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة. فلعله أراد ركعة واحدة . كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه. وبه قال جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة والسدّى . ورواه ابن جرير . ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة . كما هو مذهب إسحق بن راهويه . وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكّى حتى قال : فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه . يعني بالنية . رواه سعيد بن منصور في (سننه) عن إسماعيل بن عياش عن شعيب بن دينار عنه . فالله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة . كما أخر النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب الظهر والعصر ، فصلاها بعد الغروب . ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء . وكما قال بعدها ، يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش : لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة . فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق . فقال منهم قائلون : لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تعجيل المسير. ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها . فصلّوا الصلاة لوقتها في الطريق . وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب . ولم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الفريقين . فاحتج في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة ، اليهود . وأما الجمهور فقالوا : هذا كله منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تكن نزلت بعد . فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . وهذا أبين في حديث أبي سعيد الخدرىّ الذى رواه الشافعيّ رحمه الله وأهل السنن . ولكن يشكل عليه ما حكاه البخارىّ[1] في (صحيحه) حيث قال (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدوّ)وقال الأوزاعىّ: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء. كل امرئ لنفسه.فإن لم يقدروا

(١) أخرجه البخارىّ في : ١٢ ـ كتاب صلاة الخوف، ٤ ـ باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدوّ .

على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين. فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين. فإن لم يقدروا فلا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا . وبه قال مكحول. وقال أنس بن مالك : حضرت عند مناهضة حصن تُستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة. فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار. فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففُتِحَ لنا. وقال أنس : وما يسرني، بتلك الصلاة، الدنيا وما فيها . انتهى. ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ثم بحديث[1] أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة. وكأنه كالمختار لذلك . والله أعلم . ولمن جنح له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً . وكان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب. ولم ينقل أنه أنكر عليهم ولا أحد من الصحابة. والله أعلم. قال هؤلاء : وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي . وممن نص على ذلك محمد بن إسحق وموسى بن عقبة والواقدي ومحمد بن سعد، كاتبه وخليفة بن الخياط وغيرهم. وقال البخاري[2] وغيره : كانت ذات الرقاع بعد الخندق، لحديث أبي موسى. وما قدم إلا في خيبر. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في : ١٢ ـ كتاب صلاة الخوف ، ٥ ـ باب صلاة الطالب والمطلوب ، حديث ٥٤٩ ونصه :

عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ لنا ، لما رجع من الأحزاب ، « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصرُ في الطريق . فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها . وقال بعضهم : بل نصلي . لم يُرَدْ منا ذلك .

فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف واحداً منهم .

(٢) البخاري في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٣١ ـ باب غزوة ذات الرقاع وهي غزوة مُحارِب خَصَفَة من بني ثعلبة من غَطَفَان . فنزل نخلا . وهي بعد خيبر . لأن أبا موسى جاء بعد خيبر .

الحكم الخامس ـ استدل بقوله تعالى (طَائِفَةٌ) على أنه لا يشترط استواء الفريقين فى العدد . لكن لابد أن تكون التى تحرس تحصل الثقة بها فى ذلك .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): والطائفة تطلق على القليل والكثير حتى على الواحد. فلو كانوا ثلاثة ووقع لهم الخوف . جاز لأحدهم أن يصلى بواحد . ويحرس واحد . ثم يصلى الآخر . وهو أقل ما يتصور فى صلاة الخوف جماعة .

السادس ـ استدل بالآية على عظم أمر الجماعة بل على ترجيح القول بوجوبها . لارتكاب أمور كثيرة لا تغتفر فى غيرها . ولو صلى كل امرىء منفرداً لم يقع الاحتياج إلى معظم ذلك . أفاده الحافظ ابن حجر فى (الفتح) .

قال ابن كثير : وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة . حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة . فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك .

السابع ـ قال بعض المفسرين: اختلف فى المأمور بأخذ السلاح فى قوله تعالى (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) فقيل : هم الطائفة الذين يواجهون العدوّ . وهذا ظاهر . وقيل : بل هم الطائفة المصلون . وأراد ما لا يشغل عن الصلاة من الدرع والخنجر والسيف ونحو ذلك . وقيل : للطائفتين . وهو قول القاسم . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والظاهر أن المخاطب بأخذ الأسلحة المصلون . إذ من لم يصل إنما أعد للحرس . فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك وتنبيههم عليه . وهم إنما أخروا الصلاة لذلك . أما المصلون فهم فى مظنة طرح الأسلحة لأنهم لم يعتادوا حملها فى الصلاة . فنبهوا على أنهم لا ينبغى لهم طرح الأسلحة وإن كانوا فى الصلاة . لضرورة الخوف وخشية الغرة . وأيضا فصنيع الآية يعطى ذلك . لأنه قال (فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ) وعقب ذلك بقوله (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) فالظاهر رجوع الضمير إليهم . وحيث يعاد إلى غير المصلين يحتاج إلى تكلف فى صحة العود إليهم ، بدلالة قوة الكلام عليهم، وإن لم يذكروا . وناقش

الناصرُ أيضاً ، الزمخشريّ في جعله المراد بقوله تعالى (فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا) غير المصلين. فقال : الظاهر أن معنى السجود ههنا الصلاة ، وقد عبر عنها بالسجود كثيراً. والمراد: فإذا صلت الطائفة ، (أي أتمت صلاتها) فليكونوا من ورائكم . انتهى .

الثامن ـ قال أبو على الجرجانيّ صاحب النظم : قوله تعالى (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) يدل على أنه كان يجوز للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتي بصلاة الخوف على جهة يكون بها حاذراً ، غير غافل عن كيد العدوّ . والذى نزل به القرآن في هذا الموضع هو وجه الحذر. لأن العدوّ يومئذ بذات الرقاع كان مستقبل القبلة . فالمسلمون كانوا مستدبرين القبلة . ومتى استقبلوا القبلة صاروا مستدبرين لعدوّهم . فلا جرم ، أمروا بأن يصيروا طائفتين : طائفة في وجه العدوّ ، وطائفة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم مستقبل القبلة . وأما حين كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بعسفان وببطن نخل ، فإنه لم يفرق أصحابه طائفتين . وذلك لأن العدوّ كان مستدبر القبلة . والمسلمون كانوا مستقبلين لها . فكانوا يرون العدوّ حال كونهم في الصلاة . فلم يحتاجوا إلى الاحتراس إلا عند السجود . فلا جرم ، لما سجد الصف الأول بقي الصف الثاني يحرسونهم . فلما فرغوا من السجود وقاموا ، تأخروا وتقدم الصف الثاني وسجدوا . وكان الصف الأول حال قيامهم يحرسون الصف الثاني . فثبت بما ذكرنا أن قوله تعالى : (خُذُوا حِذْرَكُمْ). يدل على جواز كل هذه الوجوه . والذى يدل على أن المراد من هذه الآية ما ذكرناه، أنا لو لم نحملها على هذا الوجه لصار تكراراً محضاً من غير فائدة . ولوقع فعل الرسول بعسفان وببطن نخل على خلاف نص القرآن . وإنه غير جائز . نقله الرازيّ .

وقال الخطابيّ : صلاة الخوف أنواع صلاها النبيّ صلى الله عليه وسلم في أيام مختلفة وأشكال متباينة . يتحرى في ذلك كله ما هو الأحوط للصلاة والأبلغ في الحراسة . فهي مع اختلاف صورها متفقة المعنى . انتهى . وأنواعها مبينة في شروح السنة . ثم حثهم تعالى على الجهاد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

« وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ » أي: لا تضعفوا في طلب عدوّكم بالقتال بل جدّوا فيهم واقعدوا لهم كل مرصد . ثم ألزمهم الحجة بقوله سبحانه « إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ » أي: ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم . كما قال تعالى : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ(١) . ثم زاد في تقرير الحجة ، وبيّن أن المؤمنين أولى بالمصابرة على القتال من المشركين بقوله تعالى : « وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ » يعني وتأملون من القرب من الله واستحقاق الدرجات من جناته وإظهار دينه ، كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام ، ما لا يأملونه ، فأنتم أولى بالجهاد منهم وأجدر بإقامة كلمة الله « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أي: فلا يكلفكم إلا بما يعلم أنه سبب لصلاحكم في دينكم ودنياكم . فجدوا في الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة .

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية وجوب الجهاد وأنه لا يسقط لما يحصل من المضرة بالجراح ونحوه . وأن التجلد وطلب ما يقوّي لازم ، وما يحصل به الوهن لا يجوز فعله . وتدل على جواز المعارضة والحجاج لقوله (فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ) وتدل على أن للمجاهد أن يجاهد لطلب الثواب لقوله (وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) فجعل هذا سبباً باعثاً على الجهاد . هذا معنى كلام الحاكم . ونظير هذا : لو صلى لطلب الثواب أو السلامة من العقاب . وقد ذكر في ذلك خلاف . فعن الراضي بالله : يجزى ذلك . وقواه الفقيه يحيى بن أحمد . وعن أبي مضر : لا يجزى . لأنه لم ينو الوجه الذي شرع الواجب له . انتهى .

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)

[١٠٦] (وَ اسْتَغْفِرِ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

[١٠٧] (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)

[١٠٨] (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا)

[١٠٩] (هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً » .

« وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ، كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » .

« وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً » .

« يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً » .

« هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » .

روى الحافظ ابن مردويه فى سبب نزولها من طريق العوفى عن ابن عباس[١]: أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته . فسرقت درع لأحدهم . فَأَظَنَّ (أى: اتهم) بها رجلا من الأنصار . فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعى . فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها فى بيت رجل برئ . وقال لنفر من عشيرته : إنى غيبت الدرع وألقيتها فى بيت فلان وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم ليلا فقالوا : يا نبى الله! إن صاحبنا برئ وإن صاحب الدرع فلان . وقد أحطنا بذلك علماً . فاعذرْ صاحبنا على رؤس الناس وجادل عنه . فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرّأه وعذره على رؤس الناس . فأنزل الله : إِنَّآ أَنْزَلْنَا . . . الآية . ثم قال تعالى ـ للذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب ـ : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين يجادلون عن الخائنين . ثم قال عز وجل : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ... الآية . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب. ثم قال : وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً . يعنى السارق والذين جادلوا عن السارق .

قال ابن كثير : وهـذا سياق غريب . وقد ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسّدىّ وابن زيد وغيرهم (فى هذه الآية) أنها نزلت فى سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم ، وهى متقاربة .

وقد روى هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق مطولة . ورواها عنه ، من طريقه ، أبو عيسى الترمذىّ فى (جامعـه) فى كتاب التفسير ، عن قتادة بن النعمان رضى الله عنه ، قال :

---

(١) تفسير الطبرىّ ، الأثر رقم ١٠٤١٣ .

كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق : بِشْر وبَشير (قال أبو ذرّ الخشنيّ : بشير بن أبيرق . كذا وقع هنا : بشير بفتح الباء . وقال الدارقطنيّ : إنما هو بُشَيْر بضم الباء) ومبشّر . وكان بشير رجلًا منافقاً . وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينحله إلى بعض العرب . ثم يقول : قال فـلان كذا أو قال فـلان كذا . فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا : والله ! مايقول هذا الشعر إلا الخبيث . فقال :

أو كلما قال الرجال قصيدة أضِمُوا[1] وقالوا : ابن الأبيرق قالها!

قال : وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة فى الجاهلية والإسلام . وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة ، التمر والشعير . وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك[2] ، ابتاع الرجل منها فخص به نفسه . فأما العيال ، فإنما طعامهم التمر والشعير . فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك فجعله فى مشربة له[3] . وفى المشربة سلاح له : درعان وسيفاهما وما يصلحهما . فعُدِىَ عليه من تحت الليل ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : يابن أخى ! تعلَّمْ أنه قد عُدِى علينا فى ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذُهب بسلاحنا وطعامنا .

---

(١) (أضموا) أى غضبوا عليه وحقدوا .

(٢) الضافطة : كانوا قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما . ثم قالوا، للذى يجلب الميرة والمتاع إلى المدن، والمكارى الذى يكرى الأحمال: الضافطة والضفاط. والدرمك : الدقيق النقىّ الحوارىّ .

(٣) المشربة (بفتح الميم وسكون الشين وفتح الراء أو ضمها) وهى الغرفة ، أو العلّيّة ، أو الصفّة بين يدى الغرفة . والمشارب : العلالى .

قال : فتحسستُ فى الدار[١] وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا فى هذه الليلة ، ولا نرى ، فيما نراه ، إلا على بعض طعامكم .

قال : وقد كان بنو أبيرق قالوا : ونحن نسأل فى الدار : والله ! ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل . رجلًا منا له صلاح وإسلام . فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه[٢] ثم أتى بنى أبيرق فقال: والله ! ليخالطنكم هذا السيف أو لتبيّنُنَّ السرقة . قالوا: إليك عنا أيها الرجل. فوالله ! ماأنت بصاحبها . فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها . فقال عمى : ياابن أخى! لو أتيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكرت ذلك له .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرتُ ذلك له، فقلت : يارسول الله ! إن أهل بيت منا أهل جفاء . عمدوا إلى عمى رفاعة فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه. فليردوا علينا سلاحنا . وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنظرُ فى ذلك . فلما سمع بذلك بنو أبيرق، أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة . فكلموه فى ذلك . واجتمع إليه ناس من أهل الدار . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا ، أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة فى غير بيّنة ولا ثَبَت[٣] . قال قتادة : فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته . فقال عمدتَ إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثَبَت ؟ قال فرجعت . ولوددتُ أنى خرجت من بعض مالى

---

(١) الدار ، هنا ، المحلة التى تنزلها القبيلة أو البطن منها . ويعنى بها القبيلة أو البطن . كما جاء فى الحديث « ألا أنبئكم بخير دور الأنصار؟ دور بنى النجار، ثم دور بنى عبدالأشهل ، وفى كل دور الأنصار خير » . يعنى القبيلة المجتمعة فى محلة مسكنها .

(٢) اخترط سيفه : سله من غمده .

(٣) الثبت (بفتحتين) : الحجة والبينة والبرهان .

ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . فأتيت عمى رفاعة ، فقال : ياابن أخى ! ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الله المستعان .

فلم نلبث أن نزل القرآن « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً » يعنى : بنى أبيرق . « وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ » أى: مما قلت لقتادة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ » أى: بنى أبيرق « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ » إلى قوله « ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيماً » أى : إنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً » قولهم للبيد « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ » يعنى : أسيرا وأصحابه « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ * وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » إلى قوله « فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً » .

فلما نزل القرآن : أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة .

قال قتادة : فلما أتيتُ عمى بالسلاح ، وكان شيخاً قد عسا[1] فى الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولا[2] ، فلما أتيته بالسلاح ، قال : يا ابن أخى ! هو فى سبيل الله . قال فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً .

---

(١) عسا فى الجاهلية : أى : كبر وأسنّ . من قولهم : عسا العود ، أى : يبس واشتد وصلب .

(٢) مدخولا : من (الدخل) وهو العيب والفساد والغش . يعنى أن إيمانه كان فيه نفاق. ورجل مدخول ، أى فى عقله دخل وفساد .

فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين . فنزل على سلافة ابنة سعد بن شُهَيْد . فأنزل الله فيه « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ » إلى قوله « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » .

فلما نزل على سلافة ، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر[١] . فأخذت رحله فوضعته على رأسها ، ثم خرجت فرمت به فى الأبطح[٢] ، ثم قالت : أهديتَ إلىّ شعر حسان ! ما كنت تأتينى بخير[٣] .

وقال الترمذىّ : هذا حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرانىّ . وروى يونس بن بكير وغير واحد هذا الحديث عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا . لم يذكروا فيه : عن أبيه عن جده[٤] .

ورواه ابن أبى حاتم عن هاشم بن القاسم الحرانىّ عن محمد بن سلمة به ، ببعضه . ورواه

---

(١) وهذه هى أبيات حسان . ذكرت فى الديوان طبعة ليدن فى ص ٣٠ ، وطبعة مصر بشرح البرقوقىّ فى ص ٢٧١ ، وفى الروض الأنف للسهيلىّ فى : ج ٢ ص ٢٩ . وها كوها برواية الروض :

وما سارق الدرعين، إذ كنتَ ذاكراً ، ... بذى كرم من الرجال أوادعه
وقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ... ينازعها جار استها وتنازعه
ظننتم بأن يخفى الذى قد صنعتم ... وفيكم نبىّ عنده الوحى واضعه

فى الديوان : جلد استها . وقال البرقوقىّ : قوله ينازعها جلد استها ، لعله يريد يضايقها فى مجلسها . والجلد (بفتح الجيم واللام) واللام هنا ساكنة ، وبكسر الجيم ، واحد الجلود . أى الجلد الذى يجلس عليه . وفى هذا التفسير من التكلف ما فيه . أما رواية الروض فلا حاجة إليه البتة . فهى واضحة فاضحة مفضوحة .

(٢) الأبطح هو أبطح مكة ، أو بطحاء مكة ، وهو مسيل واديها .

(٣) وأخرجه الإمام الطبرىّ فى تفسيره ، الأثر رقم ١٠٤١١ والوارد فى المتن هو نص الطبرى .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٤ سورة النساء ، ٢٢ـ حدثنا الحسن ابن أحمد بن أبى شعيب أبو مسلم الحرانىّ .

ابن المنذر فى (تفسيره) بسنده عن محمد بن سلمة . فذكره بطوله . ورواه أبو الشيخ الأصفهانىّ فى (تفسيره) بسنده عن محمد بن سلمة به . ثم قال فى آخره : قال محمد بن سلمة : سمع منى هذا الحديث يحي بن معين وأحمد بن حنبل وإسحق بن إسرائيل . ورواه الحاكم فى كتابه (المستدرك) بسنده عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق بمعناه، أتم منه، وفيه الشعر. ثم قال: وهذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . كذا نقله ابن كثير . قال السيوطىّ فى (اللباب) : وأخرج ابن سعد فى الطبقات بسنده عن محمود بن لبيد قال : عدا بشير بن الحرث على عِلِّيّة رفاعة بن زيد ، عم قتادة بن النعمان . فنقبها من ظهرها وأخذ طعاماً له ودرعين بأداتهما . فأتى قتادة النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك . فدعا بشيراً فسأله فأنكر . ورمى بذلك لبيدَ ابن سهل ، رجلًا من أهل الدار ذا حسب ونسب . فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... الآيات . فلما نزل القرآن فى بُشير وعثر عليه ، هرب إلى مكة مرتدًّا . فنزل على سلافة بنت سعد. فجعل يقع فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وفى المسلمين . فنزل فيه : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ...[1] الآية . وهجاه حسان بن ثابت حتى رجع . وكان ذلك فى شهر ربيع سنة أربع من الهجرة . انتهى .

وأما إيضاح ألفاظ الآيات وثمراتها فنقول : قوله تعالى : لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . أى : بما عرفك وأعلمك وأوحى به إليك . سمى ذلك العلم بالرؤية . لأن العلم اليقينىّ المبرأ عن جهات الريب يكون جارياً مجرى الرؤية ، فى القوة والظهور .

قال الزمخشرىّ : وعن عمر رضى الله عنه : لا يقولن أحدكم قضيت بما أرانى الله . فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم . ولكن ليجتهد رأيه . لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً . لأن الله كان يريه إياه . وهو منا الظن والتكلف .

قلت : روى هذا الأثر البيهقى فى (المدخل) وابن عبد البر ، بنحو ما ذكر .

قال ابن الفرس : فى هذه الآية إثبات الرأى والقياس . وتعقبه السيوطىّ بما أخرجه

(١) [٤ / النساء / ١١٥]

ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال: إياكم والرأى . فإن الله تعالى قال لنبيه : لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ . ولم يقل : بما رأيت. ثم قال السيوطىّ : وقال غيره : يحتمل قوله (بِمَا أَرَاكَ اللهُ) . الوحى وَالاجتهاد معاً . انتهى .

وقال ابن كثير : احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية . وبما ثبت فى الصحيحين[١] عن أم سلمة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته. فخرج إليهم فقال : ألا إنما أنا بشر . وإنما أقضى بنحو مما أسمع . ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار . فليحملها أو ليذرها .

ورواه الإمام أحمد[٢] عنها أيضاً بلفظ : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواريث بينهما قد درست . ليس بينهما بينة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إلىّ . وإنما أنا بشر . ولعل بعضكم ألحن بحجته (أو قد قال : لحجته) من بعض . فإنى أقضى بينكم على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه . فإنما أقطع له قطعة من النار. يأتى بها إسطاما[٣] فى عنقه يوم القيامة . فبكى الرجلان وقال كل منهما : حق لأخى . فقال رسول الله ﷺ : أما إذ قلتما، فاذهبا فاقتسما . ثم توخيا الحق بينكما . ثم استهما . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه .

وقد رواه أبو داود[٤] وزاد : إنى إنما أقضى بينكما برأيى . فيما لم ينزل علىّ فيه . انتهى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ١٦ ـ باب إثم من خاصم فى باطل وهو يعلمه . حديث ١٢١٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ٤ و٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٢٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) الإسطام : الحديدة التى تحرّك بها النار وتُسْعَر .

(٤) أخرجه فى: ٢٣ـ كتاب الأقضية، ٧ ـ باب فى قضاء القاضى إذا أخطأ، حديث ٣٥٨٥.

قال السيوطيّ : وفى الآية الرد على من أجاز أن يكون الحاكم غير عالم . لأن الله تعالى فوّض الحكم إلى الاجتهاد . ومن لا علم عنده كيف يجتهد ؟ انتهى. وقوله تعالى : وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ . أى: لأجلهم والذبّ عنهم . وهم طعمة ومن يعينه من قومه على ما تقدم « خصيما » أى مخاصماً . وفيه أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق. وقوله تعالى: وَاسْتَغْفِرِ اللهِ . أى مما قلت لقتادة، كما تقدم مفسراً .

قال الرازيّ : تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء . وقالوا : لو لم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ذنب لما أمر بالاستغفار . ثم أجاب عن ذلك بوجوه . وقال القاضي عياض فى (الشفا) : إن تصرف الأنبياء عليهم السلام بأمور لم يُنهوا عنها ولا أُمروا بها ، ثم عوتبوا بسببها ، أو أتوها على وجه التأويل ـ إنما هى ذنوب بالإضافة إلى علىّ منصبهم وإلى كمال طاعتهم . لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصيهم . وأطال فى هذا المقام وأطاب. ثم قال : وأيضاً ، فإن فى التوبة والاستغفار معنى آخر لطيفاً أشار إليه بعض العلماء . وهو استدعاء محبة الله. قال الله تعالى: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(١) . انتهى. وقوله تعالى: « وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ » أى : يخونونها بالمعصية . جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم . كما جعلت ظلماً لها لرجوع ضررها إليهم .

قال الرازيّ : واعلم أن فى الآية تهديداً شديداً . وذلك لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما مال طبعه قليلاً إلى جانب طعمة ، وكان فى علم الله أن طعمة كان فاسقاً ، فالله تعالى عاتب رسوله على ذلك القدر من إعانة المذنب . فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظالماً ، ثم يعينه على ذلك الظلم ، بل يحمله عليه ويرغّبه فيه أشد الترغيب ؟ اهـ . وإنما قيل للخائنين

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٢] ونصها : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(ويختانون) مع أن الخائن واحد، لأن المراد به هو ومن عاونه من قومه ، وهم يعلمون أنه سارق . أو ذكر بلفظ الجمع ليتناوله وكل من خان خيانته . كما أنه إنما ذكر بلفظ المبالغة في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) لأنه تعالى علم منه أنه مفرط في الخيانة وركوب المآثم . ويدل له أنه هرب إلى مكة وارتدّ . كما أسلفنا . قيل : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات . وعن عمر رضي الله عنه ، أنه أمر بقطع يد سارق . فجاءت أمه تبكي وتقول : هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه . فقال : كذبتِ . إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة .

وقوله تعالى « يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ » أي : يستترون حياءً منهم وخوفاً من ضررهم « وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ » فلا يستحيون منه « وَهُوَ مَعَهُمْ » أي : وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خافٍ من سرهم .

قال الزمخشري : وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ماهم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم ، إن كانوا مؤمنين ، أنهم في حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة ، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح .

وقوله تعالى « إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ » أي : يدبرون ويزوّرون الحلف الكاذب ورمي البريء وشهادة الزور . وقوله تعالى « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ » ...الآية . المجادلة : أشد المخاصمة . والمعنى هبُوا أنكم خاصمتم عن السارق وقومه في الدنيا ، فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ وقوله تعالى «أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا» حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وانتقامه .

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة هذه الآيات وجوب الحكم من غير محاباة ولا ميل ، والنهي عن التعصب والمجادلة عن كل خائن وعاص . ويدل تقييد النهي عن الجدال بالذين يختانون أنفسهم ، على إباحة المجادلة . انتهى .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في هذا الباب ، أتبعه بالدعوة إلى التوبة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا » أى: قبيحاً متعدياً . يسوء به غيره ، كما فى القصة « أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » فيخصها بالمعصية «ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ » بالتوبة الصادقة « يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا» لذنوبه كائنة ما كانت « رَحِيماً » أى متفضلاً عليه .

قال أبو السعود : وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار . لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى فليتحرز عن تعريضها للعقاب . « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

« وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْإِثْماً » الخطيئة الذنب، أو ما تعمد منه . والإثم الذنب أيضاً. وأن يعمل مالا يحل له (كذا فى القاموس) . قال الراغب : الإثم أعم من العدوان . وقال غيره : هو فعل مبطئ عن الثواب « ثُمَّ يَرْمِ بِهِ » أى: يقذف به « بَرِيئاً » أى: مما رماه به، كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح، ذلك الرجلَ الصالحَ ، وهو لبيد بن سهل . كما تقدم . وقد كان بريئاً « فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً » وهو الكذب على الغير بما يبهت منه « وَإِثْماً مُبِيناً » أى بيّناً فاحشاً . لأنه بكسب الإثم ، آثم . وبرمى البرىء ، باهت . فهو جامع بين الأمرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ » بإعلامك ماهم عليه بالوحى وتنبيهك على الحق « لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ » برمى البرىء والمجادلة عن الخائنين . يعنى أسير ابن عروة وأصحابه . يعنى بذلك لما أثنوا على بنى أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان فى كونه اتهمهم وهم صلحاء برءاء . ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » لأن وباله عليهم « وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ » لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك . ولما أنزل تعالى فصل القضية وجلّاها لرسوله صلى الله عليه وسلم ، امتنّ عليه بتأييده إياه فى جميع الأحوال بقوله « وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » أى:القرآن والسنة « وَعَلَّمَكَ» من أمور الدين والشرائع« مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ » أى:قبل نزول ذلك عليك . كقوله : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ . . . الآية(١) . وقال تعالى : وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ(٢) . ولهذا قال تعالى : « وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » أى: فيما علمك وأنعم عليك .

قال الرازىّ : هذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب . ثم أشار تعالى إلى ما كانوا يتناجون فيه حين يبيّتون مالا يرضى من القول. بقوله سبحانه :

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . . . وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٦] . . . فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ » أى: مساررتهم . والسياق ، وإن دل على مناجاة بعض قوم ذلك السارق مع بعض ، إلا أنها فى المعنى عامة. والمراد : لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث . ثم استثنى النجوى فى أعمال الخير بقوله سبحانه « إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ » أى: إلا فى نجوى من أمر ، بخفية عن الحاضرين ، بصدقة ليعطيها سراً ، يستر به عار المتصدَّق عليه « أَوْ مَعْرُوفٍ » أى: بطاعة الله . وأعمالُ البر كلها معروف . وسر التناجى فيه أن لا يأنف المأمور عن قبوله لو جهر به « أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ » يعنى الإصلاح بين المتباينين والمتخاصمين ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع . على ما أذن الله فيه وأمر به . وسر النجوى فيه أنه لو ظهر أولًا ربما لم يتم .

قال المهايمىّ : قيل فى الحصر : الخير إما نفع جسمانىّ وهو فى الأمر بالصدقة . أو روحانىّ وهو فى الأمر بالمعروف . وإما دفع وهو فى الإصلاح. ويمكن أن يقال : الخير إما نفع متعد من المأمور وهو الصدقة . أو لازم له وهو المعروف . أو دفع ضرر متعد أو لازم له ، وهو الإصلاح . وإنما تتم خيريتها إذا ابتغى بها رضاء الله تعالى كما قال « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ » أى: طلب « مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ » يعنى فى الآخرة « أَجْرًا عَظِيمًا » يساوى أجر الفاعل أو يفوقه . وقد دلت الآية على الترغيب فى الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس. وقد أكد تعالى الترغيب بقوله (عَظِيمًا) وأن النية فيها شرط لنيل الثواب . لقوله تعالى

(ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ) وعلى أن كلام الإنسان عليه لا له. إلا ما كان فى هذا ونحوه . كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن مردويه بسنده إلى محمد بن يزيد بن حنيش قال : دخلنا على سفيان الثورى نعوده. فدخل علينا سعيد بن حسان ، فقال له الثورى : الحديث الذى كنتَ حدثتنيه عن أم صالح ارددْه علىّ فقال : حدثتنى أم صالح عن صفية بنت شيبة ، عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ : كلام ابن آدم كله عليه لا له . إلا ذكر الله عز وجل . أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر . فقال سفيان : أو ما سمعتَ الله فى كتابه يقول : لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ؟ فهو هذا بعينه . أو ما سمعت الله يقول : يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ؟[١] فهو هذا بعينه . أو ما سمعت الله يقول فى كتابه : وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ[٢] * ، الخ . فهو هذا بعينه .

وقد روى هـذا الحديث الترمذى[٣] وابن ماجه[٤] من حديث ابن حنيش عن سعيد ابن حسان به . ولم يذكر أقوال الثورى إلى آخرها .

ثم قال الترمذى : حديث غريب لا يعرف إلا من حديث ابن حنيش . قلت: هو مقبول، كما فى (التقريب) لابن حجر . فحسن حديثه .

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٨] .

(٢) [١٠٣ / العصر / ١و٢] .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد، ٦٣ ـ باب منه ، حدثنا محمد بن بشار .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ١٢ ـ باب كف اللسان فى الفتنة ، حديث ٣٩٧٤ (طبعتنا) .

وروى الجماعة(١) عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً . وقالت: لم أسمعه يرخص فى شىء مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : فى الحرب . والإصلاح بين الناس . وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها .

وروى الإمام أحمد(٢) وأبو داود(٣) والترمذىّ(٤) عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . يا رسول الله ! قال : إصلاح ذات البين . قال : وفساد ذات البين هى الحالقة .

قال الترمذىّ : حسن صحيح .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ٢ ـ باب ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس ، حديث ١٣٠٢ .

ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٠١ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب، ٥٠ ـ باب فى إصلاح ذات البين، حديث ٤٩٢١ .

والترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٢٦ ـ باب ما جاء فى إصلاح ذات البين .

(٢) الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٤٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٥٠ ـ باب فى إصلاح ذات البين ، حديث ٤٩١٩ .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب الزهد ، ٥٦ ـ باب حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البغدادىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ » أى يخالفه ويعاديه « مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ » أى اتضح له الحق « وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ » أى غير ماهم مستمرون عليه من عقد وعمل ، وهو الدين القيّم « نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّىٰ » أى نجعله والياً مرجحاً ما تولاه من المشاقة ومتابعة غير سبيلهم فنزينه له تزين الكفر على الكفرة ، استدراجاًله ليكون دليلًا على شدة العقوبة فى الآخرة . كما قال تعالى : فَذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(١) .وقال تعالى: فَلَمَّازَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ(٢) . وقال سبحانه: وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٣) « وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ » أى:ندخله إياها « وَسَاءَتْ مَصِيراً » وجعل النار مصيره فى الآخرة . لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة . كما قال تعالى : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ(٤) ...الآية . وقال تعالى : وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً(٥) .

---

(١) [٦٨ / القلم / ٤٤] .

(٢) [٦١ / الصف / ٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

(٣) [٦ /الأنعام/ ١١٠] ونصها : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . . . وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ .

(٥) [١٨ / الكهف / ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) هذاملازم للصفة الأولى . ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمةالمحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً . فإنه قد ضمنت لهم العصمة ، فى اجتماعهم ، من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك. ومن العلماء من ادعى تواتر معناها . والذى عوّل عليه الشافعىّ رحمه الله فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته، هذه الآية الكريمة. بعد التروّى والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها . وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : الآية دلت على أن مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة . وقد تبلغ إلى الكفر. ودلت على أن الجهل عذر . لقوله: مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى . ودلت على أن مخالفة الإجماع كبيرة . وأنه دليل كالكتاب والسنة . لكن إنما يكون كبيرة إذا كان نقله قطعياً ، لا آحادياً . انتهى .

وقال المهايمىّ : فى الآية دليل على حرمة مخالفة الإجماع . لأنه عز وجل رتب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ومخالفة الإجماع، فهو إما لحرمة أحدهما وهو باطل . إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحدّ ، إذ لا دخل لأكل الخبز فيه . أو لحرمة الجمع بينهما وهو أيضاً باطل . لأن مشاقة الرسول حرام وإن لم يضم إليها غيرها . أو لحرمة كل واحد منهما وهو المطلوب . انتهى .

ونقل الخفاجىّ قصة استدلال الشافعىّ من هذه الآية عن الإمام المزنىّ قال : كنت عند الشافعىّ يوماً . فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا . فلما رآه ذا مهابة استوى جالساً ، وكان مستنداً لأسطوانة ، فاستوى وسوى ثيابه . فقال له : ما الحجة فى دين الله ؟ قال : كتابه قال : وماذا ؟ قال : سنة نبيه . قال وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة . قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو فى كتاب الله ؟ فتدبر ساعة ساكتاً . فقال له الشيخ : أجّلتك ثلاثة أيام بلياليهن . فإن جئت بآية ، وإلا فاعتزل الناس .

فمكث ثلاثة أيام لا يخرج. وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر ، وقد تغير لونه . فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس . وقال : حاجتى . فقال : نعم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله عز وجل : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ـ إلى آخر الآية . لَمْ يُصْلِه جهنم، على خلاف المؤمنين ، إلا واتّباعهم فرض . قال : صدقت . وقام وذهب .

وروى عنه أنه قال : قرأت القرآن فى يوم وفى كل ليلة ثلاث مرات . حتى ظفرت بها .

وأورد الراغب عليه ، أنه لا حجة فيها على ما ذكره . بأن كل موصوف علق به حكم فالأمر باتباعه يكون فى مأخذ ذلك الوصف . فإذا قيل اقتد بالمصلى فالمراد فى صلاته . فكذا سبيل المؤمنين، يعنى به سبيلهم فى الإيمان ، لا غير . فلا دلالة فى الآية على اتباعهم فى غيره . ورُدَّ بأنه تخصيص بما يأباه الشرط الأول . ثم إنه إذا كان مألوف الصائمين الاعتكاف ، تناول الأمر باتباعهم ذلك أيضاً . فكذلك يتناول ما هو مقتضى الإيمان فيما نحن فيه. فسبيلُ المؤمنين ، وإن فسر بما هم عليه من الدين ، يعمّ الأصول والفروع ، الكل والبعض . على أن الجزاء مرتب على كل من الأمرين المذكورين فى الشرط، لا على المجموع. للقطع بأن مجرد مشاقة الرسول كافية فى استحقاق الوعيد ، معنى على أن ترك اتباع سبيل المؤمنين اتباع لغير سبيل المؤمنين. لأن المكلف لا يخلو من اتباع سبيلٍ ما البتة. انتهى. ورأيت للإمام تقىّ الدين بن تيمية فى كتابه (الفرقان بين الحق والباطل) مقالة بديعة فى هذه الآية والإجماع. أجال فيها جواد قلمه وأجاد. وأطال وأطاب. قال رحمه الله: ما يسميه ناس الفروع والشرع والفقه، فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان . فما بقى مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه إلا بيّن ذلك. وقد قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ (١).

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، ==

وقال تعالى : مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١) . وقال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ(٢) . وقال تعالى: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٣) . وقال تعالى : وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ(٤) . فقد بيّن للمسلمين جميع مايتقونه . كما قال : وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ(٥) . وقال تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ(٦) . وهو الردّ إلى كتاب الله ،

= الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) [١٢/يوسف/ ١١١] ونصها: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ...

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ . . .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١٠] .

(٤) [٩ / التوبة / ١١٥] . . . إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١١٩] ونصها : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

(٦) [٤ /النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

أو إلى سنة الرسول، بعد موته . وقوله (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ) شرط . والفعل نكرة فى سياق الشرط. فأى شىء تنازعوا فيه ردُّوه إلى الله والرسول . ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلًا للنزاع لم يؤمروا بالرد إليه . وقد جاء عنه ﷺ أنه قال(١) : تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هـذا . والحاصل أن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين . وأما إجماع الأمة فهو فى نفسه حق. لا تجتمع الأمة على ضلالة . وكذلك القياس الصحيح حق. فإن الله بعث رسله بالعدل وأنزل

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١ ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، حديث ٥ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى الدرداء قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوّفه ، فقال « آلفقرَ تخافون ؟ والذى نفسى بيده ! لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًّا حتى لا يُزِيغ قلبَ أحدكم إزاغة إلّا هِيَهْ . وايم الله ! لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء » .

قال أبو الدرداء : صدق ، والله ، رسول الله ﷺ . تركنا ، والله ، على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء .

قال السدّىّ : هذا الحديث مما انفرد به المصنف .

وأخرجه فى : ٦ ـ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث ٤٣(طبعتنا)ونصه:

عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقلنا : يا رسول الله ! إن هذه لموعظة مودِّع ، فماذا تعهد إلينا؟

قال « لقد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها : لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك . من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عَضوا عليها بالنواجذ . وعليكم بالطاعة . وإنْ عبداً حبشيًّا . فإنما المؤمن كالجمل الأَنِفِ ، حيثما قِيد يقاد » .

الميزان مع الكتاب . والميزانُ يتضمن العدل وما يعرف به العدل . وقد فسروا إنزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك . والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح ، وقد ضرب الله فى القرآن من كل مثل. وبيّن بالقياس الصحيح، وهى الأمثال المضروبة ، مابينه من الحق . لكن القياس الصحيح يطابق النص . فإن الميزان يطابق الكتاب. والله أمر نبيّه أن يحكم بالعدل. فهو أنزل الكتاب. وإنما أنزل الكتاب بالعدل. قال تعالى: وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ(١) . وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ(٢) . وأما إجماع الأمة فهو حق. لا تجتمع الأمة، ولله الحمد، على ضلالة. كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة .فقال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ(٣) . وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه . وقال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا(٤) . والوسط العدل الخيار . وقد جعلهم الله شهداء على الناس

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٩] . . . وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٢] ونصها : سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٠] . . . وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٣] . . . وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ =

وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت فى الصحيح(١) أن النبىّ ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً . فقال : وجبت . ثم مُرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً . فقال : وجبت . قالوا : يا رسول الله ! ما قولك وجبت ؟ قال : هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً. فقلت : وجبت لها الجنة . وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً . فقلت : وجبت لها النار . انتم شهداء الله فى الأرض .

فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل . فإذا شهدوا أن الله أمر بشىء فقد أمر به . وإذا شهدوا أن الله نهى عن شىء فقد نهى عنه . ولو كانوا يشهدون بباطل أوخطأ لم يكونوا شهداء الله فى الأرض . وقال تعالى : وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ(٢) . والأمة منيبة إلى ربها فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى : وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

= مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٥ ـ باب ثناء الناس على الميت ، حديث ٧٢٣ ونصه :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: مرُّوا بجنازة. فأثنوا عليها خيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وجبت » . ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا . فقال « وجبت » . فقال عمر بن الخطاب : ماوجبت ؟ قال « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة . وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار . أنتم شهداء الله فى الأرض » .

وأخرجه مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ[(١)] . فرضى عمن اتبع السابقين إلى يوم القيامة. فدلَّ على أن متابعهم عامل بما يرضى الله . والله لا يرضى إلا بالحق لا بالباطل. وقال تعالى : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ، والشافعىّ، رضى الله عنه، لما جرد الكلام فى أصول الفقه احتج بهذه الآية على الإجماع. كما كان يسمع هو وغيره من مالك. ذكر ذلك عن عمر بن عبد العزيز . والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين، مستحق للوعيد. كما أن مشاقّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، مستحق للوعيد . ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده. فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل فى ذلك لكان لا فائدة فى ذكره. وهنا للناس ثلاثة أقوال: قيل: اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرده مخالفة الرسول المذكورة فى الآية . وقيل بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم . فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم . وقيل : بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية . لكن هذا لا يقتضى مفارقته للأول بل قد يكون مستلزماً له . فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو فى نفس الأمر مشاقّ للرسول . وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين . وهذا كما فى طاعة الله والرسول. فإن طاعة الله واجبة. وطاعة الرسول واجبة. وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم . وهما متلازمان . فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . وفى الحديث الصحيح[(٢)] عن النبىّ ﷺ قال : من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى . ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصانى .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] . . . وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٠٩ ـ باب يقاتل من وراء الإمام ويُتقى به ، حديث ١٤٠٩ .

ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٣٢ (طبعتنا) .

ثم قال تقيّ الدين رحمه الله (بعد ثلاثة أوراق) : ومن الناس من يقول : إنها لاتدل على مورد النزاع . فإن الذم فيها لمن جمع الأمرين . وهذا لا نزاع فيه . أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين التي بها كانوا مؤمنين . وهي متابعة الرسول . وهـذا لانزاع فيه . أو إن سبيل المؤمنين هو الاستدلال بالكتاب والسنة . وهذا لا نزاع فيه . فهذا ونحوه قول من يقول: لاتدل على محل النزاع. وآخرون يقولون : بل تدل على وجوب اتباع المؤمنين مطلقاً. وتكلفوا لذلك ما تكلفوه . كما قد عرف كلامهم ولم يجيبوا عن أسئلة أولئك بأجوبة شافية. والقول الثالث الوسط : إنها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم اتباع غير سبيلهم . ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى . وهو يدل على ذم كلٍّ من هذا وهذا . كما تقدم . لكن لا ينفي تلازمهما . كما ذكر في طاعة الله والرسول . وحينئذ يقول : الذم إما أن يكون حقاً لمشاقة الرسول فقط ، أو باتباع غير سبيلهم فقط ، أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما . بل بهما إذا اجتمعا . أو يلحق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر ، أو بكل منهما لكونه مستلزماً للآخر . والأوّلانِ باطلان. لأنه لو كان المؤثر أحدهما فقط، كان ذكر الآخر ضائعاً لافائدة فيه . وكون الذم لايلحق بواحد منهما باطل قطعاً . فإن مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عمن اتبعه . ولحوق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية . فإن الوعيد فيها إنما هو على المجموع . بقي القسم الآخر وهو أن كلًّا من الوصفين يقتضي الوعيد . لأنه مستلزم للآخر . كما يقال مثل ذلك في معصية الله والرسول ومخالفة القرآن والإسلام . فيقال : من خالف القرآن والإسلام أو من خرج عن القرآن والإسلام فهو من أهل النار . ومثله قوله: وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. فإن الكفر بكل واحد من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره . فمن كفر بالله كفر بالجميع. ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل ، فكان كافراً بالله . إذ كذب رسله وكتبه .

وكذلك إذا كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسل . فكان كافراً . وكذلك قوله : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١) . ذمهم على الوصفين . وكل منهما مقتض للذم . وهما متلازمان . ولهذا نهى عنهما جميعاً فى قوله (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به ، فغلط به ، لزم أن يكتم الحق الذى تبين أن هذا باطل، إذ لو بينه زال الباطل الذى لبس به الحق. فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين . من شاقه ، فقد اتبع غير سبيلهم. وهذا ظاهر . ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه أيضاً فإنه قد جعل له مدخلًا فى الوعيد . فدل على أنه وصف مؤثر فى الذم . فمن خرج عن إجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعاً ، والآية توجب ذم ذلك . وإذا قيل : هى إنما ذمته مع مشاقة الرسول . قلنا: لأنهما متلازمان . وذلك لأن كل ماأجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوصاً عن الرسول . فالمخالف لهم مخالف للرسول . كما أن المخالف للرسول مخالف لله . ولكن هذا يقتضى أن كل ما أجمع عليه الرسول قد بيّنه الرسول . وهذا هو الصوب . فلا يوجد مسألة قط مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس . ويعلم الإجماع فيستدل به . كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص . وهو دليل ثان مع النص ، كالأمثال المضروبة فى القرآن . وكذلك الإجماع دليل آخر . كمايقال : قد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع. وكل من هذه الأصول يدل على الحق مع تلازمها . فإن مادل عليه الإجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة . وما دل عليه القرآن فعن الرسول أُخذ . فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه . ولا توجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص . وقد كان بعض الناس يذكر فيها الإجماع بلانص كالمضاربة . وليس كذلك. بل المضاربة كانت مشهورة بينهم فى الجاهلية، لا سيما قريش . فإن الأغلب كان عليهم التجارة . وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال.

(١) [٣ / آل عمران / ٧١] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد سافر بمال غيره قبل النبوة كما سافر بمال خديجة . والعير التى كان فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة مع أبى سفيان وغيره . فلما جاء الإسلام أقرَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة . ولم ينه عن ذلك. والسنة قوله وفعله وإقراره . فلما أقرها كانت ثابتة بالسنة . والأثر المشهور فيها عن عمر الذى رواه مالك فى الموطأ[1] ، ويعتمد عليه الفقهاء ، لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لابنيه واتّجرا فيه وربحا . وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين لكونه خصّهما بذلك دون سائر الجيش . فقال له أحدهما : لو خسر المال لكان علينا . فكيف يكون الربح وعلينا الضمان ؟ فقال له بعض الصحابة : اجعله مضاربة. فجعله مضاربة .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٣٢ ـ كتاب القراض ، حديث ١ (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال: خرج عبدالله وعبيدالله ، ابنا عمر بن الخطاب، فى جيش إلى العراق . فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرىّ، وهو أمير البصرة. فرحّب بهما وسهّل. ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت . ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله . أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين . فأسلفكماه . فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق . ثم تبيعانه بالمدينة . فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين . ويكون الربح لكما . فقالا : وددنا ذلك . ففعل . وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال . فلما قدما باعا فأرْبِحَا . فلما دفعا ذلك إلى عمر ، قال : أكلّ الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ قالا : لا . فقال عمر بن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين . فأسلفكما . أدِّيا المال وربحه .

فأما عبد الله فسكت . وأما عبيد الله فقال : ما ينبغى لك ، يا أمير المؤمنين ! هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمنّاه . فقال عمر : أدّياه . فسكت عبد الله ، وراجعه عبيد الله . فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين ! لو جعلته قراضا ! فقال عمر : قد جعلته قراضا . فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه . وأخذ عبد الله وعبيد الله ، ابنا عمر بن الخطاب ، نصف ربح المال .

وإنما قال ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم . والعهد بالرسول قريب . لم يحدث بعده . فعلم أنها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول . كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالحياطة والخرازة. وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا فقالوا فيها باجتهاد الرأى الموافق للنص . لكن كان النص عند غيرهم . وابن جرير وطائفة يقولون : لا ينعقد الإجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول . مع قولهم بصحة القياس . ونحن لانشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى ، كما نقل الأخبار ، ولكن استقرينا موارد الإجماع فوجدنا كلها منصوصة . وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة . كما أنه قد يحتج بقياس ، وفيها إجماع لم يعلمه فيوافق الإجماع. وكما يكون فى المسألة نص خاص وقد استدل فيها بعموم . كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ[1]. وقال ابن مسعود[2] : سورة النساءالقصرى نزلت بعدالطولى . أى: بعد البقرة . وقوله : أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ،

---

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] ونصها : وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٥ ـ سورة الطلاق ، ٢ ـ باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ ، حديث ٢٠٦١ ونصه :

عن أيوب عن محمد قال : كنت فى حلقة فيها عبد الرحمن بن أبى ليلى . وكان أصحابه يعظمونه . فذكر آخر الأجلين . فحدّثتُ بحديث سُبَيعة بنت الحارث ، عن عبد الله بن عتبة. قال فضمزَّ لى بعض أصحابه . قال محمد : ففطنت له . فقلت : إنى إذًا لجرىء إن كذبتُ على عبدالله بن عتبة ، وهو فى ناحية الكوفة. فاستحيا وقال: لكنّ عمّه لم يقل ذاك . فلقيت =

يقتضى انحصار الأجل فى ذلك . فلو أوجب عليها أن تعتد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها . وعلىّ وابن عباس وغيرهما أدخلوها فى عموم الآيتين . وجاء النص الخاص فى قصة[1] سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود . وكذلك . لما تنازعوا فى المفوضة إذا مات زوجها هل لها مهر المثل ، أفتى ابن مسعود فيها برأيه أن لها مهر المثل . ثم رووا حديث بروع بنت واشق بما يوافق ذلك . وقد خالفه علىّ وزيد وغيرهما . فقالوا : لا مهر لها . فثبت أن بعض المجتهدين قد يفتى بعموم أو قياس ، ويكون فى الحادثة نص خاص لم يعلمه فيوافقه . ولا يُعلم مسألة واحدة اتفقوا على أنه لا نص فيها . بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص وأولئك يحتجون بنص . كالمتوفى عنها الحامل . هؤلاء احتجوا بشمول الآيتين

= أبا عطية مالك بن عمر . فسألته فذهب يحدثنى حديث سُبيعة . فقلت : هل سمعتَ عن عبد الله فيها شيئاً ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ لنزلت سورة النساء القُصْرَى بعد الطولى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .

(١) أخرجها البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٥ ـ سورة الطلاق ، ٢ ـ باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ ، حديث ٢٠٦١ .

عن يحيى قال : أخبرنى أبو سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، وأبو هريرة جالس عنده . فقال: أفتنى فى امرأة وَلَدَتْ بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخى (يعنى : أبا سلمة) فأرسل ابن عباس غلامه كُرَيْبا إلى أم سلمة يسألها .

فقالت : قُتِل زوج سُبَيْعة الأسلمية وهى حبلى . فوضعت بعد موته بأربعين ليلة . فخُطبت . فأنكحها رسول الله ﷺ . وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

لها. والآخرون قالوا : إنما تدخل فى آية الحمل فقط ، وإن آية الشهور فى غير الحامل . كما أن آية القروء فى غير الحامل . وكذلك لما تنازعوا فى الحرام احتج من جعله يميناً بقوله : لِمَ تُحَرِّمُ مَآأَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ [1] . وكذلك تنازعوا فى المبتوتة هل لها نفقة أو سكنى . احتج هؤلاء بحديث فاطمة [2] وبأن السكنى التى فى القرآن للرجعية . وأولئك قالوا : بل هى لهما . ودلالاتُ النصوص قد تكون خفية . فخص الله بفهمها بعض الناس. كما قال على [3]: إلّا فهما

(١) [٦٦ / التحريم /١و٢] . . . وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) أخرجها مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٣٦ (طبعتنا) وهذا نصها :

عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة . وهو غائب. فأرسل إليها وكيلُه بشعير . فسخطته . فقال : والله ! مالك علينا من شىء . فجاءت رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك له . فقال « ليس لك عليه نفقة » فأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك . ثم قال : تلك امرأة يغشاها أصحابى . اعتدّى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى . تضعين ثيابك . فإذا حللت فآذنينى . قالت : فلما حللت ذكرتُ له ؛ أن معاوية بن أبى سفيان وأبا جهم خطبانى. فقال رسول الله ﷺ « أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه . وأما معاوية فصعلوك لا مال له. انكحى أسامة بن زيد ». فكرهتُه . ثم قال « انكحى أسامة » فنكحته فجعل الله فيه خيراً ، واغتبطتُ .

وأخرجها بطرق أخرى فى الأحاديث رقم ٣٧ـ٥١ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم ، حديث ٩٥ ونصه:

عن أبى جحيفة قال : قلت لعلىّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا . إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة . قال قلت : فما فى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

يؤتيه الله عبداً فى كتابه . وقد يكون النص بيّناً ويذهل المجتهد عنه ، كتيمم الجنب . فإنه بيّن فى القرآن فى آيتين. ولما[١] احتج أبو موسى على ابن مسعود بذلك قال الحاضر: ما درى عبد الله مايقول ، إلا أنه قال : لو أرخصنا لهم فى هذا لأوشك أحدهم إذا وجد البرد أن يتيمّم . وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر : إن المطلقة فى القرآن هى الرجعية بدليل قوله: لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا[٢] وأى أمر يحدثه بعد الثلاثة ؟ وقد احتج طائفة على وجوب العمرة بقوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ[٣] . واحتج بهذه الآية من منع

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ٧ ـ باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش ، تيمم ، حديث ٢٣٣ ونصه :

عن شقيق بن سلمة قال : كنت عند عبد الله وأبى موسى . فقال له أبو موسى : أرأيت، ياأبا عبد الرحمن! إذا أجنب فلم يجد ماء كيف يصنع ؟ فقال عبد الله : لايصلى حتى يجد الماء . فقال أبو موسى : فكيف تصنع بقول عمار ، حين قال له النبىّ ﷺ « كان يكفيك »؟ قال: ألم تر عمر لم يقنع بذلك ؟ فقال أبو موسى : فدعنا من قول عمار . كيف تصنع بهذه الآية ؟

فما درى عبد الله ما يقول .

فقال : إنا لو رخصنا لهم فى هذا ، لأوشك، إذا برد على أحدهم الماء ، أن يدعه ويتيمم .

(قال الأعمش) : فقلت لشقيق : فإنما كره عبد الله لهذا ؟ قال : نعم .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

الفسخ . وآخرون يقولون : إنما أمر بالإتمام فقط . وكذلك أمر الشارع أن يتم . وكذلك في الفسخ قالوا : من فسخ العمرة إلى غير حج فلم يتمها . أما إذا فسخها ليحج من عامه فهذا قد أتى بما تم مما شرع فيه فإنه شرع ﷺ أصحابه عام حجة الوداع. وتنازعوا في الذى بيده عقدة النكاح وفى قوله : أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ(١) . ونحو ذلك مما ليس هذا موضع استقصائه . وأمامسألة مجردة اتفقوا على أنه لايستدل فيها بنص جلى ولا خفى، فهذاماأعرفه. والجدّ، لماقالأكثرهم: إنهأب، استدلوا على ذلك بالقرآن بقوله(٢) : كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ

= مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) [٤ / النساء / ٤٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

و [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٢٧] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا =

الجنة وقال ابن عباس: لو كانت الجن تظن أن الإنس تسمى أبا الأب جداً لما قالت : وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا(١) . نقول: إنما هو أب، لكن أب أبعد من أب . وقد روى عن علىّ وزيد أنهما احتجا بقياس ، فمن ادعى إجماعهم على ترك العمل بالرأى والقياس مطلقاً فقد غلط .

ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم أحد منهم إلا بالرأى والقياس فقد غلط . بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم . فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها . ومن رأى دلالة الميزان ذكرها . والدلائل الصحيحة لا تتناقض . لكن قد يخفى وجه اتفاقهما أو ضعف أحدهما على بعض العلماء . وللصحابة فهم فى القرآن يخفى على أكثر المتأخرين . كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين . فإنهم شهدوا التنزيل وعاينوا الرسول . وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مرادهم ، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك . فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس .

ومن قال من المتأخرين : إن الإجماع مستند معظم الشريعة ، فقد أخبر عن حاله . فإنه لنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك . وهذا كقولهم : إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم دلالة النصوص عليها . فإنما هذا من قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتهما على الأحكام وقد قال الإمام أحمد رضى الله عنه : إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو فى نظيرها . فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام ، حدثت جميع أجناس الأعمال . فتكلموا فيها بالكتاب والسنة . وإنما تكلم بعضهم بالرأى فى مسائل قليلة . والإجماع لم يكن يحتج به عامتهم ولا يحتاجون إليه . إذ هم أهل الإجماع ، فلا إجماع قبلهم . لكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شريح : اقض بما فى كتاب الله . فإن لم تجد ، فبما فى سنة رسول الله . فإن لم تجد ، فبما قضى به الصالحون قبلك . وفى رواية : فبما أجمع

= أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

(١)[٧٢ / الجن / ٣] . . . مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا .

عليه الناس . فقدم عمر الكتابَ ثم السنةَ : وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر . قدّم الكتاب ثم السنة ، ثم الإجماع . وكذلك ابن عباس كان يفتى بما في الكتاب ثم بما فى السنة ثم بسنة أبى بكر وعمر . لقوله(١) : اقتدوا باللَّذَيْن من بعدى : أبى بكر وعمر . وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء . وهذا هو الصواب . ولكن طائفة من المتأخرين قالوا : يبدأ المجتهد ينظر أولاً فى الإجماع . فإن وجده لم يلتفت إلى غيره . وإن وجد نصًّا خالفه اعتقد أنه منسوخ بنص لم يبلغه . وقال بعضهم : الإجماع نسخه .

والصواب طريقة السلف . وذلك لأن الإجماع إذا خالفه نص فلابد أن يكون مع الإجماع نص معروف به أن ذاك منسوخ. فأما أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة ، وحفظت النص المنسوخ ، فهذا لايوجد قط . وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نُهيت عن اتباعه . وإضاعة ماأمرت باتباعه . وهى معصومة عن ذلك . ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيراً أوغالباً . فمن الذى يحيط بأقوال المجتهدين ؟ بخلاف النصوص ، فإن معرفتها ممكنة متيسرة . وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أوّلاً . لأن السنة لاتنسخ الكتاب . فلا يكون فى القرآن شيء منسوخا بالسنة. بل إن كان فيه منسوخ ، كان فى القرآن ناسخه . فلا يقدم غير القرآن عليه . ثم إذا لم يجد ذلك طلبه فى السنّة . ولا يكون فى السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسختْه . لاينسخ السنةَ إجماع ولا غيره . ولا تعارَض السنةُ بإجماع . وأكثر ألفاظ الآثار . فإن لم يجد فالطالب قد لايجد مطلوبه فى السنة . مع أنه فيها . وكذلك

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ١٦ ـ فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، كليهما . ونصه : عن حذيفة رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبىّ ﷺ فقال : « إنى لا أدرى ما بقائى فيكم ، فاقتدوا باللذين من بعدى » وأشار إلى أبى بكر وعمر .

فى القرآن . فيجوز له إذا لم يجده فى القرآن أن يطلبه فى السنة . وإذا كان فى السنة لم يكن مافى السنة معارضاً لما فى القرآن . وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتاباً ولا سنة. انتهى كلامه قدس الله روحه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٦] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» قد مر الكلام على هذه الآية الكريمة فى أوائل هذه السورة مطولاً . قالوا : تكريرها إما تأكيداً وتشديداً أو لتكميل قصة طعمة ، وقد مر موته كافراً . أو إن لها سبباً آخر فى النزول . على ما رواه الثعلبىّ عن ابن عباس قال : جاء شيخ ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إنى شيخ منهمك فى الذنوب . إلا أنى لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به . ولم أتخذ من دونه وليًّا . ولم أوقع المعاصى جراءة . وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هرباً . وإنى لنادم تائب . فما ترى حالى عند الله سبحانه وتعالى ؟ فنزلت . واستظهر بعضهم الوجه الأخير قال: لأن التأكيد ، مع بعد عهده ، لا يقتضى تخصص هذا الموضع ، فلابدّ له من مخصص. وأغرب المهايمىّ حيث جعلها مشيرة إلى شقى الآية الكريمة ، حيث قال : ثم أشار إلى أن وعيد مشاقة الرسول جازم دون مخالفة الإجماع . لأن مشاقة الرسول دليل تكذيبه . وهو مستلزم للشرك بالله . إذ خلق المعجزات لا يكون إلا لكامل القدرة . ولا يكون إلا لإله . فإذا نفاها عن الله فقد أثبت له شريكا وأن الله لا يغفر أن يشرك به . ومخالفة الإجماع يجوز أن تكون مغفورة . لأنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، إذ لا تنتهى إلى الشرك . وكل هذه المناسبات دالة دون ذلك قطعاً على دلالة هذه الآية ، على أن ماسوى الشرك مغفور قطعاً . سواء حصلت التوبة أو لم تحصل .

وقد روى الترمذىّ(١) عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : مافى القرآن آية أحب إلىّ من هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ـ الآية «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا». أى : عن الحق . فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة . وإنما ذكر فى الآية الأولى (فَقَدِ افْتَرَىٰ) لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب . ومنشأ شركهم كان نوع افتراء . وهو دعوى التبنى على الله تعالى بقولهم (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) قاله القاضى.

وفى (السمين) : ختمت الآية المتقدمة بقوله (فَقَدِ افْتَرَىٰ) وهذه بقوله (فَقَدْ ضَلَّ) لأن الأولى فى شأن أهل الكتاب وهم عندهم علم بصحة نبوته ، وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع . ومع ذلك فقد كابروا فى ذلك وافتروا على الله . وهذه فى شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم . فناسب وصفهم بالضلال . وأيضاً قد تقدم هنا ذكر الهدى وهو ضد الضلال . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا)

« إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » مايعبد مشركو مكة ونحوهم من دون الله « إِلَّا إِنَاثًا » قال الرازىّ: (يدعون) بمعنى (يعبدون) لأن من عبد شيئاً فإنه يدعوه عند احتياجه إليه. انتهى .

وقد روى الإمام أحمد(٢) وابن أبى شيبة وأصحاب السنن وغيرهم ، عن النعمان بن بشير؛

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٢٣ ـ حدثنا خلاد بن أسلم .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٤٠/غافر/٦٠] .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء هو العبادة . ورواه أبو يعلى عن البراء . ورواه الترمذيّ[١] عن أنس بلفظ : الدعاء مخ العبادة .

وفي قوله تعالى (إِلَّا إِنَاثًا) وجوه :

الأول ـ ما رواه ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : يعني أوثانًا . وعليه فمرجع التسمية بالإناث كون أسماء غالبها مؤنثة . كمناة والعزّى واللات ونحوها . ولأنهم كانوا يلبسونها أنواع الحليّ ويزيّنونها على هيآت النسوان . وروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير ومجاهد وأبي مالك والسدّيّ ومقاتل نحوما لعائشة .

الوجه الثاني ـ أنه عنى الملائكة . لأن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقولون عنها : بنات الله. روى ابن جرير[٢] عن الضحاك في الآية : قال المشركون، للملائكة : بنات الله. وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى . قال : فاتخذوهن أربابًا وصوروهن جواري فحكَوْا وقلّدوا وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده . يعنون الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ)[٣] الآيات وقال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا)[٤] ...الآية. وقال (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)[٥] انتهى .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ).

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة : ١٦ ـ حدثنا هناد.

(٢) الأثر رقم ١٠٤٣٧ ونصه : عن الضحاك ، في قوله : « إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا إِنَاثًا » قال : الملائكة . يزعمون أنهم بنات الله .

(٣) [٥٣ / النجم / ٢٧] .

(٤) [٤٣ / الزخرف /١٩] . . . . أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

(٥) [٣٧ / الصافات / ١٣٧] . . . . وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

الوجه الثالث ـ ما رواه ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى الآية قال: مع كل صنم جنية.

الرابع ـ قال علىّ بن أبى طلحة والضحاك عن ابن عباس والحسن : إناثًا يعنى موتى . قال الحسن : الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح . إما خشبة يابسة وإما حجر يابس . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير(١) . وفى (القاموس . وشرحه): الإناث جمع الأنثى . وهو خلاف الذكر من كل شىء . والموات الذى هو خلاف الحيوان . كالشجر والحجر والخشب، عن اللحيانىّ . وعن الفراء : تقول العرب اللات والعزى وأشباههما من الآلهة المؤنثة . انتهى .

وقال الإمام أبو البقاء : قوله تعالى (إِلَّا إِنَاثًا) هو جمع أنثى على (فعال) ويراد به كل مالا روح فيه من صخرة وشمس ونحوها . ويقرأ (أنثى) على الإفراد . ودل الواحد على الجمع . ويقرأ (أُنُثًا) مثل رسل فيجوز أن تكون صفة مفردة مثل امرأة جنب ، ويجوز أن يكون جمع أنيث كقليب وقُلُب . وقد قالوا : حديد أنيث ، من هذا المعنى . ويقرأ أُثُنا والواحد وثن وهو الصنم وأصله وثن ، فى الجمع كما فى الواحد إلا أن الواو قلبت همزة لما انضمت ضمًّا لازمًا وهو مثل أَسَد. وأُسُد. ويقرأ بالواو على الأصل جمعاً. ويقرأ بسكون الثاء مع الهمزة والواو. انتهى. قال البيضاوى : ولعله تعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثًا. لأنه ينفعل ولا يفعل . ومن حق المعبود أن يكون فاعلًا غير منفعل ، ليكون دليلًا على تناهى جهلهم وفرط حماقتهم « وَإِنْ يَدْعُونَ » أى: ما يعبدون من دون الله « إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا » وهو إبليس لعنه الله لطاعتهم له فى عبادتها . وإذا أطاعوه فيما سوّل لهم فقد عبدوه. كما قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى ءَادَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ)(٢) وقال تعالى (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)(٣) والمَرِيد المتمرد العاتى الطاغى .

---

(١) الأثر رقم ١٠٤٣٦ ونصه: عن الحسن « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا » قال : و « الإناث » كل شىء ميت ليس فيه روح : خشبة يابسة : أو حجر يابس . قال الله تعالى : « وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا » إلى قوله: « فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ » .

(٢) [٣٦ / يس / ٦٠] . . . . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] ونصها : قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (لَعَنَهُ اللهُ . وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضًا)

« لَعَنَهُ اللهُ » صفة ثانية لـ(شَيْطَانًا) أى: أبعده الله عن رحمته . فأراد إبعاد مَنْ أُبْعِد بسببه «وَقَالَ » حين أُبْعد « لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ » أى: الذين أبعدتنى بسببهم أى: لأجعلن لى منهم «نَصِيباً» أى: حظًّا « مَفْرُوضًا » أى: مقطوعاً ومقدراً من عبادتهم بأن يعبدوا غيرك، أو يراؤا فيها، أو يعجبوا بها، أو يتلفوها فى المظالم ، أو يحبطوها بالكفر بعدها .

قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى (وَقَالَ) الخ عطف على الجملة المتقدمة أى: شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القولِ الشنيع الصادر عنه عند اللعن . ولقد برهن على أن عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن مايعبدونها ينفعل ولا يفعل فعلًا اختيارياً. وذلك ينافى الألوهية غاية المنافاة . ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفظع الضلال من وجوه ثلاثة : الأول ـ أنه منهمك فى الغيّ لا يكاد يعلق بشيء من الخير والهدى . فتكون طاعته ضلالًا بعيداً عن الحق . والثانى ـ أنه ملعون لضلاله . فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال . والثالث ـ أنه فى غاية السعى فى إهلاكهم وإضلالهم . فموالاة من هذا شأنه غاية الضلال، فضلًا عن عبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

« وَلَأُضِلَّنَّهُمْ » أى: عن الهدى « وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ » أى: الأمانى الباطلة من طول الأعمار وبلوغ الآمال . قال الرازىّ : إن الشيطان لما ادعى أنه يضل الخلق قال (وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

وهذا يشعر بأنه لا حيلة له فى الإضلال أقوى من إلقاء الأمانى فى قلوب الخلق . وطلب ما يورث شيئين : الحرص والأمل. والحرص والأمل يستلزم أكثر الأخــلاق الذميمة . وهما كالأمرين اللازمين لجوهر الإنسان . قال(١) صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص والأمل. والحرص يستلزم ركوب أهوال الدنيا وأهوال الدين . فإنه إذا اشتد حرصه على الشيء فقد لا يقدر على تحصيله إلا بمعصية الله وإيذاء الخلق . وإذا طال أمله نسى الآخرة وصار غريقاً فى الدنيا . فلا يكاد يقدم على التوبة ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ فيصير قلبه كالحجارة أوأشد قسوة « وَلَآمُرَنَّهُمْ » أى على خلاف أمرك إضلالاً لهم « فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ » أى: فليقطعنها ويشقنها سِمَةً وعلامة للبحائر والسوائب ليحرموها ، بعد ما أحللتها.

قال الواحدى رحمه الله : التبتيك ، ههنا ، هو قطع آذان البحيرة، بإجماع المفسرين . وذلك أنهم كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً ثم تسيَّب ,وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها . فأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح . ولا يردّونها عن ماء ولا مرعى. وإذا لقيها المعي المنقطع به لم يركبها. وسوّل لهم إبليس أن هذا قربة، وهى البحيرة.

قال ابن سيده : بحر الناقةَ والشاة يبحرها : شق أذنها بنصفين . وقــل بنصفين طولا «وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ» أى: دين الله عزوجل. رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وكثيرين. وهــذا كقوله تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)(٢) على قول من جعل ذلك أمراً . أى: لا تبدلوا فطرة الله ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١١٥ (طبعتنا) ونصــه : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم ويشب منه اثنتان : الحرص على المــال والحرص على العمر » .

(٢) [٣٠/ الروم/٣٠] . . . ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

ودعوا النـاس على فطرتهم ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء . هل تجدون بها من جدعاء ؟ وفى صحيح مسلم[٢] عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٩٣ ـ باب ما قيـل فى أولاد المشركين، حديث ٧١٦. ونصه .

عن أبى هريرة قال : قال النبىّ ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه . كمثل البهيمة تنتج البهيمة . هل ترى فيها جدعاء ؟ » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنـــة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٦٣ (طبعتنا) ونصه :

عن عِياض بن حمار المُجَاشعىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال ، ذات يوم فى خطبتـه : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمـكم مما جهلتم مما علمنى ، يومى هـذا . كل مال نحلته عبدا ، حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم . وإنهم أتتهم الشـياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم . وَأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بى ، ما لم أنزِل به سلطانا . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقـايا من أهل الـكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائماً ويقظان . وإن الله أمرنى أن أحرق قريشا . فقلت : رب ! إذاً يثلغوا رأسى (أى: يشدخوه ويشقوه) فيدعوه خبزة (أى: كما يشدخ الخبز) قال : استخرجهم كما استخرجوك . واغزهم نُغْزِك (أى: نعينك) وأنفق فسننفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله . وقاتل بمن أطاعك من عصاك . قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفّق . ورجل رحيم رقيق =

وروى الإمام أحمد(١) والشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعىّ يجر قُصْبَه فى النار . وكان أول من سيَّب السوائب وبَحَرَ البحيرة .

وروى الطبرانىّ عن ابن عباس مرفوعاً : أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحى بن قمعة ابن خندف ، أبو خزاعة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : أنه عنى بالآية خصى الدواب . وقال أنس : منه الخصا . وقد روى ابن عساكر عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن الإخصاء . ورواه الإمام أحمد(٢) أيضا عنه بلفظ : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خصاء الخيل والبهائم. وروى الطبرانىّ عن ابن مسعود: نهى النبىّ ﷺ أن يخصى أحـد من ولد آدم . وروى

= القلب لكل ذى قربى ، ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له (أى: لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغى) الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا . والخائن الذى لا يخفى له طمع ، وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » . وذكر البخل أو الكذب « والشِّنظير : الفحّاش » .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٧٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن أبى هريرة قال : قال النبىّ ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعىّ يجرّ قُصْبه (يعنى الأمعاء) فى النار . وهو أول من سيّب السوائب » .

وفى البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٩ ـ باب قصة خزاعة ، حديث ١٦٥٧ .

ومسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن إخصاء الخيل والبهائم . وقال ابن عمر : فيها نماء الخَلْق .

البيهقيّ عن ابن عباس : نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن صبر الروح وخصاء البهائم. وقال الحسن: عنى بالآية الوشم (بالشين المعجمة) أخرجه ابن أبي حاتم. روى الإمام أحمد[١] عن أبي هريرة: نهى رسول الله ﷺ عن الوشم . وفي الصحيح[٢] عن ابن مسعود: لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيِّرات خلق الله عز وجل . ثم قال: ألا ألْعَنُ من لعن رسولُ الله ﷺ ؟ وهو في كتاب الله عز وجل ؟ يعني قوله (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : فيستدل بالآية على تحريم الخصاء والوشم وما يجرى مجراه ، من الوصل في الشعر . والتفلج ، وهو تفريق الأسنان . والتنميص ، وهو نتف الشعر من الوجه . انتهى .

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣١٩ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ٤ ـ باب وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، حديث ٢٠٥٥ ونصه :

عن علقمة عن عبد الله قال : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيِّرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها أم يعقوب . فقالت : إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، ومن هو في كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول . قال : لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه . أما قرأت : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟ قالت : بلى . قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإني أرى أهلك يفعلونه . قال : فاذهبي فانظري . فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئا . فقال : لو كانت كذلكِ ما جامَعْتُنا .

قال بعض الزيدية : ويلحق بالوشر ما يفعل فى الخدّ من الشرط للزينة . وحكى الزجاج عن بعضهم ، فى معنى الآية : إن الله تعالى خلق الأنعام ليركبوها ويأكلوها ، فحرموها على أنفسهم كالبحائر والسوائب والوصائل . وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرة للناس ينتفعون بها ، فعبدها المشركون فغيروا خلق الله . ولا يخفى أن عموم الآية يصدق على جميع المعانى . إذ كلها من تغيير خلق الله . فلا مانع من حمل الآية عليها . قال البيضاوىّ : قوله (فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ) أى : عن وجهه وصورته ، أوصفته . ويندرج فيه ما قيل من فقء عين الحامى ، وخصاء العبيد ، والوشم والوشر ، واللواط ، والسحق ، ونحو ذلك . وعبادة الشمس والقمر ، وتغيير فطرة الله تعالى التى هى الإسلام . واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالا ، ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى . انتهى .

وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالاً أو حالاً . وما فيها من (اللامات) كلها للقسم . والمأمور به فى الموضعين محذوف، ثقةً بدلالة النظم عليه . ثم حذر تعالى عن متابعته فقال « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ » بإيثار ما يدعو إليه ، مجاوزاً ولاية الله، بترك ما يدعو إليه « فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا » أى : بيناً لمصيره إلى النار المؤبدة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)

« يَعِدُهُمْ » بأنهم الفائزون « وَيُمَنِّيهِمْ » أى : مالاينا لونه « وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» باطلاً وضلالا ، وإيهامَ نفعٍ مما ليس فيه إلا الضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا)

« أُولَئِكَ » أى : أولياء الشيطان « مَأْوَاهُمْ » مصيرهم ومآلهم يوم القيامة « جَهَنَّمُ

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا » معدلاً ومفرًّا . ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء ومآلهم من الكرامة فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » أى: صدقت قلوبهم « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى: عملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات « سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت غرفها ومساكنها « الْأَنْهَارُ » أنهار الخمر والماء واللبن والعسل «خَالِدِينَ فِيهَا» مقيمين فى الجنة. لا يموتون ولا يخرجون منها « أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا » صدقاً واقعاً لا محالة . وكيف لا يكون وعد الله حقًّا « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً » وعداً وخبراً . وهو استفهام بمعنى النفى . أى: لا أحد أصدق منه قيلاً . لا إله إلا هو ولا رب سواه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[(١)] فى خطبته : إن أصدق الحديث كلام الله . وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم . وشر الأمور محدثاتها . وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . وكل ضلالة فى النار . والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه ، بوعد الله الصادق لأوليائه . والمبالغة فى توكيده ترغيباً للعباد فى تحصيله . و(القيل) مصدر ، كالقال والقول .

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٢٣] (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ » أى: ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون أن تنفعكم الأصنام « وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ » ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا:

(١) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)[١] (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)[٢] «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ». أى: من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله «وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً» وهذا وعيد للكفار لأنه قال بعده :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

«وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» جملة حالية . و(من) الأولى زائدة عند الأخفش . وصفة عند سيبويه . أى : شيئاً من الصالحات «فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» أى : لا ينقص من حسناتهم قدر نقير . وهو النقرة التى على ظهر النواة . وهذا على سبيل المبالغة فى نفى الظلم . ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان . والراجع فى (وَلَا يُظْلَمُونَ) لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً . وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره عند الآخر . وقوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) وقوله (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) بعد ذكر تمنى أهل الكتاب كقوله سبحانه (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)[٣] وقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) عقيب قوله (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً).

(١) [٥/ المائدة/ ١٨] ونصها: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٨١] . . . . فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

تنبيه :

ما قدمناه من أن الخطاب فى قوله تعالى (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ) للمشركين وأن قوله تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) أى : من أهل الكتاب والمشركين ـ هو الذى يدل عليه سياق الآية ونظمها الكريم كما بينا . ورواه الطبرى[١] عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن . قال الأولان رضى الله عنهما: (السوء) ههنا هو الشرك . وقال الحسن : (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) هو الكافر . ثم قرأ (وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ) .

ولما كان لعموم هذا الخطاب روعة، وأىّ روعة ، أشفق كثير من الصحابة لأجله . قال ابن كثير : وقد روى أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة . قال الإمام أحمد[٢] : حدثنا عبد الله بن نمير . حدثنا إسماعيل عن أبى بكر بن أبى زهير قال: أخبرت أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يارسول الله ! كيف الفلاح بعد هذه الآية (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) فكل سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك ، ياأبا بكر ! ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ قال : بلى. قال : هو مما تجزون به .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) شق ذلك على المسلمين. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : سددوا وقاربوا . فإن فى كل مايصاب به المسلم كفارة . حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها . رواه سعيد بن منصور

(١) عن ابن عباس ، الأثر رقم ١٠٥١٨ ، وعن سعيد بن جبير ، الأثر رقم ١٠٥١٩ ، وعن الحسن ، الأثر رقم ١٠٥١١ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٨ ـ ٧١ (طبعة المعارف) .

وأحمد[١] ومسلم[٢] والترمذىّ والنسائىّ .

وقال عطاء بن يسار عن أبى سعيد وأبى هريرة ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن ، حتى الهم يهمه إلا كفر الله عن سيئاته. أخرجاه[٣] .

وروى ابن مردويه عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال قيل : يارسول الله ! من يعمل سوءًا يجز به ؟ قال : نعم . ومن يعمل حسنة يجز بها عشراً . فهلك من غلب واحدتُه عشراته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » أى: أخلص نفسه له تعالى فلم يتخذ ربا سواه . « وَهُوَ مُحْسِنٌ » أى آت بالحسنات تارك للسيئات . أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفىّ المستلزم لحسنها الذاتىّ . وقد فسر النبىّ[٤] صلى الله

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث ٧٣٨٠ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى، ١ ـ باب ما جاء فى كفارة المرض حديث٢٢٣٥و٢٢٣٦. ومسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، حديث ٥٢(طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبىّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، حديث ٤٦ ونصه :

عليه وسلم الإحسان بقوله : أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك « وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » الموافقة لدين الإسلام ، المتفق على صحتها وقبولها « حَنِيفاً » أى : مائلاً عن الشرك قصداً . أى: تاركا له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليته ، لا يصده عنه صادّ ، ولا يرده عنه رادّ .

قال الرازىّ : اعلم أنه تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناً، شرح الإيمان وبين فضله من وجهين : أحدهما ـ أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى. والثانى ـ أنه الدين الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام . وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب فى دين الإسلام . أما الوجه الأول فاعلم أن دين الإسلام مبنىّ على أمرين : الاعتقاد والعمل. أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ) وذلك لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع . والوجه أحسن أعضاء الإنسان . فالإنسان إذا عرف بقلبه ربه ، وأقر بربوبيته وعبودية نفسه ، فقد أسلم وجهه لله . وأما العمل فإليه الإشارة بقوله (وَهُوَ مُحْسِنٌ) ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات . فتأمل فى هذه اللفظة

= عن أبى هريرة قال : كان النبىّ ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْمُ فى البنيان . فى خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبىّ ﷺ : إن الله عنده علم الساعة . . . الآية .

ثم أدبر .

فقال : « ردوه » فلم يروا شيئاً . فقال : « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض . وأيضاً فقوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يفيد الحصر ، معناه أنه أسلم نفسه لله وما أسلم لغير الله. وهذا تنبيه على أن كمال الإيمان لا يحصل إلا عند تفويض جميع الأمور إلى الخالق ، وإظهار التبرىء من الحول والقوة . وأيضاً ففيه تنبيه على فساد طريقة من استعان بغير الله . فإن المشركين كانوا يستعينون بالأصنام ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . والدهرية والطبيعيون يستعينون بالأفلاك والكواكب والطبائع وغيرها . واليهود كانوا يقولون فى دفع عقاب الآخرة عنهم: إنهم من أولاد الأنبياء. والنصارى كانوا يقولون : ثالث ثلاثة . فجميع الفرق استعانوا بغير الله . وأما الوجه الثانى فى بيان فضيلة الإسلام فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما دعا الخلق إلى دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وقد اشتهر عند كل الخلق أن إبرهيم ما كان يدعو إلا إلى الله تعالى كما قال (إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)[1] وما كان يدعو إلى عبادة فلك ولا طاعة كوكب ولا سجدة لصنم ولا استعانة بطبيعة . بل كان ديدنه الدعوة إلى الله والإعراض عن كل ماسوى الله . وهكذا دعوة محمد ﷺ . ثم إن شرع إبراهيم مقبول عند الكل . وذلك لأن العرب لا يفتخرون بشىء كافتخارهم بالانتساب إلى إبراهيم . وأما اليهود والنصارى فلا شك فى كونهم مفتخرين به . وإذا ثبت هذا لزم ان يكون شرع محمد مقبولاً عند الكل « وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » أى: صفياً خالص المحبة له . وإظهاره ، عليه السلام ، فى موضع الإضمار ، لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح . وسر هذه الجملة الترغيب فى اتباع ملته عليه الصلاة والسلام. فإن من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغا مصححاً لتسميته خليلاً ،

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ، أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ، قُل لَّا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد إليه أعناق الهمم، وأشرف ما يرمق نحوه أحداق الأمم . فإن درجة الخلة أرفع مقامات المحبة . وماذاك إلا لكثرة طاعته لربه . كما وصفه به فى قوله : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ)(١) قال كثير من علماء السلف : أى: قام بجميع ما أمر به ، وفى كل مقام من مقامات العبادة . فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير . ولا كبير عن صغير. وقال تعالى (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ..)(٢) الآية . وقال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...) الآية(٣) . والخليل ، لغةً ، الصديق المختص . وقال ابن الأعرابىّ: الخليل الصادق . وقال الزجاج : هو المحب الذى لا خلل فى محبته . وبه فسر الآية . أى : أحبه محبة تامة لا خلل فيها . وقال ابن دريد : الخليل من أصفى المودة وأصحّها . قال : ولا أزيد فيه شيئاً لأنها فى القرآن . انتهى .

قال الرازىّ : ذكروا فى اشتقاق الخليل وجوهاً : منها أن خليل الإنسان هو الذى يدخل فى خلال أموره وأسراره . والذى دخل حبه فى خلال أجزاء قلبه . ولا شك أن ذلك هو الغاية فى المحبة . قيل : لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ، ودعا القومَ مرة بعد أخرى إلى توحيد الله ، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس ، ومنعهم عن عبادة الأوثان ، ثم سلّم للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان ، جعله الله إماماً للخلق ورسولاً إليهم ، وبشره بأن الملك والنبوة فى ذريته . فلهذه الاختصاصات سماه خليلاً ، لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لإيصال الخيرات والمنافع إليه. انتهى .

وقوله: (لأن محبة الله لعبده الخ منزع كلامىّ لا سلفىّ) .

---

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٤] .... قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٠] .

ثم قال الرازى : وعندى وجه آخر. وهوأن جوهر الروح ، إذا كان مضيئاً مشرقاً علوياً قليل التعلق باللذات الجسمانية والأحوال الجسدانية ، ثم انضاف إلى مثل هذا الجوهر المقدس الشريف ، أعمال تزيده صقالة عن الكدورات الجسمانية ، وأفكار تزيده استنارة بالمعارف القدسية والجلايا الإلهية ، صار مثل هذا الإنسان متوغلاً فى عالم القدس والطهارة ، متبرئاً عن علائق الجسم والحس . ثم لا يزال هذا الإنسان يتزايد فى هذه الأحوال الشريفة إلى أن يصير بحيث لا يرى إلا الله ، ولا يسمع إلا الله ، ولا يتحرك إلا بالله ، ولا يسكن إلا بالله، ولا يمشى إلا بالله ؛ فكأن نور جلال الله قد سرى فى جميع قواه الجسمانية . وتخلل فيها وغاص فى جواهرها . وتوغل فى ماهياتها . فمثل هذا الإنسان هو الموصوف، حقا ، بأنه خليل . لما أنه تخللت محبة الله فى جميع قواه . وإليه الإشارة بقول[٣] النبى ﷺ ، فى دعائه : اللهم! اجعل فى قلبى نوراً وفى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً وفى عصبى نورًا . انتهى .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١ (طبعتنا) ونصه :

عن ابن عباس قال : بت ليلة عند خالتى ميمونة . فقام النبى ﷺ من الليل . فأتى حاجته . ثم غسل وجهه ويديه . ثم نام . ثم قام فأتى القربة فأطلق شِناقها (الشناق هو الخيط الذى تربط به فى الوتد . وقيل : هو الوكاء) ثم توضأ وضوءًا بين الوضوءين . ولم يكثر . وقد أبلغ . ثم قام فصلى. فقمت فتمطيت كراهةَ أن يرى أنى كنت أنتبه له . فتوضأت . فقام فصلى . فقمت عن يساره . فأخذ بيدى فأدارنى عن يمينه . فتتامّت صلاة رسول الله ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة . ثم اضطجع . فنام حتى نفخ. وكان إذا نام نفخ . فأتاه بلال فآذنه بالصلاة. فقام فصلى ولم يتوضأ . وكان فى دعائه «اللهم ! اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا، وعن يسارى نورا ، وفوقى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، وعَظِّمْ لى نورا » .

قال الإمام العلامة شمس الدين بن القيّم فى كتابه (الجواب الكافى) : الخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها . بحيث لا يبقى فى القلب سعة لغير محبوبه . وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجهٍ ما . وهذا المنصب خاصة للخليليْن صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد. كما قال ﷺ (١) : إن الله اتخذنى خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا . وفى الصحيح (٢) عنه ﷺ : لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا . ولكن صاحبكم خليل الله . وفى حديث (٣) آخر : إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته . ولما سأل إبراهيم عليه السلام

(١) هذا الحديث لم أجده فى كتاب من كتب السنة التى تحت يدى . وأخيراً وجدت الحافظ ابن حجر ذكر فى (الفتح) عند الكلام على حديث : « لو كنت متخذاً خليلا لاتخذته خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » ، قال : وقد تواردت هذه الأحاديث على نفى الخلة من النبىّ ﷺ لأحد من الناس . وأمّا ما روى عن أبىّ بن كعب قال : إن أحدث عهدى بنبيكم قبل موته بخمس . دخلت عليه وهو يقول : « إنه لم يكن نبىّ إلا وقد اتخذ من أمته خليلا . وإن خليلى أبو بكر . ألا وإن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خيلا » أخرجه أبو الحسن الحربىّ فى (فوائده) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ فضائل أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ٥ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلا ، حديث ٣١٢ ونصه : عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « لو كنت متخذاً من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر . ولكن أخى وصاحبى » .

وفيه أيضاً عنه ، قال : « لو كنت متخذا خليلا لاتخذته خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ، ١١ ـ باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ٩٣ ، ونصه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته . ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . إن صاحبكم خليل الله » .

الولد ، فأعطيه ، فتعلق حبه بقلبه ، فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره . فأمر بذبحه . وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانا . ولم يكن المقصود ذبح الولد . ولكن المقصود ذبحه من قلبه . ليخلص القلب للرب . فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده ، حصل المقصود . فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم . فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً . بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله . كما أبقى شريعة الفداء . وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدى المناجاة . وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين ، وأبقى ثوابها . وقال : مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ(1) . هى خمس فى الفعل وخمسون فى الأجر . ثم قال ابن القيم قدس سره : وأما ما يظنه بعض الظانين ؛ أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله ، فمن جهله . فإن المحبة عامة والخلة خاصة . والخلة نهاية المحبة . وقد أخبر النبى ﷺ أن الله اتخذ إبراهيم خليلا . ونفى أن يكون له خليل غير ربه . مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم . وأيضا فإن الله سبحانه يُحِبُّ التَّوَّابِينَ(2) وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(3) وَيُحِبُّ الصَّابِرِينَ(4) وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(5)

---

(١) [٥٠/ ق/ ٢٩] ... وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

(٢) (٢/ البقرة/ ٢٢٢) ونصها : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(٣) [٢/ البقرة/ ٢٢٢] .

(٤) [٣/ آل عمران/ ١٤٦] ونصها : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

(٥) [٢/ البقرة/ ١٩٥] ونصها : وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[١] ،وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[٢] . وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام. والشاب التائب حبيب الله. وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وقد تمسك من زعم أن المحبة أصفى من الخلة بما رواه ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه . فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون. فسمع حديثهم . وإذا بعضهم يقول : عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلًا . فإبراهيم خليله. وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما . وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته . وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وتعجبكم . أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك . وموسى كليمه . وعيسى روحه وكلمته . وآدم اصطفاه الله. وهو كذلك . وكذلك محمد ﷺ . قال : ألا وإنى حبيب الله . ولا فخر . وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر . وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله لى ويدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر. وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه . ولبعضه شواهد فى الصحاح وغيرها . انتهى .

قلت : ورواه الترمذى[٣] أيضا فى جامعه فى فضائله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : هذا حديث غريب .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٦] ونصها : بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .

(٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨] ونصها : لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ١ ـ باب فى فضل النبى ﷺ ، حدثنا على بن نصر

وظاهر أن قوله ﷺ : ألا وإنى حبيب الله، لا يدل على أن درجة المحبة أرفع . لأنه لم يورد للتفاضل بينهما . وإنما سيقت هذه الجملة مع مابعدها للتعريف بقدره الجسيم ، وفضله العظيم. وبيان خصائصه التى لم تجتمع قبلُ فى مخلوق. ومايُدَان الله تعالى به من حقه الذى هو أرفع الحقوق. (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا)[1] وروى ابن أبى حاتم عن إسحق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا ألقى فى قلبه الوجل . حتى إن خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير فى الهواء. وهكذا جاء فى صفة رسول الله ﷺ، أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل ، إذا اشتد غليانها ، من البكاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » جملة مبتدأة. سيقت لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السموات والأرض ، ببيان أن جميع ما فيهما من الموجودات، له تعالى خلقاً وملكاً . لايخرج عن ملكوته شىء منها . فيجازى كلًّا بموجب أعماله خيراً وشرًّا. وقيل: لبيان أن اتخاذه عز وجل لإبراهيم عليه السلام خليلًا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك فى شأن من شؤنه كما هو دأب الآدميين . فإن مدار خلتهم افتقار بعضهم إلى بعض فى مصالحهم. بل لمجرد تكرمته وتشريفه عليه السلام . وقيل : لبيان أن الخلة لاتخرجه عن رتبة العبودية .

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ.

وقيل: لبيان أن اصطفاءه عليه السلام للخلة، بمحض مشيئته تعالى. أي: له تعالى مافيهما جميعاً. يختار منهما ما يشاء لمن يشاء . أفاده أبو السعود .

« وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً » يعنى عالماً عِلْمَ إحاطة . لا تخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر (١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا)

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ » أى: ويسألونك الإفتاء فى النساء . والإفتاء تبيين المبهم « قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » ذكروا فى (ما) وجوهاً : المختار منها أنها فى موضع رفع بالعطف على المبتدأ ، وهو لفظ الجلالة . أى: والمتلوّ فى الكتاب يفتيكم فيهن أيضا . أو بالعطف على ضميره فى (يُفْتِيكُمْ) وساغ ، لمكان الفصل بالمفعول والجارّ والمجرور. وذلك المتلوّ فى الكتاب هو قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) قال الرازىّ : وحاصل الكلام أنهم كانوا قد سألوا عن

(١) [١٠ / يونس / ٦١] ونصها : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

أحوال كثيرة من أحوال النساء. فما كان منها غير مبين الحكم، ذكر أن الله يفتيهم فيها. وما كان منها مبين الحكم في الآيات المتقدمة، ذكر أن تلك الآيات المتلوّة تفتيهم فيها. وجعل دلالة الكتاب على هذا الحكم إفتاءً من الكتاب. ألا ترى أنه يقال في المشهور: إن كتاب الله بيّن لنا هذا الحكم. وكما جاز هذا، جاز أيضاً أن يقال: إن كتاب الله أفتى بكذا. قال أبو السعود: وإيثار صيغة المضارع للإيذان باستمرار التلاوة ودوامها و(في الكتاب) إما متعلق بـ(يتلى) أو بمحذوف وقع حالاً من المستكنّ فيه. أي يتلى كائناً فيه « فِي يَتَامَى النِّسَاءِ » متعلق بـ(يتلى) أي: ما يتلى عليكم في شأنهن. وهذه الإضافة بمعنى (من) لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقيل: من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي: النساء اليتامى « اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ » أي: ما وجب لهن من الميراث وغيره « وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ » روى البخاريّ[1] ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت، في هذه الآية: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليّها ووارثها. فأشركته في ماله حتى في العذق. فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته. فيعضلها. فنزلت هذه الآية. وعنها[2] أيضاً قالت: وقول الله عز

---

(١) أخرجه البخاريّ في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ٤ ـ باب قوله: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ، الحديث ١٢٣٤.

(٢) أخرجه البخاريّ في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ١ ـ باب وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا، حديث ١٢٣٤ ونصه:

عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فقالت: يا ابن أختي! هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها. فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره. فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق. =

وجل(وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) رغبةأحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره. حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط. من أجل رغبتهم عنهن . وهذا المروىّ عن عائشة يدل على أن الآية نزلت فى المعدمة . وأن الجار المقدّر مع (أن) هنا هو (عن) . وقد تأولها سعيد بن جبير على المعنيين . أى تقدير (عن) و (فى) فقال : نزلت فى المعدمة والغنية .

قال الحافظ ابن حجر : والمروىّ عن عائشة أوضح، فى أن الآية الأولى ، أى: التى فى أول السورة، نزلت فى الغنية. وهذه الآية نزلت فى المعدمة . قال ابن كثير : والمقصود أن الرجل إذا كان فى حجره يتيمة يحل له تزوجها ، فتارة يرغب فى أن يتزوجها ، فأمره الله أن يمهرها ، أسوة أمثالها من النساء . فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء . فقد وسع الله عز وجل . وهـذا المعنى فى الآية الأولى التى فى أول السورة . وتارة لا يكون له فيها رغبة ، لدمامتها عنده ، أو فى نفس الأمر . فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه فى ماله الذى بينه وبينها . كما قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية ، وهى قوله (فِى يَتَامَى النِّسَاءِ) الآية : كان الرجل فى الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه . فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا . فإن كانت

= فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .

قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ .

قالت عائشة : وقول الله فى آية أخرى : وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ : رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال . قالت : فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن، إذا كن قليلات المال والجمال .

جميلة وهَـوِيَها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى تموت . فإذا ماتت ورثها . فحرّم الله ذلك ونهى عنه .

تنبيه :

ماذكرناه عن ابن جبير من حمل الآية على المعنيين ، أى: أن حرف الجر المقدّر مع (أن) هو (عن) و(فى) ، وأن كلامنهما مرادمنها على سبيل البدل لصلاحيتها لهما بالاعتبارين المتقدمين .
قال الخفاجىّ : مثله لا يعدّ لبسا بل إجمالًا . كما ذكره بعض المحققين . انتهى .

قلت : وهذا بناء على أن اللبس هو أن يدل اللفظ على غير المراد . والإجمال أن لا تتضح الدلالة . وبعبارة أخرى: إيراد الكلام على وجه يحتمل أمورًا متعددة. وقد نظم بعضهم الفرق بينهما فقال :

والفرق بين اللَّبس والإجمال	مما به يُهتمّ فى الأقوال
فاللفظ ، إن أفهم غير القصد،	فاحكم على استعماله بالرد
لأنه اللَّبس . وأما المجمـل	فربما يفهمه من يعقل
وذاك أن لا تفهم المخالفـا	ولا سواه بل تصير واقفا
وحكمه القبول فى الموارد	فاحفظه نظماً أعظم الفوائد

« وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ » عطف (على يتامى النساء) . وما يتلى فى حقهم : قوله تعالى (يُوصِيكُمُ اللهُ ...) الخ. وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثونهم كما لا يورثون النساء. وإنما يورثون الرجال القوّام . قال ابن عباس ، فى الآية : كانوا فى الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات . وذلك قوله (لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ) فنهى الله عن ذلك . وبيّن لكل ذى سهم سهمه. فقال (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) صغيراً أو كبيراً . وكذا قال سعيد بن جبير « وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ » بالجر ، عطف على ما قبله . وما يتلى فى حقهم : قوله تعالى(وَلَا

تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ)[١] ونحو ذلك مما لا يكاد يحصر . قال سعيد بن جبير : المعنى : كما أنها إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال وجمال ، فانكحها واستأثر بها . والخطاب للولاة ، أو للأولياء والأوصياء .

تنبيه :

استنبط من الآية أحكام : الأول ـ جواز نكاح الصغيرة . لأن اليتيم : الصغير الذى لم يبلغ . وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال : لا يتم بعد احتلام . رواه أبو داود[٢] . وعن الأصم : أراد البوالغ قبل التزوج . وسماهن باليتم لقرب عهدهن باليتم . والأول أظهر . لأنه الحقيقة . قالوا : قد يطلق اليتيم على البالغة . بدليل قوله[٣] ﷺ : تستأمر اليتيمة فى نفسها . فإن سكتت فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها . رواه أهل السنن . والاستئمار لا يكون إلا من البالغة . وقد ورد قول الشاعر :

إن القبور تنكح الأيامى النسوة الأرامل اليتامى

(١) [٤ / النساء / ٢] ونصها : وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

(٢) أخرجه فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٩ ـ باب ما جاء متى ينقطع اليتم ، حديث ٢٨٧٣ ونصه :

عن علىّ بن أبى طالب قال : حفظت عن رسول الله ﷺ « لا يُتم بعد احتلام ، ولا صُمَات يوم إلى الليل » .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٢٣ ـ باب فى الاستئمار ، حديث ٢٠٩٣ ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تستأمر اليتيمة فى نفسها . فإن سكتت فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها » .

فسمى البالغات يتامى ، لانفرادهن عن الأزواج . وكل شيء منفرد لا نظير له يقال له يتيم . كقولهم : درة يتيمة . وهذه المسألة فيها أقوال للعلماء : الأول ـ جواز نكاح الصغيرة لجميع الأولياء . وهـذا مذهب الهادوية ومالك وأبي حنيفة وصاحبيه . الثاني ـ للناصر والشافعيّ : لا يجوز ذلك إلا للأب والجد . والثالث ـ لايجوز ذلك إلا للأب فقط . وهذا قول الأوزاعيّ . ومرويّ عن القاسم. دليل الأولين ، ما اقتضاه قوله تعالى (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) وهي نزلت في شأن اليتيمة ينكحها وليها ولا يقسط لها في المهر . فنهوا عن ذلك وأمروا أن يقسطوا في المهر بقوله في سورة النساء (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) واليتم الحقيقيّ مع الصغر . وغيره مجاز. وأدنى الأولياء الذى يجوز له النكاح ، ابن العم. فإذا صح فيه صح . وحجة القول الثاني قوله ﷺ: تستأمر اليتيمة . الحديث المتقدم . والإذن لا يكون إلا بعد البلوغ . وروى الإمام أحمد والدارقطنيّ : أن قدامة بن مظعون زوّج ابنة أخيه ، وكان وصيّها ، ممن أبَتْه . فرفع ذلك إلى النبيّ ﷺ . فقال : هي يتيمة ولا تنكح إلا بإذنها . كذا ذكره بعض مفسري الزيدية.

وتخريج الأحاديث من زيادتي . وما نقله من أن الإذن لا يكون إلا بعد البلوغ يحتاج إلى دليل . إذ لا يدل عليه الخبر بمنطوقه ولا مفهومه .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وفي حديث: لاتنكح الأيّم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن : ظاهر الحديث اشتراط رضاء المزوجة . بكراً كانت أو ثيباً . صغيرة أو كبيرة . انتهى .

قال الترمذيّ(١) في (جامعه) : قال بعضهم : لا يجوز نكاح اليتيمة حتى تبلغ . وقال

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١٩ ـ باب ما جاء في إكراه اليتيمة على التزويج :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اليتيمة تستأمر في نفسها . فإن صمتت =

أحمد وإسحاق: إذا بلغت اليتيمة سبع سنين فزوجت فرضيت فالنكاح جائز . ولا خيار لها إذا أدركت. واحتجا بحديث عائشة أن النبيّ ﷺ بنى بها وهى بنت تسع سنين . وقد قالت عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهى امرأة . انتهى .

الحكم الثانى ـ أنه يجوز أن يتولى طرفى العقد واحد فى النكاح. لقوله (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) وقد روى ابن سعد من طريق ابن أبى ذئب عن سعيد بن خالد ، أن أم حكيم بنت قارظ قالت لعبد الرحمن بن عوف : إنه قد خطبنى غير واحد . فزوجنى أيّهم رأيت. قال : وتجعلين ذلك إلىّ؟ فقالت : نعم . قال:قدتزوجتك. قال ابن أبى ذئب: فجاز نكاحه .

وروى عبد الرزاق ووكيع والبيهقىّ أن المغيرة بن شعبة أراد أن يتزوج امرأة وهو وليّها. فأمر أبعد منه، فزوجه.

وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : امرأة خطبها ابن عم لها ، لا رجل لها غيره . قال : فلتشهد أن فلاناً خطبها ، وإنى أشهدكم أنى قد نكحته . ولتأمر رجلاً من عشيرتها .

= فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها » يعنى إذا أدركت فردّت جاز .

قال : وفى الباب عن أبى موسى وابن عمر وعائشة .

(قال أبو عيسى) : حديث أبى هريرة حديث حسن . واختلف أهل العلم فى تزويج اليتيمة . فرأى بعض أهل العلم أن اليتيمة إذا زوجت فالنكاح موقوف حتى تبلغ . فإذا بلغت فلها الخيار فى إجازة النكاح أو فسخه . وهو قول بعض التابعين وغيرهم . وقال بعضهم : لا يجوز نكاح اليتيمة حتى تبلغ ، ولا يجوز الخيار فى النكاح . وهو قول سفيان الثورىّ والشافعىّ وغيرهما من أهل العلم. وقال أحمد وإسحاق : إذا بلغت اليتيمة تسع سنين فزوجت فرضيت فالنكاح جائز . ولا خيار لها إذا أدركت . واحتجا بحديث عائشة أن النبىّ ﷺ بنى بها وهى بنت تسع سنين . وقد قالت عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهى امرأة .

أخرج هذه الآثار الثلاثة البخاريّ[١] فى (صحيحه) تعليقا فى (باب إذا كان الولىّ هو الخاطب) أى: هل يزوج نفسه أو يحتاج إلى ولىّ آخر .

قال ابن المنـير : ذكر فى الترجمة ما يدل على الجواز والمنع معاً ، ليكل الأمر فى ذلك إلى نظر المجتهد .

قال الحافظ ابن حجر : لـكن الذى يظهر من صنيعه أنه يرى الجواز . فإن الآثار التى فيها أمر الولىّ غيرَه أن يزوجه ـ ليس فيها التصريح بالمنع من تزويجه نفسه .

ثم قال : وقـد اختلف السلف فى ذلك . فقال الأوزاعىّ وربيعة والثورىّ ومالك وأبو حنيفة وأكثر أصحابه : يزوّج الولىّ نفسه . ووافقهم أبو ثور . وعن مالك : لو قالت الثيب لوليّها : زوجنى بمن رأيت ، فزوجها من نفسه ، أو ممن اختار ، لزمها ذلك . ولو لم تعلم عين الزوج . وقال الشافعىّ : يزوجهما السلطان أو ولىّ آخرمثله ، أو أقعد منه . ووافقه زفر وداود . وحجتهم أن الولاية شرط فى العقد . فـلا يكون الناكح منكحاً ، كما لا يبيع من نفسه. انتهى .

الحـكم الثالث ـ أنه يجوز للأولياء التصرف فى المال. لأن القيام بالقسط لا يتم إلا بذلك « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ » لاسيما فى حق الضعفاء من حفظ أموالهم والقيام بتدبيرهم والإقساط لهم « فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً » فيجزيكم به .

(١) أخرجها البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٣٧ ـ باب إذا كان الولىّ هو الخاطب . ونصها :

وخطب المغيرة بن شعبة امرأة هو أولى الناس بها . فأمر رجلا فزوجه .

وقال عبد الرحمن بن عوف لأم حكيم بنت قارظ : أتجعلين أمرك إلىّ ؟ قالت : نعم . فقال : قد تزوّجتك .

وقال عطاء : لِيُشْهِد أنى قد نـكحتك . أو ليأمر رجلا من عشيرتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ،وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

« وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا » أى: زوجها « نُشُوزًا » أى: تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها ، بترك مضاجعتها والتقصير فى نفقتها « أَوْ إِعْرَاضًا » أى : تطليقاً . أو أن يقلّ محادثتها ومجالستها. كراهة لها أو لطموح عينه إلى أجمل منها « فَلَا جُنَاحَ » أى لا إثم « عَلَيْهِمَا » حينئذ « أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا » بحطّ شىء من المهر أو النفقة . أو هبة شىء من مالها أو قَسْمِها ، طلباً لبقاء الصحبة إن رضيت بذلك . وإلا فعلى الزوج أن يوفيها حقها أو يفارقها . قال فى (الإكليل) : الآية أصل فى هبة الزوجة حقها من القَسْم وغيره . استدل به من أجاز لها بيع ذلك « وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » أى من الفرقة والنشوز والإعراض . قال ابن كثير : بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود[(١)] وابن ماجة[(٢)] عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق . قال بعض مفسرى الزيدية : وفى هذه الآية حث على الصبر على نفس الصحبة . لقوله تعالى « وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » أى: من الفرقة وسوء العشرة . أو خير من الخصومة . أو خير من الخيور . كما أن الخصومة شر من الشرور . وقد كان من كرم

(١) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق، ٣ ـ باب فى كراهية الطلاق، حديث ٢١٧٨.

(٢) أخرجه فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١ ـ باب حدثنا سويد بن سعيد ، حديث ٢٠١٨ (طبعتنا) .

أخلاقه صلى الله عليه وسلم(١) أنه كان يكرم صواحب خديجة بعد موتها. وعنه صلى الله عليه وسلم(٢): إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه . وهذا فيه صبر. وفى الصبر ما لا يحصر من

(١) أخرجه البخارى فى: ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار، ٢٠ ـ باب تزويج النبى ﷺ خديجة ، وفضلها رضى الله عنها ، حديث ١٧٨٩ وها هو بطرقه الثلاث :

١ ـ عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماغرت على امرأة للنبى ﷺ ماغرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجنى، لما كنت أسمعه يذكرها . وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصَب. وإن كان ليذبح الشاة فيهدى فى خلائلها منها ما يسعهن .

٢ ـ عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماغرت على امرأة ماغرت على خديجة ، من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها . قالت : وتزوجنى بعدها بثلاث سنين . وأمره ربه عز وجل، أو جبريل عليه السلام، أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصَب .

٣ ـ عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت على خديجة . وما رأيتها. ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها. وربما ذبح الشاة ثم يقطّعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة. فربما قلت له : كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول « إنها كانت وكانت . وكان لى منها ولد » .

(٢) أخرجه مسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ٤ ـ باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ، ونحوهما ، حديث ١١ (طبعتنا) ونصه :

عن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر ؛ أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة . فسلّم عليه عبد الله . وحمله على حمار كان يركبه . وأعطاه عمامة كانت على رأسه .

فقال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ! إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير .

فقال عبدالله : إن أبا هذا كان وُدًّا (أى: صديقاً من أهل مودته) لعمر بن الخطاب . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » .

المحاسن والفضائل . والصلح فيه من أنواع الترغيب . روى عنه صلى الله عليه وسلم: من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد . وعن أنس : من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة . انتهى . وفى (الإكليل) : قوله تعالى (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) عام فى كل صلح ، أصل فيه . وفى الحديث[1] : الصلح جائز بين المسلمين. إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . واستدل بعموم الآية من أجاز الصلح على الإنكار والمجهول« وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ » بيان لما جبل عليه الإنسان. أى: جعلت حاضرة له مطبوعة عليه، لا تنفك عنه أبداً . فلا تكاد المرأة تسمح بالنشوز ، والإعراض ، وحقوقها من الرجل. ولا الرجل فى إمساكها مع القيام بحقوقها على ماينبغى، إذا كرهها أو أحب غيرها . والجملة الأولى للترغيب فى المصالحة. والثانية لتمهيد العذر فى المشاحة وللحث على الصلح . فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلّية بغير استمالة، مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالته . وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقتنع من قِبَلِهَا بشىء يسير ، ولا يكلفها بذل الكثير ، فيتحقق بذلك الصلح « وَإِنْ تُحْسِنُوا » فى العشرة « وَتَتَّقُوا » النشوز والإعراض ونقص الحق « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ » من تحمل المشاق فى ذلك « خَبِيرًا » فيجازيكم ويثيبكم . قال أبو السعود : وفى خطاب الأزواج بطريق الالتفات ، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ، ولفظ (التقوى) المنبىء عن كون النشوز والإعراض مما يتوقى منه ، وترتيب الوعد الكريم عليه ـ من لطف الاستمالة والترغيب فى حسن المعاملة، مالا يخفى .

وما قدمنا فى تفسير الآية هو زبدة ما نقل عن السلف، صحابة وتابعين فى معناها.

قال ابن كثير : ولا أعلم فى ذلك خلافاً . وفى البخارى[2] عن عائشة ، فى هذه الآية

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١٢ ـ باب فى الصلح، حديث ٣٥٩٤

(٢) أخرجه فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٩٥ ـ باب وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ، حديث ١٢٠٦ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها : وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا . =

قالت : الرجل تـكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها . يريد أن يفارقها ، فتقول : أجعلك من شأنى فى حلّ . فنزلت هذه الآية . وروى ابن أبى حاتم عن خالد بن عرعرة قال : جاء رجل إلى علىّ بن أبى طالب عليـه السلام. فسأله عن قول الله عز وجل : وَإِنِ امْرَأَةٌ...الآية ، قال علىّ : يكون الرجل عنده المرأة. فتنبو عينه عنها من دمامتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قذذها ، فتكره فراقه . فإن وضعت له من مهرها شيئاً ، حلّ له . وإن جعلت له من أيامها ، فلا حرج . وكذا رواه أبو داود الطيالسىّ[١] وابن جرير . وروى ابن جرير[٢] أيضاً عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن هـذه الآية فقال: هذه المرأة تـكون عند الرجل قد خلا من سنها . فيتزوج المرأةَ الشابة يلتمس ولدها . فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز . وروى سعيد بن منصور عن عروة قال : أنزل فى سودة وأشباهها : (وَإِنِ امْرَأَةٌ) الآية وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنت . ففرِقت أن يفارقها رسول الله ﷺ . وضنّت بمكانها منه . وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه . فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة . فقبل ذلك رسول الله ﷺ . وروى نحوه أبو داود[٣] الطيالسىّ والترمذىّ عن ابن عباس . وروى الحاكم عن عروة عن عائشة أنها قالت له : ياابن اختى ! كان رسول الله ﷺ لا يفضِّل بعضنا على بعض فى القَسْمِ فى مكثه عندنا . وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا . فيدنو من كل امرأة من غـير مسيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها .

= قالت : هى المرأة تـكون عند الرجل ، لا يستكثر منها . فيريد طلاقها ويتزوج غيرها . تقول له : أمسكنى ولا تطلقنى ثم تزوجْ غيرى . فأنت فى حل من النفقة علىّ والقسمة لى . فذلك قوله تعالى : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ .

(١) الأثر رقم ١٠٥٧٥ .

(٢) الأثر رقم ١٠٥٧٩ .

(٣) أخرجه فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٤ـ سورة النساء ، ٢٦ـ حدثنى محمد بن المثنى.

فيبيت عندها . ولقد قالت سودة بنت زمعة ، حين أسنّت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله ! يومى هذا لعائشة. فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها . قالت : نقول فى ذلك أنزل الله تعالى ، وفى أشباهها ، أراه قال : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا . . . ﴾ الآية . وكذلك رواه أبو داود[1] . وفى الصحيحين[2] عن عائشة قالت : لما كبرت سودة بنت زمعة، وهبت يومها لعائشة . فكان النبىّ ﷺ يقسم لها بيوم سودة . ولا يخفى أن قبوله ﷺ ذلك من سودة، إنما هو لتتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه. فهو أفضل فى حقه عليه الصلاة والسلام.

وقول بعض المفسرين فى هذه القصة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان عزم على طلاق سودة ـ باطل وسوء فهم من القصة . إذ لم يُرْوَ عزمه ﷺ على ذلك . لا فى الصحاح ولا فى السنن ولا فى المسانيد . غاية ماروى فى السنن؛ أن سودة خشيت الفراق لكبرها . وتوهمته. وجلىّ أن للنساء فى باب الغيرة أوهاماً منوعة . فتقدمت للنبىّ ﷺ بقبول ليلتها لعائشة . فقبل منها. وما رواه ابن كثير عن بعض المعاجم من كونه صلى الله عليه وسلم بعث إليها بطلاقها، ثم ناشدته فراجعها ـ فهو (زيادة عن إرساله وغرابته، كما قاله) فيه نكارة لاتخفى .

لطيفة :

حكى الزمخشرىّ هنا ؛ أن عِمران بن حطان الخارجىّ كان من أدمّ بنى آدم. وامرأتُه من أجملهم . فأجالت فى وجهه نظرها يوماً . ثم تابعت الحمد لله . فقال : مالك ؟ قالت : حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة . قال : كيف ؟ قالت : لأنك رزقت مثلى فشكرتَ . ورزقت مثلك فصبرتُ . وقد وعد الله الجنة، عباده الشاكرين والصابرين . انتهى.

(١) أخرجه فى: ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٨ ـ باب فى القسم بين النساء ، حديث ٢١٣٥.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٩٨ ـ باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها . وكيف يقسم ذلك ؟ حديث ١٢٦٦ .

قلت : عمران المذكور ممن خرّج له البخاريّ فى صحيحه . ولما مات سئلت زوجته عن ترجمته ؟ فقالت: أوجز أم أطنب ؟ فقيل : أوجزى . فقالت: ماقدمت له طعاماً بالنهار، وما مهدت له فراشاً بالليل . تعنى أنه كان صوّاماً قوّاماً رحمه الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ » أى: تساووا بينهن فى جميع الوجوه، بحيث لا يقع ميل مّا إلى جانب إحداهن ، فى شأن من الشؤون . فإنه وإن وقع القسم الصوريّ ليلةوليلة، فلابدمن التفاوت فى المحبة والشهوة والجماع . كماقاله ابن عباس وغيره «وَلَوْ حَرَصْتُمْ» أى على إقامةالعدل ، وبالغتم فى ذلك . لأن الميل يقع بلا اختيار فى القلب . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ، فيعدل . ثم يقول : اللهم! هذا قسمى فيماأملك . فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب. رواه الإمام أحمد[1] وأهل السنن« فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ »أى: إذا ملتم إلى واحدة منهن فلاتبالغوا فى الميل إليها . وقال المهايميّ:

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .
وفى أبى داود فى: ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤٨ ـ باب فى القسم بين النساء ، حديث ٢١٣٤.
والترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٢ ـ باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر .
والنسائىّ فى : ٣٦ ـ كتاب عشرة النساء ، ٢ ـ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض .
وابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٧ ـ باب القسمة بين النساء ، حديث ١٩٧١ (طبعتنا) .

فلا تميلوا ، أى عن امرأة كل الميل فتتركوا المستطاع من القسط « فَتَذَرُوهَا » أى: التى ملتم عنها « كَالْمُعَلَّقَةِ » بين السماء والأرض . لا تكون فى إحدى الجهتين . لا ذات زوج ولا مطلقة . وروى أبو داود(1) الطيالسىّ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شدقيه ساقط .

كذا رأيته فى (ابن كثير) شدقيه ، بشين معجمة ثم دال .

ورواية أصحاب السنن المنقولة : وشقه (بمعجمة ثم قاف) ساقط. وفى رواية : مائل « وَأَنْ تُصْلِحُوا » أى نفوسكم بالتسوية والقسمة بالعدل فيما تملكون « وَتَتَّقُوا » الحيف والجور « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » فيغفر لكم ما سلف من ميلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)

« وَإِنْ يَتَفَرَّقَا » أى الزوج والمرأة بالطلاق ، بأن لم يتفق الصلح بينهما ، فاختارا الفرقة

---

(1) رواه فى مسنده ، حديث ٢٤٥٤ وروايته (شقيه) وفى ابن كثير بالصفحة ٥٦٤ من الجزء الأول طبعة سنة ١٩٣٧ م (شقيه) وهو الصواب بخلاف النسخة التى نقل عنها شيخنا المؤلف .

وفى سنن النسائىّ فى : ٣٦ ـ كتاب عشرة النساء ، ٢ ـ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض .

وابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٧ ـ باب القسمة بين النساء ، حديث ١٩٦٩ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٨ ـ باب فى القسم بين النساء، حديث ٢١٣٣ والترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٢ ـ باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر .

« يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا » أي: منهما . أي يجعله مستغنياً عن الآخر « مِنْ سَعَتِهِ » أي: غناه وجوده وقدرته . وفيه زجر لهما عن المفارقة رغماً لصاحبه ، وتسلية لهما بعد الطلاق « وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً » أي: واسع الفضل « حَكِيماً » في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ،وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته. أي: كيف لا يكون واسعاً وله ما فيهما من الخلائق والأرزاق وغيرهما ؟ فله أن يعطي ما شاء منهما لمن شاء من عبيده . وعلى هذا، فهي متعلقة بما قبلها . أو أتى بها تمهيداً لما بعدها من العمل بوصيته ، إعلاماً بأنه مالك ما في السموات والأرض والحاكم فيهما . ولهذا قال « وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أي : من الأمم السابقة. و(الكتاب) اسم جنس يتناول الكتب السماوية « وَإِيَّاكُمْ » معطوف على (الذين) « أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ » أي: وصينا كلًّا منكم ومنهم بالتقوى . وهي عبادته وحده . لا شريك له . والمعنى : أن وصيته قديمة ما زال يوصي الله بها عباده ، ولستم بها مخصوصين . لأنهم بالتقوى يسعدون عنده « وَإِنْ تَكْفُرُوا » أي: بالله « فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أي : فهو مالك الملك كله . لا يضره كفركم. لغناه المطلق. فما الوصية إلا لفلاحكم رحمة بكم. كما في الآية الأخرى (إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)(١) وقال تعالى:

(١) [١٤ / إبراهيم / ٨] ونصها : وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)[1] « وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا » عن عباده « حَمِيدًا » أي: محموداً في ذاته ، حمدوه أو لم يحمدوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ذكره ثالثاً ، إما لتقرير كونه تعالى غنياً حميداً فإن جميع المخلوقات تدل ، بحاجتها على غناه. وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات ، على كونه حميداً . وإما تمهيداً للاحقه من الشرطية. وهو بيان كونه تعالى قادراً على جميع المقدورات . أي : له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقاً وملكا . فهو قادر على الإفناء والإيجاد . فإن عصيتموه ، أيها الناس ، فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية . وعلى أن يُوجِدَ قوماً آخرين يشتغلون بعبادته وتعظيمه . فذكر هذه الكلمات في هذا المقام ثلاث مرات لتقرير ثلاثة أمور في سياقها. كما بيّنا . قال الرازيّ : إذا كان الدليل الواحد دليلًا على مدلولات كثيرة، فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات . ثم يذكر مرة أخرى ليستدل به على الثاني . ثم ثالثاً ليستدل به على المدلول الثالث . وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة . لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول . فكان العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى . فظهر أن هذا التكرير في غاية الحسن والكمال . وأيضاً ، فإذا أعدته ثلاث مرات ، وفرّعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله ، تنبَّه الذهن حينئذ لكون تخليق السموات والأرض دالًّا على أسرار شريفة ومطالب جليلة . فعند ذلك يجتهد الإنسان في التفكر فيها والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى . ولما كان

---

(١) [٦٤ / التغابن / ٦] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

الغرض الكلىّ من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام ، عن الاشتغال بغير الله، إلى الاستغراق فى معرفة الله ، وكان هذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده ـ لا جرم كان فى غاية الحسن والكمال . انتهى . « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى: ربًّا حافظاً. توكل بالقيام بجميع ما خلق .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٣] ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ » أى : يفنكم ويستأصلكم بالمرّة « أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ » أى: ويوجد، دفعةً مكانكم، قوماً آخرين من البشر. أو خلقاً آخرين مكان الإنس. يعنى أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ، ولعدم تعلق مشيئته المبنيّة على الحكم البالغة بإفنائكم . لا لعجزه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً «وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ» أى: إهلاككم بالمرة وتخليق غيركم « قَدِيرًا» بليغ القدرة، كما قال تعالى « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »(١) . وقال تعالى « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ »(٢) . ففيه

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] ونصها: هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

(٢) [١٤/ إبراهيم/ ١٩] ونصها: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

و [٣٥ / فاطر / ١٦و١٧] .

تقرير لغناه وقدرته ، وتهديد لمن كفر به . قال بعض السلف ، ماأهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيرًا)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » كالمجاهد يجاهد للغنيمة « فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى: فماله يطلب أخسهما . فليطلبهما، أوالأشرف منهما . كما قال تعالى : فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١) . وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ...الآية(٢) . وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ . . . الآية(٣) . قال بعضهم: عُنِى بالآية مشركو العرب. فإنهم كانوا يقرون بالله تعالى خالقهم، ولا يقرون بالبعث يوم القيامة. وكانوا يتقربون إلى الله تعالى ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها « وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً » فلا يخفى عليه خافية . ويجازى كُلًّا بحسب قصده .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٠ـ٢٠٢] فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، . . .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٠] . . . وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١٨] . . . ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُورًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ، وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » أى مقتضى إيمانكم المبالغة والاجتهاد فى القيام بالعدل والاستقامة . إذ به انتظام أمر الدارين الموجب لثوابهما . ومن أشده القيام بالشهادة على وجهها. فكونوا « شُهَدَاءَ لِلَّهِ » أى: مقيمين للشهادة بالحق، مؤدين لها لوجهه تعالى، ولو كانت الشهادة « عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ » فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق عليها ولا تكتموه « أَوْ » على « الْوَالِدَيْنِ » أى الأصول « وَالْأَقْرَبِينَ » أى الأولاد والإخوة وغيرهم . فلا تراعهم فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم . فإن الحق حاكم على كل أحد « إِن يَكُنْ » أى : من تشهدون عليه « غَنِيًّا » يبتغى فى العادة رضاه ويتقى سخطه «أَوْ فَقِيرًا » يترحم عليه غالبًا . أو يخاف من الشهادة عليه أن يلجئ الأمر إلى أن يعطى ما يكفيه« فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا » أى: من المشهود عليه، واعلم بما فيه صلاحهما . فلولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها . لأنه أنظر لعباده من كل ناظر « فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا» أى : إرادة العدول عن أمر الله الذى هو مصلح أموركم ، وأمور المشهود عليهم، لو نظرتم ونظروا إليه .

قال ابن كثير : أى: لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم ، على ترك العدل فى شؤونكم . بل الزموا العدل على أى حال كان . كما قال تعالى : وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .(١) ومن هذا قول

---

(١) [٥ / المائدة / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ =

عبد الله بن رواحة(١) ، لما بعثه النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم ، فقال : والله ! لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ . ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير . وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض « وَإِنْ تَلْوُوا » أي : تحرفوا ألسنتكم عن الشهادة على وجهها «أَوْ تُعْرِضُوا » أي : عنها بكتمها « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » فيجازيكم على ذلك . قال تعالى (١) : وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : لهذه الآية ثمرات . هي أحكام : الأول ـ وجوب العدل

= بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٦٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) ونصه :

عن جابر بن عبد الله أنه قال : أفاء الله عز وجل خيبر على رسول الله ﷺ . فأقرّهم رسول الله ﷺ كما كانوا . وجعلها بينه وبينهم . فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم . ثم قال لهم : يا معشر اليهود ! أنتم أبغض الخلق إليّ . قتلتم أنبياء الله عز وجل ، وكذبتم على الله . وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم . قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر . فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي. فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض . قد أخذنا. فاخرجوا عنا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

على القضاة والولاة . وأن لايعدل عن القسط لأمر تميل إليه النفوس وشهوات القلوب من غنى أو فقر أو قرابة . بل يستوى عنده الدنىء والشريف والقريب والبعيد . ويروى أن عمر أقام حدًّا على ولد له . فذاكره فى حق القرابة . فقال : إذا كان يوم القيامة شهدتَ عند الله أن أباك كان يقيم عليك الحدود . الحكم الثانى ـ أنه يجب الإقرار على من عليه الحق ولا يكتمه . لقوله تعالى : (وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ) والمراد بالشهادة على النفس الإقرار . وهـذا ظاهر . وقيل المعنى : ولو كانت الشهادة وبالًا ومضرة على أنفسكم وآبائكم . بأن تكون الشهادة على سلطان ظالم . وهذه المسألة فيها خلاف بين الفقهاء إذا خشى مضرة دون القتل ، هل يجب عليه الشهادة أم لا؟ فقيل : يجب لأنه لايحفظ ماله بتلف مال غيره . وعن الشافعية والمتكلمين ، وصحح للمذهب ، أنه لا يجب . لأن الشهادة أمر بمعروف ، وشرطه أن لا يؤدى إلى منكر . ولكن إنما يسقط عنه أداء الشهادة بحصول الظن لمضرته ، لا بمجرد الخشية . وقد قال المؤيد بالله فى (الإفادة) : على الشاهد أن يشهد وإن خشى على نفسه وماله . لأن الذى يخشاه مظنون . ولعله غير كائن . يؤول على أن مراده مجوّز لا أنه قد ظن حصول المضرة . وهذا يجوز له الشهادة مع الخشية على نفسه ، قال فى (شرح الإبانة) : يجوز إذا كان قتله إعزازاً للدين . كالنهى عن المنكر . أمّا لو كتم لغير عذر فلا إشكال فى عصيانه . وعن ابن عباس: ذلك من الكبائر . الحكم الثالث ـ يتعلق بقوله تعالى (شُهَدَآءَ لِلَّهِ) أى : تشهدون لوجه الله كما أمركم . وفى هذا دلالة على أن أخذ الأجرة على تأدية الشهادة لا يجوز . لأنه لم يقمها لله . وقد استثنى أهل الفقه صوراً جوّزوا أخذ الأجرة على تأدية الشهادة . منها : إذا طلب إلى موضع . لأن الخروج غير واجب عليه . ومنها: إذا كان غيره يشهد ويحصل به الحق ، فإن شهادته غير لازمة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا » أي : اثبتوا على إيمانكم « بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ » محمد صلى الله عليه وسلم . يعني القرآن « وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ » على الرسل ، بمعنى الكتب « وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » أي : خرج عن الهدى وبعد عن القصد كل البعد . أما الكفر بالله فظاهر . وأما بالملائكة فلأنهم المقربون إليه . وأما بالكتب فلأنها الهادية إليه . وأما بالرسل فلأنهم الداعون إليه . وأما باليوم الآخر فلأن فيه نفع إقامته وضرر تركه . فإذا أنكر لزم إنكار النفع الحقيقي والضرر الحقيقي . فهو الضلال البعيد . ثم الكفر بالملائكة كفر بمظاهر باطنه . وبالكتب كفر بمظاهر صفة كلامه . وبالرسل كفر بأتم مظاهره . وباليوم الآخر كفر بدوام ربوبيته وعدله . ثم الكفر بالملائكة يدعو إلى الإيمان بالشياطين . وبكتب الله إلى الإيمان بكتب الكفرة . وبالرسل إلى تقليد الآباء ، وباليوم الآخر الى الاجتراء على القبائح . وكل ذلك ضلال بعيد . أفاده المهايمي . ولما أمر تعالى بالإيمان ورغب فيه ، بيّن فساد طريقة من يكفر بعد الإيمان ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا » في الآية وجوه : الأول ـ أن المراد الذين تكرر منهم الارتداد ، وعهد

منهم ازديادالكفر والإصرار عليه ، يستبعد منهم أن يحدثوا مايستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله . لأن قلوب أولئك، الذين هذا ديدنهم، قلوب قد ضريت بالكفر ومرنت على الردّة. وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى . وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ، ونصحت توبتهم ، لم يقبل منهم ولم يغفر لهم . لأن ذلك مقبول . حيث هو بذلٌ للطاقة واستفراغ الوسع . ولكنه استبعاد له واستغراب . وإنه أمر لا يكاد يكون . وهكذا نرى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع، ثم يتوب ثم يرجع ، فإنه لا يكاد يرجى منه الثبات . والغالب أنه يموت على الفسق . فكذا هنا . الثاني ـ قال بعضهم : هم اليهود. آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا حين عبدوا العجل . ثم آمنوا بعد عوده إليهم ثم كفروا بعيسى والإنجيل . ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ . وقد أورد على هذا الوجه أن الذين ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ ليسوا مؤمنين بموسى . ثم كافرين بالعجل ، ثم مؤمنين بالعوْد ، ثم كافرين بعيسى. بل هم إما مؤمنون بموسى وغيره ، أو كفار لكفرهم بعيسى والإنجيل . والجواب : أن هذا إنما يردُ لو أريد قوم بأعيانهم : كالموجودين وقت البعثة . أما لو أريد جنس ونوع ، باعتبار عدّ ماصدر من بعضهم كأنه صدر من كلهم ، فلا إيراد. والمقصود حينئذ استبعاد إيمانهم لما استقر منهم ومن أسلافهم. الثالث ـ قال آخرون: المراد المنافقون . فالإيمان الأول إظهارهم الإسلام . وكفرهم بعد ذلك هو نفاقهم . وكون باطنهم على خلاف ظاهرهم. والإيمان الثاني هو أنهم كلما لقوا جمعاً من المسلمين قالوا إنا مؤمنون. والكفر الثاني هو أنهم إذا[1] خلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. وازديادهم في الكفر هو جدهم واجتهادهم في استخراج أنواع المكر والكيد في حق المسلمين.

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

وإظهارُ الإيمان قد يسمى إيماناً . قال تعالى : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ(١) : قال القفال رحمه الله : وليس المراد بيان هذا العدد . بل المراد ترددهم . كما قال : مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ . قال : والذى يدل عليه ، قوله تعالى بعد هذه الآية : بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ . الرابع ـ قال قوم : المراد طائفة من أهل الكتاب قصدوا تشكيك المسلمين فكانوا يظهرون الإيمان تارة والكفر أخرى . على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا : ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢) وقوله (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) معناه أنهم بلغوا فى ذلك إلى حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام .

نقل هذه الوجوه الزمخشرىّ والرازىّ وغيرهما . وكلها مما يشمله لفظ الآية.

تنبيه :

فى الآية مسائل :

الأولى ـ قال فى (الإكليل) : استدل بها من قال : تقبل توبة المرتد ثلاثاً . ولا تقبل فى الرابعة .

وقال بعض الزيدية فى (تفسيره) : دلت على أن توبة المرتد تقبل . لأنه تعالى أثبت إيماناً بعد كفر ، تقدمه إيمان .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢١] . . . وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

وأقول : دلالتها على ذلك فى صورة عـدم تـكرار الردة . وأما معه ، فلا . كما لا يخفى .

ثم قال : وعن إسحق : إذا ارتد فى الدفعة الثالثة لم تقبل توبته . وهى رواية الشعبىّ عن علىّ عليه السلام . انتهى .

وذهبت الحنابلة إلى أن من تـكررت ردته لم تقبل توبته . كما أسلفنا ذلك فى آل عمران فى قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا ... الآية[1] . وقوله بعدها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا... الآية[2] وذكرنا ، ثمة ، أن هذه الآية كتلك الآية . وأن ظاهرهما يشهد لمـا ذهب إليه إسحق وأحمد . وأما الوجوه المسوقة هنا فهى من تأويل أكثر العلماء القائلين بقبول توبة المرتد ، وإن تـكررت . وبعدُ . فالمقام دقيق . والله أعلم .

الثانية ـ دلت على أن الـكفر يقبل الزيادة والنقصان . فوجب أن يكون الإيمان نصًّا كذلك . لأنهما ضدان متنافيان . فإذا قبل أحدهما التفاوت ، قبله الآخر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ » من باب التهكم « بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً » فإنهم آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن . ويدل على مقارنة إيمانهم للـكفر ترجيحهم جانب الـكفرة فى المحبة إذ هم :

---

(١) [٣ / آل عمران / ٨٦] ونصها : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٠] . . . لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

« الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » أى : يتخذونهم أنصاراً مجاوزين موالاة المؤمنين « أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ » أى : أيطلبون بموالاتهم القوة والغلبة. وهذا إنكار لرأيهم وإبطال له . وبيان لخيبة رجائهم . ولذا علله بقوله « فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : له الغلبة والقوة . فلا نصرة لهم من الكفار . والنصرة والظفر كله من الله تعالى . وهذا كما قال تعالى فى آية أخرى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(١) .

قال ابن كثير : والمقصود ، من هذا ، التهييجُ على طلب العزة من جناب الله، والإقبال على عبوديته ، ، والانتظام فى جملة عباده المؤمنين ، الذين لهم النصرة فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى ريحانة . أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزاً وكرماً ، فهو عاشرهم فى النار . تفرد به أحمد(٢) .

وأبو ريحانة هـذا هو أزدىّ واسمه (شمعون) بالمعجمة فيما قاله البخارىّ . وقال غيره : بالمهملة والله أعلم .

تنبيه :

قال الحاكم : دلت الآية على وجوب موالاة المؤمنين ، والنهى عن موالاة الكفار. قال : والنهىّ عن موالاتهم فى الدين فقط . وقد ذكر المؤيد بالله ، قدس الله روحه ، معنى هذا . وهى : أن تحبه لما هو عليه . وهذا ظاهر . وهو يرجع إلى الرضا بالكفر ، وماأحبه لأجله .

(١) [٦٣/ المنافقون/ ٨] ونصها : يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٣٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

فأما الخلطة فليست موالاة . وقد جوز العلماء رحمهم الله نكاح الفاسقة . وكذلك الإحسان . فقد مدح الله من أطعم الأسارى . وجوّز كثير منهم الوصية لأهل الذمة . وكذلك الاغتمام بغمه فى أمر ، كاغتمام المسلمين لغلب فارس للروم. كذا فى تفسير بعض الزيدية .

القول فى التأويل قوله تعالى :

[١٤٠] ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » قال المفسرون : إن المشركين بمكة كانوا فى مجالسهم يخوضون فى ذكر القرآن ويستهزئون به . فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم بقوله : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ(١) . وهذه الآية من سورة الأنعام . وهى مكية . فامتنع المسلمون عن القعود معهم . ولماقدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين. وكان اليهود يستهزئون بالقرآن . فنزلت هذهالآية (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ) . يعنىفىسورة الأنعام « أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا » يعنى يجحد بها « وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » وفيها دلالة على أن المنزل على النبىّ ﷺ ، وإن خوطب به خاصة، منزل على الأمة . وأن مدار الإعراض عنهم ، هو العلم بخوضهم فى الآيات . ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسماع . وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم . لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط « إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ » أى : إذا قعدتم معهم دل على رضاكم بالكفر

---

(١) [٦ / الأنعام / ٦٨] . . . وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

بالآيات والاستهزاء بها . فتكونون مثلهم فى الكفر واستتباع العذاب . فاجتماعكم بهم ههنا سبب اجتماعكم فى جهنم . كما قال « إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً » لأنهم لما شاركوهم فى الكفر ، واجتمعوا على الاستهزاء بالآيات فى الدنيا ، جمعهم الله فى عذاب جهنم يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : اعلم أنه لا خلاف فى تحريم القعود والمخالطة ، إذا كان ذلك يوهم بأن القاعد راض. ولا خلاف أنه يحرم إذا خشى الافتتان . ولا خلاف أنه يجوز القعود للتنكير عليهم والدفع لهم .

قال الحاكم: ولذلك يحضر العلماء مع أهل الضلالة يناظرونهم . ولهم بذلك الثواب العظيم. وأما إذا خلا عما ذكرنا ، وكان لا يوهم بالرضا ولا يفتتن ولا ينكر عليهم ، فاختلف العلماء فى ذلك . فمنهم من أوجب المثل . لظاهر الآية .

قال الحاكم : روى(١) أن قوماً أُخذوا على شراب فى عهد عمر بن عبد العزيز . فأمر بضربهم الحدّ . فقيل: فيهم صائم . فتلا قوله تعالى : فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ـ إلى قوله ـ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ . وهذا أيضا ظاهر حديث : لا يحل لعين ترى الله يُعْصى ، فتطرف حتى تغير و تنتقل .

وقال أبو علىّ وأبو هاشم : إن أنكر بقلبه لم يجب عليه أكثر من ذلك . وجاز له القعود، يعنى مع عجزه عن الإنكار باليد أو باللسان ، وعدم تأثير ذلك .

أقول: ماقالاه مخالف لظاهر الآية . فلا عبرة به .

وقال القاضى والحاكم: أما لو كان له حق فى تلك البقعة، فله أن لا يفارق. كمن يحضر الجنائز مع النوح، أو الولائم . فيسمع المنكر فيسعه أن يقعد . والنكير على قدر الإمكان واجب عليه .

(١) الأثر رقم ١٠٧٠٩ من تفسير الطبرىّ .

وعن الحسن : لو تركنا الحق للباطل لبطل الشرع . وقد كان خرج إلى جنازة ، خرجت النساء فيها فلم يرجع . ورجع ابن سيرين . انتهى .

أقول : من له حق فى البقعة ، فعليه أن يفارق كغيره . إذ ليس فى مفارقته ضياع حقه. وعموم الآية يشمله ، ولا تخصيص إلا بمخصص . والمسألة المقيس عليها غير ما نحن فيه . على مافيها من الخلاف . كما حكى . ولا قياس مع النص. وقد حكى الحاكم أقوالًا كلها ترجع إلى تخصيص الآية . ولا مستند فيها إلا الرأى ، والاحتمال . فلذا أعرضنا عنها .

قال أبو علىّ : تحريم القعود فى المجلس لما فيه من الإيهام . فإذا أظهر الكراهة جاز القعود فى مكان آخر ، وإن قرب. وأما إذا خاضوا فى حديث غيره، جاز القعود. بمفهوم الآية . ثم إن الآية محكمة عند الجمهور . وروى عن الكلبىّ، أنها منسوخة بقوله تعالى : وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَىْءٍ[1] . وهو مردود . فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها .

قال الحاكم : دلت الآية على أن الراضى بالاستهزاء بالرسول والدين ، كافر. لأنه تعالى قال (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) ودلت على أن الرضا بالكفر كفر .

وقال السمرقندىّ : فى هذه الآية دليل على أن من جلس فى مجلس معصية ، ولم ينكر عليهم ، فيكون معهم فى الوزر سواء . وينبغى أن ينكر عليهم ، إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها. فإن لم يقدر أن ينكر عليهم ينبغى أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

وروى ابن جرير عن الضحاك أنه قال : دخل فى هذه الآية كل محدث فى الدين ، وكل مبتدع إلى يوم القيامة .

وقال فى (فتح البيان) : وفى هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذى هو المعتبر دون خصوص السبب ، دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقيص والاستهزاء،

(١) [٦ / الأنعام / ٦٩] . . . وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

للدلالة الشرعية . كما يقع كثيراً من أُسَرَاء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة . ولم يبق فى أيديهم سوى (قال إمام مذهبنا : كذا) و(قال فلان من أتباعه بكذا) أو إذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوىّ ، سخروا منه ، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً ، ولا بالوا به بالة . وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع . وخالف مذهب إمامهم الذى نزلوه منزلة معلم الشرائع . مع أن الأئمة، الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم ، برءاء من فعلهم . فإنهم قد صرحوا فى مؤلفاتهم بالنهى عن تقليدهم . انتهى.

وفى (الإكليل) : قال ابن الفرس . استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اجتناب أهل المعاصى والأهواء . وفى هذه الآية أصل لما يفعله المصنفون من الإحالة على ما ذكر فى مكان آخر ، والتنبيه عليه . انتهى. وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

« الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ » إما بدل من (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ) وإما صفة للمنافقين: أى: ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو هزيمة « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ » أى : نصر و تأييد وظفر وغنيمة « قَالُوا » لكم « أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ » أى : مظاهرين لكم ، فلنا دخل فى فتحكم، فليكن لنا شركة فى غنيمتكم « وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ » أى : إدالة على المؤمنين فى بعض الأحيان ، كما وقع يوم أُحد ، فإن الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة « قَالُوا » أى : الكفرة توددًا إليهم ، ومصانعة لهم ، ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم

لضعف إيمانهم « أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ » أى : ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم « وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » بأن ثبطناهم عنكم ، وتوانينا فى مظاهرتهم حتى انتصرتم عليهم . وإلا لكنتم نهبة للنوائب . وتسميةُ (ظفر المسلمين) فتحاً ، و(ما للكافرين) نصيباً ؛ لتعظيم شأن المسلمين وتخسيس حظ الكافرين .

قال فى (الانتصاف) : وهذا من محاسن نكت القرآن . فإن الذى كان يتفق للمسلمين فيه ، استئصالٌ لشأفة الكفار واستيلاء على أرضهم وديارهم وأموالهم وأرض لم يطؤها . وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة والقدرة التى لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحاً . فالتفريق بينهما أيضاً مطابق للواقع . والله أعلم .

قال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على وجوب محبة نصرة المؤمنين وكراهة أن تكون اليد عليهم . وتحريم خذلانهم . وإن المنافق لا سهم له . لأن فى الآية إشارة إلى أنهم طلبوا لما منعوا ، فقالوا : ألم نكن معكم ؟ ثم قال . يجوز التأليف من الغنيمة للمنافقين ، كما فعل الرسول ﷺ يوم حنين . حتى أعطى الواحد منهم مائة ناقة ، والواحد من المسلمين الشاة أو البعير .

« فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى حكماً يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب . أى : فلا يغترّ المنافقون بحقن دمائهم فى الدنيا لتلفظهم بالشهادة . لماله تعالى فى ذلك من الحكمة . فيوم القيامة لا ينفعهم ظواهرهم . وقوله تعالى « وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » ردٌّ على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين . وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم ، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم . كما قال تعالى : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ـ إلى قوله ـ نَادِمِينَ[1] . أى : لن يسلط الله الكافرين على المؤمنين فيستأصلوهم بالكلية . وإن حصل

---

(١) [٥ / المائدة / ٥٢] ... يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ .

لهم ظفر حيناً مّا . أفاده ابن كثير وهذا التأويل روعى فيه سابق الآية ولاحقها ، وأن السياق فى (المنافقين) وهو جيد . ويقرب منه ما فى تفسير ابن عباس من حمل (الكافرين) على يهود المدينة. ومن وقف مع عمومها ، قال : المراد بالسبيل الحجة . وتسميتها (سبيلًا) لكونها موصلا للغلبة. أو المراد: مادام المؤمنون عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهى عن المنكر . كما قال تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (١) . قال : فلا يراد أنه قد يُدال للكافرين .

تنبيه :

قد يستدل بهذه الآية على أن الكافر لا ينكح مؤمنة . وأنه لا يلى على مؤمنة فى نكاح ولا سفر . وأن الكافر لا يشفع المؤمن . وهذا قول الهادى فى (الأحكام) والنفس الزكية والراضى بالله . وروى مثله عن الحسن والشعبيّ وأحمد . وقال فى (المنتخب) والمؤيد بالله والحنفية والشافعية : له الشفعة . لعموم أدلة الشفعة . وبالقياس على رد المعيب فيما شرى من مسلم . ويستدل بأن المرتد تبين منه امرأته المسلمة . والخلاف : هل بنفس الردة كما يقول الحنفية ، أو بانقضاء العدة كما يقول المؤيد بالله والشافعية ؟ وكذلك بيع العبد المسلم من الذميّ . أجازه الحنفية ومنعه المؤيد والشافعية . لكن على الأول ، يجبر على بيعه ، فلا يستخدمه . قيل: والأمّة مجمع على تحريم بيعها من الكافر إذا كانت مسلمة . ولا خلاف أن الآية مخصوصة بأمور . منها: الدَّيْن يثبت للكافر على المؤمن . ومنها: أنه ينفق المؤمن على أبويه الكافرين ونحو ذلك . وإذا خص العموم فقد اختلف الأصوليون : هل تبقى دلالته على الباقى حقيقة أم مجازاً ؟ انتهى. وزاد بعض المفسرين : إن الكافر لا يرث المسلم. وإن المسلم لا يقتل بالذميّ .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] . . . وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » أى: يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر . والله يفعل بهم ما يفعل الغالب فى الخداع . حيث تركهم معصومى الدماء والأموال فى الدنيا ، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار فى الآخرة « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ » أى: أتوها « قَامُوا كُسَالَىٰ » أى: متثاقلين كالمكره على الفعل . قال ابن كثير: هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها . وهى الصلاة . إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها. لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية، ولا يعقلون معناها. كما روى ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان . ولكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح . فإنه يناجى الله ، وإن الله تجاهه ، يغفر له ويجيبه إذا دعاه . ثم يتلو هذه الآية : وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ . انتهى .

قال الحاكم : وفى الآية دلالة على أن من علامات المنافق الكسل فى الصلاة. والكسل: التثاقل عن الشىء لمشقته . فهذه الآية فى صفة ظواهرهم كما قال (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ)(١) ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال « يُرَاءُونَ النَّاسَ » أى: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ليحسبوهم مؤمنين . لا لإخلاص ومطاوعة أمر الله. ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التى لا يُرَوْن فيها غالباً . كصلاة العشاء فى وقت العتمة وصلاة الصبح فى

(١) [٩ / التوبة / ٥٤] ونصها : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

وقت الناس. كما ثبت في الصحيحين[١] أن رسول الله ﷺ قال: إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا . ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام . ثم آمر رجلًا فيصلي بالناس . ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار. وفي رواية[٢] : والذي نفسي بيده! لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقًا سمينًا أو مِرْماتين حسنتين لشهد العشاء . ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم .

وروى الحافظ وأبو يعلى عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة . استهان بها ربَّه عز وجل . وقوله « وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا » فيه وجوه : الأول ـ معناه ولا يصلون إلا قليلًا. لأنهم إنما يصلون رياءً مادام من يرقبهم . فإذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا . وتأويل (الذكر) بالصلاة، روى في غير ما آيةٍ عن السلف . الثاني ـ ولا يذكرون الله في صلاتهم إلا قليلًا . لأنهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون . بل هم في صلاتهم ساهون لاهون . وقد روى الإمام مالك[٣] عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : تلك صلاة

---

(١) أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٥٢ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٢٩ ـ باب وجوب صلاة الجماعة ، حديث ٤٠٨ عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه في الموطأ في : ١٥ ـ كتاب القرآن ، حديث ٤٦ (طبعتنا) ونصه :

عن العلاء بن عبد الرحمن قال : دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر . فقام يصلّي العصر . فلما فرغ من صلاته ، ذكرنا تعجيل الصلاة ، أو ذكرها ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « تلك صلاة المنافقين . تلك صلاة المنافقين . تلك صلاة المنافقين . يجلس أحدهم حتى =

المنافق . تلك صلاة المنافق . تلك صلاة المنافق . يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان ، قام فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا . وكذا رواه مسلم والترمذىّ والنسائىّ . الثالث ـ معناه : ولا يذكرون الله بالتهليل والتسبيح إلا ذكراً قليلًا فى الندرة . على أن الذكر بمعناه المتبادر منه . وعليه، فمن علامات النفاق استغراق الأوقات بحديث الدنيا، وقلة ذكره تعالى بتحميد أو تهليل أو تسبيح. كما أن من صفات المؤمنين ذكر الله تعالى كثيراً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)

« مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ » حال من فاعل (يراؤن) أو منصوب على الذم و(ذلك) إشارة إلى الإيمان والكفر. المدلول عليهما بمعونة المقام. أو إلى (المؤمنين والكافرين) ، فيكون مابعده تفسيراً له . أى : مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان والهوى . وحقيقة المذبذب الذى يُذبّ عن كلا الجانبين . أى : يذاد ويدفع ، فلا يقرّ فى جانب واحد . إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب . كأنّ المعنى كلما مال إلى جانب ذُبّ عنه « لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » أى : لا منضمين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين . ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين . وقال مجاهد : لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، يعنى أصحاب محمد ﷺ . وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، يعنى اليهود . « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ » عن دينه وحجته « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » أى : طريقاً إلى الصواب والهدى . روى الشيخان عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال[١] :

= إذا اصفرّت الشمس ، وكانت بين قرنى الشيطان، أو على قرن الشيطان، قام فنقر أربعا . لا يذكر الله فيها إلا قليلا » .

(١) أخرجه مسلم فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ١٧ (طبعتنا).

مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين: تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة: (العائرة المتحيرة المترددة لا تدرى لأى الغنمين تتبع).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا » هذا نهى عن موالاة الكفرة . يعنى مصاحبتهم ، ومصادقتهم ، ومناصحتهم ، وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم . كما قال تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ(١) . أى : يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيه . ولهذا قال ههنا (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) أى : حجة عليكم فى عقابكم بموالاتكم إياهم . وقد دلت الآية على تحريم موالاة المؤمنين للكافرين. قال الحاكم : وهى الموالاة فى الدين والنصرة فيه . لا المخالقة والإحسان . قال الزمخشرى : وعن صعصعة بن صوحان أنه قال لابن أخ له : خالص المؤمن وخالق الكافر والفاجر . فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن . وأنه يحق عليك أن تخالص المؤمن . قال أبو السعود : وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال : أتجعلون... الخ، للمبالغة فى إنكار ذلك ، وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته ، فضلا عن صدور نفسه . كما فى قوله عز وجل : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ(٢) .

(١) [٣ / آل عمران / ٢٨] . . . وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٨] ونصها : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

لطيفة :

روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال : كل سلطان فى القرآن حجة . وكذا قال غيره من أئمة التابعين . قال محمد بن يزيد : هو من (السليط) . وهو دهن الزيت لإضاءته . أى: فإن الحجة من شأنها أن تكون نيّرة . وفى (البصائر) إنما سمى الحجة سلطاناً لما يلحق من الهجوم على القلوب . لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ » قرىء بسكون الراء وفتحها « الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » أى الطبق الذى فى قعر جهنم . والدرك كالدرج . إلا أنه يقال باعتبار الهبوط . والدرج باعتبار الصعود . وإنما عوقبوا بذلك لأنهم أخبث الكفرة . إذ ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام وخداعاً للمسلمين .

قال الرازىّ : وبسبب أنهم لمّا كانوا يظهرون الإسلام ، يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك . فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين . فلهذه الأسباب عوقبوا بذلك . ونقل عن ابن الأنبارىّ أنه قال[1] : إنه تعالى أخبر عن آل فرعون بقوله : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وعن المنافقين بما فى هذه الآية. فأيهما أشد عذاباً؟ فأجاب : بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون فى الدرك الأسفل . وقد اجتمع فيه الفريقان. والله أعلم. روى الترمذىّ[2] عن الحسن قال: قال عتبة بن غزوان على منبر البصرة، إن النبىّ ﷺ قال : إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عاماً ، وما تفضى

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٧ ـ كتاب صفة جهنم، ٢ ـ باب ماجاء فى صفة قعر جهنم.

إلى قرارها . وكان عمر رضى الله عنه يقول : أكثروا ذكر النار . فإن حرها شديد وإن قعرها بعيد وإن مقامعها حديد . وروى الترمذيّ(١) عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول ﷺ : ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره « وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا » أى : ينقذهم مماهم فيه ويخرجهم من أليم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » أى : عن النفاق « وَأَصْلَحُوا » أى : أعمالهم « وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ » أى : وثقوا به بترك موالاة الكفار « وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ » فلم يبق لهم فيه تردد . ولم يريدوا بطاعتهم إلا وجهه سبحانه ، لا رياء الناس كما كانوا قبل . « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيّز الصلة . وما فيه من معنى البعد ، للإيذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة. أى : لعلو رتبتهم بهذه الأمور لا يكونون فى درك من النار فضلا عن الأسفل ، بل مع المؤمنين المستمرين على الإيمان بلا نفاق . أى: معهم فى درجات الجنان . وقد بيّن ذلك بقوله سبحانه « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » ثواباً وافرا فى الجنة . فيشاركونهم فيه ويساهمونهم . وحذفت (الياء) فى الخط هنا اتباعاً للّفظ . لسكونها وسكون اللام بعدها. ومثله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ(٢) .وَسَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(٣) وَيَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ(٤)

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢١ ـ سورة الأنبياء ، ١ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٢) [٥٤ / القمر / ٦] ونصها : فَتَوَلَّ عَنْهُمْ . يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ .

(٣) [٩٦ / العلق / ١٨] .

(٤) [٥٠ / ق / ٤١] ونصها : وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ .

ونحوها . فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين . فجاء الرسم تابعاً للفظ . والقراء يقفون عليه دون ياء ، اتباعاً للخط الكريم . إلا يعقوب والكسائيّ وحمزة . فإنهم يقفون بالياء، نظراً إلى الأصل . كذا في (الفتح) .

تنبيه .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : من المنافق ؟ قلت: هو في الشريعة مَن أظهر الإيمان وأبطن الكفر. وأما تسمية من ارتكب مايفسق به (المنافق) فللتغليظ، كقوله[1]: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر جهارا . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام[2]: ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان . وقيل لحذيفة رضي الله عنه : من المنافق ؟ فقال : الذي يصف الإسلام ولا يعمل به . وقيل لابن عمر : ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه . فقال: كنا نعده من النفاق : انتهى كلامه .

أقول : قول الزمخشريّ (فللتغليظ) يوجد مثله لثلّة من شراح الحديث وغيرهم . وقد بحث فيه بعض محققي مشايخنا بقوله : هذا الجواب لا يرتضيه من عرف قدر النبيّ صلى الله

(١) قال في (الجامع الصغير) : رواه الطبرانيّ في (الأوسط) عن أنس . وقال العزيزيّ: إسناده حسن .

(٢) أخرجه مسلم في : ١ ــ كتاب الإيمان ، عن أبي هريرة . وهذه نصوصه :

الحديث رقم ١٠٧ « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

والحديث رقم ١٠٨ « من علامات المنافق ثلاثة : إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان » .

والحديث رقم ١٠٩ « آية المنافق ثلاث . وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

أما حديث بصورة ما في المتن، فلم أهتد إليه .

عليه وسلم . وكأنهم غفلوا عما يستلزمه هذا الجواب مما لا يرتضيه أدنى عالم أن ينسب إليه . وهو الإخبار بخلاف الواقع لأجل الزجر . انتهى . وقال بعض المحققين : عليك أن تقر الأحاديث كما وردت ، لتنجو من معرة الخطر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً)

« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ » قال أبو السعود : هو استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم، وجوداً وعدماً، إنما هو كفرهم. لا شيء آخر . فيكون مقرراً لما قبله من إثابتهم عند توبتهم . و(ما) استفهامية مفيدة للنفي على أبلغ وجه وآكده . أي : أيّ شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ؟ أم يدرك به الثار ؟ أم يستجلب به نفعاً ؟ أم يستدفع به ضرراً ؟ كما هو شأن الملوك . وهو الغنيّ المتعالي عن أمثال ذلك . وإنما هو أمر يقتضيه كفركم . فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر، انتفى التعذيب لا محالة . وتقديم (الشكر) على (الإيمان) لما أنه طريق موصل إليه . فإن الناظر يدرك أوّلاً ما عليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكراً مبهماً . ثم يترقى إلى معرفه المنعم فيؤمن به . وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه « وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » الشكر منه تعالى المجازاة والثناء الجميل . كما في (القاموس). ويرحم الله ابن القيم حيث يقول في (الكافية الشافية) :

وهو الشكور . فلن يضيّع سعيهم	لكن يضاعفه بلا حِسْبان
ما للعباد عليه حق واجب	هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عملٌ لديه ضائع	إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذّبوا فبعدله ، أو نعِّموا	فبفضله ، والحمدُ للرحمن

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٤٨] (لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

«لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ » أى: لا يحب الله تعالى أن يجهر أحد بالقبيح من القول « إِلَّا مَنْ ظُلِمَ » إلا جهر المظلوم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء . فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه، حتى إنه يجيب دعاءه . ومعلوم أن أنواع الظلم كثيرة . فما نقل عن السلف هنا من ذكر نوع منه ، فليس المراد حصر معنى الآية فيه . بل القصد تنبيه المستمع على النوع . فمن ذلك مارواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس[1] فى الآية ، يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً . فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه . وذلك قوله (إِلَّا مِنْ ظُلِمَ) وإن صبر فهو خير له . ومن ذلك مارواه عبد الرزاق وابن إسحق وهنّاد بن السرىّ عن مجاهد قال : هى فى رجل أضاف رجلاً فأساء قراه ، فتحول عنه . فجعل يثنى عليه بما أولاه . فرخص له أن يثنى عليه بما أولاه . وفى رواية عنه : هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول : أساء ضيافتى ولم يحسن . وفى رواية : هو الضيف المحول رحله . فإنه يجهر لصاحبه بالسوء من القول .

قال ابن كثير: وقد روى الجماعة (سوى النسائىّ والترمذىّ) عن عقبة بن عامر[2] قال : قلنا: يارسول الله! إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا فما ترى ؟ فقال لنا رسول الله ﷺ : إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف ، فاقبلوا. فإن لم يفعلوا ، فخذوا منهم حق الضيف

(١) تفسير الطبرىّ ، الأثر رقم ١٠٧٤٩ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٨٥ ـ باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه ، حديث ١٢١٣ .

الذى ينبغى لهم . وروى الإمام أحمد(١) عن المقدام بن أبى كريمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيما مسلم ضاف قومًا فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله . وروى هو وأبو داود(٢) عنه أيضاً . سمع رسول الله ﷺ يقول : ليلة الضيف واجبة على كل مسلم . فإن أصبح بفنائه محروماً كان دينا عليه . فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه . ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبى هريرة ؛ أن رجلاً أتى النبىّ ﷺ فقال: أن لى جاراً يؤذينى . فقال له : أخرج متاعك فضعه على الطريق. فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق. فكل من مرّ به قال : مالك؟ قال جارى يؤذينى . فيقول :اللهم ! العنه . اللهم ! أخزه . قال فقال الرجل : ارجع إلى منزلك. والله ! لا أوذيك أبداً . ورواه أبو داود(٣) فى كتاب الأدب .

وقال عبد الكريم بن مالك الجزرىّ ، فى هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه . ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه . لقوله تعالى (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)(٤) . وقال قطرب : معنى الآية : إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول ، من كفر أو نحوه . فهو مباح له . وسئل المرتضى عنها فقال : لا يحب الله ذلك ولا يجيزه لفاعله . إلا من ظلم . وذلك مثل ما كان من مردة قريش وفعلهم بأصحاب رسول الله ﷺ ، من العقاب والضرب ، ليشتموا رسول الله ﷺ ويتبرؤا منه . ففعل ذلك عمار . نخلّوهُ وصلبوا صاحبه . فأطلق لمن فعل به هكذا أن يتكلم بما ليس فى قلبه . وفى عمار

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٣٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٢٣ ـ باب فى حق الجوار ، حديث ٥١٥٣ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٤١] .

وصاحبه نزل قول الله[1] في سورة النحل : مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فكانت هذه الآية مبينة لما في قلب عمار من شحنه بالإيمان . انتهى .

وكل هذا مما تشمله الآية بعمومها . وما نقله السمرقندي وغيره عن الفراء في قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) أن (إلا) بمعنى (لا) يعني : ولا من ظلم ـ فهذا من تحريف الكلم عن مواضعه : فإن الآية صريحة في أنه يجوز للمظلوم أن يتكلم بالكلام الذي هو من السوء في جانب من ظلمه . ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد[2] وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم، عن الشريد بن سويد عن رسول الله ﷺ أنه قال[3] : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. وأما من لم يظلم فجهره بالسوء داخل في الغيبة المحظورة .

فوائد :

قال بعض مفسري الزيدية : أفادت الآية جواز الجهر بالدعاء على الظالم والجهر بمساويه . ودلت على أن من جهر بكلمة الكفر مكرها، لم يكفر. لأنه مظلوم . وإذا ثبت بطلان حكم لفظ (الكفر) مع الظلم ، فكذا يلزم في سائر الأحكام من البيع والعتاق والطلاق والإقرار . ثم قال : والمحبة ههنا بمعنى الإباحة . لا أن ذلك يريده الله تعالى .

أقول : هذه نزغة اعتزالية .

ثم قال : وتسميته سوءًا ، لكونه يسوء المقول فيه . وإلا فليس بقبيح في هذه الحال .

ثم قال : وقول من قال (إلا) هنا بمعنى (الواو) أي : ومن ظلم ، مثل :

وكل أخ مفارقه أخوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

بخلاف الظاهر . انتهى .

وقد نقل في معنى هذه الآية حكم ونوادر بديعة . قال الشعبي : يعجبني الرجل إذا سيم

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٢٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٤٣ ـ كتاب الاستقراض ، ١٣ ـ باب لصاحب الحق مقال.

هوناً ، دعته الأنفة إلى المكافأة . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فبلغ كلامه الحجاج فقال : لله دره ! أى رجل بين جنبيه ! وتمثل :

ولا خير فى عرض امرئ لا يصونه ولا خير فى حلم امرئ ذل جانبه

وقال أعرابىّ لابن عباس رضى الله عنهما : أتخاف علىّ جناحاً إن ظلمنى رجل فظلمته ؟ فقال له : العفو أقرب للتقوى . فقال : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .

وقال المتنبى (١) :

مِنَ الْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ إِذَا اتَّسَعَتْ فِى الْحِلْمِ طُرْقُ الْمَظَالِمِ

لطيفة :

الاستثناء فى قوله تعالى (إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) إما متصل أو منقطع. فعلى الأول فيه وجهان: الأول ـ قول أبى عبيدة : هذا من باب حذف المضاف ، أى: إلا جهر من ظلم . فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . والثانى ـ قول الزجاج : المصدر ههنا بمعنى الفاعل . أى : لا يحب الله المجاهر بالسوء إلا من ظلم . وعلى أنه منقطع ، فالمعنى لكن المظلوم له أن يجهر بظلامته .

---

(١) من قصيدة مطلعها :

أنا لائمى إن كنتُ وقت اللوائم علِمْتُ بما بى بين تلك المعالم

قال البرقوقىّ شارح الديوان :

الحلم : الأناة والعقل . والجهل هنا نقيض الحلم . والمظالم جمع المظلمة (بكسر اللام) وهى الظلم . يقول : إذا كان حِلْمك داعياً إلى ظلمك فإن من الحلم أن تجهل . لأن الحلم إنما يُلجأ إليه لتدارك الشر . فإذا تفاقم الشر ، ولم يُتدارك الشر إلا بالجهل ، كان الجهل حلما :

فلا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أنْ يكدَّرا

وهذا معنى قديم تداوله الشعراء وغير الشعراء .

وقوله تعالى « وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً » فيه وعد للمظلوم بأنه تعالى يسمع شكواه ودعاءه ويعلم ظلم ظالمه . كما قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ[1] . ووعيد له أيضاً بأن يتعدّى في الجهر المأذون فيه. بل ليقل الحق ولا يقذف بريئاً بسوء فإنه يصير عاصياً لله بذلك . ثم حث سبحانه على العفو بعدما جوّز الجهر بالسوء وجعله محبوباً، حثاً على الأحب إليه والأفضل عنده . وإلا دخل في الكرم والتخشع والعبودية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)

« إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا » أي : طاعة وبرًّا « أَوْ تُخْفُوهُ » أي : تعملوه سرًّا « أَوْ تَعْفُوا » أي : تتجاوزوا « عَنْ سُوءٍ » أي : ظلم « فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا » أي : يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام . فعليكم أن تقتدوا بسنة الله بالعفو مع القدرة . فثمرة هذه الآية الحث على العفو ، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء ، وإن كان على وجه الانتصار ، حملًا على مكارم الأخلاق . وإنما كان المقصود العفو لأن ما قبلها في ذكر السوء والجهر به . فمقتضى السياق: لا يحب الله الجهر بالسوء إلا من ظلم . فإن عفا المظلوم عنه ، ولم يدعُ على ظالمه ويتظلم منه ، فإن الله عفوّ قدير. وإنما ذكر قبله إبداء الخير وإخفاءه توطئة للعفو عن السوء. لأنه يعلم من مدح حالَي الخير : السر والعلانية ، أن السوء ليس كذلك جهراً وإخفاءً . فينبغي العفو عنه وتركه . وإنما عطف (العفو) بـ (أو) مع دخوله في الخير بقسميه ، للاعتداد به ، والتنبيه على منزلته ، وكونه من الخير بمكان مرتفع . وليس المراد أنه حينئذ هو المقصود وأنه من قبيل : وَمَلَائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ[2] . لأن مثله يعطف بالواو لا بـ (أو) ولذا حمل الخير

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] ... إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

على الطاعة والبر مما هو عبادة وقربة فعلية . لتغاير العفو . فالمراد بالتوطئة ذكر ماهومناسب وقدم عليه . كذا فى (العناية) .

قال ابن كثير . ورد فى الأثر : أن حملة العرش يسبحون الله . فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك . ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفى الحديث الصحيح(١) : مانقصت صدقة من مال. وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا. وما تواضع أحدلله إلا رفعه الله .

وقال الرازىّ : اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة فى أمرين : صدق مع الحق وخُلق مع الخلق والذى يتعلق مع الخلق محصور فى قسمين : إيصال نفع إليهم ، ودفع ضرر عنهم. فقوله : (إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ) إشارة إلى إيصال النفع إليهم . وقوله (أَوْ تَعْفُوا) إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل فى هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر .

ثم نزل فى اليهود إلى أواخر السورة قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ » قال ابن عباس : يعنى كعباً وأصحابه « وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ » أى فى الإيمان « وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ » من الرسل « وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ » منهم . كما قالوا : نؤمن بموسى والتوراة ، ونكفر بما وراء ذلك . وما ذاك إلا كفر بالله تعالى ورسله ، وتفريق بين الله تعالى ورسله فى الإيمان . لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بكل نبىّ يأتى مصدقا لما معهم ، ونصره . ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل ، وبالله تعالى من حيث لا يحتسب . لأنهم لما تساووا فى المعجزات والدعوة إلى الحق ، والقيام بالخيرات فى أنفسهم ، كان الكفر بواحد منهم كفرًا بالكل . بل وبالله.

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٩ (طبعتنا).

إذ يعتقدون فيه أنه صدّق الكاذب بخلق المعجزات . كذا فى (التبصير) « وَيُرِيدُونَ » أى : بقولهم ذلك « أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ » أى بين الإيمان ببعض ، والكفر ببعض « سَبِيلًا » ديناً يسلكونه . مع أنه لا واسطة بينهما قطعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا » أى الذين كفروا كفراً ثابتاً لا ريب فيه . فلا عبرة بمن ادعوا الإيمان به . لأنه ليس شرعيًّا . إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله ، لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلًا وأقوى برهاناً منه « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » يهانون به . وهو عذاب جهنم . أى : كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به عن الله وإعراضهم عنه ، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا . وإما بكفرهم به ، بعد علمهم بنبوته ، كما كان يفعله كثير من أحبارهم فى عهده ﷺ . حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة . وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه . فسلط الله عليهم الذل الدنيوىّ الموصول بالذل الأخروىّ . وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » كلهم « وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » يعنى بهم أمة محمد ﷺ . فإنهم يؤمنون بكل نبىّ بعثه الله . ولا يفرقون بين أحد منهم ، بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين . كما فعله الكفرة « أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ » أى : يعطيهم « أُجُورَهُمْ »

ثواب إيمانهم بالله ورسله في الآخرة « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا » أي: لما فرط منهم « رَحِيماً » مبالغاً في الرحمة عليهم ، بتضعيف حسناتهم .

ثم بيّن تعالى ما جبل عليه اليهود من اللجاج والعناد ، والبعد عن طريق الحق ، بقوله :

القول في التأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ، وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً)

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ » قال ابن عباس : كعب وأصحابه « أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ » أي: كما نزلت التوراة على موسى جملة في الألواح. مع أنه لا حاجة لهم إلى طلب ذلك بعد ما وضحت البراهين على نبوتك، لاسيما بإعجاز ما نزل عليك من الفرقان. إلا أن الذي حملهم على سؤالهم هو التعنت والكفر . كما قال قبلهم كفار قريش نظير ذلك : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ... الآيات(١) . ولهذا قال تعالى « فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ » أي : مما سألوك « فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً » أي : رؤية ظاهرة « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ » أي النار النازلة من السماء « بِظُلْمِهِمْ » أي : جراءتهم على الله وعتوّهم وعنادهم . إذ لا يرون آية إلا يطلبون أكبر منها . حتى يروا آية ملجئة إلى الإيمان. بحيث لا يفيد الإيمان معها . فلا يكادون يؤمنون إيماناً يفيدهم أصلاً ، ولا يبعد منهم الكفر، بعد رؤية الآيات. فإنهم رأوا آيات موسى « ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ » أي : إلهاً وعبدوه « مِنْ بَعْدِ

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ » أي: الدلائل القاطعة على نفي الشرك . ثم تابوا عنه « فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ » أي: تركناهم ولم نستأصلهم « وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا » أي: حجة بينة وتسلطاً ظاهراً على إهلاك من خالفه. وفي ذلك بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بنصره ، وإن بالغوا في العناد والإلحاد . ثم أشار إلى أنهم مع رؤيتهم الآيات ، لم ينقادوا لأوامر موسى . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

« وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ » أي : الجبل ليتحملوا التكاليف « بِمِيثَاقِهِمْ » أي: بسبب أخذ ميثاقهم . ليخافوا فلا ينقضوه .

قال ابن كثير : وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء على ما جاءهم به موسى عليه السلام ، رفع الله على رؤوسهم جبلًا . ثم ألزموا فالتزموا ، وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى ما فوق رؤوسهم ، خشية أن يسقط عليهم . كما قال تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ... الآية(1) « وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا » أي : ادخلوا باب إيلياء مطأطئين ، عند الدخول ، رؤوسكم. فخالفوا ما أمروا به . وقد تقدم في سورة البقرة إيضاح هذه الآيات مفصلًا « وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ » أي : وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم مادام مشروعًا لهم « وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » أي : عهداً شديداً . فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل . كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ

---

(1) [٧ / الأعراف / ١٧١] ... وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ . . . الآيات[(١)]. ثم بين تعالى ما أوجب لعنهم وطردهم ومسخهم من مخالفتهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » (ما) مزيدة للتأكيد ، أو نكرة تامة . و(نقضهم) بدل منها . والباء متعلقة بفعل محذوف . أي فبسبب نقضهم ميثاقهم الذي أخذ عليهم ، فعلنا بهم مافعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم ، أو على أعقابهم « وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ » أي: حججه وبراهينه والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام « وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ» كزكريا ويحيى عليهما السلام .

قال العلامة البقاعيّ : وهو أعظم من مطلق كفرهم . لأن ذلك سدٌّ لباب الإيمان عنهم وعن غيرهم . لأن الأنبياء سبب الإيمان . ولما كان الأنبياء معصومين من كل نقيصة ، ومبرأين من كل دنية ، لا يتوجه عليهم حق لا يؤدونه ، قال تعالى « بِغَيْرِ حَقٍّ » أي : كبير ولا صغير أصلاً . وهذا الحرف لكونه في سياق طعنهم في القرآن ، الذي هو أعظم الآيات ، وقع التعبير فيه بأبلغ مما في آل عمران . لأن هذا مع جمع الكثرة ، وتنكير الحق ، عبر فيه بالمصدر ، المفهم لأن الاجتراء على القتل صار لهم خلقاً وصفة راسخة . بخلاف ما مضى . فإنه بالمضارع الذي ربما دل على العروض . ثم ذكر أعظم من ذلك كله وهو إسنادهم عظائمهم إلى الله تعالى فقال « وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ » جمع (أغلف) أي : هي مغشاة

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٦٣] . . . إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

بأغشية جِبلّية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . كما قال تعالى : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . . . الآية(1) . أي : فلا ذنب لنا : لأن قلوبنا خلقت بعيدة عن فهم ما يقول الأنبياء . وذلك سبب قتلهم ورد قولهم . وهذا بعد أن كانوا يقرون بهذا النبيّ الكريم ويشهدون له بالرسالة ، وبأنه خاتم الأنبياء ، ويصفونه بأشهر صفاته ويترقبون إتيانه . لا جرم رد الله عليهم بقوله ، عطفاً على ما تقديره (وقد كذبوا) لأنهم ولدوا على الفطرة كسائر الولدان . فلم تكن قلوبهم في الأصل غلفاً « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » أي : ليس كفرهم ، وعدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفاً بحسب الجبلّة . بل الأمر بالعكس . حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم . لأنه خلقها أولاً على الفطرة متمكنة من اختيار الخير والشر . فلما أعرضوا بما هيأ قلوبهم له من قبول النقص عن الخير ، واختاروا الشر باتباع شهواتهم الناشئة من نفوسهم ، وتركوا ما تدعو إليه عقولهم، طبع سبحانه عليها فجعلها قاسية محجوبة . ولذا سبب عنه قوله « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً » منهم . كعبد الله بن سلام وأضرابه . أو : إلا إيماناً قليلا لا يعبأ به لتمرن قلوبهم على الكفر والطغيان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)

« وَبِكُفْرِهِمْ » أي: بعيسى عليه السلام. وهو عطف على (قولهم) وإعادة الجار لطول ما بينهما . وقد جوز عطفه على (بكفرهم) فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع. وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع ما قبله. وتكرير الكفر للإيذان بتكرر كفرهم. حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام . كذا في أبي السعود « وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ

---

(1) [٤١ / فصلت / ٥] . . . وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

بُهْتَانًا عَظِيمًا» أى : مع قولهم الذى يجترؤن به على مريم عليها السلام، بعد ظهور كراماتها وإرهاصات ولدها ومعجزاته ، يبهتونها به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٧] (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا)

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ » .

قال أبو السعود : نظمُ قولهم هـذا فى سلك سائر جناياتهم التى نعيت عليهم ، ليس لمجرد كونه كذباً ، بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبيّ عليه السلام والاستهزاء به . فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليـه السلام . كما فى قوله تعالى : وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ الخ(١) . ولإنبائه عن ذكرهم له عليـه السلام بالوجه القبيح، على ماقيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى ، مكان ذكرهم القبيح . وقيل : هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى . مدحا له ، ورفعاً لمحله ، وإظهاراً لغاية جراءتهم ، فى تصديهم لقتله ، ونهاية وقاحتهم فى افتخارهم بذلك .

لطيفة :

قال الراغب : سمى عيسى بالمسيح لأنه مسحت عنه القوة الذميمة ، من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة . كما أن الدجال مسحت عنه القوة المحمودة من العـلم والعـقل والحلم والأخلاق الحميدة . وقال شمر : لأنه مسح بالبركة . وهو قوله تعالى : وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ(٢) . أو لأن الله مسح عنه الذنوب . وذكر المجد فى كتابه

(١) [١٥ / الحجر / ٦] ... إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٣١] ... وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

(البصائر) فى اشتقاقه ستة وخمسين قولًا . وتطرف شارح القاموس لبعضها . فانظره « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » أى : لا يصح لهم الفخر بقتـله . لأنهم ماقتلوه . ولا متمسكَ لهم فيما يزعمونه من صلبهم إياه . لأنهم ما صلبوه ولـكن قتلوا وصلبوا من ألقى عليه شبهه « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » أى : فى شأن عيسى « لَفِى شَكٍّ مِنْه » أى : من قتله . وسنبينه بعد « مَالَهُمْ بِهِ » أى : بقتله « مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ » استثناء منقطع . أى : لـكن يتبعون فيه الظن الذى تخيلوه « وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا » أى: قتلاً يقيناً بمعنى متيقنين أنه عيسى عليه السلام، بل فعلوه شاكّين فيه . أو المعنى : انتفى قتله انتفاء يقيناً بمعنى انتفائه على سبيل القطع .

قال البرهان البقاعىّ : وهو أولى لقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » ردٌّ وإنكارٌ لقتله . وإثبات لرفعه . أى: اليقين إنما هو فى رفعه إليه «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» أى: لايبعد رفعه على الله . لأنه عزيز لايغلب على مايريده. وحكيم اقتضت حكمته رفعه . فلا بد أن يرفعه . وعى حفظه لتقوية دين محمد ﷺ ، حين انتهائه إلى غاية الضعف بظهور الدجال ، فيقتله . أفاده المهايمىّ .

تنبيه :

لا خفاء فى أن هذه الآية الـكريمة لتـكذيب اليهود فى دعوى الصلب التى تابعهم عليها أكثر النصارى ، ولتبرئة ساحة مقام عيسى عليه السلام مما توهموه فى ذلك . ولما كانت هذه الآية من مباحث الأمتين ، ومعارك الفرقتين ـ أردت بسط الـكلام فى هذا المقام . انتهاجاً للحق. وأخذا بناصر الصدق . وردَّ أباطيل المـكذبين . وتزييف أقوال الملحدين . نورد أولًا مازعموه ورووْه . مما نفاه التنزيل الـكريم . ثم بطلان المروىّ عندهم وتهافته بالحجج الدامغة.

ثم ما رواه أئمة سلفنا رضى الله عنهم فى هذه القصة . ثم رد زعمهم أن إلقاء الشبه سفسطة . ثم سقوط دعواهم التواتر فى الصلب . ثم تزييف تفسير بعض النصارى لهذه الآية ، وأنها مطابقة لمعتقدهم على زعمه . مع ذكر من رفض عقيدة الصلب من فرق النصارى . وذكر ماروى فى إنجيل خامس يوافق عقيدة المسلمين، ويطابق هذه الآية . ونختم هذه المباحث بما قاله شيخ الإسلام تقىّ الدين ابن تيمية رضى الله عنه فى هذه الآية، وأبدع ، على عادته قدس سره.

فهذه المطالب ينبغى معرفتها لكل طالب . إذ تفرعت إلى مباحث فائقة . وفوائد شائقة . فنقول وبالله التوفيق :

ذكر مازعموه ورووه مما نفاه التنزيل الكريم

جاء فى الفصل الثانى والعشرين من إنجيل لوقا ما نصه :

٢ ـ كان رؤساء الكهنة والكتبة يلتمسون كيف يقتلون يسوع لكنهم كانوا يخافون من الشعب .

٣٨ ـ أى لأن الشعب كلهم كانوا يبكرون إليه فى الهيكل (وهو الكنيسة) ليستمعوه .

يجمل بنا أن نسوق هنا النص الحرفىّ منقولا عن نسخة الكتاب المقدس . أى : كتب العهد القديم والعهد الجديد ، المطبوعة فى بيروت (الطبعة الرابعة) سنة ١٨٧٥ مسيحية م (وهى الطبعة المتداولة المترجمة من اللغة اليونانية) .

إنجيل لوقا

الأصحاح الحادى والعشرون

(٣٧) وكان فى النهار يعلّم فى الهيكل وفى الليل يخرج ويبيت فى الجبل الذى يدعى جبل الزيتون .

(٣٨) وكان كل الشعب يُبكّرون إليه فى الهيكل ليسمعوه .

٣٧ ـ وكان فى النهار يعلم فى الهيكل وفى الليل يخرج ويبيت فى الجبل المسمى جبل الزيتون. كما ذكر لوقا قبل الفصل .

٣ ـ فدخل الشيطان فى يهوذا الملقب بالأسخريوطىّ وهو أحد الاثنى عشر .

٤ ـ فمضى وفاوض رؤساء الكهنة والولاة كيف يُسْلمه إليهم .

٥ ـ ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة .

٦ ـ فواعدهم وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم بمعزل عن الجمع .

٧ ـ وبلغ يومُ الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفِصح .

٨ ـ فأرسل بطرس ويوحنا قائلًا : امضيا فأَعِدَّا لنا الفِصح لنأكل .

٩ ـ فقالا له : أين تريد أن نُعِدَّ .

١٠ ـ فقال لهما : إذا دخلتما المدينة يلقاكما رجل حامل جرة ماء. فاتبعاه إلى البيت الذى يدخله.

الأصحاح الثانى والعشرون

(١) وقرب عيد الفطير الذى يقال له الفصح .

(٢) وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه . لأنهم خافوا الشعب .

(٣) فدخل الشيطان فى يهوذا الذى يدعى الإسخريوطىّ وهو من جملة الاثنى عشر .

(٤) فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقوّاد الجند كيف يسلّمه إليهم .

(٥) ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة .

(٦) فواعدهم . وكان يطلب فرصة ليسلّمه إليهم خِلْوًا من جمع .

(٧) وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح .

(٨) فأرسل بطرسَ ويوحنّا قائلا اذهبا وأعدّا لنا الفصح لنأكل .

(٩) فقالا له أين تريد أن نُعِدَّ .

(١٠) فقال لهما إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جَرّة ماء . اتبعاه إلى البيت حيث يدخل .

١١ ـ وقولا لرب البيت : المعلم يقول لك أين يكون المنزل الذى آكل فيـه الفِصح مع تلاميذى .

١٢ ـ فهو يريكما غرفة كبيرة مفروشة . فأعِدَّا هناك .

١٣ ـ فانطلقا فوجدا كما قال لهما وأعدا الفِصح .

١٤ ـ ولما كانت الساعة اتـكأ هو والرسل الاثنا عشر معه .

١٥ ـ فقال لهم : لقد اشتهيتُ شهوة أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم .

١٦ ـ فإنى أقول لـكم : إنى لا آكله بعد حتى يتم فى ملـكوت الله .

١٧ ـ ثم تناول كأساً وشَـكَرَ وقال : خذوا فاقتسموا بينكم .

١٨ ـ فإنى أقول لـكم : إنى لا أشرب من عصير الـكرمة حتى يأتى ملـكوت الله .

١٩ ـ وأخذخبزاً وشَـكَرَ وكَسَرَ وأعطاهم قائلًا: هذا هوجسدى الذى يُبْذَل لأجلـكم. اصنعوا هذا لذكرى .

---

(١١) وقولا لرب البيت يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى .

(١٢) فذاك يريكما عُلِّيَّـة كبيرة مفروشة . هناك أعِدَّا .

(١٣) فانطلقا ووجدا كما قال لهما . فأعدَّا الفصح .

(١٤) ولما كانت الساعةُ اتّـكأَ والاثنا عشر رسولا معه .

(١٥) وقال لهم شهوةً اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم .

(١٦) لأنى أقول لـكم إنى لا آكل منه بعدُ حتى يُـكمَلَ فى ملـكوت الله .

(١٧) ثم تناول كأسا وشـكر . وقال خذوا هذه واقتسموها بينـكم .

(١٨) لأنى أقول لـكم إنى لا أشرب من نتاج الـكرمة حتى يأتى ملـكوت الله .

(١٩) وأخذ خبزا وشكر وكسَّر وأعطاهم قائلا هذا هو جسدى الذى يُبذَل عنـكم . اصنعوا هذا لذكرى .

٢٠ ـ وكذلك الكاسَ من بعد العشاء قائلًا : هذه هي الكاس العهد الجديد بدمى الذى يسفك من أجلكم .

٢١ ـ ومع ذلك فها إن يدَ الذى يُسْلمنى معى على المائدة .

٢٢ ـ وابنُ البشر ماضٍ كما هو محدود ولكن الويلُ لذلك الرجل الذى يُسْلمه .

٢٣ ـ فطفقوا يسألون بعضُهم بعضاً : من كان منهم مزمعاً أن يفعل ذلك .

٢٤ ـ ووقعت بينهم مجادلة فى أيهم يُحْسَب الأكبر .

٢٥ ـ فقال لهم : إن ملوك الأمم يسودونهم والمسلطين عليهم يُدْعون محسنين .

٢٦ ـ وأما أنتم فلستم كذلك . ولكن ليكن الأكبر فيكم كالأصغر . والذى يتقدم كالذى يَخْدُم .

٢٨ ـ وأنتم الذين ثبتُّم معى فى تجاربى .

---

(٢٠) وكذلك الكأسَ أيضاً بعد العَشاء قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يُسفك عنكم .

(٢١) ولكن هُوَذَا يَدُ الذى يسلمنى هى معى على المائدة .

(٢٢) وابن الإنسان ماض كما هو محتوم . ولكن ويل لذلك الإنسان الذى يسلمه .

(٢٣) فابتدأوا يتساءلون فيما بينهم مَن ترى منهم هو المزمع أن يفعل هذا .

(٢٤) وكانت بينهم أيضاً مشاجرة من منهم يُظَن أنه يكون أكبر .

(٢٥) فقال لهم : ملوك الأمم يسودونهم والمتسلطون عليهم يُدْعَوْن محسنين .

(٢٦) وأما أنتم فليس هكذا . بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر والمتقدم كالخادم .

(٢٧) لأن من هو أكبر . الذى يتكىء أم الذى يخدم . أليس الذى يتكىء . ولكن أنا بينكم كالذى يخدم .

(٢٨) أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى .

٢٩ ـ فأنا أُعِدُّ لكم الملكوت كما أعَدَّه لى أبى .

٣٠ ـ لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر .

٣١ ـ وقال يسوع: سمعانُ سمعانُ هوذا الشيطان سأل أن يُغرْبلكم مثل الحنطة.

٣٢ ـ لكنى صليت من أجلك لئلا ينقص إيمانك وأنت متى رجعت فَثَبِّتْ إخوتك .

٣٣ ـ فقال له : أنا مستعد أن أمضى معك إلى السجن وإلى الموت .

٣٤ ـ قال : إنى أقول لك يا بطرس إنه لا يصيح الديك اليوم حتى تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

٣٩ ـ ثم خرج ومضى على عادته إلى جبل الزيتون وتبعه التلاميذ .

٤٠ ـ فلما انتهى إلى المكان قال لهم: صلوا لئلا تدخلوا فى تجربة .

٤١ ـ ثم فَصَل عنهم نحو رمية حجر وخر على ركبتيه وصلى .

---

(٢٩) وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا .

(٣٠) لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسىّ تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر .

(٣١) وقال الرب سِمعانُ سِمعانُ هو ذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة .

(٣٢) ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك . وأنت متى رجعت ثبّتْ إخوانك .

(٣٣) فقال له يا رب إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت .

(٣٤) فقال أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

(٣٩) وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون . وتبعه أيضاً تلاميذه .

(٤٠) ولما صار إلى المكان قال لهم صلوا لكى لا تدخلوا فى تجربة .

(٤١) وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى .

٤٢ ـ قائلا : يارب إن شئت فأجز عنى هذه الكاس لكى لاتكن مشيئتى بل مشيئتك.

٤٣ ـ وتراءى له ملاك من السماء يشدده .

٤٤ ـ ولما أخذ فى النزاع أطال فى الصلاة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض .

٤٥ ـ ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن .

٤٦ ـ فقال لهم : مابالكم نائمين. قوموا فصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة .

٤٧ ـ وفيما هو يتكلم وإذا بجمع يتقدمهم المسمى يهوذا أحد الاثنى عشر فدنا من يسوع ليقبله .

٤٨ ـ فقال له يسوع : يا يهوذا أبقبلة تُسْلم ابن البشر .

٤٩ ـ فلما رأى الذين حوله ما سيحدث قالوا له : أنضرب بالسيف .

٥٠ ـ وضرب أحدهم عبدَ رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى .

---

(٤٢) يا أبتاه إن شئت أن تجيز عنى هذه الكأس . ولكن لتكن لا إرادتى بل إرادتك .

(٤٣) وظهر له ملاك من السماء يقويه .

(٤٤) وإذ كان فى جهاد كان يصلى بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض .

(٤٥) ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن .

(٤٦) فقال لهم: لماذا أنتم نيام. قوموا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة .

(٤٧) وبينما هو يتكلم إذا جمع، والذى يدعى يهوذا أحد الاثنى عشر يتقدمهم . فدنا من يسوع ليقبله .

(٤٨) فقال له يسوع: يا يهوذا أبقبلة تسلِّم ابن الإنسان .

(٤٩) فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا يا رب أنضرب بالسيف .

(٥٠) وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى .

٥١ ـ فأجاب يسوع وقال : قفوا لاتزيدوا. ثم لمس أذنه فأبرأه .

٥٢ـ ثم قال يسوع للذين جاؤا إليه من رؤساء الكهنة وولاة الهيكل والشيوخ: كأنما خرجتم إلى لص بسيوف وعصى .

٥٣ـ إنى كل يوم كنت معكم فى الهيكل ولم تمدوا على أيديكم ولكن هذه ساعتكم وهذا سلطان الظُّلْمة .

حينئذ تركه تلاميذه وهربوا .

٥٤ـ فارتموا على يسوع فقبضوا عليه وقادوه إلى بيت رئيس الكهنة .

وكان الكتبة والرؤساء مجتمعين. وهناك أعطى يهوذا الحوارى الثلاثين درهما التى أخذها رشوة على تسليم المسيح .

وكان بطرس يتبعه من بعيد ...

٥٤ـ فجلس داخلًا مع الخدام لينظر الغاية .

٥٥ ـ وأضرموا ناراً فى وسط الدار وجلسوا حولها فجلس بطرس بينهم .

٥٦ـ فرأته جارية جالساً عند الضوء فتفرست فيه ثم قالت: إن هذا أيضاً كان معه .

---

(٥١) فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا . ولمس أذنه وأبرأها .

(٥٢) ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقوّاد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه : كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصىّ .

(٥٣) إذ كنت معكم كل يوم فى الهيكل لم تمدوا علىّ الأيادى . ولكنّ هذه ساعتكم وسلطان الظُّلْمة .

(٥٤) فأخذوه وساقوه وأدخلوه إلى بيت رئيس الكهنة . وأما بطرس فتبعه من بعيد.

(٥٥) ولما أضرموا ناراً فى وسط الدار وجلسوا معاً جلس بطرس بينهم .

(٥٦) فرأته جارية جالساً عند النار فتفرست فيه وقالت: وهذا كان معه .

٥٧ ـ فكفر أمام الجمع وأنكره قائلًا : إنى لست أعرفه.

٥٨ ـ وبعدقليل رآه آخر فقال: أنت أيضاً منهم. فأخذ بطرس يحلف لا أعرف هذا الرجل ولست منهم .

٥٩ ـ وبعد نحو ساعة أكد عليه آخر قائلًا: فى الحقيقة هذا أيضاً كان معه فإنه جليلى

٦٠ ـ فقال بطرس: يا رجل لا أدرى ما تقول .

قال مفسروهم: إن خطأ بطرس هذا كان ثقيلًا : لأن المسيح قال: من ينكرنى أمام الناس أنكره أمام أبى الذى فى السموات .

٦٠ ـ وفى الحال بينما هو يتكلم صاح الديك .

٦١ ـ فالتفت يسوع ونظر إلى بطرس فتذكر كلامه إذ قال: إنك قبل أن يصيح الديك . تنكرنى ثلاث مرات .

٦٢ ـ فخرج بطرس وبكى بكاءً مرًّا .

٦٣ ـ وكان الرجال الذين قبضوا عليه يهزأون به ويضربونه .

---

(٥٧) فأنكره قائلا: لست أعرفه يا امرأة .

(٥٨) وبعد قليل رآه آخر وقال: وأنت منهم. فقال بطرس: يا إنسان لست أنا .

(٥٩) ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلا: بالحق إن هذا أيضاً كان معه لأنه جليلىّ أيضاً .

(٦٠) فقال بطرس : يا إنسان لست أعرف ما تقول . وفى الحال بينما هو يتكلم صاح الديك .

(٦١) فالتفت الرب ونظر إلى بطرس . فتذكر بطرس كلام الرب كيف قال له : إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات .

(٦٢) فخرج بطرس إلى خارج وبكى بكاء مرا .

(٦٣) والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه .

٦٤ ـ وغطوه وطفقوا يلطمونه ويسألونه قائلين: تنبأ من الذى ضربك .

٦٥ ـ وأشياء أخر كانوا يقولونها عليه مجدفين .

٦٦ ـ ولما كان النهار اجتمع شيوخ الشعب ورؤساء الكهنة عليه ليميتوه وأحضروه إلى محفلهم

٦٧ ـ وقالوا: إن كنت أنت المسيح فقل لنا. فقال لهم: إن قلت لكم لا تؤمنون .

٦٨ ـ وإن سألتكم لا تجيبونى ولا تطلقونى .

٦٩ ـ ولكن من الآن يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله .

٧٠ ـ فقال الجميع : أفأنت ابن الله. فقال لهم : أنتم تقولون إنى أنا هو .

٧١ ـ فقالوا ما حاجتنا إلى شهادة إنا قد سمعنا من فمه .

فأوثقوه. وأما يهوذا الأسخريوطى الدافع، لما رأى يسوع قد دِينَ ندم ومضى فأعاد الثلاثين الفضة إلى رؤساء الكهنة قائلاً: لقد أخطأت بتسليمى دماً زكياً. فقالوا له: ما علينا أنت أخبر. فطرح الفضة فى الهيكل وذهب نخنق نفسه، وأما رؤساء الكهنة فأخذوا الفضة وقالوا لا يحل لنا أن نضعها فى بيت التقدمة لأنها ثمن دم .

---

(٦٤) وغطوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين تنبأ . من هو الذى ضربك .

(٦٥) وأشياء أخر كثيرة كانوا يقولون عليه مجدفين .

(٦٦) ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب رؤساء الكهنة والكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم .

(٦٧) قائلين إن كنت أنت المسيح فقل لنا . فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون .

(٦٨) وإن سألت لا تجيبوننى ولا تُطْلقوننى .

(٦٩) منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله .

(٧٠) فقال الجميع: أفأنت ابن الله . فقال لهم: أنتم تقولون إنى أنا هو .

(٧١) فقالوا ما حاجتنا بعدُ إلى شهادة لأننا نحن سمعنا من فمه .

١ ـ ثم ذهب جميع جمهورهم ومضوا بيسوع إلى بيلاطُسَ .
٢ ـ وطفقوا يشكونه قائلين: إنا وجدنا هذا يفسد أمتنا ويمنع من أداء الجزية لقيصر ويدعى أنه هو المسيح الملك .
٣ ـ فسأله بيلاطُس قائلا : هل أنت ملك اليهود؟ فأجابه قائلا : أنت قلت .
٤ ـ فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة وللجموع: إنى لم أجد على هذا الرجل علة .
٥ ـ فلجّوا وقالوا: إنه يهيج الشعب إذ يعلم فى اليهودية كلها مبتدئاً من الجليل إلى ههنا.
٦ ـ فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل: هل الرجل جليلىّ .
٧ ـ ولما علم أنه من إيالة هيرؤدس أرسله إلى هيرؤدس وكان فى تلك الأيام فى وأُرشليم.
٨ ـ فلما رأى هيرؤدس يسوع فرح جدًّا لأنه من زمان طويل كان يشتهى أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة ويرجو أن يعاين آية يصنعها .

الأصحاح الثالث والعشرون

(١) فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس .
(٢) وابتدؤا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلا إنه هو مسيح مَلِك .
(٣) فسأله بيلاطس قائلا : أنت ملك اليهود . فأجابه وقال: أنت تقول .
(٤) فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: إنى لا أجد علة فى هذا الإنسان.
(٥) فكانوا يشددون قائلين: أنه يهيّج الشعب وهو يعلّم فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل إلى هنا .
(٦) فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل هل الرجل جليلىّ .
(٧) وحين علم أنه من سلطنة هيرودس أرسله إلى هيرودس إذ كان هو أيضاً تلك الأيام فى أورشليم .
(٨) وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجّى أن يرى آية تُصنع منه .

٩ ـ فسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء .

١٠ ـ وكان رؤساء الكهنة والكتبة واقفين يشكونه بلجاجة .

١١ ـ فازدراه هيرودس مع جنوده وهزأ به وألبسه ثوباً لامعاً وردّه إلى بيلاطس .

١٢ ـ وتصادق هيرودس وبيلاطس في ذلك اليوم وقد كانا من قبل متعاديين .

١٣ ـ فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب .

١٤ ـ وقال لهم : قد قدمتم إليّ هذا الرجل كأنه يفتن الشعب . وها أنا قد فحصته أمامكم فلم أجد على هذا الرجل علة مما تشكونه به .

١٥ ولا هيرودس أيضاً لأني أرسلتكم إليه وهوذا لم يُصنع به شيء من حكم الموت .

١٦ ـ فأنا أؤدبه وأطلقه .

١٧ ـ وكان لا بد له أن يطلق لهم في كل عيد رجلاً .

---

(٩) وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء .

(١٠) ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتداد .

(١١) فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس .

(١٢) فصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما في ذلك اليوم لأنهما كانا من قبل في عداوة بينهما .

(١٣) فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب .

(١٤) وقال لهم : قد قدّمتم إليّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب . وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه .

(١٥) ولاهيرودس أيضاً . لأني أرسلتكم إليه . وها لاشيء يستحق الموت صُنِعَ منه .

(١٦) فأنا أؤدبه وأطلقه .

(١٧) وكان مضطراً أن يطلق لهم كل عيد واحدا .

١٨ ـ فصاحوا كلهم جملة قائلين: ارفع هذا وأطلق لنا بَرْأبّا .
١٩ ـ كان ذاك قد ألقى فى السجن لأجل فتنة حدثت فى المدينة وقَتْلٍ .
٢٠ ـ فناداهم بيلاطس مرة أخرى وهو يريد أن يطلق يسوع .
٢١ ـ فصرخوا قائلين: اصلبه، اصلبه .
٢٢ ـ فقال لهم مرة ثالثة: وأى شر صنع هذا ؟ إنى لم أجد عليه علة للموت فأنا أؤدبه وأطلقه .
٢٣ ـ فألحوا عليه بأصوات عالية طالبين أن يصلب واشتدت أصواتهم .
٢٤ ـ فحكم بيلاطس أن يُجْرَى مطلبهم .
٢٥ ـ فأطلق لهم الذى طلبوه ذاك الذى ألقى فى السجن لأجل فتنةٍ. وجلد يسوع بالسياط وأسلمه ليصلب .

قال مفسروهم : ولذا يظهر أن اللصين اللذين صلبا معه جلدا أيضاً والجلادون كانوا ستين نفراً. وأرشاهم اليهود ليميتوه بالجلد خشية أن يطلقه بيلاطس ونزعوا ثيابه وألبسوه لباساً

(١٨) فصرخوا بجملتهم قائلين: خذ هذا وأطلق لنا باراباس .
(١٩) وذاك كان قد طرح فى السجن لأجل فتنة حدثت فى المدينة وقتلٍ .
(٢٠) فناداهم أيضا بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع .
(٢١) فصرخوا قائلين: اصلبه اصلبه .
(٢٢) فقال لهم ثالثة: فأىّ شر عمل هذا ؟ إنى لم أجد فيه علة للموت . فأنا أؤدبه وأطلقه
(٢٣) فكانوا يلجّون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب . فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة .
(٢٤) فحكم بيلاطس أن تكون طَلِبَتُهُمْ .
(٢٥) فأطلق لهم الذى طُرح فى السجن لأجل فتنةٍ وقتلٍ الذى طلبوه وأسلم يسوع لمشيئتهم.

قرمزياً وضفروا إكليلاً من شوك العوسج ووضعوه على رأسه، وأنشبوا فى رأسه عنفاً أشواكه الحادة. ومن هنا أخذت الكنيسة العادة على إبقاء إكليل من شعر فى رأس الكهنة تذكاراً لإكليل المسيح الشوكى. ثم جثوا على ركبهم مستهزئين به وقائلين: السلام يا ملك اليهود. وتناولوا قصبة يضربون بها رأسه. ولما هزؤا به نزعوا عنه ذلك اللباس وألبسوه ثيابه واستاقوه ليصلب. وكان يتقدمه مُبَوِّق يدعو الشعب إلى هذا المنظر بحسب عادة اليهود. وخشبة الصلب على منكبيه.

٣٢ ـ وانطلق معه بآخرَيْن مجرمين ليُقتلا.

ولما بلغوا إلى المكان المسمى الجمجمة صلبوه هناك هو والمجرمَيْن، أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار ...

وناولوه خلًّا مخلوطاً بمرارة أو خمراً ممزوجاً بعلقم بعد أن طلب الماء فذاقه ولم يشرب. ولما صلبوه بالمسامير وبالحبال معها. وكانت المسامير فى راحة اليدين والرجلين، ضربوا جنبه بالحربة فنفذت من صدره. وفى الصليب محل يسند إليه رجليه. واقتسموا ثيابه بالقرعة وهى ثلاثة: القميص والرداء والجبة. ولم يكن يلبس السروال كعادة تلك البلاد. وجلسوا هناك يحرسونه لئلا يسرقه أحد.

وكان الشعب واقفين ينظرون. والرؤساء يسخرون منه معهم قائلين: قد خلص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو مسيح الله المختار.

---

(٣٢) وجاؤا أيضا باثنين آخرين مذنبين ليُقتلا معه.

(٣٣) ولما مضوا به إلى الموضع الذى يدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبيْن واحدا عن يمينه والآخر عن يساره.

(٣٥) وكان الشعب واقفين ينظرون. والرؤساء أيضا معهم يسخرون به قائلين: خلَّص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله.

٣٦ ـ وكان الجند أيضاً يهزأون به .

٣٧ ـ وقائلين : إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك .

٣٨ ـ وكان عنوان فوقه مكتوباً بالحروف اليونانية واللاتينية والعبرانية : هذا هو ملك اليهود .

٤٤ ـ ولما كان نحو الساعة السادسة حدثت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة .

٤٥ ـ وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه .

٤٦ ـ ونادى يسوع بصوت عظيم قائلا: إيل إيل لِمَ شبقتني؟ أي: إلهي إلهي لم ذا تركتني؟ فكان أناس من القائمين يقولون: دعوا ننظر هل يأتي إيليا فيخلصه. ثم صرخ أيضاً بصوت عالٍ وأسلم الروح .

٤٧ ـ فلما رأى قائد المئة ماحدث مجّد الله قائلاً : في الحقيقة كان هذا الرجل صديقاً .

٤٨ ـ وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين على هذا المنظر، لما عاينوا ماحدث، رجعوا وهم يقرعون صدورهم .

---

(٣٦) والجند أيضا استهزأوا به وهم يأتون ويقدمون له خلا .

(٣٧) قائلين: إن كنت أنت ملك اليهود تخلص نفسك .

(٣٨) وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية: هذا هو ملك اليهود.

(٤٤) وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة .

(٤٥) وأظلمت الشمس ، وانشق حجاب الهيكل من وسطه .

(٤٦) ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: ياأبتاه في يديك أستودع روحى . ولما قال هذا أسلم الروح .

(٤٧) فلما رأى قائد المائة ما كان مجّد الله قائلا : بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا.

(٤٨) وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم .

٤٩ ـ وكان جميع معارفه والنساء اللواتى تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك .

٥٠ ـ وإذا برجل اسمه يوسف وهو صالح صديق .

٥١ ـ ولم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم .

٥٢ ـ فدنا إلى بيلاطس وسأله جسد يسوع فأعطاه إياه .

٥٣ ـ فأنزله ولفه فى كتان ووضعه فى قبر منحوت لم يكن وضع فيه أحد.

٥٤ ـ وكان يوم التهيئة أى: الجمعة وقد أخذ السبت يلوح ...

وفى يوم السبت اجتمع عظماء الكهنة عند بيلاطس قائلين له : قد تذكرنا أن ذاك المضل كان يقول وهوحىّ: إنى أقوم بعد ثلاثة أيام. فمر أن يحرسوا القبر حتى اليوم الثالث. لئلا يأتى تلاميذه فيسرقوه ليلاً ويقولوا للشعب : إنه قام من بين الأموات. فتكون الضلالة الأخيرة شرًّا من الأولى. فأمر لهم بجنود يحرسون وحصنوا القبر وختموا الحجر مع الجنود. وفى عشية السبت المسفر صباحه عن الأحد أتت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظر القبر .

قال مفسروهم : إن هـذه الآية أتعبت العلماء فى تفسيرها والتوفيق بين أجزائها وبين أقوال باقى الإنجيليين. انتهى .

---

(٤٩) وكان جميع معارفه ونساء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك.

(٥٠) وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيرا ورجلا صالحا باراً .

(٥١) هذا لم يكن موافقا لرأيهم وعملهم . وهو من الرّامة مدينة اليهود . وكان هوأيضا ينتظر ملكوت الله.

(٥٢) هذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع .

(٥٣) وأنزله ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط .

(٥٤) وكان يوم الاستعداد والسبتُ يلوح .

وإذا بزلزلة عظيمة قد صارت لأن ملك الرب انحدر من السماء. وكان الملك جبريل ظهر بهيئة شاب وجاء فدحرج الحجر عن باب القبر وجلس فوقه . وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج . ومن الخوف منه اضطرب الحراس وصاروا كالأموات . فقال للنسوة : لاتخفن . فقد عرفت أنكن تطلبن يسوع المصلوب. إنه ليس ههنا . فإنه قد قام .

وقال لوقا :

٥٥ ـ كانت النساء اللواتى أتين معه من الجليل . يتبعن . فأبصرن القبر وكيف وضع فيه جسده .

٥٦ ـ ثم رجعن وأعددن حنوطاً وأطياباً. وفى السبت قَرَرْنَ على حسب الوصية .

١ ـ وفى أول الأسبوع باكراً جداً أتين إلى القبر وهن يحملن الحنوط الذى أعددناه .

٢ ـ فوجدن الحجر قد دُحرج عن القبر .

٣ ـ فدخلن فلم يجدن جسد يسوع .

٤ ـ وبينما هن متحيرات فى ذلك إذا برجلين قد وقفا عندهن بلباس برّاق .

---

(٥٥) وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وُضِع جسده .

(٥٦) فرجعن وأعددن حنوطا وأطيابا . وفى السبت استرحن حسب الوصية .

الأصحاح الرابع والعشرون

(١) ثم فى أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذى أعددنه ومعهن أناس .

(٢) فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر .

(٣) فدخلن ولم يجدن جسدَ الرب يسوع .

(٤) وفيما هن محتارات فى ذلك إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة .

٥ ـ وإذ كن خائفات ونـكّسن وجوههن إلى الأرض قالا لهن : لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات .

٦ ـ إنه ليس ههنا لـكنه قام. اذكرن كيف كلمـكن وهو فى الجليل.

٧ ـ إذ قال إنه ينبغى لابن البشر أن يُسلَم إلى أيدى أناس خطأة ويصلب ويقوم فى اليوم الثالث .

فذكرن كلامه .

ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله .

وقلن لهم: قد أخذوا يسوع من القبر ولا نعلم أين وضعوه .

١٠ ـ ومريم المجدلية وحنّة ومريم أم يعقوب وأُخَر معهن هن اللواتى أخبرن الرسل بهذا .

فـكان عندهم هـذا الـكلام كالهذيان ولم يصدقوهن .

---

(٥) وإذ كن خائفات ومنـكسات وجوههن إلى الأرض قال لهن : لـماذا تطلبن الحيّ بين الأموات .

(٦) ليس هو ههنا لـكنه قام . اذكرن كيف كلمـكن وهو بعد فى الجليل .

(٧) قائلا إنه ينبغى أن يسلَّم ابن الإنسان فى أيدى أناس خُطاةٍ ويصلب وفى اليوم الثالث يقوم .

فتذكرن كلامه .

ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميـع الباقين بهذا كله .

(١٠) وكانت مريم المجدلية ويُوَنَّا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتى قلن هـذا للرسل .

(١١) فتراءى كلامهن لهم كالهذَيان ولم يصدقوهن .

١٢ ـ فقام بطرس وأسرع إلى القبر وتطلع فرأى الأكفان موضوعة على حدة فانصرف متعجباً فى نفسه مما كان .

١٣ ـ وإن اثنين منهم كانا سائرين فى ذلك اليوم إلى قرية اسمها عِمّاوُسُ بعيدة عن أورَشليم ستين غلوة .

١٤ ـ وكانا يتحادثان عن تلك الحوادث كلها .

١٥ ـ وفيما هما يتحادثان ويتساءلان دنا منهما يسوع نفسه وكان يسير معهما .

١٦ ـ ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته .

١٧ ـ فقال لهما : ما هذا الكلام الذى تتحاوران فيه وأنتما سائران مكتئبَين .

١٨ ـ فأجاب أحدهما : أفأنت غريب فى أورشليم ولم تعلم ما حدث بها فى هذه الأيام.

١٩ ـ فقال لهما: وما هو؟ قالا له ما يخص يسوع الناصرى الذى كان رجلاً نبياً ذاقوة فى العمل والقول أمام الله والشعب كله .

---

(١٢) فقام بطرس وركض إلى القبر ونظر الأكفان موضوعة وحدها فمضى متعجبا فى نفسه مما كان .

(١٣) وإذا اثنان منهم كانا منطلقين فى ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غَلْوَةً اسمها عِمْوَاس .

(١٤) وكانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث .

(١٥) وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب منهما يسوع نفسه وكان يمشى معهما .

(١٦) ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته .

(١٧) فقال لهما: ما هذا الكلام الذى تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين .

(١٨) فأجاب أحدهما الذى اسمه كِلْيوبَاسُ وقال له: هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ولم تعلم الأمور التى حدثت فيها هذه الأيام ؟

(١٩) فقال لهما : وما هى؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصرى الذى كان إنسانا نبيا مقتدرا فى الفعْل والقول أمام الله وجميع الشعب .

٢٠ ـ وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه .

٢١ ـ واليوم هو اليوم الثالث لحدوث ذلك .

٢٢ ـ إلا أن نساء منا أدهشننا لأنهن بكرن إلى القبر .

٢٣ ـ فلم يجدن جسده فأتين وقلن : إنهن رأين مظهر ملائكة قالوا إنه حى .

٢٤ ـ فمضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا كما قالت النساء لكنهم لم يروه .

٢٥ ـ فقال لهما : ياقليلى الفهم وبطيىء القلب فى الإيمان بكل مانطقت به الأنبياء .

٢٦ ـ أما كان ينبغى للمسيح أن يتألم هذه الآلام ثم يدخل إلى مجده .

٢٧ ـ ثم أخذيفسر لهما، من موسى ومن جميع الأنبياء، مايختص به فى الأسفار كلها .

٢٨ ـ فلما اقتربوا من القرية التى كانا يقصدانها تظاهر بأنه منطلق إلى مكان أبعد .

٢٩ـ فألزماه قائلين : امكث معنا لأن المساء مقبل وقد مال النهار . فدخل ليمكث معهما .

---

(٢٠) كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه .

(٢١) ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل . ولكن مع هذا كله، اليومَ له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك .

(٢٢) بل بعض النساء منا حيرننا إذ كن باكرا عند القبر .

(٢٣) ولما لم يجدن جسدَه أتين قائلات : إنهن رأين منظر ملائكة قالوا : إنه حىّ .

(٢٤) ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضا النساء . وأما هو فلم يروه .

(٢٥) فقال لهما : أيها الغبيان والبطيئا القلوب فى الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء .

(٢٦) أما كان ينبغى أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده .

(٢٧) ثم ابتدأ، من موسى وجميع الأنبياء، يفسّر لهما الأمور المختصة به فى جميع الكتب.

(٢٨) ثم اقتربوا إلى القرية التى كانا منطلقين إليها وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد .

(٢٩) فألزماه قائلين : امكث معنا لأنه نحوُ المساء وقد مال النهار . فدخل ليمكث معهما.

٣٠ ـ ولما اتكأ معهما أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما .

٣١ ـ فانفتحت أعينهما وعرفاه فغاب عنهما .

٣٢ ـ فقال أحدهما للآخر: أما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا فى الطريق ويشرح لنا الكتب .

٣٤ ـ وقاما فى تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم فوجدا الأحد عشر والذين معهم مجتمعين .

وهم يقولون: لقد قام يسوع فى الحقيقة وتراءى لسِمْعان .

٣٥ ـ فأخذا يخبران بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز .

٣٦ ـ وبينما هم يتحدثون بهذه وقف يسوع فى وسطهم وقال لهم: السلام لكم . أنا هو لاتخافوا .

٣٧ ـ فاضطربوا وخافوا وظنوا أنهم يرون روحاً .

---

(٣٠) فلما اتكأ معهما أخذ خبزا وبارك وكسّر وناولهما .

(٣١) فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما .

(٣١) فقال بعضهما لبعض: ألم يكن قلبنا ملتهبا فينا إذ كان يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الكتب .

(٣٣) فقاما فى تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم .

(٣٤) وهم يقولون: إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسِمعان .

(٣٥) وأما هما فكانا يخبران بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز .

(٢٦) وبينما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم وقال لهم: سلام لكم .

(٣٧) فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحا .

٣٨ ـ فقال لهم: ما بالكم مرتعدين ولماذا ثارت الأوهام فى قلوبكم .

٣٩ ـ انظروا يدىّ ورجلىّ إنى أنا هو جسُّونى وانظروا فإن الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لى .

٤٠ ـ ثم أراهم يديه ورجليه.

٤١ ـ وإذ كانوا غير مصدقين بعدُ من الفرح ومتعجبين قال : أعندكم ههنا طعام .

٤٢ ـ فأعطوه قطعة من سمك مشوىّ وشهد عسل .

٤٣ ـ فأخذ وأكل أمامهم .

ثم أخذ الباقى وأعطاهم ...

وبعد مفاوضته معهم .

٥٠ ـ خرج بهم إلى بيت عَنْيَا ورفع يديد وباركهم .

٥١ ـ وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد إلى السماء .

---

(٣٨) فقال لهم : ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم .

(٣٩) انظروا يدىّ ورجلىّ إنى أنا هو . جُسُّونى ، وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى .

(٤٠) وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه .

(٤١) وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم: أعندكم ههنا طعام ؟

(٤٢) فناولوة جزءا من سمك مشوىّ وشيئا من شَهْد عسلٍ .

(٤٣) فأخذ وأكل قدامهم.

(٥٠) وأخرجهم خارجا إلى بيت عَنْيا ورفع يديه وباركهم .

(٥١) وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء .

هـذا ما جاء فى إنجيل لوقا ممزوجاً ببعض تفاسيرهم . وإنما آثرت النقل عنه لزعمهم أن كلامه أصح وأفصح ، وأشد انسجاماً من كلام باقى مؤلفى العهد الجديد . كما فى (ذخيرة الألباب) من كتبهم .

فصل

فى بطلان ما رووه وتهافته بالحجج الدامغة

اعلم أن فى كتبهم الموجودة من التضارب فى هذه القصة ما يقضى بالعجب ويبرهن على عدم الوثوق بها . كما قال تعالى : مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ(١) .

قال البرهان البقاعىّ رحمه الله فى (تفسيره) بعد (أن ساق أزيد مما سقناه عن أناجيلهم ، وقال : أحسن ما رُدّ على الإنسان بما يعتقده) ما نصه : فقد بان لك أن أناجيلهم كلها اتفقت على أن علمهم فى أمره انتهى إلى واحد . وهو الأسخريوطىّ . وأما غيره من الأعداء فلم يكن يعرفه . وإنه إنما وضع يده عليه ولم يقل بلسانه إنه هو . وأن الوقت كان ليلاً . وأن عيسى نفسه قال لأصحابه : كلكم تشكّون فىّ هذه الليلة. وأن تلاميذه كلهم هربوا فلم يكن لهم علم بعد ذلك بما اتفق فى أمره . وإن بطرس إنما تبعه من بعيد . وإن الذى دل عليه خنق نفسه . وإن الناقل لأن الملك قال إنه قام من الأموات، إنما هو نسوة كن عند القبر فى مدى بعيد . وما يدرى النسوة الملك من غيره . ونحو ذلك من الأمور التى لاتفيد غير الظن . وأما الآيات التى وقعت فعلى تقدير تسليمها لا يضرنا التصديق بها . وتكون لجراءتهم على الله بصلب من يظنونه المسيح . وهذا كله يصادق القرآن فى أنهم فى شك منه . ويدل على أن المصلوب ، إن صح أنهم صلبوه، مَن ظنوه إياه ، هو الذى دل عليه .

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

قال بعض العلماء : إنه ألقى شبهه عليه . ويؤيد ذلك قولهم إنه خنق نفسه . فالظاهر أنهم لما لم يروه بعد ذلك ظنوا أنه خنق نفسه : فجزموا به. والله أعلم . انتهى.

وقال العلامة خير الدين الآلوسى فى (الجواب الفسيح) : اعلم أن ما ذكره هذا النصرانىّ من أن المسيح عليه السلام مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أنزل ودفن ، وأقام فى القبر إلى صبيحة يوم الأحد ، ثم انبعث حيًّا بلاهوته وتراءى للنسوة اللاتى جئن إلى قبره زائرات ، وظهر بعد لحوارييه ... إلى آخر ماقاله ـ هو ما أجمع عليه النصارى . ويرد ذلك العقل والنقل . وإن صدقتهم اليهود فى قتله . فاستمع من المنقول مايتلى عليك بإذن داعيه . وخذ ما يأتيك من المعقول بالدلائل الهادية . على أن المقتول هو الشبه . وأن الحال عند صالبيه اشتبه . وأن المسيح رفعه الله تعالى ، قبل القتل ، إليه . لشرفه عنده ومكانته لديه . قال الله تعالى فى بيان حال اليهود : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ.. الآية. وفى الإنجيل أن رئيس الكهنة أقسم على المأخوذ بالله أءنت المسيح بن الله ؟ فقال له : أنت قلت . ولم يجبه بأنه المسيح . فلو كان المقسم عليه هو المسيح لقال له : نعم . ولم يُوَرِّ ولم يتلعثم . وهو محلَّف بالله . لا سيما وهو بزعمهم الإله . الذى نزل لخلاص عباده بإفداء نفسه ودخول الجحيم ولأواه.

وقال لوقا فى الفصل التاسع من إنجيله .

٢٨ ـ إن المسيح صعد قبل الصلب إلى جبل الخليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا .

٢٩ ـ فبينما هو يصلى إذ تغير منظر وجهه عما كان عليه وابيضت ثيابه وصارت تلمع كالبرق .

الأصحاح التاسع

(٢٨) وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام ، أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلى .

(٢٩) وفيما هو يصلىّ صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضًا لامعا .

٣٠ ـ وإذا موسى بن عمران وإيليا .

٣١ ـ قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلتهم .

٣٢ ـ وأما الذين كانوا مع المسيح فوقع عليهم النوم فناموا .

وهذا من أوضح الدلالات على رفعه وحصول الشبه الذى نقول به . إذ لا معنى لظهور موسى وإيليا ووقوع النوم على أصحابه إلا رفعه . ألا ترى أن اليهود كانوا يسمعون منه، عليه السلام ؛ أن إيليا يأتى . فلما رفعوه على الخشبة ، كما فى الأناجيل ، قالوا : دعوه حتى نرى أن إيليا يأتى فيخلصه . فصاروا فى شك يريدون تحقيقه . فإن أتى إيليا فما رفعوه هو المسيح . وإن لم يأت فهو غيره كما فى ظنهم . فلما لم يأت ازدادوا ريبة فى أمره . ومن رآه الحواريون بعد يقظتهم، يجوز أن يكون طوراً من أطوار روحه . لأنه عليه السلام لا يبعد أن يكون له قوة التطور . وتشكل الروح بعد الموت أمر ممكن . لا سيما وقد صدرت على يديه معجزات أعظم من ذلك . كإحياء الموتى و كثرة الخبز والحيتان وإبراء الأكمه والأبرص .

وقال يوحنا التلميذ .

١ ـ كان يسوع مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود فى طلبه .

---

(٣٠) وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليّا .

(٣١) اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذى كان عتيدا أن يكمّله فى أورشليم .

(٣٢) وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تثقلوا بالنوم. فلما استيقظوا رأوا مجده والرجلين الواقفين معه .

إنجيل يوحنا

الأصحاح الثامن عشر

(١) قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عِبْر وادى قِدْرون حيث كان بستانٌ دخله هو وتلاميذه .

٤ ـ فخرج إليهم يسوع وقال لهم : من تريدون ؟

قالوا: يسوع . (وقد خفى شخصه عنهم) . فقال : أنا يسوع . وفعل ذلك مرتين وقد أنكروا صورته .

فانظر أيها العاقل كيف اعترف هنا أنه يسوع لما علم أن الله تعالى تولّى حراسته منهم ، وأنهم لا يقدرون أن ينالوه بسوء . وكيف لم يعترف بأنه المسيح لما سأله رئيس الكهنة عن نفسه . فعدم اعترافه هناك واعترافه هنا دليل واضح أيضاً على أن ما قاله الله سبحانه فى القرآن العظيم هو الحق .

ثم من الأدلة على عدم قتله ما اشتملت عليه الأناجيل من اختلاف المبانى والمعانى والمقاصد والاضطراب فى حكاية هذه الواقعة والتناقض فى ألفاظها . كدعواهم الألوهية مع قوله عليه الصلاة والسلام (عند صلبه بزعمهم) : إلهى ! إلهى ! لم تركتنى . وقوله كما فى الفصل السادس والعشرين من إنجيل متى :

ياأبتاه إن كان لا يمكنك أن تفوتنى هذه الكاس أى: الموت ولابد لى أن أشربها فلتكن مشيئتك . وقام يصلى. وقوله لرئيس الكهنة : إنكم من الآن لاترون ابن الإنسان حتى ترونه جالساً عن يمين القوة وآتياً فى سحاب السماء . يريد بالقوة البارىء تعالى شأنه . وفى الفصل السابع من إنجيل يوحنا : إن المريسيين ورؤساء الكهنة أرسلوا شُرَطاً ليقبضوا على المسيح (يعنى ليقتلوه كما قال مفسروهم) قال أنا ماكث أيضا معكم زمانا . ثم

---

(٤) نخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتى عليه وقال لهم : من تطلبون .

(٥) أجابوه يسوع الناصرى . قال لهم يسوع : أناهو. وكان يهوذا مسلمهُ أيضا واقفاً معهم.

(٦) فلما قال لهم إنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض .

(٧) فسألهم أيضا من تطلبون ، فقالوا: يسوع الناصرى .

(٨) أجاب يسوع قدقلت لكم إنى أناهو . فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون.

أنطلق إلى من أرسلني وتطلبوننى فلا تجدوننى . وحيثما أكن فلا تستطيعون إليه سبيلاً . قال اليهود فى ذواتهم : فإلى أين ؟ هذا عتيد أن ينطلق حتى لانجده نحن ، قال مفسروهم أى : يصعد إلى السماء . وغير ذلك مما لو أردنا ذكره والتنقير عنه لطال البحث .

ثم نقل خير الدين نحواً مما أسلفناه عن أناجيلهم وقال بعد ذلك : فأجل فى تناقضها قداح فكرك . وفى تهافتها خيول ذهنك . لترى فى هذه القصة ما يدلك على وقوع الشبه ونجاة المسيح عقلًا ونقلًا . كما قال تعالى : وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ . وليتبين لك عبوديته ورسالته عليه السلام . فإن ذلك ظاهر من العبارات . ولنزدك فى البيان وضوحاً بما ننبهك عليه بكلمات يسيرة مقدوحاً ومشروحاً .

منها : قولهم إنه صلب قبل غروب يوم الجمعة ودفن مساءها . ولما جاءت النسوة عشية السبت المسفر صباحه عن الأحد ، وجدنه فارغاً ، وقدقام منه المدفون . مع أن النصارى يزعمون ، كما فى أناجيلهم ، أنه يبقى فى قبره ثلاثة أيام . كما بقى يونان ، أى : يونس فى بطن الحوت ثلاثة أيام بلياليها ، فما هذا إلا دليل على الاختلاق والتهافت فى هذا الأمر .

ومنها : سؤالة اليهود مرتين من تطلبون ؟ وهم يقولون : يسوع الناصرى . فلم يعرفوه وهو يقول لهم : أنا .

ومنها : أن يهوذا ارتشى ليدلهم عليه . وجعل العلامة على تعيينه لهم تقبيل يده . فلو كان معلوماً لهم لعرفوه بلا دلالة وبلا سؤال . مع أنه كان بين أظهرهم وفى غالب الأيام فى هيكلهم .

ومنها : أنه لما أقسم عليه رئيس الكهنة أنه هو المسيح لم يقل له : أنا المسيح . بل قال له : أنت قلت .

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

ومنها : إنكار بطرس له وهو من أعظم رسله . وإنكاره كفر .

ومنها: أنه لما سأله الوالى : أنت هو ؟ لم يردّ له جواباً . فلو كان هو لاعترف وأقرّ .

ومنها : أنه لما كان أخذه ليلا ، وقدشوهت صورته وتغيرت محاسنه بالضرب والنكال ، فهى حالة توجب اللبس بين الشيء وخلافه . فكيف بين الشيء وشبهه ؟ فمن أين يحصل القطع بأنه هو ؟ لا سيما والنصارى قد حكموا أن المسيح عليه السلام قد أعطى قوة التحوّل من صورة إلى صورة . ويحتمل أن المسيح ذهب فى الجماعة الذين أطلقهم الأعوان ، وكان المتكلم معهم تلميذٌ أراد أن يبيع نفسه من الله تعالى وقاية للمسيح . فألقى الله تعالى عليه الشبه . وأتباعُ الأنبياء يفدون أنفسهم لأنبيائهم. وهذا فدى نفسه لإلهه، بزعم النصارى .

ومنها : أنه يحتمل أن الأعوان ارتشوا على إطلاقه كما ارتشى يهوذا على الدلالة عليه . وأخذوا غيره ممن يريد أن يفدى نفسه للمسيح . والدليل عليه عدم اعترافه بأنه المسيح .

ومنها : قوله عليه السلام الذى تقدم آنفاً : أنا ما كث معكم زماناً . ثم أنطلق إلى من أرسلنى . فتطلبونى فلا تجدونى . وحيثما أ كن فلا تستطيعون إليه سبيلا . فهذا صريح فى أنهم سيطلبونه ولايجدونه ولاينالون منه شيئاً ، لأنه سيصعد إلى السماء . ومثله مافى الفصل الثانى عشر من (إنجيل يوحنا) ما لفظه : قال لهالجموع : نحن سمعنا من الناموس أنالمسيح يمكث إلى الأبد . فكيف تقول أنت أن ابن البشر سوف يرتفع . من هو هذا ابن البشر ؟ قال لهم يسوع : إن النورمعكم زماناً آخر يسيراً . امشوا مادام لكمالنور . لئلا يدرككم الظلام . ومن يمش فى الظلام فلا يدرى أين يذهب . آمنوا بالنور مادام لكم النور . قال يسوع هذا وذهب متوارياً عنهم . انتهى .

فى هذا الكلام أدلة كثيرة مؤيدة لقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ (١) .

منها : أن اليهود قالوا لعيسى : إن المسيح المذكور فى العهد القديم يمكث إلى الأبد .

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .

أى: فإن كنت أنت المسيح فأنت لا تموت فى هـذا الزمان . بل تبقى إلى قيام الساعة . ولم يكذبهم فى نقلهم ذلك. والمسلمون يقولون: إنه رفع حيًّا إلى السماء وهو الآن حىٌّ فيها. وسينزل آخر الزمان عند قرب الساعة . ويقتل الدجال ويحكم بالشريعة المحمدية . ويتوفى ويدفن عند عند النبيّ صلى الله عليه وسلم . فهو حىّ إلى الأبد، يعنى إلى قرب قيام الساعة . ونزولُه وموته من أمارات الساعة الكبرى . وفى هذا القول دلالات ظاهرات أيضاً على أنه ليس بإله :

أحدها ـ أنه قال : ابن البشر . يعنى لا تظنوا أنى أدعى الألوهية وإن أحييت الموتى . لأن ذلك معجزة خلقها الله تعالى على يده للإيمان بنبوّته .

ثانيها . لو كان إلها لما توارى منهم خائفاً من قتلهم له . لأن الإله هو خالق لهم ولعملهم . وعالم بزمن قدرتهم عليه . فكيف يفرّ وهو يعلم وقت موته ؟ وهو خالق الموت والحياة ؟ ثم إنه يحتمل أن الله تعالى ألقى شبهه على شيطان أو مارد من مردة الجن ليخلص نبيه ورسوله من أيدى أعدائه ، ويرفعه إليـه محفوظاً مكرماً . كما أجرى على يديه إحياء الموتى ، وخلقه من غـير أب ، وأبرأ الأكمه والأبرص . لاسيما وهو بزعمهم إله العالم وخالق الإنس والجن وبنى آدم . فأى ضرورة تدعو لإثبات أنواع الإهانة والعذاب، على ما زعموا، لرب الأرباب . مع وجود التناقض فيما نقلته أناجيلهم فى هذا الفصل والباب .

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلى أىّ والد نسبوه
أسلموه إلى اليهـود وقالوا : ... إنهم بعـد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حـقًّا ... وصحيحاً ، فأين كان أبوه ؟
حين خلى ابنه رهين الأعادى. ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضياً بأذاهم ... فاحمدوهم لأنهم عـذّبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه ... واعبـدوهم لأنهم غلبوه

وفى كتاب (الفاصل بين الحق والباطل) ما نصه : وفى الذى اتخذتموه شهيداً على صلبه من

كلام عاموص النبيّ . أن الله تعالى قال على لسانه : ثلاثة ذنوب أقبل لبني إسرائيل . والرابعة لا أقبلها . بيعهم الرجل الصالح ـ حجة عليكم لا لكم . لأنه لم يقل بيعهم إياى . ولا قال بيعهم إلٰها متساويا معى .

ويجرى تأويل ذلك على وجهين: إما أن يكون عنى بالمبيع عيسى كما تزعمون فقولوا حينئذ إنه (الرجل الصالح) كما قال عاموص ، وليس بالإله المعبود . وإما أن يريد بالمبيع غيره وهو الذى شبه لليهود فابتاعوه وصلبوه . ويلزمكم وقتئذ إنكار صلوبية عيسى عليه السلام . كيف لا ونصوص الإنجيل والكتب النصرانية متضافرة دالة على عدم الصلب لعيسى عليه السلام . ووقوع الشبه على غيره . وذلك من وجوه : أحدها ـ يوجد فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا . فبينما هو يصلى إذ تغير منظر وجهه عما كان عليه وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق . وإذا بموسى بن عمران وإيليا قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلتهم . فوقع النوم على الذين معه . فأى مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع فى اليوم الذى طلبته فيه اليهود . وإنما قد اختلفتم فى نقلها كما اختلفتم وتناقضتم فى غير ذلك . وغيرتم الكلم عن مواضعه . وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم على التلاميذ، يكون حينئذ دليلًا ظاهراً على الرفع إلى السماء وعدم الصلب . وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات . وثانيها ـ ما فى الإنجيل أيضاً أن المصلوب قد استسقى اليهود فأعطوه خلًّا مضافاً بمر . فذاقه ولم يشربه . فنادى : إلٰهى إلٰهى لم خذلتنى؟ والأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوى أربعين يوماً وأربعين ليلة . ويقول للتلاميذ : إن لى طعاماً لستم تعرفونه . ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوماً وليلة كيف يظهر الحاجة والمذلة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد ؟ هذا لا يفعله أدنى الناس ، فكيف بخواصّ الأنبياء ؟ أو كيف بالرب على ما تدعونه ؟ فيكون حينئذ المدعى للعطش غيره . وهو الذى شبه لكم . وثالثها ـ قوله : إلٰهى إلٰهى لم خذلتنى وتركتنى ؟ هو كلام يقتضى عدم الرضا بالقضا ، وعدم

التسليم لأمر الله تعالى . وعيسى عليه السلام منزّه عن ذلك . فيكون المصلوب غيره . لاسيما وأنتم تقولون: إن المسيح عليه السلام إنما نزل ليؤثر العالم على نفسه ، ويخلّصه من الشيطان ورجسه . فكيف تروون عنه مايؤدى إلى خلاف ذلك، مع روايتكم فى توراتكم أن إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وهرون، عليهم السلام، لما حضرهم الموت كانوا مستبشرين بلقاء ربهم، فرحين بانقلابهم إلى سعيهم، لم يجزعوا من الموت ولم يستقيلوا منه . ولم يهابوا مذاقه. مع أنهم عبيده . والمسيح بزعمكم وَلَدٌ وَرَبٌّ . فكان ينبغى أن يكون أثبت منهم . ولما لم يكن كذلك دلّ على أن المصلوب غيره ، وهو الذى شبه لكم .

فصل

فيما روى عن سلفنا الكرام رضى الله عنهم فى تفسير هذه الآية

قال الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقىّ رحمه الله تعالى فى (تفسيره) هنا ما نصه : وكان من خبر اليهود، عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى ، حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات . التى كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله . ويصوّر من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهَد طيرانه بإذن الله عز وجل . إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها وأجراها على يديه . ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا فى أذاه بكل ما أمكنهم . حتى جعل نبىّ الله عيسى عليه السلام لايساكنهم فى بلدة. بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام. ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان ، وكان رجلًا مشركاً من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان ، وأنهوا إليه أن فى بيت المقدس رجلًا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه . فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور . وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه . ويكفّ أذاه عن الناس . فلما وصل الكتاب

امتثل والى بيت المقدس ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام . وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفراً . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت . فحصروه هنالك . فلما أحس بهم ، وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم . فكأنه استصغره عن ذلك . فأعادها ثانية وثالثة . وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب . فقال : أنت هو . وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو . وفتحت روزنة من سقف البيت . وأخذت عيسى سنة من النوم فرفع إلى السماء . وهو كذلك كما قال الله تعالى : إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ... الآية .

فلما رفع ، خرج أولئك النفر. فلما رأى أولئك النفر ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه فى الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه. وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك. وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك ، لجهلهم وقلة عقلهم . ما عدا من كان فى البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه . وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم . حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت . ويقال إنه خاطبها . والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة. وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره فى القرآن العظيم الذى أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات، والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذى يعلم السر فى السموات والأرض، العالم بما كان ويكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ (١) . أى : رأوا شبهه فظنوا أنه إياه. ولهذا قال: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ[(١)] . يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى. كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر. ولهذا قال : وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا[(٢)] .أى: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكّين متوهمين: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا[(٣)] : أى : منيع الجناب لا يرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه. حَكِيمًا أى : فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان. حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين. يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء. فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة بعد أن آمن بى. قال ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا فقال: هو أنت ذاك . فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه . فكفر به بعضهم اثنى عشر مرة بعد أن آمن به . وافترقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها. فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس. ورواه النسائىّ عن أبى كريب عن أبى معاوية نحوه . وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة ؟

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٣) [٤ / النساء / ١٥٨] .

وقال ابن جرير[1] حدثنا ابن حميد. حدثنا يعقوب القمى عن هرون بن عنترة عن وهب ابن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت. فأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليه صورهم الله عز وجل كلهم على صورة عيسى . فقالوا لهم : سحرتمونا . لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه : من يشترى نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا . فخرج إليهم وقال : أنا عيسى . وقد صوره الله على صورة عيسى . فأخذوه فقتلوه وصلبوه . فمن ثم شبه لهم فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى . وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى. ورفع الله عيسى من يومه ذلك . قال ابن كثير: وهذا سياق غريب جداً . ثم قال ابن جرير: وقد روى عن وهب نحو هذا القول وهو[2] ما حدثنى المثنى. حدثنا إسحق . حدثنا إسماعيل عن عبد الكريم . حدثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه . فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً فقال : احضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة . فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه . فتعاظموا ذلك وتكارهوه . فقال : ألا من رد على الليلة شيئاً مما أصنع فليس منى ولا أنا منه. فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى، فليكن لكم بى أسوة . فإنكم ترون أنى خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسى لكم . وأما حاجتى الليلة التى استعنتكم عليها، فتدعون الله لى وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى . فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء . فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ! أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها . فقالوا : والله ! ما ندرى ما لنا ؟ لقد كنا نسمر فنكثر السمر

(١) الأثر رقم ١٠٧٧٩ من تفسير ابن جرير .

(٢) الأثر رقم ١٠٧٨٠ من تفسير ابن جرير .

وما نطيق الليلة سمراً. وما نريد دعاءً إلا حيل بيننا وبينه . فقال : يُذْهب بالراعى وتتفرق الغنم . وجعل يأتى بكلام نحو هـذا ينعَى نفسه . ثم قال : الحقَّ ، ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات . وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكل ثمنى ! فخرجوا فتفرقوا . وكانت اليهود تطلبه . وأخذوا شمعون أحد الحواريين وقالوا : هـذا من أصحابه . فجحد وقال : ما أنا بصاحبه . فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك . ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً . فأخذها ودلهم عليه . وكان شُبِّه عليهم قبل ذلك . فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بالحبل . فجعلوا يقودونه ويقولون له : أنت كنت تحيى الموتى وتنهر الشيطان وتبرىء المجنون ، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل ؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك . حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها . فرفعه الله إليه . وصلبوا ما شُبِّه لهم . فمكث سبعاً. ثم إن أمَّه والمرأة التى كان يداويها عيسى عليه السلام فأبرأها الله من الجنون ، جاءتا تبكيان حيث المصلوب . فجاءهما عيسى فقال : علامَ تبكيان ؟ فقالتا : عليك . فقال: إنى قد رفعنى الله إليه ولم يصبنى إلا خير . وإن هـذا شىء شُبِّه لهم . فأْمُرا الحواريين أن يلقونى إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفقَدَ الذى كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع ، فاختنق وقتل نفسه . فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام يتّبعهم يقال له يُحَنَّى . فقال : هو معكم ، فانطلِقوا فإنه يصبح كلُّ إنسان يحدث بلغة قوم ٍ . فليُنذِرهم وليدعهم .

قال ابن كثير : سياق غريب جداً . وقال ابن جريج عن مجاهـد : صلبوا رجلًا شبه بعيسى . ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حيًّا .

فصل

فى رد زعم النصارى أن إلقاء الشبه يفضى إلى السفسطة

قال خير الدين فى (الجواب الفسيح) قال النصارى : القول بإلقاء الشبه على عيسى عليه السلام قول يفضى إلى السفسطة ، والدخول فى الجهالات ، ومالا يليق بالعقلاء . لأنا إذا جوزنا ذلك فينبغى إذا رأى الإنسان ولده أو زوجته لم يثق بأنه ولده أو زوجته . وكذلك سائر المعارف . لايثق الإنسان بأحدمنهم ولايسكن إليه . ونحن نعلم بالضرورة أن الإنسان يقطع بأن ولده هو ولده . وإن كل واحدمن معارفه هو ، من غير شك ولاريبة . بل القول بالشبه يمنع من الوثوق بمدينة الإنسان ووطنه إذا دخله . ولعله مكان آخر أُلقى عليه الشبه . بل إذا غمض الإنسان عينه عن صديقه بين يديه لحظة ، ثم فتحها ، ينبغى أن لا يقطع بأنه صديقه لجواز إلقاء الشبه على غيره . وكل ذلك خلاف الضرورة . فالقول بإلقاء الشبه على غير عيسى خلاف الضرورة . كالقول بأن الواحد نصف العشرة مثلاً ، فلا يسمع .

والجواب عنه من وجوه : أحدها ـ أن هذا تهويل ليس عليه تعويل . بل البراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة قائمة على أن الله تعالى خلق الإنسان وجملة أجزاء العالم . وإن حكم الشىء حكم مثله : فما من شىء خلقه الله تعالى فى العالم إلا هو قادر على خلق مثله . لتعذر خلقه فى نفسه . فيلزم أن يكون خلق الإنسان مستحيلاً . بل جملة العالم . وهو محال بالضرورة. وإذا ثبت أن الله تعالى قادر على خلق مثل لكل شىء فى العالم ، فجميع صفات جسد عيسى عليه السلام لها أمثال فى حيز الإمكان فى العدم ، يمكن خلقها فى محل آخر غير جسد المسيح. فيحصل الشبه قطعاً . فالقول بالشبه قول بأمر ممكن . لا بما هو خلاف الضرورة . ويؤنس ذلك أن التوراة مصرحة بأن الله تعالى خلق جميع ما للحية فى عصا موسى عليه السلام . وهو أعظم من الشبه . فإنّ جَعْلَ حيوان يشبه حيواناً ، وإنسانٍ يشبه إنساناً ـ أقرب من

جعل نبات يشبه حيواناً . وقلب العصا مما أجمع عليه اليهود والنصارى . كما أجمعوا على قلب النار برداً وسلاماً . وعلى قلب لون يد موسى عليه السلام . وعلى انقلاب الماء خمراً وزيتاً للأنبياء عليهم السلام . وإذا جوزوا مثل هذا فيجوز إلقاء الشبه من غير استحالة . على أن عيسى عليه السلام قد خولفت عادة الله تعالى الأغلبية فى خلقه من ماء واحد . ونفخ جبريل فى جيب مريم . فجعلُ شبهه على غيره ليس بأبعد عن العادة ، من خلقه . على أن إحياءه للموتى وإبراءه للأبرص والأكمه أعظم من إلقاء شبهه على غيره . على أن عروجه إلى السماء بناسوته وخرق السماء والتئامها ، ليس بأهون من ذلك . على أن رد الشمس ليوشع بن نون ، ومشى عيسى وحواريّه على المـاء ، وسائر معجزات أنبياء بنى إسرائيل ، ليس بأهون مما هنالك . وإذا صح عند النصارى انقلاب الخبز إلى جسد المسيح ، والخمر إلى دمه فى العشاء السرّى ، لِمَ لا يمكن أن يوقع شبهه على أحدهم ؟ كما لا يخفى .

وثانيها ـ أن الإنجيل ناطق بأن المسيح عليـه السلام نشأ بين ظهرانى اليهود . وحضر مراراً عديدة فى مواسمهم وأعيادهم وهيا كلهم . يعظهم ويعلمهم ويناظرهم . ويتعجبون من براعته وكثرة تحصيله . حتى إنهم (كما فى الإنجيل) يقولون : أليس هذا ابن يوسف؟ أليست أمه مريم؟ أليس إخوته عندنا ؟ فمن أين له هذه الحكمة ؟ وإذاً ، كان فى غاية الشهرة والمعرفة عندهم . وقد نص الإنجيل على أنهم عنـد إرادة الصلب لم يحققوه ، حتى دفعوا لتلميذه ثلاثين درهماً ليدلهم عليه . فما حاجتهم حينئذ أن يكتروا رجلاً من تلاميذه ليعرفهم شخصه ؟ لولا وقوع الشبه الذى نقول به . وثالثها ـ أنه كما تقدم فى الأناجيل ، أُخِذ فى حندس من الليل المظلم فى حالة شُوِّهت صورته وغُـيِّرت محاسنه وهيئته ، بالضرب والسحب وأنواع النكال الموجبة لتغير الحال . ومثل ذلك يوجب اللبس بين الشيء وخلافه. فكيف بين الشيء وشبهه ؟ حتى إن رئيس الكهنة عند إحضاره أقسم عليه هل هو يسوع المسيح ابن الله ؟ فلم يجبه. ولو كان هو لأجابه . فمن أين للنصارى واليهود القطع بأن المصلوب هو عين عيسى

عليه السلام دون شبهه ؟ بل إنما يحصل الظن والتخمين كما قال تعالى فى كتابه المبين : وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ .

رابعها ـ قد تقدم فى الأناجيل أنه لما جاء اليهود إلى محله خرج إليهم وقال : من تريدون؟ قالوا : يسوع. وقدخفى شخصه عليهم . ففعل ذلك مرتين وهم ينكرون صورته . وهذا دليل الشبهه ، ورفع عيسى عليه السلام . ولا سيما وقد نقل غير واحد من العلماء عن بعض النصارى القول بأن المسيح عليه السلام كان قد أعطى قوة التحول من صورة إلى صوة .

خامسها ـ قول متى فى (الفصل الخامس والعشرين) من (إنجيله) ما لفظه: حينئذ قال لهم يسوع كلكم تشكون فىّ هذه الليلة . لأنه مكتوب إنى أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية . ولكن بعد قيامى أسبقكم إلى الجليل . فأجاب بطرس وقال له : وإن شك فيك الجميع فأنا لاشك أبداً . قالله يسوع : الحق أقول لك . إنك هذه الليلة ، قبلأن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات . انتهى .

فقدشهد عليهم بالشك. بل خَيْرُهُمْ بطرس الذى هو خليفة عليهم ، شك. فقد انخرمت الثقة بأقوالهم . وصح قوله تعالى : وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ .

سادسها ـ إن فى (الفصل السابع والعشرين) من (إنجيل متى) مالفظه : حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد دِينَ ، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ . قائلاً : قد أخطأت إذ سلمت دما بريئاً . فقالوا : ماعلمنا . أنت أبصر . فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف . ثم مضى وخنق نفسه . انتهى .

فهذه الأناجيل ليست قاطعة فى صلبه . بل فيها اختلافات . فيحتمل أن يهوذا كذب عليهم فى قوله (هو هذا) ويدل على وقوع ذلك ، ويقرِّبه ظهور ندمه بعد هذا . ولا سيما

وهو من جملة الاثنى عشر الذين شهد لهم المسيح بالسعادة الأبدية . والسعيد لايتم منه مثل هذا الفساد العظيم . فيلزم إما أن يهوذا مادل عليه ، أو كون المسيح ما شهد لهم بالسعادة الدائمة . أو إن أناجيلهم محرفة مبدلة . ويحتمل أن أحد أتباع المسيح باع نفسه من الله تعالى وقاية للمسيح عليه السلام . وادعى أنه هو . ومثل هذا كثير فى أتباع الأنبياء . حيث يريدون أن يَفْدوا أنفسهم بدل أنبيائه . ويحتمل أن الأعوان أخذوا عليه رشوة وأطلقوه ، وأخذوا بدله . كما أن يهوذا ، مع أنه صديقه ورسوله ، أخذ رشوه ودلهم عليه . ويحتمل أن الله تعالى أرسل شيطاناً على صورته وصلبوه . ويحتمل أن الملك الذى نزل عليه ليقويه ، كما تقدم فى إنجيل لوقا بزعمهم ، صار فداءًله . ويحتمل أن هذا الذى نزل إنما نزل لرفعه. لأنه لوكان نازلاً لتقويته لقوّاه . فلما لم نر أنه قواه فيقتضى أنه رفعه إلى السماء ، أو فدى نفسه له .

وقال بعض الأفاضل : ومن الأدلة على رفعه وصلب شبهه مافى الفصل التاسع من (إنجيل لوقا) مالفظه : أن المسيح ضعد إلى حبل ليصلى وأخذ بطرس ويوحنا ويعقوب معه . وفيما هو يصلى صارت هيئته ووجهه متغيرة ، ولباسه مضيئاً لامعاً . الخ .

فهذا فيه دلالة على رفعه وحصول الشبه الذى نقول به . إذ لا معنى لظهور موسى وإيلياء ، ووقوع النوم على أصحابه ، وتغير وجهه وإضاءة لباسه ، إلا رفعه . ورؤيتهم له بعد ذلك ، إنما هو من تطور روحه . لأنه عليه السلام كان له قوة التطور : وهذا من أحكام الروح والنفس .

ولئن قلنا إنه لايدل على الرفع بالوجه التام ، غير أنا نتنزل ونقول : ما دام فى هذه المرة تغيرت هيئته ووجهه ولباسه ، واجتمع بالأنبياء وسمع من الغمامة هذا الصوت ، فلا أقل من أن يكون ذلك مقدمة لرفعه ومقياساً ، ومبدأ لتقويته وإيناساً . واليهود لم يتحققوا من أنفسهم أنه هو المسيح . بل اعتمدوا على قول يهوذا كما تقدم لك . ويهوذا قوله قول فرد ، وغير صالح للاحتجاج . للاحتمالات والأدلة التى ذكرناها لك . فلم يبق فى قول الفرقتين حجة

أن المصلوب هو المسيح عليه السلام ، لا شبهه . وأناجيلهم حالها معلوم لديك . وبيان اشتباههم المحكيّ لك فى القرآن ، لا يخفى عليك . انتهى .

وهنا سؤال يورده بعض النصارى وهو: أن عيسى عليه السلام إذا كان لم يصلب حقيقة ، وإنما صلب رجل ألقى عليه شبهه ، ورفع هو إلى السماء ، فَلِمَ لَمْ يخبر الحواريين بذلك قبل رفعه أو بعده ؟

والجواب : أن عيسى عليه السلام لم يخبر بذلك لعلمه بأن إناساً سيفترون عليه ويقولون بألوهيته. فأبهم الأمر ليكون ذلك أدل على كونه عبداً من عبيد الله . لايقدر على جلب نفع ولا دفع ضر . بخلاف مالو أخبر بأنه لا يصلب ، أو لم يصلب ، وأن المصلوب شبهه ، فإنه ربما كان ذلك مقوياً لشبهة أولئك الجماعة . ولعدم كون هذه المسألة من المسائل الاعتقادية فى الأصل . إذ لواعتقد أحدٌ ، قبل إرسال نبينا عليه الصلاة والسلام ، بصلب عيسى ، لم يضره ذلك . لكن لما ورد نبينا الذى لا ينطق عن الهوى ، أبان خطأ النصارى فى الوجهين : أحدهما ـ اعتقاد أن عيسى إله . والآخر ـ اعتقاد أنه قد قتل وصلب. وإبان أنه عبد من عبيد الله تعالى تولاه بالرسالة ، واصطفاه وحفظه من أيدى أعدائه وحماه ، كذا فى (منية الاذكاء فى قصص الأنبياء) .

فصل

فى سقوط دعواهم التواتر فى أمر الصلب

قال القرافىّ : اعلم أن النصارى قالوا: إنهم واليهود أمتان عظمتان طبقوا مشارق الأرض ومغاربها . وكلهم يخبر أن المسيح عليه السلام صلب . وهم عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب . والإنجيلُ أيضا مخبر عن الصلب . فإن جوزتم كذبهم ، وكذب ما يدعى أنه الإنجيل، وإن مثل هؤلاء ممكن تواطؤهم على الكذب ـ لزم المحال من وجوه : أحدها ـ أنه يتعذر عليكم أيها المسلمون، جعل القرآن متواتراً. وثانيها ـ أن قاعدة التواتر تبطل بالكلية.

فإن غاية خـبر التواتر يصل إلى مثل هذا . وثالثها ـ أن إنكار الأمور المتواترة . جحد للضرورة ، فلا يسمع . فلو قال إنسان : الخبر عن وجود بغداد ودمشق كذب ، لم يسمع ذلك منه ، وعدّ خارجاً عن دائرة العقلاء . وحينئذ يتعين أن القول بالصلب حق وأن إخبار المسلمين والقرآن عن عدم ذلك، مشكل.

والجواب من وجوه : أحدها ـ أن جميع النصارى واليهود يوردون هـذا السؤال ولا يعلمون حقيقة التواتر ولا شروطه . وإنما فهم ذلك وغيرَه هـذه الأمةُ المحمدية والملة الإسلامية ! لعلو قدرها وشرفها واختصاصها بمعاقد العلوم وأزمتها . دون غيرها . كما هو مسلم عند كل دريّ (كذا) منصف. وها نحن نوضح ذلك إن شاء الله تعالى فنقول : إن التواتر له شروط : الشرط الأول ـ أن يكون المخبر عنه أمراً محسوساً . ويدل على اعتبار هذا الشرط، أن الأمة العظيمة قد تخبر عن القضايا الجسيمة وهي باطلة . كإخبار المعطلة عن عـدم الصانع والفلاسفة عن قدم العالم . مع بطلان ذلك عند أمم كثيرة . وسببه أن مجال النظر يكثر فيه وقوع الخطأ . فلا يثق الإنسان بالخبر عن العقليات ، حتى ينظر فيجد البرهان العقليّ يعضد ذلك الخبر . فحينئذ يقطع بصحة ذلك الخبر . أما الأمور المحسوسة ، مثل المُبْصرات ونحوها فشديدة البعد عن الخطإ . وإنما يقع الخلل من التواطؤ على الـكذب . فإذا كان المُخْبِرون يستحيل تواطؤهم على الـكذب حصل القطع بصحة الخبر . الشرط الثاني ـ استواء الطرفين والواسطة . وتحرير هذا الشرط أن المخبرين لنا ، إذا كانوا يستحيل تواطؤهم على الـكذب وكانوا هم المباشرين لذلك الأمر المحسوس ، المخبر عنه ، حصل العلم بخبرهم . وإن لم يكن المخبر لنا هو المباشر لذلك الأمر المحسوس ، بل ينقلون عن غيرهم أنه أخبرهم بذلك ، فلا بد أن يكون الغير المباشر عدداً يستحيل تواطؤهم على الـكذب ، فإنه إن جاز الـكذب عليه ، وهو أصل هؤلاء المخبرين لنا ، فإذا لم يبق الأصـل لم يبق المفرع عليه . فلا يلزم من كون المخبر لنا يستحيل تواطؤهم على الـكذب حصول العلم بخبرهم . لجواز فساد أصلهم

المعتمدين عليه . فيتعين أن يكون الأصل عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب . فهذا معنى قولنا : (استواء الطرفين)فى كونهما عدداً يستحيل تواطؤهما على الكذب ـ شرط. فإن كان المخبر لنا عددا يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وأصلهم الذى ينقلون عنه كذلك ، لكن أصلهم لم يباشر ذلك الأمر المحسوس ، بل ينقل عن غيره أيضاً ، فأصل ذلك الأصل يجب أن يكون عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب أيضاً . لما تقدم . وفى هذه الصورة حصل طرفان وواسطة . فالطرفان المخبر لنا . والمباشر الأول الواسطة الذى بينهما . فيجب استواء الطرفين والواسطة . والوسائط تكثرت فى كونهم عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب. فينقسم ، بهذا التحرير، التواتر إلى طرف فقط ، وإلى طرفين بلا وساطة ، وإلى طرفين وواسطة . والثلاثة أقسام مشتركة فى هذا الشرط . فإذا تقرر حقيقة التواتر فنقول : الحس إنما يتعلق بأن هذا مصلوب على هذه الخشبة . وأما أنه عيسى عليه السلام نفسه أو غيره، فهذا لا يفيده الحس البتة . بل إنما يعلم بقرائن الأحوال إن وجدت ، أو بأخبار الأنبياء عليهم السلام عن الله تعالى الذى أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً . والذى يدل على أن الحس لا يفرق بين المتماثلات ، أنا لو وضعنا فى إناء رطلا من الماء مثلا . وأريناه لإنسانٍ ، ثم رفعنا ذلك الماء ووضعنا فيه رطلاً آخر من ذلك الماء ثم أريناه ذلك الإنسان . وقلنا له : هذا الماء هو عين الماء الأول أو مثله ؟ فإنه إذا أنصف يقول : الذى أدركه بحسِّى أن هذا ماء بالضرورة . أما أنه عين الأول أو غيره مماثلاً له ، فلا أعلم. لكون الحس لا يحيط بذلك . هذا فى المائعات . وكذلك كفٌ من تراب أو أوراق الأشجار أو أنواع الحبوب . كالحنطة مثلاً . إذا أخذ منها حفنتان ونحو ذلك . وكذلك الحيوانات الوحشية والطيور شديدة الالتباس على الحس . إذا اتحد النوع فى اللون والسن والغلظ . وإنما كثرت الفروق فى الحيوانات الإنسية كالفرس ونحوها .

مطلب :

وسر ذلك أن أسباب النشأة فى الوحشية مشتركة بالمياه والمراعى والبرارى . والحيوان

الإنسى يختلف ذلك فيه ، بحسب مقتنيه ، اختلافاً كثيراً . فينشأ بحسب دواعى بنى آدم فى السعة والضيق ، وإيثار نوع من العلف على غيره ، ومكان مخصوص على غيره ، وإلزام الحيوان أنواعاً من الأعمال والرياضة دون غيرها ، فيختلف الحيوان الإنسى بحسب ذلك . ثم يتصل ذلك باللُّطف فى التوليد . مضافاً إلى مايحصل للولد من داعية مريبة فيعظم الاختلاف . والحيوان الوحشى سلم عن جميع ذلك . فتشابهت أفراد نوعه . ولا يكاد الحس يفرق بين اثنين منه البتة . فإذا تقرر أن الحس لا سلطان له على الفرق بين المثلين ، ولا التمييز بين الشيئين ، فيجب القطع أن كون المصلوب هو خصوص عيسى عليه السلام دون شبهه أو مثله ـ ليس مدركا بالحس . وإذا لم يكن مدركا بالحس ، جاز أن يخرق الله تعالى العادة لعيسى عليه السلام شبهه فى غيره . كما خرق له العادة فى إحيائه الموتى وغيره . ثم يرفعه ويصونه عن إهانة أعدائه . وهو اللائق بكريم آلائه . فى إحسانه لخاصة أنبيائه وأوليائه . وإذا جوز العقل مثل هذا مع أن الحس لا مدخل له فى ذلك ، بقى إخبار القرآن الكريم عن عدم الصلب سالماً عن المعارض . مؤيداً بكل حجة . وسقط السؤال بالكلية . وثانيها ـ سلمنا أن الحس يتعلق بالتفرقة بين المثلين . والتمييز بين الشبهين . لكن لا نسلم أن العدد المباشر للصلب كانوا بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب . ويدل على أنهم ليسوا كذلك ، أن الحواريين فرّوا عنه . لأنه لو وجد أحد منهم لقتله اليهود . فحينئذ عدد التوتر متعذر من جهة شيعة النصارى عن أسلافهم . لا يفيد علماً بل هو ظن وتخمين لا عبرة به . لذلك قال الله سبحانه فى قرآنه المبين: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ . أى: هم لا يتيقنون ذلك . بل يحزرون بالظن والتخمين . وأما من جهة الملة اليهودية ، فلأن المباشر منهم للصلب إنما هو الوزعة وأعوان الولاة . وذلك فى مجرى العادة يكون نفراً قليلاً . كالاثنين أو الثلاثة ونحوها . يجوز عليهم الكذب ولا يفيد خبرهم العلم بكون العادة وخرج الصلب عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب يفتقر إلى نقل متواتر . فإنه لو وقع ونقل بأخبار الآحاد لم يحصل لنا

علم بالصلب. فإن المتواترات إذا نقلت بأخبار الآحاد، سقط اعتبارها فى إفادة العلم. لجواز كذب الناقل . فلا يكون عدد التواتر حاصلًا فى نفس الأمر . والنصارى واليهود إنما يعتمدون على التوراة والإنجيل . ولا يوجد يهودىّ ولا نصرانىّ على وجه الأرض يروى التوراة والإنجيل، عدلًا عن عدل ، إلى موسى وعيسى عليهما السلام . وإذا تعذرت عليهم رواية العدل عن العدل ، فأولى أن يتعذر التواتر . ولم يبق فى الكتابين إلا أخبار وتواريخ بعيدة الزمان جداً. بحيث إن التواريخ الإسلامية أصح منها ، لقرب عهدها . مع أنه لا يجوز الاعتقاد فى فروع الديانات على شىء من التواريخ . فضلًا عن أصول الأديان. وإذا ظهر أن مستند هاتين الأمتين العظيمتين فى العدد ، فى غاية الضعف ـ كانت أخبارها فى نفسها فى غاية الضعف . لأن الفرع لا يزيد على أصله . وثالثها ـ أن نصوص الإنجيل مشعرة بعدم صلب عيسى عليه السلام بخصوصه . كما نقلنا بعضها آنفاً .

وقال فى (تخجيل الأناجيل) : فيقال للنصارى : ما ادعيتموه من قتل المسيح وصلبه ، أتنقلونه تواترًا أم آحادًا ؟ فإن زعموا أنه آحاد لم يقم بذلك حجة ، ولم يثبت العلم الضرورىّ . إذ الآحاد لم يأمن عليهم فيها السهو والغفلة والتواطؤ على الكذب . وإذا كان الآحاد يعرض عليهم ذلك، فلا يحتج بهم فى القطعيات . وإن عَزَوْا ذلك إلى التواتر ، قلنا لهم : شرط التواتر استواء الطرفين فيه والوسط . وهو أن ينقل الجم الغفير عن الجم الغفير الذين شاهدوا المشهود به ، وهو المصلوب . وعلموا أنه هو ضرورة . فإن اختل شىء من ذلك فلا تواتر . فإن زعم النصارى أن خبرهم فى قتل المسيح وصلبه بهذه الصفة ، أكذبتهم نصوص أناجيلهم التى بأيديهم . إذ قال لهم نقلتها الذين دوّنوها لهم وعليها معوّلهم : إنه لما أُخذ فقتل كان فى شرذمة يسيرة من تلاميذه . فلما أقبل عليه هربوا بأسرهم . ولم يتبعه إلا بطرس من بعيد. ولما دخل الدار حيث اجتمعوا نظرت جارية منهم إلى بطرس فعرفته . فقالت : هذا كان مع يسوع . فحلف أنه لا يعرف يسوع بقوله . وخادعهم حتى تركوه . وذهب ولم يكد يذهب .

وأن شابًّا آخر تبعه وعليه إزار فتعلقوا به . فترك إزاره بأيديهم وذهب عريانًا . فهؤلاء أصحابه وأتباعه ، لم يحضر منهم ولا رجل واحد بشهادة أناجيلهم . وأما أعداؤه اليهود ، الذين تزعم النصارى أنهم حضروا الأمر ، فلم يبلغوا عدد التواتر . بل كانوا آحادًا وأفرادًا. لأن عموم الناس الذين حضروا لايرون إلا شخصاً على خشبة ومعه لصّان مصلوبان . ولاشك أن هيئتهم وصفتهم متغيرة عن الحالة التى قبل أخذهم . وأما المشايخ ونحوهم فلم يعرفوه أيضاً . ففى الأصحاح الثـانى والعشرين من (إنجيل لوقا) ما لفظه : فلما كان النهار اجتمع مشايخ الشعب ورؤساء الـكهنة وأدخلوه إلى مجمعهم . وقالوا له : إن كنت أنت المسيح فقل لنا . قال لهم : إن قلت لـكم لم تؤمنوا لى . وإن سألتكم لم تجيبونى ولم تخلونى . انتهى .

وهذا يحتمل أنهم يسألونه عن ذاته أو عن رسالته . على أنا لو سلمنا كثرة عددهم وصدق معرفتهم فيمكن تواطؤهم على الـكذب . لأنهم لما لم يجدوه هو، ولم يعلموا محل المسيح، وكان ذلك من تلاميذه ، واستحلوا قتله أيضاً ، أشاعوا أنه هو المسيح ليترك الناس متابعته ، ولئلا يتخذوا المسيح نبيًّا . وصمموا ، أنهم إذا وجدوا المسيح بعد هـذا أيضاً ، يعملون به كما عملوا بصاحبه . ويؤيد هذا أنهم جعلوا على القبر حراساً لئلا يُنبش القبر ويُرى أنه غير المسيح . ومما يزيد الأمر وضوحاً قول (إنجيل متى) فى (الأصحاح الثامن والعشرين) : أن مريم لـا جاءت لزيارة القبر رأت ملَـكاً قد نزل من السماء برجّة عظيمة . فَدَحْرَجَ الحجر عن فم القبر . وجلس عنده . فـكاد الحراس أن يموتوا من هيبته . وبادروا من فورهم إلى المشايخ فأعلموهم بالقصة . فأرشاهم المشايخ برشوة أن يستروا القصة وأن يشيعوا أن التلاميذ سرقوه ونحن نيام . فما يؤمنكم أن تكون هذه العصابة من اليهود . كما أنهم ستروا الآية التى ذكرتم، صلبوا شخصاً من أتباعه وأوهموا الناس أنه المسيح. فإذا تبين عدم الاحتجاج بإجماع اليهود والنصارى الآن على صلبه ، فنرجع إلى القرائن العقلية والنقلية . فأما العقل فلا يجوّز أن الإله القادر على كل شىء يقتله أذل عباده ، وهم اليهود . ويضربونه ويعملون به ما هو محرر

فى أناجيل النصارى المضطربة المحرفة المكتوبة بعد رفعه بسنين عديدة وأعوام مديدة . مع أنه يفرّ منهم مرات كثيرة ويستغيث ويطلب من الله تعالى تأخير أجله بقوله : أجزْ عنى هذه الكاس . ويصرخ ويقول : إلهى ! إلهى ! لم تركتنى ؟ ويسلم روحه . وعند الصلب يطلب منهم الماء لكثرة عطشه . فيعطوه خلًّا بدله . وأىّ خلاص لعباده فى هذه الحالة ، وهو بزعمهم أتى ليخلص العالم من الخطيئة . بل صار موقعاً لهم فى الإثم بسبب عدم إيمانهم به . فكيف يكون مخلصاً بنفسه ؟ وأما النقل ، فقد تبين لك تهافت أناجيلهم واضطرابها ، والدلالة على عدم المعرفة به ، وعدم وجوده فى قبره . والأعظم من ذلك عند كل ذى عقل سليم قوله تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وأما قول متى فى (الأصحاح السابع والعشرين) : فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح ، وإذا حجاب الهيكل قدانشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت والقبور تفتحت ، وقام كثير من الأجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا للكثيرين ـ فهو قول بهت ومحال . لايخفى بطلانه على ذوى العقول من النساء والرجال . لأنه لو كان صحيحاً لأطبق الناس على نقله . ولم يتفق إخفاء مثله . ولزال الشك عن تلك الجموع فى أمر يسوع . فحيث داموا على الجحد له والتكذيب ، دلّ على كذب ما نقله عباد الصليب . وإذا كان اليهود أعطوا دراهم رشوة، كما علمت سابقاً ، لحراس القبر حتى لايخبروا القائد وسائر الناس بملك نزل من السماء على قبر يسوع ، كى لا يظن براءته مما نسب إليه أعداؤه، فكيف تكون هذه الآيات العظيمة ؟ وتقوم الأموات من قبورها ؟ ويدخلون المدينة ؟ ولا يكون ذلك حجة على من لايؤمن به إذ ذاك ؟ وأيضاً ، مامعنى تفتح القبور وقيام القديسين من قبورهم ؟ فهل كان استبشارا بمصابه ؟ فهم إذ ذاك ليسوا من أحبابه. أو كان جزعاً على مماته ؟ وخرجوا إعانة له قبل فواته ؟ فواعجبا لرب أحياهم بعد أن كانوا رفات . ولم يعينوه حتى قضى ومات . وأحيى الرمم ، وصرخ عند تسليم الروح.

ولم يقدر على إبراء مافيه من جروح . وليت شعرى ماعمل هؤلاء القديسون ؟ أبقوا فى المدينة المقدسة ؟ أم كروا إلى قبورهم فهم راجعون ؟ وهل التأم الهيكل والصخور ؟ أم دامت على انشقاقها إلى كثير من الدهور ؟ فإن قيل : إنما لم يشتهر ذلك ، لأن أصحاب المسيح لم يحضر منهم أحد خوفا من اليهود ، والذين شاهدوا هـذه الآيات من اليهود تواطؤا على الكتمان حسداً وبغياً . قلنا : مثل هذه الآيات العظيمة إذا وقعت ، علمها من حضر ومن غاب ، من الأعداء والأحباب . لأنها آيات نهارية . ومعجزات تشتهر فى البرية . ويتناقلها أهل البلدان . وتبقى مؤرخة بكل لسان . فى سائر الملل بكل أرض وزمان . فعلم بالضرورة أن هذه الأقوال. مما اخترعها وحررها أئمة الضلال. ليخدعوا بها ضعفاء العقول. ويتوصلوا إلى جذب الدنيا بالكذب على هذا الرسول . انتهى .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى كتابه (الملل) عند الكلام على النصارى : ومما يعترض به علينا اليهود والنصارى ، ومن ذهب إلى إسقاط الكوافّ (جمع كافة) من سائر الملحدين، أن قال قائلهم : قد نقلت اليهود والنصارى أن المسيح عليه السلام قد صلب وقتل . وجاء القرآن بأنه ﷺ لم يقتل ولم يصلب . فقولوا لنا : كيف كان هذا ؟ فإن جوزتم على هذه الكواف العظام المختلفة الأهواء والأديان والأزمان والبلدان والأجناس ، نقل الباطل فليست بذلك أولى من كافتكم التى نقلت أعلام نبيكم وشرائعه وكتابه . فإن قلتم : اشتبه عليهم فلم يتعمدوا نقل الباطل ، فقد جوزتم التلبيس على الكواف . فلعل كافتكم أيضاً ملتبس عليها . فليس سائر الكواف أولى بذلك من كافتكم، وقولوا لنا : كيف فرض الإقرار بصلب المسيح عندكم قبل ورود الخبر عليكم ببطلان صلبه وقتله ؟ فإن قلتم : كان الفرض على الناس الإقرار بصلبه ، وجب من قولكم الإقرار أن الله فرض على الناس الإقرار بالباطل. وأن الله تعالى فرض على الناس تصديق الباطل والتديّن به. وفى هذا مافيه . وإن قلتم: كان الفرض عليكم الإنكار لصلبه، فقد أوجبتم أن الله تعالى فرض على الناس تكذيب

الكواف . وفى هذا إبطال قول كافتكم . بل إبطال جميع الشرائع . بل إبطال كل خبر كان فى العالم ، عن كل بلد وملك ، ونبى وفيلسوف وعالم ، ووقعتم . وفى هذا ما فيه .

قال أبو محمد رضى الله عنه: هذه الإلزامات كلها فاسدة فى غاية الحوالة والاضمحلال بحمد الله تعالى . ونحن مبيّنون ذلك بالبراهين الضرورية بياناً لا يخفى على من له أدنى فهم . بحول الله تعالى وقوته . فنقول وبالله التوفيق: إن صلب المسيح لم يقله قط كافة . ولا صح بالخبر قط . لأن الكافة التى يلزم قبول نقلها هى إما الجماعة التى يوقن أنها لم تتواطأ ، لتنابذ طرقهم ، وعدم التقائهم ، وامتناع اتفاق خواطرهم ، على الخبر الذى نقلوه عن مشاهدة ، أو رجع إلى مشاهدة ، ولو كانوا اثنين فصاعدا . وإما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق فى الطبيعة على التمادى على سنن ما تواطؤا عليه ، فأخبروا بخبر شاهدوه ، ولم يختلفوا فيه ، فما نقلوه أحد أهل هاتين الصفتين على مثل إحداها . وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة . فهذه صفة الكافة التى يلزم قبول نقلها ، ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه . وسواء كانوا عدولاً أو فساقاً أو كفاراً . ولا يقطع على صحته إلا ببرهان . فلما صحّ ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام ، فوجدناه كوافّ عظيمة . صادقة بلا شك فى نقلها جيلاً بعد جيل . إلى الذين ادّعوا مشاهدة صلبه . فإن هناك تبدلت الصفة ورجعت إلى شرَط مأمورين مجتمعين . مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل . والنصارى مقرّون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهاراً خوف العامة . وأنهم أخذوه ليلاً عند افتراق الناس عن الفصح . وأنه لم يبق فى الخشبة إلا ست ساعات من النهار . وأنه أُنزل أثر ذلك . وأنه لم يصلب إلا فى مكان نازح عن المدينة . فى بستان فخّار متملك للفخار . ليس موضعاً معروفاً بصلب من يصلب . ولا موقوفاً لذلك . وأنه بعد هذا كله رُشِيَ الشُّرَطُ على أن يقولوا إن أصحابه سرقوه . ففعلوا ذلك . وإن مريم المجدلانية ، وهى امرأة من العامة ، لم تقدم على حضور موضع صلبه . بل كانت واقفة على بعد تنظر . هذا كله فى نص الإنجيل عندهم . فبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة . بل بخبر يشهد ظاهره

على أنه مكتوم متواطأ عليه . وما كان الحواريون ليلتئذ ، بنص الإنجيل ، إلا خائفين على أنفسهم، غُيَّباً عن ذلك المشهد . هاربين بأرواحهم مستترين . وإن شمعون الصفاغر ر ودخل دارقيقان الكاهن أيضاً بضوء النهار . فقال له : أنت من أصحابه ؟ فانتفى وجحد وخرج هارباً عن الدار . فبطل أن ينقل خبر صلبه أحدٌ تطيب النفس عليه . على أن نظن به الصدق . فكيف أن ينقله كافة . وهذا معنى قوله تعالى: وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ . إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق ، الذين دبّروا هذا الباطل ، وتواطؤا عليه ، هم شبهوا على من قلدهم . فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه . وهم كاذبون فى ذلك . عالمون أنهم كذبة . ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذى حاسة سليمة ، لبطلت النبوات كلها . إذ لعلها شبهت على الحواس السليمة . ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها . ولأمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس . وفيمن يجالس. وفى حيث هو فلعله نائم، أو مشبه على حواسه . وفى هذا خروج إلى السخف وقول السفسطائية والحماقة . وقد شاهدنا نحن مثل ذلك . وذلك أننا أنذرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر . فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن . وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة ، فى بيت . وخارج البيت أبى رحمه الله وجماعة عظماء البلد . ثم صلينا فى ألوف من الناس عليه . ثم لم يلبث شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيًّا. وبويع بعد ذلك بالخلافة. ودخلت عليه أنا وغيرى وجلست بين يديه . ورأيته . وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام .

قال أبو محمد رضى الله عنه : وأما قوله : قد جوّزتم التمويه على الكافة ، فقد بينا أنها لم تكن كافة قط . وحتى لو صح أنها كافة فكيف لا يجوز ذلك فى كل آية تحيل الطبائع والحواس ؟ فهو ضرورة لا يحمل على الممكنات . فلو صح أنها كانت كافة ، لكان خبر الله تعالى أنه شبه لهم ، حاكماً على حواسهم ومحيلاً لها . كخروج النبىّ ﷺ ليلة هاجر بحضرة مائة رجل من قريش . وقد حجب الله سبحانه أبصارهم عنه فلم يروه. وأما ما لم يأت خبر عن

الله عز وجل بأنه شبه على الكافة ، فلا يجوز أن يقال ذلك . لأنه قطع على المحال وإحالة طبيعة . وإحالةُ الطبائع لا تدخل فى الممكن . إلا أن يأتى بذلك يقين عن الله عز وجل ، فيلزم قبوله . وأما التشبيه على الواحد والاثنين ونحو ذلك فإنه جائز . وكذلك فقد العقل والسخافة يجوز ذلك على الواحد والاثنين ونحو ذلك. ولا يجوز على الجماعة كلها . وقوله تعالى: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، إنما هو إخبار عن الذين يقولون تقليداً لأسلافهم من النصارى واليهود أنه عليه السلام قتل وصلب . فهؤلاء شُبِّه لهم القول . أى : أدخلوا فى شبهة منه . وكان المشبهون لهم شيوخ السوء فى ذلك الوقت . وشُرَطهم المدّعون أنهم قتلوه . وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك . وإنما أخذوا مَنْ أمكنهم فقتلوه وصلبوه فى استتار ومنع من حضور الناس . ثم أنزلوه ودفنوه تمويهاً على العامة التى شبه الخبر لها .

ثم نقول لليهود والنصارى، بعد أن بينا بحول الله وقوته بيان ماشنعوه فى هذه المسألة : إن كوافكم قد نقلت عن بعض أنبيائكم فسوقاً ووطء إماء . وهو حرام عندكم . وعن هارون عليه السلام أنه هو الذى عمل العجل لبنى إسرائيل وأمرهم بعبادته والرقص أمامه . وقد نزه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام عن عبادة غيره. وعن الأمر بذلك ، وعن كل معصية ورذيلة. فإذا جوزوا كلهم هذا على أنبياء ، منهم موسى عليه السلام وسائر أنبيائهم ـ كان كل ماأمروهم به ، مع جنس عمل العجل والرقص والأمر بعبادته . ومن جنس وطء الإماء وسائر ما نسبوه إلى داود وسليمان عليهما السلام وسائر أنبيائهم . لا سيما وهم يقرون بأن العجل كان يخور بطبعه . وأما نحن فجوابنا فى هذا كله بأن ليس شىء منه نقل كافة . ولكن نقل آحاد كذبوا فيه . وأما خوار العجل فإنما هو على ما روينا عن ابن عباس رضى الله عنه ، من أنه إنما كان صفير الريح تدخل من فيه وتخرج من دبره . لا أنه خار بطبعه قط . وحتى لو صح أنه خار بطبعه، لكان ذلك من أجلِ القوة التى كانت فى القبضة التى قبضها السامرىّ من أثر جبريل عليه السلام . والذى يعتمد عليه فهو قول ابن عباس رضى الله عنه الذى ذكرناه . وبالله تعالى التوفيق .

وأما قوله : كيف كان الفرض قبل ورود النص ببطلان صلبه ؟ الإقرار بصلبه أم الإنكار له؟ فهذه قسمة فاسدة شغبية . قد حذر منها الأوائل كثيراً . ونبه عليها أهل المعرفة بحدود الكلام . وذلك أنهم أوجبوا فرضاً ثم قسموه على قسمين : إما فرض بإنكار ، وإما فرض بإقرار . وأضربوا عن القسم الصحيح فلم يذكروه . وهذا لا يرضى به لنفسه إلا جاهل أو سخيف مغابط غابن لنفسه ، غاش لمن اغترّ به . وإنما الحقيقة ههنا أن يقول . هل يلزم الناس، قبل ورود القرآن، فرض بالإقرار بصلب المسيح ، أو بإنكار صلبه، أو لم يلزمهم فرض بشيء من ذلك؟ فهذه هي القسمة الصحيحة والسؤال الصحيح . وحق الجواب أنه لم يلزم الناس قط، قبل ورود القرآن، فرض بشيء من ذلك . لا بإقرار ولا بإنكار . وإنما كان خبراً لا يقطع العذر ولا يوجب العلم الضروري . ممكن صدق قائله . فقد قتل أنبياء كثيرة وممكن أن يكون ناقله كذب في ذلك . وهو بمنزلة شيء مغيب في دار . فيقال لهذا المعترض بهذا السؤال الفاسد : ما الفرض على الناس فيما في هذه الدار؟ الإقرار بأن فيها رجلاً أم الإنكار لذلك ؟ فهذا كله لا يلزم منه شيء. ولم ينزل الله عز وجل كتاباً قبل القرآن بفرض إقرار بصلب المسيح ﷺ ولا بإنكاره . وإنما ألزم الفرض بعد نزول القرآن بتكذيب الخبر بصلبه. فإن قالوا : قد نقل الحواريون صلبه وهم أنبياء وعدول . قيل لهم وبالله التوفيق : الناقلون لنبوتهم وأعلامهم ولقولهم بصلبه عليه السلام ، هم الناقلون عنهم الكذب في نسبه والقول بالتثليث الذي من قال به فهو كاذب على الله تعالى ، مفتر عليه ، كافر به . فإن كان الناقل لذلك عنهم صادقاً أو كانوا كافة، فما كان يوحنا ومتى وبولس إلا كفاراً كاذبين . وما كانوا قط من صالحي الحواريين . وإن كان ناقل ما ذكرنا عنهم كاذباً، فالكاذب لا يقوم بنقله حجة . فبطل التمويه المتقدم. والحمد لله رب العالمين .

فصل

أخذ بعض نصارى هذا العصر يتذبذب فى الاعتقاد . فطفق يرد على المسيحيين قولهم بتثليث الآلهة . وأنه مضاد لصريح نصوص الوحى . أخذ يسلم بحقية القرآن وكذا التوراة والإنجيل الموجودين وأنهما لم يحرفا تحريفاً جوهرياً . واعتقد بصلب المسيح يقيناً . وصار يناقش المفسرين فيما فسروا به الآية المذكورة ، أعنى آية الصلب . زاعماً أن المنفىّ عن اليهود فيها هو نسبة الفعل لهم توبيخاً لتهكمهم وازدرائهم . وَرَدَّ فعل الصلب إليه تعالى . وقد توسع فى هذا الموضوع وألف كتاباً سماه (المعتقد الصحيح فى صلب السيد المسيح) ولما كان مبحثه غريباً جدًّا ، أردت أن أورد هنا بعض تمويهاته فى رسالته . وأعقبها بما فوِّق عليه من سهام ردود تهافته .

قال فى أول رسالته : إن التباس فهم آية الصلب هو غالباً فى تقدير نائب الفاعل لفعل (شُبِّهَ لَهُمْ) فإنا إن قدرنا نائب الفاعل مصدراً مأخوذاً من الفعل السابق المذكور فى الآية (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ) وكان التقدير: شبه لهم أنهم قتلوه وأنهم صلبوه . أو شبه لهم قتلهم له وصلبهم إياه . والمعنى أنه مثل أو خيّل لهم أنهم كانوا هم القاتلين وهم الصالبين ـ انحلت المسألة تقريباً . وزالت كل صعوبة تأويل . حيث أن السيد المسيح لم يقتل أصلا . ولا صلب قهراً . أو مات جبراً . أو اضطراراً . بل هو من نفسه (على زعمه) قدم ذاته للصلب عن رغبته واختياره ورضاه . فكأنّ اليهود لم يفعلوا شيئاً بقدرتهم ومجرد إرادتهم . حتى يحق لهم الافتخار بأنهم قتلوه . وأما إن قدِّر المسيح نائب الفاعل لـ(شبه) تعقدت المسئلة وضاع السياق اللغوىّ . لأنه لا وجه ، لغوياً ، فى الآية يثبت وقوع الصلب على رجل آخر غيره . إذ لم يذكر صريحاً ولا إشارة .

ثم ذكر فى الفصل السادس أن القرآن العزيز لم يؤنب النصارى ، ولا مرة ، على ضلال

اعتقادهم بصلب المسيح وموته وقيامته . ولا كذب الإنجيل أو الحواريين . ولا لام الذين آمنوا بصلب المسيح . حال كونه نبههم مراراً على غير ضلالات عندهم .

وذكر فيه أيضاً : لم ترد أحاديث صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم بنفي صلبه . وفيه أيضاً : أن هذه الآية يصح تأويلها إيجابياً طبقاً لما في الإنجيل . بما أن عدة آيات أخرى قرآنية مجانسة لها أوّلت بخلاف ظاهرها اللفظيّ . كأفعال المبايعة والرمى والموت والحياة . وما أشبه ذلك . التى نسبت صريحاً لغير فاعلها الظاهر .

وقال فى الفصل العاشر : أما قولنا إن القرآن العزيز قصد نفى نسبة فعل الصلب لليهود وإسناده لله حقيقة ، فهو استناد على قوله : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ[1] وقوله : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ[2] فهنا الفاعل الظاهر حسًّا وفعلًا إنما هو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن الفاعل الحقيقيّ إنما هو الله الفاعل كل شيء فى الكل .

ثم قال : وربما يعترض أنه ذكر فى الآية نفسها أن الله رمى ، وإنه تعالى هو المبايع ، فنقول : كذلك فى آى الصلب وإخباره مراراً عديدة صرح فى الإنجيل أن الفاعل والمسلّم والبازل والحاكم والآذن فى أمر الصلب إنما هو الله جل جلاله .

ثم قال : نقول أخيراً : إن آية الصلب القرآنية هى صحيحة فى ذاتها تماماً وكمالًا . ومطابقة أشد المطابقة لما ورد فى نفس القرآن بهذا الشأن . ولكلٍّ فحوى أسفار الميثاقين أو العهدين .

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٧] ونصها : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٨ / الفتح / ١٠] ونصها : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

بكل بيان . إنما تفسيرها بمطلق النفى كان وما زال غلطاً وضدّ الحقيقة والذوق اللغوىّ . وضد ما جانسها فى الآى الأخرى من نفس القرآن . ومن نصوص سائر الكتب المنزلة . ولا سيما الإنجيل ، الذى زبدته وروحه وقوامه وخلاصته هى كون المسيح صلب ومات وقام وعرج إلى السماء . وأرسل البارقليط الآخر الرسول محمدا مبلغ القرآن العظيم ، الحاوى روح الصدق والحق ، والمذكر بكل ما قال المسيح فى الإنجيل الشريف .

ثم قال : إن إنكار أمر الصلب أو إثباته ليس من الأركان فى الدين عند المحمديين . ولا هو محرَّم قطعاً الاختلاف فى تفسير بعض آيات . وقد وجد ويوجد عدة اختلافات عند اليهود والنصارى والمسلمين . وليس ذلك محرماً إلا إذا آل لإنكار أو لإفساد نفس الآيات . أو إيقاع الشبهة على ذات نصوص الوحى . ففى آية الصلب ليس شىء من ذلك. بل بالعكس تأييد كل النصوص الإلٰهية .

هذا خلاصة ما أورده فى رسالته . وقد رد عليه من الفضلاء المسلمين عدد وافر ، فى تآليف بديعة. منها كتاب (السيوف البتّارة) اعتمد مؤلفها فى إيراد حججها على التواريخ الإفرنجية المعول عليها . فإن الإفرنج أعرف من غيرهم بحقيقة ما يهمهم ، وأبعد عن مظنة التشيّع فى شهادتهم على أنفسهم ، فى أمر دينهم .

قال رعاه الله : يعلم الواقف على حقائق التاريخ أن مسألة الصلب من أهم المسائل التى ولدت الشقاق والنفرة فيما بين النصارى عموماً ونصارى مصر والشام فى الأجيال الأولى خصوصاً . فإنهم كانوا غالباً يرفضون حصول الصلب رفضاً باتا . لأن بعضهم كان يعتبره إهانة لشرف المسيح ، ونقصاً فاضحاً . والبعض الآخر كان يجحده ارتكاناً على الأدلة التاريخية . وهؤلاء الجاحدون للصلب طوائف كثيرة . منها : الساطرنيوسيون والمركيونيون والبارديسيانيون والتاتيانيسيون والكاربوكراتيون والمانيسيون والبارسكاليونيون والبوليسيون . إذ كلهم اعتقدوا ، مع كثيرين غيرهم ، بأنه لا يمكنهم أن يسلموا بنوع من الأنواع ، أن المسيح سمّر

فعلا ، أو مات على الصليب حقيقة . حتى استَخَفُّوا بالصليب والصلب . وقال بعض المؤرخين الأفاضل : إن الخلاف الذى وقع بين النصارى فى مبدأ الأمر كان سبباً فى انسلاخ جملة طوائف وتشتتها واعتبارها فى رأى آخرين مارقة من الدين. ولكن هذه الطوائف المضطهدة المهضومة كانت أفكارها منطبقة على الأصول النصرانية عقلًا ونقلًا . بخلاف أفكار مضطهديهم ، فإن هذه الطوائف بنت على ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام أنه لا يجوز أن يمتهن . واستنتجت من هذا أنه لم يصلب قطعاً . وأن ألفاظ التوجع والتضجر، التى نسبتها إليه كتب النصارى المتأخرين ، لم يتفوّه بها ولا تصح نسبتها إليه . وبالجملة إن الشخص المصلوب غير عيسى قطعاً . وأنه عليه الصلاة والسلام لم تسلط عليه أيدى مضطهديه . بل رفع إلى السماء. ومن القائلين . بهذه الأفكار الدوسيتية والمرسيونية والفلنطانيائية . وغير خاف أنه حتى على فرض البنوة فقط ، لا يمكن عقلًا أن يتصور صلبه . انتهى .

ويؤيد هذا ما قاله الباحث الشهير الموسيو إدوار سيوس ، أحد أعضاء (الانستيتو دى فرنس) فى باريس . المشهور بمعارضته المسلمين فى كتابه (عقيدة المسلمين فى بعض المسائل النصرانية) صحيفة (٤٩) : إن القرآن ينفى قتل عيسى وصلبه . ويقول بأنه ألقى شبهه على غيره . فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه . وإن ما قاله القرآن موجود عند طوائف النصرانية منهم الباسيليديون . كانوا يعتقدون ، بغاية السخافة ، أن عيسى وهو ذاهب لمحل الصلب ، ألقى شبهه على سيمون السيرناى تماماً . وألقى شبه سيمون عليه . ثم أخفى نفسه ليضحك استهزاء على مضطهديه الغالطين . ومنهم السيرنتيون ، فإنهم قرروا أن أحد الحواريين صلب بدل عيسى . وقد عثر على فصل من كتب الحواريين . وإذا كلامه نفس كلام الباسيليديين . وقد صرح (إنجيل القديس برنابا) باسم الذى صلب بدل عيسى فقال : إنه يهوذا . انتهى .

ولم يردّ المؤرخ، المترجم كلامه، على هذا الإنجيل ، إلا بدعوى أنه كلام لا يعول

عليه . وهـــذا الرد من رجل صدر نفسه للرد على المسلمين غير كاف . فيستفاد من جميع ما ذكر أن جمًّا غفيراً من طوائف النصارى ذوات البال والأهمية ، كانت تنبذ عقيدة صلب المسيح نبذًا ، وتفندها تفنيداً . وما زالوا كذلك حتى جاء الإسلام فدخلوا فيه أفواجاً . لإنكار القرآن . وما أنكروه من الصلب وغيره . وبالجملة فإن أغلب الشعوب الشرقية ، قبل الفتح الإسلامىّ ، رفضت القتل والصلب . حتى قال ياسيليوس الباسليدى : إن نفس حادثة القيامة ، المدعى بها بعد الصلب الموهوم ، هى من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب . ومن المعلوم أن نصارى الشام هم الذين وقعت هذه الحادثة بينهم . فهم أقرب الناس إلى العـلم بحقيقتها . وكذلك من جاورهم من نصارى المصريين وغيرهم . لحصول الجوار وقرب المسافة . فكيف لا تكون شهادتهم هى عين الصواب ؟ وبذلك يتبين أن دعوى (صاحب جريدة شهادة الحق) الإجماعَ على الصلب وانفراد القرآن الشريف بنفيه ـ غير مسلمة ، مع وجود هذه الطوائف المنازعة فى الصلب . وقد صرح القرآن بأن رسول الله صلى الله عليه وســـلم إنما بعث لتصديق ما بين يديه من الحق وتبيين ما اختلف فيه طوائف النصارى مع اليهود ، والنصارى مع بعضهم بعضاً . ولو حكمنا التاريخ لشهد لهؤلاء الناس وبَرَّرَ أقوالهم . وذلك أن أهل فلسـطين كانوا يعبدون الأوثان ويخالفون بنى إسرائيل فى ديانتهم . فـكان من مبادئهم ، العاملين عليها فى سياستهم العمومية ، بذل المجهود وإفراغ الوسع فى معاكسة عقائد اليهود . لإدخالهم فى الديانة الوثنية وتقويض دعائم الشريعـة الموسوية . والضغط على شعائرهم الملية . يشهد لهذا أقوال الـكاتب الشهير (أرنست رنان) العضو فى (الأكادمى الفرنسـاوية) المنفرد بالإجادة والشهرة ، فى رسالة نشرت فى جريدة العالمين فى ١٥ مارس ١٨٩٣ . معنونة بـ(اليهود تحت حكم الرومان) حيث قال : إن كل المناصب ذوات المرتب الباهظ كانت تعطى غنيمة باردة لليهود الذين يطرحون دينهم ظهريا . ويجعلون شعائرهم الملية شيئاً . ويعتنقون ديانة الرومان الوثنية . فـكان من

ضغط الرومان ومن تزلف اليهود إليهم ، ومن أطماعهم إلى الرتب والألقاب ، أن ارتد غالب سواد اليهود وعبدوا جوبيتر الألومبي . وكان الواحد منهم يخفى الاختتان بعملية شاقة جدًّا (ذكرها سلس المؤرخ الروماني الشهير) ثم يتزيى بزى الرومان ويسحب ذيوله تيهاً وإعجاباً بنفسه وبعوائد الرومان . وازدراء واحتقاراً لبنى جلدته وذوى ملته . فرحاً بلقمة يلتقمها . أومرتبة يتربع فى دستها . وما زالت اليهود تَتَرَوْمَنُ حتى أن الأحبار غادروا الهيكل والجامع . واشتغلوا بملاعب الرومان الرياضية . وأخيراً آل الأمر ، قبل وجود عيسى عليه السلام ، إلى إدخال صنمهم الأكبر ووضعه فى محل تقريب القربان نفسه . بحيث أن القربانات كانت تعمل أمامه . حتى كادت معالم اليهودية أن تنمحى من صحيفة الوجود . ووقع ذلك سيئ الوقع وأثّر أردأ تأثير فى نفوس البقية القليلة من اليهود التى اعتصمت بدينها . انتهى.

وبهذا يعلم مقدار ضغط الرومان على اليهود لمحو آثار دينهم من الوجود . فليس من المعقول أن الحكومة ، وهى على ما ترى من الكراهة الدينية لليهود ، تجيبهم إلى ما طلبوا من تنفيذ أمر الصلب . أو تعيره أدنى ذرة من الأهمية . خصوصاً والحاكم الرومانىّ على فلسطين فى ذاك الوقت ، كان يكره اليهود كما يكره أن يلقى فى النار . وهم يكرهونه أشد من ذلك . دليلنا على ذلك ما كتبه المسيو رنان المذكور فى كتابه المشهور المسمى (حياة المسيح) حينما تكلم على شكاية اليهود من عيسى بدعوى أنه غيّر التوراة . وكان ذلك على زعمهم ليستوجب قتله. حيث قال : إن حاكم فلسطين المسمى (بونسيوس) الملقب (بيلاطس) ـ أظهر عدم عنايته بمنازعات اليهود الداخلية وشكاويهم وخصوماتهم . بل كان يعتبر أن هذه الأعمال صادرة عن عقول مختلة وأفكار معتلة . وبالإجمال ، كان يكره اليهود وهم يكرهونه أشد من كراهته لهم . لأنهم كانوا يجدونه قاسياً ذا أنفة وكبر . غير مكترث بهم . ولقد رموه وعابوه بجنايات لا يسعها عقل عاقل . والمتمسكون بدينهم منهم رأوا أن غرض بيلاطس هذا ، سحق أثر الشريعة الموسوية سحقاً ومحوها محواً . وتعصبهُم الأعمى وكراهتهم

الدينية له جعلاه يأنف من أفكارهم . فانه كان يميل كل الميل إلى الأحكام الوضعية الرومانية . التى كانت نهاية فخر كل رومانىّ فى ذلك الحين . وكان يرى أفكار اليهود سخيفة تقهقرية . لأنه كلما هم بجلب النافع العام ، وسن مشروع يضمن الراحة والرفاهية ، قام الأحبار عن آخرهم وعارضوه بتفسير التوراة التى كانت تسدّ فى وجهه أبواب التحسين والتغيير . فلم يعتن بجرح حواسهم ومسّ شرفهم ومعالمهم الدينية . وعاملهم بالقسوة والكبر وعدم تنفيذ رغباتهم . فانشعب الأمر ودام الفشل . وأخيراً اضطرت الحكومة إلى إقالته من منصبه بسبب قيامة اليهود عليه . ولقد كانت نفس بيلاطس تضيق ، وصدره يحرج عند مجىء شكوى ضد عيسى عليه الصلاة والسلام . حيث كان لا يسمح بتنفيذ أمر القتل عليه . وعيسى ضد اليهود ، ويعيب التوراة كما يقولون . فكان ذلك عن رغبة الحاكم . وجلّ مايتمنى . فكيف يكون هو الآمرَ والمنفذَ لقتله ؟ مع أنه كان قادراً على تنفيذ رغباته المضادة لليهود على خط مستقيم . والحقيقة أن بيلاطس كان ميالاً كل الميل لخلاص السيد المسيح من هؤلاء الظلمة . ولعله رأى ما فيه من جميل الشيم والأخلاق الكريمة الطاهرة . فَرَاقه ذلك، زيادة عن كراهته لليهود . فعمل على خلاصه من الصلب . كما يتضح من إنجيل متى ٢٧و٢٤ . ولوقا ٢٣ و ١٢ . ويوحنا ١٣ و ٢٣ . وفى بعض آيات الإنجيلين أن عيسى سوعد من زوجة بيلاطس الحاكم القائلة (كما هو مذكور فى إنجيل متى ٢٧و١٩) : إياك وهذا البارّ . لأنى تألمت اليوم كثيراً فى حلم من أجله . ولعلها رأته فبهرها كماله ووقاره وحشمته وبلوغه الغاية فى الأدب والشمائل الطاهرة . والظاهر أنها رأت هذا الشاب البرىء المبجّل من إحدى نوافذ قصرها المطلة على أفنية هيكل سليمان عليه السلام . فظهر لها بكماله الحقيقىّ . فاستفظعت إهدار دم هذا البرىء الوقور . وكيفما كان السبب ، فالذى لايشك فيه أحد ، أن بيلاطس كان محباً لعيسى عليه السلام حبًّا شديدًا . ولذلك سأله بكمال اللطف والأدب ليفرغ ما فى وسعه لتبرئته. انتهى .

فيؤخذ من كلام (رنان) أن الحـاكم المنوط به الأمر والتنفيذ ، كان مضاداً للصلب . فلا غرابة فى عدم حصوله للمسيح عليه السلام ، وتبديله بآخر . وكراهة هذا الحاكم لليهود مشهورة لا تحتاج لزيادة إيضاح . حتى إن ترتوليانوس ، أحد آباء الكنيسة النصرانية، جزم بأن بيلاطس الحاكم كان نصرانيًّا فى الباطن . وفى الجزء الأول من تاريخ الديانة النصرانية لمؤلفه (ملمن) : إن تنفيذ الحكم كان فى وقت الغلس وإسدال ثوب الظلام . فيستنتج من ذلك أيضا إمكان استبدال السيد المسيح بأحـد المجرمين الذين كانوا فى سجون القدس ، منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم . كما اعتقد بعض الطوائف . وصدقهم القرآن . ولقدجرى على هذا الرأى جماعة من المؤرخين المهمّين (كالمسيوشارل بيكار) و (ارنست دى بونس) وغيرهما . فإن الأول قال : إن مسألة صلب المسيح كلها مبتكرة مخترعة لا غير . لتوافق اعتقادات قديمة . مآلها أن الله لا يسكن غضبه إلا بسفك دم القربان من بنى آدم . وكانت اليهود تقدم أولادها قرباناً للذبح استجلابا لإسكان غضب الخالق وجلب رضاه . ويقول : إنهم ربما أكلوا لحوم القربان الآدمىّ وشربوا دمه . ولما قامت الأنبياء فى بنى إسرائيل واضطهدت هـذه العادة الشنعاء ، بدّل ذبح الآدمىّ قرباناً بذبح الحيوان . وأطال المسيو (بيكار) فى شرح ارتباط تضحية سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام مع هذه العوائد القديمة. فأفاد أن نفس الصليب كان مستعملاً رمزاً عن شىء عندهم اسمه (اللنجام) وهو عبارة عن خشبتين متصلبتين متداخلتين فى بعضهما .

وأما المسيو (أرنست دى بونس الألمانىّ) فإنه قال فى كتابه المسمى بـ (النصرانية الحقة) صحيفة ١٤٢ ما معناه : إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفـداء ، هو من مبتكرات ومخترعات بولس ومن شابهه ، من الذين لم يروا المسيح عليه الصلاة والسلام . لا من أصول النصرانية الأصلية .

فوضح وضوح الشمس لذى عينين أن التاريخ، فضلاً عن كونه لم يُثبت مسألة الصلب

والقتل ، يرجح نفى حصوله رجحاناً لايكاد يفارق اليقين الحقيقىّ . ومعلوم أن أخذ الأمور التاريخية فى هـذا الصدد عن طوائف مصر والشام أولى ، لأنهم أبناء جلدتها ، وأدرى بحوادث بلادهم الحقيقية . فيؤخذ من كل ذلك : أولا ـ أن كافة الظروف التى حصل فيها تنفيذ الحـكم كانت مساعدة لتخليص المسيح عليـه الصلاة والسلام . وبالأخص اضطهاد الحـكومة الرومانية للعقائد الموسوية . وعدم الاعتناء بها لا يسهل تنفيذها . ثانياً ـ وقت الغلس الذى حصل فيه ذلك الصلب الموهوم .

وكان يمكننا لدرس هـذا الموضوع التكلم على جمـلة مسائل تفند دعوى الصلب تفنيداً لا مزيد عليه . ومن ضمنها ، أن نصارى اليوم تدعى أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام حكم عليه من مجمع اليهود بالقتل بسبب تغييره لأحكام التوراة . ومن المعلوم أن الحـكم، فى ذلك الموضوع، الرجم لاالصلب . فهذا مما رتـكن عليه مثل الموسيو (شارل بيكار) فى ادعائه أن النصارى الحديثين احتاجوا لعلامة الصليب رمزاً لبعض عقائد كانوا يريدون إدخالها فى الديانة. وهى مسألة الفدا . انتهى كلام صاحب السيوف البتارة .

ولما اطلع عليها ذلك النصرانىّ المذبذب المردود عليه ، أعياه الرد من الطريقة التاريخية، فأخذ يرد عليها تشبثاً بأسباب واهية . فعدّ ، كل من رفض الصلب من نصارى الأيام الأول، هرطوقيا . أى : مارقاً من الدين . ورمى أصحاب التواريخ من أهل أوروبا الذين وافقوا المسلمين فى عدم حصول الصلب بأنهم كفرة الإفرنج . ثم تمسك بالأناجيل الأربعة الرسمية وقال: إنه لايمكنه أن يزيف شيئاً منها مادامت شاهدة من أولهـا إلى آخرها بحصول الصلب حقيقة . وأنه يلزم حينئذ تأويل ماجاء فى القرآن المجيد حتى يصل للوفاق .

فعاد صاحب (السيوف البتارة) وألف رسالة ثانية فى شهادة علماء الإفرنج بحفظ القرآن وتحريف ماسواه . تـكملة للأول . فتوسع جزاه الله خيراً فى هـذا الموضوع ثم قال (فى الـكلام على الإنجيل) مالفظه : أما الإنجيل فإنه أبعد عن الصحة من التوراة بكثير . إذ

لا يفهم أحد للآن كيف تعدد الإنجيل الأصلي إلى نسخ شتى متباينة. ولأي مرجح استحسنت منها النصارى الحاليون أربعة أناجيل ، مختلفة كل الاختلاف ، متضاربة كل التضارب . ولا يدرى لماذا عدلوا عن (إنجيل برنابا) مثلاً الذى وافق القرآن قبل ظهوره فى المسائل التى أبتها الكتب الحالية . فإنا نجد هذا الإنجيل يخبر أن السيد المسيح نبي ، عبد ، مخلوق . ليس بإله. وأنه لم يصلب . وفيه البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مذكوراً بلفظه (كذا). وهاك ما قاله السيد المسيح فى الإنجيل المذكور (وإنى وإن كنت بريأً ، لكن بعض الناس لما قالوا فى حقى إنه الله وابن الله، كره الله هذا القول واقتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة علي ولا يستهزؤن. فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا . ويظن كل شخص أنى صلبت. لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله . فإذا جاء فى الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط . وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس .

وقد استشهد العلامة (سيل) الإنكليزي ، المشهور فى أوروبا بترجمة المصحف الشريف، بهذه الآية الإنجيلية ، تفسيراً لقوله تعالى فى سورة آل عمران (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[1] وإنجيل برنابا أثبته العلماء قبل الإسلام بنحو ثلاثمائة سنة. حتى أن العالم الإنكليزي (تولاند) قال : وعلى النصرانية السلام ، بمجرد رؤيته هذا الإنجيل. ثم قال : قال العلامة (هيردر) وجماعة آخرون : إن الإنجيل الأصلي كان واحداً . إلا أنه لم يكتب . بل قاله المسيح مشافهة. ورواه الحواريون عنه للناس شفاهياً أيضاً . فحفظ الخلق منه بعض أقوال أضافوا إليها ما استحسنوه من السير والقصص . ونقصوا منها ما لم يوافق أذواقهم . وما زالت تنتقل الروايات المختلفة من شخص إلى آخر ، ومن زمن إلى غيره حتى تشعبت ، وكتب أخيراً منها أناجيل شتى ، فاختارت الكنائس منها أربعة جعلتها الرسمية .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٤] .

ثم قال مؤلف (السيوف البتارة): فوضح وضوحاً تامًّا لذى بصيرة، أن الحجة على دعوى صلب المسيح قد سقطت سقوطاً لا تقوم بعده أبداً. سواء من جهة التاريخ الصحيح الذى دحضها وخذل مدعيها بأجلى برهان ، أو من جهة الأناجيل المعتبرة عندهم. لذهاب أصلها أدراج الرياح ، بثبوت التحريف والتغيير لها .

ثم قال : وأما قوله (يعنى المذبذب) . بأن طوائف النصارى الرافضة للصلب هراقطة ـ فغريب . لأنهم مثله فى العقيدة لا يمتازون إلا بإنكارهم الصلب الحقيقىّ للمسيح . وهل الاقتصار ، فى الرد من باحث ، على قوله (كفرة) يعد من باب نقض الدليل بالدليل وتزييف الحجة بالحجة؟ أو من باب المكابرة فى المحسوس والانقطاع عن المناظرة للعجز الواضح . وإذا جاز إطلاق (كفرة) على هؤلاء وهم أمناء النصرانية واليهودية ـ جاز أن تصف بهذه الصفة كل يهودىّ ونصرانىّ . وحينئذ لا يصح احتجاجك بإجماعهم ولا بشىء من آرائهم . وتكون فى ردك بكلمة (هراقطة . كفرة) أشبه بمن اقتصر فى مناظرة خصمه على كلمة (لا) فقط. فهو يكررها ولا يسأم من الرد بها .

ثم قال : فقد برح الخفاء وانكشف الغطاء وبان للقراء أن لا إجماع بين النصارى أنفسهم على حصول الصلب منذ تكلم الناس فيه حتى الآن . وتفرقت فيه آراؤهم أيدى سبا. وذهبوا فيه كل مذهب. فلا تكاد تجد قولاً لأحدهم فى أىّ عصر إلا وهو مضادّ لأقوال آخرين منهم على خط مستقيم . حتى لا ترى إلا غوغاء وجلبة المناقضات . فلم يتفقوا على كيفية الصلب ولا على معناه ولا على المراد منه . ولا اجتمع فيه رأيان . كان ذلك من باب التقليد والتسليم ، الذى لا يقام عليه دليل أعظم من أن يقال : إن الدين ينبغى أن لا يفهم ولا يدخل معناه السرىّ تحت تصورٍ . هذا مع أن الصلب عند النصارى هو قلب دينهم (كما يقولون) وأساس معتقدهم . حتى كأنه بمنزلة التوحيد عند المسلمين . ومع أن نفى الصلب عندنا ليس من الأصول التى انبنى عليها ديننا فى شىء ، بل لا تخرج مسألته عن كونها من قصص الأولين ، كالإخبار عن

نوح وإبراهيم وموسى ، مما سيق لنحو الوعظ والاعتبار ـ فلم يهجس بخلد مسلم منذ وجد الإسلام إلى يومنا هذا أن عيسى صلى الله عليه وسلم صلب أو قتل. ولم يخرق إجماعَ المسلمين على ذلك واحدٌ منهم فى كل عصر ومكان . وما ذلك إلا لضبط القرآن الكريم وصيانته . ولو حكّمنا غير متدين فى هذه المسألة ، ونظر لأهميتها عند النصارى ، مع عدم قدرتهم على إثباتها ، ولفرعيّتها عند المسلمين ، مع إجماعهم على نفيها إجماعاً لا مثيل له فى العالم ـ لا نبهر من همة المسلمين فى ضبط وحفظ كتابهم ، وثباتهم فى صغير الأمر وكبيره . وتمنى أن تتدلى الأنجم الزهر ليصوغ منها عقود ثناء ومدح لهم ، على عنايتهم بدينهم إلى هذا الحد الذى لا نظير له . ولم يسعه إلا أن يقلب أكف الأسف ، ويعضّ بنان الندم على تزعزع دين غيرهم . لدرجة أن أعظم أصل فيه لا يثبت إلا فى مخيلات بعض المقلدين . من غير استناد على دليل نقلىّ صحيح. أو عقلىّ مسلم، حتى قام عقلاؤهم نافضين غبار التقليد، ناشدين الحقيقة. فانجلت، لكثير منهم، عن تدمير هذا البناء التقليدىّ. والرجوع إلى ماثبت بالدليل فى ديانة غيرهم. ومما هو جدير بالتنبه له أن بولس الذى عزا إليه كل محقق التاريخ من الإفرنج وغيرهم، أنه وحده المخترع لمسائل الصلب والفداء ، وألوهية عيسى إلى غير ذلك ـ قد أبان أن الصلب والقتل ليسا حقيقيين . كما جاء فى رسالته لأهل غلاطية. حيث قال : أنتم الذين رسم يسوع المسيح بينكم مصلوباً . وقال فى رسالته لأهل رومية : نحن نقوم بشبه موته . إلى أن قال : فدفنا معه بالمعمودية، لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته ، نصير أيضاً بارتفاعه ، عالمين أن إنساننا العتيق قد صلب معه الخ . فيستفاد من مجموع أقوال بولس هذه أن المسيح لم يصلب ولم يقتل حقيقة . وإنما ذلك مجاز عن الشبه المقتول المصلوب . كما جاء فى إنجيل برنابا . وقد يدعوك حب التمسك بهذه المسألة إلى أن تؤوّل كلام بولس بما لا يحتمله اللفظ والسياق . وأنت لاهٍ عن أنه متى وقع الاحتمال سقط الاستدلال . وإنما أتينا بكلامه تنزلاً معك على التسليم الجدلىّ بصحة ما روى عنه فى رسالته لأهل غلاطية . فنقول : حتى على

فرض صحة ماروى عن بولس نفسه ، فإنه يشهد لنفى الصلب والقتل . لا لحصولها حقيقة . هذا ولو قارنت دعوى الصلب والفداء بما جاء فى التوراة من قولها (الشرير فدية الصديق) لكان معناه ، على مقتضى زعمك ، أن عيسى شر بالإضافة لكل أحد . وهذا لا يجوز لا عقلاً ولا شرعاً . فوجب ، أخذاً من عبارة التوراة ، أن يكون المصلوب شريراً فداء لصديق ، هو عيسى عليه الصلاة والسلام . كما جاء فى إنجيل بانابا. انتهى ملخصاً .

ولن يعدم الحق أنصاراً، والباطل خزياً وانكساراً .

فصل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه فى كتابه (الفرقان) وهو من آخر مصنفاته . صنفه بقلعة دمشق، ما لفظه : (فإن قيل) فإذا كان فى كتب الأناجيل التى عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم ، وقال لهم : أنا المسيح . ولا يقولون إن الشيطان تمثل على صورته ـ فالشيطان ليس هو لحم وعظم . وهذه أثر المسامير . أو نحو هذا الكلام ـ فأين الإنجيل الذى قال الله عز وجل فيه : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ(1) . وقال قبل هذا : وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(2) . وقال قبل هذا : وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ

(١) [٥ / المائدة / ٤٧] .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٦و٤٧] .

وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ[١] . وقال أيضاً : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ[٢] . وقال أيضاً : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[٣] . وهـذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب ، الذين بعث إليهم ، وهو من كان فى وقتهم ومن يأتى من بعدهم إلى يوم القيامة . لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم . وكذلك قوله : وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ[٤] ، إخبار عن اليهود الموجودين وأن عندهم التوراة فيها حكم الله . وكذلك قوله : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ[٥] ، هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الإنجيل. ومن لا يؤمر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، قيل قبل هذا: إنه قد قيل ليس فى العالم نسخة بنفس ما أنزل الله فى التوراة والإنجيل بل ذلك مبدّل . فإن التوراة انقطع تواترها. والإنجيل إنما أخذ عن أربعة . ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما فى التوراة والإنجيل باطل ليس من كلام الله . ومنهم من قال : بل ذلك قليل . وقيـل : لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب وإنما حرّفوا معانيها بالتأويل . وهذان القولان، قال كلًّا منهما كثير من المسلمين . والصحيح القول الثالث ، وهو أن فى الأرض

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٣و٤٤] . . . فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٦] . . . مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٨] .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٣] . . . ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

(٥) [٥ / المائدة / ٤٧] . . . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

نسخاً صحيحة وبقيت إلى عهد النبيّ ﷺ، ونسخاً كثيرة محرّفة . ومن قال : إنه لا يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه . ومن قال : جميع النسخ بعد النبيّ ﷺ حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ . والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله فى التوراة والإنجيل ويخبر أن فيهما حكمه . وليس فى القرآن خبر أنهم غيّروا جميع النسخ . وإذا كان كذلك فنقول : هو سبحانه قال : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ[1] . وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح . فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها فى التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام . ومعلوم أن هذا الذى فى التوراة والإنجيل ، من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ، ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى . بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما . وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ، ليس هو مما أنزله الله عليهما ، ولا هو مما أمرا به فى حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس. وكذلك[2] : لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ . وقوله[3] : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . فإن إقامة الكتاب، العمل بما أمر الله به فى الكتاب ، ومن التصديق بما أخبر به على لسان الرسول .

وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ، ليس هو مما أنزله

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٧] . . . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٨] ونصها : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٦] . . . مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

الله على الرسول ، ولا ممـا أمر به ، ولا أخبر به . وقد يقع مثل هذا فى الـكتب المصنفة .
يصنّف الشخص كتاباً فيذكر ناسخه ، فى آخره ، عمر المصنف ونسبه وسنه . ونحو ذلك مما
ليس هو من كلام المصنف . ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن . وأن لا يكتب فى
المصحف غير القرآن . فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ولا (آمين) . ولا غير
ذلك . والمصاحف القديمة والتى كتبها أهل العلم ، على هـذه الصفة . وفى المصاحف من قد
كتب ناسخها أسماء السور والتخميس والتعشير والوقف والابتداء . وكتب فى آخر المصحف
تصديقه . ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك . وليس هذا من القرآن . فهكذا ما فى الإنجيل من
الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ، ليس هو مما قاله المسيح، وإنما
هو مما رآه مَن بعده. والذى أنزله الله هو ماسمع من المسيح المبلغ عن الله . فإن قيل : فإذا كان
الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب ، وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل
والدين، فقد دخلت الشبهة .

قيل: الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء، إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء،
فإن الحجة فى كلام الأنبياء . وما سوى ذلك فموقوف على الحجة. إن كان حقاً قُبِلَ وإلّا رُدّ.
ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبىّ ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله . لاسيما المتواتر ،
كالقرآن وكثير من السنن . وأما ما قالوه ، فما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم . وماتنازعوا
فيـه ، رُدَّ إلى الله والرسول . وعُمَرُ قد كان أوَّلًا أنـكر موت النبىّ ﷺ . حتى ردَّ ذلك
عليه أبو بكر . وقد تنازعوا فى دفنه حتى فصـل أبو بكر بالحديث[٣] الذى رواه. وتنازعوا فى

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ١٦ ـ كتاب الجنائز ، الحديث ٢٧ (طبعتنا)
ونصه :

حدثنى يحيى عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ توفى يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء.
وصلى عليه الناس أفذاذا . لا يؤمهم أحد . فقال ناس : يدفن عند المنبر . وقال آخرون :=

تجهيز جيش أسامة . وتنازعوا فى قتال(١) مانعى الزكاة . فلم يكن هـذا قادحاً فيما نقلوه عن النبىّ ﷺ . والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح . ولم يشهد أحد منهم صلبه . فإن الذى صُلِبَ إنما صلبه اليهود . ولم يكن أحـد من أصحاب المسيح حاضراً . وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح . وقد قيل إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح . ولـكن هم كذبوا وشبهوا على الناس . والأول هو المشهور وعليـه جمهور الناس . وحينئذ

= يدفن بالبقيع . فجاء أبو بكر الصديق فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « مادفن قط نبىّ إلا فى مكانه الذى توفى فيه » .

فحفر له فيه . فلما كانوا عند غسله ، أرادوا نزع قميصه فسمعوا صوتاً يقول : لا تنزعوا القميص . فلم يُنزع القميص . وغُسِّل وهو عليه ﷺ . اه .

قال ابن عبد البرّ : هذا الحديث لا أعلمه يروى على هذا النسق بوجه من الوجوه ، غير بلاغ مالك هذا . ولـكنه صحيح من وجوه مختلفة ، وأحاديث شتى ، جمعها مالك

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١ ـ باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٣و٧٤٤ ونصهما :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ . وكان أبو بكر رضى الله عنه. وكفر من كفر من العرب . فقال عمر بن الخطاب : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » ؟

فقال : والله ! لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال . والله ! لو منعونى عَنَاقا كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها .

قال عمر رضى الله عنه : فوالله ! ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه ، فعرفت أنه الحق .

فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب. لكن عمدتهم على ذلك ، الشخص الذى جاء الشيطان بعد أيام وقال . أنا المسيح . وذاك شيطان . وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ماتجئ ويدّعى (كذا) إنه نبيّ أوصالح . ويقول . أنافلان النبيّ والصالح. ويكون شيطاناً. وفى ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذى جاءه جاء وقال: أنا المسيح. جئت لأهديك. فعرف أنه الشيطان . فقال . أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها . فإن جئت اليوم بشئ يخالف ذلك لم نقبل منك . فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب. كما قال تعالى: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ(١). وأضاف الخبر عن قتله، إلى اليهود بقوله: وقولهم إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ(٢) فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة . إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح . ومن جوز قتله فهو كمن قتله . فهم فى هذا القول كاذبون . وهم آثمون . وإذا قالوه فخرا لم يحصل لهم الفخر . لأنهم لم يقتلوه . وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه . وقد قال النبى(٣) ﷺ : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : يارسول ! فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

---

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان، ٢٢ ـ باب المعاصى من أمر الجاهلية، ولا يكفّر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، حديث ٢٩ ونصه :

عن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل . فلقينى أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت : أنصر هذا الرجل . قال: ارجع. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » فقلت : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه » .

وقوله : وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ : قيل هم اليهود والنصارى. والآية تعم الطائفتين. وقوله: لَفِى شَكٍّ مِنْهُ. قيل: من قتله. وقيل: منه، أى: فى شك منه. هل صلب أم لا؟ كما اختلفوا فيه . فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : إنه إله . فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا ؟ وهم فى شك من ذلك ما لهم به من علم . فإذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح ؟

فإن قيل : كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هـذا فى إيمانهم ، فأين المؤمنون به الذين قال فيهم : وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا(١) . وقوله : فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ(٢) . (قيل) ظنَّ من ظن منهم أنه صلب لا يقدح فى إيمانه. إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح. بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ـ فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح فى إيمانه . فإن هـذا اعتقاد موته على وجه معيّن . وغاية الصلب أن يكون قتلاً له . وقتـل النبىّ لا يقدح فى نبوته . وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء. وقال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ...(٣)

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٢) [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.

الآية. وقال تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ(١). وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلهم.هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءهم فى اليقظة . فإنهم لا يكفرون بذلك . بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة وأتباعاً لها . وكان فى الزهد والعبادة أعظم من غيره . وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله فهذا غلط منه لا يوجب كفره . فكذلك ظنّ من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح ، لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ، ولا يقدح فيما نقلوه عنه . وعُمَرُ ـ لما كان يعتقد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يمت(٢) ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه ـ لم يكن

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٣] . . . وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبيّ ﷺ « لو كنت متخذاً خليلًا » حديث ٦٦٤و٦٦٥ وهذا نصهما :

عن عائشة رضى الله عنها ، زوج النبيّ ﷺ ، أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنْح (يعنى بالعالية) فقام عمر يقول : والله ! ما مات رسول الله ﷺ .

قالت : وقال عمر : والله ! ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك . وليبعثنّه الله فليقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم .

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله . قال : بأبى أنت وأمى . طبتَ حيًّا وميْتاً . والذى نفسى بيده ! لا يذيقك الله الموتتين أبدا . ثم خرج فقال : أيها الحالف ! على رِسْلِك .

فلما تكلم أبو بكر جلس عمر . فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألَا من كان يعبد محمداً ﷺ ، فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت . وقال : =

هذا قادحاً فى إيمانه . وإنما كان غلطاً ورجع عنه . وقوله تعالى : مَالَهُمْ بِهِ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم . انتهى كلام ابن تيمية رضى الله عنه .

ولإمام الأدباء، شرف الدين البوصيرى رحمه الله، قصيدة فى هذا المقام. نظمها فى سلك ما تقدم تكملة للمرام . قال قدس سره .

جاء المسيح من الإله رسولاً فأبى أقل العالمين عقولاً
قوم رأوا بشراً كريماً فادّعَوْا من جهلهم لله فيه حلولاً
وعصابة ماصدقته وَأَكْثرت، بالإفك والبهتان ، فيه القيلا
لم يأت فيه مُفْرِط ومُفَرِّط بالحق تجريحا ولا تعديلا
فكأنما جاء المسيح إليهم ليكذبوا التوراة والإنجيلا
فاعجب لأمته التى قد صيرت تنزيها لإلهها التنكيلا
وإذا أراد الله فتنة معشر وأضلهم، رَأَوُا القبيح جميلا
هم بجلّوه بباطل فابتزّه أعداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطعوا أمر العقائد بينهم زمراً . أَلَمْ تَرَ عقدها محلولا
هو آدم فى الفضل إلا أنه لم يُعْطَ حال النفخة التكميلا
أسمعتموا أن الإله لحاجة يتناول المشروب والمأكولا ؟
وينام من تعب ويدعو ربه ويروم من حرّ الهجير مقيلا
ويمسّه الألم الذى لم يستطع صرفاً له عنه ولا تحويلاً

ــ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [٣٩/ الزمر / ٣٠] وقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ [٣ / آل عمران / ١٤٤]

قال : فنشج الناس يبكون . . . الخ

ياليت شعرى ، حين مات بزعمهم ... من كان بالتدبير عنه كفيلا ؟
هل كان هذا الكون دبر نفسه ... من بعده أم آثر التعطيلا ؟
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه . ... وأراه كان القاتل المقتولا .
اجْزُوا اليهود بصلبه خيراً . ولا ... تجزوا (يهوذا) الآخذ البرطيلا
أيكون قوم فى الجحيم ويصطفى ... منهم كايماً ربُّنـا ، وخليلا
وإذا فرضتم أن عيسى ربكم ، ... أفلم يكن لفدائكم مبذولاً ؟
وأُجلّ روحاً قامت الموتى به ... عن أن يرى بيد اليهود قتيلا
فدعوا حديث الصلب عنه ودونكم ... من كتبكم ما وافق التنزيلا
شهد الزبور بحفظه ونجاته . ... أفتجعلون دليله مدخولاً ؟
أيكون من حفظ الإله مضيعا ... أو من أشيد بنصره مخذولاً ؟
أيجوز قول منزه لإلهه : ... سبحان قاتل نفسه مقتولاً ؟
أو جلّ من جعل اليهودُ بزعمكم ... شوك القتـاد لرأسه إكليلا
ومضى لحبل صليبه مستسلماً ... للموت مكتوف اليدين ذليلا
كم ذا أبكتكم ولم تستنكفوا ... أن تسمعوا التبكيت والتخجيلا
ضل النصارى فى المسيح وأقسموا ... لا يهتدون إلى الرشاد سبيلا

وهى سابغة الذيل ، كلها من هذا النفس البديع .

واعلم أنه تعالى لما ذكر فضائح اليهود وقبائح أفعالهم . وشرح أنهم قصدوا قتل عيسى عليه السلام ، وبين أنه ماحصل لهم ذلك المقصود ، وأنه حصل لعيسى أعظم المناصب وأجل المراتبَ ـ بيَّن تعالى تحقيق ما أثبته فى الآية السابقة ، من القطع بكذبهم . مثبتاً أنهم فى مبالغتهم فى عداوته ، سيكونون من أتباعه المصدقين بجميع أمره ، الذى منه التصديق بمحمد ﷺ . مؤكدا له أشد تأكيد لما عندهم من الإنكار له ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

«وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» أى : ما أحد من أهل الكتاب يدرك نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ، إلا ليؤمنن به قبل موته . أى: موت عيسى عليه السلام . أى: لا يموت حتى ينزل فى آخر الزمان يؤيد الله به دين الإسلام. حتى يدخل فيه جميع أهل الملل . إشارة إلى أن موسى عليه السلام، إن كان قد أيده الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زماناً طويلاً ، فالنبىّ الذى ينسخ شريعة موسى، وهو عيسى عليهما السلام ، هو الذى يؤيد الله به هذا النبىّ العربىّ ، فى تجديد شريعته ، وتمهيد أمره ، والذود عن دينه . ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة ، وأتباع مستكثرة . أمر قضاه الله تعالى فى الأزل . فاقصروا أيها اليهود . فمعنى الآية إذن ، والله أعلم : إنه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين فى عيسى عليه السلام على شك ، إلا وهو يوقن بعيسى عليه السلام قبل موته ، بعد نزوله من السماء ، أنه ما قتل وما صلب . ويؤمن به عند زوال الشبهة أفاده البقاعىّ .

روى البخارىّ(١) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: والذى نفسى بيده! ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا له من الدنيا ومافيها. ثم يقول أبو هريرة: واقرؤا إن شئتم: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٩ ـ باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام ، حديث ١١١٥ .

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . وأخرجه مسلم[١] أيضاً وابن مردويه وزاد بعد قوله (قبل موته) : موت عيسى ابن مريم . ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات .

ورواه الإمام أحمد[٢] عن حنظلة عن أبي هريرة أيضا مرفوعاً ولفظه : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما .

قال وتلا أبو هريرة : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ... الآية . فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى. فلا أدرى هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة .

ورواه أحمد[٣] أيضاً عن عبد الرحمن عن أبي هريرة. وفيه: ويهلك الله في زمانه الملل كلها

---

(١) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٢ ـ ٢٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٩٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) ونصه :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « الأنبياء إخوةٌ لعَلّات. دينهم واحد وأمهاتهم شتى. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبيّ . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض . سبط . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل. بين مُمَصَّرَتَيْن (الممصرة من الثياب التي فيها صُفرة خفيفة) فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل . حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام . ويهلك الله في زمانه المسيح الكذاب . وتقع الأَمَنَة في الأرض. حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً . والنمور مع البقر . والذئاب مع الغنم . ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات ، لا يضر بعضهم بعضاً . فيمكث ما شاء الله أن يمكث . ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه » .

غير الإسلام . ويمكث أربعين ثم يتوفى ويصلّى عليه المسلمون . وفى حديث النوّاس بن سمعان عند مسلم[1] : فينزل عند المنارة شرقىّ دمشق .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير، هنا ، الأحاديث المتواترة فى نزوله عليه السلام ، من رواية أبى هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبى العاص وأبى أمامة والنوّاس بن سمعان وعبدالله بن عمرو ابن العاص ومُجَمِّع بن جارية وأبى سريحة حذيفة بن أَسِيد رضى الله عنهم . وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية . وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح .

قال ابن كثير : وقد بنيت فى هذه الأعصار ، فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، منارة للجامع الأموىّ ، بيضاء من حجارة منحوتة ، عوضاً عن المنارة التى هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . وكان أكثر عمارتها من أموالهم . وقويت الظنون أنها هى التى ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا من إخبار النبىّ ﷺ بذلك . انتهى .

قلت : وقد اشتهرت هذه المنارة بمئذنة عيسى .

وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى (تاريخه) عن بعض السلف ؛ أن عيسى عليه السلام ، بعد نزوله ، يدفن مع النبىّ ﷺ فى حجرته . فالله أعلم .

والتأويل المذكور فى الآية رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير[2] والعوفىّ[3] ، كلاهما عن ابن عباس .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ١١٠ (طبعتنا) وهو حديث طويل وجليل، من علامات النبوة ، ينبغى الاطلاع عليه ودراسته دراسة عميقة .

(٢) عن سعيد بن جبير ، الأثر رقم ١٠٧٩٤و١٠٧٩٥ من التفسير .

(٣) عن العوفىّ ، الأثر رقم ١٠٨٠٧ من التفسير .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن الضحاك عن ابن عباس في الآية قال : يعني اليهود خاصة.

وبه إلى الحسن : يعني النجاشيّ وأصحابه .

وبه إليه قال : إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة ، مقاماً يؤمن به البر والفاجر .

وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد .

قال ابن كثير : وهـذا القول هو الحق . وروى عن ابن عباس أيضاً ومحمد بن الحنفية ومجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين والضحاك وجويبر ؛ أن المعنى : وإنْ من أهـل الـكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبـل موت ذلك الـكتابيّ عند الغرغرة . حين لا ينفعه الإيمان . ذهاباً إلى أنه إذا عاين عَلِمَ الحق من الباطل . لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه .

قال عكرمة : قال ابن عباس : لا يموت اليهوديّ حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله. ولو عجل عليه بالسلاح .

قال الزمخشريّ : فإن قلت: مافائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم ؟ قلت : فائدته الوعيد . وليكون علمهم بأنهم لابد لهم من الإيمان به عن قريب ، عند المعاينة ، وأن ذلك لا ينفعهم ــ بعثاً لهم وتنبيهاً على معاجلة الإيمان به في أوان الانتفاع به . وليكون إلزاماً للحجة لهم . انتهى.

قال الأصبهانيّ : ويدل على صحة هذا التأويل قراءة أبيّ بن كعب رضي الله عنه (إلا ليؤمنُنَّ به قبل موتهم) بضم النون وإلحاق ميم الجمع .

والأسانيد إلى ابن عباس في هذا التأويل كلها صحيحة. كما قاله ابن كثير .

وثمة وجه آخر وهو أن الضمير الأول للنبيّ صلى الله عليه وسـلم . والثاني للـكتابيّ. رواه ابن جرير[1]: عن عكرمة قال: لا يموت النصرانيّ ولا اليهوديّ حتى يؤمن بمحمد ﷺ

(١) الأثر رقم ١٠٨١٣ من التفسير .

وتلا الآية . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول . وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب، بعد نزول عيسى عليه السلام، إلا آمن به قبل موته أى: قبل موت عيسى عليه السلام .

قال ابن كثير : ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح . لأنه المقصود من سياق الآى، فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك . فأخبر الله تعالى أنه لم يكن الأمر كذلك . وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه . وهم لايتبينّون ذلك . ثم إنه رفعه إليه . وإنه باق حىّ . وإنه سينزل قبل يوم القيامة . كما دلت عليه الأحاديث المتواترة . فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية (يعنى لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام أوالسيف) .

فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ . ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم .

ثم قال : فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى : أن كل كتابىّ لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما السلام ـ فهذا هو الواقع . وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلى له ما كان جاهلاً به فيؤمن به . ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعا له ، إذا كان قد شاهد الملك . كما قال تعالى : فى أول هذه السورة : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ... الآية[1] . وقال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ . . . الآية « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ » أى : عيسى عليه السلام « عَلَيْهِمْ » أى : على أهل الكتاب « شَهِيدًا » أى بأعمالهم التى شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

وبعد نزوله إلى الأرض . قال قتادة : يشهد عليهم أنه قد بلّغهم الرسالة من الله ، وأقرّ بعبوديته لله عز وجل . وهذا كقوله تعالى : وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . إلى قوله العزيز الحكيم (١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا)

« فَبِظُلْمٍ » أي: بسبب ظلم عظيم ؛ فالتنوين للتفخيم . وهو جامع لتفصيل نقض الميثاق وما عطف عليه مما استحلوه ، بعد أن حرمته التوراة « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا » أي تلبسوا باليهودية. وفيه تعظيم ظلمهم أيضاً . إذ صدر عنهم بعدماادعوا أنهم من أهل التوراة والرجوع إلى الحق « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » قال ابن كثير : هـذا التحريم قد يكون قدَريًّا. بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم. فحرموها على أنفسهم تضييقاً وتنطعاً . ويحتمل أن يكون شرعيًّا . بمعنى أنه تعالى حرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالًا لهم قبل ذلك . كما قال تعالى : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ (٢) . أي : ماعدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، من لحوم الإبل وألبانها . ثم إنه تعالى حرّم أشياء كثيرة في التوراة . كما قال في سورة الأنعام : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا

(١) [٥ / المائدة / ١١٦] . . . اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] . . . قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(١) . أى : إنما حرمناعليهم ذلك، لطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه .

ولما ذكر ظلمهم ذكر مجامع من جزئياته بقوله تعالى « وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : الذى لا أوضح منه ولا أسهل ولا أعظم « كَثِيرًا » أى : ناساً كثيراً . أوْ صداً كثيراً . فهم صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق . وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه . ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خلقاً من الأنبياء . وكفروا بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦١] (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ » أى : فى التوراة « وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ » أى : من اليهود المصرّين على الكفر . لا لمن تاب وآمن من بينهم « عَذَابًا أَلِيمًا » وجيعاً يخلص إلى قلوبهم .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا)

« لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ » أى : الثابتون فى العلم المستبصرون فيه. كعبد الله بن سلام .

قال الرازىّ : الراسخون فى العلم : الثابتون فيه . وهم فى الحقيقة المستدلون . لأن المقلد يكون بحيث إذا شُكِّكَ يَشُكّ . وأما المستدل فإنه لا يتشكك ، البتة . فالراسخون هم المستدلون « وَالْمُؤْمِنُونَ » أى: من الأميين اللاحقين بهم فى الرسوخ ، بصحبة رسول الله ﷺ « يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » من القرآن « وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » على سائر الأنبياء لاطلاعهم على كمالات المنزل عليك وأنه صدق ما أنزل من قبلك . فلا بد من الإيمان به أيضاً « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » قال ابن كثير : هكذا هو فى مصاحف الأئمة . وكذا هو فى مصحف أبىّ بن كعب .

قال الزمخشرىّ : ارتفاع (الراسخون) على الابتداء . و (يؤمنون) خبره و (المقيمين) نصب على المدح . لبيان فضل الصلاة . وهو باب واسع قد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد. ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف. وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان. وغبى عليه أن السابقين الأولين ، الذين مَثَلُهُم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام، وذب المطاعن عنه، من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم . وخرقاً يرفوه من يلحق بهم .

وقيل : هو عطف على (بما أنزل إليك) أى يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء . وفى مصحف عبد الله (والمقيمون) بالواو . وهى قراءة مالك بن دينار والجحدرىّ وعيسى الثقفىّ . انتهى .

وجوز عطف (المقيمين) على الضمير فى (منهم) وعطفه على الضمير فى (إليك) . والكتاب أنزل للنبىّ ولأتباعه . قال تعالى[1] : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ . كذا فى حواشى الشذور. وقد أشار الزمخشرىّ بقوله (كانوا أبعد همة) إلى ردّ ما نقل ، أن عثمان رضى الله عنه، لما فرغ من المصحف أتى به إليه . فقال : قد أحسنتم وأجملتم. أرى شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها. ولو كان المُملى من هذيل، والكاتب من قُريش، لم يوجد فيه هذا .

قال الحافظ السخاوىّ: هذا الأثر ضعيف . والإسناد فيه اضطراب وانقطاع . لأن عثمان رضى الله عنه جُعِل للناس إماما يقتدون به. فكيف يرى فيه لحنا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها ؟ وقد كتب مصاحف سبعة وليس فيها اختلاف قط ، إلا فيما هو من وجوه القراءات. وإذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع ، كيف يقيمه غيرهم[2] ؟

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٧] . . . وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

(٢) وقد نقل ابن هشام فى شرح شذور الذهب عن الإمام تقىّ الدين أبى العباس أحمد ابن تيمية رحمه الله أنه قال :

وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إنّ هـذان) لحن . وأن عثمان رضى الله عنه قال : إن فى المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها . وهذا خبر باطل لا يصحّ من وجوه :

أحدها ـ أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن فى القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم فى إزالته .

والثانى ـ أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح فى الكلام ، فكيف =

وتأول قوم اللحن فى كلامه (على تقدير صحته عنه) بأن المراد الرمز والإيماء كما فى قوله[٣]

مَنْطِقٌ رائع وتلحن أحيا نًا . وخير الكلام ما كان لحنًا

= لا يستقبحون بقاءه فى المصحف ؟

والثالث ـ أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربىّ والعجمىّ .

والرابع ـ أنه قد ثبت فى (الصحيح) أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضى الله عنه فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش .

ولما بلغ عمرَ رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ (عتى حين) على لغة هذيل ـ أنكر ذلك عليه وقال: أقرئ الناس بلغة قريش فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلامه ملخصا (قاله ابن هشام) .

(١) قائله مالك بن أسماء .

قال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : كان مالك شاعرا غزلا (ظريفا) .

وهو القائل فى جارية له :

أَمُغَطًّى منى على بصرى بالحـ ـب أم أنتِ أكمل الناس حسنًا
وحـديث ألذّه هو مما يشتهى الناعتون يُوزَنُ وزنًا
منطق صائب وتلحن أحيا نا وأحلى الحديث ما كان لحنًا

وقال المرزبانىّ : إنما أراد وصفها بالظرف والفطنة وأنها تورّى عما قصدت له وتتنكب التصريح .

وعلى هـذا فبعيد جداً تأوّل اللحن ، فى القول المزعوم نسبته إلى عثمان ، بهذا المعنى . إذ لا يستقيم مع قوله : ستقيمه العرب بألسنتها . وإنما تقيم العرب بألسنتها اللحن الذى هو الخطأ فى الإعراب ، وهو ضد الصواب .

أى: المراد به الرمز . بحذف بعض الحروف خطًّا . كألف (الصَّابِرِين) مما يعرفه القراء إذا رأوه . وكذا زيادة بعض الحروف . كذا فى (عناية الراضى) « وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » رفعه بالعطف على (الرَّاسِخُونَ) أو على الضمير فى (يُؤْمِنُونَ) أو على أنه مبتدأ ، والخبر (أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ). والوجوه المذكورة تجرى فى (الْمُقِيمِينَ) على قراءة الرفع « وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » يعنى : والمصدقون بوحدانية الله تعالى وبالبعث بعد الموت وبالثواب والعقاب . وإنما قدم الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع ، لأنه المقصود فى هـذا المقام . لأنه لبيان حال أهل الكتاب وإرشادهم . وهم كانوا يؤمنون ببعض ذلك ويتركون بعضه . فبيّن لهم ما يلزمهم ويجب عليهم « أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا » يعنى الجنة . لجمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح .

لطيفة :

فى الآية وجوه من الإعراب . أحسنها ما اعتمده أبو السعود ، من أن جملة (أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ) الخ خبر للمبتدأ الذى هو (الرَّاسِخُونَ) وما عطف عليه . وأن جملة (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ) الخ حال من (الْمُؤْمِنُونَ) مبينة لكيفية إيمانهم . أو اعتراض مؤكد لما قبله . قال : وهـذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أُوعد الأولون بالعذاب الأليم ووُعد الآخرون بالأجر العظيم . كأنه قيل إثْرَ قوله تعالى (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) لـكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجراً عظيما . وأما ما جنح إليـه الجمهور من جعل قوله تعالى (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ) الخ خبراً للمبتدأ ، ففى كمال السداد ، خلا أنه غير متعرض لتقابل الطرفين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » اعلم أنه تعالى لما حكى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، وذكر تعالى بعده أنهم لا يسألون استرشاداً، ولكن للتعنت واللجاج، وبيّن أنواعاً من فضائحهم ـ أشار إلى رد شبهتهم. فاحتج عليهم بأنه ليس بدعاً من الرسل . وأمره في الوحي كسائر الأنبياء الذين يوافقون على نبوتهم . ولم ينزل على كل واحد منهم كتاب بتمامه مثل ما أنزل على موسى . وإذ لم يكن هذا من شرط النبوة ، وَضَحَ أن سؤالهم محض تعنت .

تنبيه :

قيل : بدأ بنوح لأنه أول نبيّ شرع الله تعالى على لسانه الأحكام ، والحلال والحرام . وفي (العناية) بدأ به تهديداً لهم . لأنه أول نبيّ عوقب قومه . لا أنه أول مشرع، كما توهم . وظاهر الآية يدل على أن من قبل نوح لم يكن يوحى له كما أوحى لنبينا ﷺ . لا أنه غير موحى إليه أصلا ، كما قيل . انتهى. «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » وهم أولاد يعقوب عليهم السلام «وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾

« وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ » أى : فى السور المكية « وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ » أى : لم نسمهم لك فى القرآن . وقد أحصى بعض المدققين أنبياء اليهود والنصارى ورسلهم فوجد عددهم لا يتجاوز الخمسين . روى فى عدتهم أحاديث تكلم فى أسانيدها . منها حديث أبى ذر : إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر . صححه ابن حبان . وخالفه ابن الجوزىّ فذكره فى (موضوعاته) واتهم به إبراهيم بن هاشم . وقد تكلم فيه غير واحد « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » يعنى خاطبه مخاطبة من غير واسطة . لأن تأكيد (كلّم) بالمصدر يدلّ على تحقيق الكلام . وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك . لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر . فلا يقال: أراد الحائط يسقط إرادة. وهذا رد على من يقول: إن الله خلق كلاماً فى محلٍّ. فسمع موسى ذلك الكلام . قال الفراء : العرب تسمى كل ما يوصل إلى الإنسان كلاماً ، بأى طريق وصل . لكن لا تحققه بالمصدر . وإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام . فدل قوله تعالى (تَكْلِيماً) على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة . قال بعضهم : كما أن الله تعالى خص موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ولم يكن ذلك قادحاً فى نبوة غيره من الأنبياء ، فكذلك إنزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحاً فى نبوة من أنزل عليه كتابه منجماً من الأنبياء . كذا فى (اللباب) .

تنبيه :

يحسن فى هذا المقام إيراد عقيدة السلف الكرام فى مسألة الكلام . فإنها من أعظم مسائل الدين. وقد تحيرت فيها آراء أهل الأهواء من المتقدمين والمتأخرين. واضطربت فيها الأقوال. وكثرت بسببها الأهوال . وأثارت فتنا وجلبت محناً . وكم سجنت إماما . وبكت

أقواماً . وتشعبت فيها المذاهب . واختلفت فيها المشــارب. ولم يثبت إلا قول أهل السنة والجماعة . المقتفين لآثار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الـكرام رضى الله عنهم . فنقول : قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية عليه رحمة الرحيم السلام ، فى كتابه إلى جماعة العارف عدى بن مسافر ما نصه :

فصل

ومن ذلك الاقتصاد فى السنة واتباعها كما جاءت بلا زيادة ولا نقصان . مثل الـكلام فى القرآن وسائر الصفات ، فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة : أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود . هكذا قال غير واحـد من السلف. روى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار وكان من التابعين الأعيان قال : مازلت أسمع الناس يقولون ذلك . القرآن الذى أنزله الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذا القرآن الذى يقرؤه المسلمون ويكتبونه فى مصاحفهم . وهو كلام الله لا كلام غيره . وإن تلاه العباد وبلّغوه بحركاتهم وأصواتهم . فإن الـكلام لمن قاله مبتدئاً ، لا لمن قاله مبلغاً مؤدياً. قال الله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ[١] . وهذا القرآن فى المصاحف . كما قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ[٢] . وقال تعالى : يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ[٣] . وقال : إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ[٤] . والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه . كل ذلك يدخل فى القرآن وفى كلام الله . وإعرابُ الحروف هو من تمام الحروف . كما قال النبىّ ﷺ :

(١) [٩ / التوبة / ٦] . . . ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٨٥ / البروج / ٢١و٢٢] .

(٣) [٩٨ / البينة / ٢و٣] ونصهما : رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ . . .

(٤) [٥٦ / الواقعة / ٧٧و٧٨] .

من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات . وقال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : حفظ إعراب القرآن أحبُّ إلينا من حفظ بعض حروفه .

ثم قال رحمه الله : والتصديق بما ثبت عن النبي ﷺ ، أن الله يتكلم بصوت وينادى آدم عليه السلام بصوت ، إلى أمثال ذلك من الأحاديث . فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة . وقال أئمة السنة : القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، حيث تلى ، وحيث كتب . فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن إنها مخلوقة . لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل . ولا يقال غير مخلوقة ، لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد . ولم يقل قط أحد من أئمة السلف : إن أصوات العباد بالقرآن قديمة . بل أنكروا على من قال (لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق) وأما من قال : إن المداد قديم ـ فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة . قال الله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا . فأخبر أن المداد يكتب به كلماته . وكذلك من قال (ليس القرآن فى المصحف . وإنما فى المصحف مداد وورق وحكاية وعبارة) فهو مبتدع ضال . بل القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ هو ما بين الدفتين . والكلام فى المصحف على الوجه الذى يعرفه الناس، له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء . وكذلك من زاد على السنة فقال : إن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة ، فهو مبتدع ضال . كمن قال : إن الله لا يتكلم بحرف ولا صوت ـ فإنه أيضا مبتدع منكر للسنة . وكذلك من زاد وقال : إن المداد قديم ـ فهو ضال . كمن قال : ليس فى المصاحف كلام الله . وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون : إن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط ، كلام الله ـ فهو بمنزلة من يقول : ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه . هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفى . وكلاهما خارج عن السنة والجماعة . وكذلك إفراد الكلام فى النقطة والشكلة بدعة ، نفياً وإثباتاً . وإنما حدثت

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٩] .

هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل . فإن من قال : إن المداد الذى تنقط به الحروف وتشكل به، قديم ـ فهوضال جاهل . ومن قال : إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن ـ فهوضال مبتدع. بل الواجب أن يقال · هذا القرآن العربى هو كلام الله . وقد دخل فى ذلك حروفه بإعرابها . كما دخلت معانيه . ويقال : وما بين اللوحين جميعه كلام الله . فإن كان المصحف منقوطاً مشكولاً أطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله . وإن كان غير منقوط ولا مشكول ، كالمصاحف القديمة التى كتبها الصحابة ، كان أيضاً ما بين اللوحين هو كلام الله . فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظى لا حقيقة له . ولا يجوز أن يحدث فى الدين ما ليس منه .

وسئل رحمه الله تعالى عن رجلين تباحثا فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت . وقال أحدهما : النقط التى فى المصحف والشكل من القرآن. وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن . فما الصواب فى ذلك ؟

فأجاب رضى الله عنه : الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة يتنازع فيها كثير من الناس. ويخلطون الحق بالباطل . فالذى قال : إن القرآن حرف وصوت ، إن أراد بذلك أن هذا القرآن الذى يُقرأ للمسلمين هو كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين على محمد خاتم النبيين والمرسلين ، وأن جبرئيل سمعه من الله ، والنبى ﷺ سمعه من جبرئيل ، والمسلمون سمعوه من النبى ﷺ ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾(١) . وقال : ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾(٢) ـ فقد أصاب فى ذلك .

(١) [١٦/ النحل/ ١٠٢] . . . لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها. والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع. ومن قال : إن القرآن العربيّ لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبرئيل أو غيره ، عبّر به عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلّاب والأشعريّ ومن وافقهما ـ فهو قول باطل من وجوه كثيرة . فإن هؤلاء يقولون: إنه معنى واحد قائم بالذات . وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد. وإنه لا يتعدد ولا يتبعض. وإنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وبالعبرانية كان توراة. وبالسريانية كان إنجيلًا. فيجعلون معنى آية الكرسى ، وآية الدَّين ، وقل هو الله أحد ، وتبت يدا أبى لهب، والتوراة والإنجيل وغيرها ـ معنى واحداً . وهـذا قول فاسد بالعقل والشرع. وهو قول أحدثه ابن كلاب . لم يسبقه إليه غيره من السلف . وإن أراد قائل بالحرف والصوت ، أن الأصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذى فى المصاحف قديم أزلىّ ـ أخطأ وابتدع، وقال ما يخالف العقل والشرع . فإن النبيّ ﷺ قال(١) : زينوا القرآن بأصواتكم . فبين أن الصوت صوت القارئ . والكلام كلام البارى . كما قال تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ(٢) . فالقرآن الذى يقرؤه المسلمون

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ «الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم ».

قال الحافظ فى (الفتح) : هـذا الحديث من الأحاديث التى علقها البخاريّ ولم يصلها فى موضع آخر من كتابه . وقد أخرجه فى كتاب (خلق أفعال العباد) من رواية عبدالرحمن ابن عوسجة عن البراء ، بهذا .

وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائىّ وابن ماجة والدارمىّ ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما من هذا الوجه .

(٢) [٩ / التوبة / ٦] . . . ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

كلام الله لا كلام غيره . كما ذكر الله ذلك . وفي السنن[1] عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف فقال : ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي . قالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي . ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلّغوا كلام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[2] كقوله: إنما الأعمال بالنيات ـ يعلمون أن الحديث الذي يسمعونه حديث النبيّ ﷺ . تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه . والمحدّث بلّغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبيّ ﷺ . فالقرآن أولى أن يكون كلام الله ، إذا بلّغته الرسل عنه ، وقَرَأَهُ الناس بأصواتهم . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه. ونادى موسى بصوت نفسه . كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف . وصوت العبد ليس هو صوت الرب . ولا مثل صوته . فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وقد نص أئمة الإسلام، أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة: من أن الله ينادِي بصوت . وإن القرآن كلامه تكلم بحروفٍ وصوتٍ. ليس منه شيء كلاماً لغيره . لا جبرئيل ولا غيره . وأن العباد يقولونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم. فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ . والكلام كلام البارى . وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٢٠ ـ باب في القرآن ، حديث ٤٧٣٤

(٢) أخرجه البخاريّ في : ١ ـ كتاب الوحي ، ١ ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، حديث ١ .

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

بين صوت العبد وصوت الرب . بل يجعل هذا هو هـذا . فينفيهما جميعاً . ويثبتهما جميعا . فإذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربيّ كلام الله ، وأن يكون مناديا لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذى يقرؤه المسلمون كلام الله . كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله . ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً . لا فرق بين القديم والحادث . وهذا مصيب فى هذا الفرق دون ذاك الثانى ، الذى فيه نوع من الإلحاد والتعطيل . حيث جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق . وإذا أثبت، جَعَلَ صوت الرب هو صوت العبد، أو سكت عن التمييز بينهما ، مع قوله : إن الحروف متعاقبة فى الوجود ، مقترنة فى الذات، قديمة أزلية الأعيان ، فجعل عين صفة الرب تحل فى العبد ، ويتحد بصفته ، فقال فى نوع من الحلول والاتحاد يفضى إلى نوع من التعطيل . وقد علم أن نفى الفرق والمباينة، بين الخالق وصفاته ، والمخلوق وصفاته ، خطأ وضلال . لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها . بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد . ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذى أنزله على نبيّه محمد ﷺ . حروفه ومعانيه . وأنه ينادى عباده بصوته . ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء أصوات العباد . وعلى أنه ليس بشىء من أصوات العباد ، ولا مداد المصاحف، قديماً . بل القرآن مكتوب فى مصاحف المسلمين . مقروء بألسنتهم . محفوظ بقلوبهم . وهو كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط . لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون . ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها . فإن كتبت بلا شكل ولا نقط جاز . وإن كتبت بنقط وشكل جاز . ولم يكره، فى أظهر قولى العلماء . وهو إحدى الروايتين عن أحمد . وحكم النقط والشكل حكم الحروف فإن الشكل يبين إعراب القرآن ، كما يبين النقط الحروف . والمدادُ الذى يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط، مخلوق . وكلام الله العربيّ الذى أنزله وكتب فى المصاحف بالشكل والنقط ، وبغير شكل ونقط، ليس بمخلوق . وحكم الإعراب حكم الحروف . لكن الإعراب لا يستقل بنفسه . بل هو تابع للحروف المنقوطة . والشكل والنقط لا يستقل بنفسه . بل هو تابع للحروف

المرسومة . فلهذا لا يحتاج لتجريدها وإفرادها بالكلام . بل القرآن الذى يقرؤه المسلمون هو كلام الله: معانيه وحروفه وإعرابه . والله تكلم بالقرآن العربىّ الذىأنزله على محمد ﷺ . والناس يقرؤونه بأفعالهم وأصواتهم، والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله . وهو القرآن العربىّ الذى أنزل على نبيه . سواء كتب بشكل ونقط، أو بغير شكل ونقط . والمداد الذى كتب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق . والقرآن الذى كتب فى المصحف بالمداد هو كلام الله منزل، غير مخلوق. والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين . لأن كلام الله مكتوب فيها . واحترام النقط والشكل، إذا كتب المصحف مشكلًا منقوطًا ، كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين . كما أن حرمة إعراب القرآن لحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه . فجميعه كلام الله . فلا يقال : بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله . وهو سبحانه نادى موسى . بصوت سمعه موسى . فإنه قد أخبر أنه نادى موسى فى غير موضع من القرآن . كما قال تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١) . والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة . وقد قال تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً(٢) . فقد فرّق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى . فمن قال: إن موسى لم يسمع صوتاً، بل ألهم معناه ــ لم يفرق بين موسى وغيره . وقد قال تعالى:

(١) [٧٩ / النازعات / ١٥و١٦] .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٣و١٦٤] .

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ(١) ، وقال تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ(٢) . فقد فرّق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب . كما كلم الله موسى . فمن سوّى بين هذا وهذا ، كان ضالًّا . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره : لم يزل الله متكلماً إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته . يتكلم بشيء بعد شيء . كما قال تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(٣) . فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك . وقال تعالى : فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ(٤) . فهو سبحانه ناداهما حين ذاقا الشجرة . ولم يناداهما قبل ذلك . وكذلك قال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ(٥). بعد أن خلق آدم وصوّره . ولم يأمرهم قبل ذلك . وكذا قوله : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٦). فأخبر أنه قال له: كُنْ فَيَكُونُ.

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٣] . . . وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . . . إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١] .

(٤) [٧ / الأعراف / ٢٢] .

(٥) [٧ / الأعراف / ١١] . . . فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

(٦) [٣ / آل عمران / ٥٩] .

بعد أن خلقه من تراب . ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير . يخبر أنه تكلم فى وقت معين . ونادى فى وقت معين . وقد ثبت فى الصحيحين[١] عن النبىّ ﷺ ؛ أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ[٢] . قال : نبدأ بما بدأ الله به . فأخبر أن الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على أن كلام الله منزل غير مخلوق . منه بدأ وإليه يعود . فظن بعض الناس أن مرادهم أنه قديم العين . ثم قالت طائفة : هو معنى واحد . وهو الأمر بكل مأمور والنهى عن كل منهىّ والخبر بكل مُخْبَر . إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا . وهذا القول مخالف للشرع والعقل. وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، لازمة لذات الله ، لم تزل لازمة لذاته . وأن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً . أزلًا وأبداً . لم تزل ولا تزال . لم يسبق منها شىء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل . وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته. وإنه فى الأزل كان متكلما بالنداء الذى سمعه موسى. وإنما تجدد استماع موسى. لا أنه ناداه حين أتى الوادى المقدس . بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى . ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا : إن القرآن مخلوق ، فى أصل قولهم . فإن أصل قولهم: إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وقالوا : هذه حوادث . والرب لا تقوم به الحوادث . فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، ١٩ ـ باب حجة النبىّ ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

وهى قطعة من حديث جابر الطويل فى صفة الحجة النبوية . ولم يخرجه البخارىّ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٥٨] ... فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا . وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم . وأخطأوا فى ذلك . فلا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا . وادعوا أن الرب لم يكن قادراً فى الأزل على كلام يتكلم به ، ولا فعل يفعله . وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً . بغير أمر حدث . أو يغيّرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً . لكن يقولون : إن المقدور كان ممتنعاً . وإن الفعل صار ممكناً له ، بعد أن صار ممتنعاً عليه . من غير تجدد شىء . وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً فى الأزل على ما يمكن ، فيما لا يزال على ما لا يمكن فى الأزل . فيجمعون بين النقيضين . حيث يثبتونه قادراً فى حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم . ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل ، وبين عينه . كما لم يفرّق الفلاسفة بين هذا وهذا . بل الفلاسفة ادعوا أن مفعوله المعين قديم بقدمه . فضلّوا فى ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول . فإن الأدلة لا تدل على قدم شىء بعينه من العالم . بل تدل على أن ما سوى الله مخلوق حادث . بعد أن لم يكن . إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته . كما تدل على ذلك الدلائل القطعية . والفاعل بمشيئته لا يكون شىء من مفعوله لازما ، بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء . بل وكل فاعل لا يكون شىء من مفعوله لازماً لذاته . ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين ، له . ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة . فكيف بالفاعل بالإرادة ؟ وما يذكر بأن المعلول يقارن علته ، إنما يصح فيما كان من العلل يجرى مجرى الشروط . فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على المشروط . بل قد يقارنه . كما تقارن الحياة العلم . وأما ما كان فاعلا ، سواء سمى علة أو لم يسم ، فلابد أن يتقدم على الفعل المعين . والفعل المعين لا يجوز أن يقارنه شىء من مفعولاته . ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلتزمه مفعول معين . وقول القائل (حركت يدى فتحرك الخاتم) هو من باب الشروط لا من باب الفاعلين . ولأنه لو كان العالم قديما لكان فاعله موجبا بذاته فى الأزل . ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه . ولو كان كذلك لم يحدث شيئاً من الحوادث . وهذا خلاف المشاهدة . وإن كان هو سبحانه لم يزل قادرًا على الكلام والفعل . بل لم يزل متكلما

إذا شاء ، فاعلًا لما يشاء . ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام. والعالم فيه من الإحكام والإتقان مادل على علم الرب . وفيه من الاختصاص مادّل على مشيئته . وفيه من الإحسان مادل على رحمته . وفيه من العواقب الحميدة مادل على حكمته . وفيه من الحوادث مادل على قدرة الرب تعالى . مع أن الرب مستحق لصفات الكمال لذاته، فإنه مستحق لكل كمال ممكن للوجود . لا نقص فيه . منزه عن كل نقص . وهو سبحانه ليس له كفؤ فى شىء من أموره . فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل . منزه فيها عن التشبيه والتمثيل . ومنزه عن النقائص مطلقاً . فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل . وكماله من لوازم ذاته المقدسة . لا يستفيده من غيره . بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء . وما جعله فيهم من صفات الأحياء . وخالقُ صفات الكمال أحق بها مَن لا كفؤ له فيها . وأصلُ اضطراب الناس فى مسألة كلام الله ، أن الجهمية والمعتزلة ، لما ناظرت الفلاسفة فى مسألة حدوث العالم ، اعتقدوا أن ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثاً . بناء على أن ما لايتناهى لا يمكن وجوده . والتزموا أن الرب كان فى الأزل غير قادر على الفعل والكلام . بل كان ذلك ممتنعاً عليه . وكان معطلًا عن ذلك . وقد يعبرون عن ذلك بأنه كان قادراً فى الأزل على الفعل فيما لايزال، مع امتناع الفعل عليه فى الأزل. فيجمعون بين النقيضين . حيث يصفونه بالقدرة فى حال امتناع المقدور لذاته . إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أولا . والأزل لا أول له . والجمع بين إثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين . ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث . وهو الفعل المعين والمفعول المعين . وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام . بل هذا يكون دائما . وإن كان كلٌّ من آحاده حادثاً . كما يكون دائما فى المستقبل ، وإن كان كل من آحاده فانياً . بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائما، فإن هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل . ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك . لم ينازع فيه إلا شرذمة من المتفلسفة ، كابن سينا وأمثاله .

الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره . نخالفوا فى ذلك جماهير العقلاء . مع مخالفتهم لسلفهم ، أرسطو وأتباعه ، فإنهم لم يكونوا يقولون ذلك . وإن قالوا بقدم الأفلاك . وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين . بناءً على إثبات علة غاية لحركة الفلك . يتحرك الفلك للتشبه بها . لم يثبتوا له فاعلًا مبتدعاً . ولم يثبتوا ممكناً قديما واجباً بغيره . وهم ، وإن كانوا أجهل بالله وأكفر من متأخريهم ، فهم يسلمون لجمهور العقلاء ، أن ما كان ممكناً بذاته فلا يكون إلا محدثاً مسبوقاً بالعدم . فاحتاجوا أن يقولوا : كلامه مخلوق منفصل عنه . وطائفة وافقتهم على امتناع وجود مالا نهاية له . لكن قالوا : تقوم به الأمور الاختيارية . فقالوا : إنه فى الأزل لم يكن متكلما ، بل ولا كان الكلام مقدوراً له . ثم صار متكلما بلا حدوث حادث ، بكلام يقوم به . وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم. وطائفة قالت: إذا كان القرآن غير مخلوق ، فلا يكون إلا قديم العين ، لازماً لذات الرب . فلا يتكلم بمشيئته وقدرته . ثم منهم من قال : هو معنى واحد لايتعدد ولا يتبعض. ومنهم من قال: إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات. وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة فى أصل قولهم أنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته. وأنه لاتقوم به الأمور الاختيارية . وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض. ولن يأتىَ يوم القيامة . ولم يناد موسى حين ناداه . ولا تغضبه المعاصى ولا ترضيه الطاعات . ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا فى قوله[1] : وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، ونحو ذلك ، أنه لا يراها إذا وجدت . بل إما أنه لم يزل رائياً لها. وإمَّا أنه لم يتجدد شىء موجود، بل تعلق معدوم. إلى أمثال هذه المقالات التى خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة. مع مخالفة صريح العقل. والذى ألجأهم لذلك ، موافقتهم للجهمية على أصل قولهم : فى أنه سبحانه

(١) [٩ / التوبة / ١٠٥] ... وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

لا يقدر فى الأزل على الفعل والـكلام . وخالفوا السلف والأئمة فى قولهم : لم يزل الله متكلما إذا شاء . ثم افترقوا أحزاباً أربعة كما تقدم : الخلقية . والحدوثية . والاتحادية. والاقترانية . وشر من هؤلاء الصائبة والفلاسفة . الذين يقولون : إن الله لم يتـكلم لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتـكلم به بمشيئته وقدرته . لا قديم النوع ولاقديم العين. ولاحادث ولا مخلوق. بل كلامه عنـدهم ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون : إنه كلم موسى من سماء عقله . وقد يقولون : إنه تعالى يعلم الـكليات دون الجزئيات . فإنه إنما يعلمها على وجه كلىّ . ويقولون، مع ذلك : إنه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله . وقولهم (يعلم نفسه ومفعولاته) حق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١). لـكن قولهم، مع ذلك (إنه لا يعلم الأعيان المعينة) جهل وتناقض . فإن نفسه المقدسة معينة . والأفلاك معينة . وكل موجود معين . فإن لم يعلم المعينات لم يعلم شيئاً من الموجودات . إذ الـكليات إنما تـكون كليات فى الأذهان لا فى الأعيان . فمن لم يعلم إلا الـكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات : تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً . وهم، إنما ألجأهم إلى هذا الإلحاد فرارهم من تجدد الأحوال للبارى تعالى. إن هؤلاء يقولون : إن الحوادث تقوم بالقديم . وإن الحوادث لا أول لها . لـكن نفوا ذلك عن البارى . لاعتقادهم أنه لا صفة له . بل هو وجود مطلق . وقالوا : إن العلم نفس عين العالِم. والقدرة نفس عين القادر . والعلم والعالِم شىء واحد . والمريد والإرادة شىء واحد. فجعلوا هذه الصفة هى الأخرى . وجعلوا الصفات هى الموصوف . ومنهم من يقول : بل العلم كل المعلوم . كما يقوله الطوسىّ صاحب (شرح الإشارات) فإنه أنـكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه . وابن سينا أقرب إلى الصواب . لـكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيـام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف ، وكل صفة هى الأخرى . ولهذا كان هؤلاء هم أوغل فى الاتحاد والإلحاد ممن يقول : معانى الـكلام شىء واحد . لـكنهم

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

ألزموا قولهم لأولئك فقالوا : إذا جاز أن تكون المعانى المتعددة شيئاً واحداً ، جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هى الإرادة . فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الإلزام لا جواب عنه. ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هى الأخرى، جاز أن تكون الصفة هى الموصوف. فجاء ابن عربى وابن سبعين والقونوى ونحوهم ، فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هى الأخرى والصفة هى الموصوف ، جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق ، هو الموجود الممكن المحدث المخلوق . فقالوا: إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق . وقالوا: الوجود واحد . ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين . كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين ، والكلام الواحد بالنوع . وكان منتهى أمر أهل الإلحاد فى الكلام ، إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد . الذى قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد فى الخالق والمخلوقات . كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه ، وقالوا : هو يتكلم بحرف وصوت قديم ، قالوا : أولًا إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق الباء السين ، بل لما نادى موسى فقال : إِنِّى أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى. إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، كانت الهمزة والنون وما بينهما موجوداً فى الأزل ، يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله . ثم قال فريق منهم : إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القراء . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان : قديم ومحدث . وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم أزلى . وحكى عن بعضهم أنه قال : المداد قديم أزلى . وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه . بل منهم من يظن أنه قديم فى علمه . ومنهم من يظن أن معناه متقدم على غيره . ومنهم من يظن أن معنى اللفظ أنه غير مخلوق . ومنهم من لا يميز بين ما يقول . فصار هؤلاء حلولية اتحادية فى الصفات . ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد فى الذات والصفات . وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل . والصواب فى هذا الباب وغيره ، مذهب سلف الأمة وأئمتها : أنه

سبحانه لم يزل متكلما إذا شاء . وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لانهاية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى . وإنما ناداه حين أتى . لم يناده قبـل ذلك . وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم . وقدرته لا تماثل قدرتهم . وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد الذين عطلوا الذات أوالصفات أوالـكلام أوالأفعال ـ باطلة.وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات والصفات ـ باطلة . وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع . وقد بسطناها فى (الواجب (الـكبير). والله أعلم بالصواب. (وقال تقى الدين أيضاً فى مقالة له فى هذا البحث): أول من أظهر إنـكار التكليم والمُخَالَّة الجعد بن درهم فى أوائل المائة الثانية . وأمر علماء الإسلام ، كالحسن البصرىّ وغيره، بقتله. فضحّى به خالد بن عبد الله القسرىّ ، أمير العراق بواسط . فقال : أيها الناس ضحوا . تقبـل الله ضحاياكم. فإنى مضحٍّ بالجعد بن درهم . إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا . ولم يـكلم موسى تـكليما . تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيراً

ثم نزل فذبحه . وأخذ ذلك عنه الجهم بن صفوان . فأنـكر أن يكون الله يتـكلم . ثم نافق المسلمين فأقر بلفظ الـكلام وقال : كلامه يخلق فى محـل كالهواء وورق الشجر . ودخل بعض أهل الـكلام أوالجدل ، من المنتسبين إلى الإسلام ، من المعتزلة ونحوهم ، فى بعض مقالة الصابئة والمشركين . متابعة للجعد والجهم . وكان مبدأ ذلك أن الصابئة فى الخلق على قولين : منهم من يقول : إن السموات مخلوقة بعد أن لم تـكن . كما أخبرت بذلك الرسل وكتب الله تعالى. ومنهم من ابتدع فقال : بل هى قديمة أزلية. لم تزل موجودة بوجود الأول واجب الوجود بنفسه . ومنهم من قد ينكر الصانع بالـكلية . ولهم مقالات كثيرة الاضطراب، فى الخلق والبعث والمبدأ والمعاد . لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبلٍ من الله تعالى

يجمعهم . والظنون لا تجمع الناس فى مثل هذه الأمور . التى تعجز الآراء عن درك حقائقها إلا بوحى من الله تعالى . وهم إنما يناظر بعضهم بعضا بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور الطبيعية السفلية . وقوى الطبائع الموجودة فى التراب والماء والهواء والحيوان والمعدن والنبات . ويريدون بهذه المقدمات السفلية أن ينالوا معرفة الله ، وعلم مافوق السموات . وأول الأمر وآخره . وهذا غلط بيّن . اعترف أساطينهم بأن هذا غير ممكن . وأنهم لا سبيل لهم إلى إدراك اليقين . وأنهم إن يتبعون إلا الظن . فلما كان حال هذه الصائبة المبتدعة الضالة ومن أضلوه من اليهود والنصارى ، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهتد بهدى الله الذى بعث به رسله ، من أهل الكلام والجدل ـ صاروا يريدون أن يأخذوامآخذهم. كما أخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله[1] : لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قالوا يارسول الله ! فارس والروم ؟ قال : ومَن الناس إلا فارس والروم ؟ فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصابئة . وهو الكلام فى الأجسام والأعراض. بأن تثبت الأعراض ثم يثبت لزومها للأجسام . ثم حدوثها . ثم يقال: مالا يسبق الحوادث فهو حادث. واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا فى إثبات حدوث العالم . فلما رأوا أن الأعراض ، التى هى الصفات ، تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض ـ التزموا نفيها عن الله . لأن ثبوتها مستلزم حدوثه . وبطلان دليل حدوث العالم الذى اعتقدوا أن لادليل سواه. بل ربما اعتقدوا أنه لايصح إيمان أحد إلا به ـ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٤ ـ باب قول النبىّ ﷺ « لتتبعن سنَن من كان قبلكم ، حديث ٢٥٨٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع » فقيل : يا رسول الله ! كفارس والروم ؟ قال « ومن الناس إلا أولئك » ؟

معلوم بالاضطرار من دين الإسلام . وهؤلاء يخالفون الصابئة الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم وبأن النبوة كمال يفيض على نفس النبي . لأن هؤلاء المتكلمين أكثر حقاً وأتبع للأدلة العقلية والسمعية، لِمَا تنورت به قلوبهم من نور الإسلام والقرآن . وإن كانوا قد ضلوا في كثير مما جاء به الرسل . لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها . فوافقوا أولئك على أن الله لم يتكلم. كما وافقوهم على أنه لا علم له ولا قدرة ولا صفة من الصفات . ورأوا أن إثباته متكلما يقتضى أن يكون جسما . والجسم حادث . لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف. بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره . لأنه يفتقر من المخارج إلى ما لا يفتقر إليه غيره . ولأن فيه من الترتيب والتقديم والتأخير ما ليس في غيره . ولما رأوا أن الرسل اتفقت على أنه متكلم ، والقرآن مملوء من إثبات ذلك ـ صاروا تارة يقولون: متكلم مجازاً لا حقيقة. وهذا قولهم الأول لما كانوا في بدعتهم على الفطرة . قبل أن يدخلوا في المعاندة والجحود. ثم إنهم رأوا هذا شنيعاً فقالوا : بل هو متكلم حقيقة . وربما حكى بعض متكلميهم الإجماع. وليس عندهم كذلك . بل حقيقة قولهم وأصله ، عند من عرفه وابتدعه : إن الله ليس بمتكلم . وقالوا : المتكلم مَنْ فعل الكلام ، ولو في محل منفصل عنه . ففسروا المتكلم في اللغة بمعنى لا يعرف في لغة العرب ولا غيرهم ، لا حقيقة ولا مجازاً . وهذا قول من يقول : القرآن مخلوق . وهو أحد قولي الصابئة الذين يوافقون الرسل في حدوث العالم . وهو وإن كفر بما جاءت به الرسل ، فليس هو في الكفر مثل القول الأول . لأن هؤلاء لا يقولون: إن الله أراد أن يبعث رسولًا معيناً ، وأن ينزل عليه هذا الكلام الذي خلقه. وأنكروا أن يكون متكلما على الوجه الذي دلت عليه الكتب الإلهية ، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة . ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة ، وبين المؤمنين أتباع الرسل ، الخلافُ . فكفر هؤلاء ببعض ما جاءت به الرسل من وصف الله بالكلام والتكليم . واختلفوا في كتاب الله فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. واتبع المؤمنون ما أنزل إليهم من ربهم من أن الله تكلم بالقرآن . وأنه

كلم موسى تكليما. وأنه يتكلم. ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه كما فعل الأولون. بل ردوا تحريف أولئك ببصائر الإيمان ، الذى علموا به مراد الرسل من أخبارهم برسالة الله وكلامه. وتبعوا هذا القرآن والحديث وإجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر أتباع الأنبياء . وعلموا أن قول هؤلاء أخبث من قول اليهود والنصارى . حتى كان ابن المبارك إمام المسلمين يقول : إنَّا لنحكى كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية . وكان قد كثر ظهور هؤلاء ، الذين هم فروع المشركين ، ومن اتبعهم ، من مبدلة الصابئين ثم مبدلة اليهود والنصارى فى أوئل المائة الثانية وأوائل الثالثة ، فى إمارة أبى العباس الملقب بالمأمون ، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين . الذين كانوا قبل النصارى ، ومن أشبههم من فارس والهند . وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم . وقد تقدم أن أهل الكلام المبتدع فى الإسلام هم من فروع الصابئين . كما يقال : المعتزلة مخانيث الفلاسفة . فظهرت هذه المقالة فى أهل العلم والكلام . وفى أهل السيف والإمارة . وصار فى أهلها من الخلفاء والأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء، ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات . الذين اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم . ولم يبدلوا ويبتدعوا . وذلك لقصورٍ وتفريطٍ من أكثرهم ، فى معرفة حقيقة ما جاء به الرسول وأتباعه .

فصل

فجاء قوم من متكلمى الصفاتية الذين نصروا أن الله له علم وقدرة وبصر وحياة، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية . وفرّقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها أعراضاً ، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها أعراضاً . لأن العرض ما لا يدوم وما لا يبقى . أو ما يقوم بمتحيز أو جسم . وصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام . وهؤلاء أهل الكلام القياسىّ من الصفاتية ، فارقوا أولئك المبتدعة المعطلة الصابئة فى كثير من أمورهم . وأثبتوا الصفات التى قد يستدل بالقياس العقلىّ عليها . كالصفات

السبع . وهى الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. ولهم نزاع فى السمع والبصر والكلام . هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخبرية السمعية ؟ ولهم اختلاف فى البقاء والقدم . وفى الإدراك الذى هو إدراك المشمومات والمذوقات والملموسات. ولهم أيضاً اختلاف فى الصفات السمعية القرآنية الخبرية . كالوجه واليد . فأكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها . وكثير من متأخريهم لا يثبتها . وأما ما لا يرد إلا فى الحديث فأكثرهم لا يثبتها . ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ماعارضها من القياس العقلىّ عنده. ومنهم من يفوّض معناها. وليس الغرض هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات. وإنما المقصود القول فى رسالة الله وكلامه الذى بلغته رسله . فكان هؤلاء، بينهم وبين أهل الوراثة النبوية، قدر مشترك بما ملكوه من الطرق الصائبة فى أمر الخالق وأسمائه وصفاته. فصار فى مذهبهم فى الرسالة تركيب من الوراثتين . لبسَواحق ورثة الأنبياء بباطل ورثة أتباع الصابئة . كما كان فى مذهب أهل الكلام المحض المبتدع كالمعتزلة ، تركيب. وليس بين الأثارة النبوية وبين الأثارة الصابئة . لكن أولئك أشد اتباعاً للأثارة النبوية ، وأقرب إلى مذاهب أهل السنة ، من المعتزلة ونحوهم ، من وجوه كثيرة . ولهذا وافقهم فى بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه والحديث والتصوف، لوجوه : أحدها ـ كثرة الحق الذى يقولونه وظهور الأثارة النبوية عندهم . الثانى ـ لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة وبعضها مما ابتدع فى الإسلام . واستيلاء ما فى ذلك من الشبهات عليهم . وظنهم أنه لم يكن التمسك بالأثارة النبوية من أهل العقل والعلم إلا على هذا الوجه . الثالث ـ ضعف الأثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات والموضحة لسبيل الهدى عندهم. الرابع ـ العجز والتفريط الواقع فى المنتسبين إلى السنة والحديث . تارة يرون ما يعلمون صحته. وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ ، ويُعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور. فلما كان هذا منهاجهم ، وقالوا: إن القرآن غير مخلوق ، لما دل على ذلك من النصوص وإجماع

السلف . ولمَّا رأوا أنه مستقيم على الأصل الذى قرروه فى الصفات ، ورأوا أن التوفيق بين النصوص النبوية السمعية ، وبين القياس العقلىّ ، لا يستقيم إلا أن يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى كسائر الصفات. كما جعله الأوّلون من باب المصنوعات المخلوقات ، لا قديما كسائر الصفات . ورأوا أنه ليس إلا مخلوقاً أو قديماً ، فإن إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضى حلول الحوادث بذاته ، وهو دليل على حدوث الموصوف ، ويبطل لدلالة حدوث العالم ، ثم رأوا أنه لا يجوز أن يكون معانى كثيرة ، بل إما معنى واحداً عند طائفة ، أو معانى أربعة عند طائفة ، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هى المعنى القائم بالنفس ، وأن الحروف والأصوات ليست من حقيقة الكلام، بل دالة عليه . فتسمى باسمه إما مجازا عند طائفة أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة . وإما مجازاً فى كلام الله، حقيقة فى غيره عند طائفة. وخالفهم الأولون وبعض من يستنن أيضاً ، وقالوا : لا حقيقة للكلام إلا الحروف والأصوات، وليس وراء ذلك معنى إلا العلم ونوعه ، أو الإرادة ونوعها . فصار النزاع بين الطائفتين. وادعى هؤلاء أن الأمر والنهى والخبر صفات للكلام إضافية. ليست أنواعاً له وأقساماً . وأن كلام الله معنى واحد . إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن . وبالعبرية فهو توراة . وبالسريانية فهو إنجيل . وقال لهم أكثر الناس: هذا معلوم الفساد بالضرورة . كما قال الأولون: إنه خلق الكلام فى الهواء فصار متكلما به . وإن المتكلم مَنْ أحدث الكلام ولو فى ذاتٍ غير ذاته . وقال لهم أكثر الناس : إن هـذا معلوم الفساد بالضرورة . وقال الجمهور من جميع الطوائف : إن الكلام اسم للفظ والمعنى جميعاً . كما أن الإنسان المتكلم اسم للروح والجسم جميعاً . وإنه إذا أطلق على أحدهما فبقرينة . وإن معانى الكلام متنوعة ليست منحصرة فى العلم والإرادة ، كتنوّع ألفاظه . وإن كانت المعانى أقرب إلى الاتحاد والاجتماع. والألفاظ أقرب إلى التعدد والتفرّق . والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة . وإن لم يكن عندهم المعنى الذى هو كلام الله مخلوقاً . وفرّقوا بين كتاب الله وكلامه . فقالوا : كتاب الله هو الحروف وهو مخلوق . وكلام الله

هو معناها غير مخلوق. وهؤلاء والأولون متفقون على خلق القرآن الذى قال الأولون: إنه مخلوق. واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف ؟ هل خلقت فى الهواء أو فى نفس جبرئيل أو أن جبرئيل هو الذى أحدثها أو محمد ؟ وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل وما جاء عنهم من الكتب والأثارة من العلم . وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً . لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين . وهو أن القرآن كله كلام الله . لا يجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله . والقرآن هو القرآن الذى يعلم المسلمون أنه القرآن . حروفه ومعانيه . والأمر والنهى . هو اللفظ والمعنى جميعاً . ولهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه من جميع الطوائف : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة والفقهاء ، إذا تكلموا فى الأمر والنهى، ذكروا ذلك ، وخالفوا من قال : إن الأمر هو المعنى المجرد . ويعلمون أهل الأثارة النبوية أهل السنة والحديث وعامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة ؛ أن قوله تعالى: الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ(١). ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره. وكلام الله هو ما تكلم به، لا ما خلقه فى غيره ولم يتكلم هو به.

(وسئل تقى الدين أيضاً) ما تقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين ، فيمن يقول : الكلام غير المتكلم والقول غير القائل . والقرآن والمقروء والقارئ كل واحد منها له معنى . بينوا لنا ذلك بياناً شافياً ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد . أثابكم الله بمنه .

(فأجاب رحمه الله) : الحمد لله . من قال : إن الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل، وأراد أنه مباين له ومنفصل عنه، فهذا خطأ وضلال . وهو من يقول : إن القرآن مخلوق . فإنهم يزعمون أن الله لا تقوم به صفة من الصفات لا القرآن ولا غيره . ويوهمون الناس بقولهم : العلم غير العالِم ، والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم . ثم يقولون : وما كان

(١) [٢ / البقرة / ١ و ٢] . . . هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

غير الله فهو مخلوق . وهذا تلبيس منهم . فإن لفظ (الغير) يراد به مايجوز مباينته للآخر ومفارقته له . وعلى هذا فلا يجوز أن يقال : علم الله غيره ولا كلامه غيره . ولا يقال : إن الواحد من العشرة غيرها . وأمثال ذلك . وقد يقال بلفظ (الغير) ماليس هو الآخر . وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف . ولكن على هـذا المعنى ، لا يكون ماهو غير ذات الله الموصوفة بصفاته ـ مخلوقاً . لأن صفاته ليست هي الذات . لكن قائمة بالذات . والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله . وليس الاسم اسما لذاتٍ لا صفات لها . بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها . والصواب في مثل هـذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم . والقول صفة القائل . وكلام الله ليس مبائناً منه . بل أسمعه لجبرئيل ونزَّله به على محمد صلى الله عليه وآله وسلم . كما قال تعالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ . ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فَارَقَ ذَاتَهُ وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق . منـه بدا وإليه يعود . فقولهم (منه بدا) رد على من قال (إنه مخلوق في بعض الأجسام، ومن ذلك المخلوق ابتدأ) فبينوا أنه الله هو المتكلم به . ومنه بدا، لا من بعض المخلوقات . (وإليه يعود) أي : فلا يبقى في الصدور منه آية ، ولا في المصاحف حرف . وأما القرآن فهو كلام الله . فمن قال: إن القرآن ، الذي هو كلام الله ، غير الله ـ فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال: إن الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال : إن الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به ، فخطؤه ظاهر . وكذلك: أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه المسلمون ـ فقد أخطأ . وإن أراد بالقرآن مصدر (قرأ يقرأ قراءة وقرآنا) وقال : أردت القراءة غير المقروء ، فلفظ القراءة مجمل قد يراد بالقراءة القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر ، فمن جعل القراءة التي هي المصدر، قال : القارئ غير المقروء. كما يجعل التكلم الذي فعله غير الكلام الذي هو يقول ، وأراد بـ(الغير) أنه ليس هو إياه ـ فقد صدق. فإن الكلام الذي يتكلم به الإنسان يتضمن فعلاً كالحركة، ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف

والمعانى . ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة ، وقسيما منه أخرى . فالأول كما يقال : الإيمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم[(١)] : إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها مالم تعمل به أو تكلم. ومنه قوله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ[(٢)] . ومنه قوله تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ[(٣)] . وأمثال ذلك فيما يفرق فيه بين القول والعمل . وأما دخول القول فى العمل ففى مثل قوله تعالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[(٤)] . وقد فسروه بقوله: لا إله إلا الله . ولما سئل[(٥)] : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله.

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٥ ـ باب إذا حنث ناسياً فى الأيمان ، حديث ١٢٤٢ ، عن أبى هريرة .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٣) [١٠ / يونس / ٦١] . . . إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٢ ـ باب أى الرقاب أفضل ، حديث ١٢٤١ ونصه :

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت النبىّ ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » قلت: فأى الرقاب أفضل؟ قال « أغلاها ثمناً وأنفسُها عند أهلها » قلت: فإن لم أفعل ؟ قال « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » قال : فإن لم أفعل ؟ قال « تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدّق بها على نفسك » .

مع قوله(١) : الإيمان بضع وسبعون. والحياء شعبة من الإيمان. أفضلها وأعلاها قول: لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. ونظائر ذلك متعددة . وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملاً ، إذا قال قولاً كالقراءة ، هل يحنث ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره . بناء على هذا . فهذه الألفاظ التى فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها ، وإلا وقع فيها نزاع واضطراب ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام تقىّ الدين رحمه الله تعالى .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب (الرد على الجهمية): سألت أبى عن قوم يقولون (لما كلم الله موسى): لم يتكلم بصوت. فقال أبى: بلى. تكلم جل ثناؤه بصوت . هذه الأحاديث نرويها كما جاءت . وقال أبى : حديث ابن مسعود(٢) : إذا تكلم الله تعالى سمع له صوت

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٤ ـ باب فى ردّ الإرجاء ، حديث ٤٦٧٦ .

(٢) لم أعثر على حديث فى هذا الموضوع وبهذا اللفظ لعبدالله بن مسعود ، وإنما وقفت على حديث لأبى هريرة .

أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٤ ـ سورة سبأ ، ١ ـ باب حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، حديث ٢٠١٥ ونصه :

عن عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبىّ الله ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان . فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا (للذى قال) الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع ، هكذا بعضه فوق بعض . . .

فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان =

كمر السلسلة على الصفوان . قال : وهذه الجهمية تنكره . وهؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس . ثم قال : حدثنا المحاربى عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبيد الله قال : إذا تكلم الله تبارك وتعالى بالوحى، سمع صوته أهل السماء فيخرون سجداً .

وقال السفارينى فى (شرح العقيدة): روى فى إثبات الحرف والصوت أحاديث تزيد على أربعين حديثاً . وأخرج الإمام أحمد غالبها ، واحتج به . وأخرج الحافظ ابن حجر أيضاً فى (شرح البخارى) واحتج بها البخارى وغيره من أئمة الحديث . على أن الحق سبحانه يتكلم بحرف وصوت . وقد صححوا هذا الأصل واعتقدوه ، واعتمدوا على ذلك ، منزهين الله تعالى عما لا يليق بجلاله . من شبهات الحدوث وسمات النقص . كما قالوا فى سائر الصفات ، معتمدين على ما صح عندهم من صاحب الشريعة المعصوم فى أقواله وأفعاله ، الذى لا ينطق عن الهوى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقال الإمام الواسطى ابن شيخ الحرمين الشافعى فى (عقيدته) : إننى كنت برهة من الدهر متحيراً فى ثلاث مسائل : مسألة الصفات ، ومسألة الفوقية ، ومسألة الحرف والصوت فى القرآن المجيد . وكنت متحيراً فى الأقوال المختلفة الموجودة فى كتب أهل العصر فى جميع ذلك . من تأويل الصفات وتحريفها ، أو إمرارها والوقوف فيها . أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل . فأجد النصوص فى كتاب الله وسنة رسوله ناطقة مبينة لحقائق هذه الصفات . وكذلك فى إثبات العلو والفوقية ، وكذلك فى الحرف والصوت . ثم أجد المتأخرين من المتكلمين فى كتبهم ، منهم من تأول الاستواء بالقهر والاستيلاء . وتأول

= الساحر أو الكاهن . فربما أدركه الشهابُ قبل أن يلقيها . وربما ألقاها قبل أن يدركه . فيكذب معها مائة كذبة .

فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟

فيصدّق بتلك الكلمة التى سمع من السماء .

النزول بنزول الأمر . وتأول اليدين بالنعمتين والقدرتين . وتأول القَدَم بقدمصدق عند ربهم. وأمثال ذلك . ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله معنى قائماً بالذات ، بلا حرف ولا صوت ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم . وممن ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها قوم لهم فى صدرى منزلة . مثل بعض فقهاء الأشعرية الشافعيين . لأنى على مذهب الشافعىّ رحمه الله تعالى ، عرفت فرائض دينى وأحكامه . فأجد مثل هؤلاء الأجلة يذهبون إلى مثل هذه الأقوال . وهم شيوخى . ولى فيهم الاعتقاد التام . لعلمهم وفضلهم . ثم إننى مع ذلك أجد فى قلبى من هذه التأويلات حزازات لايطمئن قلبى إليها . وأجد الكدر والظلمة منها. وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقروناً بها . فكنت كالمتحير. المضطرب فى تحيره . المتململ من قلبه فى تقلبه وتغيره . وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول ، مخافة الحصر والتشبيه . ومع ذلك ، فإذا طالعت النصوص الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله أجدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعانى . وأجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد صرح بها مخبراً عن ربه، واصفا له بها . ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص ويؤولها كما تأولها هؤلاء الفقهاء المتكلمون . ثم قال: والذين أولوا ماأولوا، هوأنهم مافهموا فى صفات الرب إلا مايليق بالمخلوقين . فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه ، وعطلوا ما وصف الحق به نفسه . ولو علموا أن هذه الصفات هى كلها ثابتة له ، كما يليق بجلاله وعظمته ، لا على ما نعقل من صفات المخلوقين ، لسلموا من التشبيه والتأويل المؤدى إلى التعطيل .

ثم قال : ومسألة الحرف والصوت تساق هذا المساق . فإن الله تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد بجميع حروفه . فقال تعالى : آلمص[1]. وقال : قٓ ، وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ[2] . وكذلك

---

(١) [٧ / الأعراف / ١] .
(٢) [٥٠ / قٓ / ١] .

جاء فى الحديث(١) : فينادى يوم القيامة بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرُب . وفى الحديث: لاأقول (آلم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف . فهؤلاء ما فهموا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٢ ـ باب قول الله تعالى : وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . ونصه :

عن جابر عن عبدالله بن أُنيس قال: سمعت النبىّ ﷺ يقول : يحشر اللهُ العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك ، أنا الديّان .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : أخرجه بتمامه فى الأدب المفرد . وكذا أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانىّ ، كلهم من طريق همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكىّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل .

وها كم نص الحديث فى الأدب المفرد ، رقم ٩٧٠ (بتحقيقنا) :

عن ابن عقيل أن جابر بن عبدالله حدثه أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبىّ ﷺ . فابتعت بعيراً ، فشددت إليه رحلى شهراً حتى قدمت الشام . فإذا عبد الله بن أُنيس . فبعثت إليه أن جابراً بالباب . فرجع الرسول فقال: جابر بن عبدالله ؟ فقلت : نعم. فخرج فاعتنقنى . قلت: حديث بلغنى لم أسمعه. خشيتُ أن أموت أو تموت. قال: سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد ـ أو الناس ـ عراة غُرْلًا بُهْمًا » قلنا : مابهما ؟ قال « ليس معهم شىء . فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد (أحسبه قال : كما يسمعه مَن قرب) : أنا الملك . لاينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة . ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة » .

قلت : وكيف ؟ وإنما نأتى الله عراة بُهْمًا ؟ قال « بالحسنات والسيئات » .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٩٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

من كلام الله إلا ما فهموه من كلام المخلوقين . فقالوا : إذا قلنا بالحرف فإن ذلك يؤدى إلى القول بالجوارح واللهوات . وكذلك إذا قلنا بالصوت أدى ذلك إلى الحلق والحنجرة . فعملوا بهذا من التخبيط كما عملوا فيما تقدم من الصفات . والتحقيق هو أن الله تعالى تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فإنه قادر ـ والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات . وكذلك له صوت يليق به يُسمع . ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الحلق والحنجرة . فكلام الله كما يليق به، وصوته كما يليق به . ولا ننفى الحرف والصوت عن كلامه سبحانه ، لافتقارهما منا إلى الجوارح واللهوات . فإنهما فى جناب الحق لا يفتقران إلى ذلك . وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الإنسان به من التعسف والتكلف بقوله: هذا عبارة عن ذلك . فإن قيل : هذا الذى يقرؤه القارىء هو عين قراءة الله وعين تكلمه هو؟ قلنا : لا . بل القارئ يؤدى كلام الله . والكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً ، لا إلى من قاله مؤدّياً مبلغاً . ولفظ القارئ فى غير القرآن مخلوق ، وفى القرآن لا يتميز اللفظ المؤدِّى عن الكلام المؤدَّى عنه . ولهذا منع السلف من قول (لفظى بالقرآن مخلوق) لأنه لا يتميز. كما منعوا عن قول (لفظى بالقرآن غير مخلوق) فإن لفظ العبد فى غير التلاوة مخلوق وفى التلاوة مسكوت عنه . كيلا يؤدى الكلام فى ذلك إلى القول بخلق القرآن . وما أمر السلف بالسكوت عنه ، يجب السكوت عنه . والله الموفق والمعين .

تنبيه :

قال فى (العناية) : القراءة المشهورة فى الآية رفع الجلالة الشريفة . وقرئ بنصبها فى الشواذ . انتهى .

قال الحافظ ابن كثير : روى الحافظ أبو بكر بن مردويه أن رجلًا جاء إلى أبى بكر ابن عياش فقال : سمعت رجلًا يقرأ : وكلم اللهَ موسى تكليما . فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر . قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثّاب ، وقرأ يحيى بن وثّاب على

أبي عبد الرحمن السلمىّ ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمىّ على علىّ بن أبي طالب ، وقرأ علىّ بن أبي طالب على رسول الله ﷺ : وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً .

وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عيّاش ، رحمه الله ، على من قرأ كذلك ، لأنه حرّف لفظ القرآن ومعناه . وكأن هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن الله كلم موسى عليه السلام،أويكلم أحداً من خلقه . كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ : وكلم اللهَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً. فقال له:يا ابن الخنا ! كيف تضع بقوله تعالى[1] : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ . يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« رُسُلًا » أي: كل هؤلاء النبيين أرسلناهم رسلًا « مُبَشِّرِينَ » بالجنة لمن آمن « وَمُنْذِرِينَ » من النار لمن كفر « لِئَلَّا » لكيلا « يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ » يوم القيامة أي: معذرة يعتذرون بها قائلين : لولا أرسلت إلينا رسولًا فيبيّن لنا شرائعك ، ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك ، لقصور القوّة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح ، وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها . كما في قوله عز وجل : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ...الآية[2]. وإنما سميت حجة ،

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ... قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ.

(٢) [٢٠ / طه / ١٣٤] ... مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ .

مع استحالة أن يكون لأحد عليه، سبحانه، حجة فى فعل من أفعاله ، بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء ـ للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى ، بمقتضى كرمه ورحمته لعباده ، بمنزلة الحجة القاطعة التى لا مردّ لها . ولذلك قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١). أفاده أبو السعود .

وفى الصحيحين (٢) عن المغيرة: لَا أَحَدَ أحبُّ إليه العذر من الله . ومن أجل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين. وقوله تعالى «بَعْدَ الرُّسُلِ» أى: بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها : مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، . . .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٣٥ (طبعتنا) ونصه :

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ليس أحد أحبَّ إليه المدح من الله عز وجل . من أجل ذلك مدح نفسه . وليس أحـد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش . وليس أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله . من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل » .

وأخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٦ ـ سورة الأنعام، ٧ ـ باب لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

وفى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٧ ـ سورة الأعراف، ١ ـ باب إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

وفى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٧ ـ باب الغيرة .

وفى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ .

الحديث ٢٠٠٣ وكل طريق من هذه الطرق تنقص القطعة التى أوردها المؤلف وأخرجها مسلم، ضمن الحديث .

متعلق بـ (حجة) أو بمحذوف وقع صفة لها . وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل . كما قال تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا(١) . وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن معرفة الله تعالى ، لا تثبت إلا بالسمع « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا » يعنى فى انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله « حَكِيمًا » فى بعث الرسل للإنذار .

تنبيه :

أشارت الآية إلى بيان حاجة البشر إلى إرسال الرسل ، وإلى وظيفتهم عليهم السلام .

قال العلامة السيد محمد عبده، مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى هذا المبحث : أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم ، الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل ـ أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعِدّ لها، بمحض فضله، بعض من يصطفيه من خلقه ؟ وهو أعلم حيث يجعل رسالته . يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال مايليقون معه للاستشراق بأنوار علمه . والأمانة على مكنون سره . مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم ، لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه . فيشرفون على الغيب بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين . نهاية الشاهد وبداية الغائب . فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها. ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله ، وما خفى على العقول من شؤون حضرته الرفيعة ، بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدّر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه . معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول أفهامهم . وأن يبلغوا عنه شرائع عامة . تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم ، فى ذلك

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

الكون المغيّب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله . ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة . ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات . حتى تقوم بهم الحجة ويتم الإقناع بصدق الرسالة . فيكونون بذلك رسلًا من لدنه إلى خلقه، مبشرين ومنذرين .

لاريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حىّ بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلًا من خلقه ـ يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ـ أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه والضلال فى أفضل حاليه .

يقول قائل : ولِمَ لَمْ يودع فى الغرائز ما تحتاج إليه من العلم ، ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل ، وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية فى الحياة الآخرة ؟ وما هـذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث. وهو النوع الإنسانىّ . ذلك النوع ، على ما به ، وما دخـل فى تقويم جوهره من الروح المفـكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لـكل حال بطبعه، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال . فلو أُلهِمَ حاجاته كما تلهم الحيوانات، لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان إمّا حيواناً آخر، كالنحل والنمل ، أَوَمَلَـكاً من الملائـكة . ليس من سكان هذه الأرض .

ثم قال : إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ، ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلًا ، من الإلهام الهادى إلى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك إلى فـكره يتصرف فيه، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته، ولم يفض عليه، مع ذلك الشعور ، عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وإنما ألقى به فى مطارح النظر تحمله الأفـكار فى مجاريها . وترمى به إلى حيث يدرى ولا يدرى . وفى كل ذلك الويل على جامعته،

والخطر على وجوده . أفهل مُنِيَ هـذا النوع بالنقص ، ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟ نعم . هو كذلك . لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

الإنسان عجيب فى شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت . ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم . ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع ، متى عرض له أمرٌ مَّا، لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه . ذلك لسرّ عرفه المستبصرون . واستشعرته نفوس الناس أجمعين .

من ذلك الضعف قيد إلى هواه . ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته . أكمل الواهبُ الجوادُ لجملته ، ما اقتضته حكمته فى تخصيص نوعه ، بما يميزه عن غيره ، أن ينقص من أفراده. وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرِّف للحواس، لينظر فى طلب اللقمة، وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ـ جاد على الجملة بما هو أمسّ بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء . وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع . منّ عليه بالنائب الحقيقىّ عن المحبة ، بل الراجع بها إلى النفوس التى أقفرت منها . لم يخالف سنته فيه ، من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد . غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه ، وهى جهة الخضوع والاستكانة . فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين . وميزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم . وأيد ذلك، زيادة فى الإقناع، بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول . فيستخذى الطامح . ويذل الجامح . ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده. وينبهر لها بصر الجاهل فيرتدّ عن غيه. يَطرُقون القلوب بقوارع من أمر الله. ويدهشون المدارك ببواهر من آياته . فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له. ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول

والفاضل . فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري . يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم . وماأراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته. وأولئك هم الأنبياء والمرسلون . فبعثة الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، من متممات كون الإنسان . ومن أهم حاجاته في بقائه . ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١) .

ثم قال ، في الكلام على وظيفة الرسل عليهم السلام : تبين مما تقدم في حاجة العالم الإنساني إلى الرسل ، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه . ولكنها حاجة روحية ؛ وكل ما لامس الحس منها ، فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة وتقويم ملكاتها . أو إيداعها مافيه سعادتها في الحياتين . أمّا تفصيل طرق المعيشة ، والحذق في وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعِدّ للوصول إليه ، من أسرار العلم ـ فذلك مما لا دخل للرسالات فيه . إلا من وجه العظة العامة ، والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يُحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيما متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته . وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال . وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشرٍ في نفسه أو عرضه أو ماله ، بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة، على ما حدد في شريعتها .

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته . ويبيّنون الحدّ الذي يجب

(١) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً .

أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان . على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه ، ولا يرفع ثقته
بما آتاه الله من القوة . يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم
وبينه وحده . ويُنهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ؛ ويذكرونهم
بعظمته بفرض ضروب من العبادات ، فيما اختلف من الأوقات . تذكرة لمن ينسى .
وتزكية مستمرة لمن يخشى . تُقَوِّى ما ضعف منهم . وتزيد المستيقن يقيناً .

يبيّنون للناس مااختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم . فيفصلون
فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع . ويؤيدون، بما يبلغون عنه ، ما تقوم به المصالح العامة .
ولا تفوت به المنافع الخاصة . يَعُودون بالناس إلى الألفة . ويكشفون لهم سر المحبة .
ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة . ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم، ليستوطنوها
قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم . يعلمونهم لذلك أن يرعى كلٌّ حق الآخر ، وإن كان لا يغفل
حقه . وأن لا يتجاوز فى الطلب حدّه . وأن يعين قويُّهم ضعيفَهم . ويمد غنيُّهم فقيرهم .
ويهدى راشدُهم ضالَّهم . ويعلم عالمُهم جاهلهم .

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة . يسهل عليهم أن يردّوا إليها أعمالهم . كاحترام الدماء
البشرية إلا بحق . مع بيان الحق الذى تهدر له . وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا
بحق . مع بيان الحق الذى يبيح تناوله . واحترام الأعراض . مع بيان ما يباح وما يحرم
من الأبضاع . ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوّموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة
والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف
لكل مخلوق بحقه بلا استثناء .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، إلى طلب الرغائب السامية ، آخذين
فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه .
يفصّلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرّضهم لسخطه عليهم .

ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة ، وما أعدّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى . لمن وقف عندحدوده، وأخذبأوامره ، وتجنب الوقوع فى محظوراته . يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به ؛ مما لو صعب على العقل اكتناهه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظاراً لجزيل الأجر . أو إرضاءً لمن بيده الأمر . وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانىّ . لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم .

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات . فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكنّ من طبقات الأرض ؛ ولا مقادير الطول فيها والعرض . ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها . ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى إبقاء أشخاصها وأنواعها ... وغير ذلك مما وضعت له العلوم . وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم . فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . هَدَى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . يزيد فى سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصّرين . ولكن كانت سنة الله فى ذلك ، أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال . وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض ـ فإنما يقصد منه ، النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه . وحالهم ، عليهم الصلاة والسلام ، فى مخاطبة أممهم ، لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون . وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم . ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق إلى العامة ، بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة . وكذلك ما وجه إلى الخاصة ، يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة . وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم .

على كل حال ، لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح ، وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان . بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان . مطالباً لها باحترام البرهان . فارضاً عليها أن تبذل ماتستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديه من العوالم . ولكن مع التزام القصد ، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد . ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين .

انتهى .

ولما تضمن قوله تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...الآية، إثباتَ نبوته والاحتجاج على تعنتهم عليه، بسؤال كتاب ينزل عليهم من السماء ، كأنه قيل: إنهم لا يشهدون بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ »من القرآن المعجز الناطق بنبوتك. قال الزمخشري: معنى شهادة الله بما أنزل إليه ، إثباته لصحته، بإظهار المعجزات . كما تثبت الدعاوى بالبينات . إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب، بالمعجزة « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ » أي: وهو عالم به ، رقيب عليه . فالظرف حال من الفاعل . والجملة كالتفسير لما قبلها « وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ » أي: بذلك « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا » على صحة نبوتك وإن لم يشهد غيره . وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه سلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بما شهدالله بإنزاله، مع اطلاعهم على إعجازه « وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وهو دين الإسلام ، مَن أراد سلوكه « قَدْ ضَلُّوا » أى بما فعلوا « ضَلَالًا بَعِيدًا » لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا » أى الخلائقَ بإضلالهم « لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا » لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة . التى هى طريق الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا)

« إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ » أى: المؤدى إليها. وهو اكتسابهم الأعمال السيئة « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا » أى : هيّناً لا يعسر عليه ولا يستعظمه . ولما قرر أمر النبوة ، وبيّن الطريق الموصل إلى العلم بها ، ووعيد من أنكرها ، خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعيد على الرد ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : بالهدى ودين الحق والبيان الشافى الذى يجب قبوله « فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ » أى : إيماناً خيراً لكم . أو ائتوا أمرًا خيرًا لكم من تقليد المعاندين « وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : فهو قادر على تعذيبكم لعظم ملكوته . أو فهو غنىّ عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم . كما قال تعالى : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ(١) « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » فى صنعه . ولما أجاب تعالى عن شبهات اليهود وألزمهم الحجة ، جرّد الخطاب للنصارى ، زجراً لهم عما هم عليه من الكفر والضلال . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ » أى: بالإفراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٨] ونصها : وَقَالَ مُوسَى . . .

وادعاء ألوهيته . فإنه تجاوزٌ فوق المنزلة التي أُوتيهَا . وهي الرسالة . واستفيد حرمة الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد . وفي الصحيح(١) عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله . وقال الإمام أحمد(٢): حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البنانيّ ، عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد! يا سيدنا وابن سيدنا ! وخيرنا وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس! عليكم بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان. أنا محمد بن عبدالله ، عبدالله ورسوله. والله ! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل .

قال ابن كثير : تفرد به من هـذا الوجه . « وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ » أي : لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد . بل نزهوه عن جميع ذلك « إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » صفة له مفيدة لبطلان ماوصفوه به من كونه ابناً لله تعالى «رَسُولُ اللهِ» خبر المبتدأ أعني المسيح . أي: مقصور على مقام الرسالة لايتخطاه « وَكَلِمَتُهُ » أي : مكوّن بكلمته وأمره الذي هو (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة « أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ » أي : أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام « وَرُوحٌ مِنْهُ » أي بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة . وإنما أضافَهُ إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم . كما يقال : بيت الله ، وناقة الله . وقيـل : الروح هو نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم . فحملت بإذن الله . سمي النفخ روحاً لأنه ريح تخرج من الروح . وإنما أضافه إلى نفسه لأنه وجد بأمره تعالى وإذنه .

قال أبو السعود: (من) لابتداء الغاية مجازاً ، لا تبعيضية ، كما زعمت النصارى . يحكى أن طبيباً نصرانيًّا للرشيد، ناظرَ عليّ بن حسين الواقديّ المروزيّ ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى . وتلا هذه الآية . فقرأ الواقديّ : وَسَخَّرَ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب واذكر في الكتاب مريم، حديث ١٢١٤

(٢) قال الأستاذ أحمد محمد شاكر في (عمدة التفسير) : إنه الحديث رقم ١٢٥٧٨ .

لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ[1] . فقال : إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه ، تعالى علوًّا كبيراً . فانقطع النصرانيّ وأسلم. وفرح الرشيد فرحاً شديداً، ووصل الواقديّ بصلة فاخرة . وقيل : سمي روحاً ، لإحيائه الموتى بإذن الله . وقيل : لإحيائه القلوب . كما سمي به القرآن لذلك ، في قوله تعالى[2] : وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا . وقيل : أريد بالروح الوحي الذي أوحي إلى مريم بالبشارة . وقيل : جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة ، قالوا : إنه روح . فلما كان عيسى عليه السلام متكوّناً من النفخ ، لا من النطفة ، وصف بالروح . وتقديم كونه عليه السلام رسول الله في الذكر ، مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه ، في الوجود ـ لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل ، وتعيين مآل ما يحتمله، وسدّ باب التأويل الزائغ. انتهى. « فَآمِنُوا بِاللَّهِ » وخصوه بالألوهية « وَرُسُلِهِ » أي: جميعهم وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ » أي: الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم . كما ينبئ عنه قوله تعالى[3] : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وقد ذكر السيد عبد الله الهنديّ في مناظرته مع قسيس الهند حكاية عن مناظره؛ أنه

---

(١) [٤٥ / الجاثية / ١٣] . . . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . . . مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

حكى أن فرقة من النصارى تسمى (كولى رى دينس) كانت تقول: الآلهة ثلاثة: الأب والابن ومريم. قال : ولعل هذا الأمر كان مكتوباً فى نسخهم، لأن القرآن كذبهم . انتهى .

أو التقدير: ولا تقولوا: الله ثلاثة. أى ثلاثة أقانيم . وفى تعاليمهم المدرسية المطبوعة الآن مانصه : أخص أسرار المسيحية سر الثالوث. وهو إله واحد فى ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس. والأب هو الله والإبن هو الله وروح القدس هو الله. وليسوا ثلاثة آلهة. بل إله واحد موجود فى ثلاثة أقانيم متساوين فى الجوهر ومتميزين فيما بينهم بالأقنومية. وذلك لأن لهم جوهرا واحدا ولاهوتا واحدا وذاتا واحدة. وليس أحد هذه الأقانيم الثلاثة أعظم أو أقدم أو أقدر من الآخرين. لكون الثلاثة متساوية فى العظمة والأزلية والقدرة وفى كل شىء. ماعدا الأقنومية. ولا نقدر أن نفهم جيداً هذه الحقائق لأنها أسرار فائقة العقل والإدراك البشرى". انتهى كلامهم فى تعليمهم المدرسى" المطبوع فى بيروت سنة (١٨٧٦) مسيحية . فانظر إلى هذا التناقض والتمويه . يعترفون بأن الثلاثة آلهة . ثم يناقضون قولهم وينكرون ذلك .

ونقل العلامة الشيخ رحمة الله الهندى" فى كتابه (إظهار الحق) عن صاحب (ميزان الحق) النصرانى" أنه قال : نحن لا نقول : إن الله ثلاثة أشخاص أو شخص واحد . بل نقول بثلاثة أقانيم فى الوحدة . وبين الأقانيم الثلاثة وثلاثة أشخاص بُعد السماء والأرض . انتهى .

قال رحمة الله : وهذه مغالطة صرفة . لأن الموجود لا يمكن أن يوجد بدون التشخص . فإذا فرض أن الأقانيم موجودون وممتازون بالامتياز الحقيقى" ، كما صرح هو بنفسه فى كتبه ، فالقول بوجود الأقانيم الثلاثة هو بعينه القول بوجود الأشخاص الثلاثة . على أنه وقع فى الصحيفة التاسعة والعشرين من كتاب الصلاة، الرائج فى كنيسة انكلترة ، المطبوع سنة (١٨١٨) ماترجمته : أيها الثلاثة المقدسون والمباركون والعالون منزلةً، الذين هم واحد. يعنى ثلاثة أشخاص وإلها واحداً . فوقع فيه ثلاثة أشخاص صريحاً . وكذلك مملوءة بعبارات

مصرحة بأن عيسى ابن الله، وأنه الله، وأن مريم أم الله وزوجة الله . ويسجدون لها ولصورتها السجود المحرَّم فى كتبهم لغير الله، كما يسجدون لله . نسأله سبحانه وتعالى الحفظ . ونعوذ به من الخذلان وتسويلات الشيطان .

ولقد شفى الغليل الأستاذ الجليل الشيخ رحمة الله فى (إظهار الحق) فساق ، فى الباب الرابع منه، إبطال التثليث بالبراهين الدامغة والحجج البالغة . كما رد عليهم من المسلمين وممن أسلم منهم عدد وافر يفوت الحصر . وقد انتشر ، ولله الحمد ، فى ذلك مؤلفات نافعة . بل رد عليهم فرق كثيرة منهم. فقد جاء فى كتاب (الرأى الصواب وفصل الخطاب) للقس جبارة ما صورته : إن المسيحيين الموحدين الذين ظهروا منذ (٨٠) سنة فى أميركا ولهم الآن ثلاثمائة كنيسة والدرجة الأولى فى المعارف والمدارس والاجتماعات الأدبية ، وكذلك لهم فى انكلترا ثلاثمائة كنيسة وتآليف عديدة معتبرة ، ويعتبرون القرآن كما يعتبرون الإنجيل والتوراة كتباً إلهية ـ لا يؤمنون بتثليث الآلهة . أى إنهم لا يعتقدون بكون السيد المسيح أو الروح القدس هو إله حقيقىّ. كالله الواجب الوجود. بل يعتقدون أن الله وحده هو الإله الحق. انتهى.

وفيه أيضاً مالفظه : كل الكتب المنزلة تعلّم بالوحدانية وتنفى تثليث الآلهة. أو كون الله ثلاثة. وتعلن صريحاً بأوضح العبارة: أن الله واحد أحد. وأنه لا إله حقًّا سواه . انتهى .

وفى كتاب (سوسنة سليمان) ذكر فرق منهم متعددة صارت إلى إنكار ألوهية المسيح والروح القدس. وهذا الكتاب ساق من فرقهم العتيقة والحديثة واختلافهم مايقضى بالعجب. مما يؤيد ما قاله الحافظ ابن كثير، من أن لهم آراء مختلفة وأقوالاً غير مؤتلفة . ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً . انتهى.

قال شيخ الإسلام تقىّ الدين بن تيمية فى (الرسالة القبرصية) : فتفرّق النصارى فى التثليث والاتحاد تفرقاً وتشتتوا تشتيتاً لا يقرّ به عاقل ولم يجىء نقل . إلا كلمات متشابهات فى الإنجيل وما قبله من الكتب . قد بينتها كلمات محكمات فى الإنجيل وما قبله . كلها تنطق

بعبودية المسيح وعبادته لله وحده . ودعائه وتضرعه . ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسله ، كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله . فأرباب التثليث فى الوحدانية ، والاتحاد فى الرسالة ، قد دخل فى أصل دينهم من الفساد ما هو بيّن بفطرة الله التى فطر الناس عليها، وبكتب الله التى أنزلها . انتهى .

وقد اجتمع لدىّ ، بحمده تعالى ، حين كتابة هذه السطور عشرون مؤلَّفا فى الرد عليهم. وكلها ، ولله الحمد ، مطبوعة منتشرة . فلا حاجة للإطالة بالنقل عنها . لسهولة الوقوف عليها .

قال الماوردىّ فى (أعلام النبوّة) : فأما النصارى فقد كانوا، قبل أن تنصر قسطنطين الملك، على دين صحيح فى توحيد الله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام . ثم اختلفوا فى عيسى بعد تنصر قسطنطين. وهو أول من تنصر من ملوك الروم . أى لأن الروم كانوا صابئة . ثم قهرهم على التنصر قسطنطين لما ملكهم . فقال أوائل النسطورية : إن عيسى هو الله . وقال أوائل اليعاقبة : إنه ابن الله . وقال أوائل الملكانية : إن الآلهة ثلاثة . أحدهم عيسى . ثم عدل أواخرهم عن التصريح بهذا القول المستنكر ، حين استنكرته النفوس ، ودفعته العقول ، فقالوا : إن الله تعالى جوهر واحد . هو ثلاثة أقانيم : أقنوم الأب . وأقنوم الابن . وأقنوم روح القدس . وأنها واحدة فى الجوهرية . وأن أقنوم الأب هو الذات . وأقنوم الابن هو الكلمة . وأقنوم روح القدس هو الحياة . واختلفوا فى الأقانيم . فقال بعضهم : هى خواص. وقال بعضهم : هى أشخاص . وقال بعضهم : هى صفات . وقالوا : إن الكلمة اتحدت بعيسى . واختلفوا فى الاتحاد .

ثم قال : وليس لهذه المذاهب شبهة تقبلها العقول . وفسادُها ظاهر فى المعقول . وقوله تعالى « انْتَهُوا » أى : عن التثليث « خَيْرًا لَكُمْ » أى : انتهاء خيرا . أو اقصدوا خيراً من التثليث وهو التوحيد « إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أى: بالذات . لاتعدد فيه بوجهٍما. وبقوله « سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ » تنزيه لمقامه جل شأنه ، عما زعموه من بنوّة عيسى

حيث قالوا : إنه الله وابن الله . والذى أوقعهم فى هذه المهلكة الوخيمة ، والورطة الجسيمة، ما ورد موهماً من ألفاظ الإنجيل كالأب والابن . فلم يحملوها على ما أريد منها . وحملوها على ظاهرها. فضلُّوا وأضلُّوا . وفى (منية الأذكياء) ما نصه : وأما ما ورد فى الإنجيل الموجود الآن ، من إطلاق ابن الله على عيسى عليه السلام، فهو ـ إن لم يكن مما حرّف ـ يكون مجازاً ، بمعنى ابن المحبة . كما يقال: فلان من أبناء الدنيا . ونظير ذلك قول عيسى عليه السلام لليهود ، حين ادعوا أن لهم أباً واحداً هو الله : (لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى) . ثم قال لهم : (أنتم من أب هو إبليس . وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا .) ادعت اليهود أن الله تعالى أبوهم . أى أنهم مطيعون له إطاعة الابن للأب . فكذبهم عيسى عليه السلام وجعلهم أبناء الشيطان . أى أنهم مطيعون له . ولا يخفى أن الابن والأب هنا مجازان . وقد كثر إطلاق اسم الأب على الله تعالى . واسم الابن على العبد الصالح ، فى الكتب السالفة . فهو إما من الخبط فى الترجمة . وإما مؤوّل بما ذكرنا، فلا تغفل . لكن قد منع من هذا الإطلاق فى الملة المحمدية بالكلية ، تحرزاً من الإيهام والوقوع فى شرك الأوهام . وهذا هو الطريق الرشد . وقوله تعالى « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تعليل لتنزهه مما نسب إليه . بمعنى أن كل مافيهما خلقه وملكه . فكيف يكون بعض ملكه جزءًا منه؟ إذ البنوّة والملك لا يجتمعان « وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا » أى : إليه يكل كل الخلق أمورهم . وهو غنىّ عنهم . فأنَّى يتصور فى حقه اتخاذ الولد ، الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً)

« لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ » جملة مستأنفة لتقرير ما سبق من التنزيه . أى: لن يأنف من أن يكون عبدًا لله. فإن عبوديته شرف يتباهى به «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » من أن يكونوا عبيداً له تعالى. واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء .

قال الزمخشرىّ : أى : ولا من هو أعلى منه قدرًا وأعظم منه خطرًا . وهم الملائكة الكروبيون. الذين حول العرش . كجبريل وميكائيل وإسرافيل ، ومَن فى طبقتهم .

ثم قال : فإن قلت : من أين دل قوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) على أن المعنى: ولا من فوقه ؟ قلت : من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك . وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوّهم فى رفع المسيح عن منزلة العبودية . فوجب أن يقال لهم : لن يترفع عيسى عن العبودية . ولا من هو أرفع منه درجة . كأنه قيل : لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية. فكيف بالمسيح ؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة، تخصيص المقربين . لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة . ومثاله قول القائل[1] .

وما مثله ممن يُجَاوِدُ حَاتِمٌ ولا البحرُ ذو الأمواج يَلْتَجُّ زَاخِرُهْ

لا شبهة فى أنه قصد بالبحر ذى الأمواج ، ما هو فوق حاتم فى الجود . ومن كان له

(١) لم أعثر على هذا البيت فى غير هذا الموضع فلا أعلم قائله . ممن يجاود أى : ممن يجاوده حاتم . والمجاودة مفاعلة من الجود . وزخر البحر يزخر زخراً وزُخُورا : طما وتملّأ . والتجّ البحر : تلاطمت أمواجه .

ذوق فليذق، مع هذه الآية قوله : وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ[(١)] ، حتى يعترف بالفرق البين . انتهى .

قال البيضاوىّ : وجوابه أن الآية : للرد على عبدة المسيح والملائكة . فلا يتجه ذلك . وإن سلم اختصاصها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير . كقولك : أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤس . وإن أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة ، وهم الكروبيون ، الذين هم حول العرش ، أو من أعلى منهم رتبة من الملائكة، على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه . انتهى .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف): وقد كثر الاختلاف فى تفضيل الأنبياء على الملائكة. فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء. وذهب القاضى أبو بكر، منّا، والحليمىّ وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة . واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدتهم فى تفضيل الملائكة . من حيث الوجه الذى استدل به الزمخشرىّ. ونحن بعون الله نشبع القول فى المسألة من حيث الآية . فنقول: أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة . أحدها ـ أن سيدنا محمدًا عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام . فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح ، أن تكون أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام . وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدّع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء ، أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة . وبين طائفتنا فى هذه الطرف خلاف (السؤال الثانى) أن قوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) صيغة جمع . تتناول مجموع الملائكة . فهذا يقتضى كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح.

(١) [٢ / البقرة / ١٢٠] ونصها : وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح . وفى هـذا السؤال أيضا نظر . لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائـكة ، فقديقال يلزمه القول بأنه أفضل من الـكل . كما أن النبيّ عليه الصلاة والسلام ، لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء ، كان أفضل من كلهم . ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل ، والتفضيل على الجملة أحدٌ ممن صنف فى هذا المعنى . وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين ، وادعى أنه لا يلزم منه ، على التفصيل ، تفضيل على الجملة . ولم يثبت عنه هـذا القول . ولو قاله أحد فهو مردود بوجه لطيف . وهو : أن التفضيل المراد ، جل أماراته رفع درجة الأفضل فى الجنة . والأحاديث متوافرة بذلك . وحينئذ لا يخلو إما أن ترفع درجة واحد من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم ، أو لا ترفع درجة أحد منهم عليه . لا سبيل إلى الأول . لأنه يلزم منـه رفع المفضول على الأفضل . فتعين الثانى وهو ارتفاع درجة الأفضـل على درجات المجموع ، ضرورة . فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم، قطعاً . الثالث أنه عطف الملائـكة على المسيح بالواو . وهى لا تقتضى ترتيبا. وأما الاستشهاد بالمثال المذكور على أن الثانى أبدا يكون أعلى رتبة ، فمعارض بأمثلة لا تقتضى ذلك. كقول القائل : ما عابنى على هذا الأمر زيد ولا عمرو . قلت : وكقولك لاتؤذ مسلماً ولاذميّاً. فإنهذا الترتيب وجه الـكلام. والثانى أدنى وأخفض درجة . ولوذهبت تعـكس هذا ، فقلت : لا تؤذ ذمياً ولامسلماً، ليجعل الأعلى ثانياً، لخرجت عن حد الـكلام وقانون البلاغة . وهذا المثال بين مايورد فى نقض القانون المقرر. ولـكن الحق أولى من المراء . وليس بين المثالين تعارض . ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء. فنقول : النـكتة فى الترتيب فى المثالين الموهوم تعارضهما واحـدة . وهى توجب فى مواضع تقديم الأعلى ، وفى مواضع تأخيره . وتلك النـكتة مقتضى البلاغة التنائى عن التـكرار والسلامة عن النزول . فإذا اعتمدت ذلك فمهماأدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولًا بالنسبة

إلى أوله ، أو يكون الآخر مندرجاً فى الأول ، قدأفاده . وأنت مستغن عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، واستئنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأول. مثاله الآية المذكورة . فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة وأعلى رتبة ، لكان ذكر الملائكة بعده كالمستغنى عنه . لأنه إذا كان الأفضل وهو المسيح ، على هذا التقدير ، عبدًا لله غير مستنكف من العبودية ـ لزم من ذلك أن من دونه فى الفضيلة أولى أن لا يستنكف عن كونه عبدا لله ، وهم الملائكة على هذا التقدير. فلم يتجدد إذًا بقوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) إلا ماسلف أول الكلام . وإذا قدرت المسيح مفضولًا بالنسبة إلى الملائكة ، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبدا له ، إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك . وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل . فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة . إذ لم يستلزم الأول الآخر . فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده وتتزايد. وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز . لأنه الغاية فى البلاغة . وبهذه النكتة يجب أن نقول : لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً . فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب فى الآية . لأنك إذا نهيته عن إيذاء المسلم ، فقد يقال ذاك من خواصه احتراماً للإسلام . فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر المسلوبة عنه هذه الخصوصية . فإذا قلت : ولا ذمياً ـ فقد جددت فائدة لم تكن فى الأول . وترقيت من النهى عن بعض أنواع الأذى ، إلى النهى عن أكثر منه . ولو رتبت هذا المثال كترتيب الآية ، فقلت : لا تؤذ ذمياً ، فهم النهى أن أذى المسلم أدخل فى النهى . إذ يساوى الذمىّ فى سبب الاحترام وهو الإنسانية مثلا ، ويمتاز عنه بسبب أجلّ وأعظم وهو الإسلام . فيقنعه هذا النهى عن تجديد نهى آخر عن أذى المسلم . فإن قلت : ولا مسلماً ، لم تجدد له فائدة . ولم تعلمه غير ما علمه أولًا . فقد علمت أنها نكتة واحدة ، توجب أحياناً تقديم الأعلى ، وأحياناً تأخيره . ولا يميز لك ذلك إلا السياق . وما أشك أن سياق الآية يقتضى تقديم الأدنى وتأخير الأعلى . ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة

قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ (١) . استغناء عن نهيه عن ضربهما فما فوقه . بتقدير الأدنى. ولم يلق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهياً عن أعلى من التأفيف والإنهار (كذا) . لأنه مستغنى عنه . وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها (﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾)(٢) ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية لتفضيل الملائكة ، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيدة عند المعتقد لذلك ، جمع بين الآية وتلك الأدلة بحمل التفضيل فى الآية على غير محل الخلاف . وذلك أن تفضيل الملائكة فى القوة وشدة البطش وسعة التمكن والاقتدار. قال : وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية . لأن المقصود الرد على النصارى فى اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام . مستندين إلى كونه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص(٣). وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة . فناسب ذلك أن يقال : هذا الذى صدرت على يديه الخوارق ، لا يستنكف عن عبادة الله تعالى . بل من هو أكثر خوارق وأظهر آثاراً . كالملائكة المقربين الذين من جملتهم جبريل عليه السلام . وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه . فقلب عاليها

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ .

(٣) [٣ / آل عمران/ ٤٩] ونصها : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

سافلها. فيكون تفضيل الملائكة ، إذاً ، بهذا الاعتبار . لا خلاف أنهم أقوى وأبطش وأن خوارقهم أكثر . وإنما الخلاف فى التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات فى دار الجزاء . وليس فى الآية عليه دليل . ولما كان أكثر مالبس على النصارى فى ألوهية عيسى كونه مخلوقاً ، أى: موجوداً من غير أب ، أنبأنا الله تعالى أن هـذا الموجود من غير أب، لا يستنكف من عبادة الله . بل ولا الملائكة المخلوقون من غير أب ولا أم . فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى . ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام . فنظر الغريب بالأغرب . وشبه العجيب من قدرته بالأعجب . إذ عيسى مخلوق من أم . وآدم من غير أم ولا أب . ولذلك قال[1] : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . ومدار هذا البحث على النكتة التى نبهت عليها . فمتى استقام اشتمال المذكور أياًمّا على فائدة ، لم يشتمل عليها الأول بأى طريق كان ، من تفضيل أوغيره ، من الفوائد ـ فقد استدّ النظر وطابق صيغة الآية والله أعلم . وعلى الجملة فالمسألة سمعية. والقطع فيها معروف بالنص الذى لا يحتمل تأويلا . ووجوده عسر، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. انتهى. « وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ » أى : يأنف منها ويمتنع « وَيَسْتَكْبِرْ » أى : يتعظم عنها ويترفع « فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً » أى : فيجمعهم يوم القيامة لموعدهم الذى وعدهم ، ويفصل بينهم بحكمه العدل .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩] ونصها : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » فلم يستكبروا عن عبوديته « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فلم يستنكفوا عن عبادته « فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ » أى ثواب أعمالهم من غير أن ينقص منها شىء « وَيَزِيدُهُمْ » أى: على أجورهم شيئاً عظيماً : « مِنْ فَضْلِهِ » بتضعيفها أضعافاً مضاعفة، مبالغة فى إعزازهم « وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا » أى : عن عبادة الله عزوجل « فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » هو عذاب النار « وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا » يواليهم ليعزهم « وَلَا نَصِيرًا » ينصرهم ويدفع عنهم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ » لما بيّن تعالى بطلان ما عليه الكفرة على طبقاتهم من فنون الكفر والضلال ، عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وسماه برهاناً لما أوتيه من البراهين القاطعة التى شهدت بصدقه . ففيه تنبيه لهم على أن الحجة قد تمت ببعثته . فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل . قال أبو السعود: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين، لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا » أى: ضياءً واضحاً على الحق . يهتدى به من ظلمات الضلال . وهو القرآن .

القول فى تأيل قوله تعالى :

[١٧٥] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ » أى : عصموا به أنفسهم مما يُردِيها من زيغ الشيطان « فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ » وهى الجنة « وَفَضْلٍ » يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة . كالنظر إلى وجهه الكريم وغيره من مواهبه الجليلة « وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » فيسلكهم ، بتمسكهم بالبرهان والنور المبين ، الطريق الواضح القصد . وهو الإسلام . وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة ، على الوعد بالهداية إليها ، على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين ـ للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلىّ . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧٦] (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« يَسْتَفْتُونَكَ » أى: فى ميراث الكلالة. استغنى عن ذكره لوروده فى قوله سبحانه « قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ » وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة . والمستفتى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما. روى الشيخان(٢) وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : دخل علىّ النبىّ ﷺ وأنا مريض. فتوضأ فصب علىّ. أوقال: صبوا عليه. فعقلت فقلت : لايرثنى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٢١ ـ باب وضوء العائد للمريض، حديث ١٥١ .

إلا كلالة . فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض « إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ » أى: مات. واختصاص الهلاك بميتة السوء عُرْفٌ طارئ لا يعتد به . بدليل ما لا يحصى من الآى والأحاديث . ولطروّ هذا العرف قال الشهاب فى (شرح الشفاء) : إنه يمنع إطلاقه فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولا يعتدّ بأصل اللغة القديمة ، كما لا يخفى عمن له مساس بالقواعد الشرعية والله أعلم . كذا فى (تاج العروس) . « لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ » أى : الميت، من المال .

قال ابن كثير : تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفى فى وجود الكلالة انتفاء الولد . وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير(١) عنه بإسناد صحيح . ولكن الذى يرجع إليه ، قول الجمهور. وقضى الصديق رضى الله عنه ؛ أنه الذى لا ولد له ولا والد . ويدل على ذلك قوله (وَلَهُ أُخْتٌ) ولو كان معها أب لم ترث شيئاً ، لأنه يحجبها بالإجماع . فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد بالنص أيضاً، عند التأمل أيضاً . لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد . بل ليس لها ميراث بالكلية. وروى الإمام أحمد(٢) عن زيد بن ثابت أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم ؟ فأعطى الزوج النصف والأخت النصف . فكلم فى ذلك فقال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بذلك . وقد نقل ابن جرير(٣) وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان (فى الميت ترك بنتاً وأختاً) : أنه لا شىء للأخت لقوله(إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ) قال : فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً . فلا شىء للأخت . وخالفهما الجمهور فقالوا (فى هذه المسألة) : للبنت النصف بالفرض . وللأخت النصف الآخر بالتعصيب. بدليل غير هذه الآية . وهذه نصت أن يفرض لها فى هذه الآية . وأما وراثتها بالتعصيب.

(١) الأثران : ٨٧٤٨ و٨٧٦٧ .

(٢) المسند بالصفحة ١٨٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة ٤٤٣ من الجزء التاسع (طبعة المعارف) .

فلما رواه البخاري[١] من طريق سليمان عن إبراهيم الأسود قال : قضى فينا معاذ بن جبل ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، النصف للبنت والنصف للأخت . ثم قال سليمان (قضى فينا) ولم يذكر (على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وفي صحيح البخاري[٢] أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبوموسى الأشعري عن بنت ، وبنت ابن ، وأخت؟ فقال . للبنت النصف وللأخت النصف ، وائت ابن مسعود فسيتابعني . فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين . أقضي فيها بما قضى النبي صلى الله عليه وسلم : النصف للبنت . ولبنت الابن السدس، تكملة للثلثين . وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ » أي : والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة، وليس لها ولد . أي: ولا والد . لأنها لو كان لها ولد لم يرث الأخ شيئاً . فإن فرض أن معه من له فرض، صرف إليه فرضه . كزوج أو أخ من أم . وصرف الباقي إلى الأخ . لما ثبت في الصحيحين[٣] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ألحقوا الفرائض بأهلها . فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر . وقوله تعالى « فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ » أي: فإن كان، لمن يموت كلالة، أختان ـ فرض لهما الثلثان . وكذا مازاد على الأختين في حكمهما . ومن هنا أخذ الجماعة حكم البنتين . كما استفيد حكم الأخوات من البنات

(١) أخرجه البخاري في : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٦ ـ باب ميراث البنات ، حديث ٢٤٩٧ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٨ ـ باب ميراث ابنة ابن مع ابنة ، حديث ٢٤٩٨ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٥ ـ باب ميراث الولد من أبيه وأمه ، حديث ٢٤٩٦ .

ومسلم في : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث ٢و٣ (طبعتنا) .

فى قوله : (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَاتَرَكَ)(١) . وقوله تعالى «وَإِنْ كَانُوا» أى : من يرث بطريق الاخوة « إِخْوَةً » أى مختلطة « رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ » أى منهم « مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ » أى مثل نصيب اثنتين من أخواته الإناث « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى : كراهة أن تضلوا فى ذلك . أو على تقدير (اللام ولا) فى طرفى (أَنْ) أى لئلاتضلوا. وقيل : ليس هناك حذف ولا تقدير . وإنما هو مفعول (يبين) أى : يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتم وطباعكم . لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه . ورجحه بعضهم بأنه من حسن الختام ، والالتفات إلى أول السورة وهو(٢) (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) فإنه أمرهم بالتقوى . وبين لهم ما كانوا عليه فى الجاهلية . ولما تم تفصيله قال لهم : إنى بينت لكم ضلالكم فاتقونى كما أمرتكم . فإن الشر إذا عرف اجتنب . والخير إذا عرف ارتكب .

قال العلامة أبوالسعود : وأنت خبير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان بيانه تعالى على طريقة تعيين مواقع الخطأ والضلال ، من غير تصريح بما هو الحق والصواب . وليس كذلك .

---

(١) [٤ / النساء / ١١] ونصها : يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً .

(٢) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً .

« وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ » من الأشياء التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم « عَلِيمٌ » مبالغ فى العلم . فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم .

تنبيهات

الأول ـ اعلم أنه تعالى لما بين فى أول السورة أحكام الأموال ، ختم آخرها بذلك أيضاً ، ليكون الآخر مشاكلا للأول . وأما وسط السورة فقد اشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفة للدين .

الثانى ـ نزل فى الكلالة آيتان : إحداهما فى الشتاء ، وهى التى فى أول هذه السورة . والأخرى فى الصيف وهى هذه الآية . ولهذا تسمى هذه الآية آية الصيف .

الثالث ـ روى البخارىّ[1] ومسلم عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : آخر سورة نزلت براءة . وآخر آية نزلت : يَسْتَفْتُونَكَ . والله سبحانه وتعالى أعلم . وهو الموفق والمعين .

وقد تم بحمده تعالى ما تيسر من (محاسن تأويل) هذه السورة الكريمة . ضحوة الجمعة، غرة صفر الخير عام(١٣٢٠). فى السدّة اليمنى العليا من جامع السنانية .
على يد كاتبه وجامعه العبدالضعيف الذليل المجهول ، محمد جمال
الدين القاسمىّ ، غفر المولى له وأعانه على الإتمام
بمنـه وكرمه

ويليه الجزء السادس. وأوله: (سورة المائدة)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٢٧ ـ باب يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ، حديث ١٩٤١ .
ومسلم فى : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث ١٠ ـ ١٣ (طبعتنا) .

جـــدول

بيان الخطأ والصواب الذى جاء بالجزء الرابع

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد السيد محمد بهجة البيطار ، حفظه الله .

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٧٥٢	١٧	ثلاثة معانٍ
٧٦١	١٢	لا يُعْـلم معناها
٧٦٥	٥	« تُرْزَقَانِهِ »
٧٦٦	٣	تعويلا
٧٧١	١٦	« وَاصْبِرْ »
٧٧٣	١١	أحدها
٧٧٤	٤	غلوًّا
٧٧٨	٥	« أَقْفَالُهَا »
٧٧٩	٧	« يُسَبِّحْنَ »
٧٨٤	٣	القرآن
—	٦	تَأْوِيلَهُ
٧٨٥	١٢	« مِنْ عِلْمٍ »
٧٨٦	١٠	يُستنكر
٧٨٧	١٢	لعله : ومنهم مَنْ عَـكَسَ
٧٩٨	١٩	« بِالْقِسْطِ »
٨٠١	١٤	تخويف
٨٠٢	١٠	« الْتَقَتَا »
٨١١	١٢	« مَا جَاءَهُمْ »
—	١٩	« مِمَّا تُشْرِكُونَ »

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٨١٣	٢٠	« رَبَّكَ »
٨١٩	١٥	باستعظام
٨٢٠	٩	وإماتة
٨٢٠	١٢	المالكية
٨٢٢	١٨	« كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ »
٨٢٤	١٠	على هذا
٨٢٦	١٠	التكفير
٨٣١	١٤	سبعة مواضع
٨٣٣	١٦	« رَبِّ إِنِّى »
٨٣٤	٩	لاسيما
٨٣٦	٥	ممدودًا
٨٤٠	٨	تعالى
٨٤٠	١١	« وَالْإِبْكَارِ »
٨٤٣	٢٠	« رَحْمَةً »
٨٤٨	٣	السابعةَ عشْرةَ
٨٤٨	٣	لا تظنوا
٨٥٣	١٦	قوله تعالى
٨٥٧	١	منا ومنكم
٨٦٣	١١	فى كتابكم
٨٧٢	١١	« يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ »
٨٧٨	١٤	« لَا يَسْتَكْبِرُونَ »
٨٨٩	٩	« البرّ »
٨٩٠	١و٣	البرّ

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٨٩٧	١١	خلاها
٨٩٨	١٤	أحدها
٩١٥	٦	كبِرت
٩١٦	٢٠	(٢)
٩٢١	٥	يخصّ
٩٢١	٦	ثابتا
٩٢١	١٢	« وَأُولَـئِكَ »
٩٢٨	٥	(٢)
٩٢٩	١٥	ثلاث
٩٣١	٩	«أَخَذْنَا »
٩٣٢	١١	« إِلَىٰ رَبِّهَا »
٩٣٣	آخر سطر	عبس
٩٤١	١٧	« عَلَى الصَّلَوَاتِ »
٩٤٣	١٢	وإيثار
٩٥٤	١٤	يمكث
٩٦٥	٢٠	« تَـكُونُ »
٩٦٦	١٠	(١)
٩٨٠	١٥	الأمرين
٩٨٠	١٩	« فى ابْتِغَاءِ »
٩٨١	١٣	« أَنْ تَدْخُلُو »
٩٨١	١٦	[٣/آل عمران/ ١٤٢] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٩٨٩	١٦	نَعَى عليهم
٩٩٩	٥	أو بقوله
١٠٠٧	١٩	التشبيه
١٠١٧	٩	على ظهر
١٠١٧	١٤	معاصيها
١٠٢٠	٨	لا سيما
١٠٢٤	١١	« وَمَا كَانَ »
١٠٢٨	٩	« وَيُزَكِّيهِمْ »
١٠٢٩	٩	ضعفيها
١٠٢٩	١٢	بعينه
١٠٢٩	١٣	« مَا أَصَابَكَ »
١٠٣٩	٣	وافيتموه
١٠٦٣	١٠	« وَإِذْ »
١٠٧٦	٢	« مُهِينٌ »
١٠٧٦	١٣	مستأنفة
١٠٨٢	٢	« اصْبِرُوا »

وجزى الله مولانا الأستاذ خـــير ما يجازى به عباده العالمين الصالحين العاملين النافعين . آمين .

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨/ص/٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء السادس

وفيه تفسير سورتي المائدة والأنعام

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٧هـ — ١٩٥٨م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، أن لا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علَّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيى السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

٥ — سورة المائدة

سميت بها لأن قصتها أعجب ما ذكر فيها . لاشتمالها على آياتٍ كثيرةٍ ولطفٍ عظيم على من آمن . وعنفٍ شديدٍ على من كفر . فهو أعظم دواعى قبول التكاليف ، المفيدة عقدة المحبة من الاتصال الإيمانىّ ، بين الله وبين عبيده . أفاده المهايمىّ .

وهذهالسورة مدنية. وآياتها مائة وعشرون .

قال الشهاب الخفاجىّ : السورة مدنية ، إلّا قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ . . . الخ. فإنها نزلت بمكة . انتهى .

أقول : فى كلامه نظران :

الأول - إن هذا بناء على أن المكىّ مانزل بمكة ولو بعد الهجرة . والمدنىّ مانزل بالمدينة . وهو اصطلاح لبعض السلف . ولكن الأشهر كما فى (الإتقان) : أن المكىّ ما نزل قبل الهجرة . والمدنىّ ما نزل بعدها . سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم بسفرٍ من الأسفار .

والثانى - بقى عليه ، لو مشى على ذاك الاصطلاح، آيات أخر .

قال السيوطىّ فى (الإتقان) : فى (النوع الثانى معرفة الحضرىّ والسفرىّ) للسفرىّ أمثلة .

منها : أول المائدة . أخرج البيهقىّ فى (شعب الإيمان) عن أسماء بنت يزيد ؛ أنها نزلت بمنى . وأخرج فى (الدلائل) عن أم عمرو ، عن عمها ؛ أنها نزلت فى مسيرٍ له . وأخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب قال : نزلت سورة المائدة فى حجة الوداع، فيما بين مكة والمدينة .

ومنها : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)(١) فى الصحيح عن عمر : أنها نزلت عشية عرفة ، يوم الجمعة ، عام حجة الوداع . وله طرق كثيرة . لكن أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرىّ ؛ أنها نزلت يوم غدير خمّ . وأخرج مثله من حديث أبى هريرة . وفيه : إنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، مرجعه من حجة الوداع . وكلاهما لا يصح .

ومنها : آية التيمم فيها . فى الصحيح(٢) عن عائشة ؛ أنها نزلت بالبيداء وهم داخلون المدينة.

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث ٣٣٠ ونصه :

عن عائشة زوج النبىّ ﷺ ، قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقد لى . فأقام رسول الله ﷺ على التماسه . وأقام الناس معه . وليسوا على ماء . فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ والناسِ وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر ، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى ، قد نام . فقال : حبستِ رسول الله ﷺ والناسَ ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء .

قالت عائشة : فعاتبنى أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول . وجعل يطعننى بيده فى خاصرتى ، فلا يمنعنى من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذى . فقام رسول الله ﷺ ، حين أصبح ، على غير ماء . =

ومنها : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ...)(١) الآية نزلت ببطن نخل .

ومنها : (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)(٢) نزلت فى ذات الرقاع . انتهى .

وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط هذه الروايات ، عند هذه الآيات .

قال ابن كثير : روى الإمام أحمد(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ـ ناقة رسول الله ﷺ ـ إذ نزلت عليه المائدة كلها . فكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . وروى الإمام أحمد(٤) أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، لم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها . تفرد به أحمد .

وروى الحاكم عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لى : يا جبير ! تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم . فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت . فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه . وما وجدتم فيها من حرام فحرموه . ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

= فأنزل الله آية التيمم فتيمموا .

فقال أُسَيد بن الحُضَيْر : ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر .

قالت : فبعثنا البعير الذى كنا عليه ، فأصبنا العقد تحته .

(١) [٥ / المائدة / ١١] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(٢) [٥/المائدة/٦٧] ونصها : يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٦٦٤٣ (طبعة المعارف) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » روى ابن أبى حاتم ؛ أن رجلا أتى عبد الله ابن مسعود فقال : اعهد إلىّ ! فقال : إذا سمعت الله يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) فأرعها سمعك . فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه .

و(الوفاء) ضدالغدر، كمافى (القاموس) وقال غيره : هوملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء . يقال : وفى بالعهد وأوفى به .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : ورد فى الكتاب العزيز (وفّى) بالتضعيف فى قوله تعالى : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ[١] . وورد (أوفى) كثيرا . ومنه : أوفوا بالعقود . وأما (وَفَى) ثلاثيا، فلم يرد إلّا فى قوله تعالى : وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ[٢]. لأنه بنى أفعل التفضيل من (وفى) إذ لا يبنى إلا من ثلاثىّ .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٩/ التوبة /١١١] ونصها : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

و (العقود) جمع عقد وهو العهد الموثق . شبه بعقد الحبل ونحوه ، وهى عقود الله التى عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التـكليف . قال علىّ بن طلحة : قال ابن عباس : يعنى بالعهود ما أحلّ الله وما حرم ، وما فرض ، وما حـــدّ فى القرآن كلّه ، ولا تغدروا ولا تنـكثوا . وقال زيد بن أسلم : العقود ستة : عهد الله وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد البيع وعقد النـكاح وعقداليمين . قال الزمخشرىّ : والظاهر أنها عقود الله عليهم فى دينه، من تحليل حلاله وتحريم حرامه . وأنه كلام قديم مجملًا. ثم عقب بالتفصيل . وهوقوله : « أُحِلَّتْ لَـكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ » البهيمة ما لا عقل له مطلقاً ، من ذوات الأرواح أوذوات الأربع. قال الراغب : خص فى المتعارف بما عـدا السباع والطير . وإضافتها للأنعام، للبيان . كثوب الخز . وإفرادها لإرادة الجنس . أى : أحلّ لـكم أكل البهيمة من الأنعام . جمع (نَعَم) محرّكة وقدتسكن عينه . وهى الإبل والبقر والشاء والمعز «إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْـكُمْ» يعنى : رخصت لـكم الأنعام كلها . إلّا ماحرم عليـكم فى هذه السورة، وهى الميتة والدمولحم الخنزير وغير ذلك . وذلك أنهم كانوا يحرمون السائبة والبَحيرة . فأخـبر الله تعالى أنهما حلالان ، إلّا مابيّن فى‌هذه‌السورة ، ثم‌قال « غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ »يعنى : أحلت لـكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون . فـ (غير) نصب على الحالية من ضمير (لـكم). قال فى (العناية) : ولا يرد ما قيل: إنه يلزم تقيد إحلال بهيمة الأنعام بحال انتفاء حل الصيد وهم حرم . وهى قد أحلت‌لهم مطلقاً . ولا يظهر له فائدة، إلّا إذا عنى بالبهيمة‌الظباء وحمر الوحش‌وبقره. لأنه ـ مع‌عدم‌اطراد اعتبار المفهوم ـ يعلم‌منه غيره بالطريق الأولى . لأنها إذا أُحلت فى عدم الإحلال لغيرها ، وهم محرمون لدفع الحرج عنهم ، فـكيف فى غير هذه الحال ؟ فيـكون بياناً لإنعام الله عليهم بما رخص لهم من ذلك . وبياناً لأنهم فى غنيةٍ عن الصيد وانتهاك حرمة الحرم . وفى (الإكليل) : فى الآية تحريم الصيد فى الإحرام والحرم . لأن « حرماً » بمعنى محرمين ، ويقال : أحرم أى: بحجٍّ وعمرةٍ . وأحرمَ : دخل فى الحرم . انتهى.

قال بعض الزيدية : والمراد بالصيد المحرّم على المحرِم، هو صيد البر . لقوله فى هذه السورة: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُماً)[1] هذا إذا جعل (حرم) جمع (محرم) وهو الفاعل للإحرام . وإن جعل للداخل فى الحرم ، استوى تحريم البحرىّ والبرّى . وذلك حيث يكون فى الحرم نهر فيه صيد فيحرم ، لقوله تعالى[2]: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً . لأنه يقال لمن دخل الحرم ، أنه محرم . كما يقال : أعرق وأنجد: إذا دخل العراق ونجداً. ويكون التحريم فى مكة وحرم المدينة لما ورد من الأخبار فى النهى عن صيد المدينة وأخذ شجرها . نحو : المدينة[3] حرم من عير إلى ثور . انتهى .

« إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » من تحليل وتحريم . وهو الحكيم فى جميع ما يأمر به وينهى عنه .

---

(١) [٥ / المائدة / ٩٦] ونصها : أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٧] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة ، ١ ـ باب حرم المدينة ، حديث ٩٤٣ ونصه :

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « المدينة حرم من كذا إلى كذا . لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث . من أحدث حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

ورواه أيضاً فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٦ ـ باب إثم من آوى محدثاً . ونصه :

حدثنا عاصم قال : قلت لأنس : أحرّم رسول الله ﷺ المدينة ؟ قال : نعم . ما بين كذا إلى كذا . لا يقطع شجرها . من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

و (ما بين كذا إلى كذا) معناه : من عير إلى ثور .

وانظر، فى ذلك، البحث التاريخىّ الذى حررناه ورددنا فيه على ثلاثة من الأئمة الكبار المتقدمين. ومن تابعهم من إخواننا المعاصرين . انظر صحيح مسلم (طبعتنا) عند الكلام على صحيفة الإمام علىّ بن أبى طالب ، صفحة (٩٩٥) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ »أى:معالم دينه. وهى المناسك. وإحلالها أن يتهاون بحرمتها ، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها . وقد روى ابن جرير[1] عن عكرمة

---

(١) ابن جرير : الأثر ١٠٩٥٨ عن السدّىّ ، والأثر : ١٠٩٥٩ عن عكرمة .

وسنسوق الأثرين بنصهما وبتحقيقهما بقلم السيد محمود محمد شاكر، لاختلاف نصوصهما عن نص المؤلف :

الأثر ١٠٩٥٨ ـ حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن المفضل ، قال : حدثنا أسباط عن السدّىّ قال : أقبل الحطم بن هند البكرىّ ، ثم أحد بنى قيس بن ثعلبة، حتى أتى النبىّ ﷺ وحده . وخلّف خيله خارجة من المدينة . فدعاه . فقال : إلام تدعو ؟ فأخبره =وقد كان النبى ﷺ قال لأصحابه «يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان!» = فلما أخبره النبىّ ﷺ ، قال : أَنْظِرُ ، ولعلى أسلمُ ، ولى من أشاوره .

فخرج من عنده . فقال رسول الله ﷺ « لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقِب غادر» .

فمرّ بسرح من سرح المدينة فساقه . فانطلق به وهو يرتجز :

قد لفَّها الليلُ بسَوّاقٍ حُطَمْ ... ليس براعى إبلٍ ولا غَنَمْ
ولا بجزّارٍ على ظهر الوَضَمْ ... باتوا نِياماً ، وابن هند لم يَنَمْ
بات يقاسيها غلام كالزّلَمْ ... خَدلَّجُ الساقين ممسوحُ القدَمْ =

والسّدّىّ قالا: نزلت فى الحُطَم، واسمه شريح بن هند البكرىّ . أتى المدينة وَحْدَهُ . وخَلَّف خيله خارج المدينة . ودخل على النبىّ ﷺ فقال له: إلامَ تدعو الناس ؟ قال ﷺ : إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة . فقال : حسن . إلّا أن لى أمراء لا أقطع أمرا دونهم . ولعلى أُسْلِمُ وآتى بهم . فخرج من عنده . وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان . فلما خرج شريح قال النبىّ ﷺ :

= (قال السيد محمود محمد شاكر : وقبل هذا الرجز :

* هذا أوان الشدِّ فاشتدّى زِيَمْ *

و (زيم) : اسم فرس . وقوله (حطم) : شديد الحطم ، فقالوا للسائق الذى لا يُبقى شيئاً من السير والإسراع : (حطم). و (الوضم) ما يوقى به اللحم عند تقطيعه، من خشب أو غيره . و (الزلم) بفتح الزاى واللام ، أو بضم الزاى ، واحد (الأزلام) وهى قداح الميسر . يعنى كالقدح فى صلابته ونحافته وملاسته . و (خدلج الساقين) : ممتلئ الساقين ، وهذا غير حسن فى الرجال . وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابىّ :

* مُهَفْهَفُ الكَشْحَيْنِ خَفَّاقُ الْقَدَمْ *

أى : ضامر الخصر . و (خفاق القدم) لأقدامه خفق متتابع على الأرض من سرعته وهو يحدو بالإبل . ورواية الطبرىّ (ممسوح القدم) أى : ليس لباطن قدمه أخمص . فأسفل قدمه مستو أملس لين، ليس فيهما تكسر ولا شقاق. وقد جاء فى صفة رسول الله ﷺ (مسيح القدمين) اه . ولنرجع إلى باقى الأثر :

ثم أقبل من عام قابل حاجًا قد قلّد وأهدى . فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، فنزلت هذه الآية ، حتى بلغ . . . وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ .

قال له ناس من أصحابه : يارسول الله ! خلّ بيننا وبينه ، فإنه صاحبنا! قال «إنه قد قلّد» قالوا : إنما هو شىء كنا نصنعه فى الجاهلية ! فأبى عليهم . فنزلت هذه الآية . =

[library stamp]

لقد دخل بوجه كافر، وخرج بقفا غادر . وما الرجل بمسلم . فمر بسرح من سراح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول :

قد لَفَّهَا الليلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ   لَيْسَ بِرَاعِى إِبلٍ وَلَا غَنَمْ
وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهرِالْوَضَمْ   بَاتُوا نِيَامًا وَابنُ هِنْدٍ لَمْ يَنَمْ
بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلَامٌ كَالزَّلَمْ   خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ مَمْسُوحُ الْقَدَمْ

فتبعوه فلم يدركوه . فلما كان العام القابل، خرج شريح حاجا مع حُجاج بكر بن وائل، من اليمامة . ومعه تجارة عظيمة . وقد قلّد الهدى . فقال المسلمون : يارسول الله ! هذا الحطم قد خرج حاجًّا نَخَلِّ بيننا وبينه . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : إنه قد قلّد الهدى . فقالوا : يارسول الله! هذا شىء كنا نفعله فى الجاهلية . فأبى النبىّ صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله تعالى : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ . قال ابن عباس : هى المناسك . كان المشركون يحجون ويهدون . فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم . فنهاهم الله عن ذلك . وعن ابن عباس أيضاً : لا تحلوا شعائر الله : هى أن تصيد وأنت محرم . ويقال : شعائر الله، شرائع دينه التى حدها لعباده . وإحلالها الإخلال بها . وظاهر أن عموم اللفظ يشمل الجميع .

= وأما الأثر رقم ١٠٩٥٩ فهاكموه بنصه :

حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج عن عكرمة قال : قدم الحُطَمُ ، أخو بنى ضبيعة بن ثعلبة البكرىّ ، المدينةَ فى عيرٍ له يحمل طعاما ، فباعه . ثم دخل على النبىّ ﷺ فبايعه وأسلم . فلما ولّى خارجاً ، نظر إليه فقال لمن عنده « لقد دخل علىّ بوجهٍ فاجرٍ ، وولى بقفا غادر » .

فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام. وخرج فى عير له تحمل الطعام فى ذى القعدة، يريد مكة. فلما سمع به أصحاب رسول الله ﷺ ، تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتطعوه فى عيره، فأنزل الله عزوجل: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ...الآية. فانتهى القوم.

«وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ» المراد به الجنس . فيدخل فى ذلك جميع الأشهر الحرم . وهى أربعة : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب . أى لا تحلوها بالقتال فيها . وقد كانت العرب تحرم القتال فيها فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام لم يَنْقُضْ هذا الحكم . بل أكده . كذا فى (لباب التأويل) .

قال ابن كثير : يعنى بقوله : وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه ، من الابتداء بالقتال . كما قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)(١) . وقال تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) الآية(٢) . وفى صحيح البخارىّ(٣) عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ ـ باب قوله إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، حديث ٥٩ ونصه : عن أبى بكرة عن النبىّ ﷺ قال: إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

قال ، فى حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهرا . منها أربعة حرم...الحديث وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت . كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس رضى الله عنه، فى قوله تعالى (وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) : يعنى لا تستحلوا القتال فيه. وكذا قال مقاتل وعبد الكريم بن مالك الجزرىّ . واختاره ابن جرير أيضاً . وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ . وأنه يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم . واحتجوا بقوله تعالى : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ(١) . والمراد أشهر التسيير الأربعة . قالوا : فلم يستثن شهرا حراما من غيره . انتهى . وفى كتاب (الناسخ والمنسوخ) لابن حزم : إن الآية نسخت بآية السيف. ونقل بعض الزيدية فى (تفسيره) عن الحسن أنه ليس فى هذه السورة منسوخ . وعن أبى ميسرة : فيها ثمانى عشرة فريضة . وليس فيها منسوخ . (انتهى) .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عوف قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شيء ؟ قال : لا .

وقال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى (فصل سرية الخبط) كان أميرها أبا عبيدة ابن الجراح . وكانت فى رجب ، فيما ذكره الحافظ بن سيد الناس فى (عيون الأثر) .

ثم قال، فى فقه هذه القصة : إن فيها جواز القتال فى الشهر الحرام . إن كان ذِكْرُ التاريخ فيها برجب، محفوظاً . والظاهر ، والله أعلم ، أنه وهم غير محفوظ. إذ لم يحفظ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه غزا فى الشهر الحرام ، ولا أغار فيه ، ولا بعث فيه سرية . وقد عيّر

(١) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

المشركون المسلمين لقتالهم فيه فى أول رجب ، فى قصة العلاء بن الحضرمى ، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام . وأنزل الله فى ذلك : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ [١]. الآية. ولم يثبت ماينسخ هذا بنص يجب المصير إليه ، ولا اجتمعت الأمة على نسخه. وقد استدل على تحريم القتال فى الأشهر الحرام بقوله تعالى : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [٢].ولا حجة فى هذا . لأن الأشهر الحرم ههنا هى أشهر التسيير التى سيّر الله فيها المشركين فى الأرض يأمنون فيها . وكان أولها يوم الحج الأكبر ، عاشر ذى الحجة . وآخرها عاشر ربيع الآخر . هذا هو الصحيح فى الآية لوجوه عديدة ، ليس هذا موضعها . انتهى . وقوله تعالى « وَلَا الْهَدْيَ » أى : لا تحلوه بأن يُتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله . والهدى : ما أهدى إلى الكعبة من إبل أو بقر أوشاء. وفى (الإكليل) : هذا أصل فى مشروعية الإهداء إلى البيت . وتحريم الإغارة عليه . وذبحه قبل بلوغ محله . واستدل بالآية أيضاً على منع الأكل منه .

« وَلَا الْقَلَائِدَ » جمع قلادة . وهى ما يقلد به الهدى ، من نعل أو لحاء شجر ، ليعلم أنه هدى، فلا يتعرض له . والمراد النهى عن التعرض لذوات القلائد من الهدى. وهى البدن . وعطفها على (الهدى) مع دخولها فيه ، لمزيد التوصية بها ، لمزيتها على ما عداها . إذ هى أشرف الهدى . كقوله : وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ [٣] عطفا على الملائكة . كأنه قيل : والقلائد منه، خصوصا . أو النهى عن التعرض لنفس القلائد، مبالغة فى النهى عن التعرض

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٩٧ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٩٨ .

(٣) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

لأصحابها . على معنى : لا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها . كما نهى عن إبداء الزينة بقوله تعالى : وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ(١) . مبالغة فى النهى عن إبداء مواقعها . كذا لأبى السعود .

وقال الحافظ ابن كثير : يعنى لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام . فإن فيه تعظيم شعائر الله . ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام . وليعلم أنه هدى إلى الكعبة. فيجتنبها من يريدها بسوء . وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها . فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء. ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذى الحُلَيفة . وهو وادى العقيق . فلما أصبح طاف على نسائه، وكن تسعا . ثم اغتسل وتطيّب وصلى ركعتين . ثم أشعر هديه وقلّده . وأهلّ للحج والعمرة، وكان هديه إبلا كثيرة تُنيف على الستين ، من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعالى(٢) : ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

(١) [٢٤ / النور / ٣١] ونصها : وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٣٢] .

قال بعض السلف : إعظامها استحسانها واستسمانها . قال علىّ بن أبى طالب[1] : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن . رواه أهل السنن . وقال مقاتل : ولا القلائد ، فلا تستحلوه . وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم فى غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر . وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره، فيأمنون به . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عطاء : كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون . فنهى الله عن قطع شجره . وكذا قال مطرف بن عبدالله . وأمانهم بذلك منسوخ . كما روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : نُسخ من هذه السورة آيتان : آية القلائد وقوله[2] : فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ . وبسنده إلى ابن عوف قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شىء؟ قال: لا.

« وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ » أى : لا تحلوا قوما قاصدين زيارة المسجد الحرام بأن تصدوهم أو تقاتلوهم أو تؤذوهم، لأنه من دخله كان آمناً . وقوله تعالى : « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا » حال من المستكن فى (ءَامِّينَ) أى : قاصدين زيارته حال كونهم

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٦ ـ باب ما يكره من الضحايا ، حديث ٢٨٠٤ ونصه :

عن علىّ قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذنين ، ولا نضحّى بعوراء ، ولا مقابَلَة ، ولا مدابَرَة ، ولا خرقاءَ ، ولا شرقاء .

والترمذىّ فى : ١٧ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٦ ـ باب ما يكره من الأضاحىّ .

والنسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٩ ـ باب المدابرة وهى ماقطع من مؤخر أذنها .

وابن ماجة فى : ٢٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٨ ـ باب مايكره أن يضحى به، حديث ٣١٤٢.

(٢) [٥ / المائدة / ٤٢] ونصها : سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

طالبين التجارة ورضوان الله بحجهم . ونقل ابن كثير عن ثمانية من سلف المفسرين أنه عنى بالفضل طلب الرزق بالتجارة . قال : كما تقدم فى قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ (١) . وقد ذكر عكرمة والسدّى وابن جرير أن الآية نزلت فى الحُطَم ابن هند البكرى . وتقدمت قصته . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: كان المؤمنون والمشركون يحجون ، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا من مؤمن أو كافر . ثم أنزل الله بعدها : إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا (٢)... الآية . وقال تعالى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ (٣) . وقال : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٤) . فنفى المشركين من المسجد الحرام. وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن قتادة فى قوله (وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ) قال : منسوخ . كان الرجل فى الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج، تقلد من الشجر ، فلم يعرض

---

(١) [٢ / البقرة / ١٩٨] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٢٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ١٧] ونصها : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٤) [٩ / التوبة / ١٨] ونصها : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ .

له أحد . فإذا رجع تقلد قلادة من شعر ، فلم يعرض له أحد . وكان المشرك يومئذ لا يُصدّ عن البيت . فأمروا أن لا يقاتلوا فى الشهر الحرام ولا عند البيت . فنسخها قوله[1] : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله (وَلَا الْقَلَائِدَ) يعنى أن من تقلد قلادة من الحرم، فأمنوه . قال : ولم تزل العرب تعيّر من أخفر ذلك. قال الشاعر[2]:

أَلَمْ تقتلا الْحِرْجَيْنِ إِذْ أَعْوَرَا كُمَا ... يُمِرَّانِ بِالْأَيْدِى اللِّحَاءَ الْمُضَفَّرَا

أفاده ابن كثير . وهـــذه الروايات توضح أنه عنى بـ (الآمّين) : المشركين خاصة . إذ هم

---

(١) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) استشهد به الطبرىّ بالصفحة ٤٧٠ من الجزء التاسع .

قال السيد محمود محمد شاكر : ذكر الطبرىّ أن الشعر فى رجلين قتلا رجلين ، وروَى : ألم تقتلا. والذى فى المراجع: ألم تقتلوا . وهو الذى يدل عليه سياق الشعر. فإن أوله قبل البيت:

ألا أبلغا جُلَّ السوارِى وجابرا ... وأبلغ بنى ذى السهم عنّى ويَعْمَرَا

وقولا لهم عنى مقالةَ شاعرٍ ... أَلَمَّ بقولٍ ، لم يحاول ليَفْخَرَا

لعلكمُ لما قتلتم ذكرتمُ ... ولن تتركوا أن تقتلوا ، من تعمَّرا

فالشعر كله بضمير الجمع . وسببه أن جندباً ، أخو البرىق بن عياض اللحيانىّ ، قتل قيساً وسالمًا ابنى عامر بن عريب الكنانيين ، وقتل سالم جندباً ، اختلفا ضربتين .

وقال :

رواية أبى جعفر (الطبرىّ) كما شرحها « أعوراكما » ورواية الديوان « أعورالكم » .

وقال الطبرىّ فى شرح البيت : الحِرْجان هما الرجلان المقتولان . وكانا تقلدا لحاء الشجر ليأمنا على أنفسهما . ومعنى (أعوراكما) أمكنا كما من عورتهما .

المحتاجون إلى نهى المؤمنين عن إحلالهم وما يفيده التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم . وكذا الرضوان من تشريفهم ، والإشعار بحصول مبتغاهم . فالسرّ فيه تأكيد النهى والمبالغة فى استنكار المنهىّ عنه . قال الزمخشرىّ وأبو السعود : قد كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم . وأن الحج يقربهم إلى الله تعالى . فوصفهم الله تعالى بظنهم . وذلك الظن الفاسد ، وإن كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى ، لكن لا بُعْدَ فى كونه مداراً لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية ، وخلاصهم عن المكاره العاجلة . لا سيما فى ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره . ونقل الرازىّ عن أبى مسلم الأصفهانىّ ؛ أن المراد بالآية، الكفار الذين كانوا فى عهد النبىّ ﷺ . فلما زال العهد بسورة براءة ، زال ذلك الخطر ، ولزم المراد بقوله تعالى : فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا(١) . انتهى .

« وَإِذَا حَلَلْتُمْ » أى خرجتم من الإحرام ، أو خرجتم من الحرم إلى الحل « فَاصْطَادُوا » أى: فلا جناح عليكم فى الاصطياد « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ » أى: لا يحملنكم على الجريمة ، شدةُ بغض قوم « أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . أى لأن صدوكم عن زيارته والطواف به للعمرة . وقرىء بكسر الهمزة من (إن) على أنها شرطية « أَنْ تَعْتَدُوا » أى : عليهم . قال أبو السعود : وإنما حذف ، تعويلا على ظهوره ، وإيماء إلى أن المقصد الأصلى من النهى ، منع صدور الاعتداء عن المخاطبين ، محافظة على تعظيم الشعائر . لا منع وقوعه على القوم ، مراعاة لجانبهم . وهو ثانى مفعولى (يَجْرِمَنَّكُمْ) أى: لا يكسبنكم شدةُ بغضكم لهم ، لصدهم إياكم عن المسجد الحرام ، اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفّى .

تنبيهات

الأول ـ قال ابن كثير : أى : لا يحملنكم بغض قوم ، قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وذلك عام الحديبية ، على أن تعتدوا حكم الله فيهم ، فتقتصوا منهم ظلما

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص١٨٠٢.

وعدوانا ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد . وهـذه الآية كما سيأتى من قوله : وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ(١) أى : لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل . فإن العدل واجب على كل أحد ، فى كل أحد، فى كل حال . وقال بعض السلف : ماعاملتَ من عصى الله فيك ، بمثل أن تطيع الله فيه . والعدل ، به قامت السموات والأرض . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا سهل بن عفان، حدثنا عبد الله بن جعفر عن زيد بن أسلم ، قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه ، حين صدهم المشركون عن البيت . وقـد اشتد ذلك عليهم . فمر بهم ناس من المشركين من أهل المشرق ، يريدون العمرة . فقال أصحاب النبىّ ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم . فأنزل إليه هذه الآية .

الثانى ـ قوله : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ » نهىٌ عن إحلال قوم من الآمين ، خصوا به مع اندراجهم فى النهى عن إحلال الكل كافة ، لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لإحلالهم ، داعية إليه .

الثالث ـ لعل تأخير هذا النهى عن قوله تعالى : وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، مع ظهور تعلقه بما قبله ، للإيذان بأن حرمة الاعتداء لاتنتهى بالخروج عن الإحرام ، كانتهاء حرمة الاصطياد به . بل هى باقية مالم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية . وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض بسائر الآمّين ، بالطريق الأولى . أفاده أبوا السعود .

الرابع ـ دلت الآية على أن المضارّة ممنوعة. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام(٢) : لا ضرر

(١) [٥ / المائدة / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٧ ـ باب من بنى فى حقه مايضر بجاره ، حديث ٢٣٤٠ و ٢٣٤١ (طبعتنا) .

ولاضرار فى الإسلام. وقوله عليه الصلاة والسلام[١]: أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك . ذكره بعض الزيدية. وفى (الإكليل): فى الآية النهى عن الاعتداء ، وأنه لا يؤخذ أحد بذنب أحد .

الخامس - (جرم) جارٍ مجرى (كسب) فى المعنى وفى التعدى إلى مفعول واحد ، وإلى اثنين . يقال : جرم ذنبا ، نحو كسبه . وجرمته ذنبا ، نحو كسبته إياه . خلا أن (جرم) يستعمل غالبا فى كَسْب مالا خير فيه . وهو السبب فى إيثاره ههنا على الثانى . وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة إلى معنى الثانى . فيقال : أجرمته ذنبا وأكسبته إياه . وعليه قراءة من قرأ (يُجْرِمَنَّكُمْ) بضم الياء. أفاده أبو السعود .

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون ، أمروا ، إثر مانهوا عنه ، بأن يتعاونوا على كل ماهو من باب البر والتقوى ، ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى . فدخل فيه مانحن بصدده من التعاون على العفو والإغضاء عما وقع منهم ، دخولا أوليا . ثم نهوا عن التعاون فى كل ماهو من مقولة الظلم والمعاصى . فاندرج فيه النهى عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهانىّ : أفاده أبو السعود .

قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله . والعدوان : جواز ما حدّ الله فى الدين ، ومجاوزة مافرض الله فى النفس والغير . وفى معنى الآية أحاديث كثيرة . منها ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : الدال على الخير كفاعله . رواه البزار . وعن أبى مسعود البدرىّ قال : قال رسول الله ﷺ[٢] : من دل على خير فله مثل أجر فاعله. رواه مسلم . وعن

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٢ - كتاب البيوع ، ٧٩ - باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده ، حديث ٣٥٣٥ عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، ٣٨ - باب فضل إعانة الغازى =

أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ(١) : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه . لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه . لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً. رواه مسلم . وعن سهل بن سعد(٢) ؛ أن رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام، يوم خيبر : فو الله! لأن يهدى الله بك رجلا واحداً، خير لك من حمر النعم. متفق عليه . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه

= في سبيل الله بمركوب وغيره ، وخلافته في أهله بخير ، حديث ١٣٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي مسعود الأنصاريّ قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : إني أُبْدِع بي (أي : هلكت دابتي وهي مركوبي) فاحملني. فقال « ماعندي » فقال رجل : يا رسول الله! أنا أدله على من يحمله . فقال رسول الله ﷺ « من دل على خير فله مثل أجر فاعله ».

(١) أخرجه مسلم في : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٠٢ ـ باب دعاء النبيّ ﷺ إلى الإسلام والنبوة ، حديث ١٤٠٥ ونصه :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، سمع النبيّ ﷺ يقول يوم خيبر « لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه » .

فقاموا يرجون لذلك أيُّهم يُعْطَى . فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطى . فقال « أين عليّ » ؟ فقيل : يشتكي عينيه . فأمر فدُعي له . فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء . فقال : نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال « على رِسْلك ، حتى تنزل بساحتهم . ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم. فوالله! لَأَنْ يُهْدَى بك رجل واحد خير لك من حمر النعَم».

(٣) أخرجه البخاريّ في: ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٤ ـ باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلوماً. حديث ١٢٠٣ ونصه :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالمًا أو مظلوماً». =

وسلم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قيل: يارسول الله! هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم . فذاك نصرك إياه . رواه الإمام أحمد والشيخان .

وعن يحيي بن وثاب عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال : المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، أعظم أجراً من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم . رواه الإمام أحمد(١) . وروى الطبرانيّ والضياء القدسيّ عن أوس بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال : من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الإسلام . وعن النوّاس(٢) ابن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : البر حسن الخلق . والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس . رواه مسلم .

تنبيه فى فروع مهمة .

قال بعض الزيدية : من ثمرات الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأنه

= وفى الباب نفسه عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا : يا رسول الله ! هذا ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ قال « تأخذ فوق يديه ».

ورواه ثالثة فى : ٨٩ ـ كتاب الإكراه ، ٨ ـ باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه ، إذا خاف عليه القتل . ونصه :

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقال رجل : يا رسول الله ! أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إذا كان ظالماً ، كيف أنصره ؟ قال « تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » .

أما النص الذى ساقه المؤلف فلم أعثر عليه وإن كان قريباً جدًّا من هذا النص الأخير .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٥٠٢٢ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى: ٤٥ـ كتاب البر والصلة والآداب، حديث ١٥ (طبعتنا).

لا يجوز إعانة متعدّ ولا عاص. فيدخل في ذلك تكثير سواد الظلمة بوجهٍ ، من قولٍ أو فعلٍ أو أخذ ولايةٍ أو مساكنةٍ . وفي (الإكليل) : استدل المالكية بالآية على بطلان إجارة الإنسان نفسه ، لحمل خمر ونحوه ، وبيع العنب لعاصره خمرا ، والسلاح لمن يعصي به ، وأشباه ذلك . انتهى . وهو مُتَّجِهٌ .

وقال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) : ولا يحل للرجل أن يكون عونا على ظلم . فإن التعاون نوعان: نوع على البر والتقوى ، من الجهاد وإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وإعطاء المستحقين. فهذا ما أمر الله به ورسوله . ومن أمسك عنه خشية أن يكون من أعوان الظلمة، فقد ترك فرضاً على الأعيان أو على الكفاية ، متوهما أنه متورع . وما أكثر مايشتبه الجبن والفشل بالورع، إذ كل منهما كف وإمساك .

والثاني ـ تعاون على الإثم والعدوان . كالإعانة على دم معصوم ، أو أخذ مال معصوم ، وضرب من لايستحق الضرب، ونحو ذلك . فهذا الذي حرمه الله ورسوله . نعم ، إذا كانت الأموال قد أخذت بغير حق ، وتعذر ردها إلى أصحابها ، ككثير من الأموال السلطانية. فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين ، كسداد الثغور ونفقة المقاتلة ، ونحو ذلك ، من الإعانة على البر والتقوى . إذ الواجب على السلطان في هذه الأموال، إذا لم يمكن معرفة أصحابها وردها عليهم ولا على ورثتهم ـ أن يصرفها مع التوبة ، إن كان هو الظالم، إلى مصالح المسلمين . وإن كان غيره قد أخذها فعليه أن يفعل بها ذلك . وكذلك لو امتنع السلطان من ردها، كان الإعانة على إنفاقها في مصالح أصحابها، أولى من تركها بيد من يضيعها على أصحابها وعلى المسلمين . فإن مدار الشريعة على قوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ[1] .

(١) [٦٤ / التغابن / ١٦] ونصها : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

المفسر لقوله :اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ(١) وعلى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ماستطعتم. أخرجاهفىالصحيحين(٢). وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتبطيل المفاسد وتقليلها . فإذا تعارضت، كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناها، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناها ـ هوالمشروع . والمعينُ على الإثم والعدوان من أعان ظالما على ظلمه . أما من أعان المظلوم على تخفيف الظلم عنه ، أو على أداء المظلمة ، فهو وكيل المظلوم لاوكيل الظالم. بمنزلة الذى يقرضه أو الذى يتوكل فى حمل المال له إلى الظالم . مثال ذلك : ولىّ اليتيم والوقف ، إذا طلب ظالم منه مالًا ، فاجتهد فى دفع ذلك، بدفع ما هو أقل منه إليه أو إلى غيره بعد الاجتهاد التام فى الدفع ـ فهو محسن، وما على المحسنين من سبيل . وكذلك ، وكيل المالك من المتأديين والكتّاب وغيرهم ، الذى يتوكل لهم فى العقد والقبض ودفع ما يطلب منهم ، لا يتوكل للظالمين فى الأخذ . وكذلك لو وضعت مظلمة على أهل قرية أو درب أو سوق أو مدينة ، فتوسط رجل محسن فى الدفع عنهم بغاية الإمكان ، وقسّطها بينهم على قدر طاقتهم ، من غير محاباة لنفسه ولا لغيره ، ولا ارتشاء ، بل توكل لهم فى الدفع عنهم والإعطاء ـ كان محسناً . لكن الغالب أن من يدخل فى ذلك

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، حديث **٢٥٨٥** ونصه :

عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « دعونى ما تركتكم . إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٣٠ (طبعتنا) .

يكون وكيل الظالمين محابيا مرتشياً مخفراً لمن يريد ، وآخذا ممن يريد. وهذا من أكبر الظلمة الذين يحشرون في توابيت من نارٍ هم وأعوانهم وأشباههم، ثم يقذفون في النار . انتهى . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أي: اخشوه فيما أمركم ونهاكم « إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » . يعني لمن خالف أمره . ففيه وعيد وتهديد عظيم . ثم بين تعالى المحرمات التي أشير إليها بقوله تعالى : إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » وهي مافارقه الروح بغير سبب خارجيّ . لأنها تنجست بمفارقته من غير مطهر ، من ذكر اسم الله تحقيقاً أو تقديراً ، كإسلام الذابح . كذا في (التبصير). وقد خص من (الميتة) السمك بالسّنة : فإنه حلال . مات بتذكية أو غيرها . لما رواه مالك في موطأه، والشافعيّ وأحمد في مسنديهما، وأبوداود والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجة في سننهم، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، عن أبي هريرة[1] أن رسول الله صلى

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ في : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ١٢ (طبعتنا) .
وأبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ =

الله عليه وسلم سئل عن ماء البحر ؟ فقال : هو الطهور ماؤه، الحل ميتته. وهكذا الجراد . لما سيأتي. قال الرازيّ : تحريم الميتة موافق لما في العقول . لأن الدم جوهر لطيف جدًّا . فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه ، وتعفن وفسد ، وحصل من أكله مضار عظيمة . انتهى .

أخرج ابن منده في كتاب (الصحابة) من طريق عبد الله بن جبلة بن حبان بن حجر عن أبيه عن جده حبان قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أوقد تحت قدر فيها لحم ميتة . فأنزل تحريم الميتة فاكفأت القدر « وَالدَّمُ » أي: المسفوح منه. لقوله تعالى في الأنعام(١) : أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا . وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال؟ فقال: كلوه . فقالوا : إنه دم. فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وكذا رواه حماد ابن سلمة عن يحيي بن سعيد عن القاسم عن عائشة قالت : إنما نهى عن الدم السافح .

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) : أحل لنا ميتتان ودمان. فأما الميتتان فالسمك والجراد . وأما الدمان فالكبد والطحال . وكذا رواه أحمد بن حنبل

= والترمذيّ في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٢ ـ باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور .

والنسائيّ في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤٧ ـ باب ماء البحر .

وابن ماجة في : ١ ـ كتاب الطهارة، ٣٨ـ باب الوضوء بماء البحر، حديث ٣٨٦ (طبعتنا).

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) وحديث رقم ٧٢٣٢ (طبعة المعارف) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٩٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) .

وابن ماجة في : ٢٨ ـ كتاب الصيد ، ٩ ـ باب صيد الحيتان والجراد ، حديث ٣٢١٨ (طبعتنا) .

وابن ماجة والدارقطنيّ والبيهقيّ من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهو ضعيف . قال الحافظ البيهقيّ : ورواه إسمعيل بن أبي إدريس ، عن أسامة، وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر، مرفوعا . قال الحافظ ابن كثير : وثلاثتهم كلهم ضعفاء . ولكن بعضهم أصلح من بعض . وقد رواه سليمان ابن بلال ، أحد الأثبات ، عن زيد بن أسلم عن ابن عمر . فوقفه بعضهم عليه . قال الحافظ أبو زرعة الرازيّ : وهو أصح . نقله ابن كثير .

أقول : أقوى مما ذكر في الحجة، ما في الصحيحين[1] وغيرهما من حديث ابن أبي أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد . وفيهما أيضاً من حديث[2] جابر ؛ إن البحر ألقى حوتا ميتا فأكل منه الجيش . فلما قدموا قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم .فقال: كلوا رزقا أخرج الله لكم . أطعمونا منه إن كان معكم . فأتاه بعضهم بشيء. وفي البخاريّ[3] عن عمر في قوله تعالى[4]: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . قال : صيده ما اصطيد . وطعامه ما رمى به. وفيه عن ابن عباس قال : طعامه ميتته .

قال ابن كثير : روى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة وهو صُدَيّ بن عجلان قال : بعثني

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٣ ـ باب أكل الجراد ، حديث ٢٢٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٦٥ ـ باب غزوة سيف البحر ، حديث ١٢٢٦ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٢ ـ باب قول الله تعالى : أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٦] .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومى أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام. فأتيتهم . فبينما نحن كذلك، إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها . فقالوا: هلم، ياصدىّ! فكل . قال، قلت : ويحكم. إنما أتيتكم من عند من يحرّم هذاعليكم. فأقبلوا عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...الآية. ورواه الحافظ أبوبكربن مردويه . وزاد بعد هذا السياق قال : فجعلت أدعوهم إلى الإسلام ويأبون علىّ . فقلت : ويحكم ! اسقونى شربة من ماء فإنى شديد العطش. قال، وعلىّ عباءتى . فقالوا : لا . ولكن ندعك حتى تموت عطشاً . قال : فاغتممت وضربت برأسى فى العباء . ونمت على الرمضاء فى حرّ شديد . قال ، فأتانى آت فى منامى بقدح من زجاج . لم ير الناس أحسن منه . وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه . فأمكننى منه فشربته . فلما فرغت من شرابى استيقظت. فلا، والله! ما عطشت ولا عربت (عرب كفرح فسدت معدته. قاموس) بعد تيك الشربة.

ورواه الحاكم فى مستدركه عن علىّ بن حماد ، عن أحمد بن حنبل بسنده إلى أبى أمامة . وزاد بعد قوله (بعد تيك الشربة) : فسمعتهم يقولون : أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تُمَجِّعُوهُ[(١)] بمذقة؟ فأتونى بمذقة فقلت : لاحاجةلى فيها . إن الله أطعمنى وسقانى . وأريتهم بطنى ، فأسلموا عن آخرهم . انتهى .

قال الزمخشرىّ : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التى تموت حتف أنفها . والفصيد ، وهو الدم فى المباعر، يشوونها ويقولون : لم يُحْرَمْ من فُزْدَ لَهُ[(٢)] .

(١) تمجعوه : المجع أكل التمراليابس . ومَجَعَ يَمْجُعُ مَجْماً : أكل التمر باللبن معاً .

(٢) جاء فى هامش الكشاف ، الجزء الأول ص ٤٠٣ (طبعة بولاق عام ١٣١٨ هـ) ما نصه : قوله : فى المباعر . أى : مواضع البعر وهى الأمعاء . وقوله : فُزْد ، بضم الفاء وسكون الزاى آخره دال مهملة . ويروى : فُصْد ، بسكون الصاد تخفيفاً ، أى: لم يحرم القِرى من فصدت له الراحلة ، فحظى بدمها . اه من القاموس . اه مصححه .

وتقدم الكلام[١] على ذلك فى سورة البقرة فى قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ . . . الآية[٢] .

قال المهايمىّ : حرم الدم لأنه متعلق الروح بلا واسطة . فأشبه النجس بالذات ، لا يؤثر فيه المطهر . « وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ » لأنه نجس فى حياته بصفاته الذميمة . وهى ، وإن زالت بالموت ، فهو منجّس ولم يقبل التطهير . لأنه لما كان نجسا حال الحياة والموت ، أشبه النجس بالذات . فكأنه زيد تنجيسه بالموت . وإنما ذكر اللحم إشارة إلى أنه ، وإن لم يكن موصوفا فى الحياة بالصفات المنجسة لروحه ، كان متنجسا بنجاسة روحه ، ثم بزوال الروح . انتهى .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ . يعنى إنسيّه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم . كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطّرد . وفى صحيح مسلم عن بُرَيْدَةَ بن الخصيب الأسلمىّ رضى الله عنه قال[٣] : قال رسول الله ﷺ من لعب بالنردشير ، فكأنما صبغ يده فى لحم الخنزير ودمه . فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذى به ؟ وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفى الصحيحين[٤] : أن رسول الله ﷺ قال : إن الله حرم بيع الخمر

---

(١) انظر الصفحة رقم (٣٧٩) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤١ ـ كتاب الشعر ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤٤ ـ كتاب البيوع ، ١١٢ ـ باب بيع الميتة والأصنام ، حديث ١١٢١ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، عام الفتح ، وهو بمكة « إن الله ورسوله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » =

والميتة والخنزير والأصنام : فقيل : يا رسول الله ! أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال : لا. هوحرام « وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أي: نودي عليه بغيراسم الله، كما في (الصحاح) وأصل الإهلال رفع الصوت. وكان العرب في الجاهلية ، يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح . فحرم الله ذلك بهذه الآية . وبقوله(١) : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

قال ابن كثير في الآية : أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام . لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم . فمن عدل بها عن ذلك ، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع . وإنما اختلف العلماء في متروك التسمية ، إما عمدا أو نسيانا . كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام، إن شاء الله تعالى .

وروى ابن أبي حاتم عن الجارود بن أبي سبرة قال : كان رجل من بني رياح يقال له : ابن نائل . وكان شاعرا . نافر غالباً ، جدَّ الفرزدق بماء بظهر الكوفة . على أن يعقر هذامائة من إبله ، إذا وردت الماء . فلماوردت الماء، قامابسيفيهما فجملا يكشفان عراقيبها. قال: فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم. وعليّ بالكوفة . قال : فخرج عليّ. على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء،وهوينادي: ياأيهاالناس! لاتأكلوامن لحومها. فإنماأهل بهالغيرالله.هذاأثرغريب.

= فقيل : يا رسول الله ! أرأيت شحوم الميتة ، فإنها يطلى بها السفن ، ويدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس . فقال « لا. هو حرام » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك « قاتل الله اليهود . إن الله لما حرّم شحومها، جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢١] ونصها : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود عن ابن عباس[١] قال : نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب. ثم أسند عن عكرمة[٢] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل. أفاده ابن كثير .

وفى (القاموس وشرحه) : وعاقره : فاخره وكارمه فى عقر الإبل . ويقال : تعاقرا إذا عقرا إبلهما ، يتباريان بذلك ، ليرى أيهما أعقر لها . ومن ذلك معاقرة غالب بن صعصعة، أبي الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحيّ لما تعاقرا بصوأر . فعقر سحيم خمسا ثم بدا له . وعقر غالب مائة .

وفى حديث ابن عباس : لا تأكلوا من تعاقر الأعراب. فإنى لا آمن أن يكون مما أهل به لغير الله .

قال ابن الأثير : هو عقرهم الإبل . كان الرجلان يتباريان فى الجود والسخاء . فيعقر هذا وهذا . حتى يعجز أحدهما الآخر . وكانوا يفعلونه رياء وسمعة وتفاخرا . ولا يقصدون به وجه الله تعالى . فشبهه بما ذبح لغير الله تعالى. انتهى .

وروى الإمام مسلم عن عليّ[٣] رضى الله عنه قال : حدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله . لعن الله من لعن والديه . لعن الله من آوى محدثا . لعن الله من غير منار الأرض .

وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحيّ ، ١٤ ـ باب ما جاء فى أكل معاقرة الأعراب ، حديث ٢٨٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٧ ـ باب فى طعام المتباريين ، حديث ٣٧٥٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحيّ ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

دخل الجنة رجل فى ذباب، ودخل النار رجل فى ذباب . قالوا: وكيف ذلك ؟ يارسول الله! قال : مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً . فقالوا لأحدهما : قرب قال : ليس عندى شىءأقرب. قالوا له : قرب ولوذبابا . فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل . فضربوا عنقه . فدخل الجنة . وفى هذه القصة ترهيب من وجوه : منها كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم . ومنها معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم . مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر . ومنها أن فى هذا شاهدالحديث الصحيح[1]: الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك. كذا فى كتاب (التوحيد).

« وَالْمُنْخَنِقَةُ » وهى التى تموت بالخنق إما قصدا وإما اتفاقا . بأن تتخبل فى وثاقها فتموت به . قال الحسن وغيره : هى التى تختنق بحبل الصائد أو غيره . وبأى وجه اختنقت فهى حرام . وقال ابن عباس: كانت الجاهلية يخنقون الشاة ، حتى إذا ماتت أ كلوها . والمنخنقة من جنس الميتة . لأنها لما ماتت ، وما سال دمها ، كانت كالميت حتف أنفه . إلا أنهافارقت الميتة بكونها تموت بسبب انعصار الحلق بالخنق، بخلاف الميتة فإنها بلا سبب .

قال المهايمىّ : المنخنقة ، وإن ذكر اسم الله عليها فقد عارضه سريان خباثة الخانق إليها، مع تنجسها بالموت « وَالْمَوْقُوذَةُ » يعنى المقتولة بالخشب . وكان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصىّ . حتى إذا ماتت أ كلوها . وفى (القاموس وشرحه) الوقذ شدة الضرب . وقذه يقذه وقذاً : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت . وشاة وقيذ وموقوذة قتلت بالخشب . وقال أبو سعيد: الوقذ الضرب على فأس القفا . فيصير هدتها إلى الدماغ ، فيذهب

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٩ ـ باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك ، حديث ٢٤٣٣ ، عن عبد الله بن مسعود .

العقل. فيقال : رجل موقوذ . وفى الصحيح(١) أن عدىّ بن حاتم قال : قلت: يارسول الله! إنى أرمى بالمعراض الصيد، فأصيب . قال : إذا رميت بالمعراض فخزق فكله . وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ ، فلا تأكله « وَالْمُتَرَدِّيَةُ » هى الساقطة من جبل أو فى بئر ، فتموت . والتردى السقوط فى مهواة . وهذه الثلاثة فى معنى الميتة . فإنها ماتت ولم يسل دمها . « وَالنَّطِيحَةُ » هى التى نطحتها أخرى فماتت . فهى حرام . وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها. وإن أرسل إنسان الناطح بذكر اسم الله . لأنه لما لم يكن بطريق الصيد المشروع، لم تخل من خباثة .

فائدة :

قال التبريزىّ فى (تهذيبه) وابن قتيبة فى (أدب الكاتب) : ما كان على فعيل ، نعتا للمؤنث وهو فى تأويل مفعول ، كان بغير هاء . نحو كف خضيب وملحفة غسيل. وربما جاءت بالهاء يُذْهَبُ بها مذهب الأسماء . نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع.. وقالوا : ملحفة جديد . لأنها فى تأويل مجدودة أى مقطوعة . وإذا لم يجز فيه مفعول فهو بالهاء. نحو مريضة وظريفة وكبيرة وصغيرة . وجاءت أشياء شاذة . فقالوا : ريح خريق وناقة سديس وكتيبة خصيف .

وقال ابن السكيت : قد تأتى فعيلة بالهاء وهى فى تأويل مفعول بها . تخرج مخرج الأسماء ولا يُذْهب بها مذهب النعوت . نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع ، ومررت بقتيلة بنى فلان .

وقال الجوهرىّ : إنما جاءت النطيحة بالهاء ، لغلبة الاسم عليها . وكذلك الفريسة والأكيلة والرميّة . لأنه ليس هو على (نَطَحْتُها ، فهى منطوحة) وإنما هو الشىء فى نفسه مما يُنطح والشىء مما يفرس ويؤكل .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٤ـ كتاب البيوع، ٣ ـ باب تفسير المشبّهات، حديث ١٤١ وأخرجه أيضاً فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣ ـ باب ما أصاب المعراض بعرضه.

« وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ » أى ماعدا عليها فأكل بعضها . قال قتادة : كان أهل الجاهلية، إذا جرح السبع شيئا فقتله أو أكل منه ، أكلوا ما بقى منه . فحرمه الله تعالى .

قال المهايمىّ : هو ، وإن أشبه الصيد ، لكنه لما أكله قصد بذلك نفسه ، فسرت خباثته فيها . انتهى . و (السبع) بضم الباء وفتحها وسكونها : المفترس من الحيوان . مثل الأسدوالذئب والنمر والفهد . وماأشبهها مماله ناب، ويعدو على الناس والدواب فيفترسها. وسمى بذلك لتمام قوته . وذلك أن (السبع) من الأعداد التامة ، وفى الآية محذوف تقديره : وما أكل السبع بعضه . كما ذكرنا . لأن ما أكله فَقَدْ فُقِدَ . فلا حكم له ، إنما الحكم للباقى منه. وقوله تعالى « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ » أى ما أدركتم ذكاته من هذه المذكورات المنخنقة فما بعدها . بحيث ينسب موتها إلى الذبح دون غيره ، فإنه يتحقق فيه المطهر، ولايؤثر فيه السابق . لأن اللاحق ينسخه . بل هوواقع قبل تأثير السابق . إذ لايتم التأثير إلابالموت. أفاده المهايمىّ .

قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى : إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح ، فكلوه فهوذكىّ . وكذا روى عن سعيد بن جبير والحسن والسدّىّ . وروى ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علىّ، فى الآية قال : إن مصعت[1] بذنبها ، أو ركضت برجلها ، أوطرفت بعينها ، فكل . وروى ابن جرير[2] عن الحرث عن علىّ أيضا قال : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة ، وهى تحرك يدا أو رجلا ، فكلها . وهكذا روى عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد ؛ أن المذكاه متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح ، فهى حلال . وهذا مذهب جمهور الفقهاء . أفاده ابن كثير . وفى الموطأ[3] : سئل مالك عن شاة تردت فتكسّرت ، فأدركها صاحبها فذبحها ،

(١) فى (اللسان) : ومصعت الدابة بذَنَبها مصْعاً : حرّكته من غير عَدْوٍ .

(٢) الأثر رقم ١١٠٣٦ .

(٣) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢٤ ـ كتاب الذبائح ، حديث ٧ (طبعتنا) .

فسال الدم منها ولم تتحرك ؟ فقال مالك : إذا كان ذبحها ونَفَسُها يجرى وهى تطرف، فليأ كلها .

والتذكية الذبح ، كالذكا والذكاة . قال الراغب: حقيقة التذكية إخراج الحرارة الغريزية. لكن خص فى الشرع بإبطال الحياة على وجه دون وجه . أى وهو قطع الحلقوم والمرىء . بمُنْهرٍ للدم : من سكين وسيف وزجاج وحجر وقصب ، له حد يقطع كما يقطع السلاح المحدد. مالم يكن سنا أو ظفرا. لحديث رافع بن خديج فى الصحيحين(١) وغيرهما قال : قلت يا رسول الله ! إنا لاقو العدوّ غدا . وليس معنا مدى . أفنذبح بالقصب ؟ فقال : ما أَنْهَرَ الدم وذُكِر اسم الله عليه ، فكلوه . ليس السن والظفر . وسأحدثكم عن ذلك : أما السن فعظم. وأما الظفر فمدى الحبشة .

وأما حديث أبى العشراء عن أبيه : قلت : يا رسول الله ! أما تكون الذكاة إلا فى الحلق واللبّة(٢)؟ قال: لو طعنت فى فخذها لأجزأك، أخرجه أحمد وأهل السنن ـ فى إسناده مجهولون.

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٧ ـ كتاب الشركة ، ٣ ـ باب قسمة الغنم ، حديث ١٢٣٠ ونصه :

عن عَبَاية بن رفاعة بن رافع بن خديج عن جده قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم بذى الحُلَيْفَة . فأصاب الناسَ جوعٌ . فأصابوا إبلا وغنما . قال وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم فى أخريات القوم . فعجلوا وذبحوا ونصبوا القدور . فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالقدور فأُكفِئَتْ . ثم قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير . فندَّ منها بعير . فطلبوه فأعياهم . وكان فى القوم خيل يسيرة . فأهوى رجل منهم بسهم فحبسه الله . ثم قال « إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش ، فما غلبكم منها فاصنعوا به هكذا » .

فقال جدى : إنا نرجو أو نخاف العدوّ غدا ، وليست مُدًى . أفنذبح بالقصب ؟ قال « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه ، فكلوه . ليس السنَّ والظفرَ . وسأحدثكم عن ذلك. أما السنّ فعظم . وأما الظفر فمدى الحبشة » .

(٢) فى (اللسان) واللَّبَّة : موضع الذبح

وأبو العشراء لايعرف من أبوه . ولم يَرْو عنه غير حماد بن سلمة. فهو مجهول. كذا فى (الروضة).

وقال الحافظ ابن حجر فى (التلخيص) : أبو العشراء مختلف فى اسمه وفى اسم أبيه . وقد تفرد حماد بن سلمة بالرواية عنه على الصحيح . ولا يعرف حاله .

وقال فى (التقريب) : أعرابىّ مجهول .

قال الترمذىّ فى جامعه ، بعد سوقه لهذا الحديث : قال أحمد بن منيع : قال يزيد بن هرون : هذا فى الضرورة . وفى الباب عن رافع بن خديج . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذا الحديث صحيح . ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه فى الحلق واللبة . انتهى .

وتصحيحه له ، مع جهالة راويه المذكور ، فيه نظر . فإن حد الصحيح كما فى (التقريب) ما اتصل إسناده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة . قال (شارحه السيوطىّ) : نخرج بقيد (العدول) ما نقله مجهول عيناً أو حالاً . أى : فليس بصحيح بل ضعيف .

وفى (النخبة) أن خبر الآحاد مقبول ومردود ، والثانى إما لسقط من إسناد أو طعن فى راوٍ . والطعن إما لكذب أو تهمته بذلك. إلى أن قال: أو جهالته بأن لا يعرف فيه تعديل ولا تجريح معيّن . فتبصّر .

« وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ » قال الزمخشرىّ : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت . يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها. يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها . تسمى الأنصاب.

قال ابن كثير : فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح ، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله . لما فى الذبح عند النصب من الشرك الذى حرمه الله ورسوله . انتهى .

وقد ورد النهى عن الذبح لله بمكان يذبح فيه لغيره تعالى . فروى أبو داود[1] ، بإسناد

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٢٢ ـ باب مايؤمر به =

على شرط الشيخين ، عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال : نذر رجل أن ينحر إبلا بيوانة . فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك . فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله . ولا فيما لا يملك ابن آدم .

ففيه ، أن المعصية قد تؤثر فى الأرض . وكذلك الطاعة . وفيه المنع من النذر إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله . أو عيد من أعيادهم ، ولو بعد زواله أيضاً . وأنه لايجوز الوفاء بما نذر فى تلك البقعة لأنه نذر معصية . وفيه الحذر من مشابهة المشركين فى أعيادهم ، ولو لم يقصده . كذا فى (كتاب التوحيد) .

لطيفة :

(النُّصب) بضمتين ، وضم فسكون ، إما جمعٌ ، واحدُه نِصَاب . ككتاب وكتب . أو مفرد جمعه أنصاب كعُنُق وأعناق . وقُفْل وأقفال . وفى (القاموس وشرحه) : النُّصُبُ: كل ما نصب وجعل علَما . وكل مانُصِب فعبد من دون الله تعالى . والأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فَيُهَلُّ عليها ويذبح لغير الله تعالى . وقال القتيبيّ: النصب صنم أوحجر. وكانت الجاهلية تنصبه تذبح عنده ، فيحمرّ بالدم . ومنه حديث(١) أبى ذر فى إسلامه قال :

= من الوفاء بالنذر ، حديث ٣٣١٣ ونصه :

عن ثابت بن الضحاك قال : نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلا ببُوَانَةَ . فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى نذرت أن أنحر إبلا ببُوَانَةَ . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبَدُ » ؟ قالوا : لا . قال « هل كان فيها عيد من أعيادهم » ؟ قالوا : لا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوف بنذرك . فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٣٢ (طبعتنا) وهو حديث طويل .

فخرجت مغشيًّا عليّ ثم ارتفعت كأني نُصُبٌ أحمر . يريد أنهم ضربوه حتى أدْمَوْهُ . فصار كالنصب المحمّر بدم الذبائح . انتهى .

قال ابن جريج : كانت النصب ثلاثمائة وستين نصبا . وكانوا يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت ، بدماء تلك الذبائح . ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب .

« وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ » أى: وحرم عليكم، أيها المؤمنون، الاستقسام بالأزلام. أى: طلب القسْم والحكم بها . والأزلام جمع زَلَم (محركة) . و (كصُرَد) وهى : قداح ثلاثة كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية . مكتوب على أحدها : (افعلْ) وعلى الآخر (لاتفعل) والثالث غفل ، ليس عليه شيء . وقد زُلِّمت وسُوِّيت ووضعت فى الكعبة . يقوم بها سدنة البيت . فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً ، أتى السادن وقال : أخْرِجْ لى زلما . فيجيلها ثم يُخرج زلما منها . فإذا خرج قدح الأمر ، مضى على ماعزم عليه . أو النهى قعد عما أراده. أو الفارغ أعاد .

قال الأزهريّ (فى معنى الآية) : أى : تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين . فمعنى الاستقسام هو طلب معرفة ماقسم له من الخير والشر ، مما لم يقسم له بواسطة ضرب القداح . وذكر محمد بن إسحق وغيره ؛ أن أعظم أصنام قريش، صنم كان يقال له هُبَل. منصوب على بئر داخل الكعبة، فيها توضع الهدايا، وأموال الكعبة فيه . وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها مايتحاكمون فيه مما أشكل عليهم . فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه . وفى (اللباب) : كانت أزلامهم سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها : (أمرنى ربى) وعلى واحد : (نهانى) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد : (ملصق) وعلى واحد : (العقل) وعلى واحد غفل . أى ليس عليه شيء . وكانت العرب ، فى الجاهلية ، إذا أرادوا سفرا أو تجارة أو نكاحاً ، أو اختلفوا فى نسب أو أمر قتيل ، أو تحمل عقل ، أو غير ذلك من الأمور العظام ـ جاءوا إلى هُبَل . وكانت أعظم صنم لقريش بمكة . وجاؤا بمائة

درهم . وأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم . فإن خرج (أمرنى ربى) فعلوا ذلك الأمر. وإن خرج (نهانى ربى) لم يفعلوه . وإن أجالوا على نسب ، فإن خرج (منكم) كان وسطاً فيهم . وإن خرج (من غيركم) كان حلفا فيهم . وإن خرج (ملصق) كان على حاله . وإن اختلفوا فى العقل، وهو الدين ، فمن خرج عليه قدح العقل تحمّله. وإن خرج غفل أجالوا ثانياً. حتى يخرج المكتوب عليه . فنهاهم الله عن ذلك وحرمه وسماه فسقا . كما يأتى : وثبت فى الصحيحين(١) أن النبى ﷺ لما دخل الكعبة ، وجد إبراهيم وإسمعيل مصورَيْن فيها . وفى أيديهما الأزلام . فقال : قاتلهم الله . لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا . وفى الصحيح(٢) أن سراقة بن مالك ابن جعشم، لما خرج فى طلب النبى ﷺ وأبى بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة . مهاجريْن، قال: فاستقسمت بالأزلام : هل أضرّهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره : لا تضرهم . قال فعصيت الأزلام واتبعتهم . ثم استقسم بها ثانية وثالثة . كل ذلك يخرج الذى يكره : لا تضرهم . وكان كذلك . وكان سراقة لم يُسلم إذ ذاك . ثم أسلم بعد ذلك .

وروى ابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائرا « ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ » أى خروج عن الأخذ بالطريق المشروع . والإشارة إلى الاستقسام . أو إلى تناول ما حرم عليهم . لأن المعنى : حرم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا . فإن قلت : لِمَ كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام ، لتعرف الحال ـ فسقاً ؟ قلت : لأنه دخول فى علم الغيب الذى استأثر به علام الغيوب

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، عن ابن عباس . حديث ٢٦٤ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٥ ـ باب هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، حديث ١٨٢٢ .

وقال : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ(١) . واعتقاد أن إليه طريقاً وإلى استنباطه . وقوله : أمرني ربي ونهاني ربي ـ افتراء على الله . وما يدريه أنه أمره أو نهاه ؟ والكهنة والمنجمون بهذه المثابة . وإن كان أراد بالرب الصنم ، فقد روى أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم ـ فأمره ظاهر . كذا في الكشاف .

تنبيه :

في (الإكليل): استدل بهذه الآية على تحريم القمار والتنجيم والرمل وكل ماشا كل ذلك. وعداه بعضهم إلى منع القرعة في الأحكام، وهو مردود . انتهى . أي لتباين القصد فيهما . فإن القرعة في قسمة الغنائم وإخراج النساء ونحوها ، لتطييب نفوسهم والبراءة من التهمة في إيثار البعض . ولو اصطلحوا على ذلك جاز من غير قرعة . كما (في العناية) .

قال الحاكم : وتدل على تحريم التمسك بالفأل والزجر والتطير والنجوم . فأما التفاؤل بالخير فمباح . قال الأصمّ : ومن هذا قول المنجم : إذا طلع نجم كذا فاخرج ، وإن لم يطلع فلا تخرج .

قال الراضي بالله : ومن عمل بالأيام في السعد والنحس ، معتقدا أن لها تأثيرا ، كفر . وإن لم يعتقد أثِم . وقد روى أبو داود(٢) والنسائيّ وابن حبان عن قطن بن قبيصة ، عن أبيه ، أنه سمع النبيّ ﷺ يقول : إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

قال عوف أحد رواته : العيافة زجر الطير والطرق الخط يخط بالأرض . وفي (القاموس) عِفْتُ الطير عيافة : زجرتها . وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها، فتَتَسَعَّدَ أو تَتَشَأَّم ، وهو من عادة العرب كثيرا .

(١) [٢٧ / النمل / ٦٥] . . . وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ٢٣ ـ باب في الخط وزجر الطير ، حديث ٣٩٠٧ .

وقال أبو زيد : : الطرق أن يخط الرجل فى الأرض بإصبعين ثم بإصبع .

وقال ابن الأثير . : الطرق الضرب بالحصى الذى تفعله النساء . وقيل : هو الخط بالرمل. والجبت : كل ما عبد من دون الله تعالى . وقد روى مسلم فى صحيحه[1] ، عن بعض أزواج النبىّ ﷺ ، عن النبىّ ﷺ قال: من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوما . وروى الإمام أحمد[2] وأبوداود والحاكم عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمران بن حصين مرفوعا : ليس منا من تَطيَّرَ أو تُطُيِّرَ له ، أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ له ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له . ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ الله . رواه البزار بإسناد جيد. ورواه الطبرانى فى (الأوسط) بإسناد حسن من حديث ابن عباس . دون قوله :وَمَنْ أَتَىٰ الخ .

قال البغوىّ : العراف الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك . وقيل : هو الكاهن . والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل . وقيل: الذى يخبر عما فى الضمير . وقال أبوالعباس بن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ، ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق . وقال ابن عباس (فى قوم يكتبون أبا جاد وينظرون فى النجوم) : ما أرى من فعل ذلك ، له عند الله من خلاق . وفى الأحاديث السابقة من الترهيب ما فيها من التصريح بأنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ١٢٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) وهذا نصه : عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى حائضاً ، أو امرأة فى دبرها، أوكاهناً فصدقه ، فقد برئ مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام» .

الإيمان بالقرآن ، والتصريح بأنه كفر . وعن ابن مسعود مرفوعا[(١)] . الطيرة شرك. الطيرة شرك. ومامنا إلا...ولكن الله يذهبه بالتوكل . رواه أبو داود والترمذىّ وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ولأحمد[(٢)] من حديث ابن عَمْرٍو : من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول: اللهم! لاخير إلاخيرك ، ولا طير إلاطيرك ، ولا إله غيرك .

وعن أنس قال : قال[(٣)] رسول الله ﷺ : لاعدوى ولاطيرة ويعجبنى الفأل . قالوا: وما الفأل؟ قال : الكلمة الطيبة . رواه الشيخان .

ولأبى داود[(٤)] بسند صحيح عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنها الفأل ولا تردّ مسلما . فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم ! لا يأتى بالحسنات إلا أنت . ولا يدفع السيئات إلا أنت . ولا حول ولا قوة إلا بك.

فائدة :

قال الحافظ : ابن كثير : قد أمر الله المؤمنين، إذا ترددوا فى أمورهم، أن يستخيروه، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة فى الأمر الذى يريدونه . كما رواه الإمام أحمد والبخارىّ[(٥)]

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ٢٤ ـ باب فى الطيرة ، حديث ٣٩١٠.

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٢٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) حديث ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٤ ـ باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ . ومسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ١١٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ٢٤ ـ باب فى الطيرة ، حديث ٣٩١٩

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٥ ـ باب ما جاء فى التطوع مثنى مثنى ، حديث ٦٣٧ .

وأهل السنن من طرق عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور ، كما يعلمنا السورة من القرآن . ويقول : إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم ! إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم ! إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه باسمه) خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى (أو قال عاجل أمرى) وآجله فاقدره لى ، ويسره لى ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ودنياى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فاصرفنى عنه واصرفه عنى ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به . هذا لفظ الإمام أحمد . « الْيَوْمَ يَئِسَ » أى: قنط « الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ » روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ؛ يعنى : يئسوا أن يراجعوا دينهم . وكذا روى عن عطاء بن أبى رباح والسدّىّ ومقاتل بن حيان . وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت فى الصحيح[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن بالتحريش بينهم . نقله ابن كثير. وعليه فـ(من) تعليلية . أى: يئسوا من مراجعة دينهم لأجل دينكم الذى ضم إليه جمهور الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها . ودخلوا فيه أفواجا .

وللزمخشرىّ تأويل بديع ، تابعه عليه مَن بعده ، ونحن نسوقه أيضاً . قال رحمه الله : لم يُرِدْ بقوله تعالى : (الْيَوْمَ) يوم بعينه . وإنما أريد به الزمان الحاضر ، وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية . كقولك: كنت بالأمس شابا وأنت اليوم أشيب. فلا تريد (بالأمس) اليوم الذى قبل يومك ولا (باليوم) يومك . وقيل : أريد يوم نزولها . وقد نزلت يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة ، بعد العصر فى حجة الوداع . وقوله تعالى : يَئِسَ. الخ. أى يئسوا منه أن يبطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث ، بعد ما حرمت عليكم . وقيل:

(١) أخرجه مسلم فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

يئسوا من دينكم أن يغلبوه . لأن الله عز وجل وفّى بوعده من إظهاره على الدين كله .

« فَلَا تَخْشَوْهُمْ » بعد إظهار الدين ، وزوال الخوف من الكفار ، وانقلابهم مغلوبين مقهورين ، بعدما كانوا غالبين « وَاخْشَوْنِ » وأخلصوا لى الخشية . انتهى كلامه .

وأوضح الوجه الأول ، الرازىّ فقال: ليس المراد باليوم هوذلك اليوم بعينه، حتى يقال: إنهم مايئسوا قبله بيوم أو يومين ، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان ، معناه : لاحاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار ، لأنكم الآن صرتم حيث لا يطمع أحد من أعدائكم فى توهين أمركم .

ثم بين تعالى أكبر نعمه وأعظم مننه على هذه الأمة وهو : إكماله لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبىّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا جعله تعالى خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ولا دين إلا ما شرعه . فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة . ولهذا قال « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » يعنى أحكامه وفرائضه، فلا زيادة بعده . ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. هذا ماروى عن ابن عباس . وقال سعيد بن جبير وقتادة : معنى (الإكمال) أنه لم يحج معهم مشرك . وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين . وقيل : معناه كفايتهم أمر العدوّ ، وجعل اليد العليا لهم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم . وبما ذكرنا أولاً – من أنّ المراد بالإكمال عدم الزيادة – يندفع ما يتوهم من ثبوت النقص أولًا . ولذا قال ابن الأنبارىّ (فى الآية) : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت . وذلك أنّ الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشىء فى وقت ثم يزيد عليه فى وقت آخر . فيكون الوقت الأول تامًّا فى وقته . وكذلك الوقت الثانى تامًّا فى وقته . فهو كما يقول القائل : عندى عشرة كاملة ، ومعلوم أنّ العشرين أكمل منها .

والشرائع التي تعبد الله عز وجلّ بها عباده، في الأوقات المختلفة، مختلفة . وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبّد بها . فكمل الله عز وجلّ الشرائع في اليوم الذي ذكره ـ وهو يوم عرفة ـ ولم يوجب ذلك ، أنّ الدين كان ناقصاً في وقت من الأوقات .

وللإمام القفّال نحو ذلك ، نقله عنه الرازيّ واختاره . قال : إنّ الدين ما كان ناقصاً البتة ، بل كان أبداً كاملًا . يعني : كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت . إلّا أنه تعالى كان عالمًا في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه . فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت . وكان يزيد بعد العدم . وأما في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة ، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة . فالشرع أبداً كان كاملًا . إلّا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص . والثاني كمال إلى يوم القيامة . فلأجل هذا قال : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . « وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » يعني بإكمال الدين والشريعة . لأنه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام . أو بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين . وهدم منار الجاهلية ومناسكهم ، وأن لم يحج معكم مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . أو بإنجاز ما وعدهم بقوله : وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ . فكان من تمام النعمة فتح مكة وما ذكرنا . « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » يعني : اخترته لكم من بين الأديان ، وآذنتكم بأنه هو الدين المرضيّ وحده . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ(١) أو معناه : الانقياد لأمرى فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم . ومعلوم أن الإسلام لم يزل مرضيًّا للحق تعالى منذ القدم ، إلّا أن المعنيّ به، في الآية، الصفة التي هو اليوم بها . وهي نهاية الكمال والبلوغ به أقصى درجاته . أي: فالزموه ولا تفارقوه : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ(٢) ..!

(١) [٣ / آل عمران / ٨٥] . . . وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٩] . . . وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمِ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

روى البغوىّ بسنده عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال جبريل: قال الله عز وجلّ: هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلّا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه .

فوائد

الأولى : روى الإمام أحمد والشيخان(١) وغيرهم عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : ياأمير المؤمنين! إنكم تقرأون آيةً فى كتابكم، لوعلينا، معشر اليهود ، نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيداً . قال: وأىّ آية ؟ قال: قوله : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي. فقال عمر : والله ! إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة فى يوم جمعة .

قال ابن كثير : وقد روى هذا من غير وجه عن عمر . وروى ابن جرير(٢) عن قبيصة ابن أبى ذئب قال : قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذى أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه . فقال عمر : أىّ آية يا كعب ؟ فقال : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . فقال عمر : قد علمت اليوم الذى أنزلت ، والمكان الذى أنزلت فيه . نزلت فى يوم جمعة ويوم عرفة . وكلاهما بحمد الله لناعيدٌ . وروى ابن جرير(٣) القصة أيضاً عن ابن عباس ، وأنه قال : نزلت يوم عيدين اثنين . يوم عيد ويوم جمعة ... وروى ابن مردويه عن ابن الحنفية عن علىّ قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢ ـ باب قوله الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، حديث ٤١ .

(٢) الأثر رقم ١١١٠٠

(٣) الأثر رقم ١١٠٩٨

عليه وسلم وهو قائم عشية عرفه : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . ورواه أيضاً عن سمرة. وروى ابن جرير نحوه عن معاوية[١] . وروى عن السدّى[٢] قال : نزلت هذه الآية يوم عرفة، ولم ينزل بعدها حلال ولاحرام . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات. فقالت[٣] أسماء بنت عميس : حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحجة . فبينما نحن نسير إذ تجلّى له جبريل ، فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة . فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن . فنزلت . فأتيته فسجيت عليه برداً كان علىّ .

وقال ابن جرير[٤] وغيره : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً .

وقال ابن جرير[٥] : حدثنا سفيان بن وكيع : حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـ وذلك يوم الحج الأكبر ـ بكى عمر. فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ قال : أبكانى أنّا كنا فى زيادة من ديننا . فأما إذ كمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال : صدقت .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت : إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء. انتهى .

قلت : والحديث المذكور رواه مسلم[٦] عن أبى هريرة . والترمذىّ عن ابن مسعود.

---

(١) الأثر رقم ١١١٠٨

(٢) الأثر رقم ١١٠٨١

(٣) الأثر رقم ١١٠٨١

(٤) ابن جرير ، الصفحة ٥١٨ من الجزء التاسع (طبعة المعارف) .

(٥) الأثر رقم ١١٠٨٣

(٦) أخرجه مسلم فى: ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ٢٣٢ (طبعتنا) ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً . فطوبى للغرباء » .

وابن ماجة عنهما أيضاً وعن أنس . والطبرانيّ عن سلمان وسهل وابن عباس .

هذا ، وروى ابن جرير[٢] من طريق العوفيّ عن ابن عباس فى الآية قال : ليس ذلك بيومٍ معلومٍ عند الناس . ومن طريق أبي جعفر الرازيّ عن الربيع بن أنس قال: نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيره إلى حجة الوداع . وروى ابن مردويه من طريق أبي هارون العبديّ عن أبي سعيد الخدريّ ؛ أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خمّ ، حين قال لعليّ : من كنتُ مولاه فعليّ مولاه . ثم رواه عن أبي هريرة وفيه: إنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ـ يعنى مرجعه عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع .

قال ابن كثير : ولا يصح لا هذا ولا هذا . بل الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية ، أنها نزلت يوم عرفة وكان يوم جمعة. كما قدمنا عن عمر وعليّ ومعاوية وابن عباس وسمرة رضى الله عنهم ، وعن ثلّة من التابعين .

الثانية : استدلّ نفـاة القياس بهذه الآية ، على أنّ القياس باطل . وذلك لأنّ الآية دلت على أنه تعالى قد نصّ على الحـكم فى جميع الوقائع . إذ لو بقى بعضها غير مبيّن الحـكم لم يكن الدين كاملاً ، وإذا حصل النص فى جميع الوقائع ، فالقياس ـ إن كان على وفق ذلك النص ـ كان عبثاً . وإن كان على خلافه كان باطلاً .

وأجاب عنه مثبتو القياس بمـا بسطه الرازيّ . فانظره .

الثالثة : قال صاحب (فتح البيان) : لا معنى للإكمال فى الآية إلا وفاء النصوص بما يحتاج إليه الشرع . إمّا بالنص على كل فردٍ فرد ، أو باندراج مايحتاج إليه تحت العمومات الشاملة . ومما يؤيد ذلك قـوله تعالى : مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ[٢] . وقوله :

---

(١) الأثر رقم ١١١١٣

(٢) [٦ / الأنعـام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَافَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[(١)] وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال[(٢)]: تركتكم على الواضحة، ليلها كنهارها . وجاءت نصوص الكتاب العزيز بإكمال الدين . وبما يفيد هذا المعنى ، ويصحح دلالته ، ويؤيد برهانه ، ويكفى فى دفع الرأى ، وأنه ليس من الدين ـ قول الله تعالى هذا. فإنه إذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض إليه نبيّه صلى الله عليه وسلم، فما هذا الرأى الذى أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه ؟ لأنه إن كان من الدين ـ فى اعتقادهم ـ فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم ، وهذا فيه ردّ للقرآن . وإن لم يكن من الدين ، فأىّ فائدة فى الاشتغال بما ليس منه ؟ وما ليس منه فهو ردّ بنص السنة المطهرة ـ كما ثبت فى (الصحيح) ـ وهذه حجة قاهرة ودليل باهر لا يمكن أهل الرأى أن يدفعوه بدافع أبدا. فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصكّ به وجوه أهل الرأى ، وترغم به آنافهم ، وتدحض به حجتهم . فقد أخبرنا الله فى محكم كتابه أنه أكمل دينه . ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل . فمن جاء بشىء من عند نفسه

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] ونصها : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١ ـ باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث ٥ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى الدرداء قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوفه . فقال « آلفقرَ تخافون ؟ والذى نفسى بيده ! لتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًّا ، حتى لا يُزِيغ قلبَ أحدكم إلا هِيَهْ . وايم الله ! لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها سواء » .

وزعم أنه من ديننا قلنا له : إنّ الله أصدق منك : وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا[١] . اذهب لا حاجة لنا فى رأيك . وليت المقلدة فهموا هـذه الآية حقّ الفهم حتى يستريحوا ويريحوا . وقدأخبرنا الله فى محكم كتابه أنّ القرآن أحاط بكل شىء فقال : مَا فَرَّطْنَا فِى الْـكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ[٢] . وقال : تِبْيَانًا لِـكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً[٣] . ثم أمر عباده بالحـكم بكتابه فقال : وَأَنِ احْـكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ[٤] . وقال : لِتَحْـكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ[٥] . وقال: إِنِ الْحُـكْمُ إِلَّا لِلهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ[٦] .

---

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللهُ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٨٣٤ .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْـكِتَابَ تِبْيَانًا لِـكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٩] ونصها : وَأَنِ احْـكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْـكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٠٥] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْـكَ الْـكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْـكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ، وَلَا تَـكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا .

(٦) [٦ / الأنعام / ٥٧] ونصها : قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنِ الْحُـكْمُ إِلَّا لِلهِ ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ .

وقال : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(١) . وفى آية ... هُمُ الظَّالِمُونَ(٢) . وفى أخرى ... هُمُ الْفَاسِقُونَ(٣) . وأمر عباده أيضاً فى محكم كتابه باتباع ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا(٤) . وهذه أعمّ آية فى القرآن ، وأبينها فى الأخذ بالسنة المطهرة ، وقال : أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ(٥) . وقد تكرر هذا فى مواضع من الكتاب العزيز .

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٥] ونصها : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٧] ونصها : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٥) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

وقال : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا(١) . وقال : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ(٢) . والاستكثار من الاستدلال على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله لا يأتى بعائدة ، ولا فائدة زائدة ، فليس أحد من المسلمين يخالف فى ذلك . ومن أنكره فهو خارج عن حزب المسلمين . وإنما أوردنا هذه الآيات الكريمة ، والبينات العظيمة ، تليينًا لقلب المقلّد الذى قد جمد ، وصار كالجلمد . فإنه إذا سمع مثل هذه الأوامر القرآنية ، ربما امتثلها وأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، طاعة لأوامره . فإنّ هذه الطاعة ، وإن كانت معلومة لكل مسلم ، لكن الإنسان قد يذهل عن القوارع الفرقانية والزواجر المحمدية . فإذا ذُكّر بها ذَكَرَ . ولا سيما من نشأ على التقليد ، وأدرك سلفه ثابتين عليه غير متزحزحين عنه . فإنه يقع فى قلبه ؛ أن دين الإسلام هو هذا الذى هو عليه . وما كان مخالفًا له فليس من الإسلام فى شىء . فإذا راجع نفسه رجع .. ولهذا تجد الرجل إذا نشأ على مذهب من هذه المذاهب ، ثم سمع ـ قبل أن يتمرد بالعلم ويعرف ما قاله الناس ـ خلاف ذلك المألوف ، استنكره وأباه قلبه ، ونفر عنه طبعه . وقد رأينا وسمعنا من هذا الجنس مالا يأتى عليه الحصر . ولكن إذا وازن العاقل بعقله ، بين من اتبع أحد أئمة المذاهب فى مسألة من مسائله التى رواها عنه المقلّد ـ ولا مستند لذلك العالم فيها ، بل قالها بمحض الرأى لعدم وقوفه على الدليل ـ وبين من تمسك فى تلك المسألة بخصوصها بالدليل الثابت فى القرآن والسنة ؛ أفاده العقل بأن بينهما مسافات تنقطع فيها أعناق الإبل ، لا جامع بينهما . لأنّ من تمسك بالدليل أخذ بما أوجب الله عليه الأخذ به ، واتبع ما شرعه الشارع لجميع الأمة : أولها وآخرها ،

---

(١) [٢٤ / النور / ٥١] . . . وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] . . . لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا .

وحيّها وميتها ..! والعالم يمكنه الوقوف على الدليل من دون أن يرجع إلى غيره . والجاهل يمكنه الوقوف على الدليل بسؤال علماء الشريعة ، واسترواء النص ، وكيف حكم الله فى محكم كتابه أو على لسان رسوله فى تلك المسألة . فيفيدونه النص إن كان ممن يعقل الحجة إذا دل عليها ، أو يفيدونه مضمون النص بالتعبير عنه بعبارة يفهمها . فهم رواة وهو مستروٍ ، وهذا عامل بالرواية لا بالرأى ؛ والمقلد عامل بالرأى لا بالرواية . لأنه يقبل قول الغير من دون أن يطالبه بحجة . وذلك فى سؤاله يطالب بالحجة لا بالرأى ، فهو قابل لرواية الغير لا لرأيه . وهما من هذه الحيثية متقابلان ؛ فانظر كم الفرق بين المنزلتين ؟ والكلام فى ذلك يطول ويستدعى استغراق الأوراق الكثيرة ، وهو مبسوط فى مواطنه ، وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ ، وبالله التوفيق . انتهى كلامه .

الرابعة : قال بعض الزيدية : ثمرة الآية تعظيم هذا اليوم المذكور ، وأنه يلزم الشكر لله تعالى على التمسك بملّة الإسلام .

وقوله تعالى « فَمَنِ اضْطُرَّ » متصل بذكر المحرمات . وما بينهما اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه . وهو أنّ تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل ، والنعمة التامة ، والإسلام المرضىّ . ومعناه : فمن اضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات : الميتة وما بعدها ، أى : أصيب بالضر الذى لا يمكنه الامتناع معه من الميتة وما بعدها « فِى مَخْمَصَةٍ » أى : مجاعة يخاف معها الموت أو مبادئه ـ و (المخمصة) : مصدر مثل المَغْضبة والمَتْبة . يقال : خمصه الجوع خمصاً ومخمصة ، وخمص البطن (مثلثة الميم) خلا . « غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ » أى : غير منحرف إليه بالأكل فوق الضرورة ، أو العصيان بالسفر . كقوله تعالى : غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ[1]

(١) [٢/ البقرة/ ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لتناوله الحرام ـ فلا يؤاخذه به « رَحِيمٌ » أى : بإعطائه الرخصة فيه لعلمه بحاجة عبده المضطر ، وافتقاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ويغفر له . وفى (المسند)[١] و(صحيح) ابن حبان[١] عن ابن عمر ـ مرفوعاً ـ قال : قال رسولُ الله ﷺ : إنّ الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته. لفظ ابن حبان . وفى لفظٍ لأحمد[٢] : من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة . ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً فى بعض الأحيان . وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها. وقد يكون مندوباً ، وقد يكون مباحاً ، بحسب الأحوال . واختلفوا : هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع ويتزود؟ على أقوال . وليس من شرط تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً ـ كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ـ بل متى اضطر إلى ذلك جاز له . وقد روى الإمام أحمد[٣] عن أبى واقد الليثىّ؛ أنهم قالوا : يارسول الله ! إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة . فمتى تحل لنا بها

= و [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و [١٦ / النحل / ١١٥] ونصها: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٨٧٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٣٩٢ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

الميتة ؟ فقال : إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بقلا[١] ، فشأنكم بها. إسناده صحيح على شرط الشيخين ؛ والاصطباح : شرب اللبن بالغداة فما دون القائلة ، وما كان منه بالعشي فهو الاغتباق ؛ ومعنى لم تحتفئوا : أى تقتلعوا . وفى اللفظة عدة روايات. وروى أبو داود عن الفجيع العامرى :[٢] أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يحل لنا من الميتة ؟ قال : « ما طعامكم ؟ » قلنا : نصطبح ونغتبق ! قال أبو نعيم : فسره لى عقبة : قدح غدوة وقدح عشية ، قال : ذاك ، وأبى ! الجوع . فأحل لهم الميتة على هذه الحال . تفرد به أبو داود . وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم . فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم. وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسد الرمق ، والله أعلم. وروى أبو داود[٣] عن جابر بن سمرة أن رجلا نزل الحرة ومعه أهله وولده. فقال رجل:

---

(١) فى اللسان : احتفى البقلَ: اقتلعه من الأرض . وقال أبو حنيفة : الاحتفاء : أخذ البقل بالأظافير من الأرض .

قال أبو عبيد : هو من (الحفا) مهموز مقصور ، وهو أصل البردى الأبيض الرطب منه .

الأزهرى :وقال أبو سعيد: صوابه (تحتفوا) بتخفيف الفاء من غير همز. وكل شىء استؤصل فقد احْتُفِىَ . قال : واحتفى البقلَ : إذا أخذه من وجه الأرض بأطراف أصابعه، من قصره وقلته .

قال : ومن قال (تحتفئوا ، بالهمز ، من الحفأ البردى) فهو باطل . لأن البردى ليس من البقل. اهـ (من اللسان)

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٦ ـ باب فى المضطر إلى الميتة ، حديث ٣٨١٧ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٦ ـ باب فى المضطر إلى الميتة ، حديث ٣٨١٦

إنّ ناقة لي ضلت . فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدها فلم يجد صاحبها فمرضت. فقالت له امرأته : انحرها ! فأبى ، فنفقت ، فقالت اسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها ونأكله ، فقال : حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتاه ، فسأله ، فقال له : هل عندك غنى يغنيك ؟ قال : لا ! قال : فكلوها ! قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال: هلا كنت نحرتها ؟ قال : استحييت منك ! تفرد به .

وقد يحتج به من يجوّز الأكل والشبع والتزود منها مدة، يغلب على ظنه الاحتياج إليها. والله أعلم. أفاده ابن كثير. وقوله: (فَنَفَقَتْ). أي ماتت. (من باب نصر وفرح) قال ابن برّي: أنشد ثعلب (١) .

فما أشياء نشريها بمال فإن نفقت فأكسدما تكون؟

تنبيه: قال بعض المفسرين: ليس في هذه الآية بيان لتقديم أحدها. والفقهاء يقولون: يقدم الأخف تحريماً ، فميتة المأكول على ميتة غيره . انتهى .

وفي (رحمة الأمة) أنّ المضطر إذا وجد ميتة وطعام الغير ، ومالكه غائب ، أنّ له أكله بشرط الضمان، دون الميتة . عند مالك وأكثر أصحاب الشافعيّ وجماعة من الحنفية . وعند أحمد وآخرين: يأكل الميتة .

قال ابن كثير : قد استدل بقوله تعالى (غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ) من يقول بأنّ العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأنّ الرخص لا تنال بالمعاصي. والله أعلم .

---

(١) استشهد به اللسان في مادة (ن ف ق) صفحة ٣٥٧ من المجلد العاشر (طبعة بيروت) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ » أى : من المطاعم « قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » أى: ماليس بخبيث منها. وهو كل مالم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة . و (الطيِّب) فى اللغة هو المستلذ . و (الحلال) المأذون فيه ، يسمى طيبا تشبيهاً بما هومستلذ. لأنهما اجتمعا فى انتفاء المضرة « وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ » عطف على (الطيبات) بتقدير مضاف. أى : وصيد ما علمتموه . أومبتدأ، على أنّ (ما) شرطية وجوابها (فكلوا) . و (الجوارح) : الكواسب من سباع البهائم والطير ـ كالكلب والفهد والعقاب والصقر والبازى والشاهين ـ لأنها تجرح لأهلها أى تكسب لهم . الواحدة جارحة . تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أى : كسبهم خيراً . وفلان لا جارح له . أى : لا كاسب . ومنه قوله تعالى : وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ (١) . أى: كسبتم . وقيل: سميت (جوارح) لأنها تجرح الصيد عند إمساكه. وقوله تعالى « مُكَلِّبِينَ » أى : معلمين لها أن تَسْتَشْلِىَ إذا أُشْلِيَتْ ، وتنزجر إذا زجرت ، وتجتنب عند الدعوة ، ولا تنفر عند الإرادة ، فتصير كأنها وكلاؤكم لتعلمهن . إلا إذا قتلت بأنفسها من غير تعليم ، فلا يحل صيدها .

قال الزمخشرىّ : (المكلّب) مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها ورائضها

---

(١) [٦ /الأنعام/ ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

لذلك ، بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف . واشتقاقه من (الكلب) لأن التأديب أكثر ما يكون فى الكلاب . فاشتق من لفظه لكثرته فى جنسه . أو لأن السبع يسمى كلباً . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : اللهمّ سلط عليه كلباً من كلابك. فأكله الأسد. (الحديث حسن، أخرجه الحاكم) ، أومن الكلب الذى هو بمعنى الضراوة ، يقال : هو كلب بكذا إذا كان ضارياً به . وانتصاب (مكلّبين) على الحال من (علمتم) . فإن قلت : مافائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بـ (علمتم) ؟ قلت : فائدتها أن يكون مَن يعلم الجوارح نحريراً فى علمه، مدرّباً فيه، موصوفاً بالتكليب. وقوله تعالى « تُعَلِّمُونَهُنَّ » حال ثانية أواستئناف،وفيه فائدة جليلة . وهى أنّ على كل آخذٍ علماً أن لا يأخذه إلّا من أقتَلِ أهله علماً ، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه . وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل . فكم من آخذٍ ، عن غير متقن، قد ضيع أيامه ، وعض عند لقاء النحارير أنامله « مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ » أى : من علم التكليب . لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل . أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه . وانزجاره بزجره . وانصرافه بدعائه . وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه . انتهى .

وقال الناصرفى (الانتصاف) : وفى الآية دليل على أن البهائم لها علم . لأن تعليمها، معناه لغةً ، تحصيل العلم لها بطرقه. خلافاً لمنكرى ذلك.

« فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ » أى : صِدْنَ لكم وإن قتلنه بأن لم يأكلن منه «وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ» الضمير يرجع إلى (ماعلمتم من الجوارح) أى : سموا عليه عند إرساله، كما بيّنه حديث أبى ثعلبة وعدىّ الآتى. وجوز رجوعه إلى (ما أمسكن) على معنى : وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته « وَاتَّقُوا اللهَ » أى بالأكل مما فقد فيه شرط من هذه الشرائط استعجالاً إليها « إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى: المجازاة على كل ما جلّ ودقّ .

تنبيهات

الأول : روى ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، عن عدىّ بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيّيْن . سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله ! قد حرّم الله الميتة فماذا يحل لنامنها؟ فنزلت: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ؛ قال سعيد : يعنى الذبائح الحلال الطيبة لهم ؛ وقال مقاتل : ما أحل لهم من كل شيءٍ أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق . وقد سئل الزهرىّ عن شرب البول للتداوى؟ فقال : ليس هو من الطيبات ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن وهب : سئل مالك عن بيع الطين الذى يأكله الناس؟ فقال: ليس هو من الطيبات . وروى ابن أبي حاتم فى سبب نزولها أثراً آخر ، عن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب فقتلت ، فجاء الناس فقالوا : يارسول الله ! ما يحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها ، فسكت . فأنزل الله : يَسْأَلُونَكَ...الآية. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك عليه، فليأكل مما لم يأكل.

وعند ابن جرير[١] عن أبىرافع قال : جاء جبريل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ليستأذن عليه ، فأذن له . فقال : قد أذنّا لك يارسول الله ! قال : أجل . ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب . قال أبو رافع : فأمرنى أن أقتل كلّ كلب بالمدينة . حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها . ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته. فأمرنى فرجعت إلى الكلب فقتلته ، فجاؤوا فقالوا : يا رسول الله ! ما يحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها ؟ قال ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأنزل الله عز وجل : يَسْأَلُونَكَ ... الآية .

(١) الأثر رقم ١١١٣٤

ورواه الحاكم فى (مستدركه) وقال : صحيح ولم يخرجاه .

وروى ابن جرير[١] أيضاً عن عكرمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا رافع فى قتل الكلاب حتى بلغ العوالى . فجاء عاصم بن عدىّ وسعيد بن خيثمة وعويمر بن ساعدة فقالوا : ماذا أحلّ لنا يا رسول الله ؟ فنزلت الآية . ورواه الحاكم أيضاً عن عكرمة . وكذا قال محمد بن كعب القرظىّ فى سبب نزولها : أنه فى قتل الكلاب ـ أفاده ابن كثير .

قال بعض المفسرين : لما نزلت الآية ، أذن صلى الله عليه وسلم فى اقتناء الكلاب التى ينتفع بها ، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها . وأمر بقتل العقور وما يضر. انتهى .

أقول : روى الإمام أحمد ومسلم[٢] عن جابر قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب . حتى أن المرأة تقدم من البادية بكلبها فتقتله ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها وقال : عليكم بالأسود البهيم ذى النقطين فإنه شيطان .

وروى الشيخان[٣] عن ابن عمر : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب. إلا كلب صيدٍ أو كلب غنم أو ماشية .

وعن عبد الله بن المغفل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : لولا أنّ الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها . فاقتلوا منها كل أسود بهيم. رواه أبو داود[٤] والدارمىّ ، وزاد

(١) الأثر رقم ١١١٣٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٤٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢١ ـ باب فى اتخاذ الكلب للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

الترمذى[١] والنسائى[٢] : وما من أهل بيت يرتبطون كلباً إلّا نقص من عملهم كل يوم قيراط. إلّا كلب صيد أو كلب حرث أو كلب غنم.

وظاهر هذه الأحاديث، أنه صلى الله عليه وسلم كان أمر بقتلها كلها. ثم رخص فى استبقائها. إلّا الأسود فإنه مستحق القتل .

وقول إمام الحرمين : ثم استقر الشرع على النهى عن قتل جماع الكلاب حيث لا ضرر فيها حتى الأسود البهيم- يحتاج إلى برهان .

قال ابن عبد البر : فى هـذه الأحاديث إباحة اتخاذ الكلب للصيد والماشية . وكذلك للزرع . لأنها زيادة حافظ . وكراهة اتخاذها لغير ذلك . إلّا أنه يدخل فى معنى الصيد وغيره مما ذكر ، اتخاذها لجلب المنافع ودفع المضارّ قياساً ، فتمحض كراهة اتخاذها لغير حاجة ، لما فيه من ترويع الناس ، وامتناع دخول الملائكة إلى البيت الذى الكلاب فيه .

ثم قال : ووجه الحديث عندى؛ أن المعانى المتعبد بها فى الكلاب . من غسل الإناء سبعاً، لا يكاد يقوم بها المكلف ولا يتحفظ منها، فربما دخل عليه باتخاذها ماينقص أجره من ذلك.

وروى أن المنصور بالله سأل عمرو بن عبيد عن سبب هـذا الحديث ؟ فلم يعرفه . فقال المنصور : لأنه ينبح الضيف ويروّع السائل . انتهى .

وقال الخطابىّ : معنى (قوله صلى الله عليه وسلم : لولا أن الكلاب أمة من الأمم ... الخ). أنه صلى الله عليه وسلم كره إفناء أمة من الأمم وإعدام جيل من الخلق ، لأنه ما من خلق لله تعالى إلّا وفيه نوع من الحكمة وضرب من المصلحة . يقول : إذا كان الأمر على هذا ، ولا سبيل إلى قتلهن ، فاقتلوا أشرارهن وهى السود البُهم . وأبقوا ماسواها لتنتفعوا بهنّ فى الحراسة .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ١٦ ـ كتاب الصيد ، ١٦ ـ باب ماجاء فى قتل الكلاب.

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد ، ١٠ ـ باب صفة الكلاب التى أمر بقتلها .

وقال الطيبيّ : قوله (أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ) إشارة إلى قوله تعالى . وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ[(١)] . أى : أمثالكم فى كونها دالة على الصانع ومسبحة له . قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ[(٢)] . أى : يسبح بلسان القال أو الحال. حيث يدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته وتنزيهه عمّا لا يجوز عليه، فبالنظر إلى هذا المعنى، لا يجوز التعرض لها بالقتل والإفناء . ولكن إذا كان لدفع مضرةٍ ـ كقتل الفواسق الخمس ـ أو جلب منفعةٍ ـ كذبح الحيوانات المأكولة ـ جاز ذلك .

الثانى :

ذهب جمهور الصحابة والتابعين والأئمة إلى أنّ الجوارح التى يحل صيدها ، ما قَبِلَ التعليم من ذى ناب (كالكلب والفهد والنمر) أو ذى مخلب (كالطيور المذكورة قبل) . قال فى (النهاية) : حتى الهرّ إن تعلّم ، واحتجوا بعموم الآية .

وروى أحمد[(٣)] وأبو داود عن مجالد عن الشعبيّ عن عدىّ بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال : ما علَّمت من كلبٍ أو بازٍ ثم أرسلته وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك . قلت: وإن قتل ؟ قال : وإن قتل ولم يأكل منه شيئاً. فإنما أمسكه عليك .

(١) [٦ / الأنعام / ٣٨] . . . مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة **٢٥٧** من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن عدىّ بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ فعلمنى الإسلام . ونعت لى الصلاة وكيف أصل كل صلاة لوقتها . ثم قال لى « كيف أنت يا ابن حاتم !إذا ركبت من قصور اليمن =

قال البيهقيّ : تفرد مجالد بذكر الباز فيه ، وخالف الحفاظ .

أقول : روى ابن جرير بالسند المذكور إلى عديّ قال : سألت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن صيد البازى ؟ فقال : ما أمسك عليك فكل . وعن ابن عمر ومجاهد : لا يحل إلّا صيد الكلب فقط . روى ابن جرير(١) بسنده ، أن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير (والبزاة من الطير) فما أدركت فهو لك . وإلّا فلا تطعمه . وقال ابن أبى حاتم : كره مجاهد صيد الطير كله، وقرأ قوله : وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ . أى : فإن قوله تعالى (مكلّبين) يشير إلى قصر ذلك على الكلب . وقال الحسن البصرىّ والنخعىّ وأحمد وإسحق: يحل من كل شيء إلا الكلب الأسود البهيم. لأنه قد أمر بقتله.

الثالث : قدمنا أنّ انتصاب (مكلّبين) على الحال من (علمتم) . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو (الجوارح) أى : وما علمتم من الجوارح فى حال

= لا تخاف إلا الله حتى تنزل قصور الحيرة ؟ » قال قلت : يا رسول ! فأين مقانب طيء ورجالها ؟ قال « يكفيك الله طيئاً ومن سواها » قال قلت : يا رسول الله ! إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب والبزاة . فما يحل لنا منها ؟ قال « يحل لكم ما علمتم من الجوارح تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه . فما علّمت من كلب أو باز، ثم أرسلت وذكرت اسم الله عليه ، فكل مما أمسك عليك . قلت : وإن قَتَلَ ؟ قال « وإن قتل ، ولم يأكل منه شيئاً . فإنما أمسكه عليك» . قلت : أفرأيت إن خالط كلابَنا كلابٌ أخرى حين نرسلها ؟ قال « لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذى أمسك عليك » قلت : يا رسول الله ! إنا قوم نرمى بالمعراض ، فما يحلّ لنا ؟ قال « لا تأكل ما أصبت بالمعراض ، إلا ما ذكيتَ » .

وأبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢٢ ـ باب فى الصيد ، حديث ٢٨٥١ .

(١) الأثر رقم ١١١٥٥ .

كونهن مكلبات للصيد . وذلك أن تصيد بمخالبها وأظفارها . فيستدل بذلك ، والحالة هذه ، على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخالبه وظفره ، أنه لا يحل . كما هو أحد قولى الشافعىّ وطائفةمن العلماء . ولهذا قال (تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ) وهو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا استشلاه استشْلى ، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجئ إليه ، ولا يمسكه لنفسه . ولهذا قال تعالى : فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ . فمتى كان الجارح معلما وأمسك على صاحبه ـ وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ـ حلّ الصيد وإن قتله ، بالاجماع .

وقد وردت السنة بمثل مادلت عليه هذه الآية الكريمة . كما ثبت فى (الصحيحين)(١)

---

(١) إنى رأيت ، حرصاً على نص الحديث ، أن آتى بجميع طرقه ، منقولة من كتاب (جامع مسانيد البخارىّ) وهاهِيَهْ :

٤ ـ كتاب الوضوء ، ٣٣ ـ باب الماء الذى يغسل به شعر الإنسان .

عن عدىّ بن حاتم قال: سألت النبىّ ﷺ فقال « إذا أرسلت كلبك المعلَّم فقتَل فكُلْ. وإذا أكل فلا تأكل . فإنما أمسكه على نفسه » قلت : أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر ؟ قال « فلا تأكل . فإنما سميت على كلبك ولم تسمّ على كلب آخر » .

٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٣ ـ باب تفسير المشبهات .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت النبىّ ﷺ عن المعراض ؟ فقال « إذا أصاب بحده فكُلْ ، وإذا أصاب بعرْضه فلا تأكل ، فإنه وقيذ » قلت : يا رسول الله ! أرسل كلبى وأسمّى ، فأجد معه على الصيد كلباً آخر لم أسمّ عليه ، ولا أدرى أيهما أخذ ؟ قال « لا تأكل . إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على الآخر » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١ ـ باب التسمية على الصيد .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال: سألت النبىّ ﷺ عن صيد المعراض ؟ فقال =

عن عدىّ بن حاتم قال : قلت : يارسول الله ! إنى أرسل الكلاب المعلَّمة وأذكر اسم الله ؟ فقال : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله ، فكل ما أمسك عليك . قلت : وإن قتلن ؟ قال : وإن قتلن ، مالم يشركها كلب ليس منها . فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على غيره . قلت له : فإنى أرمى بالمعراض الصيد ؟ فقال : إذا رميت بالمعراض الصيد فخزق فكله ، فإن أصابه بعرض ، فإنه وقيذ ، فلا تأكله .

= « ما أصاب بحده فكُلْ ، وما أصاب بعَرْضه فهو وقيذ » وسألته عن صيد الكلب ؟ فقال « ما أمسك عليك فكُلْ ، فإنَّ أَخْذَ الكلب ذكاة . وإن وجدت مع كلبك أو كلابك كلباً غيره ، فخشيت أن يكون أخذه معه ، وقد قتله ، فلا تأكل . فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره على غيره » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢ ـ باب صيد المعراض .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن المعراض ؟ فقال « إذا أصبت بحدّه فكُلْ ، فإذا أصاب بعَرْضه فقَتَلَ فإنه وقيذ فلا تأكل » فقلت : أرسل كلبى ؟ فقال « إذا أرسلت كلبك وسميت فكُلْ » قلت : فإن أكل ؟ قال « فلا تأكل ، فإنه لم يمسك عليك وإنما أمسك على نفسه » قلت : أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر ؟ قال « لا تأكل . فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على آخر » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣ ـ باب ما أصاب المعراض بعرضه .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ! إنا نرسل الكلاب المعلَّمة ؟ قال « كل ما أمسكن عليك » قلت : وإن قتلن ؟ قال « وإن قتلن » قلت : وإنا نرمى بالمعراض ؟ قال « كل ما خزق ، وما أصاب بعرضه فلا تأكل » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٧ ـ باب إذا أكل الكلب .

عن عدىّ بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ قلت : إنا قوم نصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلَّمة ، وذكرت اسم الله فكُلْ مما أمسكن عليكم وإن قتلن . =

وفى لفظٍ لهما : إذا أرسلت كلبك فاذكر الله. فإن أمسك عليك فأدركته حيًّا ، فاذبحه . وإنأدركته قد قتل ولم يأكل منه، فكله. وإنّ أخذ الكلب ذكاته . وفى روايةلهما : فإن أكل فلا تأكله . فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه . فهذا دليل للجمهور أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً . ولم يستفصلوا . كما ورد بذلك الحديث . وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا : لا يحرم مطلقاً. أَكَلَ أو لم يأكل .

= إلا أن يأكل الكلب . فإنى أخاف أن يكون إنما أمسكه على نفسه . وإن خالطها كلاب من غيرها ، فلا تأكل » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٨ ـ باب الصيد إذا غاب عنه يومين أو ثلاثة .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنـه عن النبىّ ﷺ قال « إذا أرسلت كلبك وسميت ، فأمسك وقتَلَ ، فكُلْ . وإن أكل فلا تأكل ، فإنما أمسك على نفسه . وإذا خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن ، فلا تأكل . فإنك لا تدرى أيها قتل . وإن رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُلْ. وإن وقع فى الماء فلا تأكل».

وعن عدىّ أنه قال للنبىّ ﷺ : يرمى الصيد ، فيقتفرُ أثره اليومين والثلاثة ثم يجده ميتا ، وفيه سهمه ؟ قال « يأكل إن شاء » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٩ ـ باب إذا وجد مع الصيد كلبا آخر .

عن عدىّ بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ! إنى أرسل كلبى وأسمى ؟ فقال النبىّ ﷺ « إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فأكل ، فلا تأكل . فإنما أمسك على نفسه »قلت: إنى أرسل كلبى ، أجد معه كلبا آخر لا أدرى أيها أخذه ؟ قال « لاتأكل . فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره».

وسألته عن صيد المعراض ؟ فقال « إذا أصبت بحده فكل . وإذا أصبت بعرضه فقتل ، فإنه وقيذ، فلا تأكل » . =

روى ابن جرير[١] عن سلمان الفارسيّ وأبي هريرة قالا : كُلْ وإن أكل ثلثيه. وعن سعد بن أبي وقاص : ... وإن أكل ثلثيه . وعنه : ... وإن لم يبق إلا بضعة . وعن ابن عمر : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك. أكل أو لم يأكل. وحكاه عن عليّ وابن عباس وغير واحدٍ من التابعين .

وروى ذلك مرفوعاً أيضاً . أخرج أبو داود[٢] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنّ أعرابيًّا ، يقال له أبو ثعلبة ، قال : يارسول الله ! إنّ لي كلاباً مكلبة فأفتني في صيدها .

= ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ما جاء في التصيد .

عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قوم نتصيّد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلّمة وذكرت اسم الله ، فكل مما أمسكن عليك . إلا أن يأكل الكلب ، فلا تأكل . فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ـ ١٣ ـ باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها .

عن عديّ بن حاتم قال : سألت النبيّ ﷺ قلت : أرسل كلابي المعلّمة : ؟ قال « إذا أرسلت كلابك المعلمة ، فذكرت اسم الله فأمسكن فكل . وإن رميت بالمعراض ، فخزق ، فكل » ورقم الحديث ١٤١ .

وأخرجه مسلم في: ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، حديث ١ ـ ٧ (طبعتنا)

(١) الأثر رقم ١١١٨٧ ـ ١١٩٣ عن سلمان الفارسيّ .

والأثر رقم ١١١٩٨ عن أبي هريرة .

والأثر رقم ١١١٩٥ عن سعد بن أبي وقاص .

والأثر رقم ١١٢٠٢ عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود في: ١٦ ـ كتاب الأضاحيّ، ٢٢ ـ باب في الصيد، حديث ٢٨٥٧.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إن كان لك كلاب مكلبة ، فكل مما أمسكن عليك . فقال : ذكيّ وغير ذكيّ ، وإن أكل منه ؟ قال : نعم وإن أكل منه . فقال: يارسول الله ! أفتني في قوسي ! فقال : كلْ ماردت عليك قوسك . قال : ذكيّ وغير ذكيّ ؟ قال : وإن تغيب عنك مالم يَصِلّ أوتجد فيه أثرا غير سهمك . قال : أفتني في آنية المجوس إذا اضطررنا إليها . قال : اغسلها وكُلْ فيها . هكذا رواه أبو داود وقد أخرجه النسائيّ . وكذا رواه أبوداود[1] عن أبي إدريس الخولانيّ عن أبي ثعلبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله، فكُلْ وإن أكل منه ، وكُلْ ما ردت عليك يدك .

وقد احتج بما ذكرنا من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه ، وقد توسط آخرون فقالوا : إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم . لحديث عديّ ، وللعلة التي أشار إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما إن أمسكه ، ثم انتظر صاحبه ، فطال عليه ، وجاع فأكل منه لجوعه ، فإنه لايؤثر في التحريم . وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة . وهذا تفريقٌ حسن، وجمعٌ بين الحديثين ، صحيح .

وقد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجوينيّ في كتابه (النهاية) : أن لو فصل مفصل هذا التفصيل . وقد حقق الله أمنيته ، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب . أفاده ابن كثير .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وسلك الناس في الجمع بين حديث عديّ وأبي ثعلبة طرقاً منها للقائلين بالتحريم (الأولى) حمل حديث أبي ثعلبة الأعرابيّ على ما إذا قتله وخلاه ثم عاد فأكل منه ، و (الثانية) الترجيح ، فرواية عديّ في الصحيحين ورواية الأعرابيّ في غيرهما . ومختلف في تضعيفها . وأيضاً ، فرواية عديّ صريحة مقرونة بالتعليل المناسب للتحريم . وهو خوف الإمساك على نفسه ، متأيد بأن الأصل في الميتة التحريم . فإذا

(١) أخرجه أبو داود في : ١٦ ـ كتاب الأضاحيّ ، ٢٢ ـ باب في الصيد ، حديث ٢٨٥٢

شككنا فى السبب المبيح، رجعنا إلى الأصل ولظاهر الآية المذكورة . فإن مقتضاها أنّ الذى تمسكه من غير إرسال لا يباح . ويتقوى أيضاً بالشواهد من حديث ابن عباس عند أحمد[1]: إذا أرسلت الكلب فأكل الصيد، فلاتأكل. فإنما أمسك على نفسه . فإذا أرسلته فقتله ولم يأكل ، فكُلْ. فإنما أمسك على صاحبه . وأخرجه البزار من وجه آخر عن ابن عباس. وابن أبى شيبة من حديث أبى رافع، نحوه بمعناه . ولو كان مجرّد الإمساك كافياً لما احتيج إلى زيادة (عليكم) فى الآية . وأما القائلون بالإباحة ، فحملوا حديث عدىّ على كراهة التنزيه ، وحديث الأعرابىّ على بيان الجواز. قال بعضهم : ومناسبة ذلك أن عديًّا كان موسراً . فاختير له الحمل على الأولى . بخلاف أبى ثعلبة ، فإنه كان بعكسه . ولا يخفى ضعف هذا التمسك ، مع التصريح بالتعليل فى الحديث لخوف الإمساك على نفسه . وقد وقع فى رواية لابن أبى شيبة: إن شرب من دمه فلا تأكل فإنه لم يُعَلَّمْ ما عَلَّمته . وفى هذا إشارة إلى أنه إذا شرع فى أكله ، دلّ على أنه ليس يعلم التعليم المشترط .

الرابع : فى الآية مشروعية التسمية . قال ابن كثير : قوله تعالى : اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ، أى عند إرساله له ، كما قال النبىّ ﷺ[2] لعدىّ بن حاتم : إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله فكل ماأمسك عليك . وفى حديث أبى ثعلبة المخرج فى (الصحيحين)[3] أيضاً:

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٣١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث ٢٠٤٩ (طبعة المعارف)

(٢) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة ١٨٥٠.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ٤ ـ باب صيد القوس، حديث ٢١٩٨ ونصه :

عن أبى ثعلبة الخشنىّ قال : قلت : يانبىّ الله ! إنا بأرض قوم أهل الكتاب . أفنأكل فى آنيتهم ؟ وبأرض صيد ، أصيد بقوسى وبكلبى الذى ليس بمعلّم وبكلبى المعلّم ، فمايصلح لى؟ =

إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله. وإذا رميت بسهمك . ولهذا اشترط مَن اشترط من الأئمة ، كالإمام أحمد رحمه الله ، فى المشهور عنه ، التسمية عند إرسال الكلب والرمى بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث . وهذا القول هو المشهور عند الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال . كما قال السدّىّ وغيره . وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى هذه الآية : إذا أرسلت جارحك فقل : بسم الله . وإن نسيت فلا حرج . انتهى .

قال بعض الزيدية : والتسمية هنا كالتسمية على الذبيحة . فمن قائلٍ بوجوبها على الذاكر لا الناسى . لحديث(١) : رفع عن أمتى الخطأ والنسيان . ومن قائلٍ بأنها مستحبة . ومن قائلٍ بأنها شرط مطلقاً . والمشهور عن أحمد التفرقة بين الصيد والذبيحة . فذهب فى الذبيحة إلى هذا القول الثالث . ثم قال : لقائلٍ أن يقول : يحتمل أن يرجع قوله تعالى (وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ) إلى الأكل . أى : فسموا عند الأكل . فدلالة الآية محتملة فى وجوب التسمية . انتهى . وهذا الاحتمال حكاه ابن كثير ونصّه :

= قال « أما ما ذكرت من أهل الكتاب، فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها . وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله ، فكل . وما صدت بكلبك المعلّم فذكرت اسم الله فكل . وما صدت بكلبك غير معلّم ، فأدركت ذكاته ، فكل » .

وأخرجه أيضا فى : ١٠ ـ باب ما جاء فى التصيد .

وفى : ١٤ ـ باب آنية المجوس والميتة .

وأخرجه مسلم فى: ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ومايؤكل من الحيوان، حديث٨(طبعتنا).

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث ٢٠٤٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى ذر الغفارىّ قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه » .

وقال بعض الناس : المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل . كما ثبت في (الصحيحين)(١) ؛ أن رسول الله ﷺ علّم ربيبه ، عمر بن أبي سلمة ، فقال : سمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك . وفي (صحيح البخاريّ)(٢) عن عائشة ؛ أنهم قالوا : يا رسول الله ! إن قوماً يأتوننا ، حديث عهدٍ بكفرٍ ، بلحمانٍ ، لا ندري أَذُكِرَ اسم الله عليها أم لا ؟ فقال : سموا الله أنتم وكلوا أنتم . وقال الترمذيّ : حسن صحيح .

الخامس : في الآية جواز تعليم الحيوان وضربه للمصلحة . لأن التعليم قد يحتاج إلى ذلك . كذا في (الإكليل) . وتقدم عن الزمخشريّ والناصر ما في الآية أيضاً من الأخذ عن النحرير ، وأن البهائم لها علم . واستدلّ بالآية على إباحة اتخاذ الكلب للصيد وللحراسة ، بالسنّة . كما تقدم .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين ، حديث ٢١٧٣ ونصه :

عن عمر بن أبي سَلَمَة قال : كنت غلاماً في حَجْر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة ، فقال لي رسول الله ﷺ « يا غلام ! سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك » .

فما زالت تلك طِعْمتي بعدُ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ ـ باب ذبيحة الأعراب ونحوهم . حديث ١٠٣٨ ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها ؛ أن قوماً قالوا لرسول الله ﷺ : إن قوماً يأتونا باللحم ، لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا عليه أنتم وكلوه » .

قالت : وكانوا حديثي عهد بكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

وقوله تعالى « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » أى : من الذبائح والصيد . تكريره تأكيد للمنة . قال أبو السعود : قيل المراد بالأيام الثلاثة وقت واحد . وإنما كرر للتأكيد . ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حَسُنَ تكريره . والمراد بالطيبات ما مرّ .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : دلت الآية على جواز أكل العالى من الأطعمة والأصباغ . قال فى (الروضة والغدير) : وإن كان التقنع بالأدون هو الأولى ، كما فعله علىّ عليه السلام وغيره من الفضلاء . فقد روى أن عليًّا عليه السلام كان يطعم الناس أطيب الطعام . فرأى بعضُ أصحابه طعامَهُ . وهو خبز شعير غير منخولٍ ، وملح جريش ، وهو مختوم عليه لئلا يبدل . ومن كلامه عليه السلام : والله ! لأروضنّ نفسى رياضة تهش إلى القرص إن وجدته مطعوماً ، وإلى الملح إن وجدته مأْدوماً . ولما روى عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى كراهة الإدامين مجتمعين . انتهى .

« وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : يعنى ذبائحهم .

قال ابن كثير : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ؛ أن ذبائحهم حلال للمسلمين . لأنهم

يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه ما هو منزه عنه، تعالى وتقدس . انتهى .

قال المهايميّ : وإن لم يعتد بذكرهم اسم الله ، لكنهم لما ذكروه ، أشبه ما يعتد بذكره، فأشبه طعامهم الطيبات .

مباحث

الأول : ما ذكرناه من أن المعنيّ بالطعام الذبائح ، هو الذى قاله أئمة السلف : صحابةً كابن عباس وأبى أمامة ، وأتباعاً كمجاهد وثمانية غيره . كما فى ابن جرير[1] وابن كثير .

وفى (اللباب) : أجمعوا على أن المراد بـ (طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ذبائحهم خاصة . لأن ما سوى الذبائح فهى محللة قبل أنْ كانت لأهل الكتاب وبعد أنْ صارت لهم . فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة . ولأنّ ماقبل هذه الآية فى بيان حكم الصيد والذبائح. فحملُ هذه الآية عليه أولى . لأنّ سائر الطعام لا يختلف ، من تولّاه من كتابيّ أو غيره . وإنما تختلف الذكاة . فلما خص أهل الكتاب بالذكر، دلّ على أن المراد بطعامهم ذبائحهم. انتهى.

الثانى : استدل بالآية على جميع أجزاء ذبائحهم . وهو قول الجمهور .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وعن مالك وأحمد ، تحريم ما حرم الله على أهل الكتاب كالشحوم . قال ابن القاسم: لأن الذى أباحه الله طعامهم. وليس الشحوم من طعامهم. ولا يقصدونها عند الذكاة وتعقب بأن ابن عباس فسّر (طعامهم) بذبائحهم . وإذا أبيحت ذبائحهم لم يحتج إلى قصدهم أجزاء المذبوح . والتذكية لا تقع على بعض أجزاء المذبوح دون بعض . وإن كانت التذكية شائعة فى جميعها دخل الشحم لامحالة . وأيضاً فإن الله تعالى نص بأنه حرم عليهم كل ذى ظفر . فكان يلزم ، على قول هذا القائل ، إن اليهوديّ ، إذا ذَبَح ماله ظفر، لا يحل للمسلم أكله . ثم قال ابن حجر : وقوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)

(١) الآثار من رقم ١١٢٣٦ـ١١٢٥١ .

يستدل به على الحلّ . لأنه لم يخص لحماً من شحم ، و كون الشحوم محرمة على أهل الكتاب لا يضر ، لأنها محرمة عليهم لا علينا . وغايته بعد أن يتقرر أن ذبائحهم لنا حلال ، أنّ الذى حرم عليهم منها مسكوتٌ فى شرعنا عن تحريمه علينا . فيكون على أصل الإباحة . انتهى .

وفى (الصحيح)(١) عن عبد الله بن مغفّل رضى الله عنه قال : كنا محاصرين قصر خيبر. فرمى إنسان بجراب فيه شحم . فنزوت لآخذه . فالتفتّ فإذا النبىّ ﷺ فاستحييت منه . وفى رواية : أُدْلِىَ بجراب من شحم يوم خيبر . فحضنته وقلت : لاأعطى اليوم من هذا أحداً . والتفتّ فإذا النبىّ ﷺ يتبسّم .

قال الحافظ ابن حجر : فيه حجة على من منع ما حرّم عليهم كالشحوم . لأن النبىّ ﷺ أقرّ ابن مغفل على الانتفاع بالجراب المذكور . وفيه جواز أكل الشحم ، مما ذبحه أهل الكتاب ، ولو كانوا أهل حرب . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : استدل على المالكية الجمهور بهذا الحديث . وفى ذلك نظر . لأنه قضية عين . ويحتمل أن يكون شحماً يعتقدون حله ، كشحم الظهر والحوايا ونحوها . والله أعلم .

وأجود منه فى الدلالة ما ثبت فى (الصحيح)(٢) أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٢ ـ باب ذبائح أهل الكتاب وشحومها من أهل الحرب وغيرهم ، حديث ١٤٨٨ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، ٧ ـ باب إذا غدر المشركون بالمسلمين ، هل يعفى عنهم ؟ حديث ٢٤٩٨ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما فتحت خيبر ، أهديت للنبىّ ﷺ شاة فيها سمّ . فقال النبىّ ﷺ « اجمعوا إلىّ من كان ههنا من يهود » فجمعوا له . فقال « إنى سائلكم عن شىء . فهل أنتم صادقىَّ عنه » ؟ فقالوا : نعم . قال لهم النبىّ ﷺ « من أبوكم » ؟ =

شاة مصليّة . وقد سمّوا ذراعها ـ وكان يعجبه الذراع ـ فتناوله فنهش منه نهشةً . فأخبره الذراع أنه مسموم . فَلَفَظَهُ وأثّر ذلك فى ثنايا رسول الله ﷺ وفى أبهره . وأكل معه منها بشر ابن البراء بن معرور ، فمات . فقتل اليهودية التى سمّتها ، وكان اسمها زينب . ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ؟ وفى الحديث الآخر : إن رسول الله ﷺ أضافه يهودىّ على خبز شعير وإهالة سنخة. يعنى ودكا زنخاً .

الثالث : تمسك ابن العربىّ ـ من أئمة المالكية ـ بهذه الآية على حلّ ما يقتله الفرنج ، وإن رأينا ذلك ، لأنه من طعامهم . نقله عنه الشيخ خليل فى (توضيحه) واستبعده . وقال الإمام ابن زكرى : صنف ابن العربىّ فى إباحة مذكّى النصرانىّ بغير وجه ذكاتنا . والمحققون على تحريمه . وقد أوضح ذلك الفقيه محمد الدليمىّ السوسىّ المالكىّ فى (فتاويه) ، وقد سئل عن ذبيحة الكتابىّ : هل تحل الذكىّ كيف كانت. سواء وافقت ذكاتنا أم لا ؟ بقوله مجيباً:

= قالوا : فلان . فقال « كذبتم ، بل أبوكم فلان » قالوا : صدقت . قال « فهل أنتم صادقىَّ عن شىء ، إن سألت عنه » ؟ فقالوا: نعم. يا أبا القاسم! وإن كذبنا عرفتَ كذبنا كما عرفته فى أبينا . فقال لهم « من أهل النار » ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها . فقال النبىّ ﷺ « اخسؤا فيها. والله! لا نخلفكم فيها أبدا » ثم قال « فهل أنتم صادقىَّ عن شىء إن سألتكم عنه » ؟ فقالوا : نعم . يا أبا القاسم ! قال « هل جعلتم فى هذه الشاة سمًّا » ؟ قالوا : نعم . قال « ماحملكم على ذلك » ؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح . وإن كنت نبيًّا لم يضرك .

وأخرجه أبو داود ، بمعناه ، فى : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ٦ ـ باب فيمن سقى رجلا سمًّا أو أطعمه ، فمات ، هل يقاد منه ؟ حديث ٤٥٠٨ عن أنس و ٤٥٠٩ وعن أبى هريرة ، حديث ٤٥١٠ و٤٥١١ و٤٥١٢ .

قال الإمام ابن العربيّ : إذا سلّ النصرانيّ عنق دجاجة حلّ للمسلم أكلها . لأن الله تعالى أحلّ لنا أكل طعامهم الذى يستحلونه فى دينهم . وكل ما ذكوه على مقتضى دينهم،حل لنا أكله . ولا يشترط أن تكون ذكاتهم موافقة لذكاتنا . وذلك رخصة من الله تعالى وتيسير منه علينا . ولا يستثنى من ذلك إلّا ما حرّم الله تعالى على الخصوص . فإنه ، وإن كان طعامهم الذى يستحلونه ، فلا يحل لنا أكله . انتهى .

الرابع : قال الرازيّ : نقل عن بعض أئمة الزيدية ؛ أن المراد بـ (الطعام) فى الآية، الخبز والفاكهة وما لا يحتاج فيه إلى الذكاة . انتهى .

وقد اطلعت على قطعة من تفسير بديع لبعض الزيدية قال فيه : اختلف العلماء من الأئمة والفقهاء : ماأريد بـ (الطعام) ؟ فقال القاسم والهادى ومحمد بن عبد الله ، ورواية عن زيد : إن ذبائح أهل الكتاب وجميع الكفار لا تجوز . لقوله تعالى (إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ) وهذا خطاب للمسلمين . والرواية الثانية عن زيد وعامة الفقهاء من الحنفية والشافعية والمالكية والجعفرية والإمامية . واختاره الأمير ح والأمير يحيى : جواز ذبائح أهل الكتاب . ويفسرون (الطعام) بالذبائح وغيرها . وهذا مرويّ عن الحسن والزهريّ والشعبيّ وعطاء وقتادة وأكثر المفسرين. وأخذوا بالعموم فى إطلاق(الطعام) . فأجاب الأولون بأن(الطعام) يطلق على الحبوب يقال : سوق الطعام . قال القاضى: الأقرب الحِلّ . لأن ذلك بفعلهم يصير طعاماً . ولأنه خص أهل الكتاب . أجيب : بأنه خصّهم لئلا يظن أنّ طعامهم الذى لم يذكّوه محرم . ثم عند الهادى والقاسم ، عليهما السلام ، تنجس رطوباتهم . لقوله تعالى[1]: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ . فيحرم ماحصل فيه رطوبتهم، إلّا ماأخذناه قهراً . وعند المؤيد بالله ومن معه : إن رطوبتهم طاهرة . والخلاف فى الرطوبة عامة فى الكفار . انتهى .

وفى (الروضة الندية) ما نصه : وأما ذبيحة أهل الذمة ، فقد دلّ على حلّها القرآن الكريم بهذه الآية . ومن قال : إن اللحم لا يتناوله (الطعام) فقد قصر فى البحث ، ولم

(١) [٩ / التوبة / ٢٨]

ينظر فى كتب اللغة ، ولا نظر فى الأدلة الشرعية المصرحة بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أكل ذبائح أهل الكتاب . كما فى أكله [١] صلى الله عليه وسلم للشاة التى طبختها يهودية وجعلت فيها سمًّا ، والقصة أشهر من أن تحتاج إلى التنبيه عليها . ولا مستند للقول بتحريم ذبائحهم إلّا مجرد الشكوك والأوهام التى يبتلى بها من لم يرسخ قدمه فى علم الشرع . فإن قلت : قد يذبحونه لغير الله ، أو بغير تسمية ، أو على غير الصفة المشروعة فى الذبح . قلت : إن صح شيء من هذا ، فالكلام فى ذبيحته ، كالكلام فى ذبيحة المسلم إذا وقعت على أحد هذه الوجوه . وليس النزاع إلا فى مجرد كون كفر الكتابيّ مانعاً ، لا كونه أخذ بشرط معتبر . انتهى .

الخامس : أريد بـ (أَهْلِ الْكِتَابِ) اليهود والنصارى ومن دخل فى دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما من دخل فى دينهم بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ وهم متنصّرو العرب من بنى تغلب ـ فلا تحلّ ذبيحته . روى عن علىّ بن أبى طالب قال : لا تأكل من ذبائح نصارى بنى تغلب . فإنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلّا بشرب الخمر . وبه قال ابن مسعود . وسئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب ؟ فقال : لا بأس به . ثم قرأ [٢] : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . وهذا قول الحسن وعطاء والشعبىّ وعكرمة وقتادة والزهرىّ والحكم وحماد ـ كذا فى (اللباب) .

قال ابن كثير : وأما المجوس فإنهم ـ وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب ـ فإنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم . خلافاً لأبى ثور ، إبراهيم بن خالد الكلبىّ (أحد الفقهاء من أصحاب الشافعىّ ، وأحمد بن حنبل) ولما قال ذلك ، واشتهر عنه ، أنكر عليه الفقهاء ذلك . حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه ـ يعنى فى هذه المسألة ـ وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال [٣] : سنوا بهم سنة أهل الكتاب .

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ١٨٦٠ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥١]

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ١٧ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

ولكن لم يثبت بهذا اللفظ . وإنما الذى فى (صحيح) البخارىّ[1] عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر. ولو سلم صحة هذا الحديث، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) فدلّ بمفهومه مفهوم المخالفة ، على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل ..!

السادس : قيل : هذه الآية تقتضى إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً، وإن ذكروا غير اسم الله تعالى . وعن ابن عمر : لو ذبح يهودىّ أو نصرانىّ على غير اسم الله تعالى ، لا يحل ذلك . وهو قول ربيعة . وسئل الشعبىّ وعطاء ، عن النصرانىّ يذبح باسم المسيح ؟ فقال: يحلّ . فإن الله تعالى قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون . وقال الحسن : إذا ذبح اليهودىّ أو النصرانىّ وذكر غير اسم الله ، وأنت تسمع ، فلا تأكل . وإذا غاب عنك فكُلْ . فقد أحلّه الله لك . كذا فى (اللباب) . وقول الحسن ـ فى هذا البحث ـ هو الحسن .

وفى (النهاية) من كتب الزيدية : أما إذا ذبح أهل الذمة لأعيادهم وكنائسهم ، فكرهه مالك ، وأباحه أشهب ، وحرمه الشافعىّ. وذلك لتعارض عموم قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) وعموم قوله تعالى (وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ)[2] فتخصيص

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية ، ١ ـ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، حديث ١٤٩٢ ونصه :

عن بجالة قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية ، عم الأحنف . فأتانا كتاب عمر بن الخطاب، قبل موته بسنة : فرّقوا بين كل ذى محرم من المجوس .

ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَرَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

كل واحد للآخر محتمل . ثم قال : والجمهور على تحريم ذبيحة المرتدّ . وأجازها إسحق ، وكرهها الثوريّ . وسبب الخلاف : هل المرتد يتناول اسم (الكتاب) أم لا ؟ قال : وهكذا منشأ الخلاف فى ذبائح بنى تغلب ، هل اسم (الكتاب) يتناول المتنصّر والمتهوّد من العرب ، كما روى عن ابن عباس ؟ أوْ لا يتناول ، كما روى عن علىّ عليه السلام . انتهى .

وقوله تعالى «وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ» يعنى: ذبائحكم حلال لهم . فتأكل اليهود والنصارى ذبيحة المسلمين . كذا فى (التفسير) المنسوب لابن عباس .

ونقل بعض مفسّرى الزيدية عن ابن عباس وأبى الدرداء ، وبقية التابعين السالف ذكرهم ، وأكثر المفسّرين والفقهاء ، أنّ المراد ذبائح المسلمين .

وقال الزجاج : تأويله : حلّ لكم أن تطعموهم . لأن الحلال والحرام والفرائض إنما تعقد على أهل الشريعة .

وقال ابن كثير : أى ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم . وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم . اللهم ! إلّا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه . سواء كان من أهل ملّتهم أو غيرها . والأول أظهر فى المعنى . أى : ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم . وهذا من باب المكافأة والمجازاة . كما ألبس (1)

(1) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٨ ـ باب هل يُخرَجُ الميت من القبر واللحد لعلة ؟ حديث ٦٧٦ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : أتى رسولُ الله ﷺ عبدالله بن أبىّ ، بعدما أدخل حفرته . فأمر به فأخرج . فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه . فالله أعلم . وكان كسا عباسا قميصا .

وقال أبو هريرة : وكان على رسول‌الله ﷺ قميصان . فقال له ابن عبد الله : يا رسول‌الله! ألبس أبى قميصك الذى يلى جلدك .

قال سفيان : فيُرَوْنَ أن النبىّ ﷺ ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع .

النبيّ ﷺ ثوبه لعبد الله بن أُبَىّ، ابن سلول حين مات ودفنه فيه . قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه . فجازاه النبيّ ﷺ ، ذلك بذلك . فأمّا الحديث[1] الذى فيه (لا تصحب إلّا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلّا تقىّ) فمحمول على الندب والاستحباب ، والله أعلم . انتهى .

وقال الرازىّ : أى : ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم . لأنه لا يمتنع أن يحرم الله أن نطعمهم من ذبائحنا . وأيضاً، فالفائدة فى ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة فى الجانبين، وإباحة الذبائح كانت حاصلة فى الجانبين . لا جرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على التمييز بين النوعين . انتهى .

وقال البرهان البقاعىّ فى (تفسيره) : وقوله تعالى (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) أى : تناوله لحاجتكم إلى مخالطتهم، للإذن فى إقرارهم على دينهم بالجزية . ولما كان هذا مشعراً بإبقائهم على ما اختاروا لأنفسهم، زاده تأكيداً بقوله (وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) أى : فلا عليكم فى بذله لهم ، ولا عليهم فى تناوله . انتهى .

وفى (أمالى) الإمام السهيلىّ رحمه الله تعالى : قيل : ما الحكمة فى هذه الجملة وهم كفار لا يحتاجون إلى بياننا ؟ فعنه جوابان : أحدهما أن المعنى : انظروا إلى ما أحل لكم فى شريعتكم، فإن أطعموكموه فكلوه ، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم . فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم . ثم نسخ ذلك فى شرعنا . والآية بيان لنا لا لهم. أى : اعلموا أن ما كان محرماً عليهم، مما هو حلال لكم، قد أحلّ لهم أيضاً. ولذلك لو أطعمونا خنزيراً أو نحوه وقالوا:

---

(١) أخرجه الدارمىّ فى : ٨ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٣ ـ باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء .

وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) عن أبى سعيد الخدرىّ .

هو حلال فى شريعتنا، وقد أباح الله لكم طعامنا ـ كذبناهم وقلنا : إن الطعام الذى يحلّ لكم هو الذى يحل لنا، لاغيره . فالمعنى : طعامهم حل لكم، إذا كان الطعامَ الذى أحللته لكم . وهذا التفسير معنى قول السدىّ وغيره .

الثانى : للنحاس والزجاج والنقاش وكثير من المتأخرين ؛ أن المعنى : جائز لكم أن تطعموهم من طعامكم . لا أن يبين لهم ما يحل لهم فى دينهم . لأن دينهم باطل . إلّا أنه لم يقل: وإطعامكم، بل (طعامكم) ـ والطعام المأكول ـ وأما الفعل فهو الإطعام . فإن زعموا أن (الطعام) يقوم مقام (الإطعام) توسعاً ، قلنا : بقى اعتراض آخر . وهو الفصل بين المصدر وصلته بخبر المبتدأ . وهو ممتنع بالإجماع . لا يجيزون (إطعام زيد حسنٌ للمساكين) ولا (ضربك شديدٌ زيداً) فكيف جاز (وطعامكم حلّ لهم) ؟ انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة . لأن التحليل حكم وقد علقه بهم فى قوله (وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) كما علق الحكم بالمؤمنين . وهذه الآية أبين فى الاستدلال بها من قوله[1]: لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . فإنّ لقائلٍ أن يقول: فى تلك الآية نفى الحكم ليس بحكم . ولا يستطيع ذلك فى آية (المائدة) هذه . لأن الحكم فيها مثبت ، والله أعلم .

ثم قال : ولما استشعر الزمخشرىّ دلالتها على ذلك، وهو من القائلين بأن الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة ـ أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين ، أى : لا جناح عليكم ـ أيها المسلمون ! ـ أن تطعموا أهل الكتاب . انتهى .

« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ » عطف على (الطيبات) أو مبتدأ حذف خبره لدلالة ما قبله عليه . أى : حلٌّ لكم . والمراد بـ (المحصنات) العفيفات عن الزنى . كما قال تعالى[2] فى الآية الأخرى: مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . وهو المروىّ عن الحسن والشعبىّ وسفيان وإبراهيم ومجاهد . وحكى ابن جرير رواية أخرى عن مجاهد أنه قال :

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] (٢) [٤ / النساء / ٢٥]

المحصنات الحرائر . فقيل : عنى بهن غير الإماء . وقيل: أراد بهن العفيفات ، كقول الجمهور. وذلك لأن الحرّ يطلق على خلاف العبد ، وعلى خيار كل شيء ، كما فى (القاموس) .

قال الزمخشرىّ : وتخصيصهن بعثٌ على تخير المؤمنين لنطفهم . والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق . وكذلك نكاح غير العفائف منهن . انتهى .

أقول: جواز نكاح الأمَة موقوف على خوف العنت وعدم طول الحرة، لآية[1]: وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا ... الخ . وأما نكاح غير العفيفة فأجازه الأكثرون . وذهب الإمام أحمد إلى تحريم نكاح الزانية على زانٍ وغيره ، حتى تتوب وتنقضى عدتها . لقوله تعالى : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. ولما أخرجه أحمد[2] بإسناد رجاله ثقات ، والطبرانىّ فى (الكبير) و (الأوسط) من حديث عبد الله بن عمرو: أن رجلًا من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى امرأة يقال لها أم مهزول ، كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه . فقرأ عليه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . وأخرج أبو داود[3] والنسائىّ والترمذىّ وحسّنه ، من حديث ابن عمر : أن مرثد بن أبى مرثد الغنوىّ كان يحمل الأسارى بمكة . وكان بمكة بغىّ يقال لها عناق . وكانت صديقته . قال : فجئت النبىّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت : يارسول الله ! أنكح عناقاً ؟ قال ،فسكت عنى . فنزلت الآية : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ[4] فدعانى فقرأها علىّ وقال : لا تنكحها .

(١) [٤ / النساء / ٢٥]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٢٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٠٩٩ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤ ـ باب فى قوله تعالى (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً) حديث ٢٠٥١ .

(٤) [٢٤ / النور / ٣] ونصها : الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

وأخرج أحمد وأبو داود[١] بإسناد رجاله ثقات ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : الزانى المجلود لا ينكح إلا مثله . قال ابن القيّم : أخذ بهذه الفتاوى ـ التى لا معارض لها ـ الإمام أحمد ومن وافقه ـ وهى من محاسن مذهبه ـ فإنه لم يجوّز أن ينكح الرجل زوجاً تحبه . ويعضد مذهبَه بضعة وعشرون دليلًا قد ذكرناها فى موضع آخر .

وأخرج ابن ماجة[٢] والترمذىّ وصححه ، من حديث عمرو بن الأحوص ، أنه شهد حجة الوداع مع النبىّ صلى الله عليه وسلم . فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال : استوصوا فى النساء خيراً . فإنما هنّ عندكم عوان . ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك . إلّا أن يأتين بفاحشةٍ مبيّنةٍ . فإن فعلن ، فاهجروهنَّ فى المضاجع ، واضربوهنّ ضرباً غير مبرّح ،فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا . وأخرج أبو داود[٣] والنسائىّ ، من حديث ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى لا تمنع يد لامس، قال: غرّبها ، قال: أخاف أن تتبعها نفسى . قال : فاستمتع بها. قال المنذرىّ: ورجال إسناده محتج بهم فى الصحيحين .

قال ابن القيّم : عورض بهذا الحديث المتشابه ، الأحاديث المحكمة الصريحة فى المنع من تجويز البغايا . واختلفت مسالك المحرّمين لذلك فيه . فقالت طائفة : المراد بـ(اللامس)

(١) أخرجه أبوداود فى: ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤ ـ باب فى قوله تعالى: الزانى لا ينكح إلا زانية ، حديث ٢٠٥٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب حق المرأة على الزوج ، حديث ١٨٥١ (طبعتنا) .

والترمذىّ فى : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١١ ـ باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب فى تزويج الأبكار ، حديث ٢٠٤٩ .

وأخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب الطلاق ، ٣٤ ـ باب ما جاء فى الخلع .

ملتمس الصدقة لا ملتمس الفاحشة . وقالت طائفة : بل هذا فى الدوام غير مؤثر . وإنما المانع ورود العقد على الزانية ، فهذا هو الحرام . وقالت طائفة : بل هـذا من التزام أخف المفسدتين لدفع أعلاهما . فإنه لمـا أُمِرَ بمفارقتها خاف من أن لا يصبر عنها فيواقعها حراماً ، فأمره حينئذٍ بإمساكها . إذ مواقعتها بعقد النكاح أقل فسادًا من مواقعتها بالسفاح . وقالت طائفة : بل الحديث ضعيف لا يثبت . وقالت طائفة : ليس فى الحديث مايدل على أنها زانية. وإنما فيـه أنها لا تمنع ممن يمسّها أو يضع يده عليها أو نحو ذلك ، فهى تعطى الليان لذلك. ولا يلزم أن تعطيه الفاحشة الـكبرى . ولـكن هذا لايؤمن معه إجابتها الداعى إلىالفاحشة . فأَمَرَهُ بفراقها ، تركاً لما يريبه إلى ما لا يريبه . فلما أخبره بأن نفسه تتبعها ، وأنه لا صبر له عنها ، رأى مصلحة إمساكها أرجح المسالك . والله تعالى أعلم . وتتمة البحث فى ذلك يأتى إن شاء الله تعالى فى سورة النور .

فائدة :

أفتى جابر بن عبـد الله وعامر الشعبىّ وإبراهيم النخعىّ والحسن البصرىّ بأن الرجل إذا نـكح امرأة فزنت قبـل دخوله بها ، أنه يفرق بينهما وتردّ عليه ما بذل لها من المهر . رواه ابن جرير عنهم .

« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْـكِتَابَ مِنْ قَبْلِـكُمْ » أى : هنّ أيضاً حلّ لـكم . والجمهور : على أن المراد بـ (المحصنات) العفائف عن الزنى ، كما قدمنا .

قال ابن كثير : وهو الأشبه . لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمِّية وهى معذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالـكلية ، ويتحصل زوجها على ما قيل ، حشفاً وسوء كيـلة .

وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف ـ ممن فسّر (المحصنات) بالعفيفات ؛ أنالآية تعم كل كتابية عفيفة . سواء كانت حرة أو أمة . ومن فسرها بـ(الحرائر) قال : لا يصح نـكاح الأمة الـكتابية بحالٍ ، إذْ لا يحتمل عار الـكفر مع عار الرق ، على أنهيؤدى إلى استرقاق الـكافر ولدَ المسلم .

تنبيهات

الأول : ظاهر الآية جواز نكاح الكتابية . وهذا مذهب أكثر الفقهاء والمفسرين . ورواية عن زيد والصادق والباقر ، واختاره الإمام يحيي وقال : إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة ، وأنّ عثمان بن عفان تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه ، وهى نصرانية . وأنّ طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية . كذا نقله المفسرون .

وروى البيهقيّ وعبد الرزاق وابن جرير عن عمر أنّه قال : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانيّ المسلمة . وروى عبد الرزاق أيضاً عن سعيد بن المسيب ؛ أن عمر بن الخطاب كتب إلى حذيفة بن اليمان وهو بالكوفة ، ونكح امرأة من أهل الكتاب ، فكتب: أن فارِقْها فإنك بأرض المجوس. فإني أخشى أن يقول الجاهل : قد تزوج صاحبُ رسول الله ﷺ كافرة! ويحلل الرخصة التي كانت من الله عز وجل فيتزوجوا نساء المجوس ... ففارقها .

وروى عبد الرزاق والبيهقيّ عن قتادة : أن حذيفة نكح يهودية . فقال عمر : طلِّقْها فإنها جمرة . فقال : أحرام هي؟ قال : لا ، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن ..

وروى عبد الرزاق عن زيد بن وهب قال : كتب عمر بن الخطاب : إن المسلم ينكح النصرانية ، والنصرانيّ لا ينكح المسلمة . وروى أيضاً عن جابر قال : نساء أهل الكتاب لنا حلّ ، ونساؤنا عليهم حرام . وروى أيضاً عن معمر عن الزهريّ قال : نكح رجل من قومي في عهد النبيّ ﷺ امرأة من أهل الكتاب . وروى عن ابن عمر كراهية ذلك. ويحتج بقوله تعالى (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)[1] وكان يقول : لا أعلم شركاً

(١) [٢ / البقرة / ٢٢١] ونصها: وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

أعظم من قولها: إن ربها عيسى . وأجاب الجمهور بأنه عامّ خص بهذه الآية، إن قيل بدخول الكتابيات فى عموم المشركات ، وإلّا ، فلا معارضة بين الآيتين . لأن أهل الكتاب قد انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غيرموضع. كقوله تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ(١) . وكقوله: وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ(٢) .

الثانى : استدل بعموم الآيةمنجوّز نكاح الحربيات الكتابيات. وروىعن ابن عباس: أن الإذن فى الذميات خاصة ، ويقرأ : قَاتِلُوا الَّذِينَ ـ إلىقوله ـ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ . قال : فمن أعطى ، حل . ومن لا ، فلا . وهذا الاستدلال دقيق جداً . فليتأمل !

الثالث : قال المهايمىّ : لما اعتبر فى طعام أهل الكتاب شبهه بالطيّب ـ كما قدمنا ـ اعتبر فى باب النكاح ، فأحلّ المحصنات منهم . واحتمل كفرهنّ لأنه إنما لم يحتمل كفر غيرهم لأنهم يدعون إلى النار . وهؤلاء لما اعترفوا بأصل النبوّة ، ولا شبهة لهم فى نفى أمر نبوةمحمد ﷺ، فضلًا عن حجة ، ضعفت دعوتهم إليها ، فلم يعتد بها . علىأن الرجلمستولٍ على المرأة . فلا تؤثر فيه تأثير الرجل ، فلذلك لم يصح تزويج المسلمة بالكتابىّ . على أن فيه إذلالًا للمسلمة فلا تحتمل .

الرابع : ذهب ثلة من العترة الطاهرة إلى أن المراد من (المحصنات) المؤمنات منهن . ذهاباً إلى تحريم نكاحالكافرة . قال بعض مفسرىالزيدية ، بعد أن ساقمذهب الأكثرين المتقدم : وقال القاسم والهادى والنفس الزكية ومحمد بن عبد الله وعامة القاسمية ـ وهومروىّ

---

(١) [٩٨ / البينة / ١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

عن ابن عمر : إنه لا يجوز لمسلم نكاح كافرة ، كتابية كانت أو غيرها . واحتجوا بقوله في سورة البقرة : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ(١) . قالوا ـ يعني الأكثرين ـ : هذا في المشركات لا في الكتابيات ؛ قلنا : اسم الشرك ينطلق على أهل الكتاب بدليل قوله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ . إلى قوله : سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢) . وعن ابن عمر : لا أعلم شركا أعظم من قول النصرانية : إن ربها عيسى. وعن عطاء : قد كثر الله المسلمات. وإنما رخص لهم يومئذ. قالوا : إنه تعالى عطف أحدهما على الآخر فدلّ على أنهما غيرين ، حيث قال تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ(٣) ؛ قلنا : هذا كقوله تعالى : الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ(٤) . قالوا : الآية مصرحة بالجواز في قوله : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . قلنا : في سورة النور : الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ(٥) . وقوله في سورة النساء : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ(٦) .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٨٧١ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٣) [٩٨ / البينة / ١] . . . مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٨٠] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ .

(٥) [٢٤ / النور / ٢٦] ونصها : الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

(٦) [٤/ النساء/ ٢٥] . . . مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، =

فشرط الإيمان فى هذا يقضى بالتحريم . فتُتأوّل هذه الآية : أنه أراد المحصنات من أهل الكتاب اللاتى قد أسلمن ، لأنهم كانوا يتكرهون ذلك ، فسماهنّ باسم ما كنّ عليه . وقد ورد مثل هذا فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾(١) . وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾(٣) . قالوا : سبب النزول وفعل الصحابة يدل على الجواز . وإنما نجمع بين الآيات الكريمة فنقول : قوله (وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ)(٤) عامّ نخصّه بقوله تعالى (وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ) ؛ أو نقول : أراد بـ (ٱلْمُشْرِكَاتِ) الوثنيات وبـ (ٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ) ما أفاده الظاهر . أو يكون قوله (وَٱلْمُحْصَنَاتُ ...) ناسخاً لتحريم الكتابيات بقوله : وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ . قلنا : نقابل ما ذكرتم بما روى ؛ أن كعب بن مالك

= بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ، فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ، وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] ... وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٦] ... وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ... ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ... وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَاتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٢١] .

أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية . فسأل النبيّ ﷺ عن ذلك فقال: إنها لا تحصن ماءك؛ وروى أنه نهاه عن ذلك . وبأنا نتأوّل قوله تعالى : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . فنجمع ونقول : تخصيص المشركات بـ (الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) متراخٍ ، والبيان لا يجوز أن يتراخى ! قالوا : روى جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال : أحلّ لنا ذبائح أهل الكتاب وأحلّ لنا نساؤهم. وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا . قال فى (الشفا) : قال علماؤنا : هذا حديث ضعيف النقل . قالوا : قوله صلى الله عليه وسلم فى المجوس : (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) الخبر أفاد جواز ذبائحهم ونكاح نسائهم . قلنا : الجواز منسوخ بأدلة التحريم . ثم إنا نقوى أدلتنا بالقياس فنقول : كافرة فأشبهت الحربية ، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة . أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس . قالوا : لا حكم للاعتبار مع الأدلة . انتهى بحروفه. وهو فقه غريب .

وقوله تعالى « إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » أى : أعطيتموهنّ مهورهنّ . وتقييد الحلّ بإيتائها، لتأكيد وجوبها والحثّ على ماهو الأوْلى ، مبادرة لفراغ الذمة . فإن شغل الذمة بحق الآدمىّ أشدّ من شغلها بحق الله تعالى « مُحْصِنِينَ » متعفّفين « غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى : غير مجاهرين بالزنى « وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ » مسرّين به ، و (الخدن) الصديق . يقع على الذكر والأنثى . وحمل المسافحة على إظهار الزنى لظهور مقابله فى الإسرار ، لتبادره من الخدن وهو الصديق . وقيل : الأول نهى عن الزنى ، والثانى نهى عن مخالطتهن . كذا فى (العناية).

قال ابن كثير : كما شرط الإحصان فى النساء ـ وهى العفّة عن الزنى ـ كذلك شرطها فى الرجال . وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً . ولهذا قال (غَيْرَ مُسَافِحِينَ) وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصيةٍ ولا يردّون أنفسهم عمّن جاءهم (وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) أى : ذوى العشيقات الذين لا يفعلون إلّا معهنّ ، كما تقدم فى سورة النساء ، سواء . ولهذا ذهب الإمام أحمد بن جنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا يصحّ نكاح المرأة البغىّ حتى تتوب ،

ومادامت كذلك لايصح تزويجها من رجل عفيف . وكذلك لايصحّ عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنى ، لهذه الآية وللحديث : لا ينكح الزانى المجلود إلّا مثله .

وروى ابن جرير(١) : أن عمر بن الخطاب قال : لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشةً فى الإسلام أن يتزوج محصنة. فقال له أبىّ بن كعب : ياأمير المؤمنين ! الشرك أعظم من ذلك. وقد يقبل منه إذا تاب .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » يريدُ بـ (الإيمان) شرائع الإسلام . على أنه مصدر أريد به المؤمن به . كـ(درهمٌ ضَرْبُ الأمير) . و (الكفر) الإباء عنه وجحوده . والآية تذييل لقوله : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطيِّبَاتُ ... تعظيماً لشأن ما أحله الله وما حرّمه ، وتغليظاً على من خالف ذلك. كذلك فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

---

(١) الأثر رقم ١١٢٦٧ .

الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » لما كان من جملة الإيفاء بالعقود التى افتتحت به هذه السورة إقامة الصلاة ، وكانت مشروطة بالطهارة ، بيّن سبحانه فى هذه الآية كيفيّتها .

قال بعض المفسرين : نزلت فى عبدالرحمن وكان جريحاً . وقيل : لما احتبس ﷺ فى سفرٍ ليلًا ـ بسبب عقدٍ ضاع لعائشة ، وأصبحوا على غير ماء . انتهى .

والثانى رواه البخارىّ ـ كما فى (أسباب النزول) للسيوطىّ ـ وقد قدمنا الكلام على ذلك فى سورة النساء[1] فى (آية التيمّم) ثمة . فانظره .

ولهذه الآية ثمرات هى أحكام شرعية

الأولى : وجوب الوضوء وقت القيام إلى الصلاة أى إرادته . فقوله تعالى : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ. كقوله : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ[2] . وكقولك: إذا ضربت غلامك فهوّن عليه ، فى أن المراد إرادة الفعل . قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له ، وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه . فكما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل فى قولهم : الإنسان لا يطير ، والأعمى لا يبصر ، أى: لا يقدران على الطيران والإبصار . ومنه قوله تعالى : نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . يعنى : إنا كنا قادرين على الإعادة ـ كذلك عبر عن إرادة الفعل بالفعل . وذلك لأن الفعل مسبب عن القدرة والإرادة . فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما . ولإيجاز الكلام ونحوه ، من إقامة المسبب مقام السبب ، قولهم : كما تدين تدان . عَبّر عن الفعل المبتدأ ـ الذى هو سبب الجزاء ـ بلفظ الجزاء الذى هو مسبب عنه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧١ .

(٢) [١٦ / النحل / ٩٨] . . . مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

الثانية : ظاهر الآية وجوب الوضوء على كل قائمٍ إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً . نظراً إلى عموم (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) من غير اختصاص بالمحدثين . والجمهور على خلافه لما روى الإمام أحمد[1] ومسلم وأهل السنن عن بريدة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة . فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يارسول الله ! إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله . قال : إنى عمداً فعلته ياعمر . وروى البخاريّ[2] عن سويد بن النعمان قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام خيبر . حتى إذا كنا بالصهباء صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر. فلما صلى دعا بالأطعمة. فلم يؤت إلّا بالسويق . فأكلنا وشربنا . ثم قام النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المغرب . فمضمض ثم صلى لنا المغرب ولم يتوضأ . وروى الإمام أحمد[3] وأبو داود عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وقد سئل عن وضوء أبيه عبد الله ، لكل صلاة ، طاهرا أو غير طاهر ، عمن هو ؟ قال : حدثته أسماء بنت زيدبن الخطاب؛ إنّ عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمِر بالوضوء لكل صلاة طاهراً أو غير طاهر . فلما شقّ ذلك عليه أُمِر بالسواك عند كل صلاة ، ووُضع عنه الوضوء إلّا من حدث . فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك . كان يفعله حتى مات. قال ابن كثير : وفى فعل ابن عمر هذا ، ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة ، دلالة على استحباب ذلك . كما هو مذهب الجمهور .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٥٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٥١ ـ باب من مضمض من السويق ولم يتوضأ ، حديث ١٥٨ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٢٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) . وأبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٢٥ ـ باب السواك ، حديث ٤٨ .

وقد روى ابن جرير[١] عن ابن سيرين ، أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لـكل صلاة . وعن عكرمة : أن عليًّا ـ رضى الله عنه ـ كان يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ...الآية ؛ وعن النزال بن سبرة قال : رأيت عليًّا صلى الظهر . ثم قعد للناس فى الرحبة. ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه. ثم مسح برأسه ورجليه وقال : هذا وضوء من لم يحدث ، وفى رواية : إنه توضأ وضوءاً فيه تجوّز فقال : هذا وضوء من لم يحدث ؛ وكذا حكى أنس عن عمر أنه فعله . والطرق كلّها جيدة . وأما ماراه أبو داود الطيالسىّ عن سعيد بن المسيب أنه قال : الوضوء من غير حدث اعتداء ـ فهو غريب عنه . ثم هو محمول على من اعتقد وجوبه . وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك . روى الإمام أحمد عن أنس قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كلّ صلاة . قيل له : فأنتم كيف تصنعون ؟ قال : كنا نصلى الصلوات كلها بوضوء واحد مالم نحدث ! ورواه البخارىّ[٢] وأهل السنن أيضاً . وروى أبو داود[٣] والترمذىّ وابن ماجة وابن جرير عن ابن عمر مرفوعا: من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات . وضعفه الترمذىّ .

وإذ دلّت هذه الأحاديث على أن الوضوء لا يجب إلّا على المحدث ، فالوجه فى الخروج من ظاهر الآية ، أن الخطاب فيها خاص بالمحدثين .

---

(١) الأثر رقم ١١٣٢٤ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٥٤ ـ باب الوضوء من غير حدث ، حديث ١٦٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٣٢ ـ باب الرجل يجدد الوضوء من غير حدث ، حديث ٦٢ .

والترمذىّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤٤ ـ باب الوضوء لـكل صلاة .

وابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٧٣ ـ باب الوضوء على الطهارة ، حديث ٥١٢ (طبعتنا) .

وفى (العناية) : الإجماع صرفها عن ظاهرها . فأما أن تـكون مقيدة ـ أى وأنتم محدثون ـ بقرينة دلالة الحال ، ولأنه اشترط الحدث فى البدل وهو التيمم ـ فلو لم يكن له مدخل فى الوضوء ، مع المدخلية فى التيمم ، لم يكن البدل بدلاً . وقوله (فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً) صريح فى البدلية . وقيل : فى الـكلام شرط مقدر. أى : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ .. إن كنتم محدثين . وإن كنتم جنباً فاطهروا . وهو قريب جدًّا . انتهى .

وزعم بعضهم ؛ أن الوجوب على كل قائم للصلاة كان فى أول الأمر ثم نسخ . واستدلّ على ذلك بحديث عبد الله بن حنظلة المتقدم . ونظر فيه بحديث: (المائدة من آخر القرآن نزولًا) وأجيب بأن الحافظ العراقىّ قال : لم أجده مرفوعاً . هـذا ، وقال الزمخشرىّ: لا يجوز أن يكون الأمر فى الآية شاملًا للمحدثين وغيرهم ـ لهؤلاء على وجه الإيجاب ، ولهؤلاء على وجه الندب ـ لأن تناول الـكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية . وفى (الانتصاف) : من جوّز أن يراد بالمشترك كلّ واحدٍ من معانيه على الجمع ، أجاز ذلك فى الآية . ومن المجوزين لذلك الشافعىّ ـ رحمه الله تعالى ـ وناهيك بإمام الفنّ وقدوته . وإذا وقع البناء على أن صيغة (أفعل) مشتركة بين الوجوب والندب ، صحّ تناولها فى الآية للفريقين المحدثين والمتطهرين . وتناولها للمتطهرين من حيث الندب ، والله أعلم .

الثالثة : قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : تمسك بهذه الآية مَنْ قال : إنّ الوضوء أول مافرض بالمدينة ، فأمّا ماقبل ذلك ، فنقل ابن عبد البرّ اتفاق أهل السير على أن غسل غسل الجنابة إنما فرض على النبىّ ﷺ وهو بمكة . كما فرضت الصلاة . وأنه لم يصلّ قط إلّا بوضوء . قال : وهذا مما لا يجهله عالم .

وقال الحاكم فى (المستدرك) : وأهــل السنة بهم حاجة إلى دليل الردّ على من زعم أن الوضوء لم يكن قبل نزول آية المائدة . ثم ساق حديث ابن عباس : دخلت فاطمة على النبىّ ﷺ وهى تبكى، فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تعاهدوا ليقتلوك ! فقال : ائتونى بوضوء فتوضأ ... الحديث .

قال ابن حجر : وهذا يصلح ردًّا على من أنكر وجود الوضوء قبل الهجرة ، لا على من أنكر وجوبه حينئذٍ . وقد جزم ابن الحكم المالكيّ بأنه كان قبل الهجرة مندوباً ؛ وجزم ابن حزم بأنه لم يشرع إلّا بالمدينة ، وردّ عليهما بما أخرجه ابن لهيعة فى (المغازى) التى يرويها عن أبى الأسود ـ يتيم عروة ـ عنه ؛ أن جبريل علّم النبيّ ﷺ الوضوء عند نزوله عليه بالوحى . وهو مرسل ؛ ووصله أحمد[(١)] من طريق ابن لهيعة أيضاً . لكن قال : عن الزهريّ عن عروة عن أسامة بن زيد عن أبيه ، وأخرجه ابن ماجة[(٢)] من رواية رشدين ابن سعد ، عن عقيل ، عن الزهريّ ، نحوه . لكن لم يذكر زيد بن حارثة فى السند ؛ وأخرجه الطبرانيّ فى (الأوسط) من طريق الليث عن عقيل موصولًا ، ولو ثبت لكان على شرط الصحيح ، لكن المعروف رواية ابن لهيعة . انتهى .

أى : وابن لهيعة يضعف فى الحديث .

الرابعة : قيل: فى الآية دلالة على أن الوضوء لا يجب لغير الصلاة. وأيّد بما رواه أبو داود والنسائيّ[(٣)] والترمذيّ عن عبد الله بن عباس ؛ أنّ رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا : ألَا نأتيك بوضوء ؟ فقال : إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة . قال الترمذيّ : حديث حسن .

وروى مسلم[(٤)] عن ابن عباس قال : كنا عند النبيّ ﷺ . فأتى الخلاء . ثم إنه رجع فأتى بطعام . فقيل : يا رسول الله ! ألا تتوضأ ؟ فقال : لم أصلّ فأتوضأ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٨ ـ باب ما جاء فى النضح بعد الوضوء ، حديث ٤٦٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه النسائيّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٠٠ ـ باب الوضوء لكل صلاة .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١١٨ـ١٢١ (طبعتنا) .

وأما اشتراط الوضوء للطواف وسجدة التلاوة وصلاة الجنازة ومسّ المصحف ـ عند من أوجبه ـ فمن أدلةٍ أخر مقررة فى فقه الحديث .

الخامسة : (وجوب غسل الوجه) والغسل إمرار الماء على المحل حتى يسيل عنه ، هذا هو المحكىّ عن أكثر الأئمة . زاد بعضهم : مع الدلك . وعن النفس الزكية : أن مجرد الإمساس يكفى وإن لم يجْرِ . وحدّ الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولًا . ومن الأذن إلى الأذن عرضاً . وقد ساق بعض المفسرين هنا مذاهب ، فيما يشمله الوجه وما لا يشمله ، ومحلها كتب الخلاف .

السادسة : (وجوب غسل اليدين) :

وهذا مجمع عليه ؛ وأما المرفقان ، تثنية مرفق (كمِنْبَر ومَجْلِس) موصل الذراع فى العضد ، فالجمهور على دخولها فى المغسول ؛ وحكى عن زفر وبعض المالكية وأهل الظاهر عدم دخولها . وسبب الخلاف أن المغيّا بـ (إلى) تارةً يتضح دخوله فى الغاية ، وطوراً لا ، وآونةً يحتمل .

قال الزمخشرىّ : (إلى) تفيد معنى الغاية مطلقاً ، فأما دخولها فى الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل ، فما فيه دليل على الخروج قوله : فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ (١) لأن الإعسار علة الإنظار ، وبوجود الميسرة تزول العلة ، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظراً فى كلتا الحالتين ، معسراً وموسراً ، وكذلك : ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (٢) لو دخل الليل لوجب الوصال ؛

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٠] ونصها : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٨٧] ونصها : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا =

ومما فيه دليل على الدخول قولك : حفظت القرآن من أوله إلى آخره ، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله . ومنه قوله تعالى : مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى(١) لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله ؛ وقوله (إِلَى الْمَرَافِقِ) و (إِلَى الْكَعْبَيْنِ) لا دليل فيه على أحد الأمرين ، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط . فحكموا بدخولها فى الغسل ، وأخذ زفر وداود بالمتيقن ، فلم يدخلاها . انتهى .

قال الرضىّ : الأكثر عدم دخول حدّى الابتداء والانتهاء فى المحدود . فإذا قلت : اشتريت من هذا الموضع إلى ذلك الموضع ، فالموضعان لا يدخلان ظاهراً فى الشراء . ويجوز دخولهما فيه مع القرينة ؛ وقال بعضهم : ما بعد (إلى) ظاهر الدخول فيما قبلها . فلا تستعمل فى غيره إلّا مجازاً . وقيل : إن كان ما بعدها من جنس ما قبلها نحو : أكلت السمكة إلى رأسها ، فالظاهر الدخول وإلّا فلا ، نحو : أتموا الصيام إلى الليل . والمذهب هو الأول . ثم قيل : بأنها فى الآية بمعنى (مع) كقوله تعالى(٢) : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ . قال الرضىّ : والتحقيق أنها بمعنى الانتهاء . أى تضيفوها إلى أموالكم ، ومضافة إلى المرافق . انتهى .

قال صاحب (النهاية) : وقول من لم يدخل المرافق من جهة الدلالة اللفظية أرجح ، وقول من أدخلها من جهة الأثر أبين . لأن فى حديث مسلم(٣) مما رواه أبو هريرة :

= حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

(١) [١٧/ الإسراء/ ١] ونصها : سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

(٢) [٤ / النساء / ٢]

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٣٤ (طبعتنا) .

أنه غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد . ثم اليسرى . ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع فى الساق . ثم اليسرى كذلك . واحتج أهل المذهب بحديث جابر : أنه صلى الله عليه وآله كان يدير الماء على مرفقيه . قالوا : ودلالة الآية مجملة . وهذا بيان للمجمل . وبيان المجمل الواجب يكون واجباً . انتهى .

وقال المجد ابن تيمية فى (المنتقى) : يتوجه من حديث أبى هريرة وجوب غسل المرفقين. لأن نص الكتاب يحتمله . وهو مجمل فيه . وفعله ﷺ بيان لمجمل الكتاب ، ومجاوزته للمرفق ليس فى محل الإجمال ، ليجب بذلك. انتهى .

وأجابوا بأن حديث جابر رواه الدارقطنىّ والبيهقىّ . وفى إسناده متروك . وقد صرح بضعفه غير واحدٍ من الحفاظ . وحديث أبى هريرة فعل لا ينهض بمجرده على الوجوب . وقولهم (هو بيان للمجمل) فيه نظر . لأن (إلى) حقيقة فى انتهاء الغاية ـ كما قدمنا ـ فلا إجمال . والله أعلم .

السابعة : قال الرازىّ : يقتضى قوله تعالى (إِلَى الْمَرَافِقِ) تحديد الأمر ، لا تحديد المأمور به . يعنى أن قوله (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) أمر بغسل اليدين إلى المرفقين ، فإيجاب الغسل محدود بهذا الحدّ . فبقى الواجب هو هذا القدر فقط ، أما نفس الغسل فغير محدود بهذا الحدّ ، لأنه ثبت بالأخبار أن تطويل الغرة سنة مؤكدة. انتهى .

الثامنة : أشعر أيضاً قوله تعالى (إِلَى الْمَرَافِقِ) أن ينتهى فى غسل اليدين بها ، ويبتدأ بالأصابع . قال الحاكم : وقد وردت السنة بذلك ، وهو الذى عليه الفقهاء ، ولدلالة لفظ (إلى) لأنها للغاية ، وغاية الشىء آخره . وقالت الإمامية : السنة أن يبتدىء بالمرفق . وقالوا : إن (إلى) هنا بمعنى (من) قال الحاكم : هذا تقدير فاسد .

التاسعة : ذهب الجمهور إلى أن تقديم اليمين على الشمال سنّة ، مَنْ خالفها فاته الفضل وتمّ وضوؤه . وذهب العترة والإمامية ـ كما فى (البحر) للمهدى ـ إلى وجوبه . واحتج عليهم

بأن الآية لا تفيد ذلك ، فمتى غسلهما مرتباً أو غير مرتب ـ قدم اليمنى أو اليسرى ـ فقد امتثل الأمر . وأجابوا بأن الدلالة على الوجوب من السنة ، فقد روى أحمد وأبو داود[(١)] عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إذا لبستم وإذا توضأتم فابدأوا بأيامنكم ! وأجيب : بأن الأمر للندب لقوله : إذا لبستم وإذا توضأتم . فقرن بينه وبين اللبس . فإذن يدل على وجوب التيامن في اللبس كما يدلّ عليه في الوضوء ، وهم لا يقولون به . وأيضاً فقد روى عن عليّ عليه السلام أنه قال : ما أبالي بدأت بيميني أو بشمالي إذا أكملت الوضوء . رواه الدارقطنيّ . وروى نحوه البيهقيّ وابن أبي شيبة . وروى أبو عبيد في الطهور : أن أبا هريرة كان يبدأ بميامنه . فبلغ ذلك عليًّا فبدأ بمياسره . ورواه أحمد بن حنبل عن عليّ . قال الحافظ ابن حجر : وفيه انقطاع . وهذه الطرق يقوى بعضها بعضاً . وكذلك الحديث المقترن بالتيامن في اللبس، المجمع على عدم وجوبه، صالح لجعله قرينة تصرف الأمر إلى الندب . ودلالة الاقتران ـ وإن كانت ضعيفة ـ لكنها لا تقصر عن الصلاحية للصرف. لاسيما مع اعتضادها بقول عليّ عليه السلام وفعله .

العاشرة : ذهب بعض العترة إلى أنه لا مسح على الجبائر . ففي (الأحكام) من كتبهم : إذا جبر على جرح أو كسر وخشي من نزع الجبائر ضرراً ، لا يشرع المسح . قال : لأنّ الآية تقتضي غسل اليد دون ما عليها . والجمهور منهم ومن غيرهم : أنه يمسح، لحديث جابر : إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده . رواه أبو داود[(٢)] والدارقطنيّ . وصححه ابن السكن .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ ـ كتاب اللباس، ٤١ ـ باب في الانتعال، حديث ٤١٤١ وابن ماجة في: ١ ـ كتاب الطهارة، ٤٢ ـ باب التيمن في الوضوء، حديث ٤٠٢ (طبعتنا).

(٢) أخرجه أبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٥ ـ باب في المجروح يتيمم ، حديث ٣٣٦ ونصه :

الحادية عشرة : (وجوب مسح الرأس) :

والمسح إمساس المحل الماء بحيث لا يسيل ، والباء فى قوله تعالى (بِرُءُوسِكُمْ) تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق ، فكأنه قيل : وألصقوا المسح برؤوسكم . قال الزمخشرىّ : وماسح بعض الرأس ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه . أى : فيكون الواجب مطلق المسح كلًّا أو بعضاً ـ وأيًّا ما كان ـ وقع به الامتثال . والسنة الصحيحة وردت بالبيان ، وفيها مايفيد جواز الاقتصار على مسح البعض فى بعض الحالات كما فى صحيح مسلم[(١)] وغيره من حديث المغيرة ؛ أنه صلى الله عليه وسلم أدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه

= عن جابر قال : خرجنا فى سفر . فأصاب رجلًا منا حجرٌ فشجه فى رأسه . ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات .

فلما قدمنا على النبىّ صلى الله عليه وسلم أُخبر بذلك . فقال « قتلوه ، قتلهم الله . ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العىّ السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر (أو يعصب) على جرحه خرقة ، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٨١ (طبعتنا) ونصه :

عن المغيرة قال : تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخلفت معه . فلما قضى حاجته قال « أمعك ماء » ؟ فأتيته بمِطْهرة . فغسل كفيه ووجهه . ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كمّ الجبة . فأخرج يده من تحت الجبة . وألقى الجبة على منكبيه . وغسل ذراعيه . ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه . ثم ركب وركبت . فانتهينا إلى القوم وقد قاموا فى الصلاة . يصلى بهم عبد الرحمن بن عوف وقد ركع بهم ركعة . فلما أحسّ بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ذهب يتأخر . فأومأ إليه . فصلّى بهم . فلما سلّم قام النبىّ صلى الله عليه وسلم وقمت . فركعنا الركعة التى سبقتنا .

ولم ينقض العمامة . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة[(١)] ؛ أنه مسح رأسه فأقبل وأدبر . وهذه هى الهيئة التى استمرّ عليها صلى الله عليه وسلم . فاقتضى هذا أفضلية الهيئة التى كان صلى الله عليه وسلم يداوم عليها . وهى : مسح الرأس مقبلًا ومدبراً . وإجزاء غيرها فى بعض الأحوال . ولا يخفى أن الآية لاتفيد إيقاع المسح على جميع الرأس . كما فى نظائره من الأفعال. نحو: ضربت رأس زيد ، وبرأسه . وضربت زيداً وضربت يد زيدٍ. فإنه يوجد المعنى اللغوىّ فى جميع ذلك ، بوجود الضرب على جزء من الأجزاء المذكورة . وهكذا ما فى الآية . وليس النزاع فى مسمى الرأس لغة ، حتى يقال: إنه حقيقة فى جميعه . بل النزاع فى إيقاع المسح عليه . وعلى فرض الإجمال، فقد بينه الشارع تارةً بمسح الجميع، وتارةً بمسح البعض . بخلاف الوجه. فإنه لم يقتصر على غسل بعضه فى حال من الأحوال ، بل غسله جميعاً . وأما اليدان والرجلان فقد صرح فيهما بالغاية . فإن قلت: إن المسح ليس كالضرب الذى مثلت به . قلت: لا ينكر أحد من أهل اللغة أنه يصدق قول من قال (مسحت الثوب أو بالثوب . أو مسحت الحائط أو بالحائط) على مسح جزء من أجزاء الثوب أو الحائط . وإنكار مثل هذا مكابرة . كذا فى (الروضة) .

---

(١) أخرجه فى البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٣٨ ـ باب مسح الرأس كله لقول الله تعالى : وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ، حديث ١٤٦ ونصه :

أن رجلا قال لعبد الله بن زيد (وهو جدّ عمرو بن يحيي) : أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم .

فدعا بماء فأفرغ على يديه فغسل مرتين . ثم مضمض واستنثر ثلاثا . ثم غسل وجهه ثلاثا . ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين . ثم مسح رأسه بيديه . فأقبل بهما وأدبر . بدأ بمقدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه . ثم ردهما إلى المكان الذى بدأ منه . ثم غسل رجليه .

قال شمس الدين بن القيّم فى (الهدى) : ولم يصحّ عنه ﷺ فى حديث واحد، أنه اقتصر على مسح بعض رأسه البتة . ولكن كان إذا مسح بناصيته كمل على العمامة . فأما حديث أنس الذى رواه أبو داود[1] : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وعليه عمامة قِطْرية ، فأدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه ولم ينقض العمامة ـ فهذا مقصود أنس به أن النبىّ ﷺ لم يَنْقُضْ عمامته حتى يستوعب مسحُ الرأس الشعرَ كله . ولم ينف التكميل على العمامة . وقد أثبته المغيرة بن شعبة وغيره . فسكوت أنس عنه لا يدل على نفيه . انتهى .

قال الشوكانىّ : ليس النزاع إلّا فى الوجوب . وأحاديث التعميم ، وإن كانت أصح ، وفيها زيادة وهى مقبولة ـ لكن أين دليل الوجوب ؟ وليس إلّا مجرد الفعل . وهو لا يدل على الوجوب. ثم قال : وبعد هذا ، فلاشك فى أولوية استيعاب المسح لجميع الرأس وصحة أحاديثه. ولكن دون الجزم بالوجوب ، مفاوز وعقاب.

فصل

وأما قوله تعالى : وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . فقرأه بالنصب نافع وابن عامر وحفص والكسائىّ ويعقوب . وبالجرّ الباقون ، ومن هاتين القراءتين تشعبت المذاهب فى صفة طهارة الرجلين . فمن ذاهبٍ إلى أنّ طهارتهما الغسل. ومن ذاهب إلى أنها المسح. ومن مخيّر بينهما. ولكلٍّ من هذه المذاهب حججٌ وتأويلاتٌ وأجوبةٌ ومناقشاتٌ نسوق شذرةً منها .

فنقول : قال الأولون : قراءة النصب ظاهرها يفيد الغسل . وقراءة الجرّ ظاهرها يفيد المسح . إلّا أنه لما وجد ما يرجح الغسل تأولنا ما أفادته قراة الجرّ فى الظاهر . والمرجح للغسل أمور .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٨ ـ باب المسح على العمامة ، حديث ١٤٧ .

منها : ما فى (الصحيحين)[١] و (السنن) عن عثمان وعلىّ وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب ؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين فى وضوئه ، إما مرة وإما مرتين أو ثلاثاً . على اختلاف رواياتهم . وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أنّ رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ثم قال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلّا به .

وفى (الصحيحين)[٢] عن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ فى سفره. فأدركنا وقد أرهقنا العصر . فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا . قال ، فنادى بأعلى صوته : ويل للأعقاب من النار . مرتين أو ثلاثاً . وكذلك هو فى (الصحيحين)[٣] عن أبى هريرة. وفى (صحيح مسلم)[٤] عن عائشة عن النبىّ ﷺ أنه قال : أسبغوا الوضوء . ويل للأعقاب من النار . وروى البيهقىّ والحاكم ، بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن الحرث بن جزء ؛ أنه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٢ ـ باب الوضوء مرة مرة ، حديث ١٢٨ عن ابن عباس .

و ٢٣ ـ باب الوضوء مرتين مرتين ، حديث ١٢٩ عن عبد الله بن زيد .

و ٢٤ ـ باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ، حديث ١٣٠ عن عثمان بن عفان .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٧ ـ باب غسل الرجلين ، ولا يمسح على القدمين ، حديث ٥٣ .

ومسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٢٦ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٩ ـ باب غسل الأعقاب ، حديث ١٣٢ .

ومسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٢٨ (طبعتنا)

(٤) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

سمع رسول الله ﷺ يقول : ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار . وروى الإمام أحمد[١] وابن ماجة[٢] وابن جرير[٣] عن جابر بن عبد الله قال : رأى النبيّ ﷺ فى رِجْلِ رَجُلٍ مثلَ الدرهم لم يغسله، فقال : ويل للأعقاب من النار .

قال ابن كثير : ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة . وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما ، أو أنّه يجوز ذلك ، لما توعد على تركه ، لأن المسح لا يستوعب جميع الرِّجل . بل يجرى فيه ما يجرى فى مسح الخف . وروى الإمام أحمد[٤] عن خالد بن معدان عن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا يصلّى وفى ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم ، لم يصبها المـاء . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء . زاد أبو داود : والصلاة . وروى الإمام أحمد[٥] عن أبى أمامة قال : حدثنا عمرو بن عَبَسَة قال : قلت : يارسول الله ! أخبرنى عن الوضوء ، قال : مامنكم من أحدٍ يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينتثر ، إلّا خرّت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٩٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) . وأخرجه أبوداود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٦ ـ باب تفريق الوضوء ، حديث ١٧٥ ، عن خالد عن بعض أصحاب النبىّ ﷺ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة وسننها ، ٥٥ ـ باب غسل العراقيب ، حديث ٤٥٤ (طبعتنا) .

(٣) الأثر رقم ١١٥١٣ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ). وأخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٦ ـ باب تفريق الوضوء ، حديث ١٧٥

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (من حديث طويل) بالصفحة رقم ١١٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

حين ينتثر . ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلّا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء . ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلّا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله . ثم يمسح رأسه إلّا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء . ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمر الله إلّا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء . ثم يقوم فيحمد الله ويثنى بالذى هو له أهل ، ثم يركع ركعتين إلّا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال أبو أمامة : ياعمرو! انظر ماتقول . سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أيُعْطى هذا الرجل كله فى مقامه ؟ قال عمرو بن عبسه : ياأبا أمامة ! لقد كبرسنى ورقّ عظمى واقترب أجلى . ومابى حاجة أنأ كذب على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا مرة أو مرتين أو ثلاثاً . لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك ... قال ابن كثير : وإسناده صحيح وهو فى (صحيح مسلم)[١] من وجه آخر، وفيه : ثم يغسل قدميه كما أمره الله . فدلّ على أن القرآن يأمر بالغسل. وهكذا روى أبو إسحق السبيعىّ عن الحرث عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أُمرتم. ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علىّ ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رش على قدميه الماء وهما فى النعلين فدلكهما . إنما أراد غسلًا خفيفاً وهما فى النعلين . ولا مانع من إيجاد الغسل والرّجل فى نعلها . ويكون فى هذا ردّ على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين . وهكذا مارواه ابن جرير[٢] عن حذيفة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سباطة قومٍ فبال قائمـا ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه . وهو حديث صحيح . وقد أجاب ابن جرير عنه : بأنّ الثقات الحفاظ رووه عن حذيفة : فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه . قال ابن كثير : ويحتمل الجمع بينهما . بأن يكون فى رجليه خفان وعليهما نعلان .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٩٤ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١١٥٢٨ .

وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد[١] عن أوس بن أبى أوس قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة . ورواه أبو داود[٢] عنه بلفظ : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سباطة قوم فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه . ثم قال الجمهور : إن قراءة الجرّ محمولة على الجوّ الجوارىّ . ونظيره كثير فى القرآن والشعر. كقوله تعالى : عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ[٣] . و: حُورٍ عِينٍ[٤] بالجرّ فى قراءة حمزة والكسائىّ عطفاً على (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ)[٥] والمعنى مختلف. إذ ليس المعنى: يطوف عليهم ولدان مخلدون بحور عين . وكقولهم : جحر ضبٍّ خربٍ ، وللنحاة باب فى ذلك . حتى تعدوا ، من اعتباره فى الإعراب ، إلى التثنية والتأنيث وغير ذلك . وقد ساق شذرة من أشباهه ونظائره أبو البقاء هنا . فانظره . وما قيل بأن حرف العطف مانع من الجوار (زعماً بأنه خاص بالنعت والتأكيد) مردود بأنه ورد فى العطف كثيراً فى كلام العرب . قال الشاعر[٦] :

لم يبق إلّا أسير غير منفلتٍ ومَوثقٍ فى عقال الأسر مكبول

نخفض (موثقاً) بالمجاورة للمنفلت . وحقه الرفع عطفاً على (أسير) . وقال[٧] :

فهل أنت ـ إن ماتت أتانك ـ راحلٌ إلى آل بسطام بن قيس نخاطبِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٢ ـ باب المسح على الجوربين ، حديث ١٦٠ .

(٣) [١١ / هود / ٢٦] .

(٤) [٥٦ / الواقعة / ٢٢] .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ١٨] .

(٦) لم أعرف اسم هذا الشعر . ولم أعثر على هذا البيت فى مكانٍ .

(٧) لم أعرف اسم هذا الشاعر . ولم أعثر على هذا البيت فى مكانٍ .

فجرّ (نخاطب) للمجاورة . وحقه الرفع عطفاً على (راحل) . وكفى فى الردّ قراءة (وحورٍ) بالجرّ كما قدّمنا . قالوا : وشرط حسن الجرّ الجوارىّ عدم الإلباس مع تضمن نكتة . وهنا كذلك . فإن الغاية دلت على أنه ليس بممسوح . إذ المسح لم تضرب له غاية فى الشريعة . والنكتة فيه الإشارة إلى تخفيفه حتى كأنه مسح .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والوجه فيه أن الغسل والمسح متقاربان ، من حيث إن كل واحد منهما إمساس بالعضو . فيسهل عطف المغسول على الممسوح من ثَمَّ ـ كقوله : متقلداً سيفاً ورمحاً . وعلفتها تبناً وماء بارداً ـ ونظائره كثيرة . وبهذا وجّه الحذاق . ثم يقال : ما فائدة هذا التشريك بعلة التقارب ؟ وهلّا أسند إلى كل واحد منهما الفعل الخاصّ به على الحقيقة ؟ فيقال : فائدته الإيجاز والاختصار وتوكيد الفائدة ـ بما ذكره الزمخشرىّ ـ أى : من أنّ الأرجل لما كانت مظنة للإسراف المذموم المنهىّ عنه ، فعطفت على الرابع الممسوح ، لا لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد فى صبّ الماء عليها . ثم قال الناصر : وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلًا : واغسلوا أرجلكم غسلًا خفيفاً لا إسراف فيه كما هو المعتاد ، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل مع الممسوح . ونبه بهذا التشريك، الذى لا يكون إلّا فى الفعل الواحد أو الفعلين المتقاربين جدًّا، على أن الغسل المطلوب فى الأرجل، غسل خفيف يقارب المسح. وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة . انتهى.

وأما من أوجب الجمع بين المسح والغسل فأخذًا بالجمع بين القراءتين. ومراد من ذهب إلى هذا بالمسح ، هو الدلك. كما تقدم عن النفس الزكية .

قال ابن كثير : من نقل عن ابن جرير ـ أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية ـ فلم يحقق مذهبه فى ذلك ، فإن كلامه فى تفسيره إنما يدلّ على أنه أراد أنه يجب دَلْك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك ، فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما ، ولكنه عبر عن الدلك بالمسح ، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد

وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما. فحكاه من حكاه كذلك . ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء ، وهو معذور . فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه . وإنما أراد ما ذكرته والله أعلم . ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين فى قوله « وَأَرْجُلَكُمْ » خفضاً على المسح وهو الدلك ، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه . انتهى .

وأما من قال : الوجب هو المسح ، فتمسك بقراءة الجر ، وهومذهب الإمامية . وأجابوا عن قراء النصب بأنها مقتضية للمسح أيضاً . وقدوقفت على كتاب (شرح المقنعة) من كتبهم فوجدته أطنب فى هذا البحث ، ووجه اقتضاء النصب للمسح بأن موضع الرؤوس موضع نصب لوقوع الفعل ، الذى هو المسح . عليه . قال : وعلى هذا لاينكر أن يعطف الأرجل على موضع الرؤوس لا لفظها فينصب ، والعطف على الموضع جائز مشهور فى لغة العرب . ثم ساق الشواهد فى ذلك وقال بعد : فإن قيل : ما أنكرتم أن تكون القراءة بالنصب لا تقتضى الغسل، فلا تحتمل المسح. لأن عطف الأرجل على موضع الرؤوس فى الإيجاب توسع وتجوز . والظاهر والحقيقة يوجبان عطفها على اللفظ لا الموضع . قلنا : ليس الأمر على ما توهمتم ، بل العطف على الموضع مستحسن فى لغة العرب ، وجائز لا على سبيل الاتساع والعدول عن الحقيقة . فالمتكلم مخير بين حمل الإعراب على اللفظ تارةً ، وبين حمله على الموضع أخرى . قال : وهذا ظاهر فى العربية مشهور عند أهلها ، وفى القرآن والشعر له نظائر كثيرة. ثم قال : على أنا لو سلمنا أن العطف على اللفظ أقوى ، لكان عطف الأرجل على موضع الرؤوس أولى ، مع القراءة بالنصب . لأن نصب الأرجل لا يكون إلا على أحد وجهين : إما بأن يعطف على الأيدى والوجوه فى الغسل ، أو يعطف على موضع الرؤوس فينصب، ويكون حكمها المسح . وعطفها على موضع الرؤوس أولى . وذلك أن الكلام إذا حصل فيه عاملان ، أحدهما قريب والآخر بعيد ، فإعمال الأقرب أولى من إعمال الأبعد . وقد نص أهل العربية على هذا فى باب التنازع . انتهى . فتأمل جدلهم.

قال الحافظ ابن كثير : وقد روى عن طائفة من السلف القول بالمسح . فروى ابن[(١)] جرير عن حميد قال : قال موسى بن أنس ونحن عنده : ياأباحمزة ! إن الحجاج خطبنا بالأهواز، ونحن معه. فذكر الطهور فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم. وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه. فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما. فقال أنس : صدق الله وكذب الحجاج . قال الله تعالى : وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ .

قال : وكان أنس إذا مسح قدميه بلّهما .

قال ابن كثير : إسناده صحيح إليه .

وروى ابن جرير[(٢)] أيضاً عن عاصم عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة بالغسل. وإسناده صحيح أيضاً .

وأسند[(٣)] أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس قال : الوضوء غسلتان ومسحتان .

وكذا روى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ) ، قال : هو المسح . ثم قال : وروى عن ابن عمر وعلقمة وأبي جعفر محمد بن عليّ والحسن (فى إحدى الروايات) وجابر بن زيد ومجاهد (فى إحدى الروايتين) نحوه .

وروى ابن جرير[(٤)] عن أيوب قال : رأيت عكرمة يمسح على رجليه . وعن الشعبي[(٥)] قال: نزل جبريل بالمسح . ألا ترى أنّ التيمم، أن يمسح ما كان غسلًا ويلغى ما كان مسحاً ؟

(١) الأثر رقم ١١٤٧٥
(٢) الأثر رقم ١١٤٧٦
(٣) الأثر رقم ١١٤٧٤
(٤) الأثر رقم ١١٤٨٦
(٥) الأثر رقم ١١٤٨٠

وأما من ذهب إلى التخيير ، فقال: لما جاءت القراءة بما يوجب الغسل وبما يوجب المسح ، دلّ على أنه مخيّر . قال فى (الشفا) : القراءتان لا توجبان الجمع، بل تثبتان التخيير .

ولا يخفى أن ظاهر الآية صريح فى أن واجبهما المسح . كما قاله ابن عباس وغيره . وإيثار غسلهما فى المأثور عنه صلى الله عليه وسلم ، إنما هو للتزيد فى الفرض والتوسع فيه حسب عادته صلى الله عليه وسلم ، فإنه سنّ فى كل فرضٍ سنناً تدعمه وتقويه. فى الصلاة والزكاة والصوم والحج . وكذا فى الطهارات كما لا يخفى . ومما يدلّ على أن واجبهما المسح ، تشريع المسح على الخفّين والجوربين . ولا سند له إلا هذه الآية ، فإن كل سنة أصلها فى كتاب الله ، منطوقاً أو مفهوماً ، فاعرف ذلك واحتفظ به ، والله الهادى .

فصل

فيما قاله الصوفية - قدس الله سرهم - من أسرار طهارة هذه الأعضاء :

فأما الوجه ، فإنما وجب غسله لأن فيه أكثر الحواس الظاهرة التى ينتفع بالمحسوسات بواسطتها ، فلا بدّ من تطهيره عند ظهور آثار حدثت عنها ، ولسبق الإحساس على العمل، قدم ما فيه أكثر الحواس الظاهرة أى غير السمع . ثم أمر بتطهير الآلة الفاعلية للأفعال التى منها تلك الآثار - وهى الأيدى إلى المرافق - لأن العمل بالأصابع يحتاج إلى تحريك الكف التى لا تتحرك غالباً إلّا بتحريك المرافق ؛ ثم أمر بمسح الرأس لأنه جامع للحواس الباطنة، فأشبه جامع الحواس الظاهرة ، وأخّره عن غسل اليدين لأنه مخزن الصور المدركة بالحواس الظاهرة من أعماله وغيرها . ولم يأمر بغسله لأنه يضر بصاحب الشعر ، ولا بد منه فى الزينة . لاسيّما للمرأة ، نخفف بالمسح . ثم أوجب غسل آلة السعى لمشابهة آلة العمل وهى الأرجل ، ولما كانت حركتها توجب حركة جميع البدن، اقتصر على أدنى الغايات . أعنى : الكعبين ، لئلا تبطل فائدة تخصيص الأعضاء ، وفى الفصل بين المغسولات بالممسوح إيماء إلى وجوب الترتيب ، والسرّ فيه ما أشرنا إليه . كذا فى تفسير (المهايمىّ) .

وذكر الشعرانيّ ـ قُدِّس سره ـ فى سرّ ذلك . أن الوجه به حصول المواجهة فى حضرة الله تعالى عند خطابه ؛ والشرع قد تبع العرف فى ذلك . وإلّا فكل جزء من بدن العبد ـ ظاهراً وباطناً ـ ظاهر للحق تعالى من العبد . أمر الله تعالى العبد بالتوبة فوراً ، مسارعة للتطهير من النجاسة المعنوية . لأن المــاء لا يصل إلى القلب . فافهم . ثم وجه قول الجمهور بدخول المرفقين فى اليدين بأنهما محل الارتفاق . وتكمل الحركة بهما فى فعل المخالفات . ووجّه قول زفر وداود ، بأنهما لم يتمحضا للذراعين، لأنهما مجموع شيئين: إبرة الذراع ورأس العظمين . ثم وجّه مسح جميع الرأس ، بالأخذ بالاحتياط. فيمسح جميع محل الرياسة التى عند المتوضىء ليخرج عن الكبر الذى فى ضمنها ، ويمكن من دخول حضرة الله تعالى فى الصلاة. فإن من كان عنده مثقال ذرة من كبر لا يمكن من دخوله الجنة يوم القيامة، كما ورد . إذ هى الحضرة الخاصة . وكذلك القول فى حضرة الصلاة . ثم وجّه غسل القدمين بمؤاخذة العبد بالمشى بهما فى غير طاعة الله عزّ وجــل ، وكونهما حاملَيْن للجسم كلّه . وممدين له بالقوة على المشى، فإذا ضعفا بالمخالفة أو الغفلة سرى ذلك فيما حملاه ، كما يسرى منهما القوة إلى ما فوقهما إذا غسل ، فإنهما كعروق الشجرة التى تشرب المــاء وتمدّ الأغصان بالأوراق والثمار . فتعين فيهما الغسل دون المسح . ثم ذكر سرّ من ذهب إلى وجوب الموالاة فى طهارة أعضاء الوضوء ، بأن الغالب على المتطهرين ضعف أبدانهم من كثرة المعاصى ، أو الغفلات ، أو أكل الشهوات . وإذا لم يكن موالاة جفت الأعضاء كلها قبل القيام إلى الصلاة، مثلا. وإذا جفت فكأنها لم تغسل ولم تكتسب بالماء انتعاشاً . ولا حياة تقف بها بين يدى ربها. فخاطبت ربها بلا كمال حضورٍ ولا إقبالٍ على مناجاته . هـذا حكم غالب الأبدان . أما أبدان العلماء العاملين وغيرهم من الصالحين ، فلا يحتاجون إلى تشديدٍ فى أمر الموالاة لحياة أبدانهم بالمــاء . ولو طال الفصل بين غسل أعضائهم . فيحمل قول من قال بوجوب الموالاة على طهارة عوامّ الناس . ويحمل قول من قال بالاستحباب على طهارة علمائهم وصالحيهم.

وسمعت سيدى علياً الخوّاص ، رحمه الله تعالى، يقول: نِعْمَ قول من قال بوجوب الموالاة فى هذا الزمان . فإنّ من لم يوجبها يؤدى قوله إلى جواز طول الفصل جدًّا . وزيادة البطء فى زمن الطهارة ، وفوات أول الوقت . كأن يغسل وجهه فى الوضوء للظهر بعد صلاة الصبح. ثم يغسل يديه ربع النهار. ثم يمسح رأسه بعد زوال الشمس . ثم يغسل رجليه قبيل العصر. مع وقوع ذلك المتوضئ مثلاً ، فى الغيبة والنميمة والاستهزاء والسخرية والضحك والغفلة . وغير ذلك من المعاصى والمكروهات . أو خلاف الأولى إن كان ممن يؤاخذ به كما يؤاخذ بأكل الشهوات . فمثل هذا الوضوء، وإن كان صحيحاً فى ظاهر الشرع ـ من حيث إنه يصدق عليه إنه وضوء كامل ـ فهو قليل النفع لعدم حصول حياة الأعضاء به بعد موتها أو ضعفها أو فتورها . ففات بذلك حكمة الأمر بالموالاة فى الوضوء ـ وجوباً أو استحباباً ـ وهى إنعاش البدن وحياته قبل الوقوف بين يدى الله تعالى للمناجاة . ثم لو قدر عدم وقوع ذلك المتوضئ، الذى لم يوال، فى معصية أو غفلة فى الزمن المتخلل بين غسل الأعضاء ، فالبدن ناشف كالأعضاء التى عمتها الغفلة والسهو والملل والسآمة. فلم يَصِرْ لها داعية إلى كمال الإقبال على الله تعالى حال مناجاته . اه .

وقد كمل أسرار السنن بما يبهج ، فلينظر فى (ميزانه) رحمه الله تعالى .

وفى كلام الله تعالى من الفوائد والأسرار واللطائف ، ما تضيق عنه الأسفار .

وقوله تعالى « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً » أى : بخروج منىٍّ أو التقاء ختانين « فَاطَّهَّرُوا »أى: بالماء ، أى : اغتسلوا به . قال المهايمىّ: أى:بالغوا فى تطهير البدن لأنه يتلذذ به الجميع تلذذاً أغرقه فى غير الله، فأثّر فيه بالحدَث « وَإِنْ كُنْتُمْ » جنباً «مَرْضَىٰ» تخافون من استعمال الماء « أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » أى رجع من مكان البراز « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » أى : اقصدوا « صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » تذليلاً للعضوين الشريفين . وقد مرّ تفسير هذا وأحكامه فى سورة

النساء. « مَا يُرِيدُ اللهُ » أي ما يريد بالأمر بالطهارة للصلاة ، أو بالأمر بالتيمم « لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ » أي ضيق في الامتثال أو في تحصيل الماء « وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ » أي عن الذنوب ، أو ليجعلكم في حكم الطاهرين بالتذلل بالتراب . فإنه لما رفع التكبر فكأنما رفع الحدث الذي ينشأ عن أمثاله « وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ » أي : بشرعه ماهو مطهّر لأبدانكم ومنعش لها مما لحقها، ومكفّر لذنوبكم ، أوليتمّ برخصه إنعامه عليكم بتمكينكم من عبادته بكل حالٍ، حتى حال الحدث « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » نعمته ورخصته فيثيبكم .

وقد روى ابن[1] جرير عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه . ورواه مسلم[2] وأصحاب السنن عن أبي هريرة مفصلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ » بالهداية لهذا الدين القويم لتذكركم المنعم وترغبكم

---

(١) الأثر رقم ١١٥٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٣٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا توضأ العبد المسلم (أو المؤمن) فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء (أو مع آخر قطر الماء) فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء (أو قال مع آخر قطر الماء) فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء (أو مع آخر قطر الماء) حتى يخرج نقيًّا من الذنوب » .

فى شكره « وَمِيثَاقَهُ » أى عهده الوثيق « الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ » أى : أكد عليكم بقبوله « إِذْ قُلْتُمْ » أى : لرسول الله ﷺ « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » حين بايعتموه على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : فى نقض شىء من عهوده ولو بالقلب « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى : بخفيّاتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ » أى : مقتضى إيمانكم الاستقامة ، فكونوا مبالغين فى الاستقامة باذلين جهدكم فيها لله . وهى إنما تتم بالنظر فى حقوق الله وحقوق خلقه فكونوا « شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ » أى : العدل . لا تتركوه لمحبة أحد ولا لعداوة أحد « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ » أى : لا يحملنّكم « شَنَآنُ » أى : شدة عداوة « قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا » فى حقهم . قال المهايمىّ : أى : فإنّا لا نأمركم به من حيث ما فيه من توفية حقوق الأعداء ، بل من حيث ما فيه من توفية حقوق أنفسكم فى الاستقامة « اعْدِلُوا هُوَ » ـ أى : العدل ـ « أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » أى : لحفظ الأنفس أن تتجاوز حدّ استقامتها « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : أن تبطلوا حقوقه أو حقوق عباده ولو بطريقٍ توهمون فيه العدل « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » من الأعمال فيجازيكم بذلك . وقد ثبت فى (الصحيحين)(١)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة، ١٢ ـ باب الهبة للولد، حديث١٢٦٣.
وفى : ١٣ ـ باب الإشهاد فى الهبة .
وفى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٩ ـ باب لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد .
وأخرجه مسلم فى : ٢٤ ـ كتاب الهبة ، حديث ٩ ـ ١٨ (طبعتنا) .

عن النعمان بن بشير أنه قال : نحلني أبي نحلًا . فقالت أمي : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ . فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : أكلّ ولدك نحلت مثله ؟ قال: لا . فقال : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . وقال : إني لا أشهد على جور . قال ، فرجع أبي فردّ تلك الصدقة .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالقسط . يدخل فيه الشهادة بالعدل والحكم به . وكذلك الفتوى . وأن قول الحق لا يترك وجوبه بعدوّ ولا صديق . ولا يجوز اتباع الهوى .

قال الزمخشريّ : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله ، إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » التي من جملتها العدل والتقوى « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » يعني ثواباً وافراً في الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » التي منها ما تلي من الأمر بالعدل والتقوى . « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أهل النار . ثم بيّن تعالى أنّ من مقتضى الإيمان ملازمة شكره على ذكر نعمه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أى: فى حفظه إيّاكم عن أعدائكم « إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ » أى : بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك « فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » أى: منعها أن تمدّ إليكم، وردّ مضرّتها عنكم .

قيل : الآية إشارة إلى ماروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرىّ عن أبى سلمة عن جابر : أنّ النبىّ ﷺ نزل منزلًا وتفرق الناس فى العضاه يستظلون تحتها. وعلّق النبىّ ﷺ سلاحه بشجرة. فجاء أعرابىّ إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلّه . ثم أقبل على النبىّ ﷺ فقال: من يمنعك منى ؟ قال : الله عزّ وجلّ . قال الأعرابىّ مرتين أو ثلاثاً : من يمنعك منى ؟ والنبىّ ﷺ يقول : الله . قال : فشام الأعرابىّ السيف . فدعا النبىّ ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابىّ ، وهو جالس إلى جنبه ، ولم يعاقبه .

وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا ، ويذكر أنّ قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ . فأرسلوا هذا الأعرابىّ . وتأوّل هذه الآية .

وأخرج أبو نعيم فى (دلائل النبوة) من طريق الحسن عن جابر بن عبد الله ؛ أن رجلًا من محارب يقال له غورث بن الحرث قال لقومه : أقتل لكم محمداً . فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه فى حجره فقال : يا محمد ! أأنظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم . فأخذه فاستله وجعل يهزه ويهم به فيكبته الله تعالى . فقال : يا محمد ! أما تخافنى ؟ قال : لا . قال : أما تخافنى والسيف فى يدى؟ قال: لا . يمنعنى الله منك . ثم غمد السيف ورده إلى رسول الله. فأنزل الله الآية .

وقصة هذا الأعرابيّ ثابتة فى (الصحيح)[١] .

وأخرج ابن جرير[٢] عن عكرمة ويزيد بن أبى زيادة واللفظ له : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف ويهود بنى النضير ، يستعينهم فى عقلٍ أصابه . فقالوا : نعم . اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا ، فجلس . فقال حييّ بن أخطب لأصحابه : لا ترونه أقرب منه الآن . اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ولا ترون شرًّا أبداً ، فجاؤا إلى رحى عظيمة ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم ، حتى جاء جبريل فأقامه من ثمت . فأنزل الله الآية . وروى نحوه ابن أبى حاتم .

---

(١) أخرجها البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٨٣ ـ باب من علّق سيفه بالشجر فى السفر عند القائلة ، حديث ١٣٩٣ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، أخبر أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم قِبَل نجد . فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قفلنا معه . فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه . فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرة وعلّق بها سيفه . ونمنا نومةً . فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا . وإذا عنده أعرابيّ . فقال « إن هذا اخترط عليّ سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صلتاً . فقال : من يمنعك منى ؟ فقلت : الله . ثلاثا » ولم يعاقبه وجلس .

وأخرجه أيضاً فى ٨٧ ـ باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة .

وفى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣١ ـ باب غزوة ذات الرقاع .

وفى : ٣٢ ـ باب غزوة بنى المصطلق .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣١١ (طبعتنا) .

وفى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٣ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١١٥٥٧ .

قال ابن كثير : ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغدو إليهم ، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم . انتهى .

وعلى هذه الروايات ، فالمراد من قوله تعالى (اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيّهم ، فإنه لو حصل ذلك لكان من أعظم المحن .

وذكر الزمخشريّ ، ومن بعده ، من وجوه إشارات الآية ، ما كان بعسفان من حفظه تعالى لهم من أعدائهم ، لما همّوا بقتلهم عند اشتغالهم بصلاة العصر ، بعد ما رأوهم يصلون الظهر . فندموا على أن لا أكبوا عليهم . فردّ كيد أعدائهم إذ أنزل عليهم صلاة الخوف . انتهى .

ولفظ الآية محتمل لذلك ، بيد أنى لم أره الآن مسنداً عن أئمة الأثر .

«وَاتَّقُوا اللهَ» أى فى رعاية حقوق نعمته ولا تخلّوا بشكرها «وَعَلَى اللهِ» خاصة دون غيره «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» فإنه الكافى فى إيصال الخير ودفع الشر لمن توكل عليه .

قال أبو السعود : والجملة تذييل مقرر لما قبله . وإيثار صيغة أمر الغائب ، وإسنادها إلى المؤمنين ، لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهانيّ ، وللإيذان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان ، داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوى ، وازع عن الإخلال بهما .

بحث جليل فى التوكل

قال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية ـ قدس الله سرّه ـ فى بعض مصنّفاته : قد ظنّ طائفة ممن تكلم فى أعمال القلوب ، أن التوكل لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة . بل ما كان مقدراً بدون التوكل ، فهو مقدر مع التوكل . ولكن التوكل عبادة يثاب عليها من جنس الرضا بالقضا . وذكر ذلك أبو عبد الله بن بطة فيما صنفه فى هذا الباب . وقول هؤلاء يشبه قول من قال : إن الدعاء لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة . بل هو عبادة يثاب عليها كرمى الجمار . وآخرون يقولون : بل الدعاء علامة وأمارة . ويقولون ذلك فى جميع

العبادات . وهـذا قول من ينفى الأسباب فى الخلق والأمر ، ويقول : إن الله يفعل عندها، لا بها . وهو قول طائفةٍ من متـكلمى أهل الإثبات للقدر ـ كالأشعرىّ وغيره ، وهو قول طائفة من الفقهاء والصوفية . وأصل هذه البدعة من قول جهم . فإنه كان غالياً فى نفى الصفات وفى الجبر ، فجعل من تمام توحيد الذات نفى الصفات ، فى تمام توحيد الأفعال نفى الأسباب. حتى أنـكر تأثير قدرة العبد ، بل نفى كونه قادراً . وأنـكر الحـكمة فى التوكل والرحمة . وكان يخرج إلى الجذمى فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ يعنى أنه يفعل بمحض المشيئة بلا رحمة . وقوله فى القدر ، قد تقرب إليه الأشعرىّ ومن وافقه من الطوائف . والذى عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الـكلام إثبات الأسباب . كما دلّ على ذلك الـكتاب والسنة، مع دلالة الحسّ والعقل. والـكلام على هؤلاء مبسوط فى مواضع أخر. والمقصود هنا الـكلام على التوكل . فإن الذى عليه الجمهور أن المتوكل يحصل له بتوكله ، من جلب المنفعة ودفع المضرة ، ما لا يحصل لغيره . وكذلك الدعاء . والقرآن يدل على ذلك فى مواضع كثيرة . ثم هو سبب عند الأكثرين ، وعلامة عند من ينفى الأسباب : قال الله تعالى[١] : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . والحسب : الـكافى . فبيّن أنه كافٍ مَنْ توكل عليه . وفى الدعاء : ياحسيب المتوكلين ! فلا يقال : هو حسْب غير المتوكل كما هو حسْب المتوكل ، لأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع فى مثل ذلك أن يكون وجود الشرط كعدمه . ولأنه

(١) [٦٥ / الطلاق / ٢و٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا .

رتب الحكم على الوصف المناسب له . فعلم أن توكله هو سبب كونه حسيباً له ، ولأنه ذكر ذلك فى سياق الترغيب فى التوكل ، كما رغب فى التقوى . فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية مالا يحصل لغيره ، لم يكن ذلك مرغباً فى التوكل . كما جعل التقوى سبباً للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب . وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١) . فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل ، والوكيل لا يستحق المدح إذا لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ولم يدفع عنه مضرة . والله خير من توكل العباد عليه . فهو نعم الوكيل يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم كلّ شرّ . وقال تعالى : ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾(٢) . وقال : ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا﴾(٣) . فأمر أن يُتخذ وكيلاً ونهى أن يتخذ من دونه وكيلاً . لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجاتِ العبد ، والوكالة الجائزة أن يتوكل الإنسان فى فعلٍ يقدر عليه ، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه . فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلّا الله . وذاك الذى يوكله لا يفعل شيئاً إلّا بمشيئة الله وقدرته . فليس له أن يتوكل عليه ، وإن وكله . بل يعتمد على الله فى تيسير ما وكله فيه ، فلو كان الذى يحصل للمتوكل على الله ، يحصل وإن توكل على غيره ، ويحصل بلا توكّل ، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلاً أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً . وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد . لأن التوكل على الخلق يشهد نفعه . وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤) أى : الله كافيك وكافى مَن اتبعك من المؤمنين . فلو كانت كفايته للمؤمنين المتبعين للرسول ـ سواء اتبعوه أو لم يتبعوه ـ لم يكن للإيمان واتباع الرسول أثر فى هذه

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٣] .
(٢) [٧٣ / المزمل / ٨و٩] .
(٣) [١٧ / الإسراء / ٢] .
(٤) [٨ / الأنفال / ٦٤] .

الكفاية . ولا كان لتخصيصهم بذلك معنى . وكان هذا نظير أن يقال : هو خالقك وخالق من اتبعك . ومعلوم أنّ المراد خلاف ذلك . وإذا كان الحسب معنىً يختص ببعضَ الناس، علم أن قول المتوكل : (حَسْبِيَ اللهُ) وقوله : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أمر مختص لا مشترك . وأن التوكل سبب ذلك الاختصاص ، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعدٍ أو خصّ أهله بكرامة ، فلا بدّ أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق فى حصول تلك الكرامة . وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر . فقد يكفى الله بعض من لم يتوكل عليه كالأطفال . لكن لابد أن يكون للمتوكل أثر فى حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين . فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلا ، وإن عدم التوكل . وقد قال تعالى : وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ[(١)] فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل ، بحرف (الفاء). وهى تفيد السبب. فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل . وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل . وفى الأثر[(٢)] : من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله . فلو كان التوكل لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة، لم يكن المتوكل أقوى من غيره . وقال تعالى : يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا[(٣)]. وقال فى أثناء السورة: وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٣و١٧٤] .

(٢) قال السيوطىّ فى (الجامع الصغير) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب (التوكل) وقال شارحه : إسناده حسن .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ١ـ٣] .

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا(١) . فأمره سبحانه بتقواه واتباع مايوحى إليه وأمره بالتوكل . كما جمع بين هذين الأصلين فى غير موضع . كقوله : فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(٢) . وقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا* رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٣) . وقوله : عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٤) . وقوله : رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا(٥) . وقوله : هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ(٦) . وقوله: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ(٧) . وقوله فى الفاتحة:

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٧٣ / المزمل / ٨و٩] .

(٤) [٤٢ / الشورى / ١٠] ونصها : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

(٥) [٦٠ / الممتحنة / ٤] ونصها : قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

(٦) [١٣ / الرعد / ٣٠] ونصها : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ .

(٧) انظر الحاشية رقم ١ ص١٩٠٥.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(١) . وعلم القرآن مجتمع فى الفاتحة ، وعلم الفاتحة فى هذين الأصلين : عبادة الله والتوكل عليه . وإذا أفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل . فإنه من عبادة الله . كقوله : يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ(٢) . وقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٣) . وإذا قرن به التوكل كان مأموراً به بخصوصه. وهذا كلفظ الإسلام والإيمان. والإيمان والعمل ، ولفظ الصلاة مع العبادة ومع اتباع الكتاب . ولفظ الفحشاء والبغى مع المنكر . ونظائر ذلك متعددة . يكون اللفظ عند تجرده وإفراده يتناول أنواعاً. وقد يعطف بعض تلك الأنواع عليه فيكون مأموراً به لخصوصه . ثم قد يقال : إذا عطف لم يدخل فى المعطوف عليه . وقد يقال : بل الأمر به خاص وعام ، كما فى قوله(٤) : وَمَلَائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ . وإذا كان الله أمره بالتوكل على الله ، ثم قال : وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ، علم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه . كما يقال فى الخطب والدعاء : الحمد لله كافى من توكل عليه . وإذا كان (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) فهذا مختص به سبحانه ليس غيره من الموجودات (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) فإن من يتخذ وكيلا من المخلوقين غايته أن يفعل بعض الأمور، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله ، وهو عاجز عن أكثر المطالب . فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه (كفى به وكيلا) علم أنه يفعل بالمتوكل عليه مالا يحتاج معه إلى غيره من جلب المنافع ودفع المضار . إذ لو بقى شىء لم يكن (كفى به وكيلا) وهـذا نقيض قول من ظن أن المتوكل عليه لا يحصل له بتوكله جلب منفعة ولا دفع مضرة ، بل يجرى عليه من القضاء ما كان يجرى لو لم

---

(١) [١ / الفاتحة / ٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١] ... الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٤) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

يتوكل عليه . والذين ظنوا ، أصل شبهتهم أنهم لما أثبتوا أن الله إذا قضى شيئاً فلابدّ أن يكون ، وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما سبق علمه فهو كائن لا محالة ـ صاروا يظنون ما يوجد بسبب يوجد بدونه ، وما يوجد مع عدم المانع يوجد مع المانع . وهذا غلط عظيم ضلّ فيه طوائف : طائفة قالت : لا حاجة إلى الأعمال المأمور بها . بل من خلق للجنة فهو يدخلها وإن لم يؤمن . ومن خلق للنار فهو يدخلها وإن آمن ولم يكفر . وهذه الشبهة سئل عنها النبيّ صلى الله عليه وسلم[1] لما قال : ما منكم من أحدٍ إلّا وقد علم مقعده من الجنة والنار قالوا : أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ! اعملوا ، فكلّ ميسّر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسييسّر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسييسّر لعمل أهل الشقاء . وهذا المعنى قد ثبت عن النبيّ ﷺ فى (الصحيح) فى مواضع تبيّن أنّ ماسبق به الكتاب سبق بالأسباب التى تفضى إليه ، فالسعادة سبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به سعيداً ، والشقاوة سبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به شقيًّا . فالقدر تضمن الغاية وسببها . لم يتضمن غايةً بلا سبب . كما تضمن أن هذا يولد له بأن يتزوج ويطأ المرأة ، وهذا تُنْبِتُ أرضه بأن يزدرع ويسقى الزرع . وأمثال ذلك . وكذلك

(١) الحديث أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٢ ـ سورة الليل ، ٧ ـ باب فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ، حديث ٧١٨ ونصه :

عن عليّ رضى الله عنه قال : كان النبيّ ﷺ فى جنازة . فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض . فقال « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » قالوا : يا رسول الله ! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة ، فيُيَسَّر لعمل أهل السعادة . وأما من كان من أهل الشقاء ، فيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ... الآية .

فى (السنن)(١) أنه قيل له : يا رسول الله ! أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترق بها ، وتقاة نتقيها ، هل تردّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هى من قدر الله . فبيّن أن الأسباب التى تُدفع بها المكاره هى من القدر ، ليس القدر مجرّد دفع المكروه بلا سبب . وكذلك قول من قال : (إن الدعاء لا يؤثر شيئاً والتوكل لا يؤثر شيئاً) هو من هذا الجنس ، لكن إنكار ما أمر به من الأعمال أمر ظاهر ، بخلاف تأثير التوكل . لكن الأصل واحد . وهو النظر إلى المقدور مجرداً عن أسبابه ولوازمه . ومن هذا الباب : (أن المقتول يموت بأجله) عند عامة المسلمين . إلّا فرقة من القدرية قالوا: إن القاتل قطع أجله. ثم تكلم الجمهور : لو لم يقتل ؟ قال بعضهم : كان يموت لأن الأجل قد فرغ ؛ وقال بعضهم : لا يموت لانتفاء السبب . وكلا القولين قد قال به من ينسب إلى السنة ، وكلاهما خطأ . فإن القدر سبق بأنه يموت بهذا السبب لا بغيره. فإذا قدر انتفاء هذا السبب كان فرض خلاف ما فى المقدور ، ولو كان المقدور أنه لا يموت بهذا السبب ، أمكن أن يكون المقدور أنه يموت بغيره ، وأمكن أن يكون القدر أنه لا يموت . فالجزم بأحدهما جهل فيما تعددت أسبابه . لم يجزم بعدمه عند عدم بعضها ، ولم يجزم بثبوته إن لم يعرف له سبب آخر . بخلاف ما ليس له إلّا سبب واحد . مثل دخول النار . فإنه لا يدخلها إلّا من عصى . فإذا قدر أنه لم يعص لم يدخلها . وقال تعالى : فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(٢)

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣١ ـ كتاب الطب ، ١ ـ باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، حديث ٣٤٣٧ (طبعتنا) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٥٩و١٦٠] ونصها : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * . . .

فأمَرَه إذا عزم ، أن يتوكل على الله ؛ فلو كان التوكل لا يعينه على نيل ما عزم عليه، لم يكن لأمره به عند العزم فائدة . بيّن أنه هو سبحانه الناصر دون غيره وقال : وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١) .فنهى عن التوكل على غيره ، وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذى لا يقدر عليه غيره . وإلّا فالمتوكل على غيره يطلب منه النصر ، فإن كان ذلك المطلوب لا يحصل منه لم يكن لذكر انفراده بالنصر معنى ؛ فإنه على هذا القول : نصره لمن توكل عليه كنصره لمن لم يتوكل عليه . وهذا يناقض مقصود الآية . بل عند هؤلاء : قد ينصر من يتوكل على غيره ولا ينصر من توكل عليه ، فكيف يأمر بالتوكل عليه دون غيره مقروناً بقوله : إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وكذلك قوله تعالى : أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ،وَمَنْ يُضْلِلِ اللهِ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * ... ـ إلى قوله ـ قلْ حَسْبِيَ اللهُ ،عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(٢) فبيّن أن الله يكفى عبده الذى يعبده ، الذى هو من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، الذى هو من عباده المخلصين ، الذى هو من عِبَادِ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً(٣) . ومثل هذا قوله: سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ(٤) . وقوله: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُاللهِ يَدْعُوهُ(٥)

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٠] .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٣٦ـ٣٩] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] ونصها : وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .
(٤) [١٧ / الإسراء / ١] .
(٥) [٧٢ / الجن / ١٩] ... كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا .

وقوله : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا[١] . ونظائر ذلك متعددة . ثم أمره بقوله : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ[٢] . وقال تعالى : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ[٣] . وكذلك قال عن هود لما قال قومه : إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٤] * فهذا من كلام المرسلين، مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه. فنوح يقول : إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ... الآية . فدعاهم، إذا استعظموا ما يفعله كارهين له، أن يجتمعوا ثم يفعلون به ما يريدونه من الإهلاك . وقال : فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ . فلولا أنه بحقيقة هذه الكلمة ـ وهو توكله على الله ـ يعجزهم عما تحداهم به من مناجزته ، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه . وهذا لا يجوز ، وهذا طلب تعجيز لهم . فدلّ على أنه ـ بتوكله على الله ـ يعجزهم عمّا تحدّاهم به . وكذلك هود ، يُشهد الله تعالى وإياهم أنه بريء مما يشركون بالله . ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله : فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا يبين أنه توكل على من أخذ بنواصي الإنس وسائر الدواب . فهو يدفعكم عني لأني متوكل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٣٨] .

(٣) [١٠ / يونس / ٧١] .

(٤) [١١ / هود / ٥٤ ـ ٥٦] .

عليه . ولو كان وجود التوكل كعدمه فى هذا، لكان قد أغراهم بالإيقاع به ، ولم يكن لذكر توكله فائدة ، إذ كان حقيقة الأمر عند هؤلاء أنه لا فرق بين من توكل ومن لم يتوكل فى وصول العذاب إليه . وهم كانوا أكثر وأقوى منه . فكانوا يهلكونه . وهو لو قال : فإنّ الله مولاى وناصرى ـ ونحو ذلك ـ لعلم أنه مخبر أنّ الله تعالى يدفعهم ، وإنما يدفعهم لإيمانه وتقواه ، ولأنه عبده ورسوله . فالله مع رسله وأوليائه ، فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع الله عن المؤمنين المتقين ، علم أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة ، تجلب بها المنفعة وتدفع بها المضرة . والتوكل من أعظم ذلك . وعلم أن من ظن أن المقدور من المنافع والمضارّ ، ليس معلقاً بالأسباب ، بل يحصل بدونها، فهو غالط . وكذلك من جعل ذلك مجرّد أمارة وعلامة، لاقتران هذا بهذا، فقد أخطأ . فإن الله أخبر أنّه فعل هذا بهذا فى غير موضع من القرآن، فى خلقه وأمره . كقوله : فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ(١) . وقوله : كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢) . وقوله : بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٣) ، وأنكر على من ظنّ وجود الأسباب كعدمها فى مثل قوله : أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٤) . وقوله : أَفَنَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٥) . وأمثال ذلك. وهؤلاء يقولون بالجبر . قالوا: والأمر والنهى حقيقته أنه إعلام بوقوع العذاب بالعاصى بمحض المشيئة لا لسبب ونحوه ، ولا بحكمة . فقلبوا حقيقة الأمر والنهى إلى الجبر . كما أبطلوا الأسباب

(١) [٧ / الأعراف / ٥٧] .
(٢) [٦٩ / الحاقة / ٢٤] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٧٢] .
(٤) [٦٨ / القلم / ٣٥] .
(٥) [٣٨ / ص / ٢٨] .

والحكمة . وأبطلوا قدرةالعباد . وهم ، وإن كانوا يردون على القدريةويذكرون من تناقضهم ما يبين به فساد قول القدرية ، فقد ردوا باطلاً بباطل ، وقاتلوا بدعة ببدعة . كردّ اليهود على النصارى والنصارى على اليهود ، مقالتهم فى المسيح ، وكلتا المقالتين باطلة ، وكذلك تقابل الخوارج والشيعة فى علىّ باطل ، ونظائره متعددة. انتهى . فاحفظه ينفعك فى مواضع كثيرة . وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

« وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ماصدر عن بنى إسرائيل ـ من الخيانة ونقض الميثاق ـ وما أدى إليه ذلك من التبعات ، مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذى واثقهم به . وتحذيرهم من نقضه . أو لتقرير ما ذكر من همّ بنى قريظة بالبطش . وتحقيقه حسبما مرّ من الرواية ببيان أنّ الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم ـ أفاده أبو السعود .

زاد الرازىّ : تقرير الإلزام بالتكليف بأنه سنة الله فى الذين خلوا .

« وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » رئيساً. سمى بذلك لأنه يفتش حال القوم ويعلم دخيلة أمرهم « وَقَالَ اللَّهُ » أى : لهم . وفى الالتفات تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد « إِنِّي مَعَكُمْ » أى: بالعلم والقدرة والنصرة « لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ

وَءَامَنتُم بِرُسُلِي » أي: الذين يجيئون إليكم « وَعَزَّرْتُمُوهُمْ » أي : أعنتموهم ونصرتموهم بالسيف على الأعداء « وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ » أي بالإنفاق في سبيل الخير «قَرْضًا حَسَنًا» بلا منٍّ ولا طلب ربحٍ دنيويٍّ ، من رياء وسمعة « لَّأُكَفِّرَنَّ » أي : لأمحونّ « عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » ذنوبكم « وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا » أي : تطرَّد من تحت شجرها ومساكنها « الْأَنْهَارُ » أنهار الماء واللبن والخمر والعسل « فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ » أي : بعد أخذ الميثاق والإقرار به « مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أي واضح السبيل، الموصّل إلى كل مطلبٍ عالٍ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ » (الباء) سببيّة و (ما) مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه في النفس . أي: بسبب نقضهم ميثاقهم . أو نكرة ، أي : بشيء عظيم صدر منهم من نقضهم ميثاقهم المؤكد ، الموعود عليه النصر والمغفرة والأجر العظيم « لَعَنَّاهُمْ » أي أبعدناهم عن رحمتنا « وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً » بحيث لا تلين لرؤية الآيات والنذر ، ولا تتعظ بموعظةٍ ، لغلظها وقساوتها لغضب الله عليهم . وبقيت تلك القساوة واللعنة في ذريتهم « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ » أي : كلم الله في التوراة ، بصرف ألفاظه أو معانيه « عَن مَّوَاضِعِهِ » التي أنزلت.

قال ابن كثير : أي : فسدت فهومهم ، وساء تصرّفهم في آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه مالم يقل . عياذاً بالله من ذلك .

قال أبو السعود : والجملة استئناف لبيان مرتبة قساوة قلوبهم . فإنه لا مرتبة أعظم مما

يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل ، والافتراء عليه . وقيـل : حال من مفعول (لعناهم) .

« وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » أى: تركوا نصيباً وافراً مما أُمروا به فى التوراة ، تَرْكَ الناسى للشيء لقلة مبالاته بحيث لم يكن لهم رجوع عليه . أومن اتّباع محمد ﷺ «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ » أى : خيانة . على أنها مصدر كـ (لاغيةٍ وكاذبةٍ) . أوطائفةخائنة. يعنى : أن الغدر والخيانة عادة مستمرةلهم ولأسلافهم، بحيث لايكادون يتركونها أو يكتمونها . فلا تزال ترى ذلك منهم .

قال مجاهد . وغيره يعنى بذلك تمالُؤَهم على الفتك برسول الله ﷺ .

« إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » وهم المؤمنون منهم « فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ » أى لا تعاقبهم .

قال ابن كثير :

هذا موجب النصر والظفر . كما قال عمر : ما عاملتَ مَنْ عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وبهذا ، يحصل لهم تأليف وجمعٌ على الحقّ . ولعلّ الله يهديهم .

ولهذا قال تعـالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » يعنى به الصفح عمّن أساء ، فإنه من باب الإحسان .

تنبيه :

قال بعض المفسّرين :

فى هذا دلالة على جواز التحليف على الأمور المستقبلة . وأخذ الـكفيل على الحق الذى يفعل فى المستقبل. وفى قوله تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...) الخ، دليلٌ على تأكيد الميثاق، وقبح نقضه ، وأنه قد يسلب اللطف الْمُبْعِد من المعاصى ، ويورث النسيان . ولهـذا قال تعالى : وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . وعن ابن مسعود : قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ » بعبادة الله وحده ، وأن لا يشركوا به شيئاً ، وحفظِ شرعة عيسى عليه السلام . وإنما نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم ـ دون أن يقال (ومن النصارى) ـ إيذاناً بأنهم فى قولهم (نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ)[١] بمعزلٍ من الصدق . وإنما هو تقوّلٌ محض منهم . وليسوا من نصرة الله تعالى فى شىء . أو إظهاراً لـكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم . فإن ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه . أفاده أبو السود .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وبقيت نـكتة فى تخصيص هذا الموضع بإسنادالنصرانية إلى دعواهم . ولم يتفق ذلك فى غيره . ألا ترى إلى قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ؟[٢] فالوجه فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما كان المقصود فى هذه الآية

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .
و [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٨] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ =

ذمّهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم فى نصرة الله تعالى ، ناسَبَ ذلك أن يصدر الكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا الله ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة . وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوى النصرة وقولها دون فعلها . والله أعلم .

قال الشهاب الخفاجىّ : الموجود فى كتب اللغة والتاريخ أن النصارى نُسِبت إلى بلدة (ناصرة) أى التى حُبل فيها المسيح وتربى فيها . ولذلك كان يدعى عليه السلام (ناصريًّا) . ثم قال : فلو قيل فى الآية : إنهم على دين النصرانية وليسوا عليها لعدم عملهم بموجبها ومخالفتهم لِمَا فى الإنجيل من التبشير بنبيّنا ﷺ ـ لكان أقرب من وجه التسمية الذى ذكروه .

« فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا » أى ألقينا « بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى: يتعادون ويتباغضون إلى قيام الساعة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة ، وآراؤهم الزائغة المؤدية إلى التفرّق فرقاً متباينة ، يلعن بعضها بعضاً ، ويكفّر بعضها بعضاً « وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ » يخبرهم الله فى الآخرة « بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » من المخالفة وكتمان الحق والعداوة والبغضاء ، ونسيان الحظ الوافر مما ذكّروا به . وهذا وعيد شديد بالجزاء والعذاب .

لطيفة :

تطرف البقاعىّ ـ رحمه الله تعالى ـ فى (تفسيره) هنا إلى ذكر نقباء بنى إسرائيل بأسمائهم . وأن عدتهم طابقت عدة نقباء النصارى ـ وهم الحواريون ـ كما طابقت عدة نقباء[1] الأنصار

= وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٩٣ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

ليلة العقبة الأخيرة ، حين بايع النبىّ ﷺ الأنصار على الحرب ، وأن يمنعوه إذا وصل إليهم ، وقال لهم : أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ـ كما اختار موسى من قومه ـ فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وذكر البقاعىّ : أن بعث النقباء من بنى إسرائيل كان مرتين : الأول لما كلّم تعالى موسى فى برية سيناء فى اليوم الأول من الشهر الثانى من السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر . وقدفصلت فى الفصل الأول من سفر (العدد) . والمرة الثانية : بعثوا لجسّ أرض كنعان . وفصلت أيضاً فى الفصل الثالث عشر من سفر (العدد) ثم ذكر البقاعىّ : أن نقباء اليهود فى جسّ الأرض لم يوف منهم إلّا يوشع بن نون وكالب بن يفنا . وأما نقباء النصارى ، فخان منهم واحد ـ وهو يهوذا ـ كما مضى عند قوله تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ . وأما نقباء الأنصار فكلهم وَفَى وبرّ بتوفيق الله تعالى .

وقد اقتصّ البقاعى أسماء نقباء الفرق الثلاث ، ولمعة من نبئهم . فانظره ، والله أعلم .

ثم خاطب تعالى الفريقين من أهل الكتاب إثْرَ تشديد النكير عليهم بتحريف كتبهم ونبذهم الميثاق ، ودعاهم إلى الحنيفية حتى يكونوا على نورٍ من ربهم . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ » أى : من نحو بعثته ﷺ ، وآية الرجم فى التوراة ، وبشارة عيسى به ، إظهاراً للحقّ « وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » أى : مما تخفونه . لا يبينه . مما لاضرورة فى بيانه ، صيانةً لكم عن زيادة الافتضاح . أو يعفو فلا يؤاخذ . وفى هذه الآية بيان معجزة له ﷺ . فإنه

لم يقرأ كتاباً ولم يتعلم علماً من أحد ، فإخباره بأسرار ما فى كتابهم إخبارٌ عن الغيب ، فيكون معجزاً « قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ » يريدالقرآن . لكشفه ظلمات الشرك والشك ، ولإبانته ما كان خافياً على الناس من الحق . أولأنه ظاهر الإعجاز. أوالنور، محمد ﷺ لأنه يهتدى به، كما سمى سراجاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ » أى رضاه بالإيمان به « سُبُلَ السَّلَامِ »أى: طرق السلامة والنجاة من عذاب الله «وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» أى: ظلمات الكفر والشُّبه إلى نور الإيمان والدلائل القطعية « بِإِذْنِهِ » أى : بتوفيقه وإرادته « وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو الدين الحقّ السوىّ فى الاعتقادات والأعمال ، العرِىّ عن الإفراط والتفريط فيها . ثم أشار إلى إفراط بعض النصارى فى حق عيسى ، وتفريطهم فى حقّ الله جل شأنه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » فى هذه الآية وجهان :

الأول : إنّ ما أفادته من الحصر ـ وإن لم يصرحوا به ـ إلّا أنه نسب إليهم لأنه لازم مذهبهم لأن معتقدهم مؤدّ إليه .

قال الرازيّ : لأنهم يقولون : إن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام. فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة . فإن كان ذاتاً فذات الله تعالى قد حلّت فى عيسى واتّحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإله على هذا القول . وإن قلنا : إنّ الأقنوم عبارة عن الصفة ، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول . ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى، يلزم خلوّ ذات الله عن العلم . ومن لم يكن عالماً لم يكن إلهاً . فحينئذٍ يكون الإله هو عيسى على قولهم. فثبت أنّ النصارى ـ وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول ـ إلّا أن حاصل مذهبهم ليس إلّا ذلك . انتهى .

وبطلان الاتّحاد معلوم بالبداهة .

قال العلامة العضد فى (الموقف الثانى) : المقصد الثامن : الاثنان لا يتحدان . وهذا حكم ضروريّ . فإن الاختلاف بين الماهيتين والهويتين اختلاف بالذات فلا يعقل زواله . وهذا ربما يزاد توضيحه فيقال : إنْ عدم الهويتان فلا اتّحاد ، بل وحدث أمر ثالث غيرهما ـ وإن عدم أحدهما ـ فلا يتحد المعدوم بالموجود ، وإن وجدا فهما اثنان كما كانا ، فلا اتّحاد أيضاً . انتهى .

الوجه الثانى : إنه عُنِى بهذه الآية قوم يقولون بأن حقيقة الله هو المسيح لا غير .

قال الزمخشريّ : قيل : كان فى النصارى قوم يقولون ذلك . انتهى .

قال الإمام الشهرستانىّ فى (الملل والنحل) عند ذكر فرق النصارى :

ومنهم اليعقوبية أصحاب يعقوب . قالوا بالأقانيم الثلاثة ـ كما ذكرنا ـ إلّا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده بل هو هو . وعنهم أخبرنا القرآن الكريم : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . فمنهم

من قال : المسيح هو الله . ومنهم من قال : ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الحق . لا على طريق حلول جزء فيه . ولا على سبيل اتحاد الكلمة التى هى فى حكم الصفة بل صار هو هو . وهـذا كما يقال : ظهر المَلَك بصورة الإنسان ، أو ظهر الشيطان بصورة حيوان .. الخ .

وذكر الإمام الماوردىّ فى (أعلام النبوة) : إنّ أوائل النسطورية قالوا : إن عيسى هو الله . انتهى .

وذكر الإمام ابن إسحق[1] فى (السيرة) : إن نصارى نجران لمّا وفدوا على رسول الله ﷺ ، كانوا من النصرانية على دين ملكهم . مع اختلاف من أمرهم . يقولون هو الله . ويقولون هو ولد الله . ويقولون هو ثالث ثلاثة ـ يعنى هو تعالى وعيسى ومريم ـ وكذلك قول النصرانية . ثم قال : ففى كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن .

« قُلْ » ـ أى : تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لفساد قولهم ـ « فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً » أى: من يستطيع إمساك شىء من قدرته تعالى « إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » أى : يميتَه « وَأُمَّهُ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً » أى : فضلًا عن آحادهم . احتج بذلك على فساد قولهم . وتقريره : أن المسيح حادثٌ بلا شبهة . لأنه تولد من أم . ولذا ذكرت الأم للتنبيه على هـذا . ومقهورٌ قابل للفناء أيضاً كسائر الممكنات . ومن كان كذلك كيف يكون إلهاً ؟

قال أبو السعود : وتعميم إرادة الإهلاك للكل ـ مع حصول المطلوب بقصرها على المسيح ـ لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز ، ببيان أنّ الكل تحت قهره تعالى وملكوته . لا يقدر أحد على دفع ما أريد به . فضلًا عن دفع ما أريد بغيره . وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات فى كونه عرضة للهلاك . كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية .

---

(١) لم أهتد إلى محلها فى سيرة ابن هشام .

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» من الخلق والعجائب ـ وهذا تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى ، إثر بيان انتفائها عن غيره « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة فى أمر المسيح ـ لولادته من غير أب ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ـ أى : يخلق مايشاء من أنواع الخلق كما شاء بأبٍ أو بغير أب ..!

قال السمرقندىّ : وإنما قال (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) لأن النصارى أهل نجران كانوا يقولون: لو كان عيسى بشراً كان له أب . فأخبرهم الله تعالى أنه قادر على أن يخلق خلقاً بغير أب .

« وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ » من خلق الخلق ، والثواب لأوليائه ، والعقاب لأعدائه ـ « قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة . وبيان لبطلانها بعد بطلان ما صدر عن أحدهما . أى قالوا : نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء فى المنزلة والكرامة . ونحن أحباؤه لأننا على دينه .

قال ابن كثير : ونقلوا عن كتابهم أن الله قال لعبده إسرائيل : أنت ابنى بكرى. فحملوا هذا على غير تأويله وحرّفوه . وقد ردّ عليهم غيرُ واحدٍ ممن أسلم من عقلائهم . وقالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام . كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ، يعنى ربى وربكم . ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفسهم من البنوّة

ما ادعوها فى عيسى عليه السلام . وإنما أرادوا بذلك معزّتهم لديه ، وحظوتهم عنده ..! انتهى .

وقال الجلال الدوانى فى (شرح عقائد العضد) : وما نُقِلَ عن الإنجيل ـ فعلى فرض صحته وعدم التحريف ـ يكون إطلاق الأب عليه بمعنى المبدأ . فإن القدماء كانوا يسمون المبادىء بالآباء . وأنت تعلم أن المتشابهات فى القرآن وغيره من الكتب الإلهية كثيرة . ويردّها العلماء بالتأويل إلى ما علم بالدليل . فلو ثبت ذلك لكان من هذا القبيل . انتهى .

وقال الدهلوىّ فى (الفوز الكبير) : إن الله عزّ وجلّ شرف الأنبياء وتابعيهم فى كل ملّة بلقب المقرب والمحبوب . وذم الذين ينكرون الملّة بصفة المبغوضية . وقد وقع التكلم فى هذا الباب بلفظ شائع فى كل قوم ، فلا عجب أن يكون قدذكر الأبناء مقام المحبوبين . فظنّ اليهود أن ذلك التشريف دائر مع اسم اليهودىّ والعبرىّ والإسرائيلىّ . ولم يعلموا أنه دائر على صفة الانقياد والخضوع وتمشية ماأراد الحقّ سبحانه ببعثة الأنبياء لاغير . وكان ارتكز من هذا القبيل فى خاطرهم كثير من التأويلات الفاسدة المأخوذة من آبائهم وأجدادهم . فأزال القرآن هذه الشبهات على وجهٍ أتمّ . انتهى .

« قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » أى : لو كنتم أبناءه وأحبّاءه لَمَا عذبكم ، لكن اللازم منتفٍ إذ عذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودة .

لطيفة :

قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه ، فتلا عليه الصوفىّ هذه الآية : قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ . وهذا الذى قاله حسن . وله شاهد فى (المسند) للإمام أحمد[1] حيث قال : حدثنا ابن أبى عدىّ ،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٤ والصفحة ٢٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

عن حميد ، عن أنس قال : مرّ النبيّ ﷺ فى نفرٍ من أصحابه ، وصبيّ فى الطريق . فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ابنى ! وسعت فأخذته، فقال القوم : يا رسول الله ! ما كانت هذه لتلقى ولدها فى النار . قال : فخفضهم النبيّ ﷺ فقال : لا ، ولا يلقى الله حبيبه فى النار . قال ابن كثير : تفرّد به أحمد . انتهى .

وقال السمرقنديّ : فى الآية دليل أن الله تعالى إذا أحبّ عبده يغفر ذنوبه ولا يعذبه بذنوبه . لأنه تعالى احتج عليهم فقال : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ لو كنتم أحباء إليه ؟ وقد قال[1] فى آية أخرى : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . ففيها دليل أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم، ولا المجاهدين الذين يجاهدون فى سبيل الله[2] : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ .

وقوله تعالى « بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ » عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، أى : لستم كذلك بل أنتم بشر « مِمَّنْ خَلَقَ » أى : من جنس من خلقه من غير مزية لكم عليهم « يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » لمن تاب من اليهودية والنصرانية « وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » من مات على اليهودية والنصرانية « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى : المرجع، مصير من آمن ومن لم يؤمن . فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٢] ونصها : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(٢) [٦١ / الصف / ٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ » أى : ما أمرتم به وما نهيتم عنه « عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ » متعلق بـ (جاءكم) أى : جاءكم على حين فتورٍ من إرسال الرسل ، وانقطاعٍ من الوحى . إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسولٌ . ومدة الفترة بينهما خمسمائة وتسع وستون سنة . « أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ » تعليل لمجىء الرسول بالبيان على حذف المضاف . أى : كراهة أن تعتذروا بذلك يوم القيامة ، وتقولوا : ما جاءنا من رسولٍ ـ بعد ما درس الدينُ ـ يبشرنا لنرغب فنعمل بما يسعدنا فنفوز . وينذرنا لنرهب فنترك ما يشقينا فنسلم . وقد كان اختلط فى تلك الفترة الحقّ بالباطل ـ كما سنبيّنه ـ « فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » متعلق بمحذوف تنبىء عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به . أى: لا تعتذروا (بما جاءنا) فقد جاءكم بشير أى بشير ، ونذير أى نذير . « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » من إرسال الرسل ، والثواب لمن أجاب الرسل ، والعقاب لمن لم يُجبْهم .

قال البقاعىّ : وفى الختم بوصف القدرة، وإتباعه تذكيرهم ما صاروا إليه من العز بالنبوّة والملك ، بعد ما كانوا فيه من الذل بالعبودية والجهل ، إشارة إلى أن إنكارهم لأن يكون من ولد إسماعيل عليه السلام نبىّ ، يلزم منه إنكارهم للقدرة .

تنبيه :

قال ابن كثير : كانت الفترة بين عيسى ابن مريم ـ آخر أنبياء بنى إسرائيل ـ وبين محمد

خاتم النبيين من بنى آدم على الإطلاق . كما ثبت فى (صحيح البخارىّ)[١] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : أنا أولى الناس بابن مريم ليس بينى وبينه نبىّ . وهذا فيه ردّ على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبىّ يقال له خالد بن سنان . كما حكاه القضاعىّ وغيره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : استدل به ـ يعنى بحديث أبى هريرة ـ على أنه لم يبعث بعد عيسى أحد إلّا نبيّنا ﷺ . وفيه نظر . لأنه ورد[٢] أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية ـ المذكورة قصتهم فى سورة « يس » ـ كانوا من أتباع عيسى . وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيّين ، وكانا بعد عيسى . والجواب : أن هـذا الحديث يضعف ما ورد من ذلك . فإنه صحيح بلا تردد . وفى غيره مقال . أو المراد : إنه لم يبعث بعد عيسى نبىّ بشريعة مستقلة . وإنما بعث بعده ، مَنْ بُعِثَ ، بتقرير شريعة عيسى . وقصة خالد ابن سنان أخرجها الحاكم فى (المستدرك) من حديث ابن عباس . ولها طرق جمعتُها فى ترجمته فى كتابى فى (الصحابة) . انتهى .

وقد ذكرت فى كتابى (إيضاح الفطرة فى أهل الفترة)(*) فى الباب الحادى عشر مَنْ كان فى الفترة من الأنبياء على ما روى . فارجع إليه .

قال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية ، أن الله بعث محمداً ﷺ على فترةٍ من الرسل ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ .

ومسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٤٣ (طبعتنا) .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى [٣٦ / يس / ١٣و١٤] ونصهما : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ .

(*) كتاب مخطوط للمؤلف رحمه الله .

وطموسٍ من السبل ، وتغيّر الأديان ، وكثرة عبّاد الأوثان والنيران والصلبان . فكانت النعمة به أتمّ النعم ، والحاجة إليه أمر عام ، فإن الفساد كان قد عمّ جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد . إلّا قليلًا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين . كما روى أحمد(١) عن عياض المجاشعيّ ـ رضى الله عنه ـ أن النبيّ ﷺ خطب ذات يومٍ

(١) أخرجه بالصفحة ١٦٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

وأخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة ، حديث ٦٣ (طبعتنا) وها كموه نسوقه بنصه الكامل لما فيه من الفوائد الجليلة :

عن عياض بن حمار المُجَاشعيّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال ، ذات يوم فى خطبته « ألا إن ربّى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى ، يومى هذا . كل مال نحلته عبداً حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم (أى استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل) عن دينهم . وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم. وأمرتْهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم . إلا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائما ويقظان . وإن الله أمرنى أن أحرّق قريشاً . فقلت : ربِّ ! إذاً يَثْلَغُوا رأسى (أى : يشدخوه ويشجّوه ، كما يشدخ الخبز ، أى يكسر) فيدعوه خُبْزَةً .

قال : استخرجْهم كما استخرجوك . واغزهم نُغْزِكَ (أى نُعينك) وأنفق فسننفق عليك. وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله . وقاتل بمن أطاعك من عصاك .

قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفّق . ورجل رحيم رقيق القلب ، لكل ذى قربى ومسلم . وعفيف متعفف ذو عيال .

قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له (أى لا عقل له يزبره ويمنعه =

فقال فى خطبته : وإن ربّى، أمرنى أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمنى فى يومى هذا . كلّ مالٍ نحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فأضلّتْهم عن دينهم . وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتْهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا . ثم إن الله عزّ وجلّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم . عجميهم وعربيهم . إلّا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائماً ويقظاناً ... انتهى .

وقال الاستاذ النحرير الشيخ محمد عبده مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى بحث رسالة نبينا ﷺ ما نصّه : ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلمّ بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ العرب خاصة ، فى زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسّة إلى قارعة تهزّ عروش الملوك، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء، إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء . وإلى نارٍ تنقض من سماء الحقّ على أُدُمِ الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول . وصيحةٍ فصحى ترعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبّه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين ، والقادة الغارّين ، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشدٍ يقيم الإنسان على الطريق التى سنّها الإله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)[١] ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها إلى ما أُعدّ فى الداريين له . ولكنا نستعير من التاريخ كلمةً يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرّخو ذلك العهد ، نظر إمعانٍ وإنصافٍ .

= مما لا ينبغى) الذين هم فيكم تبعاً لايتبعون أهلا ولا مالا . والخائن الذى لايخفى له طمع ، وإن دقّ إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » .

وذكر البخل والكذب .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣] .

كانت دولتا العالم (دولة الفرس فى الشرق، ودولة الرومان فى الغرب) فى تنازع وتجالد مستمرٍ دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظُلَم من الإحن حالكة . ومع ذلك ، فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنّن فى الملاذ بالغةً حدّ ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمّة . وكان شَرَهُ هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حدّ . فزادوا فى الضرائب ، وبالغوا فى فرض الإتاوات ، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم . وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها ، وانحصر سلطان القوىّ فى اختطاف ما بيد الضعيف . وفكّر العاقل ، فى الاحتيال لسلب الغافل ؛ وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب، لفقد الأمن على الأرواح والأموال . غمرت مشيئة الرؤساء إرادةَ من دونهم . فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب . يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصىّ ، وظنّ أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلّا لخدمة ساداتهم وتوفير لذّاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها . ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها . فلم يفارقها الحذر من أنّ بصيص النور الإلٰهىّ ، الذى يخالط الفطر الإنسانية ، قد يفتق الغُلُفَ التى أحاطت بالقلوب ، ويمزّق الحجب التى أسدلت على العقول . فتهتدى العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن يُنْشِئوا سحباً من الأوهام. ويهيّئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها فى عقول العامة . فيغلظ الحجاب ، ويعظم الرّين . ويختنق بذلك نور الفطرة . ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم .

وصرّح الدين ، بلسان رؤسائه ، أنه عدوّ العقل وعدوّ كل ما يثمره النظر . إلّا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس . وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم . عبيد أذلّاء ،

حيارى فى جهالة عمياء . اللهمّ إلّا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة، آوت إلى بعض الأذهان . ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر . ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها ، بما انقلب من الوضع ، وانعكس من الطبع ، فكان يُرَى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشرَه حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام . مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كلّ ذلك هو الدين. فاستولى الاضطراب على المدارك . وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معاً . وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلًا عليها ، فوق ما رزئت به من سائر الخطوب . وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات . خاضعة للشهوات . فخر كل قبيلة فى قتال أختها . وسفك دماء أبطالها . وسبي نسائها . وسلب أموالها . تسوقها المطامع ، إلى المعامع . وزين لها السيئاتِ ، فسادُ الاعتقادات . وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدًّا صنعوا أصنامهم من الحلاوى ثم عبدوها . فلما جاعوا أكلوها . وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن . أو تنصُّلًا من نفقات معيشتهنّ . وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يَعُدْ معه للعفاف قيمة .

وبالجملة : فكانت ربط النظام الاجتماعىّ قد تراخت عقدها فى كل أمة . وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجلٍ منهم يوحى إليه رسالته ؟ ويمنحه عنايته ؟ ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم . التى أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم ، كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى .

ثم أشار إلى تفريطهم فى أمر الله الوارد على لسان موسى ، وتفريطهم فى حقه مع حثّه إياهم على شكر الله . ليسارعوا إلى امتثال أمره ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أى : التى هى فوق نعمه على من سواكم . فلا تفرّطوا فى أمره إذْ لم يفرّط فى حقكم « إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ » أى : وهم أكمل الخلائق ومكملوهم ، ولم يبعث فى أمةٍ ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً » يعنى : وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدى القبط مملوكين، فأنقذكم الله . فسمى إنقاذهم ملكاً « وَءَاتَاكُمْ » أعطاكم « مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » من أنواع الإكرام التى خصكم بها ـ كفلق البحر لهم ، وإهلاك عدوّهم ، وتوريثهم أموالهم ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، وإخراج المياه العذبة من الحجَر ، وإظلال الغمام فوقهم ... ـ فمقتضى هذه النعم المبادرة إلى امتثال أوامر المنعِم ، شكراً له .

ثم أخبر تعالى عن تحريض موسى عليه السلام لقومه على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذى استحوذ عليه الجبابرة ، وأنهم نكلوا وعصوا أمره ، فعوقبوا بالتّيه لتفريطهم ، فقال سبحانه مخبراً عن موسى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ » يعنى : أرض بيت المقدس التى كانت مقدسة بمساكنة من مضى من الأنبياء . ثم تلوّثت بمساكنة الأعداء من جبابرة الكنعانيين . فأراد تطهيرها بإخراجهم وإسكان قومه « الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » أى : التى وعدكموها على لسان

أبيكم إبراهيم، بأن تكون ميراثاً لولده بعد أن جعلها مهاجَره «وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ» أى : لاتنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبناً وهلعاً « فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » أى : فترجعوا مغبونين بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)

« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ » أى : متغلبين ليس لنا مقاومتهم « وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا » أى : من غير صنع من قِبَلِنا فإنه لاطاقة لنا بإخراجهم منها « فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا» أى: بسببٍ من الأسباب التى لاتعلق لنا بها « فَإِنَّا دَاخِلُونَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« قَالَ رَجُلَانِ » هما يوشع بن نون وكالب بن يفنا « مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ » أى : يخافون الله تعالى دون العدوّ، ويتقونه فى مخالفة أمره ونهيه .

وقال العلامة البقاعىّ : أى من الذين يوجد منهم الخوف من الجبارين . ومع ذلك لم يخافا .

« أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » أى : بالتثبيت والثقة بوعده تعالى ومعرفة مقام أوامره تعالى « ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ » أى : باب بلدهم ، أى: باغتوهم وامنعوهم من البروز إلى الصحراء، لئلا يجدوا للحرب مجالًا « فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ » ـ أى : باب بلدهم ـ « فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ » عليهم « وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا » أى : لا على قوة أنفسكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى : بكمال قدرته ووعده النصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ)

« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبدًا مَا دَامُوا » ـ أى : الجبابرة ـ « فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَاقَاعِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« قَالَ » أى : موسى عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد ، على طريقة البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى « رَبِّ إِنِّى لَاأَمْلِكُ » أى : أحداً ألزمه قتالهم « إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي » هرون . قال المهايمىّ : أى : ومَنْ يؤاخينى ويوافقنى كهرون ويوشع وكالب . « فَافْرُقْ » أى : فاحكم بما يميز بين المحق والمبطل لتفرق « بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » أى : الخارجين عن أمرك ، وهو فى معنى الدعاء عليهم . وقد استجاب الله دعاءه ، وفرق بأن أضلّهم ظاهراً كما ضلّوا باطناً . كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« قَالَ فَإِنَّهَا » أى الأرض المقدسة « مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ » أى : بسبب أقوالهم هذه

وأفعالهم . لا يدخلونها ولا يملكونها ، ممن قال هذه المقالة أو رضيها أحد ، فالتحريم تحريم منع لا تحريم تعبد « أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ » أى: يترددون فى البرية متحيرين فى الأرض حتى يهلكوا كلهم ، و (التيه) المفازة التى يتيه فيها سالكها فيضل عن وجه مقصده « فَلَا تَأْسَ » أى : تحزن « عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » أى : الخارجين من قيد الطاعات .

قال العلامة البقاعىّ : ثم بعد هلاكهم أدخلها بنيهم الذين ولدوا فى التيه . وفى هذه القصة أوضح دليل على نقضهم للعهود التى بنيت السورة على طلب الوفاء بها ، وافتتحت بها ، وصرح بأخذها عليهم فى قوله[1] : وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... الآيات ، وفى ذلك تسلية للنبىّ ﷺ فيما يفعلونه معه ، وتذكير له بالنعمة على قومه بالتوفيق، وترغيب لمن أطاع منهم ، وترهيب لمن عصى. ومات فى تلك الأربعين ، كل من قال ذلك القول أو رضيه حتى النقباء العشرة . وكان الغمام يظلّهم من حرّ الشمس . ويكون لهم عمود من نور بالليل يضىء عليهم . وغير هذا من النعم . لأن المنع بالتيه كان تأديباً لهم . لاغضب . إذ أنهم تابوا. ثم ساق البقاعىّ ـ رحمه الله ـ شرح هذه القصة من التوراة التى بين أيديهم بالحرف . ونحن نأتى على ملخصها تأثراً له ، فنقول :

جاء فى سفر (العدد) فى الفصل الثالث عشر : إن شعب بنى إسرائيل لمّا ارتحلوا من حَصِيروت ونزلوا ببرّية فاران ، كلم الرب موسى بأن يبعث رجالًا يجسّون أرض كنعان . من كل سبط رجلًا واحداً . وكلهم يكونون من رؤساء بنى إسرائيل؛ فأرسلهم موسى وأمرهم أن ينظروا إلى الأرض ، أجيدة أم رديئة ؟ وإلى أهلها ، أشديدون أم ضعفاء ؟ قليلون أم كثيرون ؟ وأن يوافوه بشىء من ثمرها . فساروا واجتسّوا الأرض من برية صِينَ إلى رَحُوبَ عند مدخل حماة ، ثم رجعوا بعد أربعين يوماً . وكان موسى وقومه فى برية فاران فى قادش ، فأروهم ثمر الأرض ، وقصّوا عليهم ما شاهدوه من جودة الأرض ، وأنها تدرّ لبناً وعسلًا. ومن

(١) [٥ / المائدة / ١٢] .

شدة أهلها وقوتهم وتحصن مدنهم ؛ فاضطرب قوم موسى . فأخذ كالبُ ـ أحد النقباء ـ يسكتهم عن موسى ويقول : نصعد ونرث الأرض فإنا قادرون عليها . وخالفه بقيـة النقباء وقالوا : لا نقـدر أن نصعد إليهم لأنهم أشدّ منّا . وهوّلوا على بنى إسرائيل الأمر وقالوا : شاهدنا أناسا طوال القـامات، سيما بنى عَنَاقَ . فصرنا فى عيوننا كالجراد . وكذلك كنا فى عيونهم . فعند ذلك ضجّ قوم موسى ورفعوا أصواتهم وبكوا وقالوا : ليتنامتنا فى أرض مصر أوفى هذه البرية ، ولاتـكون نساؤنا وأطفالنا غنيمةً للجبابرة . وخيرلنا أن نرجع إلىمصر. وقالوا : لنُقِمْ لنارئيساً ونرجع إلى مصر . فلما شاهد موسى ذلك منهم وقع هووأخوه هرون على وجوههما أمام الإسرائليين . ومزّق ، من النقباء، يوشعبن نون وكالب ، ثيابهما . وكلّما بنى إسرائيل قائلين : إن الأرض التى مررنا فيها جيدة ، وإذا كان ربنا راضياً عنافإنه يدخلنا إياها . فلا تتمردوا ولا تخـافوا أهلها فسيكونون طعمة لنا . إذ الرب معنا . فلما سمع بنو إسرائيل كلام يوشع وكالب قالوا : لِيُرْجَمَا بالحجارة ، وكاد حينئذٍ أن يحيق ببنى إسرائيل العذاب الإلٰهىّ ، لولا تضرع موسى إلى ربّه بأن يعفو عنهم ، كيلا يكونوا أحدوثة عنـد أعدائهم المصريين . فعفا تعالى عنهم . وأعلم موسى ؛ أنّ قومه لن يروا الأرض التى أقسم عليها لآبائهم . وأنهم يموتون جميعاً فى التيه . إلّا كالباً . فإنه لحسن انقياده سيدخـل الأرض ، وكذلك يوشع ؛ وأعلمه تعالى أيضاً بأن أطفال قومه الذين سيهلـكون فى التيه يكونون رعاة فيه أربعين سنة بعـدد الأيام التى تجسس النقباء فيها أرض الـكنعانين . كل يوم وزره سنة ليعرفوا انتقامه، عزّ سلطانه . ثم هلك النقباء العشرة، الذين شنّعوا لدى قومهم تلك الأرض، بضربة عجلت لهم . ثم همّ قوم موسى بالصعود إلى الـكنعانيين لـما أخبرهم موسى بما أعلمه تعالى . فنهاهم موسى وقال لهم : لا فوز لـكم الآن بالنصر الربانىّ . وإن فعلتم فإن العدوّ يهزمكم وتسقطون تحت سيفه . فتجبّروا وصعدوا إلى رأس الجبل. فنزل العمالقه والـكنعانيون عليهم فضربوهم وحطّموهم ، ثم بعد انقضاء الأربعين سنة فتحت الأرض المقدسة على يد يوشع ، كما شرح فى (سفره) ، والله أعلم .

تنبيهات

الأول : قوله تعـالى (أَرْبَعِينَ سَنَةً) ظرف متعلق بـ(يتيهون) . واحتمال كونه ظرفا لـ (محرمة) كما ذكره غير واحد ـ لا يصح إلا بتكلف ؛ لما شرحناه من سياق القصة .

الثانى : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى (فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) على أنّ من لحقه عذاب الله لا يجوز أن يحزن عليه لأن ذلك حكمه ، بل يحمد الله تعالى إذا أهلك عدوًّا من أعدائه.

الثالث : قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين ههنا أخبارا من وضع بنى إسرائيل، فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام . وأن طوله ثلاثة آلاف ذراع ، وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع . تحرير الحساب . وهـذا شىء يستحيى من ذكره . ثم هو مخالف لمـا ثبت فى (الصحيحين) : أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن . ثم ذكروا أنّ هذا الرجل كان كافراً ، وأنه كان ولد زِنْية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته . وهذا كذب وافتراء ، فإن الله تعالى ذكر أنّ نوحاً دعا على أهل الأرض من الـكافرين فقال : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْـكَافِرِينَ دَيَّارًا [1] . وقال تعـالى : فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ [2] . وقال تعالى : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ [3] ؛ وإذا كان ابنُ نوح، الـكافرُ ، غرق، فـكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ فى عقلٍ ولا شرعٍ . ثم فى وجود رجلٍ يقال له عوج بن عنق، نظر . والله أعلم .

(١) [٧١ / نوح / ٢٦] ونصها : وَقَالَ نُوحٌ . . .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١١٩و١٢٠] .

(٣) [١١ / هود / ٤٣] ونصها : قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَـكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ .

الرابع : قال ابن كثير : تضمنت هذه القصة تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجادلتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصَفيّه من خلقه فى ذلك الزمان . وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم . هـذا ، مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوّهم ، فرعون ، من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده فى اليمّ وهم ينظرون ، لتقرّ به أعينهم (وما بالعهد من قدم) . ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هى بالنسبة إلى ديار مصر لا توازن عشر المشار فى عدة أهلها وعددهم . وظهرت قبائح صنيعهم للخاصّ والعام . وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ولا يسترها الذيل . وقال ــ رحمه الله ــ قبل ذلك : وما أحسن ما أجاب به الصحابة[1] ــ رضى الله عنهم ــ يوم بدرٍ رسولَ الله ﷺ حين

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ــ كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبى سفيان . قال ، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد ؟ يارسول الله! والذى نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نُخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغِماد (موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل) لفعلنا . قال ، فندب رسول الله ﷺ الناس . فانطلقوا حتى نزلوا بدرا . ووردت عليهم روايا قريش (أى إبلهم التى كانوا يستقون عليها . فهى الإبل الحوامل للماء . واحدتها راوية) وفيهم غلام أسود لبنى الحجاج فأخذوه . فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبى سفيان وأصحابه ؟ فيقول : مالى علم بأبى سفيان . ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف .

فإذا قال ذلك ضربوه . فقال : نعم . أنا أخبركم . هذا أبو سفيان .

فإذا تركوه فسألوه فقال : مالى بأبى سفيان علم . ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف فى الناس . فإذا قال هذا أيضاً ضربوه . =

استشارهم فى قتال النفير الذين جاءوا لمنع العير الذى كان مع أبى سفيان . فلما فات اقتناص العير ، واقترب منهم النفير ، وهم فى جمع ما بين التسعمائة إلى الألف فى العدة والبيض واليلب. فتكلم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فأحسن . ثم تكلم ، من الصحابة ، من المهاجرين . ورسولُ الله ﷺ يقول : أشيروا علىّ أيها المسلمون ! وما يقول ذلك إلّا ليستعلم ما عند الأنصار. لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذٍ. فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يارسول الله؟ فوالذى بعثك بالحقّ ! لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته ، لخضناه معك . ما تخلّف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنّا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق فى اللقاء . لعل الله أنْ يُرِيَك منّا ما تقرّ به عينك . فَسِرْ بنا على بركة الله . فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه لذلك .

وروى الإمام أحمد(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لَأَن أكون أنا صاحبه ، أحبّ إلىّ مما عدل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : والله ! يا رسول الله ! لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ . ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

= ورسول الله ﷺ قائم يصلى . فلما رأى ذلك انصرف . قال « والذى نفسى بيده ! لتضربوه إذا صدقكم ، وتتركوه إذا كذبكم » .

قال ، فقال رسول الله ﷺ « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ، ههنا وههنا فما ماط (أى تباعد) أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٨٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٦٩٨ (طبعة المعارف) .

فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك . وسرّه ذلك . وهكذا رواه البخاريّ[(١)] في (المغازى) .

الخامس : استنبط العمرانيون من هذه الآية أنّ من عوائق الملك حصول المذلّة للقبيل، والانقياد لسواهم .

قال الحكيم ابن خلدون فى (مقدمة العبر) فى الفصل ١٩ تحت العنوان المذكور : إن المذلة والانقياد كاسران لسَوْرة العصبية وشدّتها . فإنّ انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها ، فمارئموا (ألفوا) للمذلّة حتى عجزوا عن المدافعة ، ومن عجز عن المدافعة ، فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة . واعتبر ذلك فى بنى إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام ، وأخبرهم أنّ الله قد كتب لهم ملكها ، كيف عجزوا عن ذلك ، قالوا[(٢)] : إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا . أى : يخرجهم الله منها بضربٍ من قدرته غير عصبيتنا، وتكون من معجزاتك يا موسى ، ولما عزم عليهم لّجوا وارتكبوا العصيان وقالوا[(٣)] له : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا . وما ذلك إلّا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة ، كما تقتضيه الآية وما يؤثر فى تفسيرها ؛ وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد ، ومارئموا من الذلّ للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملةً . مع أنهم

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٤ ـ باب قول الله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ... الخ الآيات [٨ / الأنفال / ٩ ـ ١٣] .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٢] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ .

لم يؤمنوا حقّ الإيمان بما أخـبرهم به موسى ، من أن الشام لهم ، وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم ، بحكم من الله قدّره لهم . فأقصروا عن ذلك وعجزوا ، تعويلاً على ماعلموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة ، لما حصل لهم من خلق المذلة . وطعنوا فيما أخبرهم به نبيّهم من ذلك وما أمرهم به . فعاقبهم الله بالتيه . وهو أنّهم تاهوا فى قَفْرٍ من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنةً . لم يأووا فيهـا لعمران ، ولا نزلوا مصراً ، ولا خالطوا بشراً ، كما قصّه القرآن ، لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم ، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه. ويظهر من مساق الآية ومفهومها : أن حكمة ذلك التيه مقصودة . وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلّقوا به . وأفسدوا من عصبيّتهم ، حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ، ولا يُسَام بالمـذلة . فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ؛ ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنةً أقلّ ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر ، سبحان الحـكيم العليم . وفى هذا أوضح دليل على شأن العصبية. وأنّها هى التى تـكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة . وأنّ من فقدها عجز عن جميع ذلك كلّه . اهـ .

ثم بيّن تعالى وخيمَ عاقبة البغى والحسد ، فى جزاء ابنى آدم لصلبه . تعريضاً باليهود . وأنهم إن أصروا على بغيهم وحسدهم فسيرجعون بالصفة الخاسرة فى الدارين ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ » أى : على هؤلاء البغاة الحسدة من اليهود وأشباههم « نَبَأَ ابْنَىْ ءَادَمَ » هابيل وقابيل، ملتبساً « بِالْحَقِّ » أى : الصدق والصحة موافقاً لما فى كتبهم « إِذْ

قَرَّبَا قُرْبَانًا » أى : ما يتقرب به إلى الله تعالى من نسيكةٍ أو صدقةٍ . وكان هابيل راعىَ غنم ، وقابيل يحرث الأرض . فقدّم هابيل شيئاً من أبكار غنمه ومن سمانها . وقدّم قابيل شيئاً رديئاً من ثمر الأرض « فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا » وهو هابيل « وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ » وهو قابيل « قَالَ » قابيل لهابيل « لَأَقْتُلَنَّكَ » على قبول قربانك « قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » أى: إنما أُتيتَ من قبل نفسك ، لانسلاخها من لباس التقوى .لامن قبلى. فلِمَ تقتلنى ؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولاتحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حكيمٍ مختصرٍ جامعٍ لمعانٍ ؛ وفيه دليل على أن الله تعالى لايقبل طاعة إلّا من مؤمنٍ مُتَّقٍ ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم !

وعن عامر بن عبد الله : أنه بكى حين حضرته الوفاة : فقيل له : مايبكيك فقد كنت وكنت ؟ قال : إنى أسمع الله يقول :إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. كذا فى (الكشاف) .

وروى ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل قال : يحبس الناس فى بقيع واحد فينادى منادٍ: أين المتقون ؟ فيقومون فى كنفٍ من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشركَ وعبادةَ الأوثان وأخلصوا العبادة . فيمرون إلى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

« لَئِنْ بَسَطْتَ » أى : مددت « إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي » أى : ظلماً « مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ » أى : دفعاً « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » أى : من أن أصنع كما تريد أن تصنع .

وفى (الصحيحين)[١] : عن النبىّ ﷺ أنه قال : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل . فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

وروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود والترمذىّ فى حديث سعد بن أبى وقاص قال : قلت: يا رسول الله ! أرأيت إن دخل بيتى وبسط يده ليقتلنى ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : كن كابن آدم ـ وتلا ـ : لَئِنْ بَسَطْتَ ... الآية .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٢ ـ باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفّر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، حديث ٢٩ ونصه :

عن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل، فلقينى أبو بكرة فقال : أين تريد؟ قلت : أنصر هذا الرجل . قال : ارجع فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » فقلت : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ١٤و١٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٨٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث ١٦٠٩ (طبعة المعارف) ونصه :

عن بُسر بن سعيد أن سعد بن أبى وقاص قال ، عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى » قال : أفرأيت إن دخل علىّ بيتى فبسط يده إلىّ ليقتلنى؟ قال « كن كابن آدم » .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب الفتن والملاحم ، فى النهى عن السعى فى الفتنة ، حديث ٤٢٥٧ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٢٩ ـ باب ما جاء تكون فتنةٌ القاعد فيها خير من القائم .

قال المهايمىّ فى تفسير هذه الآية : أى : إنى ـ وإن لم أكن فى الدفع ظالمًا ـ أخاف الله أن يكره منى هدم بنيانه الجامع ليظهر فيه من حيث كونه رب العالمين . انتهى .

وهو منزع صوفىّ لطيف .

وقال أبو السعود : فيه من إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى، على أبلغ وجهٍ وآكده، مالا يخفى . كأنه قال : إنى أخافه تعالى إن بسطت يدى إليك لأقتلك ، أن يعاقبنى . وإن كان ذلك منى لدفع عداوتك عنى . فما ظنّك بحالك وأنت البادئ العادى؟ وفى وصفه تعالى بربوبيّة العالمين تأكيدٌ للخوف . قيل : كان هابيل أقوى منه . ولكن تحرّج عن قتله واستسلم خوفاً من الله تعالى . لأن القتل للدفع لم يكن مباحاً حينئذٍ . وقيل : تحرياً لما هو الأفضل ، حسبما قال[1] عليه الصلاة والسلام : كن عبدالله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . ويأباه التعليل بخوفه تعالى ، إلّا أن يدعى أنّ ترك الأولى عنده بمنزلة المعصية فى استتباع الغائلة ، مبالغة فى التنزّه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَٰلِكَ جزَاءُ الظَّالِمِينَ)

« إِنِّى أُرِيدُ » أى : باستسلامى لك وامتناعى عن التعرض لك « أَنْ تَبُوءَ » أى: ترجع إلى الله ملتبساً « بِإِثْمِى » أى: بإثم قتلى « وَإِثْمِكَ » أى: الذى كان منك قبل قتلى ، أو الذى من أجله لم يتقبل قربانك « فَتَكُونَ » أى : بالإثمَيْنِ « مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جزَاءُ الظَّالِمِينَ » .

قال الناصر فى (الانتصاف) : فأما إرادته لإثم أخيه وعقوبته فمعناه : إنى لا أريد أن

---

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

أقتلك فأعاقب . ولمّا لم يكن بدٌّ من إرادة أحد الأمرين؛ إمّا إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإمّا إثم أخيه بتقدير أن يستسلم ـ وكان غيرَ مريدٍ للأول ، اضطر إلى الثانى. فلم يرد إذاً إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أنّ الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل ـ ولم تكن حينئذٍ مشروعة ـ فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه . وهذا، كما يتمنّى الإنسان الشهادة.ومعناها أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه فى ذلك من الإثم ؛ ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه، وإنما أراد أن يبذل نفسه فى سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله ضمناً وتبعاً . والذى يدل على ذلك؛ أنّه لا فرق فى حصول درجة الشهادة وفَضِيلَتِها بين أن يموت القاتل على الكفر وبين أن يختم له بالإيمان ، فيحبط عنه إثم القتل الذى به كان الشهيد شهيداً. أعنى بقى الإثم على قاتله، أو حبط عنه. إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته ولا يزيدها ، ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً لاختلف التمني باعتبار بقائه وإحباطه ، فدلّ على أنه أمر لازم تبع، لا مقصود . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » أى : رخصت وسهلت له نفسه . والتصريح بأخوّته لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه . أى : الذى حقه أن يحفظه من كل من قصده بالسوء بالتحمل على نفسه« فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » دِيناً، إذْ صار كافراً حاملًا للدماء إلى يوم القيامة. ودُنيا، إذ صار مطروداً مبغضاً للخلائق .

وقد أخرج الجماعة ـ غير أبى داود ـ عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (١): لاتقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها. لأنه كان أول من سنّ القتل. انتهى.

ولما قتله لم يدر ما يصنع به من إفراط حيرته .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١ ـ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ، حديث ١٥٧٥ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

« فَبَعَثَ » أى : أرسل « اللَّهُ غُرَابًا » فجاء « يَبْحَثُ » أى : يحفر بمنقاره ورجله متعمقاً « فِي الْأَرْضِ » .

قال القتيبىّ : هذا من الاختصار . ومعناه : بعث غراباً يبحث التراب على غراب ميت. وكذا رواه السدّىّ عن الصحابة ؛ أنه تعالى بعث غرابين اقتتلا . فقتل أحدهما الآخر . فحفر له . ثم حثى عليه حثياً .

« لِيُرِيَهُ » الضمير المستكن إمّا لله تعالى أو للغراب . والظاهر، للقاتل أخاه « كَيْفَ يُوَارِي » أى : يستر فى التراب « سَوْءَةَ أَخِيهِ » أى : جسده الميت . وسمّى سوأة لأنه مما يسوء ناظره « قَالَ يَا وَيْلَتَا » كلمة جزع وتحسّر ، والألف فيها بدل من ياء المتكلم . والويل والويلة الهلكة « أَعَجَزْتُ » أى : أضعفت عن الحيلة « أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ » أى : الذى هو من أخسّ الحيوانات . والاستفهام للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب « فَأُوَارِيَ » أى: أغطى « سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ » أى: صار « مِنَ النَّادِمِينَ » أى : على حيرته فى مواراته حيث لم يدفنه حين قتله . فصار أجهل من الحيوانات العجم وأضلّ منها وأدنى .

وفى (التنوير) : ولم يكن نادماً على قتله .

وقال أبو الليث عن ابن عباس : لو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً منه .

تنبيهات

الأول : ظاهر الآية أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، وأنه تعلم ذلك من الغراب . ولا مانع من ذلك . إذ مثله مما يجوز خفاؤه . لاسيما والعالم ، فى أول طور النشأة ، وأنه أول قتيل ، فيكون أول ميت .

ونقل الرازىّ احتمال أن يكون عالما بكيفية دفنه، قال : فإنه يبعد فى الإنسان أن لا يهتدى إلى هذا القدر من العمل ، إلا أنه لما قتله تركه بالعراء استخفافا به ، ولما رأى الغراب يدفن الغراب الآخر ، رق قلبه ولم يرض أن يكون أقل شفقة منه . فواراه تحت الأرض ، والله أعلم.

الثانى : فى الآية دلالة على أن الندم ، إذا لم يكن لقبح المعصية ، لم يكن توبة .

قال الرازىّ : ندم على قساوة قلبه وكونه دون الغراب فى الرحمة . فكان ندمه لذلك ، لا لأجل الخوف من الله تعالى ، فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم .

الثالث : الآية أصل فى دفن الميت .

الرابع : قال ابن جرير[١] : زعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل ، قال له الله : ياقابيل ! أين أخوك هابيل ؟ قال : ما أدرى. ما كنت عليه رقيباً . فقال الله : إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض ، الآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها فبلعت دم أخيك من يدك. فإذا أنت عملت فى الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها، حتى تكون فزعا تائها فى الأرض . انتهى .

الخامس : روى ابن جرير[٢] بسنده عن علىّ بن أبى طالب قال : لما قتل ابن آدم أخاه بكى آدم فقال :

(١) الأثر رقم ١١٧٦٥ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٧٢١ من التفسير .

تغيّرتِ البلادُ ومن عليها فلونُ الأرض مغبرّ قبيحُ
تغيّرَ كل ذى لونٍ وطعمٍ وقلّ بشاشةُ الوجه المليحِ

فأجيب آدم عليه الصلاة والسلام :

أبا هابيلَ ! قد قُتِلا جميعاً وصار الحىُّ كالميت الذّبيحِ
وجاء بِشِرَّةٍ قد كان منها على خوف ، فجاء بها يصيحُ

أقول : قد اشتهر البيتان الأولان . وقد فنّد نسبتهما إلى آدم غيرُ واحد .

قال الزمخشرىّ : روى أن آدم رثاه بشعر . وهو كذب بحت . وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر . انتهى .

قال الشرّاح : (المليح) فى النظم المذكور ، إن رفع فخطأ . لأنه صفة الوجه المجرور ، وإن خفض فإقواء وهو عيب قبيح ، وإن كثر . وقول من قال (الوجه فاعل قلّ . وبشاشةً منصوب على التمييز بحذف التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف) ألحنُ . وقيل : إن آدم عليه الصلاة والسلام رثاه بكلام منثور بالسريانىّ . فلم يزل ينقل إلى أن وصل إلى يعرب بن قحطان ـ وهو أول من خطّ بالعربية ـ فقدم وأخّر وجعله شعراً عربياً . انتهى .

قال الخفاجىّ . لاشك أن لوائح الوضع عليه رائحة لركاكته ، لكن ما استصعبوه من الإقواء ، وترك التنوين ، ليس بصعب . لما فى أشعار الجاهلية والشعراء من أمثاله . مع أنه قد يخرج بأنه نعت جرى على المحل . لأن الوجه فاعل المصدر ، وهو بشاشة .

السادس : حكمة تخصيص الغراب كون دأبه المواراة .

قال أبو مسلم : عادة الغراب دفن الأشياء . فجاء غراب فدفن شيئاً فتعلم ذلك منه . انتهى .

والغراب هو الطائر الأسود المعروف . وقسموه إلى أنواع . وفى الحديث : أنه ﷺ غيّر اسم غراب لما فيه من البعد . ولأنه من أخبث الطيور . والعرب تقول : أبصر من غراب ،

وأحذر من غراب ، وأزهى من غراب ، وأصفى عيشاً من غراب ، وأشدّ سواداً من غراب، وهـذا بأبيه أشبه من الغراب بالغراب . وإذا نعتوا أرضاً بالخصب قالوا : وقع فى أرض لا يطير غرابها . ويقولون : وَجَدَ تمرة الغراب ، وذلك أنه يتبع أجود التمر فينتقيه . ويقولون: أشأم من غراب ، وأفسق من غراب . ويقولون : طار غراب فـلان ، إذا شاب رأسه . وغراب غاربٌ على المبالغة . كما قالوا : شعر شاعر ، وموت مائت . قال[1] رؤبة :

* فازجر من الطير الغراب الغاربا *

قالوا : وليس شىء فى الأرض يُتشاءم به إلّا والغراب أشأم منه . وللبديع[2] الهمذانىّ فصل بديع فى وصفه . ذكره فى (المضاف والمنسوب) وأورد مايضاف إليه الغراب ويضاف إلى الغراب . والأبيات فى غراب البين كثيرة، ملئت بها الدفاتر .

وحقق الإمام أبوعبد الله الشريف الغرناطىّ ـ قاضى غرناطة ـ فى «شرحه على (مقصورة حازم) أن غراب البين فى الحقيقة هو الإبل التى تنقلهم من بلاد إلى بلاد . وأنشد فى ذلك مقاطيع. منها :

غلط الذين رأيتهم بجهـالة ... يَلْحَوْنَ كُلُّهم غراباً ينعق
ما الذنب إلّا للأباعر إنهـا ... ممـا يشتِّت جمعَهم ويفرِّق
إن الغراب بيمنه تدنو النوى ... وتشتت الشملَ الجميعَ الأينُق

(١) استشهد به فى اللسان ، بالصفحة ٦٤٦ من المجلد الأول (طبعة بيروت) .

(٢) هذا ما رواه الثعالبىّ فى (كتاب ثمار القلوب ، فى المضاف والمنسوب) بالصفحة ٣٦٣ ونصه :

ما أعرف لفلان مثلا إلا الغراب ، لا يقع إلا مذموما على أى جنب وقع ، إن طار فقسّم الضمير ، وإن وقع فمروّع بالنذير . وإن حجل فخشية الأمير، وإن صاح فصوت الحمير، وإن أكل فدبرة البعير . (والدَّبْرَةُ : قرْحَتُهُ) .

وأنشد ابن المسناوىّ لابن عبد ربّه :

زعق الغراب فقلت : أكذب طائر إن لم يصدقه رغاء بعير

كذا فى « تاج العروس » شرح القاموس .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

« مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ » أى : بسبب قتل قابيل هابيل ظلماً « كَتَبْنَا » أى فرضنا وأوجبنا « عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ » وإنما خُصّوا بالذكر لأنهم أول من تعبدوا بذلك . وقوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ » أى : بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص « أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ » أى : أو بغير فساد يوجب إهدار دمها ـ كالكفر مع الحراب ، والارتداد ، وقطع الطريق الآتى بعد ، وزنا المحصن ـ « فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً » أى : من حيث إنه هتك حرمة الدماء ، وسنَّ القتل ، وجرّأ الناس عليه . أو من حيث إنّ قتل الواحد وقتل الجميع سواء ، فى استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم « وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » أى : ومن تسبب لبقاء حياتها بعفوٍ أو منعٍ عن القتل أو استنقاذٍ من بعض أسباب الهلكة ، فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً . والمقصود منه : تعظيم قتل النفس وإحيائها فى القلوب ترهيباً عن التعرض لها ، وترغيباً فى المحاماة عليها . أفاده البيضاوىّ .

وقال أبو مسلم فى معنى الآية : من قتل نفساً وجب على المؤمنين معاداته . وأن يكونوا

خصومه، كما لو قتلهم جميعاً . لأن المسلمين يدٌ واحدة على من سواهم . ومن أحيا وجب موالاته عليهم ، كما لَوْ أحياهم . انتهى .

وقيل للحسن البصرى[1] : هذه الآية لنا كما كانت لبنى إسرائيل ؟ فقال : إى والذى لا إله غيره ! كما كانت لهم . وَمَا جَعَلَ دِمَاءَهُمْ أكرم من دمائنا .

أقول : القاعدة فى ذلك ؛ أن جميع ما يحكى فى القرآن من شرائع الأولين وأحكامهم ، ولم ينبّه على إفسادهم وافترائهم فيه ، فهو حقّ . وقد أوضح ذلك الإمام الشاطبىّ فى (الموافقات) فانظره فإنه مهمّ .

وروى الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال[2] : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئتُ لأنصرك . وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ! فقال : يا أبا هريرة ! أيسرّك أن تقتل الناس جميعاً وإياى معهم ؟ قلت : لا ! قال : فإنك إن قتلت رجلًا واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً . فانصرِفْ مأذوناً لك ، مأجوراً غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل .

وروى الإمام أحمد[3] عن عبد الله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! اجعلنى على شىءٍ أعيش به . فقال رسول الله ﷺ : يا حمزة ! نفس تحييها أحبّ إليك أم نفس تميتها ؟ قال : بل نفس أحييها . قال : عليك بنفسك .

(١) الأثر رقم ١١٨٠٠ من تفسير ابن جرير .

(٢) قال شيخنا السيد أحمد محمد شاكر معلقاً عليه فى الصفحة ١٣٠ من الجزء الرابع من (عمدة التفسير) قال حفظه الله :

هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مخرجه . وقد رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/١/٤٨ـ٤٩) وإسناده صحيح جدا . وذكره السيوطىّ فى الدر المنثور (٢:٢٧٧) ولم ينسبه لغير ابن سعد .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) وحديث ٦٦٣٩ (طبعة المعارف) .

« وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ » يعنى : بنى إسرائيل « رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ » أى : الآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم ، تأكيداً لوجوب مراعاته ، وتأييداً لتحتم المحافظة عليه . « ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى : من بنى إسرائيل « بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى : بعد ما كتبنا عليهم، وبعد مجئ الرسل بالآيات والزجر المسموع منهم « لَمُسْرِفُونَ » يعنى : بالفساد والقتل - لا يبالون بعظمة ذلك .

قال ابن كثير : هذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها . كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ، ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج ، إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية . ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فَدَوْا من أسروه، وَوَدَوْا من قتلوه . وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك فى (سورة البقرة) حيث يقول : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ... الآيات(1) .

وقال الرازىّ : المقصود من شرح هـذه المبالغة ـ يعنى قوله تعالى (فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ...) الآية ـ أن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى . ولما كان الغرض من ذكر هـذه القصص تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام فى الواقعة التى ذكرنا أنهم عزموا

---

(١) [٢ / البقرة / ٨٤و٨٥] ونصهما : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

على الفتك برسول الله ﷺ وبأكابر أصحابه ـ كان تخصيص بنى إسرائيل فى هـذه القصة، فى هذه المبالغة العظيمة، مناسباً للـكلام ومؤكّداً للمقصود .

ولما ذكر تعالى تغليظ الإثم فى قتل النفس بغير قتل نفس ولا فساد ـ أتبعه ببيان الفساد المبيح للقتل بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّمَا جَزَاءُ » أى مـكافأة « الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى : يخـالفونهما ويعصون أمرهما « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » أى: يعملون فى الأرض بالمعاصى وهو القتل وأخذ المـال ظلماً « أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ » أى : أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى« أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » أى : يطردوا منها ويُنَحَّوْا عنها . وهو التغريب عن المدن، فلا يقرّون فيها « ذَٰلِكَ » أى: الجزاء المذكور « لَهُمْ خِزْيٌ » ذل وفضيحة « فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » أى من المحاربين « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى ـ روى ابن جرير[١] وأبوداود والنسائىّ عن ابن عباس ؛ أنها نزلت فى المشركين. وروى ابن جرير عن أُبىّ ، أنها نزلت فى قومٍ من أهل الكتاب نقضوا عهدهم مع النبىّ ﷺ . وظاهرٌ أنّها عامة فى المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات . كما روى الشيخان[٢] وأهل السنن وابن مردويه وهذا لفظه : عن أنس بن مالك ؛ أن ناساً من عرينة قدموا المدينةفاجتووها. فبعثهم رسول الله ﷺ فى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها ففعلوا فصحّوا ، فارتدّوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعى وساقوا الإبل . فأرسل رسول الله ﷺ فى آثارهم ، فجئ بهم . فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسَمَرَ أعينهم وألقاهم فى الحرّة. قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً ، حتى ماتوا . ونزلت : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... الآية . ولمسلم[٣] عن أنس قال : إنما سمل النبىّ ﷺ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٣ ـ باب ما جاء فى المحاربة ، حديث ٤٣٧٢ ونصه :

عن ابن عباس قال : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) إلى قوله (غَفُورٌ رَحِيمٌ) نزلت هذه الآية فى المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يُقدَر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحدّ الذى أصابه .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٦٦ ـ باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها ، حديث ١٧٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٢٨ ـ كتاب القسامة ، حديث ٩ ـ ١٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢٨ ـ كتاب القسامة ، حديث ١٤ (طبعتنا) .

أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء . وعند البخاري : قال أبو قلابة[١] : فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله .

الثانية ـ زعم بعضهم أن الآية نزلت نسخاً لعقوبة العرنيين المتقدمة .

قال ابن جرير[٢] : حدثنا عليّ بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : ذاكرت الليث ابن سعد: ما كان من سَمْل النبيّ ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا . فقال : سمعت محمد ابن عجلان يقول : أُنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك ، وعلّمه عقوبة مثلهم من القطع والقتل والنفي، ولم يسمل بعدهم غيرهم . قال : وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو ـ يعني الأوزاعيّ ـ فأنكر أن تكون نزلت معاتبة ، وقال: بلى. كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم . ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم مِمَّن حارب بعدهم. فرفع عنهم السمل. وروى[٣] ابن جرير أيضاً في القصة عن سعيد بن جبير قال : فما مثل رسول الله ﷺ قبلُ ولا بعدُ، قال:

(١) أخرجه البخاريّ في : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٦٦ ـ باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها ، حديث ١٧٣ .

(٢) الأثر رقم ١١٨١٨ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨١٠ من التفسير ونصه :

عن عبد الكريم = وسئل عن أبوال الإبل = فقال : حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال: كان ناس أتوا النبيّ ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام . فبايعوه ، وهم كَذَبَة ، وليس الإسلامَ يريدون . ثم قالوا : إنا نجتوي المدينة . فقال النبيّ ﷺ « هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح ، فاشربوا من أبوالها وألبانها » . قال ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء الصريخ ، فصرخ إلى رسول الله ﷺ فقال: قتلوا الراعي وساقوا النَّعَم . فأمر نبيّ الله فنودي في الناس: أنْ « يا خيل الله اركبي » قال ، فركبوا ، لا ينتظر فارس فارساً . قال ، فركب رسول الله ﷺ على أثرهم . فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم . فرجع صحابة رسول الله ﷺ =

ونهى عن المُثْلة، قال[1]: لَا تُمَثِّلُوا بِشَيْءٍ . والنهى عن المُثْلة مروىّ فى الصحيح والسنن.

الثالثة ـ احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء، فى ذهابهم إلى أنّ المحاربة فى الأمصار وفى السبلات على السواء. لقوله : وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا . وهـذا مذهب مالك والأوزاعىّ والليث بن سعد والشافعىّ وأحمد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولو شهروا السلاح فى البنيان لا فى الصحراء لأخذ المال، فقد قيل : إنهم ليسوا محاربين بل هم بمنزلة المنتهب . لأن المطلوب يدركه الغوث إذا استغاث بالناس . وقال الأكثرون : إن حكم مَن فى البنيان والصحراء واحد ، بل هم فى البنيان أحق بالعقوبة منهم فى الصحراء ، لأن البنيان محل الأمن والطمأنينة ، ولأنه محـل تناصر الناس وتعاونهم ، فإقدامهم عليه يقتضى شدة المحاربة والمغالبة ، ولأنهم يسلبون الرجـل فى داره جميع ماله ، والمسافر لا يكون معه غالباً إلّا بعض ماله ؛ وهذا هو الصواب .

حتى قال مالك فى الذى يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتاً فيقتله ويأخذ ما معه: إن هذه محاربة . ودمه إلى السلطان لا إلى ولىّ المقتول . ولا اعتبار بعفوه عنه فى إنفاذ القتل .

= وقد أسروا منهم ، فأتوا بهم النبىّ ﷺ ، فأنزل الله : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . الآية . قال فكان نَفْيُهم أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم ، ونفوهم من أرض المسلمين . وقَتَلَ نبىُّ الله منهم ، وصلب ، وقطع ، وسَمَلَ الأعين .

قال ، فما مثَّل رسول الله ﷺ قبلُ ولا بعدُ .

قال : ونهى عن المُثْلة وقال « لا تمثِّلوا بشىء » .

قال : فكان أنس بن مالك يقول ذلك ، غير أنه قال : أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٣ (طبعتنا) وهو ضمن حديث طويل كان يوصى به ﷺ ، إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية .

وإنما كان ذلك محاربة ، لأن القتل بالحيلة كالقتل مكابرةً ، كلاهما لا يمكن الاحتراز منه، بل قد يكون ضرر هذا أشدّ ، لأنه لايدرى به .

وقيل : إنّ المحارب هو المجاهر بالقتال ، وإنّ هذا المغتال يكون أمره إلى ولىّ أمر الدم. والأول أشبه بأصول الشريعة .

الرابعة ـ ظاهر الآية : أن عقوبة المحاربين المفسدين أحد هذه الأنواع . فيفعل الإمام منها ما رأى فيه صلاحاً .

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس، فى الآية[1] : من شهر السلاح فى قبة الإسلام ، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه ، فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله . وكذا قال سعيد بن المسيّب[2] ومجاهد[3] وعطاء[4]

(١) الأثر رقم ١١٨٥٠ من تفسير ابن جرير . وكان فى الأصل (فئة الإسلام) فصححها الأستاذ محمود شاكر وجعلها (قبة الإسلام) وقال : و (قبة الإسلام) يعنى فى ظله ، وحيث مستقر سلطانه . ولذلك سموا البصرة : قبّة الإسلام . قال الشاعر :

بنت قبةَ الإسلام قيسٌ لأهلها ولو لم يقيموها لطال التواؤها

وأصل القبة خيمة من أدم مستديرة . وذلك كقولهم أيضاً (دار الإسلام) بهذا المعنى الذى بينتهُ .

وقال شيخنا السيد أحمد محمد شاكر بالصفحة ١٣٥ من الجزء الرابع من (عمدة التفسير) : وفى المطبوعة (فئة الإسلام) وكذلك كانت فى طبعة الطبرىّ القديمة ، وهى لا معنى لها . وكلمة (قبة الإسلام) واضحة الرسم والنقط فى مخطوطتى ابن كثير . ومضبوطة بالشكل فى إحداها .

(٢) الأثر رقم ١١٨٥١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨٤٤ من التفسير .

(٤) الأثر رقم ١١٨٤٨و١١٨٤٩ من التفسير .

والحسن البصري[١] وإبراهيم النخعي[٢] والضحاك . كما رواه ابن جرير ، وحكى مثله عن أنس .

قال ابن كثير : ومستند هذا القول ظاهر . وللتخيير نظائر من القرآن . كقوله[٣] في جزاء الصيد : فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا . وقوله[٤] في كفارة الترفه : فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ . وقوله[٥] في كفارة اليمين : إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .هذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية . وقال

(١) الأثر رقم ١١٨٤٦و١١٨٤٧و١١٨٥٢و١١٨٥٣ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٨٤٥ من التفسير .

(٣) [٥ / المائدة / ٩٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٥) [٥/المائدة/٨٩] ونصها : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ =

الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال . أخرج الشافعىّ عن إبراهيم بن أبى يحيى ، عن صالح مولى التوأمة ، عن ابن عباس، فى قطّاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا . وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا ، قُطِّعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نُفوا من الأرض . وقد رواه ابن أبى شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان ، عن حجاج ، عن عطية عن ابن عباس بنحوه . وعن أبى مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعىّ والحسن وقتادة والسدّىّ وعطاء الخراسانىّ نحو ذلك . وهكذا قال غير واحدٍ من السلف والأئمة انتهى .

وفى (النهاية) من فقه الزيدية : يرجع فى المحارب إلى رأى الإمام ، فإن كان له رأىٌ قتله أو صلبه ـ لأن القطع لا يدفع المضرة ـ وإن كان لا رأى له لكنه ذو قوةٍ قطعه من خلاف ، وإن عدم القوة والرأى ضُرب ونُفى ؛ وهذا معنى التخيير بين هذه الأمور ، أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام، على ما ذكر . انتهى .

ورأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية فصلًا مهمًّا فى المحاربين فى كتابه (السياسة الشرعية) وقد مثّلهم بقطّاع الطريق الذين يعترضون الناس بالسلاح فى الطرقات ونحوها ليغصبوهم المال مجاهرةً ، من الأعراب أو التركمان أو الأكراد أو الفلاحين، أو فسقة الجند أو مردة الحاضرة أو غيرهم . ثم ساق رواية الشافعىّ المتقدمة عن ابن عباس وقال :

هذا قول كثير من أهل العلم ـ كالشافعىّ وأحمد رضى الله عنهما ـ وهو قريب من قول أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ . ومنهم من قال : للإمام أن يجتهد فيهم فيقتل من رأى قتله

= يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

مصلحة فيهم وإنْ كان لم يَقْتل مثل أن يكون رئيساً مطاعاً فيهم . ويقطع من رأى قطعه مصلحة وإنْ كان لم يأخذ المال. مثل أن يكون ذا جلَدٍ وقوةٍ فى أخذ المال . كما أنّ منهم من يرى أنه إذا أخذوا المال قُتِّلوا وقُطِّعوا وصُلِّبوا . والأول قول الأكثر. فمن كان من المحاربين قد قَتَلَ فإنه يقتله الإمام حدًّا لا يجوز العفو عنه بحال ، بإجماع العلماء . ذكره ابن المنذر . ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول . بخلاف مالو قتل رجل رجلًا لعداوةٍ بينهما ، أو لخصومة ، أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة . فإن هـذا دمه لأولياء المقتول . إن أحبوا قتلوا . وإن أحبوا عَفَوْا . وإن أحبوا أخذوا الدية لأنه قتله لغرض خاص . وأما المحاربون فإنما يُقتلون لأخذأموال الناس، فضررهم عام بمنزلة السُّرّاق . فكان قتلهم حدَّ الله . وهـذا متفق عليه بين الفقهاء. حتى لو كان المقتول غير مكافئ للقاتل . مثل أن يكون القاتل حرًّا والمقتول عبداً، أو القاتل مسلماً والمقتول ذمّيًّا أو مستأمناً . فقد اختلف الفقهاء : هل يقتل فى المحاربة ؟ والأقوى أنه يقتل للفساد العام حدًّا ، كما يقطع إذا أخذ أموالهم . وكما يحبس بحقوقهم . وإذا كان المحاربون الحرامية جماعة، فالواحد منهم باشر القتـل بنفسه والباقون له أعوان وردءٌ له ، فقد قيـل : إنه يقتل المباشر فقط . والجمهور على أن الجميع يقتلون ولو كانوا مائة . والردء والمباشر سواء . وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين . فإن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قتل ربيئة المحاربين . والربيئة هو الناظور الذى يجلس على مكانٍ عالٍ ينظر منه لهم من يجيء . ولأن المباشر إنما يمكن من قتله بقوة الردء ومعونته . والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض ، حتى صاروا ممتنعين، فهم مشتركون فى الثواب والعقاب كالمجاهدين . فإن النبىّ ﷺ قال[1] : المسلمون تتـكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، وَيرُدّ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨٥ ـ كتاب الفرائض، ٢١ ـ باب إثم من تبرأ من مواليه، حديث ٩٥ ونصه :

قال علىّ رضى الله عنه : ماعندنا كتاب نقرؤه ، إلا كتابُ الله ، غيرَ هذه الصحيفة =

مُتَسَرِّيهم على قاعدتهم . يعنى : أن جيش المسلمين إذا تسرّت منه سرية فغنمت مالًا ، فإن الجيش يشاركها فيما غنمت. لأنها بظهره وقوّته تمكنت . لكن تُنْفَلُ عنه نفلًا . فإن النبيّ ﷺ كان ينفل السرية ، إذا كانوا فى بدايتهم، الربع بعد الخمس . فإذا رجعوا إلى أوطانهم وتسرّت سرية، نفلهم الثلث بعد الخمس . وكذلك لو غنم الجيش غنيمة شاركته السرية ، لأنها فى مصلحة الجيش . كما قسم النبيّ ﷺ لطلحة والزبير يوم بدر ، لأنه كان قد بعثهما فى مصلحة الجيش. فأعوانُ الطائفة المتمنعة وأنصارها منها، فيما لهم وعليهم . وهكذا المقتتلون على باطل لا تأويل فيه ، مثل المقتتلين على عصبية ودعوى جاهلية. كقيس ويمن ونحوهما ، هما ظالمتان. كما قال النبيّ ﷺ (١) : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. قيل : يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه . أخرجاه فى (الصحيحين) وتضمن كل طائفة ما أتلفته الأخرى من نفسٍ ومال وإن لم يعرف عين القاتل . لأن الطائفة الواحدة المتمنع بعضها ببعض كالشخص الواحد . وأما إذا أخذوا المال فقط ولم يقتلوا ـ كما قد يفعله الأعراب كثيراً ـ فإنه يقطع من كل واحد يده اليمنى ورجله اليسرى عند أكثر العلماء . كأبى حنيفة والشافعىّ وأحمد وغيرهم . وهذا معنى قوله تعالى : أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ . تقطع اليد التى يبطش بها، والرجل التى يمشى عليها، وتحسم يده ورجله

= قال ، فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل . قال ، وفيها « المدينة حرم ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ . فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه ، يوم القيامة صرف ولا عدل . ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل . وذمة المسلمين واحدة ، يسعى بها أدناهم . فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل » .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٩٤٤.

بالزيت المغليّ ونحوه ، لينحسم الدم فلا يخرج فيُفضى إلى تلفه . وكذا تحسم يد السارق بالزيت . وهذا الفعل قد يكون أزجر من القتل . فإن الأعراب وفسقة الجند وغيرهم، إذا رأوا دائماً من هو بينهم مقطوع اليد والرجل، ذكروا بذلك جرمه ، فارتدعوا . بخلاف القتل ، فإنه قد يُنسَى . وقد يؤثر بعض النفوس الأبية قتله على قطع يده ورجله من خلاف ، فيكون هذا أشدّ تنكيلًا له ولأمثاله . وأما إذا شهروا السلاح ولم يقتلوا نفساً ولم يأخذوا مالًا ، ثم أغمدوه ، أو هربوا ، وتركوا الحراب ، فإنهم يُنْفَوْنَ . فقيل : (نفيهم) تشريدهم . فلا يتركون يأوون فى بلد . وقيل : هو حبسهم . وقيل : هو ما يراه الإمام أصلح من نفيٍ أو حبس أو نحو ذلك . والقتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه . لأن ذلك أَوْحَى (أى : أسرع) أنواع القتل . وكذلك شرع الله قتل ما يباح قتله من الآدميين والبهائم إذا قدر عليه على هذا الوجه . قال النبيّ ﷺ [1] : إن الله كتب الإحسان على كلّ شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ . وليُحِدّ أحدكم شفرته ، ولْيُرِحْ ذبيحته . رواه مسلم . وقال [2] : إنّ أعف الناس قِتْلَةً أهل الإيمان . وأما الصلب المذكور فهو رفعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشتهر أمرهم ، وهو بعد القتل، عند جمهور العلماء . ومنهم من قال : يُصَلَّبُون ثم يقتلون وهم مصلوبون . وقد جوّز بعض الفقهاء قتلهم بغير السيف حتى قال : يتركون على المكان العالى حتى يموتوا حتف أنوفهم بلا قتل .

الخامسة : تتمة الآية . أعنى قوله تعالى (ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) تدل على أن المحاربين يعاقبون فى الدنيا والآخرة مطلقاً. ولا يكون الحدّ المذكور طهرة لهم ، ولو كانوا مسلمين .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٧ (طبعتنا) عن شدّاد ابن أوس .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١١٠ ـ باب فى النهى عن المُثْلة ، حديث ٢٦٦٦ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : ظاهره أن عقوبة المحارب لا تكون كفارة له ، كما تكون فى سائر الحدود .

وقال العارف الشعرانىّ فى (ميزانه) : سمعت شيخنا ، شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لم يرد لنا أن أحداً يؤخذ بذنبه فى الدنيا والآخرة معاً ، إلّا المحاربين ، لقوله تعالى فيهم: ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ ... الآية .

وقال ابن كثير : هذا يرجح رواية نزولها فى المشركين . فأما أهل الإسلام ففى (صحيح مسلم)[1] عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أخذ على النساء ، ألّا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا يَعْضَه بعضنا بعضاً . فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أتى منكم حدًّا فأقيم عليه فهو كفارته ، ومن ستره الله فأمره إلى الله. إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له .

السادسة : دلّ قوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ) على أن توبة المحاربين ، قبل الظفر بهم ، تسقط عنهم حدّ المحاربين المذكور فى الآية . سواء كانوا مشركين أو مسلمين . وهو مروىّ عن علىّ وأبى هريرة والسدّىّ وغيره . وقد قال الهادى: إذا تاب المحارب قبل الظفر به ، سقط عنه كل تبعة من قتل أو دَين ، لعموم الآية .

قال ابن كثير : أما على قول من قال : إنها فى أهل الشرك ، فظاهر . أى : فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم، سقط عنهم جميع الحدود المذكورة. فلا يطالبون بشىء مما أصابوا من مالٍ أو دمٍ . قال أبو إسحق : جعل الله التوبة للكفار تدرأ عنهم الحدود التى وجبت عليهم فى كفرهم ، ليكون ذلك داعياً لهم إلى الدخول فى الإسلام . وأما المحاربون المسلمون، فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم تحتّم القتل والصلب وقطع الرجل . وهل يسقط قطع اليد ؟ فيه قولان للعلماء . وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة .

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

كما روى ابن أبى حاتم عن الشعبىّ قال : كان حارثة بن بدر التميمىّ من أهل البصرة ـ وكان قد أفسد فى الأرض وحارب ـ فكلم رجالًا من قريش منهم : الحسن بن علىّ وابن عباس وعبدالله بن جعفر. فكلّموا عليًّا فيه فلم يؤمنه . فأتى سعيد بن قيس الهمدانىّ ، فخلفه فى داره ثم أتى عليًّا فقال : يا أمير المؤمنين ! أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فساداً ـ فقرأ حتى بلغ « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ . فقال : اكتب له أماناً . قال سعيد بن قيس : فإنه جارية بن بدر . وكذا رواه ابن جرير[1] من غير وجهٍ عن مجالد عن الشعبىّ ، فقال حارثة بن بدر :

ألا أبلغا همدان إما لقيتها على النأى لايَسْلَمْ عدوٌ يَعيبها
لَعَمْرُ أبيها إن همدان تتقى الـــــإلهَ ويقضى بالكتاب خطيبُها.

وروى ابن جرير[2] ـ من طريق سفيان الثورىّ عن السدّىّ ، ومن طريق أشعث ـ كلاهما . عن عامر الشعبىّ قال : جاء رجل من مراد إلى أبى موسى ـ وهو على الكوفة فى إمرة عثمان رضى الله عنه ـ بعد ما صلى المكتوبة فقال : يا أبا موسى ! هذا مقام العائذ بك. أنا فلان بن فلان المرادىّ . كنت حاربت الله ورسوله ، وسعيتُ فى الأرض فساداً ، وإنى تبت من قبل أن تقدروا علىّ . فقام أبو موسى فقال : إن هذا فلان بن فلان . وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فساداً ، وإنه تاب من قبل أن يُقدر عليه ، فمن لقيه فلا يَعْرِض له إلّا بخير ، (فإن يك صادقاً فسبيل من صدق . وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه) . فأقام الرجل ما شاء الله ، ثم إنه خرج فأدركه الله بذنوبه فقتله . ثم قال[3] ابن جرير : حدثنى علىّ ، حدثنا الوليد بن مسلم ، قال: قال الليث. وكذلك حدثنى موسى بن إسحق المدنىّ ، وهو الآمر عندنا ،

(١) الأثر رقم ١١٨٧٩ و١١٨٨٠ و١١٨٨١ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٨٨٤ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨٨٩ من التفسير .

أنّ علياً الأسدىّ حارب وأخاف السبيل ، وأصاب الدم والمال ، فطلبه الأئمة والعامة ، فامتنع ولم يُقْدَرْ عليه حتى جاء تائباً . وذلك أنه سمع رجلًا يقرأ هذه الآية : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[(١)] . فوقف عليه فقال: يا عبد الله ! أعد قراءتها . فأعادها عليه . فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السَّحَر . فاغتسل . ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ . فصلّى الصبح ثم قعد إلى أبى هريرة فى غمار أصحابه . فلما أسفر عرفه الناس فقاموا إليه . فقال : لا سبيل لكم علىّ . جئت تائباً من قبل أن تقدروا علىّ . فقال أبو هريرة : صدق . وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم ـ فى إمرته على المدينة فى زمن معاوية ـ فقال : هذا علىّ جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل . قال ، فترك من ذلك كله .

قال : وخرج علىّ تائباً مجاهداً فى سبيل الله فى البحر . فلقوا الروم . فقرَّبوا سفينته إلى سفينة من سفنهم . فاقتحم على الروم فى سفينتهم . فهُزِموا منه إلى سفينتهم الأخرى . فمالت بهم وبه . فغرقوا جميعاً .

هذا ، وفى تفسير بعض الزيدية ـ نقلًا عن زيد والنفس الزكية والمؤيد بالله وأبى حنيفة ومالك والشافعىّ ـ أنّ توبة المحارب تُسقط الحدود لله ، دون حقوق بنى آدم من قتل أو مال ، لقوله تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىٰ[(٢)] وقوله : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ[١] وقوله تعالى: وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً[٢] وقوله صلى الله عليه وسلم: على اليد ما أخذت حتى ترد[٣] وقوله عليه الصلاة والسلام[٤] « لا يحل مال امرئ مسلم إلّا بطيبة من نفسه » . قال فى (شرح الإبانة) : وروى زيد بن علىّ بإسناده إلى أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ؛ أنّ قاطع الطريق ، إذا تابَ قبل أن يؤخذ وظفر به الإمام ، ضمن المال واقتص منه . ثم قال : أما الكافر فلا خلاف أن توبته تسقط عنه جميع الحدود . انتهى .

وأخرج أبو داود[٥] والنسائىّ عن ابن عباس قال : نزلت فى المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل .

وليست تحرز هـذه الآيةُ الرجلَ المسلم من الحدّ ، إن قتل أوأفسد فى الأرض أوحارب الله ورسوله .

---

(١) [٥ /المائدة/ ٤٥] ونصها : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٣] ونصها: وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا.

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٣٩ ـ باب ما جاء فى أن العارية مؤداة ، ونصه :

عن سمرة عن النبىّ ﷺ قال « على اليد ما أخذت حتى تؤدّى » .

(٤) لم أهتد إلى هذا الحديث .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٣ ـ باب ما جاء فى المحاربة ، حديث ٤٣٧ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٥] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا » ـ أى اطلبوا ـ « إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » أى : القربة ـ كذا فسَّره ابن عباس ومجاهد وأبو وائل والحسن وزيد وعطاء والثورىّ وغير واحد . وقال قتادة : أى تقرّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . وقرأ ابن زيد : أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ . قال ابن كثير : وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة ، لا خلاف بين المفسرين فيه . وفى (القاموس وشرحه) : الوسيلة والواسلة ، المنزلة عند الملك والدرجة والقربة والوصلة . وقال الجوهرىّ : الوسيلة ، ما يتقرب به إلى الغير . والتوسيل والتوسل واحد . يقال: وَسَّل إلى الله تعالى توسيلًا ، عمل عملًا تقرب به إليه ، كتوسل . و (إلى) يجوز أن يتعلق بـ (ابتغوا) وأن يتعلق بـ (الوسيلة) . قدم عليها للاهتمام به « وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : بسبب المجاهدة فى سبيله . وقد بين كثير من الآيات أن المجاهدة بالأموال والأنفس .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير (الوسيلة) هو المعوّل عليه . وقد أوضحه إيضاحاً لا مزيد عليه ، تقىّ الدين بن تيمية عليه الرحمة فى (كتاب الوسيلة) فرأينا نقل شذرة منه ، إذْ لا غنى للمُحَقِّقِ فى علم التفسير عنه .

قال رحمه الله بعد مقدّمات :

إن لفظ الوسيلة والتوسل ، فيه إجمال واشتباه ، يجب أن تعرف معانيه ويعطى كلّ ذى حقٍّ حقه. فيعرف ماورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه. وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك . ويعرف ما أحدثه المحدثون فى هذا اللفظ ومعناه . فإن كثيراً من اضطراب الناس فى هذا الباب هو بسبب ماوقع من الإجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها ،

حتى تجد أكثرهم لا يعرف فى هذا الباب فصل الخطاب . فلفظ الوسيلة مذكور فى القرآن فى قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ . وفى قوله تعالى : قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا[1] . فالوسيلة التى أمر الله أن تبتغى إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه ، هى ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات. فهذه الوسيلة التى أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لايدخل فى ذلك ، سواء كان محرماً أو مكروها أو مباحاً. فالواجب والمستحب هو ماشرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب واستحباب . وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول . فجماع الوسيلة التى أمر الله الخلق بابتغائها ، هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلّا ذلك .

و (الثانى) لفظ الوسيلة فى الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم[2] : سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لاتنبغى إلّا لعبدمن عباد الله . وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة. وقوله : من قال حين يسمع النداء[3]: اللهم ! رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة! آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محمودا الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة. فهذه الوسيلة للنبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٦و٥٧] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١١ (طبعتنا) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٨ ـ باب الدعاء عند النداء ، حديث ٣٩٢ ، عن جابر بن عبد الله .

خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله لههذه الوسيلة . وأخبرنا أنها لا تكون إلا لعبد من عباد الله . وهو يرجو أن يكون ذلك العبد، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول صلى الله عليه وسلم . وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقدحلت عليه الشفاعة يوم القيامة . لأن الجزاء من جنس العمل. فلما دعوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعو هُوَ لَهُم. فإن الشفاعة نوع من الدعاء . كما قال[1] : إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا . وأما التوسل بالنبيّ ﷺ والتوجه به فى كلام الصحابة، فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به فى عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به. كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح. وحينئذ، فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين. ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة . فأما المعنيان الأولان الصحيحان باتفاق العلماء ، فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام ، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته . والثانى دعاؤه وشفاعته كما تقدم. فهذان جائزان بإجماع المسلمين . ومن هذا قول عمر بن[2] الخطاب : اللهمّ! إنّا كنا إذا أجدبنا توسّلنا إليك بنبيّنا فتسقينا ، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا. أى : بدعائه وشفاعته . وقوله تعالى (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) أى : القربة إليه بطاعته . وطاعةُ رسوله طاعتُه ؛ قال[3] تعالى : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ . فهذا التوسل الأول هو أصل الدين ، وهذا لا ينكره أحدٌ من المسلمين . وأمّا التوسّل بدعائه وشفاعته ـ كما قال عمر ـ فإنه توسّل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسّل به إلى التوسل بعمه العباس ؛

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١١ (طبعتنا) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٣ ـ باب سؤال الناس الإمامَ الاستسقاء إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢ .

(٣) [٤ / النساء/ ٨١] ... وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس . فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس ، علم أن ما يفعل فى حياته قد تعذر بموته . بخلاف التوسل الذى هو الإيمان به والطاعة له، فإنه مشروع دائماً . فلفظ التوسل يراد به ثلاث معان : (أحدها) التوسّل بطاعته . فهذا فرض لا يتمّ الإيمان إلّا به . و (الثانى) التوسّل بدعائه وشفاعته . وهذا كان فى حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته . و (الثالث) التوسّل به. بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته . فهذا هو الذى لم تكن الصحابة يفعلونه فى الاستسقاء ونحوه ، لافى حياته ولا بعد مماته ، لاعند قبره ولاغيرقبره . ولايعرف هذا فى شىء من الأدعية المشهورة بينهم . وإنما ينقل شىء من ذلك فى أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة . أو عن من ليس قوله حجة ، وهذا هو الذى قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ إنه لا يجوز . ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبوالحسين القدورىّ فى كتابه الكبير فى الفقه المسمى بـ (شرح الكرخىّ) فى باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحدٍ من أصحاب أبى حنيفة . قال بشر بن الوليد : حدّثنا أبو يوسف قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغى لأحدٍ أن يدعو إلّا به . وأكره أن يقول : بمعاقد العزمن عرشك ، أو بحق خلقك . وهو قول أبى يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله . فلا أكره هذا . وأكره أن يقول : بحق فلانٍ ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام .

قال القدورىّ : المسألة بخلقه لا تجوز . لأنه لا حق للخلق على الخالق . فلا تجوز وفاقاً .

وهذا الذى قاله أبو حنيفة وأصحابه ـ من أن الله لا يسأل بمخلوق ـ له معنيان : أحدهما هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق ، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق ، فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق ، أولى وأحرى . وهذا بخلاف

إقسامه سبحانه بمخلوقاته ـ كالليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى[١] ، والشمس وضحاها[٢] ، والنازعات غرقا[٣] ، والصافات صفا[٤] ـ فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ، ما يحسن معه إقسامه . بخلاف المخلوق ، فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها . كما فى (السنن) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[٥] : من حلف بغير الله فقد أشرك . وقد صححه الترمذىّ وغيره . وفى لفظ : فقد كفر . وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه فى (الصحيحين)[٦] أنه قال : من كان حالفا فليحلف بالله . وقال: لا تحلفوا بآبائكم . فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . وفى (الصحيحين) عنه أنه

---

(١) [٩٢ / الليل / ١و٢] ونصها : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ .

(٢) [٩١ / الشمس / ١] .

(٣) [٧٩ / النازعات / ١] .

(٤) [٣٧ / الصافات / ١] .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ١٨ ـ كتاب النذور ، ٩ ـ حدثنا قتيبة ، ونصه :

عن ابن عمر سمع رجلا يقول : لا ، والكعبة ! فقال ابن عمر : لا يُحلف بغير الله . فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٦) أخرجه فى البخارىّ فى: ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٢٦ ـ باب أيام الجاهلية، حديث ١٢٩٨ ونصه :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ألا من كان حالفاً ، فلا يحلف إلا بالله » وكانت قريش تحلف بآبائها ، فقال « لا تحلفوا بآبائكم » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٣و٤ (طبعتنا) .

قال[١] : من حلف باللات والعزّى فليقل:لاإله إلّا الله . وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمته ـ كالعرش والكرسيّ والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبيّ ﷺ والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وسراويل الفتوّة وغير ذلك . . . ـ لا ينعقد يمينه ، ولا كفارة فى الحنث بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبى حنيفة ، وأحد القولين فى مذهب الشافعىّ وأحمد . وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » من الأموال وغيرها « جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ » أى ليفادوا به أنفسهم « مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم ، وإنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجهٍ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٥ ـ باب لا يُحْلَف باللات والعزّى ولا بالطواغيت ، حديث ٢٠٥٢ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « من حلف فقال فى حلفه : باللات والعزّى ، فليقل : لا إله إلا الله . ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك ، فليتصدق » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٥ (طبعتنا) .

وقد روى البخارىّ عن أنس قال[١] : قال رسول الله ﷺ : يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد كنتَ سُئِلْتَ ما هو أيسر من ذلك : أن لا تشرك بى . فيؤمر به إلى النار . ورواه مسلم[٢] وغيره بنحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

« يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » دائم لا ينقطع . وهذا كما قال تعالى : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ... الآية[٣] .

روى ابن مردويه ، عن يزيد بن صهيب الفقير ، عن جابر بن عبد الله . أنّ رسول الله ﷺ قال : يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة . قال ، فقلت لجابر بن عبد الله ؛ يقول الله : يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا . قال : اتل أوّل الآية : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ ... الآية ، ألا إنهم الذين كفروا .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٩ ـ باب من نوقش الحساب عذب، حديث ١٥٧٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى: ٥٠ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٥١و٥٢ (طبعتنا).

(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٠] ونصها : وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم(١) هذا الحديث من وجهٍ آخر . عن يزيد الفقير ، عن جابر وهذا أبسط سياقاً .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٠ (طبعتنا) ونصه :

عن يزيد الفقير قال : كنت قد شغفنى رأى من رأى الخوارج ، فخرجنا فى عصابةٍ ذوى عدد نريد أن نحجّ . ثم نخرجَ على النـاس . قال فمررنا على المدينة . فإذا جابر بن عبد الله يحدّث القوم ، جالس إلى سارية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فإذا هو قد ذكر الجهنميين . قال فقلت له : يا صاحب رسول الله ! ما هذا الذى تحدثون ؟ والله يقول : إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ [٣ / آل عمران / ١٩٢] و : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا [٣٢ / السجدة ٢٠] فما هـذا الذى تقولون ؟ قال فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت: نعم . قال: فهل سمعتَ بمقام محمد عليه السلام؟ (يعنى الذى يبعثه الله فيه) قلت : نعم. قال : فإنه مقام محمد صلى الله عليـه وسلم المحمود الذى يُخرج الله به مَن يُخرج . قال ثم نعت وضع الصراط ومَرَّ الناس عليه. قال، وأخاف أن لاأكون أحفظ ذاك . قال غير أنه قدزعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال يعنى فيخرجون كأنهم عيدان السماسم. قال : فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه . فيخرجون كأنهم القراطيس .

فرجعنا قلنا : ويحكم ! أترون الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فرجعنا . فلا ، والله ! ما خرج منا غير رجل واحد .

[قال فى النهاية : عيدان السماسم هو جمع سمسم . وعيدانه تراها ، إذا قلعت وتركت فى الشمس ليؤخذ حبها ، دقاقا سوداء كأنها محترقة . فشبه بها هؤلاء . قال: وطالما تطلبت هذه اللفظة ، وسألت عنها فلم أجد فيها شافياً . قال : وما أشبه أن تـكون اللفظة محرفة ، وربما كانت عيدان الساسم ، وهو خشب أسود كالأبنوس اه . وأما القاضى عياض فقال : لايعرف معنى السماسم هنا . قال: ولعل صوابه عيدان الساسم، وهو أشبه ، وهو عود أسود. وقيل : هو الأبنوس . قال النووىّ : والمختار أنه السمسم .]

زاد ابن أبي حاتم : قال جابر : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قد جمعته قال : أليس الله يقول : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(١) ؟ فهو ذلك المقام ، فإن الله تعالى يحبس أقواماً بخطاياهم في النار ماشاء ، لا يكلمهم . فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم .

ولما أوجب تعالى ـ في الآية المتقدمة ـ قطع الأيدي والأرجل عند أخذ المال على سبيل المحاربة ـ بيّن أن أخذ المال على سبيل السرقة يوجب قطع الأيدي والأرجل أيضاً ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالسَّارِقُ » أي : من الرجال « وَالسَّارِقَةُ » أي من النساء « فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » يعني يمين كل منهما . والمقطع الرسغ ، كما بيّنته السنّة « جَزَاءً بِمَا كَسَبَا » أي: يقطع الآلة الكاسبة « نَكَالًا » أي: عقوبةً « مِنَ اللَّهِ » أي : على فعل السرقة المنهيّ عنه من جهته تعالى ، لا في مقابلة إتلاف المال، فإنه غير السرقة . فلذلك لايسقط بعفو المالك ، بخلاف العفو عن المال . ولا يبالي فيه بعزة السارق ، لأنه تعالى غالب على أمره يمضيه كيف يشاء ، كما قال: « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أي: فلا يبالي ـ مع عزته الموجبة لامتثال أمره ـ عزّة مَنْ دونه « حَكِيمٌ » في شرائعه ، فيختل أمر نظام العالم بمخالفة أمره ، إذ فيه نفع عام للخلائق .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وفى الآية مسائل

الأولى ـ قال أبو السعود : لما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال ، صرح بالسارقة أيضاً ، مع أن المعهود فى الكتاب والسنة إدراج النساء فى الأحكام الواردة فى شأن الرجال بطريق الدلالة . لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة فى الزجر . انتهى .

ولما كانت غلبة السرقة فى الرجال ، لقوتهم بدأ بالسارق . كما أن غلبة الزنى لما كانت فى النساء لفرط شهوتهن ـ قال فى آية الزنى: الزَّانِيَةُ والزَّانِى.

الثانية ـ قال ابن كثير : روى الثورىّ بسنده إلى ابن مسعود ؛ أنه كان يقرؤها : والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما. وهذه قراءة شاذة . وكان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها لا بها ، بل هو مستفاد من دليل آخر ؛ وقد كان القطع معمولاً به فى الجاهلية فقرر فى الإسلام، وزيدت شروط أخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى . كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه ، وزيادات هى من تمام المصالح . ويقال : إن أول من قطع الأيدى فى الجاهلية قريش ، قطعوا رجلًا يقال له (دويك) مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة ، كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال : سرقه قوم فوضعوه عنده .

الثالثة : ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء كان قليلًا أو كثيراً ، لعموم هذه الآية: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا. فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً . بل أخذوا بمجرد السرقة .

وقد روى ابن جرير[١] وابن أبى حاتم عن نجدة الحنفىّ قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا . أخاص أم عام؟ فقال : بل عام . . وهذا يحتمل أن يكون موافقة لابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ، ويحتمل ذلك ، فالله أعلم .

(١) الأثر رقم ١١٩١٤ فى التفسير .

وتمسكوا بما ثبت فى (الصحيحين)[١] عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليهوسلم قال : لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده .

وأما الجمهور فاعتبروا النصاب ، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره . فعند الإمام مالك[٢] : النصاب ثلاثه دراهم مضروبة خالصة . فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه،وجب القطع. واحتج فىذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قطع فى مجنٍّ ثمنه ثلاثةدارهم. أخرجاه[٣] فى (الصحيحين) . قال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضى الله عنه فى أترجة قوّمت بثلاثة دراهم . وهو أحب ما سمعت فى ذلك .

قالأصحاب مالك : ومثلهذا الصنيع يشتهر ولمينكر . فمن مثلهيحكى الإجماعالسكوتىّ. وفيه دلالة على القطع فى الثمار ، خلافاً للحنفية ، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم فى أنه لابد من عشرة دراهم ، وللشافعية فى اعتبار ربع دينار ، والله أعلم . وذهب الشافعىّ رحمه الله إلى أن الاعتبار فى قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً ، والحجة فى ذلك ما أخرجه الشيخان[٤] من طريق الزهرىّ عن عمرة عن عائشة

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٧ ـ باب لعن السارق إذا لم يسمّ، حديث ٢٥٠٩ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى الموطأ فى : ٤١ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ١٣ ـ باب قول الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، حديث ٢٥١٢ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ١٣ ـ باب قول الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، حديث ٢٥١٠ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ١ـ٣ (طبعتنا) .

رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعداً . ولمسلم[١] عنها أيضاً : أن رسول الله ﷺ قال : لا تقطع يد السارق إلّا فى ربع دينار فصاعداً. قال الشافعية : هذا الحديث فاصل فى المسألة، ونصّ فى اعتبار ربع الدينار لا ماسواه. قالوا: وحديث ثمن المجنّ، وإن كان ثلاثة دراهم، لا ينافى هذا . لأنه إذ ذاك كان الدينار باثنى عشر درهما. فهى ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق . ويروى هـذا المذهب عن عمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم . وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث والأوزاعىّ وإسحق (فى رواية عنه) وأبو ثور وداود الظاهرىّ ، رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد وإسحق (فى رواية) إلى أنّ كل واحـد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مردّ شرعىّ. فمن سرق واحداً منهما أو مايساويه قطع ، عملًا بحديث ابن عمر وبحديث عائشة . ووقع فى لفظٍ عنـد الإمام أحمد[٢] عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : اقطعوا فى ربع دينار ولاتقطعوا فيما هو أدنى من ذلك . وكان ربع الدينار يومئذٍ ثلاثة دراهم، والدينار اثنى عشر درهما . وفى لفظٍ للنسائىّ[٣] : لاتقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن. قيل لعائشة: ما ثمن المجنّ ؟ قالت : ربع دينار . فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه ، وكذا سفيان الثورىّ ، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة . واحتجوا بأن ثمن المجنّ الذى قطع فيه السارق على عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا ابن نمير وعبد الأعلى عن محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٨٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه النسائىّ فى: ٤٦ ـ كتاب السارق، ٩ـ باب ذكر الاختلاف على الزهرىّ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتقطع يد السارق فى دون ثمن المجنّ . وكان ثمن المجنّ عشرة دراهم . قالوا : فهذا ابن عباس وعبد الله بن عَمْرو قد خالفا ابن عُمَر فى ثمن المجنّ . فالاحتياط الأخذ بالأكثر ، لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق فى عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمة واحد منهما . يحكى هذا عن علىّ وابن مسعود وإبراهيم النخعىّ وأبى جعفر الباقر ، رحمهم الله تعالى .

وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلّا فى خمس . أى فى خمسة دنانير أو خمسين درهما. وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله .

وقد أجاب الجمهور ـ عما تمسك به الظاهرية من حديث[1] أبى هريرة : يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده ـ بأجوبة : (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة .وفى هذا نظر لأنه لابد من بيان التاريخ . و (الثانى) أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن . قاله الأعمش فيما حكاه البخارىّ[2] وغيره عنه . و (الثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج فى السرقة من القليل إلى الكثير الذى تقطع فيه يده . ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه فى الجاهلية حيث كانوا يقطعون فى الكثير والقليل . فلعن السارق يبذل يده الثمينة فى الأشياء المهينة .

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعرّى ، لما قدم بغداد ، اشتهر عنه أنه أورد إشكالًا على الفقهاء فى جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ، ونظم فى ذلك شعراً فقال:

يد بخمسِ مئين عسجد وُدِيَتْ ما بالها قطعت فى ربع دينـــار ؟

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٩٧٨ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٧ ـ باب لعن السارق إذا لم يسمّ. ونصه : قال الأعمش : كانوا يرون أنه بيض الحديد . والحبل ، كانوا يرون أنه منها ما يسوى دراهم .

وقد أجابه النـــاس فى ذلك ؛ فـكان جواب القاضى عبد الوهاب المالـكىّ رحمه الله أنه قال : لما كانت أمينة ، كانت ثمينة . ولما خانت هانت، ومنهم من قال : هذا من تمام الحـكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة . فإن فى باب الجنـــايات ، ناسب أن تَعْظُمَ قيمة اليد بخمسمائة دينار ، لئلا يجنى عليها . وفى باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذى تقطع ربع دينار لئلا يسارع الناس فى سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحـكمة عند ذوى الألباب. ولهذا قال :جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَـكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. أى : مجازاة على صنيعهما السّيء فى أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به فى ذلك . كذا فى تفسير ابن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس سره فى كتابه (السياسة الشرعية) : وأما السارق فيجب قطع يده اليمنى بالـكتاب والسنة والإجماع. قال الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ... الآية . ولا يجوز، بعد ثبوت الحدّ عليه بالبيّنة أو الإقرار، تأخيره . لا بحبس ولا مال يفتدى به ولا غيره . بل تقطع يده فى الأوقات المعظمة وغيرها . فإن إقامة الحدود من العبادات كالجهاد فى سبيل الله . وينبغى أن يعرف أن إقامة الحدّ رحمة من الله بعباده . فيكون الوالى شديداً فى إقامة الحدّ ، لا تأخذه رأفة فى دين الله فيعطله ، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات ، لا إشفاء غيظه وإرادة العلوّ على الخلق . بل بمنزلة الوالد إذا أدب ولده. فإنه لو كف عن تأديب ولده ، كما تستر به الأم رقة ورأفة ، لفسد الولد . وإنمـا يؤدبه رحمةً وإصلاحاً بحاله . مع أنه يودّ ويؤثر أن لا يحوجه إلى تأديب . وبمنزلة الطبيب الذى يسقى المريض الدواء الـكريه . وبمنزلة قطع العضو المتأ كّل والحجم وقطع العروق بالفصاد ونحو ذلك. بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الـكريه ، وما يدخله على نفسه من المشقة لينال به الراحة. فـكذلك شرعت الحدود . وهكذا ينبغى أن تـكون نية الوالى فى إقامتها ، فإن من كان قصده صلاح الرعية والنهى عن المنكرات ، بجلب المنفعة لهم ورفع المضرة عنهم وابتغائه بذلك وجه

الله تعالى وطاعة أمره ـ ألان الله له القلوب وتيسرت له أسباب الخير. وكفاه العقوبة اليسيرة. وقد يرضى المحدود إذا قام عليه الحدّ . وأما إذا كان غرضه العلوّ عليهم وإقامة بأسه ليعطوه أو ليبذلوا له ما يريد من الأموال ـ انعكس عليه مقصوده .

ويروى أن عمر بن عبدالعزيز ، رحمه الله ، قبل أن يلي الخلافة كان نائباً للوليد بن عبدالملك على مدينة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان قد ساسهم سياسة صالحة ، فقدم الحجاج من العراق وقد سامهم سوء العذاب، فسأل أهلَ المدينة عن عمر : كيف هيبته فيكم ؟ قالوا : ما نستطيع أن ننظر إليه هيبة له ! قال : كيف محبتكم له ؟ قالوا : هو أحب إلينا من أهلنا ! قال : فكيف أدبه ؟ قالوا : مابين الثلاثة الأسواط إلى العشرة .. قال : هذه هيبته وهذه محبته وهذا أدبه ! هذا أمر من السماء .

وإذا قطعت يده حسمت. ويستحب أن تعلق فى عنقه . فإن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى . فإن سرق ثالثاً أورابعاً، ففيه قولان للصحابة ومن بعدهم من العلماء : (أحدهما) تقطع أربعته فى الثالثة والرابعة ، وهو قول أبي بكر ، وهو مذهب الشافعيّ رضى الله عنه ، والكوفيين وأحمد فى إحدى الروايتين . و (الثانى): أنه يحبس . وهو قول عليّ رضى الله عنه والكوفين وأحمد فى روايته الأخرى . وتتمة مباحث السرقة مقررة فى كتب السنة .

الرابعة ـ قرأ الجمهور برفع (السارق والسارقة) على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : وفيما يتلى عليكم ـ أو وفيما فرض عليكم ـ السارق والسارقة ، أى : حكمهما . أو الخبر قوله تعالى (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط . إذ المعنى : الذى سرق والتى سرقت. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب، وفضلها سيبويه على قراءة الرفع، لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلّا بتأويل وإضمار ، كذا اشتهر عن سيبويه .

قال الناصر فى (الانتصاف) : المستقرأ من وجوه القراءات أن العامة لا تتفق فيها أبداً

على العدول عن الأفصح . وجدير بالقرآن أن يجرى على أفصح الوجوه ، وأن لا يخلو من الأفصح ، وما يشتمل عليه كلام العرب الذى لم يصل أحد منهم إلى ذروة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها . وسيبويه يحاشى من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح واشتماله على الشاذ الذى لا يعدّ من القرآن . ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هـــذه الآية ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هـــذا النقـل . قال سيبويه فى ترجمـة (باب الأمر والنهى) بعد أن ذكر المواضع التى يختار فيها النصب : وملخصها أنّه متى بنى الاسم على فعل الأمر، فذاك موضع اختيار النصب . ثم قال كالموضّح لامتياز هذه الآية عما اختار فيها النصب : وأما قوله عز وجل : السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا ... الآية ، وقوله[1] :وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا ... فإن هذا لم يبن على الفعل ولـكنه جاء على مثال قوله[2] : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . ثم قال بعد: فيها كذا وكذا. يريد سيبويه تميز هذه الآى عن المواضع التى بيّن اختيار النصب فيهـا . ووجه التميز بأن الـكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيه مبنيا على الفعل . وأما فى هذه الآى فليس بمبنىٍّ عليه . فلا يلزم فيه اختيار النصب .

عاد كلامه قال : وإنما وضع المثل للحديث الذى ذكر بعده . فذكر أخباراً وقصصاً . فـكأنه قال : ومن القصص: مثل الجنة . فهو محمول على هذا الإضمار . والله أعـلم . وكذلك

---

(١) [٢٤ / النور / ٢] ونصها : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ١٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى) لما قال جل ثناؤه: سُورَةٌ[1] أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا . قال في جملة الفرائض: الزَّانِيَةُ وَالزَّنِى ـ ثم جاء ـ فَاجْلِدُوا . بعد أن مضى فيهما الرفع، يريد سيبويه : لم يكن الاسم مبنياً على الفعل المذكور بعد ، بل بنى على محذوف متقدم وجاء الفعل طارئاً .

عاد كلامه قال كما جاء[2]: وقائلةٍ خَوْلَانُ فانكِحْ فَتَاتَهُمْ * فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمر ؛ وكذلك (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) وفيما فرض عليكم السارقة والسارق ، فإنما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث . وقد قرأ ناس وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ . بالنصب ، وهو فى العربية على ما ذكرت لك من القوة ، ولكن أبت العامة إلّا الرفع .

يريد سيبويه أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنياً على الفعل غير معتمد على متقدم ، فكان النصب قويًّا بالنسبة إلى الرفع ، حيث يبنى الاسم على الفعل لا على متقدم . وليس يعنى أنه قوىّ بالنسبة إلى الرفع ، حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم ؛ فإنه قد بين أن ذلك يخرجه من الباب الذى يختار فيه النصب ، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه . والباب مع القراءتين مختلف ؟ وإنما يقع الترجيح بعد التساوى فى الباب . فالنصب أرجح من الرفع حيث ينبنى الاسم على الفعل . والرفع متعين (لا أقول أرجح) حيث بنى الاسم على كلام متقدم .

ثم حقق سيبويه هذا المقدر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار . ولو كان كما ظنّه الزمخشرىّ، لم يحتج سيبويه إلى تقديرٍ بل كان يرفعه على الابتداء ، ويجعل الأمر خبره . فالملخّص على هذا : أن النصب على وجه واحد . وهو بناء الاسم على فعل الأمر . والرفع على وجهين: أحدهما ضعيف وهو الابتداء وبناء الكلام على الفعل . والآخر قوىّ بالغ كوجه النصب ـ وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف دلّ عليه السياق . وحيثما تعارض لنا وجهان

(١) [٢٤ / النور / ١] ونصها : سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

(٢) انظر : سيبويه ص ٧٠ جزء أول .

فى الرفع ، أحدهما قوىّ والآخر ضعيف ، تعيّن حمل القراءة على القوىّ كما أعربه سيبويه رضى الله عنه . والله أعلم . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« فَمَنْ تَابَ » أى : رجع من السُّرَّاق إلى الله « مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ » أى : سرقته « وَأَصْلَحَ » أى : عمله « فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ » أى : يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : مبالغ فى المغفرة ولذلك يقبل توبته . وهو تعليل لما قبله .

قال أبو السعود : وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم وتأييد استقلال الجملة . وكذا فى قوله عزّ وجل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فإن عنوان الألوهية مدارُ أحكام ملكوتهما . والاستفهام لتقرير العلم . والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتى من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجهٍ وأتمه . أى : ألم تعلم أن له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلىّ فيهما وفيما فيهما « يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » وتقديم التعذيب لأن السياق للوعيد . فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ومنه التعذيب والمغفرة .

تنبيه :

ذهب الجمهور إلى أن توبة السارق تُسْقط عنه حدود الله . وأما حقّ الآدمىّ من القطع وردّ المال أو بدله فلا يَسْقط بتوبته .

وقال أبو حنيفة : متى قطع ، وقد تلفت فى يده فإنه لا يرد بدلها . وقد بينت السنة أنه إن عفى عنه قبل الرفع إلى الإمام، سقط القطع .

روى ابن ماجه[1] عن ثعلبة الأنصارىّ : أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله! إنى سرقت جملًا لبنى فلان فطهِّرنى. فأرسل إليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا افتقدنا جملًا لنا . فأمر به فقطعت يده . قال ثعلبة (أحد رجال السند) : أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول : الحمد لله الذى طهرنى منك . أردت أن تدخلى جسدى النار . وروى الإمام أحمد[2] عن عبد الله بن عمرو : أن امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا . يارسول الله ! إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها : فنحن نفديها (يعنى أهلها) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقطعوا يدها. فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة : هل لى من توبة ؟ يارسول الله ! قال : نعم . أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك. فأنزل الله عز وجل فى سورة المائدة : فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ... » الآية .

قال ابن كثير: وهذه المرأة هى المخزومية التى سرقت . وحديثها ثابت فى الصحيحين[3]

(١) أخرجه ابن ماجة فى: ٢٠ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب السارق يعترف ، حديث ٢٥٨٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٥٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٤ ـ كتاب المغازى، ٥٣ ـ باب وقال الليث، حديث ١٢٨٧ وأخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٨ و٩ (طبعتنا) .

من رواية الزهرىّ عن عائشة أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الفتح . ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها ، تلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟ قال أسامة : استغفرلى ، يارسول الله !

فلما كان العشىّ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد . فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفس محمد بيده ! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك. وتزوجت .

قالت عائشة : فكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ، وهذا لفظ مسلم. وفى لفظ له(١) عن عائشة قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده ، فأمر النبىّ ﷺ بقطع يدها . وعن ابن عُمَر . قال : كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على ألسنة جاراتها وتجحده . فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها . رواه الإمام أحمد(٢) وأبوداود والنسائىّ ، وهذا

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٣٨٣ (طبعة المعارف) .

وأبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ١٦ ـ باب فى القطع فى العارية إذا جحدت ، حديث ٤٣٩٧ .

والنسائىّ فى : ٤٦ ـ كتاب السارق ، ٥ ـ باب ما يكون حرزاً وما لا يكون .

لفظه . وفى لفظ له(١) : إنّ امرأة كانت تستعير الحلىّ للناس ثم تمسكه ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا بلال ! فخذ بيدها فاقطعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ » نهىٌ . قال أبوالبقاء : والجيّد فتح الياء وضم الزاى . ويقرأ بضم الياء وكسر الزاى من (أحزننى) وهى لغة . « الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » أى : فى إظهاره بما يلوح منهم آثار الكيد للإسلام ومن موالاة الكافرين « مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ » أى بألسنتهم . متعلّق بـ (قالوا) « وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ » وهم المنافقون ، أى : لا تبال بهم فإنى ناصرك عليهم « وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا » عطف على (مِنَ الَّذِينَ قَالُوا) وهم يهود بنى قريظة ، كعب وأصحابه « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ » خبر لمحذوف، أى : هم سماعون . واللام إما لتقوية العمل ، وإما لتضمين السماع معنى القبول ، وإما لام كى، والمفعول محذوف ؛ والمعنى : هم مبالغون فى سماع الكذب الذى افترته أحبارهم أو فى قبوله . أو سماعون أخباركم ليكذبوا عليكم بالزيادة والنقص إرجافاً وتهويلاً .

---

(١) أخرجه النسائىّ فى: ٣٦ ـ كتاب السارق ، ٥ ـ باب ما يكون حرزاً وما لا يكون.

وفى (الإكليل) : أن قوله تعالى (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ) يدلّ على أن سامع المحظور كقائله فى الإثم .

« سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ » أى : لم يحضروا مجلسك وتجافَوْا عنه إفراطاً فى البغضاء . أى : قابلون من الأحبار ومن أولئك المفرطين فى العدواة الذين لا يقدرون أن ينظروا إليك . قيل : هم يهود خيبر . والسماعون، بنو قريظة « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ » أى : كلم التوراة فى الأحكام « مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ » أى : التى وضعه الله عليها .

قال ابن كثير : أى يتناولونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

« يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا » أى : إن أوتيتم هذا المحرّف المزال عن مواضعه من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام « فَخُذُوهُ » أى : اعملوا به فإنه الحقّ « وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ » بأن أفتاكم الرسول بخلافه «فَاحْذَرُوا» أى: من قبوله ، وإياكم وإياه! فإنه الباطل والضلال .

قال ابن كثير : قيل : نزلت فى قوم من اليهود قتلوا قتيلًا وقالوا تعالوا نتحاكم إلى محمد . فإن حكم بالدية فاقبلوه . وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه . والصحيح أنها نزلت فى اليهوديَّيْن اللذين زنيا . وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم. فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبَيْن . فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه . فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله . ويكون نبيًّا من أنبياء الله قد حكم بذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك : فروى مالك عن نافع عن ابن عمر قال[1] : جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إنّ فيها الرجم . فأتَوْا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٤١ ـ كتاب الحدود ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

ماقبلها وما بعدها . فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم . فقالوا: صدق ، يا محمد ! فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما . فقال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة . وأخرجاه فى الصحيحين(١) . وهذا لفظ الموطأ .

وروى الإمام أحمد(٢) عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على رسول الله ﷺ بيهودىّ محمَّم مجلود. فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ! هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا ، والله ! ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم . ولكنه كثر فى أشرافنا . فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على التحميم والجلد . فقال النبىّ ﷺ : اللهم ! إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قال : فأمر به فرجم قال : فأنزل الله عز وجل . يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ ـ إلى قوله ـ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ . أى يقولون : إيتوا محمداً . فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه . وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا . قال الحافظ ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم(٣)

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٧ ـ باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام ، حديث ٧٠٤ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، ٦ ـ باب رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى ، حديث ٢٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٨٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه مسلم فى: ٢٩ ـ كتاب الحدود ، ٦ ـ باب رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى، حديث ٢٨ (طبعتنا) .

دون البخاريّ . وأبو داود[١] والنسائيّ وابن ماجه[٢] . وكذا روى أبو بكر الحميديّ فى (مسنده) نحوه فى سبب نزولها عن جابر . وأبو داود أيضاً ، عن ابن عمر .

« وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ » أى:ضلالته « فَلَنْ تَملِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً » أى : فى دفع ضلالته « أُولَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ » أى : من دنس الفتنة ووضر الكفر لانهما كهم فيهما ، وإصرارهم عليهما ، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية « لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » أى : فضيحة وهتك ستر ، بظهور نفاقهم بالنسبة للمنافقين . وذل وجزية وافتضاح، بظهور كذبهم فى كتمان نص التوراة بالنسبة لليهود . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

« سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ » أى الباطل . خبر لمحذوف . وكرر تأكيداً لما قبله وتمهيداً لقوله « أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » أى : الحرام . وهو الرشوة كما قال ابن مسعود .

قال الزمخشريّ : السحت كل مالا يحل كسبه . وهو من (سَحَتَهُ) إذا استأصله .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٢٥ ـ باب فى رجم اليهوديين ، حديث ٤٤٤٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى: ٢٠ ـ كتاب الحدود ، ١٠ ـ باب رجم اليهودىّ واليهودية، حديث ٢٥٥٨ (طبعتنا) .

لأنه مسحوت البركة . كما قال تعالى : يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا[١] . والربا باب منه . وقرئ (السحت) بالتخفيف والتثقيل ، و(السحت) بفتح السين على لفظ المصدر من (سحته) ، و(السحت) بفتحتين، و(السحت) بكسر السين . وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. انتهى.

وفى (اللباب) : السحت كله حرام تحمل عليه شدة الشره . وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذى لا تكون له بركة ولا لآخذه مروءة ويكون فى حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة . ومعلوم أن حال الرشوة كذلك ، فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم. عن أبى هريرة[٢] : أن رسول الله ﷺ لعن الراشى والمرتشى فى الحكم . أخرجه الترمذىّ. وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

قال ابن مسعود : الرشوة فى كل شىء. فمن شفع شفاعة ليردّ بها حقًّا أو يدفع بها ظلماً، فأهدى بها إليه، فقبل، فهو سحت . فقيل له : ياأباعبد الرحمن ! ما كنا نرى ذلك إلّا الأخذ على الحكم ؟ فقال : الأخذ على الحكم كفر ! قال الله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

« فَإِنْ جَاءُوكَ » يعنى اليهود لتحكم بينهم « فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ » لأنهم اتخذوك حكماً « أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحقّ بل ما يوافق أهواءهم ، أى : فأنت بالخيار . وقد استدل بالآية من قال : إن الإمام مخيّر فى الحكم بين أهل الذمة أو الإعراض عنهم. وعن بعض السلف : إنّ التخيير المذكور نسخ بقوله تعالى : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ . والتحقيق أنها محكمة ، والتخيير باق . وهو مروىّ عن الحسن

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٦] ونصها . . . وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٩ ـ باب ماجاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم .

والشعبيّ والنخعيّ والزهريّ ، وبه قال أحمد . لأنه لا منافاة بين الآيتين . فإن قوله تعالى : (فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ) فيه التخيير. وقوله تعالى (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ) فيه كيفية الحكم، إذا حكم بينهم « وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا »أي : فلن يقدروا على الإضرار بك ، لأن الله تعالى عاصمك من الناس « وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ »، أي : بالعدل الذي أمرت به ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » أي : العادلين فيما وَلُوا وحكموا .

روى مسلم[1] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين. الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

« وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ » تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه . مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذين يدّعون الإيمان به .

قال بعضهم : معنى (فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ) أي : في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبيّ صلوات الله عليه . وهو حكم الله بحسب اعتقادهم أو بحسب الحقيقة . قال : ووجود هذا الحكم الخاص فيها، لا ينافي القول بوجود أشياء أخرى كثيرة فيها محرفة . وسمّاها التوراة : إما باعتبار عرفهم ، أو باعتبار أصلها ، أو لا شتمالها على أشياء كثيرة من التوراة الحقيقية . ولولا ذلك ما صحّ أن تسمى بذلك، كالإنجيل؛ مع اعتقاد تحريفها وتبديلها وعدم صحة كثير من أجزائها وكتبها... اهـ .

---

(١) أخرجه مسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

« ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أيّ : من بعد البيان فى التوراة، وحكمك الموافق لما فى كتابهم « وَمَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » أى : بالتوراة كما يزعمون .

قال الحاكم : وفى الآية دلالة على أنه لا يجوز طلب الرخصة بترك ما يعتقده حقًّا إلى ما يعتقده غيرَ حقٍّ . وقوله تعالى (ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) يدلّ على أن التولّى عن حكم الله يخرجه عن الإيمان .

قال بعض الزيدية : إذا كره حكم الشرع وطلب حكم المنع ، هل ذلك يخرجه عن حكم الإيمان ؟ وهذا ينبغى أن يفصل فيه ، فيقال : إن اعتقد صحته ، أو رأى له مزية أو تعظيماً ، أو استهان بحكم الإسلام ، فلا إشكال فى كفره . وإن لم يحصل ذلك منه ، بل اعتقد أنه باطل خسيس، وأنه يعظّم شرع الإسلام، ولكن يميل إلى هوى نفسه ، فهذا لا يكفر على الظاهر. إذ الكفر يحتاج إلى دليل قاطع .

وفى كلام الحاكم ما تقدم : أنه يخرجه عن الإيمان . فإن أوهم أنه حق أو أنه أصلح من شرع الإسلام، فهذا محتمل للكفر . لأن كفر إبليس اللعين ، بكونه اعتقد أن أمر الله تعالى له بالسجود لآدم، غير صلاح. لكونه خلقه من طين، وإبليس من النار . انتهى .

ثمّ أشار تعالى إلى حالة اليهود الذين كانوا لا يبالون بالتوراة ويحرّفونها ، ويقتلون النبيين ، بأنهم خالفوا ما أمرهم الله فى شأنها من الهداية بها وصونها عن التحريف ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى » أى : إرشادٌ إلى الحق « وَنُورٌ » أى : إظهار لما انبهَمَ من الأحكام « يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ » من بنى إسرائيل « الَّذِينَ أَسْلَمُوا » أى : الذين كانوا مسلمين من لدن موسى إلى عيسى عليهم السلام . وسنذكر سرّ هـذه الصفة « لِلَّذِينَ هَادُوا » وهم اليهود . و (هاد) بمعنى تاب ورجع إلى الحق .

قال المهايمىّ : (لِلَّذِينَ هَادُوا) أى : لا لمن يأتى بعدهم . ولم يختص بالحكم بها الأنبياء بل يحكم بها « الرَّبَّانِيُّونَ » أى : الزهّاد العبّاد « وَالْأَحْبَارُ » أى: العلماء الفقهاء « بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » أى : بسبب الذى استودعوه من كتاب الله أن يحفظوه من التغيير والتبديل وأن يقضوا بأحكامه . والضمير فى (اسْتُحْفِظُوا) للأنبياء والربانيين والأحبار جميعاً . ويكون الاستحفاظ من الله ، أى : كلفهم حفظه . أو للربانيين والأحبار ، ويكون الاستحفاظ من الأنبياء « وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ » أى : رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه . أوبأنه حق وصدق من عند الله . فعلموا اليهود وعلماؤهم الصالحون لا يفتون ولا يقضون إلا بما لم ينسخ من شريعتهم وما لم يحرف منهـا ، لشيوعه وتداوله وتواتر العمل به .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : قوله تعالى (الَّذِينَ أَسْلَمُوا) صفة أجريت على النبيين على سبيل

المدح . كالصفات الجارية على القديم سبحانه . لا للتفصلة والتوضيح . وأريد بإجرائها التعريض باليهود ، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التى هى دين الأنبياء كلهم فى القديم والحديث ، وأن اليهودية بمعزل منها . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وإنما بعثه على حمل هذه الصفة على المدح دون التفصلة والتوضيح ، أنّ الأنبياء لا يكونون إلّا متّصفين بها . فذكر النبوّة يستلزم ذكرها . فمن ثمّ حملها على المدح ، وفيه نظر . فإن المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة التى يتميّز بها الممدوح عمن دونه . والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء ومتبعيهم كما يتناولهم . ألا ترى أنه لا يحسن فى مدح النبيّ ﷺ أن يقتصر على كونه رجلًا مسلماً ؟ فإن أقل متبعيه كذلك . فالوجه ـ والله أعلم ـ أن الصفة قد تذكر للعظم فى نفسها ولينوّه بها إذا وصف بها عظيم القدر . كما يكون ثبوتها بقدر موصوفها. فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها . وعلى هذا الوصف جرى وصف الأنبياء بالصلاح فى قوله تعالى: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ(١) وأمثاله . تنويهاً بمقدار الصلاح . إذ جُعِل صفةَ الأنبياء . وبعثاً لآحاد الناس على الدأب فى تحصيل صفته . وكذلك قيل فى قوله تعالى : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا(٢) . فأخبر ، عن الملائكة المقربين ، بالإيمان . تعظيماً لقدر الإيمان وبعثاً للبشر على الدخول فيه ، ليساووا الملائكة المقربين فى هذه الصفة . وإلّا فمن المعلوم أن الملائكة مؤمنون ليس إلّا . ولهذا قال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا) يعنى من البشر لثبوت حقّ الأخوة

(١) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

فى الإيمان بين الطائفتين . فكذلك ـ والله أعلم ـ جرى وصف الأنبياء فى هذه الآية بالإسلام تنويهاً به . لقد أحسن القائل فى أوصاف الأشراف ، والناظم فى مدحه عليه الصلاة والسلام:

فلئن مدحتُ محمداً بقصيدتى فلقد مدحتُ قصيدتى بمحمّدِ

والإسلام ، وإن كان من أشرف الأوصاف ، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له ويستحيل عليه ويجوز فى حقه ، إلّا أن النبوّة أشرف وأجلّ ، لاستعمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التى لا تسعها العبارة . فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة فى ذكر الإسلام بعد النبوة ، فى سياق المدح ، لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف فى الكتاب العزيز ، وفى كلام العرب الفصيح ، وهو الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، لا النزول على العكس . ألا ترى أن أبا الطيب(١) كيف تزحزح عن هذا المهيع فى قوله :

شمس ضحاها هلال ليلتها درّ تقاصيرها زبرجدها !

فنزل عن الشمس إلى الهلال ، وعن الدر إلى الزبرجد فى سياق المدح . فمضغت الألسن عرض بلاغته ، ومزقت أديم صيغته . فعلينا أن نتدبّر الآيات المعجزات ، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوّها فى البلاغة المعهود لها . والله الموفق .

وقوله تعالى « فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ » قال الزمخشرىّ : نهىٌ للحكام عن خشيتهم غير الله فى حكوماتهم وإدهانهم فيها ، وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطانٍ ظالم ، أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء .

---

(١) من قصيدة مطلعها :

أَهْلًا بدارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُها أَبْعَدُ ما بَانَ عنك خُرَّدُها

يمدح محمد بن عبيد الله العلوىّ المشطَّب .

قال شارحه البرقوقىّ : التقاصير : القلائد التى تعلق على القصرة ، والقصرة أصل العنق. يقول : هو فيما بينهم كالشمس فى النهار ، والهلال فى الليل ، والدر والزبرجد فى القلادة .

أى : هو أفضلهم وأشهرهم ، وبه زينتهم وفخرهم .

وقال أبو السعود : خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات . وأماحكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة . والفاء لترتيب النهى على ما فصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الأنبياء عليهم السلام، ومن يقتدى بهم من الربانيين والأحبار المتقدمين عملاً وحفظاً . فإن ذلك مما يوجب الاجتناب عن الإخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها بأىّ وجهٍ كان . فضلاً عن التحريف والتغيير . ولما كان مدار جراءتهم على ذلك، خشية ذى سلطان أو رغبة فى الحظوظ الدنيوية ، نهوا عن كل منهما صريحاً ، أى إذا كان شأنها كما ذكر فلاتخشوا الناس كائناً من كانوا ، واقتدوا فى مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعهم «وَاخْشَوْنِ» فى مخالفة أمرى والإخلال بحقوق مراعاتها «وَلَا تَشْتَرُوا» أى تستبدلوا « بِآيَاتِى » أى التى فيها ، بأن تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلًا منها « ثَمَنًا قَلِيلًا » من الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، فإنها ـ وإن جلّت ـ قليلة مسترذلة فى نفسها ، لا سيما بالنسبة إلى ما فات عنهم بترك العمل بها « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ » أى كائناً من كان ، دون المخاطبين خاصةً ، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أوليًّا . أى : من لم يحكم بذلك مستهيناً به ، منكراً له كما يقتضيه ما فعلوه اقتضاءً بيّناً « فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » لاستهانتهم به . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير عن الإخلال به أشدّ تحذير . حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى . فكيف وقد انضمّ إليه الحكم بخلافه ؟ لا سيما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه ، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلًا . قاله أبو السعود .

تنبيهات

الأول : فى قوله تعالى (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ) دلالة على أنّ على الحاكم أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

الثانى : فى قوله تعالى (وَلَا تَشْتَرُوا . . .) الخ دلالة على تحريم الرشا على التبديل

وكتمان الحقّ ، وأنّ فِعْلَ ذلك ، لغرضٍ دنيويٍّ من طلب جَاه ، أو مال ـ محرّمٌ .

الثالث : فى قوله (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ . . .) الآية ، تغليظ فى الحكم بخلاف المنصوص عليه ، حيث علق عليه الكفر هنا ، والظلم والفسق بعدُ .

الرابع : ماأخرجه مسلم[١] عن البراء : أن قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) الثلاث الآيات فى الكفار كلها . وكذا ماأخرجه أبو داود عن ابن عباس : أنها فى اليهود خاصة، قريظة والنضير ـ لا ينافى تناولها لغيرهم ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكلمة « مَنْ » وقعت فى معرض الشرط فتكون للعموم .

الخامس : كفر الحاكم بغير ما أنزل بقيد الاستهانة به والجحود له ، هو الذى نحاه كثيرون وأثروه عن عكرمة وابن عباس .

وروى الحاكم وابن أبى حاتم وعبد الرزاق عن ابن عباس وطاوس : أن من لم يحكم بما أنزل الله، هى به كفر، وليس بكفر ينقل عن الملة . كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ونحو هذا روى الثورىّ ، عن عطاء قال: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق . رواه ابن جرير[٢] .

ونقل فى (اللباب) عن ابن مسعود والحسن والنخعىّ : أن هـذه الآيات الثلاث عامة فى اليهود وفى هذه الأمة ، فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله، فقد كفر وظلم وفسق. وإليه ذهب السدّىّ. لأنه ظاهر الخطاب . ثم قال: وقيل : هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عياناً عمدا ، وحكم بغيره . وأما من خفى عليه النص أو أخطأ فى التأويل ، فلا يدخل فى هذا الوعيد .. انتهى .

(١) أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢٨ (طبعتنا) .

(٢) عن ابن عباس : الأثر ١٢٠٥٣و١٢٠٥٤و١٢٠٥٥

وعن طاوس : الأثر ١٢٠٥٢و١٢٠٥٦

وعن عطاء : الأثر ١٢٠٤٧

وقال اسمعيل القاضى فى (أحكام القرآن) : ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا ـ يعنى اليهود ـ واخترع حكما يخالف به حكم الله ، وجعله دينا يعمل به ، فقد لزمه مثل مالزمهم من الوعيد المذكور، حاكما كان أو غيره .

السادس : روى سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكريمات .

أخرج الإمام أحمد[1] عن ابن عباس قال : إن الله أنزل (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ، و(أُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) و(أُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فى الطائفتين من اليهود . وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية حتى ارتضوا أو اصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل قتله الذليلةُ من العزيزة فديته مائة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبىّ ﷺ المدينة. فذلّت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ. ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه وهو فى الصلح . فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً . فأرسلت العزيزة إلى الذليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان فى حيين قط ، دينهما واحد ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، ديةُ بعضهم نصفُ دية بعض ؟ إنا إنما أعطينا كم هذا ضيماً منكم لنا وفَرَقاً منكم. فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك . فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم . ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ! ما محمد بمعطيكم منهم ضعف مايعطيهم منهم . ولقد صدقوا، ماأعطونا هذا إلّا ضيماً منا وقهراً لهم . فدُسّوا إلى محمد من يَخْبُرُ لكم رأيه . إن أعطاكم ماتريدون حكّمتوه ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكّموه . فدَسّوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبُروا لهم رأى رسول الله ﷺ . فلما جاءوا رسولَ الله ﷺ أخبر اللهُ رسوله ﷺ بأمرهم كلِّه وماأرادوا . فأنزل الله تعالى : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٢١٢ (طبعة المعارف) .

ــ إلى قوله ــ الْفَاسِقُونَ . ثم قال : فيهما ، والله ! نزلت ، وإياهم عنى الله عزّ وجلّ . ورواه أبو داود بنحوه .

وروى ابن جرير[١] من طريق أخرى عن ابن عباس قال : إن الآيات فى المائدة قوله : (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ــ إلى ــ الْمُقْسِطِينَ) إنما أنزلت فى الدية فى بنى النضير وبنى قريظة. وذلك أن قتلى بنى النضير، وكان لهم شرف يُؤَدَّى الدية كاملة . وأن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية . فتحاكموا فى ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله ذلك فيهم. فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك ، فجعل الدية فى ذلك سواء . ورواه أحمد وأبو داود والنسائىّ بنحوه .

وروى ابن جرير[٢] أيضاً عن ابن عباس قال : كانت قريظة والنضير . وكانت النضير أشرف من قريظة . فكان إذا قتل القرظىّ رجلًا من النضير قُتِل به . وإذا قتل النضيرىّ رجلًا من قريظة ، وُدِىَ بمائة وسق من تمر . فلما بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتل رجلٌ من النضير رجلًا من قريظة . فقالوا : ادفعوه إليه . فقالوا : بيننا وبينكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ . ورواه أبو داود والنسائىّ وابن حبان والحاكم فى (المستدرك) بنحوه . وهكذا قال قتادة ومقاتل ابن حيان وغير واحد .

وقد روى العوفىّ وعلىّ بن أبى طلحة الوالبىّ عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فى اليهوديين اللذين زنيا ، كما تقدمت الأحاديث بذلك . وقد يكون اجتمع هذان السببان فى وقت واحد . فنزلت هذه الآيات فى ذلك كله ، والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

(١) الأثر رقم ١١٩٧٤ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٩٨٥ من التفسير .

وقد أسلفنا فى (المقدمة) فى بحث سبب النزول، مايزيل الإشكال فى تعدد السبب . فتذكر.

ومما يقوى أن سبب النزول قضية القصاص ـ كما قال ابن كثير ـ قوله تعالى بعد ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا » أى : فرضنا على اليهود فى التوراة « أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » أى: مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق « وَالْعَيْنَ » مفقوءة « بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ » مجدوع « بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ » مقطوعة « بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ » مقلوعة « بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » أى : ذات قصاص ، أى : يقتص فيها إذا أمكن . كاليد والرجل والذكر ونحو ذلك وإلا ـ ككسر عظم وجرح لحم مما لا يمكن الوقوف على نهايته ـ فلا قصاص ، بل فيه حكومة عدل .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية مما وُبِّخَت به اليهود أيضاً وَقُرِّعت عليه . فإن عندهم فى نص التوراة أن النفس بالنفس . وقد خالفوا حكم ذلك عمداً وعناداً. فأقادوا النضرىّ من القرظىّ ، ولم يُقيدوا القرظىّ من النضرىّ. وعدلوا إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزانى المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً . وقال ـ ههنا ـ فى تتمة الآية (فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر

الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه . فخالفوا وظلموا ، وتعدوا على بعضهم بعضاً. أفاده ابن كثير .

الثانى ـ قوله تعالى (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ) والمعطوفات بعده، كلها قرئت منصوبة ومرفوعة ، والرفع للعطف على محل (أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) لأن المعنى : وكتبنا عليهم النفس بالنفس ، إما لإجراء (كتبنا) مجرى (قلنا) وإما لأن معنى الجملة التى هى قولك (النَّفْسُ بِالنَّفْسِ) مما يقع عليه (الكتب) كما تقع عليه (القراءة) ، تقول : كتبت الحمد لله ، وقرأت سورة أنزلناها. ولذلك قال الزجاج : لو قرىء (إِنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) بالكسر لكان صحيحاً . كذا فى (الكشاف). وقد توسع الخفاجىّ فى (العناية) فى بحث الرفع ـ هنا ـ على عادته فى النحويات. فانظره إن شئت .

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذىّ[1] والحاكم عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ) نصب النفس ورفع العين . قال الترمذىّ : حسن غريب . وقال البخارىّ : تفرد ابن المبارك بهذا الحديث .

الثالث : استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا ـ إذا حكى مقرراً ولم ينسخ ؛ كما هو المشهور عن الجمهور ، وكما حكاه الشيخ أبو إسحق الأسفراينىّ عن نص الشافعىّ وأكثر أصحابه ـ بهذه الآية. حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنايات عند جميع الأئمة . وقال الحسن البصرىّ : هى عليهم وعلى الناس عامة . رواه ابن أبى حاتم . وقد حكى الإمام أبو منصور بن الصباغ فى كتابه (الشامل) اجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على مادلت عليه .

الرابع : قال ابن كثير :

احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة . بعموم هذه الآية الكريمة . وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائىّ وغيره ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٣ ـ كتاب القراءات ، ١ ـ حدثنا على بن حجر .

كتب فى كتاب عمرو بن حزم[١] : أن الرجل يقتل بالمرأة .

(١) هذه حكاية الكتاب الذى كتبه سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ إلى عمرو ابن حزم :

ذكر منه الإمام مالك فى الموطأ : ١٥ ـ كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، الحديث رقم ١ (طبعتنا) قوله : أن لا يمسّ القرآنَ إلا طاهر .

وفى : ٤٣ ـ كتاب العقول ، حديث رقم ١ (طبعتنا) أخرج منه هذه القطعة :

أن فى النفس مائةً من الإبل، وفى الأنف إذا أُوعِىَ جَدْعا مائةٌ من الإبل ، وفى المأمومة ثلث الدية ، وفى الجائفة مثلها ، وفى العين خمسون ، وفى اليد خمسون ، وفى الرجل خمسون ، وفى كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل ، وفى السنّ خمس ، وفى المُوضِحة خمس .

وذكر الإمام السيوطىّ فى (تنوير الحوالك) ما يأتى :

(عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم أنه فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو ابن حزم أنه لا يمس القرآن إلا طاهر) قال الباجىّ : هذا أصل فى كتابة العلم وتحصينه فى الكُتُب .

وقال ابن عبد البرّ : لا خلاف عن مالك فى إرسال هذا الحديث . وقد روى مسنداً من وجه صالح . وهو كتاب مشهور عند أهل السير . معروف عند أهل العلم معرفة يستغنى بها فى شهرتها عن الإسناد ، لأنه أشبه المتواتر فى مجيئه، لتلقى الناس له بالقبول .

قلت (أى السيوطىّ) : أخرج البيهقىّ فى (دلائل النبوة) من طريق ابن إسحاق . قال : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن أبيه أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا ، الذى كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن ، يفقّه أهلها ويعلّمهم السنة ويأخذ صدقاتهم . فكتب له كتاباً وعهداً وأمره فيه أمره . فكتب ... الخ (ثم ساقه السيوطىّ) .

=

= قال البيهقيّ : وقد روى سلمان بن داود عن الزهريّ عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده هذا الحديث موصولا بزيادات كثيرة فى الزكوات والديات وغير ذلك، ونقصان عن بعض ما ذكرناه .

قلت (أى السيوطىّ) : وسأسوقه فى كتاب (العقول) .

وفى كتاب (العقول) لم يسقه ، كما وعد هنا .

وقال الزرقانىّ عند ذكر القطعة التى رواها الإمام مالك فى (العقول) ما يأتى :

وهو كتاب جليل فيه أنواع كثيرة من الفقه فى الزكاة والديات والأحكام وذكر الكبائر والطلاق والعتاق وأحكام الصلاة فى الثوب الواحد والاحتباء فيه ، ومس المصحف وغير ذلك .

وأخرجه النسائىّ وابن حبان موصولا من طريق الزهرىّ عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا فيه الفرائض والسنن والديات وبعث به مع عمرو بن حزم . فقدم به إلى اليمن . وهذه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبىّ إلى شرحبيل بن عبد كلال ، والحارث بن عبد كلال. ونعيم بن عبد كلال ، قيل ذى رعين ومعافير وهمدان . أما بعد. فذكر الحديث بطوله.

أقول : وقد بحثت عن هذا الكتاب الجليل ، كى أثبته بتمامه فى هذا التفسير الجليل ، حتى عثرت عليه فى سيرة ابن هشام ، التى لخصها من سيرة ابن إسحاق ، بالصفحة ٩٦١ (طبعة جوتنجن) وبالصفحة ٢٤١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

ووقفت عليه أيضا فى سنن النسائىّ ، فى : ٤٥ ـ كتاب القسامة ، ٤٧ ـ باب حديث عمرو بن حزم فى العقول واختلاف الناقلين له .

وها نحن نسوقه بسنده كما رواه الإمام النسائىّ :

أخبرنا عمرو بن منصور قال : حدثنا الحكم بن موسى ، قال : حدثنا يحيى بن حمزة عن سليمان بن داود قال: حدثنى الزهرىّ عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده: =

= أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا فيه الفرائض والسنن والديات . وبعث به مع عمرو بن حزم . فقرئت على أهل اليمن . وهذه نسختها :

« من محمد النبيّ ﷺ إلى شُرَحْبِيل بن عبد كُلال ، و نُعَيْم بن عبد كُلال ، والحارث بن »
« عبد كُلَال ، قَيْلِ ذى رُعَيْنٍ ومُعَافِرَ وهَمْدَان . أما بعد »

وكان فى كتابه :

« أن من اعتبط مؤمنا قَتْلا عن بينة ، فإنه قَوَدٌ . إلا أن يرضى أولياء المقتول . وأن »
« فى النفس الدية مائةً من الإبل . وفى الأنف إذا أُوعِب جَدْعُهُ الديةُ . وفى اللسان الديةُ . »
« وفى الشفتين الديةُ . وفى البيضتين الديةُ . وفى الذَّكَر الديةُ . وفى الصُّلْب الديةُ . وفى »
« العينين الديةُ . وفى الرجل الواحدة نصف الدية . وفى المأمومة ثُلُثُ الدية . وفى الجائفة »
« ثلث الدية . وفى المُنَقِّلة خمس عَشْرَة من الإبل . وفى كل أصبع من أصابع اليد والرجل »
« عشر من الإبل . وفى السنّ خمس من الإبل . وفى المُوضِحَة خمس من الإبل . »
« وأن الرجل يقتل بالمرأة . وعلى أهل الذهب ألف دينار . »

خالفه محمد بن بكّار بن هلال .

أخبرنا الهيثم بن مروان بن الهيثم بن عمران العَنَسِيّ قال : حدثنا محمد بن بكّار بن بلال . قال : حدثنا يحيى . قال : حدثنا سليمان بن أرقم . قال: حدثنى الزهرىّ عن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بكتاب ، فيه الفرائض والسنن والديات . وبعث به مع عمرو بن حزم. فقرئ على أهل اليمن . هذه نسخته . فذكر مثله ، إلا أنه قال :

« وفى العين الواحدة نصف الدية . وفى اليد الواحدة نصف الدية . وفى الرجل الواحدة »
نصف الدية» .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا أشبه بالصواب ، والله أعلم . =

= وسليمان بن أرقم متروك الحديث .

وقد روى هذا الحديثَ يونُسُ عن الزهريّ مرسلا :

أخبرنا أحمد بن عمرو بن السرح . قال : حدثنا ابن وهب . قال : أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال : قرأتُ كتاب رسول الله ﷺ ، الذى كتبه لعمرو بن حزم ، حين بعثه على نجران .

وكان الكتاب عند أبى بكر بن حزم .

فكتب رسول الله ﷺ :

« هذا بيان من الله ورسوله . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . »

وكتب الآيات منها حتى بلغ : إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . ثم كتب :

« هذا كتاب الجراح ، فى النفس مائة من الإبل » نحوه .

أخبرنا أحمد بن عبد الواحد . قال : حدثنا مروان بن محمد . قال : حدثنا سعيد ، وهو ابن عبد العزيز ، عن الزهريّ قال : جاءنى أبو بكر بن حزم بكتاب فى رقعةٍ من أدمٍ ، عن رسول الله ﷺ :

« هذا بيان من الله ورسوله . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . »

فتلا منها آيات . ثم قال :

« فى النفس مائة من الإبل . وفى العين خمسون . وفى اليد خمسون . وفى الرجل خمسون . »

« وفى المأمومة ثلث الدية . وفى الجائفة ثلث الدية . وفى المنقِّلة خمسَ عشرةَ فريضة . »

« وفى الأصابع عشرٌ عشرٌ . وفى الأسنان خمسٌ خمسٌ . وفى المُوضِحَةِ خمس » .

قال الحارث بن مسكين ، قراءة عليه وأنا أسمع ، عن ابن القاسم . قال : حدثنى مالك عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : الكتابُ الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم فى (العقول) : =

وفى الحديث الآخر[١]: المسلمون تتكافأ دماؤهم. وهذا قول جمهور العلماء . وعن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، وحكى عن الحسن وعثمان البستىّ، ورواية عن أحمد ؛ أن الرجل إذا قتل المرأة لايقتل بها، بل تجب ديتها . وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية ، على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمىّ ، وعلى قتل الحرّ بالعبد . وقد خالفه الجمهور فيهما . ففى (الصحيحين)[٢] عن أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن فى النفس مائة من الإبل . وفى الأنف ، إذا أُوعِىَ جَدْعاً ، مائة من الإبل . »
« وفى المأمومة ثلث النفس . وفى الجائفة مثلها . وفى اليد خمسون . وفى العين خمسون . »
« وفى الرجل خمسون . وفى كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل . وفى السن خمس . »
« وفى المُوضِحَةِ خمس. »

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ١١ ـ باب أَيُقَادُ المسلم بالكافر ؟ ، حديث ٤٥٣٠ ونصه . عن قيس بن عباد قال : انطلت أنا والأشتر إلى علىّ عليه السلام . فقلنا : هل عهد إليك رسول ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا . إلا مافى كتابى هذا . قال ، فأخرج كتابا من قراب سيفه ، فإذا فيه « المؤمنون تَكَافَأُ دماؤهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ألا لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، من أحدث حدثا فعلى نفسه . ومن أحدث حدثا أوآوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم ، حديث ٩٥ ، ونصه :

عن أبى جحيفة قال ، قلت لعلىّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : إلّا كتابُ الله ، أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة .

قال: قلت: فما فى هذه الصحيفة؟ قال « العقل، وفِكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر» ولم يخرج مسلم هذه القطعة .

لا يقتل مسلم بكافر . وأما العبد ، ففيه عن السلف آثار متعددة . إنهم لم يكونوا يُقيدون العبدمن الحرّ ، ولا يقتل حرّ بعبد . وجاء فى ذلك أحاديث لا تصح . وحكى الشافعىّ الإجماع. على خلاف قول الحنفية فى ذلك . انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية مشروعية القصاص فى النفس والأعضاء والجروح بتقدير شرعنا . كما قال صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس[٣] : كتاب الله القصاص ؛ واستدل بعموم (النفس بالنفس) من قال بقتل المسلم بالكافر ، والحرّ بالعبد ، والرجل بالمرأة . وأجاب ابن الفرس بأن الآية أريدبها الأحرار المسلمون . لأن اليهود المكتوب ذلك عليهم فى التوراة كانوا ملةً واحدة ليسوا منقسمين إلى مسلم وكافر ، وكانوا كلهم أحراراً لا عبيدَ فيهم . لأن عقد الذمة والاستعباد إنما أبيح للنبىّ صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء . لأن الاستعباد من الغنائم . ولم تحلّ لغيره . وعقد الذمة لبقاء الكفار . ولم يقع ذلك فى عهد نبىّ . بل كان المكذبون يهلكون جميعاً بالعذاب . وأخّر ذلك فى هذه الأمة رحمة . وهذا جواب مبين .

وقوله (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) استدل به فى كل جرحٍ قيل بالقصاص فيه ـ كاللسان والشفة وشجاج الرأس والوجه وسائر الجسد ـ وعلى أن نتف الشعر والضرب لا قصاص فيه ، إذ ليس بجرح . انتهى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ٨ ـ باب الصلح فى الدية ، حديث ١٣٠٦ ونصه :

عن أنس أن الرُّبَيِّع ، وهى ابنة النضر ، كسرت ثنيَّة جارية . فطلبوا الأَرْش . وطلبوا العفوا فأبوا . فأتوا النبىّ ﷺ فأمرهم بالقصاص .

فقال أنس بن النضْر : أَتُكْسَرُ ثنيَّة الرُّبَيِّع ؟ يا رسول الله ! لا . والذى بعثك بالحق! لا تكسر ثَنِيَّتُها . فقال « يا أنس ! كتابُ الله القصاص » .

فرضى القوم وعفوا .

فقال النبىّ ﷺ « إن من عباد الله ، مَنْ لو أقسم على الله لأبرَّهُ » .

وقال بعض الزيدية فى (تفسيره) : مذهب أئمة أهـل البيت ومالك والشافعىّ ؛ أنه لا يقتل المسلم بالـكافر . وقال أبو حنيفة : يقتل به . لا بالحربىّ ولا بالمستأمن من الحربيين أخذاً بعموم الآية . قلنا : هى مخصصة بقوله فى سورة الحشر : لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ . وهـذا يقتضى نفى المساواة عموماً . قالوا : أراد (فى الآخرة) . قلنا : قال الله : وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا[1] . قالوا: ليس هذا على عمومه فإن له أخذ الدَّين منه، وذلك سبيل . قلنا : قال صلى الله عليه وسلم[2] : لا يقتل مؤمن بكافر. فعمّ . قالوا : أراد بكافر حربىّ . بدليل أن فى آخر الخبر : ولا ذو عهد فى عهده . والمعنى : لايقتل المؤمن ولا الـكافر الذى عوهد، بالـكافر الذى لا عهد له . قلنا : قدتمت الجملة الأولى وهى قوله عليه السلام : لا يقتل المؤمن بـكافر . وأما قوله : ولا ذو عهد فى عهده ، فهذه جملة أخرى . يريد : لا يقتل ما دام فى العهد . مع أن الحديث إن احتمل أنها جملة واحـدة فالمراد : لا يقتل مؤمن بأحد من الـكفار عموما . وكذلك المعاهد لايقتل بأحد من الـكفار عموماً . فقامت الدلالة على أن المعاهد ، يقتل ببعض الـكفار . وبقى المؤمن على عمومه . وما قلنا مروىّ عن علىّ عليه السلام وعمر وعثمان وزيد بن ثابت . وقد رجع عمر إلى هذا لما أنـكر عليه علىّ عليه السلام وزيد . وهذه المخصصات تخصص ماورد من العمومات فى هذه المسألة. انتهى .

---

(١) [٤ / النساء/ ١٤١] ونصها : الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٠٠٨ .

الخامس : ـ عموم قوله تعالى (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ) كعموم قوله تعالى (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) فما خصص ذلك العام ، خصصه هنا ، لكن ننبه على أطراف :

منها ـ : أن اليسرى لا تؤخذ باليمنى ، والوجه عدم المساواة .

ومنها ـ : عين الأعور تؤخذ بعين الصحيح على ما نصه فى (الأحكام) ، وإليه ذهب أبو حنيفة والشافعىّ لعموم الآية . وقال فى (المنتخب) ومالك : لا تؤخذ ، لأن نورها أكثر فتطلب المساواة . واحتجوا بأنه مروىّ عن علىّ عليه السلام وعمر وابن عمر وعثمان؛ قال فى (الشرح) : وكان الإمام يحيى لا يصحح هذه الرواية عن علىّ عليه السلام .

ومنها ـ : فى كيفية القصاص . فإن قلعت العين ثبت القصاص بالقلع . وإن ضرب حتى ذهب بصره ثبت القصاص . قال فى (التهذيب) : فقيل: بالقلع. وقيل: تحمى حديدة ثم تقرب من عينه .

وأما قوله تعالى (وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ) فالكلام فى عمومه كما تقدم . ويذكر هنا تنبيه ، وهو أن القصاص إنما يكون إذا استؤصلت . لأن ذلك كالمفصل ، لا إذا قطع بعضها .

والعموم فى قوله تعالى (وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ) أيضاً كما تقدم . والقصاص : إذا قطعت من أصلها لا إذا قطع البعض . ولا تؤخذ أذن الصحيح بأذن الأصمّ .

وكذا عموم قوله تعالى (وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ) والقصاص : إذا قلع من أصله . ولا بد من المساواة . فلا يؤخذ الصحيح بالأسود ولا بالمكسور . ولا الثنية بالضرس . ونحو ذلك . كما لا تؤخذ اليمنى باليسرى .

وأما قوله تعالى (وَالْجُرُوحَ) فهذا فيما تُمْكِنُ فيه المساواة ، ويؤمن على النفس لتحرج الأمة .

كذا فى (تفسير بعض الزيدية) . وتتمة فقه هذه الآية يرجع فيه إلى مطولات كتب السنة وشروحها .

وقوله تعالى « فَمَنْ تَصَدَّقَ » أى : من المستحقين « بِهِ » أى : بالقصاص . أى : فمن عفا عن الجانى . والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة فى الترغيب « فَهُوَ » أى : التصدق « كَفَّارَةٌ لَهُ » أى : للمتصدق يكفر الله بها ذنوبه . وقيل : فهو كفارة للجانى ، إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه . وهـذا التأويل الثانى روى عن كثير من السلف . كما أخرجه ابن أبى حاتم . واللفظ محتمل . إلّا أن الأخبار الواردة فى فضل العفو تشهد للأول .

روى الإمام أحمد(١) عن الشعبىّ ؛ أن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مامن رجل يجرح فى جسده جراحة فيتصدق بها إلّا كفّر الله عنه مثل ماتصدّق به. ورواه النسائىّ أيضاً .

وروى الإمام أحمد(٢) عن رجل من أصحاب النبىّ ﷺ قال: من أصيب بشىء من جسده فتركه لله ، كان كفارة له .

وروى الإمام ابن جرير(٣) عن أبى السفر قال: دفع رجل من قريش رجلًا من الأنصار ، فاندقّت ثنيّته . فرفعه الأنصارىّ إلى معاوية . فلما ألحّ عليـه الرجل قال معاوية : شأنك وصاحبك . قال ، وأبو الدرداء عنـد معاوية . فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلمٍ يصاب بشىء من جسده ، فيهبه ، إلّا رفعه الله به درجةً وحطّ عنه به خطيئة . فقال الأنصارىّ : أنت سمعتَه من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعتْه أذناى ووعاه قلبى. فخلّى سبيل القرشىّ . فقال له معاوية : مروا له بمال .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) لم أهتد إلى هذا الحديث .

(٣) الأثر رقم ١٢٠٨٠ من التفسير .

ورواه الإمام أحمد(١) أيضاً عن أبي السفر قال: كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار. فاستعدى عليه معاوية. فقال القرشيّ : إن هذا دق سني ، فقال معاوية : كلّا . إنا سنرضيه . قال فلما ألح عليه الأنصاريّ ، قال معاوية : شأنك بصاحبك ـ وأبو الدرداء جالس ـ فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مامن مسلم يصاب بشيء من جسده ، فيتصدق به ، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه بها خطيئة. قال فقال الأنصاريّ: ءأنت سمعت هـذا من رسول الله ﷺ قال: نعم. سمعته أذناي ووعاه قلبي. يعني فعفا عنه الأنصاريّ. وهكذا رواه الترمذيّ وقال : غريب ، ولا أعرف لأبي السـفر سماعاً من أبي الدرداء .

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لأنهم حكموا بخلاف حكم الله العدل . وتقدم في أول التنبيهات الخمس ، قريباً ، سرّ التعبير ههنا بـ (الظالمون) وقبله بـ (الـكافرون) فتذكّر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

« وَقَفَّيْنَا » أي أتبعنا « عَلَىٰ آثَارِهِمْ » يعني أنبياء بني إسرائيل « بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » أي: أرسلناه عقبهم « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ » أي : مؤمناً بها حاكما بما فيها « وَءَاتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى » أي إلى الحق « وَنُورٌ » أي : بيان للأحكام « وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ » أي: لما فيها من الأحكام. وتـكرير ذلك لزيادة التقرير .

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٤٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .
وأخرجه الترمذيّ في : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٥ ـ باب ما جاء في العفو .

قال ابن كثير : أى متبعاً لها غير مخالف لما فيها ، إلا فى القليل . مما بيّن لبنى إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح . أنه قال لبنى إسرائيل : وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . ولهذا كان المشهور من قول العلماء : إن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

« وَهُدًى وَمَوْعِظَةً » أى : زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم « لِلْمُتَّقِينَ » أى : لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه . وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين ، لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ » أمر مبتدأ لهم ، بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها : دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام ، وشواهد نبوّته . وقيل : هو حكاية للأمر الوارد عليهم . بتقدير فعلٍ مَعْطوف على (ءَاتَيْنَاهُ) : وقلنا ليحكم أهل الإنجيل . وقرئ (وليحكمَ) بالنصب على أن اللام (لام كى) أى : آتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به فى زمانهم .

قال بعض المحققين : وإنما خص أهل الإنجيل بالذكر ، لبيان أن الإنجيل لم ينزله الله للأمم كافة وأن شريعته ليست باقية لكل زمان . لأن بعثة عيسى عليه السلام كانت خاصة بالأمة اليهودية.

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى : الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحقّ .

تنبيه :

فى هذه الآية والآيتين المتقدمتين ، من الوعيد ما لا يقادر قدره . وقد تقدم أنّ هذه الآيات ، وإن نزلت فى أهل الكتاب ، فليست مختصة بهم . بل هى عامة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ويدخل فيه السبب دخولًا أوليًّا .

وفى (فتح البيان) فى تفسير هذه الآيات ، مباحث نادرة سابغة الذيل . فلتراجع .

ولما ذكر تعالى التوراة التى أنزلها على موسى كليمه ، وأثنى عليها وأمر باتباعها ، ثم ذكر الإنجيل ومدحه وأمر باتباعه ـ شرع فى التنويه بالقرآن العظيم الذى أنزله على رسوله الكريم، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » أى: الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق. لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوىّ . وتفوّقه على بقية أفراده ، وهو القرآن الكريم . فاللام للعهد . أفاده أبو السعود .

« بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ » بيان لـ (ما) . و (اللام) للجنس . يعنى : أنه يصدّق جميع الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه من قبله. وإنما قيل (لما قَبْلَ الشىء) : هو بين يديه ، لأن ما تأخر عنه

يكون وراءه وخلفه . فما تقدم عليه يكون قدامه وبين يديه « وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ » أى : مؤتمناً عليه وشهيداً وحاكماً على ما قبله من الكتب .

قال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حقّ ، وما خالفه منها فهو باطل .

« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ » أى : بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك « بِمَا أَنْزَلَ اللهُ » أى : بما بيّن الله لك فى القرآن .

قال فى (الإكليل) : هــذا ناسخ للحكم بكل شرع سابق . ففيه أنّ أهل الذمة إذا ترافعوا إلينا يحكم بينهم بأحكام الإسلام ، لا بمعتقدهم . ومن صور ذلك عدم ضمان الخمر ونحوه. انتهى .

« وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ » نهى أن يحكم بما حرفوه أو بدّلوه اعتماداً على قولهم . ضمّن (وَلَا تَتَّبِعْ) معنى (ولا تنحرف) فلذا عدى بـ (عن) فكأنه قيــل : ولا تنحرف عما جاءك من الحقّ متبعاً أهواءهم . أو التقدير : عادلًا عمّا جاءك .

« لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً » أى : شريعة موصلة إلى الله « وَمِنْهَاجاً » أى : طريقاً واضحاً فى الدين ، تجرون عليه .

قال ابن كثير : هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام ، المتفقة فى التوحيد . كما ثبت فى (صحيح البخارى)[1] عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات. ديننا واحد. يعنى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة . والأنبياء إخوةٌ لِعلّاتٍ ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

بذلك ، التوحيدَ الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله . كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(١) . وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ(٢) ... الآية .

وقال أبو السعود : قوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) كلام مستأنف جئ به لحمل أهل الكتابين ، من معاصريه عليه الصلاة والسلام ، على الانقياد لحكمه بما أنزل إليه من القرآن الكريم ، ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين ، وإنما الذى كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة . والخطاب بطريق التلوين والالتفات للناس قاطبة، لكن لا للموجودين خاصة، بل للماضين أيضا بطريق التغليب . والمعنى: لكل أمة كائنة منكم ، أيها الأمم الباقية والخالية ، جعلنا ـ أى عيّنا ووضعنا ـ شرعة ومنهاجاً خاصيْن بتلك الأمة . لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عيّنت لها . فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة . والتى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبيّ عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الإنجيل . وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القرآن ليس إلّا . فآمنوا به واعملوا بما فيه .

وفى (الإكليل) : استدلّ بهذه الآية من قال : إنّ شرع من قبلنا ليس بشرع لنا . وبقوله : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ... الآية ، من قال : إنه شرع لنا مالم يردْ ناسخ . واستدلّ بالآية أيضاً من قال : إن الكفر ملل لا ملة واحدة ، ولم يورّث اليهود من النصارى شيئاً . انتهى.

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

قال النسفيّ : ذكر الله إنزال التوراة على موسى عليه السلام . ثم إنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام . ثم إنزال القرآن على محمد ﷺ . وبيّن أنه ليس للسماع فحسب ، بل للحكم به . فقال في الأول : (يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ) وفي الثاني . (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ) وفي الثالث : (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أي : جماعة متفقة على شريعة واحدة « وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » متعلق بمحذوف يستدعيه النظام . أي : ولكن جعلكم أمماً مختلفة ليختبركم فيما أعطاكم من الشرائع المختلفة . هل تتركون ما ألفتم منها لِمَا أحدث منها مذعنين له ، معتقدين أن خلافه لها بمقتضى المشيئة الإلهية المبنية على أساس الحكم البالغة ، والمصالح النافعة لكم في المعاش والمعاد ؟ أو تزيغون عن الحق ، وتتبعون الهوى ، وتستبدلون المضرة بالجدوى ، وتشترون الضلالة بالهدى ؟وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرد الابتلاء . بل العمدة في ذلك ما أشير إليه من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً ، كما ينبىء عنه قوله تعالى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » أي : إذا كان الأمر كما ذكر ، فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين من العقائد الحقة والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم ، وابتدروها انتهازاً للفرصة وإحرازاً لسابقة الفضل والتقدم . ففيه من تأكيد الترغيب في الإذعان للحق ، وتشديد التحذير عن الزيغ ، ما لا يخفى . أفاده أبو السعود .

وقوله : « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً » استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد . أي : مصيركم ومعادكم ـ أيها الناس ـ إليه يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أي : فيخبركم بما لا تشكّون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم ومبطلكم ، وعاملكم ومفرّطكم في العمل . كذا في (الكشاف) .

فالإنباء مجاز عن المجازاة ، وإنما عبر عنها به ، لوقوعها موقع إزالة الاختلاف التي هي وظيفة الإنباء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٩] (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ » عطف على (الكتاب) أى : أنزلنا إليك الكتاب والحكم بما فيه . أو على (الحق) أى : أنزلناه بالحق وبـ (أن احكم) ويجوز أن يكون جملة ، بتقدير : وأمرنا أن احكم . وفى التعرض لعنوان إنزاله تعالى إياه ، تأكيد لوجوب الامتثال ، وتمهيد لما يعقبه من قوله « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ » أى : يصرفوك عنه . وإظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب . كإعادة (ما أنزل الله) « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى : عن الحكم المنزل وأرادوا غيره « فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ » يعنى بذنب التولّى عن حكم الله ، وإرادة خلافه ، فوضع (ببعض ذنوبهم) موضع ذلك . وأراد : أن لهم ذنوباً جمة كثيرة العدد . وأن هـذا الذنب ـ مع عظمه ـ بعضها وواحد منها . . وهـذا الإبهام لتعظيم التولى ، واستسرافهم فى ارتكابه ، ونحو (البعض) فى هذا الكلام ما فى قول لبيد[1]

(١) هو البيت السادس والخمسون من معلقته التى مطلعها :

عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فمُقَامُها ... بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُها

وقال التبريزىّ ، فى شرح البيت المستشهَد به :

يقول : أترك الأمكنة إذا رأيت فيها ما يُكره . إلا أن يدركنى الموت فيحبسنى . وأراد بـ (النفوس) نفسه .

(أو يرتبطْ بَعْضَ النفوس حِمَامُهَا ..!) أراد نفسه ، وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام . كأنه قال : نفساً كبيرة ونفساً أىّ نفس . فكما أن التنكير يعطى معنى التكبير وهو معنى البعضية ، فكذلك إذا صرح بالبعض . كذا فى (الكشاف) .

وفى (الحواشى) : ومثل هذا قوله تعالى : وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ[1] أراد محمداً ﷺ ؛ وقيل : ذلك من الخصوص الذى أريد به العموم ؛ وقيل : أراد العذاب فى الدنيا . وأما فى الآخرة فإنه يعذب بجميع الذنوب . ولقد تلطف القائل :

وأقول بعض الناس عنك كناية * خوفَ الوشاة، وأنت كلُّ الناس .

« وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ » أى : لمتمردون فى الكفر معتدون فيه ؛ وهذا تسجيل عليهم بالمخالفة . يعنى : إن التولّى عن حكم الله من التمرد العظيم والاعتداء فى الكفر. والجملة اعتراض تذييلىّ مقرر لمضمون ما قبله . ونظيرها قوله تعالى : وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ[2] وقوله تعالى : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ[3] .

روى ابن جرير[4] وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد ، وابن صلوبا ،

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٣] ونصها : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١١٦] . . . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

(٤) الأثر رقم ١٢١٥٠ من التفسير .

وعبد الله بن صوريا ، وشاس بن قيس ؛ بعضُهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه . فأتوه فقالوا : يامحمد ! إنك قد عرفت أنّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم . وأنا ـ إن اتبعناك ـ اتبعنا يهودُ ، ولم يخالفونا . وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك ، فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك . فأبى ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ » أى : يريدون منك .

قال أبو السعود : إنكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم . و (الفاء) للعطف على مقدر يقتضيه المقام . أى : أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية . وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب . لأن التولّى عن حكمه عليه الصلاة والسلام ، وطلب حكم آخر ، منكر عجيب . وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب . والمراد بـ (الجاهلية) إمّا الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى، الموجبة للميل والمداهنة فى الأحكام، فيكون تعييراً لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم، يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لايصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحى . وإما أهل الجاهلية ، وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى . انتهى .

« وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا » أى : قضاءً « لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى : ينظرون بنظر اليقين إلى العواقب . والاستفهام إنكار لأن يكون أحدٌ حكمُه أحسنَ من حكمه تعالى أو مساوياً له .

قال ابن كثير : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم ـ المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شرّ ـ وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها

الرجال بلا مستند من شريعة الله ؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ؛ وكما يحكم به التتارُ مِنَ السياسات الملكية المأخوذة عن جنكزخان الذى وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها . وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله . فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير . قال الله تعالى : أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ . أى : يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ، (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) أى : ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن ، وعلم أن الله تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ؟ فإنه تعالى هو العالم بكل شىء ، القادر على كل شىء ، العادل فى كل شىء . روى ابن أبى حاتم عن الحسن قال: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية . وكان طاوس إذا سأله رجل : أفضل بين ولدى فى النحل؟ قرأ : أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ .. الآية . وروى الطبرانىّ : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغى فى الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حقٍّ ليريق دمه . ورواه البخارىّ(١) بزيادة. انتهى كلام ابن كثير .

قال بعض مفسّرى الزيدية : اشتمل قوله تعالى : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ .. ـ إلى قوله : وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، على عشرين وجهاً من التأكيد فى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٩ ـ باب من طلب دم امرئ بغير حق ، حديث ٢٥٢٥ ونصه :

عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم ، ومبتغٍ فى الإسلام سنة الجاهلية ، ومُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق ليُهَرِيق دمه » .

ملازمة شريعة نبيّنا ﷺ التي أنزلها الله تعالى ، واختارها الأمته ، واستأثر بكثيرٍ من أسرارها فلم يُطْلِع عليها ، وما أشدّ امتثال ما تضمّنته ؟ وكيف الخروج عن عهدته خصوصاً على الأئمة والحكام ؟ ولن يحصل ذلك حتى يلجم نفسه بلجام الحق ، ويعزل عن نفسه مطالعة الخلق ، لهذه الجملة . لا يقال : إنه صلى الله عليه وسلم معصوم لا يتبع أهواءهم ، فكيف نهى عما يعلم الله أنه لا يفعله ؟ قال الحاكم : ذلك مقدور له ، فيصح النهى وإن علم أنه لا يفعله . وقيل : الخطاب له والمراد غيره . كذلك لا يقال : قوله (فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) يخرج من ذلك القياس . لأن ذلك ـ إن جعل خطاباً له عليه الصلاة والسلام ـ فلم يكن متعبّداً بالقياس . وإن كان خطاباً للكل فالقياس ثابت بالدليل فهو بمثابة المنزل. هكذا ذكر الحاكم. والأكثر : أنه يجوز منه عليه الصلاة والسلام الاجتهاد ، ومنعه آخرون . وقوله تعالى : (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) قد يستدل به على أن الواجبات على الفور . وهو محتمل . لأن المراد قبل أن يسبق عليكم الموت . انتهى .

وفى (الإكليل) : استدلّ به على أن تقديم العبادات أول وقتها أفضل من تأخيرها . انتهى .

وقد روى مسلم[1] عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: أفضل الأعمال الصلاة لوقتها وبرّ الوالدين .

وروى أبو داود[2] والترمذيّ والحاكم عن أم فروة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أفضل الأعمال الصلاة فى أول وقتها .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٩ ـ باب فى المحافظة على وقت الصلوات، حديث ٤٢٦ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ » أى : لايتخذ أحد منكم أحداً منهم وليًّا ، بمعنى : لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم .

قال المهايمىّ : إذا كان تودد أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقصد افتتانه عن بعض ما أنزل الله مع غاية كماله ، فكيف حال من يتودد إليهم من المؤمنين ؟ انتهى .

ووصفهم بعنوان (الإيمان) لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه. فإن تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين ، من أقوى الزواجر عن موالاتهما . « بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » إيماء إلى علة النهى . أى : فإنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضاً لاتحادهم فى الدين . وإجماعهم على مضادتكم . فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم ! ! « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » أى : من جملتهم ، وحكمه حكمهم وإن زعم أنه مخالف لهم فى الدين ، فهو بدلالة الحال منهم لدلالتها على كمال الموافقة .

قال الزمخشرىّ : وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين واعتزاله . كما قال[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تراءى ناراهما . ومنه قول عمر

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٥ ـ باب على ما يقاتل المشركون ، حديث ٢٦٤٥ ونصه :

عن جرير بن عبد الله قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريّة إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود . فأسرع فيهم القتل .

قال ، فبلغ ذلك النبىّ ﷺ فأمر لهم بنصف العقل . وقال « أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله ! لِمَ ؟ قال « لا تراءى ناراهما » .

رضي الله عنه لأبي موسى في كاتبه النصراني: لا تكرموهم إذ أهانهم الله. ولا تأمنوهم إذ خونهم الله . ولا تُدنوهم إذ أقصاهم الله . وروى أنه قال له أبو موسى : (لا قوام للبصرة إلا به) فقال : مات النصراني والسلام . يعني : هب أنه قد مات ، فما كنتَ تكون صانعاً حينئذ ، فاصنعه الساعة واستغن عنه بغيره .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » يعني : الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر . قال . فظنناه يريد هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ... الآية.

ثم بيّن تعالى كيفية تولّيهم . وأشعر بسببه وبما يؤول إليه أمره . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

« فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أي : نفاقٌ وشكٌّ في وعد الله لإظهار دينه « يُسَارِعُونَ فِيهِمْ » أي : في مودتهم في الباطن والظاهر ، من غير نظرٍ فيما يلحقهم من الضرر في دين الله ، والفضيحة بالنفاق « يَقُولُونَ » أي : في عذرهم « نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ » أي : من دوائر الزمان ، وصرف من صروفه ، فتكون الدولة لهم، فنحتاج إليهم، فنحن نتحفّظ عن شرهم . ولا يتفكرون في أن الدائرة ربما تصيب من يوالونهم . والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها . وأصلها : الخط المحيط بالسطح . استعيرت لنوائب الزمان ، بملاحظة إحاطتها واستعمالها في المكروه . و (الدولة) ضدها ، وقد ترد بمعنى (الدائرة) أيضاً ، لكنه قليل . كذا في (العناية) .

ثم ردّ تعالى عِلَلَهُم الباطلة ، وقطع أطماعهم الفارغة ، وبشّر المؤمنين بالظفر بقوله سبحانه « فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ » أي : فتح مكة ، عن السدّيّ . أو فتح قرى اليهود من خيبر وفدك ، عن الضحّاك . وقال قتادة ومقاتل: هو القضاء الفصل بنصره ﷺ على أعدائه، وإظهار المسلمين «أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ» يقطع شأفة اليهود ، ويجليهم عن بلادهم «فَيُصْبِحُوا» أي : المنافقون « عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ » من الشك في ظهور الإسلام ، أو من النفاق « نَادِمِينَ » لافتضاحهم بالنفاق مع الفريقين . وتعليق الندامة بما كانوا يكتمونه ـ لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة ـ لما أنه الذي كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها . فدلّ ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ، أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا » قال الزمخشريّ : قرئ بالنصب عطفاً على (أَنْ يَأْتِيَ) ، وبالرفع على أنه كلام مبتدأ . أي : ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت . وقرئ (يقول) بغير (واو) وهي مصاحف مكة والمدينة والشام كذلك . على أنه جواب قائل يقول : فماذا يقول المؤمنون حينئذ ؟ فقيل : يقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا ؟ (فإن قلت) : لمن يقولون هذا القول ؟ (قلت) : إمّا أن يقوله بعضهم لبعض تعجّباً من حالهم ، واغتباطاً بما منّ الله عليهم من التوفيق في الإخلاص « أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » أي : حلفوا لكم بأغلاظ الأيمان « إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ » أي : إنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار . وإمّا أن يقولوه لليهود ، لأنهم حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة . كما حكى الله عنهم : وَلَئِنْ(١) قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ . أي : فقد تباعدوا عنكم. فيظهر أنهم لم يكونوا مع المؤمنين

---

(١) [٥٩ / الحشر / ١١] .

ولا مع اليهود « حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ » أى : فى الدنيا ، إذْ ظهر نفاقهم عند الـكل . وفى الآخرة ، إذْ لم يبقَ لهم ثواب .

قال الزمخشرىّ : هذه الجملة من قول المؤمنين . أى : بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس ، وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم ! أومن قول الله عز وجلّ ، شهادة لهم بحبوط الأعمال ، وتعجيباً من سوء حالهم .. انتهى .

وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطبين ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول ـ : فى سبب نزول هذه الآيات الـكريمات .

روى عن السدّىّ[1] ، أنها نزلت فى رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحُدٍ : أمَّا أنا فإنى ذاهب إلى ذلك اليهودىّ فأواليه وأتهوّد معه لعله ينفعنى إذا وقع أمر أو حدث حادث . وقال الآخر : وأما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانىّ بالشام فأواليه وأتنصّر معه . فأنزل الله تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ... الآيات .

وقال عكرمة : نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة . فسألوه : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أى : إنه الذبح . رواه ابن جرير[2] .

وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبىّ ، ابن سلول .

روى ابن جرير[3] عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنّ لى موالى من يهود كثير عددهم . وإنى

---

(١) الأثر رقم ١٢١٥٩ من تفسير ابن جرير .

(٢) الأثر رقم ١٢١٦٠ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٢١٥٦ فى التفسير .

أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود . وأتولّى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبىّ : إنى رجل أخاف الدوائر . لا أبرأ من ولاية موالِىّ . فقال رسول الله ﷺ لعبدِ الله بن أُبىّ : يا أبا الحباب ! ما بخلتَ به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه . قال قد قبلت فأنزل الله عز وجلّ : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ... الآيتين .

ثم روى ابن جرير[1] عن الزهرىّ قال : لما انهزم أهل بدر ، قال المسلمون لأوليائهم من يهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيومٍ مثل يوم بدر .. فقال مالك بن صيف : غرّكم إن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال ! أما لو أَمْرَرْنَا العزيمة أن نستجمع عليكم ، لم يكن لكم يدٌ أن تقاتلونا . فقال عبادة بن الصامت : يارسول الله ! إنّ أوليائى من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيرا سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم ، ولا مولَى لِى إلّا اللهُ ورسوله .. فقال عبدالله بن أبىّ : لكنى لا أبرأ من ولاية يهود . إنى رجل لابدَّ لى منهم . فقال رسول الله ﷺ : يا أبا الحباب ! أرأيت الذى نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت ، فهو لك دونه . فقال إذًا أقبل ! قال : فأنزل الله : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ ... ـ إلى قوله ـ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ .

وقال محمد[2] بن إسحق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه . فقام إليه عبد الله بن أبىّ ، ابن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ! أحسن فى موالىّ ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ . فقال : يا محمد ! أحسن فى موالىّ . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : أرسلنى . وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلًا ، ثم

(١) الأثر رقم ١٢١٥٧ من التفسير .

(٢) السيرة بالصفحة رقم ٥١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٥٤٦ (طبعة جوتنجن) .

قال : ويحك ! أرسلني . قال : لا ، والله ! لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ . أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ؟ إنى امرؤ أخشى الدوائر . قال : فقال رسول الله ﷺ : هُمْ لك .

قال محمد[1] بن إسحق : فحدّثنى أبى ، إسحق بن يسار ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبىّ ، وقام دونهم . ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ـ وكان أحد بنى عوف من الخزرج ، لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبىّ ـ فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله عزوجل، وإلى رسوله من حلفهم وقال : يارسول الله! أتولّى الله ورسوله والمؤمنين. وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .. ففيه وفى عبد الله بن أبىّ نزلت الآيات: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

وروى الإمام أحمد[2] عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله ابن أبىّ نعوده، فقال له النبىّ ﷺ : قد كنت أنهاك عن حب يهود. فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات. وكذا رواه أبو داود .

الثانى : قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرات الآية أحكام .

(الأول) ـ أنه لا يجوز موالاة اليهود ولا النصارى . قال الحاكم : والمراد موالاته فى الدين . وجعل الزمخشرىّ الموالاة فى النصرة والمصافاة ، وبيّن وجوب المجانبة للمخالف فى الدين ، كما تقدم. والبعد والمجانبة استحباب، إذ قد جازت المخالطة فى مواضع بالإجماع ، وذلك حيث لا يوهم محبتهم ولا بأنهم على حق .

---

(١) السيرة بالصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٥٤٦ (طبعة جوتنجن) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٠١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(الحكم الثانى) ـ أن للإمام أن يسقط الحدّ إذا خشى ، أو يؤخره. وقد ذكر هذا، الأمير يحيي والراضى بالله والحاكم . وهذا مأخوذ من سبب النزول ، وترك النبيّ ﷺ بنى قينقاع لعبد الله بن أبيّ .

(الحكم الثالث) ـ صحة الموالاة منهم لبعضهم بعضاً . وقد قال علىّ بن موسى القمىّ : الآية تدل على أنهم ملة واحدة: فتصح المناكحة بينهم والموارثة . والمذهب خلاف ذلك. والدلالة على ما ذكر محتملة . لأنها تحتمل أن المراد: بعضهم أولياء بعض فى معاداة المسلمين؛ أو يعنى: بعض اليهود وليًّا لبعض اليهود .

(الحكم الرابع) ـ أن من تولاهم فهو منهم . ولا خلاف فى أنه صار عاصياً لله كما عصوه . ولكن أين تبلغ حد معصيته ؟ وقد اختلف فى ذلك ، فقيل : معنى قوله (فإنه منهم) أى : حكمه حكمهم فى الكفر ، وهذا حيث يقرّهم على دينهم . فكأنه قد رضيه . وقيل: من تولاهم على تكذيب رسول الله ﷺ . وقيل : المراد أنه منهم فى وجوب عداوته والبراءة منه . قال الحاكم : ودلالة الآية مجملة . فهى لا تدل على أنه كافر إلا أن يحمل على الموافقة فى الدين .

(الحكم الخامس) ـ ذكره الحاكم ، أنه لا يجوز الاستعانة بهم . قلنا : ذكر الراضى بالله : أنه ﷺ قد حالف اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب ، وجدد صلى الله عليه وآله الحِلْف بينه وبين خزاعة . حتى كان ذلك سبب الفتح . وكانت خزاعة عَيْبَة نصح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مسلمهم وكافرهم . قال الراضى بالله : وهو ظاهر قول آبائنا عليهم السلام . وقد استعان علىّ عليه السلام بقتلة عثمان . واستعان صلى الله عليه وآله وسلم بالمنافقين . قال الراضى بالله : ويجوز الاستعانة بالفسّاق على حرب المبطلين . فتكون هذه الاستعانة غير موالاة .

التنبيه الثالث ـ فى التفسير المتقدّم مانصه : وفى الآية الكريمة زواجر عن موالاة اليهود والنصارى من وجوه : (الأول) ـ النهى بقوله : لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . وسائرُ الكفار لاحقٌ بهم . (الثانى) ـ قوله تعالى : بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . والمعنى : أن الموالاة من بعضهم لبعضٍ لاتحادهم بالكفر ، والمؤمنون أعلى منهم . (الثالث) ـ قوله تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . وهذا تغليظ وتشديد ومبالغة . مثل قوله صلى الله عليه وآله[1] : لا تراءى ناراهما . ومثل قوله عليه السلام[2]: لا تستضيئوا بنارِ المشركين . (الرابع) ـ ما أخبر الله به أنه لا يهديهم . (الخامس) ـ وصفهم بالظلم ، والمراد : الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار . (السادس) ـ أنه تعالى أخبر أنّ الموالاة لهم من ديدن الذين فى قلوبهم مرض ، أى: شكّ ونفاق . (السابع) ـ ما أخبر الله تعالى به من علة الموالين، وأنّ ذلك خشية الدوائر . لا أنّه بإذنٍ من الله ولا من رسوله . (الثامن) ـ قطع الله لِمَا زينه لهم الشيطان من خشية رجوع دولة الكفر فقال تعالى : فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ . و(عسى) فى حق الله تعالى لواجب الحصول بالفتح لمكة أو لبلاد الشرك . (التاسع) ـ مابشر الله تعالى به من إهانتهم بقوله : أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . قيل : إذلال الشرك بالجزية . وقيل : قتل قريظة وإجلاء النضير . وقيل: أن يورث المسلمين أرضهم وديارهم . (العاشر) ـ ماذكره الله تعالى من الأمر الذى يؤول إليه حالهم ، وأنهم يصبحون نادمين على ما أسرّوا فى أنفسهم

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٠٢٤ .

(٢) أخرجه النسائىّ فى: ٤٨ـ كتاب الزينة ، ٥١ ـ باب قول النبىّ ﷺ « لا تنقشوا على خواتيمكم عربيا » ونصه :

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا على خواتيمكم عربيا » .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

من غشهم للمسلمين ونصحهم للكافرين . وقيل : من نفاقهم . وقيل : من معاقدتهم للكفار ، وذلك حين معاينتهم للعذاب . وقيل : فى الدنيا ، بما صاروا فيه من الذلة والصغار . (الحادى عشر) ـ ما ذكره الله تعالى من تعجب المؤمنين من فضيحة أعداء الله وخبثهم فى إيمانهم بقوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ ... الآية . (الثانى عشر) ـ ما أخبر الله من حالهم بقوله تعالى: حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . قيل : خسروا حظهم من موالاتهم . وقيل : أهلكوا أنفسهم. وقيل : خسروا ثواب الله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » لما نهى تعالى ـ فيما سلف ـ عن موالاة اليهود والنصارى ، وبيّن أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين بقوله : (فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) وقوله : (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) ـ شرع فى بيان حال المرتدين على الإطلاق . ونوّه بقدرته العظيمة . فأعلم أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خيرٌ لها منه ، وأشدّ منعة ، وأقوم سبيلا . كما قال تعالى : وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(١) . وقال تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا

---

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] ونصها : هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ[١] . وقال تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[٢] * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . أي : بممتنع ولا صعب .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى : قال المحققون : هذه الآية من الكائنات التى أخبر عنها فى القرآن قبل كونها . وقد وقع المخبَرُ به على وفقها . فيكون معجزاً . فقد روى أنه ارتدّ عن الإسلام إحدى عشرة فرقة : ثلاث فى عهد رسول الله ﷺ .

(بنو مدلج) ورئيسهم ذو الحمار ـ بحاء مهملة وضبطه بعضهم بالمعجمة ـ وهو الأسود العنسى ـ بالنون نسبة إلى عنس قبيلة باليمن ـ وكان كاهناً ثم تنبأ باليمن ، واستولى على بلاده، وأخرج عمال رسول الله ﷺ ، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. فأهلكه الله على يدى فيروز الديلمىّ . بيّتَهُ فقتله . وأخبر رسولُ الله ﷺ بقتله ليلة قُتِل . فسُرَّ المسلمون . وقُبِضَ رسول الله ﷺ من الغد فى آخر شهر ربيع الأول .

و (بنو حنيفة) قوم مسيلمة[٣] : تنبأ وكتب إلى رسول ﷺ : من مسيلمة رسول الله

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٣] ونصها : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٦و١٧] .

(٣) جاء فى سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) والصفحة ٩٦٥ (طبعة جوتنجن) ما يأتى :

وقد كان مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله ﷺ : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليك . أما بعد ، فإنى قد أُشركتُ فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض . ولكنّ قريشاً قوم يعتدون .

إلى محمد رسول الله . أما بعد فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك . فأجاب عليه الصلاة والسلام: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .. فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين ؛ وقُتِلَ على يَدَىْ وحشىٍّ، قاتل حمزة ، وكان يقول : قتلتُ خير الناس فى الجاهلية ،وشرّ الناس فى الإسلام . أراد : فى جاهليتى وإسلامى .

و (بنو أسد) قوم طليحة بن خويلد : تنبأ فى حياة النبىّ ﷺ ، وكثر جمعه ، ومات

= فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب .

قال ابن إسحاق : فحدثنى شيخ من أشجع ، عن سَلَمَة بن نُعَيم بن مسعود الأشجعىّ، عن أبيه نعيم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما ، حين قرأ كتابه « فما تقولان أنتما؟ » قالا : نقول كما قال . فقال « أما ، والله ! لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » .

ثم كتب إلى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وجاء فى طبقات ابن سعد بالصفحة ٢٧٣ من المجلد الأول (طبعة بيروت) ما يأتى :

قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب ، لعنه الله ، يدعوه إلى الإسلام . وبعث به مع عمرو بن أمية الضمرىّ . فكتب إليه مسيلمة جواب كتابه ، ويذكر فيه أنه نبىّ مثله ، ويسأله أن يقاسمه الأرض ، ويذكر أن قريشاً قوم لا يعدلون . فكتب إليه رسول الله ﷺ ، وقال : العنوه لعنه الله ! وكتب إليه : بلغنى كتابك الكذبُ والافتراء على الله. وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى .

قال ، وبعث به مع السائب بن العوّام ، أخى الزبير بن العوّام .

ﷺ وهو على ذلك . فبعث إليه أبو بكر خالداً رضى الله عنهما فقصده . فانهزم طليحة بعد القتال إلى الشام . ثم أسلم وحسن إسلامه .

وسبعٌ فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :

(فزارة) قوم عُيَيْنَة بن حصن ؛

و (غطفان) قوم قرة بن سلمة القشيرى ؛

و (بنو سليم) قوم الفجاءة بن عبد ياليل ـ بيائين ولا مين كهابيل ـ صنم سمى هذا به .

و (بنو يربوع) قوم مالك بن نويرة .

و (بعض تميم) قوم سجاح بنت المنذر . كانت كاهنة ثم تنبأت وزوجت نفسها مسيلمة الكذاب ثم أسلمت وحسن إسلامها .

و (كندة) قوم الأشعث بن قيس .

و (بنو بكر بن وائل) بالبحرين ، قوم الحطم ـ كزفر ـ بن زيد . وكفى الله أمرهم على يدى أبى بكر رضى الله عنه .

وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه :

(غسان) قوم جبلة بن الأيهم ، نصّرته اللطمةُ وسيَّرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه . والجمهور : على أنه مات على ردته . وقيل : إنه أسلم .

وروى الواقدى[1] : أن عمر رضى الله عنه كتب إلى أحبار الشام ـ لما لحق بهم ـ

(١) وهذا ما جاء فى طبقات ابن سعد ، بالصفحة ٢٦٥ من المجلد الأول (طبعة بيروت): قالوا : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى جبلة بن الأيهم ، ملك غسّان ، يدعوه إلى الإسلام . فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأهدى له هدية . ولم يزل مسلماً حتى كان فى زمن عمر بن الخطاب . فبينما هو فى سوق دمشق إذ وطئ =

كتاباً فيه : أن جبلة ورد إليّ فى سراة قومه ، فأسلم فأكرمته . ثم سار إلى مكة فطاف فوطئ إزارَهُ رجلٌ من بنى فزارة ، فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه . (وقيل: قلع عينه ، ويدل له ما سيأتى) فاستعدى الفزاريّ على جبلة إليّ . فحكمت إما بالعفو أو بالقصاص . فقال: أتقتصّ منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقلت: شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلّا بالعافية.

فسأل جبلةُ التأخيرَ إلى الغد . فلما كان من الليل ركب مع بنى عمه ولحق بالشام مرتدًّا.

وروى أنه ندم على ما فعل وأنشد :

تنصّرتُ بعد الحقّ عاراً للطمةٍ ... ولم يك فيها، لو صبرت لها ، ضرر
فأدركنى فيهـا لجاج حميّـةٍ ... فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... صبرت على القول الذى قاله عمـر

هذا ما فى (الكشاف) و (العناية) .

وقال الخطابيّ أهل الردة كانوا صنفين : صنفاً ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعدلوا إلى الكفر. وهذه الفرقة طائفتان : (إحداهما) أصحاب مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة وغيرهم

= رجلا من مزينة . فوثب المزنيّ فلطمه . فأخذ وانطُلق به إلى أبى عبيدة بن الجراح . فقالوا : هذا لطم جبلة . قال : فليلطمه . قالوا : وما يُقتل ؟ قال : لا . قالوا : فما تقطع يده؟ قال : لا ، إنما أمر الله ، تبارك وتعالى ، بالقوَد . قال جبلة : أو ترون أنى جاعل وجهى ندًّا لوجه جَدْيٍ جاء من عَمْقٍ ! (عمق : أرض لمزينة . اللسان) بئس الدين هـذا ! ثم ارتد نصرانيًّا وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم .

فبلغ ذلك عمر ، فشقّ عليه وقال لحسان بن ثابت : أبا الوليد ! أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانيًّا ؟ قال : إنا لله وإنا إليـه راجعون . ولِمَ ؟ قال : لطمه رجل من مزينة ، قال : وحُقَّ له .

فقام له عمر بالدرّة فضربه بها .

الذين صدقوه على دعواه فى النبوة ، وأصحاب الأسود العنسى ومن استجابه من أهل اليمن . وهـــذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ ، مدعية النبوة لغيره . فقاتلهم أبو بكر حتى قتل مسيلمة باليمامة ، والعنسىّ بصنعاء ، وانفضّت جموعهم وهلك أكثرهم . و(الطائفة الأخرى) ارتدوا عن الدين . فأنـكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين. وعادوا إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية ، فلم يكن يسجد لله فى الأرض إلا فى ثلاثة مساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس .

قال ؛ والصنف الآخر : هم الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فأنـكروا وجوبها ووجوب أدائها إلى الإمام ، وهؤلاء، على الحقيقة ، أهـل البغى وإنمـا لم يدعوا بهذا الاسم فى ذلك الزمن خصوصاً، لدخولهم فى غمار أهل الردة ، وأضيف الاسم فى الجملة إلى أهل الردة، إذ كانت أعظم الأمرين وأهمهما .

انظر تتمة هذا المبحث فى (نيل الأوطار) فى كتاب الزكاة .

قال الشوكانىّ : فأما مانعو الزكاة منهم ، المقيمون على أصل الدين ، فإنهم أهل بغى . ولم يسمَّوا على الانفراد كفاراً ، وإن كانت الردة قد أضيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين فى منع بعض مامنعوه من حقوق الدين ، وذلك أن الردة اسم لغوىّ . فـكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً عليه ، فقد ارتدّ عنه . وقد وجد من هؤلاء القوم الانصراف عن الطاعة ومنع الحق . وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح ، وعلق بهم الاسم القبيح ،لمشاركتهم القوم الذين كان ارتدادهم حقًّا .

الثانية : قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) .

مذهب السلف فى المحبة المسندة له تعالى ، أنها ثابتة له تعالى بلا كيف ولا تأويل ، ولا مشاركة للمخلوق فى شىء من خصائصها . كما تقدم فى الفاتحة فى (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ).

فتأويل مثل الزمخشرىّ لها ـ بإثابته تعالى لهم أحسن الثواب ، وتعظيمهم والثناء عليهم

والرضا عنهم ـ تفسير باللازم ، منزع كلامىّ لاسلفىّ . وقد أنكر الزمخشرىّ أيضاً كون محبة العباد لله حقيقية ، وفسرها بالطاعة وابتغاء المرضاة . فرده صاحب (الانتصاف) بأنه خلاف الظاهر . وهو من المجاز الذى يسمى فيه المسبب باسم السبب ، والمجاز الذى لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها ، فليمتحن حقيقة المحبة لغة بالقواعد ، لينظر : أهى ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة ، لغة ، ميل المتصف بهـا إلى أمر ملذ . واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحسن : كلذة الذوق فى المطعوم ، ولذة النظر واللمس فى الصور المستحسنة ، ولذة الشم فى الروائح العطرة ، ولذة السمع فى النغمات الحسنة ، وإلى لذة تدرك بالعقل : كلذة الجاه والرياسة والعلوم ومايجرى مجراها . فقد ثبت أن فى اللذات الباعثة على المحبة ما لا يدركه إلا العقل دون الحس ، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها ، وإذا تفاوتت المحبة بحب تفاوت البواعث . فلذات العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات ، فليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحقّ . فاللذة الحاصلة فى معرفته تعالى ، ومعرفة جلاله وكماله ، تـكون أعظم . والمحبة المنبعثة عنها تـكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات . فقد تحصّل من ذلك أن محبة العبد

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب أبى حفص القرشىّ العدوىّ رضى الله عنه ، حديث ١٧٣٤ ونصه :

عن أنس رضى الله عنه ؛ أن رجلا سأل النبىّ صلى الله عليـــه وسلم عن الساعة ؟ قال « وماذا أعددت لها ؟ » قال : لا شيء ، إلا أنى أحب الله ورسوله صلى الله عليـــه وسلم . فقال « أنت مع من أحببت » .

قال أنس : فما فرحنا بشيء فرَحَنَا بقول النبىّ ﷺ « أنت مع من أحببت » .

قال أنس : فأنا أحب النبىّ ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم .

ممكنة ، بل واقعة من كل مؤمن ، فهى من لوازم الإيمان وشروطه ، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك ، وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقىّ لغةً ، وكانت الطاعة والموافقات كالمسبب عنها والمغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابىّ[(١)] الذى سأل عن الساعة ؟ فقال النبىّ ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير عمل . ولكن حب الله ورسوله . فقال عليه الصلاة والسلام : أنت مع من أحببت . فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة لله غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابىّ نفاها وأثبت الحب، وأقره عليه الصلاة والسلام على ذلك . ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة فى اللغة ، إذا تأكدت سميت عشقاً ، فمن تأكدت محبته لله تعالى ، وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات فى ذكره وطاعته ـ فلا تمنع أن تسمى محبته عشقاً ، إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة . انتهى .

الثالث : قوله تعالى «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ» .

قال ابن كثير : هذه صفات المؤمنين الكمل ، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه، متعززاً على خصمه وعدوّه ، كما قال تعالى : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ[(١)] .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين ؟ قلت فيه وجهان : (أحدهما) أن يضمن الذل معنى الحنوّ والعطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع .

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً .

و (الثانى) أنهم ـمع شرفهم وعلوّ طبقتهم وفضلهم على المؤمنين ـ خافضون لهم أجنحتهم. وقرئ (أذلةً وأعزةً)بالنصب على الحال .

وفى (الحواشى) : أن قوله تعالى : « أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » تكميل . لأنه لما وصفهم بالتذلل ، ربما توهم أن لهم فى نفسهم حقارة ، فقال : ومع ذلك هم أعزة على الكافرين ، كقوله :

جُلوسٌ فى مجالسهم رِزَانٌ (١) وَإنْ ضَيْفٌ أَلَمَّ بهم خُفُوفٌ

واستدل بالآية على فضل التواضع للمؤمنين والشدة على الكفار .

الرابعة : قوله تعالى : وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

قال الزمخشرىّ : يحتمل أن تكون (الواو) للحال على معنى : أنهم يجاهدون ، وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين ، فإنهم كانوا موالين لليهود . فإذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم ؛ وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط . وأن تكون للعطف على أنّ من صفتهم المجاهدة فى سبيل الله . وأنهم صلاب فى دينهم. إذا شرعوا فى أمر من أمور الدين ـ إنكار منكر أو أمر بمعروف ـ مضوا فيه كالمسامير المحماة ، لا يرعبهم قول قائلٍ ولا اعتراض معترضٍ ولا لومة لائمٍ . يشق عليه جدهم فى إنكارهم وصلابتهم فى أمرهم . و (اللومة) المرّة من اللوم . وفيها وفى التنكير مبالغتان . كأنه قيل : لا يخافون شيئاً قط من لوم أحدٍ من اللوّام . انتهى .

وفيه وجوب التمسك بالحق وإن لامه لائم . وإنه مع تمسكه به ، صيّره محلَّه أعلى ممن تمسّك به من غير لومٍ . لأنه تعالى مدح مَن هذا حاله . وفيه أيضاً ، أن خوف الملامة ليس عذراً فى ترك أمر شرعىّ .

---

(١) رزان جمع رزين . خفاف جمع خِفّ . والخِفّ هو الخفيف ، كما جاء فى اللسان .

روى الإمام أحمد(١) عن أبي ذرّ قال : أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبعٍ : أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أَدْبَرَتْ، وأمرني أن لاأسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مرًّا ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول (لا حول ولا قوة إلّا بالله) فإنهنّ كنز من تحت العرش .

وروى الإمام أحمد(٢) أيضاً عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله ﷺ : ألا ، لا يمنعنّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا رآه أو شهده . فإنه لا يقرّب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحقٍّ أو أن يذكر بعظيم .

وروى أيضاً عنه(٣) قال : قال رسول الله ﷺ : لايحقرنّ أحدكم نفسه ، أن يرى أمرًا لله فيه مقال فلا يقول فيه . فيقال له يوم القيامة : مامنعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة الناس، فيقول : إياي أحقّ أن تخاف .

وروى الشيخان(٤) عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٥٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤٣ ـ باب كيف يبايع الإمام الناس ، حديث ٢٥٤٧ ، وهذا لفظه .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٤١ (طبعتنا) وهذا لفظ مسلم :

قال : بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة ، في العسر واليسر ، والمنشط والمكره، وعلى أَثَرَةٍ علينا ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

على السمع والطاعة فى المنشط والمكره . وأن لاننازع الأمر أهله . وأن نقول بالحق حيثما كنّا ، لا نخاف فى الله لومة لائم .

الخامسة : قوله تعالى (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ)

الإشارة إلى ما ذكر من حب الله إياهم ، وحبهم لله وذلّتهم للمؤمنين ، وعزّتهم على الكافرين ، وجهادهم فى سبيل الله ، وعدم مبالاتهم للوْم اللوّام . فالمذكور كله فضل الله الذى فضل به أولياءه .

قال المهايمىّ : أما المحبتان فظاهر . وكذا العزة على الكفار والجهاد . وأما الذلة على المؤمنين فلأنه تواضع موجب للرفع . وأما عدم خوف الملامة فلما فيه من تحقيق المودة مع الله .

وقوله تعالى « يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » أى : ممن يريد به مزيد إكرام من سعة جوده « وَاللهُ وَاسِعٌ » أى : كثير الفواضل ، جلّ جلاله .

ولمّا نهى عن موالاة اليهود والنصارى ، أشار إلى من يتعيّن للموالاة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ » المفيض عليكم كلّ خير « وَرَسُولُهُ » الذى هو واسطة الفيض « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » المُعِينون فى موالاة الله ورسوله بأفعالهم ، لأنهم « الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » التى هى أجمع العبادات البدنية « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » القاطعة محبة المال الجالب للشهوات « وَهُمْ رَاكِعُونَ » حال من فاعل الفعلين ، أى : يعملون ما ذكر ـ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ـ وهم خاشعون ومتواضعون لله ومتذللون غير معجبين . فإن رؤيتهم تؤثر فيمن يواليهم بالعون فى موالاة الله ورسوله .

القول فى تأيل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)

« وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » فيعينهم وينصرهم « فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » فى العاقبة على أعدائه .

تنبيهات :

الأول : إنما أفرد (الولىّ) ولم يجمع ، مع أنه متعدّد ، للإيذان بأن الولاية لله أصل ، ولغيره تبعٌ لولايته عزّ وجل . فالتقدير : وكذلك رسوله والذين آمنوا .

الثانى : ثمرة هذه الآية تأكيد موالاة المؤمنين والبعد عن موالاة الكفار .

الثالث : قال ابن كثير : توهم بعض الناس أن هذه الجملة ـ يعنى قوله تعالى (وَهُمْ رَاكِعُونَ) ـ فى موضع الحال من قوله (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) أى فى ركوعهم . ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح . وليس الأمر كذلك عند أحدٍ من العلماء ممن نعلمهم من أئمة الفتوى . وحتى إن بعضهم ذكر فى هذا أثراً عن علىّ بن أبى طالب ، أنّ هذه الآية نزلت فيه : إنّه مرّ به سائل فى حال ركوعه ، فأعطاه خاتمه . ثم روى ابن كثير الأثر المذكور عن ابن أبى حاتم وابن جرير[(١)] وعبد الرزاق وابن مردويه ، ثم قال : وليس يصحّ شىءٌ منها بالكلّيّة . لضعف أسانيدها وجهالة رجالها .. انتهى .

وقد اقتصّ ذلك الخفاجىّ فى (حواشى البيضاوىّ) عن الحاكم وغيره بطول . ثم أنشد أبياتاً لحسان بن ثابت فيها . ولوائح الضعف بل الوضع لا تخفى عليها . لا سيما ونفس حسان ابن ثابت ، العريق فى العربية ، بعيد مما نسب إليه . وأىّ حاجة للتنويه بفضل علىّ عليه السلام بمثل هذه الواهيات . وفضله أشهر من نارٍ على علم .

(١) الأثر رقم ١٢٢١٠ من التفسير .

قال البغوىّ[(١)] : روى عن عبدالملك بن سليمان قال: سألت أباجعفر، محمدبن علىّ الباقر عن هذهالآية (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا) من هم ؟ فقال : المؤمنون. فقلت : إن ناساً يقولون هو علىّ . فقال : علىٌّ من الذين آمنوا .

قال ابن كثير : وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردناها ، أنّ هذه الآية كلها نزلت فى عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، حين تبرأ من حلف يهود ، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين .

الرابع : ذهب من رأى أن هذه الآية نزلت فى علىّ عليه السلام وأنه تصدق بخاتمه وهو راكع ـ كما قدّمنا ـ إلى أنّ العمل القليل فى الصلاة لا يبطلها ، وإن صدقة النفل تسمى زكاة . نقله السيوطىّ فى (الإكليل) عن ابن الفرس .

وقال بعض الزيدية : ثمرة الآية تأكيد موالاة المؤمنين ، وبيان فضل من نزلت فيه. وأنه يجوز إخراج الزكاة فى الصلاة، وتنوى . وكذا نية الصيام فى الصلاة تصح . وإن الفعل القليل لا يفسد الصلاة . قال : وهذا مأخوذ من سبب نزولها، لا من لفظها . ومتى قيل إنّ علياً عليه السلام لم تجب عليه زكاة ؟ قلنا : إذا صحّ ما ذكر أنّها نزلت فيه ، كان أولى بالصحة، وأنها قد وجبت عليه .

قال فى (الغياصة) : إن قيل : قد روى أنه كان من ذهب ، والذهب محرّم على الرجال؛ أجيب بأن ذلك كان فى صدر الإسلام ثم نسخ ، أو أنّ هـذا من خواصّ علىٍّ عليه السلام. انتهى .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف صحّ أن يكون لعلىّ رضى الله عنـه ، واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت : جىء به على لفظ الجمع ، وإن كان السبب فيه رجلًا واحداً ، ليرغب النـاس فى مثل فعله فينالوا مثل ثوابه . ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذهالغاية

(١) الأثر رقم ١٢٢١١ من تفسير ابن جرير .

من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء . حتى إنْ لَزَّهُمْ أمرٌ لا يقبل التأخير ـ وهم في الصلاة ـ لم يؤخروه إلى الفراغ منها . انتهى .

وإنما أوردنا هـذا ، على علاته ، تعجيباً من غرائب الاستنباط . وقد توسع الرازيّ ، عليه الرحمة ، في المناقشة مع الشيعة هنا ، فليراجع فإنه بحث بديع .

الخامس : قوله تعالى (فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) معناه : فإنهم هم الغالبون . فوضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى (من) دلالة على علة الغلبة . وهو أنهم حزب الله . فـكأنه قيل : ومن يتولّ هؤلاء فهم حزب الله . وحزب الله هم الغالبون . وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم ، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل (الحزب) القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبَهُمْ . وقيـل : الحزب جماعة فيهم شدة . فهو أخصّ من الجماعة والقوم .

ثم أشار تعالى إلى أن موالاة غيرهم ، إن كانت لجرّ نفع ، فضررها أعظم . وإن كانت لدفع ضرر ، فالضرر الحاصل بها لا يفي بالمدفع ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَـكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْـكِتَابَ مِنْ قَبْلِـكُمْ وَالْـكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أي : مقتضى إيمانـكم حفظ تعظيم دينكم « لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَـكُمْ » أي : الذي هو رأس مالِ كمالاتـكم ، الذي به انتظام معاشكم ومعادكم ، وهو مناط سعاداتـكم الأبدية ، وسبب قربكم من ربكم « هُزُوًا » أي : شيئاً مستخفاً « وَلَعِباً » أي : سخريةً وضحكاً ، مبالغة في الاستخفاف به حتى لعبوا بعقول أهله.

ثم بيّن المستهزئين وفصّلهم بقوله تعالى « مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ » قرئ بالنصب والجرّ ، يعني المشركين كما في قراءة ابن مسعود (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) « أَوْلِيَاءَ » في العون والنصرة . وإنما رتب النهي على وصف اتخاذهم الدين هزواً ولعباً ، تنبيهاً على العلة ، وإيذاناً بأن مَن هـذا شأنه ، جدير بالبغضاء والشنآن والمنابذة . فكيف بالموالاة ؟ « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أي : في ذلك ، بترك موالاتهم ، أو بترك المناهي على الإطلاق . فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا أوليًّا «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أي: حقًّا ، فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة .

ثم بيّن استهزاءهم بحكم خاص من أحكام الدين ، بعد استهزائهم بالدين على الإطلاق ، إظهارا لكمال شقاوتهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » أي : دعوتم إليها بالأذان « اتَّخَذُوهَا » أي : الصلاة أو المناداة « هُزُوًا وَلَعِباً » بأن يستهزئوا بها ويتضاحكوا «ذَلِكَ» أي الاتخاذ « بِأَنَّهُمْ » أي بسبب أنهم « قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » أي : معاني عبادة الله ، فإن السفه يؤدي إلى الجهل بمحاسن الحق والهزء به ، ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترأوا على تلك العظيمة . فإن الصلاة أكمل القربات ، وفي النداء معان شريفة من تعظيم الله باعتبار ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. ومن ذكر توحيده باعتبار ذاته ، وباعتبار عدم مغايرة أسمائه وصفاته ، ومن تعظيم رسوله باعتبار قيامه بمصالح المعاش والمعاد ، ومن الصلاة من حيث هي وصلة مابين العبد وبين الله، ومن حيث إفادتها معالي الدرجات ، ومن تعظيم مقصده وهو الفلاح في الظاهر والباطن ، وما هو غاية مقصده من القرب من الله باعتبار عظمة ظاهره وباطنه،ومن الوصول إلى توحيده الحقيقيّ . أفاده المهايميّ .

تنبيهات :

الأول : فى آثار رويت فى هذه الآية :

روى أبو الشيخ ابن حبان عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسويد ابن الحارث ، قد أظهرا الإسلام ونافقا ، وكان رجل من المسلمين يوادّهما ، فأنزل الله « يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ... » الآية.

وروى ابن جرير[١] وابن أبى حاتم عن السدّىّ فى قوله « وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِباً » قال : كان رجل من النصارى بالمدينة ، إذا سمع المنادى ينادى : أشهد أن محمداً رسول الله . قال : حُرِّق الكاذب. فدخلت خادمه ليلة من الليالى بنار، وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله .

وذكر محمد[٢] بن إسحق بن يسار فى (السيرة) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن . وأبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحرث بن هشام جلوس بفِناء الكعبة . فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه مايغيظه. فقال الحرث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبوسفيان : لا أقول شيئاً. لوتكلمتُ لأخبَرَتْ عنى هذه الحصى . فخرج عليهم النبىّ ﷺ فقال : قد علمت الذى قلتم. ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحرث وعتاب: نشهد أنك رسول الله. والله! ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك.

وروى الإمام أحمد[٣] عن عبد الله بن محيريز ـ وكان يتيماً فى حجر أبى محذورة ـ قال :

---

(١) الأثر رقم ١٢٢١٨ من التفسير .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) والصفحة ٨٢٢ (طبعة جوتنجن) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

قلت لأبى محذورة : ياعم! إنى خارج إلى الشام . وأخشى أن أسأل عن تأذينك . فأخبرنى ؛ أن أبامحذورة قال له: نعم ! خرجت فى نفر فـكنا ببعض طريق حنين ، فقفل رسول الله صلى عليه وسلم من حنين فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسـلم ببعض الطريق . فأذّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالصلاة عند رسول الله ﷺ ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون. فصرخنا نحكيه ونستهزىء به.فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوت فأرسل إلينا، إلى أن وقفنا بين يديه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع؟ فأشار القوم كلهم إلىّ ، وصدقوا . فأرسـل كلّهم وحبسنى فقال : قم فأذن . فقمت ، ولا شىء أكره إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرنى به ، فقمت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فألقى إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذين هو نفسه فقال: قل : الله أكبر، الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أنّ محمداً رسول الله، أشهد أنّ محمداً رسول الله . ثم قال لى : ارجع فامدد من صوتك . ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أنّ محمداً رسول الله ، أشهد أنّ محمداً رسول الله . حىَّ على الصلاة، حىّ على الصلاة ، حىَّ على الفلاح، حىَّ على الفلاح . الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . ثم دعانى حين قضيت التأذين فأعطانى صرة فيها شىء من فضة . ثم وضع يده على ناصية أبى محذورة . ثم أمرّها على وجهه مرتين . ثم مرتين على يديه . ثم على كبده . ثم بلغت يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّة أبى محذورة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله فيك . فقلت : يا رسول الله ! مُرنى بالتأذين بمكة . فقال : قد أمرتك به . وذهب كل شىء كان لرسول الله صلى الله عليـه وسلم من كراهية ، وعاد ذلك كله محبةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقدمت على عتّاب بن أَسِيد ، عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذّنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانى : دلت الآية على وجوب موالاة المؤمنين ومعاداة الـكفار. والمراد به فى أمر الدين، كما تقدم .

الثالث : دلت على أن الهزء بالدين كفر ، وأن هزله كجدّه .

قال فى (الإكليل) : الآية أصل فى تكفير المستهزئ بشيء من الشريعة .

الرابع : دلت على أن للصلاة نداء وهو الأذان ، فهى أصل فيه .

قال الزمخشريّ : قيل : فيه دليل على ثبوت الأذان بنصّ الكتاب ، لا بالمنام وحده .

ولمّا نهى تعالى عن تولّى المستهزئين ، أمر أن يخاطبوا بأن الدين منزّه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء ، ويظهر لهم سبب ما ارتكبوا ويلقموا الحجر ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ » وصفوا بذلك تمهيداً لتبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم ، أى : يا أصحاب الكتاب ، العالمين بالنقائص والكمالات ، التى يستحق على تحققها وفقدها الاستهزاء « هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا » أى : ما تعيبون وتنكرون منا « إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ » وهو رأس الكمالات « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » وهو أصل الاعتقادات والأعمال والأخلاق « وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ » وهو يشهد لما أنزل إلينا « وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ » أى : متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر .

لطائف

الأولى : إنما فسر (تنقمون) بـ (تعيبون) و (تنكرون) لأن النقمة معناها الإنكار باللسان أو بالعقوبة ــ كما قاله الراغب ــ لأنه لا يعاقب إلّا على المنكر فيكون على حد قوله : * ونشتم بالأفعال لا بالتكلم * فلذا حسن (انتقم منه) مطاوعه ، بمعنى عاقبه وجازاه ، وإلّا فكيف يخالف المطاوع أصله؟ فافهم . و (نقم) ورد كعَلِم يعلَم وضرَبَ يضرِب ،

وهى الفصحى ، ويعدّى بـ (من) و (على) . وقال أبو حيّان : أصله أن يتعدى بـ (على). ثم (افتعل) المبنىّ منه ، يعدى بـ (من) لتضمنه معنى الإصابة بالمكروه ، وهنا (فعل) بمعنى (افتعل) . كذا فى (العناية) .

الثانية : فى الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس ، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر ، موجبا لنقمه ، مع كونه فى نفسه موجباً لقبوله وارتضائه . فمعنى الآية : ليس شىء ينقم من المؤمنين . فلا موجب للاستهزاء . وهذا مما تقصد العرب فى مثله ، تأكيد النفى والمبالغه فيه بإثبات شىء ، وذلك الشىء لا يقتضى إثباته ، فهو منتفٍ أبداً . ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس ، فمن الأول[1] نحو :

ولاعيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهُمْ ... بهنّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ

ومن الثانى هذه الآية وشبهها . أى : ما ينبغى لهم أن ينقموا شيئاً إلّا هذا ، وهذا

(١) قائله النابغة الذبيانىّ ، من قصيدة مطلعها :

كِلِينى لهمٍّ ، يا أُمَيمةَ ، ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطىء الكواكب

قالها يمدح عمرو بن الحارث الأصغر المعروف بالأعرج ، ابن الحارث الأكبر بن أبى شمر. حين هرب إلى الشام ، لما بلغه أن مرّة بن ربيع بن قريع وشى به إلى النعمان ، فى أمر المتجردة .

وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسىّ فى شرح البيت المستشهد به :

الفلول: الثلوم . والقراع : المجالدة . وقوله (لا عيب فيهم غير أن سيوفهم) هذا الاستثناء سماه ابن المعتز توكيد المدح . لأن انفلالها من قراع الكتائب ، عند التحصيل ، فخر وفضل .

ومثل هذا قول الشاعر :

فتى كملت أخلاقه غير أنه ... جواد ، فما يُبقى من المال باقيا

فاستثنى جوده الذى يستأصل ماله ، بعد أن وصفه بالكمال . وبهذا الاستثناء زاد كمالا، وتأكد حسنا .

لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً ، فليس شيء ينقمونه ، فينبغى أن يؤمنوا به ولا يكفروا . وفيه أيضاً التعريض بكفرهم ، وتقريع بسوء الصنيع فى مقابلة الإحسان .

الثالث : إسناد الفسق إلى أكثرهم ، لأن من قال منهم ما قال ، وحمل غيره على العناد، طلباً للرياسة والجاه وأخذ الرشوة ، إنما هو أكثرهم . ولئلا يظن أن من آمن منهم داخل فى ذلك .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ، مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

« قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ » المخاطب بكاف الجمع أهل الكتاب المتقدم ذكرهم ، أو الكفار مطلقاً ، أو المؤمنون . والمشار إليه الأكثر الفاسقون . وتوحيد اسم الإشارة لكونه يُشارُ بِهِ إلى الواحد وغيره ، أو لتأويله بالمذكور ونحوه . وفى الكلام مقدر أى : بشرٍ من حال هؤلاء . وقيل : المشار إليه المتقدمون الذين هم أهل الكتاب ، يعنى أنّ السلف شرٌّ من الخلف . وجعله الزمخشرىّ إشارة إلى المنقوم .

وقد جوّد فى إيضاحه العلامة أبو السعود بقوله : لما أمر عليه الصلاة والسلام بإلزامهم وتبكيتهم ، ببيان أن مدار نقمهم للدين إنما هو اشتماله على ما يوجب ارتضاءه عندهم أيضاً ، وكفرهم بما هو مسلّم لهم ـ أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقةً ، ماهم عليه من الدين المحرف . وينعى عليهم فى ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها، على منهاج التعريض. لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب

متن المكابرة والعناد . ويخاطبهم قبل البيان بما ينبيء عن عظم شأن المبيَّن ، ويستدعى إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخبر به ، والتنبئة المشعرة بكونه أمراً خطيراً ، لما أن النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر . وحيث كان مناط النقم شرّية المنقوم حقيقةً أو اعتقاداً ، وكان مجرد النقم غير مقيد لشريته البتة ، قيل (بشرٍّ من ذلك) ولم يقل : بأنقم من ذلك ، تحقيقاً لشرية ما سيذكر وزيادة تقريرٍ لها . وقيل : إنما قيل ذلك ، لوقوعه فى عبارة المخاطبين . حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام : أومن باللهِ وماأنزل إلينا ... ـ إلى قوله ـ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام، قالوا : لا نعلم شرًّا من دينكم . وإنما اعتبر الشرية بالنسبة إلى الدين ـ وهو منزّه عن شائبة الشرية بالكلية ـ مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته، ليثبت أن دينهم شرّ من كل شرّ . أى: هل أخبركم بما هو شرٌّ فى الحقيقة مما تعتقدونه شرًّا ، وإن كان فى نفسه خيرًا محضاً ؟ انتهى .

وقوله : « مَثُوبَةً عِندَ اللهِ » أى جزاء ثابتاً عند الله . قال الراغب : الثواب ما رجع إلى الإنسان من جزاء أعماله . سمى به بتصور أن ماعمله يرجع إليه ، كقوله(١) (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ») ولم يقل: ير جزاءه . والثواب يقال فى الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف فى الخير . وكذا المثوبة، وهى مصدر ميمىّ بمعناه. وعلى اختصاصها بالخير استعملت هنا فى العقوبة على طريقة(٢) :

* تحيةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجيعُ *

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧] .

(٢) هذا من أبيات الكتاب (١/٣٦٥) وصدره : وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيل .
قال الشنتمرىّ : قائله عمرو بن معدى كرب .
والشاهد فيه جعل الضرب تحية ، على الاتساع . وإنما ذكر هذا تقوية لجواز البدل =

فى التهكم . ونصبها على التمييز من (بشرّ) .

وقوله تعالى « مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ » بدل من (شر) على حذف مضاف ، أى : بشر من أهـل ذلك من لعنه الله ، أو بشر من ذلك دينُ من لعنه الله . أو خبر محذوف . أى : هو من لعنه الله وهم اليهود ، أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات ومسخ بعضهم قردة وخنازير، وهم أصحاب السبت . كما تقـدم بيانه فى سورة البقرة « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » عطف على صلة (مَنْ) والمراد من الطاغوت : العجل ، أو الـكهنة وكل من أطاعوه فى معصية الله تعالى « أُولَـٰئِكَ » أى : الملعونون الممسوخون « شَرٌّ مَـكَانًا » إثبات الشرارة للمكان كناية عن إثباتها لأهله ، كقولهم: (سلام على المجلس العالى) و(المجد بين برديه) كأن شرهم أثّر فى مكانهم أو عظم حتى صار متجسما ! وقيل : المراد بالمـكان محل الـكون والقرار الذى يؤول أمرهم إلى التمـكن فيه ، كقوله[1] (شرٌّ مكانًا) وهو مصيرهم ، يعنى جهنم. «وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» أى : أكثر ضلالا عن الصراط المستقيم .

ثم بين تعالى علامات كمال شرهم وضلالهم بقوله :

= فيما لم يكن من جنس الأول . يقول : إذا تلاقوا فى الحرب ، جعلوا ، بدلا من تحية بعضهم لبعض ، الضرب الوجيع .

ومعنى (دلفت) زحفت . والدليف مقاربة الخطو فى المشى .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٤] ونصها : الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَـكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

« وَإِذَا جَاءُوكُمْ » يعنى سفلة اليهود ، ويقال : المنافقون « قَالُوا ءَامَنَّا » أى : بك ونعتك ، أنه فى كتابنا « وَقَد دَّخَلُوا » إليكم متلبسين « بِالْكُفْرِ » بكفر السرّ « وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا » أى : من عندكم متلبسين « بِهِ » أى : بكفر السر ، فهم مستمرون عليه « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ » أى من الكفر ، وفيه وعيد لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ » أى اليهود « يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ » أى : الحرام ، كالكذب والعصيان من غير مبالاة من الله ولا من الناس « وَالْعُدْوَانِ » أى : الظلم والاعتداء على الناس « وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ » أى الحرام كالرشا . وخصه بالذكر مع اندراجه فى الإثم للمبالغة فى التقبيح ، وفيه دلالة على تحريم الرشا ، لأن ذلك ورد فى كبرائهم أنهم يسترشون فى تغيير الحكم « لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » مما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

« لَوْلَا » أى هلا « يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ » أى : الزهاد منهم والعبّاد « وَالْأَحْبَارُ »

أى العلماء « عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ » أى الكذب « وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ » أى الرشوة ، المفسدة أمر العالم كله « لَبِئْسَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » من ترهبهم وتعلمهم لغير دين الله . أو من تركهم نهيهم . وهذا الذم المقول فيهم ، أبلغ مما قيل فى حق عامتهم . أولا : لأنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبى المناكير بالعمل فى قوله (لبئس ما كانوا يعملون)، وعبّر عن ترك الإنكار عليهم حيث ذمه بالصناعة فى قوله (لبئسما كانوا يصنعون) ـ كان هذا الذم أشد . لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء ، وحرفة لازمة ، هم فيها أمكن من أصحاب المناكير فى أعمالهم ..

وهــذا معنى قول الزمخشرىّ : كأنهم جُعِلوا آثم من مرتكبى المناكير ، لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ، ولا كل عمل يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وكأن المعنى فى ذلك؛ أن مُوَاقِعَ المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها . وأما الذى ينهاه ، فلا شهوة معه فى فعل غيره . فإذا فرط فى الإنكار كان أشد حالا من المُوَاقِع . ثم قال الزمخشرىّ: ولعمرى! إن هذه الآية مما يَقِذُ السامع وينعى على العلماء توانيهم . انتهى .

وفى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب النهى عن المنكر على العلماء ، واختصاص ذلك بهم .

وقال البيضاوىّ : فيها تحضيض لعلمائهم على النهى عن ذلك ، فإن (لولا) إذا دخل على الماضى أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض .

روى ابن[١] جرير عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أشدّ توبيخاً من هذه الآية .

وقال الضحاك[٢] : ما فى القرآن آية أخوف عندى منها .

وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب علىّ بن أبى طالب، فحمد الله وأثنى

(١) الأثر رقم ١٢٢٣٩ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٢٢٣٨ من التفسير .

عليه ثم قال : أيها الناس ! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ولم ينههم الربانيون والأحبار . فلما تمادوا أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم . واعلموا أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرّب أجلًا .

وروى[1] الإمام أحمد عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من قومٍ يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى ، هم أعزّ منه وأمنع ، ولم يغيّروا ، إلّا أصابهم الله منه بعذاب .

ولفظ أبى داود[2] عنه ، مرفوعاً : ما من رجلٍ يكون فى قومٍ يعمل فيهم بالمعاصى ، يقدرون على أن يغيّروا عليه فلا يغيّروا ، إلّا أصابهم الله بعذاب قبل أن يموتوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ » أخرج الطبرانىّ وابن إسحق عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : إن ربك بخيلٌ لا ينفق . فنزلت .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٦ ـ كتاب الملاحم ، ١٧ ـ باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٣٩ .

وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه : نزلت في فنحاص ، رأس يهود قينقاع ؛ وتقدم أنه الذي قال : إن الله فقير ونحن أغنياء . فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

فيكون أريد بالآية هنا، ما حكي عنه بقوله المذكور . والله أعلم .

ولما لم ينكر على القائل قومه ورضوا به، نُسِبَتْ تلك العظيمة إلى الكل، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً ، وإنما القاتل واحد منهم . و (غلّ اليد وبسطها) : مجاز مشهور عن البخل والجود. ومنه قوله تعالى(١): وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ قالوا : والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال . لاسيما لدفع المال ولإنفاقه . فأطلقوا اسم السبب على المسبب . وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل . فقيل للجواد : فياض الكف ، مبسوط اليد ، وسبط البنان نَزِهُ الأنامل . ويقال للبخيل : كزّ الأصابع، مقبوض الكف، جعد الأنامل. وقوله تعالى « غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ » دعاء عليهم بالبخل أو بالفقر والمسكنة ، أو بغلّ الأيدي حقيقة . يغلّون أي : تشدّ أيديهم إلى أعناقهم أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة « وَلُعِنُوا » أي : أبعدوا عن الرحمة فلا يوفقون للتوبة « بِمَا قَالُوا » من الكلمة الشنيعة التي لا تصح في حق الله حقيقةً ولا مجازاً « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » أي : بأنواع العطايا المختلفة . وثنّى (اليد) مبالغة في الردّ ونفي البخل عنه تعالى ، وإثباتاً لغاية الجود ، فإن غاية ما يبذله السخيّ من ماله أن يعطيه بيديه « يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ » تأكيد لما قبله ، منبه على أن إنفاقه تابع لمشيئته ، المبنية على الحِكَم ، التي عليها يدور أمر المعاش والمعاد .

وههنا مباحث

الأول : ما زعمه الزمخشريّ ومن تابعه ـ من أنّ إثبات اليد لا يصحّ حقيقة له تعالى ـ فإنه نزغة كلامية اعتزالية .

قال الإمام ابن عبد البرّ في (شرح الموطأ) : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٩]

الواردة كلها فى القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز . إلّا أنهم لا يكيّفون شيئاً من ذلك ولا يحدّون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع ، الجهمية والمعتزلة كلها ، والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة . ويزعم أن من أقرّ بها شَبَّهَ . وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود . والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله . وهم أئمة الجماعة .

وقال القاضى أبو يعلى فى كتاب (إبطال التأويل) : لايجوز ردّ هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها . والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات الله ، لا تشبّه بسائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتقد التشبيه فيها . ثم قال : ويدل على إبطال التأويل ، أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين ، حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفها عن ظاهرها ، ولو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق . لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعرىّ رحمه الله تعالى فى كتاب (الإبانة) فى باب (الكلام فى الوجه والعينين والبصر واليدين) وذكر الآيات فى ذلك ، ورد على المتأولين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته . مثل قوله :

فإن سئلنا : أتقولون لله يدان ؟ قيل : نقول ذلك ؛ وقد دل عليه قوله(١) (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وقوله(٢) (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) وروى(٣) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٣) أخرجه أبوداود فى: ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٦ ـ باب فى القدر ، حديث ٤٧٠٣ =

إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذرية. وقد جاء فى الخبر المأثور عن النبىّ[(١)] صلى الله عليه وسلم : أن الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عـدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده . وليس يجوز فى لسان العرب ، ولا فى عادة أهل الخطاب ، أن يقول القائل : عملت كذا بيدى، ويعنى به النعمة . وإذا كان الله إنمـا خاطب العرب بلغتها وما يجرى فى مفهومها فى كلامها ، ومعقولا فى خطابها، وكان لايجوز فى خطاب أهل اللسان أن يقول القائل : فعلت بيدى، ويعنى به النعمة ـ بطل أن يكون معنى قوله عز وجل (بِيَدَىَّ) النعمة. وذكر كلاماً طويلا فى تقرير هذا ونحوه .

وقال القاضى أبو بكر الباقلانىّ فى كتاب (الإبانة) له :

= ونصه :

عن مسلم بن يسار الجهنىّ ؛ أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ) .

فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل خلق آدم . ثم مسح ظهره بيمينه . فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » .

فقال رجل : يا رسول الله ! ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار .

(١) لم أقف على هذا الأثر .

فإن قال : فما الدليل على أنّ لله وجها ويداً ؟ قيل له : (وَيَبْقَى[١] وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) وقوله تعالى (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ)[٢] فأثبت لنفسه وجهاً ويداً : فإن قال : فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لا تعقلون وجهاً ويداً إلّا جارحة ؟ قلنا : لا يجب هذا كما لا يجب ـ إذا لم نعقل حيًّا عالما قادراً إلّا جسماً ـ أن نقضى نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه ..

وقال الشيخ تقيّ الدين فى (الرسالة المدنية) .

مذهب أهل الحديث ـ وهم السلف من القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم من الخلف ـ أنّ هذه الأحاديث تُمَرُّ كما جاءت ويُؤْمَن بها وتُصَدَّق وتصان عن تأويلٍ يفضى إلى تعطيل، وتكييف يفضى إلى تمثيل . وقد أطلق غير واحدٍ ممن حكى إجماع السلف ـ منهم الخطابيّ ـ مذهب السلف أنّها تجرى على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها . وذلك ، أن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثباتَ وجودٍ لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجودٍ لا إثبات كيفية .. انتهى .

ويرحم الله الإمام يحي الصرصريّ الأنصاريّ حيث يقول من قصيدة :

إن المقال بالاعتزال لَخِطَّةٌ ... عمياء حلّ بها الغُواة المُرَّدُ
هجموا على سبل الهدى بعقولهم ... ليلًا فعاثوا فى الديار وأفسدوا
صمٌّ ، إذا ذكر الحديث لديهم ... نفروا ، كأن لم يسمعوه ، وغرّدوا
واضرب لهم مَثَلَ الحمير إذا رأتْ ... أُسْدَ العرين فهنّ منهم شُرَّدُ

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ من الصفحة ٢٠٥٨ .

إلى أن قال :

يدعو من اتبع الحديث مشبّها هيهات ليس مشبّها من يُسند
لكنه يروى الحديث كما أتى من غير تأويلٍ ولا يتأوّد

الثاني : روى الإمام[1] أحمد والشيخان[2] فى معنى الآية عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة. سحاء الليلَ والنهارَ . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما فى يمينه. وكان عرشه على الماء وفى يده الأخرى الفيض ـ أو القبض ـ يرفع ويخفض وقال : يقول الله تعالى : أنفقْ أُنفق عليكَ .

الثالث : فى هذه الآية دلالة على جواز لعن اليهود ، ولا إشكال أنّ ذلك جائز .

الرابع : هذه الآية أصل فى تكفير من صدر منه ، فى جناب البارئ تعالى ، ما يؤذن بنقص .

وقوله تعالى « وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى من اليهود «مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» من جوامع الخيرات « طُغْيَانًا » أى : عدواناً على الناس ، أو تمادياً فى الجحود « وَكُفْرًا» أى : فى أنفسهم بعد كفرهم وطغيانهم بالتحريف وأخذ الرشوة أوّلا . وهذا من إضافة الفعل إلى السبب . أى : يزدادون طغياناً وكفراً بما أنزل ، كما[3] قال : فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٢٩٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١ ـ سورة هود ، ٢ ـ باب قوله وكان عرشه على الماء ، حديث ٢٠١٢. ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة، حديث ٣٦ (طبعتنا).

(٣) [٩ / التوبة /١٢٥] ونصها : وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ .

قال الحافظ ابن كثير : أى يكون ما آتاك الله ، يا محمد ، من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم. فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكافرون، الحاسدون لك ولأمتك، طغياناً ــ وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ــ وكفراً أى تكذيباً . كما قال(١) تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . وقال تعالى(٢) : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

« وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » فكلمتهم أبداً مختلفة وقلوبهم شتى ، لا يقع بينهم اتفاق ولا تعاضد .

وقد ذكر الشهرستاني أنهم افترقوا نيّفاً وسبعين فرقة . ولما قدم النبي ﷺ المدينة ، كان اليهود ثلاث طوائف حول المدينة : بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . وبَسْطُ ماجرياتهم ، وهديه ﷺ في شأنهم، مبسوط في (زاد المعاد) لابن القيم . فراجعه .

قال الرازي : واعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها، هو أنه تعالى بيّن أنهم إنما ينكرون نبوّته بعد ظهور الدلائل على صحتها ، لأجل الحسد ولأجل حب الجاه والتبع والمال والسيادة. ثم إنه تعالى بيّن أنهم ، لما رجّحوا الدنيا على الآخرة ، لا جرم أن الله تعالى ، كما حرمهم سعادة الدين ، فكذلك حرمهم سعادة الدنيا . لأن كل فريق منهم بقي مصرًّا على مذهبه ومقالته . يبالغ في نصرته ويطعن في كل ماسواه من المذاهب والمقالات . تعظيماً لنفسه وترويجاً لمذهبه. فصار ذلك سبباً لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم . وانتهى الأمر فيه إلى أن بعضهم يُكفّر بعضاً ، ويغزو بعضهم بعضاً .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وفى الآية وجهان : (أحدها) ما بين اليهود والنصارى ، لأنه جرى ذكرهم فى قوله تعالى[1] (لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ) ، وهو قول الحسن ومجاهد . لأنهم المحدَّث عنهم فى قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ . و(الثانى) ما بين فرق اليهود خاصة .

أقول : وهو الظاهر . فإن قلت : فهذا المعنى حاصل أيضاً بين فرق المسلمين ، فكيف يكون ذلك عيباً على الكتابيين حتى يذموا به ؟ قلت : بدعة التفرق التى حصلت فى المسلمين، إنما حدثت بعد عصر النبىّ صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة والتابعين . أما فى الصدر الأول فلم يكن شىء من ذلك حاصلا بينهم ؛ فحَسُنَ جَعْلُ ذلك عيباً على الكتابيين فى ذلك العصر الذى نزل فيه القرآن .

« كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ » أى : كلما أرادوا حرب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإثارة شر عليه ، ردهم الله سبحانه وتعالى ، بأن أوقع بينهم منازعةً كفَّ بها عنه شرهم ، أو : كلما أرادوا حرب أحد ، غلبوا وقهروا ، ولم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد قط . فإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب ، لأنه كان عادتهم ذلك . ونيران العرب مشهورة، منها هذه. وإطفاء النار على الأول عبارة عن دفع شرهم ، وعلى الثانى غلبتهم . و(للحرب) إما صلة لـ(أوقدوا) ، أومتعلق بمحذوف وقع صفة ا(ناراً) أى : كائنة للحرب. « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » أى : للفساد أو مفسدين ، أى : يجتهدون فى الكيد للإسلام وأهله وتعويق الناس عنه وإثارة الفتن « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » أى : من كان الإفساد صفته . و(اللام) أما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليًّا ؛ أو للعهد ،ووضع المظهر موضع المضمر للتعليل ، وبيان كونهم راسخين فى الإفساد .

---

(١) [٥ / المائدة / ٥١] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ » أى : مع ما عددنا من سيئاتهم « ءَامَنُوا » برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به « وَاتَّقَوْا » مباشرة الكبائر « لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » أى ذنوبهم « وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ » فى الآخرة مع المسلمين . وفيه إعلام بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص ، وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى ، وأن الإسلام يَجُبُّ ماقبله وإن جلّ . وأن الكتابىّ لا يدخل الجنة مالم يسلم.

قال الزمخشرىّ: وفيه أن الإيمان لاينجى ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى، كما قال الحسن: هذا العمود ، فأين الأطناب ؟ انتهى .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : هو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية فيجعله دليلا على قاعدته ، فى أن مجرد الإيمان لا ينجى من الخلود فى النار ، حتى ينضاف إليه التقوى . لأن الله تعالى جعل المجموع فى هذه الآية شرطاً للتكفير ولإدخال الجنة . وظاهره أنهما مالم يجتمعا لايوجد تكفير ولادخول الجنة .وأنى له ذلك؟ والإجماع والاتفاق من الفريقين ـ أهل السنة والجماعة ، والمعتزلة ـ على أن مجرد الإيمان يَجُبّ ماقبله ويمحوه كما ورد النص . فلو فرضنا موت الداخل فى الإيمان عقيب دخوله فيه، لكان كيوم ولدته أمه ـ باتفاق ـ مكفَّرَ الخطايا محكوماً له بالجنة . فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين ليس بشرط ، هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال . وإن كانت التقوى ـ على أصل موضعها ـ الخوف من الله عز وجل ، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن وإن قارف الكبائر ، وحينئذ لا يتم للزمخشرىّ منه غرض .

وما هذا إلا إلحاح ولجاج فى مخالفة المعتقد المستفاد من قوله[1] عليه الصلاة والسلام : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى أو سرق . كررها النبيّ صلى الله عليه وسلم مراراً ، ثم قال : وإن رغم أنف أبى ذر. لمّا راجعه رضى الله عنه فى ذلك ؛ ونحن نقول : وإن رغم أنف القدرية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٦] (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ » أى : أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ . وأصل الإقامة الثبات فى المكان . ثم استعير إقامة الشىء لتوفية

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٢٤ ـ باب الثياب البيض، حديث ٦٦٠ ونصه :

عن أبى ذر قال : أتيت النبيّ ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم . ثم أتيته وقد استيقظ فقال « ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال « وإن زنى وإن سرق » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال « وإن زنى وإن سرق » قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال « وإن زنى وإن سرق، على رغم أنف أبى ذر ».

وكان أبو ذر إذا حدّث بهذا ، قال : وإن رغم أنف أبى ذر .

قال عبد الله (أى البخاريّ) : هـذا عند الموت أو قبله ، إذا تاب وندم وقال : لا إله إلا الله ، غفر له .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٥٤ (طبعتنا) .

حقه « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ » أى : بيّنوا ما بيّن لهم ربهم فى التوراة والإنجيل . ويقال : أقروا بجملة الكتب والرسل من ربهم ، ويقال: هو القرآن « لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » لوسّع عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض ، ويكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع . أو يرزقهم الجنان اليانعة الثمار ، فيجتنونها من رأس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط على الأرض . وَجَعْلُ (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) بمعنى الأمطار والأنهار التى تحصل بها أقواتهم ـ بعيدٌ من الأكل . والأقرب الوجوه الثلاثة المتقدمة . ونبه تعالى بذلك على أن ما أصابهم من الضنك والضيق ، إنما هو بشؤم معاصيهم وكفرهم ، لا لقصورٍ فى فيض الكريم، تعالى. ودلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق ، وهو كقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ[١] . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ[٢] . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . . . الآيات[٣] . وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا[٤] .

(١) [٧ / الأعراف / ٩٦] ... وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٢و٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٣) [٧١ / نوح / ١٠] .

(٤) [٧٢ / الجن / ١٦] .

روى الإمام[١] أحمد عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبيّ ﷺ شيئاً فقال : وذاك عند ذهاب العلم قال ، قلنا : يا رسول الله ! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبْناءَنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال : ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد ! إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة . أَوَ ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل، لا ينتفعون مما فيهما بشيء .

وفى رواية ابن أبى حاتم : أوليست التوراة والإنجيل بأيدى اليهود والنصارى ؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله ؟ ثم قرأ : لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ... الآية .

« مِنْهُمْ أُمَّةٌ » أى طائفة « مُقْتَصِدَةٌ » أى: عادلة مستقيمة ، وهم من آمن بالنبىّ ﷺ، كعبد الله بن سلام والنجاشىّ وسلمان « وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ » أى : بئس « مَا يَعْمَلُونَ » أى : من تحريف الحق والإعراض عنه والإفراط فى العداوة . والآية كقوله[٢] تعالى : وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٧] (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« يَأَيُّهَا الرَّسُولُ » نودى صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة تشريفاً له وإيذاناً بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من التبليغ « بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » مما يفصّل مساوئ الكفار ، ومن قتالهم ، والدعوة إلى الإسلام ، غير مراقب فى التبليغ أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه « وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ » أى : ما تؤمر به من تبليغ الجميع ، ستراً لبعض

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ)

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

مساوئهم « فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » أى : شيئاً مما أرسلت به . لما أن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض . فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً . كما أنّ من لم يؤمن ببعضها، كان كمن لم يؤمن بكلّها .

قال فى (الانتصاف) : ولما كان عدم تبليغ الرسالة أمراً معلوماً عند الناس، مستقرًّا فى الأفهام أنه عظيم شنيع ، ينقم على مرتكبه ، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع ، فضلًا عن كتمان الرسالة من الرسول ـ استغنى عن ذكر الزيادات التى يتفاوت بها الشرط والجزاء، للصوقها بالجزاء فى الأفهام . وإن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة، فهم ماوراءه من الوعيد والتهديد . وحسن هذا الأسلوب فى الكتاب العزيز بذكر الشرط عامًّا بقوله (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ) ولم يقل : فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة . حتى يكون اللفظ متغايراً ؛ وهذه المغايرة اللفظية ـ وإن كان المعنى واحداً ـ أحسنُ رونقاً وأظهرُ طلاوةً ، من تكرار اللفظ الواحد فى الشرط والجزاء . وهذا الفصل كاللباب من علم البيان .

وقوله تعالى « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » عِدةٌ منه تعالى بحفظه من لحوق ضرر بروحه الشريفة ، باعث له على الجدّ فيما أمر به من التبليغ وعدم الاكتراث بعداوتهم وكيدهم « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » تعليل لعصمته ، أى : لا يهديهم طريق الإساءة إليك ، فما عذرك فى مراقبتهم ؟

تنبيهات

الأول : لاخفاء فى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد بلّغ البلاغ التام ، وقام به أتمّ القيام ، وثبت فى الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضرّاء وهو مكروب ومحروب، وقد لقى بمكة من قريش ما يشيب النواصى ، ويهدّ الصياصى . وهو ، مع الضعف ، يصابر صبر المستعلِى ، ويثبت ثبات المستولِى . ثم انتصب لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته ، وأحدقوا بجنباته ، وصار بإثخانه فى الأعداء محذوراً ، وبالرعب منه منصوراً ، حتى أصبح سراج الدين وهّاجاً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

روى البخارىّ[1] ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها، قالت لمسروق : من حدثك أنّ محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، والله يقول : يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية .

وفى (الصحيحين)[2] عنها أيضاً أنها قالت : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتما شيئاً من القرآن لـكتم هذه الآية : وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ .

وروى البخارىّ[3] وغيره عن أبى جحيفة قال :قلت لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: هل عندكم شىء من الوحى مما ليس فى القرآن ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ! إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن، ومافى هذه الصحيفة . قلت: ومافى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وقال البخارىّ[4] : قال الزهرىّ : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم.

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة ، ٧ ـ باب يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

(٢) هذه القطعة من الحديث لم يروها إلا مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث٢٨٨ (طبعتنا) .

وما رواها قط البخارىّ فى صحيحه عن عائشة .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٧١ ـ باب فكاك الأسير ، حديث ٩٥ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٤٦ ـ باب قول الله تعالى : يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ .

قال ابن كثير : وقد شهدت له صلى الله عليه وسلم أمتهُ بإبلاغ الرسالة ، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً . كما ثبت فى (صحيح مسلم)(١) عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله

(١) هذا أطول وأصح حديث فى وصف حجته صلى الله عليه وسلم . وقد آثرت إثباته هنا برمته ، وذلك لقيمته ولتيسير الاطلاع عليه .

أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، ١٩ ـ باب حجة النبىّ ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) ونصه :

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وإسحاق بن إبراهيم. جميعاً عن حاتم . قال أبو بكر: حدثنا حاتم بن إسماعيل المدنىّ عن جعفر بن محمد عن أبيه ، قال : دخلنا على جابر بن عبدالله . فسأل عن القوم حتى انتهى إلىّ . فقلت : أنا محمد بن علىّ بن حسين . فأهوى بيده إلى رأسى فنزع زرى الأعلى (أى أخرجه من عروته لينكشف صدرى عن القميص) ثم نزع زرى الأسفل. ثم وضع كفه بين ثديىّ وأنا يومئذ غلام شابّ . فقال : مرحباً بك ، يا ابن أخى ! سل عما شئت . فسألته ، وهو أعمى . وحضر وقت الصلاة فقام فى نِسَاجَةٍ (فى النهاية : هى ضرب من الملاحف منسوجة) ملتحفاً بها . كلما وضعها على منكبيه رجع طرفاها إليه من صغرها . ورداؤه إلى جنبه على المشجب (هو عيدان تضم رؤوسها ويفرج بين قوائمها ، توضع عليها الثياب) فصلى بنا . فقلت : أخبرنى عن حَجّة رسول الله ﷺ . فقال بيده (أى : أشار بها) فعدّ تسعاً ، فقال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج. ثم أذّن فى الناس فى العاشرة ؛ أن رسول الله ﷺ حاجّ . فقدم المدينة بشر كثير . كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل مثل عمله . فخرجنا معه . حتى أتينا ذا الحليفة . فولدت أسماء بنت عُمَيْس محمدَ بن أبى بكر . فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصنع ؟ قال « اغتسلى واستثفرى (الاستثفار هو أن تشد فى وسطها شيئاً ، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على =

صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يومئذ : أيها الناس ! إنـكم مسؤولون عنى فما أنتم قائلون؟

= محل الدم وتشد طرفيها ، من قدامها ومن ورائها ، فى ذلك المشدود فى وسطها . وهو شبيه بثفر الدابة الذى يجعل تحت ذنبها) بثوب وأحرمى » .

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، ثم ركب القصواء . حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرتُ إلى مدّ بصرى بين يديه . من راكب وماش . وعن يمينه مثل ذلك. وعن يساره مثل ذلك . ومن خلفه مثل ذلك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا . وعليه ينزل القرآن . وهو يعرف تأويله . وما عمل به من شىء عملنا به . فأهلّ بالتوحيد «لبيك اللهم! لبيك. لبيك لاشريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك. والملك لاشريك لك».

وأهلّ الناس بهذا الذى يهلون به . فلم يردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً منه . ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبيته .

قال جابر : لسنا ننوى إلا الحج . لسنا نعرف العمرة . حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن . فرَمَلَ (الرمل إسراع فى المشى مع تقارب الخطا ، وهو الخَبَب) ثلاثا ومشى أربعا. ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام . فقرأ : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [٢ / البقرة / ١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان أبى يقول (ولا أعلمه ذكره إلا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم) : كان يقرأ فى الركعتين: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. وقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ .

ثم رجع إلى الركن فاستلمه . ثم خرج من الباب إلى الصفا . فلما دنا من الصفا قرأ : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ [٢ / البقرة / ١٥٨] « أبدأ بما بدأ الله به » .

فبدأ بالصفا . فرقى عليه ، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة . فوحّد الله وكبّره . وقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . لا إله إلا الله وحده . أنجز وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده » .

ثم دعا بين ذلك . قال مثل هذا ثلاث مرات . =

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع رأسه ويرفع يده إلى السماء وينكبها إليهم ويقول : اللهم ! هل بلغت ؟ .

= ثم نزل إلى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة . فمن كان منكم ليس معه هدى فليحلّ ، وليجعلها عمرة » .

فقام سراقة بن مالك بن جُعْشُم فقال : يا رسول الله ! ألِعامنا هـذا أم لأبدٍ ؟ فشبّك رسول الله صلى الله عليـه وسلم أصابعه واحدة فى الأخرى وقال « دخلت العمرة فى الحج » مرتين « لا . بل لأبدٍ أبدٍ » .

وقدم علىّ من اليمن ببُدْن النبىّ صلى الله عليه وسلم، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حلّ، ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت . فأنـكر ذلك عليها . فقالت : إن أبى أمرنى بهذا .

قال ، فـكان علىّ يقول ، بالعراق : فذهبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محرّشاً على فاطمة للذى صنعت . مستفتيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكرتْ عنه : فأخبرته أنى أنـكرت ذلك عليها . فقال « صدقتْ . صدقتْ . ماذا قلت ، حـين فرضت الحج ؟ » قال ، قلت : اللهم ! إنى أهلّ بما أهلّ به رسولك . قال « فإن معى الهدى فلا تحلّ »

قال فـكان جماعة الهدى الذى قدم به علىّ من اليمن ، والذى أتى به النبىّ صلى الله عليه وسلم مائة .

قال ، فحلّ الناسُ كلهم وقصّروا . إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى . فأهلّوا بالحج . وركب رسول الله صلى الله عليـه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر . ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس. وأمر بقبة من شعَرٍ تضرب له بنَمِرَةَ (موضع بجنب عرفات)

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تشكّ قريش إلا أنه واقف عنـد المشعر الحرام . كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

= فأجاز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بِنَمِرةَ[١] ، فنزل بها . حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلَتْ له . فأتى بطن الوادى ، فخطب الناس فقال :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا . فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية ، تحت قدمىّ موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هُذيل . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضع ربانا . ربا عباس بن عبد المطلب . فإنه موضوع كله . فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم أحدا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرّح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتابَ الله . وأنتم تُسألون عنى . فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحتَ . فقال بإصبعه السبّابة ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس « اللهم ! اشهدْ . اللهم ! اشهدْ » ثلاث مرات .

ثم أذّن . ثم أقام فصلى الظهر . ثم أقام فصلى العصر . ولم يصلّ بينهما شيئاً .

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات (هى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة) وجعل حبل المشاة بين يديه (حبل المشاة أى مجتمعهم) واستقبل القبلة . فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص . وأردف أسامة خلفه . ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمامَ . حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِك رحله . ويقول بيده اليمنى « أيها الناس! السكينةَ السكينةَ » .

كلما أتى حبلًا من الحبال (الحبل هو التل اللطيف من الرمل الضخم) أرخى لها قليلًا ، حتى تصعد . حتى أتى المزدلفة . فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين . ولم يسبّح =

(١) قال ياقوت : ناحية بعرفة .

وروى الإمام أحمد(١) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة

= بينهما شيئاً . ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر . وصلى الفجر حين تبين له الصبح ، بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام . فاستقبل القبلة . فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده. فلم يزل واقفاً حتى أسفر جدًّا . فدفع قبل أن تطلع الشمس . وأردف الفضل بن عباس. وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما . فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظُعُنٌ يجرين . فطفق الفضل ينظر إليهن . فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل . فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر . فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل . يصرف وجهه إلى الشق الآخر ينظر .

حتى أتى بطن مُحَسِّر . فحرّك قليلا . ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى . حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة . فرماها بسبع حصيات . يكبّر مع كل حصاة منها . حصى الخَذْف .

رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بيده . ثم أعطى عليًّا ، فنحر ما غبر . وأشركه فى هديه . ثم أمر من كل بَدَنة ببَضْعَةٍ ، فجُعِلَتْ فى قِدْر ، فطُبِخَت. فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت . فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم . فقال « انزِعوا ، بنى عبد المطلب ! فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم ، لنزعت معكم » .

فناولوه دلواً فشرب منه .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢٠٣٦ (طبعة المعارف) .

الوداع : ياأيها الناس ! أىّ يوم هــذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال : أىّ بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام . قال فأىّ شهر هــذا ؟ قالوا : شهر حرام . قال : فإن أموالـكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هــذا . ثم أعادها مراراً . ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : اللهم ! هل بلّغتُ ؟ مراراً (قال ابن عباس : والله ! إنها لوصية إلى ربه عز وجل) ثم قال : ألا فليبلغ الشاهدُ الغائب . لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ..! » . وقد روى البخارىّ[1] نحوه .

الثانى : تضمن قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) معجزة كبرى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الماوردىّ فى كتابه (أعلام النبوة) فى الباب الثامن فى معجزاته. عصمته ﷺ . ما نصه :

أظهر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم من أعلام نبوته بَعْدَ ثبوتها بمعجز القرآن ، واستغنائه عما سواه من البرهان ، ماجعله زيادة استبصار يُحجُّ بها من قلت فطنته ، ويذعن لهـا من ضعفت بصيرته ، ليكون إعجاز القرآن مُدرَكا بالخواطر الثاقبة تفكرا واستدلالا ، وإعجاز العيان معلوماً ببداية الحواس احتياطاً واستظهارًا ، فيكون البليد مقهورا بوهمه وعيانه ، واللبيب محجوجا بفهمه وبيانه . لأن لـكل فريق من الناس طريقاً هى عليهم أقرب، ولهم أجذب ، فـكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلا ، وأعم دليلا . فمن معجزاته عصمته من أعدائه وهم الجم الغفير ، والعدد الـكثير ، وهم على أتم حنقعليه ، وأشد طلب لنفسه. وهو بينهم مسترسل قاهر ، ولهم مخالط ومكاثر ، ترمقه أبصارهم شزرا ، وترتد عنه أيديهم ذعرا ، وقد هاجر عنه أصحابهحذرا ، حتى استكمل مدته فيهمثلاث عشرة سنة. ثم خرج عنهم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٣٢ ـ باب الخطبة أيام منى ، حديث ٨٩٢ .

سليما لم يُكْلَمْ فى نفس ولا جسد . وما كان ذلك إلا بعصمة إلٰهية وعده الله تعالى بها فحققها حيث يقول : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . فعصمه منهم .

ثم قال الماوردىّ رحمه الله تعالى : وإن قريشاً(١) اجتمعت فى دار الندوة . وكان فيهم النضر بن الحارث بن كنانة ، وكان زعيم القوم . وساعده عبد الله بن الزِّبَعْرَى وكان شاعر القوم . فحضهم على قتل محمد صلى الله عليه وسلم وقال لهم : الموت خير لكم من الحياة. فقال بعضهم : كيف نصنع ؟ فقال أبو جهل : هل محمد إلا رجل واحد ؟ وهل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش ؟ فليس فيكم من يزهد فى الحياة فيقتل محمداً ويريح قومه ؟ وأطرق مليا. فقالوا : من فعل هذا ساد . فقال أبو جهل : مامحمد بأقوى من رجل منا . وإنى أقوم إليه فأشدخ رأسه بحجر . فإن قُتِلْتُ أرحت قومى ، وإن بقيت فذاك الذى أوثر . فخرجوا على ذلك . فلما اجتمعوا فى الحطيم، خرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقالوا : قد جاء . فتقدم من الركن فقام يصلى . فنظروا إليه يطيل الركوع والسجود ،فقال أبو جهل :فإنى أقوم فأريحكم منه، فأخذمهراسا عظيما . ودنا من رسول الله ﷺ وهو ساجد لايلتفت ولايهابه، وهو يراه . فلما دنا منه ارتعد وأرسل الحجر على رجله . فرجع وقد شدخت أصابعه وهو يرتعد ، وقد دوخت أوداجه . ورسول الله ﷺ ساجد ، فقال أبو جهل لأصحابه : خذونى إليكم.فالتزموه وقد غشى عليه ساعة . فلما أفاق قال له أصحابه : ماالذى أصابك ؟ قال :لما دنوت منه ، أقبل علىّ من رأسه فحل فاغرٌ فاه . فحمل علىّ أسنانه . فلم أتمالك . وإنى أرى محمداً محجوباً . فقال له بعض أصحابه : ياأبا الحكم ! رغبت وأحببت الحياة ورجعت . قال : ماتغرّونى عن نفسى . قال النضر بن الحرث : فإن رجع غداً فأنا له . قالوا له: ياأبا سهم !لئن فعلت هذا لتسودنّ . فلما كان من الغد اجتمعوا فى الحطيم منتظرين رسول الله ﷺ . فلما أشرف عليهم قاموا

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٣١٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ١٩٠ (طبعة جوتنجن) .

بأجمعهم فواثبوه . فأخذ حفنة من تراب وقال : شاهت الوجوه . وقال : حمٓ لا ينصرون ، فتفرقوا عنه .

وهذادفع إلهيّ وثق بهمن اللهتعالى. فصبر عليه حتىوقاهالله، وكانمن أقوى شاهدعلى صدقه.

(ومن أعلامه) : أن معمر بن يزيد ، وكان أشجع قومه ، استغاثت به قريش وشكوا إليه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت بنو كنانة تصدر عن رأيه وتطيع أمره ، فلما شكوا إليه قال لهم : إنى قادم إلى ثلاث وأريحكم منه .وعندى عشرون ألف مُدَجّج(٤) فلا أرى هذا الحىّ من بنى هاشم يقدر على حربى . وإن سألونى الدية أعطيتهم عشر ديات ، ففى مالى سعة . وكان يتقلد بسيف طوله سبعة أشبار فى عرض شبر ، وقصته فى العرب مشهورة بالشجاعة والبأس . فلبس ، يوم وعـــده قريشاً ، سلاحه وظاهر بين درعين . فوافقهم بالحطيم ورسول الله ﷺ فى الحجر يصلى . وقد عرف ذلك فما التفت ولا تزعزع ولا قصر فى الصلاة . فقيل له : هذا محمدساجد . فأهوى إليه ، وقد سل سيفه وأقبل نحوه. فلما دنا منه رمى بسيفه وعاد . فلما صار إلى باب الصفا عثر فى درعه فسقط فقام، وقد أدمى وجهه بالحجارة، يعدو كأشد العدو . حتى بلغ البطحاء ما يلتفت إلى خلف . فاجتمعوا وغسلوا عن وجهه الدم وقالوا : ماذا أصابك ؟ قال : ويحكم ! المغرور من غررتموه . قالوا :ماشأنك؟ قال : مارأيت كاليوم. دعونى ترجع إلىّ نفسى. فتركوه ساعة وقالوا : ماأصابك ؟ ياأباالليث! قال: إنى لمادنوت من محمد ، فأردت أن أهوى بسيفى إليه ، أهوى إلىّ من عندرأسه شجاعان أقرعان ينفخان بالنيران، وتلمع من أبصارهما. فعدوت . فما كنت لأعود فى شىء من مساءة محمد.

(ومن أعلامه) : أن كلدة بن أسد ، أبا الأشد ، وكان من القوة بمكان ، خاطر قريشاً يوماً فى قتل رسول الله صلى الله عليـهوسلم. فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم . فرأى رسول الله ﷺ فى الطريق يريد المسجد ما بين دار عقيل وعقال . فجاء كلدة ومعه المزراق. فرجع المزراق فى صدره . فرجع فزعاً . فقالت له قريش :مالك ؟ ياأباالأشد ! فقال : ويحكم!

(١) الشاكُّ فى السلاح ، أى : الداخل « قاموس » ـ المؤلف .

ما ترون الفحل خلفى ؟ قالوا : ما نرى شيئاً . قال : ويحكم ! فإنى أراه . فلم يزل يعدو حتى بلغ الطائف. فاستهزأت به ثقيف ، فقال : أنا أعذركم ، لو رأيتم ما رأيت لهلكتم .

(ومن أعلامه) : أن أبا لهب خرج يوما ، وقد اجتمعت قريش فقالوا له: ياأباعتبة! إنك سيدناوأنت أولى بمحمدمنا . وإن أبا طالب هو الحائل بيننا وبينه . ولوقتلته لم ينكر أبو طالب ولا حمزة منك شيئاً . وأنت برئ من دمه فنؤدى نحن الدية وتسود قومك . فقال : فإنى أكفيكم .! ففرحوا بذلك ومدحته خطباؤهم . فلما كان فى تلك الليلة وكان مشرفاً عليه ، نزل أبو لهب، وهو يصلى . وتسلقت امرأته أم جميل الحائط، حتى وقفت على رسول الله ﷺ، وهو ساجد . فصاح به أبو لهب فلم يلتفت إليه ، وهما كانا لا ينقلان قدماً ولا يقدران على شىء حتى تفجر الصبح . وفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو لهب : يامحمد! أطلق عنا. فقال : ما كنت لأطلق عنكما أوتضمنا لى أنكما لا تؤذيانى . قالا : قد فعلنا . فدعا ربه فرجعا .

(ومن أعلامه) : أن[1] قريشاً اجتمعوا فى الحطيم . فخطبهم . عتبة بن ربيعة فقال : إن هذا ابن عبد المطلب قد نغص علينا عيشنا وفرّق جماعتنا وبدّد شملنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا . وكان فى القوم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحرث ومنبه ونبيه ابنا الحجاج ، وأمية وأبىّ ابنا خلف ، فى جماعة من صناديد قريش . فقالوا له : قل ماشئت فإنا نطيعك. قال : سأقوم فأكلمه . فإن هو رجع عن كلامه وعما يدعو إليه ، وإلا رأينافيه رأينا . فقالوا له : شأنك ياأبا عبد شمس! فقام وتقدم إلى النبىّ ﷺ وهو جالس وحده . فقال : أنعم صباحا يامحمد ! قال : ياعبد شمس ! إن الله قد أبدلنا بهذا ، السلام ، تحية أهل الجنة . قال : يا ابن أخى ! إنى قد جئتك من عند صناديد قريش

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ١٨٥و١٨٦ (طبعة جوتنجن) .

لأعرض عليك أمورهم. إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ولنا فيها الفسحة ! ثم قال: ياابن عبد المطلب! أنا زعيم قريش فيما قالت . قال : قل . قال : ياابن عبد المطلب ! إنك دعوت العرب إلى أمر ما يعرفونه فاقبل مني ما أقول لك . قال : قل . قال : إن كان ما تدعو إليه تطلب به ملكا فإنا نملكك علينا من غير تعب وتتوجك ، فارجع عن ذلك. فسكت . ثم قال له : وإن كان ما تدعو إليه أمراً تريد به امرأة حسناء فنحن نزوجك . فقال : لاقوة إلا بالله ! ثم قال له : وإن كان ما تتكلم به تريد مالا أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل في قريش . فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا وتفريق جماعتنا. وإن كان ما تدعو إليه جنوناً داويناك كما تداوى قيس بني ثعلبة مجنونهم. فسكت النبيّ ﷺ . فقال : يامحمد .! ماتقول ؟ وبم أرجع إلى قريش؟ فقال النبيّ ﷺ: حم(١) تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * ـ حتى بلغ إلى قوله ـ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. قال عتبة : فلما تكلم بهذا الكلام ، فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسي من أعجازها . وقام فزعاً يجر رداءه . فرجع إلى قريش وهو ينتفض انتفاض العصفور . وقام النبيّ ﷺ يصلي . فقالت قريش : لقد ذهبت من عندنا نشيطاً ورجعت فزعاً مرعوباً فما وراءك ؟ قال : ويحكم! دعوني. إنه كلمني بكلام لا أدري منه شيئاً . ولقد رعدت عليّ الرعدة حتى خفت على نفسي ، وقلت : الصاعقة قد أخذتني ... فندموا على ذلك .

(ومن أعلامه) : أنه لما أراد الهجرة ، خرج من مكة ومعه أبو بكر . فدخل غاراً في جبل ثور ليستخفي من قريش . وقد طلبته وبذلت لمن جاء به مائة ناقة حمراء ، فأعانه الله تعالى بإخفاء أثره . وأنبت على باب الغار ثمامة (وهي شجرة صغيرة) . وألهمت العنكبوتُ فنسجت

(١) [٤١ / فصلت / ١ـ١٣] .

على باب الغار نسج سنين فى طرفة عين . ولُدِغ[١] أبو بكر هذه الليلة غير لدغة . نخرّق ثيابه وجعلها فى الشقوق . وسدّ بعضها بقدمه اتقاءً لرسول الله ﷺ . وأقام فيه ثلاثة أيام ثم خرج منه . فلقيه[٢] سراقة بن مالك بن جعشم . وهو من جملة من توجه لطلبه ، فقال له أبو بكر: هذا سراقة قد قرب . فقال رسول الله ﷺ : اللهمّ ! اكفنا سراقة. فأخذت الأرض قوائم فرسه إلى إبطها . فقال سراقة : يا محمد ! ادع الله أن يطلقنى ولك علىّ أن أردّ من جاء يطلبك، ولا أعين عليك أبداً ! فقال اللهمّ ! إن كان صادقاً فأطلق عن فرسه. فأطلق الله عنه . ثم أسلم سراقة وحسن إسلامه .

هذا ما أورده الماوردىّ من الأعلام قبل الهجرة ؛ ثم أورد ماوقع بعدها ؛ وسننقلها عن ابن كثير ، فإنه قال فى هذه الآية :

ومن عصمة الله لرسوله ، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسّادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهاراً ، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة . فصانه فى ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب . إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً فى قريش . وخلق الله فى قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ ، لا شرعية . ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها . ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك فى الكفر، هابوه واحترموه. فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً . ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحمل إلى دارهم ، وهى المدينة . فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود . وكلّما همّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وردّ

(١) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٣٢٨و٣٢٩ (طبعة جوتنجن) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٣٣١و٣٣٢ (طبعة جوتنجن) .

كيده عليه . كما كاده اليهود[١] بالسحر، فحماه الله منهم وأنزل عليه سورتى المعوذتين دواءً لذلك الداء . ولما سمّه[٢] اليهود فى ذراع تلك الشاة بخيبر ، أعلمه الله به وحماه منه. ولهذا أشباه كثيرة جدًّا يطول ذكرها . فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة :

فقال ابن جرير[٣] : حدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر حدثنا محمد بن كعب القرظىّ وغيره قالوا : كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلًا اختارله أصحابُه شجرة ظليلة، فيَقيل تحتها . فأتاه أعرابىّ فاخترط سيفه ثم قال : من يمنعك منى ؟ قال : الله عزوجلّ. فرُعِدَتْ يد الأعرابىّ وسقط السيف منه . قال : وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل الله عز وجل : وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.

وروى ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله الأنصارىّ قال : لما غزا رسول الله ﷺ بنى

---

(١) انظر صحيح البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب، ٤٧ ـ باب السحر وقول الله تعالى: وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . و ٤٩ ـ باب هل يستخرج السحر و ٥٠ ـ باب السحر .

وفى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٦ ـ باب إن الله يأمركم بالعدل والإحسان .

وفى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٥٧ ـ باب تكرير الدعاء .

والحديث رقم ١٤٩٩ عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

(٢) انظر صحيح البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ٧ ـ باب إذا غدر المشركون بالمسلمين ، هل يعفى عنهم ؟

وفى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٤١ ـ باب الشاة التى سُمَّت للنبىّ ﷺ بخيبر .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٥٥ ـ باب ما ذكر فى سُمّ النبىّ ﷺ .

والحديث رقم ١٤٩٨ عن أبى هريرة .

(٣) الأثر رقم ١٢٢٧٨ من التفسير .

أنمار، نزل ذات الرقاع بأعلى نخـــل . فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلّى رجليه ، فقال الوارث من بنى النجار : لأقتلنّ محمداً . فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له أعطنى سيفك، فإذا أعطانيه قتلته به. قال : فأتاه فقال : يامحمد ! أعطنى سيفك أشيمه. فأعطاه إياه . فرعدت يده حتى سقط السيف من يده . فقال رسول الله ﷺ : حال الله بينك وبين ما تريد. فأنزل الله عز وجل : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه . ثم قال : وقصة غورث بن الحرث مشهورة فى الصحيح . يريد ماأخرجه الشيخان[1] عن جابر قال: غزونا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد . فلما قفل رسول الله ﷺ أدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة . فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة . فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا . وإذا عنده أعرابىّ فقال : إنّ هذا اخترط علىّ سيفى وأنا نائم . فاستيقظت وهو فى يده صلتاً. فقال : من يمنعك منى ؟ فقلت : الله . ثلاثاً . ولم يعاقبه وجلس .

وفى رواية أخرى قال جابر : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع. فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ . فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٨٤ ـ باب من علّق سيفه بالشجر فى السفر عند القائلة .و٨٧ ـ باب تفرّق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر. والحديث رقم ١٣٩٣ .

وأخرجه مسلم فى:٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٣١١و٣١٢ (طبعتنا).

وسلم معلق بالشجرة . فاخترطه فقال : تخافنى ؟ فقال : لا ! فقال : من يمنعك منى؟ قال: الله. فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ .

وزاد البخارىّ فى رواية له : إن اسم ذلك الرجل غورث بن الحرث .

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة قال : كنا إذا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها ، فينزل تحتها . فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها . فجاء رجل فأخذه فقال : يامحمد .! من يمنعك منى ؟ فقال رسول الله ﷺ : الله يمنعنى منك. ضع السيف. فوضعه . فأنزل الله عز وجل : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . وكذا رواه ابن حبان فى (صحيحه) .

وروى الإمام أحمد[(١)] عن جعدة بن خالد بن الصمة قال : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ورأى رجلا سمينا ، فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم يومئ إلى بطنه بيده ويقول : لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك. قال : وأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم برجل فقالوا : هذا أراد أن يقتلك ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : لم ترع، لم ترع . ولو أردت ذلك لم يسلطك الله علىّ .

الثالث : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يُحْرَسُ ، كما روى الإمام أحمد[(٢)] عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهر ذات ليلة وهى إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يارسول الله ؟ قال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة ! قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن مالك . فقال: ماجاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك ، يارسول الله ! قال : فسمعت غطيط رسول الله ﷺ فى نومه . أخرجاه فى (الصحيحين)[(٣)] :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٧١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٤ ـ كتاب التمنى ، ٤ ـ باب قول النبىّ ﷺ =

وفى لفظ : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة مقدمه المدينة ، يعنى على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة ، وكان ذلك فى سنة ثنتين منها .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ليلا حتى نزلت (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم : أيها الناس! انصرفوا فقد عصمنى الله. أخرجه الترمذىّ(١) والحاكم وابن أبى حاتم وابن جرير(٢).

وقد روى ابن جرير(٣) عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس. فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالا من بنى هاشم يحرسونه . حتى نزلت عليه هذه الآية : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال : إن الله قد عصمنى من الجن والإنس . ورواه الطبرانى أيضاً . وروى ابن جرير نحوه أيضاً عن جابر(٣) .

قال ابن كثير: وهذا حديث غريب، وفيه نكارة. فإن هذا الآية مدنية، بل هى من أواخر مانزل بها ، وهذا الحديث يقتضى أنها مكية ، والله أعلم ! انتهى .

أقول : بمراجعة ما أسلفنا فى (المقدمة) من قاعدة أسباب النزول يرتفع الإشكال ، فتذكر .

= « ليت كذا وكذا ، حديث ١٣٨٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٩و٤٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٤ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٢) الأثر رقم ١٢٢٧٦ من التفسير .

(٣) هذان الأثران ذكرهما ابن كثير فى تفسيره عن ابن مردويه (ج ٢ ص ٧٨) ولم أجدهما فى الطبرىّ .

الرابع : قال العلامة أبو السعود : إيراد هذه الآية الكريمة فى تضاعيف الآيات الواردة فى حق أهل الكتاب ، لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها ، ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم بها ، وخصوصاً مايتلوها من النص الناعى عليهم كمال ضلالتهم ، ولذلك أعيد الأمر فقيل خطاباً للفريقين :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

« قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ » أى : من الدين « حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ » أى تراعوها وتحافظوا على مافيهما من الأمور التى من جملتها دلائل نبوة النبىّ ﷺ واتباعه .

قال بعض المحققين :

معنى قوله تعالى (حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) أى : تعملوا طبق الواجب بأحكامهما ، وتحيوا شرائعهما ، وتطيعوا أوامرها، وتنتهوا بنواهيهما. فإن الإقامة هى الإتيان بالعمل على أحسن أوجهه ، كإقامة الصلاة مثلا. أى فعلها على الوجه اللائق بها. ولا يدخل فى ذلك القصص التى فيهما ولا العقائد ونحوها فإنها ليست عملية . والمراد أن يعملوا بما بقى عندهم من أحكام التوراة والإنجيل على علاته وعلى ما به من نقص وتحريف وزيادة ، فإن شرائع هذه الكتب وأوامرها ونواهيها هى أقل أقسامها تحريفاً ، وأكثر التحريف فى القصص والأخبار والعقائد وما ماثلها ، وهى لا تدخل فى الأمر بالإقامة . ولا شك أن أحكام التوراة والإنجيل وما فيهما من شرائع ومواعظ ونصائح ونحوها ،لاتزال فيهما أشياء كثيرة لاعيب

فيها ، ونافعة للبشر ، وفيها هداية عظمى للناس ، فهى مما يدخل تحت قوله تعالى[١](وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ) فإذا أقام أهل الكتاب أحكامهما على علاتها كانوا لاشك على شىء يعتد به ويصح أن يسمى ديناً . وإذا لم يقيموها وجروا على خلافهما ، كانوا مجردين من كل شىء يستحق أن يسمى ديناً . وكانوا مشاغبين معاندين ، وبدينهم غير مؤمنين إيماناً كاملا . وهذا معنى صحيح، وهو المتبادر من الآية . فأى شىء فى هذا المعنى يدل على عدم تحريف التوراة والإنجيل وعلى وجودهما كاملين ، كما يدعى ذلك المكابرون من أهلهما ، وخصوصاً بعد قوله تعالى[٢](وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) ؟

ثم قال: ولك أن تقول: معنى قوله تعالى: لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ . الحقيقيّين ، وذلك يستلزم البحث والتنقيب والجد والاجتهاد فى نقد ما عندهم منهما نقداً عقلياً تاريخياً صحيحاً، حتى يستخلصوا حقهما من باطلهما بقدر الإمكان . ونتيجة ذلك العناء كلّه ، أن يكونوا على شىء من الدين الحق ، وهذا أمر لاشبهة فيه . ولو اتبعوا القرآن لأراحوا واستراحوا . ولكنهم ـ كما أخبر تعالى عنهم ـ لا يزيدهم القرآن إلّا طغياناً وكفراً وحسداً وعناداً فلا يؤمنون به . ولا يهتم جمهورهم بإصلاح دينهم من المفاسد وتنقيته من الشوائب . فلم يدركوا خير هذا ولا ذاك . فكأن الآية تريهم أنهم إذا لم يتبعوا القرآن يجب عليهم القيام بعبء ثقيل جدًّا من البحث والتمحيص ، وبعد ذلك يكونون على شىء من الحق لا على الحق

---

(١) [٣ / آل عمران / ٣و٤] ونصهما : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

كلّه ولو أقاموا التوراة والإنجيل الحقيقيين غاية الإقامة ، فما بالك إذا كان ذلك مستحيلًا لعدم وجودهما على حقيقتهما ؟ فهم ليسوا على شيء مطلقاً. ولا يمكن أن يكونوا عليه. فإن كتبهم قد صارت خلقةً بالية . لذلك قال رسول الله ﷺ لعمر رضى الله عنه، حينما رأى ورقةً من التوراة بيده : ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حيًّا ماوسعه إلّا اتباعى . (فإن قيل) : وكيف يحثهم الله على العمل بأى شيء من دينهم، ومنه ما جاء القرآن ناسخاً له ؟ (قلت) : لاشك عند كل عاقل أنه خير لأهل الكتاب أن يعملوا بشرائع دينهم الأصلية ، فإنهم حينئذٍ يتجنبون الكذب والتحريف والعناد والأذى والإفساد فى الأرض وإهلاك الحرث والنسل والزنى ، وغير ذلك مما يعمله الناس. فمراد القرآن على التفسير الأول للآية حثهم - إن أصروا على عدم الإيمان به - على العمل بدينهم على الأقل ليستريح النبىّ وأتباعه من أكثر شرورهم ورذائلهم . ولكن بعد العمل بدينهم لا يكونون على الدين الحق الكامل؛ بل الذى يفهم من الآية أنهم يكونون على شيء من الدين، وهو - ولاشك - خير من لاشيء . ولا يفهم أنهم يكونون على الحق كله وعلى الدين الكامل الذى لاغاية أعظم منه ، فإن ذلك لا يكون إلّا بالإسلام (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)(١) . انتهى .

ولا يخفى أنهم إذا أقاموا التوراة والإنجيل ، آمنوا بمحمد صلوات الله عليه وسلم . لما تتقاضى إقامتُهما الإيمانَ به . إذ كثر ما جاء فيهما من البشارات به والتنويه باسمه ودينه . فإقامتهما على وجوههما تستدعى الإسلام البتة ، بل هى هو ، والله الموفق ...

« وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : القرآن المجيد بالإيمان به . وفى التعبير بقوله تعالى (لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ) من التحقير والتصغير ما لاغاية وراءه . كما تقول : هذا ليس بشيء! تريد غاية تحقيره وتصغير شأنه . وفى أمثالهم : أقل من لا شيء . أى : لستم على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً، لفساده وبطلانه .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

ثم بيّن تعالى غلوّهم فى العناد وعدم إفادة التبليغ فقال : « وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا » أى تمادياً « وَكُفْرًا » أى ثباتاً على الكفر « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى : فإذا بالغت فى تبليغ ما أنزل إليك ، فرأيت مزيد طغيانهم وكفرهم ، فلا تحزن عليهم لغاية خبثهم فى ذواتهم ، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ، وفى المؤمنين غنى عنهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » فيما يستقبلهم من العذاب « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : فى الآخرة إذا خاف المقصرون وحزنوا على تضييع العمر ..

لطائف

الأولى : (الصابئون) رفع على الابتداء ، وخبره محذوف . والنية به التأخير عما فى حيز (إن) من اسمها وخبرها . كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا . والصائبون كذلك ، وأنشد سيبويه[1] شاهداً له :

وَإِلَّا فاعلموا أَنَّا وأنتم ... بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِى شِقَاقِ

---

(١) جاء فى (شواهد الكشاف) ما يأتى :

إذا جُزَّت نواصى آل بدرٍ ... فَأَدُّوها وأَسْرَى فى الوَثاقِ
وإلا فاعلموا أَنَّا وأنتم ... بُغَاةٌ ما بَقِينا فى شِقَاقِ =

أى: فاعلموا أنا بغاة، وأنتم كذلك . ثم قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ماالتقديم والتأخير إلّا لفائدة ، فما فائدة التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح. فما الظنّ بغيرهم ؟ وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعــدودين ضلالًا وأشدّهم غيًّا ، وما سموا صابئين إلّا لأنهم صبأوا عن الأديان كلها. أى : خرجوا . كما أن الشاعر قدم قوله (وَأَنْتُمْ) تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل فى الوصف بالبغاة من قومه . حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو (بغاة) لئلا يدخل قومه فى البغى قبلهم ، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) :

ثمــة سؤال، وهو أن يقال : لو عطف (الصابئين) ونصبه ـ كما قرأ ابن كثير ـ لأفاد أيضاً دخولهم فى جملة المتوب عليهم ، وَلَفُهِم من تقديم ذكرهم على (النصارى) ما يفهم من

= فى سورة المائدة عند قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ، حكمهم كذا ، وَالصَّابِئُونَ كذلك . فـ (الصابئون) مرفوع للتأخير عما فى خبر (إن) كقوله :

* وإنى وقيّارٌ بها لغريبُ *

وأنشد سيبويه شاهداً له : وإلّا فاعلموا أنا وأنتم ... الخ .

أى : فاعلموا أنا بغاة ، وأنتم كذلك .

والبيت لبشر بن أبى خازم ، وقبله : إذا جُزّت ... الخ .

وسبب هذا الشعر أن قوماً من آل بدر جاؤا إلى بنى طيء . فعمد بنو طيء فجزّوا نواصيهم ، وقالوا : قد مَنَنَّا عليكم ولم نقتلكم . وآل بدر حلفاء بنى أسد . فغضب بنو أسد لأجل ما صنع بالبدريين . فقال بشر بن أبى خازم هذه القصيدة يذكر فيها ما صنع بآل بدر. ويقول للطائيين : إذا جززتم نواصيهم ، فاحملوا إلينا وأطلقوا من أسرتم منهم . فإن لم تفعلوا فاعلموا أنا نبغيكم ونبقى أبداً معاندين ، يبغى بعضنا على بعض .

الرفع من أن هؤلاء الصابئين ـ وهم أوغل الناس فى الكفر ـ يتاب عليهم، فما الظن بالنصارى؟ ولكان الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادىّ . فلِمَ عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين ؟ وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفرادىّ ؟ ويجاب عن هذا السؤال بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف . لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات . وهذا الصنف من جملتها ، والخبر عنها واحد. وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الإفرادىّ وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به . ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل . تقديره مثلًا (والصابئون كذلك) فيجىء كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها . وهو بهذه المثابة ، لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة ، فكانوا أحقاء بجعلهم تبعاً وفرعاً مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر ، وفائدة التقديم على الخبر أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر ، بين الجزأين ، أدلّ على الخبر المحذوف من ذكره ، بعد تقضى الكلام وتمامه ، والله أعلم .

الثانية ـ فإن قلت : إن قوله تعالى (مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ) كيف يقع خبراً عن (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) أو بدلًا ، وهو يقتضى انقسام المؤمنين إلى مؤمنين وغير مؤمنين ؟

أجيب : بأن المراد بـ (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) الذين آمنوا باللسان فقط . وهم المنافقون . فالمعنى: الذين آمنوا باللسان ومن معهم، مَن أحدث منهم إيماناً خالصاً . أو يؤول (مَنْ ءَامَنَ) بمن ثبت على الإيمان . فيصح فى حق المؤمنين الخلص . وفى هذا شبه جمع بين الحقيقة والمجاز ، ودفع بأن الثبات على الإيمان ليس غير الإيمان ، بل هو وإحداثه فردان من مطلقه . والوجه الأول . إذ فى ضمّ المؤمنين إلى الكفرة إخلال بتكريمهم ، قاله الخفاجىّ .

قال أبو السعود : أما على تقدير كون المراد بـ (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) مطلق المتدينين بدين الإسلام، المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بـ (مَنْ ءَامَنَ) من اتصف منهم بالإيمان الخالص على الإطلاق ، سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه ـ كما هو شأن المخلصين . أو بطريق

إحداثه وإنشائه ـ كما هو حال من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف. وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة فى ترغيب الباقين فى الإيمان ، ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخلّ بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين الأعلام . انتهى .

الثالثة : قال الرازىّ : لما بيّن تعالى أن أهل الكتاب ليسوا على شىء ما لم يؤمنوا ، بيّن أن هذا الحكم عام فى الكل ، وأنه لا يحصل لأحد فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، وذلك لأن الإنسان له قوتان : القوة النظرية والقوة العملية . أما كمال القوة النظرية فليس إلا بأن يعرف الحق . وأما كمال القوة العملية فليس إلا بأن يعمل الخير . وأعظم المعارف شرفاً معرفة أشرف الموجودات وهو الله سبحانه وتعالى . وكمال معرفته إنما يحصل بكونه قادرا على الحشر والنشر ؛ فلا جرم كان أفضل المعارف هو الإيمان بالله واليوم الآخر . وأفضل الخيرات فى الأعمال أمران : المواظبة على الأعمال المشعرة بتعظيم المعبود ، والسعى فى إيصال النفع إلى الخلق. ثم بين تعالى أن كل من أتى بهذا الإيمان وبهذا العمل ، فإنه يرد يوم القيامة من غير خوف ولا حزن . والفائدة فى ذكرهما : أن الخوف يتعلق بالمستقبل ، والحزن بالماضى ، فقال : (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) بسبب ما يشاهدون من أهوال القيامة (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) بسبب ما فاتهم من طيّبات الدنيا ، لأنهم وجدوا أموراً أعظم وأشرف وأطيب . (فإن قيل): كيف يمكن خلوّ المكلف ، الذى لا يكون معصوماً ، عن أهوال يوم القيامة ؟ فالجواب من وجهين : الأول ـ أنه تعالى شرط ذلك بالعمل الصالح. ولا يكون آتياً بالعمل الصالح إلّا إذا كان تاركا لجميع المعاصى . والثانى ـ أنه إذا حصل خوف ، فذلك عارض قليل لا يعتد به. انتهى .

ثم بين تعالى بعضاً آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ)

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى : على الإيمان بالله ورسله « وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا » ليقفوهم على ما يأتون وما يذرون فى دينهم « كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ » أى : بما يخالف هواهم ويضادّ شهواتهم من الأحكام الحقة . مع أن وضع الرسالة ، الدعوةُ إلى مخالفة الهوى « فَرِيقًا » منهم « كَذَّبُوا » مع ظهور دلائل صدقهم « وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ » بعد التكذيب . سدًّا لدعوتهم إلى ما يخالف أهويتهم .

لطيفتان

الأولى: قال الزمخشرىّ : جواب الشرط محذوف يدل عليه قوله (فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) كأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهراً فى الآية الأخرى ، وهى توأمة هذه ، قوله تعالى (١) : أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . فأوقع قوله (اسْتَكْبَرْتُمْ) جواباً . ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض . فلو قدر الزمخشرىّ ههنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به فى أخت الآية فقال : وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، لكان أولى ، لدلالة مثله عليه .

(١) [٢ / البقرة / ٨٧] ونصها : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ .

الثانية: قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم جىء بأحـد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً ؟ قلت : جىء (يَقْتُلُونَ) على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة ، للتعجيب منها .

قال فى (الانتصاف) : أو يكون حالا على حقيقته . لأنهم داروا حول قتل محمد ﷺ . وقد قيل هذا الوجه فى أخت هذه الآية فى (البقرة) ؛ وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع لاستحضاره دون الماضى ، وتمثيله بقوله تعالى(١) :أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِن اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . فعدل عن (فأصبحت) إلى (فتصبح) تصويراً للحال واستحضارا لها فى ذهن السامع ، ومنه(٢) :

بأنى قد لقيت الغول تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كالصحيفة صَحْصَحَانِ

فأضربها بلا دَهَشٍ فخرّت ... صريعاً لليدين وللجِرَانِ

وأمثاله كثيرة . انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] .

(٢) ضم إليها صاحب شواهد الكشاف قبلهما هذا البيت :

فمن ينكرْ وجود الغول، إنى ... أخبّر عن يقينٍ بل عيـانِ

ثم قال :

أنشدها المؤلف فى سورة الملائكة عند قوله تعالى : وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ . حيث قال (فتثير) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده ، ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة الرياح السحابَ ، ويستحضر الصورة البديعة الدالّة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهمّ المخاطب ، أو غير ذلك كما فى قول تأبط شرا : بأنى قد لقيت الغول تهوى الخ لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجّع فيها (بزعمه) على ضرب الغول . كأنه يُبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة ، للتعجب من جراءته على كل هول ، وثباته عند كل شدة .

قال الخفاجيّ : اقتصر العلامة هنا على حكاية حال أسلافهم، لقرينة ضمائر الغيبة ، وترك تلك الآية ـ يعني آية البقرة ـ على الاحتمالين لقرينة ضمائر المخاطبين . ليكون توبيخاً وتعييراً للحاضرين بفعل آبائهم . ولذا عقبت هذه الآية بقصة عيسى عليه الصلاة والسلام . فتأمّل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أي : ظن بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل « فَعَمُوا وَصَمُّوا » عطف على (حسبوا) ، و (الفاء) للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها ؛ أي : آمنوا بأس الله تعالى، فتمادوا في فنون الغيّ والفساد ، وعموا عن الدين ، بعد ما هداهم الرسل إلى معالمه الظاهرة ، وصمّوا عن استماع الحق الذي ألْقَوْهُ عليهم ، ولذلك فعلوا ما فعلوا « ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أي : مما كانوا فيه .

قال العلامة أبو السعود : لم يسند التوبة إليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى

= وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بعد موتها . لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيل : فسقناه ، فأحييناه . معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص ، وأدل عليه .

والغول : السعالى . والعرب تسمى كل داهية غولا .

واختلف في وجوده . فمنهم من أنكر وجوده أصلا .

والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى . أي : تهبط . بسهب ، أي : فضاء بعيد من الأرض . والصحيفة : الكتاب . وقاع صحصحان أو صمصمان ، أي : مستوٍ .

والجران : مقدم العنق من مذبحه إلى منحره .

والصمم، تجافياً عن التصريح بنسبة الخير إليهم. وإنما أشير إليها في ضمن بيان توبته تعالى عليهم ، تمهيداً لبيان نقضهم إياها بقوله تعالى :

« ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا » كرة أخرى « كَثِيرٌ مِنْهُمْ » بدل من الضمير في الفعلين أو خبر محذوف ، أي : أولئك كثير منهم « وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أي : بما عملوا ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ورعايةً للفواصل . والجملة تذييل أشير به إلى بطلان حسبانهم المذكور . ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا ، إشارة إجمالية ، اكتفى بها تعويلاً على ما فصل نوع تفصيل في سورة (بني إسرائيل)[1] ـ أفاده أبو السعود . وهو مأخوذ من كلام القفال ، كما سيأتي :

تنبيه :

في هذه الآية إشارة إلى ما اكتنف بني إسرائيل من الفتنة وعذاب الله الذي حاق بهم قبل عيسى وبعده . وذلك أن أنبياءهم قبل عيسى كانوا يوبخون رؤساءهم الأشرار وشعبهم على خطاياهم . ولاسيما في عبادتهم الأوثان . وينصحونهم أن يرجعوا إلى الله . وينذرونهم بعقابه تعالى الشديد ودمارهم إن لم يتوبوا . كما أنبأهم إرميا عليه السلام بخراب بلدهم ، وقضائه تعالى الهائل عليهم ، إن أصرّوا على طغيانهم . فما استمعوا له . حتى روى أنه ختم له بالشهادة. إذ رجمته اليهود بمصر عتوًّا واستكباراً . ثم سلط الله عليهم بختنصر ، ملك بابل ، وسبى شعبهم وهدمت جنوده مدينتهم بيت المقدس وهيكلها . وصارت تلال خرابٍ . وذلك لاستئصال كفرهم وشرورهم ، وتطهير هيكلهم من نجاسة أوثانهم . فحلّ عليهم من البابلية الشقاء والويل . وأخذوا أسرى إلى ما وراء الفرات . ولم يترك منهم إلّا الفقراء فقط . وبذلك انتهى ملكهم . وكان ذلك قبل ولادة عيسى عليه السلام بنحو خمسمائة وثمان وثمانين سنة . ثم تاب الله عليهم ورحمهم من سبيهم ، وأعادهم برحمته إلى مدينتهم بيت المقدس . بعد أن أقاموا في بابل سبعين سنة . وابتدأوا ببناء هيكلهم ثانية . وأرجعوا العبادة إليه . وقام حزقيال عليه

---

(١) هي سورة الإسراء .

السلام بوعظهم وتهذيبهم ودعوتهم إلى التوبة وتذكيرهم بما مضى ليعتبروا . وهكذا كل نبيّ فيهم، لم يزل ينذرهم ويدعوهم إلى الله إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام . فعموا عن الاهتداء به وصمّوا عن وعظه ، وكان ما كان من همّهم بقتله. فدمرهم الله بعد ذلك وأباد مملكتهم . وطُرِدوا من أرضهم بعد رفع عيسى عليه السلام بنحو أربعين سنة. وأخذ الرومانيون مدينتهم وهدموها مع الهيكل . وحلت عليهم نقمة الله فتفرقوا شذر مذر .

هذا ، وما قيل بأن قوله تعالى (فَعَمُوا وَصَمُّوا) إشارة إلى عبادتهم العجل ـ فإنه بعيد . لأنها ، وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم، لكنها في عصر موسى عليه السلام . ولا تعلّق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤوهم بعده عليه السلام بأعصار . وكذا ما قيل بأن قوله تعالى (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا) إشارة إلى طلبهم الرؤية ـ فبعيد أيضاً ، لما ذكرنا . وفنون الجنايات الصادرة عنهم لا تكاد تتناهى . خلا أنّ انحصار ما حكى عنهم ههنا فى المرتين ، وترتبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام ، يقضى بأن المراد ما ذكرناه . والله عنده علم الكتاب . كذا أفاده أبو السعود ،

ونحن نوافقه على ماراه . بيد أنّ ما سقناه فى التنبيه أظهر فى ماجرياتهم ، وأشدّ مطابقةً لما فى تواريخهم ، مما ساقه هنا . فتثبّت .

ويرحم الله الإمام القفال حيث قال : ذكر الله تعالى فى سورة (بنى إسرائيل) ما يجوز أن يكون تفسيراً لهذه الآية فقال[1]: وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . فهذا فى معنى (فعموا وصمّوا) ثم قال: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. فهذا فى معنى قوله (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ) انتهى .

(١) [١٧ / الإسراء / ٤ ـ ٦] .

ثم بيّن تعالى كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد المباين لأصل دعوة عيسى عليه السلام ، من التوحيد الخالص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ »

قال الرازىّ : هذا قول اليعقوبية منهم . يقولون : إن مريم ولدت إلهاً . قال : ولعلّ معنى هذا المذهب أنهم يقولون : إن الله تعالى حلّ فى ذات عيسى واتّحد بها ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

وقد سبق الكلام على مثل هذه الآية فى هذه السورة مفصّلًا ، فتذكّر .

ثم بيّن تعالى أنهم صمّوا عن مقالات عيسى الداعية إلى التوحيد ، كما عَمُوا عما فيه من أمارات الحدوث ، بقوله سبحانه « وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ » ولم يقل اعبدونى . ثم صرّح بقوله « رَبِّي وَرَبَّكُمْ » قلعاً لمادة توهم الاتحاد « إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ » كيف والشرك أعظم وجوه الظلم « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » أى : ما لهم من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار ، إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة . والجمع لمراعاة المقابلة بـ (الظالمين) ؛ و (اللام) إما للعهد، والجمع باعتبار معنى(مَنْ) ، كما أن الإفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها . وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوليًّا . ووضعه على الأول موضع الضمير، للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحقّ . والجملة تذييل مقرِّر لما قبله . وهو إمّا من تمام كلام عيسى عليه السلام ، وإمّا وارد من جهته تعالى ، تأكيداً لمقالته عليه السلام ، وتقريرًا لمضمونها . أفاده أبو السعود .

ثم بيّن تعالى كفر طائفةٍ أخرى منهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » أى : أحد ثلاثة آلهةٍ ، بمعنى واحد منها ، وهم الله ومريم وعيسى .

قال بعضهم : كانت فرقة منهم تسمى (كولى رى دينس) تقول : الآلهة ثلاثة : الأب والابن ومريم .

وجاء فى كتاب (علم اليقين) : أن فرقة منهم تسمى (المَرْيَمِيِّين) قال : يعتقدون أن المريم والمسيح إلٰهان . قال : وكذلك البربرانيّون وغيرهم . انتهى .

وأسلفنا عن ابن إسحق أنّ نصارى نجران ، منهم من قال بهذا أيضاً .

أو المعنى : أحد ثلاثة أقانيم كما اشتهر عنهم . أى هو جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم : أب وابن وروح القدس . وزعموا ، أن الأب إله والابن إله والروح إله والكلّ إله واحد . كما قدمنا عنهم فى قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ .

قال الرازىّ رحمه الله : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل . فإن الثلاثة لا تكون واحداً ، والواحد لا يكون ثلاثة. ولا يرى فى الدنيا مقالة أشدّ فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى . انتهى .

وقد صنفت عدة مصنفات فى تزييف معتقدهم هذا ، وهى شهيرة متداولة ، والحمد لله .

لطيفة :

اتفق النحاة واللغويون على أن معنى قولهم (ثالث ثلاثة ورابع أربعة ... ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقاً . لا الوصف بالثالث والرابع .

وفى (التوضيح وشرحه) : لك فى اسم الفاعل المصوغ من لفظ اثنين وعشرة وما بينهما أن تستعمله على سبعة أوجه : (أحدها) أن تستعمله مفرداً عن الإضافة ، ليفيد الاتصاف بمعناه . فتقول : ثالث ورابع ، ومعناه حينئذٍ واحد موصوف بهذه الصفة وهى كونه ثالثاً ورابعاً .

(الوجه الثانى) أن تستعمله مع أصله الذى صيغ هو منه ، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير . فتقول : خامس خمسة أى : واحد من خمسة لا زائد عليها ، ويجب حينئذٍ إضافته إلى أصله . كما يجب إضافة البعض إلى كله . كـ : يد زيدٍ ، قال تعالى : إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ(١) . وقال تعالى : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وزعم الأخفش وقطرب والكسائىّ وثعلب أنه يجوز إضافة الأول إلى الثانى، ونصبه إياه . فعلى هذا يجوز ثالث ثلاثةٍ بجرّ « ثلاثة » ونصبها . كما يجوز فى (ضارب زيد).

(الوجه الثالث) أن تستعمله مع مادون أصله الذى صيغ منه بمرتبة واحدة، ليفيد معنى التصيير ، فتقول : هذا رابع ثلاثة أى : جاعل الثلاثة بنفسه أربعة ؛ قال تعالى : مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ(٢) . أى : إلا هو

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) [٥٨ / المجادلة/ ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

مصيّرهم أربعة ومصيّرهم ستة . ويجوز حينئذٍ إضافته وإعماله ، كما يجوز الوجهان فى جاعل ومصير ونحوهما .

وانظر تتمة الأوجه .

وبما ذكرناه يعلم ردّ ما ذهب إليه الجامى فى (شرح الكافية) من اعتبار الصفة فى نحو (ثالث ثالثة) حيث قال فى شرح قول ابن الحاجب (ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) : أى أحدها . لكن لا مطلقاً . بل باعتبار وقوعه فى المرتبة الثالثة . قال : وإلّا يلزم جواز إرادة الواحدِ الأولَ من عاشر العشرة وذلك مستبعد جدًّا . انتهى .

فكتب عليه بعض المحققين ما نصّه : الظاهر من عبارة (التوضيح) ومن كلام المصنف أنه لا يعتبر الوقوع فى المرتبة الثانية أو الثالثة وهكذا ... إذْ يبعد فى الآيتين كون المراد بـ « ثَانِى اثْنَيْنِ وَثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » كونه فى المرتبة الثانية أو الثالثة بل المراد أنه بعض تلك العدّة ، بلا نظر لكونه فى المرتبة الثانية أوالثالثة . إلّا أن يكون هذا باعتبار الوضع ، وإن كان الاستعمال بخلافه . ولذا كتب العلامة عبد الحكيم على قوله (وذلك مستبعدٌ جدًّا) أى: عند العقل ، وإلّا فالاستعمال بخلافه. انتهى .

« وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ » فى نص الإنجيل والتوراة وجميع الكتب السماوية ودلائل العقل « إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » لايتعدد أفراداً ولا أجزاءً « وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ » من هذا الافتراء والكذب ، بعد ظهور الدلالة القطعية ، متمسكين بمتشابهات الإنجيل التى أوضحتْها محكماتُه « لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فى الآخرة . من عذاب الحريق والأغلال والنكال .

قال الزمخشرىّ : ولم يقل (ليمسّنهم) لأن فى إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة . وهى تكرير الشهادة عليهم بالكفر فى قوله (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا) وفى البيان فائدة أخرى . وهى الإعلام فى تفسير (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ) أنهم بمكان من الكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ » بالتوحيد والتنزيه عمّا نسبوه إليه من الاتحاد والحلول، فيرجعوا عن التمسك بالمتشابهات إلى القطعيات. فالاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، فيه تعجيب من إصرارهم . ومدار الإنكار والتعجيب عدم الانتهاء والتوبة معاً . أو معناه : ألا يتوبون ـ بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر وهذا الوعيد الشديد ـ مما هم عليه . فمدارهما عدم التوبة عقب تحقق ما يوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة .

قال ابن كثير: هذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه . مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . فكل من تاب إليه تاب عليه. كما قال « وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم .

قال أبو السعود : الجملة حالية من فاعل (يَسْتَغْفِرُونَهُ) مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار . أى: والحال أنه تعالى مبالغ فى المغفرة. فيغفر لهم عند استغفارهم ، ويمنحهم من فضله .

ثم أشار تعالى إلى بطلان التمسك بمعجزات عيسى وكرامات أمّه على إلهيتهما ، بأنّ غايتهما الدلالة على نبوّته وولايتها ، استنزالاً لهم عن الإصرار على ماتقوّلوا عليهما ، وإرشاداً لهم إلى التوبة والاستغفار فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« مَا الْمَسِيحُ » أى : المعلوم حدوثه من كونه « ابْنُ مَرْيَمَ » بالخوارق الظاهرة على

يديه « إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ » أي : مضت « مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » أولو الخوارق الباهرة . فله أسوة أمثاله . كما قال تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ[1] . أي : ما هو إلّا رسول من جنس الرسل الذين خلوا قبله ، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها . إن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى وفلق بها البحر على يد موسى . وهو أعجب . وإن خَلَقَهُ من غير أب ، فقد خلق آدم من غير أب ولا أم . وهو أغرب منه . وفي الآية وجه آخر : أي مضت من قبله الرسل ، فهو يمضي مثلهم . فالجملة ـ على كل ـ منبئة عن اتصافه بما ينافي الألوهيّة « وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ » أي : مبالغة في الصدق . ووقع اسم الصديقة عليها لقوله تعالى: وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ . والوصف بذلك مشعر بالإغراق في العبودية والقيام بمراسمها . فمن أين لهم أن يصفوها بما يباين وصفها ؟

تنبيه :

قال ابن كثير :

دلت الآية على أن مريم ليست بنبيّة . كما زعمه ابن حزم وغيره ـ ممن ذهب إلى نبوّة سارة أم إسحق ونبوّة أم موسى ونبوّة أم عيسى ـ استدلالًا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ . وهذا معنى النبوّة . والذي عليه الجمهور أنّ الله لم يبعث نبيًّا إلّا من الرجال . قال الله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ[2]. وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعريّ، رحمه الله، الإجماعَ على ذلك . انتهى .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٩] . . . وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ .

(٢) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . . . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

فائدة (فى حقيقة الصديق والصدق) :

قال العارف القاشانىّ قدس الله سرّه فى (لطائف الأعلام) :

الصدّيق الكثير الصدق . كما يقال : سكّيت وصرّيع إذا كثر منه ذلك . والصدّيق مِن الناس مَن كان كاملًا فى تصديقه لما جاءت به رسل الله علماً وعملًا ، قولًا وفعلًا . وليس يعلو على مقام الصديقية إلّا مقام النبوّة . بحيث إن من تخطى مقام الصديقية حصل فى مقام النبوّة . قال الله تعالى : أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ... الآية[1] . فلم يجعل تعالى بين مرتبتى النبوة والصديقية مرتبة أخرى تتخللهما . ثم بيّن قدس سره صدق الأقوال ، وصدق الأفعال ، وصدق الأحوال . (فالأول) هو موافقة الضمير للنطق . قال الجنيد : حقيقة الصدق أن تصدق فى موطنٍ لا ينجيك فيه إلّا الكذب . و (صدق الأفعال) هو الوفاء لله بالعمل من غير مداهنة . قال المحاسبىّ : الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قَدْرٍ له فى قلوب الخلق من أجل إصلاح قلبه . ولا يحب اطّلاع النـاس على مثاقيل الذر من حسن عمله . ولا يكره أن يطلع الناس على السيىء من حاله . لأن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم. وليس هذا من أخلاق الصدّيقين . و (صدق الأحوال) اجتماع الهم على الحق، بحيث لا يختلج فى القلب تفرقة عن الحق بوجه .

وقوله تعالى : « كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » استئناف مبين لما قبله من أنهما كسائر البشر فى الافتقار إلى الغذاء . وفيه تبعيد عما نسب إليهما .

قال الزمخشرىّ : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام ، ومايتبعه من الهضم والنفض ، لم يكن إلا جسما مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة، مع شهوة وقَرَمٍ وغير ذلك ... مما يدل على أنه مصنوع مؤلَّف مدبَّر كغيره من الأجسام .

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] . . . مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

لطيفة :

إنما أخر فى الاستدلال على بطلان مذهب النصارى ، حاجتهما للطعام عما قبله من مساواتهما للرسل عليهم السلام ، ترقيا فى باب الاستدلال من الجلىّ للأجلى ، على ما هو القاعدة فى سوق البراهين لإلزام الخصم ، حتى إذا لم يسلِّم فى الجلىّ لغموضه عليه ، يورد له الأجلى تعريضاً بغباوته ، فيضطر للتسليم ، إن لم يكن معاندا ولا مكابرا .

هذا ماظهر لى فى سر التقديم والتأخير .

وأما قول الخفاجىّ ـ ملخصاً كلام البيضاوىّ ـ فى سر ذلك: أنه تعالى بين أولا أقصى مراتب كمالهما ، وأنه لا يقتضى الألوهية ،وقدمه لئلا يواجههما بذكر نقائص البشرية الموجبة لبطلان ماادعوا فيهما ، على حد قوله تعالى : عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمْ أَذِنْتَ لَهُمْ . حيث قدم العفو على المعاتبة له ﷺ انتهى ـ فبعيدٌ .

وقياسه على الآية قياس مع الفارق لاختلاف المقامين . فالأظهر ما ذكرناه ، والله أعلم بأسرار كتابه .

« انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ » أى : على توحيد الله ، وبطلان الاتحاد وإلهية عيسى وأمه ، وبطلان شبهاتهم ! « ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى : كيف يصرفون عن التأمل فيها إلى الإصرار على التمسك بالشبهات الظاهرة البطلان . !

قال أبو السعود : وتكرير الأمر بالنظر ، للمبالغة فى التعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ، ولا يرعوون عن ذلك ، بعد ما بين لهم حقيقة حالهما بياناً لايحوم حوله شائبة ريب ، وثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت . أى : إن بياننا للآيات أمر بديع فى بابه، بالغ لأقاصى الغايات القاصية من التحقيق والإيضاح . وإعراضهم عنها ـ مع انتفاء مايصححه بالمرة ، وتعاضد مايوجب قبولها ـ أعجب وأبدع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً » هذا دليل آخر على فساد قول النصارى ، والموصول كناية عن عيسى وأمه . أى : لا يستطيعان أن يضرا كم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب فى الأنفس والأموال.ولا أن ينفعا كم بمثل ماينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب. ولأن كل مايستطيعه البشر من المضار والمنافع، فبإقدار الله وتمكينه ، فكأنهما لا يملكان منه شيئاً. وإيثار (ما) على (من) لتحقيق ما هو المراد من كونهما بمعزل من الألوهية رأساً ، ببيان انتظامهما فى سلك الأشياء التى لا قدرة لها على شيء أصلا ؛ أى : وصفة الرب أن يكون قادرا على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته . وإنما قدم (الضر) لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع . « وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » بالأقوال والعقائد . فيجازى عليها إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر ، فهو وعد ووعيد .

تنبيهات :

الأول. جعل ابن كثير الخطاب فى قوله تعالى (أَتَعْبُدُونَ) عامًّا للنصارى وغيرهم ، أى : قل لهؤلاء العابدين غيرَ الله من سائر فرق بنى آدم .

وفى (تنوير المقباس) أن (ما) عبارة عن الأصنام خاصة .

وكلاهما مما يأباه السباق والسياق .

الثانى : قال فى (فتح البيان) : إذا كان هـذا فى حق عيسى النبيّ ، فما ظنك بوليّ من الأولياء ؟ فإنه أولى بذلك .

الثالث : جعل أكثر المفسرين (ما) كناية عن عيسى عليه السلام فقط ، والمقام أنها كناية عنه وعن أمه عليهما السلام ، كما أوضحه المهايميّ واعتمدناه .

الرابع : دلت الآية على جواز الحجاج فى الدين ؛ فإن كان مع الكفار وأهل البدع ، فذلك ظاهر الجواز ؛ وإن كان مع المؤمن جاز بشرط أن يقصد إرشاده إلى الحق ، لا إن قصد العلوّ فحظور. وحكى عن الشافعيّ أنه كان إذا جادل أحداً قال : اللهم! ألق الحق على لسانه. أفاده بعض الزيدية .

ولما أقام تعالى الأدلة القاهرة على بطلان ما تقوله النصارى ، أرشدهم إلى اتباع الحق ومجانبة الغلوّ الباطل ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ » أى : الذى هو ميزان العدل « لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ » أى : لاتتجاوزوا الحد فى تعظيم عيسى وأمه ، وترفعوهما عن رتبتهما إلى ما تقوّلتم عليهما من العظيمة ، فأدخلتم فى دينكم اعتقادًا غير الحق بلا دليل عليه ، مع تظاهر الأدلة على خلافه . ونصب (غير) على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : غلوًّا غيرالحق. يعنى غلوًّا باطلا . أو حال من ضمير الفاعل أى : مجاوزين الحق . و(الغلو) نقيض التقصير ، ومعناه الخروج عن الحد ؛ وذلك لأن الحق بين طرفى الإفراط والتفريط ، ودين الله بين الغلو والتقصير .

تنبيه :

دلت الآية على أن الغلوّ فى الدين غلوّان : (غلوّ حق) كأن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ويجتهد فى تحصيل حججه ؛ و (غلوّ باطل) وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه .

قال بعض الزيدية : دلت الآية على أن الغلوّ فى الدين لا يجوز ، وهو المجاوزة للحق إلى الباطل . ومن هـذا ، الغلوّ فى الطهارة مع كثير من الناس ، بالزيادة على ما ورد به الشرع لغير موجب . انتهى .

ومن هذا القبيل الغلوّ فى تعظيم الصالحين وقبورهم حتى يصيّرها كالأوثان التى كانت تعبد .

وروى[1] الإمام أحمد والنسائىّ وابن ماجة والحاكم عن ابن عباس ؛ أن النبىّ ﷺ قال : إيّاكم والغلوّ فى الدين . فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ فى الدين .

وعن عمر[2] ؛ أن رسول الله ﷺ قال : لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله . أخرجاه .

ولمسلم[3] عن ابن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : هلك المتنطّعون ! قالها ثلاثاً .

ثم نهاهم تعالى عن اتباع سلفهم وأئمتهم الضالين بقوله سبحانه :

« وَلَا تَتَّبِعُوا » قال المهايمىّ : أى : تقليداً « أَهْوَاءَ قَوْمٍ » تمسّكوا بخوارقهما على إلٰهيتهما . فإن نظروا إلى سبقهم فغايتهم أنهم « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ » إلى كثرة أتباعهم

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٨٥١ (طبعة المعارف) .

والنسائىّ فى : ٢٤ ـ كتاب مناسك الحج ، ٢١٨ ـ باب التقاط الحصى .

وابن ماجة فى : ٢٥ ـ كتاب المناسك ، ٦٣ ـ باب قدر حصى الرمى ، حديث ٣٠٢٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ عن عمر رضى الله عنه ، فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ، حديث ١٢١٤ .

وليس فى مسلم .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ٧ (طبعتنا) .

فغايتهم أنهم « أَضَلُّوا كَثِيرًا » ممن شايعهم على التثليث « وَ » إلى تمسكهم بمتشابهات الإنجيل ، فغايتهم أنهم « ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » إذْ لم يردّوها إلى المحكمات .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ :

الأهواء ـ ههنا ـ المذاهب التى تدعو إليها الشهوة دون الحجّة . قال الشعبىّ : ما ذكر الله لفظ الهوى فى القرآن إلّا ذمّه. قال : وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ (١) . وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (٢) . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) . أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ (٤) . قال أبو عبيدة : لم نجد الهوى يوضع إلّا فى موضع الشر. لا يقال : فلان يهوى الخير. إنما يقال : يريد الخير ويحبه . وقال بعضهم: الهوى إله يعبد من دون الله . وقيل: سمّى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه فى النار . وأنشد فى ذم الهوى :

إنّ الهوى لهو الهوانُ بعينهِ ... فإذا هويتَ فقد لقيتَ هواناً

وقال رجل لابن عباس : الحمد لله الذى جعل هواى على هواك ، فقال ابن عباس : كل هوى ضلالة .

---

(١) [٣٨ / صٓ / ٢٦] ونصها : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

(٢) [٢٠ / طه / ١٦] ونصها : فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ .

(٣) [٥٣ / النجم / ٣] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٤٣] . . . أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا .

الثانى : قال الرازىّ أيضاً :

إنه تعالى وصفهم بثلاث درجات فى الضلال : فبيّن أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا مضلّين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمرّوا على تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا . ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى ، من هذه الحالة . نعوذبالله منها. ويحتمل أن يكون المراد أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم ، فى ذلك الإضلال ، أنه إرشاد إلى الحقّ . ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين ، وبالضلال الثانى الضلال عن طريق الجنة . انتهى .

وهذه الوجوه ـ مع ما أسلفناه عن المهايمىّ ـ كلّها مما يصح إرادتها من الآية لتصادقها جميعاً عليهم .

الثالث : دلت الآية على أن ما لهؤلاء الكفرة من الأباطيل ـ مع مخالفتها للعقول ومزاحمتها للأصول ـ لا مستند لها ولا معول لهم فيها غير التقليد لأسلافهم الضالّين ، الذين أحدثوا القول بالتثليث بعد نحو ثلاثمائة سنة من رفع المسيح عليه السلام . وقرروه فى تعاليمهم بعد جدال واضطراب . وتمسّكوا فى ذلك ، بظواهر الألفاظ التى لا يحيطون بها علماً ، مما لا أصل له فى شرع الإنجيل ، ولا مأخوذ من قول المسيح ولا من أقوال حواريّيه . وهو مع ذلك مضطرب متناقض متهافت ، يكذب بعضه بعضاً ، ويعارضه ويناقضه ، كما تبيّن من الكتب المصنفة فى الردّ عليهم .

الرابع : جاء فى (تنوير المقباس) :

إن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا : نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله ﷺ . وبقوله (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ) العاقب والسيد . والأول ـ كما قال ابن إسحق ـ كان أمير القوم وذا رأيهم . والثانى صاحب رحلهم ومجتمعهم .

والأظهر أن المعنىّ بـ (أهل الكتاب) عموم النصارى . والمذكورون يدخلون فيه دخولاً أوليًّا .

الخامس : ذكر كثير من المفسّرين : أن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا : اليهود والنصارى . وأن كليهما غلا في عيسى عليه السلام : أما غلوّ اليهود فالتقصير في حقه حتى نسبوه إلى غير رِشْدة . وأما غلوّ النصارى فمعلوم . وأن الخطاب في قوله تعالى (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ) لليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ . نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم . انتهى .

وظاهر أنّ ما نسب للفريقين ـ من الغلوّ والابتداع ـ مسلّم . بيد أن الأقرب للسباق الداحض لشبهات النصارى ، أن تكون هذه الآية فيهم زجراً لهم عمّا سلكوه، إثر إبطاله بالبراهين الدامغة . على أن الغلوّ ألصق بالنصارى منه باليهود ، كما لا يخفى . والله أعلم .

ثم أخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل فيما أنزله على داود وعيسى عليهما السلام . بسبب عصيانهم وما عدّد من كبائرهم . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أي : لعنهم الله عز وجلّ « عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » أي : لسانيهما . وأفرد لعدم اللبس ، إن أريد باللسان الجارحة. وقيل : المراد به الكلام وما نزل عليهما . كذا في (العناية) .

« ذَٰلِكَ » أي: لعنهم الهائل « بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » بقتل الأنبياء واستحلال المعاصي .

القول فى تأويل فى قوله تعالى:

[٧٩] (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » أى : لا ينهى بعضهم بعضاً عن ارتكاب المآثم والمحارم . ثم ذمّهم على ذلك ليحذر من ارتكاب مثل الذى ارتكبوه فقال « لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » مؤكداً بلام القسم . تعجيباً من سوء فعلهم ، كيف وقد أدّاهم إلى ما شرح من اللعن الكبير .

تنبيهات :

الأول : دلت الآية على جواز لعنهم .

الثانى : دلت الآية أيضاً على المنع من الذرائع التى تبطل مقاصد الشرع . لما رواه أكثر المفسرين ؛ أن الذين لعنهم داود عليه السلام أهل أيلة الذين اعتدوا فى السبت واصطادوا الحيتان فيه . وستأتى قصتهم فى (الأعراف) .

الثالث : دلت أيضاً على وجوب النهى عن المنكر .

قال الحاكم : وتدل على أن ترك النهى من الكبائر .

الرابع : روى الإمام أحمد(١) فى معنى الآية عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٦ ـ حدثنا عبدالله ابن عبد الرحمن .

وأبو داود فى : ٣٦ ـ كتاب الملاحم ، ١٧ ـ باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٣٦ .

وابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢٠ ـ باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حديث ٤٠٠٦ (طبعتنا) .

ﷺ : لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ، أو فى أسواقهم ، ووا كلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال : لا، والذى نفسى بيده ! حتى تَأْطِرُوهم على الحق أطرا . أى : تعطفوهم عليه . ورواه الترمذىّ وقال : حسن غريب .

وأخرجه أبو داود عنه فقال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا ! اتّقِ اللهَ ، ودَعْ ما تصنع، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ـ إلى قوله ـ فَاسِقُونَ . ثم قال: كلا والله ! لتأمرنّ بالمعروف . ولتنهونّ عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطِرنّه على الحق أطراً ، أو تقصرنّه على الحق قصراً .

زاد فى رواية : أوليضربنّ الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم .

وكذا رواه الترمذىّ وحسّنه ، وابن ماجه .

والأحاديث فى (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) كثيرة ، ومما يناسب منها هذا المقام :

ما رواه الإمام أحمد[١] والترمذىّ عن حذيفة بن اليمان : أن النبىّ ﷺ قال : والذى نفسى بيده ! لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ، أو ليُوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لَتَدْعُنّه فلا يستجيب لكم .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٨٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

والترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٩ ـ باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى (الصحيحين)[١] عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطيع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان .

وروى الإمام[٢] أحمد عن عدىّ بن عميرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم . وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه . فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

وروى ابن ماجة[٣] عن أبى سعيد الخدرىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله ليَسْأَل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذْ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله عبداً حجته قال : يارب ! رجوتك وفرقت الناس .

قال الحافظ ابن كثير : تفرّد به ابن ماجة . وإسناده لا بأس به .

وروى الإمام[٤] أحمد والترمذىّ عن حذيفة عن النبىّ ﷺ قال : لاينبغى لمسلم أن يذل نفسه. قيل : وكيف يذل نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء مالا يطيق .

قال الترمذىّ : حسن غريب .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٨ (طبعتنا) .
وليس فى البخارىّ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٩٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، حديث ٤٠١٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٦٧ ـ باب حدثنا محمد بن بشار .

وروى ابن ماجة[١] عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ! متى نترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم . قلنا : يارسول الله ! وما ظهر فى الأمم قبلنا ؟ قال : الملك فى صغاركم ، والفاحشة فى كباركم ، والعلم فى رُذالتكم .

قال زيد بن يحيى الخزاعىّ ، أحد رواته : معنى قول النبىّ ﷺ (والعلم فى رُذالتكم) إذا كان العلم فى الفساق .

تفرّد به ابن ماجة . وله شاهد فى حديث أبى ثعلبة يأتى إن شاء الله عند قوله تعالى (لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ) ـ أفاده ابن كثير .

أقول : هذه الأحاديث إنما يتروّح بها الضعفة، من نحو العلماء والقادة . وأما من كان لهم الكلمة النافذة والوجاهة التامة فهيهات أن تغنى عنهم ، وهذه المواعيد الهائلة تخفق فوق رؤوسهم .. ولذا قال العلّامة الزمخشرىّ : فياحسرة على المسلمين فى إعراضهم عن باب التناهى عن المناكير ، وقلّة عبئهم به . كأنه ليس من ملّة الإسلام فى شىء . مع ما يتلون من كتاب الله ، وما فيه من المبالغات فى هذا الباب . وقد مرّ عند قوله تعالى (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ) [٢] ما يؤيد ما هنا ، فتذكّر .

الخامس : قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف وقع ترك التناهى عن المنكر تفسيرًا للمعصية والاعتداء ؟ قلت : من قِبَلِ أن الله تعالى أمر بالتناهى . فكان الإخلال به معصية، وهو اعتداء .

ولما وصف تعالى أسلافهم بما مضى ، وصف الحاضرين بقوله :

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، حديث ٤٠١٥ (طبعتنا) .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٣] . . . وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٠] (تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

« تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى : من أهل الكتاب « يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : يوالون المشركين ، بغضاً لرسول الله ﷺ .

قال الرازىّ : والمراد منهم كعب بن الأشرف وأصحابه ، حين استجاشوا المشركين على الرسول ﷺ. وذكرنا ذلك فى قوله تعالى (وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا) .

« لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ » أى : لبئس شيئاً قدموا لمعادهم . وقوله تعالى : « أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » هو المخصوص بالذم ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد، ومبالغة فى الذم .والمعنى: لبئس زادهم فى الآخرة موجب سخطه تعالى عليهم « وَفِي الْعَذَابِ » أى : عذاب جهنم « هُمْ خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَوْ كَانُوا » أى : هؤلاء الذين يتولون عبدة الأوثان من أهل الكتاب «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ » أى نبيهم موسى عليه السلام « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ » أى : من التوراة « مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ » إذ الإيمان بالله يمنع من تولى من يعبُدُ غيرَهُ « وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » خارجون عن دينهم ، أو متمردون فى نفاقهم . يعنى : أن موالاتهم

للمشركين كفى بها دليلا على نفاقهم ، وأن إيمانهم ليس بإيمان ، لأن تحريم ذلك متأكد فى التوراة وفى شرع موسى عليه السلام. فلما فعلوا ذلك ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى عليه السلام ، بل مرادهم الرياسة والجاه ، فيسعون فى تحصيله بأى طريق قدروا عليه ، فلهذا وصفهم تعالى بالفسق .

وفى الآية وجه آخر : وهو أن يكون المعنى : ولو كانوا ــ أى منافقو أهل الكتاب المدّعون للإيمان ــ يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن حق الإيمان ، ما ارتكبوا ماارتكبوه ، من موالاة الكافرين فى الباطن .

والوجه الأول أقوم ، والله أعلم .

ثم أكد تعالى ماتقدم من مثالب اليهود بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا » وإنما عاداهم اليهود لإيمانهم بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وعاداهم المشركون لتوحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء ــ أشار إليه المهايمىّ .

وقال غيره : لشدة إبائهم ، وتضاعف كفرهم ، وانهما كهم فى اتباع الهوى ، وركونهم إلى التقليد ، وبعدهم عن التحقيق ، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء ، والاجتراء على تكذيبهم ، ومناصبتهم لهم . ولهذا قتلوا كثيرا منهم حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، وسموه ، وسحروه ، وألّبوا عليه أشباههم من المشركين . وفى تقديم (اليهود) على (المشركين) ، بعد لزّهما فى قرن واحد ، إشعار بتقدمهم عليهم فى العداوة، كما أن

فى تقديمهم عليهم فى قوله تعالى(١) ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ إيذانا بتقدمهم عليهم فى الحرص . « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ » للين جانبهم وقلة غلّ قلوبهم .

قال ابن كثير : وما ذاك إلا لما فى قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح، من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى(٢) : وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً . وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعاً فى ملّتهم . انتهى .

ولأن من مذهب اليهود ، أنه يجب إيصال الشر إلى من خالف دينهم بأى طريق كان ، من القتل ونهب المال ونحوهما . وهو عند النصارى حرام . فحصل الفرق .

وقد روى ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً : ماخلا يهودىّ بمسلم إلا همّ بقتله .

ولكثرة اهتمام النصارى بالعلم والترهب ، مما يدعو إلى قلة البغضاء والحسد ، ولين العريكة ، كما أشير إليه بقوله تعالى : « ذَٰلِكَ » أى : كونهم أقرب مودة للمؤمنين « بِأَنَّ مِنْهُمْ » أى : بسبب أن منهم « قِسِّيسِينَ » أى علماء « وَرُهْبَانًا » أى عبّاداً متجردين « وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى : يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود . وفى الآية دليل على أن الإقبال على العلم ، والإعراض عن الشهوات ، والبراءة من الكبر ـ محمود . وإن كان ذلك من كافر .

(١) [٢ / البقرة / ٩٦] . . . وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٧] ونصها : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) :

إنما قال تعالى : (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ) ولم يقل (النَّصَارَىٰ) تعريضا بصلابة اليهود فى الكفر والامتناع من الامتثال للأمر ، لأن اليهود قيل لهم : ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ. فقابلوا ذلك بأن قالوا(٢) : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ . والنصارى قالوا(٣) : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ . ومن ثم سُمُّوا نصارى . وكذلك أيضاً ورد أول هذه السورة(٤) . وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . فأسند ذلك إلى قولهم ، والإشارة به إلى قولهم : (نَحْنُ أَنْصَارُ

(١) [٥ / المائدة / ٢١] ونصها : يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

و [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٤) [٥ / المائدة / ١٤] ونصها : وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

اللهِ) لـكنه ههنا ذكر تنبيهاً على أنهم لم يثبتوا على الميثاق ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله. وفى الآية الثانية ذكر تنبيها على أنهم أقرب حالا من اليهود . لأنهم لما ورد عليهم الأمر لم يكافحوه بالردّ مكافحة اليهود. بل قالوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .واليهود قالت: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ ... الآية ، فهذا سره . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » عطف على (لا يستكبرون) . قال أبو البقاء :ويجوز أن يكون مستأنفاً فى اللفظ وإن كان له تعلق بما قبله فى المعنى . يعنى:وإذا سمعوا القرآن « تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ » أى : تنصبّ « مِنَ الدَّمْعِ » الحاصل من اجتماع حرارة الحب والخوف ، مع برد اليقين « مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ » أى من كتابهم،فوجدوه أكمل منه وأفضل ، أو من الذى نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحق ، أو من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى كتابهم « يَقُولُونَ » أى : من عدم استكبارهم « رَبَّنَا ءَامَنَّا » أى : بك وبما أنزلت وبرسولك محمد « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى : الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته . روى الحاكم ، وصححه ، عن ابن عباس قال : أى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته هم الشاهدون . يشهدون لنبيهم أنه قد بلّغ ، وللرسل أنهم قد بلّغوا .

وقوله تعالى :

القول فى تأيل قوله تعالى :

[٨٤] (وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

« وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ » إنكار استبعادٍ لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه ـ وهو الطمع ـ فى إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين « وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ » أى . وبما جاءنا من القرآن . وفى إعرابه وجه آخر يأتى ، « وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ » يعنى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أوالمعنى : أن يدخلنا ربّنا الجنةمع الأنبياء والمؤمنين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

« فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُو » أى : بما تكلموا به من قولهم (رَبَّنَا ءَامَنَّا) الصادر عن اعتقادٍ وإخلاص واعتراف بالحقّ « جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت شجرها ومساكنها « الْأَنْهَارُ »يعنى أنهار الماءواللبن والخمر والعسل« خَالِدِينَ فِيهَا » أى: مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها « وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » يعنى المؤمنين الموحّدين المخلصين فى إيمانهم .

تنبيهات

الأول : اتفق المفسرون على أن هذه الآيات الأربع نزلت فى النجاشىّ وأصحابه رضوان الله عليهم .

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيّب وأبى بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرىّ وكتب معه كتاباً إلى النجاشىّ . فقدم

على النجاشيّ . فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأرسل إلى الرهبان والقسّيسين . ثم أمر جعفر بن أبى طالب فقرأ عليهم سورة مريم. فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع. فهم الذين أنزل الله فيهم: وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً . . . ـ إلى قوله ـ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشيّ ثلاثين رجلا من خيار أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا، فنزلت فيهم الآية.

وأخرج النسائيّ(١) عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآيات فى النجاشيّ وأصحابه: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) .

وروى الطبرانيّ عن ابن عباس نحوه، بأبسط منه .

ـ كذا فى (أسباب النزول للسيوطيّ) ـ

وقال ابن كثير : قال عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآيات فى النجاشيّ وأصحابه، الذين، حين تلا عليهم جعفر بن أبى طالب بالحبشة القرآن ، بكوا حتى أخضبوا لحاهم.

قال ابن كثير : وهذا القول فيه نظر . لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشيّ قبل الهجرة . انتهى .

أقول : إن نظره مدفوع ، فإنه حكى فى هذه الآية بعد الهجرة ما وقع قبلها ، ونظائره فى التنزيل كثيرة ، ولا إشكال فيه . . وظاهر أنّ المقصود بهذه الآية التعريض بعناد اليهود الذين كانوا حول المدينة . وهم يهود بنى قريظة والنضير . وبعناد المشركين أيضاً ، وقساوة قلوب الفريقين ، وأنه كان الأجدر بهما أن يعترفوا بالحق كما اعترف به النجاشيّ وأصحابه .
وقال ابن كثير : هذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

(١) لم أهتد إلى محل هذا الحديث فى سنن النسائيّ .

الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ[1] ... الآية ، وهم الذين قال[2] الله فيهم : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ... ـ إلى قوله ـ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » . انتهى .

وكان سبب هجرة الصحابة إلى أرض الحبشة؛ أنّ قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم ، فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فآذوهم وعذبوهم ، فافتتن من افتتن منهم ، وعصم الله من شاء منهم .

قال ابن[3] إسحق رحمه الله تعالى : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ـ قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صِدْق ، حتى يجعلَ الله لكم فرجاً مما أنتم .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة . وفرّوا إلى الله بدينهم . فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ... لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٢ ـ ٥٥] ... أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ .

(٣) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والصفحة رقم ٢٠٨ (طبعة جوتنجن) .

فـكان(١) جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ـ سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ـ ثلاثةً وثمانين رجلًا ، إن كان عمّار بن ياسر فيهم ، وهو يشكّ فيه .

ثم روى ابن إسحق(٢) بسنده إلى أم سلمة ـ زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشيّ . أمِنّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئاً نـكرهه. فلمّا بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فينا رجلين منهم جَلْدَيْن . وأن يُهدوا للنجاشيّ هدايا مما يُستطرف من متاع مكة . وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَم . فجمعوا له أَدَماً كثيراً . ولم يتركوا من بطارقته بِطريقاً إلّا أهدَوْا له هدية . ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص . وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تـكلما النجاشيّ فيهم . ثم قدّما إلى النجاشيّ هداياه. ثم سلاه أن يُسلمهم إليـكما قبل أن يكلمهم.

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشيّ ـ ونحن عنده بخير دار ، عند خـير جار ـ فلم يبق من بطارقته بطريق إلّا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشيّ ، وقالا لـكل بطريق منهم: إنه قد ضوى ـ أى لجأ ـ إلى بلد الملك منا ، غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينـكم ، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردّهُم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يُسْلمهم إلينا ولا يكلمهم. فإنّ قومهم أعلى بهم عيناً . (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والصفحة رقم ٢١٥ (طبعة جوتنجن) .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والصفحة رقم ٢١٧و٢١٨ (طبعة جوتنجن) .

ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشيّ فقبلها منهما ، ثم كلّماه بما كلّما كلّ بطريق .

قالت : ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشيّ . قالت : فقالت بطارقته حوله : صَدَقَا . أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم . فأَسْلِمهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم . فقالت : فغضب النجاشيّ ثم قال: لاها الله ! إذًا لا أُسْلِمهم إليهما . ولا يُكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، حتى أدعوَهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم . فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم . وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا . ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ! ما علمنا . وما أَمَرَنَا به نبينا ،كائنا فى ذلك ما هوكائن . فلما جاؤوا ـ وقد دعا النجاشيّ أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار . ويأكل القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . ـ قالت : فعدّد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ،

وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .! قالت : فقال له النجاشىّ : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشىّ : فاقرأه علىّ . قالت : فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت : فبكى ، والله ! النجاشىّ حتى اخضلّت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشىّ : إن هذا ، والذى جاء به عيسى ، ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا ، فلا ، والله ! لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون.

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله ! لآتينّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم (أى شجرتهم التى منها تفرعوا) .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ــ وكان أتقى الرجلين فينا ــ : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله ! لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد .

قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال : أيها الملك! إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما. فأرسلْ إليهم فسلهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم. ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول ، والله ! ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً فى ذلك ماهو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟ قالت : فقال جعفر بن أبى طالب نقول فيه الذى جاءنا نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشىّ بيده إلى

الأرض فأخذ منها عودًا ، ثم قال: والله ! ما عدا عيسى ابن مريم، مما قلتَ، هـذا العودَ . قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن نخرتم ، والله ! اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ـ والشيوم الآمنون ـ مَنْ سبّكم ، غرم . قالها ثلاثًا .

ثم قال : ما أحب أن لي دَبْرًا ـ والدبر الجبل ـ من ذهب وأني آذيت رجلًا منكم . ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحَيْن مردودًا عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ .

ثم روى ابن اسحق في قصته : أن النجاشيّ عمد إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله . ويشهد أنّ عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم . انتهى .

وإسلام النجاشيّ معروف . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما مات، صلّى عليه مع تباعد الديار .

وذكر شمس الدين ابن القيّم في (زاد المعاد) : أنه كان مخرجهم إلى الحبشة في السنة الخامسة من المبعث .

التنبيه الثاني :

في الآية دليل على أن المشروع عند قراءة القرآن الخشوع والبكاء . وفي الخبر : ابكوا فإن لم تجدوا بكاءً فتباكوا . أخرجه المنذريّ في (الترغيب والترهيب) عن عبدالله بن عمرو. وقال : رواه الحاكم مرفوعاً وصحّحه . والمراد إشراب القلب والخوف المهابة لله تعالى .

الثالث : في قوله تعالى (يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا) وقوله (فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا) دليل على أن الإقرار داخل في الإيمان كما هو مذهب الفقهاء. وتعلقت الكرامية في أن الإيمان مجرد القول بقوله (بِمَا قَالُوا) ، لكن الثناء بفَيْض الدمع في السباق ، وبالإحسان في السياق، يدفع

ذلك ؛ وأنّى يكون مجرد القول إيمانًا وقد قال الله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ؟ نفى الإيمان عنهم ، مع قولهم (ءَامَنَّا بِاللَّهِ) لعدم التصديق بالقلب.

وقال أهل المعرفة : الموجود منهم ثلاثة أشياء : البكاء على الجفاء ، والدعاء على العطاء ، والرضا بالقضاء . فمن ادعى المعرفة ، ولم يكن فيه هذه الثلاثة ، فليس بصادق فى دعواه ..! أفاده النسفىّ .

وقال الخازن : إنما علق الثواب بمجرد القول ، لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا . وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الإخلاص واستكانة القلب . لأن القول إذا اقترن بالمعرفة فهو الإيمان الحقيقىّ الموعود عليه بالثواب .

وقال الرازىّ : لما حصلت المعرفة والإخلاص وكمال الانقياد ، ثم انضاف إليه القول ، لا جرم كمل الإيمان .

الرابع : قوله تعالى (وَمَا جَاءَنَا) يجوز أن يكون فى موضع جرّ ، أى : وبما جاءنا ، و (مِنَ الْحَقِّ) حال من الفاعل المستتر ، أو لغو متعلق بـ (جَاءَ) أى : وبما جاءنا من عند الله . ويجوز أن يكون مبتدأ و (مِنَ الْحَقِّ) الخبر ، والجملة فى موضع الحال . وقوله تعالى (وَنَطْمَعُ) يجوز أن يكون معطوفًا على (نُؤْمِنُ) أى : وما لنا لا نطمع . ويجوز أن يكون التقدير : ونحن نطمع ، فتكون الجملة حالًا من ضمير الفاعل فى (نُؤْمِنُ) ـ أفاده أبو البقاء.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أى : الذين جحدوا الحقّ الذى جاءهم وكذّبوا بحُجَجِ الله وبراهينه أولئك أصحاب الجحيم ، أى : النار الشديدة الحرارة ، جزاءً وفاقًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » أى : ماطاب ولذّ منه. كأنه ـ لما تضمن ما سلف مدحَ النصارى على الترهب ، والحث على كسر النفس ، ورفض الشهوات ـ عَقَبَهُ النهىُ عن الإفراط فى ذلك بتحريم اللذائذ من المباحات الشرعية . ثم أشار إلى أنه اعتداء بقوله سبحانه « وَلَا تَعْتَدُوا » أى : عمّا حدّ الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً . أو : ولا تعتدوا فى تناول الحلال فتجاوزوا الحدّ فيه إلى الإسراف كما قال تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ...) الآية[١] . وقال (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا)[٢] . أو : ولا تعتدوا على النفس والأهل بمنع الحقوق. أو : ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » فى كل ما ذكر ، وهو تعليل لما قبله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

« وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا » أى : كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله . فيكون (حَلَالًا) مفعول (كُلُوا) و (مِمَّا) حال منه، أو متعلقة بـ (كُلُوا) ، أو هو المفعول و (حَلَالًا) حال من (مَا) أو من عائده المحذوف ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى :

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصها : يَا بَنِى ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٧] .

أكلًا حلالا . وقوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ » تأكيد للتوصية بما أمر به ، وزاده تأكيداً بقوله : « الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » لأن الإيمان به يوجب التقوى ، فى الانتهاء إلى ماأمر به وعما نهى عنه .

قال المهايميّ : مقتضى إيمانكم أن لا تغيروا شيئاً من أحكام دينكم ، وأن لا تعارضوا فى أحكامه ولو بكراهة من أنفسكم ، وأن تتقوه فى وضع قواعد تخالف قواعد الشرع ، بل غاية ما يجوز أخذ معان من علم الشريعة مؤكدة لمقتضاه .

تنبيهات .

الأول : فيما روى فى سبب نزولها :

أخرج الترمذيّ(١) عن ابن‌عباس رضى الله عنهما : أن رجلا أتى النبيّ صلى‌الله‌عليه وسلم فقال : إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتنى شهوتى فحرمتُ علىّ اللحم . فأنزل الله تعالى : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا . . الآية .

وروى ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما تفعل الرهبان . فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم . فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا : نعم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأنكح النساء . فمن أخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى . وروى ابن مردويه نحوه .

وفى (الصحيحين)(٢) من حديث عائشة رضى الله عنها ؛ أنّ ناساً من أصحاب

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٤ ـ حدثنا عمرو بن علىّ أبو حفص الفلاس .

(٢) الحديث عن أنس .

رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبيّ ﷺ عن عمله فى السرّ ؟ فقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال : ما بال أقوامٍ يقول أحدهم كذا وكذا ؟ لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم. وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنّتى فليس منّى .

وروى ابن أبى حاتم ؛ أن عبد الله بن مسعود جاءه معقل بن مقرن فقال : إنى حرمت فراشي . فتلا عليه هذه الآية .

وأخرج أيضاً عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود . فجيء بضرعٍ فتنحّى رجل . فقال عبد الله : ادن . فقال: إنى حرمت أن آكله . فقال عبد الله : ادن فاطعَم وكفّر عن يمينك . وتلا هذه الآية . ورواه الحاكم أيضاً .

= أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث ٢٠٩٩ ونصه :

عن حميد بن أبى حميد ، الطويل ؛ أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ ﷺ يسألون عن عبادة النبيّ ﷺ. فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها. فقالوا : وأين نحن من النبيّ ﷺ ؟ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء ، فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله ! إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكنى أصوم وأفطر ، وأصلّى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وأخرجه عن أنس ، مسلم أيضاً فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ٥ (طبعتنا) .

الثانى ـ قال بعض الزيدية : ثمرة الآية النهى عن تحريم الطيبات من الحلال . وذكر الحاكم: أن هذا النهى يحتمل وجوهاً لا مانع من الحمل على جميعها: أحدها لا تعتقدوا التحريم. ومنها : لا تحرّموا على غيركم بالفتوى والحكم . ومنها : لا تجروه مجرى المحرمات فى شدة الاجتناب . ومنها : لا تلتزموا تحريمه بنذرٍ أو غيره .

وقال القاضى : لا تحرموا الحلال بفعل يصدر منكم ، كالبياعات الربوية وخلط الحلال بالمغصوب والطاهر بالنجس .

ثم قال : ويتعلق بهذا أمران : الأول إذا حرم الحلال، هل يجب عليه الحنث والرجوع ؟ قلنا : ظاهر الآية يدل على ذلك، ويلزم مع ذلك التوبة . الأمر الثانى : هل يلزمه فى ذلك كفارة ؟ قلنا : هذه الآية قد يستدل بها على اللزوم ، لأن النهى يقتضى فساد المنهىّ عنه . وهذه المَسْأَلَة فيها خلاف بين العلماء . انتهى .

وقال ابن كثير : ذهب الشافعىّ إلى أنه من حرّم مأكلًا أو ملبساً أو شيئاً ، ما عدا النساء، أنّه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً . لإطلاق هذه الآية . ولأن الذى حرم اللحم على نفسه ـ كما فى الحديث المتقدم ـ لم يأمره النبىّ ﷺ بكفارة .

وذهب آخرون ـ منهم الإمام أحمد ـ إلى أنّ من حرم شيئاً ـ مما ذكر ـ فإنه يجب عليه كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين . فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس ، وكما فى قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ، تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) . ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾(٢) ... الآية ، وكذلك هنا . لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدلّ على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير . والله أعلم .

---

(١) [٦٦ / التحريم / ١] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٢] ... وَاللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

وفى (زاد المعاد) لابن القيّم فصل مهمّ فى حكم من حرم أَمَتَهُ أو زوجته أو متاعه . تنبغى مراجعته .

الثالث : هذه الآية أصل فى ترك التنطع والتشدّد فى التعبّد ـ كذا فى (الإكليل) .

قال ابن جرير : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء، مما أحلّ الله لعباده المؤمنين ، على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ، ولذلك ردّ النبىّ ﷺ التبتّل على عثمان بن مظعون . فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحلّه الله لعباده . وأن الفضل والبرّ إنما هو فى فعل ما ندب الله إليه عباده ، وعمل به رسول الله ﷺ وسنّه لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون . إذْ كان خير الهدى هدى نبيّنا محمد ﷺ ... فإذا كان ذلك كذلك تبيّن خطأ من آثَرَ لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان ، إذا قدر على لباس ذلك من حله . وآثَرَ أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء .. قال : فإن ظنّ ظانّ أن الفضل فى غير الذى قلنا ـ لما فى لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل منهما من القيمة إلى أهل الحاجة ـ فقد ظنّ خطأً . وذلك أن الأوْلى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربّها ، ولا شىء أضرّ على الجسم من المطاعم الرديئة . لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التى جعلها الله سبباً إلى طاعته .. انتهى .

وللرازىّ هنا مبحث جيّد فى حكمة هذا النهى ، مؤيد لما ذكر . فليراجع فإنه نفيس .

وقد أخرج الترمذىّ[1] عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل . وله[2] عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله ﷺ بلحمٍ فرُفِع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٩ ـ باب ما جاء فى حب النبىّ ﷺ الحلواء والعسل .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٤ ـ باب ما جاء فى أى اللحم كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ .

فنهش منها . قالت[١] عائشة : ما كان الذراع أحبّ إلى رسول الله ﷺ. ولـكن كان لا يجد اللحم إلّا غبًّا ، وكان يعجل إليه الذراع لأنه أعجلها نضجاً. أخرجه الترمذىّ .

وحكى الزمخشرىّ عن الحسن أنه دعى إلى طعامٍ ومعه فَرْقَدُ السَّبَخِىُّ وأصحابه . فقعدوا على المـائدة ـ وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغيرذلك ـ فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسنُ : أهو صائم ؟ قالوا : لا ولـكنه يكره هذه الألوان ، فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد ! أترى لعاب النحل، بلباب البر، بخالص السمن ، يعيبه مسلم . ؟

وعنه : أنه قيل له : فلان لا يأ كل الفـالوذ ويقول : لا أؤدى شكره قال : أفيشرب الماء البارد ؟ قالوانعم ، قال: إنه جاهل. إن نعمة الله عليه فى الماء البارد أ كثر من نعمته عليه فى الفالوذ .

وعنه : أن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم.قال الله[٢] تعالى (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ). ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا فتنعّموا وأطاعوا .. ولا عـذر قوماً زواها عنهم فعصوه .

الرابع : قال الرازىّ : لم يقل تعالى : كُلُوا مَا رَزَقَكُمْ ، ولـكن قال (مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) وكلمة (مِنْ) للتبعيض . فـكأنه قال : اقتصروا فى الأ كل على البعض واصرفوا البقية إلى الصدقات والخيرات ؛ لأنه إرشاد إلى ترك الإسراف كما قال (وَلَا تُسْرِفُوا) ـ

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٤ ـ باب ما جاء فى أى اللحم كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٧] ونصها : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » تقدم الكلام على اللغو فى اليمين فى (سورة البقرة) وإنه مايسبق إليه اللسان بلاقصدالحلف ، كقول الإنسان: لا،والله! وبلى والله! والمراد بالمؤاخذة: مؤاخذة الإثم والتكفير، أى: فلاإثم فى اللغوولا كفارة«وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ » أى : بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها عليه بأن حلفتم عن قصدٍ منكم ، أى : إذا حنثتم . أو بنكث ما عقدتم، فحذف للعلم به. وقرئ بالتخفيف ، وقرىء (عاقدتم) بمعنى عقدتم « فَكَفَّارَتُهُ » أى : فكفارة نكثه، أى الخصلة الماحية لإثمه « إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ » يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه « مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ » أى : لا من أجوده فضلا عما تخصونه بأنفسكم . ولا من أردأ ماتطعمونهم فضلا عن الذى تمطونه السائل « أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » أى : عتقها « فَمَن لَّمْ يَجِدْ » أى : شيئاً مما ذكر « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » كفارته « ذَٰلِكَ » أى : المذكور « كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ » أى : التى اجترأتم بها على الله تعالى « إِذَا حَلَفْتُمْ » أى : وحنثتم « وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ » أى : عن الإكثار منها ـ أو عن الحنث ـ إذا لم يكن ماحلفتم عليه خيراً ، لئلا يذهب تعظيم اسم الله عن قلوبكم « كَذَٰلِكَ » أى : مثل هذا البيان الكامل « يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمْ ءَايَاتِهِ » أي : أعلام شرائعه « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أي : نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج .

قال المهايمىّ : أي : تشكرون نعمه بصرفها إلى ماخلقت له ،ومن جملتها صرف اللسان، الذى خلق لذكر الله وتعظيمه ، إلى ذلك. فإذا فات صرف بعض ماملكه إلى بعض مايجبره ليقوم مقام الشكر باللسان ، إذ به يتم تعظيمه . فإذا لم يجد كسر هوى النفس من أجله فهو أيضاً من تعظيمه . فافهم .

وفى هذه الآية مباحث :

الأول : معنى : (أو) التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث . فإذا لم يجد انتقل إلى الصوم .

فأما الإطعام فليس فيه تحديد بقدر . لا فى وجبة ولا وجبتين ، ولا فى قدر من الكيل .

ولذا روى عن الصحابة والتابعين فيه وجوه . جميعها مما يصدق عليه مسماه ، فبأيها أخذ أجزأه . فمنها مارواه ابن بى حاتم عن علىّ رضى الله عنه قال : يغديهم ويعشيهم . كأنه ذهب ـ رضى الله عنه ـ إلى المراد بالإطعام الكامل ـ أعنى قوت اليوم وهو وجبتان ـ وإلا فالإطعام يصدق على الوجبة الواحدة .

ولذا قال الحسن ومحمد بن الحنفية : يكفيه إطعامهم أكلة واحدة خبزاً ولحماً . زاد الحسن : فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً ، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلًّا حتى يشبعوا .

وعن عمر وعلى أيضاً وعائشة وثلة من التابعين : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر أو نحوهما .

وعن ابن عباس : لكل مسكين مدّ من بُر ومعه إدامه .

وفى (فتح القدير) من كتب الحنفية : يجوز أن يغديهم ويعشيهم بخبز. إلا أنه إن كان بُرًّا لا يشترط الإدام ، وإن كان غيره فبإدام .

وحكى عن الهادى : اشتراط الأكل لإشعار (الإطعام) بذلك .

والأكثرون : أن الأكل غير شرط . لأنه ينطلق لفظ (الإطعام)على التمليك .

الثانى : إطلاق (المساكين) يشمل المؤمن والكافر الذمىّ والفاسق . فبعضهم أخذ بعموم ذلك . ومذهب الشافعيه والزيدية :خروج الكافر بالقياس على منع صرف الزكاة إليه ، وأما الفاسق فيجوز الصرف إليه مهما لم يكن فى ذلك إعانة له على المنكر . ولم يجوزه الهادى . وظاهر الآية اشتراط العدد فى المساكين . وقول بعضهم : إن المراد إطعام طعام يكفى العشرة، مفرعاً عليه جواز إطعام مسكين واحد عشرة أيام ـ عدول عن الظاهر ، لا يثبت إلا بنص .

الثالث : لم يبين فى الآية حدّ الكسوة وصفتها ؛ فالواجب حينئذ الحمل على ما ينطلق عليها اسمها .

قال الشافعىّ ، رحمه الله : لو دفع إلى كل واحدٍ من العشرة مايصدق عليه اسم الكسوة ـ من قميصٍ أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة ـ أجزأه ذلك .

وقال مالك وأحمد بن حنبل : لابد أن يدفع إلى كلّ واحد منهم من الكسوة ما يصحّ أن يصلى فيه ، إن كان رجلًا أو امرأة ، كل بحسبه .

وقال العوفىّ عن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة .

وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت .

وعن ابن المسيّب : عمامة يلفّ بها رأسه ، وعباءة يلتحف بها .

وعن الحسن وابن سيرين : ثوبان ثوبان .

وروى ابن مردويه عن عائشة عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى (أَوْ كِسْوَتُهُمْ) قال: عباءة لكلّ مسكين . قال ابن كثير : حديث غريب .

أقول : لا يخفى الاحتياط والأخذ بالأكمل والأفضل فى الإطعام والكسوة .

الرابع : قال الرازىّ : المرادُ بـ (الرقبة) الجملة . قيل : الأصل فى هذا المجاز أنّ الأسير فى العرب كان يجمع يداه إلى رقبته بحبل . فإذا أطلق حلّ ذلك الحبل . فسمّى (الإطلاق من الرقبة) فكّ الرقبة . ثم جرى ذلك على العتق . وقد أخذ بإطلاقها أبو حنيفة فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة . وقال الشافعىّ وآخرون : لابدّ أن تكون مؤمنة . وأخذ تقييدها من كفارة القتل لاتحاد الموجب، وإن اختلف السبب . ومن حديث معاوية ابن الحكم السلمىّ ـ الذى هو فى (موطأ مالك)(١) و (مسند الشافعىّ) و (صحيح مسلم)(٢) ـ

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٣٨ ـ كتاب العتق والولاء ، حديث ٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) وسنسوقه بنصه الكامل :

عن معاوية بن الحكم السُّلَمِىّ قال : بينا أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله ! فرمانى القوم بأبصارهم . فقلت : واثكل أُمّياهْ . ما شأنكم ؟ تنظرون إلىّ ! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم . فلما رأيتهم يصمّتوننى . لكن سكتُّ . فلما صلى رسول الله ﷺ ، فبأبى هو وأمى ! ما رأيت معلّما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه . فوالله ! ما كهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى . قال « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس . إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» .أو كما قال رسول الله ﷺ . قلت : يا رسول الله ! إنى حديث عهد بجاهلية . وقد جاء الله بالإسلام . وإن منا رجالًا يأتون الكهّان . قال « فلا تأتهم » قال : ومنا رجال يتطيّرون . قال « ذاك شىء يجدونه فى صدورهم . فلا يصدّنّهم » قال قلت : ومنا رجال يخطّون . قال « كان نبىّ من الأنبياء يخطّ ، فمن وافق خطه فذاك » .

قال : وكانت لى جارية ترعى غنما لى قِبَل أُحُد والجوّانية . فاطلعتُ ذات يوم فإذا =

أنه ذكر أنه عليه عتق رقبة . وجاء معه بجارية سوداء . فقال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . . . الحديث بطوله .

قال الشعراني، قدس سره، في (الميزان) : قال العلماء : عدم اعتبار الإيمان في الرقبة مشكل . لأن العتق ثمرته تخليص رقبة لعبادة الله عز وجل . فإذا أعتق رقبة كافرة فإنما خلصها لعبادة إبليس . وأيضاً فإن العتق قربة ، ولا يحسن التقرب إلى الله تعالى بكافر. انتهى.

الخامس : للعلماء في حد الإعسار الذي يبيح الانتقال إلى الصوم أقوال . وظاهر الآية هو أن لا يملك قدر إحدى الكفارات الثلاث ـ من الإطعام أو الكسوة أو العتق ـ فإن وجد قدر إحداها كان ذلك مانعاً من الصوم ، اللهم إذا فضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك .

وقد روى ابن جرير عن سعيد بن جبير والحسن أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام ، وإلا صام .

السادس : إطلاق قوله تعالى (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) صادق على المجموعة والمفرقة . كما في قضاء رمضان . لقوله (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)[1] . ومن أوجب التتابع استدل بقراءة

= الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ . فعظّم ذلك عليّ . قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتني بها » فأتيته بها . فقال لها « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال « مَن أنا ؟ » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] ونصها : أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . =

أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود أنهما كانا يقرءان (فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ) وقراءتهما لا تتخلف عن روايتهما .

قال الأعمش : كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك .

قال ابن كثير : وهذه ، إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً ، فلا أقلّ أن يكون خبر واحد أو تفسيرًا من الصحابة . وهو فى حكم المرفوع .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة : يا رسول الله ! نحن بالخيار ؟ قال : أنت بالخيار . إن شئت أعتقت . وإن شئت كسوت . وإن شئت أطعمت . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جدًّا .

ونقل بعض الزيدية ، روايةً عن ابن جبير ، أنه كان يصلى تارةً بقراءة ابن مسعود وتارةً بقراءة زيد .

السابع : قال الناصر فى (الانتصاف) : فى هذه الآية ـ يعنى قوله تعالى (ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) ـ وجهٌ لطيفُ المأخذ فى الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث ، وهو المشهور من مذهب مالك . وبيان الاستدلال بها أنه جعل مابعد الحلف ظرفاً لوقوع الكفارة المعتبرة شرعاً . حيث أضاف (إذا) إلى مجرد الحلف ؛ وليس فى الآية إيجاب الكفارة حتى يقال : قد اتفق على أنها إنما تجب بالحنث . فتعين تقديره مضافاً إلى الحلف . بل إنما نطقت بشرعية الكفارة ووقوعها على وجه الاعتبار . إذْ لا يعطى قوله (ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ) إيجاباً ، إنما يعطى صحةً واعتبارًا . والله أعلم .

= و [٢ / البقرة / ١٨٥] ونصها : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

وهذا انتصار على منع التكفير قبل الحنث مطلقاً ، وإن كانت اليمين على برّ .

والأقوال الثلاثة فى مذهب مالك ، إلّا أن القول المنْصُور هو المشهور . انتهى .

وقال الرازىّ : احتجّ الشافعىّ بهذه الآية على أن التكفير قبل الحنث جائز . لأنها دلت على أن كل واحد من الثلاثة كفارة لليمين عند وجود الحلف . فإذا أدّاها بعد الحلف، قبل الحنث ، فقد أدّى الكفارة . وقوله (إِذَا حَلَفْتُمْ) فيه دقيقة . وهى التنبيه على أن تقديم الكفارة قبل اليمين لا يجوز . انتهى .

وفى (الصحيحين)(١) من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها ، فكفّر عن يمينك وَأْتِ الذى هو خير . وعند أبى داود : فكفّر عن يمينك ثم أتِ الذى هو خير .

الثامن قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) استحباب ترك الحنث إلّا إذا كان خيرًا ، أى : لما تقدم من حديث ابن سمرة . وهذا على أحد وجهين فى الآية . والآخر النهى عن الإكثار من الحلف كما سبق . قال كثيّر (٢) :

قليل الألَايَا حافظٌ ليمينه ... وإن سَبَقَتْ منه الأَلِيَّةُ بَرَّتِ!

---

(١) أخرجه البخارىّ فى ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١ ـ باب قول الله تعالى : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، حديث رقم ٢٤٨٨ وهاكموه بتمامه :

عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبىّ ﷺ « يا عبدالرحمن بن سمرة ! لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسئلة وُكِلْتَ إليها ، وإن أوتيتها من غير مسئلة أعنتَ عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها ، فكفّر عن يمينك وأْتِ الذى هو خير .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ١٩ (طبعتنا) .

(٢) استشهد به فى اللسان . ولم ينسبه . وقال : الألية على فعِيلة : اليمين . والجمع ألايا . وبَرَّت يمينه : صدقت .

التاسع : حكمة تقديم الإطعام على العتق ـ مع أنه أفضل ـ من وجوه : (أحـدها) : التنبيه من أول الأمر على أنّ هذه الـكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب . وإلّا لَبُدِىء بالأغلظ (ثانيها) : كون الطعام أسهل لأنه أعمّ وجودًا ، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى يراعى التخفيف والتسهيل فى التـكاليف و (ثالثها) : كون الإطعام أفضل ، لأن الحرّ الفقير قد لا يجد الطعام ، ولا يكون هناك من يعطيه الطعام ، فيقع فى الضرّ . أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته، أفاده الرازىّ .

العاشر : سرّ إطعام العشرة ، أنه بمنزلة الإمساك عن الطعام عشرة أيام العدد الـكامل، الـكاسرة للنفس المجترئة على الله تعالى. وسرّ الـكسوة كونه يجزى بستر العورة سرّ المعصية. وسرّ التحرير فكّ رقبة عن الإثم. وسرّ صوم الثلاثة، أنّ الصيام لما كان ضيرًا بنفسه اكتفى فيه بأقلّ الجمع . أفاده المهايمىّ ، قدس سره .

= وأنشده فى (الألفاظ الـكتابية)، ولم ينسبه وقد أخطأ فيه خطأين قال : سُبِقت وقال : بُرّتْ .

وقصيدة كثير التى يظن أن منها هذا البيت رواها :

فى مهذب الأغانى بالصفحة ١٦٠ من الجزء الثالث .

وفى أمالى المرتضى ، الطبعة الأولى ، بالصفحة ١٤٠ من الجزء الرابع .

وفى رغبة الآمل بالصفحة ٢٠٦ من الجزء الثالث .

وفى أمالى القالى بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثانى .

وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة بالصفحة ٤٧٥ .

وفى شواهد الـكشاف بالصفحة ٢٥ .

كل أولئك لم أجد فى شىء منها هذا البيت المستشهد به .

الحادى عشر : قال شمس الدين بن القيّم فى (زاد المعاد) :

« كان ﷺ يستثنى فى يمينه تارةً ، ويكفرها تارة ، ويمضى فيها تارة . والاستثناء يمنع عقد اليمين . والكفارة تحلّها بعد عقدها . ولهذا سمّاها الله (تَحِلَّة) . وحلف ﷺ فى أكثر من ثمانين موضعاً . وأمره الله سبحانه بالحلف فى ثلاثة مواضع : فقال تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ)(١) وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ)(٢) وقال تعالى : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٣) . وكان إسماعيل بن إسحق القاضى يذكر أبا بكر بن داود الظاهرىّ ولايسميه بالفقيه . فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له . فتوجهت اليمين على أبى بكر بن داود . فتهيّأ للحلف. فقال له القاضى إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمنعنى عن الحلف ؟ وقد أمر الله تعالى نبيّه بالحلف فى ثلاثة مواضع من كتابه . قال : أين ذلك ؟ فسردها أبوبكر ، فاستحسن ذلك منه جدًّا، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم .. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ » أى : الشراب الذى خامر العقل ، أى خالطه

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . . . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣] . . . عَالِمِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٣) [٦٤ / التغابن / ٧] .

فستره « وَالْمَيْسِرُ » أى : القمار « وَالأَنْصَابُ » أى : الأصنام المنصوبة للعبادة « وَالأَزْلَامُ » أى : القداح « رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » أى: خبيث من تزيين الشيطان ، وقذر تعاف عنه العقول .

قال المهايمىّ : لأن الخمر تضيع العقل ، وما دون السكر داع إلى ما يستكمله ، فأقيم مقامه فى الشرع الكامل . والميسر يضيع المال . والأنصاب تضيع عزة الإنسان بتذلله لما هو أدنى منه . والأزلام تضيع العلم للجهل بالثمن والمثمن . انتهى .

وما ذكره هو شذرة من مفاسدها « فَاجْتَنِبُوهُ » أى : اتركوه ، يعنى : ما ذكر . أو (الرجس) الواقع على الكل « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : رجاء أن تنالوا الفلاح فتنجوا من السخط والعذاب وتأمنوا فى الآخرة .

ثم أكد تعالى تحريم الخمر والميسر ببيان مفاسدهما الدنيوية والدينية . فالأولى فى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ » أى : المشاتمة والمضاربة والمقاتلة « وَالْبَغْضَاءَ » القاطعة للتعاون الذى لابد للإنسان منه فى معيشته « فِى الْخَمْرِ » أى إذا صرتم نشاوى « وَالْمَيْسِرِ » إذا ذهب مالكم . وقد حكى أنه ربّما قامر الرجل بأهله وولده فإذا أخذه الخصم وقعت العداوة بينهما أبداً. ثم أشار إلى مفاسدهما الدينية بقوله : « وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ » إذ يغلب السرور والطرب على النفوس والاستغراق فى الملاذّ الجسمانية فيلهى عن ذكر الله . والميسر ، إن كان صاحبه غالباً انشرحت نفسه ومنعه حب الغلبة والقهر عن ذكر الله . وإن كان مغلوباً ، مما حصل من الانقباض أو الاحتيال إلى أن يصير غالباً،

لايخطر بباله ذكر الله « وَعَنِ الصَّلَوٰةِ » أي : ويصدكم عن مراعاة أوقاتها . وقوله تعالى « فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنْتَهُونَ » من أبلغ ماينهى به ، كأنه قيل : قد تلى عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والموانع . فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون ؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا ؟ أفاده الزمخشريّ .

تنبيهات :

الأول : سبق الكلام على الخمر والميسر في سورة البقرة في قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) وسلف أيضاً معنى الأنصاب والأزلام في أول هذه السورة عند قوله: (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ) فتذكر .

الثاني: إنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ، ثم أفردا آخراً ، وخصصا بشرح مافيهما من الوبال ــ للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما . وذكر الأصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة . كأنه لامباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله في علم الغيب ، وبين من شرب خمراً أو قامر .

روى الحارث بن أبي أسامة في (مسنده) عن ابن عمرو مرفوعاً : شارب الخمر كعابد وثن ، وشارب الخمر كعابد اللات والعزّى . وإسناده حسن .

وتخصيص الصلاة بالإفراد ، مع دخولها في الذكر ، للتعظيم والإشعار بأن الصادّ عنها كالصادّ عن الإيمان، لما أنها عماده .

الثالث : هذه الآية دالة على تأكيد تحريم الخمر والميسر من وجوه :

(منها) : تصدير الجملة بـ (إنما) وذلك لأن هذه الكلمة للحصر ، فكأنه تعالى قال : لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا الخمر والميسر وما ذكر معهما .

و (منها) : أنه قرنهما بعبادة الأوثان .

و (منها):أنه جعلهما رجساً كما قال تعالى (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ)(١) .

و (منها) : أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت .

و (منها) : أنه أمر بالاجتناب ، وظاهر الأمر للوجوب .

و (منها) : أنه جعل الاجتناب من الفلاح. وإذا كان الاجتناب فلاحاً، كان الارتكاب خيبة ومحقة .

و (منها) : أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال ـ وهو وقوع التعادى والتباغض ـ وما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة .

و (منها) : إعادة الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف بقوله سبحانه (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) فآذن بأن الأمر فى الزجر والتحذير ، وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية . وأنّ الأعذار قد انقطعت بالكلية .

و (منها) : قوله تعالى بعد ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

« وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ » أى : فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه « وَاحْذَرُوا » أى : مخالفتهما فى ذلك . فيدخل فيه مخالفة أمرها ونهيهما فى الخمر والميسر دخولاً أولياً .

و (منها) : قوله تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » أى: إن أعرضتم عن الامتثال

---

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] ونصها : ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .

بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر ، فقد قامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار . والرسول قد خرج عن عهدة التبليغ إذ أدّاه بما لا مزيد عليه . فما بقي بعد ذلك إلّا العقاب . وفيه تهديد عظيم ووعيد شديد في حقّ من خالف وأعرض عن حكم الله وبيانه .

الرابع : قال الرازيّ : اعلم أن من أنصف وترك الاعتساف ، علم أنّ هـذه الآية نصّ صريح في أن كل مسكر حرام . وذلك لأنه تعالى رتب النهي عن شرب الخمر على كونها مشتملة على تلك المفاسد الدينية والدنيوية . ومن المعلوم في بَدَائِهِ العقول أن تلك المفاسد إنما تولّدت من كونها مؤثرة في السكر . وهذا يفيد القطع بأن علة قوله (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) هي كون الخمر مؤثّرًا في الإسكار . وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن كلّ مسكر حرام . قال : ومن أحاط عقله بهذا التقرير ، وبقي مصرًّا على قوله ، فليس لعناده علاج . انتهى .

ثم بيّن تعالى رفع الإثم عمّن مات وهو يشرب الخمر قبل التحريم ـ كما سنفصّله ـ بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ » أي إثم « فِيمَا طَعِمُوا » مما حرّم بعد تناولهم « إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

وهنا مسائل

الأولى : قال بعض المفسرين : إنْ قيل : لِمَ خصّ المؤمنين بنفي الجناح في الطيبات إذا

ما اتقوا ، والكافر كذلك ؟ قال الحاكم : لأنه لا يصحّ نفى الجناح عن الكافر ، وأما المؤمن فيصحّ أن يطلق عليه ، ولأن الكافر سدّ على نفسه طريق معرفة الحلال والحرام . انتهى .

وفى (العناية) : تعليق نفى الجناح بهذه الأحوال ليس على سبيل اشتراطها ، فإن عدم الجناح فى تناول المباح الذى لم يحرم لا يشترط بشرط . بل على سبيل المدح والثناء والدلالة على أنهم بهذه الصفة .

قال الزمخشرىّ : ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح ؟ فتقول ـ وقد علمت أن ذلك أمر مباح ـ ليس على أحد جناح فى المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً ؛ تريد: إن زيداً تقىّ مؤمن محسن ، وإنه غير مؤاخذ بما فعل .

وقال العلامة أبو السعود : ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة، لا دخل لها فى انتفاء الجناح . وإنما ذكرت فى حيز (إذا) شهادةً باتصاف الذين سئل عن حالهم بها، ومدحاً لهم بذلك ، وحمداً لأحوالهم . وقد أشير إلى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعاً للاتقاء فى كل مرة تمييزاً بينها وبين ماله دخل فى الحكم ، فإنّ مساق النظم الكريم بطريق العبارة ـ وإن كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتى بقضية كلمة (إذا ما) ـ لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لإثبات الحكم فى حقهم فى ضمن التشريع الكلىّ على الوجه البرهانىّ بطريق دلالة النص بناءً على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها ، فكأنه قيل : ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا كانوا فى طاعته تعالى . مع مالهم من الصفات الحميدة ـ بحيث كلما أمروا بشىء تلقوه بالامتثال ـ وإنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمهما إذ ذاك . ولو حرّما فى عصرهم ، لاتقوهما بالمرة .

وقال الطيبىّ : المعنى أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات . وإنما المطلوب منهم الترقى فى مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين ومعارج القدس والكمال . وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك ، وعلى الإيمان بما يجب

الإيمان به ، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة التى يتمكن بها إلى الترقى إلى مرتبةالمشاهدةومعارج (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) وهو المعنىّ بقوله تعالى: وَأَحْسِنُوا...الخ وبه ينتهى للزلفى عند الله ومحبته . والله يحب المحسنين .

قال الخفاجىّ : وهـذا دفع للتكرير وأنه ليس لمجرد التأكيد ، لأنه يجوز فيه العطف بـ (ثم) كما صرح به ابن مالك فى قوله تعالى : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(١) . بل به باعتبار تغاير ما علق به مرة بعد أخرى . والله أعلم .

الثانية : الإحسان المذكور فى الآية : إمّا إحسان العمل ، أو الإحسان إلى الخلق ، أو إحسان المشاهدة المتقدم ؛ ولا مانع من الحمل على الجميع .

الثالثة : روى فى سبب نزولها عن أنس قال(٢) : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة . فنزل تحريم الخمر . فأمر ﷺ مناديًا فنادى . فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ماهذا الصوت . قال ، فخرجت فقلت : هذا منادٍ ينادى : ألا إنّ الخمر قد حرّمت . فقال لى : اذهب فأهرقها . قال ، فَجَرَتْ فى سكك المدينة .

قال ، وكانت خمرهم يومئذٍ الفضيخ . فقال بعض القوم : قتـل قوم وهى فى بطونهم .

---

(١) [١٠٢ / التكاثر / ٣و٤] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٢١ ـ باب صب الخمر فى الطريق ، حديث ١٢١٦ وهذا نصه :

عن أنس رضى الله عنه : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة . وكان خمرهم يومئذ الفضيخ . فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادى « ألا إنّ الخمر قد حرّمت » .

قال ، فقال لى أبو طلحة : اخرجْ فأهرقها . فخرجت فهرقتها فجرت فى سكك المدينة .

فقال بعض القوم : قد قُتِل قوم وهى فى بطونهم .

فأنزل الله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا . . . الآية.

قال ، فأنزل الله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ... الآية . رواه البخارىّ[١] فى (التفسير) .

وروى الترمذىّ[٢] عن البراء بن عازب قال : مات ناس من أصحاب النبىّ ﷺ وهم يشربون الخمر . فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب النبىّ ﷺ : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ قال ، فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ . . . الآية . وقال : حسن صحيح .

وعن ابن عباس قال[٣] : قالوا : يا رسول الله ! أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ (لما نزل تحريم الخمر) ، فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . أخرجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد[٤] عن أبى هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات : قدم رسول الله ﷺ

---

(١) هذا نص البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٠ ـ باب قوله : إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذى تسمونه الفضيخ . فإنى لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً ، إذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : حرّمت الخمر . قالوا : أهرق هذه القلال ، يا أنس !

قال : فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل .

وفى: ١١ ـ باب قوله: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ... إلى قوله : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . ونصه كنص المتن .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١١ ـ حدثنا بذلك بندار .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٢ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر . فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ؟ فأنزل الله على نبيه ﷺ : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا[١] ... إلى آخر الآية . فقال الناس : ما حرّم علينا . إنما قال : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ . وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين. أمّ أصحابه فى المغرب. خلط فى قراءته فأنزل الله[٢] آية أغلظ منها : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . فكان الناس يشربون حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق ، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك[٣] : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... ـ إلى قوله ـ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . ؟ فقالوا : انتهينا. ربَّنا ! فقال النـاس : يا رسول الله ! ناس قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا على فرشهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً ومن عمل الشيطان ؟ فأنزل الله تعالى : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا... الآية ، فقال النبيّ ﷺ : لو حرّمت عليهم ، لتركوها كما تركتم .

قال ابن كثير : انفرد به أحمد .

وعن[٤] أبى ميسرة قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللهمّ ! بيّنْ لنا فى الخمر بياناً شافيـاً. فنزلت الآية التى فى البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... الآية ، فدُعى عمر

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] .

(٢) [٤ / النساء / ٤٣] .

(٣) [٥ المائدة / ٩٠] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٥٣ من الجزء الأول (طبعـة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧٨ (طبعة المعارف) .

وأبو داود فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

والترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٥ سورة المائدة ، ٨ ـ باب حدثنا عبد بن حميد .

فقرئت عليه فقال : اللهمّ ! بيِّنْ لنا فى الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التى فى سورة النساء : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . فكان منادى رسول الله ﷺ ــ إذا قال : حيّ على الصلاة ــ نادى : لا يقربنّ الصلاة سكران. فدُعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ ! بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التى فى المائدة . فدُعى عمر فقرئت عليه . فلما بلغ قول الله تعالى (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قال عمر : انتهينا ! انتهينا ! رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن .

وروى البيهقىّ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار . شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض . فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول : صنع بى هذا أخى فلان . وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن ، فيقول : والله ! لو كان بى رؤوفاً رحيماً ماصنع بى هذا . حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . إِنَّمَا الْخَمْرُ . . . . ــ إلى قوله ــ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .

فقال ناس من المتكلفين : هى رجس وهى فى بطن فلان وقد قتل يوم أُحُد. فأنزل الله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . ورواه النسائىّ فى (التفسير) .

وأخرج أبوبكر البزار عن جابر رضى الله عنه قال : اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبىّ ﷺ ثم قتلوا شهداء يوم أحد، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهى فى بطونهم . فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ...الآية . قال البزار . إسناده صحيح .

قال ابن كثير : هو كما قال .

وقد ساق ابن كثير ــ هنا ــ أحاديث كثيرة فى تحريم الخمر مما رواه أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد ، فمن شاء فليرجع إليه . ولا يخفى أن تحريمها معلوم من الدين بالضرورة .

وقد روى السيوطىّ فى (الجامع الكبير) عن ابن عساكر بسنده إلى سيف بن عمرعن الربيع وأبى المجالد وأبى عثمان وأبى حارثة قالوا : كتب أبو عبيدة إلى عمر رضى الله عنهما : إن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب . منهم ضرار وأبو جندل . فسألناهم فتأولوا وقالوا : خيرنا فاخترنا . قال : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ ولم يعزم . فكتب إليه عمر : فذلك بيننا وبينهم (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) يعنى : فانتهوا . وجمع الناس فاجتمعوا على أن يضربوا فيها ثمانين جلدة ويضمنوا النفس ، ومن تأول عليها بمثل هـذا ، فإن أبى قتل . وقالوا : من تأول على ما فرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، يزجر بالفعل والقتل . فكتب عمر إلى أبى عبيدة : أن ادعهم . فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم . وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين . فبعث إليهم فسألهم على رؤوس الأشهاد فقالوا : حرام. فجلدهم ثمانين . وحدّ القوم ،وندموا على لجاجتهم، وقال : ليحدثن فيكم ـ ياأهل الشام ! ـ حادث ، فحدث[٣] الرمادة .

ورواه سيف بن عمر أيضاً عن الشعبىّ والحكم بن عيينة .

---

(١) قال الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه (الفاروق عمر) بالصفحة ٢٨٧ من الجزء الأول ما نصه :

وسبب المجاعة أن أُمسك المطر فى شبه الجزيرة كلها تسعة أشهر كاملة . وأن تحركت الطبقات البركانية من أرضها فاحترق سطحها وكل ما عليه من نبات . فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب . فإذا تحركت الريح سَفَتْ رمادا . ولذا سمّى هذا العام عام الرمادة.

ونشأ عن إمساك المطر وهبوب الرياح وهلاك الزرع والضرع جوعٌ أهلك الناس والأنعام.

فقد فنى كثير من قطعان الغنم والماشية ، وجف ما بقى منها، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها ، رغم جوعه وبلواه .

من ثم أقفرت الأسواق فلم يبق فيها ما يباع ويشترى ، وأصبحت الأموال فى أيدى أصحابها لا قيمة لها . إذ لا يجدون إزاءها ما يسدّ رمقهم . وطال الجهد واشتد البلاء ، فكان الناس يحفرون أنفاق اليرابيع والجرذان ، يخرجون ما فيها . . .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ » أى : يرسله إليكم وأنتم محرمون « تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ » لتأخذوه ، وهو الضعيف من الصيد وصغيره « وَرِمَاحُكُمْ » لتطعنوه ، وهو كبار الصيد « لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ » فيمتنع عن الاصطياد لقوة إيمانه .

قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية . فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم فى رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون .

قال ابن كثير : يعنى أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم فى رحالهم ، يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سرًّا وجهرًا ، لتظهر طاعة من يطيع منهم فى سره أو جهره ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١) .

وقوله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى » أى : بالصيد « بَعْدَ ذَٰلِكَ » يعنى بعد الإعلام والإنذار « فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » لمخالفته أمر الله وشرعه .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما معنى التقليل والتصغير فى قوله (بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) ؟ قلت : قلّل وصغّر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التى تدحض عندها أقدام الثابتين ـ كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال ـ وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده ، فكيف شأنهم عند ما هو أشدّ منه ..؟

(١) [٦٧ / الملك / ١٢] .

قال الناصر فى (الانتصاف) : قد وردت هذه الصيغة بعينها فى الفتن العظيمة فى قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١) . فَلَا خفاءَ فى عظم هذه البلايا والمحن التى يستحق الصابر عليها أن يبشر ، لأنه صبر عظيم. فقول الزمخشرىّ : إنه قلل وصغر تنبيهاً على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام ـ مدفوعٌ باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها. والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّ المراد بما أشعر به اللفظ من التقليل والتصغير ، التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعضٌ من كلٍّ ، بالنسبه إلى مقدور الله تعالى . وإنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول . وأنه مهما اندفع عنهم ممَّا هو أعظم فى المقدور فإنما يدفعه عنهم إلى ماهو أخف وأسهل، لطفاً بهم ورحمةً . ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر، وحاملًا على الاحتمال. والذى يرشد إلى أن هذا مرادٌ ، أنّ سبق التوعد بذلك لم يكن إلّا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه . فيكون أيضاً باعثاً على تحمله . لأن مفاجأة المكروه بغتة أصعب . والإنذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه . وحاصل ذلك لطف فى القضاء ... فسبحان اللطيف بعباده . وإذا فكّر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا ، وجد المندفع عنه منها أكثر، إلى مالا يقف عند غاية . فنسأل الله العفو والعافية واللطف فى المقدور ... انتهى .

وللزمخشرىّ أن يجيب بأن آية (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) شاهدة له لا عليه. لأنه المقصود فيه أيضاً التحقير بالنسبة إلى ما دفعه الله عنهم ـ كما صرح به الناصر ـ مع أنه لا يتم دفعه بالآية إلّا إذا كان (وَنَقْصٍ) معطوفاً على مجرور (من) ، ولو عطف على (شىء) لكان مثل هذه الآية بلا فرق ... كذا فى (العناية) .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ » أى : محرمون بحجٍّ أو عمرة .

قال المهايمىّ : لأن قتله تجبّر . والمحرم فى غاية التذلّل . انتهى .

وذكر القتل، دون الذبح والذكاة، للتعميم . أو للإيذان بكونه فى حكم الميتة. و (الصيد) ما يصاد مأكولًا أو غيره . ولا يستثنى إلّا ما ثبت فى (الصحيحين)[1] عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وفى رواية : (الحية) بدل (العقرب) .

قال زيد بن أسلم وابن عيينة : الكلب العقور يشمل السباع العادية كلها . ويستأنس لهذا بما روى أنّ رسول الله ﷺ لمّا دعا على عتبة بن أبى لهب قال : اللهمّ ! سلّط عليه كلبك. فأكله السبع بالزرقاء . « وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ » أيها المحرمون « مُتَعَمِّدًا » ذاكرًا

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ٧ ـ باب ما يَقتل المحرمُ من الدواب ، حديث ٩٢٦ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن النبىّ ﷺ قال « خمس من الدواب ، كلهن فاسق يُقتلن فى الحَرَم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعتنا) وفيه (الحية) عوضاً عن العقرب .

لإحرامه « فَجَزَاءٌ » بالتنوين ورفع ما بعده ، أى : فعليه جزاء هو « مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » أى : شبهه فى الخلقة . وفى قراءة بإضافة (جزاء) « يَحْكُمُ بِهِ » أى : بالمثل مجتهدان « ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ » لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به . وقد حكم ابن عباس وعمر وعلىّ رضى الله عنهم فى النعامة ببدنة . وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة . وابن عمر وابن عوف فى الظبى بشاة . وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما فى الحمام ، لأنه يشبهها فى العبّ « هَدْياً » حال من (جزاء) « بَالِغَ الْكَعْبَةِ » أى : يبلغ به الحرم. فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه . فلا يجوز أن يذبح حيث كان «أَوْ» عليه « كَفَّارَةٌ » غير الجزاء . وإن وجده. هى « طَعَامُ مَسَاكِينَ » من غالب قوت البلد مايساوى قيمة الجزاء. لكل مسكين مدّ . وفى قراءةٍ بإضافة (كفارةٍ) لما بعده، وهى للبيان «أَوْ» عليه« عَدْلُ » مثل « ذَٰلِكَ » الطعام « صِيَاماً » يصوم ، عن كل مدّ ، يوماً « لِيَذُوقَ » أى : هاتكُ حرمة الله « وَبَالَ أَمْرِهِ » أى : شدة وثقل هتكه لحرمة الإحرام . و (ليذوق) متعلق بالاستقرار فى الجار والمجرور . أى : فعليه جزاء ليذوق . أو بفعل يدلّ عليه الكلام . أى: شرع ذلك عليه ليذوق « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ » من قتل الصيد قبل تحريمه . « وَمَنْ عَادَ » إليه « فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ » بطاب الجزاء فى الدنيا والمعاقبة فى الآخرة . وكيف يترك ذلك « وَاللهُ عَزِيزٌ » غالب على أمره . ومقتضى عزته الانتقام من هاتك حرمته ، فهو لا محالة « ذُو انْتِقَامٍ » ممّن عصاه .

تنبيهات :

الأول ـ روى ابن أبى حاتم عن طاوس قال : لا يحكم على من أصاب صيداً خطأً ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً .

قال ابن كثير: وهذا مذهب غريب . وهو تمسك بظاهر الآية .

ورأيت فى بعض تفاسير الزيدية نسبة هـذا القول إلى ابن عباس وعطاء ومجاهد وسالم وأبى ثور وابن جبير والحسن (فى إحدى الروايتين) ، والقاسم والهادى والناصر وغيرهم. انتهى.

والجمهور : أن العامد والناسى سواء فى وجوب الجزاء عليه .

وقال الزهرىّ : دلّ الكتاب على العامد . وجرت السنة على الناسى .

الثانى ـ إذا لم يكن الصيد مثليًّا حكم ابن عباس بثمنه يحمل إلى مكة . رواه البيهقىّ .

الثالث ـ ذهب معظم الأئمة إلى التخيير فى هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام، لأنه جىء بلفظ (أو) وحقيقتها التخيير .

وعن بعض السلف أن ذلك على الترتيب . قالوا : إنما دخلت (أو) لبيان أن الجزاء لا يعدو أحد هذه الأشياء ؛ ولأنا وجدنا الكفارات من الظهار والقتل على الترتيب . قلنا : هذا معارض بكفارة اليمين وبدم الأذى ، فلا يخرج عن حقيقة اللفظ وهو التخيير .

الرابع ـ تعلق بظاهر قوله تعالى (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ) من قال : لا كفارة على العائد . لأنه تعالى لم يذكرها . وهو مروىّ عن ابن عباس وشريح . والجمهور : على وجوبها عليه . لأن وعيد العائد لا ينافى وجوب الجزاء عليه . وإنما لم يصرح به لعلمه فيما مضى . مع أن الآية يحتمل أن معناها : من عاد بعد التحريم إلى ما كان قبله .

الخامس ـ قال الحاكم : كما دلت الآية على الرجوع إلى ذوى العدل فى المماثلة . ففى ذلك دلالة على جواز الاجتهاد وتصويب المجتهدين . وجواز تعليق الأحكام بغالب الظن . وجواز رجوع العامىّ إلى العالم ، وأن عند التنازع فى الأمور يجب الرجوع إلى أهل البصر ... انتهى.

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« أُحِلَّ لَكُمْ » خطاب للمُحْرِمِينَ « صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ » قال المهايمىّ : إذ ليس فيه التجبّر المنافى للتذلل الإحرامىّ . و(صَيْدُ الْبَحْرِ) مايصاد منه طريًّا ، و (طَعَامُهُ) مايتزود

منه مملحاً يابساً ، كذا فى رواية عن ابن عباس . والمشهور عنه أن صيده ما أخذ منه حيًّا ، وطعامه ما لفظه ميتاً . قال ابن كثير : وهـذا روى عن أبى بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبى أيوب الأنصارىّ رضى الله عنهم ، وعن غير واحد من التابعين .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى بكر قال : طعامه كل ما فيه .

وعن ابن المسيب : طعامه ما لفظه حيًّا أو حسر عنه فمات .

« مَتَاعًا لَكُمْ » أى : تمتيعاً للمقيمين منكم يأكلونه طريا « وَلِلسَّيَّارَةِ » منكم يتزودونه قديداً .

و (السيارة) القوم يسيرون . أُنِّث على معنى الرفقة والجماعة .

تنبيهان :

الأول : قال ابن كثير . استدل الجمهور على حل ميتته بهـذه الآية ، وبما رواه الإمام مالك[1] عن ابن وهب وابن كيسان عن جابر قال : بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل. فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة ـ قال وأنا فيهم ـ قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش. فجمع ذلك كله فكان مزودىْ تمر ، قال : فكان يقوّتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فنى ولم تصبنا إلا تمرة تمرة ، فقلت: وماتغنى تمرة ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فقدت . قال ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظَّرِبِ . فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة . ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا . ثم أمر براحلة فرحلت ، ثم مرت تحتها ولم تصبها .

وهذا الحديث مخرج من (الصحيحين)[2] وله طرق عن جابر . وفى (صحيح مسلم)[3]

---

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٤٩ ـ كتاب صفة النبىّ ﷺ ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى:٤٧ـ كتاب الشركة، ١ـ باب الشركة فى الطعام، حديث١٢٢٦ ومسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

عن جابر : وتزودنا من لحمه وشائق . فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال : هو رزق أخرجه الله لكم . هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله .

وفى بعض روايات مسلم[1] : أنهم كانوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم حين وجدوا هذه السمكة .

فقال بعضهم : هى واقعة أخرى . وقال بعضهم : هى قضية واحدة، ولكن كانوا أولًا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم بعثهم سرية مع أبى عبيدة . فوجدوا هذه فى سريتهم تلك مع أبى عبيدة . والله أعلم .

وعن أبى هريرة[2]: أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء. فإن توضأنا به عطشنا . أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته . رواه مالك والشافعيّ وأحمد وأهل السنن. وصححه البخاريّ والترمذيّ وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم .

---

(١) لم أقف على هذه الرواية .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٢٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٧٢٣٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ .

والترمذيّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٢ ـ باب ما جاء فى ماء البحر أنه طهور .

والنسائيّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤٦ ـ باب ماء البحر .

وابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٣٨ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٣٨٦ (طبعتنا) .

وعن ابن عمر قال[1] : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال . رواه الشافعىّ وأحمد وابن ماجة والدارقطنىّ والبيهقىّ ، وله شواهد. وروى موقوفاً .فهذه حجج الجمهور .

الثانى : احتج بهذه الآية أيضاً من ذهب من الفقهاء إلى أنه يؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . وقد تقدم عن الصديق أنه قال : طعامه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع ، وأباح ماسواها ، لما رواه الإمام أحمد[2] وأبو داود عن أبى عبدالرحمن التيمىّ ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع. وللنسائىّ عن عبدالله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : نقيقها تسبيح .

« وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا» أى : محرمين ؛ فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أَثِمَ وَغَرِمَ ، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله. لأنه فى حقه كالميتة « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فى الاصطياد فى الحرم أو فى الإحرام ، ثم حذرهم بقوله سبحانه : « الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى : تبعثون فيجازيكم على أعمالكم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٩٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٧٢٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٢٨ ـ كتاب الصيد ، ٩ ـ باب صيد الحيتان والجراد ، حديث ٣٢١٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٥٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وأخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٦٥ ـ باب فى قتل الضفدع ، حديث ٥٢٦٩ .

والنسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٣٦ ـ باب الضفدع .

لطيفة :

قال المهايمىّ : إنما حرّم الصيد على المحرم ، لأنه قصد الكعبة التى حُرِّمَ صَيْدُ حرمها ، فجعل كالواصل إليه . وإنما حرم صيد حرمها لأنها مثال بيت الملك ، لا يتعرض لما فيه أو فى حرمه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ » أى : مدارًا لقيام أمر دينهم بالحج إليه ، ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجَبْى ثمرات كلّ شىء إليه .

قال المهايمىّ : جعله الله مقام التوجه إليه فى عبادته للناس المتفرقين فى العالم ، ليحصل لهم الاجتماع الموجب للتآلف ، الذى يحتاجون إليه فى تمدّنهم ، الذى به كمالُ معاشهم ومعادهم ، لاحتياجهم إلى المعاونة فيهما .

« وَالشهْرَ الْحَرَامَ » بمعنى الأشهر الحرم ـ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ـ قيامًا لهم بأمنهم من القتال فيها . لأنه حرم فيها ليحصل التآلف فيها « وَالْهَدْىَ » وهو ما يهدى إلى مكة « وَالْقَلَائِدَ » جمع قلادة . وهى ما يجعل فى عنق البدنة التى تهدى وغيره . والمراد بـ (القلائد) ذوات القلائد وهى البدن . خصّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر ، وبهاء الحج بها أظهر . والمفعول الثانى محذوف ، ثقةً بما مرّ ، أى : جعل الهدى والقلائد أيضًا قيامًا لهم . فإنهم كانوا يأمنون بسَوْق الهدى إلى البيت الحرام على أنفسهم . وفيه قوام لمعيشة الفقراء ثمّت . وكذلك كانوا يأمنون إذا قلدوها أو قلّدوا أنفسهم ، عند الإحرام ، من لحاء شجر

الحرم . فلا يتعرض لهم أحد « ذَٰلِكَ » أى : الجعْل المذكور « لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فإنّ جعله ذلك لجلب المصالح لكم ودفع المضار عنكم قبل وقوعها ، دليلٌ على علمه بما هو فى الوجود وما هو كائن .

وقد جوّد الرازىّ تقرير هذا المقام فأبدع ، فلينظر .

وقوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تعميمٌ إثر تخصيصٍ للتأكيد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » وعيد لمن انتهك محارمه أو أصرّ على ذلك « وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وعدٌ لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

« مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » يعنى : ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم ، إلّا تبليغ ما أرسل به من الإنذار بما فيه قطع الحجج . وفى الآية تشديدٌ فى إيجاب القيام بما أمر به . وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ . وقامت عليكم الحجّة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم فى التفريط « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » من الخير والشرّ ، فيجازيكم بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » حكم عام فى نفى المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الردئ من الأشخاص والأعمال والأموال ، وجيّدها . قصد به الترغيب فى صالح العمل وحلال المال « وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » فإنّ العبرة بالجودة والرداءة ، دون القلّة والكثرة . فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير . والخطاب عامّ لكل معتبر ـ أى : ناظر بعين الاعتبار ـ ولذلك قال « فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِى الْأَلْبَابِ » أى: فاتقوه فى تحرّى الخبيث وإنْ كثر . وآثروا الطيّب وإنْ قلّ « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : بمنازل القرب عنده تعالى المعدّ للطيّبين .

تنبيهان

الأول ـ قال الرازىّ : اعلم أنه تعالى لمّا زجر عن المعصية ورغّب فى الطاعة بقوله : اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . . . الآية ثم بما بعدها أيضاً ـ أتبعه بنوعٍ آخر من الترغيب والترهيب بقوله : قُلْ لَا يَسْتَوِى . . . الآية . وذلك لأنّ الخبيث والطيب قسمان : أحدهما الذى يكون جسمانيًّا وهو ظاهر لكل أحد . والثانى الذى يكون روحانيًّا . وأخبث الخبائث الروحانية الجهل والمعصية . وأطيب الطيبات الروحانية معرفة الله تعالى وطاعته . وذلك لأن الجسم الذى يلتصق به شىء من النجاسات يصير مستقذرًا عند أرباب الطباع السليمة . فكذلك الأرواح الموصوفة بالجهل بالله والإعراض عن طاعته تصير مستقذرة عند الأرواح الكاملة المقدسة . وأما الأرواح العارفة بالله تعالى ، المواظبة على خدمته ، فإنها تصير مُشْرِقَةً بأنوار المعارف الإلهية ، مبتهجةً بالقرب من الأرواح المقدسة الطاهرة. وكما أنّ الخبيث والطيّب

فى عالم الجسمانيات لا يستويان ، فكذلك فى عالم الروحانيات لا يستويان . بل المباينة بينهما فى عالم الروحانيات أشدّ لأن مضرة خبث الخبيث الجسمانىّ شيء قليل ومنفعة طيبة مختصرة. وأمّا خبث الخبيث الروحانىّ فضرّته عظيمة دائمة أبدية . وطيب الطيّب الروحانىّ فمنفعته عظيمة دائمة أبدية . وهو القرب من جوار ربّ العالمين ، والانخراط فى زمرة الملائكة المقربين ، والمرافقة مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين. فكان هذا من أعظم وجوه الترغيب فى الطاعة والتنفير عن المعصية .

الثانى ـ قال بعض المفسّرين : من ثمرة الآية أنه ينبغى إجلال الصالح وتمييزه على الطالح. وأنّ الحاكم إذا تحاكم إليه الكافر والمؤمن ، ميزّ المؤمن فى المجلس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا ، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْئَلُوا » أى : نبيّكم « عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ » أى : تظهر « لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » لما فيها من المشقة « وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْءانُ تُبْدَ لَكُمْ » أى : وإن تسألوا عن أشياء نزل القرآن بها مجملة ، فتطلبوا بيانها ، تبين لكم حينئذ لاحتياجكم إليها. هذا وجه فى الآية . وعليه ف (حين) ظرف لـ (تسئلوا).

وثمت وجه آخر : وهو جعل (حين) ظرفاً لـ (تبد) ، والمعنى : وإن تسألوا عنها . تُبْدَ لكم حين ينزل القرآن .

قال ابن القيّم : والمراد بـ (حين النزول) زمنه المتصل به ، لا الوقت المقارن للنزول . وكأنّ فى هذا إذناً لهم فى السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله . ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقاً. ثم قال : وثمت قول ثانٍ فى قوله تعالى: وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا ... الخ ، وهو أنّه من باب التهديد والتحذير ، أى : ما سألتم عنها فى وقت نزول الوحى جاءكم

بيان ما سألتم عنه بما يَسُوءُكم : والمعنى : لاتتعرّضوا للسؤال عمّا يَسُوءُكم بيانه، وإن تعرضتم له فى زمن الوحى أبدى لكم . انتهى .

وقال بعضهم : إنه تعالى، بيّن أولًا أنّ تلك الأشياء ـ التى سألوا عنها ـ إن أبديت لهم ساءتهم . ثم بيّن ثانياً أنهم إن سألوا عنها أُبْدِيَتْ لهم . فكان حاصل الكلام إن سألوا عنها أبديت لهم ، وإن أبديت لهم ساءتهم ، فيلزم من مجموع المقدمتين أنهم ، إن سألوا عنها ، ظهر لهم ما يَسُوءُهم ولا يسرّهم .

قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى (إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) صفة لـ(أَشْيَاءَ) داعيةٍ إلى الانتهاء عن السؤال عنها . وحيث كانت المساءة فى هذه الشرطية معلقة بإبدائها ، لا بالسؤال عنها ، عقبت بِشَرْطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجب للمحذور قطعاً . فقيل : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ . أى : تلك الأشياء الموجبة للمساءة بالوحى ، كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين التنزيل . والمراد بها : ما يشق عليهم ويغمّهم من التكاليف الصعبة التى لايطيقون بها ، والأسرار الخفية التى يفتضحون بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه . فكما أنّ السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها ، كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لإيجابها عليهم بطريق التشديد، لإساءتهم الأدب واجترائهم على المسئلة والمراجعة ، وتجاوزهم عمّا يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عزّ وجلّ، من غير بحثٍ فيه ولا تعرّض لكيفيته وكمّيّته . أى: لا تكثروا مساءلة رسول الله ﷺ عمّا لايعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم ـ إن أفتاكم بها وكلّفكم إياها حسبما أوحى إليه ـ لم تطيقوا بها ، ونحو بعض أمورٍ مستورة تكرهون بروزها .

« عَفَا اللهُ عَنْهَا » أى : عن تلك الأشياء حين لم ينزل فيها القرآن ولم يوجبها عليكم توسعةً عليكم . أو : عفا الله عن بيانها لئلّا يسوءكم بيانها. فالجملة فى موضع جرّ صفة أخرى لـ (أَشْيَاءَ) . أو المعنى : عفا الله عن مسائلكم السالفة ، وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بمسائلكم ، فلا تعودوا إلى مثلها . فالجملة حينئذٍ مستأنفة مبينة لأن نهيهم عنها لم يكن لمجرّد

صيانتهم عن المساءة . بل لأنها فى نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها . وفيه من حثّهم على الجدّ فى الانتهاء عنها مالا يخفى « وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » اعتراض تذييلىّ مقرّر لعفوه تعالى ، أى : مبالغ فى مغفرة الذنوب . ولذا عفا عنكم ولم يؤاخذْكم بما فرط منكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ)

« قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى : سألوا هذه المسئلة ، لكن لا عينها ، بل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال . وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير « ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ » أى : بسببها . حيث لم يمتثلوا ما أجيبوا به، ويفعلوه . وقد كان بنو إسرائيل يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أُمِروا بها تركوها فهلكوا . والمعنى : احذروا مشابهتهم والتعرّض لما تعرّضوا له .

تنبيهات

الأول : روى البخارىّ(١) فى سبب نزولها فى (التفسير) عن أبى الجويرية عن ابن عباس قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً . فيقول الرجل : من أبى ؟ ويقول الرجل، تضلّ ناقته : أين ناقتى ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا ...حتى فرغ من الآية كلها .

وأخرج(٢) أيضاً عن موسى بن أنس عن أنس رضى الله عنه قال : خطب رسول الله صلى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٢ ـ باب قوله: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، حديث ٢٠٠١ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٢ ـ باب قوله: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، حديث ٨٠ .

الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ... قال : فغطى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم، لهم خنين . فقال رجل : مَن أبى ؟ قال : فلان ، فنزلت هذه الآية : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ .

وروى البخارى[(١)] أيضاً فى كتاب (الفتن) عن قتادة : أنّ أنساً حدثهم قال : سألوا النبىّ ﷺ حتى أحْفَوْه بالمسئلة . فصعد النبىّ ﷺ ذات يومٍ المنبر فقال : لا تسألونى عن شىءٍ إلّا بينت لكم. فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً، فإذا كلّ رجلٍ رأسه فى ثوبه يبكى. فأنشأ رجل ـ كان إذا لاحى يُدْعَى إلى غير أبيه ـ فقال: يا نبىّ الله ! من أبى ؟ فقال : أبوك حذافة . ثم أنشأ عمر فقال : رضينا بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ رسولًا . نعوذ بالله من سوء الفتن .

فقال النبىّ ﷺ : ما رأيت فى الخير والشرّ كاليوم قط. إنه صوّرت لِىَ الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط .

فكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ .

وفى رواية : قال قتادة يُذْكَرُ ـ بالبناء للمجهول ـ هذا الحديث ... الخ .

وروى البخارى[(٢)] أيضاً فى كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنّة) فى باب ما يكره من كثرة السؤال ، عن الزهرىّ قال : أخبرنى أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ النبىّ ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر . فلما سلّم قام إلى المنبر فذكر الساعة . وذكر أن بين يديها أمورا عظاما ، ثم قال : من أحب أن يسأل عن شىء فليسأل عنه ،

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ١٥ ـ باب التعوّذ من الفتن، حديث ٨٠.

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٣ ـ باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه ، حديث ٨٠ .

فوالله ! لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتـكم به مادمت فى مقامى هـذا . قال أنس : فأكثر الأنصار البكاء ، وأكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : سلونى . فقال أنس : فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى ؟ يارسول الله ! قال : النار . فقام عبد الله بن حذافة فقال : من أبى ؟ يارسول الله ! قال : أبوك حذافة . قال : ثم أكثر أن يقول : سلونى .

فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا .

قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك .

ثم قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ! لقد عرضت علىّ الجنة والنار آنفا فى عُرْض هذا الحائط وأنا أصلى . فلم أركاليوم فى الخير والشر .

وعند مسلم : قال ابن شهاب : أخـبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعتُ بابنٍ قطّ أعقّ منك . أأمنت أن تـكون أمك قد قارفت بعض ماتقارف نساء أهل الجاهلية ، فتفضحها على أعين الناس ؟

قال عبد الله بن حذافة : والله ! لو ألحقنى بعبد أسود للحقته .

وروى ابن جرير[٢] عن السدّىّ قال : غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الأيام فقام خطيبا فقال : سلونى . ـ نحو ما تقدم ـ وزاد : فقام إليه عمر فقبل رجله وقال : رضينا بالله ربا ... الخ .

وزاد : وبالقرآن إماما، فاعف عنا عفا الله عنك . فلم يزل به حتى رضى .

وأخرج أيضا عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمارّ وجهه حتى

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث١٣٦ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١٢٨٠١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٢٨٠٢ من التفسير .

جلس على المنبر . فقام إليه رجل فقال : أين أنا؟ قال : فى النار . ـ نحو مامر ـ وفيه : فنزلت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا...الآية .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وبهـذه الزيادة ـ أى على مافى البخارىّ من قول رجل للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أين أنا ؟ قال : فى النار . ـ يتضح أن هـذه القصة سبب نزول : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ... الآية ، فإن المساءة فى حق هذا جاءت صريحة ، بخلافها فى حق حذافة فإنها بطريق الجواز ، أى : لو قدر أنه فى نفس الأمر لم يكن لأبيه ، فبيّن أباه الحقيقىّ ، لافتضحت أمه ، كما صرحت بذلك أمه حين عاتبته على هـذا السؤال . انتهى .

وروى الإمام أحمد[١] والترمذىّ[٢] عن أبى البخترىّ عن علىّ رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) قالوا : يارسول الله ! أفى كل عام؟ فسكت ، فقالوا : أفى كلّ عام ؟ فسكت ، قال ثم قالوا : أفى كلّ عام ؟ . فقال : لا . ولو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت لما استطعتم . فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا ... الآية .

قال الترمذىّ : غريب. وسمعت البخارىّ يقول : أبو البخترىّ لم يدرك عليًّا.

وروى ابن جرير نحوه عن أبى هريرة[٣] وأبى أمامة[٤] ، وكذا عن ابن عباس[٥] ،

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٩٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٥ ـ حدثنا أبو سعيد الأشجّ .

(٣) الأثر رقم ١٢٨٠٤ من التفسير .

(٤) الأثر رقم ١٢٨٠٧ من التفسير .

(٥) الأثر رقم ١٢٨٠٨ من التفسير .

قال فى الآية :لاتسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولـكن انتظروا. فإذا نزل القرآن فإنـكم لا تسألون عن شي إلا وجدتم بيانه اه .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل . إما على سبيل الاستهزاء أو الامتحان ، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذى لو لم يسئل عنه لـكان على الإباحة .

الثانى ـ قال ابن كثير : ظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بهـا الشخص ساءته . فالأولى الإعراض عنها وتركها . وما أحسن الحديث الذى رواه الإمام[1] أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا يبلغنى أحدٌ عن أحد شيئاً . فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . ورواه أبو داود[2] والترمذىّ[3] .

الثالث ـ قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) :

لم ينقطع حكم هذه الآية . بل لا ينبغى للعبد أن يتعرّض للسؤال عمّا إن بدا له ساءه . بل يستعفى ما أمكنه ، ويأخذ بعفو الله . ومن ههنا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : يا صاحب الميزاب ! لا تخبرنا . لمّا سأله رفيقه عن مائه : أطاهر أم لا ؟

وكذلك لاينبغى للعبد أن يسأل ربّه أن يبدى له من أحواله وعاقبته ماطواه عنه وستره. فلعلّه يسوءه إن أبدى له . فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله . فإنه سبحانه يكره إبداءها ، ولذلك سكت عنها . اه .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧٥٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٢٨ ـ باب فى رفع الحديث من المجلس ، حديث رقم ٤٨٦٠ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب، ٦٣ ـ باب فضل أزواج النبىّ ﷺ .

وما ذكره من التعميم هو باعتبار ظاهرها . وأما المقصود أولًا وبالذات ـ كما يفيده تتمتها ـ فهو النهى عن السؤال بما يسوء إبداؤه فى زمن الوحى .

ويدل له ، مارواه البخارىّ[١] عن سعد بن أبى وقاص : أنّ النبىّ ﷺ قال : إنّ أعظم المسلمين جرماً ، مَنْ سأل عن شىء لم يحرَّم فحرِّم من أجل مسئلته.

فإن مثل ذلك قد أمن وقوعه .

وعن أبى هريرة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: ذرونى ما تركتكم. فإنما هلكَ مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشىء فأْتُوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه رواه[٢] الإمام أحمد ومسلم والنسائىّ .

وعن أبى ثعلبة الخشنىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: إنّ الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها. وحدّ حدودًا فلا تعتدوها . وحرّم أشياء فلاتقربوها . وترك أشياء، من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها .. رواه الدارقطنىّ وأبو نعيم .

وعن سلمان الفارسىّ[٣] قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء فقال :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٣ ـ باب مايكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه ، حديث ٢٥٨٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٣٦١ (طبعة المعارف) .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) .

والنسائىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الحج ، ١ ـ باب وجوب الحج .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٦ ـ باب ما جاء فى لبس الفراء .

وابن ماجة فى : ٢٩ ـ كتاب الأطعمة ، ٦٠ ـ باب أكل الجبن والسمن ، حديث ٣٣٦٧ (طبعتنا) .

الحلال ما أحـلّ الله فى كتابه . والحرام ما حرّم الله فى كتابه . وما سكت عنه فهو مما قد عفاعنه، فلا تتـكلّفوا. رواه الترمذىّ والحاكم وابن ماجة .

وأخرج الشيخان[١] عن أنس قال : كنا نُهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شئ . وكان يعجبنا أن يجئ الرجل الغافل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع .

وفى قصة[٢] اللعان من حديث ابن عمر : فـكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها .

---

(١) هــذا الحديث لم يروه البخارىّ وهاكوه بنصه الـكامل كما أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

عن أنس بن مالك قال : نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء . فـكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية ، العاقلُ ، فيسأله ونحن نسمع .

فجاء رجل من أهل البادية ، فقال : يا محمـد ! أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال « صدق » قال : فمن خلق السماء ؟ قال « الله » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال « الله » قال : فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟ قال « الله » قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال « صدق » قال : فبالذى أرسلك ! آلله أمرك بهذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا . قال « صدق » قال : فبالذى أرسلك ! آلله أمرك بهـذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا . قال « صدق » قال : فبالذى أرسلك ! آلله أمرك بهذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال « صدق » .

قال ثم ولى . قال : والذى بعثك بالحق ! لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن .

فقال النبىّ ﷺ « لئن صدق ، ليدخلنّ الجنة » .

(٢) انظرها فى البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٤ ـ سورة النــور ، =

ولمسلم[1] عن النوّاس بن سمعان قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة بالمدينة ، ما يمنعني من الهجرة إلّا المسألة . كان أحدنا، إذا هاجر، لم يسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ومراده : أنه قدم وافدًا ، فاستمر بتلك الصورة ليحصل المسائل ، خشية أن يخرج من صفة الوفد إلى استمرار الإقامة ، فيصير مهاجرًا ، فيمتنع عليه السؤال .

وفيه إشارة إلى أن المخاطب بالنهي عن السؤال غير الأعراب ، وفودًا كانوا أو غيرهم .

وأخرج أحمد[2] عن أبي أمامة قال : لمّا نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ...) الآية، كنّا قد اتقينا أن نسأله ﷺ . فأتينا أعرابيًّا فرشوناه برداء وقلنا : سل النبيّ ﷺ .

ولأبي يعلى عن البراء : إن كان ليأتي عليّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيّب . وإن كنا لنتمنى الأعراب ـ أي قدومهم ـ ليسألوا، فيسمعوهم أجوبة سؤالات الأعراب ، فيستفيدوها .

وأمّا ما ثبت في الأحاديث من أسئلة الصحابة، فيحتمل أن يكون قبـــل نزول الآية ،

= ١ ـ باب قوله عز وجل : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، حديث ٢٧٩ .

وفي مسلم في : ١٩ ـ كتاب اللعان ، حديث ١ (طبعتنا) .

والحديث من رواية سهل بن سعد ، لا من رواية ابن عمر .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث ١٥ (طبعتنا) وتتمة الحديث :

قال : فسألته عن البرّ والإثم ؟ فقال رســـول الله ﷺ « البرّ حُسْن الخلق ، والإثم ماحاك في نفسك ، وكرهتَ أن يطّلع عليه الناس » .

(٢) من حديث طويل . في المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ).

ويحتمل أن النهى فى الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه ، أو مالهم بمعرفته حاجة راهنة : كالسؤال عن الذبح بالقصَب . والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة . والسؤال عن أحوال يوم القيامة وما قبلها من الملاحم والفتن . والأسئلة التى فى القرآن : كسؤالهم عن الكلالة والخمر والميسر والقتال فى الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد وغير ذلك ...

لكن الذين تعلقوا بالآية فى كراهية كثرة المسائل عمّا لم يقع، أخذوه بطريق الإلحاق، من جهة أن كثرة السؤال ، لمّا كانت سبباً للتكليف بما يشق ، فحقها أن تجتنب .

وقد عقد الإمام الدارمىّ[1] فى أوائل (مسنده) لذلك باباً . وأورد فيه عن جماعة من الصحابة والتابعين آثارًا كثيرة فى ذلك ، منها :

عن ابن عمر : لا تسألوا عما لم يكن . فإنى سمعت عمر يلعن السائل عما لم يكن .

وعن عمر : أحرّج عليكم أن تسألوا عمّا لم يكن . فإن لنا فيما كان شغلًا .

وعن زيد بن ثابت؛ أنه كان إذا سئل عن الشيء؟ يقول : كان هذا ؟ فإن قيل : لا ! قال : دعوه حتى يكون .

وعن أبىّ بن كعب، وعن عمار نحو ذلك .

وأخرج أبو داود فى (المراسيل) : عن أبى سلمة ومعاذ مرفوعاً : لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها . فإنكم إن تفعلوا لم يزل فى المسلمين مَنْ إذا قال سُدِّد ـ أو وفق ـ وإن عجلتم تشتَّتَتْ بكم السبل .

وعن أشياخ الزبير بن سعيد مرفوعاً : لايزال فى أمتى من إذا سئل سُدِّد ، حتى يتساءلوا عمّا لم ينزل .

قال بعض الأئمة : والتحقيق فى ذلك ؛ أن البحث عما لا يوجد فيه نص ، على قسمين :

---

(١) أخرج هذه الآثار الدارمىّ فى المقدمة فى : ١٨ ـ باب كراهية الفتيا .

(أحدهما) أن يبحث عن دخوله فى دلالة النص على اختلاف وجوهها ؛ فهذا مطلوب لا مكروه . بل ربما كان فرضا على من تعين عليه من المجتهدين . (ثانيهما) ـ أن يدقق النظر فى وجوه الفروق ، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر فى الشرع مع وجود وصف الجمع ، أو بالعكس بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردى مثلا . فهذا الذى ذمه السلف . وعليه ينطبق حديث ابن مسعود رفعه : هلك المتنطعون ... أخرجه مسلم[1] ، فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته .

ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها فى الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ، وهى نادرة الوقوع جدا ، فيصرف فيها زمانا كان صرفه فى غيرها أولى ، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع فى بيان ما يكثر وقوعه . وأشد من ذلك ـ فى كثرة السؤال ـ البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها . ومنها لا يكون له شاهد فى عالم الحس . كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة ... إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف . والكثير منه لم يثبت فيه شىء، فيجب الإيمان به من غير بحث . وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه فى الشك والحيرة . قال بعضهم : مثال التنطع فى السؤال حتى يفضى بالمسؤول إلى الجواب بالمنع بعد أن يفتى بالإذن ـ أن يسأل عن السلع التى توجد فى الأسواق : هل يكره شراؤها ممن هى فى يده من قبل البحث عن مصيرها إليه أو لا ؟ فيجيبه بالجواز. فإن عاد فقال : أخشى أن يكون من نهب أو غصب ، ويكون ذلك الوقت قد وقع شىء من ذلك فى الجملة، فيحتاج أن يجيبه بالمنع . ويقيّد ذلك إن ثبت شىء من ذلك حرم ، وإن تردد كره أو كان خلاف الأولى . ولو سكت السائل عن هذا التنطع لم يزد المفتى على جوابه بالجواز . وإذا تقرر ذلك ، فمن يسدّ باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التى يكثر وقوعها، فإنه يقل فهمه وعلمه ؛ ومن توسع فى تفريع

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ٧ (طبعتنا) عن عبد الله بن مسعود.

المسائل وتوليدها ـ ولا سيما فيما يقل وقوعه أو يندر ، ولا سيما إن كان الحامل على ذلك المباهاة والمغالبة ـ فإنه يذم فعله ، وهو عين الذى كرهه السلف . ومن أمعن فى البحث عن معانى كتاب الله ، محافظاً على ما جاء فى تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، الذين شاهدوا التنزيل . وحصل من الأحكام مايستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معانى السنة وما دلت عليه كذلك، مقتصرًا على مايصلح للحجة منها ، فإنه الذى يحمد وينتفع به . وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمَن بعدهم . ـ كذا فى (فتح البارى) ـ .

ثم رأيت فى (موافقات) الإمام الشاطبى رحمه الله تعالى، فى أواخرها ـ فى هذا الموضوع ـ مبحثاً جليلاً ، قال فى أوله :

الإكثار من الأسئلة مذموم . والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح . من ذلك قوله تعالى ... ـ وساق هذه الآية وما أسلفناه من الآثار وزاد أيضاً عما نقلنا ـ ثم قال : ... والحاصل أن كثرة السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية ، مذموم. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد وُعِظوا فى كثرة السؤال حتى امتنعوا منه. وكانوا يحبون أن يجئ الأعراب فيسألون حتى يسمعوا كلامه ويحفظوا منه العلم . . ثم قال : ويتبيّن من هذا أن لكراهية السؤال مواضع ، نذكر منها عشرة مواضع :

(أحدها) : السؤال عمّا لا ينفع فى الدين ، كسؤال(٢) عبد بن الله بن حذافة : مَن أبى ؟ وروى فى (التفسير) أنه عليه السلام سئل : مابال الهلال يبدو رقيقاً كالخيط ثم لا يزال ينمو

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم، ٢٩ ـ باب من برك على ركبتيه عند الإمام أو المحدّث ، حديث ٨٠ عن أنس بن مالك .

حتى يصير بدرًا ثم ينقص إلى أن يصير كما كان ؟ فأنزل الله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ...(١) الآية ، فإنما أجيب بما فيه من منافع الدين .

و (ثانيها) : أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته ، كما سأل الرجل عن الحج(٢) : أ كلّ عام ؟ مع أن قوله تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)(٣) قاض بظاهره أنه للأبد، لإطلاقه. ومثله سؤال بنى إسرائيل بعدقوله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً..(٤)

و (ثالثها) : السؤال من غير احتياجٍ إليه فى الوقت ، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ خاص

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال «أيها الناس ! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » فقال رجل: أ كلّ عام؟ يا رسول الله! فسكت. حتى قالها ثلاثا. فقال رسول الله ﷺ « لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم » ثم قال « ذرونى ما تركتكم . فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٦٧] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

بما لم ينزل فيه حكم ، وعليه يدل قوله: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ[١] . وقوله : وسكت عن أشياء رحمةً بكم، لا عَنْ نسيان، فلا تبحثوا عنها .

و (رابعها) : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها ، كما جاء في النهى[٢] عن الأغلوطات .

و (خامسها) : أن يسأل عن علة الحكم ـ وهو من قبيل التعبدات ، أو السائل ممّن لا يليق به ذلك السؤال ـ كما فى حديث[٣] قضاء الصوم دون الصلاة .

و (سادسها) : أن يبلغ بالسؤال إلى حدّ التكلّف والتعمّق ، وعلى ذلك يدلّ قوله تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[٤] ؛ ولما سئل الرجل[٥]:

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢١٧٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٤ ـ كتاب العلم ، ٨ ـ باب التوقى فى الفتيا ، حديث ٣٦٥٦ ونصه :

عن معاوية أن النبىّ ﷺ نهى عن الغَلوطات .

(الغلوطات) بفتح الغين المعجمة وضم اللام ـ هى المسائل التى يغالط بها العلماء ليزلّوا فيها فيهيج بذلك شر وفتنة . وهى جمع غلوطة ـ بالفتح ـ ثم قيل : هى مثل حلوبة وركوبة، إذا جملا اسمين . وقيل: أصلها أغلوطة ، خففت بطرح الهمزة . كما تقول : لحمر . وأنت تريد (الأحمر) . اهـ محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٦٩ (طبعتنا) ونصه :

عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟ فقالت : أَحَرُورِيَّةٌ أنت ؟ قلت : لست بحرورية ، ولكنى أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .

(٤) [٣٨ / ص / ٨٦] .

(٥) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ١٤ (طبعتنا)=

يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ قال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض ! لا تخبرنا . فإنا نرد على السباع وترد علينا.

و(سابعها) : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأى ، ولذلك قال سعيد : أعراقىّ أنت؟ وقيل لمالك بن أنس : الرجل يكون عالمًا بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا. ولكن يخبر بالسنة . فإن قبلت منه ، وإلّا سكت .

و (ثامنها) : السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى[1] : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ... الآية . وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضًا للخصومات أسرع التنقل. ومن ذلك سؤال من سأل[2] مالكًا عن الاستواء؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهول، والسؤال عنه بدعة .

= ونصه : عن يحي بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج فى ركب ، فيهم عمرو بن العاص . حتى وردوا حوضًا . فقال عمرو بن العاص : ياصاحب الحوض ! هل ترد حوضَك السباعُ ؟ فقال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض ! لا تخبرنا . فإنا نردُ على السباع وترد علينا .

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .

(٢) جاء فى كتاب (العلوّ) للذهبىّ ما يأتى :

وروى يحي بن يحي التميمىّ وجعفر بن عبدالله وطائفة قالوا : جاء رجل إلى مالك فقال: يا أبا عبد الله ! (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) كيف استوى ؟

قال : فما رأيت مالكا وجد (أى غضب) فى شيء كموجدته من مقالته . وعلاه =

و (تاسعها) : السؤال عما شجر بين السلف الصالح . وقد سئل عمر بن عبدالعزيز عن قتال أهل صِفِّين؟ فقال : تلك دماء كف الله عنها يدى، فلا أحب أن ألطّخ بها لسانى .

و (عاشرها) : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة فى الخصام . وفى القرآن فى ذم نحو هذا[1] : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ .. »وقال[2] : بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، وفى[3] الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم .

هذه جملة من المواضع التى يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ماسواها ، وليس النهى فيها

= الرُّحَضَاء (يعنى العرق) وأطرق القوم . فسُرِّى عن مالك وقال : الكيف غير معقول. والاستواء منه غير مجهول . والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وإنى أخاف أن تكون ضالا .

وأمر به فأُخرج .

وساق البيهقىّ بإسناد صحيح عن أبى الربيع الرشدينىّ عن ابن وهب قال : كنت عند مالك، فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ! (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء . ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف . وكيف عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة . أخْرِجوه . اهـ كلام الإمام الذهبىّ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٤] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٨] ونصها : وَقَالُوا ءَأَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٧ ـ باب وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، حديث ١٢١١ عن عائشة .

واحدًا ، بل فيها ما تشتدّ كراهيته، ومنها ما يخفّ ، ومنها ما يحرم ، ومنها ما يكون محلّ اجتهاد. وعلى جملة ، منها يقع النهى عن الجدال فى الدين كما جاء : إن المراء فى القرآن كفر. وقال تعالى : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ...الآية[1] . وأشباه ذلك من الآى والأحاديث ... فالسؤال فى مثل ذلك منهىّ عنه ، والجواب بحسبه . انتهى كلامه.

التنبيه الرابع :

قال بعض المفسّرين : لابد من تقييد النهى فى هذه الآية (بما لا تدعو إليه حاجة) . لأن الأمر الذى تدعو إليه الحاجة فى أمور الدين قد أذن الله بالسوال عنه فقال : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[2] . وقال ﷺ[3]: قاتلهم الله ألّا سألوا إذ لم يعلموا. فإنما شفاء العىّ السؤال ... انتهى .

(١) [٦ / الأنعام / ٦٨] . . . حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٥ ـ باب فى المجروح يتيمم ، حديث ٣٣٦ ونصه :

عن جابر قال : خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجّه فى رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات .

فلما قدمنا على النبىّ ﷺ أخبر بذلك . فقال « قتلوه ، قتلهم الله . ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العىّ السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر (يعصب) على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » .

ولا يخفى أن الآية بقيدها ـ أعنى (إِنْ تُبْدَ . . . الخ) ـ غنية عن أن تقيّد بقيدٍ آخر كما ذكره البعض . لأن المراد بها ما يشق عليهم من التكاليف الصعبة وما يفتضحون به ـ كما أسلفنا ـ مما هو خوض فى الفضول ، وشروع فيما لا حاجة إليه . وفيه خطر المفسدة . والشيء الذى لا يحتاج إليه ويكون فيه خطر المفسدة ، يجب على العاقل الاحتراز عنه .

وأمّا ما تدعو إليه الحاجة فلا تشمله الآية ـ كما يتضح من نظمها الكريم ـ مع ما بيّنته السنّة فى سبب النزول ، وتحرّج الصحابة عن المسائل المارّ بيانه ـ معلومٌ أنه فيما لا ضرورة إليها . وإلّا فسائلهم فى الضروريات والحاجيات طفحت بها كتب السنة ، مما يبيّن أن هذه الآية فى موضوع خاص .

وقد كان ﷺ يكره فتح باب كثرة المسائل ، خشية أن تفضى إلى حرج أو مساءة أو تعنّت .

روى الشيخان[1] عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية : أن النبىّ ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٢ ـ باب ما يكره من قيل وقال ، حديث ٥٠٠ ونصه :

عن ورّاد كاتب المغيرة بن شعبة؛ أن معاوية كتب إلى المغيرة أنِ اكتبْ إلىّ بحديث سمعتَه من رسول الله ﷺ . قال فكتب إليه المغيرة : إنى سمعته يقول ، عند انصرافه من الصلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » ثلاث مرات .

قال : وكان ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ومنعٍ وهاتِ ، وعقوق الأمهات ، ووأد البنات .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ١٢و١٣و١٤ (طبعتنا) .

وروى أحمد وأبو داود : أن النبيّ ﷺ نهى عن الأغلوطات ـ وهى صعاب المسائل ـ والآثار فى ذلك كثيرة .

ثم بيّن تعالى بطلان ما ابتدعه أهل الجاهلية ـ من تحريم بعض بهيمة الأنعام ـ بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

« مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ » أى ماشرع وماوضع . و(من) مزيدة لتأكيد النفى . والبحيرة (كسفينة) فعيلة بمعنى المفعول من (البحر) وهو شق الأذن . يقال : بحر الناقة والشاة ، يبحرها : شق أذنها . وفى البحيرة أقوال كثيرة ساقها صاحب القاموس وغيره .

قال أبو إسحق النحوىّ : أثبت ما روينا عن أهل اللغة فى البحيرة : أنها الناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن ، فكان آخرها ذكرا ، بحروا أذنها (أى : شقوها) وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تمنع عن ماء ترده ولا من مرعى . وإذا لقيها المعيي المنقطع به ، لم يركبها « وَلَا سَائِبَةٍ » وهى الناقة كانت تسيب فى الجاهلية لنذر أو لطواغيتهم . أى تترك ولا تركب ولا يحمل عليها كالبحيرة . أو كانت إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث ، ليس بينهن ذكر ، سيبت فلم تركب ولم يجزّ وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ولدُها أو الضيف . أو كان الرجل إذا قدم من سفر بعيد ، أو برئ من علة ، أو نجت دابته من مشقة أو حرب ، قال : هى (أى ناقتى) سائبة « وَلَا وَصِيلَةٍ » كانوا إذا ولدت الشاة ستة أبطن عَنَاقَيْن عَنَاقَيْن . وولدت فى السابع عناقاً وجديا ، قالوا : وصلت أخاها . فلا يذبحون أخاها من أجلها . وأحلّوا لبنها للرجال وحرموه على النساء . والعناق (كسحاب) الأنثى من أولاد المعز .

وقيل: الوصيلة كانت في الشاة خاصة، إذا ولدت الأنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم. وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم « وَلَا حَامٍ » وهو الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود . فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس ، وسيبوه للطواغيت . وقيل : هو الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن. ثم هو حام حمى ظهره . فيترك فلا ينتفع منه بشيء ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وحكى أبو مسلم : إذا نتجت الناقة عشرة أبطن ، قالوا : حمت ظهرها .

وقد روى في تفسير هذه الأربعة ، أقوال أخر . ولا تنافى في ذلك . لأن أهـل الجاهلية لهم في أضاليلهم تفننّات غريبة .

هذا وروى ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة ، عن أبيه مالك بن نضلة ، قال : أتيت النبيّ ﷺ في خلقان من الثياب . فقال لي : هل لك من مال ؟ فقلت : نعم . قال : من أيّ المال ؟ قال فقلت : من كل المال : الإبل والغنم والخيـل والرقيق . قال : فإذا أتاك الله مالًا كثيرا فَـكَثِّر عليك . ثم قال : تنتج إبلك وافية آذانها ؟ قال قلت : نعم . قال: وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟ قال: فلعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها، وتقول: هذه حرم ؟ قلت : نعم . قال : فلا تفعل . إن كل ما آتاك الله لك حلّ . ثم قال: مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ .

أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها . فإذا ماتت اشتركوا فيها . وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم يذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن . فإذا ولدت السابع جدعت وقطعت قرنها فيقولون : قد وصلت ، فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض .

قال ابن كثير : هكذا ذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث . وقد روى من وجه آخر

عن أبي الأحوص من قوله ، وهو أشبه . وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد(١) عن مالك ابن نضلة . وليس فيه تفسير هذه . والله أعلم .

« وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

أي : ما شرع الله هذه الأشياء ، ولاهي عنده قربة . ولـكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم .

وفي البخاري(٢) أن التبحير والتسييب وما بعدهما، كله لأجل الطواغيت. يعني أصنامهم ،

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) وهذا نصه :

عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وأنا قشيف الهيئة . فقال « هل لك مال » ؟ قال قلت : نعم . قال « فما مالك » ؟ فقال : من كل المال ، من الخيل والإبل والرقيق والغنم . قال « فإذا آتاك الله عز وجل مالا ، فليُرَ عليك » فقال « هل تنتج إبل قومك صحاحاً آذانها ، فتعمد إلى الموسى فتقطعها أو تقطّعها وتقول: هذه بحر. وتشق جلودها وتقول: هذه حرم ، فتحرمها عليك وعلى أهلك » ؟ قال قلت: نعم. قال « كلُّ ما آتاك الله عزّ وجل لك حلّ ، وساعد الله أشدّ ، وموسى الله أحدّ » وربما قالها وربما لم يقلها . وربما قال « ساعد الله أشدّ من ساعدك ، وموسى الله أحد من موساك » قال قلت : يا رسول الله ! رجل نزلتُ به فلم يَقْرِنِ ولم يكرمني. ثم نزل بي، أقريه أو أجزيه بما صنع؟ قال « بل اقْرِهِ ».

(٢) الذي وجدته في البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٣ ـ باب مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، هذا نصه (الحديث ١٦٥٧) :

عن سعيد بن المسيّب قال: البحيرة التي يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس. والسائبة كانوا يسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء .

وفي الصحيحين(١) عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال رأيت عمرو بن عامر الخزاعيّ يجر قُصْبَهُ في النار . وكان أول من سيّب السوائب وبَحَرَ البحيرة وغيّر دين إسماعيل . لفظ مسلم .

زاد ابن جرير : وحمى الحامى .

وروى الإمام أحمد(٢) عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: إن أول

(١) أخرجه البخاريّ في الباب السابق ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعيّ يجرّ قُصْبَه في النار . كان أول من سيّب السوائب » .

والوصيلة الناقة البكر تبكّر في أول نتاج الإبل ، ثم تُثَنّى بعدُ بأنثى . وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر .

والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت وأعفَوْه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسَمَّوْه الحامِىَ .

وهذا نصه في مسلم في: ٥١ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا).

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن لحيّ بن قَمَعَة بن خِندف ، أبا بني كعب هؤلاء ، يجرّ قُصْبَه في النار » .

حديث رقم ٥١ (طبعتنا) .

عن ابن شهاب قال : سمعت سعيد بن المسيّب يقول : إن البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس . وأما السائبة التي كانوا يسيّبونها لآلهتهم ، فلا يحمل عليها شيء .

وقال ابن المسيّب : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « رأيت عمرو ابن عامر الخزاعيّ يجرّ قُصْبَه في النار . وكان أول مَن سيّب السيوب » .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٤٢٥٨ (طبعة المعارف) .

من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر . وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار.

قال ابن كثير : عمروٌ هذا هو ابن لُحَيٍّ بن قَمَعَةَ أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جُرْهم . وكان أول من غيرّ دين إبراهيم الخليل. فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاء من الناس إلى عبادتها والتقرب بها . وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية فى الأنعام وغيرها . كما ذكره الله تعالى فى (سورةالأنعام) عند قوله تعالى[1] وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً ... الآيات . انتهى .

لطيفة .

قال الرازىّ : فإن قيل: إذا جاز إعتاق العبيد والإماء ، فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والإتعاب والإيلام ؟ قلنا : الإنسان مخلوق لخدمة الله تعالى وعبوديته . فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادته تعالى ، فكان ذلك قربة مستحسنة . وأما هذه الحيوانات فإنها مخلوقة لمنافع الناس . فإهمالها يقتضى فوات منفعة على مالكها وعلى غيره . أى وهو خلاف الحكمة التى خلقت هى لأجلها . على أن الرقيق إذا أُعتق قَدَرَ على تحصيل مصالح نفسه ، بخلاف البهيمة . ففى تسييبها إيقاع لها فى أنواع من المحنة والمشقة .

قال المهايمىّ : قاسوه (يعنى التبحير) على عتق الإنسان مع ظهور الفرق . لما فى عتق الإنسان من تمليك التصرفات ، ولا تصرف للحيوانات العجم .

ثم قال : الأول كالعتق بلا نذر . والثانى كالعتق بالنذر . والثالث مشبه بما يشبه العتق. والرابع ملك النفس بلا تمليك . ولامعنى للتمليك فىالحيوانات العجم، فهذه الأمور غير معقولة ظاهرًا وباطنا ، فلا يفعلها الحكيم .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] ... فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية تحريم هذه الأمور . واستنبط منه تحريم جميع تعطيل المنافع . ومن صور السائبة : إرسال الطائر ونحوه . واستدل ابن الماجشون بالآية على منع أن يقول لعبده : أنت سائبة . وقال : لا يعتق . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : قال الحاكم : استدل بعضهم على بطلان الوقف بالآية الكريمة . لأن الملك لايخرج عن ملك صاحبه إلاإلى مالك آخر . أوعلى وجه القربة إلى الله. كتحرير الرقاب .

قال الحاكم : وليس بصحيح . لأن الوقف قربة كالعتق . ولقائل أن يقول : يستدل بالآية على نظير ذلك . وهو ما يلقى فى الأنهار والطريق وقرب الأشجار ، من طرح البيض والفراريج ونحو ذلك . فلا يجوز فعله ، ولا يزول ملك المالك . ويحتمل أن يقال : قد رغب عنه وصيره مباحاً . وأما كسر البيض على العمارة والطريق والأبواب ، فالظاهر عدم الجواز. لأن فى ذلك إضاعة مال ، ولم يرد بفعله دليل . انتهى .

ولما بيّن تعالى أن أكثرهم لا يعقلون أن تحريم هذه الأشياء افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق ، وإنمايقلدون قدماءهم ـ أشار إلى عنادهم واستعصائهم حينما هدوا إلى الحق ، وإلى ضلالهم ببقائهم فى أسر التقليد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ » من الكتاب المبيّن للحلال والحرام « وَإِلَى الرَّسُولِ » أى : الذى أنزل هو عليه ، لتقفوا على حقيقة الحال ، وتميزوا بين الحرام والحلال ،

فترفضوا تقليد القدماء المفترين على الله الكذب بالضلال « قَالُوا » أى : لإفراط جهلهم وانهما كهم فى التقليد « حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا » أى كافينا ذلك . و(حَسْبُنَا) مبتدأ والخبر (مَا وَجَدْنَا) و (مَا) بمعنى الذى . والواو فى قوله تعالى « أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ » للحال . دخلت عليها همزة الإنكار . أى : أحَسْبُهم ذلك ولو كان آباؤهم « لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا » أى لا يعرفون حقًّا ولا يفهمونه « وَلَا يَهْتَدُونَ » أى : إليه . قال الزمخشرىّ : والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى . وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة . انتهى .

وقال الرازىّ : واعلم أن الاقتداء إنما يجوز بالعالم المهتدى . وإنما يكون عالمًا مهتديًا إذا بنى قوله على الحجة والدليل . فإذا لم يكن كذلك لم يكن عالمًا مهتديًا . فوجب أن لا يجوز الاقتداء به . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية قبح التقليد ووجوب النظر واتباع الحجة . ثم قال : وقد فسر التقليد بأنه قبول قول الغير من غير حجة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ » أى الزموا أن تصلحوها باتباع كتاب الله وسنة رسوله « لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ » أى ممن قال (حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا) أو أخذ بشبهة . أو عاند فى قول أو فعل « إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » أى إلى الإيمان . وكأن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار فى كفرهم وضلالهم . فقيل لهم : عليكم أنفسكم وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها فى طريق الهدى . لا يضركم ضلال الضالين وجهل الجاهلين ،

إذا كنتم مهتدين . كما قال عز وجل[(١)] لنبيه صلى الله عليه وسلم : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .

قال الزمخشريّ : وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصى ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم ، فهو مخاطب بهذه الآية « إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ » بعد الموت « جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ » أى يخبركم « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال . فهو وعد ووعيد للفريقين . وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره .

تنبيه :

لا يستدل بالآية على سقوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لأن الظاهر من الآية أن ضلال الغير لا يضر، وأن المطيع لربه لا يكون مؤاخذا بذنوب العاصى . وإلا فمن تركهما مع القدرة عليهما، فليس بمهتد . وإنما هو بعض الضلال الذى فصلت الآية بينهم وبينه .

قال الحاكم: ولو استدل على وجوبهما بقوله تعالى(عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم) كان أولى. لأنه يدخل فى ذلك كل مالزم من الواجبات. أى كما فعل المهايمىّ فى تفسيره حيث قال: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ. أى الزموا أن تصلحوها باتباع الدلائل من كتاب الله وسنة رسوله . والعقليات المؤيدة بها ، ودعوة الإخوان إلى ذلك . بإقامة الحجج ودفع الشبه . وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بما أمكن من القول والفعل . لا تقصروا فى ذلك . إذ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، بدعوتهم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول وإقامة الحجج لهم، ودفع الشبه عنهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، بما أمكن من القول والفعل . ولا تقصروا فى ذلك . إذ إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ، من التقصير أو الإيفاء قولا وفعلا ، فى حق أنفسكم أو غيركم . انتهى .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٨] ونصها : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

ونقل الرازى عن عبد الله بن المبارك أنه قال : هــذه أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإنه قال (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ) يعنى عليكم أهل دينكم . ولا يضركم من ضل من الكفار . وهذا كقوله (فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)(١) يعنى أهل دينكم . فقوله (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ) يعنى بأن يعظ بعضكم بعضا ، ويرغّب بعضكم بعضا فى الخيرات وينفّره عن القبائح والسيئات . والذى يؤكد ذلك ما بينا أن قوله (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ) معناه : احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصى والإصرار على الذنوب . فكان ذلك أمرا بأن نحفظ أنفسنا . فإذا لم يكن ذلك الحفظ إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان ذلك واجباً . انتهى .

وروى الإمام أحمد(٢) عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم تقرؤون هذه الآية : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . إلى آخر الآية . وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس ، إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه ، يوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقابه .

ورواه أصحاب السنن وابن حبان فى صحيحه وغيرهم .

وروى الترمذى(٣) عن أبى أمية الشعبانى . قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له :

---

(١) [٢ / البقرة / ٥٤] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ١٦ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه الترمذى فى ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٨ ـ باب حدثنا سعيد بن يعقوب .

كيف تصنع بهـذه الآية ؟ قال: أية آية ؟ قلت : قوله تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قال : أما والله ! لقد سألت عنها خبيرا . سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر . حتى إذارأيت شحًّا مطاعاً وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوامّ . فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثلأجر خمسين رجلا ، يعملون مثل عملكم .

قال عبد الله بن المبارك : وزادنى غـير عتبة : قيل يارسول الله ! أجر خمسين رجلا منا أومنهم ؟ قال : لا،بل أجر خمسين منكم .

قال الترمذىّ : هذا حديث حسن غريب .

وكذا رواه أبو داود وابن ماجة وابن جرير(١) وابن أبى حاتم .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فقال . إن هـذا ليس بزمانها . إنها اليوم مقبولة . ولـكنه قد يوشك أن يأتى زمانها . تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا. أو قال : فلا يقبل منكم. فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .

ورواه أبو جعفر الرازىّ عن الربيع عن أبى العالية قال : كانوا عنـد عبد الله بن مسعود جلوسا . فـكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس . حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه. فقالرجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ؟ فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك . فإن الله يقول(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ...) الآية.قال،فسمعها ابنمسعود فقال : مه .لم يجىء تأويل هذه بعدُ. إن القرآنأنزل حيث أنزل .ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن . ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنه آى

---

(١) الأثر رقم ١٢٨٦٢ من التفسير .

قد وقع تأويلهن بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بيسير . ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهَوْا . وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فأمر نفسك . وعند ذلك جاء تأويل هذه الآية . أخرجه ابن جرير .

وأخرج أيضا[1] أنه قيل لابن عمر : لو جلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فقال ابن عمر : إنها ليست لى ولا لأصحابى . لأن رسول الله ﷺ قال: ألا فليبلغ الشاهد الغائب . فكنا نحن الشهود وأنتم الغيَب . ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا . إن قالوا لم يقبل منهم .

وقد ضعف الرازىّ ما روى عن ابن مسعود وابن عمر مما سقناه . قال: لأن قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) خطاب عام، وهو أيضاً خطاب مع الحاضرين .فكيف يخرج الحاضر ويخص الغائب ؟ انتهى .

أقول : ليس مراد ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما، إخراج الحاضرين عن الخطاب، وأنه لم يعن بها إلا الغيب. وإنما مرادهما الردّ على مَنْ تأولها بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فأعلماه بأنه لا يسوغ الاستشهاد بها فى ترك ذلك ، والاسترواح لظاهرها ، إلا فى الزمن الذى بيّنّاه . وحاصله : أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان ما قُبلا . فإن رُدًّا فى مثل ذلك الزمن فليقرأ :عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ . هذا مرادهما. والله أعلم .

---

(١) الأثر رقم ١٢٨٥١ من التفسير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى : ظهرت أماراته « حِينَ الْوَصِيَّةِ » بدل من الظرف ، لا ظرف (للموت) ولا لحضوره . فإن فى الإبدال تنبيهاً على أن الوصية من المهمات التى لا ينبغى التهاون بها . وقوله تعالى « اثْنَانِ » خبر (شَهَادَةُ) بتقدير مضاف . أى شهادة بينكم حينئذ ، شهادة اثنين . أوفاعل (شَهَادَةُ) على أن خبرها محذوف . أى : فيما نزل عليكم ، أن يشهد بينكم اثنان «ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» أى من المسلمين «أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» أى من أهل الذمة «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ » أى سافرتم فيها « فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا » أى : توقفونهما للتحليف « مِنْ بَعْدِ الصَّلَوٰةِ » أى صلاة العصر . كما قاله ابن عباس وثلة من التابعين. وعدم تعيينها، لتعينها عندهم بالتحليف بعدها . لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار . واجتماعُ طائفتى الملائكة ، فيه تكثير للشهود منهم على صدقه وكذبه . فيكون أقوى من غيره وأخوف . وعن الزهرى : بعد أىّ صلاة للمسلمين كانت . وذلك لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب والزور ، كما قال الله تعالى :

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (١). فالتعريف فى (الصَّلَاةَ) إما للعهد أو للجنس . « فَيُقْسِمَانِ » أى: يحلفان « بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ » أى: شككتم فيهما بخيانة وأخذ شىء من تركة الميت . وقوله تعالى « لَا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَنًا » جواب للقسم. أى: يقولان : لانأخذ لأنفسنا بدلًا من الله . أى : من حرمته عَرَضًا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب . أى لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال « وَلَوْ كَانَ » أى: من نقسم له ونشهد عليه ، المدلول عليه بفحوى الكلام «ذَا قُرْبَىٰ» أى: قريبًا منا . تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبًا . ومبالغة فى التنزه عنه . كأنهما قالا : لا نأخذ لأنفسنا بدلًا من حرمة اسمه تعالى مالًا. ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء . فكيف إذا لم يكن كذلك؟«وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ » أى : الشهادة التى أمرنا الله تعالى بإقامتها . وإضافتها إلى الاسم الكريم تشريفًا لها وتعظيمًا لأمرها « إِنَّا إِذًا » إن كتمناها « لَمِنَ الْآثِمِينَ » أى : المعدودين من المستقرين فى الإثم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« فَإِنْ عُثِرَ » أى اطلع بعد التحليف « عَلَىٰ أَنَّهُمَا » أى: الشاهدين الوصيين «اسْتَحَقَّا إِثْمًا » أى : فعلا ما يوجبه من خيانة أو غلول شىء من المال الموصى به إليهما « فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا » أى : فرجلان آخران يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما أى: فى توجه

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] ونصها : اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

اليمين عليهما لإظهار الحق وإبراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما فى أيديهما « مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ » أى: من ورثة الميت الذين استحق من بينهم الأوليان، أى: الأقربان إلى الميت ، الوارثان له، الأحقَّان بالشهادة ، أى: اليمين . ﻓ (الْأَوْلَيَانِ) فاعل (اسْتَحَقَّ) . ومفعول (اسْتَحَقَّ) محذوف، قدّره بعضهم (وصيتهما) وقدره ابن عطية (مالهم وتركتهم) ، وقدره الزمخشرىّ أن يجردوها للقيام بالشهادة لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين. وقرئ على البناء للمفعول أى: من الذين استحق عليهم الإثم . أى : جنى عليهم . وهم أهل الميت وعشيرته . ﻓ (الْأَوْلَيَانِ) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . كأنه قيل : ومن هما ؟ فقيل : الأوليان . أو هو بدل من الضمير فى (يَقُومَانِ) أو من (ءَاخَرَانِ) وقد جوز ارتفاعه ﺑ(اسْتَحَقَّ) على حذف المضاف. أى: استحق عليهم ندب الأولين منهم للشهادة . وقرئ الأوّلِيْن جمع (أوّل) على أنه صفة للذين ، مجرور أو منصوب على المدح . ومعنى الأوَّلِيَّةِ التقدم على الأجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها . وقرئ الأولين ، على التثنية . وانتصابه على المدح . أفاده أبو السعود .

وقرئ الأوّلَيْن تثنية (أول) نصباً على ما ذكر . كما فى البيضاوىّ .

قال أبو البقاء : ويقرأ الأوليين وهو جمع (أولى) وإعرابه كإعراب الأوّلين . ويقرأ الأولان، تثنية (الأول) وإعرابه كإعراب (الأَوْليان) « فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ » عطف على(يقومان) « لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ » أى: بالقبول « مِنْ شَهَادَتِهِمَا » أى: لقولنا: إنهما خانا وكذبا فيما ادعيا من الاستحقاق، أحق من شهادتهما المتقدمة . لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للإثم « وَمَا اعْتَدَيْنَا » أى : ما تجاوزنا الحق فيها أو فيما قلنا فيهما من الخيانة « إِنَّا إِذًا » أى : إن اعتدينا « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه، بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى. أو من الواضعين الحق فى غير موضعه .

ومعنى الآية الكريمة أن الرجل إذا حضرته الوفاة فى سفر ، فليشهد رجلين من المسلمين.

فإن لم يجدهما، فرجلين من أهل الكتاب . يوصى إليهما ويدفع إليهما ميراثه . فإذا قدما بتركته ، فإن صدّقهما الورثة وعرفوا ما لصاحبهم ، قُبِلَ قولهما وتركا . وإن اتهموهما ، رفعوهما إلى السلطان فحلفا بعد صلاة العصر بالله، ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنّا ولا غيرنا . فإن اطلع الأوليان على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما، قام رجلان من الأولياء ، فحلفا بالله؛ أن شهادة الكافرين باطلة ، وأنا لم نعتد . فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء. هكذا روى ابن جرير(١) عن ابن عباس وابن جبير وغيرهما .

قال الإمام ابن كثير: وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما، والحالة هذه ، كما يحلف أولياء المقتول ، إذا ظهر لوث فى جانب القاتل . فيقسم المستحقون على القاتل . فيدفع برمته إليهم . كما هو مقرر فى (باب القسامة) . وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس عن تميم الدارىّ فى هذه الآية (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ..) إلى آخرها قال : برىء الناس منها غيرى وغير عدىّ بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام . فأتيا الشام لتجارتهما . وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل (بدال أو زاى مصغرًا . وضبطه بالثانية ابن ماكولا) ابن أبى مريم بتجارة،معه جام من فضة يريد به الملك . وهوأعظم تجارته . فمرض فأوصى إليهما . وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله . قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم . واقتسمناه أنا وعدىّ . فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا . وفقدوا الجام فسألونا عنه . فقلنا : ما ترك غير هذا ، وما دفع إلينا غيره .

قال تميم : فلما أسلمت ، بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك . فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم . وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها . فوثبوا

(١) الأثر رقم ١٢٩٧٩ من التفسير .

عليه . فأمرهم النبيّ ﷺ أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه . فحلف فنزلت : يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُم ـ إلى قوله ـ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا. فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا . فنزعت الخمسمائة من عديّ بن بداء .

وهكذا رواه الترمذيّ[1] وابن جرير[2] عن محمد بن إسحق به، فذكره.

وعنده : فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البيّنة فلم يجدوا . فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف . فأنزل الله هذه الآية . فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا. فنزعت الخمسمائة من عديّ بن بداء .

ثم تكلم الترمذيّ على إسناده . وأسند[3] بعد ذلك هذه القصة مختصرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداريّ وعديّ بن بداء . فمات السهميّ بأرض ليس بها مسلم . فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوّصاً بذهب. فأحلفهما رسول الله ﷺ . ثمّ وجد الجام بمكة . فقيل : اشتريناه من تميم وعديّ . فقام رجلان من أولياء السهميّ فحلفا بالله لشهادتنا أحقّ من شهادتهما . وأنّ الجام لصاحبهم . وفيهم نزلت هذه الآية . وكذا رواه أبو داود . ثم قال الترمذيّ : حديث حسن غريب !

وأقول : أخرجه البخاريّ[4] أيضاً في كتاب (الوصايا) تحت باب عقده لهذه الآية بخصوصها .

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٩ ـ حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحرانيّ .

(٢) الآثر رقم ١٢٩٦٧ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢٠ ـ حدثنا سفيان بن وكيع .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٣٥ ـ باب قوله الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... الآية، حديث ١٣٣٠.

و (الجام) الإناء ، وتخويصه أن يجعل عليه صفائح من ذهب كخوص النخل .

قال ابن كثير : وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين . منهم عكرمة ومحمد ابن سيرين وقتادة . وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر . رواه ابن جرير . وكذا ذكرها مرسلةً مجاهد والحسن والضحاك. وهذا يدلّ على اشتهارها فى السلف وصحتها .

ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما رواه[1] ابن جرير بإسنادين صحيحين، وأبو داود بإسنادٍ رجالُه ثقاتٌ ـ عن الشعبيّ : أن رجلًا من المسلمين حضرته الصلاة بدقوقاء[2]، قال : فحضرته الوفاة ـ ولم يجد أحدًا من المسلمين يُشهده على وصيّته ـ فأشهد رجلين من أهل الكتاب؛ قال : فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعريّ رضى الله عنه فأخبراه . وقدما الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعريّ : هذا أمرٌ لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيّرا ، وإنّها لوصية الرجل وتركته . قال : فأمضى شهادتهما .

وقوله (هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ) الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدىّ بن بداء .

---

(١) الأثر رقم ١٢٩٦٨ من التفسير .

(٢) قال ياقوت فى (معجم البلدان) : هى مدينة بين إربل وبغداد معروفة . لها ذكر فى الأخبار والفتوح . وكان بها وقعة للخوارج ، فقال الجعدىّ بن أبى صمام الذهلىّ يرثيهم :

شباب أطاعوا الله حتى أحبهم ، وكلهم شارٍ يَخَاف ويَطمع
فلما تَبَوَّوْا من دَقُوقا بمنزل لميعاد إخوان تداعَوْا فأجمعوا
دعوا خصمهم بالمحكمات وبيّنوا ضلالتهم ، والله ذو العرش يسمع
بنفسى قَتْلَى فى دَقُوقَاءَ غودرتْ وقد قُطعتْ منها رؤوس وأذرع
لتَبْكِ نساء المسلمين عليهمُ ، وفى دون ما لاقَيْن مبكىً ومَجْزَعُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

ثم بيّن وجه الحكمة والمصلحة المتقدم تفصيله بقوله :

« ذَٰلِكَ » أى : الحكم المذكور « أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا » أى : أقرب إلى أن يؤدى الشهود ـ أو الأوصياء ـ الشهادة فى نحو تلك الحادثة على حقيقتها من غير تغيير لها ، خوفاً من العذاب الأخروىّ. فـ (الوجه) بمعنى الذات والحقيقة .

قال أبوالسعود : وهذه ـ كما ترى ـ حكمةُ شرعيةِ التحليف بالتغليظ المذكور !

وقوله تعالى « أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ » بيان لحكمة شرعيةِ ردّ اليمين على الورثة، معطوف على مقدرٍ ينبىء عنه المقام ؛ كأنه قيل : ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة . أو يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم ، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة ، ويغرموا فيمتنعوا من ذلك.

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : فى مخالفة أحكامه التى منها هذا الحكم ، وهو ترك الخيانة والكذب « وَاسْمَعُوا » أى : ما تؤمرون به سماعَ قبولٍ « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى : الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته ، أى : إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم .

وقد استفيد من الآية أحكام :

الأول ـ لزوم الوصية حال الخوف من الموت وحضور قرائنه . لأنه تعالى قال (حِينَ الْوَصِيَّةِ) أى : وقت أن تحق الوصية وتلزم .

الثانى ـ قال بعضهم : دلّ قوله تعالى (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) على أن الحكم شرطه أن يشهد فيه اثنان عدلان . وهذا إطلاق لم يفصل فيه بين حقّ الله وحق غيره ،

ولا بين الحدود وغيرها ، إلّا شهادة الزنى . فلقوله تعالى فى النور (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)(١) وهذا مجمع عليه . اهـ .

قال ابن القيّم فى (أَعْلَامِ الْمُوَقِّعِين) : إنه سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلّا بذلك . فليس فى القرآن نفى الحكم بشاهد ويمين ، ولا بالنكول ، ولا باليمين المردودة ، ولا بأيمان القسامة ، ولا بأيمان اللعان وغير ذلك مما يبين الحق ويظهره ويدل عليه . والشارع ـ فى جميع المواضع ـ يقصد ظهور الحقّ بما يمكن ظهوره به من البينات التى هى أدلة عليه وشواهد له . ولا يرد حقًّا قد ظهر بدليله أبداً. فيضيع حقوق الله وحقوق عباده ويعطلها. ولا يقف ظهور الحق على أمر معيّن لا فائدة فى تخصيصه به مع مساواة غيره فى ظهور الحق أو رجحانه عليه ترجيحاً لا يمكن جحده ودفعه . وقد أطال فى ذلك بما لا يستغنى عن مراجعته .

الثالث ـ فى قوله تعالى (وَءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) دلالة على صحة شهادة الذمىّ على المسلم عموماً . لكن خرج جوازها فيما عدا وصية المسلم فى السفر بالإجماع .

قال بعض المفسّرين : ذهب الأكثر إلى أن شهادة الذميين قد نسخت . وعن الحسن وابن أبى ليلى والأوزاعىّ وشريح والراضى بالله وجدّه الإمام عبدالله بن الحسين : أنها صحيحة ثابتة . وكذا ذهب الأكثر إلى أن تحليف الشهود منسوخ. وقال طاوس والحسن والهادى: إنه ثابت . انتهى .

أقول : لم يأت من ادعى النسخ بحجة تصلح لذكرها وتستدعى التعرّض لدفعها .

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقّعين) :

أمر تعالى فى الشهادة على الوصية فى السفر باستشهاد عدلين من المسلمين أو آخرين من

(١) [٢٤ / النور / ٤] ونصها : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

غيرهم . وغير المؤمنين هم الكفار . والآية صريحة فى قبول شهادة الكافرين على وصية فى السفر عند عدم الشاهدين المسلمين . وقد حكم به النبى ﷺ والصحابة بعده ، ولم يجئ بعدها ما ينسخها ، فإن (المائدة) من آخر القرآن نزولا وليس فيها منسوخ ، وليس لهذه الآية معارض البتة . ولا يصح أن يكون المراد بقوله (مِنْ غَيْرِكُمْ) من غير قبيلتكم ؛ فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا . . .) الآية . ولم يخاطب بذلك قبيلة معينة حتى يكون قوله (مِنْ غَيْرِكُمْ) أيتها القبيلة . والنبى ﷺ لم يفهم هذا من الآية . بل إنما فهم منها ما هى صريحة فيه ، وكذلك أصحابه من بعده . اهـ .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) :

واستدلّ بالآية على جواز شهادة الكفار بناءً على أن المراد بال (غير) الكفارُ . وخصّ جماعةٌ القبولَ بأهل الكتاب وبالوصية وبفقد المسلم حينئذٍ . منهم : ابن عباس وأبو موسى الأشعرىّ ، وسعيد بن المسيّب ، وشريح ، وابن سيرين ، والأوزاعىّ ، والثورىّ ، وأبو عبيد ، وأحمد ـ وهؤلاء أخذوا بظاهر الآية ـ وقوّى ذلك حديث الباب ـ يعنى حديث ابن عباس المتقدم ـ فإن سياقه مطابق لظاهر الآية . وقيل: المراد بال (غير) العشيرة . والمعنى (منكم) أى : من عشيرتكم (أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) أى : من غير عشيرتكم ، وهو قول الحسن واحتجّ له النحاس بأن لفظ (آخر) لابدّ أن يشارك الذى قبله فى الصفة ، حتى لا يسوغ أن تقول : مررت برجل كريم ولئيم آخر . فعلى هذا فقد وصف (الاثنان) بالعدالة . فيتعيّن أن يكون (الآخران) كذلك . وتعقب بأن هذا ـ وإن ساغ فى الآية الكريمة ـ لكن الحديث دلّ على خلاف ذلك . و الصحابىّ إذا حكى سبب النزول كان ذلك فى حكم الحديث المرفوع اتفاقاً . وأيضاً، فى ما قال ردّ المختلف فيه بالمختلف فيه . لأن اتّصاف الكافر بالعدالة مختلف فيه . وهو فرع قبول شهادته ، فمن قبلها وصفه بها ، ومن لا ، فلا . واعترض أبو حيّان على المثال الذى ذكره النحاس بأنه غير مطابق. فلو قلت : جاءنى رجل مسلم وآخر

كافر ، صحّ . بخلاف ما لو قلت : جاءنى رجل مسلم وكافر آخر . والآية من قَبيل الأول لا الثانى . لأن قوله (أو آخران) من جنس قوله (اثنان) ، لأن كُلًّا منهما صفة (رجلان)، فكأنه قال : فرجلان اثنان ورجلان آخران . وذهب جماعة من الأئمة إلى أن هـذه الآية منسوخة . وأن ناسخها قوله تعالى (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) واحتجوا بالإجماع على ردّ شهادة الفاسق . والكافرُ شرّ من الفاسق . وأجاب الأولون : بأنالنسخ لايثبت بالاحتمال، وأن الجمع بين الدليلين أولى من إلغاء أحدهما . وبأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن. حتى صحّ عن ابن عباس وعائشة وعمرو بن شرحبيل وجَمْعٍ من السلف ؛ أن سورة المائدة محكمة . وعن ابن عباس ؛ أن الآية نزلت فيمن مات مسافرًا وليس عنده أحد من المسلمين، فإن اتّهما استحلفا . أخرجه الطبرىّ بإسنادٍ رجاله ثقات .

وأنكر أحمد على من قال : إن هذه الآية منسوخة .

وصحّ عن أبى موسى الأشعرىّ أنه عمل بذلك بعد النبىّ ﷺ كما تقدّم .

ورجّح الفخر الرازىّ ـ وسبقه الطبرىّ ـ لذلك؛ أن قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) خطاب للمؤمنين . فلما قال (أَوْ ءَاخَرَانِ) وضح أنه أراد غير المخاطبين . فتعيّن أنهما من غير المؤمنين . وأيضاً: فجواز استشهاد المسلم ليس مشروطاً بالسفر . وأن أبا موسى حكم بذلك فلم ينكره أحد من الصحابة . فكان حجةً . انتهى كلام الحافظ .

وفى (فتح البيان) : الحق أن الآية محكمة لعدم وجود دليلٍ صحيحٍ يدل على النسخ . وأما قوله تعالى (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) وقوله (وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ) فهما عامّان فى الأشخاص والأزمان والأحوال . وهذه الآية خاصة بحالة الضرب فى الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين . ولا تعارض بين خاصٍّ وعامٍّ . انتهى .

وقد أطنب الرازىّ فى (تفسيره) فى الاحتجاج على عدم نسخها بوجوهٍ عديدة ، وجوّد الكلام ـ فى أن المراد من (غيركم) أى : من غير ملّتكم ـ تجويدًا فائقًا .

الرابع : قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) :

ذهب الكرابيسى ثم الطبرى وآخرون إلى أن المراد بالشهادة فى الآية اليمين . قال : وقد سمى الله اليمين شهادة فى آية اللعان . وأيدوا ذلك بالإجماع على أن الشاهد لا يلزمه أن يقول: أشهد بالله . وأن الشاهد لا يمين عليه أنه شهد بالحق . قالوا : فالمراد بالشهادة اليمين لقوله (فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ) أى : يحلفان . فإن عرف أنهما حلفا على الإثم رجعت اليمين على الأولياء . وتعقب بأن اليمين لا يشترط فيها عدد ولا عدالة ، بخلاف الشهادة . وقد اشترطا فى هذه القصة ، فقوى حملها على أنها شهادة . وأما اعتلال من اعتل فى ردها بأنها تخالف القياس والأصول ـ لما فيها من قبول شهادة الكافر وحبس الشاهد وتحليفه وشهادة المدعى لنفسه واستحقاقه بمجرد اليمين ـ فقد أجاب من قال به بأنه حكم بنفسه مستغنٍ عن نظيره . وقد قبلت شهادة الكافر فى بعض المواضع ، كما فى الطب . وليس المراد بالحبس السجن . وإنما المراد : الإمساك لليمين ليحلف بعد الصلاة . وأما تحليف الشاهد فهو مخصوص بهذه الصورة عند قيام الريبة . وأما شهادة المدعى لنفسه واستحقاقه بمجرد اليمين ، فإن الآية تضمنت نقل الأيمان إليهم عند ظهور اللوث بخيانة الوصيين . فيشرع لهما أن يحلفا ويستحقا ، كما يشرع لمدعى الدم فى القسامة أن يحلف ويستحق . فليس هو من شهادة المدعى لنفسه ، بل من باب الحكم له بيمينه القائمة مقام الشهادة لقوة جانبه . وأى فرقٍ بين ظهور اللوث فى صحة الدعوى بالدم ، وظهوره فى صحة الدعوى بالمال؟ وحكى الطبرى: أن بعضهم قال : المراد بقوله (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) الوصيان . قال: والمراد بقوله (شَهَادَةُ بَيْنِكُم) معنى الحضور لما يوصيهما به الموصى . ثم زيف ذلك . انتهى كلام (الفتح) .

ولا يخفاك أن الآية بنفسها ـ مع ماورد فى نزولها ـ غنية عن تكلف إدخالها تحت القياس والقواعد والتمحل لتأويلها .

الخامس : فى قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ) دلالة على تغليظ اليمين .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) وبعض المفسّرين :

ذهب الجمهور إلى وجوب التغليظ بالزمان والمكان . فأما فى الزمان فبعد العصر . وأما فى المكان : ففى المدينة عند المنبر ، وبمكة بين الركن والمقام، وفى بيت المقدس عند الصخرة، وبغيرها بالمسجد الجامع . واتفقوا على أنّ ذلك فى الدماء والمال الكثير، لا فى القليل . انتهى .

وذهبت الزيدية والحنفية والحنابلة إلى أن اليمين لا تغلظ بزمان ولا بمكان . وأخذوا بعموم قوله[1] ﷺ : البيّنة على المدّعى واليمين على من أنكر، ولم يفصل . قالوا : وقوله تعالى فى هذه الآية (مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ) يحتمل أن ذكره لأنهم كانوا لا يعتادون الحكم إلّا فى ذلك الوقت .

قال بعض الزيدية : وهل التغليظ فى المكان والزمان على سبيل الوجوب أو الاستحباب؟ قال الإمام المؤيد بالله يحي بن حمزة : المختار ، التغليظ فى الأيمان لفساد أهل الزمان . وذلك مروىّ عن أمير المؤمنين المرتضى وأبى بكر وعمر وعثمان وابن عباس ومالك والشافعىّ . قال : والمختار أنّه مستحبّ غير واجب . انتهى .

وفى كتاب (الشهادات) من (صحيح البخارىّ) بابان فى هذه المسألة . فليراجع مع شروحه .

السادس : قال ابن أبى الفرس : فى قوله تعالى (فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ) دليل على أن (أقسم بالله) يمين ، لا (أقسم) فقط .

السابع : فى قوله تعالى (وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ . . .) الآية دليل على تحريم كتمان الشهادة . وذلك لا إشكال فيه .

الثامن : قال السيوطىّ : تخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة (يعنى على قراءة الأوليان) لخصوص الواقعة التى نزلت لها . ثم ساق رواية البخارىّ السابقة . أى : وللإشارة إلى الاكتفاء باثنين من أقرب الورثة أيضاً وإن كان فيهم كثرة .

---

(١) قال فى (الجامع الصغير) : أخرجه البيهقىّ فى (الشعب) وابن عساكر ، عن ابن عمرو

غريبة :

قال مكيّ فى كتابه المسمّى بـ (الكشف) :

هذه الآيات الثلاث ـ عند أهل المعانى ـ من أشكل ما فى القرآن إعراباً ومعنىً وحكماً وتفسيرًا . ولم يزل العلماء يستشكلونها ويكفّون عنها .

قال : ويحتمل أن يبسط ما فيها من العلوم فى ثلاثين ورقة أو أكثر ، وقد ذكرناها مشروحة فى كتاب مفرد .

قال ابن عطيّة : هـــذا كلام من لم يقع له النتاج فى تفسيرها ، وذلك بيّن من كتابه رحمه الله تعالى ـ يعنى من كتاب مكيّ ـ .

قال القرطبيّ : ما ذكره مكيّ ، ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً .

قال السعد فى (حاشيته على الكشاف) : واتفقوا على أنها أصعب ما فى القرآن إعراباً ونظماً وحكماً ... انتهى .

أقول :

هذه الآية الكريمة غنيّة بنفسها ـ مع ما ورد فى سبب نزولها ، وما قاله حبر الأمة وترجمان القرآن فى معناها ـ عن التشكيك فيها ، والتكلّف لإدخالها تحت القواعد ، والتمحّل لتأويلها . فخُذْ ما نقلناه من محاسن تأويلها وكن من الشاكرين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« يَوْمَ » منصوب بـ (اذْكُرُوا) أو (احذَرُوا) « يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ » وذلك يوم القيامة ، وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم . كيف لا ؟ وذلك

يوم مجموع له الناس ، بل لإبانة شرفهم وأصالتهم والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم ، بناءً على ظهور كونهم أتباعاً لهم « فَيَقُولُ » أى : للرسل « مَاذَا أُجِبْتُمْ » أى : ما الذى أجابكم من أرسلتم إليهم ؟ ففيه إشعار بخروجهم عن عهدة الرسالة . إذ لم يقل : هل بلّغتم رسالاتى ؟ وفى توجيه السؤال إليهم ، والعدول عن إسناد الجواب إلى قومهم بأن يقال : ماذا أجابوا ـ من الإنباء عن شدة الغضب الإلٰهىّ مالا يخفى .

وفى (الصحيح)(١) فى حديث الشفاعة : إنّ ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله .

« قَالُوا » من هيبته تعالى ، وتفويضاً للأمر إلى علم سلطانه وتأدّباً بليغاً فى ذاك الموقف الجلالىّ « لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » أى : وَمَنْ عَلِمَ الخفيات ، لم تخف عليه الظواهر التى منها إجابة أممهم لهم .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ : اعلم أنّ عادة الله تعالى جارية فى هذا الكتاب الكريم أنّه إذا ذكر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام ، أتبعها إمّا بالإلٰهيات ، وإمّا بشرح أحوال الأنبياء ، أو بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكداً لماتقدم ذكره من التكاليف والشرائع . فلا جرم ، لمّا ذكر ـ فيما تقدم ـ أنواعاً كثيرة من الشرائع ، أتبعها بوصف أحوال القيامة .

الثانى : قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما معنى سؤالهم ؟ قلت : توبيخ قومهم . كما كان

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣ ـ باب قول الله عز وجل : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، حديث ١٥٧٩ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٧و٣٢٨ (طبعتنا) .

سؤال الموءودة توبيخاً للوائد . فإن قلت : كيف يقولون : لاعلم لنا ، وقد علموا بما أجيبوا ؟ قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم ، فيكلون الأمر إلى علمه ، وإحاطته بما مُنُوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارًا للتشكي واللجأ إلى ربهم فى الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة ، وأفتّ فى أعضادهم ، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم فى أيديهم . إذ اجتمع توبيخ الله وتشكى أنبيائه عليهم . ومثاله : أن ينكب بعض الخوارج على السلطان، خاصة من خواصّه نكبةً ، قد عرفها السلطان واطلع على كنهها ، وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : مافعل بك هذا الخارجىّ ؟ (وهوعالم بما فعل به) يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بى، تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالاً عليه، وإظهارًا للشكاية ، وتعظيماً لما حلّ به منه . انتهى .

واستظهر الرازىّ أن نفى العلم لهم على حقيقته عملًا بما تقرر من أن العلم غير الظن . قال : لأن الحاصل من حال الغير عن كل أحد إنما هو الظن لاالعلم . وفى الحديث : نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، وقال[1] ﷺ : إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه. فإنما أقطع له قطعة من النار . فالأنبياء قالوا : لا علم لنا البتة بأحوالهم . إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن . والظن كان معتبرًا فى الدنيا. وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن . لأن الأحكام فى الآخرة مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور . فلهذا السبب قالوا : لا علم لنا . ولم يذكروا ما معهم من الظن . لأن الظن لا عبرة به فى القيامة . والله أعلم .

الثالث : دلت الآية على جواز إطلاق لفظ (العلّام) عليه. كما جاز إطلاق لفظ (الخلّاق)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٢٧ ـ باب من أقام البينة بعد اليمين ، حديث ١٢١٢ عن أم سلمة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ٤و٥و٦ (طبعتنا) .

عليه . وأما العلّامة فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقه فى حقه . ولعل السبب ما فيه من لفظ التأنيث . أفاده الرازىّ .

على أن المختار أن أسماءه تعالى توقيفية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ » شروع فى بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين ، من المفاوضة ، على التفصيل . إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ، ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين . وتخصيصُ شأن عيسى عليه السلام بالبيان ، تفصيلًا بين شؤون سائر الرسل عليهم السلام ، مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل ـ لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة الكريمة جناياتهم . فتفصيله أعظم عليهم وأجاب لحسرتهم وندامتهم، وأدخل فى صرفهم عن غيهم وعنادهم . أفاده أبو السعود.

« اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ » أى : منّتى عليك « وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ » بما طهرها واصطفاها على نساء العالمين « إِذْ أَيَّدْتُكَ » أى: قوّيتك « بِرُوحِ الْقُدُسِ » أى: بجبريل عليه السلام

لتثبيت الحجة . أو بجعل روحك طاهرة عن العلائق الظلمانية . بحيث يعلم أنه ليس بواسطة البشر ، فيشهد ببراءتك وبراءة أمك . ومن ذلك التأييد قويت نفسك الناطقة . لذلك « تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا » أي : في أضعف الأحوال وأقواها . بكلام واحد من غير أن يتفاوت في حين الطفولة وحين الكهولة . الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشُد .

قال ابن كثير : أي جعلتك نبيًّا داعيًا إلى الله في صغرك وكبرك . فأنطقتك في المهد صغيرًا . فشهدت ببراءة أمك من كل عيب . واعترفت لي بالعبودية . وأخبرتَ عن رسالتي إياك ودَعْوَتِك إلى عبادتي . ولهذا قال (تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) أي : تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك . وضمن (تكلم) تدعو ، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب . انتهى .

« وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ » أي : الخط وظاهر العلم الذي يكتب « وَالْحِكْمَةَ » أي : الفهم وباطن العلم الذي لا يكتب ، بل يخص به أهله « وَالتَّوْرَاةَ » وهي المنزلة على موسى الكليم عليه السلام « وَالْإِنْجِيلَ » وهوالذي أنزله عليه، صلى الله وسلم عليه « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » أي : تقدر وتصور منه صورة مماثلة لهيئة الطير « بِإِذْنِي » أي : لك في ذلك « فَتَنْفُخُ فِيهَا » أي : في تلك الهيئة المصورة « فَتَكُونُ » أي : فتصير تلك الهيئة « طَيْرًا » لحصول الروح من نفختك فيها « بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ » أي : الذي يولد أعمى مطموس البصر « وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ » أي : من القبور أحياء « بِإِذْنِي » فهذا مما فعل به من جرّ المنافع. ثم أشار إلى مادفع عنه من المضارّ، فقال سبحانه « وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ » أي : منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم ورفعتك إليّ وطهرتك من دنسهم «إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أي : المعجزات التي توجب انقيادهم لك لتعاليها عن قوى البشر فلا يتوهم فيها السحر « فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أي: ماهذا الذي يرينا إلا سحر ظاهر.

لطيفة :

إن قيل: إن السياق فى تعديد نعمه تعالى على عيسى عليه السلام وقول الكفار فى حقه، إن هذا إلا سحر مبين ، ليس من النعم بحسب الظاهر. فما السر فى ذكره ؟ فالجواب: إن من الأمثال المشهورة : إن كل ذى نعمة محسود . فطعن اليهود فيه بهذا الكلام يدل على أن نعم الله تعالى فى حقه كانت عظيمة . فحسن ذكره عند تعديد النعم ، للوجه الذى ذكرناه. أفاده الرازىّ .

ولما بين تعالى النعم اللازمة ، تأثَّرها بنعمه عليه المتعدية ، فقال سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ » أى: بطريق الإلهام والإلقاء فى القلب « أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي » أى: عن دعوته « قَالُوا ءَامَنَّا » وأكدوا إيمانهم بقولهم « وَاشْهَدْ » أى: لتؤديها عند ربك « بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ » أى: منقادون لكل ما تدعونا إليه .

وههنا لطائف :

الأولى ـ إنما قدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب. والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع فى الظاهر . يعنى آمنا بقلوبنا وانقدنا بظواهرنا .

الثانية ـ إنما ذكر تعالى هذا فى معرض تعديد النعم . لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس ، محبوبا فى قلوبهم ، من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان . كذا قاله الرازىّ .

وقال المهايمىّ : ليحصل له رتبة التكميل وثواب رشدهم .

الثالثة ـ قال الرازىّ : إن قيل: إنه تعالى قال فى أول الآية (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ

وَالِدَتِكَ) ثم إن جميع ما ذكره تعالى من النعم مختص بعيسى عليه السلام، وليس لأمه تعلق بشيء منها . قلنا : كل ماحصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية ، فهو حاصل ، على سبيل التضمن والتبع للأم . ولذلك قال تعالى : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً(١) . فجعلهما معاً آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر . انتهى .

وقال بعضهم : قيل : أريد بالذكر في قوله تعالى (اذْكُرْ نِعْمَتِي) الشكر. ففي ذلك دلالة على وجوب شكر النعمة . وإن النعمة على الأم نعمة على الولد . والشكر يكون بالقول والفعل والاعتقاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ » ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا إلهيته أو ولديته، ليستقلّ بإنزال المائدة « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » هذه قصة المائدة وإليهاتنسب السورةفيقال: سورة المائدة. وههنا قراءتان: الأولى (يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) بالياء على أنه فعل وفاعل و (أَنْ يُنَزِّلَ) المفعول . والثانية ـ بالتاء و (رَبَّكَ) نصب أي سؤال ربك . فحذف المضاف . والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه ؟ وهي قراءة عليّ وعائشة وابن عباس ومعاذ رضي الله عنهم . وسعيد بن جبير والكسائيّ ، في آخرين .

قال أكثر المفسرين : الاستفهام على القراءة الأولى محمول على المجاز . إذ لايسوغ لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكّوا في قدرة الله تعالى . لكنه كما يقول الرجل لصاحبه :

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٠] . . . وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

هل تستطيع أن تقوم معى ؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام ، مبالغة فى التقاضى . وإنما قصد بقوله (هَلْ تَسْتَطِيعُ) هل يسهل عليك، وهل يخف أن تقوم معى ؟ فكذلك معنى الآية . لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ، ومعترفين بكمال قدرته . وسؤالهم ليس لإزاحة شك ، بل ليحصل لهم مزيد الطمأنينة . كما قال إبراهيم عليه السلام[1] (وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة فى القلب . ولهذا السبب قالوا (وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا) وحاصله أن (هَلْ يَسْتَطِيعُ)سؤال عن الفعل دون القدرة عليه ، تعبيرا عنه بلازمه . أو عن المسبب بسببه . وقيل المعنى : هل يطيع ربك ؟ أى هل يستجيب دعوتك إذا دعوته ؟ (فيستطيع) بمعنى (يطيع) وهما بمعنى واحد. والسين زائدة. كاستجاب وأجاب واستجب وأجب و (يطيع) بمعنى (يجيب) مجازاً، لأن المجيب مطيع .

وذكر أبو شامة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم عاد أباطالب فى مرض. فقال له : ياابن أخى! ادع ربك أن يعافينى . فقال: اللهمّ ! اشف عمى. فقام كأنما نشط من عقال . فقال : ياابن أخى! إن ربك الذى تعبده ليطيعك. فقال : ياعم ! وأنت لو أطعته لكان يطيعك . أى يجيبك لمقصودك .

وحسنه فى الحديث المشاكلة ، فظهر أن العرب استعملته بهذا المعنى .

قال الخازن : وقال بعضهم: هو على ظاهره . وقال: غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة فى قلوبهم . وكانوا بشرًا ، فقالوا هذه المقالة . فرد عليهم غلطهم بقوله « قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » يعنى اتقوا الله أن تشكوا فى قدرته .

والقول الأول أصح . انتهى .

---

(١) [٢/ البقرة/ ٢٦٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ =

وعليه فمعنى (اتَّقُوا اللّهَ) من أمثال هذا السؤال ، وأن توقفوا إيمانكم على رؤية المائدة إن كنتم به وبرسالتى (مُؤْمِنِينَ) فإن الإيمان مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات .

لطيفة :

فى المائدة قولان : الأول ـ أنها الطعام نفسه ، من (ماد) إذا أفضل . كما فى (اللسان) وهذا القول جزم به الأخفش وأبو حاتم . أى : وإن لم يكن معه خوان . كما فى (التقريب) و (اللسان) وصرح به ابن سيده فى (المحكم) .

قال الفاسىّ : والآية صريحة فيه ، قاله أرباب التفسير والغريب . والثانى ـ أنها الخوان عليه الطعام . قال الفارسىّ : لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام ، وإلا فهى خوان ، وصرّح به فقهاء اللغة ، وجزم به الثعالبىّ وابن فارس . واقتصر عليه الحريرىّ فى (درة الغوّاص) وزعم أن غيره من أوهام الخواص . وذكر الفاسىّ فى (شرحها) أنه يجوز إطلاق (المائدة) على (الخوان) مجرّدًا عن الطعام ، باعتبار أنه وضع أو سيوضع . وقال ابن ظفر : ثبت لها اسم المائدة بعد إزالة الطعام عنها . كما قيل (اقحة) بعد الولادة . وقال أبو عبيد : المائدة فى المعنى مفعولة ، ولفظها فاعلة . وهى مثل عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وقيل : من (ماد) إذا أعطى . يقال : ماد زيد عمرًا ، إذا أعطاه . وقال أبو إسحق : الأصل عندى فى (مائدة) أنها فاعلة . من (ماد يميد) إذا تحرّك . فكأنها تميد بما عليها . أى: تتحرك. وقال أبو عبيدة : سميت (مائدة) لأنها مِيدَ بها صاحبها. أى : أُعْطِيَهَا وتُفُضِّلَ عليه بها . وفى (العناية) : فكأنها تعطى من حولها مما حضر عليها . وفى (المصباح) : لأن المالك

= فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

مادها للناس . أى: أعطاهم إياها . ومثله فى كتاب (الأبنية لابن القطاع) : ويقال فى المائدة مَيْدة . قاله الجرمىّ[١] وأنشد :

ومَيْدةٍ كثيرةِ الألوانْ تُصنع للإخوان والجيران

كذا فى (القاموس وشرحه) . والخِوان بضم الخاء وكسرها ما يؤكل عليه الطعام كما فى (القاموس) . معرّب كما فى (الصحاح) و (العين). وقيل: إنه عربىّ مأخوذ من (تخونه) أى نقص حقه . لأنه يؤكل عليه فينقص . كذا فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ)

«قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا» أى آمنا . لكنا نريد الأكل منها من غير مشقة تشغلنا عن عبادة الله تعالى « وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا » أى فلا تعتريها شبهة لا يؤمَن من ورودها، لولا مثل هذه الآية . فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالىّ مما يوجب قوة اليقين « وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا » أى فى دعوى النبوة ، وفيما تعدنا من نعيم الجنة ، مع أنها سماوية «وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ » أى فنشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا . ويؤمن بسببها كفارهم . أومن الشاهدين للعين دون السامعين للخبر .

ثم لما رأى أن لهم غرضا صحيحاً فى ذلك ، وأنهم لا يقلعون عنه ، أزمع على استدعائها واستنزالها .

---

(١) استشهد به فى اللسان ، فى مادة (م ى د) بالصفحة رقم ٤١٣ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

روى ابن أبي حاتم ؛ أنه توضأ واغتسل ودخل مصلاه ، فصلّى ما شاء الله . فلما قضى صلاته قام مستقبل القبلة ، وصفّ قدميه ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره وطأطأ برأسه ، خشوعا . ثم أرسل عينيه بالبكاء . فما زالت دموعه تسيل على خديه ، وتقطر من أطراف لحيته ، حتى ابتلت الأرض حيال وجهه ، من خشوعه . فعند ذلك دعا الله تعالى فقال : اللهم ! ربنا. كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا » أى : يا الله المطلوب لكل مهمّ ، الجامع للكمالات ، الذى ربانا بها . ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية ، إظهارًا لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » أى التى فيها ما تعدنا من نعيم الجنة « تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا » أى يكون يوم نزولها عيدًا نعظمه ونسرّ به ، نحن الذين يدركونها . ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوّون فى دينهم . و (العيد) العائد . مشتق من (العود) لعوده فى كل عام بالفرح والسرور . وكل ما عاد عليك فى وقت فهو عيد، قال الأعشى [(١)] :

فوا كبدى من لاعج الحب والهوى إذا اعتاد قلبى من أميمةَ عيدُها

كذا فى (العناية) .

وفى (القاموس) (العيد) بالكسر ، ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه .

---

(١) ليس فى ديوان الأعشى ، فهو ليس من قوله . وبحثت عنه فى ما بين يدىّ من المصادر الأدبية واللغوية، فلم أهتد إليه .

وكل يوم فيه جمع « وَءَايَةً مِنْكَ » أي : على كمال قدرتك وصدق وعـدك وتصديقك إياى « وَارْزُقْنَا » أي : أعطنا ما سألناك « وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أي : خير من يرزق . لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالَ اللهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

« قَالَ اللهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ » إجابة لدعوتكم « فَمَنْ يَكْفُرْ » أي : بى وبرسولى « بَعْدُ » أي بعد تنزيلها ، المفيد للعلم الضرورىّ بى وبرسولى « مِنْكُمْ » أيها المنعَّمون بها « فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » أي من عالمَى زمانهم . أومن العالمَين جميعاً .

روى[١] ابن جرير بسنده إلى قتادة قال : كان الحسن يقول : لماقيل لهم (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ) الخ قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل .

وروى[٢] منصور بن زاذان عن الحسن أيضا . أنه قال ، فى المـائدة : أنها لم تنزل .

وروى[٣] ابن أبى حاتم وابن جرير عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : هو مَثَلٌ ضربه الله ولم ينزل شىء . أى مثل ضربه الله لخلقه ، نهياً لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه .

قال الحافظ ابن كثير : وهـذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن . وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى . وليس هو فى كتابهم . ولو كانت قد نزلت، لكان ذلك

---

(١) الأثر رقم ١٣٠٢٠ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٣٠٢١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٣٠١٩ من التفسير .

مما يتوفر الدواعى على نقله . وكان يكون موجودًا فى كتابهم متواترًا . ولا أقل من الآحاد . والله أعلم .

ثم قال : ولكن الجمهور أنها نزلت . وهو الذى اختاره ابن جرير . قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها فى قوله تعالى (إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ) ووعد الله ووعيده حق وصدق .

وهذا القول هو ، والله أعلم ، الصواب . كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم . اهـ

ومن الآثار ما أخرجه الترمذىّ[١] عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ : أنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد . فخانوا وادخروا ورفعوا لغد . فمسخوا قردة وخنازير . قال الترمذىّ : وقد روى عن عمار ، من طريقٍ ، موقوفاً وهو أصح .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس ؛ أن عيسى ابن مريم ، قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها . عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة . فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

وقد ساق ابن كثير آثاراً فى نزولها لا تخلو عن غرابة ونكارة فى سياقها ، كما لا يخفى .

روى الإمام أحمد[٢] عن ابن عباس قال قالت قريش للنبىّ ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك . قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم : قال فدعاه ، فأتاه جبريل

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢١ ـ حدثنا الحسن بن قزعة .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢١٦٦ (طبعة المعارف) .

فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة .

ورواه الحاكم فى مستدركه وابن مردويه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَءَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ » اعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل (مَاذَا أُجِبْتُمْ) توبيخ مَن تمرد من أممهم . وأشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى ، الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام . لأن طعن سائر الأمم كان مقصورًا على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملحدة تعدى إلى جلال الله وكبريائه ، حيث وصفوه بما لا يليق أن يوصف مقامه به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد . فلا جرم، ذكر تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، إشعارا بعبوديته . فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة عليه ، تدل على أنه عبد وليس بإله . ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره، عليه السلام، على رؤوس الأشهاد، بالعبودية، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل . إكذابا لهم فى افترائهم عليه ، وتثبيتاً للحجة على قومه؛ فهذا سر سؤاله تعالى له ، مع علمه بأنه لم يقل ذلك . وكل ذلك لتنبيه النصارى الذين كانوا فى وقت نزول الآية ومَن تأثرهم ، على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم .

تنبيهات :

الأول : روى عن قتادة : أن هـذا القول يكون يوم القيامة لقوله تعالى (هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)(١) . وقال السدّىّ : هذا الخطاب والجواب ، فى الدنيا . وصوّبه ابن جرير ، قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء . واحتج ابن جرير على ذلك بوجهين : (أحدهما) أن الكلام بلفظ المضىّ ؛ و (الثانى) قوله : إِنْ تُعَذِّبْهُمْ . وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ .

قال الحافظ ابن كثير : وهذان الدليلان فيهما نظر . لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضىّ ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ...) الآية : التبرؤ منهم وردّ المشيئة فيهم إلى الله تعالى . وتعليقُ ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه. كما فى نظائر ذلك من الآيات . فالذى قاله قتادة وغيره هو الأظهرُ . فالله أعلم أنّ ذلك كائن يوم القيامة ، ليدلّ على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد .

وقد روى بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة قال : سمعت أبا بردة يحـدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه ، أبى موسى الأشعرىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأُمَمِهم . ثم يدعى بعيسىٰ فيذكره الله نعمته عليه فيقرّ بها فيقول : يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ . . . الآية ، ثم يقول : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ؟» فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيُسْئَلون فيقولون : نعم هو أمرنا بذلك ! قال : فيطول شَعْرُ عيسى عليه السلام . فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدى الله عز وجـل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار !

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب عزيز !

---

(١) الأثر رقم ١٣٠٣٧ من التفسير .

الثاني : إيثار قوله تعالى (أُمِّىَ) على (مَرْيَمَ) توبيخ للمتخذين، على توبيخ . أى مع أنك بشر تلد وتولد قبل هذا .

الثالث : توهم بعضهم أن كلمة (من دون الله) تفيد أنّ النصارى يعتقدون أن عيسى وأمه ، عليهما السلام ، مستقلان باستحقاق العبادة، بدلًا عن الله تعالى . كما يقال : اتخذت فلانًا صديقًا من دونى . فإن معناه أنه استبدله به ، لا أنه جعله صديقًا معه . وهم لم يقولوا بذلك . بل ثلّثوا . فأجاب : بأن من أشرك مع الله غيره فقد نفاه معنى . لأنه وحده لا شريك له ، منزه عن ذلك . فإقراره بالله كلا إقرار . فيكون (مِنْ دُونِ اللهِ) مجازًا عن (مَعَ اللهِ). ولا يخفى أن هذا تكلف . لأن توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل . فالصواب أن المراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه . كما فى قوله تعالى[(١)] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا) وقوله عز وجل[(٢)] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ـ إلى قوله... سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) إذ به يتأتى التوبيخ ، ويتسنى التقريع والتبكيت . هذا ما حققوه هنا .

وأقول: إن كلمة (دون) فى هذه الآية وأمثالها بمعنى (غير) كما حققه اللغويون. ولا تفيد،

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٨] . . . قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥٥] ونصها: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا .

وضعا ، الاستقلال والبدلية، كما توهم وسر ذكرها إفهام الشركة. لأنه لولاها لتوهم دعوى انحصار الألوهية فيما عداه . مع أنهم لا يعتقدون ذلك . ولا يفهم من نحو (أَتَّخَذْتَ صَدِيقًا مِنْ دُونِي) الاستبدال . فذاك من قرينة خارجية. وإلا فالمثال لا يعينه . لجواز إرادة اتخاذه معه كما لا يخفى . فتبصر « قَالَ سُبْحَانَكَ » أي أنزهك تنزيها لائقاً بك من أن يقال هذا ويُنطق به « مَا يَكُونُ لِي » أي ما يتصور مني بعد إذ بعثتني لهداية الخلق « أَنْ أَقُولَ » أي في حق نفسي « مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ » أي ما استقر في قلوب العقلاء عدم استحقاقي له مما يضلهم « إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام، بالطريق البرهاني. فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا. فحيث انتفى علمه تعالى به ، انتفى صدوره عنه حتما . ضرورة ، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم . قاله أبو السعود « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي » استئناف جار مجرى التعليل لما قبله . كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي. فكيف بما أعلنه ؟ وقوله تعالى « وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » بيان للواقع ، وإظهار لقصوره. أي ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك . أفاده أبو السعود « إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

«مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ » أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به . وإنما قيل : (مَا قُلْتُ لَهُمْ) نزولًا على قضية حسن الأدب ، ومراعاة لما ورد في الاستفهام . وقوله تعالى « أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ » تفسير المأمور به « وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ

فِيهِمْ » أى : رقيباً أراعى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك، ويتأتى لى نهيهم عما أشاهده فيهم مما لاينبغى « فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى » أى : بالرفع إلى السماء كما فى قوله تعالى (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ)[١] والتوفى : أخذ الشىء وافياً . والموت نوع منه . قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا)[٢] وسبق فى قوله تعالى (يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ) فى (آل عمران) زيادة إيضاح على ماهنا. فتذكر « كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ » أى : الناظر لأعمالهم . فمنعتَ من أردت عصمته من التفوّه بذلك . وخذلت من خذلت من الضالين ، فقالوا ماقالوا « وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » اعتراض تذييلىّ مقرر لما قبله . وفيه إيذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل ، حين كونه عليه السلام فيما بينهم .

تنبيه :

دلت الآية على أن الأنبياء ، بعد استيفاء أجلهم الدنيوىّ ، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أممهم . وقد روى البخارىّ[٣] هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس! إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا . ثم قال: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ...إلى آخر الآية . ثم قال:

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى أبواب متعددة من صحيحه وأولها ما جاء فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ .

ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم . ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب ! أصيحابى . فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح (وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

قال الحافظ ابن كثير : هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عزّ وجلّ . فإنه الفعال لما يشاء . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ(١) . ويتضمن التبرؤ من النصارى الذين كذبوا على الله ورسوله . وجعلوا لله ندًّا وصاحبة وولدًا . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا . انتهى .

أى . إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه . وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك . وإن تغفر لهم فلا عجز ولا استقباح . لأنك القادر القوىّ على الثواب والعقاب . الذى لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب . فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم . فإن عذبت فعدل ، وإن غفرت ففضل . وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد . فلا امتناع فيه لذاته ، ليمتنع الترديد والتعليق بـ (إن) . أفاده البيضاوىّ .

يعنى أن المغفرة ، وإن كانت قطعية الانتفاء بحسب الوجود ، لكنها لما كانت بحسب العقل ، تحتمل الوقوع واللاوقوع ، استعمل فيها كلمة (إن) فسقط ما يتوهم أن تعذيبهم ، مع أنه قطعىّ الوجود ، كيف استعمل فيه (إن) وعدم وقوع العفو بحكم النص والإجماع .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٣] .

وفى كتب الكلام: إن غفران الشرك جائز عقلا عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة . لأن العقاب حق الله على المذنب ، وليس فى إسقاطه مضرة .

وبالجملة : فليس قوله تعالى (إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) تعريضاً بسؤاله العفو عنهم . وإنما هو لإظهار قدرته على ما يريد ، وعلى مقتضى حكمه وحكمته . ولذا قال : إنك أنت العزيز الحكيم ، تنبيهاً على أنه لا امتناع لأحد عن عزته ، فلا اعتراض فى حكمه وحكمته .

قال الرازىّ : قال قوم : لو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم ، أشعر ذلك بكونه شفيعاً لهم . فلما قال : فإنك أنت العزيز الحكيم ، دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى ، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه .

وفى (العناية) ما ملخصه : أن ما ظنه بعضهم من أن مقتضى الظاهر (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) بدل (العزيز الحكيم) كما وقع فى مصحف عبد الله بن مسعود ـ فقد غاب عنه سر المقام . لأنه ظن تعلقه بالشرط الثانى فقط ، لكونه جوابه. وليس كما توهم . بل هو متعلق بهما . ومن له الفعل والترك عزيز حكيم . فهذا أنسب وأدق وأليق بالمقام ، أو هو متعلق بالثانى ، وإنه احتراس، لأن ترك عقاب الجانى قد يكون لعجز ينافى القدرة ، أو لإهمالٍ ينافى الحكمة . فبيّن أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب . وقد ورد فى الحديث أن النبىّ ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددها .

روى الإمام[١] أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : صلى النبىّ ﷺ ذات ليلة . فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فلما أصبح قلت : يا رسول ! لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت. تركع

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

بها وتسجد بها ؟ قال : إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى ؛ فأعطانيها . وهى نائلة، إن شاء الله، لمن لايشرك بالله شيئاً .

وأخرجه النسائى أيضاً .

وروى الإمام أحمد(١) أيضاً عن أبى ذر قال : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالى فى صلاة العشاء . فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون . فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله . فلما رأى القومَ قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى . فجئت فقمت خلفه فأومأ إلىّ بيمينه ، فقمت عن يمينه . ثم جاء ابن مسعود فقام خلفى وخلفه ، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله . فقمنا ثلاثتنا يصلى كل واحد منا بنفسه ، ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو . وقام بآية من القرآن يرددها ، حتى صلى الغداة . فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود: أن سله ما أراد إلى ماصنع البارحة ؟ فقال ابن مسعود : لاأسأله عن شىء حتى يُحْدث إلىّ ، فقلت : بأبى وأمى ! قمتَ بآية من القرآن ومعك القرآن . لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه. قال:دعوت لأمتى . قلت : فماذا أجبت ؟ أو ماذا رد عليك ؟ قال : أجبت بالذى لو اطلع عليه كثير منهم طلعة ، تركوا الصلاة . قلت : أفلا أبشر الناس، قال: بلى . فانطلقت مُعنِقاً قريباً من قذفةٍ بحجر . فقال عمر : يا رسول الله ! إنك إن تبعث بهذا نكلوا عن العبادة . فناداه أن ارجع . فرجع .

وتلك الآية (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وروى الإمام مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ؛ أن النبىّ ﷺ تلا قول الله عزّ وجلّ فى إبراهيم (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى . . . الآية)(٢) وقول عيسى (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . . . وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فرفع يديه وقال : اللهم ! أمتى أمتى . وبكى . فقال الله تعالى : يا جبريل ! اذهب إلى محمد ، وربك أعلم ، فاسأله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ، وهو أعلم . فقال الله : يا جبريل ! اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك .

ثم ختم تعالى حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، مع الإشارة إلى نتيجة ذلك ومآله بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (قَالَ اللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« قَالَ اللَّهُ هَـٰذَا » أى : يوم القيامة « يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ » لأنه يوم الجزاء. والمراد بـ (الصَّادِقِينَ) المستمرون على الصدق فى الأمور الدينية ، التى معظمها التوحيد ، الذى الآية فى صدده . وفيه شهادة بصدق عيسى عليه السلام فيما قاله ، جواباً عن قوله : أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . الآية . وقوله تعالى « لَهُمْ جَنَّاتٌ » تفسير للنفع المذكور. ولذا لم يعطف عليه ، أى : لهم بساتين من غرس صدقهم « تَجْرِى مِن تَحْتِهَا » أى : من تحت شجرها وسررها « الْأَنْهَارُ » أنهار الماء واللبن والخمر والعسل « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين لا يموتون ولا يخرجون « أَبَدًا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ » لصدقهم « وَرَضُوا عَنْهُ » تحقيقاً لصدقهم . فلم يسخطوا لقضائه فى الدنيا « ذَٰلِكَ » أى : الخلود والرضوان « الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى : الكبير الذى لا أعظم منه . كما قال تعالى (لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)(١) وكما قال (وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)(٢) وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٦١] .

(٢) [٨٣/المطففين/٢٦] ونصها : خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ » تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا فى المسيح وأمه . وذلك من تقديم الظرف . لأنه المالك لا غيره، فلا شريك له. « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : مبالغ فى القدرة. فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته ومشيئته . فلا نظير له ولا وزير . لا إله غيره ولا رب سواه .

روى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو ، قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة . أخرجه الترمذىّ(١) والحاكم . وأخرجا أيضاً عن عائشة قالت : آخر سورة نزلت المائدة والفتح ـ كذا فى (الإتقان) ـ .

كمل ما قدره تعالى على عبيده من محاسن تأويل هذه السورة الشريفة

بعد عصر يوم الجمعة فى ١٩ رمضان عام ١٣٢٠

فى السدّة اليمنى العليا من جامع السنانية .

والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢٣ ـ حدثنا قتيبة

سُورَةُ الأَنعَامِ

بسم الله الرحمن الرحيم

٦ – سورة الأنعام

وهى مكية . وهى مئة وخمس وستون آية

روى العوفىّ وعكرمة وعطاء عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هى مكية ، نزلت جملة واحدة ، نزلت ليلًا ، وكتبوها من ليلتهم ، غير ست آيات منها ، فإنها مدنيات ، وهى قوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ . . .[1] إلى آخر الثلاث آيات . وقوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥١ـ١٥٣] ونصها : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

قَدْرِهِ ...[1] الآية . وقوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ...[2] إلى آخر الآيتين .

وذكر مقاتل نحو هـذا وزاد آيتين ، وهما قوله تعالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ . . .[3] الآية . وقوله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ . . .[4] الآية .

وروى عن ابن عباس أيضاً وقتادة أنهما قالا : إنها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة ، قوله: وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ[5] . وقوله : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ...[6] الآية .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًىٰ لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهَا قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢١ ، ٢٢] ونصهما : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

(٣) [٦ / الأنعـام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٥) انظر الحاشية رقم ١ .

(٦) [٦ / الأنعام / ١٤١] ونصها : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ =

قال البيهقىّ فى (الدلائل) : فى بعض السور التى نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة ، فألحقت بها . وكذا قال ابن الحصار : كل نوع من المكىّ والمدنىّ ، منه آيات مستثناة . قالا : إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل . ثم ناقش فى استثناء هذه الآيات ، قال : ولا يصح به نقل ، خصوصاً ما ورد أنها نزلت جملة .

وردّ عليه السيوطىّ بأنه صح النقل عن ابن عباس، باستثناء : قُلْ تَعَالَوْا ...[1] الآيات الثلاث ، والبواقى : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ[2] ، لما أخرجه ابن أبى حاتم أنها نزلت فى مالك بن الصيف . وقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً[3] . نزلتا فى مسيلمة. وقوله : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ[4] . وقوله : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ[5] .

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبىّ قال : نزلت الأنعام كلها بمكة ، إلا آيتين نزلتا بالمدينة فى رجل من اليهود ، وهو الذى قال : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ[6] ـ كذا فى (اللباب) و (الإتقان) . ومن خصائص هذه السورة ما أخرجه الطبرانىّ عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً ، جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك ، يجأرون بالتسبيح .

= مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣١ .

(٤) انظر الحاشية رقم ٤ ص ٢٢٣١ .

(٥) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٢٣١ .

(٦) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .

وروى السدّىّ عن ابن مسعود قال : نزلت سورة الأنعام يشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة.
وروى نحوه من وجه آخر عنه أيضاً .

وروى الحاكم فى (مستدركه) عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ماسدَّ الأفقَ . ثم قال : صحيح على شرط مسلم .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت سورة الأنعام معها موكب الملائكة سدّ ما بين الخافقيْن ، لهم زجَل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج ، ورسول الله يقول : سبحان الله العظيم ! سبحان الله العظيم !

وأخرج أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت علىّ سورة الأنعام جملة واحدة ، وشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة ، لهم زَجَل بالتسبيح والتحميد .

قال الرازىّ : قال الأصوليون : هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة :

أحدهما ـ أنها نزلت دفعة واحدة .

والثانى ـ أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة . والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين . وذلك يدل على أن علم الأصول فى غاية الجلالة والرفعة . وأيضاً فإنزال مايدل على الأحكام ، قد تكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم ، وبحسب الحوادث والنوازل . وأما ما يدل على علم الأصول ، فقد أنزله الله جملة واحدة، وذلك يدل على أن تعلم علم الأصول واجب على الفور، لا على التراخى. اهـ

وأخرج[1] الدارمىّ فى (مسنده) عن عمر رضى الله عنه قال : الأنعام من نواجب القرآن.

وفى القاموس : نجائب القرآن أفضله ومحضه . ونواجبه لبابه . انتهى .

وسميت بـ(سورة الأنعام) ، لأن أكثر أحكامها ، وجهالات المشركين فيها ، وفى التقرب بها إلى أصنامهم ـ مذكورة فيها .

---

(١) أخرجه الدارمىّ فى (مسنده) فى : ٢٣ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١٧ ـ باب فضائل الأنعام والسور : عن عمر قال : الأنعام من نواجب القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى جميع المحامد ، بما حمد به نفسه أو خلقه ، أو حمد به الخلقُ ربهم ، أوبعضهم، مخصوص به . ثم أخبر عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامدبقوله: « الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم المخلوقات ، فيما يرى العباد ، وفيهما العبر والمنافع ، لأن السموات بأوضاعها وحركاتها أسباب الكائنات والفاسدات التى هى مظاهر الكمالات الإلٰهية . والأرض مشتملة على قوابل الكون والفساد التى هى المسببات .

« وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » أى : أوجدها منفعة لعباده ، فى ليلهم . ونهارهم . وههنا :

لطائف

الأولى ـ أن المقصود من الآية التنبيه على أن المنعم بهذه النعم الجسام هو الحقيق بالحمد والعبادة ، دون ما سواه .

الثانية ـ لفظ (جعل) يتعدى إلى واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كما هنا ؛ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى (صيّر) كقوله[١] : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا. والفرق بين (الخلق) و (الجعل) : أن (الخلق) فيه معنى التقدير ، وفى (الجعل) معنى التضمين ، كإنشاء شىء من شىء أوتصيير شىء شيئاً ، أونقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك:

(١) [٤٣ / الزخرف / ١٩] .

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا(١) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا(٢). وإنما حسّن لفظ (الجعل) ههنا، لأن النور والظلمة لما تعاقبا ، صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر ـ قاله الرازىّ ـ وسبقه إليه الزمخشرىّ .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد وردت (جَعَلَ) و (خَلَقَ) موردًا واحدًا . فورد: وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا(٣) . وورد : وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا(١) . وذلك ظاهر فى الترادف . إلا أن للخاطر ميــلًا إلى الفرق الذى أبداه الزمخشرىّ . ويؤيده أن (جَعَلَ) لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما (خَلَقَ) . وفى إضافة (الخلق) فى هذه الآية إلى السموات والأرض ، و (الجعل) إلى الظلمات والنور ، مصداق للمميّز بينهما ـ والله أعلم ـ .

الثالثة ـ إن قيل : لم جمعت السموات دون الأرض مع أنها مثلهن لقوله تعالى : وَمِنَ

(١) [٧/ الأعراف/ ١٨٩] ونصها : هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

و [٣٩ / الزمر / ٦] ونصها : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٥] .

(٣) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ(١) ، وفى الحديث(٢) : هل تدرون ما هذه ؟ قالوا : هذه أرض . هل تدرون ما تحتها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : أرض أخرى ، وبينهما مسير خمسمئة عام ، حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمئة عام ـ أخرجه الترمذىّ ، وأبو الشيخ عن أبى هريرة رضى الله عنه ؟ .

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ونصها : اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ونصه :

عن أبى هريرة قال : بينا نبىّ الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبىّ الله ﷺ « هل تدرون ما هذا » ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لايشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها مسيرة خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع سماوات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » .

ثم قرأ : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

فالجواب : لأن السموات طبقات متفاضلة بالذات ، مختلفة بالحقيقة ، بخلاف الأرضين ـ كما قاله البيضاوىّ ـ .

وقال الرازىّ : إن السماء جارية مجرى الفاعل . والأرض مجرى القابل . فلو كانت السماء واحدة لَتَشَابَهَ الأثر ، وذلك يخلّ بمصالح هذا العالم . أما لو كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية ، فحصل بسببها الفصول الأربعة ، وسائر الأحوال المختلفة ، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم . أما الأرض فهى قابلة للأثر ، والقابل الواحد كاف فى القبول . انتهى .

وقدم السموات لشرفها وعلوّ مكانها .

الرابعة ـ الظاهر فى (الظلمات والنور) أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر . والذى يقوى ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما . والأصل حمل اللفظ على حقيقته ، ولأن (الظلمات والنور) إذا قرنا بالسموات والأرض ، لم يفهم منهما إلا الأمران المحسوسان .

ونقل عن بعض السلف أنه عنى بهما الكفر والإيمان .

ورجح الرازىّ الأول لما ذكر .

ووجه بعضهم الثانى بأن المعنى : أنه لما خلق السموات والأرض ، فقد نصب الأدلة على معرفته وتوحيده . ثم بيّن طرق الضلال ، وطريق الهدى ، بإنزال الشرائع والكتب السماوية . ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، فناسب المقام (ثم) الاستبعادية ، إذ يبعد من العاقل الناظر بعد إقامة الدليل، اختيار الباطل . انتهى .

وعليه فجمع (الظلمات) وتوحيد (النور) ظاهر. لأن الهدى واحد ، والضلال متعدد، كما قال فى آخر هذه السورة[1] : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وعلى الأول، فجمعها لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ، فإن لكل جرم ظلمة ، وليس لكل جرم نور . وأما تقديمها فلسبقها فى التقدير والتحقق ، على النور .

وفى الأثر[1] : إن الله خلق الخلق فى ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره .

وقوله تعالى: « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى ، بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه . مسوق لإنكار ماعليه الكفرة ، واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها ، واجترائهم على ما يقضى ببطلانه بديهة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبد الله بن الدَّيلمىّ قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط له بالطائف ، يقال له الوَهْط ، وهو مخاصر فتى من قريش ، يُزَنّ بشرب الخمر . فقلت له : بلغنى عنك حديثٌ : أن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحا . وأن الشقىّ من شقى فى بطن أمه ، وأن من أتى بيت المقدس لا ينهزُه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه .

فلما سمع الفتى ذكر الخمر ، اجتذب يده من يده ، ثم انطلق .

ثم قال عبد الله بن عمرو : إنى لا أحلّ لأحد أن يقول علىّ ما لم أقل .

سمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عزّ وجلّ خلق الخلق فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ . فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عزّ وجلّ » .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

ورواه الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٨ ـ باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة .

العقول. والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمدوالعبادة ، باعتبار ذاته ، وباعتبارما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به ، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه . ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه ، ويعدلون به سبحانه . أي : يسوّون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر ، الذي رأسه الحمد ، مع كون كل ما سواه مخلوقا له ، غير متصف بشيء من مبادىء الحمد .

وكلمة (ثم) لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية ، القاضية ببطلانه . و (الباء) متعلقه بـ (يعدلون) ووضع (الرب) موضع ضميره تعالى ، لزيادة التشنيع والتقبيح . والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد، والمحافظة على الفواصل . وترك المفعول لظهوره ، أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل ، بتنزيله منزلة اللازم ، إيذاناً بأنه المدار في الاستبعاد ، لا خصوصية المفعول . هـذا هو الحقيق بجزالة التنزيل ـ أفاده أبو السعود ـ .

ثم ناقش ما وقع للمفسرين هنا مما يخالفه. فانظره .

وأصل (العدل) مساواة الشيء بالشيء . والمعنى : أنهم يجعلون له عديلاً من خلقه ، مما لا يقدر على شيء ، فيعبدون الحجارة ، مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض .

وقال النضر بن شميل : (الباء) بمعنى (عن) أي : عن ربهم يعدلون وينحرفون ، من العدول عن الشيء .

لطيفة :

قال ابن عطية رحمه الله : (ثم) دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين . ثم بعد هـذا كله قد عدلوا بربهم . فهذا كما تقول : أعطيتك وأحسنت إليك ، ثم تشتمني ؟ ولو وقع العطف في هذا ونحوه بـ (الواو) لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثم) . انتهى . أي : ففيها الدلالة على التوبيخ والإنكار ، كالتعجيب أيضاً .

قال أبو حيان : هذا الذى ذهب إليه ابن عطية من أن (ثم) للتوبيخ . والزمخشرىّ من أنها للاستبعاد ـ مفهوم من سياق الكلام ، لا من مدلول (ثم) . انتهى .

وإنما لم تحمل (ثم) على التراخى ، مع استقامته ، لكون الاستبعاد أوفق بالمقام ، لأن التراخى الزمانىّ معلوم فيه ، فلا فائدة فى ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث ، مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به ، إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى ، مع معاينتهم لموجبات توحيده . وتخصيصُ خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث ، مع أن ما ذكره من خلق السوات والأرض من أوضحها وأظهرها ، كما ورد فى قوله تعالى[١] : أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ـ لما أن محل النزاع بعثهم . فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم بشؤون أنفسهم أعرف ، والتعامى عن الحجة النيرة أقبح . والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ . أى : ابتدأ خلقكم منه ، فإنه المادة الأولى للكل ، لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر . وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين ، لا إلى آدم عليه السلام ، وهو المخلوق منه حقيقة ، بأن يقال : هو الذى خلق أباكم ... الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه ، فى إيجاب الإيمان بالبعث ، وبطلان الامتراء ـ لتوضيح منهاج القياس ، وللمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس . مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية : هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه ، عليه السلام ، منه ،

---

(١) [٣٦ / يس / ٨١] . . . بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر آحاد الجنس ، انطواءً إجمالياً ، مستتبعاً لجريان آثارها على الكل . فكان خلقُه عليه السلام من الطين خلقاً لكل أحد من فروعه منه . ولما كان خلقه على هذا النمط السارى إلى جميع أفراد ذريته ، أبدع من أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه ، كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه ، وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم ، وكمال علمه وحكمته ، وكان ابتداء حال المخاطبين أَوْلى بأن يكون معيارًا لانتهائها ـ فعل ما فعل . ولله در شأن التنزيل ! وعلى هذا السر مدار قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ . . .(١) الخ . وقوله تعالى : وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً(٢) . كما سيأتى .

وقيل : المعنى خلق أباكم منه ، على حذف المضاف . وقيل : معنى خلقهم منه ، خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض . وأيًّاما كان، ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث، مالا يخفى . فإن من قدر على إحياء مالم يشم رائحة الحياة قط ، كان على إحياء ما قارنها مدة أظهر قدرة ـ أفاده أبو السعود ـ .

وفى (العناية) : أن فى الآية التفاتاً ، لأن الخطاب ـ وإن صح كونه عامًّا ـ لكنه خاص بالذين كفروا ، كما يقتضيه (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) . ونكتته أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذى فى الآية السابقة ، والشكر عليه أوجب . وقد أشير فى كل من الدليلين إلى المبدأ والمعاد ، وما بينهما . انتهى .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١١] . . . ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٩] ونصها : قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً .

أخرج أبو داود[١] والترمذيّ عن أبي موسى الأشعريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك . والسهلُ والحَزْنُ ، والخبيث والطيّب .

وقوله تعالى : « ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا » أي: كتب لموت كل واحد منكم أجلًا خاصًّا به . أي : حدًّا معيناً من الزمان يفنى عند حلوله . أو كتب ، لِمَا بين أن يولد كل منكم إلى يوم أن يموت ، أجلًا .

« وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ » أي : وحدّ معين لبعثكم جميعاً ، مثبت معيّن في علمه ، لا يقبل التغيير ، ولا يقف على وقت حلوله أحد . كقوله تعالى[٢] : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ . فمعنى (عِنْدَهُ) أنه مستقل بعلمه . و (أَجَلٌ) مبتدأ لتخصيصه بالصفة ، ولوقوعه في موقع التفصيل . وتنوينه لتفخيم شأنه ، وتهويل أمره ، ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذي هو (عِنْدَهُ) ، مع أن الشائع في مثله التأخير ، كأنه قيل : وأيّ أجل معين في علمه لا يعلمه أحد لا مجملًا ولا مفصلًا . وأما أجل الموت فمعلوم إجمالًا وتقريباً ، بناء على ظهور أماراته ، أو على ما هو المعتاد في أعمار الإنسان .

« ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » استبعاد واستنكار لامترائهم في البعث ، بعد معاينتهم لما ذكر

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٦ ـ باب في القدر ، حديث ٤٦٩٣ وأخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١ ـ حدثنا محمد ابن بشار .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

من الحجج الباهرة الدالة عليه . أى : تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه ، مع مشاهدتكم فى أنفسكم ما يقطع مادة الامتراء . فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها ، وإبقائها ما يشاء ، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ» أى المعبود فيهما ، «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ» أى من الأقوال أو الدواعى والصوارف القلبية وأعمال الجوارح، «وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ» أى : ماتفعلونه من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب . وتخصيصه بالذكر ، مع اندراجه فيما سبق، على التفسير الثانى للسر والجهر ـ لإظهار كمال الاعتناء به لأنه الذى يتعلق به الجزاء ، وهو السر فى إعادة (يعلم) .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وما هاتان الآيتان الكريمتان ـ يعنى هذه الآية وآية الزخرف ، وهى قوله تعالى[1] : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ـ إلا توأمتان . فإن التمدح فى آية الزخرف ، وقع بما وقع التمدح به ههنا من القدرة على الإعادة والاستئثار بعلم الساعة والتوحد فى الألوهية ، وفى كونه تعالى المعبود فى السموات والأرض .

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : للمفسرين فى هذه الآية أقوال ، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول ، القائلين ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه فى كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك . فالأصح من الأقوال أنه المدعوّ فى السموات وفى الأرض ، أى :

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

يعبده ويوحده ويقرّ له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَباً وَرَهباً[(١)] إلا من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية ـ على هذا القول ـ كقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَٰهٌ . أى : هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض . وعلى هذا، فيكون قوله : (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) خبراً أو حالا .

والقول الثانى ـ إن المراد أنه الله الذى يعلم ما فى السموات ومافى الأرض من سر وجهر . فيكون قوله (يَعْلَمُ) متعلقا بقوله (فِى السَّمَٰوَاتِ وَفِى الأَرْضِ) تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات ... الخ .

والقول الثالث ـ إن قوله : (وَهُوَ اللهُ فِى السَّمَٰوَاتِ) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال (وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) وهذا اختيار ابن جرير. انتهى .

ورجح ابن عطية فى الآية : أنه الذى يقال له (الله) فيهما . قال : وهذا عندى أفضل الأقوال ، وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ ، وجزالة المعنى . وإيضاحه : أنه أراد أن يدل على خلقه ، وآيات قدرته ، وإحاطته واستيلائه ، ونحو هذه الصفات. فجمع هذه كلها فى قوله (وَهُوَ اللهُ ـ الَّذِى لَهُ هَٰذِهِ كُلُّهَا ـ فِى السَّمَٰوَاتِ وَفِى الأَرْضِ) كأنه قال : وهو الخالق والرازق والمحيى والمميت فيهما .

تنبيه :

قال الرازىّ : الآية تدل على كون الإنسان مكتسباً للفعل ، والكسب هو الفعل المُفضِى إلى اجتلاب نفع ، أو دفع ضرّ . ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب ، لكونه تعالى منزّهاً عن جلب النفع ، ودفع الضرّ ـ والله أعلم ـ .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢١/ الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ » يعنى : مايظهر لكفار مكة دليل من الأدلة التى يجب فيها النظر والاعتبار ، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن ، التى من جملتها الآيات السالفة ، الناطقة ببدائع صنعه وقدرته على البعث «إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» أى : على وجه التكذيب والاستهزاء ، لقلة خوفهم وتدبرهم ، فى العواقب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ » يعنى: القرآن الذى تُحُدُّوا به ، فعجزوا عنه « فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى : مصداق أنباء الحق الذى كانوا يكذبون به على سبيل الاستهزاء . وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة . فهو وعيد شديد لهم بأنه لابد لهم أن يذوقوا وباله . وقد ذاقوه يوم بدر وغيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ)

«أَلَمْ يَرَوْا» أى: ألم يعلموا علماً يشبه الرؤية بالبصر، لما سمعوا بالتواتر من إتيان المستهزئين قبلهم، أنباءهم مرارا كثيرة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ »، أى من أمة، فلم نبق منها

أحدا ، مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم الماضية ، والقرون الخالية . « مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ » أى : قررناهم وثبتناهم فى الأرض ، « مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » أى : ما لم نجعل لكم من السعة والرفاهية وطول الأعمار ، ياأهل مكة ! « وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ » أى المطر . قال المهايمىّ : هو أبلغ مِنْ (أَنْزَلْنَا) فى الدلالة على الكثرة ، « عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا » أى كثيراً ، « وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ » أى من تحت أشجارهم ، فعاشوا فى الخصب بين الأنهار والثمار ، وسقيا الغيث المدرار ، « فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أى : بسبب ذنوبهم وكفرهم ، وتكذيبهم رسلهم ، وجعلناهم أحاديث ، فما أغنى عنهم ما كانوا فيه . أى وسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب . « وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » أى : بدلا من الهالكين . يعنى : فلا يتعاظمه تعالى أن يهلك هؤلاء ، ويخلى ديارهم منهم ، وينشىء أمة سواهم ، فما هم بأعزّ على الله منهم . والرسول الذى كذبوه أكرم على الله من رسلهم . فهم أولى بالعذاب ، ومفاجأة العقوبة ، لولا لطفه وإحسانه .

ثم بين تعالى شدة مكابرتهم ، إثر إعراضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ » أى مكتوباً فى ورق ، « فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ » أى : فمسوه ، « لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا » أى : ليس هـذا المعظم بهذه الوجوه الدالة على أنه لا يكون إلا من الله ، « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » تعنتاً وعناداً . وتخصيص (اللمس) لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا ، ولأنه يتقدمه الإبصار ، حيث لا مانع . وتقييده بـ (الأيدى) لرفع التجوز ، فإنه قد يتجوز به للفحص ، كقوله[1] : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ـ أفاده البيضاوىّ .

(١) [٧٢ / الجن / ٨] . . . فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم ، تحقيق القراءة على قرب . أى : فقرءوه وهو فى أيديهم ، لا بعيد عنهم ، لما آمنوا .

وقال ابن كثير : وهـذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ [١] . ولقوله تعالى : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ [٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ)

« وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » أى: ليكون معه فيكلمنا أنه نبىّ ، كقوله[٣] : لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

« وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ » جواب لمقترحهم ، وبيان لمانعه ، وهو البقيا عليهم ، كيلا يكونوا كالباحث عن حتفه بظلفه . والمعنى : أن الملك لو أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته ، وهى آية لا شىء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر . فإن سنة الله قد جرت فى الكفار أنهم متى اقترحوا آية ، ثم لم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى : مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا

---

(١) [١٥ / الحجر / ١٤و١٥] .

(٢) [٥٢ / الطور / ٤٤] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧] ونصها : وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

إِذًا مُنْظَرِينَ(١) . وقوله تعالى : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ(٢) .

« ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ » أى : لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ، فضلا عن أن ينذروا به. ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين ، قضاء الأمر ، وعدم الإنظار.جعل عدم الإنظار . أشد من قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

تنبيه :

ذكر الزمخشرى وجهاً ثانياً فى تعجيل عذابهم ، عند نزول الملائكة ، وهو أنه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف ، فيجب إهلاكهم ، وفى (الكشف) الاختيار قاعدة التكليف ، وهذه آية ملجئة . قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا(٣) . فوجب إهلاكهم ، لئلا يبقى وجودهم عارياً عن الحكمة ، إذ ماخلقوا إلا للابتلاء بالتكليف، وهو لا يبقى مع الإلجاء . هذا تقريره على مذهبهم ، وهو غير صاف عن الإشكال . انتهى . وفيه إشارة إلى أنه ليس على قواعد السنة ، وكأنّ وجه إشكاله أنه وقع فى القرآن ، والواقع ما ينافيه ، كما فى قوله تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ... الآية(٤) ـ كذا فى (العناية) ـ

(١) [١٥ / الحجر / ٨] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] . . . وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا .

(٣) [٤٠ / الفتح / ٨٥] . . . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وذكر أيضاً وجهاً ثالثاً . وهو أنهم إذا شاهدوا ملَكاً في صورته، زهقت أرواحهم من هول مايشاهدون .

قال في (الانتصاف) : ويقوّي هذا الوجه قوله : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا . قال ابن عباس . ليتمكنوا من رؤيته ، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته . انتهى .

وهذا الوجه آثره أبو السعود في التقديم حيث قال : أي لو أنزلنا ملكاً على هيئته حسبما اقترحوه ، والحال أنه من هول المنظر ، بحيث لاتطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية . ألا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصورة البشرية ؟ كضيف إبراهيم ولوط ، وخصم داود عليهم السلام ، وغير ذلك . وحيث كان شأنهم كذلك ، وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ؟ فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية ، واستحال جعله نذيراً ، وهو ـ مع كونه خلاف مطلوبهم ـ مستلزم لإخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة ، من إرسال الرسل ، وتأسيس الشرائع . وقد قال سبحانه : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا[1] . انتهى .

وفي (العناية) أن الوجه الثالث لا يناسب قوله (ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) ، لأنه يدل على إهلاكهم ، لا على هلاكهم ، برؤية الملك ، إلا بتكلف .

هذا، وقال الناصر في (الانتصاف) : على الوجه الأول لايحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك . فإنه ربما يُفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح، وليس الأمر كذلك . فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم ، أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه ، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز من حيث كونه معجزاً ، لا المعجز الخاص ،

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها : مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا .

فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم ، فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ فى العناد المناسب لعدم النَّظِرة ـ والله أعلم ـ

قال المهايمىّ : لا دليل على النبوة سوى شهادة الملك ، وتنزيل الملك بصورته الملكوتية يقطع أمر التكليف ، إذ لا ينفع الإيمان بعد انكشاف عالم الملكوت ، فلا يمهلون ، لأن الإمهال للنظر . والمعجزة ـ وإن أفادت علماً ضرورياً ـ لا تخلو عن خفاء يحتاج إلى أدنى نظر ، ولاخفاء مع انكشاف عالم الملكوت ، فلا وجه للإمهال للنظر، فلا يقبل الإيمان معه، فلا بد من المؤاخذة عقيبه . انتهى ـ فليتأمل ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » جواب ثان . أى: ولوجعلنا النذير الذى اقترحوه ملكاً لمثلناه رجلًا ، لما مرّ من عدم استطاعة الآحاد ، لمعاينة الملك على صورته ، من النور. وإنما رآه كذلك الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية . « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ » جواب محذوف . أى : ولو جعلناه رجلًا لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم حينئذ ، بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ، ولست بملك . ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز ، الناطق بها ، أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق ـ لكذبوه ، كما كذبوا النبىّ عليه الصلاة والسلام . ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم ما تقدم من قضاء الأمر .

تنبيهات

الأول ـ فى إيثار (رَجُلًا) على (بَشَرًا) إيذان بأن الجعل بطريق التمثيل ، لا بطريق قلب الحقيقة ، وتعيين لما يقع به التمثيل .

الثانى ـ فى الآية بيان لرحمته تعالى بخلقه ، وهو أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق

رُسُلًا منهم، ليدعو بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض فى المخاطبة والسؤال . كما قال تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ...(١) الآية . وقال تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا (٢) .

الثالث ـ التعبير عن تمثيله تعالى (رُجُلًا) باللبس إما لكونه فى صورة اللبس ، أو لكونه سبباً للبسهم ، أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة . وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً ، كأنه قيل : لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم ـ أفاده أبو السعود .

الرابع ـ جوز بعضهم وجهاً ثانياً فى قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً) وهو أن يكون جواب اقتراح ثان ، على أن الضمير عائد للرسول ، لا لمقترحهم السابق . قال : لأنهم تارة يقولون : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وتارة يقولون: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً (٣) . والمعنى: ولو جعلنا الرسول ملكاً لمثلناه رجلًا . والظاهر هو الوجه الأول .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] ... وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٩٥] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٤] ونصها : إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

وقوله تعالى : «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ». تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصر، والعاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة . و (حاق) بمعنى نزل وحلّ . ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر . أى : فنزل بهم وبال استهزائهم ، أو العذاب الذى كانوا يسخرون من التخويف به ، إذ هلكوا فى الدنيا على أقبح الوجوه ، ثم ردوا إلى أفظع العذاب أبد الآبدين. وجعل الرسل فى أعلى منازل القرب من رب العالمين .

ثم أمر تعالى أن يصدعهم بالتجول فى الأرض إن ارتابوا فيما تواتر ، أو تعاموا عمّا رأوا، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أى : سيروا فى الأرض لتعرّف أحوال أولئك الأمم، وتفكروا فى أنهم كيف أهلكوا لمّا كذبوا الرسل وعاندوا ، فتعرفوا صحة ما توعظون به . وفى السير فى الأرض ، والسفر فى البلاد ، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها ـ تكملة للاعتبار ، وتقوية للاستبصار . أى : فلا تغتروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

وفى هذه الآية تكملة للتسلية ، بما فى ضمنها من العدة اللطيفة ، بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين . وقد أنجز ذلك يوم بدر أىّ إنجاز .

لطيفة :

وقع هنا (ثُمَّ انْظُرُوا) . وفى النمل[١] : قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا . وكذا فى العنكبوت[٢] . فتكلف بعضهم لتخصيص ما هنا بـ (ثم) ، كما هو مبسوط فى (العناية) ، مع ماعليه . ونقل عن بعضهم أن السير متحد فيهما ، ولكنه أمر ممتد ، يعطف بالفاء تارة ، نظرًا لآخره ، وبـ (ثم) نظرًا لأوله ، ولا فرق بينهما .

وفى (الانتصاف) : الأظهر أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحدًا ، ليكون ذلك سببًا فى النظر ، فحيث دخلت الفاء ، فلإظهار السببية . وحيث دخلت (ثم) ، فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ،الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لِمَنْ مَافِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى:خلقاً وملكاً ، وهو سؤال تبكيت وتقريع، « قُلْ لِلَّهِ » تقرير للجواب ، نيابة عنهم . أى : هو لله ، لا خلاف بينى وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره . ففيه تنبيه على تعينه للجواب اتفاقاً ، كما فى قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . ومن المقرر أن أمر السائل بالجواب إنما يحسن فى موضع يكون فيه الجواب قدبلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر

(١) [٢٧ / النمل / ٦٩] . . . كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] . . . كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

على إنكاره منكر ، ولا على دفعه دافع ، كما هنا . قيل : وفيه إشارة إلى أنهم تثاقلوا فى الجواب، مع تعينه، لكونهم محجوجين .

وقوله تعالى « كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق ، شمول ملكه وقدرته للكل ، مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بعباده ، لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم التوبة والإنابة ، وأن ماسبق ذكره ، وما لحق من أحكام الغضب ، ليس من مقتضيات ذاته تعالى ، بل من جهة الخلق . كيف لا ؟ ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة ، وهداهم إلى معرفته وتوحيده ، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه ، والتحذير عن مقتضيات سخطه . وقد بدلوا فطرة الله تبديلا ، وأعرضوا عن الآيات بالمرة ، وكذبوا بالكتب ، واستهزؤوا بالرسل ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(١) . ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضاً مسلك الغابرين . ومعنى : (كتب الرحمة على نفسه) أنه تعالى أوجبها وقضاها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة، بالذات ، لا بتوسط شيء أصلا . وفى التعبير عن (الذات) بـ (النفس) حجة على من ادعى أن لفظ (النفس) لا يطلق على الله تعالى ، وإن أريد به الذات، إلا مشاكلة. لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى « لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » جواب قسم محذوف . والجملة استئناف مسوق للوعيد ، على إشراكهم وإغفالهم النظر ، لأنه لما بين كمال إلهيته بقوله (قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ) . ثم أخبر بأنه يرحمهم فى الدنيا بالإمهال ، ودفع عذاب الاستئصال ، أعلم أنه يجمعهم لذلك اليوم ، ويحاسبهم على كل ما فعلوا ، لأن الملك الحكيم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] .

لا يهمل أمر رعيته ، ولا يسوغ فى حكمته أن يسوى بين المطيع والعاصى قيل :(ليجمعنكم) جواب لقوله : (كَتَبَ) ، لأنه يجرى مجرى القسم .

وقيل : (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) بدل من الرحمة ، بدل البعض .

قال المهايمىّ : كمال الرحمة فى الجزاء ، إذ بدونه تضيع مشاق المعارف الإلهية ، والأعمال الصالحة ، وتضيع المظالم ، ولا جزاء فى دار الدنيا ، لأنه فرع التكليف ، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء ، لأن مشاهدته مانعة من التكليف . انتهى .

و (إلى) بمعنى اللام ، كقوله (١) : إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى فى اليوم ، أو فى الجمع .

« الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى : بتضييع رأس مالهم ، وهو الفطرة الأصلية ، والعقل السليم ، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماع الوحى ، وغير ذلك من آثار الرحمة .

« فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى: لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

قال أبو السعود : والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم ، فإن إبطال العقل باتباع الحواس ، والانهماك فى التقليد ، وإغفال النظر ، أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان . والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى، لتقبيح حالهم ، غير داخل تحت الأمر .

تنبيه :

روى فى معنى هذه الآية عن أبى هريرة(٢) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما خلق الله

(١) [٣ / آل عمران / ٩] ونصها : رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

(٢) يضطرنا هذا السياق إلى سرد جميع روايات هذا الحديث كما جاءت فى كتابنا =

الخلق كتب فى كتاب ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى ـ رواه الشيخان ـ وفى البخارىّ : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى سبقت غضبى ، فهو مكتوب عنده ، فهو العرش .

وفى رواية لهما : أن الله لما خلق الخلق .

= (جامع مسانيد صحيح البخارىّ) والحديث رقم ١٥٠٩ فى الصحيح ورقم ٢٣٤ من مسند أبى هريرة ، فها كموها بنصها الكامل :

٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى قول الله تعالى : وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .

حدثنا قتيبة بن سعيد . حدثنا مغيرة بن عبدالرحمن القرشىّ عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ .

حدثنا عبدان عن أبى حمزة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه ، هو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش: إن رحمتى تغلب غضبى » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب: وكان عرشه على الماء. وهو رب العرش العظيم .

حدثنا أبو اليمان . أخبرنا شعيب . حدثنا أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتى سبقت غضبى » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٨ ـ باب وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ .

حدثنا إسماعيل . حدثنى مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ؛ إن رحمتى سبقت غضبى » . =

وعند مسلم : لما قضى الله الخلق، كتب فى كتاب كتبه على نفسه ، فهو موضوع عنده . زاد البخارىّ : على عرش . ثم اتفقا : إن رحمتى تغلب غضبى .

وسنذكر، إن شاء الله، شذرة من أحاديث الرحمة عند آية (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) قريباً .

قال أبو السعود : ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق ، وأكثر وصولاً إليهم ، مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير .

= ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

وقال لى خليفة بن خياط . حدثنا معتمر . سمعت أبى عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده : غلبت (أو قال سبقت) رحمتى غضبى ، فهو عنده فوق العرش » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

حدثنى محمد بن أبى غالب . حدثنا محمد بن إسماعيل . حدثنا معتمر . سمعت أبى يقول : حدثنا قتادة؛ أن أبا رافع حدثه أنه سمع أباهريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله كتب كتاباً قبل أن يُخلق الخلق؛ إن رحمتى سبقت غضبى . فهو مكتوب عنده فوق العرش » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، رقم ١٤و١٥و١٦ (طبعتنا) .

الحديث رقم ١٤ ؛ أن النبىّ ﷺ قال « لما خلق الله الخلق ، كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » .

الحديث رقم ١٥ ؛ عن النبىّ ﷺ « قال الله عزّ وجلّ ، سبقت رحمتى غضبى » .

الحديث رقم ١٦ ؛ قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه على نفسه، فهو موضوع عنده : إن رحمتى تغلب غضبى » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«وَلَهُ» أى : ولله عز وجل ، « مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى ما استقر وحلّ ، من (السكنى) بمعنى (الحلول) . كقوله تعالى : وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ(١) . والمعنى : له تعالى كل ما حصل فى الليل والنهار ، مما طلعت عليه الشمس أو غربت. شبهالاستقرار بالزمان ، بالاستقرار فى المكان ، فاستعمل استعماله فيه . أو (سكن) من (السكون) ، مقابل الحركة . أى : ما سكن فيهما وما تحرك ، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ، كما فى قوله : سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ(٢) ، لأن ذلك يعرف بالقرينة . وعليه، فإنما اكتفى بالسكون عن ضده دون العكس . لأن السكون أكثر وجودًا ، والنعمة فيه أكثر .

قال بعضهم : لا حاجة لدعوى الاكتفاء ، فإن ما سكن يعم جميع المخلوقات ، إذ ليس شىء منها غير متصف بالسكون ، حتى المتحرك ، حال حركته ، على ما حقق فى الكلام : من أنتفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة وكثرتها .

لطيفة .

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : ذكر تعالى فى الآية الأولى السموات والأرض ، إذ لا مكان سواهما . وفى هذه الآية ذكر الليل والنهار ، إذ لا زمان سواهما . فالزمان والمكان ظرفان

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٥] . . . وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ .

(٢) [١٦ / النحل/ ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

للمحدثات ، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات ، ومالك للزمان والزمانيات . وهذا بيان فى غاية الجلالة .

وقال الرازىّ : ههنا دقيقة أخرى . وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات . وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة فى العقليات الصرفة . والتعليم الكامل هو الذى يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى . وهذا من سر نظم الآية مع ما قبلها .

« وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » يسمع كل مسموع ، ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شىء مما يشتمل عليه المَلَوَان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ » أى لكفار مكة المبكّتين بما تقدم : « أَغَيْرَ اللهَ أَتَّخِذُ وَلِيًّا » أى معبودًا . كقوله تعالى : قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . والمعنى : لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده . « فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق . بالجر، صفة للجلالة ، مؤكدة للإنكار ، «وهو يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ» أى: يَرْزُق ولا يُرْزَق . أى : المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . أى : فيجب اتخاذه وليًّا ليعبد شكرًا على إنعامه ، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض . قيل: المراد بالطعم الرزق، بمعناه اللغوىّ . وهو كل ما ينتفع به ، بدليل وقوعه مقابلًا له فى قوله تعالى : مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ[١] . فعبر بالخاص عن العام مجازًا ، لأنه أعظمه وأكثره ، لشدة الحاجة إليه . واكتفى به عن العام ، لأنه يعلم ، من نفى ذلك ، نفى ما سواه .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٧] .

«قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ». أى : وجهه لله مخلصاً له ، لأصير متبوعاً للباقين . كقوله : وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١) . وكقول موسى : سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(٢) .

« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : وقيل لى : (وَلَا تَكُونَنَّ) . فهو معطوف على (أُمِرْتُ) بمعنى : أمرت بالإسلام ، ونهيت عن الشرك صريحاً مؤكداً ، بعد النهى فى ضمن الأمر . ونهى المتبوع نهى التابعين . ويجوز عطفه على (قُلْ) . وفى الآية إرشاد إلى أن كل آمر ينبغى أن يكون عاملاً بما أمر به ، لأنه مقتداهم . قيل : هذه الآية للتحريض ، كما يأمر الملك رعيته بأمر ، ثم يقول : وأنا أول من يفعل ذلك ، ليحملهم على الامتثال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى » أى : بمخالفة أمره ونهيه أىّ عصيان . فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليًّا . « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يعنى : عذاب يوم القيامة ، الذى تظهر فيه عظمة القهر الإلهىّ . وفى الآية مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم . ووجه التعريض إسنادما هو معلوم الانتفاء ، بـ (إِنْ) التى تفيد الشك تعريضاً . وجىء بالماضى إبرازا له فى صورة الحاصل على سبيل الفرض ، تعريضاً

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ . . .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

بمن صدر عنهم ذلك . وحيث كان تعريضا لهم ، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك ـ لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية ، مع أنه معصوم . كما لا يتوهم مثله في قوله : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ[1] وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالته على ما ذكر ، بأن الخوف تعلق بالعصيان الممتنع الوقوع امتناعاً عاديًّا ، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان . وهذا لا يدل على حصول الخوف .

قال بعضهم : لا يقال على تقدير العصيان ، يكون الجواب هو استحقاق العذاب ، لا الخوف . لأنا نقول : لا منافاة بينهما . فالخوف إما على حقيقته ، أو كناية عن الاستحقاق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

« مَنْ يُصْرَفْ » بالبناء للمفعول ، أي العذاب ، « عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ » أي : نجاه وأنعم عليه ، أو أدخله الجنة ، لقوله : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ[2] ، وقوله : يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ[3] والجملة مستأنفة ، مؤكدة لتهويل العذاب .

« وَذَٰلِكَ » أي الصرف أو الرحمة ، « الْفَوْزُ الْمُبِينُ » أي : الظاهر .

ثم ذكر تعالى دليلا آخر ، في أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ وليا غير الله تعالى ، بقوله :

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ...

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٥] ونصها : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٨] ونصها : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ » أى ببلية ، كفقر ومرض ونحوها . و(الضر) : اسم جامع لما ينال الإنسان من مكروه ، « فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » أى : فلا يقدر على دفعه إلا هو وحده . « وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ » من عافية ورخاء ونحوها : و (الخير) اسم جامع لما ينال الإنسان من محبوب له ، « فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : ومن جملته ذلك ، فيقدر عليه ، فيمسك به ، ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد . كقوله تعالى : فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ(١) . وكقوله سبحانه : مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ(٢) .

وفى الصحيح(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ .

(١) [١٠/يونس/١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٢] . . . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٥ ـ باب الذكر بعد الصلاة ، حديث رقم ٥٠٠ وهذا نصه :

عن ورّاد ، كاتب المغيرة بن شعبة قال: أملى علىّ المغيرة بن شعبة ، فى كتاب إلى معاوية؛ أن النبىّ ﷺ كان يقول فى دُبُر كل صلاة مكتوبة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم ! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه[١] قال : كنت خلف النبىّ ﷺ فقال : ياغلام ! إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء، لم ينفعوك إلابشىء قد كتبه الله تعالى لك، ولواجتمعوا على أن يضروك بشىء ، لم يضروك إلا بشى قد كتبهالله تعالى عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف ـ رواه الترمذىّ ـ وقال : حسن صحيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » أى : هو الغالب بقدرته ، المستعلى فوق عباده ، يدبر أمرهم بما يريد ، فيقع فى ذلك مايشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن، فلا يستطيع أحد منهم ردّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره .

قال أبو البقاء : فى (فوق) وجهان :

أحدهما ـ فى موضع نصب على الحال من الضمير فى (القاهر) أى : مستعليا وغالبا .

والثانى ـ فى موضع رفع على أنه بدل من (القاهر) أو خبر ثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

« قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً » أى بحيث لا يمكن معارضته بما يساويه « قُلِ اللَّهُ »

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى:٣٥ـ كتاب القيامة،٥٩ ـ باب حدثنا بشر بن هلال البصرى.

أى : أكبر شهادة ، إذ لا احتمال لطروّ الكذب فى خبره أصلًا ، جل شأنه . وأمرُه ﷺ بأن يتولى الجواب بنفسه ، إما للإيذان بتعينه ، وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره ، أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه ، لا لترددهم فى أنه تعالى أكبر من كل شىء ، بل فى كونه شهيدًا فى هذا الشأن .

وقوله تعالى « شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » خبر لمحذوف ، أو خبر عن لفظ الجلالة . ودل على جواب (أىّ) من طريق المعنى ، لأنه إذا كان تعالى هو الشهيد بينه وبينهم ، كان أكبرُ شىء شهادة ، شهيدًا له . فيكون من الأسلوب الحكيم ، لأنه عدل عن الجواب المتبادر ـ إليه ، ليدل على أن أكبر شىء شهادة شهيد للرسول ، فإن الله أكبر شىء شهادة ، والله شهيد له ، فينتج الأكبر شهادة شهيد له . والقياس المذكور من الشكل الثالث ، لأن الحد الأوسط موضوع فى المقدمتين ، لا من الثانى ، كما وقع للشهاب فى (العناية) وهو من بديهيات الميزان .

قال بعضهم: الغرض من السؤال بـ (أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) أن شاهدى أكبر شهادة . فقوله (شَهِيدٌ ...) الخ تنصيص له ، والسؤال المذكور لا يحتاج إلى جواب ، لكونه معلومًا بيّنًا عند الخصم ، فحاصله أن الله الذى هو أكبر شهادة ، شهد بذلك . انتهى .

ومعنى (شَهِيدٌ) مبالغ فى الشهادة على نبوّتى ، بحيث يقطع النزاع بينى وبينكم ، إذ شهد سبحانه بالقول فى الكتب التى أنزلها على الأولين ، وبالفعل فيما ظهر على يدىّ من المعجزات ، لا سيما معجزة القرآن ، كما قال تعالى :

«وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ» أى : الجامع للعلوم التى يحتاج إليها فى المعارف والشرائع ، فى ألفاظ يسيرة ، فى أقصى مراتب الحسن والبلاغة ، معجزة شاهدة بصحة رسالتى . لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء ، وقد عجزتم عن معارضته « لِأُنذِرَكُم بِهِ » ، أى بما فيه من الوعيد ، « وَمَنۢ بَلَغَ » عطف على ضمير المخاطبين . أى : لأنذركم به ، يا أهل مكة! وسائر من بلغه

من الناس كافة ، فهو نذير لكل من بلغه ، كقوله تعالى : وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ(١) .

« أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ » تقرير لهم مع إنكار واستبعاد .

« قُلْ لَا أَشْهَدُ » بما تشهدون ، « قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أي : بل أشهد أن لا إله إلا هو ، لا يشاركه في إلهيته ، ولا في صفات كماله « وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » يعني : الأصنام .

وفي هذه الآية :

مسائل :

الأولى ـ استدل الجمهور بقوله تعالى (قُلِ اللهُ) في جواب (أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) على جواز إطلاق (الشيء) عليه تعالى . وكذا بقوله سبحانه وتعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ(٢) ، فإن المستثنى يجب أن يدخل تحت المستثنى منه ، وذلك لأن الشيء أعم العام ـ كما قال سيبويه ـ لوقوعه على كل مايصح أن يعلم ويخبر عنه . واختار الزمخشري شموله حتى للمستحيل . وصرح كثير من المحققين بأنه يختص بالموجود ؛ وضعفوا من أطلقه على المعدوم، بأنه محجوج بعدم استعمال العرب ذلك ، كما علم باستقراء كلامهم ، وبنحو . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٨] ونصها : وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إِلَّا وَجْهَهُ ، إذ المعدوم لا يتصف بالهلاك ، وبنحو : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ[1] . إذ المعدوم لا يتصور منه التسبيح .

قال الناصر فى (الانتصاف) : هـــذه المسألة معدودة من علم الـكلام باعتبارٍ مّا ، وأما هذا البحث فلغوىّ ، والتحاكم فيه لأهل اللغة . وظاهر قولهم : غضبت من لا شىء . و

* إذا رأى غير شىء ظنه رجلا[2] *

ـ أن الشىء لا ينطلق إلا على الموجود ، إذ لو كان الشىء كل ما يصح أن يعلم ، عدمًا كان أو وجودًا ، أو ممكنًا أو مستحيلًا ، لمـا صدق على أمرٍ مّا أنه ليس بشىء ، والأمر فى ذلك قريب . انتهى .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

(٢) صدر البيت :

* وضاقت الأرض حتى كان هاربهم *

من قصيدة لأبى الطيّب المتنبّى ، قالها فى صباه ، يمدح سعيد بن عبـد الله بن الحسن ابن الـكلابىّ المنبجىّ .

ومطلعها :

أَحْيَا ! وأيسرُ ما لاقيتُ ما قَتَلَا   والبينُ جار على ضُعفِى وما عَدَلَا

قال الواحدىّ : يعنى لشدة ما لحقهم من الخوف ضاقت عليهم الأرض ، فلم يجدوا مهربا ـ كقوله تعالى : ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ـ وهاربهم إذا رأى غير شىء يعبأ به أو يفكر فى مثله ، ظنه إنسانًا يطلبه . وكذا عادة الهارب الخائف . كقول جرير :

ما زلتَ تحسب كل شىء بعدهم   خيلا تـكرّ عليهم ، ورجالا

هـــذا ، وتمسك مَنْ منع إطلاقه عليه تعالى بقوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا[1] . والاسم إنما يحسن لحسن مسماه ، وهو أن يدل على صفة من صفات الـكمال ، ونعت من نعوت الجلال . ولفظ (الشيء) أعمّ الأشياء ، فيكون مسماه حاصلًا فى أحسن الأشياء وفى أرذلها . ومتى كان كذلك ، لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الـكمال ، فوجب أن لا يجوز دعوة الله بهذا الاسم ، لأنه ليس من الأسماء الحسنى ، وقد أمر تعالى بأن يدعى بها . وأجيب : بأن كونه ليس من الأسماء الحسنى ، لـكونها توقيفية ، وكونه لا يدعى به لعدم وروده ـ لا ينافى شموله للذات العلية ، شمول العامّ . والمراد بإطلاقه عليـــه تعالى (فيما تقدم) شموله ، لا تسميته به . وبالجملة ، فلا يلزم من كونه ليس من الأسماء الحسنى ، أن لا يشمل الذات المقدسة شمولًا كليًّا ، كيف ؟ وهو الموضوعات العامة . والتحاكم للغويين فى ذلك ـ كما قدمنا ـ .

الثانية ـ ما أسلفناه من أن المعنىّ بالشهادة هو شهادته تعالى فى ثبوت النبوة له ﷺ ، هو الذى جنح إليه الأكثر . وكأن مشركى مكة طلبوا منه صلى الله عليه وســـلم شاهداً على نبوته . فقيل لهم : أكبر شىء شهادة هو الله تعالى ، وقد شهد لى بالنبوة ، لأنه أوحى إلىّ هـــذا القرآن ، وتحدّاكم بمعارضته ، فعجزتم ، وأنتم أنتم فى مقام البلاغة . وإذ كان معجزاً ، كان إظهاره تعالى إياه على وفق دعواى ، شهادةً منه على صدق فى النبوة .

ولبعضهم وجه آخر ، وهو أن المعنىّ ، شهادته تعالى فى ثبوت وحدانيته ، وتنزهه عن الأنداد والأشباه . ويرشحه تتمة الآية ، وهو قوله : (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ . . .) الخ وقوله (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .)[2] الآية ، وقوله (فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

مَعَهُمْ)[1] ، مما يدل على أن الشهادة إنما عنى بها ، فى موارد التنزيل ، ثبوت الوحدانية . والقرآن يفسر بعضه بعضا ـ والله أعلم ـ .

الثالثة ـ إنما اقتصر على الإنذار فى قوله (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) لكون الخطاب مع كفار مكة ، وليس فيهم من يبشّر . أو اكتفى به عن ذكر البشارة على حدّ (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)[2] .

الرابعة ـ استدل بقوله تعالى (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة ، وإلى الجن .

الخامسة ـ استدل به أيضاً على أن أحكام القرآن تعمّ الموجودين يوم نزوله ، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامة ، خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الكل ـ عند الحنابلة ـ وبالإجماع عندنا فى غير الموجودين ، وفى غير المكلفين يومئذ ـ أفاده أبو السعود ـ .

السادسة ـ روى ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى قوله (وَمَنْ بَلَغَ) : من بلغه القرآن ، فكأنما رأى النبىّ ﷺ وكلمه . ورواه ابن جرير[3] عنه بلفظ : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٠] ونصها : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

(٣) الأثر رقم ١٣١٢٤ من التفسير .

وروى(١) عبد الرزاق عن قتادة فى هذه الآية ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله.

وقال الربيع بن أنس : حقٌّ على من اتبع رسول الله ﷺ ، أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ ، وأن ينذر بالذى أنذر .

السابعة ـ دلّ قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) وقوله (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) على إثبات التوحيد بأعظم طرق البيان ، وأبلغ وجوه التأكيد . لأن (إنما) تفيد الحصر ، و(الواحد) صريح فى نفى الشركاء . ثم صرّح بالبراءة عن إثبات الشركاء . وقد استحب الشافعىّ لمن أسلم بعد إتيانه بالشهادتين، أن يتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام، لقوله (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) عقب التصريح بالتوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

وقوله تعالى « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » يعنى: اليهود والنصارى « يَعْرِفُونَهُ » أى : يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت فى الكتابين « كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ » بحلاهم ونعوتهم ، لا يخفون عليهم ، ولا يلتبسون بغيرهم .

قال المهايمىّ: لأنه ﷺ ذكر فى الكتاب نعته . وهو ، وإن لم يفد تعيُّنه باللون والشكل والزمان والمكان ، تعيّن بقرائن المعجزات . فبقاء الاحتمال البعيد فيه ، كبقائه فى الولد ، بأنه يمكن أن يكون غير ما ولدته امرأته ، أو يكون من الفجور ، مع دلالة القرائن على براءتها من التزوير والفجور . فهو، كما يعرفون أبناءهم فى ارتفاع الاحتمال البعيد بالقرائن على براءتها.

---

(١) الأثر رقم ١٣١١٩ من تفسير ابن جرير .

قال الزمخشريّ : وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب ، وبصحة نبوّته .
ثم بيّن تعالى أن إنكاره خسران لما عرفوه ، ولما أمروا بالتدين به بقوله « الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أي : من المشركين « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أي : بهذا الأمر الجليّ الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوّهت به ، لأنه مطبوع على قلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقولهم : الملائكة بنات الله[١] ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله . قال تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا[٢] .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] ونصها : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ .
و [١٦ / النحل / ٥٧] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ .
و [١٧ / الإسراء / ٤٠] ونصها : أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا .
و [٣٧ / الصافات / ١٥٠] ونصها : أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ .
و [٤٣ / الزخرف / ١٩] ونصها: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .
و [٥٣ / النجم / ٢٧] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ .
(٢) [٧ / الأعراف/٢٨]ونصها : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا =

« أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أى : القرآن والمعجزات ، حيث سموها سحرًا . وإنما ذكر (أو) مع أنهم جمعوا بين الأمرين ، تنبيهاً على أن كلًّا منهما وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم على النفس . فكيف ؟ وهم قد جمعوا بينهما ، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ، ونفوا ما أثبته .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : لا ينجون من مكروه ، ولا يفوزون بمطلوب . وإذا كان حال الظالمين هذا ، فكيف بمن لا أحد أظلم منه ؟

تنبيه :

ما ذكرناه من كون الموصول كناية عن المشركين هو الظاهر ، لأن السورة مكية ، والخطاب مع مشركى أهلها . وجعله البيضاوىّ لهم ، ولأهل الكتاب ، وقوفاً مع عموم اللفظ. والمهايمىّ ؛ لأهل الكتاب خاصة ، ربطاً للآية بما قبلها . والظاهر الأول ، لما قلنا . وعبارة المهايمىّ : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) بتفويت ما أوتوا من الكتاب ، وما أمروا به ، فهم لا يؤمنون . وكيف لا يخسرون ، وهم ظالمون ، وكل ظالم خاسر ؟ وإنما قلنا : إنهم ظالمون، لأنهم يحرفون كتاب الله لفظاً أو معنًى ، فيفترون على الله الكذب ، ويكذبون آيات الله من كتابهم ، ومعجزات محمد ﷺ وكتابه . وقد يسترون بعض ما فى كتابهم ، وهو أيضاً تكذيب . فعلوا جميع ذلك لأنه لايتأتى لهم ترك الإيمان بمحمد ﷺ بدون أحد هذه الأمور.

وقال فى قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ ...) الآية : لأنهم بالتحريف يدّعون إلٰهية أنفسهم، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل ، وينسبون إيجادها إلى غير الله ، مع افتقارها إلى القدرة الكاملة . وإنما قلنا: كل ظالم خاسر ، لأن كل ظالم لايفلح . كما قال تعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) أى : لا يفلحون فى الدنيا بانقطاع الحجة عنهم ، وظهور المسلمين عليهم . وفيه إشارة إلى أن مدّعى الرسالة ، لو كان كاذباً كان مفترياً على الله ، فلا يكون مفلحاً ، فلا يكون سبباً لصلاح العالم ، ولا محلًّا لظهور المعجزات . انتهى .

= وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ » أى : الإنس والجن والشياطين . منصوب بمضمر تهويلا للأمر « جَمِيعاً » ليفتضح من لا يفلح من الظالمين مزيد افتضاح ، ويظهر المفلحون بكمال الإعزاز . « ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى مضوا على الشرك ، بأن ماتوا عليه ، وهم الشاهدون أن مع الله آلهة أخرى « أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ » أى الذين جعلتموهم شركاءنا ، وهم شركاؤكم فى العبودية ـ كذا قاله المهايمى ـ وعليه ، فالإضافة على بابها .

وفى (العناية) : الإضافة فيه لأدنى ملابسة ، كما أشار إليه القاضى بقوله : أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله ، لأنه لا شركة بينهم ، وإنما سموهم شركاء ، فلهذه الملابسة أضيفوا إليهم .

قيل : قوله تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) يقتضى حضورهم معهم فى المحشر ، و (أين) يسأل بها عن غير الحاضر ؟ أجيب بأنه بتقدير مضاف . أى : أين نفعهم وشفاعتهم ، أو أنهم بمنزلة الغيب ، لعدم ما رجوا منهم من الشفاعة . وعلى كلٍّ ، فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم ، وأن يقرر فى نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأيوس منه . وذلك تنبيه لهم فى دار الدنيا على فساد هذه الطريقة .

وقوله تعالى « الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : تزعمونها شركاء من عند أنفسكم . أى : فقصدتم بذلك فعل الفاتنين فى الملكة بجعلها لغير من هى له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

« ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ » أى : جواب ما اعترض به على فتنتهم التى هى شهادة أن مع الله آلهة أخرى . وعبّر عن جوابهم بالفتنة ، لأنه كذب « إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » اعتذروا عن أصنامهم بنفيها مؤكدًا بالقَسَم بالاسم الجامع ، مع نسبة الربوبية إليه تعالى ، لا إلى ما سواه ، مبالغة فى التبرؤ من الإشراك . فكان هذا العذرُ ذنباً آخر مؤكدًا لافترائهم بالإشراك الذى نفوه . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى: بنفى الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود « وَضَلَّ » أى : وكيف ضاع وغاب « عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئًا ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم، كقوله تعالى : (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)[1] فـ (ما) موصولة ، كناية عن الشركاء . وإيقاع الافتراء عليها ، مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية ، والشركة والشفاعة ونحوها ــ للمبالغة فى أمرها ، كأنها نفس المفترى .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣٧] ونصها : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ .

تنبيهات :

الأول ـ ماذكرناه من أنه عبر عن جوابهم بالفتنة هو الأظهر . فالمراد : الجواب بما هو كذب ، لأنه سبب الفتنة ، فتجوّز بها إطلاقاً للمسبب على السبب ، أو هو استعارة . وقيل: الفتنة بمعنى العذر ، لأنها التخليص من الغش لغة ، والعذر يخلّص من الذنب ، فاستعيرت له . وقيل : بمعنى الكفر ، لأن الفتنة ما تفتتن به ويعجبك ، وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به ، ويظنونه شيئاً ، فلم تكن عاقبته إلا الخسران ، والتبرؤ منه ، وليس هذا على تقدير مضاف ، بل جعل عاقبة الشيء عينه ، ادّعاءً .

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة ، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام ، وتصرف العرب في ذلك . وذلك أن الله تعالى بيّن كَوْنَ المشركين مفتونين بشركهم ، متهالكين على حبه. فأعلم في هذه الآية، أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلا أن تبرؤوا منه وتباعدوا عنه ، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين . ومثاله : أن ترى إنساناً يحب غاوياً مذموم الطريقة ، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له : ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه .

قال الخفاجيّ ـ بعد نقله ما ذكر ـ : وليس هذا من قبيل عتابك السيف ، ولا من تقدير المضاف ، وإن صح فاحفظه ، فإنه من البدائع الروائع .

الثاني ـ ما بيّناه من أن (ما) في قوله تعالى : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) موصولة ، كناية عن الشركاء ، بمعنى عدم إغنائها عنهم ـ هو الموافق للآية الثانية التي سقناها . وجوز كونها مصدرية . أي : انظر كيف ذهب وزال عنهم افتراؤهم من الإشراك، حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية ، وتبرؤوا منه بالمرة .

هذا ، وجعل الناصر في (الانتصاف) (ضَلَّ) بمعنى سُلِبُوا علمه ، فكأنهم نسوه وذهلوه دهشاً. وهو بعيد، لعدم ملاقاته للآية الأخرى. والتنزيل يفسر بعضه بعضاً. وعبارته:

فى الآية دليل بيّن على أن الإخبار بالشىء على خلاف ما هو به، كذب ، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره بخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبرّيهم كذباً ؟ مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون . أى : سلبوا علمه حينئذ دهشاً وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم . انتهى .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ .

قلت : الممتحَن ينطق بما ينفعه وبمالا ينفعه ، من غير تمييز بينهما ، حيرة ودهشاً . ألا تراهم يقولون : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(١) ؟ وقد أيقنوا بالخلود ، ولم يشكوا فيه . وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ(٢) ، وقد علموا أنه لايقضى عليهم .

وأما قول من يقول : معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا ، وما علمنا أنا على خطأ فى معتقدنا ، وحمل قوله : (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) يعنى فى الدنيا ـ فتمحلٌ وتعسف وتحريف لأفصح الكلام ، إلى ما هو عىّ وإفحام . لأن المعنى الذى ذهبوا إليه ، ليس هذا الكلام بمترجم عنه ، ولامنطبق عليه ، وهو نابٍ عنه أشد النبوّ . وما أدرى ما يصنع، مَنْ ذلك تفسيره ، بقوله تعالى : يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(٣) بعد قوله : وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، فشبه كذبهم فى الآخرة بكذبهم فى الدنيا. انتهى .

والقول المذكور ، والحمل الذى ناقش فيه ، أصله لأبى علىّ الجبائىّ والقاضى . فإنهما

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٧] .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧٧] . . . قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

ذهبا إلى أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب ، واعتلا بوجوه واهية ساقها الرازيّ. فلتنظر ثمّت ، فإنا لا نسوّد وجوه صحائفنا بما فيه تحكيم العقل على النقل .

ثم بيّن تعالى بعض ما كان يصدر من مشركي مكة، مما طبع على قلوبهم بسببه فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » أي : يصغي حين تتلو القرآن ، ولا يجزئ عنه شيئاً ، لأنه لا يتدبر فيه حتى يطّلع على إعجازه ، ويؤثر فيه الإرشاد « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أي حُجُباً، جمع كنان. كغطاء وأغطية، لفظاً ومعنًى «أَن يَفْقَهُوهُ » أي: كراهة أن يفهموا، ببواطن قلوبهم، بواطنَه التي بها إعجازه وإرشاده ، بإقامة الدلائل ورفع الشبه . «وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا» أي : وجعلنا في آذانهم ، التي هي طريق الوصول إلى بواطن القلوب ، صمماً مانعاً من وصول السماع النافع . وقد مرّ في أول البقرة تحقيق ذلك . فتذكر !

وقوله تعالى « وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا » إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر منهم بالقرآن ، لرؤيتهم قصورًا فيه ، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق الرسول لا يؤمنوا بها ، ويحملوها على السحر . لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كقوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ(١) .

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ » أي : بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوك يحاجّونك ويناظرونك في الحق بالباطل . ثم فسر المجادلة بقوله « يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

(١) [٨ / الأنفال / ٢٣] . . . وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ .

هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم وأحاديثهم التى لا نظام لها . وعدُّ أحسن الحديث وأصدقه ، من قبيل الأباطيل (وَهُوَ الَّذِى لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)ـ رتبةٌ من الـكفر لا غاية وراءها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

«وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ » أى: لا يقنعون بماذكر من تكذيبه ، بل ينهون الناس عن استماعه. قال المهايمى: وهم، لرؤيتهم حلاوة نظمه فوق نثرهم وشعرهم ، مع متانة معانيه ، يعرفون أن التدبر فيه يفيد التطلع على إعجازه . فيخافون تأثيره فى قلوب الخلائق . لذلك ينهون عنه . أى : عن قراءته واستماعه ، لئلا يدعوهم إلى التدبر فيه ، فيفسد عليهم أغراضهم الفاسدة .

« وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » أى: يتباعدون عنه بأنفسهم ، إظهارًا لغاية نفورهم عنه ، وتأكيدًا لنهيهم عنه . فإن اجتناب الناهى عن المنهىّ عنه ، من متممات النهْى . ولعل ذلك هو السرّ فى تأخير (النأى) عن (النهى) ـ أفاده أبو السعود ـ .

ولما أشعر ذلك بكونهم يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، خوفاً من قوة تأثير التنزيل فى القلوب ، أتبعه بأنه لا يحصل لهم هذا المطلوب ، لأن الله متم نوره ، ومظهر دينـــه، وإن الدائرة عليهم بقوله: « وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » بتعريضها لأشد العذاب عاجلًا وآجلًا « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى بذلك .

تنبيه :

روى الحاكم وغيره ، عن ثلة من التابعين ، أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب ، كان ينهى عن النبىّ ﷺ أن يُؤْذَى ، وينأى عنه فلا يؤمن به ، وجميته حينئذ ، باعتبار استتباعه لأتباعه .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أنها نزلت فى عمومة النبىّ ﷺ ، وكانوا عشرة ،

فكانوا أشد الناس معه فى العلانية ، وأشدهم عليه فى السر . ولا يخفى أن لفظ التنزيل مما يصدق على ما ذكر ولا ينافيه ، وهو المراد بالنزول ـ كما أسلفنا مرارًا ـ وقد قال أبو طالب يخاطب النبيّ ﷺ :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسَّد فى التراب دفينـا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضةٌ ... وابشر بذاك وقرَّ منه عيونًا

ودعوتنى وزعمتَ أنك ناصح ... ولقد صدقتَ وكنت ثَمّ أمينا

وعرضت ديناً لا محالة أنه ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامةُ أو حذارى سبةً ... لوجدتَنى سمحاً بذاك مبينا

وفى (ينهون) و (ينأون) تجنيس بديع .

ولما أخبر تعالى أنهم يهلكون أنفسهم ، شرح كيفيته مع بيان ماسيصدر عنهم فى الآخرة من القول المناقض لعقدهم الدنيوىّ ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ » أى : اطّلعوا عليها فعاينوها . يقال : وقف فلاناً على ذنبه : أطلعه عليه . أو أُدخلوها فعرفوا مافيها من العذاب . يقال : وقفت على ما عند فلان ، تريد : فهمته وتبينته . والوقف عليها مجازىّ ، أو هو حقيقىّ بمعنى القيام . و (عَلَى) إما على حقيقتها . أى : أقيموا واقفين فوق النار على الصراط ، وهو جسر فوق جهنم . أو هى بمعنى (فى) ، أى : أقيموا فى جوف النار وغاصوا فيها ، وهى محيطة بهم . وصحح معنى الاستعلاء حينئذ، كون النار دركات وطبقات، بعضها فوق بعض .

« فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » تمنوا الرجوع إلى الدنيا ، حين لا رجوع ، واعدين أن لا يكذبوا بما جاءهم ، وأن يكونوا من المؤمنين ، أى: بآياته ، العاملين بمقتضاها ، حتى لا نرى هـذا الموقف الهائل . أو من فريق المؤمنين الناجين من العذاب ، الفائزين بحسن المآب .

تنبيه :

جواب (لو) محذوف ، تفخيما للأمر ، وتعظيما للشأن . وجاز حذفه لعلم المخاطب به . وأشباهه كثيرة فى القرآن والشعر . ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم. وحذفُ الجواب فى ذلك أبلغ فى المعنى من إظهاره . ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله! لئن قمتُ إليك . وسكتّ عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وَعَظُمَ الخوفُ ، ولم يدر أىّ الأقسام تبغى . ولو قلتَ : لأضربنك، فأتيت بالجواب لأَمِنَ غير الضرب ، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواه . فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرا فى حصول الخوف ـ أفاده الرازىّ ـ وملخصه : أن حذف الجواب ثقة بظهوره ، وإيذانا بقصور العبارة عن تفصيله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ » إضراب عما يدل عليه تمنيهم الباطل من الوعد ، بالتصديق والإيمان ، أى : ليس ذلك عن عزم صحيح ، وخلوص اعتقاد ، بل هو بسبب آخر ، وهو أنه ظهر لهم ما كانوا يكتمون فى أنفسهم من الكفر والشرك ، بقولهم : (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم ، فتمنوا لذلك ،

أو بشهادة جوارحهم عليهم ، أو ما كانوا يكتمون فى أنفسهم فى الدنيا من صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كقوله تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ بِصَائِرَ ...[1] الآية ـ وقوله تعالى[2] مخبرا عن فرعون وقومه : وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا . أو هذه الآية إخبار عن حال المنافقين ، وأنه يظهر نفاقهم الذى كانوا يسرونه . ولا ينافى هذا كون السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة . لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق فى سورة مكية وهى (العنكبوت) فقال: وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ[3] . هذا ماذكروه مما يمكن تنزيل اللفظ الكريم عليه لعمومه . وقد ناقش فى ذلك كلّه العلامةُ أبو السعود ، واعتمد أن المراد بـ (مَا كَانُوا يُخْفُونَهُ فِى الدُّنْيَا) النارُ التى وقفوا عليها ، إذ هى التى سيق الكلام لتهويل أمرها ، والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها ، و (بإخفائها) تكذيبهم بها ، فإن التكذيب بالشىء كفر به ، وإخفاء له لا محالة . وإيثاره على صريح التكذيب الوارد فى قوله عز وجل : (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)[4] وقوله تعالى : (هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)[5] ، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم :

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٢] . . . وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٤] . . . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٤٣] .

(٥) [٥٢ / الطور / ١٤] .

(وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا)[١] لمراعاة ما في مقابلته من البدو . هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم .

ثم قال فى الوجوه المتقدمة : إنه بعد الإغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال ، لا سبيل إلى شيء من ذلك أصلا ، لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار ، وتفظيع حال أهلها ، وقد ذكر وقوفهم عليها ، وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف . ورتب عليه تمنيهم المذكور بـ (الفاء) القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها ، فإسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية ، وهى نفسها أدهى الدواهى ، وأزجر الزواجر ، وإسنادها إلى شيء من الأمور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر ، مع عدم جريان ذكرها ، ثمَّتَ ـ أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله . وأما ما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون ، فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها ، وأبوابها مفتوحة . فتأمل .

أقول : لا ريب فى بلاغة ما قرره ونفاسته ، لولا تكلفه حمل الإخفاء على ما ذكره ، مما هو غير ظاهر فيه ، وليس له نظائر فى التنزيل الكريم . فمجازيته حينئذ من قبيل المعمى . وفى الوجوه الأول إبقاؤه على حقيقته بلا تكلف ، وشموله لها ـ غير بعيد . لأن فى كل منها ما يؤيده ، كما بيناه . غاية الأمر أن ما قرره وجه منها بديع . وأما كونه المراد لا غير ، فدونه خرط القتاد ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ .

« وَلَوْ رُدُّوا » أى عن موقفهم ذلك إلى الدنيا كما تمنوه ، وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال « لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » من الكفر والشرك « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » فى وعدهم بالإيمان ، أو ديدنهم الكذب فى أحوالهم .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالُوا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

«وَقَالُوا» عطف على (لعادوا) أواستئناف، «إِنْ هِىَ» أى ماالحياة ، فالضمير لما بعده ، « إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى : ليست الحياة التى يتوهم فيها البعث ، والتى يتوهم فيها الرد إلا حياتنا الأولى « وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » أى : بعد مفارقتنا هذه الحياة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ » قال الجلال : أى عرضوا عليه . وقال ابن كثير : أى وقفوا بين يديه . « قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا » أى المعاد « بِالْحَقِّ » تقريعاً لهم ، وردًّا لما يتوهمون عند الردّ « قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا » أى : إنه لحق ، وليس بباطل ، كما كنا نظن . أكدوا اعترافهم باليمين إظهارا لكمال يقينهم بحقيّته ، وإيذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط ، طمعاً فى نفعه . « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ » أى : ببلوغ الآخرة وما يتصل بها ، أو هو مجرى على ظاهره ، لأن منكر البعث منكر للرؤية ـ قاله النسفىّ ـ والثانى هو الصواب، وإن

اقتصر كثيرون على الأول ، وجعلوه استعارة تمثيلية لحالهم بحال عبدٍ قدم على سيده بعد مدة ، وقد اطّلع السيد على أحواله . فإما أن يلقاه ببشر لما يرضى من أفعاله ، أو يسخط لما يسخط منها ـ فإنه نزغة اعتزالية . ولا عدول إلى المجاز ما أمكنت الحقيقة .

وفى كلام النسفىّ إشعار بأن اللقاء معناه الرؤية ، وهو ما فى القاموس . قال شارحه الزبيدىّ : وهو مما نقدوه ، وأطالوا فيه البحث ، ومنعوه . وقالوا : لا يلزم من الرؤية اللقىّ ، كالعكس .

وقال الراغب : هو مقابلة الشيء ومصادفته معاً ، ويعبّر به عن كل منهما . ويقال ذلك فى الإدراك بالحسّ والبصر .

لطيفة :

قال الخفاجىّ فى (العناية) : قيل : روى عن علىّ رضى الله عنه أنه نظم أبياتاً على وفق هذه الآية ، وفى معناها وهى :

زعم المنجمُ والطبيبُ ، كلاهما ... لاتُحْشَرُ الأجساد . قلتُ : إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر. ... أو صحّ قولى ، فالخسار عليكما

قال الخفاجىّ: لاأدرى من أيهما أعجب ؟ الرواية أم الدراية؟ فإن هذا الشعر لأبى العلاء المعرّى فى ديوانه وهو :

قال المنجمُ والطبيبُ ، كلاهما : ... لاتُحْشَرُ الْأَجْسَادُ . قلت : إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر . ... أو صحّ قولى ، فالخسار عليكما
أضحى التُّقَى والشر يصطرعان فى الدّ ... نيـا . فأيهما أبَرّ لديكما
طهّرتُ ثوبى للصـلاة وقبله ... جسدى . فأين الطهر من جسديكما
وذكرت ربى فى الضمائر مؤنِساً ... خَلَدِى بذاك ، فَأَوْحِشاَ خَلَدَيْكما

وبكرت فى البَرْدين[1] أبغى رحمة منه ، ولا تَرِعَانِ فى بَرْدَيكما
إن لم تَعُدْ بيدى منافعُ بالذى آتى ، فهل من عائدٍ بيديكما
بُرْدُ التقىّ ، وإن تهلهل نسجُه ، خير ، بعــلم الله ، من بُرْديكما

قال ابن السيد فى (شرحه) . هذا منظوم مما روى عن علىّ رضى الله عنه؛ أنه قال لبعض من تشكك فى البعث والآخرة : إن كان الأمر كما تقول من أنه لاقيامة ، فقد تخلصنا جميعاً. وإن لم يكن الأمر كما تقول ، فقد تخلصنا وهلكتَ . فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده. وهذا الكلام ، وإن خرج مخرج الشك ، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه ، وقلةِ أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه . مع أن المناظر على ثقة من أمره ، وهو نوع من أنواع الجدل .

وقوله : (إِلَيْكُمَا) كلمة يراد بها الردع والزجر . ومعناها : كُفًّا عما تقولان ، وحقيقته: قولكما مصروف لكما ، لا حاجة لى به . انتهى.

ومن له معرفة بقرض الشعر ، يعلم أنه شعر مولد .

ثم نبه الخفاجىّ على أن هذا النوع يسمى استدراجاً .

قال فى (المثل السائر) : الاستدراج نوع من البلاغة استخرجتُه من كتاب الله تعالى ، وهو مخادعات الأقوال التى تقوم مقام مخادعات الأفعال ، يستدرج الخصم حتى ينقاد ويذعن،

---

(١) البَرْدَان : الغداة والعشىّ :

ومنه الحديث الشريف المروىّ فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرىّ ، رقم ٣٦٩ (اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان) ونصه :

« من صلّى البردين دخل الجنة » .

أى : من صلى صلاة الفجر والعصر ، لأنهما فى بردَىِ النهار ، أى طرفيه ، حين يطيب الهواء وتذهب سورة الحرّ .

وتَرِعان من وَرِع يَرِعُ . قال فى اللسان : الورع الكفّ عن المحارم والتحرّج .

وهو قريب من المغالطة ، وليس منها . كقوله تعـــالى : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)(١) . ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم بقوله : (إن يك كاذبا فكذبه عائد عليه، وإن يصدق يصبكم بعض ما وعدكم به) ، ففيـه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى ، فإنه نبيّ صادق ، فلابدأن يصيبهم كل ماوعد به ، لا بعضه ، لـكنه أتى بماهوأذعن لتسليمهم وتصديقهم ، لما فيه من الملاطفة فى النصح ، بكلام منصف غير مشتط مشدّد . أراهم أنه لم يعطه حقه ، ولم يتعصب له ، ويحام عنـه ، حتى لا ينفروا عنه . ولذا قدم قوله (كَاذِبًا) ، ثم ختم بقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي . . . » الخ يعنى : أنه نبيّ على الهدى ، ولو لم يكن كذلك ما آتاه الله النبوة وعضده . وفيه من خداع الخصم واستدراجه ما لا يخفى . انتهى .

وقوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى : جاءتهم القيامة فجأة . وسميت القيامة (ساعة) ، لأنهاتفجأ الناس بغتة فىساعةلايعلمها أحد إلا هو تعالى . والمعنى: جاءتهم منيّتهم . على أن المراد بالساعة ، الصغرى . قال الراغب : الساعة الـكبرى بعث الناس للمحاسبة ، والصغرى موت الإنسان. فساعة كل إنسان موته ، وهى المشار إليها بقوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) . ومعلوم أن الحشر ينال الإنسان عند موته . انتهى .

و (بغتة) مصدر فى موضع الحال ، أى : مباغتة . أو مصدر لمحذوف ، أى : تبغتهم . أو للمذكور. فإنّ (جاءتهم) ، بمعنى (بغتتهم) .

---

(١) [٤٠/ غافر/ ٢٨] ونصها : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

« قَالُوا » يعنى : منكرى البعث ، وهم كفار قريش ، ومن سلك سبيلهم فى الكفر والاعتقاد . « يَاحَسْرَتَنَا » أى: يا ندامتنا! والحسرة : التلهف على الشيء الفائت . وذكرت على وجه النــداء للمبالغة . والمراد : تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة . « عَلَىٰ مَافَرَّطْنَا» أى: قصرنا « فِيهَا » أى : فى الحياة الدنيا . أضمرت وإن لم يجر ذكرها، للعلم بها. أى : على ما ضيعنا فيها ، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا . أو الضمير للساعة ، أى : على ما فرطنا فى شأنها ، ومراعاة حقها ، والاستعداد لها ، بالإيمان بها ، واكتساب الأعمال الصالحة .

وقال ابن جرير[1] : الضمير يعود إلى الصفقة التى دل عليها قوله (قَدْ خَسِرَ ...) الخ إذ الخسران لا يكون إلا فى صفقة بيع قد جرت . قال : والمعنى : قد وُكِس الذين كذبوا بلقاء الله، ببيعهم الإيمان الذى يستوجبون به من الله رضوانه وجنته ، بالكفر الذى يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته . ولا يشعرون ما عليهم من الخسران فى ذلك، حتى تقوم الساعة. فإذا جاءتهم الساعة بغتة ، فرأوا ما لحقهم من الخسران فى بيعهم ، قالوا حينئذ تندما: (يَاحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) .

وقوله تعــالى « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » حال من فاعل (قَالُوا) ، فائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصورًا على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون، مع ذلك، تحمل الأوزار الثقال . والإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة ، بحيث لا تزول ولا تُنْسَى بما يكابدونه من فنون العقوبات ـ قاله أبو السعود ـ .

والأوزار : جمع وزر ، وهو فى الأصل : الحمل الثقيل ، سمى به الذنب لثقله على صاحبه . قيل : جعلها محمولة على الظهور استعارة تمثيلية ، مثل لزومها لهم ، على وجهٍ لا يفارقهم ، بذلك. وخص الظهر ، لأنه المعهود حمل الأثقال عليه . كما عهد الكسب بالأيدى .

---

(١) تفسير ابن جرير (طبعة المعارف) بالصفحة ٣٢٥ من الجزء الحادى عشر .

وقيل : هو حقيقة ، لما روى عن السدّىّ[(١)] أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره ، إلا جاءه رجل قبيح الوجه ، أسودُ اللون ، مُنتن الريح، عليه ثياب دنِسة ، حتى يدخل معه قبره . فإذا رآه قال له : ما أقبح وجهك ! قال : كذلك كان عملك قبيحاً . قال : ما أنتن ريحك ! قال : كذلك كان عملك منتناً . قال : ما أدنس ثيابك ! قال فيقول : إن عملك كان دنساً . قال : من أنت ؟ قال : أنا عملك . قال : فيكون معه فى قبره . فإذا بعث يوم القيامة قال له : إنى كنت أحملك فى الدنيا باللذات والشهوات ، وأنت اليوم تحملنى . قال : فيركب على ظهره فيسوقه ، حتى يدخله النار . فذلك قوله تعالى (وَهُمْ يَحْمِلُونَ ...) الآية .

قال الخفاجىّ : ولعل هذا تمثيل أيضاً . وقريب منه ما قيل : من قال بالميزان ، واعتقد وزن الأعمال ، لا يقول إنه تمثيل . انتهى .

« أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » أى : بئس ما يحملونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ » أى : هزل ، وعمل لا يجدى نفعاً « وَلَهْوٌ » أى : اشتغال بهوى وطرب ، وما لا تقتضيه الحكمة ، وما يشغل الإنسان عما يهمه مما يلتذ به ثم ينقضى .

« وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » لدوامها ، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضارّ والآلام .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى، ولا تؤثرون الأدنى الفانى ، على الأعلى الباقى . وههنا

---

(١) الأثر رقم ١٣١٨٨ من تفسير ابن جرير .

لطائف

الأولى: قال الرازىّ : اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم فى الدنيا ، وتحصيل لذاتها. فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهاً على خساستها وركاكتها. واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها . لأن هـــذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها . فلهذا السبب حصل فى تفسير هذه الآية قولان :

الأول ـ أن المراد منه حياة الكافر. قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق . والسبب فى وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة ، أن حياة المؤمن يحصل فيهـــا أعمال صالحة ، فلا تكون لعبًا ولهوًا .

والقول الثانى ـ إن هـــذا عام فى حياة المؤمن والكافر . والمراد منه : اللذات الحاصلة فى هذه الحياة ، والطيبات المطلوبة فى هـذه الحياة ، وإنمـا سماها بـ(اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ) لأن الإنسان، حال اشتغاله باللعب واللهو، يلتذ به. ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة. فكذلك هذه الحياة، لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة .

الثانية : قال الخفاجىّ : جمع اللهو واللعب فى آيات . فتارة يقدم اللعب، كما هنا . وتارة قدم اللهو كما فى العنكبوت(١) . ولهذا التفنن نكتة مذكورة فى (درة التأويل) ملخصها : أن الفرق بين اللهو واللعب ، مع اشتراكهما فى أنهما الاشتغال بما لا يعنى العاقل ويهمه من هوى أو طرب ، سواء كان حراماً أم لا ؛ أن اللهو أعم من اللعب ، فكل لعب لهو ، ولا عكس . فاستماع الملاهى لهو ، وليس بلعب . وقد فرقوا بينهما أيضاً بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة ، والاسترواح به ، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب ، وإن لم يقصد به

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٤] ونصها : وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ذلك ، كما نقل عن أهل اللغة ، قالوا : واللهو، إذا أطلق، فهو اجتلاب المسرة بالنساء ، كما قال امرؤ القيس(١) :

ألا زعمت بَسْبَاسَةُ اليومَ أنني كَبِرْتُ وأن لايحسنُ اللهوَ أمثالى

وقال قتادة : اللهو، فى لغة اليمن (المرأة). وقيل: اللعب طلب: المسرة والفرح بما لايحسن أن يطلب به . واللهو : صرف الهم بما لايصلح أن يصرف به .

ولما كانت الآية ردًّا على الكفرة فى إنكار الآخرة ، وحصر الحياة فى الحياة الدنيا ، وليس فى اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية ـ قدم اللعب الدال على ذلك ، وتمم باللهو . وأما فى العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها ، بالقياس إلى الآخرة. ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير. والاشتغالُ باللهو، مما يقصر به الزمان ، وهو أدخل من اللعب فيه . وأيام السرور قصار ، كما قال :

وليلةٍ إحدى الليالى الزُّهْرِ لم تك غير شَفَقٍ وفجر

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أيها الطَّلَلُ البالى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالى

قال السندوبىّ : بسباسة إحدى صواحباته التى يتغزل بهن .

لا يحسن اللهو (ويروى : لا يحسن السرّ) وهو ما يكون بين الرجل والمرأة .

وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب :

ويروى السرّ ، وهو النكاح .

وأمثال جمع مثل ، أراد أمثالى من الرجال .

ومعنى البيت : أنه لما عيّرته وقالت له : كبرتَ وشُغِلتَ عن اللهو . ولا يحسن أمثالك من الرجال اللهو ، وإذا لم يحسنه أمثالك فأنت لا تحسنه .

وإذا قالت العرب (مثلك لا يحسن كذا) فإنما هو على طريقة التعظيم أن يذكروا مثله ولا يذكروه .

الثالثة :

فى قوله تعالى (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين، لعب ولهو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ)

وقوله تعالى « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ » قرئ بفتح الياء وضمها ، « الَّذِى يَقُولُونَ » أى : يقولونه فيك ، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لتسليته ﷺ عن الحزن الذى يعتريه ، مما حكى عن الكفرة من الإصرار على التكذيب ، والمبالغة فيه ، ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانةمن الله عز وجل ، وأن ما يفعلونه فى حقه فهو راجع إليه تعالى فى الحقيقة ، وأنه ينتقم منهم أشد انتقام . وكلمة (قَدْ) لتأكيد العلم بما ذكر ، المفيد لتأكيد الوعيد .

وقوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » الفاء للتعليل ، لأن قوله تعالى : (قَدْ نَعْلَمُ) بمعنى لا تحزن ، كما يقال فى مقام المنع والزجر : نعلم ما تفعل ! ووجّه التعليلَ فى تسليته له ﷺ بأن التكذيب فى الحقيقة لى ، وأنا الحليم الصبور ، فتخلق بأخلاق .

قال أبو السعود : وهذا يفيد بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ، ورفعة المحل ، والزلفى من الله عز وجل ، إلى حيث لا غاية وراءه ، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه ، على طريقة قوله تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)(١)، بل نفى تكذيبهم عنه ، وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ

(١) [٤ / النساء / ٨٠] . . . وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)[١] إيذانا بكمال القرب، واضمحلال شؤونه عليه الصلاة والسلام في شأن الله عز وجل . وفيه استعظام لجنايتهم، منبئ عن عظم عقوبتهم. وقيل: المعنى: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم،عناداً أومكابرة. ويعضده ماروى سفيان الثورىّ عن أبي إسحاق عن ناجية عن علىّ رضى الله عنه قال: قال أبو جهل للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) الآية ـ رواه الحاكم وصححه .

وروى ابن جرير[٢] عن السدىّ قال : لما كان يوم بدر ، خلا الأخنس بأبى جهل فقال : ياأبا الحكم ! أخبرنى عن محمد ، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش غيرى وغيرك يستمع كلامنا، فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنوقصىّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) فآيات الله محمد ﷺ .

قال الرازىّ : وهذا القول غيرمستبعد ، ونظيره قوله تعالى[٣] فى قصة موسى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) . وقيل : المعنى فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ، ولكنهم يجحدون بآيات الله . كما يروى أن أباجهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكننا نكذب ما جئتنا به .

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . . . يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) الأثر رقم ١٣١٩٣ من التفسير .

(٣) [٢٧ / النمل / ١٤] . . . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

قال أبو السعود : وكأن صدق المخبر عند الخبيث ، بمطابقة خبره لاعتقاده . والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية . وقرئ « لَا يُكْذِبُونَكَ » من (أكذبه) ، بمعنى وجده كاذباً ، أو نسبه إلى الكذب ، أو بيّن كذبه ، وقال : أكذبه وكذبه بمعنى ـ كذا فى القاموس وشرحه ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ)

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ » افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام ، فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين . وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، فى الصبر على ماأصابهم من أممهم ، من فنون الأذية . وعدة ضمنية له ﷺ بمثل مامُنِحُوه من النصر. وتصديرُ الكلام بالقسم ، لتأكيد التسلية . وتنوين (رسل) للتفخيم والتكثير ـ أفاده أبو السعود ـ .

قال الزمخشرىّ : فى قوله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ) دليل على أن قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) ليس بنفى لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لغلامك : ما أهانوك ، ولكنهم أهانونى ! انتهى .

وناقشه الناصر فى (الانتصاف) بأنه لا دلالة فيه ، لأنه مؤتلف مع نفى التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين . أى : هؤلاء لم يكذبوك ، فحقك أن تصبر عليهم ، ولا يحزنك أمرهم . وإذا كان مَن قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم ، فصبروا عليهم ، وأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد ائتلف، كما ترى، بالتفسيرين جميعا . ولكنه من غير الوجه الذى استدل به ، فيه تقريب لما اختاره ، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها

فى نحو قوله تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) فسلاه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبيائهم . وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع ، مؤيد بالنظائر ـ والله أعلم ـ .

« فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا » أى على تكذيبهم وإيذائهم ، فتأسّ بهم « حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى : لمواعيده ، من قوله : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)(٢) ،وقوله (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)(٣) .

« وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ » أى من خبرهم فى مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلابد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إمهالهم لإهمالهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ،وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ » أى : شق وثقل ، « عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ » أى : عن الإيمان بما جئت به من القرآن ، ونأيهم عنه ، ونهيهم الناس عنه ، « فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ » أى سربًا ومنفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض ، حتى تطلع لهم آية يؤمنون

(١) [٣٥ / فاطر / ٤] . . . وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧١و١٧٢] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . . . إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

بها ، « أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ » أى مصعدا تعرج به فيها ، « فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ » أى : مما اقترحوه ، فافعل. وحَسُنَ حذف الجواب لعلم السامع به . أى : لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضروريا غير نافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ » أى : ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاية قهره ، وغاية لطفه ، « فَلَا تَكُونَنَّ » أى : بالحرص على إيمانهم ، أو الميل إلى نزول مقترحهم « مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى : بما تقتضيه شؤونه تعالى ، التى من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم . إما اختيارا ، فلعدم توجههم إليه . وإما اضطرارا ، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار .

تنبيهات

الأول ـ فى هذه الآية مالا يخفى من الدلالة على المبالغة فى حرصه ﷺ على إسلام قومه، وترامیه علیه ، إلى حيث لو قدَرَ أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء، لأتى بها. رجاءَ إيمانهم ، وشفقة عليهم .

الثانى ـ قال الناصر فى (الانتصاف) : هذه الآية كافلة بالرد على القدرية فى زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بـ (لو) ، ومقتضاها امتناع جوابها ، لامتناع الواقع بعدها . فامتناع اجتماعهم على الهدى ، إذاً إنما كان لامتناع المشيئة . فمن ثم ترى الزمخشرىّ يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة ، لا يكون الإيمان معها اختيارا، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وأن مشيئته اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ، ثابتة غير ممتنعة، ولكن لم يقع متعلقها . وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها ـ والله الموفق ـ .

الثالث ـ لم يقل (لَا تَكُنْ جَاهِلًا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل ، تعظيما لنبيه ﷺ

بأن لم يُسْنَد الجهل إليه ، للمبالغة فى نفيه عنه . وما فيه من شدة الخطاب ، سرُّه تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزعُ فى مواطن الصبر ، مما لا يليق إلا بالجاهلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ. وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

وقوله تعالى « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » تقرير لما مرّ من أن على قلوبهم أكنة ، وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى ، لا يتصور منهم الإيمان البتة . أى : إنما يستجيب لك ، بقبول دعوتك إلى الإيمان ، الأحياء الذين يسمعون ما يلقى إليهم ، سماع تفهم ، دون الموتى الذين هؤلاء منهم . كقوله تعالى (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ)(١) وإن كانوا أحياء بالحياة الحيوانية ، أموات بالنسبة إلى الإنسانية ، لموت قلوبهم بسموم الاعتقادات الفاسدة ، والأخلاق الرديئة .

و (الْمَوْتَىٰ) مبتدأ . يعنى : الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، يبعثهم الله يوم القيامة ، ثم إليه يرجعون ، فيجزيهم بأعمالهم . فالموتى مجاز عن الكفرة كما قيل :

لا يُعْجِبَنَّ الجهولَ بِزَّتُهُ فذاك مَيْتٌ ثِيَابُهُ كَفَنُ

قيل : فيه رمز إلى أن هدايتهم كبعث الموتى ، فلا يقدر عليه إلا الله . ففيه إقناط للرسول ﷺ عن إيمانهم . وفى تسميتهم (موتى) من التهكم بهم ، والإزراء عليهم ، ما لا يخفى .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٨٠] . . . وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَقَالُوا » يعنى : مشركى مكة ، بيان لنوع آخر من تعنتهم ، إذ لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخرّ لها صمّ الجبال ، « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى: خارق، على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتمنتون . كقولهم[1](وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ...) الآيات .

« قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى : إن اقتراحها جهل ، لما أن فى تنزيلها قلعاً لأساس التكليف ، المبنىّ على قاعدة الاختيار . أو استئصالا لهم بالكلية ، فإن من لوازم جحد الآية الملجئة، الهلاكُ ، جريا على سنته تعالى فى الأمم السالفة . وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم، لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ » أى: مستقرة فيها ، لا ترتفع عنها « وَلَا طَائِرٍ » يرتفع عنها إذ « يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » أى : أصناف مصنفة فى ضبط أحوالها ، وعدم إهمال شىء منها ، وتدبير شؤونها ، وتقدير أرزاقها .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ » أي : ما تركنا ، وما أغفلنا ، في لوح القضاء المحفوظ ، « مِنْ شَيْءٍ » أي : جليل أو دقيق ، فإنه مشتمل على مايجرى فى العالم ، لم يهمل فيه أمر شىء : والمعنى : أن الجميع علمهم عند الله ، لا ينسى واحداً منها من رزقه وتدبيره . كقوله: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(١) أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانّها، وحاصر لحركاتها وسكناتها. «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » يعني : الأمم كلها، من الدوابّ والطير، فينصف بعضهم من بعض، حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجمّاء من القرناء . وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء ، لإجرائها مجراهم .

تنبيهـــات

الأول ـ قال الزمخشريّ : إن قلت : فما الغرض فى ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لمـا لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لايشغله شأن عن شأن ، وأن المـكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان .

وقال الرازيّ : المقصود أن عناية الله لما كانت حاصلة لهذه الحيوانات ، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة، لأظهرها ، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية .

وقال القاضى : إنه تعالى لما قدم ذكر الـكفار ، وبيّن أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون ، بيّن بعده بقوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ..) إلخ، أن البعث حاصل فى حق البهائم أيضاً .

الثاني ـ زيادة (مِنْ) فى قوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ) لتأكيد الاستغراق . و (فِي) متعلقة بمحذوف هو وصف لـ(دَابَّةٍ) مفيد لزيادة التعميم . كأنه قيل : وما فرد من

(١) [١١ / هود / ٦] .

أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الأرض . وكذا زيادة الوصف فى قوله : (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) .

قال فى الانتصاف : فى وجه زيادة التعميم ، أن موقع قوله : (فِي الْأَرْضِ) و (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) موقع الوصف العام ـ وصفة العام عامة ـ ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة ، تضافرت صفتان عامتان .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : إن قلت : كيف قيل (الأمم) مع إفراد الدابة والطائر ؟ قلت : لمّا كان قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ) دالاًّ على معنى الاستغراق، ومغنياً عن أن يقال : وما من دوابّ ولا طير ، حمل قوله : (إِلَّا أُمَمٌ) على المعنى .

الرابع ـ دلت الآية على أن كل صنف من البهائم أمة ، وجاء فى الحديث : لولا أن الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها ـ رواه أبوداود[1] والترمذىّ عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه ـ .

الخامس ـ ماذكرناه فى معنى مماثلة الأمم لنا، من تدبيره تعالى لأمورها ، وتكفله برزقها ، وعدم إغفال شىء منها ، مما يبيّن شمول القدرة ، وسعة العلم ـ هو الأظهر . موافقة لقوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا . . .)[2] الآية ـ والقرآن يفسر بعضه بعضاً . ونقل الواحدىّ عن ابن عباس أن المماثلة هى فى معرفته تعالى ، وتوحيده وتسبيحه وتحميده . كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[3] ، وقوله :

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢٢ ـ باب فى اتخاذ الكلاب للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

والترمذىّ فى : ١٦ ـ كتاب الصيد ، ١٦ ـ باب ما جاء فى قتل الكلاب .

(٢) [١١ / هود / ٦] .

(٣) [١٧ / الإسراء /٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)[١] .

وعن أبي الدرداء قال : أبهمت عقول البهائم عن كل شئ ، إلا عن أربعة أشياء : معرفة الإله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه .

وقيل : المماثلة فى أنها تحشر يوم القيامة كالناس .

أقول : لا شك فى صحة الوجهين بذاتهما ، وصدق المثلية فيهما ، ولكن الحمل عليهما يُبعده عدم ملاقاته للآية الأخرى . فالأمسّ ، تأييداً للنظائر ، ماذكرناه أولاً ـ والله أعلم ـ .

السادس ـ ما بيناه فى معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ فى العرش ، وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام ـ هو الأظهر ، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييداً للنظائر القرآنية . ولم يذكر الإمام ابن كثير سواه ، على توسعه .

وقيل : المراد منه القرآن كقوله تعالى(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)[٢] .

قال الخفاجىّ : قيل: حمله على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده . ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئاً من الحجج وغيرها إلا ذكرناه ، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه ، ويكذب بآياتنا ؟ فالكلام بعضه آخذ بحجز بعض بلا شبهة .

وقال أبو السعود : أى ما تركنا فى القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التى من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته .

قال الشهاب فى قول البيضاوىّ (فإنه قد دوّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلًا

(١) [٢٤ / النور / ٤١] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل/ ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

أو مجملًا) : يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن ، لإشارته بنحو قوله[1] : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) إلى القياس. وقوله (وَمَاءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)[2] إلى السنّة. بل قيل : إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه . كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبخ الحلوى ، أين ذكر في القرآن ؟ فقال : في قوله تعالى[3] (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) انتهى .

واستظهر الرازيّ أن المراد (بالكتاب) القرآن . واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد ، انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هوالقرآن . فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن . إذا ثبت هذا ، فلقائل أن يقول : كيف قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) مع أنه ليس فيه تفاصيل علم

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] ونصها : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٣) [١٦/ النحل/ ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الطب ، وتفاصيل علم الحساب ، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم . وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم فى علم الأصول والفروع ؟ .

والجواب : أن قوله : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التى يجب معرفتها ، والإحاطة بها ، وبيانه من وجهين :

الأول ـ أن لفظ (التفريط) لايستعمل نفيا وإثباتا ، إلا فيما يجب أن يبين ، لأن أحدا لاينسب إلى التفريط والتقصير فى أن لايفعل ما لا حاجة إليه ، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

الثانى ـ أن جميع آيات القرآن ، أو الكثير منها ، دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ، ومعرفة الله ، ومعرفة أحكام الله . وإذا كان هذا التقييد معلوما من كل القرآن ، كان المطلق ههنا محمولا على ذلك المقيّد . أما قوله : إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع ، فنقول : أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه، لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه. فأما روايات المذاهب، وتفاصيل الأقاويل ، فلا حاجة إليها . وأما تفاصيل علم الفروع ، فقال العلماء : إن القرآن دل على أن الإجماع ، وخبر الواحد ، والقياس ، حجة فى الشريعة . فكل مادل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة، كان ذلك فى الحقيقة موجودا فى القرآن .

وذكر الواحدىّ رحمه الله لهذا المعنى أمثلة ثلاثة :

المثال الأول ـ روى أن ابن مسعود(١) كان يقول : مالى لا ألعن من لعنه الله فى كتابه؟

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٤ ـ باب وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .

عن عبد الله قال : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتفلّجات للحسن المغيّرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأةً من بنى أسد يقال لها : أمّ يعقوب . =

يعنى : الواشمة والمستوشمة ؛ والواصلة والمستوصلة ،

وروى أن امرأة قرأت جميع القرآن ، ثم أتته ، فقالت : يابن أم عبد ! تلوت البارحة ما بين الدفتين ، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة ! فقال . لو تلوتيه لوجدتيه ، قال الله تعالى : (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وإن مما آتانا به رسول الله أنه قال : لعن الله الواشمة والمستوشمة .

قال الرازىّ : وأقول : يمكن وجدان هــــذا المعنى فى كتاب الله بطريق أوضح من ذلك ، لأنه تعالى قال فى سورة النساء (وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا*لَعَنَهُ اللَّهُ .)(١) فحكم

= فجاءت فقالت : إنه بلغنى إنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، ومن هو فى كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول .

قال : لئن كنتِ قرأتيهِ ، لقد وجدتيهِ . أما قرأتِ : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟

قالت : بلى .

قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإنى أرى أهلك يفعلونه .

قال : فاذهبى فانظرى .

فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً .

فقال : لو كانت كذلك ما جامَعَتْنَا .

وأخرجه مسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس والزينة ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(١) [٤ / النساء / ١١٧، ١١٨] ونصها : إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا . . .

عليه باللعن ، ثم عدّد بعده قبائح أفعاله ، وذكر من جملتها قوله[١] ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ﴾ . وظاهر هذه الآية يقتضى أن تغيير الخلق يوجب اللعن . انتهى .

قلت : وتتمة الحديث تؤيد ذلك أيضاً . ولفظه : لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله ـ رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود[٢] ـ .

ثم قال الرازىّ :

المثال الثانى ـ ذكر أن الشافعىّ رحمه الله كان جالساً فى المسجد الحرام فقال: لا تسألونى عن شىء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى . فقال رجل : ما تقول فى المُحْرِم إذا قتل الزنبور ؟ فقال : لا شىء عليه . فقال : أين هـذا فى كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : « وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » ثم ذكر إسناداً إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . ثم ذكر إسنادا إلى عمر رضى الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور . قال الواحدىّ : فأجابه من كتاب الله مستنبطاً بثلاث درجات .

وأقول . ههنا طريق آخر أقرب منه ، وهو أن الأصل فى أموال المسلمين العصمة . قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[٣] . وقال : ﴿ لَا يَسْأَلْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١١٩] ونصها : وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِيناً .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٠١ .

(٣) [٢/ البقرة/ ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا =

أَمْوَالَكُمْ)(١) وقال (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)(٢) فنهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة ، فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة . وهذه العمومات تقتضى أن لا يجب على المحرم الذى قتل الزنبور شىء ، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة .

المثال الثالث ـ قال الواحدىّ: روى فى حديث العسيف الزانى(٣) أن أباه قال للنبىّ ﷺ : اقض بيننا بكتاب الله . فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده! لأقضينّ بينكما بكتاب الله .

= إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٦] ونصها : إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

(٣) أما حديث العسيف فهاكوه بنصه الكامل :

فقد أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٠ ـ باب الاعتراف بالزنى ، حديث ١١٥٤و١١٥٥ .

عن أبى هريرة وزيد بن خالد قالا : كنا عند النبىّ ﷺ ، فقام رجل فقال: أنشدك الله إلّا قضيت بيننا بكتاب الله .

فقام خصمه ، وكان أفقه منه ، فقال : اقض بيننا بكتاب الله وأذن لى .

قال « قل » .

قال : إن ابنى كان عسيفاً على هذا ، فزنى بامرأته . فافتديت منه بمائة شاة وخادم . =

ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة إن اعترفت. قال الواحدى : وليس للجلد والتغريب ذكر فى نص الكتاب . وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبى ﷺ فهو عين كتاب الله . قال الرازى : وهذا حق ، لأنه تعالى قال : (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ، وكل ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام كان داخلا تحت هذه الآية . انتهى .

وبالجملة، فالقرآن الكريم كلية الشريعة ، والمجموع فيه أمور كليات ، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله ، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها ، وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال . وقد جوّد البحث فى هذه المسألة المهمة، العلامة الشاطبىّ فى (الموافقات) فى الطرف الثانى ، فى الأدلة على التفصيل . فارجع إليه .

وقد نقلنا شذرة منه فى مقدمة هذا التفسير . فتذكر !

السابع ـ قال أبو البقاء: (مِنْ) فى قوله تعالى (مِنْ شَيْءٍ) زائدة . و(شىء) هنا واقع موقع المصدر . أى : تفريطاً . وعلى هذا التأويل لا يبقى فى الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوى على ذكر كل شىء صريحا . ونظير ذلك : لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)(٣) . أى :

= ثم سألت رجالا من أهل العلم فأخبرونى ؛ أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم .

فقال النبىّ ﷺ « والذى نفسى بيده ! لأقضينّ بينكما بكتاب الله ، جلّ ذكره . المائة شاة والخادم ردٌّ . وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد ، يا أُنَيْس! على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها » .

فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها .

وأخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٠] ونصها : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ =

ضررا . وقد ذكرنا له نظائر . ولا يجوز أن يكون (شَيْئًا) مفعولا به ، لأن (فَرَّطْنَا) تتعدى بنفسها ، بل بحرف الجر، وقد عديت بـ (فِي)إلى(الْكِتَابِ) ، فلا تتعدى بحرف آخر . ولا يصح أن يكون المعنى : ما تركنا فى الكتاب من شىء ، لأن المعنى على خلافه ، فبان أن التأويل ما ذكرنا . انتهى .

وقال الخفاجىّ : التفريط التقصير . وأصله أن يتعدى بـ (فى) وقد ضمن هنا معنى (أَغْفَلنَا وَتَرَكْنَا) . فـ (مِنْ شَىْءٍ) فى موضع المفعول به ، و (مِنْ) زائدة . والمعنى : ماتركنا فى الكتاب شيئاً يحتاج إليه من دلائل الألوهية والتكاليف .

هذا ما ارتضاه أبو حيان والزمخشرىّ ، وعدل عنه البيضاوىّ . لأنه لا يتعدى . فجعل التقدير (تفريطاً) فحذف المصدر ، وأقيم (شيئاً) مقامه ، وتبع فيه أبا البقاء ، إذ اختار هذا ، وأورد عليه فى (الملتقط) أنه ليس كما ذكر ، لأنه إذا تسلط النفى على المصدر ، كان منفيا على جهة العموم ، ويلزمه نفى أنواع المصدر ، ونفى جميع أفراده ، وليس بشىء ، لأنه يريد أن المعنى حينئذ : أن جميع أنواع التفريط منفية عن القرآن ، وهو مما لا شبهة فيه ، ولا يلزمه أن يذكر فيه كل شىء كما لزم على الوجه الآخر ، حتى يحتاج إلى التأويل . كما أن نفى تعديه لا يضر من قال إنه مفعول به على التضمين ، كما مر . وأما ما قيل : إن (فرط) يتعدى بنفسه،لماوقع فىالقاموس(فرط الشىء،وفرطفيه تفريطاً ضيعهوقدمالعجز فيهوقصر)فلا نسلمأنه يتعدى بنفسه. وتفردُ صاحب القاموس بأمر، لا يسمع فى مقابلة الزمخشرى وغيره . مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضعية ، بل مجازية ، أو بطريق التضمين ـ انتهى كلام الشهاب ـ .

أقول : ما للمجد فى القاموس ، ليس من تفرداته وعندياته ، إذ اللغة مرجعها السماع ،

= تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

لا الاجتهاد . وموازنته بين الزمخشرىّ وغيره ، من باب معرفة الحق بالرجال ، الذى الصواب عكسه . على أنه ليس فى (الكشاف) ما يقتضى مازعمه . وقد استشهد شارح القاموس ، الزبيدىّ شاهدا على تعديته بنفسه ، تأييدا لكلام المجد ، قول صخر الغىّ(١) :

ذلك بَزِّى فلن أُفَرِّطَهُ أخاف أن يُنجزوا الذى وعدوا

قال ابن سيدة : يقول . لا أضيعه ، وقوله : بزى ، أراد سلاحى. ثم قال الزبيدىّ: وقال أبو عمرو : فرطتك فى كذا وكذا ، أى تركتك . وبه فسر أيضاً قول صخر . انتهى .

وأنشد أبو السعود قول ساعدة بن جُؤَيَّة (٢) :

* معه سِقاءٌ لا يفرِّط حمله *

أى : لا يتركه .

وبه يعلم سقوط ما لأبى البقاء ، وسقوط دعوى أن أصله أن يتعدى بـ (فى) ودعوى التضمين السابقة ، وتكلف كون (شَىْءٍ) واقعا موقع المصدر .

هذا وقرىء (فَرَطْنَا) بالتخفيف، وهو بمعنى المشدّد . وإنما توسعنا فيما روى على القول الثانى فى معنى الكتاب، لشهرة الآية فى هذا المعنى ، وإن كان الأظهر الأول ، لما ذكرناه ، ولأن السورة مكية ، والأحكام فيها لم تتم ـ والله أعلم ـ .

الثامن ـ دلت الآية على حشر الدوابّ والبهائم والطير كلها ، أى : بعثها يوم القيامة . كقوله تعالى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)(٣) .

وروى الإمام أحمد(٤) عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين

(١) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا أخلّفه فأتقدم عنه . وقال ابن سيده . يقول : لا أضيّعه . وقيل : معناه لا أقدمه وأتخلّف عنه .

(٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا يترك حمله ولا يفارقه .

(٣) [٨١ / التكوير / ٥] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

تنتطحان ، فقال : يا أباذر ! هــل تدرى فيم تنتطحان ؟ قال : لا. قال : لـكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما . ورواه عبدالرزاق وابن جرير[1] ، وزاد : قال أبو ذر : ولقد تركنا رسولُ الله ﷺ، ومايقلّب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما .

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد[2] فى مسند أبيه عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال : إن الجماء لتُقَصّ من القرناء يوم القيامة .

وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة فى هــذه الآية قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : الدوابّ والبهائم والطير وكل شىء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى تراباً ! فلذلك يقول الـكافر: « يَا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَاباً ». وقدروى هذا مرفوعاً فى حديث الصور . أفاده ابن كثير .

قلت : روى الإمام أحمد[3] ، والبخارىّ فى (الأدب المفرد) ومسلم[4] والترمذىّ[5] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء ، من الشاة القرناء ، تنطحها .

---

(١) الأثر رقم ١٣٢٢٣ من التفسير .

وفى المسند بالصفحة ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٢٠ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٢٠٣ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٢ ـ باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : حشرها الموت . وروى عن مجاهد والضحاك مثله . والأول أظهر .

التاسع ـ (في الإكليل) : استدل بهذه الآية على مسألة أخرى ، أخرجه أبو الشيخ عن أنس أنه سئل : من يقبض أرواح البهائم ؟ قال : ملك الموت . فبلغ الحسن فقال : صدق ! وإن ذلك في كتاب الله . ثم تلا هذه الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ » أي : مثلهم في جهلهم ، وعدم فهمهم ، وسوء حالهم ، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذي لا يسمع) والبكم (جمع أبكم ، وهو الذي لا يتكلم) . وهم مع ذلك في ظلمات لا يبصرن . فكيف يهتدي مثلهم إلى الطريق ، أو يخرج عما هو فيه ؟ وقد كثر تشبيههم بذلك في التنزيل ، إعلاماً ببيان كمال غراقتهم في الجهل ، وانسداد باب الفهم والتفهيم بالكلية .

ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله « مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أي : فهو المتصرف في خلقه بما يشاء ، فمن أحب هدايته ، وفقه بفضله وإحسانه للإيمان . ومن شاء ضلالته تركه على كفره . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

ثم أمر تعالى رسوله بأن يبكتهم بما لا سبيل لهم إلى إنكاره ، ببيان أنهم إذا نزلت بهم شدة ، فإنهم يفزعون إليه تعالى ، لا إلى الأصنام ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ » أى: أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ » أى: مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة ، « أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ » يعنى القيامة «أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ » أى: فى كشف العذاب عنكم . وهذا محطّ التبكيت . أى : أتخصون آلهتكم بالدعوة إلى رفع تلك الشدة ، بل لا تدعونها مع الله أيضاً « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » متعلق بـ (أَرَأَيْتَكُمْ) مؤكد للتبكيت ، كاشف عن كذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

« بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ » أى : تخصون بالدعوة « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » أى : إن شاء كشفه . والتقييد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير مطّردة ، بل هى تابعة لمشيئته تعالى ، المبنية على حِكَمٍ استأثر بعلمها « وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » أى : تتركون ما تشركون تركاً كليًّا لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع . عطف على (تَدْعُونَ) ، وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما، وتأخر الكشف عنهما، لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة .

ثم بين تعالى أن من كفار الأمم السالفة من بلغوا فى القسوة إلى أن أخذوا بالشدائد ليخضعوا ويلتجئوا إلى الله تعالى ، فلم يفعلوا . تسليةً لنبيه ﷺ فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ» أى : رسلًا ، فكذبوهم ولم يبالوا، لكونهم فى الرخاء ، « فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ » أى : الشدة والقحط ، « وَالضَّرَّاءِ » أى : المرض ونقصان الأنفس والأموال « لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ » أى : يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم ، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » أى : بالتوبة والتمسكن . ومعناه. نفى التضرع. كأنه قيل : فلم يتضرعوا . وجئ بـ (لَوْلَا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم ، كما قال «وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» فلم يكن فيها لين يوجب التضرع ، ولم ينزجروا وإنما ابتلوا به ، « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : من الشرك . فالاستدراك على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع ، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم المزينة لهم .

لطيفة :

إن قلت : قد أسند تعالى هنا التزيين إلى الشيطان ، وأسنده إلى نفسه فى قوله : وَكَذَٰلِكَ (زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ)(١) فهل هو حقيقة فيهما ، أو فى أحدهما ؟ قلت : وقع التزيين

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ =

فى مواقع كثيرة : فتارة أسنده إلى الشيطان، كالآية الأولى ، وتارة إلى نفسه كالثانية، وتارة إلى البشر كقوله (زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ)[١] ـ فى قراءة ـ وتارة مجهولا غير مذكور فاعله كقوله (زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ)[٢] ، لأن التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة : أحدها : إيجاد الشيء حسناً مزيناً فى نفس الأمر ، كقوله : (زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا) ، والثانى : جعله مزيناً من غير إيجاد ، كتزيين الماشطة العروس ، والثالث : جعله محبوباً للنفس ، مشتهى للطبع ، وإن لم يكن فى نفسه كذلك . فهذا إن كان بمعنى خلق الميل فى النفس والطبع لا يسند إلا إلى الله ، لأنه الفاعل له حقيقة ، لإيجاده له ، ولغة ونحواً لا تصافه بخلقه . وإن كان بمجرد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه ، كالوسوسة والإغواء،

= فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٧] ونصها : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها: وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٦] ونصها : إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ .

و [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

و [٦٧ / الملك / ٥] ونصها: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

فهذا لا يسند إليه تعالى حقيقة ، وإنما يسند إلى البشر أوالشيطان . وإذا لم يذكر فاعله، يقدّر في كل مكان ما يليق به ـ كذا في (العناية) ـ .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » أي : من البأساء والضراء ، أي تركوا الاتعـاظ به « فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أي : من النعم ، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن، وصنوف رغائبهم، استدراجاً وإملاءً ومكراً بهم ، عياذاً بالله من مكره ، « حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا » من مطالبهم ورغائبهم، مع الشرك « أَخَذْنَاهُمْ » أي : بالعـذاب المستأصل ، « بَغْتَةً » أي : فجأة بلاتقديم مذكّر، إذلم يفدهم في المرة الأولى ، « فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » متحسرون، يئسون من كل خير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أي : آخرهم . كناية عن الاستئصال ، لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ماقبله . وهو من (دَبَرَهُ) إذا تبعه ، فكان في دُبُرِهِ . أي : خلفه . فالدابر ما يكون بعدالآخر ، ويطلق عليه تجوّزاً . وقال أبوعبيد: دابر القوم آخرهم . وقال الأصمعيّ : الدابر الأصل ، ومنه : قطع الله دابره ، أي : أصله .

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أي : على ما جرى عليهم من الهلاك . فإن إهـلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض ، من شؤم عقائدهم وأعمالهم ، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها ، لاسيما مع مافيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم،عليهم السلام .

تنبيهات

الأول ـ روى فى هذه الآية أخبار وآثار . منها ما أخرجه الإمام أحمد[(١)] عن عقبة بن عامر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ ... إلى .. هم مُبْلِسُونَ » ورواه ابن جرير[(٢)] وابن أبى حاتم عنه .

وروى ابن أبى حاتم أيضاً عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم (أَوْ فتح عَلَيْهِمْ) باب خيانة، حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ... الآية . ورواه أحمد وغيره .

وقال الحسن البصريّ : من وسع الله عليه ، فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأى له . ومن قتّر عليه ، ولم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له . ثم قرأ . « فَلَمَّا نَسُوا ... » الآية ـ قال الحسن : مكر بالقوم، ورب الكعبة ! أعطوا حاجتهم ثم أخذوا .

وقال قتادة : بغت القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ـ روى ذلك ابن أبى حاتم ـ

الثانى ـ قال الرازيّ : قال أهل المعانى : وإنما أخذوا فى حال الرخاء والراحة ليكون أشد، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية .

الثالث ـ قال الزمخشريّ : فى قوله تعالى (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجل النعم ، وأجزل القسم . أى : فهو إخبار بمعنى الأمر ، تعليماً للعباد .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) الأثر رقم ١٣٢٤١ من التفسير .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ونظيرها قوله تعالى[(1)] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ . قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ)فيمن وقف هنا ، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين . ومنهم من وقف على (الْمُنذَرِينَ) وجعل الحمد متصلاً بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون. فعلى الأول يكون الحمد ختماً ، وعلى الثانى فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعاً ، ولكنه فى آية النمل أظهر فى كونه مفتتحاً لما بعده ، وفى آية الأنعام ختم لما تقدمه حتماً ، إذ لا يقتضى السياق غير ذلك . انتهى .

قلت : إذا جرينا على ما هو الأسدّ فى الآى من توافق النظائر ، اقتضى حمل آية النمل على ما هنا ، وإدعاء الأظهرية فيها ممنوع ، فإن التنزيل يفسر بعضه بعضاً . فتأمل .ثم أمر تعالى رسوله بتكرير التبكيت عليهم . وتثنية الإلزام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)

بقوله تعالى: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » بأن أصمكم وأعماكم ، « وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم » بأن غطى عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم « مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ؟ » أى: بذلك المأخوذ. وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان ، وفسد أمره ، وبطلت مصالحه فى الدين والدنيا .

« انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى نوردها بطرق مختلفة، كتصريف الرياح. و(انظر) يفيد التعجيب من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة .

(١) [٢٧ / النمل / ٥٨و٥٩] . . . ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

« ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ » أى : بعد رؤيتهم تصريف الآيات يعرضون عنها ، فلا يتأملون فيها، عنادا وحسدا وكبرا .

تنبيهات

الأول ـ المراد بالآيات : إما مطلق الدلائل ، أو الدلائل القرآنية مطلقا ، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ، أو ما ذكر قبل هذا من المقدمات العقلية الدالة على وجود الصانع وتوحيده المشار إليها بقوله : إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ . . . الآية . ومن الترغيب بقوله : فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ، والترهيب بقوله : إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ . . . الآية . ومن التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين . ذهب إلى كلٍّ بعضٌ من المفسرين ، وعموم اللفظ يصدق على ذلك كله بلا تدافع .

الثانى ـ قال بعض المفسرين من الزيدية : دلت الآية على جواز الاحتجاج فى أمر الدين. انتهى. وهو ظاهر.

الثالث ـ المقصود من هذه الآية : بيان أن القادر على تحصيل هذه القوى الثلاث ، وصونها عن الآفات ، ليس إلّا الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المنعم بهذه النعم العالية ، والخيرات الرفيعة ، هو الله تعالى . فوجب أن يقال : المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى . وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة ـ قرره الرازىّ ـ .

ثم أشار تعالى إلى تبكيت لهم آخر بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِن أَتَاكُمْ » لإعراضكم عن الآيات بعد تصريفها « عَذَابُ اللهِ » أى : المستأصل لكم ، « بَغْتَةً » أى : فجأة من غير تقديم ما يشعر به ؛ إذ لم يفد ما تقدم ، «أَوْ جَهْرَةً » بتقديمه مبالغة فى إزاحة العذر . وقيل : ليلا أو نهارا ، كما فى قوله تعالى : بَيَاتاً أَوْ نَهَارًا ، لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة ، وفيما أتى نهارا الجهرة « هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ » أى : هل يهلك بذلك العذاب إلاأنتم؟ وَوَضَعَ الظاهرَ موضعه ، تسجيلاعليهم بالظلم ، وإيذاناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الإعراض عما صرف الله له من الآيات، موضع الإيمان

ثم أشار تعالى إلى وظيفة الرسل ، وتحقيق مافى عهدتهم ، لبيان أن ما يقترحه الكفار عليه ، ﷺ ، ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ » بالثواب لأهل الإيمان والأعمال الصالحة ، « وَمُنْذِرِينَ » بالعقاب لأهل الكفر والمعاصى ، « فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ » للأعمال والأخلاق ، فهم أهل البشارة ، « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى : من العذاب الذى أنذروا به دنيويًّا وأخرويًّا ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : بفوات مابشروا به من الثواب العاجل والآجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ » أى : الذى أنذروا به عاجلا أو آجلا « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » أى : عن أمر الله فى ترك الإيمان ، ومباشرة الأعمال الطالحة واكتساب الأخلاق الرديئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى : قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات ، وأخرى غير ذلك : لا أدعى أن خزائن رزق الله مفوضة إلىّ ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهبا ، وغير ذلك .

(والخزائن : جمع خزانة، وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء. وخَزْنُ الشىء إحرازه، بحيث لا تناله الأيدى) .

« وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ » أى : من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب أو نحوهما .

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » أى: حتى تكلفونى من الأفاعيل الخارقة للعادات مالا يطيقه البشر ، من الرقىّ فى السماء ونحوه ، أو تعدّوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى ، كما ينبئ عنه قولهم : مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . والمعنى : إنى لا أدعى شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة ، حتى تقترحوا علىّ ما هو من آثارها وأحكامها ،

وتجعلوا عدم إجابتى إلى ذلك، دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التى لاتعلق لها بشىء مما ذكر قطعا . بل إنما هى عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز وجل، والعمل بمقتضاه فقط ، كما ينبئ عنه قوله تعالى :

«إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ » أى: ماأتبع فيما أقول لكم إلا ما يوحى إلىّ من جهته تعالى ، شرفنى بذلك وأنعم به علىّ ، إذ يكشف لى عن الملائكة فيخبروننى .

ثم كرر الأمر تثنية للتبكيت بقوله :

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ » مثل للضال والمهتدى على الإطلاق . والاستفهام إنكارىّ، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ماذكر من الحقائق ، ومن يعلمها . وفيه من الإشعار بكمال ظهورها، ومن التنفير عن الضلال، والترغيب فى الاهتداء ـ مالايخفى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر . أى : أفلا تتفكرون فتهتدوا ، ولا تكونوا ضالين أشباه العميان .

تنبيهات :

الأول ـ جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) تبرؤًا من دعوى الألوهية، لأن قسمة الأرزاق بين العباد ، ومعرفة الغيب ، مخصوصان به تعالى . قال : ولذا كرر فى الملكية لفظ (وَلَا أَقُولُ) . والمعنى : لا أدعى الألوهية ولا الملكية .

وأورد على هذا أن المراد : لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقترحونه ، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية ، وإلا لقيل : لا أقول لكم إنى إله. كما قيل: ولا أقول لكم إنى ملك . وأيضاً فى الكناية عن الألوهية بـ (عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) ما لا يخفى من البشاعة ، بل هو جواب عن اقتراحهم عليه ﷺ أن يوسع عليهم خيرات الدنيا ـ كذا فى (العناية) ـ .

قال أبو السعود : وجعل هذا تبرؤًا عن دعوى الإلهية ، مما لاوجه له قطعاً .

الثانى ـ قال الجبائىّ : الآية دالة على أن الملَك أفضل من الأنبياء ، لأن المعنى : لا أدعى منزلة فوق منزلتى .ولولا أن الملك أفضل ، وإلا لم يصح ذلك .

قال القاضى : إن كان الغرض بما نفى طريقة التواضع ، فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفى قدرته على أفعال لا يقوى عليها إلا الملائـكة ، لم يدل على كونهم أفضل .

وقرر الزمخشرىّ الأول تأييدا لمذهبه فقال فى تفسير الآية : أى لا أدعى ما يستبعد فى العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله ، وهى قِسَمه بين الخلق وأرزاقه، وعلم الغيب، وإنى من الملائـكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى ، وأفضله ، وأقربه منزلة منه .أى: لم أدع إلهية ولا ملـكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائـكة، حتى تستبعدوا دعواى وتستنكروها ، وإنما أدعى ما كان مثله لـكثير من البشر ، وهو النبوة . انتهى .

وتعقبه الناصر فى (الانتصاف) بقوله : هو يبنى على القاعدة المتقدمة له فى تفضيل الملائـكة على الأنبياء . ولعمرى إن ظاهر هـــذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة فى الاستدلال بها . ولمخالفه أن يقول : إنما أوردت الآية ردًّا على الـكفار فى قولهم : مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ...) الآية ـ فردّ قولهم : (مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ)بأنه بشر ، وذلك شأن البشر ، ولم يدّع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائـكة على الأنبياء، لأنه لا خلاف أن الأنبياء، يأكلون الطعام ، وأن الملائـكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائـكة أفضل من الأنبياء .

وكذلك رد قولهم (أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ) بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به .

ثم قال الناصر رحمه الله : ولم يحسن الزمخشري في قوله (ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة) فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل كالملكية ، ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ. والمنزلة عبارة عن المحل الذي يُنزِل اللهُ فيه العبد من علوّ وغيره ، فإطلاقها على الإلٰهية تحريف. والله الموفق للصواب .

الثالث ـ قال الرازيّ : ظاهر قوله تعالى (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) يدل على أنه ﷺ لا يعمل إلا بالوحي ، وهو يدل على حكمين :

الأول ـ أن هذا النص يدل على أنه ﷺ لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام، وأنه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) .

الثاني ـ أن نفاة القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه ﷺ ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه ، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه ، بقوله تعالى : (فَاتَّبِعُوهُ) ، وذلك ينفي جواز العمل بالقياس . ثم أكد هذا الكلام بقوله : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ) وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى . والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير . ثم قال (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين، وأن لا يكون غافلا عن معرفته. انتهى.

وفي (فتح الرحمن) : تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء ، عملًا بما يفيده القصر في هذه الآية .

والمسألة مدونة في الأصول . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوتيت القرآن ومثله معه .

ثم لما أخبر تعالى : أن أولئك المشركين كالصم البكم العمى ، بل الموتى ، إذ لم يتعظوا بتصريف الآيات الباهرة، أمر بتوجيه الإنذار إلى من يتأثر بما يوحى إليه ، اطّراحاً لأولئك الفجار ،فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَأَنْذِرْ بِهِ » أي : بما يوحى ، المتقدم ذكره « الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ » يعني : من دون الله تعالى ، « وَلِيٌّ » أي : ناصر ينصرهم « وَلَا شَفِيعٌ » يشفع لهم وينجيهم من العذاب ، غيره تعالى (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أي : الاعتقادات الفاسدة ، والأعمال الطالحة ، والأخلاق الرديئة .

قال في (العناية) : خص بالذكر هؤلاء ، لأنهم الذين ينفعهم الإنذار ، ويقودهم إلى التقوى . وليس المراد الحصر حتى يرد أن إنذاره لغيرهم لازم أيضاً . انتهى .
وجملة (لَيْسَ لَهُمْ) في موضع الحال من (يُحْشَرُوا) ، فإن الخوف هو الحشر على هذه الحالة.
والمراد بـ (الولي) و (الشفيع) الآلهة التي كان المشركون يزعمون أنها شفعاؤهم ، وحينئذ فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة للمسلمين ، لأن شفاعة الرسل يومئذ إنما تكون بإذنه تعالى ، فكأنها منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

روى الإمام مسلم(١) عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر ، فقال له المشركون : اطرد هؤلاء يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ ... » الآية .

وأخرج نحوه الحاكم وابن حبان فى صحيحيهما .

وروى الإمام أحمد(٢) عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ ، وعنده خبّاب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل عليه القرآن : « وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » إلى قوله « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » .

ورواه ابن جرير(٣) عن ابن مسعود أيضاً قال : مرّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٥و٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٩٨٥ (طبعة المعارف) .

(٣) الأثر رقم ١٣٢٥٥ من التفسير .

وفيه : فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء من قومك ، أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم نتبعك ! فنزلت هذه الآية : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... »الآية .

ووراء ما ذكرنا، روايات لا تصحّ ولا يوثق بها .

إذا علمت ذلك تبين أنه ﷺ لم يطردهم بالفعل ، وإنما همّ بإبعادهم عن مجلسه آن قدوم أولئك ، ليتألفهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان ، فنهاه الله عن إمضاء ذلك الهمّ .

فماأورده الرازيّ من كونه ﷺ طردهم ، ثم أخذ يتكليف فى الجواب عنه ، لمنافاته العصمة على زعمه ، فبناء على واهٍ . والقاعدة المقررة أن البحث فى الأثر فرع ثبوته ، وإلا فالباطل يكفى فى رده، كونُه باطلًا . وقدأوضحت ذلك فى كتابى (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث).

والمعنى : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهـذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك . كقوله[1] : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

وقوله تعالى : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى يعبدونه ويسألونه ، « بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » قال سعيد بن المسيّب وغيره : المراد به الصلاة المكتوبة .

وقوله تعالى : « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » المراد بالوجه الذات ، كما فى قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ومعنى إرادة الذات الإخلاص لها ، والجملة حال من (يَدْعُونَ) أى : يدعون ربهم مخلصين له فيه ، وتقييده به لتأكيد عليّته للنهى ، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام، المضاد للطرد.

وقوله تعالى « مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ »،

(١) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

كقول نوح عليه السلام فى الذين قالوا[1] : (أَنُؤْمِنَ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) أى: إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس علىّ من حسابهم من شىء ، كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء .

قال العلامة أبو السعود : الجملة اعتراض وسط بين النهى وجوابه، تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوّغاً لطردهم من أقاويل الطاعنين فى دينهم ، كدأب قوم نوح حيث قالوا . (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) أى : ما عليك شىء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة ، حتى تتصدى له ، وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتك ، حسبما هو شأن منصب النبوة ، اعتبار ظواهر الأعمال ، وإجراء الأحكام على موجبها . وأما بواطن الأمر فحسابها على العليم بذات الصدور، كقوله تعالى (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي) وذكر قوله تعالى : (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) مع أن الجواب قد تم بما قبله ، للمبالغة فى بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ ، بنظمه فى سلك مالا شبهة فيه أصلًا ، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام، عليهم ، على طريقة قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[2] وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة

---

(١) [٢٦/ الشعراء/ ١١١ـ١١٣] وها كم نصها حسب الكتاب : قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي ، لَوْ تَشْعُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٤] ونصها : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٠ / يونس / ٤٩] ونصها: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٦ / النحل / ٦١] ونصها : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا =

جملةواحدة، لتأدية معنى واحد،على نهج قوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) فغيرحقيق بجلالة شأن التنزيل . انتهى .

والقول المذكور للزمخشرى ، حيث ذهب إلى أن الجملتين فى معنى جملة واحدة ، تؤدى مؤدَّى (وَلَا تَزِرُ) الآية ، وأنه لابد منهما .

هذا ، وقيل : الضمير للمشركين، والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ، ولا أنت بحسابهم، حتى يهمك إيمانهم ، ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين .

وأغرب المهايمى حيث قال : والعماة، لكونهم أرباب شرف ومال ، يكرهون مجالستهم ، لقلة شرفهم ومالهم ، فقال عز وجل لأشرف الناس : (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : ما يعود عليك من نقصهم فى الشرف والمال من شىء (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : وما يعود عليهم من كمالك فى الشرف والمال عليهم من شىء ، فإذا لم يلحقك نقصهم ، ولم يأخذوا كمالك بسلبه عنك ، فلاوجه لطردهم . انتهى .

وفيه بعدٌ ، لعدم ملاقاته لآية نوح السالفة . ولا يخفى مراعاة النظائر .

وفى (العناية) : قدم خطابه ﷺ فى الموضعين ، تشريفاً له . وإلا كان الظاهر (وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِكَ مِنْ شَيْءٍ) بتقديم (عَلَى) ومجرورها ، كما فى الأول . وفى النظم رد العجز على الصدر ، كما فى قوله : عادات السادات ، سادات العادات .

وقوله تعالى : « فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » الظلم : وضع الشىء فى غيرمحله، أى : فلا تهم بطردهم عنك ، فتضع الشىء فى غير موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ » هم الشرفاء « بِبَعْضٍ » وهم المستضعفون ، بما

= مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

مننا عليهم بالإيمان . وقوله : « لِيَقُولُوا » أى : الشرفاء « أَهَٰؤُلَاءِ » أى المستضعفون ، « مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ بَيْنِنَا » أى : بشرف الإيمان ، مع أن الشرفاء على زعمهم ، أولى بكل شرف ، فلو كان شرفاً لا نعكس الأمر ، فهو إنكار لأن يُخَصَّ هؤلاء من بينهم بإصابة الحق ، والسبق إلى الخير ، كقولهم : (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)(١) .

ثم أشار تعالى إلى أنه إنما منَّ عليهم بنعمة الإيمان ، لأنه علم أنهم يعرفون قدر هذه النعمة ، فيشكرونها حق شكرها . وأما أولئك ، فلا يعرفون قدرها ، فلا يشكرونها ، بقوله سبحانه «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ»؟ فهو ردٌّ لقولهم ذلك ، وإبطالٌ له ، وإشارةٌ إلى أن مدار استحقاق الإنعام، معرفة شأن النعمة، والاعتراف بحق المنعم . كما أن فيه من الإشارة إلى أن أولئك المستضعفين عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن، والتوفيق للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك ، مع التعريض بأن القائلين بمعزل عن ذلك كله ـ مالا يخفى.

قال الحافظ ابن كثير : إن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه فى أول بعثته ضعفاء الناس ، من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل . كما قال قوم نوح لنوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ...)(٢) الآية ـ وكما سأل هرقلُ(٣) ملكُ الروم أباسفيان ـ حين سأله عن تلك المسائل ـ : (فأشراف الناس

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١١ / هود / ٢٧] ونصها : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .

(٣) انظر صحيح البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث ٧، عن أبى سفيان لما أرسل إليه هرقل فى ركب من قريش ، وكانوا تجارًا بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه =

يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم. فقال : هم أتباع الرسل) وكان مشركو مكة يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون : (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا) كقوله: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ[1] . وكقوله تعالى: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا[2] ؟ قال الله تعالى فى جواب ذلك : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا[3] وقال فى جوابهم هنا : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ، أى :له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . كما قال تعالى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[4] .

وفى الحديث الصحيح[5] : إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم

= وهم بإيلياء فدعاهم فى مجلسه ... وهو حديث طويل يوجّه فيه هرقل إلى أبى سفيان عما يعلمه أبو سفيان عن رسول الله ﷺ . لا يفتْ مسلماً الاطلاع على هذا الحديث فإن فيه خيرًا كثيرًا .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٧٣] .

(٣) [١٩ / مريم / ٧٤] .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] .

(٥) أخرجه مسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٣٣ (طبعتنا) ونصه: عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وأشار بأصابعه إلى صدره .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) حديث رقم ٧٨١٤ (طبعة المعارف) .

وروى(١) ابن جرير عن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم ابن عدىّ ، والحرث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، فى أشراف من بنى عبد مناف ، من الكفار ، إلى أبى طالب فقالوا : ياأباطالب ! لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعُسَفاؤنا ـ كان أعظم فى صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتّباعنا إياه ، وتصديقنا له . فأتى أبو طالب النبىّ ﷺ ، فحدثه بالذى كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلتَ ذلك ، حتى تنظر ما الذى يريدون ، وإلام يصيرون من قولهم ! فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ)(٢) . إلى قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) . قال : وكانوا : بلالٌ وعمارُ بن ياسر وسالم مولى أبى حذيفة وصبيح مولى أسيد . ومن الحلفاء : ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود بن القارىّ ، وواقد بن عبد الله الحنظلىّ ، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين ، ومرثد بن أبى مرثد = وأبو مرثد من غنىّ ، حليفُ حمزة بن عبد المطلب = وأشباههم من الحلفاء . ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ) ... الآية ـ فلما نزلت أقبل عمر ، فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله عز وجل : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ...)(٣) الآية .

تنبيهات وفوائد

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية :

١ ـ أن الواجب فى الدعاء الإخلاص به ، لأنه تعالى قال : (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) ـ هكذا قال الحاكم ـ وهكذا جميع الطاعات ، لاتكون لغرض الدنيا . قال النفس الزكية عليه السلام :

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير .
(٢) [٦ / الأنعام / ٥١] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٥٤] .

إذا دعا الإمام ثم وجد أفضل منه، وجب عليه أن يسلم الأمر له . فإن لم يفعل ذلك فسق ، لأنه إن لم يفعل دل على أنه طالب للدنيا .

٢ ـ ودلت على أن الغداة والعشيّ لهما اختصاص بفضل العمل والدعاء ، فلذلك خصهما بالذكر .

٣ ـ ودلت على أن الفضل بالأعمال. وما خرج من المفاضلة من غير أمر الدين، كالكفاءة في النكاح ، فذلك لمخصص ، نحو قوله عليه السلام(١) : العرب بعضها أكفاء للبعض .

٤ ـ ودلت على أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره ، وهى كقوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ(٢) . وقد تقدم ما ذكر فيما ورد أن الميت ليعذّب ببكاء أهله ، على أن المراد إذا أوصاهم بذلك .

٥ ـ ودلت على أن حديث النفس لا يؤاخذ به ، لأنه قد روى أنه ﷺ قد همّ بذلك .

٦ ـ ودلت على أن الفقر لا يؤثر فى حال المؤمن . وقد ورد فى الحديث(٣) عنه ﷺ : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بكذا سنة . وروى أن آخر من يدخل الجنة

---

(١) أخرجه فى الجامع الصغير ، عن عائشة فى السنن للبيهقىّ . ونصه : العرب للعرب أكفاء . والموالى أكفاء للموالى ، إلا حائك أو حجّام .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٣٧ ـ باب ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، ونصه :

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، نصف يوم » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من الصحابة عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله . وروى أن عليًّا عليه السلام لم يخلف شيئاً بعد وفاته ـ هكذا فى التهذيب ـ انتهى .

أقول : الحديث الأول ، رواه الترمذىّ عن أبى هريرة وقال : حسن صحيح ، ولفظه : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . وأما حديث : آخر من يدخل الجنة من الصحابة ... الخ فلم أجده بهذا اللفظ .

وقد روى البزار وأبو نعيم عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف . والذى نفس محمد بيده ! لن يدخلها إلا حبوًا . قال السيوطىّ : إسناده ضعيف ـ كذا فى (منتخب كنز العمال) فى ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، فى (فضائل الصحابة) .

٧ ـ هذا ، وقال ابن الفرس : قد يؤخذ من هذه الآية أن لا يمنع من يذكّر الناس بالله وأمور الآخرة فى جامع أو طريق أو غيره . قال : وقد اختلف المتأخرون فى مؤذن يؤذن بالأسحار ، ويبتهل بالدعاء ، يردّد ذلك إلى الصباح ، وتأذى به الجيران ، هل يمنع ؟ واستدل (من قال : لا يمنع) بهذه الآية ، وبقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ[1] . . . الآية . انتهى .

٨ ـ قرأ ابن عامر « بالغُدْوَةِ » بالواو وضم الغين ، هنا وفى سورة الكهف ، والباقون بالألف وفتح الغين . وهى قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبى رجاء المطاردىّ وغيرهم .

قال أبو عبيد : قرأ ابن عامر وأبو عبدالرحمن السلمىّ (بالغدوة) ، وقرأ العامة (بالغداة) ونراها قرآ ذلك اتباعاً للخط ، لأنها رسمت فى جميع المصاحف بالواو ، كالصلاة والزكاة ،

---

(١) [٢ / البقرة / ١١٤] ونصها : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

وليس، فى إثباتهم الواو فى الكتابة، دليل على أنهاالقراءة ، لأنهم قد كتبوا (الصلاة والزكاة) بالواو ، ولفظهما على تركها ، فكذلك (الغداة) ، على هذا وجدنا ألفاظ العرب . انتهى .

وقال أبو علىّ الفارسىّ: الوجه قراءة العامة (بالغداة) ، لأنها تستعمل نكرة ، فأمكن تعريفها بإدخال لام التعريف عليها . فأما (غدوة) فمعرفة ، وهو علم صيغ له ، وحينئذ فيمتنع دخول لام التعريف عليه ، كسائر المعارف ، وكتابتها بالواو لا تدل على قولهم . انتهى .

قال الشهاب مجيبًا ومناقشًا: إن (غدوة) وإن كان المعروف فيها أنها علم جنس، ممنوع من الصرف ، ولا تدخله الألف واللام ، ولا تصح إضافته ، فلا تقول : غدوة يوم الخميس ـ كما قال الفرّاء ـ ولكنه سمع اسم جنس أيضاً ، منكّرًا مصروفاً ، فتدخله اللام ، وقد نقله سيبويه فى كتابه عن الخليل ، وذكره جم غفير من أهل اللغة والنحو ، فلا عبرة بقول أبى عبيد أن من قرأ بالواو أخطأ ، وأنه اتبع رسم الخط ، لأن الغداة تكتب بالواو ، كالصلاة والزكاة ، وهو علم جنس ، لا تدخله الألف واللام ، والمُخَطِّئُ مُخْطِئٌ ، لما مر . وقد ذكر المبرّد عن العرب تنكيره وصرفه ، وإدخال الألف واللام عليه ، إذا لم يرد غدوة يوم بعينه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وكفى بوقوعه فى القراءة المتواترة حجة ، فلا حاجة إلى ما قيل : إنه علم ، لكنه نكّر ، لأن تنكير علم الجنس لم يعهد . ولا أنه معرفة ، ودخلته اللام لمشاكلة العشىّ . كما فى قوله : رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً ، إذ قال (اليزيد) لمجاورة الوليد . ومنه تعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة . انتهى .

٩ ـ فى القاموس : الغُدوة بالضم ، البكرة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس كالغداة . والعشىّ والعشية : آخر النهار .

وفى الصحاح : من صلاة المغرب إلى العتمة .

وقال الأزهرىّ : يقع العشىّ على ما بين الزوال والغروب .

١٠ ـ جعل الزمخشرىّ (ذلك) إشارة إلى هذا الفتن المذكور ، حيث قال : ومثل ذلك

الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض ، أى: ابتليناهم بهم . وعبر عنه بذلك، إيذاناً بتفخيمه. كقولك : ضربت زيداً ذلك الضرب . ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه ، لأن المثل ليس بمراد ، إنما جيء به مبالغة ، كما يقال (ذلك كذلك) كذا قرره العلامة . يعنى: أن التشبيه كما يجعل كناية عن الاستمرار ، لأن ما له أمثال يستمر نوعه بتجدد أمثاله ، كما أشار إليه شراح الحماسة فى قوله :

هكذا يذهبُ الزمانُ ويَفْنَى الـ ... ـعلمُ فيه ويدرُسُ الأَثَرُ

والاستمرار يقتضى التحقق والتقرر ويستلزمه ، فجعل فى أمثال هذا بواسطة الإشارة إلى البعيد عبارة عن تحقق أمر عظيم . وكونه عظيما مستفاد من لفظ (ذلك) المشار به إلى هذا الفتن القريب المذكور، وليست الكاف فيه زائدة. ومن قال إنها مقحمة أراد أن التشبيه فيه غير مقصود فيه ، بل المراد لازمه الكنائىّ أو المجازىّ . والزمخشرىّ ، لما فى هذا الوجه من البلاغة والدقة ، اختاره فيما ورد فيه كذلك ـ كذا فى (العناية) ـ .

وقال أبو السعود : (ذلك) إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل ، ومحله فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف . والتقدير : فتنا بعضهم ببعض فتوناً كائناً مثل ذلك الفتون ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، فصار نفس المصدر المؤكد ، لا نعتاً له . والمعنى : ذلك الفتون الكاملَ فتناً .

قال الشهاب : هذا الإقحام للمبالغة، مطرد فى عُرْفِ العرب والعجم . انتهى .

وقيل : الكاف ليست بزائدة ، والمشار إليه هو المشبه به ، الأمر المقرر فى الذهن ، والمشبه مادل عليه الكلام من الأمر الخارجىّ ، والمبالغة إنما يفيدها الإبهام الذهنىّ والتفسير بقوله : (فَتَنَّا) ، وهو ما يعلمه كل أحد من الفَتْن مَنْ هو ـ انظر (العناية) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله تعالى «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» : ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هؤلاء هم الذين سأل المشركون طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله تعالى بهذا الإكرام .

قال البيضاوىّ : وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن ، واتباع الحجج ، بعد ما وصفهم بالمواظبة على العبادة ، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم ، أو يبلّغ سلام الله تعالى إليهم ، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله ، بعد النهى عن طردهم ، إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل. ومن كان كذلك ينبغى أن يقرّب ولا يطرد ، ويعزّ ولا يُذَل ، ويُبَشَّر من الله بالسلامة فى الدنيا ، والرحمة فى الآخرة . انتهى .

وسلف عن ابن جرير[1] أنها نزلت فى عمر رضى الله عنه . وأخرج الفريابىّ وابن أبى حاتم عن ماهان، قال : جاء ناس إلى النبىّ ﷺ فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً ، فما ردّ عليهم شيئاً ، فأنزل الله : (وَإِذَا جَاءَكَ ...) الآية . ولا يخفى أن الآية تشمل جميع ذلك ، وربما تتعدد الوقائع المشتركة فى حكم واحد ، فتنزل الآية بياناً للكل . وتقدم لنا فى مقدمة هذا التفسير ، فى بحث سبب النزول ، أن قول السلف : نزلت فى كذا ، قد يقصدون به أن واقعته مما يشملها لفظ الآية ، لنزولها إثرها ، فتذكرْهُ ، وأَجِلْ فكرك فى أطرافه ، فإنه مهم جدًّا. وبمعرفته يندفع إشكال الرازىّ الذى قرره هنا .

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير (انظر الحاشية رقم ١ ص٢٣٢٩) .

وقـوله تعالى : (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أى : أوجبها على ذاته المقدسة ، تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا .

وقوله : (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ) الخ بدل من (الرَّحْمَةَ » . وقرىء بكسر الهمزة على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف .

وقوله : (بِجَهَالَةٍ) فى موضع الحال ، أى : عمله وهو جاهل ، وفيه معنيان :

أحدها ـ أنه فاعل فعل الجهلة ، لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أوظانّ ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير ، ومنه[1] قول قول الشاعر :

على أنها قالت عشيةَ زُرْتُهَا   جهلتَ على عمدٍ ولم تَكُ جَاهِلًا

والثانى ـ أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته ـ كذا فى الكشاف ـ .

---

(١) استشهد به الزمخشرىّ فى الكشاف وقال :

وفيه معنيان : أحدها أنه فاعل فعل الجهلة . لأن من عمل مايؤدى إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظانّ ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير . ومنه قول الشاعر . أى : جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته .

وقال شارحه : ولا يشترى الحلم بالجهل ، ولا الأناة بالطيش ، ولا الرفق بالخرق ، كما قال :

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم   فإنى شريت الحلمَ بعدكِ بالجهل

وإن لم يكن كذلك ، يصدق عليه أنه من أكبر الجهّال ، والحمار أفضل منه. انتهى.

فعلى الأول ، الجهل : بمعنى السفه والمخاطرة من غير نظر للعواقب ، كما فى قوله[١] :

* فَنَجْهَلَ فَوْقَ جهلِ الجَاهِلِينَا *

وكانت العرب تتمدح به ، فلا حاجة لتقدير مفعول .

وعلى الثانى ، المراد : الجهالة بمضارّ ما يفعله .

وقوله تعالى (وَأَصْلَحَ) أى : العمل . كقوله (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا)[٢] .

وروى الإمام أحمد والشيخان[٣] عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما قضى الله على الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى .

تنبيه :

نقل بعض المفسرين عن الحاكم أنه قال : دلت الآية على وجوب تعظيم المؤمنين .

---

(١) هذا البيت السادس والتسعون من معلقة عمرو بن كلثوم ، وهو آخرها . وصدره :

* ألا ، لا يجهلَنْ أحدٌ علينا *

قال التبريزىّ : معناه نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله .

فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى ، وهى تخالفها فى المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأخصر من اختلافهما .

ومطلع القصيدة :

ألا هُبِّى بصحنك فاصبَحينا ولا تُبْقِى خمور الأنْدَرِينَا

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] ونصها : إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) انظر الحاشية رقم (٢) بالصفحة ٢٢٥٥ وفيها سردنا جميع روايات هذا الحديث ، كما جاءت فى كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخارىّ) .

ودلت على أنه ينبغى إنزال المسرة بالمؤمن ، لأنه أمر بأن يقول لهم (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) لتطييب قلوبهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى : آيات القرآن ، فى صفة المطيعين والمجرمين . ومرّ قريبًا الكلام على (كذلك) « وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ » بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل . وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره ، فإن (السبيل) مما يذكر ويؤنث ، وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور ، لم يقصد تعليله بها بعينها ، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر . أو علة لفعل مقدّر ، هو عبارة عن المذكور ، فيكون مستأنفًا . أى : ولتستبين سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل . وقرئ بنصب (السبيل) على أن الفعل متعد ، وتاؤه للخطاب . أى : ولتستوضح أنت ، يا محمد ! سبيل المجرمين ، فتعاملهم بما يليق بهم ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

« قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ » أى : تعبدونه أو تسمونه آلهة . ثم كرر الأمر تأكيدًا لقطع أطماعهم بقوله تعالى « قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ » أى : فى عبادة الأصنام ، وطرد من ذكر .

ثم قال البيضاوىّ : هو إشارة إلى الموجب للنهى . وعلة الامتناع عن متابعتهم ، واستجهال لهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوًى ، وليس بهدى . وتنبيه لمن تحرّى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد . انتهى .

« قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا » أى : إن اتبعت أهواءكم ، لمخالفة الأمر الإلهىّ والعقل جميعاً .

« وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » أى : للحق إن اتبعت ما ذكر . وفيه تعريض بأنهم كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)

« قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى » أى : على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلىّ ، لا يمكن التشكيك فيها « وَكَذَّبْتُمْ بِهِ » استئناف أو حال ، والضمير للبينة . والتذكير باعتبار المعنى المراد . أعنى : الوحى، أو القرآن ، أو نحوهما . « مَاعِنْدِى مَاتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ » أى : من العذاب .

قال أبو السعود : استئناف مبين لخطئهم فى شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بالبينة ، وهو عدم مجئ ما وعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم (مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[١]؟ بطريق الاستهزاء ، أو بطريق الإلزام ، على زعمهم . أى : ليس ماتستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن ، وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه ، فى حكمى وقدرتى ، حتى أجئ به ، وأظهر لكم صدقه . أو ليس أمره بمفوّض إلىّ .

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى: لوكان عندى لكنت أنا الحاكم ، لكن ماالحكم فى ذلك تعجيلًا وتأخيرًا إلا لله، وَقَدْ حَكَمَ بتأخيره ، لماله من الحكمة العظيمة، لكنه محقق الوقوع لأنه « يَقُصُّ الْحَقَّ » أى : يبينه بياناً شافياً ، « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ » أى : القاضين بين عباده .

(١) [١٠ / يونس / ٤٨] ونصها: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

لطيفة :

قرىء « يَقْضِ الحقَّ »(١) بالضاد ، وانتصاب الحق على المصدرية ، لأنه صفة مصدر محذوف قامت مقامه . أو على المفعولية ، بتضمين (يقضى) معنى (ينفذ) ، أو هو متعد من (قضى الدرع) إذا صنعها . قال الهذلىّ (٢) :

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا   داودُ أوصَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

(١) قال الإمام النسفىّ فى تفسيره (مدارك التنزيل) :
(يقص) حجازىّ وعاصم . أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدّره . من (قص أثره) .
الباقون (يقض الحق) أى : القضاء الحق فى كل ما يقضى من التأخير والتعجيل .
فالحق صفة لمصدر (يقض). وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين .

(٢) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ من قصيدته التى مطلعها :

أمِنَ المَنونِ ورَيْبها تتوجَّعُ   والدهر ليس بمُعْتِبٍ من يجزعُ

قالها وقد هلك له خمسة بنين فى عام واحد ، أصابهم الطاعون .

وفى رواية : وكان له سبعة بنين شربوا من لبن شربت منه حية ، ثم ماتت فيه ، فهلكوا فى يوم واحد .

الضمير فى (وعليهما) عائد إلى بطلين سبق وصفهما قبل هذا البيت .
(مسرودتان) أى : درعان مخروزتان أو منسوجتان . من (السرد) وهو الخرز . وقيل : النسج ، وهو تداخل الحلق بعضها فى بعض .

تبَّع من ملوك حمير كانت تنسب إليه الدروع التبّعية . وذكر الأصمعىّ ما يفيد أن أبا ذؤيب قد غلط فى هذا ، فقال : إنه (أى أبا ذؤيب) سمع بالدروع التبّعية فظن أن تبعاً عملها . وكان تبع أعظم شأناً من أن يصنع شيئاً بيده . وإنما عملت بأمره وفى ملكه .
(قضاهما) أى : فرغ منهما داود النبىّ عليه السلام .
(الصنَع) الحاذق بالعمل ، والمرأة صنعاء .

قال الرازىّ : واحتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله : (وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) قال : والفصل يكون فى القضاء ، لا فى القصص . وأجاب أبو علىّ الفارسىّ فقال : القصص ههنا بمعنى القول ، وقد جاء الفصل فى القول . قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)(١) . وقال (أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)(٢) ، وقال : (نُفَصِّلُ الْآيَاتِ)(٣) . انتهى .

قال الشهاب : معنى (يقصه) أى يبيّنه بيانا شافياً ، وهو عين القضاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

« قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ » أى: لو أن فى قدرتى وإمكانى العذاب الذى تتعجلونه ، بأن يكون أمره مفوضاً إلىّ من قِبَلِهِ تعالى ، لقضى الأمر بينى وبينكم ، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم .

وفى (العناية) : قضى الأمر بمعنى قطع . وقضاؤه كناية عن إهلاكهم .

قال أبو السعود : وفى بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل ، الذى هو الله تعالى ، وتهويل الأمر ، ومراعاة حسن الأدب ـ مالا يخفى . فما قيل فى تفسيره : لأهلكتكم

---

(١) [٨٦ / الطارق / ١٣] .

(٢) [١١ / هود / ١] ونصها : الٓر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

عاجلًا ، غضباً لربى ، وانتصاصاً من تكذيبكم به ، ولتخلصت سريعاً ـ بمعزل من توفية المقام حقه .

وقوله تعالى : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية، من انتفاء كون أمر العذاب مفوضاً إليه ﷺ ، المستتبع لانتفاء قضاء الأمر ، وتعليل له. والمعنى : والله تعالى أعلم بحال الظالمين ، وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج ، لتشديد العذاب ، ولذلك لم يفوض الأمر إلىّ ، فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت فى الصحيحين(١) عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يارسول الله ! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا بقرن(٢) الثعالب ، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى. فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال فنادانى ملك الجبال ، وسلّم علىّ ، ثم قال : يامحمد ! إنّ الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال . وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك . فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبيْن ! فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين فى السماء ، فوافقت إحداها الأخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، الحديث رقم ١٥٢٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

(٢) قال ياقوت فى (معجم البلدان) :

وقال القاضى عياض : قرن المنازل ، وهو قرن الثعالب ، ميقات أهل نجد ، تلقاء مكة على يوم وليلة .

وهذا لفظ مسلم : فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .

فالجواب : ـ والله أعلم ـ أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه ، حال طلبهم له ، لأوقعه بهم . وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال ، أنه ، إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة ، يكتنفانها جنوباً وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم ، وسأل الرفق لهم . انتهى .

ثم بيّن تعالى اختصاص المقدورات الغيبية به ، من حيث العلم ، إثر بيان اختصاص جميعها به تعالى من حيث القدرة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » جمع (مفتح بكسر الميم ، وهو المفتاح) وقرىء (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ) شبه بالأمور الجليلة التى يستوثق منها بالأقفال ، وأثبت لها المفاتح تخييلا .

وقوله تعالى : « لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » تأكيد لمضمون ما قبله ، وإيذان بأن المراد الاختصاص من حيث العلم . والمعنى : ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لى ، حتى ألزمكم بتعجيله ، ولا معلوماً لدىّ لأخبركم بوقت نزوله ، بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلماً ، فينزله حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحكم والمصالح ـ أفاده أبو السعود ـ .

ثم لما بين تعالى تعلق علمه بالمغيبات ، تأثّرهُ بالمشاهدات ، على اختلاف أنواعها ، وتكثر أفرادها بقوله : « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » من الخلق والعجائب . ثم بالغ فى إحاطة علمه

بالجزئيات الفائتة للحصر بقوله سبحانه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى : مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلهىّ .

تنبيهـــات

الأول ـ قال الحاكم : دلّ قوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب . انتهى .

وفى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليّين وغيرهم من مدّعى الكشف والإلهام ، ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم . ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة ، والأنواع المخذولة ، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق ﷺ[1] : من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد .

قال ابن مسعود : أوتى نبيكم كل شئ إلا مفاتيح الغيب .

قال ابن عباس : إنها الأقدار والأرزاق .

وقال الضحاك : خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب .

وقال عطاء : هوماغاب عنكم من الثواب والعقاب .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها ، أو كاهنا فصدقه ، فقد برئ مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام .

وأخرجه ابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٢ ـ باب النهى عن إتيان الحائض ، الحديث رقم ٦٣٩ (طبعتنا) .

وقيل : هو انقضاء الآجال ، وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم . واللفظ أوسع من ذلك .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] : مفاتح الغيب خمس لا يعلمها

(١) لتعدد روايات هذا الحديث، ولاختلاف بعض ألفاظ فيها ، نرانا مضطرين إلى سرد جميعها عن كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخاري) والحديث رقم ٥٧٩ . وهو برقم ٧٢ من مسند عبد الله بن عمر . وهاكو نصوص رواياته :

١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٢٩ ـ باب لا يدرى متى يجيء المطر إلا الله .

حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون فى غد . ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام . ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . وما تدرى نفس بأى أرض تموت . وما يدرى أحد متى يجيء المطر » .

٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام، ١ ـ باب وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .

حدثنا عبد العزيز بن عبدالله . حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتح الغيب خمس : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

٦٥ ـ كتاب التفسير، ١٣ ـ سورة الرعد، ١ ـ باب إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى .

حدثنى إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن قال : حدثنى مالك عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله . ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . =

إلا الله تعالى . لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله . ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله. ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يدرى أحد متى يجىء المطر ـ أخرجه البخاريّ ـ وله ألفاظ . وفي رواية : ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله . انتهى .

الثاني ـ قرىء (ولا حبةٌ ولا رطبٌ ولا يابسٌ) بالرفع ، وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل (من ورقة) وأن يكون رفعاً على الابتداء ، وخبره (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار ـ كذا في الكشاف ـ .

الثالث ـ ما أسلفناه في (الكتاب المبين) من أنه (اللوح المحفوظ) هو المتبادر من إطلاقه أينما ورد . وقيل : الكتاب المبين علم الله تعالى. والأظهر الأول.

قال الزجاج : يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق ، كما قال عز وجل :(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)(1) وفائدة هذا الكتاب أمور :

= ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣١ ـ سورة لقمان ، ٢ ـ باب إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .

حدثنا يحي بن سليمان قال: حدثني ابن وهب قال: حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبدالله ابن عمر ؛ أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبيّ ﷺ « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .

٩٧ـ كتاب التوحيد ، ٤ـ باب قول الله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا.

حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا سليمان بن بلال . حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبيّ ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » .

(1) [٥٧ / الحديد / ٢٢] . . . إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

أحدها ـ أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال فى اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى فى المعلومات ، وأنه لا يغيب عنه مما فى السموات والأرض شيء ، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ ، لأنهم يقابلون به ما يحدث فى صحيفة هذا العالم ، فيجدونه موافقاً له .

وثانيها ـ يجوز أن يقال : إنه تعالى ذكر ما ذكر ، من الورقة والحبة ، تنبيهاً للمكلفين على أمر الحساب ، وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون فى الدنيا شيء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التى ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف ، فبأنْ لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها ـ أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم ، وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات فى ذلك الكتاب على التفصيل التام ، امتنع أيضاً تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كِتْبَةُ جملة الأحوال فى ذلك الكتاب موجباً تامًّا ، وسبباً كاملًا فى أنه يمتنع تقدم ما تأخر ، وتأخر ما تقدم ، كما قال صلوات الله عليه[1] : جف القلب بما هو كائن إلى يوم القيامه . انتهى .

الرابع ـ روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قال : ما من شجرة فى بر ولا بحر ، إلا ملَك موكل بها ، يكتب ما يسقط منها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٩٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٦٨٥٤ م (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله خلق خلقه ، ثم جعلهم فى ظلمة ، ثم أخذ من نوره ما شاء ثم ألقاه عليهم ، فأصاب النور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء . فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأ يومئذ ضل . فلذلك قلت : جفّ القلم بما هو كائن » .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن الحرث قال : ما فى الأرض من شجرة ، ولا كمغرز إبرة ، إلا عليها ملك موكل يأتى الله بعلمها. يبسها إذا يبست ورطوبتها إذا رطبت. وكذا رواه ابن جرير (١).

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهى الدواة، وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضى ، ما كان من خلق مخلوق ، أو رزقٍ حلالٍ أو حرام ، أو عمل بر أو فجور ، وقرأ هذه الآية : (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ...) إلى آخر الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ » أى : يُنيمكم فيه . استعير (التوفى) من الموت للنوم ، لما بينهما من المشاركة فى زوال الإحساس والتمييز ، فإن أصله قبض الشىء بتمامه .

« وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ » أى فيه . وتخصيص الليل بالنوم ، والنهار بالكسب، جرياً على المعتاد . « ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ » أى : يوقظكم . أطلق البعث ترشيحاً للتوفى « فِيهِ » أى : فى النهار ، « لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى » أى ليتم مقدار حياة كل أحد .

« ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بالبعث بعد الموت ، « ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى : فى ليلكم ونهاركم ، بالمجازاة عليه ، مبالغة فى عدله .

تنبيهان :

الأول ـ ظاهر الخطاب فى الآية على العموم. وخصه فى (الكشاف) بالكفرة ، ذهاباً إلى أن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ) يدل على تهديد شديد ، لا يليق إلا

---

(١) الأثر رقم ١٣٣٠٨ من التفسير .

بالمعاندين الجاحدين ، وأن المقصود بيان حالهم المذمومة فى الليل . كما أن قوله : (مَا جَرَحْتُمْ) بيان حالهم المذمومة فى النهار . وحمل (البعث) لا على الإيقاظ ، بل على البعث من القبور . و (فيه) بمعنى (من أجله) كقولك : فيم دعوتنى ؟ فتقول : فى أمر كذا . والمعنى : أنكم ملقَوْن كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار. وأنه تعالى مطلع على أعمالكم ، يبعثكم من القبور فى شأن ماقطعتم بهأعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار، ليقضى الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى ، وجزائهم على أعمالهم . والذى حمله على ذلك، زعمه أن قوله (وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) دالّ على حال اليقظة ، وكسبهم فيها . وكلمة (ثم) تقتضى تأخير البعث عنها .

قال شراحه : ولا يخفى مافيه من التكلف ، وأنه لا حاجة إليه ، لأن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) إشارة إلى ما كسب فى النهار السابق على ذلك الليل ، ولا دلالة فيه على الإيقاظ من هذا التوفى ، وأن الإيقاظ متأخر عن التوفى . وإن قولنا (يفعل ذلك التوفى لنقضى مدة الحياة المقدرة) كلام منتظم غاية الانتظام .

الثانى ـ قال الشريف المرتضى فى (الدرر والغُرر) فيما وقع من القرآن من ذكر الرجوع إلى الله نحو (إِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) : كيف ترجع إليه ، وهى لم تخرج من يده ؟ وأجاب : بأنه فى دار التكليف قد يغيّر البعض ، فيضيف بعض أفعاله تعالى إلى غيره ، فإذا انكشف الغطاء ، انقطعت حبال الآمال عن غيره ، فيرجع إليه . أو أن المراد أن الأمور فى يده من غير خروج ورجوع حقيقىّ . ف (رجع) بمعنى (صار) . تقول العرب : رجع علىّ من فلان مكروه ، بمعنى صار ، ولم يكن سبق . فهو بمعنى المصير إليه ، كما تشهد به اللغة . أو أنه فى دار الدنيا ما يكون للعباد ظاهراً كالعبد لسيده ، فإذا أفضى الأمر إلى الآخرة ، زال ذلك ، ورجع الأمر كله إلى الله ، ظاهراً وباطناً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » قد مرّ تفسيره ، وأنه المتصرف فى أمورهم لا غيره ، يفعل بهم ما شاء .

« وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » أى : ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها ، وهم الكرام الكاتبون[١] ، كقوله : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) وقوله : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ)[٢] الآية .

لطيفة :

الحكمة فى ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه ، وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصى . وأن العبد إذا وثق بلطف سيده ، واعتمد على عفوه وستره ، لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ـ أفاده القاضى ـ .

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى: أسبابه ومباديه « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » أى : ملائكة موكلون بذلك ، « وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ » أى: بالتوانى والتأخير . وقال ابن كثير : أى: فى حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها ويتركونها حيث شاء الله عزوجل ، إن كان من الأبرار ففى عليين ، وإن كان من الفجار ففى سجين .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : [٨٢ / الانفطار / ١٠ و١١] وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ .

(٢) [٥٠ / قٓ / ١٧] ... عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

« ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » أى : الذى يتولى أمورهم . و(الْحَقِّ) : العدل الذى لا يحكم إلا بالحق . قال ابن كثير : الضمير للملائكة . أو للخلائق المدلول عليهم بـ(أحد). والإفراد أولًا ، والجمع آخرًا لوقوع التوفى على الانفراد ، والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث ، فيحكم فيهم بعدله ، كما قال (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)(١) . وقال : (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)(٢) إلى قوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ولهذا قال (مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ) .

« أَلَا لَهُ الْحُكْمُ » يومئذ لا حكم فيه لغيره ، « وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ » يحاسب الخلائق فى أسرع زمان .

فوائد :

الأولى ـ قال ابن كثير : ونذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام(٣) أحمد عن سعيد ابن يسار عن أبى هريرة رضى الله عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الميت تحضره

(١) [٥٦ / الواقعة / ٤٩ و٥٠] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٤٧ ـ ٤٩] ونصها : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

(٣) رواه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

الملائكة ، فإذا كان الرجلَ الصالحَ ، قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة ، كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال ذلك ، حتى تخرج . ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقولون ، مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة ، وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجلَ السوءَ ، قالوا : اخرجى أيتها النفس الخبيثة ، كانت فى الجسد الخبيث. اخرجى ذميمة ، وأبشرى بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . فلا يزال حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان! فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت فى الجسد الخبيث . ارجعى ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر . فيجلس الرجل الصالح ، فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء ، فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول . قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث غريب .

الثانية ـ قال بعض أهل الكلام : إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تقبض عند النوم ، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم . فأما الروح التى تحيا بها النفس ، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل . والمراد بالأرواح، المعانى والقوى التى تقوم بالحواس ، ويكون بها السمع والبصر ، والأخذ والمشى والشم . ومعنى (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) أى : يوقظكم ، ويرد إليكم أرواح الحواس ، فيستدل به على منكرى البعث ، لأنه بالنوم يُذهب أرواحَ هذه الحواس ، ثم يردها إليها . فكذا يحيي الأنفس بعد موتها ـ نقله النسفىّ ـ .

الثالثة ـ قال الخازن: فإن قلت: قال الله تعالى فى آية: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)[1]

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وقال فى آية أخرى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ)(١) ، وقال هنا : (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟ .

قلت : وجه الجمع أن التوفى فى الحقيقة هو الله تعالى . فإذا حضر أجل العبد ، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ، ولملك الموت أعوان من الملائكة ، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده . فإذا وصلت إلى الحلقوم ، تولى قبضها ملك الموت نفسه ، فحصل الجمع .

قال مجاهد : جعلت الأرض لملك الموت، مثل الطشت، يتناول من حيث شاء . وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم . انتهى .

ثم أمر تعالى أن يبكّت المشركون بانحطاط شركائهم عما زعموا لها ، بأنهم يخصون الحق تعالى بالالتجاء إليه عند الشدائد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ » أى : شدائده ، كخوف العدوّ ، وضلال الطريق ، « وَالْبَحْرِ » كخوف الغرق ، والضلال ، وسكون الريح . استعيرت الظلمة للشدة ، لمشاركتهما فى الهول ، وإبطال الأبصار ، ودهش العقول . يقال لليوم الشديد : يوم مظلم ، ويوم ذو كواكب . أى : اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، وظهرت الكواكب فيه .

« تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً » أى : تذللا إليه ، تحقيقاً للعبودية ، « وَخُفْيَةً » بضم الخاء ،

---

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] . . . ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

وقرئ بكسرها . أي : سرًّا ، تحقيقاً للإخلاص . « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا » حال من الفاعل بتقدير القول . أي : قائلين ، وعداً بالشكر ، لئن أنجيتنا « مِنْ هَٰذِهِ » أي : الشدة المعبر عنها بالظلمات ، « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أي : لك ، باعتقاد أنك المخصوص بالثناء الجميل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ثم أمره تعالى بالجواب تنبيها على ظهوره وتعينه عندهم ، أو إهانة لهم إذ لا يلتفتون لخطابه بقوله : « قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ » أي : من غير شفاعة أحد ولا عون ، « ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ » أي : ثم أنتم بعد ما تشاهدون من النجاة عنها ، الموعود فيها بالشكر وعدا وثيقاً بالقَسَم ، تشركون ، بعبادته والثناء عليه ، غيره . وتنسبون النجاة الحاصلة بعد تخصيصه بالدعوة ، إلى شفاعة الشريك ، فقد جعلتم الشرك مكان الشكر .

تنبيهات

الأول ـ ماقدمناه من أن ظلمات (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) مجاز عن مخاوفها وأهوالها ، هو ماقاله المحققون .

قال الرازيّ : ومنهم من حمله على حقيقته فقال: أما ظلمات البحر، فهي أن تجتمع ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة السحاب ، ويضاف الرياح الصعبة ، والأمواج الهائلة إليها ، فلم يعرفوا كيفية الخلاص ، وعَظُمَ الخوفُ . وأما ظلمات البر ، فهي ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، والخوف الشديد من هجوم الأعداء والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب . والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد ، لا يرجع

الإنسان إلا إلى الله تعالى . وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطنا ، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله تعالى ، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى . وهو المراد من قوله (تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) . فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة ، والخلقة الأصلية فى هذه الحالة ، بأنه لا ملجأ إلا الله ، ولا تعويل إلا على فضل الله ، وجب أن يبقى هـذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات . ولـكنه ليس كذلك ، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة ، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب ، ويقدم على الشرك . ومن المفسرين من يقول : المقصود من هذه الآية الطعن فى إلهية الأصنام والأوثان .

ثم قال الرازىّ رحمه الله ، وأنا أقول : التعلق بشىء ممـا سوى الله فى طريق العبودية ، يقرب من أن يكون تعلقاً بالوثن ، ولذلك فإن أهـــل التحقيق يسمونه بالشرك الخفىّ . انتهى .

الثانى ـ قال بعض المفسرين : دل قوله تعالى : (تَدْعُونَهَ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) على أن دعاء السرّ أفضل . قيل : وكان جهر النبىّ ﷺ بالدعاء ليعلّم غيره . انتهى .

وهذا بناء على أن قوله تعالى : (تَضَرُّعاً) تذللا ، لا جهرا . وكثير من المفسرين ذهب إلى أن المعنى جهرا وسرا ، ولعـــله الصواب . فإن العيان يؤيده ، إذ لا يتمالك من اشتد عليه الأمر ، وأظلم عليه طريق الخلاص ، على الاقتصار على دعاء السر وحده ـ والله أعـــلم ـ .

وفى القاموس وشرحه : تضرع إلى الله تعالى ، أى : ابتهل وتذلل . وقيل : أظهر الضراعة ، وهى شدة الفقر والحاجة إلى الله تعالى . ومنه قوله تعالى : (تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) أى : مظهرين الضراعة ، وحقيقة الخشوع . انتهى .

الثالث ـ المراد بالـكرب ما يعم ماتقدم، ولا محذور فى التعميم بعد التخصيص، لـكثرة وروده . أو ما يعترى المرء من العوارض النفسية التى لا تتناهى ، كالأمراض والأسقام ،

وماقيل : إن المراد بالأول كرب مخصوص ، أو الأولى نعمة رفع ، وهذه نعمة دفع ، وأنه من قبيل (متقلداً سيفاً ورمحاً) ـ تكلف لا داعى له ـ كذا فى (العناية) ـ .

الرابع ـ وضع (تشركون) ، موضع (لا تشكرون) الذى هو مقتضى الظاهر المناسب لقوله : (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) لأن إشراكهم تضمن عدم صحة عبادتهم ، وشكرهم لأنه عبادة ، بل نفيها لعدم الاعتداد بها معه . إذ التوحيد ملاك الأمر ، وأساس العبادة ، فوضعه موضعه توبيخاً لهم، لعدم الوفاء بالعهد. ولم يذكر متعلقه لتنزيله منزلة اللازم ، تنبيها على استبعاد الشرك فى نفسه ـ كذا فى (العناية) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

«قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ» قال المهايمىّ : أى: قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر: إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها، لاستمرار منشأ الخوف ،وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها. إذ هو القادر على إرسال عذاب أعظم من تلك الشدة من فوقكم ، كإمطار النار أو الحجارة، أو إسقاط السماء .

« أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » كالخسف والطوفان ، « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا » أى : يخلطكم فرقاً خلط اضطراب ، فيجعلكم متحزبين مختلفين فى القتال ، بأن يقوّى أعداءكم « وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ » أى: شدة « بَعْضٍ » يعنى : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والتعذيب .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ » أى : نحوّلها من نوع إلى آخر . « لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ » أى : يفهمون ويعتبرون ، فيكفوا عن كفرهم وعنادهم .

تنبيهان :

الأول ـ روى البخارى[1] عن جابر رضى الله عنه قال . لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك! (أَوْمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك! (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قال : هذا أهون ، أو هذا أيسر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس مايفسر به حديث جابر ، ولفظه: عن النبىّ ﷺ قال : دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعاً ، فرفع عنهم ثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين . دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض، وأن لايلبسهم شيعاً ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ؛ فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الأخريين. فيستفاد من هذه الرواية المراد بقوله (مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) ، ويستأنس له أيضاً بقوله تعالى : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ)[2] .

وروى الإمام[3] مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه أقبل مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية، حتى إذا مرّ بمسجد بنى معاوية، دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلًا ، ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربى ثلاثاً ، فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة . سألت

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٢ ـ باب قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ... الآية . الحديث رقم ٢٠٠٢

(٢) [١٧ / الإسراء / ٦٨] ... حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

ربى أن لا يهلك أمتى بالسَّنة ، فأعطانيها . وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق ، فأعطانيها . وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها .

وروى الإمام أحمد[١] من حديث أبى بصرة نحوه ، لكن قال (بدل خصلة الإهلاك)، أن لا يجمعهم على ضلالة[٢] . وكذا الطبرىّ من مرسل الحسن .

قال الخفاجىّ : فإن قلت : كيف أجيبت الدعويان ، وسيكون خسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ؟ أى : كما رواه الترمذىّ[٣] وغيره ؟

قلت : الممنوع خسف مستأصل لهم . وأما عدم إجابته فى بأسهم ، فبذنوب منهم ، ولأنهم بعد تبليغه ﷺ لهم ، ونصيحته لهم ، لم يعملوا بقوله. انتهى .

وقد روى أحمد والترمذىّ[٤] من حديث سعد بن أبى وقاص قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ »... » الخ ، فقال : أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعدُ. قال الحافظ ابن حجر : وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر، بأن المراد بتأويلها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) الأثر رقم ١٣٣٧٥ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب ماجاء فى الخسف ونصه : عن حذيفة بن أسيد قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج والدابة وثلاثة خسوف . خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب . ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس (أو تحشر الناس) فتبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٣ ـ حدثنا الحسن بن عرفة .

ما يتعلق بالفتن ونحوها . انتهى . أى : مما ستصدق عليها الآية ، ولما تقع بالمسلمين . فقوله: إنها كائنة ، أى : فى المسلمين ، لا أنهـا خطاب لهم ، ونزولها فيهم ـ كما وهم ـ إذ يدفعه السياق والسباق ، وتتمة الآية ـ كما لا يخفى ـ وسنزيده بياناً .

الثانى ـ ماروى عن ابن عباس من أنه كان يقول فى قوله تعالى : (عَذَابًا مِنْ فَوْقِـكُمْ) يعنى أئمة السوء (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِـكُمْ) يعنى : خدم السوء . رواه ابن جرير[١] وابن أبى حاتم . فإن صح عنه، فمراده أن لفظ الآية مما يصدق على ذلك. لأن العذاب كل مامرّ (من المرارة) على النفس، وشق عليها ، لا أن ذلك هو المراد من الآية ، لنبوّه عن مقام التهويل ، فى شديد الوعيد، ولخفاء الكناية عن ذلك من جوهر اللفظ ، ولعدم موافقته لنظائر الآية فى هذا الباب ـ كما لا يخفى ـ .

والظاهر أن السلف كانوا يتلون بعض الآيات فى بعض المقامات، إشعارًا بأن معناها يحاكى تلك الواقعات ، لا أنها نزلت فى تلك القضيات . ومن ذلك قول أبىّ بن كعب ، قال فى هذه الآية : هن أربع خلال ، كلهن واقع ، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين (أَلْبِسُوا شِيَعًا) و (ذَاقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) ، وبقيت اثنتان لابد منهما الرجم والخسف ـ رواه[٢] أحمد وغيره ـ وقد أعلّ هـذا الأثر بأن أبيًّا لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية ، وكأن التقييد بذلك من كلام أبى العالية، روايه عنه . وبالجملة، فاستشهاد السلف بالآيات فى بعض الشؤون، للإشعار المذكور ـ مما لا ينكر ، فافهم ذلك، فإنه ينفعك فى مواطن كثيرة .

---

(١) الأثر رقم ١٣٣٤٩ من التفسير .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

وقوله تعالى « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ » أى بالقرآن المجيد « وَهُوَ الْحَقُّ » أى الكتاب الصادق فى كل ما نطق به . « قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى : لم يفوض إلىّ أمركم فأمنعكم من التكذيب ، وأجبركم على التصديق . إنما أنا منذر ، وقدبلغت . وبعضهم أرجع الضمير فى (بِهِ) للعذاب . أى : كذب بالعذاب الموعود ، قومُك المعاندون ، وهو الواقع لا محالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » أى : لكل خبر عظيم وقت استقرار ، لصدقه أو كذبه . « وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : مستقرهذا النبأ ومآله ، وأن العاقبةله ، كما قال تعالى (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ » أى : بالطعن والاستهزاء ، « فِي ءَايَاتِنَا » أى : المنسوبة إلى مقام عظمتنا ، التى حقها أن تعظم بما يناسب عظمتنا . والموصول كناية عن مشركى مكة ، فقد كان ديدنهم ذلك ، « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى فلا تجالسهم ، وقم عنهم ، « حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر ، غير ما كانوا فيه من الخوض فى آياتنا .

« وَإِمَّا يُنسِينَّكَ الشَّيْطَانُ » بأن يشغلك فتنسى النهى عن مجالستهم ، « فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى : إن ينسينّك الشيطان ، فجلست معهم ، فلا تؤاخذ به ، لكن إذا ذكرت النهى ، فلا تقعد معهم ، لأنهم ظالمون بالطعن فى الكلام المعجز ، عنادًا .

وفى الحديث(١) : إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه ـ رواه الطبرانىّ عن ثوبان مرفوعاً . وإسناده صحيح ـ وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ...) الآية ، لأن فى حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه، مشاركة لصاحبه .

فوائد :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه فى حال نسيانه . ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة فى العبادات والتعليقات. انتهى

وقال الرازىّ : ومن الحشوية من استدل بهذه الآية فى النهى عن الاستدلال والمناظرة فى ذات الله تعالى وصفاته . قال : لأن ذلك خوض فى آيات الله ، والخوض فى آيات الله حرام بدليل هذه الآية .

والجواب عنه : أن المراد من الخوض فى الآية ، الشروع فى الطعن والاستهزاء . فسقط هذا الاستدلال ـ والله أعلم ـ .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١١ ـ كتاب الطلاق، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث رقم ٢٠٤٥ (طبعتنا) عن ابن عباس .

(٢) [٤/ النساء/ ١٤٠] ... إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أحكام :

الأول ـ وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله ، وأن لايقعد معهم ، لأن فى القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عامّ لنا ، ولرسول الله ﷺ . وإنما يجب الإعراض ، وترك الجلوس معهم ، إذا لم يطمع فى قبولهم ، فإذا انقطع طمعه إذًا ، فلا فائدة فى دعائهم . ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سبباً فى ترك الخوض ، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف ، إذا كان وقوفه يوهم عدم الكراهة .

الحكم الثانى ـ جواز مجالسة الكفار ، مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض . وأيضاً فقد قال تعالى : (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) . قال الحاكم : والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة ، إذا أظهروا المنكرات . وتدل على إباحة الدخول عليهم لغرض ، كما يباح للتذكير . وفى الآية أيضاً دلالة على وجوب الإنكار ، لأن الإعراض إنكار . قال: وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لاتجوز ، خلاف الإمامية ، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء .

الحكم الثالث ـ أن الناسى مرفوع عنه الحرَج . فإن قيل : النسيان فعل الله ، فلِمَ أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب : بأن السبب من الشيطان ، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر . فأضيف إليك لذلك . كما أن من ألقى غيره فى النار فمات ، يقال : إنه القاتل ، وإن كان الإحراق فعل الله . واختلف فى النسيان ما هو ؟ فقال الحاكم : هو معنى يحدثه الله فى القلب . وقال أبو هاشم وأصحابه : ليس بمعنى ، وإنما هو زوال العلم الضرورىّ الذى جرت العادة بحصوله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَـٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » أى : ومايلزم المتقين الذين يجالسونهم شىء عما يحاسبون عليه من خوضهم ، « وَلَـٰكِنْ ذِكْرَىٰ » أى : ولـكن أمروا بالإعراض عنهم ، ليـكون ذكرى لضعفاء المسلمين ، لئلا يقع شىء من مطاعن المستهزئين فى قلوبهم . « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى : يبلغ مبلغ التوقى من شبهاتهم ، بالجلوس مع علمائه بدلهم .

تنبيهان

الأول ـ ماذكرناه فى معنى الآية ، هو ماقرره المهايمىّ رحمه الله تعالى . وقيـــل : المعنى : ولـكن على المتقين أن يذكروهم ذكرى إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الـكراهة لهم وموعظتهم ، لعلهم يتقون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم ، فلايعودون إليه . وجوزوا أن يكون الضمير (لِلَّذِين يَتَّقُونَ) ، أى : يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم ، أو يزدادوها . انتهى .

وما ذكرناه أسدّ وأوجه .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، قال فى الآية : أى ما عليك أن يخوضوا فى آيات الله إذا فعلت ذلك . أى : إذا تجنبتهم ، وأعرضت عنهم . وعليه فالموصول كناية عن النبىّ ﷺ . التفت به تعظيما وتـكريماً .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : قد يستدل بقوله تعالى : (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ...) الخ على أن من جالس أهل المنـكر ، وهو غير راض بفعلهم ، فلا إثم عليه . لـكن آية النساء تدل على أنه آثم ، مالم يفارقهم ، لأنه قال : (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ)(١) أى :

---

(١) [٤/ النساء/ ١٤٠] ونصها: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ =

إن قعدتم فأنتم مثلهم فى الإثم، وهى متأخرة . فيحتمل أن تكون ناسخة لهذه ، كما ذهب إليه قوم منهم السدّىّ . اه .

أقول : المنفىّ فى الآية هو لحوق شىء من وبال الخائضين ، وإثم كفرهم لمجالسيهم المتقين، فلا ينافى ذلك لحوق وبال المجالسة على انفرادها ، وهو ما أفادته آية النساء . فالمثلية إذن فى مطلق الإثم ، وإن تباين (ماصدقه) فيهما ، إذ لاقائل بأن مطلق مجالستهم ردة وكفر. نعم ! لو قيل بأن المثلية محمولة على ما إذا حصل الرضا بشأن مجالستهم ، فلا إشكال إذن . وبالجملة فاستدلال (الإكليل) واهٍ ، ولذا عبر بـ (قد) ، ودعوى النسخ أوهى . فتأمل !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

« وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » أى : الذى كلفوه ودعوا إليه ، وهو دين الإسلام ، « لَعِبًا وَلَهْوًا» حيث سخروا به واستهزؤوا «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» حيث اطمأنوا بها ، وزعموا أن لا حياة بعدها أبدًا ، وأن السعادة فى لذاتها . أى : أعرض عنهم ، ودعهم ، ولا تبال بتكذيبهم، وأمهلهم قليلًا ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . « وَذَكِّرْ بِهِ » أى: ذكر الناس بهذا القرآن « أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مخافة أن تسلم إلى الهلاك ، وترتهن بسوء كسبها ، وغرورها بإنكار الآخرة . يقال : أبسله لكذا : عرضه ورهنه ،

= ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

أو أسلمه للهلكة . « لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ » ينصرها بالقوة « وَلَا شَفِيعٌ » يدفع عنها بالمسألة .

« وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا » أي : وإن تفد كل نوع من أنواع الفداء ، بما يقابل العذاب ، لا يقبل منها ، لبعدهم عن مقام الفداء . والعدل : الفدية ، لأن الفادي يعدل المفدى بمثله .

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً « الَّذِينَ أُبْسِلُوا » أي : سلموا للهلاك ، بحيث لا يعارضه شيء ، « بِمَا كَسَبُوا » بهذا الاغترار من إنكار الآخرة معها ، والانهماك في الشهوات المحرمة ، « لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ » أي : ماء مغلّى يتجرجر في بطونهم ، وتتقطع به أمعاؤهم ، « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » أي : بنار تشتعل بأبدانهم ، « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أي : بسبب كفرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا » أي : أنعبد من دونه ما لا يقدر على نفعنا ، إن دعوناه ، ولا ضرنا إن تركناه ، «وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا» عطف على (ندعو)، داخل في حكم الإنكار والنفي . أي : ونرد إلى الشرك . والتعبير عنه بالرد على الأعقاب ـ لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علَمٌ في القبح ، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر ـ أفاده أبو السعود ـ .

(بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ » أي : للإسلام والتوحيد ، وأنقذنا من عبادة الأصنام ، فنصير

كالمستمر على الضلال ، بل « كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ » أى : استمالته عن الطريق الواضح مردة الجن ، « فِى الأَرْضِ » القفر المهلكة ، « حَيْرَانَ » أى : تائها ضالّا عن الجادّة ، لا يدرى كيف يصنع ، « لَهُ » أى : لهذا المستهوَى « أَصْحَابٌ » أى : رفقة « يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى » أى : إلى الطريق المستقيم ، « ائْتِنَا » على إرادة القول ، أى : يقولون ائتنا . أى : وهو قد اعتسف المهمه ، تابعاً للشياطين ، لا يجيبهم ولا يأتيهم . فشبه حال من خلص من الشرك ، ثم عاد له ، بحال من ذهبت به المردة فى مهمه بعد ما كان على الجادة ، ولا يدرى مقصده الذى هو سائر إليه ، مع وجود رفقة تناديه لتهديه ، وهو لا يسمع لهم .

«قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ » أى : الذى أرسل به رسله ، « هُوَ الْهُدَى » أى : وما وراءه ضلال وغىّ ، « وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ » أى : فى مخالفة أمره . (وأن أقيموا) عطف على (لنسلم) . ومعناه : أن نسلم . فاللام فيه رديفة (أن) ، أو عطف عليه ؛ واللام تعليلية ، أى : للإسلام ، ولإقامة الصلاة . وفى ورود (أقيموا الصلاة) محكيا بصيغته ، وورود (نسلم) محكيا بمعناه ، احتمال أن يكون ﷺ حكى قول الله بمعناه ، دون لفظه . انظر (الانتصاف) .

تنبيه :

فى تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع ، وعطفها على الأمر بالإسلام ، وقرنها بالأمر بالتقوى ـ دليل على تفخيم أمرها ، وعظم شأنها ـ ذكره بعض الزيدية ـ.

« وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة ، كقوله : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)[1] .

وقوله تعالى : « وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ » بيان لقدرته تعالى على حشرهم ، بكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وأن قوله وأمره هو النافذ والواقع . والمراد بـ (القول) كلمة (كن) تحقيقا أو تمثيلا . فـ (قوله الحق) مبتدأ وخبر . و (يوم) ظرف لمضمون هذه الجملة . كقوله تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[2] وكأن قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ) الخ عقب قوله : (وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) سيق للاحتجاج على قدرته تعالى على البعث ، ردًّا على منكرى ذلك من المشركين ، الذين السياق فيهم . وماأشبه الآية بقوله تعالى: (أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ...)[3] الآية .

ولا يخفى أن باستحضار النظائر القرآنية ، تنجلى الحقائق . وقد توسع المفسرون هنا فى إعراب هذه الجملة ، بسرد وجوه ضاع الظاهر بينها ـ وقد علمته ، فاحرص عليه ـ .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] . . . ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٣) [٣٦ / يس / ٨١و٨٢] .

« وَلَهُ الْمُلْكَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » أى: فلابد أن يفعل بالمطيع والعاصى فعل الملوك، لمن يطيعهم أو يعصيهم . فـ (يوم) ظرف لقوله (وَلَهُ الْمُلْكَ) ـ قاله أبو السعود ـ وتقييد اختصاص الملك به تعالى، بذلك اليوم، مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات ، لغاية ظهور ذلك، بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا ، المصححة للمالكية المجازية فى الجملة ، كقوله تعالى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[1] . وقوله : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ)[2] .

وقد زعم بعضهم أن المراد بـ (الصور) هنا جمع صورة ، أى : يوم ينفخ فيها ، فتحيي. قال ابن كثير : والصحيح أن المراد بـ (الصور) القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وهكذا قال ابن جرير[3]: الصواب عندنا ماتظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال[4]: إن إسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ .

وروى الإمام أحمد[5] عن عبد الله بن عمرو قال: إن أعرابيا سأل النبيّ ﷺ عن الصور؟

---

(١) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٦] . . . وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ٤٦٣ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبىّ ﷺ كان يقول « كيف أنعم ؟ وصاحب الصور قد التقم الصور ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر متى يؤمر » .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٢ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٨٠٥ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٢١ ـ باب فى ذكر البعث والصور ، =

فقال: قرن ينفخ فيه . ورواه أبو داود والترمذيّ والحاكم، عنه أيضاً .

« عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أي هو عالمهما، « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » ذو الحكمة في سائر أفعاله . والعلم بالأمور الجليّة والخفية .

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكر لمن اتخذ دينه هزوا ولعبا إنكار إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ الذي يزعمون أنهم على دينه ، ويفتخرون به ـ على أبيه في شركه بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا » أي : صوراً مصنوعة ، « ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أي : باعتقاد إلهيتها ، أو اتصافها بصفاته ، أو استحقاقها للعبادة ، لأن الإلهية بوجوب الوجود بالذات . وهي ممكنة مصنوعة وأنى لها الاتصاف بصفاته ، وهي عاجزة عن النفع والضر، خالية عن الحياة والسمع والبصر، والعبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها من لا يخلو عن هذه الوجوه من الذلة ، وإنما يستحقها من كان في غاية العلوّ ـ أفاده المهايميّ ـ .

تنبيهات :

الأول ـ قرئ « آزَرَ » بالنصب ، عطف بيان ، لقوله : (لأبيه) وبالضم على النداء .

الثاني ـ الآية حجة على الشيعة في زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا ، وأن آزر عم إبراهيم ، لا أبوه ، على مابسطه الرازيّ هنا ، وذلك لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة، ومثله لا يجزم به من غير نقل .

= حديث ٤٧٤٢. أما الترمذيّ فلم يروه . إنما روى الحديث السابق عن أبي سعيد الخدريّ في: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ٨ ـ حدثنا ابن أبي عمر .

الثالث ـ قال بعض مفسرى الزيدية : فى الآية دلالة على بطلان قول الإمامية : إن الإمام لايجوز أن يكون إبوه كافرا . لأنه إذا جاز نبىّ ، أبوه وزوجته كافران ، فالامام أولى .

اشتمل كلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ذكر الحجة العقلية إجمالا على فساد قول عبدة الأصنام ، بإنكاره اتخاذها آلهة ، وهى ما هى فى عجزها . وقد جاءت مفصلة فى سورة مريم فى قوله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ...) الآيات[1] .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيح[2] عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب! إنك وعدتنى أن لاتخزنى يوم يبعثون، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى: إنى حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال : ياإبراهيم ! انظر ماتحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فليقى فى النار .

الرابع ـ قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين، لا سيما للأقارب ، فإن من كان أقرب ، فهو أهمّ . ولهذا قال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

---

(١) [١٩ / مريم / ٤١ـ٤٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٦ .

الْأَقْرَبِينَ)(١) ، وقال تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)(٢) . وقال ﷺ(٣) : ابدأ بنفسك ثم بمن تعول . ولهذا بدأ ﷺ بعليّ وخديجة وزيد ، وكانوا معه فى الدار ، فآمنوا وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب، ثم بالموالى . وبدأ إبراهيم بأبيه ، ثم بقومه . وتدل هذه الآية على أن النصيحة فى الدين والذم والتوبيخ لأجله، ليس من العقوق ، كالهجرة ـ هكذا فى التهذيب. انتهى .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٣) هذا الحديث (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) ملفّق من حديثين :

الأول (ابدأ بنفسك ثم تصدق عليها) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤١ (طبعتنا) ونصه :

عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبدًا له عن دُبُر . فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال « ألك مال غيره » ؟ فقال : لا . فقال « من يشتريه منى » ؟ فاشتراه نُعَيم بن عبد الله العَدَوىّ بثمانمائة درهم . فجاء بها رسولَ الله ﷺ . فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك فتصدق عليها . فإن فضل شىء فلأهلك . فإن فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك . فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » .

يقول : فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك .

والحديث الثانى (ابدأ بمن تعول) وأخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١٨ ـ باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، حديث ٧٦٣ ونصه :

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول. وخير الصدقة عن ظهر غنى. ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى: نطلعه على حقائقهما، ونبصره فى دلالتهما على شؤونه عز وجل ، من حيث إنهما بما فيهما ، مربوبان ومملوكان ، له تعالى . و(الملكوت) مصدر على زنة المبالغة ، كالرّهبوت والجبروت ، ومعناه : الملك العظيم، والسلطان القاهر. وقيل: ملكوتهما عجائبهما و بدائعهما. وقد أسلفنا الكلام فى (وكذلك) قريباً عند قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا)[1] وأن مختار الزمخشرىّ كونه إشارة إلى مصدر ما بعده ، والكاف مقحمة ، والتقدير : تلك الإراءة والتبصير البديع، نريه ونبصره. فجدّدْ به عهدًا .

« وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » عطف على علة محذوفة لم تقصد بعينها ، إشعارًا بأن لتلك الإراءة فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر .

قال المهايمىّ فى الآية : (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ليعلم أن شيئاً من روحانيات الأفلاك والكواكب والمشايخ والشياطين لا يصلح للإلهية، (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) بالتوحيد بالاستدلال بالأدلة الكثيرة . وقيل : (وَلِيَكُونَ) علة لمقدر هو عبارة عن المذكور . أى : وليكون من الموقنين بالتوحيد ، فعلنا مافعلنا من الإراءة والتبصير بآيات السموات والأرض .

لطائف

الأولى ـ قال الرازىّ : وههنا دقيقة عقلية ، وهى أن نور جلال الله تعالى لائح غير

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية ، لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى . فإذا كان الأمر كذلك ، فبقدر ما يزول ذلك الحجاب ، يحصل هذا التجلّى . فقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ، لأن كل ماسوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب، لا جرم تجلّى له ملكوت السموات بالتمام . فقوله : (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ) معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نورُ تجلى جلال الله تعالى ، فكان قوله (وَكَذَٰلِكَ) منشأً لهذه الفائدة الشريفة الروحانية.

الثانية ـ قال الرازىّ : اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل. ولهذا المعنى لا يوصف علم الله تعالى بكونه يقيناً، لأن علمه غير مسبوق بالشبهة، وغير مستفاد من الفكر والتأمل . واعلم أن الإنسان فى أول ما يستدل به ، فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه ، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت ، صارت سببًا لحصول اليقين . وذلك لوجوه :

الأول ـ أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثر وقوة ، فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهى إلى الجزم .

الثانى ـ أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة . فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد، جارٍ مجرى تكرار الدرس الواحد . فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكد الذى لا يزول عن القلب ، فكذا ههنا .

الثالث ـ أن القلب عند الاستدلال كان مظلماً جدًّا ، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول، امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة فى القلب ، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة ، فإذا حصل الاستدلال الثانى امتزج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الإشراق واللمعان أتم . وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر

نورها فى أول الأمر ، وهو الصبح ، فكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح . ثم ، كما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس، فإذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام ، فكذلك العبد كلما كان تدبره فى مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر ، كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى . إلا أن الفرق بين شمس العلم ، وشمس العالَم ، أن شمس العالم الجسمانىّ لها فى الارتقاء والتصاعد حدّ معين ، لا يمكن أن يزاد عليه فى الصعود . وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد ، فلا نهاية لتصاعدها، ولا غاية لازديادها . فقوله (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إشارة إلى مراتب الدلائل والبينات . وقوله (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) إشارة إلى درجات أنوار التجلى ، وشروق شمس المعرفة والتوحيد . انتهى .

الثالثة ــ ذكر تعالى الإراءة فى هذه الآية مجملة ، ثم فصلها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا، قَالَ هَٰذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي » قال المهايمىّ : لما رأى ــ يعنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ــ الملكوت ، وأيقن أن شيئاً منها لا يصلح للإلٰهية ، أراد الرد على قومه فى اعتقاد إلٰهيتها لحسنها ، باعتبار افتقارها فى أفعالها إلى أجسام لها دناءة الأفول ، وإن كانت علوية ، وكذا فى اعتقاد إلٰهية تلك الأجسام. كما رد عليهم فى اعتقاد إلٰهية الأصنام، فلتَظْهَرَ ظهور الكواكب التى كانوا يعبدونها . انتهى .

وبالجملة ، فالآية بيان لكيفية استدلاله عليه الصلاةوالسلام ، ووصوله إلى رتبةالإيقان. ومعنى (جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) ستره بظلامه . و (الكوكب) قيل : الزهرة ، وقيل : المشترى .

أقول : (الكوكب) لغةً : النجم . قال الزبيدىّ فى (شرح القاموس) : وكونه علماً بالغلبة على الزهرة غير معتدّ به ، وإنما هى الكوكبة بالهاء . انتهى .

قال الزمخشرىّ : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب،فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدِثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . وقول إبراهيم لقومه : (هَٰذَا رَبِّى) إرخاء للعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولاً ، ثم إبطال قولهم بالاستدلال ، لأنه أقرب لرجوع الخصم .

قال الزمخشرىّ : قول إبرهيم ذلك، هو قول من ينصف خصمه ، مع علمه بأنه مبطل. يحكى قولَهُ كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغَب . ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة.

« فَلَمَّا أَفَلَ » أى : غاب ، « قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » أى : لا أحب عبادة من كان كذلك ، فإن الأفول دناءة تنافى الإلٰهية ، بل تمنع من الميل إلى صاحبها ، فضلًا عن اتخاذه إلهاً أو معبودًا ، فضلًا عما يفتقر إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً » أى : طالعاً منتشر الضوء «قَالَ هَٰذَا رَبِّى» على الأسلوب المتقدم « فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » فإن ما رأيته لا يليق بالإلٰهية لدناءته بمحوه .

قال الزمخشريّ : وفيه تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً ، وهو نظير الكواكب في الأفول ، فهو ضال . وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه .

وفي (الانتصاف) : التعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولًا (لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ) وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد أقامت عليه، بالاستدلال الأول ، حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون إلى الاستدلال . فما عرّض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود ، واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تمّ قيام الحجة ، وتبلّج الحقّ ، وبَلَغَ من الظهور غاية المقصود . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي » على نحو ما تقدم ، وتذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر، أولأنه أراد : هـذا الطالع ، أو الذي أراه ، أو لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ليستدرجهم . إذ لو حقر بوجه ما كان سبباً لعـدم إصغائهم ـ وعلى الأخير اقتصر المهايميّ ـ فقال : لم يؤنثه لئلا يعارض عظمته نقص الأنوثة ، ولو غـير حقيقية ، وهي وإن كانت في الواقع لم يأت بها لفظاً ، لأنه قصد بذلك مساعدة الخصم أولا .

وقوله تعالى : « هَٰـذَا أَكْبَرُ » أي : أكبر الكواكب جرماً ، وأعظمها قوة ، فهو أولى بالإلهية . وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر .

« فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ » صادعاً بالحق : « يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » أى من الأجرام المحدثة المتغيرة من حالة إلى أخرى ، أو من إشراككم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ » أى : وجه قلبى وروحى فى المحبة والعبادة ، بل جملته مسلماً « لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً » أى : مائلا عن الأديان الباطلة ، والعقائد الزائغة ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وفى هذا المقام :

مباحث

الأول ـ توسع المفسرون هنا فى قوله : (هَذَا رَبِّى) :

فمن قائل بأن المتكلم بهذا آزر ، وأنه لما قال ذلك ، قال إبراهيم (لاأحب الآفلين) .

وقيل: إنه إبراهيم ، وكان ذلك فى حال الطفولية، قبل استحكام النظر فى معرفة الله تعالى لقوله : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى ...) الخ .

وقيل : بعد بلوغه وتكريمه بالرسالة، إلا أنه أراد الاستفهام الإنكارىّ،توبيخاً لقومه، فحذف الهمزة ، ومثله كثير .

وقيل: على إضمار القول أى: يقولون هذا ربى ، وإضمار القول كثير .

وقيل : المعنى فى زعمكم واعتقادكم .

وقيل : الإخبار على سبيل الاستهزاء ... إلى أقوال أخر .

والقصد فى ذلك تنزيه مقامه عليه الصلاة والسلام عن الشك والحيرة ، واعتقاد ربوبية ذلك ، لمنافاته للعصمة .

وأقول : هذا مسلّم بلا ريب ، ولكنّ الأوجَه من جميع ذلك كله ما أسلفناه أوّلا من أن قوله : (هَٰذَا رَبِّي) من باب استعمال النصفة مع الخصوم ، على سبيل الوضع، وهو سوق مقدمة فى الدليل لايعتقدها ، لكونها مسلمة عند غيره، لأجل إلزامه بها. وهو مصطلح أهل الجدل . وقد اقتصر الزمخشرىّ على هذا الوجه الفريد .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وذلك متعين . وقد ورد فى الحديث الوارد فى الشفاعة[1] أنهم يأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسى! نفسى ! ويذكر كذباته الثلاث ، ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة هى أختى ، وإنما عنى : فى الإسلام . وقوله : إنه سقيم ، وإنما عنى همّه بقومه وبشركهم والمؤمن يسقمه ذلك ــ وقوله: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) ، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض . فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دلّ ذلك على أنها أعظم ما صدر منه . فلو كان الأمر على مايقال ، من أن هذا الكلام محكىّ عنه على أنه نظره لنفسه ، لكان أولى أن يعدّه ، وأعظم، مما ذكرناه . لأنه حينئذ يكون شكّا ، بل جزما . على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون فى هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير[2] من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر . واختاره ابن جرير مستدلا عليه بقوله:(لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي) الآية . وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرَب الذى ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه من نمروذ بن كنعان،

---

(١) حديث الشفاعة هـذا أخرجه البخارىّ فى مواضع . ومنها فى : ٩٧ ــ كتاب التوحيد ، ٢٤ ــ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٤٠ عن أنس وفيه ذكره ، عليه السلام ، كذباتِه الثلاث .

(٢) الأثر رقم ١٣٤٦٢ من التفسير .

لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ . فلما حملت أم إبراهيم به ، وحان وضعها ، ذهبت إلى سَرَبٍ ، ظاهرَ البلدة ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين .

ثم قال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين ، فى المقام الأول مع أبيه ، خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية ، التى هى على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده فى الرزق ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبيّن فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل ، وهى الكواكب السيارة السبعة . وأشدُّهن إضاءة وأشرفهن عندهم ، الشمس ثم القمر ثم الزهرة . فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه ، ولا تملك لنفسها تصرفا ، بل هى جرم من الأجرام ، خلقها الله منيرة ، لما له فى ذلك من الحكم العظيمة ، وهى تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال . وهذه لا تصلح للإلهية . ثم بين فى القمر ما بين فى النجم ، ثم الشمس كذلك . فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، تبرأ من عبادتهن وموالاتهن ، وأخبر بأنه يعبد خالقهن ومسخرهن .

ثم قال ابن كثير : وكيف يجوز أن يكون ناظرا فى هذا المقام ، وهو الذى قال الله فى حقه (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)[1] . وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥١و٥٢] .

قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[١] .

وقد ثبت فى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : كل مولود يولد على الفطرة .

وفى صحيح مسلم[٣] عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء . وقال تعالى (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ)[٤] . ومعناه، على أحد القولين، كقوله (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) . فإذا كان هذا فى حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠و١٢١] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٠ ـ باب إذا أسلم الصبىّ فمات ، هل يصلَّى عليه ؟ حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة كان يحدّث قال النبىّ ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه . كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ . هل تحسّون فيها من جدعاءَ ؟ » .

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... الآية .

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا) .

وانظر نصه الكامل بالصفحة (١٥٦٩) من هذا التفسير .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٧٢] . . . شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ .

الذى جعله الله (أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ناظرًا فى هـذا المقام ؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله ﷺ ، بلاشك ولا ريب .

ومما يؤيد أنه كان فى هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيـه من الشرك ، لا ناظرًا ، قوله تعالى (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ...) الآية الآتية . انتهى .

وممن جوّد هذا المبحث الجليل ، وبيّن أن إبراهيم عليـه الصلاة والسلام كان مناظرًا لقومه ، العلامةُ الشهرستانىُّ فى كتابه (الملل والنحل) ، ونحن نسوقه عنـه تأييدًا لهذا البحث المهم ، وتعرّفاً بمعتقد قومه ، وما دفعهم إليه ، لما فيه من الفوائد .

قال رحمه الله تحت ترجمة (أصحاب الهياكل والأشخاص) : هؤلاء من فرق الصابئة (وهم المتعصبون للروحانيين) ، وقد أدرجنا مقالتهم فى المناظرات جملة ، ونذكرها ههنا تفصيلًا :

اعلم أن أصحاب الروحانيات ، لما عرفوا أن لابد للإنسان من متوسط ، ولابد للمتوسط من أن يُرَى فيتوجه إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه ، فزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات السبع ، فتعرفوا أولًا بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالى والساعات عليها ، وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها ، فعملوا الخواتيم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا لِيوم زحل مثلًا يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وبخّروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة ، وسألوا حاجتهم منه ، الحاجة التى تستدعى من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به .

وكذلك رفع الحاجة التى تختص بالمشترى فى يومه وساعته ، وجميع الإضافات التى

ذكرنا ، إليه . وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب . وكانوا يسمونها : أرباباً آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب، فكانوا يتقربون إلى الهياكل ، تقرباً إلى الروحانيات ـ يعنى الملائكة ـ ويتقربون إلى الروحانيات ، تقرباً إلى البارئ تعالى ، لاعتقادهم بأن لكل روحانى هيكلاً ، ولكل هيكل فلكاً ، فالهياكل أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات ، وهى أربابها ومدبراتها ، تتصرف فى أبدانها تدبيراً وتصريفاً وتحريكاً ، كما يتصرف فى أبداننا. ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه . ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضى منهم العجب . وهذه الطلسمات المذكورة فى الكتب والسحر والكهانة والتختيم والتعزيم والخواتيم والصور، كلها من علومهم. وأما أصحاب الأشخاص فقالو : إذا كان لابد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ، والروحانيات وإن كانت هى الوسائل ، لكنا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نخاطبها بالألسن ، لم يتحقق القرب إليها إلا بهياكلها ، ولكن الهياكل قد ترى فى وقت ، ولا ترى فى وقت ، لأن لها طلوعاً وأفولاً ، وظهوراً بالليل ، وخفاء بالنهار، فلم يَصْفُ لنا التقرب بها ، والتوجه إليها ، فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ، فنعكف عليها، ونتوسل بها إلى الهياكل، فنتقرب بها إلى الروحانيات، ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى ، فنعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص فى مقابلة هيكل ، وراعوا فى ذلك جوهر الهيكل ، أعنى الجوهر الخاص به من الحديد وغيره ، وصوروه بصورته على الهيأة التى تصدر أفعاله عنه ، وراعوا فى ذلك الزمانَ والوقتَ والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية، من اتصال محمود يؤثر فى نجاح الطالب التى تستدعى منه ، فتقربوا إليه فى يومه وساعته ، وتبخّروا بالبخور الخاص به وتختموا بخاتمه ، ولبسوا ثيابه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزّموا

بعزائمه ، وسألوا حاجتهم منه، فيقولون : كان تقضى حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها، وذلك هو الذى أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الكواكب والأوثان . فأصحاب الهياكل هم عبدة الكواكب ، إذ قالوا بإلهيتها ـ كما شرحنا ـ وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان ، إذ سموها آلهة فى مقابلة آلهة أولئك السماوية ، وقالوا: (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ)[1]. وقد ناظر الخليل عليه الصلاة والسلام هذين الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، وذلك قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) . وتلك الحجة أن كسرهم قولًا بقوله : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) . ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيهـا حق الرعاية ، ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام ، لا من غيره ، كان أكثر الحجج معه ، وأقوى الإلزامات عليه (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وقال : (يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)[2] لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم ، حتى عملت أصناماً فى مقابلة الأجرام السماوية فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعاً وبصرًا ، وأن تغنى عنك ، وتضر وتنفع ، وإنك بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ، ، لأنك خلقت سميعاً بصيرًا ضارًّا نافعاً. والآثار السماوية فيك أظهر منها فى هذا المتخذ تكلفاً ، والمعمول تصنعاً ، فيالها من حيرة ، إذصار المصنوع بيديك، معبودًا لك ، والصانع أشرف من المصنوع . (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

(١) [١٠ / يونس / ١٨] ونصها : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ . . .

جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)[١] فلم يقبل حجته القولية ، فعدل عليه الصلاة والسلام إلى الكسر بالفعل ، فجعلهم جذاذاً ، إلا كبيرًا لهم (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)[٢] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)[٣] فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم ، كما أفحمهم بالقول ، حيث أحال الفعل منهم ، وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم ، وإلا فما كان الخليل كاذباً قط . ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل كما أراه الله تعالى الحجة على قومه ، قال (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها ، وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة، وتقريرًا أن الكمال فى الرجال ، فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي) على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) وإلا فما كان الخليل كاذباً فى هذا القول ، ولا مشركاً فى تلك الإشارة . ثم استدل بالأفول والزوال والتغير والانتقال ، بأنه لا يصلح أن يكون ربًّا إلهاً ، فإن الإله القديم لا يتغير ، وإذا تغير فاحتاج إلى مغير ، وهذا لو اعتقدتموه ربًّا قديماً وإلهاً أزليًّا ، ولو اعتقدتموه واسطة وقبلة وشفيعاً ووسيلة ، فالأفول والزوال أيضاً ، يخرجه عن الكمال . وعن هذا ما

---

(١) هذه هى الآيات الشريفة حسب ترتيبها وبنصها الكامل فى الكتاب .

[١٩ / مريم / ٤٤ـ٤٦] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٥٩] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣ـ٦٥] .

ما استدل عليهم بالطلوع ، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول ، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص ، لما عراهم من التحير بالأفول ، فأتاهم الخليل عليه الصلاة والسلام من حيث تحيرهم ، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته . وذلك أبلغ فى الاحتجاج . ثم (لَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ). فيا عجبـاً ! من لا يعرف ربًّا كيف يقول : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ، والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون فى مدارج البداية ؟ دع هـذا كله خاف قاف ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف. فإن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج . وعن هذا قال (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ) لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب الذى يقتبسون منـــه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هى الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها ، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها ، وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها ، وأن الأنبياء والرسل مبعوثة لتقريرها وتقديرها ، وأن الفاتحة والخاتمة ، والمبدأ والكمال ، منوطة بتلخيصها وتحريرها . ذلك الدين القيم ، والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح، والمسلك اللائح . انتهى كلام الشهرستانىّ رحمه الله تعالى. وإنما نقلت كلامه برمته ، لأنه كما قيل :

* وما محاسن شىء كلُّهُ حَسَنُ *

وقد قدّم رحمه الله الكلام على أصحاب الروحانيات الصابئة ، وأتبعها بمناظرة بديعة جرت بينهم وبين الحنفاء ، بما تفيد مراجعتهُ فائدة كبرى . فجزاه الله خيرًا .

الثانى ـ تبيّن مما ذكره الشهرستانىّ أن سر احتجاج الخليل عليه الصلاة والسلام بالأفول دون البزوغ ، مع كون كل منهما منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية ـ هو إتيانهم من حيث تحيرهم ، إلزاماً لهم بما يعترفون بصحته .

وقال أبو السعود : لما كان البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ، ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة ـ عدل عنه إلى الأفول ، لأنه حالة مقتضية لانطماس الآثار ، وبطلان الأحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد . انتهى. وهو لطيف ، إلا أن الأول أسدّ .

الثالث ـ لو قيل : إن الأفول ، لما كان يمنع من استحقاق معروضه لصفة الربوبية على ما ذكرنا ، وقد ثبت ذلك فى أكبر الكواكب ـ (أعنى الشمس) ـ فلزم ثبوته فيما دونها بالأولى ـ فهلا اقتصر على أفول الشمس رعاية للإيجاز والاختصار ؟ أجيب : بأن الأخذ من الأدنى فالأدنى ، إلى الأعلى فالأعلى ، له نوع تأثير فى التقرير والبيان والتأكيد ، لا يحصل من غيره ، فكان سوق الاستدلال على هذا الوجه أولى ـ أفاده الرازىّ ـ .

الرابع ـ قال الرازىّ : تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل ، لا على التقليد ، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ » أى جادلوه ، وأرادوا مغالبته بالحجة ، فيما ذهب إليه من توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، تارة بأدلة فاسدة ، واقفة فى حضيض التقليد ، وأخرى بالتخويف ، وقد أشير إلى جواب كل منهما . « قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ » أى: أتجادلوننى فى توحيده ، وقد هدانى لإقامة الحجج ، ورفع الشبه على نفى إلهية ما سواه ،

وقد ثبت أنها ناقصة فى ذواتها ، فكمالاتها من غيرها ، ولا إلهية للناقص بالذات ، لأن كما له لا يكون مطلقاً . و (تحاجونى) بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية ، وقرىء بحذف الأولى .

وقوله تعالى : « وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » أى لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضر بنفسها ولا تنفع ، وهو جواب عما خوفوه عليه الصلاة والسلام فى أثناء المحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم ، كما قال لهود عليه السلام قومُه : (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ)(١) . وتخويفهم ، وإن لم يسبق له ذكر ، لكنه فهم من قوله: (وَلَا أَخَافُ) .

وقال ابن كثير : أى ومن الدليل على بطلان قولكم ؛ إن هذه المعبودات لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها كيد فكيدونى بها ولا تُنظرون . انتهى .

« إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا » أى : من إصابة مكروه بى من جهتها ، وذلك إنما هو من جهته تعالى ، من غير دخل لمعبوداتكم فيه أصلا .

وفى (الانتصاف) : غاية خوف إبراهيم منها ، المعلق على مشيئة الله تعالى لذلك ، خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى ، لا بها ، وكأنه فى الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف الذى أثبته منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كلا خوف منها ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى : « وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً » كأنه علة الاستثناء ، أى : أحاط بكل شىء علماً . فلا يبعد أن يكون فى علمه إنزال المخوف بى من جهتها ، أى : كرجمه بالنجوم. لأنه إذا أحيل شىء إلى علم الله ، أشعر بجواز وقوعه . وفى الإظهار فى موضع الإضمار ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته .

(١) [١١ / هود / ٥٤] ... قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

هذا ، وجعل المهايمىّ ذلك علة لاستدراك محذوف ، لعلمه من المقام ، حيث قال فى الآية: ولا أخاف الضرر على نفسى من تأثير ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى أن يجعل لهم شيئاً من التأثير ، لكنه لا يشاء فى شأنى ، لأنه (وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً)فعلم أنه لو أوجد التأثير فيهم بما يضرون به مَن بعثه لتوحيده ، صار محجوبا . انتهى ـ والأول أقرب ـ .

« أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ » أى : تعتبرون بأن هذه المعبودات جمادات ، لا تضر ولا تنفع، وأن النافع الضار هو الذى خلق السموات والأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ » أى : معبوداتكم ، وهى مأمونة الخوف ، « وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ » ، أى : بإشراكه « عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا » أى: حجة . إذ الإشراك لايصح أن يكون عليه حجة. والمعنى : وما لكم تنكرون علىّ الأمن فى موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن فى موضع أعظم المخوفات وأهولها . « فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ » أى : فريقى الموحدين والمشركين ، « أَحَقُّ بِالأَمْنِ » أى: من لحوق الضرر، « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى: مايحق أن يخاف منه . أو مَن أحق بالأمن أو مِن أولى العلم؟ وجواب الشرط محذوف . أى : فأخبرونى .

ثم بيّن تعالى من له الأمن، جواباً عما استفهم عنه الخليل عليه السلام بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » أى: بشرك، كما يفعله الفريق المشركون ،

حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل، وأن عبادتهم للأصنام من تتمات إيمانهم وأحكامه، لكونها لأجل التقريب والشفاعة ، كما قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ)(١). وهذا معنى اللبس ـ أفاده أبو السعود ـ وسيأتى زيادة لذلك .

« أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ » يوم القيامة « وَهُمْ مُهْتَدُونَ » أى : إلى الحق ، ومن عداهم فى ضلال .

روى البخارىّ ومسلم وغيرهما عن عبدالله قال: لما نزلت (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(٢) ـ هذا لفظ رواية البخارىّ ـ .

ولفظ رواية الإمام أحمد عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شقّ ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ! فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ؟ إنما هو الشرك .

أقول : هذه الرواية توضح رواية البخارىّ السابقة ـ أعنى : قول ابن مسعود : فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ . . .) الخ ـ من جهة أن النزول أريد به تفسير الآية ، لا سبب نزولها ، وهو اصطلاح للصحابة والتابعين دقيق، ينبغى التنبه له . وقد أشرنا له فى المقدمة . فجددْ بهعهدًا.

ولابن أبى حاتم عن عبد الله مرفوعاً (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال : بشرك .

---

(١) [٣٩ / الزمر [٣] ونصها : أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

قال : وروى عن أبي بكر وعمر وأبيّ بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمرو ابن شرحبيل وأبي عبد الرحمن السلميّ ومجاهد وعكرمة والنخعيّ والضحاك وقتادة والسديّ، وغير واحد نحو ذلك. نقله ابن كثير . وبالجملة، فلا يعلم مخالف من الصحابة والتابعين في تفسير (الظلم) هنا بالشرك ، وقوفاً مع الحديث الصحيح في ذلك ، المبين للنظائر القرآنية الموضّح بعضها لما أبهم في بعض . وتعرف تلك القاعدة من مثل هذا الحديث يكشف غمة أوهام كثيرة. ولو قيل : لا يلزم من قوله : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) أن غير الشرك لا يكون ظلماً ، يجاب : بأن التنوين في (بظلم) للتعظيم ، فكأنه قيل : لم يلبسوا إيمانهم بظلم عظيم . ولما تبين أن الشرك ظلم عظيم علم أن المراد : لم يلبسوا إيمانهم بشرك ، أو أن المتبادر من المطلق أكمل أفراده ـ كذا في العناية ـ .

قال الرازيّ : والدليل على أن هذا هو المراد ، أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات ، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك .

تنبيه :

حيث علم أن الصادق المصدوق ﷺ فسر الآية بما تقدم ، فليُعَضّ عليه بالنواجذ . وأما ماهـذى به الزمخشريّ من قوله في تفسير الآية : أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم ، وَأَبَى تفسيرَ الظلم بالكفر ، لفظُ (اللبس) أي : لأن لبس الإيمان بالشرك أي : خلطه به، مما لا يتصور ، لأنهما ضدان لا يجتمعان ـ على زعمه ـ فمدفوع بأنه يلابسه . لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق ، سواء كان باللسان أو غيره ، فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق . وكذا إن أريد تصديق القلب ، لجواز أن يصدّق بوجود الصانع ، دون وحـدانيته ، لما في قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)(١) وهو ما أشير إليه قبل.

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٦] .

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالشرك الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك ، بل تغطيته بالكفر ، وجعله مغلوباً مضمحلًّا، أو اتصافه بالإيمان ، ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مرارًا . وبعد تسليم ما ذكر ، فاختصاص الأمن بغير العصاة لا يوجب كون العصاة معذبين البتة ، بل خائفين ذلك ، متوقعين للاحتمال ، ورجحان جانب الوقوع ـ كذا فى (شرح الكشاف) .

وفى (الانتصاف) : إنما يروم الزمخشرىّ بذلك تنزيله على معتقده ، فى وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لاحظ لهم فى الأمن كالكفار . ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصى . ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة ، هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت ، وهم آمنون من الخلود . وأما الكفار فغير آمنين بوجهٍ ما . انتهى .

وأما قول المعتزلة : حديث عبد الله المتقدم ـ إن صح ـ يكون خبرَ واحدٍ ، فى مقابلة الدليل القطعىّ ، ومثله لا يعمل به ـ فالجواب : بأنه صح بلا ريب ، لتخريج الشيخين له .

* وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل[1] *

وقولهم : فى مقابلة الدليل القطعىّ ، بهتان عظيم . ويالله العجب من هؤلاء ، قابلوا السنة الصحيحة بكناسة الرأى ، ولم يستحيوا من الله تعالى ورسوله فى هذه المخالفة ، فأين تذهب

(١) قال ياقوت فى معجم البلدان : نهر معقل منسوب إلى معقِل بن يسار بن عبد الله ابن معبّر . . . ، صحب النبىّ ﷺ .

وهو نهر معروف بالبصرة ، فمه عند فم نهر الإجّانة .

ذكر الواقدىّ أن عمر أمر أبا موسى الأشعرىّ أن يحفر نهرًا بالبصرة ، وأن يُجْرِى على يد معقل بن يسار المزنىّ ، فنسب إليه .

به عقولهم ؟ إلى الحق أم إلى الباطل ؟ ولكن كما قال ابن سَهْلٍ[١] :

* فما أضيعَ البرهانَ عند المقلِّدِ *

هذا ، وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ساره ، إذ عرض له أعرابىّ فقال : يا رسول الله ! والذى بعثك بالحق ! لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى ، لأهتدى بهداك ، وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى مالى طعام إلا من خضر الأرض ، فاعرض علىّ . فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل . فازدحمنا حوله ، فدخل خفّ بَكْرِهِ فى بيت جرذان ، فتردّى الأعرابىّ ، فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ! والذى بعثنى بالحق ! لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدى بهداى ، ويأخذ من قولى ، وما بلغنى حتى مَا لَهُ من طعام إلا من خضر الأرض . أسمعتم بالذى عمل قليلًا وأُجِر كثيرًا ؟ هذا منهم ! أسمعتم بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) ؟ فإن هذا منهم .

وفى لفظٍ قال : هذا عمل قليلًا وأُجِر كثيرًا .

وروى نحوه الإمام أحمد[٢] عن جرير بن عبدالله مطولًا ، وفيه بيان قوله : فاعرض علىّ ، ولفظه : ما الإيمان ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : قد أقررت .

---

(١) عجز مطلع قصيدة له وصدره :

* أقلِّد وجدى ، فليبرهن مفنِّدى *

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥٩ من الجزء الرابع (طبعه الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وقوله تعالى « وَتِلْكَ » أى : الدلائل المشار إليها فى قوله (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إلى ههنا « حُجَّتُنَا » أى : التى لا يمكن نقضها « ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » أى : أرشدناه إليها، وعلمناه إياها ، بلا واسطة معلّم « عَلَىٰ قَوْمِهِ » متعلق بـ (حُجَّتُنَا) إن جعل خبر (تِلْكَ)، وبمحذوف إن جعل بدله ، أى : آتيناها حجة ودليلا على قومه الكثيرين ، ليغلب وحده .

« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ » يعنى : فى العلم والحكمة ، وقرئ بالتنوين . « إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فى رفعه وخفضه ، « عَلِيمٌ » بحال من يرفعه واستعداده له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ)

[٨٥] (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[٨٦] (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُ » أى : لإبراهيم عوضاً عن قومه ، لما اعتزلهم وما يعبدون ، « إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولدا ، وولد ولد ، لتقر عينه ببقاء العقب « كُلًّا هَدَيْنَا » أى: كلامنهماهديناه الهداية الكبرى ، بلحوقهمابدرجة أبيهما فى النبوة ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا(١) .

(١) [١٩ / مريم / ٤٩] .

قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، وذلك بعد أن طعن فى السن ، وأيس وامرأته سارة ، من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك : قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (١) * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٢) فبشروها فتعجبت، وبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعقبا ، كما قال تعالى : وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣) . وهذا أكمل فى البشارة ، وأعظم فى النعمة . وقال : فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٤) . أى: ويولد لهذا المولود وَلَدٌ فى حياتكما ، فتقرّ أعينكما به ، كما قرت بوالده ، وإن الفرح بولد الولد شديد ، لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه ، وقعت البشارة به ، وبولد اسمه يعقوب ، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكانت هذه المجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم ، وهاجر من بلادهم، ذاهبا إلى عبادة الله فى الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين، من صلبه، على دينه ، لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... الآية (٥) .

« وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ » أى : من قبله ، هديناه كما هديناه . وعدّ هداه نعمة على إبراهيم ، من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد .

---

(١) [١١ / هود / ٧٢] .

(٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٤) [١١ / هود / ٧١] ونصها : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ . . .

(٥) [١٩ / مريم / ٤٩] ونصها : . . . مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا .

قال ابن كثير : كل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهـــل الأرض ، إلا من آمن به ، وهم الذين صحبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ(١) ... الآية . وقال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ(٢) . وقال تعالى: أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً(٣) .

وقوله تعالى : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الضمير لإبراهيم أو لنوح ، على ما يأتى ، « دَاوُدَ » عطف على « نُوحًا » أى : وهدينا داود ، وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ .

اعلم أن المقصود من هذه الآيات ، وما قبلها ، وما يلحقها ، تعديد أنواع نعم الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، جزاء اعتزاله قومه وما يعبدون ، وقيامه بنصرة التوحيد، ودحض الشرك . فذكر تعالى أولا رفع درجته ، بإيتائه الحجة على قومه ، وتخصيصه بها ، ثم جعله عزيزاً فى الدنيا ، حسبا ونسبا ، أصلا وفرعا ، لأنه تولد من نوح أول المرسلين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٦] ... فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٨] .

رسالة عامة ، ووهبت له الذرية الطاهرة ، أنبياء البشر . ولذا ذهب الأكثرون إلى أن الضمير فى (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) لإبراهيم ، لأن مساق النظم لبيان شؤونه العظيمة ، كأنه قيل : ولم نزل نرفع درجاته بعد ذلك إذ هدينا من ذريته داود . . . الخ ، فهو المقصود بالذكر فى هذه الآيات . وذكر نوح عليه السلام، لأن كون إبراهيم من أولاده أحد موجبات رفعته كما تقدم. والغاية هى إلزام من ينتمى إليه من المشركين .

ولا يقال : إن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه، لأنه يقال : إن العرب تجعل العمّ أبا، كما أخبر تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا: نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ[1] ، مع أن إسماعيل عم يعقوب ، ودخل فى آبائه تغليباً .

وقال محيي السنة رحمه الله تعالى: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) أى: ذرية نوح ﷺ ، ولم يرد من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه ذكر فى جملتهم يونس ﷺ ، وكان من الأسباط ، فى زمن شعياء ، أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى من الموصل .

وقال: إن لوطاً عليه السلام كان ابن أخى إبراهيم عليه السلام، آمن بإبراهيم، وشخص معه مهاجرًا إلى الشام ، فأرسله الله إلى أهل سدوم .

ومن قال : الضمير لإبراهيم ﷺ ، يقدّر : ومن ذرية إبراهيم وداود وسليمان هدينا . لأن إبراهيم هو المقصود بالذكر . وذكر نوح لتعظيم إبراهيم . ولذلك ختم بيونس ولوط ، وجعلهما معطوفين على (نُوحًا هَدَيْنَا) من عطف الجملة على الجملة . وصاحب (الكشف) أخرج (إلياس) ﷺ . وليس كذلك . لما فى (جامع الأصول) عن الكسائىّ ، أنهما من ذريته. فبقى لوط خارجاً . ولما كان ابن أخيه آمن به ، وهاجر معه ، أمكن أن يجعل من ذريته على سبيل التغليب ـ كما ذكره الطيبىّ ـ .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَاتَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وبالجملة ، فالآية المذكورة من المنن على إبراهيم على كلا الوجهين ، لأن شرف الذرية ، وشرف الأقارب شرف ، لكنه على الأول أظهر ، ويكون تطرية فى مدح إبراهيم ﷺ بالعود إليه مرة بعد أخرى .

تنبيهات :

الأول ـ قال الحافظ ابن كثير : فى ذكر عيسى عليه السلام ، فى ذرية إبراهيم أو نوح (على القول الآخر) دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم عليهما السلام . وقد روى ابن أبى حاتم أن الحجاج أرسل إلى يحيي بن يعمر فقال : بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبيّ ﷺ ، تجده فى كتاب الله وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟! قال : أليس تقرأ سورة الأنعـام ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ . . . حتى بلغ : وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ قال : بلى ! قال : أليس من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت ! فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريتـه ، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم . فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه ، وبنو بنيه ، واحتجوا بقول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا . وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعدِ

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم، لما ثبت فى صحيح البخاريّ[1] أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ٢٠ ـ باب قول النبيّ ﷺ للحسن بن علىّ: إن ابنى هذا لَسَيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، حديث ١٣٠٧ ونصه :

حدثنا الحسن قال : لما سار الحسن بن علىّ رضى الله عنهما إلى معاوية بالكتائب ، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لا تولّى حتى تدبر أخراها. قال معاوية: من لذراريّ المسلمين؟

قال الحسن: ولقد سمعت أبا هريرة قال: بينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «ابنى هذا سيد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين».

قال للحسن بن عليّ : إن ابنى هذا سيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. فسماه (ابناً) فدل على دخوله فى الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوّز . انتهى .

وفى (العناية) : أورد على الاستدلال بتناول الذرية أولاد البنت من هـذه الآية ، بأن عيسى عليـه السلام ليس له أب ، يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه ، فلا يظهر قياس غيره عليه . والمسألة مختلف فيها ، والقائل بها استدل بهذه الآية ، وآية المباهلة ، حيث دعا ﷺ الحسن والحسين رضى الله عنهما بعدما نزل : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ (١) . إن لم نقل إنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم . انتهى .

الثانى ـ إنما لم يذكر إسماعيل عليـه السلام مع إسحاق ، بل أخّر ذكره عنه ، لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بنى إسرائيل ، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فلم يخرج من صلبه من الأنبياء إلا خاتمهم وأفضلهم ﷺ . ولا يقتضى المقام ذكره ﷺ لأنه أمر أن يحتج على العرب فى نفى الشرك بأن إبراهيم لما ترك قومه وما يعبدون ، إلى عبادة الله وحده ، رزقه الله النعم العظيمة فى الدين والدنيا ، ومنها إيتاؤه أولادا أنبياء . فإذا كان المحتج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يُذكر فى هـــذا المعرض . ولهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق ـ أفاده الرازىّ ـ .

الثالث ـ اعلم أنه تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبيًّا من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب ، لا بحسب الزمان ؛ ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضى الترتيب . ولـكن هنا لطيفة فى هذا الترتيب ، وهى أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنـــوع من الـكرامة والفضل ، فذكر أولا نوحا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول

---

(١) [٣ / آل عمران / ٦١] ونصها : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الأنبياء ، وإليهم ترجع أنسابهم جميعا . ثم من المراتب المعتبرة، بعـد النبوة ، الملك والقدرة والسلطان . وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظًّا وافرا . ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد ، وقد خص الله بهـذه أيوب عليـه السلام . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما ، وهو يوسف عليه السلام ؛ فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة . ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الأنبياء عليهم السـلام كثرة المعجزات ، وقوة البراهين ، وقد خص الله موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر . ثم من المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا ، والإعراض عنها، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام ، ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين . ثم ذكر الله من بعـد هؤلاء الأنبياء، مَن لم يبق له أتباع ولا شريعة ، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط . فإذا اعتبرنا هـذه اللطيفة على هذا الوجه ، كان هذا الترتيب من أحسن شىء يذكر ، والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه ـ أفاده الخازن وأصله للرازىّ ـ .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) من يرى أن الأنبياء أفضل من الملائـكة . لأن العالَم اسم لـكل موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فيه الملَك .

الخامس ـ نـكتة ذكر (الهداية) فى قوله تعـالى (كُلًّا هَدَيْنَا) هو تعديد النعم على إبراهيم صلى الله عليه وسلم بشرف الأصول والفروع ـ كما أسلفنا ـ والولد لا يُعدّ نعمة ما لم يكن مهديًّا .

السادس ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا) من أنـكر إفادةَ التقديم الحصرَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ » عطف على (كُلًّا) أو (نُوحاً) أى : كلا منهم فضلنا ، وفضلنا بعض آبائهم ، أو هدينا من آبائهم ومن معهم للدين الخالص جماعات كثيرة ، فالمفعول محذوف . « وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال ، فجملت لهم هـــذه الفضائل أيضاً ، ولحقت إبراهيم ، فازداد ارتفاع درجاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ » إشارة إلى ما دانوا به ، « يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا » أى : هؤلاء مع عظمتهم « لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » من الأعمـــال المرضية . فـكيف بمن عداهم ؟

قال ابن كثير: فيه تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته ، كقوله تعالى: وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . . الآية[١] وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، كقوله : قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ[٢] . وكقوله : لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ... وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٨١].

فَاعِلِينَ[١] . وكقوله : لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر ، والمعطوفين عليهم ، باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها . « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » أى: جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية . والمراد بـ (إيتائه) التفهيم التام بما فيه من الحقائق . والتمكينُ من الإحاطة بالجلائل والدقائق ، أعمّ من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداءً ، أو بالإيراث بقاءً . فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معيّن ـ أفاده أبو السعود ـ .

« وَالْحُكْمَ » أى : الحكمة ، أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق والصواب ، « وَالنُّبُوَّةَ » قال البيضاوىّ وأبو السعود : أى الرسالة . قال الخفاجىّ : النبوة وإن كانت أعم ، إلا أن المراد بها ما يشمل الرسالة ، لأن المذكورين رسل . انتهى .

« فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا » أى : بهذه الثلاثة ، « هَٰؤُلَاءِ » يعنى : قريشاً ، فإنهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ، كافرون بما يصدقه جميعاً ، « فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا » أى : وفقنا للإيمان بها ، « قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » وهم الأنبياء عليهم السلام، المذكورون وأتباعهم. أوأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأظهر ـ فى مقابلة

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤] .

كفار قريش . أى : فإن فى إيمانهم غنية عن إيمان الكفرة بها . وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها ، بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشيء ، ومراعاته ـ إيذان بفخامتها وعلوّها ، وأنه مما ينبغى أن يقدر قدرها قياماً بحق الوكالة ، وعهد الاستحفاظ .

قال الرازىّ : دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ، ويقوى دينه ، ويجعله مستعليا على كل من عاداه ، قاهرا لكل من نازعه . وقد وقع هذا الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذا الموضع . فكان جاريا مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الأنبياء المذكورين « الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ » أى : إلى الصراط المستقيم « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » أى : بطريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده ، والأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والصفات الرفيعة ، اعمل .

تنبيهات

الأول ـ استدل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، مالم يرد ناسخ .

الثانى ـ استدل بها ابن عباس رضى الله عنه على استحباب السجدة فى (ص) ، لأن داود عليه السلام سجدها ، رواه البخارىّ وغيره ـ ولفظ البخارىّ[1] : عن العوّام ، قال : سألت مجاهدا عن سجدة (ص) ، فقال : سألت ابن عباس : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فكان داود

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة صٓ ، ١ ـ حدثنا محمد ابن بشار .

ممن أُمِرَ نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ .

الثالث ـ قال الرازىّ : احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وتقريره: أنا بيّنا أن خصال الكمال ، وصفة الشرف ، كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ، ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وموسى عليه السلام كان صاحب الشريعة القوية القاهرة ، والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس كان صاحب التضرع ، فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ، لأن الغالب عليه خصلة معينة من خصال المدح والشرف . ثم إنه تعالى لما ذكر الكل ، أمر نبينا ﷺ بأن يقتدى بهم بأسرهم ، فكأنه أمر بأن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التى كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، وهو معصوم عن مخالفة ما أمر به ، فثبت أنه اجتمع فيه جميع ما تفرق فيهم من الكمال ، وثبت أنه أفضلهم . وهو استنباط حسن .

الرابع ـ « اقْتَدِهْ » يُقرأ بسكون الهاء وإثباتها فى الوقف دون الوصل ، وهى على هذا هاء السكت . ومنهم من يثبتها فى الوصل أيضا لشبهها بهاء الإضمار . ومنهم من يكسرها وفيه وجهان : أحدهما هى هاء السكت أيضاً ، شبهت بهاء الضمير ، وليس بشىء . والثانى هى هاء الضمير والمضمر المصدر أى: اقتد الاقتداء . ومثله[1] :

هــذا سُراقَةُ للقرآن يدرُسُهُ ... والمرءُ عندارُّشا ، إنْ يَلْقَهَا ذِيبُ

(١) قال صاحب الخزانة (ج ٢ ص ٢ ، طبعة السلفية) ما نصه :

هو من شواهد سيبويه .

على أن الضمير فى (يدرسه) راجع إلى مضمون يدرس . أى يدرس الدرس فيكون =

(فالهاء) ضمير (الدرس) لامفعول ، لأن (يدرس) قد تعدى إلى (القرآن) . وقيل: مَنْ سكن الهاء جعلها هاء الضمير ، وأجرى الوصل مجرى الوقف ـ أفاده أبو البقاء ـ .

وأما قول الواحديّ : الذين أثبتوا الهاء راموا موافقة المصحف ، فإن الهاء ثابتة في الخط ، فكرهوا مخالفة الخط في حالتي الوقف والوصل ، فأثبتوا ـ فقد قال الخفاجيّ : إنه مما لا ينبغي ذكره ، لأنه يقتضي أن القراءة بغير نقل تقليدا للخط ، فمن قاله فقد وهم .

« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أي : على القرآن أو التبليغ ، فإن مساق الكلام يدل عليهما ، وإن لم يجر ذكرهما ، « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ » أي : عظة وتذكير لهم ليرشدوا من العمى إلى الهدى .

تنبيهان :

الأول ـ فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس . وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .

الثاني ـ قال الخفاجيّ : قيل: الآية تدل على أنه يحلّ أخذ الأجر للتعليم وتبليغ الأحكام. قال : وللفقهاء فيه كلام . انتهى.

= راجعاً للمصدر المدلول عليه بالفعل . وإنما لم يَجُز عوده للقرآن ، لئلا يلزم تعدّي العامل إلى الضمير وظاهره معاً .

واستشهد به أبو حيّان في (شرح التسهيل) على أن ضمير المصدر قد يجيء مرادًا به التأكيد ، وأن ذلك لا يختص بالمصدر الظاهر على الصحيح .

وأورده سيبويه على أن تقديره عنده : والمرء عند الرشا ذئبٌ إنْ يلقها .

وتقديره عند المبرّد : إن يلقها فهو ذئب .

وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يقف على قائلها أحدٌ .

قال الأعلم: هجا هذا الشاعر رجلا من القرّاء، نسب إليه الرياء وقبول الرشا والحرص عليها.

وعكس بعض مفسرى الزيدية حيث قال : فى هذا إشارة إلى أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم العلوم ، لأنِ ذلك جرى مجرى تبليغ الرسالة . انتهى .

أقول : إن الآية دلت على نفى سؤاله صلى الله عليه وسلم منهم أجرا ، كى لا يثقل عليهم الامتثال . وأما استفادة الحـل والتحريم منها ، ففيه خفاء . والقائل بالأول يقول : المعنى لاأسألـكم جعلا تعففاً . أى : وإن حلّ لى أخذه . وبالثانى : لا أسألـكم عليه أجرا لأنى حظرت من ذلك .

قال ابن القيّم : أماالهدية للمفتى ، ففيها تفصيل : فإن كانت بغير سبب الفتوى ، كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مُفْتٍ ، فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافأ عليها . وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سبباً إلى أن يفتيه بما لا يفتى به غيره ممن لا يهدى له ، لم يجز له قبول هديته . لأنهاتشبه المعاوضة على الإفتاء . وأما أخذ الرزق من بيت المال، فإن كان محتاجاً إليه ، جاز له ذلك. وإن كان غنيًّا عنه ، ففيه وجهان : وهـذا فرع متردد بين عامل الزكاة ، وعامل اليتيم. فمن ألحقه بعامل الزكاة قال: النفع فيه عام، فله الأخذ . ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ . وحكم القاضى فى ذلك حكم المفتى ، بل القاضى أولى بالمنع . وأما أخذ الأجرة فلا يجوز ، لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا يجوز المعاوضة عليه ، كما لو قال : لا أعلمك الإسلام والوضوء والصلاة إلا بأجرة . أو سئل عن حلال أو حرام ؟ فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهـذا حرام قطعا ، ويلزمه ردّ العوض ، ولا يملـكه . انتهى .

وفى حديث عبد الرحمن بن شبل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اقرؤوا القرآن ، ولا تَغلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به ـ أخرجه الإمام أحمد[1] برجال الصحيح . وأخرجه أيضاً البزار وله شواهد ـ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وأخرج أحمد[١] والترمذىّ ـ وحسّنه ـ عن عمران بن حصين أن النبىّ ﷺ قال : من قرأ القرآن فليسأل الله تبارك وتعالى به ، فإنه سيجىء قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به .

وأخرج ابن ماجة[٢] والبيهقىّ عن أبىّ بن كعب قال : علّمت رجلًا القرآن ، فأهدى لى قوساً ، فذكرت ذلك للنبىّ ﷺ فقال : إن أخذتها أخذت قوساً من نار .

وهناك أحاديث أخر ، ومنها استدل على حظر أخذ الأجرة على التعليم .

وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففى الصحيحين[٣] عن عبدالله بن مسعود فى قصة اللديغ من قوله ﷺ : إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لى معكم سهماً .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى: ١٢ ـ كتاب التجارات ، ٨ ـ باب الأجر على تعليم القرآن ، حديث رقم ٢١٥٨ (طبعتنا) .

(٣) هذا الحديث ليس عن عبد الله بن مسعود وإنما هو عن عبد الله بن عباس . وليس فى الصحيحين بل هو من الأحاديث التى انفرد بها البخارىّ عن مسلم .

أخرجه البخارىّ فى: ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٤ ـ باب الشرط فى الرقية بقطيع من الغنم ، حديث رقم ٢٢٦٠ ونصه :

عن ابن عباس أن نفرًا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّوا بماء فيهم لديغ (أو سليم) فعرض لهم رجل من أهل الماء . فقال : هل لديكم من راقٍ ؟ إن فى الماء رجلا لديغا (أو سليما) .

فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء . فبرأ .

فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك ، وقالوا : أخذتَ على كتاب الله أجرًا ؟! =

قال العلامة الشوكانى : حديث (أحق ما أخذتم عليه أجرًا) عامٌّ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارىء ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ مايدفع إلى القارىء من العطاء ، لأجل كونه قارئًا ، ونحو ذلك . فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلًا تحت العموم . وبعض أفراد العامّ فيه ، أدلة خاصة تدل على جوازه ، كما دل العامّ على ذلك . فمن تلك الأفراد أخذ الأجرة على الرقية ، وتعليم المرأة فى مقابلة مهرها . قال : هكذا ينبغى تحرير الكلام فى المقام ، والمصير إلى الترجيح من ضيق العطن . أى : لأنه يصار إليه عند تعذر الجمع ، وقد أمكن ، فكان الأحق ـ والله الموفق ـ .

ولما بين تعالى شأن القرآن العظيم ، وأنه نعمة كبرى على العالمين ، تأثّره ببيان كفرهم بذلك ، على وجه سرى إلى الكفر بجميع الكتب المنزلة ، فقال سبحانه :

= حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ! أخذ على كتاب الله أجرًا !!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله » .

أما الحديث الذى فيه (اضربوا لى بسهم) فهو حقيقة فى الصحيحين من رواية أبى سعيد الخدرىّ فى قصة مثل قصة الحديث السابق .

فقد أخرجه البخارىّ فى :

٣٧ ـ كتاب الإجارة ، ١٦ ـ باب ما يعطى فى الرقية .

وفى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٩ ـ باب فاتحة الكتاب .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٣ ـ باب الرقى بفاتحة الكتاب .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٩ ـ باب النفث فى الرقية

والحديث رقم ١١٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ٦٥و٦٦ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى : ما عظموه حق تعظيمه و (حَقَّ) نصب على المصدرية ، وهو فى الأصل صفة للمصدر . أى : قَدْرَهُ الحقَّ ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه . « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » أى : حين اجترؤوا على التفوه بهذه الجملة الشنعاء ، وذلك منهم مبالغة فى إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، فألزموا بما لا سبيل لهم إلى إنكاره أصلاً ، حيث قيل فى جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم :

« قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا » حال من الضمير فى (بِهِ) أو من (الْكِتَابِ) ، « وَهُدًى لِلنَّاسِ » أى : ضياء من ظلمة الجهالة ، وبياناً يفرق بين الحق والباطل ، « تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا » : يجزئونه أوراقاً يبدونها للناس مما ينتخبونه . أى : فكيف ينكر إنزال شيء ، وهذا المنزل المذكور ظاهر للعيان . والعدول عن التوراة إلى ذكر الكتاب وصفته ، والحال بعده ـ لزيادة التقريع ، وتشديد التبكيت ، وإلقام الحجر . « وَتُخْفُونَ كَثِيرًا » معطوف على (تُبْدُونَهَا) ، والعائد محذوف . أى : كثيراً منها . أو كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب . أى : وهم يخفون كثيراً . أى : ومع ذلك فالإلزام يكفى بما يبدونه ، المعترف لديهم بحقيّته . وفيه نعى على أهل الكتاب بسوء صنيعهم المذكور ، إذ ما يريدون بإخفاء كثير منها إلا تبديل الدين .

« وَعُلِّمْتُمْ » أى : على لسان محمد ﷺ « مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » من المعارف

التى لا يرتاب فى أنها تنزيل ربانى ، « قُلِ اللَّهُ » أى : أنزله الله ، أو الله أنزله . أَمَرَهُ بأن يجيب عنهم ، إشعارًا بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيهاً على أنهم بُهِتُوا ، بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب .

« ثُمَّ » بعد التبليغ وإلزام الحجة « ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ » أى : فى باطلهم « يَلْعَبُونَ » أى : يفعلون فعل اللاعب ، وهو ما لا يجرّ لهم نفعاً ، ولا يدفع عنهم ضررًا ، مع تضييع الزمان .

تنبيه :

فى هذه الآية قولان :

الأول ـ أنها مكية النزول تبعاً للسورة ، وأن القائل ذلك هم المشركون ، وإلزامهم إنزال التوراة ، لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ، وهذا هو الظاهر .

قال ابن كثير : قال ابن عباس[١] ومجاهد[٢] وعبد بن كثير : هذه الآية نزلت فى قريش ، واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأصح ، لأن اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبى ﷺ ، لأنه من البشر ، كما قال تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ[٣] وكقوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا[٤] . وكذا قالوا هنا : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ . فألزموا بإنزال

---

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٢ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٣٥٤١ من التفسير . وصوابه : عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا .

(٣) [١٠ / يونس / ٢] . . . وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ .

(٤) [١٧ / الإسراء / ٩٤] .

الكتاب الذى جاء به موسى ، وهو التوراة التى علموا هم وكل أحد أن الله أنزلها على موسى تكذيباً لقولهم ، وإيقافاً على عنادهم . ومعلوم ما كان بين قريش ويهود المدينة من التعارف ، وتسليم قريش أنهم أهل كتاب، وأنهم أعلم منهم لأجله ، مما يوجب اعترافهم بحقية التوراة، وأنها منزلة من لدنه تعالى . وعلى هـذا القول ، فالقراءة بالياء التحتية ظاهرة . وعلى قراءة الخطاب ، فهو التفات من خطاب قوم إلى خطاب قوم آخرين . وهو التفات عند الأدباء ـ حكاه الخفاجىّ ـ وإنما جعل من الانتقال عن خطابهم إلى خطاب اليهودية ، تعريضاً لهم بأن إنكارهم إنزال الله تعالى من جنس فعل هؤلاء بالتوراة فى البطلان ، وعدم الإسناد إلى برهان . ثم القول بأن الخطاب فى (عُلِّمْتُمْ) لمؤمنى قريش . لا يقتضيه السياق ولا السباق ، وفيه تفكيك للنظم الجليل، كالقول بأنه اعتراض للامتنان على النبىّ ﷺ وأتباعه ، لهدايتهم للمجادلة بالتى هى أحسن . بل الخطاب فيه كسابقه ، والمراد بتعليمهم ، وهم مشركون ، ما يسمعونه ويتلقفونه من النبىّ ﷺ وصحابته ، من فرائد الوحى وفوائده ، مما لا يرتاب فى تنزيلها ، كما أوضحناه قبل .

القول الثانى ـ إن هذه الآية مدنية النزول . ولا يرد أن هذه السورة مكية ، ومناظرات اليهود كانت فى المدينة ، لأن كثيراً من السور المكية ألحقت بها آيات مدنية ، وحينئذ فقولهم (هـذه السورة مكية) أى : إلا ما استثنى مما ألحق بها ، كما أوضحه السيوطىّ فى (الإتقان) وساق له شواهد . وقد أشرنا إلى ذلك أول هذه السورة ، فتذكر !

ثم القائلون بأنها مدنية ، منهم من قال : نزلت فى طائفة من اليهود ، أو فى فنحاص ، أو فى مالك بن الصيف . أخرج ابن جرير[1] من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قالت اليهود : والله ما أنزل الله من السماء كتابا ، فأنزلت .

---

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٠ من التفسير ونصه :

عن ابن عباس قوله : وَمَا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَىٰ بَشَرٍ =

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ـ مرسلا ـ قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك ابن الصيف ، فخاصم النبىّ ﷺ ، فقال له النبىّ ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ـ وكان حبرا سمينا ـ ؟ فغضب وقال : ماأنزل الله على بشر من شيء ! فقال له أصحابه : ويحك ! ولا على موسى ؟ فأنزل الله : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...) الآية .

قال البغوىّ : وفى القصة أن مالك بن الصيف ، لما سمعت اليهود منه تلك المقالة ، عتبوا عليه ، وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى ، فلم قلت : ما أنزل الله من شيء ؟ فقال مالك بن الصيف : أغضبنى محمد ، فقلت ذلك ! فقالوا له : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ! فنزعوه عن الحبرية . وبعد الوقوف على ذلك ، فلا معنى لاعتراض بعضهم بأن مالك بن الصيف كان مفتخرا بكونه يهوديا متظاهرا بذلك ، ومع هذا المذهب لا يمكنه البتة أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء ، لأنه تبين أنه قال ذلك متغيظاً ، وقد أخذ الغضب منه مأخذه عنادا ومكابرة ، توصلا لدفع ما يريده. وقد يبلغ الحمق بصاحبه إلى حدٍّ يتبرأ فيه من مذهبه ومعتقده ، إغاظة لخصمه على زعمه . وبوادر اللسان فى حق المولى تعالى وتقدس ، مما لا تغتفر ، ولذا بين تعالى جهل ذاك القائل بقوله : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

قال العلامة البقاعىّ : لأن من نسب ملكا تام الملك إلى أنه لم يبث أوامره فى رعيته بما يرضيه ليفعلوه ، وما يسخطه ليجتنبوه ، فقد نسبه إلى نقص عظيم . فكيف إذا كانت تلك النسبة كذباً ؟ وإنما أسند إلى الكل ـ والقائل بعضهم ـ لأنهم لم يردّوا على قائله ، ولم

= مِنْ شَيْءٍ . يعنى بنى إسرائيل . قالت اليهود : يا محمد ! أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم! قالوا : والله ! ما أنزل الله من السماء كتاباً .

قال : فأنزل الله : « قُلْ » يا محمد ! « مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » إلى قوله « وَلَا ءَابَاؤُكُمْ » قال : الله أنزله .

يعاجلوه بالأخذ على يده ، تهويلا للأمر ، وبياناً لأنه يجب على كل من سمع بآية من آيات الله أن يسعى إليها ، ويتعرف أمورها . فمن طعن فيها أخذ على يده بما تصل إليه قدرته ، فقال مشيرًا إلى أن اليهود قائلوا ذلك ، ملزماً لهم بالاعتراف بالكذب ، أو المساواة للأميّين فى التمسك بالهوى دون كتاب ، موبخاً لهم ، ناعياً عليهم سوء جهلهم ، وعظيم بهتهم ، وشدة وقاحتهم ، وعدم حيائهم (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) ؟ أى : قل لهؤلاء السفهاء الذين تجرأوا على هذه المقالة ، غير ناظرين فى عاقبتها ، وما يلزم منها ، توبيخاً لهم ، وتوقيفاً على شنيع جهلهم (مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أى : أوراقاً مفرقة ، لتتمكنوا بها من إخفاء ما أردتم ، (تُبْدُونَهَا) لِلنَّاسِ أى : تظهرونها للناس ، (وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) أى : منها مما تريدون به تبديل الدين . هذا على قراءة الفوقانية . وعلى قراءة التحتانية التفات مؤذن بشدة الغضب ، مشير إلى أن ما قالوه حقيق بأن يستحيي من ذكره ، فكيف بفعله . وقوله (وَعُلِّمْتُمْ) أى : أيها اليهود بالكتاب الذى أنزل على موسى (مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ) أى : أيها اليهود من أهل هذا الزمان (وَلَا ءَابَاؤُكُمْ) أى : الأقدمون . انتهى كلام البقاعىّ رحمه الله تعالى . وفى قوله (وإنما أسند إلى الكل ...) إلى آخره ، نظر . لأن إسناده ليس إليهم ، لأنهم رضوا به ، لأن القصة السالفة تدل على خلافه .

وللبقاعىّ رحمه الله وجه آخر فى الآية . قال : ويمكن أن تكون مكية ، ويكون قولهم هذا حين أرسلت إليهم قريش تسألهم عنه ﷺ فى أمر رسالته ، فاحتج عليهم بإرسال موسى عليه السلام ، وإنزال التوراة عليه . انتهى . وهو قريب وجيه جدًّا .

وبالجملة، فالآية الكريمة متصادقة مع الأوجه المذكورة ، وتتنزل فى التأويل ، على ما بينا فى كلٍّ تنزيلًا لا شائبة معه لإشكال مّا . وقد استصعب الرازىّ تأويلها ، وأخذ يحاول أسئلة هى على طرف الثُّمام ، بعد النظر فيما بينّا ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا .

لطائف

الأولى ـ قال أبو السعود رحمه الله : ليس المراد بالآية مجرد إلزامهم بالاعتراف بإنزال التوراة فقط ، بل بإنزال القرآن أيضاً ، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم للاعتراف بإنزاله قطعاً ، لما فيها من الشواهد الناطقة به .

الثانية ـ قال أيضاً في قوله تعالى (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أي : تضعونه في قراطيس مقطعة ، وورقات مفرقة ، بحذف الجار ، بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم ، أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة . وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم ، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ، ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة .

الثالثة ـ في قوله تعالى (يبدونها ويخفون كثيرًا) دلالة على أنه لا يجوز كتم العلم الديني عمن يهتدي به . قاله بعض الزيدية .

ولما أبطل تعالى كلمتهم الشنعاء السالفة بتقرير إنزال التوراة ، بين تنزيل ما يصدقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

« وَهَٰذَا » يعني : القرآن ، « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أي : كثير المنافع والفوائد ، لاشتماله على منافع الدارين ، وعلوم الأولين والآخرين ، وما لا يتناهى من الفوائد .

قال الرازي : العلوم إما نظرية ، وإما عملية . فالأولى أشرفها . وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه . ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب . وأما الثانية : فالمطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى

بطهارة الأخلاق ، وتزكية النفس . ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده فى هذا الكتاب . ثم جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه ، والمتمسك به ، يحصل له عز الدنيا ، وسعادة الآخرة . انتهى . قال الخفاجى : وقد شوهد ذلك فى كل عصر .

« مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » ، أى: من التوراة أو من الكتب التى أنزلت قبله ، فى إثبات التوحيد ، والأمر به ، ونفى الشرك ، والنهى عنه . وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ .

« وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ » يعنى : مكة . سميت بذلك لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأناً ، وغيرها كالتبع لها ، كما يتبع الفرع الأصل . وفى ذكرها بهذا الاسم ، المنبئ عما ذكر ، إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأض كافة . « وَمَنْ حَوْلَهَا » من أطراف الأرض ، شرقاً وغرباً . كما قال فى الآية الأخرى : لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ(١) . وقوله : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا(٢) . وقال : تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(٣) . وقال تعالى : وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ، ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . . . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(١) .

وثبت فى الصحيحين(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، وذكر منهن : وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة .

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر ، حتى يؤمن بالنبىّ والكتاب (والضمير يحتملهما) ويحافظ على الصلاة. والمراد بها إما الطاعة مجازاً ، أو حقيقتها. وتخصيصها لكونها أشرف العبادات بعد الإيمان ، وأعظمها خطرا .

قال الرازىّ : ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شىء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة ، كما قال تعالى: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٣)

---

(١) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ...

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم، ١ ـ باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ونصه :

عن جابر أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يُعْطَهُن أحدٌ قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا . فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ . وأحلت لى الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلى . وأُعطيت الشفاعة . وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصّة ، وبُعثتُ للناس عامة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ =

أى: صلاتـكم. ولم يقع اسم الـكفر على شىء من المعاصى إلا على ترك الصلاة. قال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر. فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف ، لا جرم خصها الله بالذكر فى هذا المقام . انتهى

أقول : الحديث المذكور رواه الطبرانىّ فى أوسط معاجمه عن أنس وصحح . وتمامه: فقد كفر جهارا ـ كما فى الجامع الصغير ـ .

أخرج ابن أبى حاتم عن مسروق ، قال فى هذه الآية : أى يحافظون على مواقيتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً » أى : اختلق إفكا ، فجعل له شركاء أو ولدا ، أو أحكاما فى الحل والحرمة ، كعمرو بن لحىّ وأشباهه ، ممن جعل قوله قول الله. «أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» ممن ادعى النبوة كذباً . وهذا يزيد على الافتراء فى دعوى النبوة .

قال البقاعىّ : هذا تهديد على سبيل الإجمال ، كعادة القرآن الجميل ، يدخل فيه كل من اتصف بشىء من ذلك ، كمسيلمة والأسود العنسىّ وغيرهما . ثم قال : رأيت فى كتاب (غاية المقصود فى الرد على النصارى واليهود) لابن يحيى المغربىّ الذى كان من علمائهم فى حدود

= عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، . . .

سنة ٥٦٠ ثم هداه الله للإسلام فبين فضائحهم : إن الربانيين منهم زعموا أن الله يوحى إلى جميعهم فى كل يوم مرات . ثم قال: إن الربانيين أكثرهم عددا، يزعمون أن الله يخاطبهم فى كل مسألة بالصواب . وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم فى الأمم . انتهى.

« وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ » أى : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى مما يفتريه من القول ، كالنضر بن الحارث . وهذا كقوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا »[(١)] الآية .

قال المهايمىّ : أى ومن أنكر إعجاز القرآن حتى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله، مع أنه قد عرف إعجازه ، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله ، فكأنه ادعى الإلهية لنفسه . ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة ، فيعلم ما للظالمين فيها ، المبيَّن بقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ » . أى : شدائده وسكراته وكرباته ، « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » أى : بالضرب والعذاب ، كقوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ[(٢)] .

« أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ » أى : قائلين لهم : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم، تغليظاً وتوبيخاً وتعنيفاً عليهم . وقد جنح بعضهم إلى أن ما ذكر من مجاز التمثيل . أى : فشبه فعل الملائكة فى قبض أرواحهم ، بفعل الغريم الذى يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف فى استيفاء حقه من غير إمهال . وفى (الكشف) أنه كناية عن ذلك ، ولا بسط ولا قول حقيقة . قال الناصر فى (الانتصاف) : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة ، على الصور المحكية . وإذا أمكن البقاء على الحقيقة ، فلا معدل عنها . انتهى .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣١] . . . إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٥٠] . . . وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه فى جسده ، وتعصى ، وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : أخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى) المتقدمة ، فإنها صريحة . ومراعاة النظائر القرآنية أعظم مايفيد فى باب التأويل .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية حال الكافر عند القبض ، وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعواناً من الملائكة ـ أخرجه ابن أبى حاتم ـ .

« الْيَوْمَ » أى: وقت الإماتة ، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له . « تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى ، الهوان الشديد ، « بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ » كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة . وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به ـ قاله المهايمىّ ـ « وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ماأنزل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا » أى : للحساب والجزاء « فُرَادَىٰ » أى : منفردين عن الأموال والأولاد ، وما آثرتموه من الدنيا . أو عن الأعوان والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم . و (فرادى) جمع فريد ، كأسير وأسارى .

« كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : مشبهين ابتداء خلقكم ، حفاة عراة غرلا (يعنى قلفاً) .

روى الشيخان[١] عن ابن عباس قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس ! إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرْلًا ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

ورويا[٢] أيضاً عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : تحشرون حفاة عراة غرْلًا . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ ! قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك .

وروى الطبرىّ[٣] بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فقالت : يارسول! واسوأتاه ! إن الرجال والنساء يحشرون

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ قال «إنكم محشورن حفاة عراة غُرْلا» ثم قرأ : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

« وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم . وإن أناساً من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى ! أصحابى ! فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول ، كما قال العبد الصالح : وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ـ إلى قوله : الْحَكِيمُ » .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٥ ـ باب كيف الحشر ، حديث ٢٤٥١ .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٦ (طبعتنا) .

(٣) الأثر رقم ١٣٥٧٠ من التفسير .

جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ فقال رسول الله ﷺ : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . لا ينظر الرجال إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال ، شُغِل بعضهم عن بعض .

« وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ » ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا ، فشغلتم به عن الآخرة من الأموال والأولاد والخدم والخول « وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » يعنى : فى الدنيا ، ولم تحملوا منه نقيرًا . كناية عن كونهم لم يصرفوه إلى ما يفيد فى الآخرة .

وقد ثبت فى الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال : يقول ابن آدم : مالى ! مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ وزاد فى رواية: وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس .

« وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ » أى : لله فى الربوبية ، واستحقاق العبادة ، « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » قرئ بالرفع . أى : شملكم . فإن البين من الأضداد ، يستعمل للوصل والفصل . وبالنصب على إضمار الفاعل ، لدلالة ماقبله عليه . أى : تقطع الأمر ، أو الاشتراك ، أو وصلكم بينكم . أو على إقامته مقام موصوفه . والأصل : لقد تقطع ما بينكم ، وقد قرئ به . أى: تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات.

« وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : ذهب عنكم ما زعمتم من رجاء الأنداد والأصنام ، كقوله تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ[2] . وقال تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ[3] .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣و٤ (طبعتنا) عن عبد الله بن الشخِّير .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦٦و١٦٧] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا(١) . والآيات فى هذا كثيرة جدًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

« إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ » شروع فى بعض مبدعاته الدالة على كمال قدرته ، وعلمه وحكمته ، إثر تقرير شأن توحيده تعالى ، وذلك للتنبيه على أن المقصود الأعظم هو معرفته سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله ، وأنه مبدع الأشياء وخالقها . ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة ، لا هذه الأصنام التى كانوا يعبدونها ، ولتعريف خطئهم فى الإشراك الذى كانوا عليه . والمعنى : أن الذى يستحق العبادة دون غيره ، هو الله الذى فلق الحب عن النبات ، والنواة عن النخلة .

وفى معنى (فالق) قولان :

أحدهما ـ أنه بمعنى خالق . وهو قول ابن عباس فى رواية العوفىّ عنه . وبه قال الضحاك ومقاتل . قال الواحدىّ : ذهبوا بـ (فالق) مذهب (فاطر) . وأنكر الطبرىّ(٢) هذا ، وقال: لايعرف فى كلام العرب (فلق الله الشيء) ، بمعنى خلق . ونقل الأزهرىّ عن الزجاج جوازه . وكذا المجد فى القاموس .

قال الرازىّ : (الفطر) هو الشق ، وكذلك (الفلق) . فالشيء قبل أن دخل فى الوجود كان معدوماً محضاً ، ونفياً صرفاً . والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ،

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . . . وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

(٢) انظر الصفحة ٥٥٢ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف)

ولا انفلاق ، ولا انشقاق . فإذا أخرجه المبدع الموجد من العدم إلى الوجود ، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه ، وأخرج ذلك المحدَث من ذلك الشق . فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمبدع .

والقول الثانى ـ وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق . وفى معناه وجهان :

أحدها ـ مروىّ عن ابن عباس قال : فلق الحبة عن السنبلة ، والنواة عن النخلة . وهو قول الحسن والسدّىّ وابن زيد . قال الزجاج : يشق الحبة اليابسة ، والنواة اليابسه ، فيخرج منها ورقاً أخضر .

الوجه الثانى ـ وهو قول مجاهد : أنه الشقان اللذان فى الحب والنوى .

وضعف بأنه لا دلالة فيه على كمال القدرة .

و (الحب) : ماليس له نوى ، كالحنطة والشعير والأرز .

و (النوى) : جمع نواة ، وهو الموجود فى داخل الثمرة ، مثل نوى التمر والخوخ وغيرها .

قال الإمام الرازىّ : إذا عرفت ذلك ، فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ، ثم مرّ به قدر من المدة ، أظهر الله تعالى فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقّاً ، ومن أسفلها شقّاً آخر ، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ، المسماة بعروق الشجرة . وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة فى الهواء بالشجرة الهابطة فى الأرض .

ثم إن ههنا .

عجائب :

فإحداها ـ أن طبيعة تلك الشجرة ، إن كانت تقتضى الهوىّ فى عمق الأرض ، فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء ؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض ؟ فلما تولد منها الشجرتان، مع أن الحس والعقل

يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى ـ علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين والاختراع .

وثانيها ـ أن باطن الأرض جرم كثيف صلب، لاتنفذ المسلّة القوية فيه ، ولا يغوص السكين الحادّ القويّ فيه. ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق فى غاية الدقة واللطافة ، بحيث لو دلكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة ، لصارت كالماء ، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ فى تلك الأرض الصلبة ، والغوص فى بواطن تلك الأجرام الكثيفة . فحصول هذه القوى الشديدة ، لهذه الأجرام الضعيفة التى هى فى غاية اللطافة ، لابد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

وثالثها ـ أنه يتولد من تلك النواة شجرة ، ويحصل فى تلك الشجرة طبائع مختلفة ، فإنّ قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة ، وفى داخل ذلك القشر جرم الخشبة ، وفى وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف، يشبه العهن المنفوش . ثم إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ، ويتولد على الأغصان الأوراق أولًا ، ثم الأزهار والأنوار ثانياً ، ثم الفاكهة ثالثاً . ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فإن قشره الأعلى هو ذلك الأخضر، وتحته ذلك القشر الذى يشبه الخشب ، وتحته ذلك القشر الذى هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب ، وتحته ذلك اللب . وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف ، وهو أيضاً كالقشر ، وعلى جرم لطيف ، وهو الدهن . وهو المقصود الأصليّ . فتولدُ هذه الأجسام المختلفة فى طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها ، مع تساوى تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة ، والطبائع الأربع ـ يدل على أنها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر ، لا بتدبير الطبائع والعناصر .

ورابعها ـ أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة فى الفاكهة الواحدة ، فالأترج : قشره حارّ يابس ، ولحمه بارد رطب، وحماضه بارد يابس ، وبزره حار يابس . وكذلك العنب : قشره

وعَجَمُهُ بارد يابس ، وماؤه ولحمه حارّ رطب . فتولدُ هذه الطبائع المتضادة ، والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة ـ لابد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار .

وخامسها ـ أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة ، فبعضها يكون اللب فى الداخل ، والقشر فى الخارج ، كما فى الجوز واللوز . وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة فى الخارج ، وتكون الخشبة فى الداخل ، كالخوخ والمشمش . وبعضها يكون النواة لها لبّ ، كما فى نوى المشمش والخوخ. وبعضها لا لب له ، كما فى نوى التمر . وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر، بل يكون كله مطلوباً ، كالتين . فهذه أحوال مختلفة فى هذه الفواكه . وأيضاً هذه الحبوب مختلفة فى الأشكال والصور ، فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان انصلا بقاعدتيهما ، وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الحمص على وجه آخر . فهذه الأشكال المختلفة لابد وأن تكون لأسرار وحِكَمٍ ، عَلِمَ الخالق أن تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل . وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى فى كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ، ومنفعة أخرى . وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاءً لحيوانٍ، وسمًّا لحيوان آخر. فاختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال ، مع اتحاد الطبائع ، وتأثيرات الكواكب ، يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم .

وسادسها ـ أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة ، وجدت خطًّا واحدًا مستقيماً فى وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان . وكما أنه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة ، يمنة ويسرة ، فى بدن الإنسان ، ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب أُخر، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والأبصار ، بسبب الصغر ـ فكذلك فى تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطانىّ خطوط منفصلة ، وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج ، حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر . والخالق تعالى إنما فعل ذلك ، حتى إن القوى الجاذبة

المركوزة فى جرم تلك الورقة ، تقوى على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية فى تلك المجارى الضيقة . فلما وقفت على عناية الخالق فى إيجاد تلك الورقة الواحدة ، علمت أن عنايته فى تخليق جملة تلك الشجرة أكمل ، وعرفت أن عنايته فى تكوين جملة النبات أكمل . ثم إذا عرفت أنه تعالى إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان ، علمت أن عنايته بتخليق الحيوان أكمل . ولما عرفت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الإنسان ، علمت أن عنايته فى تخليق الإنسان أكمل . ثم إنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان فى هذا العالم ليكون غذاءً ودواءً للإنسان بحسب جسده ، والمقصود من تخليق الإنسان هو المعرفة والمحبة والخدمة ، كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[(١)] . فانظر أيها المسكين بعين رأسك فى تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقة تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها ، حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة فى الأرواح البشرية ، فحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله فى حقك غير متناهية ، كما قال: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا[(٢)] . وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقة تلك الورقة من الحبة والنواة . فهذا كلام مختصر فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ . ومتى وقف الإنسان عليه أمكنه تفريقها وتشعيبها إلى ما لا آخر له . ونسأل الله التوفيق والهداية . انتهى كلام الرازىّ رحمه الله تعالى .

« يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ » كالحيوان من النطفة ، والنبات الغض الطرىّ من الحب اليابس ، « وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ » كالنطفة والحب « مِنَ الْحَىِّ » كالحيوان والنبات .

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] ونصها : وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

و [١٦ / النحل / ١٨] ونصها : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« ذَٰلِكُمُ اللَّهُ » أي : الفالق للحَب والنوى ، والمخرج الحيّ من الميت وعكسه ، هو الله ، القادر العظيم الشأن ، المستحق للعبادة وحده .

« فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » أي : تصرفون عنه إلى غيره .

قال الرازيّ : والمقصود منه أن الحيّ والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل، يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . بل لابد وأن يكون بتقدير المقدر الحكيم ، والمدبر العليم .

تنبيه :

ذهب الزمخشريّ ومن تبعه إلى أن قوله تعالى : (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ) عطف على (فَالِقُ) لا على (يُخْرِجُ الْحَيَّ) ، لأنه بيان لفالق الحب والنوى ، وهذا لا يصلح للبيان . وإن صح عطف الاسم المشتق على الفعل وعكسه ، كقوله (صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ)(١) . والصحيح أنه معطوف على (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) واشتماله على زيادة فيه ، لايضر ذلك بكونه بياناً . كما أن (مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) بيان مع شموله للحيوان والنبات . وفيه من البديع التبديل ، كقوله تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)(٢) .

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٩] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

و [٣١ / لقمان / ٢٩] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

قال فى (الانتصاف) : وقد وردا جميعاً بصيغة الفعل كثيراً فى قوله : (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)(١) وقوله (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ)(٢) فعطفُ أحد القسمين على الآخر، كثيراً دليلٌ على أنهما توأمان مقترنان ، وذلك يبعد قطعه عنه فى آية الأنعام هذه وردّه إلى (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ). فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة فى هـذه الآية من قوله (فَالِقُ الْحَبِّ) و (فَالِقُ الإصْبَاحِ) و (جَاعِلُ اللَّيْلِ)و (مُخْرِجُ الْحَىِّ مِنَ الْمَيِّتِ) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده ، وهو قوله (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) إرادة لتصوير إخراج الحىّ من الميت ، واستحضاره فى ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعلُ المضارع دون اسم الفاعل

= و [٣٥ / فاطر / ١٣] ونصها : يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

و [٥٧ / الحديد / ٦] ونصها : يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٤] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣١] ونصها : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

والماضى . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) فعدل عن الماضى المطابق لقوله (أَنْزَلَ) لهذا المعنى ، ومنه ما فى قوله(٣):

بأنّى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحَانِ

فأضرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صريعاً لليدينِ وللجِرانِ

---

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] . . . إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

(٢) من شواهد الكشاف . قال الشارح :

فى سورة الملائكة عند قوله تعالى : وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ . حيث قال (فَتُثِيرُ) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده ، ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة الرياح السحابَ ، ويستحضر الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك ، كما فى قول تأبط شرا: بأنى قد لقيت الغول تهوى . . . الخ .

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها ، بزعمه ، على ضرب الغول . كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة .

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها ، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيـل فسقناه فأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدلّ عليه .

والغول السعالى . والعرب تسمّى كل داهية غولا . واختلف فى وجوده . فمنهم من ينكر وجوده أصلا ، والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى ، أى: تهبط . بسهب أى فضاء بعيد عن الأرض والصحيفة الكتاب . وقاع صحصحان وصعصمان أى مستوٍ . والجِران مقدّم العنق من مذبحه إلى منحره .

فعدل إلى المضارع إرادةً لتصوير شجاعته ، واستحضارها لذهن السامع . ومنه (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً)[٢] فعدل عن (مُسَبِّحَاتٍ) وإن كان مطابقاً لـ (مَحْشُورَةً) لهذا السبب ـ والله أعلم ـ . ثم هذا المقصد إنما يجئ فيما يكون العناية به أقوى . ولا شك أن إخراج الحىّ من الميت أشهر فى القـدرة من عكسه . وهو أيضاً أول الحالين ، والنظر أول مايبدأ فيه . ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحىّ بَانَ عنه ، فـكان الأول جديرًا بالتصدير والتأكيد فى النفس ، ولذلك هو مقدم أبدًا على القسم الآخر فى الذكر ؛ حسب ترتيبهما فى الواقع . وسهل عطف الاسم على الفعل وحسّنه. أن اسم الفاعل فى معنى الفعل المضارع ، فـكل واحد منهما يقدّر بالآخر ، فلا جناح فى عطفه عليه ـ والله أعلم ـ انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وقوله تعالى « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ » خبر آخر لـ(إِنَّ) ، أو لمبتدأ محذوف . و(الْإِصْبَاحِ) مصدر سمى به الصبح . قال امرؤ القيس[٢] :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألَا انْجَلِي ... بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَلِ

---

(١) [٣٨ / ص / ١٨و١٩] . . . كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ .

(٢) من معلقته التى أولها :

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ ... بسِقْط اللِّوى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب فى شرح البيت :

هذا البيت متعلق بما قبله . لأن تقديره : فقلت له : ألا أيها الليل الطويل ألا انجل. =

أى : شاقّه عن ظلمة الليل « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً » أى : صيّر الظلام يسكن إليه ، ويطمئن به، استرواحاً من تعب النهار . أو يسكن فيه الخلق ، أى : يقرّوا ويهدؤا (من السكون) ـ وهو الأظهر لقوله (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) ـ وقرىء (وَجَاعِلُ اللَّيْلِ) .

« وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً » أى : على أدوار مختلفة ، لتحسب بهما الأوقات التى نيط بهاالعبادات والمعاملات. كما ذكره فى سورة يونس فى قوله[٢] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) .

« ذَٰلِكَ » أى التسيير بالحساب المعلوم « تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ » أى : الغالب على أمره ، « الْعَلِيمِ » بتدبيرها ، ومراعاة الحكمة فى شأنهما .

= أى انكشف بإقبال الصبح . ثم رجع فقال : وما الإصباح فيك بأمثل . أى إذا جاء الصبح فأنا مغموم كما كنت فى الليل . فليس الصبح بأمثل من الليل .

وقال الأصبهانىّ : معنى قوله (بأمثل) أن الصبح قد يجىء والليل مظلم . يقول : ليس الصباح بأمثل وهو فيك . أى أريد أن يجىء مجيئاً منكشفاً متجلياً ، لا سواد فيه . كما قال البحترىّ ، وإلى هذا أشار فقال :

فأزرق الفجر يأتى قبل أبيضه　　　وأولُ الغيث طَلٌّ ثم ينسكب

قال الأصبهانىّ : ولو أراد أن الصباح ليس بأمثل من الليل ، لقال : منك بأمثل . اهـ .

(١) [١٠ / يونس / ٦٧] ونصها : هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

و [٢٨ / القصص / ٧٣] ونصها : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٥] ونصها : هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازىّ : قوله تعالى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ...) الآية ، نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته . فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان . والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية . وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية. ثم قرر الحجة من وجوه عديدة ، وأجاد رحمه الله .

الثانى ـ قرىء (الْأَصْبَاحِ) بفتح الهمزة، على أنه جمع صُبْح ، كقُفْل وأقفال .

الثالث ـ فى (البحر الكبير) : أن السنة الشرعية قمرية لاشمسية ، والشمسية مما حدث فى دواوين الخراج ، وإنما أضيف الحساب فى الآية إليهما ، لأن بطلوع الشمس ومغيبها يعرف عدد الأيام التى تتركب منها الشهور والسنون ، فمن هنا دخلت ـ انتهى .

الرابع ـ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر فى هذه الآية ، وكما فى قوله : (وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(١) ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة (حم السجدة) قال : (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(٢). انتهى .

وفى (العزة) معنى القهر ، أى : الذى قهرهما بجعلهما مسخرين ، لا يتيسر لهما إلا ماأريد

(١) [٣٦ / يس / ٣٧و٣٨] .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

بهما ، كما قال : (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ)(١) ، ومعنى القدرة الكاملة أيضاً .

قال الرازيّ : (الْعَزِيزِ) إشارة إلى كمال قدرته ، و (الْعَلِيمِ) إشارة إلى كمال علمه . ومعناه : أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيآتها المحدودة ، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة فى البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة . وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار ـ والله أعلم ـ .

الخامس ـ أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : (حُسْبَانًا) قال : يعنى عدد الأيام والشهور والسنين . وقال قتادة : يدوران فى حساب . قال السيوطىّ : فالآية أصل فى الحساب والميقات . انتهى .

ثم بيّن تعالى نعمته فى الكواكب ، إثْرَ بيان نعمته فى النيّرين إعلاماً بكمال قدرته وحكمته ورحمته بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى :

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

فى ظلمات الليل فى طرق البر والبحر « قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ » أى : بينا الآيات على قدرته تعالى وحكمته واليوم الآخر « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى: وجه الاستدلال بها. وإنما خلقت للاستدلال المتأثر بالعمل بموجبها ، ألا وهو الاستدلال بها على معرفة الصانع الحكيم ، وكمال قدرته وعلمه واستحقاقه العبادةَ وحده .

تنبيهـــــان

الأول ـ ذكر تعالى فى غير هـذه السورة كون هذه الكواكب زينة للسماء ، وكونها رجوماً للشياطين. قال بعض السلف : من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ـ نقله ابن كثير ـ .

أقول : مراده اعتقادٌ منافٍ للعقد الصحيح لا اعتقاد حِكَمٍ وإسرار غير الثلاث فيها ، إذ فوائد المكونات غير محصورة . وذكر حكمةٍ فى مكوّن لا ينفى ما عداها ـ فافهم !

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى الميقات ، وأدلة العقليات .

ثم بين تعالى نوعاً آخر من نعمه ، وأدلة قدرته الباهرة بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)

«وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» يعنى: آدم عليه السلام «فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ» قرىء (مُسْتَقَرٌّ) بفتح القاف وكسرها ، وأما (مُسْتَوْدَعٌ) فبفتح الدال لا غير . وهما، على الأول، إما مصدران ، أى : فلكم استقرار واستيداع ؛ أو اسما مكان ، أى : موضع استقرار واستيداع . والاستقرار إما فى الأصلاب ، أو فوق الأرض ، لقوله تعـالى : (وَلَكُمْ

فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ)[١] أو فى الأرحام ، لقوله تعالى : (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ)[٢] أو الاستيداع فى الأرحام ، فجعل الصلب مستقرّ النطفة ، والرحم مستودعها، لأنها تحصل فى الصلب ، لا من قبل شخص آخر ، وفى الرحم من قبل الأب ، فأشبهت الوديعة ، كأنّ الرجل أودعها ما كان عنده ، أو فى الأصلاب ، أو تحت الأرض ، أو فوقها ، فإنها عليها ، أو وضعت فيها لتخرج منها مرة أخرى كقوله[٣] :

وما المال والأهلون إلاودائعُ ولابدّ يوماً أن تردّ الودائعُ

ونقل الرازىّ عن الأصمّ أن المستقر مَنْ خُلِقَ من النفس الأولى ، ودخل الدنيا واستقر فيها. والمستودع الذى لم يخلق بعد وسيخلق. وجعل أبو مسلم الأصفهانىّ (المستقر) كناية عن الذَّكَر ، و (المستودع) كناية عن الأنثى . قال : إنما عبر عن الذكر بـ (المستقر) لأن النطفة إنما تتولد فى صلبه ، وإنما تستقر هناك . وعبر عن الأنثى بـ (المستودع) لأن رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة ـ والله أعلم ـ .

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٦] ونصها : فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . .

(٢) [٢٢ / الحج / ٥] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

(٣) قائله لبيد من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبْلَى النُّجُومُ الطوالعُ وتبقى الجبالُ بَعْدَنَا والمَصَانِعُ

وعلى قراءة (مستقِر) بكسر القاف اسم فاعل ، أى : فمنكم قارّ ، ومنكم مستودع . ووجـه كون الأول معلوماً ، والثانى مجهولا ، كون الاستقرار صادرا منّا دون الاستيداع .

قال الرازىّ : مقصود الآية أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام. ثم اختلفوا فى المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول : الأشخاص الإنسانية متساوية فى الجسمية، ومختلفة فى الصفات التى باعتبارها حصل التفاوت فى المستقر والمستودع. والاختلاف فى تلك الصفات لابدّ له من سبب ومؤثّر ، وليس السبب هو الجسمية ولوازمها ، وإلا لامتنع حصول التفاوت فى الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل المختار الحكيم . ونظير هـذه الآية فى الدلالة قوله تعالى : (وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)(١) .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ » قال الزمخشرىّ : فإن قلت ، لِمَ قيل (يعلمون) مع ذكر النجوم ، و(يفقهون) مع ذكر إنشاء بنى آدم؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا . فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنة وتدقيق نظر ، مطابقاً له . انتهى ـ وهـذا بناء على أن الفقه شدة الفهم والفطنة ، ومن قال : إنه الفهم مطلقاً ، وليس بأبلغ من العلم ـ قال : إنه تفنن ، حذرا من صورة التكرير .

قال الناصر فى (الانتصاف): جواب الزمخشرىّ صناعىّ ، وإلا فلا يتحقق هذا التفاوت، ولا سبيل إلى الحقيقة . قال : والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين فى اللفظ ، لما فى ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة ، تحسيناً للنظم ، واتساقا فى البلاغة . ويحتمل

(١) [٣٠ / الروم/ ٢٢] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .

وجها آخر فى تخصيص الأولى بالعلم ، والثانية بالفقه . وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لايتدبر آيات الله،ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولًا خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها ، وعلم الحكمة الإلهية فى تدبيره لها ، أمر خارج عن نفس الناظر . ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة ، وتقلباتهم فى أطوار مختلفة ، وأحوال متغايرة ، فإنه نظرٌ لا يعدو نفس الناظر ، ولا يتجاوزها . فإذا تمهد ذلك ، فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله ، وعدم النظر فيها والتفكر، أبشعُ من جهله بالأمور الخارجة عنه ، كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها . فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم ، نُفِىَ من أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لايتبصرون فى أنفسهم ، ونفىُ الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة ، فخص به أسوأ الفريقين حالا .و(يفقهون)ههنا مضارع فَقِهَ الشىء ـ بكسر القاف ـ إذا فهمه، ولو أدنى فهم. وليس من(فقُه) بضم القاف، لأن تلك درجة عالية ، ومعناه صار فقيها ـ قاله الهروىّ فى معرض الاستدلال على أن (فقه) أنزل من (علم)ـ . وفى حديث سلمان[1] أنه قال ، وقد سألته امرأة جاءته : فَقِهَتْ أى : فَهِمَتْ ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل : فلان لا يفقه شيئاً كان أذمّ فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً. وكأن معنى قولك : (لايفقه شيئاً) ليست له أهلية الفهم وإن فهِّم . وأما قولك (لا يعلم شيئاً) فغايته نفى حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم ، لو يعلّم . والذى يدل على أن التارك للفكرة فى نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة فى غيره قوله تعالى : (وَفِى الْأَرْضِ ءايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) فخص التبصر

---

(١) هذا نصه كما جاء فى اللسان :

أنه نزل على نَبَطِيَّة بالعراق ، فقال لها : هل هنا مكان نظيف أصلّى فيه ؟

فقالتْ : طهِّرْ قلبك وصلّ حيث شئتَ .

فقال سلمان : فَقِهَتْ . أى فهمتْ وفطنتْ للحق والمعنى الذى أرادتْ .

فى النفس بعد اندراجها فيما فى الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر فى نفسه إنكارا مستأنفاً . وقولنا ، فى أدراج الكلام : (إنه نفى العلم عن أحد الفريقين، ونفى الفقه عن الآخر) يعنى : بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة ، والتفقه فيها بقومٍ. فأشعر أن قوما غيرهم لاعلم عندهم ، ولا فقه ـ والله الموفق ـ فتأمل هذا الفصل، وإن طال بعض الطول . فالنظر فى الحسن غير مملول . انتهى . وهذا من دقة النظر فى الكتاب العزيز ، وإبراز محاسنه ولطائفه .

ثم بين تعالى حجة كبرى على كمال قدرته ، ومنة أخرى من جسيم نعمته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٩] (وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » أى : من السحاب ، لقوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)(١) وسمى السحاب سماءً، لأن العرب تسمى كل ماعلا سماء.

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ » التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أى : فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء، مع وحدته « نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ » أى : صنف من أصناف

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨و٦٩] .

النبات والثمار المختلفة الطعوم والألوان ، كقوله تعالى :(يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)[1] .

« فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ » أي : من النبات ، يعني أصوله «خَضِرًا» أي : شيئاً غضًّا أخضر. يقال : أخضر وخضِر ، كأعور وعوِر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ، « نُخْرِجُ مِنْهُ » صفة لـ (خضرا) وصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة ، لما فيها من الغرابة ، أي: نخرج من ذلك الخضر « حَبًّا مُتَرَاكِبًا » أي : متراكما بعضه على بعض، مثل سنابل البر والشعير والأرز .

قال الرازيّ: ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الإبر ، والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة .

ثم بين تعالى ماينشأ عن النوى من الشجر، إثر بيان ما ينشأ عن الحب من النبات بقوله سبحانه : « وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ » الطلع : أول ما يبدو من ثمر النخيل كالكيزان يكون فيه العذق ، فإذا شق عنه كيزانه سمى عذقا (بكسر العين وسكون الذال المعجمة بعدها) ـ وهو القنو ، أي : العرجون، بما فيه من الشماريخ ، وجمعه قنوان ـ (مثلث القاف) وهو ومثناه سواء ، لا يفرق بينهما إلا الإعراب.

قال الزمخشريّ : قنوان ، رفع بالابتداء ، و(من النخل) خبره ، و (من طلعها) بدل منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان . انتهى . وجوّز أن يكون (من النخل) عطفاً على (منه) ، وما بعده مبتدأ وخبر . أي : وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان دانية ، أي : ملتفة ، يقرب بعضها من بعض ، أو قريبة من المتناول ، وإنما اقتصر على

(١) [١٣ / الرعد/ ٤] ونصها : وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ذكرها لدلالتها على مقابلها ، أعني البعيدة ، كقوله تعالى : (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) ولزيادة النعمة فيها « وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ » عطف على (نبات كل شيء) أي : وأخرجنا به جنات ، أو على (خضرا) . وقال الطيبيّ : الأظهر أن يكون عطفاً على (حبّا) لأن قوله: (نبات كل شيء) مفصل لاشتماله على كل صنف من أصناف النامي ، كأنه قال : فأخرجنا بالنامي نبات كل شيء ينبت كل صنف من أصناف النامي . والنامي : الحب والنوى وشبههما .

وقوله : (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ...) الخ تفصيل لذلك النبات . أي : أخرجنا منه خضرا بسبب الماء ، فيكون بدلا من (فأخرجنا) الأول، بدل اشتمال . ومن ههنا يقع التفصيل ، فبعض يخرج منه السنابل ذات حبوب متكاثرة ، وبعض يخرج منه ذات قنوان دانية ، وبعض آخر جنات معروشات ... الخ .

« وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ » العطف فيه كما تقدم « مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » حال من (الزيتون) ، اكتفى به عن حال ما بعده . أو من (الرمان) لقربه . والمحذوف حال الأول .

قال الزمخشريّ : يقال اشتبه الشيآن وتشابها ، كقولك : استويا وتساويا . والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا . وقرئ : متشابها وغير متشابه . والمعنى : بعضه متشابها، وبعضه غير متشابه في الهيأة والمقدار واللون والطعم، وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها ، وحكمة منشئها ومبدعها .

« انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أي : ثمر كل واحد من ذلك إذا أخرج ثمره ، كيف يكون ضئيلا ضعيفاً ، لا يكاد ينتفع به ، « وَيَنْعِهِ » أي : وإلى حال ينعه ونضجه ، كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ . أي : انظروا إلى ذلك نظر اعتبار واستبصار واستدلال ، على قدرة مقدره ومدبره وناقله ، على وفق الرحمة والحكمة ، من حال إلى حال ، فإن فيه آيات عظيمة دالة على ذلك ، كما قال :

«إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى : يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار هو المستحق للعبادة دون ما سواه ، أو هو القادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم . قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث ، فاحتج عليهم بتصريف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال ، وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار منها ، وأنه لا يقدر على ذلك أحــد إلا الله تعالى . فبيّن أنه تعالى كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإنزال المطر من السماء ، ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ، ثم تصوير الأعمال بصور كثيرة ، وإفادة أمور زائدة ، وتفريعها ، وإعطاء أطعمة مشتبهة فى الصورة ، غير متشابهة فى اللذة ، جزاء عليها. والله أعلم ـ .

لطيفة :

قال الرازىّ : اعلم أنه تعالى ذكر ههنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر ، لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة . وإنما قدم النخل على سائر الفواكه ، لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ، ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة فى خواص كثيرة ، بحيث لا توجد تلك المشابهة فى سائر أنواع النبات . ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : فإنها خلقت من بقية طينة آدم . وإنما ذكر العنب عقيب النخل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعاً به إلى آخر الحال . فأول ما يظهر على الشجر ، يظهر خيوط خضر دقيقة حامضة الطعم ، لذيذة المطعم ، وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه . ثم بعده يظهر الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق ، نافعة لأصحاب الصفراء ، وقد يتخذ الطبيخ منه ، فكأنه ألذ الطبائخ الحامضة . ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه وأشهاها ، ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر ،

وهو فى الحقيقة ألذ الفواكه المدخرة ، ثم يبقى منه أنواع من المتناولات وهى الزبيب والدبس والخل ، ومنافع هذه لا يمكن ذكرها إلا فى المجلدات . وأحسن ما فى العنب عَجَمُهُ ، والأطباء يتخذون منه (جوارشنات) عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة . فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه .

وأما الزيتون فهو أيضاً كثير النفع ، لأنه يمكن تناوله كما هو ، وينفصل أيضاً عنه دهن كثير ، عظيم النفع فى الأكل ، وفى سائر وجوه الاستعمال .

وأما الرمان فحاله عجيب جدًّا ، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام: قشره وشحمه وعَجَمُهُ وماؤه. أما الأقسام الثلاثة الأول وهى القشر والشحم والعَجَم فكلها باردة يابسة قابضة عفصة قوية فى هذه الصفات . وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات ، فإنه ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال ، وأشدها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ، ودواء من وجه ، فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين . فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم .

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفى بشرحها مجلدات، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة ، التى هى أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقى . انتهى .

أقول : حديث (أكرموا عمتكم النخلة) المذكور ، رواه أبو يعلى وابن أبى حاتم والعقيلىّ وابن عدىّ وابن السنىّ وأبو نعيم وابن مردويه عن علىّ رضى الله عنه ، كما فى الجامع الصغير، ورمز عليه بالضعف .

ولما ذكر تعالى هذه البراهين، من دلائل العالم العلوىّ والسفلىّ، على عظيم قدرته ، وباهر حكمته ، ووافر نعمته ، واستحقاقه للألوهية وحده ـ عقبها بتوبيخ من أشرك به والرد عليه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ » أى : جعلوهم شركاءه فى العبادة . فإن قيل : فكيف عُبِدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن ، وأمرهم بذلك . كقوله : (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ . وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)(١) . وكقوله تعالى : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ...)(٢) الآية . وقال إبراهيم لأبيه : (يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا)(٣) . وكقوله : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ *وَأَنِ اعْبُدُونِي، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)(٤) وتقول الملائكة يوم القيامة (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)(٥).

---

(١) [٤ / النساء / ١١٧ـ١١٩] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

(٣) [١٩ / مريم / ٤٤] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٠و٦١] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٤١] وَقَالُوا ...

« وَخَلَقَهُمْ » حال من فاعل (جَعَلُوا) ، مؤكدة لما فى جَعْلِهِمْ ، ذلك من كمال القباحة والبطلان ، باعتبار علمهم بمضمونها . أى : وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن (وليس من يخلق كمن لا يخلق) ! وقيل : الضمير للشركاء . أى : والحال أنه تعالى خلق الجن ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكاً له ؟ كقول إبراهيم : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)(١) . أى : وإذا كان هو المستقل بالخالقية ، وجب أن يفرد بالعبادة ، وحده لا شريك له .

تنبيه :

ما ذكرناه من معنى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) أنهم أطاعوا الجن فى عبادة الأوثان ، هو ماقرره ابن كثير ، وأيده بالنظائر المتقدمة ، ونقل عن الحسن ، فتكون الكناية لمشركى العرب .

وقيل : المراد بالجن الملائكة ، فإنهم عبدوهم وقالوا عنهم بنات الله . وكلا الأمرين موجب للشريك . أما الأول فظاهر . وأما الثانى فلأن الولد كفء الوالد ، فيشاركه فى صفات الألوهية . وتسمية الملائكة (جنًّا) حقيقة ، لشمول لفظ الجن لهم . وقيل : استعارة . أى : عبدوا ما هو كالجن ، فى كونه مخلوقاً مستترًا عن الأعين .

وذهب بعض السلف ـ منهم الكلبىّ ـ إلى أنها نزلت فى الثنوية القائلين بأن للعالم إلٰهين : أحدهما خالق الخير وكل نافع . وثانيهما خالق الشر وكل ضار . ونقله ابن الجوزىّ عن ابن السائب . وحكاه الفخر عن ابن عباس رضى الله عنه ، وأنه قال : نزلت فى الزنادقة الذين قالوا : إن الله وإبليس أَخَوَانِ . فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات ؛ وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور .

قال الرازىّ : وقول ابن عباس المذكور أحسن الوجوه المذكورة فى هذه الآية ، وذلك ،

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٥و٩٦] قَالَ ...

لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة .

وقوّى ابن عباس قوله المذكور بقوله تعالى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)[1] . وإنما وصف بكونه من الجن، لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكةُ والروحانيون مستترة من العيون ، فلذلك أطلق لفظ الجن عليها .

قال الفخر : هذا مذهب المجوس . وإنما قال ابن عباس : هذا قول الزنادقة ، لأن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بـ (الزند) ، والمنسوب إليه يسمى (زندى) ، ثم عُرّب فقيل : (زنديق) ، ثم جمع فقيل : (زنادقة) . واعلم أن المجوس قالوا : كل ما فى هـذا العالم من الخيرات فهو من (يزدان) ، وجميع ما فيه من الشرور فهو من (اهرمن) (وهو المسمى بإبليس فى شرعنا) ثم اختلفوا ، فالأكثرون منهم على أن (اهرمن) محدث ، ولهم فى كيفية حدوثه أقوال عجيبة . والأقلون منهم قالوا : إنه قديم أزلىّ . وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله فى تدبير هذا العالم ، فخيرات هذا العالم من الله تعالى ، وشروره من إبليس . فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . وإنما جمع حينئذ فى الآية ، لكونه مع أتباعه كأنهم معبودون .

ثم قال الرازىّ : وقوله تعالى (وَخَلَقَهُمْ) إشارة إلى الدليل القاطع على فساد كون إبليس شريكاً ، وتقريره أنا نقلنا عن المجوس أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس ليس بقديم ، بل هو محدث . إذا ثبت هـذا فنقول : إن كل محدث فله خالق وموجد ، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى. فهؤلاء المجوس يلزمهم القطع بأن خالق إبليس هو الله تعالى . ولما كان إبليس أصلًا لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح ، والمجوس سلّموا أن خالقه هو الله تعالى ، فحينئذ قد سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد . وإذا كان كذلك امتنع عليهم أن يقولوا : لابد من إلهين ، فسقط قولهم . انتهى ملخصاً .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] . . . وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

وقوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ » أى : اختلقوا وافتروْا له « بَنِينَ » كقول أهل الكتابين فى المسيح وعزير « وَبَنَاتٍ » كقول بعض العرب فى الملائكة .

قال الزمخشرىّ : يقال خلق الإفك وخرقه واختلقه بمعنى . وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها . كان الرجل إذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم: قد خرقها والله ! ويجوز أن يكون من (خَرَقَ الثَّوْبَ) إذا شقه : أى اشتقوا له بنين وبنات . وقرىء (وَخَرَّقُوا) بالتشديد للتكثير لقوله (بنين وبنات) .

« بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقولٍ عن عمى وجهالة ، من غير فكر وروية ، أو بغير علم بمرتبة ما قالوا ، وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لايقادَرُ قدره . وفيه ذم لهم بأنهم يقولون بمجرد الرأى والهوى . وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه تعالى إلا ماجزم به ، وقام عليه الدليل .

ثم نزه ذاته العلية عما نسبوه إليه بقوله : « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ » من أوصاف الحوادث الخسيسة من المشاركة والتوليد .

ثم استدل تعالى على بطلان ما اجترؤوا عليه بوجوه أربعة. بدأ منها بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : مبدعهما بلا مثال سبق . وقيل : بمعنى عديم النظير فيهما . قال أبو السعود : والأول هو الوجه . والمعنى : أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوىّ والسفلىّ ، بلا مادة ، فاعل على الإطلاق ، منزه عن الانفعال بالمرة . والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه ، فكيف يمكن أن يكون له ولد ؟

« أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ » أى : من أين وكيف يكون له ولد ـ كما زعموا ـ والحال أنه ليس له على زعمهم أيضاً صاحبة يكون الولد منها ؟ ويستحيل ضرورة وجود الولد بلاوالدة ، وإن أمكن وجوده بلاوالد . وأيضاً، الولد لايحصل إلا بين متجانسين، ولا مجانس له تعالى .

وقوله تعالى : (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ)جملة مستأنفة ، لتقرير تنزهه عنه ، والحالية بعدها مؤكدة للاستحالة المذكورة .

وقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » جملة أخرى مستأنفة ، لتحقيق ما ذكر من الاستحالة . أو حال ثانية مقررة لها. أى : أنى يكون له ولد والحال أنه خلق كل شيء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التى من جملتها ما سموه ولداً له تعالى. فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟ ـ أفاده أبو السعود ـ

« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى : مبالغ فى العلم أزلًا وأبداً . جملة مستأنفة أيضاً ، مقررة لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ، ببطلان مقالتهم الشنعاء . أى : أنه سبحانه لذاته عالم بكل المعلومات ، فلو كان له ولد ، فلابد أن يتصف بصفاته ، ومنها عموم العلم ، وهو لغيره تعالى منفىّ بالإجماع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢](ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

«ذَٰلِكُمْ » أى: الموصوف بما سبق ، البعيد رتبته عن مراتب من يشارك أو ينسب إليه الولادة ، إذ هو « اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ » أى : بالإيمان به وحده ، فإن من جَمَعَ تلك الصفات استحق العبادة وحده . « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى : رقيب وحفيظ ، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

وقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » جملة مستأنفة ، إما مؤكدة لقوله (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فليحذر ، وإما هى مؤكدة لما تقرر قبلُ من تنزهه وتعاليه عن إفكهم أعظم تأكيد ، ببيان أنه لا تراه الأبصارالمعهودة وهى أبصار أهـل الدنيا ، لجلاله وكبريائه وعظمته ، فأنى يصح أن ينسب إلى عليائه تلك العظيمة ؟ وذلك لأنه تعالى لم يخلق لأرباب هذه النشأة الدنيوية استعداداً لرؤيته المقدسة .

قال العارف الجليل الشيخ الأكبر قدس سره فى (فتوحاته) : سبب عجز الناس عن رؤية ربهم فى الدنيا ضعف نشأة هـذه الدار ، إلا لمن أمده الله بالقوة ، بخلاف نشأة الآخرة لقوتها . وسبب رؤيته تعالى فى المنام كون النوم أخا الموت . وفى الحديث إنـكم لن تروا ربكم حتى تموتوا . فما نفى الشارع إلارؤية الله فى الدنيا يقظة . انتهى.

وقال بعضهم : إن الأبصار المعهودة فىالدنيا لا تدركه تعالى، لأن هذه الأحداق مادامت تبقى على هـذه الصفات التى هى موصوفة بها فى الدنيا لا تدرك الله تعالى ، وإنما تدركه إذا تبدلت صفاتها ، وتغيرت أحوالها .

وفى الصحيحين[١] من حديث أبىموسى الأشعرىّ رضىاللهعنهقال: قال رسول الله ﷺ

---

(١) ليس فى الصحيحين . بل هو ممـا انفرد به مسلم عن البخارىّ . أخرجه فى :
١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٩٣ (طبعتنا) وهذا نصه :
عن أبى موسى قال : قام فينا رسـول الله ﷺ بخمس كلمات فقال « إن الله عز وجل لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

قال ابن كثير: وفى الكتب المتقدمة؛ أن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : ياموسى ! إنه لا يرانى حىّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . وقال تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)[١] .

أقول : كون المنفىّ من الإدراك فى هذه الآية هو الإدراك الدنيوىّ خاصة ، لا يحتاج إلى حجة ولا برهان. ومن فهم من بعض الفرق ، كالمعتزلة ، من هذه الآية أن المنفىّ هو الإدراك فى النشأتين ، فقد نادى على نفسه بالجهل بما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المتواترة . أما الكتاب فمثل قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[٢] . وأما السنة فما روى عن جرير بن عبد الله البجلى[٣] قال : كنا جلوسا عند النبىّ ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامّون فى

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢و٢٣] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث رقم ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها ، فافعلوا. ثم قرأ: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ.

قال ابن كثير : تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبيّ ﷺ : أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات . انتهى

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وأدلة السمع طافحة بوقوع ذلك فى الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم ، ومنع ذلك فى الدنيا . إلا أنه اختلف فى نبينا ﷺ . انتهى.

قال ابن كثير : كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تثبت الرؤيا فى الدار الآخرة ، وتنفيها فى الدنيا ، وتحتج بهذه الآية . انتهى.

فعن مسروق(١) قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمتاه ! هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت: لقد قفّ شعرى مما قلت! أين أنت من ثلاث من حدثكهنّ فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ . وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ(٢) ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة والنجم ، ١ ـ باب حدثنا يحي حدثنا وكيع ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

وأخرجه الترمذيّ بأطول من هذا السياق فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ـ سورة الأنعام، ٥ ـ حدثنا أحمد بن منيع .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . . . أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ .

فقد كذب، ثم قرأت[١] : وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً . ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت[٢] : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية . ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين ـ أخرجه الشيخان والترمذىّ ـ .

وخالفها ابن عباس . فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده. والمسألة تذكر مبسوطة فى أول سورة النجم إن شاء الله تعالى .

ومن الناس من ذهب إلى أن الإدراك ليس هو مطلق الرؤية ، بل هو معرفة الكنه أو الإحاطة .

قال ابن كثير : قال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك . فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفىّ ما هو ؟ فقيل: معرفة الحقيقة ، فإن هـذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنين ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالعظيم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى .

وقال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية، وهو الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم . قال تعالى: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً[٣] .

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] ونصها : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٧] . . . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً .

وفى صحيح مسلم(١) : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا . انتهى.

وقال النسفىّ: تشبثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتب ، لأن المنفىّ هو الإدراك لاالرؤية، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئىّ وحدوده ، وما يستحيل عليه الحدود والجهات ، يستحيل إدراكه ، لارؤيته ، فنزّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم ، ونفى الإحاطة التى تقتضى الوقوف على الجوانب والحدود ، لا يقتضى نفى العلم به ، فكذا هذا . على أن مورد الآية ، وهو التمدح ، يوجب ثبوت الرؤية ، إذ نفى إدراك ماتستحيل رؤيته . لاتمدح فيه ، لأن كل ما لا يرى لا يدرك ، وإنما التمدح بنفى الإدراك مع تحقق الرؤية ، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية ، دليل ارتفاع نقيصة التناهى والحدود عن الذات ، فكانت الآية حجة لنا عليهم. انتهى.

وقد جود العلامة العضد فى (المواقف) البحث فى هذه الآية ، ونقل شبه المنكرين فيها ، وأجاب عنها . ونحن، لنفاسته ، ننقل كلامه مع شرحه للسيد الشريف قدس سره ، وبعض حواشيه ، ونصه :

الأولى ـ من شبه المنكرين للرؤية السمعية قوله تعالى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ :

١ ـ والإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية . فمعنى قولك : أدركته ببصرى ، معنى رأيته. لافرق إلا فى اللفظ . أو هما أمران متلازمان لايصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) ونصه : عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش . فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان، وهو يقول « اللهم! أعوذ برضاك من سَخَطك. وبمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .

فـلا يجوز : رأيته وما أدركته ببصرى ولا عكسه . فالآية نفت أن تراه الأبصار وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية فى مقام المبالغة ، فى جميع الأوقات ، لأن قولك : فلان تدركه الأبصار ، لا يفيد عموم الأوقات ، فلابد أن يفيده ما يقابله ، فلا يراه شيء من الأبصار ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، لما ذكرنا .

٢ ـ ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى ، فإنه ذكره فى أثناء المدائح. وما كان من الصفات عدمه مدحاً ، كان وجوده نقصاً ، يجب تنزيه الله عنه ، فظهر أنه يمتنع رؤيته ، وإنما قلنا : (من الصفات) احترازا عن (الأفعال) ، كالعفو والانتقام ، فإن الأول فضل ، والثانى عدل ، وكلاهما كمال . والجواب :

أما عن الوجه الأول فى الاستدلال بالآية فمن وجوه :

الأول ـ أن الإدراك هو الرؤية ، على نعت الإحاطة بجوانب المرئى ، إذ حقيقته النيل والوصول ، و(إنا لمدركون) أى ملحقون ، و(أدركت الثمرة) أى : وصلت إلى حد النضج و(أدرك الغلام) أى بلغ . ثم نقـل إلى الرؤية المحيطة ، لـكونها أقرب إلى تلك الحقيقة . والرؤية المـكيفة بكيفية الإحاطة،أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة . فلا يلزم من نفى المحيطة عن البارى سبحانه ، لامتناع الإحاطة ، نفى المطلقة عنه . وقوله (لا يصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر) ممنوع ، بل يصح أن يقال : رأيته وما أدركه بصرى . أى : لم يحط به من جوانبه ، وإن لم يصح عكسه .

الثانى ـ أن (تدركه الأبصار) موجبة كلية ، لأن موضوعها جمع محلًّى باللام الاستغراقية . وقد دخل عليها النفى فرفعها . ورفع الموجبة الـكلية سالبة جزئية . وبالجمـلة فيحتمل قوله : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) إسنادُ النفى إلى الـكل ، بأن يلاحظ أولًا دخول النفى ، ثم ورود العموم عليه ، فيكون سالبة كلية . ونفيُ الإسناد إلى الـكل بأن يعتبر العموم أولًا ، ثم ورود النفى عليه ، فيكون سالبة جزئية. ومع احتمال المعنى الثانى، لم يبق فيه حجة لـكم علينا.

لأن أبصار الكفار لاتدركه، إجماعاً . هذا مانقوله : لو ثبت أن اللام فى الجمع للعموم والاستغراق، وإلا عكسنا القضية ، فادَّعَيْنا أن الآية حجة لنا وقلنا : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) سالبة مهملة فى قوة الجزئية، فالمعنى: لاتدركه بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفى يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض ، فالآية حجة لنا لا علينا . انتهى ـ لكن هذا إنما يستقيم إذا كانت المهملة مرادفة للجزئية . وكونها فى قوتها لا يفيد المرادفة . ولهذا اعترض عليه بأن الجنس فى حيز النفى يفيد العموم اتفاقاً ، نحو : ما جاءنى الرجل . وإنما الاحتمال لعموم السلب ، وسلب العموم عند قصد الاستغراق ، فكيف تعكس القضية على تقدير حمل اللام على الجنس؟ ولو ثبت المرادفة لاندفع الاعتراض ، إذ تصير الآية حينئذ حجة لنا إلزامية ، حيث يرجع قيد البعضية إلى النفى، كما أرجع المستدل قيد العموم، على تقدير الاستغراق، إليه. فتأمل !ـ كذا فى حواشى الجلبى والشروانى ـ .

الثالث ـ من تلك الوجوه أنها ـ أى الآية ـ وإن عمت فى الأشخاص باستغراق اللام ، فإنها لاتعم فى الأزمان ، فإنها سالبة مطلقة لا دائمة ، ونحن نقول بموجبه ، حيث لا يرى فى الدنيا .

قال العلامة حسن جلبى : وما استدل به الخصم سابقاً على أنها دائمة، من أن إيجابها لا يفيد عموم الأوقات ، فلابد أن يفيده ما يقابله ـ فجوابُه : أنه إنما يتم إذا كان التقابل بينهما تقابل التناقض ، وهو ممنوع . فإن القضية الموجبة والسالبة ، الغير الموجهتين ، لم توضعا فى العربية لمعنيين متناقضين ، بل لها محامل يحملها المستعمل حسب ما يريده .

الرابع ـ منها أن الآية تدل على أن الأبصار لاتراه ، ولايلزم منه أن المبصرين لايرونه، لجواز أن يكون ذلك النفى المذكور فى الآية ، نفياً للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعاً، كما هو العادة ، فلا يلزم نفى الرؤية بالجارحة مطلقاً . وأما الجواب عن الوجه الثانى وهو قوله : تمدح البارى بأنه لا يرى ، فنقول : هذا مدعاكم ، فأين الدليل عليه ؟ إن قلت : أشير فيما

تقدم إلى دليله بأنه ذكر فى أثناء المدائح ، والمذكور بينهما يجب أن يكون مدحاً ـ قلت : ذلك الدليل إنما يدل على التمدح بنفى المبصرية ، لا بنفى الرؤية ، والفرق قدسبق فى الجواب الأول . انتهى .

وإذا ثبت أن سياق الكلام يقتضى أنه تمدح، لم يكن لكم فيه دليل على امتناع رؤيته ، بل لنافيه الحجة على صحة الرؤية ، لأنه لو امتنعت رؤيته لماحصل المدح بنفيها عنه ، إذلامدح للمعدوم بأنه لا يرى، حيث لم يكن له ذلك ، وإنما المدح فى عدم الرؤية للمتمنع المتعزز بحجاب الكبرياء ، كما فى الشاهد . انتهى .

وناقش الخيالى قولهم : (لا مدح للمعدوم) بأن عدم مدح المعدوم لاشتماله على معدن كل نقص أعنى : العدم ، فإن أصل المدائح والكمالات هو الوجود ، وقد عرا عنه . كما أن الأصوات والروائح لا تمدح بمنع إمكان رؤيتها ، لكونها مقرونة بسمات النقص .

قال : والحق أن امتناع الشىء لا يمتنع التمدح بنفيه ، إذ قد ورد التمدح بنفى الشريك، ونفى اتخاذ الولد فى القرآن ، مع امتناعهما فى حقه تعالى . انتهى .

ووافقه حسن چلبى فى (حواشى شرح المواقف) ، لكنه أجاب بأن المدح بجهة لا يقتضى الكمال من جهات أخر ، وكذا النقصان من جهة لا ينافى المدح بغيرها . انتهى .

وأجاب قره خليل بوجوه :

الأول ـ أن مراد ذلك المستدل هو الإلزام على المعتزلة ، لا تحقيق الاستدلال على جواز الرؤية .

الثانى ـ أن مبنى كلامه على العرف واللغة، فإن أهلهما إذا أرادوا مدح شىء يقولون هذا الشىء مما لا تدركه الأبصار ، أو مما لا تراه العيون ، مع أنها مما تدركه عادة . فهذا القول منهم يدل على إمكان رؤية ذلك الشىء عادة ، بل على وقوعها أيضاً . بخلاف الأصوات والروائح ونحوها ، فإنها ليست مما تدركه الأبصار عادة ، فلا يحسن مدحها بعدم إدراك

الأبصار ، أو بعدم رؤيتها . نعم ! إذا أرادوا مدح الأصوات يقولون : لم تسمعها أذن ، وإذا أرادوا مدح الروائح ، يقولون : لم يشمها أنف .

الثالث ـ إنا قلنا : إن نفى الرؤية فى مقام المدح يدل على إمكان الرؤية ، ولم نقل إن نفى كل شىء فى مقام المدح يدل على إمكان ذلك الشىء ، حتى يرد علينا النقض بنفى الشريك ، أو بنفى اتخاذ الولد فى مقام المدح ، مع أن إمكان المنفى فى صورة النقض نقص ينافى الألوهية ، وإمكان المنفى فيما نحن بصدده ليس نقصاً ، بل هو كمال . انتهى .

قال حسن جلبى : إن قيـــل : يلزم على ثبوت التمدح بنفى الرؤية ، تعززاً وتمنعاً ، أن لا يزول ، لأن زوال ما به التمدح نقص ، فيلزم أن لا يرى فى الآخرة . والجواب : أن ذلك فيما يرجع إلى الصفات . والتمدحُ بنفى الرؤية يرجع إلى التمدح بخلق ضدها ، وهو من قبيل الأفعال ، كما أن خلق الرؤية أيضاً منها . انتهى .

وقد بيناه أولًا ، وسيأتى لذلك تتمة شافية إن شاء الله تعالى عند قوله سبحانه (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ، مما هو أعظم حجة ، وأوضح برهاناً ، والله الموفق.

وقوله تعالى « وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » أى: يرى جميع المرئيات، ويبصر جميع المبصرات، لا يخفى عليـــه شىء منها . « وَهُوَ اللَّطِيفُ » أى : الذى يعامل عباده باللطف والرأفة ، « الْخَبِيرُ » أى : العليم بدقائق الأمور وجلياتها . وجوز أن تـكون الجملة تعليلًا لما قبلها ، على طريقة اللف ، أى : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير . قيل : فيكون (اللَّطِيفُ) مستعارًا من مقابل الـكثيف ، فشبه به الخفىّ عن الإدراك . وهذا بناء على أنه فى ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم . والتحقيق أن اللطافة المطلقة لا توجد فى الجسم ، لأن الجسمية يلزمها الـكثافة ، وإنما لطافتها بالإضافة ، فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق ، الذى يجلّ عن إدراك البصائر ، فضلًا عن الأبصار ، ويعز عن شعور الأسرار ، فضلًا عن الأفـكار ، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال ،

وينزه عن حلول الألوان والأشكال . فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق ، بل بالقياس إلى ما هو دونه فى اللطافة ، ويوصف بالنسبة إليه بالكثافة ـ كذا حققه البهائىّ فى (شرح الأسماء الحسنى) . وقول الخفاجىّ : (اللطيف المشتق من اللطف بمعنى الرأفة) ، لا يظهر له مناسبة هنا ـ مدفوعٌ بملاحظة أن قوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) ذكر للتخويف ، كما أسلفنا ، وحينئذ يناسب أن يشفع ببيان رأفته ورحمته ، جرياً على سنن الترغيب والترهيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

وقوله تعالى « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : الآيات والدلائل التى تبصرون بها الهدى من الضلالة . جمع (بصيرة) ، وهى الدلالة التى توجب البصر بالشىء ، والعلم به . وجوّز أن يكون المعنى : قد جاءكم من الوحى ما هو كالبصائر للقلوب ، جمع (بصيرة) وهو النور الذى يستبصر به القلب ، كما أن البصر نور تستبصر به العين .

« فَمَنْ أَبْصَرَ » أى : الحقّ بتلك البصائر وآمن به « فَلِنَفْسِهِ » أى : فلنفسه أبصر ، لأن نفعه لها ، « وَمَنْ عَمِيَ » أى : ضل عن الحق . والتعبير عنه بـ (العمى) للتقبيح له ، والتنفير عنه ، « فَعَلَيْهَا » أى : فعلى نفسه عمى ، وإياها ضر بالعمى . « وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أى : برقيب يرقبكم ، ويحفظكم عن الضلال ، بل أنا منذر ، والله يحفظ أعمالكم ، ويجازيكم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى: نوردها على وجوه كثيرة فى سائر المواضع ، لتكمل الحجة على المخالفين ، « وَلِيَقُولُوا » فى ردها : « دَرَسْتَ » أى : قرأت على غيرك، وتعلمت منه . وحفظت بالدرس أخبار من مضى . كقولهم (فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[١] .

يقال: درس الكتاب يدرسه دراسة، إذا أكثر قراءته وذلّله للحفظ . قال ابن عباس: (وليقولوا) يعنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن (درست) يعنى : تعلمت من يسار وخير ، وكانا عبدين من سبى الروم ، ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله ! وقال الفرّاء : معناه تعلمت من اليهود ـ كذا فى (اللباب) ـ .

وقرىء (دَارَسْتَ) بالألف وفتح التاء . أى: دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية. كقولهم[٢] (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ...) الآية .

ويقرأ « دَرَسَتْ » بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء . أى : مضت وقدمت وتكررت على الأسماع ، كما قالوا : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[٣] . وهـذه القراآت الثلاث

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٢٥] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨ / الأنفال / ٣١] ونصها : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و[١٦/النحل/٢٤] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . =

متواترة . وقرىء فى الشواذ (دُرِسَتْ) ماضياً مجهولا . أى : تليت وعفيت تلك الآيات . وقرىء (دَرَّسْتَ) مشددا معلوما ، وتشديده للتكثير أو للتعدية . أى : درّست غيرك الكتب. وقرئ مشددا مجهولا . وقرئ (دورست) بالواو مجهول دارس. ودارست بالتأنيث، والضمير للآيات أو للجماعة : وقرىء « درُست » بضم الراء ، والإسناد للآيات مبالغة فى محوه أو تلاوته ، لأن (فعل) المضموم للطبائع والغرائز . وقرأ أُبيّ رضى الله عنه (درس) وفاعله ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو الكتاب ، إن كان بمعنى انمحى . و (درسن) بنون الإناث مخففاً ومشددا . وقرىء (دارسات) بمعنى قديمات ، أو بمعنى ذات درس أو دروس ، كـ (عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)[1] . وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : هى دارسات .

« وَلِنُبَيِّنَهُ » أى : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوماً . أو الآيات ، لأنها فى معنى القرآن .

« لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه .

= و [٢٣ / المؤمنون / ٨٣] ونصها : لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

و[٢٧ / النمل / ٦٨] ونصها : لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٦٨ / القلم / ١٥] ونصها : إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨٣ / المطففين / ١٣] ونصها : إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢١] ونصها : فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

تنبيهان :

الأول ـ قيل : اللام الثانية حقيقة ، والأولى لام العاقبة والصيرورة . أي : لتصير عاقبة أمرهم ، إلى أن يقولوا: درست ، كما في قوله تعالى:(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)(١) وهم لم يلتقطوه للعداوة ، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة . فكذلك الآيات صرّفت للتبيين،ولم تصرّف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات ، كما حصل التبيين ، فشبه به .

قال الخفاجيّ : وجوّز أن يكون على الحقيقة أبو البقاء وغيره، لأن نزول الآيات لإضلال الأشقياء ، وهداية السعداء. قال تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً)(٢) وقال الرازيّ : حمل اللام على العاقبة بعيد . لأنه مجاز . وحمله على لام الغرض حقيقة ، والحقيقة أقوى من المجاز. وإن المراد منه عين المذكور في قوله تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرا. قال ومما يؤكد هذا التأويل قوله (وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ، يعني : إنا ما بيناه إلا لهؤلاء . فأما الذين لا يعلمون ، فما بينا هذه الآيات لهم ، وإذ لم يكن بيانا لهم ثبت جعله ضلالا لهم . انتهى .

وقيل : هذه اللام لام الأمر ، ويؤيده أنه قرىء بسكونها ، كأنه قيل : وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا هم ما يقولون ، فإنه لا احتفال بهم ، ولا اعتداء بقولهم . وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٨] . . . إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

وفيه نظر ، لأن ما بعده يأباه ، إذ اللام فى (لنبينه) نص فى أنها لام كى . وأما تسكين اللام فى القراءة الشاذة ، فلا دليل فيه ، لاحتمال أنها خففت لإجرائها مجرى كبد ، وكونها معترضة . و (لنبينه) متعلق بمقدر معطوف على ما قبله ، وإن صححه لا يخرجه عن كونه خلاف الظاهر ـ كذا فى (العناية) ـ .

الثانى ـ قال الشريف قدس سره : أفعاله تعالى يتفرع عليها حكم ومصالح متقنة هى ثمراتها ، وإن لم تكن عالاً غائية لها ، حيث لولاها لم يقدم الفاعل عليها . ومن أهل السنة من وافق المعتزلة فى التعليل والغرض الراجع منفعته إلى العباد ، وادعى أنه مذهب الفقهاء والمحدثين .

إذاعرفت هذا، فاعلم أن حقيقة التعليل عند أهل السنة بيان ما يدل على المصلحة المترتبة على الفعل . وأما تفسيره بالباعث الذى لولاه لم يقدم الفاعل على الفعل ، أو عدم اشتراط ذلك، فهو من تحقيقات المتكلمين، لاتعلق له باللغة . وأما عند أهل اللغة فهو حقيقة فى ذلك مطلقاً، والفرق بينها وبين لام العاقبة ، أن لام العاقبة ماتدخل على مايترتب على الفعل وليس مصلحة. وهل يشترط فيها أن يظنه المتكلم غير مترتب أم لا ، حتى يكون فى كلامه تعالى من غير حكاية أم لا ، فيه خلاف ـ كذا فى (العناية) ـ .

ولما حكى تعالى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات، أتبعه بالأمر بالثبات على ماهو عليه ، تقوية لقلبه ، وإزالة لما يحزنه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

« اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من تبليغ الرسالة ، التى هى الآيات المصرفة ، مبالغة فى إلزام الحجة . وقوله « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » اعتراض أكد به إيجاب

الاتباع ، أو حال مؤكدة من (ربك) ، بمعنى : منفردًا فى الألوهية . « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » قال أبو مسلم : أريد بالإعراض الهجران لهم دون الإنذار ، وترك الموعظة . وقال المهايمىّ : أى لا تحزن عليهم إذا أصروا على الشرك والعمى مع هذه البصائر . فإنه تعالى أراد بقاءهم على الشرك والعمى ، لاقتضاء استعدادهم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » أى : مع استعدادهم ، ولكن جرت سنته برعاية الاستعدادات ، « وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً » أى : هم وإن كان لهم الاستعداد للإيمان فى فطرتهم ، وقد أبطلوه ، فأنت وإن كنت داعياً إلى إصلاح الاستعداد الفطرىّ ، وما جعلناك متولياً عليهم ، تحفظ مصالحهم ، حتى تكون مصلحاً لاستعدادهم الفطرىّ .

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » تدبر عليهم أمورهم ، أو تغيرهم من استعدادهم إلى آخر ، بل هو مفوض إلى الله تعالى ، يفعل بهم بمقتضى استعدادهم الطبيعىّ لهم من غير تغيير له ، بل هو مفوّض إلى اختيارهم ـ أفاده المهايمىّ ـ .

تنبيهان :

الأول ـ فى قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر ، لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه ، مع توجهه إليه ، بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه ، لعدم صرف اختياره الجزئىّ نحو الإيمان ، وإصراره على الكفر . والزمخشرىّ يفسره بمشيئة إكراه وقسر ، لأن عندهم مشيئة الاختيار حاصلة ألبتة . قال النحرير : وهذه عكازته فى دفع مذهب أهل السنة .

الثانى ـ قال القاشانىّ فى تفسير قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) : أى كل مايقع، فإنما يقع بمشيئة الله ، ولاشك أن استعداداتهم التى وقعوا بها فى الشرك ، وأسباب ذلك ، من تعليم الآباء والعادات وغيرها ، أيضاً واقعة بإرادة من الله ، وإلا لم تقع. فإن آمنوا بذلك فبهداية الله ، وإلا فهوّن على نفسك ، فما جعلناك تحفظهم عن الضلال ، وما أنت بموكل عليهم بالإيمان . ولاينافى هذا ما قال فى تعييرهم فيمابعدبقوله : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم قالوا ذلك عناداً ودفعاً للإيمان بذلك التعلل ، لا اعتقاداً . فقولهم ذلك ، وإن كان صدقاً فى نفس الأمر ، لـكنهم كانوا به كاذبين ، مكذبين للرسول ، إذ لوصدقوا لعلموا أن توحيد المؤمنين أيضاً بإرادة الله ، وكذا كل دين ، فلم يعادوا أحد . ولوعلموا أن كل شئ لا يقع إلا بإرادة الله لما بقوا مشركين ، بل كانوا موحدين . لـكنهم قالوه لغرض التـكذيب والعناد ، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم ، فلذلك عيّرهم به ، لا لأنه ليس كذلك فى نفس الأمر . فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله ، وأنه كما أراد شركهم فى الزمان السابق ، لم يرد إيمانهم الآن ، إذ ليس كل منهم مطبوع القلب ، بدليل إيمان من آمن منهم. فلم لايجوز أن يكون بعضهم كانوا مستعدين للإيمان والتوحيد ، واحتجوا بالعادة ، وماوجدوا من آبائهم فأشركوا ، ثم إذا سمعوا الإنذار ، وشاهدوا آيات التوحيـد ، اشتاقوا إلى الحق ، وارتفع حجابهم فوحّدوا . فلذلك وبخهم على قولهم ، وطلب منهم الحجة على أن الله أرادهم بذلك دائماً ، وأنذرهم بوعيد من كان قبلهم ، لعل من كان فيه أدنى استعداد ، إذا انقطع عن حجته ، وسمع وعيد من قبله من المنكرين ، ارتفع حجابه ، ولَانَ قلبُه فآمن ، ويكون ذلك توفيقا له ، ولطفاً فى شأنه ، فإن عالَم الحـكمة يبتنى على الأسباب . وأما من كان من الأشقياء

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤٨] ونصها: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

المردودين ، المختوم على قلوبهم ، فلا يرفع لذلك رأساً ، ولا يلقى إليه سمعاً . انتهى .

وليكن هذا على بال منك ، فالمقام دقيق جدًّا ، وسيأتى بيانه فى الآية الآتية إن شاءالله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : لا تذكروا آلهتهم، التى يعبدونها، بما فيها من القبائح ، لئلا يتجاوزوا إلى الجناب الرفيع .

روى عبد الرزاق عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فنهوا عنه لذلك.
وقال الزجاج : نهوا أن يلعنوا الأصنام التى كانت تعبدها المشركون . انتهى .

فـ (الَّذِينَ يَدْعُونَ) عبارة عن الآلهة ، والعائدمقدر ، والتعبير بـ (الَّذِينَ) على زعمهم أنهم من أولى العلم ، أو بناء على أن سبّ آلهتهم سبّ لهم ، كما يقال : ضربُ الدابة صفعٌ لراكبها . فإن قيل : إنهم كانوا يقرّون بالله وعظمته ، وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء عنده ، فكيف يسبونه ؟ قلنا : لا يفعلون ذلك صريحاً ، بل يفضى كلامهم إلى ذلك ، كشتمهم له ولمن يأمره بذلك مثلاً . وقد فسر (بِغَيْرِ عِلْمٍ) بهذا ، وهو حسن جدًّا . أو أن الغيظ والغضب ربما حملهم على سب الله صريحاً . ألا ترى المسلم قد تحمله شدة غضبه على التكلم بالكفر ؟!

و (عَدْوًا) مصدر ، أى : ظلماً وعدواناً . يقال : عدا عليه عدوًا ، كـ (ضرباً) ، و (عدوّا) كـ (عتوّ) ، و (عداء) كـ (عزاء) ، و (عدواناً) كـ (سبحان) إذا تعدى

وتجاوز ، وهو مفعول مطلق لـ (تسبوا) من معناه ، لأن السب عدوان . أو مفعول له ، أو حال مؤكدة مثل (بِغَيْرِ عِلْمٍ) ـ كذا فى العناية ـ .

تنبيه :

قال ابن الفرس فى الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم، أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن ، لم يجز أن يُسَبّوا ولا دينهم . قال : وهى أصل فى قاعدة سد الذرائع .

قال السيوطىّ: وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى . وكذا كل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن الحَسَن يصير قبيحاً إذا كان يحصل بفعله مفسدة .

قال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين :

أحدها : أنها جماد لا ذنب لها .

والثانى : أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسبّ الله تعالى .

قال : والذى يجب علينا بيان بغضها ، وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنها لا تستحق العبادة ، وهــذا ليس بسبٍّ . ولهذا قال أمير المؤمنين (يوم صفين) : لا تسبوهم ، ولـكن اذكروا قبيح أفعالهم . انتهى .

وقال الزمخشرىّ: فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صح النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصى؟ قلت : رب طاعة عُلِمَ أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة . كالنهى عن المنكر ، هو من أجلّ الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ، ووجب النهى عن ذلك ، كما يجب النهى عن المنكر . فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا

جنازة ، فرأى محمد نساءً ، فرجع. فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية ، لأسرع ذلك في ديننا . قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس بسببٍ لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها ، حضر الرجال أو لم يحضروا . بخلاف سب الآلهة . وإنما خيل إلى ابن سيرين أنه مثله ، حتى نبه عليه الحسن . انتهى .

ومنه قال بعض مفسري الزيدية : واعلم أن المعصية إن كانت حاصلة لامحالة ، سواء فعل الحسن أم لا ، لم يسقط الواجب ، ولا يقبح الحسن . انتهى .

وكذا قال الخفاجيّ : إن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة ، وكانت سبباً لها ، وجب تركها . بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية ، لا يمكن دفعها . وكثيرًا ما يشتبهان . ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجال والنساء ، وخالفه الحسن للفرق بينهما . انتهى.

قال الرازيّ : وفي الآية تأديب لمن يدعو إلى الدين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، يكفي في القدح في إلٰهيتها ، فلا حاجة ، مع ذلك ، إلى شتمها .

كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ » من الأمم الماضية على الضلال « عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ » أي : بالبعث بعد الموت ، « فَيُنَبِّئُهُمْ » أي : يخبرهم « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » في الدنيا . وذلك بالمحاسبة والمجازاة عليه .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب أهل السنة إلى ظاهر الآية ، من أن المزيِّن للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان ، هو الله تعالى . وذلك لأن صدور الفعل من العبد يتوقف على حصول الداعي ، ولا بد أن يكون ذلك الداعي بخلق الله تعالى . وقد بسط الرازيّ ذلك ، وساق تأويلات المعتزلة الركيكة ، فانظره !

الثاني ـ في قوله تعالى : (فَيُنَبِّئُهُمْ) الخ وعيد بالجزاء والعذاب . كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلت.

الثالث ـ فيه نكتة سرية ، مبنية على حكمة أبيّة ، وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة . فإن المعاصى سموم قاتلة ، قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كما نطقت بهذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها أحسن الأحاسن، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام(1) : حُفَّت الجنة بالمكارة ، وحفت النار بالشهوات . فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى هذه النشأة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة . وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها ، لما أن كلاًّ منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى . فليتدبر ! ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » مصدر فى موقع الحال . أى : أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم ، باذلين فى توثيقها طاقتهم « لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ » أى : خارق كما اقترحوا ، « لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » أى : أمرها فى حكمه وقضائه خاصة ، يتصرف بها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، لا تتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته ، حتى يمكنني أن أتصدى لاستنزالها بالاستدعاء. وهذا سدٌّ لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ، ببيان صعوبة منالها ، وعلو شأنها ـ أفاده أبو السعود ـ

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ١ (طبعتنا) رواه أنس بن مالك .

« وَمَايُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ » قرىء (إِنَّهَا) بالكسر على الاستئناف ، والمفعول الثانى محذوف ، كأنه قيل : وما يدريكم إيمانهم ؟ ثم أخبرهم بما علم منهم إخباراً ابتدائياً . أو هو جواب سؤال ، كأنه قيل : لم وُبِّخوا ؟ فقيل : لأنها إذا جاءت لا يؤمنون! أو هو مبنى على قوله : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) فإنه أبرز فى معرض المحتمل ، كأنه سأل عنه سؤال شاكّ ، ثم علل بقوله لـ (أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) جزماً بالطرف المخالف ، وبياناً لكون الاستفهام غير جار على الحقيقة . وفيه إنكار لتصديق المؤمنين على وجه يتضمن إنكار صدق المشركين فى المقسم عليه. وهذا نوع من السحر البيانىّ ، لطيف المسلك . هذا على أن الخطاب للمؤمنين ، إذ كانوا يتمنون مجىء الآية طمعاً فى إيمانهم . وقيل : هو للمشركين ، لقراءة : (لَا تُؤْمِنُونَ) ، فيكون فيه التفات . وقرىء (أَنَّهَا) بالفتح ، وعليه فقيل : مقتضى حسن ظن المؤمنين بهؤلاء المعاندين ، حذف (لا) . وتوضيح ذلك بالمثال أنه إذا قيل لك : أكرم زيداً يكافئك ، قلت فى إنكاره : ما أدراك أنى إذا أكرمته يكافئنى ؟! فإن قيل : لا تكرمه فإنه لا يكافئك ، قلت فى إنكاره : ماأدراك أنه لا يكافئنى ؟! تريد : وأنا أعلم منه المكافأة . فمقتضى حسن ظن المؤمنين بالمشركين أن يقال : ومايدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون ، فإثبات (لا) يعكس المعنى ، إلى أن المعلوم لك الثبوت ، وأنت تنكر على من نفى .

وقد وجه الفتح بستة وجوه :

منها ـ جعل (لا) صلة ، كقوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ)(١) ، وقوله تعالى : (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)(٢) أى: يرجعون . وضعّف الزجاج هذا الوجه ، بأن ما كان لغواً يكون كذلك على جميع التقديرات ، وليس كذلك هنا ، فإن (لا)

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

على قراءة الكسر ليست بصلة . وأجاب الفارسيّ بأنه لم لا يجوز أن يكون لغوًا على أحد التقديرين، ومفيدًا على التقدير الثاني ؟ انتهى .

ومنها ـ جعل (أنّ) بمعنى (لعل) . قال الخليل : تقول العرب : ائت السوق أنك تشترى لناشيئًا، أى لعلك . فكأنه تعالى قال : لعلها إذا جاءت لايؤمنون . قال الواحدّى: « أن » بمعنى « لعل » كثير فى كلامهم، قال(١) الشاعر :

أَرِينى جَوَادًا مات هَزْلًا لَأنّنى ... أَرَى مَا تَرَيْنَ أو بخيلًا مخلَّدًا

وقال عدىّ بن(٢) حاتم :

أعاذلَ ما يُدْريكِ أَنَّ منيتى ... إلى ساعةٍ فى اليومِ أو فى ضُحَى الْغَدِ

ويؤيده أن (يشعركم) و (يدريكم) بمعنى . وكثيرًا ما تأتى (لعل) بعد فعل الدراية، نحو (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزَّكَّىٰ)(٣) . وفى مصحف أبىّ (وَمَا أَدْرَاكَ لَعَلَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

ومنها ـ جعل (أن) بمعنى هل .

ومنها ـ جعل الكلام جواب قسم محذوف بناء على أن (إن) فى جواب القسم يجوز فتحها . والذى ارتضاه الزمخشرىّ وتبعه المحققون حمل الكلام على ظاهره، وأن الاستفهام

---

(١) استشهد به الطبرىّ فى التفسير، (ج ٣ ص ٧٨ طبعة المعارف) .

قال : يعنى بقوله « أرينى » دلينى عليه وعرفينى مكانه، ولم يعن به رؤية العين .

واستشهد به مرة أخرى (ج ١٢ ص ٤٢ طبعة المعارف) قال : (لَأَننى) بمعنى لعلنى . كما استشهد به المؤلف هنا .

(٢) استشهد به الطبرىّ فى التفسير (ج ١٢ ص ٤١ طبعة المعارف) قال : بمعنى (لعلّ منيتى) .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣] .

فى معنى النفى ، والإخبار عنهم بعدم العلم لا إنكار عليهم . والمعنى : وما يدريكم أن الآية التى يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها . يعنى : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، وأنتم لا تدرون ذلك .

قال فى (الانتصاف) : لما جاءت الآية تفهم، ببادىء الرأى، أن الله تعالى علم الإيمان منهم، وأنكر على المؤمنين نفيهم له ، والواقع على خلاف ذلك. اختلف العلماء (وساق نحو ماقدمنا فى الوجوه) ثم قال : وأما الزمخشرى فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها فى نصابها ، من غير حذف ولا تأويل . فقال قوله السالف . ونحن نوضح اطراده فى المثال المتقدم ، ليتضح بوجهيه فى الآية ، فنقول : إذا حرمت زيدا لعلمك بعدم مكافأته ، فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، فلك معه حالتان: حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعذره فى عدم العلم بما أحطت به علما . فإن أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافىء ؟ وإن عذرته فى عدم علمه بأنه لا يكافىء قلت : وما يدريك أنه لا يكافىء ؟ يعنى : ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته ، وأنت لا تخبر أمره خبرى . فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين فى عدم علمهم بالمغيب فى علم الله تعالى ، وهو عدم إيمان هؤلاء . فاستقام دخول (لا) وتعين ، وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعذار . انتهى

وفى نفى السبب ، وهو الإشعار ، مبالغة فى نفى المسبب ، وهو الشعور .

قال الخفاجى : وفى نفى المسبب بهذا الطريق مبالغة ليست فى نفيها بدونها ، لأن فى الكناية إثبات الشىء ببينة . وفيه تعريض بأن الله عالم بعدم إيمانهم ، على تقدير مجىء الآية المقترحة لهم ، وتنبيه على أنه تعالى لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون . فعدم الإنزال لعدم الإيمان . و (يشعركم وينصركم) ونحوه ، قرىء بضم خالص وسكون واختلاس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ » عطف على (لا يؤمنون) ، داخل فى حكم (مايشعركم) ، مقيد بما قيد به . أى: ومايشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه. وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكن لا مع توجهها إليه ، واستعدادها لقبوله ، بل لكمال نبوّها عنه ، وإعراضها بالكلية . ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم ، إشعارا بأصالتهم فى الكفر ، وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار ــ أفاده أبو السعود ــ .

« كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ » أى : بما جاء من الآيات « أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : قبل سؤالهم الآيات التى اقترحوها ، « وَنَذَرُهُمْ » أى : ندعهم «فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» أى : يترددون متحيرين ، لا نهديهم هداية المؤمنين .

قال أبو السعود (ونذرهم) عطف على (لا يؤمنون) ، داخل فى حكم الاستفهام الإنكارىّ ، مقيد بما قيد به ، مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار ، ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره ، بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق ، مع توجههم إليه، واستعدادهم له بطريق الإجبار ، بل بأن يخليهم وشأنهم ، بعد ما علم فساد استعدادهم ، وفرط نفورهم عن الحق ، وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ، ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم، كما أشرنا إليه . انتهى

وفى (اللباب): فى الآية دليل على أن الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وأن

القلوب والأبصار بيده وفى تصريفه ، فيقيم ما شاء منها ، ويزيغ ما أراد منها . ومنه قوله ﷺ[١] : يامقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك . انتهى .

ثم بين تعالى كذبهم فى أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » أى: ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه هنا من آية واحدة ، بل نزلنا إليهم الملائكة ، كما قالوا (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ)[٢] . «وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ» كما قالوا (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٣] ، «وَحَشَرْنَا» أى : جمعنا « عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ » من الحيوانات والنباتات والجمادات ، « قُبُلًا » أى : كفلاء بصحة ما بشروا به وأنذروا « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » لغلوهم فى التمرد والطغيان ، « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى : إيمانهم فيؤمنوا ، « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » أى :

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدَر ، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين إصبعى الرحمن ، ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا رسول الله ! آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم . إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، يقلبها كيف يشاء » .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٤٤ / الدخان / ٣٦] .

إنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا ، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون . أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات .

قال القاشانيّ : وفى الحقيقة لا اعتبار بالإيمان المرتب على مشاهدة خوارق العادات ، فإنه ربما كان مجرد إذعان لأمر محسوس ، وإقرار باللسان ، وليس فى القلب من معناه شىء ، كإيمان أصحاب السامرىّ . والإيمان لا يكون إلا بالجنان ، كما قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ)(١) .

تنبيهان :

الأول ـ يقرأ (قُبُلًا) بضم القاف والباء ، وفيه وجهان : أحدهما : هو جمع قبيل بمعنى الكفيل ، مثل قليب وقُلُب ؛ والآخر : أنه مفرد ، كقُبُل الإنسان ودُبُره . وعلى كلا الوجهين هو حال من كلّ . ويقرأ بالضم وسكون الباء على تخفيف الضمة . ويقرأ بكسر القاف وفتح الباء ، وانتصابه على الظرفية . كقولهم : لى قبل فلان حق . أو على الحالية ، وهو مصدر ، أى عياناً ومشاهدة .

الثانى ـ فى قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) حجة واضحة على المعتزلة ، لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى ، حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وحملة شريعتها على أنه ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وللمعتزلة تحيل فى المدافعة بحمل المشيئة المنفية ، على مشيئة القسر والاضطرار . وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء . وأما وهو القدوة والمتبوع ، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه ، فإلى النار ، وما بعد الحق إلا الضلال .

ثم سلّى تعالى نبيه عما كان يقاسيه من قومه ، بتأسيه بمن سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] . . . وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ » أى : مثل ذلك الجعل الذى جعلناه فى حقك ، حيث جعلنا لك عدوّا يضادونك ولا يؤمنون ، جعلنا لكل نبيّ تقدمك عدوّا من مَرَدَة الإنس والجن ، فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك ، كما قال تعالى : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)[١]. وقال ورقة بن نوفل للنبيّ ﷺ[٢]: لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودى .

« يُوحِي » أى : يلقى ويوسوس « بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ » أى : المموه منه ، المزين ظاهره ، الباطل باطنه ، « غُرُورًا » أى : للضعفاء ، لأن الله تعالى جعلهم أهل الحجاب ، وكذا الغارّين، ليقهرهم بمقتضى استعدادهم . وفى الآية دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بفعل الله سبحانه وتعالى، وخلقه .

قال المهايميّ : لتظهر الحجج بمجادلتهم ، وترتفع شبهاتهم ، ولئلا يقال إنه شخص ساعده الكلّ ليأكلوا أموال الناس ، أو يتواسوا عليهم .

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ» أى : مافعلوا ذلك ، يعنى: معاداة الأنبياء ، وإيحاء الزخارف. وهو أيضاً دليل على المعتزلة . « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : من الكفر، فسوف يعلمون .

ثم عطف على قوله (غُرُورًا) علة ثانية للإيحاء بقوله تعالى :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٣] . . . إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) هذه قطعة من الحديث الطويل الذى أخرجه البخاريّ فى: ١ ـ كتاب بدء الوحى، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف . روته سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

« وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ » أى : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، ليغرّهم به ، ولتميل إليه « أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » لمساعدته لهم على أهوائهم ، « وَلِيَرْضَوْهُ » أى : لأنفسهم بعد ما مالت إليه قلوبهم ، « وَلِيَقْتَرِفُوا » أى : وليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ، « مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ » أى : من الآثام .

قال القاشانىّ : فتقوى غوايتهم ، ويتظاهرون ، ويخرج ما فيهم من الشرور إلى الفعل ، ويزدادوا طغياناً وتعدياً على النبىّ ، فتزداد قوة كماله ، وتهيج أيضاً بسببه دواعى المؤمنين ، والذين فى استعدادهم مناسبة للنبىّ ، فتنبعث حميتهم ، وتزداد محبتهم للنبىّ ، ونصرهم إياه ، فتظهر عليهم كمالاتهم .

لطيفة :

إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة ، دون ما عداها من الأمور التى يجب الإيمان بها ، وهم بها كافرون ، إشعاراً بما هو المدار فى صَغْوِ أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم ، فإن لذّات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره ، وآلامها مزينة بالشهوات ، فالذين لا يؤمنون بها ، وبأحوال ما فيها ، لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات ، ودون هذه الشهوات آلاماً ، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم فى الدنيا بادئ الرأى ، فهم مضطرون إلى حب الشهوات ، التى من جملتها مزخرفات الأقاويل ، ومموّهات الأباطيل . وأما المؤمنون بها ، فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ، ناظرين إلى عواقب الأمور ، لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات ، لعلمهم ببطلانها ، ووخامة عاقبتها ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

وقوله تعالى « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً » على تقدير القول ، كما فى نظائره ، أى : قل لهم : أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم ، ويفصل المحق منّا من المبطل . والمعنى : أطلب معبودًا ، لأنهم كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم ـ وهذا عندى أظهر ـ ثم رأيت فى (تنوير المقباس) الاقتصار عليه ، حيث قال (أَبْتَغِى حَكَماً) أعبد ربًّا . وأما كون الآية واردة على قولهم (اجعل بيننا وبينك حكمًا) فلا يصح ، لأنهم بمعزل عن الانصياع لذلك .

« وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ » أى : القرآن المعجز ، « مُفَصَّلًا » أى : مبيناً فيــه الفصل بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأنتم أمة أمية ، لا تدرون ما تأتون وما تذرون .

وفى الآية .

مسائل :

الأولى ـ قال فى (الإكليل) : استدل الخوارج بقوله تعالى (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً) على إنكارهم التحكيم . قال : وهو مردود ، فإن التحكيم المنكر أن يريد حكمًا يحكم بغير ما حكم الله تعالى . انتهى .

قلت : هذا مبنىّ على الوجه الأول ، وقد عرفت أن الأظهر الوجه الثانى ، فلا استدلال، ولا ردَّ .

الثانية ـ قالوا : الحكم أبلغ من الحاكم ، وأدل على الرسوخ ، لما أنه لا يطلق إلا على العادل ، وعلى من تكرر منه الحُكْم ، بخلاف الحاكم .

الثالثة ـ في الآية تنبيه على أن القرآن الكريم كافٍ في أمر الدين، مغنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله .

« وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » لما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، ولتصديقه ما عندهم ، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ، ولم يخالط علماءهم . وهذا تقرير لكونه منزلاً من عند الله ببيان أن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى .

« فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » أي : في أنه منزل من ربك بالحق ، بسبب جحود أكثرهم وكفرهم به ، فيكون من باب التهييج والإلهاب ، كقوله تعالى (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[١] .

قال ابن كثير : هذا كقوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)[٢]. قال: وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه . ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أشك ولا أسأل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » وقرئ (كلمات ربك) أي : بلغت الغايةَ أخباره وأحكامه ومواعيده « صِدْقًا » في الأخبار والمواعيد « وَعَدْلًا » في الأقضية والأحكام .

---

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ . . .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٤] .

وقال القاشانيّ : أي تم قضاؤه تعالى في الأزل بما قضى وقدر من إسلام من أسلم ، وكفر من كفر ، ومحبة من أحب ، وعداوة من عادى ، قضاءً مبرماً ، وحكماً صادقاً ، مطابقاً لما يقع ، عادلاً بمناسبة كل قول وكل كمال وحال ، لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له . انتهى .

« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أي : لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل. أَوْ لا أحد يقدر أن يحرّفها شائعاً ذائعاً ، كما فعل بالتوراة . على أن المراد بها القرآن ، فيكون ضماناً لها منه تعالى بالحفظ ، كقوله (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[١] .

وقال القاشانيّ : أي لا مبدل لأحكامه الأزلية . انتهى .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : يستدل به من قال إن اليهود والنصارى لم يبدلوا لفظ التوراة والإنجيل ، وإنما بدلوا المعنى ، لأن كلمات الله لا تبدل . انتهى ـ وهو رواية[٢] عن ابن عباس ـ أخرجها البخاريّ في آخر صحيحه . وبسط المقام في ذلك الحافظُ ابن حجر في (فتح الباري) . وتقدم لنا في سورة البقرة شذرة من هذا البحث ، فجدد به عهداً .

« وَهُوَ السَّمِيعُ » لما يظهرون من الأقوال « الْعَلِيمُ » أي بما يخفون .

ثم حذر تعالى من الركون إليهم والعمل بآرائهم بقوله :

---

(١) [١٥ / الحجر / ٩] ونصها : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قوله الله تعالى: بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

وانظر في ذلك، وفي مثله ، كتابنا (معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخاريّ) ففيه كل ما صح عن ابن عباس. ونصه : يحرّفون ، يزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرّفونه يتأولونه على غير تأويله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ » أى : من النـاس ، وهم الـكفار « يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : عن الطريق الموصل إليه ، بتزيينهم زخارفهم عليك ، ودعوتهم إياك إلى ما هم فيه من اتباع الهوى ، كما قال « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، فهم يقلدونهم ، « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه ، كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه ، وتحليل الميتة ، وتحريم البحائر . و (إِنْ) فيه وفيما قبله نافية . والخرص : الحَزْرُ والتخمين ، وقد يعبر به عن الـكذب والافتراء ، وأصله القول بالظن ، وقول ما لا يستيقن ويتحقق ـ قاله الأزهرى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » تقرير لمضمون الشرطية ، وما بعدها . وتأكيد لما يفيده من التحذير . أى : هو أعلم بالفريقين ، فاحذر أن تـكون من الأولين . ـ أفاده أبو السعود ـ

تنبيه :

قال الرازى : تمسك نفـاة القياس بهذه الآية فقالوا : رأينا أن الله تعالى بالغ فى ذم الـكفار فى كثير من آيات القرآن ، بسبب كونهم متبعين للظن . والشىء الذى يجعـله الله تعالى موجباً لذم الـكفار ، لابد وأن يكون فى المعنى فى أقصى مراتب الذم . والعمل بالقياس يوجب اتباع الظن ، فوجب كونه مذموماً محرّما . لا يقال : لما ورد الدليل القاطع بكونه حجة ، كان العمل به عملًا بدليل مقطوع ، لا بدليل مظنون . لأنا نقول : هذا مدفوع من وجوه :

الأول ـ أن ذلك الدليل القاطع إما أن يكون عقلياً ، وإما أن يكون سمعياً ، والأول باطل ، لأن العقل لا مجال له فى أن العمل بالقياس جائز أو غير جائز ، لا سيما عند من ينكر تحسين العقل وتقبيحه . والثانى أيضاً باطل ، لأن الدليل السمعى إنما يكون قاطعاً لو كان متواتراً ، أو كانت ألفاظه غير محتملة لوجه آخر ، سوى هذا المعنى الواحد. ولو حصل مثل هذا الدليل لعلم الناس بالضرورة كون القياس حجة ، ولارتفع الخلاف فيه بين الأمة . فحيث لم يوجد ذلك ، علمنا أن الدليل القاطع على صحة القياس مفقود .

الثانى ـ هب أنه وجد الدليل القاطع على أن القياس حجة ، إلا أن مع ذلك لا يتم العمل بالقياس إلا مع اتباع الظن . وبيانه أن التمسك بالقياس مبنى على مقامين : الأول : أن الحكم فى محل الوفاق معلل بكذا . والثانى : أن ذلك المعنى حاصل فى محل الخلاف . فهذان المقامان، إن كانا معلومين على سبيل القطع واليقين ، فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء فى صحته . وإن كان مجموعهما ، أو كان أحدهما ظنياً ، فحينئذ لا يتم العمل بهذا القياس إلا بمتابعة الظن ، وحينئذ يندرج تحت النص الدال على أن متابعة الظن مذمومة . والجواب لِمَ لا يجوز أن يقال: الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أمارة ، وهو مثل اعتقاد الكفار. أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستنداً إلى أمارة ، فهذا الاعتقاد لا يسمى ظناً ، وبهذا الطريق سقط هذا الاستدلال . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

وقوله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحليل الحرام وتحريم الحلال . وذلك أنهم خاصموا المسلمين فقالوا: ماذبح الله لا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ـ أخرجه النسائى[١] عن ابن عباس ـ

(١) أخرجه النسائى فى: ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٤٠ ـ باب تأويل قول الله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

فنزلت الآية . والمعنى : كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه ، لرفعه تنجيس الموت إياه المانع من الأكل ، لا مما ذكر عليه اسم غيره ، أو مات حتف أنفه .

« إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله سبحانه ، واجتناب ماحرمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)

وقوله تعالى : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ماذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب. أى : وأىّ غرض لكم فى أن تتحرجوا من أكله ، وما يمنعكم عنه ؟ « وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ » أى : بيّنه ووضحه .

قال بعض المفسرين : يعنى فى آية المائدة فى قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)... الآية[1]. وردّ بأن المائدة من آخر مانزل بالمدينة ، والأنعام مكية . فالصواب أن التفصيل إمّا

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فى قوله تعالى بعد هذه الآية (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...)[1] الآية ، فإنه ذكر بعدُ بيسير ، وهذا القدر من التأخر لا يمنع أن يكون هو المراد ؛ وإما على لسان الرسول، ثم أنزل بعد ذلك فى القرآن . و (فصل) و (حرم) قرىء كل منهما معلوماً ومجهولاً . ومعنى الآية : لا مانع لكم من أكل ما ذكر ، وقد بين لكم المحرم أكله ، وهذا ليس منه .

« إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ » أى : مما حرم عليكم . أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة ، فيباح لكم .

« وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ » قرئ بفتح الياء وضمها « بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : يضلون فيحرّمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم ، من غير تعلق بشريعة .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ » أى المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام .

تنبيه :

قال الرازىّ : دلت هذه الآية على أن القول فى الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام . انتهى .

وقال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على تحريم الفتوى والحكم بغير دلالة ، ولكن اتباع الهوى .

ولما بين تعالى أنه فصل المحرمات ، أتبعه بما يوجب تركها بالكلية ، فقال سبحانه :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

«وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ» أى: سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح «وَبَاطِنَهُ» أى : مايسرّ منه بالقلب كالعقائد الفاسدة ، والعزائم الباطلة . أو مايعلن من الذنوب وما يسر منها ، ويستتر فيه .

قال السدىّ : ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه مع الخليلة والصدائق والأخدان . ولا يخفى أن اللفظ عامّ فى كل محرم ، ولذا قال قتادة : أى سره وعلانيته ، قليله وكثيره ، وصغيره وكبيره. كقوله تعالى[١] : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ » أى : يكتسبون . قال الشهاب : الاقتراف فى اللغة الاكتساب ، وأكثر مايقال فى الشر والذنب . ولذا قيل: الاعتراف يزيل الاقتراف . وقد يرد فى الخير كقوله تعالى[٢] : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) انتهى .

وقد روى[٣] مسلم وغيره عن نوّاس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] . . . وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] ونصها : ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا).

البِرّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

قال الحاكم : فى الآية دلالة على أن العبد يؤاخذ بأفعال القلب ، كما يؤاخذ بأفعال الجوارح .اهـ. أى : على التفسير الأول فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

« وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » أى : عند ذبحه . أى : بأن ذكر عليه اسم غيره ، يعنى : ذبح لغيره تعالى . « وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » والفسق ما أُهِلّ لغير الله به ، كما فى الآية الآتية آخر السورة . قال المهايمىّ . (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) أى : خروج عن الحسن إلى القبيح ، بتناول ما تنجس بالموت بلا مانع عن تأثيره . « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ » أى . يوسوسون « إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ » أى : من الكفار ، « لِيُجَادِلُوكُمْ » أى : فى تحليل الميتة ، « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ » أى : فى تحليل ماحرم الله ، أو تحريم ماأحل ، «إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» أى : لهم مع الله ، فيما يختص به من التحليل والتحريم .

تنبيهات

الأول ـ روى فى سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى ناس إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ! إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله تعالى ، فأنزل الله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) إلى قوله : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » . أخرجه أصحاب السنن[٢] .

وفى رواية لأبى داود فى قوله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٨ـ١٢١] .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ١٢ ـ باب فى ذبائح أهل الكتاب، حديث ٢٨١٩

لِيُجَادِلُوكُمْ) قال : يقولون ما ذبح اللهُ ـ فلا تأكلوا ، وما ذبحتم أنتم فـكلوا ؟ فأنزل الله تعـالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) وفى أخرى : (فَـكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) ، فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْـكِتَابَ حِلٌّ لَـكُمْ وَطَعَامُـكُمْ حِلٌّ لَهُمْ)(١) .

وعند النسائى(٢) قال : خاصمهم المشركون ، فقالوا : ماذَبَحَ اللهُ لاتأكلونه ، وماذبحتم أنتم أكلتموه ؟ ـ كذا فى تيسير الوصول .

الثانى ـ دلت الآية على مشروعية التسمية عند الذبح فقيل : باسم الله ، بهذا اللفظ الـكريم . وقيل : بكل قول فيه تعظيم له كالرحمن ، وسائر أسمائه الحسنى ، لقوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ)(٣) ولقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا)(٤) .

الثالث ـ ماقدمناه من حمل الآية على ما ذبح لغير الله تعالى هو الأظهر فى تأويلها، لقوله تعالى بعدُ : « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ » ومراعاة النظائر فى القرآن أولى ما يلتمس به المراد .

وقد روى ابن أبى حاتم عن عطاء قال : نزلت فى ذبائح كانت تذبحها قريش على الأوثان ،

---

(١) فى الباب السابق ، حديث ٢٨١٨و٢٨١٧

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٤٠ ـ باب تأويل قوله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . . . أَيًّا مَّاتَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . . . وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وذبائح المجوس . وقد حاول بعضهم أن يقويه فجعل الواو فى قوله : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) حالية ، لقبح عطف الخبر على الإنشاء . قال : والمعنى: لا تأكلوه حال كونه فسقاً . والفسق مجمل يفسره قوله : (أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) ، فيكون النهى مخصوصاً بما أهل لغير الله به ، فيبقى ما عداه حلالاً ، إما بالمفهوم ، أو بعموم دليل الحل ، أو بحكم الأصل . واعترض على هذا الحمل بأنه يقتضى أن لا يتناول النهى أكل الميتة ، مع أنه سبب النزول ، وبأن التأكيد بـ (إن) و (اللام) ينفى كون الجملة حالية ، لأنه إنما يحسن فيما قصد الإعلام بتحققه ألبتة ، والرد على منكر تحقيقاً أو تقديراً (على ما بين فى المعانى) ، والحال الواقع فى الأمر والنهى مبناه على التقدير ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إن كان فسقاً ، فلا يحسن (وإنه لفسق) بل (وهو فسق) وأجيب عن الأول بأنه دخل بقوله : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) (مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) وبقوله : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ . . .) إلخ الميتة ، فيتحقق أن هذا النهى مخصوص بما ذبح على النصب ، أو مات حتف أنفه . وعن الثانى بأنه لما كان المراد بالفسق ههنا الإهلال لغير الله، كان التأكيد مناسباً ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إذا كان هذا النوع من الفسق الذى الحكم به متحقق ، والمشركون ينكرونه ـ كذا فى العناية ـ .

ومما يقويه أيضاً قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) على أن المراد به الخروج عن طاعة الله تعالى ، وهو وجه ثان فيه ، وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) فإن من أكل الميتة ، أو ما ذبح على النصب فسق ، ومع الاستحلال يكفر ، بخلاف ما ذبحه المسلم ولم يسمّ عليه ، فإن آكله لا يفسق ولا يكفر إجماعاً ـ أشار له الرازىّ ـ وحينئذ فلا دلالة فى الآية على تحريم ذبيحة المسلم التى تركت التسمية عليها، عمداً أو سهواً .

وقد روى أبو داود فى (مراسيله) عن الصلت السدوسىّ قال : قال رسول الله ﷺ : ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكره ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنىّ عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله ، فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى .

واحتج البيهقىّ أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها أن قوماً قالوا للنبىّ ﷺ : إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ، فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثى عهد بكفر ـ رواه البخارىّ[1] والنسائىّ ـ قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها . وكذا قال الخطابىّ : فيه دليل على أن التسمية غير شرط على الذبيحة ، لأنها لو كانت شرطاً لم تستبح الذبيحة بالأمر المشكوك فيه ، كما لو عرض الشك فى نفس الذبيحة ، فلم يعلم هل وقعت الذكاة المعتبرة أم لا ؟ وهذا هو المتبادر من سياق الحديث ، حيث وقع الجواب فيه : (سموا أنتم) ، كأنه قيل لهم : لا تهتموا بذلك ، بل الذى يهمكم أنتم أن تذكروا اسم الله وتأكلوا . وهذا من الأسلوب الحكيم. ومما يدل أيضاً قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)[2] فأباح الأكل من ذبائحهم ، مع وجود الشك فى أنهم سمّوا أم لا. هذا، وقد تمسك بظاهر الآية قوم فذهبوا إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، عمدًا تركت التسمية أو نسياناً . واحتجوا أيضاً بقوله تعالى فى آية الصيد: (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ)[3] ، وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ،

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ ـ باب ذبيحة الأعراب ونحوهم ، حديث ١٠٣٨ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥] ونصها : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤] ونصها : يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ =

كحديثى عدىّ[١] بن حاتم وأبى ثعلبة[٢] : إذا أرسلت كلبك المعلَّم ، وذكرت اسم الله فكل ، وهما فى الصحيحين .

= الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ماجاء فى التصيد، حديث ١٤١ ونصه :

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلَّمة ، وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك ، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل ، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ماجاء فى التصيد، حديث رقم ٢١٩٨ ونصه :

عن أبى إدريس عائذ الله قال : سمعت أبا ثعلبة الخُشَنِىّ رضى الله عنه يقول : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ! إنا بأرض قومٍ أهلِ الكتاب ، نأكل فى آنيتهم . وأرض صيد أصيد بقوسى وأصيد بكلبى المعلّم والذى ليس معلّما . فأخبِرْنى ما الذى يحل لنا من ذلك . فقال « أما ما ذكرت أنك بأرض قومٍ أهلِ الكتاب تأكل فى آنيتهم ، فإن وجدتم غير آنيتهم فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها . وأما ما ذكرت أنك بأرض صيد ، فما صدتَ بقوسك فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك المعلَّم فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك الذى ليس معلّما ، فأدركتَ ذكاتَهُ ، فكل » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعتنا) .

وحديث رافع بن خديج[١] : ما أنهر الدمَ وذُكِر اسمُ الله فكلوه ـ في الصحيحين أيضاً ـ .

وحديث ابن مسعود[٢] أن رسول الله ﷺ قال للجنّ : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ـ رواه مسلم ـ .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٥ ـ باب التسمية على الذبيحة ، ومن ترك متعمدًا ، حديث ١٢٣٠ .

عن عَبَايَةَ بن رِفاعَةَ بن رافع عن جده رافع بن خَدِيج قال : كنا مع النبيّ ﷺ بذي الحُلَيْفة . فأصاب الناسَ جوعٌ . فأصبنا إبلا وغنما . وكان النبيّ ﷺ في أخريات الناس ، فعجلوا فنصبوا القدور ، فدُفع إليهم النبيّ ﷺ . فأمر بالقدور فأكفئت . ثم قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير . فندّ منها بعير . وكان في القوم خيل يسيرة فطلبوها فأعياهم . فأهوى إليه رجل بسهم فحبسه الله .

فقال النبيّ ﷺ «إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش. فما ندّ عليكم فاصنعوا به هكذا» .

قال ، وقال جدّي : إنا لنرجو (أو نخاف) أن نلقى العدوّ غدًا . وليس معنا مُدًى ، أفنذبح بالقصب ؟ فقال « ما أنهر الدمَ وذُكر اسم الله عليه ، فكل . ليس السنَّ والظفرَ . وسأخبركم عنه . أما السنّ فعظم ، وأما الظفر فمُدَى الحبشة » .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ ـ كتاب الأضاحيّ ، حديث ٢٠ـ٢٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٥٠ (طبعتنا) ونصه :

عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا . ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة . ففقدناه . فالتمسناه في الأودية والشِّعاب . فقلنا : استُطِير أو اغْتِيل (معنى استطير : طارت به الجن . ومعنى اغتيل : قُتِل سرًّا . والغِيلة هي القتل خِفيةً) . =

وحديث جندب بن سفيان البجلىّ قال(١) : قال رسول الله ﷺ : من ذبح قبل أن يصلى ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا ، فليذبح باسم الله ـ أخرجاه ـ .

قالوا : ففى هذه الأحاديث إيقاف الإذن فى الأكل على التسمية ، والمعلق بالوصف ينتفى عند انتفائه ، عند من يقول بالمفهوم . والشرط أقوى من الوصف .

واحتجوا أيضاً بحديث عائشة المتقدم (سموا عليه أنتم وكلوا) . قالوا : إن القوم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك ، لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح ، إن لم تكن وجدت . أى : فتسميتكم الآن تستبيحون بها كل ما لم تعلموا أذكروا اسم الله عليه

= قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حراء . قال فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .

فقال « أتانى داعى الجن فذهبت معه . فقرأت عليهم القرآن » .

قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم ، أوفرَ ما يكون لحما . وكل بعرة علفٌ لدوابّكم » .

فقال رسول الله ﷺ « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد، ١٧ ـ باب قول النبىّ ﷺ: فليذبح على اسم الله ، حديث رقم ٥٦٢ ونصه :

عن جندب بن سفيان البجلىّ قال : ضحينا مع رسول الله ﷺ أضحيةً ذات يوم . فإذا أناس قد ذبحوا ضحاياهم قبل الصلاة . فلما انصرف رآهم النبىّ ﷺ أنهم قد ذبحوا قبل الصلاة فقال « من ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى . ومن كان لم يذبح حتى صلينا ، فليذبح على اسم الله » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث ١ـ٣ (طبعتنا) .

أم لا ، إذا كان الذابح ممن تصح ذبيحته إذا سمّى. قالوا : ويستفاد منه أن كل ما يوجد في أسواق المسلمين محمول على الصحة ، وكذا ما ذبحه أعراب المسلمين ، لأن الغالب أنهم عرفوا التسمية . انتهى .

وأجاب من حمل الآية على الوجه الأول؛ بأن الأمر في حديث عديّ وأبي ثعلبة محمول على التنزيه، من أجل أنهما كانا يصيدان على مذهب الجاهلية ، فعلمهما النبيّ ﷺ أمر الصيد والذبح ، فرضه ومندوبه ، لئلا يوافقا شبهة في ذلك ، وليأخذا بأكمل الأمور . وأما الذين سألوا عن تلك الذبائح ، فإنهم سألوا عن أمر قد وقع لغيرهم ، فعرّفهم بأصل الحل فيه .

وقال ابن التين : يحتمل أن يراد التسمية هنا عند الأكل ، وبذلك جزم النوويّ .

وأما التسمية على ذبحٍ تولاه غيرهم ، فلا تكلف عليهم فيه ، وإنما يحمل على غير الصحة إذا تبين خلافها .

وقال المهلب : هذا الحديث أصل في أن التسمية ليست فرضاً . فلما نابت تسميتهم عن التسمية على الذبح ، دل على أنها سنة ، لأن السنة لا تنوب عن فرض . انتهى .

وذهب بعض من اشترط التسمية في الحل إلى جواز أكل ما تُرِكَتْ عليه سهوًا لا عمدًا . واحتج بما رواه البيهقيّ عن ابن عباس مرفوعاً : المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يسمى حين يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله . قال الحافظ ابن كثير : وَرَفْعُهُ خطأ . والصواب وقفه على ابن عباس ، من قوله . نصّ عليه البيهقيّ . واحتج أيضاً بالحديث المرويّ من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس[1] وأبي هريرة[2] وأبي ذر[3] وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو

(١) أخرجه ابن ماجة في : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسي، حديث ٢٠٤٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسي، حديث ٢٠٤٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجة في : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسي، حديث ٢٠٤٣ (طبعتنا) .

عن النبيّ ﷺ : إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

ورواه الطبرانيّ عن ثوبان مرفوعاً بلفظ : رفع عن أمتى الخطأ . . . الحديث .

وروى ابن عديّ عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله ! أرأيتَ الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ! فقال النبيّ ﷺ : اسم الله على كل مسلم .

قال ابن كثير : وإسناده ضعيف .

وقد علمت الأظهر فى تأويل الآية أولاً ـ والله أعلم ـ .

الرابع ـ قال ابن جرير[1] : اختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل نُسِخ من حُكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء ، وهى محكمة فيما عُنِيَتْ به . وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم .

وروى عن الحسن البصريّ وعكرمة أنه تعالى نسخ من هذه الآية واستثنى قوله : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) . وروى ابن أبى حاتم عن مكحول أيضاً أنه تعالى نسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله صحيح . ومن أطلق من السلف النسخ ههنا، فإنما أراد التخصيص . انتهى.

وقد قدمنا فى المقدمة أنه علم من استقراء كلام الصحابة والتابعين أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغويّ ، الذى هو إزالة شيء بشيء ، لا بإزاء مصطلح الأصوليين . فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى. إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غيره ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عامّ ، وغير ذلك مما أسلفنا ، فتذكر !

(١) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثانى عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

الخامس ـ قال الزجاج : فى قوله تعالى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى ، أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى ، فهو مشرك. وإنما سمى مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى . وهذا هو الشرك . انتهى .

وقال ابن كثير : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدّمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك . كقوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . . .)[1] الآية . وقد روى الترمذىّ[2] فى تفسيرها عن عدىّ بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ! ما عبدوهم. قال : إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم . فذاك عبادتهم إياهم . انتهى .

السادس ـ قال الكعبىّ : الآية حجة على أن (الإيمان) اسم لجميع الطاعات ، وإن كان معناه فى اللغة التصديق ، كما جعل تعالى (الشرك) اسماً لكل ما كان مخالفاً لله تعالى ، وإن كان فى اللغة مختصاً بمن يعتقد أن لله شريكاً ، بدليل أنه تعالى سمى طاعة المؤمنين للمشركين، فى إباحة الميتة، شركاً .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣١] . . . وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد الكوفىّ . ونصه :

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبىّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال « ياعدىّ! اطرح عنك هذا الوثن » .

وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه . وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه » .

وتعقبه الرازيّ؛ بأنه لِمَ لايجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن لله شريكاً في الحكم والتكليف ؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط . انتهى .

ثم ضرب تعالى مثلًا للمؤمن والكافر ، لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين ، إثر تحذيرهم عنها ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » مثل به من هداه الله بعد الضلالة ، وبصّره بنور الحجج والآيات ، يتأمل بها في الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمهتدى والضالّ ، بمن كان ميتاً فأعطاه الحياة ، وما يتبعها من القوى المدركة والمحرّكة . ومن بقي على الضلالة ، بالخابط في الظلمات ، لا ينفك منها ، ولا يتخلص ، فهو متحيّر على الدوام . « كَذَٰلِكَ » أي : مثل ذلك التزيين البليغ « زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أي: من فنون الكفر والمعاصي ، ولذا جادلوا بها الحق ، وأصروا عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى :« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا » تسلية للنبيّ صلى ﷺ . أي : كما جعلنا بمكة كبراء ليمكروا على أتباعهم في تزيين الباطل ، وستر الحق ـ جعلنا في كل قرية، أرسلنا إليها الرسل، أكابرها المجرمين ، متصفين بصفات

المذكورين ، مزيناً لهم أعمالهم ، مصرين على الباطل ، مجادلين به الحق ، ليفعلوا المكر فيها على أتباعهم بالتلبيس ، ليتركوا متابعة الرسل .

قال ابن كثير : المراد بـ (المكر) ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف المقال والفعال ، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)[1] ، وكقوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ...)[2] الآية .

وقال الزمخشري : خص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال ، والماكرون بالناس ، كقوله : (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)[3] .

«وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» أي : ما يضرون بمكرهم إلا أنفسهم ، لأن وباله يحيق بهم ، كما قال تعالى : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ)[4] . وقال :

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٢] .

(٢) [٣٤/ سبأ/ ٣١ـ٣٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، ...... وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء [١٦] ونصها : وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] ... وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)(١) . قال الزمخشرى : هذه تسلية لرسول الله ﷺ ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ. اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

« وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ » أى : برهان وحجة قاطعة « قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ » أى : من الوحى والمعجزات المصدقة له . كقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...)(٢) الآية. وقوله سبحانه : (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً)(٣).

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفى للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها ، فيليق للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيره انكشافه له ، لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه منهم .

وقد روى الإمام(٤) أحمد عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل ، بنى

---

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . . . لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٥٢] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

كنانة . واصطفى من بنى كنانة ، قريشاً ، واصطفى من قريش ، بنى هاشم . واصطفانى من بنى هاشم . وانفراد بإخراجه مسلم(١) أيضاً.

وروى الإمام أحمد(٢) عن المّطلب بن أبى وَدَاعَةَ عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلنى فى خير فرقة، وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً .

« سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ » أى : ذلة وهوان بعد كبرهم وعظمتهم «عِنْدَ اللهِ » أى : يوم القيامة ، جزاء على منازعتهم له تعالى فى كبره بردّ آياته ورسالته ، واعتراضهم عليه فى تخصيصه بالرسالة غيرهم ، « وَعَذَابٌ شَدِيدٌ » يعنى : فى الآخرة . « بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ » فى الدنيا إضرارًا بالأنبياء .

قال ابن كثير : لما كان المكر غالباً ، إنما يكون خفيًّا ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة ، جزاء وفاقاً . ولا يظلم ربك أحداً . وجاء فى الصحيحين(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان .

(١) وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٧٨٨ (طبعة المعارف) ونصه :

قال العباس : بلغه ﷺ بعضُ ما يقول الناس . قال فصعِد المنبر فقال « مَنْ أنا ؟ قالوا: أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة . وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة . وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً . فأنا خيركم بيتاً وخيركم نَفْسًا » .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخارىّ :

=

والحكمة فى هذا، أنه لما كان الغدر خفيًّا لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير عَلَمًا منشورًا على صاحبه بما فعل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ » أى: للتوحيد « يَشْرَحْ » أى : يوسع « صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » بتصقيله بنور الهداية، فيقبل نور الحق ، كما قال تعالى : (وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)[١] .

= عن ابن مسعود وأنس فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ ـ باب إثم الغادر للبر والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٣و١٥٠٤ .

وأخرجه عن ابن عمر فى هذا الباب ، حديث رقم ١٥٠٥ .

وعن ابن عمر أيضاً فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٩ ـ باب ما يدعى الناس بآبائهم ، من طريقين .

وفى : ٩٠ ـ كتاب الحيل ، ٩ ـ باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت .

وفى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب إذا قال عند قوم شيئاً ، ثم خرج فقال بخلافه .

وأخرجها مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٩ـ١٤ (طبعتنا) .

وفى هذه الأحاديث كلهن لم ترد (عند استه) .

أما الحديث الذى وردت به، فهو ما انفرد به مسلم وأخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ١٥ (طبعتنا) عن أبى سعيد الخدرىّ .

(١) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ =

روى عبد الرزاق أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح . قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . ورواه ابن جرير[1] وابن أبى حاتم . قال ابن كثير : وللحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً .

« وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » أى : شديد الضيق ، فلا يتسع للاعتقادات الصائبة فى الله ، والأمور الأخروية .

قال أبو البقاء : حرِجًا (بكسر الراء) صفة لـ(ضيّقا) ، أو مفعول ثالث ، كما جاز فى المبتدأ أن تخبر عنه بعدة أخبار . أو يكون الجميع فى موضع خبر واحد، كـ(حلو حامض). وعلى كل تقدير، هو مؤكد للمعنى . ويقرأ بفتح الراء ، على أنه مصدر . أى: ذا حرج . وقيل: هو جمع حَرَجَة، مثل قصبة وقصب ، والهاء فيه للمبالغة . انتهى .

وقوله تعالى « كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ » أى : يتكلف الصعود فى جهة السماء ، وطبعه يهبط إلى الأرض ، فشبه ، للمبالغة فى ضيق صدره، بمن يزاول أمرًا غير ممكن . لأن صعود السماء مثلٌ فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه القدرة . وقيل : معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبوًّا عن الحق ، وتباعدًا فى الهرب منه . وأصل (يصّعّد) يتصعد من(الصعود) .

« كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » فى الاعتقادات والأخلاق . والرجسُ ما استقذر من العمل ، وسمى بذلك مبالغة فى ذمه .

= يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

(١) الأثر رقم ١٣٨٥٣ من التفسير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَهَٰذَا » أى: البيان الذى جاء به القرآن، أو طريق التوحيد ، وإسلام الوجه إلى الله « صِرَاطُ رَبِّكَ » أى : طريقه الذى ارتضاه « مُسْتَقِيماً » لا ميل فيه إلى إفراط وتفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال . أو لا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » أى : المعارف والحقائق التى هى مركوزة فى استعدادهم ، فيهتدوا بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ » أى : السلامة من المكاره ، وهى الجنة ، لكونهم فى مقام القرب ، « عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ » يتولاهم بمحبته ، ويجعلهم فى أمانه ، « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : بسبب أعمالهم الصالحة فى سلوكهم صراطه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » أى : اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم ، وتنذرهم به ، يوم نحشرهم جميعاً ، يعنى : الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا .

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ » أى : نقول : يا معشر الجن ! يعنى : الشياطين . قال المهايمىّ : خصهم بالنداء لأنهم الأصل فى المكر . « قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ » أى : من إغوائهم وإضلالهم . أو منهم، بأن جعلتموهم أتباعكم ، وأهل طاعتكم ، وتسويلكم وتزيينكم الحطام الدنيوية ، واللذات الجسمانية عليهم ، ووسوستكم لهم بالمعاصى ، فحشروا معكم . وهذا بطريق التوبيخ والتقريع .

« وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ » أى : الذين أطاعوهم وتولوهم « مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ » قال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس. أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة، على اللذات الغائبة « وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا » أى : بالموت ، أو بالمعاد الجسمانىّ على أقبح صورة ، وأسوأ عيش .

قال أبو السعود : قالوه اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وإظهارًا للندامة عليها ، وتحسرًا على حالهم ، واستسلامًا لربهم . ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين ، للإيذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلًا .

« قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ » أى : منزلكم ، كما أن دار السلام مثوى المؤمنين .

« خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » قال القاشانىّ : أى إلا وقت مشيئته أن تخفف ، أو ينجى منكم من لا يكون سبب تعذيبه شركاً راسخًا فى اعتقاده .

وقال المهايمىّ : أى إلّا وقت مشيئته أن ينقلكم منها إلى الزمهرير، انتقالكم من شهوة إلى أخرى .

وقال الزمخشرىّ : أى يخلدون فى عذاب النار ، الأبَد كلَّه ، إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار ، إلى عذاب الزمهرير . فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم . أو يكون من قول

الموتور الذى ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه : أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت . وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد . فيكون قوله (إلا إذا شئت) من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد ، لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطماع . انتهى .

قال الخفاجىّ : لما كان الخطاب للكفرة ، وهم لا يخرجون من النار ، لأن ما قبله بيان حالهم ، فيبعد جعله شاملًا للعصاة ، ليصح الاستثناء باعتباره ، مع أن استعمال (ما) للعقلاء قليل ـ وَجَّهُوهُ بأن المراد النقل من النار إلى الزمهرير ، أو المبالغة فى الخلود ، بمعنى أنه لا ينتفى إلا وقت مشيئة الله ، وهو مما لا يكون مع إبرازه فى صورة الخروج وإطماعهم فى ذلك تهكمًا وتشديدًا للأمر عليهم . و (ما) مصدرية وقتية . أو إن المستثنى زمان إمهالهم قبل الدخول .

وردّ الأول بأن فيه صرف النار من معناها العلمىّ ، وهو دار العذاب ، إلى اللغوىّ . وأجيب عنه بأنه لا بأس بالصرف إذا دعت إليه ضرورة . وقيل عليه : إن المعترض لا يسلم الضرورة ، لإمكان غير ذلك التأويل . مع أن قوله (مَثْوَاكُمْ) يقتضى ماذهب إليه المعترض بحسب الظاهر . وردّ الأخير أبوحيّان بأنه فى الاستثناء يشترط اتحاد زمان المخرج ، والمخرج منه ، فإذا قلت : قام القوم إلا زيدًا ، فمعناه : إلا زيدًا ما قام . ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيدًا ما يقوم فى المستقبل . وكذلك سأضرب القوم إلا زيدًا ، معناه : إلا زيدًا فإنى لا أضربه فى المستقبل ، ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيدًا فإنى ما ضربته قبلُ ، إلا إذا كان استثناء منقطعًا ، فإنه يسوغ ، كقوله : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ . فإنهم ذاقوها . ولك أن تقول : إن القائل به يلتزم انقطاعه ، كما فى الآية التى ذكرها ، ولا محذور فيه ، مع ورود مثله فى القرآن ، وفيه نظر . وقيل : إنه غفلة عن تأويل الخلود بالأبد ، والأبد لا يقتضى الدخول . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : قد ثبت خلود الكفار فى العذاب ثبوتًا قطعيًا ، فمن ثم

اعتنى العلماء بالـكلام على الاستثناء فى هذه الآية ، وفى أختها فى سورة هود . فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللـكفار ، والمستثنى العصاة ، لأنهم لا يخلدون ـ وقد علمت بُعْدَه ـ .

ثم قال : وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى : مخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وفائدته إظهار القدرة ، والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان من الجائز العقلىّ فى مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وإن ذلك ليس بأمر واجب عليه ، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع فى صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الـكفار واجب على الله تعـالى بمقتضى الحـكمة ، وأنه لا يجوز فى العقل أن يشاء خلاف ذلك .

وذهب الزجاج إلى وجه لطيف، إنما يظهر بالبسط فقال : المراد ـ والله أعلم ـ إلا ما يشاء من زيادة العذاب . ولم يبين وجه الاستثناء . والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه فى الحـكم ، ونحن نبيّنه فنقول : العـذاب ـ والعياذ بالله ـ على درجات متفاوتة ، كأن المراد أنهم مخلدون فى جنس العـذاب إلا ماشاء ربك من زيادة تبلغ الغاية ، وتنتهى إلى أقصى النهاية ، حتى تـكاد لبلوغها الغاية ، ومباينتها لأنواع العذاب فى الشدة، تعدّ ليس من جنس العذاب ، وخارجة عنه . والشىء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد ، كما تقدم فى التعبير عن كثرة الفعل بـ (رُبَّ) و (قَدْ) ، وهما موضوعان لضد الـكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد فى لغة العرب . وقد حام أبو الطيب[1] حوله فقال :

لقد جدتَ حتى كاد يبخل حاتم ... للمنتهى ومن السرور بكاء

---

(١) نص البيت فى ديوانه ، شرح اليازجىّ والبرقوقىّ هكذا :

وَلَجُدْتَ حتى كدتَ تبخلُ حائلًا ... للمنتهى ، ومن السرورِ بكاءُ =

فكأنّ هؤلاء إذا نقلوا إلى غاية العذاب ، ونهاية الشدة ، فقد وصلوا إلى الحد الذى يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته فى التعبير بمعاملة المغاير . وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط .

وفى تفسير ابن عباس رضى الله عنه ما يؤيده . انتهى .

وفى الآية تأويلات أخر :

منها : ما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه تعالى استثنى قوماً قد سبق علمه أنهم يُسلمون ويصدقون النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذا مبنى على أن الاستثناء ليس من المحكيّ ، وأن (ما) بمعنى (من) .

= وقال اليازجيّ فى شرحه :

حائلًا أى متغيرا . والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء واللام متعلقة بـ (كدت) وقوله : ومن السرور بكاءٌ ، مبتدأ وخبر .

يقول : قد جدت حتى لم تترك فى الجود غاية إلا انتهيت إليها . وحينئذ كدت تحول إلى البخل لأنك قد بلغت منتهى الجود ، كما يحول السرور عند اشتداده إلى البكاء .

وقال البرقوقيّ :

حائلا متحولا . وللمنتهى أى لأجل الانتهاء ، ومن السرور خبر، وبكاء مبتدأ . والجملة استئنافية . يقول : ولقد بلغت من الجود أقصاه حتى كدت تتحول عن آخره حين تناهيت إليه . إذ ليس من شأنك أن تقف فى الكرم عند غاية . وليس هناك جود بعد أن بلغت نهايته . ومثل ذلك السرور ، إذا اشتد تحول إلى بكاء .

والبيت من قصيدة مطلعها :

أَمِنَ ازديارَكِ فى الدُّجى الرُّقباءُ إذ حيث أنتِ من الظَّلامِ ضياءُ

يمدح بها أبا عليّ، هرون بن عبدالعزيز الأوراجيّ الكاتب. وكان يذهب إلى التصوّف .

فأين هذا من نصه الذى ساقه الزجاج ، على ما فيه ؟؟!

ومنها : أنهم يفتح لهم أبواب الجنة ، ويخرجون من النار ، فإذا توجهوا للدخول أغلقت في وجوههم استهزاء بهم . وهو معنى قوله[١] : (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) . قال الشريف المرتضى في (الدرر) : فإن قيل : أي فائدة في هذا الفعل ، وما وجه الحكمة فيه؟ قلنا : وجه الحكمة فيه ظاهر ، لأن ذلك أغلظ على نفوسهم ، وأعظم في مكروههم ، وهو ضرب من العقاب الذي يستحقونه بأفعالهم القبيحة . لأن من طمع في النجاة والخلاص من المكروه ، واشتد حرصه على ذلك ، ثم حيل بينه وبين الفرج ، وردّ إلى المكروه ، يكون عذابه أصعب وأغلظ من عذاب من لا طريق للطمع عليه ـ كذا في العناية ـ .

ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أي : إلا وقت مشيئته فناءها ، وزوال عذابها .

قال السيوطيّ في (الدر المنثور) : أخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر رضي الله عنه : لو لبث أهل النار في النار ، كقدر رمل عالج ، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه . وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن أيضاً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ونقل هذا عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم . انتهى .

وقد انتصر لهذا القول جماعة . قالوا : وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج ، وأن عذابها مقيم ، كله حق مسلّم لا نزاع فيه . وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية ، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس ، وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه . وقد بسط البحث في ذلك وجوّده الإمام ابن القيم في كتابه (حادي الأرواح) ، ومع كونه انتصر لهذا القول انتصاراً عظيماً ، وذكر له خمسة وعشرين دليلا ، لم يصححه ، حيث قال : أما أبدية الجنة ، وأنها لا تفنى ولا

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٤] .

تبيد ، فما يعلم بالاضطرار ، ولم يقل بفنائها أحد . ومن قال به ـ كالجهمية ـ فهو ضال مبتدع منحرف عن الصواب ، وليس له فى ذلك سلف . وأما أبدية النـار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف ، والأصح عدم فنائها أيضاً . انتهى.

وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط هذا المقام فى آية هود .

وقد روى ابن جرير(١) وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية أنه قال : لاينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه . لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

« إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فلا يعـذب إلا على ما تقتضيه الحـكمة ، « عَلِيمٌ » أى : بمن يعذب بكفره ، فيدوم عذابه . أو بسيآت أعماله ، فيعذب على حسبها ، ثم ينجو منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ » أى : من الإنس « بَعْضًا » أى : نجعلهم بحيث يتولونهم بالإغواء والإضلال ، كما فعـل الشياطين وغواة الإنس ، « بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى : بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الـكفر والمعاصى.

قال الرازىّ : لأن الجنسيةعلة الضم . فالأرواح الخبيثة تنضم إلى مايشا كلها فى الخبث. وكذا القول فى الأرواح الطاهرة ، فـكل أحد يهتم بشأن من يشا كله فى النصرة والمعونة والتقوية .

(١) الأثر رقم ١٣٨٩٢ من التفسير ، ونصه :
عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) قال : إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه . لا ينزلهم جنة ولا نارا .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : الآية معنى حديث (كما تكونون يولّى عليكم) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة من حديث أبي بكرة . انتهى .

وأسند في (الجامع الصغير) تخريجه إلى الديلميّ في (الفردوس) عن أبي بكرة ، وإلى البيهقيّ ، عن أبي إسحاق السبيعيّ مرسلا ـ ورمز له بالضعف ـ .

وأسند في (الدر المنثور) عن منصور بن الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى : (وَكَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا) ما سمعتهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتُهم يقولون : إذا فَسَدَ الناسُ أُمِّرَ عليهم شرارهم .

وأخرج نحوه عن مالك بن دينار وكعب والحسن .

قال أبو الليث السمرقنديّ في (تفسيره) : ويقال في معنى الآية : نسلط على بعض الظالمين بعضاً فيهلكه أو يذلّه . قال : وهذا كلام لتهديد الظالم ، لكي يمتنع عن ظلمه . ويدخل في الآية جميع من يَظْلِمُ : من راع في رعيته ، وتاجر في تجارته ، وسارق ، وغيرهم .

قال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم ، فقف وانظر فيه متعجباً . انتهى .

وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

ثم بين تعالى ما سيكون من توبيخ الكفار من الفريقين يوم القيامة ، إثر بيان توبيخ الجن بإغواء الإنس وإضلالهم ، وَأَعْلَمَ أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، وأنهم لم يعذبوا إلا بالحجة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

« يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى الدنيا « رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي » بالأمر والنهى « وَيُنْذِرُونَكُمْ » يخوفونكم « لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » وهو يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه أفانين الأهوال . « قَالُوا » يعنى الجن والإنس . «شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا » أى : أقررنا بإتيان الرسل وإنذارهم ، وبتكذيب دعوتهم ، كما فصّل فى قوله تعالى[1] :(قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

« وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى : مافيها من الزهرة والنعيم ، وهو بيان لمالأدّاهم فى الدنيا إلى الكفر « وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى : فى الآخرة. قال المهايمىّ : بعدشهادة جوارحهم « أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » أى : فى الدنيا بما جاءتهم الرسل .

تنبيهات

الأول ـ استدل بقوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) مَن قال إن الله بعث إلى الجن رسلًا منهم . وحكاه ابن جرير[2] عن الضحاك بن مزاحم ، والأكثرون على أنه لم يكن من الجن رسول ، وإنما كانت الرسل من الإنس فقط . نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة ، من السلف والخلف .

قال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجن نُذُرٌ . وأجابوا عن ظاهر الآية بأن فيها

(١) [٦٧ / الملك / ٩] .

(٢) الأثر رقم ١٣٨٩٦ من التفسير .

مضافاً . أى : من أحدكم ، وهم الإنس . أو من إضافة ماللبعض للكل ، كقوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)(١) وإنما يخرجان من أحدهما ، وهو الملح دون العذب . وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع فى قوله : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)(٢) وهو جائز فى كل ما اتفق فى أصله . فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز ، مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين ، وهم الإنس . وهذا قول الفرّاء والزجاج .

وقال أبو السعود : المعنى : ألم يأتكم رسل من جملتكم ، لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً ، بل من الإنس خاصة . وإنما جعلوا منهما، إمالتأكيد وجوب اتباعهم، والإيذان بتقاربهما ذاتاً ، واتحادهما تكليفاً وخطاباً ، كأنهما من جنس واحد . ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر . وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل . وقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن ، وأنذروا به قومهم ، حيث نطق به قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ...)(٣) إلى قوله تعالى : (وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)(٣) . انتهى .

وهكذا فى عهد كل رسول لايبعد أنه تعالى كان يلقى الداعية فىقلوب قوم من جنّ عصره فيسمعون كلامهم، ويأتون قومهم من الجن ، ويخبرونهم بما سمعوه من الرسل ، وينذرونهم به . وقد سمى تعالى رسل عيسى رسل نفسه فقال : (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ)(٤) وتحقيق القول فيه : أنه تعالى إنما بكّت الكفار بهذه الآية ، لأنه تعالى أزال العذر ، وأزاح العلة ، بسبب أنه أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين . فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ١٩] ونصها : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] ... فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ .

(٤) [٣٦/ يس/١٤] ... فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ .

الطريق ، فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر ، وإزالة العلة ، فكان المقصود حاصلاً ـ كذا قرره الرازى ـ .

قال الحافظ ابن كثير : والدليل على أن الرسل من الإنس قوله تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...)[1] إلى قوله تعالى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[2]. وقوله تعالى عن إبراهيم : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)[3] فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم فى ذريته . ولم يقل أحد : إن النبوة كانت فى الجن قبل إبراهيم ، ثم انقطعت عنهم ببعثته . وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)[4]. وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ)[5] . ومعلوم أن الجن تبع للإنس فى هذا الباب . انتهى .

الثانى ـ إن قيل : ما السبب فى أنهم أقروا فى هذه الآية بالكفر ، وجحدوه فى قوله :

---

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] . . . وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . . . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] . . . وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

(٥) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . . . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)[١]؟ قلنا: يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة ، فتارة يقرّون ، وأخرى يجحدون . وذلك يدل على شدة خوفهم ، واضطراب أحوالهم ، فإن مَن عظم خوفه ، كثر الاضطراب فى كلامه ـ أفاده الرازىّ ـ .

زاد الزمخشرىّ : أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم .

الثالث ـ إن قيل : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ أجيب : بأن الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ؛ والثانية ذم لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرّتهم الحياة الدنيا، واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم، واستيجاب عذابه . وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم ـ كذا فى (الكشاف) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ » إعلام بأنه تعالى أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتبيين الآيات ، وإلزام الحجة بالإنذار والتهديد . وأنه تعالى لا يؤاخذ القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم لم تبلغهم دعوة رسول ينهاهم عنه ، وينبههم على بطلانه ، لأنه ينافى الحكمة . وجوز فى ذلك أن يكون خبرًا لمحذوف . أى : الأمر ذلك . أو مبتدأ وخبره محذوف . أى : كما ذكر . أو خبره (أَنْ لَمْ يَكُنْ . . .) الخ . والمشار إليه إتيان الرسل ، أو ما قص من أمرهم ، أو السؤال المفهوم من قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) . واستظهر أبو السعود أن الإشارة إلى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، واستيجاب العذاب ، وأنه مبتدأ خبره ما بعده ، وأن (أَنْ) مصدرية ، و (اللام)

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] ونصها : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

مقدرة قبلها . أو مخففة ، واسمها ضمير الشأن ، و (بِظُلْمٍ) متعلق بـ (مُهْلِكَ) . أى : بسبب ظلم ، أو بمحذوف حالًا من (الْقُرَىٰ) ، أى متلبسة بظلم . والمعنى : ذلك ثابت لانتفاء كون ربك ، أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب ظلم فعلوه قبل أن ينبهوا على بطلانه برسول .

تنبيه :

فى الآية دليل على أنه لا تكاليف قبل البعثة ، ولا حكم للعقل . كقوله[1] (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« وَلِكُلٍّ » أى : من المكلفين « دَرَجَاتٌ » أى : مراتب « مِمَّا عَمِلُوا » أى : من أعمالهم ، يبلغونها ويثابون بها ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . واستدل بها ، على هذا التأويل ، بأن الجن يدخلون الجنة ويثابون .

قال ابن كثير : ويحتمل أن يعود قوله (وَلِكُلٍّ) لكافرى الجن والإنس . أى : ولكلٍّ درجة فى النار بحسبه ، كقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)[2] .

« وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)

« وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ » عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) [٦/ الأنعام/ ١٤]

« ذُو الرَّحْمَةِ » أى : يترحم عليهم بالتكليف ، تكميلًا لهم ، ويمهلهم على المعاصى . وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه سبحانه ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ » أى : من الخلق يعملون بطاعته « كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ » ذهب بهم ثم بذريتهم ، لكنه أبقاكم ترحمًا عليكم . وهذا كقوله تعالى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« إِنَّ مَا تُوعَدُونَ » أى : من البعث وأحواله « لَآتٍ » أى : لكائن لا محالة « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى : بفائتين يعجز عنكم . وهذا ردٌّ لقولهم : من مات فقد فات . أى : هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم رفاتًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى : على غاية تمكنكم واستطاعتكم . يقال : مكن مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكن . أو على جهتكم وحالتكم ، من قولهم : مكان ومكانة ، كمقام ومقامة . والمعنى : اثبتوا على كفركم . « إِنِّى عَامِلٌ » أى : ما أمرت به من الثبات على الإسلام . « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أى : التى

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَ ...

بنيت لعبادته تعالى وحده ، دون غيرهم ، هل تكون للعدل الذى يضع العبادة فى موضعها ، أوللظالم بوضعها فىغير موضعها . والمرادبالدار ، الدنيا . وبالعاقبة، العاقبة الحسنى . أى: عاقبة الخير ، لأنها الأصل، فإنه تعالى جعل الدنيا مزرعة الآخرة، وقنطرة المجاز إليها .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : الكافرون . ووضع الظلم موضع الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أىّ فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده ؟

لطائف

فى إيراد التهديد بصيغة الأمر، أعنى : قوله (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)مبالغة فى الوعيد، كأن المهددّ يريد تعذيبه ، مجمعاً عليه ، فيحمله بالأمر على ما يؤدى إليه . وتسجيل بأن المهدَّد لايتأتى منه إلا الشر ، كالمأمور به الذى لايقدر أن يتفصّى عنه .

وفى قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع الإنذار ، إنصاف فى المقال ، وحسن الأدب ، حيث لم يقل (العاقبة لنا) وفوض الأمر إلى الله . وهذا من الكلام المنصف ، كقوله تعالى: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ)(١) .

وفيه تنبيه على وثوق المنذِر بأنه محق .

وفيه تبشير بأن العاقبة له .

قال ابن كثير : وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه ، فمكن له فى البلاد، وحكّمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك فى حياته . ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته ، فى أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين . كما

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٤] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللَّهُ ، ...

قال تعالى : (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)[١] . وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)[٢] وقال تعالى : (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[٣] وقال تعالى: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)[٤] . وقد فعل تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة .

ثم بين تعالى نوعاً من جهالات مشركي مكة وضلالاتهم ، وهو ترجيحهم جانب الأصنام على جانبه سبحانه ، بعد تشريكهم إياه فيما اختص بخلقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ » أي : خلق « مِنَ الْحَرْثِ » أي : الزرع «وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا»

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٥١و٥٢] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ١٣و١٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...

(٤) [٢٤ / النور / ٥٥] ... وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

يصرفونه إلى الضيفان والمساكين . أى : ولأصنامهم نصيباً يصرفونه إلى التنسك والسدنة. وإنما لم يذكرا اكتفاء بما بعده .

« فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ » بالفتح والضم (وقال الشهاب : الزعم مثلث كالودّ) . أى : هذا مستقر له الآن ، من غير استقرار له فى المستقبل لعارض . « وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا » وهو مستقر لهم ، بل يستقر لهم ماليس لهم أيضاً ، فكانوا إذا سقط فى نصيب الله شيء من نصيبها التقطوه ، أوفى نصيبها شيء من نصيبه تركوه ، كماقال تعالى : « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » أى: عند نمائه أو سقوطه فيماهو لله. أوهلاك ماهولله لايصل إلى الوجوه التى كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين . « وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ » أى : عند نمائه أوسقوطه فيماهو للأصنام ، أوهلاك مالها ، فينفقون عليها ، بذبح نسائك عندها ، والإجراء على سدنتها ، ونحو ذلك . وعللوا ذلك بأن الله غنىّ ، وهى محتاجة « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى : ما يقسمون ، لأنهم أولًا عملوا مالم يشرع لهم ، وضلوا فى القسم. لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة ، لم يحفظوها ، بل جاروا فيها ، إذرجحوا جانب الأصنام فى الحفظ والرعاية سفهاً .

وقال المهايمىّ : « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى : من ترجيح جانب الأصنام على جانب الله ، بعلة تقتضى ترجيح جانب الله لإلهيته ، وعدم صلاحيتها للإلهية مع الحاجة .

وما ذكرناه فى الآية هو الذى قاله أئمة التفسير .

فقد روى علىّ بن أبى طلحة والعوفىّ عن ابن عباس أنه قال فى تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءاً ، وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أوشيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما سمى للصمد، ردّوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإنسبقهم الماء الذى جعلوه للوثن ، فسقى شيئاً

جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذى جعلوه لله ، فاختلط بالذى جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله ، فسقى ما سمّى للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى ، فقال تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ...) الآية.

قال ابن كثير : وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدّى وغير واحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ » أى : مثل ذلك التزيين ، وهو تزيين الشرك فى القسمة المتقدمة ، زين لهم أولياؤهم من الشياطين ما هو أشد منه قبحاً فى باب القربان ، وهو قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار، وإنما سميت الشياطين شركاء ، لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من قتل أولادهم ، فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم ، « لِيُرْدُوهُمْ » أى : يهلكوهم بالشرك وقتل الولد . من (الإرداء . وهو ، لغة ، الإهلاك) ، « وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ » أى: ليخلطوا عليهم ما هم عليه، بدين إبراهيم فى ذبح إسماعيل عليهما السلام. أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به ، لأنهم كانوا على دين إسماعيل . فهذا الذى أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق . « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ » أى : فلا تحزن على هلاكهم بما يفعلونه ، لأنه بمشيئة الله ، « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : لأن له فيما شاءه حكماً بالغة[1] (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

تنبيه :

(شُرَكَاؤُهُمْ) فاعل (زَيَّنَ) أُخِّر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدَّم ، واهتماماً به ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨]

لأنه موضع التعجب ، لأنهم يقدمون الأهمّ ، والذين هم بشأنه أَعْنَى . وقرأ ابن عامر (وَحْدَهُ) (زُيِّن) على البناء للمفعول الذى هو القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء بإضافة القتل إليه، مفصولًا بينهما بمفعوله . وقد زيّف الزمخشرىّ ، عفا الله عنه ، هذه القراءة ، وعد ذلك من كبائر كشافه حيث قال : وأما قراءة ابن عامر ، فشىء لو كان فى مكان الضرورات ، وهو الشعر ، لكان سمجاً مردودًا ، كما سمج ورُدّ[1] :

* زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِى مَزَادَهْ *

---

(١) وصدر البيت :

* فَزَجَجْتُهَا بِمِزَجَّةٍ *

زججتها أى ضربتها بالزج . والزجّ كعب الرمح . والمِزَجَّة رمح قصير يسمى المزراق . والقلوص الشابّة من الإبل كالفتىّ من الرجال . وأبو مزادة كنية رجل .

زججتها فعل وفاعل ومفعول . و (بمزجة) متعلق به . وزجّ منصوب بنزع الخافض أى زججتها زجًا كزج . والقلوص منصوب على أنه مفعول المصدر، فصل به بين المتضايفيْن . وأبى مزادة ، جُرّ بإضافة (زج) إليه .

والشاهد فى الفصل بين المتضايقين بغير الظرف والجار والمجرور ، وهو المفعول .

وهو جائز عند الكوفيين .

والبصريون منعوا هذا . وقالوا : إن المتضايفيْن فى قوة شىء واحد فلا يجوز الفصل بينهما . إلا أن العرب توسعت فى الظروف والجار والمجرور ، ما لم تتوسع فى غيرها .

وأجابوا عن الشواهد الشعرية بأنها لم يعرف لها قائل ، فلا يصح الاحتجاج بها .

وقال شارح شواهد المفصل : لم يسمّ أحد قائلَه ولا ذكر له سابقاً ولا لاحقاً .

وجاء فى خزانة الأدب : وهـذا البيت لم يعتمد عليه متقنو كتاب سيبويه . حتى قال السيرافىّ : لم يثبته أحد من أهل الرواية ، وهو من زيادات أبى الحسن الأخفش فى حواشى كتاب سيبويه ، فأدخله بعض النسّاخ فى بعض النسخ . =

فكيف به فى الكلام المنثور ؟ فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟

قال : والذى حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف (شُرَكَائِهِمْ) مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ـ لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم ـ لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : لقد ركب الزمخشرىّ متن عمياء ، وتاه فى تيهاء ، وأنا أبرأ إلى الله ، وأبرئ حملة كتابه ، وحفظة كلامه ، مما رماهم به ، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً ، لا نقلا وسماعاً ، فلذلك غلّط ابن عامر فى قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة فى (شركائهم) ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب (أولادهم) بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً ، فقرأه منصوباً . قال : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالإضافة ، وإبدال الشركاء منه ، وكان ذلك أولى مما ارتكبه . فهذا كله كما ترى ظنٌّ من الزمخشرىّ أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواه . ولم يعلم الزمخشرىّ أن هذه القراءة بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها ، يعلم ضرورة أن النبىّ ﷺ قرأها على جبريل، كما أنزلها عليه ، ثم تلاها النبىّ ﷺ على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر

= قال الزمخشرىّ فى (مفصّله) : وما يقع فى بعض نسخ (الكتاب) من قوله :

فزججتها بمزجّة زجَّ القلوصَ أبى مزادهْ

فسيبويه برئ من عهدته .

وقال صاحب الخزانة معقباً على قول الزمخشرىّ :

أراد أن سيبويه لم يورد هذا البيت فى كتابه ، بل زاده غيره فى كتابه، وإنما برأ سيبويه من هذا ، لأن سيبويه لا يرى الفصل بغير الظرف . وإذا كان هذا مذهبه ، فكيف يورد بيتاً على خلاف مذهبه ؟

يتناقلونها، ويقرؤون بها، خلفاً عن سلف، إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها. فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلًا عن أفصح من نطق بالضاد ﷺ . فإذا علمت العقيدة الصحيحة ، فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشرىّ ، ولا بقول أمثاله ممن لحَّن ابن عامر، فإن المنكِر عليه إنما أنكر ماثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة. ولولا عذر أن المنكِر ليس من أهل الشأنين : أعنى علم القراءة وعلم الأصول، ولايعدّ من ذوى الفنين المذكورين ، لخيف عليه الخروج من ربقة الدين . وإنه على هذا العذر لفى عهدة خطرة ، وزلة منكرة ، تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة ، فيها ماليس متواتراً ، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل . وغايته أنه ادعى أن نقلها لايشترط فيه التواتر. وأما الزمخشرىّ فظن أنها تثبت بالرأى ، غير موقوفة على النقل ، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين . وما حمله على هذا الخيال إلا التغالى فى اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية، حتى يردّ ماخالفها. ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذى ادعاه مطردا ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه . وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله ، فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل . وهو وإن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة . حتى قال بعض النحاة : إن إضافته ليست محضة ، لذلك . فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره ، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر، وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره، لما بيناه من انفكاكه فى التقدير ، وعدم توغله فى الاتصال ، بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه ، بما ليس أجنبياً عنه ، وكأنه بالتقدير : فكه بالفعل ، ثم قدم المفعول على الفاعل ، وأضافه إلى الفاعل ، وبقى المفعول مكانه حين الفك . ويسهل ذلك أيضاً تغاير حال المصدر ، إذ تارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة يضاف إلى المفعول . وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل ، لوقوعه فى غير مرتبته، إذ ينوى به التأخير ، فكأنه لم يفصل . كما جاز تقدم المضمر على الظاهر إذا حلّ فى غير رتبته ، لأن النية به التأخير، وأنشد أبو عبيدة :

فَدَاسَهُمْ دَوْسَ الْحَصَادَ الدَّائِسِ

وأنشد أيضاً[1] :

يَفْرُكْنَ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ بِالْقَاعِ فَرْكَ الْقُطُنَ الْمَحَالِجِ

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقوّى عدم توغله فى الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً . فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد ، منظرة بشواهد من أقيسة العربية ، تجمع شمل القوانين النحوية ، لهذه القراءة . وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا قدر كاف إن شاء الله فى الجمع بينهما ـ والله الموفق ـ وما أجريناه فى أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة ، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التى يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر فى إضافته ، ولا مستبعد من القياس ، ولم نفرده فى الدلالة المذكورة . إذ المتفق على عدم تمحضها لا يسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة ـ والله الموفق ـ انتهى كلام الناصر رحمه الله تعالى[2] .

ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من مفترياتهم بقوله :

---

(١) فى اللسان : قال جَنْدَل بن المثنَّى :

* يَفْرُكُ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ *

وقال : الكنافج السمين الممتلئ . وسنبل كنافجٌ مكْتنز . وقال ابن سيده : وقيل هو الغليظ الناعم .

(٢) ويجدر بنا فى هذا المقام أن نطلع القارئ الحصيف على رأى كبير المفسرين ، الإمام محمد بن جرير الطبرىّ ، قال رضى الله عنه :

وقرأ بعض قَرَأَةِ الشام (وكذلك زُيِّن) بضم الزاى (لكثير من المشركين قَتْلُ) بالرفع (أولادَهم) بالنصب (شركائِهم) بالخفض بمعنى : وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَقَالُوا هَـٰذِهِ » إشارة إلى ماجعلوه لآلهتهم، والتأنيث للخبر «أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ» أى : حرام (والجمهور على كسر الحاء وسكون الجيم) فِعْل بمعنى مفعول ، كالذِّبح والطِّحن ، يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات. أى : محرمة علينا ، أو محجرة علينا فى أموالنا للأوثان . ويقرأ بضم الحاء .

= قتلُ شركائهم أولادَهم ، ففرقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيـــه من الاسم . وذلك فى كلام العرب قبيح غير فصيح .

وقد روى عن بعض أهل الحجاز بيت من الشعر يؤيد قراءة من قرأ بما ذكرتُ من قرأَةِ أهل الشام ، رأيتُ رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهـل العراق ينكرونه .

وذلك قول قائلهم :

فزججتـــه متمكِّنا زجَّ القَلُوصَ أبى مَزَادَهْ

قال أبو جعفر : والقراءة التى لا أستجيز غيرها (وكذلك زَيَّنَ لـكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم) بفتح الزاى من (زين) ونصب (القتل) بوقوع (زين) عليـه . وخفض (أولادهم) بإضافة (القتل) إليهم ، ورفع (الشركاء) بفعلهم . لأنهم هم الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم ، على ما ذكرتُ من التأويل .

وإنما قلتُ : (لا أستجيز القراءة بغيرها) لإجماع الحجة من القرَأَةِ عليه . وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد . ففى ذلك أوضح بيان على فساد ما خالفها من القراءة .

« لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ » قال في (المدارك) : كانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا : لا يطعمها إلا من نشاء . يعنون: خدم الأوثان، والرجال دون النساء.

« بِزَعْمِهِمْ » حال من فاعل (قالوا) أي : متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .

قال ابن كثير : وهـذه الآية الـكريمة كقوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَـكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَـكُمْ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)(١) .

« وَأَنْعَامٌ » أي : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام « حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا » يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى « وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا » أي : حالة الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام « افْتِرَاءً عَلَيْهِ » أي : على الله ، وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ، ولا رضيه منهم. « سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أي : عليه ، ويسندون إليه . وفيه وعيد وتهديد .

ثم بيّن تعالى فنًّا آخر من ضلالهم بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَـكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ » يعنون أجنّة البحائر والسوائب « خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا » يعنون أنه حـلال للذكور دون الإناث ، إن ولد حيًّا لقوله سبحانه : « وَإِنْ يَـكُنْ » أي : ما في بطونها « مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ » فالذكور والإناث فيه سواء .

وفي رواية العوفيّ عن ابن عباس أن المعنيّ بـ (مَا فِي بُطُونِهَا) هو اللبن . كانوا يحرمونه

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] .

على إناثهم ، ويشربه ذكرانهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه . وكان للرجال دون النساء . وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .

وقال الشعبيّ : البحيرة، لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . وكذا قال عكرمة وقتادة وابن أسلم .

« سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أي: بالتحليل والتحريم على سبيل التحكم ونسبته إلى الله تعالى « إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » أي : حكيم في أفعاله وأقواله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خير أو شر ، وسيجزيهم عليها .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدل مالك بقوله (خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور دون البنات ، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف ، لأن ذلك من فعل الجاهلية . واستدل به بعض المالكية على مثل ذلك في الهبة . انتهى .

لطائف

(التاء) في (خَالِصَةٌ) إما للنقل إلى الاسمية ، أو للمبالغة ، أو لأن (الخالصة) مصدر كالعافية ، وقع موقع (الخالص) مبالغة ، أو بحذف المضاف . أي : ذو خالصة ، أو للتأنيث بناءً على أن (ما) عبارة عن الأجنة . والتذكير في (محرم) باعتبار اللفظ . وقرىء (خَالِصَةً) بالنصب على أنه مصدر مؤكد ، والخبر (لِذُكُورِنَا) . ووصفهم واقع موقع مصدر (سَيَجْزِيهِمْ) بتقدير مضاف . أي : جزاء وصفهم بالكذب عليه تعالى في التحريم والتحليل من قوله تعالى : (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)(١) .

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ .

قال الشهاب : وهذا من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون: وصف كلامه الكذب، إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أى : ساحرة ، وقدّه يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق ، مبالغةً . حتى كأنَّ من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له . قال المعرّى[1] :

سَرَى برقُ المَعرَّةِ بعد وَهْنٍ   فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ» يعنى: وأد بناتهم خشية السبى أو الفقر « سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم ، لا هم « وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ » من البحائر والسوائب ونحوها « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا » عن الصراط المستقيم . « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : إلى الحق والصواب .

قال الشهاب : وفى قوله (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) بعد قوله (قَدْ ضَلُّوا) مبالغة فى نفى الهداية عنهم، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال، بعد أن لم يكن. فلذا أردف بهذه الحال، لبيان عراقتهم فى الضلال ، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض .

(١) من قصيدته فى سقط زند . ومطلعها :

أَعَنْ وَخْدِ القِلاصِ كشفْتِ حالا   ومِنْ عنــدِ الظلامِ طلبتِ مَالَا

قال شارح البيت :

بعد وهن أى بعد طائفة من الليل . ومعرّة النعمان بلد بالشام . ورامة موضع بعينه .

يقول: لما حللنا برامة مغربا نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام، من صوب معرة النعمان، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال . أى يشكو ضعفه لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

تنبيه :

حمل كثير من المفسرين (الخسران) على ما يشمل الدارين . أما الدنيا فخسروا منافع أولادهم ، وثمرة ماخلقوا له . وكذا منافع أنعامهم بما ضيقوا وحجروا فيها ابتداعاً . وأما الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل . وهذا التعميم ، وإن كان حقا ، إلا أن الأظهر حمله على الآخرة ، توفيقاً بين النظائر ، كقوله[1] تعالى : (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

روى الحافظ ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ...) الآية ـ وهكذا رواه[2] البخاريّ فى مناقب قريش من (صحيحه) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ » تمهيد لماسيأتى من تفصيل أحوال الأنعام . أى : هوالذى أنعم عليكم بأنواع النعم ، لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم وغيرها معروشات ، أى : مسموكات بما عملتم لها من الأعمدة . يقال : عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان . (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) متروكات على وجه الأرض لم تعرش . « وَ » أنشأ « النَّخْلَ » المثمر لما هو فاكهة وقوت ،

(١) [١٠ / يونس / ٦٩و٧٠]

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ١٢ ـ باب قصة زمزم وجهل العرب.

« وَالزَّرْعَ » المحصل لأنواع القوت « مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ » أى : ثمره وحبّه فى اللون والطعم والحجم والرائحة . « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً » فى اللون والشكل، ورقهما « وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » فى الطعم « كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : كلوا من ثمر كل واحد مما ذكر، إذا أدرك .

قال الرازىّ : لما ذكر تعالى كيفية خلقه لهذه الأشياء، ذكر ما هو المقصود الأصلىّ من خلقها ، وهو انتفاع المكلفين بها ، فقال : (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) واختلفوا ما الفائدة منه ؟ فقال بعضهم : الإباحة . وقال آخرون : بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله، لمكان شركة المساكين فيه، بل هذا هو الظاهر . فأباح تعالى هذا الأكل ، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعاً من هذا التصرف . وقال بعضهم : بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل، وإما التصدق ، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق ، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير. قال تعالى(١): (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) . انتهى .

« وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » قرئ بفتح الحاء وكسرها . وهذا أمر بإيتاء من حضر يومئذ ما تيسر ، وليس بالزكاة المفروضة ـ هكذا قال عطاء ـ أى : لأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة . وكذا قال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه . وفى رواية عنه : عند الحصاد يعطى القبضة ، وعند الصرام يعطى القبضة . ويتركهم يتبعون آثار الصرام . وهكذا روى عن نافع وإبراهيم النخعىّ وغيرهم . وعند هؤلاء أن هذا الحق

(١) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

باقٍ لم ينسخ بالزكاة ، فيوجبون إطعام من يحضر الحصاد لهذه الآية . ومما يؤيده أنه تعالى ذم الذى يصرمون ولا يتصدقون ، حيث قصّ علينا سوء فعلهم وانتقامه منهم . قال تعالى فى سورة (ن) : (إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)(١) أى: كالليل المدلهمّ، سوداء محترقة . (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ *أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ...)(٢) الآيات .

وذهب بعضهم إلى أن هذا الحق نسخ بآية الزكاة ، حكاه ابن جرير (٣) عن ابن عباس وثلة من التابعين .

قال ابن كثير : فى تسمية هذا نسخاً نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً . ثم إنه فسر بيانه وبين مقدار المخرج وكميته . انتهى .

ولا نظرَ ، لما عرفت فى المقدمة من تسمية مثل ذلك نسخاً عند السلف ، ومرّ قريباً أيضاً ، فتذكر !

وذهب بعضهم إلى أن الآية مدنية، ضمت إلى هذه السورة فى نظائرها، بيّناها أول السورة، وأن الحق هو الزكاة المفروضة . روى عن أنس وابن عباس وابن المسيّب .

والأمر بإيتائها يوم الحصاد، للمبالغة فى العزم على المبادرة إليه . والمعنى : اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .

قال الحاكم : وقيل : إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على الأرباب ، فلا يحسب عليهم ما أكل قبله .

---

(١) [٦٨ / القلم / ١٧ـ٢٠] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...

(٢) [٦٨ / القلم / ٢١ـ٢٤] .

(٣) الأثران رقم ١٤٠٢٠ و١٤٠٢١ من التفسير .

وقد روى العوفىّ عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا زرع فكان يوم حصاده ، لم يُخرج مما حصد شيئاً ، فقال تعالى : (وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِ) وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد ، وما يلقط الناس من سنبله .

وقد روى الإمام أحمد[١] وأبو داود[٢] عن جابر بن عبد الله قال : أمر رسول الله ﷺ من كل جادّ عشرة أوسق من التمر، بقنوٍ يعلق فى المسجد للمساكين .

قال ابن كثير : إسناده جيد قوىّ .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من أوجب الزكاة فى كل زرع وثمر ، خصوصاً الزيتون والرمان المنصوص عليهما . ومن خصها بالحبوب ، قال : إن الحصاد لا يطلق حقيقة إلا عليها . وفيها دليل على أن الزكاة لا يجب أداؤها قبل الحصاد . واستدل بها أيضاً على أن الاقتران لا يفيد التسوية فى الأحكام ، لأنه تعالى قرن الأكل ، وهو ليس بواجب اتفاقاً ، بالإيتاء ، وهو واجب اتفاقا. انتهى .

وقوله تعالى : « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » النهى عن الإسراف ، إما فى التصدق ، أى : لا تمطوا فوق المعروف . قال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ، ثم تبادروا فيه وأسرفوا ، فنزلت (وَلَا تُسْرِفُوا) . وقال ابن جريج : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . جدّ نخلًا له فقال : لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فنزلت . ولذا قال السدّىّ : أى : لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . وإما فى الأكل قبل الحصاد ، وهذا عن أبى مسلم قال : ولا تسرفوا فى الأكل قبل الحصاد كيلا يؤدى إلى بخس حق الفقراء . وإما فى كل شىء ، قال عطاء : نهوا عن السرف فى كل شىء .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥٩ و٣٦٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٢ ـ باب فى حقوق المال ، حديث ١٦٦٢

وقال إياس بن معاوية : ماجاوزتَ به أمر الله ، فهو سرف . واختار ابن جرير[1] قول عطاء. قال ابن كثير : ولاشك أنه صحيح ، لكن الظاهر ـ والله أعلم ـ من سياق الآية ، حيث قال تعالى (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) أن يكون عائدًا على الأكل . أى : لا تسرفوا فى الأكل ، لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . .)[2] الآية .

وفى صحيح البخارىّ[3] تعليقاً : كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة . وهذا من هذا ـ والله أعلم ـ انتهى .

وقد جنح إلى هذا المهايمىّ فى تفسيره حيث قال : ولا تسرفوا فى أكلها لئلا يبطل، باستيفاء الشهوات ، معنى المزرعة .

ثم بيّن تعالى حال الأنعام ، وأبطل ماتقوّلوا عليه فى شأنها بالتحريم والتحليل، بقوله :

---

(١) الأثر رقم ١٤٠٤١ من التفسير ونصه :

عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : « وَلَا تُسْرِفُوا » يقول : لا تسرفوا فيما يأتى يوم الحصاد ، أم كل شيء ؟ قال : بلى ! فى كل شيء، ينهى عن السرف .

قال : ثم عاودته بعد حين فقلت : ما قوله « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ؟ قال: ينهى عن السرف فى كل شيء . ثم تلا « لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا » [٢٥/الفرقان/٦٧].

(٢) [٧/ الأعراف/ ٣١] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس، ١ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا » أى : وأنشأ لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يفرش للذبح (أى : يضجع) أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش .

وعن ابن عباس : الحمولة الكبار التى تصلح للحمل ، والفرش الصغير كالفصلان والعجاجيل والغنم ؛ لأنها دانية من الأرض، للطافة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها . فعلى الوجهين الأولين : الفرش بمعنى المفروش ، وعلى الثالث : الكلام على التشبيه .

« كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ » أى : من الثمار والزروع والأنعام ، لحفظ الروح واستزادة القوة .

« وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى : أوامره فى التحليل والتحريم ، كما اتبعها أهل الجاهلية ، فحرموا ما رزقهم الله افتراءً عليه ـ كما مرّ ـ .

« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » أى : ظاهر العداوة ، يمنعكم مما يحفظ روحكم ، ويزيد قوتكم ، ويدعوكم إلى الافتراء على الله إن نسبتموه إلى أمره ، أو إلى دعوى الإلٰهية لكم إن استقللتم به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقوله تعالى « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » بدل من (حَمُولَةً وَفَرْشًا) أو مفعول (كُلُوا) .

(وَلَا تَتَّبِعُوا) معترض بينهما ، أو فعل دل عليه ، أو حال من (ما) بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج ماممه آخر من جنسه يزاوجه . قال تعالى[1] (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ). وقد يقال لمجموعهما ، والمراد الأول .

« مِنَ الضَّأْنِ » زوجين « اثْنَيْنِ » الكبش والنعجة « وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » التيس والعنز . « قُلْ » أى : تبكيتاً لهم ، وإظهارًا لانقطاعهم عن الجواب « ءَالذَّكَرَيْنِ » من الضأن والمعز « حَرَّمَ » الله عليكم أيها المشركون « أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ » منهما « أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ » أى : أم ما حملت إناث الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ، كما قالوا : (مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ ...)[2] الآية .

« نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ » أى بدليل نقليّ من كتب أوائل الرسل ، أو عقليّ فى الفرق بين هذين النوعين ، والنوعين الآتيين ـ قاله المهايمىّ ـ .

« إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى دعوى التحريم .

وفى قوله تعالى (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ...) تكريرٌ للإلزام ، وتثنيةٌ للتبكيت والإفحام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ » عطف على قوله تعالى (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) أى : وأنشأ من

(١) [٥٣ / النجم / ٤٥]

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

الإبل اثنين هما الجمل والناقة . « وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » ذكراً وأنثى . « قُلْ » أى : إفحاماً لهم أيضاً فى هذين النوعين « آلذَّكَرَيْنِ » منهما « حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ » أى من ذينك النوعين . والمعنى إنكار أن الله سبحانه وتعالى حرم عليهم شيئا من الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم فى ذلك . وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما فى بطونها ـ للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم. فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى . مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه . وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكار مع حصول التبكيت بإيراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال : قل آلذكور حرم أم الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث ـ لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والإلزام . أفاده أبو السعود .

ثم كرر الإفحام بقوله تعالى « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ » حاضرين « إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَٰذَا » أى حين وصاكم بتحريم بعض وتحليله . وهذا من باب التهكم « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً » أى فنسب إليه تحريم مالم يحرم « لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى دليل « إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » قال ابن كثير : أول من دخل فى هذه الآية عمرو ابن لحىّ بن قمعة . لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سيّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامى . كما ثبت ذلك فى الصحيح(١) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٣ ـ باب مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، حديث ١٦٥٧ ونصه :
قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعىّ يجرّ قُصْبَه فى النار. كان أول من سيّب السوائب . والوصيلة الناقة البكر تبكّر فى أول نتاج الإبل ، ثم تُثَنّى بعدُ بأنثى. وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداها بالأخرى، ليس بينهما ذكر. =

وقال أبو السعود : المراد كبراؤهم المقرّون لذلك . أو عمرو بن لحىّ وهو المؤسس لهذا الشر . أو الكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه ، سبحانه وتعالى .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : « فإنْ قلت : كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضا غير أجنبىّ من المعدود . وذلك أن الله عز وجل منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم. فاعترض بالاحتجاج على من حرمها. والاحتجاجُ على من حرمها تأكيد وتسديد للتحليل . والاعتراضات فى الكلام لا تساق إلا للتوكيد . انتهى .

تنبيه :

دلت الآية على إباحة لحوم أكل الأنعام. وذلك معلوم من الدين ضرورة . وكذلك الانتفاع بالركوب فيما يركب، والافتراش للأصواف والأوبار والجلود . وعلى ردّ ما كانت الجاهلية تحرّمه بغير علم .

قال المؤيد بالله : ويدخل الإنسىّ والوحشىّ فى قوله : (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ). وردّ بأن قوله تعـالى (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) بيان للأنعام . والأنعام لا تطلق على الوحشىّ . أفاده بعض مفسرى الزيدية .

ثم أمر تعالى رسول الله ﷺ ـ بعد إلزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يتقوّلونه فى أمر التحريم افتراء بحتٌ ـ بأن يبيّن لهم ما حرمه عليهم ، فقال سبحانه :

= والحامِ فحل الإبل يضربُ الضرابَ المعدودَ فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل ، فلم يحمل عليه شىء ، وسموه الحامىَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (قُلْ لَاأَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْلَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِاللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً » أى طعاما محرما من المطاعم «عَلَىٰ طَاعِمٍ» أى : أىّ طاعم كان من ذكر أو أنثى . ردًّا على قولهم (مُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) وقوله « يَطْعَمُهُ » لزيادة التقرير « إِلَّا أَنْ يَكُونَ » أى ذلك الطعام « مَيْتَةً » . قال المهايمىّ : والموت سبب الفساد . فهو منجس ، إلا أن يمنع من تأثيره مانع من ذكر اسم الله، أو كونه من الماء،أو غيرها « أَوْ دَماً مَسْفُوحاً » أى سائلا لا كبدا أوطحالا « أَوْلَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ » لتعوّده أكل النجاسات « أَوْ فِسْقاً » أى : خروجا عن الدين الذى هو كالحياة المطهّرة « أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أى ذبح على اسم الأصنام ورفع الصوت على ذبحه باسم غيرالله. وإنما سمى (مَاأُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِاللَّهِ) فسقاً، لتوغله فى باب الفسق ومنه قوله تعالى (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) . « فَمَنِ اضْطُرَّ » أى : أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء مما ذكر « غَيْرَ بَاغٍ » أى: على مضطر مثله، تارك لمواساته «وَلَا عَادٍ» متجاوز قدر حاجته من تناوله « فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » لا يؤاخذه . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة والمائدة بما فيه كفاية .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الردّ على المشركين الذين ابتدعوا ماابتدعوه من تحريم البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه إليه أن ذلك محرم. وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها.

وما عدا ذلك فلم يحرم . وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ؟ ومن أين حرمتموه ولم يحرمه تعالى؟ وعلى هذا ، فلا ينفى تحريم أشياء أُخَر فيما بعد هذا . كما جاء النهى عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير ـ انتهى ـ وبالجملة فالآية تدل على أنه ﷺ لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية غيره . ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شىء آخر، كالموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وغيرها. وذلك لأن هذه السورة مكية . فما عدا ما ذكر تحريمه فيها مما حرم أيضاً، طارئ . قيل : إذا حرم غير ما ذكر كان نسخاً لما اقتضته هذه الآية من تحليله . وجوابه أن ذلك زيادة تحريم وليس بنسخ لما فى الآية . فصحّ تحريم كل ذى ناب من السبع ومخلب من الطير . ومن الناس من يسمى هذا نسخاً بالمعنى السلفىّ. وقد بيّنّاه مراراً .

قال بعض الزيدية : وقد تعلق ابن عباس بالآية فى تحليل لحم الحمر الأهلية . وعائشة فى لحوم السباع . وعكرمة فى إباحة كل شىء سوى ما فى الآية . وعن الشعبىّ ؛ أنه كان يبيح لحم الفيل ويتلو هذه الآية .

ولا تعلق لجميعهم بالآية. لأنه تعالى بين ما يحرم فى تلك الأحوال . انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : احتج بها كثير من السلف فى إباحة ماعدا المذكور فيها . فمن ذلك الحمر الأهلية. أخرجه البخارىّ[1] عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد: يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن حُمُر الأهلية . فقال : قد كان يقول ذلك الحكمُ بن عمرو الغفارىّ عندنا بالبصرة . ولكن أبى ذلك البحرُ (ابنُ عباس) وقرأ: (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ) الآية . وأخرج أبوداود[2] عن ابن عمر أنه سئل عن أكل القنفذ؟ فقرأ :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الإنسية ، حديث ٢٢٠٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٩ ـ باب فى أكل حشرات =

قُلْ لَا أَجِدُ . . . الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وغيره، بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير؟ تلَتْ : قُلْ لَا أَجِدُ... الآية . وأخرج عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ماحرم الله فى كتابه : قُلْ لَا أَجِدُ الآية . انتهى .

وأخرج أبوداود عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا . فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرّم حرامه . فما أحل فهو حلال وما حرّم فهو حرام . وما سكت عنه فهو معفوّ . وتلا : قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية .

وذكرنا ضعف التعلق بهذه الآية على ماذهبوا إليه .

قال فى (فتح البيان) : معنى الآية أنه تعالى أمره ﷺ بأن يخبرهم أنه لا يجد فى شيء مما أوحى إليه محرّما غير هـذه المذكورات . فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها، لولا أنها مكية . وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وصحّ عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من السباع(٢)

= الأرض ، حديث ٣٧٩٩ ونصه :

عن عيسى بن نميلة عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فسئل عن أكل القنفذ ؟ فتلا (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...) الآية . قال قال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبيّ ﷺ فقال « خبيثةٌ من الخبائث » .

فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله ﷺ هذا ، فهو كما قال [مَا لَمْ نَدْرِ] .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الطعام ، ٣٠ ـ باب ما لم يذكر تحريمه ، حديث ٣٨٠٠ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى: ٧٦ـ كتاب الطب، ٥٧ـ باب ألبان الأتن، حديث ٢٢٠٨ ونصه: عن أبي ثعلبة الخشنيّ رضي الله عنه، قال: نهى النبيّ ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع. وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ١٢ (طبعتنا) .

وكل ذى مخلب من الطير[(١)] وتحريم الحمر الأهلية[(٢)] والـكلاب، ونحو ذلك .

وبالجملة ، فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات، كما يدل عليه السياق ويفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده فى الـكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شىء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شىء حرمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيـه تحريم شىء من الأشياء. وقد رُوِى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة؛ أنه لا حرام إلا ما ذكره الله فى هذه الآية . وروى ذلك عن مالك . وهو قول ساقط ومذهب فى غاية الضعف لا ستلزامه لإهمال غيرها ، مما نزل بعـدها من القرآن ، وإهمالِ ما صح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد نزول هذه الآية . بلا سبب يقتضى ذلك ولا موجب يوجبه . وقول جابر (لـكن أبى ذلك البحرا بن عباس) فى رواية البخارىّ المتقدمة، أقول : وإن أبى ذلك البحر ، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ . والتمسكُ بقول صحابىٍّ فى مقابلة قول النبىّ ﷺ من سوء الاختيار وعدم الانصاف . انتهى كلام الفتح .

وفى (نيل الأوطار) : الاستدلال بهـــذه الآية إنما يتمّ فى الأشياء التى لم يرد النصّ بتحريمها . وأمّا الحمر الأنسية فقد تواترت النصوص على ذلك . والتنصيص على التحريم مقدم على عموم التحليل وعلى القياس . وأيضا الآية مكية . انتهى .

وقد ثبت عن ابن عمر رجوعه عن التعلق بعمومها .

روى سعيد بن منصور والإمام أحمـد[(٣)] وأبو داود[(٤)] عن نميلة الفزارىّ قال : كنت

---

(١) أخرجه مسلم فى: ٣٤ـ كتاب الصيد والذبائح، حديث١٦ (طبعتنا) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الأنسية ، حديث ٥٠٦ ونصه :

عن ابن عمر رضى الله عنهما : نهى النبىّ ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، يوم خيبر .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٤) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٣٤ .

عند ابن عمر ، وإنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : قل لا أجد... الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكِرَ عند النبيّ ﷺ فقال : خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان النبيّ ﷺ قاله فهو كما قال .

أي والخبائث محرّمة بنص القرآن، فهو مخصص لعموم هذه الآية .

وعن المقدام بن معدى كرب قال: قال رسول الله ﷺ: ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . فما وجدنا فيه حلالا استحللناه. وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى . أخرجه الترمذيّ(١) وقال : حديث حسن غريب .

ولأبي داود(٢) قال: قال رسول الله ﷺ : ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه. لا يوشك رجل شبعانُ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم (لحم) الحمار الأهليّ ولا كل ذى ناب من السبع ولا لُقَطَةُ معاهد ألا أن يستغنى عنها صاحبها. ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه . فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه . (أي يأخذ منهم عوضا عما حَرَموه من القِرى) .

هـذا والزمخشريّ فسر محرما بـ (طعاما محرما من المطاعم التى حرمتموها) وجعل الاستثناء منقطعا . أى لا أجد ما حرمتموه لكن أجد الأربعة محرّمة . وهذا لا دلالة فيه على الحصر حتى ترد المحرمات الأخر . إذ الاستثناء المنقطع ليس كالمتصل فى الحصر . وغير الزمخشريّ لم يقيّده بما ذكر . لأن الأصل الاتصال وعدم التقييد . وأوّلوها بما قدمنا قبل . وحينئذ يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال مفرغا . بمعنى : لا أجد

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٣٩ ـ كتاب العلم ، ١٠ ـ باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبيّ ﷺ .

(٢) أخرجه أبوداود فى: ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٥ ـ باب فى لزوم السنّة، حديث ٤٦٠٤

شيئاً من المطاعم المحرمات فى وقت من الأوقات ، أو حال من الأحوال ، إلا فى وقت أو حال كون الطعام أحد الأربعة. فإنى أجد حينئذ محرما . فالمصدر للزمان أو الهيئة . وفيه أن المصدر المؤول من (أن والفعل) لا ينصب على الظرفية . ولا يقع حالا ، لأنه معرفة . والله أعلم .

الثانى ـ فى قوله تعالى (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحى لا بالهوى . قال الشهاب: كنى بعدم الوجدان عن عدم الوجود. ومبنى هذه الكناية على أن طريق التحريم التنصيص منه تعالى . وتفسيره بمطلق الوحى استظهروه . ولذا قال : أوحى ولم يقل : أنزل .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل النبىّ ﷺ بقوله (عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) على أنه إنما حرم من الميتة أكلها . وأن جلدها يطهر بالدبغ . فأخرج أحمد[1] وغيره عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زَمْعة فقالت : يا رسول الله ! ماتت فلانة (يعنى الشاة) فقال : فلولا أخذتم مَسْكها؟ فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ : إنما قال الله عز وجل : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ. فإنكم لا تطعمونه . إن تدبغوه تنتفعوا به. فأرسلت إليها فسلختْ مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قِرْبة ، حتى تخرّقت عندها .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى (مَسْفُوحًا) على إباحة غيره . وذلك لأن الدم المسفوح هو ما سال من الحيوان فى حال الحيـاة ، أو عند الذبح ـ لا كالكبد والطحال ـ وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل . قال عمران بن جدير : سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم ، وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال : لا بأس بذلك ! إنما نهى عن الدم المسفوح .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٠٢٧ (طبعة المعارف) .

وقال إبراهيم النخعيّ : لا بأس بالدم فى عِرْقٍ أو مخّ ، إلّا المسفوح .

وقال عكرمة : لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود .

ثم بيّن تعالى أنه حرم على اليهود أشياء أخرى غير هذه الأربعة، تحقيقاً لافتراء المشركين فيما حرّموه، إذْ لم يوافق شيئاً مما أنزله تعالى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » أى : اليهود خاصة « حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ » قال سعيد بن جبير : هو الذى ليس منفرج الأصابع ـ كالجمل والوَبْر والأرنب ـ فإنها من ذوات الأظفار الغير المشقوقة ـ أى المنفرجة ـ وأما ذو الظفر المشقوق وهو يجترّ من البهائم، فلم يحرم عليهم. «وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا» لا لحومهما «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا» يعنى : ما علق بالظهر من الشحوم « أَوِ الْحَوَايَا » أى : الأمعاء والمصارين ـ أى : ماحملته من الشحوم ـ « أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » كالمخ والعصعص « ذَٰلِكَ » أى : تحريم تلك الأطايب عليهم « جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ » بسبب ظلمهم ، وهو قتلهم الأنبياء بغير حقّ ، وأكلهم الربا ـ وقد نهوا عنه ـ وأكلهم أموال الناس بالباطل ، كقوله تعالى[1] (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) .

قال المهايمىّ : أى : ولم يكن لغيرهم ذلك البغى ، فلا وجه لتحريمها عليهم مع كونها أطايب فى أنفسها .

« وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى : فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ؛ وهو تخصيص التحريم بهم، لبغيهم .

(١) [٤ / النساء / ١٦٠] .

قال ابن جرير(١) : لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرّمه على نفسه .

قال أبوالسعود : ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » الضمير إمّا لليهود لأنهم أقرب ذكرًا، ولِذِكْرِ المشركين بعد ذلك بعنوان الإشراك؛ وإمّا للمشركين، وإما للفريقين. أى: فإن كذبتك اليهود فى التخصيص وزعموا أن تحريم الله لا ينسخ ، وأصرّوا على ادعاء قدم التحريم ؛ أو المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم ، أوهما فيما ادّعيا « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل « وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى : ومع رحمته فهو ذو بأس شديد. وفيه ترغيبٌ لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة، وذلك فى اتباع رضوانه ، وترهيبٌ من المخالفة .

وليعلم أن المشركين لما لزمتهم الحجة ـ ببطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم مالم يحرمه الله ـ أخبرَ تعالى عنهم بما سيقولونه من شبهة يتشبثون بها لشركهم وتحريم ما حرّموا . وفائدةُ الإخبار بما سوف يقولونه ، توطين النفس على الجواب ، ومكافحتهم بالردّ، وإعداد الحجة قبل أوانها ، فقال تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٦ من الجزء الثانى عشر من التفسير (طبعة المعارف) .
(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » يعنى مشركى قريش والعرب « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ » يعنى ما حرموه من البحائر والسوائب وغيرها « كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا » أى : حتى أنزلنا عليهم العذاب « قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » أى : أمر معلوم يصحّ الاحتجاج به فيما قلتم فتظهروه لنا « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى : فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما حرّمتم « وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » تـكذبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » البينّة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات. ومنه : (أيمان بالغة) أى : مؤكدة . أو (البالغة) التى بلغ بها صاحبها صحة دعواه فهى (كعيشة راضية) . « فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : ولـكنه لم يشأ ذلك . بل شاء هدايةَ بعضٍ صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحقّ ، وضلالَ آخرين صرفوا كسبهم إلى خلاف ذلك، من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم ، فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه .

قال الإمام أبو منصور المـاتريدىّ فى (تأويلاته) : قيـل : الآية فى مشركى العرب . قالوا ذلك حين لزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم فى تحريم ما حرّموا من الأشياء . وأضافوا

ذلك إلى الله ، وهو صلة قوله (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ... ـ إلى قوله ـ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا)(١) ، فلما ألزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم فزعوا إلى هذا القول (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ...)(٢) الآية ! انتهى .

والقصد : الاعتذار عن كل ما يقدمون عليه من الإشراك وتحريم الحلال . أي: ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل ، ففعلنا طوع مشيئته ، وهو لا يشاء إلا الحق ، لأنه قادر . فلو لم يكن حقًّا يرضاه لمنعنا منه . وهو لم يمنعنا منه فهو حقٌّ . وفي حكاية هـذه المناظرة والمجادلة بيانٌ لنوعٍ من كفرهم شنيع جدًّا ..!

تنبيه :

هذه الآية تكرر نظيرها في التنزيل الكريم في عدة سور ، وهي من الآيات الجديرة بالتدبر لتمحيص الحق في المراد منها .

فقد زعم المعتزلة أن فيها دلالة واضحة لمذهبهم من أن الله لا يشاء المعاصي والكفر ، كما تبجّح بذلك منهم الطبرسيّ الشيعيّ في (تفسيره) وقال : إن فيها تكذيباً ظاهراً لمن أضاف مشيئة ذلك إلى الله سبحانه ؛ وكذا الزمخشريّ في (تفسيره) .

---

(١) [٦ / الأنعـام / ١٤٣و١٤٤] ونصهما : ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٦/ الأنعام/ ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

ومعلومٌ أنّ عقيدة الفرقة الناجية، الإيمانُ بأن : ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن، وأنه ما فى السموات والأرض من حركة ولا سكون إلّا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون فى ملكه إلّا ما يريد ، وهو خالقٌ لأفعال العباد .. !

وقد خالف فى ذلك عامة القدرية ـ الذين سمّاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ـ فقالوا : لا إرادة إلّا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلّا ما أمر به ، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد. فعندهم أكثر مايقع من أفعال العباد على خلاف إرادته تعالى. ولما كان قولهم هذا فى غاية الشناعة، تبرأ منهم الصحابة. وأصل بدعتهم ـ كما قال ابن تيمية ـ كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه . وسنبيّن تحقيق ذلك بعد أن نورد شبهتهم فى هذه الآية وندمغها ـ بعونه تعالى ـ بعدة وجوه فنقول :

(قالوا) : إن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم قالوا : أشركنا بإرادة الله تعالى. ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا، ولمَا صدر عنا تحريم المحللات فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم . ثم إنه تعالى ردّ عليهم مقالتهم وبيّن بطلانها وذمّهم عليها وأوعدهم عليها وعيداً شديداً . فلو كان يجوز إضافة المشيئة إلى الله تعالى فى ذلك ، على ماتضيفون أنتم ، لم يكن يردّ ذلك عليهم ويتوعّدهم !

(قلنا) : إنّ المشيئة فى الآية تتخرّج على وجوه :

أحدها : ما قال الحسن والأصمّ ـ إن المشيئة ههنا الرضا ـ فمرادهم : أنّ الله رضى بفعلنا وصنيعنا ـ حيث فعل آباؤنا مثل ما فعلنا ـ فلم يَحُل الله بينهم وبين ذلك ، ولا أخذ على أيديهم، ولا منعهم عن ذلك ؛ فلو لم يرض بذلك عنهم لكان يمنعهم عنه !

قال أبو منصور : وإنما استدلوا بالرضا من الله والإذن فيما كانوا فيه ، أنهم كانوا يخوفون بالهلاك والعذاب على صنيعهم ، ثم رأوا آباءهم ماتوا على ذلك ولم يأتهم العذاب ، فاستدلوا بتأخير نزول العذاب عليهم على أنّ الله رضى بذلك .

وبالجملة ، أرادوا بقولهم ذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضىّ عند الله. ولما كانت حجتهم داحضةً باطلة ـ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمّر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام ـ قال تعالى : (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أى: بأنّ الله راضٍ عليكم فيما أنتم فيه ! وهذا من التهكّمِ والشهادةِ بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة .

وفى (الوجيز): الحاصل أنّ المشركين اعتقدوا عدم التفرقة بين المأمور المرضىّ والمشيئة، كما اعتقدت المعتزلة ، فاحتجوا على حقيّة الإشراك . وينادى على ذلك قوله (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ...) فإنه لو كان المراد أنّ ذلك ليس بمشيئة الله تعالى لقال (كَذَٰلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف لا التشديد. وهذه الآية ـ عند من له أذن واعية ـ تصيح على المعتزلة بالويل والثبور، لكن فى آذانهم وقر ، ومن لم يهده الله فلا هادى له . انتهى .

الوجه الثانى : إن المشيئة فى الآية بمعنى الأمر والدعاء إلى ذلك . أى: يقولون: إن الله أمرهم بذلك ودعاهم إليه ، كما أخبر عنهم فى سورة الأعراف بقوله : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) فردّ تعالى عليهم بقوله : (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) .

الوجه الثالث : إنّ قولهم ذلك كان على سبيل الاستهزاء والسخرية دفعاً لدعوته ﷺ ، وتعلّلًا لعدم إجابته وانقياده ، لا تفويضاً للكائنات إلى مشيئة الله تعالى . فما صدر عنهم ، كلمةُ حقّ أريد بها باطل . ولذلك ذمّهم الله بالتكذيب لأنهم قصدوا به تكذيب النبىّ ﷺ فى وجوب اتباعه والمتابعة ، فقال : (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ) بالتشديد ، ولم يذمهم بالكذب فى قولهم ذلك ، وإلّا لقال (كَذَٰلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف، إشارة إلى أن ذلك الكلام فى نفسه حق وصدق .

وقال آخرا: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فأشار إلى صدق مقالتهم وفساد غرضهم . فالعتاب الذى لحقهم والوعيد الذى أوعدهم، إنما كان لاستهزائهم ،

كما ذكر فى قوله تعالى[١] (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) هى كلمة حق . لكن قالها استهزاءً فلحقه الذم .

وهذا الوجه اقتصر عليه العضد فى (المواقف) وقرره أيضاً أبو منصور فى (تأويلاته).

قال الحسن بن الفضل : لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالًا له ومعرفةً بحقه وبما يقولون ، لَمَا عابهم بذلك . ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدَلًا من غير معرفةٍ بالله وبما يقولون .

الوجه الرابع : ما يستفاد من قول الإمام : إنّ فى كلام المشركين مقدمتين : (إحداها) : أن الكفر بمشيئة الله تعالى . و (الثانية) : أنه يلزم منه اندفاع دعوة النبىّ ﷺ . وما ورد من الذمّ والتوبيخ إنما هو على الثانية ، إذ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يشاء من الكافر الكفر ويأمره بالإيمان ويعذبه على خلافه ويبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعاةً إلى دار السلام ، وإن كان لا يهدى إلّا من يشاء .

الوجه الخامس : إن قولهم ذلك كان على سبيل العناد والعتوّ .

قال البقاعىّ فى قوله تعالى (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى: بما أوقعوا من نحو هذه المجادلة فى قولهم : إذا كان الكلّ بمشيئة الله كان التكاليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة . وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات وإخبار الرسل بأنه يشاء الشىء ويعاقب عليه لأن ملكه تامّ ، لا يسأل عما يفعل .

وقال الإمام القاشانىّ قدس سره ، فى قوله تعالى (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ): أى : كذب المنكرون الرسل من قبلهم بتعليق كفرهم بمشيئة الله ، عنادًا وعتوًّا ، فعذّبوا بكفرهم .

ثم قال فى قوله تعالى (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) : أى: إن كان لكم

(١) [١٩ / مريم / ٦٦] .

علمٌ بذلك وحجّة ، فبيّنوا . وإنما قال ذلك ، إشارة إلى قولهم : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لعلموا أن إيمان الموحّدين وكلّ شيء ، لا يقع إلّا بإرادة الله. فلم يعادوهم ولم ينكروهم بل وَالَوْهم ، ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف . ولعمرى إنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لما كانوا مشركين بل كانوا موحّدين . ولكنهم اتبعوا الظنّ فى ذلك ، وبنوا على التقدير والتخمين لغرض التكذيب والعناد ، وعلى ما سمعوا من الرسل إلزامًا لهم وإثباتًا لعدم امتناعهم عن الرسل . لأنهم محجوبون فى مقام النفس . وأنّىٰ لهم اليقين ؟ ومن أين لهم الاطلاع على مشيئة الله ؟ وقوله تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) أى : إن كان ظنكم صدقًا فى تعليق شرككم بمشيئة الله ، فليس لكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من أهل دين ، لكون كل دين حينئذٍ بمشيئة الله ، فيجب أن توافقوهم وتصدقوهم ، بل لله الحجة عليكم فى وجوب تصديقهم وإقراركم بأنكم أشركتم ، بمن لايقع أمرٌ إلّا بإرادته، ما لا أثر لإرادته أصلًا . فأنتم أشقياء فى الأزل مستحقّون للبعد والعقاب . وقوله تعالى (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بلى ، صدقتم . ولكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم كلّكم ، فبأىّ شىء علمتم أنه لم يشأ هدايتكم حتى أصررتم ؟ وهذا تهييج لمن عسى أن يكون له استعداد منهم فيقمع ويهتدى فيرجع عن الشرك ويؤمن . انتهى .

الوجه السادس : ما فى (لباب التأويل) من أنه قيل فى معنى الآية : أنهم كانوا يقولون الحقّ بهذه الكلمة ـ وهو قولهم (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) ـ إلّا أنهم كانوا يعدّونه عذرًا لأنفسهم ، ويجعلونه حجّة لهم فى ترك الإيمان . والردّ عليهم فى ذلك : أنّ أمر الله بمعزلٍ عن مشيئته وإرادته ؛ فإن الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمرٍ بجميع ما يريد ، فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإنّ مشيئته لا تكون عذرًا لأحدٍ عليه فى فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمره بالإيمان . وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . فالحاصل : أنه

تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى فى شركهم وكفرهم ، فأخبر الله تعالى أنّ هذا التمسّك فاسدٌ باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى فى كلّ الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الوجه السابع : ما قرره الناصر فى (الانتصاف) : إنّ الردّ عليهم إنّما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم ، وإنّ إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنّهم يقيمون الحجّة على الله ورسله بذلك . فردّ الله قولهم وكذبهم فى دعواهم ـ عدم الاختيار لأنفسهم ـ وشبّههم بمن اغترّ قبلهم بهذا الخيال . فكذب الرسل، وأشرك بالله ، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كلّه بمشيئة الله ، ورامَ إفحامَ الرسل بهذه الشبهة. ثم بيّن الله تعالى أنهم لا حجّة لهم فى ذلك، وأن الحجة البالغة له لا لهُم، بقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ). ثم أوضح تعالى أنّ كلّ واقع بمشيئته، وإنه لم يشأ منهم إلّا ما صدر عنهم ، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون بقوله (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) . والمقصود من ذلك : أن يتمحّض وجه الردّ عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة ، وعموم تعلقها بكلّ كائن عن الردّ؛ وينصرف الردّ إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم ، وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة . وإذا تدبّرت هذه وجدتها كافية فى الردّ على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة. بل هو مجبور على أفعاله مقهورٌ عليها . وهم الفرقة المعروفون بـ (المجبرة) . والزمخشرىّ يغالط فى الحقائق فيسمىّ أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختيارًا وقدرةً ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية. فمن هذه الجهة سوّى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقباً عامّاً لأهل السنة . وجماع الردّ على المجبرة ـ الذين ميزناهم عن أهل السنة ـ فى قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ـ إلى قوله ـ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) . وتتمة الآية ردٌّ صراح على (طائفة الاعتزال) القائلين بأنّ الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين . فلم تقع من أكثرهم ! ووجه الردّ : أن (لو) إذا دخلت على فعل

مثبت نفته ؛ فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال (فَلَوْ شَاءَ) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم. ولو شاءها لوقعت . فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحلّ عقدهم. فإذا ثبت اشتمال الآية على ردّ عقيدة الطائفتين المذكورتين ـ المجبرة فى أوّلها والمعتزلة فى آخرها ـ فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنّة منطبقة عليها . فإن أوّلها ـ كما بيّنا ـ يثبت للعبد اختيارًا وقدرةً على وجه يقطع حجته وعذره فى المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله فى العبد ، وأنّ جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية ، خيرًا أو غيره . وذلك عين عقيدتهم . فإنهم ـ كما يثبتون للعبد مشيئةً وقدرة ـ يسلبون تأثيرها ، ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجّته ، ملزم له بالطاعة على وفق اختياره . ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته فى أفعال عباده . فهم ـ كما رأيت ـ تبعٌ للكتاب العزيز : يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الموفق . انتهى .

وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قيل له : إن ناساً يقولون : ليس الشرّ بقدَر . فقال ابن عباس: بيننا وبين أهل القدر هذه الآية : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ـ إلى قوله ـ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[1] .

وبتحقيق هذه الوجوه يسقط قول الطبرسىّ المعتزلىّ : لو كان الأمر على ماقاله أهل الجبر ـ من أن الله تعالى شاء منهم الكفر ـ لكانت الحجة للكفّار على الله ، من حيث فعلوا ما شاء الله ، ولكانوا بذلك مطيعين له . لأن الطاعة هى امتثال الأمر المراد ، ولا تكون الحجّةلله عليهم على قولهم، من حيث إنه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر . فأىّ حجّة له عليهم مع ذلك ؟ انتهى .

وكذا قول الزمخشرىّ : ما حكى عن المشركين كمذهب المجبرة بعينه . ولذا قال النحرير: نعم ! هو كمذهبهم فى كون كلّ كائن بمشيئة الله . لكن الكفرة يحتجّون بذلك على حقية

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨و١٤٩] .

الإشراك وتحريم الحلال وسائر ما يرتكبون من القبائح . وكونها ليست بمعصية لكونها موافقة للمشيئة التى تساوى معنى الأمر ، على ما هو مذهب القدرية : من عدم التفرقة بين المأمور والمراد ، وأنّ كلّ ما هو مرادٌ لله فهو ليس بمعصية منهىّ عنها . والمجبرة ـ وإن اعتقدوا أن الكلّ بمشيئة الله ـ لكنهم يعتقدون أن الشرك وجميع القبائح معصية ومخالفة للأمر يلحقها العذاب بحكم الوعيد ، ويعفو عن بعضها بحكم الوعد . فهم ـ فى ذلك ـ يصدّقون الله فيما دلّ عليه العقل والشرع من امتناع أن يكون أكثر ما يجرى فى ملكه على خلاف ما يشاء . والكفرة يكذّبونه فى لحوق الوعيد على ما هو بمشيئته تعالى . انتهى .

فصل

قال الإمام شمس الدين ابن القيّم الدمشقىّ رحمه الله تعالى فى كتابه (طريق الهجرتين) بعد أن أطال فى سرد أحاديث القدر وآثاره ، ما نصّه :

فالجواب أنّ ههنا مقامين : مقام إيمانٍ وهدًى ونجاة ، ومقام ضلالٍ وردى وهلاك ، زلّت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء .

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة، فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأنّ ماشاء كان وإنْ لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن ، وإنْ شاء الناس . وهذه الآثار ـ التى كلها تحقق هذا المقام ـ تبيّن أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه . وهذا فى كل كتابٍ أنزله الله على رسله .

وأما المقام الثانى وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على الله ، وحمل العبد ذنبه على ربّه ، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمّارة بالسوء ، حتى يقول قائل هؤلاء :

ألقاه فى اليمّ مكتوفاً وقال له : إيّاك ! إيّاك ! أن تبتلّ بالماء

ويقول قائلهم :

دعانى وسدَّ الباب دونى . فهل إلى دخولى سبيلٌ ؟ بيّنوا لِىَ قصّتى

ثم ساق ـ رحمه الله ـ قصصاً غريبة فى ذلك ، ثم قال :

وسمعته ـ يعنى شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ يقول :

القدرية المذمومون فى السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة : نفاة القدر وهم (القدرية المجوسيّة) . والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وهم (القدرية المشركية) . والمخاصمون به للربّ سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم (القدرية الإبليسية) وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : بِمَا أَغْوَيْتَنِى (١) ولم يعترف بالذنب ويَبُوءْ بِهِ كما اعترف به آدم. فمن أقرّ بالذنب وبَاءَ به ونزّه ربّه فقد أشبه أباه آدم . ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برّأ نفسه واحتجّ على ربّه بالقدر فقد أشبه إبليس. ولا ريب أنّ هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شرٌّ من القدرية النفاة . لأن النفاة إنما نَفَوْه تنزيهاً للربّ وتعظيماً له أن يقدّر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب . ونزّهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه البتة. بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه.. ونحو ذلك . كما يحكى عن بعض الجبرية إنه حضر مجلس بعض الولاة. فأتى بطرّار (هو الذى يقطع الهمايين أو الأكمام ويستلّ ما فيها) أحولَ . فقال له الوالى : ما ترى فيه؟ فقال : اضربه خمسة عشر ـ يعنى سوطاً ـ فقال له بعض الحاضرين ـ ممّن ينفى الجبر ـ بل ينبغى أن يضرب ثلاثين سوطاً : خمسة عشر لطرّه ومثلها لحَوَلِهِ. فقال الجبرىّ : كيف يضرب على الحَوَل ولا صنع له فيه؟ فقال: كما يضرب على الطرّ ولا صنع له فيه، عندك ... فبُهِتَ الجبرىّ .

(١) [٧ / الأعراف / ١٦] ونصها : قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .

و [١٥ / الحجر / ٣٩] ونصها : قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

وأما (القدرية الإبليسية والمشركية) فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدوّ لله ورسله، لا يقرّ بأمر ولا نهى، وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ...[١] الآية، وقال[٢] تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وقال تعالى[٣]: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، وقال[٤]: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. فهذه أربعة مواضع فى القرآن، بيّن سبحانه فيها أنّ الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل.

وقد افترق الناس فى الكلام على هذه الآيات أربع فِرقٍ:

الفرقة الأولى: جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأنّ للمحتجّ بها الحجة على الله. ثم افترق هؤلاء فرقتين: (فرقة) كذبت بالأمر والوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهى والوعد والوعيد، بعد هذا، يكون ظلماً، والله لا يظلم من خلقه أحدًا! و(فرقة) صدقت بالأمر والنهى والوعد والوعيد وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرف فى ملكه كيف يشاء ويعذب العبد على مالا صنع له فيه، بل يعذبه على فعله هوسبحانه لا على فعل عبده. إذ العبد لا فعل له، والملك ملكه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. فإنّ هؤلاء الكفار إنما قالوا

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨].
(٢) [١٦ / النحل / ٣٥].
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠].
(٤) [٣٦ / يس / ٤٧].

هذه المقـالة ـ التى حكاها الله عنهم ـ استهزاء منهم ، ولو قالوا ـ اعتقاداً للقضاء والقدر ، وإسناداً لجميع الـكائنات إلى مشيئته وقدرته ـ لم ينـكر عليهم . ومضمون قول هذه الفرقة إنّ هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد ـ لا على جهة الاستهزاء ـ فيـكون للمشركين على الله الحجّة ؛ وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً .

الفرقة الثانية : جعلت هذه الآيات حجة لها فى إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة . إذْ لو صحت المشيئة العامة ـ وكان الله قد شاء منهم الشرك والـكفر وعبادة الأوثان ـ لـكانوا قد قالوا الحق ، وكان الله يصدقهم عليه ولم ينـكر عليهم . فحيث وصفهم بالخرْص ـ الذى هو الـكذب ـ ونفى عنهم العلم ، دلّ على أن هذا الذى قالوه ليس بصحيح ، وأنهم كاذبون فيه ؛ إذْ لو كان علماً لـكانوا صادقين فى الإخبار به ، ولم يقل لهم : هل عندكم من علم .

وجعلت هـــذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التـكذيب بالقضاء والقدر ، وزعمت بها أن يكون فى ملـكه مالا يشاء ، ويشاء مالا يكون ، وإنه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائـكة ، ولا على أفعال الحيوانات . وإنه لا يقـدر أن يضلّ أحداً ، ولا يهديه ، ولا يوفقه أكثر مما فعل به ، ولا يعصمه من الذنوب والـكفر ، ولا يلهمه رشدَه ، ولا يجعل فى قلبه الإيمان ، ولا هو الذى جعل المصلّى مصلياً والبرَّ برًّا والفاجر فاجرًا والمؤمن مؤمناً والـكافر كافراً . بل هم جعلوا أنفسهم كـذلك .

فهذه الفرقة شاركت الفرقة التى قبلها فى إلقاء الحرب والعـــداوة بين الشرع والقدر . فالأولى تحيزت إلى القدر وحاربت الشرع . والثانية تحيزت إلى الشرع ، وكذبت القدر . والطائفتان ضالتان ، وإحداهما أضلّ من الأخرى .

و (الفرقة الثالثة) : آمنت بالقضاء والقدر وأقرّت بالأمر والنهى . ونزّلوا كلّ واحدٍ منزلته : فالقضاء والقـــدر يُؤمن به ولا يُحتجّ به ، والأمر والنهى يُمتثل ويُطاع . فالإيمان بالقضاء والقدر ـ عندهم ـ من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلّا الله . والقيام بالأمر

والنهى موجب شهادة أن محمدًا رسول الله . وقالوا : من لم يقرّ بالقضاء والقدر، ويقم بالأمر والنهى فقد كذّب بالشهادتين وإنْ نطق بهمابلسانه. ثمّ افترقوا فى وجه هذه الآيات فرقتين: (فرقة) قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك . فجعلوا مشيئته له وتقديره له، دليلًا على رضاه به ومحبته له . إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينه وبينهم . فإنّ الحكيم إذا كان قادرًا على دفع ما يكرهه ويبغضه ، دفعه ومنع من وقوعه . وإذا لم يمنع من وقوعه ، لزم إما عدم قدرته وإما عدم حكمته . وكلاهما ممتنع فى حق الله . فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به .

وقد وافق هؤلاء من قال: إنّ الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها. ولكن خالفهم فى أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها ، فوافقهم فى نصف قولهم وخالفهم فى الشطر الآخر .

وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين ، وأنّ مشيئة الله تعالى العامة وقضاءه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكلّ ماشاءه وقدّره .

وهؤلاء المشركون ـ لمّا استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه ـ كذّبهم وأنكر عليهم ، وأخبر أنه لا علم لهم بذلك، وأنهم خارصون مفترون . فإن محبة الله للشيء ورضاه به، إنما يعلم بأمره به على لسان رسوله، لا بمجرد خلقه . فإنه خلق إبليس وجنوده ـ وهم أعداؤه ـ وهو سبحانه يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه ... فهكذا فى الأفعال . خلق خيرها وشرها وهو يحبّ خيرها ويأمر به ويثيب عليه . ويبغض شرها وينهى عنه ويعاقب عليه . وكلاهما خلقه . ولله الحكمة البالغة التامة فى خلقه ما يبغضه ويكرهه ، من الذوات والصفات والأفعال ، كلّ صادر عن حكمته وعلمه ، كما هو صادر عن قدرته ومشيئته ...

وقالت الفرقة الثانية : إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ، ودفع الأمر بالمشيئة . فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره . فجعلوا القضاء والقدر

إبطالا لدعوة الرسل ، ودفعاً لما جاءوا به . وشاركهم فى ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصى والذنوب فى نصف أقوالهم ، وخالفوهم فى النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهى .

فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام ، وورث كلّ قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما فى جميع تركتهم ، وإما فى كثير منها ، وإما فى جزء منها . وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة ، وأنه ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذى جعل المؤمن مؤمنا والمصلى مصليا والمتقى متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره ، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كلّ نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدى من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته ، وأنه هو الذى وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فعصوه ، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم ـ فإنه يحول بين المرء وقلبه ـ فكفروا به . ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . إيمانا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .

و (القضاء والقدر) عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى :

الأولى ـ علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم .

الثانية ـ كتابة ذلك فى الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض .

الثالثة ـ مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لكائن عن مشيئته ، كما لا خروج له عن علمه .

الرابعة ـ خلقه له وإيجاده وتكوينه . فإنه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شىء .

فالخالق ـ عندهم ـ واحد وما سواه مخلوق . ولا واسطة ـ عندهم ـ بين الخالق والمخلوق. ويؤمنون ـ مع ذلك ـ بحكمته ، وأنه حكيم فى كل ما فعله وخلقه ، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه . وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره ـ كما تقوله نفاة الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها ـ بل هى أمر وراء ذلك ، وهى الغاية المحبوبة له المطلوبة التى هى متعلق محبته وحمده ، ولأجلها خلق فسوى ، وقدّر فهدى ، وأمات وأحيى، وأشقى وأضلّ وهدى، ومنع وأعطى . وهذه الحكمة هى الغاية والفعل وسيلة إليها، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفى للغايات ، وهو محال ، إذ نفى الغاية مستلزم لنفى الوسيلة. فنفى الوسيلة ـ وهى الفعل ـ لازم لنفى الغاية وهى الحكمة . ونفى قيام الفعل والحكمة به نفى لهما فى الحقيقة ؛ إذ فعلٌ لا يقوم بفاعله ، وحكمةٌ لا تقوم بالحكيم ـ شىء لا يعقل. وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته . وهـذا لازم لمن نفى ذلك ولا محيـد له عنه ، وإن أبى التزامه . وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وماجاءت به الرسل، لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق ، كائنا ما كان .

والمقصود : أن ورثة الرسل وخلفاءهم ـ لكمال ميراثهم لنبيهم ـ آمنوا بالقضاء والقدر والحِكَم والغايات المحمودة فى أفعال الرب وأوامره ، وقاموا ـ مع ذلك ـ بالأمر والنهى ، وصدّقوا بالوعد والوعيد : فآمنوا بالخلق الذى من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة . وبالأمر الذى من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب؛ فصدّقوا بالخلق والأمر ولم ينفوها بنفى لوازمهما ـ كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر ـ وكانوا أسعد الناس بالخلق وأقربهم عصبة فى هذا الميراث النبوىّ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة، لا يجتمع إلا فى قلوب خواص الخلق

ولبّ العالم ، وليس الشأن فى الإيمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلّال... فإن القدرية تؤمن بلفظ (القدر) ، ومنهم من يرده إلى العلم ، ومنهم من يرده إلى الأمر الدينىّ ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر . وكذلك (الحكمة) فإن الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فإنهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وإرادته لمراده تعالى ، فهى ـ عندهم ـ وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته ... والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ، ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ، ويجعلونها مخلوقاً من مخلوقاته، كما قالوا فى كلامه وإرادته . فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ (الحكمة) وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك (الأمر) و (الشرع) فإن من أنكر كلام الله وقال : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئاً ولا يبغض شيئا ، وجميع الكائنات محبوبة له ، وما لم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب. ولا فرق فى نفس الأمر بين الصدق والكذب والفجوز والسجود للأصنام والشمس والقمر. ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهى بالكلية . ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ، ولكن مشى الحال بعض المشى بتناقضهم ، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها .

والمقصود : أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهى والوعد والوعيد ، حقيقة الإيمان ، إلا أتباع الرسل وورثتهم .

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته . ولهذا قال الإمام أحمد : القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر .

ولهذا ، كان المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونَفَتْهُ ، وهم غلاتهم

الذين كفّرهم السلف والأئمة وتبرّأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة ، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى ، وصرّحت بأنّ الله لا يقدر عليها . فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه . وقابلهم الجبرية : فجاءت على إثبات القدرة والعلم ، وأنكرت الحكمة والرحمة .

ولهذا ، كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الربّ وعزته وحكمته . ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرًا ، كقوله : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (١) ، وقال : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ، وقال : حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٣) ، وقال في (حمٓ فصّلت ، بعد ذكر تخليق العالم) : ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٤) ، وذكر نظير هذا في (الأنعام) فقال : فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٥) . فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته . وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدّمه عليه . وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للربّ سبحانه . وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقه وأمره ، حكيم في خلقه وأمره . ولهذا ، كان (الحكيم) من أسمائه الحسنى . فالحكمة من صفاته العُلَى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول

(١) [٢٧ / النمل / ٦] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٢] .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

(٥) [٦ / الأنعام / ٩٦] .

المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة . والحكمة هي سنة الرسول ، وهي تتضمّن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به . فكلّ هذا يسمّى حكمة . وفى الأثر(١) : الحكمة ضالّة المؤمن . وفى الحديث(٢) : إنّ من الشعر حكمة . فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته ، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده . وهو محمود على جميع ما فى الكون من خيرٍ وشرٍ حمدًا استحقه لذاته ، وصدر عنه خلقُه وأمرُه . فمصدر ذلك كله عن الحكمة. فإنكار الحكمة إنكار لحمده فى الحقيقة ، والله أعلم . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فى خلال بعض فتاويه، فى حقيقة الاحتجاج بالقضاء والقدر ، ما نصّه :

وإن هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية أهل الفناء فى توحيد الربوبية . حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية ؛ فإن هؤلاء المشركين لمّا أنكروا ما بعثت به الرسل من الأمر والنهى ، وأنكروا التوحيد ـ الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ـ وهم يقرّون بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء ، ما بقى عندهم من فرق، من جهة الله تعالى، بين مأمور ومحظور فقالوا : لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، وهذا حقّ . فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن . ولكن أىّ فائدة لهم فى هذا ؟ غايته أن هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولا يلزم إذا كان مقدرًا أن يكون

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٩ ـ كتاب العلم، ١٩ ـ باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة، ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن . فحيث وجدها ، فهو أحق بها » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٠ ـ باب مايجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، حديث ٢٣٥٣ ، عن أبىّ بن كعب أن رسول الله ﷺ قال « إن من الشعر حكمة » .

محبوباً مرضيًّا لله . ولا علم عندهم بأن الله أمر به ولا أحبه ولا رضيه ، بل ليسوا فى ذلك إلّا على ظنّ وخَرْص . انتهى .

وقال بعض المحققين فى حقيقة العقيدة :

ثبت بالبرهان أنّ قدرة الله تعالى متصرفة فى الممكنات عن إرادةٍ واختيار . وأن الإرادة لا تخرج عما ينكشف بالعلم من مواقع الحكمة ، ووجوه النظام . وأنه خالق كلّ شىء وإليه يرجع الأمر كله . ومن الممكنات التى اقتضتها الحكمة والنظام وجودُ مخلوقٍ ذى قدرةٍ وإرادةٍ وعلمٍ ، يعمل بقدرته ماتنبعث إليه إرادته بمقتضى علمه بوجوه المصلحة والمنفعة لنفسه، وهو الإنسان . وهذا ـ عند البعض ـ هو معنى كونه خليفة الله فى الأرض يعمرها ويظهر حكمة الله وبدائع أسراره فيها ، ويقيم سننه الحكمية حتى يعرف كماله بمعرفة كمال صنعه . ولا يزال الإنسان يظهر الآيات من هذه المكونات آناً بعد آنٍ ، ولا يعلم مبلغه من ذلك إلّا الله تعالى . والمشهور أن الخلافة خاصة بأفراد من الإنسان وهم الأنبياء عليهم السلام . ولا يستلزم واحد من القولين أن الله تعالى استخلفهم لحاجة به إلى ذلك . حاشاه .

قال البيضاوىّ (فى بيان أن كلّ نبىٍّ خليفة) : استخلفهم فى عمارة الأرض، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم ـ لا لحاجةٍ به تعالى إلى من ينوبه ـ بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط . ولذلك لم يستنبىء مَلَكاً كما قال : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا(1) . انتهى .

وكذلك إذا قلنا : إن كلّ النوع خليفة فى العوالم الأرضية .

فعلم من كلٍّ من القولين ؛ أن فى الإنسان معنى ليس فى غيره . فإذا كانت خلقة المَلَك لا تساعد على إرشاد الناس ، لأنه ليس من جنسهم ولا يمكن لكلّ واحدٍ التلقى منه ، فكذلك لاتساعد خلقته. وليس من وظيفتها، إظهارخواص الأجسام وقواها ووجوه الانتفاع

---

(1) [٦ / الأنعام / ٩] . . . وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ .

بها . ولو كان إيجاد مخلوقٍ ـ على ماذكرنا فى خلق الإنسان ـ غير ممكنٍ لما وجد . ولاينكر كونه على ما ذكرنا إلّا من ينكر الحسّ والوجدان ، وهما أصل كلّ برهان . ومثل هذا لا يخاطب ولا يطلب منه التصديق بشيء ما .

إذن ، معنا قضيّتان قطعيّتا الثبوت :

(إحداهما) : كون الإنسان يعمل بقدرةٍ وإرادة يبعثها علمه على الفعل أوالترك والكف، وهى بديهية .

و (الثانية) : هى أنّ الله هو الخالق الذى بيده ملكوت كلّ شيء ، وهى نظرية .

ويتولّد من هاتين القضيّتين القطعيّتين مسألتان نظريتان :

الأولى : ما الفرق بين علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، وبين علم الإنسان وإرادته وقدرته ؟

والجواب من وجوه :

(أحدها) : أن صفات الله قديمة بقدمه فهى ثابتة له لذاته . وصفات الإنسان حادثة بحدوثه وهى موهوبة له من الله تعالى كذاته .

(ثانيها) : أن علم الله محيط بكلّ شيء[1] يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء . وأما الإنسان فما أوتى من العلم[2] إلّاقليلا ! وإرادةُ الله تعالى لا تتغيّر ولا تقبل الفسخ لأنها عن علمٍ تامٍ . بخلاف إرادة الإنسان فإنها تتردد لتردّده فى العلم بالشيء . وتفسخ لظهور الخطأ فى العلم الذى بنيت عليه . وتتجدّد لتجدّد علمٍ لم يكن له من قبل. وقدرةُ الله تعالى متصرّفة فى كلّ ممكن . فيفعل كلّ ما يعلم أنّ فيه الحكمة . وقدرة الإنسان لا تصرّف لها ولا كسب إلّا فى أقلّ القليل من الممكنات .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

(٤) يشير إلى قوله تعالى [١٧/ الإسراء/ ٨٥] وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

فكم من أمرٍ يعلم أن فيه مصلحته ومنفعةً له وهو لا يقدر على القيام به .

(ثالثها) : أن صفات الإنسان عرضة للضعف والزوال ، وصفات الله تعالى أبدية كما أنها أزلية .

وبالجملة : إنّ المشاركة بين صفات الله تعالى وصفات عباده إنّما هى فى الإسم ، لا فى الجنس كما زعم بعضهم، فبطل زعم من قال : إنّ إثبات كون الأفعال التى تصدر من الإنسان هى بقدرته وإرادته ـ يقتضى أن يكون شريكاً لله تعالى[1] . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .

المسألة الثانية : ـ وهى عضلة العقد ومحكّ المنتقد ـ أن القضاء عبارة عن تعلّق علم الله تعالى أو إرادته فى الأزل ؛ بأنّ الشىء يكون على الوجه المخصوص من الوجوه الممكنة ، والقدر وقوع الأشياء فيما لا يزال على وفق ما سبق فى الأزل .

ومن الأشياء التى يتعلق بها القضاء والقدر أفعال العباد الاختيارية . فإذا كان قد سبق القضاء المبرم ـ بأن زيدا يعيش كافرا ويموت كافرا ـ فما معنى مطالبته بالإيمان وهو ليس فى طاقته ؟ ولا يمكن فى الواقع ونفس الأمر أن يصدر منه. لأنه فى الحقيقة مجبور على الكفر فى صورة مختار له ؟ كما قال بعضهم .

والجواب عن هذا : أن تعلق العلم والإرادة بأن فلاناً يفعل كذا ، لا ينافى أن يفعله باختيار، إلا إذا تعلق العلم بأن يفعله مضطرا كحركة المرتعش مثلا . ولكن أفعال العباد الاختيارية قد سبق فى القضاء بأنها تقع اختيارية ، أى: بإرادة فاعليها لا ارغما عنهم. وبهذا صح التكليف ولم يكن التشريع عبثا ولا لغواً .

وثم وجه آخر فى الجواب ، وهو : لو كان سبق العلم أو الإرادة بأن فاعلا يفعل كذا ، يستلزم أن يكون ذلك الفاعل مجبورا على فعله، لكان الواجب ، تعالى وتقدس ، مجبوراً على

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

أفعاله كلها . لأن العلم الأزلىّ قد تعلق بذلك ، وكل ما تعلق به العلم الصحيح لابد من وقوعه .

فتبين ـ بهــذا ـ أن الجبرية ومن تلا تلوهم قد غفلوا عن معنى الاختيار ، واشتبهت عليهم الأنظار ، فـكابروا الحسّ والوجدان ، ودابروا الدليل والبرهان ، وعطلوا الشرائع والأديان ، وتوهموا أنهم يعظمون الله ولـكنهم ما قدروه حقّ قدره ، ولا فقهوا سر نهيه وأمره ، حيث جرّؤا الجهال على التنصل من تبعة الذنوب والأوزار ، وادعاء البراءة لأنفسهم والإحالة باللوم على القضاء والقدر ، وذلك تنزيه لأنفسهم من دون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. بل ذلك إغراء للإنسان بالانغماس في الفسوق والعصيان. فيا عجباً لهم كيف جعلوا أعظم الزواجر من الإغراء، وهو الاعتقاد بإحاطة علم الله بالأشياء ! أليس من شأن من لم يفسد الجبر فطرته، ويظلم الجهل بصيرته ، أن يكون أعظم مهذب لنفسه ، ومؤدب لعقله وحسه ، اعتقادُه بأن الله عليم بمـا يسر ويعلن ، ويظهر ويبطن ، وأنه ناظر إليه ومطلع عليه . ؟ بلى [٢] ! إن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تـكن تراه فإنه يراك . وأما الذين ضلوا السبيل،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبىّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، الحديث رقم ٤٦ ونصه :

عن أبى هريرة قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم بارزًا يومًا للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟

قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائـكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » .

قال : ما الإسلام ؟

قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » .

قال : ما الإحسان ؟

=

واتبعوا فاسد التأويل ، فيقولون كما قال من قبلهم وقص الله علينا ذلك بقوله عز وجل . سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية . فانظر كيف رماهم العليم الحكيم بالجهل ، وجعل احتجاجهم بالقدر من أسباب وقوع البأس والبلاء بهم .

وفى هذا القدر كفاية لمن لم ينطمس نور الفطرة من قلبه ، والله عليم حكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَٰذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ » أى : أحضروهم « الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَٰذَا » يعنى ماتقولون من الأنعام والحرث . والمراد بـ(شهدائهم) قدوتهم الذين ينصرون قولهم . وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم ، وأنه لا متمسك لهم ،

= قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : متى الساعة ؟

قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْم فى البنيان . فى خمس لا يعلمهنّ إلا الله » .

ثم تلا النبىّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية .

ثم أدبر .

فقال « ردوه » .

فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلّم الناس دينهم » .

كمن يقلدهم فيحق الحق ويبطل الباطل « فَإِنْ شَهِدُوا » أى: بعد حضورهم بأن الله حرم هذا « فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ » أى : فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لما علمت من افترائهم على الله ومشيهم مع أهويتهم .

وفى (العناية) : (فَلَا تَشْهَدْ) استعارة تبعية . وقيـل مجاز مرسل ، من ذكر اللازم وإرادة الملزوم. لأن الشهادة من لوازم التسليم. وقيل كناية . وقيل مشاكلة . « وَلَا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » من وضع المظهر موضع المضمر ، للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره ، أى سوَّى به الأصنام، فهو متبع للهوى لا غير . لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات، موحّداً لله تعالى .

ولما بيّن تعالى فساد ما ادعوا من أن إشراكهم وإشراك آبائهم وتحريم ما حرموه ، بأمر الله ومشيئته ، بظهور عجزهم عن إبراز ما يتمسك به فى ذلك ، وإحضار شهداء يشهدون بذلك، بعد ما كافوه مراراً ــ أمر الرسولَ بأن يبين لهم من المحرمات مايقتضى الحال بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

فقال تعـالى « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » من الأوثان « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » أى : وأحسنوا بالوالدين إحسانا . قال الحاكم :

والإحسان ما يخرج عن حد العقوق ، ومثل هذا قوله تعالى : وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا[١] .
ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لترك الإحسان ، ذكر فى المحرمات . وكذا حكم ما بعده من الأوامر . فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهى عن ضده . بل هو عينه عند البعض . كأن الأوامر ذكرت وقُصِدَ لوازمها ، ومن سر ذلك هنا ـ أعنى وضع (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) موضع (النهى عن الإساءة إليهما) ـ المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ، بخلاف غيرهما . « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ » أى من أجل فقر ، ومن خشيته . والمراد بالقتل : وأد البنات وهن أحياء ، وكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية . فنهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » لأن رزق العبيد على مولاهم « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ » يعنى : الزنى لقوله : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً[٢] ؛ وإنما جئ بصيغة الجمع قصداً إلى النهى عن أنواعه أو مبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر منه « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » يعنى : علانيته وسره « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى قتلها لإيمانها أو أمانها « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالعدل . يعنى بالقود والرجم والارتداد « ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ » تلطفاً ورأفة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » يعنى : لتعقلوا عظمها عند الله تعالى فتكفوا عن مباشرتها .

قال (المهايمىّ) : فالشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد للفقر ، منشؤه الجهل بما فى الشرك من استهانة المنعم بالإيجاد ، وبما فى الإساءة إلى الأبوين من مقابلة الإحسان بالإساءة ، وقربان الفواحش من متابعة الهوى ، والقتل من متابعة الغضب ؛ وكلها أضداد العقل .

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

تنبيه :

قال بعض (الزيدية) : قوله تعالى (مِنْ إِمْلَاقٍ) خرج على العادة . وإلا فهو محرم ، خشى الفقر أم لا . وقد دلت على تحريم قتل الأولاد .

قال (الحاكم) : فيدخل فى ذلك شرب الدواء لقتل الجنين . قال الإمام (يحيى) : إذا نفخ فيه الروح دون إفساد النطفة والعلقة والمضغة قبل أن ينفخ فيها الروح . وفى (الأحكام) يجب على من انقطع حيضها أن توقى من الأدوية مايخاف على الجنين منها، إذا كانت من ذوات البعول . وفى قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأكيد للزوم ماتقدم . انتهى .

لطيفة :

قال القاشانىّ : لما كان الكلام مع المشركين فى تحريم الطيبات ، عدّد المحرمات ليستدل بها على المحللات. فحصر جميع أنواع الفضائل بالنهى عن أجناس الرذائل . وابتدأ بالنهى عن رذيلة القوة النطقية التى هى أشرفها . فإن رذيلتها أكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل . بخلاف رذيلة أخويها من القوتين البهيمية والسبعية . فقال (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) إذ الشرك من خطئها فى النظر ، وقصورها عن استعمال العقل ودرك البرهان . وعقبه بإحسان الوالدين . إذ معرفة حقوقهما تتلو معرفة الله فى الإيجاد والربوبية . لأنهما سببان قريبان فى الوجود والتربية . وواسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتى إيجاده وربوبيته . ولهذا قال (من أطاع الوالدين فقد أطاع الله ورسوله) فعقوقهما يلى الشرك ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق الله تعالى ومعرفة صفاته . ثم بالنهى عن قتل الأولاد خشية الفقر . فإن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسبيبه تعالى الرزق لكل مخلوق ، وأن أرزاق العباد بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . والاحتجاب عن سر القدر، فلا يعلم أن الأرزاق مقدرة بإزاء الأعمار كتقدير الآجل . فأولاها لا تقع إلا من خطئها فى معرفة ذات الله تعالى . والثانية من خطئها فى معرفة صفاته . والثالثة من معرفة أفعاله . فلا

يرتكب هذه الرذائل الثلاث إلا منكوس محجوب عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ؛ وهذه الحجب أمُّ الرذائل وأساسها . ثم بيّن رذيلة القوة البهيمية لأن رذيلتها أظهر وأقدم فقال : (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ) ، ثم أشار إلى رذيلة القوة السبعية بقوله : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ) . الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ » أى : بوجه من الوجوه « إِلَّا بِالَّتِي » أى : بالخصلة التى « هِيَ أَحْسَنُ » يعنى أنفع له . كتثميره أو حفظه أو أخذه قرضاً . لا بأكله ، وإنفاقه فى مآربكم وإتلافه ، فإنه أفحش . وقد ذكرنا طرفاً فيما رخص فيه لوليّ اليتيم أو وصيه فى قوله تعالى فى سورة النساء (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)(١) وقد روى (أبو داود)(٢) عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ . الآية ، و: إِنَّ

---

(١) [٤ / النساء / ٦] ونصها : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ، وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٧ ـ باب مخالطة اليتيم فى الطعام ، حديث ٢٨٧١ .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ... (١) الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) (٢) فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . قيل : إنما خص تعالى مال اليتيم بالذكر ، لكونه لا يدفع عن نفسه ولا عن ماله هو ولا غيره. فكانت الأطماع في ماله أشد . فعزم في النهي عنه لأنه حماه ومقدمته، وأمر بتنميته. « حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » أي قوته التي يقدر بها على حفظه واستنمائه ، وهذا غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي، كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً . فحينئذ سلموه إليه كما في قوله تعالى : فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . والأشد جمع (شدة) كنعمة وأنعم ، أو شَدّ ككلب وأكلب، أو شد كصِرّ وآصُر. وقيل هو مفرد كآنك « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أي بالعدل والتسوية في الأخذ والإعطاء. وقد توعد تعالى على تركه في قوله (٣) : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

قال ابن كثير : وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال. روى الترمذيّ (٤) عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لأصحاب الكيل والميزان) : إنكم

---

(١) [٤ / النساء / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، . . . وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٨٣ / المطففين / ١ـ٦] .

(٤) أخرجه الترمذيّ في : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٩ ـ باب ما جاء في المكيال والميزان.

وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم . ثم ضعفه وصحح وقفه على ابن عباس . وروى نحوه ابن مردويه مرفوعا، ولفظه : إنكم معشر الموالى قد بشركم الله بخصلتين ، بهما هلكت القرون المتقدمة : المكيال والميزان .

« لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا » أى:عند الكيل والوزن «إِلَّا وُسْعَهَا» أى: جهدها بالعدل. وهذا الاعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل ، لبيان أن مراعاة الحدّ من القسط ، الذى لازيادة فيه ولا نقصان ، مما يجرى فيه الحرج ، لصعوبة رعايته . فأمر ببلوغ الوسع ، وأن الذى ما وراءه معفوّ عنه . وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيّب قال : قال رسول الله ﷺ : (أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلاوسعها) : من أوفى على يده فى الكيل والميزان، والله أعلم بصحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ .

قال ابن المسيّب : وذلك تأويل (وسعها) .

قال ابن كثير : هذا مرسل غريب .

وفى (العناية) : يحتمل رجوع قوله تعالى (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) إلى ماتقدم. أى جميع ماكلفناكم ممكن، ونحن لانكلف ما لايطاق . انتهى. والأول أولى .

« وَإِذَا قُلْتُمْ » أى: فى حكومة أو شهادة ونحوهما «فَاعْدِلُوا» أى : فيها . أى: لاتقولوا إلا الحق « وَلَوْ كَانَ » أى: المقول له أو عليه « ذَا قُرْبَىٰ » أى: ذا قرابة منكم. فلا تميلوا فى القول له أو عليه ، إلى زيادة أو نقصان .

قال بعض الزيدية : معنى قوله تعالى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) أى اصدقوا فى مقالتكم . قال : وهذه اللفظة من الأمور العجيبة فى عذوبة لفظها وقلة حروفها وجمعها لأمور كثيرة من الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والفتاوى والأحكام والمذاهب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك ، وبين أنه يلزم العدل فى القول، ولوكان المقول له ذا قربى . كقوله تعالى[1] : (وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) .

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ =

«وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا» أى: ماعهدإليكم من الأمور المعدودة، أو أىّ عهدكان. فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليًّا . أوماعاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور « ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ما ذكر فى هذه الآيات « وَصَّاكُمْ بِهِ » أى أمركم بالعمل به فى الكتاب « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون . وفى قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأكيد آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ » يقرأ بفتح همزة (أن) والتشديد. ومحلها مع مافى حيزها الجرّ بحذف لام العلة . أى: ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأمر والنهى طريقى ودينى الذى ارتضيته لعبادى قويمًا لا اعوجاج فيه، فاعملوا به. وجوز أن يكون محلها مع مافى حيزها النصب على (ما حرم) أى : وأتلو عليكم أن هذا صراطى . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف . « وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ » يعنى الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات « فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » أى: فتفرقكم عن صراطه المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده . روى الإمام (أحمد)[(١)] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه

= شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٤١٤٢ (طبعة المعارف) .

سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً.. الآية. ورواه (الحاكم) وصححه.

لطائف

قال الكيا الهراسيّ : فيالآية دليل على منع النظر والرأى ، مع وجود النص .

قال ابن كثير : إنما وحّد (سبيله) لأن الحق واحد ولهذا جمع (السبل) لتفرقها وتشعبها. كما قال تعالى[1]: اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .

قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات، من أهل الأهواء والشذوذ فيالفروع، وغير ذلك من أهل التعمق فيالجدل والخوض فيالكلام . وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

قال قتادة : اعلموا أن السبيل سبيل واحد . جماعة الهدى ، ومصيره الجنة . وأن إبليس استبدع سبلا متفرقة . جماعة الضلالة ، ومصيرها إلى النار . وروى[2] عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وفي قوله: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ونحو هذا في القرآن، قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة. وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله .

« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ماذكر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل «وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى اتباع سبل الكفر والضلالة . وفيه تأكيد أيضا . روى[3] الترمذيّ وحسنه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

(٢) الأثر رقم ١٤١٦٦ من تفسير ابن جرير .

(٣) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٧ ـ حدثنا الفضل بن الصباح البغداديّ .

الله ﷺ التى عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ـ إلى قوله ـ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وروى الحاكم ، وصححه عن ابن عباس قال : فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب. ثم قرأ : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآيات .

وروى الحاكم وصححه، وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) حتى فرغ من ثلاث آيات. ثم قال : ومن وفى بهن فأجره على الله . ومن انتقص منهن شيئاً ، فأدركه الله فى الدنيا ، كانت عقوبته . ومن أخره إلى الآخرة، كان أمره إلى الله. إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه .

لطيفة :

قال النسفىّ : ذكر أولاً (تَعْقِلُونَ) ثم (تَذَكَّرُونَ) ثم (تَتَّقُونَ) لأنهم إذا عقلوا تفكروا ، ثم تذكروا ، أى اتعظوا ، فاتقوا المحارم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

« ثُمَّ ءَاتَيْنَا » أى : أعطينا « مُوسَى الْكِتَابَ » يعنى التوراة «تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ» يقرأ بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله إما ضمير (الَّذِى) أى : تماماً للكرامة والنعمة على الذى أحسن. أى: على من كان محسنا صالحاً. يريد جنس المحسنين. وتدل عليه قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) وإما ضمير موسى عليه السلام ومفعوله محذوف . أى: تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل ما أمر به . أو تماماً على الذى أحسن موسى من العلم والشرائع . من (أحسن الشىء) إذا أجاد معرفته، أى زيادة على علمه على وجه التتميم.

وعلى الأول ، فـ(تماماً) فى موقع المفعول له . وجاز حذف اللام لـكونه فى معنى (إتماماً) أو مصدر لقوله(ءاتَيْنَا)من معناه. لأن إيتاء الـكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً. فـ(تمام) بمعنى (إتمام) كنبات فى قوله تعالى : وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. أو(أصله إيتاء تمام). وعلى الوجه الثانى هو حال من الـكتاب . وقرأ يحيى بن يعمر (عَلَى الَّذِىٓ أَحْسَنُ) بالرفع أى: على الذى هو أحسن ، أو على الوجه الذى هو أحسن ما يكون عليه الـكتب. فـ(تماماً) حال من الـكتاب بمعنى (تاما) أى حال كون الـكتاب تامًّا كائنًا على أحسن ما يكون .

قال ابن جرير : هذه قراءة لا أستجيز القراءة بها . وإن كان فى العربية لها وجه صحيح .
« وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ » أى: وبياناً مفصلًا لـكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى الدين « وَهُدًى » لهم إلى ربهم فى سلوك سبيله « وَرَحْمَةً » عليهم بإفاضة الفوائد « لَعَلَّهُمْ » أى: أهل الـكتاب « بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ » يصدقون بلقائه للجزاء .

لطيفة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (ثُمَّ ءَاتَيْنَا) مَن قال إن (ثمّ) لا تفيد الترتيب . انتهى .

قال ابن كثير و (ثُمَّ) ههنا لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب كما قال الشاعر :

قل لمن سَادَ ثمَّ سَادَ أَبُوهُ ثمّ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهْ

وقال (أبو السعود) : و (ثُمَّ) للتراخى فى الأخبار كما فى قولك : بلغنى ما صنعت اليوم، ثم ما صنعتَ أمسِ أعجبُ . أو للتفاوت فى الرتبة كأنه قيل : ذلـكم وصاكم به قديماً وحديثاً. ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة. فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها ، أعظم من التوصية بها فقط . انتهى .

ثم أشار إلى أن التوراة، وإن كانت تماماً على النهج الأحسن ، فالقرآن أتم منه وأزيد حسنا. فهو أولى بالمتابعة، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَهَـٰذَا » أى: القرآن « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أكثر نفعاً من التوراة ديناً ودنيا « فَاتَّبِعُوهُ » أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام « وَاتَّقُوا » يعنى مخالفته واتباع غيره لكونه منسوخاً به « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى : لترحموا بواسطة اتباعه، وهو العمل بما فيه . وفيه إشارة إلى أنه لا رحمة بمتابعة المنسوخ وإن آمن صاحبها بلقاء ربه .

قال بعض الزيدية : وفى قوله تعالى (فَاتَّبِعُوهُ) دلالة على وجوب تعلم القرآن ليمكن الاتباع له . لكن هو كسائر العلوم فرض كفاية إلا ما يتعين على كل مكلف ، كتعلم ما لا تصح الصلاة إلا به ، فإنه يجب عليه . انتهى.

لطيفة :

قال ابن كثير : إنه تعالى كثيرًا مايقرن بين الكتابين كقوله: وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا[١] ، وقوله أول السورة : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ[٢] ، ثم قال : وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... الآية[٣] ،

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام/ ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٩٢] ونصها: وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي =

وقوله تعالى مخبرًا عن المشركين : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ(١) . وقوله تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... الآية(٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

« أَن تَقُولُوا » علة لـ (أَنزَلْنَاهُ) . أى : كراهة أن تقولوا يوم القيامة . أو لئلا تقولوا « إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا » اليهود والنصارى « وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ » عن تلاوة كتابهم « لَغَافِلِينَ » لا علم لنا بشيء منها لأنها ليست بلغتنا .

قال أبوالسعود : ومرادهم بذلك دفع مايرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافى عموم أحكامه. فلِمَ لَمْ تعملوا بأحكامه العامة ؟ والمعنى : وإن كنا لا ندرى ما فى كتابهم ، إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقى منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها ، وإن لم يكن منزلًا علينا . وبهذا تبين أن معذرتهم هذه ، مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالها على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم ، كما أن قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتماله أيضاً عليها ، لا على سائر الشرائع والأحكام فقط . انتهى .

= بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨] ... أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٠] ... يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ، سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

« أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ » أى : كما أنزل عليهم « لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ » أى : إلى الحق وأسرع منهم إجابة للرسول لمزيد ذكائنا وجدّنا فى العمل « فَقَدْ جَاءَكُمْ » . قال أبو السعود : متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة ، إما معلل به ، أى : لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم . وإما شرط له . أى : إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم ، فقد حصل ما فرضتم وجاءكم « بَيِّنَةٌ » أى : كتاب حجة واضحة « مِنْ رَبِّكُمْ » متعلق بـ (جَاءَكُمْ) أو بمحذوف صفة لـ (بَيِّنَةٌ) أى : بينة كائنة منه تعالى ، لا يتوهم فيه السحر « وَهُدًى » بإقامة الدلائل ورفع الشبه « وَرَحْمَةٌ » بإفاضة الفوائد وتسهيل طريقكم وتيسيرها إلى أشرف الكمالات « فَمَنْ أَظْلَمُ » . قال أبو السعود : الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . فإن مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه . أى : وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم « مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا » أى : صرف الناس وصدّهم عنها . فجمع بين الضلال والإضلال . والمعنى إنكار أن يكون أحد أظلم منه أو مساوياً له « سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ » الناس « عَنْ آيَاتِنَا » أى : التى لو لم يصدفوا عنها لعرفوا إعجازها « سُوءَ الْعَذَابِ » أى : العذاب السيء « بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ » وهذا كقوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ(١) .

---

(١) [١٦ / النحل / ٨٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ » يعنى قد أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما كانوا يعتقدون من الضلالة . فما ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدّهم عن آيات الله ؟

قال البيضاوىّ : يعنى أهل مكة . وهم ما كانوا منتظرين لذلك . ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر ، شبهوا بالمنتظرين . « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ » يعنى للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة .

قال ابن كثير : وذلك كائن يوم القيامة . وقد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقرة عند قوله تعالى(١) : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ، بمافيه كفاية .

ومذهب السلف : إمرار ذلك بلا كيفٍ ، كما مرّ مرارًا .

قيل : إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . أى : ملائكة الموت لقبض أرواحهم « أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ » وذلك قبل يوم القيامة ، كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئًا من ذلك . كما روى البخارىّ(٢) فى تفسير هذه الآية عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٩ ـ باب قوله: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ .

من عليها . فذاك حين لاينفع نفساً إيمانها لم تـكن آمنت من قبل . ورواه مسلم أيضاً[١] ، ولمسلم[٢] والترمذىّ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تـكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض. « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ » صفة (نَفْسًا) « أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » عطف على (ءَامَنَتْ) والمعنى أن بعض أشراط الساعة إذا جاء ، وهى آية ملجئة مضطرة ، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات . أو مقدمة الإيمان غير كاسبة فى إيمانها خيرًا لفسقها . فتوبتها حينئذ لا تجدى .

قال الطبرىّ : معنى الآية لا ينفع كافرًا لم يكن آمن قبل الطلوع ، إيمانٌ بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع ، عملٌ صالح بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ، حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[٣] . وكما ثبت فى الحديث الصحيح[٤] : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . انتهى .

وبالجملة : فالمعنى أنه لا ينفع من كان مشركًا إيمانُه . ولا تقبل توبة فاسق عنـــد ظهور هذه الآية العظيمة التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة . وذلك لذهاب زمن التكليف .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٩ (طبعتنا) .

(٣) [٤٠ / غافر / ٨٥] . . . سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٩٨ـ باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات ، وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية ، كما قبل منه قبل ذلك . فأما من آمن من شركٍ أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية ، فلا يقبل منه . لأنها حالة اضطرار . كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا . فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك ، لمعاينتهم الأهوال والشدائد ، التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه . فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً فى عمله ، فهو بخير عظيم . وإن لم يكن مصلحاً ، فأحدث توبة حينئذ ، لم تقبل منه توبته . كما دلت عليه الأحاديث . وعليه يحمل قوله تعالى (أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أى : لا يقبل منها كسب عمل صالح ، إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك . انتهى .

والأحاديث المشار إليها ، منها ما رواه (مسلم)(١) عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى (الترمذىّ)(٢) وصححه

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٩٨ ـ باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ونصه :

عن زرّ بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادىّ أسأله المسح على الخفين . فقال : ما جاء بك يا زرّ ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً عما يطلب . فقلت : إنه حكّ فى صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنتَ امرءًا من أصحاب النبىّ ﷺ . فجئت أسألك : هل سمعته يذكر فى ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا كنا سَفْرًا (أو مسافرين) أن لاننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهنّ إلا من جنابة. لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعتَه يذكر فى الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا =

عن صفوان بن عسال المرادىّ قال : قال رسول الله ﷺ : بابٌ من قِبَل المغرب مسيرة عرضه (أو قال يسير الراكب فى عرضه) أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض . مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه . ولأبى داود(١) والنسائىّ من حديث معاوية رفعه : لا تزال تقبل التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

قال ابن حجر : سنده جيد . وأخرجه أحمد(٢) والدارمىّ(٣) وعبد بن حميد من حديثه أيضاً

= مع النبىّ ﷺ فى سفر ، فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابىّ بصوت له جهورىّ : يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » .

وقلنا له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبىّ ﷺ ، وقد نُهيتَ عن هذا . فقال : والله ، لاأغضض . قال الأعرابىّ : المرء يحب القوم ولمّا يلحق بهم ؟ قال النبىّ ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » . فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة سبعين عاماً ، عرضه (أو يسير الراكب فى عرضه) أربعين أو سبعين عاما .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام . خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً . (يعنى للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢ ـ باب فى الهجرة هل انقطعت ؟ حديث رقم ٢٤٧٩ ونصه :

عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه كما جاء فى أبى داود .

(٣) أخرجه الدارمىّ فى : ١٧ ـ كتاب السير ، ٧٠ ـ باب إن الهجرة لا تنقطع .

بلفظ : لاتنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . وروى الإمام أحمد عن ابن السعدىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : لاتنقطع الهجرة مادام العدوّ يقاتَل. فقال معاوية وعبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبىّ ﷺ قال : إن الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله. ولا تنقطع ماتُقُبِّلَتِ التوبة . ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب. فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلب بما فيه، وكُفِىَ الناسُ العملَ.

قال ابن كثير : هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

وَهٰهُنا مسائل

الأولى : ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) فى الآية هو طلوع الشمس من مغربها . كما فى حديث الصحيحين[١] السابق . ولا يقال يخالف ذلك حديث مسلم[٢] : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها . . . الحديث . وفى ثبوت ذلك بخروج الدجال نظر . لأن نزول عيسى ﷺ بعده. وفى زمنه خير كثير دنيوىّ وأخروىّ. فالإيمان مقبول وقتئذ . لأنا نقول: لا منافاة . وذلك لأن (البعض) فى الآية، إن كان عدة آيات ، فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول، وإن كان إحدى آيات ، فهو محمول على المبيّن فى الحديث، لأنه أعظمها. كذا فى (العناية) .

قال ابن عطية : إذا أخبر النبىّ ﷺ بتخصيص مانع القبول بالطلوع، فى الحديث الصحيح، لم يجز العدول عنه ، وتعيّن أنه معنى الآية . انتهى .

وقال القاضى عياض : المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك . بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التى هو عليها . والحكمة فى ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوىّ . فإذا

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٧٧و٢٥٧٨ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٧٨ .

شوهد ذلك حصل الإيمان الضروري بالمعاينة . وارتفع الإيمان بالغيب . فهو كالإيمان عند الغرغرة . وهو لا ينفع . فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله .

الثانية : قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان لا ينفع مع عدم كسب الخير فيه . وهو مردود . ففي الكلام تقدير . والمعنى : لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبلُ ، إيمانُها حينئذ ، ولا ينفع نفساً لم تكسب خيرًا قبلُ ، توبتُها حينئذ .

وقال الشهاب السمين : قد أجاب الناس بأن المعنى في الآية إنه إذا أتى بعض الآيات لا ينفع نفساً كافرة، إيمانُها الذي أوقعته إذ ذاك . ولا ينفع نفساً سبق إيمانها ولم تكسب فيه خيرًا . فقد علق نفي نفع الإيمان بأحد وصفين : إما نفي سبق الإيمان فقط ، وإما سبقه مع نفي كسب الخير . ومفهومه أنه ينفع الإيمان السابق وحده ، وكذا السابق ومعه الخير . ومفهوم الصفة قويّ فيستدل بالآية لمذهب أهل السنة . ويكون فيه قلب دليل المعتزلة ، دليلًا عليهم .

وأجاب ابن المنير في (الانتصاف) فقال : هذا الكلام من البلاغة يلقب (اللف) وأصله : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة قبلُ ، إيمانُها بعدُ . ولا نفساً لم تكسب خيرًا قبلُ ، ما تكتسبه من الخير بعدُ ، فَلَفَّ الكلامين فجعلهما كلامًا واحدًا إيجازًا . وبهذا التقرير يظهر أنها لا تخالف مذهب أهل الحق . فلا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ولو نفع الإيمان المتقدم من الخلود . فهي بالرد على المعتزلة أولى من أن تدل لهم .

وقال ابن الحاجب في (أماليه) : الإيمان قبل مجيء الآية نافع ولو لم يكن عمل صالح غيره، ومعنى الآية : لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح، لم يكن الإيمان قبل الآية ، أو لم يكن العمل مع الإيمان قبلها . فاختصر للعلم .

ونقل الطيبيّ كلام الأئمة في ذلك . ثم قال : المعتمد ما قال ابن المنير وابن الحاجب. وبسطه:

أن الله تعالى ، لما خاطب المعاندين بقوله تعالى (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ . .)(١) الآية، علل الإنزال بقوله (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ)(٢) الخ إزالة للعذر وإلزاما للحجة . وعقبه بقوله (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ) الخ تبكيتا لهم وتقريرا لما سبق من طلب الاتباع . ثم قال (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ ..)الآية أى أنه أنزل هذا الكتاب المنير كاشفاً لكل ريب وهاديا إلى الطريق المستقيم ورحمة من الله للخلق، ليجعلوه زادا لمعادهم فيما يقدمونه من الإيمان والعمل الصالح. فجعلوا شكر النعمة أن كذبوا بها ومنعوا من الانتفاع بها . ثم قال (هَلْ يَنْظُرُونَ ...) الآية . أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم عذاب الدنيا بنزول الملائكة بالعقاب الذى يستأصل شأفتهم. كما جرى لمن مضى من الأمم قبلهم . أو يأتيهم عذاب الآخرة بوجود بعض قوارعها . فحينئذ تفوت تلك الفرصة السابقة فلا ينفعهم شىء مما كان ينفعهم من قبلُ من الإيمان . وكذا العمل الصالح مع الإيمان . فكأنه قيل : يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح فى إيمانها حينئذ ، إذا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا من قبل. ففى الآية لف . لكن حذفت إحدى القرينتين بإعانة النشر ، ونظيره قوله تعالى(٣) : وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً .

قال : فهذا الذى عناه ابن المنير بقوله : إن هذا الكلام فى البلاغة يقال له (اللف) والمعنى يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة من قبل ذلك، إيمانُها من بعد ذلك ،

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٥] . . . وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦] . . . عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٧٢] ونصها : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، . . .

ولا ينفع نفساً كانت مؤمنة، لكن لم تعمل فى إيمانها عملا صالحاً قبل ذلك، ما تعمله من العمل الصالح بعد ذلك. قال : وبهذا التقرير يظهر مذهب أهل السنة . فلا ينفع بعد ظهور الآية اكتساب الخير ، أى: لإغلاق باب التوبة ورفع الصحف والحفظة . وإن كان ما سبق قبل ظهور الآية من الإيمان ينفع صاحبه فى الجملة .

ثم قال الطيبي : وقد ظفرتُ ، بفضل الله بعد هذا التقرير ، على آية أخرى تشبه هذه الآية وتناسب هذا التقرير معنى ولفظاً . من غير إفراط ولا تفريط . وهى : قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ... (١) الآية . فإنه يظهر منه أن الإيمان المجرد قبل كشف قوارع الساعة نافع . وأن الإيمان المقارن بالعمل الصالح أنفع . وأما بعد حصولها فلا ينفع شيء أصلا. والله أعلم. انتهى ملخصاً .

الثالثة : قال فى (الوجيز) فى قوله تعالى (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) أى لفصل القضاء بين خلقه. وإتيانه نؤمن به ولا نعرف كيفه . انتهى .

وفى حواشى (جامع البيان) : كيف لا يؤمن بإتيانه ومجيئه تعالى يوم القيامة، وقد جاء فى القرآن فى عدة مواضع : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ (٢). وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٣). إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ (٤)، وأى أمر أصرح منه فى القرآن ؟ .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٢و٥٣] ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة/ ٢١٠] ... وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

(٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [١٦/ النحل/٣٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

وروى الطبرى[1] فى (تفسيره) عن ابن عباس مرفوعا : إن فى الغمام طاقات يأتى الله فيها، محفوفاً . وذلك قوله[2] : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ .

قال عكرمة : والملائكة حوله، فهذا من صفات الله تعالى. يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت وإن لم نعرف كيفيتها . وعدم علمنا بكيفيتها ، بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته . فلا نكذب بما علمناه لعدم علمنا بما لم نعلمه . وهذا هو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة . انتهى .

وقوله تعالى « قُلِ انْتَظِرُوا » أى: قل لهؤلاء الكافرين، بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شيء تنتظرون . « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أى لذلك ، لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة .

ثم بيّن تعالى أحوال أهل الكتاب ، إثْرَ بيان حال المشركين بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أى : اختلفوا فيه ، مع وحدته فى نفسه ، فجعلوه أهواء متفرقة « وَكَانُوا شِيَعًا » أى : فرقاً تشيع كل فرقة إماما لها بحسب غلبة تلك الأهواء . فلم يتعبدوا إلا بعادات وبدع، ولم ينقادوا إلا لأهواء وخدع « لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » أى : من عقابهم . أو أنت برىءٌ منهم محمىّ الجناب عن مذاهبهم . أو المعنى : اتركهم فإن لهم مالهم. وقال القاشانىّ : أى: لست من هدايتهم إلى التوحيد فى شىء . إذ هم أهل التفرقة

---

(١) الأثر رقم ٤٠٣٨

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٠] ... وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

لايجتمع همهم ولا يتحد قصدهم « إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ » أي: في جزاء تفرقهم ومكافأتهم، لا إليك « ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ » يعني إذا وردوا يوم القيامة « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أي : من السيئات والتفرقة ، لمتابعة الأهواء . ويجازيهم على ذلك بما يماثل أفعالهم .

تنبيه :

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدّيّ : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى . وروى العوفيّ عن ابن عباس في الآية؛ أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتفرقوا . وحمل بعضهم الآية على أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة . وآخر على الخوارج . وأسندوا في ذلك حديثاً رفعوه .

قال ابن كثير : وإسناد ذلك لا يصحّ . ثم قال : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له . فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برّأ رسولَ الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...)[1] الآية. وفي الحديث[2] نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلّات . ديننا واحد. فهذا هو الصراط المستقيم،

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . . . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « أنا أولى الناس بابن مريم . والأنبياء أولاد عَلّات . ليس بيني وبينه نبيّ » .

وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لاشريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر. وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء . والرسل برءاء منها كما قال الله تعالى : لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ؛ ثم قال : وقوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) كقوله تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(١) الآية. انتهى .

وقد أخرج أبو داود (٢) عن معاوية قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ألا إنّ مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة . وإن هـذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين. ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة . ورواه الترمذىّ عن عبد الله بن عمْرو ، وفيـه : قالوا من هى يا رسول الله ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابى .

ثم بين لطفه سبحانه فى حكمه وعدله يوم القيامة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » أى جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة « فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » يعنى عشر حسنات أمثالها فى الحسن .

قال (المهايمىّ) : كمن أهدى إلى سلطان عنقود عنب يعطيه بما يليق بسلطنته ، لا قيمة

---

(١) [٢٢ / الحج/ ١٧] . . . إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١ ـ باب شرح السنة ، حديث رقم ٤٥٩٧ .

المنقود. انتهى . والعشر أقل ماوعد من الأضعاف. وقد جاء الوعد بسبعين ، وبسبعمائة وبغير حساب . ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ » أى: بالأعمال السيئة « فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا » فى القبح .

قال المهايمى : فمن كفر خلد فى النار ، فإنه ليس أقبح من كفره . كمن أساء إلى سلطان يقصد قتله . ومن فعل معصية عذب بقدرها كمن أساء إلى آحاد الرعية . انتهى .

« وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى : بنقص الثواب وزيادة العقاب.

لطيفة :

قال القاشانى فى قوله تعالى (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) : هذا أقل درجات الثواب . وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب والسيئة بظهور النفس . فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب الذى يتلو مقام النفس فى الارتقاء، تلو مرتبة العشرات للآحاد فى الأعداد . وأما فى السيئة فلأنه لامقام أدون من مقام النفس، فينحط إليه بالضرورة . فيرى جزاءه فى مقام النفس بالمثل . ومن هذا يعلم أن الثواب من باب الفضل . فإنه يزيد به صاحبه ويتنور استعداده ويزداد قبوله لفيض الحق. فيتقوى على أضعاف مافعل ويكتسب به أجورًا متضاعفة إلى غير نهاية ، بازدياد القبول على فعل كل حسنة وزيادة القدرة والشغف على الحسنة عند زيادة الفيض إلى ما لا يعلمه إلا الله . كما قال بعد ذكر أضعافها إلى سبعمائة : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ(١) . وأن العقاب من باب العدل إذ العدل يقتضى المساواة. ومن فعل بالنفس، إذا لم يعف عنه ، يجازى بالنفس سواء . انتهى .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تنبيه :

وردت أحاديث كثيرة فى معنى الآية . فروى الإمام أحمد[١] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ، فيما يروى عن ربه تعالى : إن ربكم تبارك وتعالى رحيم . من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ولا يهلك على الله إلا هالكٌ. ورواه البخارىّ[٢] ومسلم[٣] والنسائىّ. وروى الإمام[٤] أحمد ومسلم[٥] عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أو أزيد . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أوأغفر . ومن تقرب منى

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٥١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق، ٣١ ـ باب من همّ بحسنة أو سيئة ، حديث ٢٤٣٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه بالكامل :

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها ، أو أَغْفِرُ . ومن تقرّب منى شبرًا ، تقربت منه ذراعا . ومن تقرب منى ذراعا ، تقرّبت منه باعا . ومن أتانى يمشى، أتيته هرولة . ومن لقينى بقُرَاب الأرض (قراب الأرض ما يقارب مِلأها) خطيئة ، لا يشرك بى شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة » .

شبرًا تقربت منـــه ذراعاً . ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً . ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بى شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة . وروى الشيخان[1] عن أبى هريرة . أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة . لفظ البخارىّ . وروى الطبرانىّ عن أبى مالك الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام . وذلك لأن الله تعالى قال : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . وروى[2] الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله. ورواه النسائىّ والترمذىّ وزاد: فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، اليوم بعشرة أيام .

وبقيت أخبار أخر . وفيما ذكر كفاية .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر أولئك المفرقين دينهم بما أنعم سبحانه عليه، من إرشاده إلى دينه القويم بقوله:

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ ، حديث ٢٦٠١ .

وأخرج فى معناه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده المخلصين « دِينًا » نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأن معناه هدانى صراطاً. بدليل قوله (وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)(١) أومفعول لمضمر يدل عليه المذكور . أى عرفنى ديناً . أو مفعول (هدانى) . و (هدى) يتعدى إلى اثنين « قِيَمًا » صفة (دِينًا) يقرأ بالتشديدأى: ثابتاًأبداً لاتغيره المللوالنحل، ولاتنسخه الشرائع والكتب، مقوماً لأمرالمعاش والمعاد . ويقرأ بالتخفيف على أنه مصدر نعت به . وأصله قِوَم كَعِوَض . فَأُعِلَّ لإعلال فعله كالقيام . « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » المتفق على صحتها وهى التى أعرض بها عن كل ما سواه تعالى . عطف بيان لـ (دِينًا) « حَنِيفًا » حال من (إِبْرَاهِيمَ) أى مائلًا عن كل دين وطريق باطل ، فيه شركٌ ما ، وقوله تعالى « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » اعتراض مقررلنزاهته عليهالسلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل . أى ما كان منهم فى أمر منأمور دينهم أصلًا وفرعاً. صرح بذلك رداً على الذين يدعون أنهم على ملته من مشركى مكة واليهود والنصارى. أفادهأبو السعود .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية كقوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(٢) وليس يلزممن كونه أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية،

(١) [٤ / النساء / ١٧٥] ونصها : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها. لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً ، وأكملت له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال. ولهذا قال : أنا خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذى يرغب إليه الخلق، حتى الخليل عليه السلام . وروى ابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا وملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . وروى الإمام أحمد(١) عن ابن عباس قال قيل لرسول الله ﷺ : أىّ الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الحنيفية السمحة . وروى الإمام أحمد(٢) عن عائشة قالت : وضع رسول الله ﷺ ذقنى على منكبيه لأنظر إلى زَفْنِ الحبشة . حتى كنت التى مللت ، فانصرفت عنهم . وقالت عائشة: قال لى رسول الله ﷺ يومئذ: ليعلم يهود أن فى ديننا فسحة. إنى أرسلت بحنيفية سمحة .

وأعيد الأمر فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِى » لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع، وما سبق بأصولها . أى : إن صلاتى إلى الكعبة « وَنُسُكِى » أى : طوافى وذبحى للهدايا فى الحج والعمرة ، أو عبادتى كلها « وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى » أى : وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح . أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات، كالوصية والتدبير . أو الحياة والممات أنفسهما « لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢١٠٧ (طبعة المعارف)

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

« لَا شَرِيكَ لَهُ » أى : خالصة لله لا أشرك فيها غيره « وَبِذَٰلِكَ » أى : القول أوالإخلاص « أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » أى: من هذه الأمة . لأن إسلام كل نبىّ متقدم على إسلام أمته .

قال ابن كثير : يأمر تعالى نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى ويذبحون لغير اسمه ؛ أنه مخالف لهم فى ذلك . فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا » فأشركه فى عبادته . وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة والسلام إلى عبادة آلهتهم ، وفى إيثار نفى البغية والطلب ، على نفى العبادة ، أبلغية لا تخفى « وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ » حال فى موضع العلة للإنكار والدليل له . أى وكل ماسواه مربوب مثلى لا يصلح للربوبية ، فلا أكون عبداً لعبده .

قال ابن كثير : أى فلا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه . لأنه رب كل شىء ومليكه وله الخلق والأمر . ففى هذه الآية الأمر بإخلاص العبادة والتوكل . كما تضمنت الآية التى قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا . كقوله تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . وقوله[1]: فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ.

---

(١) [١١ / هود / ١٢٣] .

وقوله (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)(١) وقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)(٢) وأشباه ذلك من الآيات .

« وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » .

قال ابن كثير: إخبار عن الواقع يوم القيامة من جزاء الله تعالى وحكمه وعدله؛ أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد . وهذا من عدله تعالى .

وقال أبو السعود : كانوا يقولون للمسلمين : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . إما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم ، وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا ـ فهذا رد له بالمعنى الأول . أي لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها . ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر ، حتى يتأتى ما ذكرتم . وقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) رد له بالمعنى الثانى . أى : لا تحمل يومئذ نفس حاملة، حمل نفس أخرى، حتى يصح قولكم .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى أنه لا يؤاخذ أحد بفعل أحد . وقد ردت عائشة به على من قال : إن الميت يعذب ببكاء الحى عليه. أخرجه البخارىّ(٣)، وأخرج

---

(١) [٦٧ / الملك / ٢٩] . . . . فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [٧٣ / المزمل / ٩] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٣ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه . وسنسوقه بما فيه من الحوار الذى دار بين عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وبين سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

عن ابن جريج قال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة قال : توفيت ابنة =

ابن أبي حاتم عنها ؛ أنها سئلت عن ولد الزنى؟ فقالت ليس عليه من خطيئة أبويه شيء. وتلت هذه الآية .

قال: الكيا الهراسي : ويحتج بقوله : (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) في عدم

= لعثمان رضي الله عنه ، بمكة . وجئنا لنشهدها . وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. وإني لجالس بينهما (أو قال: جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي) فقال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما ، لعمرو بن عثمان : ألا تنهى عن البكاء ؟ فإن رسول الله ﷺ قال « إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه » .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : قد كان عمر رضي الله عنه يقول بعض ذلك .

ثم حدّث قال : صدرتُ مع عمر رضي الله عنه من مكة ، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سَمُرة . فقال : اذهب فانظر مَنْ هؤلاء الركب . قال فنظرت فإذا هو صهيب . فأخبرته فقال : ادعه لي . فرجعت إلى صهيب : فقلت : ارتحل فالحق أمير المؤمنين،

فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول : وا أخاهْ واصاحباهْ .

فقال عمر رضي الله عنه : ياصهيب ، أتبكي عليّ وقد قال رسول الله ﷺ « إن الميت يعذَّب ببعض بكاء أهله عليه » ؟

قال ابن عباس رضي الله عنه : فلما مات عمر رضي الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها . فقالت : رحم الله عمر . والله ! ماحدّث رسول الله ﷺ : إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه . ولكن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه »

وقالت : حسبكم القرآن : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك : والله هو أضحك وأبكى .

قال ابن أبي مليكة : والله ! ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئاً .

ورقم حديث ابن عمر ٦٨٤ وعمر ٦٨٥ وعائشة ٦٨٦ .

نفوذ تصرف زيد على عمرو إلّا ما قام عليه الدليل . قال ابن الفرس : واحتج به من أنكر ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام .

وقال بعض الزيدية : قوله تعالى : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) يعنى فى أمر الآخرة . فيبطل قول إن أطفال المشركين يعذبون بكفر آبائهم . ويلزم أن لا يعذب الميت ببكاء أهله عليه . حيث لا سبب له . وأما فى أمر الدنيا، فقد خص هذا بحديث العاقلة . وكذلك أسر أولاد الكفار ونحو ذلك . انتهى .

« ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل . وهذه الآية كقوله تعالى : (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ » جمع خليفة . أى يخلف بعضكم بعضا فيها ، فتعمرونها خلفا بعد سلف ، للتصرف بوجوه مختلفة « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » أى فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة فى ذلك . كقوله تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)(٢) وقوله

---

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٥و٢٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٢] ونصها: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا =

سبحانه(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)(١) وقوله تعالى « لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم ، أى امتحنكم ، ليختبر الغنىّ فى غناه ويسأله عن شكره ، والفقير فى فقره ويسأله عن صبره .

وفى صحيح مسلم(٢) عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . أفاده ابن كثير .

ثم رهّب تعالى من معصيته ورغّب فى طاعته بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ » أى : لمن عصاه وخالف رسله « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى: لمن والاه واتبع رسله .

لطائف

الأولى : قال السيوطىّ فى (الإكليل) . استدل بقوله تعالى (جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) مَنْ أجاز أن يقال للإمام: خليفة الله . انتهى .

أى: بناء على وجهٍ فى الآية. وهو أن المعنى: جعلكم خلائف الله فى الأرض تتصرفون فيها. ذكره المفسرون . وآثرتُ ، قبلُ ، غيرَ هذا الوجه لأنه أدق وأظهر ، والله أعلم .

الثانية: قال القاضى : وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة ـ تنبيها على أنه سبحانه وتعالى غفور بالذات ، معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها. انتهى .

= بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٩ (طبعتنا) .

الثالثة : قال ابن كثير : إن الحق تعالى ، كثيرا ما يقرن فى القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)(١) وقوله : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (٢). إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب. فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه. وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها . وتارة بهما. لينجع فى كلّ بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك مانهى عنه وزجر ، أنه قريب مجيب.

قد تم بحمده تعالى الكلام على (محاسن تأويل) سورة الأنعام. وذلك ضحوة الأربعاء فى ٢٨ ربيع الأول. فى شباك السدّة اليمنى العليا من جامع السنانية عام ١٣٢١ . وكان تخلّل مدة شهر ونصف، وقفت عن كتابة شىء من هذه السورة فيها ، وذلك من آخر البحث فى قوله تعالى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ...) الآية ، لعارض رحلتى إلى بيت المقدس فى ٢٨ محرم من العام المذكور . وبعد العود إلى الوطن فى ٨ ربيع الأول بدأت من قوله تعالى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ..) الآية، فى ٢٠ ربيع الأول ، وتمت السورة فى التاريخ المتقدم ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . بقلم جامعه جمال الدين القاسمىّ

ـ ويليه الجزء السابع ـ ويحتوى على تفسير سُوَر : ٧ ـ الأعراف، ٨ ـ الأنفال، ٩ ـ التوبة

---

(١) [١٣ / الرعد / ٦] ونصها : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، ....

(٢) [١٥ / الحجر / ٤٩و٥٠] .

جـــدول
بيان الخطأ والصواب الذى جاء بالجزء الخامس

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد، السيد محمد بهجة البيطار، حفظه الله

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٠١	١٧	حويا	حوبا
١١٠٦	٧	ومنهم	فمنهم
١١١١	٢١	ىسوة	نسوة
١١٢٠	١٥	بقوله	بقوله(١)
—	بالهامش		(١) [٤ / النساء / ١٢٩]
١١٢٣	٥	الايتاء	الإيتاء
١١٣٤	١٨	أجاهًن	أجلهَن
١١٤٥	٣	من بعدِ	من بعدِ
١١٤٨	١١	امرَءٌ	امرُؤٌ
١١٤٩	٢٠	وصية	وَصِيَّةٍ
١١٥٨	٥	ان يخافا	أنْ يَخَافَا
١١٦٤	١١	بهتانَا	بُهْتَانًا
١١٧٤	٥	أرضه نكم	أَرْضَعْنَكُمْ
١١٧٩	٤	ومسار رات	مسارَّات
١١٩٣	٨	عقدةَ	عُقْدَةُ
١١٩٥	١	المؤمناتَ	المؤمناتِ
١١٩٥	٤	ذَّٰلك	ذَٰلِك

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٩٥	١٣	وان تصبروا	وَأَنْ تَصْبِرُوا
١٢٠٠	٧و١٧	وان تصبروا	وَأَنْ تَصْبِرُوا
١٢٠٢	٨	لا تأكلُوا	لَا تَأْكُلُوا
١٢٠٣	١	معارضة	معاوضة
١٢٠٦	٤	عُدُوَاناً	عُدْوَاناً
١٢١٤	١٥	الّارحام	الْأَرْحَامِ
١٢١٥	١٢	وَلِكلّ	وَلِكُلٍّ
١٢٣٢	٤	البرّ	البرَّ
١٢٤٨	٦	تقديره مضاف	تقدير مضاف
١٢٥٤	١٠	من حرج	من حرج(٣)
—	وفى الهامش		(٣) [٧٨ / الحج / ٢٢]
—		(٣) أخرجه	(٤) أخرجه
١٢٥٥	٢	احتملت	احتلمت
١٢٦١	٨	أو لامستَم	أو لامستمْ
١٢٧٩	٩	سمعنا وأطعنا	سمعنا وعصينا
١٢٨٥	٩	يأيها ذ الذين	يأيها الذين
١٢٨٥	٢٠	انعم الله ..	أنعم الله عليه
١٢٩٠	٤	(إنه لا يغفر)	إنه (لا يغفر)
١٢٩٦	١٤	لعلّى أبلغَ	أَبْلُغُ
١٣٢٢	١٨	يَخْلفَ	يُخْلِفَ
١٣٥٥	٢١	قد يعلم الذين	قد يعلم الله الذين
١٣٥٧	٦	لا يجاورنك	لا يجاورونك
١٣٥٧	٢٢	بما كسبت	ما كسبت

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٦٦	١٩	عنق	عنق
١٣٧٠	٨	(١)	(٥)
١٣٩١	٩	أن يتعمدنى	أن يتغمدنى
١٣٩٢	١٦	لَيُبْطِئَنَّ	لَيُبَطِّئَنَّ
١٤٠١	٤	ان تصبهم	وإن
١٤٠٦	١١	افادة	أفاده
١٤٠٧	٦	إنما	فإنّماَ
١٤١١	١٣	العدواة	العداوة
١٤١٦	١	لا بقضاء الله	إلّا بقضاء الله
١٤٣٤	٧	والملائكةِ	والملائكةُ
١٤٣٦	١	فى المنافقون	فى المنافقين
١٤٣٧	٤	فى حيّز	فى حيّز
١٤٥٤	٩	متعلقا	متعلّقاً
١٤٥٩	١٥	ويخلدَ فيها	ويخلدْ فيهِ
١٤٦٢	٥	ويعّفو	وَيَعْفُو
١٤٧٨	١	ثم طرحواه	ثم طرحوه
١٤٨٤	٦	درجاتِ منه	درجاتٍ منه
١٤٨٦	٦	التفضيليين	التفضيلَيْن
١٤٨٧	١٤	ءامنَاَ	ءَامَنّا
١٤٩٠	١٨	وبعلق	ويعلّق
١٤٩١	٣	تُغَيَّرَ	تُغَيَّرُ
١٥٠٠	١	ضميرة	ضمرة
١٥٠٤	١٤	فى الأَرَض	فى الأَرْض

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥٠٦	١٠	ولا جناح	و « لا جناح »
١٥٠٦	١١	ولا جناح عليهما	فلا جناح
١٥١٧	٣	وليِأخذوا	وَلْيَأْخُذُوا
١٥٢٠	٤	بإحدى الطائفين	الطائفتين
١٥٢٠	٩	عن أبى عباس	عن ابن عباس
١٥٢٢	٦	لم يصلّوا	لَمْ يُصَلُّوا
١٥٢٢	٨	بإحدى الطائفين	بإحدى الطائفتين
١٥٢٧	٤	حاز	جاز
—	٢٠	ولْيَأخذوا	وَلْيَأْخُذُوا
١٥٢٩	٧	قَرَحٌ	قَرْحٌ
١٥٣٩	١٦	هبووا	هبوا
١٥٤٢	٣	مرضاةِ	مَرْضَاتِ
١٥٤٤	١٢	الصوب	الصواب
١٥٥٨	٣	مرضاةَ	مرضاتَ
١٥٦٥	١٧	ان يدعون إلا	إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
١٥٧١	٢٠	من من حاجتها	من حاجتها
١٥٧٨	١٠	إنى برئ	وإننى برئ
١٥٨٢	١٢	المتطهرينُ	الْمُتَطَهِّرِينَ
١٥٨٦	٥	وداومها	ودوامِها
١٥٨٨	١٥	والمستضعَفينَ	والمستَضْعَفينَ
١٦١٥	١٨	نصيبُ	نصيبٌ
١٦٢٣	٢١	وسندع الزبانية	و : سندع الزبانية
—	٢١	ويوم يناد	و : يوم

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٣٣	٣	ما جيل	ما جُبِلَ
—	٤	فى التأويل قوله	فى تأويل قوله
١٦٣٧	٨	التى نعيث	التى نُعِيَتْ
١٦٣٨	١	وتطرف	وتطرّق
١٦٥٤	٢٠	جسدً الرب	جسد الرب
١٦٦٢	١٦	رأوأ مجده	رأوا مجده
١٦٦٦	٤	عند عند النبىّ	عند النبىّ
١٦٧٠	١	إلا اتباعُ الظن	إلا اتباعَ الظن
١٦٧٥	٧	إلى صوة	إلى صورة
—	١١	فأنا لأشك	فأنا لا أشك
١٦٧٧	١٧	عظمتان	عظيمتان
١٦٨٠	١٥	التوتر	التواتر
١٦٨١	٤	عليها	عليهما
١٦٩٠	٨	فَلَمَ	فَلَمْ
١٦٩٦	١٩	ومختراعات	ومخترعات
١٧٠١	٥	بانابا	بونابا
١٧٠١	١٣	مصدّفا	مصدّقا
١٧٠٧	١٥	القييامة	القيامةِ
١٧٠٩	١	مالهم به إلا اتباع الظن	مالهم به من علم
١٧١٠	١٩	وأجلّ المراتبَ	وأجَلُّ المراتبِ
١٧١١	٤	وإن من أهل أهل	وإن من أهل الكتاب
١٧١٧	١٠	وأكلهم أموالِ	أموالَ
١٧١٨	٥	الرْسخون	الرّاسِخُونَ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧١٨	١٠	أُنزِل	أُنْزِل
١٧٢٦	١١	القرأن	القرآن
١٧٢٦	١٦	رُوُحُ	رُوحُ
١٧٣١	٦	فناده	فناداه
١٧٥٢	٦	تضع	تصنع
—	١٥	أَهَلـكناهم	أَهْلَـكْنَاهُمْ
١٧٥٥	١٦	أَوَ مَلَـكاً	أَوْ مَلَـكاً
١٧٥٧	١٠	فالقصد فيه إلـ	إلى
١٧٦٠	١٦	شيهدا	شَهِيدًا
١٧٦٣	١٩	طبيبا	طبيبا
١٧٦٤	٢	جرأ	جزءًا
١٧٧٤	١٣	ويستكبرْ	وَيَسْتَـكْـبِرْ
١٧٧٧	١٦	ليس له ولد ولا وله أخت	ولد وله أخت

وجزى الله مولانا خير ما يجازى به عباده العالمين الصالحين العاملين النافعين . آمين .

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ

[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء السابع

وفيه تفسير سورة : الأعراف

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

٧ – سُورَةُ الأعراف

أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة ، قال : الأعراف مكية ، إلا آية (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ) وقال : من هنا إلى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ) مدنيّ .

وآياتها مائتان وست آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓصٓ)

تقدّم الكلام فى أول سورة البقرة ، على حروف فواتح السور ، والمذاهب فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

« كِتَٰبٌ » أى : هذا كتاب « أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ » أى : لايكن فيك ضيق صدر من تبليغه ، مخافة أن يكذبوك ، أو أن تقصر فى القيام بحقه . فإنه ﷺ كان يخاف قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ، وأذاهم . فكان يضيق صدره من الأداء ، ولا ينبسط له ، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم .

قال الناصر : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ...) الآية[١] « لِتُنذِرَ بِهِۦ » أى : بالكتاب المنزل ، المشركين ليؤمنوا « وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى : عظة لهم . وتخصيص الذكرى بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالمشركين . وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام .

---

(١) [١١ / هود / ١٢] . . . إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « ٱتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ » خطاب منه تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتباع ما أنزل ، وهو القرآن ، والمراد بـ (مَا أُنزِلَ) : القرآن والسنة . وقوفاً مع عمومه ، لقوله سبحانه (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ)(١) .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل به بعضهم على أن المباح مأمور به ، لأنه من جملة ما أنزل الله ، وقد أمرنا باتباعه ـ انتهى ـ .

وأقول : هذا غلوّ فى الاستنباط ، وتعمق بارد . ويرحم الله القائل : إذا اشتد البياض صار بَرَصاً .

« وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى لا تتبعوا أولياء غيره تعالى، من الجن والإنس. فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع « قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » أى ما تتعظون إلا قليلا ، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه ، وتتركون دينه تعالى ، وتتبعون غيره . ثم حذرهم تعالى بأسه ، إن لم يتبعوا المنزل إليهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ)

[٥] (فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

« وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا » أى أردنا إهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم « فَجَآءَهَا

(١) [٥٣ / النجم / ٣ و٤] .

بَأْسُنَا » أى : فجاء أهلها عذابُنا « بَيَـٰتًا » أى : بائتين ، كقوم لوط . والبيتوتة : الدخول فى الليل ، أى ليلًا قبل أن يصبحوا « أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ » أى قائلين نصف النهار، كقوم شعيب . والمعنى: فجاءها بأسنا غفلة، وهم غير متوقعين له . ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم قائلون وقت الظهيرة. وكل ذلك وقت الغفلة . والمقصود أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم، من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب ؛ وفيه وعيد وتخويف للكفار . كأنه قيل لهم : لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة ، فإن عذاب الله إذا نزل ، نزل دفعة واحدة . ونظير هذه الآية قوله تعالى[1] : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) ؟ ثم تأثر تعالى عذابهم الدنيوىّ ببيان عذابهم الأخروىّ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى : المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم كما قال : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ[2] « وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى : عما أجيبوا به ، كما قال سبحانه : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ[3] . والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ)

« فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم » أى : على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم « بِعِلْمٍ » أى : عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة « وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ » أى : عنهم وعما وجد منهم .

(١) [٧ / الأعراف / ٩٧و٩٨] . (٢) [٢٨ / القصص / ٦٥] .
(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . . . قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ » أى : وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها ، يوم يسأل الله الأمم ورسلهم ، العدل . « فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى : حسناته فى الميزان « فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » أى : الناجون من السخط والعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ)

« وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى : حسناته فى الميزان « فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم » بالعقوبة « بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ » أى : يكفرون .

تنبيهات

الأول: قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية ذكر الميزان، ويجب الإيمان به . انتهى.

وقال الإمام الغزالىّ فى (المضنون) : تعلّق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور. وبالموت ينكشف الغطاء ، كما قال تعالى[١] : فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ، ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده ، وهى مقادير تلك الآثار ، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض ، ولا يمتنع فى قدرة الله تعالى أن يجرى سبباً يعرف الخلق فى لحظة واحدة مقادير الأعمال ، بالإضافة إلى تأثيراتها فى التقريب والإبعاد . فحدّ الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ، ومثاله فى العالم المحسوس مختلف ، فمنه الميزان المعروف ، ومنه القبان للأثقال ، والاصطرلاب لحركات الفلك والأوقات ، والمسطرة للمقادير والخطوط ، والعروض لمقادير

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] ونصها : لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ .

حركات الأصوات . فالميزان الحقيقيّ ، إذا مثله الله عز وجل للحواس ، مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها . فحقيقة الميزان وحده موجود فى جميع ذلك ، وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان . وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل ، وللخيال عند التمثيل ، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات . والتصديقُ بجميع ذلك واجب . انتهى .

الثانى : الذى يوضع فى الميزان يوم القيامة . قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً .

قال البغوىّ : يروى هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى (الصحيح)[1] أَنَّ الْبَقَرَةَ وَءَالَ عِمْرَانَ يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ . ومن ذلك فى (الصحيح)[2] قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى أسهرتُ ليلك، وأظمأتُ نهارك . وفى حديث البراء[3]

---

(١) الحديث رواه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى أمامة الباهلىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه . اقرءوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان. أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ. تحاجّان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعها البَطَلَة ».

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب ، ٥٢ ـ باب ثواب القرآن ، حديث ٣٧٨١ (طبعتنا) ونصه : عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ « يجىء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب ، فيقول : أنا الذى أسهرتُ ليلك وأظمأت نهارك » .

(٣) هو حديث طويل أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

فى قصة سؤال القبر : فيأتى المؤمنَ شابٌّ حسن اللون ، طيّب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح . وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق .

فالأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية ، تبرز على هذا القول فى النشأة الآخرة بصور جوهرية ، مناسبة لها فى الحسن والقبح . فالذنوب والمعاصى تتجسم هناك ، وتتصور بصورة النار ، وعلى ذلك حمل قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ[1] ، وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا[2] . الآية ـ وكذا قوله ﷺ[3] فى حق من يشرب من إناء الذهب والفضة: إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم. ولا بعد فى ذلك . ألا يرى أن العِلْمَ يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن .

وقيل : صحائف الأعمال هى التى توزن ، ويؤيده حديث البطاقة . فقد أخرج أحمد[4]

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٤] يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ . . .

(٢) [٤ / النساء / ١٠] . . . وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٤ ـ كتاب الأشربة ، ٢٨ ـ باب آنية الفضة ، حديث ٢٢٣٣ ونصه :

عن أم سلمة ، زوج النبىّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال « الذى يشرب فى إناء الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٩٩٤ (طبعة المعارف) ونصه :

قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا . كل سجلّ مدّ البصر . ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتى الحافظون ؟ قال: لا ، يارب . فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟ فيُبْهت الرجل . فيقول : لا ، يا رب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة . =

والترمذىّ وصححه ، وابن ماجة والحاكم والبيهقىّ وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : يصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة . فينشر له تسعة وتسعون سجلًّا ، كل سجلّ منها مدّ البصر ، فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول:لا، يارب ! فيقول: أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا. يارب فيقول : بلى . إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم . فيُخرَج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) فيقول: يارب ! ماهذه البطاقة مع هذه السجلّات؟ فيقال : إنك لاتظلم . فتوضع السجلات فى كِفة ، والبطاقة فى كِفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة .

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما فى الحديث(١) : يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ،

= لاظلم اليوم عليك .

فتُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فيقول : أحضروه فيقول : يارب ! ماهذه البطاقة مع هـذه السجلّات ؟ فيقال : إنك لا تُظْلَم . قال فتوضع السجلات فى كِفّة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقُلُ شىء باسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٧ ـ باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، حدثنا سويد بن نصر .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٣٥ ـ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، حديث ٤٣٠٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ـ ١٨ سورة الكهف ، ٧ ـ باب أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ، حديث رقم ٢٠٢٣ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إنه ليأتى الرجل العظيم =

فلا يزن عند الله جناح بعوضة . ثم قرأ (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا)(١) .

وفى مناقب عبد الله(٢) بن مسعود ؛ أن النبيّ ﷺ قال : أتعجبون من دقة ساقيه ؟ والذى نفسى بيده ! لهما فى الميزان أثقل من أُحُدٍ .

قال الحافظ ابن كثير : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار ، بأن يكون ذلك كله صحيحاً . فتارة توزن الأعمال ، وتارة يوزن محلها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم ـ انتهى ـ .

قال أبو السعود : وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوىّ ، والحكم العادل . وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين ، بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية . قالوا : إن الميزان إنما يراد به التوصل إلى معرفة مقادير الشيء . ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك ، لأنها أعراض قد فنيت . وعلى تقدير بقائها ، لا تقبل الوزن ـ انتهى ـ وأصله للرازىّ .

قال فى (العناية): فمنهم مَن أوّل الوزن بأنه بمعنى القضاء والحكم العدل، أومقابلتها بجزائها.

= السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة » .

وقال : اقرءوا : فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٥] أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ . . .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٩٩١ (طبعة المعارف) ونصه :

عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك . وكان دقيق الساقين. فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه . فقال رسول الله ﷺ «مم تضحكون» ؟ قالوا : يانبىّ الله ، من دقة ساقيه . فقال «والذى نفسى بيده ! لهما أثقل فى الميزان من أُحُد » .

من قولهم: وازنه ، إذا عادله . وهو إما كناية أو استعارة . بتشبيه ذلك بالوزن المتصف بالخفة والثقل ، بمعنى الكثرة والقلة . والمشهور من مذهب أهل السنة أنه حقيقة بمعناه المعروف . انتهى .

فإن جمهور الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل .

قال في (فتح البيان) :وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه . بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة لأحد . فهذا إذا لم تقبله عقولهم ، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم : من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كلٌّ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم . وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها . بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو ومن تابعه ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم . يعرف هذا كل منصف . ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه . وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا(١) . وقوله : فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ(٢) . وقوله : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ(٣) وقوله : وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ(٤) .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] . . . وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٢ و ١٠٣] .

(٣) [٤ النساء / ٤٠] . . . وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٤) [١٠١ / القارعة / ٨ و ٩] .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدًّا مذكورة فى كتب السنة المطهرة . وما فى الكتاب والسنة يغنى عن غيرها . فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه ، مع قوله تعالى وقول رسوله الصادق المصدوق ، والصباح يغنى عن المصباح ـ انتهى ـ .

وخلاصته ؛ أن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تعذرت ، ولا تعذر ههنا .

الثالث : إن قلت : أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد ؟ فما الحكمة فى وزنها ؟

قلت : فيه حكم :

منها ـ إظهار العدل ، وإن الله عز وجل لا يظلم عباده .

ومنها ـ امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى .

ومنها ـ تعريف العباد مالهم من خير وشر وحسنة وسيئة .

ومنها ـ إظهار علامة السعادة والشقاوة .

ونظيره ؛ أنه تعالى أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ ثم فى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم ، من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى . كذا فى (اللباب) .

وقال أبو السعود : إن قيل : إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور ، فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها . وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الأعمال ، بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه ، فما الفائدة فى الوزن ؟

أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ ، وتظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هى عليه ، وبأوصافها وأحوالها فى أنفسها من الحسن والقبح ، وغير ذلك . وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت فى الدنيا ، فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها ، وأن كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ، ولا يخطر بباله خلاف ذلك ـ انتهى ـ .

وقد سبقه إلى نحوه الرازيّ .

ولما أمر تعالى أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم ، ونهاهم عن اتباع غيره ، وبيّن لهم وخامة عاقبته بالإهلاك فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ـ ذكرهم فنون نعمه ترغيباً فى اتباع أمره ونهيه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى جعلنا لكم فيها مكاناً وقرارا . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ » جمع معيشة ، وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . أو ما يتوصل به إلى ذلك من المتاجر والمزارع والصنائع « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » الكلام فيه كالذى فى قوله (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) وقد مرّ قريباً . والتذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم ، أى ما مننا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم ، وترك متابعة من دوننا ، فتحصلوا معايش السعادات الأبدية . ثم بيّن تعالى نعمته على آدم التى سرت إلى بنيه ، وبيّن لهم عدواة إبليس وما انطوى عليه من الحسد لأبيهم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ » هذا كقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ

إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ)[١] وفى تصدير هذه الآية بالقسم وحرف التحقيق ، كالتى قبلها ، إعلام بكمال العناية بمضمونهما .

قال أبو السعود : وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين ، مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما ، توفية لمقام الامتنان حقه ، وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم ، بالرمز إلى أن لهم حظّاً من خلقه عليه السلام وتصويره ، لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه ، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعاً ، إذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ، ومصنوع على شاكلته ، فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره . أى : خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير ، وأحسن تقويم ، سار إليكم جميعاً ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ)

« قَالَ » سبحانه وتعالى « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » أى أن تسجد كما وقع فى سورة (ص) . و (لا) مزيدة للتنبيه على أن الموبّخ عليه ترك السجود . ولتوكيدٍ لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه ، كما فى قوله تعالى[٢] : (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ) كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك . وتوقف بعض المحققين فى وجه إفادة (لا) النافية تأكيد ثبوت الفعل مع إيهام نفيه ، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكده مطلقاً ، بل إذا صحبت نفياً مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح ،

(١) [١٥ / الحجر / ٢٨و٢٩] .
(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ... أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

كما فى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وكما هنا ، فإنها تؤكد تعلق المنع به ـ انتهى ـ .

وقيل : (مامنعك) محمول على (ماحملك ومادعاك) مجازا أو تضميناً . وقال الراغب: المنع ضد العطية ، وقد يقال فى الحماية . والمعنى ماحماك عن عدم السجود . ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود ، مع علمه به، للتوبيخ ولإظهار معاندته و كفره و كبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصلَ آدم عليه السلام. كما أوضحه قوله تعالى: « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ » قال ابن كثير . هذا من العذر الذى هو أكبر من الذنب ـ انتهى ـ . وإنما قال هـذا ، ولم يقل (منعنى كذا) مطابقة للسؤال . لأن فى هـذه الجملة التى جاء بها مستأنفة ، ما يدل على المانع ، وهو اعتقاده أنه أفضل منـه ، والفاضل لايفعل مثل ذلك للمفضول ، مع مافى طيّها من إنـكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . فالجملة متضمنة للجواب بقياس استدلالىّ ، وهى من الأسلوب الأحمق كما فى قصـة نمروذ . وقد علل ماادعاه من الخيرية والفضل بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، لأنها جوهر نورانىّ ، وهو ظلمانىّ . ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى (مَامَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ)[1] أى: بغير واسطة، وباعتبار الصورة . كما نبه عليه بقوله (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى)[2] وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر ، ولذلك أمر الملائـكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليـه

---

(١) [٣٨ / صٓ / ٧٥] ونصها : قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٢) [١٥ / الحجر / ٢٩] ونصها : فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَـٰجِدِينَ .

و [٣٨ / صٓ / ٧٢] .

أمر الخلافة فى الأرض ، وأن له خواصّ ليست لغيره . وبالجملة فالشيء كما يشرف بمادته ، يشرف بفاعله وغايته وصورته ، والثلاثة فى آدم عليه السلام دونه ، فاستبان غلطه .

وفى (اللباب) أن عدو الله إبليس جهل وجه الحق ، وأخطأ طريق الصواب ، لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب ، وهـذا الذى حمله ، مع سابقة شقائه ، على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام ، والاستخفاف بأمر ربه ، فأورده ذلك العطب والهلاك . ومن جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت ، وهذا كان الداعى لآدم عليه السلام ، مع سابقة سعادته ، إلى التوبة من خطيئته ، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت[(١)] : قال رسول الله ﷺ : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجانّ من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . رواه مسلم .

تنبيه :

روى ابن جرير[(٢)] بإسناد صحيح عن الحسن فى قوله تعالى (خَلَقْتَنِى من نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) قال : قاس إبليس وهو أول من قاس . وأخرج[(٣)] أيضا بإسناد صحيح عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . ولذا احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص النص بالقياس ، وإلا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد .

قال الرازىّ : بيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة (اُسْجُدُوا لِآدَمَ) خطاب عامّ يتناول جميع الملائكة ، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هـذا العموم بالقياس ، وهو أنه مخلوق

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١٤٣٥٦ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٤٣٥٥ من التفسير .

من النار ، والنار أشرف من الطين ، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف ، والأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدنى، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت فى جميع النظائر، ولا معنى للقياس إلا ذلك . وقد ثبت أن إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق الذم ، وما ذاك إلا لعدم جوازه . وأيضاً فى الآية دلالة على ذلك من وجه آخر : وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى : (فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا) فوصفه تعالى بكونه متكبرا ، بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذى يوجب تخصيص النص وهذا يقتضى أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبَّر على الله . ودلت هذه الآية على أن التكبر عليه تعالى يوجب العقاب الشديد، والإخراج من زمرة الأولياء . ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز ، وهذا هو المراد مما نقله الواحدىّ فى (البسيط) عن ابن عباس أنه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربه وقاس ، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشىء من رأيه ، قرنه الله مع إبليس ـ هذا ما نقله الواحدىّ فى (البسيط) عن ابن عباس ، وأفاده الرازىّ .

وقد روى عن السلف آثار كثيرة فى ذم القياس ، منها ما تقدم عن الحسن وابن سيرين وابن عباس . وعن مسروق قال : لا أقيس شيئاً بشىء ، فتزلّ قدمى بعد ثبوتها . وعن الشعبىّ : إياكم والقياس ، وإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام، وحرمتم الحلال ، وَلَأَنْ أتغنى غنية ، أحب إلىّ من أن أقول فى شىء برأيى . وقد ذكر الحافظ ابن عبد البرّ رحمه الله من هذا المعنى آثارًا وافرة فى (جامع بيان العلم وفضله) وقال : احتج من نفى القياس بهذه الآثار ومثلها . وقالوا فى حديث معاذ : إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة . وتكلم داود فى إسناد حديث معاذ وردّه ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ ، ولم يُسَمَّوْا . قال الحافظ ابن عبد البر : وحديث معاذ صحيح مشهور ، رواه الأئمة العدول ، وهو أصل فى الاجتهاد والقياس على الأصول . ثم قال : وسائر الفقهاء وقالوا فى هذه الآثار وما كان مثلها

فى ذم القياس : إنه القياس على غير أصل ، أو القياس الذى يردّ به أصل، والقول فى دين الله بالظن . ألا ترى إلى قول من قال منهم : أول من قاس إبليس ؟ لأن إبليس ردّ أصل العلم بالرأى الفاسد ، والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا فى رد الفروع إلى أصولها ، لا فى رد الأصول بالرأى والظن . وإذا صحّ النص من الكتاب والأثر ، بطل القياس (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ...) الآية[1] ـ وأىّ أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود ، وهو العالم بما خُلق منه آدم ، وما خُلق منه إبليس ، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعلة ليست بمانعة من أن يأمره الله بما يشاء ، فهذا ومثله لا يحلّ ولا يجوز . وأما القياس على الأصول ، والحكم للشىء بحكم نظيره ، فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف ، بل كل من رُوِى عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً. لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل ، مخالف للسلف فى الأحكام.

وقال مسروق الوراق :

كنَّا من الدين قبل اليوم فى سعةٍ ... حتى ابْتُلِينَا بأصحاب المقاييسِ
قاموا من السوق إذ قلَّت مكاسبهُم ... فاستعملوا الرأى عند الفقرِ والبُوسِ
أما العُرَيْب فقوم لا عطاءَ لهم ... وفى الموالى علاماتُ المفاليسِ

فلقيه أبو حنيفة فقال : هجوتنا . نحن نرضيك . فبعث إليه بدراهم فقال :

إذا ما أهل مصرٍ بادَهُونَا ... بآبدةٍ من الفُتْيَا لطيفهْ
أتيناهم بمقياسٍ صحيح ... صَلِيبٍ من طراز أبى حنيفهْ
إذا سَمِعَ الفقيهُ بِهِ وَعَاهُ ... وأثبته بِحِبْرٍ فى صحيفهْ

قال ابن عبد البر : اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . . . مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا .

الزمن ، فقال :

إذا ذُو الرأيِ خَاصَمَ عن قيـاسٍ وجاء بـبـدعة منـه سخيفهْ
أتينـاهم بقولِ الله فِيهـاَ وآثارٍ مبرّزة شريفهْ

هكذا حكاه ابن عبد البر فى (جامع فضل العلم) . وله فيه فى (باب ما جاء فى ذم القول فى دين الله بالرأى والقياس على غير أصل) مقالات سابغة جديرة بالمراجعة .

ومما ذكر فيه : أن أهل الحديث أفرطوا فى أبى حنيفة، وتجاوزوا الحدّ . قال : والسبب الموجب لذلك ، عندهم ، إدخاله الرأى والقياس على الآثار ، واعتبارها . وأكثرُ أهل العلم يقولون : إذا صح الأثر بطل النظر . وكان ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره ، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأى : وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده ، كإبراهيم النخعىّ وأصحاب ابن مسعود . إلا أنه أغرق هو وأصحابه فى تنزيل النوازل ، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم . فأتى منهم فى ذلك خلافٌ كبير للسلف . ثم قال: وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل فى آية ، أو مذهب فى سنة، ردّ من أجل ذلك المذهب سنةً أخرى بتأويل سائغ ، أو ادعاء نسخ . إلا أن لأبى حنيفة من ذلك كثيرا ، وهو يوجد لغيره قليل . وعن الليث بن سعد أنه قال : أحصيت على مالك ابن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبىّ ﷺ ، مما قال مالك فيها برأيه . قال : ولقد كتبت إليه أعظه فى ذلك . هذا كلام ابن عبد البر ملخصاً .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاويه : أنه روى عن علىّ وزيد أنهما احتجا بقياس، فمن ادعى إجماعهم ـ أى الصحابة ـ على ترك العمل بالرأى والقياس، مطلقا فقد غلط، ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس ، فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها ـ انتهى ـ .

وقال ابن تيمية رحمه الله فى فتوى أخرى : والصحابة كانوا يحتجون فى عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأى،ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً . والقياس الصحيح نوعان :

أحدهما : أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل إلا فرقاً غير مؤثر فى الشرع ، كما ثبت عن النبىّ ﷺ فى الصحيح[1] أنه سئل عن فأرة وقعت فى سمن ، فقال : ألقوها وما حولها ، وكلوا سمنكم . وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفأرة وذلك السمن، فلهذا قال جماهير العلماء : إنه أىّ نجاسة وقعت فى دهن من الأدهان كالفأرة التى تقع فى الزيت ، وكالهرّ الذى يقع فى السمن ، فحكمها حكم تلك الفأرة التى وقعت فى السمن . ومن قال من أهل الظاهر : إن هذا الحكم لا يكون إلا فى فأرة وقعت فى سمن ، فقد أخطأ ، فإن النبىّ ﷺ لم يخص الحكم بتلك الصورة ، لكن لما استُفتى عنها أفتى فيها ، والاستفتاء إذا وقع عن قضية معينة أو عن نوع ، فأجاب المفتى عن ذلك ، خصه لكونه سئل عنه ، لا لاختصاصه بالحكم . ومثل هذا أنه سئل عن رجل[2] أحرم بالعمرة وعليه جبة مضمَّخة

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣٤ ـ باب إذا وقعت الفأرة فى السمن الجامد أو الذائب ، حديث ١٧٥ ونصه :

عن ابن عباس عن ميمونة رضى الله عنهم قالت : سئل رسول الله ﷺ عن فأرة سقطت فى سمن ؟ فقال « ألقوها وما حولها ، وكلوه » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٢ ـ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ، حديث ٨١٥ ونصه :

عن صفوان بن يعلى بن أميّة ؛ أن يعلى كان يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى ! فلما كان النبىّ ﷺ بالجعرانة ، وعليه ثوب قد أظلّ عليه ، ومعه ناس من أصحابه ، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب . فقال : يا رسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم =

بخلوق فقال: انزع عنك الجبة الخلوق، واصنع فى عمرتك ما كنت تصنع فى حجك. فأجابه عن الجبة ، ولو كان عليه قميص أو نحوه ، كان الحكم كذلك بالإجماع .

والنوع الثانى من القياس : أن ينص على حكم لمعنى من المعانى ، ويكون ذلك المعنى موجوداً فى غيره ، فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوّى بينهما ، وكان هذا قياساً صحيحاً . فهذان النوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يستعملونهما، وهما من باب فهم مراد الشارع. فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يعرف ثبوت اللفظ عنه ، وعلى أن يعرف مراده باللفظ . وإذا عرفنا مراده، فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك ، لا لمعنى يخص الأصل ، أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى المشترك . وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص ، منعنا القياس . كما أنا علمنا أن الحج خص به الكعبة، وأن الصيام الفرض خص به شهر رمضان، وأن الاستقبال خص به جهة الكعبة، وأن المفروض من الصلوات خص به الخمس، ونحو ذلك، فإنه يمتنع هنا أن نقيس على المنصوص غيره. وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة، كتعيين الكعبة وشهر رمضان، أو عين بعض الأقوال والأفعال ، كتعيين القراءة فى الصلاة ، والركوع والسجود ، بل وتعيين التكبير وأمّ القرآن ، فإلحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن الذين أسقطوا تعيين الأشهر الحرم، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة ، فقال تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ

= فى جبة بعد ما تضمخ بطيب ؟ فنظر النبىّ ﷺ ساعة . فجاءه الوحى . فأشار عمر إلى يعلى أن : تعَالَ . فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو محمرّ الوجه يغطّ كذلك ساعة . ثم سُرِّى عنه فقال « أين الذى يسألنى عن العمرة آنفا » ؟ فالتمس الرجل فجىء به إلى النبىّ ﷺ . فقال « أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات . وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع فى عمرتك كما تصنع فى حجك » .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ(١). وقياس الحلال بالنص على الحرام بالنص، من جنس قياس الذين قالوا: إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ(٢). وكذلك قياس(٣) المشركين الذين قاسوا الميتة بالمذكّى وقالوا أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟ قال تعالى: وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(٤). فهذه الأقيسة الفاسدة، وكل قياس دل النص على فساده فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه، فقياسه فاسد. وكل من سوّى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة فى حكم الله ورسوله فقياسه فاسد. لكن من القياس ما يعلم صحته، ومنه ما يعلم فساده، ومنه ما لم يتبين أمره. فمن أبطل القياس مطلقاً فقوله باطل. ومن استدل بالقياس المخالف للشرع فقوله باطل.

---

(١) [٩/ التوبة/ ٣٧] . . . زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ .

(٢) [٢ البقرة/ ٢٧٥] ونصها: ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ، وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ، فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا، ٤٠ ـ باب تأويل قول الله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ، ونصه:

عن ابن عباس فى قوله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ، قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ما ذبحَ اللهُ فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم أكلتموه.

(٤) [٦/ الأنعام/ ١٢١] ونصها: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ . . .

ومن استدل بقياس لم يقم الدليل على صحته ، فقد استدل بما لا يعلم صحته ، بمنزلة من استدل برواية رجل مجهول لايعلم عدالته . فالحجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى مايعلم صحته ، وإلى مايعلم فساده ، وإلى ماهو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدها . ولفظ النص يراد به تارة ألفاظ الكتاب والسنة ، سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة ، وهذا هو المراد من قول من قال : النصوص تتناول أفعال المكلفين. ويراد بالنص مادلالته قطعية لاتحتمل النقيض، كقوله: تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ [(١)] .و:ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ [(٢)]،فالكتاب هو النص ، والميزان هو العدل ، والقياس الصحيح من باب العدل، فإنه تسوية بين المتماثلين ، وتفريق بين المختلفين . ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص ، فكل قياس خالف دلالة النص فهوقياس فاسد. ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً ، كما لايوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح، ومن كان متبحرا فى الأدلة الشرعية ، أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام

---

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ، فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

(٢) [٤٢/ الشورى/ ١٧] ونصها : ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ .

و [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

بالنصوص وبالأقيسة، فثبت أن كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة ، فإن القياس يدل على تحريم كل مسكر ، كما يدل النص على ذلك ، فإن الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العداوة والبغضاء ، وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة ، كما دل القرآن على هذا المعنى . وهـذا المعنى موجود فى جميع الأشربة المسكرة ، لافرق فى ذلك بين شراب وشراب، فالفرق بين الأنواع المشتركة من هذا الجنس تفريق بين المتماثلين، وخروج عن موجب القياس الصحيح، كما هو خروج عن موجب النصوص. وهم معترفون بأن قولهم خلاف القياس، لكن يقولون : معنا آثار توافق ، اتبعناها ؛ ويقولون : إن اسم الخمر لم يتناول كل مسكر . وغلطوا فى فهم النص ، وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهادهم . ومعرفة عموم الأسماء الموجودة فى النص وخصوصها ، من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد قال تعالى(1): ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ . والكلام فى ترجيح نفاة القياس ومثبتيه يطول استقصاؤه ولا يحتمل المقام بسطه أكثر من هذا ـ والله أعلم ـ انتهى كلامه رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ

« قَالَ » تعالى لإبليس « فَٱهْبِطْ مِنْهَا » أى : بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى . وأكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التى هو فيها من الملكوت الأعلى ـ انتهى ـ وعليه اقتصر المهايمىّ حيث قال : فاهبط منها أى : من رتبة الملكية إلى رتبة العناصر . « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا » أى : فما يصح ولا يستقيم ، فإنها

---

(1) [٩ / التوبة / ٩٧] ... وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

مكان المطيعين الخاشعين « فَاخْرُجْ » تأكيد للأمر بالهبوط ، متفرّع على علته « إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ » أى : من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« قَالَ أَنظِرْنِىٓ » أى : أمهلنى ولا تمتنى « إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى : آدم وذريته من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)

« قَالَ » أى : الله له « إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ » أى من المؤجلين إلى نفخة الصور الثانية. قال ابن كثير : أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع . ولا معقب لحكمه .

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ اليمانىّ فى تفسيره (التهذيب)(١) :

قال الأستاذ السيد ظافر القاسمىّ ، حفظه الله ، وَلَدُ المؤلف رضى الله عنه :

وجد على غلاف الجزء السابع من هذا الكتاب بخط المؤلف رحمه الله ما نصه :

وقفت على الجزء الرابع من تفسيرٍ اشتُرِىَ من اليمن ، يسمى «التهذيب» من الأعراف إلى براءة ، كتب عليه ما مثاله :

« تصنيف الشيخ الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ رحمة الله عليه »

وترتيبه ، بعد أن يسوق آية أو آيتين أو ثلاثاً ، أن يقول :

١ ـ القراءة ـ ثم يذكر وجوه القراءات .

٢ ـ اللغة ـ ثم يذكر مفردات الآية ومعانيها اللغوية واشتقاقها . =

ومتى قيـل : ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون ؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى ، فلم يمنعه من السؤال ما ارتـكب من المعصية . ومتى قيل : هل خاطبه بهذا ؟ قلنا : يحتمل ذاك ، ويحتمل أنه أمر ملـكاً نخاطبه به . ومتى قيل : هل يجوز إجابة دعاء الـكافر ؟ قلنا : فيه خلاف .

الأول : قيل لا ، لأنه إكرام وتعظيم ـ عن أبى علىّ ـ ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة ، وإنظاره لا على سبيل إجابة دعائه ، لأنه ملعون ولأنه لم يسأل على وجه الخضوع .

= ٣ ـ الإعراب .

٤ ـ النظم .

٥ ـ المعنى .

٦ ـ الأحكام ـ يذكر فيها دلالة الآى على كذا وكذا الخ .

٧ ـ القصة ـ إن كانت حوت ذلك .

وهو ترتيب جميل .

انتهى ما كتبه المؤلف رحمه الله .

وقد سألتُ الأستاذ الشيخ حامد التقىّ ، من علماء دمشق ، وقد سبق له أن لازم المؤلف رحمه الله قرابة عشرين عاماً ، عن الـكتاب ومؤلفه الجشمىّ فأجابنى :

كان المرحوم غالب النائلىّ رفيقاً للإمام القاسمىّ فى طلب العلم ، وتجمعهما قرابة رحمية ، وقد كان موظفاً أيام الدولة العثمانية ، فنقل إلى اليمن ، وعاش فيها حول عشر سنوات ، عاد بعدها ، ومعه بعض الـكتب المخطوطة ، وقد اطلع عليها المؤلف ، فوجد من بينها هذا الجزء من « التهذيب » وحده ، فاقتبس منه ما استحسن اقتباسه . وقد توفى المرحوم غالب النائلىّ عام ١٩٤٨ ، وبيعت مكتبته إلى أحد تجار الـكتب ، ولم نعد نعرف شيئاً عن هذا الـكتاب.

انتهى كلام الأستاذ التقىّ . =

الثانى : يجوز إجابة دعائه استصلاحاً له ، لأنه تفضّلٌ ـ عن أبى بكر أحمد بن علىّ ـ وليس بالوجه . ومتى قيل : إذا أُنظر هل يكون إغراء بالمعصية ؟ قلنا : لا ، لأنه لم يعلم ماالوقت

= ثم تجىء بعد هذا ترجمة الجشمىّ وها هى :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأما ترجمة الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ ، فبعد البحث عثرت على ترجمة مختصرة له فى كتاب (تاريخ بيهق) المطبوع باللغة الفارسية طبع إيران وستراها فى الصفحة المقابلة فسلموها لظافر بك القاسمىّ مع إبلاغه السلام .

ولعلك تفحص عن كتاب (التهذيب) فى المكتبة الظاهرية إذا كان لا يوجد فى مكتبة ظافر بك ، فإنه على الظاهر تفسير حسن وصاحبه ينتمى إلى علىّ رضى الله عنه .

« ترجمة الحاكم الإمام أبى سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقىّ »

تولد ونشأ فى قصبة جشم ـ فى إيران قريبة من بيهق ، وبيهق اسمها الآن سُبْزَوار ، وهى إلى سبزوار بالقرب من نيسابور فى لواء خراسان ـ وله تصانيف فى الأصول والفقه كثيرة. مثل عيون المسائل وشرح العيون وغيرها. مثل تحكيم العقول. وله تفسير لطيف يقع فى عشرين مجلدًا ـ ولم يذكر المترجم أن اسمه التهذيب ـ وله طريقة لطيفة فى التصنيف . تفقه فى مجلس القاضى أبى محمد الناصحىّ وكان يختلف فى ذلك إلى الأمير أبى الفضل الميكالىّ . وقد روى الحديث عن الإمام أبى عبد الرحمن السلمىّ والإمام أبى الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسىّ.

وقد مدحه الإمام علىّ بن أبى صالح الخوارىّ بهذه الأبيات :

ألا ياضارباً فى الأرض أقصر   فما تبغيه عند ابن الكرامه
أقول لمن غدا يبغى مزيدًا   عليه: علمت أنك فى الكرامه
أليس يقابل الطلاب مهما   تلقوه ببرٍّ أو كرامه
أبا سعد بقيت فكل شخص   يروم الفضل حقًّا منك رامه

=

المعلوم ، فلا يكون إغراءً مع تجويزه هجوم الموت عليه ، ولأنه تعالى لما أعلمه أنه يدخله النار ، ولعنه ـ علم أنه لايختار الإيمان أبداً . ومتى قيل : مافائدة إنظاره ؟ قلنا : لطف له ، لأنه يمكنه من استدراك أمره . وهل يضل به أحد ؟ قال أبو عليّ : لا ، لقوله تعالى : مَآ أَنتُمْ

= ومدحه أيضاً الإمام مسعود بن عليّ الصوابيّ بهذه الأبيات :

أبا سعد جزيت بلا نهايه — أراك بلغت فى التصنيف غايه

وخلصت القلوب الغلف حقًّا — وأوضحت الشريعة والهدايه

وفى سور المحامد والمساعى — مناقبك الشريفة صِرْنَ آيه

وهو الحاكم الإمام أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة بن محمد بن أحمد بن الحسن بن كرامة بن إبراهيم بن إسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحنفية بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام . فبينه وبين جده ابن الحنفية عشرة آباء إلى عليّ رضى الله عنه أحد عشر ، وهو علويّ ولكنه لم يكن معروفاً ولم يشتهر بهذا النسب . وله ولدان أحدهما الحاكم محمد توفى فى شهور سنة ثمان عشرة وخمسمائة. ولم يذكر المترجم تاريخ وفاة المترجَم له ولاتاريخ ولادته. ولكن يعرف تاريخ وفاته على الإجمال من ملاحظة تاريخ وفاة ولده الحاكم محمد المذكور .

نقلت هذه الترجمة عن كتاب (تاريخ بيهق) تأليف أبى الحسن بن عليّ بن زيد البيهقيّ المعروف بابن فندق ، المطبوع باللغة الفارسية فى إيران بتاريخ ١٣١٧ شمسية .

١٧ رجب سنة ١٣٧٦

وأقول أنا :

لقد بحثت عن هذا التفسير حتى علمت أن البعثة المصرية لتصوير المخطوطات العربية فى بلاد اليمن ، ذكرت فى التقرير الذى قدمه إلى وزارة المعارف رئيسها الدكتور خليل يحيى نامى بالصفحة رقم ١٨ منه ما يأتى : =

عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ [1]. ولأنه لو ضل به أحد ، لـكان بقاؤه مفسدة، فـكان الله تعالى لا يُنظره . فأما أبو هاشم فيجوّز أن يضل به أحـــد ، ويكون بمنزلة زيادة الشهوة ، ويجوز أن يكون لطفاً لنا من وجوه : أحدها أن المـكلف مع وسوسته إذا امتنع من القبيح ، كان ثوابه أكثر ، ولأنه تعالى عرفنا عداوته، والعاقل يجتهد فى أن يغيظ عدوّه ويغمّه ، وذلك إنمـا يكون بطاعة ربه ، ومن أطاعه فمن قِبَل نفسه أتى ، لا من قبل ربه . انتهى كلام الجشمىّ ، وهو جارٍ على أصول المعتزلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ)

« قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي » أى أضللتنى عن الهدى ، أو حكمت بغوايتى . والباء للقسم ، كما فى قوله تعالى : قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ [2]. أى: فأقسم بإغوائك إياى. وقيل: هى بمعنى لام التعليل، أى: لأجل إغوائك إياى « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ » أى: لآدم وبنيه ترصدًا بهم، كما يقعد القطاع للطريق على السابلة « صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » أى: طريقك السوىّ، وهو طريق الحق، ومعناه لأفتر عن إفسادهم . وانتصابه على الظرفية أو على نزع الجارّ .

= ٩ ـ كتاب التقريب المنتزع من كتاب (التهذيب) لأبى سعد الحسين بن كرامة الجشمىّ البيهقىّ ـ للقاضى محمد بن عامر الأصبهانىّ ـ رقم التصوير ١٧

١٠ ـ التهذيب فى التفسير ـ للحاكم أبى سعد بن كرامة الجشمىّ البيهقىّ ، الموجود منه ثمانية مجلدات . رقم التصوير من ٨٧ ـ ٩٣ و ٢٧٠ . وهذا محفوظ بدار الـكتب . انتهى .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٢و١٦٣] .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾

« ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ » أى من جميع الجهات الأربع . مثّل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أى وجه يمكنه ، بإتيان العدوّ من الجهات الأربع التى يعتاد هجومه منها . ولذلك لم يذكر الفوق والتحت « وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ » أى مستعملين لقواهم وجوارحهم ، وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله . وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن ، كقوله : وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ[١] ـ . روى الإمام[٢] أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطِوَل. قال: فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهاد النفس والمال. فتقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد . فقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة .

وقال الحافظ : ورد فى الحديث استعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

كلها ، فروى الإمام أحمد(١) وأبو داود (٢) والنسائى (٣) وابن ماجة (٤) وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عُمَر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى اللهم ! إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ؛ اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ؛ اللهم ! احفظنى من بين يدىّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى . ورواه البزار عن ابن عباس .

فائدة

قال الجشمىّ : تدل الآية أنه سأل الإنظار ، وأنه تعالى أنظره ، وقد بينا ما قيل فيه . وتدل على شدة عداوته لبنى آدم وحرصه على إضلالهم . وتدل على أن أكثر بنى آدم غير شاكرين . وتدل على أن الإضلال فعل إبليس ، والقبول عنه فعلهم ، لذلك أضافه إليهم ، وذمَّهم عليه ، ولو كان خلقاً له لما صح ذلك . ـ انتهى ـ والكلام فى أمثالها معروف .

ثم أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرد والإبعاد عن محل الملأ الأعلى ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤٧٨٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٠١ ـ باب مايقول إذا أصبح ، حديث ٥٠٧٤ .

(٣) أخرج النسائىّ قوله « اللهم إنى أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » فى : ٥٠ ـ كتاب الاستعاذة ، ٦٠ ـ باب الاستعاذة من الخسف.

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١٤ ـ باب مايدعو به الرجُل إذا أصبح وإذا أمسى ، حديث رقم ٣٨٧١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ، لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قَالَ اخْرُجْ مِنهَا مَذْءوماً » بالهمزة فى القراءة المشهورة ، من (ذأمه) إذا حقره وذمه ، وقرئ « مَذُوماً » بذال مضمومة وواو ساكنة ، وهى تحتمل أن تكون مخففة من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها ، وأن تكون من المعتلّ ، وكان قياسه (مذيم) كمبيع . إلا أنه أبدلت الواو من الياء ، على حدّ قولهم (مكول) فى مكيل ، و(مشوب) فى مشيب . « مَّدْحُوراً » مقصيًّا مطرودًا « لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ » اللام فيه ، لتوطئة القسم. وجوابه « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : لمن أطاعك من الجن والإنس ، لأملأن جهنم من كفاركم ، كقوله تعالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا[١] .

قال الجشمىّ : وإنما قال ذلك لأنه لا يكون فى جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين ، وكفار الإنس وفسّاقهم ، الذين انقادوا له وتركوا أمر الله لأمره ، فجمعهم فى الخطاب . ومتى قيل : لم ضيّق جهنم ووسع الجنة ؟ قلنا : لأن جهنم حبس ، والجنة دار ملك . ومتى قيل : فما الفائدة فى قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ) قلنا : لطفاً ليكون المكلف تبعاً للأنبياء دون الشياطين ، ولطفاً لإبليس وحزبه ، لأنه غاية فى الزجر والنهى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على الوعيد لمن تبع إبليس ، وأنه يملأ جهنم منهم . ولا بدّ فيه من شرط ، وهو أن لا يتوب ، أو لا يكون معه طاعة أعظم . وتدل على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه ، تحذيرًا عن مثل حاله .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

وقوله تعالى : « وَيَـٰٓـَٔادَمُ » أى : وقلنا يا آدم « ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ » أى جنة الخلد ، أو جنة فى الأرض .

قال الجشمىّ : وقد تقدم ذكر هذه القصة ، والفائدة فى إعادتها أن القرآن نزل فى بضع وعشرين سنة ، والعوارض تعرض، والوفود تقدم، فكانت القصة تعاد، ليسمع من لم يسمع، استصلاحاً ولطفاً . لأن فى إعادة قصة واحدة ، فى مواضع بألفاظ مختلفة ، كل واحد منها فى نهاية الحسن ، من إعجاز القرآن . « فَكُلَا مِنْ حَيْثُ » أى من كل مكان « شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ)

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ » أى : إبليس بأكل الشجرة مخيلًا لهما النفع « لِيُبْدِىَ لَهُمَا » أى : يظهر لهما « مَا وُۥرِىَ » أى: ستر « عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا » أى: عوراتهما، واللام فى (لِيُبْدِىَ) إما للعاقبة ، لأنه لم يعلم صدوره منهما ، أى : فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سوآتهما ؛ أو للتعليل والغرض، وهو الأصل فيها ، بناء على حدسه أو علمه بطريقٍ ما .

تنبيه :

فى الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه مستهجن فى الطباع ، ولذلك سميت سوأة ، لأنه يسوء صاحبها .

قال الحاكم : وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة ، وأنه كان فى شريعة آدم عليه السلام . قال القاضى : لا دليل فى الآية على الوجوب ، لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : فى الآية دليل على أنهما كرها التعرّى ، وإن لم يكن لهما ثالث ، ففى ذلك دليل على قبح التعرّى ، وإن لم يكن مع المتعرى أحد ، إلا لحاجة .

« وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا » أى : إلّا كراهة أن تكونا « مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ » أى : من الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين . وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لارتكابهما ذلك طمعاً فى نيل ما ذكر . وأجاب ، من لم ير هذا ، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم. ولئن كانت بعدها ، فلعل آدم رغب فى الملكية للقوة والشدة والقدرة ، أو لخلقة الذات ، بأن يصير جوهراً نورانيًّا ـ أشار له الرازىّ ـ

وقال الناصر : لايلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل ، أن يكون الأمر كذلك فى علمه تعالى . ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين ، وهو فى ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً ، وليس فى الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ، ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كَذَب لهما وغرّهما ، إذ قال الله تعالى:(فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ) فلعل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره ـ انتهى ـ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : وأنا أقول : لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية . والكلام الذى فيها، حكاه الله تعالى عن قول إبليس فى معرض المناداة عليه بالكذب والغرور والزور والتدليس . وإنما يستدل من كلامه تعالى، أومن كلام حكاه عن بعض أنبيائه. وإن لم يكن ذلك ، فكلام حكاه راضياً به مقرًّا له ـ انتهى ـ .

على أنه قرئ (مَلِكين) بكسر اللام ، كان يقرؤها كذلك ابن عباس ويحيى بن أبى

كثير . قال الواحدىّ : إنما أتاهما إبليس من جهة الملك . ويدل على هــذا قوله تعالى (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)(١) ـ انتهى ـ .

والقراءة الشاذة قد تـكون تفسيراً للمتواترة ، كما لا يخفى ، وبه يندفع ما للرازىّ هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

« وَقَاسَمَهُمَا » أى أقسم لهما « إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ » أى : فى هذا الأمر .

قال ابن كثير : أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما . وقد يخدع المؤمن بالله ـ انتهى ـ .

وعن قتادة : إنما يخدع المؤمن بالله . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاةٍ ، أعتقه ، فـكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ! فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ » أى : أطمعهما . وأصله : الرجل العطشان يدلّى فى البئر ليروى من مائها ، فلا يجد فيها ماءً ، فيـكون مدلّياً فيها بغرور ، فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدى نفعاً . وفيه إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية ، إلى رتبة سافلة . فإن

---

(١) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ .

التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل . وقيل : معنى دلاهما جرأهما بغروره، والأصل فيه (دللهما) ، والدلّ والدالة الجرأة كما قال[1] :

أَظُنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومي   وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ

فأبدل أحد حرفي التضعيف ياءً .

« فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا » أي : أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما اللباس ، فظهرت لهما عوراتهما . قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدل به بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى ـ انتهى ـ وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا ، فإن الذوق وجود الطعم بالفم ، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير ، وهو المراد هنا ، لأنه وقع في آية أخرى مصرحاً بالأكل فيها « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ » أي : أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة « عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ » أي : ليستترا به .

قال الجشميّ : تدل على أن ستر العورة كان من شريعة آدم عليه السلام . وقد استدل قوم بالآية على وجوب الستر . قال القاضي : وليس في الآية مايوجب الوجوب، إذ ليس فيها أكثر من أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : وتدل على أن الستر من خلُق آدم وحواء، وأنهما كرها العرّي وإن لم يكن لهما ثالث ، ففي ذلك دليل على قبح التعرّي إلا عند الحاجة .

« وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ » أي يذكرهما النهي السابق والأمر والتجنب عن الشيطان « أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ » أي : عن الأكل منها « وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .

---

(١) قائله قيس بن زهير . وقد استشهد به في اللسان في مادة (د ل ل) ج ١١ ص ٢٤٧ (طبعة بيروت) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ)

« قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا » أى أضررناها بالمعصية « وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا » أى ماسلف « وَتَرْحَمْنَا » أى بالتوبة وقبولها « لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ » أى لنصيرن ممن خسر جميع ماحصل له من الكمالات . قال الضحاك بن مزاحم (فى قوله : رَبَّنَا ظَلَمْنَآ ...) الآية ـ هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

لطيفة :

قال الجشمىّ : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشقى إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

« قَالَ ٱهْبِطُواْ » أى من الجنة إلى ما عداها . وقال أبو مسلم : معناه اذهبوا . وهو خطاب لآدم وحواء وإبليس . قال ابن كثير : والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال فى سورة طه : (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ...) الآية[1] ـ وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهى تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم . ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان فى تعيين تلك

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ .

البقاع فائدة ، تعود على المكلفين ، فى أمر دينهم أو دنياهم ، لذكرها الله تعالى فى كتابه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم ــ انتهى ــ « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » أى استقرار أو موضع استقرار . « وَمَتَٰعٌ » أى تمتع ومعيشة « إِلَىٰ حِينٍ » أى : إلى تقضى آجالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

« قَالَ فِيهَا » أى الأرض « تَحْيَوْنَ » تعيشون « وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » أى يوم القيامة للجزاء ، كقوله تعالى(١) : مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . ثم ذكرهم سبحانه بنعمته فى تبوئة الدار والمستقر فى الأرض ، وكسوتهم لباساً يسترون به سوءاتهم ، بعد ما نزع عنهما لباس الجنة ، وذلك لما هم ، بعد الإهباط ، من الحاجة إلى اللباس والمعاش . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا » يعنى ما يلبس من الثياب وغيره .

قال الزمخشرىّ : جعل ما فى الأرض منزلا من السماء ، لأنه قضى ثمة وكتب ، أى قضى وقسم لكم ، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب فى اللوح المحفوظ .

وقال أبو البقاء : لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر ، والمطر ينزل ، جعل ماهو المسبب بمنزلة السبب ــ انتهى ــ .

(١) [٢٠ / طه / ٥٥] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى فتوى له فى معنى النزول : لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام ، فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام فى اللباس والأثاث ، وهذا ـ والله أعلم ـ معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم فى اللباس والرياش، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهى لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان .

« يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ » أى يستر عوراتكم التى قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق ، وأنتم مستغنون عن ذلك « وَرِيشًا » عطفه إما من عطف الصفات ، فوصف اللباس بشيئين : مواراة السوأة ، والزينة . فالريش بمعنى الزينة ، لأنه زينة الطير فاستعير منه . وأما من عطف الشىء على غيره . أى أنزلنا لباسين : لباس مواراة ولباس زينة ؛ فيكون مما حذف فيه الموصوف ، أى لباساً ريشاً أى ذا ريش ، والريش مشترك بين الاسم والمصدر . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وحكاه البخارىّ[1] عنه : الريش المال . وحكاه غير واحد من السلف . قال الإمام ابن تيمية : وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص . قال ابن زيد: جمالاً . وقرئ : رياشاً . قال

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ونصه :

قال ابن عباس : لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ : إلا عليها حافظ . كَبَدٍ : فى شدة خلق . وَرِيَاشاً (وريشاً) : المال .

وفى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف. ونصه :

قال ابن عباس : ورياشاً ، المال .

وانظر كتابنا(معجم غريب القرآن،مستخرجاًمن صحيح البخارىّ)مادة(رى ش)ص ٧٧

ابن السكيت : الرياش هو الأثاث من المتاع ، ما كان من لباس أو حشو من فراش أودثار ، والريش : المتاع والأموال ، وقد يكون فى الثياب دون الأموال . وإنه لحسن الريش ، أى : الثياب ـ انتهى ـ .

ويقال : راش فلان ، أى جمع الريش ، وهو المـال والأثاث . وراش الصديقَ أطعمه وسقاه وكساه ، وأصله من الريش ، كأن الفقير المملق لانهوض له ، كالمقصوص منه الجناح وكل من أوليته خيراً ، فقد رشته ـ كذا فى تاج العروس ـ .

فائدة

روى الإمام [أحمد (١)] عن أبى أمامة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استجدّ ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد الله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به ، كان فى ذمة الله تعالى وفى جوار الله ، وفى كنف الله حيًّا وميتاً . ورواه الترمذىّ (٢) وابن ماجة (٣) . وروى

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) وأخرجه الترمذىّ فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٢٩ ـ باب مايقول إذا لبس ثوباً جديداً . ونصه :

عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه (عمامة أو قميصاً أو رداء) ثم يقول « اللهم ! لك الحمـد . أنت كسوتنيه . أسألك خيره وخير ماصنع له . وأعوذ بك من شره وشر ماصنع » .

قال : وفى الباب عن عمر وابن عمر .

(٣) وأخرجه ابن ماجة فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٢ ـ باب مايقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً ، حديث رقم ٣٥٥٧ (طبعتنا) ونصه كنص المسند .

الإمام أحمد[١] عن أبى مطر أنه رأى علياً رضى الله عنه أتى غلاماً حدَثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين ، يقول وَلَبِسَهُ : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى . فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أوعن نبيّ الله ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ عند الكسوة : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى .

ولما بيّن تعالى ساتر الظاهر وزينته ، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله : « وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ » أى: خشية الله ، أو الإيمان ، أو السمت الحسن، والكل متقارب ، ورفعه بالابتداء ، خبرهُ جملةُ « ذَٰلِكَ خَيْرٌ » أو خيرٌ ، وذلك صفته ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير .

قال المهايمىّ : لأن الظاهر محل نظر الخلق ، والباطن محل نظر الحق والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة . وقال القاشانىّ : لباس التقوى صفة الورع والحذر من صفة النفس ، ذلك خير لأنه من جملة أركان الشرائع ، لأنه أصل الدين وأساسه ، كالحمية فى العلاج ـ انتهى ـ .

قال أبو على الفارسىّ : معنى الآية : ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى ، مما خلق من اللباس والرياش الذى يتجمل به . قال : وأضيف اللباس إلى التقوى، كما أضيف إلى الجوع فى قوله : فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ[٢] . ـ انتهى ـ

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٣٥٤ (طبعة المعارف) .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ .

أى : فهو استعارة مكنية وتخييلية بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس ، تشتمل على جميع بدنه ، بحسب الورع والخشية من الله ، اشتمال اللباس على اللابس ، أو من قبيل (لُجَيْنِ الماء). وقرأ نافع وابن عامر والكسائىّ (وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ) بالنصب ، عطفاً على (لباساً) .

« ذَٰلِكَ » أى إنزال اللباس « مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » الدالة على فضله ورحمته على عباده « لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى : نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها .

قال الزمخشرىّ : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوآت ، وخصف الأراق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى ، وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على عظيم نعمه تعالى بهذه النعم التى عدّها . وذهب علىّ بن موسى القمىّ إلى أنها تدل على وجوب ستر العورة . وقال آخرون: لا تدل ، وليس فى الظاهر إلا الإنعام به من حيث نفى الحر والبرد وستر العورة والتجمل به ، فأما أنه واجب ، فبعيد . ولو ثبت وجوبه عليه ، احتجنا إلى وجوبه فى شريعتنا إلى دليل مستأنف . وقد ثبت فى هذه الشريعة وجوبه بالخبر المستفيض والإجماع ، فلا حاجة إلى الرجوع إلى شريعة أخرى . وتدل على أنه تعالى، كما أنعم بنعم الدنيا ، أنعم بنعم الدين، فإن الأقرب أن لباس التقوى العلم والعمل الصالح، فكأنه ضم إلى نعم الدنيا نعم الدين التى بها يحصل الفوز بالثواب، فتحصل نعمة الدارين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ، إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى لا يخدعنكم عن دخول الجنة ، بنزع لباس

الشريعة والتقوى عنكم ، فيخرجكم من نظر الله بالرحمة إليكم « كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ » نعت لمصدر محذوف، أى لا يفتننكم فتنةً مثل إخراج أبويكم « يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » أى الظاهر بسبب نزع لباس التقوى « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ ٰتِهِمَآ » أى الظاهرة الدالة على السوأة الباطنة . وجملة (ينزع) حال من (أبويكم) أو من فاعل (أخرج) ، أى : أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأن كان سبباً فى أن نزع عنهما ؛ وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

تنبيهان :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل): استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب ستر العورة، واستدل بالآيتين من قال: إن العورة هى السوأتان خاصة ـ انتهى ـ .

الثانى ـ قال الإمام الرازىّ : اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان، فقال: (يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ...) الآية ـ وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ، ولطف وسوسته ، وشدة اهتمامه، إلى أن قدر على إلقاء آدم فى الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة ـ فبأن يقدر على أمثال هذه المضار فى حق بنى آدم أولى . فبهذا الطريق حذر تعالى بنى آدم بالاحتراز عن وسوسته .

وقوله تعالى : « إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ » أى : جنوده من الشياطين « مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » أى من مكان لا ترونهم فيه . والجملة استئناف لتعليل النهى، وتأكيد التحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجى ، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . عن مالك ابن دينار : إن عدوّا يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة ، إلا من عصم الله .

تنبيه .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : استدل بها بعضهم على أن الجن لا يرون وأن من قال إنهم يُرَوْنَ فهو كافر ـ انتهى ـ ومراده بالبعض ، المعتزلة ، ولذا

قال الزمخشريّ : فيــه دليل بيّن أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم ، وأن زعْم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة ـ انتهى ـ

وقال الجشمىّ : تدل على بطلان قول العامة إن الشيطان يتصور لنا ونراه . ثم قال : ومتى قيل : أليس يُرَون زمن الأنبياء ، ويرى المعاين الملَك؟ فجوابنا : أنه يزداد قوة الشعاع ، أو تتكاثف أبدانهم ، فيكون معجزة للنبى ـ انتهى ـ

وأجاب أهل السنة كما فى (العناية) : بأنه قد ثبتت رؤيتهم ، بالأحاديث الصحيحة المشهورة ، وهى لاتعارض ما فى الآية . لأن المنفى فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا .

وقال فى فتح البيان : وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممــكنة ، وليس فى الآية مايدل على ذلك . وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لانراه وليس فيها أنا لانراه أبدا ، فإن انتفاء الرؤية منّا له ، فى وقت رؤيته لنا ، لايستلزم انتفاءها مطلقاً . والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة ، وتــكون الآية مخصوصة بها ، فيكونون مرئيين فى بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض ـ انتهى ـ .

وقد أوضح الغزالىّ رحمه الله رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائــكة حيث قال فى (الركن الثانى) : الملائــكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافا يكون بين الأنواع . ثم قال : ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر ـ أعنى جواهر الملائــكة ـ وإن كانت غير محسوسة . وهذه المشاهدة على ضربين : إما على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)(١) . وكما كان النبيّ عليــه الصلاة والسلام(٢) ، يرى جبريل فى صورة دِحْيَةَ الــكلبىّ .

(١) [١٩ / مريم / ١٧] ونصها : فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٨٥٦ و ٥٨٥٧ (طبعة المعارف) ونصهما :

والقسم الثانى أن يكون لبعض الملائكة بدن مخصوص ، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها ، فكذلك بعض الملائكة ، وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفاً على إشراق نور النبوة ، كما أن محسوسات عالمنا هذا موقوفة عند الإدراك على إشراق نور الشمس ، وكذا فى الجن والشياطين ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » قال الزجاج : يعنى سلطناهم عليهم : يزيدون فى غيهم ـ انتهى ـ والجملة تعليل آخر للنهى ، وفيه تحذير أبلغ من الأول.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً » أى: ما تناهى قبحه من الذنوب، كالشرك وكشف العورة فى الطواف

= عن يحيى بن يعمر . قلت لابن عمر : إن عندنا رجالا يزعمون أن الأمر بأيديهم، فإن شاءوا عملوا وإن شاءوا لم يعملوا ؟ فقال: أخبرهم أنى منهم برئ . وأنهم منى برءاء . ثم قال : جاء جبريل ﷺ إلى النبىّ ﷺ فقال : يا محمد ! ما الإسلام ؟ فقال « تعبد الله لا تشرك به شيئاً . وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال : فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم ؟ قال « نعم » قال : صدقتَ . فما الإحسان ؟ قال « تخشى الله تعالى كأنك تراه ، فإلّا تكن تراه فإنه يراك » قال : فإذا فعلتُ ذلك فأنا محسن؟ قال « نعم » قال: صدقتَ . قال : فما الإيمان؟ قال « تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ قال « نعم » قال : صدقت .

وعن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مثله . قال : وكان جبريل عليه السلام يأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى صورة دِحْيَةَ .

« قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » أى؟ إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها، فاقتدوا بهم ، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها ، حيث أقرنا عليها ، إذ لو كرهها لنقلنا عنها، وهما باطلان ، لأن أحدهما تقليد للجهال ، والتقليد ليس بطريق للعلم ، والثانى افتراء على ذى الجلال .

قال الشهاب : فى قوله تعالى : (وَٱللَّهُ أَمَرَنَا) : مضاف مقدر ، أى أمر آباءنا ، فلا يقال الظاهر أمرهم بها ، والعدول عن الظاهر إشارة إلى ادعاء أنّ أمر آبائهم أمرٌ لهم .

« قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ » أى : هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ، لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال « أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » إنكار لإضافتهم الأمر بالفحشاء إليه سبحانه ، يتضمن النهى عن الافتراء عليه تعالى ، وفيه شهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط قال الشهاب : ولا دليل فى الآية لمن نفى القياس ، بناء على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم، لأنه مخصوص فى عمومها بإجماع الصحابة ومن يعتد به ، أو بدليل آخر .

تنبيه :

قال مجاهد(١) : كان المشركون يطوفون بالبيت عراةً ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسعة أو الشىء وتقول :

اليومَ يبدو بعضهُ أو كلُّهُ ... وما بدا منــه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله (وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ...) الآية ـ قال ابن كثير: كانت العرب ،ما عدا قريشاً ، لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها. وكانت قريش ـ وهم الحمس ـ يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسىّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه، فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديدًا ، ولا أعاره أحمسىّ ثوباً ؛

(١) الأثر رقم ١٤٤٦٢ من تفسير الطبرىّ .

طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة ، فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر ، فتقول : اليوم يبدو ... ـ البيت ـ وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر تعالى عليهم ذلك .

وذكر السيوطيّ فى (الإكليل) عن ابن عباس أيضاً ؛ أنها نزلت فى طوافهم بالبيت عراة ، رواه أبو الشيخ وغيره . قال : ففيها وجوب ستر العورة فى الطواف .

تنبيهان :

الأول ـ ذهب المعتزلة إلى أن الإرادة مدلول الأمر ، ولا زمة له ، والفحشاء ـ أعنى الشرور والمعاصى ـ غير مأمور بها بنص الآية ، فلا تكون مرادة له تعالى .

وأجاب أهل السنة بأن الأمر قد ينفك عن الإرادة ، بمعنى أنه يوجد بدون الإرادة ، فلا تكون الإرادة تابعة له وجودا . ومما يوضح أن الشيء قد يؤمر به ولا يكون مرادا، أن السيد إذا أراد أن يظهر على الحاضرين عصيان عبده ، يأمره بالشيء ولا يريده منه . ومنها أن الأمر أمران : أمر تكوينيّ يحصل به وجود الأشياء ، وهو خطاب (كن) وهو تابع للإرادة ، ويعم جميع الكائنات . فالطاعات والمعاصى كلها مأمورة ومرادة بهذا الأمر ، ولا يتعلق بهذا الأمر الطاعةُ والعصيان والثواب والعقاب. لأنه يتعلق بالأشياء حال العدم.

وأمر تشريعيّ تدوينيّ : أى شرعه الله لعباده ، وكلفهم به، مما دون فى كتب الشريعة وبُيِّن . وهذا الأمر يتعلق به الطاعة والعصيان والثواب والعقاب والرضا والسخط. والكفرُ والمعاصى ليست مأمورةً بهذا الأمر . والمعتزلة لم يفرقوا بين الأمرين ، وقالوا : إن الكفر والمعاصى لو كانت مرادَه تعالى، لكانت مأمورا بها ، وإتيانُ المأمور به طاعة، فيكون الكافر والفاسق مطيعيْن ، فإنهما مأمور بهما بالأمر الأول ، وليس مأمورا بهما بالأمر الثانى ، حتى يكون إتيانهما طاعة .

قال السيلكوتى : ولا يخفى عليك أن تقسيم الأمر إلى أمرين ، إنما يستقيم إذا كان قوله تعالى: (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(١) عَلَىٰ ظاهره ، كما ذهب إليه البعض . وأما إذا كان عبارة عن الإيجاد من غير أن يتعلق بها خطاب ، كما ذهب إليه الأشعرىّ ومن تبعه ، فلا . انتهى ـ والمسألة مبسوطة فى محالها المعروفة .

الثانى ـ قوله تعالى (قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ) جواب عن شبهتهم الثانية . ولم يذكر جواباً عن الأولى . قال الإمام : لأنها إشارة إلى محض التقليد . وقد تقرر فى المعقول أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل فى الأديان المتناقضة . فلو كان التقليد حقًّا ، لزم القول بحقية الأديان المتناقضة . فلما كان فساده ظاهرا ، لم يذكره تعالى .

الثالث ـ قال فى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر ، لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون: (إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ)(٢) والقائلون : (وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) . والمقلد ، لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق ـ لم يبق عليه . وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودىّ على يهوديته ، والنصرانىّ على نصرانيته ، والمبتدع على بدعته . فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية والبدعة ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به ، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن الله كما ينبغى . وهذا هو التقليد البحت ، والقصور الخالص . ثم قال : وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء

---

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٢) [٢٣ / الزخرف / ٢٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ . . .

الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم، ووجود آلة الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم ـ انتهى ـ .

ولما نفى تعالى ما تقوّلوه عليه ، وأخبر أنه لا يأمر بالفحشاء ، بيّن ما أمر به بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

« قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ » أى : بالعدل . وللسلف فيه هنا وجوه : ما ظهر فى العقول كونه حسناً ، أو التوحيد ، أو كلمة الإخلاص. وعن أبى مسلم: جميع الطاعات . قال الحاكم: وهو الوجه : ولا يخفى أن الجميع مما يشمله (القسط) فلا منافاة . « وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » معطوف على الأمر الذى ينحلّ إليه المصدر مع (أن) . أى : بأن أقسطوا وأقيموا ، والمصدر ينحل إلى الماضى والمضارع والأمر ، كما نقله المُعْرِب . أو معطوف على (أَمَرَ رَبِّى) أى : قل أقيموا . قال الجرجانىّ : الأمر معطوف على الخبر ، لأن المقصود لفظه، أو لأنه إنشاء معنى . انتهى ـ و (الوجوه) مجاز عن الذوات . ومسجد إما مصدر، والوقت مقدر قبله ، و (عند) بمعنى (فى) . أى : أقيموا ذواتكم فى كل وقت سجود، وذلك بمنعها عن الالتفات إلى الغير فيه ، وبمراعاة موافقة الأمر مع صدق النية ، أو باستقبال القبلة فيه . وإما اسم زمان أو مكان بالمعنى اللغوىّ ، أى فى كل وقت سجود أو مكانه . والسجود على هذه الأوجه مجاز عن الصلاة ، أو المسجد هو المصطلح عليه . والمعنى : فى أىّ مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم . والأمر على هذا الوجه للندب . قيل : وهو لا يناسب المقام . وإما على ما قبله ، فهو للوجوب .

وهذه الوجوه مستفادة مما روى عن السلف . قال فى (اللباب) : معنى الآية فى قول

مجاهد والسدّىّ : وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة . وقال الضحاك : المعنى إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلّوا فيه ، ولا يقولن أحدكم : أصلى فى مسجدى، أو مسجد قومى . وقيل : معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً .

« وَٱدْعُوهُ » أى : اعبدوه « مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى : الطاعة بتخصيصها له ، لأنه استحق عبادتكم بإبدائه إياكم ، ولا يسعكم تركها ، إذ إليه عودكم بالآخرة ؛ فإنه « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » أى : كما أنشأكم ابتداء ، يعيدكم إليه أحياء ، فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة . وإنما شبه الإعادة بالابتداء ، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ، إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)

« فَرِيقاً هَدَىٰ » بأن وفقهم للإيمان « وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ » وهم الكافرون « إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ » أى: أنصارًا وأرباباً « مِن دُونِ ٱللَّهِ » حيث أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصى « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » أى : أنهم على هداية وحق فيما اعتقدوا .

تنبيهان :

الأول ــ قال ابن جرير[١] : قوله تعالى (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها . لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل ، وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى ــ فرقٌ . وقد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية ــ انتهى ــ .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨٨ من الجزء الثانى عشر من تفسيره (طبعة المعارف) .

وحاصله ، كما قال القاضى : إن الآية دلت على أن الكافر المخطئ والمعاند سواء فى استحقاق الذم . قال القاضى : وللفارق أن يحمله على المقصر فى النظر ، أى : يحمل الضمير فى (ٱتَّخَذُواْ) على الكافر المقصر فى النظر . وأما الذين اجتهدوا وبذلوا الوسع فمعذورون ، كما هو مذهب البعض ـ كذا فى (العناية) .

الثانى ـ قال الرازىّ : هذه الآية تدل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفى فى صحة الدين ، بل لابد فيه من الجزم والقطع واليقين ، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين . ولولا أن هذا الحسبان مذموم ، لما ذمهم بذلك ـ انتهى ـ .

قال المهايمىّ : ومما حسبوا فيه أنهم مهتدون بمتابعة الشيطان ، تركهم التزين والتلذذ مع العبادة ، فطافوا عراة . وتركهم اللحم والدسم مع الإحرام ، فقال عز وجل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ)

« يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ » أى : من اللباس « عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » أى : بيت بنى للعبادة ، على أنه اسم مكان ، أو مصدر بمعنى السجود ، مرادًا به الصلاة والعبادة . فإن العبادة أولى أوقات التزين « وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ » أيام الحج تقوّيًا على العبادة « وَلَا تُسْرِفُوٓاْ » أى : إسرافًا يوجب الانهماك فى الشهوات ويشغل عن العبادة ، أو لا تحرموا الطيبات من الرزق واللحم والدسم « إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ » المعتدين .

تنبيهات :

الأول ـ كنا أسلفنا فى مقدمة هذا التفسير ، أن من فوائد معرفة سبب النزول الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال . وهذه الآية إنما أجملنا تفسيرها بما ذكرنا ، لأنها نزلت فى ذلك.

فقد روى مسلم[١] عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عُرْيانة ، فتقول : من يعيرنى تِطْوَافا[٢] ؟ تجعله على فرجها وتقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية (خُذُواْ زِينَتَكُمْ . . .) الآية . ونزلت (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ . . .) الآية .

وعند ابن جرير[٣] عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليومَ يبدُو بعضُهُ أو كلُّهُ فما بدا منه فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت (خُذُواْ زِينَتَكُمْ) . قال فى (اللباب) : وفى رواية أخرى عنه[٤] : فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعرّوا . وروى العوفىّ[٥] عن ابن عباس أيضاً فى الآية قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو مايوارى السوأة ، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد . وأخرج أبو الشيخ عن طاووس قال : أمروا بلبس الثياب ، وأخرج من وجه آخر عنه قال : الشملة

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٤ ـ كتاب التفسير ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

(٢) تطوافاً: هو ثوب تلبسه المرأة تطوف به. وكان أول الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبدا. ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى اللقاء . حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة ، فقال تعالى : خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وقال النبىّ ﷺ « لا يطوف بالبيت عريان » .

(٣) الأثر رقم ١٤٥٠٤ .

(٤) الأثر رقم ١٤٥٠٧ .

(٥) الأثر رقم ١٤٥٠٨ من تفسير ابن جرير .

من الزينة . وقال مجاهد : كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجًّا أو معتمراً يقول : لا ينبغى لى أن أطوف فى ثوب قد عصيت فيـه ، فيقول : من يعيرنى مئزراً ؟ فإن قدر عليه وإلّا طاف عرياناً . فأنزل الله تعالى فيـه ما تسمعون : (خُذُواْ زِينَتَكُمْ . . .) الآية . وقال الزهرىّ : إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ـ وهم قريش وأحلافهم ـ فمن جاء من غير الحمس ، وضع ثيابه ، وطاف فى ثوب أحمسىّ ، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه . فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقى ثيابه ، ويطوف عرياناً . وإن طاف فى ثياب نفسه ألقاها ، إذا قضى طوافه وحرّمها ، أى جعلها حراماً عليه ؛ فلذلك قال تعالى: خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . والمراد من الزينة لبس الثياب التى تستر العورة . قال مجاهد : مايوارى عوراتكم ، ولو عباءة ـ انتهى ـ قال ابن كثير : هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعىّ ، وسعيد بن جبير وقتادة والسدّىّ ، والضحاك ومالك عن الزهرىّ وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها : أنها نزلت فى طواف المشركين بالبيت عراة ـ انتهى ـ فظهر أن المراد بالزينة مايستر العورة لأنه اللازم المأمور به الذى بيّنه سببُ النزول ، دون لباس التجمل المتبادر منه ، لأن المستفاد من (خُذُواْ) هو وجوب الأخذ ، ولباس التجمل مسنون ـ قاله الشهاب ـ وأقول دلّت الآية بما أفاده سبب نزولها على أن الزينة لا تختص ، لغةً ، بالجيّد من اللباس كما توهم . وبين ذلك العوفىّ عن ابن عباس فيما نقلناه .

وفى (التهذيب) : الزينة اسم جامع لكل شىء يتزين به . ومثله فى (الصحاح) و(القاموس) وعبارته : الزينة مايتزين به .

وقال الحرالىّ : الزينة تحسين الشىء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة .

وقال الراغب : الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان فى شىء من أحواله ، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة ـ انتهى ـ .

وقد نقل الرازىّ إجماع المفسرين على أن المراد بـ (الزينة) لبس الثياب التى تستر العورة .

قال : والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات . قال : وأيضاً إنه تعالى قال فى الآية المتقدمة (قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا) فبين أن اللباس الذى يوارى السوأة من قبيل الرياش والزينة . ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة فى هذه الآية . فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذى تقدم ذكره فى تلك الآية . وأيضاً فقوله (خُذُواْ زِينَتَكُمْ) أمر ، والأمر للوجوب . فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملا بالنص بقدر الإمكان . ولا يقال : إن قوله (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) أمر إباحة ، فيكون المعطوف عليه كذلك ، لأنه لا يلزم من ترك الظاهر فى المعطوف ، تركه فى المعطوف عليه .

هذا ، وقد روى الحافظ ابن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعىّ عن قتادة عن أنس مرفوعاً : أنها نزلت فى الصلاة فى النعال . وكذا أخرجه أبو الشيخ عنه ، وعن أبى هريرة مثله . قال ابن كثير : وفى صحته نظر ـ والله أعلم ـ قلت : لا نظر ، لأن ذلك مما تشمله الزينة ، وقد أسلفنا فى المقدمة أن قولهم : (نزلت فى كذا) لا يقصد به أن حكم الآية مخصوص به ، بل مخصوصة بنوعه ، فتعم ما أشبهه ، فتذكّرْ . والأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدًّا ، منها : عن أبى مسلمة [1] سعيد بن يزيد ، قال : سألت أنساً : أكان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يصلى فى نعليه ؟ قال : نعم (متفق عليه) . قال العراقىّ فى (شرح الترمذىّ) : وممن كان يفعل ذلك ـ يعنى لبس النعل فى الصلاة ـ عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وعويمر بن ساعدة وأنس بن مالك وسلمة بن الأكوع وأوس الثقفىّ ، ومن التابعين : سعيد بن المسيب والقاسم وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء ابن يسار وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وطاووس وشريح القاضى وأبو مجلز وأبو عمر الشيبانى والأسود بن يزيد وإبراهيم النخعىّ وإبراهيم التيمىّ وعلىّ بن الحسين وابنه أبو جعفر . انتهى.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٢٤ ـ باب الصلاة فى النعال حديث رقم ٢٥٦.

وقد أخرج أبو داود[١] من حديث أبى سعيد الخدرىّ أنه قال : قال ﷺ : إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذراً أو أذًى فليمسحه وليصلّ فيهما . وحديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : رأيت رسول الله ﷺ يصلى حافياً ومنتعلاً . أخرجه أبو داود[٢] وابن ماجة[٣] .

الثانى : دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف ، لأنه سبب النزول ، قالوا : واللفظ شامل للصلاة لأنها مفعولة فى المسجد .

الثالث : حاول بعضهم استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال: لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة فى الصلاة ، فُهِم منها ، فى الجملة ، حسن التزين بلبس ما فيه حسن

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب الصلاة فى النعل ، حديث ٦٥٠ ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى بأصحابه ، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره .

فلما رأى ذلك القومُ ألقَوْا نعالهم .

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال « ما حملكم على إلقائكم نعالكم » ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جبريل صلى الله عليه وسلم ، أتانى فأخبرنى أن فيهما قذراً » وقال « إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر . فإن رأى فى نعليه قَذَرًا أو أذًى ، فليمسحه وليصلّ فيهما » .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب الصلاة فى النعل ، حديث ٦٥٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٦٦ ـ باب الصلاة فى النعال ، حديث ١٠٣٨ (طبعتنا) .

وجمال فيها . قال الكيا الهراسىّ : ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد للفضل الذى يتعلق به تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه ، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف . وقال ابن الفرس : استدل مالك بالآية على كراهية الصلاة فى مساجد القبائل بغير أردية . واستدل بها قوم من السلف على أنه لا يجوز للمرأة أن تصلى بغير قلادة أو قرطين . كذا فى (الإكليل). والأخير من الغلوّ فى النزع . وقال ابن كثير : ولهذه الآية وما ورد فى معناها من السنة ، يستحب التجمل عند الصلاة ، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد . والطيب لأنه من الزينة . والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل اللباس البياض لما روى الإمام أحمد[١] وأبو داود[٢] والترمذى[٣] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم . وإن من خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر وينبت الشعر ولأحمد[٤] وأهل السنن ، عن سمُرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم . وروى الطبرانىّ بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين : أن تميماً الدارىّ اشترى رداءً بألف ، وكان يصلى فيه .

الرابع : وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة ، بالأمر بالأكل والشرب فى قوله تعالى (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) ما رواه الكلبىّ أن بنى عامر كانوا لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم . فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يارسول الله.

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٢١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ١٤ ـ باب فى الأمر بالكحل ، حديث ٣٨٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٨ ـ كتاب الجنائز ، ١٨ ـ باب مايستحب من الأكفان.

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

فأنزل الله عز وجل (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) . وقال السدّىّ : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرّمون عليهم الودك ماأقاموا فى الموسم . فقال الله تعالى لهم : وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ . . . الآية .

الخامس : فسر الإسراف بمجاوزة الحد فيما أحلّ ، وذلك بتحريمه ، وقال الجشمى اليمنىّ فى تفسيره (التهذيب) : تدل الآية على المنع من الإسراف . وذلك على وجهين : أولها : إنفاق فى معصية كالفخار واللعب والزنى والخمر ونحوها . وثانيهما: أن يتعدى الحدود وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار . لأن من له قدر يسير ، لو أنفقه فى ضيافة أو طيب أو ثياب خز ، وهو وعياله يحتاجون إليه ، فهو سرف محرم . ومثله فى الموسرين لايقبح ولا يكون سرفاً . وتدل على أن الأشياء على الإباحة . والعقل يدل على ذلك . لأنه تعالى خلقه لمنافعهم . والسمع ورد مؤكدا . ولذلك قال : (مَنْ حَرَّمَ) مطالبا بدليل سمعىّ اهـ .

وقد روى الإمام أحمد [1] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده . وأخرج النسائى [2] وابن ماجة [3] نحوه .

وقال البخارىّ [4] : قال ابن عباس : كل ماشئت والبس ماشئت ماأخطأتك اثنتان :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) الحديث رقم ٦٦٩٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٦ ـ باب الاختيال فى الصدقة .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٢ ـ كتاب اللباس ، ٢٣ ـ باب البس ماشئت ، ماأخطأك سرف أو مخيلة ، حديث رقم ٣٦٠٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ١ ـ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

سرف أو مخيلة . ورواه ابن جرير [١] عنه أيضاً بلفظ : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سَرَفاً أو مخيلة . قال الشهاب : هذا (أى ما قاله ابن عباس) لا ينافى ما ذكره الثعالبىّ وغيره من الأدباء ؛ أنه ينبغى للإنسان أن يأكل مايشتهى ، ويلبس مايشتهيه الناس ، كما قيل:

نصيحــة نصيحة قالت بها الأكياسُ
كل ما اشتهيت والبسـ نَّ ما اشتهته الناسُ

فإنه لِترْك ما لم يعتد بين الناس ، وهذا لإباحة كل ما اعتادوه . و (المخيلة : الكبر) . و (ما) دوامية زمانية . و (أخطأتك) من قولهم : أخطأ فلان كذا ، إذا عدمه . وفى الأساس: من المجاز لن يخطئك ما كُتِب لك ، وأخطأ المطر الأرض : لم يصبها ، وتَخَاطَأَتْهُ النبلُ: تجاوزته وتَخَطَّأَتْهُ. انتهى .

وفى قوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ) وعيد وتهديد لمن أسرف فى هذه الأشياء . لأن من لم يحبه الله لم يرض عنه .

السادس ـ تناقل المفسرون وغيرهم ماقيل إن قوله تعالى (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ) الآية ـ جمَعَ الطب كله . وأصله ما حكاه الزمخشرىّ والكرمانىّ فى عجائبه ؛ أن الرشيد كان له طبيب نصرانىّ حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال : وما هى ؟ قال: قوله تعالى (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ) ، فقال النصرانىّ : ولا يؤثر من رسولكم شىء فى الطب ! فقال : قد جمع رسولنا ﷺ الطب فى ألفاظ يسيرة . قال : وماهى ؟ قال قوله [٢]: المعدة بيت الداء ، والحمية

(١) الأثر رقم ١٤٥٢٩ من التفسير .

(٢) قال فى كشف الخفاء ، رقم ٢٣٢٠ مايأتى :

قال فى (المقاصد) : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ . بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، أو غيره .

رأس الدواء ، وأعط كل بدن ما عودته . فقال النصرانىّ : ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبًّا .

قال فى (العناية) : وترك بعضهم تمام القصة، لأن فى ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين.

وفى شعب الإيمان للبيهقىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة ، صدرت العروق بالصحة ، وإذا فسدت المعدة ، صدرت العروق بالسقم . ـ انتهى ـ .

أقول : إن صحت هذه الحكاية ، فصواب جواب النصرانىّ فى سؤاله الثانى بالتفنيد والفِرْية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُثر عنه من بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم يؤثر عن نبىّ قط. وللمحدّثين، فى عهد السلف، منه قسم كبير فى جوامعهم ومسانيدهم . وأما أعلام المتأخرين فقد اضطرهم وفرة ما روى فى ذلك إلى تدوينه فى أسفار مطولة ومختصرة بعنوان (الطب النبوىّ) . وقد بيّن الإمام ابن القيّم : عليه الرحمة ، اشتمال التنزيل العزيز على أصول الطب ، والسنة المطهرة على بدائعه ، فى كتابه (زاد المعاد) ، بياناً يدهش الألباب ، وفوق كل ذى علم عليم . قال ، عليه الرضوان ، فى كتابه (زاد المعاد ،فى هدى خير العباد) :

فصل

قد أتينا على جمل من هديه ﷺ فى المغازى والسير والبعوث والسرايا والرسائل والكتب التى كتب بها إلى الملوك ونوابهم، ونحن نتبع ذلك بذكر فصول نافعة فى هديه فى الطب الذى تطبب به ، ووصفه لغيره، ونبين ما فيه من الحكمة التى يعجز أكثر عقول الأطباء عن الوصول إليها، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم، فنحن نقول وبالله المستعان:

المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان . وهما مذكوران فى القرآن . ومرض

القلب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغىّ ؛ وكلاهما فى القرآن . قال تعالى فى مرض الشبهة : فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا(١) ، وقال تعالى : وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا(٢) . وقال تعالى فى حق من دعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض : وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ، بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ(٣) . فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ، إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا(٤) . فهذا مرض شهوة الزنى ـ والله أعلم .

وأما مرض الأبدان فقال تعالى(٥) : لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ . وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسرّ بديع ، يبين

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . . . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ .

(٢) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها: وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

(٣) [٢٤ / النور / ٤٨ ـ ٥٠] .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] .

(٥) [٢٤ / النور / ٦١] . . . وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ =

ذلك عظمة القرآن والاستغناء به ، لمن فهمه وعقله ، عن سواه . وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ؛ والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى هذه المواضع الثلاثة . فقال فى آية الصوم: فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ(١). فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ؛ والمسافر، طلباً لحفظ صحته وقوته ، لئلا يذهبها الصوم فى السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلّل ، فتخور القوة وتضعف ، فأباح للمسافر الفطر حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها. وقال فى آية الحج: فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ(٢) . فأباح للمريض ، ومن به أذى من رأسه ، من قمل أو

= أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ، . . . وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ، وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ، . . . ، فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

حكّة أو غيرها ، أن يحلق رأسه فى الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر ، وإذا حلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبخرة منها . فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه . والأشياء التى يؤذى انحباسها ومدافعتها عشرة : الدم إذا هاج ، والمنىّ إذا سبغ ، والبول والغائط والريح والقىء والعطاس والنوم والجوع والعطش . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحبسه. وقد نبه سبحانه، باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن فى الرأس، على استفراغ ما هو أصعب منه ، كما هى طريقة القرآن : التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وأما الحِمْية ، فقال فى آية الوضوء : وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا(١) . فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حِمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه . وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له، من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب، ومجامع قواعده

ونحن نذكر هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، ونبين أن هديه فيه أكمل هدى .

فأما طب القلوب ، فمسلّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم ، وعلى أيديهم . فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وأن تكون مُؤْثِرة لمرضاته ولمحابّه ، متجنبة لمناهيه ومساخطه . ولا صحة لها ولا حياة لها البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل . وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ، فغلط ممن يظن ذلك . وإنما ذلك حياة نفسه

(١) [٤ / النساء / ٤٣] يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ، . . . فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

البهيمية الشهوانية وصحتها وقوتها . وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل . ومن لم يميز بين هذا وبين هذا ، فليبك على حياة قلبه ، فإنه من الأموات . وعلى نوره ، فإنه منغمس فى بحار الظلمات ـ انتهى ـ :

وقد قرر رحمه الله هذا المقام بأسلوب آخر فى كتابه (طريق الهجرتين) نورده أيضاً لبداعة أسلوبه . قال عليه الرحمة :

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعىّ بفساد يعرض له ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه لضعف فى آلات الإدراك مع استقامة إدراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ماهى عليه ، كما يدرك الحلو مرّا ، والخبيث طيباً ، والطيّب خبيثاً . وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة . فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حدّ الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة ؛ وسبب هذا الخروج عن الاعتدال ، إما فساد فى الكمية أو فى الكيفية فالأول إما نقص فى المادة فيحتاج إلى زيادتها ، وإما زيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها . والثانى إما بزيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعىّ ، فيداوى بمقتضى ذلك . ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذى ، واستفراغ الموادّ الفاسدة . ونظرُ الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة . وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا فى رمضان ، ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برأ ، حفظاً لقوتهما عليهما . فإن الصوم يزيد المريض ضعفا ، والمسافر محتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، فالصوم يضعفها . فأما الحمية عن المؤذى ، فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له

عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذي له في باطنه ؟ وأما استفراغ المادة الفاسدة ، فإنه سبحانه أباح للمُحْرِم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ، فيستفرغ الحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها ، فنبّه به على ما هو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا فقال : والله ! لو سافرت إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة ، لكان سفراً قليلاً ــ أو كما قال ــ انتهى .

ثم ردّ تعالى على من حرّم شيئاً من المآكل والمشارب والملابس ، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ، تأكيداً لما سبق ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« قُلْ » أي لهؤلاء المشركين الذين يحرّمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم « مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ » أي من الثياب وسائر ما يتجمّل به « ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ » من النبات كالقطن والكتان ، والحيوان كالحرير والصوف ، والمعادن كالدروع . هكذا عمم المفسرون هنا . ووجهه أن تخصيصه يغني عنه ما مرّ « وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ » أي المستلذات من المآكل والمشارب .

قال المهايميّ : يعني إن زعموا أن التزين والتلذذ ينافيان التذلل الذي هو العبادة ، فيحرمان معها ، فأعلمهم أنه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينوا بها حال العبادة، فعل عبيد الملوك إذا حضروا خدمتهم ، ولا ينافي ذلك تذللهم لهم ، وكذلك الطيبات التي خلقها لتطييب قلوب عباده ليشكروه ، والشكر عبادة ، فلا ينافي التلذذُ العبادة ، بل قد يكون داعية إليها . انتهى .

تنبيهات

الأول ـ فسرت (الطيبات) بـ (الحلال ، وفسرت بـ (اللحم والدسَم) الذى كانوا يحرمونه أيام الحج كما تقدم ، وفسرت بـ (البحائر والسوائب) كما قال تعالى(١) : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلَـٰلًا . وظاهرٌ أن لفظ الآية أعم من ذلك ، وإن كان يدخل فيه ما ذكر دخولاً أوليًّا ، لأنها إنما وردت نعياً عليهم فيه ، والعبرة بعموم اللفظ .

قال الرازى : لفظ (الزينة) يتناول جميع أنواع التزين ، ومنه تنظيف البدن ، ومنه المركوب ، ومنه أنواع الحلى (يعنى للنساء) . ثم قال : ويدخل تحت (الطيبات) كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب . وقد رد النبيّ صلى الله عليه وسلم(٢) على عثمان بن مظعون ، ماهم به من الاختصاء والتبتل .

الثانى ـ دلت الآية على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة ، لأن الاستفهام فى (مَنْ) لإنكار تحريمها على وجه بليغ ؛ لأن إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه .

الثالث ـ فى الآية رد على من تورّع من أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة ، لأنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه، أو حرّمه على غيره . وما أحسن ماقال ابن جرير الطبرىّ : لقد أخطأ

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] . . . قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ .

(٢) جاء فى طبقات ابن سعد (ج ٣ ص ٣٩٤ ، طبعة بيروت) قال : أخبرنا سليمان ابن داود الطيالسىّ قال : أخبرنا إبراهيم بن سعد عن الزهرىّ ، عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبى وقاص قال : لقد ردَّ رسول الله ﷺ ، على عثمان بن مظعون ، التبتّلَ . ولو أذن له فى ذلك ، لاختصى .

من آثر لباس الشعر والصوف، على لباس القطن والكتان ، مع وجود السبيل إليه من حلّه، ومَنْ أَكَل البقول والعدس ، واختاره على خبز البُرّ ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة ـ انتهى ـ .

الرابع ـ قال ابن الفرس : واستدل بالآية من أجاز لبس الحرير والخزّ للرجال . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه كان يلبس الخزّ ، فقال له الناس : مثلك يلبس هذا ؟ فقال لهم : من ذا الذى يحرم زينة الله التى أخرج لعباده ؟ ولكن أخرج عن طاووس أنه قرأ هذه الآية وقال : لم يأمرهم بالحرير ولا بالديباج، ولكنه كانوا إذا طاف أحدهم وعليه ثيابه ضرب وانتزعت عنه . كذا فى (الإكليل) .

أقول : عدم شمول الآية للحرير غنىّ عن البيان ، لأن ما خصه الدليل لا يتناوله العامّ . والأحاديث فى تحريم الحرير لا تحصى كثرةً ، فاستنباط حلّه منها مردود على زاعمه .

« قُلْ هِىَ » أى زينة الله والطيبات ، مخلوقة « لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » بالأصالة ، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتبع « خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى : لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لأن الله حرم الجنة على الكافرين . وانتصابها على الحالية . وقرئ بالرفع ، أى على أنه خبر بعد خبر .

لطيفة :

قال المهايمى: إنما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذّات الآخرة ، فيرغبوا فيها مزيد رغبة ، لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان . فإذا ذهب هذا المعنى ، تصير خالصة لهم يوم القيامة ، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين،وهو خلاف مقتضى الحكمة . وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم على مقتضى الإيمان ، وهو العبادة والتقوى ، ولكن من غير انهماك فى الشهوات .

« كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى الحكمةَ فى خلق الأشياء ، واستعمال

الأشياء على نهج ينفع ولا يضر . فإن زعموا أنه يُخاف من التزين والتلذذ الوقوع فى الكبر ، والانهماك فى الشهوات ، فيحرمان على أهل العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قُلْ » إنهما من المنافع الخالصة فى أنفسهما . والإفضاء احتمال غير محقق . فإذا أفضى ، فالحرام هو المفضَى إليه بالذات لأنه « إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ » أى : ما تفاحش قبحه من الذنوب ، أى تزايد (وهى الكبائر) وهى مايتعلق بالفروج « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » أى : ما جاهر به بعضهم بعضاً ، وما ستره بعضهم عن بعض ، وما ظهر من أفعال الجوارح ، وما بطن من أفعال القلوب « وَٱلْإِثْمَ » أى : ما يوجب الإثم ، وهو عامّ لكل ذنب ، وذكره للتعميم بعد التخصيص . ويقال : إن الإثم هو الخمر ، قال الشاعر(١) :

نهانا رسول الله أن نقربَ الزنى ... وأن نشرب الإثم الذى يُوجب الوِزْرَا

وأنشد الأخفش(٢) :

شربتُ الإثم حتى ضلَّ عقلى ... كذاك الإثم تذهبُ بالعقولِ

وهو منقول عن ابن عباس والحسن. وذكره أهل اللغة كالأصمعىّ وغيره . قال الحسن: ويصدقه قوله تعالى : قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ(٣) . وقال ابن الأنبارىّ : لم تسمّ العرب الخمر

---

(١) لم أقف على هذا البيت فى محل ما ، ولم أعرف اسم هذا الشاعر .

(٢) استشهد به فى اللسان ، مادة (ا ث م) بالصفحة رقم ٦ من المجلد الثانى عشر (طبعة بيروت) .

(٣) [٢/ البقرة/ ٢١٩] ونصها : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَآ =

إثماً فى جاهليــة ولا إسلام ، والشعر المذكور موضوع . وردَّ بأنه مجاز ، لأنه سببه . وقال أبو حيان : هذا التفسير غير صحيح هنا ، لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحُد ، وقد سبقه إلى هــذا غيره . وأيضاً ، الحصر يحتاج إلى دليـــل . كذا فى (العناية) « وَٱلْبَغْىَ » أى : الاستطالة على الناس وظلمهم . إنمــا أفرده بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، للمبالغة فى الزجر عنه . وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضى أنه تَميَّزَ من بينها حتى عدّ نوعاً مستقلًّا « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » متعلق بـ (البغى) ، مؤكد له معنى . وقيل : البغى قد يخرج عن كونه ظلماً إذا كان بسبب جائز فى الشرع ، كالقصاص ، إلا أن مثله لا يسمى بغياً حقيقة ، بل مشاكلة « وَ » قد حرّم « أَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا » أى: برهاناً أى: ما لم يقم عليه حجة . قال الزمخشرىّ : فيه تهكم ، لأنه لا يجــوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره . وفى (العناية) : إنما جاء التهكم من حيث أنه يوهم أنه لو كان عليه سلطان لم يكن محرّماً ، دلالة على تقليدهم فى الغىّ . والمعنى على نفى الإنزال والسلطان معاً على الوجه الأبلغ ـ انتهى ـ قال الرازىّ : وهــذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل . وتبعه القاضى فقال : فى الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان « وَ » قد حرّم عليكم « أَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : تتقوّلوا عليه ، وتفتروا الــكذب فى التحليل والتحريم ، أو فى الشرك .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على تحريم جميع الذنوب ، لأن قوله (ٱلْفَوَٰحِشَ وَٱلْإِثْمَ) يشتمل على الصغير والــكبير ، والأفعال القبيحة ، والعقود المخالفة للشرع ، والأقاويل الفاسدة ، والاعتقادات الباطلة . ودخل فى قوله (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب

= إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ، وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

والخيانات ، والمكر ، والخديعة . ودخل تحت قوله (وَٱلْبَغْىَ) كل ظلم يتعدى على الغير ، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج ، والأمراء إذا انتصروا بغير حق . ودخل تحت قوله (وَأَن تُشْرِكُواْ) تحريم كل شرك وعبادة لغير الله . ودخل تحت قوله (وَأَن تَقُولُواْ) كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق ، وشهادة زور ونحوه . فالآية جامعة فى المحرمات ، كما أن ما قبلها جامعة فى المباحات . وفيه تعليم للآداب، ديناً ودنيا ، وتدل على بطلان التقليد، لأنه أوجب اتباع الحجة ، لقوله (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا) ، والسلطان الحجة . وتدل على أن لكل أحد وقت حياة ، ووقت موت ، لايجوز فيه التقديم والتأخير ، فيبطل قول من يقول : المقتول مات قبل أجله. انتهى .

ثم أوعد تعالى أهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عنده سبحانه ، كما نزل بالأمم ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً، وَلَايَسْتَقْدِمُونَ)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى : مدة أو وقت لنزول العذاب بهم « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ » أى : ميقاتهم المقدر لهم « لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » أى : لايتركون بعد الأجل شيئاً قليلًا من الزمان ، ولا يهلكون قبله كذلك . والساعة مثل فى غاية القلة من الزمان .

لطائف

١ ـ وقع هذا التركيب فى موضع من التنزيل ، وفيه بحث مشهور : وهو أنه لما كان الظاهر عطف (لا يستقدمون) على (لا يستأخرون) كما أعربه الحوفىّ وغيره ، أُورِدَ عليه أنه فاسد ، لأن (إذا) إنما يترتب عليها الأمور المستقبلة لاالماضية، والاستقدام حينئذبالنسبة إلى مَحِلّ الأجل متقدم عليه ، فكيف يترتب عليه ما تقدمه ؟ ويصير باب الإخبار

بالضروريّ الذى لافائدة فيـــه ، كقولك : إذا قمت فيما يأتى ، لم يتقدم قيامك فيما مضى . وأجيب بأن المراد بالمجىء الدنوّ ، بحيث يمكن التقـــدم فى الجملة ، كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه . وقيل : إن جملة (لَا يَسْتَقْدِمُونَ) مستأنفة . وقيل : إنها معطوفة على الشرط وجوابه ، أو على القيد والمقيّد. أو أن مجموع (لايستأخرون ولايستقدمون) كناية عن أنهم لايستطيعون تغييره . والتحقيق أنه عطف على (يَسْتَأْخِرُونَ) لـكن لا لبيان انتفاء التقدم، مع إمكانه فى نفسه كالتأخر ، كما يتوهم ، بل للمبالغة فى انتفاء التأخر . يعنى أن التأخر مساوٍ للتقدم فى الاستحالة، ولذا نظمه معه فى سلك، كما فى قوله سبحانه[1]: (وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبة له رأساً ، قد نظم فى عدم القبول، فى سلك من سوّفها إلى حضور الموت. إيذاناً بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة.

٢ ـ تقديم بيان انتفاء الاستئخار ، لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب. وأما (ما) فى قوله تعالى : (مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ)[2] من سبق (السبق) فى الذكر ؛ فلما أن المراد هناك بيان سر تأخـــير إهلاكهم مع استحقاقهم له ، حسبما ينبئ عنه قوله تعـــالى : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)[3] . فالأهم هناك بيان انتفاء السبق .

٣ ـ صيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك، مع طلبهم له، أفاده أبو السعود.

ثم أنذر تعالى بنى آدم بأنه سيبعث إليهم رسلًا يهدونهم ، وبشّر وأنذر بقوله سبحانه:

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٢) [١٥ / الحجر / ٥] .

و [٢٣ / المؤمنون / ٤٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِى » شرط ذكره بحرف الشك ، للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب . وضمت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك أكد فعلها بالنون الثقيلة أو الخفيفة . والمراد ببنى آدم جميع الأمم ، وهو حكاية لما وقع مع كل قوم . وليس المراد بالرسل نبينا ﷺ وببنى آدم أمته، كما قيل، فإنه خلاف الظاهر ـ كذا فى (القاضى وحواشيه) ـ وجواب الشرط قوله تعالى « فَمَنِ ٱتَّقَىٰ » أى التكذيب « وَأَصۡلَحَ » أى عمله « فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ » من العذاب « وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ » فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

« وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ » أى تكبروا « عَنۡهَآ » فلم يؤمنوا بها « أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ » :

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على وجوب اتباع الرسل ، وقبول ما يؤدّون . وتدل على أن الصلاح فى الرسل أن تكون من جملة من بعث إليهم ، لأنهم يكونون بطريقته أعرف، ومن النفار عنه أبعد ، وإلى السكون إليه أقرب. وتدل على أن الغرض بالرسول مايؤدى من الأدلة، فلذلك قلنا لا يجوز أن يكون رسولًا إلا ومعه ما يؤديه : وتدل على أن الجنة تنال بشيئين :

بالأعمال الصالحة ، واتقاء المعاصى ، فبطل قول المرجئة . وتدل على أن المؤمن فى الآخرة لا يخاف ولا يحزن، خلاف ما يقوله الأحسدبه (كذا) والحشوية ـهكذا قاله أكثر أصحابناـ.

وقال أبو بكر أحمد بن عليّ : قوله (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) كقول الطبيب للمريض (لا بأس عليك) يعنى أن أمره يؤول إلى العافية . وليس هـذا بالوجه لأنه نفَى الخوف والحزن مطلقاً . وتدل على الوعيد للمكذبين ، كما تدل على الوعد للمطيعين ، ترغيباً وترهيباً . وتدل على أن التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد ، فبطل قولهم فى المخلوق والاستطاعة . انتهى كلامه رحمه الله .

ثم ذكر تعالى وعيد المكذبين الذين تقدم ذكرهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ » أى ممن تقوّل على الله كذباً بالتحليل والتحريم ، أو بنسبة الولد والشريك ، أو كذب بآياته المنزلة « أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ » أى يصيبهم حظهم مما كتب لهم من الرزق والعمر وغير ذلك . أى مع ظلمهم وافترائهم وتكذيبهم ، لا يُحْرَمون ما قدر لهم من العمر والرزق إلى انقضاء آجالهم. وفى الآية وجوه أخر ، هذا أظهرُها وأقواها فى المعنى ، وتتمة الآية تدل عليه ، وحينئذ تتلاقى مع نظائرها ، كقوله تعالى : قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ(١) .

---

(١) [١٠ / يونس / ٦٩ و ٧٠] .

وقوله تعالى : وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا . . .(١) الآية ـ « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ » أى : ملائكة الموت تقبض أرواحهم « قَالُوٓاْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى: أين الآلهة التى كنتم تعبدونها ليكونوا لكم شفعاء، فلا نراهم يخلّصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد . وفائدة السؤال وجهان : توبيخ وتبكيت لهم يزيدهم غمًّا إلى غم ، ولطف بالمكلف لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التكذيب . و (ما) وقعت موصولة بـ (أين) فى خط المصحف العثمانىّ، ومقتضى الاصطلاح الفصل لأنها موصولة « قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا » أى: غابوا عنا فلم يخلّصونا من شيء « وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ » أى : عابدين لما لا يستحق العبادة . اعترفوا بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه ، وأنهم لم يحمدوه فى العاقبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ)

«قَالَ» أى الله ، سبحانه، لهم فى الآخرة « ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ » أى فى جملة أمم قد مضت « مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين « فِى ٱلنَّارِ » متعلق بـ (ادخلوا) « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ » أى فى النار « لَّعَنَتْ أُخْتَهَا » أى التى

---

(١) [٣١ / لقمان / ٢٣و٢٤] . . . ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

قبلها لضلالها بها، كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام(١): ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ... الآية ـ « إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً » أي تداركوا، بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار « قَالَتْ أُخْرَاهُمْ » وهم الأتباع « لِأُولَاهُمْ » أي : لأجل أولاهم، إذ الخطاب مع الله سبحانه ، لا معهم . قال ابن كثير : أي قالت أخراهم دخولاً وهم الأتباع ، لأولاهم وهم المتبوعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: « رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا » أي سنّوا لنا الضلال ، ودعوا إليه ، فاقتدينا بهم « فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ » أي مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا « قَالَ » أي تعالى « لِكُلٍّ ضِعْفٌ » أي عذاب مضاعف. أما القادة والرؤساء فبالضلال والإضلال . وأما الأتباع والسفلة ، فبالضلال وتقليد أهل الضلال ، مع وجود الهادين بالبراهين القاطعة « وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ » أي ما لكم ، أو ما لكل فرقة . وقرئ بالياء . وعليها ، فهو تذييل لم يقصد إدراجه في الجواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)

« وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ » أي لا فضل لكم علينا في ترك الكفر والضلال حتى يكون عذابنا مضاعفاً دونكم ، فقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. وقوله تعالى: « فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ » من قول القادة ، أو من قول الله تعالى للفريقين ، وهو أظهر .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] ونصها : وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية على أن الكفار والضلال والمبتدعة ، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالتهم ، وتوادّوا فى الدنيا ، فإنهم فى الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم . وتدل على فساد التقليد ، والاغترار بقول علماء السوء . وتدل على أن الداعى إلى الضلال مضلّ . وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له . وتدل على أن اشتراكهم فى العذاب لايوجب لهم راحة ، بخلاف الاشتراك فى محن الدنيا . وتدل على أن ذلك الإضلال فعلهم ، فيبطل قول المجبرة فى المخلوق ، والهدى والضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ » أى لا تفتح لأعمالهم ، ولا لدعائهم ، ولا لشىء مما يريدون به طاعة الله . أى لا يقبل ذلك منهم ، لأنه ليس صالحاً ولا طيّباً . وقد قال سبحانه : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ، وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)[1] قال ابن عباس: أى لا يرفع لهم منها عمل صالح، ولا دعاء ـ رواه جماعة عنه . وقاله مجاهد وابن جبير . أو المعنى : لا تنزل عليهم البركة والرحمة ، ولا يغاثون ، لأنه أجرى العادة بإنزال الرحمة من السماء ، كما فى قوله: (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ)[2]

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً . . . وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٢) [٥٤ / القمر / ١١] .

أو المعنى : لا يؤذن لهم فى صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة ، على ماروى أن الجنة فى السماء . أو المعنى لا تفتح لأرواحهم، إذا ماتوا ، أبواب السماء ، كما تفتح لأرواح المؤمنين ـ رواه الضحاك عن ابن عباس ـ ورواه ابن جرير[١] عن البراء ؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهـذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان ! (بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون له ، فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ . . .) الآية ـ قال ابن كثير : هكذا رواه . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه الإمام أحمد[٢] مطولا وأبو داود والنسائىّ وابن ماجة من طرق .

---

(١) الأثر رقم ١٤٦١٤ من التفسير .

(٢) هأنذا أثبت هذا الحديث مطوّلا . فقد رواه فى المسند بالصفحتين ٢٨٧ و ٢٨٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع النبىّ ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير . وفى يده عود ينكت فى الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثا ثم قال « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر . ثم يجىء ملك الموت ، عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الطيبة ! اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان . قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها . فإذا أخذها ، لم يَدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها . فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط . ويخرج منها كأطيب =

تنبيهات :

الأول ـ قال الشهاب كون السماء لها أبواب ، وأنها تفتح للدعاء الصالح ، وللأعمال الصاعدة أو للأرواح ـ وارد فى النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فلا حاجة إلى تأويل . انتهى .

= نفحة مسك وجدت على الأرض . قال فيصعدون بها . فلا يمرون (يعنى بها) على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا . فيستفتحون له فيفتح لهم . فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة . فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى علّيين ، وأعيدوه إلى الأرض . فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه مَلَكان فيُجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى . فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدّ بصره .

قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعده . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير . فيقول: أنا عملك الصالح . فيقول : رب ! أقم الساعةَ حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال ، وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح . فيجلسون منه مدّ البصر . ثم يجىء =

وهذا على قاعدة أهل الظاهر فى مثل ذلك ، إلا أن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . والتنزيل الكريم ، إنما ورد على مناحٍ للعرب معروفة فى لسانهم ـ والله أعلم.

= مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه فقول : أيتها النفس الخبيثة ! اخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال فتفرق فى جسده . فينتزعها كما ينتزع السّفود من الصوف المبلول . فيأخذها . فإذا أخذها لم يدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح . ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها . فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا : ماهذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا) حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا . فيستفتح له فلا يفتح له » .

ثم قرأ رسول الله ﷺ «لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ . » فيقول الله عزوجل : اكتبوا كتابه فى سجّين ، فى الأرض السفلى . فتطرح روحه طرحا .

ثم قرأ : وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ . « فتعاد روحه فى جسده . ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدرى . فيقولان له مادينك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدرى . فيقولان له : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه . لا أدرى . فينادى منادٍ من السماء : أن كذب . فافرشوا له من النار . وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرّها وسمومها . ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه . ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوءك . هذا يومك الذى كنتَ توعد . فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب ! لا تُقم الساعةَ ».

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السّنة ، ٢٤ ـ باب فى المسألة فى القبر وعذاب القبر، حديث ٤٧٥٣ .

الثانى ـ التضعيف فى (تفتح) لتكثير المفعول ، لا الفعل لعدم مناسبة المقام .

الثالث ـ قرئ بالتخفيف فى (تفتح) وبالتخفيف ، والياء . وقرىء على البناء للفاعل ، ونصب الأبواب ، على أن الفعل للآيات مجازاً ، وبالياء على أنه لله تعالى .

« وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ » أى يدخل « ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ » أى ثقب الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم .

لطائف

الأولى ـ قرأ الجمهور (الجمل) بفتح الجيم والميم، وفسروه : بأنه الجمل المعروف وهو البعير قال الفراء : الجمل زوج الناقة . وقال شمر : البكر والبكرة بمنزلة الغلام والجارية ، والجمل والناقة بمنزلة الرجل والمرأة . وقرئ فى الشواذ (الجُمَّل) كسكَّر وصُرَد وقُفْل وعُنُق وجَبْل بمعنى حبل السفينة الغليظ الذى يقال له (القَلْس) .

وقال أبو البقاء : يقرأ فى الشاذ بسكون الميم ، والأحسن أن يكون لغة ، لأن تخفيف المفتوح ضعيف ؛ ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو الحبل الغليظ ، وهو جمع مثل صُوَّم وقُوَّم ؛ ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أَسَد وأُسُد ؛ ويقرأ كذلك إلا أن الميم ساكنة ، وذلك على تخفيف المضموم ـ انتهى ـ .

وذكر الكواشىّ أن القراءات المذكورة كلها لغات فى البعير ما عدا « جُمَّلًا » كسكّر وقفل ، ونوقش فى ذلك ـ انتهى ـ .

وقراءته (كسكّر) على معنى الحبل المذكور ، رواها مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ، واختارها سعيد بن جبير .

قال الزمخشرىّ : وعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل ، أن الحبل مناسب للخيط الذى يسلك فى سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه . إلا أن قراءة العامة أوقع ، لأن سمّ الإبرة مثل فى ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خَرْتِ الإبرة.

وقالوا للدليل الماهر (خِرِّيت) للابتداء به فى المضايق المشبهة بأَخْرات الإبر ؛ والجملُ مثل فى عظم الجرم ، قال (١) :

* جسم الجمال وأحلام العصافير *

إن الرجال ليسوا بجَزَر تراد منهم الأجسام ، فقيـــل : لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان ، الذى لا يلج إلا فى باب واسع ، فى ثقب الإبرة .

وعن ابن مسعود : أنه سئل عن الجمل؟ فقال : زوج الناقة، استجهالاً للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تـكلّفٌ ـ انتهى ـ .

وحاصله أن الجمل لما كان مثلاً فى عظم الجسم ، لأنه أكبر الحيوانات جسما عند العرب، وخرق الإبرة مثلاً فى الضيق ، ظهر التناسب . على أن فى إيثار الجمل ، وهو مما ليس من شأنه الولوج فى سم الإبرة ، مبالغة فى استبعاد دخولهم الجنة .

الثانية ـ (السَّم) : الثقب الضيق . قال أبو البقاء : بفتح السين وضمها، لغتان ـ انتهى وصرح بالتثليث فيه ، وفى القاتل المعروف ، صاحبُ القاموس وغيره ، إلا أنهم قالوا : المشهور فى الثقب الفتح كما فى التنزيل . والأفصح فى القاتل الضم .

---

(١) صدر البيت :

* لا بَأْسَ بالقوم من طُولٍ ومن عِظَم *

وقائله حسان بن ثابت الأنصارىّ ، ورواية العجز فى الديوان :

* جسمُ البغالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ *

قاله من قصيدة يهجو بها النجاشى الشاعرَ ومطلعها :

حارِ بنَ كعب ألَا الأحلام تزجُرُكُمْ   عنـــا وأنتم من الجُوفِ الجَمَاخِيرِ

قوله : تزجركم عنا ، أى عن هجائنا . والجوف ، جمع أجوف ، وهو واسع الجوف . والجماهير جمع جمخور ، وهو الواسع الجوف أيضاً . والمراد الضعفاء المستريحون .

قال العلامة الفاسىّ : قال الزبيدىّ : لم أر من تعرض لكسرها ، وكأنها عامية .

قلت : قال الزمخشرىّ : وقرئ (فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ) بالحركات الثلاث ، وكفى به مرجعاً.

الثالثة ـ (الخِياط) ككتاب ومنبر ، ماخيط به الثوب ، والإبرة ـ كذافى القاموس ـ قال الزمخشرىّ : وقرأ عبد الله (فى سم المخيط) . قال الشهاب : بكسر الميم وفتحها ، كما ذكره المُعْرِب ، وهى قراءة شاذة .

الرابعة ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى قوله تعالى (حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ ... الخ) جواز فرض المحال ، والتعليق عليه كما يقع كثيراً للفقهاء ـ انتهى ـ .

والتعليق على المحال معروف فى كلام العرب ، كقوله :

إذا شابَ الغرابُ أتيتُ أهلى وصار القارُ كاللَّبَنِ الحَلِيبِ

وقوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الجزاء الفظيع « نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ)

« لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ » أى : فرش من تحتهم « وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » أى أغطية ، إذ أحاطت بهم الخطيئة « وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ » أى بالكفر ، وإنما عبر عنهم بالمجرمين تارة ، وبالظالمين أخرى ، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات ، اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين . وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة ، والظلم مع التعذيب بالنار الذى هو أشد من الحرمان المذكور ـ تنبيهاً على أنه أعظم الجرائم . ثم تأثر تعالى وعيده بوعده ، على سنته فى تنزيله الكريم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ » قال أبوالبقاء : والذين آمنوا مبتدأ، وفى الخبر وجهان : أحدهما ــ (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ) ، والتقدير (منهم) ، فحذف العائد ، كما حذف فى قوله : وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١) .

والثانى ــ أن الخبر (أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ) و (لَا نُكَلِّفُ) معترض بينهما ــ انتهى ــ وعلى الثانى اقتصر غير واحد من المحققين . قالوا : وسر الاعتراض ، الترغيبُ فى اكتساب ما يؤدى إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله ، وتيسير تحصيله . والذى حسّنه سبق العمل الصالح قبله . أى وإذا علم أن مبنى التكليف على الوسع ، زادت الرغبة فى ذلك الاكتساب ، لحصوله بما فيه يسر لا عسر .

لطيفة :

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان بسهولة ويستمرّ . قاله الرازىّ ، أخذاً من قول معاذ فى الآية (يسرها لا عسرها) قال : وأما أقصى الطاقة فيسمى جهداً لا وسعاً . وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود .

قلت : فى القاموس : الوسع (مثلثة) الجدة والطاقة كالسعة . وفيه : الجهد الطاقة (ويضم) والمشقة ــ انتهى ــ .

قال ابن الأثير : الجهد (بالفتح) المشقة ، وقيل: المبالغة والغاية ، وبالضم الوسع والطاقة،

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٣] .

وقيل : هما لغتان في الوسع والطاقة ، فأما في المشقة والغاية ، فالفتح لا غير ـ انتهى ـ وبه يعلم أن ما جرى عليه الرازيّ قول للغويين ، ليس وفاقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ » أي : نخرج من قلوبهم أسباب الحقد والحسد والعداوة، أو نطهّرها منها، حتى لا يكون بينهم إلا التوادّ والتعاطف. وصيغة الماضي للإيذان بتحققه وتقرره «تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا» أي لِمَا جزاؤه هذا ، أي : لأسباب هذا العلوّ ، بإرسال الرسل والتوفيق للعمل « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » أي ما كنا لنرشد لذلك العمل الذي هـذا ثوابه ، لولا أن وفقنا الله بدلائله وألطافه وعنايته «لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ »أي : فاهتدينا بإرشادهم قال الزمخشريّ : يقولون ذلك ، أي (الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الخ) سروراً واغتباطاً بما نالوا، وتلذّذا بالتكلم به ، لا تقرّباً ولا تعبداً ، كما ترى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ، ولا يتمالك أن لا يقوله ، للفرح والتوبة « وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أي : أعطيتموها بسبب أعمالكم في الدنيا . فالميراث مجاز عن الإعطاء ، تجوّز به عنه إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجباً ، وإن كان سبباً بحسب الظاهر ، كما أن الإرث ملك بدون كسب ، وإن كان النسب مثلاً سبباً له . وعلى ما تقرر ، فلا يقال إنه معارض لما ثبت في الصحيحين(١) من قوله ﷺ : واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة ! قالوا

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨١ـ كتاب الرقاق، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل، حديث ٢٤٢٧ ونصه :

ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل . ولا يحتاج إلى الجواب عنه ، ولا أن يقال الباء للعوض لا للسبب . وهذا تنجيز للوعد بإثابة المطيع ، لا بالاستحقاق والاستيجاب ، بل هو بمحض فضله تعالى ، كالإرث ـ كذا فى العناية ـ .

روى الإمام مسلم(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنةَ نادى منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً . فذلك قوله عز وجل (وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ...) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُواْ نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ » أى إذا استقروا فى منازلهم « أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ » توبيخاً

= عن عائشة عن النبىّ ﷺ قال « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عملُهُ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٧٨ (طبعتنا) .

(١) أخرجه مسلم فى: ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه: عن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « ينادى منادٍ : إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا . وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا . وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا » .

فذلك قوله عز وجل : وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وتحسيراً لهم « أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » حيث نلنا هذه المراتب العالية « فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » من تنزيلكم إلى أسفل سافلين ، لاستكباركم على الآيات والرسل « قَالُواْ نَعَمْ » أى وجدناه حقاً « فَأَذَّنَ » أى نادى « مُؤَذِّنُۢ بَيْنَهُمْ » أى بين الفريقين ليسمعهم ، زيادة فى شماتة أحد الفريقين وندامة الآخر « أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ)

« ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى : يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دينه القويم الذى بيّنه على ألسنة رسله لمعرفته وعمارة الدارين « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : يبغون لها زيغاً وميلاً عما هى عليه ، حتى لا يتبعها أحد « وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ » أى وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة جاحدون لا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون ، فيأتون المنكر من القول والعمل ، لأنهم لا يرجون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ، وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

« وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ » أى : بين الفريقين سور وستر ، أو بين الجنة والنار ، ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى . وقد سمى هذا الحجاب سوراً فى آية[1] (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ) وقوله تعالى « وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ

(١) [٥٧ / الحديد / ١٣] ونصها : يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا . . .

رِجَالٌ » أى على أعراف الحجاب وشرفاته وأعاليه ، وهو السور المضروب بينهما ، جمع عَرْف ، مستعار من عرف الفرس ، وعرف الديك . وكل ما ارتفع من الأرض عرف ، فإنه بظهوره أعرف مما انخفض .

وقد حكى المفسرون أقوالاً كثيرة فى رجال الأعراف، عن التابعين وغيرهم ، أنهم فضلاء المؤمنين ، أوهم الشهداء ، أو الأنبياء ، أو قوم أوذوا فى سبيل الله ، فاطلعوا على أعدائهم ليشمتوا بهم ، فعرفوهم بسيماهم ، وسلّموا على أهل الجنة . واللفظ ، لإبهامه ، يحتمل ذلك ، لأن السياق يدل على سمّو قدرهم ، لا سيما بجعل منازلهم الأعراف ، وهى الأعالى ، والشرف، كما تقدم ومن ذكر كلهم جديرون بذلك ـ والله أعلم ـ .

« يَعْرِفُونَ كُلًّا » أى من أهل الجنة والنار « بِسِيمَٰهُمْ » أى بعلامتهم التى أعلمهم الله بها ، كبياض الوجه وسواده .

فائدة

السيما مقصورة وممدودة ، والسيمة والسيمياء بكسرهن العلامة . قال القاضى : السيمىٰ فِعْلىٰ مِنْ (سام إبله) إذا أرسلها فى المرعى معلمة . أو من (وسم) على القلب (كالجاه) من (الوجه). انتهى . وعلى الثانى اقتصر ابن دريد « وَنَادَوْاْ » أى رجالُ الأعراف « أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ » أى حين رأوهم من أعرافهم ، وقد عرفوهم من سيماهم أنهم أهل الجنة « أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ » بطريق الدعاء والتحية ، أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكاره . والوجه الأول هو المأثور عن ابن عباس رضى الله عنه فيما رواه عنه العوفىّ . قال رضى الله عنه : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا مَن فى الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام « لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » الضميران فى الجملتين لأصحاب الأعراف ، والأولى حال من الواو ، والثانية حال من فاعل (يَدْخُلُوهَا) ، أى نادَوْهم وهم لم يدخلوا الجنة بعْدُ ، حال كونهم طامعين فى دخولها ، مترقبين .

قال الجشميّ رحمه الله: قيل: إذا كان أصحاب الأعراف أفاضل المؤمنين، فلِمَ تأخر دخولهم؟ قلنا : هم تعجلوا اللذة بالشماتة من الأعـــداء ، وإن تأخر دخولهم ، لظهور فضلهم ، وجلالة طريقهم إلى منازلهم اهـ .

ولا يبعد عندى أن يكون جملة (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) حالًا من (أصحٰب الجنة) أى نادوهم بالسلام وهم فى الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب، إشارة إلى سبق أهـــل الأعراف على غيرهم فى دخول الجنة ، وعلوّ منازلهم على سواهم ـ والله أعلم ـ .

وذهب أبو مجلز إلى أن الضميرين لأصحاب الجنة ، أى: نادى أهلُ الأعراف أصحابَ الجنة بالسلام، حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها وهم يطمعون فى دخولها. وهو وجه جيّد . فالجملة الأولى حال من المفعول وهو (أصحٰب الجنة) والثانية حال من فاعل (يدخلوها) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ » أى : أبصار أهل الأعراف أو أهل الجنة .

قال الجشميّ : وإنما قال (صُرِفَتْ) لأن نظرهم إلى أهل النار نظر عداوة . فلا ينظرون إلا أن تصرف وجوههم إليهم . فأما أهل الجنة فوجوههم إليهم سرورًا بهم ، فلا يحتاج إلى تـكلف . وقيل: لأنهم مع أهل الجنة بُعَدَاء من أهل النار، فيحتاجون إلى صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار. ثم قال الجشميّ : تدل الآية على وجوب الاجتناب من الظلمة فى الدنيا، كيلا يكون معهم فى الآخرة ـ انتهى ـ .

« تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ » أى: إلى جهتهم « قَالُوا۟ » من شدة خوفهم تعوّذًا بالله « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَـعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى : فى النار . وقال أبو السعود : فى وصفهم

بالظلم ـ دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء ـ إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط ، بل ما يوجبه ويؤدى إليه من الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٨] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

«وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا» يعنى من عظماء أهل الضلالة «يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ» أى : التى تدل على أعيانهم ، وإن تغيرت صورهم « قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ » أى: كثرتكم أو جمعكم للأموال التى تدفع بها الآفات « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» عن الحق، أو على الخلق . وقرئ (تَسْتَكْثِرُونَ) من الكثرة ، أى : من الأتباع الذين يستعان بهم فى دفع الملمات .

قال ابن القيم : يعنى ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم . وهذا إما نفى وإما استفهام وتوبيخ ، وهو أبلغ وأفخم. ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم فى الدنيا ، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم فى الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

« أَهَٰٓؤُلَآءِ » الضعفاء من المؤمنين « ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ » برفع درجاتهم فى الآخرة ، فهاهم فى الجنة يتمتعون ويتنعمون، وفى رياضها يُحْبَرون. وقوله تعالى: « ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ » أى : لا خوف عليكم من

العذاب النازل بالكفار ، ولا تحزنون كحزن الكفار على فوات النعيم ، وهذا إما من قول أصحاب الأعراف ، يتآمرون بينهم بدخول الجنة بعد تبكيت أهل النار ، فيقول بعضهم لبعض: ادخلوا الجنة ؛ وإما من كلام أهل الأعراف للمؤمنين ، أى يقولون لهم : ادخلوا الجنة ، أو من تتمة مخاطبة أهل الأعراف للرجال ، كأنه قيل لهم : انظروا إلى هؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمته ، كيف نالوها ، حيث قيل لهم من قِبَلِهِ تعالى : ادخلوا الجنة. وعلى كلٍّ فالجملة مبنية على قول محذوف إيجازاً ، للعلم به .

لطيفة :

بيّن الزمخشرىّ سرّ حبسهم على الأعراف ، ثم إدخالهم الجنة أبدع بيان، فقال رحمه الله: يقال لأصحاب الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم، ويقولوا مايقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحداً لايسبق عند الله إلا بسبْقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون فى حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يُعرف ذلك اليوم بسيماه التى استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسىء عن إساءته ، ويزيد المحسن فى إحسانه ، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد، حتى أقصر الناس عملاً ـ انتهى ـ .

ثم بيّن تعالى ذلّة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، بعد التكبر عليهم ، وبعد ما أقسموا لا ينالهم الله برحمة ، وأنهم لايجابون إلى ذلك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ، قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ)

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ » أى : الذى

رحمكم الله به ليسكن حرارة النار والعطش . قال الجشميّ : وذكروا لفظ (الإفاضة) لأن أهل الجنة أعلى مكانًا . « أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ » أي: من الأطعمة والفواكه « قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ » أي : منعهما عنهم ، لأنه أنعم عليهم في الدنيا ، فلم يشكروه ، فمنعهم نعمه في الآخرة . فالتحريم تحريم منع ، لا تحريم تعبد . ثم وصف الكافرين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ، فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ)

« ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا » أي: مما زينه لهم الشيطان. واللهو : كل ما صدّ عن الحق . واللعب : كل أمر باطل . أي : ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك ، إذ هو دأبهم وديدنهم « وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا » بزخارفها العاجلة ، فلم يعملوا « فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ » أي : نتركهم ترك المنسيّ، فلا نرحمهم بما نرحم به من عمل للآخرة « كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا » أي : كما فعلوا بلقائه ، فعل الناسين ، فلم يُخطروه ببالهم ، ولم يهتموا به .

لطيفة :

قال الشهاب : (نَنْسَاهُمْ) تمثيل . شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتدّ به ، ويلتفت إليه ، فينسى . لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أي لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، كما قال[1] : (فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى) والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيراً في لسان العرب. ويصح هنا أيضاً، فيكون استعارة تحقيقية، أو مجازاً مرسلاً؛ وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً، لأنهم لم يكونوا ذاكري الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم لقاء الله والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاتهم ـ بحال من عرف شيئاً ، ثم نسيه . وليست الكاف للتشبيه ، بل للتعليل ، ولا مانع من التشبيه أيضاً ـ انتهى ـ .

(١) [٢٠ / طه / ٥٢] قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي . . .

وقال تعالى: « وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ » أى وكما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى . روى الترمذى[١] عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالًا وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقى يومك هذا ؟ قال فيقول : لا ! فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى .

وفى حديث أبى هريرة عند مسلم[٢] : فيلقى العبد ربه ، فيقول : أى فلْ ! ألم أكرمك

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٦ ـ باب منه ، حدثنا سويد بن نصر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ١٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال «هل تضارّون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فهل تضارّون فى رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فو الذى نفسى بيده ! لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال فيلقى العبد، فيقول: أىْ فُلْ ! ألم أكرمك وأسوّدك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذَرْكَ ترأس وتربَع ؟ فيقول : بلى . قال أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أىْ فُلْ ! ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أىْ ربِّ ! فيقول : أفظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فيقول: فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : ياربِّ ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت . ويثنى بخيرٍ مااستطاع . فيقول : ههنا إذاً . قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطِق . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك لِيُعْذِرَ من نفسه .

وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه » .

وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ! فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا . فيقول : إني أنساك كما نسيتني !

ولما أخبر تعالى عن خسارتهم في الآخرة ذكر أنه أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ » أي بينا فيه الاعتقادات والأحكام والأمور الأخروية تفصيلاً مبيّنا « عَلَىٰ عِلْمٍ » أي عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه ، حتى جاء محكماً قيّما غير ذي عوج ، وهذا كقوله تعالى: أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ (١). « هُدًى » أي دلالة ترشدهم إلى الحق ، وتنجيهم من الضلالة « وَرَحْمَةً » أي ينجيهم من العذاب لما فيه من الدلائل ورفع الشبه « لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » لأنهم المغتنمون لفوائده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » أي ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره ، من تبيّن صدقه ، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد . قال الشهاب : (فالنظر) هنا بمعنى (الانتظار)

(١) [٤/ النساء / ١٦٦] لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

لابمعنى الرؤية . والتأويل بمعنى العاقبة ، وما يقع فى الخارج ، وهو أصل معناه ، ويطلق على التفسير أيضاً . والمعنى : أنهم قبل وقوع ما هو محقق ، كالمنتظرين له ، لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به . فلا يقال : كيف ينتظرونه مع جحدهم ؟ فإنهم وإن جحدوه ، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين وفى حكمهم ، من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لامحالة « يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ » يعنى يوم القيامة، لأنه يوم الجزاء ، وماتؤول إليه أمورهم « يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ » أى تركوه ترك المنسىّ ، حين كان ينفعهم الذكر ، فلم يؤمنوا به عند معاينة العذاب « قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ » أى بما هو واقع من الاعتقادات والوعد والوعيد « فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ » فى إزالة العذاب « أَوْ نُرَدُّ » إلى مكان العمل « فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » من الجحود واللهو واللعب وأعمال الدنيا. قال عزوجل: « قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ » بصرف أعمالهم فى الكفر « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ » أى ذهب عنهم ما كانوا يفترون من أن معبوديهم شفعاؤهم عند الله ، وعلموا أنهم كانوا فى دعواهم كاذبين .

ولما قدم سبحانه ذكر الكفار وعبادتهم غيره ، سبحانه ، احتج عليهم ، مبيناً بأفعاله أنه لا معبود سواه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى إن سيدكم ومالككم ومدبركم الذى يجب أن تعبدوه أيها الناس ، الذى أنشأ أعيان السموات والأرض فى مقدار ستة أيام .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى : قال الشهاب : اليوم فى اللغة مطلق الوقت ، فإن أريد هذا ، فالمعنى فى ستة أوقات ، كقوله تعالى : وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ (١) . وإن أريد المتعارف ، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها ، فالمعنى فى مقدار ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات ، فيقدر فيه مضاف ـ انتهى ـ .

وفى شرح القاموس : إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، وإن الثانى تعريف شرعىّ عند الأكثر . ونقل عن الفاسى شارحه : أن اليوم عند المنجمين من الطلوع إلى الطلوع ، أو من الغروب إلى الغروب .

ثم قال الزبيدىّ : ويستعمل بمعنى مطلق الزمان ، نقله عن ابن هشام ، وحكاه عن سيبويه فى قولهم : (أنا ، اليوم ، أفعل كذا) فإنهم لا يريدون يوماً بعينه ، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر . قال : وبه فسروا قوله تعالى (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)(٢)

---

(١) [٨/ الأنفال/ ١٦] . . . إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

(٢) [٥/ المائدة/ ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ، ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

ثم قال : وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً ، ومنه والحديث [(١)] : تلك أيام الهرج . أى وقته ولا يختص بالنهار دون الليل ـ انتهى ـ .

وإرادة الوقت مطلقاً منه ، عين إرادة مطلق الزمان قبله ، كما يتبادر . والظاهر أن إطلاقه على المتعارف والوقت مطلقا ، لغوىّ فيهما ـ كما نقله شارح القاموس ـ خلافاً لظاهر كلام الشهاب السابق ، فتثبتْ هذا .

الثانية ـ قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه خلق العالم ، سماواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن ؛ والستة الأيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام . واختلفوا فى هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ، كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس .

فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمى السبت ، وهو القطع . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد [(٢)] فى مسنده عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق فى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٥ ـ باب ظهور الفتن ، حديث رقم ٢٥٤٨ ونصه :

عن أبى وائل ، عن عبد الله (وأحسبه رفعه) قال : بين يدى الساعة أيام الهَرْج . يزول العلم ويظهر فيها الجهل .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٢٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل ـ فقد رواه مسلم[١] بن الحجاج فى (صحيحه) والنسائىّ ، من غير وجه . وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : فى ستة أيام ، ولهذا تـكلم البخارىّ وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعاً ـ والله أعلم ـ انتهى .

وقد بسطت الـكلام فيه فى شرحى على (الأربعين العجلونية) .

الثالثة ـ قال القاضى : فى خلق الأشياء مدرّجاً ، مع القدرة على إيجادها دفعة ـ دليل للاختيار . أى لأنه لو كان بالإيجاب ، لصدر دفعة واحدة . وفيه حث على التأنى فى الأمور .

وقوله تعالى : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ » اعـلم أن الاستواء ورد على معان اشترك لفظه فيها ، فجاء بمعنى الاستقرار ومنه: ٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ[٢] ، وبمعنى القصد ومنه[٣] : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ؛ وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه . قال الفرّاء : تقول العرب : استوى إلىّ يخاصمنى ، أى أقبل علىّ . ويأتى بمعنى الاستيلاء قال الشاعر[٤] :

* قد استوى بشر على العراق *

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٧ (طبعتنا) .

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَـكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

(٤) عجزه : * من غير سيفٍ ودمٍ مُهْرَاقِ *

استشهد به فى اللسان ص ٤١٤ من المجلد الرابع عشر (طبعة بيروت) .

ويقينى أن هذا البيت مصنوع مصنوع .

وقال آخر[١] :

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

ويأتى بمعنى العلوّ ، ومنه آية : ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾[٢] : ومنه هذه الآية .

قال البخارىّ فى آخر (صحيحه) ، فى كتاب الردّ على الجهمية ، فى باب قوله تعالى : (﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[٣] : قال مجاهد : استوى ، علا على العرش ـ انتهى ـ .

وفى كتاب (العلوّ) للحافظ الذهبىّ : قال إسحق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول : (﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾)[٤] أى ارتفع . ونقل ابن جرير[٥] عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع . وقال : إنه فى كل مواضعه بمعنى علا وارتفع ، وأقول : لا حاجة إلى الاستكثار من ذلك ، فإن الاستواء غير مجهول ، وإن كان الكيف مجهولاً .

روى الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه (الرد على الجهمية) عن شريح بن النعمان ، عن عبد الله بن نافع قال : قال مالك بن أنس : الله فى السماء ، وعلمه فى كل مكان ، لا يخلو منه شىء .

---

(١) لم أعرف قائله ولم أجده فى مكان .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨] ونصها : ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

(٣) [١١ / هود [٧] ونصها : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) الأثر رقم ٥٨٨ من التفسير (طبعة المعارف) .

وروى البيهقيّ عن ابن وهب قال : كنت عند مالك ، فدخل رجل فقال : ياأبا عبد الله! (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) كيف استوى ؟ فأطرق مالك ، وأخذته الرُّحَضاء ، ثم رفع رأسه فقال : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف . و(كيف) عنه مرفوع. وأنت صاحب بدعة . وفي رواية قال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الحافظ الذهبيّ في كتاب (العلوّ) ـ بعد ما ساق هذا ـ ما نصه :

وهو قول أهل السنة قاطبة ، أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها ، وأن استواءه معلوم ، كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعمق ولا نتحذلق ، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف ، كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل، لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإمراره ، والسكوت عنه . ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله ، لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه ، ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

ثم قال الذهبيّ : قال الإمام العلم ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ صاحب التصانيف الشهيرة، في كتابه (مختلف الحديث) : نحن نقول في قول الله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(١) أنه معهم ، يعلم ما هم عليه ، كما تقول للرجل وجّهته إلى بلد شاسع : احذر التقصير فإني معك ، يريد أنه لا يخفى عليّ تقصيرك . وكيف يسوغ لأحد أن يقول : إن الله سبحانه بكل مكان، على الحلول فيه، مع قوله: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

(١) [٥٨/ المجادلة/ ٧] ونصها: أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

ٱسْتَوَىٰ)(١) ومع قوله : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ)(٢) كيف يصعد إليه شيء هو معه ، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهى معه ؟ قال : ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم ، وما ركبت عليه ذواتهم ، من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله عز وجل هو العلىّ وهو الأعلى ، وأن الأيدى ترفع بالدعاء إليه ، والأمم كلها عجميّها وعربيّها يقول : إن الله فى السماء ، ما تُرِكَتْ على فِطَرِهَا ـ انتهى ـ .

ثم قال الذهبىّ أيضاً : عن يزيد بن هرون شيخ الإسلام ، أنه قيل له : مَن الجهمية ؟ قال : من زعم أن (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) على خلاف ما يقرّ فى قلوب العامة ، فهو جهمىّ .

قال الذهبىّ : والعامة ، مراده بهم ، جمهور الأمة وأهل العلم ، والذى وقر فى قلوبهم من الآية ، هو ما دل عليه الخطاب ، مع يقينهم بأن المستوى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ)(٣) هذا هو الذى وقر فى فطرهم السليمة ، وأذهانهم الصحيحة . ولو كان له معنى وراء ذلك ، لتفوّهوا به ، ولما أهملوه . ولو تأول أحدٌ منهم الاستواء ، لتوفرت الهمم على نقله ، ولو نقل لاشتهر . فإن كان فى بعض جهلة الأغبياء من يفهم من (الاستواء) ما يوجب نقصاً أو قياساً للشاهد على الغائب ، وللمخلوق على الخالق ـ فهذا نادر . فمن نطق بذلك زُجر وعُلّم ، وما أظن أن أحداً من العامة يقرّ فى نفسه ذلك ـ والله أعلم ـ انتهى .

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ، وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

وقال الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين ، الشيخ عبدالقادر الجيلانيّ قدس الله روحه في كتابه (تحفة المتقين وسبيل العارفين) في باب اختلاف المذاهب في صفات الله عز وجل ، وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ)(١) : قال إسحاق : في العلم . إلى أن قال : والله تعالى بذاته على العرش ، علمه محيط بكل مكان والوقف عند أهل الحق على قوله (إِلَّا ٱللَّهُ) . وقد روى ذلك عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش ، ويعلم ما في السموات والأرض . إلى أن قال : ووقف جماعة من منكرى استواء الرب عز وجل على قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ) وابتدأوا بقوله (ٱسْتَوَىٰ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) يريدون بذلك نفي الاستواء الذى وصف به نفسه ، وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته .

وقال في كتابه (الغنية) : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهو أن تعرف وتتيقن أن الله واحد أحد . إلى أن قال : لا يخلو من علمه مكان ، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل يقال إنه في السماء على العرش ، كما قال جل ثناؤه (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)(٢) وقوله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ)(٣) وقال تعالى :

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ . وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ونصها : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ)[(١)] والنبيّ صلى الله عليه وسلم[(٢)] حكم بإسلام الأَمَةِ لما قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . وقال النبي ﷺ[(٣)] (في حديث أبي هريرة رضى الله عنه) : لما خلق الله الخلق ، كتب كتاباً على نفسه ، وهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي . وفي لفظ آخر : لما قضى الله سبحانه الخلق ، كتب على نفسه في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي . وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش ، لا على معنى القعود والمماسة ، كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلوّ والرفعة ، كما قالت الأشعرية ، ولا على الاستيلاء والغلبة ، كما قالت المعتزلة ، لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ، ذلك ، بل المنقول عنهم حمله

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) .

عن معاوية بن الحكم السلميّ . ونص هذه القصة ، قال :

وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُدٍ والجوَّانية (موضع في شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ . فعظَّمَ ذلك عليّ . قلت : يارسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتني بها » فأتيته بها . فقال لها « أين الله » ؟ قالت : في السماء . قال « من أنا » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ، حديث ١٥٠٩ .

على الإطلاق . وقد روى عن أم سلمة (١) زوج النبىّ ﷺ فى قوله عزوجل (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (٢) : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به واجب ، والجحود به كفر . وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبىّ ﷺ فى (صحيحه)، وكذلك فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تُمَرُّ كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل . وقال أيضاً (فى رواية بعضهم) : لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذه الأماكن ، فى كتاب الله عز وجل ، أو حديث عن النبىّ ﷺ ، أو عن أصحابه رضى الله عنهم ، أو عن التابعين . فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود ، فلا يقال فى صفات الرب عزوجل (كيف) ؟ و (لِمَ) ؟ لا يقول ذلك إلا شكّاك . وقال أحمد رضى الله عنه (فى فى رواية عنه،فى موضع آخر) : نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حدّ ولا صفة يبلغها واصف ويحدها حاد ، لما روى عن سعيد بن المسيّب ، عن كعب الأخبار ، قال ، قال الله تعالى فى (التوراة) : أنا الله فوق عبادى ، وعرشى فوق جميع خلقى ، وأنا على عرشى ، عليه أدبر عبادى ، ولايخفى علىّ شىء من عبادى . وكونه عزوجل على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل على كل نبىّ أرسل ، بلا كيف ، ولأن الله تعالى ـ فيمالم يزل ـ موصوف بالعلوّ والقدرةوالاستيلاء والغلبة على جميع خلقه ، من العرش وغيره . فلا يحمل الاستواء على ذلك. فالاستواء من صفات الذات ، بعد ما أخبرنا به ، ونص عليه وأكده فى سبع آيات من كتابه، والسنةالمأثورةبه، وهوصفةلازمةله، ولائقةبه ، كاليد والوجهوالعين والسمع والبصر والحياة والقدرة ، وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً ، موصوف بها ، ولا نخرج من الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ، ونؤمن بما فيهما ، ونكل الكيفية فى الصفات إلى علم الله عزوجل ،

(١) لم أجد هذا الحديث .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله : كما وصف الله تعالى نفسه فى كتابه ، فتفسيره قراءته . لا تفسير له غيرها ، ولم نتكلف غير ذلك ، فإنه غيب لا مجال للعقل فى إدراكه ، ونسأل الله تعالى العفو والعافية ، ونعوذ به من أن نقول فيه وفى صفاته مالم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام ـ انتهى كلام الجيلانىّ قدس سره ـ .

وروى أبو إسماعيل الأنصارىّ فى (ذم الكلام وأهله) عن أبى زرعة الرازىّ ؛ أنه سئل عن تفسير (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) فغضب وقال: تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه، وعلمه فى كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله .

وأسند عن عبد الرحمن بن أبى حاتم قال : سألت أبى وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة فى أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء فى جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟ فقالا : أدركنا العلماء فى جميع الأمصار، حجازاً وعراقاً، ومصراً وشاماً ويمناً . فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه ، بائنٌ من خلقه ، كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شىء علماً .

تنبيهات

الأول ـ فى بطلان تأويل (استوى) بـ (استولى) :

قال الإمام عبد العزيز بن يحيى الكنانىّ ، صاحب الشافعىّ رحمهما الله تعالى ، فى كتاب (الرد على الجهمية) : زعمت الجهمية أن معنى استوى (استولى) من قول العرب : استوى فلان على مصر ، يريدون استولى عليها . قال : فيقال له : هل يكون خلقٌ من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه ؟ فإذا قال لا ، قيل له : فمن زعم ذلك فهو كافر ، فيقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السموات والأرض ، ثم استولى عليه بعد خلقهن ، فيلزمك أن تقول : المدة التى كان العرش قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه فيها . ثم ذكر كلاماً طويلا فى تقرير العلوّ والاحتجاج عليه .

وقال ابن عرفة فى كتاب (الرد على الجهمية) : حدثنا داود بن علىّ قال : كنا عند ابن الأعرابىّ ، فأتاه رجل فقال : مامعنى قوله تعالى (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)؟ قال: هو على عرشه كما أخبر . فقال : يا أبا عبد الله ! إنما معناه استولى . فقال : اسكت . لا يقال : استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضادّ ، فأيهما غلب، قيل: استولى . والله تعالى لامضادّ له ، وهو على عرشه كما أخبر . ثم قال : الاستيلاء بعد المغالبة ، كما قال النابغة (١) :

إلا لمثلك أو مَنْ أنت سابِقُهُ سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأَمَدِ

وروى الخطيب البغدادىّ عن محمد بن أحمد بن النضر قال : كان ابن الأعرابىّ جارنا، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبى دؤاد سأله : أتعرف فى اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال لا أعرفه ! وفى رواية . أرادنى ابن أبى دؤاد أن أطلب له فى بعض لغات العرب ومعانيها

---

(١) قاله من قصيدته التى مطلعها :

يا دارَ ميَّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطال عليها سالف الأَبدِ

مية ، اسم امرأة . والعلياء مكان مرتفع من الأرض . والسند سند الوادى فى الجبل ، وهو ارتفاعه حيث يسند فيه ، أى يصعد . وأقوت خَلَتْ . والسالف الماضى. والأبد الدهر، وجمعه آباد .

(معنى البيت) إنه لما وقف على الدار وتذكر من كان فيها من أحبة ، أقبل عليها يخاطبها استراحة منه إليها ، وتوجُّعاً على من ذهب عنها . ثم تحوّل من مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب اتساعاً ومجازاً . وكذلك تفعل العرب ، تحوّل مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب . قال الله عز وجل : حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ . إنما الكلام : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة . وكذلك البيت إنما كان : يادار مية أقويت وطال عليك سالف الأبد .

وفى البيت المستشهد به : استولى : غلب . والأمد : الغاية التى تجرى إليها .

(ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) استوى بمعنى استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ، ولا وجدته . وابن الأعرابىّ أبو عبد الله كان لغوىّ زمانه ـ كما قال الذهبىّ ـ .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعرىّ فى كتابه الذى سماه (الإبانة فى أصول الديانة)، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون فى الذب عنه ، عند من يطعن عليه ، فقال :

فصل

فى إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذى به تقولون . قيل له : قولنا الذى نقول به التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين .

ثم قال فى (باب الاستواء على العرش) : إن قال قائل : ماتقولون فى الاستواء ؟ قيل له : نقول : إن الله مستو على عرشه ، كما قال (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) وقد قال الله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)(٢) وقال (بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ)(٣)

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٤ النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً .

وقال (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ)(١) وقال حكاية عن فرعون (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا)(٢). كذَّب موسى فى قوله: إن الله فوق السموات. وقال (ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ)(٣) فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات قال : ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ، لأنه مستو على العرش الذى هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال : ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ، يعنى جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذى هو أعلى السموات . ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا)(٤) فلم يرد أن القمر يملؤهن ، وأنه فيهن جميعاً . ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم، إذا دعوا، نحو السماء، لأن الله على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحطّونها ، إذا دعوا ، إلى الأرض .

ثم قال :

فصل

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن معنى قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل فى كل مكان ،

(١) [٣٢ / السجدة / ٥] ... فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦و٣٧] ... وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

(٣) [٦٧ / الملك / ١٦] ... فَإِذَا هِىَ تَمُورُ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٦] ... وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا .

وجحدوا أن يكون الله على عرشه ، كما قال أهل الحق . وذهبوا فى الاستواء إلى (القدرة) ، فلو كان هذا كما ذكروه ، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن الله قادر على كل شىء ، فالله قادر على الأرض ، وعلى الحشوش ، وعلى كل مافى العالم. فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى (الاستيلاء) ، وهو عز وجل مستولٍ على الأشياء كلها ، لكان مستوياً على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على الأشياء ، مستولٍ عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستوٍ على الحشوش والأخلية ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش (الاستيلاء) ، الذى هو عامّ فى الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها . وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل ـ انتهى ـ .

قلت: وكلام أبى الحسن الأشعرىّ الأخير مأخوذ من كتاب ردّ الإمام أحمد على الجهمية، حيث قال فى كتابه المذكور :

ومما أنكرت الجهمية الضُّلّال أن يكون الله سبحانه على العرش ، فقلنا : لِمَ أنكرتم ذلك ؟ إن الله سبحانه على العرش ، وقد قال سبحانه (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)[1] وقال : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا)[2] قالوا: هو تحت الأرضين السابعة كما هو على العرش ، فهو على العرش، وفى السموات ، وفى الأرض، وفى كل مكان، لا يخلو منه مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان . وتلوا آيات من القرآن (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ)[3] فقلنا : قد عرف المسلمون أماكن كثيرة، وليس فيها من عظمة

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . .

(٣) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

الله شيء ، فقالوا : أي مكان ؟ فقلنا: أحشاؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء ؛ وقد أخبرنا أنه في السماء ، فقال سبحانه : (ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ...)[1] الآية ـ وقال (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)[2] وقال (وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ)[3] وقال : (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)[4] وقال : (بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ)[5] وقال : (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ)[6] وقال : (تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ)[7] وقال: (وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)[8] ـ فهذا أخبر الله أنه في السماء ، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً . قال الله تعالى: (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ)[9]. (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ)[10] وقلنا لهم: أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه،

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٦] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٩] . . . لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ .

(٤) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٦) [١٦ / النحل / ٥٠] . . . وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٧) [٧٠ / المعارج / ٤] . . . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

(٨) [٦ / الأنعام / ١٨] .

(٩) [٤ / النساء / ١٤٥] . . . وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا .

(١٠) [٤١ / فصلت / ٢٩] .

والشياطين مكانهم ؟ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس ، ولـكن إنما معنى قوله تبارك وتعالى: (وَهُوَ ٱللَّـهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ)(١) يقول : هو إله مَن فى السموات، وإله مَن فى الأرض، وهو على العرش ! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش ، لا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان ، وذلك قوله : (لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّـهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا)(٢) .

قال : ومن الاعتبار فى ذلك : لو أن رجلاً كان فى يده قدح من قوارير صافٍ ، وفيه شىء ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم فى القدح، فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون فى شىء من خلقه . وخصلة أخرى : لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيتاً فى داره ، وكم سعة كل بيت ، من غير أن يكون صاحب الدار فى جوف الدار . فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع ما خلق ، وقد علم كيف هو ، وما هو ، من غير أن يكون فى شىء مما خلق .

قال أحمد رضى الله عنه : ومما تأول الجهمية من قول الله سبحانه : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ . . .) إلى أن قال: (.. إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا . فقلنا : لِمَ قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله يقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّـهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) يعنى أن الله بعلمه رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه فيهم ، يفتح الخبر بعلمه ، ويختمه بعلمه ـ انتهى ـ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ٱللَّـهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ . . .

ثم قال الإمام أحمد فى آخر كتابه المذكور : وقلنا للجهمية : زعمتم أن الله فى كل مكان، لا يخلو منه مكان ، فقلنا لهم : أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه : فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا[١] . لِمَ تجلى ، إذا كان فيه بزعمكم ؟ ولو كان فيه، كما تزعمون، لم يكن يتجلى لشيء . لـكن الله تعالى على العرش ، وتجلى لشيء لم يكن فيه، ورأى الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك .

وقلنا للجهمية : الله نور ؟ فقالوا : نور كله . فقلنا : قال الله عز وجل : وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[٢] . فقد أخبر جل ثناؤه أن له نورًا ، قلنا: أخبرونا، حين زعمتم أن الله فى كل مكان ، وهو نور ، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذى هو فيه إذا زعمتم أن الله فى كل مكان ؟ وما بال السراج إذا أدخل البيت المظلم يضيء ؟ فعند ذلك تبين كذبهم على الله . فرحم الله من عقل عن الله ، ورجع عن القول الذى يخالف الـكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء ، وهو قول المهاجرين والأنصار ، وَتَرَكَ دين الشيطان، ودين جهم وشيعته ـ انتهى ـ.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر فى كتاب (التمهيد) فى شرح حديث[٣] (ينزل ربنا

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٤٣] ونصها: وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] . . . وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ١٤ ـ باب الدعاء نصف الليل ، حديث رقم ٦٢٩ ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يتنزل ربنا تبارك وتعـالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى فأغفر له؟ » .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ (طبعتنا) .

كل ليلة . . .) الحديث ـ ما نصه : هـــذا الحديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد،لا يختلف أهل الحديث فى صحته ، وفيه دليل على أن الله تعالى فى السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة . وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية فى قولهم : (إن الله فى كل مكان ، وليس على العرش) والدليل على صحة ما قاله أهل الحق فى ذلك قوله تعالى : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (١) ثم ساق عدة آيات فى ذلك ـ وقال : هذه الآيات كلها واضحات فى إبطال قول المعتزلة . وأما ادعاؤهم المجاز فى الاستواء ، وقولهم فى تأويل (ٱسْتَوَىٰ) استولى ، فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر فى اللغة . ومعنى الاستيلاء فى اللغة المغالبة، والله تعالى لايغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد . ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله عزوجل على الأشهر والأظهر من وجوهه ، مالم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم . ولوساغ ادعاء المجاز لكل مدع، ماثبت شىء من العبادات . وجَلَّ اللهُ أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين. والاستواء معلوم فى اللغة مفهوم ، وهو العلوّ والارتفاع على الشىء ، والاستقرار والتمكن فيه . قال أبو عبيدة فى قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (٢) قال : علا ، قال : تقول العرب : استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت . وقال غيره : استوى أى استقر ، واحتج بقوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ)(٣) انتهى شبابه واستقر ، فلم يكن فى شبابه مزيد .

قال ابن عبد البر : الاستواء : الاستقرار فى العلوّ ، وبهذا خاطبنا الله تعالى فى كتابه فقال:

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ١٤] . . . ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

(لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ)(١) وقال تعالى : (وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ)(٢) وقال تعالى : (فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ)(٣) وقال الشاعر(٤) :

فأوردتُهم ماءً بفيفاءَ قفرةٍ   وقد حلَّق النجم اليمانيُّ فاستوىٰ

وهذا لا يجوز أن يتأوَّل فيه أحد (استولى) ، لأن النجم لا يستولى . وقد ذكر النضر ابن شميل ـ وكان ثقة مأموناً جليلاً فى علم الديانة واللغة ـ قال : حدثنى الخليل ـ وحسبك بالخليل ـ قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابىّ ، وكان من أعلم ما رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال : (استووا) فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابىّ إلى جانبه : إنه أمركم أن ترفَّعوا ، فقال الخليل: هو من قول الله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ)(٥) فصعدنا إليه . قال: وأما من نزع منهم بحديث يرويه عبدالله بن داود الواسطىّ

---

(١) [٤٣/ الزخرف / ١٣] . . . وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ .

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

(٣) [٢٣/ المؤمنون/ ٢٨] . . . فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

(٤) لم أعرف اسم الشاعر ولم أهتد إلى هذا البيت فى موضع .

والفيف والفيفاء : المفازة لا ماء فيها .

(٥) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)[١] قال : استولى على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان ـ فالجواب : أن هـذا حديث منـكر على ابن عباس رضى الله عنهما ، ونَقَلَتُهُ مجهولة وضعفاء ؛ فأما عبد الله بن داود الواسطىّ وعبد الوهاب بن مجاهـد فضعيفان . وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف . وهم لا يقبلون أخبار الآحاد ، فـكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث، لو عقلوا وأنصفوا؟ أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا[٢] ؟ فدل على أن موسى عليه الصلاة السلام كان يقول : إلـهى فى السماء وفرعون يظنه كاذباً . قال الشاعر :

فسبحان من لا يَقْدِرُ الخلقُ قدرَهُ ... ومن هو فوق العرش فَرْدٌ مُوَحَّدُ
مليكٌ على عرش السماء مُهَيْمِنٌ ... لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوجوهُ وَتَسْجُدُ

وهذا الشعر لأميّة بن أبى الصّلت . وفيه يقول فى وصف الملائـكة :

وَسَاجِدُهُمْ لا يرفع الدهرَ رأسَهُ ... يعظِّمُ رَبًّا فوقه وَيُمَجِّدُ

قال : فإن احتجوا بقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ)[٣] وبقوله تعالى: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ)[٤] وبقوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] . . . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

نَّجْوَى ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ)[(١)] ، وزعموا أن الله سبحانه فى كل مكان بنفسه وذاته ـ تبارك وتعالى جدّه ـ قيل : لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس فى الأرض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هـذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه فى السماء إله معبود من أهل السماء ، وفى الأرض إله معبود من أهل الأرض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير . وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فالاختلاف فى ذلك ساقط ، وأسعد النـاس به من ساعده الظاهر . وأما قوله فى الآية الأخرى : (وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ) فالإجماع والاتفاق قد بيّن أن المراد أنه معبود من أهل الأرض . فتدبر هذا فإنه قاطع .

ومن الحجة أيضاً فى أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع ، أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم ، إذا كَرَبَهُمْ أمر ، أو نزلت بهم شدة ، رفعوا وجوههم إلى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء ، يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهـذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته . لأنه اضطرارىّ لم يخالفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم ، وقد قال ﷺ للأمة التى أرادمولاها عتقها[(٢)] ،

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) وهو قطعة من حديث طويل ونصها :

عن معاوية بن الحَكَم السُّلَمِىّ قال : وكانت لى جارية ترعى غنما لى قِبَل أُحُد والجوَّانية (موضع فى شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل=

إن كانت مؤمنة . فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها برفع رأسها إلى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(١) فلا حجة لهم فى ظاهر هذه الآية ، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل فى القرآن قالوا تأويل هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى ذلك أحد يحتج بقوله . وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم فى قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(٢) قال : هو على عرشه ، وعلمه معهم أينما كانوا . قال : وبلغنى عن سفيان الثورىّ مثله . قال سنيد : حدثنا حماد بن زيد عن عاصم ابن بهدلة عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : الله فوق العرش ، وعلمه فى كل مكان ، لا يخفى عليه شىء من أعمالكم . ثم ساق من طريق يزيد بن هرون عن حماد ابن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة إلى الكرسىّ مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسىّ إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ،

= من بنى آدم . آسف كما يأسفون . لكنى صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك علىّ . قلت : يارسول الله ! أفلا أُعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها فقال لها « أين الله » ؟ قالت : فى السماء . قال « من أنا » ! قالت أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم . وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب (الاستذكار) .

وقال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى فى (الرسالة المدنية): إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسوله ﷺ ، أو وصفه بها المؤمنون الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ـ فصرفُها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه ، وحقيقتها المفهومة منها ، إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة ، لابد فيه من أربعة أشياء :

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازى ، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاءوا باللسان العربىّ ، ولا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب ، أو خلاف الألسنة كلها ، فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازىّ مما يراد به اللفظ ، وإلا فيمكن كل مُبْطِل أن يفسر أى لفظ بأى معنى ناسخ له ، وإن لم يكن له أصل فى اللغة .

الثانى : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه ، وإلا فإذا كان يستعمل فى معنى بطريق الحقيقة ، وفى معنى بطريق المجاز ، لم يجز حمله على المجازىّ بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء ، ثم ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلابدّ من دليل قاطع عقلىّ أو سمعىّ يوجب الصرف . وإن ادعى ظهور صرفه عن الحقيقة ـ فلابد من دليل مرجح للحمل على المجاز .

الثالث : أنه لابد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض . وإلا فإذا قام دليل قرآنى أو إيمانىّ يبيّن أن الحقيقة مرادة ، امتنع تركها . ثم إن كان هـذا الدليل لم يلتفت إلى نقيضه وإن كان ظاهراً فلابد من الترجيح .

الرابع : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره ، وضد حقيقته فلابد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه ، سواء عيّنه أو لم يعيّنه ، لا سيما فى الخطاب العلمىّ الذى أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم ، دون عمل الجوارح ، فإنه سبحانه جعل القرآن نورًا وهدًى وبياناً للناس وشفاء لما فى الصدور ، وأرسل الرسول

ليبيّن للناس ما نُزِّل إليهم[١] ، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه[٢] ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[٣] . ثم هـذا الرسول الأمىّ العربىّ بعث بأفصح اللغات ، وأبين الألسنة والعبارات . ثم الأمّة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً ، وأنصحهم للأمة ، وأبينهم للسنة ، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره ، إلا وقد نصب دليلًا يمنع من حمله على ظاهره ، إما بأن يكون عقليًّا ظاهرًا مثل قوله (وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ)[٤] فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد (أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها) . وكذلك قوله (خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ)[٥] يعلم المستمع أن المراد أن الخالق لا يدخل فى هـذا العموم . أو سمعيًّا ظاهرًا مثل الدلالات فى الكتاب والسنة التى تصرف بعضها الظواهر .

---

(١) يشير إلى [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ، وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) يشير إلى [٢ / البقرة / ٢١٣] ونصها : كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ، وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ، وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(٣) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

(٤) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٠٢] ونصها : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفىّ لا يستنبطه إلا أفراد الناس، سواء كان سمعيًّا أو عقليًّا، لأنه إذا تكلم بالكلام الذى يفهم منه معنى ، وأعاده مرات كثيرة ، وخاطب به الخلق كلهم، وفيهم الذكىّ والبليد ، والفقيه وغير الفقيه ، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ، ويعقلوه ويتفكروا فيه ، ويعتقدوا موجبه ، ثم أوجب أن لا يقصدوا بهذا الخطاب شيئًا من ظاهره ، لأن هناك دليلًا خفيًّا يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره ـ كان تدليساً أو تلبيساً ، وكان نقيض البيان ، وضد الهدى . وهو بالألغاز والأحاجىّ أشبه منه بالهدى والبيان . فكيف إذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره ، أقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفىّ على أن الظاهر غير مراد ، كيف إذا كان ذلك الخفىّ شبهة ليس لها حقيقة؟ ـ انتهى ـ .

الثانى ـ يتوهم كثير أن القول بالعلوّ والاستواء يلزم منهما القول بالتجسيم ، وقد رمى بذلك كثير من المحدِّثين ، وممن رماهم بذلك الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية حيث قال ـ عفا الله عنه ـ : وأكثر المجسمة هم الظاهريون المتبعون لظاهر الكتاب والسنة ، وأكثرهم المحدّثون . ولابن تيمية أبى العباس وأصحابه ميل عظيم إلى إثبات الجهة، ومبالغة فى القدح فى نفيها . ورأيت فى بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بديهة العقل بين أن يقال :هو معدوم ، أو يقال : طلبته فى جميع الأمكنة فلم أجده ، ونسب النافين إلى التعطيل . هذا مع علوّ كعبه فى العلوم العقلية والنقلية ، كما يشهد به من تتبع تصانيفه .

ومحصل كلام بعضهم فى بعض المواضع ؛ أن الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة (الفوق) ، كما خصص الكعبة بكونها بيت الله تعالى ، ولذلك يتوجه إليها فى الدعاء . ولا يخفى أنه ليس فى هذا القدر غائلة أصلًا ، لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول ، وأنكر كون (الفوق) قبلة الدعاء ، بل قال : قبلة الدعاء هو نفسه ، كما أن نفس الكعبة قبلة الصلاة ، وقد صرح بكونه جهة الله تعالى حقيقة من غير تجوّز انتهى كلام الدوانىّ ـ .

وتعقبه غير واحد :

منهم : الشيخ إبراهيم الكورانىّ فى حاشيته عليه المسماة (بمجلى المعانىّ) قال : إن ابن تيمية ليس قائلاً بالتجسيم ، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسماً ، فى رسالة تكلم فيها على حديث النزول . وقال فى رسالة أخرى : من قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان ، أو إن الله تعالى يماثل شيئاً من المخلوقات فهو مفترٍ على الله سبحانه . بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة ، مع نفى اللوازم ، ونقل عليه إجماع السلف ، صرح به فى الرسالة القدرية ـ انتهى ـ .

ومنهم : ولىّ الله الدهلوىّ قدس سره ، قال فى كتابه (حجة الله البالغة) : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث ، وسموهم مجسمة ومشبهة ، وقالوا : هم المتسترون بالبلكفة ، وقد وضح علىّ وضوحًا بيّناً أن استطالتهم هذه ليست بشىء ، وأنهم مخطئون فى مقالتهم رواية ودراية ، وخاطئون فى طعنهم أئمة الهدى ـ انتهى ـ .

ومنهم : الشهاب الألوسىّ المفسر ، فإنه كتب على كلام الدوانىّ ما نصه : حاشا لله تعالى أن يكون ـ يعنى ابن تيمية ـ من المجسمة ، بل هو أبرأ الناس منهم . نعم يقول بالفوقية ، وذلك مذهب السلف ، وهو بمعزل عن التجسيم . وجلال الدين وأضرابه أجهل الناس بالأحاديث ، وكلام السلف الصالح ، كما لا يخفى على العارف المنصف . نقله عنه ابنه فى (محاكمة الأحمدين) .

وأقول. إن كل من رمى مثل هذا الإمام بالتجسيم فقد افترى وما درى ، إلا أن عذره أنه لم ينقب عن غرر كلامه فى فتاويه التى أوضح فيها الحق ، وأنار بها مذهب السلف قاطبة . وهاك شذرة من درره . قال رحمه الله فى بعض فتاويه :

والأصل فى هذا الباب أن كل ما ثبت فى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ وجب التصديق به ، مثل علوّ الرب ، واستوائه على عرشه ، ونحو ذلك . وأما الألفاظ المبتدعة

فى النفى والإثبات ، مثل قول القائل : هو فى جهة ، أو ليس فى جهة ، وهو متحيز ، أو ليس بمتحيز ، ونحو ذلك من الألفاظ التى تنازع فيها الناس ، وليس مع أحدهم نص ، لا عن الرسول ﷺ ، ولا عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة المسلمين ـ هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله تعالى فى جهة ، ولا قال ليس هو فى جهة ، ولا قال هو متحيز ، ولا قال ليس بمتحيز ، بل ولا قال هو جسم أو جوهر ، ولا قال ليس بجسم ولا بجوهر . فهذه الألفاظ ليست منصوصة فى الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ؛ والناطقون بها قد يريدون معنى صحيحاً . فإن يريدوا معنى صحيحاً يوافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولا منهم . وإن أرادوا معنى فاسدا يخالف الكتاب والسنة كان ذلك المعنى مردوداً عليهم . فإذا قال القائل : إن الله تعالى فى جهة ، قيل : ما تريد بذلك ؟ أتريد بذلك أنه سبحانه فى جهة موجودة تحصره وتحيط به ، مثل أن يكون فى جوف السموات ، أم تريد بالجهة أمراً عدمياً ، وهو ما فوق العالم شىء من المخلوقات . فإن أردت الجهة الوجودية ، وجعلت الله تعالى محصوراً فى المخلوقات ، فهذا باطل ، وإن أردت الجهة العدمية ، وأردت الله تعالى وحده فوق المخلوقات ، بائن عنها ، فهذا حق ، وليس فى ذلك أن شيئاً من المخلوقات حصره ، ولا أحاط به ، ولا علا عليه ، بل هو العالى عليها ، المحيط بها ، وقد قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ...)[١] الآية ـ وقد ثبت فى الصحيح[٢] عن النبىّ ﷺ أن الله عز وجل يقبض الأرض يوم القيامة ، ويطوى

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٧] . . . سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٤ ـ باب يقبض الله الأرض ، حديث ٢٠٣٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه . ثم يقول . أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

السموات بيمينه ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ماالسموات السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن ، ومابينهن ، فى يد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم . وفى حديث آخر أنه يرميها كما يرمى الصبيان الكرة . فمن يكون جميع المخلوقات بالنسبة إلى قبضته تعالى ، إلى هذا الحقر والصغار ، كيف تحيط به وتحصره ؟ ومن قال إن الله تعالى ليس فى جهة ، قيل له : ما تريد بذلك ؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السموات ربٌّ يعبد ، ولا على عرشٍ إله ، ونبينا محمد ﷺ لم يعرج به إلى الله تعالى ، والأيدى لا ترفع إلى الله تعالى فى الدعاء ، ولا تتوجه القلوب إليه ـ فهذا فرعونىٌّ معطل ، جاحد لرب العالمين . وإن كان يعتقد أنه مقرٌّ به فهو جاهل متناقض فى كلامه . ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد وقالوا : إن الله تعالى بذاته فى كل مكان ، وإن وجود المخلوقات هو وجود الخالق . وإن قال : مرادى بقولى (ليس فى جهة) أنه لا تحيط به المخلوقات فقد أصاب فى هذا المعنى . وكذلك من قال إن الله تعالى متحيز أو قال ليس بمتحيز : إن أراد بقوله (متحيز) أن المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ ، وإن أراد به منحاز عن المخلوقات ، بائن عنها ، عال عليها ، فقد أصاب . ومن قال : (ليس بمتحيز) ، إن أراد المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب ، وإن أراد ليس ببائن عنها ، بل هو لا داخل فيها ، ولا خارج عنها ، فقد أخطأ . والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف : أهل الحلول والاتحاد ، وأهل النفى والجحود ، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة .

فأهل الحلول يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة ، فيقولون : وجود المخلوقات وجود الخالق .

وأما أهل النفى والجحود فيقولون : لا هو داخل العالم ، ولا خارج ، ولا مباين له ،

ولا حالٌّ فيه ، ولا فوق العالم ولا فيه ، ولا ينزل منه شىء ، ولا يصعد إليه شىء ، ولا يتقرب إليه بشىء ، ولا يدنو إليه شىء ، ولا يتجلى لشىء ، ولا يراه أحد ، ونحو ذلك .

وهـــذا قول متكلمة الجهمية المعطلة ، كما أن الأول قول عباد الجهمية . فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبّدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وكلامهم يرجع إلى التعطيل والجحود ، الذى هو قول فرعون . وقد علم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلقهما ، فإما أن يكون دخل فيهما ، وهذا حلول باطل ، وإما أن يكونا دخلا فيه ، وهو أبطل وأبطل ، وإما أن يكون الله سبحانه بائناً عنهما ، لم يدخل فيهما ، ولم يدخلا فيـــه ، وهذا قول أهل الحق والتوحيد والسنة .

ولأهل الجحود والتعطيل فى هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله عزوجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها ، ومافطر الله تعالى عليه عباده ، وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة ، فإن هذه الأدلة كلها متفقة على أن الله تعالى فوق مخلوقاته ، عال عليها ، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والصبيان فى الكتاب ، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى . وقد قال النبىّ ﷺ فى الحديث الصحيح[1] : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم قال أبو هريرة رضى الله عنه : اقرؤوا إن شئتم (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٩ ـ باب إذا أسلم الصبىّ فمات هل يصلّى عليه ، حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رســول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء » ؟

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ (طبعتنا) .

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّـهِ)[١] وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : عليك بدين الأعراب والصبيان فى الـكتّاب ، عليك بمـا فطرهم الله تعالى عليه ، فإن الله سبحانه فطر عباده على الحق ، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم، فيريدون أن يغيروا فطرة الله تعالى ، ودينه عز وجل ، ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهات ، لا يفهم كثير من الناس مقصودهم بها ، ولا يحسن أن يجيبهم . وقد بسط الـكلام عليهم فى غير هذا الموضع. وأصلُ ضلالهم تـكلمهم بكلمات مجملة لا أصل لها فى كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا قالها أحد من أئمة المسلمين . كافظ : المتحيز والجسم والجهة ونحو ذلك. فمن كان عارفاً بحال شبهاتهم بيّنها، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ، ولا يقبل إلا ما جاء به الـكتاب والسنة ، كما قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ)[٢] . ومن تـكلم فى الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الـكتاب والسنة ، فهو من الخائضين فى آيات الله تعالى بالباطل ، وكثير من هؤلاء ينسب إلى أئمة المسلمين مالم يقولوه . وكثير منهم قرؤوا كتباً من كتب الـكلام، فيها شبهات أضلتهم ، ولم يهتدوا لجوابهم، فإنهم يجدون فى تلك الـكتب أنه لو كان الله تعالى فوق الخلق للزم التجسيم والتحيز والجهة ، وهم لا يعرفون حقائق هذه الألفاظ ، ولا ما أراد بها

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعـام / ٦٨] ونصها : وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أصحابها ، فإن ذكر لفظ (الجسم) فى أسماء الله تعالى وصفاته ، بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة ، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولم يقل أحد منهم إن الله تعالى جسم ، ولا أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا أن الله تعالى جوهر ، ولا أن الله تعالى ليس بجوهر . ولفظ الجسم لفظ مجمل ، فمعناه فى اللغة هو البدن . ومن قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان فهو مفتر على الله عز وجل ، بل من قال إن الله تعالى يماثل شيئاً من مخلوقاته فهو مفتر على الله ضال ، ومن قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يماثل شيئاً من المخلوقات ، فالمعنى صحيح ، وإن كان اللفظ بدعة . وأما من قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يُرى فى الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن العربىّ ، بل القرآن العربى مخلوق ، أو هو تصنيف جبريل عليه السلام ، أو نحو ذلك ، فهو مفتر على الله تعالى فيما نفاه عنه . وهذا أصل ضلال الجهمية من المعتزلة ، ومن وافقهم على مذهبهم ، فإنهم يظهرون للناس التنزيه ، وحقيقةُ كلامهم التعطيل ، فيقولون : نحن لا نجسّم ، بل نقول : الله ليس بجسم ، ومرادهم بذلك نفى حقيقة أسمائه وصفاته .

إلى أن قال : فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزه عن كل نقص وعيب ، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينزهونه عما نزه عنه نفسه من مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل . قال عز شأنه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)(١) فقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) رد على الممثلة . وقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) رد على المعطلة ـ انتهى ملخصاً ـ .

وقال رضى الله عنه (فى جواب على سؤال رفع إليه نصه : الاستواء هل هو حقيقة أو مجاز ؟) : ما نصه ملخصاً :

(١) [٤٢ / الشورى / ١١] .

القول فى الاستواء والنزول كالقول فى سائر الصفات التى وصف بها نفسه فى كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليـــه وسلم ، فإن الله تعالى سمى نفسه بأسماء ، ووصف نفسه بصفات ، فالقول فى بعض هذه الصفات ، كالقول فى بعض. ومذهب سلف الأمة وأئمتها أَنْ نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفى صفات الله تعـالى التى وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين . ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لايجوز إطلاق النفى على ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات ، بل هذا جحد للخالق ، وتمثيل له بالمعدومات . وقد قال ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها فى القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، لأنهم لاينفون شيئاً من ذلك، ولا يجدون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج، فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عنـد من أقرّ بها ، نافون للمعبود ، لامثبتون . والحق فيما قاله القائلون ، مما نطق به الـكتاب والسنة، وهم أئمة الجماعة. هذا الذى حكاه ابن عبد البر .

ومن أنـكر أن يكون شىء من هذه الأسماء والصفات حقيقة، فإنما أنـكره لجهله لمسمى الحقيقة ، أو لـكفره وتعطيله لمـا يستحقه رب العالمين . وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضى أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق، فيقال له: هذا باطل ، فإن الله موجود حقيقة، والعبد موجود حقيقة ، وله تعالى ذات حقيقة ، والعبـد له ذات حقيقة ، وليس ذاته تعالى كذات المخلوقات ، وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة ، وللعبد سمع وبصر وعلم حقيقة ، وليس علمه وسمعه وبصره مثل عـلم العبد وسمعه وبصره . ولله كلام حقيقة ، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين . والله استوى على عرشه حقيقة ، وللعبد استواء على الفُلْك حقيقة ، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق . فإن الله لايفتقر إلى شىء ، ولا يحتاج إلى شىء ، بل هو

الغنيّ عن كل شيء، والله تعالى يحمل العرش وحملته، بقدرته[1] وَ: ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ . فمن ظن أن معنى قول الأئمة (الله مستوٍ على عرشه حقيقة) يقتضى أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفُلْك والأنعام ، لزمه أن يكون قولهم : إن الله له علم حقيقة وسمع وبصر حقيقة وكلام حقيقة ، يقتضى أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل علم المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم ، فمن ظن أن الحقيقة إنما تتناول صفة العبد المخلوقة دون صفة الخالق ، كان فى غاية الجهل ، فإن صفة الله أكمل وأتم وأحق بهذه الأسماء الحسنى ، فلا نسبة بين صفة العبد وصفة الرب ، كما لا نسبة بين ذاته وذاته . فكيف يكون العبد مستحقاً للأسماء الحسنى حقيقة ، والرب لا يستحق ذلك إلا مجازا ؟ ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الخالق سبحانه وتعالى ، فله المثل الأعلى . فكل كمال حصل للمخلوق ، فالخالق أحق به ، وكل نقص ينزه عنه مخلوق ، فالحق أحق أن ينزه عنه ، ولهذا كان لله المثل الأعلى ، فإنه لا يقاس بخلقه ، ولا يمثل بهم ، ولا تضرب به الأمثال ، فلا يشترك هو والمخلوق بمثل ولا فى قياس. ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات الصفات لله تبارك وتعالى، بل صفات الكمال لازمة لذاته، يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له، بل يمتنع تحقق ذات من الذات عريّةً عن جميع الصفات، وهذا كله مبسوط فى غير هذا الموضع. فإذا قال : وجود الله ، وذات الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، وسمع الله ، وبصر الله ، وكلام الله ، ورحمة الله ، وغضب الله ، واستواء الله ، ونزول الله، ومحبة الله ، ونحو ذلك، كانت هذه الأسماء كلها حقيقة لله تعالى من غير أن يدخل فيها شيء من المخلوقات ، ومن غير أن يماثله فيها شيء من المخلوقات . وإذا قال. وجود العبد وذاته وماهيته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه واستواؤه ونزوله ، كان هذا حقيقة للعبد مختصة به ، من غير أن تماثل صفاته صفات

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٤١] ونصها : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ .

الله تعالى . بل أبلغ من ذلك؛ أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ماذكره في كتابه . كما ذكر أن فيها لبنا وعسلا وخمرا ولحما وحريرا وذهباً وفضة وحورا وقصورا وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء . فتلك الحقائق التي في الجنة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا ، وإن كانت مشابهة لها من بعض الوجوه، والاسم يتناولهما حقيقة، ومعلوم أن الخالق أبعد عن مشابهة المخلوق ، والمخلوق عن مشابهة الخالق . فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلا لمخلوقاته ، وأن يقال ليس ذلك بحقيقة ! وهل يكون أحق بهذا الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض، مع أن مباينتهما للمخلوقات أعظم من مباينة كل مخلوق لكل مخلوق ؟ والجاهل يضل بأن يقول : العرب إنما وضعوا لفظ (الاستواء) لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلْك ، أو استواء السفينة على الجوديّ ، ولنحو ذلك من استواء بعض المخلوقات . فهو كما يقول القائل : إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجفاناً ، وأصمخة وآذاناً ، وشفتين ولساناً ، وإنما وضعوا لفظ العلم والرحمة والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاد ، وهذا كله جهل منه . فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافت إليه ، فإذا قالت سمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته مما يختص به ، يتناول ذلك خصائص العبد . وإذا قيل سَمْعُ الله وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته ، كان هذا متناولا لما يختص به الرب، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين . وكذلك إذا قيل استواء الرب ، فهذا الاستواء المضاف إلى الله كالعلم والسمع والبصر المضاف إلى الله . لا يجوز أن يتناول ذلك شيئاً من خصائص المخلوقين وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، ثم ينفون ذلك ويعطلونه ، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق ، وينفون مضمون ذلك ، فيكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته ، وألحدوا في أسماء الله تعالى وآياته ،

وخرجوا عن القياس العقليّ ، والنص الشرعى ، فلا يبقى بأيديهم لامعقول صريح ، ولامنقول صحيح . ثم لا بد لهم من إثبات بعض مايثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات : فإذا أثبتوا البعض ، ونفوا البعض ، قيل لهم : ماالفرق بين ما أثبتموه ومانفيتموه؟ ولم كان هذا حقيقة، ولم يكن هذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلا ، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعا وعقلا . ونظائر هذا كثيرة ، فمن ظن أن أسماء الله تعالى وأسماء صفاته ، إذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلا للمخلوقين ، وأن تكون صفاته مماثلة لصفاتهم ، كان من أجهل الناس ، وكان أول كلامه سفسطة ، وآخره زندقة لأنه يقتضى نفى جميع أسماء الله وصفاته ، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد . وإن فرق بين صفة وصفة ، مع تساويهما فى أسباب الحقيقة والمجاز ، كان متناقضاً فى قوله ، متهافتاً فى مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض .

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور ، تبين له أن مذهب السلف والأئمة فى غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطّراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح ، والمنقول الصحيح. وأن من خالفه ، كان مع تناقض قوله المختلف الذى يؤفك عنه من أفك ، خارجاً عن موجب العقل والسمع ، مخالفاً للفطرة والشرع ، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة ــ انتهى ــ .

فائدة

فى منشأ هذا التعطيل

وبيّن رضى الله عنه ، فى فتوى أخرى له فى الصفات ، مورد هذا التعطيل . حيث قال رضى الله عنه :

ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة ــ أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة وإنما (استوى)

استولى ونحو ذلك ـ أول ماظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم وأخذهاعنه الجهم بن صفوان وأظهرها . فتنسب مقالة الجهمية إليه، والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهوديّ الساحر الذى سحر النبيّ ﷺ . وكان الجعد هذا ـ فيما قيل ـ من أهل حرّان ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ، بقايا أهل دين النمروذ الكنعانيين ، الذين صنف بعض المتأخرين فى سحرهم وكانوا يعبدون الكواكب ، ويبنون لها الهياكل ، ومذهبهم فى الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية ، أو مركبة منهما ، وهم الذين بُعث إبراهيم الخليل ﷺ إليهم ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً ـ فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ـ من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسِّيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع إلى اليهود والصائبين والمشركين . والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين ، وإما من المشركين . ثم لما عرِّبت الكتب الرومية فى حدود المئة الثانية ، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان فى قلوب الضلال ، ابتداء من جنس ما ألقاه فى قلوب أشباههم . ولما كان فى حدود المئة الثانية ، انتشرت هذه المقالة التى كان السلف يسمونها مقالة الجهمية ، بسبب بشر بن غياث المريسى وطبقته ، وكلام الأئمة ـ مثل مالك رضى الله عنه وسفيان بن عيينة وأبى يوسف والشافعىّ وأحمد وإسحق والفضيل بن عياض وبشر الحافى وغيرهم ـ فى بشر المريسىّ هـذا كثيرٌ فى ذمه وتضليله . وهـذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدى الناس ، مثل أكثر التأويلات التى ذكرها أبو بكر بن فورك فى كتاب (التأويلات) وذكرها أبو عبد الله محمـد بن عمر الرازىّ فى كتابه الذى سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها فى كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبى على الجبائى وعبد الجبار بن أحمد الهمدانىّ وأبى الحسين البصرىّ وابن عقيل وأبى حامد الغزالىّ وغيرهم . وهى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسىّ فى كتابه . وإن كان قد يوجد فى كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن فى أشياء ، فإنما بَيَّنْتُ أن عـين

تأويلاتهم هى عين تأويلات المريسى . وعلمنا ذلك بكتاب (الرد) الذى صنفه عثمان بن سعيد الدارمىّ أحد الأئمة المشاهير فى زمن البخارىّ ، صنف كتاباً سماه (نقض عثمان بن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله فى التوحيد) حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسىّ ، بكلام يقتضى أن المريسىّ أقعد بها ، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلامٍ ، إذا طالعه العاقل الذكىّ ، علم حقيقة ما كان عليه السلف فتبين له ظهور الحجة لطريقهم ، وضعف حجة من خالفهم . ثم إذا رأى الأئمة ـ أئمة الهدى ـ قد أجمعوا على ذم المريسية ، وأكثرهم كفّروهم، أوضللوهم ، وعلم أن هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين ، هو مذهب المريسىّ ـ تبين له الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال رضى الله عنه :

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ماوصف به نفسه ، أووصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله وآياته.وكل واحد من فريقى التعطيل والتمثيل ، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل . أما المعطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ماهو اللائق بالمخلوق . ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات ، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولًا ، وعطلوا آخراً ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى . فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً، وكل ذلك محال ، ونحو ذلك من الكلام ، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأى جسم كان ، على أى جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ، ويختص به ، فلا يلزمه

شيء من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام . وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع ، فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان . أو قوله : إذا كان مستوياً على العرش ، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفلك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا . فإن كليهما مثّل ، وكلاهما عطّل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقيّ ، وامتاز الثاني بإثبات (استواء) هو من خصائص المخلوقين ، والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقُدَرهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

واعلم أنه ليس في العقل الصحيح ، ولا في النقل الصريح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلًا ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان في قلبه شبهة وأحبّ حلها ، فذلك سهل يسير ـ انتهى كلامه ـ .

ومن أحاط عقله بهذه الغرر ، علم براءة ساحة السلف مما رموا به من التجسيم . وفي هذه النفائس من الفوائد ما يشفع لدى الواقف بطوله .

الثالث : يطلق العرش على معانٍ : السرير ، ومنه آية (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)[1] . والملك ، يقال : ثل عرشهم . وسقف البيت ، ومنه آية : (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا)[2]

(١) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، =

وحديث (كالقنديل المعلق بالعرش) . أو البناء ، ومنه : (وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ)[(١)] أى يبنون . ومنه : العريش ، وهو ما يستظل به . والعرش المضاف إلى الله تعالى لا يحدّ .

قال فى القاموس : العرش ، عرش الله تعالى ، ولا يحدّ ـ انتهى ـ .

وقال الراغب : عرش الله عز وجل مما لايعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة ، ولذا لم يصح فى صفته حديث ، وكل ما روى فى ذلك فليس من مرويات الصحاح .

قال البيهقىّ فى كتاب (الأسماء والصفات) : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم ، خلقه الله تعالى ، وأمر ملائكته بحمله ، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتاً ، وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة ، وفى أكثر الآيات دلالة على صحة ما ذهبوا إليه ، وفى الأخبار والآثار الواردة فى معناه دليل على صحة ذلك ـ انتهى ـ .

وقال الحافظ الذهبيّ فى كتاب (العلوّ) : اعلم أن الله عز وجل ، قد أخبرنا ، وهو

= قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ، وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٨ / الكهف / ٤٢] ونصها : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] ونصها : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ .

أصدق القائلين ، بأن عرش بلقيس عرش عظيم ، فقال : (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)[١] ثم ختم الآية بقوله : (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)[٢] ، فكان عرشها عظيما بالنسبة إليها ، وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ولا بماهيته . ثم قال : فما الظن بما أعد الله تعالى من السُّرُرِ والقصور فى الجنة لعباده ، فما الظن بالعرش العظيم الذى اتخذه العلىّ العظيم لنفسه فى ارتفاعه وسعته وقوائمه وماهيته وحملته الحافّين من حوله ، وحسنه ورونقه وقيمته ؟ اسمع وتعقل ما يقال ، والجأ إلى الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة ، فالقرآن مشحون ، بذكر العرش ، وكذلك الآثار ، بما يمتنع أن يكون المراد به (الملك) . فدع المكابرة والمراء ، فإن المراءَ فى القرآن كفر . آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون . لا إله إلا الله الحليم الكريم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم . الحمد لله رب العالمين . انتهى كلام الذهبىّ رحمه الله تعالى ـ .

الرابع ـ سئل الشيخ تقىّ الدين بن تيمية، عليه الرحمة والرضوان ، عن العرش : هل هو كرى أم لا ، فإذا كان كريًّا والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة توجه العبد إلى الله سبحانه حين الدعاء والعبادة، فيقصد العلوّ دون غيره ، إذ لافرق حينئذ بين قصد جهة العلوّ وغيرها من الجهات التى تحيط بالداعى ، ومع هذا نجد فى قلوبنا قصدًا يطلب العلوّ ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . فأخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا وقد فطرنا عليها .

فأجاب رحمه الله بقوله :

إنّ لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرّية، وإنما ذكره طائفة من المتأخرين الذين نظروا فى علم الهيأة، فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع ، وهو الأطلس، محيط بها، وهو الذى يحركها الحركة الشرقية، وإن كان لكل

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٧٣٧ .
(٢) [٢٧ / النمل / ٢٦] .

فلك حركة تخصه ، ثم سمعوا فى أخبار الأنبياء ذكر عرش الله سبحانه وكرسيّه والسموات السبع ، فقالوا (بطريق الظن) : إن العرش هو الفلك التاسع ، لا اعتقادهم أنه ليس وراء ذلك شيء ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق . ثم إن منهم من رأى أنه هو الذى يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وربما سماه بعضهم الروح أو النفس . وجعله بعضهم هو اللوح المحفوظ ، وبعض الناس ادعى أنه علم ذلك بطريق الكشف ، وذلك غير صحيح ، بل أخذه من هؤلاء المتفلسفة ، كما فعل أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) . والأخبار تدل على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات ، وأنه قبل السموات والأرض . فقد ثبت فى صحيح البخارىّ[1] أنه ﷺ قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، وأن له قوائم ـ كما فى حديث[2] أبى سعيد : فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش . وقد استدل من قال إنه مقبب ، بما رواه أبو داود[3] من قوله عليه الصلاة والسلام (وإن الله تعالى على عرشه ، وإن عرشه على سمواته ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى قول الله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ، حديث ١٥٠٦ عن عمران بن حصين .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ـ كتاب الأنبياء ، ٢٥ ـ باب قول الله تعالى: وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حديث رقم ١١٩٣ ونصه ، عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ ﷺ قال « الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش . فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٨ ـ باب فى الجهمية ، حديث رقم ٤٧٢٦ ونصه : عن جبير بن مطعم قال : أتى رسولَ الله ﷺ أعرابىٌّ فقال : يا رسول الله ! جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا =

وسمواته فوق أرضه هكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبة ـ) . وهـــذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، ولا مستدير مثل ذلك، لـكن لفظ (القبة) يستلزم استدارة من العلوّ، لامن جميع الجوانب، إلا بدليل منفصل. ولفظ (الفلك) يستدل بهعلى الاستدارة مطلقاً، كما قال ابن عباس فى : (كُلٌّ فِى فَلَكٍ)[١] : فى فلـكة مثل فلـكة المغزل. وأما لفظ (القبة) فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفى ولا إثبات ، لـكن يدل على الاستدارة من العلوّ .

واعلم أن العرش ، سواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسماً محيطاً به ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض ، محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلوىّ والسفلىّ بالنسبة إلى الخالق تعـالى فى غاية الصغر ، كما قال تعالى : وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[٢] .

وفى الصحيحين[٣] عن النبىّ ﷺ أنه قال: يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة

= فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويحك! أتدرى ما تقول » ؟ وسبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك ! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه . شأن الله أعظم من ذلك. ويحك ! أتدرى ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهـكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه « وإنه ليئطّ أطيط الرحْل بالراكب » .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] ونصها : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٧] .

(٣) أخرجه البخـارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ٢ ـ باب وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ، حديث رقم ٢٠٣٩ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ وفى الصحيحين[١] عن عبد الله بن عمر، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك. أين الجبارون، أين المتكبرون؟ وفى لفظ[٢]: ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء .

وفى رواية أخرى قال: قرأ على المنبر: وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...الآية ـ قال : مطوية فى كفه ، يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة . ففى هذه الأحاديث وغيرها ، المتفق على صحتها ، ما يبيّن أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمته عز وجل ، أصغر من أن تكون ، مع قبضه لها ، إلا كالشيء الصغير فى يد أحدنا ، حتى يدحوها كما تدحى الكرة .

ثم قال فى الجواب: فما وصف الله تعالى من نفسه وأسمائه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميناه كما سماه ، ولم نتكلف علم ما سواه ، فلا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة مالم يصف . وإذ كان كذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة. وفى ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل . وبكل حال فهو مباين لها ، ليس بمجانب لها . ومن

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٩ ـ باب قول الله تعالى : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، حديث رقم ٢٦٠٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٤و٢٥(طبعتنا) وهذا لفظ مسلم .

(٢) نصه فى مسلم : حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء منه، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله ؟

وليس فيه (ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله) .

المعلوم أن الواحد منا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا كان عنده خردلة ؛ إن شاء قبضها ، فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها ، بل جعلها تحته ، فهو فى الحالين مباين لهـا ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات ، كإحاطة الـكرة بما فيها أم قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذى نحن عليها بالنسبة إلى جوفها ، وكالقبة بالنسبة إلى ما تحتها ، أو غير ذلك ـ فعلى التقدير يكون العرش فوق المخلوقات ، والخالق سبحانه فوقه ، والعبد فى توجهه إليه عز وجل ، يقصد العلوّ ، دون التحت .

وتمام هـذا البحث بأن يقال : لا يخلو إما أن يكون العرش كريا كالأفلاك ، ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها ، وليس بكرىّ . فإن كان الأول ، فمن المعلوم ـ باتفاق من يعلم هذا ـ أن الأفلاك مستديرة كرية ، وأن الجهة العليا هى جهة المحيط ، وهو المحدود؛ وأن الجهة السفلى هى المركز ، وليس للأفلاك إلا جهتان : العلوّ والسفل فقط . وأما الجهات الست فهى للحيوان ، فإن له ست جوانب : يؤم جهة فتكون أمامه ، ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذى شماله ، وجهة تحاذى يمينه ، وجهة تحاذى رأسه ، وجهة تحاذى رجليه . وليس لهذه الجهات فى نفسها صفة لازمة ، بل هى بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا ، لـكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو للعلوّ ، والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التى وضعها الله تعالى للأنام ، وأرساها بالجبال ، هو الذى عليه الناس والبهائم وغيرهما . فأما الناحية الأخرى منها فالبحر محيط بها ، وليس هناك شىء من الآدميين وما يتبعهم . ولو قدر أن هناك أحداً ، لـكان على ظهر الأرض ، ولم يكن مَن فى هذه الجهة تحت مَن فى هذه الجهة ، ولا مَن فى هذه تحت مَن فى هذه . كما أن الأفلاك محيطة بالمركز ، وليس أحـد جانبى الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالىّ تحت الجنوبىّ ، ولا بالعكس ، وإن كان الشمالىّ هو الظاهر لنا بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا ، كان ارتفاع القطب عنده

ثلاثين درجة ، وهو الذى يسمى عرض البلد . فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها ، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض لا يقال إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو (تحتٌ) إضافىٌّ . كما لو كانت نملة تمشى تحت سقف ، فالسقف فوقها ، وإن كانت رجلاها تحاذيانه ، وكذلك من عُلق منكوسا ، فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجلاه تلى السماء وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان فى أحد جانبى الأرض أو الفلك ، أن الجانب الآخر تحته . وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة . وهذا كما أنه قول أهل الهيأة والحساب ، فهو الذى عليه علماء المسلمين ، كما ذكره أبو الحسين المناوىّ وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج ابن الجوزىّ وغيرهم . وهو المأخوذ من قول ابن عباس وغيره . ومن ظن أن من يكون فى الفلك من ناحية يكون تحته مَن فى الفلك من الناحية الأخرى فى نفس الأمر ، فهو متوهم عندهم . فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً ، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلوّ . ومن توجه إلى الفلك الثامن أو التاسع مثلا من غير جهة العلوّ ، كان جاهلا باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى مافوقه ! وغاية مايقدر أن يكون كرىّ الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله ، فإن السموات السبع والأرض فى يده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا . وأما قول القائل : إذا كان كريًّا ، والله من ورائه محيط بائن عنه ، فما الفائدة فى التوجه إلى العلوّ دون التحت ، ومع هذا نجد فى قلوبنا قصد العلوّ ؟ فيقال : هذا إنما ورد لتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض ، وتحت ما على وجه الأرض ، من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط . فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة ، لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ؛ وأهل الهيأة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية

أرجلنا ، وألقى فى الخرق شىء ثقيل كالحجر ونحوه ، لكان ينتهى إلى المركز ، حتى لو ألقى من تلك الناحية حجر آخر ، لا لتقيا جميعاً فى المركز ، الذى هو النقطة المتوسطة فى كرة الأرض . ولو قدر أن إنسانين التقيا فى المركز بدل الحجر ، لالتقت رجلاهما، ولم يكن أحدهما تحت الآخر ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك . وإذا كان مطلوب أحدٍ ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لأن مطلوبه من تلك الجهة أقرب ، لأنه لو قدر أن رجلا أو ملكا يصعد إلى السماء ، كان صعوده مما يلى رأسه ، ولا يقول عاقل إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، أو يذهب يميناً أو شمالا ثم يصعد. ولو أن رجلا أراد مخاطبة القمر، فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أنه قد يشرق ويغرب ، فكيف بما هو فوق كل شىء لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى . وكما أن حركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق ، وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادىّ الذى يقوم بقلوب العباد ، كيف يعدل عن الصراط المستقيم ؟

مطاب فى حديث الإدلاء

إلى أن قال :

وحديث الإدلاء ، الذى رواه أبو هريرة وأبو ذر ،قد رواه الترمذىّ[1] وغيره من حديث

(١) رواه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ونصه : عن قتادة ، حدثنا الحسن عن أبى هريرة قال : بينما نبىّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا» ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « بينكم وبينها مسير خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون =

الحسن عن أبى هريرة ، وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبى هريرة ، ولـكن يقوّيه حديث أبى ذر المرفوع . فإن كان ثابتاً ، فمعناه موافق لهذا . فإن قوله عليه الصلاة والسلام : لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله ، إنما هو تقدير مفروض ، أى لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لـكن لا يمـكن أن يدلى أحد على الله عز وجل شيئاً ، لأنه عال بالذات ، وإذا أُهْبِط شىء إلى جهة الأرض وقف فى المركز . والمقصود بيان إحاطة الخالق سبحانه ، كما بيّن أنه يقبض السموات ، ويطوى الأرض ، ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته تعالى ، ولهذا قرأ فى تمام الحديث : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١) . وهـذا كله على

= ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع سموات ، ما بين كل سمـاءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فإن فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بُعْدَ مثل ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتـكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فإنها الأرض » ثم قال «هل تدرون ما الذى تحت ذلك» ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال «فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة» حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنـكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى ، لهبط على الله» .

ثم قرأ : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(قال أبو عيسى) : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلىّ بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبى هريرة

(أقول) فى سماع الحسن من أبى هريرة ، انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر على الحديث رقم ٧١٣٨ من مسند أحمد (طبعة المعارف) .

(١) [٥٧ / الحديد / ٣] .

تقدير صحته، فإن الترمذيّ لما رواه قال: وفسره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله. وبعضُ الحلوليه والاتحادية يظن أن فيه ما يدل على زعمه الباطل من أنه سبحانه حالٌّ بذاته فى كل مكان ، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك . وكذلك تأويله بالعلم غير مستقيم ، بل على تقدير ثبوته ، فالمراد به الإحاطة ، ونحن لا نتكلم إلا بما نعلم ، وما لم نعلمه أمسكنا عنه . وقد فطر الله تعالى الناس على التوجه فى الدعاء إلى جهة العلوّ ، وقال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا[1]. فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة. وقد ثبت فى الصحيحين[2] أنه ﷺ قال: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه ، فإن الله تعالى قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، وليبصق عن يساره أو تحت رجله . وفى رواية : إنه أذن أن يبصق فى ثوبه . وفى حديث[3] أبى رزين

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] . . . لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨ كتاب الصلاة ، ٣٣ ـ باب حك البزاق باليد من المسجد ، حديث ١٨٠ عن أنس .

و ٣٦ ـ باب ليبزق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ، حديث ٢٧٢ عن أبى سعيد الخدريّ.

و ٣٨ ـ باب كفارة البزاق فى المسجد ، حديث ٢٧١ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٧٤ (طبعتنا) من حديث طويل فى عدة معانٍ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٩ ـ باب فى الرؤية ، حديث ٤٧٣١

وأخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١٣ ـ باب فيما أنكرت الجهمية ، حديث رقم ١٨٠ (طبعتنا) ونصه : عن أبى رزين قال : قلت : يا رسول الله ! أنرى الله يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال « يا أبا رزين ! أليس كلكم يرى القمر مُخْلِياً به » ؟ قال قلت : بلى . قال « فالله أعظم ، وذلك آية فى خلقه » . وكذا فى أبى داود .

المشهور : لما أخبر ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه ، فقال له أبو رزين : كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جمع ؟ فقال : سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله تعالى : هذا القمر آية من آيات الله تعالى ، كلكم يراه مخلياً به ، فالله أكبر . وفى الصحيحين[1] : لينتهينّ أقوام عن رفع أبصارهم فى الصلاة ، أو لا ترجع إليهم أبصارهم . واتفق العلماء على أن رفع المصلّى بصره إلى السماء منهىّ عنه . وروى محمد بن سيرين أن النبىّ ﷺ كان يرفع بصره فى الصلاة إلى السماء ، حتى نزل : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[2] : فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده . فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلا للفطرة ، لأن الداعى المأمور بالذل، لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه . خلافاً للجهمية الذين لا يفرقون بين العرش وقعر البحر ، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[3]. الآية ـ ثم بين تأويل[4] (الحجرُ الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه) وقال: قد ظنوا[5] أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا وهم ، لأنه لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٢ ـ باب رفع البصر إلى السماء فى الصلاة ، حديث رقم ٥٤٧ عن أنس . وليس فى مسلم .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

(٤) نصه : الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده .

قال فى الجامع الصغير : خط (أى الخطيب) وابن عساكر عن جابر بإسناد ضعيف .

(٥) فى هامش المخطوطة : (أقول ممن ظنه الغزالىّ فى (فيصل التفرقة) اهـ ج . ق) .

النبيّ ﷺ فإنه صريح فى أن الحجرَ ليس هو من صفاته تعالى، وتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يدَه على الإطلاق ، فلا تكون اليد حقيقة . وقوله:(فكأنما صافح الله تعالى) الخ صريح فى أن المصافح ليس مصافحًا له تعالى ، لأن المشبَّه ليس هو المشبه به .

إلى أن قال : فهذا كله بتقدير كرِّية العرش ، وأما إذا قدر أنه ليس بكرىّ الشكل ، بل هو فوق العالم من الجهة التى هى وجه الأرض، وأنه فوق الأفلاك الكرية ، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام ، فوق نصف الأرض الكرىّ ، أو غير ذلك من المقادير التى يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه ـ فعلى كل تقدير لايتوجه إلى الله تعالى إلا إلى العلوّ ، مع كونه على عرشه مباينًا لخلقه . وعلى ما ذكرناه لا يلزم شيء من المحذور والتناقض . وهذا يزيل كل شبهة تنشأ من اعتقاد فاسد ، وهو أن يظن أن العرش إذا كان كريًّا ، والله تعالى فوقه كما تقتضيه ذاته ، سبحانه عن مشابهة المخلوقين ـ وجب (فيما عند الزاعم) أن يكون سبحانه كريًّا ، ثم يعتقد أنه إذا كان كريًّا فيصح التوجه إلى ما هو كرى كالفلك التاسع من جميع الجهات ، وهذا خطأ ، فإن القول بأن العرش كرىّ لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك فى أشكالها وأقدارها أو فى صفاتها ، بل قد تبين أنه سبحانه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا . فإذا كانت الحمصة مثلا فى يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل ، إذا استشعر علوّ الإنسان على ذلك وإحاطته ، بأن يكون الإنسان كالفلك ؟ فالله تعالى ـ وله المثل الأعلى ـ أعظم من أن يظن به ذلك . وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله[1] حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وإذا لم يكن كريًّا . فالأمر ظاهر مما تقدم ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله تعالى أعلم .

(١) يشير إلى الآية [٣٩/الزمر/٦٧] ونصها: وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وإنما أشبعنا الـكلام ، فى هذا المقام ، لأنه من أصول العقائد الدينية ، ومهمات المسائل التوحيدية ، وقد كثر فيه تعارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشيء يعلق بقلب الأذكياء ، بل اجتهدوا فى إيراد التمحلات التى تأباها فطرة الله أشد الإباء ، فبقيت نفوس أنصار السنة المحققين ، مائـلة إلى مذهب السلف الصالحين ، فإن الأئمة منهم ، كان عقدهم ما بيناه فلا تـكن من الممترين ، والحمد لله رب العالمين .

وقوله تعالى : « يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ » أى يغطيه به ، يعنى أنه تعالى يأتى بالليل على النهار ، فيغطيه ويلبسه ، حتى يذهب بنوره ، ويصير الجو مظلماً ، بعد ما كان مضيئاً . قال الشهاب : وجوز جعل الليل والنهار مغشى على الاستعارة ، بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه ، فـكأنه لفّ عليه لفّ الغشاء ؛ أو شبه تغييب كل منهما ، بطريانه عليه ، بستر اللباس للابسه انتهى ـ .

ولم يذكر العكس للعلم به ، أو لأن اللفظ يحتملهما ، ولذلك قرئ « يَغۡشَى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارُ » بنصب الليل ، ورفع النهار « يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا » أى يعقبه سريعاً ، كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء . قال الرازىّ : وإنما وصف سبحانه هذه الحركة بالسرعة ، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا : الإنسان إذا كان فى العَـدْوِ الشديد الـكامل ، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك ، كانت تلك الحركة فى غاية الشدة والسرعة ، فلهذا السبب قال تعالى : « يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا » ؛ « وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ » أى مذللات لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع بقضائه وتصريفه . قال الشهاب : وسماه (أمراً) على التشبيه ؛ إذ جَعَلَ هذه الأشياء لـكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهن مأمورات منقادة لأمره . ويصح حمله على ظاهره ـ انتهى ـ .

أى وهو الكلام ، فيكون تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم ، والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا ، وخراب هذا العالم . وقد قرئ (والشَّمْسَ) وما بعده بالنصب عطفاً على (السموٰات) ونصب (مُسَخَّرَاتٍ) على الحال . وقرأها ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء ، والخبر « أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ » أى هو الذى خلق الأشياء كلها ، وهو الذى صرفها على حسن إرادته ، وفسر الأمر بالقضاء والحكم .

تنبيهان :

الأول استخرج سفيان بن عيينة ، من هذا المعنى ، أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق، فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر . يعنى أن من جعل الأمر الذى هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر ، لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله . كذا فى (اللباب) . قال فى (الإكليل) : استدل به ابن عيينة على أن القرآن غير مخلوق ، أخرجه ابن أبى حاتم . لأن (الأمر) هو الكلام ، وقد عطفه على (الخلق) فاقتضى أن يكون غيره ، لأن العطف يقتضى المغايرة، وسبقه إلى هذا الاستنباط محمد بن كعب القرظى . انتهى.

الثانى : قال فى اللباب : فى الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ، أى للحصر المستفاد من تقديم الظرف . ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات فى هذا العالم .

« تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم . قال فى (التاج) : سئل أبو العباس عن تفسير (تَبَارَكَ ٱللَّهُ) فقال : ارتفع ـ انتهى ـ .

ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة ، ليفردوه بالألوهية ، أمرهم بأن يدعوه وحده متذللين مخلصين فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] (ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ)

«ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» نصب على الحال، أى: ذوى تضرع وخفية، والتضرع (تفعّل) من (الضراعة) وهو الذل. والخفية (بضم الخاء وكسرها) مصدر خَفِىَ كرضى بمعنى اختفى ، أى : استتر وتوارى. وإنما طلب الدعاء مع تينك الحالتين لأن المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه ذى القدرة الباهرة ، والرحمة الواسعة . وإذا حصل له ذلك ، فلابد من صونه عن الرياء ، وذلك بالاختفاء ، وتوصلاً للإخلاص .

فوائد :

فى هذه الآية مشروعية الدعاء ، بشرطَيْهِ المذكورين .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : ومن التضرع رفع الأيدى فى الدعاء ، فيستحب . وقد أخرج البزار عن أنس قال : رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفة يدعو ، فقال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم: هذا الابتهال . ثم خاضت الناقة ، ففتح إحدى يديه فأخذها وهو رافع الأخرى ـ انتهى ـ .

وفى الصحيحين(١) عن أبى موسى الأشعرىّ قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً. إن الذى تدعون سميع قريب . .. الحديث .

أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ ونصه : عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ . فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبّرْنا ارتفعت أصواتنا . فقال النبىّ ﷺ « أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم . فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا . إنه معكم . إنه سميع قريب . تبارك اسمه وتعالى جدّه » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ (طبعتنا).

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال : إن كان الرجل، لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ؛ وإن كان الرجل، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس؛ وإن كان الرجل، ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر ، فيكون علانية أبدًا . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، ومايسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله تعالى يقول : ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضى فعله فقال : إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا(١).

وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة .

وقال الناصر فى (الانتصاف): وحسبك فى تعين الإسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية ، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله فى الدعاء، وإن دعاءً لاتضرّع فيه ولاخشوع، لقليل الجدوى. فكذلك دعاء لاخفية ولاوقار يصحبه. وترى كثيرًا من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح فى الدعاء، خصوصاً فى الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدّ، وتستكّ المسامع وتستدّ ، ويهتز الداعى بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت فى الدعاء، وفى المسجد ، وربما حصلت للعوامّ حينئذ رقة لاتحصل مع خفض الصوت ، ورعاية سمت الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار . وما هى إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل ، لكانت عند اتباع السنة فى الدعاء . وفى خفض الصوت به ، أوفر وأوفى وأزكى . فما أكثر التباس الباطل بالحق ، على عقولٍ كثيرة من الخلق . اللهم ! أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ـ انتهى ـ .

---

(١) [١٩ / مريم / ٣] .

وقد روى الحافظ أبو الشيخ فى (الثواب) عن أنس مرفوعاً : دعوة فى السرّ تعدل سبعين دعوة فى العلانية .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » أى : لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شىء ، ويدخل فيه الاعتداء بترك الأمرين المذكورين ، وهما التضرع والإخفاء دخولًا أوليًّا .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية كراهية الاعتداء فى الدعاء . وفسره زيد بن أسلم بالجهر ، وأبو مجلز بسؤال منازل الأنبياء ، وسعيد بن جبير بالدعاء على المؤمن بالسر . أخرج ذلك ابن أبى حاتم . ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء .

وقد روى الإمام أحمد(١) وأبو داود أن سعدًا سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، ونحوًا من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال : لقدسألت الله خيرًا كثيرًا، وتعوّذتَ بالله من شرّ كثير، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون قوم يعتدُون فى الدعاء (وفى لفظ: يعتدون فى الطهور والدعاء) ، وقرأ هذه الآية : ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ . . . الآية ـ وإن بحسبك أن تقول: اللهم إنى أسألك الجنةوما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل .

وروى الإمام أحمد(٢)وأبو داود أن عبد الله بن مغفّل سمع ابنه يقول: اللهم! إنىأسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : يابنىّ ! سل الله الجنة ، وعُذْ به من النار، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون فى الدعاء والطهور .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٤٨٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث رقم ١٤٨٠ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وأخرجه أبوداود فى: ١ ـ كتاب الطهارة، ٤٥ ـ باب الإسراف فىالماء، حديثرقم٩٦

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا » قال أبو مسلم : أى لا تفسدوها بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، وبعث الرسل ، وبيّن الطريق ، وأبطل الكفر .

وقال أبو حيّان : هذا نهى عن إيقاع الفساد فى الأرض ، وإدخال ماهيته فى الوجود بجميع أنواعه ، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان . ومعنى (بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا) : بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ، ومصالح المكلفين . انتهى.

« وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا » أى : ذوى خوف من وبيل العقاب ، نظراً إلى قصور أعمالكم ؛ وطمع فيما عنده من جزيل الثواب ، نظراً إلى سعة رحمته ، ووفور فضله وإحسانه .

« إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى : أن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ . . . الآية[1] .

لطائف

الأولى ـ قال فى (اللباب) : إن قلت : قال فى أول الآية (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) وقال هنا (وَٱدْعُوهُ) ، وهذا هو عطف الشىء على نفسه ، فما فائدة ذلك ؟

قلت : الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ) أى : ليكن الدعاء مقروناً

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ .

بالتضرع والإخبات . وقوله (وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً) أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى فى بيان شرط صحة الدعاء ، والآية الثانية فى بيان فائدة الدعاء . وقيل : معناه كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالكم كلها ، ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء ، وإن اجتهدتم فيهما .

الثانية ـ فى قوله تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ . . .) الآية ـ ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيه أيضاً تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة ، وهو الإحسان فى القول والعمل . قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .

الثالثة ـ تذكير (قريب) ، لأن (الرحمة) بمعنى الرحم ، أو لأنه صفة لمحذوف ، أى أمر قريب ، أو على تشبيه بـ (فعيل) ، الذى هو بمعنى (مفعول) أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل ، أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره ، فإنه يقال : فلانة قريبة منى لا غير ، وفى المكان وغيره يجوز الوجهان . أو لاكتسابه التذكير من المضاف إليه ، كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه . وقد أوصلوا توجيه تذكيره إلى خمسة عشر وجهاً .

ولما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قدير ـ نبه تعالى على أنه الرزّاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ » أى قدام رحمته التى هى المطر ، فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعه والجنوب تدرّه ، والدبور تفرقه . وهذا كقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ)(١) وقوله سبحانه : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ)(٢) . قال الثعالبىّ : المبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

تنبيه :

قال أبو البقاء : يقرأ (نُشُرًا) بالنون والشين مضمومتين ، وهو جمع ، وفى واحده وجهان أحدهما (نَشُور) مثل صبور وصبر . فعلى هذا يجوز أن يكون (فعول) بمعنى (فاعل) ، أى: ينشر الأرض . ويجوز أن يكون بمعنى (مفعول) كركوب بمعنى مركوب ، أى : منشورة بعد الطى ، أو مُنْشَرَة أى مُحيَاة ، من قولك أنشر الله الميت فهو مُنْشَر ، ويجوز أن يكون جمع ناشر ، مثل بازل وبُزُل . ويقرأ بضم النون وإسكان الشين على تخفيف المضموم . ويقرأ نَشْرًا بفتح النون وإسكان الشين ، وهو مصدر نَشَرَ بعد الطىّ ، أو من قولك أنشر الله الميت فنشر أى عاش. ونصبه على الحال، أى ناشرة ، أو ذات نشر، كما تقول: جاء ركضاً أى راكضاً.

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٨] . . . وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ .

(٢) [٣٠ / الروم / ٤٦] . . . وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ويقرأ : بُشُرًا بالباء وضمتين ، وهو جمع بشير ، مثل قليب وقُلُب . ويقرأ كذلك إلا أنه بسكون الشين على التخفيف . ويقرأ بشرى مثل حُبْلَى ، أى : ذات بشارة ويقرأ بَشْرا بفتح الباء وسكون الشين ، وهو مصدر بَشَرْته ـ أى بالتخفيف ـ إذا بشّرته ـ انتهى ـ .

« حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ » أى حملت «سَحَابًا ثِقَالًا » أى من كثرة ما فيها من الماء «سُقْنَـٰهُ» أى : السحاب . قال الشهاب : السحاب اسم جنس جمعىّ ، يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، كتمر وتمرة . وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ، ويجمع . وأهل اللغة تسميه جمعاً ، فلذا روعي فيـه الوجهان ، فى وصفه وضميره ـ انتهى ـ . أى أرسلناه مع أن طبعه الهبوط « لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ » أى : لأجله ولمنفعته ، أو لإحيـائه أو لسقيه . و (ميت) قرىء مشدداً ومخففاً « فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ » أى الضمير . والضمير فى (به) للبلد « فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى المختلفة الأنواع ، مع أن ماءها واحد . والمراد (بكل الثمرات) المعتادة فى كل بلد تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها . والضمير فى (به) للماء أو للبلد . « كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإخراج « نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ » أى نحيها بعـد صيرورتها رميا يوم القيامة ، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبت منه الأجساد فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الأرض « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى إنما وصفنا ما وصفنا من هذا التمثيل لـكى تتذكروا ، من أحوال الثمرات التى أعيدت إلى حالها بعد تلفها ، أحوالَ الآخرة ، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب .

تنبيه :

من أحكام الآية كما قال الجشمىّ : أنها تدل على عظم نعمه تعالى علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر . وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء . فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده ، لضرب من المصلحة ديناً ودنيا .

ومنها إذا رأى الأرض الطيبة تزرع دون الأرض السبخة ، وأنهـا قطع متجاورات ، علم فساد التقليد ، وأنه يجب أن يتفحص عن الحق حتى يعتقده . ومنها أنه إذا زرع وعلم وجوب حفظه من المبطلات ، علم وجوب حفظ الأعمال الصالحة من المحبطات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

« وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ » أى : الأرض الكريمة التربة « يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ » أى يخرج نباته وافياً حسناً غزير النفع بمشيئته وتيسيره « وَٱلَّذِى خَبُثَ » أى كالحرّة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود . وكالسبخة (بكسر الباء) وهى الأرض ذات الملح « لَا يَخْرُجُ » أى : نباته « إِلَّا نَكِدًا » أى : قليلا ، عديم النفع . يقال : عطاء نكد ، أى قليل لا خير فيه ، وكذا رجل نكد . قال[١] :

فأعطِ ما أعطيتَه طيِّباً   لا خيرَ فى المَنْكُودِ والنَّاكِدِ

وقال :

لا تُنْجِزِ الوَعْدَ إن وَعَدْتَ . وإن   أعطيتَ ، أعطيتَ تافهاً نَكِدا

تنبيه :

قال ابن عباس فى الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر .

وقال قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله ، وانتفع به . كالأرض الطيبة أصابها الغيث ، فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا كما فى الصحيحين[٢] عن أبى موسى قال ، قال رسول الله ﷺ : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب

---

(١) قال فى اللسان : والنَّكد والنَّكْد قلة العطاء ، وأن لا يهنأه من يعطاه . وأنشد البيت :

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢٠ ـ باب فضل من عَلِمَ وعلّم ، حديث ٦٨ وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

أرضاً ، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فَقُه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فَعَلِمَ وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلتُ به .

لطيفة :

قال أبو البقاء : يقرأ (يَخْرُجُ نَبَاتُهُ) بفتح الياء وضم الراء ورفع النبات . ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الياء، على مالم يسم فاعله . ويقرأ بضم الياء وكسر الراء ونصب النبات أى: فيخرج اللهُ أو الماء . ثم قال: ويقرأ (نَكِدًا) بفتح النون وكسر الكاف، وهو حال، ويقرأ بفتحهما على أنه مصدر أى: ذا نكد . ويقرأ بفتح النون وسكون الكاف وهو مصدر أيضاً، وهو لغة ويقرأ يُخرج بضم الياء وكسر الراء ، ونكداً مفعوله .

« كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ » أى : نبين وجوه الحجج ونرددها ونكررها « لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » يعنى كما ضربنا هذا المثل ، كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية ، وحجة بعد حجة ، لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية، وأَنْ جنَّبهم سبيل الضلالة . وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ » اعلم أن الله تعالى ، لما ذكر فى أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت ـ أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما جرى لهم مع أممهم . قال الرازىّ : وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ، ليس من خواص قوم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسلية للنبيّ ﷺ ، وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه تعالى يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا ، والخسارة فى الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه تعالى ، وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منها على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ ، لأنه كان أميًّا ، وما طالع كتاباً ، ولا تلمذ أستاذاً . فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دلّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله تعالى .

ونوح عليه السلام هو ابن لامَكَ بن مَتُوشَالَحَ بن أَخْنوخَ بن يَارَدَ بن مَهْلَئِيل بن قَيْنَانَ ابن أَنُوشَ بن شيث بن آدم عليه السلام . هكذا نسبه ابن إسحق وغير واحد من الأئمة ، وأصله من التوراة .

ومعنى (أرسلنا) بعثنا ، وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس . كذا فى (اللباب) . وإدريس هو أخنوخ ـ فيما يزعمون ، قاله ابن كثير ـ : قال محمد بن إسحق : ولم يلق نبيّ من قومه من الأذى مثل نوح ، إلا نبيّ قتل . وقال يزيد الرقاشى : إنما سمى نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه ـ انتهى ـ . وفيه نظر . لأنه إنما يصح ما ذكره ، لو كان (نوح) لقباً مع وجود اسم له غيره ، واللفظ عربيًّا ، لمناسبة الاشتقاق . أما وهو اسمه الوضعىّ ، واللفظ غير عربىّ ، فلا . وفى كتاب (تأويل الأسماء الواقعة فى الكتب السالفة) أن نوحاً معناه راحة أو سلوان ، فتثبّتْ .

وكان ، قبل بعثة نوح عليه السلام ، قوم عرفوا الله وعبدوه خصوصاً فى عائلة شيث عليه السلام ، ثم فسد نسل شيث أيضاً ، واختلطوا مع الأشرار ، وامتلأت الأرض من جرائمهم ، وزاغوا عن الصراط المستقيم ، وصاروا يعبدون الأوثان والأصنام ، فأرسل الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام ، ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودًّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا . فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه ــ وله الحمد والمنة ــ رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له « فَقَالَ يَٰقَوْمِ » أى : الذين حقهم أن يشاركونى فى كمالاتى « ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ » أى : مستحق للعبادة فى الوجود « غَيْرُهُۥٓ » قرئ بالحركات الثلاث ، فالرفع صفة لإله ، باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية ، وبالجر على اللفظ ، وبالنصب على الاستثناء ، وحكم (غير) حكم الاسم الواقع بعد (إلا) ، أى : ما لكم من إله إلا إياه « إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى: إن تركتم عبادته أو عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » هو يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم ، وهو الطوفان . ووصف اليوم بـ (العظم) لبيان عظم ما يقع فيه ، وتكميل الإنذار .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله (ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ) قلت : الأولى ــ بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية ــ بيانٌ للداعى إلى عبادته ، لأنه هو المحذور عقابه ، دون ما كانوا يعبدونه من دون الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

« قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ » أى : الأشراف ، أو الجماعة ، أو ذوو الشارة والتجمع « إِنَّا لَنَرَىٰكَ » أى : بأمرك بعبادة الله ، وترك عبادة غيره وتخويف العـذاب على ترك عبادةالله ، وعلى عبادة غيره « فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى : فى ذهاب عن طريق الحق والصواب، لكونه خلاف ما وجدنا عليه آباءنا . قال ابن كثير : وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله : وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ(١) . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

« قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى » أى : ما أوحى إلىّ فى الأوقات المتطاولة ، أو فى المعانى المختلفة ، من الأوامر والنواهى ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والنذائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه ، إدريس ، فهذا نكتة جمع (الرسالات) ، وإلا فرسالة كل نبىّ واحدة ، وهى مصدر ، والأصل فيه أن لا يجمع ، فجمع لِمَا ذُكِرَ

---

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٢] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

« وَأَنصَحُ لَكُمْ » وأقصد صلاحكم بإخلاص « وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا من طريق الوحى ، أشياء لا علم لكم بها ، أوأعلم من قدرته الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه . قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلّغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات ، كما جاء فى صحيح مسلم [1] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جميعاً : أيها الناس ! إنكم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحتَ . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

---

(١) من حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبىّ ﷺ . أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) وهذا نصه ، فيما يتعلق بخطبته :

خطب الناس وقال « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شىء من أمر الجاهلية ، تحت قدمىّ موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضع ربانا . ربا العباس بن عبد المطلب . فإنه موضوع كله . فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرّح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتاب الله . وأنتم تُسألون عنى . فما أنتم قائلون ؟ » .

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس « اللهم ! اشهد. اللهم ! اشهد » ثلاث مرات ...

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ » أى : موعظة « مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى : من العذاب إن لم تؤمنوا « وَلِتَتَّقُوا۟ » أى : وليوجد منكم التقوى ، وهى الخشية بسبب الإنذار «وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» أى: ولترحموا بالتقوى إن وُجدتْ منكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ)

«فَكَذَّبُوهُ» أى أصروا على تكذيبه مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل « فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ » أى عن الحق، فلم يستبصروا الحق ولم يستنيروا بنور الوحى الذى هو كالشمس، ولا بظهور الآيات ، ولا بآية الطوفان المغرق لهم ، بعد إنذاره به ، على تكذيبهم . والعمى ذهاب بصر العينين ، وبصر القلب . يقال : عَمِى فهو أعمى وعَمٍ . كما فى القاموس .

وكان من أمر نوح عليه السلام ، أن قومه ، لما أعرضوا عن الإيمان ، وتمادوا على العصيان ، وعبادة الأوثان ، وطال عليه أمرهم ، شكاهم إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه أنه (لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ)(١) وهم ناس قليل ، فحينئذ دعا عليهم فقال : وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا(٢) . فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة ، وصار قومه يسخرون منه ، ويقولون : يا نوح! قد صرت نجارا بعد النبوة! فقال: إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ

(١) [١١ / هود / ٣٦] ونصها : وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(١) . فلما فرغ من صنع السفينة ، أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كلّ زوجين اثنين من أنواع الحيوانات ، حتى لا ينقطع نسلها . وحشرها إليه من كل جهة . ولما رأى فوران التنور ، وكان هو العلامة بينه وبين الله تعالى فى ابتداء الطوفان ، ركب فى الفلك هو ومن آمن معه ، وحمل من كلٍّ زوجين اثنين . وأمر الله تعالى السماء أن تمطر . والأرض أن تتفجر عيوناً ، وارتفع الماء فى هـذا الطوفان فوق رؤوس الجبال ، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان ، ولم يبق حيًّا غـير أهل السفينة .

وفى التوراة : أن الأمطار هطلت أربعين يوماً وليلة دون انقطاع ، حتى غمرت المياه وجهَ الأرض ، وَعَلَتْ خمسة عشر ذراعا فوق الجبال الشامخة ، وهلك بالطوفان كل جسم حىّ . ثم أرسل الله ريحاً عاصفة ، فانقطعت الأمطار ونقصت المياه شيئاً فشيئاً ، وقضى نوح سنة كاملة داخل الفلك . وحين خروجه منه بنى مذبحاً للقرابين ، شكراً لله تعالى ، وتناسلت الناس من أولاد نوح الثلاثة : سامٍ وحامٍ ويافث . وتوطن سام بلاد آسية ، وأقام حام بنواحى إفريقية ، وسكن يافث الديار الأوروبية ـ والله أعلم ـ .

تنبيه :

قال الجشمىّ : فى الآيات فوائد . منها : أن نوحاً دعاهم أولًا إلى التوحيـد . والرسولُ وإن حمل الشرائع ، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد . ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد، فلذلك بدأ به. وجميع الرسل بدءوا بالتوحيد ثم بالشرائع. ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام ، بمكة ، فى التوحيد ـ انتهى ـ .

وقال ابن كثير : بين تعالى فى هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله

(١) [١١/هود/٣٨و٣٩] ونصهما: وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ ...

والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، كقوله : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا(١) . الآية ـ وهذه سنة الله فى عباده ، فى الدنيا والآخرة ، أن العاقبة للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين . قال مالك عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٥] ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

« وَإِلَىٰ عَادٍ » متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى (أَرْسَلْنَا) فى قصة نوح . أى وأرسلنا إلى عادٍ ، وهى قبيلة كانت تعبد الأصنام ، وكانت ذات بسطة وقوة ، قهروا الناس بفضل القوة.

قال الشهاب: (عاد) اسم أبيهم سميت به القبيلة أو الحىّ فيجوز صرفه وعدمه ، كثمود ـ كما ذكره سيبويه ـ .

قال الليث : وعاد الأولى ، هم عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله.

قال زهير(٢) :

وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا

---

(١) [٤٠ / غافر [٥١]... وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ .

(٢) صدر البيت : * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَهْلَكَ تُبَّعًا *

من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هل يرى الناسُ ما أرى ... من الأمرِ ، أو يَبْدُو لهم ما بَدَا لِيَا =

وأما عاد الأخيرة ، فهو بنو تميم ، ينزلون رمال عالج (١) .

وفى كتاب الأنساب : عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، كان يعبد القمر ، ويقال إنه رأى من صلبه وأولاد أولاده أربعة آلاف، وأنه نكح ألف جارية، وكانت بلادهم إرم المذكورة فى القرآن ، وهى من عُمان إلى حضرموت . ومن أولاده شدّاد بن عاد صاحب المدينة المذكورة ـ كذا فى تاج العروس ـ .

وقال ابن عرفة : قوم عاد كانت منازلهم فى الرمال وهى الأحقاف .

وقال ابن إسحاق : الأحقاف رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت .

وقوله تعالى : « أَخَاهُمْ هُودًا » أى أخاهم فى النسب ، لأنه منهم ، فى قول النسابين . وقيل: الناس كلهم إخوة فى النسب، لأنهم ولد آدم وحواء . فالمراد صاحبهم، وواحد فى جملتهم،

= يقول : هل يرى الناس من الرشد ماأرى ، أى يظهر لهم مايظهر لى أن الناس يموتون ؟

وفى بيت الشاهد :

تُبّـع : ملك من ملوك حمير . وعاد هو أبو لقمان . وعاديا أبو السموأل ، وكان له حصن بتيماءَ يقال له الأبلق ، وهو الذى استودعه امرؤ القيس أدراعه .

(١) فى معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩ طبعة بيروت) .

عالج رملة بالبادية مسماة بهذا الاسم . قال أبو عبيد الله السكونىّ : عالج رمال بين فَيْد والقُرَيات ينزلها بنو بحتر من طيئ وهى متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها ولا يقدر أحد عليهم فيه ، وهومسيرة أربع ليال ، وفيه برك إذا سالت الأودية امتلأت .

وذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوَبار .

قال ابن السكيت : إذا أكل البعير العَلجَانَ ، وهو نبت ، قيل : بعير عالج . وهو شجر يشبه العَلندَى وأغصانها صلبة ، الواحدة علجانة . فيجوز أن يكون هذا الموضع سمى بذلك تشبيهاً له بالبعير العالج . أو يكون لصلوبته يعالج المشى فيه أى يمارس .

كما يقال : ياأخا العرب ، للواحد منهم . وإنما أرسل منهم ، لأنهم أفهم لقوله من قول غيره ، وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته وشرف أصله ، وأرغب فى اقتفائه .

قال الشهاب: اشتهر أن هوداً عربىّ ، وظاهر كلام سيبويه أنه أعجمىّ، ويشهدله ماقيل: إن أول العرب يعرب ـ انتهى ـ .

وهود هو ـ على ما قال ابن إسحق ـ ابن شالخ بن أرنخشد بن سام بن نوح . ويقالغير ذلك ـ والله أعلم ـ .

وروى ابن إسحق عن عامر بن واثلة ، قال: سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مَدَرَةٌ حمراء، ذاأراكٍ وسدرٍ كثير، بناحية كذاوكذا، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ، ياأمير المؤمنين ! والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه ! قال : لا، ولكنى قد حُدِّثت عنه . فقال الحضرمىّ. وماشأنه ياأمير المؤمنين؟ قال: فيهقبرهود عليه السلام ـ ورواه ابن جرير[1] ـ . قال ابن كثير : وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك . وقال : إنهم كانوا يأوون إلى العُمُد فى البر ، كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ[2] . وذلك لشدةبأسهم وقوتهم، كماقال تعالى: فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[3].ولذادعاهم هودعليهالسلام إلىعبادة الله وحده، لاشريكله، وإلى طاعته وتقواه ، كما قال تعالى « قَالَ » أى : هود « يَاقَوْمِ » أى : الذين حقهم أن يكونوامثلى « اعْبُدُوا اللَّهَ » أى : وحده « مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى: تخافون عذابه .

---

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٣ من التفسير .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٦ـ٨] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ » أى: فى خفة حلم، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ؛ وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها « وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ » أى : فى ادعائك الرسالة ، إذ استبعدوا أن يرسل الله أحداً من أهل الأرض إليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى : إليكم ، لإصلاح أمر نشأتيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ » أى : ناصح لكم فيما آمركم به من عبادته تعالى وحده ، وأمين على تبليغ الرسالة ، لا أكذب فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ، فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى :

أيامَ الله ولقاءه، أى : لاتعجبوا واحمدوا الله على ذلكم « وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » أى: خلفتموهم فى مساكنهم، أو فى الأرض بأن جعلكم ملوكاً بعدهم، فإن شدّاد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شِحْر عُمَان ـ كذا قالوا ـ « وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً » أى قامة وقوة « فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ » أى: فى استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وماسواها من عطاياه، لتخصصوه بالعبادة « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تفوزون بالفلاح .

تنبيهان

الأول قال الزمخشرىّ : فى إجابة الأنبياء عليهم السلام، مَنْ نَسَبَهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ أدب حسن، وخلق عظيم . وحكايةُ الله عز وجل ذلك، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم، على ما يكون منهم ـ انتهى ـ .

وزاد القاضى : إن فى ذلك كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة قال : وهكذا ينبغى لكل ناصح ـ انتهى ـ .

الثانى ـ لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين المولعين بنقل الغرائب، بدون وضعها على محك النظر والنقد، من المبالغة فى طول قوم عاد، وضخامة أجسامهم، وأن أطولهم كان مائة ذراع، وأقصرهم كان ستين ذراعاً، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقلىّ ولا نقلىّ، وهو وهْم. وأما قوله جل شأنه مخاطباًلقوم عاد (وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً) فإنه لايدل على ما أرادوا، وإنما يدل على عظم أجسامهم وقوتهم وشدتها . وهذا من الأمور المعتادة . فإن الأمم ليست متساويةفىضخامة الجسم وطوله وقوته، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً . ومما يدل على أن أجسام من سلف كأجسامنا، لاتتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً، مساكنُ ثمود

قوم صالح الباقية ، وآثارهم البادية . ومثله ، بل أعرق منه فى الوهم ، ماينقلونه فى وصف عوج ابن عنق الجبار ملك بيسان ، من أنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها . والحال أن الشمس كوكب ، لا مزاج له من حر أو برد ، وإنمـا حرارتها من انعكاس شعاعها ، بمقابلة سطح الأرض والهواء ، فشدة حرارتها فى الأرض ، وتتناقص الحرارة فيما علا عنها بمقدار الارتفاع .

وقد أنـكر العلامة ابن خلدون جميع ذلك فى (مقدمة تاريخه) ، وأبان أن الذى أدخل الوهم على الناس فى طول الأقدمين هو ما يشاهدونه من بعض آثارهم الجسيمة ، ومصانعهم العظيمة ، كأهرام مصر وإيوان كسرى ، فيتخيلون لأصحابها أجساماً تناسب ذلك . والحال أن عظم هـذه المصانع والآثار فى أمة من الأمم ناشىء عن عظم ذواتها ، واتساع ممالـكها ، وقوة شوكتها ، ونماء ثروتها ، واستعانتها بالماهرين فى فنّ جرّ الأثقال ، فإنه يقوم بحمل ما تعجز القوى البشرية عن عشر معشاره . وأنـكر أيضاً ما ينقلون من قصة جنة عاد ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، وأنها بنيت فى مدة ثلاثمائة سنة فى صحارى عدن . بناها شداد بن عاد حيث سمع وصف الجنة . وأنها لماتم بناؤها ، أرسل الله على أهلها صيحة، فهلـكوا كلهم،وأن اسمها (إرم ذات العماد) وأنها المشار إليها بقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ [1] * ويزعمون أنها لم تزل باقية فى بلاد اليمن ، وإنما حجبت عن الأبصار . وحيث إن ذلك لم يُرو عن الصادق الأمين فلا نعول عليه ، ولا نلتفت إليه . وأغلب المولعين بنقل مثل هذه الغرائب المصنعة، هم المؤرخون الذين يعتمدون على أخبار بنى إسرائيل ، ويقلدونهم من غير برهان ودليل ، والله الهادى إلى سواء السبيل ـ كذا أفاده بعض المحققين ـ .

ثم أخبر تعالى عن تمرد عاد وطغيانهم وإنـكارهم على هود عليه السلام ، بقوله سبحانه:

(١) [٨٩ / الفجر / ٦ ـ ٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

«قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ» أى لنخصه بالعبادة «وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ» أى من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) «إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ» أى فى الإخبار بنزول العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ، فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ)

«قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ» أى عذاب . والرجس والرجز بمعنى ، حتى قيل إن أحدهما مبدل من الآخر ، كالأسد والأزد . وأصل معناه الاضطراب . يقال: رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت ، وهم فى مرجوسة من أمرهم ، أى فى اختلاط والتباس، ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حلّ به. وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب مجاز، قال: لأنه حقيقة فى الشيء القذر، فاستعير لجزائهم. وظاهر اللغة أنه حقيقة. ووجه التعبير بالمضىّ عما سيقع، تنزيل المتوقع كالواقع كما فى (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ)(١) «وَغَضَبٌ» أى سخط لإشراككم معه من هو فى غاية النقص ، فى أعلى كمالاته التى هى الإلهية «أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ» أى فى أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات،

---

(١) [١٦ / النحل / ١] ونصها: أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومُحالٌ وجوده . وهذا كقوله تعالى : مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ[1] كذا في الكشاف ــ .

قال الشهاب : جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة ، كما يقال لما لا يليق : ما هو إلا مجرد اسم . فالمعنى : أتجادلونني في مسميات لها أسماء لا تليق بها ، فتوجه الذم للتسمية ، الخالية عن المعنى . والضمير حينئذ راجع لـ (أسماء) وهي المفعول الأول للتسمية، والثاني آلهة، ولو عكس لزم الاستخدام ــ انتهى ــ .

وقوله تعالى : «مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ »أي حجةودليل على هذه التسمية، لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكل ، وإنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى ، إما بإنزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل ، فتحقق بطلان ما هم عليه .

قال الجشميّ : دلت الآية على فساد التقليد، حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم . وتدل على أن المعارف مكتسبة . وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه. ويدل قوله (أَتُجَٰدِلُونَنِي) على أن المبطل مذموم في جداله ، والواجب عليه النظر ليعرف الحق . انتهى .

وقال القاضي : بين تعالى أن منتهى حجتهم وسندهم ، أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقيق المسمى، وإسنادَ الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله، إظهاراً لغاية جهالتهم، وفرط غباوتهم .

« فَٱنتَظِرُوٓاْ »أي: نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ)، لأنه وضح الحق ، وأنتم مصرّون على العناد « إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ » أي : لما يحل بكم .

قال المهايميّ : فجاء منتظرهم بحيث لا ينجو منه ، بمجرى العادة ، أحد، وجعل من قبيل الريح التي تتقدم الأمطار ، لكفرهم برياح الإرسال .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] ونصها : إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٢] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ)

« فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ معَهُ » أى: من آمن به، على خرق العادة « بِرَحْمَةٍ مِّنَّا » ليدل على رحمتنا عليهم فى الآخرة « وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا » أى استأصلناهم . قال الشهاب : قطع الدابر ، كناية عن الاستئصال إلى إهلاك الجميع ، لأن المعتاد فى الآفة إذا أصابت الآخر أن تمرّ على غيره، والشىء إذا امتد أصله أخذ برمته. والدابر بمعنى الآخر «وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ » عطف على (كَذَّبُواْ) داخل معه فى حكم الصلة .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما فائدة نفى الإيمان عنهم فى قوله : (وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ) مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم ، كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين . انتهى .

قال الطيبىّ : يعنى إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين ، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير ، تزيد رغبته فيه ، ويعظم قدره عنده ـ انتهى ـ .

قال ابن كثير : قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم (١) *مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٢). كما قال فى الآية الأخرى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٣) لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل

---

(١) يشير إلى [٥١ / الذاريات / ٤١] وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٤٢] .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٦ـ ٨] .

منهم ، فترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتثلغ رأسه حتى تُبينَهُ من جثته .

وقال محمد بن إسحق[١] : كانت منازل عاد وجماعتهم ، حين بعث الله فيهم هودا ، الأحقافَ قال : و (الأحقاف) الرملُ ، فيما بين عُمَان إلى حضرموت ، فاليمن كله .

وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض كلها . وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله . وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له (صُدَاء) وصنم يقال له (صَمُود) وصنم يقال له (الهباء) : فبعث الله إليهم هودا ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا ، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفّوا عن ظلم الناس . لم يأمرهم فيما يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك . فأبوا عليه وكذبوه . وقالوا[٢] : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) .

واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم . وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له (مرثد بن سعد بن عفير) وكان يكتم إيمانه . فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، وتجبّروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود فقال[٣] : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) .

(قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ)[٤] أى : ما هذا الذى جئتنا به إلا

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٤ من تفسير ابن جرير الطبرىّ .

(٢) [٤١ / فصلت ١٥] ونصها : فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٢٨ ـ ١٣١] .

(٤) [١١ / هود / ٥٣ ـ ٥٥] .

جنون أصابك به بعضُ آلهتنا هذه التي تعيب . (قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) إلى قوله[1] (صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

فلما فعلوا ذلك ، أمسك الله عنهم المطر من السماء ثلاث سنين ، فيما يزعمون ـ حتى جهدهم ذلك .

وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد ، فطلبوا إلى الله الفرج منه ، كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة ، مسلمهم ومشركهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفةٌ أديانهم ، وكلهم معظِّم لمكة ، يعرف حرمتها ومكانها من الله .

قال ابن إسحق : وكان البيت فى ذلك الزمان معروفا مكانه ، والحرم قائم فيما يذكرون ، وأهل مكة يومئذ العماليق ـ وإنما سموا (العماليق) لأن أباهم (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) ـ وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة ، فيما يزعمون ، رجلا يقال له معاوية بن بكر ، وكان أبوه حيًّا فى ذلك الزمان ، ولكنه كان قد كبر ، وكان ابنه يرأس قومه ، وكان السؤدد والشرف من العماليق ، فيما يزعمون ، فى أهل ذلك البيت .

وكانت أم معاوية بن بكر ، كلهدة ابنة الخبيرىّ ، رجل من عاد . فلما قحط[2] المطر عن عاد وجُهِدوا قالوا : جهِّزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم ، فإنكم قد هلكتم ! فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزّال بن هزيل ، وعتيل بن صُدّ بن عاد الأكبر ، ومرثد بن سعد بن عفير ، وكان مسلما يكتم إسلامه ، وجُلْهُمة بن الخبيرىّ ، خال معاوية بن بكر أخو أمه .

---

(١) [١١ / هود / ٥٦] إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ، إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(٢) قَحَطَ المطر وقُحِطَ : احتبس .

ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدّ بن عاد الأكبر . فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه ، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلا . فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم . وكانوا أخواله وصِهْرَه .

فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر ، أقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية بن بكر ـ وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا .

فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يتعوّذون بهم من البلاء الذى أصابهم ، شق ذلك عليه ، فقال : هلك أخوالى وأصهارى ! وهؤلاء مقيمون عندى ، وهم ضيفى نازلون علىّ ! والله ما أدرى كيف أصنع بهم ؟ أستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنوا أنه ضِيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جَهْدا وعطشا ! ! أو كما قال :

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شعرا نغنّيهم به ، لا يدرون من قاله ، لعل ذلك أن يحركهم ! .

فقال معاوية بن بكر ، حين أشارتا عليه بذلك :

ألا ياقَيْلَ ، ويحك ! قم فهَيْنِمْ ... لعل الله يُصبحُنا غَماما (١)
فيسقى أرضَ عادٍ ، إنّ عادًا ... قدَاُمْسَوْا لا يُبينون الكلاما (٢)
من العطش الشديد، فليس نَرْجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلام
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهمُ عَيَامَى (٣)

(١) القيل معناه السيد ، يطلق على كل من ملك حِمْيَر . ويحك كلمة ترحم . هينم أمر من (الهينمة) وهو الصوت الخفىّ ، والمراد ادعُ .

(٢) قدَ اُمْسَوْا بنقل حركة الهمزة للدال الساكنة . لا يبينون الكلاما ، أى ضعفوا ومرضوا من القحط . اهـ من (العناية) .

(٣) أعام القوم هلكت إبلهم فلم يجدوا لبنا . والعيمة شدة شهوة اللبن . وعام القوم قل لبنهم من القحط . ورجل عيمان وامرأة عيمى والجمع عيام وعيامى .

وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعادىّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهارَكُم وليلَكم التَّماما
فقُبِّح وفدُكم من وفدِ قومٍ ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

فلما قال معاوية ذلك الشعر ، غنتهم به الجرادتان . فلما سمع القوم ماغنتّا به ، قال بعضهم لبعض : ياقوم ، إنما بعثكم قومكم يتعوذون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم ! .

فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله لا تُسْقَوْن بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سقيتم ! فأظهر إسلامه عند ذلك . فقال لهم جُلْهمة بن الخبيرىّ خال معاوية بن بكر ، حين سمع قوله ، وعرف أنه قد اتبع دين هود وآمن به :

أبا سعدٍ فإنك من قبيل ذوى كرم وأمُّك من ثمودِ
فإنّا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريدُ
أتأمرنا لنترك دين رِفدٍ ورَمْلَ وآلَ صُدّ والعَبُودِ
ونتركَ دين آباء كرام ذوى رأى، ونتّبعَ دينَ هودِ

ثم قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر : احبسا عنا مرثد بن سعد . فلا يقدمن معنا مكة . فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا !

ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد . فلما ولَّوْا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها ، قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا له . فلما انتهى إليهم، قام يدعو الله بمكة ، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون ، يقول : اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعوك به وفدُ عاد .

وكان قَيل بن عنز رأس وفد عاد .

وقال وفد عاد : اللهم أعط قَيْلا ما سألك ، واجعل سؤلنا مع سؤله .

وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا ، لقمانُ بن عاد ، وكان سيد عاد .

حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى ، فأعطنى سؤلى. وقال قَيل بن عنز حين دعا : يا إلٰهنا ، إن كان هود صادقاً فاسقنا ، فإنا قد هلكنا .

فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثا : بيضاء وحمراء وسوداء . ثم ناداه مناد من السحاب : يا قَيل ! اختر لنفسك ولقومك من هـذه السحائب . فقال : اخترت السحابة السوداء ، فإنها أكثر السحاب ماء . فناداه مناد : اخترتَ رَمَادًا رِمْدِدًا[١] ، لا تُبقى من آل عاد أحدا، لا والدا تترك ولا ولدا، إلا جعلته هَمِدا[٢]، إلا بنى اللُّوذِيَّة المُهَدَّى ـ وبنو اللوذية، بنو لقيم بن هزّال بن هزيلة بن بكر ، وكانوا سكانا بمكة مع أخوالهم ، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم ، فهم عادٌ الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد ـ وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون ، التى اختارها قَيْل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من واد يقال له (المغيث) .

فلما رأوها استبشروا بها وقالوا (هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) يقول الله(بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)[٣] أى كل شىء أُمِرَتْ به.

وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها (مَهْدَد) فلما تيقنت ما فيها صاحت ثم صَعِقَتْ . فلما أفاقت قالوا : ماذا رأيت يا مهدد ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها كشُهُبِ النار ، أمامها رجال يقودونها !

ف(سَخَّرَهَا) الله (عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)[٤]، كما قال الله ـ والحسوم الدائمة ـ

(١) رماد رِمْدِد أى متناه فى الاحتراق والدقة .

(٢) هامد وَهَمِد وهميد : ميت هالك .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٤و٢٥] فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا . . . فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

(٤) [٦٩ / الحاقة / ٧] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك. فاعتزل هود ، فيما ذكر لى، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح ، إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس .

وإنها لتمرّ على عاد بالظّعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه ، فنزلوا عليه .

فبينما هم عنده ، إذ أقبل رجل على ناقة له فى ليـلة مقمرة ، مُمْسَى ثالثة فى مُصاب عاد . فأخبرهم الخبر ، فقالوا له : أين فارقتَ هودًا وأصحابه ؟ قال : فارقتهم بساحل البحر .

فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به ، فقالت هزيلة بنت بكر : صدق ، ورب الكعبة .

قال ابن كثير : وهو سياق غريب ، فيه فوائد كثيرة . وقد قال الله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[1] .

وروى الإمام أحمد[2] عن أبى وائل عن الحارث البكرىّ قال : خرجت أشكو العلاء ابن الحضرمىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بنى تميم منقطَع بها، فقالت لى : يا عبد الله ! إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها، فأتيت المدينة. فإذا المسجد غاصّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً . فجلست ، فدخل منزله ـ أو قال رحله ـ فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت فسلمت ، فقال : هل كان بينكم وبين تميم شىء ؟ قلت : نعم. قال وكانت لنا الدبرة عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك ، وهاهى بالباب ، فأذن لها ، فدخلتْ . فقلتُ : يا رسول الله ! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً ، فاجعل الدهنا . فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يارسول الله ! فإلى أين تضطر

(١) [١١ / هود ٥٨] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

مضرك ؟ قال قلت : إن مثلى مثل ما قال الأول : (معزاء حملت حتفها) حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً . أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ! قال هيه ، وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ، قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قَيْل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر ، خرج جبال تهامة فنادى : اللهم ! إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم ! اسق عاداً ما كنت تسقيه ! فمرت به سحابات سود ، فنودى منها : اختَرْ ؛ فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودى منها : خذها رماداً رمددا ، لا تبقى من عاد أحداً . قال : فما بلغنى أنه بُعِث عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا ، حتى هلكوا . قال أبو وائل : وصدق . قال : فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد ـ هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند ، ورواه الترمذى والنسائىّ وابن ماجة وابن جرير[(١)] ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ اللَّهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«وَإِلَىٰ ثَمُودَ» أى : وأرسلنا إلى ثمود . وهى قبيلة أخرى من العرب سموا باسم جدهم ثمود ابن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عابر . وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة ، قبل إبراهيم الخليل عليه السلام . وكانت ثمود بعد عاد ،

---

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٥ من التفسير .

ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله . وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع ـ نقله ابن كثير ـ .

وثمود كصبور ، وتضم ثاؤه ، وقرئ به أيضاً ، وقرئ بصرفه ومنعه . أما الثانى فلأنه اسم القبيلة ، ففيه العلمية والتأنيث . وأما الأول فلأنه اسم للحىّ ، أو لأنه لما كان اسمها الجد ، أو القليل من الماء كان مصروفاً ، لأنه علم مذكر ، أو اسم جنس ، فبعد النقل حكى أصله . كذا فى (العناية) .

« أَخَاهُمْ صَٰلِحًا » هو ـ على ما قاله علماء التفسير والنسب ـ : ابن عبيد بن آسف ابن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود « قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ » دعاهم عليه الصلاة والسلام بما يدعو به الرسل أجمعون ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ[1] . وقال : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ[2] « قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى حجة ظاهرة للدلالة على صحة نبوتى « هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً » أى خلقها حجة وعلامةً على رسالتى . وأضافها إليه تفضيلاً وتخصيصاً . كـ (بيت الله) ؛ أو لأنه لا مالك لها غيره تعالى ، أو لأنها حجته عليهم فى أنهم ، إن حفظوها وأطلقوا لها رعيها وسقياها حفظوا ، وإن غدروا بها أُهلكوا ، ولذا قال : « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ » أى التى لا يملكها غيره ، العشبَ « وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ » أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تُريبوها بشىء من الأذى ، ولو تأذت منها دوابّكم ، إكراماً لآية الله « فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : فى الدارين لجرأتكم على آيات الله .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] . . . فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ، فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ » قال الشهاب : لم يقل: خلفاء عاد ، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً « وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى : أنزلكم فى أرض الحجر. والمباءة المنزل. « تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا » أى : تبنون فى سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف . فـ (من) بمعنى (فى) ، كقوله تعالى (نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ)(١) . أو هى ابتدائية ، أو تبعيضية ، أى: تعملون القصور من مادة مأخوذة من السهل وهى الطين . والسهل خلاف الحزْن، وهو موضع الحجارة والجبال « وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا » أى: لتسكنوها أيام الشتاء . والجبال إما مفعول ثان بتضمين (نحَتَ) معنى (اتخذ) ، أو منصوب بنزع الخافض، على ما جاء فى الآية الأخرى : والنحت معروف فى كل صلب . ومضارعه مكسور الحاء . وقرأ الحسن بالفتح لحرف الحلق : وقرئ تنحاتون بالإشباع ، كـ (ينباع) ، أفاده الشهاب.

بحث الإشباع فى وسط الكلمة

أقول : بهذه القراءة يستدل على ثبوت الإشباع فى وسط الكلمة لغة . ومثله (ينباع) المذكورة ، وهى من قول عنترة(٢) :

يَنْباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ

---

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] ونصها : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

(٢) استشهد به فى اللسان (ج ٨ ص ٣٤٥ بيروت) قال : =

أى ينبع العرق من خلف أذن ناقة غضوب ، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن ، فتولّدت من إشباعها ألف . ومثله قولنا (آمين) ، والأصل (أمين) فأشبعت الفتحة ، فتولدت من إشباعها ألف ـ قاله الزوزنىّ ـ .

= فأما قول عنترة :

ينباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ   زَيَّافَةٍ ، مثل الفَنِيقِ المُـكْدَمِ

فإنما أراد (ينبع) فأشبع فتحة الياء للضرورة ، فنشأت بعدها (ألف) .

والبيت الرابع والثلاثون من معلقته التى مطلعها :

هل غادر الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ   أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

ومعنى البيت كما قاله التبريزىّ :

قال ابن الأعرابىّ : ينباع ، ينفعل . من (باع يبوع) إذا مرّ مرًّا لَيِّنًا ، فيه تَلَوٍّ . كقول الآخر :

* ثمتَ ينباعُ انبياعَ الشُّجَاعْ *

وأنكر أن يكون الأصل فيه (ينبع) .

وقال : ينبع : يخرج كما ينبع الماء من الأرض ، ولم يُرِدْ هذا . إنما أراد السَّيلان وتلوّيه على رقبتها كتلوّى الحية .

وقال غيره (كقول اللسان) : هو من (نبع ينبع) ثم أشبع الفتحة فصارت ألفا .

والذفريان الحَيْدَان الناتئان من الأذن ومنتهى الشعر . وأول مايعرق من البعير الذفريان .

والغضوب والغضبى واحد . وغضوب للتكثير .

والجَسْرَة : الماضية فى سيرها ، وقيل : الجسرة : الضخمة القوية .

والزيافة المسرعة .

والفنيق الفحل .

والمكدم بمعنى المكدَّم ، والكدم العضّ .

ومثله (استكان) على القول بأنه افتعل من (السكون) فزيدت الألف لإشباع الفتحة. كما فى (شرح الشافية).

ومنه (عقْرَاب) ـ قال فى (تاج العروس) : سمع العَقْرَاب فى اسم الجنس. قال[1] :

أعوذ بالله من العَقْرَابِ الشائلاتِ عُقَدَ الأذْنَابِ

قال : وعند أهل الصرف ألف (عقراب) للإشباع ، لفقدان (فَعلال) بالفتح ـ انتهى ـ.

وقوله تعالى: « فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ » أى نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله « وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » بالمعاصى وعبادة غيره تعالى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ)

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » أى عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة والكلمات الناصحة « مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا » أى استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم ، إذ لم يكن لهم استكبار يمنعهم من الانقياد « لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ » بدل من (الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) بإعادة الجار ، بدل الكل ، إن كان الضمير لقومه ، فيدل على أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين. وبدل البعض إن كان الضمير (لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) فيدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين. قال أبو السعود : والأول هو الوجه ، إذ لا داعى إلى توجيه الخطاب أولاً إلى جميع المستضعفين ، مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم. على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين ، أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم « أَتَعْلَمُونَ » أى من آية الناقة ومن الكلمات الناصحة « أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ » إليكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له.

(١) لم أهتد إليه فى كتاب. فمن كان على بينة منه ، فليدلّنى عليه.

وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك ، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر ، بل عدلوا عنه ، كما قال تعالى : « قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ » عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى)، مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذى تنبىء عنه الجملة الاسمية ، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه ، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به . أفاده أبو السعود .

فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقى السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب ، تنبيها على أنه هو الذى ينبغى أن يسأل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٦] (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

«قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ» وإنما لم يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، إظهاراً لمخالفتهم إياهم ، ورداً لمقالتهم .

قال فى (الانتصاف) : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبوا ذلك حذرا مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ [1]، فأثبت إرساله تهكما ، وليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين ، المؤمنين والمكذبين ، عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة ، احتياطاً للكفر ، وغلواً فى الإصرار ـ انتهى ـ ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه فى إصابة العذاب عن مسها بالسوء . كما قال تعالى :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« فَعَقَرُوا النَّاقَةَ » أى نحروها. والعقر: الجرح، وأثر كالحز فى قوائم الفرس والإبل. يقال : عقره بالسيف يعقره بالكسر ، وعقّره تعقيراً ، قطع قوائمه بالسيف وهو قائم .

قال الأزهرىّ : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يجعل النحر عقراً ، لأن ناحر الإبل يعقرها : ثم ينحرها .

وفى اللسان : عَقَر الناقة وعقَّرها ، إذا فعل بها ذلك حتى تسقط ، فينحرها مستمكناً منها ، أى : لئلا تشرد عند النحر .

وفى الحديث[1] : لا عقر فى الإسلام .

قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ، أى ينحرونها ويقولون إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته ، فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . كذا فى (تاج العروس) ـ .

وأسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم . كذا فى (الكشاف) .

قال أبو السعود : وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه، بحيث أصابت غائلته الكل، ما لا يخفى.

« وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى استكبروا عن امتثاله ، وهو عبادته وحده ، أو الحذر من مسّ الناقة بسوء . وزادوا فى الاستهزاء « وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى : من العذاب على عقر الناقة. والأمر للاستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى ذلك ، ولذا قالوا : « إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى فإن الله ينصر رسله على أعدائه .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٠ ـ كتاب الجنائز ، ٧٠ ـ باب كراهية الذبح عند القبر ، حديث رقم ٣٢٢٢

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أى: الصيحة التى يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبدل حركتها عند نزع الروح « فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ » فى بلادهم أو مساكنهم « جَٰثِمِينَ » أى : ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها . والصيحة والزلزلة من آثار الريح المرسلة التى كانت رحمة فانقلبت عذاباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ)

« فَتَوَلَّىٰ » أى فأعرض صالح « عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى » المتضمنة لتخويف العذاب عنه « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » فأمرتكم بكل خير ، ونهيتكم عن كل شر « وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ » أى من الرسل والأنبياء والعلماء لمخالفتهم أهويتكم. والظاهر أن صالحاً عليه السلام كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم، بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولِّىَ مُغْتَمٍّ متحسر على ما فاته من إيمانهم ، يتحزن لهم بقوله (يَٰقَوْمِ . . .) إلخ كذا فى (الكشاف) . أو خاطبهم خطاب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر حيث قال(١) :

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٧ ـ باب ما جاء فى عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ ونصه :

عن ابن عمر قال: اطلع النبيّ ﷺ على أهل القليب فقال «هل وجدتم ماوعد ربكم حقاً»؟

فقيل له : تدعو أمواتا ؟

فقال « ما أنتم بأسمع منهم . ولكن لا يجيبون » .

إنا وجدنا ماوعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقًّا . ـ كما رواه البخاريّ ـ لا تحزنًا ، ولـكن إعلامًا بنصر الله له ، وتحقيق رسالته ، زيادة فى حزنهم وتوبيخهم ، فإن الأحياء ليسوا بأسمع منهم ، ولـكن لايتـكلمون. كما فى (الصحيح) . ويجوز عطف قوله (فَتَوَلَّىٰ) على قوله (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) ، فيكون الخطاب لهم حين أشرفوا على الهلاك ، لا بعده . فيكون عليه السلام تولى عنهم تولىَ ذاهب عنهم ، منكرٍ لإصرارهم حين رأى علامات نزول العذاب . والمتبادر الأولُ لظهور الفاء فى التعقيب ـ والله أعلم ـ .

تنبيهات

الأول : نأثرهنا ماروا ه علماء التاريخ والنسب فى بسطقصة ثمود، لمـكان العظة والاعتبار مفصلًا . وإلا ، فجلىّ أن ماأجمله التنزيل الـكريم لاغاية وراءه فى ذلك ، وما سكت عن بيانه من تلك القصص ، فلا حاجة إلى السعى وراءه لفقد القطع به ، اللهم إلا لزيادة الاتعـاظ ، وتقوية العبرة، ولذا صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال(١): حدثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج.

وخلاصة مارووه عن ثمود أن عاداً لما هلـكت، عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم فى الأرض، وكانوا فى سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على الله ، وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى عبادته تعالى وحـــده ، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم ناقة عُشَرَاءَ ، تمخض من صخرة صماء ، عينوها بأنفسهم ، وكانت صخرة منفردة فى ناحية الجبل ، يقال لها (الـكاثبة) ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه. فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ، ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث ١٦٢٤ ونصه : عن عبـد الله بن عَمْرٍو أن النبيّ ﷺ قال : بلّغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْرَاء ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعمر بن جلمس . وكان لجندع بن عمرو ابن عم له ، شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد بن جواس ، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال فى ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له مهوش بن عنمة بن الزميل ، رحمه الله :

وكانت عصبةٌ من آل عمرو ... إلى دين النبيّ دَعَوْا شِهابا
عزيزَ ثمودَ كلِّهمُ جميعاً ... فهمَّ بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالحٌ فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهم ذُؤَابَا
ولكن الغواة مِنَ آل حجْر ... تولوا بعد رشدهمُ ذُبَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها ، بعد ما وضعته ، بين أظهرهم مدة ، تشرب من بئرها يومًا ، وتدعه لهم يومًا ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملؤون ماشاؤوا من أوعيتهم وأونيهم ، كما قال فى الآية الأخرى : وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (١) وقال تعالى : هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٢) . وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية ، ترد من فج ، وتصدر من غيره ، ليسعها . لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت ـ على ما ذكر ـ خلقاً هائلا ، ومنظرًا رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها . فلما طال عليهم ذلك ، واشتد تكذيبهم لصالح النبيّ عليه السلام ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها . قال قتادة : بلغنى أن الذى قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون لقتلها ، حتى على النساء فى خدورهن . قال ابن كثير : قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا)(٣) ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] قالَ . . .
(٣) [٩١ / الشمس / ١٤] .

وقال(وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا)[١]، وقال(فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ)[٢]. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة ، فدل على رضى جميعهم بذلك ـ والله أعلم ـ .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير[٣] ، وغيره من علماء التفسير ، أن سبب قتلها ، أن امرأة من ثمود يقال لها (عنيزة بنت غنم بن مجلز، تكنى بأم غنم، وهى من بنى عبيد بن المهل، أخى رُميل بن المهل، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزا مسنة، وكانت ذات بنات حسان، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم .

وامرأة أخرى يقال لها (صدوف بنت المحيّا بن دهر بن المحيّا) سيّد بنى عبيد وصاحب أوثانهم فى الزمن الأول . وكان الوادى يقال له (وادى المحيّا) وهو المحيّا الأكبر، جدّ المحيّا الأصغر أبى صدوف .

وكانت صدوف من أحسن الناس ، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر .

وكانتا من أشد امرأتين فى ثمود عداوة لصالح، وأعظمه به كفرا .

وكانتا تحتالان أن تُعقر الناقة مع كفرهما به ، لما أضرّت به من مواشيهما .

وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له (صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف) من بنى هلس ، فأسلم وحسن إسلامه .

وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها ، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح ، حتى رقّ المال .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] ونصها: وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ، وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا.

(٢) [٧ / الأعراف / ٧٧] ونصها : فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

(٣) انظر تفسير الطبرىّ (جامع البيان عن تأويل القرآن) الصفحة ٥٣١ من الجزء الثانى عشر (طبعة المعارف) .

فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوفُ ، فعاتبته على ذلك ، فأظهر لها دينه ، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وبيّتت [١] له . فأخذت بنيه وبناته منه فغيّبتهم فى بنى عبيد، بطنِها الذى هى منه .

وكان صنتم زوجُها من بنى هليل، وكان ابن خالها . فقال لها : ردّى علىّ ولدى . فقالت: حتى أنافركَ إلى بنى صنعان بن عبيد أو إلى بنى جندع بن عبيد . فقال لها صنتم : بل أنافرك إلى بنى مرداس بن عبيد . وذلك أن بنى مرداس بن عبيد كانوا قد سارعوا فى الإسلام وأبطأ عنه الآخرون .

فقالت لا أنا فرك إلا إلى من دعوتك إليه .

فقال بنو مرداس : والله لتعطِنّه ولده طائعة أو كارهة .

فلما رأت ذلك أعطته إياهم .

ثم إن صدوف وعنيزة مَحَلَتَا [٢] فى عقر الناقة للشقاء الذى نزل . فدعت صدوف رجلا من ثمود يقال له (الحباب) لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها بذلك إن هو فعل فأبى عليها . فدعت ابن عم لها يقال له (مصدع بن مهرج بن المحيا) وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة. وكانت من أحسن الناس ، وكانت غنية كثيرة المال ، فأجابها إلى ذلك .

ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف بن جندع) رجلا من أهل قُرْح .

وكان قدار رجلا أحمر أزرق قصيرا . يزعمون أنه كان لزنية ، من رجل يقال له (صهياد) ولم يكن لأبيه (سالف) الذى يدعى إليه . ولكنه قد ولد على فراش (سالف) وكان يدعى له وينسب إليه .

فقالت : أعطيك أىَّ بناتى شئت ، على أن تعقر الناقة .

---

(١) بيتت له : فكّرت فى الأمر وخمرته ودبّرته ليلا .

(٢) محل به : كاده واحتال فى المكر به حتى يوقعه فى الهلكة .

وكانت عنيزة شريفة من نساء ثمود ، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو ، من أشراف رجال ثمود . وكان قدار عزيزا منيعا فى قومه .

فانطلق قدار بن سالف ، ومصدع بن مهرج ، فاستنفرا غُواةً من ثمود . فاتّبعهما سبعة نفر . فكانوا تسعة نفر . أحد النفر الذين اتّبعوهما رجل يقال له ، (هويل بن مبلغ) خال قدار ابن سالف ، أخو أمه لأبيها وأمها ، وكان عزيزا فى أهل حجر . و (دعير بن غنم بن داعر) وهو من بنى خلاوة بن المهل .

و (دأب بن مهرج) أخو مصدع بن مهرج .

وخمسة لم تحفظ لنا أسماؤهم .

فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قُدار فى أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع فى أصل أخرى . فمرت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها .

وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها ، وكانت من أحسن الناس وجها ، فأسفرت لقُدار وأرته إياه . ثم ذمَّرته [1] فشدّ على الناقة بالسيف نخشف [2] عرقوبها . نخرّت ورغَتْ رَغاةً واحدة تحذّر سقبها . ثم طعن فى لبتها فنحرها .

انطلق سقبها حتى أتى جبلا مُنيفا . ثم أتى صخرة فى رأس الجبل فزعا ولاذ بها . واسم الجبل فيما يزعمون (صنو) ـ فأتاهم صالح ، فلما رأى الناقة قد عقرت ، قال انتهكتم حرمة الله ، فأبشروا بعذاب الله تبارك وتعالى ونقمته . فاتّبع السقبَ أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة ، وفيهم (مصدع بن مهرج) فرماه مصدع بسهم ، فانتظم قلبه ، ثم جرّ برجله فأنزله ، ثم ألقوا لحمه مع لحم أمه .

فلما قال لهم صالح : أبشروا بعذاب الله ونقمته ، قالوا له وهم يهزءون به : ومتى ذلك

---

(١) ذمَّرته : شجّعته وحثته وحرّضته .

(٢) خشف رأسه بالحجر : شدخه . وكل ما شدخ فقد خشف .

يا صالح ؟ وما آية ذلك ؟ ـ وكانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد (أول) والاثنين (أهون) والثلاثاء (وبار) والأربعاء (جبار) والخميس (مؤمن) والجمعة (العروبة) والسبت (شيار) وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء ـ فقال لهم صالح حين قالوا له ذلك : تصبحون غداة يوم مؤمن ، يعني يوم الخميس ، ووجوهكم مصفرّة ، ثم تصبحون يوم العروبة ، يعني يوم الجمعة، ووجوهكم محمرّة ، ثم تصبحون يوم شيار ، يعني يوم السبت ، ووجوهكم مسودّة. ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، يعني يوم الأحد .

فلما قال لهم صالح ذلك ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً . إن كان صادقاً عجّلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقته .

فأتوه ليلا ليبيّتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة . فلما أبطأوا على أصحابهم ، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدّخين قد رُضِخوا بالحجارة. فقالوا لصالح : أنت قتلتهم! ثم هموا به. فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدًا، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون !

فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . والنفر الذين رضخهم الملائكة بالحجارة ، التسعةُ الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن بقوله تعالى(١) (وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) إلى قوله : (لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

فأصبحوا من تلك الليلة التى انصرفوا فيها عن صالح، وجوههم مصفرّة ،فأيقنوا بالعذاب. وعرفوا أن صالحاً قد صَدَقهم ، فطلبوه ليقتلوه . وخرج صالح هارباً منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجلٍ منهم يقال له (نفيل) يكنى بأبى هدب، وهو مشرك ، فغيَّبه ، فلم يقدروا عليه .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٤٨ ـ ٥٢] .

فغدوا على أصحاب صالح فعذّبوهم ليدلّوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له (ميدع بن هرم) : يانبيّ الله ، إنهم يعذبوننا لندلّهم عليك ، أفندلّهم عليك ؟ قال : نعم. فدلهم عليه (ميدع بن هرم) .

فلما علموا بمكان صالح ، أتوا أبا هدب فكلموه فقال لهم : عندى صالح ، وليس لكم إليه سبيل . فأعرضوا عنه وتركوه . وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه .

فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون فى وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرّة ، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم محمرّة، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودّة . حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومَن أسلم معه إلى الشام . فنزل رملة فلسطين . وتخلف رجل من أصحابه يقال له (ميدع بن هرم) فنزل قُرْح ـ وهى وادى القرى ، وبين القُرح وبين الحجر ثمانية عشر ميلا ـ فنزل على سيدهم رجل يقال له (عمرو بن غنم) وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يَشْرَكْ فى قتلها . فقال له ميدع ابن هرم : يا عمرو بن غنم ، اخرج من هذا البلد ، فإن صالحاً قال : من أقام فيه هلك ، ومن خرج منه نجا .

فقال عمرو : ما شركت فى عَقْرها ، وما رضيتُ ما صُنِع بها .

فلما كانت صبيحة الأحد ، أخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك . إلا جارية مُقعدة يقال لها (الزُّرَيْعة) وهى الكلبة ابنة السِّلْق . كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجليها بعدما عاينت العذاب أجمعَ. فخرجت كأسرع مايُرَى شىء قط . حتى أتت أهل قُرح فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود منه ، ثم استسقت من الماء فسُقِيَتْ ، فلما شربت ماتت .

الثانى ـ قال الرازىّ : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل فى حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهى الرجفة والطاغية والصيحة . والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيواناً أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة . فالمسلمون

يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (١). ويقال : طغى طغيانا ، وهو طاغ وطاغية. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ (٢) وقال في غير الحيوان : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ (٣) ، أي: غلب وتجاوز عن الحد. وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها . وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ (٤). فبطل ما زعمه ذلك البعض .

الثالث ـ قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحدٌ ، سوى صالح عليه السلام ، ومن تبعه رضي الله عنهم . إلا أن رجلًا يقال له أبو رغال . كان ، لما وقعت النقمة بقومه ، مقيماً إذ ذاك في الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ ، جاءه حجر من السماء فقتله .

روى الإمام أحمد (٥) عن جابر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال : لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها ، فأخذتهم صيحةٌ أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله فقالوا : من هو يارسول الله ؟ قال : أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . قال ابن كثير: وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

وروى عبد الرزاق عن معمر : أخبرني إسماعيل بن أمية ؛ أن النبيّ ﷺ مرّ بقبر أبي رغال فقال : أتدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا قبر أبي رغال ،

(١) [٩٦ / العلق / ٦و٧]. (٢) [٩١ / الشمس / ١١] . (٣) [٦٩ / الحاقة / ١١].

(٤) [٧٩ / النازعات / ١٣و١٤] .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

رجل من ثمود ، كان فى حرم الله ، فمنعه حرمُ الله عذابَ الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم ، فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه ، فاستخرجوا الغصن .

وأبو رغال هو أبو ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، كما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ أخرجه أبو داود وغيره [١] .

الرابع ـ ذكرنا قبل ؛ أن رسول الله ﷺ مرّ على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع، وأمر أصحابه أن يدخلوا خاشعين وَجِلين أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم أن يشربوا من مائها . فروى الإمام أحمد [٢] عن ابن عمر قال : نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمُودَ ، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم . فأمرهم النبيّ ﷺ ، فأهَرَاقوا القدور ، وعَلَفُوا العجينَ الإبلَ ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا ، وقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم .

وروى أحمد [٣] والبخارىّ [٤] ومسلم [٥] عن ابن عمر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٤١ ـ باب نبش القبور ، حديث رقم ٣٠٨٨ (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٥٩٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٢١١ (طبعة المعارف) . (٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٨٠ ـ باب نزول النبى ﷺ الحجر ، حديث رقم ٢٨٤ .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣٨ و ٣٩ (طبعتنا) .

وللبخاري[١] ؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا منها ، واستقينا . فأمرهم النبيّ ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

الخامس ـ قال ابن كثير : ذكر بعض المفسرين أن كل نبيّ هلكت أمته ، كان يذهب فيقيم في الحرم ، حرم مكة ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد[٢] : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال: يا أبا بكر! أيّ واد هذا ؟ قال : هذا وادي عُسْفان . قال : لقد مر به هود وصالح على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطُمها الليف ، أُزُرُهم العباء ، وأرديتهم النِّمَار ، يُلَبُّون ، يحجون البيت العتيق . قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرجه أحد منهم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَلُوطًا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق ، أي وأرسلنا لوطاً . ولفظه أعجميّ معناه في العربية (ملفوف) أو (مُرّ) ، كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل ـ وهو فيما قاله علماء النسب والتفسير ـ ابن هاران بن تارح (ويقال آزر) وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكان قد آمن مع إبراهيم عليهما السلام ، وهاجر معه إلى الشام ،

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٧ ـ باب قول الله تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ، حديث رقم ١٥٩٥

ومسلم في : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٠ (طبعتنا)

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٠٦٧ (طبعة المعارف) .

وتوطنا بلد الكنعانيين من فلسطين ، وهي الأرض المقدسة ، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فنزح لوط إلى وادي الأردن ، وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها ، وإلى ما جاورها من القرى . فصار يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والفواحش التي اخترعوها ، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين ، من بني آدم ، ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور .

قال ابن كثير : وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنعه أهل سدوم ، عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر ، حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا .

ثم بيّن تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ » أي الفعلة المتناهية في القبح . وقوله تعالى : « مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ » أي ما عملها أحد قبلكم ، والباء للتعدية ، من قولك (سبقته بالكرة) إذا ضربتها قبله ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام[1] : (سبقك بها عكاشة) . كذا في (الكشاف) .

قال أبو السعود : والجملة مستأنفة ، مسوقة لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ والتقريع . فإن مباشرة القبيح قبيح ، واختراعه أقبح ، فأنكر تعالى عليهم أولا إتيان الفاحشة ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها ، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيدا للإنكار السابق ، وتشديدا للتوبيخ بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

« إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ » أي : الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، لا ليأتيهم الرجال .

---

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥٠ ـ باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، حديث ١٦٠٥

وقرئ بهمزتين صريحتين، وبتليين الثانية، بغير مدّ، وبمدّ أيضاً. وفى زيادة (إن) و (اللام) مزيد توبيخ وتقريع، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد. وفى إيراد لفظ (الرجال) دون الغلمان والمردان ونحوها، مبالغة فى التوبيخ وتأتون، من (أتى المرأة) إذا غشيها. قاله الزمخشرىّ.

وفى (تاج العروس) : أتى الفاحشة : تلبّس بها ، ويكنى بالإتيان عن الوطء، وهو من أحسن الكنايات، ورجل مأتىّ أُتى فيه ، ومنه قول بعض المولدين :

يأتى ويؤتى ليس ينكر ذا ، ولا هـذا ، كذلك إبرة الخيّاط

انتهى .

وقوله تعالى «شَهْوَةً» مفعول له، أى للاشتهاء، أى لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولا ذمّ أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة ، كطلب النسل ونحوه . أو حال ، بمعنى مشتهين تابعين للشهوة ، غير ملتفتين إلى السماجة . كذا فى (الكشاف) « مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ » أى: مجاوزين عن مواتاة النساء اللاتى خلقن لذلك . قال أبو السعود : ويجوز أن يكون المراد من قوله (شَهْوَةً) الإنكار عليهم ، وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة ، كما ينبىء عنه قوله تعالى (مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ) أى : متجاوزين النساء اللاتى هنّ محالّ الاشتهاء كما ينبىء عنه قوله تعالى[1] (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ). « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ » إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التى توجب ارتكاب القبائح ، وتدعو إلى اتباع الشهوات. وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود فى كل شىء . فمن ثمّ أسرفوا فى باب قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد . ونحوه[2] (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) . كذا فى (الكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

« وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ » أى : المستكبرين فى مقابلة نصحه « إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

(١) [١١ / هود / ٧٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٦٦]

أَخْرِجُوهُم » أى : لوطاً والمؤمنين معه « مِّن قَرْيَتِكُمْ » أى : بلدكم . قال الزمخشريّ : يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة ، وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمة الإسراف الذى هو أصل الشر كله . ولكنهم جاءوا بشيء آخر لايتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجراً بهم ، وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم. وقولهم « إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » سخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة . كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم (أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد) .

قال ابن كثير : قال مجاهد : يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيستدل به على تحريم أدبار النساء ، أى بناء على أن تفسير الصحابىّ له حكم المرفوع .

ورجح ابن القيم أنه فى حكم الموقوف .

والمسألة تقدمت مستوفاة فى قوله تعالى (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ)(١) فتذكر .

تنبيه :

قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى كتابه (إِغَاثَةُ اللَّهفَانِ) :

قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث فى كتابه ، دون سائر الذنوب ، وإن كان مشتملاً على ذلك . لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)(٢)، وقوله تعالى فى حق اللوطية (وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ)(٣)، وقالت اللوطية (أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)(٤) فأقروا ، مع شركهم وكفرهم، أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك،

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٣] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٧٤] .
(٤) [٢٧ / النمل / ٥٦] .

باجتنابهم له . وقال تعالى فى حق الزناة : (ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ)(١)، وأما نجاسة الشرك فهى نوعان نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة . فالمغلظة : الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله عز وجل ، فإن الله عز وجل لا يغفر أن يُشْرَكَ به . والمخففة : الشرك الأصغر ، كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوقات والحَلِف به ، وخوفه ورجائه .

ثم قال : ونجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جدًّا . ولهذا ، أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً ، فكلما كان الشرك فى العبد أغلب ، كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر . وكلما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد . كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ، إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ)(٢) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبُّد لها بل هو من أعلى أنواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب ، وتمكن منه ، صار تتيماً ، والتتيم : التعبد ، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه ، وكثيراً ما يغلب حبه وذكره ، والشوق إليه ، والسعى فى مرضاته ، وإيثار محابّه ، على حب الله وذكره ، والسعى فى مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، ويصير متعلقاً بمعشوقة من الصور ــ كما هو مشاهد ــ فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عزوجل ، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه ، ويتقرب إليه مالا يتقرب إلى الله ، وينفق فى مرضاته مالا ينفقه فى مرضاة الله ، ويتجنب سخطه ، ما لا يتجنب من سخط الله تعالى ، فيصير آثر عنده من ربه ، حبا وخضوعاً وذلًّا وسمعاً وطاعة . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة ، فكلما قوى شرك العبد ، بُلى بعشق الصور ، وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه . والزانى واللواطة ، كمالُ لذته إنما يكون مع العشق ، ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتنقله من محل إلى محل ، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد ، ينقسم على سهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده فليس فى الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية فى تبعيد القلب من

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيّب ، لا يصعد إليه إلا طيّب . وكلما ازداد خبثاً ، ازداد من الله بعداً . ولهذا قال المسيح ـ فيما رواه الإمام أحمد في كتاب (الزهد) ـ : لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنى ، كان قريناً للشرك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : (ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ)(١) .

ثم قال رحمه الله : والمقصود أن الله سبحانه وسمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالاً ، وسمى فاعله جنباً ، لبعده عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة ، وعن المساجد ، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . فكذلك إذا كان حراماً ، يبعد القلب عن الله تعالى ، وعن الدار الآخرة ، بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهراً كاملاً بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقول اللوطية : (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود : (وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)(٢) ، وقوله تعالى : (قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ)(٣) ، وهكذا المشرك ، إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك . وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنيّ تجريده متابعة الرسول ، وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال ، ولا بشيء مما خالفها . فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خير له وأنفع ، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله من موافقه أهل الشرك والبدعة :

إذا لم يكن بدّ من الصبر فاصطبر على الحق . ذاك الصبرُ تُحْمَدُ عُقْباهُ

ـ انتهى ـ .

---

(١) [٢٤ / النور / ٣] . (٢) [٨٥/ البروج / ٨] . (٣) [٥/المائدة / ٥٩] .

ولما همّ قوم لوط بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، أخرجه الله تعالى سالماً ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، كما أشار لذلك بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ)

« فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ » أي ومن يختص به من ذويه ، أو من المؤمنين لطيبهم . قال ابن كثير : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال تعالى[١] : (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) « إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ » أي فإنا لم ننجها لخبثها . قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه ، وتُعْلِمُهُمْ بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم . ولهذا ، لما أُمر لوط عليه السلام لِيسرِيَ بأهله ، أُمِرَ أن لا يُعْلِمها ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم . والأظهر أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم . ولهذا قال هاهنا (إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ) « كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ » أي من الذين غبروا في ديارهم ، أي بقوا فهلكوا . وقيل : من الهالكين . وهو تفسير باللازم . والتذكير للتغليب ، ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا » أي وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً غير متعارف ، وهو مبين بقوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)[٢] أي طين متحجر .

قال المهايمي : ولكفرهم بمطر الشرائع المحي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم في صورة العقاب .

(١) [٥١ / الذاريات / ٣٥و٣٦] .   (٢) [١٥ / الحجر / ٧٤] .

وقرأت في التوراة المعربة أن الملكين اللذين جاءا لوطاً، عليه السلام، يخبرانه ويبشرانه بهلاك قومه ، قالا له : أخرج من هذا الموضع ، من لك ههنا من أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك ، فإنَّا بعثنا الرَّب لنهلك هذه المدينة . ولما كان عند طلوع الفجر ألحّ الملكان على لوط بأخذ امرأته وابنتيه ، ثم أمسكا بأيديهم جميعاً وصيّراهم خارج المدينة وقالا : لا يلتفت أحد منكم إلى ورائه ، وتخلصا إلى الجبل . ولما أشرقت أمطر الرب من السماء على سَدُومَ وعمُورة كبريتاً ونارا ، وقلَبَ تلك المدن ، وكل البقعة ، وجميع سكان المدن ونَبْتَ الأرض ، والتفتت امرأته إلى ورائها فصارت نُصُبَ مِلْح ، وقدم إبراهيم غدوة من أرضه ، فتطلع إلى جهة سدوم وعمُورة ، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأَتُون ـ انتهى ـ .

وقرأت في نبوة حزْقيال عليه السلام ، في الفصل السادس عشر ، في بيان إثم سدوم ما نصه :

إن الاستكبار والشبع من الخبز ، وطمأنينه الفراغ ، كانت في سدوم وتوابعها ، ولم تعضد يد البائس والمسكين ، وتشامخن وصنعن الرجس أمامي ، فنزعتهن كما رأيت ـ انتهى ـ .

وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج ، لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بالبحر الميت ، أو بحيرة لوط . والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

قال في (مرشد الطالبين) بحر لوط ، هو بحر سدوم ، ويدعى أيضاً البحر الميت ، وهو بركة مالحة في فلسطين ، طولها خمسون ميلا ، وعرضها عشرة أميال ، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدما ، وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمُورة وأدمة وصبوييم ـ انتهى ـ .

وقوله : « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ » أي هؤلاء أجرموا بالكفر وعمل الفواحش ، كيف أهلكناهم . والنظر تعجيباً من حالهم ، وتحذيرا من أعمالهم ، فإن من تستولي عليه رذيلة الدعارة ، تكبحه عن التوفيق نفساً وجسدا ، وتورده موارد الهلكة والبوار ، جزاء ماجني لهم اتباع الأهواء .

تنبيه فى حد اللوطىّ :

اعلم أنه وردت السنة بقتل من لاط بذكر ، ولو كان بكرا ، وكذلك المفعول به ، إذا كان مختاراً ، لحديث ابن عباس ، عند أحمد [١] وأبى داود [٢] وابن ماجه [٣] والترمذىّ [٤] والحاكم والبيهقىّ ، قال : رسول الله ﷺ : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به . قال ابن حجر : رجاله موثقون ، إلا أن فيه اختلافاً .

وأخرج ابن ماجه [٥] والحاكم من حديث أبى هريرة مرفوعاً : اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أولم يحصنا ـ وإسناده ضعيف ـ .

قال ابن الطلاع فى (أحكامه) : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم فى اللواط ، ولا أنه حكم فيه . وثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به ـ رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة ـ انتهى .

وأخرج البيهقىّ عن علىّ أنه رجم لوطيًّا .

وأخرج البيهقىّ أيضاً عن أبى بكر ؛ أنه جمع الناس فى حق رجل ينكَح كما تنكح النساء، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولا ، علىّ بن أبى طالب قال:

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٢٣ . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٢٨ ـ باب فيمن عَمِل عَمل قوم لوط ، الحديث رقم ٤٤٦٢ . (٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٢٠ ـ كتاب الحدود ، ١٢ ـ باب عَمِل عَملَ قوم لوط ، حديث رقم ٢٥٦١ .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب ماجاء فى حدّ اللوطىّ .

(٥) الذى وقفت عليه هو حديث للترمذى أخرجه فى : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب ماجاء فى حدّ اللوطىّ ونصه : عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال « اقتلوا الفاعل والمفعول به » وليس فيه (أحصنا أولم يحصنا) .

هذا ذنب لم تَعْص به أمّةٌ من الأمم إلا أمة واحدة ، صنع الله بها ماقد علمتم ،نرى أن نحرقه بالنار . فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار .

وأخرج أبو داود (١) عن سعيد بن جبير ومجاهد ، عن ابن عباس: فى البكر يؤخذ على اللوطية ، يرجم .

وأخرج البيهقىّ عن ابن عباس أيضاً ؛ أنه سئل عن حد اللوطىّ فقال : ينظر أعلى بناء فى القرية فيرمى به منكساً ، ثم يتبع بالحجارة .

وقال المنذرىّ : حرق اللوطيةَ بالنار أبو بكر وعلىّ وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك .

وبالجملة ، فلما ثبت أن حده القتل بقى الاجتهاد فى هيأته حرقاً أو تردية أو غيرهما .

وقال بعض المحققين : إن كان اللواط ممايصح اندراجه تحت عموم أدلة الزنى فهو مخصص بما ورد فيه من القتل لكل فاعل ، محصناً أو غيره . وإن كان غير داخل تحت أدلة الزنى ، ففى أدلته الخاصة له ما يشفى ويكفى ــ انتهى ــ .

وقال الإمام الجشمىّ اليمنىّ : لو كان فى اللواط حد معلوم لما خفى على الصحابة ، حتى شاورهم فى ذلك أبو بكر رضى الله عنه ، لمّا كتب إليه خالد بن الوليد .

وقال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى فى اللواط بشىء ، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال: اقتلوا الفاعل والمفعول به ــ رواه أهل السنن الأربعة وإسناده صحيح ــ وقال الترمذىّ : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق ، وكتب به إلى خالد ، بعد مشاورة الصحابة ، وكان على كرم الله وجهه أشدهم فى ذلك .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ــ كتاب الحدود ، ٢٨ ــ باب فيمن عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ، حديث رقم ٤٤٦٣ .

وقال ابن القصار وشيخنا : أجمعت الصحابة على قتله ، وإنما اختلفوا فى كيفية قتله . فقال أبو بكر الصديق : يرمى من شاهق . وقال علىّ كرم الله وجهه : يهدم عليه حائط . وقال ابن عباس : يقتلان بالحجارة . فهذا اتفاق منهم على قتله ، وإن اختلفوا فى كيفيته . وهذا موافق لحكمه صلى الله عليه وسلم فيمن وطئ ذات محرم ، لأن الوطء فى الموضعين لا يباح للواطئ بحال . ولهذا جمع بينهما فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، فإنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه. وروى أيضاً عنه : من وقع على ذات رحم فاقتلوه . وفى حديثه[1] أيضاً بالإسناد : من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه . وهذا الحكم على وفق حكم الشارع، فإن المحرمات كلما تغلظت ، تغلظت عقوبتها . ووطء من لا يباح بحالٍ أعظم جرمًا من وطء من يباح فى بعض الأحوال ، فيكون حده أغلظ . وقد نص أحمد فى إحدى الروايتين عنه ؛ أن حكم من أتى بهيمة حكم اللواط سواء ، فيقتل بكل حال ، أو يكون حدّه حدّ الزانى . واختلف السلف فى ذلك ، فقال الحسن : حدّه حدالزانى. وقال أبو سلمة : يقتل بكل حال . وقال الشعبىّ والنخعىّ : يعزّر ، وبه أخذ الشافعىّ ومالك وأبو حنيفة وأحمد فى رواية ، فإن ابن عباس أفتى بذلك ، وهو راوى الحديث . انتهى .

وقد طعن الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث (الهداية) فى دعوى إجماع الصحابة على قتل اللوطىّ فى رواية البيهقىّ : أن أبا بكر جمع الصحابة فسألهم ، فكان أشدهم فى ذلك قولًا علىّ ، فقال : نرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأيهم على ذلك . قال ابن حجر : قلت : وهو ضعيف جدًّا . ولو صح لكان قاطعاً للحجة . انتهى .

وجلىّ أن عقوبات القتل أعظم الحدود ، فلا يؤخذ فيها إلا بالقواطع من كتاب أو سنة متواترة أو إجماع أو حديث صحيح السند والمتن، قطعىّ الدلالة . ولذا كان على الحاكم بذل جهده فى ذلك استبراءً لدينه ــ والله أعلم ــ .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ١٥ـ كتاب الحدود ، ٢٣ـ باب ما جاء فيمن يقع على بهيمة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً » أى وأرسلنا إليهم . قال ابن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين .

قال ابن كثير : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة التى بقرب معان من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة .

« قَالَ يَٰقَوْمِ » أى : الذين أحب كمالهم ديناً ودنيا « ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ » وهذه دعوة الرسل كلهم كما قدمنا « قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى ما تبيّن به الحق من الباطل . يعنى دعوته وإرشاده . ومن هنا قال بعضهم : عنى بالبينة مجئ شعيب ، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة . ومن فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة ذهاباً إلى أن النبىّ لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله ، فلا بد من دليل يعلم صدقه به ، وما ذاك إلا المعجزة ـ قال : إن معجزة شعيب لم تذكر فى القرآن ، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة فى القرآن . ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم ، فكل من أبطلت شبهة ضلاله ، وأظهرت له حجة الحق الذى يدعى إليه فقد جاءته البينة . لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق . فاحفظه .

قال الجشمىّ : واختلفوا ، فقيل : لا يجوز أن يبعث إلا ومعه شرع ـ عن أبى هاشم ـ . وقيل : يجوز أن يدعو إلى ما فى العقل ـ عن أبى على ـ انتهى .

وقد دلت الآيات هذه على أن شعيباً ، عليه السلام، دعاهم إلى التوحيد والشرائع، على ما جرت به عادة الرسل، فمنها قوله: « فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ » أى فأتموها للناس بإعطائهم حقوقهم « وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ » أى : لاتنقصوهم حقوقهم فلا تخونوا الناس فى أموالهم ، وتأخذوها على وجه البخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى[1] : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ..) إلى قوله : (لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) .

يقال : بخسه حقه أى نقصه إياه ، وظلمه فيه .

قال الزمخشرىّ : كانوا يبخسون الناس كل شىء فى مبايعاتهم ، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه . قال زهير :

أفى كلِّ أسواقِ العراقِ إتاوَةٌ وفى كلِّ ما باع امرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

قال القاضى: وإنما قال (أَشْيَآءَهُمْ) للتعميم، تنبيها على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير ـ انتهى ـ .

والنهى عن النقص يوجب الأمر بالإيفاء . فقيل: فى فائدة التصريح بالمنهىّ عنه، بيان لقبحه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله تعالى : (وَلَا تَبْخَسُواْ ...) الآية ـ قال : أى لاتسمّوا لهم شيئاً ، وتعطوا لهم غير ذلك . ودلت الآية على أن إيفاء الكيل والميزان واجب على حسب ما يعتاد فى صفة الكيل والوزن « وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى : بالكفر والظلم « بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا » أى: بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون العاملون بشرائعهم من وضع الكيل والوزن والحدود والأحكام «ذَٰلِكُمْ» إشارة إلى العمل بما أمروا به ونهوا عنه «خَيْرٌ لَّكُمْ» فى الحال لتوجه الناس إليكم بسبب حسن الأحدوثة، وفى المآل « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » أى : مصدقين قولى .

---

(١) [٨٣ / المطففين / ١ـ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ » نهى عن قطع الطريق الحسىّ . أى : لا تجلسوا على كل طريق فيه ممر الناس الغرباء ، تضربونهم وتخوفونهم ، وتأخذون ثيابهم ، وتتوعدونهم بالقتل ، إن لم يعطوكم أموالهم .

قال مجاهد : كانوا عشارين ـ أخرجه أبو الشيخ . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّىّ مثله . وعن ابن عباس وغير واحد أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه .

قال ابن كثير : والأول أظهر ، لأنه قال (بِكُلِّ صِرَٰطٍ) وهو الطريق . وهذا الثانى هو قوله « وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : تصرفون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب، وتطلبون لها عوجاً بإلقاء الشبه ، ووصفها بما ينقصها لتغييرها « وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ » بالعدد والعُدَد ، فاشكروا نعمة الله عليكم فى ذلك « وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى : من الأمم الخالية ، والقرون الماضية، وما حلّ بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ)

« وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا » يعنى وإن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين مؤمنة وكافرة « فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا »

أى : بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ، ووعيد للكافرين .

قال الشهاب : وخطاب (اصبروا) للمؤمنين ، ويجوز أن يكون للفريقين ، أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكفار على مايسوؤهم من إيمانهم . أو للكافرين. أى تربصوا لتروا حكم الله بيننا وبينكم « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه منزّه عن الجور فى حكمه ، فسيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ » أى عن الإيمان « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ » أى إلى ترك دعوى الرسالة، والإقرار بها، داخلين « فِي مِلَّتِنَا » أى ملة المشركين .

قال الجشمىّ : الملة الديانة التى يجمع على العمل بها فرقةٌ عظيمة . والأصل فيه تكرر الأمر ، من قولهم : طريق ممل ومليل ، إذا تكرر سلوكه حتى صار معلماً . ومنه الملل : تكرار الشىء على النفس حتى تضجر منه ـ انتهى .

« قَالَ » أى شعيب « أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ » أى : أتجبروننا على ذلك ، وإن كنا كارهين له ؟ مع أنه لا فائدة فى الإكراه ، لأن دينكم إن كان حقّاً ، لم نكن بالإكراه منقادين له ، وإن كان باطلا ، لم نكن بالإكراه متصفين به، لأنه بالحقيقة صفة القلب، ولا يسرى إكراهكم إليه. وكيف لا نكرهه وهو يستلزم غاية القبح والظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ، عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ)

« قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى اختلقنا عليه باطلا بأن له شريكا « إِنْ عُدْنَا » إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، لندخل « فِى مِلَّتِكُم » القائلة بأن له شريكا « بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا » فأرانا أنه كالإنجاء من النار « وَمَا يَكُونُ » أى ينبغى « لَنَآ أَن نَّعُودَ » أى عن دعوى الرسالة والإقرار بها فنصير « فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا » أى الذى يربّينا بما علم من استعدادنا ؛ لأنه « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » أى فعلم استعداد كل واحد فى كل وقت ، لكن « عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا » أى ليحفظنا عن المصير إليها « رَبَّنَا » إن قصدوا إكراهنا عليها أو إخراجنا من قريتهم « ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ » فغلبنا عليهم « وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ » أى خير الحاكمين ، فلا تغلّبُ الظالمين وإن كثروا ، على المظلومين إذا استفتحوك .

تنبيهات :

الأول ـ اعلم أن ظاهر قوله تعالى (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) وقوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) يدل على أن شعيباً عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته . ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبائر ، فضلا عن الشرك .

وفى (المواقف وشرحها) : أن الأمة أجمعت على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها ، غير أن الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب ، وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم تجويز الكفر . وجوّز الشيعة إظهار الكفر تقية عند خوف الهلاك ، واحترازاً عن إلقاء النفس فى التهلكة . ومثله فى (شرح التجريد) .

ولما تقرر إجماع الأمة على ما ذكر ، كان للعلماء فى هذه الآية وجوه :

منهـا : أن العود المقابل للخروج ، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها . والجار والمجرور حال . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، داخلين فى ملتنا . وهذا الوجه اقتصر عليه المهايمى ، وسايرناه فيه مع تفسير تتمة الآية .

ومنها : أن العود المذكور إلى ما خرج منه ، وهو القرية . والمجرور حال كالسابق . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إليها ، كائنين فى ملتنا . وعُدِّىَ (عاد) بـ(فى) كأن الملة لهم بمنزله الوعاء المحيط بهم .

ومنها : أن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان فى ملتهم ، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم

ومنها : أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس ، وإيهاماً لأنه كان على دينهم . وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكلة .

ومنها : أن (لَتَعُودُنَّ) بمعنى لتصيرن . إذ كثيراً ما يرد (عاد) بمعنى (صار) ، فيعمل عمل (كان) . ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة ، إلى حال مؤتنفة مثـل (صار) . وكأنهم قالوا ـ والله أعلم ـ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتصيرن كفارًا مثلنا .

قال الرازىّ : تقول العرب . قد عاد إلىّ من فلان مكروه ، يريدون : قد صار إلىّ منه المكروه ابتداء . قال الشاعر(١) :

فإن تكنِ الأيامُ أحسنّ مدةً إلىّ فقد عادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أراد : فقد صارت لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان ـ انتهى ـ.

ومنه حديث معاذ(٢) . قال له النبىّ ﷺ : (أعُدت فتّاناً يا معاذ ؟) أى صرت .

(١) لم أعرف اسمه ولم أقف على بيته .

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى مادة (ع و د) .

ومنه حديث خزيمة(١) : عَادَ لَهَا النِّقَادُ مُجْرَنْثِماً . أى صار .

وفى حديث كعب(٢) : وددت أن هذا اللبن يعود قَطِرَاناً ، أى يصير . فقيل له: لم ذلك؟ قال : تَتَبَّعَتْ قريشُ أذنابَ الإبل ، وتركوا الجماعات .

قال الشهاب: إلا أنه قيل إنه لا يلائم قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) إلا أن يقال بالتغليب فيه، أو يقال: التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع فى المكروه. ألا ترى إلى قوله (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ) (٣) وأمثاله ؟

ومنها : أن العود يطلق ، ويراد به الابتداء . حققه الراغب والجاربردىّ وغير واحد .

وأنشدوا قول الشاعر :

* وَعَادَ الرأسُ مِنِّى كالثَّغَامِ (٤)

ومعنى الآية : لتدخلنّ فى ملتنا ، وقوله تعالى (إِنْ عُدْنَا) أى دخلنا ـ كذا فى تاج العروس ـ .

ومنها : إبقاء صيغة العود على ظاهرها، من استدعائها رجوع العائد، إلى حالٍ كان عليها قبل . كما يقال : عاد له ، بعد ما كان أعرض عنه . إلا أن الكلام من باب التغليب . قال الزمخشرىّ : لما قالوا (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ) فعطفوا على ضميره، الذين

---

(١) استشهد به فى اللسان، نقلا عن النهاية ، فى مادة (ع و د) وقال فى مادة (ج ر ث م): النِّقَادُ : صغار الغنم . ومجرنثما : مجتمعا متقبضا ، وإنما اجتمعت فى الجدب لأنها لم تجد مرعى تنتشر فيه. وإنما لم يقل (مجرنثمة) لأن لفظ (النقاد) لفظ الاسم الواحد . كالجِذَار والخِمَار.

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى ماد (ع و د) .

(٣) [٧ / الأعراف / ٨٣] و [٢٧ / النمل / ٥٧] .

(٤) فى اللسان : الثَّغام نبت على شكل الحَلِىّ ، وهو أغلظ منه ، وأجلّ عودا ، يكون فى الجبل ينبت أخضر ثم يبيضّ إذا يبس ، وله سَنَمَةٌ غليظة . ولا ينبت إلا فى قُنَّة سوداء ، وهو ينبت بنجد وتهامة .

دخلوا فى الإيمان منهم بعد كفرهم ـ قالوا (لَتَعُودُنَّ) فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدين جميعاً ، إجراءً للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال (إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا اللَّهُ مِنْهَا) وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه فى جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك ، إجراءً لكلامه على حكم التغليب ـ انتهى ـ .

ومنها : ما قاله الناصر فى (الانتصاف) : إنه يسلم استعمال (العود) بمعنى (الرجوع إلى أمر سابق) ، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى[1] : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) والإخراج يستدعى دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشىء فى الإيمان لم يدخل قط فى ظلمة الكفر ، ولا كان فيها . وكذلك الكافر الأصلىّ ، لم يدخل قط فى نور الإيمان ، ولا كان فيه . ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التى خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراده ، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ، ثم عدوله عنه إلى الإيمان ، إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور ، توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، وبالعكس فى حق الكافر . وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى[2] : (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ) وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره فى هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار ، لإقامة حجة الله على عباده ـ والله أعلم ـ انتهى .

الثانى : فى قوله : (إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا) ردّ إلى الله تعالى مستقيم .

قال الواحدىّ : والذى عليه أهل العلم والسنة فى هذه الآية ؛ أن شعيباً وأصحابه قالوا : ما كنا لنرجع إلى ملتكم ، بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار ، إلا أن يريد إهلاكنا . فأمورنا راجعة إلى الله ، غير خارجة عن قبضته ، يسعد من يشاء بالطاعة ، ويشقى من يشاء بالمعصية . وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله . ولم تزل الأنبياء والأكابر

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

يخافون العاقبة، وانقلاب الأمر. ألا ترى إلى قول الخليل[(١)] عليه الصلاة والسلام: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ)؟ وكان نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول[(٢)]: يا مقلّب القلوب! ثبّتْ قلبي على دينك.

وقال الزجاج: المعنى: وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها. وتصديق ذلك قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون، من قبل أن يكون، وما سيكون. وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء. فالسعيد من سعد في علم الله تعالى. والشقيّ من شقي في علم الله تعالى.

وقال الناصر في (الانتصاف): موقع قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والاطلاع على الأمور الغائبة. فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد. ولو وقع، فبقدرة الله ومشيئته المغيّبة عن خلقه. فالحذر قائم، والخوف لازم. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)[(٣)] لما ردّ الأمر إلى المشيئة، وهي مغيّبة، مجّد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات ـ والله أعلم.

وقال أبو السعود: معنى (وَمَا يَكُونُ لَنَا ...) الآية ـ أي ما يصح لنا أن نعود فيها في حالٍ من الأحوال، أو في وقت من الأوقات، إلا أن يشاء الله. أي إلا حال مشيئة الله تعالى، أو وقت مشيئته تعالى، لعودنا فيها. وذلك مما لا يكاد يكون، كما ينبئ عنه قوله تعالى: (رَبُّنَا ..) فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم، مما ينبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً، وكذا قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا) فإن تنجيته تعالى لهم منها، من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها. وقيل معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا. فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى. وأيًّا ما كان، فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها في حيّز الإمكان، وخطر الوقوع، بناء على كون مشيئته تعالى كذلك. بل بيان استحالة وقوعها. كأنه

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٥]. (٢) أخرجه الترمذيّ في: ٣٠ ـ كتاب القدر، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن. (٣) [٦ / الأنعام / ٨٠].

قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وهيهات ذلك . بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له ـ انتهى ـ .

ولا يخفى أن إفهام ذلك الاستحالةَ ، هو باعتبار الواقع ، وما يقتضيه منصب النبوة . وأما إذا لوحظ مقام الخوف والخشية، الذى هو من أعلى مقامات الخواصّ، فيكون ماذكرناه أولا أدقّ ، وبالقبول أحق .

قال الإمام ابن القيم فى (طريق الهجرتين) : قد أثنى الله سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه ، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)[1] فالرغب الرجاء ، والرهب الخوف والخشية . وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[2] وفى الصحيح[3] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنى أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية. وفى لفظ آخر: إنى أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى. وكان صلى الله عليه وسلم[4] يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وقد قال تعالى[5] (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟)فكلما كان العبد بالله أعلم ، كان له أخوف .

الثالث : قال الفرّاء[6] : أهل عُمان يسمون (القاضى) الفاتح والفتاح . لأنه يفتح مواضع الحق ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ما كنت أدرى قوله (رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ) حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها : تعالَ أفاتحك ، أى أحاكمك .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٢ ـ باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، حديث ٢٣٤٣ . (٤) أخرجه النسائىّ فى: ١٣ ـ كتاب السهو ، ١٨ ـ باب البكاء فى الصلاة . (٥) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٦) انظر معانى القرآن للفراء ، الصفحة ٣٨٥ من الجزء الأول (طبعة دار الكتب) .

وقال الشهاب : الفتح ، بمعنى الحكم ، وهي لغة لحمير ، أو لمراد ، والفُتاحة (بالضم) عندهم الحكومة . أوهو مجاز بمعنى : أظهرْ وبيّن أمرنا ، حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من المبطل. ومنه فتح المشكل لبيانه وحلّه، تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الأغلاق، حتى يوصل إلى ما خلفها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ)

« وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا » أي فيما يأمركم به وينهاكم عنه « إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ » أي لجاهلون مغبونون ، لاستبدالكم ضلالته بهداكم ، أو لفوات ما يحصل لكم من بخس الكيل والميزان .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٩١] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أي الزلزلة الشديدة .

قال ابن كثير: أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود، فقال (وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ)(١) والمناسبة هناك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تهكموا به في قولهم (أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ . . .) الآية(٢) ـ فجاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال تعالى في الشعراء (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)(٣) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...)(٤) الآية

(١) [١١ / هود / ٩٤] . (٢) [١١ / هود / ٨٧] .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٨٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة . وقد اجتمع عليهم ذلك كله . أصابهم عذاب يوم الظلة، وهى سحابة أظلتهم ، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم . ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام « فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ » أى مدينتهم « جَٰثِمِينَ » أى ساقطين ميتين ، لا ينتفعون برؤوس أموالهم ولا بزوائدها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٢] (ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا، ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ)

« ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا » استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ) وعقوبتهم بمقابلته . والموصول مبتدأ ، وخبره جملة(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا)أى استؤصلوا بالمرة ، وصاروا كأنهم، لما أصابتهم النقمة ، لم يقيموا بديارهم ، التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم السابق : « ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ » ديناً ودنيا ، لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا .

قال أبو السعود : استئناف آخر لبيـان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير . وإعادة الموصول والصـلة كما هى ، لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ما ذكر فى حيّز الصلة ، هو الذى استوجب العقوبتين . أى الذين كذبوه عليه السلام ، عوقبوا بمقالتهم الأخيرة ، فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له ، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام ، كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى: (وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ) .

وقال الزمخشرىّ : فى هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة فى ردّ مقالة الملأ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظام لما جرى عليهم .

وفى (العناية) : أن من عادة العرب الاستئناف من غير عطف ، فى الذمّ والتوبيخ . فيقولون : أخوك الذى نهب مالنا ، أخوك الذى هتك سترنا . ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ)

« فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ » أى : أعرض عن شفاعتهم والحزن عليهم « وَقَالَ » أى: فى الاعتذار « يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى » أى بالأمر والنهى « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » أى : حذرتكم من عذاب الله ، ودعوتكم إلى التوبة والإيمان بما يفيد ربح الدارين ، ويمنعكم خسرانهما ، لكنكم كفرتم « فَكَيْفَ ءَاسَىٰ » أى : أحزن حزناً شديداً « عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ » أى بالله إن هلكوا ، فضلاً عن أن أشتغل بشفاعتهم . يعنى أنه لا يأسى عليهم ، لأنهم ليسوا أحقّاء بالأسى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهلكوا بعذاب الاستئصال ، لما لم يقبلوا نصيحة نبيّهم . فتدل على وجوب قبول النصيحة فى الدين . وتدل على أنه لا يجوز الحزن على هلاك الكفرة والظّلَمة ، بل يجب أن يحمد الله ويشكر . كما قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)(١)

لطيفة :

ذكروا أن شعيباً، عليه السلام، يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته وأصله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً يقول : ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه .

(١) [٦/ الأنعام/ ٤٥] .

والمراجعة (مفاعلة) من الرجوع ، وهى مجاز عن المحاورة . يقال : راجعه القول . وإنما عنى النبيّ صلى الله عليـه وسلم ما ذكر فى هـــذه السورة ، كما يعلم بالتأمل فيه . كذا فى (العناية) .

ثم أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالًا ، إثر بيان الأمم المذكورة تفصيلًا ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ » أى كذبه أهلها « إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا » أى قبل الإهلاك الكلىّ « بِٱلْبَأْسَآءِ » أى شدة الفقر « وَٱلضَّرَّآءِ » أى المرض ، لاستكبارهم عن اتباع ، نبيهم ، وتعززهم عليه « لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ » ليتضرعوا ويتذللوا ، ويحطّوا أردية الكبر والعزة ، فيؤمنوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ » أى أعطيناهم ـ بدل ما كانوا فيه من البلاء ، كالشدة والمرض ـ السعةَ والصحة « حَتَّىٰ عَفَوا۟ » أى كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم . من قولهم : عفا النبات ، وعفا الشحم والوبر ، إذا كثرت . ومنه قوله ﷺ[(١)] (وأعفوا اللحى) « وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ » يعنى وأبطرتهم النعمة وأشروا ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

والبخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٦٥ ـ باب إعفاء اللحى ، حديث رقم ٢٢٩٢ .

فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر . يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا نحو ذلك فصبروا على دينهم ، فنحن مثلهم ، نقتدى بهم ، وما هو بابتلاء من الله لعباده ، تصديقاً لوعد الرسل، فازدادوا كفراً بعد الإعلام القولىّ والفعلىّ . والمعنى: أن الله تعالى ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه ، فما فعلوا . ثم بالحسنة ليشكروا ، فما فعلوا . وإذا لم ينجع فيهم هـذا ولا ذاك ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ، وقد فعل . كما قال سبحانه « فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى فأخذناهم أشد الأخذ وأفظعه ، وهو أخذهم فجأة ، من غير شعور منهم، ولا خطور شىء من المكاره ببالهم، كقوله تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ...)[١] الآية ـ وفى الحديث[٢] (موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر) رواه الإمام أحمد والبيهقىّ عن عائشة . مرفوعاً .

تنبيه :

اعتقاد أن مناوبة الضراء والسراء عادة الدهر ، من غير أن يكون هناك داعيـة تؤدى إليها ، ولا حكمة فيهما ، هو من اعتقاد الـكافرين .

قال ابن كثير : المؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، فيشكر الله على السراء ، ويصبر على الضراء . ولهذا جاء فى الحديث[٣] : لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيًّا من ذنوبه . والمنافقُ مثله كمثل الحمار لا يدرى فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه ـ أو كما قال ـ.

وفى الصحيحين[٤] : عجباً لأمر المؤمن. إن أمره كله خير. وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر ، فـكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر فـكان خيراً له .

وقوله تعالى :

---

(١) [٦ / الأنعام / ٤٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمـد فى المسند بالصفحة ١٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ). (٣) لم أعثر على هذا النص فيما بين يدىّ من المصادر.

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا). ولم يخرجه البخارىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ » أى القرى الْمُهْلَكَة « ءَامَنُوا۟ » أى بالله ورسلهم « وَٱتَّقَوْا۟ » أى الكفر والمعاصى « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى لوسعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب ، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات ، التى بعضها من السماء ، وبعضها من الأرض . فـ (فتحنا) استعارة تبعية ، لأنه شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول . أو مجاز مرسل فى لازمه ، وهو التيسير . أو أريد بـ (بركات السماء) المطر و (بركات الأرض) النبات والثمار « وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ » أى الرسل « فَأَخَذْنَـٰهُم » أى عاقبناهم « بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ » من الكفر والمعاصى .

تنبيه :

أفادت الآية قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل ، كقوله تعالى (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ »(١) أى : ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عاينوا من العذاب ، كما قال تعالى عنهم (فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)(٢) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ)

« أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ » أى : القرى المذكورة « أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا » أى : عذابنا ونكالنا « بَيَـٰتًا » أى : ليلا ، أى وقت بيات « وَهُمْ نَآئِمُونَ » أى حال كمال الغفلة .

---

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٤٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

« أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ » أى : يخوضون فى الباطل ويلهون من فرط الغفلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)

« أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ » وهو أخذه العبد من حيث لا يحتسب « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ » أى لا يأمن أحدٌ أخذَه تعالى العبدَ من حيث لا يشعر ، مع كثرة ما رأى من أخذه العباد من حيث لا يحتسبون ، إلا القوم الذى خسروا عقولهم ، وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ، فصاروا خاسرين إنسانيتهم ، بل أخسّ من البهائم . وفى قوله تعالى « أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ » تكرير للنكير فى قوله : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ) لزيادة التقرير .

قال الزمخشرىّ : فعلى العاقل أن يكون فى خوف من مكر الله ، كالمحارب الذى يخاف من عدوّه الكمين ، والبيات ، والغيلة . وعن الربيع بن خُثَيْم أن ابنته قالت : مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال : يا بنتاه ! إن أباك يخاف البيات . أراد قوله (أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا) . ـ انتهى ـ .

وقال الحسن البصرىّ : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق ، وَجِلٌ خائفٌ . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

تنبيه :

الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية ، وهو الاسترسال فى المعاصى ، اتكالا على عفو الله ـ كما فى جمع الجوامع ـ .

وقال الحنفية : إنه كفر كاليأس ، لقوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ)[١] (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)[٢] .

واستدل الشافعية بحديث ابن مسعود[٣] رضي الله عنه (مِنَ الْكَبَائِرِ الأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ) . وما ورد من أنه كفر ، محمول على التغليظ . كذا فى (العناية) .

وروى ابن أبى حاتم والبزار عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل : مَا الْكَبَائِرُ ؟ فَقَالَ : الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ . قال بعضهم : والأشبه أن يكون موقوفاً .

قال ابن حجر : وبكونه أكبر الكبائر ، صرح ابن مسعود . كما رواه عنه عبد الرزاق والطبرانى .

قال الكمال بن أبى شريف : عطفهما ـ يعنى الإياس والأمن ـ فى الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر ، ظاهر فى أنهما غير الكفر .

وقال أيضاً . مراد الشافعية بكونه كبيرة ؛ أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها فى حد الآمن من المكر ، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعاداً دخل به فى حد اليائس . وأما من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر ، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه . فينبغى أن يكون كل منهما كافرا عند الشافعية أيضاً ، ويحمل عليه نص القرآن ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« أَوَلَمْ يَهْدِ » أى يتبين « لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ » أى المأخوذين

(١) [١٢ / يوسف / ٨٧] . (٢) [الأعراف / ٩٩] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

« أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ » أى كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين « وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى نختم عليها فلا يقبلون موعظة ولا إيماناً .

قال أبو البقاء : يقرأ (يهد) بالياء وفاعله (أن لو نشاء) . و (أن) مخففة من الثقيلة، أى : أو لم يبين لهم علمهم بمشيئتنا . ويقرأ بالنون . و (أن لو نشاء) مفعوله . وقيل : فاعل (يهدى) ضمير اسم الله تعالى ـ انتهى ـ .

ويؤيده قراءة النون . وجوز أن يكون ضميرا عائدا على ما يفهم مما قبله ، أى : أَوَلَمْ يهد ما جرى للأمم السابقة . وتعدية (يهد) باللام ، لأنه بمعنى (يبين) إما بطريق المجاز ، أو التضمين .

قال الشهاب : وإنما جعل بمعنى (يبين) ، وإن كان (هدى) يتعدى بنفسه ، وباللام وبإلى ـ لأن ذلك فى المفعول الثانى لا فى الأول ، كما هنا ، فهذا استعمال آخر . وقيل : لك أن تحمل اللام على الزيادة ، كما فى (رَدِفَ لَكُم)(١) والمراد بـ(الذين) أهل مكة ومن حولها ، كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ، وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ) .

« تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ » أى المذكورة وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب « نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا » مما يدل على مؤاخذتهم بذنوبهم لإصرارهم عليها بعد التنبيه .

(١) [٢٧ / النمل / ٧٢] .

ثم بين تعالى أنه أعذر إليهم، بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل بقوله: « وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ » عند مجيء الرسل بالبينات والدلائل القاطعة « بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ » أي بسبب تكذيبهم بالحق أول ماورد عليهم ، إذ تمرنوا على التكذيب ، فلم تفدهم الآيات، واستوت عندهم الحالتان، كقوله: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ...) الآية[1] ـ ولهذا قال« كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ »أي من المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر ، لما علم أنهم يختارون الثبات على الكفر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ)

« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ » أي من وفاء عهد « وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ » أي : خارجين عن الطاعة مارقين ، فلذلك أخذناهم .

قال الزمخشريّ : الضمير (للناس) على الإطلاق ، أي وما وجدنا لأكثر الناس من عهد . يعني: أن أكثر الناس نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى. والآية اعتراض. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا ، إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة ، لئن أنجيتنا لنؤمنن ، ثم نجاهم ، نكثوا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم » أي : الرسل المتقدم ذكرهم ، وهم نوح وهود وصالح ولوط

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٩و١١٠] .

وشعيب، أو الأمم المحكية من بعدهلاكهم « مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ » وهى العصا، واليدالبيضاء، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع، والدم ، حسبما يأتى مفصلًا « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » وهو ملك مصر فى عهد موسى « وَمَلَإِيْهِۦ » أى قومه « فَظَلَمُواْ بِهَا » أى كفروا بها . أجرى الظلم مجرى الكفر فى تعديته بالباء ، وإن كان يتعدى بنفسه، لأنهما من وادٍ واحد. (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(١). أو هو بمعنى الكفر مجازًا أو تضميناً، أى: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه ، وهو موضع الإيمان ، لأنه أوتى الآيات لتكون موجبة للإيمان بما جاء به . فعكسوا ، حيث كفروا فوضعوا الشيء فى غير موضعه . أو الباء سببية ، ومفعوله محذوف ، أى ظلموا أنفسهم بسببها، بأن عرضوها للعذاب الخالد . أو ظلموا الناس لصدّهم عن الإيمان بها ، والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب مالقوا ، كما يشير له قوله تعالى « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم ، وآتاه أعداءهم ، فأغرقهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى وقومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى : أرسلنى إليك الذى هو خالق كل شيء وربّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ » أى جدير بذلك وحرىّ به ، لما علمت

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

من حالى . والباء و (على) يتعاقبان . يقال : رميت بالقوس وعلى القوس . وجاء على حال حسنة وبحال حسنة . وقرأ أُبىّ رضى الله عنه (حقيق بأن لاأقول) «قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى آية منه تشهد على صدق فيما جئتكم به بالضرورة « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ روى أنه تعالى أمره أن يأتى فرعون ويقول له: إن إلهنا أمرنا أن نسير ثلاثة أيام فى البرّية ، ونقرّب له قرابين ونعبده . وقد علم تعالى أن فرعون لايدعهم يمضون، ولكن ليظهر آياته على يد موسى ، ويهلك عدوّه . فلما أتى موسى فرعونَ وكلمه فى أن يرسل معه قومه ، أنكر أمر الرب له ، وقال: لماذا نعطل الشعب عن أعماله؟ وكانوا مسخرين لفرعون فى عمل اللبن، وأمر بزيادة عملهم ، بأن يجمعوا التبن من أنفسهم ، بعد أن كانوا يعطونه من قبل فرعون .

ثم طلب فرعون من موسى آية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)

« قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)

« فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ» التى هى جماد « فَإِذَا هِىَ» أى من غير سترة ولا معالجة سبب «ثُعْبَانٌ» أى حية كبيرة هائلة ، فاضت عليه الحياة لتدل على فيضان الحياة العظيمة على يديه « مُّبِينٌ » أى ظاهر لا مُتَخَيَّل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٨] (وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ)

« وَنَزَعَ يَدَهُۥ » أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه « فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ »

أى بيضاء بياضاً نورانيًّا خارجاً عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمرها . فيدلّ على أنه يظهر على يديه شرائع تغلب أنوارُها المعنوية الأنوارَ الحسية ، ويتقوى بها الحياة بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أى الأشراف الذين يكرهون شرف الغير عليهم ، فى دفع هذه الآيات الظاهرة عن خواطر الخلق « إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ » أى ماهر فيه .

القول فى تأويل قواه تعالى :

[١١٠] (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

« يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ » أى من أرض مصر بسحره ليتملك عليها « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » أى تشيرون فى أمره . وهذا من تمام الحكاية عن قول الملأ ، أو مستأنف من قول فرعون ، تقديره فقال : ماذا تأمرون ؟ ويدل عليه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ)

« قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » أى أخّر أمرهما ، وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما ، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح .

قال أبو منصور : والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو الهمّ بقتله ، فقالوا أخّره ليتبين حاله للنــاس . وأصل (أَرْجِهْ) أرجئه ، كما قرئ كذلك . من (أرجأت) « وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ » أى مدائن الصعيد من نواحى مصر « حَٰشِرِينَ » أى من يحشر لك السحرة ويجمعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ)

« يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ » وقرئ (سحّار) « عَلِيمٍ » أى ماهر فى باب السحر ، ليعارضوا موسى بنظير ما أراهم من البينات .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على عظيم معجزة لموسى، وتدل على جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لايقدر عليه غير الله تعالى، حتى نسبوه إلى السحر . وتدل على أن عادة البشر ، أن من رأى أمرًا عظيماً أن يعارضه . فلذلك دعا فرعون بالسحرة . فدل على أن العرب لوقدروا على مثل القرآن، لعارضوه . وتدل على أن الطريق فى المعجزات، المعارضة بإتيان مثله ، ولذلك قال تعالى فى القرآن : (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ)(١) ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه . وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ) فيدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه ، كما هو عادة الناس فى هذا الزمن. انتهى.

ثم تسابقت شُرَط فرعون ، لحشروهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ)

« وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

« قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » ولما توثقوا من فرعون

(١) [١٠ / يونس / ٣٨].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ)

« قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ » أى أول من ألقى، كما فى الآية الأخرى . قيل : خيّروا موسى إظهارا للجلادة ، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره .

وقال الزمخشرىّ : تخييرهم إياه أدب حسن ، راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (قَالَ أَلْقُواْ ، فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

« قَالَ » أى : موسى لهم « أَلْقُواْ » أى ما أنتم ملقون . وإنما سوغ لهم التقدم ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهىّ ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبدا « فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ » أى خيلوا لها ماليس فى الواقع « وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ » أى وخوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ، كما فى الآية الأخرى(١) : (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ)« وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » أى : فى باب السحر، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد عصاه ، فصارت العصىّ ثعابين .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآيات على أن القوم أتوا بما فى وسعهم من التمويه ، وكان الزمان زمان سحر ، والغالب عليهم الاشتغال به ، فأتى موسى عليه السلام من جنس ما هم فيه ،

(١) [٢٠ / طه / ٦٦و٦٨] .

ما لم يقدر عليه أحد ، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر . وهكذا ينبغى فى المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع فى القوم ، ويتعذر عليهم مثله . وكان الطب هو الغالب فى زمن عيسى ، فجاء بإحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وليس ذلك فى وسع طبيب . وكان الغالب فى زمن نبيّنا عليه السلام الفصاحة والخطب والشعر ، فجاء القرآن وتحداهم به . وتدل على أنهم بالحيل جعلوا الحبال والعصىّ متحركة ، حتى أوهموا أنها أحياء . ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلِم ، وكان مثله مقدورا لكل من يتعاطى صناعتهم ، عُلِمَ أنه شعبذة . ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة ، أنه يوقف على أصلها ، ويمكن إتيان مثلها ، ويخفى أمرها ، بخلاف المعجزة .

ثم قال : وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف ، حيث استغاث بهم وبهنتهم لدفع مكروه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

« وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ » أى تبتلع « مَا يَأْفِكُونَ » أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق ، وهو باطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ » أى ثبت الإعجاز « وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى من السحر لإبطال الإعجاز .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ)

« فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ » أى فى مكان الوعد الذى اجتمع فيه أهل مصر بدعوته ، لظنه غلبة السحرة « وَٱنقَلَبُوا۟ » أى رجعوا « صَٰغِرِينَ » أى : ذليلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ)

« وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)

« رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ » .

قال الجشميّ : دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر ، فآمنوا فى الحال. وتدل على أنهم بتلك الآيات استدلوا على التوحيد والنبوة، لذلك اعترفوا بهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا » أى الصنع « لَمَكْرٌ » أى حيلة « مَّكَرْتُمُوهُ » أى دبرتموه أنتم وموسى « فِى ٱلْمَدِينَةِ » أى فى مصر قبل الخروج للميعاد « لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وعيد أجمله ثم فصله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

« لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أى من كل جانب، عضواً مغايراً للآخر،

كاليد من أحدها ، والرجل من آخر .

قال الشهاب : (مِّنْ خِلَـٰفٍ) حال ، أى مختلفة . وقيل (مِنْ) تعليلية متعلقة بالفعل ، أى لأجل خلافكم ، وهو بعيد .

« ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » أى تفضيحاً لكم ، وتنكيلاً لأمثالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ)

« قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ » أى فلا نبالى بما تهددنا به ، لأنه هو الذى يقربنا إلى من آمنا به ، فيحيينا بحياةٍ خير من الحياة الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ، رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

« وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا » أى ما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله . أى وما عبته وأنكرته هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاتك « رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أفِضْ علينا صبراً واسعاً لنثبت على دينك « وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » أى ثابتين على الإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ)

« وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أى خوفاً من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا

السحرة جاهروا بالإسلام ، ولم يبالوا بالتوعد « أَتَذَرُ » أى أتترك « مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى فى أرض مملكتك بتغيير الناس عنك « وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ » الآلهة جمع (إله) ، بمعنى المعبود . وكان للمصريين آلهة كثيرة منها المسمى (أوسيرس) وكانوا يعتقدون أن روحه توجد فى الثور المسمى (أبيس) ، فيعبدونه أيضاً ، ويعبدون كثيراً من الحيوانات . وكانوا يعبدون الظلام أيضاً ، ويعبدون (بَعْلَزَ بوب) صنم (عقرون) يعتقدون أن وظيفته طرد الذباب . وبالجملة فقد فاقوا كل من سواهم فى الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض . هكذا حكى عنهم بعض المدققين .

وقد ذكر الشهرستانىّ فى (الملل والنحل) أن فرعون كان أول أمره على مذهب الصابئة ، ثم انحرف عن ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، إذ رأى فى نفسه قوة الاستعمال والاستخدام . انتهى .

وتقدم فى سورة البقرة بيان مذهب الصابئة . فتذكَّرْ .

وقال بعضهم : إن كلمة (الآلهة) لفظة اصطلاحية عند العبرانيين ، يراد بها القضاة والحكام الذين يقضون بأمر الله ، وأنها لو حملت على هذا ههنا ، لم يبعد ، ويكون المعنى : ويذرك وقضاتك وذوى أمرك ، ويكون الغرض من ذكرهم معه تهويل الأمر ، وإلهاب قلب فرعون على موسى ، وإثارة غضبه . وقد صرح غير واحد بوقوع ألفاظ من غير العربية فى القرآن ، كما نقله السيوطىّ فى النوع الثامن والثلاثين من (الإتقان) ـ انتهى ـ والأظهر ما قدمناه أولاً . « قَالَ سَنُقَتِّلُ » قرىء بالتخفيف والتشديد « أَبْنَآءَهُمْ » المولودين « وَنَسْتَحْيِۦ » أى نستبقى « نِسَآءَهُمْ » أى للاستخدام « وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ » أى بالغلبة والقدرة عليهم ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ، إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

« قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ » أى على أذاهم « إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا » أى يعطيها « مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » يعنى أن النصر والظفر للمتقين على عدوّهم. وكان تعالى وعد موسى بأنه سيطرد المصريين من أرضهم ، ويهلكهم وينجى قومه من عذاب آل فرعون لهم .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآيات على أن قوم فرعون ، لما عجزوا عن موسى فى آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد فى الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده . وذلك من أدلّ الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح فى معجزته ، ولهذا قال مشايخنا : إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن ، التى فى إيرادها إبطال أمر النبىّ ﷺ ، إلى القتال ، الذى لا يفيد ذلك ـ دلّ على عجزهم . وهكذا حال كل ضالّ مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد . وتدل على أن عند الخوف من الظّلَمة يجب الفزع إلى الله تعالى ، والاستعانة به ، والصبر . ولا مفزع إلا فى هذين : وهو الانقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة فى الدفع ، واللطف له فى الصبر . وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

« قَالُوٓا۟ » أى قوم موسى « أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » أى فعلوا

بنا من الهوان والإذلال من قبل بعثتك وبعدها. ثم صرح لهم موسى بما رمز إليه من البشارة قبلُ « قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ » أي فرعون وجنوده « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » أي فيرى الكائن منكم من العمل، حسنه وقبيحه ، وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. ثم بيّن تعالى ما أحلّ بفرعون وقومه من الضرّاء ، لما تأبى عن إجابة موسى وإرسال قومه معه ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ » أي بالجدب والقحط « وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أي يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر إلى أمر موسى. وذلك لأن الشدة ترقّق القلوب ، وترغّب في الضراعة إلى الله تعالى .

قال الجشميّ: تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً في الدين، لذلك قال : (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . اهـ

ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن عليهم ، والشدائد ، لم يزدادوا إلا تمردًا وكفراً ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ، أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ » أي الصحة والخصب « قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ » أي لأجلنا واستحقاقنا، ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم، فيشكروه على إنعامه « وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ » شدة « يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ » أي يتشاءموا . وأصله (يتطيروا). يعني أنهم يقولون:

هذه بشؤمهم «أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّـهِ» أى شدتهم، وما طار إليهم من القضاء والقدر، عند الله ، لا عند غيره ، أى من قِبَلِه تعالى « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن ما أصابهم من الله تعالى ، فيقولون ما يقولون ، مما حكى عنهم . ثم أخبر تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوّهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى بمصدقين بالرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ » أى على آل فرعون . وأما قوم موسى فلطف تعالى بهم، فلم ينلهم ولا محالّهم سوء من الطوفان ولا غيره . والطوفان (لغةً) هو المطر الغالب ، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإنسان وتحيط به . فعمّ الطوفان الصحراء ، وأتلف عُشبها ، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ، ونيران الصواعق فى جميع أرض مصر « وَٱلْجَرَادَ » فأكل جميع عشب أرض مصر والثمر، مما تركه الطوفان ، حتى لم يبق شيء من ثمرة ولا خضرة فى الشجرة ، ولا عشب فى الصحراء « وَٱلْقُمَّلَ » فعمّ أرض مصر ، وكان على الناس والبهائم ، وهو بضم وتشديد كـ (سُكَّر) صغار الذرّ ، أو شيء صغير بجناح أحمر . أو دوابّ صغار من جنس القردان ، أو الدبى الذى لا أجنحة له ، وهو الجراد الصغار .

قال أبو البقاء : (القمّل) يقرأ بالتشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون الميم . قيل : هما لغتان . وقيل : هما القمل المعروف فى الثياب ونحوها ، والمشدد يكون فى الطعام ـ انتهى .

وردّ ابن سيده ، وتبعه المجدفى (القاموس) القول بأن المراد به قمل الناس . «وَٱلضَّفَادِعَ» فصعدت من الأنهار والخلج والمناقع ، وغطّت أرض مصر « وَٱلدَّمَ » فصارت مياه مصر جميعها دماً عبيطاً ، ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ، ولم يستطع المصريون أن يشربوا منها شيئاً « ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ » أى مبينات لايشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته ، أو مفرقات بعضها إثر بعض . و (آيات) حال من المنصوبات قبلُ « فَٱسْتَكْبَرُواْ » أى عن الإيمان ، فلم يؤمنوا لموسى ، ويرسلوا معه بنى إسرائيل « وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى عاصين كافرين .

قال الجشمىّ : تدل الآية على عناد القوم، وإصرارهم على الكفر وجهلهم، حيث عاهدوا فى كل آية يأتى بها على صدقه وإثبات العهد ، أنهم لا يؤمنون بهـا . وليس هذا عادة مَنْ غرَضُهُ الحق . وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها . وتدل على وجوب التدبر فى الآيات . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٤] (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ » أى نزل بهم العذاب المفصل « قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ » أى بعهده عندك ، وهو النبوة . فـ (ما) مصدرية .

قال الشهاب : سميت النبوة عهدا ، لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها، أو لأن لها حقوقاً تحفظ ، كما تحفظ العهود . أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى ـ انتهى ـ .

« لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى الذين أُرسلتَ لطلبهم ، ليعبدوا ربهم تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ)

« فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ » يعنى إلى الوقت الذى أجِّل لهم ، وهو وقت إهلاكهم بالغرق فى اليمّ « إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ » أى ينقضون العهد الذى التزموه ، فلم يفوا به . فإن فرعون كان كلما حلّ بمصر نقمة مما تقدم ، يدعو موسى ، ويطلب منه أن يشفع إلى الله تعالى بكشفها . ويَعِدُهُ أنها إذا كشفت أطلق شعبه لعبادته تعالى ، حتى إذا كشفت أخلف ما وعد ، وقسا قلبه . ولما لم يتعظوا بما شاهدوه مما تقدم ، أتتهم النقمة القاضية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٦] (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ)

« فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ » أى البحر « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ » أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها. وقد روى أن فرعون ، بعد أن أبصر ما أبصر من الضربات الربانية على مصر ، أذن لموسى وقومه أن يخرجوا من مصر ، ليقيموا عبادة الله تعالى حيث شاؤوا ، فارتحل بنو إسرائيل على عَجَلٍ ليلًا ، وساروا بكل ما معهم من غنم وبقر ومواشٍ ، من عين شمس إلى «سُكُّوت» وسلكوا طريق برية البحر الأحمر . ولما سمع فرعون بارتحالهم ، ندم على ما فعل ، من إطلاقهم من خدمته ، فجمع جيشه ومراكبه الحربية ، ولحقهم فأدركهم ، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر . حينئذ خاف الإسرائيليون ، وأخذوا يتذمرون على موسى ، فقال لهم : لا تخافوا ، إن الله معنا . ثم أمر تعالى موسى ، فمد يده إلى البحر الأحمر ، فانشق ماؤه ، وصار فيه طريق واسعة ، وأرسل الله ريحاً شرقية شديدة ، فيبس قعره ، فعبر فيه الإسرائيليون ،

والماء عن يمينهم وشمالهم ، فتبعهم فرعون وجنوده وتوسطوا البحر ، فمدّ موسى يده ، بإذن الله ، على البحر ، فارتدّ ماؤه سريعاً ، وغمر فرعونَ وجنوده ومراكبه ، فغرقوا جميعاً ، ثم طَفَتْ جِيَفُهُم على وجه الماء ، وانقذفت إلى الساحل ، فشاهدها الإسرائيليون عياناً . هذا ملخص ما روى هنا .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليهما . انتهى

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

« وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ » أي بالاستعباد وقتل الأبناء. وفي التعبير عنهم بهذا ، إظهار لكمال لطفه تعالى بهم ، وعظيم إحسانه إليهم ، في رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة « مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا » أي الأرض المقدسة، أي جوانبها الشرقية والغربية ، حيث ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا في أكنافها حيث شاءوا . وقوله تعالى « ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا » أي بالخصب وسعة الأرزاق، « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أي مضت واستمرت عليهم، وهي وعده إياهم بالنصر والتمكين « بِمَا صَبَرُوا۟ » أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه .

قال الزمخشريّ : وحسبك به حاثًّا على الصبر ، ودالًّا على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .

وعن الحسن: عجبت ممن خفّ كيف خفّ،وقد سمع قوله تعالى ـ وتلا الآية ـ ومعنى (خفّ) طاش جزعاً وقلةَ صبر ، ولم يرزن أولى الصبر .

« وَدَمَّرْنَا » أى خربنا وأهلكنا « مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ » أى ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور «وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ » (بكسر الراء وضمها) أى من الجنّات . أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء ، كصرح هامان . وهذا كما قال تعالى (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ)(١) . وقال تعالى (كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)(٢) .

قال الزمخشريّ : وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط ، وتكذيبهم بآيات الله، وظلمهم ومعاصيهم. ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مَلَكَةِ فرعون ، واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر : من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصى، ليعلم حال الإنسان وأنه، كما وصفه، (لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(٣) جهول كنود ، إلا من عصمه الله (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ)(٤) وليسلّى رسول الله ﷺ مما أرى من بنى إسرائيل بالمدينة ، فقال تعالى :

....

(١) [٢٨ / القصص / ٥و٦] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٥ ـ ٢٨] .
(٣) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] . (٤) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ » أى الذى أغرق فيه أعداءهم ، وهو بحر القلزم كـ(قنفذ) ، بلد كان فى شرقىّ مصر ، قرب جبل الطور ، أضيف إليـــه ، لأنه على طرفه ، ويعرف البلد الآن بـ(السويس) ومن زعم أن البحر هو نيل مصر ، فقد أخطأ ، كما فى (العناية). « فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ » قرئ بضم الكاف وكسرها « عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ » أى يواظبون على عبادتهـــا ويلازمونها « قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا » أى صنما نعكف عليه « كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » أى أصنام يعكفون عليهـــا « قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى شأن الألوهية وعظمتها ، وأنه لا يستحقها إلا الله وحده .

قال البغوىّ رحمه الله: ولم يكن ذلك شكًّا من بنى إسرائيل فى وحدانية الله تعالى ، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ، ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى . وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة ، وكان ذلك لشدة جهلهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« إِنَّ هَٰؤُلَاءِ » يعنى عبدة تلك التماثيل « مُتَبَّرٌ » أى مهلك « مَّا هُمْ فِيهِ » أى من الشرك « وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى عبـادة الأصنام ، وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى ، فإنه كفر محض .

قال الرازىّ: أجمع كلّ الأنبياء ، عليهم السلام، على أن عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد فى ذلك الغير كونه إلها للعالم ،أو اعتقد أن عبادته تقرب إلى الله تعالى، لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر منه غاية الإنعـــام ، وهى بخلق الجسم والحياة والشهوة

والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها . والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به . انتهى .

وعن أبي واقد الليثيّ رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم يقال لها (ذات أنواط) فقالوا : يارسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى (ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ) والذى نفسى بيده ! لتركبنّ سنن من كان قبلكم ـ أخرجه الإمام أحمد[1] والترمذيّ [2] وابن جرير وغيرهم ـ .

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشيّ المالكيّ : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ، ويعظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِهَا ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهى ذات أنواط ، فاقطعوها .

وقال الحافظ أبو شامة الشافعيّ الدمشقيّ فى كتاب (البدع والحوادث) : وقد عم الابتلاء بتزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمُد ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظُم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم ، فيعظِّمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم ، وقضاء حوائجهم ، بالنذر لها ، وهى من بين عيون وشجر وحائط وحجر . ثم شرح شجرة مخصوصة فقال : ما أشبهها بذات أنواط ، التى فى الحديث .

وروى ابن وضاح فى كتابه قال : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبيّ ﷺ فقطعت ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة . ولهذا البحث تتمة مهمة فى (إغاثة اللهفان) لابن القيّم . فلتنظر .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ باب ماجاء لتركبن سنن من كان قبلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالَ » أى موسى ، مذكّراً لقومه نعمه تعالى عليهم ، الموجبة لتخصيصه تعالى بالعبادة « أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا » أى أطلب لكم معبوداً . يقال : أبغاه الشيء طلبه له ، كـ (بغاه إياه) ، يتعدى إلى مفعولين ، وليس من باب الحذف والإيصال . وفى الحديث[1] : ابغنى أحجاراً أستطيب بها ، بهمزة القطع والوصل . وقال الشاعر[2] :

وكم آملٍ من ذى غِنًى وقرابةٍ   لتبغيَه خيرا وليس بفاعلِ

والاستفهام فى الآية للإنكار والتعجب والتوبيخ « وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » أى والحال ، أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)

« وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ » أى : من فرعون وقومه « يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » أى يكلفونكم إياه ، أو يولونكم إياه ، يقال : سامه الأمر يسومه ، كلفه إياه وجشمه وألزمه . أو أولاه إياه « يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » أى فنجاكم منه وحده ، من غير شفاعة أحد .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر . وتدل على أن المحن فى الأولاد والأهل بمنزلة المحن فى النفس ، ويجرى مجراه . انتهى .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٠ ـ باب الاستنجاء بالحجارة ، حديث رقم ١٢٦. (٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ب غ ى) بالصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع عشر (طبعة بيروت) . قال: وبغيتك الشيءَ: طلبته لك. ومنه قول الشاعر. وساق البيت.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

« وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » روى أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر ، نزلوا فى بريّة طور سيناء ، وكانت مدة خروجهم إلى أن نزلوا شهرا ونصفاً . ولما نزلوا تلقاء الجبل ، صعد موسى إليه ، وسمع كلامه تعالى وأوامره ووصاياه . ثم انحدر موسى إلى قومه ، وأعلمهم بما أمروا به ، وصاروا يشاهدون على الجبل ضباباً ، وصوت رعود ، وبروقاً . ثم أمر تعالى موسى أن يصعد إلى الجبل ليؤتيه الشرائع التى كتبها على قومه . فصعد موسى الجبل ، وكان مغطى بالغمام ، فدخل موسى فى وسط الغمام وأقام فى الجبل أربعين يوماً ، لم يأكل ولم يشرب ، لِما أُمِدَّ من القوة الروحانية ، والتجليات القدسية ، وأوتى فى برهتها الألواح التى كتبت فيها شرائعهم ، ولما رجع إلى قومه ، كان على وجهه أشعة نور مدهشة ، فخافوا من الدنوّ منه ، فجعل على وجهه برقعاً ، فكان إذا صعد الجبل للمناجاة ، رفعه ، وإذا أتاهم وضعه . والله أعلم .

« وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ » أى حين توجه للمناجاة « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي » أى : كن خليفتى فيهم « وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » أى لا تتبع من سلك الإفساد ، ولا تطع من دعاك إليه .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على أنه استخلف هرون عند خروجه ، لما رأى أنهم أشد طاعة له ، وأكثر قبولا منه ، ومخاطبات موسى عليه السلام لهرون وجوابه له كقوله :

(أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى)(١) وقول هرون (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى)(٢) (فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَآءَ)(٣) كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية ، وإن اشتركا فى النبوة . والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع ، لأنه المعقول من الاستخلاف عند الغيبة . وتدل على أنه يجوز أن ينهاه عن شىء يعلم أنه لا يفعله ، ويأمره بما يعلم أنه سيفعله ، عظة له ، واعتبارا لغيره ، وتأكيداً ومصلحة للجميع . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

«وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا» أى حضر الجبل لوقتنا الذى وقّتنا له وحددنا «وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ» أى خاطبه من غير واسطة ملك «قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى» أى لن تطيق رؤيتى، لأن هذه البنية الآدمية فى هذه النشأة الدنيوية ، لا طاقة لها بذلك، لعدم استعدادها له . بل ماهو أكبر جرماً، وأشد خلقاً وصلابة ـ وهو الجبل ـ لا يثبت لذلك ، بل يندكّ . ولذا قال تعالى (وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ) أى الذى هو أقوى منك (فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ) أى ثبت مكانه ، حين أتجلى له ، ولم يتزلزل (فَسَوْفَ تَرَىٰنِى) ، أى تثبت لرؤيتى ، إذا تجليت عليك ، وإلا فلا طاقة . وفيه من التلطيف بموسى ، والتكريم له ، والتنزل القدسىّ ـ ما لا يخفى «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ» أى: ظهر له وَبَانَ ـ قاله الزجاج ـ «جَعَلَهُۥ» أى: التجلى «دَكًّا»

---

(١) [٢٠ / طه / ٩٣] . (٢) [٢٠ / طه / ٩٤] . (٣) [٧ / الأعراف / ١٥٠] .

أى مفتتاً ، فلم يستقر مكانه . فنبه تعالى على أن الجبل ، مع شدته وصلابته ، إذا لم يستقر ، فالآدمىّ مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر . وفيه تسكين لفؤاد موسى ، بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه ، وأما أن المانع محالية الرؤية ، فليس فى القرآن إشارة إليه

« وَخَرَّ » أى وقع « مُوسَىٰ صَعِقًا » أى مغشياً عليه من هول ما رأى « فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ » أى من الإقدام على سؤالى الرؤية « وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بأنه لا يستقر لرؤيتك أحدٌ فى هذه النشأة .

قال فى (الانتصاف) : إنما سبح موسى عليه السلام لمـا تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق . فلمـا تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبح الله ، وقدس علمه وخبره عن الخلف . وأما التوبة فى حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزها مبرأً من كل ما ينحط به . ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (سيئات المقربين ، حسنات الأبرار) .

تنبيه :

قال المتكلمون : دلت الآية على جواز رؤيته تعالى من وجهين :

الأول ـ أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها . لأن العاقل ، فضلا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لا يطلب المحال . ولا مجال للقول بجهل موسى عليه السلام بالاستحالة ، فإن الجاهل بما لا يجوز على الله ، لا يصلح للنبوة . إذ الغرض من النبوة هداية الخلق إلى العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة . ولا ريب فى نبوة موسى عليه السلام ، وأنه من أولى العزم .

الثانى ـ أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، وهو أمر ممكن فى نفسه . والمعلق على الممكن ممكن ، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به . والمحال لا يثبت على شىء من التقادير الممكنة .

وأما زعم المعتزلة أن الرؤية مجاز عن العلم الضروريّ ، فمعنى قوله : (أَرِنِيٓ) أى : اجعلنى عالماً بك علماً ضرورياً ـ خلاف الظاهر . فإن النظر الموصول بـ(إلى) نص فى الرؤية البصرية فلا يترك بالاحتمال ، مع أن طلب العلم الضروريّ لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول . وكذا زعمهم أن موسى عليه السلام، كان سألها لقومه، حيث قالوا[1]: (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً) ، فسأل ليعلموا امتناعها ـ فإنه خلاف الظاهر ، وتكلّف يذهب رونق النظم، فترده ألفاظ الآية . وقد ثبت وقوع رؤيته تعالى فى الآخرة، بالكتاب والسنة، أما الكتاب فلقوله تعالى[2]: « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »؛ وأما السنة فلا تحصى أحاديثها ولكن إذا أصيب أحد بداء المكابرة فى الحق الصراح، عسر إقناعه مهما قوى الدليل وعظمت الحجة .

قال فى فتح البيان : رؤيته تعالى فى الآخرة ، ثبتت بها الأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة . والجدالُ فى مثل هذا والمراوغة لا تأتى بفائدة . ومنهج الحق واضح . ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه ، وأدرك عليه أباه ، وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة ـ يوقع فى التعصب . والمتعصبُ، وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه ، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم . وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب فى الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجاً، وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه والهداية :

يَأْبَى الْفَتَى إلا اتبَاعَ الهوى ... ومَنْهَجُ الحقِّ لَهُ وَاضِحُ

ـ انتهى ـ .

وهذا تعريض بالمعتزلة ، وفى مقدمتهم الزمخشريّ . وقد انتقل ، عفا الله عنه ، أخيراً إلى

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] . (٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

هجاء أهل السنة بما أنشده :

لجماعةٌ سَمَّوْا هواهُمْ سنةً ... وجماعةٌ حُمُرٌ لعَمْرِى مُوكَفَهْ

قد شَبَّهُوهُ بخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا ... شُنْعَ الوَرَى فتَسَتَّرُوا بِالبَلْكَفَهْ

والبلكفة نحْتٌ ، كالبسملة ، أى بقولهم (بَلَا كَيْفَ) .

قال فى (الانتصاف): ولولا الاستنان بحسّان بن ثابت الأنصارىّ، صاحب رسول الله ﷺ وشاعره ، والمنافح عنه ، وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بـ(العدلية) وبـ(الناجين) سلاماً ، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه ، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم ، فنقول :

وجماعةٌ كفروا برؤية ربِّهِمْ ... حقًّا ووعدُ الله ماَلَنْ يُخْلِفَهْ

وَتَلَقَّبُوا عَدْلِيَّةً . قلنا : أَجَلْ ... عَدَلُوا بربهم . فَحَسْبُهُمُو سَفَهْ

وتلقَّبوا الناجين . كَلَّا ! إنهم ... إنْ لمْ يَكُونُوا فِى لَظًى فَعَلَى شَفَهْ

وقال أبو حيّان فى الرد عليه :

شبهتَ جهلًا صدرَ أمة أحمدٍ ... وذوى البصائر بالحمير المُوكَفَهْ

وَجَبَ الخسارُ عليك . فانظر منصفاً ... فى آية الأعراف فهى المنصفه

أتُرَى الكليمَ أتى بجهلٍ ماأتى ... وأتى شيوخُكَ ما أَتَوْا عن مَعْرِفَهْ

إن الوجوهَ إليه ناظرةٌ . بذا ... جاء الكتاب . فقلتمُ : هذا سَفَهْ

نطق الكتابُ وأنت تنطق بالهوى ... فَهَوَى الْهَوَى بِكَ فى المَهَاوِى المُتْلِفَهْ

وقال العلامة الجاربردىّ :

عجباً لقومٍ ظالمين تَسَتَّرُوا ... بالعَدْلِ . ما فيهم لعَمْرِى مَعْرِفَهْ

قد جاءهم من حيث لايدرونه ... تعطيلُ ذاتِ الله مَعْ نَفْىِ الصِّفَهْ

وقد ساق السبكىّ فى (طبقاته) فى ترجمة الجاربردىّ عدة قصائد ومقاطيع فى الردّ عليه .

ثم ذكر الله تعالى أنه خاطب موسى باصطفائه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

« قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ » أى اخترتك على أهل زمانك، وآثرتك عليهم « بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى » أى: وبتكليمى إياك « فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ » أى ماأعطيتك من شرف النبوة والمناجاة « وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ » أى على النعمة فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

«وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ »من الحلال والحرام « فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ » أى بعزم على العمل بما فيها «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا» أى بما أمروا به دون مانهوا عنه « سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ » وهى الأرض التى وعدوا بها من فلسطين ، فإنهم لم يعطوها إلا بعد أربعين سنةمن خروجهم من مصر، وبقائهم فى البرّية. فإن موسى عليه السلام ، لما مات ، خلفه يشوع بن نون ، فحارب الأمم والملوك الذين كانوا يسكنون أرض كنعان ، وفتح بلادهم ، وصارت ملكاً للإسرائيليين .

تنبيه :

قال الجشمىّ(١) : تدل الآية على حدوث كلامه ، لأن قوله (ٱصْطَفَيْتُكَ) أى اختصصتك به ، ولو كان قديماً لكان موسى وغيره سواء ، ولما صحّ الاختصاصُ . ويدل

(١) لاتنس قول المؤلف رضى الله عنه ، لما ساق أول ما نقله من كتاب (التهذيب) عن مؤلفه الجشمىّ ، لاتنس ماقاله بالصفحة رقم ٢٦٣٥ . ونصه (وهو جار على أصول المعتزلة وهذا من هذا . فتنبه .

قوله (وَكَتَبْنَا) أنه أعطاه التوراة مكتوبة فى الألواح عند الميقات، لتكون محروسة، وليبلغه الحاضرون إلى الباقين ، ليقع لهم العلم ضرورة . ويدل على أن فى التوراة شرائع ، وجميع ما يحتاج إليه . ويدل قوله (بِقُوَّةٍ) أن العبد قادر على الفعل قبل الفعل ، وأنه يفعل بقدرة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ)

« سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى ، قلوبَ المتكبرين عن طاعتى، والمتكبرين على الناس . أى فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل ، كقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ)(١) . وقوله تعالى (فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ)(٢) . وقوله تعالى « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » إما صلة للفعل ، أى يتكبرون بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل . أو حال من فاعله ، أى يتكبرون غير محقين « وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ » أى حجة من الآيات والحجج المنزلة عليهم « لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا » تكبراً عليها « وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ » يعنى طريق الحق والهدى والاستقامة واضحاً ظاهراً « لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » لمنافاته أهويتهم « وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ » أى الضلال عن الحق والهلاك « يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » أى طريقاً يميلون إليه « ذَٰلِكَ » أى الصرف عن الآيات، أو اتخاذهم الغى سبيلا « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » أى : لاهين لا يتفكرون فيها، ولا يتعظون بها . أو غافلين عما ينزل بهم من مخافة الرسل . ثم بين وعيد المكذبين بقوله :

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] . (٢) [٦١ / الصف / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ » أى القيامة، وهى الكرّة الثانية. سميت (آخرة) لتأخرها عن الدنيا « حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ » أى بطلت ، فلم تعقب نفعاً . والمراد جزاء أعمالهم ، لأن الحابط إنما يصح فى المنتظَر ، دون ما تقضَّى ، وهذا كقوله (لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ)(١) « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى إلّا جزاء عملهم من الكفر والمعاصى .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ) الخ كلام مع قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متصل بما سبق من قصصهم ، وهو (أَوَلَمْ يَهْدِ ...) الخ .

وإيراد قصة موسى وفرعون للاعتبار .

وقال الكعبىّ وأبو مسلم الأصفهانىّ : إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه . ومعنى صرفهم إهلاكهم ، فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ، ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها ، وهو شبيه بقوله : (بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ، وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ)(٢) فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه ، ومنعه من القيام بما يلزمه فى تبليغ النبوة والرسالة. انتهى. والله أعلم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ)

« وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ » يخبر تعالى عن

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٦٧] .

ضلال من ضل من بنى إسرائيل ، فى عبادتهم العجل الذى اتخذه لهم السامرىّ من حلىّ القبط ، الذى كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلًا ، جسدًا لا روح فيه . وقد احتال بإدخال الريح فيه ، حتى صار يسمع له خوار ، أى صوت كصوت البقر . وإنما أضاف الصوت إليه ، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه . وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور ، حيث يقول إخباراً عن نفسه الكريمة (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)(١) .

لطائف :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم قيل (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ...عِجْلًا) والمتخذ هو السامرىّ ؟

قلت : فيه وجهان :

أحدها ـ أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلًا منهم باشره ، ووُجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : (بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا) والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه ، راضين به ، فكأنهم أجمعوا عليه .

والثانى ـ أن يراد : واتخذوه إلـهاً وعبدوه . فإن قلت : لم قال (مِنْ حُلِيِّهِمْ) ولم يكن الحلىّ لهم ، إنما كانت عوارى فى أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وكونها فى أيديهم عوارى ، كفى به ملابسة . على أنهم قد ملكوها بعد المُهلَكين ، كما قال تعالى : (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)(٢) انتهى .

قال النسفىّ : وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان ، فدخل داراً استعارها ، يحنث . وأن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها ـ انتهى ـ .

والحُلِيّ بضم الحاء والتشديد ، جمع « حَلْى » بفتح فسكون ، كـ(ثَدْى وثُدِىّ) وهو اسم لما يتحسّن به من الذهب والفضة .

---

(١) [٢٠ / طه / ٨٥] .   (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .

وقوله «تعالى: أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» تقريع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر . والمعنى : ألم يروا ، حين اتخذوه إلـهاً، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل ، كآحاد البشر ؟ فهو جماد لا ينفع ولا يضر . فكيف يكون إلـهاً ؟

وقوله تعالى « ٱتَّخَذُوهُ» تكرير لتأكيد الذم ، أي: اتخذوه إلـهاً وعبدوه . «وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ » أي : واضعين الأشياء في غير مواضعها . والجملة إما استئنافية ، أو اعتراض تذييلي للإخبار بأن ذلك دأبهم وعادتهم قبل ذلك ، فلا ينكر هـذا منهم . أو حالية ، أي : اتخذوه في هذه الحالة المستقرة لهم .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على صحة الحجاج في الدين ، وأنه تعالى دلهم ، في بطلان اتخاذ العجل إلـهاً ، بأنه لا يتكلم ولا يهدى. وإنما ذكر الكلام لأن الخوار تنفد فيه الحيلة، ولا تنفد في الكلام . وتدل على أن إزالة الشبه في الدين واجب ، كما أزالها الله تعالى . وتدل على أن القوم كانوا جهالاً غير عارفين حقيقة الأشياء ، لذلك عبدوا العجل . وتدل على أن تلك الحلي كانت ملكا لبني إسرائيل ، لذلك قال (حُلِيِّهِمْ) . فإن ثبت أنهم استعاروه، فيدل على زوال ملكهم ، وانتقال الملك إلى بني إسرائيل ، كما تملك أموال أهل الحرب. وتدل على أن الاتخاذ فعلهم[1] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ)

« وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ » أي : ندموا على عبادة العجل «وَرَأَوْاْ» أي علموا وأيقنوا « أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ » أي: عن الحق والهدى« قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا » أي بقبول توبتنا « وَيَغْفِرْ لَنَا » أي : ما قدمنا من عبادة العجل « لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ» أي: بالعقوبة. أي : ممن خسروا أعمالهم وأعمارهم .

---

(١) انظر : الصفحة رقم ٢٨٥٤ ، الحاشية رقم (١) .

لطيفة :

يقال للنادم على ما فعل ، الحَسِرِ على ما فَرَطَ منه (قد سُقِطَ فى يده) و (أُسْقِطَ) مضمومتين ـ قاله الزجاج ـ .

وقال الفراء : يقال سُقِطَ فى يده وأسقط ، من الندامة ، و (سُقِطَ) أكثر وأجود .

وأنكر أبو عمرو (أسقط) بالألف ، وجوزه الأخفش .

قال الزمخشرىّ : من شأن من اشتد ندمه وحسرته ، أن يعض يده غمًّا ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الزجاج : معناه : سقط الندم فى أيديهم ، أى فى قلوبهم وأنفسهم . كما يقال: حصل فى يده مكروه ، وإن كان محالا أن يكون فى اليد، تشبيها لما يحصل فى القلب وفى النفس، بما يحصل فى اليد ، ويرى بالعين ـ انتهى ـ .

وقال الفارسىّ : أى : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم . فإن صح ذلك فهو إذن من السقوط .

وفى (العباب) : هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، والأصل فيه نزول الشىء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، فيسقط . وذكر اليد لأن الندم يحدث فى القلب ، وأثره يظهر فى اليد ، كقوله تعالى (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا)(١) ولأن اليد هى الجارحة العظمى، فربما يسند إليها مالم تباشره، كقوله تعالى (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ)(٢) ـ انتهى ـ .

وعليه ، فيكون (سُقط) من السقاط ، وهو كثرة الخطأ كما قال :

كيف يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ مَا   لَفَعَ الرأسَ بياضٌ وصَلَعْ

وقيل : من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ، ويضعه على يده ، معتمداً عليه ، وتارة

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٠]

يضعها تحت ذقنه ، وشطر من وجهه على هيأةٍ لو نزعت يده لسقط على وجهه، فكانت اليد مسقوطاً فيها ، لتمكن السقوط فيها. ويكون قوله (سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ) بمعنى سقط على أيديهم، كقوله (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ)(١) أى عليها . و (سُقِطَ) عده بعضهم من الأفعال التى لا تتصرف ، كـ (نِعْمَ وَبِئْسَ) . وقرئ (سَقَطَ) معلوماً ، أى الندم ، أو العض ، أو الخسران ، وكله تمثيل . وقرىء (أُسْقِطَ) رباعىّ مجهول ، وهى لغة نقلها الفراء والزجاج ، كما قدمنا .

ثم بين تعالى ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات . وكان أعلمه تعالى بفتنة قومه . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِيٓ ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ، قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا » أى : شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل ، وحزيناً أى على ما فاته من مناجاة ربه « قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِيٓ » أى بئسما عملتم خلفى، أو قمتم مقامى ، وكنتم خلفائى من بعدى . والخطاب إما لعبدة العجل، من السامرىّ وأشياعه . أو لوجوه بنى إسرائيل ، وهم هرون عليه السلام والمؤمنون معه. ويدل عليه قوله (ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى)(٢) ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى: بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى ـ قاله الرازىّ « أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى : ميعاده الذى

---

(١) [٢٠ / طه / ٧١] . (٢) [٧ الأعراف / ١٤٢] .

وعدنيه من الأربعين ، فلم تصبروا إلى تمامها . وكانوا استبطأوا نزوله من الجبل ، فتآمروا في صنع وثن يعبدونه ، وينضمون إليه ، وفعلوا ذلك ، وجعلوا يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون ويلعبون حوله ويقولون : هذا الإله الذي أخرجنا من مصر ـ عياذاً بالله ـ . وقال أبو مسلم : معناه سبقتم أمر الله ، فعبدتم ما لم يأمركم به « وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ » أي طرحها من شدة الغضب ، وفرط الضجرة ، بين يديه فتكسرت . وهي ألواح من حجارة كتب فيها الشرائع والوصايا الربانية . وإنما ألقاها ، عليه السلام ، لما لحقه من فرط الدهش عند رؤيته عكوفهم على العجل . فإنه ، عليه السلام ، لما نزل من الجبل ، ودنا من محلتهم ، رأى العجل ورقصهم حوله ، اتقد غضبه فألقاها غضباً لله ، وحمية لدينه . وكان هو في نفسه حديدا ، شديد الغضب . وكان هرون ألين منه جانباً ، ولذلك كان محبباً إلى قومه .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدلّ ابن تيمية بقوله تعالى (وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ) على أن من ألقى كتاباً على يده ، إلى الأرض ، وهو غضبان ، لا يلام ـ انتهى ـ وهو ظاهر .

« وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ » أي بشعره « يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ » ظناً أن يكون قصر في نهيهم ، كما قال في الآية الأخرى (قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى * قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ)(1) . وقال ههنا : « قَالَ ٱبْنَ أُمَّ » قرئ بالفتح والكسر ، وأصله يا ابن أمي ، خفف بحذف حرف النداء والياء ، وذكر الأم ليرققه عليه . وقوله : « إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى » إزاحة لتوهم التقصير في حقه . والمعنى : بذلتُ وسعي في كفّهم حتى قهروني واستضعفوني ، وقاربوا قتلي « فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ » أي بالإساءة إليّ . والشماتةُ سرور الأعداء بما يصيب المرء « وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أي في عقوبتك لي ، في عدادهم . أولا تعتقد أني منهم ، مع براءتي وعدم تقصيري .

(1) [٢٠ / طه / ٩٢ـ٩٤] .

قال الجشمى : تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط فى حال الخوف على النفس ، وفى الحال الذى يعلم أنه لا ينفع . لذلك قال هرون (ٱسْتَضْعَفُونِى) . وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود فى الدين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)

« قَالَ » أى موسى عليه السلام ، متضرعاً إلى ربه ، استنزالا لرحمته ، وتعوذا بمغفرته من سخطه . ولا يخفى اقتضاء المقام لذلك « رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ » وقال الزمخشرى : لما اعتذر إليه أخوه ، وذكر له شماتة الأعداء قال (رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى) ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه ، فلا تتم لهم شماتتهم . واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرّط فى حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ » أى من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغال ، وطقطقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب عن أبى قلابة الجرمى أنه قرأ هذه الآية (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ) قال : هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان ابن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أى ذنب كان ، ولو كفراً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا » إلى الله « وَآمَنُوا » أى أخلصوا الإيمان « إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : محّاء لذنوبهم . منعم عليهم بالجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

« وَلَمَّا سَكَتَ » أى سكن « عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ » أى التى كان ألقاها من شدة الغضب فتكسرت « وَفِي نُسْخَتِهَا » أى فيما نسخ منها ، أى كتب . و(النسخة) فعلة بمعنى مفعول ، كالخطبة « هُدًى وَرَحْمَةٌ » بالشرائع والوصايا الربانية ، المرشدة لما فيه الخير والصلاح « لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » أى يخشون .

لطيفتان :

الأولى ـ قال أبو السعود : فى هذا النظم الكريم ، يعنى قوله تعالى (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) ، من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب ، الحامل له على ماصدر عنه من الفعل والقول ، منزلة الآمر بذلك ، المغرى عليه ، بالتحكم والتشديد ، والتعبير عن سكونه بالسكوت ـ مالا يخفى . انتهى .

وأصله للزمخشرىّ حيث قال : هذا مَثَلٌ . كأن الغضب كان يغريه على مافعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم ، وذوق

صحيح ـ إلا لذلك ؛ ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة (وَلَمَّا سَكَنَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة ؟ انتهى .

ومراده بالمثل كونه استعارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص آمرٍ ناهٍ ، وأثبت له السكوت تخييلا .

وعدّ بعض أهل العربية الآية من المقلوب ، أى من نمط قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكأن الأصل (وَلَمَّا سَكَتَ مُوسَىٰ عَنِ ٱلْغَضَبِ) كما فى خرق الثوب المسمار .

قال فى (الانتصاف) والتحقيق أنه ليس منه ، وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لما فيه من المعنى البليغ ، وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى ، حتى كأنه كان يصرفه فى أوامره . ومثل هذه النكتة الحسناء ، لاتلفى فى (خرق الثوب المسمار) . انتهى .

وقرئ سكن وسَكَّتَ وأسكت ، أى أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه .

الثانية ـ اللام فى (للذين) متعلقة بمحذوف ، صفة (لرحمة) أى كائنة لهم . أو هى لام الأجل ، أى هدى ورحمة لأجلهم : واللام فى (لربهم) لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى : (إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ)[1] أو هى أيضاً لام العلة ، والمفعول محذوف . أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم ، لا للرياء والسمعة . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٥] (وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ، فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ، أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ)

«وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ

---

(١) [١٢ / يوسف / ٤٣] .

شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ » روى محمد بن إسحاق أن موسى عليه السلام ، لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامرىّ ما قال ، وحرق العجل ، وذرّاه فى اليمّ ، اختار من بنى إسرائيل سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله ، فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طورسيناء لميقات وقّتَهُ له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلمٍ ، فقال له السبعون ـ فيما ذكر لى ـ حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعلُ . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبلَ كلّه ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب . ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعلْ ولا تفعلْ ، فلما فرغ إليه من أمره ، وانكشف عن موسى الغمام ، أقبل إليهم ، فقالوا لموسى : (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ)(١) وهى الصاعقة التى يحصل منها الاضطراب الشديد ، فماتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ) قد سفهوا ، أتهلك مَنْ ورائى من بنى إسرائيل ؟

وفى رواية السدّىّ : فقام موسى يبكى ويقول : يا رب ! ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا لقيتهم ، وقد أهلكتَ خيارهم ، (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ) .

وقال ابن إسحق : اخترت منهم سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، أرجع إليهم ، وليس معى رجل منهم واحد ، فما الذى يصدقوننى أو يأمنوننى عليه بعد هذا ؟ وعلى هذا فالمعنى : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموننى .

وقال الزجاج : المعنى لو شئت أمتّهم من قبل أن تبتليهم ، بما أوجب عليهم الرجفة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] .

قال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) بعد نقل كلام من ذكرنا : وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود ، والذى يظهر ـ والله أعلم بمراده ومراد نبيه ـ أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه ، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل، حتى عبد قومهم العجل،ولم ينكروا عليهم. يقول موسى : إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل . وهذا كمن واخذه سيده بجرم يقول : لو شئت واخذتنى قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ، ولكن وسعنى عفوك أولًا ، فليسعنى اليوم . ثم قال نبى الله : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فقال ابن الأنبارى وغيره : هذا استفهام على معنى الجحد ، أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل .

قال الفرّاء : ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل ، فقال : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ وإنما كان إهلاكهم بقولهم (أَرِنَا ٱللَّـهَ جَهْرَةً) . انتهى .

واستظهار أن هذا استفهام استعطاف ، سبقه إليه المبرّد .

تنبيه :

قال فى (اللباب) : معظم الروايات أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة ، أى ثم أُحْيُوا . وقال وهب بن منبه : لم تكن تلك الرجفة موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيأة ، أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك ، رحمهم وخاف عليهم الموت ، واشتد عليه فقدهم ، وكانوا له وزراء على الخير ، سامعين له مطيعين ، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه ، فكشف الله عنهم تلك الرجفة ، فاطمأنوا وسمعوا كلام الله . والله أعلم .

« إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ » أى ماالفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك فأنت ابتليتهم وامتحنتهم ، فالأمر كله لك وبيدك . لايكشفه إلا أنت . كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فنحن عائذون بك

منك ، ولاجئون منك إليك . يعنى إنِ الأمر إلّا أمرك ، والحكم إلا لك ، فما شئت كان ، تضل من تشاء، وتهدى من تشاء .

قال الواحدىّ : هذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية ، التى لا يبقى لهم معها عذر . « أَنتَ وَلِيُّنَا » أى متولى أمورنا القائم بها « فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

« وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » أى أثبت لنا فيها خصلة حسنة ، كالعافية والحياة الطيبة ، والتوفيق للطاعة « وَفِي الْآخِرَةِ » أى حسنة أيضاً ، وهى المثوبة الحسنى والجنة . « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أى تبنا إليك . يقال : هاد إليه يهود ، إذا رجع وتاب ، فهو هائد . ولبعضهم : يا راكب الذنب هُدْ، هُدْ واسجد كأنك هُدْهُدْ

وقال آخر : * إنى امرؤ مما جَنَيْتُ هَائِدُ *

قال أبو البقاء : المشهور ضم الهاء ، وهو من (هاد يهود) إذا تاب . وقرئ بكسرها ، من (هاد يهيد) إذا تحرك أو حرك ، أى حركنا إليك نفوسنا ، وعلى القراءتين ، يحتمل الوجهين ، البناء للفاعل والمفعول ، بمعنى ملنا أو أمالنا غيرنا ، أو حركنا أنفسنا ، أو حركنا غيرنا ، وذلك لاتحاد الصيغة وصحة المعنى ، وإن اختلف التقدير .

« قَالَ » استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: فماذا قال تعالى فى جواب دعاء موسى ؟ فقيل قال « عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » أى تعذيبه من العصاة « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة ،

كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ)(١) ولعلها هى المراد هنا ، بدليل مقابلتها بـ (العذاب) قبل، كما قابل الآية التى ذكرناها بقوله (وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا)(٢) والله أعلم . « فَسَأَكْتُبُهَا » أى هذه الرحمة « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى الكفر والشرك والفواحش « وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ » أى يعطون زكاة أموالهم « وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا » أى بكتابنا ورسولنا « يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا ، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعى أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص ، لذلك قالوا (إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ) . وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر، ويخص بالثواب المؤمن، فلذلك فصل . ومن تأمل هذا السؤال والجواب ، عرف عظيم محل هذا البيان ، لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شىء يصح عليه التنعم ، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها . وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد الإيمان الذى هو التصديق ، حتى ينضم إليه الطاعات ، فيبطل قول المرجئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« ٱلَّذِينَ » بدل من الموصول الأول ، بدل الكل، أو منصوب على المدح، أو مرفوع

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .

عليه، أى أعنى الذين أوهم الذين « يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ » أى الذى أرسل إلى الخلائق لتكميلهم « ٱلنَّبِيَّ » أى الذى نبئ بأكمل الاعتقادات والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحى « ٱلْأُمِّيَّ » أى الذى لم يحصل علماً من بشر « ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا » أى باسمه (محمد وأحمد) ونعوته « عِندَهُمْ » زيد هـــذا لزيادة التقرير ، وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا « فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ » يعنى الإيمان بالله. ووحدانيته والشرائع ومكارم الأخلاق، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع « وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ » يعنى الـكفر والشرك والمعاصى ومساوئ الأخلاق، لأن العقل والشرع ينـكره « وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ » أى التى حرمت عليهم لمعاصيهم « وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ » أى التى كانوا يتناولونها كالخنزير والميتة والدم ـ هذا فى باب المأكولات « وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ » أى الأمر الذى يثقل عليهم من التـكاليف الشاقة « وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ » جمع (غُلّ) بالضم ، وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد ، يستعار للشرائط الحرجة والمواثيق الشديدة، أى يخفف عنهم ما كلفوه منها ـ وهذا فى باب العبادات « فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ » أى بالنبىّ الأمىّ وهو محمـــد ﷺ « وَعَزَّرُوهُ » أى عظموه ووقروه « وَنَصَرُوهُ » أى على أعدائه فى الدين فمنعوهم عنه « وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ) وهو القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه .

ولا يقال : القرآن أنزل مع جبريل ، فما معنى (أُنزِلَ مَعَهُۥٓ)؟ لأن المراد أنزل مع نبوّته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به . ويجوز أن يعلق بـ (اتبعوا) أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبىّ ، والعمل بسنته ، وبما أمر ونهى عنه ، فيـكون أمرًا بالعمل بالـكتاب والسنة ، أو هو حال ، أى اتبعوا القرآن كما اتبعه ، مصاحبين له فى اتباعه . وفى التعبير عن القرآن بـ (النور) المنبىء عن كونه ظاهرًا بنفسه لإعجازه ، ومظهرًا لغيره من الأحكام، لمناسبة الاتباع « أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » الفائزون بالرحمة ، والناجون من النقمة.

تنبيهات :

الأول ـ يظهر من سياق الآية أن قوله تعالى (قَالَ عَذَابِيَ . . .) الخ جواب لموسى عليه السلام، وذلك أنه دعا بالمغفرة لقومه أجمعين ، كتابه حسنتى الدنيا والآخرة لهم، فأجيب أولًا بأن ذلك لا يحصل لقومه كلهم ، برًّا أو فاجرًا ، لما سبق من تقديره سبحانه العذاب لمن يشاء من الفجار حكمة منه وعدلًا . ولذلك قرأ الحسن وزيد بن علىّ هنا (لمن أساء) فعل ماض من (الإساءة) ، وفى طيه أن ما أصاب قومه من الرجفة هو من عذابه تعالى ، الذى شاء إصابتهم به لأفاعيلهم . وثانيـــاً إنه لا يستأهل كتابة الحسنتين إلا المتقون المتصدقون المؤمنون بالآيات ، المتبعون للنبىّ الأمىّ ، فمن استقام على هـــذه الشرائط ، كتب له ذلك . ولا يقال ـ على هذا ـ كيف يتبعونه ولم يدركوا زمنه ؟ لأنا نقول : الاتباع أعم من الاتباع (بالقوة)، وذلك بالإيمان به إجمالًا ، حسبما أشار له الكتابان لمن تقدم موته على زمن بعثته، وإما (بالفعل) لمن لحق زمان بعثته . وفيه تبشير لموسى بالنبىّ ﷺ ، وتعريف له بشأنه ، وإعلام بشأنه ، بأن كتابة الرحمة موقوفة على اتباعه . وعليه فيكون قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) بدلا من الموصول الأول، بدل الكل . أو منصوب على المدح ، أو مرفوع عليه. أى : أعنى الذين ، أو هم الذين .

وقال بعضهم : إن جواب موسى ينتهى إلى قوله تعالى (ٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ) ومابعده مستأنف ، فكأنه تعالى أعلم موسى بأنه ذو عذاب ، يصيب به من يشاء ، كما أصاب أصحاب الرجفة . وذو رحمة واسعة ، تكتب للمتقين المتصدقين المؤمنين بالآيات ، أى فأمر قومك بأن يكونوا من الفريق المرحوم بالمشى على هذا الوصف المرقوم . ثم استأنف تعالى الإخبار عمّن يتبع النبىّ الأمىّ بأنهم المفلحون حقًّا، وعليه فيكون قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) مبتدأ خبره (أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) ، وتكون القصة استتبعت أعقاب بنى إسرائيل ، بأنهم إذا اتبعوا النبىّ الأمى ، كانوا هم المفلحين .

وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى (قَالَ عَذَابِىٓ) ارتجال خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم. قصد به إعلام أهل الكتاب المعاصرين له ، صلى الله عليه وسلم بأنهم إذا اتبعوه وآمنوا به وصدقوه ، حقت لهم رحمته تعالى الواسعة ، وإلا فلا يأمنوا أن يصابوا بانتقامه تعالى ، كما جرى لأسلافهم . وفى ذلك كله من التنويه بشأن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه المتقين ، ما لا يخفى .

الثانى ـ تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان ـ هذا ما ذكر فى اللغة . وعندى أن القرآن الكريم قد تطلق فيه على الجنة ، كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ)(١) بدليل المقابلة بقوله (وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)(٢) فلعل الرحمة فى قوله تعالى هنا : (وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ) بمعنى الجنة ، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل . والله أعلم .

وقال أبو منصور : ما من أحد مسلم وكافر ، إلا وعليه من آثار رحمته فى هذه الدنيا . بها يتعيشون ويؤاخون ويوادّون ، وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة فى الآخرة ، لاحظّ للكافر فيها . وذلك قوله (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)(٣) أى : معصية الله، والخلافَ له، (وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) ، كقوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ)(٤) جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر ، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، لاحظّ للكافر فيها . فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد فى هذه الدنيا ، لكنها للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة فى الآخرة ويحتمل قوله ـ والله أعلم ـ . (وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ)(٥) أنهم سألوا الرحمة ، فقال : سأكتبها للذين يتقون معاصى الله ومخالفته . انتهى .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٥٦] . (٤) [٧ / الأعراف / ٣٢] .
(٥) [٧ / الأعراف / ١٥٦] .

الثالث ـ إنما أفرد (الزكاة) بالذكر ، مع دخولها فى التقوى قبل ، لعلوّها وشرفها ، فإنها عنوان الهداية ، ولأنها كانت أشق عليهم ، فذكرها لئلا يفرّطوا فيها .

الرابع ـ كونه صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقرأ ، أمر مقرر مشهور . وهل صدر عنه ذلك فى كتابة صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور(١) ، أو أنه لم يكتب ، وإنما أسند إليه مجازا ، أو أنه صدر منه ذلك معجزة ؟ ـ انظر فى (فتح البارى) تفصيله ـ .

و (الأمىّ) نسبة إلى أمة العرب ، لأن الغالب عليهم كان ذلك ، كما فى الحديث(٢) : (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وأما نسبته إلى (أم القرى) فلأن أهلها كانوا كذلك. أو إلى (أمِّهِ) كأنه على الحالة التى ولدته أمه عليها . وقيل : إنه منسوب (إلى الأَمّ) ـ بفتح الهمزة ـ بمعنى القصد ، لأنه المقصود ، وَضَمُّ الهمزة من تغيير النسب . ويؤيده قراءة يعقوب (الأَمىّ) ـ بفتح الهمزة ـ ، وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً. وإنما وصفه تعالى به تنبيها على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته . فهى له مدح وعلوّ كعب ، لأنها معجزة له ، كما قال البوصيرىّ .

* كَفَاكَ بالعلمِ فى الأمىِّ مُعْجِزَةً *

كما أن صفة التكبر لله مادحة ، وفى غيره ذامة ، كذا فى (العناية) .

الخامس ـ فى قوله تعالى: «ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ » إشارة إلى بشائر الأنبياء عليهم السلام ، بنبوته ﷺ .

قال الماوردىّ فى (أعلام النبوة) فى الباب الخامس عشر فى بشائر الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٤ ـ كتاب الشهادات ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أجل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ ورقم ٨٨٢ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ ـ كتاب الصوم، ١٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ «لا نكتب ولا نحسُب » حديث رقم ٩٦٨ .

إن لله تعالى عوناً على أوامره ، وإغناءً عن نواهيه ، فكأن أنبياء الله تعالى معانون على تأسيس النبوة ، بما تُقدمه من بشائرها ، وتبديه من أعلامها وشعائرها ، ليكون السابق مبشرًا ونذيرًا ، واللاحق مصدقاً وظهيراً ، فتدوم بهم طاعة الخلق ، وينتظم بهم استمرار الحق . وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء ، بنبوّة محمد ﷺ ، مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحثا على القبول . فمنهم من عيّنه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ، ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصّه بأفعاله ، ومنهم من ميّزه بظهوره وانتشاره . وقد حقق الله تعالى جميعها فيه ، حتى صار جليا بعد الاحتمال ويقيناً بعد الارتياب ، ثم سرد الماوردىّ البشائر من نصوص كتبهم .

وجاء فى (إظهار الحق) مانصه : إن الإخبارات الواقعة فى حق محمد ﷺ ، توجد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب . ومن عرف أولًا طريق إخبار النبىّ المتقدم ، عن النبىّ المتأخر ، على ماعرفتَ فى الأمر الثانى ـ يعنى فى كلامه ـ ثم نظر ثانياً بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات ، وقابلها بالإخبارات التى نقلها الإنجيليون فى حق عيسى عليه السلام ، جزم بأن الإخبارات المحمدية فى غاية القوة .

وجاء فى (منية الأذكياء فى قصص الأنبياء) ما نصه : إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته . غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه ـ يعنى من نسخهم الأخيرة ـ إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً ، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان فى اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد ، قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات ، ليبعد صدقها على النبىّ عليه الصلاة والسلام . فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع ، اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولاما قصد

به ، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لانتشار النسخ بالطبع ، وتيسر المقابلة بينها .
وهانحن نورد شذرة من البشائر لديهم :

فمنها : فى الباب السادس عشر من سفر التكوين فى حق هاجر هكذا :

١١ ـ وقال لها ملاكُ الربّ أنتِ حُبْلَى فتلدين ابناً . وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك .

١٢ ـ وإنه يكون إنساناً وحشيا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه . وأمامَ جميع إخوته يسكن .

هذه بشارة بمحمد ﷺ ، لا بجده إسماعيل ، لأن إسماعيل عليه السلام ، لم تكن يده فوق يد الجميع ، ولا كانت يد الجميع مبسوطة إليه بالخصوص . بل فى التوراة أن إسماعيل وأمه هاجر أُخرجا من وطنهما مكرهيْن ، ولم يرث إسماعيل مع إسحاق ، وكان الملك والنبوة فى بنى إسحق ، وكان بنو إسماعيل فى البرارى العطاش ، ولم يسمع أن الأمم دانت لهم ، حتى بعث رسول الله ﷺ ، فدانت له الملوك ، وخضعت له الأمم ، وعلت يده وأيدى بني إسماعيل على كل يد ، وصارت يد كلٍّ بهم فكان ذكر إسماعيل مقصوداً به ولده . كما أن فى مواضع كثيرة من التوراة ، ذكر يعقوب ، والمقصود بالذكر ولد يعقوب . فمن ذلك قوله فى السفر الخامس : (يَاإِسْرَاءِيلُ ! أَلَا تَخْشَى ٱللَّـهَ رَبَّكَ ، وَتَسْلُكُ فِى سَبِيلِهِ وَتَعْمَلُ لَهُ) ؟ فهذا خطاب لبنى إسرائيل باسم أبيهم ، وكذلك قوله لقوم موسى : (اسمع إسرائيل ، ثم احفظ ، واعمل يحسن إليك ربك ، وتكثر وتنعم) ونظائره كثيرة . فظهر أنه قد يذكر اسم الأب ، ويراد الابن مجازاً ، بقرينة الحال ، وإلا لزم الخلف فى خبره تعالى .

ومنها : فى الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية هكذا :

١ ـ وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجلُ الله بنى إسرائيل قبل موته .

٢ ـ فقال : جاء الربّ من سيناءَ وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألأ من جبل فَارَانَ وأتى من رِبْوَاتِ القُدْسِ وعن يمينه نارُ شريعةٍ لهم .

ولا غموض بأن مجئ الله جل وعلا من سيناء عبارة عن إنزاله التوراة على موسى بطور سينا ـ هكذا يفسره أهل الكتاب ـ والأمر كذلك فيجب أن يكون إشراقه من سعير عبارة عن إنزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح يسكن أرض الجليل من سعير بقرية تدعى (ناصرة، واسم النصارى مأخوذ منها . واستعلاؤه من جبال فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد فى جبـل فاران . وفاران هى مكة ، لا يخالفنا فى ذلك أهل الكتاب . فى الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال إسماعيل عليه السلام هكذا :

٢٠ ـ وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرِّيَّة. وكان ينمو رامىَ قوس .

٢١ ـ وسكن فى برِّيَّة فَارَانَ . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

ولا شك أن إسماعيل كان سكنه فى مكة ، وفيها مات ، وبها دفن . وهـذه البشارة صريحة فى نبينا ﷺ ، ظاهرة لا تخفى إلا على أكمه لا يعرف القمر . فأى نبيّ ظهر فى مكة بعد موسى غير محمد ، وانتشر دينه فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما يقتضيه الاستعلان المذكور فى البشارة .

ومنها : فى الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا :

١٧ ـ قال لى الربّ قد أحسنوا فى ما تكلموا .

١٨ ـ أُقيم لهم نبيًّا من وسْط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به .

١٩ ـ ويكون أن الإنسانَ الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه .

هذا البشارة فى حق نبينا ﷺ قطعاً، لأنه من ذرية إسماعيل، وذريته يسمون إخوة لبنى إبراهيم ، بدليل ما ذكر فى التوراة فى حق إسماعيل وأنه قبالة إخوته ، ينصب المضارب . وقد جرت عادة الكتب المنزلة بتسمية أبناء الأعمام ، عن بعد بعيد، إخوةً

كما دعى فى القرآن هود وصالح ، إخوة لعاد وثمود ، مع أنهما على بعد بعيد من أولاد الأعمام .

وكما قيل فى سفر العدد فى الباب العشرين :

١٤ ـ وأرسل موسى رسلا من قَادَشَ إلى ملك أدُومَ . هكذا يقول أخوك إسرائيل قد عرفتَ كلَّ المشقة التى أصابتنا (مع أنهما أبناء أعمام على بعدبعيد) .

وليست هذه الشهادة فى حق أحد من أنبياء بنى إسرائيل ، وإلا ، لقال : وسوف أقيم لهم نبيا مثلك منهم أو من أنفسهم كما قال تعالى إخباراً بدعوة إبراهيم عليه السلام لولد إسماعيل (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ) وكما قال تعالى فى خطاب بنى إسماعيل : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وأما مازعمته اليهود من أن المراد يوشع ، فتى موسى ، فهو باطل من وجوه :

١ ـ أن المبشر به من إخوة بنى إسرائيل ، لا من نفس بنى إسرائيل ، ويوشع كان من نفس بنى إسرائيل .

٢ ـ أن يوشع لم يكن مثل موسى عليه السلام لما فى آخر سفر التثنية .

(الأصحاح الرابع والعشرون) .

١٠ ـ ولم يقم بعدُ نبيٌّ فى بنى إسرائيل مثلُ موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه .

ولأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواه ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو مأمور باتباع شريعة موسى .

٣ ـ أن يوشع عليه السلام كان حاضراً هناك ، وقد أشير إليه بعبارة صريحة قبل هذه فى الباب الأول من هذا السفر .

٣٨ ـ يَشُوعُ بن نونٍ الواقفُ أمامك هو يدخل إلى هناك . شدِّده لأنه هو يقسمها لإسرائيل .

فأى مقتضٍ للرمز والتلويح ، بعد هذا التصريح ؟ وأى موجب لإدخال (سوف) الدالة على الاستقبال على فعل حاصل فى الحال ؟

وأما ما زعمته النصارى من أن المراد به عيسى عليه السلام ، فهو أيضاً باطل ، لوجوه :

١ ـ أنه من بني إسرائيل ، والمبشَّر به هنا من غيرهم .

٢ ـ أن موسى بشَّر بنبيّ مثله ، وهم يدّعون أن عيسى إله ، وينكرون كونه نبيًّا مرسلًا ، وإلا لزم اتحاد المرسِل والمرسَل ، وهو غير معقول .على أن مشابهة موسى لنبينا عليهما الصلاة والسلام ، أقوى من مشابهته لعيسى ، لاتحادهما في أمور :

١ ـ كونهما ذَوَيْ والدَيْنِ وأزواج ، بخلاف عيسى عليه السلام .

٢ ـ كونهما مأمورَيْنِ بالجهاد ، بخلاف عيسى عليه السلام. وقد أشار في هذه البشارة بقوله : ١٩ ـ ويكون أي الإنسان الذي لا يسمع لكلامي ، الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه. إلى كون هذا النبيّ مأمورًا بجهاد من كفر بما جاء به من عند الله ، والانتقام منه بسيفه البتّار. وزعمت النصارى أن الانتقام هنا بمعنى العذاب الأخرويّ لمنكريه ، وهو خطأ ، لأن ذلك لا يختص بهذا النبيّ ، بل كل من أنكر ما جاء به نبيّ من الأنبياء ينتقم منه في الآخرة ، فلا معنى لتخصيص هذا النبيّ بالذكر حينئذ .

٣ ـ كون شريعتهما مشتملة على الحدود والقصاص والتعزير وإيجاب الغسل على الجنب والحائض والنفساء ، وإيجاب الطهارة وقت العبادة ، وهذه كلها ليست موجودة في شريعة عيسى عليه السلام ـ على ما تقول النصارى ـ ونظائر ذلك كثيرة . وفي هذه البشارة إشارة إلى كون هذا النبيّ أميًّا لا يقرأ ، حيث قال (يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي) وبذلك تعرف سر وصفه به في قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ...) الآية التي نحن في صددها.

ومنها ـ في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلا الأبد ، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ، ولا يعرفه . وأنتم تعرفونه ، لأنه مقيم عندكم ، وهو ثابت فيكم) . وهذه بشارة من المسيح عليه السلام بأن الله تعالى سيبعث للناس

من يقوم مقامه ، وينوب فى تبليغ رسالته ، وسياسة خلقه ، مقابه ، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً ، وهل هذا إلا محمد ﷺ . و (الأب) هنا بمعنى الرب والإله ، لأنه اصطلاح أهل الكتابين . وقد أشار عيسى عليه السلام بكونه (روح الحق) إلى أن الحق قبل مبعثه لا يكون كالميت لا حراك له ، ولا انتعاش ، وأنه إذا بعث يكون كالروح له ، فيرجع حينئذ قائماً فى الأرض . ولا خفاء أنه عليه الصلاة والسلام، هو الذى أحيي الله به الحق بعد عيسى عليه السلام بعد ما اندرس ، ولم يبق فيه نفس . ثم قال : (والفارقليط روح القدس الذى يرسله الأب باسمى هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) . ولاشك بأن محمدا ﷺ هو الذى علم كل شيء من الحقائق ، وأوضح ما خفى من الدقائق ، وذكر أمة عيسى ما نسوه من أقواله المتضمنة أنه عبد من عباد الله تعالى، قربه إليه بالرسالة واصطفاه، وأنه لم يَدْعُ لسوى عبادة الله وتوحيده ، وتنزيهه وتمجيده . وقوله (باسمى) أى بالنبوة . ثم أبان لهم سبب إخبارهم به قبل أن يأتى فقال : (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون . حتى إذا كان ، تؤمنون) .

وفى الباب الخامس عشر من الإنجيل المذكور : (فأما إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق ، وهو يشهد لأجلى ، وأنتم تشهدون لأنكم معى من الابتداء) .

وفى الباب السادس عشر منه : (لكنى أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنى إن لم أنطلق ، لم يأتكم الفارقليط . فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء ذاك ، فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وعلى بر، وعلى حكم . أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بى . وأما على البر فلأنى منطلق إلى الأب، ولستم تروننى بعدُ . وأما على الحكم ، فإن رئيس هذا العالم قد دين . وإن لى كلاماً كثيرا أقوله لكم، ولكنكم لستم تطيقون حمله . وإذا جاء روح الحق ذاك ، فهو يعلمكم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما سيأتى ، وهو يمجدنى ، لأنه يأخذ مما هو لى، ويخبركم جميع ما هو للأب ، فهو لى . من أجل هذا قلت (إن مما هو لى يأخذ ويخبركم) . ومن أمعن النظر فى هذه

العبارات ، ولاحظ ما اشتملت عليه من الفحاوى والإشارات جزم بأن (الفارقليط) هو محمد ﷺ ، فإنه هو الذى ظهر بعد عيسى عليه السلام ، وشهد لعيسى بالنبوة والرسالة ، ومجده وبرأه مما افتراه عليه النصارى من دعوى الربوبية ، ومما افتراه عليه اليهود من كونه ساحراً كذاباً ، وعلى والدته من كونها غير طاهرة الذيل ، بريئة الساحة ، وهو الذى وبخ العالم ، سيما اليهود ، على الخطايا ، لاسيما خطيئة الكفر بعيسى عليه السلام، والطعن فى والدته الطاهرة البتول ، وهو الأمين الصادق ، الذى علم جميع الحقائق، وهو الذى أبان من الأسرار مالم تطق تحمله قبل مجيئه الأفكار ، وهو الذى، لا ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [١] .

وفسر العلامة ابن قتيبة (روح الحق الذى من الأب ينبثق) أى يصدر بكلام الله المنزل، واستدل بقوله تعالى (﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾)[٢] والمراد به هنا القرآن الكريم ، لأنه هو الذى يشهد للمسيح بالنبوة والنزاهة ، عما افترى عليه ، وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله ، كما شهد الحواريون الذين كانوا معه ، واهتدوا بهديه . ولم يثبت شهادة كتاب غير القرآن بذلك ، فتعيّن أن يكون هو المراد .

وفى قول عيسى عليه السلام (إنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط إشارة إلى أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل .

ولفظ (فارقليط) يونانىّ الأصل ، قيل : أصله باراكلى طوس ، بمعنى المعزِّى والمعين والوكيل أو الشافع . وقيل : بيركلوطوس ، فيكون قريباً من معنى محمد وأحمد .

معلوم أن المسيح عليه السلام ، كان يتكلم باللسان العبرانىّ ، الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانىّ ، لأنه كان عبرانيًّا ابن عبرانية ، نشأ فى قومه العبرانيين ، فنقلُ أقواله فى هذه الأناجيل ، نقل بالمعنى . فترجيح من رجح من النصارى ، أن أصل فارقليط هو الأول ترجيح بلا مرجح ، والتفاوت بين اللفظين يسير جدًّا ، والحروف اليونانية

(١) [٥٣ / النجم / ٣] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

متشابهة . وأيًّا كان أصله ، فالا ستدلال صحيح ، لصدق اللفظ بمعانيه كلها على النبيّ ﷺ صدقاً جليا، لايخفى إلا على مشاغب .

وقد كانت هذه البشارة سبب إسلام الفاضل عبد الله الترجمان ، كما بينه فى كتابه(تحفة الأديب فى الرد على أهل الصليب) .

وقد نبذ النصارى بعدُ الأناجيلَ المصرحة باسم (محمد) لكونها شجى فى حلوق أهوائهم ، كإنجيل (برنابا) ففيه التصريح بقوله (إلى أن يجىء محمد رسول الله) كما نقله فى (إظهار الحق) .

وإذا كان حالهم فى تراجمهم ، فى لقب إلههم ، ولقب خليفته ما علم ـ فكيف يرجى منهم صحة بقاء لفظ (محمد أو أحمد) ؟ ! ألا إن سيف الحق أمضى ، وسهلم الصواب أنفذ ، فثمة من الأوصاف الصريحة ، والأشائر الصحيحة ، مالا يبقى معه وقفة لحائر .

هـــذا ، وفى كتبهم بشائر كثيرة ، تعرض لذكرها جلة من العلماء ، مما أناف على العشرين .

قال الماوردىّ : لعل مالم يصل إلينا منها أكثر . وقد اقتصرنا على ماقدمنا ، رَوْماً للاختصار ، ولسهولة الوقوف على البقية ، من مثل (أعلام النبوّة للماوردىّ) و (إظهار الحق) وغيرهما .

وقد قال صاحب (إظهار الحق) الشيخ رحمة الله ، عليه رحمة الله: إن من أسلم من علماء اليهود والنصارى فى القرن الأول ، شهد بوجود البشارات المحمدية فى كتب العهدين ، مثل عبدالله بن سلام ، وابنى سعية ، وبنيامين، ومخيريق ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود. ومثل بحيرا ونسطورا الحبشى ، وضغاطر ، وهو الأسقف الرومىّ الذى أسلم على يد دِحْيَةَ الكلبىّ وقت الرسالة فقتلوه . والجارود ، والنجاشى ، والسوس ، والرهبان الذى جاءوا مع جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وغيرهم من علماء النصارى . وقد اعترف بصحة نبوته ، وعموم

رسالته ، هرقل قيصر الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن صوريا ، وحُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم ، ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا .

ولما ورد على النبيّ صلى الله عليه وسلم نصارى نجران ، وحاجّهم فى شأن عيسى عليه السلام وحجّهم ، دعاهم إلى المباهلة بأمره تعالى ، فنكصوا على أعقابهم ، خوفا من شؤم مغبتها، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها (وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)(١) .

السادس ـ قوله تعالى (يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ) يحتمل أن يكون مستأنفاً ، وأن يكون مفسرًا لـ (مَكْتُوبًا) أى لما كتب .

السابع ـ الطيبات أعم من الطيبات فى المأكل كالشحوم ، وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام . ومن الطيبات فى حكم الشريعة كالبيع ، وما خلا كسبه عن سحت . وكذا الخبائث ما يستخبث ، من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به ، أو ما خبث فى الحكم كالربا والرشوة وغيرها من المكاسب الخبيثة. قيل: يستبعد إرادة ماطاب أو خبث فى الحكم ، لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحله ، أو حكم بحرمته ، فيرجع الكلام إلى أنه يحل ما يحكم بحله ، ويحرّم ما يحكم بحرمته ، ولا فائدة فيه . وردّوه بأنه يفيد فائدة وأىّ فائدة ! لأن معناه أن الحل والحرمة بحكم الشرع ، لا بالعقل والرأى .

الثامن ـ فى قوله تعالى(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ) إشارة إلى أنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال(٢) : بعثت بالحنيفية السمحة . وقال ﷺ(٣) لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرىّ ، لما بعثهما إلى اليمن : بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا .

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢٧ / النمل / ١٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) من حديث طويل رواه أبو أمامة عنه ﷺ . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٦٤ ـ باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب وعقوبة من عصا إمامه ، حديث ١١٢٩ .

وقدمنا أن (الإصر والأغلال) استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة . فمنها تحريم طبخ الجدى بلبن أمه ، ومنها نظام الأعياد التي يعيّدونها لله في السنة وهي عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال . وكذلك عيد كل سبت ، لا يعمل فيه أدنى عمل . وكذلك سبت المزارع . ففي كل سنة سابعة سبت للأرض ، لا يزرع فيها ، ولا يقطف الكروم ، بل تترك الأراضي عطلًا ، وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحوش البرية . ومنها أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما يقتل حدًّا . وكذا من يعمل يوم السبت يقتل . ومن كان به جن أو تابعة يرجم بالحجارة حتى يموت . ومن تزوج فتاة فادعى أنه لم يجد لها عذرة ، ثم تبيّن كذبه ، جميعاً يقتلان . وإذا أمسكت امرأةٌ عورةَ رجل تقطع يدها . وإذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات المنطوح ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه . ومن اضطجع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم . ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر ، وطلقها أو مات عنها ، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها . وغير ذلك من الآصار التي تقدم بعضها في آخر سورة البقرة ـ فراجعه ـ .

التاسع ـ قال الجشميّ : تدل الآية على أن شريعته صلى الله عليه وسلم أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة . وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدى إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النصرة . وهذا لا يختص بعصره . فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجة ، ووضع الكتب فيه ، وحل شبه المخالفين ، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا (منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل) اهـ .

العاشر ـ قال العلامة البقاعيّ : لما تراسلت الآى ، وطال المدى في أقاصيص موسى عليه السلام ، وبيان مناقبه العظام ، ومآثره الجسام ، وكان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً ، وأعظمهم رتبة ـ ساق سبحانه هذه الآيات ، هذا السياق ، على هذا

الوجه ، الذى بين أعلاهم مراتب ، وأزكاهم مناقب ، الذى خص برحمتـه من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلاً . وجعل سبحانه ذلك فى أثناء قصة بنى إسرائيل ، اهتماماً به ، وتعجيلاً له ، مع ما سيذكر ، مما يظهر أفضليته ، ويوضح أكمليته ، بقصته مع قومه ، فى مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه ، فى سورة (الأنفال) و (براءة) بكمالها .

ثم قال البقاعىّ : لما تم ما نظمه تعالى فى أثناء هذه القصص ، من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم ، حث على الإيمان به ، إيجاباً له على وجهٍ علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف ، تقدم زمانه أو تأخر ـ أمرَهُ سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه ، ويصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه ، تحقيقاً لعموم رسالته ، وشمول دعوته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » أى كافة « ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ » نعوتٌ للفظ الجلالة ، أى الذى أرسلنى هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة . والآية نصٌّ فى عموم بعثته للأحمر والأسود ، والعربىّ والعجمىّ . وفى الحديث : أعطيت خمساً لم يعطهن نبيٌّ قبلى ـ ولا أقولهن فخراً ـ بُعثت إلى الناس كافة ، الأحمر والأسود ؛ ونصرت بالرعب مسيرةَ شهر ؛ وأُحلّت لى الغنائم ، ولم تحلّ لأحد قبلى ؛ وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، فَأَخَّرْتُهَا لأمتى ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً . رواه الإمام أحمد[١] عن ابن عباس

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٤٢ (طبعة المعارف) .

مرفوعاً، ورواه(١) أيضاًعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أعطيت الليلةَ خمساً ما أعطيهن أحد قبلي . أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان مَنْ قبلي إنما يرسل إلى قومه ؛ ونُصرت على العدوّ بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لمُلئ منه رعباً ؛ وأحلت لى الغنائم ، آكلُها ؛ وكان من قبلي يُعَظِّمونَ أكلها ، كانوا يَحْرِقُونها ؛ وجُعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً ، أينما أدركتنى الصلاة تَمَسَّحْتُ وصليتُ وكان مَنْ قبلي يُعَظِّمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى بِيَعِهِمْ وكنائسهم ؛ والخامسة هى ما هى! قيل لى : سل ، فإن كل نبيّ قد سأل ، فأخرتُ مسألتى إلى يوم القيامة ، فهى لكم ، ولمن يشهد أن لا إله إلا الله .

قال الحافظ ابن كثير : إسنادهما جيد قويّ .

وروى الإمام أحمد بمعناه عن ابن عمر وأبى موسى ، وهو ثابت فى الصحيحين(٢) عن جابر .

وأخرج مسلم(٣) عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة ، يهوديّ ولا نصرانىّ ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار « فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ » أى الذى نبئ ما يرشد الخلائق كلهم ، مع كونه أمياً . وفى نعته بذلك زيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين « ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ » أى ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه « وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصحفة رقم ٢٢٢ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٠٦٨ (طبعة المعارف) .   (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٦ ـ باب قول النبىّ ﷺ « جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا » حديث رقم ٢٣١ .
ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ)

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ » أى : موقنين ثابتين ، يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ، ويرشدونهم « وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ » وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم ، لا يجورون . والآية سيقت لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كَتْبِ الرحمة والتقوى والإيمان بمتبعى رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام ، من كل خير ، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم . وقيل هم الذين آمنوا بالنبىّ ﷺ . ويأباه أنه قد مرّ ذكرهم فيما سلف . أفاده أبو السعود .

وهذه الآية كقوله تعالى (مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)(١) ، وقوله تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)(٢)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ، فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقَطَّعْنَٰهُمُ » أى قوم موسى « ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا » أى صيّرناهم قطعاً ، أى فرقاً ، وميزنا بعضهم من بعض . والأسباط : أولاد الولد ، وكانوا اثنتى عشرة قبيلة ، من اثنى عشر

(١) [٣ / آل عمران / ١١٣] . (٢) [٣/ آل عمران / ١٩٩] .

ولدًا ، من ولد يعقوب عليه السلام « أُمَمًا » أى عظيمة وجماعة كثيفة العدد « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ » أى فى التيه « أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ » فضربه « فَٱنۢبَجَسَتْ » أى انفجرت « مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا » بعدد الأسباط « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ » أى سبط منهم « مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ » فى التيه من حرّ الشمس « وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » حيث أوجبوا لها العذاب الدائم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦١] (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ، سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ » يعنى بيت المقدس، والقائل موسى عليه السلام، دعاهم إلى دخول بيت المقدس . أو يوشع ، فإنه دعاهم ، بعد وفاة موسى ، إلى غزو بيت المقدس « وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ » أى قولوا حُطَّ عنا ذنوبنا ، وقيل: أمروا بكلمة إذا قالوها حَطَّ عنهم أوزارهم « وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ » أى باب القرية « سُجَّدًا » أى ساجدين أو خاضعين . أُمِرُوا بأن يدخلوها بالتواضع ، وكان ذلك شرطًا فى قبول فعلهم « نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ)

« فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا »

أى عذاباً « مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » وقد تقدم تفسير هذا كله فى سورة البقرة[١] بما يغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

« وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » هذا السياق هو بسط لقوله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ)[٢] . فقوله تعالى (وَسْئَلْهُمْ) عطف على (اذكر) المقدر عند قوله (وَإِذْ قِيلَ) أى واسأل اليهود المعاصرين لك ، سؤال تقريع وتقرير ، بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله ، وإعلاماً بأن هذا من علومهم التى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى .

وقال ابن كثير : أى : واسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذّر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم .

و (هذه القرية) هى أيلة ، بين مدين والطور ، وقيل هى متنا ، بين مدين وعينونا . ومعنى كونها (حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ) أنها قريبة منه ، راكبة لشاطئه .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢ / البقرة / ٥٩] صفحة رقم ١٣٣ من التفسير .

(٢) [٢/ البقرة /٦٥].

وقوله تعالى : (إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ) أى يتجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطيادهم فى يوم السبت ، وقد نهوا عنه ، فقد أخذت عليهم العهود والمواثيق أن يحفظوا السبوت من عمل ما .

و (الحيتان) السمك ، وأكثر ماتستعمل العرب الحوت ، فى معنى السمكة .

و (شُرَّعًا) جمع شارع ، من (شرع) بمعنى دنا . يقال : شرع علينا فلان ، إذا دنا منا ، وأشرف علينا . وشرعت على فلان فى بيته ، فرأيته يفعل كذا . وهو حال من (حِيتَانُهُمْ) أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء ، قريبة من الساحل ، ويوم لايسبتون لاتأتيهم أصلًا إلى السبت المقبل .

قرئ (يُسْبِتُونَ) ثلاثيًّا ، ومزيداً فيه ، من (أسبت) معلوماً ومجهولًا أيضا ، بمعنى ، لايدخلون فى السبت ، ولا يدار عليهم .

وقوله تعالى (كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم) أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع ، نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء ، فى اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ، أى نعاملهم معاملة من يختبرهم ، بسبب فسقهم ، فيظهر عدوانهم ، فيستحقون المؤاخذة .

ثم بين تعالى تماديهم فى العدوان ، وعدم انزجارهم عنه ، بعد العظات والإنذارات ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ » أى جماعة من صلحائهم ، يحاورون فريقاً ممن دأب فى عظتهم « لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ » أى : مخترمهم ومطهر الأرض منهم « أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

عَذَابًا شَدِيدًا » أى بل معذبهم عذاباً شديداً ، إذ مجرد الإهلاك قد يوجد معه لطف ، وأما شدةالعذاب فتلك القاصمة « قَالُواْ » أى: الوعاظ « مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى نعظهم معذرة إليه تعالى ، لئلا ننسب إلى التفريط فى وصيته بالنهى عن المنكر . وقرئ بالرفع . أى موعظتنا معذرةٌ « وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى ورجاء فى أن يتقوا فيتوبوا فينجوا من الإهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

« فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ » أى فلما تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ، ترك الناسى للشىء ، وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً ، بحيث لم يخطر ببالهم شىء من تلك المواعظ أصلاً « أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى : المرتكبين المنكر .

« بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ » أى: شديد، وزناومعنى « بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » بفعل المنكر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ)

« فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ » ، أى تكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه « قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ » أى صاغرين أذلاء ، بُعَدَاءَ من الناس .

قال الزجاج : أمروا بأن يكونوا كذلك بقولٍ سُمِـعَ .

وقال غيره : المراد بالأمر هو الأمر التكوينىّ ، لا القولىّ ، أى: التكليفىّ ، لأنه ليس فى وسعهم حتى يؤمروا به . وفى الكلام استعارة تخييلية . شبه تأثير قدرته تعالى فى المراد من غير توقف ، ومن غير مزاولة عمل واستعمال آلة ، بأمر المطاع للمطيع ، فى حصول المأمور به ، من غير توقف . كذا فى (العناية) .

وظاهر الآية يقتضي أن الله تعالى عذبهم أوّلا بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك، فمسخهم. ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرا وتفصيلا لما قبلها .

تنبيهات :

الأول ـ قال الجشميّ : تدل الآية على أنهم تعبدوا بتحريم الصيد يوم السبت . وأنه شدد التكليف عليهم بظهورها يومئذ ، وأنهم خالفوا أمر الله، وهذا القدر يقتضيه الظاهر. ومتى قيل : أفظهور الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام ، هل كانت معجزة ؟ قلنا : اختلفوا فيه . فقيل : كان معجزة لنبيّ ذلك الزمان ، لأنه لا يتفق للسمك أن يأتي الأنهار كثيرا في يوم واحد ، ولا يظهر في سائر الأيام . فإن كان كذلك ، فلا بد أن الله تعالى قوّى دواعي الحيتان يوم السبت، فظهروا . وصرفهم في سائر الأيام، فلم يظهروا ، فكانت معجزة. وقيل : كانت جرت عادتهم بترك الصيد يوم السبت ، فعلموا ذلك فكثروا في ذلك اليوم على عادتهم ، كما اعتاد الدواب كثيرا من الأشياء . انتهى .

وقد روي في اعتدائهم في السبت روايات :

منها ـ أنهم تحيلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الحبائل والبرك قبل يوم السبت، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة ، نشبت بتلك الحبائل ، فلم تخلص منها يومها، فإذا كان الليل ، أخذوها بعد انقضاء السبت .

ومنها ـ أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل ، ولكن يأكلونها في غيره من الأيام، فتأول لهم الشيطان أن النهي عن الأكل فيه منها ، لا عن صيدها . فنهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت : ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف ، أو قذف ، أو بعض ما عنده من العذاب . فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم ، وإذا هم قردة ـ رواه عبد الرزاق وابن جرير ـ وثمة روايات أخر .

وروي عن مجاهد أنهم مسخت قلوبهم ، لا أبدانهم ـ والله أعلم ـ .

الثاني ـ استُدِلَّ بهذه القصة على تحريم الحِيَلِ .

قال الإمام ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) : ومن مكايد الشيطان التى كادَ بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع ، الذى يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط مافرضه ، ومضادته فى أمره ونهيه . وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه . فإن الرأى رأيان : رأى يوافق النصوص ، وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف ، وعملوا به . ورأى يخالف النصوص ، وتشهد له بالإبطال والإهدار ، فهو الذى ذموه وأنكروه . وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص المحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى، فهذا النوع محمود ، يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالماً ، والظالم مظلوماً، والحق باطلا ، والباطل حقا ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .

ثم ساق الوجوه العديدة على تحريمه وإبطاله . وقال فى سادسها :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لَمَّا احتالوا على إباحة ماحرمه الله تعالى عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد . قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية ، ممن يتلبس بعلم الفقه ، وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها . ليس المتحيلَ على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه . ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبا لموسى عليه السلام وكفرا بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل . واحتيال ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة ، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفى أوصافه شبه منهم ، وهو مخالف له فى الحد والحقيقة . فلما نَسَخَ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض ظاهره ، دون حقيقته ، مسخهم الله تعالى قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم ، دون الحقيقة ، جزاء وِفَاقاً .

ثم روى فى عاشرها عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ[(١)]: لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل .

الثالث ـ دلت الآيات على أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على صيد السمك يوم السبت ، كما بيّنا . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم . وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى نهيكم إياهم ؟ فأجابتها المنكرة : بأنا نفعل ذلك اعتذارا إلى ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ثم نص تعالى على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين .

وقال ابن كثير : وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين ، أو من الناجين ؟ على قولين . ويروى أن ابن عباس كان توقف فيهم ، ثم صار إلى نجاتهم ، لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه ، وخالفوهم ، وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ فكساه حلة .

الرابع ـ دل قوله تعالى (قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) على أن النهى عن المنكر لا يسقط ، ولو علم المنكِر عدم الفائدة فيه . إذ ليس من شرطه حصول الامتثال عنه ، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين ، والغيرة على حدود الله ، والاعتذار إليه تعالى ، إذ شدد فى تركه ـ لكفاه فائدة .

ولما ذكر تعالى بعض مساوئ اليهود ، تأثره ببيان أنه حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة فقال سبحانه :

---

(١) رواه أبو عبد الله بن بطّة . انظر : الجزء الأول من (إغاثة اللهفان) ص ٣٤٨ (طبعة مصطفى الحلبيّ) عام ١٣٥٧ هـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ، وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ » أى آذن ، (كتوعد بمعنى أوعد) . من (الإيذان) بمعنى (الإعلام) أُجْرِىَ مجرى فعل القسم ، كعلم الله ، وشهد الله . ولذلك أجيب بما يجاب به القسم ، وهو قوله : « لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ » والمعنى : وإذ حتم ربك وحكم ، ليسلطن على اليهود « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك ، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم . وقد بعث الله تعالى ، بعد سليمان عليه السلام ، بختنصر مالك بابل ، فخرب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وجلا كثيرا منهم إلى بابل ـ قصبة مملكته ـ وأقاموا فيها سبعين سنة ، ثم تسلطت عليهم ملوك شتى ، ولبثوا زماناً طويلا يكابدون بلاء عنيفاً ، من تواتر الحروب على بلادهم ، إلى أن صاروا جميعا تحت سلطة الرومان ، بعد ولادة عيسى عليه السلام بإحدى وسبعين سنة ، واستؤصلوا من أرضهم ، وتفرقوا فى البلاد شذر مذر ، صاغرين مقهورين . ومن هاهنا ، استدل من استدل بأنهم لا يكون لهم دولة ولا عز ، وباتصال ذلهم . « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ » لمن أقام على كفره ، ونبذ وصاياه «وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

ثم أخبر تعالى عن تبددهم فى الأقطار بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ، مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

«وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَماً » أى فرقنا بنى إسرائيل فى الأرض ، وجعلنا كل فرقة

منهم فى قطر من أقطارها ، بحيث لا تخلو ناحية منها ، منهم ، تكملة لإدبارهم ، حتى لا تكون لهم شوكة « مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ » أى من ينحط عن درجة الصلاح، لكفرٍ أوفسق « وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ » أى بالنعم والنقم التى هى أمثلة جزاء الصلاح والفسق « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن أسباب السيئات إلى الحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ، وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء المذكورين « خَلْفٌ » أى بدل سوء . والمراد بهم الذين كانوا فى زمن رسول ﷺ . و (الخلف) مصدر ، ولذا يوصف به المفرد وغيره ، وقد شاع فى الطالح، ومفتوح اللام بـ(الصالح) ، وربما جاء عكسه «وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ» أى التوراة من أسلافهم المختلفين ، يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهى ، والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها كما قال: « يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ » أى حطام هـذا الشىء الأدنى ، يريد الدنيا ، وما يتمتع به منها . وفى قوله (هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ) تخسيس وتحقير . و (العَرَض) بفتح الراء ، ما لا ثبات له ، ومنه استعار المتكلمون (العرض) لمقابل (الجوهر) . و (الأدنى) إما من الدنوّ بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب بالنسبة إلى الآخرة . وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها (وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » أى يتقاضون عن بذل الحق ونشره ، بعرض الحياة الدنيا ، ويتحكمون على الله تعالى بأنه لا يؤاخذهم بما أخذوا « وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ » الواو للحال ، أى يرجون المغفرة ، وهم مصرّون

عائدون إلى مثل فعلهم ، غير تائبين ، كلما لاح لهم مثل الأول أخذوه . « أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ » أي الميثاق الوارد فيه « أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ » أي فلو صح ما تحكموا به على الله ، لم يكن لأخذ هذا الميثاق معنى .

ثم أخبر تعالى أن أخذهم ليس عن جهلهم بذلك الميثاق بقوله : « وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ » أي قرأوا ما فى الكتاب من الميثاق مرة بعد مرة «وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ » أي من ذلك العرض الخسيس « لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أي أخذ هذا الأدنى بدل كتم الحق «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أي فتعلموا ذلك ، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى إلى العقاب ، بالنعيم المخلد . وقرىء بالياء . وفى الالتفات تشديد للتوبيخ .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ)

«وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ» أي يتمسكون به فى أمور دينهم. يقال: مسّك بالشيء وتمسك به . وقرىء يُمْسِكون ، من (الإمساك) وتمسكوا واستمسكوا « وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ » من وضع الظاهر موضع المضمر ، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع ، لأن التعليق بالمشتق يفيد علة مأخذ الاشتقاق ، فكأنه قيل : لا نضيع أجرهم لإصلاحهم . فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت ؟ أجيب : بأن إفرادها ، إظهارا لمزية الصلاة ـ لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان .

قال الجشميّ : تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب ، ووعد من تمسّك به، تنبيهاً

لنا وتحذيراً عن سلوك طريقهم . وتدل على أن الاستغفار باللسان ، وتمنى المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

«وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» أى رفعناه «كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ» أى سحابة «وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ» أى ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت فى الجوّ «خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم» أى وقلنا، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من أحكام التوراة «بِقُوَّةٍ» أى عزيمة وجد «وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ» أى بالعمل ولا تتركوه كالمنسىّ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى مساوئ الأعمال ، أو راجين أن تنظموا فى سلك المتقين . وهذه الآية كقوله تعالى (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ)(١).

وقد روى عن ابن عباس وغيره من السلف : أنهم راجعوا موسى فى فرائض التوراة وشرائعها ، حتى رفع الله الجبل فوق رءوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها ، لأرمينكم بهذا! فخرُّوا سجَّداً ، فرَقاً من أن يسقط عليهم ـ رواه النسائىّ(٢) وسنيد ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧٢] (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُواْ بَلَىٰ ، شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى أخرج من أصلابهم

(١) [٤ / النساء / ١٥٤] . (٢) لم أهتد إليه .

نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ، من أنهم كانوا نطفة قذفت إلى رحم الأمهات ، ثم جعلت علقة ، ثم مضغة ، ثم أنشأهم بشراً سويًّا حيًّا مكلفاً ، فجعل خلقه إياهم كذلك ، إخراجاً من أصلابهم ، لأن أصلهم خرج منها . و (مِن ظُهُورِهِمْ) بدل من (بَنِيٓ ءَادَمَ) بدل البعض . وقرئ (ذرياتهم) « وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها ، تقريراً لهم بربوبيته التامة .

قال الجشميّ : أى أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقته ، وغرائب صنعته ، من أعضاء سوية ، وحواس مدركة ، وجوارح ظاهرة ، وأعصاب وعروق وغير ذلك ، مما يعلمه من تفكر فيه ، وكلها تدل عليه وعلى صفاته ووحدانيته ، فبالإشهاد بالأدلة ، صار كأنه أشهدهم بقوله .

وقوله تعالى « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) على إرادة القول ، أى قائلا : ألست بربكم ، ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شؤونكم ، فينتظم استحقاق المعبودية ، ويستلزم اختصاصه به تعالى « قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ » أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك ، لأنهم بما ظهر عليهم من آثار الصنعة ، صاروا كأنهم قالوا (بلى) ، وإن لم يكن هناك قول باللسان . فالآية من باب التمثيل المعروف فى كلام العرب . مثّل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد ، وإخراجهم من ظهور آبائهم ، شاهدين بربوبيته شهادة لا يخالجها ريب ، بحمله إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ، ومسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلًا . والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية ، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة . قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ) (١) والفطرة هى معرفة ربوبيته .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] .

وفى الصحيحين [1] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أوينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ .

والجمعاء سالمة الأذن ، والجدعاء مقطوعتها .

وفى صحيح مسلم [2] عن عياض بن حمار قال رسول الله ﷺ : يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم .

وروى الطبرى عن الحسن عن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله ﷺ : كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهوّدانها أوينصّرانها .

قال الحسن : والله لقد قال الله فى كتابه (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ...) الآية ـ رواه الإمام أحمد [3] والنسائى ، بدون استشهاد الحسن بالآية .

وأما الأخبار المروية فى إخراج الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتكليمه تعالى إياهم ، ونطقهم ، ثم إعادتهم إلى صلب أبيهم ـ فغير صحيحة الإسناد . وما حَسُنَ إسناده منها فغير صريح فى ذلك ، بل هو أقرب إلى ألفاظ الآية ، كما بينه الحافظ ابن كثير . قال رحمه الله :

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهـذا الإشهاد فطرهم على التوحيد ، كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض والأسود . وقد فسر الحسن الآية بذلك .

قالوا : ومعنى (أشهدهم) أى أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالا . والشهادة

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٠ ـ باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبىّ الإسلام ، حديث ٧١٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ ـ ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٥١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا) ضمن حديث طويل. (٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

تارة تـكون بالقول ، كقوله (قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا)(١) الآية ـ وتارة تـكون حالا كقوله تعـالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ)(٢) أى حالهم شاهداً عليهم بذلك لأنهم قائلون ذلك. وكذا قوله تعالى (وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)(٣) كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله : (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)(٤) .

قالوا : ومما يدل على أن المراد هذا، أن جعل الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله ، لـكان كل أحد يذكره ليـكون حجة عليه . فإن قيـل : إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده ، فالجواب : أن المـكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد .

« أَن تَقُولُواْ » أى كراهة أن تقولوا « يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى الذى يسأل فيه عن الربوبية والتوحيد « إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا » أى عن ربوبيته وتوحيده « غَٰفِلِينَ » أى لم ننبه عليه . فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر ، صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك . إذ لا سبيل لأحد إلى إنـكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا » أى سنوا الإشراك واخترعوه « مِن قَبْلُ » أى من قبل زماننا « وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ » أى فنشأنا على طريقهم، احتجاجاً بالتقليد،

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٧] .
(٣) [١٠٠ / العاديات / ٧] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] .

وتعويلا عليه ، فقد قطعنا العذر بما بيّنا من الآيات « أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » أى أتؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك ، وأسسوا من الباطل ، أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول ، وأقوال الرسل ؟ والاستفهام للإنكار ، أى أنت حكيم لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ، وقد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل . والمعنى : أزلنا الشبهتين بأن الإقرار بالربوبية والتوحيد ، هو فى أصل فطرتكم ، فلم لم ترجعوا إليه عند دعوة العقول والرسل ؟ والفطرة أكبر دليل ، فهى تسد باب الاعتذار بوجهٍ ما . لا سيا والتقليد عند قيام الدلائل ، والقدرة على الاستدلال بها ، مما لا مساغ له أصلا .

تنبيهات

الأول ـ وافق الإمام ابن كثير ، فى هذا المقام أيضا الجشمىّ فى تفسيره ، قال :

ويروى أصحاب الحديث عن أسلافهم من الآثار موقوفة ومرفوعة ، ويجعلون ذلك تأويلا للآية ، وهو أنه تعالى مسح ظهر آدم ، فأخرج منه ذريته ، أمثال الذر ، فقال : ألست بربكم ؟ فقالوا : بلى طائعين . ثم أعادهم فى صلب آدم . وإن تأويل الآية على ذلك .

قال : وقد ذكر مشايخنا رحمهم الله أن ذلك فاسد ، وأن ظاهر الآية يخالف ذلك ، وذكروا فى الرواية ما نذكره . قالوا : فمما يدل على فساده وجوه .

منها : أنه لو كان حالٌ كما ذكروا ، لذكرناه ، لأن مثل ذلك الأمر العظيم لا ينساه العاقل ، خصوصاً إذا كان إشهاداً عليه ، ليعمل به .

ومنها : ما ذكره شيخنا أبو علىّ ، أن ظهر آدم لا يسع هذا الجمع العظيم ، وهذا شنيع من الكلام .

ومنها : أنه ذكر أنه خلقنا من نطفة ، وكل ولد ولد من أب ومن نطفة ، فلو خلقهم ابتداء لا من شىء ، لم يصح ذلك .

ومنها : أن الجزء الواحد ، لا يجوز أن يكون حيًّا عاقلًا ، لأن تلك البنية ، لا تحمل الحياة ، فلا بد من أن يكون مؤلفاً من أجزاء ، وحينئذ لا يصح أن يكون الجميع فى ظهر آدم .

ومنها : أنه يفتح باب التناسخ ، والقول بالرجعة ، لأن لهم أن يقولوا : إذا جاز الإعادة ثمة ، لم ينكر التناسخ .

ومنها : أنه لابد أن يكون فيه فائدة ، وفائدته أن يذكره ليجرى على تلك الطريقة ، وإذا لم يذكره بطلت فائدته .

ومنها : أن الاعتراف لا يصح إلا وقد تقدم حال لهم عرفوا ذلك ، فكيف يصح فى ابتداء الخلق ، إلى غير ذلك مما لا يقبله العقل .

ثم قال : قال مشايخنا رحمهم الله : والآية ظاهرها بخلاف قولهم من وجوه :

منها : أنه قال : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ) ولم يقل (من آدم) . وقال : (مِن ظُهُورِهِمْ) ولم يقل (من ظهره) . وقال (ذُرِّيَّتَهُمْ) ولم يقل (ذريته) .

ومنها : أنه قال : (أَن تَقُولُواْ) يعنى فعل ذلك ، لكيلا تقولوا : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ . وأى غفلة أعظم من أن جميع العقلاء لايذكرون شيئاً من ذلك .

ومنها : أنه قال : (إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا) ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك . وكل ذلك يبين فساد ما قالوا . ولم يصحح أحد من مشايخنا هذه الرواية ، ولا قبلها ، بل ردها . غير أبى بكر أحمد بن علىّ ، فإنه جوّز ذلك من غير قطع على صحته . غير أنه قال : ليس ذلك بتأويل الآية ، وذكر أن فائدة ذلك أن يجروا على الأعراق الكريمة فى شكر النعمة ، والإقرار بالربوبية . كما قال : إنهم ولدوا على الفطرة . قال: وأخرجهم كالذر ثم ألهمهم حتى قالوا بلى . انتهى ما قاله الجشمىّ .

الثانى ـ تدل الآية على فساد التقليد فى الدين ، وتدل على أنه تعالى أزال العذر ، وأزاح العلة ، وبعدها لايعذر أحد . ذكره الجشمىّ .

الثالث ـ استدل بهذه الآية والأحاديث المتقدمة فى معناها ، أن معرفته تعالى فطرية ضرورية؛ قال تعالى[1] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ) وقال تعالى[2] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ١٠] . (٢) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] .

مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ). (قُلْ [١] مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

وعن عمران بن حصين قال : قال النبيّ ﷺ لأبى : ياحصين : كم تعبد اليوم إلها؟ قال أبى: سبعة ستا فى الأرض ، وواحداً فى السماء ! قال : فأيهم تَعُدُّ لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذى فى السماء ـ رواه الترمذىّ [٢] ـ فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيد ، حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصطلماً لا يفهم شيئاً ، ما يحلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس ، فطرة بالغة .

قال التقى ابن تيمية : إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطرىّ ضرورىّ فى نفوس الناس . وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته ، حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حذاق النظار ؛ أن المعرفة تحصل بالضرورة ، وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته ، كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين .

وقال أيضاً : ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة ، ولا طريق لها إلا بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد . وهذا القول إنما اشتهر فى الأمة عن المعتزلة ونحوهم . ولهذا قال أبو جعفر السمنانىّ وغيره : إيجاب الأشعرىّ النظر فى المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال .

وذكر رحمه الله أن الذى يدل عليه كلام الأئمة والسلف ـ وهو أعدل الأقوال ـ أن النظر يجب فى حال دون حال ، وعلى شخص دون شخص . فوجوبه من العوارض التى تجب على بعض الناس فى بعض الأحوال ، لا من اللوازم العامة . والذين أوجبوا النظر ليس معهم مايدل على عموم وجوبه ، إنما يدل على أنه قد يجب ، كقوله تعالى [٣]: (قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٨٦ و ٨٧] . (٢) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٦٩ ـ باب حدثنا أحمد بن منيع . (٣) [١٠ / يونس / ١٠١] .

وَٱلْأَرْضِ) وقوله[1] (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ) فإنه خطاب مع المتكبرين الجاحدين ، أمروا بالنظر ، ليعرفوا الحق ، ويقرّوا به، ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء .

قال أبو حيّان التوحيديّ فى (مقابساته) فى المقابسة الثانية والأربعين : قيل لأبى الخير: حدثنا عن معرفة الله، تقدس وعلا، ضرورةٌ هى أم استدلال ؟ فإن المتكلمين فى هذا اختلفوا اختلافاً شديداً ، وتنابذوا عليه تنابذاً بعيداً ، ونحب أن يحصل لنا جواب ، فيفسر على حد الاختصار مع البيان .

فقال : هى ضرورة من ناحية العقل، واستدلال من ناحية الحسّ. ولما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطلب بالعقل فى المعقول ، أو بالحس فى المحسوس ، ساغ أن يظن مرة أن معرفته تعالى اكتساب واستدلال ، لأن الحس يتصفح ويستقوى بمؤازرة العقل ومظاهرته وتحصيله . وأن يظن تارة أنها ضرورة ، فإن العقل السليم من الآفة ، البرىء من العاهة ، يحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه ، ويحظر على صاحبه جحده وإنكاره والتشكك فيه ، لكن ضرورة لائقة بالعقل. لأن ضرورة العقل ليست كضرورة الحس. لأن ضرورة الحس فيها جذب واختيار، وحمل وإكراه. وضرورة العقل لطيفة جدًّا . لأنه يعظ ويلاطف وينصح ويخفف .

ثم ضرب مثلاً لطيفاً ، وقال بعده : فعلى هذا ، فإن الله تقدس اسمه ، معروف عند العقل بالاضطرار ، لا ريب عنده فى وجوده ، ومستدل عليه عند الحس ، لأنه يستحيل كثيراً ، ولا يثبت أصلًا، فمن استدل ترقى من الجزئيات . ومن ادعى الاضطرار انحدر من الكليات. وكلا الطريقين قد وضح بهذا الاعتبار ، وكُفِى مؤونة الخبط والإكثار . فأما ما ينظر منه فى الجدال، فلا يرث منه إلا الشك والفرقة والحمية والعصبيّة. وهناك للهوى ولادة وحضانة، وللباطل استيلاء وجولة ، وللحيرة ركود وإقامة . أخذ الله بأيدينا ، وكفانا الهوى الذى يؤذينا ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى:

(١) [٨٦ / الطارق / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى مثل ما ذكرنا ، نبيّن الأدلة والحجج ، ليرجعوا إلى الحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ)

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على قومك أو على اليهود « نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا » أى علم الكتاب ، فلطف به حتى تعلم وفهم المعانى ، وصار عالماً بها « فَٱنسَلَخَ مِنْهَا » بأن نزع العلم عنه ، فكفر بها ، وخرج منها خروج الحية من جلدها « فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى فلحقه وأدركه وصار قريناً له حتى أضله « فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ، فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا » أى لعظمناه بالعمل بها « وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ » أى مال إلى الدنيا ، ورغب فيها « وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث » وذلك لأنه استوى فى حقه إيتاء الآيات ، والتكليف بها ، والتعظيم من أجلها ، وعدم ذلك . كالكلب يدلع لسانه بكل حال ، إن تحمل عليه ، أى

تشدّ عليه وتهيجه ، أو تتركه غير متعرض له بالحمل عليه ، فلهثه موجود فى الحالتين جميعاً «ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا »أى من التوراة أو غيرها « فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ)

«سَآءَ مَثَلًا» أى ما مثل به « ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا » أى حيث شبهوا بالكلاب، إما فى استواء الحالتين فى النقصان ، وأنهم ضالون ، وعظوا أم لم يوعظوا كما قدمنا . وإما فى الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز الهدى والعلم ، وأقبل على هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله . ولهذا ثبت فى الصحيح عنه ﷺ قال[١] : ليس لنا مثل السوء . العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه . « وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ » اعلم أن من السلف من ذهب إلى أن هذه الآية مثل ضربه الله لمن عرض عليه الإيمان فأبى أن يقبله وتركه، وهو قول قتادة وعكرمة واختاره أبو مسلم، حيث قال : قوله (ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا) أى بيناها، فلم يقبل، وعرى منها. وسواء قولك: انسلخ وعرى وتباعد . وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة ، وأقام على الكفر . قال : ونظيره قوله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم)[٢] وقال فى حق فرعون : (وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ)[٣] . ومنهم من ذهب إلى أن الموصول فيها أريد به معيّن ، فروى عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيّب وزيد بن

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٣٠ ـ باب لا يحل لأحد أن يرجع فى هبته وصدقته ، حديث رقم ١٢٦٤ عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٢٤ ـ كتاب الهبات ، حديث ٥ ـ ٨ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٤٧] . (٣) [٢٠ / طه / ٥٦] .

أسلم وأبي روق أنه أمية بن أبي الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام » حسده ، ثم مات كافراً ، ولم يؤمن بالنبيّ ﷺ . وهو الذى قال فيه رسول الله[1] (إنه آمن شعره وكفر قلبه) يريد أن شعره كشعر المؤمنين ، وذلك أنه يوحد الله في شعره ، ويذكر دلائل توحيده .

وقيل : نزلت في أبي عامر الراهب ، الذى سماه النبيّ ﷺ (الفاسق) ، كان يترهب في الجاهلية . فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق ، وأتى قيصر واستنجده على النبيّ ﷺ ، فمات هناك طريداً وحيداً . وهو قول سعيد ابن المسيّب .

وقيل نزلت في منافقى أهل الكتاب . كانوا يعرفون النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنكروه . عن الحسن والأصم .

وقيل: إنه فرعون. والآيات آيات موسى، كأنه لما اقتص أنباء بني إسرائيل عاد إلى قصة فرعون وضرب له المثل .

ومن الأقوال التى تناقلها المفسرون أنها نزلت في بلعام بن بَعُور ، ويحكون عنه قصة لم تُرْوَ في جوامع الآثار الصحيحة عندنا ، ولا هي مطابقة لما عند أهل الكتاب . فقد ذكر نبؤه في الفصل الثاني والعشرين والثالث والعشرين من سفر العدد، من تاريخ التوراة، بغير ما يرويه المفسرون عنه . ثم رأيت الجشميّ لم يصحح ذلك ، فحمدت المولى على الموافقة . وعبارته :

« وعن مجاهد قال : هو نبي يقال له بلعم . رشاه قومه فكفر . وهذا لا يجوز ، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر . لأن ذلك ينفّر الخلق عن الأنبياء ، والقبول منهم ، ويحقرهم

(١) في كشف الخفاء رقم ١٩، رواه أبو بكر بن الأنباريّ في كتاب المصاحف، والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس . قال المناوى : وسند الحديث ضعيف .

فى النفوس ، ولأنهم حجج الله على خلقـــه ، اصطفاهم . فالأقرب أنه لا يصح عن مجاهد » ـ انتهى ـ وهو كذلك لأن من قرأ نبأه فى السفر المتقدم ، رأى من ثباته ، وعدم موافقته لبالاق ، ملك مؤاب ، على ما أراده منه ـ ما يبرئه عن ذلك .

تنبيه :

قال الجشمىّ : إن قيل : كيف تتصل الآية بما قبلها ؟ قلنا : على القول بأنه عنى بهـــا فرعون فقد اتصلت قصته بقصة بنى إسرائيل . وقيل لما نهى عن تقليد الآباء فى الدين ، بيّن فى هذه الآية حال علماء السوء، الذين يختارون الدنيا على الآخرة . نهياً عن تقليدهم واتباعهم، كما نهى عن تقليد الآباء . وقيل : لـــا تقدم ذكر أخذ الميثاق ، بين حال من آتاه الله الآيات فانسلخ منها ولم يتبعها . ا هـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ، وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

«مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ» قال أبو السعود: لما أمر النبىّ ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ، ليتفـكروا فيه ، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق ـ عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء، من غير تأثيرها فيه ، سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله ، حسبما نيط به خلق الله تعالى إياه ، كسائر أفعال العباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ، أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ)

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا » أي خلقنا « لِجَهَنَّمَ » أي لدخولها والتعذيب بها « كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ » وهم الكفار من الفريقين، الموصوفون بقوله تعالى: « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا» أي آيات الله الهادية إلى الكمالات « وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا » أي دلائل وحدته ، بصرَ اعتبار « وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا » أي الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، يعني أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية ، كما قال تعالى[١] (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ) . «أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ » أي السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتها ، كقوله تعالى : (وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً »[٢] أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان ، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها ، لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول. وقوله تعالى: « بَلْ هُمْ أَضَلُّ »أي الأنعام، إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكمالات ودفع تلك النقائص. وهم مع ما لهم من تلك القوة قد خلوا عن الكمالات ، وعن دفع أضدادها ، فكانوا أردأ حالًا منها ، لنقصهم مع وجود قوة الكمال فيهم . وأيضاً : الأنعام تبصر منافعها ومضارها ، فتلزم بعض ما تبصره . وهؤلاء ، أكثرهم يعلم أنه معاند ، فيقدم على النار . وأيضاً : الأنعام قد تستجيب لراعيها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، وأيضا : إنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها ، وإما بتسخيرها ، بخلاف هؤلاء ؛ فإنهم خلقوا ليعبدوا الله ، ويوحدوه ،

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧١] .

فكفروا به وأشركوا «أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ» أى عن تلك الكمالات والنقائص، ليهتموا لتحصيلها ودفعها ، اهتمامهم لجر المنافع الدنيوية ، ودفع مضارّها .

تنبيه :

قال أبو السعود : المراد بهؤلاء الذين ذُرئوا لجهنم ، الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، لكن لا بطريق الجبر، من غير أن يكون من قِبَلِهِمْ مايؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدًا ، بل يصرّون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر . فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيًّا بها ، كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرىّ للعبادة، وتمكنهم التام منها ، جعل خلقهم مغيًّا بها . كما نطق به قوله تعالى[1] : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » روى مقاتل أن رجلًا دعا الله فى صلاته ، ودعا الرحمن . فقال بعض المشركين : إن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربًّا واحدًا ، فما بال هذا يدعو اثنين ؟ فنزلت الآية . و (الحسنى) تأنيث (الأحسن) . والمعنى : لله الأسماء التى هى أحسن الأسماء وأجلها، لإنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها «فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ » أى يميلون عن الإقرار بها ويجحدونها ، ويعدلون عنها كفرًا بها . كقوله تعالى[2]: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) أى زادهم ذكر الرحمن نفورًا . ولذا قال تعالى[3]: (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ). وقوله تعالى «سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ» يعنى فى الآخرة ، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها .

(١) [٥١/الذاريات/٥٦]. (٢) [٢٥/ الفرقان /٦٠]. (٣) [١٧/ الإسراء/ ١١٠].

تنبيهات

الأول ـ قال السيد محمد بن المرتضى اليمانيّ فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال هـذا الرب الكريم . وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد ، الذى لا بد منه. لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عدّ مذهب الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكائدهم للإسلام . فإنهم عكسوا المعلوم عقلا وسمعاً . فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفى والجحد المحض . وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ . . .) الآية . وقال[١] (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ) الآية ـ فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله ، وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه . وما كان فى الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هـذه المرتبة ، أو كان مختلفاً فى صحته ، لم يصح استعماله . فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمى به . انتهى .

الثانى ـ روى الشيخان[٢] عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجـنة ، والله وترٌ يحب الوتر . وفى رواية : من أحصاها . قال البخاريّ[٣] : أحصيناه : حفظناه وأخرجه الترمذىّ[٤] وزاد سوق الأسماء معدودة:

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٦٨ ـ باب لله مائة اسم غير واحد ، حديث رقم ١٣١٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٥و٦ (طبعتنا) . (٣) أخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٢ ـ باب إن لله مائة اسم إلا واحدا.

(٤) أخرجه الترمذىّ فى ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨٢ ـ باب حدثنا يوسف بن حماد البصرى.

ثم قال : ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن ماجة[1] أيضاً . فسرد الأسماء بزيادة ونقصان .

قال الحافظ ابن كثير : والذى عول عليه جماعة من الحفاظ ؛ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانىّ عن زهير ابن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أى أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوىّ . انتهى .

وقال النووىّ : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى . وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما المقصود من الحديث الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصرها . ولهذا جاء فى الحديث[2] الآخر : أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . وقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربىّ المالكىّ عن بعضهم ؛ أن لله ألف اسم . انتهى .

وقال السيد اليمانىّ[3] فى (إيثار الحق) : عادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء ، ولا ينبغى ترك شىء منها ، ولا اختصاره ! فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم . ولو كان منها شىء لا ينبغى اعتقاده ولا ذكره ، ما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم . وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد فى الحديث المشهور فى تعدادها ، مع الاختلاف الشهير فى صحته . وحسبك أن البخارىّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه ، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم فى وعده ، من أحصاها ، بالجنة كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء . فأما إذا كانت أسماؤه سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما فى كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر وقد

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١٠ ـ باب أسماء الله عزوجل ، حديث ٣٨٦٠ و٣٨٦١ (طبعتنا) (٢) من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) (٣) الصفحة رقم ١٦٩ .

ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروىّ بالضرورة والنص . أما الضرورة ، فإن فى كتاب الله أكثر من ذلك . وأما النص ، فحديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال [١] : ما قال عبد أصابه همّ أو حزن : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً ـ رواه أحمد ، وأبو عوانة فى (صحيحه) وأبو يعلى والبزار .

ثم أخذ اليمانىّ يذكر ماوجده من الأسماء منصوصاً ، غير معرِّج على التقليد . فانظره فى (إيثار الحق) ، فإنه جوّد البحث بمنزع شريف .

الثالث ـ قال بعض مفسرى الزيدية فى قوله تعالى (فَادْعُوهُ بِهَا) : المعنى سموه بها ، وفى ذلك أمر بدعائه بالأسماء الحسنى ، وهو أمر ندب إذا حمل على التلاوة بالتسعة والتسعين ، وحث على ذلك فى الحديث عنه ﷺ . وإن أريد التسمية بما فيه مدح ، دون ما فيه إلحاد ، فذلك وجوب .

الرابع ـ قال السيد اليمانىّ فى (إيثار الحق) : هل يجوز تسمية محامد الرب تعالى وأسمائه الحسنى صفات له سبحانه وتعالى ؟ قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) [٢] وذكر أهل التفسير واللغة أنه الوصف الأعلى ، وكذلك جاء فى كلام علىّ عليه السلام أنه قال : فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ـ ذكره السيد أبو طالب فى (الأمالى) بإسناده ، والسيد الرضى فى (النهج) كلاهما فى جوابه عليه السلام ، على الذى قال له :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) . (٢) [١٦ / النحل / ٦٠] .

صف لنا نار ربنا ـ وهذا لا يعارض قوله عز وجل (سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)[1] لأنه لم ينزه ذاته عن الوصف مطلقاً ، حتى يعم الوصف الحسن ، وإنما ينزه عن وصفهم له بالباطل القبيح . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ)

« وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ » أى للجنة ، لأنه فى مقابلة (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)[2] ـ قاله النسفىّ ـ « أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ » أى يدعون إليه « وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ » أى يعملون ويقضون. وقد جاء فى الآثار ؛ أن المراد بالأمة ، هذه الأمة المحمدية . وقال قتادة : بلغنا أن النبىّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها. وعن الربيع بن أنس ـ فى هذه الآية ـ قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل . وفى الصحيحين[3] عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة. وفى رواية : حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

قال الشهاب : استدل بالآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر ، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » حديث رقم ٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧٤و١٧٥ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنأخذهم بالعذاب من طريق لا يعلمونها ، أو نفتح لهم من الأحوال ما يلائم أهويتهم ، ثم نهلكهم . وأصل الاستدراج : أن يتدرج إلى الشىء قليلًا قليلًا ، تشبيهاً بمن يرقى درجة درجة ، حتى ينتهى إلى العلوّ . وقيل : أصله من الدرج الذى يطوى فكأنه يطوى منزلة بعد منزلة ، كما يطوى الدرج . وقيل : لأنه من الدرجة فيكون ، لأنه ينحط درجة بعد درجة حتى ينتهى إلى حال الهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ)

« وَأُمْلِى لَهُمْ » أى أمهلهم ليزدادوا إثماً « إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ » أى قوىّ شديد . والمعنيّون بهذا الخطاب كفار مكة . قال فى (التنوير) : هم أبو جهل وأصحابه المستهزئون ، أخذهم الله بعذابه فى يوم (أُحُد) ، وأهلك كل واحد بهلاكٍ غير هلاك صاحبه . انتهى . ويدل قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ » أى كما يختلقون . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى : أو لم يتفكروا فى أنه ليس بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق ، شىء من جنة . وجوّز أن يكون الكلام تمّ عند قوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ) إنكاراً لعدم تفكرهم فى شأنه ، الموقف على صدقه ، وصحة نبوته . ثم ابتدأ نفى الجنة عنه تعجيباً وتبكيتاً .

و(الجِنَّةُ) مصدر ، كالجلسة ، بمعنى الجنون ، وليس المراد به الجن . كما فى قوله تعالى[١] : (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) ، لأنه يحوج إلى تقدير مضاف ، أى مسّ جنة أو تخبطها . والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيذان بأن طول مصاحبتهم له ، مما يطلعهم على نزاهته عما ذكر ، ففيه تأكيد للنكير ، وتشديد له « إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى رسول مخوّف « مُّبِينٌ » أى موضح إنذاره ، مبالغة فى الإعذار . ولما نعى عليهم تفكرهم فى شأنه ﷺ ، أنكر إخلالهم فى التأمل بالآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس ، الشاهدة بصحة الآيات المنزلة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ)

« أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ » أى نظر استدلال « فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ » من الشمس والقمر والنجوم والسحاب . والملكوت : الملك العظيم « وَٱلْأَرْضِ » أى وفى ملكوت الأرض ، من البحار والجبال والدواب والشجر « وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ » أى وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم (الشيء) ، من أجناس لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها الوصف « وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ » عطف على (ملكوت) . أى فى احتمال أن يهلكوا عما قريب ، فيفارقوا الدنيا ، وهم على أتعس الأحوال « فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ » أى القرآن « يُؤْمِنُونَ » أى إذا لم يؤمنوا به ، وهو المعجز الجامع لكل مايفيد الهداية . وفى هذا قطع لاحتمال إيمانهم رأسًا ، ونفى له بالكلية .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على وجوب النظر فى الأدلة ، وأنها طريق المعرفة . وتدل على أنه لا شيء ينظر فيه ، إلا ويعرف الله تعالى به ..

(١) [١١٤ / الناس / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ، وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ)

«مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ» أى فى كفرهم يتحيرون. يعنى أن من كتب عليـه الضلالة ، فلا يهديه أحد ، ولا يغنيه النظر ، ولا الإنذار. كما قال تعالى(١): (قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ)(٢) (وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ » أى عن قيامها وحينها « أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا » أى متى إرساؤها أو وقت إرسائها ، أى إثباتها وإقرارها . والرسوّ يستعمل فى الأجسام الثقيلة ، وإطلاقه على المعانى ، تشبيهاً لها بالأجسام « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ » أى لا يظهرها فى وقتها إلا هو « ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى عظمت و كبرت على أهلهما لهولها وما فيها من المحاسبة والمجازاة . أو ثقل علم وقتها على أهلهما . أو عظم وصفها على أهل السموات والأرض ، من انتشار النجوم ، وتـكوير الشمس ، وتسيير الجبـال « لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً » أى فجأة على حين غفلة منكم « يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا »

---

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] .

أى عالم بها « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّـهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن علمها عند الله ، لم يؤته أحدًا من خلقه .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت . لم كرر (يَسْـَٔلُونَكَ) و (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّـهِ) ؟ قلت: للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله : (كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا) وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق فى كتبهم ، لا يُخلون المكرر من فائدة زائدة . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع من التكرير نكتة لا تلفى إلا فى الكتاب العزيز ، وهو أجلّ من أن يشارك فيها . وذاك أن المعهود فى أمثال هذا التكرير ، أن الكلام إذا بُنى على مقصد ، واعترض فى أثنائه عارض ، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول، وقد بعد عهده ، طُرّى بذكر المقصد الأول ، لتتصل نهايته ببدايته . وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتى ، وهذا منها . فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى) إلى قوله (بَغْتَةً) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن فى قوله : (كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا) وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده ، فطُرِّىَ ذكره تطرية عامة ، ولا نراه أبدا يطرى إلا بنوع من الإجمال ، كالتذكرة للأول، مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فمن ثم قيل : (يَسْـَٔلُونَكَ) ولم يذكر المسؤول عنه ، وهو (الساعة) اكتفاء بما تقدم فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملًا ، فقال : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّـهِ) . ويلاحظ هذا فى تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفتْ عليه العرب فى هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد ، تطرية للذكر ، قوله :

عَجِّلْ لَنَا هذا وألحقنا بذا ال ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ الشحم إنا قد مللناه بَجَلْ

أى فقط ، فذكر الألف واللام ، خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثانى ، استبعد العهد بالأولى ، فطرِّىَ ذكرها ، وأبقى الأولى فى مكانها . ومن ثم استدلّ ابن جنى .

على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء ، فهو بيت كامل ، وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن . قال : ولو كان بيتاً واحداً ، لم يكن عهد الأولى متباعداً ، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها . ألا ترى أن عَبِيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات ، وجعل آخر المصراع الأول (أل) لم يعدها أول المصراع الثانى ، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قول عبيد ابن الأبرص الأسدىّ :

يا خليلىّ ارْبَعَا وَاسْتَخْبِرا الْ — مَنْزِلَ الدَّارِسَ عَنْ أَهْلِ الْحِلَالِ
مِثْلَ سَحْقِ الْبُرْدِ عَفَّى بَعْدَكَ الْ — قَطْرُ مَغْنَاهُ وَتَأْوِيبُ الشَّمَالِ

اربعا : أقيما . الحلال : اسم امرأة . سَحْق البرد : يريد مثل البرد المسحوق أى البالى . وعفى ، بالتشديد : محا . القطر : المطر . مغناه . هو الموضع الذى كانوا يسكنونه . والشمال ـ بالفتح والكسر ـ من الرياح ، مامهبّه من مطلع الشمس وبنات نعش . وهى لاتكاد تهب ليلا . وتأويبها : هبوبها النهار كله) ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً . فانظر هذه النكته ، كيف بالغت العرب فى رعايتها ، حتى عدت القريب بعيداً ، والمتقاصر مديداً . فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان، فى صناعتى العربية والبيان ، والله المستعان ـ انتهى ـ .

(والقصيدة بتمامها فى (مختارات ابن الشجرىّ) بالصفحة رقم ٣٧)

ثم أمره تعالى أن يخبر بعبوديته الكاملة، بما ينبئ عن عجزه عن علم الساعة بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ، إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لا أقدر ، لأجل نفسى ، على جلب نفعٍ مّا،

ولا على دفع ضرٍّ ما « إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ » أى تمليكه لى من ذلك بأن يلهمنيه ، فيمكننى منه ، ويقدرنى عليه . وهذا كقوله تعالى فى سورة يونس(1) (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ). « وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ » أى النفع ، بترتيب أسبابه ، فكنت مثلاً أعد للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص « وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ » أى الضر ، للتوقى عن أسبابه « إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » أى عبد أرسلتُ نذيرًا وبشيرًا ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب . وقوله تعالى « لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » يجوز أن يتعلق بـ (نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) جميعاً ، لأن المؤمنين هم المنتفعون بالنذارة والبشارة ، أو يتعلق بـ (بَشِيرٌ) وحده ، ومتعلق النذير محذوف ، أى للكافرين ، وحذف للعلم به . وقال الشهاب : ليطهر اللسان منهم . ثم بيّن تعالى عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الإشراك ، بتذكير مبادئ أحوالهم المنافية له ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٩] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ، فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ » وهى نفس آدم عليه السلام « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » أى من جنسها ، كقوله تعالى(2) : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا) « لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » أى ليطمئن إليها ويميل ، ولا ينفر ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس . وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان

---

(1) [١٠/ يونس/ ٤٨ و ٤٩] . (2) [٣٠/ الروم/ ٢١] .

إلى ولده ، ويحبه محبة لكونه بضعة منه . وذُكّر (لِيَسْكُنَ) بعد ما أنث فى قوله (وَاحِدَةٍ) و (مِنْهَا زَوْجَهَا) ذهاباً إلى معنى النفس ، ليبين أن المراد بها آدم ، ولأن الذكر هو الذى يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى . أفاده الزمخشرىّ . « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا » أى وطئها . و(التغشى) كناية عن الجماع ، وكذلك الغشيان والإتيان « حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا » أى خف عليها ، وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألمًا ، إنما هى النطفة ، ثم العلقة، ثم المضغة « فَمَرَّتْ بِهِ » أى فاستمرت به خفيفة، وقامت وقعدت « فَلَمَّا أَثْقَلَت » أى صارت ذات ثقل ، لكبر الولد فى بطنها « دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا » أى ولدًا سويًا قد صلح بدنه ، أو غلامًا « لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى على نعمائك التى منها هذه النعمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا » أى كما طلبا « جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا » أى أخلا بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال ، إذ استبدلوه بالإشراك . وقوله تعالى : « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تنزيه فيه معنى التعجب .

تنبيه :

هذه الآية سيقت توبيخاً للمشركين فى جنايتهم بالشرك، ونقضهم ميثاقهم ، فى جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه . وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن . ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين فى أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة . ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون وولد لهم ما يشتهون، ليكونن من الشاكرين. ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم ، التى امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم فى إفراده بالشكر ،

حيث أشركوا معه غيره فى ذلك. ونظير هذه الآية، فى الإخبار عن تبديل المشركين نعمة الله كفراً، قوله تعالى(١) فى سورة يونس (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ، حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) وقد ذكر المفسرون ههنا أحاديث وآثاراً تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء. ولا حاجة بنا إلى رواياتها لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينه الحافظ ابن كثير فى (تفسيره) . وتقبُّل ثُلةٍ من السلف لهـا وتلقيها ـ لا يجدى فى صحتها شيئاً . إذ أصلها مأخوذ من أقاصيص مسلمة أهل الكتاب ، كما برهن عليه ابن كثير . وتهويلُ بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة ، إذ أخرجها فلان وفلان ، من تنميق الألفاظ لتزيق المعانى ؛ فإن المشكاة النبوية أجلُّ من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته .

إذا علمت ذلك ، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها ، آدم وحواء ، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك ، وأن ظاهر النظم يقتضيه ، ثم أخذ يؤوله ، إما بتقدير مضاف ، أى جعل أولادهما له شركاء ، فيما آتى أولادهما ، وإما بأن المراد جعل أحدهما وهو (حواء) من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك ـ فإنه ذهب فى غير مذهب .

وقد قرر ما ارتضيناه فى معنى الآية غير واحد . قال الحسن البصرىّ ، فيما روى عنه ابن جرير : إن الآية عنى بها ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده . وفى رواية عنه : كان هذا فى بعض الملل ، ولم يكن بآدم .

قال ابن كثير : والأسانيد إلى الحسن ، فى تفسير هـذا ، صحيحة ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية .

---

(١) [١٠ / يونس / ٢٢ و ٢٣] .

قال : ولو كان الحديث المرفوع ، فى أنها فى آدم وحواء ، محفوظاً عنده من رواية رسول الله ﷺ ، لما عدل عنه هو ولا غيره ، لاسيما مع تقواه وورعه . فهذا يدل على أنه ـ إن صح ـ موقوف على الصحابىّ ، لا مرفوع . انتهى .

وقال القفال : إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل ، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين فى جهلهم ، وقولهم بالشرك . وتقرير هذا الكلام ، كأنه تعالى يقول : هو الذى خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه فى الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته ، وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما ، لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك ، فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع ، كما هو قول الطبائعيين . وتارة إلى الكواكب ، كما هو قول المنجمين . وتارة إلى الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام .

وقال الناصر فى (الانتصاف) ـ متعقباً على الزمخشرىّ ـ : الأسلم والأقرب، والله أعلم، أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معيّن . وكأن المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً ، لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر ، الجنس الآخر ، الذى هو الأنثى ، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس ، وإن كان فيهم الموحدون ، على حد (بنو فلان قتلوا قتيلا) يعنى من نسبة ما صدر من البعض إلى الكل .

فائدة :

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة هذه الآية أنه تعالى لما قال (فَلَمَّآ أَثْقَلَت) جعل حال الإثقال يخالف ما قبله ، وأنه يختص فيه الدعاء لأجل أنه حال الخوف . وقد ذهب الهادى إلى أن الحامل إذا أتى عليها من الحمل ستة أشهر ، كانت تصرفاتها كتصرفات المريض ،

تنفذ من الثلث . وهو قول مالك والليث ، واحتجا بالآية ، لأنه تعالى فرق بين حال الخفة والإثقال . وقال غيرهما : تصرفها من الجميع ، ما لم يأخذها الطلق . قلنا : إنه يجوز عليها بعد الستة ، وضع الحمل فى كل وقت . انتهى .

ثم قال : ودلت الآية على أنه يجوز الدعاء لطلب أمور الدنيا ، وإن حصول الولد منة يجب الشكر عليها . انتهى .

ثم استأنف تعالى توبيخ المشركين كافة ، واستقباح إشراكهم ، وإبطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوا به سبحانه ، وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه فى حقه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

« أَيُشْرِكُونَ » أى بخالق الأشياء تعالى وتقدس « مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا » أى لا يقدر على خلق شيء ما، كقوله تعالى[١] : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ) أى: وَمَنْ هذه صفته كيف يعبد ؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده لا محالة « وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل[٢] عليه الصلاة والسلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)

« وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ » أى لعبدتهم إذا حزبهم أمر « نَصْرًا » أى بجلب نفع ، أو دفع ضر « وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ » إذا اعترتهم حادثة من الحوادث ، كما قال تعالى :

---

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٩٥] .

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾(١) وكما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ، ويهينها غاية الإهانة .

وقد حكى ابن كثير أن معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما أسلما لما قدم النبىّ ﷺ المدينة ، وكانا شابين ، فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين ، يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليعتبر قومهما . وكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيدًا فى قومه ـ صنم يعبده ويطيّبه ، فكانا يجيئان فى الليل، فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة . فيجىء عمرو بن الجموح ، فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً . حتى أخذاه مرة ، فقرناه مع كلب ميت ، ودلّياه فى حبل فى بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ، ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال :

تاللهِ لو كنتَ إلـهاً مُسْتَدَنْ لم تكوالـكلبَ جميعاً فى قَرَنْ

(مستدن : ذليل مستعبد . والقَرَن : الحبل) .

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدًا ، رضى الله عنه وأرضاه .

(انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ طبعة الحلبىّ . وص ٣٠٣ طبعة جوتنجن) .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين ، لأن قوله : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ . . . ﴾ الآية ـ حجاج . وتدل على أن المستحق للعبادة الذى يخلق وينعم ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ)

«وَإِن تَدْعُوهُمْ» أيها المشركون «إِلَى ٱلْهُدَىٰ» أى إلى مافيه رشاد «لَا يَتَّبِعُوكُمْ» أى إلى مرادكم وطلبتكم «سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ» يعنى أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، كما قال إبراهيم[١] : (يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا) . وجوّز فى الآية أن يكون المعنى : وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم وتطلبوا منهم ، كما تطلبون من الله ، الخير والشر ، لايجيبوكم كما يجيبكم الله ، لقوله تعالى[٢] بعدُ : (فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

«إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ» أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة «عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ» أى مخلوقات مماثلة لكم «فَٱدْعُوهُمْ» أمر تعجيز وتبكيت . أى فادعوهم لجلب نفع ، أو كشف ضر «فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ» أى فى زعمكم أنها آلهة . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ)

«أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ،

(١) [١٩ / مريم / ٤٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » تبكيت إثر تبكيت ، مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزىّ ، من عدم الاستجابة ، ببيان فقدان آلتها بالكلية . فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية ، إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محركة . ومدركة . وما ليس له شىء من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة . كأنه قيل : ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة ، حتى يمكن استجابتهم لكم ؟ وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة ، تكريراً للتبكيت ، وتثنية للتقريع ، وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها ، كافٍ فى الدلالة على استحالة الاستجابة . أفاده أبو السعود .

ويقال : إنه لما جعلهم مثلهم ، كرّ على المثلية بالنقض بما ذكر ، لأنهم أدون منهم ، وعبادة الشخص مَن هو مثله لا تليق ، فكيف من هو دونه .

تنبيه :

قال الرازىّ : تعلق بعض أغمار المشبهة وجهّالهم بهذه الآية ، فى إثبات هذه الأعضاء لله تعالى ، فقالوا : إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء ، لهذه الأصنام ، دليلاً على عدم إلهيتها. فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى ، لكان عدمها دليلًا على عدم الإلٰهية ، وذلك باطل . فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى . . . الخ .

وأقول : الظاهر أن ملحظ مثبتيها هو أن عدمها يدل على النقص، وهو محال على المولى تعالى ، إذ له كل صفة كمال . ومعلوم أن فى إثباتها له تعالى من آيات أخر ، وأحاديث مشهورة، ما يغنى عن تكلف استنباطها له تعالى من مثل هذه الآية ، ولكن على المنهاج السلفىّ ، وهو إثبات بلا تكييف ، إذ من كيّف فقد مثّل ، ومن نفى فقد عطّل . فالمشبهة كالمعطلة ، والحق وراءهما ، والمسألة شهيرة .

ولما بين تعالى أن شركاءهم عاجزون ، أمر تعالى رسوله ﷺ أن يناصبهم للمحاجّة ، ويكرر عليهم التبكيت ، فقال سبحانه : « قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » أى استنصروا بها على « ثُمَّ كِيدُونِ » أى اعملوا أنتم وهم فى هلاكى من حيث لا أشعر به ، حتى يمكننى دفعه .

« فَلَا تُنظِرُونِ » أى عجّلوا فى كيدى، فلا تمهلونى مدة أطلع فيها على كيدكم، فإنى لا أبالى بكم . وقد أثبت نافع وأبو عمرو الياء فى (كِيدُونِى)، والباقون حذفوها. ومثله فى قوله[1] : (وَلَا تُنظِرُونِ)(ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)[2] قال الواحدىّ : والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافى، وقد حذفوا هذه الياآت إذا كانت فى القوافى ، كقوله :

يلمسُ الأحلاسَ فى منزِلِهِ بيديه كاليَهُودىّ المُصَلْ (وأصلها المصلّى)

والذين أثبتوها ، فلأن الأصل هو الإثبات .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ)

«إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ »تعليل لعدم المبالاة، المنفهم من السوق انفهامًا جليًّا . أى: الذى يتولى حفظى ونصرتى هو الله الذى أنزل الكتاب، المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة .

قال أبو السعود : ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب ، للإشعار بدليل الولاية ، والإشارة إلى علة أخرى لعدم المبالاة. كأنه قيل: لا أبالى بكم وبشركائكم ، لأن وليي هو الله الذى نزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصرى ، وبأن شركاءكم لايستطيعون نصر أنفسهم ، فضلًا عن نصركم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ » تذييل مقرر لما قبله . أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده ، وينصرهم ولا يخذلهم . وفيه تعريض ، لمن فقد الصلاح ، بالخذلان والمَحْقِ .

قال الحسن البصرىّ : إن المشركين كانوا يخوّفون الرسول ﷺ بآلهتهم ، فقال تعالى (ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ . . .) الآية ـ ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضارّ إلىّ ، بوجه من الوجوه . وهذا كما قال هود عليه السلام ، لما قال قومه (إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ

(١) [١٠/ يونس / ٧١]. (٢) [١١ / هود / ٥٥] .

بِبَعْضِ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ، قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ...) الآية[1].

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩٧] (وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)

«وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ» أى لا يتولون أحدًا، لأنهم لا يستطيعون نصركم «وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ» أى إذا قصد إضرارهم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩٨] (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟، وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

«وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟» إذ ليس لهم سمع، وإن صوّرت لهم الآذان. كما أنه لا بصر لهم، وإن صورت لهم الأعين. كما قال: «وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ» إذ صورت لهم الأعين «وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» لأنهم جماد عوملوا معاملة من يعقل، فعبر عنهم بضميره، لأنهم على صور مصورة كالإنسان. وهذا من تمام التعليل، لعدم مبالاته بهم، فلا تكرار.

وقال السدّىّ: المراد بهذا (المشركون) وروى عن مجاهد نحوه. أى وإن كانوا ينظرون إليك، فإنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية.

قال ابن كثير: والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة. أى تفصياً من التفكيك، لأن المحدث عنهم الأصنام.

تنبيه:

من غرائب استنباط المعتزلة قولهم فى هذه الآية ـ والعبارة للجشمىّ ـ ما مثاله: تدل

(١) [١١ / هود / ٥٤ ـ ٥٦].

الآية على أن النظر غير الرؤية ، وأنه لا يقتضى الرؤية ، لذلك أثبتهم ناظرين غير رائين .

قال : ومثله قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره . ويقسمون النظر إلى وجوه ، ولا تنقسم الرؤية .

قال: فبطل قول من يقول: إن قوله تعالى[1] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) يقتضى الرؤية . انتهى .

ولا يخفى أن الأصل فى إطلاق النظر هو الرؤية والإبصار، ولذلك تتعاقب فى هذا المعنى، وتترادف كثيراً . وانفكاكه عن الرؤية فى هذه الآية لقرينة كون المحدَّث عنهم جماداً ، ولا قرينة فى الآية لتقاس على ما هنا . دع ماصح من الأخبار فى وقوعها ، مما هو بيان لها ـ فافهم ـ .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصفح عن المشركين، إذا جادلوه فى شركائهم بعد هذا البيان، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ)

« خُذِ ٱلْعَفْوَ » أى مكان الغضب ، ليكونوا أقبل للنصيحة « وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ » أى بالجميل المستحسن من الأفعال ، فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير، ولما كان الناصح لغيره ، كالمعرَّض لعدوانهم ، ثلَّث بما يحتاج إليه فى ذلك فقال : «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ» أى المصرِّين على جهلهم ، فلا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال بعض العلماء : إن سر الشريعة فى الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن

(١) [٧٥ / القيامة / ٢٢و٢٣] .

ومحو المستقبح . وإليـه الإشارة بقوله تعالى : (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ) فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنـكر ماأنـكرته واستقبحته . ذلك لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحـكم بتوحيد العادات في كل البلاد . اه .

الثاني ـ روى عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمـكارم الأخلاق منها .

وروى البخاريّ(١) عن ابن عباس أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب : هِي يا ابن الخطاب ! فوالله ، ماتعطينا الجزل ، ولا تحـكم فينا بالعدل ، فغضب عمر ، حتى همّ أن يوقع به . فقال له الحرّ بن قيس : يا أمير المؤمنين ! إن الله تعـالى قال لنبيه ﷺ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وإن هذا من الجاهلين .

قال ابن عباس : والله ! ما جاوزها عمر حين تلاها عليـه ، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ » أي يصيبنّك من الشيطان وسوسة تثير غضبك على جهلهم وإساءتهم ، وتحملك على خلاف ماأمرت فيه من العفو والأمر بالمعروف « فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » أي استجر به، وادعه في دفعه « إِنَّهُ سَمِيعٌ » أي لدعائك « عَلِيمٌ » أي باستعاذتك.

قال الزمخشريّ : النزغ والنسغ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي . أي فشبهت وسوسته وإغراؤه بالغرز، وهو إدخال الإبرة وطرف العصا وما يشبهه

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف ، ٥ ـ باب خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، حديث ٢٠٠٤ .

فى الجلد ، كما يفعله السائق لحث الدواب . وجعلُ النزغ نازغاً مجاز بالإسناد ، لجعل المصدر فاعلًا، كجد جدّه .

قال أبوالسعود: وفى الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ » أى أصابهم « طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى وسوسة وخاطر منه « تَذَكَّرُوا۟ » أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه « فَإِذَا هُم » أى بسبب ذلك التذكر « مُّبْصِرُونَ » أى مواقع الخطأ، ومكائد الشيطان. فينتهون عنها ولايتبعونه . وقرىء (طيف) على أنه مصدر ، من قولهم (طاف به الخيال يطيف طيفا) ، أو تخفيف (طيّف) كليّن وهيّن . وهذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى، عند نزغ الشيطان ، وأن المتقين هذه عادتهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾

«وَإِخْوَٰنُهُمْ» يعنى وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس. كقوله : (إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ)(١) ، وهم الذين لم يتقوا؛ فلم يتأت لهم التذكر ، ولا ينفع فيهم الاستعاذة لأن الشياطين « يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ » أى يكونون مددًا لهم بتكثير الشبه والتزيين والتسهيل فى الضلال ، يعنى تساعدهم الشياطين على المعاصى ، وتسهلها عليهم وتحسّنها لهم

(١) [١٧ / الإسراء ٢٧] .

« ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ » أى لا يمسكون عن إغوائهم ، حتى يصرّوا ولا يرجعوا : يعنى أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ، ولا يسأمون من إمدادهم من الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية : وجوز عود الضمير لـ (الإخوان) ، أى لا يرعوون عن الغىّ ولا يقصرون، وإن بولغ عليهم فى الوعظ بآيات الله ، وإقامة الدلائل، ورفع الشبه ، وغير ذلك. وجوز أيضاً أن يراد أيضـاً بـ (الإخوان) الشياطين ، ويرجع الضمير إلى (ٱلْجَٰهِلِينَ) أى وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين ، يمدون الجاهلين فى الغىّ .

قال الزمخشرىّ : والأول أوجه ، لأن (إخوانهم) فى مقابلة (ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا) .

ثم بين تعالى ، من أنواع إغوائهم ، لجاجهم فى طلب آيات معينة، وتعنتهم فى اقتراحها، مع أن لديهم المعجزة العظمى ، والخارقة الكبرى ، وهى القرآن الكريم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا، قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ، هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ » أى مما اقترحوه « قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا » أى هلا تكلفتها وأنشأتها من عندك « قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى » أى فلست بمفتعل للآيات، ولا أتقدم إليه تعالى فى شىء منها. ثم أرشدهم تعالى إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبينات ، فقال سبحانه « هَٰذَا » أى القرآن « بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ » أى بمنزلة البصائر للقلوب ، بها يبصر الحق ، ويدرك الصواب . فالكلام على طريقة التشبيه البليغ . أو سبب البصائر ، فهو مجاز مرسل . أو استعارة لإرشاده . أو المعنى : حجج بيّنة ، وبراهين نيّرة . وإنما جمع خبر المفرد لاشتماله على آيات وسور ، جعل كل منها بصيرة . والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ـ لتأكيد وجوب

الإيمان بها « وَهُدًى » أي من الضلالة « وَرَحْمَةٌ » أي من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أي به ، فيتفكرون في حقائقه .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية أنه تعالى ينزل الآيات بحسب المصلحة ، لا بحسب اقتراحهم ، لأن ذلك قد يكون فسادًا . ويدل قوله : (هَٰذَا بَصَائِرُ) أن المعارف مكتسبة . وتدل أن جميع ما يقوله الرسول ويفعله من الشرع من وحيه ، لذلك قال : (أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) ، ومتى قيل : هل تدل الآية على أنه لا يجتهد ولا يقيس ؟ قلنا : لا ! لأن القياس والاجتهاد إذا كان متعبدًا به ، فاتباعه اتباع الوحي . كالعاميّ يقبل من المفتي ، والعالم يجتهد ، ويتبع الوحي ، كذلك هذا . والذي يدل عليه أن النبيّ ﷺ لا يفعل شيئًا من تلقاء نفسه حتى يؤمر به ـ انتهى كلامه ـ وفي إطلاقه تفصيل له موضع آخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا » أي عن حديث النفس وغيره « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أرشد إلى طريق الفوز بما انطوى عليه من منافعه الجليلة . أي وإذا قرئ القرآن الذي ذكرت خصائصه ، فاستمعوا له ، أي أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه ، وتتدبروا مواعظه ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضي، إعظاماً له واحتراماً، لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أعظم ثمراته، لا كما يعتمده كفار قريش من قولهم (لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ)(١) .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٢٦] .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآية يقتضى وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها ، وعليه أهل الظاهر ، وهو قول الحسن البصرىّ وأبى مسلم الأصفهانىّ . وقد روى مسلم(١) عن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبّر فكبّروا ، وإذا قرأ فأنصتوا . وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة .

وروى الإمام أحمد(٢) وأهل السنن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : هل قرأ أحد منكم معى آنفاً ؟ قال رجل : نعم يارسول الله . قال: إنى أقول : مالى أنازَع القرآن ؟ قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ .

قال الترمذى (٣) : هذا حديث حسن . وصححه أبو حاتم الرازىّ . نعم وردت السنة الصحيحة باستثناء الفاتحة وحدَها للمأموم . وذلك فيما رواه عبادة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : إنى أراكم تقرءون وراء إمامكم ؟ قال : قلنا : يارسول الله ! إى والله . قال : لاتفعلوا إلا بأم القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها ـ رواه أبو داود(٤) والترمذىّ(٥) ـ وفى لفظ: فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جهرت

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٧٧ ـ ٨١ عن أنس و٨٢ عن عائشة و٨٦ عن أبى هريرة (طبعتنا) أما حديث أبى موسى فلم أهتد إليه . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٢٦٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١١٦ ـ باب ماجاء فى ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر بالقراءة . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٣١ ـ باب القراءة فى الفجر ، حديث ٨٢٣ . (٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٦٩ ـ باب لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب .

به ، إلا بأم القرآن ـ رواه أبو داود والنسائىّ ، والدارقطنىّ وقال : رواته كلهم ثقات .

وأخرج ابن حبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : أتقرءون فى صلاتكم خلف الإمام ، والإمام يقرأ ؟ فلا تفعلوا ، وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب فى نفسه .

وأما حديث أبى هريرة المتقدم ، فلا يستدل به على عدم قراءة المأموم مطلقاً ، بل جهراً . لأن المنازعة إنما تكون مع جهر المأموم ، لا مع إسراره . ولو سلم دخول ذلك فى المنازعة لكان الاستفهام الإنكارىّ فيه عاماً لجميع القرآن ، أو مطلقاً فى جميعه . وحديث عبادة خاص أو مقيّد ، ولا تعارض بين عام وخاص ، أو مطلق ومقيد ، لابتناء الأول على الثانى . وكذا يقال فى عموم الآية . وفى هذا جمع بين دلالة الكتاب ، وصحيح السنة ، إذ جاءنا بها من جاء بالقرآن .

الثانى ـ روى عن كثير من السلف أن الآية نزلت فى الصلاة . وعن بعضهم : فيها وفى الخطبة يوم الجمعة . وعن بعضهم : فيهما وفى خطبة الأضحى والفطر . وقد قدمنا فى مقدمة الكتاب مصطلح السلف فى قولهم (نزلت هذه الآية فى كذا) وبيّنّا أنه قد يراد بذلك ، أن الآية تشمل ذلك الشىء لدخوله فى عمومها ، لا أنه سبب لنزولها ، وذلك فى بعض المقامات ، وما هنا منه . وبتحقيق هذا يسقط ما للرازىّ هنا من أنه إذا قيل بنزولها فى منع المأموم من الجهر بالقراءة ، يذهب تناسب الآية مع ما قبلها من إفحام المشركين ، بأن يستمعوا لقراءته ، ليقفوا على إعجازه . وما للخازن ؛ بأن الآية مكية ، وخطبة الجمعة والعيدين شرعتا بالمدينة ـ فافهمه ـ .

الثالث ـ روى الإمام أحمد [١] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة . قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠٥] (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)

«وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» خطاب للنبيّ ﷺ ، والمراد عامّ . أو المعنى : واذكر ربك أيها الإنسان . والأول أظهر ، لأن ما خوطب به النبيّ ﷺ ولم يكن من خصائصه ، فإنه مشروع لأمته. وقد أوضح هذا آية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[1]. والأمر بالذكر ، قال الزمخشريّ : هو عام فى الأذكار من قراءةالقرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك . وقال بعض الزيدية : هذا الأمر يحتمل الوجوب ، إن فسر الذكر بالصلاة ، وإن أريد الدعاء أو الذكر باللسان ، فهو محمول على الاستحباب . قال : وبكلٍّ فسرت الآية .

ثم إنه تعالى ذكر آداباً لذكره :

الأول ـ أن يكون فى نفسه ، لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

الثانى ـ أن يكون على سبيل التضرع ، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية .

الثالث ـ أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية ، وعظمة الألوهية ، من المؤاخذة على التقصير فى العمل ، لتخشع النفس ، ويخضع القلب .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١ و ٤٢] .

الرابع ـ أن يكون دون الجهر ، لأنه أقرب إلى حسن التفكر . قال ابن كثير : فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداء ولا جهراً بليغاً. وفى الصحيحين[١] عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنـه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال لهم النبىّ ﷺ : يا أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصمّ ولا غائباً . إن الذين تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. قال الإمام: المراد أن يقع الذكر متوسطاً بين الجهر والمخافة ، كما قال تعالى : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا)[٢].

الخامس ـ أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله (وَدُونَ ٱلْجَهْرِ) لأن معناه : ومتكلماً كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على (تَضَرُّعًا) ، أو هو معطوف على (فِى نَفْسِكَ) . أى اذكره ذكراً فى نفسك ، وذكراً بلسانك دون الجهر .

السادس ـ أن يكون بالغدوّ والآصال ، أى فى البكرة والعشىّ . فتدل الآية على مزية هذين الوقتين ، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد. وما بينهما ، الغالبُ فيه الانقطاعُ إلى أمر المعاش . وقد روى : أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره ، فطلب الذكر فيهما ، ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر .

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله « وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ » أى من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه ، بقدر الطاقة البشرية .

---

(١) أخرجه فى البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت بالتكبير ، حديث ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ـ٤٧ (طبعتنا) . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

ثم ذكر تعالى ما يقوى دواعى الذكر ، وينهض الهمم إليه ، بمدح الملائكة الذين يسبحون الليل النهار ، لا يفترون ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ) ﴿سجدة﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ » يعنى الملائكة الذين هم فى أعلى مقامات القرب « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ » أى لا يتعظمون عنها . وقوله « وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ » أى فينبغى أن يقتدى بهم فيما ذكر عنهم ، ففيه حث ولطف مرغب فى ذلك . لأنه إذا كان أولئك ـ وهم ما هم فى قرب المنزلة والعصمة ـ حالهم فى عبادته تعالى وتسبيحه ما ذكر ، فكيف ينبغى أن يكون غيرهم .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازىّ : تمسك أبو بكر الأصم بهذه الآية فى تفضيل الملائكة على البشر قال : لأنه تعالى لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال : (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ...) الآية ـ أى فأنت أولى وأحق بالعبادة ، والمسألة مستوفاة فى كتب الكلام . واستنبط من قال بالتفضيل المذكور من الآية ؛ أنه ينبغى للعبد أن ينظر إلى من فوقه فى طاعة الله تعالى .

الثانى ـ قال الرازىّ : المشبهة تمسكوا بقوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ...) وقالوا : لفظ (عِندَ) مشعر بالجهة . ثم أجاب بما هو معروف للخلف . ويعنى ، سامحه الله ، بالمشبهة الحنابلة ، وهم براء من التشبيه ، كما يعلمه من طالع عقائدهم ، واقفون على حدّ النصوص بلا تشبيه ولا تعطيل ، ولم ينفردوا بذلك ، فقد تقدمهم من لا يحصى فى هذه المسألة . راجع كتاب (العلوّ للذهبىّ) تعلم ما ذكرنا .

الثالث ـ قال الجشمىّ : تدل الآية على كون الملائكة مكلفين . وتدل على أنهم سجدوا لله . وآدمُ كان قبلة السجود ، لأنه وصفهم بأنهم يسجدون له .

الرابع ـ هذه أول سجدة فى القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجة[١] عن أبى الدرداء عن النبىّ ﷺ ، أنه عدها فى سجدات القرآن .

وروى الشيخان [٢] عن عبد الله بن عمر أن النبىّ ﷺ كان يقرأ القرآن ، فيقرأ سورة فيها سجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته ، فى غير وقت صلاة .

وروى مسلم [٣] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويلتا ! أُمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأُمرتُ بالسجود فأبيتُ ، فلى النار .

وروى مسلم [٤] عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ فقال : عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة .

الخامس ـ السجدة المشروعة ، إن كانت لآية ، أُمِرَ فيها بالسجود فللأمر ، أو حكى فيها

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٦ (طبعتنا) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن : ٨ ـ باب من سجد لسجود القارئ ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٣٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٢٢٥ (طبعتنا) .

استنكاف الكفرة عنه ، فلمخالفتهم وإرغامهم ، أو حكى فيها سجود الأنبياء أو الملائكة ، فللتأسي بهم ـ كذا في (العناية) .

وهذا آخر ما تيسر تعليقه على سورة الأعراف ، فلله الحمد على هذا التسهيل والإسعاف. ونسأله بمنه وكرمه العون على الإتمام ، فإنه ذو الجلال والإكرام .

وكان الفراغ من ذلك طلوع الشمس من يوم الثلاثاء ، في ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٣٢١ بشباك السدة العليا اليمنى من جامع السنانية . على يد الفقير جمال الدين القاسمي غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، ورحمه وإياهم إنه أرحم الراحمين .

تم الجزء السابع

ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الثامن

ويحتوي على تفسير سورتي الأنفال والتوبة

تنبيه :

كانت النية معقودة على إخراج (التفسير) على حسب تجزئة المؤلف . لكنا ، لما رأينا أن حجوم الأجزاء غير متساوية ، ولتيسير الحصول عليها ، قررنا إخراج الأجزاء الباقية ، ابتداء من هذا الجزء ، في حجم الأجزاء الأربعة الأولى . والله الموفق والمستعان .

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الثامن

وفيه تفسير سورتي : الأنفال والتوبة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسميّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨ — سُورَةُ الأنفال (١)

مدنية ، أو ، إلّا (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ . . .) الآيات السبع ، فمكية . وآياتها خمس وسبعون آية .

سميت بالأنفال لأنها مبدأ هذه السورة ، ومنتهى ما ذكر فيها من أثر أمر الحروب .

(١) بدأت بمحاسن تأويل هذه السورة بعد عودتى من مصر بعد فجر الاثنين ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٢١ (مؤلفه) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

روى البخاري [١] عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت فى بدر .

وروى الإمام أحمد [٢] عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدراً . فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدوّ ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون : وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدوُّ منه غرة . حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدوّ : لستم بأحق به منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا . نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، واشتغلنا به — فنزلت : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية — فقسمها رسول الله ﷺ على فُوَاقٍ [٣] من المسلمين .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ـ باب قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، حديث رقم ١٨٦٩ . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٢٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) . (٣) قال ابن الأثير : أى قسمها فى قدر فُواق ناقةٍ ، وهو ما بين الحلبتين من الراحة . وتضم فاؤه وتفتح .

وهذا الحديث رواه الترمذي[(١)] أيضاً وحسنه ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الحاكم . ولفظ ابن إسحق عن عبادة قال : فينا ، أصحابَ بدر ، نزلت ، حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء .

وروى أبو داود[(٢)] والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : من صنع كذا وكذا فله من النَّفَل كذا وكذا . فتسارع في ذلك شبّان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم ، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم . فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإنا كنا رِدْءًا لكم ، لو انكشفتم لثُبْتُم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية ـ وهذا مما يفيد أن التشاجر كان متنوعاً ، وأن الآية نزلت لفصله .

والأنفال : هي المغانم ، جمع (نَفَل) محركة ، وهو الغنيمة . أي كل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب . قال ابن تيمية : سميت بذلك ، لأنها زيادة في أموال المسلمين . أي لأن النفل يطلق على الزيادة ـ كما في (التاج) . ومنه النافلة لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة.

وقوله تعالى : (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) — قال المهايمي : أي ليست هي في مقابلة الجهاد ، وإنما مقابله الأجر الأخروي ، وهذه زائدة عليه ، خرجت عن ملك المشركين فصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله . والرسول خليفة يعطيها ، على ما أراه الله ، من يشاء . ولما أطلق له ﷺ الحكم فيها ، قسمها بينهم بالسوية ، ووهب من استوهبه . فروى الإمام أحمد[(٣)] عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر قُتِل

(١) لم أجد هذا الحديث في سنن الترمذي . (٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٤٤ ـ باب في النفل ، حديث رقم ٢٧٣٧ . (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٥٥٦ (طبعة المعارف) .

أخى عمير وقتلتُ سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبىّ ﷺ فقال : اذهب فاطرحه فى القَبَض . قال ، فرجعت ، وبى ما لا يعلمه إلا الله ، من قتل أخى ، وأخذ سلَبى . قال ، فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال . فقال لى رسول الله ﷺ : اذهب فخذ سلَبك . وروى الإمام أحمد[1] والترمذىّ ـ وصححه ـ عن سعد بن مالك قال : قلت : يارسول الله ! قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف ، فقال : إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضعه . قال ، فوضعته ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هـذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى . قال ، إذا رجل يدعونى من ورائى . قال ، قلت : قد أنزل الله فىّ شيئاً . قال : كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى ، وإنه قد وُهب لى ، فهو لك . قال ، وأنزل الله هذه الآية (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . .) الآية .

تنبيهات

الأول ـ ذهب بعضهم إلى أن أنفال بدر قسمت من غير تخميس ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولى .

قال ابن كثير : فيه نظر . ويرد عليه حديث علىّ بن أبى طالب فى شارِفَيْه اللذيْن حصلا له ، من الخمس ، يوم بدر . فالصواب أنها مجملة محكمة ، بيّن مصارفها فى آية الخمس .

الثانى ـ روى عن عطاء أنه فسر (الأنفال) بما شذّ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال من دابة أو أَمَةٍ أو متاع . قال : فهو نَفَلٌ للنبىّ ﷺ يصنع به ما يشاء .

قال ابن كثير : وهـذا يقتضى أنه فسر (الأنفال) بالفىء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ١٥٣٨ (طبعة المعارف) .

قلت : صِدْقُ (النفل) عليه ، لا شك فيه ، وأما كونه المراد من الآية بخصوصه ، فلا يساعده سبب نزولها المارّ ذكره ، لاسيما قوله : (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) المشير إلى التنازع المتقدم .

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم ، أي ما يدفع إلى الغازي زائداً على سهمه من المغنم ، والكلام الذي قلته قبل ، يجرى هنا أيضاً .

ونقل الرازيّ عن القاضي ؛ أن كل هذه الوجوه تحتمله الآية . قال: وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض ، وإن صح في الأخبار ما يدل على التعيين ، قضى به . وإلا فالكل محتمل . وكما أن كل واحد منها جائز ، فكذلك إرادة الجميع جائزة ، فإنه لا تناقض بينها . أي لصدق (النَّفَل) عليها .

الثالث ـ وقع عند الزمخشريّ أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر ، لمن الحكم فيها ألمهاجرين أم للأنصار ، أم لهم جميعاً ؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها الرسول ، وليس لأحد فيها حكم . وتأثر الزمخشريّ أبو السعود في سوقه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماده له ، بتطويل مملّ . ولا أدرى من أين سرت لهم هذه الرواية . فإن رواة الآثار لم يخرجوها في صحاحهم ولا سننهم، بل ولا أصحاب السير ، كابن إسحق وابن هشام . وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ، ويتنازعوا ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! ولكن هو الرأى (قاتله الله !)ونبذ كتب السنة، والتقليد البحت ، الذى لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ولا فحصها بالعقل يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره ، منقاداً لها مصدقاً ماينطق به فمه ، غثّاً كان أو سميناً . اللهم نوّر بصيرتنا بفضلك .

وقوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ) أي في الاختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين في الله .

وقوله تعالى (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أي أحوال بينكم ، يعني ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق .

وقوله تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أى فى قسمه بينكم ، على ما أراه الله تعالى .
وقوله تعالى (إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) متعلق بالأوامر الثلاثة .

قال الزمخشريّ : جعل التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله ، من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها . فمعنى قوله (إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى كاملى الإيمان .

ثم بيّن تعالى من أريد بالـ(مؤمنين) بذكر أوصافهم الجليلة ، المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث ، ترغيباً لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة ، فقال سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ » أى الكاملون المخلصون فيه « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ » أى حقه أو وعيده « وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فزعت لذكره ، واقشعرت إشفاقاً ألا تكون قامت بحقه ، وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه ، وبطشه بالعصاة وعقابه .

قال الجُشميّ : ومتى قيل : لِمَ جاز وصفهم هاهنا بالوجل والطمأنينة فى قوله (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)(١) فجوابنا فيه وجوه :

منها : أنه تطمئن قلوبهم عند ذكر نعمه ، وتوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه .

ومنها : أن قلوبهم تطمئن لمعرفه توحيده ، ووعده ، ووعيده ، فعند ذلك توجل لأوامره ونواهيه، خوف التقصير فى الواجبات ، والإقدام على المعاصى ، والمستقبل يتغير حاله . انتهى.

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ » أى حججه وهى القرآن « زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » أى يقيناً وطمأنينة نفس ، إلى ما عندهم ؛ فإن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه ، وأثبت لقدمه .

(١) / ١٣ / الرعد / ٢٨] .

وقد استدل البخاريّ وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها ، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة . بل قد حكى الإجماع عليه غيرُ واحد ، كالشافعيّ وأحمد بن حنبل وأبي عبيد « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أي لا يرجون سواه ، ولا يخشون غيره ، ولا يفوّضون أمورهم إلى غيره .

ولما ذكر تعالى ، من أعمالهم الحسنة ، أعمالَ القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، أعقبه بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أي المفروضة بحدودها وأركانها ، في أوقاتها . والموصول نعت للموصول الأول ، أو بيان له ، أومنصوب على المدح .

وقوله « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » عامّ في الزكاة ، وأنواع البر والقُربات .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» أي لا شك في إيمانهم . و (حَقًّا) صفة لمصدر محذوف، أي إيماناً حقًّا أو مصدر مؤكد للجملة ، أي حق ذلك حقًّا ، كقولك . هو عبدالله حقًّا. قال عمرة بن مرة (في هذه الآية) : إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيّد حقًّا ، وفي القوم سادة . وفلان تاجر حقًّا ، وفي القوم تجار . وفلان شاعر حقًّا ، وفي القوم شعراء . انتهى .

وكأنه أراد الرد على من زعم أن (حَقا) من صلة قوله (لَهُمْ دَرَجَاتٌ) بعدُ، تأكيداً له وأن الكلام تم عند قوله (الْمُؤْمِنُونَ) ، فإن هذا الزعم يصان عنه أسلوب التنزيل الحكيم .

وقد تطرف بعض المفسرين هنا لمسألة شهيرة . وهى : هل يجوز أن يقال : أنا مؤمن حقًّا .

قال الطوسىّ فى (نقد المحصل) : المعتزلة ومن تبعهم يقولون : اليقين لا يحتمل الشك والزوال . فقول القائل : (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) لا يصح إلا عند الشك ، أو خوف الزوال . وما يوهم أحدهما ؛ لا يجوز أن يقال للتبرك . انتهى .

والغزالىّ فى الإحياء ، بسط هذه المسألة ، وأجاب عمن سوّغ ذلك بأجوبة :

منهـا : التخوف من الخاتمة ، لأن الإيمان موقوف على سلامة الخاتمة .

ومنها : الاحتراز من تزكية النفس .

ومنهـا : غير ذلك. انظره بطوله .

وقال ابن حزم فى (الفصل) : القول عندنا فى هذه المسألة ؛ أن هذه صفة يعلمها المرءمن نفسه ، فإن كان يدرى أنه مصدّق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ ، وبكل ما أتى به ، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك ، كما أمر تعالى فى قوله : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)[١] .ولا نعمة أوْكد ولا أفضل ، ولا أولى بالشكر ، من نعمة الإسلام . فواجب عليه أن يقول : أنا مؤمن مسلم قطعاً عند الله تعالى ، فى وقتى هذا . ولا فرق بين قوله (أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ) وبين قوله (أَنَا أَسْوَدُ أَوْ أَنَا أَبْيَضُ) وهكذا سائر صفاته التى لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والعجب فى شىء ، لأنه فرض عليه أن يحقن دمه بشهادة التوحيد . وقول ابن مسعود : (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) عندنا صحيح، لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما فى اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود الجزم على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات ، وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك . وما منع أن يقول المرء (إِنِّى مُؤْمِنٌ) بمعنى (مصدق) .

(١) [٩٣/ الضحى / ١١].

وأما قول المانعين : (من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة) فالجواب : إنا نقول إن مقتنا على ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنن والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ ، وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه فى الجنة إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا فى الدنيا ، ولا نأمن مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان ؛ ولا ندرى ما ذا نكسب غداً ، ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى كلام ابن حزم رحمه الله ، ولقد أجاد فيما أفاد .

وقوله تعالى : « لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى منازل ومقامات عاليات فى الجنة « وَمَغْفِرَةٌ » أى تجاوز لسيآتهم « وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو ما أعدّ لهم من نعيم الجنة .

تنبيـه :

قال الُجشمىّ : تدل الآية على أشياء :

منها : أن الإيمان اسم شرعىّ لثلاث خصال : القول ، والاعتقاد ، والعمل . خلاف ماتقوله المرجئة . لأن الوجل وزيادة التصديق من فعل القلب ، والتدبر والتفكر كذلك ، والصلاة والإنفاق من أعمال الجوارح ، والتوكل يشتمل على فعل القلب والجوارح . ثم بين فى آخره أن من جمع هذه الخصال فهو المؤمن حقاً .

ومنها : أنها تدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، لأن هذه الطاعات تزيد وتنقص ، وقد نص على ذلك فى قوله (زَادَتْهُمْ إِيمَاناً) .

ومنها : أن الواجب عند تلاوة القرآن التدبر والتفكر فيما أمر ونهى ، ووعد وأوعد ، لينزجرّ للرغبة والرهبة . وذلك حثّ على الطاعة ، وزجر عن المعاصى .

ومنها : وجوب التوكل عليه . والتوكل على ضربين : منها فى الدنيا ، ومنها فى الدين .

أما فى الدنيا فلا بد من خصال :

منها : أن يطلب مصالح دنياه من الوجه الذى أتيح له ، ولا يطلب محرماً .

ومنها : إذا حرم الرزق الحلال لا يعدل إلى محرّم .

ومنها : ألا يظهر الجزع عند الضيق ، بل يسلك فيه طريق الصبر ، واعتقادأن ما هو فيه مصلحة له .

ومنها : أنما يرزق من النعم بعدها ، من جهته تعالى . إما بنفسه أو بواسطة .

ومنها : ألا يحبسه عن حقوقه خشية الفقر .

ومنها : ألا يسرف فى النفقة ولا يقتر .

فعند اجتماع هذه الخصال يصير متوكلا .

فأما الذى يزعمه بعضهم ؛أن التوكل إهمال النفس، وترك العمل ـ فليس بشىء. وقد أمر الله تعالى بالإنفاق ، وبالعمل . وثبت عن الصحابة ـ وهم سادات الإسلام ـ التجارة والزراعة والأعمال . وكذلك التابعين . وبهذا أجرى الله العادة . وقد أمر النبىّ (١) ﷺ الأعرابىّ أن يعقل ناقته ويتوكل .

فأما التوكل فى الدين فخصال :

منها : أن يقوم بالواجبات ، ويجتنب المحارم ، لأنه بذلك يصل إلى الجنة والرحمة .

ومنها : أن يسأله التوفيق والعصمة .

ومنها : أن يرى جميع نعمه منه ، إذ حصل بهدايته وتمكينه ولطفه .

ومنها : أن لا يثق بطاعته جملة ، بل يطيع ويجتنب المعاصى ، ويرجو رحمة ربه ، ويخاف عذابه . فعند ذلك يكون متوكلا .

ثم قال الجشمىّ : وتدل الآية على أن تارك الصلاة والزكاة لا يكون مؤمناً، خلاف قول المرجئة . انتهى .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ـ كتاب صفة القيــامة والرقائق والورع ، ٦٠ ـ باب حدثنا عمرو بن علىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ)

« كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ » الكاف فى (كَمَآ) كاف التشبيه ، والعامل فيه يحتمل وجوها . فإما هو معنى الفعل الذى دل عليه (قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ) ، تقديره نزع الأنفال من أيديهم بالحق ، كما أخرجك بالحق . وإما هو معنى الحق ، يعنى هذا الذكر حق ، كما أخرجك بالحق . وإما أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه ، أى حالهم هذه فى كراهة تنفيل الغزاة ، كحال إخراجك من بيتك للحرب فى كراهتهم له (كما سيأتى فى تفصيل القصة) . وهذا هو قول الفرّاء ، فإنه قال : الكاف شبهت هذه القصة التى هى إخراجه من بيته ، بالقصة المتقدمة ، التى هى سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع فيها ، مع أنها أولى بحالهم .

وقوله تعالى : (مِنۢ بَيْتِكَ) أراد به بالمدينة ، أو المدينة نفسها ، لأنها مثواه . أى إخراجه إلى بدر . وزعم بعض أن المراد إخراجه ﷺ من مكة إلى المدينة للهجرة . وهو ساقط ، يرده سياق القصة البدرية فى الآيات بعدُ . وملخصها[1] أن أبا سفيان قدم بعير من الشام فى تجارة عظيمة ، فخرج النبىّ ﷺ وأصحابه ليغنموها ، فعلمت قريش . فخرج أبو جهل ومقاتلو مكة ليذبّوا عنها ، وهم النفير . وأخذ أبو سفيان بالعير طريق الساحل ، فنجت . فقيل لأبى جهل : ارجع ، فأبى وسار إلى بدر . فشاور ﷺ أصحابه وقال لهم : إن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، فوافقوه على قتال النفير ، وكره بعضهم ذلك ، وقالوا : لم نستعد له ، كما قال تعالى :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٤٢٧و٤٢٨ (طبعة جوتنجن) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

« يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ » وهو الجهاد وتلقى النفير « بَعْدَمَا تَبَيَّنَ » أى ظهر لهم أنهم يُنصرون فيه « كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » أى يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، وكان ذلك لقلة عددهم ، وعدم تأهبهم. إذ روى أنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فيهم فارسان ، المقداد والزبير. وقيل الأول فقط. والمشركون ألف ، ذوو عِدَّة وعُدَّة وفيه تعريض بأنهم إنما يسار بهم إلى الظفر والغنيمة للوعد الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

« وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ » العير أو النفير « أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ » أى تحبون « أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ » وهو العير ، لا ذات الشوكة ، وهى النفير . والشوكة : السلاح أو حدته « وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ » أى يثبته ويعليه ، وهو دعوة رسوله « بِكَلِمَاتِهِ » أى بآياته المنزلة ، وأوامره فى هذا الشأن « وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » أى يستأصلهم ، فلا يبقى منهم أحداً .

ثم بيّن تعالى الحكمة فى اختيار ذات الشوكة لهم ونصرتهم عليها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ » أى ليثبت الدين الحق ، ويمحق الدين الباطل ،

باستئصال أهله ، مع ظهور شوكتهم « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى المشركون ذلك .

ثم ذكرهم تعالى التجاءهم إليه ، واستمدادهم منه النصر يوم بدر ، وإمداده حينئذ بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » أى تطلبون منه الغوث ، وهو التخلص من الشدة ، والعون بالنصر عليهم « فَاسْتَجَابَ لَكُمْ » أى الدعاء « أَنِّى مُمِدُّكُمْ » أى معينكم « بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » بكسر الدال ، أى متتابعين ، بعضهم على إثر بعض ، أو مردفين غيرهم . وقرئ بفتحها على معنى أن الله أردف المسلمين بهم ، أو مردفين بغيرهم ، أى من ملائكة آخرين . وقرئ (بآلاف) بالجمع ، كما يأتى .

روى مسلم[١] عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ؛ نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ؛ فاستقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ؛ ثم مدّ يده ؛ فجعل يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم آتنى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ؛ لا تعبد فى الأرض . فما زال يهتف بربه مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله ! كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعتنا) .

وروى البخاري[1] عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب .

وروى البخاري[2] عن معاذ بن رفاعة ، عن رافع الزرقي ، عن أبيه ـ وكان ممن شهد بدراً ـ قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدّون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها ـ قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة .

تنبيهات :

الأول ـ قال الجشمي : تدل الآية على أن الملك يجوز أن يتشبه بالآدمي ، ولا يخرج من كونه ملكاً ، بأن يغير أطرافهم دون الأجزاء التي صاروا بها أحياء والذي ينكر أن يقدر أحد على تغيير الصور ، بل نقول : إن الله هو الذي يقدر على ذلك . انتهى .

الثاني ـ قال الزمخشري : وعن السدي (بِآلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ ـ على الجمع ـ ليوافق ما في سورة آل عمران . فإن قلت : فبم يُعتذر لمن قرأ على التوحيد ، ولم يفسر (المردِفين) بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، و(المردَفين) بارتدافهم غيرهم ؟ قلت : بأن المراد بالألف ، من قاتل منهم ، أو الوجوه منهم ، الذين مَنْ سواهم أتباع لهم . انتهى .

وقال شمس الدين ابن القيم في (زاد المعاد) في بحث غزوة بدر :

فإن قيل : ههنا ذكر أنه أمدهم بألف ، وفي سورة آل عمران قال[3] : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) فكيف الجمع بينهما ؟

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ١١ ـ باب شهود الملائكة بدرا ، حديث رقم ١٨٥٥ . (٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ١١ ـ باب شهود الملائكة بدراً ، حديث رقم ١٨٥٣ . (٣) [٣ / آل عمران / ١٢٤ ، ١٢٥] .

قيل : اختلف فى هذا الإمداد الذى بثلاثة آلاف ، والذى بخمسة ، على قولين :

أحدها : أنه كان يوم (أُحُد)،وكان إمداداً معلقاً على شرط ، فلمافات شرطه، فات الإمداد . وهذا قول الضحاك ومقاتل . وإحدى الروايتين عن عكرمة .

والثانى : أنه كان يوم بدر ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.والرواية الأخرى عن عكرمةواختاره جماعة من المفسرين.وحجةهؤلاء: أن السياق يدل على ذلك.فإنه سبحانه قال[1] : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ،فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ* بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا) إلى أن قال : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ) أى هذا الإمداد (إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ).قال هؤلاء : فلما استغاثوا،أمدهم بألف، ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف،ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف ، لما صبروا واتقوا . وكان هذا التدريج ، ومتابعة الإمداد ، أحسن موقعاً ، وأقوى لتقويتهم وأسرّ لها من أن يأتى مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحى ، ونزوله مرة بعد مرة .

وقالت الفرقة الأولى : القصة فى سياق (أُحُد) وإنما أدخل ذكر (بدر) اعتراضا فى أثنائها، فإنه سبحانه قال[2] :(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا،وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) ثم قال[1] :(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)فذكره نعمه عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ثم عاد إلى قصة (أُحُد) ،وأخبر عن قول رسوله لهم (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله،والإمداد الذى ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف ، وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق . والقصة فى سورة آل عمران ، هى قصة (أُحُد)مستوفاة مطولة ، و(بدر) ذكرت فيها اعتراضاً .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٣ـ١٢٦] (٢) [٣ / آل عمران / ١٢١و١٢٢]

والقصة في سورة الأنفال قصة (بدر) مستوفاة مطولة ، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال . يوضح هذا أن قوله[1] (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) قد قال مجاهد : هو يوم (أُحُد) ، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه ، فلا يصح قوله إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ » أي هذا الإمداد « إِلَّا بُشْرَىٰ » أي بشارة لكم بالنصر « وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أي من غير أن يكون فيه شركة لغيره « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » قال بعض الحكماء : ذكر تعالى في هذه الآية حكمة إخبارهم بالنصر ، وأنه يريد بشراهم وطمأنينتهم وتوكلهم عليه ، وهو أدعى إلى قوة العزيمة . فإن العامل إذا أيقن بأن معه قاهر الكون : رفعته تلك الفكرة ، وجعلته أقوى الناس ، وأقدرهم على صعاب الأمور ، لا كما يظنه المتكسون الجاهلون الكسالى اليائسون من روح الله ، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة ، فباؤا بغضب على غضب . انتهى .

ثم ذكّرهم سبحانه بنعم أخرى جعلها سبباً لنصرهم ، وللعناية بهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ » أي يلقي عليكم النوم للأمن الكائن منه تعالى ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٥] .

مما حصل لكم من الخوف من كثرة عدوّكم . وقد كان أسهرهم الخوف ، فألقى تعالى عليهم النوم فأمنوا واستراحوا . وكذلك فعل تعالى بهم يوم (أُحُد) ، كما قال جل ذكره[(١)] (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ) وقرئ (يُغشيكم) من الإغشاء، بمعنى التغشية . والفاعل في الوجهين هو الله تعالى . وقرئ (يَغْشاكم) على إسناد الفعل إلى النعاس.

وفي الصحيح[(٢)] أن رسول الله ﷺ لما كان يوم (بدر) في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان ، أخذت رسولَ الله ﷺ سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل ، على ثناياه النقع . ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلوا[(٣)] (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) .

ثم ذكّرهم تعالى منة أخرى تدل على نصره إياهم بقوله سبحانه: «وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » أي : من الحدث الأصغر والأكبر ، وهو تطهير الظاهر « وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ » أي وسوسته بأنكم على هذا الرمل لا تتمكنون من المحاربة ، ومع فقد الماء كيف تفعلون ؟ فأزال تعالى بإنزاله ، ذلك . فكان لهم به طهارة باطنة، فكملت لهم الطهارتان ، أي من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن « وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ » أي يقويها بالثقة ، بالأمن وزوال الخوف « وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ » أي على الرمل . قال مجاهد : أنزل الله عليهم المطر ، فأطفأ به الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ؛ وثبتت به أقدامهم .

قال الجشميّ : قال القاضي: وهو أشبه بالظاهر . وقيل بالصبر وقوة القلب التي أفرغها عليهم، حتى ثبتوا لعدوّهم . وقوله (به) يرجع إلى الماء المنزل، أو إلى ما تقدم من البشارة والنصر.

ثم أشار تعالى إلى نعمة خفية أظهرها تعالى لهم ليشكروه عليها بقوله :

---

(١) [٣ / آل عمران/ ١٥٤] (٢) لم أعثر على هذا الحديث بهذا النص ولكن وجدت حديثا بهذا المعنى عن ابن عباس . أخرجه البخاريّ في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٩ ـ باب ما قيل في درع النبيّ ﷺ والقميص في الحرب (٣) [٥٤ / القمر / ٤٥] .

[stamp]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ » أى الذين أمدّ بهم المسلمين « أَنِّي مَعَكُمْ » أى بالعون والنصر .

قال الجشمىّ : يحتمل مع الملائكة ، إذ أرسلهم ردءاً للمسلمين ، ويحتمل مع المسلمين ، كأنه قيل : أوحى إلى الملائكة أنى مع المؤمنين ، فانصروهم وثبتوهم .

وقوله تعالى : « فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » أى بدفع الوسواس وبالقتال معهم والحضور مدداً وعوناً « سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » أى الخوف .

ثم علمهم تعالى كيفية الضرب بقوله تعالى : « فَاضْرِبُوا » أمرٌ للمؤمنين أو للملائكة . وعليه ، ففيه دليل على أنهم قاتلوا « فَوْقَ الْأَعْنَاقِ » أى أعالى الأعناق التى هى المذابح ، تطييراً للرؤوس . أو أراد الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق « وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » أى أصابع . جمع (بنانة) قيل : المراد بالبنان، مطلق الأطراف مجازاً ، تسمية للكل بالجزء ، لوقوعها فى مقابلة الأعناق والمقاتل . والمعنى : اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« ذَٰلِكَ » أى الضرب أو الأمر به « بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى خالفوهما فيما شرعا . وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » تقرير

لما قبله ، إن أريد بالعقاب ما وقع لهم فى الدنيا ، أو وعيد بما أعدّ لهم فى الآخرة ، بعد ما حاق بهم فى الدنيا ، وبيان لخسرانهم فى الدارين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)

« ذَٰلِكُمْ » خطاب للكفرة على طريقة الالتفات « فَذُوقُوهُ » أى ذلك العذاب ، أيها الكفار ، فى الدنيا « وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ » فى الآخرة .

ثم نهى تعالى عن الفرار من الزحف ، مبينا وعيده بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ » أى الظهور بالانهزام . و (الزحف) الجيش الكثير ، تسمية بالمصدر ، والجمع زحوف ، مثل فلس وفلوس . ويقال : زحف إليه ، أى مشى ، وزحف الصبىّ على استه قبل أن يقوم. شبه بزحف الصبيان مشى الجيش الكثير للقتال ، لأنه لكثرته يرى كأنه يزحف ، أى يدب دبيباً قبل التدانى للضراب أو الطعان .

قال أبو السعود : (زَحْفًا) منصوب ، إما على أنه حال من مفعول (لَقِيتُمُ) أى : زاحفين نحوكم ، أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر ، هو الحال منه ، أى يزحفون زحفا. وأما كونه حالاً من فاعله أو منه ، ومن مفعوله معاً كما قيل ــ فيأباه قوله تعالى (فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ) إذ لا معنى لتقييد النهى عن الإدبار بتوجههم السابق إلى العدوّ ، أو بكثرتهم . بل توجه العدوّ إليهم وكثرتهم هو الداعى إلى الإدبار عادة ، والمحوج إلى النهى عنه .

وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين ، حيث تولَّوا مدبرين ، وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفاً ـ بعيدٌ .

والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال ، وهم كثير جمّ ، وأنتم قليل ، فلا تولوهم أدباركم ، فضلًا عن الفرار ، بل قابلوهم وقاتلوهم ، فضلًا عن أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم .

قال الشهاب : عدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحاً للانهزام ، وتنفيراً عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

« وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ » أى يوم اللقاء « دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ » أى مائلًا له . يقال: تحرف وانحرف واحرورف : مال وعدل . وهـذا التحرف إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهمّ من هؤلاء ، وإما بالفرّ للكرّ ، بأن يخيّل عدوه أنه منهزم ليغره ، ويخرجه من بين أعوانه ، فيفرّ عنه ، ثم يكرّ عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه ، وهو باب من مكايد الحرب « أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ » أى منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليستعين بهم « فَقَدْ بَاءَ » أى رجع « بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى ما صار إليه من عذاب النار.

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على وجوب مصابرة العدو ، أى الثبات عند القتال ، وتحريم الفرار منه يوم الزحف ، وعلى أنه من الكبائر . لأنه توعد عليه وعيداً شديداً .

الثانى ـ ظاهر الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال ، إلّا حالة التحرف أو التحيز ، وهو مروىّ عن ابن عباس ؛ واختاره أبو مسلم . قال الحاكم : وعليه أكثر الفقهاء.

وروى عن جماعة من السلف ؛ أن تحريم الفرار المذكور مختص بيوم (بدر) ، لقوله تعالى (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ) وأجيب بأن الإشارة فى (يَوْمَئِذٍ) إلى يوم لقاء الزحف كما يفيده السياق ، لا إلى يوم بدر .

الثالث ـ ذهب جماعة من السلف إلى أن معنى قوله تعالى (أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ) أى جماعة أخرى من المسلمين ، سوى التى هو فيها ، سواء قربت تلك الفئة أو بعدت . وقد[1] روى أن أبا عبيد قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر رضى الله عنه : لو تحيز إلىّ لكنت له فئة . وفى رواية عنه : أيها الناس ! أنا فئتكم . وقال الضحاك : المتحيز إلى فئة ، الفارّ إلى النبىّ وأصحابه . وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره أو أصحابه . وجنح إلى هذا ابن كثير حيث قال : من فرّ من سرية إلى أميره ، أو إلى الإمام الأعظم ، دخل فى هذه الرخصة . ثم أورد حديث عبد الله بن عمر المروىّ عند الإمام أحمد[2] وأبى داود[3] والترمذىّ[4] وغيرهم . قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع ؟ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا : لو دخلنا المدينة . فبتنا ! ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة ، وإلا ذهبنا ! فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن الفرارون . فقال : لا ، بل أنتم العكّارون ، أنا فئتكم وفئة المسلمين ، قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . قال الترمذىّ : حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد ـ انتهى ـ . أى وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة . قال الحاكم فى (مسألة الفرار) : إن

(١) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية) الصفحة رقم ٢٠٢ و ٢٠٣ من الجزء التاسع والعكّارون : الكرّارون إلى الحرب . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٣٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٦ ـ باب فى التولى يوم الزحف ، حديث ٢٦٤٧ (٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٢١ ـ كتاب الجهاد ، ٣٧ ـ باب ما جاء فى الفرار من الزحف .

ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده . فإن ظن المقاومة لم يحلّ الفرار . وإن ظن الهلاك ، جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت ، إذا لم يقصد الإقلاع عن الجهات . وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور .

وعن الكرخيّ : أن الثبات والمصابرة واجب ، إذا لم يخش الاستئصال ، وعرف عدم نكايته للكفار ، والتجأ إلى مصرٍ للمسلمين ، أو جيش ، وهكذا أطلق في (شرح الإبانة) فلم يبح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة ، ولم يعتبر العدد الآتي بيانه .

الرابع ـ روى عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى(١) : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ) قال الحاكم: إذا أمكن الجمع فلا نسخ وأقول: كنا أسلفنا أن السلف كثيراً مايعنون بـ (النسخ) تقييد المطلق ، أو تخصيص العامّ ، فلا ينافى كونها محكمة إطلاقهم النسخ عليها .

قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضى بوجوب المصابرة ، وإن تضاعف عدد المشركين أضعافاً كثيرة . لكن هذا العموم مخصوص بقوله تعالى(٢) في السورة هذه : (إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا) فأوجب الله المصابرة على الواحد للمشرة . لأنه خبر معناه الأمر . فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى ، وأوجب على الواحد مصابرة الاثنين ، فقال تعالى(١) : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) .

وعن ابن عباس : من فرّ من اثنين فقد فرّ ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفرّ .

وبالجملة ، فلا منافاة بين هذه الآية وآية الضّعف ، فإن هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضّعف .

وفي (المهذب) : إن زاد عددهم على مثلَيْ عدد المسلمين ، جاز الفرار . لكن إن غلب على ظنهم أنهم لايهلكون ، فالأفضل الثبات . وإن ظنوا الهلاك ، فوجهان: يلزم الانصراف

(١) [٨ / الأنفال / ٦٦] . (٢) [٨ / الأنفال / ٦٥] .

لقوله تعالى[١] (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) . والثانى : يستحب ولا يجب ، لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة . وإن لم يزد عدد الكفار على مثلْ عدد المسلمين ، فإن لم يظنوا الهلاك ، لم يجز الفرار . وإن ظنوه فوجهان : يجوز لقوله تعالى[١] (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) ولا يجوز ، وصححوه لظاهر الآية .

ثم بيّن تعالى أن نصرهم يوم بدر ، مع قلتهم ، كان بحوله تعالى وقوته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ » أى بقوتكم « وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » أى سبّب فى قتلهم بنصرتكم وخذلانهم وألقى الرعب فى قلوبهم ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، وأذهب عنها الفزع والجزع « وَمَا رَمَيْتَ » أى أنت يا خاتم النبيين ، أى ما بلغتَ رمية الحصباء إلى وجوه المشركين « إِذْ رَمَيْتَ » أى بالحصباء ، لأن كفًّا منها لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية بشر « وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ » أى بلغ بإيصال ذلك إليهم ليقهرهم . وقال أبو مسلم (فى معنى الآية): أى ما أصبت إذ رميت ، ولكن الله أصاب . والرمى لا يطلق إلا عند الإصابة ، وذلك ظاهر فى أشعارهم .

وقد روى عن غير واحد ؛ أنها نزلت[٢] فى شأن القبضة من التراب التى حصب بها النبىّ ﷺ وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش، بعد دعائه وتضرعه واستكانته. فرماهم بها وقال (شاهت الوجوه) . ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، وانهزموا.

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية أن فعل العبد يضاف إليه تعالى إذا كان بنصرته ومعونته

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] .

(٢) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية) الصفحة رقم ٢٠٥ من الجزء التاسع .

وتمكينه . إذ معلوم أنهم قتلوا ، وأنه رمى ، ولذلك قال (إِذْ رَمَيْتَ)ولهذا يضاف إلى السيد ما يأتيه غلامه . وتدل على أن الإضافة بالمعونة والأمر ، صارت أقوى ، فلذلك قال (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ) .

وقال فى (العناية) : استدل بهذه الآية والتى قبلها على أن أفعال العباد بخلقه تعالى ، حيث نفى القتل والرمى . والمعنى : إذ رميت أو باشرت صرف الآلات . والحاصل: ما رميت خلقاً إذ رميت كسباً . وأورد عليه أن المدعى ، وإن كان حقاً ، لكن لا دلالة فى الآية عليه ، لأن التعارض بين النفى والإثبات الذى يتراءى فى بادئ النظر ، مدفوع بأن المراد ما رميت رمياً تقدر به على إيصاله إلى جميع العيون ، وإن رميت حقيقة وصورة ، وهذا مراد من قال : (ما رميت حقيقة ، إذ رميت صورة) فالمنفىّ هو الرمى الكامل ، والمثبت أصله، وقدر منه . فالإثبات والنفى لم يردا على شىء واحد ، حتى يقال : (المنفىّ على وجه الخلق ، والمثبت على وجه المباشرة) ولو كان المقصود هذا لما ثبت المطلوب بها ، الذى هو سبب النزول ، من أنه أثبت له الرمى ، لصدوره عنه ، ونفى عنه ، لأن أثره ليس فى طاقة البشر ، ولذا عدت معجزة له ، حتى كأنه لا مدخل له فيها أصلا . فمبنى الكلام على المبالغة ، ولا يلزم منه عدم مطابقته للواقع ، لأن معناه الحقيقىّ غير مقصود . هكذا ينبغى أن يفهم هذا المقام ، إذ لو كان المراد ما ذكر ، لم يكن مخصوصاً بهذا الرمى ، لأن جميع أفعال العباد كذلك بمباشرتهم وخلق الله . انتهى .

وهذا التحقيق جيد، وقد نبه عليه أيضاً العلامة ابن القيم فى (زاد المعاد) حيث قال : وقد ظنت طائفة أن الآية دلت على نفى الفعل عن العبد وإثباته لله ، وأنه هو الفاعل حقيقة ، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة ، مذكورة فى غير هذا الموضع . ومعنى الآية : أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمى ، ونفى عنه الإيصال الذى لم يحصل برميه ، فالرمى يراد به الحذف والإيصال ، فأثبت لنبيه الحذف ، ونفى عنه الإيصال . انتهى .

وقوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ » أى ليمنحهم من فضله « بَلَاءً حَسَنًا »

أى منحاً جميلا ، بالنصر والغنيمة والفتح ، ثم بالأجر والمثوبة ، غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره ، فيعرفوا حقه ويشكروه .

قال أبو السعود : واللام ، إما متعلقة بمحذوف متأخر ، فالواو اعتراضية ، أى وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة ، فعل ما فعل ، لا لشيء غير ذلك ، مما لا يجديهم نفعاً . وإما ، برمى ، فالواو للعطف على علة محذوفة ، أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى . . . الخ . وتفسير البلاء هنا بالمنحة هو مااختاره المحققون من قولهم : (أبلاه الله ببلية إبلاء حسناً) إذا صنع به صنعاً جميلا ، وأبلاه معروفا ، قال زهير (فى قصيدته التى مطلعها .

صحاالقلبُ عن سَلْمَى وقد كادَ لا يَسْلُو وأقفر من سَلْمَى التَّعانيقُ والثِّقْلُ

والتعانيق والثقل : مواضع) :

جزى اللهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بِكم وأبلاهما خَيْرَ البَلَاءِ الذى يَبْلُو

(أى إحسان فعلهما بكم . فأبلاهما خير البلاء ، أى صنع الله إليهما خير الصنيع الذى يبتلى به عباده . والإنسان يبلى بالخير والشر) أى صنع بهما خير الصنيع الذى يبلو به عباده . واستظهر الطيبىّ تفسيره بالإبلاء فى الحرب بدليل ما بعده . قال ابن الأعرابىّ : يقال : أبلى فلان إذا اجتهد فى صفة حرب أو كرم . ويقال : أبلى ذلك اليوم بلاء حسنا .

« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ » أى لدعائهم واستغاثتهم « عَلِيمٌ » أى بمن يستحق النصر والغلب وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى البلاء الحسن ، أو القتل ، أو الرمى . ومحله الرفع . أى المقصود أو الأمر (ذلكم) . وقوله : « وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » معطوف عليه . أى

مضعف بأس الكافرين وحيلهم بنصركم وخذلانهم ، أى أن المقصود إبلاء المؤمنين ، وتوهين كيد الكافرين .

قال ابن كثير : هذه بشارة أخرى . مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنه فى تبار ودمار . أى : وقد وجد المخبر على وفق الخبر ، فصار معجزة للنبىّ ﷺ ، ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ » خطاب للمشركين ، أى إن تطلبوا الفتح ، أى القضاء وأن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم القضاء بما سألتم .

روى الإمام أحمد[١] والنسائىّ والحاكم ، وصححه ، عن عبد الله بن ثعلبة . أن أبا جهل قال ، حين التقى القوم : اللهم ! أقطعنا للرحم . وآتانا بما لا نعرفه ، فَأَحِنْهُ ـ أى فأهلكه ـ الغداةَ . فكان المستفتِحَ .

وعن السدّىّ[٢] ؛ أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر : أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله وقالوا : اللهم ؟ انصر أعزّ الجندين ، وأكرَمَ الفئتين ، وخيرَ القبيلتين . فقال تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا . . .) الآية .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ أن هذه الآية إخبار عنهم بما قالوا (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٣١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية) الصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء التاسع .

هَٰـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ . . .) الآية ـ قيل : فى هذا الخطاب تهكم بهم ، يعنى فى قوله تعالى (فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) لأن الذى جاءهم الهلاك والذلة . كذا فى (العناية) . وهومبنىّ على أن الفتح بمعنى النصر ، وله معنى آخر وهو الحكم بين الخصمين والقضاء . وبهما فسرت الآية أيضاً . « وَإِنْ تَنْتَهُوا » أى عن الكفر وعداوة الرسول « فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى فى الدنيا والآخرة « وَإِنْ تَعُودُوا » أى لمحاربة الرسول « نَعُدْ » أى لنصره عليكم « وَلَنْ تُغْنِيَ » أى تدفع « عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصر . قرئ بكسر (إن) استئنافاً ، وفتحها ، على تقدير اللام .

تنبيه :

جُوِّز أن يكون الخطاب فى قوله تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا) للمؤمنين ، أى إن تطلبوا النصر باستغاثتكم ربكم ، فقد حصل لكم ذلك ، فاشكروا ربكم ، والزموا طاعته . وقوله تعالى (إِنْ تَنْتَهُوا) أى عن المنازعة فى أمر الأنفال ، وعن طلب الفداء على الأسرى الذى عوتبوا عليه بقوله تعالى[1] (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ) ، فقال تعالى : وَإِنْ تَنْتَهُوا ـ عن مثله ـ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا إلى تلك المنازعات نعد عليكم بالإنكار ، وتهييج العدوّ ؛ لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم على الطاعة ، وترك المخالفة ، ثم لا تنفعكم الفئة والكثرة ، إذا لم يكن الله معكم بالنصر ، فإنه مع الكاملين فى إيمانهم . وهذا الوجه قرره الرازىّ ونقله عن القاضى .

قال البيضاوىّ : ويؤكده الآية بعدُ ؛ فإن المراد بها الأمر بطاعة الرسول ؛ والنهى عن الإعراض عنه ؛ والله أعلم .

---

(١) [٨ / الأنفال ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ » أى تعرضوا عنه بمخالفة أمره « وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ » أى القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا » أى ادعوا السماع « وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى سماع تدبر واتعاظ ، وهم المنافقون أو المشركون . فالمنفىّ سماع خاص ، لكنه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نزّلوا منزلة من لم يسمع أصلاً ، بجعل سماعهم بمنزلة العدم . وقيل: السماع مجاز عن التصديق .

قال الزمخشرىّ : والمعنى أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول فى بعض الأمور ، من قسمة الغنائم وغيرها ، كان تصديقكم كَلاَ تصديقٍ ، وأشبه سماعُكم سماعَ من لا يؤمن .

ثم بيّن تعالى سوء حال المشبه بهم ، مبالغة فى التحذير ، وتقريراً للنهى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ » أى ما يدبّ على الأرض ، أو شر البهائم « عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ » أى عن سماع الحق « الْبُكْمُ » أى عن النطق به « الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى لا يفهمونه . جعلهم تعالى من جنس البهائم ، لصرفهم جوارحهم عما خلقت له ، ثم جعلهم شرّها لأنهم

عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل، وفى ذكرهم فى معرض التشبيه، بهذا الأسلوب، غاية فى الذم . وقد كثر ، فى التنزيل ، تشبيه الكافرين بنحو هذا ، كقوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) وقال تعالى(١) (أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »)(٢) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

« وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ » أى فى هؤلاء الصم البكم « خَيْرًا » صدقاً ورغبة « لَأَسْمَعَهُمْ » أى الحجج والمواعظ ، سماع تفهم وتدبر ، أى لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين . أى ولكن لم يعلم الله فيهم شيئاً من ذلك ، لخلوّهم عنه بالمرة ، فلم يسمعهم كذلك ، لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة ، وإليه أشير بقوله تعالى (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا » أى : ولو أسمعهم سماع تفهم ، وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية ، لتولوا عما سمعوه من الحق « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » أى عن قبوله جحوداً وعناداً . قال الرازىّ : كل ما كان حاصِلًا ؛ فإنه يجب أن يعلمه الله ، فعدم علم الله بوجوده ، من لوازم عدمه ، فلا جرم حَسُنَ التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده .

تنبيه :

قد يتوهم أن الشرطيتين فى الآية مقدمتا قياس اقترانىّ . هكذا : لو علم فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا . ينتج : لو علم فيهم خيراً لتولوا . وفساده بيّن . وأجيب : بأنه إنما يلزم النتيجة الفاسدة لو كانت الثانية كلية ، وهو ممنوع . واعترض بأن هذا المنع، وإن صح فى قانون النظر ، إلا أنه خطأ فى تفسير الآية ، لابتنائه على أن المذكور قياس مفقود

---

(١) [٢ / البقرة / ١٧١] . (١) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

شرائط الإنتاج ، ولا مساغ لحمل كلام الله عليه . وأجيب : بأن المراد منع كون القصد إلى ترتيب قياسٍ ، لانتفاء شرطٍ ، لا أنه قياس فقد شرطه . كما أنه يمنع منه عدم تكرار الوسط أيضاً ، وإنما المقصود من المقدمة الثانية تأكيد الأولى ، إذ مآله إلى أنه انتفى الإسماع ، لعدم الخيرية فيهم ، ولو وقع الإسماع ، لا تحصل الخيرية فيهم ، لعدم قابلية المحل . كذا في (العناية).

وقد حاول بعضهم تصحيح كونها قياساً شرطيًّا ، متحد الوسط ، صحيح الإنتاج ، بتقدير : لو علم فيهم خيرًا في وقتٍ ، لتولوا بعده .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » الاستجابة : بمعنى الإجابة . قال :

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيبُ إلى النَّدا ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

(يريد : فلم يجبه . وقائله كعب بن سعد الغنويّ . والقصيدة في الأصمعيات رقم ١٤) . والمراد بها الطاعة والامتثال . وإنما وحّد الضمير في قوله (دَعَاكُمْ) ـ أي الرسول ـ لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى .

وقال الزمخشريّ : لأن استجابته ﷺ ، كاستجابته تعالى ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد . وقوله (لِمَا يُحْيِيكُمْ) ، قال عروة بن الزبير ـ فيما رواه ابن إسحق ـ أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقوّاكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوّكم بعد القهر منهم لكم . وإنما سمى الجهاد حياة ، لأن في وهن عدوّهم بسببه حياة لهم وقوة ، أو لأنه سبب الشهادة الموجبة للحياة الدائمة ، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي معدن الحياة ،

كما قال تعالى (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)(١) أى الحياة الدائمة ، فيكون مجازاً مرسلًا ، بإطلاق السبب على المسبب ، أو استعارة . وقيل : (لِمَا يُحْيِيكُمْ) أى من العلوم الدينية التى هى مناط حياة القلب ، كما أن الجهل موته .

قال الشهاب : وإطلاق الحياة على العلم ، والموت على الجهل ، استعارة معروفة ، ذكرها الأدباء ، وأهل المعانى . وأنشد الزمخشرىّ لبعضهم :

لا تعجبنّ الجهولَ حُلّتُه ... فذاك ميْتٌ ، وثوبُه كَفَنُ

وقد ألمّ فيه بقول أبى الطيّب ، من قصيدته التى أولها :

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمنِ ... يخلو من الهمِّ أخلاهُمْ من الفِطَنِ

ومنها :

لا تُعْجِبَنَّ مضيما حسنُ بزّتِهِ ... وهل تروقُ دَفِيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ

والأظهر أن يُعْنَى بـ (ما يحييكم) ما يصلحكم من أعمال البر والطاعة . فيدخل فيه ما تقدم وغيره .

تنبيه :

استدل النبىّ ﷺ بهذه الآية على وجوب إجابته إذا نادى أحداً وهو فى الصلاة . روى البخارىّ(٢) عن أبى سعيد بن المعلَّى رضى الله عنه قال : كنت أصلى ، فمرّ بى النبىّ ﷺ ، فدعانى ، فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ ألم يقل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا . .) الآية .

وقوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » يحتمل وجوهاً من المعانى .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٤] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ٢ ـ باب : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، حديث رقم ١٩٦١ .

أحدهما : أنه تعالى يملك على المرء قلبه فيصرفه كيف يشاء ، فيحول بينه وبين الكفر ، إن أراد هدايته ، وبينه وبين الإيمان ، إن أراد ضلالته . وهذا المعنى رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس ، وصححه ، وقاله غير واحد من السلف . ويؤيده ما روى ؛ أن النبىّ ﷺ كان يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك . فقيل : يارسول الله ! آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى ، يقلبها ـ رواه الإمام أحمد [1] والترمذى [2] عن أنس ـ ولفظ مسلم [3] : إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم ! مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك ـ انفرد مسلم عن البخارىّ بإخراجه عن عبد الله بن عمرو ـ . وفى رواية : إن قلب الآدمىّ بين إصبعين من أصابع الله ، فإذا شاء أزاغه ، وإذا شاء أقامه ـ رواه الإمام أحمد [4] عن عائشة ـ . وروى أيضاً مثله عن جابر وبلال والنوّاس [5] بن سمعان وأم سلمة ، كما ساقه ابن كثير . وعلى هذا المعنى ، فالآية استعارة تمثيلية ، لتمكنه من قلوب العباد ، فيصرفها كيف يشاء ، بما لا يقدر عليه صاحبها . شبه بمن حال بين شخص ومتاعه ، فإنه يقدر على التصرف فيه دونه .

ثانيهما : أنه حث على المبادرة إلى الطاعة ، قبل حلول المنية . فمعنى (يحول بينه وبين قلبه) يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها ، وهى التمكن من إخلاص القلب ، ومعالجة أدوائه وعلله ، ورده سليما ، كما يريده الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوها لطاعة الله ورسوله . فشبه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه ، الذى به يعقل ، فى عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١١٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .
(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدر ، ٧ ـ باب ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن . (٣) أخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٦١ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

ثالثها : أنه مجاز عن غاية القرب من العبد ، لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر ، لاتصاله بهما ، وانفصال أحدهما عن الآخر . و (يحول) إما استعارة تبعية معناه يقرب . أو استعارة تمثيلية . وهذا المعنى نقل عن قتادة حيث قال : الآية كقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [١] وفيه تنبيه على أنه تعالى مطلع ، من مكنونات القلوب ، على ما عسى أن يغفل عنه صاحبها .

« وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أي فيجزيكم بأعمالكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » الفتنة : إما بمعنى الذنب ، كإقرار المنكر ، وافتراق الكلمة والتكاسل في الجهاد وإما بمعنى العذاب . فإن أريد الذنب فإصابته بإصابة أثره . وإن أريد العذاب ، فإصابته بنفسه . و (لَا تُصِيبَنَّ) جواب للأمر ، أي : إن إصابتكم لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم ، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم ، وتمدي رذيلتهم إلى من يخالطهم ، كقوله تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [٢] . قاله القاشاني .

وقد روى الإمام أحمد [٣] عن جرير أن رسول الله ﷺ قال : ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب .

وروى نحوه عن عدي بن عميرة وحذيفة والنعمان وعائشة وأم سلمة .

---

(١) [٥٠ / ق ١٦] . (٢) [٣٠ / الروم ٤١] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

قال الكرخيّ : ولا يستشكل هذا بقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (١) ، لأن الناس ، إذا تظاهروا بالمنكر ، فالواجب على كل من رآه أن يغيره ، إذا كان قادرا على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة . هذا بفعله ، وهذا برضاه . وقد جعل تعالى ، بحكمته ، الراضى بمنزلة العامل ، فانتظم فى العقوبة . انتهى .

وذكر القسطلانيّ أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذى يقع فى الدين بفعل المعاصى ، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له ، إلا إذا تألم للخلل الذى يقع فى الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده ، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر ، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار . انتهى .

وعن ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب .

« وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى لمن يخالف أوامره .

ثم نبه تعالى عباده المؤمنين السابقين الأولين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، ورزقهم من الطيبات ، ليشكروه بدوام الطاعة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَاذْكُرُوا » أى يا معشر المهاجرين « إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ » أى فى العدد « مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ » أى مقهورون فى أرض مكة قبل الهجرة ، تستضعفكم قريش « تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ » أى أهل مكة . و (تخطفه) و (اختطفه) بمعنى استلبه وأخذه

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٤] و [١٧ / الإسراء ١٥] و [٣٩ / الزمر / ٧] .

بسرعة « فَآوَاكُمْ » أى إلى المدينة « وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ » يعنى أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره ، وذلك بمظاهرة الأنصار ، وإمداد الملائكة ، والتثبيت الربانى « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » أى الغنائم لأنها لم تطب إلا لهم «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى المولى على ما تفضل به وأولى . وما ذكرنا من كون الخطاب فى الآية للمهاجرين خاصة ، هو أنسب بالمقام والسياق والسياق يشعر به . وقيل : الخطاب للعرب كافة ، وعليه قول قتادة بن دعامة السدوسىّ رحمه الله فى هذه الآية : كان هذا الحىّ من العرب أذل الناس وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلودا ، وأثبته ضلالا . والله ! ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله . انتهى .

وأقول : الأمر فى العرب ، وإن كان كما ذكر ، لكن فى تنزيل بعض ألفاظ الآية عليه تكلف لا يخفى فالظاهر ما ذكرنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » لما ذكّرهم تعالى بإسباغ نعمه عليهم ليشكروه ، وكان من شكره الوقوف عند حدوده ، بين لهم ما يحذر منها ، وهو الخيانة . ويدخل فى خيانة الله تعطيل فرائضه ، ومجاوزةَ حدوده . وفى خيانة رسوله رفض سنته ، وإفشاء سره للمشركين . وفى خيانة أماناتهم الغلول فى المغانم ، أى السرقة منها ، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر ، وكل ما تعبدوا به .

وقد روى فى نزول الآية شىء مما ذكرنا . ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره . ومن ذلك[١] ما رواه سعيد بن منصور عن عبد الله بن أبى قتادة قال : نزلت فى أبى لبابة حين حاصر رسول الله ﷺ قريظة وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد ، فاستشار قريظة من أبى لبابة فى النزول على حكم سعد ، وكان أهل أبى لبابة وأمواله فيهم ، فأشار إلى حلقه ـ أنه الذبح ـ قال أبو لبابة : ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ، ثم حلف ألا يذوق ذواقاً حتى يموت ، أو يتوب الله عليه . وانطلق إلى المسجد ، فربط نفسه بسارية ، فمكث أياماً ، حتى كان يخرّ مغشياً عليه من الجهد ، ثم أنزل الله توبته ، وحلف لا يحله إلا رسول صلى الله عليه وسلم بيده ، فحله ، فقال[٢] : يا رسول الله ! إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة ، فقال : يجزيك الثلث أن تصدق به .

قال بعض المفسرين : دل هذا السبب على جواز إظهار الجزع على المعصية ، وإتعاب النفس وتوبيخها ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر على أبى لبابة . ودل على أنه يستحب إتباع المعصية بالصدقة ، لأنه عليه السلام قال : يجزيك ثلث مالك ، وهذا سبيل قوله[٣] فى هود (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) .

وفى قوله تعالى : (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم منه من غيره ، لأن المعنى : وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله .

قال الرازىّ : ثم إنه لما كان الداعى إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد ، نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب فقال :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦٨٦ و ٦٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٢٤٦ ، ٢٤٧ و ٢٤٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) انظر موطأ مالك : ٢٢ ـ كتاب النذور والأيمان ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٣) [١١ / هود ١١٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » أى محنة من الله ليبلوكم ، هل تقعون بهما فى الخيانة ، أو تتركون لهما الاستجابة لله ولرسوله ، أو لا تلهون بهما عن ذكره ، ولا تعتاضون بهما منه . فسموا (فتنة) اعتبارا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم . ويجوز أن يراد (بالفتنة) الإثم أو العذاب ، فإنهم سبب الوقوع فى ذلك .

قال الحاكم : قد أمر الله بالعلم بذلك ، وطريق العلم به التفكر فى أحوالهما وزوالها ، وقلة الانتفاع بهما ، وكثرة الضرر ، وأنه قد يعصى الله بسببهما .

وقوله تعالى : « وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لمن آثر رضاه على جمع المال وحب الولد ، فلم يورط نفسه من أجلهما . وقد جاء التحذير من فتنتهما صراحة مع الترهيب الشديد فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »(١) قيل : هذه الآية من جملة ما نزل فى أبى لبابة ، وما فرط منه لأجل ماله وولده .

ولما حذر تعالى ، فيم تقدم ، عن الفتنة بالأموال والأولاد ، بشر من اتقاه فى الافتتان بهما ، وفى غيره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

---

(١) [٦٣ / المنافقون / ٩] .

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » قال المهايمىّ : أشار تعالى إلى أن من ترك الخيانة ، واستجاب لله ، فلا يخاف على أهله وماله وعرضه ، أى كما خاف أبو لبابة . فإن من اتقاه تعالى فلا يجترئ أحد على أهله وحوزته ، لأنه يؤتى فرقاناً يفارق به سائر الناس من المهابة والإعزاز . انتهى .

وقيل : « فرقاناً » أى نصراً ، لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر بإذلال حزبه ، والإسلام بإعزاز أهله . ومنه قوله تعالى (يَوْمَ الْفُرْقَانِ)(١) . وقيل : بياناً وظهوراً يشهر أمركم ، ويبث صيتكم وآثاركم فى أقطار الأرض من قولهم : بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان ، أى طلع الفجر . وقيل : فصلًا بين الحق والباطل ، ومخرجاً من الشبهات . كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢) .

والفرقان (كالفرق) ، مصدر (فَرَقَ) ، أى فصل بين الشيئين ، سواء كان بما يدركه البصر ، أو بما تدركه البصيرة . إلا أن الفرقان أبلغ ، لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » لما ذكّر الله تعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٨] .

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ) ذكر نبيه ﷺ نعمته عليه خاصة ، فى حفظه من مكر قريش [1] به ليشكره تعالى فى نجاته من مكرهم ، واستيلائه عليهم . وذلك أن قريشاً ، لما أسلمت الأنصار ، وأخذ نور الإسلام فى الانتشار ، فرقوا أن يتفاقم أمره ، فاجتمعوا فى دار الندوة (وهى دار بناها قصىّ بن كلاب ليصلح فيها بين قريش . ثم صارت لمشاورتهم . وهى الآن مقام الحنفىّ . والندوة الجماعة من القوم ، وندا بالمكان اجتمع فيه ، ومنه النادى) ليتشاوروا فى أمره صلى الله عليه وسلم . فقال أبو البخترىّ بن هشام : رأيى أن تحبسوه فى بيت ، وتشدوا وثاقه ، وتسدوا بابه ، غير كوّة ، تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به ريب المنون . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (لِيُثْبِتُوكَ) أى ليحبسوك ويوثقوك ، لأن كل من حبس شيئاً وربطه فقد جعله ثابتاً لا يقدر على الحركة منه . ثم اعترض هذا الرأى شيخ نجدىّ دخل معهم ، فقال : بئس الرأى ! يأتيكم من يقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم ! ثم قال هشام بن عمرو : رأيى أن تحملوه على جمل ، وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنع ، واسترحتم . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (أَوْ يُخْرِجُوكَ) ، يعنى من مكة ، ثم اعترض النجدىّ أيضاً بقوله : بئس الرأى ! يفسد قوماً غيركم ، ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً ، وتمطوه سيفاً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا . وهذا ما ذكره تعالى بقوله : (أَوْ يَقْتُلُوكَ) . ثم قال النجدىّ اللعين : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأيا . فتفرقوا على رأى أبى جهل ، مجمعين على قتله . فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ : وأمره أن لا يبيت فى مضجعه ، وأذن الله له فى الهجرة . فأمر عليا ، فنام فى مضجعه ، وقال له : اتشح ببردتى ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحات رقم ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ (طبعة جوتنجن) والصفحات رقم ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه . ثم خرج ﷺ ، وأخذ قبضة من تراب ، فأخذ الله بأبصارهم عنه ، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ : (يٰسٓ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ) إلى قوله (فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)[1] ومضى مع أبي بكر إلى الغار ، وبات المشركون يحرسون عليًّا ، يحسبون أنه النبيّ . فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه ، فرأوا عليًّا ، فقالوا : أين صاحبك ؟ فقال : لا أدري ! فاتبعوا ، أثره فلما بلغوا الغار ، رأوا نسج العنكبوت على بابه ، فقالوا : لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر . وخيب الله سعيهم ، وأبطل مكرهم . ثم مكث ﷺ فيه ثلاثا ، ثم خرج إلى المدينة .

روى ذلك عن ابن عباس من طرق عند ابن إسحاق والإمام أحمد والحاكم والبيهقيّ ـ دخلت روايات بعضهم في بعض ـ .

وقوله تعالى (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) أي يدبر مايبطل مكرهم . وقوله : (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أي أعظمهم تأثيراً ، قاله المهايميّ وأفاد أيضا في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها ؛ أن هذه تشير إلى أن المتقي كما يجعل الله له فرقاناً يمنع من الاجتراء على أهله وماله وعرضه ظاهرا ، يحفظه من مكر من مكر به ، بل يمكر له على ما كره . انتهى .

ثم أخبر تعالى عن كفر قريش وعتوّهم وتمردهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا » أي مثل هذا « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا » أي المتلوّ . وهذا غاية المكابرة ، ونهاية العناد . كيف لا ؟ ولو استطاعوا شيئاً من ذلك ،

---

(١) [٣٦ / يس / ١ ـ ٩] .

فما الذى كان يمنعهم من المشيئة ، وقد تُحُدُّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله ، وقُرِّعوا على العجز ، وذاقوا من ذلك الأمرين ، ثم قورعوا بالسيف ، فلم يعارضوا سواه ، مع فرط أنفتهم ، واستنكافهم أن يغلبوا ، خصوصاً فى باب البيان الذى هم فرسانه ، المالكون لأزمته ، وغاية ابتهاجهم به .

وقوله تعالى : « إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سطروه وكتبوه من القصص . قيل : (أساطير) لا واحد له ، وقيل : هو جمع أسطر وسطور وأسطار ، جموع سطر ، بسكون الطاء وفتحها ، فهو جمع الجمع . وقيل : هو جمع أسطورة ، كأحدوثة وأحاديث . والأصـــل فى السطر الخط والكتابة . يقال : سطر : كتب ، ويطلق على الصف من الشىء كالكتاب والشجر . كذا فى القاموس وشرحه .

وقد روى أن قائل هذا . النضر بن الحارث من كلدة ، وأنه كان ذهب إلى بلاد فارس ، وجاء منها بنسخة حديث رستم واسفنديار ، ولما قدم ووجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس ما قصه تعالى من أحاديث القرون . قال : لو شئت لقلت مثل هذا ، فزعم أنه مثل ما تلقفه . وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس ، جلس فيه النضر فحدثهم من متلقفاته ، ثم يقول : بالله ! أينا أحسن قصصاً ، أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله تعالى منه يوم بدر ، وأسره المقداد ، ثم أمر ﷺ به ، فضربت عنقه . وإسناده قوله إلى الجميع ، إما لرضا الباقين به أو لأن قائله كبير متبع . وقد كان اللعين قاصّهم الذى يعلمهم الباطل ويقودهم إليه ، ويغرهم بمثل هذه الجمجمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ

أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » هذا أسلوب من الجحود بليغ ، لأنهم عدّوا حقية القرآن محالًا ، فلذا علقوا عليه طلب العذاب الذى لا يطلبه عاقل ، ولو كان ممكناً لفرّوا من تعليقه عليه . والمعنى ، إن كان هذا القرآن حقًّا منزلًا ، فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل ، كما فعلتَ بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر . وفى إطلاقهم (الحق) عليه ، وجعله من عندالله تهكم بمن يقول ذلك من النبى أو المؤمنين . وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقًّا على الوجه ، يدعيه ﷺ ، وهو تنزيله ، لا الحق مطلقاً ، لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع ، غير منزل ، كالأساطير . فالتعريف للعهد . و(أَمْطِرْ) استعارة أو مجاز لـ(أَنْزِلْ) قال الزمخشرىّ : وقد كثر الإمطار فى معنى العذاب . فإن قلت : ما فائدة قوله (من السماء) ، والإمطار لا يكون إلا منها ؟ قلت : كأنه أريد أن يقال : فأمطر علينا السجيل ، وهى الحجارة المسوّمة للعذاب ، فوضع (حجارة من السماء) ، موضع (السجيل) كما تقول : صبّ عليه مسرودة من حديد ، تريد درعاً . وقوله (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى سوى الإمطار المذكور ، أو من عطف العامّ على الخاصّ.

وعن معاوية ، أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! قال : أجهل من قومى قومك ! قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ، ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . أى الذى هو الأصلح لهم ، ولكن لشدة جهلهم وعتوهم وعنادهم استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا تقديم العقوبة ، كقوله تعالى[1] : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (وَقَالُوا[2] رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) وقوله[3] :(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة ، كما قال[4] قوم شعيب له : (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] .
(٢) [٣٨ / ص / ١٦] .
(٣) [٧٠ / المعارج / ١ ـ ٣] .
(٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

وعن عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير أن قائل ذلك النضر بن الحارث ، صاحب القول السالف . قال عطاء : لقد أنزل فى النضر بضع عشرة آية ، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر.

وروى البخارى(١) عن أنس أن قائل ذلك أبو جهل .

وروى ابن مردويه عن بريدة قال : رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاخسف بى وبفرسى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » بيان للموجب لإمهالهم ، وعدم إجابة دعائهم . واللام لتأكيد النفى ، والدلالة على أن تعذيبهم ، والنبىّ بين أظهرهم ، غير مستقيم فى الحكمة ، لأن سنته تعالى ، وقضية حكمته ، ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها ، لأنه لو نزل العذاب فى مكانهم لأصاب كل من كان فيه . وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم .

وقوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » ذكروا فيه ثلاثة أوجه :

الأول ـ أن المراد استغفار من بقى بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين . قال الطيبىّ : وهذا الوجه أبلغ ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ٣ ـ باب قوله : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، حديث ٢٠٠٧ .

والثانى ـ أن المراد به دعاء الكفرة بالمغفرة ، وقولهم : (غفرانك) فى طوافهم بالبيت ، كما رواه ابن أبى حاتم ، فيكون مجرد طلب المغفرة منه تعالى مانعاً من عذابه ، ولو من الكفرة .

والثالث أن المراد بالاستغفار التوبة، والرجوع عن جميع ما هم عليه من الكفر وغيره ، فيكون القيد منفيًّا فى هذا ، ثابتاً فى الوجهين الأولين .

قال القاشانى : العذاب سَورة الغضب وأثره ، فلا يكون إلا من غضب النبىّ ، أو من غضب الله المسبب من ذنوب الأمة . والنبىّ عليه الصلاة والسلام كان صورة الرحمة ، لقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)(١) ولهذا لما كسروا رباعيته قال (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) ولم يغضب كما غضب نوح عليه السلام وقال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)(٢) فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب ، وكذا وجود الاستغفار ، فإن السبب الأولىّ للعذاب لما كان وجود الذنب ، والاستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته ، بل يوجب زواله ، فلا يتسبب لغضب الله ، فما دام الاستغفار فيهم فهم لا يعذبون . انتهى .

روى الترمذىّ(٣) عن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : أنزل الله علىّ أمانين لأمتى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ . . .) الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد(٤) والحاكم وصححه ، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك ، لا أبرح أغوى بنى آدم مادامت الأرواح فيهم ، فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] . (٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ٤ ـ باب حدثنا سفيان بن وكيع .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

وروى الإمام أحمد[1] عن فضالة بن عبيد عن النبيّ ﷺ أنه قال : العبد آمن من عذاب الله عز وجل ما استغفر الله عز وجل .

ثم بيّن تعالى أنهم أهل للعذاب لولا المانع المتقدم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى وأىّ شيء لهم فى انتفاء العذاب عنهم ، وحالهم الصد عن المسجد الحرام ، كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية . ومن صدهم عنه إلجاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة .

قال القاشانيّ : أى ليس عدم نزول العذاب لعدم استحقاقهم لذلك بحسب أنفسهم ، بل إنهم مستحقون بذواتهم ، لصدودهم ، وصدهم المستعدين ، وعدم بقاء الخيرية فيهم . ولكن يمنعه وجودك ووجود المؤمنين المستغفرين معك فيهم . ثم قال : واعلم أن الوجود الإمكانيّ يتبع الخير الغالب ، لأن الوجود الواجبيّ هو الخير المحض . فما رجح خيره على شره فهو موجود بوجوده بالمناسبة الخيرية ، وإذا غلب الشر لم تبق المناسبة ، فلزم استئصاله وإعدامه . فهم ما داموا على الصورة الاجتماعية كان الخير فيهم غالباً ، فلم يستحقوا الدمار بالعذاب . وأما إذا تفرقوا فما بقى إلا شرهم خالصاً فوجب تدميرهم ، كما وقع فى وقعة بدر . ومن هذا يظهر تحقيق المعنى الثانى فى قوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)[2] لغلبة الشرع على المجموع حينئذ . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » ردّ لما كانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى)

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٥] .

نصدّ من نشاء ، وندخل من نشاء . أي ما كانوا مستحقين ولاية أمره ، لشركهم « إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » أي من الشرك ، فلهم أن يصدوا المفسدين « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أي أنهم لا ولاية لهم عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً » أي تصفيراً « وَتَصْدِيَةً » أي تصفيقاً بالأكف .

روى ابن أبي حاتم أن ابن عمر رضي الله عنهما حكى فعلهم ، فصفر ، وأمال خده ، وصفق بيديه

وعن ابن عمر أيضاً قال : إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفرون ويصفقون .

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم كانو يطوفون بالبيت عراة ، يصفرون ويصفقون .

وعن مجاهد أنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاته .

وقال الزهريّ : يستهزئون بالمؤمنين .

وهذه الجملة إما معطوفة على (وَهُمْ يَصُدُّونَ) ، فيكون لتقرير استحقاقهم للعذاب ، أو على قوله (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ) ، فيكون تقريراً لعدم استحقاقهم لولايته .

قال الزمخشريّ : فإن قلت: ماوجه هذا الكلام ؟ قلت : هو نحو من قوله (أي الفرزدق):

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أداهِمَ سوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمْرَا

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء . ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة .

وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، وهم مشبكون بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون. وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، يخلطون عليه. ما كنت أخشى، أي: ما كنت أعلم. وأداهم: جمع (أدهم) وهو الأسود من الحيات. والعرب تذكر (الأدهم) وتريد به (القيد) كما في قصة القبعثري. والمحدرجة: السياط. انتهى.

« فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أي اعتقاداً وعملاً، وفيه إشعار بأن هذا الفعل المبطل لحرمة البيت، كفر، للإستهانة بشعائره تعالى والسخرية بها. والعذاب المذكور هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، كما قاله غير واحد من السلف، واختاره ابن جرير.

تنبيه :

قال ابن القيّم في (إغاثة اللهفان): المتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق، والمخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة، أشباه هؤلاء المشركين قال ابن عرفة وابن الأنباري: المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى. أخبر أنهم جعلوا، مكان الصلاة التي أمروا بها، المكاء والتصدية. فألزمهم ذلك عظيم الأوزار. وهذا كقولك: زرته فجعل جفائي صلتي، أي أقام الجفاء مقام الصلة والمقصود أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار، ونحوه، فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم، بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم. والله سبحانه لم يشرع التصفيق[1] للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح، لئلا يتشبهوا بالنساء. فكيف إذا فعلوه، لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً. انتهى.

---

(١) يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه البخاريّ في : ١٠ـ كتاب الأذان ٤٨ـ باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول، فتأخر الآخر أو لم يتأخر جازت صلاته، والحديث رقم ٤٢٩ عن سهل بن سعد الساعديّ وهو حديث طويل، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم « من رابه شيء في صلاته فليسبّح. فإنه إذا سبّح التُفِتَ إليه. وإنما التصفيق للنساء ».

وقال قبله : ومن مكائد عدوّ الله ومصايده التى كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ، سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة الذى يصدّ القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان .

وقال شيخه تقىّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى ، فى بعض فتاويه : وأما اتخاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ بالشبابات والاجتماع على ذلك ، ديناً وطريقاً إلى الله وقربة ، فهذا ليس من دين الإسلام ، وليس مما شرعه لهم نبيّهم محمد ﷺ ، ولا أحد من خلفائه ، ولا استحسن ذلك أحد من أئمة المسلمين . بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، ولا عهد أصحابه ، ولا تابعيهم بإحسان ، ولا تابعى التابعين . بل لم يكن أحد من أهل الدين من الأعصار الثلاثة ، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا بخراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هذا السماع ، وإنما ابتدع فى الإسلام بعد القرون الثلاثة ، ولهذا قال الشافعىّ ـ لما رأى ذلك ـ : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) ، يصدون به الناس عن القرآن . وسئل عنه أحمد فقال : أكرهه ، هو محدث . قيل ، أتجلس معهم ؟ قال : لا ! وكذلك كرهه سائر أئمة الدين ، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه . فلم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم ، ولا الفضيل ابن عياض ، ولا معروف الكرخىّ ، ولا أبو سليمان الدارانىّ ولا أحمد بن أبى الحوارىّ ، ولا السرىّ السقطىّ ، وأمثالهم . والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين ، تركوه فى آخر أمرهم . وأعيان المشايخ عابوا أهله ، كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر ، والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ : وما ذكره الإمام الشافعىّ رضى الله عنه أنه من إحداث الزنادقة ، من كلام إمام خبير بأصول الإسلام . فإن هذا السماع لم يرغّب فيه ، ويدعو إليه فى الأصل ، إلا من هو متهم بالزندقة ، كابن الراوندىّ والفارابىّ وابن سينا وأمثالهم .

ثم قال رحمه الله : نعم ! قد حضره أقوام من أهل الإرادة والمحبة ، وممن له نصيب فى المحبة ، لما فيه من التحريك لهم ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته . كما دخل قوم من الفقهاء فى أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ظناً منهم أنه حق موافق ، ولم يعلموا غائلته . ولا عرفوا مغبته ، فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولا وعملا وذوقا وخبرة لا يستقل به أكثر الناس ، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة .

ثم قال رحمه الله : ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ، ومعارفها وأذواقها ، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة ، إلا وفى ضمن ذلك من المفسدة ما هو أعظم منه . فهو للروح ، كالخمر للجسد ، يفعل فى النفوس ، أعظم ما تفعله حميّا الكؤوس .

ثم قال : وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم أن النبيّ ﷺ لم يترك شيئاً يقرّب إلى الجنة ، إلا وقد حدث به ، ولا شيئا يبعد عن النار ، إلا وقد حدث به . وإن هذا السماع ، لو كان مصلحة ، لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ..)[1] الآية . وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، لم يلتفت إليه . كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة ، لم يلتفت إليه انتهى .

وقد سلف لنا شىء من هذا البحث عند قوله تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)[2] فليراجع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ

---

(١) [٥/ المائدة/ ٣] . (٢) انظر الصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الثانى من هذا التفسير .

تـكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ » نزلت فيمن ينفق على حرب النبي ﷺ من المشركين، وبيان سوء مغبة هذا الإنفاق . وقد ذهب الضحاك إلى أنه عنى بها المطعمون منهم يوم بدر، وكانوا اثنى عشر رجلًا من قريش ، يطعم كل واحد منهم ، كل يوم عشرة جزر .

وروى عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم أنها نزلت فى أبى سفيان ، ونفقته الأموال فى (أُحُد) لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى[1] محمد بن إسحاق عن الزهرىّ أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فـكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له فى تلك العير تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا . قال : ففيهم ، كما ذكر عن ابن عباس ، أنزلت الآية .

ولا يخفى شمول الآية لجميع ذلك . واللام فى (ليصدوا) لام الصيرورة ، ويصح أن تـكون للتعليل ، لأن غرضهم الصد عما هو سبيل الله بحسب الواقع ، وإن لم يكن كذلك فى اعتقادهم . وسبيل الله طريقه وهو دينه، واتباع رسوله. ولما تضمن الموصول معنى الشرط، والخبر بمنزلة الجزاء ، وهو (فَسَيُنْفِقُونَهَا) اقترن بالفاء . و (ينفقون) إما حال ، أو بدل من (كفروا) وفى تضمن الجزاء من معنى الإعلام والإخبار ، التوبيخ على الإنفاق ، والإنـكار عليه ، كما فى قوله : (وَمَا بِـكُمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فَمِنَ اللهِ)[2] . وفى تـكرير الإنفاق فى شبه الشرط والجزاء ، الدلالة على كمال سوء الإنفاق ، كما فى قوله[3] : (إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ) وقولهم[4]: من أدرك الصَّمَّانَ فقد أدرك المرعى. والمعنى : الذين ينفقون أموالهم لإطفاء نور الله ، والصدّ عن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، سيعلمون عن قريب سوء

---

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٥٥٥و٥٥٦ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٦٤ ومابعدها من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩٢] . (٤) الصمان : أرض فيها غلظ وارتفاع وفيها قيعان واسعة ورياض معشبة. وإذا أخصبت رتعت العرب جميعها .

مغبة ذلك الإنفاق ، وانقلا به إلى أشد الخسران ، من القتل والأسر فى الدنيا ، والنكال فى العقبى : قال المتنبى :

إذا الجودُ لم يُرْزَقْ خلاصاً من الأذى فلاَ الحمد مكسوباً ولا المالُ باقِياً

(والأذى هنا المنّ)

وفى جعل ذات الأموال تصير (حسرة) أى ندماً وتأسفاً ـ وهى عاقبة أمرها ـ مبالغة. والمراد بالغلبة فى قوله : (ثم يغلبون) الغلبة التى استقر عليها الأمر ، وإن كانت الحرب بينهم سجالا قبل ذلك. فإن قلت : غلبة المسلمين متقدمة على تحسرهم ، بالزمان، فلم أخرت بالذكر؟ قلت : المراد أنهم يغلبون فى مواطن أخر بعد ذلك . كذا فى (العناية) .

تنبيه :

قال بعضهم ثمرة الآية خطر المعاونة على معصية الله تعالى ، وأن الإنفاق فى ذلك معصية ، فيدخل فى هذا معاونة الظلمة على حركاتهم فى البغى والظلم ، وكذلك بيع السلاح والكراع ، ممن يستعين بذلك على حرب المسلمين .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ »

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » أى الكافر من المؤمن ، أو الفساد من الصلاح . واللام متعلقة بـ(يحشرون) أو (يغلبون) . أو ما أنفقه المشركون فى عداوة رسول الله ﷺ، مما أنفقه المسلمون فى نصرته ، واللام متعلقة بقوله (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) « وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ » أى : فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض ، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم ، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ،

ليزيد به عذابه ، كمال الكانزين « أُولَـٰئِكَ » إشارة إلى الخبيث ، لأنه مقدر بالفريق الخبيث ، أو إلى المنفقين « هُمُ الْخَاسِرُونَ » لخسرانهم أنفسهم وأموالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى أبا سفيان وأصحابه . فالتعريف فيه للعهد أو للجنس ، فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليًّا « إِنْ يَنْتَهُوا » أى عن الكفر وقتال النبىّ صلى الله عليه وسلم « يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » أى من الكفر والمعاصى « وَإِنْ يَعُودُوا » إلى قتاله « فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » أى الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير ، أو الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر . وقوله (فقد مضت) الخ دليل الجزاء . والتقدير : انتقمنا منهم فقد مضت الخ .

تنبيه :

استدل بالآية على أن الإسلام يجبّ ماقبله ، كما جاء فى الحديث[1] ، وأن الكافر إذا أسلم ، لا يخاطب بقضاء مافاته من صلاة أو زكاة أو صوم أو إتلاف مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله فى المرتد إذا تاب ، لعموم الآية ، واستدلوا بها على إسقاط ما على الذمىّ من جزية وجبت عليه قبل إسلامه . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن وهب عن مالك : لا يؤاخذ كافر بشىء صنعه فى كفره إذا أسلم ، ولم يعد طلاقهم شيئاً ، لأن الله تعالى قال (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) كذا فى (الإكليل) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، بالصفحة رقم ١٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . من حديث طويل ، عن عمرو بن العاص .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ »أى شرك أو إضلال لغيرهم ،وفتن منهم للمؤمنين عن دينهم « وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » أى يخلص التوحيد لله ، فلا يعبد غيره « فَإِنِ انْتَهَوْا » أى عن الكفر والمعاصى ظاهراً فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ »أى ببواطنهم « بَصِيرٌ » أى فيجازيهم ،وعليه حسابهم،فكفوا عنهم ، وإن لم تعلموا ببواطنهم . كقوله تعالى (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ...)[١] الآية ـ وفى الآية الأخرى (فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ)[٢] . وفى الصحيحين[٣] عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل. وفى الصحيح[٤] أن رسول الله ﷺ قال لأسامة : لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : لا إله إلا الله ، فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لأسامة: أقتلته بعد ماقال : لا إله إلا الله، فكيف تصنع بـ(لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله ! إنما قالها تعوّذاً ، فقال : هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه : مَنْ لك بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ قال أسامة : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

---

(١) [٩ / التوبة / ٥] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ١٧ ـ باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى : ٤٥ ـ باب بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحُرُقات من جهينة ، حديث رقم ١٩٢٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٥٨ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

« وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا « فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ » أى ناصركم ومعينكم ، فثقوا بولايته ونصرته « نِعْمَ الْمَوْلَىٰ » فلا يضيع من تولاه « وَنِعْمَ النَّصِيرُ » فلا يُغلب من نصره .

ثم بيّن تعالى مصرف ما أحله لهذه الأمة وخصها به ، وهو الغنائم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » أى قلّ أو كثر من الكفار « فَأَنَّ لِلَّهِ » أى الذى منه النصر المتفرع عليه الغنيمة « خُمُسَهُ » شكراً له على نصره وإعطائه الغنيمة « وَلِلرَّسُولِ » أى الذى هو الأصل فى أسباب النصر « وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » وهم بنو هاشم والمطلب « وَالْيَتَامَىٰ » أى من مات آباؤهم ولم يبلغوا ، لأنهم ضعفاء « وَالْمَسَاكِينِ » لأنهم أيضاً ضعفاء كاليتامى « وَابْنِ السَّبِيلِ » وهو المسافر الذى قطع عليه الطريق ويريد الرجوع إلى بلده ، ولا يجد ما يتبلغ به .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى ـ قال الفقهاء : (الغنيمة) المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، أى ما ظهر عليه المسلمون بالقتال . وهل هى والفىء والنفل شىء واحد أوْلا ؟ وسنفصله فى آخر المسائل .

الثانية ـ «ما» فى (أنما) بمعنى الذى، والعائد محذوف، وكان حقها ، على أصولهم،أن تكتب مفصولة . قال الشهاب : وقد أجيز فى (ما) هذه أن تـكون شرطية .

الثالثة ـ قوله تعالى : (مِنْ شَيْءٍ) ، بيان للموصول ، محله النصب ، على أنه حال من عائد الموصول ، قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة ، وألا يشذ عنها شيء ، أى ما غنمتموه كائناً ما كان يقع عليه اسم الشيء ، حتى الخيط والمِخْيَط .

الرابعة ـ (الخمس) بضم الميم ، وسكونها ، لغتان قد قرئ بهما .

الخامسة ـ أفادت الآية أن الواجب فى المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى ، وقسمة الباقى بين الغانمين بالعدل ، للراجل سهم ، وللفارس ذى الفرس العربىّ ثلاثة أسهم ، سهم له ، وسهمان لفرسه . هكذا قسم النبىّ ﷺ عام خيبر . ومن الفقهاء من يقول: للفارس سهمان . والأول هو الذى دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مئونة نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين . ومنهم من يقول : يسوى بين الفرس العربىّ والهجين فى هذا . والهجين يسمى البرذون والأكديش . ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يحابى أحد ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله ، كما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يقسمونها .

وفى صحيح البخارىّ[(١)] أن سعد بن أبى وقاص رأى أنّ له فضلاً على من دونه ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائـكم ؟

وفى مسند أحمد[(٢)] ؛ أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم ، يكون سهمه وأسهمُ غيره سواء ؟ قال : ثـكلتك أمكَ ابن أمّ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٦ ـ باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ، حديث رقم ١٣٨٤ . (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٤٩٣ (طبعة المعارف) .

سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم . كذا في (السياسة الشرعية) لابن تيميـة .

وفي (زاد المعاد) لابن القيم : كان ﷺ إذا ظفر بعدوه،أمر منادياً فجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش : للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم . وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة . وقيل : بل كان النفل من الخمس . وجمع لسلمة بن الأكوع ، في بعض مغازيه ، بين سهم الراجل والفارس ، فأعطاه خمسة أسهم ، لعظم غنائه في تلك الغزوة .

قال ابن تيمية : وما زالت الغنائم تقسم بين الغانمين في دولة بني أمية وبني العباس ، لما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر .

السادسة ـ ذهب الجمهور إلى أن ذكر الله تعالى في قوله : (فَأَنَّ لِلَّهِ) للتعظيم ، أي تعظيم الرسول ، كما في قوله تعالى (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)(١) أو لبيان أنه لا بد في الخمسة من إخلاصها لله تعالى، وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه. وتمسك بعضهم بظاهر ذلك، فأوجب سهماً سادساً لله تعالى،يصرف في وجوه الخير ، أو يؤخذ للكعبة قال: لأن كلام الحكيم لا يُعَرَّى عن الفائدة ، ولأنه ثبت اختصاصه في آية الصدقات في قوله تعالى : (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)(٢) ،فكذا هنا . وهذا مروي عن أبي العالية ، والربيع والقاسم وأسباطه . ويؤيد ماللجمهور ، ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن عبدالله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبي ﷺ ، وهو بوادي القرى ، وهو معترض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ! ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش . قلت : فما أحد أولى به

(١) [٩ / التوبة / ٦٢] . (٢) [٩ / التوبة / ٦٠] .

من أحد ؟ قال : لا، ولا السهم تستخرجه من جيبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم.

ومن لطائف الحسن أنه أوصي بالخمس من ماله وقال : ألا أرضى من مالى بما رضى الله لنفسه ؟

السابعة ـ خمس النبي ﷺ الذى جعله الله له، كان أمره فى حياته مفوّضاً إليه ، يتصرف فيه بما شاء ، ويرده فى أمته كيف شاء .

روى الإمام أحمد(١) أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ! كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوهم إلى بعير من المقسم . فلما سلّم قام رسول الله ﷺ ، فتناول وبرة بين أنملتيه فقال : إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمِخْيَط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلّوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس ، فى الله تبارك وتعالى، القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله فى الحضر والسفر ، وجاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . ينجى الله تبارك وتعالى به من الغم والهم .

قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو دواد(٢) والنسائىّ عن عمرو بن عَبَسَةَ ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم ، فلما سلّم أخذ وَبَرَة من جَنْب البعير ثم قال : ولا يحلّ لى من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود عليكم ـ واستدل به على أنه عليه الصلاة والسلام كان يصرفه لمصالح المسلمين ـ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٤٩ ـ باب فى الإمام يستأثر بشىء من الفىء لنفسه ، حديث رقم ٢٧٥٥ .

وكان له صلى الله عليه وسلم من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه ، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك ، رواه أبو داود(١) عن محمد بن سيرين والشعبيّ مرسلا ، وأحمد والترمذيّ عن ابن عباس .

وللعلماء فيما يصنع بخمسه صلى الله عليه وسلم من بعده مذاهب : فمن قائل : يكون لمن يلي الأمر من بعده . قال ابن كثير : روى هذا عن أبي بكر وعليّ وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع . ومن قائل : يصرف في مصالح المسلمين . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح . ومن قائل : بأنه يصرف لقرابته صلى الله عليه وسلم . ومن قائل : بأنه مردود على بقية الأصناف : ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . واختاره ابن جرير . وللمسألة حظ من النظر .

الثانية ـ أجمعوا على أن المراد بـ (ذَوِي الْقُرْبَىٰ) قرابته صلى الله عليه وسلم . وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوي القربى يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب خاصة . لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية ، وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحماية له . مسلمهم طاعة الله ولرسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة ، وأنفة وطاعة لأبي طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا ابني عمهم ، فلم يوافقوهم ، بل حاربوهم ونابذوهم ، ومالأوا بطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذمهم أبو طالب(٢) في قصيدته بقوله منها :

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ، ٢١ ـ باب ما جاء في سهم الصفيّ ، الحديث رقم ٢٩٩١ عن عامر الشعبيّ ، والحديث رقم ٢٩٩٢ عن محمد ، بما يقارب هذا اللفظ . (٢) انظر القصيدة بتمامها وعدتها ٩٤ بيتاً في ابن هشام بالصفحات ١٧٢ ـ ١٧٦ (طبعة جوتنجن) والصفحات ٢٩١ ـ ٢٩٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ)

جَزَى اللهُ عَنَّا عبدَ شمسٍ ونَوْفَلا ... عقوبةَ شرٍّ عاجلاً غيرَ آجِلِ

(نوفل : هو ابن خويلد . كان من شياطين قريش . قتله عليّ بن أبي طالب يوم بدر) .

بميزانِ قِسْطٍ لا يَخِيسُ شَعِيرَةً ... له شاهِدٌ من نفسه غيرُ عائلِ

(لا يخيس ، من قولهم : خاس بالعهد إذا نقضه وأفسده . والعائل : الجائر) .

لَقَدْ سَفِهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا ... بنى خَلَفٍ قَيْضًا بِنَا والغَيَاطِلِ

(قيضا : عوضا . والغياطل : بنو سهم) :

ونحنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ ... وآلِ قُصَيٍّ فى الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

(الصميم: الخالص من كل شيء. والذؤابة: الجماعة العالية، وأصله الخصلة من شعر الرأس).

وقال جبير بن مطعم بن عدىّ بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : أعطيتَ بنى المطلب من خمس خيبر ، وتركتنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة منك ؟ فقال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ـ رواه مسلم(١) ـ ،

وفى رواية : أنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام ـ أفاده ابن كثير .

وقد روى عن ابن عباس وزين العابدين والباقر أنه يسوّى فى العطاء بين غنيّهم وفقيرهم ، ذكورهم وإناثهم ، لأن اسم القرابة يشملهم ، ولأنهم عُوِّضوه لما حرمت عليهم الزكاة ، وقياساً على المال المقرّ به لبنى فلان . واعتبر الشافعىّ أن سهمهم استحق بالقرابة ، فأشبه الميراث . قال : فللذكر منه مثل حظ الأنثيين . انتهى .

وقال فى (العناية) : إنه كان لعبد مناف ، جد النبىّ ﷺ خمس بنين : هاشم وعبدشمس ونوفل والمطلب وأبو عمرو ، وكلهم أعقبوا إلا أبا عمرو .

التاسعة ـ سهم اليتامى : قيل يخص به فقراؤهم ، وقيل : يعم الأغنياء والفقراء .

---

(١) هذا الحديث لم يخرجه مسلم وإنما هو من أفراد البخارىّ ، أخرجه فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر حديث رقم ١٤٨٢ .

حكاه ابن كثير . والأظهر الثانى. والسرّ فيه ماقدمناه فى سورة البقرة ، فتذكره فإنه مهم .

العاشرة ـ المساكين : المحاويج الذين لايجدون مايسدّ خلتهم ويكفيهم . وابن السبيل: ذكرنا معناه أولا .

الحادية عشرة ـ قال بعضهم : بقتضى ما ذكر فى هذه الآية ، وما فى صدر هذهالسورة من الأنفال ، وما فى سورة الحشر من قوله تعالى[١] (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ) الآية ـ أن القسمة فى الأموال المظفور بها ثلاثية : نفل : وغنيمة ، وفىء . ويقتضى إطلاق جعل النفل لله ولرسوله، والغنيمة لمن ذكر مخمسة ، والفىء لمن ذكر بلا قيد التخميس ـ أن لكل من الثلاثة حكما يخالف الآخر ، وإن النفل ما يعطى لمن له من العناية والمقاتلة ماليس لغيره ، وفاء لِعَدَتِهِ بذلك ، قبل إحراز الغنيمة كالسَّلَب . وإن الغنيمة ما أحرز بالقتال ، سوى ما شرط التنفيل به ، لأنه لا يخمس . والفىء ما أُخذ من الكفار بغير قتال ، كالأموال التى يصالحون عليها ، والجزية والخراج ، ونحو ذلك . وإلى هذا التفصيل ذهب الجمهور . وذهب بعضهم إلى اتحاد الثلاثة ، وعدم التفرقة بينها ، وإلى دخولها فى الغنيمة ، وقال : ما أطلق فى آية الأنفال ، وآية الحشر ، مقيد بآية الغنيمة هذه . وهذا هو مراد قول بعضهم : إنهما منسوختان بهذه ، بمعنى أن إطلاقهما مقيد بهذه . والله أعلم .

وقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ » أى فاعملوا بما ذكر، وارضوا بهذه القسمة فالإيمان يوجب العمل بالعلم ، والرضا بالحكم :

وقد جاء فى الصحيحين[٢] من حديث عبد الله بن عباس ، فى حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم : وآمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله .

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٦و٧] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٤٠ ـ باب أداء الخمس من الإيمان ، حديث رقم ٤٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٣و٢٤و٢٥ (طبعتنا) .

ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم ... الحديث ـ فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقد بوّب البخاري[1] على ذلك في باب الإيمان من صحيحه ، فقال : (باب أداء الخمس من الإيمان) وساق الحديث المذكور .

وقوله تعالى « وَمَا أَنْزَلْنَا » معطوف على (بالله) أي إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل « عَلَىٰ عَبْدِنَا » أي محمد عليه الصلاة والسلام ، أي من الآيات والملائكة والنصر « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » أي يوم بدر ، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل . و(الفرقان) بمعناه اللغويّ ، والإضافة فيه للعهد « يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » يعني جمع المؤمنين وجمع الكافرين . فالتعريف للعهد . وكان التقاؤهما يوم الجمعة . لسبع عشرة مضت من رمضان ، والمؤمنون يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على سبعين ، وأسر منهم مثل ذلك « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فيقدر على نصر القليل على الكثير ، كما فعل بكم يوم بدر .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٢] (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« إِذْ أَنْتُمْ » بدل من (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) ، أو ظرف لمحذوف ، أي : اذكروا إذ أنتم يامعشر المؤمنين « بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا » يعني بشفير الوادي الأدنى من المدينة « وَهُمْ » يعني

(١) انظر الباب رقم ٤٠ من كتاب الإيمان .

المشركين أبا جهل وأصحابه « بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ » أى البُعْدَى عن المدينة ، مما يلى مكة « وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ » أى العير التى فيها أبو سفيان ، بما معه من التجارة التى كان الخروج لأجلها ، أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من (بدر) .

لطيفة:

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم ؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته وتكامل عدته ، وتمهّد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين ، والتياث أمرهم ، وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ، ليست إلا صنعاً من الله سبحانه ، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته ، وباهر قدرته . وذلك أن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون ، كان فيها الماء ، وكانت أرضاً لا بأس بها . ولا ماء بالعدوة الدنيا ، وهى خَبَارٌ (ما لان من الأرض واسترخى) تسوخ فيه الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة . وكانت العير وراء ظهور العدوّ ، مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميّتهم ، وتشحذ فى المقاتلة عنها نياتهم ؛ ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليبعثهم الذبّ عن الحريم ، والغيرة على الحرب ، على بذل جُهَيْدَاهم فى القتال ، وألا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ، ويضبط هممهم ، ويوطن نفوسهم ، على ألا يبرحوا موطنهم ، ولا يُخْلُوا مراكزهم ، ويبذلوا منتهى نجدتهم ، وقصارى شدتهم . وفيه تصوير ما دبّر سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضى أمراً كان مفعولاً ، من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين ، مبهمة غير مبيّنة ، حتى خرجوا ليأخذوا العير ، راغبين فى الخروج ، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا ليمنعوا غيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا ، وهؤلاء بالعدوة القصوى ، ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساق ، وكان ما كان . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشرىّ ، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز .

وقوله تعالى « وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ » أى ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ، لخالف بعضكم بعضاً ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم ، على الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيّب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فلم يتفق لكم من التلاقى ما وفقه الله وسبب له . قاله الزمخشرىّ .

وفى حديث كعب بن مالك[1] قال : إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد .

وروى ابن جرير[2] عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فالتقوا ببدر ، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة ، وشهد الناس بعضهم إلى بعض .

« وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا » أى ولكن جمع بينكم على هذه الحال على غير ميعاد ، ليقضى ما أراد من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، من غير ملأ منكم . وقوله « كَانَ مَفْعُولًا » أى حقيقاً بأن يفعل . وقيل : (كان) بمعنى (صار) أى صار مفعولا ، بعد أن لم يكن . وقيل : إنه عبر به عنه لتحققه حتى كأنه مضى .

وقوله تعالى « لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ » أى إنما جمعكم مع عدوّكم فى مكان واحد على غير ميعاد ، لينصركم عليهم ، ويرفع حجة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهراً ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذ يهلك من هلك ، أى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، أنه مبطل لقيام الحجة عليه . ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة ويقين ، بأنه دين الحق ، الذى يجب

(١) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبى الثانية) بالصفحة رقم ١١ من الجزء العاشر .

الدخول فيه، والتمسك به. وذلك أن ما كان من وقعة (بدر)، من الآيات الغرّ المحجّلة، التى من كفر بعدها، كان مكابراً لنفسه، مغالطاً لها.

لطائف :

الأولى ـ قوله تعالى (لِيَهْلِكَ) بدل من (لِيَقْضِيَ) أو متعلق بـ (مَفْعُولاً) .

الثانية ـ الحياة والهلاك استعارة للكفر والإسلام، وقرئ (ليهلَك) بفتح اللام .

الثالثة ـ (حَيَّ) يقرأ بتشديد الياء، وهو الأصل، لأن الحرفين متماثلان متحركان، فهو مثل شدّ ومدّ. ومنه قول عَبِيد بن الأبرص :

عَيُّوا بِأَمْرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَامَهْ

ويقرأ بالإظهار، وفيه وجهان :

أحدهما ـ أن الماضى حمل على المستقبل، وهو (يحيا) فكما لم يدغم فى المستقبل، لم يدغم فى الماضى، وليس كذلك شدّ ومدّ، فإنه يدغم فيهما جميعاً .

والوجه الثانى ـ أن حركة الحرفين مختلفة، فالأولى مكسورة، والثانية مفتوحة، واختلاف الحركتين، كاختلاف الحرفين، ولذلك أجازوا فى الاختيار : لححت عليه، وضبب البلد، إذا كثر ضبه. ويقوى ذلك أن الحركة الثانية عارضة، فكأن الياء الثانية ساكنة، ولو سكنت لم يلزم الإدغام، وكذلك إذا كانت فى تقدير الساكن، والياآن أصل، وليست الثانية بدلاً من (واو) . فأما الحيوان، فـ (الواو) فيه بدل من (الياء) . وأما الحواء، فليس من لفظ (الحية)، بل من (حوى يحوى) إذا جمع ـ قاله أبو البقاء ـ. « وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا » منصوب بـ (اذكر) ، أو بدل آخر من (يوم الفرقان) . وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم فى رؤياه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه ، فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوّهم « وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ » أى لجبنتم وهبتم الإقدام « وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى أمر الإقدام والإحجام،فتفرقت كلمتكم « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ » أى عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع بتأييده وعصمته « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى يعلم ما سيكون فيها من الجراة والجبن والصبر والجزع . ولذلك دبر ما دبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا » وذلك تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ ،وليعاينوا ما أخبرهم به ، فيزداد يقينهم ، ويجدّوا ، ويثبتوا .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ! فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً ! ـ رواه ابن أبى حاتم وابن جرير[١] (وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) أى فى اليقظة ، حتى قال أبو جهل : إن محمداً وأصحابه أَكَلَة جَزُورٍ . مثل فى القلة ، كـ (أكلة رأس) أى أنهم لقلتهم يكفيهم ذلك . و (أكلة) بوزن (كتبة) ، جمع آكل ، بوزن فاعل ، والجزور الناقة . كذا فى (العناية) . « لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا » أى من إظهار الخوارق الدالة على صدق دين الإسلام،وكذب دين الكفر « كَانَ مَفْعُولًا » أى كالواجب فعله على الحكيم ، لما فيه من الخير الكثير . قاله المهايمىّ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء العاشر من تفسير الطبرى (طبعة الحلبىّ الثانية).

لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشرىّ: فإن قلت : الغرض فى تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض فى تقليل المؤمنين فى أعينهم ؟ قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثّرهم فيها بعده ، ليجترئوا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة ، فيبهتوا ويهابوا ، وتفلّ شوكتهم ، حين يرون ما لم يكن فى حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله[1] (يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) ولئلا يستمدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولاً وكثرتهم آخراً .

الثانية ـ قال الزمخشرىّ أيضاً : فإن قلت : بأى طريق يبصرون الكثير قليلا ؟ قلت: بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر ، أو يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث فى أعين الحُولِ ما يرون به الواحد اثنين . قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين ـ وكان بين يديه ديك واحد ـ فقال : ما لى لا أرى هذين الديكين أربعة ؟ انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وفى هذا ـ يعنى كلام الزمخشرىّ ـ دليل بيّن على أن الله تعالى هو الذى يخلق الإدراك فى الحاسة ، غير موقوف على سبب من مقابلة ، أو قرب ، أو ارتفاع حجب ، أو غير ذلك . إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلا ، لما أمكن أن يستتر عنهم البعض ، وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك . فعلى هذا يجوز أن يخلق الله الإدراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذن بين الرؤية ونفيها فى مقدرة الله تعالى ؟ وهى رادّة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب فى حصول الإدراك عقلاً ، وأنها تستلزم الجسمية، إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تتأتى فى جسم . فهذه الآية حسبهم فى إبطال زعمهم، ولكنهم يمرون عليها وهم عنها معضون، والله الموفق .

الثالثة ـ لايقال : إن قوله تعالى (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً) مكرر مع ماسبق .

(١) [٣ / آل عمران / ١٣] .

لأنَّا نقول : إن المقصود من ذكره أولاً هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدقه ﷺ ، والمقصود منه هاهنا بيان خارق آخر ، وهو تقليلهم فى أعين المشركين ، ثم تكثيرهم للحكمة المتقدمة .

وفى قوله تعالى : « وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها ، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد .

ثم أرشد تعالى عباده المؤمنين إلى آداب اللقاء فى ميدان الوغى ، ومبارزة الأعداء ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا » أى إذا حاربتم جماعة فاثبتوا للقائهم واصبروا على مبارزتهم ، فلا تفروا ولا تجبنوا ولا تنكلوا . وتفسير (اللقاء) بـ(الحرب) لغلبته عليه، كالنزال ولم يصف الفئة بأنها كافرة، لأنه معلوم غير محتاج إليه « وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا » أى فى مواطن الحرب ، مستظهرين بذكره مستنصرين به، داعين له على عدوّكم « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة .

وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه، التى لقى فيها العدوّ انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١١٢ ـ باب كان النبىّ ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس ، حديث رقم ١٣٤٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٢٠ (طبعتنا) .

ثم قال : اللهم ! منزلَ الـكتاب ، ومُجرىَ السحاب ، وهازمَ الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم .

وفى الآية إشعار بأن على العبد ألا يَفْـتُرَ عن ذكر ربه، أشغلَ ما يكون قلباً، وأكثرَ ما يكون همًّا ، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ، ويقبل إليه بكليته ، فارغ البال ، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه فى حال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل ما يأمران به وينهيان ، وهذا عامّ ، والتخصيص بالذكر هنا فيه تأكيد « وَلَا تَنَازَعُوا » أى باختلاف الآراء ، أو فيما أُمرتم به « فَتَفْشَلُوا » أى تجبنوا ، إذ لا يتقوى بعضكم ببعض . « وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » أى قوتكم وغلبتكم ، ونصرتكم ودولتكم . شبه ما ذكر فى نفوذ الأمر وتمشيته ، بالريح وهبوبها . ويقال : هبت رياح فلان ، إذا دالت له الدولة ونفذ أمره ، قال :

إذا هبّت رياحُكَ فاغتنمْهَا فإن لكلِّ خافقةٍ سُكُونُ
ولا تغفلْ عن الإحسانِ فيها فما تدرِى السكونَ متى يكونُ

« وَاصْبِرُوا » أى على شدائد الحرب ، وعلى مخالفة أهويتكم الداعية إلى التنازع ، فالصبر مستلتزم للنصر « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » أى بالنصر .

قال ابن كثير رحمه الله : وقد كان للصحابة رضى الله عنهم ، فى باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله ، وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم ، والقرون قبلهم ولا يكون لأحد من بعدهم . فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً ، فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ،

من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

تنبيه :

قال بعض المفسرين في قوله تعالى (وَلَا تَنَازَعُوا) ، أي لا تختلفوا فيما أمركم به من الجهاد ، بل ليتفق رأيكم . قال : ولقائل أن يقول : استثمر من هذا وجوب نصب أمير على الجيش ليدبّر أمرهم . ويقطع اختلافهم ، فإن بلزوم طاعته ، ينقطع الاختلاف. وقد فعله صلى الله عليه وسلم في السرايا ، وقال[1] : اسمعوا وأطيعوا ، وإن أُمِّر عليكم عبد حبشيّ . انتهى .

ولما أمر تعالى المؤمنين بالثبات والصبر عند اللقاء ، أمرهم بالإخلاص فيه ، بنهيهم عن التشبه بالمشركين ، في انبعاثهم للرياء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا » أي فخرا بالشجاعة « وَرِئَاءَ النَّاسِ » أي طلباً للثناء بالسماحة والشجاعة « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أي لا تكونوا كأبي جهل وأصحابه ، وقد أتاهم رسول أبي سفيان ، وهم بالجحفة : أن ارجعوا ، فقد سلمت عيركم . فأبوا وقالوا : لا نرجع حتى نأتي بدرا ، فننحر بها الجزر ، ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا فيه القيان ، وتسمع بنا العرب . فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم . فوافوها ، فَسُقُوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان . أي : لا يكن أمركم رياء ولا سمعة ولا التماس ما عند الناس ، وأخلصوا لله

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، الحديث رقم ٤٣٤ عن أنس . وفيه (استُعمِل) عوضاً عن (أُمِّرَ) .

النية والحسبة ، فى نصر دينكم ، ومؤازرة نبيّكم ، لا تعملوا إلا لذلك ، ولا تطلبوا غيره . و(الرئاء) مصدر (راءى) ، إذا أظهر العمل للناس ليروه غفلة عن الخالق . وقد يقال راياه مراياة ورياء ، على القلب . و (بطراً ورئاء) إما مفعول من أجله ، أو مصدر فى موضع الحال . و (يصدون) إما حال ، بتأويل اسم الفاعل ، أو بجمله مصدر فعل هو حال ، وإما مستأنف . ونكتة التعبير بالاسم أولا ثم الفعل ، الإعلام بأن البطر والرياء دأبهم ، بخلاف الصد فإنه تجدد لهم فى زمن النبوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى فى معاداة الرسول والمؤمنين ، بأن وسوس إليهم « وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ » أى من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه « وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » أى مجير ومعين لكم « فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ » أى تلاقتا ، وتراءت كل واحدة صاحبتها ، فرأى الملائكة نازلة من السماء لإمداد المؤمنين « نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ » أى ولّى هارباً على قفاه « وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ » أى من عهد جواركم « إِنِّي أَرَى » أى من الملائكة النازلة لإمداد المؤمنين « مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » أى أن يعذبنى قبل يوم القيامة « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى فلا يبعد مع إمهالى إلى القيامة ، أن يعذبنى لشدة عقابه .

تنبيه :

ذكروا فى التزيين وجهين :

أحدهما : أن الشيطان وسوس لهم من غير تمثيل ، فى صورة إنسان ، وهو مروىّ عن

الحسن والأصم . فالقول على هذا مجاز عن الوسوسة . والنكوص وهو الرجوع استعارة لبطلان كيده :

وثانيهما : أنه ظهر فى صورة إنسان ، لأنهم لما أرادوا المسير إلى بدر ، خافوا من بنى كنانة ، لأنهم كانوا قتلوا رجلا ، وهم يطلبون دمه ، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم ، فتمثل إبليس اللعين فى صورة سراقة الكنانىّ ، وقال : أنا جاركم من بنى كنانة ، فلا يصل إليكم مكروه منهم . فقوله (إنى جار لكم) على الحقيقة . وقال الإمام : معنى (الجار) هنا الدافع للضرر عن صاحبه ، كما يدفع الجار عن جاره . والعرب تقول : أنا جار لك من فلان ، أى حافظ لك ، مانع منه . وهذا القول الثانى ذهب إلى جمهور المفسرين .

روى مالك[1] فى الموطأ عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ، مرسلا ؛ أن رسول الله ﷺ قال : ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ ، منه فى يوم عرفة. وماذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام . إلا ما رأى يوم بدر، فإنه قد رأى جبريل يزع الملائكة .

قال الإمام : وكان فى تغيير صورة (إبليس) إلى صورة (سراقة) معجزة عظيمة للرسول ﷺ ، وذلك لأن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم ، حتى بلغتنى هزيمتكم فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سراقة ، بل كان شيطانا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ » أى بالمدينة . و (إذ) منصوب بـ (اذكر) مقدراً ، أو

---

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٤٥ (طبعتنا) .

بـ (زين) « وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يجوز أن يكون من صفة المنافقين ، وتوسطت والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، لأن هذه صفة للمنافقين ، لا تنفك عنهم . قال تعالى[1] (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) . أو تكون الواو داخلة بين المفسّر والمفسَّر نحو : أعجبنى زيد وكرمه . ويجوز أن يراد : الذين هم على حرف ، ليسوا بثابتى الأقدام فى الإسلام . وعن الحسن : هم المشركون . «غَرَّ هَؤُلَاءِ» يعنون المؤمنين «دِينُهُمْ» فظنوا أنهم ينصرونهم به على أضعافهم « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »أى من يعتمدعليه سبحانه وتعالى فإنه ينصره على أضعافه ، بالغين ما بلغوا ، لأنه عزيز غالب على ما أراد ، وهو يريد نصر أوليائه؛ حكيم ،وحكمته تقتضى نصرهم . وهو جواب لهم من جهته تعالى ،ورد لمقالتهم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا » أى يقبض أرواحهم «الْمَلَائِكَةُ» أى ملائكة القهر والعذاب مما يناسب هيآت نفوسهم « يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » لإعراضهم عن الحق ، ولهيآت الكبر والعجب والنخوة فيها « وَأَدْبَارَهُمْ » لميلهم إلى الباطل ، وشدة انجذابهم إليه ، ولهيآت الشهوة والحرص والشره«وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » عطف على(يضربون) بإضمار القول . أى : ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة . وجواب (لو) محذوف ، لتفظيع الأمر وتهويله .

وقال ابن كثير: وهذا السياق ، وإن كان سببه وقعة بدر ، ولكنه عامّ فى حق كل كافر. وفى سورة القتال مثل هذه الآية . وتقدم فى الأنعام نحوها ، وهو قوله تعالى[2]: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ)أى بالضرب فيهم بأمر ربهم.

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ » أي ما كسبتم من الكفر والمعاصي « وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » أي بأن يأخذهم بلا جرم .

فإن قيل: ما سر التعبير بـ (ظلّام) بالمبالغة ، مع أن نفي نفس الظلم أبلغ من نفي كثرته ، ونفي الكثرة لا ينفي أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، وبرجوع النفي للقيد ؟

وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفي لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل : ظالم لفلان ولفلان وهلم جرّا . فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلّام) لذلك ، أي لكثرة الكمية فيه .

ومنها : أنه إذا انتفى الظلم الكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم ، يظلم للانتفاع بالظلم . فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركاً .

ومنها : أن (ظلاماً) للنسب ، كـ (عطار) ، أي لا ينسب إليه الظلم أصلاً .

ومنها : أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب ، فلو كان تعالى ظالماً ، كان ظلاماً ، فنفي اللازم ، لنفي الملزوم .

ومنها : أن نفي (الظلام) لنفي الظالم ، ضرورةَ أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفي المبالغة كناية عن نفي أصله ، انتقالاً من اللازم إلى الملزوم .

ومنها : أن العذاب من العظم بحيث ، لولا الاستحقاق ، لكان المعذب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه . فالمراد تنزيهه تعالى ، وهو جدير بالمبالغة .

وأيضاً : لو عذب تعالى عبيده بدون استحقاق وسبب ، لكان ظلماً عظيما ، لصدوره عن العدل الرحيم . كذا في (العناية) .

وفى صحيح مسلم[١] عن أبى ذرّ رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول : إنى حرمت الظلم على نفسى ،وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . ياعبادى ! إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه . والحديث طويل جليل . معروف ، عند المحدثين ، بالحديث المسلسل بالدمشقيين .

ثم بين تعالى أن سير المشركين المستمر ، وعادتهم الدائمة ، مع ماأرسل به النبىّ ﷺ ، كسير الأمم السالفة مع رسلهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَدَأْبِ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » خبر لمقدر ، أى دأب هؤلاء ، كدأب آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم ، كقوم نوح ، وهو عملهم الذى دأبوا ، أى استمروا عليه ، ثم فسره فقال : « كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ » أى قبل يوم القيامة « بِذُنُوبِهِمْ » أى كما أخذ هؤلاء ، لأنهم اجترؤوا على معاصيه بما رأوا لأنفسهم من القوة. فضعّفهم ، إظهاراً لقوته « إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » قال المهايمىّ : تأخير العذاب إنما يكون للرحمة ، لكنه لما اشتد عنادهم ، اشتد غضبه ، لأنه شديد العقاب لمن اشتد عناده معه ، فلا يكون فى حقه رحمة .

(١) من حديث طويل نفيس ، قد أفرده شيخ الإسلام بشرح قيّم . أخرجه مسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذَٰلِكَ » أي التعذيب الذي علم كونه مؤاخذة بالذنوب « بِأَنَّ اللَّهَ » أي بسبب أنه تعالى « لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ » بتبديله إياها بالنقمة « حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » من موجبات تلك النعم من اعتقاد أو قول أو عمل . وهذا إخبار عن تمام عدله وقسطه في حكمه ، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى(1) : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

قال القاشاني . كل ما يصل إلى الإنسان هو الذي يقتضيه استعداده ، ويسأله بدعاء الحال، وسؤال الاستحقاق . فإذا أنعم على أحد النعمة الظاهرة أو الباطنة لسلامة الاستعداد، وبقاء الخيرية فيه لم يغيرها حتى أفسد استعداده ، وغير قبوله للصلاح ، بالاحتجاب وانقلاب الخير الذي فيه بالقوة إلى الشر ، لحصول الرين وارتكام الظلمة فيه ، بحيث لم يبق له مناسبة للخير ، ولا إمكان لصدوره منه ، فيغيرها إلى النقمة عدلا منه وجودًا ، وطلباً من ذلك الاستعداد إياها بجاذبة الجنسية والمناسبة ، لا ظلما وجورا . انتهى .

« وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أي فيغير إذا غيّروا ، غضباً عليهم بما يسمع منهم أو يعلم

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

« كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » فكان مبدأ تغييرهم أنهم « كَذَّبُوا

(1) [١٣ / الرعد / ١١] .

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى الذى رباهم بالنعم ، فصرفوها إلى غيرما خلقت له بمقتضى تلك الآيات ، فكانت ذنوباً « فَأَهْلَكْنَاهُمْ » أى زيادة على سلبه النعم « بِذُنُوبِهِمْ » أى بما صرفوا بها النعم إلى غير ماخلقت له « وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ » لإغراقهم النعم فى بحر الإنكار بنسبتها إلى فرعون حيث أقروا بإلٰهيته « وَكُلٌّ » أى من الفرق المكذبة الكافرة ، أو من آل فرعون، ومن قبلهم ، وكفار قريش : « كَانُوا ظَالِمِينَ » أى بصرف النعم إلى غيرماخلقت له ، وهو نوع من الإغراق لها فى بحر الإنكار لأنه مرجع التغيير لها . كذا أول المهايمى .

وفيه إشارة إلى دفع ما يتوهم من التكرار فى الآيتين ، بتغاير التشبيهين فيهما ، فلا يحتاج إلى دعوى التأكيد . فمعنى الأول : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى الكفر ، فأخذهم وآتاهم العذاب . ومعنى الثانى : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى تغييرهم النعم ، وتغيير الله حالهم بسبب ذلك التغيير ، وهو أنه أغرقهم . وقيل : إن النظم يأباه ، لأن وجه التشبيه فى الأول كفرهم المترتب عليه العقاب ، فينبغى أن يكون وجهه فى الثانى قوله (كذبوا) لأنه مثله ، إذ كل منهما جملة مبتدأة بعد تشبيه، صالحة لأن تكون وجه الشبه، فتحمل عليه، كقوله تعالى(١) : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وأما قوله : (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة . . .) فكالتعليل لحلول النكال ، معترض بين التشبيهين ، غير مختص بقوم ، فجعلُهُ وجهاً للتشبيه بعيدٌ عن الفصاحة . كذا فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى أصرّوا على كفرهم ورسخوا فيه فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى فلا يتوقع منهم إيمان .

(١) [٣/ آل عمران ٥٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٦] (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

« الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ » أى لا يخافون عاقبة الغدر ، ولا يبالون بما فيه من العار والنار .

تنبيهات :

الأول ـ قال المهايمىّ : أشار تعالى إلى أنه كيف يترك نعمه على من غيّر أحواله التى كانت أسباب النعم ، وقد كان بها إنسانيته ، فبتغييرها لحق بالدوابّ ، وبإنكار المنعِم صار شرًّا منها . والنعم تسلب ممن لا يعرف قدرها، فكيف لا تسلب ممن ينكر المنعِم ؟ .

الثانى ـ دلت الآية على جواز تحقير العصاة ، والاستخفاف بهم ، حيث سماهم تعالى (دوابّ) وأخبر أنهم (شرّ الدواب) .

الثالث ـ قالوا : نزلت الآية فى يهود بنى قريظة ، رهط كعب بن الأشرف ، فإن رسول الله ﷺ ، كان عاهدهم ألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، فنقضوا العهد ، وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا . فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا . ومالأوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق . وركب كعب بن الأشرف إلى مكة ، فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الرابع ـ (الذين) بدل من الموصول الأول ، أو عطف بيان له ، أو نصب له على الذم . وضمن (عاهدت) معنى الأخذ ، حتى عدّى بـ (من) أى أخذت منهم عهدهم . وقيل : (من) صلة ، وقال أبو حيّان : هى للتبعيض ، لأن المباشر بالذات للمعاهدة بعض القوم ، وهم الرؤساء والأشراف .

الخامس ـ قوله : (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) ، حال من فاعل (ينقضون) ، أى يستمرون على النقض ، والحال أنهم لا يتقون العارَ فيه ، لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتقى

نقض العهد ، حتى يسكن الناس إلى قوله ، ويثقون بكلامه . فبيّن الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد ، فهو شرّ من الدواب .

ثم شرع تعالى فى بيان أحكام الناقضين ، بعد تفصيل أحوالهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٧] (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ » أى فإما تصادفنهم وتظفرنّ بهم « فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ » أى فرّق بهم مَن وراءهم من المحاربين. يعنى : بأن تفعل بهم من النكال وتغليظ العقوبة ، ما يشرّد غيرهم خوفاً ، فيصيروا لهم عبرة . كما قال : « لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى لعل المشرَّدين يتعظون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين ، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر. قال فى (التاج) : وقيل : معنى (فشرد بهم) فسمّع بهم ، وقيل : فزّع بهم ولا يخفى أن هذه المعانى متقاربة . وأصل التشريد الطرد والتفريق . ويقال . شرد به تشريداً ، سَمَّع الناس بعيوبه . قال :

أُطوِّفُ بالأباطح كلَّ يوم مخافَةَ أن يُشَرِّدَ بى حَكِيمُ

معناه أَنْ يُسَمِّعَ بى و (حكيم) رجل من بنى سُلَيم كانت قريش وَلَّتْهُ الأخذ على أيدى السفهاء .

استشهد به فى اللسان فى مادة (ش ر د) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٨] (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً » بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد ، إثر بيان

الناقضين له بالفعل . و (الخوف) مستعار للعلم . أى : وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقضَ عهد فيما سيأتى ، بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ، ومخايل الشرّ « فَانبِذْ إِلَيْهِمْ » أى فاطرح إليهم عهدهم « عَلَى سَوَاءٍ » أى على طريق مستوٍ قصدٍ ، بأن تظهر لهم النقض ، وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد ، كى لا يكون من قِبَلِكَ شائبة خيانة أصلا ، وإن كانت فى مقابلة خيانتهم .

وقوله « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » تعليل للأمر بالنبذ ، إما باعتبار استلزامه النهى عن مناجزة القتال ، لكونها خيانة ، فيكون تحذيرًا له ﷺ منها ، وإما باعتبار استتباعه للقتال ، فيكون حثًّا له ﷺ على النبذ أولاً ، وعلى قتالهم ثانياً ، كأنه قيل . وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ، ثم قاتلهم ، إن الله لا يحب الخائنين ، وهم من جملتهم ، لما علمت من حالهم . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلت الآية على جواز معاهدة الكفار لمصلحةٍ ، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظهر منهم أمارة الخيانة ، وتدل على إباحة نبذ العهد لمن توقع منهم غائلة مكر ، وأن يعلمهم بذلك ، لئلا يعيبوا علينا بنصب الحرب مع العهد .

روى أصحاب السنن[1] أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم . فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر !

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٥٢ ـ باب فى الإمام يكون بينه وبين العدّ عهد فيسير إليه ، حديث رقم ٢٧٥٩ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ١٩ ـ كتاب السير ، ٢٧ ـ باب ما جاء فى الغدر .

الله أكبر ! وفاء لا غدر . فإذا هو عمرو بن عَبَسة[١] ، فأرسل إليه معاوية فسأله ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء : فرجع معاوية .

وروى الإمام أحمد[٢] عن سلمان الفارسىّ أنه انتهى إلى حصن أو مدينة ، فقال لأصحابه : دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلا منكم فهدانى الله عز وجل للإسلام ، فإن أسلمتم فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها .

هذا ، وما ذكر من وجوب إعلامهم، إنما هو عند خوف الخيانة منهم وتوقعها ، كما هو منطوق الآية . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ[٣] بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم فى ذمة رسول الله ﷺ ، فلم يرُعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمرّ الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

« وَلَا يَحْسَبَنَّ » قرئ بالياء والتاء « الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا » أى فاتوا وأفلتوا من

---

(١) يوجد فى كثير من نسخ التفاسير «عنبسة» بزيادة نون قبل الباء ، وهو تحريف، ويغلط به من لا علم له بأسماء الرجال . اهـ لمؤلفه .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٠٢ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣١ وما بعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

أن يظفر بهم « إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ » أى لا يفوتون الله من الانتقام منهم ، إما فى الدنيا بالقتل ، وإما فى الآخرة بعذاب النار . وقرئ بفتح (أن) على تقدير لام التعليل ، وهذا كقوله تعالى(١) : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقوله تعالى(٢) : (لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) وقوله تعالى(٣) (لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ » أى لقتال ناقضى العهد السابق ذكرهم ، أو الكفار مطلقاً ، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم « مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » أى من كل ما يتقوى به فى الحرب من عددها ، أطلق عليه القوة مبالغة .

قال الشهاب : وإنما ذكر لأنه لم يكن لهم فى (بدر) استعداد تام ، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى فى كل زمان .

« وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » (الرباط) فى الأصل مصدر ربط ، أى شدّ ، ويطلق بمعنى المربوط مطلقاً ، وكثر استعماله فى الخيل التى تربط فى سبيل الله . فالإضافة ، إما باعتبار عموم المفهوم الأصلىّ ، أو بملاحظة كون الرباط مشتركا بين معان أخر ، كانتظار الصلاة ، وملازمة

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤] . (٢) [٢٤ / النور / ٥٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٩٦ و ١٩٧] .

ثغر العدوّ ، والمواظبة على الأمر ، فإضافته لأحد معانيه للبيان ، كـ(عين الشمس) ومنه يعلم أنه يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركا . وإذا كان من إضافة المطلق للمقيد ، فهو على معنى (من) التبعيضية . وقد يكون (الرباط) جمع ربيط ، كفصيل وفصال . قال في (التاج) : يقال : نعم الربيط هذا ، لما يرتبط من الخيل . ثم إن عطفها على (القوة) مع كونها من جملتها للإيذان بفضلها على بقية أفرادها ، كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة « تُرْهِبُونَ بِهِ » أي تخوّفون بذلك الإعداد « عَدُوَّ اللهِ » وهو المثبت له شريكاً ، المبطل لكلمته « وَعَدُوَّكُمْ » أي الذي يظهر عداوتكم ، فتخوفونهم لئلا يحاربوكم باعتقاد القوة في أنفسهم دونكم .

تنبيه :

دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، إتقاء بأس العدوّ وهجومه . ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً ، أبيّ الضيم ، قويّ القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار ، وخضد شوكة المستبدين الكافرين ، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقاباً متتالية ،وهم سادة الأمم ، وقادة مشعوب، وزمام الحول والطول وقطب رحى العز والمجد ، لا يستكينون لقوة ، ولا يرهبون لسطوة . وأما اليوم ، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض . ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني . وكيف لا يطمع العدوّ بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشترى من بلاد العدوّ ؟ أما آن لها أن تتنبه من غفلتها ، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدوّ بلادها من أطرافها درساً يجب أن تتدبره ، وتتلافى ما فرطت به . قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله ،

فيقضى ـ والعياذ بالله ـ على الإسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار . وبالله الهداية .

وقوله تعالى « ءَاخَرِينَ » أى وترهبون قوماً آخرين « مِنْ دُونِهِمْ » أى من دون من يظهر عداوتكم ، وهم المنافقون « لَا تَعْلَمُونَهُمْ » أى أنهم يعادونكم « اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » أى أنهم أعداؤكم ، يظهرون عداوتهم إذا رأوا ضعفكم . ثم شجعهم سبحانه على إنفاق المال فى إعداد القوة ، ورباط الخيل ، مبشراً لهم بتوفية جزائه كاملاً ، بقوله تعالى « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ » أى الذى أوضحه الجهاد « يُوَفَّ إِلَيْكُمْ » أى فى الدنيا من الفىء والغنيمة والجزية والخراج ، وفى الآخرة بالثواب المقيم « وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » أى بترك الإثابة.

تنبيهات :

الأول ـ هذه الآية أصل فى كل ما يلزم إعداده للجهاد من الأدوات .

الثانى ـ فى قوله تعالى (تُرْهِبُونَ بِهِ) إشارة إلى التجافى عن أن يكون الإعداد لغير الإرهاب كالخيلاء . وفى حديث الإمام مالك(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : الخيل ثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ولرجل وزر . فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام ، فهى على ذلك وزر.

الثالث ـ ما ذكرناه فى تأويل (الآخرين) من أنهم المنافقون ، يشهد له قوله تعالى(٢) (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .

ثم بين تعالى جواز مصالحة الكفار بقوله :

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢١ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) من حديث طويل . (٢) [٩ / التوبة / ١٠١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَإِنْ جَنَحُوا » أى مالوا وانقادوا « لِلسَّلْمِ » بكسر السين وفتحها ، لغتان ، وقد قرئ بهما . أى الصلح والاستسلام ، بوقوع الرهبة فى قلوبهم ، بمشاهدة ما بكم من الاستعداد ، وإعتاد العتاد « فَاجْنَحْ لَهَا » أى فمل إلى موافقتهم وصالحهم وعاهدهم ، وإن قدرت على محاربتهم ، لأن الموافقة أدعى لهم إلى الإيمان . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك ، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . و (السلم) يذكر ويؤنث ـ كما فى القاموس ـ .

قال الزمخشرى : (السلم) تؤنث تأنيث نقيضها ، وهى الحرب . قال العباس بن مرداس :

السَّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالحربُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

« وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » أى لا تخف فى الصلح مكرهم ، فإنه يعصمك من مكرهم « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » لأقوالهم « الْعَلِيمُ » أى بأحوالهم ، فيؤاخذهم بما يستحقون ، ويرد كيدهم فى نحرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

« وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ » أى بالصلح لتكف عنهم ظاهراً ، وفى نيتهم الغدر « فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ » أى كافيك بنصره ومعونته . قال مجاهد : يريد قريظة . ثم علل كفايته له ، بما أنعم عليه من تأييده ﷺ بنصره وبالمؤمنين ، فقال تعالى : « هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ » أى يوم بدر بعد الضعف ، من غير إعداد قوة ولا رباط « وَبِالْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

« وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » أى جمع بين قلوبهم وكلمتهم، بالهدى الذى بعثك الله به إليهم، بعد ما كان فيها العصبية والضغينة « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » أى من الذهب والفضة « مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » إذ لا يدخل ذلك تحت قدرة البشر ، لكونه من عالم الغيب « وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » أى بين قلوبهم بدينه الذى جمعهم إليه « إِنَّهُ عَزِيزٌ » أى غالب فى ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن « حَكِيمٌ » أى فاقتضت حكمته ذلك ، لما فيه من تأييد دينه ، وإعلاء كلمته .

قال الزمخشرىّ رحمه الله تعالى : التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الآيات الباهرة . لأن العرب ، لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضغينة ، فى أدنى شىء ، وإلقائه بين أعينهم ، إلى أن ينتقموا ، لا يكاد يأتلف منهم قلبان . ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحابّ والتوادّ ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب فى الله ، والبغض فى الله . ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كما شاء ، ويصنع فيها ما أراد. وقيل: هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ، ودق جماجمهم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ، ويديم التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ، ما آثرته أختها، وتكرهه وتنفر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا أنصارًا وعادوا أعوانًا ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه ، وبليغ قدرته . انتهى .

وإنما ضعف القول الثانى لأنه ليس فى السياق قرينة عليه . كذا فى (العناية) .

أقول : لكن شهرة ما كان بين هذين البطنين من التمادى الذى تطاول أمده ، واستحال قبل البعثة نضوب مائه ، يصلح أن يكون قرينة . ونقل علماء السيرة[1] أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لما لقى فى الموسم الرهط من الخزرج ، ودعاهم إلى الله تعالى . فأجابوه وصدقوه ، قالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك . رواه ابن إسحاق وغيره .

وفى الصحيحين[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب الأنصار فى شأن غنائم (حنين) قال لهم يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالا فهداكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمنّ .

لطيفة :

روى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء . ثم يقرأ : (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ . . .) الآية .

وعند البيهقىّ نحوه . وقال : ذلك موجود فى الشعر :

إذا بتّ ذو قربَى إليك بزلة ... فغشّك واستغنى فليس بذى رُحْمِ

ولكنّ ذا القربى الذى إن دعوتَه ... أجاب ، وأَنْ يرمى العدوّ الذى ترمى

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٢٨٦و٢٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٧٠و٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف فى شوّال سنة ثمان ، الحديث رقم ١٩٣١ عن عبد الله ابن زيد بن عاصم .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) .

قال : ومن ذلك قول القائل :

ولقد صحبتُ الناس ثم سَبَرْتُهم ... وبلوتُ ما وصلوا من الأسبابِ

فإذا القرابــة لا تقرّب قـاطعاً ... وإذا المــودة أقرب الأسبــابِ

قال البيهقيّ : لا أدرى هذاموصولٌ بكلام ابن عباس ، أو هو قولُمَن دونه مِن الرواة.

قال الرازيّ : احتج أصحابنا بهذه الآية ، على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات، كلها من خلق الله تعالى . وذلك لأن الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بسبب الإيمان ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام . انتهى .

ولما بين تعالى كفايته لنبيه صلى الله عليه وسلم عند مخادعة الأعداء ، في الآية المتقدمة ، أعلمه بكفايته له في جميع أموره مطلقاً ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » قال العلامة ابن القيم في مقدمة (زاد المعاد) في تفسير هذه الآية : أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وهاهنا تقديران :

أحدهما ـ أن تكون الواو عاطفة لـ(مَنْ) على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ، على المذهب المختار ، وشواهده كثيرة ، وشُبَه المنع منه واهية .

والثاني ـ أن تكون الواو واوَ (مع) ، وتكون (من) في محل نصب عطفاً على الموضع فإن (حسبك) في معنى كافيك ، أي الله يكفيك ، ويكفي من اتبعك ، كما يقول العرب : حسبك وزيداً درهم ، قال الشاعر :

إذا كانتِ الهيجاء وانشقّتِ العصا ... فحسبُك والضحاكَ سيفٌ مُهَنَّدُ

وهذا أصح التقديرين . وفيها تقدير ثالث ، أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداء ،

أى ومن اتبعك من المؤمنين ، فحسبهم الله ؛ وفيها تقدير رابع ، وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون (من) فى موضع رفع عطفاً على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك. وهذا ، وإن قال به بعض الناس ، فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى[1] : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده . وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده ، حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى[2] : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله . فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك ؟ وأتباعه ، قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ، فكيف يشرك بينهم وبينه فى حسب رسوله ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبطل الباطل . ونظير هذا قوله[3] : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله ؛ كما قال تعالى[4] : (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال[3] : (إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) ولم يقل وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده . كما قال تعالى[5] : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب ، لله وحده . كما أن العبادة والتقوى والسجود ، لله وحده. والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى . ونظير هذا قوله تعالى[6] :(أَلَيْسَ اللهُ

(١) [٨ / الأنفال / ٦٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٧٣] .
(٣) [٩ / التوبة / ٥٩] . (٤) [٥٩ / الحشر / ٧] .
(٥) [٩٤ / الشرح / ٧] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٣٦] :

بِكَافٍ عَبْدَهُ) فـ (الحسب) هو (الكافي)، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كافٍ عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد، أكثر من أن تذكرها هنا . انتهى .

قال الخفاجيّ (في العناية) : وتضعيفه الرفع لا وجه له ، فإن الفراء والكسائيّ رجّحاه ، وما قبله وما بعده يؤيده . انتهى .

وأقول : هذا من الخفاجيّ من الولع بالمناقشة ، كما هو دأبه ، ولو أمعن النظر فيما برهن عليه ابن القيّم وأيده بما لا يبقى معه وقفة ، لما ضعفه . والفراء والكسائيّ من علماء العربية ، ولأئمة التأويل فقه آخر . فتبصر ، ولا تكن أسير التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٥] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ » أي حثهم « عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٦] (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ».

فى الآية مسائل .

الأولى ـ مشروعية الحضّ على القتال ، والمبالغة فى الحث عليه . وقد كان النبىّ ﷺ يحرض أصحابه عند صفهم ، ومواجهة العدوّ ، كما قال لهم[1] يوم بدر ، حين أقبل المشركون فى عَدَدهم وعُدَدهم : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ! فقال : بخٍ بخٍ . فقال : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فتقدم الرجل ، فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده ، وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ؛ ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

الثانية ـ ذهب الأكثرون إلى أن قوله تعالى (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً) شرط فى معنى الأمر بوجوب مصابرة الواحد للعشرة . أى بألا يفرّ منهم .

روى البخارىّ[2] عن ابن عباس قال : لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) كتب عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ولا عشرون من مائتين . ثم نزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية ـ فكتب أن لا يفر مائة من مائتين .

وفى رواية أخرى[2] عنه قال : لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) شق ذلك على المسلمين ، فنزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية ـ فلما خفف الله عنهم من العدة ، نقص عنهم من الصبر ، بقدر ماخفف عنهم .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه مسلم فى : ٣٣ كتاب الإمارة ، حديث ١٤٥ (طبعتنا) عن أنس بن مالك . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ٦ ـ باب يأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، و ٧ ـ باب الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، الحديث رقم ٢٠٠٨ .

قال في (اللباب) : فظاهر هذا أن قوله تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ) ناسخ لما تقدم في الآية الأولى، وكان هذا الأمر يوم بدر . فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين ، فثقل ذلك على المؤمنين ، فنزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ـ أيها المؤمنون ـ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً) يعني في قتال الواحد للعشرة ، فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. فردّ العشرة إلى الاثنين. فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفروا. فأيما رجل فرّ من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فرّ . انتهى .

قال في (العناية) : وذهب مكيّ إلى أنها مخففة لا ناسخة ، كتخفيف الفطر للمسافر. وثمرة الخلاف أنه لو قاتل واحد عشرة ، فقتل ، هل يأثم أوْ لاَ ؟ فعلى الأول يأثم ، وعلى الثاني لا يأثم .

وقال الرازيّ : أنكر أبو مسلم الأصفهانيّ دعوى النسخ في الآية ، وقال : الأمر الذي فهم من الآية مشروط بكون العشرين قادرين على الصبر ، أي إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين ، فليشتغلوا بمقاومتهم . ثم دل قوله تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ) على أن ذلك الشرط غير حاصل منهم ، فلم يكن التكليف لازماً عليهم . وبالجملة ، فالآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص ، والثانية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هؤلاء الجماعة ، فلم يثبت ذلك الحكم . وعلى هذا فلا نسخ . ولا يقال إن قوله تعالى (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ) مشعر بأن هذا التكليف كان متوجهاً عليهم قبله، لأن لفظ التخفيف لا يستلزم الدلالة على حصول التثقيل قبله ، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام، كقوله تعالى[1] في ترخيصه للحرّ في نكاح الأَمَة «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ» وليس هناك نسخ،وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر . فكذا هاهنا.

---

(١) [٤ / النساء / ٢٨] .

ومما يدل على عدم النسخ ذكر هذه الآية مقارنة للأولى . وجعلُ الناسخ مقارنا للمنسوخ ، لا يجوز إلا بدليل قاهر .

قال الرازيّ ، بعد تقرير كلام أبي مسلم : إن ثبت إجماع الأمة قبل أبي مسلم على حصول النسخ في الآية ، فلا كلام عليه ، وإلا فقول أبي مسلم صحيح حسن . انتهى .

الثالثة في قوله تعالى (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) إشارة إلى علة غلبة المؤمنين عشرةَ أمثالهم من الكفار ، فالظرف متعلق بـ(يَغْلِبُوا) أي بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى واليوم الآخر ، لا يقاتلون احتساباً وامتثالًا لأمر الله تعالى ، وإعلاء لكلمته ، وابتغاء لرضوانه ، كما يفعله المؤمنون ، وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية ، واتباع خطوات الشيطان ، وإثارة ثائرة البغي والعدوان ، فلا يستحقون إلا القهر والخذلان . أفاده أبو السعود .

الرابعة ـ قال الرازيّ : احتج هشام على قوله (إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها) بقوله : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً) إذ يقتضي أن علمه بضعفهم ما حصل إلا في هذا الوقت . وأجاب المتكلمون بأن معناه : الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله . وأما قبل ذلك فقد كان الحاصل العلم بأنه سيقع أو سيحدث . انتهى .

وقال الطيبيّ رحمه الله : معناه الآن خفف الله عنكم لما ظهر متعلق علمه تعالى ، أي كثرتكم الموجبة لضعفكم بعد ظهور قلتكم وقوتكم .

الخامسة ـ في (الضعف) لغتان : الفتح والضم ، وبهما قرئ . وهو يؤكد كونهما بمعنى فيكونان في الرأي والبدن . وقيل : (الفتح) في الرأي والعقل ، (والضم) في البدن . وهو منقول عن الخليل . وقرئ (ضعفاء) بصيغة الجمع .

السادسة ـ إن قيل : إن كفاية عشرين لمائتين تغني عن كفاية مائة لألف وكفاية مائة لمائتين تغني عن كفاية ألف لألفين ، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للعشرة في الأولى ، وثبات الواحد للاثنين في الثانية ، فما سر هذا التكرير ؟ أجيب : بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل

على الكثير لزيادة التكرير المفيد لزيادة الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة ، لاتتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين . وتغلب المائة الألف . وأما الترتيب في المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعي .

قال في (الفتح) :وقد قيل ، في سر ذلك ، إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف .

السابعة ـ قال في (البحر) : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الأولى. ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في جملتي التخفيف وحذف من الثانية، لدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت بقوله : (وَاللَّهُ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ) مبالغة في شدة المطلوبية . ولم يأت في جملتي التخفيف بقيد الكفر ، اكتفاء بما قبله .

قال الشهاب : هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك ، وبقي عليه أنه ذكر في التخفيف (بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو قيد لهما . وقوله : (وَاللَّهُ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ) إشارة إلى تأييدهم ، وأنهم منصورون حتماً لأن من كان الله معه لا يغلب . وبقي فيها لطائف . فلله در التنزيل ما أحلى ماء فصاحته ! وأنضر رونق بلاغته !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ » روى الإمام[١] أحمد عن أنس قال : استشار النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر فقال : إن الله قد أمكنكم منهم

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ! اضربْ أعناقهم ، فأعرض عنه النبيّ ﷺ . ثم عاد رسول الله ﷺ لمقالته وقال : إنما هم إخوانكم بالأمس ، وعاد عمر لمقالته ، فأعرض عنه ﷺ . فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله ! نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء . قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمّ ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء .

وأخرج مسلم[1] فى (أفراده) من حديث عمر بن الخطاب ؛ قال ابن عباس : لما أسروا الأسارى . قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبوبكر : يارسول الله ! هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : ماترى ياابن الخطاب ؟ قال : قلت لا ، والله ! يارسول الله ! ما أرى الذى رأى أبو بكر . ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكِّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكنني من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلتُ . فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان ، فقلت : يارسول الله ! أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ أبكى على أصحابك ـ من أخذهم الفداء ، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة من نبىّ الله ﷺ ـ فأنزل الله عز وجل (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ...) الآية . ذكره الحميدىّ فى (مسنده) عن عمر بن الخطاب ، من أفراد مسلم بزيادة فيه .

ومعنى (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ) ماصح له وما استقام . وقرئ (للنبىّ) على العهد . والمراد

(١) أخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعتنا) وهو بعض من حديث طويل . فانظره .

على كلّ، نبيّنا ﷺ، وإنما نكّر تلطفاً به، حتى لا يواجه بالعتاب. وقرئ (أُسَارَى).

ومعنى (يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) يكثر القتل ويبالغ فيه، حتى يذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله. يقال : أثخن في العدوّ، بالغ في قتلهم. كما في (الأساس). وأثخن في الأرض قتلاً إذا بالغ. وقال ابن الأعرابيّ : أثخن إذا غلب وقهر.

قال الرازيّ : وإنما حمله الأكثرون على القتل، لأن الدولة إنما تقوى به. قال المتنبّي :

لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراقَ عَلَى جوانبِهِ الدمُ

ولأنه يوجب قوة الرعب، وشدة المهابة، فلذلك أمر تعالى به.

وقوله تعالى « تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا » أي متاعها الزائل، بفداء أسارى بدر. و(العرض) ما لا ثبات له ولو جسماً. ومنه استعار المتكلمون (العرض) المقابل (للجوهر)، قاله الشهاب. « وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » أي يريد لكم ثوابها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أي غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » أي فيما يأمر به عباده.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ » أي لأصابكم « فِيمَا أَخَذْتُمْ » أي بسببه، وهو الفداء « عَذَابٌ عَظِيمٌ » أي شديد، بقدر إبطالكم الحكمة العظيمة، وهي قتلهم الذي هو أعزّ للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، وأفلّ لشوكتهم. والمراد بـ (الكتاب) الحكم، وإنما أطلق عليه لأنه مكتوب في اللوح. ولأئمة التفسير أقوال في تفسيره. فقيل : هو أنه لا يعذب قوماً إلا بعد تقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك. وقيل : هو أنه لا يعذب المخطئ في اجتهاده. وقيل : هو كون أهل بدر مغفوراً لهم. وقيل : هو حلّ المغانم.

وللرازيّ مناقشة في هذه الأقوال. واختار أن (الكتاب) هو حكمه في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة، لأنه كتب على نفسه الرحمة، وسبقت رحمتُه غضبَه.

أقول : لعل الأمسّ في تهويل ما اكتسبوه، تفسير (الكتاب) بما في قوله تعالى[١] : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» . والله أعلم .

تنبيهات :

الأول ـ قال الرازيّ : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر، لأن المسلمين كانوا قليلين . فلما كثروا وقوى سلطانهم ، أنزل الله بعد ذلك في الأسارى[٢] (حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) .

وأقول : هذا الكلام يوهم أن قوله (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) يريد حكم الآية التي نحن في تفسيرها . وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كلتيهما تدلّ على أنه لا بد من تقديم الإثخان ، ثم بعده أخذ الفداء . انتهى .

وقال بعضهم : لا تظهر دعوى النسخ من أصلها ، إذ النهي الضمنيّ ، كما هنا ، مقيد ومُغَيًّا بالإثخان . أي كثرة القتال اللازمة لها قوة الإسلام وعزته . وما في سورة القتال من التخيير ، محله بعد ظهور شوكة الإسلام بكثرة القتال ، فلا تعارض بين الآيتين ، إذ ما هناك بيان للغاية التي هنا . نقله في (الفتح) .

الثاني ـ قال القاضي : في الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأً ، ولكن لا يقرّون عليه .

الثالث ـ قال ابن كثير : وقد استمرّ الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ؛ أن الإمام مخيّر فيهم ، إن شاء قتل ، كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى بمال ، كما فعل بأسرى بدر ، وبمن أُسِر من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردها وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] . (٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

وإن شاء استرقّ من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعيّ وطائفة ـ وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة ، مقرر فى موضعه .

الرابع ـ قال بعض مفسرى الزيدية : فى هذه الآية سؤال وهو أن يقال : إن كان فعلهم اجتهاداً وخطأً ، فلِمَ عوتبوا ؟ ويلزم أن لا معصية . وإن تمكنوا من العلم وقصروا ، فكيف أقرّهم الرسول ﷺ ؟ وجواب ذلك من وجهين :

الأول ـ عن أبى علىّ ؛ أن ذلك كان معصية صغيرة . قال الحاكم : وكانوا متمكنين من العلم ، إذا ما عاتبهم .

وقيل : كان خطأً وقصروا فعوتبوا على التقصير انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » أى كلوا بعضه ، بعد إخراج الخمس حلالًا ، أى مطلقاً عن العتاب والعقاب ، من (حل العقال) . (طَيِّبًا) أى لذيذاً هنيئاً . أو حلالًا بالشرع ، طيباً بالطبع . قيل : هذا الأمر تأكيد لحل المغانم ، لأنه علم مما تقدم من قوله (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ . . .)الآية ـ وإشارة لاندراج مال الفداء فى عمومها ، فـ(مَا غَنِمْتُمْ) هنا ، إما الفدية ، لأنها غنيمة ، أو مطلق الغنائم . والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية . وجعل الفاء عاطفة على سبب مقدر ، أى أبحت لكم الغنائم ، فكلوا ـ قد يستغنى عنه بعطفه على ما قبله لأنه بمعناه ، أى لا أؤاخذكم بما أخذ من الفداء فكلوه . كذا فى (العناية) .

قال أبو السعود : والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى دعوه فكلوا مما غنمتم . ثم قال : وقيل (ما) عبارة عن الفدية ، فإنها من جملة الغنائم ، ويأباه اتساق النظم الكريم وسياقه . انتهى . وهو متجه .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى فى مخالفة أمره ونهيه « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيغفر لكم ويرحمكم إذا اتقيتموه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَنْ فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ » أى لمن فى ملكتكم ، كأن أيديكم قابضة عليهم وذلك تخليصاً لهم من أسر الضلال بضعف الإيمان « إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا » أى قوة إيمان وإخلاصاً فيه « يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ » أى من الفداء ، إما أن يخلفكم فى الدنيا أضعافه ، أو يثيبكم فى الآخرة « وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَإِنْ يُرِيدُوا » أى الأسرى « خِيَانَتَكَ » أى نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة ، أو منع ماضمنوا من الفداء « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل (بدر) بالكفر به « فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ » أى فأمكنك منهم ، أى أظفرك بهم قتلا وأسرا ، كما رأيتم يوم بدر ، فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى عليم بما فى بواطنهم من إيمان وتصديق ، أو خيانة ونقض عهد . حكيم يجازى كلا بعمله ، الخير بالثواب ، والشر بالعقاب .

روى ابن هشام فى (السيرة) أن فداء المشركين يوم بدر كان أربعة آلاف درهم بالرجل إلى ألف درهم ، إلا من لا شيء له . فمنّ رسول الله ﷺ عليه .

وقال ابن إسحاق : كان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس ، وذلك أنه كان رجلا موسرا ، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً .

وفى صحيح البخارى (١) عن أنس أن رجالا من الأنصار قالوا : يارسول الله ! ائذن لنا ، فلنترك لابن أختنا عباس فداءه . قال : لا والله ! لاتذرون منه درهما .

وروى ابن إسحاق (٢) أن العباس قال : يارسول الله ! قد كنت مسلماً . فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول ، فإن الله يجزيك . وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل وعقيل وحليفك عتبة . قال : ما ذاك عندى يارسول الله ! قال : فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أُصِبْتُ فى سفرى هذا ، فهذا المال الذى دفنته لبنىّ : الفضل وعبد الله وقثم ؟ قال : والله ! يا رسول الله ، إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى ، يارسول الله ، ما أصبتم من عشرين أوقية من مال كان معى . فقال رسول الله ﷺ : لا . ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك .

ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، فأنزل الله عز وجل فيه : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم ...) الآية .

قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام ، عشرين عبدا كلهم فى يده مال ، يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

---

(١) أخرجه فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٢ ـ باب حدثنى خليفة ، حديث رقم ١٢٤٥

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٣٣١٠ (طبعة المعارف).

وروى ابن إسحاق أيضا أن العباس كان يقول : فىّ نزلت ، والله ! حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامى .

وروى ابن جريج عن عطاء ابن عباس ؛ أن عباسا وأصحابه قالوا للنبىّ ﷺ : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لننصحنّ لك على قومنا ، فأنزل الله تعالى[1] (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ . . .) الآية . قال ، فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا ، وأن لى الدنيا ، لقد قال : (يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) فقد أعطانى خيراً مما أخذ منى مائة ضعف . وقال : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) وأرجو أن يكون قد غفر لى .

وروى البيهقىّ عن أنس[2] قال : أُتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين ، فقال : انثروه فى مسجدى . قال ، وكان أكثرَ مال أتى به رسول الله ﷺ ، فخرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليهم ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله ! أعطنى ، فاديت نفسى ، وفاديت عقيلًا ، فقال رسول الله ﷺ : خذ ! فحثا فى ثوبه ، ثم ذهب يقلّه ، فلم يستطع . فقال : مرْ بعضهم يرفعه إلىّ ، قال : لا ، قال: فارفعه أنت علىّ ، قال : لا ! فنثر منه ، ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه ببصره حتى خفى عنه ، عجباً من حرصه .

فما قام رسول الله ﷺ وثمّ منها درهم . وفى رواية : وما بعث إلى أهله بدرهم .

ورواه البخارىّ[3] تعليقاً .

وفى رواية : فجعل العباس يقول وهو منطلق : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندرى ما يصنع فى الأخرى !

ثم ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين وأنصار فقال :

(١) [٨/الأنفال/٧٠] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ٤ ـ باب ما أقطع النبىّ ﷺ من البحرين وما وعد من مال البحرين ، حديث رقم ٢٧٧ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٢] (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَالَّذِينَ ءامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَهَاجَرُوا » أى من مكة إلى المدينة لنصر الله ورسوله « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى طاعته « وَالَّذِينَ ءاوَوْا وَنَصَرُوا » أى وطنوا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم، ونصروهم على أعدائهم « أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى يتولى بعضهم بعضاً فى النصرة والمظاهرة، ويقوم مقام أهله ونفسه ، ويكون أحق به من كل أحد . ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

قال ابن إسحاق[١] : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تآخوا أخوين أخوين ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعم النبى ﷺ ، وزيد بن حارثة مولى النبى ﷺ أخوين . وإليه أوصى حمزة يوم (أُحُد) حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت. وجعفر ذو الجناحين الطيار فى الجنة ومعاذ بن جبل أخوين . وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين . وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزبير بن العوام وسلمة

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٤٤ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٥٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) .

ابن سلامة أخوين ، أو عبدالله بن مسعود وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين وطلحة ابن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد وأبيّ بن كعب أخوين . ومصعب ابن عمير وأبو أيوب الأنصاريّ أخوين . وأبو حذيفة وعباد بن بشر أخوين. وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذرّ الغفاريّ والمنذر بن عمرو أخوين . وسلمان الفارسيّ وأبو الدرداء أخوين . وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين . وبلال الحبشيّ وأبو رويحة الخثعميّ أخوين :

ولما خرج بلال إلى الشام ، وأقام فيها مجاهداً ، قال له عمر : إلى من تجعل ديوانك ؟ قال : مع أبي رويحة ، لا أفارقه أبداً ، للأخوّة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني . فضم إليه ، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم ، لمكان بلال منهم .

قال ابن إسحاق . فهؤلاء من سمي لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه .

تنبيه :

نقل الواحديّ عن ابن عباس وغيره ، أن المراد من هذه الولاية ، هي الولاية في الميراث.

قال ابن كثير : لما تآخوا كانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله ذلك بالمواريث. ثبت ذلك في صحيح البخاريّ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد .

قال الخفاجيّ : فكان المهاجريّ يرثه أخوه الأنصاريّ ، إذا لم يكن له بالمدينة وليّ مهاجريّ ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجريّ . واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ، ثم توارثوا بالنسب بعدُ ، إذ لم تكن هجرة . و (الوليّ) القريب والناصر . لأن أصله القرب المكانيّ ، ثم جعل للمعنويّ ، كالنسب والدين والنصرة . فقد جعل ﷺ ، في أول الإسلام ، التناصر الدينيّ أخوّة ، وأثبت لها أحكام الأخوّة الحقيقية من التوارث ، فلا وجه لما قيل إن هـذا التفسير لا تساعده اللغة ، فالولاية على هذا ، الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية . انتهى .

ومراده بـ(ما قيل) ماذكره الرازيّ في تضعيف تفسير الولاية بالوراثة ، حيث قال :

واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى ، لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ماقررناه في مواضع من هذا الكتاب . ويقال : السلطان وليّ من لا وليّ له ، ولا يفيد الإرث . وقال تعالى[1] : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا يفيد الإرث ، بل الولاية تفيد القرب ، فيمكن حمله على غير الإرث ، وهو كون بعضهم معظماً للبعض ، مهتماً بشأنه ، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته . والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء ، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه . وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى ، كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ ، لاسيما وهم يقولون : إن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى في آخر الآية : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ)[2] وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به ، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى مذكورة معه ؟ هذا في غاية البعد ، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك ، فحينئذ يجب المصير إليه . إلا أن دعوى الإجماع بعيدة . انتهى .

وأقول : لعموم هذا الخطاب ونظمه وجه في إثبات التوارث ، لا سيما وقد نفى تعالى ولاية من لم يهاجر نفياً استغرق أقرب الأقارب حيث قال : « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا » أي بأن أقاموا في بواديهم « مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا » أي إلى المدينة . وقوله تعالى : « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ » أي إذا استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال دينيّ ، فيجب عليكم أن تنصروهم على أعدائهم المشركين ، لأنهم إخوانكم في الدين « إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » أي عهد ومهادنة إلى مـــدة ، فلا تعينوهم عليهم ، لئلا تخفروا ذمتكم ، وتنقضوا عهدكم « وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فلا تخالفوا أمره .

---

(١) [١٠ / يونس / ٦٢] . (٢) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

تنبيهات :

الأول ـ احتج من ذهب إلى أن المراد من قوله تعالى : (مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى من توليتهم فى الميراث ، وأنه هو المراد فى الآية السابقة أيضاً ، بقوله تعالى : (وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) فإن هذا موالاة فى الدين ، فحينئذ لا يجوز حمل الموالاة المنفية ، على النصرة والمظاهرة ، لأنها لازمة لكل حال لكلا الفريقين.

وأجاب الرازىّ بما معناه : إن الولاية هنا ليس المراد بها مطلق التولى حتى يرد ما ذكروه ، بل عنى بها معنى خاص ، وهو علاقة شديدة ، ومحبة أكيدة ، وإيثار قوىّ ، وأخوة وثيقة . ولا يلزم من النصر التولى . فقد ينصر المرء ذمياً لأمرٍ ما ولا يتولاه ، ويدافع عن عبده أو أمته وبعيهما ولا يتولاهما ـ والله أعلم ـ

الثانى ـ يظهر أن هذه الآية كسوابقها مما نزل إثر واقعة بدر ، وطلب من كل من آمن من البادين أن يهاجر ، ليكثر سواد المسلمين ، ويظهر اجتماعهم ، وإعانة بعضهم لبعض ، فتتقوى بألفتهم شوكتهم ، ولم يزل طلب الهجرة إلا بفتح مكة ، لقوله ﷺ : لا هجرة بعد فتح مكة . رواه البخارىّ[1] عن مجاشع بن مسعود .

الثالث ـ شمل نفى الموالاة عن الذين لم يهاجروا وقتئذ ، حرمانهم من المغانم والفىء .

روى الإمام أحمد[2] عن بريدة بن الحصيب الأسلمىّ رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ

---

(١) حديث مجاشع بن مسعود أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١١٠ ـ باب البيعة فى الحرب ألّا يفرّوا ، حديث رقم ١٤١٣ ورقم ١٤١٤ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ـ كتاب الإمارة ، حديث ٨٣و٨٤ (طبعتنا) .

ونصه : قال : أتيت النبىّ ﷺ أبايعه على الهجرة فقال «إن الهجرة قد مضت لأهلها».

وأما حديث « لا هجرة بعد الفتح » فقد رواه البخارىّ عن ابن عباس فى: ٥٦ـ كتاب الجهاد ، ١ ـ باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

إذا بعث أميراً على سرّية أوجيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً. وقال : اغزوا بسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . إذا لقيتَ عدوّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتها ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكفّ عنهم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكفّ عنهم . ثم ادعهم من التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك ، أن لهم ما للمهاجرين ، وأن عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ،يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم ، وكفّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

قال ابن كثير : انفرد به مسلم(١) ، وعنده زيادات أخر .

الرابع ـ قرأ حمزة (ولايتهم) بكسر الواو ، والباقون بفتحها .

قال الشهاب : جاء فى اللغة : (الولاية) مصدراً بالفتح والكسر ، فقيل : هما لغتان فيه بمعنى واحد ، وهو القرب الحسىّ والمعنوىّ ، وقيل : بينهما فرق ، فالفتح ولاية مولى النسب ونحوه . والكسر ولاية السلطان. قاله أبو عبيدة . وقيل الفتح من النصرة والنسب . والكسر من الإمارة . قاله الزجاج. وخطأ الأصمعىُّ قراءة الكسر ، وهو المخطىء لتواترها. واختلفوا فى ترجيح إحدى القراءتين. ولما قال المحققون من أهل اللغة : إن (فعالة) بالكسر فى الأسماء لما يحيط بشىء ، ويجعل فيه كاللفافة والعمامة . وفى المصادر يكون فى الصناعات وما يزاول بالأعمال ، كالكتابة والخياطة ـ ذهب الزجاج وتبعه غيره إلى أن الولاية لاحتياجها إلى تمرن وتدرب شبهت بالصناعة ، ولذا جاء فيها الكسر ، كالإمارة . وهذا يحتمل أن الواضع حين وضعها شبهها بذلك، فتكون حقيقة. ويحتمل ـ كما فى بعض شروح الكشاف ـ أن تكون استعارة ، كما سموا الطب صناعة . انتهى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٣] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى فلا يتولاهم إلا من كان منهم ، ففيه إشارة إلى نهى المسلمين عن موالاتهم . وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم ، وإن كانوا أقارب وقد استدل به على أنه لا توارث بين المسلمين والكفار .

روى الحاكم فى (مستدركه) عن أسامة عن النبىّ ﷺ قال : لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلما ، ثم قرأ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية رواه الشيخان عنه[1] بلفظ : لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم .

وقوله تعالى : « إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل ، وتولى بعضكم بعضا ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة ، لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك ، كان الشرك ظاهرا ، والفساد زائداً ، فى الاعتقادات والأعمال .

وقيل : الضمير المنصوب للميثاق أو حفظه أو النصر أو الإثبات . وقيل إنه للإستنصار المفهوم من الفعل . والفتنة: إهمال لمؤمنين المستنصرين بنا ، حتى يسلط علينا الكفار . إذ فيه وهن للدين .

قال الشهاب : وفيه تكلف ، أى فالأوجه عوده للتولى والتواصل ـ كما بينا ـ .

قال الرازىّ : بيان هذه الفتنة والفساد عن وجوه :

الأول ـ أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار فى زمان ضعف المسلمين ، وقلة عددهم ، وزمان قوة الكفار ، وكثرة عددهم ، فربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار .

(١) الحديث رواه مسلم عن أسامة بن زيد فى : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث رقم ١ (طبعتنا) ولم يخرجه البخارىّ .

الثانى ـ أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم ، فيصير ذلك سبباً لجرأة الكفار عليهم.

الثالث أنه إذا كان جمع المسلمين كل يوم فى الزيادة فى المدد والعدد صار ذلك سبباً لمزيد رغبتهم فيما هم فيه ، ورغبة المخالف فى الالتحاق بهم . انتهى .

وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » عودٌ لذكر المهاجرين والأنصار ، للثناء عليهم ، والشهادة لهم ، مع الموعد الكريم . فلا تكرار ، لما أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم ، فذكرهم هاهنا لبيان تعظيم شأنهم ، وعلوّ درجتهم .

قال الرازىّ : وبيانه من وجهين :

الأول ـ أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم ، وذلك يدل على الشرف والتعظيم .

والثانى ـ وهو أنه تعالى أثنى عليهم هاهنا من ثلاثة أوجه :

أولها ـ قوله « أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فقوله (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ) يفيد الحصر ، وقوله (حَقًّا) يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محقين محققين فى طريق الدين ، وقد كانوا كذلك ، لأن من لم يكن محقًّا فى دينه ، لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال ، ولم يكن فى هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين .

وثانيها ـ قوله (لَهُم مَّغْفِرَةٌ)والتنكير يدل على الكمال ، أى مغفرة تامة كاملة .

وثالثها ـ قوله (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) والمراد منه الثواب الرفيع الشريف . انتهى .

وقد أثنى تعالى على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية فى كتابه الكريم .

والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ » أى من جملتكم ، أى المهاجرون والأنصار ، فى استحقاق ما استحقيتموه من الموالاة والمناصرة ، وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم .

وهل المراد من قوله (مِنْ بَعْدُ) هو من بعد الهجرة الأولى ، أو من بعد الحديبية . وهى الهجرة الثانية ، أو من بعد نزول هذه الآية ، أو من بعد يوم بدر ؟ أقوال ـ واللفظ الكريم يعمها كلها ، والتخصيص بأحدها تخصيص بلا مخصص . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فى حكمته وقسمته ، أو فى اللوح ، أو فى القرآن ، لأن (كتاب الله) يطلق على كل منها « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فيقضى بين عباده بما شاء من أحكامه التى هى منتهى الصواب والحكمة والصلاح .

تنبيهات :

الأول إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالات والمناصرة عند من فسر ما تقدم من قوله (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) وما بعده بالتوارث .

أخرج أبو داود[1] من حديث ابن عباس قال : كان الرجل يحالف الرجل ، ليس بينهما

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ١٦ ـ باب نسخ ميراث العقد بميراث الأرحام ، حديث رقم ٢٩٢١ .

نسب ، فيرث أحدهما من الآخر، فنسخ ذلك آية الأنفال فقال : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ...) الخ إلا أن فى إسناده مَن فيه مقال .

وأما من فسر الموالاة المتقدمة بالنصرة والمعونة والتعظيم ، فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض . وذلك أن تلك الآية ، لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث ، بيّن الله تعالى فى هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة ، إلا ما خصه الدليل ، فيكون المقصود من الآية إزالة هذا الوهم .

قال الرازىّ : وهذا أولى . لأن تكثير النسخ ، من غير ضرورة وحاجة ، لا يجوز .

الثانى ـ استدل بالآية من ورّث ذوى الأرحام ، وهم من ليسوا بعصبات ، ولا ذوى سهام . قال : ويعضده حديث[1] : (الخال وارث من لاوارث له) . وأجاب من منع توريثهم بأن المراد من الآية من ذكر اللهُ من ذوى السهام والعصبات . ومن الحديث : (من كان وارثه الخال فلا وارث له) . وردّ بأنها عامة فلا موجب للتخصيص ، وبأن معنى الحديث : من كان لا وارث له غيره ، لحديث : (أنا عماد من لا عماد له) .

ثم إن الذين أثبتوا ميراثهم اختلفوا فى أنهم هل يرثون بالقرب ، أو بالتنزيل ، وهل يرث القريب مع البعيد ، وهل يفضل الذكر على الأنثى أَوْ لَا ؟ والآية محتملة . أفاده بعض مفسرى الزيدية .

قال ابن كثير : ليس المراد بقوله : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لافرض لهم ولاعصبة ، بل يدلون بوارث كالخالة والخال ، والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم ، كما زعمه بعضهم ، ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحاً فى المسألة . بل الحق أن الآية عامة ، تشمل جميع القرابات ؛ كما نص عليه ابن عباس

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ٨ ـ باب فى ميراث ذوى الأرحام ، حديث رقم ٢٨٩٩و ٢٩٠٠ عن المقدام الكندىّ .

ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورّثهم يحتج بأدلة، من أقواها حديث(١) : (إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث) قالوا : فلو كان ذا حق لكان ذا فرض فى كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك ، لم يكن وارثاً . انتهى .

ولا يخفى ضعف هذا الاستدلال ، إذ لا يلزم من ثبوت الحق تعيين الفرض . على أن معنى الحديث ، أعطى كل ذى حق حقه مفصلاً ومجملاً ، وقد أعطاهم حق الأولوية العامة ، ووكل بيان ما يفهم من إجمال الإرث بعمومها لاستنباط الراسخين وفهمهم على قاعدة عمومات التنزيل .

وقد رأيت فى هذه المسألة مقالة بديعة أوردها الحسن الصابىء فى (تاريخ الوزراء) فى أخبار وزارة أبى الحسن بن الفرات ، نأثرها هنا ، لأنها جمعت فأوعت ، قال رحمه الله :

ونسخة ما كتب به أبو خازم إلى بدر المعتضدىّ جواب كتابه إليه فى أمر المواريث :
وصل كتاب الأمير ، يذكر أنه احتيج إلى كتابى بالذى أراه واجبا من مال المواريث لبيت المال ، وما لا أراه واجباً منه ، وتلخيص ذلك وتبيينه ـ وأنا أذكر للأمير الذى حضرنى من الجواب فى هذه المسألة والحجة فيما سأل عنه ليقف على ذلك إن شاء الله ـ .

الناس مختلفون فى توريث الأقارب ، فروى عن زيد بن ثابت أنه جعل التركة ـ إذا لم يكن للمتوفى من يرثه من عصبة وذى سهم ـ لجماعة من المسلمين وبيت مالهم . وكذلك يقول فى الفصل بعد السُّهمان المسماة ، إذا لم تكن عصبة . ولم يرو ذلك عن أحـد من الصحابة سوى زيد بن ثابت . وقد خالفه عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وجعلوا ما يفضل من السُّهمان ردا على أصحاب السهام من القرابة ، وجعلوا

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٦ ـ باب ما جاء فى الوصية للوارث ، حديث رقم ٢٨٧٠ .

المال لذى الرحم إذا لم يكن وارث سواه . والسنّة تعاضد ما روى عنهم ، وتخالف ما روى عن زيد بن ثابت وتأويل القرآن يوجب ما ذهبوا إليه . وليس لأحد أن يقول فى خلاف السنة والتنزيل بالرأى . قال الله تعالى[1] : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ ، بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فصيّر القريب أولى من البعيد . وإلى هــذا ذهب عمر وعلىّ وعبد الله رضى الله عنهم ومن تابعهم من الأئمة ، وعليه اعتمدوا ، وبه تمسكوا ـ والله أعلم .

ولو كان فى هذه المسألة ما يدل عليه شاهد من الكتاب والسنة ، لكان الواجب تقليد الأفضل والأكثر من السابقين الأولين ، وترك قبول من سواهم ممن لا يلحق بدرجتهم بسابقته . وإذا ردّ أمر الناس إلى التخيير من أقاويل السلف فهل يحيل أو يشكل على أحد أن زيداً لا يفى علمه بعلم عمر وعلىّ وعبد الله ؟ وإذا فضلوا فى السابقة والهجرة ، فمن أين وجب أن يؤخذ بما روى عن زيد بن ثابت ، واطّراح ما روى عنهم ، وقد استدلوا مع ذلك بالكتاب فيما ذهبوا إليه ، وبالسنة فيما أفتوا به؟ والرواية ثابتة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بتوريث من لا فرض له فى الكتاب من القرابة . فمن ذلك ما ذكر لنا عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبى عامر الهروىّ عن المقدام بن معدى كرب عن النبىّ ﷺ[2] أنه قال : الخال وارث من لا وارث له يرث ماله ، ويعقل عنه . وكذلك بلغنا عن شريك ابن عبد الله عن ليث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مثله . وعن ابن جريج عن عمر بن سلم عن طاوس عن عائشة أن النبىّ ﷺ قال مثل ذلك . وذكر عن عبادة بن أبى عباد عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن محمد بن يحيا بن حبان عن عمه واسع ابن حبان قال: توفى ثابت بن أبى الدحداح ، فقال النبى ﷺ لعاصم بن عدىّ : أله فيكم نسب؟

---

(١) [٨ / سورة الأنفال/ ٧٥] .(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ٨ ـ باب فى ميراث ذوى الأرحام ، حديث رقم ٢٨٩٩و٢٩٠٠ .

قال : فدفع تركته إلى ابن أخته . فقد أوجب عليه السلام ، بما نقلته عنه هذه الرواية ، توريث من لا سهم له من القرابة مع عدم أصحاب السُّهمان المبينة فى الكتاب . وأعطى الجدة السدس من الميراث ، ولا فرض لها ، وفى ذلك الاتفاق ، وفيما صير لها من السدس ، دليل على أن مَنْ لا سهم له من القرابة فى معناها ؟ إذا بطلت السهام ، ولم يكن من أهلها ، وأنه أولى بالميراث من الأجنبىّ .

والمروىّ عن زيد بن ثابت أنه جعل الفضل عن سهام الفرائض ، وكل المال ، إذا سقطت السهام بعد أهلها ، لجماعة المسلمين . فجعلهم كلهم وارثا ، وجعل ما يصير لهم من ذلك ـ فى خلاف مال الفىء المصروف إلى الشحنة وأرزاق المقاتلة وإلى المصالح إذا كان ذلك ـ يكون فيما روى عنه للناس كافة ، وعددهم لا يحصى ، فغير ممكن أن يقسم ذلك فيهم وهم متفرقون فى أقطار الأرض ، مشارقها ومغاربها . وإذا امتنع ذلك وخرج إلى ما ليس بممكن ، فسد وثبت ما قلناه من قول أكابر الأئمة . وقد تأول بعض المتأولين قول الله تعالى[1] : (وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ) فقال فيه : كان الناس يتوارثون بالحلف دون القرابة . فلما أوجب الله المواريث لأهلها من الأقارب ، مُنِع الحليف بما فرض من السهمان فغلطوا وصرفوا حكم الآية إلى الخصوص ، فذلك غير واجب مع عدم الدليل ، لأن مخرجها فى السمع مخرج العموم .

وبعد ، فلو كان تأويلها ما ذهبوا إليه ، وكانت السهام التى نسخت ما يرثه الحليف قبل نزول الفرائض ، لوجب فى بدء ، وما قالوا إذا كان لا وارث الميت من أصحاب السهام أن يكون الحليفان فى التوارث على أول فرضهما ، وعلى المقدم من حكمهما ، لأن الذى منعهما إذا ثبت هذا التأويل (من له سهم) دون (من لا سهم له) ، فإذا ارتفع المانع ، رجع الحكم إلى بدئه . ولا اختلاف بين الفريقين أن الحليف لا يرث الحليف اليوم ، وإن كان لا وارث سواه ، وهذا يدل على فساد تأويلهم ، وعلى أن المراد فى الآية التى أوجبت الحق للأقارب غير الذى ذهبوا إليه ، فإن الله سبحانه إنما أراد بمعناها اختصاص القريب بالإرث دون البعيد.

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

وقد يلزم من ذهب إلى الرواية عن زيد ، وترك الرواية عن عمر وعليّ وعبد الله عليهم السلام جانباً ، وأسقط التعاقل بين الأجنبيّ والقريب ، أن يجعل ذا الرحم أولى ، لأنه لا يفضل الأجنبيّ بالقرابة . وترتيبُ المواريث في الأصل يجرى على من تقدمه من فضل غيره في المناسبة ، كالأخ للأب والأم ، والأخ للأب ، وابن العم للأب والأم ، وابن العم للأب ، واختصاصهما قرابة أولاها بالميراث عند جمع الجميع . قال الله تعالى[1] : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) وولد الولد ، من سفل منهم ومن ارتفع ، يعمهم هذا الاسم ، إلا أن الأقرب منهم ، فى معنى الآية ، أحق من الأبعد . فإذا كان ذلك كذلك ، كان القريب أولى من الأجنبيّ بالتركة للرحم التى تقرّب بها دونه .

وبعد ، فإن العلماء نفر يسير لا يعرفون الصواب فى هذه المسألة ، إلا فيما روى عن الخليفتين عمر وعليّ صلوات الله عليهما ، وماروى عن ابن مسعود ، ثم لم يقتصروا فى المبالغة والدليل فى توريث ذى الرحم ، إلا على ما روى عن عبد الله بن العباس ، جدّ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وترجمان القرآن ، وبحر العلم ، ومن كان إذا تكلم سكت الناس ، ومن دعا له النبيّ ﷺ فقال[2] : اللهم ! فقهه فى الدين وعلمه التأويل . ودعوة النبيّ ﷺ مستجابة . ومن كان أعلم بتأويل القرآن فاتباعه فيه أوجب . وقد روى عن ابن عباس مثل ذلك من قول عمر وعليّ

(١) [٤ / النساء / ١١] . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ١٧ ـ باب قول النبيّ ﷺ « اللهم ! علمه الكتاب » ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب .

وفى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ١٠ ـ باب وضع الماء عند الخلاء ، ونصه : اللهم فقهه فى الدين .

وفى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٢٤ ـ باب ذكر ابن عباس ، ونصه : اللهم ! علمه الحكمة .

وفى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب ، والحديث رقم ٦٥ . أما النص الذى أورده المؤلف فلم أعثر عليه .

وعبد الله والجماعة . ومازالت الخلفاء من أجداد أمير المؤمنين،أعزه الله ، يستقضون الحكام، فيقضون برد المواريث على الأقارب ، ولا ينكرون ذلك على مَنْ قضى به مِنْ قضاتهم ، ولا تردونه متجاوزاً للحق فيه ، وما عرفت الجماعة بغير هذا الاسم إلا منذ نحو عشرين سنة . وأمير المؤمنين أولى من اتبع آثار السلف ، واقتدى بخلفاء الله ، ومَالَ إلى أفضل المذهبين ، وإلى الله الرغبة فى عصمة الأمير ، وتسديده ، والحمد لله رب العالمين . انتهى .

ونقل أبو الحسن الصابى قبل نسخة أبى الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة فى المواريث ، وفيها نقل ما كتبه عبدالحميد فى كتاب مواريث أهل الملة ، وأنه حكى فيه أن عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم ومن اتبعهم من الأئمة الهادين رحمة الله عليهم ، رأوا أن يردّ على أصحاب السهام من القرابة ما يفضل عن السهام المفترضة فى كتاب الله تبارك وتعالى من المواريث ، إذا لم يكن للمتوفى عَصَبة يحوز باقى ميراثه،وجعلوا ، رضى الله عنهم ، تركة من يتوفى ولاعَصَبة له لذوى رحمه ، إن لم يكن له وارث سواهم،ممتثلين فى ذلك أمر الله سبحانه إذ يقول[1]: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وسنة رسول الله ﷺ فى توريثه من لا فرض له فى كتاب الله تعالى من الخال وابن الأخت والجدة . انتهى .

الثالث ـ استدل بالآية الإمامية ، على تقديم الإمام علىّ كرم الله وجهه على غيره فى الإمامة، لاندراجها فى عموم الأولوية . والجواب ـ على فرض صحة هذه الدلالة ـ أن العباس رضى الله عنه كان أولى بالإمامة ، لأنه كان أقرب إلى رسول الله ﷺ من علىّ رضى الله عنه .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

سُورَةُ التَّوبَة

٩ ـ سورة التوبة

هي مدنية بإجماعهم . قيل : سوى آيتين في آخرها[١] (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .) فإنهما نزلتا بمكة . وفيه نظر . فقد روى البخاريّ[٢] عن البراء أنها آخر سورة نزلت ، واستثنى بعضهم (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...)[٣] الآية ـ لما ورد أنها نزلت في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي طالب : لأستغفرنّ لك مالم أنه عنك. وهي مائه وتسع وعشرون آية ولهذه السورة عشرة أسماء :

١ ـ براءة : سميت بها لافتتاحها بها ، ومرجع أكثر ما ذكر فيها إليها .

٢ ـ التوبة : لتكرارها فيها ، كقوله تعالى[٤] (فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)[٥] وقوله[٦] (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ) وقوله[٧] (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ) وقوله[٨] : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) وقوله[٩] : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ) ، وقوله[١٠] : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ) وقوله[١١] : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ) وهما أشهر أسمائها .

٣ ـ الفاضحة : أخرج البخاريّ[١٢] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: سورة

---

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١ ـ باب قوله بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، حديث ١٩٤١ . (٣) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٤) [٩ / التوبة / ٣] .

(٥) [٩ / التوبة / ٥و١١]. (٦) [٩ / التوبة / ٢٧]. (٧) [٩ / التوبة / ٧٤] .

(٨) [٩ / التوبة / ١٠٢]. (٩) [٩ / التوبة / ١١٧]. (١٠) [٩ / التوبة/١٠٤].

(١١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (١٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ١ ـ حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حديث رقم ١٨٦٩ .

التوبة ، قال : التوبة هى الفاضحة ، ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لم تُبْقِ أحداً منهم إلا ذكر فيها .

٤ — سورة العذاب: رواه الحاكم عن حذيفة ، وذلك لتكرره فيها .

٥ — المقشقشة: رواه أبو الشيخ عن ابن عمر ، والقشقشة معناها التبرئه ، وهى مبرئة من النفاق .

٦ — المنقرة : أخرجه أبو الشيخ عن عبيد بن عمير لأنها نقرت عما فى قلوب المشركين . أى بحثت .

٧ — البَحوث: بفتح الباء ، صيغة مبالغة ، رواه الحاكم عن المقداد

٨ — الحافرة : ذكره ابن الفرس، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، أى بحثت عنها، مجازاً

٩ — المثيرة : رواه ابن أبى حاتم عن قتادة لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم أى أخرجتها من الخفاء إلى الظهور .

١٠ — المبعثرة : لأنها بعثرت أسرارهم أى أظهرتها .

١١ — المدمدمة : أى المهلكة لهم .

١٢ — المخزية .

١٣ — المنكلة : أى المعاقبة لهم .

١٤ — المشرّدة : أى الطاردة لهم والمفرقة جمعهم .

وليس فى السور أكثر أسماء منها ومن الفاتحة .

تنبيــه :

للسلف فى وجه ترك كتابة البسملة فى هذه السورة والتلفظ بها أقوال :

١ ـ روى الحاكم فى (المستدرك) عن ابن عباس قال : سألت علىّ بن أبى طالب : لِمَ لَمْ تكتب فى (براءة) البسملة ؟ قال : لأنها أمان . وبراءة نزلت بالسيف .أى فنزولها لرفع

الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى،مشفوعاً بوصف الرحمة. ولذا قال ابن عيينة : اسم الله سلام وأمان ، فلا يكتب فى النبذ والمحاربة . قال الله تعالى[(١)] : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) قيل له : فإن النبىّ ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب البسملة . قال: إنما ذلك ابتداء منه يدعوهم ، ولم ينبذ إليهم . ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى ؟ فمن دعى إلى الله عز وجل فأجاب ، ودعى إلى الجزية فأجاب ، فقد اتبع الهدى ، فظهر الفرق . وكذا قال المبرد : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود ، فلذلك لم تفتتح بالتسمية .

٢ — عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال ،وهى من المثانى، وإلى براءة وهى من المئين،فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر البسملة ، ووضعتموها فى السبع الطوال ، ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد،وكان إذا نزل عليه شىء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضموا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وإذا نزلت عليه الآية يقول : ضموا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وظننتُ أنها منها . وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها ، من أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب البسملة،ووضعتها فى السبع الطوال . أخرجه أبو داود[(٢)] والترمذىّ[(٣)] وقال: حديث حسن. ورواه الإمام أحمد[(٤)] والنسائى وابن حبان فى صحيحه،والحاكم وصححه.

(١) [٤ / النساء / ٩٤] .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٢٢ ـ باب من لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، باب من جهر بها ، حديث رقم ٧٨٦ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١ ـ حدثنا محمد بن بشار.

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) حديث ٣٩٩ (طبعة المعارف) وعلى هذا الحديث تعليق بقلم شيخنا الأستاذ أحمد شاكر فى الكلام على رجال سند هذا الحديث وفى تضعيفه . فانظره فإن البحث جليل جداً .

قال الزجاج : والشبه الذى بينهما أن فى (الأنفال) ذكر العهود ، وفى (براءة) نقضها.

٣ — أخرج أبو الشيخ عن أبى روق قال : (الأنفال) و) (براءة) سورة واحدة . ونقل مثله عن مجاهد ، وأخرجه ابن أبى حاتم عن سفيان . وقال ابن لهيعة : يقولون إن (براءة) من (الأنفال) ، ولذلك لم تكتب البسملة فى (براءة) ، وشبهتهم اشتباه الطرفين ، وعدم البسملة . ويردّه تسمية النبىّ ﷺ كلا منهما .

وقال الحاكم : استفاض النقل أنهما سورتان .

وقال أبو السعود : اشتهارها بهذه الأسماء ـ يعنى الأربعة عشر اسماً المتقدمة ـ يقضى بأنها سورة مستقلة ، وليست بعضاً من سورة الأنفال، وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها ، خلاف الظاهر . انتهى .

ونقل صاحب (الإقناع) أن البسملة ثابتة (لبراءة) فى مصحف ابن مسعود ، قال : ولا يؤخذ بهذا .

وعن مالك : أن أولها لما سقط ، سقط معه البسملة ، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها . كذا فى (الإتقان) .

ثم اعلم أن القراء أجمعوا على ترك قراءة البسملة فى أول هذه السورة اتباعاً لسقوطها فى فى الرسم من مصحف الإمام ، إلا ابن مناذر ، فإنه يسمى فى أولها ، كما فى مصحف ابن مسعود .

وقال السخاوىّ فى (جمال القراء) : إنه اشتهر تركها فى أول براءة .

وروى عن عاصم التسمية فى أولها ، وهو القياس . لأن إسقاطها ، إما لأنها نزلت بالسيف أو لأنهم لم يقطعوا بأنها سورة مستقلة ، بل من الأنفال . ولا يتم الأول ، لأنه مخصوص بمن نزلت فيه ، ونحن إنما نسمى للتبرك . وأما الابتداء بما بعد أول براءة ، فلا نصّ للمتقدمين من أئمة القراء فيه ، وظاهر إطلاق كثير التخيير فيها ، واختار السخاوىّ

الجواز ، وقال : ألا ترى أنه يجوز بغير خلاف أن يقول : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ)[1] والى منعها ذهب الجعبرىّ ، وتعقبه السخاوىّ فقال : إن كان نقلاً فسلَّمٌ ، وإلا فردٌّ عليه ، لأنه تفريع على غير أصل.

وقال ابن الجزرىّ فى (النشر) : من اعتبر بقاء أثر العلة التى من أجلها حذفت البسملة أولها ، وهى نزولها بالسيف ، لم يبسمل . ومن لم يعتبر ذلك ، أو لم يرها ، بسمل بلا نظر . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » خبر لمحذوف ، وتنوينه للتفخيم . أى هذه براءة . أو مبتدأ مخصص بصفة ، وخبره (إلى الذين) . و (البراءة) فى اللغة انقطاع العصمة ، يقال : برئت من فلان براءة ، أى انقطعت بيننا العصمة ، ولم يبق بيننا علقة .

فإن قيل: حق البراءة أن تُنسب إلى المعاهد ، فلم لم تنسب إليهم، ونسبت إلى الله ورسوله؟ أجيب : بأن (عاهدتم) إخبار عن سابق صدر من الرسول ﷺ والجماعة ، فنسب إلى الكل ، كما هو الواقع ، وإن كان بإذن الله أيضاً .

وأما البراءة فهى إخبار عن متجدّد ؛ فكيف ينسب إليهم ، وهم لم يحدثوه بعد ، وإنما يسند إلى من أحدثه ؟ وقال الناصر : إن سر ذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله ﷺ فى مقام نسب فيه النبذ إلى المشركين ، لا يحسن أدباً . الا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] .

لأمراء السرايا حيث يقول لهم[1] : إذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله ، فأنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أصادفت حكم الله فيهم أوْ لا ! وإن طلبوا ذمة الله ، فأنزلهم على ذمتك . فَلَأَنْ تخفر ذمتك ، خير من أن تخفر ذمة الله !

فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوقير ذمة الله ، مخافة أن تخفر ، وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع ، فتوقير عهد الله ، وقد تحقق من المشركين النكث ، وقد تبرأ منه الله ورسوله بألا ينسب العهد المنبوذ إلى الله ـ أحرى وأجدر . فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه .

وقال الشهاب : ولك أن تقول : إنما أضاف العهد إلى المسلمين ، لأن الله علم أن لا عهد لهم ، فلذا لم يضف العهد إليه ، لبراءته منهم ، ومن عهدهم فى الأزل . وهذا نكتة الإتيان بالجملة اسمية خبرية . وإن قيل : إنها إنشائية للبراءة منهم ، ولذا دلت على التجدد . انتهى .

قال ابن إسحاق[2] . نزلت براءة فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم ، ألا يصدّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام . وكان ذلك عهداً عامًّا بينه وبين الناس من أهل الشرك . وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى (تبوك) ، وفى قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى سرائر أقوام كانوا يَسْتَخْفُونَ بغير ما يظهرون .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .
وأخرجه أبو داود فى: ١٥ ـ كتاب الجهاد، ٨٢ ـ باب فى دعاء المشركين، حديث رقم ٢٦١٢
وأخرجه الترمذىّ فى: ١٩ ـ كتاب السير ، ٤٧ ـ باب ماجاء فى وصية النبى ﷺ فى القتال .
وأخرجه ابن ماجه فى: ٢٤ـ كتاب الجهاد ، ٣٨ـ باب وصية الإمام، حديث رقم ٢٨٥٨ (طبعتنا)

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩١٩ و ٩٢٠ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٨٨ و١٨٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وقال ابن كثير : وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة (تبوك) ، وهمّ بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى بالناس (براءة من الله ورسوله) ، فلما قفل ، أتبعه بعليّ بن أبى طالب ، ليكون مبلغاً عنه ﷺ ، لكونه عَصَبةً له ، كما سيأتى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

« فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ » أى فقولوا لهم : سيروا فى الأرض بعد نبذنا العهد آمنين من القتل والقتال مدة أربعة أشهر ، وذلك من يوم النحر إلى عشر يخلون من ربيع الآخر . والمقصود تأمينهم من القتل ، وتفكرهم واحتياطهم ، ليعلموا أنهم ليس لهم بعدها إلا السيف ، وليعلموا قوة المسلمين إذ لم يخشوا استعدادهم لهم . وهذه الأربعة الأشهر كانت عهداً لمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأتمت له . فأما من كان له عهد موقت ، فأجله إلى مدته ، مهما كانت ، لقوله تعالى[١] : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) كما يأتى . روى هذا عن غير واحد ، واختاره ابن جرير[٢] . وقال مجاهد : هذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ،

---

(١) [٩ / التوبة / ٤] . (٢) انظر تفسير الطبرىّ بالصفحة رقم ٦٢ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ومن كان عهده بغير أجل حُدَّ بها . ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله ، يقتل حيث أدرك ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن .

أقول : ولا يرد عليه إطلاق قوله تعالى (إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ) ، لأن له أن يجيب بأن الإضافة للعهد ، أي المدة المعهودة وهي الأربعة الأشهر . والله أعلم .

« وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ » يعني أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ، ولكن لحكمة ولطف بكم . أي فلا تفوتونه . وإن أمهلكم « وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ » أي مُذِلُّهم بالقتل في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣] (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » (الأذان) بمعنى الإيذان ، وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء . وارتفاعه كارتفاع (براءة) وهذه الجملة معطوفة على مثلها ، والفرق بين معنى الجملة الأولى والثانية أن تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت ، وإنما عُلقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين ، وعلق الأذان بالناس ، لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعامّ لجميع الناس ، من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث . كذا في (الكشاف).

ويوم الحج الأكبر : قيل يوم عرفة ، وقيل يوم النحر .

قال ابن القيّم : وهو الصواب ، لأنه ثبت فى الصحيحين[(١)] أن أبا بكر وعليًّا رضى الله عنهما ، أذّنا بذلك يوم النحر ، لا يوم عرفة .

وفى سنن أبى داود[(٢)] بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وكذلك قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهال والاستقالة . ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة ، ولهذا سمى طوافه طواف الزيارة ، لأنهم قد طهروا هن ذنوبهم يوم عرفة ، ثم أذن لهم يوم النحر فى زيارته ، والدخول عليه إلى بيته ، ولهذا كان فيه ذبح القرابين ، وحلق الرؤوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج وعمل يوم عرفة ، كالطهور والاغتسال بين يدى هذا اليوم . انتهى .

تنبيه .

روى الأئمة هاهنا آثارا كثيرة ، نأتى منها على جوامعها :

قال ابن أبى نجيح عن مجاهد: قدم رسول الله ﷺ من (تبوك) حين فرغ، فأراد الحج ثم قال : إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج . حتى لا يكون ذلك : فأرسل أبا بكر وعليًّا فطافا بالناس فى (ذى المجاز) وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها ، وبالمواسم كلها ، فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر ، فهى الأشهر المتواليات ،

(١) أخرجه البخارىّ فى . ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ـ سورة التوبة ، ٢ ـ باب قوله : فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، و ٣ ـ باب قوله : وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، حديث رقم ٢٤٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤٣٥ (طبعتنا).

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١١ ـ كتاب المناسك ، ٦٦ ـ باب يوم الحج الأكبر ، حديث رقم ١٩٤٥و١٩٤٦ .

عشرون من ذى الحجة ، إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وآذن الناس كلهم بالقتال ، إلى أن يؤمنوا .

وروى[١] ابن إسحاق بسنده عن أبى جعفر محمد بن علىّ رضوان الله عليه قال : لما نزلت (براءة) على رسول الله ﷺ ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه ليقيم للناس الحج ، قيل له : يارسول الله ! لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ فقال : لا يؤدّى عنى إلا رجل من أهل بيتى . ثم دعا علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذّن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . فخرج علىّ بن أبى طالب على ناقة رسول الله ﷺ (العضباء) حتى أدرك أبا بكر الصديق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية . حتى إذا كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ ، فقال: أيها الناس! إنه لايدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولايطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة . إلا أحدٌ كان له عند رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ثم قدما على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق[٢] : فكان هذا من أمر (براءة) فيمن كان من أهل الشرك من أهل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢١ (طبعة جوتنجن) ورقم ١٩٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٢ (طبعة جوتنجن) ورقم ١٩١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

العهد العامّ ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

وروى البخاريّ[١] عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذّنين . بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

قال حميد : ثم أردف النبىُّ ﷺ بعلىّ بن أبى طالب ، فأمره أن يؤذن ببراءة .

قال أبو هريرة : فأذن معنا علىّ فى أهل منى يوم النحر ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وفى رواية أخرى للبخارىّ[٢] ، قال أبو هريرة : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذّن يوم النحر بمنى : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل (الأكبر) من أجل قول الناس ـ للعمرة ـ الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حجّ فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخارىّ فى (كتاب الجهاد) .

وروى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة قال : كنت مع علىّ بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ (براءة) فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله ـ أو أَمَدَهُ ـ إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر ، فإن الله برىء من المشركين ورسولُه ، ولا يحج هذا البيتَ بعد العام مشرك . قال : فكنت أنادى حتى صَحِلَ صوتى (صحِل الرجلُ وَصَحِل صوتُهُ : بُحّ) .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٦٧ ـ باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك ، حديث رقم ٢٤٥ . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ١٦ ـ باب كيف ينبذ إلى أهل العهد ،حديث رقم ٢٤٥. (٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٩٦٤ (طبعة المعارف).

وقوله تعالى « فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى فإن تبتم أيها المشركون ، من كفركم ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد ، فهو خير لكم من الإقامة على الشرك رأس الضلال والفساد « وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان وأبيتم إلا الإقامة على ضلالكم وشرككم « فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ » أى غير فائتين أخذه وعقابه « وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوّتك وخالفوا أمر ربهم « بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى موجع يحل بهم . وفيه من التهكم والتهديد ما فيه ، كيلا يظن أن عذاب الدنيا ، لو فات وزال خلصوا من العذاب . بل العذابُ الشديدُ مُعَدٌّ لهم يوم القيامة .

ثم استثنى تعالى من ضرب مدة التأجيل ، لمن له عهد مطلق بأربعة أشهر ، مَن له عهد مؤقت بتأجيله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا » أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط . قال أبو السعود : وقرئ بالمعجمة ، أى لم ينقضوا عهدكم شيئاً ، من (النقض) ، وكلمة (ثم) للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة « وَلَمْ يُظَاهِرُوا » أى لم يعاونوا « عَلَيْكُمْ أَحَدًا » أى عدوًّا من أعدائكم « فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » ثم حرّض تعالى على الوفاء بذلك ، منبهاً على أنه من باب التقوى بقوله سبحانه « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فاتقوه فى ذلك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَإِذَا انْسَلَخَ » أى انقضى « الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ » أى التى أبيح للذين عوهدوا فيها أن يسيحوا فى الأرض وحرم فيها قتالهم « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » أى من حِلٍّ أو حَرَمٍ ـ كذا قاله غير واحد ـ قال ابن كثير : هذا عامّ ، والمشهور تخصيصه بغير الحرم ، لتحريم القتال فيه ، لقوله تعالى(١) (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) « وَخُذُوهُمْ » أى أسروهم « وَاحْصُرُوهُمْ » أى احبسوهم فى المكان الذى هم فيه ، لئلا يتبسطوا فى سائر البلاد « وَاقْعُدُوا لَهُمْ » أى لقتالهم « كُلَّ مَرْصَدٍ » أى طريق وممرّ « فَإِنْ تَابُوا » أى عن الكفر « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ » أى فاتركوا التعرض لهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر .

تنبيهات :

الأول ـ ما ذكرناه من أن المراد (بالأشهر الحرم) أشهر العهد ، هو الذى اختاره الأكثرون . سماها (حرما) لتحريم قتال المشركين فيها ودمائهم . فالألف واللام للعهد . ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة ، تأكيدا لما ينبىء عنه إباحة السياحة من حرمة التعرض لهم ، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها . وقيل : المراد (بالأشهر الحرم) : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ؛ روى ذلك عن ابن عباس

(١) [٢ / البقرة / ١٩١] .

والضحاك والباقر ، واختاره ابن جرير . وضعف بأنه لا يساعده النظم الكريم ، لأنه يأباه ترتبه عليه (بالفاء) فهو مخالف للسياق الذى يقتضى توالى هذه الأشهر .

قال ابن القيم : (الحرم) هاهناهى أشهر التسيير ، أولها يوم الأذان ، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الحج الأكبر ، الذى وقع فيه التأذين بذلك ، وآخرها العاشر من ربيع الآخر . وليست هى الأربعة المذكورة فى قوله[1] (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) فإن تلك واحد فرد هو رجب ، وثلاثة سرد وهى ذو القعدة وتالياه . ولم يسيّر المشركين فى هذه الأربعة ، فإن هذا لا يمكن ، لأنها غير متوالية ، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . انتهى .

وقالوا : يلزم على هذا بقاء حرمة تلك الأشهر . وتكلف الجواب بنسخها ، إما بانعقاد الإجماع عليه ، أو بما صح من أنه ﷺ حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم ، مع أن فى هذا الإجماع كلاماً ، وقد خالف بعضهم فى بقاء حرمتها، إلا أنهم لم يعتدّوا به كما قاله فى (العناية). وفيها : إن لك أن تقول : منع القتال فى الأشهر الحرم فى تلك السنة ، لا يقتضى منعه فى كل ما شابهها ، بل هو مسكوت عنه ، فلا يخالف الإجماع ، ويكون حلّه معلوماً من دليل آخر .

وأقول : يظهر لى ترجيح هذا الثانى وأن المراد بالأربعة الأشهر هى المعروفة ، وأن قوله تعالى :(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) هى هذه الأربعة ، لأنها حيثما أطلقت فى التنزيل لا تنصرف إلا إليها ، فصرفها إلى غيرها يحتاج إلى برهان قاطع .

قال فى (فتح البيان) ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم . وقد وقع الفداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] .

النحر ، فكان الباقى من الأشهر الحرم ، التى هى الثلاثة المسرودة ، خمسين يوما ، تنقضى بانقضاء شهر المحرم ، فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم . انتهى .

ولا يقال : إن الباقى من الأشهر الحرم ثمانون يوماً ، إذ الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة ، بسبب النسىء ، ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة ، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال[1] : إن الزمان قد استدار . . . . الحديث ـ لأنا نقول : كان ذو القعدة عامئذ هو ذا الحجة بحسابهم ، لا فى الواقع ، وكذلك ذو الحجة ، المحرمَ ، فعوملوا بحسابهم .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) فى قوله تعالى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) : هذه آية السيف الناسخة لآيات العفو والصفح والإعراض والمسالمة . انتهى .

وروى عن الضحاك أنها منسوخة بقوله تعالى فى سورة محمد[2] : (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) وردّه الحاكم بأنه لا شبهة فى أن براءة نزلت بعد سورة محمد ؛ ومقتضى كلام الحاكم أنها لا ناسخة ولا منسوخة . قال : لأن الجمع ، من غير منافاة ، ممكن فحيث ورد فى القرآن ذكر الإعراض ، فالمراد به إعراض إنكار ، لا تقرير . وأما الأسر والفداء ، فالمراد به أنه خيّر بين ذلك ، لا أن القتل حتم ، إذ لو كان حتما ، لم يكن للأخذ معنى بعد القتل . انتهى .

ويشمل عمومها مشركى العرب وغيرهم ، واستدل بقوله تعالى : (وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) على جواز حصارهم والإغارة عليهم وبياتهم .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ ـ باب قوله إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، حديث رقم ٥٩ عن أبى بكرة .

(٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

الثالث ـ فهو من قوله تعالى : (فَإِنْ تَابُوا . . .) الآية أن الأمر بتخلية السبيل معلق على شروط ثلاثة : التوبة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فحيث لم تحصل جاز ماتقدم من القتل والأخذ والحصر . ولهذ اعتمد الصديق رضى الله عنه ، فى قتال مانعى الزكاة ، على هذه الآية الكريمة وأمثالها .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : رحم الله أبا بكر ، ما كان أفقهه !

وفى الصحيحين[1] عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

وروى الإمام أحمد[2] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا ، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . ورواه البخارىّ وغيره .

الرابع ـ ذكر ابن القيّم خلاصة بديعة فى سياق ترتيب هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين، من حين بعث ، إلى حين لقى الله عز وجل ، مما يؤيد فهم ما تشير إليه هذا السورة ، قال رحمه الله :

أول ما أُوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذى خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ فى نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ)[3] فنبأه بقوله[4] (اقرأ) وأرسله بـ (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ثم أمره أن ينذر عشيرته

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ١٧ ـ باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٣) [٧٤/ المدثر / ٢،١] . (٤) [٩٦ / العلق/١] .

الأقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له فى القتال ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكفّ عمن لم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا فى الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم ، وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام :

قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم .

وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

وقسماً لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . فقتل الناقض لعهده ، وأجّل من لا عهد له أوله عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . فاستقرّ أمر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له

خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلّى عليهم وأن يقوم على قبورهم ، وأخبره أنه إن استغفر لهم أو لم يستغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم . فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين . انتهى .

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» : أى وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتَ بقتالهم ، أى استأمنك بعد انقضاء أشهر العهد ، فأجبْه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أى القرآن الذى تقرؤه عليه ، ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الأمر ، وتقوم عليه حجة الله به ، فإن أسلم ثبت له ماللمسلمين ، وإن أبى فإنه يردّ إلى مأمنه وداره التى يأمن فيها ، ثم قاتله إن شئت . وقوله تعالى (ذَٰلِكَ) يعنى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن ، بسبب أنهم قوم لايعلمون، أى جهلة ، فلابد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق ، ولا يبقى لهم معذرة .

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على أن المستأمن لا يؤذى ، وأنه يمكّن من العود من غير غدر به ولا خيانة . ولذا ورد فى الترهيب من عدم الوفاء بالعهد والغدر ما يزجر أشد الزجر .

فروى البخاريّ فى (تاريخه) والنسائىّ عن النبىّ ﷺ قال : من أمّن رجلاً على دمه فقتله، فأنا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافراً .

وروى أحمد والشيخان[1] عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .

قال ابن كثير : من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، فى أداء رسالة أو تجارة ، أو طلب صلح أو مهادنة ، أو حمل جزية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى ، ما دام مترددا فى دار الإسلام ، إلى أن يرجع إلى مأمنه ووطنه .

قال الحاكم : وإنما يجار ويؤمّن إذا لم يعلم أنه يطلب الخداع والمكر ، لأنه تعالى علل لزوم الإجارة بقوله (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) .

الثانى ـ قال الحاكم : تدل الآية على أنه يجوز للكافر دخول المسجد لسماع كلام الله .

الثالث ـ استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن كلام الله بحرف وصوت قديمين ، وهم الحنابلة، ومن وافقهم كالعضد . قالوا:لأن منطوق الآية يدل على أن كلام الله يسمعه الكافر والمؤمن والزنديق والصديق، والذى يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات. فدل ذلك على أن كلام الله ليس هذه الحروف والأصوات . والقول بأن كلام الله شىء مغاير لها باطل . لأن رسول الله ﷺ ما كان يشير بقوله (كلام الله) إلا لهـا ، وقد اعترف الرازىّ بقوة هذا ، لإلزام من خالف فيه ، وقد مضى لنا فى قوله تعالى[2] (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً) فى آخر سورة النساء ، بسط لهذا فارجع إليه .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ ـ باب إثم الغادر للبر والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٤ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٤] .

الرابع ـ قال الرازىّ : دلت الآية على أن التقليد غير كاف فى الدين ، وأنه لابد من النظر والاستدلال ، وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً ، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن ، وإماأن نقتلك . فلما لم يُقَلْ له ذلك ، بل أمهل وأزيل الخوف عنه، ووجب تبليغه مأمنه ـ علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد فى الدين ، وأنه لابد من الحجة والدليل ، فلذا أمهل ليحصل له النظر والا ستدلال .

ثم بيّن تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونَظِرَتَهُ إياهم أربعة أشهر، ثم بعدها السيف المرهف بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ » أى أمان « عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ » أى وهم كافرون بهما ، فالاستفهام بمعنى الإنكار ، والاستبعاد لأن يكون لهم عهد « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » يعنى أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية على ترك الحرب معهم عشر سنين « فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ » أى فما داموا مستقيمين على عهدهم ، مراعين لحقوقكم ،فاستقيموا لهم على عهدهم « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فاتقوه فى نقض عهد المستقيمين على عهدهم .

قال ابن كثير : وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ، ومالأوا حلفاءهم ، وهم بنو بكر ، على خزاعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، فقتلوهم معهم فى الحرم أيضاً . فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان،ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنة . فأطلق من أسلم منهم ، بعد القهر والغلبة عليهم ، فسموا الطلقاء ، وكانوا

قريباً من ألفين . ومن استمر على كفره ، وفرّ من رسول الله ﷺ ، بعث إليه بالأمان والتسيير فى أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء . ومنهم صفوان بن أمية . وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله للإسلام .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ » أى يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق « لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا » اى قرابة ويميناً « وَلَا ذِمَّةً » أى عهداً . وهذه الجملة مردودة على الآية الأولى ، أى كيف يكون لهم عهد ، وحالهم ما ذكر ؟ وفيه تحريض للمؤمنين على التبرؤ منهم، لأن من كان أسير الفرصة ، مترقباً لها ، لا يرجى منه دوام العهد.

قال الناصر : ولما طال الكلام باستثناء الباقين على العهد ، أعيدت (كيف) تطرية للذكر ، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض . انتهى .

ثم استأنف تعالى بيان حالهم المنافيه لثباتهم على العهد بقوله « يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ » أى ما تتفوّه به أفواههم « وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » أى متمردون ، لا عقيدة تزعهم ، ولا مروءة تردعهم. وتخصيص الأكثر ، لما فى بعض الكفرة من التفادى عن الغدر ، والتعفف عما يجرّ إلى أحدوثة السوء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩] (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ » أى استبدلوا بها « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى من متاع الدنيا . يعنى

أهويتهم الفاسدة « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ » أى فعدلوا عنه أو صرفو غيرهم « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

« لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ » أى المجاوزون الغاية فى الظلم والمساوئ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ تَابُوا » أى عما هم عليه من الكفر « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » أى فهم إخوانكم ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ، فعاملوهم معاملة الإخوان . وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه .

وقوله « وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » جملة معترضة للحث على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

« وَإِنْ نَكَثُوا » أى نقضوا « أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ » أى فقاتلوهم . وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم ، للإيذان بأنهم صاروا

بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر ، أحقاء بالقتل والقتال . وقيل : المراد بالأئمة رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم ، أو للمنع من مراقبتهم ، لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم ، فإن قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم أفاده أبو السعود .

« إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ » جمع يمين أى لا عهود لهم على الحقيقة ، حيث لا يراعونها ولا يعدّون نقضها محذورا . فهم ، وإن تفوهوا بها ، لا عبرة بها . وقرئ (لا إيمان) بكسر الهمزة ، أى لا إسلام ولا تصديق لهم ، حتى يرتدعوا عن النقض والطعن « لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » أى عن الكفر والطعن ويرجعون إلى الإيمان .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بهذه الآية من قال إن الذمّىّ يقتل إذا طعن فى الإسلام أو القرآن أو ذكر النبىّ ﷺ بسوء ، سواء شرط انتقاض العهد به أم لا . واستدل من قال بقبول توبته بقوله (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) . انتهى .

ثم حض على قتالهم بتهييج قلوب المؤمنين وإغرائهم بقوله سبحانه .

---

[١٣] (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ » أى التى حلفوها فى المعاهدة « وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ » يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة ، حسبما ذكر فى قوله تعالى[1] : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فيكون نعياً عليهم جناياتهم القديمة « وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى بالقتال يوم بدر ، حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك ، استمروا على وجوههم طلبا للقتال ، بغياً وتكبراً . وقيل : بنقضهم العهد ، وقتالهم مع حلفائهم

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠]

بنى بكر لخزاعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان . قاله ابن كثير .

وقال الزمخشريّ : أى وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المنير ، وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة ، لعجزهم عنها ، إلى القتال ، فهم البادئون بالقتال ، والبادىء أظلم . فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم « أَتَخْشَوْنَهُمْ » أى أتخافون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ» بمخالفة أمره وترك قتالهم «إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» يعنى أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالى بمن سواه ، كقوله تعالى[1] : (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ) ـ قاله الزمخشريّ ـ وفيه من التشديد مالا يخفى .

ثم عزم تعالى على المؤمنين الأمر بالقتال مبيناً لحكمته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٤] (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ » أى بآلام الجراحات والموت « بِأَيْدِيكُمْ » أى تغليبا لكم عليهم « وَيُخْزِهِمْ » أى بالأسر والاسترقاق ، فيجتمع فى حقهم العذاب الحسىّ والمعنوىّ « وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » أى : ممن لم يشهد القتال .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » أى بما كابدوا من المكاره والمكايد « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ » أى فيحصل لكم أجرهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى فى أفعاله وأوامره . وقد أنجز الله سبحانه لهم هذه المواعيد كلها ، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة دالة على صدقه وصحة نبوته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا » أى على ماأنتم عليه ،ولاتؤمروا بالجهاد « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً » أى بطانة يفشون إليهم أسرارهم . والواو فى (ولما) حالية ، و (لما) للنفى مع التوقع ، والمراد من نفى العلم نفى المعلوم بالطريق البرهانىّ ، إذ لو شم رائحة الوجود ، لَعَلِمَ قطعا. فلما لم يعلم لزم عدمه قطعاً. (ولَمْ يَتَّخِذُوا) عطف على(جاهدوا) داخل فى حيز الصلة. والمعنى: أنكم لاتتركون على ماأنتم عليه، والحال أنه لم يتبين الخلّص من المجاهدين منكم من غيرهم، بل لابد أن تختبروا ، حتى يظهر المخلصون منكم ، وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله ، لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة ، أى بطانة من الذين يضادون رسول الله ﷺ ، والمؤمنين رضوان الله عليهم . ودلت (لما) على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن ، وإن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين . وفى الآية اكتفاء بأحد القسمين،حيث لم يتعرض للمقصرين، وذلك لأنه بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين ، وهذا كما قال(١) :

وَمَا أَدْرِى إذا يَمَّمْتُ أرضاً أُرِيدُ الخَيرَ أيُّهُمَا يَلِينِى

---

(١) قائله المُثقِّب العبدىّ ، فى مفضليته السادسة والسبعين .

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى(1) : (الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) . وقال تعالى(2) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ...) الآية ـ قال تعالى(3) (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ...) الآية ـ وكلها تفيد أن مشروعية الجهاد اختبار المطيع من غيره .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ » أى ما صحّ لهم وما استقام « أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ » أى التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، أى يعمروا شيئاً منها ، فهو جمع مضاف فى سياق النفى ، ويدخل فيه المسجد الحرام دخولاً أوليًا ، إذ نفيُ الجمع يدل على النفى عن كل فرد ، فيلزم نفيه عن الفرد المعيّن بطريق الكناية . وقرئ (مسجد الله) بالتوحيد ، تصريحاً بالمقصود ، وهو المسجد الحرام ، أشرف المساجد فى الأرض ، الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وأسسه خليل الرحمن .

قال فى (البصائر) : (يعمر) إما من العمارة التى هى حفظ البناء ، أو من العمرة التى هى الزيارة ، أو من قولهم : عمرت بمكان كذا أى أقمت به . انتهى .

« شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ » أى بحالهم وقالهم ، وهو حال من الضمير فى

---

(1) [٢٩ / العنكبوت / ١ـ٣] . (2) [٢/البقرة / ٢١٤]و[٣/ آل عمران /١٤٢] .
(3) [٣ / آل عمران / ١٧٩] .

(يَعْمُرُوا) « أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ » وهذا كقوله تعالى[1] : (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) ولهذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

« إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ » أى لم يعبد إلا الله « فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » أى إلى الجنة . وإبراز اهتدائهم مع مابهم من الصفات السنية ، فى معرض التوقع ، لقطع أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء ، والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى ذلك محسنون ، ولتوبيخهم بقطعهم أنهم مهتدون. فإن المؤمنين، مابهم من هذه الكمالات، إذا كان أمرهم دائراً بين (لعلّ وعسى)، فما بال الكفرة وهم هم ، وأعمالهم أعمالهم!! وفيه لطف للمؤمنين ، وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ، ورفض الاغترار بالله تعالى ـ كذا حرره أبو السعود ـ .

وقال الناصر : وأكثرهم يقول : إن (عسى) من الله واجبة ، بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين . والحق أن الخطاب مصروف إليهم ، كما قال الزمخشرىّ. أى فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوّة ، والعاقبة عند الله معلومة ، ولله عاقبة الأمور .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٤] .

تنبيهات :

الأول ـ قال الزمخشريّ : (العمارة) تتناول رمّ مااسترمّ منها وقمّها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذّكر . ومن الذكر درس العلم ، بل هو أجلّه وأعظمه . وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا ، فضلاً عن فضول الحديث .

روى البخاريّ[1] ومسلم عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال : من غـدا إلى المسجد أو راح ، أعدّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح .

ورويا[2] أيضاً عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى ، بنى الله له بيتاً في الجنة .

وأخرج الترمذي[3] عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ، فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ...) الآية .

الثاني ـ إنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لدخوله في الإيمان بالله . فتُرِك للمبالغة في ذكر الإيمان بالرسالة ، دلالة على أنهما كشيء واحد . إذا ذكر أحدهما فهم الآخر . على أنه أشير بذكر المبدأ والمعاد إلى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، ومن جملته رسالة ﷺ كما في قوله تعالى[4] (ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ) . كذا في (العناية) .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٣٧ ـ باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح ، حديث ٤١٧ .

أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٨٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٥ ـ باب من بنى مسجداً ، حديث ٢٩٧

وأخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة حديث رقم ٢٤ و ٢٥ (طبعتنا).

(٣) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ ـ حدثنا أبو كريب.

(٤) [٢ / البقرة / ٨] .

الثالث ـ فى تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر ، تفخيم لشأنهما وحث على التنبه لهما .

الرابع ـ دات الآيتان على أن عمل الـكفار محبط لا ثواب فيه .

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » روى العوفى فى (تفسيره) عن ابن عباس أن المشركين قالوا : عمارة بيت الله ، وقيام على السقاية ، خير ممن آمن وجاهد . وكانوا يفخرون بالحرم ، ويستـكبرون به ، من أجل أنهم أهله وعماره . فخـير اللهُ الإيمانَ والجهاد مع رسوله ، على عمارة المشركين البيت ، وقيامهم على السقاية ، وبيّن أن ذلك لا ينفعهم مع الشرك ، وأنهم ظالمون بشركهم ، لا تغنى عمارتهم شيئاً .

قال اللغويون :(السقاية) بالـكسر والضم موضع السقى . وفى (التهذيب):هوالموضع المتخذ فيه الشراب فى المواسم وغيرها . انتهى .

وفى (التاج) : سقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء، وكان يليها العباس رضى الله عنه فى الجاهلية والإسلام . انتهى .

وروى الإمام مسلم[(١)] عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر النبىّ ﷺ فقال رجل: ما أبالى ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ؛ وقال الآخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم ؛ فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتـكم عند منبر النبىّ ﷺ وهو

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث رقم ١١١ (طبعتنا) .

يوم الجمعة . ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ...) الآية .

ورواه عبد الرزاق في (مصنفه) ولفظه : إن رجلاً قال : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج . وقال آخر : ما أبالي ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ... الحديث .

قال بعضهم : فظاهر هذه الرواية أن المفاضلة كانت بين بعض المسلمين المؤثرين للسقاية والعمارة على الهجرة والجهاد ونظائرهما ، ونزلت الآية في ذلك ، مع أن الرواية السالفة عن ابن عباس تنافيه . وكذا تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه به ، وكذا وصفهم بالظلم لأجل تسويتهم المذكورة .

وأقول : لا منافاة . وظاهر النظم الكريم فيما قاله ابن عباس لا يرتاب فيه ، وقول النعمان (فأنزل الله) بمعنى أن مثل هذا التحاور نزل فيه فيصل متقدم ، وهو هذه الآية ، لا بمعنى أنه كان سبباً لنزولها كما بيناه غير ما مرة . وهذا الاستعمال شائع بين السلف ، ومن لم يتفطن له تتناقض عنده الروايات ، ويحار في المخرج ، فافهم ذلك وتفطن له .

وتأييد أبي السعود نزولها في المسلمين بما أطال فيه ، ذهول عن سباق الآية وعن سياقها ، فيما صدعت فيه من شديد التهويل ، وعن لاحقها في درجات التفضيل ، وقصر الفوز والرحمة والرضوان على المشبه به .

لطيفة :

لا يخفى أن السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالأعيان ، فلابد من تقدير مضاف في أحد الجانبين . أي أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله ... الخ ويؤيده قراءة من قرأ (سقاة الحاج وعَمَرَة المسجد الحرام) أو : أجعلتموهما كإيمان من آمن ... الخ .

قال أبو البقاء : الجمهور على (سقاية) بالياء ، وصحت الياء لما كانت بعدها تاء التأنيث .

ثم بيّن تعالى مراتب فضل المؤمنين ، إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ » أى من أهل السقاية والعمارة ، وهم ، وإن لم يكن لهم درجة عند الله ، جاء على زعمهم ومدعاهم . قاله فى (العناية) . « وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » أى لا أنتم . أى المختصون بالفوز دونكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

« يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

ثم نهاهم تعالى عن موالاة المشركين ، وإن كانوا أقرب الأقربين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ » أى بطانة وأصدقاء ، تفشون إليهم أسراركم ، وتمدحونهم وتذبون عنهم « إِنِ اسْتَحَبُّوا » أى اختاروا « الْكُفْرَ

عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى نوصفهم الموالاة فى غير موضعها ، ولتعديهم وتجاوزهم عما أمر الله به .

ثم أشار تعالى إلى أن مقتضى الإيمان ترك الميل الطبيعى إذا كان مانعاً من محبة الله ، ومحبة واسطة الوصول إليه ، ومحبة مايعلى دينه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

« قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ » أى أقاربكم الأدنون ، أو قبيلتكم . قال أهل اللغة: عشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون ، أو قبيلته، كالعشير ـ بلا هاء ـ مأخوذة من (العشرة) أى المعاشرة ، لأنها من شأنهم ، أو من (العَشَرة) الذى هو العدد لكمالهم ، لأنها عدد كامل « وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا » أى اكتسبتموها « وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا » أى فوات وقت نفادها بفراقكم لها « وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا » أى منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين « أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ » أى المنعم بالكل « وَرَسُولِهِ » وهو واسطة نعمه « وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ » أى مما يعلى دينه « فَتَرَبَّصُوا » أى انتظروا « حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ » أى بقضائه ، وهو عذاب عاجل ، أو عقاب آجل ، أو فتح مكة . وهذا أمر تهديد وتخويف . أى فارتقبوا قهر الله بدعوى محبته بالإيمان ، وتكذيبها بترجيح محبة غيره « وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين والمؤثرين لما ذكر على رضاه تعالى .

تنبيهات :

الأول ـ قال بعضهم : ثمرة الآيتين تحريم موالاة الكفار ، ولو كانوا أقرباء ، وأنها كبيرة لوصف متوليهم بالظلم ، ووجوب الجهاد ، وإيثاره على كل هذه المشتهيات المعدودة طاعة لله ورسوله .

الثاني ـ قال الرازيّ : الآية الثانية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

الثالث ـ في هذه الآية وعيد وتشديد ، لأن كل أحد قلما يخلص منها ، فلذا قيل إنها أشد آية نعت على الناس كما فصّله في (الكشاف) بقوله :

وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها . كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين . فلينصف أورعُ الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ، ما يستحبّ له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ، ويتجرّد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أيّ طرفيه أطول ؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيّره ؟!

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ » أي في مواقف حروب كثيرة، ووقعات شهيرة، كغزوة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة . وكانت غزوات رسول الله ﷺ

ـ على ما ذكر فى الصحيحين(١) ـ من حديث زيد بن أرقم ، تسع عشرة غزوة . زاد بريدة فى حديثه : قاتل فى ثمان منهن ويقال: إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون،وقيل ثمانون.

« وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ » أى فاعتمدتم عليها ، حيث قلتم : لن نغلب اليوم من قلة « فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا » أى من أمر العدوّ ، مع قلتهم « وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أى برحبها وسعتها . والباء للملابسة والمصاحبة . أى ضاقت ، مع سعتها ، عليكم . وهو استعارة تبعية ، إما لعدم وجدان مكان يقرّون به آمنين مطمئنين من شدة الرعب ، أو أنهم لا يجلسون فى مكان ، كما لا يُجلَس فى المكان الضيق « ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ » أى منهزمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ » أى ماتسكنون به ، وتثبتون من رحمته ونصره ، وانهزام الكفار ، واطمئنان قلوبهم للكرّ بعد الفرّ « عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى الذين انهزموا. وإعادةُ الجارّ للتنبيه على اختلاف حاليهما . أو الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا : أو على الكل ، وهو الأنسب . ولاضير فى تحقق أصل السكينة فى الثابتين من قبل ، والتعرض لوصف الإيمان للإشعار بعلية الإنزال . أفاده أبو السعود . « وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا » يعنى الملائكة « وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالقتل والأسر والسبى « وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » لكفرهم فى الدنيا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١ ـ باب غزوة العُشَيْرة أو العُسَيْرة حديث رقم ١٨٣٩ .

ومسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤٣ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ » أى منهم ، لحكمة تقتضيه . أى يوفقه للإسلام « وَاللهُ غَفُورٌ » أى يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى « رَحِيمٌ » أى يتفضل عليهم ويثيبهم .

تنبيهات :

الأول ـ فيما نقل فى غزوة(١) (حنين) ، وتسمى غزوة (أوطاس) ، وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة (هوازن) ، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ وكانت هذه الوقعة بعد فتح مكة ، فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، فإن الفتح كان لعشر بقين من رمضان ، وبعده أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة ، وهو يقصر الصلاة ، فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له ، وهم عامدون إلى مكة ، وقد نزلوا (حنيناً) وكانوا ، حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ بالمدينة ، يظنون أنه إنما يريهم . فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بنى نصر ، وقد أوعب معه بنى نصر بن معاوية ابن بكر بن هوازن وبنى جُشَم بن معاوية وبنى سعد بن بكر ، وناساً من بنى هلال بن عامر ابن صعصعة بن معاوية والأحلاف وبنى مالك بن ثقيف بن بكر . وفى جشم دريد بن الصمة رئيسهم وكبيرهم . شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً ، وجميع أمر الناس إلى مالك بن عوف . فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ فتح مكة ، أقبلوا عامدين إليه ، فأجمع السير إلى رسول الله ﷺ ، وساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، يرى أنه أثبت لموقفهم . فلما نزل بأوطاس ، اجتمع إليه الناس ، فقال دريد :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٤٠ وما بعدها (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٨٠ ومابعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

بأى وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعْمَ مجال الخيل ، لا حَزْنٌ ضِرسٌ ، ولا سهلٌ دَهْسٌ . مالى أسمع رغاءَ البعير ، ونُهاق الحمير ، ويُعار الشاء وبكاء الصغير ؟ قالوا : ساق مالك مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم ليقاتلوا عنها ، فقال : راعىَ ضأن والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسلاحه . وإن كانت عليك فُضِحْتَ فى أهلك ومالك ! ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها أحدٌ منهم . قال : غاب الحدّ والجِدّ ، لو كان يوم علاءٍ ورفعةٍ لم يغب عنهم كعب ولا كلاب ، ولوددْت أنكم فعلتم ما فعلا . فمن شهدها منكم؟ قالوا : عمرو وعوف ابنا عامر . قال : ذانك الجذَعان ، لا ينفعان ولا يضران ! ثم أنكر على مالك رأيه فى ذلك وقال له : لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعليا قومهم ، ثم ألق الصبيان على متون الخيل شيئاً ، فإن كانت لك ، لحق بك من ورائك ، وإن كانت لغيرك ، كنت قد أحرزت أهلك ومالك . قال : لا ، والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كِبرْت ، وكبر عقلك . والله لتطيعنّنى يا معشر هوازن ، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ! وكره أن يكون لدريد ابن الصمة فيها ذكر أو رأى . قالوا أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتنى . ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد . وبعث عيوناً من رجاله فأتوه ، وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ! ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً ، على خيل بُلْق : والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى . فو الله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

فلما سمع بهم نبىّ الله ﷺ ، بعث عبد الله بن أبى حدرد الأسلمىّ يستعلم خبرهم ، فجاءه وأطلعه على جلية الخبر ، وأنهم قاصدون إليه ، فاستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع ـ وقيل أربعمائة ـ وخرج فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين : عشرة آلاف الذين صحبوه من المدينة ، وألفان من مسلمة الفتح ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية ، ومضى لوجهه ، وفى جملة من اتبعه عباس بن مرداس والضحاك بن سفيان

الكلابىّ ، وجموع من عبس وذبيان ، ومزينة ، وبنى أسد . ومرّ فى طريقه بشجرة سدر خضراء ، وكان لهم فى الجاهلية مثلها ، يطوف بها الأعراب ويعظمونها ، ويسمونها ذات أنواط . فقالوا : (١): يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط ، فقال لهم : قلتم كما قال قوم موسى (٢)(اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ) والذى نفسى بيده ! لتركبن سنن من كان قبلكم . ثم نهض حتى أتى وادى حنين من أودية تهامة ، وهو واد حزن فتوسطوه فى غبش الصبح ، وقد كمنت هوازن فى جانبيه، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لايلوى أحد على أحد ، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا ، وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر ، والفضل وقثم ابنا العباس ، وجماعة سواهم ، والنبى ﷺ على بغلته البيضاء (دلدل) والعباس آخذ بشكائمها ، وكان جهير الصوت ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينادى بالأنصار وأصحاب الشجرة ، (قيل : وبالمهاجرين) فلما سمعوا الصوت وذهبوا ليرجعوا ، صدهم ازدحام الناس عن أن يثنوا رواحلهم ، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم ، واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبى ﷺ ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة ، فاستقبلوا هوازن ، والناس متلاحقون ، واشتدت الحرب ، وحمى الوطيس . ولما غَشَوْا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل به وجوههم وقال : شاهت الوجوه ! فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ، ثم صدق المسلمون الحملة عليهم ، وقذف الله فى قلوب هوازن الرعب . فلم يملكوا أنفسهم ، فولوا منهزمين ، ولحق آخر الناس ، وأسرى هوازن مغلولة بين يديه ، وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم ، واستحرّ القتل فى بنى مالك من ثقيف ، فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً ، وانحازت طوائف هوازن إلى أوطاس ، واتبعتهم طائفة من خيل

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ ما جاء : لتركبنّ سنن من كان قبلكم ، عن أبى واقد الليثىّ . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٨] .

المسلمين الذين توجهوا من (نخلة) ، فأدركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه. وبعث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن ، أبا عامر الأشعرىّ عمّ أبى موسى ، فقاتلهم ، وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصمة ، فأخذ أبو موسى الراية ، وشدّ على قاتل عمه ، فقتله ، وانهزم المشركون ، وانفضّت جموع أهل هوازن كلها ، واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة . ثم جُمِعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها ، فأمر بها ، فحبست (بالجعرانة) بنظر مسعود بن عمرو الغفارىّ . وسار ﷺ من فوره إلى الطائف ، فحاصرها (ثقيف) خمس عشرة ليلة ، وقاتلوا من وراء الحصون ، وأسلم من كان حولهم من الناس ، وجاءت وفودهم إليه . ثم انصرف صلى الله عليه وسلم عن الطائف ، ونزل الجعرانة فيمن معه من الناس وأتاه هناك وفد هوازن ، مسلمين راغبين ، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال ، فاختاروا العيال والأبناء ، وكلموا المسلمين فى ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ﷺ : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ومن لم تطب نفسه عوّضه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نصيبه ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم . وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، وقسم صلى الله عليه وسلم الأموال بين المسلمين ، ونفل كثيرا من الطلقاء (وهم الذين منّ عليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم بالإطلاق يوم فتح مكة من الأسر ونحوه) يتألفهم على الإسلام ، مائة مائة من الإبل ، ومنهم مالك بن عوف النصرىّ . فقال حين أسلم[1] :

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدِى ... ومتى يشأ يخبرك عما فى غدِ
وإذا الكتيبة عرّدَتْ أنيابُها ... بالسمهرىّ وضربِ كل مهندِ
فكأنه ليث على أشباله ... وسْط الهباءة خادر فى مَرْصَدِ

(١) السيرة ص ٨٧٩ (طبعة جوتنجن) وج ٤ ص ١٣٤ (طبعة الحلبى) .

الثانى ـ قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى فصل جوّد فيه : الإشارة إلى بعض ما تضمنته هـذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكمية ما نصه :

كان الله عز وجل قد وعد رسوله ، وهو صادق الوعد ، أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس فى دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسو الله ﷺ والمسلمين ، ليظهر أمر الله، وتمام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليُظهر الله سبحانه لرسوله وعباده ، قهره لهذه الشوكة العظيمة ، التى لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين . فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة ،مع كثرة عددهم وعُددهم،وقوة شوكتهم ، ليطامِنَ رؤوساً رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه ، كما دخله رسول الله ﷺ ، واضعاً رأسه ، منحنياً على فرسه ؛ حتى إن ذقنه تكاد أن تمس سرجه ، تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته أن أحلّ له حرمه وبلده ، ولم يحل لأحد قبله ، ولا لأحد بعده،وليبين الله لمن قال : (لن نغلب اليوم عن قلة) ، أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر رسوله ودينه ، لا كثرتكم التى أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً ، فوليتم مدبرين. فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خِلَع الجبر مع بريد النصر[1](ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا) وقد اقتضت حكمته أنّ خلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار[2].(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ

(١) [٩ / التوبة / ٢٦] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥و٦] .

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) . ومنها أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم أهل مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبياً ولا أرضاً ، كما روى أبو داود[1] عن وهب بن منبه قال : سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا !

وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب، وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى مايحتاج إليه الجيش من أصحاب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشياههم ، وسبيهم معهم نزلاً وضيافة ، وكرامة لحزبه وجنده ، وتمم تقديره سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر ، والاح لهم مبادئ النصر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبرزت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لاحاجة لنا فى دمائكم ، ولافى نسائكم وذراريكم . فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاءوا مسلمين ، فقيل : إن من شكران إسلامكم ، وإتيانكم ، أن ردّ عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم[2] (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا ، يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين ، والنبى ﷺ رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جميعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢٥ـ باب ما جاء فى خبر مكة ، حديث ٣٠٢٣ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٧٠] .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم ، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم ، وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمه عليهم ، بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوّهم . إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى . انتهى .

الثالث ـ قال بعضهم : دلت الآية على أنه يجب الانقطاع إلى الله تعالى ، والاتكال عليه . ودل ما حكى فى القصة على جواز ماورد حسنه من جواز التأليف ، وملاطفة المؤمنين والرمى بالحصا حالة الحرب ، والأصوات التى يرهب بها . انتهى .

ولابن القيم فى (زاد المعاد) فصول حسنة فى فقه هذه الوقعة . فلينظر .

الرابع ـ قوله : (ويوم حنين) ، قيل : منصوب بمضمر معطوف على (نصركم) أى ونصركم يوم حنين . واستظهر عطفه على محل (فى مواطن) بحذف المضاف فى أحدهما ، أى ومواطن يوم حنين . أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين .

قال أبو مسعود : ولعل التغيير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر . انتهى .

قال الشهاب . فيكون عطف (يوم حنين) على منوال (ملائكته وجبريل) كأنه قيل: نصركم الله فى أوقات كثيرة ، وفى وقت إعجابكم بكثرتكم . ولا يرد عليه ما قيل إن المقام لايساعد عليه ، لأنه غير وارد ، لتفضيل بعض الوقائع على بعض . ولم يذكر المواطن توطئة ليوم حنين كالملائكة ، إذ ليس يوم حنين بأفضل من يوم بدر ، وهو فتح الفتوح ، وسيد الوقعات ، وبه نالوا القدح المعلى ، والدرجات العلى ، لأن القصد فى مثله إلى أن ذلك الفرد فيه من المزية ما صيّره مغايراً لجنسه . لأن المزية ليس المراد بها الشرف ، وكثرة الثواب فقط ، حتى يتوهم هذا . بل ما يشمل كون شأنه عجيباً ، وما وقع فيه غريباً ، للظفر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة ، إلى غير ذلك من المزايا . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن موالاة المشركين ، مع عدم إفادتها التقوية المحصلة للنصر ، تضر بسريان نجاسة بواطنهم إلى بواطن المؤمنين الطاهرة ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى الطهرة بواطنهم بالإيمان « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » أى ذوو نجس ، لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ، فهو مجاز عن خبث الباطن ، وفساد العقيدة ، مستعار لذلك . أو هو حقيقة ، لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ، ولا يجتنبون النجاسات ، فهى ملابسة لهم ، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة فى وصفهم بها . « فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ » أى لحج أو عمرة كما كانوا يفعلون فى الجاهلية . قال المهايمىّ : لأن المسجد الحرام يجتمع فيه المتفرقون فى الأرض ، ليسرى صفاء القلوب من بعض إلى بعض ، وهاهنا يخاف سريان الظلمات فى العموم « بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا » أى بعد حج عامهم هذا ، وهو عام تسع من الهجرة ، حين أمّر أبو بكر على الموسم . وتقدم لنا أن النبىّ ﷺ أتبع أبا بكر بعلىّ رضى الله عنهما ، ليناديَ فى المشركين : ألا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فأتم الله ذلك ، وحكم به شرعاً وقدراً « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » أى فقراً بسبب منعهم من الحرم ، لانقطاع أرفاق كانت لكم من قدومهم « فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » أى من فتح البلاد ، وحصول المغانم ، وأخذ الجزية ، وتوجه الناس من أقطار الأرض . قال ابن إسحاق : إن الناس قالوا : لتقطعنّ عنا الأسواق ، فلتهلكنّ التجارة ، وليذهبنّ ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فقال الله تعالى

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً . . .) إلى قوله (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق ، فعوضهم الله مما قطع عنهم بأمر الشرك ، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية . انتهى . « إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ » أى بما يصلحكم « حَكِيمٌ » أى فيما يأمر به وينهى عنه .

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على نجاسة المشرك ، كما فى الصحيح [٢] (المؤمن لا ينجس) وأما نجاسة بدنه ، فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ، لأن الله تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب . وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم . وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ ، رواه ابن جرير ، ونقله ابن كثير .

وأقول : الاستدلال بكونه تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب غير ناهض ، لأن البحث فى المشركين وقاعدة التنزيل الكريم ، التفرقة بينهم وبين أهل الكتاب ، فلا يتناول أحدهما الآخر فيه .

وقال بعض المفسرين اليمنيين : مذهب القاسم والهادي وغيرهما ؛ أن الكافر نجس العين ، أخذاً بظاهر الآية ، لأنه الحقيقة . ويؤيد ذلك حديث [١] أبى ثعلبة الخشنىّ فإنه قال للنبىّ ﷺ إنا نأتى أرض أهل الكتاب فنسألهم آنيتهم ، فقال ﷺ : اغسلوها ثم اطبخوا فيها .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥ ـ كتاب الغسل ، ٢٤ ـ باب الجنب يخرج ويمشى فى السوق وغيره ، حديث رقم ٢٠٤ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث رقم ١١٥ م (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٤ ـ باب صيد القوس ، حديث رقم ٢١٩٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعتنا) .

وقال زيد والمؤيد بالله والحنفية والشافعية : إن المشرك ليس نجس العين ، لأنه ﷺ توضأ من مزادة مشرك ، واستعار من صفوان دروعاً ولم يغسلها ، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبيّ ﷺ إلى الأسارى ولا تغسل ، وكان أصحاب النبيّ ﷺ يطبخون في أواني المشركين ولا تغسل . وأوّلوا الآية بما تقدم من الوجوه ، وكلٌّ متأولٌ ما احتج به الآخر . انتهى :

الثاني ـ قال السيوطيّ في (الإكليل) في قوله تعالى(١) « فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا) : إن الكافر يمنع من دخول الحرم ، وإنه لا يؤذن له في دخوله ، لا للتجارة ولا لغيرها ، وإن كان مصلحة لنا ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق في القرآن ، فالمراد به الحرم كله ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء وغيرهم . واستدل بظاهر الآية مَن أباح دخوله الحرم سوى المسجد ، لقصره في الآية عليه . واستدل الشافعيّ بظاهر الآية على أنهم لا يمنعون من دخول سائر المساجد، لقوله (الْحَرَامَ). وقاس عليه غيره سائرَ المساجد . واستدل أبو حنيفة بظاهرها أيضاً على أن الكتابيّ لا يمنع من دخوله لتخصيصه بالمشرك . انتهى . وهو المتجه .

قال الشهاب : وبالظاهر أخذ أبو حنيفة رحمه الله تعالى ، إذ صرف المنع عن دخول الحرم للحج والعمرة ، بدليل قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم ، وهو ظاهر، أي لأن موضع التجارات ليس عين المسجد . ونداء عليّ كرم الله وجهه بقوله : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، بأمر النبيّ ﷺ ، يعيّنه . فلا يقال إن منطوق الآية يخالفه . انتهى .

الثالث ـ قال الناصر : قد يستدل بقوله تعالى (فَلَا يَقْرَبُوا . . .) الآية ـ من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وخصوصاً بالمناهي ، فإن ظاهر الآية توجه النهي

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] .

إلى المشركين ، إلا أنه بعيد ، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهى ، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه ، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهى المسلمين عن تمكينهم من قربانه. ويرشد إلى أن المخاطب فى الحقيقة المسلمون ، تصدير الكلام بخطابهم فى قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وتضمينه نصًّا بخطابهم بقوله (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) ، وكثيراً ما يتوجه النهى على مَن المراد خلافه ، وعلى ما المراد خلافه ، إذا كانت ثَمَّ ملازمة كقوله : لاأرينَّك هاهنا (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] . انتهى .

الرابع ـ (العيلة) مصدر من (عال) بمعنى افتقر . وقرئ (عائلة) . وهو إما مصدر بوزن فاعلة ، أو اسم فاعل صفة لموصوف مؤنث مقدر ، أى حالاً عائلة ، أى مفقرة .

قال ابن جنى : هذه من المصادر التى جاءت على فاعلة ، كالعاقبة والعافية . ومنه قوله تعالى[2] (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً) ، أى لغواً . ومنه قولهم : مررت به خاصة ، أى خصوصاً ، وأما قوله تعالى[3] (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) فيجوز أن يكون مصدراً ، أى خيانة ، وأن يكون على تقدير : نية أو عقيدة خائنة . وكذا هاهنا يقدر : إن خفتم حالاً عائلة انتهى.

الخامس ـ إن قيل : ما وجه التعليق بالمشيئة فى قوله تعالى (إِنْ شَاءَ) مع أن المقام وسبب النزول ، وهو خوفهم الفقر ، يقتضى دفعه بالوعد بإغنائهم من غير تردد ؟ فالجواب : أن الشرط لم يذكر للتردد ، بل لبيان أنه بإرادته لاسبب له غيرها ، فانقطعوا إليه ، واقطعوا النظر عن غيره . ولينبه على أنه متفضل به ، لا واجب عليه ، لأنه لو كان بالإيجاب لم يوكل إلى الإرادة ، فلا يقال إن هذا لا حاجة إلى أخذه من الشرط ، مع قوله تعالى (مِنْ فَضْلِهِ) لأن قوله (مِنْ فَضْلِهِ) يفيد أنه عطاء وإحسان ، وهذا يفيد أنه بغير إيجاب ، وشتان بينهما ، وقيل إنه للتنبيه على أنه بإرادته ، لا بسعى المرء وحيلته :

لَوْ كَانَ بِالْحِيَلِ الْغِنَى لَوَجَدْتَنِي ... بنجوم أَقْطَارِ السَّمَاءِ تَعَلُّقِي

كذا فى (العناية) .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] . (٢) [٨٨ / الغاشية / ١١] (٣) [٥ / المائدة / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » اعلم أنه لما ذكر تعالى حكم المشركين فى إظهار البراءة من عهدهم ، وفى إظهار البراءة منهم فى أنفسهم ، وفى وجوب مقاتلتهم ، وفى تبعيدهم عن المسجد الحرام ، وعدم الخوف من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ـ ذكر بعده حكم أهل الكتاب . هو أن يقاتلوا إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية ، منبهاً فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الإغناء الموعود على الوجه الكلى ، مرشداً إلى سلوكه ابتغاء لفضله ، واستنجازاً لوعده .

قال مجاهد : نزلت الآية حين أمر النبىّ ﷺ بقتال الروم ، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك .

وقال الكلبىّ : نزلت فى قريظة والنضير من اليهود ، فصالحهم ، فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام ، وأول ذلّ أصاب أهل الكتاب بأيدى المسلمين . انتهى .

ولا يخفى شمول الآية لكل ذلك بلا تخصيص .

قال ابن كثير : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم ، فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ، ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك فى عام جدب ، ووقت قيظ وحرّ . وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام

لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، ونزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعدُ إن شاء الله تعالى . انتهى .

والتعبير عن (أهل الكتاب) بالموصول المذكور ، للإيذان بعلّية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال ، فإنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، كما أمر تعالى ، إذ لديهم من فساد العقيدة ، فيما يجب له تعالى ، وفي البعث ، أعظم ضلال وزيغ ،(وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ)، يعني ما ثبت تحريمه في الكتاب والسنة . وقيل : المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه ، فالمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً ، إذ غيّروا وبدّلوا اتباعاً لأهوائهم .

قال الشهاب : فيكون المراد : لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم ، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم . وقوله تعالى (دِينَ الْحَقِّ) من إضافة الموصوف للصفة ، أو المراد بـ (الْحَقِّ) ، الله تعالى . وقوله تعالى (حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ) أي ما تقرر عليهم أن يعطوه .

قال ابن الأثير : الجزية المال الذي يعقد عليه الكتابيّ الذمة ، وهي (فِعْلَة) من الجزاء كأنها جَزَتْ عن قتله .

وقال الراغب : سميت بذلك للاجتزاء بها عن حقن دمهم (١) .

وقال الشهاب : قيل مأخذها من (الجزاء) بمعنى القضاء . يقال : جزيته بما فعل ، أي جازيته . أو أصلها الهمز من (الجزء والتجزئة) ، لأنها طائفة من المال يعطى . وقيل : إنها معرب (كزيت) وهو الجزية . بالفارسية . انتهى .

وقوله تعالى (عَنْ يَدٍ) حال من فاعل (يُعْطُوا) و (اليد) هنا إمّا بمعنى الاستسلام والانقياد ، يقال: هذه يدي لك ، أي استسلمت إليك ، وانقدت لك . وأعطى يده أي انقاد . كما يقال في خلافه : نزع يده من الطاعة . لأن من أبى وامتنع ، لم يعط يده ، بخلاف المطيع

(١) عبارة النهاية ولسان العرب : « كأنها جزت عن قتله » وهي أوضح من عبارة الراغب .

المنقاد ، وإما بمعنى النقد ، أى حتى يعطوها نقداً غير نسيئة ، فيكون كـ (اليد) فى قوله ﷺ [(١)]: لا تبيعوا الذهب والفضة . . . إلى قوله(يداً بيد) . وإما بمعنى الجارحة الحقيقية ، و (عن) بمعنى الباء ، أى لا يمشون بها عن يد أحد، ولـكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ . وإما بمعنى: عن طيبة نفس؛ قال أبو عبيدة: كل من انطاع لقاهر بشىء أعطاه ، من غير طيب نفس به وقهر له، من يد فى يد، فقد أعطاه عن يد (مجاز القرآن ج ١ ص ٢٥٦) . وإما بمعنى الجماعة ، أنشد ابن الأعرابى :

أعطى فأعطانى يداً وَدَارَا وباحةً حولها عَقَارَا

(الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ واللسان ج ١٥ ص ٤٢٥ ، بيروت) .

ومنه الحديث[(٢)] (وهم يدٌ على من سواهم) أى هم مجتمعون على أعدائهم، يعاون بعضهم بعضاً ـ قاله أبو عبيد ـ وإما بمعنى الذل ـ نقله ابن الأعرابىّ وحكاه وجهاً فى الآية ـ .

هذا إن أريد باليد يد المعطى. وإن أريد بها يد الآخذ، فاليد إما بمعنى القوة، أى عن يد قاهرة مستولية ويقولون : مالى به يد أى قوة . وإما بمعنى السلطان، وهو كالذى قبله ، ومنه يد الريح سلطانها . قال لبيد :

* نِطافٌ أَمْرُهَا بِيَدِ الشَّمَالِ *

(اللسان ج ١٥ ص ٤٢٢ . وصدره كما جاء فى الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ :
* أَضَلَّ صِوَارَهُ وتَضَيَّفَتْهُ * وفيه : نُطُوفٌ) .

لما ملكت الريح تصريف السحاب ، جعل لها سلطان عليه . وإما بمعنى النعمة ، أى عن إنعام عليهم بذلك ، لأن قبول الجزية ، وترك أنفسهم عليهم ، نعمة عليهم .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٤ ـ كتاب البيوع، ٧٨ ـ باب بيع الفضة بالفضة و٧٩ـ باب بيع الدينار بالدينار نسأً ، حديث رقم ١٠٩٧ عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٧٦ (طبعتنا) وانفرد مسلم بقوله (إلا يداً بيد) . (٢) أخرجه ابن ماجه فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ٣١ ـ باب المسلمون تتكافأ دماؤهم ، حديث رقم ٢٦٨٣ (طبعتنا) عن ابن عباس .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وهذا الوجه أملى بالفائدة .

وإما بمعنى الغنى ، حكاه فى (العناية) ، ونقله (التاج) من معانى اليد .

وقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى أذلاء .

تنبيهات :

الأول ـ قوله تعالى (عَنْ يَدٍ) إما حال من الضمير فى (يُعْطُوا) أو من الجزية أى مقرونة بالانقياد ، ومسلمة بأيديهم ، وصادرة عن غنى ، ومقرونة بالذلة ، وكائنة عن إنعام عليهم . كذا فى (العناية) .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل قبول الجزية من أهل الكتاب .

الثالث ـ قال أيضاً : استدل من قال بأن معنى اليد فيما تقدم ، الغنى ، أنها لا تجب على مُعسر . ومن قال بأنه لا يرسل بها ، على أنه لا يجوز توكيل مسلم بها ، ولا أن يضمنها عنه ، ولا أن يحيل بها عليه .

الرابع ـ قال السيوطىّ أيضاً : استدل بقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) من قال إنها تؤخذ بإهانة ، فيجلس الآخذ ، ويقوم الذمىّ ويطأطىء رأسه ، ويحنى ظهره ، ويضعها فى الميزان ، ويقبض الآخذ لحيته ، ويضرب لهزمتيه . قال : ويردّ به على النووىّ حيث قال : إن هذه سيئة باطلة . انتهى .

قلت : ولقد : صدق النووىّ عليه الرحمة والرضوان ، فإنها سيئة قبيحة ، تأباها سماحة الدين ، والرفق المعلوم منه . ولولا قصد الرد على من قالها لما شوهت بنقلها ديباجة الصحيفة .

ثم رأيت ابن القيّم رد ذلك بقوله : هذا كله مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أصحابه . قال : والصواب فى الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الله تعالى عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعىّ . انتهى .

ثم قال السيوطيّ: واستدل بالآية من قال : إن أهل الذمة يتركون فى بلد أهل الإسلام، لأن مفهومها الكف عنهم عند أدائها ، ومن الكف ألا يجلوا . ومن قال لاحدّ لأقلها ، ومن قال هى عوض حقن الدم لا أجرة الدار . انتهى .

الخامس ـ روى أبو عبيد فى كتاب (الأموال) عن ابن شهاب قال : أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب ، أهل نجران ، وكانوا نصارى .

السادس ـ قال أبو عبيد : ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب ، وعلى المجوس بالسنّة .

وقال ابن القيّم: لما نزلت آية الجزية أخذها ﷺ من ثلاث طوائف : من المجوس واليهود والنصارى ، ولم يأخذها من عباد الأصنام . فقيل : لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء ، ومن دان بدينهم اقتداء بأخذه وتركه ، وقيل : بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وهم كعبدة الأصنام من العجم، دون العرب والأول قول الشافعيّ وأحمد (فى إحدى روايتيه) ، والثانى قول أبى حنيفة وأحمد فى الرواية الأخرى . وأصحاب القول الثانى يقولون : إنما لم يأخذها من مشركى العرب لأنها إنما نزلت فرضيتها بعد أن أسلمت دارة العرب ، ولم يبق فيها مشرك ، فإنها نزلت بعد فتح مكة ، ودخول العرب فى دين الله أفواجاً ، فلم يبق بأرض العرب مشرك ، ولهـذا غزا بعد الفتح تبوك ، وكانوا نصارى ، ولو كان بأرض العرب مشركون لكانوا يلونه ، وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين . ومن تأمل السير وأيام الإسلام ، علم أن الأمر كذلك ، فلم تؤخذ منهم الجزية ، لعدم من يؤخذ عنه، لا لأنهم ليسوا من أهلها . قالوا : وقد أخذها من المجوس فليسوا بأهل كتاب . ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع ، وهو حديث لا يثبت مثله ، ولا يصح سنده . ولا فرق بين عبادة النار، وعبادة الأصنام. بل أهل الأوثان أقرب حالاً من عباد النار. وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم مالم يكن فى عباد النار ، بل عباد النار أعداء إبراهيم الخليل . فإذا أخذت منهم الجزية ، فأخذها من

عباد الأصنام أولى . وعلى ذلك تدل سنة رسول الله ﷺ ، كما ثبت عنه فى صحيح مسلم[١] أنه قال : إذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث ، فأيتهن أجابوك إليها ، فاقبل منهم . وكف عنهم . ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم .

وقال المغيرة لعامل كسرى : أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبد الله أو تؤدى الجزية .

وقال رسول الله ﷺ لقريش[٢] : هل لكم فى كلمة تدين لكم بها العرب ، وتؤدى العجم إليكم بها الجزية ؟ قالوا : ماهى : قال : لا إله إلا الله .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن النبى ﷺ[٣] صالح أهل نجران على ألفى حلة ، النصف فى صفر ، والبقية فى رجب يؤدونها إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح ، يغزون بها ، والمسلمون ضامنون بها ، حتى يردوها عليهم ، إن كان باليمن كيدة أو غدرة . وعلى الا يهدم لهم بيعة ، ولا يخرج لهم قس ، ولا يفتنوا عن دينهم ، مالم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا .

ولما وجه[٤] ﷺ معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل محتلم ديناراً ، أو قيمته من ثياب . وفى هذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس ، ولا القدر ، بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً ، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين ، واحتمال من تؤخذ منه ، وحاله

---

(١) أخرجه مسلم فى:٣٢ ـ كتاب الجهاد،حديث ٣ (طبعتنا) عن بريدة بن الحصيب.

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة ص، ١ ـ حدثنا محمود ابن غيلان .

وأخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبى)والحديث رقم ٢٠٠٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه أبو داود فى:١٩ ـ كتاب الخراج والإمارةوالفىء، ٣٠ ـ باب فى أخذ الجزية ، حديث٣٠٤١ . (٤) أخرجه أبو داود فى:٩ ـ كتاب الزكاة ، ٥ ـ باب فى زكاة السائمة حديث رقم ١٥٧٦ .

فى الميسرة ، وما عنده من المال . ولم يفرق رسول الله ﷺ ولاخلفاؤه فى الجزية بين العرب والعجم . بل أخذها رسول الله ﷺ من نصارى العرب ، وأخذها من مجوس[١] هَجَر . وكانت مدينة قاعدة البحرين ، وكان أهلها عرباً ، فإن العرب أمة ليس لها فى الأصل كتاب. وكانت كل طائفة تدين بدين من جاورها من الأمم ، فكانت عرب البحرين مجوساً لمجاورتها فارس وتنوخ وبهرا . وبنو تغلب نصارى لمجاورتهم للروم . وكانت قبائل من اليمن يهود ، لمجاورتهم ليهود اليمن . فأجرى رسول الله ﷺ أحكام الجزية ، ولم يعتبر آباءهم ، ولا متى دخلوا فى أهل الكتاب ، هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو بعده ، ومن أين يعرفون ذلك ، وكيف ينضبط ، وما الذى دل عليه ؟ وقد ثبت فى السير والمغازى أن من الأنصار من تهوّد أبناؤهم بعد النسخ بشريعة عيسى ، وأراد آباؤهم إكراههم على الإسلام ، فأنزل الله تعالى[٢]: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) وفى قوله لمعاذ[٣] : خذ من كلّ حالم ديناراً ، دليل على أنها لا تؤخذ من صبي ولا امرأة .

السابع ـ قال الإمام أبو يوسف رحمه الله فى كتاب (الخراج) :

وليس فى شىء من أموالهم ، الرجال منهم والنساء ، زكاة ، إلا ما اختلفوا به فى تجارتهم، فإن عليهم نصف العشر ، ولا يؤخذ من مال حتى يبلغ مائتى درهم ، أو عشرين مثقالاً من الذهب ، أو قيمة ذلك من العروض للتجارة ، ولا يضرب أحدمن أهل الذمة فى استيدائهم الجزية ، ولا يقاموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شىء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ؛ ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية ، ولا يحل للوالى أن يدع أحداً من النصارى واليهود والمجوس والصابئين والسامرة ، إلاأخذ منهم الجزية ، ولا يرخص لأحد منهم فى ترك شىء من ذلك ، ولا يحل

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ١ ـ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، حديث ١٤٩١ و ١٤٩٢ و ١٤٩٣ . (٢) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

(٣) أخرجه أبو داود فى: ٩ـ كتاب الزكاة ، ٥ـ باب فى زكاة السائمة، حديث ١٥٧٦

أن يدع واحداً ويأخذ من واحد ، ولا يسع ذلك ، لأن دماءهم وأموالهم إنما أحرزت بأداء الجزية ، والجزية بمنزلة مال الخراج .

ثم قال أبو يوسف مخاطباً هارون الرشيد:

وقد ينبغي يا أمير المؤمنين ـ أيدك الله ـ أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ، والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا ، ولا يُكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يُؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته[2] : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن سعيد بن زيد أنه مرّ على قوم قد أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ، فقال : ماشأن هؤلاء ؟ فقيل له أقيموا فى الشمس فى الجزية ! قال : فكره ذلك ، ودخل على أميرهم وقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من عذب الناس عذبه الله .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه أن عمر بن الخطاب مرّ بطريق الشام وهو راجع فى مسيره من الشام على قوم قد أقيموا فى الشمس ، يصبّ على رؤوسهم الزيت ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقال : عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها ! فقال عمر : فما يقولون هم وما يعتذرون به فى الجزية ؟ قالوا : يقولون لا نجد ! قال : فدعوهم لا تكلفوهم مالا يطيقون. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تعذبوا الناس، فإن الذين يعذبون الناس فى الدنيا ، يعذبهم الله يوم القيامة، وأمر بهم فخلى سبيلهم

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والفىء والإمارة ، ٣٣ـ باب فى تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث ٣٠٥٢. (٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٨ـ باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضى الله عنه. حديث ٧٣٧

ثم قال : وحدثنى عمير بن نافع عن أبى بكر قال : مرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودىّ . قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : اسأل الجزية ، والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) (١) ، والفقراء هم المسلمون ، وهـذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه . قال : قال أبو بكر : أنا شهدت ذلك من عمر ، ورأيت ذلك الشيخ . انتهى .

الثامن ـ فى الغرض من الجزية ورأفة المسلمين بمن أظلوهم بسيوفهم .

قال الإمام الشيخ محمد عبده مفتى مصر فى كتاب (الإسلام والنصرانية) فى هذا المعنى ، تحت بحث المقابلة بين الإسلام الحربىّ ، والمسيحية السلمية ، ما نصه ص ٧٤ :

الإسلام الحربىّ ، كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس ، وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها ، لتكون عوناً على صيانتهم ، والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة . خلفاء المسلمين ، كانوا يوصون قوادهم باحترام العبّاد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ؛ وكل من لم يُعِن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، لهم مالنـا ، وعليهم مـا علينا (٢) ، ومن آذى ذمياً فليس منا . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين

(١) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٢) لم أقف على هذا الحديث .

عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى الإسلام وضيقُ الصدر من طبع الضعيف ، فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته .

المسيحيةُ السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها ، تراقب أعمال أهله ، وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر ، مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم ، وتمهيدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً ، لا يمنع غيرَ المسيحىّ من تعدى المسيحىّ إلا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها ، بشىء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء ، لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلّون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شؤونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . انتهى .

وفى كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) فى بحث إجلاء أهل نجران ما نصه :

إن أساس الدعوة إلى الإسلام التبليغ ، وأنه لا إكراه فى الدين ، فمن قبلها كان من المسلمين ، ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم ، وأن يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه ، وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه ، وأن لا يُفتَنَ عن دينه ، وأن تكون له الذمة والعهد أنّى حل ، وحيثما وجد من ممالك الإسلام ، ما دام وافياً بعهده ، مؤدياً لجزيته ، لا يخون المسلمين ، ولا يُمالئ عليهم عدوّهم . وأحسن شاهد على هذا نسوقه إليك فى هذا الفصل ، خبر أهل نجران اليمن ، وكانوا من الكتابيين ، لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ، ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم ، مالم يخونوا أو يغدروا .

وتحرير الخبر عنهم أنه كان وَفَدَ وَفْدُهم على رسول الله ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ،

وسألوه الصلح ، وأن يقبل منهم الجزاء ، فصالحهم على شيء معلوم ، يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده ، وأن لا يفتنوا عن دينهم ، ومراتبهم فيه ، ولا يحشروا ، ولا يعشروا ، وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم ، وبعثهم وأمثلتهم . لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصَف ، غير ظالمين ولا مظلومين ، ولهم على ذلك جوار الله ، وذمة رسوله أبداً ، حتى يأتى أمر الله ، ما نصحوا وأصلحوا . واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ، ولا يتعاملوا به .

ولما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أقرهم على حالهم ، وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله ﷺ ، مع أنه كان يتخوفهم ، ويود إجلاءهم ، لما روى (١) أن رسول الله ﷺ قال : لا يبقين فى جزيرة العرب دينان .

ولما حضرت أبا بكر الوفاة ، أوصى عمر بن الخطاب بإجلائهم لنقضهم العهد بإصابتهم الربا .

فانظر كيف أن النبى ﷺ كان يرى أن لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان ، لأن العرب أمة حديثة عهد بالإسلام ، قد عانى ﷺ ما عانى فى جمع كلمتها ، وتوحيد وجهتها ، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها ، فيفتنون من جاورهم عن الإسلام ، على حداثة عهدهم فيه ، وعدم تمكنهم بعدُ من أصوله الصحيحة . هذا من وجه ، ومن وجه آخر ، فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ، ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ مرسلا فى : ٤٥ ـ كتاب الجامع ، الحديث رقم ١٧ و ١٨ ، ١٩ (طبعتنا) .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) عن عائشة متصلا .

اليمن ، الذين ينضب التعاملُ بالربا معينَ ثروتهم ، ويؤذن بفقرهم ، على غير شعور منهم ، لا سيما وأن الشريعة الإسلامية قد حرمته تحريماً باتاً ، ولا يؤمن من أن النجرانيين ، باستمرارهم على تعاطى الربا ، يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الإثم بالتعامل معهم بالربا . ومع هذه الأسباب التى تلجىء إلى إكراه النجرانيين على الإسلام ، فإن النبىّ ﷺ لم يكرههم على ذلك،لأن شريعته لم تأذن بإكراه أهل الكتاب على الإسلام، لهـذا تركهم على دينهم ، بعد أن دعاهم إلى الإسلام بالتى هى أحسن ، فأبوا ، وأعطاهم كتاب العهد المذكور ، إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ، ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت .

ولما استُخْلِفَ أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول ، مع أنه كان يرى فى وجودهم فى جزيرة العرب من الخطرما كان يراه النبىّ ﷺ ، فلم يسعه فى أمرهم إلا ما وسع الرسول ﷺ ، حتى إذا علم أنهم خانوا العهد ، وتعاملوا بالربا ، أمر فى حال مرضه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإجلائهم عن جزيرة العرب ، دون أن يُفْتنوا فى دينهم .

ولما استُخْلِفَ عمر رضى الله عنـه ، كان أول بعث بعثه ، بعث أبى عبيد إلى العراق ، وبعث يعلى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهـل نجران ، وأن يعاملهم بالرأفة ويشترى أموالهم ، ويخيرهم عن أرضهم فى أى أرض شاءوا من بلاد الإسلام ، لا أن يعاملهم معاملة القوىّ الغالب ، للضعيف المغلوب ، كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الإسلام وبعده ، حتى الآن ، فى معاملة الأمم التى تخالف مذهبها ، وتخضع لقوة سلطانها . فتفرقوا ، فنزل بعضهم الشام ، وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة ، وبهم سميت . ولم تقف العناية بهم فى إجلائهم ، والمحافظة على ما بيدهم من العهد ، وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عندهذا الحد ، بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق . من ذلك أنهم شكَوا مرة إلى عثمان رضى الله عنه ـ لما استخلف ـ ضيقَ أرضهم ، ومزاحمة الدهاقين لهم ، وطلبوا إليه

تخفيف جزيتهم ، فكتب إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، عامله على الكوفة ، كتاباً يوصيه بهم ، ويأمره أن يضع عنهم مائتى حلة من جزيتهم، لوجه الله ، وعقبي لهم من أرضهم.

وروى البلاذرىّ ؛ أنه لما ولى معاوية ، أو يزيد بن معاوية ، شَكَوْا إليه تفرقهم، وموت من مات منهم ، وإسلام من أسلم منهم ، وأحضروه كتاب عثمان بن عفان ، بما حطهم من الحلل ، وقالوا : إنما ازددنا نقصاناً وضعفاً . فوضع عنهم مائتى حلة تتمة أربعمائة حلة . فلما ولى الحجّاجُ العراق ، وخرج ابن الأشعث عليه ، اتهمهم والدهاقين بموالاته ، فردّ جزيتهم إلى ما كانت عليه . فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، شكوا إليه ظلم الحجاج ونقصهم ، فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم ، فألزمهم مائتى حلة جزية عن رؤوسهم فقط . فلما ولى يوسف بن عمر العراق ، فى خلافة الوليد بن يزيد الأموىّ ، ردّهم إلى ما كانوا عليه ، عصبيةً للحجاج . فلما انقضت دولة الأمويين واستخلف أبو العباس السفاح ، رفعوا إليه أمرهم ، وما كان من عمر بن عبد العزيز ويوسف بن عمر ، فردّهم إلى مائتى حلة . ولما استخلف هارون الرشيد شكوا إليه تعنت العمال معهم ، فأمر فكُتب لهم كتاب بالمائتى حلة ، وبالغ بالرفق بهم ، فأمر أن يعفوا من معاملة العمال ، وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة ، كى لا يتعنتهم أحد من العمال .

هذا ما رواه المؤرخون فى شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن جزيرة العرب . وقد رأيت مما مرّ مبلغ عناية عمر رضى الله عنه بهم ، لما لم ير بُدًّا من إجلائهم للأسباب التى مر ذكرها . وقد كان من السهل إكراههم على الإسلام، ودخولهم فيه ، كما دخل أولئك الملايين من مشركى العرب ، وعامة سكان الجزيرة العربية ، طوعاً أو كرهاً . وإنما هو الشرع الإسلامىّ ، منع من إكراه غير مشركى العرب على الإسلام ، كما منع من نقض العهد، وخفر الذمة، إلا بسبب مشروع . لهذا ، لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا، وقد عاهدوا رسول الله ﷺ ألا يتعاملوا به فى الجزيرة ،

ساغ لأمير المؤمنين إجلاؤهم إلى غيرها ، بعد أن عوّضهم عن المال والعقار بمثله . وما زال الخلفاء بعده ـ مبالغةً بالرفق بأهل الكتاب، وقياماً بواجب السيادة العادلة ، ووفاء بعهد الله والرسول ـ يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ، ويدفعون عنهم أذى الظلم والإجحاف كما رأيت .

ونتج من هذه القصة ثلاثة أمور :

الأمر الأول ـ عدم إكراه النجرانيين على الإسلام ، مع تمكّن الخطر من وجودهم في جزيرة العرب ، لحداثة عهد أهلها بالإسلام . ذلك لأن عدم الإكراه من أصول الشريعة الإسلامية . والجهادُ الذي يعظم أمرَه أعداء المسلمين إنما شرع لحماية الدعوة لا للإكراه ، إلا جهاد مشركي العرب يومئذ . فقد شرع لإرغامهم على الإسلام ، لأسباب حكيمة لا تخفى على بصير ، أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية ، واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب ، التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب، من آسيا وأفريقيا وأوربا ، بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك ، فانتشار أنوار المدنية والدين فيها ، يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والإشراف على تلك الممالك أيضاً، وقد كان ذلك كما هو معلوم .

والأمر الثاني ـ عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود، وتأكيدهم لعهد النجرانيين ، الواحد تلو الآخر ، على ضعف هؤلاء وقلتهم ، وقوة الخلافة الإسلامية وسلطانها . وإن ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة ، بل عن محض تمسك بالعهد ، وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة ، وسلطان الإسلام ، من كل ملة ودين .

والأمر الثالث ـ حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قاعدة حماية الذمّي في نفسه وماله، بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم، لما قضت الضرورة بإجلائهم عن أرضهم، إلى غيرها من بلاد المسلمين: وقد ذُكر في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله

عنهما، ما فعله من هذا القبيل من أهل عَرَبْسُوسَ من ثغور الروم، وكيف أنه لما أمر بإجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ، ونكثهم عهد الأمانة والصدق ، أمر بأن يعوّضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين . وما زال الخلفاء فى أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت ، والملك القديم ، للأقوام المغلوبين للمسلمين ، الخاضعين لسلطانهم ، سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم . ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم ، أو انتزعها منهم بغير حق ولا عوض . ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الأفراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة ، فحادوا عن طريق الشرع ، فإنه قد يصيب أفرادَ المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم ، وليس فى هذا ما يقدح فى أصول الحكم الإسلامىّ الذى يأبى الظلم ، ويدعو إلى الرأفة والعدل . هذا شأن الإسلام فى المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة . وقد رأيت مما تقدم أنه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التى ينتحلها الغالبون فى كل عصر ، إلا ما تدعو إليه الضرورة القصوى ، وتستلزمه سلامة الملك والدين ، لا ما تدعو إليه شهوات الملك ، ورغبات الأمة الغالبة . وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم، وأن لأهل الذمة مالهم ، وعليهم ماعليهم ، فبالغوا فى الرأفة بأهل جوارهم ، والداخلين فى ذمتهم من أرباب الملل الأخرى ، فتركوا لهم حرية التملك والدين ، لم ينازعوهم حقًّا من حقوق المواطنة والجوار ، بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة ، وعضواً من أعضاء مجتمعهم لا غنى عن مشاركته فى العمل ، ومشاطرته أسباب السعادة المدنية ، والحياة الوطنية . يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الأمويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى ترتيب دواوين الخراج . وترجمة علوم اليونان، وتقريب النابغين منهم فى علوم الهندسة والطب ، إليهم . واعتمادهم فى شفاء عللهم عليهم . بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لأهل الكتاب عضواً من جسم هيأتهم الاجتماعية ، لا يجوز فصله فى حال من الأحوال ـ أن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ،

ووقع فى أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ، ثم خضد المسلمون شوكة التتار فى الشام، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخُ الإسلام ابن تيمية رأس العلماء فى عصره أميرَ التتار (قطلوشاه) بإطلاق الأسرى،فسمح له بالمسلمين،وأبى أن يسمح له بأهل الذمة،فقال له شيخ الإسلام : لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة . فأطلقهم له ـ انتهى ـ .

ومنه يعلم شأن الحكم الإسلامىّ فى أهل الذمة ، ومبلغ عناية الخلفاء والعلماء بهم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » جملة مبتدأة ، سيقت لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه ، وانتظامهم بذلك فى سلك المشركين . وقرىء (عزيرٌ) بالتنوين على الأصل ، وحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس تخفيفا . وهو مبتدأ وما بعده خبره ، ولهم أوجه أخرى فى إعرابه ، والوجه ما ذكرناه .

وليعلم أن الذى دعا الفريقين إلى مقاليهما هو الغلوّ فى التعظيم . فأما اعتقاد النصارى فهو مشهور معلوم ، تكفل التنزيل الكريم بذكره مرارا ، ودحر شبهه . وأما اليهود فى (عزير) فغلاتهم أو جهلتهم يتفوهون بهذه الكلمة الشنعاء ، وأما بقيتهم فيعتبرونه فى مقام موسى ، ويحترمون دائما ذكره ، ويعتقدون أن الله تعالى قد أقامه لجمع التوراة المبددة . ولتجديد الملة الموسوية،وإرجاعها إلى عهدها ، وإصلاح مافسد من آدابها وعوائدها ، بإلهام،

فإن نسخة التوراة الأصلية ، وبقية أسفارهم ، فقدت لما أغار أهل بابل ، جند (بخت نصّر) على بيت المقدس ، وهدموه ، وسبوا أهله إلى مملكتهم بابل ، وأقاموا هناك سبعين سنة ، ثم لما نبغ فيهم (عزير) واشتهر ، واستعطف أحد ملوكهم في سراحهم ، فأطلق له الملك الإجازة ، فعاد من بابل بمن بقي من اليهود إلى بيت المقدس ، وجدد ما اندثر من الشريعة الموسوية .

قال بعض الكتابيين في قاموس له : زعم اليهود أن أئمتهم عقدوا مجمعاً في عهد (عزرا) ، وجمعوا الأسفار العبرانية في قانون متعارف عندهم اليوم ، وضموا إليه مالم يكن فيه من قبل جلاء بابل .

وفي (الذخيرة) من كتبهم ما نصه : أجمع القوم على أن (عزرا) الذي كان خبيرا بآثار وطنه وقدمها ، وماهرا بمعرفة الطقوس اليهودية ، وبارعاً بالعلوم المقدسة ، هو أول من قرر هذا القانون ، وأثبت أجزاءه المختلفة ، بعد الأسر البابليّ في نحو السنة ٥٤٣ قبل ميلاد المسيح ، ولما تفرقت التوراة آن الجلاء ، قام (عزرا) وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة ، وألف منها نسخة صححها ونقحها ما استطاع ، وبدل أسماء الأماكن التي انتسخ ثمّ استعمالها ، بأسماء أخرى أشهر في عرفهم ، ونسق الكل نسقا محكما ، واتفق الجميع على أنه اعتاض في كل الأسفار عن حروف الخط العبرانيّ بحروف كلدانية ، ألف استعمالها اليهود مدة أسرهم الذي استمر سبعين سنة . انتهى .

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه (ابنا) . وفيه من الجراءة على المقام الربانيّ ما فيه . ولو زعموا إرادة المجاز في ذلك ، فلا مناص لهم من لحوق الكفر بهم ، فإنه يجب الاحتياط في تنزيهه تعالى ، حتى بعفة اللسان ، عن النطق بما يوهم نقصانا في جانبه ، فيتبرأ من مثل هذا اللفظ مطلقاً ومن كل ما شاكله . هذا وقد قيل إن القائل لذلك بعض من متقدميهم ، وقيل ناس من أهل المدينة في عهد النبيّ ﷺ ولا دلالة في الآية على واحد منهما بخصوصه ، ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل ، مما شاع .

لطيفة :

قرئ (عزيرٌ) بالتنوين على الأصل ، لأنه منصرف ، وقرئ بحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس ، لا لأنه أعجميّ غير منصرف للعلمية والعجمة ، كما قيل ، لأن ذلك إنما يصح لو كان على لفظه الأصليّ ، وهو (عزراء) أو (عزريا) ، لفظان عبرانيان، معنى الأول معين ، والثانى الله مساعد . أما وقد تصرفت فيه العرب بالتصغير ، فلا . وظاهر أن أغلب الأسماء القديمة ، لانتقالها من أمة إلى أخرى وكثرة تداولها ، تطرق إليها من شوائب التحريف والزيادة والنقصان، ما غير صيغتهاالأصلية بعض التغيير . ولما استعملت العرب من الأسماء العبرانية ونحوها ما أدخلته إلى لغتها ، إما منحوتة من القديمة ، أو محرفة منها ، أصبحت بالاصطلاح من قبيل الأعلام العربية ، إلا ما بقى على وضعه الأول .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » إشارة إلىماصدر عنهم من العظيمتين . وما فيه من معنى البعد ، للدلالة على بعد درجة المشار إليـه فى الشناعة والفظاعة ـ قاله أبو السعود ـ « قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ » قال الزمخشريّ : فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى (بِأَفْوَاهِهِمْ) ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما ـ أن يراد به أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من معنى تحته ، كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم ، لا تدل على معان . وذلكأن القول الدال على معنى ، لفظه مقول بالفم ، ومعناه مؤثرفىالقلب . وما لامعنى له ، مقول بالفم لا غير .

والثانى ـ أن يراد بالقول المذهب ، كقولهم (قول أبى حنيفة) ، يريدون مذهبه ، وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم ، لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى يؤثر فى القلوب . وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له ، لم تبق شبهة فى انتفاء الولد . انتهى .

وثَمّتَ وجه ثالث شائع فى مثله ، وهو التأكيد لنسبة هذا القول إليهم ، مع التعجيب

من تصريحهم بتلك المقالة الفاسدة . قال بعضهم : القول قد ينسب إلى الأفواه وإلى الألسنة ، والأول أبلغ .

« يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ » أى يضاهئ قولهم قولَ الذين كفروا من قبلهم من الأمم ، فضلوا كما ضل أولئك . قيل : المراد بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا) مشركو مكة ، القائلون بأن الملائكة بنات الله ، وهذا يتم إن أريد بـ (اليهود والنصارى) فى الآية ، يهود المدينة ونصارى نجران فى عهده ﷺ ، وهو وجه فى الآية كما تقدم ، فإنهم سُبِقوا من أهل مكة بالكفر به عليه الصلاة والسلام . وقيل : المراد بهم قدماؤهم ، يعنى أن من كان فى زمنه عليه الصلاة والسلام منهم، يضاهئ قولهم قول قدمائهم . والمراد عراقتهم فى الكفر ، أى أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث .

قال أبو السعود : وفيه أنه لا تعدد فى القول ، حتى يتأتى التشبيه ، وجعله بين قولى الفريقين ، مع اتحاد المقول ، ليس فيه مزيد مزية . وقيل : الضمير للنصارى ، أى يضاهئ قولُهم (الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ) قولَ اليهود (عُزَيْرٌ ... الخ) لأنهم أقدم منهم .

قال أبو السعود : وهو أيضاً كما ترى ، فإنه يستدعى اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى (ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) ، بقول النصارى . انتهى .

والمضاهاة المشابهة ، يقال : ضاهيت ، وضاهأت ـ كما قاله الجوهرىّ ـ وقراءة العامة (يضاهون) بهاء مضمومة بعدها واو . وقرأ عاصم بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة ، وهما بمعنى . من المضاهأة ، وهى المشابهة ، وهما لغتان . وقيل : الياء فرع عن الهمزة ، كما قالوا : قريت وتوضيت وأخطيت « قَاتَلَهُمُ اللهُ » أى لعنهم أو قتلهم، أو عاداهم أو تعجب من شناعة قولهم « أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى ، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك . والأحبار علماء اليهود جمع (حَبْر) بكسر الحاء وفتحها ، وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه ـ كذا ذكره أئمة اللغة ـ قال بعضهم : (الحبر) أعظم الأشراف بين الإسرائيليين ، يكون عندهم وسيلة للتقرب لله ، ومرتبة وراثية فى آل هارون ، يكون بكر أشيخ من فيها . انتهى .

و (الرهبان) جمع راهب بمعنى المتعبد الخاشع الزاهد . وأصل الترهب عند النصارى ، التخلى عن أشغال الدنيا ، وترك ملاذّها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها . وفى الحديث[1] (لا رهبانية فى الإسلام) . وقوله تعالى (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ) قال الرازىّ : الأكثرون

---

(١) لم أقف على هذا الحديث بهذا النص. وإنما أخرج الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) ضمن حديث طويل عن أبى سعيد الخدرىّ . . . وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام .

وبالصفحة ٢٦٦ من هذا الجزء عن أنس بن مالك « لكل نبىّ رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » .

وبالصفحة ٢٢٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) عن عائشة « يا عثمان ! إن الرهبانية لم تكتب علينا . . . » .

وجاء فى مسند الدارمىّ فى : ١١ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب النهى عن التبتل ، عن سعد بن أبى وقاص « يا عثمان ! إنى لم أومر بالرهبانية » :

من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم ، أى لما روى الترمذى[1] عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : يا عدىّ ! اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ فى سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ) قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

وروى الإمام أحمد والترمذى[2] وابن جرير[3] من طرق ، عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ رسول الله ﷺ ، على أخته ، وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها ، فرغّبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدىّ المدينة ، وكان رئيساً فى قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائىّ المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدىّ صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ) قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال بلى : إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . وقال رسول الله ﷺ : يا عدىّ ! ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يضرك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق .

---

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد الكوفىّ . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد الكوفىّ . (٣) تفسير الطبرىّ بالصفحة ١١٤ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال فلقد رأيت وجهه استبشر . ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية ، أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدّىّ : استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم .

وقد ذكر بعض المفسرين وجهاً فى تفسير اتخاذهم أرباباً ، قال : بأن أطاعوهم بالسجود لهم .

قال الشهاب : والأول هو تفسير النبىّ ﷺ ، فينبغى الاقتصار عليه ، لأنه لما أتاه عدىّ ابن حاتم وهو يقرؤها قال له : إنا لم نعبدهم ، فقال : ألم تتبعوهم فى التحليل والتحريم ؟ فهذه هى العبادة ، والناس يقولون : فلان يعبد فلاناً ، إذا أفرط فى طاعته ، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة ؛ أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة ، وهى طاعة مخصوصة على مطلقها ، والأول أبلغ . انتهى .

قال الرازىّ : قال الربيع : قلت لأبى العالية : كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل ؟ فقال : إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان ، فكانوا يأخذون بأقوالهم ، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى .

قال الرازىّ : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء ، قرأت عليهم آيات كثيرة فى كتاب الله تعالى فى بعض مسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات ، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلىّ كالمتعجب ، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات ، مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها ؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا . انتهى .

« وَمَا أُمِرُوا » أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابهم « إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً » أى يطيعوا أمره ، ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه ، وقوله « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » صفة ثانية لـ (إلهاً) ، أو استئناف مقرر للتوحيد « سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى به فى العبادة والطاعة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ » أى يخمدوا حجته الدالة على وحدانيته ، وتقدسه عن الولد ، أو القرآن ، أو نبوّة محمد ﷺ « وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ » أى بإعلاء التوحيد ، وإعزاز الإسلام « وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » أى بدلائل التوحيد ، ذلك . قال أهل المعانى : نور الله استعارة أصلية تصريحية لحجته أو ما بعدها ، لتشبيه كل منها بالنور فى الظهور . والإطفاء ترشيح ، أو هو استعارة تمثيلية ، شبه حالهم فى محاولتهم إبطال النبوة بالتكذيب ، بحال من يطلب إطفاء نور عظيم ، منبث فى الآفاق ، يريد الله أن يزيده بنفخه .

لطائف :

الأولى ـ قال الشهاب : روعى فى كل من المشبه والمشبه به الإفراط والتفريط ، حيث شبه الإبطال بالإطفاء بالفم ، ونسب النور إلى الله . ومن شأن النور المضاف إليه أن يكون عظيماً ، فكيف يطفأ بنفخ الفم ، مع ما بين الكفر الذى هو ستر وإزالة للظهور ، والإطفاء من المناسبة .

الثانية ـ لا يخفى أن قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يُتِمَّ) استثناء مفرغ ، وهو فى محل نصب مفعول به ، والاستثناء المفرغ يكون فى الفعل المنفى لا الموجب ، إلا أن يستقيم المعنى . وهنا صح التفريغ من الموجب وهو (وَيَأْبَى اللهُ) لأنه نفى فى المعنى ، لأنـه وقع فى مقابلة (يُرِيدُونَ) وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ماليس فى نفى الإرادة ، أى لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره ، فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلاً عن الإطفاء ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقال الزجاج : المستثنى منه محذوف تقديره (ويكره الله كل شىء إلا إتمام نوره) .

قال الشهاب : فالمعنى على العموم المصحح للتفريغ ، عنده ، فللناس فى توجيه التفريغ هنا مسلـكان . والحاصل أنه إن أريد كل شىء يتعلق بنوره بقرينة السياق ، صح إرادة العموم ، ووقوع التفريغ فى الثابتات ، كما ذهب إليه الزجاج ، إذ مامن عامّ إلا وقد خُصِّص ، فـكل عموم نسبىّ ، لـكنه يكتفى به ، ويسمى عموماً . ألا ترى أن مثالهم (قرأت إلا يوم كذا) قد قدّروه كل يوم ، والمراد من أيام عمره ، لا من أيام الدهر . فإن نظر إلى الظاهر فى أمثاله كان عامًّا ، واستغنى عن النفى ، وإن نظر إلى نفس الأمر ، فهو ليس بعام ، فيؤول بالنفى ، والمعنى فيهما واحد وإنما أوّل به هنا عند من ذهب إلى تأويله ، لاقتضاء المقابلة له ، إذ مامن إثبات إلا ويمـكن تأويله بالنفى ، فيلزمه جريان التفريغ فى كل شىء ، وليس كذلك ما صرح به الرضى . ولذا قيل : الاستثناء المفرغ ، وإن اختص بالنفى ، إلا أنه قد يعال مع المعنى بمعونة القرائن ، ومناسبة المقامات ، فيجرى بعض الإيجابات مجرى النفى فى صحة التفريغ معها ـ ذكره الشهاب أيضاً ـ .

الثالثة ـ قال أبو السعود : وفى إظهار (النور) فى مقام الإضمار مضافا إلى ضميره عز وجل ـ زيادة اعتناء بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشارة بعلة الحـكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى القرآن الذى هو هدى للمتقين « وَدِينِ الْحَقِّ » أى التوحيد الثابت الذى لا يزول « لِيُظْهِرَهُ » أى الدين الحق « عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » أى على سائر الأديان « وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » أى أن يكون ذلك .

وجواب (لو) فيهما محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وجملة (هُوَ الَّذِي) الخ بيان وتقرير لمضمون الجملة قبلها ، لأن المراد من إتمام نوره إظهاره ولكونه بحسب المآل بمعناه ، ذيله بما ذيله به بعينه ، لكنه عبر عن الكافرين بالمشركين تفادياً عن صورة التكرار ـ كذا فى العناية ـ .

وفى الصحيح(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله زوى لى الأرض ، مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها .

وروى الإمام أحمد(٢) عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحىّ من محارب الصبح ، فلما صلّوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ١٩ (طبعتنا) عن ثوبان .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب الفتن والملاحم ، ١ ـ باب ذكر الفتن ودلائلها ، حديث ٤٢٥٢ .

والإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وأخرج أيضا(١) عن تميم الدارىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزا ، ويذل ذليلا ، عزًّا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر .

وكان تميم الدارىّ يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعزّ . ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وأخرج أيضا(٢) عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام ، يعز عزيزا ، ويذل ذليلا ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم فيدينون لها .

وأخرج أيضا(٣) عن عدىّ بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يا عدىّ ! أسلم تسلم . فقلت : إنى من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألست من الرَّكوسية(٤) ، وأنت تأكل مرباع(٥) قومك ؟ قلت : بلى ! قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك . قال : فلم يعد أن قالها ، فتواضعتُ لها . قال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك عن الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها . قال : فوالذى نفسى بيده !

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٤) الركوسية بالفتح قوم لهم دين بين النصارى والصابئين . وروى عن ابن الأعرابىّ أنه قال : هذا من نعت النصارى ولا يعرب . اهـ قاموس وشرحه.

(٥) المرباع: الربع ، كالمشار بمعنى العشر، ولم يسمع فى غيرها . وكان القوم يغزون بعضهم فى الجاهلية، فيغنمون ، فيأخذ الرئيس ربع الغنيمة دون أصحابه خالصاً ، وذلك الربع يسمى المرباع. اهـ قاموس وشرحه.

ليتمنّ الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحـد ، ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ! كسرى ابن هرمز ، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد .

قال عديّ بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده ! لتكوننّ الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وروى [1] مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزّى ، فقلت : يا رسول الله ! إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ . .) الآية ـ إن ذلك تامّ ! قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم .

قال فى (اللباب) : معنى الآية ليظهرن دين الأسلام على الأديان كلها ، وهو ألا يعبد الله إلا به . وكذا روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : هذا وعد من الله تعالى بأنه يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان ، وتمام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى . وكذلك قال الضحاك والسدّى : لا يبقى أحد إلا دخل فى الإسلام . وقال الشافعىّ : قـد أظهر الله دين رسوله ﷺ على الأديان كلها ، بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق ، وما خالفه من الأديان باطل ، وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ، ودين الأميين ، فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً ، وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام ، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين ، وجرى عليهم حكمه . قال : فهذا هو ظهوره على الدين كله. انتهى .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ٧٢ (طبعتنا) .

قلت : ما ذكره الشافعيّ هو من ظهوره ، والأدق ما تقدم ، من أنه سوف يمتنقه كل فرقة ، فإن ما تذهب إليه طوائف الإصلاح من الملل الأخرى لا يبعد الآن عن الإسلام إلا قليلًا .

ثم بيّن تعالى حال الأحبار والرهبان في إغوائهم لأراذلهم ، إثر بيان سوء حال الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً يطيعونهم في الأوامر والنواهي ، واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » أي بالطريق المنكر من الرّشا في الأحكام والتخفيف والمسامحة في الشرائع وغير ذلك . و (الأكل) مجاز عن الأخذ ، بعلاقة العلّية والمعلولية : لأنه الفرض الأعظم منه . وفيه من التقبيح لحالهم ، وتنفير السامعين عنه ما لا يخفى « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أي عن دين الإسلام وحكمه ، واتباع الدلائل ، إلى ما يهوون . أو عن المسلك المقرر في التوراة والإنجيل ، إلى ما افتروه وحرفوه .

ثم أشار إلى أن سبب ذلك هو إيثارهم حب المال وكنزه على أمر الله ، وتناسيهم وعيده في الكنز بقوله سبحانه « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » أي يحفظونهما حفظ المدفون في الأرض « وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ » أي الذي هو الزكاة « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

« يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا » أي يوقد عليها « فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ » أي ويقال لهم ضماً إلى ما هم فيه ، هذا ما كنزتم « لِأَنْفُسِكُمْ » أي لتتلذذوا به ، فكان سبب تعذيبها « فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » أي وباله ، وهو ألمه وشدته بالكيّ .

وفي هذه الآية فوائد :

الأولى : قال بعضهم في قوله تعالى (لَيَأْكُلُونَ) دلالة على تحريم الرشا على الباطل ، وقد ورد[1] (لعن الله الراشي والمرتشي) . وكذا تحريم أخذ العوض على فعل الواجب . وفي جواز الدفع ليتوصل إلى حقه خلاف . رجح الجواز ليتوصل إلى الحق ، كالاستفداء . قال الحاكم يدخل في تحريم الرشا الأحكام والشهادات والفتاوى وأصول الدين وفروعه ، وكل من حرّف شيئاً لغرض الدنيا . انتهى .

الثانية - في الآية - كما قال ابن كثير - تحذير من علماء السوء وعبّاد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح[2] (لتركبن سَنَن من كان قبلكم حَذْوَ

---

(١) أخرجه الترمذي في : ١٣ - كتاب الأحكام ٩ - باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم .

(٢) نص الحديث في البخاريّ في ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث ١٦٢٢ .
=

القذّة بالقـــذّة) قالوا: اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟ وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : ومَن الناس إلا هؤلاء ؟ ثم أنشد لابن المبارك :

وهل أَفسَدَ الدينَ إلا الملو كُ ، وأحبارُ سوء ورهبانُهَا

الثالثة ــ قوله تعالى (وَالَّذِينَ) مبتدأ ، والخبر (يَكْنِزُونَ) أو منصوب تقديره : بشر الذين يكنزون . والتعريف في الموصول للعهد . والمعهود ، إما الأحبار والرهبان ، وإما المسلمون الكانزون ، لجرى ذكر الفريقين ، وإما ما هو أعم . والأول رُوِي عن معاوية ، والثاني عن السدّيّ ، والثالث عن ابن عباس وأبي ذرّ .

قال الزمخشريّ : يجوز أن يكون الموصول إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان ، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم : أخذ البراطيل ، وكنز الأموال والضن بها عن الإنفاق في سبيل الله . ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى تغليظا ، ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطى منكم طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم . انتهى .

قال في (الأنوار) : ويؤيد الثاني أنه لما نزل كبُر على المسلمين ، فذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم ــ رواه[1] أبو داود والحاكم وصححه ــ وقوله ﷺ ما أدى زكاته فليس بكنز ــ أخرجه الطبرانيّ والبيهقيّ ــ

= وفي مسلم في : ٤٧ ــ كتاب العلم ، حديث رقم ٦ (طبعتنا) نصه هكذا : عن أبي سعيد الخدريّ : أن النبي ﷺ قال « لتتبعنّ سَنَن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه » ، قلنا : يارسول الله! اليهود والنصارى؟ قال:«فمن »؟

أما الحديث الذي جاء فيه حذو القذة بالقذة فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٢٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) ونصه عن شداد بن أوس : « ليحملنّ شرار هذه الأمة على سَنَن الذين خلوا من قبلهم ، أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة » .

(١) أخرجه أبو داود في : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٢ ــ باب في حقوق المال، حديث ١٦٦٤

أى ليس بالكنز المتوعَّد عليه فى الآية ، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه. وأما قوله ﷺ : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ونحوه ، فالمراد منها : ما لم يؤد حقها ، لقوله عليه الصلاة والسلام ، فيما أورده الشيخان: البخارىّ فى تاريخه ، ومسلم(٢) فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره. انتهى.

وقد اشتهرت محاورة معاوية لأبى ذر فى هذه الآية .

روى البخارىّ(١) عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة ، فإذا بأبى ذر ، فقلت : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : كنت فى الشام ، فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ . . .) فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب ؛ فقلت : نزلت فينا وفيهم . فكان بينى وبينه فى ذلك كلام ، فكتب إلى عثمان يشكونى ، فكتب إلىّ عثمان أن اقدم المدينة فقدمتها ، فكثر علىّ الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال : إن شئت تنحيت ، فكنت قريباً . فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أُمِّر علىّ عبد حبشىّ لسمعت وأطعت .

ولابن جرير(٣) فى رواية (بعد قول عثمان له : تنح قريباً) قلت : والله لن أدع ما كنت أقول .

وروى أبو يعلى أن أبا ذر كان يحدث ويقول : لا يبيتنّ عند أحدكم دينار ولا درهم ، إلا ما ينفقه فى سبيل الله ، أو يعدّه لغريم . فكتب معاوية إلى عثمان : إن كان لك بالشام

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى ١٢ : ـ كتاب الزكاة حديث رقم ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدّى زكاته فليس بكنز ، حديث رقم ٧٤٩ .

(٣) انظر تفسير الطبرىّ بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

حاجة ، فابعث إلى أبى ذرّ فكتب إليه عثمان أن اقدم علىّ ، فقدم .

قال ابن كثير : كان من مذهب أبى ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم به ، ويغلظ فى خلافه . فنهاه معاوية فلم ينته . فخشى أن يضر بالناس فى هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، ثم أنزله بالربذة ، وبهامات رضى الله عنه فى خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده ، هل يوافق عمله قوله ، فبعث إليه بألف دينار ، ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذى آتاه بها فقال : إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب . فقال : ويحك ! إنها خرجت ، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به .

وقال[1] الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش ، إذ جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر الكانزين برَضْف[2] يحمى عليه فى نار جهنم ، ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ[3] كتفه ، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه ، يتزلزل . قال : فوضع القوم رؤوسهم ، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً . قال : وأدبر واتبعتهُ حتى جلس إلى معاوية فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً ، إنما يجمعون الدنيا ـ رواه مسلم ، وللبخارىّ نحوه ـ .

وفى الصحيح[4] أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدّى زكاته فليس بكنز ، حديث رقم ٧٥٠ .

واخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٣٤ (طبعتنا) .

(٢) الرضف : الحجارة المحماة على النار . واحدتها رَضْفة .

(٣) النغض : أعلى الكتف . وقيل : العظم الرقيق الذى على طرفه .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الاستقراض وأداء الديون ، ٣ ـ باب أداء الديون ، حديث رقم ٦٦٠ .

يمر علىّ ثلاثة أيام ، وعندى منه شيء ، إلا دينار أرصده لدين .

قال ابن كثير : فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا .

أى وما أخرجه الشيخان[1] أيضاً عنه ، قال : انتهيت إلى النبىّ ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب الكعبة ! قال : فجئت حتى جلست ، فلم أتقارّ حتى قمت فقلت : يارسول الله ! فداك أبى وأمى ، من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ، من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، وقليل ما هم .

وروى الإمام أحمد[2] عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه ، أنه كان مع أبى ذر ، فخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجعلت تقضى حوائجه ، ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشترى به فلوسا . قال : قلت : لو ادخرته لحاجة بيوتك ، وللضيف ينزل بك . قال : إن خليلى عهد إلىّ أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل إفراغا .

قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة ، تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت ، وسداد العيش ، فهو كنز يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك ، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على ما نعى الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى[3] حيث قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوّعَ . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٣ ـ باب كيف كانت يمين النبىّ ﷺ ، حديث ٧٧٥ .وأخرجه مسلم فى:١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٣٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٧٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) يشير إلى حديث البخارىّ الذى رواه عن طلحة بن عبيد الله فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٤ ـ باب الزكاة من الإسلام ، حديث ٤٢ .

وبالجملة فالجمهور على أن الكنز المذموم مالم تؤدّ زكاته . وقد ترجم لذلك البخاري[(١)] في (صحيحه) فقال (باب ما أدِّى زكاته فليس بكنز) . ويشهد له حديث أبي هريرة[(٢)] مرفوعا : إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك ـ حسنه الترمذي وصححه الحاكم ـ .

وعن ابن عمر : كلّ ماأديت زكاته ، وإن كان تحت سبع أرضين ، فليس بكنز وكلّ مالا تؤدى زكاته فهو كنز ، وإن كان ظاهرا على وجه الأرض ـ أورده البيهقيّ مرفوعا، ثم قال : المشهور وقفه ، كحديث جابر : إذا أديت زكاة مالك ، فقد أذهبت عنك شره . أخرجه الحاكم ، والمرجح وقفه .

هذا وذهب ابن عمر رضي الله عنهما ومن وافقه إلى أن الزكاة نسخت وعيد الكنز .

روى البخاريّ في (صحيحة)[(٣)] أن أعرابيا قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...) الآية ـ قال ابن عمر: من كنزها فلم يؤد زكاتها، فويل له . إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال : زاد ابن ماجة[(٤)]: ثم قال ابن عمر : ما كنت أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً ، أعلم عدده ، أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى . ورواه أبو داود في كتاب (الناسخ والمنسوخ) . فهذا يشعر بأن الوعيد على الاكتناز ـ وهو حبس مافضل عن الحاجة عن المواساة به ـ كان في أول الإسلام، ثم نسخ ذلك بفرض الزكاة ، لما فتح الله الفتوح ، وقدّرت نصب الزكاة . ويشعر أيضاً

---

(١) أخرجه في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٥ ـ كتاب الزكاة ، ٢ ـ باب ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك . (٣) أخرجه البخاريّ في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز ، حديث ٧٤٧ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ٨ ـ كتاب الزكاة ، ٣ ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز ، حديث ١٧٨٧ (طبعتنا) .

بأن فرض الزكاة كان فى السنة التاسعة من الهجرة ، وجزم به ابن الأثير فى (تاريخه) : وقواه بعضهم بما وقع فى قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ، ففيها لما أنزلت آية الصدقة بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم عاملا فقال : ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية . والجزية إنما وجبت فى التاسعة .

وأقول : هذا الحديث ضعفوه . والأقوى منه كون هذه السورة التى فيها هذه الآية نزلت فى السنة التاسعة كما قدمنا . فإذا نسخت بالزكاة كانت الزكاة فى تلك السنة أو بعدها قطعاً .

قال ابن حجر فى (الفتح) : والظاهر أن ذلك كان فى أول الأمر كما تقدم عن ابن عمر . واستدل له ابن بطال بقوله تعالى [1] (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) أى ما فضل عن الكفاية ، فكان ذلك واجبا فى أول الأمر ، ثم نسخ ـ والله أعلم ـ .

وفى المسند[2] من طريق يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه قال : كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة . ثم يخرج إلى قومه ، ثم يرخص فيه النبىّ ﷺ فلا يسمع الرخصة ، ويتعلق بالأمر الأول .

وما سقناه من مذهب أبى ذر ، هو ما ساقه المفسرون وشراح الحديث . وزعم بعضهم أن الذى حدا أبا ذر لذلك ما رآه من استئثار معاوية بالفىء حيث قال : الذى صح أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم كانوا يعتبرون الفىء لكافة المسلمين ، يستوى فيه المقاتلون وغيرهم ، ولعله باعتبار أن القتال فريضة على كل المسلمين ، فكلهم داخل تحت ذلك الحكم . قال : والذى يؤيد أنه لكافة المسلمين ، أن أبا ذر رضى الله عنه لما كان بالشام ، والوالى عليها ، من

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

قِبَل الخليفة عثمان ، معاوية رضي الله عنهما ، ورأى من معاوية ما يشعر بحرصه على ادخار المال في بيت المال ، لصرفه في وجوه المصالح التي يراها للمسلمين ، وكان أبو ذر مشهوراً بالورع شديد الحرص على حقوق المسلمين ، يقول الحق ولو على نفسه ـ أخذ يتكلم بهذا الأمر بين الناس واتخذ له حزباً من أهل الشام يساعده على مطالبة معاوية برد المال للمسلمين ، وبيان عدم الرضا بكنزه في بيت المال، لأي حال من الأحوال، إلا لتوزيعه على كافة المسلمين لاشتراكهم بما أفاء الله عليهم أجمعين وتابعه على قوله جماعة كثيرون ، كانوا يجتمعون لهذا القصد سرًّا وجهرا ، حتى كادت تكون فتنة ، فشكاه معاوية إلى الخليفة عثمان رضي الله عنهم أجمعين فنفاه إلى الربذة خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه . انتهى .

ونقل ما يقرب منه ابن حجر في (الفتح) حيث قال : والصحيح أن إنكار أبي ذر كان على السلاطين الذين يأخذون المال لأنفسهم ولا ينفقونه في وجهه .

الرابعة ـ إنما قيل (وَلَا يُنْفِقُونَهَا) بضمير المؤنث، مع أن الظاهر التثنية، إذ المذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة ، وذلك لأن الكثير منهما هو الذي يكون كنزاً ، فأتى بضمير الجمع للدلالة على الكثرة ، ولو ثنّى احتمل خلافه . وقيل : الضمير عائد على الكنوز أو الأموال المفهومة من الكلام ، فيكون الحكم عاماً ، ولذا عدل فيه عن الظاهر . وتخصيصهما بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب في الأموال للتخصيص . وقيل : الضمير للفضة، واكتفى بها ، لأنها أكثر ، والناس إليها أحوج ، ولأن الذهب يعلم منها بالطريق الأولى ، مع قربها لفظاً .

الخامسة ـ في قوله تعالى (فَبَشِّرْهُمْ) تهكم بهم ، كما في قوله [1] :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ *

(١) من شواهد الكتاب (ج ١ ص ٣٦٥) وصدره * وخَيْلٍ قد دَلَفْتُ لها بخَيْلٍ * قال الشنتمري : البيت لعمرو بن معدي كرب . والشاهد فيه جعل الضرب تحيةً ، على الاتساع . يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا ، بدلا من تحية بعضهم لبعض ، الضربَ الوجيعَ. ومعنى (دلفت) زحفت .

وقيل : البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة ، لتأثيره فى القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغم .

السادسة ـ قيل فى تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالكىّ دون غيرها : بأن جمع ذويها وإمساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية ، والملابس البهية ، فلوجاهتهم ورئاستهم المعروفة بوجوههم ، كان الكىّ بجباههم . ولامتلاء جنوبهم بالطعام كووا عليها . ولما لبسوه على ظهورهم كويت . وقيل: لأنهم إذا سألهم فقير تبدو منهم آثار الكراهة والمنع، فتكلح وجوههم ، وتقطب . ثم إذا كرر الطلب ازورّوا عنه وتركوه جانباً ، ثم إذا ألحّ ولّوه ظهورهم واستقبلوا جهة أخرى، وهى النهاية فى الرد ، والغاية فى المنع، الدال على كراهية الإعطاء والبذل . وهذا دأب مانعى البر والإحسان ، وعادة البخلاء ، فكان ذلك سبباً لكىّ هذه الأعضاء . وقيل : لأن هذه الأعضاء أشرف الأعضاء الظاهرة ، إذ هى المشتملة على الأعضاء الرئيسية التى هى الدماغ والقلب والكبد . أو لأنها أصول الجهات الأربع التى هى مقاديم البدن ومآخره وجنباه ، فيكون كناية عن جميع البدن .

وقال القاشانىّ : جمع المال وكنزه مع عدم الإنفاق لا يكون إلا لاستحكام رذيلة الشح ، وحب المال. وكل رذيلة لها كيّة يعذب بها صاحبها فى الآخرة ويخزى بها فى الدنيا . ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هى ذلك المال ، كان هو الذى يحمى عليه فى نار جحيم الطبيعة ، وهاوية الهوى ، فيكوى به . وإنما خصت هذه الأعضاء ، لأن الشحّ مركوز فى النفس ، والنفس تغلب القلب من هذه الجهات ، لا من جهة العلوّ التى هى جهة استيلاء الروح وممرّ الحقائق والأنوار ، ولا من جهة السفل التى هى من جهة الطبيعة الجسمانية ، لعدم تمكن الطبيعة من ذلك ، فبقيت سائر الجهات ، فيؤذى بها من الجهات الأربع ويعذب ، كما تراه يعاب بها فى الدنيا ، ويخزى من هذه الجهات أيضاً ، إما بأن يواجه بها جهراً فيفتضح ، أو يسارّ بها فى جنبه ، أو يغتاب بها من وراء ظهره ـ انتهى ـ .

السابعة ـ قال أبو البقاء (يَوْمَ) من قوله تعالى (يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا) ظرف على المعنى . أى يعذبهم فى ذلك اليوم . وقيل : تقديره عذاب يوم ، وعذاب بدل من الأول ، فلما حذف المضاف أقام (اليوم) مقامه . وقيل : التقدير اذكروا ؛ و (عليها) فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . وقيل : القائم مقام الفاعل مضمر ، أى يحمى الوقود أو الجمر ، و (بها) أى بالكنوز . وقيل : هى بمعنى (فيها) أى فى جهنم وقيل : (يوم) ظرف لمحذوف تقديره : يوم يحمى عليها يقال لهم هذا ما كنزتم اه .

ولما بيّن تعالى فيما تقدم إقدام الأحبار والرهبان على تغيير أحكام الله تعالى إيثاراً لحظوظهم ، أتبعه بما جرأ عليه المشركون فى نظيره من تغيير الأشهر التى حرمها الله تعالى بغيرها . وهو النسىء الآتى ، وفوقاً مع شهواتهم أيضاً ، فنعى عليهم سعيهم فى تغيير حكم السنة بحسب أهوائهم وآرائهم مما أوجب زيادة كفرهم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ » أى عددها « عِنْدَ اللهِ » أى فى حكمه « اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » وهى القمرية التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية « فِى كِتَابِ اللهِ » أى فى اللوح المحفوظ ، أو فيما أثبته وأوجبه من حكمه . وقوله : « يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار . أراد بـ (الكتاب) على أنه مصدر ، والمعنى : أن هذا أمر ثابت فى نفس الأمر ، منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة . أفاده أبو السعود

« مِنْهَا » أي من تلك الشهور الاثني عشر « أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » ثلاثة سَرْدٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب « ذَٰلِكَ » أي تحريم الأشهر الأربعة المذكورة « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أي المستقيم « فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ » أي بهتك حرمتها بالقتال فيها. وقال ابن إسحق : أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً ، كما فعل أهل الشرك « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » أي جميعا « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أي بالنصر والإمداد .

ثم بيّن تعالى ثمرة هذه المقدمة ، وهو تحريم تغيير ما عيّن تحريمه من الأشهر الحرم ، وإيجاب الحذو بها على ما سبق في كتابه ، ناعياً على المشركين كفرهم ، بإهمالهم ذلك ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« إِنَّمَا النَّسِيءُ » أي تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر . مصدر (نسأه) إذا أخره « زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ » لأنه تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما حلله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم « يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي بالله عن أحكامه إذ يجمعون بين الحلّ والحرمة في شهر واحد « يُحِلُّونَهُ عَامًا » أي : يحلون النسيء من الأشهر الحرم سنة ، ويحرمون مكانه شهراً آخر « وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا » أي يتركونه على حرمته القديمة ، ويحافظون عليها سنة أخرى ، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم ، والتعبير عن ذلك بالتحريم ، باعتبار إحلالهم له في العام الماضي ، والجملتان تفسير للضلال ، أو حال .

قال الزمخشريّ : النسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام ، وهم محاربون ، شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه

ويحرمون مكانه شهراً آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من أشق شهور العام أربعة أشهر ، وذلك قوله تعالى « لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أى ليوافقوا العدة التى هى الأربعـة ، ولا يخالفوها ، وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين ، وربما زادوا فى عدد الشهور ، فيجعلونها ثلاثة عشر ، أو أربعة عشر ، ليتسع لهم الوقت . ولذلك قال عز وعلا (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) يعنى من غير زيادة زادوها « فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ » بتركهم التخصيص للأشهر بعينها « زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » فاعتقدوا قبيحها حسناً « وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

اعلم أن فى هاتين الآيتين مسائل :

الأولى ـ أن الأحكام تعلق بالأشهر العربية ، وهى شهور الأهلة ، دون الشهور الشمسية . قيل : جعلُ أول الشهور الهلالية المحرم ، حَدَثَ فى عهد عمر رضى الله عنه ، وكان قبل ذلك يؤرخ بعام الفيل . ثم أرخ فى صدر الإسـلام بربيع الأول . وقد نقل ابن كثير هنا عن السخاوىّ وجوه تسمية الأشهر بمـا سميت به ، ونحن نورد ذلك مأثورا عن أمهات اللغة المعول عليها فنقول :

١ ـ المحرم : على زنة اسم المفعول ، هو أول الشهور العربية . أدخلوا عليه الألف واللام لمَحًا للصفة فى الأصل ، وجعلوها علما بهما ، مثل النجم والدبران ونحوهما ، ولا يجوز دخولهما على غيره من الشهور عند قوم ، وعند قوم يجوز على صفر وشوال . وجمعُ المحرم محرمات . والمحرم شهر الله ، سمته العرب بهذا الاسم ، لأنهم كانوا لا يستحلون فيه القتال ، وأضيف إلى الله تعالى إعظاماً له ، كما قيل للكعبة (بيت الله) . وقيل : سمى بذلك ، لأنه من الأشهر الحرم . قال ابن سيده : وهذا ليس بقوىّ .

٢ ـ صفر : الشهر الذى بعد المحرم . قال بعضهم : إنما سمى لأنهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع . وقيل : لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا . وروى عن رؤبة أنه قال : سموا الشهر (صفراً) ، لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل ، فيتركون من لقوا صِفْرًا من المتاع ،

وذلك أن صفرا بعد المحرم ، فقالوا : صفر الناس منا صفراً . قال ثعلب : الناس كلهم يصرفون صفرا إلا أبا عبيدة ، فمنعه للعلمية والتأنيث ، بإرادة الساعة ، يعني أن الأزمنة كلها ساعات ، وإذا جمعوه مع المحرم قالوا : (صفران) ، ومنه قول أبي ذؤيب :

أَقَامَتْ بـــــه كمقام الحنيـــــف شَهْرَىْ جُمَادَى وشَهْرَىْ صَفَرْ

(استشهد به في اللسان في مادة (ص ف ر) وليس في ديوان الهذليين) .

قال ابن دريد : الصفران من السنة شهران ، سمي أحدهما في الإسلام المحرم ؛ وجمعه أصفار ، مثل سبب وأسباب ، وربما قيل (صفرات) .

٣و٤ ـ الربيع شهران بعد صفر، سميا بذلك لأنهما حُدَّا في هذا الزمن ، فلزمهما في غيره قالوا : لا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، بزيادة (شهر) وتنوين(ربيع)، وجعل (الأول)و(الآخر)وصفاً تابعاً في الإعراب ، ويجوز فيه الإضافة ، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند بعضهم ، لاختلاف اللفظين ، نحو حبّ الحصيد[1] ، وَلَدَارُ الآخرة[2] ، وحق اليقين[3] ، ومسجد الجامع[4] . قال بعضهم : إنما التزمت العرب لفظ (شهر) قبل (ربيع) لأن لفظ (ربيع) مشترك بين الشهر والفصل،فالتزموا لفظ شهر (في الشهر)وحذفوه في (الفصل) للفصل .

قال الأزهريّ أيضا : والعرب تذكر الشهور كلها مجردة من لفظ (شهر) إلا شهري ربيع ورمضان . ويثنّى الشهر ويجمع ، فيقال شهرا ربيع ، وأشهر ربيع ، وشهور ربيع .

٥و٦ ـ جمادى الأولى والآخرة (كحُبارى) الشهران التاليان لشهري ربيع . وجمادى

(١) [٤٠ / قٓ / ٩] . (٢) [١٢/ يوسف/ ١٠٩] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٩٥] و [٦٩ / الحاقة / ٥١] .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) ونصه : هشام عن محمد قال : دخلت مسجد الجامع ... الخ .

معرفة مؤنثة . قال ابن الأنباريّ : أسماء الشهور كلها مذكرة ، إلا جماديين ، فهما مؤنثان . تقول مضت جمادى بما فيها ؛ قال الشاعر[1] :

إذا جُمادى منعتْ قَطْرَها زان جِنانى عَطَنٌ مُغْضِفُ

ثم قال : فإن جاء تذكير جمادى فى شعر ، فهو ذهاب إلى معنى الشهر . كما قالوا : هذه ألف درهم ، على معنى هذه الدراهم . والجمع على لفظها جماديات ، والأولى والآخرة صفة لها . فالآخرة بمعنى المتأخرة . قالوا : ولا يقال جمادى الأخرى ، لأن الأخرى بمعنى الواحدة فتتناول المتقدمة والمتأخرة ، فيحصل اللبس . فقيل الآخرة لتختص بالمتأخرة . وإنما سميت بذلك لجمود الماء فيها ، عند تسمية الشهور ، من البرد . قال[2] :

فى ليـلةٍ من جُمادَى ذاتِ أنديةٍ لا يُبْصِرُ الـكلب من ظلمائها الطُّنُبا

لا ينبح الـكلبُ فيها غير واحـدة حتى يَلُفَّ على خُرْطُومِهِ الذَّنبا

٧ ـ رجب : سمى به لتعظيمهم إياه فى الجاهلية عن القتال فيه . يقال: رَجَبَ فلانا ، هابه وعظمه . كرجّبه . منصرف وله جموع: أرجاب وأرجبة وأرجُب ورجاب ورجوب وأراجب وأراجيب ورجبانات . وإذا ضموا له شعبان قالوا (رجبان) للتغليب . وفى الحديث[3] : رجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . وقوله (بين جمادى وشعبان) تأكيد للشأن وإيضاح؛ لأنهم كانوا يؤخرونه من شهر إلى شهر ، فيتحول عن موضعه الذى يختصّ به ، فبيّن لهم أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان ، لا ما كانوا يسمونه على حساب النسىء ، وإنما قيل: رجب

---

(١) استشهد به فى اللسان فى مادة (ج م د) قال : أراد بـ (العطن) هنا نخيله الراسخة فى الماء ، الـكثيرة الحمل ، وعطن مغضف: إذا كثر نَعَمُهُ. (٢) قائلهما مرّة بن محكان، الحماسة رقم ٦٧٥ . (٣) أخرجه البخاريّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة، ٨ ـ باب قوله : إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، الحديث رقم ٥٩ عن أبى بكرة .

مضر وأضافَهُ إليهم ، لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكأنهم اختصوا به ، وذكر له بعضهم سبعة عشر اسماً .

٨ ـ شعبان : جمعه شعبانات وشعابين . من (تشعب) إذا تفرق كانوا يتشعبون فيه في طلب المياه . وقيل في الغارات . وقال ثعلب : قال بعضهم : إنما سمى شعبان لأنه شعب أى ظهر بين شهر رمضان ورجب .

٩ ـ رمضان : سمى به لأن وضعه وافق الرَّمَض (بفتحتين) ، وهو شدة الحر ، وجمعه رمضانات وأرمضاء . وعن يونس أنه سمع رماضين ، مثل شعابين . وقيل : هو مشتق من (رمض الصائم يرمض) إذا اشتد حرّ جوفه من شدة العطش ، وهو قول الفراء . قال بعض العلماء : يكره أن يقال جاء رمضان وشبهه ، إذا أريد به الشهر ، وليس معه قرينة تدلّ عليه . وإنما يقال : جاء شهر رمضان ، واستدل بحديث (لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، ولكن قولوا شهر رمضان) وهذا الحديث ضعّفه البيهقىّ ، وضعفه ظاهر ، لأنه لم ينقل عن أحد من العلماء أن رمضان من أسماء الله تعالى ، فلا يعمل به . والظاهر جوازه من غير كراهة ، كما ذهب إليه البخارىّ وجماعة من المحققين ، لأنه لم يصح في الكراهة شيء . وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة ما يدل على الجواز مطلقاً ، كقوله(١) : إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلِّقت أبواب النار وصفِّدت الشياطين .

وحقق السهيلىّ أن لحذف (شهر) مقاماً يباين مقام ذكره ، يراعيه البليغ .

وحاصله أن في حذفه إشعاراً بالعموم ، وفي ذكره خلاف ذلك ، لأنك إذا قلت شهر

(١) أخرجه البخارىّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٥ ـ باب هل يقال : رمضان أو شهر رمضان ، حديث ٩٦٤ .

ومسلم في : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث رقم ١ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

وفي البخارىّ : وسلسلت الشياطين ، وفي مسلم : صفِّدت .

كذا ، كان ظرفاً وزال العموم من اللفظ ، إذ المعنى فى الشهر ، ولذلك قال ﷺ[١] (من صام رمضان) ولم يقل (شهر رمضان) ليكون العمل فيه كله . انتهى . فليتأمل

١٠ ـ شوال : شهر عيد الفطر ، وأول أشهر الحج ، وجمعه شوالات وشواويل ، وقد تدخله الألف واللام . قال ابن فارس : وزعم ناس أن الشوال سمى بذلك لأنه وافق وقتاً تشول فيه الإبل ، أى ترفع ذنبها للقاح ، وهو قول الفراء . وقال غيره : سمى بتشويل ألبان الإبل ، وهو توليه وإدباره، وكذلك حال الإبل فى اشتداد الحر ، وانقطاع الرطب وكانت العرب تتطيّر من عقد المناكح فيه وتقول : إن المنكوحة تمتنع من ناكحها، حتى تمتنع طروقة الجمل إذا لقحت وشالت بذنبها . فأبطل النبي ﷺ طيرتهم . وقالت عائشة رضى الله عنها[٢] : تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ، وبنى بى فى شوال ، وأىّ نسائه كان أحظى عنده منى؟

١١ ـ ذو القعدة : بفتح القاف ، والكسر لغة ، سمى به لأن العرب كانوا يقعدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلأ ، ويحجون فى ذى الحجة : والجمع ذوات القعدة، وذوات القعدات ، والتثنية ذواتا القعدة وذواتا القعدتين، فثنوا الاسمين وجمعوهما، وهو عزيز، لأن الكلمتين بمنزلة كلة واحدة ، ولا تتوالى على كلة علامتا تثنية ولا جمع .

١٢ ـ ذو الحجة : الشهر الذى يقع فيه الحج سمى بذلك للحج فيه ، والجمع ذوات الحجة، ولم يقولوا(ذوو) على واحده ، والفتح فيه أشهر من الكسر ، و(الحجة) بالكسر المرأة الواحدة من الحج ، وهو شاذّ لأن القياس فى المرة الفتح ـ انتهى ـ .

وقد أوردنا هذا ملخصاً عن (المصباح) و (القاموس) و (شرحه) .

المسألة الثانية ـ قدمنا أن الأشهر الحرم الأربعة ، ثلاثة سَرْدٌ أى متتابعة ، وواحد فرد

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٦ ـ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية ، حديث رقم ٣٣ عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا) .

وكانت العرب لا تستحل فيها القتال ، إلّا حيّان : خثعم وطيّئ ، فإنهما كانا يستحلان الشهور . وكان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون : حرمنا عليكم القتال فى هذه الشهور إلا دماء المحلين ، فكانت العرب تستحل دماءهم خاصة فى هذه الشهور . وكان لقوم من غطفان وقيس ، يقال لهم الهباآت ، ثمانية أشهر حرم ، يقال لها (البَسْل) يحرمونها تشدداً وتعمقاً .

الثالثة : قال ابن كثير : إنما كانت الأشهر المحرمة أربعة : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء المناسك ـ الحج والعمرة ـ فحرم ، قبل أشهر الحج ، شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال . وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون بأداء المناسك . وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين . وحرم رجب فى وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتمار به ، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً .

الرابعة ـ قال النووىّ فى (شرح مسلم) : وقد اختلفوا فى كيفية عدتها على قولين حكاهما الإمام أبو جعفر النحاس فى كتابه (صناعة الكاتب) قال : ذهب الكوفيون إلى أنه يقال : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة قال: والكتاب يميلون إلى هذا القول ليأتوا بهن من سنة واحدة . قال : وأهل المدينة يقولون : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وقوم ينكرون هذا ويقولون : جاؤوا بهن من سنتين . قال أبو جعفر : وهذا غلط بيّن ، وجهل باللغة ، لأنه قد علم المراد ، وأن المقصود ذكرها ، وأنها فى كل سنة ، فكيف يتوهم أنها من سنتين ؟ قال : والأولى والاختيار ما قاله أهل المدينة ، لأن الأخبار قدتظاهرت عن رسول الله ﷺ كما قالوا ، من رواية ابن عمر وأبى هريرة وأبى بكرة رضى الله عنهم ، قال : وهذا أيضاً قول أكثر أهل التأويل .

الخامسة ـ استنبط بعضهم من قوله تعالى : (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ) أن الإثم

فى هذه الأشهر المحرمة آكد وأبلغ فى الإثم فى غيرها ، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى[1] : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم . وقال ابن عباس فيما رواه عنه علىّ ابن أبى طلحة : أنه تعالى اختص من الأشهر أربعة أشهر جعلهن حراماً ، وعظم حرماتهن ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم .

وقال قتادة : إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً ، ولكن الله يعظّم من أمره ما يشاء . وقال : إن الله اصطفى صفايا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالى ليلة القدر . فعظّموا ما عظّم الله ، فإنما تعظيم الأمور بما عظم الله به عند أهل الفهم ، وأهل العقل ـ نقله ابن كثير ـ ثم ذكر أن ابن جرير اختار فى قوله تعالى (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) ما قاله ابن إسحاق فيما تقدم .

أقول : وهو الظاهر المتبادر .

السادسة ـ قال المهايمىّ : إنما كان منها أربعة حرم ليكون ثلث السنة تغليباً للتحليل الذى هو مقتضى سعة الرحمة ، على التحريم الذى هو مقتضى الغضب فجعل أول السنة وآخرها وهو المحرم وذو الحجة . ولما لم يكن له وسط صحيح ، أخذ أول النصف الآخر وهو رجب ، فبقى من الثلث شهر ، فأخذ قبل الآخر وهو ذو القعدة ، ليكون مع آخر السنة المتصلة بأولها وتراً ، وبقى وترية رجب فتتم السنة على التحريم باعتبار أولها وآخرها ، وأوسطها، مع تذكر وترية الحق المؤكد للتحريم . انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

السابعة ـ استدل جماعة بقوله تعالى[١] (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ) على أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ . وكذا بقوله تعالى[٢] (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) وبقوله تعالى[٣] (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ...) الآية ـ وذهب آخرون إلى أن تحريم القتال فيها، منسوخ بآية السيف، يعنى قوله تعالى[٤]: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) قالوا: ظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرا عامًّا ولو كان محرماً فى الشهر الحرام ، لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، وبأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام، وهو ذو القعدة ، كما ثبت فى الصحيحين[٥] أنه خرج إلى هوازن فى شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلّهم ، لجؤوا إلى الطائف ، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوما ، وانصرف ولم يفتتحها ، فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام . وأجاب الأولون بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم ، كما فى قوله تعالى[٦] : (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ...) الآية ـ فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم، كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم، للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه. فقوله تعالى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ...) الآية ـ من باب التهييج والتحضيض ، أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ، فاجتمعوا كذلك لهم. أو هو إذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام ، إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى[٧] : (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) وقال تعالى[٨] : (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٢] . (٣) [٩ / التوبة / ٥] .

(٤) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٥) أخرجه البخارى فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف فى شوال سنة ثمان ، حديث رقم ١٩٢٨ عن عبد الله بن عمر . وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٨٢ (طبعتنا) .

(٦) [٩ / التوبة / ٥] . (٧) [٢ / البقرة / ١٩٤] (٨) [٢ / البقرة / ١٩١] .

الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ...) الآية ـ وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف ، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال ، وجمعوا الرجال ، ودعوا إلى الحرب والنزال ، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم . فلما تحصنوا بالطائف ، ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فنالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام ، فاستمر فيه أياما ، ثم قفل عنهم ، لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر ، وله نظائر كثيرة . فالمحرم هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرام ، لا إتمامه ، وبهذا يحصل الجمع ، ولذا قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبى رباح ؛ ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ، ولا فى الأشهر الحرم ، وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها .

الثامنة ـ قال فى (الإكليل) فى قوله تعالى (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ...) الآية ـ إن الله وضع هذه الأشهر وسماها ورتبها على ماهى عليه ، وأنزل ذلك على أنبيائه ، فيستدل به لمن قال : إن اللغات توقيفية .

التاسعة ـ فى (الإكليل) أيضا : استدل بقوله تعالى (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) من قال إن الجهاد فى عهده ﷺ كان فرض عين .

العاشرة ـ قال ابن إسحاق[1] : كان أول من نسأ الشهور على العرب ، فأحل منها ما حرم الله ، وحرم منها ما أحل الله عز وجل (القَلَمَّس) وهو حذيفة بن عبد فُقَيم بن عدىّ بن عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ثم قام بعده على ذلك ابنه عبّاد ، ثم ابنه قَلَع ، ثم أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ، ثم ابنه أبو ثُمامة جُنادة بن

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٣٠ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٤٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

عوف ، وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب ، إذا فرغت من حجها ، اجتمعت إليه ، فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً ، وذا القعدة ، وذا الحجة . ويحل (المحرم) عاما ، ويجعل مكانه (صفر) ويحرمه عاماً ليواطئ عدة ما حرم الله ، فيحل ما حرم الله ، يعني ويحرم ما أحل الله . انتهى

و (القَلَمَّس) بقاف فلام مفتوحتين ثم ميم مشددة . قال في (القاموس وشرحه): هو رجل كنانيّ من نَسَأَةِ الشهور على معدّ في الجاهلية ، كان يقف عند جمرة العقبة ويقول : اللهم إني ناسئ الشهور ، وواضعها مواضعها ، ولا أعاب ولا أجاب . اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين ، وحرمت صفر المؤخر ، وكذا في الرجبين ، (يعني رجباً وشعبان) ثم يقول: انفروا على اسم الله تعالى . قال شاعرهم :

* وفينا ناسئ الشهر القَلَمَّس *

وقال عمير بن قيس المعروف بِجَذْل الطِّعان[(١)] :

لقد علمت معدٌّ أنّ قومي ... كرامُ الناس أنّ لهم كراما

ألسنا الناسئين على معدّ ... شهورَ الحِلّ نجعلها حراما

فأي الناس فاتونا بِوِتْرٍ ... وأي الناس لم نُعْلِكْ لِجَامَا

وروى[(٢)] أن أول من سن النسيء عمرو بن لُحَيّ ، والذي صح من حديث أبي هريرة

(١) في سيرة ابن هشام ص ٣٠ و ٣١ (طبعة جوتنجن) و ٤٦ و٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) أن لهم كراما : أي آباء كراما وأخلاقا كراما . والوِتر : طلب الثأر . لم نُعْلِك لجاما : يريد لم نقدعهم ولم نكفهم كما يقدع الفرس باللجام . تقول : أعلكت الفرس لجامَه ، إذا رددته عن تنزعه فمضغ اللجام كالعلك ، من نشاطه .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦١ ـ كتاب المناقب ٩ ـ باب قصة خزاعة ، حديث ١٦٥٦ و ١٦٥٧ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٦١ ـ كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا)

وعائشة ؛ أن عمرو بن لحيّ أول من سيّب السوائب ، وقال فيـه النبيّ ﷺ (رأيت عمرو ابن لحيّ يجر قُصْبَهُ في النار) .

ثم حرّض تعالى المؤمنين على قتال الكفرة ، إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك ، وأشار إلى توجه العتاب والملامة إلى المتخلفين عنه ، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ » أي تثاقلتم وتباطأتم . والاستفهام في (مَا لَكُمْ) فيه معنى الإنكار والتوبيخ.

وقوله (إِلَى ٱلْأَرْضِ) متعلق بـ(ٱثَّاقَلْتُمْ) على تضمينه معنى الميل والإخلاد ، أي اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل ، وكرهتم مشاقّ الغزو، المستتبعة للراحة الخالدة ، كقوله تعالى (١) : (أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ) . أو مائلين إلى الإقامة بأرضكم ودياركم . وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف، استُنْفِروا لغزو الروم في وقت عسرة وقحط وقيظ ، وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها ، مع بُعد الشقة ، وكثرة العدوّ ، فشق عليهم .

وقوله تعالى « أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أي الحقيرة الفانية « مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ » أي بدل الآخرة ونعيمها الدائم « فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير ، أي فما التمتع بلذائذها « فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ » أي في جنب الآخرة أي إذا قيست إليها ، و(في)

(١) [٧ / الأعراف / ١٧٦] .

هذه تسمى (فى القياسية) لأن القيس يوضع بجنب ما يقاس به « إِلَّا قَلِيلٌ » أى مستحقر لا يؤبه له .

روى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] عن المستورد قال : قال رسول الله ﷺ : ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم ترجع ـ وأشار بالسبابة ـ .

ثم توعد تعالى من لم ينفر إلى الغزو ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى لنصرة نبيه، وإقامة دينه « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » لأنه الغنيّ عن العالمين ، أى وإنما تضرون أنفسكم . وقيل : الضمير للرسول ﷺ ، أى ولا تضروه ، لأن الله وعده النصر ، وَوَعْدُهُ كائن لا محالة . « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى من التعذيب والتبديل ونصرة دينه بغيرهم . وفى هذا التوعد ، على من يتخلف عن الغزو ، من الترهيب الرهيب ما لا يقدر قدره .

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة الآية لزوم إجابة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا دعا إلى الجهاد ، وكذا يأتى مثله فى دعاء الأئمة ، ويأتى مثل الجهاد ، الدعاء إلى سائر الواجبات ، وفى ذلك تأكيد من وجوه :

الأول ـ ما ذكره من التوبيخ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه مسلم فى: ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا).

الثانى ـ قوله تعالى (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) وأن الميل إلى المنافع والدعة واللذات لا يكون رخصة فى ذلك .

الثالث ـ فى قوله تعالى (أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فهذا زجر .

الرابع ـ قوله تعالى (فَمَا مَتَاعُ ...) الآية ـ وهذا تخسيس لرأيهم .

الخامس ـ ما عقب من الوعيد بقوله (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ) .

السادس ـ ما بالغ فيه بقوله (عَذَابًا أَلِيمًا) .

السابع ـ قوله (وَيَسْتَبْدِلْ ...) الآية .

الثامن ـ قوله (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ففيه تهديد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٠] (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ » أى بالخروج معه إلى تبوك « فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى كفار مكة حين مكروا به ، فصاروا سبب خروجه ، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه « ثَانِيَ اثْنَيْنِ » حال من ضميره عليه الصلاة والسلام . أى أحد اثنين « إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » بدل من (إِذْ أَخْرَجَهُ) بدل البعض ، إذ المراد به زمان متسع . والغار نقب فى أعلى ثور ، وهو جبل فى الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثا ، ليرجع الطلاب الذين خرجوا فى آثارهما ، ثم يسيرا إلى المدينة « إِذْ يَقُولُ » بدل ثان ، أى

رسول الله ﷺ « لِصَاحِبِهِ » أى أبى بكر « لَا تَحْزَنْ » وذلك أن أبا بكر رضى الله عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما ، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى ، وطفق يجزع لذلك ، فقال له رسول الله ﷺ (لَا تَحْزَنْ) « إِنَّ اللهَ مَعَنَا » أى بالنصرة والحفظ .

روى الإمام أحمد [١] والشيخان [٢] عن أبى بكر رضى الله عنه قال : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار ، وهم على رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله ! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ! فقال : يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين اللهُ ثالثهما « فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ » أى أمنته التى تسكن عندها القلوب « عَلَيْهِ » أى على النبىّ ﷺ « وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا » يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه فى الغار ، أو ليعينوه على العدوّ يوم بدر والأحزاب وحنين ، فتكون الجملة معطوفة على قوله (نَصَرَهُ اللهُ) . وقوّى أبو السعود الوجه الثانى بأن الأول يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم .

قلت : لا إباءة ، لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية فى كل حال ، وفى الثانى تفكيك فى الأسلوب لبعد المتعاطفين ، فافهم . والله أعلم .

« وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ » أى المغلوبة المقهورة ، و(الكلمة) الشرك ، أو دعوة الكفر ، فهو مجاز عن معتقدهم الذى من شأنهم التكلم به على أنها الشرك ، أو هى بمعنى الكلام مطلقا على أنها دعوة الكفر « وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا » يعنى التوحيد ، أو دعوة الإسلام كما تقدم ، أى التى لا تزال عالية إلى يوم القيامة (وكلمةُ الله) بالرفع على الابتداء و(هِيَ الْعُلْيَا) مبتدأ وخبر . أو تكون (هى) فصلا . وقرىء بالنصب أى : وجعل كلمة الله ، والأول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١١ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٩ ـ باب ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، حديث ١٧١٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

أوجه وأبلغ ، لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت . وإن الجمل لم يتطرق لها لأنها فى نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها . وفى إضافة (الكلمة) إلى (الله) إعلاء لمكانها ، وتنويه لشأنها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أى غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » فى حكمه وتدبيره .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : استدل على عظيم محل أبى بكر من هذه الآية من وجوه : منها : قوله تعالى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ) ، وقوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، وقوله : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) قيل : على أبى بكر . عن أبى على والأصم . قال أبو على : لأنه الخائف المحتاج إلى الأمن ، وقيل : على الرسول ، عن الزجاج وأبى مسلم . قال جار الله : وقد قالوا : من أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر ، لأنه رد كتاب الله تعالى . انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : أنا ، والله ! صاحبه . فمن هنا قالت المالكية : من أنكر صحبة أبى بكر كفر وقتل ، بخلاف غيره من الصحابة ، لنص القرآن على صحبته - انتهى - .

وعن ابن عمر [1] أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : أنت صاحبى على الحوض ، وصاحبى فى الغار - أخرجه الترمذىّ وقال : حديث حسن غريب - .

وقد ساق الفخر الرازىّ اثنى عشر وجهاً من هذه الآية على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه ، فأطال وأطاب .

ولما توعد تعالى من لا ينفر مع الرسول لتبوك ، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظم مزدجر ، أتبعه بهذا الأمر الجزم ؛ فقال سبحانه :

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ - كتاب المناقب ، ١٦ - باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، كليهما ، حدثنا يوسف بن يوسف القطان البغدادىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » حالان من ضمير المخاطبين ، أى على أى حال كنتم خفافاً فى النفور لنشاطكم له ، وثقالاً عنه ، لمشقته عليكم . أو خفافاً لقلة عيالكم وأذيالكم ، وثقالاً لكثرتها . أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه . أو ركباناً ومشاة . أو شباباً وشيوخاً أو مهازيل وسماناً . واللفظ الكريم يعم ذلك كله . والمراد حال سهولة النَّفْر وحال صعوبته .

وقد روى عن ثلة من الصحابة أنهم ما كانوا يتخلفون عن غزاة قط ، ويستشهدون بهذه الآية .

ولما كانت البعوث إلى الشام ، قرأ أبو طلحة رضى الله عنه سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ، فقال ، أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً ، جهزونى يا بَنِىَّ ! فقال بنوه : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك فقال : ما سمع الله عذر أحد ، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل .

وكان أبو أيوب الأنصارىّ رضى الله عنه يقرأ هذه الآية ، ويقول : فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلاً ولم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عاماً واحداً .

وقال أبو راشد الحرانىّ : وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وقد فَضَلَ عنها يريد الغزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك ، فقال : أتت علينا سورة البعوث (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) .

وعن حيّان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص ـ فرأيت شيخاً كبيراً هِمًّا ، قد سقط حاجباه على عينيه ، من أهل دمشق ، على راحلته فيمن أغار ،

فأقبلت إليه فقلت : يا عم ! لقد أعذر الله إليك ، قال . فرفع حاجبيه فقال : يا ابن أخي ! استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده الله فيبقيه . وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل ـ روى ذلك كله[1] ابن جرير ـ .

فرحم الله تلك الأنفس الزكية ، وحيّاها من بواسل ، باعت أرواحها في مرضاة ربها ، وإعلاء كلمته ، وأكرمت نفسها عن الاغترار بزخارف هذه الحياة الدنية .

ثم رغّب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهج في مرضاته ، ومرضاة رسوله ، فقال : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » ما في اسم الإشارة إلى النفير والجهاد من معنى البعد ، للإيذان ببعد منزلته في الشرف، والمراد بكونه خيراً ، أنه خير في نفسه ، أو خير من الدعة ، والتمتع بالأموال .

تنبيه :

قال الحاكم : الجهاد بالمال ضروب : منها إنفاقه على نفسه في السير في الجهاد ، ومنها صرف ذلك إلى الآلات التي يستعان بها على الجهاد ، ومنها صرفه إلى من ينوب عنه أو يخرج معه .

وقال بعض مفسري الزيدية : ذكر المؤيد بالله أن من له فضل مال، وجب عليه أن يدفعه إلى الإمام ، إن دعت إليه حاجة .

وذكر الراضي بالله وجوب دفع ما دعت الحاجة إليه من الأموال في الجهاد ، قليلاً كان أو كثيراً ، ويتعين ذلك بتعيين الإمام . وأما من طريق الحسبة ، فقال الراضي بالله : يجب ذلك إن حصل خلل لا يسده إلا المال ، ويدخل في هذا إلزامُ الضِّيفة ، وتنزيل الدور ، وقد قال الراضي بالله : للإمام أن يلزم الرعية على ما يراه من المصلحة .

(١) انظر تفسير الطبري ، الصفحة ١٣٨ و١٣٩ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن المؤيد بالله : إن للإمام إنزال جيشه دور الرعية إذا لم يتم له الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بالجند ، واحتاجوا إلى ذلك . كما يجوز دخول الدار المغصوبة لإزالة المنكر . وكذا ذكر أبو مضر أنه ينزل فى الزائد على حاجة أهل الدور . وأما من ينزل الدار من جيشه بظلم أو فساد ، فإن عُرِفَ ذلك عورض بين مطلب الإمام فى دفعه المنكر ، وبين هذا المنكر الواقع من الجند ، أيهما أغلظ . انتهى .

ثم صرف تعالى الخطاب عن المتخلفين ،ووجّه إلى رسول الله ﷺ ، معدّداً لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلاً ، مبيناً لدناءة هممهم فى هذا الخطب ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« لَوْ كَانَ » أى ما تدعوهم إليه « عَرَضاً قَرِيباً » أى نفعاً سهل المأخذ « وَسَفَراً قَاصِداً » أى وسطاً « لَاتَّبَعُوكَ » أى لا لأجلك ، بل لموافقة أهوائهم « وَلَـٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ » بضم الشين ، وقرئ بكسرها ، أى الناحية التى ندبوا إليها . وسميت الناحية التى يقصدها المسافر بذلك ، للمشقة التى تلحقه فى الوصول إليها . وقرئ (بعِدت) بكسر العين . قال الشهاب : بعِد يبعَد كعلم يعلم ، لغة فيه ، لكنه اختص ببعد الموت غالباً . و (لا تبعد) يستعمل فى المصائب للتفجع والتحسر كقوله(١) :

لا يُبْعِدِ اللهُ إخواناً لنا ذَهَبُوا ۝ أفناهم حَدَثَانُ الدهرِ والأَبَدُ

« وَسَيَحْلِفُونَ » أى هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك « بِاللَّهِ » متعلق بـ (سيحلفون)،

---

(١) لم يعرف قائله ، الحماسية رقم ٢٩٨ .

أو هو من جملة كلامهم . والقول مراد فى الوجهين . أى سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك ، معتذرين بالعجز ، يقولون بالله «لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ» أى إلى تلك الغزوة .

ثم بيّن تعالى أن هذه الدعوى الكاذبة والحلف لا يفيدانهم ، بقوله سبحانه « يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ » أى بهذا الحلف والمخالفة ودعوى العجز « وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » لأنهم كانوا يستطيعون الخروج مع رسول الله ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

« عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ » أى لهؤلاء المنافقين بالتخلف حين اعتلوا بعللهم « حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ » هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

« لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » أى لمنع إيمانهم به من مخالفته ، مع القدرة « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » لمنع إيمانهم به من ترك تعويض الثواب والحياة الأبديين إذا أُمروا «أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » أى لأنهم يودون الجهاد بها قربة ، فيبذلونها فى سبيله « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » أى فيعطيهم من الأجر ما يناسب تقواهم . ففيه شهادة لهم بالانتظام فى زمرة الأتقياء ، وعِدَةٌ لهم بأجزل الثواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

« إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ » أى فى ترك الجهاد بهما « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إذ لا يرجون ثوابه ولا حياته ، وهم المنافقون ، ولذا قال « وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فيما تدعوهم إليه ، أى رسخ فيها الريب « فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » أى ليست لهم قدم ثابتة فى شىء ، فهم قوم حيارى هلكى ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

تنبيهات

الأول ـ اعلم أن فى تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو ، دون ما يوهم العتاب ، من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام ، وتمهيده بحسن المفاوضة ، ولطف المراجعة ـ ما لا يخفى على أولى الألباب .

قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف : بدأ بالعفو قبل ذكر المعفوّ . قال مكّى. (عفا الله عنك) ، افتتاح كلام مثل (أصلحك الله وأعزك) . وقال الداودىّ : إنها تكرمة .

أقول : ويؤيد ذلك قول علىّ بن الجهم[1] يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفا الله عنك ألا حُرمةٌ تَعُوذُ بعفوك أن أُبْعَدَ
ألم تر عبداً عدا طورَهُ ومولًى عفا ، ورشيداً . هدَى
أقلنى ، أقالك من لم يَزَلْ يقيك ، ويصرفُ عنك الردى

وما اشتهر من كون العفو لا يكون إلا عن ذنب ـ غير صحيح ـ فالواجب تفسيره فى كل مقام بما يناسبه . .

(١) ديوانه ص ٧٧ و ٧٨ (المطبعة الهاشمية بدمشق) .

قال الشهاب : وهو يستعمل حيث لا ذنب ، كما تقول لمن تعظمه : عفا الله عنك ، ما صنعت فى أمرى ؟ وفى الحديث[١] : عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له .

وقال السخاوندىّ : هو تعليم لتعظيمه ﷺ ، ولولا تصدير العفو فى الخطاب لما قام بصولة العتاب .

وقال القاضى عياض فى (الشفا) : وأما قوله تعالى :(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) فأمر لم يتقدم للنبىّ ﷺ فيه من الله نهى ، فيعدّ معصية . ولا عدّه الله عليه معصية ، بل لم يعده أهل العلم معاتبة ، وغلّطوا من ذهب إلى ذلك .

قال نفطويه : وقد حاشاه الله من ذلك ، بل ما كان مخيراً فى أمرين . قالوا : وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه وحى ، وكيف ؟ وقد قال الله تعالى (فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم ، أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم ، وأنه لا حرج عليه فيما فعل ، وليس (عفا) هنا بمعنى غفر ، بل كما قال النبىّ ﷺ[٢] : عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق . ولم تَجِبْ عليهم قط . أى لم يلزمهم ذلك .

ونحوه للقشيرىّ قال : وإنما يقول (العفو لا يكون إلا عن ذنب) من لم يعرف كلام العرب . قال : ومعنى (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) أى لم يلزمك ذنباً . انتهى .

وقد عدّ ما وقع فى الكشاف هنا من قبيح سقطاته .

وللعلامة أبى السعود مناقشة معه فى ذلك. أورِدُها لبلوغها الغاية فى البلاغة قال رحمه الله: ولقد أخطأ وأساء الأدب ، وبئسما فعل فيما قال وكتب ، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئسما فعلت ، هب أنه كناية ، أليس إيثارها على التصريح

---

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٨ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب زكاة الورق والذهب ، حديث رقم ١٧٩٠ (طبعتنا) عن علىّ ونصه : إنى قد عفوت عنكم عن صدقة الخيل والرقيق ... الخ .

بالجناية للتلطيف فى الخطاب ، والتخفيف فى العتاب ، وهب أن العفو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة ، بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء ، أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة (بئسما) المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها . ولايخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين ، أو منفعة للمسلمين ، بل كان فيه فساد وخبال ، حسبما نطق به قوله عز وجل (لَوْ خَرَجُوا...) الخ ، وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى (وَلَـكِنْ كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ . . .) الآية ـ نعم . كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثر ذى أثير[1] ، ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم ، بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام ، وأرضوه بالأكاذيب . على أنه لم يهنأ لهم عيش ، ولاقرّت لهم عين ، إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان ، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان . انتهى .

قال الخفاجىّ : وحاول بعضهم توجيه كلام الكشاف بأن مراده أن الأصل فيه ذلك ، فأبدله بالعفو تعظيما لشأنه ، ولذا قدم العفو على ما يوجب الجناية ، فلا خطأ فيه .

قال رحمه الله : ولو اتقى هو والموجِّه موضع التهم ـ كان أولى وأحرى . انتهى .

الثانى ـ استدل بالآية على أن النبىّ ﷺ كان يحكم أحياناً بالاجتهاد ، كما بسطه الرازىّ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : واستدل بها من قال : إن اجتهاده قد يخطئ ولكن ينبَّه عليه بسرعة .

الثالث ـ قال الرازىّ : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد .

الرابع ـ قال أبو السعود : تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى

---

(١) أى أول كل شىء ـ قاموس .

صلته فعل دالّ على الحدوث ، وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام ـ للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وأن ما صدر من الآخرين ، وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص ، لكنه أمر جارٍ على عادتهم المستمرة ، ناشىء عن رسوخهم فى الكذب . ودقق رحمه الله فى بيان لطائف أخر . فلتراجع .

الخامس ـ قيل: نفى الفعل المستقبل الدالّ على الاستمرار فى قوله تعالى (لَا يَسْتَأْذِنُكَ) يفيد نفى الاستمرار . وهذا معنى قول الزمخشريّ : ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك اهـ.

قال النحرير : ولا يبعد حمله على استمرار النفى كما فى أكثر المواضع ، أى عادتهم عدم الاستئذان .

قال الناصر : وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقاً ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفاً ، ولا بالمُضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاماً . فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكرّه ، وصلوات الله على خليله وسلامه ، لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم . فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة ، والآداب الجليلة ، فقال تعالى[1] (فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) أى ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به . والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه ، ربما يعدّ كالمستأذن له فى الضيافة ، فهذا من الآداب التى ينبغى أن يتمسك بها ذوو المروءة ، وأولو القوة . وأشد من الاستئذان فى الخروج للجهاد ونصرة الدين ، التثاقل عن المبادرة إليه ، بعد الحض عليه والمناداة . وأسوأ أحوال المتثاقل ، وقد دعى الناس إلى الغزاة ، أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق . نعوذ بالله من التعرض لسخطه .

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٦] .

ثم بيّن تعالى جلية شأن أولئك المنافقين المستأذنين، بأنهم لم يريدوا الخروج للجهاد حقيقة، ولذلك خذلهم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

« وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً » بضم العين وتشديد الدال ، أى قوة من مال وسلاح وزاد ، ونحوها « وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ » أى نهوضهم للخروج « فَثَبَّطَهُمْ » أى فكسّلهم وضعّف رغبتهم « وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ » أى من النساء والصبيان .

تنبيهات

الأول ـ دلّ قوله تعالى (لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً) على أن عدة الحرب من الكراع والسلاح وجميع ما يستعان به على العدوّ ، من جملة الجهاد . فما صرف فى المجاهدين ، صرف فى ذلك . وهذا جلىّ فيما يتقى به من العدة كالسلاح . فأما ما يحصل به الإرهاب من الرايات والطبول ونحو ذلك، مما يضعف به قلب العدوّ، فهو داخل فى الجهاد . وقد قال تعالى فى سورة الأنفال[1] : (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) ويكون ذلك كلباس الحرير حالة الحرب ، وهذا جلىّ حيث لا يؤدّى إلى السرف .

الثانى ـ إن الفعل يحسن بالنية ، ويقبح بالنية ، وإن استويا فى الصورة . لأن النفير واجب مع نية النصر ، وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح . وذلك لأنه تعالى أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل منه من إرادة المكر بالمسلمين .

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] .

الثالث ـ للإمام منع مَنْ يتهم بمضرة المسلمين ، أن يخرج للجهاد . فله نفى الجاسوس والمرجف والمخذّل . ذكر ذلك كله بعض مفسرى الزيدية .

الرابع ـ ذكروا أن قوله تعالى : (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج فى قلوبهم . يعنى نزّل خلق داعية القعود فيهم ، منزلة الأمر ، والقول الطالب ، كقوله تعالى[1] : (فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) أى أماتهم . أو هو تمثيل لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود . أو هو حكاية قول بعضهم لبعض . أو هو إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : مامعنى قوله (مَعَ الْقَاعِدِينَ)؟ قلت : هو ذم لهم وتعجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزّمْنَى الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والخوالف . ويبينه قوله تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) .

قال الناصر : وهذا من تنبيهاته الحسنة . ونزيده بسطاً فنقول : لو قيل (اقعدوا) مقتصراً عليه ، لم يُفِدْ سوى أمرهم بالقعود . وكذلك (كُونُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) . ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموسومين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية . ولعن الله فرعون ، لقد بالغ فى توعيد موسى عليه السلام بقوله (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)[2] ولم يقل : لأجعلنك مسجوناً ، لمثل هذه النكتة من البلاغة .

ثم بين تعالى سرّ كراهته لخروجهم بقوله :

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٤٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

« لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا » أى فساداً وشرًّا « وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ » أى ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالفساد .

قال الشهاب : الإيضاع : إسراع سير الإبل . يقال : وضعت الناقة تضع إذا أسرعت ، وأوضعتها أنا . والمراد : الإسراع بالنمائم ، لأن الراكب أسرع من الماشى . فقيل : المفعول مقدَّر ، وهو النمائم . فشبه النمائم بالركائب فى جريانها وانتقالها ، وأثبت لها الإيضاع . ففيه تخييلية ومكنية . وقيل : إنه استعارة تبعية ، شبه سرعة إفسادهم لذات البين بالنميمة ، بسرعة سير الركائب ، ثم استعير لها الإيضاع ، وهو للإبل . و (خلال) جمع خلل ، وهو الفرجة ، استعمل ظرفاً بمعنى (بين) .

واعلم أن قوله (وَلَأَوْضَعُوا) مرسوم فى الإمام بألفين ، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربىّ . والخط العربىّ اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من تلك الألف أثر فى الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ونحوه(١) (أو لَأَذْبَحَنَّهُ) .

« يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ » أى يطلبون لكم ما تفتنون ، بإيقاع الخلاف فيما بينكم ، وإلقاء الرعب فى قلوبكم ، وإفساد نيّاتكم « وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ » أى منقادون لقولهم مستحسنون لحديثهم ، وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، لضعف عقولهم ، فيتوهمون منهم النصح والإعانة ، وهم يريدون التخذيل والفتنة ، فيؤدى إلى وقوع شرّ بين المؤمنين ، وفساد كبير .

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير . أى فيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

(١) [٢٧ / النمل / ٢١] .

قال ابن كثير : وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عامّ فى جميع الأحوال . والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

قال محمد بن إسحاق (١) : كان استأذن ، فيما بلغنى ، من ذوى الشرف منهم ، عبد الله ابن أبىّ ابنُ سلول والجدّ بن قيس ، وكانوا أشرافاً فى قومهم ، فثبطهم الله ، لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) انتهى . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) ولا يخفى عليه شىء من أمرهم . وفيه شمول للفريقين : القاعدين والسماعين .

ثم برهن تعالى على ابتغائهم الفتنة فى كل مرة بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

« لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ » أى طلبوا الشر بتشتيت شملك، وتفريق صحبك عنك، من قبل غزوة تبوك ، كما فعل عبد الله بن أبىّ ابنُ سلول حين انصرف بأصحابه يوم أُحُدٍ عن المسلمين « وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ » أى دبروا لك الحيل والمكايد ودوّروا الآراء فى إبطال أمرك .

قال الشهاب : المراد من (الأمور) المكايد ، فتقليبها مجاز عن تدبيرها . أو (الآراء) فتقليبها تفتيشها وإجالتها .

« حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ » وهو تأييدك ونصرك وظفرك « وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ » أى علا دينه « وَهُمْ كَارِهُونَ » أى على رغم منهم .

قال ابن كثير : لما قدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها . فلما نصره الله يوم بدر ، وأعلى كلمته . قال ابن أبىّ وأصحابه : هذا أمر

(١) انظر سيرة ابن هشام . الصفحة رقم ٩٢٤ و ٩٢٥ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٩٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

قد توجّه (أى : أقبل) فدخلوا فى الإسلام ظاهراً . ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى وَلَا تَفْتِنِّى ، أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى » أى فى القعود « وَلَا تَفْتِنِّى » أى لا توقعنى فى الفتنة .

روى(١) عن مجاهد وابن عباس أنها نزلت فى الجدّ بن قيس ، أخى بنى سلمة ، وذلك فيما رواه محمد بن(٢) إسحاق ؛ أن النبىّ ﷺ قال له ذات يوم وهو فى جهازه : هل لك يا جدّ فى جلاد بنى الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ! أو تأذن لى ولا تفتنّى ؟ فوالله ! لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى ، إن رأيت نساء بنى الأصفر ، ألّا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك !

قال الشهاب : يعنى أنه يخشى العشق لهن ، أو مواقعتهن من غير حلّ . وبنات الأصفر : الروم ، كبنى الأصفر . وقيل فى وجه التسمية وجوه : منها أنهم ملكهم بعض الحبشة ، فتولد بينهم نساء وأولاد ذهبية الألوان . انتهى .

قال ابن كثير : كان الجدّ بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة .

وفى الصحيح(٣) أن رسول الله ﷺ قال لهم : من سيدكم يا بنى سلمة ؟ قالوا : الجدّ بن قيس ؟

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام الصفحة رقم ٨٩٤ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) ليس هذا الحديث فى الصحيح ولا فى السنن . ولكن رواه يعقوب بن سفيان فى (تاريخه) وأبو الشيخ فى (الأمثال) والوليد بن أبان فى كتاب (الجود) . انظر (الإصابة فى تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلانىّ رقم ٦٥١ ، ترجمة بشر بن البراء بن معرور ، على خلاف يسير فى اللفظ .

على أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ :وأى داء أدوأ من البخل ؟ ولكن سيّدكم الفتى الجعد الأبيض ، بشر بن البراء بن معرور .

وقوله تعالى : « أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » قال أبو السعود : أى فى عينها ونفسها. وأكمل أفرادها ، الغنىّ عن الوصف بالكمال ، الحقيق باختصاص اسم الجنس به ، سقطوا . لا فى شيء مغاير لها ، فضلا عن أن يكون مهرباً ومخلصا عنها . وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف ، والجرأة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ، ومن القعود بالإذن المبنىّ عليه ، وعلى الاعتذارات الكاذبة . وقرئ بإفراد الفعل ، محافظة على لفظ (من) . وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه، مع تقديم الظرف ، إيذان بأنهم وقعوا فيها ، وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة ، زعماً منهم أن الفتنة إنما هى التخلف بغير إذن . وفى التعبير عن (الافتتان) بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن تردّيهم فى درجات الردى أسفل سافلين . انتهى .

« وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » أى ستحيط بهم يوم القيامة ، فلا محيد لهم عنها ولا مهرب ، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا .

ثم بيّن تعالى عداوتهم ، زيادة فى تشهير مساوئهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

« إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ » أى من فتح وظفر وغنيمة « تَسُؤْهُمْ » أى تورثهم مساءة لفرط عداوتهم « وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ » أى من نوع شدة « يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا » أى بالحزم فى القعود « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إصابة المصيبة ، فيتبجحوا بما صنعوا حامدين

لآرائهم « وَيَتَوَلَّوْا » أى عن مجتمعهم الذى أظهروا فيه الفرح برأيهم « وَهُمْ فَرِحُونَ » أى برأيهم وبما أصابكم وبما سلموا .

ثم أرشد تعالى إلى جوابهم ببطلان ما بنوا عليه مسرتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا » أى ما أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الأخروية ، فلا وجه لهذا الفرح ، لرضانا بقضائه فى تلك المصيبة ، فلم يسوءنا بالحقيقة . كيف ؟ ولم يكتبها علينا ليضرّنا بها ، إذ « هُوَ مَوْلَانَا » أى يتولى أمورنا ، فإنما كتبها علينا ليوفقنا للصبر عليها ، والرضا بها ، فيعطينا من الأجر ما هو خير منها « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى لأنه لا ناصر ولا متولّى لأمرهم غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ » أى تنتظرون « بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ » أى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب ، وهما النصر والشهادة « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ » أى إحدى السُّوأيين من العواقب إما « أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » أى كما أصاب من قبلكم من الأمم « أَوْ » بعذاب « بِأَيْدِينَا » وهو القتل على الكفر « فَتَرَبَّصُوا » أى بنا ما ذكر من عواقبنا « إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ » أى منتظرون ما هو عاقبتكم ،

فلا بدّ أن يلقى كلانا ما يتربصه ، لا يتجاوزه . فلا تشاهدون إلا ما يسرنا ، ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم .

وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ، إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« قُلْ أَنفِقُوا » يعني أموالكم في سبيل الله ووجوه البرّ « طَوْعاً أَوْ كَرْهاً » مصدران وقعا موقع الفاعل ، أي طائعين من قِبَل أنفسكم ، أو كارهين مخافة القتل « لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ » أي ذلك الإنفاق . ثم بيّن سبب ذلك بقوله « إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ » أي عاتين متمردين .

لطائف :

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال (لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ) ؟ قلت : هو أمر في معنى الخبر ، كقوله تبارك وتعالى[1] « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » . ومعناه : لن يتقبل منكم ، أنفقتم طوعاً أو كرهاً . ونحوه قوله تعالى[2] (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) وقوله[3] * أسيئي بنا أو أحسني لاملومةً * أي لن يغفر الله لهم ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم . ولا نلومك ، أسأت إلينا أم أحسنتِ .

---

(١) [١٩ / مريم / ٧٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٨٠] .

(٣) قائله كثيّر عزّة . وعجز البيت * لدينا ولا مَقْلِيّةً إنْ تَقَلَّتِ * .

ومطلع القصيدة : خليليّ هذا ربعُ عَزَّةَ فَاعْقِلا قَلُوصَيْكُمَا ثم ابْكِيا حيث حَلَّتِ

انظر الأمالي ج ٢ ص ١٠٧ (طبعة الدار) وقال في اللسان : تقلّى الشيء : تبغّض .

فإن قلت : متى يجوز هذا ؟ قلت : إذا دلّ الكلام عليه ، كما جاز عكسه فى قولك : رحم الله زيداً وغفر له . فإن قلت : لم فعل ذلك ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهى أن كُثيِّرًا كأنه يقول لعزّة : امتحنى لطف محلك عندى ، وقوة محبتى لك ، وعامليني بالإساءة والإحسان ، وانظرى : هل يتفاوت حالى معك ، مسيئةً كنتِ أو محسنة ! وفى معناه قول القائل[1] :

أَخُوكَ الذى إن قُمْتَ بالسيف عامداً لِتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَغِشَّكَ فى الوُدِّ

وكذلك المعنى : أنفقوا وانظروا ، هل يتقبل منكم ؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه ؟

فإن قلت : ماالغرض فى نفى التقبّل ، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبّله منهم ، ورده عليهم ما يبذلون منه ، أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ، ذاهباً هباء لا ثواب له ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعاً . وقد روى أن الآية من تتمة جواب الجدّ بن قيس حيث قال للنبىّ ﷺ : هذا مالى أعينك به ، فاتركنى ولا تفتنّى . والله أعلم .

---

(١) استشهد به فى (الكشاف) وفيه : يستغشّك .

قال الشارح : يقول : أخوك الذى إن أسأت إليه أحسن إليك . حتى لو قمت تضربه بالسيف لا يجدك غشاً فى المودة (ورواية : لا يستغشك ، من الغش والخيانة) ولو جئته تطلب أن تقطع يده ، لبادر إليك فرَقاً من الرد عليك .

ومع هذا الوفاء والجهد ، فى حفظ أسباب المودة ، يرى أنه مقصّر فى الود ، وانٍ فيه . وهو من أبيات ثلاثة . وباقيها :

ولو جئتَ تبغى كفه لتُبينها لبادر إشفاقاً عليك من الردِّ
يرى أنه فى الودّ وانٍ مقصّرٌ على أنه قد زاد فيه عن الجَهْدِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

« وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى » جمع كسلان ، أى متثاقلين ، إذ لا يرجون على فعلها ثواباً ، ولا يرهبون من تركها عقاباً « وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ » لأنهم يرون الإنفاق فى سبيل الله مغرماً ، وتركه مغنماً . وفى الحديث(١) عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، وابتغى به وجهه ـ رواه النسائىّ عن أبى أمامة . وقال تعالى(٢) (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

ولما بيّن تعالى قبائح أفعال المنافقين ، وما لهم فى الآخرة من العذاب المهين ، وعدم قبول نفقاتهم ، تأثره ببيان أن ما يظنونه من منافع الدنيا هو فى الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم ، فينجلى تمام الانجلاء أن النفاق مهواة الخسار ، لجلبه آفات الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ » أى لأن ذلك استدراج لهم ، كما قال: « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى بسبب مايكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب . وقوله (لِيُعَذِّبَهُمْ) قيل: اللام زائدة . وقيل: المفعول

---

(١) رواه النسائىّ فى: ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢٤ ـ باب من غزا يلتمس الأجر والذكر .

(٢) [٥/ المائدة/ ٢٧] .

محذوف ، وهذه تعليلية ، أي يريد إعطاءهم لتعذيبهم « وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » أي فيموتوا كافرين ، لاهين بالتمتع عن النظر في العاقبة ، فيكون ذلك استدراجاً لهم . وأصل (الزهوق) الخروج بصعوبة ـ أفاده القاضي ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

« وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ » يعني المنافقين « إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ » في الدين ليدفعوا ، بدلالة اليمين، دلائل النفاق « وَمَا هُمْ مِنْكُمْ » في ذلك يعني أنهم كاذبون « وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ » أي يخافون القتل ، وما يفعل بالمشركين ، فيتظاهرون بالإسلام تقية ، ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة . ثم أشار إلى سبب الخوف ، وهو اضطرارهم إلى مساكنهم مع ضعفهم ، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

« لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً » أي حصناً يلتجئون إليه « أَوْ مَغَارَاتٍ » يعني غيراناً في الجبال يسكن كل واحد منهم غاراً « أَوْ مُدَّخَلًا » يعني موضع دخول يدخلون فيه ، وهو السرب في الأرض « لَوَلَّوْا إِلَيْهِ » أي لأقبلوا نحوه « وَهُمْ يَجْمَحُونَ » أي يسرعون إسراعاً ، لا يردهم شيء ، كالفرس الجموح ، أي النفور الذي لا يرده لجام . أي لو وجدوا شيئاً من هذه الأمكنة التي هي منفور عنها ، مستنكرة ، لأتوه لشدة خوفهم ، وكراهتهم للمسلمين ، وغمهم بعزّ الإسلام ، ونصر أهله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ » أي يعيبك « فِي الصَّدَقَاتِ » أي في قسمتها . ثم بيّن فساد

لمزهم ، وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا بقوله « فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا » أى قدر ما يريدون « رَضُوا » فجعلوه عدلًا « وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » فيجعلونه غير عدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ » أى كفانا فضله ، وما قسمه لنا « سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ » أى بعد هـذا ، حسبما نرجو ونؤمّل « إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ » أى فى أن يغنمنا ويخوّلنا فضله . والجواب محذوف بناء على ظهوره . أى لـكان خيراً لهم .

روى الشيخان(١) عن أبى سعيد الخدرىّ قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم فيئاً ، أتاه ذو الخويصرة ـ رجل من بنى تميم ـ فقال : يا رسول الله ! اعدل . فقال رسول الله ﷺ : ويلك . من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب : إيذن لى فيه فأضرب عنقه ! فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٥ ـ باب ما جاء فى قول الرجل : ويلك ، حديث ١٥٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٤٨ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » لما ذكر تعالى لمزهم فى الصدقات تأثره ببيان حقيّة ما فعله رسول الله ﷺ من القسمة ، إذ لم يتجاوز فيها مصارفها المشروعة له ، وهو عين العدل ؛ وذلك أنه تعالى شرع قسمها لهؤلاء ، ولم يكله إلى أحد غيره ، ولم يأخذ صلى الله عليه وسلم منها لنفسه شيئاً ، ففيم اللمز لقاسمها ، صلوات الله عليه ؟

روى البخارىّ(١) عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى .

وروى أبو داود(٢) عن زياد بن الحارث رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة . فقال له : إن الله تعالى لم يرض بحكم نبىّ ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك .

فالآية ردّ لمقالة أولئك اللمزة ، وحسم لأطماعهم ، ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق . وإعلام بأن إعطاؤهم عدل ، ومنعهم ظلم .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ١٣ ـ باب من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، حديث ٦٢ . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٢٤ ـ باب من يُعطَى من الصدقة ، وحدّ الغنى . الحديث رقم ١٦٣٠ .

والفقراء . جمع فقير ، فعيل ، بمعنى فاعل ، يقال فقر يفقر من باب تعب ، إذا قل ماله .

والمساكين : جمع مسكين ، من (سكن سكونا)، ذهبت حركته ، لسكونه إلى الناس، وهو بفتح الميم في لغة بني أسد ، وبكسرها عند غيرهم . قال ابن السكّيت : المسكين: الذي لا شيء له ، والفقير: الذي له بُلغة من العيش . وكذلك قال يونس ، وجعل الفقير أحسن حالا من المسكين . قال : وسألت أعرابيا : أفقير أنت؟ فقال : لا ، والله ! بل مسكين وقال الأصمعيّ : المسكين أحسن حالا من الفقير ، وهو الوجه؛ لأن الله تعالى قال[1]: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) وكانت تساوي جملة ، وقال [2] في حق الفقراء : (لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) وقال ابن الأعرابيّ : المسكين هو الفقير ، وهو الذي لا شيء له ، فجعلهما سواء . كذا في (المصباح) .

قال البدر القرافيّ : وإذا اجتمعا افترقا ، كما إذا أوصى للفقراء والمساكين ، فلا بد من الصرف للنوعين . وإن افترقا اجتمعا ، كما إذا أوصى لأحد النوعين ، جاز الصرف للآخر .

قال المهايميّ : ثم ذكر تعالى من يحتاج إليهم المحتاجون إلى الصدقات فقال: (وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا) أي الساعين في تحصيلها : القابض والوازن والكيال والكاتب ، يعطون أجورهم منها . ثم ذكر من يحتاج إليهم الإمام فقال : (وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) .

وهم قوم ضعفت نيتهم في الإسلام ، فيحتاج الإمام إلى تأليف قلوبهم بالعطاء ، تقوية لإسلامهم ، لئلا يسري ضعفهم إلى غيرهم . أو أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم .

ثم ذكر تعالى من يعان بها في دفع الرق بقوله : (وَفِي الرِّقَابِ) .

أي وللإعانة في فك الرقاب ، فيعطى المكاتبون منها ما يستعينون به على

(١) [١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٣] .

أداء نجوم الكتابة ، وإن كانوا كاسبين ،وهو قول الشافعيّ والليث . أو : وللصرف فى عتق الرقاب ، بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق. قال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق . ولا يخفى أن (الرقاب) يعم الوجهين. وقد ورد فى ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة .

ثم ذكر تعالى مَن تفك ذمته فى الديون بقوله : « وَالْغَارِمِينَ » .

وهم الذين ركبتهم الديون لأنفسهم فى غير معصية ، ولم يجدوا وفاء . أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء .

ثم ذكر تعالى الإعانة على الجهاد بقوله « وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

فيصرف على المتطوعة فى الجهاد ، ويشترى لهم الكراع والسلاح . قال الرازيّ : لا يوجب قوله (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) القصرَ على الغزاة . ولذا نقل القفّال فى (تفسيره) عن بعض الفقهاء جوازَ صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ، لأن قوله (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) عامّ فى الكل . انتهى .

ولذا ذهب الحسن وأحمد وإسحاق إلى أن الحج من (سبيل الله) فيصرف للحجاج منه. قال فى (الإقناع) و(شرحه) : والحج من (سبيل الله) نصًّا،روى عن ابن عباس وابن عمر. لما روى أبو داود[1] : أن رجلا جعل ناقة فى سبيل الله ، فأرادت امرأته الحج،فقال لها النبيّ ﷺ : اركبيها ، فإن الحج من (سبيل الله) . فيأخذ ، إن كان فقيرا ، من الزكاة ما يؤدى به فرض حج أو عمرة ، أو يستعين به فيه ، وكذا فى نافلتهما . لأن كلا من (سبيل الله)انتهى. قال ابن الأثير :و(سبيل الله) عامّ ، يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله عز وجل ، بأداء الفرائض والنوافل ، وأنواع التطوعات . وإذا أطلق فهو فى الغالب واقع على الجهاد ، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه . انتهى .

وقال فى (التاج) : كل سبيل أريد به الله عز وجل،وهو برّ ، داخل فى (سبيل الله).

(١) أخرجه أبو داود فى : ١١ـ كتاب المناسك ٧٩ـ باب العمرة ، حديث رقم ١٩٨٩، عن أم معقل .

ثم ذكر تعالى الإعانه لأبناء الطريق بقوله :

« وَابْنِ السَّبِيلِ » فيعطى المجتاز فى بلدٍ ما يستعين به على بلوغه لبلده .

وقوله تعالى « فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ » ناصبُه مقدّر ، أى فرض الله ذلك فريضة . وقوله « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم . وقوله : « حَكِيمٌ » أى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى منها سوق الحقوق إلى مستحقيها .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف . ويؤيد هذا وجهان :

الأول ـ ما يقتضيه اللفظ اللغوىّ ، إن قلنا : الواو للجمع والتشريك .

والثانى ـ ما رواه أبو داود فى سننه من قوله ﷺ : إن الله لم يرض بحكم نبىّ ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء ... الحديث .

وقد ذهب ، إلى هذا ، الشافعىّ وعكرمة والزهرىّ ، إلا إن استغنى أحدها فتدفع إلى الآخرين ، بلا خلاف .

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد ، منهم عمر وابن عباس وحذيفة وعطاء وابن جبير والحسن ومالك وأبو حنيفة ، والهادى والقاسم وأسباطهما ، وزيد . قال فى (التهذيب) : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر ، بوجوه : الأول ـ أن الله تعالى قال فى سورة البقرة(1) (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها . الثانى ـ الخبر وهو قوله ﷺ(2) لمعاذ : أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ فى فقرائهم . الثالث ـ حديث سلمة بن صخر . فإنه عليه الصلاة والسلام جعل لـه صدقة بنى زريق . الرابع ـ أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالمجمع عليه . الخامس ـ المعارضة

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٧١] . (2) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١ ـ باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٠ عن ابن عباس .

للفظ بالمعنى . فإن المقصود سدّ الخلة . وقال صاحب (النهاية): وهذا أقرب إلى المعنى ، والأول أقرب إلى اللفظ . ويؤيد أنها مستحقة بالمعنى لا بالاسم ، أنا لو قلنا تستحق بالاسم لزم أن من كان فقيراً غازياً غارماً مسافراً ، أن يستحق سهاماً لهذه الأسباب جميعاً ـ كذا فى تفسير بعض الزيدية ـ .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : القول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف ، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار (اللام) بالتمليك ، كما ذهب إليه الشافعىّ ـ لا يسعده السياق ، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة ، وأنها مختصة بهم ، وأن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً . كأنه قيل : إنما هى لهم لا لغيرهم ، فهذا هو الغرض الذى سيقت له الآية ، فلا اقتضاء فيها لما سواه . انتهى .

الثانى ـ قال بعضهم : لفظ (الصَّدَقَاتُ) بعمومه يجمع الصدقة الواجبة والنافلة . ثم إن الصدقة الواجبة تتنوّع أنواعاً ، منها الزكوات لما هو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر ، وزكاة المواشى والفطرة والكفارات ، نحو كفارة اليمين والظهار والصوم ، وكذلك الهَدْى فى الحج ، ومنها ما يؤخذ من أموال الكفار ورؤوسهم ، ولهذا سمى الله الغنائم صدقة فى سبب نزول الآية ، وذلك فى قسمة غنائم (حنين) ، فإذا كان اللفظ يعمّ ما ذكر ، فهل تحمل الآية على عمومها فى قسمتها على ما ذكر ، أو يخصص البعض ؟

ثم قال : والعلماء قسموا الصدقات ، وجعلوا مصارفها مختلفة ، والكفارة لم يذكر أنها تصرف فى الثمانية المصارف . وقد ورد قوله تعالى [1] (فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ) (فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً) [2] ، وفى الحديث : أطعم عن كل يوم مسكيناً ، وورد فى الفطرة : أغنوهم هذا اليوم . وورد فى الغنيمة [3] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ ...) الآية ـ فهل هذه الأدلة مخصصة لعموم لفظ (الصدقات) ؟ فإن الزكوات مجمع عليها فى أن مصرفها الثمانية الأصناف . أم كيف تنزل الآية على القواعد الأصولية ؟ . انتهى كلامه .

(١) [٥/ المائدة / ٨٩] . (٢) [٥٨/ المجادلة / ٤] . (٣) [٨ /الأنفال / ٤١]

ولا يخفى كونها مخصصة لعموم لفظ الصدقات ، لأن الخاصّ يقضى على العامّ على أن المراد قصرها على هذه الأصناف ، فكل ما ذكر لم يخرج عنها ، لشمولها له . والله أعلم .

الثالث ـ (المؤلفة قلوبهم) حكمهم باق ، لأنه عليه الصلاة والسلام أعطى المؤلفة من المسلمين والمشركين ، فيعطون عند الحاجة . ويحمل ترك عمر وعثمان وعليّ إعطاءهم ، على عدم الحاجة إلى إعطائهم فى خلافتهم ، لا لسقوط سهمهم ، فإن الآية من آخر ما نزل . وأعطى أبو بكر عديّ بن حاتم والزبرقان بن بدر . ومنعُ وجود الحاجة على ممرّ الزمان ، واختلاف أحوال النفوس فى القوة والضعف ـ لا يخفى فساده . كذا فى (الإقناع) و (شرحه) .

والمؤلفة كما فى (الإقناع) هم رؤساء قومهم : من كافر يرجى إسلامه ، أو كف شره ، ومسلم يرجى بعطيته قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو نصحه فى الجهاد ، أو فى الدفع عن المسلمين ، أو كف شره كالخوارج ونحوهم ، أو قوة على جباية الزكاة ممن لا يعطيها . انتهى .

الرابع ـ قال فى (الإكليل) : استدل بعموم الآية من أجاز الدفع للفقير القادر على الاكتساب . وللذميّ ، ولمن تلزمه نفقته ، ولسائر القرابة ، وللزوج ، ولآله ﷺ ، حيث حرموا حظهم من الخمس ، ولمواليهم ، ولمن جوّز نقلها .

وقال ابن الفرس : يؤخذ من قوله تعالى (وَالْعَامِلِينَ) جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بشيء من أعمال المسلمين . قال : وقد احتج به أبو عُبَيْد على جواز أخذ القضاة الرزقَ فقال : قد فرض الله للعاملين على الصدقة ، وجعل لهم منها حقاً بقيامهم فيها وسعيهم ، فكذلك القضاة يجوز لهم أخذ الأجرة على عملهم ، وكذا كل من شغل بشيء من أعمال المسلمين .

الخامس ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى (فى) فى الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن (فى) للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجعلوا مظنة لها ومصباً . وذلك لما فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفى فك الغارمين من الغرم ـ من التخليص والإنقاذ .

ولجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال . وتكرير (فى) فى قوله تعالى (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) فيه فضل ترجيح لهذين ، على الرقاب والغارمين . انتهى .

قال الناصر : وثمّ سر آخر هو أظهر وأقرب ، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملّاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً ، فكان دخول اللام لائقاً بهم وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم ، ولكن فى مصالح تتعلق بهم . فالمال الذى يصرف فى الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبّر عن ذلك بـ (اللام) المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محالّ لهذا الصرف ، والمصلحة المتعلقة به . وكذلك (الغارمون) إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم ، تخليصاً لذممهم ، لا لهم . وأما (سبيل الله) فواضح فيه ذلك . وأما (ابن السبيل) فكأنه كان مندرجاً فى سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور (باللام) ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب . والله أعلم . ثم قال : وكان جدى أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً فى الاستدلال لمالك ، رحمه الله ، على أن الفرض بيان المصرف و (اللام) لذلك لام الملك ، فيقول : متعلق الجارّ الواقع خبراً عن الصدقات محذوف ، فيتعين تقديره ، فإما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء ، كقول مالك ، أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعىّ ، لكن الأول متعين لأنه تقدير يكتفى به فى الحرفين جميعاً ، يصح تعلق (اللام) به و (فى) معاً ، فيصح أن نقول : هذا الشىء مصروف فى كذا ولكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فإنه إنما يلتئم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى (فى) يحتاج إلى تقدير : مصروفة ليلتئم بها . فتقديره من (اللام) عامّ التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، والله الموفق . انتهى .

السادس ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟ قلت : دلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم ، وإشعاراً باستيجابهم الحرمان ، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها . فما لهم وما لها ، وما سلطهم على التكلم فيها ، ولمز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه . انتهى .

وتقدم بيانه أيضا .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَمِنْهُمْ » أي من الذين يحلفون بالله إنهم لمنكم ، من هو أشدّ من اللامز في الصدقات إذهم « الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ » أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، يعنون إنه ليس ببعيد الغور ، بل سريع الاغترار بكل ما يسمع .

قال أبو السعود : وإنما قالوه لأنه صلوات الله عليه كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ، ويصفح عنهم حلماً وكرماً ، فحملوه على سلامة القلب ، وقالوا ما قالوا .

قال اللغويون : (الأُذُن) الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به الواحد والجمع ، فيقال : رجلٌ أذن ، ورجالٌ أذن ، وامرأةٌ أذن ، فلا يثنى ولا يجمع ، وإنما سموه باسم العضو تهويلًا وتشنيعاً ، فهو مجاز مرسل ، أطلق فيه الجزء على الكل مبالغة بجعل جملته ، لفرط استماعه ، آلةَ السماع ، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك ، ونحوُه :

إذا ما بدت ليلى فكلّيَ أعينٌ   وإن حدثوا عنها فكلّي مسامعُ

وجعله بعضهم من قبيل التشبيه : بـ(الأُذُن) فى أنه ليس فيه وراء الاستماع تمييز حق عن باطل .

قال الشهاب : وليس بشىء يعتد به . وقيل إنه على تقدير مضاف ، أى ذو أذن .

قال الشهاب : وهو مُذهِب لرونقه . وقيـل: هو صفة مشبهة من (أذن إليه وله) كفرح : استمع . قال عمرو بن الأهيم[١] :

فلما أنْ تَسايَرْنَا قَليـــلا ... أَذِنَّ إلَى الْحَدِيثِ فَهُنَّ صُورُ

ولِقَعنب بن أم صاحب[٢] :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... منى ، وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرتُ بِهِ ... وإن ذُكِرْتُ بشرٍّ عندَهُمْ أَذِنُوا

وفى الحديث[٣] ما أذن الله لشىءٍ ما أذِن لِنبىّ يتغنى بالقرآن . قال أبو عبيد : يعنى ما استمع الله لشىء كاستماعه لمن يتلوه ، يجهر به . وقوله عز وجل[٤]:(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أى استمعت . كذا فى (تاج العروس) .

وعلى هذا فـ(أذن) صفة بمعنى سميع ولا تجوّز فيه ، ففيه أربعة أوجه .

وعطف قوله تعالى (وَيَقُولُونَ) عطف تفسير : لأنه نفس الإيذاء .

وقوله تعالى : « قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ » من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة ، كرجل صدق . تريد المبالغة فى الجودة والصلاح، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولـكن نِعْمَ الأذن أو إضافته على معنى (فى) أى هو أذن فى الخير والحق ، وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس

(١) استشهد به فى اللسان، ج١٣ ص١٠ (طبعة بيروت) . (٢) استشهد به فى اللسان، ج ١٣ ص ١٠ (طبعة بيروت) . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ١٩ ـ باب من لم يتغنّ بالقرآن ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٤) [٨٤ / الانشقاق / ٢و٥] .

بأذن فى غير ذلك . ودل عليه قراءة حمزة . (ورحمةٍ) بالجر عطفاً عليه ، أى هو أذن خير لكم ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله . ثم فسر كونه أذن خير بقوله : « يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » قال القاشانىّ : هو بيان لينه ﷺ وقابليته ، لأن الإيمان لا يكون إلا مع سلامة القلب ولطافة النفس ولينها « وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يصدق قولهم فى الخيرات ، ويسمع كلامهم غيها ويقبله ، « وَرَحْمَةٌ » أى وهو رحمة « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ » أى يعطف عليهم ، ويرقّ لهم ، فينجيهم من العذاب بالتزكية والتعليم ، ويصلح أمر معاشهم ومعادهم ، بالبر والصلة ، وتعليم الأخلاق من الحلم والشفقة والأمر بالمعروف ، باتباعهم إياه فيها ، ووضع الشرائع الموجبة لنظام أمرهم فى الدارين ، والتحريض على أبواب البر بالقول والفعل ، إلى غير ذلك . قاله القاشانىّ .

وقال غيره : أى هو رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، معشر المنافقين ، حيث يقبله لا تصديقاً لكم ، بل رفقاً بكم ، وترحماً عليكم ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى تعالى من الحكمة فى الإبقاء عليكم .

قال الشهاب : والمعنى : هو أذن خير يسمع آيات الله ودلائله فيصدقها ويسمع للمؤمنين ، فيسلم لهم مايقولون ، ويصدقهم . وهو تعريض بأن المنافقين أذن شر ، يسمعون آيات الله ولا يثقون بها ، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ، وأنه ﷺ لا يسمع أقوالهم إلا شفقة عليهم ، لا أنه يقبلها لعدم تمييزه ، كما زعموا .

وقال القاشانىّ فى (تفسيره) : كانوا يؤذونه ، صلوات الله عليه ، ويعتابونه بسلامة القلب وسرعة القبول والتصديق لما يسمع ، فصدقهم فى ذلك وسلّم وقال : هو كذلك ، ولكن بالنسبة إلى الخير ، فإن النفس الأبية والغليظة الجافية ، والكزة القاسية التى تتصلب فى الأمور ، ولا تتأثر ، غير مستعدة للكمال . إذ الكمال الإنسانىّ لا يكون إلا بالقبول والتأثر . فكلما كانت النفس ألين عريكة ، وأسلم قلباً ، وأسهل قبولا ، كانت أقبل للكمال ، وأشد استعداداً له . وليس هذا اللين هو من باب الضعف والبلاهة الذى يقتضي الانفعال من كل

ما يسمع ، حتى المحال ، والتأثر من كل ما يرد عليه ويراه ، حتى الكذب والشرور والضلال ، بل هو من باب اللطافة ، وسرعة القبول لما يناسبه من الخير والصدق ، فلذلك قال : (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ) إذ صفاء الاستعداد ، ولطف النفس ، يوجب قبول ما يناسبه من باب الخيرات ، لا ما ينافيه من باب الشرور ، فإن الاستعداد الخيريّ لا يقبل الشر ، ولا يتأثر به ، ولا ينطبع فيه ، لمنافاته إياه ، وبعده عنه . انتهى .

لطائف :

الأولى ـ في قوله تعالى (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ) أبلغ أسلوب في الرد عليهم ، فإنه صدقهم في كونه أذنا ، إلا أنه فسره بما هو مدح له ، وثناء عليه .

قال الناصر : لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه ، لأنه ، في الأول ، إطماع لهم بالموافقة ، ثم كرّ على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه . ويضاهي هذا ، من مستعملات الفقهاء ، القول بالموجب ، لأن في أوله إطماعا للخصم بالتسليم ، ثم بتًّا للطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه . والله الموفق .

الثانية ـ (اللام) في قوله تعالى (لِلْمُؤْمِنِينَ) مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور ، وهو الاعتراف ، وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق ـ قاله أبو السعود تبعاً للقاضي ـ .

قال الشهاب : يعني أن الإيمان بالله بمعنى الاعتراف والتصديق ، يتعدى بالباء ، فلذا قال (بِاللهِ) والإيمان للمؤمنين بمعنى جعلهم في أمان من التكذيب بتصديقه لهم ، لما علم من خلوصهم ، متعد بنفسه ، فاللام فيه مزيدة للتقوية .

الثالثة ـ قال أبو السعود : إسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل ، بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار ـ للإيذان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار .

وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ » أي بما نقل عنهم من قولهم (هُوَ أُذُنٌ) ونحوه « لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي بما يجترئون عليه من إيذائه .

قال أبو السعود : وهذا اعتراض مسوق من قِبَله عزّ وجل على نهج الوعيد ، غير داخل تحت الخطاب . وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل، لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه عز وجل ، موجبة لكمال السخط والغضب . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

« يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ » قال الزمخشريّ : الخطاب للمسلمين ، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ، أو يتخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ، ويرضوا عنهم ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون ، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق . انتهى .

ولما كان الظاهر بعد العطف بالواو التثنية ، وقد أُفرِدَ ـ وَجَّهُوهُ :

بأن إرضاء الرسول إرضاء لله تعالى لقوله تعالى(١) : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فلتلازمهما جعلا كشيء واحد ، فعاد عليهما الضمير المفرد ، و(أَحَقُّ) ، على هذا ، خبر عنهما من غير تقدير .

أو بأن الضمير عائد إلى الله تعالى ، و (أَحَقُّ) خبره ، لسبقه . والكلام جملتان ، حذف خبر الجملة الثانية ، لدلالة الأولى عليه . أي : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

---

(١) [٤ / النساء / ٨٠] .

وسيبويه جعله للثانى ، لأنه أقرب ، مع السلامة من الفصل بين المبتدأ والخبر كقوله[1] :

نَحْنُ بما عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـ ـدَكَ رَاضٍ والرأىُ مُخْتَلِفُ

أو بأن الضمير لهما بتأيل ما ذكر ، أو كل منهما ، وأنه لم يثن تأدباً لئلا يجمع بين الله وغيره فى ضمير تثنية ، وقد نهى عنه ، على كلام فيه .

أو بأن الكلام فى إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه ، فيكون ذكر الله تعظيماً له وتمهيداً . فلذا لم يخبر عنه ، وخص الخبر بالرسول . قال الشهاب : وفيه تأمل . انتهى .

وقد عهد لهم القول بمثله فى آيات كثيرة ، وجواب الشرط مقدر يدل عليه ما قبله ، وقراءة التاء على الالتفات ، للتوبيخ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ، ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾

« أَلَمْ يَعْلَمُوا » أى أولئك المنافقون . قال أبو السعود : والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة ، مع علمهم بسوء عاقبتها . وقرئ بالتاء على الالتفات ، لزيادة التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من فنون القوارع والإنذارات « أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » أى من يخالف الله ورسوله. قال الليث : حاددته أى خالفته ، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة ، واشتقاقه من (الحدّ) ،

---

(١) من أبيات الكتاب (ج ١ ص ٣٨) وقائله قيس بن الخطيم .

قال الشنتمرىّ : استشهد به مقوّيا لما جاز من حذف المفعول الذى هو فضلة مستغنى عنها ، فى قولهم : ضربتُ وضربنى زيد .

بمعنى الجهة والجانب ، كما أن المشاقة من (الشق) بمعناه أيضاً ، فإن كل واحد من المتخالفين والمتعاديين في حدّ وشقّ ، غير ما عليه صاحبه . فمعنى (يُحَادِدِ اللّهَ) يصير في حدٍّ غير حدِّ أولياء الله ، بالمخالفة .

وقال أبو مسلم : المحادة مأخوذة من الحديد ، حديد السلاح .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ » أي الذل والهوان الدائم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ » أي في شأنهم ، فإن ما نزل في حقهم ، نازل عليهم « سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ » أي من الأسرار الخفية ، فضلًا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق . ومعنى تنبئتها إياهم بما في قلوبهم ، مع أنه معلوم لهم ، وأن المحذور عندهم اطّلاع المؤمنين على أسرارهم ، لا اطّلاع أنفسهم عليها ـ أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم ، فتنتشر فيما بين الناس ، فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة ، فكأنها تخبرهم بها . والمراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على أسرارهم ، كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه ، فتنبئهم بها ، وتنعى عليهم قبائحهم . وقيل : معنى (يحذر) ليحذر ، وقيل : الضميران الأولان للمؤمنين ، والثالث للمنافقين ، ولا يبالي بالتفكيك عند ظهور الأمر بعود المعنى إليه . أي يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين . أفاده أبو السعود .

فإن قلت : المنافق كافر ، فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول ؟ أجيب : بأن القوم ، وإن كانوا كافرين بدين الرسول ، إلا أنهم شاهدوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بما يكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم .

وقال الأصمّ : إنهم كانوا يعرفون كونه رسولاً صادقاً من عند الله ، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً . وتعقبه القاضى بأن يبعد ، فى العالم بالله وبرسوله وصحة دينه ، أن يكون محادًّا لهما . لكن قال الرازىّ : هو غير بعيد ، لأن الحسد إذا قوى فى القلب ، صار بحيث ينازع فى المحسوسات . انتهى .

وقال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر كل شيء ، ويدعى أنه عن الوحى ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره . ولذلك قال تعالى : « قُلِ اسْتَهْزِئُوا » أى بالله وآياته ورسوله ، أو افعلوا الاستهزاء ، وهو أمر تهديد « إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » أى مظهر بالوحى ما تحذرون خروجه من إنزال السورة ، ومن مثالبكم ومخازيكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم ، كقوله تعالى[1] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ... إلى قوله : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ . . . الآية) - ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة (الفاضحة) فاضحة المنافقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ » أى عن إتيانهم بتلك القبائح المتضمنة للاستهزاء بما ذكر « لَيَقُولُنَّ » أى فى الاعتذار إنه لم يكن عن القلب حتى يكون نفاقاً وكفراً بل « إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ » أى ندخل هذا الكلام لترويح النفس « وَنَلْعَبُ » أى نمزح « قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » أى فى ترويحكم ومزاحكم ، ولم تجدوا لهما كلاماً آخر .

---

(١) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٢٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« لَا تَعْتَذِرُوا » أى لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة ، فالنهى عن الاشتغال به وإدامته إذ أصله وقع « قَدْ كَفَرْتُمْ » أى أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه وباستهزائكم بمقالكم « بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بعد إظهاركم الإيمان .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال الكيا : فيه دلالة على أن اللاعب والجادّ فى إظهار كلمة الكفر سواء ، وأن الاستهزاء بآيات الله كفر - انتهى - .

قال الرازىّ : لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف. والعمدةُ الكبرى فى الإيمان تعظيمُ الله تعالى بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال .

وقال الإمام ابن حزم فى (الملل) : كل ما فيه كفر بالبارئ تعالى ، واستخفاف به ، أو بنبيّ من أنبيائه ، أو بملك من ملائكته ، أو بآية من آياته عز وجل ، فلا يحلّ سماعه ، ولا النطق به ، ولا يحلّ الجلوس حيث يلفظ به . ثم ساق الآية .

وقوله تعالى : « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ » أى لتوبتهم وإخلاصهم . أو تجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء « نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » أى مصرّين على النفاق ، أو مُقدِمين على الإيذاء والاستهزاء .

تنبيه :

روى فى صفة استهزاء المنافقين روايات عدة :

قال ابن إسحاق(١) : كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، أخو بنى عمرو بن

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٩٠١و٩٠٢ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٨ ١٦٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مُخَشِّن بن حُمَيِّر ،(ويقال مَخْشِيّ) يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جِلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا . والله ! لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين ، فقال مخشن بن حمير . والله ! لوددت أن أقاضَى على أن يُضْرَبَ كل منا مائة جلدة ، وأنا ننقلب أن ينزل فينا قرآن ، لمقالتكم هذه . وقد قال رسول الله ﷺ فيما بلغنى - لعمار بن ياسر : أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا ، فقل : بلى ! قلتم : كذا وكذا . فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على ناقته - : يارسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب،فأنزل اللهعزوجل فيهم(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) وقال مخشن بن حمير : يارسول الله ! قعد بى اسمى واسم أبى . وكان الذى عُفِىَ عنه فى هذه الآية مخشن ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيدا لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر . انتهى .

وقال عكرمة : ممن إن شاء الله تعالى عفا عنه يقول : اللهم إنى أسمع آية أنا أعنى بها ، تقشعر منها الجلود ، وتوجَلُ منها القلوب . اللهم فاجعل وفاتى قتيلا فى سبيلك ، لا يقول أحد : أنا غسلت ، أنا كفنت ، أنا دفنت. قال : فأصيب يوم اليمامة،فما من أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ ، غيره .

ومما روى فى استهزائهم أن رجلا من المنافقين قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء ، أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى النبىّ صلوات الله عليه وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يارسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : أبالله ورسوله وآياته كنتم تستهزئون . . . الآية - وهو متعلق بسيف الرسول ، وما يلتفت إليه ﷺ .